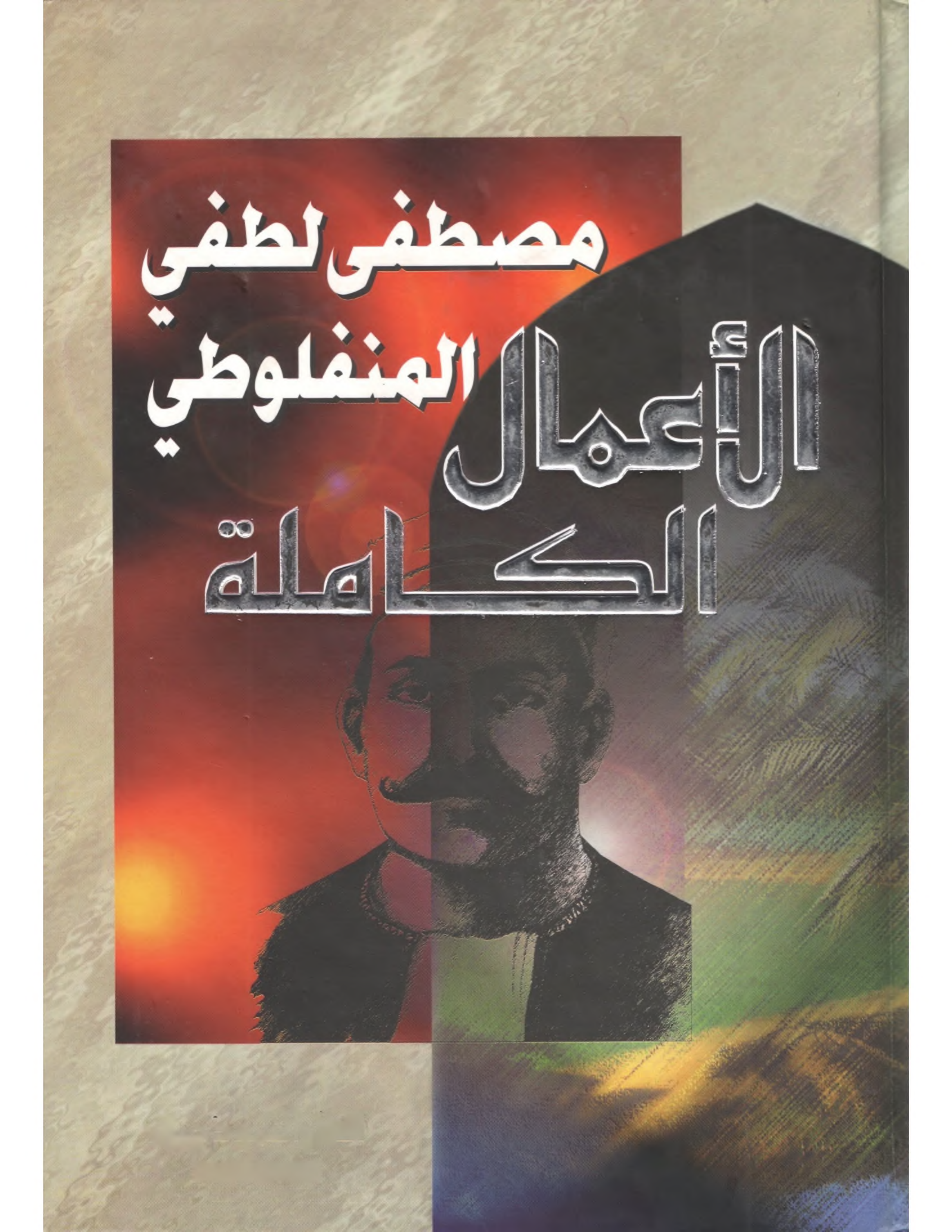

مصطفى لطفي
المنفلوطي
الأعمال
الكاملة



قدم لها وشرح نصوصها
مجيد طراد

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

مصطفى لطفي المنفلوطي

المجموعة الكاملة

المجموعة الكاملة

ماجدولين

الشاعر

في سبيل التاج

الفضيلة

العبرات

النظرات الجزء الأول

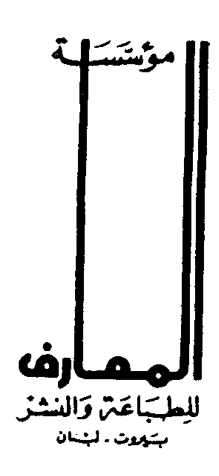
النظرات الجزء الثاني

النظرات الجزء الثالث

المختارات

في حلة و طبعة جديدة و بالشكل الكامل.

قدم لها و شرحها الأستاذ مجيد طراد .



يطلب من مكتبة المعارف ص.ب ١١/١٧٦١ بيروت - لبنان
هاتف٦٥٣٨٥٧-٠١ تلفاكس ٦٥٣٨٥٢-٠١ / ٦٤٠٨٧٨-٠١ هاتف نقال ٢٠٥٦٦٩-٠٣/ ٨٩٢٢١٠-٠٣ / ٢٢٧٧٢٤-٠٣
Email:maaref@cyberia.net.lb

مؤسسة المعارف
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
1423هـ - 2003م

ISBN 9953-434-31-X

الإدارة العامة : كورنيش المزرعة - بناية إسكندراني - ط2
هاتف وفاكس :00961-1-653852/00961-1-653857
المكتبة والمستودعات : شارع حمد بناية رحمة
هاتف وفاكس : 00961-1-640878
هاتف جوال : 227724-892210-205669 (00961-3-)
ص . ب **11/1761** - بيروت - لبنان
E-mail: maaref@cyberia.net.lb
WWW.al-maaref.com

المنفلوطي: سيرته، أخلاقه، مؤلفاته، ومكانته الأدبيّة

١- مولده ونشأته

هو مُصطفى لطفي المنفلوطي المولود في بلدة منفلوط المصريّة في السنة ١٨٧٧م. كان والده قاضيًا شرعيًّا لبلدته، ونقيبًا لأشرافها، وزعيمًا لأسرته المعروفة بنسبها العريق الذي يعود إلى سلالة النبيّ محمد (ﷺ). حفظ القرآن منذ حداثة سنّه، والتحق بالأزهر الشريف، حيث أمضى عشر سنوات تلقّى خلالها عن مشايخه ثقافة علميّة واسعة؛ وبفضل حبّه للأدب والأدباء، انصرف إلى تحصيل ما أُتيح له منه، فلم يتركْ ساعة يخلو فيها بنفسه، إلّا انصرف إلى القراءة، فاستطاع أن ينمّي ذوقه الأدبي، وأن يجمع ثقافة أتاحت له الشهرة التي بلغها في مجال الأدب.

وفي رحاب الأزهر، اتّصل المنفلوطي بالإمام الشيخ محمّد عبده، وكان في أواخر سنيّ حياته، فتتلمذ على يديه وتلقّى معظم الدروس الدينيّة والعلميّة التي كان يمليها الشيخ على طلّابه، وكان من أكثر الطلّاب تفوّقًا، فآثره محمّد عبده، وجعله من أقرب تلاميذه لا بل من أوفى أصدقائه. وحين عارض بعضُ علماء الأزهر أسلوبَ محمّد عبده في تعليم الدين، وفي تفسير القرآن تصدّى المنفلوطي لهؤلاء، يدافع عن أستاذه بقلمه ولسانه.

وفي السنة ١٩٠٧م، راح المنفلوطي يكتب أسبوعيًّا لجريدة «المؤيّد» رسائله الأدبيّة التي وفّرت له شهرة أدبيّة واسعة بفضل أسلوبها وبلاغة إنشائها، ولكنّ أديبنا تخلّى عن العمل الصحفي، وتنكّر للصحافة وأبنائها وانصرف إلى كتابة الأدب الحرّ. وفي السنة ١٩٠٩ اختير لوظيفة محرّر في وزارة المعارف العموميّة، في عهد وزارة الزعيم القوميّ سعد زغلول باشا وبإيحاء منه، ثمّ انتقل بعدها إلى وزارة الحقّانيّة (العدليّة)، ثم إلى الجمعية التشريعيّة، لينتهي به المطاف في الديوان الملكيّ. وكان في جميع المناصب التي شغلها مثالًا في الأمانة، والصدق، والجرأة، والإخلاص في العمل.

٢- وفاته

لم يُعمِّر المنفلوطي طويلًا، فقد وافته المنيّة يوم الخميس الواقع في ١٢ حزيران ١٩٢٤ (١٠ ذي الحجّة ١٣٤٢) يوم جرت فيه محاولة اغتيال الزعيم الوطني سعد زغلول، حيث نجا من تلك المحاولة، لكنّه جرح جرحًا بليغًا، فانشغل الناس بتلك الحادثة ولم يلتفتوا كثيرًا إلى مأتم المنفلوطي كما ينبغي. وحين أُبلغ سعد زغلول باشا بوفاة أديبنا الكبير، حزن عليه أعمق الحزن، وذرف عليه الدموع السخيّة. أمّا أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، فقد رثياه في مأتم

مَهيب أقيم له في وقت لاحق، ولحق بهما كثير من شعراء الأقطار العربيّة في العراق والشام ولبنان، فرثوه بأعذب الأشعار وأرقّ الكلمات.

٣- صفاته وأخلاقه

عن أخلاق المنفلوطي يقول الأديب الناقد حسن الزيّات في كتابه «تاريخ الأدب العربي»: إنّه كان مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر متّسق الأسلوب، منسجم الزيّ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية. وكان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحسّ في سكون، هيوب اللسان في تحفّظ. وهذه الخلال تُظهر صاحبها للناس في مظهر الغبيّ الجاهل، فهو لذلك كان يتّقي المجالس ويتجنّب الجدل ويكره الخطابة. وهو إلى ذلك رقيق القلب، عفّ الضمير، سليم الصدر، صحيح العقيدة، موزّع العقل والفضل والهوى، بين أسرته، ووطنيّته، وإنسانيّته.

وقال عنه محمد محمد عبد الفتاح في كتابه «أشهر مشاهير أدباء الشرق»:
أما أخلاقه فانقباضٌ عن الناس، ووحشة يحسبها الرائي صَلفًا وكِبرًا، وما هي بالصَّلَفِ ولا الكِبَرِ، ولكنها الرزانة والوقار والأَنَفَة والعزّة والبُعد عن سفاسف الأمور وصغائرها، والترفّع عن مخالطة كلّ من لا تعجبه أخلاقه، ولا تَجْمُلُ في نظره أطواره، وعِفَّةٌ حتى عن مدِّ يده إلى أبويه، لأنه قنع بما في يده من المال القليل، فزهد[١] فيما سواه.

وأحسن ما يعرفه له الناس في باب العفّة والشهامة أنّه ما أخذ في حياته أجرًا على أدبه، ولا انتفع من وراء قصائده أو رسائله بدانق[٢] أو سحتوت[٣]. وكرمٌ في الخلق طالما كان سببًا في وصول الأذى إليه، وكان آخر عهده بذلك الأذى تلك القضية التي رفعتها عليه النيابة العمومية من نحو خَمْسةَ عشرَ عامًا من أجل قصيدة رأت أنّه مسَّ فيها كرامة الخديوي السابق، ثم دارت الأيام، فأظهر مولانا الكريم تعطّفه بالرضى عنه عندما تبيّن له حُسن قصده وسلامة ضميره. وسخاءٌ وجودٌ بكلّ ما تملك يمينه. وأدبٌ وحياءٌ وحِلمٌ يظنّه الظانُّ عجزًا وضعفًا، فإذا غضب - وقليلًا ما يفعل - فهو الليث قوةً وشجاعةً. وصمتٌ طويل يحسبه الناظر عيًّا[٤]، فإذا تكلّم بذّ القائلين. وإيمانٌ قويّ كالطود الراسخ[٥]، لا تذهب به العواصف، ولا تلوي[٦] به حوادث الدهر وفواجعه. فما رُئي في يوم من أيامه مُلِمًّا[٧] بما يفسد عليه دينه أو مروءته. ولا ضعيف الثقة بالله في حالة عُسره ويُسره، وشدّته ورخائه. وصبرٌ جميل على ما يذهب بلبّ الحكيم، ويطير برشد الحليم من حوادث الأيام ورزاياها. فقد مات له طفلان في أسبوع

---

(١) زهد في الشيء: تركه.
(٢) الدانق: سدس الدرهم.
(٣) السحتوت: النذر القليل.
(٤) العيّ: العجز.
(٥) الراسخ: الثابت.
(٦) لوى به: أماله.
(٧) ألمّ بالذنب: فَعَله.

واحد، فسكن لهذا الحادث الملمّ[١] سكونًا لا تخالطه زفرة، ولا تمازجه دمعة، على شدّة شغفه بهما. ثم ماتت زوجته بعد ذلك، وكانت أحبَّ الناس إليه، فجلس إلى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها، كأنما المرزوء بذلك الحادث سواه.

٤- سياسته

قال عنه محمد عبد الفتاح في كتابه «أشهر مشاهير أدباء الشرق»: وطنيّ يتهالك وجدًا على حبّ وطنه، ويذري الدمع حزنًا عليه وعلى ما حلّ به من صنعة الحال. وفقدان الاستقلال. ومن كلماته المأثورة عنه في هذا الموضوع قوله: «لو علمت أن حياة مصر لا تتمّ لها إلا بفقدان حياتي، لكان سبيل الموت أشهَى إليّ من سبيل الحياة».

ليس له حزب خاصّ ينتمي إليه، ولا جريدة خاصّة يتعصّب لها. أما الأحزاب، فرأيه فيها أن تعدّدها مضرّ بمصلحة الوطن، وأنه يجب ن تكون الأمّة كلها حزبًا واحدًا، لأنّ أقلّ ضغينة سياسيّة تقع بين أفراد الأمّة تنتقص من استقلالها بمقدارها.

وأمّا الجرائد، فرأيه فيها أنها بين جريدتين: **إحداهما** تبالغ في إرضاء الأمّة وممالاتها[٢] على كلّ نافعٍ وضارٍّ من شؤونها، وهذه تشبه أن تكون متاجرة بالعقول. **والأخرى** تقسو في إرشادها، وهذه لا تستفيد منها الأُمَّة كما يجب أن يكون. فهو يرى أنّ الأمّة لا تزال حتى اليوم في أشدّ الحاجة إلى قائد شديد الإخلاص في علمه، جمّ الحكمة في قوله.

وليس بينه وبين جريدة من الجرائد علاقة خاصة، حتى الجرائد التي كان يكتب فيها رسائله، فلم يكن بينه وبينها أكثر مما يكون بين أي كاتب يكتب رسائله، له مطلق الحرية في أية صحيفة يتوسّل بانتشارها إلى نشر آرائه وأفكاره. فإن لاقاها في شيء من مبادئها ومذاهبها، لاقاها مصادفةً واتّفاقًا. وإن فارقها في ذلك فارقها طوعًا واختيارًا.

مؤلفاته ومكانته الأدبيّة:

أوّلًا: مؤلّفاته:

كَتَبَ المنفلوطي الكتب التالية:

١- النظرات.
٢- في سبيل التاج.
٣- ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون.
٤- بول وفرجيني أو الفضيلة.
٥- الشاعر أو سيرانودي برجراك.
٦- العبرات.

---

(١) الملم: النازل.

(٢) ممالاتها: معاونتها.

٧- أشعار ومنظومات رومنسيّة كتبها في بداية نشأته الأدبية. وقد نشر أحمد عبيد قسمًا منها في كتابه «مشاهير شعراء العصر».

٨- «مختارات المنفلوطي»، وهي مختارات شعريّة ونثريَّة انتقاها المنفلوطي من أدب الأدباء العرب في مختلف العصور.

وسنتكلّم بالتفصيل على كلّ كتاب من مؤلّفاته الستة الأوائل قبل إثباته في هذه المجموعة.

ثانيًا: مكانته الأدبيّة:

لاقت روايات المنفلوطي، وكتبه الأدبية شهرة واسعة في جميع الأقطار العربية، فطبعت مرّات متعدّدة، وتهافت الناس من كلّ الأعمار والأجناس على قراءتها، لكنّ صاحبها لم يسلم من ألسنة النقّاد وأقلامهم، إذ انقسم الناس حوله بين مؤيّد ومعارض، وهذا شأن جميع الكبار في ميادين الأدب، والفنّ، والسياسة، وغيرها.

ومن الذين انتقدوه حسن الزيّات الذي قال: إنّ هناك أمرين يمنعان من تحقيق صفة الخلود في المنفلوطي، هما ضعف الأداة وضيق الثقافة، إذ لاحظ أنّه لم يتوفّر له تحصيل علوم الشرق، كما أنّه لم يتسنّ له الاتّصال المباشر بعلوم الغرب، لذلك ظلّ أدبه سطحيًّا ساذجًا. أمّا العقاد والمازني، فنعيا عليه انفعاله وقالا في معرض كلامهما عنه: إنّه علينا أن نحيا حياتنا، وأن نطّلع على الدنيا بعقولنا وأن نحسّها بأعصابنا، لا أن نعيش بأجسامنا في هذا العصر، وأن نتابع بعقولنا وأعصابنا أجيالًا تولّت بخيرها وشرّها وحقّها وباطلها.

أمّا الأديب اللبناني عمر فاخوري، فكان أشدّ الناس قسوة على المنفلوطي؛ إذ رأى أنّه كان يؤثر الكتاب على الحياة، ويرجع إليه في أدبه أكثر ممّا يرجع إليها، ويا لسحر الكتاب! ثم يقول: إنّ مذهبه الأدبي غامض، وآراءه في صنعة الأدب مبهمة.

إلى جانب هذا النقد الجارح، اتّفق مؤيّدوه على أنّ إنشاءه فريد في أسلوبه وأنّ ما كتبه كان له الأثر الكبير في تهذيب الناشئة أخلاقًا، ولغة، وسلوكًا. فالدكتور طه حسين يقول: إنّه كان يترقّب اليوم الذي تُنشر فيه مقالات المنفلوطي الأسبوعيّة في جريدة «المؤيّد»، ليحجز نسخته منها، وكان يُقبل على قراءتها بكلّ شغف.

على أنّ عمر فاخوري نفسه عاد ليقول في وقت لاحق عن المنفلوطي إنّ حسن اختياره للّفظ وحسن ذوقه في البيان، قد بلغ غاية قصوى، وإنّ لإنشائه موسيقى ساحرةً لطيفة الوقع على السمع، تملك النفس وتأسرها. وحسن الزيات أيضًا، لا يلبث أن يعترف أنّ سرّ ذيوع أدب المنفلوطي، هو مفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم، ويمثّل العيوب في أسلوب رفيع، وبيان عذب، وسياق مطّرد، ولفظ مختار. ثمّ يؤكّد في مكان آخر أنّ المنفلوطي كاتب بليغ، وهو واضع الإنشاء العصري في مصر، وهو أبلغ كاتب في العصر الحديث، من حيثُ رشاقةُ العبارة ورقّةُ التعبير وتصويرُ الحوادث تصويرًا حقيقيًّا، يُضرب فيه المثل بالمتانة والتركيب، وحسن اختيار الألفاظ.

وكان سعد زغلول باشا معجَبًا بشخصيّة المنفلوطي، ويتمنّى أن يجدها في أقلام معظم كتّاب مصر.

أما أحمد عبيد فقد قال في كتابه: «مشاهير شعراء العصر»: «هو أحد شعراء الأمة العربية وكتّابها، ومن أعظم أركان النهضة الأدبية الحاضرة الذين ساعدوا على رفعة شأن الأدب العربي وبلوغه الشأو البعيد الذي وصل إليه اليوم. وهو صاحب القلم البديع الجذاب المتفوِّق في جميع الأغراض والمقاصد حتى سُمِّي بحق «أمير البيان». ولمؤلفاته وجميع كتبه الحظوة العظمى في جميع الأقطار العربية. ولأسلوبه تأثير خاص على نفوس القارئين كأنه يكتب بكل لسان، ويترجم عن كل قلب. وقد صار أسلوبه المثل الأعلى الذي يحاول دائمًا أن يحتذيه الناشئون والمتأدبون في المعاهد العلمية والأدبية. وميزته الخاصة التي يمتاز بها عن كل كاتب في عالم الأدب العربي في هذا العصر قوة قلمه في باب الفواجع، واقتداره على تصوير النفس الحزينة المتألمة. فما اطلع أحد على قطعة من قطعه أو رواية من رواياته التي كتبها في هذا الباب، إلا أذرف الدموع تأثرًا واعتبارًا، وربما كان هو الكاتب الوحيد في هذا العصر، أو أحد أفراد قلائل من الذين عرفوا بأنهم يصوّرون بقلمهم ما تحس به نفوسهم لا أقل ولا أكثر، حتى أصبحت كتاباتهم في نظر القارئين صورًا حقيقية لأخلاقهم وصفاتهم. ولقد أجمع الذين عرفوا المترجم وعاشروه على أنه متحلٍّ بجميع الصفات التي يتكلم عنها كثيرًا في رسائله ويتشبَّع لها، وأن أدبه النفسي، وكرم أخلاقه، وسعة صدره، وجود يده، وأنفته وعزة نفسه، وترفعه عن الدنايا، وعطفه على المنكوبين والمساكين، ورقة طبعه، ودقة ملاحظاته، ولطف حديثه، وشدة حيائه، وكمال أدبه، إنما هي بعينها كتبه ورسائله لا تزيد ولا تنقص شيئًا».

أما شعره فقد قال محمد إمام العبد عنه:

المفلوطي شاعر انقادت له القوافي الشاردة، وهو ضنين بشعره ضَنّ الكريم بعرضه، وتدبيجه كالذهب المسبوك، وهو طاهر الشعر والضمير، نزيه النفس، صافي السريرة، ما سمعته متغزّلًا، ولا لمحته متكبّرًا.

وقال حافظ إبراهيم:

المنفلوطي حَسَنُ الديباجة، منسجم الكلام، رقيق المعنى.

وقال وليّ الدين يكن:

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي رجل من كبار كتّاب القلم في زماننا، فهو من كتّاب الطبقة الأولى، وشعراء الطبقة الثانية.

أمّا المنفلوطي نفسه فقد قال عن شعره:

المنفلوطي شعره كالعقود الذهبيّة، إلا أنّ حبات اللؤلؤ فيها قليلة، فهو يخلب بروائعه أكثر ممّا يخلب ببدائعه.

النظرات

(1)



حول الكتاب

يُعتبر هذا الكتاب باكورة أعمال المنفلوطي، وهو عبارة عن تلك المقالات التي كان يكتبها في صحيفة «المؤيّد» بعنوان «أسبوعيات»، ثم بعنوان «النظرات».

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، بدأه بمقدّمة طويلة كانت ردًّا على من سأله كيف يكتب رسائله علّه يقتدي به؛ فغدت المقدّمة مقالًا تتضمّن جوابه، وهو يتلخّص بأربعة أشياء هي:

١- أنّه لم يكن يحفل بحديث اللسان ولا حديث العقل، أي لم يكن يتكلّف لفظًا غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلّبه، ولا يفتّش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسه، بل كان يحدّث الناس بقلمه كما يحدّثهم بلسانه.

٢- أنّه لم يكن يحمل نفسه حملًا على الكتابة، بل كان يرى، فيفكّر، فيكتب، وينشر ما يكتب، فيرضي الناس مرّة ويسخطهم أخرى من حيث لا يقصد.

٣- أنّه ما كان يكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيالًا غير مرتكز إلى حقيقة، لأنّه يعلم أنّ الحقيقة المجرّدة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذًا، ولا تترك في قلبه أثرًا.

٤- أنّه كان يكتب للناس لا ليعجبهم، بل لينفعهم ويؤثّر فيهم. أما سائر المقالات، فمختلفة الموضوعات، تتنوّع بين المقالات الاجتماعيّة والأدبيّة والسياسيّة، فتطرّق إلى المجتمع مصوّرًا بؤسه، وشقاءه، وانحطاط أخلاقه. فحدّث عن الخيانات الزوجيّة، وما يرافقها من عذاب وآلام وهموم تحمله على البكاء، كما نقرأ بين السطور دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، كما نلاحظ بعض القصص القابلة الحدوث إذا لم تكن حدثت فعلًا.

ويتضمّن هذا الكتاب بعض المقالات الدينيّة الرامية إلى الدفاع عن الإسلام، وتبيان فضائله. كما انتقد بعض المسلمين الذين شوّهوا الدين بأعمالهم الشنيعة.

ويتضمّن أيضًا بعض المقالات الداعية إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعيّة، ومساعدة الفقراء ولكن بغير الطريقة المألوفة، واضعًا خطّة لتنظيم الصدقات حتى لا يغري كلّ من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على منوال هؤلاء الفقراء، فيكون بذلك قد قطع من جسم الإنسانيّة عضوًا قد يكون عاملًا وبنّاءً.

●

مقدّمة

يَسْأَلُنِي كثيرٌ مِنَ الناسِ كما يَسْأَلُونَ غَيْرِي مِنَ الكتّابِ: كيفَ أكْتُبُ رَسَائِلِي، كأنّما يُرِيدُون أنْ يَعْرِفُوا الطرُقَ التي أسْلُكُها إليها، فَيَسْلُكُوها معي. وخَيْر لَهُمْ ألّا يَفْعَلُوا، فإنّي لا أحِبُّ لهم، وَلا لأحَدٍ مِنَ الشادّين في الأدبِ أنْ يكُونُوا مُقَيَّدين في الكتابةِ بِطَرِيقَتي، أو طريقةِ أحدٍ مِنَ الكتّاب غَيْرِي، ولْيَعْلَمُوا - إنْ كانوُا يَعْتَقِدُون لي شيئًا مِنَ الفَضْلِ في هذا الأمر - أنّي ما اسْتَطَعْتُ أنْ أكْتُبَ لهم تلك الرسائلَ بهذا الأسلوبِ الذي يَزْعمُون أنّهم يَعْرِفُون لي الفضلَ فيه، إلّا لأنّي اسْتَطعْتُ أنْ أنْفلِتَ من قُيُودِ التمثُّلِ والاحْتِذَاءِ، وما نَفَعَني في ذلك شَيْءٌ، ما نَفَعَني ضعفُ ذاكِرَتي والْتِواؤُها عليّ وعَجْزُها عن أنْ تمسكَ إلّا قليلًا مِنَ المَقْرُوءَاتِ التي كانتْ تَمُرُّ بي، فقد كُنْتُ أَقْرَأُ من مَنْثُورِ القَوْلِ ومنْظُومِهِ ما شاءَ اللهُ أنْ أقْرَأَ، ثم لا أَلْبَثُ أن أنْسَاهُ، فلا يَبْقَى منه في ذاكِرَتي إلّا جَمَالُ آثارِهِ ورَوْعَةُ حُسْنِهِ ورَنّةُ الطربِ به.

وما أذْكُرُ أنّي نَظَرْتُ في شيءٍ من ذلك لأحْشُوَ به حافِظَتي، أو أسْتَعِينَ به على تَهْذِيبِ بَيَاني، أو تَقْوِيم لِسَاني، أو تكثيرِ مادةِ عِلْمِي باللغةِ والأدَبِ، بل كلّ ما كان من أمْرِي أنّني كنتُ امْرأً أُحِبُّ الجَمَالَ، وأفْتَتِنُ به كلّما رأيتُهُ في صورةِ الإنسانِ، أو مطلعِ البدرِ أو مغربِ الشمسِ، أو هَجْعَةِ الليلِ، أو يَقْظَةِ الفَجْرِ، أو قِمَمِ الجِبَالِ، أو سُفُوحِ التلالِ، أو شواطِئِ الأنهارِ، أو أمْوَاجِ البحارِ، أو نَغْمَةِ الغِنَاءِ، أو رنّةِ الحُدَاءِ، أو مجتمَعِ الأطْيَارِ، أو مُنْتَثرِ الأزهارِ، أو رِقَّةِ الحسِّ، أو عذوبةِ النفسِ، أو في الشّعْرِ، أو قطعةِ النّثْرِ.

فكنتُ أمرُّ برَوْضِ البيانِ مَرًّا، فإذا لاحَتْ لي زَهْرَةٌ جميلةٌ بين أزهارِهِ، تتألّقُ في غُصْنٍ زاهِرٍ بين أغصانِهِ، وَقَفْتُ أمامَها وِقْفَةَ المُعْجَبِ بها، الحَاني عليها، المستهترِ بحُسْنِ تكوينِها وإشراقِ منظرِها، من حيث لا أريدُ اقْتِطَافَها أو إزْعاجَها من مكانِها، ثم أتْرُكُها حيثُ هي، وقد عَلِقَتْ بِنَفْسِي صُورَتُها إلى أخرَى غيرِها. وهٰكذا حتّى أخرُجَ منْ ذلكَ الرَّوْضِ بنَفْسٍ تَطِيرُ سُرُورًا به، وتَسِيلُ وَجْدًا عليه، وما هو إلّا أنْ دُرْتُ ببَعْضِ تلك الرياضِ بعضَ دوراتٍ، ووَقَفْتُ ببَعْضِ أزهارِها بِضْعَ وقفاتٍ، حتّى شَعَرْتُ أنّي قد بدلتُ من نَفْسِي نَفْسًا غيرَها، وأنّ بين جَنْبي حالًا غريبةً لا عهدَ لي بمثلِها من قبلُ، فأصْبَحْتُ أرى الأشياءَ بعينٍ غيرِ التي كنت أراها بها، وأرَى فيها من المعاني الغريبةِ المؤثرةِ ما يملأُ العينَ حُسْنًا، والنَّفْسَ بَهْجَةً.

فقد كنتُ أرَى الناسَ، فرأيْتُ نفوسَهُمْ، وأرَى الجمالَ، فرأيتُ لبَّهُ وجَوْهَرَهُ، وأرَى الخَيْرَ، فرأيْتُ حُسْنَهُ، وأرَى الشرَّ، فرأيتُ قبحَهُ، وأرَى النعماءَ، فرأيتُ ابتسامَاتِها، وأرَى البأساءَ، فرأيتُ مدامِعَها، وأرَى العينَ، فرأيتُ السحرَ الكامِنَ في محَاجِرِها، وأرَى الثغُور، فرأيْتُ

الخمرَ المترَقْرِقَةَ بين ثنايَاها، وكنتُ أرَى الشمسَ، فرأيتُ خيوطَها الفضّيّةَ الراقصةَ في جوّ السماءِ، وأرَى القمرَ فرأيتُ شعاعَهُ يهمّ أن يسيلَ على جوانِبه سَيْلًا، وأرَى الفَجْرَ، فرأيتُ بَيَاضَهُ وهو يَدِبُّ[١] في تجاليدِ[٢] الظلام دَبيبَ المشيبِ في مَجاليدِ الشباب، وأرَى النجومَ فرأيتُ، عيونَها الذهبيةَ على الكونِ من فروجِ قميصِ الليل، وأرَى الليلَ، فرأيتُهُ وهو يَهْوِي بأجنِحَتِهِ السوداءِ إلى الأرضِ هويّ الكرَى إلى الأجفانِ، وكنتُ أسْمَعُ خريرَ المياهِ، فسَمِعْتُ مُناجاتَها، وحفِيفَ الأوراقِ، ففَهِمْتُ نَغماتِها، وتَغْرِيدَ الأطيارِ، فعَرَفْتُ لغاتِها.

فأحْبَبْتُ الأدبَ حبًّا جمًّا ملأَ ما بين جانِحَتي؛ فلم تكنْ ساعةٌ من الساعاتِ أحبَّ إليّ ولا آثرَ عِنْدِي من ساعةٍ أخْلُو فيها بنفسي، وأُمسكُ عليّ بابي، ثم أُسْلِمُ نفسي إلى كِتَابي، فيُخيّلُ إليّ أنّي قدِ انْتَقَلْتُ من هذا العالمِ الذي أنا فيه إلى عالمٍ آخرَ من عوالمِ التاريخِ الغابرِ، فأشْهَدُ بعيني تلك العصورَ الجميلةَ، عصورَ العربيةِ الأولى، وأرَى العربَ في جاهليّتِها بين خيامِها وأخْبِيَتِهَا، وأظنَابِها، وأعْوَادِها، وإبَلِها وشَائِها، وشيحِها وقيصومِها[٣]؛ وأرَى مُسَاجَلاتِها ومُنَافَراتِها، وحبَّها وغرامَها، وعفّتَها ووفاءَها، وصبرَها وبلأَها، وحُداءَها وغِنَاءَها، وأسواقَ شعرائِها، ومواقفَ خطبائِها، وفقرَها وإقلالَها، وشحُوبَ وجوهِها، وسمرةَ ألوانِها، وضوَى أجسامِها وتردُّدَها في بيدائِها بين حَمارَّةِ القَيْظِ[٤] وصبارّةِ البَرْدِ[٥]، وتَنَقُّلَها من صحراءَ إلى ريفٍ، ومن مَشْتًى إلى مصيفٍ، ومن نجدٍ إلى وَهْدٍ، ومن شرفٍ إلى غَوْرٍ، وانتجاعَها مواقعَ الغَيْثِ، ومنابتَ العشبِ، وقناعتَها من الطعام بأجفانِ التمرِ وقعابِ[٦] اللبنِ وأصْواعِ الشعيرِ، فإذا جدَّ الجدُّ أكلتِ القدّ[٧] واشْتَوَتِ الجلدَ، وتبلغتْ بالضبّ واليربوعِ، وعراقيبِ الآبالِ[٨]، وأظلافِ[٩] الأبقارِ، واكتفتْ من اللباسِ بأكسيةِ الكرابيسِ[١٠] وأرْديةِ الأشعارِ، وقمصِ الأوبارِ.

فإذا أعْوَزَها ذلك لبستِ الظلَّ، وافترشتِ الرملَ، غيرَ ناقمةٍ ولا ساخطةٍ، ولا متبرّمةٍ بقضاءِ اللهِ وقدَرِه في قسمةِ أرزاقِه بين عبادِهِ، ولا باكيةٍ حظَّها من رخاءِ العيشِ ولينِه.

ثم أرَاها بعد ذلك وقد أنعمَ اللهُ عليها بنعمةِ المدنيّةِ الإسلاميّةِ فأرَى رغدَ عَيْشِها، ولينَ طعامِها واعشُوشَابَ جانبِها، وعذوبةَ مواردِها ومصادرِها، وسرورَها وغبطتَها بما أفاءَ اللهُ عليها من ذخائرِ الفرسِ وأعلاقِ الرومِ، وامتلأَ قصورِها باللؤلؤ المنظومِ من القِيانِ، واللؤلؤ المنثورِ

---

(١) يدبّ: يمشي مشيًا بطيئًا.
(٢) التجاليد: جماعة الجسم.
(٣) الشيح والقيصوم: من النباتات الطيّبة الرائحة.
(٤) حمارّة القيظ: شدّة الحرّ.
(٥) صبارّة البرد: شدّة البرد.
(٦) القعاب: ج القعب، وهو القدح الغليظ.
(٧) القد: السير يُقدّ من جلد.
(٨) عَراقيب الآبال: العراقيب ج عرقوب وهو في رجل الدابة كالركبة في يدها، والآبال: ج إبل، وهي النوق.
(٩) الأظلاف: ج الظِلف وهو من الحيوان كالظفر من الإنسان.
(١٠) الكرابيس: جمع كرباس، وهو الثوب.

من الولدان، وأرى مجالسَ غنائِها، ومجامعَ أنسِها، ومسارحَ لهوِها، ومجالاتِ سبقِها، وملاعبَ جيادِها، ومذاهبَ طرائدِها، ومواقفَ حجّها، وازدحامَ شُعرائها على أبواب أمرائها، وجوائزَ أمرائها في أيدي شعرائها، وانطلاقَ ألسِنَتها بوصفِ ما تشاءُ من الأعوادِ والبرابطِ[1] والمعازفِ والمزاهرِ والأقداحِ والدنانِ والموائدِ والصحفِ، وألوانِ الطعام حلوِه وحامِضِه، وأصنافِ الشرابِ حلالِهِ وحرامِه، والطيورِ المحلّقَةِ في الأجواء، والسفنِ الذاهبةِ في الدأماءِ[2]، والرياضِ الخضراءِ والغاباتِ الشجراءِ، والقصورِ وتماثيلِها، والبحيراتِ وأسماكِها، والأنهارِ وشواطِئِها، والأزهارِ ونفحاتِها، والغيوثِ وقطراتِها، ودبيبِ الحبِّ في القلبِ، والغناءِ في السمعِ والصهباءِ في الأعضاءِ، وخلجةِ الشكّ، ولمحةِ الفكرِ، وبارقةِ المنَى.

ثمّ لا أشاءُ أنْ أرَى بين هذا وذاك خلقًا عَذْبًا، أو أدبًا غضًّا، أو حبًّا وفيًّا، أو مُجُونًا مستظرَفًا، أو حورًا مستملَحًا، إلّا وجدتُه؛ ولا أنْ أسْمَعَ ما تهتفُ به العاتقُ في خدرِها، وما يَحْدُو به الحادي في أعقابِ إبِلِه، وما يتغنّى به العاشقُ، وما يهذِي به الشاربُ، وما يترنّمُ به الشادي، وما يُساجِلُ به المَاتِحُ[3] إلا سمعتُهُ.

ولا أنْ أعْلَمَ ما يَهْجِسُ[4] في نفسِ المحبِّ، إذا اشتملَ عليه ليلُهُ، والحائرِ، إذا ضلّ به سبيلُه، والثاكلِ، إذا فُجِعَتْ بواحدِها، والموتورِ، إذا حيلَ بينه وبين واتره، والكريم، إذا لاحَ له منظرٌ من مناظرِ البؤسِ والشقاءِ، والغريبِ في دارِ غربتِه، والسجينِ بين جدرانِ سجنِه، والخائفِ، إذا وَقَفَ بين الرضا والغضبِ، والمقدمِ للقتلِ، إذا وقفَ بين الرجاءِ واليأسِ، والبائسِ، إذا أعوزَه القوتُ، واليائسِ، إذا أعوزَهُ الموتُ، والعزيزِ، إذا ذلّ، والمشرفِ، إذا هوَى، والشريفِ، إذا عَبَثَ بشرفِه عابثٌ؛ والغيورِ، إذا لمسَ عِرْضَهُ لامِسٌ، إلّا علمتُهُ.

ولا أنْ أعرفَ خلقَ الدهرِ في تنقّلِه بالناس ما بين رَفْعٍ وخَفْضٍ، وَجِدَةٍ[5] وفقرٍ، ونعيمٍ وبؤسٍ، وإقبالٍ وإدبارٍ، ولا أثرَ يدِه السوداءِ في خرابِ القصورِ، وخلاءِ الدورِ، وإقفارِ المغاني، وتصويحِ الرياضِ، إلّا عرفتُه.

فكنتُ أجد في نفسي من اللذةِ والغبطةِ بذلك ما لا يقومُ به عندي كلُّ ما ينعمُ به الناعمون من رغدٍ في العيشِ ورخاءٍ، حتى ظننتُ أنّ اللهَ سبحانَه وتَعالَى قد صنعَ لي في هذا الأمر، وأنّه لمّا علمَ أنّه يكتبُ لي في لوحِ مقاديرِه ما كتبَ للسعداءِ والمجدودين[6] من مالٍ أو جاهٍ أعيشُ في ظلِّهِ، وأنعمُ بثمرتِه زخرفَ لي هذا الجمالَ الخياليّ البريءَ من الريبة والإثم، وزوّرَه لي تزويرًا بديعًا، ووضع لي فيه من الملاذّ والمناعمِ ما لم يَضَعْ لغَيْرِي، رحمةً بي وإرعاءً عليّ أنْ أهلكَ، أو يهلكَ لبي بين اليأسِ القاتلِ، والرجاءِ الكاذبِ. وهكذا لا أزالُ محلّقًا في هذا الجوّ

(١) البرابط: ج البربط، وهو آلة موسيقيّة تعرف بالعود. (٢) الدأماء: البحر.
(٣) الماتح: المستقي على البئر. (٤) هجس: خطر.
(٥) الجِدَة: الغنى. (٦) المجدود: صاحب الجدّ، أي الحظ.

البديعِ من الخيالِ، أضحكُ مرّةً، وأكتئبُ أخرَى، وأتغنّى حينًا، وأبْكِي أحيانًا، حتّى يَرْمِيَني البابُ ببعضِ الطارقين، أو يستعيدَ إليّ نفسي مستعيدٌ.

ولم يكُنْ حولي لذلك العهدِ ممَّنْ يستعينُ بمثلِهِمْ مِثْلي على الأدبِ أحدٌ؛ لأنّني كنتُ أعيشُ في مفتَتَحِ عَهْدِي به - ولم أكُنْ زاهيتُ إذ ذاك الثالثة عشرة - بين أشياخٍ أزهريّين من الطرازِ القديمِ لا يَرَوْنَ رأيي فيه، ولا يتعلّقون منه بما أتعلّقُ، فكانُوا يَرونَ أنّ التوفّرَ عليه، أو الإلمامَ به عمَلٌ من أعمال البَطَالَةِ والعَبَث، وفِتْنَةٌ من فِتَنِ الشيطان فكانَ الذين يتولّون أمري منهم لا يزالُون يحُولُون بيني وبينَهُ، كما يحُولُ الأبُ بين ولدِه وبين ما يعرضُ له من فتنِ الهوَى ونزعاتِ الصبوةِ ضنًّا بي - يَزْعَمُون - أنْ أُنفِقَ ساعةً من ساعاتِ دراستي بين لهوِ الحياةِ ولعبِها!

فكنتُ لا أستطيعُ أنْ ألمّ بكتابي إلّا في الساعةِ التي آمَنُ فيها على نفسي أن يُلمّوا بأمري - وقليلًا ما كنتُ أجدُها - وكثيرًا ما كانوا يهجمُونَ منّي على ما لا يُحبّون، فإذا عَثَرُوا في خِزَانتي، أو تحتَ وِسَادَتي، أو بينَ لفائفِ ثوبي على ديوانِ شعرٍ، أو كتابِ أدبٍ، خُيِّلَ إليهم أنّهم قد ظَفِرُوا بالدينارِ في حقيبةِ السارقِ، أو الزجاجةِ في جيبِ الغلامِ، أو العشيقِ في خدر الفتاةِ، فأجدُ من البلاءِ بهم والغصصِ بمكانِهِمْ ما لا يحتملُ مثلَهُ مِثْلِي.

وهم لا يعلمُونَ - أحسنَ اللهُ إليهم - أنَّهم وجميعَ من يدورُ به جدارُ مسجدهم حسنةٌ من حسناتِ الأدبِ الذي ينقمون منه ما ينقمون، ويدٌ من أياديه البيضاءِ على هذا المجتمع البشريّ.

فلولا الأدبُ، ما استطاعَ أئمتُهُمْ المجتهدُونَ فَهْمَ آياتِ الكتابِ المنزلِ، ولا استنباطَ تلك الأحكامِ التي دوّنوها لهم، وتركوها بين أيديهم يستغلّونها كما يستغلُّ المالكُ ضيعتَهُ، ويعيشونَ في ظلّهَا عيشَ السُّعَداءِ المُتْرَفِينَ. ولولاه لما استطاعَ علماؤُهُمْ اللغويُّون أنْ يورّثُوهُمْ هذه العلومَ اللغويةَ التي يدرسُون اليومَ نحوَها، وتصريفَها، وبيانَها في مجالسِ علمِهِمْ، ويدلونَ بمكانهم منها على الناسِ جميعًا.

كما يعلمُون أنّ الأدبَ هو خَيْرُ ما يَسْتَعِينُ به متعلّمٌ على علم، وأنّ الذوقَ الأدبيَّ الذي يستفيدُهُ المتأدّبُ من دراسةِ الأدبِ، ومزاولتِه هو الميزانُ الذي يَزِنُ به ما يُحاولُ فهمَهُ من عباراتِ العلومِ وأساليبِها، والدليلُ الذي يتسمّته، ويترسّمُ مواقعَ أقدامِه في فهم أصولِ الدين، ليكونَ مجتهدًا - إنِ اسْتَطاعَ - أو واقفًا على منازعِ المجتهدِين، واللسانُ الذي يَسْتَعِينُ به على الإفضاءِ بأدقّ أغراضِه، وأعمقِها، وأقصاها مكانًا من قلبِه ليكونَ إنسانًا ناطِقًا، ومعلّمًا نافعًا.

ولو أنّ هؤلاءِ الزارين على الأدبِ من علماءِ الدين وشيوخِه - وهمُ اليومَ والحمدُ لله قليلٌ، بلْ هم في طريق الفناءِ والانقراضِ - قد تعلَّقُوا منه بما كان يتعلَّقُ أسلافُهُمْ، وأئمتُهُم من قَبْلُ لنالُوا به في دينِهِمْ خَيْرًا، ولاسْتَدْفَعُوا به عن أنفسِهِمْ في أمرِه شرًّا عَظِيمًا.

فما زالَ الدينُ واضحَ المنهجِ، قائمَ الحجّةِ، وما زالتْ آياتُ الكتابِ ومتونُ الأحاديثِ سائغةً هنيئةً، لا يلحقُها الريبُ، ولا يحيطُ بها الشكّ، ولا تطيرُ بجنباتِها الأوهامُ والظنونُ، حتّى جهلَ علماءُ الدينِ والأدبِ، ففسدتْ أذواقُهُمْ، وضلّتْ أفهامُهُمْ.

فكَثُرَ بينهُمُ التأويلُ والتخريجُ، ووهَتْ تلك العقدةُ الوثيقةُ بين الألفاظِ والمعاني، واسترخَتْ عُرَاها من أيديهم، فأصبحَ كلُّ لفظٍ في نظرِهِمْ محْتَملًا لكلّ معنى، حتّى ما يأبَى أحدُهم على الآخرِ شيئًا، وتهافَتَ ذلك الحاجزُ الحصينُ الذي كان قائمًا بين الحقيقةِ والمجازِ، والحقيقةِ والخيالِ، فبغَى بعضُ الكلمِ على بَعْضٍ، وعاثَ كلٌّ منها في تربةِ صاحبِه إقبالًا وإدبارًا، وجيئةً وذهوبًا، وصعُودًا ونزولًا.

فاستطاع الواغِلُون في الدينِ والناصبونَ له أن يُدخلُوا عليه من الأحاديث المنحولَةِ الغريبةِ في أساليبِها ومناهِجِهَا عن مناهجِ العربِ وأساليبِهِم ما لا يضبطه الحسابُ كثرة. فهلكتِ الأمةُ بين هذا وذاك هلكًا لا تزالُ تتجرعُ كأسَهُ المريرةَ حتّى اليوم.

فالحمدُ للهِ أوّلًا، وللأدبِ ثانيًا، على نَجَاتي منهُمْ فيما كانُوا يَرُومُون بي، ويحاولُون منّي، بل أحمَدُ اللهَ إليهم كذلك فقد كفيتُ بسوءِ رأيِهِمْ في الأدبِ ونقمتِهِمْ عليه شرّ من يدخلُ بيني وبين نفسي في المفاضلةِ بين شاعرٍ وشاعرٍ، وكاتبٍ وكاتبٍ، أو الموازنةِ بين أسلوبٍ وأسلوبٍ، وديباجةٍ وأخرى، فلم يكنْ لي عونٌ على ذلك كلّه غيرُ شعورِ نفسي، وخفوقِ قلبي خفقةَ السرورِ، أو الألمِ، إنْ مرّ بي ما أُحِبُّ أو ما أكرَهُ من حسناتِ القولِ أو سيّئاتِهِ، من حيث لا أعرفُ سبيلَ ذلك ولا مأتاه.

فكانَ شأني في ذلك شأنَ السامعِ الطروبِ الذي تطربُه نغمةٌ وتزعجُه أخرى، فيطيرُ بالأولى فرحًا، وبالثانية جَزَعًا، وقد يكونُ ضعيفَ الإلمامِ بِضروبِ الإيقاعِ، وقواعدِ النغمِ.

فكنتُ لا أقرأُ إلّا ما أفهَمُ، ولا أفهَمُ إلّا ما أشعرُ أنّه قد خرَج من فم قائلِه خروجَ السهمِ من القوسِ، فإذا هو في كبدِ الرميةِ ولبّها، فإن رأيتُ أنّ المَعْنَى قد قامَ دونَهُ ستارٌ من التراكيبِ المتعاظِلَةِ، والأساليبِ المُلْتَوِيَةِ، علمتُ أنّ القائلَ إمّا ضعيفُ المادةِ اللغويّةِ فهو يعجزُ عن الإفضاءِ بما في نفسِه لأنّه لا يعرفُ كيف يُفْضِي به؛ وإمّا جاهلٌ لم يَسْتَوِ له المَعْنَى الذي يريدُه كلَّ الاستواءِ، فهو يتوهّمُهُ توهُّمًا ويجمجِمُهُ جمجَمَةً، ويَهْذِي به هَذَيانًا، فلا سبيلَ له إلى الإفصاحِ عنه؛ وإمّا داهيةٌ محتالٌ قد علمَ أنّ المَعْنَى الذي يجُولُ في نفسِه، ويتردّدُ في خاطرِه تافهٌ مرذولٌ، وكان لا بدَّ له أنْ يُنفِّقَهُ[1] على الناسِ، ويزخرفَهُ لهم ويزوّره في أعيُنِهِم، فهو يَكْسُوهُ أسْلُوبًا غامِضًا ليكدَّهُمْ، ويجهدَهُمْ في سبيله حتى إذا ظَفِرُوا به بعد ذلك، خُيّلَ إليهم أنّهم قد ظَفِروا بمعنى غريبٍ، أو خاطرٍ بديعٍ، ووجدُوا فيه عندَ الوصولِ إليه من اللذّةِ والمتعةِ، ما يجدُ الظامئُ في ضحضاحِ[2] الماءِ الكدرِ، إذا أبعدَ النجعةَ في طلبِه، ووصلَ إليه بَعْدَ الجهدِ

(١) ينفّقه - بالتشديد - يجعله نافقًا: أي رائجًا. (٢) الضحضاح: الماء القليل.

والإشقَاءِ؛ وإمّا عاجزٌ ضعيفُ القوّةِ النفسيّةِ، قد علمَ أنّ ضعفاءَ الأفهامِ من الناسِ، وهم سَوادُ الأمةِ ودهْمَاؤها[١]، لا يرضونَ عن مَعْنًى من المَعَاني ولا يَسْتَسْنُونَ قيمتَهُ[٢]، ولا يُقيمُون له وَزْنًا إلّا إذا جاءَهُمْ في جلدةٍ من الألفاظِ المتكرّسةِ المتقبّضَةِ، وإنّهم إذا وردَ عليهم أثمنُ المعاني وأغلاها، وأكرمُها جواهرًا وأطيبُها عناصرًا في ثوبٍ من الأساليبِ الرقيقةِ الشفافةِ، ذهبَ بهم الوهمُ إلى أنّه ما جاءَهُمْ على هذه الصورةِ إلّا لأنّه ساقطٌ مبتذلٌ، أو سوقيٌّ مطروقٌ، فاحْتَقَرُوهُ وازْدَرُوهُ. وكان يرى لضعفِ حيلتِه وسقوطِ همّتِهِ، أنْ لا بدَّ له من موافاةِ رغبتِهِمْ، وبلوغِ رضاهُمْ، والنزولِ على حكمِهِمْ، فَتَجمّلُ لهم باللكنةِ والعيِّ! وتملّقهم بالغموضِ والإبهامِ؛ وإما أعجميٌّ يظنُّ أنّ اللغةَ العربية حروفٌ وكلماتٌ، وهو لا يعرفُ منها غيرَهما، فينطقُ بشيءٍ هو أشبَه الأشياءِ بما يترجمُه بعضُ المترجمين من اللغاتِ الأعجميّةِ ترجمةً حرفيّةً. فإنْ نعيت عليه غرابةَ أسلوبِه واستعجامَهُ، والتواءَهُ على الفهم، كانَ مبلغُ ما ينضَحُ بِهِ عن نَفْسهِ أنّ المَعاني العَصْريّة والخيالاتِ الحديثةَ لا يُستطاعُ إلباسُها الأكسيةَ البدويةَ، والأرديةَ العربيّةَ، كأنّما هو يظنُّ أنّ المعاني والخواطرَ خططٌ وأقسامٌ، وأنصبةٌ وسهامٌ، هذا للشرقِ، وهذا للغربِ، وهذا للعربِ، وهذا للعجمِ!

أمّا الحقيقةُ التي لا ريبَ فيها، فهي أنّ الرجلَ لا ينتزعُ تلك المعاني من قرارةِ نفسِه، ولا يصوّرُ فيها صورةَ عقلِهِ، وإنّما هو مترجمٌ قد عثرَ بتلك المعاني في اللغة الأعجميّةِ التي يعرفُها لاصقةً بأثوابِها الأصليةِ، فلمّا أرادَ أن يُفضيَ بها إلى العرب، وكان غيرَ مضطلعٍ بلغاتِهِمْ، ولا متمكّنٍ من أساليبِهِمْ، عجزَ عن أنْ ينزعَ عنها أثوابَها اللاصقةَ بها، فنقلَها إليهم كما هي إلّا ما كان من تبديلِ حرفٍ بحرفٍ، أو لفظٍ بآخر من حيث يظنُّ أنّه يهتفُ بشيءٍ قام في نفسِه، أو يُفضي بخاطرٍ من خواطرِ قلبِه؛ وإمّا شحيحٌ يأبى له لؤمُ نفسِه، وخبثُ فطرتِه أن يمنحَ الناسَ منحتَه سائغةً هنيئةً دون أن يكدّرَها عليهم بالمَطْلِ والتسويفِ والمدافعَةِ والمحاولةِ.

والشحُّ خلقٌ إذا نزلَ منزلَه من نفسِ صاحبِه، أقامَ من نفسِه حارسًا يقظًا على كلّ حاسّةٍ من حواسّهِ الباطنةِ والظاهرةِ، حتى لا يجدَ فيه واجدٌ مصطنعًا، ولا يظفرَ منه متعصرٌ ببلّةٍ. فيضنُّ بعلمِه كما يضنُّ بمالِه، ويقبضُ لسانَهُ عن النطقِ، كما يقبضُ يدَهُ عن الإنفاقِ، ويصرّدُ[٣] عطاءَهُ تَصْريدًا ليستديمَ حاجةَ الناس إليه، كما يُجيعُ كلبَهُ ليتبعَهُ. ولعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين على العجزةِ، والجاهلين، والمحتالين، والكاذبين، والأشحّاءِ، والباخلين.

وكان أشعرُ الشعراءِ عندي، وأكتبُ الكتّابِ - سواءٌ في ذلك المتقدّمُ والمتأخّرُ، والنابهُ والخاملُ - أوصفَهُمْ لحالاتِ نفسِهِ، أو أثر مشاهدِ الكونِ فيها، وأقدرَهُمْ على تمثيلِ ذلك، وتصويرِه للناسِ تصويرًا صحيحًا كأنّما هو يعرضُهُ على أنظارِهِمْ عَرْضًا، أو يضعُه في أيديهم وضعًا.

---

(١) دهماء الأمّة: الكثير من الناس. (٢) استسنى قيمته: رأى قيمته سنيّة ورفيعة.

(٣) صرّد العطاء: قلّله.

فإنْ ظَننْتُ أنّ القائلَ كاذبٌ فيما يقولُ، أو أنّه يرسمُ صورةً غيرَ الصورةِ التي تتلَجْلَجُ في نفسِهِ، أو أنّه لغويٌّ يفرُّ من ضعفِ أسلوبِه وفسادِ نظمِه إلى أكمةٍ من الألفاظِ الغريبةِ، والتراكيبِ المستَوْعِرَةِ يكمنُ وراءَها، أو ناقلٌ يَتَّخِذُ الكتابةَ حقيبةً يَحْشُوها بالمسائلِ العلميّةِ، والوقائعِ التاريخيّةِ حَشْوًا، أو مترجمٌ ينقلُ عن اللغةِ الأعجميّةِ التي يعرفُها آراءَ علمائِها، وكأنّما هو صاحبُها، أو شعرتُ أنّه قد قدّرَ في نفسِه، وهو يكتبُ كلمتَهُ أنْ يكونَ بليغًا، أو مُبدِعًا ليعجبَ الناسُ منها، كانَ كلُّ حظّهِ عندي أن أعرفَ له قدرَه في العلمِ، ومنزلتَهُ مِنَ الذكاءِ والفهمِ إنْ أحسنَ فيما يقولُ، ولكنّني لا أعدُّهُ كاتبًا ولا شاعرًا. لذلك كان أغزلُ الغزلِ عندي غَزلَ العاشقين، وأفضلُ الرثاءِ رثاءَ الثاكلين، وأنبلُ المدحِ مدحَ الشاكرين، وأشرفُ العظاتِ عظاتِ المخلصين، وأجملُ البكاءِ بكاءَ المنكوبين، وأحسنُ الهجاءِ هجاءَ الصادقين، وأبرعُ الوصفِ وصفَ الرائين المشاهدين.

ولا أدري ما الذي كانَ يُعجبُني في مطالعاتي من شعرِ الهمومِ والأحزانِ، ومواقفِ البؤسِ والشقاءِ، وقصصِ المحزونين والمنكوبين خاصّةً. فقد كان يُعجبني كثيرًا ويبكيني أحرّ بكاءٍ وأشجاه شقاءُ المهَلْهِلِ في الطلبِ بثأرِ أخيهِ، وشقاءُ امرئِ القيسِ في الطلبِ بثأرِ أبيهِ، وبكاءُ جليلةَ أختِ جسّاس على زوجِها وأخيها، وبكاءُ عديّ بن زيد على نفسِه في سجنِ النعمانِ، وبكاءُ متمّم بن نويرةَ على أخيهِ مالك، حتى دمعتْ عينُه العوراءُ.

وبكاءُ ليلى بنتِ طريفٍ على أخيها الوليدِ، وهيامُ أمِّ حكيمٍ زوجِ عبيدالله بن العباس في المواقفِ والمواسمِ، تنشدُ طفلَيْها الذبيحَيْنِ، وبكاءُ الشريفِ على المناذرةِ في خرائبِ الحِيرَةِ، وبكاءُ أبي عبادةَ على الأكاسِرةِ في خرائبِ المدائنِ، وبكاءُ الرضيّ على بني هاشم، وبكاءُ العبلي على بني أميّةَ، وبكاءُ الرقاشي على بني برمكٍ، وذلُّ أبي فراسٍ في أسرِهِ، والمعتمد بن عباد في سجنِه، وبكاءُ الوزيرِ ابن زيدون على نفسِه مرّةً، وعلى ولّادَةَ أخرى، وبكاءُ ابن مناذر على عبد المجيد، والبحتريِّ على المتوكّلِ، وابنِ اللبانةِ على ابنِ عبّاد، والتيميِّ على يزيد بن مزيد، ومروانَ بنِ حفصةَ على معن بن زائدة.

وجنونُ المجنونِ بليلاه، وجلوسُه في جنباتِ الحيّ منفردًا عاريًا مذهوبَ اللبّ، مشركَ العقلِ، يهذي، ويخطّطُ في الأرضِ، ويلعبُ بالتراب، ثمّ هيامُه بعد ذلك مع الوحشِ في البريةِ، لا يأكلُ إلّا ما ينبتُ فيها من بَقْلٍ، ولا يشربُ إلّا مع الظباءِ، إذا وردَتْ مناهِلَها، وراحتُه إلى الطريق يصعدُ مع مصعديه، وينحدرُ مع منحدريه، حتى هلكَ في أرضٍ مقشعرّةٍ مغبرَّةٍ بين الصخورِ والأحجارِ.

وشقاءُ قيسٍ بلبناهُ بعد أنْ طلّقها برًّا بوالدِه، ونزولًا على حكمِهِ، وذهابُ الحبّ به ذلك كُلَّ مذهبٍ، حتى هلكَ بين الوفاءِ للفضيلة، والوفاءِ للحبِّ. وموقفُ جميلِ بنِ معمر بين يدَيْ أبيه، وهو يعتبُ عليه أشدَّ العتبِ، وأمرُه في استهتارِه بحبّ بثينةَ، ومخاطرتُهُ بنفسِه في الإلمامِ بحبِّها فيقولُ:

يا أبتِ! هل رأيتَ قبلي أحدًا قدرَ أن يدفعَ عن قلبِه هواهُ، أو ملكَ أن يسلي نفسَهُ، أو استطاعَ أن يتّقيَ ما قُضِيَ به عليه، واللهِ، لو قدرتُ أن أمحوَ ذكرَها من قلبي أو أزيلَ شخصَها من عيني، لفعلْتُ، ولكن لا سبيلَ إلى ذلك، وإنّما هو بلاءٌ بُليتُ به لحين قد أتيحَ لي، وأنا أمتنعُ عن طُروقِ هذا الحيّ والإلمامِ به، ولو متُّ كَمَدًا، وهذا جهدي ومبلغُ ما أقدرُ عليه.

وبكاءُ النبي (ﷺ) عندما سمعَ قيس بن عاصم يحدّثُ عن نفسِهِ أنّه كان يئِدُ[1] بناتِه في الجاهليّةِ، وأنّ واحدةً منهنّ ولدتْها أمُّها وهو في سفرٍ، فدفَعَتْها إلى أخوالِها ضنًّا بها على المَوْتِ وإشْفاقًا عليها، فلمّا عادَ وسألَها عن الحَمْلِ، قالت له: إنّها ولدَتْ مولودًا مَيْتًا. ثم مضَتْ على ذلك سنونٌ عدّةٌ حتّى كبرتِ البنتُ، ويفعتْ، فزارت أُمَّها ذات يومٍ، فرآها عندَها، فأُعْجِبَ بجمالِها وعَقْلِها وذكائها وسألَها عنها، فحدّثَتْهُ حديثَها على وَجْهِهِ، ولم تكتمْهُ شيئًا طمَعًا في أن يضُمَّها إليه، ويمنَحَها رحمتَهُ وعطفَهُ، فأمْسَكَ عنها أيّامًا، ثمّ تغفّلَ أمّها عنها ذات يومٍ، وخرجَ بها إلى الصحراء حتى أبعدَ، فاحتفرَ لها حفرةً، وجعلَها فيها، فأخذتْ تقول: يا أبتِ، ما تريدُ أن تصنعَ بي؟ وما هذا الذي تفعلُ؟ وهو يهيلُ[2] عليها الترابَ، ولا يلتفتُ إليها، وهي تئنُّ وتقولُ: أتاركي أنت، يا أبتِ، وَخذِي في هذا المكانِ، ومنصرفٌ عنّي؟ حتّى واراها وانقطعَ أنينُها.

وبكاءُ الأعرابيّةِ التي مات منها ولدُها في دارِ غربةٍ، فدفنَتْهُ، ثم وقفَتْ على قبرِهِ تودّعُه، وتقولُ: واللهِ، يا بنيّ، لقد غذوتُك رضيعًا؛ وفقدتُك سريعًا، وكأن لم يكُنْ بين الحالَيْن مدّةٌ ألتذُّ بعيشِك فيها، فأصبَحْتَ بعد الغضارةِ، والنضارةِ ورونقِ الحياةِ، والتنسّم بطيبِ روائِحِها تحتَ أطباقِ الثرَى جَسدًا هامِدًا ورُفاتًا سَحِيقًا وصَعِيدًا جرزًا. اللهمَّ، إنَّك قد وهبتَهُ لي قرّةَ عينٍ، فلم تمتِّعْني به كثيرًا، بل سلبْتَنِيهِ وَشِيكًا، ثم أمرتَني بالصبرِ، ووعدْتَني عليه الأجر، فصدقتُ وعدَك، ورضيتُ قضاءَك، فارحمْ اللّهُمَّ غربتَهُ، وآنسْ وحْشَتَهُ، واسترْ عورَتَهُ يوم تنكشفُ الهناتُ والسوءاتُ؛ واثكلِ الوالداتِ! ما أمضَّ حرارةَ قلوبِهِنَّ، وأقلَقَ مضاجِعَهُنَّ، وأطولَ ليلهُنَّ، وأقلّ أُنسَهُنّ، وأشدَّ وحْشَتَهُنّ، وأبعدَهُنّ من السرور، وأقربهُنّ من الأحزانِ!

وشقاءُ ذينِك البائسين المنكوبين عروةَ بن حزامٍ وعفراءَ بنتِ عقالٍ، ومناصبةُ الدهرِ لهما، وانقطاعُ سبيلِه بهما حتى أصبحتْ زوجا لغيرِهِ، وأصبحَ بعدَها هائمًا مُخْتَبِلًا يَرْمي بنفسِهِ المرامي، ويقذفُ بها في فجاجِ الأرضِ ومخارِمِها، حتّى بلغَ منزلَها ذاتَ يومٍ، فتنكّرَ حتّى زارَها، وهو يظنُّ أنَّ زوجَها لا يعلمُ من أمرِه إلّا أنّه أحدُ الأضيافِ الغرباءِ، فلمّا علمَ أنّه يعرفُ حقيقتَهُ، وأنّه على ذلك لا يتهمُه ولا يتنكّرُ له، عزمَ على الانصرافِ حياءً منه وقال لها: يا عفراءُ، أنت حظّي منَ الدُّنْيا، وقد ذهبتِ، فذهبَتْ دُنْيايَ بذهابِك، فما قيمةُ العيشِ من بَعْدِكِ، وقد أجملَ هذا الرجلُ عشرتي، واحتملَ لي ما لا يحتمِلُه أحدٌ لأحدٍ حتى اسْتَحْيَيْتُ

---

(١) يئد البنت: يدفنها وهي حيّة. (٢) هال التراب: صبّه.

منه، وإنّي راحلٌ من هذا المكانِ، وإنّي عالمٌ أنّي راحلٌ إلى مَنِيَّتي[١]، وما زالَ يَبْكِي وتَبْكِي حتّى انصرفَ، فلمّا رحلَ، نكسَ بعد صلاحهِ وتماسكِه وأصابه غشيٌ وخفقانٌ، فكان كلّما أُغْمِيَ عليه، أَلْقَى على وجهِه خمَارًا[٢] لعفراءَ كانت زوّدَتْهُ إيّاه، فيُفيقُ، حتّى بلغَ حيَّهُ، وأمسكَ عامًا كاملًا لا يسمعُ منه سامعٌ كلمةً، ولا أَنَّةً حتّى بلغَ منه اليأسُ، فسقطَ مريضًا، فمرّ بعضُ الناسِ، فرآه مطرحًا بجانب خبائِه، فسألَهُ عمّا به، فوضعَ يدَهُ على صدرِهِ، وقال:

كأنّ قَطَاةً علّقتْ بجَناحِها عَلَى كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الخَفَقَانِ

ثم شهقَ شهقةً كانت نفسَهُ فيها، فلمّا بلغَ عفراءَ خبرُهُ، قامَتْ إلى زوجِها وقالتْ: لقد كان من خبرِ ابنِ عمّي ما كان، وقد مات فيّ وبِسَبَبِي ولا بدّ أنْ أندبَهُ، وأقيمَ مأتمًا عليه، فقال: افْعلِي، فما زالتْ تندبُهُ ثلاثًا، حتى ماتَتْ في اليومِ الرابعِ.

وشقاءُ سعدِ الوراق بحبِّ عيسى النصراني حينما علم أنّ أهلَهُ قد بَنُوا له دَيْرًا بنوَاحِي الرقّةِ، ليترهّبَ فيه، ويحتجبَ عنِ الناسِ، فضاقَتْ عليهِ الدُّنْيا بما رحبَتْ، وأحرَقَ بيتَهُ، وفارقَ أهلَهُ وإخوانَهُ، ولزمَ صحراءَ الديرِ علّهُ يَجدُ السبيلَ، إلى الوصولِ إليه، فامتنعَ عليه ذلك بعد ما ذلّ للرهبان، وتخضعَ، وتأتّى لهم بكلّ سبيلٍ فلم يُجْدِهِ ذلك شيئًا، فصارَ إلى الجنونِ، وحرقَ ثيابَهُ، وأصبحَ عريانَ هائمًا لا شأنَ له إلّا أنْ يقفَ بكلّ طائرٍ يراه على شجرةٍ، فيناشِدُهُ اللهَ أن يبلّغَ رسائلَه إلى عيسى، حتى رآه بعضُ الناسِ في بعضِ الأيامِ مَيْتًا إلى جانب الدَّيْرِ.

وأمثالُ ذلك من مواقفِ البؤسِ، ومصارعِ الشقاء؛ كأنّما كنتُ أرَى أنّ الدموعَ مظهرُ الرحمةِ في نفوسِ الباكين، فلمّا أحْبَبْتُ الرحمةَ، أحببتُ الدموعَ لحبّها؛ أو كأنّما كنتُ أرَى أنّ الحياةَ مواطنُ البؤسِ والشقاءِ، ومستقرُّ الآلامِ والأحزانِ، وأنّ الباكين هم أصدقُ الناسِ حديثًا عنها، وتصوّرًا لها، فلمّا أحببتُ الصدقَ، أحببتُ البكاءَ لأجلِه؛ أو كأنّما كنتُ أرَى أنّ بين حياتي وحياةِ أولئك البائسين المنكوبين شبَهًا قريبًا وسبَبًا متّصلًا؛ فأنستُ بهم وطربتُ بنواحِهِمْ طربَ المحبِّ بنَوْحِ الحمائمِ وبكاءِ الغمائمِ؛ أو كأنّما كنتُ في حاجةٍ إلى بعضِ قطراتٍ من الدمعِ أفرّجُ بها ممّا أنا فيه، فلمّا بكَى الباكُون وبكيتُ لبكائِهِمْ، وجدتُ في مدامِعِهِمْ شفاءَ نفسي وسكونَ لَوْعَتِي؛ أو كأنّما كنتُ أرَى أنّ جمالَ العالمِ كلّه في الشعرِ، وأنّ الشعرَ هو تفجّرٌ من صدعِ الأفئدةِ الكَلِيمَةِ، فجرَى من عيونِ الباكين مع مدامِعِهِمْ، وصعدَ من صدورهم مع زفراتِهِمْ.

تلك أيّامي التي سعدتُ بها بُرهةً من الدهرِ، ومرَّ لي فيها أحسنُ ما مرَّ لأحدٍ، والتي لا أزالُ أذكرُها بعد مرورِ تلك الأعوامِ الطوالِ، فأكادُ أشرقُ بدَمْعِي لذِكْرَاها.

ثمّ انْثَنَيْتُ فوجدْتُ يَدي صفرًا منها، وإذ أنا بين يَدَيْ هذا العالمِ المظلم المقشعرّ عالمِ الحقيقةِ والألمِ، فنظرتُ إليه نظرَ الغريبِ الحائرِ إلى بلدٍ لا عهدَ له به، ولا سكنَ له فيه،

(١) المنيّة: الموت. (٢) الخمار: الستر.

فرأيتُ مخازِيَهُ وشرورَهُ وظلمةَ أجوائِهِ، واغبرارَ سمائه، وقتالَ الناسِ بعضهم بعضًا على الذرةِ والحبةِ والنسمةِ والهبوةِ[١]، واتساعَ مسافةِ الخلفِ بين دخائلِ القلوبِ، وملامحِ الوجوهِ، وسلطانَ القوّةِ على الحقّ، وغلبةَ الجهلِ على العلم، وإقفارَ القلوبِ من الرحمةِ، وجمودَ العيونِ عن البكاءِ، وعجزَ الفقراءِ عن فتاتِ موائدِ الأغنياءِ، وتمضغَ الأغنياءِ بلحومِ الفقراءِ.

ورأيتُ الترائي بالرذيلةِ، حتّى ادّعاها لنفسِه ونحلها إيّاها من لا يتخلّق بها طلبًا لرضا الناس عنه برضاه عنها. ورأيتُ البراءةَ من الفضيلةِ، حتى فرّ بها صاحبُها من وجوهِ الساخرين به والناقمين عليه فرارَ العاري بسوأته، والموسومِ بخزيَتِهِ.

ورأيتُ الرجلَ والمرأةَ وقد سَرَا[٢] كلٌّ منهُما ثوبَه عن جسمِه وألقاه بين يدَيْهِ، ثمّ تقايَضَا، فلبسَتْ قباءَه، ولبس غلالتَها، فأصبحَ امرأةً لها من النساء التكسُّر والتبرُّد، وأصبحتْ رَجُلًا له منَ الرجالِ التوقّح والتشطّر[٣]. ورأيتُ الدينَ، وهو دوحةُ السلامِ الخضراءِ التي يستظلُّ بها الضاحُون[٤] من لفحاتِ الحياةِ وزفراتِها، قدِ استَحَالَ في أيْدِي الناسِ إلى سهامٍ مسمومةٍ يحاولُ كلٌّ منهم أن يصيبَ بها كبدَ أخيه، فلا يُخطِئها.

ورأيتُ ضلالَ الأسماءِ عن مسمّياتِها وحَيْرةَ مسمياتِها بينها، واضطرابَ الحدودِ والتعاريفِ عن أماكنِها، ومواقفِها، حتّى دخلَ فيها ما لم يكنْ داخلًا، وخرجَ منها ما لم يكُنْ خارجًا، فَسُمّيَ الشحّ اقتصادًا، والكرمُ إسرافًا، والحِلمُ جبنًا، والسماجةُ جرأةً، والسفاهةُ براعةً، والفجورُ فتوةً، والتبذّلُ حريّةً، واشتبهتْ طرقُ الفضيلةِ ومسالكُها على من يريدُ ركوبَها، لأنّه يجدُ على رأسِ كلّ واحدةٍ منها زعيمًا من زعماءِ الخديعةِ والكذبِ، يصرفُه عنها إلى غيرِها.

وكنتُ أرَى أنّ الأدبَ حالٌ قائمةٌ بالنفسِ تمنعُ صاحبَها أنْ يقدمَ على شرّ أو يحدِّثَ نفسه به، أو يكونَ عونًا لفاعليه عليه، فإنْ ساقَتْه إليه شهوةٌ من شهواتِ النفسِ، أو نزوةٌ من نزواتِها، وجدَ في نفسِه عند غشيانِه ومخالطتِه من الم والارتماضِ ما ينغّصُ عليه عيشَهُ، ويقلقُ مضجَعَهُ، ويطيلُ سهدَهُ وألمَهُ. فإذا هو صورةٌ من صورِ الجوارحِ وعرضٌ من أعراضِ الجسمِ، لا دخلَ له في جوهرِ النفسِ، ولا علاقةَ بينه وبين الحسّ والوجدانِ.

فأكثرُ الناسِ عند الناس أدبًا، وأقومهُمْ خلقًا، وأطهرهُمْ نفسًا: من لا يفي على شرط أن يعدَ، ومن يكذبُ على أن يكونَ كذبُه سائغًا مهذّبًا، ومن يملأ صدرَه مَوْجِدة[٥] وحقدًا على أن يكونَ بسّامًا ضحوكَ السنّ، ومن يسرقُ على أن يستطيعَ العبثَ بموَادّ القانونِ وخداعَ القضاةِ عنها، ومن يبغضُ الناسَ جميعًا بقلبِه على أن يحبّهم جميعًا بلسانِه، ومن يحفظُ تلك المصطلحاتِ اللفظيّةَ، وتلك الصورَ الجافّةَ من الحركاتِ الجسميّةِ، التي تواضعَ عليها

---

(١) الهبوة: الغبرة. (٢) سرا الثوب عنه: ألقاه.
(٣) تشطر: صار شاطرًا، والشاطر هو من أعيى أهله خبثًا.
(٤) الضاحي: المنكشف للشمس. (٥) الموجدة: البغض.

المتكلّفون في الزيارةِ، والاستزارةِ والهناءِ، والعزاءِ، والمؤاكلةِ، والمنادمةِ، وأمثالِ ذلك ممّا يرجعُ العلم به غالبًا إلى صغرِ النفسِ وإسفافِها، أكثر ممّا يرجعُ إلى علوّها وكمالها.

فداخلني من ذلك خطرٌ عظيمٌ لم أستطعْ أن أملكَ نفسي معه، كأنما خيّلَ إليّ - لقربِ عهدي بما أرَى - أنّني أرَى شيئًا عجيبًا، أو منظرًا غريبًا، أو كأنّما كنتُ أحسبُ أنّ عالمَ الخيالِ الذي كنتُ فيه، إنّما هو صورةٌ صحيحةٌ لعالم الحقيقةِ الذي انتقلتُ إليه، فأزعَجَني ما رأيتُ من هذا الاختلافِ العظيم بينهما، فأرسلُ الكلمةَ إثر الكلمةِ كما يتنفّس المتنفّسُ، أو يئنُّ الحزين، فقرأ ذلك بعضُ الناسِ، فسمّوا ما رأوه كلامًا، ثمّ ما زالوا يستحسنون ما أقولُ ويغرونني بأمثالِه، وما زلتُ أطمعُ فيهم، وأرجُو أن أصيبَ ما في نفوسِهم، حتّى سمّوني كاتبًا.

وكان لذلك الأدبِ الذي تولّيتُ به نفسي فيما مضَى أثرٌ باقٍ عندي حتى اليوم، فإنّي لا أحسنُ أن أكتبَ كلمةً يفضي بها غَيْرِي، أو أعبّرَ عن معنًى لا يقومُ بنفسي، أو أبْكِي على من لا يُحزِنُني فراقُه، أو أندبَ من لا يُفجِعُني موتُه، أو أستنكرَ ما أستحسنُ، أو أستسحسنَ ما أستنكرُ.

كما لا أستطيعُ أن أمرَّ بمشهدٍ من تلك المشاهدِ التي تهيجُ في نفسي حزنًا شديدًا، أو طربًا كثيرًا، فأملكُ نفسي عن محاولةِ الإفضاءِ بما تركَهُ عندي من خيرٍ أو شرّ؛ وما أعلمُ أنّي كتبتُ كلمةً في شأنٍ من الشؤونِ، إلّا وكانَ بعضُ تلك المشاهدِ منشأها في قلبي.

فقد كنتُ رجلًا لا أحبُّ الكذبَ، ولا آخذُ نفسي به ما وجدتُ منه بدًّا، فأبغضتُ الكاذبين بغضَ الأرضِ للدم. فكان من همّي أن أقاتلَهم على الصدقِ قتالًا مستعِرًا، حتّى أصلَ بهم إلى إحدى الحسنيين: إمّا أنْ يكونُوا صادِقين، وإمّا أن يعلمَ الناسُ أنّهم كاذبون.

وكنتُ إنسانًا بائِسًا لم يتركِ الدهرُ سَهْمًا من سهامِهِ المريّشةِ، لم يَرْمِنِي به، ولا جرعةً من كأسِ مصائبِهِ ورزاياه، لم يجرّعني إيّاها، فقد ذقتُ الذلَّ أحيانًا، والجوعَ أيّامًا، والفقرَ أعوامًا، ولقيتُ من بأساءِ الحياةِ وضرّائِها ما لم يلقَ بَشَرٌ، فشعَرْتُ بمرارةِ الحياةِ في أفواهِ المساكين، ورأيتُ مواقعَ سهام الدهرِ في أكبادِ البائيسين والمنكوبين. فكان همّي أن أبكيَ كلَّ بائسٍ، وأندبَ كلَّ منكوبٍ، وأطلبَ رحمةَ القويِّ للضعيف، والغنيِّ للفقيرِ، والعزيزِ للذليلِ.

وقد قُدّرَ لي فيما مرّ بي من أيّامِ حَيَاتي أنْ رأيتُ بعيني من وَقَفَتْ بين يدَيْهِ امرأةٌ ذليلةٌ تَبْكِي وتضرَعُ إليه أنْ يرضخَ لها بقليلٍ من المالِ تستعينُ به على سترِ ما كشفَ ابنُه من سوأةِ ابنتِها، فأبى ذلك عليها، وقال لها - وهو يحسبُ أنّه يعقلُ ما يقول -: أيّتها المرأةُ لا حقّ لابنتِك عندي، ولا عند ولدي، فلمْ يكن حظّه منها فيما كان من أمرهما بأكبرَ من حظّها منه.

ورأيتُ من تزوّجَ من فتاةٍ كان يمسكُ في نفسه لأهلها حقدًا قديمًا، فما دنا منها ليلةَ البناءِ بها حتّى صدفَ عنها صارخًا: أيّها الناسُ، إنّ الفتاةَ مريبةٌ. وكان كاذبًا فيما يقولُ، ولكن صدقَه الناسُ، فانتقمَ لنفسِه بذلك شرَّ انتقامٍ وأفظعَهُ.

ورأيتُ من دخلت إليه امرأةٌ من أولئك النساءِ المريباتِ، تسألُه بعضَ المعونةِ على أمرِها،

فأمرَ بطردِها ذهابًا بنفسِه أنْ تسوءَ سمعتُهُ بدخولها بيتَهُ، وكان هو الذي أفسدَها على نفسها، فنزلَ بها فسادُها إلى هذه المنزلةِ من السقوطِ ثمّ الفقرِ، فلمّا جدّ الجدّ، حاسبَها على لقمةٍ تتذوّقُها في بيتِه، ولم يحاسبْ نفسَهُ على عِرْضٍ كان يأكلُه في بيتِه أكْلًا.

فكان بي منذ ذلك العهد، أن أنظرَ إلى المرأةِ بعينٍ غيرِ العينِ التي ينظرُ بها الناسُ إليها، وأنْ ألتمسَ لها من العذرِ - وإن زلّتْ بها قدمٌ - ما لا يلتمِسُهُ لها أحدٌ، وأنِ أنتصفَ لها من الرجل ما وجدتُ سبيلًا إلى ذلك، حتّى يُديلَ لها اللهُ منه.

وكنتُ من شؤونِ عَيْشي في حالةٍ لا أستطيعُ معها أن أعتزلَ الناسَ الاعتزالَ كلّه، ولا أن أختارَ لعشرتي من أشاءُ من خيارِهِمْ، وذَوِي المروءةِ فيهم، فلبستُهُمْ على علّاتِهِمْ.

فما حَفِظَ لي صديق عهدًا، ولا صانَ لي صاحبٌ سرًّا، ولا استدنتُ مرّةً، فنفسَ عنّي دائنٌ، ولا دنتُ فوفّى لي مدين، ولا ردّ لي مستعيرٌ عاريةً، ولا شكرَ لي شاكرٌ صنيعةً، ولا فرّجَ لي كُرْبَتي مفرّجٌ، إلّا إذا استقطرَ ماءَ وَجْهِي إلى القطرةِ الأخيرةِ منه، ليأخذَ أكثرَ ممّا أعْطَى، ويسلبَ فوق ما وهبَ.

ووجدْتُ في طريق حياتي مَنْ خالَطَنِي مخالطةَ الزائرِ للمزورِ حتى أمكنَتْهُ الفرصةُ، فسرقَ مالي بعدما تحرمَ بطعامِي وشرابي.

ومن كان يبسطُ إليّ يدَ الآملِ الراجي، فأكرهُ أنْ أردَّهُ خائبًا، فلمّا عجزتُ عن ذلك مرّةً، أضمرَ لي في قلبِه من الشرّ ما لا يضمرُ لمثلِه الرجلُ، إلّا لمَنْ يغلبُه على تراثِ أبيه وأمّه، أو يخضبُ لحيتَه من دمِ مفرقِه. ومن نَصَبَ[1] لي وغرى بمحاداتي ومماظتي[2]، لأنّه كان يحملُ في رأسِه فتكةً لم يجدْ في طريقِه من يحمِلُها عنه، ويستَحْذِي له فيها سوايَ. ومن أخذ نَفْسَهُ بالنيل منّي والغضّ من شأني، لأنّه كان يشكُو الخمولَ والضَّعةَ، وكان لا بدَّ له أن يكونَ نابهًا مذكورًا، فاتّفقَ له أنْ رَأى عاتِقِي بين يَدَيْه، فظنَّ أنّه أعلى العواتِق، وأبعدُها مذهبًا في جوّ السماء، فعلاه ليشرفَ منه على الناس، فيعرفُوا مكانَه؛ فواللهِ، ما تحلحلْتُ، ولا نَبَوْتُ به، بقيًا عليه، وضنًّا به أن يسقطَ سقطةً لا يَئِل[3] منها.

ومن كان لا يكبرُ شأني، إلّا إذا اتّقاني، فإذا أضاءَ ما بيني وبينه، كنتُ في عينهِ أصغرَ منه في عَيْنِ نفسِهِ. ومن كان يقبلُ ويدبرُ بإقبالِ الدهرِ عليّ وإدبارِه عنّي، لا يستحِي أن يكرّر ذلك حتّى استحيَي له منه.

فعركتُ بجنبي[4] كلّ ما كرهتُ من ذلك، ولكنّني لم أرْضَ لنفسي أنْ أنزلَ في الغرارةِ والسذاجةِ دون المنزلةِ التي ينزلُ إليها الغرُّ الكريمُ. فلم أثأرْ لنفسي، ولكن أصبحَ رأيي في الناسِ غيرَ رأيِهِمْ في أنفسِهِمْ، ورأيِ بعضِهِم في بعضٍ.

---

(١) نصب فلان لفلان: عاداه.
(٢) المماظة: المخاصمة.
(٣) يئل من كذا: يطلب النجاة منه.
(٤) عرك بجنبه ذنب صاحبه: احتمله.

وخفتُ أن يصيبَ كثيرًا من الضعفاءِ والمحدودين[١] أمثالي مثلُ ما أصابني، فكانَ من همّي أن أدلَّ على شرورِ الأشرارِ الكامنةِ في نفوسِهِمْ، وأن أكشفَ السترَ عن دخائلِ قلوبِهِمْ، حتى يَتَراءَوا، ويتكاشَفُوا، فيتواقَعُوا ويتحاجَزُوا؛ فلا يَهْنأُ خادعٌ بخدعتِهِ، ولا يبكي مخدوعٌ على نكبتِهِ[٢]، ولا يتَّخذُ بعضُهُمْ بعضًا حُمُرًا يركبونَها إلى أغراضِهِمْ ومطامِعِهِمْ.

وكان مَنْشَئي في قومٍ بداة سُذّج لا يبتغون بدينهم دينًا، ولا بوطنِهم وطنًا. ثم ترامى بيَ الأمرُ بعد ذلك وتصرّفَتْ بي في الحياة شؤونٌ جمّةٌ، فخضعتُ لكثيرٍ من أحكام الدهر وأقضيته، إلّا أنْ أكُونَ مُلحدًا في ديني، أو زاريًا على وطني، فاستطعتُ - وقد غمرَ النّاسَ ما غمرَهم من هذه المدنيّةِ الغربيّةِ - أن أجلسَ ناحيةً منها، وأن أنظرَ إليها من مرقبٍ عالٍ.

وكنتُ أعلمُ أنّ من أعجزِ العجزِ، أن ينظرَ الرجلُ إلى الأمرِ نظرةَ طائرةٍ حمقاءَ، فإمّا أخذُه كلّه، أو تركُه كلّهُ.

فرأيتُ حسناتِها وسيئاتِها، وفضائلَها ورذائلَها، وعرفتُ ما يجبُ أن يأخذَ منها الآخذُ وما يتركُ التاركُ، فكان من همّي أن أحملَ الناسَ من أمرِها على ما أحملُ عليه نفسي، وأن أنقمَ من هؤلاءِ العجزةِ الضعفاءِ، وتهالكهِمْ لها، واستهتارهِمْ بها، وسقوطهِمْ بين يدي رذائلِها ومخازِيها، وإلحادِها وزندقتها، وشحّها وقسوتها، وشرّها وحِرْصِها، وتبذّلِها وتهتُّكِها.

حتى أصبحَ الرجلُ الذي لا بأسَ بعلمِه وفهمِه، إذا حزبَه الأمرُ[٣] في مناظرةٍ بينه وبين من يأخذُ برذيلةٍ من الرذائلِ، لا يجدُ بين يدَيْهِ ما ينضحُ به عن نفسه، إلّا أن يعتمدَ عليها في الاحتجاجِ على فعلِ ما فعلَ، أو تركِ ما تركَ، كأنّما هي القانونُ الإلهي الذي تثوبُ[٤] إليه العقولُ عند اختلافِ الأنظارِ، واضطرابِ الأفهامِ، أو القانونُ المنطقيُّ الذي توزَنُ به التصديقاتُ والتصوُّراتُ لمعرفةِ صوابِها وخطئِها، وصحيحِها وفاسدِها.

وحتى أصبحَ السيّدُ في منزلِه يستحِي الحياءَ كلَّهُ من خادمِ غرفتِه الأوروبيّةِ، أن تطّلعَ منه على جهلٍ ببعضِ عادتِها وعاداتِ قومِها، حتّى في لبسِ الرداءِ، وخَلْعِ الحذاءِ، أكثرَ ممّا يستحي من الله، ومنَ الناسِ أن يهجمُوا منه على أرذلِ الرذائلِ، وأكبرِ الكبائرِ.

وحتى أصبحَ طريقُ المَشْرِقِ، وتاريخُ علمائِه، وأدبائِه، وفلاسفتِه، وشعرائِه صورةً من أقبحِ الصورِ وأسمَجِها في نظرِ كثيرٍ من الشرقيّين؛ يفخرون بجهلِه إنْ جهِلُوه، ويُراؤون بعلمِه إنْ علموهُ. وحتّى قَدِرَ الغلامُ الروميّ - خادمُ الخانِ - منفردًا على ما لا تقدرُ عليه الأمةُ جميعِها مجتمعةً، فحملَها على النزولِ إليه لتحدّثَه بلغَتِه، قبل أن تحمِلَهُ على الصعودِ إليها، ليحدّثَها بلغتِها، وهو إلى أنْ يترضّاها ويستَدْنِيها أحْوَجُ منها إلى أنْ تترضّاه وتزدلفَ[٥] إليه.

---

(١) المحدود: سيئ الحظ.
(٢) النكبة: المصيبة.
(٣) حزبه الأمر: اشتدّ عليه.
(٤) تثوب: ترجع.
(٥) ازدلف: تقرّب وتقدّم.

فذلك ما تراهُ في رسائلِ النظراتِ منثرًا ههنا وههنا، وقد شعرَ به قلبي، ففاضَ به قَلَمي من حيث لا أكذبُ الناسَ عن نفسي، ولا أكذبُ نفسي عنها.

وعندي أنّ الكاتبَ المُسَخَّرَ الذي لا شأنَ به إلّا أن يكتبَ ما يُفضي به الناسُ إليه، صانعٌ غيرُ كاتبٍ، ومترجمٌ غيرُ قائلٍ، لا فرقَ بينه وبين صائغِ الذهبِ، وثاقبِ اللؤلؤ؛ كلاهما ينظمُ ما لا يملكُ، ويتصرّفُ فيما لا شأن له فيه.

على أنّ خيرَ ما ينتفعُ به الأديبُ من أدبِه، أنْ يتركَ يومَ وداعِه هذه الدنيا صفحةً، يقرأُ فيها الناظرون في تاريخِه من بعدِه صورةَ نفسِه، ومضطربَ آمالِه، ومسرحَ أحلامِه.

فإنْ كان من شأنِه في حياتِه أن يكونَ مرآةً تتقلّبُ فيها مختلفاتُ الصورِ، أو وفيعةً[١] تتمسّحُ بها أعوادُ الأقلامِ، كان خسرانُه عظيمًا، لا يقومُ به كلّ ما يربحُ الرابحون من مالٍ، أو يُؤَثِّلون[٢] من جاهٍ.

والتاريخُ أضنُّ من أن يحفظَ بين دفّتَيْهِ من مجدِ الأدباءِ إلّا مجدَ أولئك الذين يُودِعون نفوسَهم صفحاتِ كتبِهم، ثم يموتُون، وقد تركُوها نقيّةً بيضاءَ من بعدِهِمْ.

وحياة الكاتبِ بحياةِ كتابتِه في نفوس قرّائِها، ولا تَحْيَا كتابةُ كاتبٍ، سيعلمُ الناسُ من أمرِه بعد قليلٍ أنّه يَكذبهم عن نفسِه وعن نفوسِهم، وإنّه رواغٌ متخلّج[٣]، يأمرُهم اليومَ بما ينهاهُم عنه غدًا، ويَرى في ساعةٍ ما لا يرى في أخرى، وإنّه يَسْتَبْكِي، ولا يَبْكِي، ويَسْتَرْحِمُ، ولا يَرْحَمُ، ويُحْزِنُ النفوسَ وهو ساكنٌ، ويُثيرُ الثائرَ وهو سالمٌ. فيَسْتَرِيبُونَ[٤] به، ويَحارُون في مصادِرِه ومواردِه، ثم يحمّلون أمرَه شرّ حاليه، ثم ينقطعُ ما بينهم وبينه.

البيانُ ليس سلعةً من السلع التي ينتقلُ بها تجّارُها من سوقٍ إلى سوقٍ، ومن حانوتٍ إلى آخر، ولكنّه حركةٌ طبيعيّةٌ من حركاتِ النفسِ، تصدرُ عنها آثارُها عفوًا، بلا تكلّفٍ، ولا تعمُّلٍ، صدورَ النورِ عنِ الشمسِ، والصّدَى عنِ الصوتِ، والأريجِ عنِ الزهرِ. وشعاعٌ لامعٌ، يشرقُ في نفسِ الأديبِ إشراقَ المصباحِ في زجاجتِه. ويَنْبُوعٌ ثرّارٌ[٥]، يتفجّرُ في صدرِه، ثم يفيضُ على أسلاتِ قلمِه.

وهو أمرٌ وراءَ العلمِ، واللغةِ، والمحفوظاتِ، والمقروءاتِ، والقواعدِ، والحدودِ، ولو أنّ أمرًا من ذلك كائنٌ، لَكانَ أبرعُ الكتابِ وأشعرُ الشعراءِ أغزرَهُمْ مادّةً في العلمِ، أو أعلمَهُمْ بقواعدِ اللغةِ، أو أجمعَهُمْ لمُتُونِها، أو أحفظَهُمْ لفصيحِ القولِ ورائعه.

أمّا العلمُ، فأكثرُ المؤلّفين الذين تركُوا بين أيدينا هذه الأسفارَ التي نقرؤُها في الشريعةِ، والحكمةِ، والمنطقِ، وغيرِها كانوا علماءَ ما يتدافعُ في ذلك اثنانِ؛ وها قد مرّتْ علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرونُ والحقبُ، وأكثرُنا عاجزٌ عن فَهمِ أكثرِ ما كانُوا يكتُبُون.

---

(١) الوفيعة: خرقة يمسح بها القلم.
(٢) أثّل المجد: بناه.
(٣) المتخلج: المضطرب في مشيته.
(٤) يستيريبون: يقعون في الشكّ.
(٥) ثرار: غزير.

وأمّا المحفوظاتُ، فما نعلمُ أحدًا أحفظَ لكتابِ اللهِ من جماعةِ القرّاءِ، ولا أحفظَ للحديثِ من الفقهاءِ، ولا أقلّ منهم إلْمَامًا بالأدبِ، ولا أبعدَ عنه مكانًا.

وأمّا اللغةُ، فما عَرَفْنا بين المتقدّمين والمتأخّرين من رُواتِها، وحفّاظِها، والمتوفّرين على تدوينِها وتحقيقِها، والمنقطعِين لدرسِ قواعدِها وفنونِها، من عُرفَتْ له البراعةُ والتفوّقُ في تحبيرِ الرسائلِ أو قرضِ الشعرِ، أو القوّةُ القلميّةُ في التصنيفِ في غيرِ ما أخذوا أنفسهم به.

وكان الخليلُ بن أحمدَ إذا سُئِلَ عن نَظْمِ الشعرِ، قال: يأباني جيّدُه وآبى رديئَهُ.

وكان الأصمعي يحفظُ ثلثَ اللغةِ، وأبو يزيد الأنصاري يحفظُ نصفَها، وأبو مالك الأعرابي يحفظُها كلَّها.

وكذلك كان شأنُ النضر بن شميل، وأبي عبيدة، وابنِ دريد، والأزهريّ، والصاغاني، وابنِ فارس، وابنِ الأثير صاحبِ النهاية، والجوهري، والفيروزأبادي، وأمثالِهِمْ من علماءِ اللغةِ والنَّحْوِ. وما سمِعْنا لواحدٍ منهم في إحدى الصناعتين شيئًا مذكورًا.

وقال أبو العباس المبرّد في بعض أحاديثِه: «لا أحتاجُ إلى وصفِ نفسي، لعلم الناس بي أنّه ليس أحدٌ من الخافقين، تختلجُ في نفسِه مشكلةٌ إلّا لقِيني بها، وأعدّني لها، فأنا عالمٌ، ومتعلّمٌ، وحافظٌ، ودارسٌ؛ لا يَخْفَى عليّ مُشْتَبَهٌ من الشعرِ، والنحوِ، والكلامِ المنثورِ، والخطبِ، والرسائلِ؛ وربّما احْتَجْتُ إلى اعتذارٍ من فلتةٍ أو التماسِ حاجةٍ، فأجعلُ المعنى الذي أقصدُه نُصْبَ عيني، ثم لا أجدُ سبيلًا إلى التعبير عنه بيدٍ ولا لسانٍ. ولقد بلغَني أنّ عبيدَالله بن سليمان ذكرني بجميلٍ، فحاولْتُ أن أكتبَ إليه رقعةً أشكرُه فيها، وأعرضُ بعضَ أموري، فأتعَبْتُ نفسي يومًا في ذلك، فلم أقدرْ على ما أرتضِيهِ منها، وكنتُ أحاولُ الإفصاحَ عمّا في نفسي، فينصرفُ لساني إلى غيرِه».

بل لو شئتُ لقلتُ إنّه ما أفسدَ على المتنبّي، وأبي تمام كثيرًا من شعرهما، ولا المعرّي كثيرًا من منظمِه، ومنثوره، ولا على الحريري مقاماتِه، ولا على ابن دريد مقصورتَه، إلّا غلبةُ اللغةِ عليهِمْ، واستهتارُهم بها، وشغفُهم بتدوينِها في كلّ ما يكتبون.

فقد كانوا هم وأماثلُهم من حبائسِ اللغة، وأنضائِها في كثيرٍ من مواقِفِهِمْ يؤلّفون، ويدوّنون، من حيث يظنّون أنّهم ينظمُون، أو يكتُبون. ولا تزالُ نفسي تشتملُ على لوعةٍ من الحزنِ، لا تفارقُها حتّى الموت، كلّما ذكَرْت أنّ الأدبَ العربي كان يستطيعُ أن يكونَ خيرًا ممّا كان، لو أنّ الله تعالى كتبَ للزوميّاتِ المعرّي النجاةَ من قبضةِ اللغةِ، وأسرِ الالتزام.

وإنّك لا تكادُ تَرى اليومَ من شعراءِ هذا العصرِ، وكتّابِه - الذين يأخذون بزمامِ المجتمعِ العربيّ، ويُقيمُون عالمَهُ، ويُقعِدُونَهُ بقوّتهِم القلميّةِ في شؤونِه السياسيّةِ، والاجتماعيّةِ، والأدبيّةِ كافَّةً - من يُعَدُّ من حفّاظِ اللغةِ العربيّةِ وثقاتِها، أو من يسلمُ له مقالٌ من مأخوذٍ نحويٍّ، أو مغمزٍ لغويٍّ.

وهم على ذلك أدخلُ في بابِ البيانِ، وألصقُ به وأمسّ رحمًا من أولئك الذين يستظهرون متونَ اللغةِ، ويحفظونَ دقائقَها، ويُحيطُون بمترادِفها ومتوارِدِها، ويتباصَرُون بشاذّها وغريبها، ويحملون في صدورهم ما دقّ وما جلّ من مسائلِ نَحْوِها وتصريفِها.

فإذا عرضَ لهم غرضٌ من الأغراض في أيّ شأنٍ من شؤونِ حياتِهِمْ، وأرادُوا أنفسَهُمْ على الإفضاء به - أُرْتِجَ[١] عليهم، فأغلقوا، أو تقعّروا وتشدّقوا، فكأنّهم لم ينطقُوا.

والفرقُ بين الأدباءِ واللغويّين أنّ الأوّلين كاتبون، والآخرون مصحّحون؛ فمثلُهُما كمثلِ النسّاجِ، وعاملِه: هذا ينسجُ الثوبَ، وهذا يلتقطُ زوائدَه، ويمسحُ زئبرَه[٢]، أو كمثَلِ الشاعرِ والعروضيّ: هذا ينظمُ الشعرَ، وهذا يعرضُه على تفاعيلِه وموازينِه.

وليس البيانُ ذهابَ كلمةٍ، ومجيءَ أخرى، ولا دخولَ حرفٍ، وخروجَ آخر، وإنّما هو النظمُ، والنسقُ، والانسجامُ، والاطرادُ، والرونقُ، واستقامةُ الغرضِ، وتطبيقُ المفصلِ، والأخذُ بمجامعِ الألبابِ، وامتلاكُ أزمَّةِ الهواءِ. فإذا صحّ ذلك لامرئٍ، فهو الكاتبُ القديرُ، أو الشاعرُ الجليلُ؛ فإن زلّت به يدُه أصيل، أو كان ممّنْ يفوتُه العلمُ ببعضِ قواعدِ اللغةِ أو بعضِ وجوهِ الاستعمالِ فيها، كان ذلك عَيْبًا لاحقًا بعلمِه، أو بحافظتِه، لا ببيانِه وفصاحتِه.

ومتى صدرَ القائلُ في قولِه عن سجيّةٍ وطبعٍ، أصبحَ شأنُه شبيهًا بشأنِ العربِ الأوّلين، وكان من شأنِهِمْ أن يسبقَهُمْ في كلامِهِمْ الخطأُ اللفظيّ في بعضِ الأحيانِ، وكان السَّبَبُ في ذلك كما يقولُ أبو علي الفارسي، أنّهم كانت تهجمُ بهم طباعُهُمْ على ما ينطقُون به؛ فربّما استهواهُمُ الشيءُ، فزاغُوا به عن القصدِ من حيث لا يشعرُوْن.

وكما أنّ الجسمَ لا يغيَّرُ من صورتِه، ولا يبدّلُ من سحنَتِهِ[٣]، أن تطيرَ منه ذرّةٌ، وتَحِلَّ أخرى محلَّها لتمثّلَها، كذلك لا يغيّرُ من صورةِ الكلامِ ولا يذهبُ بنسقِه خروجٌ أصيلٌ، أو دخولٌ دخيلٌ. وقد قيلَ لأحدِ الكتابِ الإنكليز: نراك كثيرَ الإعجابِ بالكاتبِ «كبلنغ» وهو رجلٌ لحّانَة لا يحفلُ بقواعدِ اللغةِ. فأجابَ: إنّ سطرًا واحدًا مما يكتُبه «كبلنغ» أثمنُ عندي من قوانين اللغةِ جميعِها. وليسَ من الرأيِ أنْ أحرمَ نفسي التمتّعَ بأدبِه إكرامًا لسوادِ عيونِ الغراماطيق[٤] الإنكليزي.

فَضْلُ الأدباءِ على اللغةِ في سيرورتِها، وذيوعِها، وتداولِها، وخلودِها أفضلُ من فَضْلِ اللغويين عليها في ذلك، لأنّهم همُ الذين يُمهِّدُون سبُلَها ويعبّدُون[٥] طرُقَها، ويَسْتَذْنُون نافرَها، ويجمعُون شاردَها، وينظمُون لآلئِها نظمَ الثاقبِ لآلِئَهُ في السلكِ، فيأخذُها الناسُ عنهم من أخْصَرِ الطرقِ وأقربِها، وأشهاها إلى النفسِ، وأعلقِها بالقلبِ.

---

(١) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام فلم يستطع التكلّم.

(٢) الزئبر: ما يظهر من درز الثوب. (٣) السحنة: الهيئة.

(٤) الغراماطيق: النحو. (٥) يعبّدون: يذلّلون ويمهدون.

وقليلٌ من الناسِ مَنْ يأخذُ مادتَّه اللغويَّة من معاجمِ اللغةِ، أو يكتسبُ ملكةَ الإعرابِ من كتبِ النَّحْوِ والتصريفِ؛ وما كانت اللغةُ عدوّةً للأدبِ، ولا كان عدوًّا لها، بل هي أساسُه وقوامُه الذي يقومُ به، ولكنّ المشتغلين بها والمتوفّرين على دراستِها، والمنقطعِين لاستظهارِها، والنظر في دقائِقها، والتعمّق في أطوائها، لا يزالُ يتغلَّبُ عليهم الولعُ بها والفناءُ فيها، حتّى تُصبحَ في نظرِهِمْ مقصدًا من المقاصدِ، لا وسيلةً من الوسائلِ. وللبيانِ وسائلُ كثيرةٌ غيرُ وسيلةِ اللغةِ، فمن لا يأخذُ نفسَهُ بجميعِ وسائلِه، لا يصلُ إليه.

والتربيةُ العلميّةُ كالتربيةِ الجسميّةِ، فكما أنّ الطفلَ لا ينمو جسمُهُ ولا ينشطُ، ولا تتبسّطُ أعضاؤه، ولا تنتشرُ القوّةُ في أعصابِه، إلّا إذا نَشَأَ في لهوِه ولعبِه وقَذْفِه ووثبِه، كذلك الكاتبُ لا تنمُو مَلَكَةُ الفصاحةِ في لسانِه، ولا تأخُذُ مكانَها من نفسِه، إلّا إذا ملكَ الحريةَ في التصرّفِ، والافتتانِ، والذهاب في مذاهبِ القولِ ومناحيه، كما يشاءُ، وحيث يشاءُ، دون أن يسيطرَ عليه في ذلك مسيطرٌ إلّا طبعُهُ وسجيّتُهُ.

واللغويُّ لا يزالُ يحوطُ نفسَهُ بالحذرِ والخوفِ والوساوسِ والبلابلِ، فإنْ مشَى، خُيّلَ إليه أنّه يمشي على رملةٍ ميثاءَ[1]، وإنْ تحرَّكَ، خُيّلَ إليه أنّ تحتَ قدمَيْهِ حفرةً، جوفاءَ حتى يقعدَ به خوفُه ووسواسُه عن الغايةِ التي يريدُ الوصولَ إليها.

على أنّ الكاتبَ لا يبلغُ مرتبةَ الكتابةِ، إلّا إذا نظرَ إلى الألفاظِ بالعينِ التي يجبُ أن ينظرَ بها إليها، فلم يتجاوَزْ بها منزلتَها الطبيعيَّةَ التي تنزلُها من المعاني، وهي أنْ تكونَ خدَمًا لها وخولًا[2]، وأوعيةً وظروفًا. فإذا كتبَ تركَها وشأنها، وأغفلَ أمرَها، حتّى تأتيَ بها المعاني، وتقتادَها طائعةً مرغمةً. والمعاني هي جوهرُ الكلامِ، ولبُّه، ومزاجُه، وقوامُه، فما شغلَ الكاتب من همّتِه بغيرِها أزرى[3] بها حتّى تفلتَ من يدِه فيفَلتُ من يدِه كلُّ شيءٍ.

وبعدُ؛ فالعِلمُ والمحفوظاتُ والمقروءاتُ والمادةُ اللغويّةُ، والقواعدُ النحويّةُ إنّما هي أعوانُ الكاتبِ على الكتابةِ ووسائلُه إليها؛ فالجهلُ لا يكتبُ شيئًا، لأنّه لا يعرفُ شيئًا، ومن لا يضطلعُ بأساليبِ العربِ ومناحيها في منظومِها ومنثورِها، سرَتِ العجمةُ إلى لسانِه، أو غلبَتْهُ العاميّةُ على أمرِه. ومن قلّ محفوظُه منَ المادةِ اللغويّةِ، قَصُرَتْ يدُه عن تناولِ ما يُريدُ تناولَه منَ المعاني، ومن جهلَ قانونَ اللغةِ، أغمضَ الأغراضَ وأبهمَها، أو شوَّه الألفاظَ وهجّنَها، ولكنّها ليست هي جوهرَ الفصاحةِ، ولا حقيقةَ البيانِ، فأكثرُ القائمين عليها والمضطلعين بها، لا يكتبُون ولا ينظمُون، فإنْ فعلُوا، كان غايةُ إحسانِ المحسنِ منهم أن يكونَ كصانعِ التماثيلِ الذي يصبّ في قالبِه تمثالًا سويًّا متناسبَ الأعضاءِ مستويَ الخلقِ؛ إلّا أنّه لا روحَ فيه، ولا جمالَ له، لأنّه ينقصهم بعد ذلك كلّه أمرٌ هو سرُّ البيانِ ولبُّه، وهو الذوقُ النفسي والفطرةُ

---

(١) الميثاء: الليّنة والسلهة. (٢) الخول: العبيد.

(٣) أزرى به: تهاون به أو وضع من حقّه.

السليمةُ، وأنّى لهم ذلك، وما دخلتِ الفلسفةُ، أيًا كان نوعُها، على عملٍ من أعمالِ الفطرةِ إلّا أفسدَتْهُ، وما خلطَ التكلّفُ عملًا من أعمالِ الذوقِ، إلّا شوَّهَ وجهَهُ، وذهبَ بحسنِه وروائِه.

ولقد قرأتُ ما شئتُ من منثورِ العربِ ومنظومِها، في حاضرِها وماضِيها قراءَة المثبتِ المستبصرِ، فرأيتُ أنّ الأحاديثَ ثلاثةٌ: حديثُ اللسانِ، وحديثُ العقلِ، وحديثُ القلبِ.

فأمّا حديثُ اللسانِ، فهو تلك العباراتُ المنمَّقَةُ، والجملُ المزخْرَفَةُ، أو تلك الكلماتُ الجامدَةُ الجافّةُ التي لا يعني صاحبُها منها سوى صورتِها اللفظيّةِ. فإن كان لغويًا، تقعّرَ وتشدَّقَ، وتكلّفَ وأغربَ، حتى يأتيك بشيءٍ خيرُ ما يصفُه به الوصفُ، أنه مَتْنٌ مشوّشٌ من متونِ اللغةِ، لا فصولَ له ولا أبوابَ. وإنْ كان بديعيًّا، جنّسَ ورصّعَ، وقابلَ، ووسّع، وزاوجَ، وأفتنَ في الإتيانِ بالكلمةِ مهملةً كلُّها، أو معجمةً كلُّها، أو راوحَ بين الإهمال والإعجامِ، فيُخَيّلُ إليك وأنت تراه ينطقُ بما ينطقُ به، كأنّما هو يصنعُه بيدَيْهِ صنعًا، أو يصفّفُهُ تصفيفًا، ثمّ لا يُبالي بعد ذلك باستقامةِ المعنى في ذاتِه، ولا بمقدارِ ما له منَ الأثرِ في نفسِ السامعِ.

وهذا الحديثُ هو أسقطُ الأحاديثِ الثلاثةِ، وأدناها، وأجدرُها أن ينظمَه الناظمُ في سلكِ الصناعاتِ اليدويّةِ التي لا دخلَ للعقلِ، ولا للفهمِ في شيءٍ منها، وأنْ يُنْظَمَ صاحِبُها في سلكِ جماعةِ المحلّلين الذين لا شأنَ لهم إلّا تحليل الموادّ وتركيبها، وجمعُها وتفريقُها، والمزاوجةُ بين مقاديرِها، والموازنةُ بين أثقالِها، من حيث لا يكونُ لقوّةِ التصوُّرِ ولا لذكاءِ القلبِ دخلٌ في هذا أو ذاك.

وأمّا حديثُ العقلِ، فهو تلك المعاني التي ينحتُها الناحتُون من أذهانِهِمْ نَحْتًا، ويقتِطعُونها منها اقتِطاعًا، ويذهبون مذهبَ المعاياة[1] والتحدّي والعمقِ والإغرابِ، ويسمّونها تارة تخييلًا، وأخرى غلوًّا، وأخرى حسنَ تعليل، إلى كثيرٍ من أمثالِ هذه الأسماءِ والألقابِ التي تتفرّقُ ما تفرّقُ، ثم يجمعُها شيء واحدٍ هو الكذبُ والإحالةُ.

وآيةُ ما بينك وبينها: أنّك إذا رأيتَها شَعرْتَ بأنّك ترَى أمامَك شيئًا غريبًا عن نفسِك، وعن نفسِ صاحبِه، وعن نفوسِ الناسِ جميعًا، وأنّ صاحبَه لا يُريدُ منه إلّا أنْ يطرفَك، أو يضحكَك، أو يعجبَك من ذكائِه، وفطنتِه، واقتدارِه على تصويرِه ما لا يتصوّرُ، وإيجادِ ما لا يكونُ، وهو أمرٌ لا علاقةَ له بجوهرِ الشعرِ، ولا حقيقةِ الكتابةِ. وربّما انعكسَ عليه حتّى غرضُه هذا، فنفّرَك، وأكدَّك، وملأ قلبَك غيظًا وقُبْحًا كأن يقول:

لَوْ لَمْ تَكُنْ نيَّةُ الجَوْزَاءِ خدمَتَهُ ... لَمَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عَقْدَ مُنْتَطِقِ

فإنّ الجوزاءَ لا تنتطقُ، ولو كان هذا الذي نرَاهُ يستديرُ بها نطاقًا، فهو شيء متصلٌ بها قبلَ أنْ يُخلقَ الممدوحُ ويُخلقَ آباؤه الأولون إلى آدمَ وحوّاءَ. والكواكبُ ليسَتْ أشْخَاصًا أحياءَ

(١) المعاياة: مصدر الفعل عايا، أي ألقى بكلامٍ لا يهتدى إليه.

يَتَّخِذُ منها الناسُ خدمًا وخوَلًا لأنفسهم، ولو كانَتْ كذلكَ لاستحالَ عليها - وهي من سكانِ السماءِ - أن تهبطَ إلى الأرضِ لتخدمَ سكّانَها. فقد كذبَ وأحالَ أربعَ مرّات في بيتٍ واحدٍ، ثم عجزَ بعد هذا كلِّه أن يتركَ في نفسِ السامعِ صورةً تمثّلُ جلالَ ممدُوحِه، وعظمَ شأنِه. فهو في الحقيقةِ إنّما يريدُ ببيتِه هذا أن يمتدحَ نفسَهُ بالإبداعِ وقوةِ التخيّلِ، لا أن يمتدحَ ممدوحَه برفعةِ الشأنِ وعلوِّالمقامِ.

أو يقول:

مَـا بِـهِ قَـتْـلُ أعَـادِيـه ولَـكِـنْ ... يـتَّـقِـي أخـلافَ مـا تَـرْجُـو الـذِّئَـابُ

فإنّ الذي يحملُ في صدرِه قلبًا رحيمًا مشفِقًا على الذئابِ من الجوعِ، مستعظمًا أنْ يخلفَها ما عوَّدَها إيّاه من طعامٍ وشرابٍ، لا بُدّ أنْ يكونَ هو نفسُه ذِئبًا ضارِيًا، يُريقُ دماءَ الناسِ، ويمزّقُ أحشاءَهُمْ، ويقطّعُ أوصالَهُمْ، ليملأَ بها بطونَ الوحشِ؛ ولا يوجدُ بين الأسبابِ التي تحملُ الناسَ على القتالِ سببٌ يشبهُ هذا السببَ الذي ذكرَه.

على أنّ المحسنَ لا يكونُ محسِنًا إلّا إذا وهبَ ما يهبُ من مالِه، ومن خزائنِ بيتِه، فأمّا أن يقتلَ الناسَ تقتيلًا، ويمثّلَ بهم، ثم ينعمُ بجثثِهِمْ على الجائعين، والظماءِ من وحوشِ الأرضِ وذئابها؛ فذلك شيءٌ هو بالجنونِ أشبهُ منه بالإحسانِ.

أو يقولُ:

لا يَـــذُوقُ الإغـــفَـــاءَ إلّا رَجَـــاءً ... أنْ يَـرَى طَـيْـفَ مُـسْـتَـمِـيحٍ رَوَاحَـا

فإنّ النومَ قوامُ الإنسانِ وعمادُ حياتِه، ولازمٌ من لوازمِه اللاصقةِ به، أرادَ ذلكَ أم لم يردْ. فإن كان لا بدَّ من دخولِهِ في بابِ الاختيارِ، فإنّ من أبعدِ الأشياءِ عنِ التصوّرِ والفهمِ، أنْ يكونَ ما يحملُ الإنسانَ على طلبِ النومِ، رجاؤُهُ أنْ يَرى فيه الأحلامَ والرؤَى. فإنْ فعلَ فعلًا يدخلُ في بابِ أغراضِه وأمانيِّهِ أن ينامَ ليرَى خيالَ جماعةِ المتسوّلين والمتأكلين، وهم ملءُ الأرضِ وهباءِ الجوّ، وأرصادِ الأعتابِ، وأعقابِ الأبوابِ، لا تفتحُ الأعينُ، إلّا عليهم، ولا تمتلئُ الأنظارُ، إلّا بهم. فهم لم يبلغُوا في الضنِّ بأنفسِهِمْ والعزفِ بها مبلغَ من لا يراه الرائي، ولا يعثرُ به إلّا إذا ألْقَى في طريقِه حبائلَ الأحلامِ ليصطادَ بها.

أو يقولُ:

لَــمْ يَـتَّـخِـذْ ولَـدًا إلّا مُـبَـالَـغَـةً ... في صِدْقِ تَوْحِيدِ منْ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدا

فإنّ الأولادَ لا يُتّخذُون اتّخاذًا، وإنّما ينعمُ اللهُ بهم على من يشاءُ من خَلْقِه إنعامًا. وأكثرُ ما تقذفُ به الأرحامُ منَ النسماتِ، إنّما هي ثمراتُ الحبّ يأتِي بها عَفْوًا، لا نبتةٌ من نباتِ الأرضِ، يبذرُ الزارعُ بذورَها ليَسْتَنْبِتَها.

واللهُ تعالى غنيٌّ بربوبيَّتِهِ ووضوحِ آثارِها عن الاستدلالِ عليها بنطفةٍ يقذفُها قاذفُها في بعضِ الأرحامِ، فإن كان لا بدَّ في إثباتِ ربوبيّتِهِ من دليلٍ يدلّ على مخالفتِه للحوادثِ في الصفاتِ

والأفعالِ؛ فالأدلّةُ على ذلك كثيرةٌ لا يضبطُها الحسابُ كثرةً. وربّما كان أهونَها وأضعفَها أنّه لا يتّخِذُ ولدًا، وأنّهم يتّخذُون. على أنّ المتّخذين كثيرون قد ضاقَ بهم بطنُ الأرضِ وظهرُها، فالمسألةُ مفروغٌ منها قبل أن يخلقَ هذا الممدوح ويخلقَ ولدُه؛ فلا فضلَ له في الإتيانِ بشيءٍ جديدٍ.

أو يقولُ:

وما رِيحُ الرياضِ لها ولٰكِنْ ... كَساها دَفْنُهُمْ في التّربِ طِيبَا

فإنّ الأزهارَ التي تستمدُّ حياتَها ونماءَها من جثثِ المَوْتَى ورمَمِهِمْ لا يمكنُ أن تكونَ طيّبةَ الريحِ، على أنّ الأزهارَ مريحةٌ قبلَ أن يدفنَ هؤلاءِ المَوْتَى في قبورِهِمْ، فلم يزدْ في كلمتِه هذه على أن أتى بخيالٍ ضعيفٍ مُبْتَذَلٍ هو أشبهُ الأشياءِ بخيالِ العامةِ الذين يَرون أنّ بعضَ الأزهارِ ما خلقَ إلّا إكرامًا لبعضِ النبيّين.

أو يقولُ:

تُتْلِفُ في اليومِ بالهِبَاتِ وفي الـ ... ـساعةِ ما تَجْتَنِيه في سَنَتِك

فقد أرادَ أن يصفَ ممدوحَه بالكرمِ وصفًا فوقَ ما يصفُ الناسُ، ويأتي في ذلك بما لم يأتِ به غيرُه؛ فأنزلَهُ منزلةَ مجانين المسرفين الذين لا يُحسنون الموازنةَ بين دخلِهِمْ ونَفَقَاتِهِمْ، ولو تقدّمَتْ هذه التهمةُ بهذه الصورةِ إلى قاضٍ من قضاةِ المالِ، لما كان له بدٌّ منَ الحجْرِ عليه، والقضاةُ يرضَون في مثلِ هذه الأحكامِ بدون إنفاقِ دخلِ السنةِ جميعها في ساعةٍ واحدةٍ أو يومٍ واحدٍ.

أو يقول:

ولمّا ضاقَ بَطْنُ الأرضِ عَنْ أنْ ... يَضُمَّ عُلاكَ مِنْ بَعْدِ المَمَاتِ

أصَارُوا الجَوَّ قَبْرَكَ واسْتَعَاضُوا ... عنِ الأكفانِ ثَوْبَ السافِيَاتِ

فإنّ شيئًا من ذلك لم يكُنْ، فالقبرُ لا يضيقُ بأحدٍ، والجوُّ لا يكونُ قَبْرًا، والريحُ ليسَتْ كَفَنًا، والرجلُ لا يزالُ مصْلُوبًا غيرَ مقبورٍ، ولا يزالُ عاريًا غيرَ مُدْرَجٍ في كفَنٍ.

وأمّا حديثُ القلبِ فهو ذلك المنثورُ أو المنظومُ الذي تسمعُه فتشعُرُ أنّ صاحبَه قد جلسَ إلى جانبِك ليتحدَّثَ إليك كما يتحدَّثُ الجليسُ إلى جليسِه، أو ليصوّرَ لك ما لا تعرفُ من مشاهدِ الكونِ، أو سرائرِ القلوبِ، أو ليفضيَ إليك بغرضٍ من أغراضِ نفسِه، أو لينفّسَ عنك كربةً من كُرَبِ نفسِك، أو ليوافيَ رغبتَك في الإفصاح عن معنًى من المعاني الدقيقةِ التي تعتلِجُ في صدرِك، ثم يتكاءَدُك[1] الإفصاحُ عنها من حيث لا يكونُ للصناعةِ اللفظيّةِ، ولا للفلسفةِ الذهنيّةِ دخلٌ في هذا أو ذاك، حتّى تَرى حجابَ اللفظِ قد رقَّ بين يدَيْك دونَ المعنَى، حتّى يَفْنَى كما تَفْنَى الكأسُ الصافيةُ دون ما تشملُ عليه منَ الخمرِ، فإذا الخمرُ قائمةٌ بغيرِ إناءٍ، أو كما تَفْنَى

---

(١) تكاءدك الأمر: صعب عليك.

صفحةُ المرآةِ الصقيلةِ بين يدَيْ الناظرِ فيها، فلا يرَى إلّا صورتَهُ ماثلةً بين يدَيْهِ، ولا لوح هناك ولا زجاج. وهو أرْقَى الأحاديثِ الثلاثةِ وأشرفُها، وهو الذي يريدُه المريدون، مهما اختلفَتْ عباراتُهُمْ، وتنوّعَتْ أساليبُهُمْ من كلمةِ البيانِ.

ولقد كان من أكبر ما أعانَني على أمْرِي في كتابةِ تلك الكلماتِ أشياءُ أربعةٌ أنا ذاكرُها، لعلّ المتأدّبَ يجدُ في شيءٍ منها ما ينتفعُ به في أدبِه.

(أوّلها) أنّي ما كنتُ أحفلُ من بينِ تلك الإحاديثِ الثلاثةِ بحديثِ اللسانِ ولا حديثِ العقلِ، أي أنّني ما كدتُ أتكلّفُ لفظًا غيرَ اللفظِ الذي يقتادُه المعنى ويتطلَّبُهُ، ولا أفتّشُ عن معنًى غيرِ المعنَى الطبيعيّ القائمِ في نفسِي، بل كنتُ أحدّثُ الناسَ بقلمي كما أحدِّثُهُمْ بلساني.

فإذا جلَسْتُ إلى منضدَتي، خُيّلَ إليّ أنّ بين يدَيَّ رَجُلًا من عامةِ الناسِ مُقبلًا عليّ بوجهِهِ، وإنّ من ألذِّ الأشياءِ وأشهاها إلى نفسي، أنْ لا أتركَ صغيرًا، ولا كبيرًا مما يجولُ بخاطِري، حتّى أُفضيَ به إليه. فلا أزالُ أتلمَّسُ الحيلةَ إلى ذلك، ولا أزالُ أتأتّى إليه بجميعِ الوسائلِ، وألحُّ في ذلك إلحاحَ المشفقِ المجدِّ، حتّى أظنَّ أنّي قد بلغتُ من ذلك ما أريدُ، فلا أقيّدُ نفسي بوَضْعِ مقدّمةِ الموضوعِ في أوّله، ولا سَرْدِ البراهين على الصورةِ المنطقيّةِ المعروفةِ، ولا التزام استعمالِ الكلماتِ الفنيّةِ التزامًا مطردًا إبقاءً على نشاطه وإجماحِه، وإشفاقًا عليه أنْ يملَّ ويسأمَ، فينصرفَ عن سماعِ الحديثِ، أو يسمعَه، فلا ينتفعُ به.

(وثانيها) أنّي ما كنتُ أحملُ نفسِي على الكتابةِ حَمْلًا، ولا أجلسُ إلى منضدتي مطرِقًا مفكّرًا: ماذا أكتبُ اليومَ؟ وأيُّ الموضوعاتِ أعجبُ وأغربُ، وألذُّ وأشوقُ؟ وأيّها أعلقُ بالنفوسِ، وألصقُ بالقلوبِ؟ بل كنتُ أرَى، فأفكّرُ، فأكتبُ، فأنشرُ ما أكتبُ، فأُرضي الناسَ مرّةً، وأسخِطُهُم أخرى من حيث لا أتعمَّدُ سخطَهُمْ ولا أتطلّبُ رضاهم.

(وثالثها) أنّي ما كنتُ أكتبُ حقيقةً غيرَ مشوبةٍ بخيالٍ، ولا خيالًا غير مرتكزٍ على حقيقةٍ، لأنّي كنتُ أعلمُ أنّ الحقيقةَ المجرّدَةَ عن الخيالِ لا تأخذُ من نفسِ السامعِ مأخذًا، ولا تتركُ في قلبِه أثرًا؛ وأحسبُ أنّ السببَ في ذلك أنّ أكثرَ ما تشتملُ عليه النفوسُ من العقائدِ، والمذاهبِ، والآراءِ، والأخلاقِ، والخواطرِ، والتصوّراتِ، إنّما هو أثرٌ من آثارِ الخيالاتِ الذهبيّةِ التي تتراءَى في سماءِ الفكرِ.

ثمّ لا تزالُ بها الأيامُ تكسُوها طبقةً بعد طبقةٍ من غبارِ القِدَم، حتى تُصبحَ حقيقةً من الحقائقِ الثابتةِ في الأذهانِ. وكما أنّ الحديدَ لا يَفُلُّه إلّا الحديدُ، واللونَ لا يذهبُ به إلا لونُ غيرِه. كذلك الخيالُ لا يذهبُ ولا يزعجُه من مكانِهِ إلّا الخيالُ.

وللخيالِ الأثرُ الأعظمُ في تكوينِ هذا المجتمعِ الإنسانيّ وتكييفِه على الصورةِ التي يريدُها، فلولا خيالُ الشعر، ما هاجَ الوجدُ في قلبِ العاشقِ، ولولا خيالُ الشرفِ، ما هلكَ الجنديُّ في ساحةِ الحربِ، ولولا خيالُ الذكرى، ما اختُرِعَتِ المخترعاتُ، ولا ابتُدِعَتِ المبتدعاتُ.

ولولا خيالُ الرحمةِ، ما عطفَ غنيٌّ على فقيرٍ، ولا حنَا كبيرٌ على صغيرٍ. كما كنتُ أعلمُ أنّ الخيالَ غيرَ المرتكزِ على الحقيقةِ، إنّما هو هبوةٌ[1] طائرةٌ من هبواتِ الجوّ، لا تهبطُ أرضًا، ولا تصعدُ إلى سماءٍ.

(ورابعها) أنّي ما كنتُ أكتبُ للناسِ لأُعجبَهُمْ، بل لأنفعَهُمْ، ولا لأسمعَ منهم: أنتَ أحْسَنْتَ، بل لأجدَ في نفوسِهِمْ أثرًا ممّا كَتَبْتُ.

وللناسِ كما قلتُ في بعضِ رسائِلي: خاصّةٌ وعامّةٌ. أمّا خاصّتُهُمْ، فلا شأنَ لي معهم، ولا علاقةَ لي بهم، ولا دخلَ لكلمةٍ من كلماتي في شأنٍ من شؤونِهِمْ. فلا أفرحُ برضاهم، ولا أجزعُ لسخطِهِمْ، لأنّي لم أكتبْ لهم، ولم أتحدّثْ معَهُمْ، ولم أشهدْهُمْ أمري، ولم أحضرْهُمْ عمَلي، بل أنا أتجنبُ جهدَ المستطاعِ أنْ أستَمِعَ منهم شيئًا ممّا يتعلّقُ بي من خيرٍ أو شرّ، لأنّي راضٍ عن فِطْرَتي وسَجِيّتي في اللغةِ التي أكتبُ بها، فلا أُحِبُّ أنْ يكدّرَها عليّ مكدّرٌ، وعن آرائي ومذاهبي التي أُودِعُها رسائلي، فلا أحبُّ أنْ يشكّكَني فيها مشكّكٌ، ولم يهَبني الله من قوّةِ الفراسةِ ما أستطيعُ به أنْ أميّزَ بين مخلصِهم ومشوبِهم، فأُصْغِي إلى الأولِ لأستفيدَ علمَه، وأعرضُ عن الثاني لأتّقي غشَّهُ.

فأنا أسيرُ بينهم مسيرَ رجلٍ بدأ يقطعُ مرحلةً لا بدَّ له أنْ يفرغَ منها في ساعةٍ معيّنةٍ، ثم علمَ أنّ على يمينِ الطريقِ التي يسلكُها روضةً تعتنقُ أغصانُها، وتشتجرُ أفنانُها، وأنّ على يسارِه غابًا تزأرُ أسودُه، وتَعْوِي ذئابُه، وتفحُّ أفاعيهِ وصلالُه، فمضى قُدُمًا لا يلتفتُ يمنةً مخافةَ أنْ يلهوَ عن غايتِه بشهواتِ سمعِه وبصرِه، ولا يسرةً مخافةَ أن يهيّجَ بنظراتِه فضولَ تلك السباعِ المقعيةِ[2]، والصلالِ الناشرةِ، فتعترضَ طَريقَهُ.

وأمّا عامّتُهم، فهم بين ذكيّ قد وهبَه اللهُ من سلامةِ الفطرةِ، وصفاءِ القلبِ، وسلاسةِ الوجدانِ، ما يعدُّه لاستماعِ القولِ واتّباعِ أحسنِه، فأنا أحمَدُ اللهَ في أمرِه، وضعيفٍ قد حِيلَ بينه وبين نفسِه، فهو لا يرضَى إلّا عمّا يُعجبُه، ولا يسمعُ إلّا ما يُطربُه، فأكلِ أمرَه إلى اللهِ تعالى، واستلهمُه صوابَ الرأي فيه حتّى يجعلَ اللهُ له من بَعْدِ عسرٍ يسرًا؟

مصطفى لطفي المنفلوطي



(١) الهبوة: الغبرة.

(٢) المقعية: الجالسة على إليتها.

الغد

عَرَفْتُ أنّي فكّرْتُ ليلةَ أمسِ فيما أكتُبُ اليومَ، وعَرَفْتُ أنّي آخذٌ الساعةَ بقَلَمِي بَيْنَ أنامِلِي، وأنّ بين يدَيّ صحيفةً بيضاءَ تَسْوَدُّ قَلِيلًا كلّما أجرَيْتُ القَلَمَ فيها، ولكنّي لا أعلمُ هل يبلُغُ القَلَمُ مداه أو يَكْبُو[١] دونَ غايَتِهِ؟ وهل أسْتَطِيعُ أنْ أُتمّمَ رسَالتِي هذه، أو يَعْتَرِضَ عارضٌ مِنْ عوارِضِ الدّهْرِ في سَبِيلِها؟ لأنّي لا أعْرِفُ من شُؤُونِ الغَدِ شيئًا، ولأنّ المستقبلَ بيدِ الله.

عَرَفْتُ أنّي لَبِسْتُ أثوابِي في الصّبَاحِ، وأنّي لا أزالُ ألْبَسُها حتّى الآن، ولكنّي لا أعلَمُ، هَلْ أخلَعُها بيَدِي، أو تَخلَعُها يَدُ الغاسِلِ؟

الغَدُ شَبَحٌ مُبْهَمٌ يَتَراءَى للنّاظِرِ من مكانٍ بعيدٍ، فربّما كان مَلَكًا رَحِيمًا، وربّما كان شَيْطانًا رجيمًا، بلْ رُبّما كان سَحَابةً سوداءَ، إذا هبّتْ عليها رِيحٌ باردَةٌ حلّلَتْ أجْزَاءَها، وبَعْثَرَتْ ذرّاتِها، فأصبحَتْ كأنّما هي عدمٌ منَ الأعْدامِ التي لم يَسْبِقْها وُجودٌ.

الغَدُ بَحْرٌ، خِضَمٌّ، زاخِرٌ، يَعُبّ عُبَابُه[٢]، وتَضْطَخِبُ أمْواجُهُ، فما يُدْريكَ إنْ كانَ يحمِلُ في جَوْفِهِ الدّرَّ والجَوْهَرَ، أوِ المَوْتَ الأحْمَرَ.

لقد غمضَ الغدُ عنِ العُقُولِ، ودَقَّ شَخْصُهُ عنِ الأنْظارِ، حتّى لو أنّ إنْسَانًا رَفَعَ قَدَمَهُ لِيَضَعَها في خُروجِه منْ بابِ قَصْرِهِ، لا يَدْرِي أيضَعُها على عَتَبةِ القَصْرِ أم على حافةِ القَبْرِ.

الغدُ صَدْرٌ مَمْلُوءٌ بالأسْرَارِ الغزارِ، تَحُومُ حَوْلَهُ البَصَائِرُ، وتَتَسَقَّطُه[٣] العقُولُ، وتَسْتَدْرِجُه الأنظارُ، فلا يَبُوحُ بسرٍّ من أسْرارِه، إلّا إذا جاءَتِ الصّخْرَةُ بالماءِ الزّلالِ.

كأنّي بالغدِ وهو كامنٌ في مَكْمَنِهِ، رابضٌ في مَجْثَمِه[٤]. مُتَلَفِّعٌ بفَضْلِ إزارِهِ، يَنْظُرُ إلى آمالِنَاالناظراتِ الهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ، ويَبْتَسِمُ ابْتِسَامَاتِ الاستِخْفَافِ والازْدِرَاءِ، يقولُ في نَفْسِهِ: لو عَلِمَ هذا الجامِعُ أنّهُ يَجْمَعُ للوَارِثِ، وهذا الباني أنّه يَبْنِي للخَرَابِ، وهذا الوالدُ أنّه يلِدُ للمَوْتِ: ما جَمَعَ الجامعُ، ولا بَنَى البانِي، ولا وَلَدَ الوَالِدُ.

ذَلّلَ الإنْسَانُ كلَّ عَقَبَةٍ في هذا العالم، فاتّخَذَ نَفَقًا في الأرضِ، وصَعِدَ في سلّم إلى السماءِ، وعَقَدَ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ بأسْبَابٍ[٥] مِنْ حَدِيدٍ، وخُيوطٍ مِنْ نُحَاسٍ، وانْتَقَلَ بِعَقْلِهِ إلى العالمِ العُلْوِيِّ، فعاشَ في كَوَاكِبِهِ، وعرَفَ أغْوَارَها وأنْجَادَها، وسُهُولَها وبِطَاحَها، وعامِرَها

(١) يكبو: يسقط.

(٢) يعب عبابه: يرتفع موجه.

(٣) تسقّط الخبر: أخذه شيئًا فشيئًا.

(٤) المجثم: موضِع الجثوم، أي التلبّد بالأرض.

(٥) الأسباب: الحبال.

وغامِرَها، ورطبَها ويابسَها، ووَضَعَ المقايِيسَ لمَعْرِفَةِ أبْعَادِ النّجُومِ ومَسَافَاتِ الأشِعَةِ، والموازين لوزنِ كرةِ الأرضِ إجْمَالًا وتَفْصيلًا.

وغاصَ في البحارِ فعرَفَ أعْمَاقَها، وفحَصَ تربَتَها، وأزْعَجَ سُكّانَها، ونَبَشَ دفائِنَها، وسَلَبَها كنُوزَها، وغلَبَها على لآلِئِهَا وجَوَاهِرِهَا.

ونَفَذَ من بَيْنِ الأحجارِ والآكام إلى القرونِ الخالِيَةِ فرَأى أصْحَابَها، وعرَفَ كيف يَعِيشُونَ وأينَ يَسْكُنُونَ، وماذا يأكُلُونَ ويَشْرَبُونَ.

وتَسَرّبَ من منافذِ الحَوَاسّ الظاهرةِ إلى الحَوَاسِّ الباطِنَةِ، فعَرَفَ النفوسَ وطبائِعَها، والعقُولَ ومذاهِبَها، والمدارِكَ ومراكِزَها، حتى كادَ يَسْمَعُ حديثَ النفسِ، ودبيبَ المُنَى.

واخْتَرَقَ بذكائِه كلَّ حِجَابٍ، وفتَحَ كلَّ بابٍ، ولكنَّهُ سقَطَ أمامَ بابِ الغدِ عاجِزًا مَقْهُورًا لا يجرُؤُ على فَتْحِهِ، بل لا يَجْسُرُ على قَرْعِهِ، لأنّه بابُ اللهِ، واللهُ لا يُطْلِعُ على غَيْبِهِ أحَدًا.

أيُّها الشبحُ الملثّمُ بلِثَامِ الغَيْبِ، هل لك أنْ تَرْفَعَ عَنْ وَجْهِكَ هذا اللّثامَ[1] قليلًا لنرَى صَفْحَةً واحِدَةً من صَفَحَاتِ وَجْهِكَ المُقَنَّعِ؟ أو لا، فاقْتَرِبْ مِنّا قليلًا، علّنا نَسْتَشِفُّ صُورَتَكَ من وَرَاءِ هذا اللثام المُسْبَلِ دوننا، فقَدْ طارَتْ قلُوبُنا شَوْقًا إلَيْكَ، وذَابَتْ أكبادُنا وَجْدًا[2] عَلَيك.

أيُّها الغدُ، إنّ لنا آمالًا كِبَارًا وصِغَارًا، وأمانيّ حِسَانًا وغَيْرَ حِسَانٍ. فحَدِّثْنَا عنْ آمالِنا أينَ مكانُها منك؟ وخَبِّرْنا عن أمانينا ماذا صَنَعْتَ بها؟ أأذْلَلْتَها واحْتَقَرْتَها، أمْ كُنْتَ لها من المكرّمين؟

لا، لا، صُنْ سِرَّكَ في صَدْرِكَ، وأبْقِ لِثَامَكَ على وجْهِكَ، ولا تحدِّثْنَا حَدِيثًا واحِدًا عن آمَالِنا وأمَانِيِّنَا، حتّى لا تُفْجِعَنا في أرْوَاحِنا ونُفُوسِنا، فإنّما نحنُ أحْيَاءٌ بالآمالِ، وإنْ كانتْ باطِلَةً، وسعداءُ بالأماني، وإنْ كانَتْ كاذِبَةً.

وليسَتْ حَيَاةُ المَرْءِ إلّا أمَانِيَا ... إذا هيَ ضاعَتْ فالحَيَاةُ عَلَى الأثَرْ

❋ ❋ ❋

الكاس الأولى

كانَ لي صَدِيقٌ أحِبُّهُ وأُحِبُّ مِنْهُ سَلَامَةَ قَلْبِهِ، وصَفَاءَ سَرِيرَتِهِ، وصِدْقَهُ ووَفاءَهُ في حالَيْ بُعْدِه وقُرْبِه، وغضَبِه وحلمِهِ، وسَخْطِهِ ورِضَاه، ففرَّقَ الدّهرُ بَيْني وبَيْنَهُ فِراقَ حَيَاةٍ لا فِرَاقَ مَمَاتٍ، فأنا اليومَ أبكِيهِ حيًّا أكثرَ ممّا كُنْتُ أبكِيهِ لو كانَ مَيْتًا، بل أنا لا أبكي إلّا حَيَاتَهُ، ولا أتمنّى إلّا مَمَاتَهُ. فهل سَمِعْتَ بأعْجَبَ من هذه الخلّةِ الغريبةِ في طبائِعِ النفوسِ؟!

عَلِقَتْ حِبَالي بحِبَالِهِ حِقْبَةً من الزمانِ عَرَفْتُهُ فيها، وعَرَفَني، ثمّ سَلَكَ سبيلًا غيرَ سبيلِهِ،

---

(١) اللثام: الغطاء. (٢) الوجد: الحزن.

فأنكَرْتُهُ، وأنْكَرَني، حتّى ما أمرُّ ببالِهِ، لأنّ الكَأْسَ التي عَلِقَ بها لم تَدَعْ في قلبِه فَرَاغًا يسَعُ غيرَها، وغيرَ العالِقِين بها. وربّما كان يَذْفَعُني في مخيّلتِهِ دَفْعًا إذا تراءَيْتُ فيها، لأنّهُ إذا ذكَرني، ذكرَ معي تِلْكَ الكَلِمَاتِ المرّةَ التي كُنْتُ أُلْقاهُ بها في فاتِحَةِ حَيَاتِهِ الجَدِيدَةِ؛ وما كانَ له وهو يَهِيمُ في فضَاءِ سَعَادَتِهِ التي يَتَخَيَّلُها أنْ يُكَدّرَ على نَفْسِهِ بمِثْلِ هذه الذِّكْرَى صَفَاءَ هذا الخيالِ.

ثم لم أعُدْ أعْلَمُ من أمْرِهِ بَعْدَ ذلك شيئًا، لأنّ حياةَ المُدْمِنِينَ حَيَاةٌ متشابِهَةٌ متَمَاثِلَةٌ، لا فرقَ بين صُبْحِها ومَسَائِها، وأَمْسِها وغَدِها؛ ذَهابٌ إلى الحانَاتِ، فشَرابٌ، فخُمَارٌ[١]، فنَوْمٌ، فذَهَابٌ؛ كالحَلَقَةِ المُفْرَغَةِ، لا يَدْري أين طرَفاها. والمنظرُ المتكرّرُ لا يُلفتُ النظرَ، ولا يُشغلُ الذّهْنَ، حتّى إنّ بعضَ من ينامُ على دَوْرَةِ الرَّحَى، يَسْتَيْقِظُ عند سكونها، وكانَ أحْرَى أنْ يوقِظَهُ دَوَرَانُها.

لذلك لم يَشْغَلْ هذا المِسْكِينُ مَحَلًّا من قلبي إلّا بَعْدَ أنْ سَكَنَتْ دَوْرَتُهُ، وهَدَأَتْ حَرَكَتُهُ، فلم أعُدْ أراهُ مُعَرْبِدًا في الحاناتِ، ولا مطّرَحًا في مدارجِ الطرُقِ، ولا معتَقَلًا في أيدي الشرط[٢]. هناك سألتُ عنه فقِيلَ لي: مرِيضٌ، فلم أعجَبْ لشيءٍ كنتُ أعدُّ له الأيامَ والأعوامَ، كما يعدُّ الفلكِيُّ الساعاتِ والدقائقَ لكُسُوفِ الشمسِ واصْطِدامِ الكَواكِبِ.

دخَلْتُ عَلَيْهِ أعُودُهُ[٣]، فلَمْ أجِدْ عِنْدَهُ طَبِيبًا، ولا عَائِدًا، لأنّهُ فَقِيرٌ؛ والأطبّاءُ يُظْهِرُونَ الرّحْمَةَ بالفُقَرَاءِ، ويُبْطِنُونَ حبَّ الصّفْراءِ والبَيْضَاءِ؛ والأصْدِقاءُ يَخافُونَ عَدْوَى المَرَضِ وعَدْوَى الفَقْرِ، فلا يعُودُونَ المَرِيضَ ولا يزُورُونَ الفَقِيرَ.

دَخَلْتُ مَنْزِلَهُ، فلَمْ أجِدِ المَنْزِلَ ولا صَاحِبَهُ، لأنّي لَمْ أجِدْ فيه ذلك الرّوحَ العالي الذي كان يُرَفْرِفُ بأجْنِحَتِهِ في غُرَفِهِ وقَاعَاتِهِ، ولَمْ أرَ دُخَانَ المَطْبَخِ؛ ولَمْ أسْمَعْ ضَوْضَاءَ[٤] الخَدَمِ، ولا بُكَاءَ الأطْفالِ؛ ولا رنينَ الأجْرَاسِ؛ فكأنّني دخَلْتُ القبرَ أزُورُ المَيْتَ، لا المَنْزِلَ أعُودُ الحَيَّ.

ثم تقدّمْتُ نَحْوَ سَرِيرِ المريضِ، فكَشَفْتُ كِلّتَه[٥] البالِيَةَ عن خَيَالٍ لم يبقَ منه إلّا إهابٌ[٦] لاصقٌ بعظمٍ ناحلٍ؛ فَقُلْتُ: أيُّها الخيالُ الشاخصُ ببصرِهِ إلى السَّمَاءِ، قد كان لي في إهابِكَ هذا صَدِيقٌ مَحْبُوبٌ، فهَلْ لكَ أنْ تَدُلّني عَلَيْهِ؟

فبَعْدَ لأيٍ ما[٧] حَرَّكَ شَفَتَيْهِ وقَالَ: هَل أسْمَعُ صَوْتَ فُلانٍ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، مِمَّ تَشْكُو؟

فزَفَرَ زَفْرَةً كادَتْ تَتَساقَطُ لها أضْلَاعُهُ وأجَابَ: أشْكُو الكَأسَ الأُولى.

قُلْتُ: أيَّ كأسٍ تُرِيدُ؟

---

(١) الخمار: صداع الشراب وألمه.
(٢) الشرط: ج الشرطيّ.
(٣) أعوده: أزوره في أثناء مرضه.
(٤) الضوضاء: الضجّة.
(٥) الكلّة: الستر الرقيق يوضع لاتّقاء البعوض وغيره.
(٦) الإهاب: الجلد.
(٧) لأي: جُهْد.

قال: أريدُ الكأسَ التي أودعْتُها مَالِي، وعَقْلِي، وصِحّتِي، وشَرَفِي؛ وها أنا ذا اليومَ أُودِعُها حَيَاتي.

قُلْتُ: قد كُنتُ نَصَحْتُكَ، ووعَظْتُكَ، وأنْذَرْتُكَ بهذا المَصِيرِ الذي صِرْتَ إليهِ، فما أجْدَيْتُ عليك شيئًا.

قال: ما كُنتَ تَعْلَمُ حين نَصَحْتَني من غَوَائِلِ هذا العيشِ النّكدِ أكْثَرَ ممّا أعلمُ، ولكنّني كنتُ شرِبْتُ الكأسَ الأولى، فخرَجَ الأمْرُ من يَدِي.

كلُّ كأسٍ شَرِبْتُها جَنَتْها عليَّ الكأسُ الأولَى، أمّا هي، فلَمْ يَجْنِها عليّ غيرَ ضَعْفِي وقُصُور عَقْلِي عن إدْراكِ الأصْدِقَاءِ والخُلَطَاءِ.

لم تَكُنْ شَهْوَةُ الشّرابِ مَرَكَّبَةً في الإنْسَانِ كبَقِيّةِ الشّهوَاتِ، فَيُعْذَرَ في الانقيادِ إليها كما يُعْذرُ في الانْقيادِ إلى غيرِها من الشّهَوَاتِ الغَريزِيَّةِ؛ فلا سُلْطَانُ لها عَلَيْهِ، إلّا بَعْدَ أنْ يَتَناوَلَ الكَأْسَ الأولى. فَلِمَ يَتَناوَلُها؟ يَتَنَاوَلُها لأنّ الخَوَنَةَ الكاذِبينَ من خُلّانِهِ وعُشَرائِهِ خَدَعُوهُ عن نَفْسِهِ في أمْرِها، لِيَسْتَكْمِلُوا بانْضِمَامِهِ إليهِمْ لَذَّتَهُمْ التي لا تَتِمُّ إلّا بقراعِ الكؤوسِ وضَوضَاءِ الاجْتِماعِ. ولو عَلِمْتَ كيف خَدَعُوه، وزَيَّنُوا له الخُرُوجَ عن طَبْعِهِ ومَأْلُوفِه، وأيَّ ذَرِيعَةٍ تَذَرَّعُوا بها إلى ذلك؛ لتَحَقَّقْتَ أنَّهُ أبْلَهُ إلى النهايةِ من البلاهَةِ، وضَعِيفٌ إلى الغايةِ التي لَيْسَ وَرَاءَها غايةٌ.

أنا ذلك الأبْلَهُ، وذلك الضّعِيفُ، فاسمَعْ كيفَ خَدَعَنِي الأصْدِقاءُ، وزَيَّنُوا لي ما يُزَيِّنُهُ الشّيْطَانُ للإنْسَانِ.

قالوا: إنّ حَيَاتَك حَيَاةُ هُمُوم وأكْدَارٍ، ولا دَواءُ لهذه الأدْوَاءِ إلّا الشَّرَابُ، وقالوا: إنّ الشّرابَ يَزيدُ في رونَقِ الجسْم، ويَبْعَثُ نَشَاطَهُ، وإنّهُ يُفَتِّقُ اللّسانَ، ويُعلِّمُ الإنْسَانَ البيانَ، وإنَّه يُشَجِّعُ الجَبَانَ، ويَبْعَثُ في القَلْبِ الجُرْأَةَ والإقْدامَ. هذا ما سمِعْتُهُ، فَصَدَّقْتُهُ، وخُدِعْتُ بِهِ.

صَدَّقْتُ أنّ في الشرابِ أربعَ مَزايا: السعادةَ، والصّحّةَ، والفَصَاحَةَ، والإقْدَامَ؛ فوَجَدْتُ فيه أربعَ رَزَايا: الفَقْرَ، والمَرَضَ، والسُّقُوطَ، والجُنُونَ.

غرَّهُمْ من الصّحّةِ ذلكَ اللّوْنُ الأحْمَرُ، الذي يتْرُكُهُ الشّرابُ وراءَه في الأعْضَاءِ، وهو يَتَغَلْغَلُ في الأحْشَاءِ. ومن الفصَاحةِ الهذرُ، والهذيانُ، وهجْرُ[1] القَوْلِ، وبذَاءَةُ اللّسَانِ. ومن الإقدام العَرْبَدَةُ التي لا تَسْكُنُ إلّا في غُرْفَةِ السّجنِ. ومن السعادةِ اللّحَظَاتُ القَلِيلَةُ التي يَغْشَى فيها على عَقْلِ الشّارِبِ، فيَعْمَى عن رُؤْيَةِ ما يُحيطُ به من الأشياءِ كما هي، فَتَنْعَكِسُ في نظرهِ الحَقَائِقُ، حتّى يَتَخَيَّلَ الشّتْمَ طُرْفَةً[2]، والصَّفْعَ تَحِيَّةً، فيُضْحِكُهُ من ذلك ما يُضْحِكُ الأطْفالَ والمَمْرُورين[3].

أيُّ سُرُورٍ لِمَنْ يَعِيشُ في مَنْزِلٍ لا يَزُورُ الابْتِسَامُ ثَغْرًا من ثُغُورِ ساكِنيهِ؟ أيُّ سُرُورٍ لمَنْ يُودّعُهُ أهْلُهُ كلَّ يَوْمٍ في صَبَاحِهِ بالحَسَرَاتِ، ويَسْتَقْبِلُونَهُ في مَسَائِهِ بالزَّفَراتِ؟ أيُّ سَعَادَةٍ لمَنْ يَمْشِي

---

(١) الهجر: الفحش.
(٢) الطرفة: الملحة المستحسنة.
(٣) الممرور: الذي هاجت مرته، أو المجنون.

دَائِمًا في طريقِهِ مُتَلويًا مُتخلّجًا[١]، يَتَسرّبُ في المُنْعَطَفَاتِ والأزِقّةِ، ويعُوذُ بألْوَاذِ[٢] الجُدرِ والأسْوارِ فِرَارًا من نَظَراتِ الجَزّارِ، وتهكّماتِ العطّارِ، وصَرَخاتِ الخَمّار.

ولقَدْ كُنْتُ أرَى هؤلاءِ الأشْقِيَاءَ في فاتِحَةِ حَيَاتِي التعِسَةِ، فكَانَ يَمُرُّ بخَاطِرِي ما يَمُرُّ بخاطِرِ أمْثالي من أنّهُمْ قَتْلَى الإدْمانَ، لا قَتْلَى الشّرَابِ، وكُنْتُ أُقَدّرُ لنَفْسِي القَصْدَ فيه إنْ قُدّرَ لي في أمْرِهِ شَيْءٌ حتّى لا أبلغَ مَبْلَغَهُمْ، ولا أنْزلَ مَنْزِلَتَهُمْ. فلمّا شَرِبْتُ، أخْطَأَ العدّ، وضَاعَ الحِسَابُ، وفَسدَ التّدْبِيرُ، واخْتَلَفَ التّقْدِيرُ، وغُلِبْتُ على أمري كما يُغْلَبُ على أمرِهِ كلُّ مخـدوعٍ بمثلِ ما خُدِعْتُ به؛ ولولا الكأسُ الأولى، ما هلكْتُ، ولا شكَوْتُ الذي شَكَوْتُ، ولولاها، ما عافني الأصدقاءُ، ولا زهدَ فيّ الأقرباءِ. فكُنْ أنتَ وَحْدَكَ صديقَ السرّاءِ والضرّاء.

فعاهَدَتُه على ذلك، ثم تَرَكْتُهُ في حالةٍ:

تُـصِـمُّ الـسّـمِـيعَ وتُـعْـمِـي الـبـصِـيـرَ ويُـسْـألُ مـن مِـثْـلِـهَـا الـعَـافِـيَـة

❁ ❁ ❁

الدفين الصغير

الآن نَفَضْتُ يَدِي من تُرابِ قَبْرِكَ يا بنيّ، وعُدْتُ إلى مَنْزِلي كما يَعُودُ القائدُ المُنْكَسِرُ من سَاحةِ الحَرْبِ، لا أمْلِكُ إلّا دَمْعَةً لا أسْتَطِيعُ إرْسَالَها، وزَفْرَةً لا أسْتَطِيعُ تَصْعِيدَها.

ذلك لأنّ اللهَ الذي كَتَبَ لي في لَوْحِ مَقَادِيرِهِ هذا الشّقَاءَ في أمرِك، فرزَقني بك قَبْلَ أنْ أسْألَهُ إيّاك، ثمّ اسْتَلَبْنِيكَ قَبْلَ أنْ أسْتَعْفِيَهُ منك، قَدْ أرَادَ أنْ يُتَمّمَ قَضَاءَهُ فيّ، وأنْ يُجَرّعَنِي الكَأسَ حتّى ثُمَالَتَها[٣]، فحرَمَني حتّى دَمْعَةً أرسِلُها، أو زَفْرَةً أصَعّدُها، حتّى لا أجِدَ في هذه ولا تلك ما أتَفرّجُ به ممّا أنا فيه؛ فلَهُ الحَمْدُ رَاضِيًا وغَاضِبًا، وله الثّناءُ مُنعمًا وسالبًا، وله منّي ما يشاءُ من الرّضَا بقَضَائه، والصّبْرِ على بلائِهِ.

رأيتُكَ يا بنيّ في فراشِكَ عَلِيلًا، فَجَزعْتُ، ثمّ خِفْتُ عليك الموتَ، ففزِعْتُ، وكأنّما كان يُخَيّلُ إليّ أنّ المَوْتَ والحَيَاةَ شأنٌ من شؤونِ الناسِ، وعَمَلٌ من الأعمالِ التي تَمْلِكُها أيدِيهم، فاسْتَشَرْتُ الطبيبَ في أمرِكَ، فكَتَبَ ليَ الدواءَ، ووعَدَني بالشّفاءِ. فَجَلَسْتُ بجانِبِكَ أصُبُّ في فَمِكَ ذلك السائلَ الأصفرَ قَطْرَةً قَطْرَةً، والقدَرُ يَنْتَزِعُ من جَنْبَيْكَ الحياةَ قِطْعَةً قِطْعَةً، حتّى نَظَرْتُ، فإذا أنتَ بين يَدَيّ جثّةٌ بارِدَةٌ لا حَرَاكَ بها، وإذا قارُورَةُ الدواءِ لا تزالُ في يَدِي. فعلِمْتُ أنّي قد ثكِلتُك! وأنّ الأمرَ أمرُ القَضَاءِ، لا أمْرُ الدّوَاءِ.

سَأنَامُ، يا بنيّ، بَعْدَ قليلٍ على فراشٍ مِثْلِ فراشِكَ، وسيُعالِجُ منّي المقدارُ ما عالَجَ منك،

(١) متخلجًا: مضطربًا، متمايلًا.
(٢) لوذ الشيء: جانبه.
(٣) الثمالة: بقيّة الشيء في الإناء.

وأحْسَبُ أن آخرَ ما سيَبْقَى في ذاكِرَتي في تلك الساعةِ من شؤونِ الحياةِ وأطوارِها، وخطوبها وأحداثِها: هو الندمُ العظيمُ الذي لا أزالُ أكابدُ ألمَهُ على تلك الجُرَعِ المَريرَةِ التي كنتُ أجرِّعُك إيّاها بيَدِي، وأنت تَجُودُ بنفسِكَ، فَيَرْبَدّ وجهُكَ، وتَخْتَلِجُ أعْضَاؤك، وتَدْمَعُ عَيناك، وما لك يَدٌ، فتَسْتَطِيعَ أنْ تَمُدَّها إليّ لتَدْفَعَني عَنكَ، ولا لسانٌ، فَتَسْتَطِيعَ أن تَشْكُوَ إليّ مرَارَةَ ما تَذُوقُ.

لقَدْ كانَ خَيْرًا لي ولَكَ، يا بُنَيّ، أنْ أكلَ إلى اللهِ أمْرَكَ في شِفَائِكَ ومَرَضِكَ، وحياتِكَ ومَوْتِكَ، وألّا يكُونَ آخرَ عَهْدِكَ بي يومَ ودَاعِك لهذه الدنيا تلكَ الآلامَ التي أجَشّمُك[١] إيّاها، فلقد أصْبَحْتُ أعْتَقِدُ أنّني كنتُ عَوْنًا للقضَاءِ عليك، وأنّ كأسَ المنِيّةِ التي كان يحمِلُها لك القَدَرُ في يدِهِ لم تَكُنْ أمرَّ مذاقًا في فَمِكَ من قارُورَةِ الدواءِ التي كنتُ أحمِلُها لك في يَدِي.

ما أسمَجَ وَجْهَ الحياةِ من بَعْدِكَ، يا بُنَيّ! وما أقْبَحَ صُورَةَ هذه الكائِنَاتِ في نَظَرِي! وما أشَدَّ ظُلْمَةَ البَيْتِ الذي أسْكُنُهُ بعد فِرَاقِكَ إيّاه! فلقد كنتَ تطلُعُ في أرْجائِهِ شَمْسًا مُشْرِقَةً، تُضِيءُ لي كلَّ شيءٍ فيه. أمّا اليَوْمَ، فلا تَرَى عَيْنِي ممّا حَوْلي أكثرَ ممّا تَرَى عَيْنُك الآنَ في ظُلُماتِ قَبْرِكَ.

بكَى الباكُونَ والباكِياتُ عَلَيْكَ ما شَاؤُوا، وتفَجَّعُوا ما تَفَجَّعُوا، حتّى إذا استَنْفَدُوا ماءَ شُؤُونِهِمْ، وضَعُفَتْ قُواهُمْ عَنِ احتِمَالِ أكثرِ ممّا احتَمَلُوا، لجَأُوا إلى معضَاجِعِهِمْ، فَسَكَنُوا إليها، ولم يَبْقَ سَاهِرًا في ظُلْمَةِ هذا اللّيلِ، وسُكُونِهِ غَيْرُ عَيْنَيْنِ قَريحتَين[٢]: عَيْنِ أبيكَ الثاكلِ المِسْكِينِ، وعينِ أخرَى أنتَ تَعْلَمُهَا.

لقَدْ طَالَ عليَّ اللّيلُ حتّى مَلَلْتُهُ، ولكنّني لا أسْأَلُ اللهَ أنْ يَنْفرِجَ لي سَوَادُهُ عَنْ بَيَاضِ النَّهارِ، لأنّ الفَجِيعَةَ التي فُجِعْتُها بفَقْدِكَ لم تُبْقِ بَيْنَ جَنْبَيّ بَقِيّةً أقْوَى بها على رُؤْيَةِ أثرٍ من آثارِ حَيَاتِك، فَلَيْتَ اللّيلَ باقٍ، حتى أرَى وَجْهَ النّهارِ، بلْ لَيْتَ النهارَ يَأْتِي، فَقَدْ مَلَلْتُ هذا الظّلامَ.

دَفَنْتُكَ اليومَ، يا بُنَيّ، ودفَنْتُ أخاكَ من قَبْلِك، ودَفَنْتُ من قبلِكُما أخوَيْكُما، فأنا في كلِّ يَوْمٍ أسْتَقْبِلُ زَائِرًا جدِيدًا، وأُودِّعُ ضَيْفًا رَاحِلًا. فيالله لِقَلْبٍ قد لاقَى فَوْقَ ما تُلاقي القلوبُ، واحْتَملَ فوقَ ما تَحْتَمِلُ مِنْ فَوَادِحِ الخُطُوبِ.

لقَدِ افْتَلَذَ كُلٌّ مِنْكُمْ، يا بُنَيّ، من كَبِدِي فلْذَةً، فأصْبَحَتْ هذه الكبدُ الخَرْقَاءُ مِزقًا مبَعْثَرَةً في زَوَايا القُبُورِ، ولم يَبْقَ لي منها إلّا دِمَاءٌ قليلٌ لا أحْسَبُه بَاقِيًا على الدّهْرِ، ولا أحْسَبُ الدهرَ تاركَهُ دون أنْ يَذْهَبَ به كما ذهَبَ بأخواتِهِ مِنْ قَبْلُ.

لماذا ذَهَبْتُمْ يا بُنَيّ بَعْدَمَا جِئْتُمْ؟ ولماذا جِئْتُمْ، إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون أنّكُمْ لا تُقِيمُونَ؟

لولا مَجِيئُكُمْ، ما أسِفْتُ خُلُوَّ يَدِي مِنْكُمْ، لأنّني ما تَعَوَّدْتُ أن تَمْتَدَّ عَيْنِي إلى ما لَيْسَ في يَدِي؛ ولو أنّكُمْ بَقِيتُمْ بَعْدَما جِئْتُمْ، ما تَجَرَّعْتُ هذه الكأسَ المريرَةَ في سبِيلِكُمْ.

لقد كنتُ أرْضَى من الدهرِ في أمرِكُمْ أنْ يَتَزَحْزَحَ لي عن طريقي التي أسِيرُ فيها، وأنْ يَزْوِيَ وجْهَهُ عنّي، فلا أرَاهُ ولا يَرَاني، ولا يُحْسِنُ إليّ، ولا يُسيءُ، ولا يتقدّمُ إليّ بخيرٍ ولا شرٍّ،

---

(١) جشّمه الأمر: كلّفه إيّاه. (٢) القريح: الجريح.

ولا يَتَراءَى لي مُبْتَسِمًا، ولا مُقَطّبًا، ولا ضَاحِكًا، ولا باكِيًا، لو أنّه رَضِيَ منّي بذلك؛ ولكنّه كان أذْكَى قَلْبًا، وأنْفَذَ بَصَرًا، من أنْ يَفُوتَهُ العِلْمُ بأنّني ما كُنتُ أبْكِي على النّعْمَةِ، لو لم تكُنْ في يَدِي، وما كُنتُ أجِدُ مَرَارَةَ فقدَانِها، لو لَمْ أذقْ حلاوَةَ وجْدانِها.

وكان لا بدّ له أنْ يُجريَ فيّ سُنّةِ الشقاءِ التي أخذَ على نفسِهِ أن يُجْرِيهَا في الناسِ جَمِيعًا، فلمّا عَجزَ عنْ أنْ يدخُلَ إليّ من باب الطمعِ، دخلَ إليّ من باب الأملِ، فهو يمْنَحُني المِنْحَةَ فأغْتَبِطُ بها حقْبَةً منَ الدّهْر، حتّى إذا عَلِمَ أنّ بِذْرَةَ الأمَلِ التي غَرَسَها، قد نَمَتْ، وازْدَهَرَتْ، وأنّني قَدِ اسْتَعْذَبْتُ طَعْمَها، واستَطَبْتُ مذَاقَها، كرّ عليّ، فانْتَزَعَها من يدِي أنعم ما أكونُ بها، كما تُنْزَعُ الكأسُ البارِدَةُ من يدِ الظامِئِ الهيمانِ، ليَعْظُمَ وَقْعُ السَّهْمِ في كَبِدِي، ويَفْدَحَ سَلْبُ النّعْمَةِ من يدِي، ولولا ذلك، ما نالَ منّي مَنالًا، ولا وجدَ إليّ سَبِيلًا.

يا بُنَيّ، إنْ قدَّرَ اللهُ لكم أنْ تَتَلاقَوْا في رَوْضَةٍ من رياضِ الجَنّةِ، أو على شاطئِ غَدِيرٍ من غُدْرَانِها، أو تحتَ ظِلَالِ قَصْرٍ من قُصُورِها، فاذْكُرُوني مِثْلَ ما أذْكُرُكُمْ، وقِفُوا بين يَدَيْ رَبِّكُمْ صَفًّا واحِدًا كما يقفُ بين يدَيْهِ المُصَلُّونَ، ومدُّوا إليه أكُفَّكُمُ الصّغِيرةَ كما يَمُدُّها السائِلُون، وقُولُوا له: اللّهُمَّ، إنّكَ تَعْلَمُ أنّ هذا الرَّجُلَ المسكينَ كان يُحِبُّنا، وكنّا نُحِبُّهُ، وقد فَرّقَتِ الأيامُ بينَنَا وبينَهُ، فهو لا يزالُ يُلاقِي من بَعْدِنا شَقَاءَ الحَيَاةِ، وبَأْسَاءَها ما لا طاقةَ له باحْتِمَالِهِ، ولا نزالُ نَجِدُ بين جوانحنا من الوَجْدِ به، والحنينِ إليه، ما يُنَغِّصُ علينا هناءَ هذه النعمةِ التي ننعمُ بها في جوارِك بين سَمْعِك وبَصَرِك. وأنتَ أرْحَمُ بنا وبه من أنْ تُعَذِّبَنا عذابًا كَثِيرًا، فإمّا أن تأخذَنا إليه أو تأتيَ به إلينا. لا، بل لا تطلُبُوا منه إلّا أنْ يأتيَ بي إليكم. فإنّ الحياةَ التي كرِهْتُها لِنَفْسِي لا أرضاها لكم، فعسَى أن يستجيبَ اللهُ من دعائِكُمْ ما لم يَسْتَجِبْ من دعائي، فيرفعَ هذا السِّتارَ بيني وبينكم، فنَلْتَقِي كما كنّا.

❁ ❁ ❁

مناجاة القمر

أيُّها الكَوْكَبُ المُطِلُّ من عَلْياءِ سَمَائِهِ. أأنتَ عروسٌ حَسْنَاءُ، تُشرِفُ من نافِذَةِ قَصْرِها، وهذه النُّجومُ المُبَعْثَرَةُ حوالَيْك قلائِدُ[1] من جُمَانٍ[2]؟

أم ملكٌ عظيمٌ جالسٌ فوقَ عرشِهِ، وهذه النيّراتُ حورٌ وولدانٌ؟

أم فصٌّ من ماسٍ ما يتلألأُ، وهذا الأفقُ المحيطُ بك خاتمٌ من الأنوارِ؟

أم مرآةٌ صافيةٌ، وهذه الهالةُ الدائرةُ بك إطارٌ؟

---

(١) القلائد: ج القلادة، وهي ما يوضع في العنق من الحليّ.

(٢) الجمان: اللؤلؤ.

أم عَيْنٌ ثرّةٌ[1] ثَجّاجَةٌ، وهذه الأشعّةُ جَداولُ تتدفّقُ؟

أم تنّورٌ مَسْجُورٌ؛ وهذه الكواكبُ شررٌ يتألّقُ؟!

أيُّها القَمَرُ المُنيرُ:

إنّك أنَرْتَ الأرضَ: وِهَادَها ونِجادَها، وسَهْلَها ووَعْرَها، وعامِرَها وغامِرَها. فهل لك أنْ تُشرِقَ في نَفْسِي، فتُنِيرَ ظُلْمَتَها، وتبدّدَ ما أظلمَها من سُحُب الهُمُومِ والأحْزَانِ؟

أيُّها القَمَرُ المُنِيرُ:

إنّ بيني وبينك شَبَهًا واتّصالًا، أنتَ وحِيدٌ في سَمَائِكَ، وأنا وحيدٌ في أرْضِي. كلانا يَقْطعُ شَوْطَهُ صَامِتًا هَادِئًا مُنْكَسِرًا حزينًا، لا يُلْوِي على أحدٍ، ولا يُلْوِي أحَدٌ عليه، وكِلانا يَبْرزُ للآخرِ في ظُلَمِ الليلِ، فيُسَايرُه ويُناجِيهِ.

يَراني الرائي فَيَحسبُني سَعِيدًا، لأنّه يَغْتَرُّ بابتِسَامَةٍ في ثَغْرِي، وطلاقةٍ في وَجْهِي، ولو كُشِفَ لَهُ عن نَفْسِي،

ورأى ما تَنْطَوي عليه مِنَ الهُمُومِ والأحزانِ لبكَى لي بُكاءَ الحَزينِ إثْرَ الحَزينِ؛ ويَراك الرائي فيحسبُك مُغْتَبِطًا مَسْرُورًا، لأنّه يَغْتَرُّ بجَمَالِ وَجْهِكَ ولمَعَانِ جَبِينِك، وصَفاءِ أدِيمِكَ، ولو كُشفَ له عن عالَمِك، لرآهُ عالَمًا خَرَابًا، وكَوْنًا يَبَابًا[2]، لا تهبُّ فيه ريحٌ، ولا يَتَحرَّكُ شَجَرٌ، ولا ينطِقُ إنْسَانٌ، ولا يَبْغمُ[3] حَيَوانٌ.

أيُّها القَمَرُ المُنيرُ:

كان لي حَبِيبٌ يَمْلأُ نَفْسِي نُورًا، وقَلْبِي لذّةً وسُرُورًا، وطالَما كُنْتُ أُناجِيهِ ويُناجِيني بين سَمْعِكَ وبَصَرِك، وقد فرّقَ الدَّهْرُ بيني وبينه. فهلَ لك أن تُحدِّثَني عنه، وتَكْشِفَ لي عَنْ مَكَانِ وُجُودِهِ؟ فربّما كان ينظرُ إليك نَظَرِي، ويُناجِيك مُنَاجَاتي، ويَرْجُوكَ رَجَائي.

وهَأنَذَا يُخَيَّلُ إليّ أنّي أرَى صورَتَهُ في مرآتِك، وكأنّي أرَاهُ يَبْكِي من أجْلِي كما أبْكِي من أجْلِه، فأزْدَادُ شَوْقًا إليه، وحُزْنًا عليه. فَابْقَ في مكانِك طويلًا تَطُلْ وَقْفَتُنا، ويَدُمِ اجتِمَاعُنا.

أيُّها القَمَرُ المُنِيرُ:

ما لي أراكَ تَنْحَدِرُ قليلًا قليلًا إلى مَغْرِبِك كأنّك تُرِيدُ أنْ تُفارِقَني؟ وما لي أرَى نُورَكَ الساطعَ قد أخذَ في الانقباضِ شيئًا فشيئًا؟ وما هذا السيفُ المسلولُ الذي يلمَعُ من جانبِ الأفقِ على رأسِكَ؟

قِفْ قليلًا، لا تَغِبْ عنّي، لا تُفارِقْني، لا تَتْرُكْني وَحِيدًا، فإنّي لا أعْرِفُ غَيْرَكَ، ولا آنسُ بمَخْلُوقٍ سِوَاك.

آهٍ، لقد طَلَعَ الفَجْرُ، ففارَقَني مُؤْنِسِي، وارْتَحَلَ عنّي صَدِيقي. فمتَى تَنْقَضِي وَحْشَةُ النهارِ، ويُقْبِلُ إليّ أنْسُ الظّلامِ!!

---

(١) عين ثرّة: عين غزيرة الماء، وكذلك ثجاجة. (٢) اليباب: الخراب.

(٣) يبغم: يصوت.

أين الفضيلة

قَرَأْتُ في بَعْضِ الرِّوَاياتِ أنّ فتًى قضَى حقبَةً من دهرِهِ مُولَعًا بحُبِّ فتاةٍ خياليّةٍ لم يرَها مرّةً واحِدةً في حَيَاتِه، وإنّما تَخيّلَ في ذِهْنِهِ صورَةً ألِفَها من شتّى المحاسِنِ ومتفرّقاتِها في صُورَةِ البشَرِ، فلمّا استقرّتْ في مُخيّلَتِهِ، تَجسّمَتْ في عَيْنَيْهِ، فرآها، فأحَبَّها حبًّا مَلَكَ عليه قلبَهُ، وحالَ بينَهُ وبينَ نَفْسِهِ، وذهَبَ به كلَّ مذهَبٍ: فأنْشَأَ يفتّشُ عنها بين سَمْعِ الأرضِ وبصَرِها أعْوامًا طِوَالًا حتّى وجَدَها.

لا أسْتَطِيعُ أنْ أُكذِّبَ هذه القصّةَ لأنّي أنا ذلك الفتَى بعَيْنِه؛ لا فرقَ بيني وبينَه إلّا أنه يسمّي ضالّتَهُ الفتاةَ وأسمّيها الفضيلةَ، وأنّه فتّشَ عنها، فوجَدَها، وفتّشْتُ عنها حتّى عَيِيتُ بأمرِها، فما وجَدْتُ إليها سَبِيلًا.

فتَّشْتُ عنِ الفَضِيلةِ في حوانيتِ التجارِ، فرأيتُ التّاجِرَ لصًّا في أثوابِ بائعٍ، وجَدْتُه يَبِيعُني بدينارَيْنِ ما ثمنَهُ دينارٌ واحدٌ، فعلِمْتُ أنّه سارِقٌ للدّينارِ الثاني، ولو وُكِلَ إليّ أمْرُ القَضَاءِ، ما هانَ عليّ أنْ أعاقِبَ لصوصَ الدراهِمِ، وأغفلَ لصوصَ الدنانيرِ، ما دامَ كلٌّ منهما يسلبُني مالي، ويَتَغَفّلني عنه.

أنا لا أنْكرُ على التاجرِ رِبْحَهُ، ولكنّي أُنكِرُ عليه أنْ يَتَناوَلَ منه أكثرَ من الجزاءِ الذي يَسْتَحِقُّهُ على ما بذلَ من جَهْدٍ في جَلْبِ السلعةِ، وما أنْفَقَ من راحتِه في سبيلِ صَوْنِها وإحْرازِها، وكلّ ما أعرفُ من الفرقِ بين حلالِ المالِ وحرامِه: أنّ الأولَ بدَلُ الجدِّ والعمل، والثاني بَدَلُ الغشِّ والكذِبِ.

فتّشْتُ عن الفَضِيلةِ في مجالسِ القضاءِ، فرأيتُ أنْ أعْدَلَ القضاةِ، يحرصُ الحرصَ كلَّه على أن لا يَهْفُوَ في تطبيقِ القانونِ الذي بين يدَيْهِ، هفوةً يحاسِبُهُ عليها مَنْ مَنَحَهُ هذا الكرسيَّ الذي يجلِسُ عليه، مخافةَ أنْ يسلبَهُ إيّاهُ، أمّا إنْصَافُ المظلومِ، والضربُ على يدِ الظالم، وإراحةُ[1] الحقوقِ على أهلِها، وإنزالُ العقُوباتِ منازِلَها مِنَ الذّنوبِ، فهي عندَهُ ذُيولٌ، وأذنابٌ لا يأبَهُ[2] لها، ولا يَحْتَفِلُ بِشأْنِها، إلّا إذا أشرقَ عَلَيْها الكَوْكَبُ بسَعْدِهِ، فمَشَتْ مع القانونِ في طريقٍ واحدٍ مُصادَفَةً واتّفاقًا.

فإذا اخْتَلَفَ طريقَاهُما بين يدَيْهِ، حكمَ بغَيْرِ ما يَعْتَقِدُ، ونطَقَ بغيْرِ ما يَعْلَمُ، ودانَ البريءَ، وبرّأَ المُجْرمَ. فإذا عتبَ عليه في ذلك عاتبٌ، كانتْ معذِرَتُه إليه حُكْمُ القانونِ عليه. كأنّما يُريدُ أن يَجْعَلَ العقلَ أسيرَ القانونِ. وما القانونُ إلّا حَسَنَةٌ من حَسنَاتِ العَقْلِ؛ وصَنعَةٌ من صنائعِهِ.

فتّشْتُ عنِ الفضيلةِ في قصورِ الأغنياءِ، فرأيْتُ الغَنِيَّ إمّا شَحِيحًا، أو مِتلافًا؛ أمّا الأوّلُ، فلو كانَ جَارًا لبَيْتِ فاطِمَةَ رضيَ اللهُ عنها، وسمِعَ في جوفِ الليلِ أنينَها، وأنينَ ولدَيْها من الجوعِ ما مَدَّ إصبعَيْهِ إلى أُذُنَيْهِ ثِقَةً منه أنّ قلبَهُ المُتَحَجِّرَ لا تنفذُه أشعّةُ الرّحْمَةِ، ولا تمرُّ بين

---

(١) أراح الحق على أهله: أعاده إليهم. (٢) يأبه: يهتمّ.

طيّاتِهِ نسمَاتُ الإحْسَانِ؛ وأمّا الثاني، فمالُه بين الثغرَيْنِ: ثَغْرِ الحَسْناءِ، وثَغْرِ الصَّهْبَاءِ؛ فعلَى يدِ أي رَجُلٍ من الرجُلَين تَدخلُ الفضِيلَةُ قُصُورَ الأغنياءِ؟

فتَشْتُ عنها في مجالسِ السِّيَاسَةِ، فَرَأَيْتُ أنّ المُعَاهَدَةَ، والاتّفاقَ، والقاعِدَةَ، والشرطَ، ألْفاظٌ مترادِفَةٌ معناها الكذبُ. فرأيتُ أنّ الملكَ في كرسيّ مملكتِهِ كالحوذِيّ في كرسيّ عربَتِهِ، لا فرقَ بينهما إلّا أنّ هذا ينقضُ (تَعْريفتَهُ)، وذاك ينقضُ مُعَاهَدَتَهُ.

ورَأَيْتُ أنّ أعْدَى عَدُوٍّ للإنسَانِ الإنسَانُ، وأنّ كلَّ أمّةٍ قد أعدّتْ في مخَازِنِها ومُسْتَوْدَعاتِها في بطُونِ قلاعِها، وعلى ظهُورِ سفُنِها، وفوْقَ مُتُونِ طيارَاتِها، ما شاءَ اللهُ أنْ تُعِدَّهُ لأخْتِها من الموتِ، وأفانينِ العذابِ. حتّى إذا وقَعَ الحَتْفُ بينهما على حدٍّ من الحدُودِ أو جدارٍ من الجُدْرانِ، لبس الإنسانُ فروةَ السبعِ، واتّخَذَ له من تلك العُدَدِ الوحْشِيّةِ أظْفارًا كأظفارِهِ، وأنْيابًا كأنيابِه، فشَحَذَ الأولى، وكشّرَ عنِ الأخْرَى، ثمّ هَجَمَ على ولدِ أبيهِ وأمّهِ هَجْمَةً، لا يَعُودُ منها إلّا بنَفْسِهِ التي بين جَنْبَيْهِ.

وإنّك لو سألْتَ الجُنْدِيَّيْنِ المتقاتِلَيْنِ، ما خَطْبُكُما، وما شأنُكما؟ وعلامَ تَقْتَتِلَانِ؟ وما هذه المَوْجِدَةُ[1] التي تحمِلانها بين جَنْبَيْكُما؟ ومتى ابْتَدَأتِ الخصُومَةُ بينكما، وعَهْدِي بكما أنّكما ما تعارَفْتُما إلّا في الساعةِ التي اقتَتَلْتُما فيها؟ لعَرَفْتَ أنّهما مخدُوعَانِ عَنْ نفسَيْهِما، وأنّهما ما خَرَجا من ديارِهِما إلا ليَضعَا درّةً في تاجِ المَلِكِ، أو نِيشَانًا على صَدْرِ القائِدِ.

فَتّشْتُ عَنها بين رِجالِ الدّينِ، فرأَيتُهُمْ - إلّا مَنْ رَحِمَ اللهُ - يتّجِرُون بالعُقُولِ في أسْوَاقِ الجَهْلِ، ورأيتُ كلًّا منهُمْ، قد ثَغَرَ له في كلّ رأسٍ من رؤوسِ البشرِ ثغرةً ينحدِرُ منها إلى الأخلاقِ، فيُفْسِدُها، والمشاعرِ، فيَقْتُلُها، ليتوسّلَ بذلك إلى الذخائرِ، فيَسْرِقَها، والخزائنِ، فيَسْلُبَها.

فتّشْتُ عنها في كلِّ مكانٍ أعلَمُ أنّه تربَتُها، وموطِنُها، فلم أعثرْ بها. فليتَ شِعْري هل أجِدُها في الحاناتِ والمواخيرِ[2]، أو في مغاراتِ اللّصُوصِ، أو بين جُدْرَانِ السُّجُونِ.

سيقولُ كثيرٌ من الناسِ: قد غَلَا الكاتبُ في حكمِه، وجاوَزَ الحدّ في تقديرِهِ، فالفضيلةُ لا تزالُ تَجِدُ في صُدُورِ الكثيرِ من الناسِ صَدْرًا رَحْبًا، ومَوْرِدًا عَذْبًا؛ وإنّي قائلٌ لهم قَبْلَ أن يقُولُوا كلِمَتَهُمْ: إنّي لا أُنْكِرُ وُجودَ الفَضِيلةِ، ولكنّي أجْهَلُ مَكَانَها، فقد عَقَدَ رياءُ الناس أمامَ عينيّ سحابةً سَوْداءَ أظْلَمَ لها بَصَري، حتّى ما أجِدُ في صفحةِ السماءِ نَجْمًا لامِعًا، ولا كَوْكَبًا طالِعًا.

كلُّ الناسِ يَدّعِي الفَضِيلَةَ، ويَنْتَحِلُها، وكلُّهم يَلْبَسُ لِبَاسَها، ويَرْتَدِي رِدَاءَها، ويُعِدُّ لها عدَّتَها من مَنْظَرٍ يَسْتَهْوِي الأذْكِيَاءَ والأغنياءَ، ومَظْهرٍ يَخْدَعُ أسوأَ الناسِ ظنًّا. فمَنْ لي بالوصولِ إليها في هذا الظلامِ الحالكِ، واللّيلِ الأليَلِ[3]؟

---

(١) الموجدة: الغضب.

(٢) المواخير: ج الماخور، وهو مجلس الفسّاق.

(٣) الليل الأليل: الشديد السواد.

إنْ كان صَحِيحًا ما يتحدَّثُ به الناسُ من سَعَادَةِ الحَياةِ، وطيبِها، وغِبْطَتِها، ونَعِيمِها، فسَعَادَتي فيها أنْ أعثرَ في طريقي في يَوْم من أيّام حَيَاتِي بصديقٍ يَصْدُقُني الودَّ، وأَصْدُقُه، فيقنعُه منّي وُدّي وإخْلَاصِي دون أنْ يَتَجاوزَ ذلكَ إلى ما وراءَه من مآربَ وأغراضٍ، وأنْ يكُونَ شريفَ النفسِ، فلا يَطْمَعُ في غيرِ مطمَعٍ، شريفَ القَلْبِ، فلا يحمِلُ حِقْدًا، ولا يحفَظُ وِتْرًا. ولا يحدّثُ نفسَهُ في خلْوَتِه بغَيْرِ ما يُحدِّثُ به الناس في مَحْضَرِه، شريفَ اللسانِ، فلا يكذبُ، ولا ينمُّ، ولا يلمُّ بعرضٍ، ولا ينطِق بهجرٍ، شريفَ الحبِّ، فلا يُحِبُّ غيرَ الفَضِيلةِ، ولا يبغضُ غيرَ الرذيلةِ.

هذه هي السعادةُ التي أتمنّاها، ولكنّي لا أراها.

إنّي لأرى الرياضَ الغنّاءَ، تَهْفُو أشجارُها، وترنُّ أطْيَارُها، وأرَى جَدَاوِلَ الماءَ، تَنْسَابُ بين أنوارِها وأزْهَارِها، انْسِيَابَ الأفاعِي الرّقْطَاءِ[1]، في الرمالِ البيضاءِ، وأرى أناملَ النسائم تَعْبَثُ بمَنْثُورِها الأوْرَاقِ، عَبَثَ الهَوَى بألْبَابِ العشّاقِ، وأسْمَعُ ما بين صفيرِ البلابلِ، وخريرِ الجداوِلِ نغماتٍ شجيّةً، تبلغُ من نَفْسِ الإنسانِ، ما لا تبلغُ أوتارُ العيدانِ، فلا يسرّني منها مَنْظَرٌ، ولا يُطْرِبُني مَسْمَعٌ، لأنّي لا أرَى بين هذه المشاهِدِ التي أراها ضالّتي التي أنْشُدُها.

لقد سَمُجَ[2] وَجْهُ الرذيلةِ في عيني، وثَقُلَ حَدِيثُها في مَسْمَعِي، حتى أصبَحْتُ أتمنّى أن أعيشَ بلا قَلْبٍ فلا أشْعُرُ بخيرِ الحَيَاةِ وشرِّها وسُرُورِها وحزنِها.

ولولا بُنَيّاتٌ صِغَارٌ يَفْقِدْن بفَقْدِي طِيبَ العَيْشِ ونَعِيمَهُ، لفَرَرْتُ من هذا العالمِ الناطقِ إلى ذلك العالمِ الصّامِتِ، فأجِدُ من الأنسِ به، والسكونِ إليه ما وجَدَهُ الذي يقولُ:

عَوَى الذِّئْبُ فاسْتأْنَسْتُ بالذّئْبِ إذْ عَوَى ... وَصَـوّتَ إنْـسَـانٌ فَـكِـدْتُ أطِـيـرُ

❁ ❁ ❁

الغنيّ والفقير

مَرَرْتُ ليلةَ أمسِ برجلٍ بائسٍ، فرأيْتُهُ واضِعًا يدَهُ على بطنِهِ كأنّما يَشْكُو ألَمًا، فرثَيْتُ لحالِهِ، وسألْتُهُ: ما بالُه؟ فشَكَا إليَّ الجوعَ، ففثأتُه[3] عنه ببَعْضِ ما قَدِرْتُ عليه. ثم تركتُهُ وذَهَبْتُ إلى زيارةِ صديقٍ لي من أربابِ الثراءِ والنّعْمَةِ، فأدْهَشَني أنّي رأيتُه واضعًا يدَهُ على بَطْنِه، وأنّه يَشْكُو منَ الألمِ ما يشكُو ذلك البائسُ الفقيرُ. فسألتُه عمّا به فشَكَا إليّ البِطْنَةَ[4]. فقلتُ: يا لَلْعَجَبِ! لو أعْطَى ذلك الغنيُّ ذلك الفقيرَ ما فضلَ عَنْ حاجَتِهِ منَ الطعامِ، ما شَكَا واحدٌ منهما سقْمًا، ولا ألمًا.

لقد كانَ جَدِيرًا به أن يتناولَ من الطعامِ ما يُشْبِعَ جَوْعَتَهُ، ويطفئُ غلّتَهُ، ولكنّهُ كان مُحِبًّا

---

(١) الرقطاء: المنقّطة.
(٢) سَمُجَ: قبح.
(٣) فثأته: سكّنت غيظه.
(٤) البطنة: امتلاء البطن من الطعام.

لنفسِه، مغاليًا بها، فضَمَّ إلى مائدتِهِ ما اختلسَهُ من صفحَةِ الفقيرِ، فعاقَبَهُ اللهُ على قَسْوَتِهِ بالبِطْنَةِ، حتّى لا يهنأ للظالمِ ظلمُه، ولا يَطيبَ عيشُه. وهكذا يصدُقُ المثلُ المثَلُ: بطْنَةُ الغنيِّ انتقامٌ لجوعِ الفقيرِ.

ما ضَنّتِ السّماءُ بمائِها، ولا شَحّتِ الأرضُ بنبَاتِها، ولكنّ حسدَ القَوِيُّ الضعيفَ عليهما، فزوَاهُما[1] واحْتَجَنَهُما[2] دونه، فأصْبَحَ فقِيرًا مُعْدَمًا، شاكِيًا متظلّمًا؛ غرماؤه المَيَاسِيرُ الأغنياءُ، لا الأرضُ والسماءُ.

لَيْتَنِي أملِكُ ذلك العقلَ الذي يملكُه هؤلاءِ الناسُ، فأسْتَطِيعُ أنْ أتَصَوّرَ كما يَتَصوَّرُون، حجّةَ الأقوياءِ في أنّهم أحقُّ بإحرازِ المالِ، وأَوْلَى بامْتِلاكِه من الضعفاءِ. إنْ كانتِ القُوَّةُ حجَّتَهُمْ عليه، فلمَ لا يملكُون بهذه الحجّةِ سلبَ أرواحِهِمْ كما ملكُوا سَلْبَ أموالِهِمْ؟ وما الحياةُ في نظرِ الحيّ بأثمنَ قيمةً من اللقمةِ في يدِ الجائعِ؛ وإنْ كانتِ حجَّتُهم أَنّهُمْ ورِثُوا ذلك المالَ عن آبائِهِمْ قُلْنَا لهم: إنْ كانتِ الأبوةُ غلّةَ الميراثِ، فلِمَ ورِثْتُم آباءكُم في أموالِهِمْ، ولَمْ تَرِثُوهُمْ مظالِمَهُمْ؟ فلقَدْ كان آباؤُكُمْ أقوياءَ، فاغْتَصَبُوا ذلك المالَ من الضعفاءِ، وكان حقًّا عليهم أنْ يَرُدُّوا إليهم ما اغْتَصَبُوا منهم. فإنْ كُنْتُمْ لا بدَّ وُرَثاءَهُم، فاخْلفُوهُمْ في رَدّ المالِ إلى أربابِه، لا في الاستمرارِ على اغْتِصابِهِ.

ما أظْلَمَ الأقوياءَ مِنْ بَنِي الإنسانِ! وما أقْسَى قلوبَهُمْ! يَنَامُ أحدُهُمْ مِلْءَ جَفْنَيْهِ على فراشِهِ الوثِيرِ[3]، ولا يُقْلِقُهُ في مَضْجَعِهِ أنّه يَسْمَعُ أنينَ جارِه، وهو يُرعِدُ بَرْدًا وقرًّا. ويَجْلِسُ أمامَ مائِدَةٍ حافِلَةٍ بصُنُوفِ الطَّعَامِ: قديدِه وشوائِهِ، حلوِه وحامضِه، ولا ينغّصُ عليه شهوَتَهُ علمُه أنّ بين أقربائِه، وذوِي رحِمِهِ من تتواثَبُ أحْشَاؤُه شَوْقًا إلى فُتاتِ تلك المائدةِ، ويسيلُ لعابُه تَلَهّفًا على فضلاتِها. بلْ إنّ بينهم من لا تُخالِطُ الرحمَةُ قلبَهُ، ولا يَعْقِدُ الحياءُ لسانَهُ، فيَظَلُّ يسرُدُ على مَسْمَعِ الفَقِيرِ أحاديثَ نِعْمَتِهِ، وربّما اسْتَعَانَ به على عدِّ ما تَشْتَمِلُ خزائِنُه منَ الذّهَبِ، وصنَادِيقُه من الجوهَرِ، وغُرَفُهُ منَ الأثاثِ والريشِ، ليكسرَ قلبَهُ، وينغّصَ عليه عيشَه، ويبغضَ إليه حياتَه، وكأنّه يقولُ له في كلّ كلمةٍ من كلماتِه وحركةٍ من حركاتِه: أنا سعيدٌ لأنّي غنيٌّ، وأنتَ شقيٌّ لأنّك فَقِيرٌ.

أحسبُ لولا أنّ الأقوياءَ في حاجةٍ إلى الضُّعَفَاءِ، يَسْتَخْدِمُونَهُمْ في مرافِقِهِمْ وحاجاتِهِمْ كما يَسْتَخْدِمُون أدواتِ منازِلِهِمْ، ويسخّرُونَهُم في مطالِبِهِمْ كما يسخّرونَ مراكِبَهم، ولولا أنّهم يُؤْثِرُون الإبقاءَ عليهم، ليُمتّعُوا أنفسَهُمْ بمشاهَدَةِ عُبُودِيّتِهِمْ وسجُودِهِمْ بين أيدِيهِمْ، لامْتَصُّوا دماءَهُمْ كما اخْتَلَسُوا أرزاقَهُمْ، ولحَرَمُوهُمُ الحَيَاةَ كما حَرَمُوهُم لذّةَ العيشِ فيها.

---

(١) زوى عنه حقه: منعه إيّاه.

(٢) احتجن الشيء: جذبه بالمحجن إلى نفسه، والمراد أنّه استأثر به.

(٣) الوثير: الناعم.

لا أستطيعُ أنْ أتصورَ أنّ الإنسانَ إنسانٌ، حتّى أراه مُحْسِنًا، لأنّي لا أعْتَمِدُ فَضْلًا صَحِيحًا بين الإنسانِ والحيوانِ إلّا الإحْسانَ، وإنّي أرَى الناسَ ثلاثةً: رجلٌ يحسِنُ إلى غيرِهِ ليتّخِذَ إحْسانَهُ إليه سبيلًا إلى الإحسانِ إلى نفسِه، وهو المستبدُّ الجبّارُ الذي لا يفهمُ من الإحسانِ إلّا أنّه يستعبدُ الإنسانَ؛ ورجلٌ يُحْسِنُ إلى نفسِه، ولا يُحْسِنُ إلى غيرِهِ، وهو الشّرِهُ المتكالِبُ الذي لو علمَ أنّ الدّمَ السائِلَ يستحيلُ إلى ذهبٍ جامدٍ، لذبحَ في سبيلِه الناسَ جمِيعًا؛ ورَجُلٌ لا يُحْسِنُ إلى نَفْسِه، ولا إلى غيرِهِ وهو البخيلُ الأحمقُ الذي يُجْيعُ بَطْنَهُ لِيُشْبِعَ صُنْدُوقَهُ؛ وأمّا الرابعُ: وهو الذي يُحْسِنُ إلى غيرِه، ويُحْسِنُ إلى نفسِه، فلا أعلمُ له مكَانًا، ولا أجِدُ إليه سبيلًا، وأحسبُ أنّه هو الذي كان يفتّشُ عنه الفيلسوف اليوناني «ديوجين الكلبي» حينما سُئل: ما يصنعُ بمصباحِه؟ وكان يدورُ به في بياضِ النهارِ، قال: «أفتّشُ عن إنسانٍ».

❁ ❁ ❁

مدينة السعادة

رأيتُ فيما يَرى النائمُ أنّني أمْشِي في قَفْرةٍ جرداءَ، قد انْبَسَطَتْ رمالُها على سَطْحِها، مُتَجَعّدَةً تجعُّدَ الأمواجِ المتكسّرةِ على سَطْحِ القاموسِ[١] المحيط، وكانتِ الشمسُ قد طَفَلَتْ[٢] للإيابِ، فلمْ أرَ في بطْحَائِها ظِلًّا غيرَ ظِلّيَ المستطيلِ الذي رسَمَتْهُ يدُ الشمسِ، فأخطأتْ في تصويرِه كأنّما حسبَتْني آدمَ أبا البشرِ، فأوْسَعَتْني طولًا ورَسَمَتْني ميلًا.

أنشأتُ أمْشِي لا أعرفُ لي مَذْهَبًا، ولا مُضْطَرَبًا. وأنّى يكونُ ذلك في صحراءَ قد تشابَهَتْ مسالِكُها، وتشاكَلَتْ مذاهِبُها، وانْفَرَجَ ما بين قاصِيها ودانِيها، حتى انْحَدَرتِ الشمسُ إلى مُسْتَقَرِّها، وطارَ طائرُ الليلِ من مكمَنِه، ونشرَ الظلامُ أجنحَتَهُ السوداءَ في الأفقِ حتى وجدْتُني أحيرَ من دَمْعَةٍ وَجْدٍ في مُقْلَةِ[٣] عاشقٍ؛ يدفَعُها الحبُّ، ويَمْنَعُها الحَياءُ. ولا أعلمُ هلْ أنا سرٌّ كامِنٌ في باطنِ الظلماءِ، أو حوتٌ مُضْطَرِبٌ في أعماقِ الماءِ.

وأحيانًا كان يُخَيَّلُ إليَّ أنّي في منجمٍ من مناجم الفحم، فأمدُّ يدِي أتلَمّسُ جدرانَهُ مخافةَ أن أصْطَدِمَ بواحدٍ منها؛ ولم أزلْ كذلك، حتّى شَعَرْتُ بأنّ الظلامَ قد بَدَأَ ينفضُ صِبْغَتَهُ، وأنّ ذرّاتِهِ تَتَطايَرُ ههنا وههنا؛ فإذا أنا بين يدَي جبلٍ عالٍ كأنّما هو جدارٌ قائمٌ يُمْسِكُ السماءَ أنْ تَقَعَ على الأرضِ، أو ملكٌ جبّارٌ قد لبِسَ من قرصِ الشمسِ التاجَ الأحمرَ، ومن شعاعِها الرداءَ الأصفرَ.

ولا تَسَلْ هنالك عمّا ألَمَّ بقَلْبِي من الهمِّ، وعَقلِي من الخَبَالِ[٤]؛ حينما رأيتُ أنّ صعودَ السماءِ أقربُ إلى الأملِ، من صعودِ هذا الجبلِ، وحرتُ بين الإقْدامِ والإحْجام، فلمْ أرَ بدًّا

---

(١) القاموس: وسط البحر ومعظمه.
(٢) طفلت الشمس: مالت للغروب.
(٣) المقلة: العين.
(٤) الخبال: التعب والفساد.

من الاستِسْلامِ لمقدورِ الحمامِ، ثم رَمَيْتُ بطَرْفي فرأيتُ بين الصّخُورِ المُبَعْثَرةِ في سَفْحِ الجبلِ صخرةً بيضاءَ ناعِمَةَ الملمَسِ، فاضْطَجَعْتُ عليها، وأنا أتمثّلُ بقولِ أبي العلاء:

ضَجْعَةُ المَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَريحُ الـ جِسْمُ فيها والعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

وما هي إلّا غَمْضَةُ الطّرْفِ أنْ أشْعَرْتُ بأنّها تتحرَّكُ قليلًا قليلًا، ثم استقلّتْ، ثمّ طارَتْ، فكذتُ أحسبُ أنّه الموتُ قد نَزَلَ، وأنّها الروحُ تصعَدُ إلى الملأ الأعْلَى؛ لولا أن فتحتُ عيني، فرأيتُ ما كنت أحسبُه صخرةً طائرًا أشبَهَ شيءٍ بالنسرِ في خلقهِ، والقبّةِ في ضخامَتِها واستدارتِها.

واستمرّ ذاهبًا بي في أفقِ السماءِ، ثم رنَّقَ[1] لحظةً في الهواءِ، ثم هَبَطَ إلى قِمّةِ الجبلِ، فأسرعْتُ بالانحِدارِ عنه، وهنالك أحْسَسْتُ بسَلْسَبِيلٍ باردٍ من الأملِ يتسرَّبُ إلى قلبي، فيَنْقَعُ غلّتَهُ، ويُطفِئُ لوعَتَهُ، لأنّني رأيتُ السفحَ الثاني، ورأيتُ بهجَةَ الحياةِ، وزهرةَ العُمْرَانِ.

رأيتُ على البُعْدِ خطوطَ الخُضْرَةِ حول سطورِ الماءِ، ورأيتُ الأكواخَ الصغيرةَ والقصورَ العظيمةَ كأنّها العصافيرُ السوداءُ، والحمائمُ البيضاءُ، وكأنّ ما ألمّ بنَفْسِي من السرورِ أنْسَانيَ ما ألمّ بجسمي منَ النصَبِ، فانحدَرْتُ إليها، فما بلغتُها، حتّى رأيتُني في مزرعةٍ في وسطِها بِنْيَةٌ قد وَقَف على بابِها شيخٌ هو أشبهُ الأشياءِ بما يَتَخَيَّلُه فريقُ الخياليّين من عُلَمَاءِ الهيئَةِ في صورِ سكانِ المرّيخِ، فذُعِرَ منّي كما يذعرُ الإنسانُ لرؤيةِ الجانِ، وما كان الذي قامَ في نفسِه منّي بأكثرَ ممّا قامَ في نفسِي منه، لولا أنّي ألِفْتُ الغرائبَ، وعَجَمْتُ عودَ[2] العجائِبِ.

فتقدّمْتُ نحوَهُ، وكأنّما ألهمْتُ لغتَهُ، فحَيّيتُهُ بها، فحيّاني وهو يقولُ: ما كنت أحسبُ أنّ الشمسَ تطلُعُ على مدينةٍ غير هذه المدينةِ، أو أنّ في العالمِ إنسانًا غيرَ هذا الإنسانِ؛ فما زلتُ أحدّثُهُ، واسْتَدْنِيهِ، حتّى أنِسَ بي، ودَعَاني إلى منزلِهِ، وخَلَطَنِي بنفسِه وأهلِه، وقدّمَ لي طَعامًا شهيًّا، ومهّد لي مَرْقدًا وثيرًا. وكان الليلُ قد أقبلَ للمرّةِ الثانيةِ من هِجْرَتي هذه، فنِمْتُ نَوْمًا هادِئًا مطمَئِنًا لا تَروعُني فيه خواطرُ المَوْتِ، ولا وَسَاوِسُ الهلاكِ.

استيقظْتُ أنا والشمسُ من مرقدَيْنا على صوتِ تلك الأسرةِ الطاهرةِ الكريمةِ، تصلّي إلى اللهِ تعالَى صلاةَ الخاشِعين المُتَبتّلِين، وتَدْعُو وهي مصطفّةٌ صفًّا واحدًا أن ييسّرَ لها اللهُ عسرَها، ويسهّلَ أمرَها، ويصلحَ شأنَها، ويمنَحَها معونتَهُ ونصرَهُ؛ فأخَذَ منظرُها هذا من نفسي مأخذًا عظيمًا، فلم أرَ بدًّا من الانتظامِ في صفّها، والدعاءِ بدُعائِها، والبكَاءِ لبُكَائِها؛ وعَجِبْتُ أنْ يكُونَ مثلُ هذا الإيمانِ الخالصِ راسِخًا في نفوسِ أهلِ هذه المدينةِ، ولمْ يُرْسَلْ إليها رَسُولٌ، ولمْ يُنْزَلْ عليها كِتابٌ.

فلمّا فَرَغْنَا من الصلاةِ، الْتَفَتُّ إلى صاحِبِ البيتِ، وقلتُ له: أراكُم تَتَعَبَّدُون، فمَنْ تَعْبُدُون؟ وتُصلُّون، فمَنِ الذي تَدْعُون؟

---

(١) رنّق الطير: خفق بجناحيه ولم يطر، أو سقط. (٢) عجم العود: عضّه ليعلم صلابته.

قال: نعبُدُ اللهَ خالقَ هذه الكائناتِ ومدبّرَها.

قلتُ: هلْ رأيتُمُوهُ حتّى عرفتُمُوهُ؟

قالَ: نعمْ، رأيناهُ في آثارِهِ ومصْنُوعَاتِه؛ رأيناهُ في السماءِ والماءِ، والفلكِ الدائم، والنجمِ السائرِ، وفي أجنحَةِ الحيوانِ وبذورِ النباتِ؛ ورأيناهُ في أنفسِنا وعقولِنا وأرواحِنا قبل ذلك.

قلت: ولِمَ تَعبدونَهُ؟

قال: شكرًا له على نعمةِ الخلقِ والرزقِ، وأنّ أحدَنا ليعنيهِ أن يشكرَ لصاحبهِ نِعْمَتهُ، إذا أحسنَ اليه بجرعةٍ، أم أنعمَ عليه بمضغَةٍ؛ فأحْرَى به أنْ يُشْكَرَ مانِحَ المانِحِينَ، والمُحسنَ إلى المحسنِين.

فقلتُ في نفسي: لقد بلغَ الرجلُ مرتبةَ الموحّدين الصادِقين، الذين يعبدُونَ اللهَ مخلصِينَ له الدّينَ، لا يرجُون ثوابًا ولا يخافُون عِقابًا.

ثم سألتُه أين تَذْهَبُون بَعْدَ الموتِ؟

قال: إلى النعيمِ المقيم، أو العذابِ الأليمِ.

قلت: لعلّك تريدُ الجنّةَ والنارَ؟

قال: لا أفهمُ ما تقولُ، وإنّما أعلمُ أنّ الإلهَ الحكيمَ لا يتركُ المحسنَ دون أن يجازيَهُ خَيْرًا على إحْسَانِه، كما يأبى عَدْلُه أنْ يسوّيَ بين المُحْسنِ والمُسِيءِ.

قلتُ: مَتَى يكونُ المحسنُ محسِنًا والمسيءُ مسيئًا.

قال: الإحسانُ عَمَلُ الخَيْرِ؛ والإساءةُ عملُ الشرّ؛ لذلك لا تَرى بيننا مَنْ يحدّثُ نفسَهُ بالإضْرارِ بأخِيهِ، أو من يقصّرُ في دَفْعِ الأذَى عنه.

فقلتُ في نفسِي ليتَ الفقهاءَ الذين يُنْفِقُون أعمارَهُم في الحيضِ والاستحاضَةِ والمذَى والودى[1]، والحدث الأكبرِ والحدثِ الأصغرِ؛ وليتَ الكلاميّين الذين يسْهَرُون الليالي، ويُقرّحُون المآقي في عينيّةِ الصفاتِ وغَيْرَتِها والجوهرِ والعرضِ والحدوثِ والقدمِ، والدورِوالتسلسلِ؛ وليت المتصوّفةَ الذين يحاولون أن ينازعُوا الله مشيئَتَهُ، ويجاذِبُوه قُدْرَتَهُ، ويغالبُوهُ على أمرِهِ ونَهْيِهِ، ويزاحِمُوهُ في لوحِهِ وقلَمِهِ - يَعْرفُون من سرِّ الدينِ، وحكمتِه، والغرضِ الذي قامَ له، ما يعرفُ هؤلاءِ البُلْهُ الأغرارُ، الذين لا يَفْهَمُون معنَى الجنّةِ والنارِ، ولا يميّزُون بينَ الدينِ والتينِ.

فَرَغْنا من الحديثِ، وعَرَضْتُ على الشيخِ أن يزيرَني في المدينةِ. فانحدرَ بي إليها؛ فرأيتُ شوارِعَها فسيحةً منتظمةً، ومنازلَها متفرقةً غيرَ متلاصقةٍ، وقد أحاطَتْ بكلّ منزلٍ منها حديقةٌ زاهرةٌ؛ ورأيتُ سكانَها مكبّين على أعمالِهِمْ، مجدّين في شؤونِهِمْ، صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً؛ ما فيهم فقيرٌ يتسوّلُ، ولا متبطّلٌ يتثاءبُ ويتململُ.

وأغربُ ما اسْتَهْوَى نظري أنّني لمْ أرَ في تلك المدينةِ ذلك التفاوتَ الذي أعرفُهُ في مدائِننا

(١) المذى والودى: نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب.

بين الناسِ في منازلِهِمْ ومراكِبِهِمْ، ومطاعِمِهِمْ ومشارِبِهِمْ، وهيئاتِهِمْ وأزيائِهِمْ، كأنّ جميعَ سكانِها سواسيةٌ في حالةِ المعيشةِ، ودرجةِ الثروةِ.

فسَأَلْتُ الشيخ: ألا يوجدُ فيكُم غنيٌّ وفقيرٌ، وسيّدٌ ومسودٌ؟

قال: لا يا سيّدي، حَسْبُ الرجلِ منّا بيتٌ يُؤْويهِ، ومزرعةٌ تُقيتُهُ، ودابّةٌ تحمِلُ أثقالَهُ، ثم لا شأنَ له بعد هذا فيما سوى ذلك، لذلك لا يُوجَدُ فينا سيّدٌ ومسودٌ، لأنّه لا يوجَدُ فينا غنيٌّ وفقيرٌ.

قلت: لا بدَّ أنْ يكونَ بينكم العاجزُ عن العملِ، والمتعطّل الكسلانِ!

قال: أمّا الكسلانُ، فلا وجود له بيننا، لأنّه يعلَمُ أنّا لا نرحَمُهُ، ولا نغفِرُ له ذلّتَهُ في احْتِقَارِ نعمةِ العقلِ والقوةِ بتعطيلِهما عن العملِ، وأمّا العاجزُ فَنَحْدُبُ[1] عليه، ونُحْسِنُ اليه، ولا نرَى لأنفسِنا في ذلك فَضْلًا لأنّنا إنّما نمنَحُهُ جُزْءًا منَ القوّةِ التي منحَنا اللهُ إيّاها لنَعْبُدَهُ بها، ولا نَرى في وجُوهِ العبادةِ أفضلَ من مواساةِ العاجزين، ورحمةَ البائسين.

وإنّه ليُحَدّثني بهذا الحديثِ إذْ لاحَتْ لنا بِنْيةٌ فخمةٌ تمتازُ عن غيرِها من البِنَى بحُسْنِ نظامِها، وجمالِ هِنْدامِها، فقلتُ للشيخِ: هلْ أرَى قصرَ الملِكِ؟

قال: لا، ولكنّه قصرُ رجلٍ شرّيرٍ طمّاعٍ، قد خالفَ إرادةَ اللهِ وحكمَه، فاحتجن[2] دون عبادِه أرضَهُمْ، ومالَهُمْ ليعلوَ عليهم، ويستأثرَ بالنعمةِ من دونهم، فغضبَ اللهُ عليه، وقلبَ نعمتَه نقمةً، ورخاءَه شدّةً. فإنّه ما أراح[3] رائحةَ العيشِ الرغدِ، حتى أسلمَ نفسَهُ إلى شوَاتِها، وحمّلَها فوقَ ما تحملُ طبيعتِها، فها هو ذا اليومَ يُقاسي من آلامِ الأمراضِ، وأنواعِ الأسقامِ ما بغّض إليه العيشَ، وحبّبَ إليه الموتَ. لم يَحْمِهِ قَصْرُه، ولم يُغْنِ عنه مالُه. فهو عِبْرَةٌ للمُعْتَبِرِينَ، وموعظةُ السابلةِ[4].

فكَبُرَ الرَّجُلُ في ذَرْعي[5]، وعَظُمَ في عيني، وأكْبَرْتُ فيه، وفي أمّتِه هذه الخلالَ الشريفة، والأخلاقَ العاليةَ؛ وقلتُ في نفسي: إنّ مدارِسَنا على ما تشتملُ عليه دروسُها من قواعدِ الحكمةِ، وأصولِ التربيةِ، وفنونِ الآدابِ، لتعجَزُ عن أن تخرجَ للناسِ رجالًا يستَطِيعُون أن يُساجِلُوا هؤلاءِ القوم في صفاتِهِمْ وفضائِلِهِمْ.

وأرَدْتُ - على ذِكْرِ المدارِسِ - أن أعرفَ مناهِجَ التعليمِ عندهُمْ، فقلتُ للشيخِ: هل لك أنْ تُرِيني مدرسةً من مدارِسِكُمْ؟

فعَجِبَ لسؤالي وقال: ما المدرسةُ؟

فكانَ عَجَبي لجوابِه أكثرَ من عجبِه لسؤالي، وقلت: المدرسةُ مكانٌ محدودٌ يجتمعُ فيه صغارٌ يتعلّمون، وكبارٌ يعلّمون.

---

(١) نحدب: نحنّ ونعطف.
(٢) احتجن المال: ضمه واحتواه.
(٣) أراح فلان الشيء: وجد ريحه.
(٤) السابلة: المارّة.
(٥) كبر في ذرعي: عظم وقعه عندي.

قال: ما الذي يتعلّمُهُ الصغارُ من الكبارِ؟

قلت: ما يُصْلِحُ شأنَهُمْ، وينفَعُهُمْ في معاشِهِمْ وميعادِهِمْ.

قال: وأيّ حاجةٍ بنا إلى مثلِ هذا المجمع الحاشدِ في مثلِ هذا المكانِ المحدودِ؟ إنّا يا سيدي أرحمُ بأبنائِنا من أن نَكِلَ أمرَهُم إلى غيرِنا، فنحن الذين نتولّى هذا الشأن منهم. فلا مدارسَ عندَنا غيرُ المصانِعِ والمزارعِ؛ نعلّمُهم فيها كيف يرمُون البذورَ، وكيف يستَنْبِتُونَها، وكيف يصنَعُون الآلاتِ، وكيف يَسْتَعْمِلُونَها؛ وفيها نعلّمهم كيف يَبْنُون منازِلَهُمْ، وينسجُونَ ملابِسَهُمْ، ويعدُّون عُدَدَهُمْ؛ وإنّا لا نعرفُ عِلْمًا غيرَ العملِ، ولا نعرفُ من العملِ غيرَ ما نحفظُ به قِوامَ حياتِنا؛ ونستعينُ به على عبادَةِ ربّنا.

قلتُ: ألكُمْ حاكمٌ يتولّى أمورَكُم؟

قال: لنا حكمٌ، لا حاكمٌ، وهو رَجُلٌ قد وثِقْنا به، وبفَهْمِهِ، واستقامَتِهِ، فاختَرنَاهُ لِفَصْلِ الخصوماتِ إنْ عرضَ لنا من ذلك عارضٌ.

قلت: أليس له جندٌ وأعوانٌ يؤيّدونَهُ ويَتَولّون تنفيذَ أحكامِهِ؟

قال: كلّنا جندُهُ، وكلُّنا أعوانُه على كلّ من يختلفُ عليه، أو يتمرَّدُ على حكمِهِ، فقد وثِقْنا به وبعدلِه، وحسبُنا ذلك، وكفَى.

قلت: أليسَ له سِجْنٌ يَسْجُنُ فيه المُجْرِمِين؟

قال: لا، حسبُ المجرمِ عندنا عقوبةً أن يتّفِقَ أهلُ المدينةِ على احتقارِه والزرايةِ به؛ وإنّ أحدَنا لَيُؤْثِرُ أن يتخطّفَهُ الطيرُ، أو يسقطَ عليه كَسْفٌ[1] من السماء على أن يَرى نفسَه بغيضًا إلى قومِهِ، صغيرًا في نفوسِهِم، ذليلًا في أعيُنِهِمْ، لا يرفعُون إليه طَرْفًا، ولا يُقيمُونَ له وَزْنًا.

وما وصَلْنا من حديثِنا إلى هذا الحدّ، حتى كنّا قد فَرَغْنا من الطوافِ بالمدينةِ، ووصَلْنا إلى المنزلِ الذي خرَجْنا منه، فاستَقْبَلَنا أهلُه بالبِشْرِ والترحابِ، واستقبَلُوا شيخَهُمْ بالتقبيلِ والعِنَاقِ. فلم أرَ فيما رأيتُ من البيوتِ في مدنِ العالمِ وقراه بيتًا أسعدَ حظًّا، ولا أنعمَ عَيْشًا ولا أرْوَحَ بالًا من هذا البيت.

تلك هي «مدينةُ السعادةِ» التي يعيشُ أهلُها سعداءَ لا يشكُون همًّا، لأنّهم قانِعُون. ولا يُمْسِكُون في أنفسِهِمْ حِقْدًا، لأنّهم مُتَسَاوُون؛ ولا يَسْتَشْعِرُونَ خَوْفًا، لأنّهُمْ آمِنُون.

تلك «مدينةُ السعادةِ» التي رأيتُها، فأحبَبْتُها وأحبَبْتُ العيشَ فيها، لولا أنّ الله في خلقِه سنّةً لا تتبدّلُ، وشأنًا لا يتحَوّلُ. فقد جاءَ الليلُ، وأخذْتُ مكَاني من مرقدِي في منزلِ الشيخِ، فلم أستيقظْ، حتى رأيتُني في فراشِي في منزلي؛ فلا السهلُ، ولا الجبلُ، ولا الشيخُ ولا المزرعةُ، ولا المدينةُ، ولا السعادةُ:

ولـمّـا نَـزَلْـنـا مَـنْـزِلًا طـلّـهُ الـنّـدَى[2] أنـيـقًـا وبُـسْـتَـانًـا مِـنَ الـنـورِ حَـالِـيَـا

---

(١) الكسف: القطعة.

(٢) طلّه الندى: أمطره الطل، وهو المطر القليل.

أجدّ لنا طِيبُ المكان وحُسْنُهُ مُنًى فتمنّينا فكنت الأمانيا

❀ ❀ ❀

أيها المحزون

إن كنتَ تعلمُ أنك أخذتَ على الدهرِ عَهْدًا أن يكونَ لك كما تُريدُ في جميعِ شؤونِك وأطوارِك.. وألّا يُعطِيَك، ولا يَمْنَعكَ إلّا كما تُحِبّ وتَشْتَهِي؛ فجَدِيرٌ بك أن تطلقَ لنفسِك، في سبيلِ الحزنِ، عِنَانَها كلّما فاتَكَ مأربٌ، أوِ اسْتَعْصَى عليك مطلبٌ.

وإن كنتَ تعلمُ أخلاقَ الأيامِ في أخذِها وردِّها، وعطائِها ومَنْعِها، وأنّها لا تنامُ عن منحةِ تمنَحُها، حتى تكرَّ عليها راجعةً، فَتَسْتَرِدَّها، وأن هذه سُنّتُها، وتلك خلّتُها في جميع أبناءِ آدمَ، سواءٌ في ذلك ساكنُ القَصْرِ، وساكنُ الكوخِ، ومن يَطأُ بنَعْلِه هامَ الجَوْزاءِ، ومن ينامُ على بساطِ الغبراءِ[1]؛ فخفّضْ من حزنِك، وكفكِفْ من دمعِكَ. فما أنتَ بأوّلِ غرضٍ أصابَه سهمُ الزمانِ. وما مصابُك بأوّلِ بدعةٍ طريفةٍ في جريدةِ المصائبِ والأحزانِ.

أنت حزينٌ لأنّ نَجمًا زاهِرًا من الأملِ كان يَتراءَى لكَ في سماءِ حياتِكَ، فيملأُ عَيْنَيْكَ نُورًا، وقلبَك سُرُورًا؛ وما هي إلّا كرّةُ الطرْفِ انِ افتقدتَهُ، فما وَجَدْتَهُ. ولو أنّك أجْمَلْتَ في أملِكَ، لما غَلَوْتَ في حزنِك، ولو أنت أنْعَمْتَ نظرَك فيما تراءى لك، لرأيتَ بَرْقًا خاطِفًا ما تظنُّه نَجْمًا زاهرًا. وهنالك لا يُبْهِرُك طلوعُهُ، فلا يُفْجِعُك أفولُه.

أسعدُ الناسِ في هذه الحياةِ من إذا وافَتْهُ النعمةُ، تَنكَّرَ لها، ونظرَ إليها نظرةَ المستريبِ بها، وتَرقّبَ في كلّ ساعةٍ زوالَها وفناءَها، فإن بقيَتْ في يدِه فذاك؛ وإلّا فقدْ أعدَّ لفراقِها عُدّتَهُ من قَبْلُ.

لولا السرورُ في ساعةِ الميلادِ، ما كان البكاءُ في ساعةِ الموتِ؛ ولولا الوثوقُ بدوامِ الغنى، ما كان الجَزَعُ من الفقرِ. ولولا فرحةُ التلاقِ، ما كانَتْ تَرْحَةُ الفراقِ.

❀ ❀ ❀

إلى الدير

مسكينٌ ذلك الفتى الذي رأيتُه صباحَ أمسِ مُنْزَوِيًا في رُكْنٍ منَ الأركانِ في أحدِ الأنْدِيَةِ، وقد ظلّلَتْ جبينَهُ الوضاحَ سحابةٌ سوداءُ من الحزنِ، وانْحَنَى على نفسِه كأنّما هو يشعُرُ أنّ قلبَهُ يَتَنزّى في صدرِهِ، وأنّه يحاوِلُ الفرارَ منه، وهو يعطفُ عليه، ليُمْسِكَهُ بين جوانِحِهِ، ولو أنّه أرادَ بنفسِهِ خَيْرًا لتَرَكَهُ وشأنَهُ يَمْضِي في سبيلِه حيث شاءَ، فبُعْدًا لقَلْبٍ لا يسكُنُ عن الخَفَقانِ، ولا يُفِيقُ من الهمُومِ والأحزانِ.

---

(١) الغبراء: الأرض.

سألتُهُ: ما بالُك أيُّها الصديقُ؟

قال: لا شيءَ.

قلتُ: أنتَ تكتُمُني ما في نفسِكَ، ولو عَرَفْتَني ما كَتَمْتَني.

قال: ما جَهِلْتُك مذ عَرَفْتُكَ، ولكنّني أعْطَيْتُ اللهَ تعالَى عَهْدًا مذ خُلِقْتُ ألّا أشْكُو إلّا من أرجُو عنده البُرْءَ[١]، وما أنا بِرَاجٍ عندك، ولا عند أحدٍ من الناسِ براء من دائي.

قلتُ: هَبْنِي طبيبًا، والطبيبُ وإنْ كان يَشْفي إلّا نادرًا، فإنّه يُسَكِّنُ غالبًا ويعزّي دائِمًا. فإن أنا عَجِزْتُ عن معالجَتِك، فلنْ أعجزَ عن تَعْزِيَتِكَ، على أنّ الماءَ إذا اشتدّ غَلَيانُهُ، احْتَاجَ إلى التنفيسِ عنه، وإلّا طارَ بالقِدْرِ، طيرانَ الهمِّ بالصّدْرِ.

فأصْغَى إلى كَلماتي، واسْتَخْذَى لها، وأنشأ يُحدّثُني حديثًا تمازجُه العِبَاراتُ وتقَطّعُهُ الزفراتُ، يقولُ: زوّجَني أبي منذُ سنين من زوجةٍ جاهلةٍ غبيّةٍ، لا تفهمُ من معنَى الزواجِ إلّا ما فيه قضاءُ لُبانَتِها[٢]، وترفيهُ عيشِها وأرضاءُ نفسِها، وهو يحسبُ أنّه قد أحسنَ إليّ بسليلةِ المجدِ، وربيبةِ النعمةِ، ومالكةِ الدُّورِ، وساكِنَةِ القُصُورِ.

أجلْ، إنّها ذاتُ مالٍ وفيرٍ، وخيرٍ كثيرٍ، ولكن ذهبَ عنه - غفرَ اللهُ له! - أنّني ما كنتُ أريدُ أن أكونَ تاجرًا أكسبُ مالًا، بل زَوْجًا، وأن أجدَ بجانبي نَفْسًا يؤنِسُني مَحْضَرُها، ويُوحِشُني مغيبُها، ومرآةً صافيةً نقيّةً أتراءى فيها، فتُرِيني نَفْسِي كما هي، لا تكذبُني في خيرٍ ولا شرٍّ، وإنّي أريدُ أنْ أجِدَ في الزوجةِ التي أتزوّجُها صديقًا في المرتبةِ العُلْيَا من مراتبِ الصداقةِ؛ ومن لي به في امرأةٍ تجهلُ حتّى إرضاعَ طفلِها، ولبسَ ثَوْبِها؟!

على أنّ ثروتَها ما كانت تقومُ بحاجَتِها؛ فقد كانت لها خادمٌ لمَلابِسِهَا، وأخرَى لشَعْرِها، وأخْرَى لسَرِيرِها، وطابخةٌ، وغاسلةٌ؛ ومرضعٌ، وقهرمانة[٣]، وخياطةٌ خاصّةٌ بها، وطبيبٌ لا يَغُبّ[٤] عن زيارَتِها، ومُؤْنِسَاتٌ لا يُفارِقْنَ مَجْلِسَها. ولم تكنْ ممّنْ أنعمَ اللهُ عليهِنّ بنِعْمَةِ الجَمَالِ، فكانتْ تُنْفِقُ ما يَزِيدُ عن نصفِ دَخْلِها في الحسنِ المجلوبِ والجمالِ المكذوبِ.

ونَيْتَها كانتْ تغفلُ أمْرِي، وتتركُني وشأني فأستَطِيعُ أن أتنَاسَاها وأعِدُ نَفْسِي منَ العَذَابِ تخيّلًا وتَقْدِيرًا، بلْ كانتْ تُقيمُ عليّ من نفسِها ومن هذا الجَحْفَلِ اللّجِبِ[٥] المحيطِ بها حُرّاسًا كحُرّاسِ الليلِ، وجَوَاسِيسَ كجَوَاسِيسِ الإنكليزِ، يَرْقُبْنَ مواقعَ نظرِي، ومواطِئ قدمي، لتعلمَ أين مذهبُ قلبي، ووجهةُ نفسي.

فتغارُ عليّ من الكواكبِ، إذا رأتْني أنظرُ إليها، وتكادُ تمزّقُ الثوبَ الذي تعلمُ أنّي أُحِبُّهُ وأُؤْثِرُهُ، وتحسبُها آهةَ الوجدِ، أو دَمْعَةً، إذا رأتْني أتأوّهُ من آلامِ عِشْرَتِها أو أبْكِي لعِظَمِ مصيبتي فيها.

---

(١) البرء: الشفاء.

(٢) اللبانة: الحاجة.

(٣) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدخل والخرج.

(٤) يغبّ: يجيء حينًا بعد حين.

(٥) الجحفل اللجب: الجيش ذو الجلبة والصياح.

وما هي بغَيْرَةِ الحبّ، ولكنّها الأَثَرَةُ[1] قبّحَها اللهُ، وقبّح كلَّ مَنْ تأتي به، وأكثرُ ما كان يَغِيظُني منها: أنّها ما كانت تفتحُ عليّ بابَ الحسابِ على اللفتاتِ والخطواتِ إلّا في الساعةِ التي أريدُ أن أخلُوَ فيها بنفسِي أو بكِتابي، فما أكادُ أنتفعُ بواحدٍ منهما.

فإنْ سكَتُّ، أغضَبَها سُكُوتي، وإن نَطَقْتُ، أغضَبَها حَدِيثِي. وإنْ قَرَأْتُ في كتابي، ظنَّتْ أنّ المؤلّفين ما ألّفُوا الكتبَ إلّا نِكَايةً بها لأستطيعَ أنْ أتّخذَها مُعْتَصَمًا اعتصِمُ به مِنْ مُحَادَثَتِها ومُسَامَرَتِها.

فكانَ الكتابُ في نظرِهَا أعْدَى أعْدَائِها، وأبغضَ الأشياءِ إليها؛ وجملةُ القولِ أنّها ما كانَتْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَتَصَوَّرَ إلّا أنّ الله خلقَها لتكونَ طفلةً لاهيةً لاعبةً في جميعِ أطوارِ حَيَاتِها، وأنّه ما خلَقَني، إلّا لأكونَ زِينَةَ مَجْلِسِها ودُمْيَةَ[2] قَصْرِها، وأداةَ لَهْوِهَا ولُعْبِها، فلا أقرأُ ولا أكتُبُ ولا أُعْطِي نفسي حقًّا من حُقُوقِها، ولا أبكّرُ لمُزاوَلَةِ أعْمَالي، ولا أسأمُ أحاديثَها الطويلةَ المملّة التي لا تشملُ إلّا على نَقْدِ الأزياءِ واغْتِيابِ النّساءِ.

فإنْ وافَيْتُ، فذاكَ وإلّا، اسْتَحَالَتْ في لَحْظَةٍ واحدَةٍ من إنسانٍ ناطقٍ إلى وَحْشٍ مُفْتَرِسٍ، فلا تعرفُ كلمةً مؤلمةً لا تُسْمِعُنِيها، ولا تتركُ وسيلةً من وسائِلِ التّنْغِيصِ لا تَهْجمُ بها عليّ. فكنتُ - بين ألمِ رِضَاها وعَذَابِ غَضَبِها - في شقاءٍ حَبَّبَ إليَّ المَوْتَ، وبغّضَ إليَّ وَجْهَ الحَيَاةِ.

وبعدُ؛ فقد رأيتُ أنّ العيشَ معها مُسْتَحِيلٌ، فلَمْ أرَ بدًّا من فِراقِها، ففارَقْتُهَا وما على وَجْهِ الأرضِ شيءٌ أبغضُ إليَّ من المجدِ، ولا أسْمَجُ في نَظَرِي من المالِ.

قلت: ولكنّي لا أزالُ أراكَ حزينًا حتّى الساعةِ.

قال: نعم، لأنّني نفَضْتُ يَدَيّ من الزّوْجَةِ الجاهِلَةِ، ورُحْتُ أفتّشُ عن الزوجةِ المتعلّمَةِ، وقلت: ليكونَنّ لي من الشأنِ في الزواجِ الثاني، ما لم يكُنْ لي في الزواجِ الأوّلِ، بعدما صارَ إليّ الخيارُ، وبعد تلك التجربةِ وذاك الاختيارِ.

فهيّأ ليَ الحظُّ جارًا مُلاصِقًا، ما زلتُ أسْمَعُ مُذْ حلَّ في جواري أنّ في بيتِهِ فتاةً جميلةً ما زال يُعْنَى بأمْرِها حتى خرَّجَها[3]، وأدّبَها، فأصْبَحَتْ نابغةَ مدرسَتِها، وسيّدَةَ أتْرَابِها عِلْمًا وفَضْلًا وتَهْذِيبًا وأدَبًا. فما قنعْتُ بالخبَرِ حتّى خالطتُ أباها، ثم خالَطْتُها، فإذا المرأةُ الجديدةُ من جميعِ وجوهِها، فوقعَتْ في نفسي أحسنَ موقعٍ.

* وحلّتْ مَكَانًا لَمْ يَكُنْ حُلّ مِنْ قَبْلُ *

خَطَبْتُ الفتاةَ إلى أبيها، فما لبثَ أن أخطَبَني[4]، فامْتَلأَ قَلْبِي فَرحًا وسُرُورًا، وخُيّلَ إليّ أنّني أرَى في سماءِ الآمالِ نَجْمًا لامِعًا يُنِيرُ ظلْمةَ حَيَاتي، وسجّلْتُ أنّ الدهرَ أنْشأَ يكفّرُ بحسناتِه ما أسلفَ من سيّئاتِهِ.

---

(١) الأثرة: الأنانية.

(٢) الدمية: الصورة المنحوتة من المرمر، اللعبة.

(٣) خرج الأستاذ تلميذه: هذّبه وعلّمه.

(٤) أخطبه: أجابه.

فإنّي لكذلكَ، وقد أعْدَدْتُ للبناءِ بها عدّتَهُ، ولمْ يَبْقَ بَيْنِي وبينَهُ إلّا يومٌ واحدٌ، إذا بالبريدِ قد هجمَ عليّ بهذا الكتابِ، فهاكَهُ فاقْرأْهُ؛ فإنّ فيه بقيّةَ قصّتِي، وسرّ نَكْبَتِي[١].

ثمّ أَلْقَى إليّ بكتابٍ مُعَنْوَنٍ باسْمِهِ، فَفَضَضْتُهُ، فوجَدْتُ فيه بطاقةً تشتملُ على رسم فتًى حسنِ الصورةِ والهندامِ، يخاصِرُ فتاةً جميلةً، وقد ألقَتْ برأسِها على كَتِفِهِ، ووجَدْتُ معَ البِطَاقَةِ كتابًا فقرأتُ فيه ما يَأْتِي:

«عَلِمْتُ أنّكَ خَطَبْتَ فلانةَ إلى أبيها، وأنّك عمّا قليلٍ سَتَكُونُ زَوْجَها، ولَعَمْرِي لقَدْ كَذَبكَ نَظَرُكَ، وخَدَعَك مَنْ قالَ لكَ إنّكَ ستكونُ سَعِيدًا بها، فإنّها لنْ تَكُونَ لك بعد أنْ صارَتْ لغَيْرِكَ، ولا يَخْلُصُ حبُّكَ إلى قلبِهَا بَعْدَ أنِ امْتَلأَ بحبِّ عاشِقِها، فاعْدِلْ عن رَأْيِك فيها، وانْفُضْ يدَك منها، وإنْ أرَدْتَ أنْ تَعرِفَ مَنْ هو ذلك العاشقُ، وتَتَحقَّقَ صِدْقَ خَبَرِي وإخْلَاصِي إلَيْكَ في نِصيحَتِي، فانْظُرْ إلى الصُّوَرِ المُرْسَلَةِ معَ هذا الكِتَابِ!

التوقيع»

فَمَا نَظَرْتُ الصورةَ، وقَرَأْتُ الكتابَ، حتّى عَرَفْتُ كلَّ شيءٍ، فأحْسَسْتُ برَعْشَةٍ تَتَمَشّى في أعْضَائي، وشَعَرْتُ بسحابَةٍ سوداءَ قد غشتْ على نَظَرِي لهَوْلِ ما سمِعْتُ، وسوءِ ما رَأَيْتُ، إلّا أنّني تَمَاسَكْتُ قليلًا، فأعَدْتُ إليه كتابَه، وقلْتُ له، وهو كلُّ ما اسْتَطَعْتُ أن أقولَ: ماذا يَغْنِيكَ من أمرِ فَتاةٍ عاهِرٍ بعدما انكشفَ لك سِرُّها، وظَهَرتْ لكَ حَقِيقَتُها، ولو كنتُ مكانَكَ لَعَدَلْتُ عنِ الحزنِ على فَوْتِها، إلى الاستغفارِ من حبّها، وحَمْدًا للهِ على ما أَلْهَمَ مِنْ صَوَابِ الرأيِ فيها؛ أمّا إنْ سألتَني عن رأيي في زَوَاجِكَ بعد الآن، فإنّي لا أرَى لك إلّا أنْ تَتَرَهَّبَ وتَتَعَزَّبَ[٢] وأن تقولَ ما قالَه «هملت» وقد زَهِدَ في الزواجِ بعدما عرَفَ حقِيقَةَ المرأةِ، وأدْرَكَ خبِيئَةَ نفسِها: «إلى الدَّيْرِ.. إلى الدّيْرِ».

❃ ❃ ❃

الرحمة

سَأَكُونُ في هذه المرّةِ شَاعِرًا بلا قافيةٍ، ولا بَحرٍ، لأنّي أريدُ أنْ أُخاطبَ القلبَ وَجْهًا لوَجْهٍ، ولا سبيلُ إلى ذلك إلّا سبيلُ الشعرِ.

إنّ البذورَ تُلْقَى في الأرضِ، فلا تنبتُ إلّا إذا حَرَثَ الحَارِثُ تُرْبَتَها، وجَعَلَ عالِيها سافِلَها، كذلك القلبُ لا تبلغُ منه العظةُ، إلّا إذا داخلَتْهُ، وتخلّلَتْ أجزاءَهُ، وبَلَغَتْ سُوَيْدَاءَهُ، ولا محراثَ للقلبِ غيرُ الشعرِ.

أيُّها الرجُلُ السعيدُ: كُنْ رَحِيمًا، اشعرْ قلبَك الرحمةَ، ليَكُنْ قَلْبُكَ الرحْمَةَ بعَيْنِها.

---

(١) النكبة: المصيبة.

(٢) تعزب: أي عاش عزبًا لا يتزوج.

ستقولُ: إنّي غيرُ سعيدٍ، لأنّ بين جنبيّ قَلْبًا يُلِمُّ به من الهَمِّ ما يُلِمُّ بغَيْرِهِ من القلوبِ. أجَلْ، فليَكُنْ ذلك كذلك، ولكنْ أطعِمِ الجائعَ واكْسُ العارِي، وعزِّ المحزونَ، وفرِّجْ كُرْبَةَ المكروبِ، يَكُنْ لك من هذا المجموعِ البائسِ خيرُ عزاءٍ يعزّيك عن همُومِكَ وأحزانِكَ، ولا تَعْجَبْ أن يأتِيَك النورُ من سوادِ الحلكِ، فالبدرُ لا يطلعُ إلّا إذا شقَّ رداءَ الليلِ، والفجرُ لا يدرجُ إلّا من مَهْدِ الظلامِ.

لقد بَلِيَتِ اللذّاتُ كلُّها، ورثَّتْ حِبَالُها، وأصبَحَتْ أثْقَلَ على النفسِ من الحديثِ المُعادِ، ولم يبقَ ما يعزّي الإنسانَ عنها إلّا لذّةٌ واحدةٌ: هي لذّةُ الإحسانِ.

إنّ منظرَ الشاكرِ منظرٌ جميلٌ جذّابٌ، ونغمةَ ثنائِهِ وحَمْدِه أوقعُ في السمعِ من العود في هزجِه ورملِه(١)، وأعذبُ من نغماتِ مَعْبَدٍ في الثقيلِ الأوّلِ(٢).

أحسِنْ إلى الفقراءِ والبائِسينَ، وأعِدُكَ وَعْدًا صَادِقًا أنّك ستمُرُّ في بعضِ لياليكَ على بعضِ الأحياءِ الخاملةِ، فتسمعُ مَنْ يُحدّثُ جارَه عَنْكَ من حيث لا يَعْلَمُ بمكانِك، إنّك أكْرَمُ مخْلُوقٍ، وأشْرَفُ إنسانٍ، ثمّ يعقبُ الثناءَ عليك بالدعاءِ لك أن يُجزيَك اللهُ خَيْرًا بما فعَلْتَ، فيَدْعُو صاحِبَه بدُعائِهِ، ويَرْجُو برَجَائِهِ. وهنالك تَجِدُ من سُرُورِ النّفْسِ، وحُبُورِها بها الذكرَ الجميلَ في هذه البيئةِ الخاملةِ: ما يجِدُهُ الصالحُون إذا ذكرُوا في الملأ الأعْلَى.

لَيْتَكَ تَبْكِي، كلّما وَقَعَ نَظَرُكَ على محزونٍ أو مفؤودٍ(٣)، فتَبْتَسِمُ سُرورًا ببكائِك، واغْتِبَاطًا بدموعِكَ، لأنّ الدموعَ التي تنحَدِرُ على خدَّيْك في مثلِ هذا الموقفِ إنّما هي سطورٌ من نورٍ تسجّلُ لك في تلك الصحيفةِ البيضاءِ: إنّكَ إنسانٌ.

إنّ السماءَ تَبْكِي بدُمُوعِ الغَمَامِ، ويخفُقُ قلبُها بلمَعَانِ البرقِ، وتصرخُ بهديرِ الرّعْدِ، وإنّ الأرضَ تَئِنُّ بحفيفِ الريحِ، وتضجُّ بأمواجِ البحرِ، وما بكاءُ السماءِ ولا أنينُ الأرضِ إلّا رحمةٌ بالإنسانِ، ونحن أبناءُ الطبيعةِ فَلْنُجَارِها في بُكَائِها وأنينِها.

إنّ اليدَ التي تَصُونُ الدّمُوعَ، أفضلُ منَ اليدِ التي تُرِيقُ الدماءَ، والتي تشرحُ الصدورَ، أشْرَفُ منَ التي تَبْقَرُ البطونَ(٤)، فالمُحْسِنُ أفْضَلُ منَ القائدِ وأشْرَفُ منَ المُجاهِدِ، وكمْ بين من يُحْيِي المَيِّت، ومن يُمِيتُ الحَيَّ.

إنّ الرحمةَ كلمةٌ صغيرةٌ؛ ولكن بين لفظِها ومعناها من الفرقِ مثلُ ما بين الشمسِ في منظرِها، والشمسِ في حقيقتِها.

وإذا وجَدَ الحكيمُ بين جوانحِ الإنسانِ ضالّتَهُ من القلبِ الرحيمِ، وجَدَ المُجْتَمَعُ ضالّتَهُ من السعادةِ والهناءَةِ.

---

(١) الهزج والرمل: نوعان من الموسيقى.
(٢) معبد: أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقيل الأول: ضرب من ضروب الغناء.
(٣) المفؤود: المصاب في فؤاده بألم أو غيره. (٤) بقر البطن: شقه.

لو تَرَاحَمَ النّاسُ، لما كان بينهم جائعٌ، ولا مَغْبُونٌ ولا مَهْضُومٌ. ولأقْفَرَتِ الجفونُ مِنَ المدامعِ، ولاطْمَأنّتِ الجنوبُ في المضاجعِ. ولَمَحَتِ الرحمةُ الشقاءَ من المجتمعِ كما يَمْحُو لسانُ الصبحِ مدادَ الظلامِ.

لم يخلقِ اللهُ الإنسانَ ليُقَتِّرَ عليه رزقَهُ، ولم يَقْذِفْ به في هذا المجتمعِ ليَمُوت فيه جُوعًا، بل أرادَتْ حكمَتُه أنْ يخلقَهُ، ويخلقَ له فوقَ بساطِ الأرضِ، وتحت ظلالِ السماءِ ما يكْفِيهِ مؤونَتَهُ، ويَسُدُّ حاجَتَهُ، ولكن سلبَهُ الرحمةَ، فبغَى بعضُه على بعضٍ وغدَرَ القويُّ بالضعيفِ، واحْتَجَنَ دونَه رزقَهُ، فتَغَيَّرَ نظامُ القِسْمَةِ العَادِلةِ، وتَشَوَّهَ وجْهُهَا الجميلُ، ولو كان للرَّحْمَةِ سبيلٌ إلى القلوبِ، لما كان للشقاءِ إليها سبيلٌ.

الفردُ هو المجتمعُ، وإنّما يَتعَدَّدُ بتعَدُّدِ الصّورِ، أتَدْري متَى يَكُونُ الإنسانُ إنْسَانًا؟ مَتَى عَرَفَ هذه الحقيقةَ حقَّ المعرفةِ وأشعرَها نفسَهُ، فخفَقَ قلبُه لخفَقَانِ القلوبِ، وسكَنَ لسُكُونِها، فإذا انقطعَ ذلكَ السلْكُ الكهربائيُّ بينه وبينها، انْفَرَدَ عنها واسْتَوْحَشَ من نفسِه، وإذا كان الأنسُ مأخذَ[١] الإنسانِ المجتمعِ.. فالوَحْشَةُ مأخذُ الوحشِ المنقطعِ.

وجماعُ القولِ أنّه لا يمكنُ أن تجتمعَ رحمةُ الرحماءِ، وشقوةُ الأشقياءِ في مكانٍ واحدٍ، إلّا إذا أمكنَ أن يجتمعَ في بقعةٍ واحدةٍ الملَكُ الرحيمُ والشيطانُ الرجيمُ.

إنّ من الناسِ من تكونُ عندَهُ المعونةُ الصالحةُ للبرِّ والإحسانِ فلا يفعلُ. فإذا مشَى، مشَى مُنْدَفِعًا مَنْدَلِثًا[٢] لا يُلْوِي على شيءٍ ممّا حولَهُ من المناظرِ المؤثّرةِ المحزنةِ، وإذا وقعَ نظرُه على بائسٍ لا يكونُ نصيبُه منه إلّا الإغراقَ في الضحكِ سخريةً به، وببذاءةِ ثوبِه، ودمامةِ خلقِه، وإنّ من الناسِ من إذا عاشرَ الناسَ عاشرَهُمْ ليعرِفَ كيف يَحْتَلِبُ درّتهم[٣]، ويمتصُّ دماءَهُمْ، ولا يعامِلُهُمْ إلّا كما يعامِلُ شُوَيهَاتِه وبقراتِه؛ لا يُطْعِمُها ولا يَسْقِيها إلّا لما يترقَّبُ من الربحِ في الاتّجارِ بألْبَانِها وأصْوَافِها.. ولو اسْتَطَاعَ أن يهدمَ بيتًا ليربَحَ حَجَرًا لفَعَلَ.

وإنّ من الناسِ مَنْ لا حديثَ له إلّا الدينارُ وأين مستقرُّهُ، وكيف الطريقُ اليه، وما السبيلُ إلى حَبْسِه، والوقوفِ في وجهِهِ، والحيطةِ لفرارِهِ؛ يبيتُ ليلَهُ حزينًا كئيبًا لأنّ خزانَتَهُ ينقصُها درهمٌ، كان يتخيَّلُ في يَقْظتِهِ، أو يحلُمُ في منامِهِ أنّه سيأتِيهِ، فلمْ يُقيّضْ له، وإنّ من الناس مَنْ يؤذِي الناسَ لا يجلبُ لنفسه بذلك منفعةً، أو يدفعُ عنها مضرّةً، بل لأنّه شريرٌ يدفعُه طبعُه إلى ما لا يعرفُ وجهُه، أو ليضرّيَ[٤] نفسَهُ بالأذَى مخافَةَ أن ينساهُ عِنْدَ الحاجةِ إليه، حتى لو لم يبقَ في العالمِ شخصٌ غيرُه، لكانَتْ نفسُه مدَبَّ عقاربِهِ وغرضَ سهامِه.

وإنّ من الناسِ من إذا كشفَ لك عن أنيابِه، رأيتَ الدمَ الأحمرَ يَتَرَقْرَقُ فيها، أو عن

---

(١) مأخذ الكلمة: أصل اشتقاقها.
(٢) اندلث: أسرع.
(٣) الدرة: اللبن.
(٤) أضرى فلان كلبه بالصيد، وضرّاه: إذا أغراه به وعوده إيّاه.

أظافِرِهِ، رأيتَ تحتَها مخالبَ حادّةً لا تسترُها إلّا الصورةُ البشريَّةُ، أو عن قلبِه، رأيتَ حَجَرًا صَلْدًا من أحجارِ الغرانيت لا يبضُّ[١] بقَطْرَةٍ مِنَ الرّحْمَةِ، ولا تخلُصُ إليه نسمَةٌ من العِظَةِ.

فيا أيُّها الإنسانُ، احذرِ الحذرَ كلَّهُ أن تكونَ واحدًا من هؤلاءِ، فإنّهم سباعٌ مفترسةٌ، وذئابٌ ضاريةٌ.. بل أعظُك ألّا تدنُوَ من واحدٍ منهم، أو تعترضَ طريقَهُ، فربّما بدَا له أنْ يأكُلَكَ غيرَ حافلٍ بك، ولا آسفٍ عليك.

أيُّها الإنسانُ، ارحمِ الأرملةَ التي ماتَ عنها زَوْجُها، ولمْ يَتْرُكْ لها غيرَ صِبْيَةٍ صِغَارٍ، ودُمُوعٍ غِزَارٍ، ارْحَمْها قبلَ أنْ ينالَ اليأسُ منها، ويعبَثَ الهَمُّ بقَلْبِها فتُؤْثِرَ[٢] الموتَ على الحَيَاةِ.

ارحمِ المرأةَ الساقطةَ، لا تزيِّنْ لها خلالَها، ولا تشترِ منها عِرضَها، علّها تعجزُ عن أن تجدَ مُساوِمًا يساومُها فيه، فتعودَ به سالمًا إلى كسر بيتها.

ارحمِ الزوجةَ أمَّ ولدِك وقعيدةَ بيتِك، ومرآةَ نفسِك، وخادمةَ فراشِك لأنّها ضعيفةٌ، ولأنّ اللهَ قد وَكَلَ أمرَها إليك، وما كان لك أن تكذبَ ثقتَهُ بك.

ارْحَمْ ولَدَكَ، وأحْسِنِ القيامَ على جسمِه، ونفسِه، فإنّك إلّا تَفْعَلْ، قتلتَهُ، أو أشقَيْتَهُ، فكنتَ أظلمَ الظالمين.

ارحمِ الجاهلَ، لا تَتَحَيَّنْ فُرْصَةَ عَجْزِه عنِ الانتِصَافِ لنفسِهِ، فتجمعَ عليه بين الجهلِ والظلمِ، ولا تَتّخِذْ عقْلَهُ مَتْجَرًا تربحُ فيه ليكونَ من الخاسرين.

ارحمِ الحيوانَ لأنّه يُحِسُّ كما تُحِسُّ، ويَتَألَّمُ كما تَتَألَّمُ، ويَبْكِي بغيرِ دُمُوعٍ، ويتوجَّعُ ولا يكادُ يَبِينُ؛ ارحَمْه، وكذِّبْ من يقولُ إنّ الإنسانَ طبعَ على ضرائبِ لؤمٍ، أقلّها أنَّه يقبّلُ يدَ ضارِبِه، ويضربُ مَنْ لا يمدُّ إليه يدًا.

ارحمِ الطيرَ، لا تحبِسْها في أقفاصِها، ودَعْها تَهِيمُ في فَضَائِها حيثُ تَشَاءُ، وتَقَعُ حيثُ يَطِيبُ لها التغريدُ والتنقِيرُ. إنّ اللهَ وَهَبَها فضاءً لا نهايةَ له، فلا تَغْتَصِبْها حقَّها، فتَضَعَها في محبسٍ لا يسَعُ مدَّ جناحِها؛ أطلقْ سبيلَها، وأطلِقْ سمْعَكَ وبصَرَك وراءَها، لتَسْمَعَ تغريدَها فوقَ الأشجارِ، وفي الغاباتِ، وعلى شَوَاطِئِ الأنهارِ، وتَرى منظرَها وهي طائرةٌ في جوِّ السماءِ، فيخيَّلُ إليك أنّها أجملُ من منظرِ الفلكِ الدائرِ، والكوكبِ السيّارِ.

أيّها السعداءُ! أحسِنُوا إلى البائِسين والفقراءِ، وامْسَحُوا دُمُوعَ الأشقياءِ، وارحَمُوا مَنْ في الأرضِ، يرحَمْكُمْ مَنْ في السماءِ.

❋ ❋ ❋

---

(١) بض الدم: سال.

(٢) تؤثر: تفضّل.

رسالة الغفران[١]

غَفَوْتُ إغْفاءَةً طويلةً لا عِلْمَ لي بمَدَاها، ولا بما وقعَ لي فيها، ثمّ صَحَوْتُ، فرأيتُ نَفْسِي في صَحْرَاءَ مدَّ البصرِ مُكْتَظَّةٍ[٢] بأنواعِ من الخَلْقِ لا أُحْصِيهم عَدَدًا، فعلِمْتُ أنّي بُعِثْتُ، وأنّه يومُ القيامةِ، فساوَرَني[٣] من الهَمّ ما ساوَرَني حين ذكَرْتُ أنّ مقدارَهُ ألفُ سنَةٍ من سِنِيّ القيامةِ.

وقلتُ: من لي بالصبرِ على موقفٍ يهلكُ فيه صاحبَه ظَمأً وجُوعًا، ويحترقُ تحت أشعّةِ شمسٍ ليس بينه وبينها، إلّا قَيْدُ ظِفْرٍ.

فتماسَكْتُ بضْعَةَ أشهرٍ، ثمّ لم أجدْ بعد ذلك إلى الصّبرِ سَبِيلًا، فزيّنَتْ لي نفسِي الكاذِبةُ أن أذهبَ إلى رضوانَ خازنِ الجنانِ، وكنتُ أحملُ شهادةَ التوبةِ في يَدِي، لأسترْحِمَهُ، وألْتَمِسَ منه الإذنَ بالدخولِ قبل انْفِضَاضِ المَحْشَرِ.

فما زلتُ أرقِيهِ بقَصَائدِ المدحِ المسوّمةِ[٤] باسْمِه كما كنت أرقي بأمثالِها أمثالَهُ من عظماءِ العاجِلَةِ وسادَتها، فما أبَهَ[٥] لي، ولا فهِمَ كلمةً ممّا أقولُ.

فانْصَرَفْتُ عنه إلى خازنٍ آخرَ اسمُه زُفرُ، فكان شأني معه شأني مع صاحبِه، إلّا أنّه كان أرقَّ منه وألينَ جانبًا، فأشارَ عليّ بالذهابِ إلى النبيّ الذي أتبَعُهُ، وأفْهَمَنِي أنّ الأمرَ مَوْكُولٌ إليه، فعُدْتُ وبين جنبي من الحسرةِ والألمِ ما الله عالمٌ به.

فبينا أنا أتخَلّلُ الصفُوفَ، وأزاحِمُ الوقُوفَ، إذ وقعَ بصري على حلقَةٍ من الناسِ تُحيطُ بشيخٍ هَرِمٍ، وأنعَمْتُ النظرَ فيه، فإذا هو الشيخُ أبو علي الفارسيّ النحويّ، وإذا بالمُحْتَفِينَ به جماعةٌ من شعراءِ العربِ كلّهم يخاصِمُه وكلّهم ينقمُ عليه، هذا يقولُ له: رويتَ بيتي على غيرِ وَجْهِه؛ وذاك يقولُ: أعرَبْتَهُ على غيرِ ما أردتُ وذهبتُ. فدفعني الفضُولُ كما دفعَهُمْ إلى النزولِ في ميدانِهِمْ، فما فَرَغْنا من الرفعِ والنصبِ، والزيادةِ والحذفِ، حتى أدركتُ شؤمَ ما فَعَلْتُ، وعلِمْتُ أنّ شهادةَ التوبةِ قد سقَطَتْ منّي في ذلك المُعْتَرَكِ، فقلتُ: قبّح اللهُ الشعرَ والإعرابَ، واللغةَ والآدابَ، إنّها شُؤْمُ الآخرةِ والأولى.

وقفتُ أحيرَ من ضبّ في حمارّةِ قيظٍ[٦] لا أدْرِي ما آخذُ، وما أدَعُ، حتى رميتُ بطَرْفي، فإذا بأميرِ المؤمنين عليّ بنِ أبي طالبٍ في لفيفٍ من العترةِ[٧] الطاهرةِ النبويةِ.

فدلَفْتُ[٨] إليه، وأبْثَثْتُهُ[٩] أمْري، وأمرَ الشهادةِ المفقودةِ، فقالَ: لا عَلَيْكَ، ألكَ شاهِدٌ بالتوبةِ؟

---

(١) هي خلاصة رسالة أبي العلاء المعرّي.
(٢) مكتظّة: مملوءة، مزدحمة.
(٣) ساورته الهموم: صارعته.
(٤) المسوّمة: المعلمة.
(٥) أبه: اهتمّ.
(٦) الحمارّة: شدّة الحرّ.
(٧) العترة: العشيرة.
(٨) دلف: مشى مشيًا متثاقلا.
(٩) أبثّه السرّ: كاشفه.

قلت: نعم.

فنودِيَ بشُهودِي، فشهِدُوا بتَوْبتي، فقالَ: تريّثْ[1] قليلًا حتّى تمرَّ فاطمةُ بنتُ محمدٍ، فنسألَها في أمرِك، فهي تمتُّ إلى أبيها بما لا نُمتُّ به[2]. وكانتْ ممّنْ قُسِمَ لهم دخولُ الجنةِ قَبْلَ فَصْلِ القضاءِ، إلّا أنّها كانت تخرجُ كلّ حينٍ للتسليمِ على أبيها، ثمّ تعودُ إلى مستقرِّها.

فإنّا لكذلك، وإذا بمُنادٍ يُنادِي أن غضُّوا أبصارَكُمْ، يا أهلَ الموقفِ، حتّى تعبرَ فاطمةُ بنتُ محمّدٍ ﷺ. فهرَعْتُ إليها، فرأيتُها راكبةً مع إخوتِها وجَوارِيها على أفراسٍ من نورٍ.

وتقدَّمَ من وعَدَني بسُؤَالِها في أمرِي، فأنْجزَ وَعْدَهُ، فقالتْ لأخِيها إبراهيمَ: دُونك الرجلَ.

فقال: تعلّقْ برِكَابي، فَتَعَلَّقْتُ، فطارتِ الأفراسُ في الهواءِ تقطعُ الأجيالَ، وتَتَخطّى رُؤُوسَ القُرُونِ، حتّى وافَيْنا محمّدًا ﷺ، واقِفًا لشَهادةِ القضَاءِ. فقصَّتْ عليه فاطمةُ ما علِمَتْ من أمرِي، فراجعَ الديوانَ الأعظمَ، فوجَدَ اسْمِي في التائبينَ، فشفَعَ لي، فعدتُ في رَكْبِ فاطمةَ فَرِحًا مُسْتَبْشِرًا، وما كنتُ أقدرُ أنّ بين يدي عقبةَ الصراطِ.

فلمّا وافيتُه وجدْتُني لا أستمسِكُ عليه لرقّتِه، فأمرَتْ فاطمةُ جاريةً من جَوارِيها أن تعبرَ معي، فأمْسَكَتْ بيَدِي. فمشيتُ أترنَّحُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ، وخِفْتُ السقوطَ، فقلتُ لها: أحمِلِيني زَقْفونةَ. فقالتْ: وما زَقْفُونة؟

فقلت: أما سمِعْتِ قولَ الجَحْجَلولِ من أهلِ كفر طاب:

صلُحَتْ حالَتِي إلى الخلفِ حتّى   صرتُ أمشي إلى الوَرَا زَقْفُونة

فقالت: ما سمِعْتُ بزقفونةَ ولا الجَحْجَلُولِ ولا كفر طاب.

فقلتُ: ألقِي يدي فوقَ كتفَيْكِ، وأجْعَلُ بطني إلى ظهرِك.

فحمَلَتني، وجَازَتْ بي الصّراطَ كالبرقِ الخاطفِ، حتّى صِرْتُ إلى بابِ الجنّةِ، فرمْتُ الدخولَ، فوقفَ رضوانُ في وجهِي وقال: أين جَوَازُك[3]؟

فبَعِلْتُ[4] بالأمرِ؛ ثم رأيتُ في دهليزِ الجنّةِ شجرةَ صفصافٍ، فعالجْتُه على أنْ يُعطِيَني منها ورقةً أعودُ بها إلى الموقفِ، لأستكتبَ عليها الجوازَ فأبَى.

فقلتُ، وقد ملكَ الهمُّ على رُشْدِي وصَوَابي: أما والله، لو أنّك حارسٌ على أبوابِ الكرماءِ، أو خازنٌ لخزائنِ الملوكِ والأمراءِ، لما وصلَ شاعرٌ إلى درهمٍ، ولا سائلٌ إلى سَحْتُوتٍ[5]، ولهلكَ الفقراءُ بُؤْسًا وجُوعًا.

فسمِعَ إبراهيمُ عليه السلام حِواري، فجذَبَني جذبةً حصّلني بها في الجنّةِ، وصاحبي ينظرُ

---

(١) تريث: تمهّل.
(٢) تمتّ بالشيء: تتوسّل به.
(٣) الجواز: صكّ المسافر، الأذن.
(٤) بعل بأمره: دُهِش وتحيّر.
(٥) السحتوت: في الأصل، السويق القليل الدسم، وهنا، كلّ شيء قليل.

إليّ شَزَرًا[١]، فدخلتُ، فرأيتُ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ.

رأيتُ أنهارًا من الماءِ العذبِ أصْفَى من أديم السماءِ، وأصقلَ من مرآةِ الحسناءِ، تنصبُّ فيها جداولُ من الكوثرِ، إذا جرَعَ الشاربُ منها جُرْعَةً جرعَ ماءَ الحياةِ، وأمنَ أن يذوقَ كأسَ المنونِ مرّةً أخرى، ورأيتُ جداولَ تفيضُ بالراحِ فَيْضًا، قد زُيّنَتْ حَوافِيها بأباريقَ من العسجدِ، وكؤوسٍ من الزبرجدِ، فما نهلتُ منها نهلةً حتى قُلْتُ: لو كُشِفَ لأهلِ العاجلةِ عمّا في هذه الخمرةِ من اللذّةِ لا يشوبُها كدَرٌ، والنشوةِ التي لا يعقُبُها خُمَارٌ[٢] ما باعوا قطرةً منها بكلّ ما تشتمِل عليه بابلُ وقطربلُ[٣] من البواطي[٤] والدنانِ، ولو نظرَ الأقيشرُ الأسديُّ بعينِ الغيبِ إلى عسجدِ هذه الأباريقِ، وزبرجدِ تلك الكؤوسِ، لخجِلَ من نفسِه أن يقول:

أفْنَى تِلَادِي وما جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ ... قَرْعُ القَوازِيزِ[٥] أفْوَاهَ الأبارِيقِ

وفي تلك الأنهارِ آنيةٌ ترفرفُ فَوْقَ سَطْحِها على صورةِ الطّيُورِ كالكَراكِي والطواويسِ، والبطّ، والعندليبِ ينحدرُ من مناقيرِها شرابٌ أرقُّ منَ السرابِ، وتسبَحُ فيها أسماكٌ من الذهبِ والياقوتِ:

يعُمْنَ فيها بأوْسَاطٍ مُجَنَّحَةٍ[٦] ... كالطَّيْرِ تَنْشُرُ في جَوٍّ خَوافِيهَا

ورأيتُ أنهارًا من لبَنٍ، وأنهارًا من عسَلٍ لا يُدْرِكُ الوهمُ كنهَهُ إلّا إذا أدركَ ما يمتصُّ نحلُ الجنّةِ من أزهارِها وأنوارِها.

رأيتُ جميعَ تلك الأنهارِ مكبّرةً، ثم تمثّلَتْ في نظري مصغّرةً، فإذا هي سطورٌ من النورِ، وأحرفٌ بيضاءُ في صحيفةٍ خضراءَ، قرأتُها، فرأيتُها «مثلَ الجنّةِ التي وُعِدَ المتّقون؛ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّرْ طعمُه، وأنهارٌ من خمرٍ لذّة للشاربين، وأنهارٌ من عسَلٍ مصفّى، ولهُم فيها من كلّ الثمراتِ».

ظَلَلْتُ أمشي، فما أكادُ أخطُو خطوةً حتى أرَى منظرًا عَجَبًا يُنسّي السابقَ، ويُشوّقُ إلى اللاحقِ، فودِدْتُ لو طُوِيَتْ ليَ الأرضُ طيًّا، فأتعجَّلُ النظرَ إلى ما غابَ عنّي من الجنّةِ وبدائِعها.

فما أخذَ هذا الخاطرُ مكانَه من نفسي حتّى رأيتُ بين يدَيّ فرَسًا من الجوهرِ المتخيّرِ، مسرَجًا، ملجَمًا، فعلِمْتُ أنّي قد سُعِدْتُ وأنّها الأمنيّةُ التي كنتُ أتمنّاها، فعلوتُ ظهرَهُ، وغمزْتُه غمزةً خرجَ بها خروجَ الوَدَقِ[٧] من السحاب، والسيفِ من القرابِ[٨]، وعلى ما جَهَدْتُهُ[٩] لم يَشْكُ إليّ ما شَكَاهُ جوادُ عنترةَ العبسيّ إليه في قوله:

فازْوَرّ من وقْعِ القَنا بلَبانِهِ ... وشَكَا إليّ بعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

---

(١) النظر الشزر. الممتلئ غيظًا. (٢) الخمار: صداع الخمر.

(٣) بلدان معروفان بجودة خمرهما.

(٤) البواطي: ج الباطية، وهي إناء للشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه.

(٥) القوازيز: جمع قازوزة، وهي قدح للشراب. (٦) مجنّحة: ذات أجنحة.

(٧) الودق: المطر. (٨) قراب السيف: غمده.

(٩) جهدته: أتعبته.

أو ما شكاه جوادُ عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله:

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرْيَ لما جَهَدْتُه وبيّنَ لَوْ يَسْطِيعُ أنْ يَتَكَلَّمَا(١)

ذكرتُ أنّي، وأنَا في الدارِ الفانيةِ كنتُ أسمَعُ بذِكْرِ الذاهبين الأوّلين منَ الأدباءِ والشعراءِ والرواةِ، فآسفُ على أنْ لمْ أكُنْ في زمنِهِمْ أراهُمْ وأحضَرُ مجالِسَهُمْ، فقلتُ: لَيْتَ شِعْري ما فَعَلَ اللهُ بهم في هذه الدارِ، وهلْ سُعِدُوا أو شقُوا، وهل يقيِّضُ لي من رؤيَتِهِمْ في دارِ البقاءِ، ما لم يقيّضْ في دار الفناءِ؟

ثم رميتُ بطَرْفي، فإذا فارسٌ يُحْضِرُ فرسَهُ(٢) في الهواءِ إحْضارًا حتّى تقارَبنا، فتَماستِ الركبُ، واختلفَتِ الأعناقُ، فقال: انْتَسِبْ.

فقلتُ: فلانٌ، ومَنْ أنت يرحَمُك اللهُ، وقد فَعَلَ؟

فقال: عديّ بن زيد العبادي، فدُهِشْتُ وقلتُ: عُديّ ابن زيد في الجنّةِ بعد الزّيغِ والضلال؟

فقال أنا عيسَوِيّ، وأنت محمّديّ، وليس لصاحِبك على أحدٍ حجّةٌ إلّا بَعْدَ ظهورِهِ، وبلوغِ دعوتِه.

فقلتُ: لا نكرانَ؛ ولكن كيف لم يقعدْ بك فُسْقُكَ وشرابُك، وأين استِهْتَارُك في قولك:

بَكَرَ العاذِلُون في وضَحِ الصُّبْحِ يقُولُون لي أمَا تَسْتَفِيقُ

وَدَعُوا بالصبوحِ فَجْرًا فجاءَتْ قَيْنَةٌ في يمينِهَا إبْرِيقُ

قال: غَفَرَ اللهُ لنا ما غَفَرَ لكُمْ.

قلت: هل لك علْمٌ بجماعةٍ من الشعراءِ والرواةِ، فقد تمنّيتُ على اللهِ أن أراهُمْ، فكنتَ عنوانَ الكتابِ وفاتحةَ الإجابةِ!

فقال: اصْحَبْني.

فطارَتْ بنا الخيلُ، فقلتُ له: هل آمنُ ألّا يقذفَ بي هذا السابحُ على صخرةٍ من الزمرّدِ، أو هَضْبَةٍ من الياقوتِ، فيكسرَ لي عَضُدًا أو ساقًا؟

فَتَبَسَّمَ، وقال: أين يذهبُ بك؟ نحن في دارِ الخلودِ والبقاءِ.

مَرَرْنا بروْضَةٍ من رياضِ الجنّةِ يخترقُها غديرٌ خَمْرِيٌّ على شاطئِه جمعٌ كثيرٌ على سُررٍ متقابِلين، أو على الأرائك مُتكئين، فهوَى صاحبي بفرسِه، فهويتُ هويَهُ، وقلنا سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُمْ، فنعمَ عُقْبى الدارِ، فرحّبُوا بنا وهشُّوا للقائِنا وانْتَسَبْنَا فتعَارَفْنا. ثم أخذُوا فيما كانُوا فيه، فإذا الأصمعيّ يُنْشِدُ مَرْوِيّاتِه، وأبو عبيدةَ يسردُ وقائعَ الحروبِ ومقاتلَ الفرسانِ، وإذا سيبويهِ والكسائيّ متصافيان بعد أنْ وقعَ بينهما في مجلسِ البرامكةِ ما وقعَ، وأحمد بن يحيى لا يضمرُ لمحمدّ بن زيد من المَوْجِدَةِ ما كان يضمرُ، وأخذَتْ تهبُّ من ناحيةِ النهرِ نفحةٌ عطريّةٌ ذكَرَتْني بقَوْلِ أعْشَى ميمون:

* مثلُ ريحِ المسكِ ذاكٍ ريحُها *

---

(١) الكميت: الفرس الأحمر الضارب إلى السواد. (٢) أحضر الفرس: عدا شديدًا.

وعلى ذِكْر الأعشَى ذكَرْتُ مصرعَهُ وشقاءَهُ، وقلتُ في نفسي: لولا أنّ قُريشًا صدّته عن الإسلام، لكان اليومَ بيننا في مجلِسنا هذا. فسمعْتُ هاتفًا مِنْ وَرَائي يَقُولُ: أنا بينَكُمْ، وفي مجلِسِكُمْ، فالتَفَتُّ فإذا الأعْشَى ميمون، فلمْ أدْرِ من أيّ مدخلَيْه أعجَبُ، أمِن مدخلِه إلى الجنّةِ؟ أم من مدخلِه إلى نفسِي، وعلمه بما هجسَ في صَدْرِي؟ فعلِمْتُ أنّ أهلَ الجنّةِ ملْهَمُون، ثم سألتُه: كيف غَفَرَ لك؟ فقال: سَحَبْتَني الزّبانِيَةُ إلى سقرٍ[1]، فرأيتُ في عرصَاتِ القيامةِ رجُلًا يتلألأُ وجهُهُ تلألُؤَ القمرِ، والناسُ يهتِفُون به من كلّ جانب: الشفاعةَ يا محمّد، فأخَذْتُ أخذَهُمْ، وهتفتُ هتافَهُم.

فأمرَ أن أدنُوَ منه، فدنَوْتُ فسألَني: ما حرمَتُكَ؟

فقلتُ: أنا القائل:

أَلَا أيُّهذا السّائِلُ إن يَمَّمْتُ	فإنّ لها في أهلِ يَثْرِبَ موعِدَا
فآلَيْتُ لا أَرْثِي لها من كَلَالَةٍ	ولا مِنْ وَجًى حتّى تُلاقِي محمّدا
متى ما تناخى عِنْدَ بابِ ابنِ هاشم	تَرَاخَى وتَلْقَي من فواضِلِهِ نَدَا
نبيّ يَرَى ما لا تَرَوْنَ وذكرُهُ	أَغارَ لعَمْرِي في البلادِ وأنْجَدا

فقال: ما سمِعْتُها منك قبل اليوم، فقلت: خَدَعَتْني عنك الناسُ بعدما شَدَدْتُ راحِلَتي إليك، وكنتُ رجلًا أحبُّ الشرابَ. وخفتُكَ عليه أن تفرّق بيني وبينه.

فشفعَ لي، فدخَلْتُ الجنّةَ على ألّا أذوقَ فيها الخمرَ، فقنَعْتُ بالرّضابِ عن الشرابِ، وبماءِ الثغرِ المنضودِ عن ماء العنقودِ، ورأيتُ بجانبه شابًا ريّقَ الشبابِ، فسألتُ عنه فقيل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدتُ أصدّقُ أنّه القائل:

سئِمْتُ تكَالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ	ثَمانِينَ حَوْلًا لا أبا لك يَسْأَمِ

فقلت له: بم غَفَرَ اللهُ لك؟

فقال: كنت في جاهِليّتي أترَقّبُ مَبْعَثَ محمّدٍ، وأتمنّى البقاءَ حتى أراه، فحالَ بيني وبينه الموتُ؛ فأوصَيْتُ به ابْني كَعْبًا وبُجيرًا، وكنت أؤمنُ بالحسابِ، فما نَفَعَني شيءٌ ما نَفَعني قولي:

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكُمْ	ليَخْفَى ومهما يُكْتَم اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتَابٍ ويُدَّخَرْ	ليَوْمِ الحِسَابِ أو يُقَدَّمْ فيُنْقَمِ

وإلى جانبِ زُهَير، عُبيد بنُ الأبرصِ، فسألتُه عن مصيرِ أمرِه؟

فقال: كُتِبَ ليَ النارُ، فما زالَ الناسُ يهتِفُون بقَوْلي:

مَنْ يَسْأَلِ الناسَ يحرمُوهْ	وسَائِلُ اللهِ لا يَخِيبُ

والعذابُ يُخفّفُ عنّي شيئًا فشيئًا، حتى خَرَجْتُ ببركةِ هذا البيت من الجَحِيم إلى النعيم.

ذَهَبْنا في الحديثِ كلَّ مذهبٍ، وذهبَ بعضُنا إلى ارْتِشَاف الخَمْرِ من النهرِ، في آنيةِ الدرِّ،

---

(١) سقر: جهنّم.

فانْتَشَيْنَا جميعًا. فما أفَقْنا إلّا على حفيفِ رفّ[1] من أوز الجنّةِ نَزَلَ بنا، ثم انتفضَ عن كواعبَ أترابٍ يغنّين بالمزاهرِ والآلاتِ الثقيلَ والخفيفَ والهزجَ، فما أتَيْنَ على الألحانِ الثمانيةِ حتى دارَتْ بنا الأرضُ الفضاءُ، وحتّى ملَكَنا من الطربِ ما يستخفُّ الحلومَ ويطيرُ بالهمومِ، وقلنا: لو عَلِمَ جبلةُ بن الأيهمِ بما نحن فيه، لقرعَ السنّ على أن باع دينَه بسرورٍ محدودٍ وأنسٍ معدودٍ، ودفٍّ وعودٍ.

ذكَرْتُ جبلة فذكَرْتُ لذكرهِ النارَ وقوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[2] فتمَنّيتُ أن أطلعَ فأرَى المعذّبين كما رأيتُ المنعّمِينَ؛ فألهمتُ الإذنَ؛ فأشرتُ لصاحبي، فقامَ وقُمْتُ، ورَكِبْنا فرسَيْنا، فطارَتا بنا حتى انْتَهَيْنا إلى سورِ الجنّةِ، فرأَينا عنده من الداخلِ كوخًا يسكنُهُ شَيْخٌ زريُّ الهيئةِ، فأشرَفْنا عليه فقال: لا تَعْجَبُوا لشأني، أنا الحُطَيْئةُ؛ فواللهِ، لولا أنّي صدَقْتُ مرّةً واحدَةً في حياتي في قولي:

أرَى لـي وَجْـهًـا شـوَّهَ اللهُ خـلـقَـهُ ... فَـقُـبِّـحَ مِـنْ وَجْـهٍ وقُـبِّـحَ حـامِـلُـهْ

لَمَا دَخَلْتُ الجنّةَ، ولما أدْرَكْتُ كوخًا ولا حجرًا؛ فترَكْناه، وطلَعْنا، فما رآنا أهلُ النارِ، حتّى ضجُّوا بصوتٍ واحدٍ «أن أفيضُوا علينا من الماءِ أو ممّا رزقَكُمُ اللهُ» فرأينا ملُوكًا وأكاسِرَةً يَتَضاغُون[3] في السلاسِلِ والأغلالِ ويقُولُون: «ربّنا أرْجِعْنا نعْمَلْ صالحًا غير الذي كنّا نعملُ»، فيهتِفُ بهم هاتف «أولم نعمّرْكُمْ؟ ما يتذكّرُ فيه من تذكّرَ وجاءكم النذيرُ فذُوقُوا فما للظالمين من نصيرٍ».

ورأيتُ بجانِبي امرأةً تَبَيّنْتُها فإذا هي الخنساءُ، تطلعُ مثلَنا، فترى رجُلًا كالجبَلِ الأشمّ على رأسِه شعلةٌ منَ النارِ. فتَمْتَعِضُ وتقولُ: يا صخرُ، هذا تأويلُ قولي فيك من قبلُ:

وإنّ صَـخْـرًا لـتَـأْتَـمُّ الـهُـدَاةُ بـهِ ... كـأنَّـهُ عَـلَـمٌ فـي رأسِـهِ الـنّـارُ

ورأيتُ هناك كثيرًا من أمثالِ امْرئِ القيسِ وعنترةَ وعمرو بنِ كلثوم وطرفةَ بن العبدِ؛ ورأيتُ بشّار بنَ بردٍ تُفتحُ عيناهُ بكلاليبَ من نارٍ، وكلّما اشتدّ به الألمُ، رفَسَ إبليسَ برجْلِهِ، وقالَ له ما كنتُ لأدخلَ النارَ لولا قولي فيك:

إبْـلِـيـسُ أفْـضَـلُ مِـنْ أبـيـكُـمْ آدم ... فَـتَـبَـيَّـنُـوا يـا مَـعْـشَـرَ الأشْـرَارِ

الـنّـارُ عُـنْـصُـرُهُ وآدمُ طـيـنَـةٌ ... والـطّـيـنُ لا يَـسْـمُـو سُـمُـوَّ الـنّـارِ

وجَزِعْنا منَ المَنْظَرِ، فهَمَمْنَا بالرجُوعِ؛ وإذا إبليسُ يَهْتِفُ بنا: يا أهلَ الجنّةِ، بلّغُوا عنّي أباكُم آدمَ أنّي لم أدْخلِ النارَ بسبَبِهِ حتى أخذتُ معي أكثرَ وُلْدِه وأفلاذِ كبِدِهِ، فلا يهنأ كثيرًا بمصِيري.

فقلنا: قبّحَهُ اللهُ، ما يزالُ ينفّسُ على آدمَ نعمتَهُ حتى اليوم، فما كان لنا همٌّ بعد رجوعِنا إلّا لقاءُ أبينا آدمَ عليه السلام. فلقَيْناهُ، فبلّغْنَاه الرسالةَ، فقالَ: وارْحَمْتَاهْ له! ما كان بينه وبين

---

(١) الرف: السرب من الطير.
(٢) الصافات: ٥٥.
(٣) يتضاغون: يتألّمون.

الإيمانِ إلّا القليلُ، فأرْدَاهُ الحَسَدُ، فكانَ من المُهْلِكِينَ. فقبّلْنا يدَهُ وانْصَرَفْنا إلى ما أعدَّ الله لنا من ملكٍ كبيرٍ، وجنّةٍ وحريرٍ، وحورٍ وولدانٍ، كأنَّهُمُ الياقوتُ والمرجانُ، فحَمَدْنا الله الذي هدَانا لهذا، وما كنا لنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدَانا الله.

❁ ❁ ❁

عبرة الدهر

بنَى فلانٌ في روضةٍ من بساتِينِهِ الزاهِرَةِ قَصْرًا فَخْمًا، يتلألأُ في تلك البقعةِ الخضراءِ تلألؤَ الكوكبِ المنيرِ في البقعةِ الزرقاءِ، ويطاوِلُ بشُرفَاتِهِ الشمّاءِ[١] أفلاكَ السماءِ، كأنّه نسرٌ محلّقٌ في الفضاءِ، أو قرطٌ معلّقٌ في أذنِ الجوزاءِ، وكأنّ شرفاتِهِ آذانٌ تُفضِي إليها النجومُ بالأسرارِ، وطاقاتِهِ أبراجٌ تتنقلُ فيها الشموسُ والأقمارُ.

شـادَهُ مَـرْمَـرًا وجـلّـلَـهُ كِـلْـسًـا فـلـلـطـيـرِ فـي ذُراه وكُـورُ

ولم يدعْ ريشةً لمصوّرٍ، ولا ليقةً[٢] لرسّامٍ إلّا أجْرَاها في سُقوفِهِ وجُدْرانِهِ، وطاقاتِهِ وأركانِهِ، حتّى ليُخَيّلَ إلى السالِكِ بين أبهائِهِ[٣] وحُجُراتِهِ، ومحاريبِهِ وعرَصَاتِهِ[٤] أنّه يَتَنَقّلُ من روضةٍ تُزهِرُ بالورودِ الحمراءِ، والأنوارِ البيضاءِ، إلى باديةٍ تسنَحُ فيها الذئابُ الغبراءُ؛ والنمورُ الرقطاءُ، ومن ملعبٍ تصيدُ فيه الظباءُ الأسُودَ، إلى غابٍ تصيدُ فيه الأسودُ الظباءَ.

وأنْشَأَ في كُبْرَى ساحاتِهِ، وأوسعِ باحَاتِهِ: صِهْريجًا من المَرْمَرِ، مستديرًا يضُمُّ بين حاشِيَتِهِ فوّارةً ينفرُ الماءُ منها صُعُدًا كأنّه سيفٌ مجرّدٌ، أو سهمٌ مسدَّدٌ، فيُخَيَّلُ إلى الرائي أنّ الأرضَ تثأرُ لنفسِها من السماءِ، وتَتَقاضَاها ما أراقَتْ منها الدماءِ، تلك تقاتِلُها بالرّجُومِ والشهبِ، وهذه تحاربُها بالسهامِ والقضبِ.

وغرسَ حَوْلَ دائرةِ الصهريجِ دوائرَ من شَجَراتٍ مؤلفاتٍ ومختلفاتٍ، وأغصانٍ، صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ، إذا رنَّحَتْها نسائمُ الأسحارِ، رقصَتْ فوقَ بساطِ الأزهارِ، وتحت ظلالِ الأثمارِ، فغنّتْ على رقْصِها الأطيارُ، غناءَ الأغاريدِ لا غناءَ الأوتارِ، وادّخَرَ فيه لنَعِيمِهِ وبُلَهْنِيتِهِ[٥] ما شاء الله أن يدّخرَ من نضائِدَ[٦] ومقاعدَ، ووسائدَ ومساندَ، وفرشٍ وعرشٍ، وكِلَلٍ[٧] وحجلٍ[٨] وتماثيلَ

(١) الشمّاء: العالية.
(٢) ليقة الدواة: صوفتها.
(٣) الأبهاء، جمع بهو، وهو البيت المقام أمام البيوت للضيوف.
(٤) المحراب هنا: صدر البيت، والعرصات، جمع عرصة: وهي ساحة الدار.
(٥) بلهنية العيش: سعته.
(٦) النضائد: ج النضيدة، وهي الوسادة.
(٧) الكلل: ج كلّة، وهي الستر الرقيق.
(٨) الحجل: ج الحجلة وهي ستر العروس في جوف البيت.

وتهاويلَ[١]، وصحافٍ من ذهب كاللهب، وأكوابٍ من بلّورٍ كالنور، وأقفاصٍ للحمائمِ والنسورِ، ومقاصيرَ للسباعِ والنمورِ، وعرباتٍ وسياراتٍ، وجيادٍ صافناتٍ، ووصائفَ وولائدَ، تُحيطُ بالمجالسِ والموائدِ، إحاطةَ القلائدِ. . بأعناقِ الخرائدِ، وخدمٍ حسانٍ، تنتقلُ في الغُرَف والقيعانِ، تَنقُّلَ الولدان في غُرفِ الجنانِ.

في ليلةٍ من ليالي الشتاءِ حالكةِ الجلبابِ، غدافيةِ[٢] الإهاب، أفاقَ صاحبُ القَصْرِ من غشيتِهِ، فتحرَّكَ في سريرِهِ، وفتحَ عينَيْهِ، فلمْ يرَ أمامَهُ غيرَ خادمِهِ «بلال»، وهو خصيٌّ أسْوَدُ من ذَوِي الأسنانِ، ربّاه صغيرًا، وكفِلَهُ كبيرًا، وكان يجمعُ بين فضيلتَيْ الذكاءِ والوفاءِ، فأشارَ إليه إشارةَ الوالهِ المتهلّفِ أن يأتيَهُ بجرعةِ ماءٍ، فجاءَ بها، فتساندَ على نفسِه حتّى شربَ.

وكأن الماءَ قد حلّ عُقْدَةَ لسانِه، فسألَهُ: في أيِّ ساعةٍ من ساعاتِ الليلِ نحن يا بلالُ؟

فأجابه: نحن في الهزيعِ الأخيرِ يا سيّدي.

فقال: ألمْ تعُدْ سيّدَتُك إلى الآن؟

قال: لا.

فامتعضَ امتِعَاضًا شديدًا، وزفَر زفرةً كادَتْ تخترقُ حجابَ قلبِه، ثم أنشأ يتكلَّمُ كأنّما يحدّثُ نفسَه ويقولُ: إنّها تعلمُ أنّي مريضٌ، وأنّي في حاجةٍ إلى من يسهَرُ بجانِبِي، ويتعهَّدُ أمري، ويرفّهُ[٣] عنّي بعضَ ما أعالِجُه، وليس بن سكانِ القصرِ من هو أولى بي وأقومُ عليّ منها. وأينَ وفاؤُها الذي كانت تزعَمُهُ، وتُقْسِمُ لي بكلِّ مُحْرِجَةٍ من الأيْمانِ عليه؟ أين حبُّها الذي كانت تهتفُ به في صَبَاحِها ومسائِها، وبكورِها وأصائِلها؟ أينَ النعيمُ الذي كنت أقلّبُها في أعطافِه، والعيشُ الذي كنتُ أُرْشِفُها كؤوسَه؟ أإن علمَتْ أنّي أصْبَحْتُ بين حَياةٍ لا أرجُوها، ومَوْتٍ لا أجِدُ السبيلَ إليه، برمَتْ[٤] بي، واسْتَثْقَلَتْ ظِلّي، واسْتَبْطَأَتْ أجَلي، واسْتَطالَتْ ضَجْعَتي، فهي تفرُّ من وجْهي كلَّ ليلةٍ إلى حيث تجدُ لذّاتِ العيشِ ومواطنَ السرورِ. آهِ من العيشِ ما أطولَهُ! وآهِ من الموتِ ما أبْعَدَهُ!

ما زال يُحدِّثُ نفسَهُ بمِثْلِ هذه الأحاديثِ، حتى هاجَ ساكِنُهُ، واضْطَرَبَتْ أعصابُه، فعاوَدَتْهُ الحمّى، وغلَى رأسُه بنارِها غليانَ القِدْرِ بمائِها، فسقَطَ على فراشِه ساعةً تجرّعَ فيها من كأسِ الموتِ جُرَعًا مريرةً، بيد أنّه لشقائِه لم يأتِ على الجُرْعَةِ الأخيرةِ منها.

أفاقَ من غشيَتِهِ مرَّةً ثانيةً، فلم يرَ بجانِبِهِ تلك التي تسيلُ نفسُه حسراتٍ عليها، فسألَ الخادمَ: ألا تعلمُ أين ذهبَتْ سيّدَتُك يا بلال؟

قال: خيرٌ لك ألّا تنتظِرَها، يا مولايَ، وألّا تلُومَها في بُعْدِها عَنْكَ؛ فإنّ لها عند بعضِ الناسِ دَيْنًا، فهي تخرجُ كلَّ ليلةٍ لتَتَقَاضَاهُ.

---

(١) التهاويل: النقوش والصور.

(٢) غدافية الإهاب: شديدة السواد.

(٣) رفه عنه: نفّس عنه وخفّف.

(٤) برم به: سئمه وضجر منه.

قال: ما عرفتُ قبلَ اليومِ أن بينها وبين أحدٍ من الناسِ شيئًا من ذلك، ومتى كان الدائنُ يَتَقاضَى دينَه في مثلِ هذه الساعةِ من الليلِ؟ وهل أعْياها أن تَجِدَ من يقومُ لها بذلك، فهي تتولّاه بنفسِها؟ وهل فرغَتْ من أمرِ دَيْنِها بعد اختِلافِها إليه سنةً كاملةً؟

قال: إنّ بينها وبين غريمِها صكًّا مكتُوبًا أن يؤدّيَ ما عليه من الدّينِ أقْسَاطًا في كلّ ليلةٍ قِسْطٌ، على أن تتناوَلُه بيدِها، وأن تكونَ مواعيدُ الوفاءِ أُخْرَياتِ الليالي.

قال: ما سمِعْتُ في حياتي بأغربَ من هذا الدينِ، ولا بأعْجَبَ من هذا الصّكِّ! ومن هو غريمُها؟

قال: أنتَ يا سيّدي.

فنظرَ إليه نظرةَ الحائرِ المشْدُوهِ[1] وقال: إنّي أكادُ أُجَنُّ لغرابةِ ما أسمَعُ، وأحسبُ أنّك هاذٍ فيما تقولُ أو هازئٌ.

فدنَا منه الخادمُ وقال: واللهِ، يا سيّدي، ما هزأتُ في حياتي ولا هذَيْتُ، ألَا تذكُرُ تلك الليالي الطوالَ التي كنت تَقْضِيها خارجَ المنزلِ بين شهوةٍ تطلبُها، وكأسٍ تشرَبُها، وملاعبَ تجرّرُ فيها أذيالَكَ، ومراقِصَ تهتكُ فيها أموالَكَ، تاركًا زوجَتَك في هذه الغرفةِ على هذا السريرِ تشكُو الوحشةَ، وتَبْكِي الوحدَةَ، تتقلّبُ على أحرَّ من الجَمْرِ شَوْقًا إليك ووَجْدًا عليك، فلا تعودُ إليها إلّا إذا شابَ غُرابُ الليلِ، وطارَ نَسْرُ الصّباحِ؛ إنّك سلَبْتَها تلك الليالي السابقةَ، فأصبَحْتَ غريمَها فيها، فهي تَسْتَرِدُّها منك اليومَ ليلةً ليلةً حتّى تأتيَ عليها، ذلك هو دَيْنُها وهذا غريمُها.

ألا تذكرُ أنّك كنتَ في لياليك هذه ربّما تحبسُ الزوجةَ عن زوجِها وتملكُها عليه، وهو واقفٌ موقِفَك هذا في حسرتِكَ هذه، يبكي ما تبكي ويندبُ ما تندبُ؟ ذلك الزوجُ هو الذي يتقاضَاكَ اليومَ حقَّهُ، ويأبَى إلّا أنْ يأخُذَهُ عَيْنًا بعَيْنٍ، ونَقْدًا بنَقْدٍ، فهو يَفْجعُك في زَوْجَتِك كما كُنتَ تفجعُه في زوجَتِه، ويقضُّ[2] مَضْجَعَك كما تقضُّ مَضْجَعَهُ، وأنا أُعيذُكَ بعدلِك وإنصافِك أن تكونَ من لواةِ الدين، أو تكُونَ من الظالمين.

قال: حسبُك يا بلال؛ فقد بلغتَ منّي، وإنّ لي في حاضِرِي ما يشغَلُني عن ماضي، فادْعُ لي ولَدي.

قال: لم يَعُدْ يا سيّدي من الوَجْهِ الذي بعثتَه فيه حتى الآنَ.

قال: لا أذكُرُ أنّي بعثتُهُ في وَجْهٍ ما، وأينَ ذَهَبَ؟

قال: ذهبَ إلى الحانةِ التي يختلفُ إليها، ولن يَرْجِعَ منها حتّى يرتَوِيَ، ولن يرتويَ حتى يعجزَ عنِ الرجوعِ. إنّني طالما وقفتُ بين يدَيْكَ يا مولايَ ضارِعًا إليكَ أنْ تَحُولَ بينه وبين خُلَطاءِ السوءِ، وعُشَراءِ الشرّ حتى لا يُفْسِدُوه عليك، فكنتَ تُعْرِضُ عنّي إعراضَ من يَرى أنّ

---

(١) المشدوه: المدهوش. (٢) أقضّ مضجعه: جعله خشنًا.

تدليلَ الولدِ وترفيهَهُ[١]، وأرخاءَ العِنانِ له عنوانٌ من عناوينِ العظمةِ، ومظهرٌ من مظاهرِ الأبّهةِ والجلالِ؛ كنتُ أسالُك أن تُعَلِّمَهُ العِلمَ، وأن تُهدِيَهُ إلى طريقِ المدرسةِ، لِيَضلَّ عن طريقِ الحانةِ، فكنتَ ترى أنّ الذي يحتاجُ إلى العلم إنّما هو الذي يرتزقُ منه، وإنّ ولدَكَ عن ذلك من الأغنياءِ، فلا تَشْكُ من عَمَلِ يدَيْك، ولا تَبْكِ من جِنَايةِ نفسِكَ عليك، فأنتَ الذي أرسلتَهُ إلى الحانةِ، وأنتَ الذي أبقيتَهُ فيها إلى مثلِ هذه الساعةِ من الليلِ، وأنت الذي أبعَدْتَهُ عن فراشِكَ أحوجَ ما كنت إليه.

وما وصلَ الخادمُ من حَديثِهِ إلى هذا الحدِّ، حتّى نَصَلَ[٢] الليلُ من خضابِه، واشتعلَ المبيضُ في مسودّه، وإذا صوتُ الناعورةِ، يرنُّ في بستانِ القصرِ رنينَ الثّكلى فقدَتْ واحِدَها، فقال السيّد: هاتِ يدَكَ يا بلالَ، واحْمِلْني إلى جوارِ النافذةِ، لأروِّحَ عن نَفْسِي بَعْضَ ما ألمَّ بها، أو أودعَ إلى جانبِها نسماتِ الحياةِ. ثم اعْتَمَدَ على يدِه حتّى وصلَ إلى النافذةِ، فجلسَ على مُتَكَأ طويلٍ، وألقَى على البستانِ نظرةِ طويلةً، فرأى البستانيّ وزوجَهُ جالسَيْنِ إلى الناعورةِ، وقد برقَتْ بوارِقُ السعادةِ من خلالِ أثوابِهما الباليةِ بريقَ الكواكبِ المنيرةِ من خلالِ السحبِ المتقطِّعَةِ.

رآهما متحابَّيْن متعاطفَيْنِ؛ لا يتعاتَبانِ ولا يَتَشاحَّان[٣]، ولا يشكوَانِ همًّا، ولا يندُبانِ حظًّا؛ رآهما قويَّيْنِ نشيطَيْنِ يَجْرِي دَمُهُما في عروقِهِما صافيًا متسلسِلًا، وكأنّهما يحاوِلانِ أن يخرُجا من إهابِهِما[٤] مرَحًا ونَشاطًا؛ رآهُما راضِيَيْنِ بما قسمَ اللهُ لهُما من خشونةِ الملبَسِ وجُشُونَةِ[٥] المطعَم، فلا يتشهّيان، ولا يتمنّيان، ولا ينظرَانِ إلى ذلك القَصْرِ الشامِخِ المطلِّ عليهما نظراتِ الهمِّ والحسرةِ؛ سمِعَهُما يتحدَّثان، فأصْغَى إليهما. فإذا البستانيُّ يقولُ لزوجِهِ: واللهِ لو وُهِبَ لي هذا القصرُ بريَاضِهِ وبساتِينِه، وآنيَتِهِ وخرثيه[٦]؛ على أن تكونَ لي تلك الزوجةُ الخائنةُ الغادرةُ، لفضَّلْتُ العيشَ فوقَ صخرةٍ في منقطعِ العمرانِ، على البقاءِ في مثلِ هذا المكانِ أقاسي تلك الهمومَ والأحزانَ.

فقالت: لا أحسبُ أنّ سيّدَنا ينجُو من خطرِ هذا المرضِ، فقد مرَّ به على حالِه تلك عامٌ كاملٌ، وهو يزدادُ كلَّ يومٍ ضَعْفًا ونُحولًا.

قال: قد علِمْتُ أن الطبيبَ قد نفضَ يدَه من الرجاءِ فيه، وأضْمَرَ اليأسَ منه. ولا عجبَ في ذلك، فإنّه ما زالَ يسرفُ على نفسه، ويذهبُ بها المذاهبَ كلّها حتّى قتَلَها.

قالتْ: ما أشْقَاهُ! أكانَتْ نفسُه عدوّةً إليه، فجنَى عليها هذا الشقاءِ، وذلك البلأ؟

قال: ما كان عدوًّا لنفسِه، ولا كانت نفسُه عدوّةً إليه، ولكنّه كان رجُلًا جاهِلًا مغرُورًا، غرَّهُ

---

(١) رفهه: جعله مرفهًا، أي لين العيش.
(٢) نصل: خرج.
(٣) يتشاحّان: يتخاصمان.
(٤) الإهاب: الجلد.
(٥) جشونة المطعم: خشونته.
(٦) الخرثي: محتويات البيت.

شبابُهُ، ومالُه، وعزُّه، وجاهُه، فظنَّ أنّه قد أخذَ على الدهرِ عَهْدًا بالسلامةِ والبقاءِ. فانْطَلَقَ في سبيلِه لا يلوي على شيءٍ ممّا وراءه، حتّى سقَطَ في الحُفْرةِ التي احْتَفَرَها لنَفْسِه.

قالتْ: أتعلَمُ ماذا يكونُ حالُ هذا القصرِ من بعدِه؟

قال: أعلمُ أنّه سيكُونُ لولدِه.

قالتْ: ولكنّني أعلمُ أنّه سيكُونُ لفلانٍ.

قال: إنّ فلانًا ليس وريثَ السيّدِ، بل صديقُهُ.

قالت: إنّه ليس بصديقِ السيّدِ، بل صديقَ السيّدةِ، فهو خاطبُ زوجتِه قبل وفاتِه، وزوجُها بعد مماتِه.

فما سمِعَ السيّدُ هذه الكلماتِ، حتّى اضطربَ اضطِرابًا شدِيدًا، وسقطَ عن كرسيّه وهو يقولُ: أشهَدُ أنّي من الأشقياءِ. وما زال في غشيَتِه تلك حتى صَحَا صَحْوَةَ الموتِ، وفتحَ عينَيْه، فرأى بين يدَيْهِ هذا المنظرَ المحزنَ المؤلمَ.

رأى ولدَهُ لاهِيًا بمحادَثَةِ فتاةٍ من فتياتِ القصرِ، ورأى زوجَتَهُ تُضَاحِك تِرْبًا من أترابِها، وتغمزُها بطَرْفِها أن قد حانَ حينَه، ودَنا أجَلُه، ورأى صديقَه أو وليّ عهدِه يأمرُ في القصرِ وينْهى، ويتصرَّفُ تصرّفَ السيّدِ المطاعِ، ورأى نفسَه يعالجُ سكراتِ الموتِ، ويعدُّ عدّتَه للانتقال من القصرِ إلى القبرِ. وهنا سَمِعَ كأنّ هاتفًا يهتِفُ به من السماءِ ويقولُ: أيُّها الرجُلُ، لو وفيتَ لزوجِك لوفَتْ لك، ولو أدَّبْتَ ولدَك لعنَاه أمرُك، ولو أحْسَنْتَ اختِيارَ صديقِكَ ما خانَك، ولو رحمتَ نفسَك ما خسِرْتَ حياتَك. فأغمضَ عينَيْهِ وهو يقولُ «فلتَكُنْ مشيئَةُ اللهِ».

وهكذا فارقَ هذا المسكينُ حياتَه مفْجُوعًا بزوجَتِهِ ووَلَدِهِ، وصديقِه، ونفسِه، وبستانِه، وقصرِه:

رُبَّ رَكْــبٍ قَــدْ أنــاخُــوا حَــوْلَــنَــا	يَـشْـرَبُـون الـخَـمْـرَ بـالـمـاءِ الـزُّلَالِ
عَـصَـفَ الـدَّهْـرُ بِـهِـمْ فـانْـقَـرَضُـوا	وكَـذَاكَ الـدّهْـرُ حـالًا بَـعْـدَ حَـالِ

❋ ❋ ❋

افسدك قومك

أيُها المُجْرِمُ الفاتِكُ الذي يَسْلُبُ الخزائنَ نفائِسَها، والأجْسَامَ أرْوَاحَها، لستُ أحمِلُ عليك من العتبِ فوق ما يَحْتَمِلُه ذَنْبُك، ولا أنظرُ إليك بالعينِ التي نظرَ بها إليك القاضي الذي قَسَا في حُكْمِهِ عليك، لأنّي أعْتَقِدُ أنّ لكَ شركاءَ في جَرِيمَتِك. فلا بُدَّ لي من أنْ أُنصِفَك، وإنْ كُنْتُ لا أستَطِيعُ أنْ أنْفَعَك.

شريكُكَ في الجريمَةِ أبُوكَ، لأنّه لم يَتَعَهّدْكَ بالتربيةِ في صِغَرِك، ولم يَحُلْ بينك وبين مخالَطَةِ

المُجْرِمِينَ، بل كثيرًا ما كان يُبَخْبِخَ[1] لك، إذا رآكَ هجَمْتَ على تِرْبكِ وضَرَبْته، ويُصفِّقُ لك، إذا رأى أنّك قد تَمَكَّنْتَ من اختِلاسِ دِرْهَمٍ من جَيْبِ أخِيكَ، أو اختِطَافِ لقْمَةٍ من يَدِه. فهو الذي غرسَ الجريمةَ في نفسِكَ، وتعهَّدَها بالسُّقيا، حتّى أيْنَعَتْ، ونَمَتْ، وأثْمَرَتْ لك هذا الحَبْلَ الذي أنت معلَّقٌ به اليومَ، وها هو ذا الآن يذرفُ عليك العَبَراتِ، ويصعّدُ الزفراتِ، ولو عرَف أنّها جريمَتُهُ، وأنّها غَرْسُ يمينِه، لضَحِكَ مسْرُورًا بغَفْلَةِ الشرائعِ عنه، وسجَدَ للهِ شُكْرًا على أن لم يكُنْ حَبْلُكَ في عُنُقِهِ وجامِعَتُكَ[2] في يدِه.

شريكُكَ في الجريمَةِ هذا المجتمعُ الإنسانيُّ الفاسدُ الذي أغرَاكَ بها، مهَّدَ لك السبيلَ إليها، فقد كان يُسَمِّيكَ شُجَاعًا، إذا قَتَلْتَ، وذكيًّا فَطِنًا، إذا سَرَقْتَ، وعالِمًا، إذا احْتَلْتَ، وعاقِلًا، إذا خَدَعْتَ. وكان يَهابُك هَيْبَتَهُ للفاتِحِينَ، ويُجِلُّك إجْلَالَهُ للفاضِلِينَ. وكثيرًا ما كنتَ تُحِبُّ أنْ تَرى وجْهَك في مرآتِه وَجْهًا أبيضَ ناصِعًا، فتَتَمَنّى أنْ لو دامَ لك هذا الجمالُ؛ ولو أنّه كان يؤثرُ نُصْحَك ويصدُقُكَ الحديثَ عن نفسِك، لمثّلَ لك جريمَتَك بصورَتِها الشوهاءِ؛ وهنالك ربّما وددتَ بجَدْعِ الأنفِ لو طواك بطنُ الأرضِ عنها، وحالَتْ المنيَّةُ بَيْنَكَ وبينَهَا.

شريكُكَ في الجريمةِ حكُومَتُكَ؛ لأنّها كانَتْ تَعْلَمُ أنّ الجريمَةَ هي الحلقةُ الأخيرةُ من سلسلةٍ كثيرةِ الحلقاتِ، وكانَتْ تَراك تُمْسِكُ بها حلقَةً وتعلَمُ ما سيَنْتَهِي إليه أمرُك، فلا تَضْرِبُ على يَدِك، ولا تَعْتَرِضُ سَبِيلَك؛ ولو أنّها فَعَلَتْ لمَا اجْتَرَمْتَ، ولا وصَلْتَ إلى ما إليه وصَلْتَ.

كانت حكومَتُكَ تستطيعُ أن تُعَلِّمَكَ وتهذِّبَ نفسَكَ، وأنْ تغلقَ بين يديك أبوابَ الحاناتِ والمواخيرِ، وأنْ تحولَ بينَك وبين مخالطةِ الأشرارِ بإبعادِهِمْ عنك، وتشريدِهِمْ في مجاهِلِ الأرضِ ومخارِمِها[3]؛ وأن تُعْدِيكَ[4] على قِتيلِكَ قَبْلَ أن يبلُغَ حِقْدُك عليه مَبْلَغَهُ من نفسِكَ؛ وأن تُحْسِنَ تأديبَك في الصغيرةِ قبلَ أنْ تَصِلَ إلى الكبيرةِ؛ ولكنّها أغْفَلَتْ أمْرَك، فنامَتْ عَنْكَ نَوْمًا طَوِيلًا، حتّى إذا فَعَلْتَ فِعْلَتَكَ، استَيْقَظَتْ على صَوْتِ صُرَاخِ المَقْتُولِ، وشمَّرَتْ عن ساعدِها لتمثّل مَنْظَرًا من مناظرِ الشّجاعَةِ الكاذبةِ، فاسْتَصْرَخَتْ جُنْدَها؛ واسْتَنْصَرَتْ قُوَّتَها، وأعَدَّت جذعَها وجلّادَها؛ وكان كلُّ ما فَعَلَتْ أنّها أعْدَمَتْكَ حَيَاتَك.

هؤلاءِ شُرَكَاؤُكَ في الجريمَةِ. وأُقْسِمُ لو كنتُ قَاضِيًا، لأعْطَيْتُك من العقوبةِ على قَدْرِ سَهْمِك في الجريمَةِ، ولجَعَلْتُ تلك الجزوعَ قِسْمَةً بينك وبين شُرَكَائِك، ولكنّي لا أستطيعُ أن أنْفَعَكَ.

فيا أيُّها القَتِيلُ المَظْلُومُ: رَحْمَةُ اللهِ عليك.

❁ ❁ ❁

(١) بخبخ: قال له «بخ بخ». (٢) الجامعة: الغلّ.
(٣) المخارم: ج المخرم، وهو الطريق في الجبل أو الرمل.
(٤) تعديك: تنصرك.

الصدق والكذب

جاءَني هذا الكتابُ من أحَدِ الفُضَلاءِ.

يا صَاحِبَ النظراتِ:

سمِعْتُ بالصّدْقِ، وما وعَدَ اللهُ به الصادِقِينَ من حُسْنِ المَثُوبَةِ وجَزِيلِ الأجْرِ، وسمِعْتُ بالكذِبِ، وما أعَدَّ اللهُ للكاذِبينَ من سُوءِ العذابِ وأليم العقابِ، وقرأتُ ما كَتَبَهُ حكماءُ الأُمم من عهدِ آدمَ إلى اليوم، وإجْماعِهِمْ أنّ الصدقَ فضيلةُ الفضائلِ، والأصلُ الذي تتفرّعُ عنه جَمِيعُ الأخلاقِ الشريفةِ، والصفاتِ الكريمةِ؛ وأنّه ما تَمسَّكَ به مُتَمَسِّكٌ، إلّا كان النجاحُ في أعمالِه ألْصَقَ به من ظلِّهِ؛ وأعْلَقَ به من نفسِه.

سَمِعْتُ هذا، وقَرَأْتُ ذاك، فلم يبقَ في نفسِي رَيْبٌ في أنّ ما أنا مَرْزُوءٌ به في حظّي من الشّقاءِ، وعَيْشِي من الضَّنْكِ[1]، وحَياتي من الهمومِ والأكدارِ، إنّما جرَّه عليّ شؤمُ الكذبِ، وأنّ ما كنتُ أتَخيَّلُه قبلَ اليومِ من أنّ هناك مواقفَ يكونُ فها الكذبُ أنفعَ من الصّدقِ، وأسلمَ عاقبةً، إنّما هو ضَرْبٌ من ضروبِ الوَهْمِ الباطلِ.. ونَزْعَةٌ من نزعاتِ الشيطانِ. فعاهَدْتُ اللهَ ونفسي ألّا أكذبَ ما حَيِيتُ، وأعدَدْتُ لذلك القَسَمِ العَظيمِ عُدّتَهُ من شَجَاعةِ نفسٍ، وقوّةِ عزيمةٍ بعدما وجّهتُ وجْهِي إلى اللهِ تعالى، وسألتُهُ أن يُمدَّني بمعونَتِهِ ونصْرِهِ.

ها أنا ذاكرٌ لك مواقفَ الصّدقِ التي وقَفْتُها بعد ذلك العَهْدِ، وما رأيتُه من آثارِهَا ونتائِجِهَا.

المَوْقفُ الأوّلُ: جَلَسْتُ في حانُوتي، فما وقفَ بي مساوِمٌ إلّا صَدَقْتُهُ القَوْلَ في الثمنِ الذي اشتريتُ به السلعةَ، والربحِ الذي أُريدُهُ لنفسي منها، والذي لا أستطيعُ أنْ أعُدَّ نفسي رابحًا، إذا تجاوَزْتُ عن بَعْضِهِ؛ فيأبَى إلّا الحَطِيطَةَ[2]، فآبَاهَا عَلَيْهِ، فينصرفُ عنّي اسْتِثْقَالًا للثمنِ، واستعْظامًا لقَدْرِهِ، وما هو إلّا الربحُ الذي اعْتَدْتُ إنْ آخُذَه منه في مثل تلك الصّفْقَةِ، إلّا أنّني كنت أكذبُ عليه في أصْلِ الثّمنِ فيصغرُ في نظرِهِ الربحُ. فلمّا صَدَقْتُه عنه أعْظَمَهُ، وانصرفَ عنّي إلى سواي.

ولم أزلْ على هذه الحال، حتّى أظَلَّني الليلُ، ولم يَفْتَحِ اللهُ عليَّ بقُوتِ يَوْمي. وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ، حتّى عُرِفْتُ في السوقِ بالطّمَعِ والمغالاةِ، فأصْبَحْتُ لا يَطْرُقُ بابَ حانوتي طارقٌ.

الموقف الثاني: جَلَسْتُ في مجلِسٍ يتصدَّرُه شيخٌ من تُجّارِ العقولِ الضيِّقَةِ المعروفين بمشايخِ الطّرُقِ، وقد حفّ به[3] جماعةٌ من عَبَدَتِهِ وسدَنَتِهِ[4] هيكَلِهِ، فسَمِعْتُه يشرَحُ لهم معنَى التوكُّلِ شَرْحًا غريبًا، يذهَبُ فيه إلى أنّه القعودُ عن العمَلِ، وإلْقاءُ حَبْلِ هذا الوجودِ على غارِبِه[5]،

---

(١) الضنك: الضيق.
(٢) الحطيطة: إخفاض الثمن.
(٣) حف به القوم: أحاطوا به.
(٤) السدنة: ج السادن، وهو الحاجب أو الخادم.
(٥) ألقى الحبل على الغارب: هذا مثل يضرب تركته يذهب حيث يشاء ويعمل ما يريد.

وإعراضٌ عن كلِّ سَعْيٍ يؤدّي إلى أيّةِ غايةٍ، ويعتَمِدُ في هَذَيانِهِ هذا على آياتٍ يؤوّلُها كما يشاءُ، وأحاديثَ لا يستَنِدُ في صحّتِها على مستَنَدٍ سِوَى أنّه سمِعَها من شيخِهِ، أو قرأها في كتابِهِ.

وأكثرُ ما كان يدورُ على لسانِه حديثُ «لو توكَّلْتُمْ على اللهِ حقّ توكّلِهِ لرَزَقَكُمْ كما تُرْزَقُ الطيرُ تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوحُ بِطَانًا»[١].

فقلتُ له، وقد أخذَ الغيظُ من نفسي مأخذَهُ: يا شيخُ، أرَدْتَ أنْ تحتجَّ لنفسِك فاحْتَجَجْتَ عليها. أتعمَدُ إلى حديثٍ يستَدلُّ به رواتُه على وجوبِ السعيِ والعملِ، فتَسْتَدِلّ به على البَطالةِ والكَسَلِ.

ألَمْ ترَ أنّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى ما ضمنَ للطيرِ الرواحَ بطانًا إلّا بعدَ أن أمرَها بالغدُوّ، وهي التي ترويها القَطْرَةُ، وتُشْبِعُها الحبَّةُ. فكيفَ لا يأمرُ الإنسانَ بالسّعْيِ، وهو مَنْ لا تَفْنى مطالِبُه، ولا تَنْتَهِي رَغَباتُهُ؟

أيّها القومُ، إنّكُمْ تقولُونَ بألسِنَتُكُمْ ما ليس في قلُوبِكُم. إنَّكُمْ عجزْتُم عن العمَلِ، وأخْلَدْتُمْ[٢] إلى الكسَلِ، وأردْتُمْ أن تُقيمُوا لأنفسِكُمْ عُذْرًا يدفَعُ عنكُمْ هاتَيْنِ الوَصْمَتَيْنِ، فسمّيْتُمْ ما أنتُمْ فيه تَوَكُّلًا، وما هو إلّا العَجْزُ الفاضحُ، والإسْفَافُ الدنيءُ.

وهنا زَفَرَ الشيخُ زفرةَ الغَيْظِ، ونادَى في قومِه: أنْ أخرِجُوا هذا الزنديقَ المُلحِدَ من مَجْلِسي، فتألّبُوا عليّ تألُّبَهُمْ على قصاعِ الثريدِ، وأوسَعُوني لَطْمًا وصَفْعًا، ثمّ رَمَوا بي خارجَ البابَ، فما بلَغْتُ مَنْزِلي حتى هلكْتُ أو كِدْتُ، فما مرَرْتُ بَعْدَ ذلك بطائِفَةٍ من العامّةِ إلّا رَمُوني بالنظرِ الشَّزْرِ، وعاذُوا باللهِ من رُؤْيَتي كما يَعُوذُونَ بِهِ من الشيطانِ الرجيمِ.

الموقفُ الثالثُ: لا أكْتُمُكَ يا سيّدِي، أنّي كنتُ أبغضُ زَوْجَتي بُغْضًا يَتَصَدَّعُ له القلبُ، غيرَ أنّي كنتُ أصانِعُها، وأتودّدُ إليها، وأمنَحُها من لساني ما ليس له أثرٌ في قَلْبِي، مُدَاوَرَةً لها، وإبْقاءً على ما تحتَوِيهِ يَدِي من صُبَابَةِ مالٍ كانَتْ لها.

فرأيتُ أنّ ذلك أكذبَ الكذبِ وأقبحَهُ، فآليتُ على نَفْسِي ألّا أسدِلَ بعدَ اليومِ من دونها حِجَابًا يحولُ بينها وبين سَرِيرَتي، فانْقَطَعَ عن مسْمَعِها ذلك السلسبيلُ العذبُ من كلِمَاتِ الحبِّ، فاستَوْحَشَتْ منّي، وأظْلَمَ ما بيني وبينها، فما هي إلّا عشيّةٌ أو ضُحَاها، حتى وهَنَتْ تلك العقدةُ، وانْحَلَّ ذلك الوثاقُ، وخُتِمَتْ سورةُ الفراقِ بآيةِ الطلاقِ.

الموقفُ الرابعُ: حضَرْتُ مُجْتَمَعًا يضمُّ بين حاشِيَتِهِ جَمَاعَةً من الفُضُولِيّين الذين تضيقُ بهم مذاهبُ القولِ، فيَلْجَأُون إلى الحديثِ عن الناس وتَتَبّعِ عثراتِهِمْ، ويُحاوِلُون أن ينبشُوا دفائنَ صدُورِهِمْ، ويتَغَلْغَلُوا في أطواءِ سَرَائِرِهِمْ؛ ويُغالُون في ذلك مغالاةَ الكيميائيّ في تَحْليلِهِ وتَرْكِيبِهِ.

---

(١) الخماص ج الخميص، وهو ضامر البطن، والبطان: ج البطين، وهو ممتلئ البطن.

(٢) أخلدتم: لجأتم.

فرأيتُهُم يَتَناوَلُون بألْسِنَتِهِمْ رجُلًا عظِيمًا من أصحابِ الآراءِ السياسيّةِ لا أعْتَقِدُ أنّ بين السالِكينَ مَسْلَكَهُ والآخذين أخْذَهُ مَنْ أخلَصَ لأمّتِهِ إخلاصَهُ، أو وقفَ المواقفَ المشهورةَ وقُوفَهُ؛ أو لاقَى في ذلك السبيلِ من صدماتِ الدهرِ وضربَاتِ الأيامِ ما لاقاهُ.

سمِعْتُهُمْ يُسمُّونَهُ خائِنًا، فواللهِ لأنْ تَقَعَ السماءُ على الأرضِ أحَبُّ إليّ من أن يُتَّهَمَ البريءُ، أو يُجازَى المُحْسِنُ سُوءًا على إحْسَانِهِ؛ سمِعْتُ ما لم أمْلِكْ نفسي معه؛ فقلتُ يا قومُ، أتُطالِعُون من كتابِ الحرّيةِ مائة صفحةٍ ونيفًا، ثم لا تزالون عَبِيدَ الأوهامِ، أسْرَى الخيالاتِ، سِراعًا إلى كلّ داعٍ، سعاةً معَ كلّ ساعٍ، تنظرونَ بغيرِ رويَّةٍ، وتحكُمُون بغيرِ عِلْمٍ، إنّكُمْ بعمَلِكُم هذا تُزْهِدُون المُحْسِنَ في إحسانِهِ؛ وتُلْقُونَ الرعبَ في قلبِ كلّ عاملٍ يَعْمَلُ لأجْلِكُمْ؛ وتُثَبّطُونَ همّةَ كلِّ من يُحدِّثُ نفسَهُ بخدْمَتِكُمْ وخِدْمَةِ قَضِيّتِكُمْ.

أليس ممّا يُلقي في النفسِ اليأسَ من نجاحِكُمْ وصلاحِ حالِكُم، أنْ نَراكُمْ طُعْمَةَ كلِّ آكلٍ؛ ولُعْبَةَ كلّ لاعبٍ؟ ويَسْتَهْوِيكُمُ الكاذبُ بالكلِمَاتِ التي تَسْتَهْوِي بها المُرضِعَاتُ أطْفَالَهُنّ، ثم يدْعُوكُمْ إلى مُنَاوَأةِ الصادقِ، فَتَمْنَحُون الأولَ وُدَّكُمْ وإخلاصَكُمْ، والثاني بُغْضَكُمْ ومَوْجِدَتَكُمْ.

خاطَبْتُهُمْ بهذه الكلِمَاتِ أريدُ بها خَيْرًا لهم، فأرَادُوا شَرًّا بي! فما خلصْتُ من بينهم إلّا وأنا ألمُسُ رأسي بيَدِي لأعْلَمَ أين مكانُها مِن عُنُقِي!

الموقفُ الخامسُ: قابَلَني في الطريقِ شاعرٌ يَحْمِلُ في يَدِهِ طُومَارًا[1] كبيرًا، وكنتُ ذاهِبًا إلى مَوْعِدٍ لا بُدَّ لي من الوَفاءِ به، فَفرَضَ عليَّ أن يُسْمَعَني قَصِيدَةً من طريفِ شِعْرِهِ، وأنا أعلمُ الناسِ بطريفِه وتَليدِهِ، فاسْتَعْفَيْتُهُ بَعْدَ أنْ كاشَفْتُه بعُذْرِي، فأبَى.

فانْتَحَيْتُ به ناحيةً منَ الطريقِ، فأنشَأَ يَترنَّمُ بالقصِيدَةِ بيتًا بيتًا، وأنا أشْعُرُ كأنّما يجرّعُني السُمّ قَطْرَةً قَطْرَةً، حتى تمنَّيتُ أنّه لو ضَرَبني بها جُمْلَةً واحدةً يكونُ فيها انْقِضَاءُ أجَلِي ليُرِيحَني من هذا العذابِ المتقطّعِ والتمثيلِ الفظيعِ.

وكلّما أتَى على بَيْتٍ منها أقْبَلَ عليّ بوَجْهِهِ، وأطالَ النظرَ في وجْهِي وحَدَّقَ في عينَيّ، ليَعْلَمَ كيفَ كان وَقْعُ شِعْرِهِ مِنْ نَفْسِي، فإذا رأى تَقْطيبَ وَجْهِي ظنَّهُ تَقْطِيبَ الشاربِ لارتشافِ الكأسِ، فيستمرُّ في شأنه حتّى أنْشَدَ نَحْوَ خَمْسين بَيْتًا.

ثمّ وقفَ وقالَ: هذا هو القسمُ الأوّلُ من أقْسامِ القصيدَةِ.

فقُلْتُ: وكم عددُ أقْسامِها يَرْحَمُكَ اللهُ؟

قال: عَشَرَةٌ ليس فيها أصْغَرُ من أوّلِها.

قلتُ: أتأذَنُ لي أن أقولَ لك، يا سيّدي، إنّ شِعْرَكَ قَبيحٌ، وأقْبَحُ منه طُولُه، وأقبحُ من هذا وذاكَ صوتُكَ الخشنُ الأجشُّ، وأقبحُ الثلاثةِ اعتقادُكَ أنّي من سخافةِ الرأيِ، وفسادِ الذوقِ بحيثُ يُعْجِبُني مثلُ هذا الشّعرِ الباردِ عَجَبًا يسهلُ عليّ فواتُ الغرضِ الذي ما خرجْتُ من منزلي

---

(١) الطومار: الصحيفة.

إلّا لأجْلِهِ، فتلقّاني بضربةٍ بجُمْعِ يدِهِ في صَدْرِي، فرفَعْتُ عَصَاي، وضرَبْتُه بها على رأسِه ضَرْبَةً ما أرَدْتُ بها يعلَمُ اللهُ - إلّا أنْ أصِيبَ مركزَ الشّعْرِ من مُخِّه، فأفسدهُ عليه، فسقَطَ مَغْشِيًّا عليه، وسقَطَتِ القصِيدَةُ من يدِهِ، فأسْرَعْتُ إليها ومزّقْتُها، وأرَحْتُ نفسي منها، وأرَحْتُ الناسَ من مثلِ مُصِيبتي فيها، وكانَ الشُّرطيُّ قد وَصَلَ إلينا، فاحْتَمَلَنا جميعًا إلى المَخْفَرِ، ثمّ إلى السجنِ حيث أكتبُ إليك كتابي هذا.

فيا صاحِبَ النظراتِ، أفْتِني في أمْرِي، وأبِنْ ظُلْمَةَ نفسِي، فَقَدْ أشْكَلَ عليَّ الأمرُ، وأصْبَحْتُ أسوأَ الناسِ بالصّدْقِ ظنًّا، بعدما رأيتُ أنّي ما وَقَفْتُ مَوْقِفَهُ في حَيَاتي إلّا خَمْسَ مرّاتٍ، فكانَتْ نتيجَةُ ذلك إفلاسي وخرابَ بيتي، واتّهامي بالخِيانةِ مرّةً، والزندقَةِ أخرى؛ ذلك إلى ما أقاسِيه اليومَ في هذا السجنِ من أنواعِ الآلامِ، وصنوفِ الأقسامِ.

* * *

أيُّها السجينُ:

كتبتَ إليّ - مَسَحَ اللهُ ما بك، وأُلْهِمْتَ صوابَ الرأيِ في حالَيْك - تَشْكُو من جِنَايةِ الصّدقِ عليك، ما وقفَ بك موقفَ الشكّ في أمرِه، وكادَ يزلقُ بك إلى الاعتقادِ أنّه رذيلةُ الرذائلِ لا فضيلةُ الفضائلِ، وما كان لك أنْ تَجْعَلَ لليأسِ هذا السبيلَ إلى نفسك، وأن يبلغَ بك الجزعُ من نكباتِ العيشِ وضرباتِ الأيامِ مبلغًا يذهبُ برُشْدِك، ويطيرُ بلُبِّكَ؛ فما أنت بأوّلِ صادقٍ في الأرضِ ولا بأوّلِ من لقيَ في سبيلِ الصّدقِ شرًّا؛ وكابَدَ ضَرًّا.

إنّك لو فهِمْتَ مَعْنَى الفضِيلَةِ حقَّ الفَهْمِ، وصَبَرْتَ على مرارَاتِها حقَّ الصَّبْرِ لذُقْتَ من حلاوَتِها ما تُقطعُ دونه أعناقُ الرجالِ.

ليست الفضيلةُ وسيلةً من وسائلِ العيشِ، أو كَسْبِ المالِ، وإنّما هي حالةٌ من حالاتِ النفسِ تَسْمُو بها إلى أرْقَى دَرَجَاتِ الإنسانيّةِ، وتبلغُ بها غايةَ الكمالِ.

إنّ الذي يطلبُ الفضيلة ليَسْتَكْثِرَ بها مالَه، أو يُرَفِّهَ بها عيشَهُ، يحتقِرُها. ويزدَرِيها؛ لأنّه لا يفرِّقُ بينها وبين سلعةِ التاجرِ وآلةِ الصانعِ.

ليس من صوابِ الرأيِ أنْ يَجْعَلَ الإنسانُ حالةَ عيشِهِ ميزانًا يزنُ به أخلاقَهُ، فإنِ اتّسَعَ عيشُه، اطْمَأنّ إليها، وإنْ ضاقَ أساءَ الظنَّ بها، فكَمْ رَأَيْنا بين الفاضِلِين أشقياءَ، وبين الأرْذَلِين كثيرًا من ذوي النعمةِ والثراءِ!

لا يَسْتَطيعُ الرجُلُ الفاضلُ أن يبلغَ غايَتَهُ من عَيْشِهِ، إلّا إذا اسْتَطَاعَ أنْ ينزلَ من نفوسِ الناسِ منازِلَ الحبِّ والإكْرام، ولن يستطيعَ ذلك إلّا إذا عاشَ بين قومٍ يعرِفُونَ الفَضِيلةَ، ويُعَظِّمُونَ شأنَها، ولنْ يكُونُوا كذلك، إلّا إذا كانوا فُضَلاً أو أشباهَ فُضَلاً.

والسوادُ الأعظمُ الذي يُمْسِكُ بيدِهِ أسبابَ العيشِ ويملكُ ينابِيعَهُ: سوادٌ أبلَهُ ساذَجٌ يبغضُ الصادقَ لأنّه يصادِرُه في مُيُولِهِ وأهْوائِهِ، وينقمُ منه جَهْلَهُ وغَبَاوَتَهُ، ويُحِبُّ الكاذِبَ لأنّه لا يزالُ يزينُ له أمرَهُ،

حتّى يحبّبَ إليه نفسَهُ، فلا بَدَّ للصادقِ من صَدرٍ يَسَعُ همُومَ العيشِ، وقَلْبٍ يحمِلُ بُغْضَ القلوبِ ليبلغَ غايتَهُ من إصْلاحِ النفوسِ وتهذيبها كما يبذلُ المجاهِدُ حياتَه ودَمَهُ، ليبلغَ غايتَهُ من الفَوْزِ والانْتِصَارِ.

الصّدَقُ جَنَّةٌ حُفَّتْ بالمَكَارِهِ، فإنْ كانَ للصادقِ في جنّةِ الصدقِ أرَبٌ، فَلْيَحْمِلْ في سبِيلها ما حَمَلَهُ الأنبياءُ والمرسَلُون والحكماءُ والقائمُون بإصلاحِ المجتمعِ الإنسانيِّ، ودعاةُ المطالبِ الدينيّةِ والسياسيَّةِ.

كما أنّ الجُودَ يُفْقِرُ والإقْدَامَ قتّالٌ، وكما أنّ لكلِّ فضيلةٍ من الفضائلِ آفةً من الآفاتِ توعِرُ طريقَها، وتبعدُ منالَها إلّا على أيدي الصابرين المخلصين، كذلك للصدقِ آفةٌ من مصادقةِ الكاذبين، وهمُ الأكثرون، للصادقين وهمُ الأقلُّون.

أتُريدُ أيُّها الرجلُ أن تُسَمّى صادِقًا، وأنْ تنالَ أشرفَ لقبٍ يستطيعُ أن ينالَه بَشَرٌ، وأنْ يُوَافِيك المَجْدُ طائعًا مُذْعِنًا دون أن تبذلَ في سبيلِهِ شيئًا من مالِكَ أو راحَتِك؟

إنّك إنْ أرَدْتَ ذلك أو قدّرتَهُ في نفسِك، تظلُم الفضيلةَ ظلمًا بيّنًا، وترخّصْ قيمَتَها، وتُلْقِ بها في مدارجِ الطرقِ، وتحت مواطِئِ النعالِ.

أيُحْزِنُك انصرافُ الأغنياءِ عن حانوتِك، أو اتّهامِك بالزندَقَةِ والإلحادِ، أو المُروقِ والخيانةِ، وتَرى أنّ ذلك كثيرٌ في سبيلِ بلُوغِكَ منزلة الصدقِ وإحرازِكَ فضِيلَتَهُ، وأنتَ تعلمُ أنّ الفاضلين قد بذَلُوا من قَبْلِك أكثرَ ممّا بَذَلْتَ، في سبيلِ إحرازِ ما أحْرَزْتَ، فما ندِمُوا، ولا حَزِنُوا؟

أيّها السّجينُ الشّرِيفُ:

هَنِيئًا لك السجنُ الذي تُكَابِدُهُ، وهنِيئًا لك البُغْضُ الذي تحتَمِلُه، وهنِيئًا العيشُ الذي تعالِجُ همُومَهُ، فواللهِ، لأنتَ أرْفَعُ في نظَرِي من كثيرٍ من أولئكَ الذين يُعِدُّهُمُ الناسُ سُعَدَاءَ، ويُسَمُّونَهُمْ عُظَماءَ.

لا تَظْلِمِ الصّدْقَ، ولا تكُنْ سيّئَ الظنِّ به، وكنْ أحْرَصَ الناسِ على وَلائِهِ ومَوَدَّتِهِ، وإيّاك أنْ يَخْدَعَك عنه خادعٌ، واصْبِرْ قليلًا، يُثْمِرْ لك غَرْسُه، ويَمْتَدَّ عليك ظِلُّهُ، وهنالك تَجِدُ في نفسَك من اللذَّةِ والغِبْطَةِ، ما لو بَذلَ فيه ذَوُو التّيجانِ تِيجانَهُمْ، وأرْبَابُ الكنوزِ كنوزَهُمْ، لَمَا اسْتَطاعُوا إلَيْهِ سَبِيلًا.



النظّامون

ما لِهٰؤلاءِ النظّامين لا يَهْدَؤُون ساعةً واحدةً عن تَصْدِيعِ رُؤُوسِنا، وتَمْزِيق أفئِدَتِنا بهذه الصواعقِ التي يُمْطِرُونَها علينا كلَّ يوم من سماءِ الصُّحُفِ، حتّى صِرْنا كلّما فَتَحْنا صحِيفَةً ورَأَيْنا في وسطِها جَدْولًا أبيضَ مُسْتَطِيلًا، تَخَيَّلْنَاهُ حيّةً رَقْطَاءَ، ففزعْنَا وألْقَيْنَا الصحيفةَ كما ألْقَاها الشاعرُ المُتَلَمِّسُ، لينْجُوَ بنفسِه ويَسْلَمَ بحَيَاتِهِ.

من لي بذلك القلم العريضِ الذي يَكْتُبُ به كتّابُ الصُّحُفِ السياسيّةِ عناوينَ مقَالاتِهم في معرِضِ التهويلِ والتفخيم، فأكْتُبُ به إلى هؤلاءِ المساكِين هذه الكلمةَ الآتيةَ:

أيُّها القَوْمُ: إنّ عُلَمَاءَ الضّادّ الذين عَرَّفُوا الشّعْرَ بأنّه الكَلامُ الموزونُ المُقَفّى، لم يكُونُوا شُعَرَاء ولا أُدَباءَ، ولا يَعْرِفُون منَ الشِّعْرِ أكثرَ من إعْرَابِهِ وبنائِهِ واشْتِقَاقِهِ وتَصْرِيفِهِ، وإنّما جَرَوا في ذلك التعريفِ مَجْرَى علماءِ العَرُوضِ الذين لا مناصَ لهم من أنْ يَقِفُوا في تعريفِ الشّعْرِ عند هذا القَدْرِ ما دامَ لا يَتَعَلّقُ لهم غَرَضٌ منه بغير أوزانِه، وقوافِيه، وعِلَلِه، وزِحَافَاتِهِ.

لا تَظُنُّوا أنّ الشعرَ كما تَظُنُّون، وإلّا لاسْتَطَاع كلُّ قارئٍ، بلْ كلُّ ناطقٍ أنْ يكُونَ شَاعِرًا؛ لأنّه لا يُوجَدُ في الناسِ من يُعْجِزُهُ تصوُّرُ النغمةِ الموسيقيّةِ والتوقيعُ عليها من أقصرِ طريقٍ.

أيُّها القَومُ: ما الشعرُ إلّا رُوحٌ يُودعُها اللهُ فطرةَ الإنسانِ من مبدإ نَشْأَتِهِ، ولا تزالُ كامِنَةً فيه كُمُون النارِ في الزَّنْدِ، حتّى إذا شدَا[1]، فاضَتْ على أسْلات أقلامِه كما تَفيضُ الكهرباءُ على أسْلَاكِها، فمَنْ أحسّ منكم بهذه الروحِ في نفسِهِ، فَلْيَعْلَمْ أنَّهُ شاعِرٌ، أو لا، فَلْيَكْفِ نفسَهُ مؤونةَ التّخْطيطِ والتّسطِيرِ، وَلْيَصْرِفْها إلى مُعَانَاةِ ما يُلائِمُ طَبْعَهُ، ويُنَاسِبُ فِطْرَتَهُ من أعمالِ الحيَاةِ. فواللهِ المحراثُ في يدِ الفلاحِ، والقَدُومُ في يدِ النجّارِ، والمِسبَرُ في يدِ الحدّادِ: أشْرَفُ، وأنفعُ من القلمِ في يدِ النّظامِ.

فإنْ غَمَّ عليكُمُ الأمرُ، وأعْجَزَكُمْ أنْ تَعْلَمُوا مكانَ تلك الروحِ الشعريّةِ من نفوسِكُم، فاعْرِضُوا أنفسَكُم على مَنْ يُرْشِدُكُمْ إليكم، ويدلُّكُم عليكم، حتى تكُونوا على بيّنَةٍ من أمرِكُمْ.

❁ ❁ ❁

الحرية

اسْتَيْقَظْتُ فَجْرَ يَوْمٍ مِنَ الأيّام على صَوْتِ هرّةٍ تَمُوءُ[2] بجَانِبِ فراشي وتَتَمَسَّحُ بي، وتُلِحُّ في ذلك إلْحَاحًا غريبًا، فَرَابَني أمْرُها، وأهمّنِي همُّها وقلتُ: لعلّها جائِعَةٌ.

فَنَهَضْتُ، وأحْضَرْتُ لها طَعَامًا، فعَافَتْهُ، وانْصَرَفَتْ عَنْهُ.

فقُلْتُ: لعلّها ظَمْآنَةٌ، فأرْشَدْتُها إلى الماءِ، فلَمْ تَحْفِلْ به، وأنْشَأَتْ تنظُرُ إليّ نظراتٍ تنطِقُ بما تَشْتَمِلُ عليها نَفْسُها مِنَ الآلامِ والأحزانِ. فأثّرَ في نَفْسِي مَنْظَرُها تأثِيرًا شَدِيدًا، حتّى تَمَنَّيْتُ أنّ لو كُنْتُ سليمانَ أفْهَمُ لُغَةَ الحيوانِ، لأعرِفَ حاجَتَها، وأفرّجَ كُرْبَتَها.

وكان بابُ الغُرْفَةِ مُرْتَجًا، فرأيتُ أنّها تُطِيلُ النَّظَرَ إليه، وتَلْتَصِقُ بي كلّما رَأَتْني أتّجِهُ نَحْوَه، فأدْرَكْتُ غَرَضَها، وعَرَفْتُ أنّها تُرِيدُ أنْ أفْتَحَ لها البابَ، فأسْرَعْتُ بفَتْحِهِ، فمَا وَقَعَ نَظَرُها على الفضاءِ، ورأَتْ وَجْهَ السَّمَاءِ، حتّى اسْتَحَالَتْ حَالَتُها من حُزْنٍ وهَمٍّ إلى غبطةٍ وسرورٍ، وانْطلقَتْ تَعْدُو في سَبِيلِها.

---

(١) شدا: أخذ طرفًا من الأدب والعلم. (٢) تموء: تصوت.

فعُدْتُ إلى فِرَاشِي وأسْلَمْتُ رأسِي إلى يَدِي، وأنْشَأتُ أفَكِّرُ في أمْرِ هذهِ الهرّةِ، وأعْجَبُ لِشَأنِها وأقولُ: لَيْتَ شِعْرِي هل تَفْهَمُ هذه الهرّةُ معْنَى الحرّيّةِ، فهي تحزَنُ لفقْدَانِها وتَفْرَحُ بلُقْيَاها؟

أجَلْ. إنّها تَفْهَمُ مَعْنَى الحرّيّةِ حقَّ الفَهْمِ، وما كانَ حُزْنُها، وبُكَاؤُها، وإمْسَاكُها عن الطعام والشرابِ إلّا من أجْلِها، وما كانَ تَضَرُّعُها، ورَجَاؤها، وتَمَسُّحُها، وإلْحَاحُها إلّا سَعْيًا وراءَ بُلُوغِها.

وهنا ذَكَرْتُ أنّ كَثِيرًا من أسْرَى الاستِبْدَادِ من بَنِي الإنْسَانِ، لا يَشْعُرُونَ بما تَشْعُرُ به الهِرَّةُ المحْبُوسَةُ في الغُرْفَةِ، والوَحْشُ المُعْتَقَلُ في القَفَصِ، والطيرُ المَقْصُوصُ الجَنَاح من ألم الأسْرِ وشَقَائِه، بل ربّما كان بينهم من يُفكّرُ في وَجْهَةِ الخَلاصَ أو يَتَلَمَّسُ السبيلَ إلى النجاةِ ممّا هو فيه، بل ربّما كان بينهم من يَتَمَنّى البقاءَ في هذا السّجنِ، ويأنسُ به ويَتَلذَّذُ بآلامِهِ وأسْقَامِهِ.

من أصْعَبِ المَسائِلِ التي يَحَارُ العَقْلُ البَشَرِيُّ في حلّها: أنْ يَكُونَ الحيوانُ الأعجَمُ أوْسَعَ مَيْدَانًا في الحُرّيّةِ مِنَ الحَيَوانِ الناطقِ، فهل كانَ نطْقُه شُؤْمًا عليه وعلى سَعَادَتِهِ؟ وهل يَجْمُلُ به أنْ يَتَمَنّى الخَرَس والبَلَه، ليكونَ سَعِيدًا بحُرّيّتِهِ كما كان سَعِيدًا بها قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ ناطِقًا مُدْرِكًا؟

يُحَلّقُ الطيرُ في الجوّ، ويَسْبَحُ السّمَكُ في البَحْرِ، ويَهِيمُ الوَحْشُ في الأودِيَةِ والجِبَالِ، ويَعِيشُ الإنسانُ رَهِينَ المَحْبِسَيْن: مَحْبِسِ نفسِهِ ومَحْبِسِ حُكُومَتِهِ من المَهْدِ إلى اللّحْدِ.

صنَعَ الإنسانُ القَوِيُّ للإنْسانِ الضّعيفِ سَلاسِلَ وأغْلالًا، وسمّاها تارةً نامُوسًا، وأخرَى قانُونًا، ليظلِمَهُ باسْمِ العَدْلِ، ويَسْلُبَ منه جَوْهَرَةَ حرّيّتِهِ باسْم النامُوسِ والنّظَام.

صَنَعَ له هذه الآلَةَ المُخِيفةَ، وتَرَكَهُ قَلِقًا حَذِرًا، مُرَوَّعَ القَلْبِ، مُرْتَعِدَ الفرائِصِ يُقيمُ من نَفْسِه على نَفْسِه حُرّاسًا تُراقِبُ حَرَكَاتِ يدَيْه وخطواتِ رِجْلَيْهِ، وحركات لسانِهِ، وخَطَرَاتِ وَهْمِهِ وخَيَالِهِ، لِيَنْجُوَ من عِقابِ المُسْتَبِدِّ، ويَتَخَلَّصَ من تَعْذيبِهِ.

فوَيْلٌ له ما أكْثَرَ جَهْلَهُ! وويحٌ له ما أشَدَّ حُمْقَهُ! وهَلْ يُوجَدُ في الدنيا عذابٌ أكْبَرُ من العذابِ الذي يُعالِجُهُ؟ أو سِجْنٌ أضْيَقُ مِنَ السّجْنِ الذي هو فيه؟

لَيْسَتْ جِنايَةُ المُسْتَبِدّ على أسِيرِهِ أنّه سَلَبَهُ حُرّيّتَهُ، بل جِنايَتُهُ الكُبْرَى عليه أنّه أفْسَدَ عَلَيْهِ وِجْدَانَهُ، فأصْبَحَ لا يَحْزَنُ لفَقْدِ تلك الحرّيّةِ، ولا يَذْرِفُ دَمْعَةً واحدةً عَلَيْها.

لَوْ عَرَفَ الإنسانُ قيمةَ حرّيّتِهِ المَسْلُوبةِ منه، وأدْرَكَ حقِيقَةَ ما يُحيطُ بجِسْمِهِ وعَقْلِهِ من القُيُودِ، لانْتَحَرَ كما يَنْتَحِرُ البُلْبُلُ إذا حَبَسَهُ الصيادُ في القفصِ، وكان ذلك خَيْرًا له منْ حَيَاةٍ لا يَرَى فيها شُعَاعًا من أشِعّةِ الحرّيّةِ، ولا تَخلُصُ إليهِ نَسْمَةٌ منْ نَسَمَاتِها.

كان في مَبْدإ خَلْقِهِ يَمْشي عُرْيانًا، أو يَلْبَسُ لِبَاسًا واسِعًا يُشْبِهُ أنْ يَكُونَ ظلّةً تَقِيةٍ لَفْحَةَ الرّمْضَاءِ[1]، أو هبّةَ النّكْبَاءِ، فوضَعُوهُ في القماطِ كما يضَعُون الطفلَ، وكفّنُوه كما يكَفّنُون المَوْتى، وقالُوا له: هكذا نظامُ الأزياء.

---

(١) الرمضاء: شدّة الحرّ.

كان يأكلُ ويشرَبُ كلَّ ما تَشْتَهِيهِ نفسُه، وما يَلْتَئِمُ مع طبيعَتِهِ، فحالُوا بينه وبين ذلك، وملأُوا قلبَهُ خَوْفًا من المَرَضِ أوِ المَوْتِ، وأبَوا أن يأكُلَ، أو يشرَبَ إلّا كما يُريدُ الطبيبُ، وأن يَتَكَلّمَ، أو يَكْتُبَ إلّا كما يُرِيدُ الرئيسُ الدينيُّ، أو الحاكمُ السياسيُّ، وأن يَقُومَ، أو يَقْعُدَ، أو يَمْشيَ، أو يقفَ، أو يَتَحَرَّكَ، أو يسكنَ، إلّا كما تَقْضِي به قوانينَ العاداتِ والمُصْطَلَحاتِ.

لا سَبيلَ إلى السعادةِ في الحياةِ، إلّا إذا عاشَ الإنسانُ فيها حرًّا مُطْلَقًا، لا يُسَيْطِرُ على جِسْمِهِ، وعَقْلِهِ، ونَفْسِهِ، ووُجْدَانِهِ، وفِكْرِهِ مُسَيْطِرٌ إلّا أدَبُ النفسِ.

الحُرّيّةُ شَمْسٌ يَجبُ أن تُشرِقَ في كلِّ نَفْسٍ، فَمَنْ عاشَ مَحْرُومًا منها عاشَ في ظُلْمَةٍ حالِكَةٍ، يتَّصِلُ أوّلُها بظُلْمَةِ الرّحِمِ، وآخرُها بظُلْمَةِ القَبْرِ.

الحُرّيّةُ هي الحياةُ، ولَوْلاها، لكانَتْ حَيَاةُ الإنْسَانِ أشْبَهَ شَيْءٍ بحياةِ اللُّعَبِ المُتَحَرِّكَةِ في أيْدِي الأطْفالِ بحَرَكَةٍ صِناعِيّةٍ.

لَيْسَتِ الحريّةُ في تاريخِ الإنسانِ حَادِثًا جَدِيدًا، أوْ طَارِئًا غريبًا؛ وإنّما هي فطرَتُهُ التي فُطِرَ عليها مذْ كانَ وَحْشًا يَتَسَلَّقُ الصّخُورَ، ويَتَعَلَّقُ بأغْصَانِ الأشْجارِ.

إنّ الإنسانَ الذي يَمُدُّ يدَيْهِ لطَلَبِ الحُرّيّةِ ليس بمُتَسَوّلٍ ولا مُسْتَجْدٍ، وإنّما هو يَطْلُبُ حقًّا من حُقُوقِهِ التي سَلَبَتْهُ إيّاها المَطامِعُ البَشَرِيَّةُ، فإنْ ظَفِرَ بها، فلا مِنّةَ لمَخْلُوقٍ عَلَيْهِ، ولا يدَ لأحدٍ عِنْدَهُ.

❀ ❀ ❀

عبرة الهجرة

إنّ في أخلاقِ النبيّ ﷺ وسَجَايَاه التي لا تَشْتَمِلُ على مِثْلِها نَفْسٌ بَشَرِيَّةٌ ما يُغْنِيهِ عن كلِّ خارِقَةٍ تأتِيهِ منَ الأرضِ أوِ السّماءِ، أو الماءِ، أوِ الهَواءِ.

إنّ ما كان يُبْهِرُ العَرَبَ من مُعْجِزاتٍ، عِلْمُهُ، وحِلْمُهُ، وصَبْرُهُ، واحْتِمَالُهُ، وتَوَاضُعُهُ، وإيثارُهُ، وصِدْقُهُ، وإخلاصُهُ، أكثرُ ممّا كان يبهرُهُمْ من معجزاتٍ تسبيحُ الحصَى، وانشقاقُ القمرِ، ومشيُ الشجرِ، ولينُ الحجرِ؛ وذلك لأنّه ما كان يُرِيبُهُم في الأولى ما كان يُرِيبُهُمْ في الأخْرَى من الشبهِ بينها وبين عِرَافَةِ العرّافين وكِهَانَةِ الكَهَنَةِ، وسِحْرِ السَّحَرَةِ.

فلولا صفاتُه النفسيّةُ وغرائزُه وكمالاتُهُ، ما نَهَضَتْ له الخوارقُ بكلِّ ما يُرِيدُهُ، ولا تَرَكَتْ له المعجزاتُ في نفوسِ العربِ ذلك الأثرَ الذي تركَتْهُ، ذلك هو مَعْنَى قولِهِ تعالَى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

كان ﷺ شُجاعَ القلبِ، فلَمْ يهَبْ أن يدْعُوَ إلى التوحيدِ قَوْمًا مُشْرِكين يَعْلَمُ أنّهُمْ غلاظٌ جفافٌ شرِسُون متنمّرُونَ، يَغْضَبُونَ لدِينِهِمْ غَضَبَهُمْ لأعْرَاضِهِمْ؛ ويُحِبُّون آلِهَتَهُمْ حُبَّهُمْ لأبْنَائِهِمْ.

كان على ثِقَةٍ من نَجَاحِ دَعْوَتِهِ، فكانَ يَقُولُ لقُرَيش - أشدّ ما كانُوا هُزءًا به وسخريةً -: «يا مَعْشَرَ قريشٍ، والله، لا يأتي عليكم غيرُ قليلٍ، حتّى تَعْرِفُوا ما تُنْكِرُون، وتُحِبّوا ما أنتُمْ له كارِهُون».

كان حَلِيمًا، سَمْحَ الأخلاق، فلم يُعْجِزْهُ أنْ كانَ قومُهُ يُؤْذُونَهُ، ويَزْدَرُونَهُ، ويَشْعَثُون[1] منه، ويضَعُون الترابَ على رأسِه، ويُلْقُون على ظهرِهِ أمعاءَ الشاةِ وسلي[2] الجَزُورِ، وهو في صلاتِه، بل كان يقول: «اللّهمّ، اغْفِرْ لقَوْمي، فإنّهُمْ لا يَعْلَمُون».

كان واسعَ الأملِ، كبيرَ الهمّةِ، صَلْبَ النفسِ، لبِثَ في قومِهِ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً يَدْعُو إلى الله، فلا يُلَبّي دَعْوَتَه إلّا الرّجُلُ بعد الرّجُل، فلم يَبْلُغ الملَلُ من نَفْسِهِ، ولم يَخْلُصِ اليأسُ إلى قَلْبِهِ، فكان يَقُولُ: «واللهِ، لو وضَعُوا الشمسَ في يَمِيني، والقَمَرَ في شمالي على أن أَتْرُكَ هذا الأمرَ حتّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أو أَهْلِكَ فيه ما تَرَكْتُهُ».

وما زال هذا شأنَه، حتّى عَلِمَ أنّ مكّةَ لن تكونَ مَبْعَثَ الدّعْوَةِ، ولا مطلع تلك الشمسِ المشرقةِ، فهاجَرَ إلى المدينةِ، فانْتَقَلَ الإسلامُ بانتقالِهِ من السكونِ إلى الحَرَكَةِ، ومن طَوْرِ الخَفَاءِ إلى طَوْرِ الظّهُورِ.

لذلك كانتِ الهِجْرَةُ مَبْدأَ تاريخِ الإسلام، لأنّها أكبرُ مَظْهَرٍ من مَظَاهِرِهِ، وكان عيدًا يَحْتَفِلُ به المُسْلِمُون في كلّ عام، لأنّها أجْمَلُ ذِكْرَى للثّباتِ على الحقّ والجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ.

لقد لقيَ ﷺ في هِجْرَتِه عَنَاءً كَثِيرًا ومشَقّةً عُظْمَى. فإنّ قَوْمَهُ كانوا يَكْرَهُونَ مُهَاجَرَتَهُ لا ضَنًّا به، بل مَخَافَةَ أن يجِدَ في دارِ هِجْرَتِهِ منَ الأعْوَانِ والأنْصَارِ ما لَمْ يَجِدْ بَيْنَهُمْ، كأنّما يشعُرُونَ بأنّهُ طالِبُ حقّ، وأنّ طالِبَ الحقّ لا بُدّ أنْ يَجِدَ بين المُحِقّين أعْوَانًا وأنْصارًا.

فوَضَعُوا عليه العُيُونَ والجواسِيسَ، فخَرَجَ من بَيْنِهِمْ ليلةَ الهجرةِ مُتَنَكّرًا بعد ما تَرَكَ في فراشِهِ ابنَ عمّهِ عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، عَبَثًا بهِمْ، وتَضْليلًا لَهُمْ عن اللّحاقِ به، ومشَى هو وصَاحِبُهُ أبُو بكر رضي الله عنه يَتَسَلّقانِ الصُّخُورَ، ويَتَسَرّبانِ في الأغوارِ والكُهُوفِ، ويَلُوذَانِ بأكْنافِ الشّعَابِ والهِضَابِ، حتّى انْقَطَعَ عَنْهُما الطّلَبُ، وتَمّ لهما ما أرَادَا بفَضْلِ الصّبْرِ والثّباتِ على الحقّ.

إنّ حياة النبيّ ﷺ أعظمُ مثالٍ يَجِبُ أنْ يَحْتَذِيَهُ المُسْلِمُون للوُصُولِ إلى التّخلّقِ بأشْرَفِ الأخلاقِ والتّحلّي بأكْرَمِ الخِصَالِ، وأحْسَنُ مَدْرَسةٍ يَجِبُ أن يَتَعَلّمُوا فيها كيف يكُونُ الصّدْقُ في القَوْلِ والإخلاصِ في العَمَلِ، والثّباتِ على الرأيِ وَسِيلَةً إلى النّجاحِ، وكيف يكونُ الجهادُ في سبيلِ الحَقّ سببًا في علُوّهِ على الباطلِ.

لا حاجةَ لنا بتاريخِ فلاسفَةِ اليونانِ وحكماءِ الرومانِ وعُلَماءِ الإفْرَنْج، فلَدَيْنَا في تاريخِنا حَيَاةٌ شريفَةٌ مَمْلُوءَةٌ بالجِدّ والعمَلِ، والبرّ والثباتِ والحبّ والرّحْمَةِ، والحِكْمَةِ والسياسَةِ، والشّرفِ الحقيقيّ، والإنسانيّةِ الكاملَةِ، وهي حَيَاةُ نَبِيّنا ﷺ، وحَسْبُنا بها وكَفَى.

❁ ❁ ❁

---

(١) يقال شعث فلان من فلان: تنقصه.

(٢) السلي للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

الإنصاف

إذَا كانَ لكَ صَدِيقٌ تُحِبُّهُ وتُوالِيهِ، ثُمّ هَجَمْتَ منه على ما لَمْ يَحْلُ في نَظَرِكَ، ولَمْ يَتّفِقْ معَ ما علِمْتَ مِنْ حَالِهِ، وما اطّرَدَ عِنْدَكَ من أعْمَالِه، أو كان لكَ عدُوٌّ تَذُمُّ طِبَاعَهُ، وتنقُمُ منه شؤونَهُ، ثم برقَتْ لك من جانِبِ أخلاقِهِ بارِقَةُ خَيْرٍ، فتَحَدّثْتَ بما قامَ في نفسِكَ من مُؤاخَذَةِ صديقِكَ على الخصْلَةِ التي ذَمَمْتَها وحَمْدِ عَدُوِّك على الخلّةِ التي حَمَدْتَها، عَدّكَ الناسُ مُتَلَوِّنًا أو مُخَادِعًا، أو ذا وجْهَيْنِ، تَمْدَحُ اليَوْمَ من تَذُمّ بالأمْسِ، وتَذُمُّ في ساعةٍ من تَمْدَحُ في أخرى.

وقالوا: إنّك تُظْهِرُ ما لا تُضمِرُ، وتُخْفِي غير الذي تُبْدِي. ولو أنْصَفُوكَ لأُعْجِبُوا بك وبِصِدْقِك، ولأكْبَرُوا سلامَةَ قَلْبِك من هَوَى النفسِ وضَلَالِها، ولَسَمُّوا ما بَدَا لَهُمْ منك اعْتِدَالًا لا نِفَاقًا، وإنْصَافًا لا خِدَاعًا، لأنّك لم تَغْلُ في حُبِّ صَدِيقِك غُلُوّ مَنْ يُعْمِيه الهَوَى عن رُؤْيَةِ عُيُوبِهِ، ولم تَتَمَسّكْ من صداقَتِهِ بالسبَبِ الضعيفِ، فعُنِيتَ بتَعَهُّدِ أخلاقِهِ، وتَفَقّدِ خلالِه، لإصلاحِ ما فَسَدَ من الأولى، واعْوَجَّ من الأخرى.

إنّ صَدِيقَكَ الذي يَبْسِم لك في حالَيْ رِضَاكَ وغَضَبِكَ، وحِلْمِكَ وجَهْلِكَ، وصَوَابِكَ وسَقْطِكَ، ليس مِمَّنْ يُغْتَبَطُ بمَوَدَّتِهِ، أو يُوثقُ بصَدَاقَتِهِ، لأنّه يُصْلِحُ أن يكونَ مرآتَك التي تَتَراءَى فيها، فتَكْشِفَ لك عن نَفْسِكَ، وتَصْدُقَكَ عن زينِكَ وشينِكَ، وحُلْوِكَ ومُرِّك. وهو إمّا جاهِلٌ مُتَهوِّرٌ في مُيُولِهِ وأهْوائِهِ، فلا يَرَى غيرَ ما تُريدُ أن تَرَى نَفْسَهُ، لا ما لا يَجِبُ أن تَرَاهُ؛ وإمّا مُنَافِقٌ مخَادِعٌ قد علمَ أنّ هَوَاك في الصّمْتِ عن عيُوبِك وتَجْرِيرِ الذّيُول، فجَارَاك فيما تُرِيدُ، ليبلُغَ منك ما يُرِيدُ.

فها أنتَ ذا تَرى أنّ الناسَ يَعْكِسُون القَضَايا، ويَقْبَلُون الحقائقَ، فيُسَمّون الصادِقَ كاذِبًا، والكاذِبَ صَادِقًا؛ ولكنّ الناسَ لا يَعْلَمُونَ.

❁ ❁ ❁

المدينة الغربية

سَأُوَدِّعُ في هذه النظرةِ الخَيالَ والشعرَ، وَدَاعَ من يَعْلَمُ أنّ الأمرَ أعْظَمُ شأنًا وأجلُّ خَطَرًا من أن يَعْبَثَ فيه العابثُ بأمثالِ هذه الطرائفِ التي هي بالهَزْلِ أشْبَهُ منها بالجِدّ، والتي إنّما يَلْهُو بها الكاتبُ في مواطِنِ فراغِهِ ولعبِهِ، لا في مواطِنِ جِدِّهِ وعَمَلِهِ.

إنّ في أيدينا، مَعْشَرَ الكتّابِ، من نفوسِ هذه الأمّةِ وَدِيعَةٌ يَجِبُ علينا تَعَهُّدُها، والاحتفاظُ بها، والحدبُ عليها، حتّى نُؤَدّيَها إلى أخْلَافِنا من بَعْدِنا، كما أدّاها إلينا أسْلَافُنا سالِمَةً غَيْرَ مأرُوضَةٍ[١]

---

(١) المأروض: الذي أكلته الأرضة، وهي حشرة صغيرة تنقر الخشب.

ولا متآكِلَةٍ. فإنْ فَعَلْنَا، فذاك، أو لا، فرحْمَةُ اللهِ على الصِّدْقِ والوَفَاءِ، وسلامٌ على الكتّابِ الأُمَنَاءِ.

الأمةُ المصريّةُ أمّةٌ مُسْلِمَةٌ شَرْقِيَّةٌ، فيجِبُ أن يَبْقَى لها دِينُها وشرقِيَّتُها ما جرَى نِيلُها في أرْضِها، وذهَبَتْ أهْرَامُها في سَمائِها، حتّى تبدّلَ الأرضُ غيرُ الأرضِ والسمواتِ.

إنّ خُطْوَةً واحِدَةً يَخْطُوها المصريّ إلى الغَرْبِ تُدْنِي إليه أجَلَهُ، وتُدْنِيه من مَهْوَى سحيقٍ يقبرُ فيه قبرًا لا حَيَاة له من بَعْدِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

لا يَسْتَطِيعُ المصْرِيُّ وهو ذلك الضعيفُ المُسْتَسْلِمُ أن يكُونَ من المدنِيّةِ الغربِيَّةِ إن دَاناها، إلّا كالغِرْبَالِ من دقيقِ الخُبْزِ، يُمْسِكُ خشارَه[1] ويُفْلِتُ لُبَابَهُ، أو الراووقِ[2] من الخَمْرِ، يَحْتَفِظُ بعُقَارِه، ويَسْتَهِينُ برَحِيقِهِ؛ فخَيْرٌ له أن يَتَجَنَّبَها جَهْدَهُ، وأنْ يفرَّ منها فرارَ السليمِ من الأجْرَبِ.

يُرِيدُ المصريُّ أن يُقَلِّدَ الغربيَّ في نشاطِهِ وخِفَّتِهِ، فلا يَنْشَطُ إلّا في غَدَواتِهِ ورَوْحَاتِهِ، وقَعْدَتِهِ وقَوْمَتِهِ. فإذا جَدّ، الجِدّ، وأرادَ نَفْسَهُ على أنْ يَعْمَلَ عَمَلًا من الأعْمَال المُحْتَاجَةِ إلى قليلٍ من الصَّبْرِ والجَلَدِ، دبَّ المَلَلُ إلى نفسِه دَبِيبَ الصَّهْبَاءِ في الأعْضَاءِ والكَرَى بين أهْدَابِ الجُفُونِ.

يُرِيدُ أنْ يُقَلِّدَهُ في رَفَاهِيَتِهِ ونِعْمَتِهِ، فلا يَفْهَمُ مِنْهُما إلّا أنّ الأولى التأنُّثُ في الحَرَكاتِ، والثانِيَةَ الاخْتِلافُ إلى مَوَاطِنِ الفُسْقِ، ومَخَابِئِ الفُجُورِ.

يُرِيدُ أنْ يُقَلِّدَهُ في الوطَنِيَّةِ، فلا يأخُذُ منها إلّا نَعِيقَها ونعِيبَها، وضجِيجَها، وصفِيرَها، فإذا قيل له: هذه المقدّماتُ، فأيْنَ النّتائجُ؟ أسْلَمَ رَجْلَيْهِ إلى الرّياحِ الأربعِ واسْتَنّ[3] في فرارِهِ استِنَانَ المُهْرِ الأرِنِ[4]، فإذا سَمِعَ صفيرَ الصافرِ ماتَ وَجَلًا، وإذا رأى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا.

يُرِيدُ أنْ يُقَلِّدَهُ في السِّيَاحَةِ، فلا يزالُ يَتَرَقَّبُ فَصْلَ الصَّيفِ تَرَقُّبَ الأرضِ المَيْتَةِ فَصْلَ الرَّبيعِ، حتّى إذا حانَ حينُه، طارَ إلى مدُنِ أوربا طيرَانَ الحَمَامِ الزاجِلِ، لا يُبْصِرُ شيئًا ممّا حَوْلَهُ، ولا يُلْوِي على شيءٍ ممّا وراءَهُ، حتّى يَقَعَ على مَجَامِعِ اللّهْوِ ومَكَانِ الفُجُورِ، وملاعبِ القمارِ؛ وهناك يبذُلُ من عَقْلِهِ ومالِه، ما يَعُودُ من بَعْدِه فقيرَ الرأسِ والجَيْبِ، لا يَمْلِكُ من الأوّلِ ما يقودُهُ إلى طريقِ السفينَةِ التي تَحْمِلُهُ في أوْبَتِهِ، ولا من الثاني أكثرَ من الجُعَالَةِ[5] التي يجْتَعِلُها منه صاحبُ الجريدةِ، ليكتُبَ له بين حوادِثِ صحيفَتِهِ، حادِثَةَ عودَتِهِ موشّاةً بجُمَلِ الإجلالِ والاحتِرَامِ، مطرّزَةً بوَشَائِع[6] الإكرامِ والإعظامِ.

يُرِيدُ أنْ يُقَلِّدَهُ في العِلْمِ، فلا يَعْرِفُ منه إلّا كلِمَاتٍ يردِّدُها بين شِدْقَيْهِ تَرْدِيدًا لا يلْجَأُ فيه إلى رکْنٍ من العِلْم وثيقٍ، ولا يَعْتَصِمُ به من جَهْلٍ شَائِنٍ.

يُرِيدُ أن يُقَلِّدَهُ في الإحْسَانِ والبرّ، فَيَتْرُكُ جِيرَانَهُ وجَارَاتِهِ يَطْوُون حَنايَا الضّلُوعِ على أمْعَاءَ

---

(١) الخشار: الرديء من كلّ شيء.
(٢) الراووق: المصفاة.
(٣) استنّ المهر: جرى إقبالًا وإدبارًا.
(٤) الأرن: النشيط.
(٥) الجعالة: أجر العامل.
(٦) الوشيعة: الخشبة التي يلفّ عليها الغزل.

تَلْتَهِبُ فيها نارُ الجُوعِ التِهَابًا، حتّى إذا سَمِعَ دَعْوَةً إلى اكتِتَابٍ في فاجِعَةٍ، نزلَتْ في القُطْبِ الشّمَاليّ، أو كارثةٍ ألمّتْ بِسَدّ يأجوجَ[1] ومأجوجَ، سَجّل اسْمَهُ في فاتِحَةِ الاكْتِتَابِ، ورَصَدَ هِبَتَهُ في مُسْتَهَلِّ جريدَةِ الحِسَابِ.

يُرِيدُ أنْ يُقَلِّدَهُ في تعليمِ المَرْأَةِ وتَرْبِيَتِها، فَيُقْنِعُه من عَمَلِها مقالٌ تَكْتُبُها في جَرِيدةٍ، أو خطْبَةٍ تَخطُبُها في مَحْفِلٍ؛ ومن تَرْبِيَتَها التَفَنُّنُ في الأزياءِ، والمقدِرَةُ على استِهْوَاءِ النفوسِ، واسْتِلَابِ الألبابِ.

هذا شَأنُهُ في الفَضَائِلِ الغربيّةِ، يأخُذُها صُورَةً مُشَوَّهَةً، وقَضِيّةً مَعْكُوسَةً، لا يَعْرِفُ لها مَغْزًى، ولا يَنْتَحِي بها مَقْصِدًا، ولا يَذْهَبُ فيها إلى مَذْهَب، فيكونُ مَثَلُهُ كمَثَلِ جَهَلَةِ المُتَدَيّنين الذين يُقَلِّدُونَ السّلَفَ الصالحَ في تَطْهِيرِ الثّيابِ، وقلُوبُهُمْ مَلأى بالأقْذَارِ والأكْدَارِ، ويُجَارُونَهُمْ في أداءِ صُوَرِ العِبَادَاتِ، وإنْ كانوا لا يَنْتَهُون عن فَحْشَاءَ ولا عن مُنْكَرٍ. أو كمَثَلِ الذين يَتَشَبَّهُون بعُمَرَ في تَرْقِيعِ الثيابِ، وإن كانُوا أحْرَصَ على الدنيا من صَيَارِفَةِ اليَهُودِ.

أمّا شأنُهُ في رذائِلِها، فإنّه أقْدَرُ الناسِ على أخذِهَا كما هي، فَيَنْتَحِرُ كما يَنْتَحِرُ الغَرْبِيّ، ويُلْحِدُ كما يُلْحِدُ، ويَسْتَهْتِرُ في الفُسُوقِ استِهْتَارَهُ، ويَتَرَسَّمُ في الفجورِ آثارَهُ.

إنّ في المَصْرِيّين عُيُوبًا جَمّةً في أخْلَاقِهِم وطِبَاعِهِمْ، ومَذَاهِبِهِمْ وعادَاتِهِمْ، فإن كان لا بدّ لنا من الدّعْوَةِ إلى إصْلاحِها، فَلْنَدْعُ إلى ذلك باسْمِ المَدَنِيّةِ الشّرْقِيّةِ، لا باسْمِ المدَنيّةِ الغَرْبِيّةِ.

إنْ دَعَوْنَاهُمْ إلى الحَضَارَةِ، فَلْنَضرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بحَضَارَةِ بَغْدَادَ، وقُرْطُبَةَ، وثيبَةَ، وفِينِيقِيَا، لا بباريسَ، وروْمةَ، وسويسرا، ونيويورك، وإنْ دَعَوْنَاهُمْ إلى مَكْرُمَةٍ، فَلْنَتْلُ عليهم آياتِ الكتبِ المنزَّلَةِ، وأقْوالَ أنبياءِ الشرقِ وحُكَمَائِهِ، لا آياتِ روسو[2]، وباكون[3]، ونيوتن[4]، وسبنسر[5]؛ وإنْ دَعَونَاهُمْ إلى حَرْبٍ، ففي تاريخِ خالدِ بنِ الوليدِ[6]، وسعْدِ بنِ أبي وقّاص[7]، وموسَى بن نصير[8]،

---

(١) يأجوج ومأجوج: قبيلتان.

(٢) روسو: هو جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) كاتب فرنسي شهير، أسهمت كتبه في نشأة الثورة الفرنسيّة.

(٣) باكون: هو فرنسيس باكون (١٥٦١١ - ١٦٢٦) فيلسوف إنكليزي، وصاحب «الأورغانون الجديد»، وهو نظريّة في الحدس.

(٤) نيوتن: هو إسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) فيلسوف وعالم إنكليزي، ومكتشف قانون الجاذبيّة.

(٥) سبنسر: هو هربت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) فيلسوف إنكليزي، قال بأن المرء يستطيع الوصول إلى معرفة الله.

(٦) خالد بن الوليد: قائد وفارس شجاع، وعالم بفنون الحرب. فتح فارس والشام، وهزم الروم بأجنادين سنة ٦٣٤م، واليرموك سنة ٦٣٦. توفّي سنة ٦٤٢م.

(٧) سعد بن أبي وقاص: أحد المبشّرين بالجنّة، قاتل إلى جانب الرسول (ﷺ) في جميع غزواته. وكان راميًا ماهرًا. توفّي سنة ٦٧٥م.

(٨) موسى بن نصير: (٦٤٠ - ٧١٦م) فاتح الأندلس مع مولاه طارق بن زياد في خلافة الوليد بن عبد الملك.

وصلاح الدين[١]؛ ما يُغْنِينا عن تاريخِ نابليون[٢]، وولنجتون[٣]، وواشنطون[٤]، ونلسن[٥]، وبلوخر[٦]؛ وفي وقائعِ القادِسيّةِ[٧]، وعَمُّوريةَ[٨]، وإفريقية والحروبِ الصليبيّةِ، ما يُغْنِينا عن وقائعِ واترلو[٩]، وترافلغار[١٠]، وأوسترليتز[١١]، والسبعين.

إنّ عارًا على التاريخِ المصريِّ أن يَعْرِفَ المُسْلِمُ الشرقيُّ في مصرَ من تاريخِ بونابرت ما لا يعرفُ من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظُ من تاريخِ الجمهوريّةِ الفرنسيّةِ، ما لا يحفَظُ من تاريخِ الرسالةِ المحمّدِيّةِ، ومن مبادِئِ ديكارت، وأبحاث دارون ما لا يحفظُ من حِكَمِ الغزالي، وأبحاثِ ابن رشد، ويَرْوِي من الشِّعْرِ لشكسبير، وهوجو ما لا يَرْوِي للمتنبّي، والمعرّي.

لا مانعَ من أن يُعَرِّبَ لنا المُعرّبون المُفيدَ النافِعَ مِن مؤلّفاتِ علماءِ الغربِ، والجَيِّدَ المُمْتِعَ من أدبِ كتّابِهِمْ وشُعَرَائِهِمْ، على أن نَنْظُرَ فيه نظرَ الباحِثِ المُنْتَقِدِ لا الضعيفِ المُسْتَسْلِمِ، فلا نأخذُ كلّ قَضِيّةٍ مُسَلَّمَةً، ولا نطرَبُ لكلّ مَعْنًى أدبيٍّ طرَبًا مُتَهَوِّرًا.

ولا مانِعَ من أن يَنْقُل إلينا الناقِلُون شيئًا من عادَاتِ الغربيّين ومَصْطَلَحَاتِهِمْ في مَدنِيّتِهِمْ، على أن نَنْظُرَ إليه نَظَرَ من يُرِيدُ التّبسُّطَ في العِلْمِ، والتّوسُّعَ في التجرِبَةِ والاخْتِبَارِ، لا على أنْ نُقَلِّدَها ونَتَقَلَّدَها ونَنْتَحِلها قاعِدَتَنا في اسْتِحْسَانِ ما نَسْتَحْسِنُ من شُؤُونِنا، واسْتِهْجَانِ ما نَسْتَهْجِنُ مِن عادَاتِنا.

وبعد؛ فَلْيَعْلَمْ كتّابُ هذه الأمّةِ وقادَتُها: أنّه ليس في عَادَاتِ الغربيّين وأخلاقِهِم الشَّخْصِيَّةِ

---

(١) صلاح الدين: هو صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ - ١١٩٣م) مؤسّس الدولة الأيوبيّة، هزم الإفرنج في معركة حطين، وفتح بيت المقدس.

(٢) نابوليون: (١٧٦٩ - ١٨٢١م) أمبراطور فرنسا من سنة ١٨٠٤م حتى ١٨١٥، اشتهر بانتصاراته الباهرة. احتلّ مصر وأدخل إليها أوّل مطبعة عربيّة (بولاق). هُزم في معركة واترلو. نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة حيث توفي.

(٣) ولنجتون: (١٧٦٩ - ١٨٥٢) قائد إنكليزي قهر نابوليون الأوّل في معركة واترلو سنة ١٨١٥.

(٤) واشنطون: هو جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩م) قائد وسياسي أميركي، وأوّل رئيس للولايات المتّحدة (١٧٨٩ - ١٧٨٧م)

(٥) نلسن: (١٧٥٨ - ١٨٠٥) أميرال إنكليزي، انتصر على الفرنسيين في معركتي أبي قير والطرف الأغرّ.

(٦) بلوخر: (١٧٤٢ - ١٨١٩م) قائد بروسي، ساعد ولنجتون ضدّ نابوليون في معركة واترلو.

(٧) القادسيّة: اسم موضع في العراق حدثت فيه معركة الجيش العربي بقيادة سعد بن أبي وقاص، والجيش الفارسي بقيادة رستم. وكان النصر فيها للعرب.

(٨) عموريّة: مدينة بيزنطية في آسيا الصغرى، فتحها المعتصم العبّاسي وأعمل السيف في رقاب أهليها.

(٩) واترلو: مدينة بلجيكيّة، عندها انتصر ولنجتون الإنكليزي على نابوليون الأوّل الفرنسي سنة ١٨٥١.

(١٠) ترافلغار: أو الطرف الأغرّ، رأس في أسبانيا على الأطلسي، يقع شمال غربي مضيق جبل طارق. عنده انتصر نلسن الإنكليزي على الأسطول الفرنسي والإسباني سنة ١٨٠٥م.

(١١) أوسترليتز: مدينة تشيكيّة، عندها انتصر نابوليون الأوّل على النمسا وروسيا سنة ١٨٠٥م.

الخاصّةِ بهم ما نَحْسُدُهُمْ عليه كثيرًا، فلا يَخْدَعُو أُمَّتَهُمْ عن نَفْسِها، ولا يُفْسِدُوا عليها دينَها وشَرْقِيَّتَها، ولا يُزَيِّنُوا لها تلك المدَنِيَّةَ تَزْيِينًا يَرْزَؤُها في استِقْلالِها النفسيّ، بعد ما رَزَأَتْها السياسَةُ في استِقْلالها الشخصيّ.

❃ ❃ ❃

يوم الحساب

سَاهَرْتُ الكوكبَ ليلةَ أمسِ، حتّى مَلَّني ومَلَلْتُه، وضاقَ كلٌّ منّا بصَاحِبِهِ ذَرْعًا، وقد وَقَفَ الهَمُّ بيني وبين الكَرَى أجذبُهُ، فيدفعُهُ، وأُدْنِيهِ، فيُبْعِدُهُ، حتّى أسْلَسَ قيادُهُ، وسكَنَ جماحُهُ.

لم تُخالِطْ جَفْني سِنَةُ[1] الكَرَى، حتّى خُيِّلَ إليّ أنّي قدِ انْتَقَلْتُ من العالَمِ الأوّلِ إلى العالمِ الثاني، ورأيْتُ كأنّي بُعِثْتُ بَعْدَ المَوْتِ، وكأنّ أبناءَ آدمَ مجتمِعُون في صعيدٍ واحدٍ يُحاسَبُونَ على أعْمالِهِمْ، فأُلْهِمْتُ أنّه مَوْقِفُ الحَشْرِ؛ وأنّه يومُ الحسابِ.

وأنْشَأْتُ أمْشِي مِشْيَةَ الحائرِ الذاهلِ لا أعْرِفُ لي مَذْهَبًا، ولا مضطَربًا، ولا أجدُ مَنْ يَأْخُذُ بيَدِي، ويدُلُّني على نفسِي في هذا المَوْقِفِ الذي ينشُدُ فيه كلُّ ذي نَفْسٍ نفسَهُ، فلا يَجِدُ إليها سَبِيلًا.

فطفِقْتُ أتَصَفَّحُ وُجُوهَ الواقِفِينَ، وأُقَلِّبُ النظرَ في الغَادِين والرائِحِين، علّني أجِدُ صدِيقًا أسْتَأْنِسُ به في وَحْدَتي، وأسْتَعِينُ بمُرَافَقَتِهِ على وَحْشَتِي، فلا أرَى إلّا خلْقًا غريبًا، ومنْظَرًا عجيبًا، ووُجُوهًا ما رأيتُ لها في حياتي شَبِيهًا ولا ضَرِيبًا. ولولا أنّي أعْلَمُ أنّ الحسابَ خاصٌّ بالإنسانِ، لظَنَنْتُ أنّ اللهَ يحاسِبُ في هذا المَوْقِفِ جميعَ أنواعِ الحَيَوانِ.

هنالِكَ وقَدْ بَلَغَ اليأسُ والهَمُّ مَبْلَغَهُما من نفسي رأيتُ على البعدِ وَجْهًا يَبْتَسِمُ لي، ويَدْنُو منّي رُوَيْدًا رُوَيْدًا؛ فأرْقَلْتُ[2] نحوَهُ، حتى بلَغْتُه، فإذا صَدِيقي «فلان» وإذا وجْهُهُ يَتَلألأُ تَلأْلُؤَ الكوكبِ في عَلْياءِ السماءِ؛ فَسَأَلْتُهُ ما فَعَلَ اللهُ به؟

فقال: حاسَبَني حسابًا يَسِيرًا، ثمّ غَفَرَ لي، وها أنذا ذاهبٌ إلى ما أعَدَّ اللهُ لعِبادِهِ الصالِحِين في جَنَّتِهِ من النّعيمِ المُقيمِ.

فعَجِبْتُ لشأنِهِ، وقُلْتُ في نفسي: لقد هانَ أمْرُ الحِسَابِ على كلِّ عاصٍ بَعْدَما هانَ على هذا الذي كنتُ أعْرِفُهُ في أولاه؛ لا يتَّقِي مَأْثَمًا، ولا يَهَابُ مُنْكَرًا؛ ولا يَخْرُجُ من حانٍ إلّا إلى حانٍ، ولا يودعُ مَجْمَعًا من مجامِعِ الفُسْقِ إلّا على موعِدٍ من اللقاءِ.

فنظرَ إليّ نظْرَةَ العاتِبِ اللائم، وابْتَسَمَ ابتسامَةً علِمْتُ منها أنّ الرجلَ قد ألَمّ بما ضَمَرْتُه في نفسي، فذَكَرْتُ أنْ قد كُشِفَ الغطاءُ في هذه الدارِ؛ وأنْ قد رُفِعَ الحِجَابُ بين الناسِ: فلا سرَّ لا جَهْرَ، ولا بَطْنَ ولا ظَهْرَ، ولا فرقَ بين حركاتِ اللسانِ وخطراتِ الجنانِ.

---

(١) السنة: الغفلة. (٢) أرقل: أسرع.

نظر إليّ تلك النظرةَ، وقال: لا تَعْجَبْ لأمرٍ في هذه الدارِ، فكلُّ ما فيها عَجَبٌ، واعلمْ أنّ اللهَ حاسَبَني على كلِّ ما كنتُ أجْترِحُ[١] من الآثام في الدارِ الأولى، إلّا أنّه وَجَدَ لي في جَرِيدَةِ حَسَناتي حَسَنةً ذهبَتْ بجميعِ السيّئاتِ؛ ذلك أنّه كان لي جارٌ من ذوي النّعْمَةِ، والثراءِ، والصّلاحِ، والخَيْرِ، والمروءَةِ، والبرّ، نكَبَهُ دَهْرُهُ نَكْبَةً ذَهَبَتْ بمَالِهِ.

فأهَمّني أمرُه، وأزْعَجَنِي أنْ أراهُ في مستقبَلِ أيامِهِ بائِسًا مُعْدَمًا، يُرِيقُ ماءَ وجْهِهِ على أعتابِ الذين كان يُسْدِي إليهم نِعْمَتَهُ.

فاحْتَلْتُ على أن أُدْخِلَ في بيتِهِ خادِمًا كانت في بَيْتي، وجَعَلْتُ لها جُعْلًا[٢] على أن تَدُسَّ في كيسِ دراهِمِه كلّ ليلةٍ خَمْسَةَ دنانِيرَ من حيث لا يشعُرُ بمَأْتاها، ولا يقِفُ على سِرِّها؛ ولا زالَ هذا شأني وشأنَهُ، لا يَعْلَمُ من أين يأتِيه رِزْقُهُ، ولا يشعُرُ أحدٌ منَ الناسِ باستِحَالةِ حَالِهِ، وذَهَابِ مالِهِ، حتّى فرّقَ المَوْتُ بيني وبينه.

فما نَفَعني عَمَلٌ من أعْمَالي ما نَفَعَنِي هذا العَمَلُ، وما كانَ الإحْسَانُ وحْدَه سببَ سَعَادَتي؛ بل كان سببُهَا أنّه أصابَ الموضعَ؛ وخلُصَ من شائِبَةِ الرّياءِ.

فهَنّأْتُه بنِعْمَةِ اللهِ عليه، وشكَوْتُ إليه وحْشَتي من الوحدةِ وخَوْفي من المحاسَبَةِ.

فقالَ: أمّا الوَحْشَةُ، فلن أفارِقَكَ حتّى يأتِيَ دَوْرُك؛ وأمّا الخوفُ، فلا حيلةَ لي ولا لأحدٍ من الناسِ في نَقْضِ ما أبْرَمَ اللهُ في شَأْنِك.

فقلتُ: أنتَ من السُّعَداءِ؛ فهل تَسْتَطِيعُ أن تَشْفَعَ لي، أو تَطْلُبَ لي شِفَاعةً من وَلِيٍّ من الأولياءِ أو نَبِيٍّ من الأنبياءِ؟

قال: لا تَطْلُبِ المُحَالَ، ولا تصدِّقْ كُلَّ ما يُقَالُ. فقد كنّا مخدُوعِين في الدارِ الأولى بتلك الآمالِ الكاذِبَةِ التي كان يَبِيعُها لنا تُجّارُ الدّينِ بثمَنٍ غالٍ، ولا يتّقُون اللهَ في غِشّنا وخِدَاعِنا.

وما الشّفَاعَةُ إلّا مظهَرٌ من مظاهِرِ الإكْرام والتبجيلِ يَخْتَصُّ به اللهُ بَعْضَ المقرَّبين؛ فلا يَشْفَعُ عندَه أحدٌ إلا بإذْنِهِ، ولا يأذَنُ بالشّفاعَةِ لأحَدٍ إلّا إذا كان بين أعْمالِ المشفُوعِ له أو في أعْمَالِ سَرِيرَتِهِ ما يَقْتَضِي إيثارَه بالمغفِرَةِ على غيرِهِ من العُصَاةِ والمُذْنِبِينَ، واللهُ سبحانَه وتعالَى أجلُّ من العَبَثِ وأرْفَعُ من المُحَابَاةِ.

وما وَصَلَ من حديثِه إلى هذا الحدِّ، حتى رَأَيْنا كَوْكَبَةً[٣] من ملائكةِ العذابِ تُحيطُ برجُلٍ يُساقُ إلى النارِ، ورأَيْنا في يَدِ كلّ واحدٍ منهم مَقْرَعَةً من الحديدِ يَقْرَعُ بها رأسَهُ، وهو يصرُخُ ويقول: «أهْلَكْتَني يا أبا حَنِيفةَ».

فسَأَلْتُ صاحِبِي: ما ذنبُ الرجلِ؟

فقال: إنّه كان في حَيَاتِهِ يتّخِذُ في أعمالِه ما يُسَمُّونَه «الحِيل الشرعيّة»، فكان يهَبُ مالًا

---

(١) اجترح: ارتكب. (٢) الجعل: المرتّب، أجر العامل.

(٣) الكوكبة: الجماعة.

لأحدِ أولادِهِ على نِيَّةِ اسْتِرْدَادِهِ قبلَ أن يَحُولَ عليه الحولُ، ليتَخَلَّصَ من فريضَةِ الزّكاةِ.

ويطلِّقُ زوجَتَه ثلاثًا، ثم يأتي بمُحَلِّلٍ يُحَلِّلُها له فيعودُ إلى معاشَرَتِها.

وكان يُرابي[1] باسْمِ الرَّهْنِ، فإذا جاءَهُ من يُريدُ أن يَقْتَرِضَ منه مالًا، أبَى أنْ يَقْرُضَهُ إلّا إذا وَضَعَ في يدِه رَهْنًا، فإذا وَضَعَ يدَه على ضَيْعَتِهِ، أَلْزَمَهُ أن يَسْتَأْجِرَها منه بمالٍ كثيرٍ يُراعِي فيه النسبةَ التي يُراعيها المُرابُون بين الربحِ وأصْلِ المالِ.

وكان إذا حَلَفَ، لا يَدْخُلُ بَيْتًا دَخَلَهُ من نافِذَتِهِ، أو لا يأكُلُ رغِيفًا، أكَلَهُ إلّا لُقْمَةً منه.

فذَنْبُه أنّه كان يَعْمَدُ إلى الأحكامِ الشرعيَّةِ، فَيَنْتزِعُ منها حكمَها وأسْرَارَها، ثم يرفَعُها إلى اللهِ قُشُورًا جَوْفاءَ، ليخدَعَهُ بها، ويغشَّهُ فيها كما يَفْعَلُ مع الأطفالِ والبُلْهِ، مُسْتَنِدًا على تقليدِ أبي حنيفة أو غيرِه من كبارِ الأئمّةِ. وأبو حنيفة أرْفَعُ قَدْرًا وأهْدَى بَصِيرَةً، من أن يتّخذَ هزءًا وسُخْرِيةً، وأن يكونَ ممَّنْ يهدِمُون الدّينَ باسْمِ الدّينِ.

وما انْقَطَعَ عنّا صَوتُ هذا الشقيّ، حتّى رأيْنا شَقِيًا آخرَ ذا لحيةٍ طويلةٍ كثَّةٍ، قد أحاطَ به مَلَكَان، وشَدّا عُنُقَهُ بسُبْحَةٍ طويلةٍ ذات حبّاتٍ كبيرةٍ، وقد أخذَ كلٌّ منهما بطَرْفٍ منها، وهو يُهَمْهِمُ بكلِمَاتٍ مُبْهَمَةٍ، فَيَقْرَعُهُ أحَدُهُما على رأسِه ويقُولُ له: «أمكرٌ وأنتَ في الحديدِ؟»

فدنَوْتُ منه وأنْعَمْتُ النظرَ في وجْهِهِ فعرَفْتُهُ، فتَراجَعْتُ ذُعْرًا وخَوْفًا وصِحْتُ: أَيَكُونُ هذا من أشْقِياءِ الآخرَةِ، وقد كانَ بالأمسِ من أقْطابِ الأولى؟!

فقالَ لي صاحبِي: إنّ هذا الذي كنت تحسبُه في أولاه مِنَ الأقْطابِ كان أكْبرَ تاجرٍ من تُجّار الدّينِ، وما هذه اللحيةُ والسبحةُ، والهَمْهَمَةُ، إلّا حَبَائلُ[2] كان يَنْصُبُها لاصْطِيَادِ عُقُولِ الناسِ وأمْوالِهِمْ، ولكنّ الناسَ لا يَعْلَمُون.

وما زَالَ المُنْصَرِفُون من موقفِ القَضَاءِ يمُرُّون بنا: هذا إلى جنّتِهِ، وذاك إلى نارِهِ، وأنا أسألُ عن شأنِ كلٍّ منهمْ واحِدًا، فوَاحِدًا، فأرَى سَعِيدًا من كنت أحْسبُهُ شقِيًّا، وشَقِيًّا من كنتُ أحسبُهُ سعِيدًا.

فسجّلْتُ أنّ اللهَ سبحانَه وتعالَى يحاسِبُ الناسَ على قُلُوبِهِمْ، وأن لا سعادةَ إلّا الصدقُ، ولا شقاءَ إلا الكذب، وعلمت أن الله لا يغفر من السيّئات إلّا ما كان هفوةً من الهَفَوَاتِ، يلمّ بها صاحبُها إلْمَامًا، ثم يَنْدَمُ عليها.

ورأيتُ أنّ أكبرَ ما يعاقَبُ عليه جنايةُ المرءِ على أخيه بسَفْك دَمِهِ، أو هَتْكِ عِرْضِهِ، أو سَلْبِ مالِهِ، وأنّ أضْعَفَ الوسائلِ إلى اللهِ ذلك الركُوعُ والسجودُ، والقيامُ والقعُودُ، فلو أنّ امْرَأً قَضَى حياتَهُ بين ليلٍ قائمٍ، ونهارٍ صائمٍ، ظلمَ طفلًا صغيرًا في لقمةٍ يختَطِفُها من يدِه لاسْتَحالَتْ حَسَنَاتُه إلى سيّئاتٍ، وما أغْنَى عنهُ نُسُكُهُ من اللهِ شيئًا.

وبينَمَا أنا أُحدّثُ نَفْسِي بهذا الحديثِ، وأقلّبُ النّظَرَ في وُجُوهِ تلك المواعِظِ والعِبَرِ، إذْ قالَ

---

(١) يرابي: يعطي ماله بالفائدة.

(٢) الحبائل: ج الحِبالة، وهي المصيدة.

لي صاحبي: أتَعْرِفُ هذَيْن؟ وأشارَ إلى رجُلَيْنِ واقِفَيْنِ ناحِيَةً يَتناجَيان: أحَدُهما شيخٌ جليلٌ أبيضُ اللّحْيَةِ، وثانيهما كَهْلٌ نَحِيفٌ قدِ اختَلَطَ مُبَيَّضُهُ بمُسْوَدِّهِ؛ فما هي إلّا النظرةُ الأولى، حتّى عَرَفْتُ الرجُلَيْنِ العَظِيمَيْنِ رَجُلِ الإسْلام «محمد عبده»، ورجل المرأةِ «قاسم أمين». فقُلْتُ لصاحِبي: هل لك في أنْ نَدْنُوَ منهما، ونَسْتَرِقَّ نَجْوَاهُما من حيثُ لا يَشْعُرَان؟ فَفَعَلْنَا؛ فسمِعْنا الأولَ يقُول للثاني: ليتكَ، يا قاسم، أخَذْتَ برأيِي، وأحْلَلْتَ نُصْحِي لك مَحَلًّا من نفسِك، فقد كنتُ أنْهَاك أن تُفاجِئَ المَرْأَةَ المَصْرِيّةَ برأيك في الحِجَابِ قبل أنْ تأْخُذَ له عُدَّتَهُ من الأدَبِ والدّينِ، فجنَى كتابُك عليها ما جَناه من هَتْكِ[1] حُرْمَتِها، وفسَادِها، وتَبذّلِها وإراقَةِ تلك البَقِيّةِ الصالحَةِ التي كانت في وَجْهِهَا من ماءِ الحياةِ.

فقال له صاحبُه: إنّي أشَرْتُ عليها أنْ تَتَعَلَّمَ قبل أنْ تُسْفِرَ، وأنْ لا ترفعَ بُرْقُعَها قبل أن تنسجَ لها بُرْقُعًا من الأدَبِ والحيَاءِ.

قال له: ولكنْ فاتَك ما كُنْتَ تنبّأتَ به من أنّها جاهلةٌ لا تَفْهَمُ هذه التفاصِيلَ، وضعيفةٌ لا تَعْبَأ بهذا الاسْتِثْنَاءِ، فكُنْتَ كَمَنْ أعْطَى الجاهلَ سَيْفًا، ليقتُلَ به غيرَهُ، فقَتَلَ نَفْسَهُ.

فقالَ: أتأذَنُ لي، يا مولايَ، أن أقولَ لك: إنّك نَصَحْتَني بما لم تَنْتَصِحْ به؛ أنا أرَدْتُ أن أنْصَحَ المرأةَ، فأفسَدْتُها كما تَقُولُ. وأنت أرَدْتَ أن تُحْيِي الإسلامَ فَقَتَلْتَهُ. إنّك فاجَأْتَ جَهَلَةَ المُسْلِمِين بما لا يَفْهَمُون منَ الآداءِ الدينيّةِ الصحيحَةِ والمقاصدِ العاليَةِ الشريفَةِ، فأرادُوا غيرَ ما أرَدْتَ؛ وفهِمُوا غيرَ ما فَهِمْتَ.

فأصْبَحُوا مُلْحِدِينَ، بعد أن كانُوا مُخرفِين. وأنتَ تَعْلَمُ أنّ دينًا خُرَافِيًّا خَيْرٌ من لا دِين. أوّلْتَ لهم بعضَ آياتِ الكتابِ، فاتّخذُوا التأويلَ قاعِدَةً حتّى أوّلُوا الملكَ والشيطانَ والجنّةَ والنارَ! وبيّنْتَ لهم حكمَ العبادَاتِ وأسْرَارَها وسفَّهْتَ لهم رأيَهُمْ في الأخذِ بقشُورِها دون لبابِها، فترَكُوها جُمْلَةً واحدةً، وقلْتَ لهم: إنّ الوالي إلَهٌ، واللهَ إلَهٌ حقٌّ، فأنكرُوا الألُوهِيَّةَ حقَّها وباطِلَها.

فتَهَلَّلَ وَجْهُ الشيخ وقالَ له: ما زلتَ، يا قاسمُ، في أخْرَاك، مثلُكَ في دُنْياك، لا تضطربُ في حُجّةٍ، ولا تَنَامُ عن ثأرٍ، لا تحمِلُ همًّا، ولا تَخْشَى شرًا. وثِقْ أنّ اللهَ سيُحاسِبُنا على نيّاتِنا وسرَائِرِنا، ويَعْفُو عن هَفَواتِنا وسَقَطاتِنا، إنّا ما أرَدْنا إلّا الخيرَ لأمّتِنا، ولا أرَدْنا لها إلّا ما تحتَمِلُه عُقُولُها، فإن كذبَت فِراسَتُنا، أو أخْطأَ تَقْدِيرُنا، فذلك لأنّ المُسْتَقْبَلَ بيدِ اللهِ.

وما وَصَلا من حديثِهِما إلى هذا الحدّ حتى تَرَكا مكَانَهُما، وذَهَبا لشأنِهِمَا؛ فقُلْتُ لصَاحبي: هل لك أنْ تُرِيَنِي الميزانَ والصّراطَ والجنَّةَ والنارَ، فإنّي ما زلتُ في شَوْقٍ إلى رُؤْيةِ تلك الأشياءِ ورؤيةِ مواقِعِها منذ رأيتها في «خريطةِ الآخرةِ» التي رسَمَها الشعراني في بَعْضِ كتُبِهِ.

قال: أمّا الميزانُ، فتَقْدِيرُ الأعْمَالِ والمُوَازنَةُ بين الحسناتِ والسيّئاتِ، وأمّا الصراطُ، فهو سبيلُ الإنسانِ إلى سعادتِهِ، أو شقائِهِ، وأمّا الجنَّةُ والنارُ، فلا عِلْمَ لي حتّى الساعةِ بهما.

---

(١) هتك العرض: فضحه.

وبينَا أنا كذلك إذْ سَمِعْتُ صَوْتًا صَارِخًا ما قَرَعَ سَمْعِي في حَيَاتي مثلُهُ يُنادِيني باسْمِي، فعلِمْت أنْ قد جاءَ دَوْرِي، فأدْرَكَني من الهولِ والرعبِ ما أيْقَظَني من نَوْمي.

فاسْتَيْقَظْتُ فلم أرَ حِسَابًا، ولا عِقابًا، ولا مَوْقِفًا، ولا مَحْشَرًا. فعلِمْتُ أنّها خيالاتٌ وأوهامٌ، أو أضْغَاثُ أحْلامٍ[١]، وما نحن بتَأْوِيلِ الأحْلام بِعالِمِين.

❃ ❃ ❃

الشعرة البيضاء

مَرَرْتُ صَبَاحَ اليوم أمامَ المرآةِ، فلَمَحْتُ في رأسِي شَعْرَةً بَيْضَاءَ، تَلْمَعُ في تلك اللِّمَّةِ[٢] السّوْداءِ لمَعَانَ شَرَارَةِ البَرْقِ في اللّيْلَةِ الظلماءِ.

رَأيْتُ الشّعْرَةَ البيضاءَ في مَفْرقي[٣]، فارْتَعْتُ لمَرْآها كأنّما خُيّلَ إليّ أنّها سَيْفٌ جَرّدَهُ القَضَاءُ على رَأسِي، أو عَلَمٌ أبيضُ يَحْمِلُهُ رَسُولٌ جاءَ من عالمِ الغَيْبِ يُنْذِرُني باقْتِرابِ الأجَلِ، أو يَأْسٌ قاتِلٌ عَرَضَ دونَ الأملِ، أو جُذْوَةُ نارٍ عَلِقَتْ بأهْدابِ حَيَاتي عُلُوقَها بالحَطَبِ الجَزلِ، ولا بدّ لها مَهْما تَرَفَّقَتْ في مِشْيَتِها واتّأدَتْ في مَسيرِها من أنْ تَبْلُغَ مَدَاها، أو خَيْطٌ من خيوطِ الكفنِ الذي تنسجُهُ يدُ الدهرِ، وتُعِدُّه لباسًا لجُثّتي عندما تُجَرّدُها من لباسِها يدُ الغاسِل.

أيَّتُها الشعرةُ البيضاءُ! ما رأيتُ بَياضًا أشبَهَ بالسّوادِ من بياضِك، ولا نُورًا أقْربَ إلى الظلمةِ من نورِك، لقد أبْغَضْتُ من أجلِكِ كلَّ بياضٍ حتّى بياضَ القمرِ، وكلّ نورٍ حتّى نورَ الصبرِ وأحْبَبْتُ فيك كُلّ سوادَ حتى سوادَ الغربانِ وكلّ ظلامٍ حتى ظلامَ الوجدانِ.

أيّتُها الشعرةُ البيضاءُ! ليتَ شِعْري! من أيِّ نافذَةٍ خَلَصْتِ إلى رَأسِي؟ وفي أيِّ مَسْلَكٍ من مَسَالِكِ الدهرِ مَشَيْتِ إلى فَوْدَيَّ[٤]؟

كيف طابَ لك المُقامُ في هذه الأرضِ الموحِشَةِ التي لا تَجِدِينَ فيها أنيسًا يُسَامِرُك، ولا جَلِيسًا يُسَاهِرُكِ، وكيف لم يُرَعْ قَلْبُك لمنظرِ هذا الليلِ الفاحِم ولم يَغْشَ بَصَرُكِ في هذا الظلامِ القاتم؟

أيّتُها الشعرةُ البيضاءُ! لقد عَيِيتُ بأمْرِك، وبَعِلْتُ[٥] بحَمْلِك، وأصْبَحْتُ لا أعْرِفُ وَجْهَ الحِيلَةِ في البُعدِ عَنْك، والفِرارِ من وَجْهِكِ؛ لا يَنْفَعُني مَعَكِ أنْ أنْزَعَكِ من مكَانِك، لأنّك لا تَلْبَثِينَ أن تَعُودِي إليه، ولا يُنْقِذُني مِنْك أنْ أُخضّبَكِ بالسَّوَادِ، لأنّكِ لا تَلْبَثِين أن تَنْصِلي[٦] ولأنّي لا أحِبُّ أن أجْمَعَ على نَفْسِي بين مُصِيبَتَيْنِ: مُصيبَةِ الشّيبِ ومُصِيبَةِ الكذبِ.

---

(١) أضغاث أحلام: ما كان منها مضطربًا مختلطًا. (٢) اللّمة: الشعر المجاور شحمة الأذن.

(٣) المفرق: موضع افتراق الشعر.

(٤) الفودان: مثنّى الفَوْد، وهو جانب الرأس ممّا يلي الأذنين.

(٥) بعلت: تحيّرت. (٦) نصل الشعر: خرج من الخضاب، أي الصباغ.

أيَّتُها الشَّعْرَةُ البيضاءُ! يُخَيَّلُ إليَّ، وأنا أنظُرُ إليكِ أنَّكِ من ذاتِ الحِيلَةِ والدَّهَاءِ والكَيْدِ والخُبْثِ، وأنّك تَهمِسينَ في آذانِ أخَوَاتِكِ السّودِ اللواتي بجَانِبِكِ تُحاوِلِينَ إغْراءَهُنّ بالتشبُّهِ بكِ، والتَّرَدِّي بردَائِكِ، وكأنّي بك، وقد أشعَلتِ في هذه البيئةِ الهادِئَةِ المُطْمَئِنَّةِ حربًا شَعْواءَ[1]، وفِتْنَةً عَمْيَاءَ، يختلِطُ فيها الرامِحُ بالنابِلِ[2] والدارِعُ بالحاسِرِ[3]، ويَهْلِكُ فيها القاعدُ والقائمُ والمظلومُ والظالمُ.

إنْ كان هذا مَصِيرَكِ، فَسَيكُون شأنُك شأنَ ذلك السائحِ الأبيضِ، الذي ينزلُ بأمّةِ الزّنْجِ مُسْتَكْشِفًا، فيُصْبحُ مُسْتَعْمِرًا، ويدخلُ أرضَها سِلْمًا ويُفارِقُها حَرْبًا، فأسألُ اللهَ لرأسِي العافيةَ منكِ، ولأمّةِ الزّنْجِ السلامةَ من صاحِبِكِ، فكِلاهُما مَشْؤُومُ الطّلْعَةِ في مقامِهِ وارتحَالِهِ، وكَوكَبُ النّحسِ في وقوفِهِ وتَسْيَارِهِ.

أيَّتُها الشَّعْرَةُ البَيْضَاءُ! ما أنتِ؟ وما شأنُك؟ وما وفُودُكِ[4] إليَّ؟ وما مكانُك منّي؟ وما مقامُكِ عِنْدِي؟ إنْ كُنْتِ ضَيْفًا، فأيْنَ استِئْذَانُ الضّيْفِ، وتَلَطّفُه، وتجمُّلُهُ، وتودُّدُهُ، وإنْ كنتِ نَذِيرًا، فأنا أعْلَمُ من الموتِ وشأنِهِ ما لا أحتاجُ معه إلى نذيرٍ. فلم يَبْقَ إلّا أن تَكُوني أوْقَحَ الخلائقِ وَجْهًا، وأصْلَبَها خَدًّا، وإنّكِ قد نَزَلْتِ من السّمَاجَةِ والفُضُولِ منزِلَةً لا أرَى لك فيها شَبِيهًا إلّا تلك الحَيّةَ التي تَلِجُ[5] كلّ جُحْرٍ[6] من أجْحَارِ الهَوامّ والحشراتِ تَعُدّهُ جُحْرَها، وتحسبُهُ بَيْتَها.

أيَبْلُغُ بكِ الشأنُ، وأنتِ التي يَضْرِبُون الأمثالَ بدقّتِها وخَفَائِها، ويَبْعَثُون الملاقِطَ والمَقَارِيضَ وَرَاءَها، فلا يَكَادُون يَعرِفُون السبيلَ إلى مدارِجِها ومكانِها أنْ تَمْلأي من الرعبِ قَلْبًا لا يُرَوِّعُهُ السّيفُ المجرّدُ، ولا السَّهْمُ المُسَدَّدُ؟

أيَّتُها الشَّعْرَةُ البيضاءُ! هل لك أنْ تَتَجاوَزِي عمّا أسَأتُ به إليك في إطالَةِ عتبِك، واستِثْقَالِ ظِلِّكِ؟ فلقَد رَجَعْتُ إلى نَفْسِي، فعلِمْتُ أنّكِ أكْرَمُ الخلائِقِ عِنْدِي، وأعْظَمُها شأنًا في عَيْنِي.

هَنِيئًا لك رأسي مَصِيفًا ومَرْتَعًا، وهنِيئًا لك فَوْدِي مُرادًا ومَسْرَحًا، فأنتِ رسولُ الموتِ ما زِلْتُ أطلُبُه منذ عَرَفْتُهُ، فلا أجِدُ له سَبِيلًا، ولا أعْرِفُ له رَسُولًا.

ما الذي يَحْمِلُه لكِ في صَدْرِهِ من الحِقْدِ والمَوْجِدَةِ رَجُلٌ لم يَنْعَمْ بشَبَابِهِ، فَيَحْزَنُ على ذَهَابِهِ؛ ولم يذُقْ حلاوَةَ الحياةِ، فيجزَعُ لمرارَةِ المَمَاتِ، ولم يَسْتَنْشِقْ نَسَماتِ السعادةِ غُصْنًا رَطْبًا، فيأسَى عليها عُودًا يابِسًا.

ما الذيّ ينقمُهُ من شؤونِك رجلٌ يعلَمُ أنّك وَحْيُ الأمَلِ الذي يُبَشّرُه بقُرْبِ النّجاةِ من حياةٍ

---

(١) الحرب الشعواء: حرب غير منتظمة، متفرّقة. (٢) الرامح: حامل الرمح. والنابل: ذو النبل.
(٣) الدارع: لابس الدرع، والحاسر: خلافه. (٤) وفودك: مجيئك.
(٥) تلج: تدخل.
(٦) الجحر: بيت الهوام، والهوام: ج الهامة، وهي ما له سمّ كالحيّة أو ما لا يقتل من الحشرات.

ليس فيها من السعادةِ والهناءَةِ. . إلّا لحظاتٌ قليلةٌ يكدّرُها ما يُحيطُ بها من الهمومِ والأحزانِ، كما تكدّرُ أنفاسُ الحزنِ الحارّةُ صَفْحَةَ المِرْآةِ.

أليس كلُّ ما أعُدُّهُ عليكِ من الذّنوبِ أنّك طَلِيعَةُ المَوْتِ، والمَوْتُ هو الذي يُخَلِّصُني من مَنْظَرِ هذا العالمِ المَمْلُوءِ بالشُّرُورِ والآثامِ، الحافلِ بالآلامِ والأسقامِ الذي لا أُغْمِضُ عَيْنِي فيه إلّا لأفْتَحَها على صديقٍ يَغْدُرُ بصديقِهِ؛ وأخٍ يَخُونُ أخاهُ؛ وعَشِيرٍ يُحَدّدُ أنيابَهُ لمَضْغِ عَشِيرِهِ؛ وغنيٍّ يَضِنُّ[1] على الفقيرِ بفُتاتِ مائدَتِهِ؛ وفقيرٍ يَقْتَرِحُ على الدّهْرِ حتى بلَغَهُ المَوْتُ، فلا يَظْفَرُ بأمْنِيَتِهِ؛ وملكٍ لا يفرّقُ بين رعيّتِهِ وماشِيَتِهِ؛ ومَمْلُوكٍ لا يُمَيّزُ بين مالكِ الملكِ وربُوبِيّتِهِ؛ وقلوبٍ تضطرمُ حِقْدًا على غيرِ طائلٍ؛ ونُفُوسٍ تَتَفَانَى قَتْلًا على لونِ حائلٍ، وظلٍّ زائلٍ، وغَرَضٍ باطلٍ؛ وعُقُولٍ تَتَهَالَكُ وَجْدًا على نارٍ تحرقُها وأنيابٍ تمزّقُها؛ وعيونٍ حائرةٍ في رؤوسٍ طائرةٍ، تنظُرُ ولا تَرى شيئًا ممّا حَوْلَها، وتَلْمَعُ ولا تكادُ تُبْصِرُ ما أمامَها؛ إنْ كانَ هذا هو ظاهِرُ ذَنْبِك عِنْدِي، فاسْتَكْثِرِي من ذُنُوبِكِ، فإنّي لكِ منَ الغافِرِين.

أيّتُها الشعرةُ البَيْضاءُ! مَرْحَبًا بك اليومَ، ومَرْحَبًا بأخَوَاتِكِ غَدًا، ومَرْحبًا بهذا القَضَاءِ المُخْتَبِئِ وَرَاءَك، أو الكامِنِ في أطْوائِكِ[2]، ومَرْحَبًا بتلك الغُرْفَةِ التي أخْلُو فيها بربّي، وآنسُ بنَفْسِي، من حيثُ لا أسْمَعُ حتى دَوِيَّ المدافِعِ، ولا أرى حتّى غُبارَ الوقائعِ.

أهْـلًا بِـوَافِـدَةٍ لِـلـشّـيْـبِ واحِـدَةٍ وإنْ تَـراءَتْ بِـشَـكْـلٍ غَـيْـرِ مَـوْدُودِ

❀ ❀ ❀

الصيّاد

حَدَّثَ أحَدُ الأصْدِقاءِ قالَ: بينَمَا أنا في مَنْزِلي صَبِيحَةَ يوم، إذ دخلَ عليّ رجُلٌ صَيّادٌ يَحْمِلُ في شَبَكَةٍ فَوْقَ عاتِقِهِ سَمَكَةً كبيرةً، فعَرَضَها عليَّ، فلم أساوِمْهُ فيها، بل نَقَدْتُهُ الثَّمَنَ الذي أرادَهُ، فأخَذَهُ شاكِرًا مُتَهَلّلًا، وقال: هذه هي المرّةُ الأولى التي أخَذْتُ فيها الثَّمَنَ الذي اقْتَرَحْتُهُ؛ أحْسَنَ اللهُ إليك كما أحْسَنْتَ إليَّ، وجَعَلَكَ سَعِيدًا في نفسِك كما جَعَلَك سَعِيدًا في مالِكَ.

فسُرِرْتُ بهذِهِ الدّعْوَةِ كثيرًا، وطمِعْتُ في أن تَتَفَتَّحَ لها أبوابُ السماءِ المُغْلَقَةُ دُونِي، وعجِبْتُ أن يَهْتَدِيَ شيخٌ عامّيٌّ إلى مَعْرِفَةِ حقِيقَةٍ لا يَعْرِفُها إلّا القليلُ من الخاصّةِ، وهي أنّ للسعادَةِ النفسيّةِ شأنًا غيرَ شأنِ السعادةِ الماليّةِ.

فقلتُ له: يا شيخُ، وهل تُوجَدُ سَعَادَةٌ غيرُ سعادَةِ المالِ؟

فابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً هادِئَةً مؤثّرةً وقال: لو كانتِ السعادةُ سعَادَةَ المالِ، لكنْتُ أنا أشْقَى الناسِ، لأنّني أفقَرُ الناسِ.

---

(١) يضنّ: يبخل. (٢) الأطواء: الأثناء.

قلت: هل تعدُّ نَفسَكَ سَعِيدًا؟

قال: نَعَمْ، لأنّني قانِعٌ برزْقِي، مُغْتَبِطٌ بعَيْشِي، لا أحزنُ على فائِتٍ من العيشِ، ولا تَذْهَبُ نَفْسي حَسْرَةً وراء مطمَعٍ من المطامعِ، فمِنْ أيِّ بابٍ يخلُصُ الشّقاءُ إلى قَلْبي؟

قلت: أيّها الرجُلُ، أيْنَ يُذْهَبُ بكَ؟ ما أرَى إلّا أنّك شَيْخٌ قد اختُلِسَ عَقْلُهُ، كيف تعدُّ نفسَك سَعِيدًا، وأنتَ حافٍ غيرُ مُنْتَعِلٍ، وعَارٍ إلّا قليلًا من الأسْمالِ الباليَةِ[1]، والأطْمَار السحِيقَةِ؟

قال: إن كانتِ السعادَةُ لذّةَ النفسِ وراحَتَها، وكان الشقاءُ ألَمَها وعَنَاءَها، فأنا سَعِيدٌ؛ لأنّي لا أجِدُ في رثَاثَةِ مَلْبَسِي، ولا في خُشُونَةِ عَيْشِي، ما يُولِّدُ لي ألَمًا، أو يُسبّبُ لي همًّا؛ وإنْ كانتِ السعادَةُ عندَكم أمْرًا وَرَاءَ ذلك، فأنا لا أفْهَمُها إلّا كذلك.

قلت: ألَا يُحْزِنُك النّظَرُ إلى الأغنياءِ في أثاثِهِمْ، ورِيَاشِهِمْ، وقُصورِهِمْ، ومَرَاكِبِهِمْ، وخدَمِهِمْ، وخيُولِهِمْ، ومطعَمِهِمْ، ومَشْرَبِهِمْ؟ ألا يُحْزِنُك هذا الفَرْقُ العظيمُ بين حالتِكَ وحالَتِهِمْ؟

قال: إنَّما يصغُرُ جميعُ هذه المناظر في عَيْني ويهوّنُها عندي، أنّي لا أجِدُ أصحابَها قد نالُوا من السعادَةِ بوجْدَانِها أكثرَ ممّا نِلْتُهُ بفقْدَانِها.

هذه المطاعمُ التي تَذْكُرُها إن كان الغَرضُ منها الامْتِلاءَ، فأنا لا أذكرُ أنّي بتُّ ليلةً في حياتي جَائِعًا، وإن كان الغرضُ منها قضاءَ شَهْوَةِ النفسِ، فأنا لا آكلُ إلّا إذا جِعْتُ؛ فأجِدُ لكلِّ ما يدخُلُ جَوْفي لذّةً لا أحسبُ أنّ في شهواتِ الطعام ما يَفْضُلُها؛ أمّا القُصورُ فإنّ لديّ كُوخًا صَغيرًا، لا أشعُرُ أنّه يَضِيقُ بي وبزَوجَتي ووَلدي، فأقْرَعُ السنّ[2] على أن لم يكُنْ قَصْرًا كبيرًا.

وإن كان لا بُدَّ من إمتاعِ النّظرِ بالمَناظِرِ الجميلةِ، فَحَسْبِي أن أحْمِلَ شَبَكَتي على عاتِقِي كلّ مطلَعِ فَجْرٍ، وأذْهَبَ بها إلى شاطئِ النهرِ، فأرَى مَنْظَرَ السماءِ والماءِ، والأشعّةِ البيضاءِ، والمروجِ الخضراءِ، فما هي إلّا لفتَةُ الجِيدِ أن يطلَعَ من ناحيةِ الشرقِ قرصُ الشمسِ كأنّه مجنٌّ من ذهبٍ، أو قطعةٌ من لهبٍ، فلا يبعدُ عن خطّ الأفقِ ميلًا أو ميلَين، حتّى ينثُرَ فوقَ سطحِ النهرِ حليَّهُ المتكسّرَ، أو دُرَّهُ المُتَحدِّر، فإذا تَجلّى هذا المَنْظَرُ أمامَ عَيْنِي، يَتَخَلَّله سُكونُ الطبيعةِ وهُدُوؤُها، ملكَ عليّ شُعُوري ووجداني، فاستَغْرَقْتُ فيه استِغْراقَ النائمِ في الأحلامِ اللّذيذةِ، حتى أحبُّ أنْ لا أعودَ إلى نَفْسِي إلى يوم النّشورِ.

ولا أزالُ هكذا هائمًا في أحْلامِي حتّى أشْعُرَ بجَذْبَةٍ قَوِيَّةٍ في يَدِي، فأنْتَبِهُ فإذا السَّمَكُ في الشَّبَكَةِ يَضْطَرِبُ، وما اضطرابُه، إلّا أنّه فارقَ الفضاءَ الذي يَهيمُ فيه مطلقَ السّراحِ، وباتَ في المحبسِ الذي لا يجدُ فيه مَراحًا، ولا مضطربًا، فلا أجدُ له شبيهًا في حالتَيْهِ إلّا الفقراءَ والأغنياءَ.

يَمْشِي الفقيرُ كما يشْتَهِي، ويَتَنقَّلُ حيث يُرِيدُ كأنّما هو الطائرُ الذي لا يقعُ إلّا حيث يَطيبُ له التغريدُ والتنقيرُ، ولولا أنْ تَتَخطّاه العيونُ وتَنْبُو عنه النواظرُ، ما طارَ في كلِّ فضاءٍ؛ ولا تَنَقّلَ حيثُ يشاءُ.

---

(١) الأسمال البالية: الثياب القديمة.

(٢) قرع السن: كناية عن الندم.

أمّا الغنيُّ، فلا يَتَحرّكُ، ولا يسكُنُ إلّا وعليهِ من الأحداقِ نطاقٌ، ومن الأرصادِ أغْلالٌ وأطْوَاقٌ، ولا يخرجُ من منزلِهِ، إلّا إذا وقَفَ أمامَ المرآةِ ساعةً يؤلّفُ فيها من حقيقَتِهِ، وخيالِهِ ناظِرًا، ومَنْظُورًا، ثمّ يُطِيلُ التفكِيرَ: هل يَقَعُ المنظورُ من الناظرِ موقِعًا حَسَنًا؟ حتّى إذا اسْتَوْثَقَ لنفسِهِ بذلك خَرَجَ إلى الناس يَمْشي بينهم مِشْيَةً يحرصُ فيها على الصورةِ التي اسْتَقرَّ رأيُهُ عليها، فلا يُطْلِقُ لجسمه الحرّيةَ في الحَرَكةِ والالتفاتِ، حتى لا يخرجَ بذلك عن حُكْمِها؛ ولا لفِكْرِهِ الحريّةَ في النظرِ والاعتبارِ بمشاهدةِ الكونِ وآياتِه، مخافةَ أن يغفلَ عن إشاراتِ السلامِ، ومظاهرِ الإكْرامِ.

فإذا أخذْتُ من السَّمَكِ كفافَ يَوْمي، عُدْتُ به، وبعتُهُ في الأسواقِ، أو على أبوابِ المنازلِ، فإذا أدبرَ النهارُ، عُدْتُ إلى منزلي، فيَعْتَنِقُني وَلَدِي، وتبشُّ في وَجْهي زَوْجَتي. فإذا قَضَيْتُ بالسعيِ حقَّ عيالي، وبالصلاةِ حقَّ ربّي، نمتُ في فراشي نَوْمةً هادِئَةً مطمئنّةً، لا أحتاجُ معها إلى ديباجٍ وحريرٍ أو مَهْدٍ وثيرٍ. فهل أستَطِيعُ أن أعدَّ نفسي شَقِيًّا، وأنا أرْوَحُ الناسِ بالًا، وإن كنتُ أقلَّهُمْ مالًا؟

لا فَرْقَ بَيْني وبَيْنَ الغنيِّ، إلّا أنّ الناسَ لا يَنْهضُون إجْلالًا لي، إذا رَأَوْني، ولا يُمُدُّون أعناقَهُم نَحْوي، إذا مَرَرْتُ بهم، وأهونْ به من فرقٍ لا قيمةَ له عندي، ولا أثرَ له في نفسي. وما يَعْنِيني من أمرِهِمْ، إنْ قامُوا أو قَعَدُوا، أو طارُوا في الهواءِ، أو غاصُوا في أعماقِ الماءِ، ما دُمْتُ لا علاقةَ بيني وبينهم، وما دمتُ لا أنظرُ إليهم إلّا بالعين التي ينظرُ بها الإنسانُ إلى الصور المتحرّكَةِ.

لا علاقةَ بيني وبين أحدٍ في هذا العالمِ إلّا تلك العلاقةُ بيني وبين ربّي، فأنا أعبُدُهُ حقّ عبادَتِهِ، وأخْلُصُ في توحيدِهِ، فلا أعْتَقِدُ رَبوبيّةَ أحَدٍ سِوَاهُ. ولا أكتُمُكَ، يا سيّدي، أنّني لا أسْتَطِيعُ الجَمْعَ بين توحِيدِ اللهِ والاعترافِ بالعظَمَةِ لأحَدٍ من الناس، ولقد أخَذَ هذا اليقينُ مكانَهُ من قَلْبِي، حتّى لو طَلَعَ عليّ الملكُ المتوَّجُ في مواكِبِهِ وكواكِبِهِ، ورِاياتِهِ وأعلامِهِ، لما خفَقَ قلبي خفقةَ الرهبةِ والخَشْيَةِ، ولا شَغَلَ من نفسي مكانًا أكثرَ ممّا يشغَلُهُ مِلكُ التمثيلِ.

ولقد كان هذا اليقينُ أكبرَ سببٍ في عَزائي، ورَاحَةِ نفسي من الهمومِ والأحزانِ؛ فما نزلَتْ بي ضائقَةٌ، ولا هبَّتْ عليّ عاصفةٌ من عواصفِ هذا الكونِ إلّا انْتَزَعَني من بينِ مَخالِبِها وهَوَّنَها عليّ؛ حتى لا أكادُ أشعرُ بوَقْعِها. وكيف أتألّمُ لمُصابٍ أنا أعلمُ حقَّ العلمِ أنّه مَقْدورٌ لا مفرَّ منه، وأنّني مأجُورٌ عليه على قَدْرِ احْتِمَالي إيّاهُ، وسُكُوني إليه؟

آمَنْتُ بالقضاءِ والقَدَرِ خَيْرِهِ وشرِّهِ؛ وباليَوم الآخرِ ثَوابِهِ وعِقَابِهِ؛ فصَغُرَتِ الدُّنْيا في عَيْنِي، وصغُرَ شأنُها عِنْدِي حتّى ما أفرحُ بخَيْرِها، ولَا أحزَنُ لشرِّها، ولا أعولُ على شأنٍ من شُؤُونِها حتّى شأنِ الحياةِ فيها؛ وأقسمُ ما خَرَجْتُ مرّةً إلى ضِفّةِ النهرِ حامِلًا شَبَكتي فوقَ عاتِقِي، إلّا وَقَعَ الشّكُّ في نفسي: هل أعُودُ إلى مَنْزِلي حامِلًا، أو مَحْمُولًا؟

ما العالمُ إلّا بَحْرٌ زاخِرٌ، وما الناسُ إلّا أسْمَاكُهُ المائِجَةُ فيه، وما ريبُ المَنُون إلّا صَيّادٌ، يحمِلُ شَبَكَتَهُ كلَّ يَوْم، ويُلْقِيها في ذلك البحرِ، فَتُمْسِكُ ما تُمسِكُ، وتَتْرُكُ ما تَتْرُكُ. وما يَنْجُو من شَبَكَتِهِ اليومَ لا يَنْجُو منها غدًا، فكيفَ اغْتَبِطُ بما لا أملِكُ، أو أعْتَمِدُ على غير مُعْتَمدٍ؟ إذن أنا أضلُّ الناسِ عَقْلًا وأضْعَفُهُمْ إيمانًا!

قال المحدّثُ: فأكْبَرتُ الرّجُلَ في نفسي كلَّ الإكْبارِ، وأُعْجِبْتُ بصفَاءِ ذِهْنِهِ، وذكاءِ قلبِهِ، وحَسَدْتُه على قَنَاعَتِهِ، واقْتِنَاعِهِ بسعادَةِ نَفْسِهِ.

وقلتُ له: يا شيخُ، إنّ الناسَ جميعًا يبكُونَ على السعادةِ، ويفتّشُون عنها، فلا يَجِدُونها. فاستقرَّ رأيُهُم على أنّ الشقاءَ لازمٌ من لوازمِ الحياةِ لا ينفكُّ عنها، فكَيْفَ تعدُّ العالـمَ سعِيدًا، وما هو إلّا شقاءٌ؟

قال: لا، يا سيّدي، إنّ الإنسانَ سَعِيدٌ بفِطْرَتِهِ، وإنّما هو الذي يجلبُ بنَفْسِه الشقاءَ إلى نفسِهِ، يَشْتَدّ طمَعُهُ في المالِ، فيَتَعَذَّرُ عليه مطْمَعُه، فيطولُ بكَاؤُهُ وعَنَاؤُهُ، ويَعْتَقِدُ أنّ بلُوغَ الآمالِ في هذه الحياةِ حقٌّ من حقُوقِهِ، فإذا أخطَأ سَهْمُهُ والْتَوَى عليه غَرَضُهُ، أَنَّ، وشِكَا شِكَاةَ المظلومِ من الظالمِ.

ويبالِغُ في حُسْنِ ظَنّهِ بالأيّام، فإذا غَدَرَتْ به في محبوبٍ لدَيْهِ من مالٍ أو ولدٍ، فاجَأهُ من ذلك ما لم يكُنْ يُقدّرُ وقُوعَهُ، فنالَهُ من الهمِّ والألَم ما لم يكُنْ لِيَنالَهُ لو خَبِرَ الدّهْرَ، وقتلَ الأيامَ عِلْمًا وتجرِبَةً، وعرَفَ أنّ جَمِيع ما في يَدِ الإنسانِ عارِيةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، ووَدِيعَةٌ موقوتَةٌ، وإنّ هذا الإحرازَ الذي يزعَمُهُ الناسُ لأنفسِهِمْ خِدْعَةٌ من خِدَعِ النُّفُوسِ الضّعيفَةِ، ووَهْمٌ من أوهَامِها. إنّ أكثرَ ما يُصيبُ الناسَ من شَقْوةٍ، إنّما يَأْتِي من طريقِ الأخلاقِ الباطنةِ، لا من طريقِ الوقائعِ الظاهرةِ، فالحاسدُ يتألّمُ، كلّما وقعَ نظرَه على محسُودٍ؛ والحَقُودُ يتألّمُ، كلّما تذكَّرَ أنّه عاجزٌ عنِ الانتِقام من عَدُوِّه؛ والطمّاعُ يتألّمُ كلّما ناجَتْهُ بالإثم سريرَتُهُ؛ والظالِمُ يتألّمُ، كلّما سَمِعَ ابْتِهالَ المظْلُومِ بالدُّعَاء عليه، أو حاقَتْ به[1] عاقِبَةُ ظُلْمِه؛ وكذلك شأنُ الكاذبِ، والنمّام، والمُغْتَابِ، وكلُّ من تشتمِلُ نفسُه على رذِيلَةٍ من الرّذائلِ.

ومَنْ أرادَ أن يطلُبَ السعادةَ، فَلْيَطْلُبْها بين جوانبِ النفسِ الفاضِلَةِ، وإلّا فهو أشْقَى العالَمِين؛ وإنْ أحْرَزَ ذَخَائرَ الأرضِ، وخزائنَ السماءِ.

قال الصديقُ: فما وصَلَ الصيّادُ من حديثِه إلى هذا الحدّ، حتّى نهَضَ قائمًا، وتناوَلَ عَصَاهُ، وقال: أسْتَوْدِعُكَ اللهَ، يا سيّدِي، وأدْعُو لك الدَّعْوَةَ التي أحْبَبْتَها لنفسِكَ وأحْبَبْتُها لك، وهي: أنْ يجعلَكَ اللهُ سعيدًا في نفسِك، كما جَعَلَكَ سعِيدًا في مالِك.

والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ.

❀ ❀ ❀

---

(١) حاق به: أحاط به.

الانتحار

في كلِّ مَوْسِم من مَوَاسِمِ الامْتِحَانِ المدرسيّ، نسمَعُ بكثيرٍ من حَوَادِثِ الانتِحَارِ بين المُتخلّفين من التّلاميذِ والرّاسِبين. ولو رُبّيَ التّلمِيذُ تَرْبِيَةً دِينِيّةً، لمَا هانَ عليْهِ أنْ يَخْسَرَ سعادَتَهُ الأخْرَوِيّةَ خُسْرَانًا مُبينًا أسَفًا على أن لم يَنَلْ كُلَّ حقِّهِ من السّعَادةِ الدّنْيَوِيّةِ. ولو رُبّي تربيةً أدبيّة، لما احْتَقَرَ حَيَاتَهُ الثّمِينَةَ وازْدَرَاها، ولوَى وَجْهَهُ عنها لأنّها لم تُقَدّمْ إليه في لفافة الشهادةِ المدرسيّةِ. ولو أنّ أسْتَاذَهُ ملأَ قَلْبَهُ بنورِ الإيمان، ولقّنَهُ فيما يُلَقِّنُهُ من قواعدِ الدّينِ وأحكامِهِ: أنّ جِنَايةَ المرءِ على نَفْسِهِ أكبرُ إثمًا عندَ اللهِ، وأعْظَمُ جُرْمًا من جنايَتِهِ على غَيْرِهِ، لما خَاطَرَ لدِينِهِ في آخرِ ساعةٍ من ساعَاتِ حياتِهِ، وهي الساعةُ التي يُنيبُ[1] فيها العَاصِي إلى ربّهِ، ويَسْتَغْفِرُ فيها المذنِبُ من ذنبه.

ولو أنّه لقّنَهُ فيما يُلَقِّنُهُ من دروسِ الأخلاقِ والآدابِ، أنَّ العِلْمَ صفةٌ من صِفَاتِ الكَمَالِ، لا سِلْعَةٌ من سِلَعِ التجارةِ يَجِبُ أن يَنْظُرَ إليه طالبُهُ من حيثُ ذاتُهُ؛ لا من حَيْثُ كَوْنُهُ وسيلةً من وسائلِ العيشه، لمَا جَرَى على القاعِدَةِ الفاسِدَةِ «والشهادةُ بلا عِلْمٍ خَيْرٌ من العلم بلا شهادةٍ».

ولو أنّه ربّاه على الاستقلالِ الذاتيّ، وعلَّمَهُ أنّ الشّرَفَ في هذه الحَيَاةِ على قَدْرِ ما يَبْذُلُ الإنسانُ من الجَهْدِ في خِدْمَةِ الأمّةِ، أو المجتمَعِ سَواءٌ أكانَ في قصرِ الملكِ، أَمْ في دارِ الوزارةِ، وفي حانوتِ التجارةِ، أم في معملِ الصناعةِ، لما أكبرَ مناصِبَ الحكومَةِ هذا الإكبارَ، ولا احتفلَ بها احتفالَ من لا يَرى للحياةِ مَعْنًى بدونِها.

ولو أنه نَفَثَ في رُوعِهِ روحَ الشجاعةِ النفسيّةِ، وعوّدَهُ الصّبرَ، والجَلَدَ في مواقفِ الشدّةِ والبلاءِ، لما جَزَعَ هذا الجزعَ الفاضِحَ، ولا جُنَّ هذا الجُنُونَ الذي خَيّلَ إليه أنّ عذابَ النّزعِ أهْوَنُ من عذابِ الهمِّ.

لا يَجْنِي الطالبُ على نَفْسِه؛ وإنّما يَجْني عليه والدُهُ، وأستاذُهُ، والمجتمعُ الذي يعيشُ فيه.

أمّا الوالدُ، فإنّه يقولُ له وهو ذاهبٌ به إلى المدرسَةِ: ستَكُونُ غدًا يا بُنَيّ مُدِيرًا كهذا المديرِ، ووَزِيرًا كهذا الوزيرِ؛ وكلّما أرادَ أنْ يُحَضَّه على الاجْتِهَادِ في طلبِ العلمِ، ويخوّفَهُ عاقِبَةَ فشلِهِ في الامتحان، صوَّرَ له المستقبلَ المجرَّدَ من الوظيفةِ أقْبَحَ تصويرٍ وأشنَعَهُ؛ وربّما أشارَ عليه بالانتحارِ من طَرْفٍ خفيٍّ فيقولُ له: إذا لم تَنْجَحْ في الامْتِحَانِ فَمَوْتُك أفْضَلُ من حياتِك.

أمّا الأستاذُ، فإنّه يضربُ له من نفسَهُ مثلًا على وجوبِ احترامِ المَنْصِبِ، وإجْلَالِهِ، وإنزالِهِ المنزلةَ الأولى بين أعمالِ المجتمعِ الإنسانيّ، إذا يرَاه بعَيْنِهِ يتجرَّعُ مرارةَ الذلّ، ويُعاني من

---

(١) أناب إلى ربّه: تاب ورجع.

كبرياءِ رؤسائِه، وقسوةِ المُسَيْطِرينَ عليه عَناءً شدِيدًا؛ ويَحْتَمِلُ من ذلك ما لا يَحْتَمِلُهُ الرَّجُلُ الشريفُ، حِرْصًا على مَنْصِبِه وإزعَاءً عليه، فكأنّما يُلقِي عليه دَرْسًا عَمَلِيًّا موضوعُه «إنّ من يُخاطِرُ بمَنْصِبِه يُخَاطِرُ بحياتِهِ، لأنّ المَنْصِبَ كلُّ شيءٍ في هذه الحَيَاةِ».

أمّا المُجْتَمَعُ، فإنّه يَحْتَرِمُ الموظَّفَ الصغيرَ، أكثرَ ممّا يَحْتَرِمُ العالِمَ الكبيرَ، ويطيرُ إلى تهنِئَتِهِ بإقبالِ المنصبِ عليه وتعزيَتِه يومَ إدْبارِهِ عنه؛ كأنّ الكوكبَ لا يَدُورُ إلّا في دائرةِ المناصبِ نحوسًا وسُعُودًا؛ فإذا رأى الناشئُ ذلك، أكبرَ الوظيفةَ أيّما إكبارٍ؛ ولجَّ به الحِرْصُ عليها، والتَصَقَ بها، وكانَ سرورُهُ، وحزنُهُ على قَدْرِ قُرْبِها منه، أو بُعْدِها عنه؛ فإذا وفقَ إليها، لَطَمَ بأنفِهِ قبّةَ السماءِ، وداسَ بنَعْلِهِ هامَ الجوزاءِ، وإن يئسَ منها، قَتَلَ نَفْسَهُ، وهو يَتَمَثَّلُ بقولِ الشاعر الأحمق:

* فـــإمّـــا الـــثُّـــرَيَّـــا وإمّـــا الـــثَّـــرَى *

أيُّها الناشئُ: لقد جَهِلَ أبُوك، وغَشَّكَ أسْتاذُك، وخَدَعَكَ هذا المجتمعُ الفاسدُ، فكنْ أحسَنَ حالًا منهم، واعْلَمْ أنّ شَرَفَ العلم أكبرُ من شرفِ المَنْصِبِ، وأنّ المَنْصِبَ ما كان شريفًا إلّا لأنّه حَسَنةٌ من حَسَناتِ العِلْمِ، وأثرٌ من آثارِهِ، فإنْ فاتَكَ حظُّك منه، فلا تحفِلْ به، فهو أحْقَرُ من أن تَشْتَدَّ في أثرِه، أو تَبْذُلَ حياتَكَ وَجْدًا عليه، ولا تحسُدْ أربابَ المَناصِبِ على مناصِبِهِمْ؛ فإنّما هُمْ يخدَعُونَك بزُخْرُفٍ من القَوْلِ، وظاهرٍ من النّعْمَةِ، وبهرجٍ من الابتسامِ؛ ووراءَ ذلك لو علِمْتَ قلبٌ يَقْطُرُ دمًا، وفؤادٌ يَضْطرِمُ لَوْعَةً وأسًى.

خُذْ لنفسِك حَظَّها من العلمِ والأدبِ، ولا تحفِلْ بَعْدَ ذلك بشيءٍ، فقد ربِحْتَ كلَّ شيءٍ.

❀ ❀ ❀

الجمال

الجَمَالُ هو التناسُبُ بين أجزاءِ الهيئاتِ المركّبَةِ، سواءٌ أكانَ ذلك في الماديّاتِ، أم في المَعْقُولاتِ، وفي الحقائقِ، أم في الخيالاتِ.

ما كان الوَجْهُ الجَمِيلُ جَمِيلًا إلّا للتناسبِ بين أجزائِهِ، وما كان الصَّوْتُ الجميلُ جَمِيلًا إلّا للتناسُبِ بين نَغَماتِهِ، ولولا التناسبُ بين حبّاتِ العقدِ، ما افْتَتَنَتْ به الحَسْنَاءُ، ولولا التناسقُ في أزهارِ الروضِ، ما هامَ به الشُّعَراءُ.

ليس للتناسبِ قاعدةٌ مضطرِدَةٌ يستطيعُ الكاتبُ أن يُبيّنَها، فالتناسبُ في المرئيّاتِ غيرُه في المسمُوعاتِ، وفي الرسومِ غيرُه في الخطوطِ، وفي الشؤونِ العلميّةِ غيرُه في القصائدِ الشعريّةِ. على أنّه لا حاجة إلى بيانِه ما دامَتِ الأذواقُ السليمةُ تُدْرِكُ بفِطْرَتِها ما يلائِمُها، فَتَرتَاحُ إليه، وما لا يلائِمُها، فتَنفرُ منه.

إنّ كثيرًا من الناسِ يَسْتَحْسِنُون الأنفَ الصغيرَ في الوجْهِ الكبيرِ، والرأسَ الكبيرَ في الجسمِ

الصغيرِ، ولا يفرّقون بين البرصِ في الجسم الأسودِ، والخالِ في الخدّ الأبيضِ، ويطرَبُونَ لنَقيقِ الضفادِعِ كما يَطْرَبُون لخريرِ المياهِ، ويفَضّلُون أصواتَ النواعيرِ على أنغامِ العيدانِ، ويُعْجَبُون بشعرِ ابن الفارضِ، وابنِ معتوق، والبرعي أكثرَ ممّا يُعْجَبُون بشعرِ أبي الطّيّب، وأبي تمام والبحتري، ويضحَكُون لما يُبْكي، ويبكُون ممّا يُضْحِكُ، ويَرضَون بما يُغضبُ، ويُغْضَبُون ممّا يُرضي!

أولئك هم أصحابُ الأذواقِ المريضةِ، وأولئك هم الذين تصدُرُ عنهم أفعالُهُمْ وأقوالُهُم مشوَّهَةً غيرَ متناسبةٍ، ولا متلائمةٍ، لأنّهم لم يُدْرِكُوا سرَّ الجمالِ، فيصدُرُ عنهم، ولم تألَفْهُ نفوسُهُمْ، فيصبحُ غريزةً من غرائِزِهِمْ.

إنْ رأيتَ شاعرًا يبتدِئُ قصائدَ التهنِئةِ بالبكاءِ على الأطْلالِ، ويودّعُ القصائدَ الرثائيّةَ بالنكاتِ الهزليّةِ، ويتغزّلُ بممدوحِه كما يتغزّلُ بمَعْشُوقِه؛ أو متكلّمًا يَقْتَضِبُ الأحاديثَ اقتضابًا، ويهزلُ في موضعِ الجِدِّ، ويَجِدّ في موضعِ الهزلِ؛ أو صَحَفِيًّا يضعُ العنوانَ الضخمَ للخبرِ التافِهِ، ويكتبُ مقدمةً في السماءِ لموضوعٍ في الأرضِ؛ أو حاكمًا يضعُ النّدَى في موضعِ السيفِ، والسيفَ في موضعِ النّدَى؛ أو ماشيًا يتلوّى في طريقِه من رصيفٍ إلى رصيفٍ، كأنّما يرسمُ خطًّا متعرّجًا؛ أو لابِسًا في الشتاء غُلالةَ الصيفِ، وفي الصيفِ فَرْوَةَ الشتاءِ، فاعلمْ أنّ ذوقَهُ مريضٌ، وأنّه في حاجةٍ إلى معالجَةِ ذَوْقِهِ، كحاجةِ المَجْنُونِ إلى علاجِ عَقْلِهِ، والمريضِ إلى علاجِ جِسْمِهِ.

كما أنّه ليس كلُّ مجنونٍ يُرْجَى شِفَاؤُهُ، ولا كلُّ مريضٍ يُرْجَى إبْلالُهُ[1]، كذلك ليس كلُّ مَنْ فَسَدَ ذَوْقُهُ يُرْجَى صَلَاحُهُ، فإنْ رأيتَ مَن تؤمّلُ في إصلاحِهِ خَيْرًا، وتجدُ في نفسِهِ اسْتِعْدَادًا لتقويمِ ذَوْقِهِ، فعلاجُهُ أنْ تحفَّهُ بأنواعِ الجمالِ، وتدأبَ على تنبيهِهِ إلى متناسباتِهِ ومؤتلفاتِهِ، وإنِ اسْتَطَعْتَ أن تُعَلِّمَهُ فنًّا من الفنونِ الجميلةِ كالشّعْرِ والتصوير والموسيقَى، فافْعَلْ، فإنّها المُقَوِّماتُ للأذواقِ، والغارِساتُ في النفوسِ مَلَكاتِ الجمالِ.

❁ ❁ ❁

الكذب

كذِبُ اللسانِ من فضوله كذبُ القلبِ، فلا تأمَنِ الكاذبَ على ودٍّ، ولا تثقْ منه بعَهْدٍ، واهربْ من وجهِهِ الهربَ كلَّهُ. وأخوفُ ما أخافُ عليك من خلطائِكَ وسُجَرائِك[2]: الرجلُ الكاذبُ.

عَرَّفَ الحكماءُ الكذبَ بأنّه مخالفةُ الكلامِ للواقعِ، ولعلَّهُمْ جارَوا في هذا التعريفِ الحقيقةَ العرفيّةَ، ولو شاؤوا، لأضافُوا إلى كذبِ الأقوالِ كذبَ الأفعالِ.

---

(١) الإبلال: الشفاء.

(٢) السجراء: ج السجير، وهو الصديق المخلص.

لا فرقَ بين كذبِ الأقوالِ، وكذبِ الأفعالِ في تضليلِ العقولِ، والعبثِ بالأهواءِ وخذلانِ الحقِّ واستعلاءِ الباطلِ عليه، ولا فرقَ بين أن يكذبَ الرّجُلُ فيقولُ: إنّي ثقةٌ أمينٌ لا أخونُ، ولا أغدُرُ، فأقْرضْني مالًا أردُّه إليك، ثم لا يؤدّيهِ بعد ذلك، وبين أنْ يأْتِيَك بسبحَةٍ يُهَمْهِمُ بها، فتنطِقُ سبحتُه بما سكَتَ عنه لسانُه من دَعْوَى الأمانةِ والوفاءِ، فيَخْدَعُكَ في الثانيةِ كما خَدَعكَ في الأولى. لا بلْ يستطيعُ كاذبُ الأفعالِ أن يخدعَك ألفَ مرّةٍ قَبْلَ أن يَخْدَعَكَ كاذِبُ الأقوالِ مرّة واحدةً، لأنّه لا يكتَفِي بقَوْلِ الزّورِ بلسانِه، حتّى يُقِيمَ على قَضِيّتِهِ بيّنةً كاذبةً من جميعِ حركاتِهِ وسَكَناتِهِ.

ليس الكذبُ شيئًا يُسْتَهانُ به، فهو أُسُّ الشرورِ ورذيلةُ الرذائلِ، فكأنّه أصلٌ والرذائل فروعٌ له. بل هو الرذائلُ نفسُها. وإنّما يَأْتي في أشْكالٍ مختلفَةٍ، ويتمثّلُ في صُوَرٍ متنوّعَةٍ.

المنافقُ كاذبٌ، لأنّ لسانَه ينطقُ بغير ما في قَلْبِه. والمتكبّرُ كاذبٌ، لأنّه يدّعي لنفسِه منزلةً غير منزلتِهِ. والفاسقُ كاذِبٌ، لأنّه كذبَ في دَعْوى الإيمانِ، ونَقَضَ ما عاهَدَ اللهَ عليه. والنمّامُ كاذبٌ، لأنّه لم يَتّقِ اللهَ في فِتْنَتِهِ، فيَتَحرّى الصّدقَ في نمِيمَتِهِ، والمُتَمَلّقُ كاذبٌ، لأن ظاهِرَهُ يَنفَعُكَ؛ وباطِنَه يلْذَعُكَ.

لقد هانَ على الناسِ أمرُ الكذبِ، حتى إنّك لتجِدُ الرّجُلَ الصادقَ فَتَعْرِضُ على الناسِ أمرَهُ وتُطْرِفُهُم بحديثِه كأنّك تَعْرِضُ عجائبَ المخلوقاتِ، وتَتَحدّثُ بخوارقِ العاداتِ.

فَوَيْلٌ للصادِقِ من حياةٍ نكدَةٍ لا يجدُ فيها حقيقةً مستقيمةً، وويلٌ له من صديقٍ يخونُ العَهْدَ، ورفيقٍ يكذبُ الودَّ، ومستشارٍ غيرِ أمينٍ، وجاهلٍ يُفْشي السرّ، وعالم يحرّفُ الكَلِمَ عن مواضِعِه، وشيخٍ يدّعي الولايةَ كذبًا، وتاجرٍ يغشُّ في سلعَتِهِ، ويحنثُ في أَيْمانِه، وصحفيٍّ يتّجِرُ بعقولِ الأحرارِ، كما يتّجِرُ النّخّاسُ بالعبيدِ والأماءِ، ويكذبُ على نفسِه وعلى اللهِ وعلى الناسِ في كلِّ صباحٍ ومساءٍ.

❁ ❁ ❁

غرفة الأحزان

كان لي صديقٌ أُحِبُّهُ، لفضْلِهِ وأدبِهِ، أكثرَ ممّا أُحِبُّهُ لصَلاحِهِ ودِينِهِ، فكان يَروقُني منظرُهُ، ويُؤْنِسُني محضَرُهُ، ولا أُبالي بعد ذلك بشيءٍ من نُسْكِهِ وعِبَادَتِهِ، أو فُسْقِهِ واسْتِهْتَارِه، لأنّني ما فكّرْتُ قَطُّ أنْ أتَلَقّى عنه علومَ الشريعةِ أو دروسَ الأخلاقِ.

قَضَيْتُ في صُحْبَتِهِ عِهْدًا طَويلًا ما أُنْكِرُ من أمرِهِ، ولا يُنْكِرُ من أَمْرِي شيئًا، حتّى سَافَرْتُ من القاهرةِ سفرًا طويلًا، فتراسَلْنَا حينًا، ثمّ انْقَطَعَتْ عنّي كُتُبُهُ، فرَابَني من أمرِه ما رابَني، ثم رَجَعْتُ، فجَعَلْتُ أكبرَ همّي أن أراهُ. فَطَلَبْتُهُ في جميعِ المَوَاطِنِ التي كُنْتُ أَلْقَاهُ فيها فلمْ أجِدْهُ، فذَهَبْتُ إلى منزِلِهِ، فحدَّثَني جيرانُه أنّه هَجَرَهُ من عَهْدٍ بَعِيدٍ، وأنّهمْ لا يعرِفُون أين مَصِيرُه.

فوقفْتُ بين اليأسِ والرّجاءِ بُرْهةً من الزمانِ، يغالبُ أوّلُهما ثانيهما حتى غَلَبَهُ، فأيْقَنْتُ أنّي قد فَقَدْتُ الرَّجُلَ، وأنّي لن أجِدَ بعد اليومِ إليه سَبيلًا.

هنالك ذَرَفْتُ من الوَجْدِ دُمُوعًا لا يَذْرِفُها إلّا مَنْ قلَّ نصيبُهُ من الأصدقاءِ، وأقْفَرَ رَبْعُهُ من الأوفياءِ، وأصبحَ غَرَضًا من أغراضِ الأيّامِ، لا تُخْطِئُه سِهَامُها، ولا تُغِبُّهُ آلامُها[١].

بينَا أنَا عَائِدٌ إلى مَنْزِلي في ليلةٍ من ليالي السّرارِ[٢]، إذ دَفَعَنِي الجَهْلُ بالطّريقِ في هذا الظَلام المُدْلَهِمِّ[٣] في زقاقٍ مُوحِش مَهْجُورٍ يُخَيّلُ للناظِر إليه في مثلِ تلك الساعةِ التي مَرَرْتُ فيها أنَّه مَسْكِنُ الجانِ، أو مَأوى الغِيلانِ، فشَعَرْتُ كأنّي أخوضُ بحرًا أسْوَدَ، يَزْخَرُ بين جبَلَيْن شامِخَيْنِ، وكأنّ أمواجَهُ تُقْبِلُ بي وتُدْبِرُ، وتَرْتَفِعُ وتَنْخَفِضُ، فما توسَّطَتْ لجَّتُه، حتى سمِعْتُ في منزلٍ من تلك المنازِلِ المَهْجُورةِ أنَّةً تَتَرَدَّدُ في جَوْفِ اللّيلِ، ثمّ تَلَتْهَا أُخْتُها ثمّ أخوَاتُها، فأثّرَ في نَفْسِي مَسْمَعُها تَأْثِيرًا شدِيدًا، وقلتُ: يا لَلْعَجَبِ! كم يكتُمُ هذا الليلُ في صَدْرِهِ من أسْرارِ البائِسِينَ، وخَفَايَا المَحْزُونِينَ..

وكنتُ قد عاهَدْتُ اللهَ قبلَ اليومِ ألّا أرَى مَحْزُونًا، حتّى أقِفَ أمامَهُ وِقْفَةَ المُساعِدِ إنِ اسْتَطَعْتُ، أو الباكي إنْ عَجِزْتُ.

فتَلَمَّسْتُ الطريقَ إلى ذلك المنزلِ حتى بلَغْتُهُ، فطرَقْتُ البابَ طَرْقًا خفيفًا، فَلَمْ يُفْتَحْ، فطَرقْتُه أخْرَى طَرْقًا شَدِيدًا، ففَتَحتْ لي فتاةٌ صَغِيرةٌ لم تكدْ تَسْلَخُ العاشرةَ من عُمرِها، فتأمّلْتُها على ضوءِ المِصْبَاحِ الضّئيلِ الذي كان في يَدِها، فإذا هي في ثِيَابِها المُمَزَّقَةِ، كالبَدْرِ وراءَ الغيومِ المُتَقَطِّعَةِ، وقلتُ لها: هل عندكُمْ مريضٌ؟

فزَفَرَتْ زَفْرَةً كادَ يَنْقَطِعُ لها نِيَاطُ[٤] قَلْبِها، وقالَتْ: أدْرِكْ أبي، أيُّها الرجلُ، فهو يعالِجُ سَكَراتِ الموتِ؛ ثم مشَتْ أمَامي، فَتَبِعْتُها حتى وصَلْتُ إلى غُرْفةٍ ذاتِ بابٍ قصيرٍ مُسَنّمٍ، فدَخَلْتُها، فخُيّلَ إليّ أنّي قدِ انْتَقَلْتُ من عالَمِ الأحياءِ إلى عالَمِ الأمْواتِ، وأنّ الغُرْفَةَ قَبْرٌ، والمريضَ مَيْتٌ.

فدنَوْتُ منه حتّى صِرْتُ بجَانِبِهِ، فإذا قَفَصٌ من العَظْمِ يَتَرَدَّدُ فيه النّفَسُ تَرَدُّدَ الهواءِ في البُرْجِ الخَشَبِيّ، فوضَعْتُ يَدِي على جَبِينِهِ، ففَتَحَ عينَيْهِ وأطالَ النظرَ في وَجْهِي، ثم فَتَحَ شَفَتَيْهِ قَليلًا قَلِيلًا؛ وقال بصَوْتٍ خافتٍ: أحمَدُ اللهَ فقَدْ وَجَدْتُ صَدِيقي.

فشَعَرْتُ كأنّ قلبي يَتَمَشّى في صَدْرِي جَزَعًا وَهَلَعًا، وعلِمْتُ أنّي عَثَرْتُ بضَالّتِي التي كنتُ أنْشُدُها، وكنتُ أَتَمَنّى ألّا أعْثرَ بها، وهي في طريقِ الفَنَاءِ، وعلى بابِ القَضَاءِ، وألّا يُجَدّدَ لي مرآها حزنًا كان في قلبي كَمِينًا، وبين أضالِعِي دَفِينًا، فسألتُهُ ما بالُه؟ وما هذه الحالُ التي صارَ إليها؟

---

(١) أغبّه الألم: جاءه حينًا بعد حين. (٢) ليالي السرار: الليالي الأخيرة من الشهر.

(٣) المدلهمّ: الشديد السواد.

(٤) النياط: العرق الغليظ المتصل بالقلب إذا قُطع مات صاحبه.

وكأنّ أنسَهُ بي أَمَدَّ مِصْبَاحَ حياتِهِ الضئيلَ بقليلٍ من النورِ، فأشارَ إليّ أنّه يُحِبُّ النُّهُوضَ، فمَدَدْتُ يَدِي إليه، فاعْتَمَدَ عليها، حتى اسْتَوَى جالِسًا، وأنشأَ يَقُصُّ عليّ القِصّةَ الآتِيَةَ:

منذُ عَشْرِ سِنِين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتًا يَسْكُنُ بجَانِبِهِ جارٌ لنا من أرْبابِ الثراءِ والنّعْمَةِ، وكان قَصْرُهُ يضُمُّ بين جناحَيْهِ فتاةً ما ضَمَّتِ القصورُ أجْنِحَتَها على مِثْلِها حُسْنًا وبَهاءً، ورَوْنَقًا وجَمالًا، فألَمّ بنَفْسِي من الوَجْدِ بها ما لم أسْتَطِعْ معه صَبْرًا، فما زِلْتُ بها أعَالِجُها، فتَمْتَنِعُ، وأسْتَنْزِلُها فتَعْتَذِرُ، وأتأتّى إلى قلبِها بكلّ الوسائل، فلا أصِلُ إليه.

حتّى عَثَرْتُ بمَنْفَذِ الوعدِ بالزواجِ، فانْحَدَرْتُ منه إليها، فسكنَ جِمَاحُها، وأسْلَسَ قيادُها، فسَلَبْتُها قلبَها وشرَفَها في يومٍ واحدٍ، وما هي إلّا أيامٌ قَلائِلُ، حتّى عَرَفْتُ أنّ جنينًا يضطرِبُ في أحْشَائِها، فأسقطَ في يديَ، وطفِقْتُ أرْتَئِي بين أن أفِيَ لها بوَعْدِها، أو أقطعَ حَبْلَ وُدِّها، فآثَرْتُ أخرَاهما على أولَاهُما، وهجَرْتُ ذلك المنزلَ الذي كُنْتَ تَزُورُني فيه، ولم أعُدْ أعْلَمُ بعد ذلك من أمرِها شيئًا.

مرّتْ على تلك الحادِثَةِ أعوامٌ طوالٌ، وفي ذاتِ يَوْمٍ جاءَني منها مع البريدِ هذا الكِتَابُ، ومدّ يدَهُ تحت وِسَادَتِهِ وأخْرَجَ كِتَابًا باليًا مُصْفَرًّا، فقَرَأْتُ فيه ما يأتي:

«لو كانَ بي أن أكْتُبَ إليك، لأجَدِّدَ عَهْدًا دارِسًا[1]، أو وُدًّا قَدِيمًا، ما كَتَبْتُ سَطْرًا، ولا خَطَطْتُ حَرْفًا، لأنّي أعْتَقِدُ أنّ عَهْدًا مثلَ عَهْدِكَ الغادِرِ، ووُدًّا مثلَ وُدّك الكاذبِ، لا يستحقُّ أن أحْفِلَ به، فأذكُرَهُ، أو آسفَ عليه، فأطلبَ تَجْدِيدَهُ.

إنّكَ عَرَفْتَ حين تَرَكْتَني أنّ بَيْنَ جَنْبَيّ نارًا تضطرمُ، وجَنِينًا يَضْطَرِبُ، تلك للأسفِ على الماضي، وذاك للخوفِ من المُسْتَقْبَلِ، فلم تُبَالِ بذلك، وفَرَرْتَ منّي حتّى لا تُحَمّلَ نفسَكَ مؤُونَةَ النظرِ إلى شقاءٍ أنْتَ صَاحِبُهُ، ولا تُكَلّفَ يدَكَ مَسْحَ دُمُوعٍ أنتَ مُرْسِلُها، فهلْ أستَطِيعُ بعد ذلك أن أتصوَّرَ أنّك رَجُلٌ شريفٌ؟ لا؛ بل لا أسْتَطِيعُ أنْ أتصوَّرَ أنّك إنسانٌ؛ لأنّك ما تَرَكْتَ خلّةً من الخلالِ المتفرّقَةِ في نفوسِ العَجْمَاواتِ وأوَابِدِ الوَحْشِ إلّا جَمَعْتَها في نفسِكَ، وكلّ ما في الأمرِ أنّك رأَيْتَني السبيلَ إلى إرضائِها، فمرَرْتَ بي في طريقِك إليها، ولولا ذلك، ما طَرَقْتَ لي بابًا، ولا رَأَيْتَ لي وَجْهًا.

خُنْتَني إذْ عاهَدْتَني على الزواجِ، فأخْلَفتَ وَعْدَكَ ذَهابًا بنفسِكَ أن تَتَزوّجَ امرأةً مُجْرِمَةً ساقِطَةً، وما هذه الجريمةُ، ولا تلكَ السَّقْطَةُ إلّا صَنْعَةُ يَدِك وجريرَةُ نفسِك، ولولاك ما كنتُ مجرمةً ولا ساقطةً، فقد دافَعْتُكَ جَهْدِي حتّى عَيِيتُ بأمرِكَ، فسَقَطْتُ بين يدَيْك سقوطَ الطفلِ الصغيرِ، بين يَدَيّ الجبّارِ الكبيرِ.

سَرَقْتَ عِفَّتِي، فأصْبَحْتُ ذليلةَ النفسِ حزينَةَ القَلْبِ، أسْتَثْقِلُ الحياةَ، وأسْتَبْطِىءُ الأجَلَ. وأيُّ لذّةٍ في العيشِ لامرأةٍ لا تَسْتَطِيعُ أن تَكُونَ زَوْجَةً لرَجُلٍ ولا أمًّا لولدٍ، بل لا تَسْتَطِيعُ أنْ تَعِيشَ

---

(١) الدارس: الممحوّ، القديم.

في مُجتَمعٍ من هذه المُجتَمَعاتِ البشريّةِ، إلّا وهي خافِضَةٌ رأسَها، مُسْبلَةٌ جَفْنَها، واضِعَةٌ خَدَّها على كَفِّها، تَرْتَعِدُ أوْصالُها، وتَذُوبُ أحشاؤها، خَوْفًا من عَبَثِ العابِثِينَ وتهكُّمِ المُتَهَكّمِينَ.

سَلَبْتَنِي راحَتِي لأنّي أصبَحتُ مُضطَرَّةً بعد تلك الحادِثَةِ إلى الفِرَارِ من ذلك القَصْرِ الذي كُنْتُ مُتَمَتِّعَةً فيه بعِشْرَةِ أبي وأمّي، تاركةً ورائي تلك النّعْمَةَ الواسعةَ، وذلك العيشَ الرغدَ إلى منزلٍ حقيرٍ في حيٍّ مهْجُورٍ لا يَعْرِفُهُ أحَدٌ، ولا يطرقُ بابَهُ، لأقْضِيَ فيه الصبابةَ الباقِيَةَ لي من أيّامِ حَيَاتِي.

قَتَلْتَ أمّي وأبي، فقد عِلِمْتُ أنّهما ماتا، وما أحسبُ مَوْتَهُما إلّا حُزنًا لفَقْدِي، ويَأْسًا من لِقَائِي.

قَتَلْتَني، لأنّ ذلك العيشَ المُرَّ الذي شَرِبْتُهُ من كَأسِكَ، والهَمَّ الطويلَ الذي عالَجْتُهُ بسَبَبِكَ، قد بلَغَا مبْلَغَهُما من جِسْمِي ونَفْسِي، فأصبَحْتُ في فِراشِ الموتِ كالذُّبالةِ المُحْتَرِقَةِ تَتَلاشَى نفسًا في نفس، وأحسبُ أنّ الله قد صنَعَ لي، واستجَابَ دُعائي، وأرادَ أن يَنْقُلَني من دارِ المَوتِ والشقاءِ، إلى دارِ الحَياةِ والهَناءِ.

فأنت كاذِبٌ خادِعٌ، ولصٌّ قاتلٌ، ولا أحسبُ أنّ اللهَ تارِكُكَ دون أن يأخذَ لي بحقّي منكَ.

ما كَتَبْتُ إليك هذا الكتابَ، لأجَدّدَ بك عَهْدًا، أو أخطبَ إليك ودًّا، فأنتَ أهونُ عليَّ من ذلك. إنّني قد أصبَحْتُ على بابِ القبرِ وفي مَوْقِفِ وَدَاعِ الحَيَاةِ بأجْمَعِها خَيْرِها وشَرِّها، سَعَادَتِها وشَقَائِها، فلا أملَ لي في وِدٍّ، ولا متّسعَ لعهدٍ، وإنّما كَتَبْتُ إليك لأنّ لك عندي وديعةً وهي فتاتُك. فإن كان الذي ذهَبَ بالرّحْمَةِ من قلبِك أبْقَى لك منها رَحْمَةَ الأبوّةِ، فأقبلْ إليها وخُذْها إليك حتّى لا يُدْرِكَها من الشقاءِ ما أدْرَكَ أمّها من قَبْلِها».

فما أتْمَمْتُ قراءَةَ الكتابِ، حتّى نَظَرْتُ إليه، فرأيتُ مدامِعَهُ تَتَحَدَّرُ على خدَّيهِ فسألته: وماذا تمّ بعد ذلك؟

قال: إنّي ما قرأتُ هذا الكتابَ، حتّى أحْسَسْتُ برِعْدَةٍ تَتَمَشّى في جَمِيعِ أعْضَائي، وخُيّلَ إليَّ أنّ صَدْرِي يُحَاوِلُ أن يَنْشَقّ عن قَلْبِي حُزنًا وجَزَعًا، فأسْرَعْتُ إلى منزِلِها، وهو هذا المنزلُ الذي تَرَاني فيهِ الآنَ، فرأيتُها في هذه الغرفةِ على هذا السريرِ جُثّةً هامِدَةً لا حراكَ بها، ورأيتُ فَتَاتَها إلى جانِبِها تَبْكِي بُكَاءً مرًّا، فصُعِقْتُ لهَوْلِ ما رأيْتُ، وتمثّلتْ لي جَرَائِمِي في غَشْيَتي كأنّما هي وحوشٌ ضاريَةٌ، وأساوِدُ ملتفّةٌ، هذا ينشبُ أظافِرَه، وذاك يحدّدُ أنيابَهُ. فما أفَقْتُ حتّى عاهَدْتُ اللهَ ألّا أبرحَ هذه الغرفةَ التي سَمّيْتُها «غرفةَ الأحزانِ»، حتّى أعِيشَ فيها عيشَها، وأموتَ مَوْتَها.

وها أنذا أمُوتُ اليومَ راضِيًا مسْرُورًا، فقَدْ حدَّثَني قَلْبِي أنّ اللهَ قد غَفَرَ لي سيّئاتِي بما قاسَيْتُ مِنَ العَنَاءِ، وكابَدْتُ مِنَ الشّقاءِ.

وما وَصَلَ من حديثِه إلى هذا الحدّ، حتّى انْعَقَدَ لسَانُهُ، واكْفَهَرَّ وجهُهُ، وسقَطَ على فراشِهِ فأسْلَمَ الرّوحَ وهو يقولُ: ابْنَتي يا صدِيقي.

فلبِثْتُ بجَانِبِهِ ساعةً قَضَيْتُ فيها ما يَجِبُ على الصديقِ لصديقِه، ثم كَتَبْتُ إلى أصْدِقَائِهِ ومعارفِهِ، فحضَرُوا تَشْيِيع جنَازَتِهِ؛ وما رُئِيَ مِثْلُ يومِهِ يومٌ كان أكثرُهُ باكِيَةً وباكيًا.

ولـما حَشَوْنَـا الـتّـربَ فَـوْقَ ضَـرِيـحِـهِ جَـزِعْـنَـا ولٰـكِـنْ أيّ سـاعَـةِ مَـجـزع.

يَعْلَمُ اللهُ أنّي أكْتُبُ قصّتَه، ولا أملكُ نَفْسِي من البكاءِ والنشيجِ[1]؛ ولا أنْسَى ما حَيِيتُ نداءَهُ لي وهو يودّعُ نَسَماتِ الحياةِ، وقوله: «ابْنَتِي يا صَدِيقِي».

فيا أقْوِيَاءَ القلوبِ من الرجالِ، رِفْقًا بضُعَفَاءِ النّفوسِ من النساءِ. إنّكم لا تَعْلَمُونَ حين تَخْدَعُونَهُنَّ عن شرَفِهِنّ، وعِفَّتِهِنّ، أيّ قلبٍ تُفْجِعُون، وأيّ دمٍ تَسْفِكُونَ!!

❁ ❁ ❁

الشرف

لو فهمَ الناسُ مَعْنَى الشرفِ، لأصْبَحُوا كلُّهُم شُرَفَاءَ.

ما من عاملٍ يَعْمَلُ في هذه الحياةِ، إلّا وهو يطلُبُ في عَمَلِهِ الشرفَ الذي يَتَصَوَّرُه.

يَقْتُلُ القاتلُ، وفي اعْتِقادِهِ أنّ الشّرَفَ في أنْ يَنْتَقِمَ لنَفْسِه، أو عِرْضِهِ بإراقةِ هذه الكمّيَّةِ من الدّمِ، ولا يُبالي أنْ يُسَمّيَهُ القانونُ بعد ذلك مُجْرِمًا؛ لأنّ البيئَةَ التي يَعِيشُ فيها لا تُوافِقُ على هذه التَسْمِيَةِ؛ وهي في نظرِهِ أعْدَلُ من القانونِ حُكْمًا، وأصْدَقُ قَوْلًا.

يَفْسُقُ الفاسِقُ، وفي اعتقادِهِ أنّه قد نَفَضَ عن نَفَسِهِ بعمِلِهِ هذا غُبَارَ الخُمُولِ والبلهِ الذي يُظِلُّ الأعفّاءَ والمستَقِيمِين، وأنّه اسْتَطَاعَ أنْ يَعْمَلَ عَمَلًا لا يُقدِمُ عليه إلّا كلُّ ذي حذقٍ وبراعةٍ، وشجاعةٍ وإقدام.

يَسْرِقُ السارِقُ، ويُزوّرُ المُزوِّرُ، ويُخَونُ الخائِنُ، وفي اعْتِقَادِ كُلٍّ منهم أنّ الشرفَ كلَّ الشرفِ في إحرازِ المالِ، وإن كان السبيلُ إليه دَنيئًا وسَافِلًا، وأنّ للذّهَبِ رَنِينًا تَخْفُتُ بجانبِ صَوتِهِ أصْوَاتُ المُعْتَرِضِينَ، والناقِدِينَ شيئًا فشيئًا، ثم تَنْقَطِعُ، حتّى لا يُسْمَعَ بجانِبِهِ صَوْتٌ سِوَاهُ.

هكذا يَتَصوَّرُ الأدْنِيَاءُ أنّهم شُرَفَاءُ، وهكذا يطلُبُون الشّرَفَ، ويُخْطِئُونَ مكانَهُ، وما أفسدَ عليهم تصوّرَهُمْ إلّا الذين أحاطُوا بهم من سُجَرَائِهِمْ وخُلَطَائِهِمْ، وذوِي جامِعَتِهِمْ؛ أولئك الذين يَحْتَقِرُونَ الموتُورَ حتّى يَغْسِلَ الدمَ بالدم، فيُعَظِّمُونَهُ، ويَنْعُون على الرجلِ العفّ المستقيم بلاهَتَهُ وخُمُولَه حتّى يفجرَ، ويستهتِرَ، فيطرُونَهُ، ويُجلّونَه، ويُكْرِمُون صاحبَ الذهبِ، ولو أنّ كَلَّ دينارٍ من دنانيرِهِ محجمٌ من الدمِ.

وأولئك الذين يسمُّون الفقيرَ سافِلًا، وطيّبَ القلبِ مُغَفَّلًا، وطاهرَ السريرِ بليدًا، والحليمَ عاجزًا.

---

(١) النشيج: الصوت في الصدر.

لا تَعْجَبْ إن سمِعْتَ أن جماعةَ الأغنياءِ الجهلاءِ تَنْعَكِسُ في أدمِغَتِهِمْ صُوَرُ الحقائقِ، حتّى لَيكادَ يفخرُ بالأولى ويستَحِي من الأخرَى.

لولا فَسَادُ التّصَوُّرِ، ما افْتَخَرَ قائدُ الجيشِ بأنّه قَتَلَ مائةَ ألفٍ من النفوسِ البشريّةِ في حَرْبٍ لا يدافِعُ فيها عن فضيلةٍ، ولا يُؤيّدُ بها حقًّا من الحقوقِ الشرعيَّةِ أو الاجتماعيَّةِ.

ولولا فَسَادُ التصوُّرِ، ما وضَعَ المؤرّخُون اسمَ ذلك السّفّاحِ بجانبِ أسماءِ العلماءِ والحكماءِ والأطبّاءِ خَدَمَةِ الإنسانيَّةِ، وحمَلَةِ عرشِها وأصحابِ الأيادي البيضاءِ عليها في سطرٍ واحدٍ من صحيفةٍ واحدةٍ.

ولولا فسادُ التصوُّرِ، ما جَلَسَ القاضي المُرْتَشِي فوقَ كرسيِّ القضاءِ، يفتّلُ شاربَهُ، ويُصعّرُ خدَّيْهِ، وينظُرُ نظَراتِ الاحتقارِ والازدراءِ إلى المتّهم الواقفِ بين يدَيْه مَوْقِفَ الضّراعةِ والذّلِّ، ولا ذنبَ له عنده إلّا أنّه جاعَ وضاقَتْ به مذاهبُ العيشِ، فسَرَق دِرْهمًا؛ وهو يَسْرقُ الدنانيرَ في جميعِ أنائِه وأوقاتِه.

ولولاه، لمَا توَهَّمَ اللصُّ الكبيرُ أنّه أشرفُ من هذا اللصِّ الصغيرِ، ولو باتا عندَ قَدَرَيْهِما، لوقَفا معًا في مَوْقِفٍ واحدٍ أمامَ قاضٍ عادلٍ، يحكمُ بإدانَةِ الأولِ، لأنّه سَرَقَ مختارًا، ليرفّهَ عيشَهُ، وبراءةِ الثاني، لأنّه سرَقَ مضطرًّا، لينقذَ حياتَه من براثِنِ المَوْتِ.

فَمَنْ شاءَ أن يهذّبَ أخلاقَ الناسِ، ويقوّمَ معوّجَها، فلْيُهَذِّبْ تصوّراتِهِمْ، وليُقَوّمْ أفهامَهُمْ، يوافِهْ ما يُريدُ من التهذيبِ والتقويمِ.

ليس من الرأيِ أن يشيرَ المعلّمُ على المتعلّم أن يَجْعَلَ هذا المُجْتَمَعَ الإنسانيَّ ميزانًا يَزِنُ به أعمالَهُ، أوْ مرآةً يرَى فيها حسنَاتِهِ وسيّئاتِهِ. فالمجتمعُ الإنسانيُّ مُصَابٌ بالسقمِ في فهمِه، والاضطرابِ في تصويرِه، فلا عبرةَ بحكمِه، ولا ثقةَ بوزنِهِ وتقديرِهِ.

ليس من الرأيِ أن يُرْشِدَ المعلمُ المتعلّمَ إلى أن يطلبَ في حَيَاتِهِ الشرفَ الاعتباريّ، فليس كلُّ ما يعتبِرُهُ الناسُ شرَفًا هو في الحقيقةِ كذلك.

ألا تراهُمْ يُعدُّونَ أشرفَ الشّرَفِ أن يتناوَلَ الرجلُ من الملكِ قطعةً من الفضةِ أو الذهبِ، أو يحلّي بها صدرَهُ، وربّما كانوا يَعْلَمُونَ أنّه ابْتاعَها بمالِه، كما تَبْتَاعُ المَرْأةُ من الجوهريّ حِلْيَتَها؟

لا شَرَفَ إلا الشّرَفُ الحقيقيُّ، وهو الذي ينالُه الإنسانُ ببذْلِ حياتِهِ أو مالِه أو راحتِه في خدمةِ المجتمعِ البشريِّ جميعِه، أو خدمةِ نوعٍ من أنواعِهِ.

فالعالمُ شريفٌ، لأنّه يجْلُو صَدَأَ العَقْلِ الإنسانيِّ، ويصقُلُ مرآتَه؛ والمجاهدُ في سبيلِ الذّودِ عن وطنِه شريفٌ، لأنّه يَحْمِي مُواطِنِيهِ غائلةَ الأعداءِ، ويَقِيهِمْ عادِيَةَ الفناءِ.

والمُحْسنُ الذي يَضَعُ الإحسانَ في موضِعِه شريفٌ، لأنّه يأخذُ بأيدِي الضُّعفاءِ، ويُحْيي أنفسَ البائسين.

والحاكمُ العادلُ شريفٌ، لأنّه رسولُ العنايةِ الإلهيّةِ إلى المظلومين يَمْنَعُهم أن يَبْغِيَ عليهم الظالمُونَ.

وصاحبُ الأخلاقِ الكريمةِ شريفٌ، لأنه يؤثّرُ بكرمِ أخلاقِه، وجمالِ صفاتِه في عُشَرَائِهِ وخُلَطائِهِ، ويُلْقِي عليهم بالقدوةِ الصالحةِ أفضلَ درسٍ في الأخلاقِ والآدابِ.

والصانعُ، والزارعُ، والتاجرُ أشرافٌ متى كانُوا أمناءَ مُسْتَقِيمِينَ، لأنّهم هم الذين يحمِلُون على عَوَاتِقِهِمْ هذا المجتمَعَ البشريَّ، ويحتَمِلُون في سبيلِ ذلك ما يحتمِلُون من المؤنةِ والمشقّةِ، حذرًا عليه من التهافتِ والسقوطِ.

فإنْ رأيتَ في نفسِك أيّها القارئُ أنّك واحدٌ من هؤلاءِ، فاعلمْ أنّك شريفٌ، وإلّا، فاسْلُكْ طريقَهُمْ جَهْدَك، فإنْ لم تبلغ غايتَهُ، فأخذُ القليلِ خَيْرٌ من تَرْكِ الكثيرِ، فإنْ لم يكُنْ هذا ولا ذاك، فلْتَبْكِ على عَقْلِكَ البَواكِي.

❁ ❁ ❁

الحب والزواج

قَرَأْتُ في بَعْضِ المجلّاتِ قِصَّةً قَصَّها أحدُ الكتابِ، موضُوعُها أنّ كاتِبَها غابَ عن بلدِهِ بِضْعَةَ أعْوَامٍ، ثمّ عادَ إليها بَعْدَ ذلك، فزارَ صديقًا له من أسْرياءِ[1] الرجالِ ووجُوهِهِمْ، ومن ذَوِي الأخلاقِ الكريمةِ، والأنفسِ العاليةِ، فوجدَهُ حَزِينًا كَئِيبًا على غيرِ ما يعهَدُ من حالِه قبل اليومِ، فاسْتَفْهَمَ منه عن دَخِيلَةِ أمرِه، فعرَفَ أنّه كان متزوّجًا من فتاةٍ يُحِبُّها، ويُجِلُّها، ويُفديها بنفسِه ومالِه، فلم تحفَظْ صنيعَهُ، ولم تَرْعَ عَهْدَهُ، وأنّها فرّت منه إلى عشيقٍ لها رقيقِ الحالِ وضيعِ النسبِ.

فاجْتَهَدَ الكاتبُ أن يَلْقَى تلك الفتاةَ ليعرفَ منها سرَّ فِرارِها من بيتِ زَوْجِها. فلَقِيَها في منزلِ عشيقِها، فاعْتَذَرَتْ إليه عن فِعْلَتِها بأنّها لا تُحِبُّ زَوْجَها لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغِ العِشْرينَ، وقالت: إنّها جَرَتْ في ذلك على حكمِ الشرائعِ الطبيعيّةِ، وإنْ خالفتِ الشرائعَ الدينيّةَ؛ لأنّ الأولى عادلةٌ، والثانيةَ ظالمةٌ.

وقالت: إنّ ما يسمّيهِ الناسُ بالزّنا والخيانةِ هو في الحقيقةِ طهارَةٌ وأمانةٌ، وما الجريمةُ ولا الغشُّ ولا الخداعِ إلّا أن تأذَنَ المرأةُ لزوجِها الذي تكرَهُه بالإلمام بِها إلمامَ الأزواجِ بنسائِهِمْ ما دامَتْ لا تُحِبُّه، ولا تألَفُ عِشْرَتَهُ.

وقالت: لو أدْرَكَ الناسُ أسرارَ الدّيانات وأغراضَها، لعَرَفُوا أنّها متّفِقَةٌ في هذه المسألةِ مع الشرائعِ الطبيعيّةِ، وأنّها ربّما تُعِدُّ المَرْأَةَ في بيتِ زَوْجِها زانيةً، وفي بيتِ عشيقِها طاهِرَةً، إذا كانَتْ تَكرَهُ الأوّلَ.

هذا مُلَخّصُ القِصّةِ على طولها، وأحسبُها قِصّةً موضوعةً على نحو ما يضعُ الكتّابُ القصصَ

(١) الأسرياء: ج السريّ، وهو السخيّ والشريف.

الخياليّةَ لنشرِ رأيٍ من الآراءِ، أو تأييدِ مذهبٍ من المذاهبِ، لأنّ الكاتب قد أعْذَرَ[١] تلك الفتاةَ فيما فَعَلَت، واقْتَنَعَ بصِحّةِ أقوالِها وصحّةِ مذهَبِها، وأعْدَاها على زَوْجِها[٢]، وقضى لها فيما كان بينَهُما.

وسَواءٌ أكانتِ القِصَّةُ حقيقيةً أم خياليّةً، فالحقَّ أقولُ: إنّ الكاتبَ أخطأ في وضعِها، وما كنت أحسبُ إلّا أنّ مذهبَ الإباحيّةِ، قد قضَى وانْقَضَى، بانْقِضاءِ العصورِ المظلمةِ، حتّى قَرَأْتُ هذه القصّةَ منشورةً باللّغةِ العربيَّةِ بين أبناءِ الأمّةِ العربيّةِ، فنالَني من الهمِّ والحزنِ ما اللهُ عالمٌ به.

قَرَأنا ما كتبَ الكاتِبُون في سبيلِ الدّفاعِ عن المرأةِ الساقِطَةِ، وهي التي هَفَتْ في حياتِها هَفْوَةً دَفَعَها إليها دافعُ خداعٍ، أو سائقُ حاجةٍ، ثم تابَ إليها رُشْدُها وهَدَاها، فقُلْنا: لا بأسَ بتهوينِهم ذَنْبًا جسّمَتْهُ العادَةُ، وألبَسَتْهُ ثوبًا أوسعَ من ثوبِه، ولا بأسَ برحْمَتِهِمْ فتاةً مذْنِبَةً، تُحَاوِلُ الرجوعَ إلى ربّها، والتوبةَ من ذنْبِها؛ ويأبَى المجتمَعُ البشريُّ إلّا أن يسدَّ عليها أبوابَ السماءِ المفتحَةِ للقاتِلين والمُجْرِمِينَ.

أما وقد وَصَلَ الحدُّ إلى تَزْيِينِ الزِّنَا للزانيةِ، وتهوينِ إثْمِهِ عليها، وإغراءِ العفيفةِ الصالحةِ بالتمرّدِ على زوجِها، والخروجِ على طاعتِه كلّما دعَاها إلى ذلك داعٍ منَ الهوَى، فهذا ما لا يُطاقُ احتمَالُهُ، ولا يُسْتَطَاعُ قَبُولُهُ.

إنّ فتاةَ الروايةِ لم تَهْفُ في جريمَتِها فَقَطْ كما يَهْفُو غيرُها من النساءِ، لأنّها مقيمةٌ في منزلِ عشيقِها من زمنٍ بعيدٍ، وقد عقدَتْ عَزْمَها على البقاءِ فيه ما دامَتْ روحُها باقيةً في جَسَدِها، ولم يَسُقْهَا إلى ذلك سائقُ شهوةٍ بشريّةٍ، إنْ صحّ أن تكونَ الشهوةُ البشريّةُ عُذْرًا، يدفعُ مِثْلَها إلى مثل ما صَنَعَتْ؛ لأنها فرَّتْ من فراشِ زَوْجِها، لا من وحشيّةِ خلوتِها ولا سائق جوعٍ؛ لأنها كانتْ أهْنَأَ النساءِ عَيْشًا، وأرْوَحَهُنّ بالًا، بل كانتْ على حالةٍ من الرفاهيةِ، والنعمةِ، والتقلّبِ في أعطافِ العيشِ الباردِ، لم ترَ مثلَها من قبلُ، ولا من بعدُ. إذن، فهي امرأةٌ مجرِمَةٌ لا يَمنَحُها العدلُ من الرحمةِ ما منحَ المرأةَ الساقطةَ.

إن كانتْ هذه الفتاةُ عفيفةً طاهرةً كما يزعَمُ الكاتبُ، فقد أخْطَأَ علماءُ اللغةِ جميعًا في وَضْعِ كلِمَةِ الفسادِ في معاجِمِهِمْ، لأنّها لا مُسَمَّى لها في هذا العالمِ، عالم العفّةِ، والطهارةِ، والخيرِ، والصّلاحِ، ولا يمكِنُ أن يكونَ المرادُ منها فتاةَ المواخيرِ لأنّها لم تَتْرُكْ وراءها زَوْجًا مُعَذّبًا مَنْكُوبًا، ولَم تَرْضَ عن حياتِها الجديدةِ التي انْتَقَلَتْ إليها قطُّ، ولا اغْتَبَطَتْ بعيشِها فيها اغتباطَ تلك الفتاةِ.

كلُّ الأزواجِ ذلك الزوجُ إلّا قليلًا. فإذا جازَ لكلِّ زَوْجَةٍ أنْ تفرَّ من زَوْجِها إلى عشيقِها، كلّما وقعَ في نفسِها الضّجَرُ من معاشرةِ الأولِ، وبرقَتْ لها بارِقةُ الأنسِ من بين ثَنايا الثاني، فوَيْلٌ لجميعِ الرجالِ من جميعِ النساءِ، وعلى النظامِ البيتيِّ والرابطةِ الزوجيّةِ بعد اليومِ ألفُ سلامٍ.

---

(١) أعذرها: قبل عذرها. (٢) أعداها: نَصَرَها.

أيُّها الكاتبُ! ليس في اسْتِطَاعَتِي، ولا في اسْتِطَاعَتِكَ، ولا في استطاعةِ أحَدٍ من الناسِ أن يُوقِفَ دورةَ الفلكِ، ويصدَّ كرَّ الغداةِ، ومرّ العشيّ حتّى لا يبلغَ الأربعين من عمرِه مخافةَ أن تراه زوجَتُهُ غيرَ أهلٍ لعِشْرَتِها، إذا علِمَتْ أنّ في الناسِ من هو أصغرُ منه سنًّا وأكثرُ منه رَوْنقًا وأنضرُ شبابًا.

إنّ الضّجَرَ والسآمةَ من الشيءِ المتكرّرِ المتردّدِ طبيعةٌ من طبائعِ النوعِ الإنسانيّ. فهو لا يصبِرُ على ثوبٍ واحدٍ، أو طعامٍ واحدٍ، أو عشيرٍ واحدٍ. وقد علمَ اللهُ سبحانَه وتعالى ذلك منه، وعلمَ أن نظامَ الأسرةِ لا يتمُّ، إلّا إذا بُنِيَ على رجلٍ وامرأةٍ، تدومُ عِشْرَتُهما، ويطولُ ائتلافُهما، فوضعَ قاعِدَةَ الزواجِ الثابتِ، ليهدمَ بها قاعدةَ الحبِّ المضطربِ، وأمرَ الزوجَيْن أنْ يعتَبِرا هذا الرباط مقدّسًا، حتّى يَحُولَ بينهما وبين رجُوعِهِما إلى طبيعَتِهِمَا، وذَهَابِهما في أمر الزوجَةِ مذهَبَهُما في المطاعمِ والمشاربِ، من حيث الميلُ لكلِّ جديدٍ، والشغفُ بكلِّ غريبٍ.

هذا هو سرُّ الزواجِ، وهذه حكمتُهُ، فَمَنْ أرادَ أن يجعلَ الحُبَّ قاعدةَ العِشْرةِ بدلًا من الزواجِ، فقد خالفَ إرادةَ اللهِ، وحاوَلَ أن يهدمَ ما بناه، ليهدِمَ بهَدْمِهِ السعادةَ البيتيّةَ.

أيّ امرأةٍ متزوّجةٍ بأجملِ الرجالِ، لا تحدّثُها نفسُها في استبدَالِهِ بأجْمَلَ منه؟ وأيّ رجلٍ متزوّجٍ بأجملِ النساءِ، لا يتمنّى أن يكونَ في منزلِه أجْمَلُ منها؟ لولا هذا الرباطُ المقدّسُ: رباطُ الزوجيّةِ. فهو الذي يعالجُ أمثالَ هذه الأمانيّ وتلك الهواجسِ وهو الذي يُعيدُ إلى النفوسِ الثائرةِ سكونَها، وقرارَها.

لا بأسَ أن يتثبَّتَ الرجلُ قَبْلَ عَقْدِ الزواجِ من وُجُودِ الصّفةِ المحبوبةِ لديه في المرأةِ التي يختارُها لنفسِهِ، ولا بأسَ أن تَصْنَعَ المرأةُ صنيعَهُ. ولكن لا على معنى أن يكونَ الحبُّ الشهويُّ هو قاعدةَ الزواجِ، يَحْيَا بحَيَاتِهِ، ويَمُوتُ بمَوْتِهِ. فالقلوبُ متقلّبَةٌ، والأهواءُ نزّاعةٌ، بل بمعنى أن يكونَ كلٌّ منهما لصاحبه صَدِيقًا أكثرَ منه عشيقًا، فالصداقةُ يَنْمُو بالمودّةِ غَرْسُها، ويمتدُّ ظلُّها. أمّا الحبُّ، فظلٌّ يَنْتَقِلُ، وحالٌ تَتَحَوّلُ.

❁ ❁ ❁



الإسلام والمسيحيّة

ما عَجِبْتُ لشيءٍ في حَيَاتِي، عَجَبِي لهؤلاءِ الذين يَعْجَبُون كثيرًا ممّا كَتَبَهُ اللورد كرومر عن الإسلام، كأنّما كانُوا يتوقّعُون من رجلٍ يدينُ بدينٍ غيرِ دينِ الإسلام، يَضِنُّ به ضنَّهُ بنفسِه ومالِه، أن يُؤْمِنَ بالوحدانِيّةِ، ويصدّقَ الرسالةَ المحمّديَّةَ، ويُقيمَ الصلاةَ ويُؤْتِي الزكاةَ ويحجَّ البيتَ ما استطاعَ إليه سبيلًا!

إنّ اللورد كرومر يَعْتَقِدُ كمَا يَعْتَقِدُ كلُّ مَسِيحِيٍّ مُتَمَسّكٍ بيَسُوعِيّتِهِ، أنّ الإسلامَ دينٌ موضوعٌ ابتدَعَهُ عربيٌّ بدَوِيّ أمّي، ما قَرَأَ في حياتِه صَحِيفَةً، ولا دخلَ مَدْرَسَةً، ولا سمِعَ حِكْمَةً

اليونانِ، ولا رأى مدنيّةَ الرومانِ، ولا تلقّى شيئًا من علومِ الشرائعِ والعمرانِ.

هذا مبلغُ مُعْتَقَدِهِ في ذلك الرجلِ، فكيف يَرى نفسَهُ بين يدَيْهِ أصغرَ من أن يُنَاقِشَهُ، ويُناظِرَهُ، ويخاطِئَهُ فيما وضَعَهُ الناسُ منَ الشرائعِ والأحكام؟ وكيف يسمَحُ لنفسِه أن يَنْظرَ إليه بالعَيْن التي ينظرُ بها المسلمُ إليه من حيث كونُهُ نَبِيًّا مُرْسَلًا مُوحَى أليه من عندِ اللهِ تعالَى بكتابٍ كريمٍ، لا يأتيه الباطلَ من بينِ يدَيْهِ ولا من خَلْفِهِ.

أمّا ما نَقْرَؤُهُ أحْيَانًا لبعضِ علماءِ الغربِ المسيحيّين من الثناءِ على الإسلامِ، وإطراءِ أحكامِه وآياتِه، فهو مكتوبٌ بأقلامِ قومٍ مؤرّخين قد أدَّوا للتاريخِ حقَّ الأمانةِ والصِّدْقِ، فلم يَعْبَثِ التعصّبُ الدينيُّ بكتاباتِهِمْ، ولا تَمَشّت الروحُ المسيحيَّةُ في أقلامِهِمْ، ولا ريبَ في أنّ اللورد كرومر ليس واحدًا منهم، فإنّ من قرأ كتابَهُ «مصر الحديثة»، خُيِّلَ إليه أنّه يسمَعُ صَوْتَ راهبٍ في صومَعَتِهِ، قد لبِسَ قَلَنْسوَتَهُ ومسُوحَهُ[1]، وعلّقَ صليبَهُ في زنّارِهِ.

فهل يحقُّ بعد ذلك لأحدٍ من المسلِمين أن يُدْهَشَ، أو يذهَبَ به العجبُ كلَّ مذهبٍ، إذا رأى في كتابِ اللورد كرومر ما يَراهُ كلّ يومٍ في كتبِ المُبشّرين الإنجيليّين، وجرائدِهِمْ ومجلّاتِهِم، من الطعنِ على الإسلامِ وعقائِده وشرائِعِهِ؟

بلغَ التعصّبُ الدينيُّ بجماعةِ المبشّرين، أن حكَمُوا بوجودِ اللحنِ في القرآنِ، بعد اعْتِرافِهِمْ بأنّه كتابٌ عربيٌّ نظمَهُ على حسبِ معتقدِهِمْ، رجلٌ هو في نظرِهِمْ أفْصَحُ العربِ. وليسَتْ مسألةُ الإعرابِ، واللحنِ مسألةَ عقليّةً يكونُ للبحثِ العقليِّ فيه مجالٌ، وإنّما الإعرابُ ما نطقَ به العربُ، واللحنُ ما لم ينطِقُوا به؛ فلو أنّهمُ اصْطَلَحُوا على نَصْبِ الفاعِلِ ورَفْعِ المفعولِ مثلًا، لكان رَفْعُ الأوّلِ، ونصبُ الثاني لَحْنًا، ولكنّ جهلةَ المبشّرين لم يُدْرِكُوا شيئًا من هذه المسلّماتِ، واستدلُّوا على وجودِ اللحنِ في القرآنِ لقواعدِ النحو التي ما دوَّنَها مُدَوِّنُوها، إلّا بعد أنْ نَظَرُوا في كلامِ العربِ، وتَتَبّعُوا تراكيبَهُ وأساليبَهُ، وأكبرُ ما اعتمدُوا عليه في ذلك، هو القرآنُ المجيدُ.

فالقرآنُ حجّةٌ على النحاةِ، وليست النحاةُ حجةً على القرآنِ، فإذا وُجِدَ في بعضِ تراكيبِ القرآنِ، أو غيرِه من الكلامِ العربيّ ما يُخَالِفُ قواعدَ النحاةِ، حكَمْنا بأنّهُمْ مقصّرُونَ في التَّتَبُّعِ والاستقراءِ، على أنّهم ما قَصّرُوا في شيءٍ من ذلك، وما تَرَكُوا كثيرًا، ولا قليلًا، ولا نادرًا، ولا شاذًا إلّا دَوّنُوهُ في كُتُبِهِمْ. فلا القرآنُ بمَلْحُونِ، ولا النحاةُ مقصّرُون، ولكنّ المبشّرين جاهِلُون، فإذا كان التعصُّبُ الدينيّ أنطقَ ألسِنَتَهُمْ بمثلِ هذه الخُرَافةِ المُضْحِكَةِ، فليس بغريبٍ أنْ نَسْمَعَ من هذا الرجلَ المُتَشَبِّهَ بهِمْ هذا الطعنَ على الإسلامِ في عقائدِهِ وأحكامِهِ.

إنّنا لا نُنازِعُ اللورد كرومر، ولا أمثالَهُ من الطاعِنِين على الإسلام في معتَقَدِهِمْ، ولكنّا نُحِبُّ منهم ألّا ينازِعُونا في معتقَدِنَا، وأن يُعْطُونا من الحرّيّةِ في ذلك ما أعطوهُ لأنفسِهِمْ.

---

(١) المسوح: ج المسح، وهو ما يلبس للتقشّف وقهر الجسد.

يَقُولُ اللورد كرومر: إنّ الدينَ الإسلاميَّ دينٌ جامِدٌ، لا يتَّسِعُ صَدْرُهُ للمدنيّةِ الإسلاميَّة، ولا يصلُحُ للنظامِ الاجتماعيّ، ويقولُ: إن ما لا يصلحُ له الدِّينُ الإسلاميُّ يصلحُ له الدينُ المسيحيُّ، ويستدلُّ على الإسلام بالمُسْلِمين، وعلى المَسِيحِيّةِ بالمسيحيّين.

في أيّ عصرٍ من عصورِ التاريخِ، كانتِ الديانةُ المسيحيَّةُ مبعثَ العلمِ ومطلعَ شمسِ المدنيّةِ والعمرانِ؟

أفي العَصْرِ الذي كانتْ تدورِ فيه رَحَى الحربِ الدمويّةِ بين الأرثوذكس، والكاثوليكيّةِ تارةً، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارةً أُخرَى بصورةٍ وحشيّةٍ فظيعةٍ اسودَّ لها لباسُ الإنسانيّةِ، وبكَتِ الأرضُ منها والسماءُ؟

أم في العصرِ الذي كانتْ إرادةُ المسيحيّ فيه صورةً من إرادةِ الكاهنِ الجاهلِ، فلا يعلمُ إلّا ما يعلّمُه إياهُ، ولا يَفْهَمُ إلا ما يُلْقِيهِ إليه. فما كان يتركُ له الحريّةَ حتّى في الحكمِ على نفسِه بكفرٍ أو إيمانٍ، وبهيميّةٍ أو إنسانيّةٍ، فيكادُ يتَخَيَّلُ أنّ له ذَنَبًا متحرّكًا وخَيْشُومًا طَويلًا، وأنّه يَمْشِي على أربعٍ، إذا قال له الكاهن: أنتَ كلبٌ: أو قال له: إنّكَ لَسْتَ بإنسانٍ؟

أم في العصرِ الذي كان يعتقدُ فيه المسيحيُّ أنّ دُخولَ الجملِ في سَمّ الخيّاطِ[1] أقربُ من دخولِ الغنيِّ في ملكُوتِ السمواتِ؟

أم في العصرِ الذي كان يحرّمُ فيه الكاهنُ الأعظمُ على المسيحيِّ أن ينظرَ في كتابٍ غيرِ الكتابِ المقدّسِ، وأن يَتَلقّى علمًا في مدرسةٍ غيرِ مدرسةِ الكنيسةِ؟

أم في العصر الذي ظهرَت فيه النجمةُ ذات الذنبِ، فذُعِرَ لرؤيَتِها المسيحيُّون، ورفَعُوا إلى البابا عرائضَ الشكوى، فطردَها من الجوِّ فولَّتِ الأدْبارَ؟!

أم في العصرِ الذي أهْدَى فيه الرشيدُ العباسيُّ الساعةَ الدقّاقَةَ إلى الملكِ شارلمان، فلمّا رآها الشعبُ المسيحيُّ، وسمِعَ صوتَها، فرّ من وجْهِها ظنًّا منه أنّها تَشْتَمِلُ على الجنِّ والشياطين؟!

أم في العصر الذي أَلّفَتْ فيه محكمةُ التفتيشِ لمحاكمَةِ المتّهمِين بمزاولَةِ العلومِ، فحكَمَتْ في وقتٍ قصيرٍ على ثلاثمائة وأربعين ألفًا بالقَتْلِ حَرْقًا أو صَلْبًا؟

أم في العصر الذي أَحْرَقَ فيه الشعبُ المسيحيُّ فتاةً حسناءَ بعدما كَشَطَ لَحْمَها[2]، وحَرَقَ عظْمَها، لأنّها كانَتْ تَشْتَغِلُ بعلُوم الرّياضةِ والحكمَةِ؟

هذا الذي نَعْرِفُهُ، أيُّها الفيلسوفُ التاريخيُّ، من تاريخِ العلم، والعرفانِ، والمدنيّةِ، والعمرانِ في العصورِ المسيحيّةِ، ولا نعلمُ أكانَتْ تلك المسيحيّةُ الّتي كان هذا شأنَها، وهذا مَبْلَغَ صَدْرِها صحيحةً في نَظَرِكَ أم باطلةً؟ وإنّما نُريدُ أنْ نَسْتَدِلّ بالمسيحيّينَ على المسيحيّةِ، وإنْ لم نقِفْ على حقيقَتِها كما فَعَلْتَ أنتَ في استدلالِكَ بالمسلمين على الإسلامِ، وإنْ لم تَعْرِفْ حقيقَتَهُ وجوهَرَهُ. على أنَّ استدلالنا صحيحٌ واستدلالَك باطلٌ.

---

(١) سم الخياط: ثقب الإبرة.

(٢) كشط اللحم: نزعه

فإنّ المدنيّةَ الحديثةَ ما دخلَتْ أوروبا إلّا بعد أنْ زحْزَحتِ المسيحيّةَ منها، لتحتَلّ محلَّها كالماءِ الذي لا يدْخُلُ الكأسَ إلّا بعد أنْ يطْرُدَ منه الهواءَ، لأنّه لا يتّسِعُ لهُما. فإنْ كان قد بقيَ أثرٌ من آثارِ المسيحيّةِ اليومَ في أكواخِ بعضِ العامّةِ في أوروبا، فما بقيَ إلّا بعد أن عَفَتْ عنه المدنيّةُ، ورَضِيَتْ بالإبقاءِ عليه، لا باعتبارِ أنّه دينٌ يجِبُ إجلالُه، وإعظامُه، بل باعتبارِ أنّه زاجِرٌ من الزواجرِ النفسيّةِ التي تستعينُ الحكوماتُ بها، وبقوّتِها على كَسْرِ شرَّة النفوسِ الجاهلةِ.

فلا علاقةَ بين المسيحيّةِ والتمدينِ الغربيِّ من حيث يستدلُّ به عليها، أو باعتبارِ أنّه أثرٌ من آثارِها، ونتيجةٌ من نتائِجِها. ولو كان بينَه وبينها علاقةٌ، ما افْتَرَقَتْ عنه خمسةَ عشرَ قرنًا، كانت فيها أوروبا وراءَ ما يتصوّرُهُ العقلُ من الهمجيّةِ والوحشيّةِ والجهلِ. فما نَفَعَتْها مسيحِيّتُها، ولا أغْنَى عنها كَهْنُوتُها».

أمّا المدنيّةُ الإسلاميّةُ، فإنّها طلعَتْ مَعَ الإسلام في سماءٍ واحدةٍ من مطلعٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ، ثمّ سارتْ إلى جانبِه كَتِفًا لكتِفٍ ما يُنْكِرُ منْ أمْرِها ولا تُنْكِرُ من أمرِهِ شيئًا. فالمتعبِّدُ في مسجِدِهِ، والفقيهُ في درسِهِ، والمعربُ في خزانةِ كتبِهِ، والرياضيُّ في مدرستِه، والكيمائيُّ في معمَلِهِ، والقاضي في محكمَتِهِ، والخطيبُ في محفلِهِ، والفلكيُّ أمامَ أسطِرْلابِهِ، والكاتبُ بين محابرِهِ وأوراقِهِ، إخوةٌ مُتَصَافُون، وأصْدِقاءُ مُتَحَابّون، لا يَخْتَصِمُون، ولا يَقْتَتِلُون، ولا يكفِّرُ بعضُهُمْ بَعْضًا، ولا يَبْغِي أحدٌ منهُمْ على أحدٍ.

أيّها الفيلسوفُ التاريخيُّ: إنْ كان لا بُدَّ من الاستدلالِ بالأثرِ على المؤثّرِ، فالمدنيّةُ الغربيةُ اليومَ أثرٌ من آثارِ الإسلام بالأمسِ، والانحطاطُ الإسلاميّ اليومَ ضربةٌ من ضرباتِ المسيحيّةِ الأولى.

وإليك البيانُ:

جاءَ الإسلامُ يحمِلُ للنوعِ البشريِّ جميعَ ما يحتاجُ إليه في معادِهِ، ومعاشِهِ، ودنياهُ، وآخرتِهِ، وما يفيدُهُ منفردًا، وما ينفعُهُ مجتمِعًا.

هذّبَ عَقِيدَتَهُ بعدَما أفْسَدَها الشّرْكُ باللهِ، والإسْفافُ إلى عبادةِ التماثيلِ والأوثانِ، وإحناءُ الرؤوسِ بين أيْدِي رؤساءِ الأديانِ.

وأرْشَدَهُ إلى الإيمانِ بألوهيّةِ إلهٍ واحدٍ، لا يشركُ به شيئًا. ثمّ أرْشَدَهُ إلى تسريحِ عَقْلِهِ ونظرِهِ في ملكوتِ السموات والأرضِ، لِيَقِفَ على حقائقِ الكونِ وطبائِعِهِ، وليزدادَ إيمانًا بوجودِ الإلهِ، وقُدْرتِهِ، وكمالِ تدبيرِهِ، ليكونَ اقتِناعُهُ بذلك اقتِناعًا نفسيًّا قلبيًّا، فلا يكونُ آلةً صمّاءَ، في يدِ الأهواءِ تفعلُ به ما تشاءُ.

ثم أرْشَدَهُ إلى مواقفَ تذكّرُه بربّه، وتنبّهُهُ من غَفْلَتِهِ، وتطردُ الشرورَ، والخواطرَ السيّئةَ عن نفسِه، كلّما ابتَغَتْ إليها سبيلًا، وهي مواقفُ العباداتِ، ثم أطلقَ له الحريّةَ في القولِ والعمَلِ، ولم يمنَعْهُ من الشّرك باللهِ والإضرارِ بالناسِ، وعرّفَهُ قيمةَ نفسِه بعدَما كان يجهَلُها.

وعلّمَهُ أنّ الإنسانيّةَ، لا فرقَ بين فقيرِها، وغنيّها، ووضيعِها، ورفيعِها، وضعيفِها، وقويّها، وأن الملكَ والسوقةَ، والشريفَ الهاشميَّ، والعبدَ الزنجيّ: أمامَ اللهِ، والحقّ سَوَاءٌ، وأنّ الأمرَ والنهيَ، والتحليلَ والتحريمَ، والنفعَ والضرَّ، والثوابَ والعقابَ، والرحمةَ والغفرانَ: بيدِ اللهِ وحدَه، لا ينازعُه منازعٌ، ولا يملكُها عليه أحدٌ من الأنبياءِ والمرسَلينَ والملائكةِ المقرّبين.

ثم نظرَ في أخلاقِه، فأرشدَهُ إلى محاسِنِها، ونفّرَهُ من مساوِئِها، حتّى علّمَهُ آدابَ الأكلِ والشربِ، والنومِ والمَشْيِ، والجلوسِ والكلامِ، والتحيّةِ والسلامِ.

ثم دخلَ معه منزلَهُ، فعَلّمَهُ كيفَ يبرّ الابنُ أباه، ويرحَمُ الوالدُ ولدَه، ويعطفُ الأخُ على أخيه، ويُكْرِمُ الزوجُ زوجَتَهُ، وتطيعُ الزوجةُ زوجَها، وكيف يكونُ التراحُمُ والتواصلُ بين الأقرباءِ، وذوِي الرّحِمِ.

ثم نظرَ في شؤونِه الاجتماعيّةِ، ففرَضَ عليه الزكاةَ التي لو جُمِعَتْ، ووُضِعَتْ في مواضِعِها المشروعَةِ، لما كان في الدنيا بائسٌ ولا فقيرٌ. وندبَهُ إلى الصدَقَة، ومساعدةِ الأقوياءِ.

للضعفاءِ، وعطفِ الأغنياءِ على الفقراءِ، ثم شرّعَ له الشرائعَ للمعاملةِ الدنيويّةِ، ووضعَ له قوانينَ البيعِ، والشراءِ، والرهنِ، والهِبَةِ، والقرضِ، والتجارةِ، والإجارةِ، والمزارعةِ والوقفِ، والوصيّةِ، والميراثِ، ليعرفَ كلُّ إنسانٍ حقَّهُ، فلا يغبنُ أحدٌ أحدًا.

ثم قرّرَ له عقوباتٍ دنيويّةً تمنعُهُ أن يبغيَ بعضُه على بعضٍ بشَتْمٍ، أو سَبٍّ، أو قَتْلٍ، أو سَرِقَةٍ، أوِ انْتِهَاكِ حرمةٍ، أو مجاهرةٍ بمعصيَةٍ، أو شروعٍ في فتنةٍ، أو خروجٍ على أميرٍ أو سلطانٍ.

ثمّ نظرَ في شؤونِه السياسيّةِ، فقرّرَ الخلافاتِ وشروطَها، والقضاءَ وصفاتِه، والإمارةَ وحدودَها، وقرّرَ كيف يعاملُ المسلمُون مخالفِيهم في الدّينِ، البعيدِين عنهم، والنازحِين إليهم، وذكرَ مواطنَ القتالِ مَعَهُمْ، ومواضِعَ المسالمةِ لَهُمْ.

وجملةُ القَوْلِ: إنّ الدينَ الإسلاميَّ ما غادرَ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحْصَاها، ولا تَركَ الإنسانَ يَمْشِي في ميدانِ هذه الحياةِ خطوةً من مَهْدِهِ إلى لَحْدِهِ، إلّا مدّ يدَه إليه، وأنارَ له مواقعَ أقدامِهِ، وأرشدَهُ إلى سواءِ السبيلِ.

طلعَتْ هذه الشمسُ المشرقةُ في سماءِ العربِ، فملأَتِ الكونَ نُورًا وإشْرَاقًا، واخْتَلَفَ الناسُ في شأنِها ما بين معترِفٍ بها، ومنكِرٍ لوُجُودِها، ولكنّهم كانُوا جميعًا سواءً في الانتفاعِ بنورِها، والاستنارةِ بضِيَائِها على تفاوُتٍ في تلك الاستنارةِ، وتنوُّعٍ في ذلك الانتفاعِ.

طلعَتْ هذه الشمسُ المشرقةُ، فتَمَشَّتْ أشعَّتُها البيضاءُ إلى أوروبا من طريقِ إسبانيا، وجنوبِ إيطاليا وفرنسا، فأبْصَرَها عددٌ قليلٌ من أذكياءِ الغربيّين، فانتَبَهُوا من رَقْدَتِهِمْ، واسْتَيْقَظُوا من سُباتِهِمْ، ورَأَوا من جمالِ المذاهبِ الإسلاميّةِ وشرائعِ الكونِ ونظاماتِه، وقواعِدِ الحرّيّةِ والمساواةِ، ما لفَتَ نَظَرَهُمْ إلى المقابلةِ بين المجتمعِ الغربيّ الخاملِ الضعيفِ، والمجتمعِ

الشرقيِّ النابهِ اليقِظِ، فقالُوا: أيُمْكِنُ أن يعيشَ الإنسانُ حرًّا على ظَهْرِ المسكونةِ لا يستعبِدُه ملكٌ ولا يسرِقُه كاهنٌ؟

أيُمْكِنُ أن يبيتَ المرءُ ليلةً واحدةً في حياتِهِ هادِئًا في مضجَعِهِ مُطْمَئِنًّا في مرقدِهِ، لا يروعُه دولابُ العذابِ، ولا سيفُ الجلّادِ؟

أيُمْكِنُ أن تملكَ النفسُ حريّتها في النظرِ إلى نظامِ العالمِ وطبائعِه ودراسةِ العلومِ الكونيّةِ ومزاولتِها؟

أيُمْكِنُ أن يطلعَ فَجْرُ المدنِيَّةِ على هذا المجتمعِ الغربيِّ، فيَمْحُو ظُلْمَتَهُ التي طالَ عَهْدُنا بها، حتى غشِيَتْ أبصارُنا، فما يكادُ يرَى بَعْضُنا بَعْضًا؟

كانتْ هذه الخواطرُالمتردِّدَةُ في عقولِ أولئك الأذكياءِ هي الخُطْوَةُ الأولى التي مَشَتْهَا أوروبا في طريقِ المدنِيّةِ، والعمرانِ بفَضْلِ الإسلام، وشرائِعِهِ التي عرَفَها هؤلاءِ الأفرادُ من مخالطةِ المسلمِين في أوروبا، ومطالعةِ كتبِهِمْ، ومناظَرَةِ حضَارَتِهِمْ ومدنِيّتِهِمْ، ثمّ أخذُوا يعلّمُونها للناس سِرًّا، ويَبُثُّونَها في نفوسِ تلاميذِهِمْ شيئًا فشيئًا، ويَلْقُونَ في سبيلِ نَشْرِها عناءً شدِيدًا، واستمرَّ هذا النزاعُ بين العلمِ والجَهْلِ قرونًا عدّةً، حتى انْتَهَى أمرُهُ بالثورةِ الفرنسيّةِ، فكانَتْ هي القضاءَ الأخيرَ على الوحشِيّةِ السالفةِ والهمَجيَّةِ القَدِيمَةِ.

أيُّها الفيلسوفُ التاريخيُّ: إنّك لا بُدَّ تعلَمُ ذلك حقَّ العِلْمِ لأنّه أقلُّ ما يَجِبُ على المؤرخِ أنْ يَعْلَمُهُ، كما تعلمُ أنّ المدنيّةَ الإسلاميّةَ، إذا وَسِعَتْ غيرَها، فَأَحْرى بها أن تَسعَ نَفْسَها، ولكنّ التعصّبَ الدينيَّ قد بلغَ من نَفْسِكِ مَبْلَغَهُ، فما كَفَاك أن أنْكَرْتَ فَضْلَ صاحبِ الفَضْلِ عليك، حتّى أنْكَرْتَ عليه فَضْلَهُ في نفسِهِ!

لا حاجةَ بي أنْ أشْرَحَ لك المدنِيّةَ الإسلاميَّةَ أو أسرُدَ لك أسْمَاءَ عُلمائِها، وحُكَمَائِها، ومؤلّفاتِهِمْ في الطبيعةِ والكيمياءِ، والفلكِ، والنباتِ، والحيوانِ، والمعادنِ، والطبِّ، والحكمةِ، والأخلاقِ، والعمرانِ، أو أعدّدَ لك مدارِسَها، ومجامِعَها، ومراصِدَها، في الشرقِ والغربِ، أو أصفَ لك مُدُنَها الزاهرةَ، وأمصارَها الزاخرةَ، وسعادتَها وهناءَتَها، وعزَّتَها وسطوَتَها، فأنت تَعْرِفُ ذلك كلَّه إن كنتَ مؤرّخًا كما تقولُ.

غيرَ أنّي لا أُنْكِرُ ما لحقَ بالمسلمين في هذه القرونِ الأخيرةِ من الضّعْفِ والفتُورِ، وما أصابَ جامعتَهُم من الوَهْنِ والانحِلالِ، ولكن ليس السببُ ذلك الإسلامَ كما تَتَوَهَّمُ، بل المسيحيّةُ التي سَرَتْ عَدْوَاها إليهم على أيْدِي قَوْمٍ من المسيحيّين، أو أشباهِ المسيحيّين لبِسُوا لباسَ الإسلامِ، وتزيّوا بزيِّهِ، ودَخَلُوا بلادَهُ، وتمكّنُوا من نفوسِ ملوكِهِ الضعفاءِ، وأمرائِهِ الجهلاءِ، فأمَدُّوهم بشيءٍ من السطوة والقوّةِ، تمكّنُوا به من نَشْرِ مذاهِبِهِم السقيمةِ، وعقائدِهِم الخرافيّةِ بين المسلمين، حتى أفْسَدُوا عليهم مذاهِبَهُم وعقائِدَهُمْ، وأوْقَعُوا الفِتْنَةَ فيهِمْ، وحالُوا بينَهُم وبين الاستمدادِ من روحِ الإسلامِ وقوتِه، فكان من أمرِهِمْ بَعْدَ ذلك ما كان.

كلُّ ما نَرَاهُ اليومَ بين المُسلِمين: من الخَلْطِ في عقيدةِ القضاءِ والقَدَرِ، وعقيدةِ التوكّلِ، وتشييدِ الأضرحَةِ، وتخصيصِ القبورِ، وتزيينِها، والترامي على أعْتَابِها، والاهتِمامِ بِصُوَرِ العباداتِ وأشْكَالِها، دون حكمِها وأسْرَارِها، وإسنادِ النّفعِ والضّرَرِ إلى رؤساءِ الدينِ، وأمثالِ ذلك أثرٌ من آثارِ المسيحيّةِ الأولى، وليس من الإسلام في شيءٍ.

أيُّها الفيلسوفُ التاريخيُّ: لا تَقُلْ إنّنا متعصِّبُون تَعَصُّبًا دِينِيًّا، فإنّك قد أسأتَ إلينا، وإلى دينِنا، فلَمْ نرَ بدًّا من الذَّبِّ عنّا وعنه بما تعلمُ أنّه حقٌّ وصوابٌ. على أنّه لا عارَ علينا فيما تقولُ، وهل التعصُّبُ الدينيُّ إلّا اتحادُ المسلمين يَدًا واحدةً على الذَّوْدِ عن أنفسِهِمْ، والدّفاعِ عن جامِعَتِهِمْ؛ وإعْلاءِ شأنِ دينِهم ونُصْرَتِهِ حتى يكونَ الدينُ كلُّه للهِ؟

إنْ كـانَ رَفْـضًـا حـبُّ آلِ مُـحَـمَّـدٍ فَـلْـيَـشْـهَـدِ الـثّـقـلانِ أنّـي رافِـضُ

❀ ❀ ❀

أهناء أم عزاء

فارقَ مصرَ على إثرِ إعلانِ الدستورِ العثمانيّ، كثيرٌ من فُضَلاءِ السوريّين، بَعْدَما عمَرُوا هذه البلادَ بفضائِلِهِمْ ومآثِرِهِمْ، وصيَّرُوها جنّةً زاخرةً بالعلومِ والآدابِ، ولقَّنُوا المصريّين تلك الدروسَ العاليةَ في الصحافةِ والتأليفِ والترجمةِ، وبعدما كانوا فينا سفراءَ خَيْرٍ، بين المَدَنِيَّةِ الغربيّةِ والمدنيّةِ الشرقيّةِ؛ يأخذُونَ من كمالِ الأولى لِيُتَمِّمُوا ما نقصَ من الأخرى، وبعدَما عَلَّمُوا المصريَّ كيف يَنْشَطُ للعملِ، وكيف يجِدُّ ويَجْتَهِدُ في سبيلِ العيشِ، وكيف يثبتُ ويتجلَّدُ في مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ.

قَضَوا بينَنا تلك البرهةَ من الزمانِ، يُحْسِنُونَ إلينا فنُسِيءُ إليهِم، ويعطفُون علينا، فنُسَمّيهِم تارةً دُخَلاءَ، وأخرى ثُقَلاءَ، كأنّما كنا نحسبُ أنّهم قومٌ من شذّاذِ الآفاقِ، أو نفاياتِ الأممِ جاؤُوا إلينا يُصَادِرُونَنا في أرْزَاقِنا، ويتطفّلُون على موائِدِنا. ولو أنصَفْنَاهُمْ لعَرَفْنَاهُمْ، وعَرَفْنا أنَّ أكثرَهُمْ من بيوتاتِ المَجْدِ والشرفِ، وإنّما ضاقَتْ بهم حكومةُ الاستبدادِ ذَرْعًا، وكذلك شأنُ كلِّ حكومةٍ مستبدّةٍ مع أحرارِ النفوسِ، وأباةِ الضَّيْمِ، فأخرجَتْ صُدورَهُم، وضيَّقَتْ عليهِمْ مذاهِبَهُمْ، فَفَرُّوا من الظلم تارِكِين وراءَهُم شَرَفًا ينعاهُمْ، ومَجْدًا يَبْكِي علَيْهِمْ، ونزَلُوا بيننا ضُيوفًا كِرَامًا، وأساتِذَةً كبارًا، فما أحْسَنّا ضِيَافَتَهُمْ، ولا شَكَرْنا لهم نِعْمَتَهُمْ.

وبعدُ؛ فقد مضَى ذلك الزمنُ بخيرِهِ وشرِّهِ، وأصْبَحْنَا اليومَ كلّما ذَكَرْنَاهُمْ، خَفَقَتْ أفئِدَتُنا مخافةَ أن يلحقَ باقِيهِمْ بماضِيهِمْ، فلا نعلمُ أنَشْكُرُ للدستورَ أنْ فَرَّجَ عَنْهُمْ كُرْبَتَهُمْ، وأمّنَهُمْ على أنفسِهِمْ، وردَّهُم إلى أوطانِهِمْ؟ أم نَنْقُمُ منه أنّه كان سَبَبًا في حِرْمانِنا مِنْهُمْ، بعد أُنْسِنَا بهم، واغتباطِنَا بحُسْنِ عِشْرَتِهِمْ وجميلِ مودَّتِهِمْ؟ ولا نَدْرِي هل نحنُ بين يدَيْ هذا النظامِ العثمانيِّ الجديدِ في هناءٍ أم في عزاءٍ؟

فيا أيُّها القومُ المُوَدَّعُون، والكرامُ الكاتِبُون:

اذْكُـرُونا مِـثْـلَ ذِكْـرَانـا لَـكُـمْ   رُبَّ ذِكْـرَى قَـرَّبَـتْ مَـنْ نَـزَحَـا
واذْكُـرُوا صَـبًّـا إذا غـنّـى بِـكُـمْ   شَـرِبَ الـدَّمْـعَ وعَـافَ الـقَـدَحَـا

❀ ❀ ❀

الزوجتان

حدّثني أحدُ الأصدِقَاءِ قال: سأقصُّ عليكَ قِصّةً من خَيَالاتِ الشعراءِ، لا أكاذيبِ القصّاصِين.

أوَيْتُ إلى مضجَعِي في لَيْلَةٍ من لَيَالي الشّتاءِ، حالكةِ الجلبابِ، غَدَافيّةِ الإهابِ، فما اسْتَقْبَلْتُ أولَ طليعَةٍ من طلائعِ النومِ، حتّى قُرِعَ بابُ غُرْفَتي، فتَسَمَّعْتُ، فإذا الخادمُ تقولُ: إنّ امرأةً سيّئَةَ الحالِ، رثّةَ الثيابِ في زِيِّ المتسوّلاتِ، تُلِحُّ في طلبِ مُقَابَلَتِكَ، وتقولُ: إنّ لها عِنْدَكَ شأنًا.

فقُلْتُ في نَفْسِي: لا شأنَ لي معَ امْرَأَةٍ؛ ربّما كانتْ ذاتَ حاجةٍ، وكانت حاجتُها إليّ أكثرَ من حاجَتِي إلى النوم، على أنّ النومَ لا يَفُوتُني، فَلَيلُ الشتاءِ أطْوَلُ من يَوْمِ القَضَاءِ.

فارْتَدَيْتُ رِدَائي ونزلْتُ، فإذا فتاةٌ في مُلاَءَةٍ[1] باليَةٍ، وخُمارٍ خَلِقٍ، يَنِمُّ بجمالها كما ينمّ السحابُ المتقَطّعُ بضوءِ الشمسِ، وإذ هي تُرْعِدُ وتضطربُ وتقولُ بصَوْتٍ شَجِيٍّ: أما في الناسِ أَخُو همّةٍ ومروءَةٍ يعينُ على الدهرِ الغادِرِ، ويطفِىءُ هذه الجُذْوَةَ التي تتأجّجُ بين أضالعي بقطرَةٍ واحدةٍ من الرحمةِ؟

فقلتُ: من أنتِ يرحَمُكِ الله؟

قالتْ: أنا فلانةُ زَوْجُ فلانٍ.

فدُهِشْتُ، وغَصَصْتُ بريقي حتّى ما أجدُ بلّةً أحرّكُ بها لساني لهَوْلِ ما سمِعْتُ وسوءِ ما رأَيْتُ، وقُلْتُ: يا لَلْعَجَبِ! زوجُ فلانٍ على عِظَمِهِ وعِظَمِها، وجَلَالِهِ وجَلَالِها، تخرجُ في مثلِ هذه الساعةِ في مثل هذه البِزَّةِ؟! وسألْتُها: ما شأنُكِ، يا سيّدتي، ومِمَّ تَبْكِين؟

قالت: لا تحدّثْ نفسَك بريبَةٍ، ولا تذهَبْ بك الظنونُ مذاهِبَها، فواللهِ، ما جئتُ إليكَ تحتَ سِتْرِ اللّيلِ إلّا وأنتَ أوثقُ الناسِ عندي، وأرفعُهُمْ في عَيْنِي، ولولا شدّةٌ أَقْلَقَتْ مَضْجَعِي، وفرَّقَتْ ما بين جَفْنِي والكَرَى، ما خُضْتُ إليك سَوَادَ الليلِ في مثل هذه الساعةِ، ولا احْتَمَلْتُ في سبيلِ ذلك ما احْتَمَلْتُ.

قلتُ: عَهْدِي بسيّدتي رَخِيّةَ البالِ ناعمةَ العيشِ سعيدةَ الحظّ بزوجٍ عَذْبِ الأخلاقِ، كريمِ السجايا، يؤثرُ هَوَى نفسِهِ على هَواك، ولا يعدِلُ بكِ أحدًا.

---

(١) الملاءة: ثوب من قطعة واحدة ذو شقَّين متضامَّين.

قالت: إنّك تقصُّ عليّ حديثَ الأمسِ، وقد مضَى به الفلكُ الدائرُ، والكوكبُ السيَّارُ. فاستَمِعْ منّي حَديثَ اليَوْمِ:

أظُنُّكَ تذكُرُ تاريخَ زَواجي منه، وأنّه كان منذ ثلاثةِ أعوامٍ، وأن أبي قد آثَرَهُ، وفضّلَهُ على جميعِ الخاطِبينَ إليه من عَليّةِ القومِ وجُلّتِهِمْ. وأنا لا أُلومُه على ذلك رحمةُ الله عليه، فما أرادَ بي شرًّا، ولا اعتمدَ أن يُسِيءَ الاختيارَ لي، ولكنّه كان رجلًا طيّبَ السريرةِ، طاهرَ القلبِ، فخدَعَهُ الخادِعُون عنّي، ومَن ذا الذي لا يُخْدَعُ بشابٍّ مُتَعَلِّمٍ مهذَّبٍ من ذوِي المناصِبِ الكبيرةِ والرُّتَبِ العاليَةِ.

وكيفَما كان الأمرُ، فقد تمَّ عَقْدُ الزواجِ بينَنا، فاغْتَبَطْتُ به، واغْتَبَطَ بي برهةً من الزمان حَسِبْتُها دائمةً لا انقطاعَ لها حتّى يفرّقَ بينَنا الموتُ. وكنتُ امرأةً أجْمَعُ في نَفْسِي جميعَ ما يمُتُّ به النساءُ إلى الرجالِ، فما خنتُه، ولا ضُقتُ ذَرْعًا به، ولا قَطَبْتُ في وجْهِهِ مرّةً، ولا أتْلَفتُ له مالًا، ولا نَقَضتُ له عَهْدًا.

فجَازاني بالإحْسَانِ سُوءًا، وكَفَرَ بنِعْمَةِ اللهِ بعد الإيمان، وخانَ وُدّي، ونقضَ عَهْدِي، لا لذَنْبٍ جَنَيْتُهُ، أو وَصْمَةٍ يَصِمُني بها، ولكنّه رَجُلٌ ملولٌ مُتَبَرِّمٌ. ولا تَغْضَبْ، يا سيّدي، إنْ قُلْتُ لك: إنّ قَلْبَ الرجلِ متقلّبٌ، متلوّنٌ، يُسْرِعُ إلى البغضِ كما يُسْرِعُ إلى الحُبّ، وإنّ هذه المرأةَ التي تَحْتَقِرُونَها، وتَزْدَرُونَها، وتَضربُون الأمثالَ بخِفَّةِ عَقْلِها، وضُعْفِ قَلْبِها أوْثقُ منه عقدًا، وأمْتَنُ وُدًّا، وأوْفَى عَهْدًا. ولو وفَى الزوجُ لزوجتِهِ وفاءَها له ما اسْتَطَاعَ أن يفرّقَ بين قلبَيْهِما، إلّا رَيْبَ المَنُونِ.

قلتُ: أنا لا أغْضَبُ لشيءٍ إلّا للإنسانيَّةِ أن يُخْفَرَ ذِمَامُها، ويُنْقَضَ عَهْدُها، ثم ماذا تمّ بعد ذلك؟

قالتْ: ماتَ أبي كما تَعْلَمُ، وخلّفَ لي مالًا أمكَنْتُ منه زَوْجي، فأتْلَفَهُ بين الخَمْرِ والقَمْرِ، فكنتُ أُغْضِي على ذلك رحمةً به، وشفقةً عليه استبقاءً لوُدِّه. حتّى إذا صَفِرَتْ يَدِي، وأقْفَرَ رَبْعِي أحْسَسْتُ منه مللًا كان يدعُوه إلى سوءِ عِشْرتي، وتَعْذِيبِ جِسْمِي ونَفْسِي. وكان كثيرًا ما يتَهَكَّمُ بي ويقولُ: إنّني لا أُحِبُّ المرأةَ الجاهلةَ التي لا تَفْهَمُني، ولا أفْهَمُها. وآونةً كان يُعرِّضُ بي قائلًا: إنّ الرجلَ السعيدَ هو الذي يُرزَقُ زَوْجَةً متعلّمَةً، تقرأُ له الجرائدَ والمجلّات، وتَتَبَسَّطُ معه في الشؤونِ الاجتماعيَّة والسياسِيَّةِ. بل يتجاوزُ التعريضَ أحيانًا إلى التصريحِ، فيقولُ كلّما دَخَلَ عليّ مُتَأفِّفًا متذَمِّرًا: ليتَ لي زوجةً كفلانَة، فإنَّها تُحْسِنُ الرقصَ، والغِناءَ، والتَوْقيعَ على الآلاتِ الموسيقيَّةِ.

فكنتُ أشكُّ في سلامَةِ عَقْلِهِ، وأقولُ في نفسي: كيف يفضّلُ الزوجةَ المتبذّلَةَ المستهترةَ على الحيِيّةِ المُحْتشِمَةِ؟ ووالله، ما تمنّيتُ مرَّةً أن أكونَ على الصّفةِ التي يُحِبُّها، ويَرْضَاها، مع ما كنت أبذلُ في رضاهُ من ذاتِ اليدِ، وذاتِ النفس.

وبعدُ؛ فما زالَ الملَلُ يَدِبُّ في نفسِه دَبِيبَ الصَّهْبَاءِ في الأعضاءِ، حتّى تحوّلَ إلى بَغْضاءَ شديدةٍ. فما كان يلحَظُني إلا شَزَرًا، ولا يدخلُ المنزلَ إلا لتناوُلِ غرضٍ، أو قَضَاءِ حاجةٍ، ثمّ يخرُجُ لشأنِه، فكنتُ أحْتَمِلُ كلَّ هذا بقلبٍ صبورٍ، وجنانٍ وقورٍ.

حتى عَرَضَ له بعد ذلك أن نُقِلَ إلى منصبٍ أرْقَى من منصِبِهِ في بعضِ بلادِ الأقاليمِ، فسافَرَ وحدَهُ، وتَرَكَني في المنزلِ وحيدةً، لا مؤنسَ لي غيرُ طِفْلَتِي.

فلبِثْتُ أتَرقَّبُ كتابًا منه يَدْعُوني فيه إلى اللّحاقِ به؛ فما أرْسَلَ كتابًا، ولا رَسُولًا، ولا نَفَقَةً، فاسْتَكْتَبْتُ إليه الكتابَ، فما أَسْلَسَ قيادَهُ، ولا طاوَعَ عنادَهُ، فسافَرْتُ إليه مخاطِرَةً بنفسي غيرَ مبالِيَةٍ بغضبِه لأعلمَ غايةَ شأنِه معي.

فما نزلتُ من القطارِ، حتى قيَّضَ اللهُ لي من وقَفَني على حقيقةِ أمرِهِ، وأعْلَمَني أنّه تزوَّج من فتاةٍ متعلّمَةٍ، تقرأُ له الجرائدَ والرواياتِ، وتفاوِضُهُ في المسائلِ الاجتماعِيَّةِ والسياسِيَّةِ، وتُحْسِنُ الرَّقْصَ والغِناءَ، والتوقيعَ على القِطَعِ الموسِيقِيَّةِ. فداخَلَني منَ الهَمِّ ما اللهُ به عليمٌ، وجزعْتُ ولكنْ أيّ ساعةِ مَجْزعٍ، ولا أظنُّ إلّا أنّ العدلَ الإلٰهيَّ سيحاسِبُه على كلّ قطرةٍ من قطراتِ الدموعِ التي أرَقْتُها في هذا السبيلِ حسابًا غَيْرَ يسيرٍ.

وكأنّه شعر بمكاني، فجاءَ إليّ يَتَهَدَّدُني، ويتوعَّدُني، فتوسَّلْتُ إليه ببكاءِ طفلتِه التي كنتُ أحْمِلُها على يَدِي، وذَكَّرْتُه بالعُهودِ والمواثيقِ التي تعاقَدْنا عليها، وذهبتُ في استِعْطَافِهِ واستِئْنائِهِ كلَّ مذهبٍ، فكنتُ كأنّني أخاطبُ رُكُودًا صمّاء أو استَنْزِلُ أَبُودًا عصماء[1]، ثمّ طَرَدَني وأمَرَ مَنْ حَمَلني إلى المحطَّةِ، فعدْتُ من حيثُ أتَيْتُ.

فما وصَلْتُ إلى المنزلِ، حتى خَلَعْتُ ملابِسي، ولبِسْتُ هذه الثيابَ وجئتُك مُتَنَكِّرَةً في ذِمَامِ الليلِ، لأنّي وَحِيدةٌ في هذا العالمِ، لا قريبَ لي ولا حميمَ، ولأنّي أعلمُ كرمَك، وهمّتَك، وما بينك وبين ذلك الرجلِ من الودِّ والاتصالِ، عسَى أن تَرى لي رأيًا في التفريقِ بيني وبينه، علّني أجدُ في فضاءِ الحرّيةِ مَنْفَذًا كسُمّ الخياطِ[2]، أرْتَشِفُ منه ما أتَبلّغُ به أنا وطفلتي حتى يبلغَ الكتابُ أجَلَهُ.

فأحْزَنَني من أمرِ تلك الفتاةِ البائسةِ ما أحْزَنَني، ووعَدْتُها بالنظرِ في أمرِها بعد أن هَوّنْتُ عليها بَعْضَ أحزانِها ولواعِجِها، فعادَتْ إلى منزلِها، وعُدْتُ إلى مَضْجَعِي، أفكّرُ في هذه الحادِثَةِ الغريبةِ، وقد اكْتَنَفَنِي همّان: همُّ تلك البائسةِ التي لم أرَ في تاريخِ شقاءِ النساءِ قلبًا أشقَى من قلبِها، ولا نَجْمًا أنْحَسَ من نجمِها، وهمّ ذلك الصديقِ الذي ربِحْتُه سنين عدّةً، وخسِرْتُه في ساعةٍ واحدةً. فقد كنت أغبطُ نفسي عليه، فأصْبَحْتُ أعزّيها عنه، وكنت أحسبُه إنْسَانًا، فإذا هو ذئبٌ عملّسٌ[3]، تستُرُهُ الصُّورَةُ البَشَرِيَّةُ، وتُوَارِيهِ البشاشَةُ والابتسامة.

---

(١) أبدت البهيمة: توحّشت. والعصماء من الظباء: التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود.

(٢) سمّ الخياط: ثقب الإبرة. (٣) العملس: السريع.

هذا ما قصّه عليّ ذلك الصديقُ الكريمُ، ثم لم أعُدْ أعلَمُ بعد ذلك ما تمّ من أمرِه مع تلك الفتاةِ المسكينةِ، ولا ما تمّ من أمرِها مع زوجِها، حتّى جاءَني منه أمسِ ذلك الكتابُ بعد مرورِ عامٍ على تلك القصّةِ الغريبةِ، وهذا نصُّهُ:

سيّدي:

يهمُّني كثيرًا أن أرَى بين كتبِ التهنِئَةِ التي تَرِدُ إليّ كتابًا منك لأسرَّ بمشاركَتِك إيّاي في سرُورِي وهَنائِي.

إنّك، لا بُدَّ، تذكُرُ تلك القصَّةَ التي كنتُ قَصَصْتُها عليك منذ عامٍ في شأنِ تلك الفتاةِ البائسةِ التي خانَها زوجُها «فلان»، وغدَرَ بها، وهَجَرَها إلى أخرى غيرِها، بعدما جرَّدَها ممَّا كانَت تملِكُ يدُها، وما كان من أمرِها بعد ذلك. فاعلمْ أنّها دفعَتْ زَوْجَها إلى موقِفِ القضاءِ، فضاقَ بأمرِها ذَرْعًا، فطَلَّقها، وكنتُ أفكّرُ في ذلك التاريخِ كما تعلمُ في الزواجِ من زوجٍ صالحةٍ أجدُ السعادةَ في العيشِ بجانِبِها، وما كنتُ لأجِدَ زوجةً أشرفَ نفسًا ولا أكرَمَ عُنْصُرًا ولا أذكى قلبًا منها، فتزوّجْتُها فأمْتَعْتُ نفسي بخيرِ النساءِ، وأنقَذْتُ الإنسانةَ المعذَّبَةَ من شَقْوَتِها وبلائِها.

وأبشّرُك أنّ اللهَ قدِ انْتَقَمَ لهذه الفتاةِ المظلومةِ من ذلك الرجلِ الظالم انتقامًا شديدًا، فقد حدّثني من يعلمُ دَخِيلَةَ أمرِهِ أنَّه يُعاني اليومَ من زوجتِه الجديدةِ الموتَ الأحمرَ، والشقاءَ الأكبرَ، وأنّها امرأةٌ قد أخذتِ التربيةُ الحديثةُ من نفسِها مأخَذًا عظيمًا، فحوَّلَتْها إلى فتاةٍ غربيَّةٍ في جميعِ شؤونِها وأطوارِها، والرجلُ المصريُّ شرقيٌّ بفطرَتِهِ كائِنًا مَنْ كان، أمّا غربيَّتُه، فهي متكلَّفَةٌ مُعْتَمَلَةٌ، يدورُ بها لسانُه، ولا أثرَ لها في نفسِه، فهو يُقاسي من تلك المرأةِ الخَرْقاءِ[1]، أضعافَ ما كانت تقاسِيهِ منه أشرفُ النساءِ، والسلامُ؟

❁ ❁ ❁

في سبيل الإحسان

الإحسانُ شيءٌ جميلٌ. وأجملُ منه أن يحلَّ محلَّهُ، ويُصيبَ موضِعَهُ.

الإحسانُ في مصرَ كثيرٌ، ووصولُه إلى مستحقِّهِ وصاحبِ الحاجةِ إليه قليلٌ؛ فلو أضافَ المُحْسِنُ إلى إحسانِه إصابةَ الموضِعِ فيه، لمَا سَمِعَ سامعٌ في ظلمةِ الليلِ شِكاةَ بائسٍ، وأَنَّةَ محزُونٍ.

ليس الإحسانُ هو العطاءَ كما يظنُّ عامَّةُ الناسِ؛ فالعطاءُ قد يكونُ نِفاقًا ورياءً، وقد يكونُ أحْبُولَةً[2] ينصُبُها المُعْطِي لاصطيادِ النفوسِ والأعناقِ، وقد يكونُ رأسَ مالٍ يتّجِرُ فيه صاحبُه، ليبذلَ قليلًا، ويَربحَ كثيرًا.

---

(١) الخرقاء: الحمقاء.
(٢) الأحبولة: المصيدة، الوسيلة الاحتيالية.

إنَّما الإحسانُ عاطفةٌ كريمةٌ من عواطفِ النفسِ، تتألّمُ لمناظِرِ البؤسِ، ومصارِعِ الشقاءِ؛ فلو أنّ جميعَ ما يبذلُه الناسُ من المالِ، ويسمّونَهُ إحْسَانًا - صادِرٌ عن تلك العاطفةِ الشريفةِ - لما تجاوَزَ محلَّهُ، ولا فارقَ موضِعَهُ.

فَوْضى الإحسان:

الإحسانُ في مصرَ فَوْضَى لا نظامَ له، ينالُه من لا يَسْتَحِقُّهُ، ويُحرَمُ منه مستحقُّهُ، فلا بؤسًا يرفَعُ، ولا فَقرًا يدفَعُ. فمثَلُهُ كمَثَلِ السحابِ الذي يقولُ فيه أبو العلاء:

وَلَوْ أنَّ السَّحَابَ هَمَى بِعَقْلٍ لَمَا أرْوَى مَعَ النَّخْلِ القَتَادا[1]

الإحسانُ في مصرَ أن يدخلَ صاحبُ المالِ ضَرِيحًا من أضرِحَةِ المقْبُورين فيضعَ في صندوقِ النذورِ قَبْضةً من الفضّةِ، أو الذهبِ، ربّما يتناوَلُها من هو أرغَدُ منه عَيْشًا وأنعمُ بالًا. أو يُهدِي ما يُسَمِّيه نذرًا من نِعَمٍ وشاءٍ إلى دفينٍ في قبرِه، قد شغَلَهُ عن أكلِ اللحومِ، والتفكُّهِ بها ذلك الدودُ الذي يأكلُ لحمَهُ، والسوسُ الذي ينخرُ عظمَه، وما أهْدَى شاتَهُ، ولا بقرتَهُ - لو يعلمُ - إلّا إلى «وزارةِ الأوقافِ»، وكان خيرًا له أن يُهْدِيَها إلى جارِهِ الفقيرِ الذي يبيتُ ليلَهُ طاوِيًا[2]، يتشهي ظِلْفًا يُمْسِكُ رمَقَهُ، أو عُرْقُوبًا يطفىءُ لوعَتَهُ.

وأعظمُ ما يتقرّبُ به مُحْسِنٌ إلى الله، ويحسبُ أنَّه بلغَ من البرّ والمعروفِ غايَتَيْهِما: أن ينفقَ بضعةَ آلافٍ من الدنانيرِ في بناءِ مسجدٍ للصلاةِ في بلدٍ مملوءٍ بالمساجدِ، حافلٍ بالمعابدِ، وفي البلدِ كثيرٌ من البائسين وذوي الحاجاتِ، يَنْشُدُون مواطِنَ الصلاتِ، لا أماكنَ الصلواتِ.

أو يَبْنِي بِنْيَةً ضَخْمَةً مرفوعةَ القبابِ، فسيحةَ الرحابِ، مموَّهَةَ الجوانبِ والأركانِ، مذهّبةَ السقوفِ والجدرانِ يُسمّيها «سبيلًا». ولا يَهُولَنّك هذا الاسمُ الضخمُ، فكلُّ ما في الأمرِ أنَّ السبيلَ مكانٌ يشتمِلُ على حَوْضٍ من الماءِ، ربّما لا يكونُ بينه وبين ماءِ النهرِ إلّا بضعُ خطواتٍ، على أنّ الماءَ كالهواءِ ملءُ الأرضِ والسماءِ.

أو يقفُ الضياعَ الواسعةَ من الأرض، لتنفقَ غلّتها على أقوامٍ من ذَوي البطالةِ والجهالةِ نظير انقطاعهِم لتلاوَةِ الآياتِ، وترديدِ الصلواتِ، وقراءةِ الأحزابِ والأورادِ، وهو يحسبُ أنّه أحْسَنَ إليهم. ولو عرَف موضِعَ الإحسانِ، لأحسنَ إليهم بقطعِ ذلك الإحسانِ عنهم علّمهم يتعلّمُون صناعةً أو مهنةً، يرتزِقُون منها رِزْقًا شَرِيفًا.

فإن كان يظنُّ أنّه يعملُ في ذلك عملًا، يُقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالى فإنّ الله أجلُّ من أنْ يَعْبَأ بعبادةِ قومٍ، يتّخذُون عبادتَه سلّمًا إلى طعامٍ يُطعمونَه، أو درهمٍ يتناولُونَه. أو يفتحُ أبوابَ منزلِه لهؤلاءِ المحتالِين المتلصّصِين الذين يسمُّونَهُمْ مشايخَ الطرقِ، ولَو أنْصَفُوهم لسمّوهم قُطّاعَ الطرقِ، ولا فرقَ بين الفريقَيْنِ: إلّا أنّ هؤلاءِ يتَسَلَّحُون بالبنادِقِ والعصيِّ، وأولئك يتسلّحون بالسبحِ

---

(١) القتاد: نوع من الشجر الصلب له شوك لا فائدة منه.

(٢) طاويًا: جائعًا.

والمساويكِ، ثم يسقطُون على المنازلِ سقوطَ الجرادِ على المزارعِ، فلا يتركُونَ صادحًا و لا باغمًا[١]، ولا خفًّا[٢]، ولا حافرًا[٣]، ولا شيئًا ممَّا تنبتُ الأرضُ من بَقْلِها[٤]، وقثائِها[٥]، وفُومِها[٦]، وعدسِها، وبصلِها.. إلّا أتَوا عليه.

أسوأُ الإحسان:

لم أرَ مالًا أضيعَ، ولا عملًا أخيبَ، ولا إحسانًا أسوأَ من الإحسانِ إلى هؤلاءِ المتسوّلين الذين يطوّفونَ الأرضَ، ويقلّبُونَها ظهرًا لبطن، ويَجْتَمِعُونَ في مفارقِ الطرقِ، وزَوَايَا الدروبِ، وعلى أبوابِ الأضرحَةِ والمزاراتِ يصمُّون الأسماعَ بأصواتِهم المزعِجَةِ، ويُقْذُونَ النواظرَ بمناظرِهِم المُسْتَبْشَعَةِ، ويزاحِمُون بمناكِبِهم الفارسَ والراجلَ، والجالسَ والقائمَ، فلو أنَّ نَجْمًا هوَى إلى الأرضِ، لهَوَوا على أثرِهِ، أو طائرًا طارَ إلى الجوّ، لكانوا قوادمَه وخوافِيه[٧].

وإن شئتَ أن تعرفَ المتسوّلَ معرفةً حقيقيَّةً، لِتَعْرِفَ هل يستحقُّ عطفَك وحنانَك، وهل ما تُسدِيه إليه من المعروفِ تُسْدِيهِ إلى صاحبِ حاجةٍ، فاعلمْ أنّه في الأعمِّ الأغلبِ من أحْوالِهِ رجلٌ لا زوجةَ له، ولا ولدَ يُنفِقُ عليهما، ولا مسكنَ له يحتاجُ إلى مُؤَنٍ ومرافقَ، ولا شهوةَ له في مطعمٍ، أو مشربٍ، أو مَلْبَسٍ، حتى لو علمَ أنّ الانقطاعَ عن ذلك الخسيس من الطعام والقذرِ من الشرابِ، لا يقعدُه عن السَّعْي في سبيلِهِ، لانقطَعَ عنه، وهو لو شاءَ أن يتزوَّجَ أو يتّخذَ له مأوًى يأوِي إليه، لفَعَلَ، ولَوَجَدَ في حرفَتِهِ متّسَعًا لذلك.

ولكنّه الحرصُ، قد أفسدَ قلبَه، وأماتَ نفسَه، فهو يتوسَّلُ بأنواعِ الحِيَلَ، وصُنُوفِ الكَيْدِ، ليَجْمَعَ مالًا لا فائدةَ من جمعِه، ولا نِيّةَ له في إصلاحِ شأنِه به إذا اجتمعَ عنده ما يقومُ له بذلك، بل ليدفِنَهُ في باطنِ الأرضِ، حتّى يُدْفَنَ معه، أو ليَنْظِمَهُ في سِلْكِ مرقعتِهِ حتّى يرثَهُ الغاسِلُ من بعدِهِ، ولقد يبلغُ به الحرصُ الدنيءُ والشرهُ السافلُ، أن يحمِلَ في سبيل المالِ ما لا يستطيعُ مُجاهِدٌ أنْ يحمِلَ في سبيل الله، فيَتَعَمَّدُ قطعَ يدِه، أو ساقِه، أو إتْلافَ عينيه أو إحداهما، ليستعطِفَ القلوبَ عليه. وكثيرًا ما يحسدُ صاحبَه، إذا رآه أكثرَ منه دمامةً، وأعظمَ تشويهًا.

كما يُحْكَى أنَّ شَحّاذًا مقطوعَ الساقِ، قد وضَعَ مكانَها أخرى من الخشبِ تقابلَ مع آخرَ كفيفِ البصرِ، فتنافَسا في مُصِيبَتَيْهِما أيّتهما أقْذَى للأعيُنِ، وأقتلُ للنفوسِ، وأجلبُ للرحمةِ والشفقةِ، فقال الأوّلُ للثاني: لقد وهبَك اللهُ نِعْمَةَ العمَى، ومنحَكَ بسلبِ ناظرَيْك أفضلَ حبالةٍ لاصطيادِ القلوبِ، واستفراغِ الجيُوبِ. فقال له صاحبُه: وأينَ يبلُغُ العمَى من هذه القدمِ الضخمةِ الثقيلةِ التي تجلبُ في كلّ عامٍ وزنَها ذَهبًا؟

---

(١) الباغم: من البغام، وهو صوت الغزالة.

(٢) الخفّ: كناية عن الجمال.

(٣) الحافر: كناية عن الدوابّ.

(٤) البقل: نبات عشبيّ يؤكل.

(٥) القثاء: نبات يشبه الخيار.

(٦) الفوم: الثوم، الحمّص، أو سائر الحبوب.

(٧) القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح، والخوافي: التي إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت.

إن أكبرَ جريمةٍ يُجْرِمُها الإنسانُ إلى الإنسانيَّةِ أنْ يُساعدَ هؤلاءِ المتسوّلين بمالِه على الاستمرارِ في هذه الخطّةِ الدنيئةِ، فيُغْرِي كلَّ من شَعَرَ في نفسِه بالميلِ إلى البطالةِ، وإيثارِ الراحةِ بالسّعْيِ على آثارِهم، والاحترافِ بحرفتِهِمْ؛ فكأنّه قطعَ من جسمِ الإنسانيَّةِ عُضْوًا كاملًا، لو لم يقطَعْهُ لكان عُضْوًا كاملًا. فكأنّه هدمَ بعملِهِ هذا جميعَ المساعي الشريفةِ التي بذلَها الأنبياءُ والحكماءُ قرونًا عديدةً لإصْلاحِ المجتمعِ الإنسانيِّ، وتهذيبِ أخلاقِهِ، وتخليصِهِ من آفاتِ الجمودِ والخمولِ؛ فهل رأيتَ معرُوفًا أقبحَ من هذا وإحْسَانًا أسوأَ من هذا الإحسانِ؟!

تنظيم الإحسان:

ليسَتْ كميَّةُ المالِ التي يُنْفِقُها المُحسِنُون في سبيلِ الإحسانِ ممّا يُسْتَهَانُ به، فلو قالَ قائلٌ: إنّها تبلغُ في مصرَ وحدَها كلَّ عامٍ ملوينًا من الذّهبِ، لَمَا أخْطَأ التقديرَ

سألتُ رجُلًا من وجوهِ الريفيّينَ المعروفين بالبرّ والإحسانِ عن كمّيّةِ ما يُنْفِقُه كلَّ عامٍ في هذا السبيلِ، فأطْلَعَنِي على جريدةِ حسابِهِ، فرأيتُها هكذا:

جنيه	
١٠	ولائمُ لمشايخِ الطرقِ.
٦٠	ليالٍ في موالدِ البيومي والعفيفي والدشطوطي.
٧٢	مرتّباتٌ قراءةِ القرآنِ والدلائلِ والصلواتِ في مسجدِه ومنزله.
٣٠	هباتٌ لجماعةِ الطّوافين في البلاد الذين يستجدُون باسْمِ المجدِ القديمِ والشرفِ الدائرِ.
١٨	صدقاتٌ للمتسوّلين على تقديرِ خمسةِ قروش يوميًّا تقريبًا.
١٠	توضعُ في صناديقِ الأضرحَةِ.
٤٠	ثمنُ خبزٍ ولحمٍ وملابسَ توزّع في المواسمِ الدّينيَّةِ
٢٤٠	المجموع.

فهذه أربعون ومائتا جنيه يُنْفِقُها في سبيلِ الإحسانِ رجلٌ واحدٌ من متوسِّطي الثروةِ في عامٍ واحدٍ. وفي مصرَ مئاتٌ مثلُهُ وعشراتٌ يزيدون عليه وآلافٌ يقلّون عنه، فلا غرابةَ في أنْ يُقدَّرَ هذا النوعُ من الإحسانِ بمليونِ جنيه، يُنْفِقُه مِنفِقُوه على غيرِ شيء سوى إغراءِ الكسلانِ بكسلِه، وحَمْلِ العاملِ على تَرْكِ عَمَلِه. وفي اعتقادِي لو أنّ هذا المقدارَ، حلّ من الإحسانِ محلَّهُ، وأصابَ منه موضِعَهُ، وأنفقَ في سُبُلِ الخَيْرِ النافعةِ، ووجوهِ البرّ الحقيقيَّةِ، لارْتَقَى بالأمَّةِ المصريّةِ إلى ذُرْوَةِ الكمالِ، ولكانَ له الأثرُ الجليلُ في وصولِها إلى ما تتطلَّعُ إليه من هناءِ العيشِ، وسعادةِ الحياةِ.

لذلك أقْتَرِحُ في تنظيمِ الإحسانِ اقتراحًا نافعًا، وأدعُو الكاتبين الذين لا مصلحةَ لهم في إثارة الخواطرِ، وتهييجِ النفوسِ، وضربِ الناسِ بعضِهِمْ ببعضٍ، أن يُساعِدُوني بأقلامِهِمْ على تحقيقِ ما أتمنّاه في هذا المقترحِ المفيدِ.

أقترحُ أن يقُومَ جماعةٌ من سَرَاةِ[١] الأمَّة ووجوهِها، وأصحابِ الرأيِ فيها بتأليفِ مجتمعٍ في القاهرة يسمّى «مجتمعَ الإحسانِ»، ويكونُ له في كلِّ مدينةٍ من مدائنِ الأقاليمِ فَرْعٌ تابعٌ له.

أمّا أعمالُه التي أحبُّ أن يقومَ بها بالاتّحاد مع فروعِهِ، فهي ثلاثة:

أ- استخدامُ فريقٍ من مهَرَةِ الكتابِ، وفصحاءِ الخطباءِ، يقومُونَ بتعليم أفرادِ الأمَّةِ بكلِّ واسطةٍ من وسائلِ النّشرِ، وبكلِّ وسيلةٍ من وسائِلِ التأثيرِ معنَى الإحسانِ، وما هو الغرَضُ منه، وما هي أفضلُ وجوهِه، وأيّ أنواعِه أجمعُ لخَيْرَي الدنيَا والآخرةِ.

ب- بذلُ الجهدِ في حَمْلِ الناسِ على اعتبارِ مجتمعِ الإحسانِ هذا بيتَ مالٍ لهم، أو وكالةً عامةً عنهم، تتولّى جَمْعَ الصدقاتِ منهم وتوزيعَها على مستحقّيها. وحسبُها أن تأخذَ من كلِّ فرد في عام مجموعَ ما يحسنُ به عادةً في ذلك العام، فلا يكونُ بعد ذلكَ مأخوذًا بشيءٍ من الإحسانِ أمَامَ ربِّهِ، وأمامَ أمّتِه أكثرَ ممّا قدّمَهُ لهذا المجتمعِ.

ج- إنفاقُ ما يجتمِعُ من المالِ على تربيةِ اليتامَى الذين لا كاسبَ لهم، والقيامِ بأوَدِ[٢] العاجزِينَ عن الكسبِ، وتفقّدِ شؤونِ الذين نكبَهُمُ الدهرُ، وتنكّرَ لهم بعد العزّةِ والنعمةِ، وصيانةِ ماءِ وجوهِهِمْ أن تُراقَ على ترابِ الأعتابِ، والإنفاقِ على تعليمِ من يُتَوَسَّمُ فيهم الذكاءُ والفطنةُ، ويرجى أن تنتفعَ بهم الأمةُ في مستقبلِها من أبناءِ الفقراءِ، إلى أمثالِ هذه الأعمالِ الخيريّةِ الشريفةِ التي لا يتحقّقُ الإحسانُ بدونها، ولا ينصرفُ معناهُ إلّا إليها.

أنا أعتقدُ اعتِقَادًا لا رَيْبَ فيه أنّ مَنْ يخطُو الخطوةَ الأولى في سبيلِ هذا العملِ الجليلِ، ومن يضعُ الحجرَ الأول في بناءِ مجتمعِ الإنسانِ، هو أفضلُ عاملٍ في الوجودِ وأشرفُ إنسانٍ.

❋ ❋ ❋

أدب المناظرة

أنا لا أقولُ إلّا ما أعتقِدُ، ولا أعْتَقِدُ إلّا ما أسمَعُ صَدَاهُ من جَوَانبِ نَفْسِي؛ فربّما خالَفْتُ الناسَ في أشياءَ يعلَمُون منها غيرَ ما أعلمُ، ومعذِرَتي إليهم في ذلك أنّ الحقّ أولى بالمجاملةِ منهم، وأنّ في رأسِي عَقْلًا أجلّه عن أن أنزلَ به إلى أن يكونَ سيقةً[٣] للعقولِ، وريشةً في مهابّ الأغراضِ والأهواءِ.

فهلْ يجملُ بعد ذلك بأحدٍ من الناسِ أنْ يرمِيَني بجارِحَةٍ من القولِ، أو صاعقَةٍ من الغضبِ، لأنّي خالفْتُ رأيَهُ أو ذهبتُ غيرَ مذهبِهِ؟ أو أنْ يَرَى أنّ له مِنَ الحقّ في حَمْلِي على مذهبِه، أكثرَ ممّا يكونُ لي من الحقّ في حملِهِ على مَذْهَبِي؟

---

(١) السراة: الأشراف.
(٢) الأود: الاعوجاج، والتعب.
(٣) السيقة: ما يساق سوقًا.

لا بأسَ أنْ يؤيِّدَ الإنسانُ مذهبَه بالحجّة والبرهانِ، ولا بأسَ أن ينقضَ أدلّةَ خَصْمِه ويزيّفَها ممّا يعتقِدُ أنّه مبطلٌ لها، ولا ملامةَ عليه في أنْ يتذرَّعَ بكلّ ما يتعرفُ من الوسائلِ إلى نشرِ الحقيقةِ التي يعتَقِدُها إلّا وسيلةً واحدةً، لا أحِبُّها له، ولا أعتقِدُ أنّها تنفعُهُ، أو تُغْني عنه شيئًا، وهي وسيلةُ الشتم والسبابِ.

إنّ لإخلاصِ المتكلّم تأثيرًا عظيمًا في قوّةِ حجَّتِه، وحلولِ كلامِهِ المحلَّ الأعظمَ في القلوبِ والأفهام، والشاتمُ يعلمُ عنه الناسُ جميعًا أنّه غيرُ مختصّ فيما يقول: فعبثًا يحاولُ أن يحملَ الناسَ على رأيِهِ، أو يُقنِعَهُمْ بصِدْقِهِ، وإنْ كانَ أصدقَ الصادقِين.

أتَدْري لِمَ يَسُبُّ الإنسانُ مناظرَهُ؟ لأنّه جاهلٌ وعاجزٌ معًا. أمّا جهلُه، فلأنّه يذهبُ في وادٍ غيرِ وادي مناظرِهِ، وهو يظنُّ أنَّهُ في واديه، ولأنّه ينتقِلُ من موضوعِ المناظرةِ إلى البحثِ في شؤونِ المناظرِ، وأطوارِهِ، وصفاتِهِ، وطبائعِهِ، كأنّ كلَّ مبحثٍ عندَهُ مبحثٌ «فسيولوجي»؛ وأمّا عجزُهُ، فلأنَّه لو عرَفَ إلى مناظرِهِ سبيلًا غيرَ هذا السبيلِ، لسلَكَهُ، وكفَى نفسَهُ مؤونةَ ازدراءِ الناسِ إيّاه، وحمَاها الدخولَ في مأزِقٍ هو فيه من الخاسرين، محقًّا كان أمْ مبطِلًا.

لا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن يكونَ الغَرضُ من المناظرةِ شيئًا غيرَ خدمةِ الحقيقةِ، وتأييدِها، وأحسبُ أنْ لو سلكَ الكتّابُ هذا المسلكَ في مباحِثِهِمْ، لاتَّفقُوا على مسائلَ كثيرةٍ، هم لا يزالون مختلِفِين فيها حتّى اليومِ، وما اختلفُوا فيها إلّا لأنّهم فيما بينهم مختلِفُون.

يَسْمَعُ أحدُهُمُ الكلمةَ من صاحبِهِ، ويعتقِدُ أنّها كلمةُ حقٍّ لا ريبَ فيها، ولكنّه يبغضُه، فيُبغِضُ الحقَّ من أجلِهِ، فينهضُ للردِّ عليه بحججٍ واهِيَةٍ[1] وأساليبَ ضعيفةٍ، وإنْ كان هو قويًّا في ذاتِهِ؛ لأنّ القلمَ لا يَقْوَى، إلّا إذا استَمدّ قوَّتَه من القلبِ، فإذا جيءَ بالحججِ والبراهينِ، لجأ إلى المراوَغَةِ والمهاتَرَةِ، فيقولُ لمناظِرِهِ مثلًا: إنَّك جاهلٌ لا يُعْتَدُّ برأيِك، أو إنّك مضطربُ الرأيِ لا ثباتَ لك، تقولُ اليومَ غيرَ ما قلتَ بالأمس.

وهنالك يقولُ له الناسُ: رُوَيْدًا، لا تخلطْ في كلامِك، ولا تراوغْ في مناظرتِكَ، ولا شأنَ لك بعلمِ صاحبِك، أو جهلِه، فإنّه يقولُ شيئًا، فإنْ كان صحيحًا، فسلِّمْ به، أو باطلًا، فبيِّنْ لنا وَجْهَ بُطْلانِهِ. وهَبْهُ قولًا لا تعلمُ قائلَهُ، ولا شأنَ لك باضطرابِ صاحبِهِ وثباتِه، فربّما كان بالأمسِ على رأيٍ تبيَّنَ له خطوءه اليومَ، والمرءُ يخطِىءُ مرّة ويُصيبُ. فإذا ضاقَ بمناظرِهِ وبالناسِ ذَرْعًا، فرَّ إلى أضعفِ الوسائلِ، وأوهَنِها، فسبَّ مناظرَهُ وشتَمَهُ، وذهبَ في التمثيلِ به كلَّ مذهبٍ، فيسجّلُ على نفسِهِ الفِرارَ من تلك المعركةِ، والخذلانَ في ذلك الميدانِ.

على أنّ أكثرَ الناسِ متفقُون على ما يظنُّون أنَّهُمْ مختلِفُون فيه، فإن لكلِّ شيءٍ جِهَتَيْنِ: جِهَةَ مَدْحٍ، وجهةَ ذَمٍّ، فإمَّا أن تَتَساوَيا، أو تكبرَ إحداهما الأخرى، فإن كان الأوّلُ، فلا معنًى للاختلافِ، وإن كان الثاني، وَجَبَ على المختلفِين أن يعترفَ كلٌّ منهما لصاحبِهِ ببعضِ الحقِّ، لا أنْ يكُونَ كلٌّ منهُما من سلسلةِ الخلافِ في طرفِها الأخيرِ.

---

(١) واهية: ضعيفة.

كان يقعُ بين مَلِكٍ من الملوكِ ووزيرِه خلافٌ في مسائلَ كثيرةٍ، حتّى يشتدَّ النزاعُ بينهما، وحتّى لا يُسْلِسَ أحدُهما لصاحبِهِ في طرفٍ مما يُخالِفُهُ فيه؛ فحضرَ حوارَهما أحدُ الحكماءِ في إحْدَى الليالي وهما يتناظران في المرأة، يَغْلُوَ بها الملكُ إلى مصافِّ الملائِكَةِ، ويهبِطُ بها الوزيرُ إلى منزلةِ الشياطينِ، ويَسْرُدُ كلٌّ منهما على مذهَبِهِ أدِلَّتَهُ.

فلمّا علا صوتُهُما واشْتَدَّ لجاجُهُمَا، خرَجَ ذلك الحكيمُ، وغابَ عن المجلسِ ساعةً، ثم عادَ وبين أثوابِه لوحٌ على أحدِ وجهَيْهِ صورةُ فتاةٍ حسناءَ، وعلى الآخر صورةُ عجوزٍ شَوْهَاءَ، فقطَعَ عليهما حديثَهُما، وقال لهُما: أُحِبُّ أن أعْرِضَ عليكُما هذا الصورةَ، ليُعْطِيَني كلٌّ منكما رأيَهُ فيها.

ثمّ عَرَضَ على الملكِ صورةَ الفتاةِ الحسناءِ، فامتدَحها، ورَجَعَ إلى مكانِ الوزيرِ، وقد قلبَ اللوحَ خِلْسَةً من حَيْثُ لا يشعُرُ واحدٌ منهما بما يَفْعَلُ، وعرَضَ عليه صورةَ العجوزِ الشمطاءِ، فاستعاذَ باللهِ من رؤيَتِها، وأخذَ يذمُّها ذمًّا قبيحًا، فهاجَ غيظُ الملكِ على الوزيرِ، وأخذَ يَرْمِيهِ بالجَهْلِ، وفسادِ الذوقِ، وقد ظنّ أنّه يذمُّ الصورةَ التي رآها هو.

فلمّا عادا إلى مثلِ ما كانا عليه من الخلافِ الشديدِ، استَوْقَفَهُما الحكيمُ، وأرَاهما اللوحَ من جِهَتَيْهِ، فسكنَ ثائرُهما، وضحِكا ضحكًا كثيرًا. ثم قال لهما: هذا ما أنتما فيه منذُ الليلةِ، وما أحْضَرْتُ إليكما هذا اللوحَ إلا لأضربَهُ لكُما مَثَلًا لتَعْلَما أنّكُما متَّفِقَان في جميعِ ما كنتما تختلفان فيه لَو أنّكما تنظُرَان إلى المسائلِ التي تختَلِفان فيها من جِهَتَيْهِما، فشَكَرا له همّتَهُ، وأثْنَيا على فضلِهِ وحكمتِه، وانتفَعا بحِيلَتِهِ انتِفاعًا كثيرًا، فما كانا يختلفانِ بعد ذلك إلّا قليلًا.

❀ ❀ ❀

الإحسان في الزواج

وَرَدَ إليّ في البريدِ هذا الكتابُ بهذا التوقيع:

حضرةَ السيّدِ الفاضلِ:

ضمّني وجَمَاعةً من الأصدقاءِ مجلسٌ جرَى فيه الحديثُ عن صديقٍ لنا عرَفَ امرأةً من البَغَايا، فأخذَتْهُ الرأفةُ بها، فتزوَّجها، وكان القومُ ما بين مُسْتَحْسِنٍ لهذا العملِ، ومُسْتَهْجِنٍ له، وطالَتْ مدَّةُ الجَدَلِ بيننا ساعاتٍ، ولم يستطِعْ أحدُ الفريقَيْنِ أنْ يُقْنِعَ الآخرَ برأيِهِ. فاتّفقَ رأيُنا جميعًا على أن نكتُبَ إليك بذلك، علّك تُلقي على هذا الموضوعِ نَظْرَةً من نَظَرَاتك الصادِقَةِ، والسلامُ.

ف. س

أيّها السائلُ الكريمُ:

إنْ كان باعثَ الرجلِ على الزواجِ بهذه البغيِّ، شهوةٌ يُريدُ قضاءَها من امْرَأةٍ يَعْشَقُها، ولا يرَى سبيلًا إلى طولِ استِمْتَاعِهِ بها، والاستئثارِ بحظّهِ منها إلّا هذا السبيل، كما هو شأنُ الذين يتزوَّجون من البغايا، فقد أخْطَأَ خَطَأً جَمًّا، لأنّ من كان هذا شأنَه، لا يَعْنِيه إلّا أمرُ نفسِه، ولا

يشغَلُهُ من شؤونِ تلك المرأةِ إلّا الشأنُ الذي يرتبِطُ بشهوَتِهِ، ويتعلَّقُ بلذَّتِهِ.

وآيةُ ذلك أنّه لا ينظرُ بعد اتّصاله بها في إصلاحِها، ولا يحاوِلُ أنْ يَنْزَعَ من بين جنبَيْها مَلَكَةَ الفسادِ الراسخةَ في نفسِها، ولا يُداخِلُها مداخَلَةَ المؤدّبِ المهذّبِ الذي يصوِّرُ في نظرِها معيشةَ الفسادِ بصورةٍ تنفرُ منها، وتشمئزُّ لها، بل لا يَكْفِيها مَؤُونةَ العَيْشِ، ولا يرفّهُها، ولا يقلّبُها في الرغدِ والنعمةِ، إلّا إذا شَعَرَ بأنّ في قَلْبِهِ بقيّةً من الشَّغَفِ بها. فإذا أقْفَرَ قلبُهُ من حبّها، وعلِمَ أنّ فراقَها لا يهيجُ له وجدًا، ورجوعَها إلى عيشِها السالفِ، لا يُثيرُ منه غَيْرَةً، فارقَها فراقًا هادئًا مطمئنًا، لا يمازِجُه حزنٌ على فسادِها، ولا يخالِطُه أسَفٌ على سقُوطِها، و هنالك تعودُ تلك المسكينةُ إلى عُشِّها الذي طارَتْ منه، وقد أمْسَكَتْ بين جوانِحِها من الحقدِ والمَوْجِدَةِ على معيشَةِ الصلاحِ والاستقامةِ ما اللهُ عالمٌ به.

فالرَّجُلُ الذي يتزوَّجُ من البغي قضاءً لشهوَتِهِ، وإيثارًا للذَّتِهِ، لا يَنْفَعُها، ولا يُحْسِنُ إليها؛ لأنّه لا يهذّبُ نفسَها، ولا يَفِي لها بما عاهَدَها عليه من البقاءِ معها، والاستمرارِ على عِشْرَتِها، بل يُسيءُ إليها بسوءِ تصرُّفِهِ معها، فيُبَغِّضُ إليها الصّلاحَ، ويُحَبِّبُ إليها الفسادَ. وعندي أنّه في عملِه هذا فاسِقٌ لا متزوِّجٌ، لأنّه لو لم يرَ أنّ الزواجَ وسيلةٌ من وسائلِ الاستئثارِ والتوسّعِ في الاستمتاعِ ما سمّى مهرًا ولا عَقَدَ عقدًا.

فإنْ كان حقًّا ما تقولُ من أنّ باعِثَهُ إلى ذلك الرحمةُ والرأفةُ والحنانُ والشفقةُ، فقد أحسنَ كلَّ الإحسانِ، ولا أحسبُ أنّ بين أعمالِهِ الصالِحَةِ عَمَلًا هو أفضلُ عندَ اللهِ ذخْرًا، وأعظمُ أجْرًا، من هذا العملِ الصّالحِ.

العِرْضُ أثمنُ من الحياةِ؛ فإنْ كان من يمنَحُ الحياةَ فاقدَها شريفًا، فأشرفُ منه من يردُّ العِرْضَ الضالَّ إلى صاحبِهِ المفجوعِ فيه.

ليتَ الرجالَ يتّفقونَ جميعًا على أن يستَنْقِذُوا بهذه الوسيلةِ الشريفةِ كلَّ امرأةٍ ساقَها فقرُها، وعدَمُها، أو فَقْدُ عائلِها إلى البغاءِ، بل ليتَهُمْ يتّفِقُون على الزواجِ منهنّ قبل أن تضيقَ بهنّ حلقاتُ العيشِ، فيَسْقُطْنَ.

لَمَ لا يكونُ بابًا من أبوابِ الإحسانِ أنْ يَتَفَقّدَ المحسِنُون من الرجالِ الفقيراتِ من النساءِ، فيتزوّجُوا منهنّ، أو يزوّجوهُنّ من أولادِهِمْ، وأقربائِهِمْ، وإنْ لم يكنَّ من ذواتِ الجمالِ، أو ذواتِ النسبِ؛ لأنّه إحسانٌ، والإحسانُ لا يجمُلُ، إلّا إذا أصابَ موضِعَهُ مِنَ الشدّةِ، ومكانَه مِنَ الشقاءِ.

لو عَرَفَ المحسِنُون معنَى الإحسانِ، لعَرَفُوا أنّ إنفاقَ الأموالِ على بناءِ التكايا والزوايا، وتوزيعَهُ على المتسوّلين والمتكفّفين، ووقفَه على القارِئين والذاكِرين، لا يدَّخرُ لهم من المثوبةِ والأجرِ عند اللهِ، ما يدَّخِرُهُ لهم الإحسانُ إلى النساءِ بالعصمةِ من البغاءِ.

البغاءُ للبغيّ شقاءٌ ما جناهُ عليها إلّا رجلٌ، فجديرٌ به أن يَغْرَمَ ما أتلفَ، ويُصْلِحَ ما أفْسَد.

يُهاجِمُ الرجلُ المرأةَ، ويُعِدُّ لمُهاجَمَتِها ما شاءَ اللهُ أن يُعِدَّه من وَعْدٍ كاذبٍ، وقولٍ خالبٍ، وسِحْرٍ جاذبٍ، حتّى إذا خدَعَها عن نفسِها، وغلَبَها على أمرِها وسلَبَها ما تملِكُ يدُها، نَفَضَ يدَهُ منها، وفارَقَها فراقًا لا لقاءَ بينهما من بَعْدِهِ.

هناك تجلسُ في كسرِ بيتِها جِلْسَةَ الكئيبِ الحزينِ، مُسْبِلَةً دمعَها على خدّها، مُلْقِيَةً رأسَها على كفّها، تُقَلّي أنامِلُها الترابَ، لا تَدْري أينَ تذهبُ، ولا ماذا تصنَعُ، ولا كيف تعيشُ!

تطلبُ العيشَ من طريقِ الزواجِ، فلا تجدُ مَنْ يتزوَّجها، لأن الرجلَ يسمّيها ساقطةً؛ وتطلبُه من طريقِ العملِ، فلا تجِدُ ما تحسنُه منه، لأنّ الرجلَ أهملَ شأنَها، فلم يُعَلِّمْها من العلم ما تَسْتَعِينُ به على ضائقةِ العيشِ؛ وتطلبُه من طريقِ التسوّلِ، فلا تَجِدُه، لأنّ الرجلَ يؤثِرُ أن يمنَحَها القنطارَ حَرَامًا، على أن يَمْنَحها الدّرهمَ حَلالًا؛ فلا تَجِدُ لها بدًّا من أن تطلُبَه من طريق البغاءِ.

فها أنتَ ذا تَرى أنّ شقاءَ المرأةِ الساقطةِ روايةٌ من الرواياتِ المحزنةِ، وأنّ الرجلَ هو الذي يمثّلُ جميعَ أدوارِها، ويظهرُ في كلِّ فصلٍ من فصولِها، ومهما حالَ بيننا وبينه من ذلك الستارِ المُسْبَلِ، فإنَّا لا نزالُ نعتقِدُ أنّ الرجلَ غريمُ المرأةِ، وأنّ حقًّا عليه أن يؤدّيَ دينَه، ويغرمَ أرشَ(١) جنايتِهِ.

إنْ أبى الرجلُ أن يتزوّجَ المرأةَ بَغِيًّا فليَحُلْ بينها وبين البغاءِ، ولا سبيلَ له إلى ذلك، إلا إذا اعتبرَ الزواجَ بابًا من أبوابِ الإحسانِ، أي أنّه يتزوَّجها لها أكثرَ ممّا يتزوّجها لنفسِه، وأحقُّ النساءِ بالإحسانِ أولئك اللواتي سَلَبَهُنّ الله نعمةَ الجمالِ والمالِ، وحِلْيَةَ الحسبِ والنسبِ؛ فإنْ أبَى إلّا أن يتزوّجَ من المرأةِ السعيدةِ، فليَذْكُرْ أنّه هو الذي أخذَ الشقيّةَ من يدِها، وساقَها بنفسِه إلى مواطِنِ الشقاءِ، ورَمَاها بيدِه في هوَّةِ الفسقِ والبغاءِ.



لا همجية في الإسلام(٢)

أيُّها المسلِمُون: إن كنتمْ تعْتَقِدُون أنّ اللهَ سبحانَهُ وتعالَى لم يخلقِ المسيحيّين، إلّا ليَمُوتوا ذَبْحًا بالسيوفِ، وقَطْعًا بالرماحِ، وحَرْقًا بالنيرانِ، فقد أسأتُم بربّكم ظنًّا، وأنْكَرتُم عليه حكمتَهُ في أفعالِهِ، وتدبيرَهِ في شؤونِهِ وأعمالِهِ، وأنْزَلْتُمُوهُ منزِلَةَ العابثِ اللاعبِ الذي يبني البناءَ، ليهدِمَهُ، ويزرعُ الزرعَ، ليحرقَهُ، ويَخِيطُ الثوب، ليمزِّقَهُ، وينظِمُ العِقْدَ، ليبدِّدَهُ.

لم يزلِ الله سبحانَه وتعالى مذ كان الإنسانُ نطفةً في رحِمِ أمِّهِ، يَتَعَهَّدُهُ بعطفِهِ وحنانِهِ، ويَمُدّهُ

(١) الأرش: دية الجراحات.

(٢) كتبت سنة ١٩٠٩ عندما هاج المسلمون على المسيحيين في أطنة وقتلوهم ومثّلوا بهم.

برحمَتِهِ وإحسانِه، ويُرْسِلُ إليه في ذلك السجنِ المظلم الهواءَ من منافذِهِ، والغذاءَ من مجارِيه، ويذودُ عنه آفاتِ الحياةِ وغوائِلَها: نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، فجنينًا، فبشَرًا سَويًّا.

إنَّ إلهًا هذا شأنُه مع عبدِه، وهذه رحمتُه به وإحسانُه إليه، محالٌ عليه أن يأمرَ بسلبِه الروحَ التي وهبَهُ إيَّاها، أو يَرْضَى بسَفْكِ دمِهِ الذي أَمَدَّهُ به ليجريَ في شرايينِهِ وعروقِه، لا ليَسِيلَ بين تلالِ الرمالِ، وفوق شعافِ[1] الجبال.

في أيّ كتابٍ من كتبِ اللهِ، وفي أيِّ سنّةٍ من سُنَنِ أنبيائِهِ ورسُلِهِ، قرأتُمْ جَوازَ أن يَعْمَدَ الرجلُ إلى الرجلِ الآمنِ في سَرْبِهِ، والقابعِ في كسرِ بيتِهِ، فيَنْزَعَ نفسَهُ من بين جنبَيْهِ، ويفجعَ فيه أهلَهُ وقومَه، لأنّه لا يدِينُ بدينِه، ولا يذهبُ مذهبَه في عقائدِهِ.

لو جازَ لكلِّ إنسانٍ أنْ يقتُلَ كلَّ مَنْ يُخالِفُه في رأيِهِ ومذهَبِه، لأقْفَرَتِ البلادُ مِنْ ساكِنِيها، وأصبَحَ ظهرُ الأرضِ أعْرَى من سراةِ أديم.

إنّ وجودَ الاختلافِ بين الناسِ في المذاهبِ والأديانِ والطبائعِ والغرائزِ سنَّةٌ من سُنَنِ الكَوْنِ، لا يُمْكِنُ تحويلُها وتبديلُها؛ حتّى لو لَم يَبْقَ على ظهرِ الأرضِ إلّا رجلٌ واحدٌ، لجَرّدَ من نفسِه رجلًا آخرَ، يخاصِمُه، وينازِعُه «ولَو شاءَ رَبُّك لجَعَلَ الناسَ أمَّةً واحدةً».

إن الحياةَ في هذا العالمِ كالحرارةِ، لا تنتجُ إلّا من التّحاكِّ بين جسمَينِ مختلفَيْنِ، فمحاولةُ توحيدِ المذاهبِ والأديانِ محاولةُ القضاءِ على هذا العالمِ، وسلبِهِ روحَهُ ونظامَهُ.

أيّها المسلِمُون: ليس ما كان يَجْري في صدرِ الإسلامِ من محاربةِ المسلمِينَ المسيحيّين كان مُرادًا به التشفّي، والانتقامُ منهم، أو القضاءُ عليهم، وإنّما كان لحمايةِ الدعوةِ الإسلاميّةِ أن يعترضَها في طريقِها معترضٌ أو يحولَ بينها وبين انتشارِها في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها حائلٌ، أي أنّ القتالَ كان ذَوْدًا ودِفاعًا، لا تشفّيًا وانتقامًا.

وآيةُ ذلك أنّ السريّةَ من الجيشِ ما كانتْ تَخْطُو خطوةً واحدةً في سبيلِها الذي تذهبُ فيه، حتّى يصلَ إليها أمرُ الخليفةِ القائمِ أن لا تزعجَ الرهبانَ في أدْيِرَتِهِمْ، والقساوسةَ في صوامِعِهِمْ، وأن لا تحاربَ إلّا من يقاوِمُها، ولا تقاتلَ إلّا من يقفُ في سبيلِها. ولقد كان أحْرَى أنْ تَسْفِكَ دماءَ رؤساءِ الدّينِ المسيحيّ، وتسلُبَ أرواحَهُمْ لو أنّ غرضَ المسلمين من قتالِ المسيحيّين كان الانتقامَ منهم، والقضاءَ عليهم.

لو أنّكُمْ قَضَيْتُمْ على كلّ مَنْ يَتَدَيَّنُ بدِينٍ غيرِ دينِكُمْ حتّى أصْبَحَتْ رقعةُ الأرضِ خالصةً لكم، لانْقَسَمْتُمْ على أنفسِكُمْ مذاهبَ وشِيَعًا، ولتقاتَلْتُمْ على مذهبِكم تقاتُلَ أربابِ الأديانِ على أديانِهِمْ، حتّى لا يبقَى على وجهِ الأرضِ مذهبٌ ولا متمذهبٌ.

أيُّها المسلمُون: ما جاءَ الإسلامُ، إلّا ليَقْضِيَ على مثلِ هذه الهمَجيّةِ والوحْشِيّةِ التي تَزْعَمُون أنّها الإسلامُ.

---

(١) الشعاف: ج الشعفة، وهي أعلى الشيء.

ما جاءَ الإسلامُ، إلّا ليَسْتَلّ من القلوبِ أضغانَها وأحقادَها، ثم يَمْلأَها بعد ذلك حِكْمَةً ورَحْمَةً، فيعيشَ الناسُ في سعادةٍ وهناءٍ. وما هذه القطراتُ من الدماءِ التي أراقَها في هذا السبيلِ إلّا بمثابةِ العملِ الجراحيّ الذي يتذرَّعُ به الطبيبُ إلى شفاءِ المريضِ.

عَذَرْتُكم لو أنّ هؤلاءِ الذين تُريقُون دماءَهُمْ، كانوا ظالِمِينَ لكُمْ في شأنٍ من شؤونِ حَياتِكُمْ، أو ذاهِبِينَ في مُعَاشَرَتِكُمْ، والكونِ معكم مذاهبَ سوءٍ تخافُون مغبَّتَها، وتخشَوْنَ عاقِبَتَها، أمّا والقومُ في ظِلالِكُم والكونِ تحت أجنِحَتِكُم، أضعفُ من أن يمدُّوا إليكم يدَ سوءٍ، أو يَبْتَدِرُونكُمْ ببادِرَةِ شرٍّ، فلا عُذْرَ لكُمْ.

عَذَرْتُكُمْ بعضَ العذرِ، لو لم تَقْتُلُوا الأطفالَ الذين لا يسألُهُمُ اللهُ عن دينٍ، ولا مذهبٍ قبل أنْ يبلُغُوا سنّ الحُلُمِ، والنساءَ الضعيفاتِ اللواتي لا يُحْسِنَّ في الحياة أخذًا ولا ردًّا، والشيوخَ الهالِكِين الزاحِفِينَ وحدَهُمْ إلى القبورِ قبل أن تزحَفُوا إليهم، وتتعجَّلُوا قضاءَ اللهِ فيهم.

أمّا وقد أخَذْتُمُ البريءَ بجريرةِ المذنبِ، فأنتُمْ مجرِمُون، لا مجاهِدُون، وسفّاكُون، لا محارِبُون.

من أيّ صخرةٍ من الصخورِ، أو هضبةٍ من الهضباتِ، نحتُّمْ هذه القلوبَ التي تنطوي عليها جوانِحكُمْ والتي لا تروعُها أنّاتُ الثكالى[1]، ولا تحرّكها رنّاتُ الأيامَى[2]؟

من أيّ نوعٍ من أنواعِ الأحجارِ صِيغَتْ هذه العيونُ التي تستطِيعُون أنْ تَرَوا بها منظرَ الطفلِ الصغيرِ، والنارُ تأكلُ أطرافَهُ، وتتَمَشّى في أحشائِه على مرأى ومسمَعٍ من أمّهِ، وأمُّهُ عاجزةٌ عن معونَتِهِ، لأنّ النارَ لم تترُكْ لها يَدًا تحرّكُها، و لا قدَمًا تَمْشِي عليها؟

لا أستطيعُ أن أهنّئَكُم بهذا الظفرِ والانتصارِ؛ لأنّي أعتقِدُ أن قتلَ الضعفاءِ جُبْنٌ ومعجزةٌ، وأنّ سَفْكَ الدماءِ بغيرِ ذنبٍ ولا جريرةٍ وحشيّةٌ أحرَى أن يُعزّى فيها صاحبُها، لا أنْ يُهَنَّأَ بها.

أيّها المسلمُونَ: اقتلُوا المسيحيّين ما شئتُم وشاءَتْ لكم شَرَاسَتُكُمْ ووحشيَّتُكُم، ولكنّ حذارِ أن تذكُروا اسمَ اللهِ على هذه الذبائحِ البشريَّةِ فاللهُ سبحانَه وتعالَى أجلُّ من أن يأمرَ بقتلِ الأبرياءِ، أو يَرْضَى باستِعْطافِ الضعفاءِ، فهو أحكمُ الحاكمِين، وأرحمُ الراحِمِينَ.

❋ ❋ ❋

البخيل

سألَني سائلٌ: ماذا يَسْتَفيدُ الإنسانُ حتّى من بخلِهِ على نفسِهِ؟ وأيُّ غرضٍ يَرْمي إليه من ذلك؟ فأجَبْتُهُ بهذا الجَوابِ:

البخلُ إحدَى الملَكَاتِ النفسيّةِ، والملكةُ صفةٌ راسخةٌ في النفسِ، تصدُرُ عنها آثارُها عفوًا

(١) الثكالى: ج الثكلى، وهي التي فقدت ولدها. (٢) الأيامى: ج الأيِم، وهي التي لا زوج لها.

بدونِ رويّةٍ، ولا اختيارٍ، فكمَا لا يُسألُ المسرفُ عن سببِ إسرافِهِ، والغاضبُ عن غايتهِ من غضبِهِ، والحاسدُ عن غرضِهِ من حسدِهِ، كذلك لا يُسألُ البخيلُ عمّا يستفيدُهُ من بخلِهِ وحِرْصِه.

فكثيرًا ما تعرضُ لأربابِ هذه الملكَاتِ عوارضُ تنزعُ بهم إلى الرغبةِ عن التخلّي عنها حينًا، فلا يجدُون إلى ذلك سبيلًا، لمكانِ تلك الملكاتِ من نفوسِهِمْ، ونزولِها منها منزلةً لا تزعجُها الرغباتُ، ولا تزعزعُها الإراداتُ.

وربّما عرضَ للبخيلِ ما يدفَعُهُ إلى بَذْلِ شيءٍ من مالِه، فإذا وضعَ يدَهُ في كيسِهِ، وحاولَ القبضَ على شيءٍ ممّا فيه، أحسّ كأنّ تيّارًا كهربائيًّا، قد سرَى من نفسِه إلى يدِه، فتَشَنَّجَتْ أعصابُها، وتَصَلَّبَتْ أناملُها، وأعْيتْ على الالتواءِ والانثناءِ، فأخرجَها صُفْرًا كما أدخلَها، وبودِّه أن لا يفعلَ، لولا أنّ للغريزةِ قوّةً فوقَ قوّةِ الإرادةِ، وسلطانًا تَخْضَعُ له الرغباتُ، وتنقادُ إليه العقولُ، إلّا إذا كان وراءَها وازعٌ من القانونِ يَزعُها؛ فإنّه يكسرُ شرّتها أحْيَانًا، وإن لم ينتزِعْها انتزاعًا.

ويُحكى أنّ شحيحًا تحرّكَتْ في قلبِهِ يومًا الشفقةُ على ابنتِه الجائعةِ العاريةِ، فأرادَ نفسَهُ على أن يَبْذِلَ لها شيئًا من مالِهِ، فتأبَّتْ عليه، فأذنَ لوكيلِهِ أن يختلِس لها من ماله ما يسدُّ خَلّتَهَا[1]، من حيث لا يُعْلِمُهُ بذلك، ولا يَدَعُهُ ينتبِهُ لشيءٍ منه، علمًا بأنّه لا يستطيعُ أن يكونَ كما يُرِيدُ.

فالوجهُ في السؤالِ أنْ يُقالَ: ما هي الأسبابُ التي غَرَسَتْ ملكةَ البخلِ في نفسِ البخيلِ؟ فيكونُ الجوابُ عن ذلك أنّ الأسبابَ تختلفُ باختلافِ الأشخاصِ، وأطوارِهِمْ، وأخلاقِهِمْ، وتربيَتِهِمْ، ونحن نذكُرُ أهمَّ تلك الأسبابِ من حيث ذاتُها بقَطْعِ النظرِ عن افتراقِ ما يفترقُ منها، واجتماعِ ما يجتمِعُ.

الأوّل - الوراثةُ: وهي إن كانتْ سببًا ضعيفًا لما يعرضُ للأخلاقِ الموروثة أحيانًا من التغيّرِ والانقلابِ بمعاشرةِ المتّصفِين بأضدادِها، والتأثّرِ بمخالطَتِهِمْ، إلّا أنّها كثيرًا ما تنمُو، وتَتَجَسَّمُ، إذا غفلتْ، ولم يعترِضْها ما يسدُّ سبيلَها، ويقفُ في طريقِ نَمائِها.

الثاني - التربية: إذا نَشَأَ الطفلُ بين أهلِ أشحّاء، ولم يكُنْ في فطرَتِهِ ما يقاومُ سلطانَ التربيةِ على نفسِه، أخذَ أخْذَهُمْ في الحِرْصِ، وتخلّقَ فيه بأخلاقِهِمْ كما يتخلّقُ بها في العقائدِ والعاداتِ من حيث لا يفكّرُ في اسْتِحسَانٍ، أوِ اسْتِهْجَانٍ، كأنّما هي عَدْوَى الأمراضِ التي تَسْرِي إلى الإنسانِ من حيث لا يَدْرِي بها ولا يَشْعُرُ بسرَيَانِها؛ و يُحْكَى أنّ رَجُلًا دَخَلَ مَنْزِلًا يُعْرَفُ أهْلُهُ بالشحّ والحرصِ، فرأى طفلًا صغيرًا في يدِه ليمونَةً، فطلبَ إليه أن يُعْطِيَهُ إيّاها، فأجابَهُ الطفلُ «إنّ يدَكَ لا تَسَعُهَا»!

الثالث - سوءُ الظنّ بالله: ذلك أنّ المتديّنَ إذا أخَذَتْ عقيدَةُ القضاءِ والقَدَرِ من نفسِه مأخَذَها، رَسَخَ في قلبِهِ الإيمانُ بأنّ للهِ سبحانهُ وتعالى عَيْنًا ساهِرَةً على عبادِهِ الضعفاءِ، فهو

(١) الخلّة: الحاجة.

أرحَمُ من أن يغفلَ شأنَهُم، ويكِلَهم إلى أنفسِهِمْ، ويسلّمَهُمْ لصروفِ الليالي وعادياتِ الأيام، فلا يلجُّ به الحرصُ على الجمعِ، ولا يُزْعِجُهُ الخوفُ من البذلُ. وعلى العكسِ منه ضعيفُ الإيمانِ، ضعيفُ الثقةِ بواهبِ الأرزاقِ ومقسّم الحظوظِ والجدودِ، فهو لسوءِ ظنّه لا يزالُ الخوفُ من الفقرِ نصبَ عينَيْهِ، حتى يصيرَ البخلُ ملَكَةً راسِخَةً فيه.

الرابع - النكبات: كثيرًا ما تحلُّ بالإنسان نكباتٌ تصهَرُ قلبَهُ، وتزعِجُ غريزَتَهُ من مستقرِّها؛ ومن ذلك النكباتُ التي يكونُ مرجِعُها قلّةَ المالِ، كأن يقعَ الرجلُ في خصومَةٍ يرَى أنّه لولا ضيقُ ذاتِ يدِهِ، لَمَا وَقَعَ في مثلِها، فكلّما تمثّلَتْ له نكبَةٌ، لجّ به الحرصُ، وأغْرَقَ في المَنْعِ، حتّى يصيرَ ذلك غريزةً فيه، وخُلُقًا ثابتًا له؛ ومن ذلك جديدُ النعمةِ الذي ذاقَ مرارةَ الفَقْرِ حقْبَةً من الزمانِ، وكابدَ منه ما كابدَ من الآلام والأوجاعِ، فإنّه مهما حَسُنَتْ حالُه، وانْتَعَشَتْ نفسُهُ، وفاضَتْ خزائِنُهُ بالفضّةِ وبالذهبِ، لا تذهبُ من فمه تلك المرارةُ، ولا تضيعُ من ذاكرتِهِ آلامُها، فلا يزالُ يتملَّكُ قلبَهُ وسواسٌ مقلقٌ يُخيِّلُ إليه ما لا يُتخيّلُ، ويُريه ما لا يُرى، كمَنْ تمثّل له خيالُ الشيطانِ مرّةً في أبشعِ صورةٍ، وأفظعِ شكلٍ، فهالَهُ منظرُهُ، وذهبَ الخوفُ منه برُشْدِهِ، فلا يزالُ يراهُ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، وفي حالَتَيْ الأمنِ والخوفِ والوحشةِ والأنسِ.

الخامس - اللؤم: فإنّ النفسَ إذا خبثتْ طينَتُها ولَؤُمَ طَبْعُها، كان من أخصّ صفاتِها الحقدُ على الوجودِ بأجمعِهِ، وبُغْضُ الخَيْرِ للناسِ قاطِبَةً، فكيفَ يمنَحُهُمْ من ذاتِ يدِهِ ما يزَيدُهُ ألَمًا على ألم، وحسرةً فوق حسرةٍ، وهو لوِ اسْتَطَاعَ أن يَمْنَعَ عَنْهُمْ سارِيةَ السّماءِ، ويعترضَ دونهم نابِتَةَ الأرضِ لفَعَلَ.

السادس - سقوط الهمّة: إذا نشأ الإنسانُ عاليَ الهمّةِ، طَمُوحًا إلى المعالي، محبًّا للذِّكْرِ الحسنِ والثناءِ الجميلِ، سَهُلَ عليه أن يبذلَ في سبيلِ ذلك كلَّ ما يستطِيعُ بَذْلَهُ من ذاتِ يدِهِ، أو ذاتِ نفسِهِ، وحبُّ المَجْدِ، أسالَ الذهبَ من خزائِنِ الأغنياء، وصيَّرَ نفوسَ الشجعانِ نَهْبًا مقسّمًا بين شفرَاتِ السُّيُوفِ، وأسنّةِ الرماحِ، طلبًا لسعادة الحياةِ بالذّكرِ، وسعادةِ المماتِ بالخلود.

فمَنَ لساقطِ الهمّةِ ضعيفِ النفسِ بدافعٍ يدفعُهُ إلى بذلِ المال على مكانَتِهِ الراسِخَةِ في قلبِهِ، وامتزاجِ حبّه بلحمِهِ ودَمِهِ، أيَدْفَعُهُ حبُّ الثّناءِ، وهو لا يَشْعُرُ بلذَّتِهِ؟ أو خوفُ المذمَّةِ، وهو لا يتألَّمُ منها، ولا يحسُّ بمراراتها؟ أم سعادةُ الحياةِ وسعادةُ المماتِ، وهو لا يفهمُ للسعادةِ معنًى غيرَ ما فهِمَهُ الزبرقان بن بدر حينما قنعَ على لسانِ الحطيئةِ من المكارمِ بلُقْمةٍ يَمْضغُها، وحلّةٍ يلبَسُها؟

السابع - فسادُ المجتمعِ الإنسانيّ: ذلك أنّ كثيرًا منَ الناسِ، قد بلغَ بهِمْ حبُّ المالِ، والتعبّدُ له أنْ صارُوا يعظّمُونَ صاحِبَهُ لا لفائدةٍ يرجُونَها، ولا لخيرٍ يطمَعُون فيه، بل لأنّه ذو مالٍ، وذو المالِ في نظَرِهِمْ أحقُّ الناسِ بالمحبّة والإكرامِ، والإجلالِ، والإعظامِ، وان لم

يحصُلُوا منه على طائلٍ. فلو أنّهم عَبَدُوا اللهَ سبحانَهُ وتعالى بهذا النوعِ من العبادةِ ساعةً واحدةً، لأصبَحُوا من عبادِهِ المقرّبين؛ فمَنْ ذا الذي لا يحبُّ من البخلاءِ أن ينالَ هذه المنزلةَ في نفوسِ هؤلاءِ المتملّقين، وليس بينه وبينها إلّا الحرصُ على ما في يدِه، وهو عملٌ يتكلّفُهُ ولا يتعمّلُ له، بل هو أشهَى الأشياءِ إليه، وأكثرُها ملاءمَةً لفِطْرَتِهِ، ليزدادَ شرَفًا وعزًّا، كلّما ازدادَ ثراءً ووَفْرًا.

ومن هنا قالَ أحدُ البخلاء لأولادِه: يا بنيّ، لَأَنْ يعلمَ الناسُ أنّ عند أحدِكم مائة ألْفِ درهم أعظمُ له في أعْيُنِهِم من أن يقسّمَها فيهم. وقالَ رجلٌ لآخر: يا بخيلُ؛ فقال له: لا أحَرَمَني اللهُ بركةَ هذا الاسمِ؛ فإنّي لا أكونُ بخيلًا إلّا إذا كنتُ غنيًا، فسمّ لي المالَ ولقّبْني بما تشاءُ.

هذه هي أهمُّ الأسبابِ التي تألّفتْ منها رذيلةُ البخلِ؛ فإن أغْفَلْنا النظرَ إليها، وسلّمنا للسائلِ صحّة سؤالِه عمّا يستفيدُهُ البخيلُ من بخلِه، حتّى على نفسِه، وفَرَضْنَا البخيلَ مختارًا فيما يفعلُ غيرَ مساقٍ إلى هذا الموردِ الوبيلِ بسائقِ الغريزةِ الفاسدةِ، كان منالُ النجمِ أقربَ من تطبيقِ حالِه هذه على قاعدةٍ من قواعدِ العقلِ؛ لأنّ اللهَ تعالى خَلَقَ الإنسانَ، وركّبَ فيه رغباتِ الشهواتِ مختلفةً، بعضُها نَفْسِيّ، والآخر جَسَدِيّ؛ فهو لا يزالُ يتطلّبُها ما لم يعجَزْ عنها.

فصاحبُ المالِ الكثيرِ الذي يقنَعُ بالشّمْلَةِ والمُضْغَةِ، والجُرْعَةِ والظُّلّةِ، ويحمِلُ في كلّ لحظةٍ أشدَّ الآلام من مقاومةِ نزواتِ نفسِهِ، ونزعاتِها إلى ميولِها ورغباتِها، لا يمكنُ أن يحمِلَ حاله على محمَلِ العجزِ، لأنّهُ قادِرٌ، ولا على الزّهدِ، لأنّه ما زَهِدَ فيما لا يَنْفعُ، فيزهَدَ فيما يَنْفَعُ؛ ولا على الخوفِ من الفقرِ، لأنّ عنده من المالِ ما يُفْنِي الأعمارَ، فهيهاتِ أن يفنِيَهُ عمرٌ واحدٌ! ولا على رغبةٍ في سعادةِ الذريّةِ، لأنّ محبَّةَ الأبِ لولَدِه، لا يُمْكِنُ أن تزيدَ على رغبَتِهِ في أنْ يراهُ شريكًا له في سعادتِهِ؛ فأمّا أن يشْقَى في حياته، ليسعدَ ولدُه بعد مماتِه، فما لا يقبَلُهُ العقلُ، ولا يَدْخلُ في دائرةٍ من دوائرِ الفَهْم.

فلم يَبْقَ لنا إلّا أن نتوسَّلَ إلى علماءِ النفسِ أن يأذَنُوا لنا بالتوسّع في تفسيرِ معنَى الجُنُونِ، حتّى لا يكُونَ مقصورًا على المعربِدِينَ والهاذِين، بل يكونُ شامِلًا للعابثِين الذي لا يَدْرُون ما يأخُذُونَ وما يدَعُون، و الذين يجلُبُون لأنفسِهِمْ بإرادتِهِمْ وباختيَارِهِمْ آلامًا نفسيَّة، هي أشدُّ ممّا يجلبُهُ المجانين على أنفسِهِمْ بمناطَحَةِ الجدرانِ ومطارَدَةِ الصبيانِ. كما نتوسَّلُ إلى علماءِ الشرائعِ أن يضَعُوا قانونًا لاستِخْراجِ المالِ من خزائِنِ المقتّرين، كما وضعُوا قانونًا لحِفْظِ المالِ في صناديقِ المبذّرِينَ؛ فإن تبذيرَ المالِ يضرُّ قومًا، وينفَعُ أقْوامًا، أمّا حَبْسُه فيضرُّ صاحِبَهُ، ويضرُّ معه الناسَ أجْمَعِين.

❃ ❃ ❃

البعوض والإنسان

جَلَسْتُ ليلةَ أمسِ إلى مِنضَدَتِي، وعلّقْتُ قلَمي بين أصابِعي، وأنشأتُ أفكِّرُ في الموضوعِ الذي يجمُلُ بي أنْ أكْتُبَ فيه، وتلكَ عادَتي التي يعرفُها عنّي كثيرٌ من خُلَطائِي وعُشَرائي: إنّني لا أميلُ إلى الكتابةِ في بياضِ النهارِ، ولا أحبُّ أن أَخُطَّ حرفًا على ما أُحِبُّ وأرْتَضِي، إلّا في ظلامِ الليلِ وهدوئِهِ.

ولا يظنُّ المولَعُون باكتِنَاهِ الحقائقِ واستِشْفَافِ الضمائرِ من إخوانِنا الفُضُولِيّين أنّني أُريدُ بذلك مراعاةَ النظيرِ بين سوادِ المدادِ وسوادِ الظلامِ، أو أنّني أترَقّبُ طلوعَ النجمِ، لأتَسَلَّقَ أشِعَّتَهُ إلى سماءِ الخيالِ، فكلُّ ذلك لم يكنْ. وليسَ في الناسِ من هو أدْرَى بدخِلَةِ أَمْرِي منّي. وكلُّ ما في المسألةِ أنّ هذه عادتي وتلك طرِيقَتِي، وكَفَى.

لم أكَدْ أفرغُ منَ التّفْكِيرِ في الموضوعِ، حتى شَعَرْتُ بطنِينِ البعوضِ في أذنيّ، ثمّ أحْسَسْتُ بلذَعَاتِه في يدي، فتفرّقَ من ذِهْنِي ما كانَ مجتمِعًا، وتجَمَّعَ من هَمّي ما كان متفرِّقًا، ولَمْ أرَ بدًّا من إلقاءِ القلمِ، وإعدادِ العدّةِ لمقاومَةِ هذا الزائرِ الثقيلِ.

طارَدْتُهُ بالمِذَبَّةِ[1]، فما أجْدَى ذلك نَفعًا لأنّه على الطَّيَرَانِ أقْوَى منّي على المطارَدَةِ، وفتَحْتُ النوافِذَ لأخرِجَ ما كان دَاخِلًا، فدَخَلَ ما كان خَارِجًا، وحاوَلْتُ قَتْلَهُ فوَجَدْتُهُ مُبَعْثَرًا، ولو كان مجتمِعًا في دائرةٍ واحدةٍ لهلَكَ بضربةٍ واحدةٍ، ولَمْ أرَ في حَيَاتي أمّةً ينفَعُها تفرُّقُها ويُؤذيها تجمّعها غيرَ أمّةِ البعوضِ؛ فما أضعفَ هذا الإنسانَ، وما أضلَّ عقلَهُ في اغترارِه بقوّتِهِ واعتدادِهِ بنفسِهِ، واعتقادِهِ أنّ في يدِه زِمامَ الكائناتِ يصرّفُها كيف يَشاءُ، ويسيّرُها كما يُرِيدُ! وأنّه لو أرادَ أن يذهبَ بنظامِ هذا الوجودِ، ويأتي له بنظامٍ جديدٍ لما كان بينه وبين ذلك، إلّا أن يرسِلَ أشعّةَ عقلِهِ دُفْعَةً واحدَةً، ويَشْحَذَ سَيْفَ ذكائِهِ، ويبْتَعِثَ عزيمَتَهُ، ويقتَدِحُ[2] فِكْرَتَهُ.

يزعمُ ذلك، وهو يعلمُ أنّه أضْعَفُ من أن يحتالَ لنفسِهِ في مدافعةِ أصْغَرِ الحيَوانِ جِسْمًا وَعقلًا، وأدْنَاهَا قيمَةً وشأنًا، بيدَ أنّه يعلمُ ذلك بلسانِهِ، وفي فَلَتَاتِ وَهْمِهِ. ولو علمَهُ عِلْمًا يتغَلْغَلُ في نفسِهِ، ويتمثَّلُ في سويداءِ قلبِهِ، لكَفْكَفَ من غُلَوائِهِ، وخفضَ من كبريائِهِ، وعَلِمَ عِلْمَ اليقينِ أنّ الإنسانَ العاقلَ، والحيوانَ الملهَمَ، والنباتَ النامي، والجمادَ، سواءٌ بين يدَي القوّةِ الإلهيَّةِ الكبرى التي لا يَنْفَعُ نَفْعَها حولٌ ولا قوّةٌ.

علمتُ أنّي عَيِيتُ بأمرِ هذا الحيوانَ، فلِذْتُ بجانبِ الصبرِ، والصبرُ - كما يعلمُ معشرُ الصابرين - حجّةُ العاجزِ، وحِيلَةُ الضعيفِ، وأيْسَرُ ما يستطيعُ أن يدفَع به دافعُ ملامةَ اللائمين، وفضولَ المتطفّلين. وقلتُ في نَفْسِي: لو كان البعوضُ يفهَمُ ما أقولُ، لَقَصَصْتُ عليه قِصَّتي،

(١) المذبّة: ما يُذبّ به الذباب ونحوه.

(٢) اقتدح الفكرة: أيقظها.

وشرحْتُ له عُذْرِي، وسألتُه أنْ يَمْنَحَني ساعةً واحدةً أقومُ فيها بكتابةِ رِسَالتِي هذه، ثمّ هو بعد ذلك في حلٍّ من جسمِي ودمِي، ينزلُ منهما حيثُ يشاءُ، ويمتَصُّ منهما ما يشاءُ، ولكنّه - ويا للأسف - لا يسمَعُ شِكَاتي، ولا يرحَمُ ضَرَاعَتِي، ولا يفهمُ قيمةَ المروءةِ، لأنّه ليس بإنسانٍ.

أحسبُ أنّ لذعاتِ البعوضِ قد أخذَتْ مأخَذَها من عقلي وفَهْمِي؛ وأنّي قد بدأتُ أهْذِي هذَيان المحموم؛ فمِنْ أينَ لي أنْ لو كان البعوضُ إنسانًا كان يسمَعُ شَكَاتي، ويكشفُ ظُلامَتي، أو أنّه يفهمُ معنَى الرحمةِ، ويعرفُ قيمةَ المروءةِ. ومتى كان الإنسانُ أحْسَنَ حالًا من البعوضِ، وأرحمَ منه قلبًا، وأشرفَ غايةً، فأتمنّى لو كانَ مكانَه؟ بل، ومن أيْنَ لي أن هذا الذي أحسبُه بعُوضًا ليس بإنسانٍ، قد تَقَمَّصَ جسمَ البعوضِ، وتمثَّلَ لي في صورتِهِ الضئيلةِ وجناحِهِ الرقيق؟ وأيُّ غرابةٍ في أنْ أتَخَيَّلَ ذلك ما دامَ الإنسانُ والبعوضُ سواءً في حبِّ الشرِّ، والمَيْلِ إلى الأذَى، وما دامتِ الصورةُ الجثمانيَّةُ لا قيمةَ لها في جانبِ الجواهرِ الذاتيَّةِ، والأجزاء المقومةِ للماهِيَّةِ؟

أيُّ قيمةٍ لما يمتصُّهُ البعوضُ من جسمِ الإنسانِ مجتمِعًا في جانبِ ما يمتَصُّهُ القاتلُ من جسمِ المقتولِ منفرِدًا؟

إن البعوضَ في امتصاصِه الدّمَ من الجسم أقلُّ من القاتلِ ضررًا، وأشرفُ غايةً، وأجملُ مَقْصدًا؛ لأنّه إنْ أذَى الجسمَ، فقد أبْقَى على الحياةِ؛ ولأنّه يطلُبُ عيشَهُ الذي يحيَا به، وهذا طريقُه الطبيعيُّ الذي لا يَعْرِفُ له طريقًا سواه، ولا يستطيعُ أن يرَى لنفسِه غيرَهُ، ولوِ استطاعَ لعافَتْ نفسُه أن يكونَ كالإنسانِ يتطوَّعُ للشرِّ ويتعبَّدُ بالضرّ.

إنّي وجدتُ بين الإنسانِ والبعوضِ شَبَهًا قريبًا في صفاتٍ كثيرةٍ أنا ذاكرٌ لك طرَفًا منها، وتَارِكٌ لِفِطْنتِكَ الباقي.

البعوضُ يمتَصُّ من الدمِ فوقَ ما يستطيعُ احتمالَهُ، فلا يزالُ يَشْربُ حتى يمتلىءَ فينفجرَ، فهو يطلبُ الحياةَ من طريقِ الموتِ، ويفتّشُ عن النجاةِ في مكامنِ الهلاكِ، وهو أشبَهُ شيءٍ بشاربِ الخمرِ: يتناوَلُ الكأسَ الأولى منها، لأنّه يَرَى فيها وجْهَ سُرُورِهِ، وصورةَ سعادَتِهِ، فتُطْمِعُه الأولى في الثانيةِ، والثانيةُ في الثالثةِ. ثمّ لا يزالُ يلحُّ بالشرابِ على نفسِه، حتى يتلفَها ويُودِيَ بها، من حيث يظنُّ أنّه يُنعِشُها، ويجلبُ إليها سرورَها وهناءَتها.

البعوضُ سيّءُ التصرّفِ في شؤونِ حياتِه؛ لأنّه لا يسقُطُ على الجسم، إلّا بعد أن يدلّ على نفسه بطنينِه وضوضائِه. فيأخُذُ الجالسُ منه حذَرَهُ، ويدفَعُه عن مطلبِه، أو يفتُكَ به قبلَ بلوغِه إليه، فمثَلُهُ في ذلك كمَثَلِ بعضِ الجَهَلةِ من أصحابِ المطالبِ السياسيَّةِ: يطلبُون المآربَ النافعةَ المفيدةَ لأنفسِهِمْ ولأمّتِهِمْ غيرَ أنَّهُمْ لا يكْتُمُونها، ولا يُحْسِنُون الاحتفاظَ بها في صُدُورِهِمْ، ولا يَبْتَغُونَ الوسيلةَ إليها إلّا بين الصراخِ والضجيجِ، ولا يُمْسِكُونَ بالحلقةِ الأولى من سِلْسِلَتِها، حتى يَمْلأوا الخافِقَيْنِ بذِكْرِها؛ ويُشْهِدُوا الملأَ الأعلَى والأدْنَى عليها، وهنالك

يُذرِكُ عدوُّهم مقْصِدَهُمْ، فيعدُّ له عدّتَهُ، ويتلَمَّسُ وجْهَ الحيلةِ في إفسادِهِ عليهم هادئًا ساكنًا من حيث لا يشعُرُونَ.

البعوضُ خفيفٌ في وطأتِهِ، ثقيلٌ في لَذْعَتِهِ، فهو كذلك الصاحبِ الذي يَسُرُّكَ منظَرُهُ، ويَسوءُك مخبَرُه! يلقَاكَ بابتسامةٍ هي العذبُ الزلالُ رِقّةً وصفاءً، والسحرُ الحلالُ جَمالًا وبهاءً، وبين جنبَيْهِ في مكانِ القلبِ صخرةٌ لا تنفذُها أشعّةُ الحبِّ، ولا يتسرَّبُ إليها سلسبيلُ الوفاء. يقولُ لك: إنّي أحبّكَ، ليغْلِبَك على قلبِكَ، ويملِكَ عليك نفسَك، فإنْ تمّ، له ما تمّ أرادَ سَلْبَكَ مالَك إنْ كنتَ من ذوي المالِ، وجاهَك إن كنت من ذوي الجاه؛ فإن لم تكُنْ هذا أو ذاك، أغراك بالسّيرِ في طريقٍ يُسْقِطُ مروءَتَك، ويَثْلِمُ شرَفَكَ، فإن فاتَهُ ما يُشْفي به داءَ بِطْنَتِهِ، لا يفوتُه ما يطفِئُ به نارَ حقدِهِ ومَوْجِدَتِهِ.

لا يزالُ البعوضُ ملحًّا في مهاجَمَتي، فلا طاقةَ لي بكتابةِ سطرٍ واحدٍ ممّا كتبتُ، والسلامُ.

❀ ❀ ❀

الجزع

يا صاحبَ النظراتِ:

لي صديقٌ سقَطَ في امتحانِ «البكالوريا» هذه السنةَ، فأثّرَ فيه ذلك السقوطُ تأثيرًا كبيرًا، فهو لا ينفكُّ باكيًا متألّمًا، حتّى أصْبَحْنا نخافُ عليه الجنونَ، وكلّما عزّيناهُ عن مصابهِ يقولُ: كيف أستطيعُ معاشَرَةَ إخْواني ومَعَارِفي؟ وكيف أستطيعُ مقابلةَ والدِي وأهْلِي؟ فهل لك أيّها السيّدُ، أن تعالِجَ نفسَهُ بنظرةٍ من نظراتِك، التي طالما عالَجْتَ بها قلوبَ المحزُونِين؟؟

حقوقي

لَيْسَتِ المسألةُ مسألةَ صديقِك وَحْدَه، بل مسألةَ الساقِطين أجمعين، فإنّ المرءَ لا يكادُ يتناوَلُ نَظَرُهُ منهم في هذه الأيامِ، إلّا وجُوهًا، قد نسجَ الحزنُ عليها غبرةً سوداءَ، وجفونًا تحارُ فيها مدامِعُها حَيْرَةَ الزئبقِ الرجراجِ، حتى لَيُخَيَّلَ إليك أنّ نازلةً من نوازِلِ القضاءِ، قد نزلَتْ بهم، فَزَلْزَلَتْ أقدامَهُمْ، أو فاجعةً من فواجعِ الدهرِ، قد دارَتْ عليهِمْ دائِرَتُها، فأثْكَلَتْهُم ذخائرَ نفوسِهِمْ، وجواهرَ عقولِهِمْ، وأقامَتْ بينَهُمْ وبينَ سعادةِ العيشِ وهناءَتِهِ سدًّا لا تنفذُهُ المعاولُ، ولا تنالُ من أيْدِهِ[1] الزلازلُ.

خَفِّضْ عليك قليلًا أيُّها الطالبُ، فالأمرُ أهْوَنُ ممّا تظنُّ، وأصغَرُ ممّا تقدرُ، واعْلَمْ وما أحسبُكَ إلّا عالمًا أنّك لم تسقطْ من قِمّةِ جَبَلٍ شامخٍ إلى سفحٍ متحجّرٍ، فتبكي على شظيّةٍ طارَتْ من شظايا رأسِك، ولم يَهْوِ بك القضاءُ إلى هوّةٍ عميقةٍ لا خلاصَ لك منها أبدَ الدهرِ.

(١) الأيد: القوّة.

إنَّك قد سعَيْتَ إلى غَرَضٍ، فإنْ كُنْتَ هيَّأتَ له أسبابَهُ، وأعدَدْتَ له عدّتَهُ، وبذَلْتَ له من ذاتِ نفسِك ما يبذلُ مثلَهُ الباذلون في مثلِه، فقدْ أعذرْتَ إلى اللهِ وإلى الناسِ وإلى نفسِك، فحَرِيٌّ بك أن لا تحزنَ على مصابٍ لم يكُنْ عمَلًا من أعمال يَدَيْكِ، و لا جنايةً من جناياتِ نفسِكَ عليك. وإن كنتَ قصّرتَ في تلمُّسِ أسْبَابِه، ومشَيْتَ في سبيلِه مِشْيةَ الظالعِ[1] المتقاعِسِ، فما حزنُك على فواتِ غرضٍ كان جديرًا بك أن تترقَّبَ فواتَه قبل وقتِ فواتِهِ؟ وما بكاؤُك على مصابٍ كان خيرًا لك أن تعلمَ وُقُوعَهُ قَبْلَ يوم وُقُوعِهِ؟

ما لك تبكي بكاء الواثقِ بمُوَاتاةِ الأيام، ومطاوَعَةِ الأقدارِ؟ وهلْ تستطيعُ أن تبرزَ لنا صورةَ العهدِ الذي أخَذْتَهُ على الدهرِ أن يكونَ لَك كما تُحِبُّ وتَشْتَهي؟ وعلى الفلكِ أن لا يدورُ إلّا بسَعْدِك، ولا يَجْرِي إلّا بجِدّك؟ وعلى القلمِ أن لا يكتبَ في لوحِهِ، إلّا ما دَلَلْتَهُ عليه، وأوحَيْتَ به إليه؟

لا تَجْعَلْ لليأسِ سبيلًا إلى نفسِك، فلعلَّ الأمْرَ يُعوّضُ عليك في غَدِك ما خَسِرْت في أمْسِكَ، وامْضِ لشأنِكَ ولا تلتفِتْ إلى ما وراءَك، فإنْ تمّ لك في عامِك المقبلِ من طلبتِك ما أرَدْتَ، فذاكَ، أو لا، فما فَقَدْتَ، إذ فَقَدْتَ إلّا ورقَةً كان كلُّ ما تستفيدُهُ منها أن تشتريَ بها قَيْدًا لرجلِكَ، وغِلًا لعُنُقِك، ثم ترتبِطُ في سجنٍ من سجونِ الحكومةِ بجانب رئيسٍ من الرؤساءِ المدلّين بأنفسِهِمْ، يسومُك من الذلِّ والخَسْفِ ما لا يحتَمِلهُ الأسراءُ في سجونِ الآسرين.

إنّ اعتدادَك بهذه الورقةِ هذا الاعتدادَ كلَّه، وإكبارَك إيّاها هذا الإكبارَ العظيمَ دليلٌ عل أنّك كنتَ تُريدُ أن تَجعَلَها مُنْتَهَى أمَلِكَ، وغايةَ همَّتِكَ، وأنّك لا ترَى بعدَها مزيدًا من الكمالِ لمستزيدٍ، فإن صدَقَتْ فِرَاسَتي فيك، فاعلمْ أنّ اللهَ قد خارَ لك[2] في هذا المصيرِ، وساقَ إليكَ من الخيرِ ما لا تعرفُ السبيلَ إليه، وأنّه ما خَيَّبَ رجاءَك في هذا الكمالِ الموهومِ، إلا لتطلبَ لنفسِك كمالًا معْلُومًا، وما صرفَ عنك هذه الشهادةَ المكتوبةَ في صفحاتِ الأوراقِ، إلّا لتَسْعَى وراءَ السعادةِ المكتوبةِ في صفحاتِ القلوبِ.

إن كنتَ تَبْكِي على الشرفِ، فبابُ الشرفِ مفتوحٌ بين يدَيْكَ، لا شأنَ للحكومةِ فيه، ولا حاجبَ لها عليه، وما هو إلّا أن تَجِدَ في التزيّدِ من العلمِ والمعرفةِ، واستكمالِ ما ينقصُكَ من الفضائلِ النفسيّةِ، فإذا أنتَ شريفٌ في نفسِك، وفي نفوسِ الخاصّةِ من الناسِ، وإذا أنتَ في منزلةٍ يحسُدُكَ عليها كثيرٌ من أربابِ الشهاداتِ والمناصبِ، ولا حيَّ اللهُ شَرَفًا يَحْيَا بورقةٍ ويموتُ بأخرى، ولا مَجْدًا يأتِي به سطرٌ، ويذهبُ به سطرٌ.

وإن كنتَ تَبْكِي على العَيْشِ، ففي أيّ كتابٍ من كتبِ اللهِ المنزّلةِ قَرَأْتَ أنّ أرزاقَه وَقْفٌ على

---

(١) الظالع: الأعرج، المائل.

(٢) خار لك في الأمر: جعل لك فيه خيرًا.

الموظَّفِين، وحبائسُ على المُسْتَخْدَمِين؟ وأنّه لا يأمرُ بصرْفِ درهمٍ واحدٍ من خزانَتِهِ إلّا إذا جاءَتْهُ سُفْتَجَةٌ[١] بتوقِيعِ أميرٍ، أو إشارةِ وزيرٍ؟

أيُّها الطالبُ:

قُلْ لأبيكَ، وأخيكَ، وأهلِكَ، وأصدقائِكَ، ومعارِفِكَ بلا خَجَلٍ ولا استحياءٍ: إنّ الذي وَهَبَني عقْلي لم يسلبْنِيهِ، وإنّ الذي صوَّرَ لي أعضائي لم يَحُلْ بيني وبين الذهابِ بها فيما خُلِقْتُ له، وإنّ الذي خَلَقَني سوف يُهديني، إنّه الرزاقُ ذو القوةِ المَتِينُ.

❁ ❁ ❁

النبوغ

من العَجْزِ أن يزدريَ المرءُ نفسَهُ، فلا يُقيمُ لها وَزْنًا، وأن يَنْظُرَ إلى من هو فوقَهُ من الناسِ نظرَ الحيوانِ الأعجم إلى الحيوانِ الناطقِ، وعِنْدِي أنّ مَنْ يخطىءُ في تقديرِ قيمتِه مستَغْلِيًا، خيرٌ مِمَّنْ يخطىءُ في تقديرِها متدلِّيًا، فإنّ الرجلَ إذا صَغُرَتْ نفسُه في عينِ نفسِه، يأبَى لها من أعمالِه وأطوارِه إلّا ما يشاكِلُ منزلَتَها عندَه؛ فتَراهُ صغيرًا في عِلْمِه، صغيرًا في أدبِه، صغيرًا في مروءَتِهِ وهمّتِهِ، صغيرًا في ميولِهِ وأهوائِهِ، صغيرًا في جميعِ شؤونِه وأعمالِه؛ فإن عظُمَتْ نفسُه، عظُمَ بجانِبِها كلُّ ما كان صغيرًا في جانبِ النفس الصغيرةِ.

ولقد سألَ أحَد الأئمّةِ العظماءِ ولدَهُ، وكان نَجِيبًا: أيَّ غايةٍ تطلبُ في حياتِك يا بنيّ؟ وأيَّ رجلٍ من عظماءِ الرجالِ تُحِبُّ أن تكونَ؟ فأجابَه: أحبُّ أن أكونَ مثلَك.

فقال: ويحَك يا بنيّ! لقد صَغُرَتْ نفسُك، وسقطَتْ هِمَّتُك، فلْتَبْكِ على عقلِكَ البوَاكي، لقد قدَّرتُ لنفسي، يا بنيّ، في مبدإِ نشأتي أن أكونَ كعليّ بن أبي طالب، فما زلتُ أجِدُّ وأكدَحُ حتى بلَغتُ المنزلةَ التي تَراها، وبيني وبين عليّ ما تعلمُ، من الشأوِ[٢] البعيدِ والمدَى الشاسعِ، فهل يسرُّكَ، وقد طلبتَ منزِلَتي أن يكونَ ما بينك وبيني من المدَى مثلَ ما بيني وبين عليّ؟

كثيرًا ما يُخْطِىءُ الناسُ في التفريقِ بين التواضعِ، وصِغَرِ النفس؛ وبين الكِبَرِ، وعلوِّ الهِمَّةِ، فيحسبُون المتذلِّلَ المتلمّق الدنيءَ متواضعًا، ويسمّونَ الرجلَ إذا ترفَّعَ بنفسِهِ عن الدنايا، وعَرَفَ حقيقةَ منزِلَتِهِ من المجتمعِ الإنسانيّ متكبّرًا؛ وما التواضعُ إلّا الأدبُ، ولا الكِبْرُ إلّا سوءُ الأدبِ.

فالرجلُ الذي يَلْقَاك مبتَسِمًا متهلِّلا، ويُقْبِلُ عليك بوَجْهِهِ، ويُصْغي إليك، إذا حدَّثْتَه ويزورُك

---

(١) السفتجة: هي أن تعطي رجلًا مالًا فيعطيك وثيقة تستردُّ بها مالك من شريك أو عميل في بلد آخر أنت مسافر إليه.

(٢) الشأو: الغاية، والهمّة.

مهنّئًا، ومعزّيًا، ليس صغيرَ النفس كما يظنّون، بل هو عظيمُها، لأنّه وجدَ التواضعَ أَلْيَقَ بعظمَةِ نفسِهِ، فتواضَعَ، والأدبَ أرفعَ لشأنِهِ، فتأدّبَ.

فَتًى كانَ عَذْبَ الرّوحِ لا مِنْ غَضَاضَةٍ   ولـكـنّ كِـبْـرًا أنْ يُـقَـالَ بِـهِ كِـبْـرُ

فإذا بلغَ الذلُّ بالرجلِ ذي الفضلِ أن ينكّسَ رأسَهُ للكُبَراءِ، ويتَهَافَتَ على أيدِيهِمْ، وأقدامِهِمْ لَثْمًا، وتَقْبِيلًا، ويبتذلَ بمخالطةِ السوقةِ والغوغاءِ بلا ضرورةٍ، ولا سببٍ، ويُكْثِرَ من شَتْمِ نفسِهِ، وتحقيرِها، ورَمْيِها بالجَهْلِ، والغباوَةِ، ويُبَصْبِصَ برأسِهِ، وهو سائرٌ في طريقِهِ بَصْبَصَةَ الكلبِ بذَنَبِهِ، ويجلِسَ في مدارجِ الطرقِ، وعلى أفواهِ الدروبِ جِلْسَةِ البائِسِ المسكينِ، فاعلمْ أنّهُ صغيرُ النفسِ ساقطُ الهِمَّةِ، لا متواضعٌ ولا متأدّبٌ.

إنّ علوَّ الهمَّةِ، إذا لم يخالِطْهُ كِبْرٌ يُزْرِي به، ويَدْعُو صاحبَهُ إلى التنطّع[1]، وسوءِ العِشْرَةِ، كان أحسنَ ذريعةٍ يتذرّعُ بها الإنسانُ إلى النبوغِ في هذه الحياةِ، وليس في الناسِ من هو أحوجُ إلى علوِّ الهمّة من طالبِ العلم، لأنّ حاجةَ الأمّةِ إلى نبوغِهِ أكثرُ من حاجَتِها إلى نبوغِ سواه من الصانِعين والمحترِفين، وهلِ الصانعُون والمحترفُون إلّا حَسَنَةٌ من حسناتِه، وأثرٌ من آثارِه؟ بل هو البحرُ الزاخرُ الذي تَسْتَقِي منه الجداولُ والغدرانُ.

فيا طالبَ العلم، كُنْ عاليَ الهِمَّةِ، ولا يكُنْ نَظَرُكَ في تاريخ عظماءِ الرجالِ نَظَرًا يَبْعَثُ في قلْبِك الرَّهْبَةَ والهَيْبَةَ، فتَتَضاءَلُ وتَتَصاغَرُ كما يَفْعَلُ الجَبَانُ المستطارُ حينما يسمَعُ قصّةً من قِصَصِ الحروبِ، أو خرافةً من خرافاتِ الجانِ؛ وحذارِ أن يملِكَ اليأسُ عليك قوّتَكَ وشجاعَتك، فتَسْتَسْلِمَ استسلامَ العاجزِ والضعيفِ وتقولُ: من لي بسلّمٍ أصعَدُ فيها إلى السماءِ حتى أصلَ إلى قبّةِ الفلكِ، فأجالسَ فيها عظماءَ الرجالِ؟

يا طالبَ العلم، أنتَ لا تحتاجُ في بلُوغِكَ الغايةَ التي بلَغَها النابغُون من قبلِكَ إلى خُلُقٍ غيرِ خُلُقِكَ؛ وجوٌّ غيرِ جوِّك، وسماءٍ وأرضٍ غيرِ سمائِك وأرضِك، وعقلٍ وأداةٍ غيرِ عقْلِكَ وأداتِك؛ ولكنّك في حا جةٍ إلى نفسٍ عاليةٍ كنفوسِهِمْ، وهِمَّةٍ عاليةٍ كهِمَمِهِمْ، وأملٍ أوسعَ من رقعةِ الأرضِ، وأرحبَ من صدرِ الحليمِ، ولا يَقْعُدَنّ بك عن ذلك ما يَهْمِسُ به حاسِدُوك في خلواتِهِمْ من وصْفِكَ بالوقاحةِ أو بالسماجَةِ؛ فنِعْمَ الخُلْقُ هي، إن كانتِ السبيلَ إلى بلوغِ الغايةِ، فامْضِ على وجهك، ودَعْهُمْ في غِيِّهِمْ يَعْمَهُون.

جَنَاحَان عظِيمَان يطيرُ بهما المتعلّمُ إلى سماءِ المجدِ والشرفِ: عُلوُّ الهِمَّةِ، والفَهْمُ في العلم؛ أمّا عُلوُّ الهِمّةِ، فَقَدَ عَرَفْتَهُ. وأمّا الفَهْمُ في العلم، فإليكَ الكلمةَ الآتيةَ:

العلمُ عِلْمَان: علمٌ محفوظٌ، وعلم مفهومٌ؛ أمّا العلمُ المحفوظُ، فيَسْتَوِي صاحبُه فيه مع الكتابِ المرقوم، ولا فرقَ بين أن تَسْمَعَ من الحافظِ كلمةً، أو تقرأَ في الكتابه صفحةً؛ فإنْ أشكَلَ عليك شيءٌ ممّا تسمَعُ، فانظرْ إن نطقَ الكتابُ بشرحِ مشكلاتِه نطَقَ الحافظُ بتفسيرِ كلماتِهِ.

---

(١) التنطّع: التكلّف.

الحافظُ يحفَظُ ما يسمَعُ لأنَّه قَويُّ الذاكرةِ، وقوّةُ الذاكرةِ قدرٌ مشترَكٌ بين الذكيِّ، والغبيِّ، والنابهِ، والخاملِ؛ لأنّ الحافظَ ملكةٌ مستقلةٌ بنفسِها عن بقيَّةِ الملكَاتِ: وإنّك لترَى الشيخَ الفاني الذي لا يميّزُ بين الطفولةِ والهرم، والذي يَبْكِي على الحَلْوَى بكاءَ الطفلِ عليها، ويرتعدُ فَرَقًا حينما يسمَعُ ابنتَهُ تُخِيفُ طفلَها بأسماءِ الجنّ والشياطين، ويسرُدُ لك من تواريخِ شبيبتِه، وكهولتِه ما لو دوَّنْتَهُ، لكان تاريخًا صحيحًا ضَخْمًا مَمْلوءًا بالغرائبِ والنوادرِ؛ وقيل لأحدِ العلماءِ: إنّ فلانًا حفِظَ مَتْنَ البخاري، فقال: لقد زادَت نسخَةٌ في البلد!

ذلك هو السرُّ العظيمُ في كَثْرَةِ المتعلّمِين، وقلّةِ العاملين، لأنّ من فَهِمَ معلُومًا من المعلُومَاتِ حقَّ الفَهْم، أشْرَبَتْهُ رُوحَهُ، وخالَطَ لحمَهُ ودمَهُ، ووصَلَ من قلبِهِ إلى سويدائِه وكان إحْدَى غرائزِه، فلا يرَى له بُدًّا من العملِ به رضِيَ، أم أبَى.

لولا أن العلمَ الدينيّ قد أصبحَ اليومَ عِلْمًا محفوظًا، لمَا وَجَدْتَ في العلماءِ من يجْمَعُ بين اعتقادِ الوحدانِيَّةِ، وبين الترددِ على أبوابِ الأحياءِ والأمواتِ في مزاراتِهِمْ، وفي مقابِرِهِمْ يسألُهُمُ المعونةَ، والمساعدةَ على قضاءِ اللهِ وقدَرِهِ، ولا وَجَدْتَ بين الذين يحفظُون قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ من يسندِ النفعَ والضرّ إلى كلّ من سال لعابُه، وتمزّق إهابُه، ولا وجَدْتَ في الناسِ كثيرًا من ضعفاءِ العزيمةِ الذين يحفظُون ما وَرَدَ على ألسنةِ الأنبياءِ والحكماءِ في مدحِ الفضائلِ، وذمِّ الرذائلِ، ثم لا تجدُ فَرقًا بينهم وبينَ العامّةِ في ارتكابِ المنكراتِ، والنفورِ من الصالحاتِ.

لو كان العلمُ المحفوظُ عِلْمًا - وهو على ما نُشاهدُ، ونعلمُ من سوءِ الأثرِ، وقلّةِ الجَدْوَى - ما ورَدَ مدحُ العلم في كتابٍ، ولا سنّةٍ، ولا قدّسَهُ كاتبٌ، أو ترنَّمَ بمدحِهِ شاعرٌ.

فإذا سمِعْتَ ذِكْرَ العِلْمِ، فاعلمْ أنّه العلمُ المفهومُ لا المحفوظُ؛ وآيةُ فهمِ المعلومِ تَأَثُّرُ العالمُ به، وظهورُه في حركاتِهِ وسكناتِهِ، وترقرقُهُ في شمائِلِه ترقرقَ الصهباءَ في وَجْهِ شارِبِها، ولا تثِقْ بالحافظِ فيما ينقلُ إليك. فربّما مرَّ بالمعلومِ محرّفًا، فأخذَه على عِلّاتِه، وأقبَحُ ما عَرَفْنا من أطوارِهِ أنّه يجمَعُ في حافظَتِهِ بين النقيضِ ونقيضِه، والغثِّ والسمينِ، والجّيدِ والزائفِ، فكأنّ ذاكرتَه حانوتُ عطارٍ اختلطَتْ فيها الأدويةُ الشافيةُ، بالعقاقيرُ السامّةُ.

وجملةُ الأمرِ أنّ الحافظَ البَحْتَ لا رأيَ له في مبحثٍ، فيُسألَ عن مذهبٍ، ولا أثرَ لمعلوماتِه في نفسِه، فيُقْتَدَى به، ولا ذوقَ له في الفَهْمِ، فيُعْتَمَدَ على شرحِهِ وتأويلِهِ.

أمّا العلمُ المفهومُ، فهو الواسطةُ التي إذا جمعَ المتعلّمُ بينها وبينَ علُوِّ الهمّةِ، طارَ إلى المَجْدِ بجناحَيْنِ. وكان له سبيلٌ مختصرٌ إلى منزلةِ العظماءِ، ودرجةِ النابغين.

والعلمُ سلسلةٌ طويلةٌ طَرَفَاها في يَدَي آدمَ أبي البَشَر، وإسرافيلَ صاحبِ الصُّورِ[١]، ومسائلُهُ

(١) المراد أن العلوم لا يتمّ تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكّرُ، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها.

حلقاتٌ يصنَعُ كلُّ نابغةٍ من النوابغِ في كلِّ عصرٍ من العصورِ واحدةً منها، ولن يبلغَ المتعلّمُ درجةَ النبوغِ، إلّا إذا وضعَ في العلمِ الذي مارسَهُ مسألةً، أو كشَفَ حقيقةً، أو أصْلَحَ هَفْوَةً أوِ اخْتَرَعَ طريقَةً، ولن يسلسَ له ذلك إلّا إذا كان علمُه مفهومًا لا محفوظًا، ولا يكونُ مفهومًا إلّا إذا أخلصَ المتعلّمُ إليه، وتعبّدَ له وأنسَ به أنسَ العاشقِ بمعشوقِه، ولم ينظرْ إليه نظرَ التاجرِ لسلعَتِه، والمحترفِ لحرفتِه.

فالتاجرُ يجمَعُ من السلعِ ما ينفُقُ سوقُه، لا ما يغلُو جوهَرُهُ؛ والمحترفُ لا يهمُّهُ من حرفَتِهِ إلّا لقمةُ الخبزِ وجُرعةُ الماءِ، أحسنَ أمْ أساءَ.

لا يزورُ العلمُ قلبًا مشغولًا بترقّبِ المناصبِ، وحسابِ الرواتبِ، وسوقِ الآمالِ وراء الأموالِ، كما لا يزورُ قلبًا مقسّمًا بين تصفيفِ الطرّةِ[١]، وصَقْلِ الغُرَّةِ، وحسنِ القوامِ، وجمالِ الهندامِ، وطولِ الهُيامِ بِالكأسَيْنِ: كأسِ المدامِ، وكأسِ الغَرامِ.





(١) الطرَّة: الجبهة.

النظرات

(2)



البيان

قال لي أحدُ الوزراءِ ذاتَ يوم: «إنّي لتأتيني أحيانًا رقاعُ الشكوى فأكادُ أهملُها لما تشتملُ عليه من الأساليبِ المنفّرةِ، والكَلماتِ الجارحةِ، لولا أنّ الله تعالى يلهمُني نيّاتِ كاتبيها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئُ في كثيرٍ من المخطوطاتِ التي يخطّها اليومَ كاتبوها في الصحفِ، ورقاعِ الشكوى، والكتبِ الخاصّةِ، والمؤلّفاتِ العامّةِ.

هزلٌ في موضعِ الجدِّ، وجدٌّ في موضعِ الهزلِ، وإسهابٌ في مكانِ الإيجاز، وإيجازٌ في مكانِ الإسهابِ، وجهلٌ لا يفرّقُ ما بين العتابِ والتأنيبِ، والانتقامِ والتأديبِ، والاستعطافِ والاستخفافِ، وقصورٌ عن إدراكِ منازلِ الخطابِ ومواقفِه بين السوقةِ والأمراءِ، والعلماءِ والجهلاءِ، حتّى إنّ الكاتبَ ليقيمُ في الشوكةِ يشاكُها[١] مناحةً لا يقيمُها في الفاجعةِ يفجعُ بها، ويكتبُ في الحوادثِ الصغارِ ما يعجزُ عن كتابة مثلِه في الحوادثِ الكبارِ، ويخاطبُ صديقَه بما يخاطبُ به عدوَّه، ويناجي أجيرَه بما يناجي به أميرَه.

ذهبَ الناسُ في معنَى البيانِ مذاهبَ متشعّبةً، واختلفُوا في شأنِه اختلافًا كثيرًا، ولا أدري علامَ يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظُه دالٌّ على معناه دلالةً واضحةً لا تشتبهُ وجوهُها، ولا تتشعّبُ مسالكُها؟

ليس البيانُ إلّا الإبانةُ عنِ المعنَى القائمِ في النفسِ، وتصويرُه في نظرِ القارئِ، أو مَسْمعِهِ تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزُه، ولا يقصرُ عنه، فإن علقتْ به آفةُ تينك الآفتَيْن، فهي العيُّ والحصرُ.

جهلَ البيانَ قومٌ فظنُّوا أنّه الاستكثارُ من غريبِ اللغةِ ونادرِ الأساليبِ، فأغصّوا بها صدورَ كتابتِهم، وحشُوها في حلوقِها حشْوًا يقبضُ أوداجَها[٢]، ويحبسُ أنفاسَها، فإذا قُدّرَ لك أنْ تقرأَها، وكنت ممّن وهبَهُم اللهُ صدرًا رحْبًا، وفؤادًا جَلْدًا وجنانًا يحتملُ ما حملَ عليه من آفاتِ الدهر وأرزائِه، قرأتَ متنًا مشوّشًا من متونِ اللغةِ، أو كتابًا مضطربًا من كتبِ المترادفاتِ.

وجهلَه آخرون فظنّوا أنّه الهذرُ[٣] في القول، والتبسّطُ في الحديثِ واقعًا ذلك من حالِ الكلامِ ومقتضاه حيث وقعَ، فلا يزالون يجترّون بالكلمةِ اجترارَ الناقةِ بجرَّتِها، ويتمطّقون[٤] بها

---

(١) يُشَاكُها: يتأذّى منها.

(٢) الأوداج: ج الودج، وهو عرق في العنق ينتفخ عند الغضب.

(٣) الهذر: الكلام الذي لا معنى له.

(٤) تمطّق: صوّت بلسانه وشفتيه عند استطابة الشيء.

تمطّقَ الشفاه بريقِها، حتى تسفَّ وتتبذّلَ، وحتى ما تكادُ تسيغُها الحلوقُ، ولا تطرفُ عليها العيونُ، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا.

يُخيَّلُ إليّ أنّ الكتَّابَ في هذا العصرِ يكتبون لأنفسِهم أكثرَ ممّا يكتبون للنّاسِ، وأنّ كتابتَهم أشبهُ شيءٍ بالأحاديثِ النفسيّةِ التي تتلجلجُ في صدرِ الإنسانِ حينما يخلُو بنفسه، ويأنسُ بوحدته، فإنّي لا أكادُ أجِدُ بينهم من يُحكمُ وضعَ فمِه على أذنِ السامعِ، وينفثُ في رُوعِه ما يريدُ أن ينفثَ من خواطرِ قلبِه، وخوالجِ نفسِه.

الكلامُ صلةٌ بين متكلّمٍ يُفهِمُ، وسامعٍ يَفْهَمُ، فبمقدارِ تلك الصّلةِ من القوّةِ والضعفِ تكون منزلةُ الكاتبِ من العلوّ والإسفافِ، فإنْ أردتَ أن تكونَ كاتبًا فاجعلْ هذه القاعدةَ في البيانِ قاعدتَك، واحرصِ الحرصَ كلَّه على ألّا يخدعَك منها خادعٌ فتسقطَ مع الساقطين.

ما أُصيبَ البيانُ العربيّ بما أُصيبَ به إلّا من ناحيةِ الجهلِ بأساليبِ اللّغةِ، ولا أدري كيف يستطيعُ الكاتبُ أن يكونَ كاتبًا عربيًّا قبلَ أن يطّلعَ على أساليبِ العربِ في أوصافِهم ونعوتِهم، وتصوّراتِهم وخيالاتِهم، ومحاوراتِهم ومساجلاتِهم، وقبلَ أن يعرفَ كيف كانوا يعاقبون ويؤنّبون، ويعظون وينصحون، ويتغزّلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون، وبأيّةِ لغةٍ يحاولُ أن يكتبَ ما يريد إن لم يستمدَّ تلك الروحَ العربيّةَ استمدادًا يملأ ما بين جانحتَيْه حتّى يتدفّقَ مع المدادِ من أنبوبِ يراعتهِ على صفحاتِ قرطاسِه.

إنّي لأقرأُ ما كتبه الجاحظُ[١] وابنُ المقفع[٢] والصاحبُ[٣] والصابئ[٤] والهمذاني[٥] والخوارزمي[٦] وأمثالُهم من كتّابِ العربيةِ الأولى، ثم أقرأ ما خطّه هؤلاءِ الكاتبون في هذه الصحفِ والأسفارِ، فأشعرُ بما يشعرُ به المتنقّلُ دفعةً واحدةً من غرفةٍ مُحكمةِ النوافذِ، مُسبلةِ الستورِ، إلى جوٍّ يسيلُ قرًّا وضرًّا، ويترقرقُ ثلجًا وبردًا.

ذلك لأنّي أقرأُ لغةً لا هي بالعربيةِ فأغتبطُ بها، ولا هي بالعاميّةِ فألهو بأحماضِها ومجونِها.

---

(١) الجاحظ (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) من أئمّة الأدب العربي في العهد العباسي، نسبت إليه الفرقة الجاحظيّة، وهي إحدى فرق المعتزلة. تميّز بروحه الفكهة. من مؤلفاته «البخلاء»، و«الحيوان» و«البيان والتبيين».

(٢) ابن المقفّع: هو عبدالله بن المقفّع (ت١٤٣هـ/ ٧٥٩م) مؤلّف عربيّ من أصل فارسي، لقّب أبوه بـ«المقفّع» لأنّ يديه تقفّعتا من كثرة الضرب لاتّهامه باختلاس أموال الخراج. نقل إلى العربيّة كتاب «كليلة ودمنة»، و«الأدب الصغير» و«الأدب الكبير».

(٣) هو الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علمًا وجودة رأي. له ديوان شعر، و«الكشف عن مساوئ المتنبّي».

(٤) الصابئ: هو إبراهيم بن هلال (ت٣٨٥هـ/ ٩٩٤م) أشهر الكتاب في عصره، له ديوان شعر، و«رسائل الصابئ».

(٥) هو بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م) من أئمّة الكتاب في عصره. اشتهر بكتابيه: «المقامات» و«الرسائل».

(٦) هو أبو بكر الخوارزمي (٣٨٤هـ/ ٩٩٣م) شاعر وعالم من أئمّة الكتّاب في عصره، وثقة في اللغة ومعرفة الأنساب. له ديوان شعر، و«رسائل الخوارزمي».

رأيتُ أكثرَ الكاتبين في هذا العصر بين رجلين: رجلٍ يستمدُّ روحَ كتابتِه من مطالعةِ الصحفِ، وما يشاكلُها في أساليبِها من المؤلّفاتِ الحديثةِ والرواياتِ المترجمةِ؛ فإذا علقتْ بنفسِه تلك الملكةُ الصحفيّةُ ألقَى بها في رُوعِ قارئِ كتابتِه أدْوَن ممّا أخذَها، فيُدلي آخذُها كذلك إلى غيرِه أسمجَ صورةً وأكثرَ تشويهًا، وهكذا حتّى لا يبقَى فيها من روحِ العربيّةِ إلّا كما يبقى من الأطلالِ الباليةِ بعد كرّ الغداةِ ومرِّ العشيّ. والطالبُ قصارَى ما يأخذُه من أستاذِه، نحوُ اللغةِ وصرفُها، وبديعُها وبيانُها، ورسمُها وإملاؤها، ومترادفُها ومتواردُها، وغيرُ ذلك من آلاتِها وأدواتِها.

أمّا روحُها وجوهرُها، فأكثرُ أساتذةِ البيانِ عنده علماءُ غير أدباءِ، وحاجةُ طالبِ اللّغةِ إلى أستاذٍ يفيضُ عليه روحَ اللغةِ، ويوحي إليه بسرّها، ويُفضي له بلبِّها وجوهرها أكثرُ من حاجتِه إلى أستاذٍ يعلّمُه وسائلَها وآلاتِها، وعندي أن لا فرقَ بين أستاذِ الأخلاقِ وأستاذِ البيانِ، فكما أنّ طالبَ الأخلاقِ لا يستفيدُها إلّا من أستاذٍ كَمُلَتْ أخلاقُه وسَمَتْ آدابُه، كذلك طالبُ البيانِ لا يستفيدُه إلّا من أستاذٍ مبينٍ.

ولا يقذفنّ في رُوعِ القارئِ أنّي أحاولُ استلابَ فضلِ الفاضلين، أو أنّي أريدُ أن أنكرَ على شعراءِ الأمّةِ وكتّابِها ما وهبهُمُ اللهُ من نعمةِ البيانِ؛ فما هذا أردتُ ولا إليه ذهبتُ، وإنّما أقولُ إنّ عشرةً من الكتّابِ المجيدين، وخمسةً من الشعراءِ البارعين، قليلٌ في بلدٍ يقولون إنّه مهدُ اللغةِ العربيّةِ اليومَ ومرعاها الخصيبُ.

وبعدُ: فإنّي لا أرى لك، يا طالبَ البيانِ العربيّ، سبيلًا إليه إلّا مزاولةَ المنشآتِ[1] العربيّةِ منثورِها ومنظومِها، والوقوفَ بها وقوفَ المتثبّتِ المتفهّم، لا وقوفَ المتنزّه المتفرّج؛ فإنْ رأيتَ أنّك قد شغفتَ بها، وكلفتَ بمعاودتِها والاختلافِ إليها، وأنْ قد لذّ لك منها ما يَلَذُّ للعاشقِ من زورةِ الطيفِ في غرّةِ الظلامِ، فاعلمْ أنّك قد أخذتَ من البيانِ بنصيبٍ؛ فامْضِ لشأنِك، ولا تُلْوِ على شيءٍ ممّا وراءك، تبلغْ من طلبتِك ما تريدُ.

ولا تحدّثْك نفسُك أنّي أحملُك على مطالعةِ المنشآتِ العربيّةِ لأسلوبٍ تسترقُهُ، أو تركيبٍ تختلسُه، فإنّي لا أحبُّ أن تكونَ سارقًا أو مختلِسًا، فإنْ فعلْتَ، لم يكنْ دركُك دركًا، ولا بيانُك بيانًا، وكان كلُّ ما أفدْتَه[2] أن تخرجَ للناسِ من البيانِ صورةً مشوّهةً لا تناسبَ بين أجزائِها، وبردةً مرقّعةً لا تلاؤمَ بين ألوانِها، وإنّما أريدُ أن تحصّلَ لنفسِك ملكةً في البيانِ راسخةً تصدرُ عنها آثارُها عفوًا بلا تكلّفٍ ولا تعمّلٍ، وإلّا كان شأنُك شأنَ أولئك القومِ الذين علقتْ ذاكرتُهم بطائفةٍ من منثورِ العربِ ومنظومِها، فقنعوا بها، وظنّوا أنّهم قد وصلوا من البيانِ إلى صميمِه. فإذا جدَّ الجدُّ، وأرادوا أنفسَهم على الإفصاحِ عن شيءٍ ممّا تختلجُ به نفوسُهم، رجعوا إلى تلك المحفوظاتِ ونبشوا دفائنَها، فإن وجدوا بينها قالبًا لذلك المعنَى الذي يُريدونه، انتزعوه من مكانِه انتزاعًا، وحشروه في كتابتِهم حشرًا، وإلّا تبذّلوا باستعمالِ التراكيبِ الساقطةِ المشنوعةِ، أو

---

(١) المنشآت: الآثار الأدبيّة.

(٢) بمعنى: أفاد واستفاد.

هجروا تلك المعاني إلى معانٍ أخرى غيرِها، لا علاقةَ بينها وبين سابقاتِها ولاحقاتِها؛ فلا بدَّ لهم من إحدى السوأتين: إمّا فسادِ المعاني واضطرابِها، أو هجنةِ التراكيبِ وبشاعتِها.

فاحذرْ أن تكونَ واحدًا منهم، أو أن تصدّقَ ما يقولونه في تلمّسِ العذرِ لأنفسِهم من أنّ اللغةَ العربيّةَ أضيقُ من أن تتّسعَ لجميعِ المعاني المستحدثة، وأنّهم ما لجأوا إلى التبذّلِ في التراكيبِ إلّا لاستحالةِ الترفّعِ فيها؛ فاللّغةُ العربيّةُ أرحبُ صدرًا من أنْ تضيقَ بهذه المعاني العامّةِ المطروقةِ بعدما احتملَتْ من دقائقِ العلومِ والمعارفِ ما لا قِبَلَ لغيرِها باحتمالِه؛ وقدرَتْ من هواجسِ الصدورِ وخوالجِ النفوسِ على ما عيّتْ به اللغاتُ القادراتُ.

وليس الشأنُ في عجزِ اللّغةِ وضيقِها، وإنّما الشأنُ في عجزِ المشتغلين بها عن الاضطرابِ في أرجائها، والتغلغلِ في أعماقِها، واقتناعِهم من بحرِها بهذه البِلّةِ[1] التي لا تثلجُ صدرًا، ولا تَشفي أوامًا[2].

وكل ما يُعدُّ عليها من الذنوبِ أنّها لا تشتملُ على أعلامٍ لبعضِ هذه الهَناتِ المستحدثةِ، وهو في مذهبي أهوَنُ الذنوبِ وأضعفُها شأنًا، ما دمْنا نعرفُ وجهَ الحيلةِ في علاجِه بالاشتقاقِ، إنْ وجدْنا السبيلَ إليه، أو التعريبَ إنْ عجزْنا عن الاشتقاقِ، فالأمرُ أهوَنُ من أن نحارَ فيه، وأحقرُ من أن نقضيَ أعمارَنا في العراكِ ببابِهِ، والمناظرةِ في اختيارِ أقربِ الطرقِ إليه، وأجْدَاها عليه.

واعلمْ أنّه لا بدَّ لك من حسنِ الاختيارِ فيما تريدُ أن تزاولَه من المنشآتِ العربيّةِ، فليس كلُّ متقدّمٍ ينفعُك، ولا كلُّ متأخرٍ يضرّك، ولا أحسبك إلّا واقفًا بين يدي هذا الأمرِ موقفَ الحَيْرَةِ والاضطرابِ، لأنّ حسنَ الاختيارِ طلبةٌ تتعثّرُ بين يدَيْها الآمالُ، وتتقطّعُ دونها أعناقُ الرجالِ؛ فالجأْ في ذلك إلى فطاحلِ الأدباءِ الذين تعرفُ ويعرفُ الناسُ منهم ذوقًا سليمًا، وقريحةً صافيةً، وملكةً في الأدبِ كمصفاةِ الذهبِ. فإن فعلتَ وكنتَ ممّنْ وهبَهم اللهُ ذكاءً وفطنةً، وقريحةً خصبةً ليّنةً صالحةً لنماءِ ما يُلقَى إليها من البذورِ الطيّبةِ، عدتَ وبين جنبيك ملكةٌ في البيانِ زاهرةٌ، يتناثرُ منها منثورُ الأدبِ، ومنظومُه، تناثرَ الورودِ والأنوارِ من حديقةِ الأزهارِ.

❁ ❁ ❁

السريرة

لو كُشِفَ للإنسانِ عن سريرةِ الإنسانِ، لرأى منها ما يرى الأعمَى من غرائبِ هذا الكونِ وعجائبِه حين تدركُه رحمةُ اللهِ بعد طولِ محنتِه، فيرتدُّ بصيرًا.

تتراءَى لك السريرةُ في ظاهرِها كأنّها أديمُ السماءِ، أو صفحةُ الماءِ، فإنْ بَدا لك أنْ تَكْتَنِهَ باطنَها، فإنّك غيرُ بالغٍ من ذلك مأربَك إلّا إذا استطعْتَ أن تخترقَ جلدةَ السماءِ، فترى ما

---

(١) البلة: القليل. (٢) الأوام: شدّة العطش.

وراءها من بدائعِ الكائناتِ، وتغوصَ في أعماقِ الماءِ، فتشاهدَ ما في باطنِه من عجائبِ المخلوقاتِ.

يعجزُ المرءُ عن رؤيةِ الهباءِ، فيتريّثُ ريثما تمجُّ الشمسُ لعابَها من نافذةِ غرفتِه، فإذا هو مائجٌ وضّاءٌ يروحُ ويغدُو رواحَ السانحاتِ، وغدوَّ البارحاتِ[١]، ويعجزُ عن رؤيةِ الجراثيمِ، فيستعينُ عليها بمنظارٍ يجسّمُها له ويُدنِيها[٢] منه حتى ليكادَ يلمسُها بيمينِه، ويعجزُ عن اكتناهِ السريرةِ، فلا يجدُ إلى الوصولِ إليها سبيلًا.

وقف آدمُ أمامَ بابِ السريرةِ يوم الشجرةِ يعالجُ فتحَه، فاستعْصَى عليه. ثم وقفَ بنُوه من بعدِه موقفَه، فعجزوا عجزَه. فلجَّ بهم الشوقُ إليها لجاجًا طارَ بعقولِهم، وذهبَ بألبابِهم، فتراموا على أقدامِ المنجّمين والعرّافين لثمًا وتقبيلًا، وابتدُروا النّصُبَ والتماثيلَ ركوعًا وسجودًا، وهامُوا بزاجراتِ الطيرِ[٣] والضواربِ بالحصَى هيامَ الإبلِ العطاشِ بمنازلِ الماءِ، يطلبون ما وراء السريرةِ؛ والسريرةُ كنزٌ مرصودٌ لا تنجعُ فيه النفثاتُ، ولا تجدي معه العزائمُ[٤] والرُّقَى.

إنّك لترَى الرجلَ يتلألأُ جبينُه تلألؤَ الكواكبِ في جنحِ ليلٍ مبردٍ، ويفترُّ ثغرُه عن الأنوارِ افترارَ الأكمامِ عن الأزهارِ، فتحسدُه على نعمتِه وسعادتِه؛ وتتمنّى أن لو منحَك اللهُ ما منحَه من هناءٍ ورغدٍ؛ وإنّ بين جنبيه - لو علمتَ - همًّا يعتلجُ، وقلبًا يدبُّ فيه اليأسُ دبيبَ الآجالِ في الأعمارِ، وكبدًا مقروحةً لو عرضَها في سوقِ الهمومِ والأحزانِ، ما وجدَ من يبتاعُها منه بأبخسِ الأثمانِ.

وإنَّك لترى الصديقَ، فيعجبُك منه حديثُه الحلوُ، وثغرُه المبتسمُ، ويروقُك منه كَلَفُه بك وإعظامُه لك وإعجابُه بشمائلِك ومحاسنِك، وتشيّعُه لآرائكَ؛ ولو كشفَ لك من نفسِه ما كشفَ له منها، لودِدْتَ أن لو تيسّرَ لك أنْ تبتاعَ أقدامَ السّلَيك[٥] بجميعِ ما تملُكُ يدُك، ففررْتَ من وجهِه فِرارَك من وجهِ الأسودِ السَّالِخ[٦]، ووددتَ بجدعِ الأنفِ أن لا يصافحَ وجهُه وجهَك من بعدِها حتى في جنّاتِ النعيمِ.

لولا ما أسدلَ اللهُ على السرائرِ من الحجبِ، لبُدِّلَتِ الأرضُ غيرَ الأرضِ، والسمواتُ غيرَ السمواتِ، وكان للكونِ نظامٌ غيرُ هذا النظامِ، وللتاريخِ صفحاتٌ غيرُ هذه الصفحاتِ.

لو عَلِمَ الجندُ أنّهم لا يحاربون إلّا ليضعوا «نيشانًا» في صدرِ القائدِ، أو جوهرةً في تاجِ الملكِ، وأنّهم كثيرًا ما يكونون مخدوعين في مواقفِهم بإشراكِ الوطنيّةِ وحبائلِ الدّينِ، لمَا دالتِ

---

(١) السانح: الذي يمرّ من يسار الرائي إلى يمينه وضدّه البارح.

(٢) يدنيها: يقرّبها.

(٣) زجر الطير: أطاره فتفاءل به إن اتّجه نحو اليمين وتشاءم إن اتجه نحو اليسار.

(٤) العزائم: ج العزيمة، وهي الرقية.

(٥) السليك: هو السليك بن السلكة (ت٦٠٥م) شاعر من الصعاليك معروف بسرعة عدوه في العرب.

(٦) السالخ: أي ذكر الحيّات.

الدولُ، ولا انقلتِ التيجانُ، ولضعفَ ظهرُ الأرضِ عن حَمْلِ ما فوقَه من بني الإنسانِ.

ولو عَلِمَ جهلةُ المتديّنين أنّ أكثرَ زعماءِ الأديانِ إنّما يشترون منهم عقولَهم وأموالَهم بالقليلِ التافهِ من المُدْهِشاتِ الدينيّةِ والأحلامِ النفسيّةِ، ويملأون قلوبَهم بالمخاوفِ والمزعجاتِ ليبيعوهم الأمنَ والسلامَ بثمنٍ غالٍ، لَضعفَتْ أصواتُ النواقيسِ، وقَصُرَتْ قاماتُ المنائرِ، ولهلكَ أربابُ الطياليسِ والقلانِس جوعًا وسغبًا[1]، ولأصبحت حبّاتُ السُّبَحِ أكسدَ في سوقِ الأديانِ من بَعْرِ الآرام[2] في سوقِ الأنعامِ.

ولو علمَ الابنُ أنّ أباه يحبُّه لِمَا يرجوه من مفعتِه في شيخوختِه، وأنّه إنّما يعجبُ بنفسِه في إعجابِه به وثنائِه عليه، ويفخرُ بقوّةِ عقلِه وحسنِ تدبيرِه في فخرِه بذكائِه ونبوغِه، لضعفَتْ صِلَةُ الودِّ بينه وبينه، ولَمَا كانت بين حلقاتِ الأنسابِ هذه الوشائجُ وتلك الأواصرُ. ولو علمت الزوجةُ أنّ زوجَها يحبُّ منها جسمَها أكثرَ ممّا يحبّ نفسَها، وأنّه يتربّصُ بها الدوائرَ ويعدّ ليومِها الساعاتِ والأيامَ ليستبدلَ بها خيرًا منها، لما وثقتْ بودِّه، ولا اطمأنّتْ لعهدِه، ولما كان للمنازلِ سقوفُ تظلُّ الأسرةَ والمهادَ.

❃ ❃ ❃

زيد وعمرو

أرادَ داود باشا - أحدُ وزراءِ تركيّا في العهدِ القديم - أن يتعلّمَ اللغةَ العربيّةَ، فأحضرَ أحدَ علمائِه، وأخذَ يتلقّى عنه علُومه عهدًا طويلًا، فكانت نتيجة عمله ما ستراه.

سألَ شيخَه يومًا: ما الذي جناهُ عمرُو من الذنوبِ حتى استحقّ أنْ يضربَه زيدٌ كلَّ يوم، ويبرّحَ به هذا التبريحَ المؤلمَ؟ وهل بلغَ عمرٌو من الذلّ والعجزِ منزلةَ من يضعفُ عن الانتقامِ لنفسه، وَضَرْبِ ضاربِه ضربةً تقضي عليه القضاءَ الأخيرَ؟

سأل شيخَه هذا السؤالَ وهو يتحرّقُ غيظًا وحنقًا، ويضربُ الأرضَ بقدمَيْه، فأجابَه الشيخُ: ليس هناك ضاربٌ ولا مضروبٌ يا مولاي، وإنّما هي أمثلةٌ يأتي بها النحاةُ لتقريبِ القواعدِ من أذهانِ المتعلّمين.

فلم يُعجبْه هذا الجوابُ، وأكبرَ أن يعجزَ مثلُ هذا الشيخِ عن معرفةِ الحقيقةِ في هذه القضيّةِ، فغضبَ عليه، وأمرَ بسجنِه. ثم أرسلَ إلى نحويٍّ آخرَ، فسألَه كما سألَ الأوّلَ، فأجابَه بمثلِ جوابِه، فسجنَه كذلك. ثمّ ما زال يأتي بهم واحدًا بعدَ واحدٍ، حتّى امتلأتِ السجونُ، وأقفرتِ المدارسُ، وأصبحتْ هذه القضيّةُ المشؤومةُ الشغلَ الشاغلَ من جميعِ قضايا الدولةِ ومصالحِها.

ثم بدَا له أن يستوفدَ علماءَ بغدادَ، فأمرَ بإحضارِهم، فحضروا وقد علموا قبلَ الوصولِ إليه ماذا

---

(١) السغب: شدّة الجوع.

(٢) الآرام: جمع ريم وهو الغزال.

يُرادُ بهم، وكان رئيسُ هؤلاءِ العلماءِ بمكانةٍ من الفضلِ والحذقِ، والبصرِ بمواردِ الأمورِ ومصادرِها. فلمّا اجْتمعُوا في حضرةِ الوزيرِ أعادَ عليهم ذلك السؤالَ بعينه، فأجابَه رئيسُ العلماءِ: إنّ الجنايةَ التي جناها عمرُو يا مولايَ يستحقُّ أن ينالَ لأجلِها من العقوبةِ أكثرَ ممّا نالَ.

فانبسَطتْ نفسُه قليلًا، وبرقَتْ أساريرُ وجهِ، وأقبلَ على محدّثِه يسألُه: ما هي جنايتُه؟

فقال له: إنّه هجمَ على اسمِ مولانا الوزيرِ، واغتصبَ منه الواو، فسلّط النحويّون عليه زيدًا يضربُه كلّ يومٍ جزاءَ وقاحتِه وفضولِه - يشيرُ إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود.

فأعجبَ الوزيرُ بهذا الجواب كلَّ الإعجابِ، وقال لرئيس العلماءِ: أنتَ أعلمُ من أقلتْهُ الغبراءُ[1]، وأظلّته الخضراءُ، فاقترحْ عليّ ما تشاءُ. فلم يقترحْ عليه سوى إطلاقِ سبيلِ العلماءِ المسجونين، فأمرَ بإطلاقِهم، وأنعمَ عليهم وعلى علماءِ بغدادَ بالجوائزِ والصِّلاتِ.

أحسنَ داودُ باشا في الأولى وأساءَ في الأخرى، ولو كنتُ مكانه، لما أطلقتُ سبيلَ هؤلاءِ النحاةِ من سجنِهم حتّى آخذَ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلةَ الباليةَ إلى أمثلةٍ جديدةٍ مستطرفةٍ تؤنسُ نفوسَ المتعلّمين، وتُذْهِبُ بوحشتِهم، وتحولُ بينهم وبين النفورِ من منظرِ هذه الحوادثِ الدمويّةِ بين زيدٍ وعمرو، وخالدٍ وبكرٍ.

لا ينالُ المتعلّمُ حظَّه من العلم إلّا إذا استطاعَ تطبيقَهُ على العملِ والانتفاعَ به في مواضعِه ومواطنِه التي وُضعَ لأجلِها. ولنْ يستطيعَ ذلك إلّا إذا استكثرَ له معلّمُه من الأمثلةِ والشواهدِ الملائمةِ لقواعدِ ذلك العلم، وافتنّ له في إيرادِها افتنانًا يقرّبُ إلى ذهنِه تلك الصلةَ من العلمِ والعملِ، ويسهّلُ له الوصولَ إلى القدرةِ على تلك المطابقةِ.

وإنّ أكثرَ المتعلّمين في مدرسةِ الأزهرِ أبعدُ الناسِ عن القدرةِ على المطابقةِ، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوفِ عند المثلِ الواحدِ لكلّ قاعدةٍ من قواعدِ العلم!

فلو أنّك أردتَ أحدَهم على أن يخرجَ في المنطقِ عن الحيوانيّةِ والناطقيّةِ، وفي النحوِ عن ضربَ زيدٌ عمرًا، وقتلَ خالدٌ بكْرًا، وفي البيانِ عن تشبيهِ زيدٍ بالبدرِ، واستعارةِ الأظافرِ للمنيّةِ، وفي الصرفِ عن فَعْلَلَ وافْعَوْعَلَ، لوجدتَ في نفسِه من الجهدِ والمشقّةِ، وفي لسانِه من العيّ والحصرِ ما يحزنُك على أعوامٍ طوالٍ قضاها بين المحابرِ والدفاترِ، ثم لم يحصلْ من بعدِها على طائلٍ.

علامَ يتعلّمُ الطّالبُ النحوَ والصرفَ، إنْ عجزَ عن أن يقرأَ صحيحًا كلَّ كتابٍ وكلَّ صحيفةٍ؟

وعلامَ يتعلّمُ علومَ البلاغةِ، إنْ عجزَ عن معرفةِ أسرارِ الكلامِ، وأوجهِ بلاغتِه، وفهمِ المرادِ من مختلفاتِ أساليبِه، وعن الإبانةِ عمّا يدورُ في نفسِه إبانةً واضحةً لا يشوبُها قلقٌ ولا اضطرابٌ؟

وعلامَ يتعلّمُ المنطقَ، إنْ عجزَ عن التمييزِ بين فاسدِ القضايا وصحيحِها في كلِّ ما يُعرَضُ عليه منها، وإن لم يكنِ الموضوعُ الإنسانَ، والمحمولُ الحيوانَ الناطقَ؟

عجيبٌ جدًّا أنْ يفهمَ الصانعُ الأمّيّ أنّ العلمَ للعملِ، فلا يتعلّمُ النّجارةَ إلّا ليصنعَ الأبوابَ

---

(١) الغبراء: الأرض.

والصناديقَ، ولا الحدادةَ إلّا ليصنعَ الأقفالَ والمفاتيحَ، وأن يجهلَ المتعلّمُ هذه القضيّةَ الضروريّةَ، فلا يهمُّه من العلمِ إلّا الاستكثارُ من المعلوماتِ والقواعدِ، وإن عجزَ بعد ذلك عن التصرّفِ فيها، والانتفاعِ بها في مواطنِها.

ما دامت مدرسةُ الأزهرِ على هذه الحالِ من أسلوبِ التعليمِ العقيمِ، فليس بمقدورٍ لها في مستقبلِ الأيّامِ أن ينبغَ منها العلماءُ الذين تستطيعُ أن تنتفعَ بهم الأمّةُ انتفاعَ أمثالِها بأمثالِهم في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، فويلٌ للعلمِ من العلماءِ.

❀ ❀ ❀

أبو الشمقمق[1]

إنّ كثيرًا من الفقراء لم تمتدَّ يدُ الفقرِ إلى رؤوسِهم، كما امتدّتْ إلى جيوبِهم، فهم يدركون كما يدركُ الأغنياءُ، ويفهمون كما يفهمون. وكما أنّ في أغنياءِ الجيوبِ فقراءَ الرؤوسِ، كذلك في فقراءِ الجيوبِ أغنياءُ الرؤوسِ.

ولقد جلستُ في منزلي صبيحةَ يوم مع قوم من الماديّين الذاهبين[2] الذين ملأ المالُ فراغَ أذهانهم حتّى أنسَاهم كلَّ شيءٍ، وأنسَاهم أنفسَهم قبل ذلك، فأخذُوا يتجاذبون أسلاكَ الأحاديثِ الذهبيّةِ؛ ما بين تاجرٍ يعجبُ بصفقتِه الرابحةِ، وزارعٍ يفخرُ بقلّةِ ما أعطى وكثرةِ ما أخذَ، وآخرَ يعلّلُ نفسَه بكثرةِ الغلّاتِ، وارتفاعِ الأسعارِ. والكلُّ متفقون على أنّ السعادةَ التي أظلّتْهم أجنحتُها في هذا العهدِ الأخير، عهدِ العدلِ والإنصافِ، عهدِ الحريّةِ والمساواةِ، عهدِ الرقيِّ والعمرانِ، هي أشبهُ شيءٍ بسعادةِ المتّقين في جناتِ النَّعيم.

كلُّ هذا وأبو الشمقمق جالسٌ ناحيةً يخزرُ طَرْفَه[3]، ويهزُّ رأسَه، ويصعّدُ أنفاسَه، ويمضغُ أضراسَه، ويئنُّ من أعماقِ قلبِه أنينًا يكادُ يسمعُ فيه السامعُ قول الشاعر:

فيا لك بَحْرًا لم أجدْ فيه مَشْرَبًا ... على أنّ غيري واجدٌ فيه مَسْبَحا

فما هو إلّا أن قضَوا لبانَتهم[4] من الكلامِ المملولِ، والحديثِ المعادِ، حتّى قامُوا يطيّرون الآمالَ وراء الأموالِ.

فأشرْتُ إلى أبي الشمقمقِ أن يختلفَ ففعلَ، فسألتُه: ما لكَ لم تشتركْ معنا فيما كنّا فيه؟

فأجاب: إنّي أكرهُ الفضولَ في الحديثِ، وقد فرّقَ المقدارُ بيني وبينكم في المالِ، فلا أشتركُ في المقالِ.

---

(١) هو مروان بن محمد (ت٢٠٠هـ/ ٨١٤م) رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر.

(٢) الذاهبون: الذين يقتنون الكثير من الذهب.

(٣) خزر الطرف: نظر بلحظ عينه.

(٤) اللبانة: الحاجة.

فقلتُ: ألا يعجُبك يا أبا الشمقمق، حديثُ النهضةِ الحديثةِ التي نهضَتْها الأمّةُ المصريّةُ في عهدِها الأخير، وأنت فردٌ من أفرادها، وجزءٌ من أجزاءِ جسمها؛ فنهوضُها نهوضُك، وسقوطُها سقوطُك. والأمّةُ - كما تعلمُ - هي الفردُ المتكرّرُ، والواحدُ الدائرُ. فأنت الأمّةُ والأمّةُ أنت.

فقال: والله، لا أدري أتكلّمُني بلسانِ الصوفيّةِ؟ ولستُ بصوفيٍّ، أمْ بلغةِ الفلاسفةِ؟ ولا أفهمُ للفلسفةِ معنًى. وكأنّك تقصدُني بالفردِ المتكرّرِ، فإن كنتَ تريدُ أنّني فردٌ متكرّرٌ كثيرُ الأشباهِ والأمثالِ في العوزِ والفاقةِ، وواحدٌ لا سَنَدَ لي ولا عَضُدَ، ودائرٌ في مدارجِ الطرقِ ومعابرِ السبلِ، فقد أصبْتَ وأحسنْتَ، وإن كنتَ تريدُ معنًى غيرَ ذلك، فأنا لا أفهمُ إلّا كذلك، فهل لك أن تُعْفِيَني من الجوابِ على هذه المعمّياتِ، وتزنَ كلامَك على مقدارِ عقلي، وتحدّثَني فيما يتناولُه سمعي وبصري؟

فقلت: أنا لم أخرجْ بك عنِ المألوفِ المعروف، ولا أريدُ إلّا أنّ الأمّةَ ليستْ في الخارجِ شيئًا غيرَ أفرادِها، فإذا سعدَتْ أو شقيَتْ، فالسعداءُ والأشقياءُ أبناؤها. وحسبُك أن ترى تقدّمَ الأمّةِ المصريّةِ في ثروتِها وعمرانِها، وبذخِها وترَفِها، وكثرةِ ناطقِها وصامتِها[1]، فتسعدُ بسعادتِها وتهنأُ بهنائها.

فقال: إنْ لم تبيّنْ لي سهمي من هذه السعادة، ونصيبي من ذلك الارتقاءِ، فلا أصدّقُ سعادةً، ولا أتصوّرُ ارتقاءً. وما دمْتُ أرَى أنّ لي هويّةً مستقلّةً عن هُويَّةِ سوايَ من السعداءِ، ويدًا تقصرُ عمّا تتناولُه أيديهم، وبطنًا لا يمتلئُ بما تمتلئُ به بطونُهم. وما دمْتُ لا أرى واحدًا بينهم يلبَس معي ردائي الممزّقَ، وقميصي المخرّقَ، ويقاسمُني همّي، ويشاطرُني فقري؛ فهيهاتِ أن أسعدَ بسعادتِهم، وأسرَّ بسرورِهم، وهيهاتِ أن أفهمَ معنى قولك: أنت الأمّةُ والأمّةُ أنت.

فقلتُ: إنّ الغيثَ إذا نزلَ يسقي الخصيبَ والجديبَ، والنجدَ والوهدَ؛ وينتظمُ من الأرضِ المَيْتَ والحيَّ.

فقال: كلُّ سماءٍ فيها هذا الغيثُ إلّا سماءَ مصرَ، فإنّي أراه:

كَبَدْرٍ أضاءَ الأرضَ شرْقًا ومغربًا ومَوْضِعُ رِجْلِي منه أسْوَدُ مظْلِمُ

ما لي وللروضِ الذي لا أستنشقُ روحَه وريحانَه، والقصرِ الذي لا أدخلُه مالكًا ولا زائرًا، وهبْ أنّ الطرقَ مفروشةٌ بالحريرِ والديباجِ، لا بالحصَى والمدَر[2]، فهل أبقى لي الدهرُ من حاسّةِ اللمسِ شيئًا، فأستطيعَ أن أميّزَ بين خشنِ الملمسِ وناعمِه، ومعوجِّ الأرضِ ومستقيمِها؟ وهَبْني إذا مشيْتُ، خضتُ في بحرٍ مائجٍ بأنوارِ الكهرباءِ، فهل يُغني ذلك عنّي شيئًا؟ وهل يكونُ نصيبي منه إلّا انكشافُ سَوْأتي، ورثاثةُ حالتي لأعينِ الناظرين؟

---

(١) الناطق من المال: الماشية والأنعام، والصامت منه: الذهب والفضّة.

(٢) المدر: الطين اللزج الذي لا يخالطه رمل.

ولقد حُبّبَ إليّ الظلامُ حتى تمنّيتُ دوامَه لألبَس من ثوبِه الطبيعيّ ما يكفيني مؤنةَ الرتْقِ[١] والفَتْقِ، والتمزيقِ والترقيعِ، وبعد؛ فما هو الارتقاءُ الذي تزعمُه وتزعمُ أنّه يعنيني ويشمَلُني؟ هل ترقّتْ غرائزُ الإحسانِ في نفوسِ المحسنين؟ وهل خفقَتْ قلوبُ الأغنياءِ رحمةً بالفقراءِ؟

فقلت: نعم، أما تَرى الأموالَ التي يتبرّعُ بها الأغنياءُ للجمعيّاتِ الخيريّةِ، والتي يُنفقُها المحسنُون على بناءِ المدارسِ والمكاتبِ والمستشفياتِ؟

فقال: إنّ هذه التي تسمّيها مكارمَ، لا يسمّيها أصحابُها إلّا مغارمَ، ألْجأَهُمْ إليها التملّقُ للكبراءِ، وحبُّ التقرّبِ من الرؤساءِ، والطمعُ في الزخرفِ الباطلِ والجاهِ الكاذبِ.

ما لي وللمدارسِ والمستشفياتِ، وأنا جوعانُ خبزٍ لا جوعانُ علم، ولا مرضَ عندي إلّا مرضُ الفاقةِ؛ فهل أجدُ في المدارس خبزًا؟ أو في المستشفياتِ دواءً كذٰلك الدواءِ الذي وصفَه أحدُ الأطباءِ الكرماءِ لرجلٍ جائعٍ دخلَ عليه، وشكا إليه مرَضًا، فعرفَ سرَّ مرضِه، فأعطاه علبةً وكتبَ على غطائها «يؤخذَ منه عند اللزوم». فلمّا ذهبَ بها الفقيرَ وفتحَها وجدَ فيها عشرةَ دنانيرَ؟

أنا رجلٌ ضعيفُ البصرِ، ضعيفُ القوّةِ كما تَرى، فلا قدرةَ لي على العملِ؛ وعندي صبيةٌ صغارٌ ليس بينهم من يستطيعُ عمَلًا أو يحسنُ صنعًا. ولقد كان لي في الزمنِ الذي تذمّونَهُ، والعهدِ الذي تنقمُون عليه، مُنْفَسَحٌ عظيمٌ في منازلِ المحسنين، وموردٌ نميرٌ من صَدَقاتِهم وهباتِهم، وظلٌّ ظليلٌ من تحنّنِ الأغنياءِ ورحمتِهم بالفقراءِ البائسين؛ أمّا اليَومَ، فإنّي أبيتُ طاويًا[٢]، وأصبحُ شاكيًا، وأغدو راجيًا، وأروحُ يائسًا.

وهنا أرسلَ من جفنَيْهِ دمعةً ليست بأوّلِ دمعةٍ أرسلَها على ردائِه، ولكنّها أحرُّ من سابقاتِها، لأنّه لم يبكِ في غيرِ خلوتِه غيرَ هذه المرّةِ.

ثم نهضَ ومدّ يدَه إليَّ مودّعًا، فمسحتُ بيميني دمعةً واحدةً من دموعِه الكثيراتِ.



دورة الفلك[٣]

أيها القصرُ:

أيْنَ الكوكبُ الزاهرُ الذي كان يتنقّلُ في أبراجِك؟

أين النسرُ الطائرُ الذي كان يحلّقُ في أجوائِك؟

أين الملكُ القادرُ الذي كان يطلعُ شمْسًا في صباحِك وبدْرًا في مسائك؟

أين الأعلامُ والبنودُ تخفقُ في شرفاتك؟ والقوّادُ والجنودُ تخطرُ في عرصاتِك؟[٤] أين الشفاهُ

---

(١) الرتق: الإصلاح.
(٢) الطاوي: الجائع.
(٣) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد.
(٤) العرصات: ج العرصة، وهي ساحة الدار.

التي كانت تلثمُ ترابَك؟ والأفواهُ التي كانت تقبّلُ أعتابَك؟ والرؤوسُ التي كانت تطرقُ لهيبتِك؟ والقلوبُ التي كانت تخفقُ لروعتِك؟

أين الصوتُ الذي كان يجلجلُ، فيقرعُ أُذُنَ الجوزاءِ(١)؟ ويهدرُ، فتلتفتُ عيونُ السماءِ؟

أين الفلكُ الذي كان يدور بالسَّعْدِ والنَّحْسِ، والنعيمِ والبؤسِ، والرفعِ والخفضِ، والإبرامِ والنقضِ؟

كيف استطاعَ الدّهرُ أن يمدَّ يدَه إلى شملِك، فيبدّدُه؟ وجمعِك، فيفرّقُه؟ وسمائِك، فيكوّرُ شموسَها؟ وأرضِكَ، فيزعجُ أنيسَها؟

أين كانت أسوارُك وأبوابُك، وحرّاسُك وحجابُك؟ وكيف عجزْتَ أن تمتنعَ على القضاءِ؟ وتصدَّ عن نفسِك عاديةَ البلاءِ؟

ولـم أرَ مـثـلَ الـقـصـرِ إذْ ريعَ سِـربُـهُ ... وإذ ذُعِـــرَتْ أطْـــلاؤه وجـــآذِرُهْ

تَـحَـمَّـلَ عـنـه سـاكـنـوه، وهـتّـكَـتْ ... عـلـى عَـجَـلٍ أسـتـارُه وسـتـائِـرُهْ

أيّها السجنُ:

حَلَّ بأرجائِك اليومَ ملكٌ تضيقُ به الدنيا، فكيف وسعْتَه؟ وتعجزُ عن احتمالِه قُلَلُ(٢) الجبالِ الرواسي، فكيف احتملتَه؟ رفقًا به لا تزعجْه، ولا تحرجْ صدرَه، وضمَّ جانحتَيْك عليه كما تضمُّ على القلبِ حنايا الضلوعِ، واعطفْ عليه عطفَ المرضعاتِ على الرضيعِ، وارحمْ هذا الجلالَ الذاهبَ، والعزَّ الزائلَ، والرأسَ الذي بيّضتْه حوادثُ الدهورِ، والظهرَ الذي قوّستْهُ أيدي المقدورِ.

أيّها الدهرُ:

ألا تستطيعُ أن تنامَ عن الإنسانِ لحظةً واحدةً؟ ألا تستطيعُ أن تسقيَه كأسَ السرورِ خالصةً، لا يمازجُها كدَرٌ، ولا يشوبُها عناءٌ؟

إن كنتَ تريدُ أن تسلبَه، فلمَ أعطيتَه؟ وإن كنت تريدُ أن تُعطيَه، فلمَ سلبتَه؟ كان خيرًا له أن لا تُعطيَه حتى لا تُفجعَه في تلك العطيّةِ، وأن لا تسقيَه كأسَ السرورِ حتى لا يتجرّعَ ذلك السمَّ الذي أودعتْه تلك الكأسَ.

أيّها الرجلُ المودّعُ:

كان ارتفاعُك عظيمًا، فوجبَ أن يكونَ سقوطُك عظيمًا.

إنّك ذقتَ حلاوةَ الحياةِ خالصةً، فلمّا ذقتَ مرارتَها، جزعْتَ وقطّبْتَ كما يجزعُ ويقطّبُ كلُّ من ذاقَ من الشرابَ ما لا عهدَ له به، ولا قبلَ له باحتمالِه.

لا تأسَ على ما فاتك، فإنّما كان وديعةً من ودائعِ الدهرِ، أعَارَكَها برهةً من الزمانِ، ثم استردَّها.

---

(١) الجوزاء: الفضاء.

(٢) القلل: ج القلة، وهي أعلى الشيء.

إنّك لا تدري، لعلّ الله أرادَ بك خيرًا، فمنحَك قبلَ حلولِ أجلِك فرصةً من الزمانِ تخلو فيها بنفسِك، وتراجعُ فيها فهرسَ أعمالِك، فإن رأيتَ خيرًا، اغتبطتَ أو شرًّا، استغفرْتَ.

قضى الله أن يقيمَ في كلِّ حين لهذا العالمِ الغافلِ عبرةً من العبرِ تزعجُه من رقدتِه، وتوقظُه من غفلتِه، فكنتَ أنت عبرةَ هذا الدهرِ وموعظتَه.

مَنْ باتَ بعدَكَ في مُلْكٍ يسرُّ به ... فإنّما باتَ بالأحلامِ مَغْرُورَا

❋ ❋ ❋

تأبين فولتير[1]

في مثلِ هذا اليوم، منذ مائة عامٍ، ماتَ الرجلُ العظيمُ، مات الرجلُ الخالدُ، مات فولتير[2].

ما ماتَ «فولتير» حتّى احدودبَ ظهرُهُ تحت أثقالِ السنينَ الطوالِ، وأثقالِ جلائلِ الأعمالِ، وأثقالِ الأمانةِ العظمى التي عُرِضَتْ على السمواتِ والأرضِ، فأبينَ أن يحملْنَها، فحملَها وحدَه؛ وهي تهذيبُ السريرةِ الإنسانيةِ، فهذّبها، فاستنارَتْ، فاستقامَ أمرُها.

ماتَ فولتير مرذولًا محبوبًا في آن واحدٍ يبغضُه الحاضرُ لأنّه يجهلُه، ويحبُّه المستقبلُ لأنّه عرفَه.

إنّ في هاتَين العاطفتين - البغضِ والحبِّ - سرًّا عظيمًا من أسرارِ المجدِ العظيمِ، لذلك الرجلِ العظيمِ.

كان وهو على سريرِ الموتِ محفوفًا[3] بعاطفَتين مختلفتَيْن شكلًا، متفقتَيْن معنًى، لأنّهما جميعًا في سبيلِ مجدِه وفخارِه، كان ينظرُ أمامَه، فيسرُّه منظرُ التبجيلِ والتعظيمِ من مستقبلِه، ويلتفتُ وراءَه، فيطربُه مشهدُ البغضِ والازدراءِ والحقدِ الذي يضمرُه الماضي في صدرِه لأولئك الرجالِ البواسلِ الذين حاربوه، فانتصروا عليه.

كان «فولتير» رجلًا وأكبرَ من رجلٍ، كان وحدَه أمّةً كاملةً، لأنّهُ عاهدَ نفسَه على إنجازِ عملٍ عظيمٍ، فأنجزَه ولم يُخلفْ وعدَه، وكأنّ الإرادةَ الإلهيّةَ المتجلّيةَ في الشرائعِ تجلّيها في الطبائعِ، نثرتْ كنانةَ هذا المجتمعِ الإنسانيّ وعجمَتْ عيدانَه[4]؛ فوجدَتْ فولتير أصلبَها عودًا، فاختارَتْهُ للقيامِ بالعملِ الذي قامَ به، فأتمَّهُ.

---

(١) وهي ترجمة خطبة «فكتور هيجو» في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته، مع بعض تصرف.

(٢) فولتير (١١٩٣هـ/١٧٧٨م) مؤلف فرنسي ومن نوابغ عصره اشتهر بنقده اللاذع. من مؤلفاته: كنديد.

(٣) محفوفًا: محاطًا.

(٤) عجمت عيدانه: جرّبته.

إنّنا أتينا هنا لفصلِ الخطابِ في المسألةِ الاجتماعيّةِ الكبرى؛ جئنا لنرفعَ شأنَ المدنيّةِ، ونكرمَ الفلسفةَ إكرامًا ينفعُها ويفيدُها؛ جئنا لنتلوَ على القرنِ الثامنَ عشرَ رأيَ القرنِ التاسعَ عشرَ فيه؛ جئنا لنكرمَ المجاهدين والعاملين المخلصين؛ اجتمعنا لنمجّدَ الطريقَ للوحدةِ الإنسانيّةِ التي يسعى إليها العلماءُ والعاملون، والكتّابُ المجدّون؛ وجملةُ القولِ إنّنا ما اجتمْعنا هنا إلّا لنمجدَ العاطفةَ الشريفةَ السّامية، عاطفةَ السلامِ العامِّ.

إنّا نمجّدُ السلامَ حبًّا بالمدنيّةِ، وحرْصًا على جمالِها ورونقِها، فالسلامُ فضيلةُ المدنيّةِ، والحربُ رذيلتُها.

نحن في هذه الساعةِ العظيمةِ، في هذا الموقفِ الرَّهيبِ، نجثو على الركبِ، ونعفّر جباهَنا بين يدَي الشريعةِ الأدبيّةِ، ونقولُ للعالمِ الذي ينصتُ لسماعِ صوتِ فرنسا «لا قوّةَ إلا قوّةُ الضميرِ، ولا مجدُ إلّا مجدُ الذكاء»؛ هذا في سبيل العدلِ، وهذا في سبيلِ الحقّ.

لقد كان شأنُ المجتمعِ الإنسانيّ قبلَ الثورةِ الفرنسيّةِ على هذا المثالِ؛ الشعبُ في المَنْزِلَةِ الدنيا، وفوق الشعبِ الدينُ والقضاءُ؛ وهذا يمثّله «القضاة»، وذاك يمثّله «الإكليروس».

أتدرون كيف كان الشعبُ؟ وكيف كان الدينُ؟ وكيف كان القضاءُ في ذلك العهدِ؟ كان الشعبُ جَهْلًا! والدينُ رياءً! والقضاءُ ظلمًا!

إن كنتم في شكّ ممّا أقولُ، فإنّي أقصُّ عليكم حادثتَيْن من حوادثِ ذلك التاريخِ أرى فيهما غناءً ومقتنَعًا.

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شابٌّ مصلوبًا في الطبقةِ الأرضيّةِ من بيتٍ في مدينةِ «تولوز»، فهاجَ الشعبُ، ولغطَ «الإكليروس»، وبحث القضاةُ. فكانتِ النتيجةُ أنْ كان الشابّ منتحرًا، فسمّي قتيلًا، وكان والدُه بريئًا، فسمّي قاتلًا.

هكذا أرادَ وأرادتْ مصلحتُه أن يهلكَ والدُ الفتى لأنّه كان بروتستانتيًّا، ولأنّه كان يمنعُ فتاه أن يتديّنَ بالكثلكةِ. إنّها لجنايةٌ عظيمةٌ جدًّا ينكرُها الدينُ، ويحيلُها العقلُ، ولكن هانَ أمرُها، ولم يحفلوا بالشريعتَين: شريعةِ القلبِ، وشريعةِ العقلِ، فحكموا أنْ الشيخَ الكبيرَ قتلَ ولدَه الصغيرَ.

هكذا قضى القضاءُ وهكذا كانتِ النتيجةُ، فاستمعوها.

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيقَ إلى الميدانِ العامِ شيخٌ أبيضُ الشعرِ هو «جان كالاس». ثم جُرّدَ من ثيابِه، وطُرحَ على دولابِ العذابِ، وشُدَّتْ إليه أطرافُه، وتُرك رأسُه متدلّيًا.

ثلاثةُ رجالٍ تلوّثَتْ أيديهم بدمِ القتيلِ؛ كاهنٌ يحملُ الصليبَ، وجلّادٌ يحملُ القضيبَ، وقاضٍ يحملُ في صدرِه عهدَ القومِ إليه بالتنكيلِ والتعذيبِ.

لم يكنِ الشيخُ المسكينُ، وقد شقَّ الخوفُ مرارتَه، وتمشّى قلبُه في صدرِه، لينظرَ إلى الصليبِ في يدِ الكاهنِ، بل إلى القضيبِ في يدِ الجلادِ.

ورفعَ الجلادُ القضيبَ، وضربَ ذراعَ الشيخِ ضربةً قاسيةً صاحَ على أثرها صيحةً مؤلمةً، ثم

أُغميَ عليه، فتقدّمَ القاضي الرحيمُ، وأمرَ له بالمنبّهاتِ فانتعشَ، فضربَه الجلادُ الضربةَ الأخرى فوق الذراعِ الأخرى، فعادَ إلى صرخته وإغمائِه، فعادوا إلى تنبيهِه وانعاشِه، وهكذا حتّى تمّ لكلّ ذراعٍ من ذراعَيْه ضربتان وصدْعَتان، فكأنّما قتلُوه قبلَ موتِه ثماني مرّاتٍ.

في الإغماءِ الثامنِ بعد مرورِ ساعتَيْنِ من العذابِ، تقدّمَ الكاهنُ، ومدَّ إليه الصليبَ ليقبّلَه، فحوّلَ وجهَه عنه، وكذلك تبلغُ القسوةُ الدينيّةُ من نفوس المتديّنين، فأقبلَ الجلادُ، وسدّد إلى صدرِه الطرَفَ الغليظَ من قضيبِ الحديدِ، وضربَه ضربةً ألصقَتْ صدرَه بظهرِه، فكانتِ القاضيةَ.

على هذه الصورةِ ماتَ «جان كالاس».

وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى عرفَ الناسُ أنّ الفتى ماتَ منتحرًا، لا مقتولًا، فحكمُوا ببراءة الشيخِ بعد أن نفذَ فيه سهمُ القضاء، وماذا يعنيه بعد الموتِ، أماتَ ظالمًا أم مظلومًا!

أمّا الحادثةُ الأخرى، فهي عبرةُ الشبابِ كما كانت الأولى موعظةَ الشيخوخةِ.

بعد مضيّ ثلاثِ سنواتٍ من تاريخِ الحادثةِ الأولى، وجدوا في «إيفل» في ليلةٍ عاصفةٍ صليبًا أكلَ السوسُ أحشاءَه حتى عافَ البقاء فيه مطروحاً فوق الجسرِ بعد أن عاشَ فوق السورِ ثلاثة قرونٍ.

من ألقَى به من أعلى السور؟ من أهانه؟ من ذا الذي دنّسَ هذا الأثرَ المقدّسَ؟ من ذا الذي أجرمَ هذا الجرمَ العظيمَ؟

ربّما عصفتْ به ريحٌ، أو عبثَ به عابرُ طريقٍ، أو هوَى به ضعفُ الشيخوخةِ وإعياءُ الهرم، لا . . لا . . كلُّ ذلك لم يكن، لأنّ الدينَ أبَى إلّا أنْ يوجِدَ مجرمًا، هنالك أعلنَ مطرانُ «اميان» براءةً من غفرانِ اللهِ ورحمتِه لكلِّ مؤمنٍ علمَ أو ظنَّ أنّه علمَ شيئًا عن هذه الحادثةِ، فكتمَه.

إنّ الحرمانَ في الكثلكةِ جريمةٌ هائلةٌ فظيعةٌ قاتلةٌ، متى أوْحَى به التعصّبُ الذميمُ إلى الجهلِ العظيمِ. كان هذا الحرمانُ سببًا في أنّ القضاءَ عرفَ أو ظنَّ أنّه عرفَ أن ضابطَيْن اسمُ أحدِهما «لابار» والآخر «ديتالون» مرّا على جسر «إيفل» في تلك الليلةِ المشؤومةِ يترنّحان سكرًا، وينشدان نشيدًا عسكريًّا، مرّا بالجسرِ وأنشدا النشيد، فهما المجرمان. وكانتِ المحكمةُ تقدسُ «إيفل»، ولم تكنْ بأقلَّ عدلًا وإنصافًا من «مجلس الكابيتول» في «تولوز»، فأمرتْ بالقبض على الرجلين، فاختفى «ديتالون» وقُبضَ على «لابار».

وأُسلم إلى القضاءِ، فاعترفَ بالنشيدِ وأنكرَ المرورَ على الجسرِ، فحكمتْ محكمةُ إيفل بالإعدامِ، وأيّدَ حكمَها برلمان باريس، فدنتِ الساعةُ المخيفةُ الهائلةُ.

لقد تفنّنوا في تعذيبِ «لابار»، وإرهاقِه ليكشفُوا عن سرِّ فعلتِه، وعن شركائِه في جريمتِه، أيْ جريمةِ المرورِ على الجسرِ، وإنشادِ النشيدِ.

لقد عذّبوه عذابًا أليمًا، حتّى إنّ الكاهنَ الذي جيءَ به ليسمعَ اعترافَه أُغميَ عليه حينما سمعَ قرقعةَ عظامِ ركبتَيْهِ.

مضَى هذا اليومَ، وجاءَ اليوم الثاني، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦، وجيءَ بالشابِّ المظلومِ

إلى ساحةِ «إيفل» الكبرى حيث تشتعلُ نارُ العذابِ، وتضطرمُ اضطرامًا، فأسمعُوه نصَّ الحكم، ثم بترُوا يدَه[١]، ثم استلّوا لسانَه بقابضٍ من الحديدِ فاستأصلوه، ولكنّهم رحموه بعد ذلك فقطعُوا رأسَه وألقوا بها في النارِ.

على هذه الصورةِ مات «الشيفالية دي لابار» كما ماتَ من قبلِه «جان كالاس».

أحزنَك هذا المنظرُ يا فولتير، وآلَمَ نفسَك، وملكَ عليك عواطفَك وشعورَك، فصحْتَ صيحةَ الرعبِ والفزعِ، فكانت تلك الصيحةُ الحجرَ الأوّلَ في بناءِ مجدِك الخالدِ العظيم.

هنالك انبعَثَتْ نفسُك إلى النزولِ في ميدانِ المجتمعِ الإنسانيِّ لتكفَّ عاديةَ الظالمين، وتقلّمَ أظفارَ الوحوشِ الضاريَةِ، وَجَلَسْتَ في منصّةِ القضاءِ لتحاكمَ الماضي على جرائمه، وتنتصفَ منه للمستقبلِ، فانتصفتَ وانتصرتَ، وكنتَ من المحسنين.

فيها أيُّها الرجلُ العظيمُ! طبْتَ حيًّا ومَيْتًا.

حدثَتْ تلك الحوادثُ التي ذكرتُها على مشهدٍ من المجتمعِ المهذّبِ الراقي، وفي حياةٍ حافلةٍ بالسعادةِ مغتبطةٍ بالهناء، يغدو إليها الإنسانُ لاهيًا، ويروحُ ساهيًا، لا يرفعُ رأسَه فيعلمُ ما فوقه، ولا يخفضُه، فيرَى ما تحته.

حدَثَ ذلك، وأيامُ البلاط أعيادٌ، و«فرساي» تتلألأُ حسنًا وبهاءً ورونقًا وماءً، وظرفاءُ الشعراءِ أمثال «سان أولاير» و«نوفلير» و«جنتيل برنار» لاهون بالغزلِ الرقيقِ والوصفِ الجميلِ.

حدَثَ ذلك، وباريسُ تتجاهلُ ما يجري حولَها، فاستطاعَ القضاءُ الظالمُ بمعونةِ القسوةِ الدينيّةِ أنْ يمثّلَ بالشيخِ ذلك التمثيلَ الفظيعَ، بذلك القضيبِ الحديدِ، وأنْ يَسْتَلَّ لسانَ الفتَى لأنّه أنشدَ الأناشيدَ.

كان المجتمعُ في ذلك التاريخِ مؤلّفًا من قوى عظيمةٍ هائلةٍ، قوّةِ البلادِ وقوّةِ الأشرافِ، وقوّةِ المالِ، وقوّةِ الشعبِ المائجِ المندفعِ، وقوّةِ الحكومةِ التي كانتْ أسدًا على الرعيّةِ، ونعامةً بين يدي الملك، تجثو أمامَه خاضعةً صاغرةً، إلّا أنّ جثيَها كان على جثّةِ الشعبِ؛ وقوّةِ «الاكليروس» المؤلّفِ من الرياءِ الكاذبِ، والتعصّبِ الأعمى.

تقدّمَ فولتيرُ وحدَه، وأثارَ حربًا عَوانًا[٢] على هذا العالمِ المؤلّفِ من تلك القوى المختلفةِ؛ ولم يرَه أكبرَ من أن ينخذلَ، ولم يرَ نفسَه أصغرَ من أن ينتصرَ.

أتدرون ما كان سلاحُه؟ ما كان له سلاحٌ غيرُ تلك الأداةِ التي تجاري العاصفةَ في هبوبها، وتسبقُ الصاعقةَ في انقضاضِها، ما كان له سلاحٌ غيرُ القلمِ؛ فبالقلم حاربَ، وبالقلمِ انتصرَ.

انتصرَ فولتيرُ؛ فولتيرُ وقفَ وحدَه تلك المواقفَ المشهودةَ؛ فولتيرُ أدارَ وحدَه رحَى تلك الحربِ الهائلةِ، حربِ العلمِ والجهلِ، والعدلِ والظلمِ، والعقلِ والهوَى، والصلاحِ والفسادِ، فتمّ على يديه الغلبُ للخيرِ على الشرِّ، وفازَ فوزًا مُبينًا.

---

(١) بتروا: قطعوا. (٢) العوان: الشديدة.

وكان «فولتيرُ» قلبًا وعقلًا؛ كان له رقَّةُ الفتاة في غلالتها[1]، وشدّةُ الأسدِ في لبدتِه.

«فولتير» محا الخرافاتِ الدينيّةَ والعاداتِ الفاسدةَ، وأرغمَ أنفَ الكبرياء وأذلَّ عزَّ الرؤساءِ، ورفعَ السوقيّ إلى حيث لا يصلُ ظلمُ القاضي ولا تنطّعُ[2] الكاهنِ.

علّمَ ومدّنَ وهذّبَ، ولقيَ في سبيل ذلك من الشدائد والمِحَنِ والنفي والقهرِ ما يكسرُ سورةَ النفسِ، فلم تنكسرْ سورتُه، ولم تفترْ عزيمتُه، بل كان يلقى الاستبدادَ بالسخريةِ، والغضبَ بالاستخفافِ، والقوةَ القاهرةَ بالابتسامةِ المؤثّرةِ.

أقفُ هنا قليلًا إجلالًا لابتسامةِ «فولتير».

«فولتير» هو الابتسامةُ، والابتسامةُ هي فولتيرُ.

أفضلُ مزايا الرجلِ الحكيم أن يملكَ نفسَه عند الغضبِ، وكذلك كان فولتير. كان عقلُه ميزانَ أعمالِه، فما غلبَه حتى الغضبُ للحقّ.

كنتَ تراه عابسًا مقطّبًا، فما هي إلّا كرةُ الطرفِ أن ترى فولتير الضاحكَ المبتسمَ في مكانِ فولتير العابسِ المقطّبِ.

تكادُ تكونُ ابتسامتُه ضحكًا، لولا حزنُ الحكيم، وهمُّ العاقلِ.

كانت ابتسامتُه كبارقةِ السيفِ يرتاعُ لها الأعداءُ، ويرتاحُ لها الأولياءُ.

كان يبتسمُ للقويّ، فيُخجِلُه بتهكّمِه واستخفافِه، وللضعيفِ، فيُسرُّه بتحنّنِه وانعطافِه.

فَلْنُمَجِّدْ تلك الابتسامةَ التي كانت أشعّتُها كأشعّةِ الفجرِ، تمحو الظلامَ وتبعثُ الأنوارَ.

نِعْمَ الابتسامُ، ابتسامٌ أنارَ الطريقَ للعدلِ والحقّ والصلاحِ، وبدّدَ ظلماتِ التقليدِ.

إنَّ ابتسامةَ فولتير أنشأتْ هذه الهيئةَ الاجتماعيّةَ وزيّنَتْها بالإخاءِ والمودّةِ والحريّةِ والمساواةِ، فنال العقلُ منزلتَه من الإجلالِ والإعظامِ، سواءٌ أسكنَ القصرَ الكبيرَ، أم الكوخَ الحقيرَ. ولبسَ المعلّمُ تاجَ الملكِ، فتصرّفَ في العقائدِ الباطلةِ والعاداتِ الفاسدةِ، والخرافاتِ الدينيّةِ تصرّفَ الحاكمِ القديرِ. ونشرَ السلامُ أجنحتَه البيضاءَ على المجتمعِ الإنسانيّ، فقرّتِ السيوفُ في الأغمادِ، وهدأتِ الدماءُ في العروقِ، والأرواحُ في الأجسامِ؛ كلُّ ذلك بفضلِ ابتسامةِ فولتير. ولسوف يأتي ذلك اليومُ العظيمُ، يومُ الرحمةِ بالضعفاءِ، والعفوِ عن الخاطئين، فيبتسمُ فولتير في السماءِ ابتسامةً تتلألأُ بين لألاءِ النجومِ.

فَلْنُمَجِّدِ ابتسامةَ فولتير كلَّ التمجيدِ ولْنُكْبِرْها كلَّ الإكبارِ.

هل كان «فولتير» يحلمُ دائمًا، فلا يستخفُّ حلمَه الغضبُ؟ كلا؛ بل كان يغضبُ أحيانًا في سبيل الحقّ.

إن التوسّط وحفظَ الموازنةِ بين الأخلاقِ هو القانونُ العقليّ للإنسانِ، حتّى لا تهبطَ به كِفّةٌ وتعلوَ به أخرى، وحتى لا يهلكَ بين عاطفتَي الحبِّ والبغضِ. وإنّ الفلسفةَ هي الاعتدالُ،

---

(١) الغلالة: ما يلبس تحت الثوب.

(٢) التنطّع: الكبرياء الفارغ والادّعاء الكاذب.

وامتلاكُ أزمةِ النفسِ في جميعِ مواقفِها ومذاهبِها، إلّا أنّ حبّ الحقِّ يجبُ أن يكونَ دائمًا في مرتبةِ الغلوّ حتّى تهبَّ عاصفتُه قويّةً هائلةً على الشرورِ والآثام، فتذهبَ بها.

يعيشُ المرءُ بين سعادتَيْن من حاضرِه ومستقبلِه: أمّا الأولى، فيكفلُها العدلُ، وأمّا الثانيةُ، فيحرسُها الأملُ. لذلك يحبُّ الناسُ القاضيَ العادلَ، والكاهنَ الصالحَ؛ لأنّ الأوّلَ صورةُ العدلِ، والثاني مثالُ الرجاءِ. فإذا انقلبَ العدلُ ظُلْمًا، والأملُ يأسًا، عافَهُما الإنسانُ، ولوَى وجهَه عنهما، وقالَ للقاضي: «لا أحبُّ قانونك» وللكاهنِ: «لا أؤمنُ بك». وهنا يهبُّ الفيلسوفُ الغيورُ غاضبًا، فيحاكمُ القضاءَ أمام العدلِ، والكهنوتَ أمام اللهِ، وكذلك فعلَ «فولتير»، فكانَ من المحسنين.

إنّ الرجلَ العظيمَ لا يظهرُ في المجتمعِ وحيدًا إلّا قليلًا، وكلّما كثرَ العظماءُ حولَه، ارتفعَ شأنُه، وعلا ذكرُه. فهو كالشجرةِ الباسقةِ تكونُ في الغابةِ الشجراءِ أطولَ منها في التربةِ الجرداءِ، لأنّها تكون بين لداتِها وأترابِها، وكان فولتيرُ في غابةٍ من العقولِ الكبيرةِ: روسّو[1] وديدرو[2] وبوفون[3] وبومارشيه[4] ومونتسكيو[5]؛ أولئك القومُ المفكّرون المخلصون هم الذين علّموا الناس النظرَ في حقائقِ الأشياءِ، والتفكّر الصحيحَ الموصل إلى إتقانِ الأعمالِ وعلّموهم أن صلاحَ القلبِ أثرٌ من آثار صلاحِ العقلِ، فأجادُوا وأفادُوا.

ماتَ أولئك القومُ العظماءُ، وهوَتْ من أفقِها كواكبُهم، ولقد كانوا في حياتِهم جسَدًا وروحًا؛ أمّا الجسدُ، فقد طواه القبرُ، وأمّا الروح، فهي الثورةُ التي تركُوها من بعدِهم.

أجلْ، إنّ الثورةَ روحُهم، والمظهرُ الساطعُ المتلألئُ بحكمتِهم ومبادئِهم.

هم في الحقيقةِ أبطالُ الثورةِ المقدّسةِ، التي هي خاتمةُ الماضي، وفاتحةُ المستقبلِ.

إنّك تراهم بعينِ بصيرتِك، في كلِّ مواقفِها ومواقعِها. وإذا استطعْتَ أن تنفذَ بعينِ بصيرتِك في مواطنِ الأشياءِ، رأيتَ على نورِ الثورةِ الساطعَ أنّ ديدرو كان واقفًا وراء دانتون[6]، وروسّو وراء روبسبير[7]، وفولتير وراء ميرابو[8]، ووجدْتَ أبطالَ الثورةِ صنيعةَ أبطالِ الفلسفةِ.

---

(١) هو جان جاك روسّو (ت١١٩٣هـ/ ١٧٧٨م) كاتب فرنسي له مؤلفات فلسفيّة منها: «العقد الفريد»، و«اميل»، و«اعترافات». أسهمت مؤلفاته في نشأة الثورة الفرنسيّة.

(٢) ديدرو (ت١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م) فيلسوف فرنسي وناقد اجتماعي. نشر مبادئ الإلحاد والفلسفة العقلانيّة في القرن الثامن عشر.

(٣) هو جورج لويس ليكير (ت١٢٠٣/ ١٧٨٨م) أديب فرنسي وعالم بالطبيعيات. من مؤلّفاته: «التاريخ الطبيعي».

(٤) بومارشيه (ت١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م) كاتب فرنسي، له هزليات لاذعة النقد، منها «زواج فيغارو».

(٥) مونتسكيو (ت١١٦٩هـ/ ١٧٧٥م) كاتب فرنسي أسهمت مؤلفاته في تطوير الدستور الفرنسي إبان الثورة. أهم مؤلّفاته «روح الشرائع».

(٦) دانتون: أحد أبطال الثورة الفرنسيّة.

(٧) روبسبير (ت١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م) من رجال الثورة الفرنسيّة، وكان المحرّك الأكبر «للجنة الأمن العام».

(٨) ميرابو (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م) سياسي وثائر فرنسي. اشتهر بالخطابة، وكان صوته أوّل صيحة بالثورة =

إنّ الكلمةَ الأخيرةَ التي انطلقَ بها في هذا الموقفِ العظيمِ، هي دعاءُ المجتمعِ البشريّ إلى التقدّمِ بهدوءٍ وسكونٍ، وثباتٍ ووقارٍ.

ولقد وَجَدَ الحقُّ ضالّتَه التي كان ينشدُها، وهي الإخاءُ الإنسانيّ والتعارفُ النفسيّ، فمن العبثِ أن تشغلَ القوّةُ بعد ذلك مكانًا في هذا المجتمعِ، فإن فعلَتْ كانَ أليقَ الأسماءِ بها اسمُ الاستبدادِ.

إنّ المجتمعَ الإنسانيّ أنكرَ على القوّةِ حقَّها المزعومَ، وضاقَ صدرُه بجرائمِها وآثامِها، فقاضَاها بين يدي الحقِّ، وأتَى بالتاريخ شاهدًا على دعواه، فقضي عليها ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

شفَّ ثوبُ الرياءِ عمّا تحته، وظهرَتِ الحقيقةُ بيضاءَ ناصعةً، لا غبارَ عليها، فأصبحَ الأبطالُ والمجرمون في نظرِ الإنسانيّةِ سواءً، لأنّهم جميعًا يسفكون الدماءَ.

هدمَ التمدينُ تلك القاعدةَ الفاسدةَ: وهي أنّ الجرمَ العظيمَ أصغرُ من الجرمِ الصغيرِ. فأدركَ الإنسانُ أنّ قتلَ الشعوبِ أكبرُ إثمًا، وأعظمُ جريرةً من قتلِ الأفراد، واستكبرَ أن يعتبرَ الحربَ مجدًا وهو يعتبرُ السرقةَ عارًا، وبالجملةِ: عرفَ أنّ الجريمةَ جريمةٌ، حيثما حلّتْ، وفي أيّ مظهرٍ ظهرَتْ، وأنّ القاتلَ لا يُغني عنه من اللهِ شيئًا أن يسمّى القيصرَ أو يُدعى الأمبراطور. ولا يخفى على اللهِ من أمرِه شيءٍ سواءٌ ألبسَ تاجَ الملكِ، أم قَلَنْسُوَةَ الإعدام!

فَلْنُصَرِّحْ بالحقيقةِ المقرّرةِ الثابتةِ، ولْنَحْتَقِرِ الحربَ أشدَّ الاحتقارِ، إنّ الحربَ المباركةَ لا أثرَ لها في الوجودِ.

إنّ منظرَ الدماءِ والأشلاءِ أفظعُ منظرٍ.

لا يعقلُ أن يكونَ الشرُّ طريقَ الخيرِ، وأن يكونَ الموتُ وظيفةَ الحياةِ.

أيّتها الأمّهاتُ الجالساتُ حولي: خفّفْنَ من أحزانِكنَّ، فقد أوشكَتْ يدُ الحربِ أن تكفَّ عن اختلاسِ أفلاذِ أكبادِكُنّ.

أتشقَى المرأةُ، فتلِدُ، ويغرسُ الزراعُ فيكسو الأرضَ بساطَها الأخضرَ، ويَجِدُّ العاملُ فيملأُ الخزائنَ فضّةً وذهبًا، ويأتي الصانعُ بعجائبِ المصنوعاتِ وغرائبِ المدهشاتِ، حتّى إذا أخذتِ الأرضُ زخرفَها، وفاخرتِ السماءُ بنجومِها وكواكبِها، وذهبْنا لرؤيةِ معرضِها العامّ، وجدْناهُ ساحةَ القتالِ؟!

آه! إنّنا لا نستطيعُ مع الأسفِ أن نخدعَ أنفسَنا، وننكرَ أنّ الساعةَ التي نحن فيها تشتملُ على بضعِ دقائقَ محزنةٍ تكدّرُ صفوَها، وتنقصُ من سرورِها.

لا تزالُ في مرآةِ السماءِ الصافيةِ سحابةٌ سوداءُ.

إنّ الشعبَ لم يقضِ كلَّ أربِه من السعادةِ، لأنّ الحربَ لا تزالُ باقيةً.

= الفرنسيّة حين رفض إجابة أمر مندوب الملك بالخروج من قاعة الاجتماع.

فَلْنَذْكُرْ عند ملوكِ الحربِ: فولتير وجان جاك وديدرو ومونتسكيو ملوكَ السلامِ، ولنوجّهْ وجوهَنا إلى تلك الروحِ العاليةِ، إلى تلك الحياةِ العظيمةِ، إلى ذلك الدَّفينِ المقدّسِ، إلى فولتير، ولنجْثُ أمامَ قبرِه ضارعين متوسّلين، عسَى أن يمدّنا بروحٍ من عنده، ويَهْدِيَنا إلى حظيرةِ السلامِ المقدّسةِ، فإنّه، وإن مرّ قرنٌ على موتِه، لم يزلْ في الأحياءِ الخالدين.

لنقفْ في طريقِ الدماءِ المتدفّقةِ لنقولَ للسفّاكين بصوتٍ عالٍ كفى! كفى! إنّها همجيّةٌ، إنّها وحشيّةٌ، إنّها تشوّهُ وجهَ المدنيّةِ الجميلِ.

إنّ أسلافَنا من الفلاسفةِ رسلُ الحقِّ إلى البشرِ.

فلْنَضْرَعْ إليهم في تذكارِهم هذا أن يتداركوا الفتنةَ قبل وقوعِها، وينادوا: أنّ الحياةَ ملكُ الإنسانِ، وعزيزٌ عليه أن تُسلَبَ منه، وأنّ التمتّعَ بالحريّةِ حقٌّ من حقوقِ العقولِ والأفكارِ، فلا يعترضُ سبيلَها معترضٌ.

إنّ النورَ لا أثرَ له بين أضواءِ القصورِ، فَلْنَطْلُبْهُ بين ظلماتِ القبورِ.

❀ ❀ ❀

العلماء والجهلاء

لا تحسبَنَّ أنّ الفلسفةَ الاصطلاحيّةَ مطلبٌ من المطالبِ التي لا ترامُ، أو أنّ بين من نسمّيهم العلماءَ ومن نسمّيهم الجهلاَ ذلك الفرقَ العظيمَ الذي يتصوّره الناسُ عندما يرَون التفريقَ بينهما، وإنزالَهما منازلَهما. فالعلماءُ والجهلاءُ - إنْ دقّقْتَ النظرَ - سواءٌ لا فَرق بينهما، إلّا أنّ هؤلاءِ يعلمون المعلوماتِ منظّمةً، وأولئك يعلمونها مبعثرةً، وأنّ هؤلاءِ يحسنون البيانَ عنها، وأولئك لا يبينون.

ومن نظرَ إلى الأشياء نظرًا نافذًا، وجدَ أنّ المعاني الصحيحةَ، والقضايا الكونيّةَ المتعلّقةَ بالخيرِ والشرِّ والنفعِ والضررِ، والمسائلَ المنوطةَ بالإنسانِ في حياتَيْهِ المادّيةِ والمعنويّةِ، يشتركُ في العلمِ بها الناسُ جميعًا؛ عامّتُهم وخاصّتُهم، كبارُهم وصغارُهم، من نشأ تحت سقوفِ الجامعاتِ، ومن عاشَ تحت سقوفِ السّمواتِ. لأنّ العلمَ يَنبوعٌ يفورُ من الداخلِ، لا سيلٌ يتدفّقُ من الخارجِ، ولأنّ المعلوماتِ كامنةٌ في النفوسِ كُمونَ النارِ في الزَّنْدِ، والقوّةِ في المادّةِ؛ وما وظيفةُ العلم إلّا استثارتُها من مكانِها، وبعثُها من مراقدِها.

وآيةُ ذلك أنّك لا تجدُ حكمةً من الحكَمِ التي يفخرُ بها العلماءُ، ويعدّونها مظهرَ علمِهم وآيةَ فضلِهم، إلّا وترى في ألسنةِ العامّةِ وشواردِ أقوالِها وأمثالِها ما يرادفُها ويشاكلُها، كما أنّك لا تجدُ قاعدةً من قواعدِ الأدبِ، ولا قضيّةً من قضايا الأخلاقِ التي تعدّها من ذخائرِ الأسفارِ ونفائسِ الأعلاقِ، إلّا وهي ملقاةٌ تحت أقدامِ العامّةِ، ومذلّلةٌ بين أيدي الغوغاءِ والأمّيين.

وعندي أنّه لولا عجزُ العامّةِ عن بيانِ ما يجولُ في خواطرِهم، ويهجسُ في ضمائرِهم من

المعلوماتِ على صورةٍ مرتّبةٍ منظّمةٍ، لَما خُيِّلَ إليهم أنّهم يسمعون من الخاصّةِ كلامًا عجيبًا، أو معنًى غريبًا.

ليس هذه الغبطةُ التي نراها تعلقُ بنفوسِهم عندما يتلقَّون أحاديثَ الخاصّةِ من أجلِ أنّهم علموا ما لم يكونوا يعلمون، أو أدركوا ما لا عهدَ لهم به من قبلُ، بل لأنّهم ظفروا بمن يترجمُ عن أفكارِهم، ويجمعُ لهم شتاتَ المعاني المبعثرةِ في أنحاءِ أدمغتِهم، ولأنّهم وجدُوا في أنفسِهم لذّةَ الأنسِ بأفكارِ تشابهُ أفكارَهم وآراءهم.

ولا أخشى بأسًا إن قلت: إنّ علمَ العامّةِ أفضلُ من علمِ الخاصّةِ، لأنّه أوّلًا علمٌ خالصٌ من شائبةِ التكلّفِ والتعمّلِ، حتّى إنّك لتجدُ في بعضِ الأحايين بين معلوماتِ الخاصّةِ ومذاهبهم وآرائهم ما يضحكُ الثكلَى[1] لغرابتِه وشذوذِه، وما يترفّعُ أضيقُ العامَّةِ ذهنًا، وأضعفُهم فهمًا أن يجعلَ له شأنًا، أو يقيمَ له وزنًا، وثانيًا لأنّه يعلقُ بالنفس ويتغلغلُ بين أطوائِها تغلغلًا تظهرُ آثارهُ على الجوارحِ.

وكثيرًا ما تجدُ بين الجهلاءِ من تعجبُك استقامتُه وبين العلماءِ من يدهشُك اعوجاجُه؛ وإنْ كان صحيحًا ما يقولون من أنّ العلمَ ما ينتفعُ به صاحبُه، فكثيرٌ من الجهلاءِ أعلمُ من كثيرٍ من العلماءِ.

فلا تبالغْ في تقديرِ فلسفةِ الفلاسفةِ وعلمِ العلماءِ، ولا تنظرْ إليهم نظرًا يملأ قلبَك رهبةً، ولا تغلُ[2] في احتقارِ الجهلاءِ وازدراءِ العامّةِ والدَّهماءِ، ولا تكنْ ممّنْ يقضون حياتَهم أسرى العناوينِ وعبيدَ الألقابِ.

إنّ في اختفاءِ الحقائقِ الكونيّةِ وتنكرِها، وضلالِ هذا العالمِ في مذاهبِه ومراميه، وتفرّقِه مذاهبَ وشيعًا، وركوبِ كلِّ فريقٍ رأسَه، وهيامِه على وجهِه، ووقوفِ طلّابِ الحقيقةِ في كلّ دهرٍ وعصرٍ في مفارقِ الطرقِ ورؤوسِ المسالكِ حيارَى - ينشدون، فلا يجدون، ويجدُّون، فلا يصلون - لدليلًا على أنّ الفلاسفةَ والحكماءَ والعلماءَ كلماتٌ غيرُ مفهوماتٍ، وأسماءٌ بلا مسمّياتٍ، وأنّ حقائقَ الأشياءِ وأسرارَ الكائناتِ، قد استأثرَ اللهُ بعلمِها واحتجنَها من دون عبادِه، ولم يمنحْهم إلّا بِلّةً تزيدُهم وجدًا، كلّما وجدُوا بردَها، وتملأُ قلوبَهم شوقًا كلّما تذوّقوا طعمَها:

ضريبُك في بني الدنيا كثيرٌ ... وعزَّ اللهُ رَبُّكَ مِنْ ضَريبِ
وما العلماءُ والجهلاءُ إلّا ... قريبٌ حينَ تنظرُ من قريبِ

❃ ❃ ❃

---

(١) الثكلى: المرأة التي فقدت ولدها.

(٢) لا تغلُ: من المغالاة أي المبالغة.

الرجل والمرأة

سيّدي المحترم:

لا تعجبْ إن رأيتَ إعجابي بك ظاهرًا في كلِّ سطرٍ من سطورِ كتابي هذا، فإنّما أنطقُ بلسانٍ كثيرٍ من العقلاءِ، الذين يُحبّونك حبًّا جمًّا، ويعتقدون أنّك فريدٌ في أدبِك، فريدٌ في قلمِك، فريدٌ في تسامحِك وتساهلِك، لذلك أردنا أنْ نوجّهَ إليك السؤالَ الآتي، راجين منك الإجابةَ عليه:

لماذا نرى الهيئةَ الاجتماعيّةَ تحكمُ على المرأةِ الفاسقةِ حكْمًا صارمًا فتنبذُها وتحتقرُها، ولا تحكمُ على الرجلِ الفاسقِ مع أنّ جريمَتَهُمَا واحدةٌ؟

هذا ما أردنا أن نسترشدَ برأيك فيه، والسلام.

«سائل»

يعتقدُ كثيرٌ من الناسِ أنّ الرجلَ والمرأةَ سواءٌ في الذَّكاءِ والعقلِ، وعندي أنّهم أصابوا في الأولى وأخطأوا في الأخرى.

تستطيعُ المرأةُ أن تجاريَ الرجلَ في سرعةِ الفهمِ، وحضورِ البديهةِ، ولا تستطيعُ أنْ تجاريَه في الأناةِ والرفقِ وامتلاكِ هوَى النفسِ، والأخذِ بفضيلةِ الصبرِ على ما تكرهُ وعمّا تحبُّ.

تستطيعُ المرأةُ أن تُدركَ ما يُدركُهُ الرجلُ من الشؤونِ والأطوارِ، وأنْ تستخرجَ كما يُستخرجُ المجهولاتِ من المعلوماتِ، ولكنّها لا تستطيعُ أن تنتفعَ بمعلوماتها كما ينتفعُ، لأنْ بين جنبَيْها نفسًا غيرَ نفسِه، وهوًى غيرَ هواه، ولأنّ لها قلبًا صغيرًا لا يقوَى على احتمالِ ما يحتملُه عقلُه الكبيرُ.

يمشي الرجلُ وراء عقلِه، فيَهْديه.. وتمشي المرأةُ وراء قلبِها، فيضلُّها، فما وقَفَتْ معه في موقفٍ إلّا سقطَتْ بين يديه عجزًا وضعفًا؛ لأنّه يعرفُ السبيلَ إلى قلبِها، ولا تعرفُ السبيلَ إلى عقلِه.

لا تعجبْ إنْ قلتُ لك: إنّ الذكاءَ غيرُ العقلِ، فاللصوصُ والمحتالون، والمزوّرون، والكاذبون، والفاسقون، والمنافقون أذكياء، وليس بينهم عاقلٌ واحدٌ، لأنّهم يوردون أنفسَهم مواردَ التلفِ والهلاكِ، من حيث لا يُغني عنهم ذكاؤهم شيئًا.

وكثيرًا ما يكونُ الذكاءُ الشديدُ داعيةَ الجنونِ؛ حتّى إنّك لا تكادُ ترَى ذكيًّا من الأذكياءِ، إلّا وترَى له في شؤونِه وأطوارِه أحوالًا شاذّةً لا تنطبقُ على قانونٍ من قوانينِ العقلِ، ولا قاعدةٍ من قواعدِ الطبيعةِ. وعندي أنّ أكثرَ ما يصيبُ النوابغَ والأذكياءَ من بؤسِ العيشِ، وسوءِ الحالِ عائدٌ إلى ضعفٍ في عقولهم، ونقصٍ في تصوّراتهم. وبعد؛ فالذَّكاءُ في رأسِ الإنسانِ كالسيفِ في يدِ الشجاعِ. وكثيرًا ما يضربُ الشجاعُ عنقَ نفسِه بسيفِه إذا كان طائشًا أهوجَ لا يملِك نفسَه في مواقفِ الحزنِ أو الغضبِ.

فما يُغني المرأةَ ذكاؤها، إذا لم يكنْ وراءه عقلٌ يملكُها، ويصرفُها، ويمسكُ بيدها أن تعثرَ في عَدْوِها واشتدادِها بعقبةٍ من عقباتِ هذه الحياةِ.

سيثقلُ هذا الحكمُ على نفوسِ النساءِ والرجالِ الذين يجاملونهنّ، ولكن ماذا أعملُ وبين يدي برهانٌ قاطعٌ ليس في استطاعتهنّ أن يُنَازِعْنَنِي فيه مع شدّةِ ذكائهنّ، ولا في استطاعةِ أنصارِهنّ من الرجالِ أن ينقضُوه، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا[١].

لولا أنّ الرجلَ أعقلُ من المرأةِ، ما كان له عليها هذا السلطانُ، وذلك الغلبُ، ولا استطاعَ أن يقودَها وراءه كما يقادُ الجنيبُ[٢]، ولا أن يملكَ عليها أمرَ فقرِها وغناها، وحبسِها وإطلاقِها، وحجابِها وسفورِها، ويستأثرَ من دونها بوضعِ القوانين والشرائعِ الخاصّةِ بها من حيث لا ترى في نفسِها قوّةً لدفعها، والخروجِ عليها.

القويُّ يملكُ على الضعيفِ بحكمِ الطبيعةِ كلَّ شيءٍ حتّى نفسَه وهواه، وكذلك كان شأنُ الإنسانِ مع الحيوان، وشأنُ الرجلِ مع المرأةِ.

الإنسانُ نوعٌ من أنواعِ الحيوانِ، لم يكنْ في مبدأ خليقتِه خيرًا منها في شأنٍ من شؤونِ الحياةِ، ولكنّه كان أوفرَ منها عقلًا، وأوسعَ حيلةً. فما زال يطلبُ لنفسِه الغايةَ التي تناسبُ استعدادَه وفطرتَه، حتى أصبحَ سيّدَ الحيوانِ، فمدَّنَ المدنَ، ومصّرَ الأمصارَ، وشادَ وبنى، وتأنّقَ وترفّهَ، ثم طردَ صاحبَه إلى الصحاري والرمالِ، ورؤوس الجبالِ، يأكلُ بعضُه بعضًا، ويتفانَى شقاءً وجَهْلًا. والرجلُ أخو المرأةِ وقسيمُها في الرحمِ والمهدِ، والأبوّةِ والأمومةِ، والقومةِ والعقدةِ، والنومةِ واليقظةِ، ولكنّه وجدَ في نفسِه فضلًا عليها في قوّةِ العقلِ والتدبيرِ، وكان ظالمًا خشنَ النفسِ قاسي القلبِ، فأبى إلّا أن يأسرَها ويغلبَها على أمرِها، ويملكَ عليها جسمَها ونفسَها، فتمّ له ما أراد.

ملكَ عليها جسمَها لأنّه حجبَها عن النورِ والهواءِ فأذعنَتْ. وملكَ عليها نفسَها لأنّه ألقَى في رُوعِها[٣] أنّ ذنبَها في جريمةِ الفسقِ المشتركةِ بينَه وبينها أكبرُ من ذنبِه، وأنّ جنايتَها ضعفُ جنايتِه فصدقتْ. وطلبَ منها أن تسلّمَ إليه الأمرَ في تدبيرِ شؤونِها والتصرّفِ بأموالها فسلّمتْ، وأصبحتْ تنظرُ إلى هذه القوانين الجائرةِ التي وضعَها لها، والاعتباراتِ الفاسدةِ التي اعتبرَها معها، كما ينظرُ إليها هو بعين الإجلالِ والإعظامِ.

يخدعُ الرجلُ المرأةَ عن شرفِها، فيسلبُها إيّاه. فإذا سقطَتْ، هاجَ المجتمعُ الإنسانيُّ عليها رجالُه ونساؤه، وملأ قلبَها هولًا ورعبًا، وأوسعَ نفسَها تقريعًا وتأنيبًا من حيث لا تصبرُ على شرارةٍ واحدةٍ من هذه النارِ المتأجّجةِ، لأنّه هو الذي وضعَ هذا القانونَ وشرعَ تلك الشريعةَ. وما كان له أن يقصّرَ في ممالأةِ نفسِه ومحاباتِها، لأنّه شرهٌ طمّاعٌ محبٌّ لذاتِه، ولا أن يعدلَ في القضاءِ في قضيّةٍ هو الخصمُ فيها والحكمُ، لأنّه ظالمٌ جبّارٌ.

ولو كان للمرأةِ ما للرجلِ من قوّةِ العقلِ، لاستطاعَتْ هي أن تحجبَه في المنزلِ، وأنْ تتولّى

---

(١) الظهير: المعين.
(٢) الجنيب: المهر الذي يقاد إلى جانب مهر آخر.
(٣) الروع: القلب.

التصرّفَ في شأنه، وأنْ تعبثَ بعقلِه ما شاءَتْ، فتعظّمُ جريمتَه وتصغّرُ جريمتَها في عينِه، وأنْ تنفذَ إلى قلبِه، فتلعبَ به لعبَ الصبيِّ بالكرةِ، وأنْ تحدّثَه فيصدّقَ، وتأمرَه فيأتمرَ، وأنْ تسنَّ له القوانينَ الجائرةَ، والشرائعَ الفاسدةَ فيؤمِنُ بها إيمانَه بالإلهِ المعبودِ كما صنعَ هو بها في جميعِ ذلك، فبلغَ منها ما أرادَ.

لا أريدُ أن أقولَ، إنّ هذا الفرقَ في القوةِ العقليّةِ بين الرجلِ والمرأةِ يمنحُه هذا الحقَّ في ظلمِها وغلبتِها على حقّها، بل أريدُ أن أقولَ، إنّ هذا الفرقَ بينهما هو سببُ ذلك السلطانِ القاهرِ، والحكم الجائرِ.

وجملةُ القولِ، إنّ حكمَ المجتمعِ الإنسانيّ بإدانةِ المرأةِ الزانيةِ وبراءةِ الرجلِ الزاني حكمٌ ظالمٌ، ولو أنّه أنصفَها، لعرفَ فرقَ ما بينهما في القوّةِ العقليّةِ، فجعلَ عقابَ الرجلِ القويِّ المهاجمِ فوق عقابِ المرأةِ الضعيفةِ المدافعةِ، ولكنّه لم يفعلْ ذلك لأنّ رجالَه ظلمةٌ جائرون، ولأنّ النساءَ ساذجاتٌ بسيطاتٌ، يصدّقْنَ الرجالَ في أقوالِهم، وينظرْنَ إلى المستحسناتِ والمستهجناتِ بأنظارِهم. فإنْ أردْنا أن تنالَ المرأةُ حقَّها من الرجلِ، وأن تنتصفَ منه، فَليس سبيلَها إلى ذلك المغالبةُ والمصارعةُ، فإنَّها أضعفُ منه جسْمًا وعقلًا، بل السبيلُ إليه أن نعلّمها لتعرفَ كيف تستعطفُه وتسترحمُه، وكيف تحملُه على إجلالِها وإعظامِها، وأن تعلّمه ليستطيعَ أن يكونَ شخصًا كريمًا، وإنسانًا رحيمًا.



الدعوة

ما من قائمٍ يقومُ في مجتمعٍ من هذه المجتمعاتِ البشريّةِ داعيًا إلى تركِ ضلالةٍ من الضلالاتِ، أو بدعةٍ من البدعِ، إلّا وقد آذنَ نفسَه بحربٍ لا تخمدُ نارُها، ولا يخبو أوارُها[1] حتى تهلكَ، أو يهلكَ دونها.

ليس موقفُ الجنديّ في معتركِ الحربِ بأحرجَ من موقفِ المرشدِ في معتركِ الدعوةِ، وليس سلبُ الأجسام أرواحَها بأقربَ منالًا من سلبِ النفوسِ غرائزَها وميولَها. ولا يضنُّ الإنسانُ بشيءٍ ممّا تملكُ يمينُه ضنَّه بما تنطوي عليه جوانحُه من المعتقداتِ. وإنّه ليبذلُ دمَه صيانةً لعقيدتِهِ، ولا يبذلُ عقيدتَه صيانةً لدمِه. وما سالتِ الدماءُ، ولا تمزّقتِ الأشلاءُ في موقفِ الحروبِ البشريّةِ من عهدِ آدمَ إلى اليوم إلّا حمايةً للمذاهبِ، وذودًا عن العقائدِ.

لذلك كان الدعاةُ في كلِّ أمّةٍ أعداءَها وخصومَها، لأنّهم يحاولون أن يَرْزَئُوها في ذخائرِ نفوسِها، ويُفجعوها في أعلاقِ قلوبِها.

---

(١) الأوار: اللهيب.

الدعاةُ أحوجُ الناسِ إلى عزائمَ ثابتةٍ، وقلوبٍ صابرةٍ على احتمالِ المصائبِ والمِحَنِ التي يلاقونها في سبيلِ الدعوةِ، حتى يبلغوا الغايةَ التي يريدونها، أو يموتوا في طريقِها.

الدعاةُ الصادقون لا يبالون أن يسمّيَهم الناسُ خونةً، أو جهلةً أو زنادقةً، أو مُلْحِدين، أو ضالّين، أو كافرين، لأنّ ذلك ما لا بدّ أن يكونَ.

الدعاةُ الصادقون يعلمون أنّ محمّدًا ﷺ عاشَ بين أعدائه ساحرًا كذّابًا، ومات سيّدَ المرسَلين. وأنّ الإمامَ الغزالي[١] عاش بالكفرِ والإلحادِ، ومات حجّةَ الإسلام. وأنَّ ابن رشد[٢] عاشَ ذليلًا مُهانًا حتّى كان الناسُ يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف الشرق؛ فهم يحبّون أن يكونوا أمثالَ العظماءِ أحياءً وأمواتًا.

سيقول كثيرٌ من الناس: وما يُغني الداعيَ دعاؤه في أمّةٍ لا تُحسِنُ به ظنًّا، ولا تسمعُ له قولًا، إنه يضرُّ نفسَه من حيث لا ينفعُ أمّتَه، فيكونُ أجهلَ الناس وأحمقَ الناس.

هذا ما يوسوسُ به الشيطانُ للعاجزين الجاهلين، وهذا هو الدّاءُ الذي ألَمّ بنفوسِ كثيرٍ من العلماءِ، فأمسكَ ألسنتَهم عن قولِ الحقّ، وحبَس نفوسَهُم عن الانطلاقِ في سبيلِ الهدايةِ والإرشادِ، فأصبحوا لا عملَ لهم إلّا أنْ يكرّروا للناسِ ما يعلمون، ويعيدُوا عليهم ما يحفظون، فجمدتِ الأذهانُ، وتبلّدتِ المداركُ، وأصبحتِ العقولُ في سجنٍ مظلمٍ لا تطلعُ عليه الشمسُ، ولا ينفذُ إليه الهواءُ.

الجهلُ غشاءٌ سميكٌ يغشى العقلَ. والعلمُ نارٌ متأجّجةٌ تلامسُ ذلك الغشاءَ فتحرقُه رويدًا رويدًا، فلا يزالُ العقلُ يتألّمُ لحرارتِها ما دامَ الغشاءُ بينه وبينها، حتى إذا أتتْ عليه، انكشفَ له الغطاءُ، فرأى النارَ نورًا، والألمَ لذّةً وسرورًا.

لا يستطيعُ الباطلُ أن يصرعَ الحقَّ في ميدانٍ، لأنّ الحقَّ وجودٌ، والباطلَ عدمٌ؛ إنّما يصرعُه جهلُ العلماءِ بقوّته، ويأسُهم من غلبتِه، وإغفالُهم النّداءَ به والدعاءَ إليه.

محالٌ أن يهدمَ بناءَ الباطلِ فردٌ واحدٌ في عصرٍ واحدٍ، وإنّما يهدمُه أفرادٌ متعدّدون، في عصورٍ متعدّدةٍ، فيهزّه الأولُ هَزّةً تباعدُ ما بين أحجارِه، ثمّ ينقصُ الثاني منه حجرًا، والثالثُ آخر، وهكذا حتّى لا يبقَى منه حجرٌ على حجرٍ.

الجهلاءُ مرضَى والعلماءُ أطبّاءُ، ولا يجملُ بالطبيبِ أن يحجمَ عن العملِ الجراحيّ فرارًا من إزعاجِ المريضِ، أو خوفًا من صياحِه وعويلِه، أو اتقاءَ لسبّه، وشتمِه، فإنّه سيكونُ غدًا أصدقَ أصدقائه وأحبَّ الناسِ إليه.

وبعدُ؛ فقليلٌ أنْ يكونَ الدّاعي في الأمّةِ الجاهلةِ حبيبًا إليها إلّا إذا كان خائنًا في دعوتِه،

---

(١) هو أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) فيلسوف عربي لقّب بحجّة الإسلام، من كتبه: «إحياء علوم الدين».

(٢) هو محمد أحمد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) فيلسوف عربي سمّاه الغرب «الشارح» حاول التوفيق بين الدين والفلسفة في كتابه: «فصل المقال»، ودافع عن الفلسفة ضدّ الغزالي في كتاب: «تهافت التهافت».

سالكًا سبيلَ الرياءِ والمداهنةِ في دعوتِه، وقليلٌ أن ينالَ حظّه من إكرامِها وإجلالِها إلّا بعدَ أن تتجرَّعَ مرارةَ الدواءِ، ثم تشعرَ بحلاوةِ الشفاءِ.

الدعاةُ في هذه الأمّةِ كثيرون ملءُ الفضاءِ، وكظّةُ[١] الأرضِ والسماءِ، ولكن لا يكادُ يوجدُ بينهم داعٍ واحدٌ، لأنّه لا يوجدُ بينهم شجاعٌ واحدٌ.

أصحابُ الصحفِ وكتّابُ الرسائلِ والمؤلّفون وخطباءُ المجامعِ وخطباءُ المنابرِ كلُّهم يدعون إلى الحقِّ، وكلُّهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروفِ وينهَون عن المنكرِ، ولكن لا يوجدُ بينهم من يستطيعُ أن يحملَ في سبيلِ الدعوةِ ضرًّا، أو يلاقي في طريقها شرًّا.

رأيتُ الدعاةَ في هذه الأمّةِ أربعةً: رجلٌ يعرفُ الحقَّ ويكتمُه عجزًا وجبنًا، فهو ساكتٌ طولَ حياتِه لا ينطقُ بخيرٍ ولا شرٍّ. ورجلٌ يعرفُ الحقَّ، وينطقُ به، ولكنّه يجهلُ طريقَ الحكمةِ والسياسةِ في دعوتِه، فيهجمُ على النفوسِ بما يزعجُها وينفّرُها؛ وكان خيرًا له لو صنعَ ما يصنعه الطبيبُ الماهرُ الذي يضعُ الدواءَ المرَّ في «برشامة» ليسهلَ تناولُه وازدرادُه. ورجلٌ لا يعرفُ حقًّا ولا باطلًا، فهو يخبطُ في دعوتِه خبطَ الناقةِ العشواءِ في بيدائِها، فيدعو إلى الخيرِ والشرِّ والحقِّ والباطلِ، والضارّ والنافعِ، في موقفٍ واحدٍ، فكأنّه جوادُ امرئِ القيس الذي يقول فيه:

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقْـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَـعًـا

ورجلٌ يعرفُ الحقَّ ويدعوُ الأمّةَ إلى الباطلِ دعوةَ المجدِّ المجتهدِ، وهو أخبثُ الأربعةِ وأكثرهُم غائلةً؛ لأنّه صاحبُ هوًى يرى أنّه لا يبلغُ غايتَه منه إلّا إذا أهلكَ الأمّةَ في سبيلِه، فهو عدوُّها في ثيابِ صديقِها؛ لأنّه يوردُها مواردَ التلفِ والهلاكِ باسم الهدايةِ والإرشادِ. فليت شعري من أيّ واحدٍ من هؤلاءِ الأربعةِ تستفيدُ الأمّةُ رشدَها وهداها؟!

ما أعظمَ شقاءَ هذه الأمّةِ وأشدَّ بلاءها! فقد أصبحَ دعاتُها في حاجةٍ إلى دعاةٍ، ينيرون لهم طريقَ الدعوةِ، ويعلمونهم كيف يكون الصبرُ والاحتمالُ في سبيلها. فليت شعري، متى يتعلّمون، ثم يُرشدون؟!

❀ ❀ ❀

الحياة الذاتيّة

أكثرُ الناسِ يعيشون في نفوسِ الناسِ أكثرَ ممّا يعيشون في نفوسِ أنفسِهم، أي أنّهم لا يتحرّكون ولا يسكنون، ولا يأخذون ولا يدعون إلّا لأنّ الناسَ هكذا يريدون.

حياةُ الإنسانِ في هذا العالمِ حياةٌ ضمنيّةٌ مدّخلةٌ في حياة الآخرين، فلو فتّشَ عنها، لا يجدُ لها أثرًا إلّا في عيونِ الناظرين، وآذانِ السامعين، وأفواهِ المتكلّمين.

---

(١) الكظة: البطنة.

يُخيَّلُ إليّ أنّ الإنسانَ لو علمَ أنّه سيصبحُ في يومٍ من أيّام حياتِه وحيدًا في هذا العالمِ لا يجدُ بجانبه أذنًا تسمعُ صوتَه، ولا عينًا تنظرُ شكلَه، ولا لسانًا يردّد ذكرَه، لآثرَ الموتَ على الحياةِ علّه يجدُ في عالمٍ غيرِ هذا العالمِ - من آذانِ الملائكةِ أو عيونِ الجنّةِ - مقاعدَ يقتعدُها، فيطيبُ له العيشُ فيها.

إذا كانت حياةُ كلِّ إنسانٍ متلاشيةً في حياةِ الآخرين، فأيُّ مانعٍ يمنعُني من القولِ بأنّ تلكَ الحياةِ التي نحسبُها متكثّرةً متعدّدةٍ، إنّما هي حياةٌ واحدةٌ يتّفقُ جوهرُها، وتتعدَّدُ صورُها، كالبحرِ المائجِ نراه على البعدِ، فنحسبُه طرائقَ قددًا[1]، ونحسبُ موجةً من أمواجه قسمًا من أقسامه، فإذا دنونا منه لا نرى غيرَه، ولا نجدُ لجزءٍ من أجزائه حيّزًا مستقلًّا، ولا وصفًا ثابتًا.

لا يحيا في هذا العالمِ حياةً حقيقيّةً، إلّا ذلك الشاذُّ الغريبُ في شؤونه وأطواره وآرائه وأعماله، الذي كثيرًا ما نسمّيه مجنونًا، فإن رضينا عنه بعضَ الرضا، سمّيناه فيلسوفًا، ونريدُ بذلك أنّه نصفُ مجنونٍ، فهو الذي يتولّى شأنَ الإنسانِ، وتغيير نظاماتِه وقوانينِه، وينتقلُ به من حالٍ إلى حالٍ بما يغيِّر من عاداتِه ويحوّلُ من أفكارِه.

أيّةُ قيمةٍ لحياةِ امرىءٍ، لا عملَ له فيها إلّا معالجةُ نفسِه على الرِّضا بما يرضَى به الناسُ، فيأكلُ ما لا يشتهي، ويصدفُ[2] نفسَه عمّا تشتهي، ويسهرُ حيث لا يستعذبُ طعمَ السهرِ، وينامُ حيث لا يطيبُ له المنامُ، ويلبَسُ من اللباسِ ما يحرجُ صدرَه، ويقصمُ ظهرَه، ويشربُ من الشرابِ ما يُحْرِقُ أمعاءه، ويأكلُ أحشاءه، ويضحكُ لما يبكي ويبكي لما يضحكُ، ويبتسمُ لعدوِّه، ويقطّبُ في وجهِ صديقِه، وينفقُ في دراسةِ ما يسمّونه علمَ السلوكِ - أي علم المداهنةِ والملقِ - زمنًا لو أنفقَ عشرَ مِعْشارِه في دراسةِ علمٍ من العلومِ النّابغةِ، لكانَ نابغتَه المبرّزَ فيه حرصًا على رضاء الناس، وازدلافًا إلى قلوبهم.

ليستْ شهوةُ الخمرِ من الشهواتِ الطبيعيّةِ المركّبةِ في غرائزِ الناسِ؛ فلو لم يذوقوها، لما طلبوها، ولا كلِفُوا بها[3]، وما جناها عليهم إلّا كَلَفُ تاركيها برضاءِ شاربيها. وما كان الترفُ خلُقًا من الأخلاقِ الفطريّةِ في الإنسانِ ولكن كلفَ المتقشّفون برضاءِ المترَفين فتترّفوا[4]، فحملوا في ذلك السبيلِ من شقاءِ العيشِ وبلائِه وأثقالِ الحياةِ وأعبائِها، ما نغّصَ عليهم عيشَهم، وأفسدَ عليهم حياتَهم.

وإنّك لترى الرجلَ العاقلَ الذي يعرفُ ما يجِبُ، ويعلمُ ما يأخذ وما يدع، يبيعُ منزلَه في نفقةِ عرسِ ولدِه أو ابنتِه، فلا تجدُ لفعلِه تأويلًا إلّا خوفَه من سخطِ الناسِ واتّقاءَ مذمّتِهم. وكثيرًا ما قتلَ الخوفُ من سخطِ الناس والكلفُ برضاهم ذكاءَ الأذكياءِ وأطفأ عقولَ العقلاءِ. وكم رأينا من ذكيّ يظلُّ طولَ حياتِه خاملًا متلفّفًا لا يجرؤ على إظهارِ أثرٍ من آثارِ فطنتِه وذكائه

(١) القدد: المقطّعة.
(٢) أصدف: أبعدَ.
(٣) كَلف بالشيء: أحبّه وشغف به.
(٤) ترّفوا: تنعّموا.

مخافةَ هُزءِ الناسِ وسخريتِهم، وعاقلٍ لا يمنعُه من الإقدامِ على إصلاحِ شأنِ أمّتِه وتقويمِها إلّا سخطُ الساخطين ونقمةُ الناقمين.

وما أُعجبْتُ برجلٍ في حياتي إعجابي بأديبٍ من أدباءِ هذه الأمّةِ يكتبُ الرسالةَ التي يريدُ كتابتَها بينه وبين نفسِه، ثم يُدلي بها إلى صحيفةٍ من الصحفِ أيّةَ كانت، ثم يمضي لسبيلِه كأنّه ما صنع شيئًا، فلا يسيرُ وراءها سيرَ المتسمّعِ المتجسّسِ ليعلمَ ما رأيُ الناسُ فيها، وما حديثهم، عنها، وهل سخطوا عليها، أو رضوا بها؟ ولا يمسي متنقّلًا في المجامعِ والأنديةِ، مسائلًا عنها كلَّ غادٍ ورائحٍ، ليجدَ خيرًا، فيضحكَ ويستبشرَ، أو شرًا، فيبكيَ وييتئسَ.

بل كثيرًا ما رأيتُه يسمعُ حديثَ الناسِ عنه في حالَيْ رضاهم وسُخْطِهم ساكنًا هادئًا، كأنما يتحدّثون عن غيرِه، ويَعنُون شخصًا سواه، حتّى كدتُ أتخيّلُ ألّا فرقَ عندهُ بين: أحسنْتَ وأجدْتَ، وأسأتَ وأخطأتَ. بل قلّما رأيتُه على كثرةِ لصوقي به، وتفقّدي مواقعَ سمعِه وبصرِه يقرأُ ما تكتبُه الصحفُ عنه، وما تعلّقه غلوّ آرائه وأفكاره، من مدحٍ أو ذمٍّ، حتى كدتُ أحملُ تلك الحالِ الغريبةِ من أمرِه على البَلَهِ والغفلةِ، أو العظمةِ والكبرياءِ، لولا أنّي فاتحتُه مرّةً في ذلك وسألتُه:

لِمَ لا تحفلُ برأيِ الكتّابِ فيك، ولِمَ لا تقرأُ ما يكتبون عنك؟

فأجابَ: إنّني ما أقدمتُ على الكتابةِ للناسِ في إصلاحِ شؤونهم، وتقويمِ معوجهم، إلّا بعد أن عرفتُ أنّي أستطيعُ أن أنزلَ منهم منزلةَ المعلّمِ من المتعلّم، للناسِ خاصّةً وعامّةً؛ أمّا خاصّتُهم، فلا شأنَ لي معهم، ولا علاقةَ لي بهم، ولا دخلَ لكلمةٍ من كلماتي في شأنٍ من شؤونهم، فلا أفرحُ برضاهم، ولا أجزعُ لسخطِهم، لأنّي لم أكتبْ لهم، ولم أتحدَّثْ إليهم، ولم أشهدْهم أمري، ولم أحضرْهم عملي، بل أنا أتجنّبُ جهدَ المستطيعِ أن أستمعَ منهم كلَّ ما يتعلّقُ بي من خيرٍ وشرٍّ، لأنّي راضٍ عن طريقتي التي أكتبُ بها رسائلي، فلا أحبُّ أن يكدّرَها عليَّ مكدّرٌ، وعن آرائي التي أودعها إيّاها، فلا أحبُّ أن يشكّكَني فيها مشكّكٌ.

ولم يَهَبْني اللهُ من قوّةِ الفراسةِ ما أستطيعُ أن أميّزَ بين مخلّصهم ومشوبِهم، فأُقبلُ على الأولِ لأستفيدَ علمَه، وأُعرِضُ عن الثاني لأتّقيَ غشَّه؛ فأنا أسيرُ بينهم مسيرَ رجلٍ بدأ يقطعُ مرحلةً لا بدَّ له أن يفرغَ منها في ساعةٍ محدودةٍ، ثمّ علمَ أن على يمينِ الطريقِ الذي يسلكُه روضة غنّاءَ تعتنقُ أغصانُها، وتشتجرُ أفنانُها، وتغرّدُ أطيارها، وتتألّق أزهارُها، وأنّ على يسارِه غابًا تزأرُ أسودُه، وتعوي ذئابُه، وتفحّ أفاعيه وصلالُه، فمشى قُدُمًا لا يلتفتُ يمنةً مخافةَ أن يلهوَ عن غايته بِشَهَوات سَمْعِه وبصره؛ ولا يسرةً مخافةَ أن يهيّجَ بنظراتِه فضولَ تلك السباعِ المقعيَةِ، والصلالِ الناشرةِ فتعترضُ دون طريقِه.

وأمّا عامّتُهم، فهم بين ذكيٍّ قد وهبَه اللهُ من سلامةِ الفطرةِ وصفاءِ القلبِ وسلامةِ الوجدانِ ما يعدُّه لاستماعِ القولِ واتّباع أحسنِه، فأنا أحمَدُ اللهَ في أمرِه، وضعيفٍ قد حِيلَ بينه وبين

نفسِه، فهو لا يرضَى إلّا عمّا يُعجبُه، ولا يسمعُ إلّا ما يُطربُه، فأكِلُ أمرَه إلى الله، واستلهمُه صوابَ الرأيِ فيه حتّى يجعلَ له من بعدِ عسرٍ يُسرًا.

فأنا إنّما أكتبُ للناسِ لا لأعجبَهم، بل لأنفعَهم، ولا لأسمعَ منهم أنت أحسنْتَ، بل لأجدَ في نفوسِهم أثرًا ممّا كتبتُ، فلو أنّ هذه الملايينَ الاثنَيْ عشرَ التي يحتضنُها هذان الجبلان، أجمعَتْ أمرَها على الإعجابِ بي والرضا عنّي، ثم رأيتُ من بينها رجلًا واحدًا ينتفعُ بما أقولُ، لكان الواحدُ المستفيدُ آثرَ في نفسي من الملايين المعجَبين.

أتدري لمَ عجزَ كتّابُ هذه الأمّةِ عن إصلاحِها؟ لأنّهم يظنّون أنّهم لا يزالون حتّى اليومِ طلبةً يتعلّمون في مدارسهم، وأنّهم جالسون بين يدي أساتذةِ اللغةِ يتلقّون عنهم دروسَ البيانِ؛ فترَى واحدًا منهم يكتبُ وهمُّه المالئُ قلبَه أن يُعجبَ اللغويين، أو يروقَ المنشئين، أو يُطْرِبَ الأدباءَ، أو يُضحِكَ الظرفاءَ.

ولا يدخلُ بابَ أغراضِه ومقاصدِه أن يتفقّدَ المسلكَ الذي يجبُ أن يسلكَه إلى قلوبِ الذين يقولُ إنّه يعظُهم، أو ينصحُهم، أو يهذّبُهم، أو يثقّفُهم، ليعلمَ كيف يَنْفَذُ إلى نفوسِهم، وكيفَ يهجمُ على قلوبِهم، وكيف يملكُ ناصيةَ عقولِهم؛ فيعدلُ بها عن ضلالِها إلى هداها، وعن فسادِها إلى صلاحِها، فمثَلُه كمثلِ الفارسِ الكذّابِ الذي تراه حاملًا سيفَه كلّ يومٍ إلى الجوهريّ ليرصّعَ له قبضتَه، أو الحدادِ ليشحذَ له حدَّه، أو الصقيلِ ليلجوَ له صفحتَه، ولا تراه يومًا في ساحةِ الحربِ ضاربًا به.

نعم قد يكونُ الولعُ برضاءِ الناسِ والخوفُ من سخطِهم مذهبًا من مذاهبِ الخيرِ، وطريقًا من طرقِ الهدايةِ للضالّ عنها، لو أن الفضيلةَ هي الخلقُ المنتشرُ فيهم، والغالبُ على أمرهم. ولو كان الأمرُ كذلك، لآثرتُ أن يعرضَ المرءُ نفسَه على الفضيلةِ ذاتها من حيث هي، لا من حيث تشخيصُها في أذهانِ الناسِ وقولِهم، فإذا استوثقَ منها وعلمَ أنّها قد خالطَتْ قلبَه وأخذتْ مستقرّها من نفسِه جعلَها ميزانًا يزنُ به أقوالَه وأفعالَه كما يزنُ به أقوالَ الناسِ وأفعالهم، ثمّ لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه، أحبّوه أم أبغضوه، فإنّما يبكي على الحبِّ النساءُ.

❁ ❁ ❁

العبرات

كنتُ أغبطُ نفسي على التجلّدِ والصبرِ، وأحسبُني قادرًا على الاستمساكِ في كلّ رزءٍ مهما جلّ شأنُه، وعظمَ وقتُه، فلمّا مات «مصطفى كامل» علمتُ أنّ من الرزايا ما لا يطاقُ احتمالُه، ولا يستطاعُ تجرّعُه.

كلّ يومٍ نرى الموتَ، ولا نزالُ نعدُّ الموتَ غريبًا، هيهاتِ! لا غرابةَ في الموتِ، ولكنّ الغريبَ موتُ الرجلِ الغريبِ.

كلَّ يوم تمرُّ بنا قوافلُ الموتى فلا نأبَهُ لها، وأكبرُ نصيبِها منا الحوقلةُ[١] والاسترجاع، فلمّا مرّتْ قافلةُ «مصطفى كامل» دهشْنا وجزعْنا، لأنّه كان غريبًا في حياتِه، فأحرَى أن يكونَ غريبًا في مماتِه.

مات «مصطفى كامل» فعرفْنا الموتَ، وما كنّا نعرفُه قبلَ ذلك، لأنّنا ما كنّا نرى إلّا أمواتًا يُنْقَلُون من ظهرِ الأرضِ إلى بطنِها، أما «مصطفى كامل» فكان حيًّا حياةً حقيقيّةً، فكانَ موتُه كذلك.

لا يحسبُ الكاتبون أنّهم صنعوا شيئًا إذا بذلُوا لذلك الرجلِ العظيمِ قطرةً من المدادِ[٢]، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاءً حسنًا إذا بذلوا له قطرةً من الدمعِ، فإنه كان يبذلُ لهم ماءَ حياتِه قطرةً فقطرةً حتى أفناه، ومضى لسبيله، وشتّانَ ما بين صنيعِهم وصنيعِه.

أين قطراتُ الدموعِ التي يريحُ بها الباكُون أنفسَهم، أو قطراتُ المدادِ التي يرصّعُ بها الكتّابُ بياضَ صحائفِهم، من قطراتِ الحياةِ التي أراقَها «مصطفى كامل» في سبيلِ وطنِه وأمّته؟

كان «مصطفى كامل» سراجًا كبيرَ الشعلةِ، وكلُّ سراجٍ تكبرُ شعلتُه يفرغُ زيتُه وشيكًا، وتحترقُ ذُبالتُه[٣]، فينطفئُ نورُه.

كان «مصطفى كامل» نشيطًا سريعَ الحركةِ فقطعَ جسرَ الحياةِ في لحظةٍ واحدةٍ.

كان الوطنيّون قبلَ اليومِ يتكلّمون، فلمّا صاحَ «مصطفى كامل»، وأسمعَ في صياحِه، عَرَفوا أنّ آذانَ السياسةِ لا يخترقُها إلّا الصوتُ الجهوريُّ، ولولاه ما كانوا يعرفون.

كان الوطنيّون يحتقرون أنفسَهم ويسيئون الظنَّ به، فلا يصدّقون أن تربةَ مصرَ تنبتُ أمثالَ «فولتير، وهوجو، وغاريبالدي، وواشنطون»[٤]، فلمّا نبغَ بينهم «مصطفى كامل»، عرفوا أنّ تربةَ الشرقِ لا تختلفُ كثيرًا عن تربةِ الغربِ لو تعهّدها الزارعون.

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشةِ الموسيقار يضربُ بها على أوتارِ القلوبِ، وكأنّما كان بينه وبينها سلكٌ كهربائي، فهي تتحرّكُ بحركته، وتسكنُ بسكونِه.

ما كان «مصطفى كامل» أذكَى الناسِ، ولا أعلمَ الناسِ، ولا أعقلَ الناسِ، ولكنّه كان أشجعَ الناسِ.

كان يفكّرُ فيقتنعُ، فيصمّمُ فيمضي فلا ينثني حتّى الموتِ، كان يخطئُ أحيانًا في اتّخاذِ الوسائلِ إلى آمالِه، ولكنّه كان إذا اتّخذها، لا يتمهّلُ ريثما يتبيّنُ أيَّ طريقٍ يأخذُ، أو أيَّ مسلكٍ يسلكُ، مخافةَ أن تفترَ همّتُه بين الأخذِ والردِّ، فيكونُ خطؤه في تردّدِه أكثرَ من خطئِه في جهادِه.

---

(١) الحوقلة: قول «لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله». (٢) المداد: الحبر.

(٣) ذبالة السراج: فتيلته.

(٤) واشنطن: جورج واشنطن (ت١٢١٥هـ/١٧٩٩م) قائد سياسي أميركي وأوّل رئيس لها.

كان له منافسون يرمونه بالخفّةِ والطيشِ، ويقولون له: إنّك مخطئٌ أو مضرٌّ، أو غيرُ محسنٍ، أو غيرُ عظيم، فما كان يصدّقُ من ذلك شيئًا كأنّما كان ينظرُ بعينِ الغيبِ إلى هذا اليومِ الذي اتّفقَ فيه أصدقاؤه وأعداؤه، وخصومُه وأولياؤه، على أنّه رجلٌ عظيمٌ.

ما كان «مصطفى كامل» من الأغنياءِ، ولا من بيتِ المُلكِ، وما كان آمرًا ولا ناهيًا، ولا رافعًا ولا خافضًا؛ ولكنّه لقيَ من إجلالِ الناسِ لموتِه وإعظامِهم لمصيبتِه، ما لم يلقَ واحدٌ من هؤلاءِ، ولا فضلَ لهم في ذلك عليه، فهو الذي علّمهم كيف يحترمون العقولَ، ويجلّون المناقبَ والمزايا.

فيا أيُّها القارئُ الكريمُ، إن كان لك ولدٌ تحبُّ أن تجعَلَه رجلًا، فاجعلْ بين يدَيه حياةَ «مصطفى كامل» ليتعلمَ منها الشجاعةَ والأقدام.

ويا أيّها المصريُّ، كن أحرصَ الناسِ على وطنيّتِك، ولا تبغِ بها بَدلًا من عرضِ الدنيا وزخرفِها؛ فإنّك إنْ فعلْتَ، كنتَ «مصطفى كامل».

ويا أيّها الإنسانُ، أقدِمْ على عظائمِ الأمورِ، ولا تلتفِتْ يمنةً ولا يسرةً، واخترقْ بسيفِ شجاعتِك صفوفَ المعترضين والنّاقمين والهازئين والسّاخرين، فإنّهم سيعترفون بفضلِك، ويسمّونك عظيمًا كما سمّوا «مصطفى كامل».

ويا أيّها الرجلُ المودَّعُ، إنّ بين جنبَيّ لوعةً تعتلجُ لفراقِك لا أعرفُ سبيلًا إلى التعبيرِ عنها إلّا القلم.

وهأنذا أعالجُ القلمَ علاجًا شديدًا على أن يسعفَني بحاجتي، وأقلّبُه ظهرًا لبطن، وأكثرُ من استمدادِه، أضغطُ به على القرطاسِ ضغطًا شديدًا، فلا أراهُ يُغني عنّي شيئًا.

خطر لي أن الحزنَ سويداءُ القلبِ، وأنّه بعيدُ الغورِ، ولا تبلغُه هذه الأداةُ القصيرةُ التي في يدي، فاستدلْتُ بها أداةً أطولَ منها، فكان حكمُها حكمَ سابقها.

إذن كيف أعبّرُ عن وجدي أيّها الفقيدُ الكريمُ، وقد خرسَ القلمُ وعيَ اللسانُ؟

الآنَ عرفتُ السبيلَ ووصلتُ إلى ما أريدُ.

أنت الآنَ في عالمِ الأرواحِ، وقد انكشفَ لك كلُّ شيءٍ من أسرارِ النفوسِ ودخائلِ القلوبِ، ولا بدّ أن يكونَ قد انكشفَ لك ما يكنُّ قلبي من الوجدِ عليك، والأسفِ على فراقِك، فما حاجتي بعد ذلك إلى ترجمةِ القلمِ أو تعبيرِ اللسانِ.

أيّها الراحلُ المودَّعُ: طبْتَ حيًّا ومَيْتًا، خدمْتَ أمّتَك في حياتِك وبعد مماتِك، ولولا حياتُك، ما نمَتِ العاطفةُ الوطنيّةُ في نفوسِ المصريّين، ولولا مماتُك، ما عرفَ العالمُ أجمعُ أنّ الأمّةَ المصريّةَ على اختلافِ مشاربِها ومذاهبِها تجمعُها كلمةٌ واحدةٌ هي حبُّ الوطنِ وحبُّ رجالِه العاملين.

❃ ❃ ❃

دمعة على الإسلام

كتبَ إليّ أحدُ علماءِ الهندِ كتابًا يقولُ فيه، إنّه اطّلعَ على مؤلَّفٍ ظهرَ حديثًا بلغةِ «التاميل»، وهي لغةُ الهنودِ الساكنين بناقورَ وملحقاتِها بجنوبِ مدراس[١]، موضوعُه: تاريخُ حياةِ السيّدِ عبدِ القادر الجيلاني[٢]، وذكرُ مناقبِه وكراماتِه، فرأى فيه من الصفاتِ والألقابِ التي وصفَ بها الكاتبُ السيّدَ عبدَ القادر ولقّبَه بها صفاتٍ وألقابًا هي بمقامِ الألوهيّةِ أليقُ منها بمقامِ النبوّةِ، فضلًا عن مقامِ الولايةِ كقوله «سيّد السموات والأرض» و«النفّاع الضرّار» و«المتصرّف في الأكوان» و«المطّلع على أسرار الخليقة» و«مُحيي الموتى» و«مُبرئ الأعمى والأبرص والأكْمَهِ» و«أمرُه من أمر الله» و«ماحي الذنوب» و«دافع البلاء» و«الرافع الواضع» و«صاحب الشريعة» و«صاحب الوجود التام» إلى كثيرٍ من أمثالِ هذه النعوتِ والألقابِ!

ويقول الكاتبُ: إنّه رأى في ذلك الكتابِ فصلًا يشرحُ فيه المؤلّفُ الكيفيّةَ التي يجبُ أن يتكيّفَ بها الزائرُ لقبرِ السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه: «أوّلُ ما يجبُ على الزائرِ أنْ يتوضّأَ وضوءًا سابغًا، ثم يصلّي ركعتَيْن بخشوعٍ واستحضارٍ، ثمّ يتوجّهُ إلى تلك الكعبةِ المشرفةِ؛ وبعدَ السلامِ على صاحبِ الضريحِ المعظمِ يقول:

«يا صاحبَ الثقلَيْن، أغِثْني وأمدَّني بقضاءِ حاجتي وتفريجِ كربتي. أغِثْني يا مُحْيِي الدين عبد القادر، أغثني يا ولي عبد القادر، أغثني يا سلطان عبد القادر، أغثني يا بادشاه عبد القادر، أغثني يا خوجة عبد القادر».

«يا حضرةَ الغوثِ الصمداني، يا سيّدي عبد القادر الجيلاني، عبدُك ومريدُك مظلومٌ عاجزٌ محتاجٌ إليك في جميعِ الأمورِ في الدين والدنيا والآخرة».

ويقولُ الكاتبُ أيضًا: إنّ في بلدةِ (ناقور) في الهندِ قبرًا يُسمّى «شاه الحميد»، وهو أحدُ أولادِ السيّدِ عبد القادر - كما يزعمون - وأنّ الهنودَ يسجدون بين يدي ذلك القبرِ سجودَهم بين يدَي الله، وأنّ في كلِّ بلدةٍ من بلدانِ الهنودِ وقراها مزارًا يمثّلُ مزارَ السيّدِ عبد القادر، فيكونُ القِبْلَةَ التي يتوجّهُ إليها المسلمون في تلك البلادِ، والملجأَ الذي يلجأون في حاجاتِهم وشدائدِهم إليه، وينفقون من الأموالِ على خدمتِه وسدانته[٣]، وفي موالدِه وحضراتِه ما لو أُنفقَ على فقراءِ الأرضِ جميعًا لصاروا أغنياءَ.

هذا ما كتبَه إليّ ذلك الكاتبُ؛ ويعلمُ الله أنّي ما أتممْتُ قراءةَ رسالتِه حتى دارتْ بيَ

---

(١) مدراس: هي أكبر مدينة في جنوب الهند.

(٢) عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ/١١٦٦م) مؤسّس الطريقة القادريّة، من كبار الصوفيين. أوصى بالتقشّف ومحبّة الغريب. له «الفتح الربّاني والفيض الرحماني» و«الغنية لطالبي طريق الحقّ».

(٣) السِّدانة: الخدمة.

الأرضُ الفضاءُ، وأظلمَتِ الدنيا في عيني، فما أبصرُ ممّا حولي شيئًا حزنًا وأسفًا على ما آلتْ إليه حالةُ الإسلام بين أقوامٍ نكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه، وذهبوا به مذاهبَ لا يعرفها، ولا شأنَ له بها.

أيُّ عينٍ يجملُ بها أن تستبقيَ في محاجرها قطرةً واحدةً من الدمعِ، فلا تريقُها أمامَ هذا المنظرِ المؤثرِ المحزنِ، منظرِ أولئك المسلمين، وهم ركّعٌ سجّدٌ على أعتابِ قبرٍ ربّما كان بينهم من هو خيرٌ من ساكنِه في حياتِه، فأحرى أن يكونَ كذلك بعد مماتِه!

أي قلبٍ يستطيعُ أن يستقرّ بين جنبَيْ صاحبِه ساعةً واحدةً، فلا يطيرُ جزعًا حينما يرى المسلمين أصحابَ دينِ التوحيد أكثرَ من المشركين إشراكًا بالله؛ وأوسعَهم دائرة في تعدّدِ الآلهةِ، وكثرةِ المعبوداتِ!

لِمَ ينقُمُ المسلمون التثليثَ من المسيحيين؟ لِمَ يحملوا لهم في صدورهم تلك المَوْجِدَةَ[١] وذلك الضغْنَ؟ وعلامَ يحاربونهم؟ وفيمَ يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشركِ بالله مبلغَهم، ولم يغرقوا فيه إغراقهم!؟

يدينُ المسيحيّون بآلهةٍ ثلاثةٍ، ولكنّهم يشعرون بغرابةِ هذا التعدّدِ وبعدِه عن العقلِ، فيتأوّلون فيه، ويقولون إنّ الثلاثةَ في حكم الواحد. أمّا المسلمون فيدينون بآلافٍ من الآلهةِ، أكثرُها جذوعُ أشجارٍ، وجثثُ أمواتٍ، وقطعُ أحجارٍ، من حيث لا يشعرون!

كثيرًا ما يضمرُ الإنسانُ في نفسِه أمرًا، وهو لا يشعرُ به، وكثيرًا ما تشتملُ نفسُه على عقيدةٍ خفيّةٍ لا يحسُّ باشتمال نفسِه عليها. ولا أرى مثلًا لذلك أقربَ من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتِهم ومطالبهم إلى سكانِ القبورِ ويتضرّعون إليهم تضرّعهم للإلهِ المعبودِ. فإذا عتبَ عليهم في ذلك عاتبٌ، قالوا: إنّا لا نعبدُهم، وإنّما نتوسّلُ بهم إلى الله، كأنّهم يشعرون أنّ العبادةَ ما هم فيه، وأنّ أكبرَ مظهرٍ لألوهيّةِ الإلهِ المعبودِ أن يقفَ عبادُه بين يديه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمدادَه ومعونتَه، فهم في الحقيقةِ عابدون لأولئك الأمواتِ من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلامُ بعقيدةِ التوحيدِ ليرفعَ نفوسَ المسلمين، ويغرسَ في قلوبهم الشرفَ والعزّةَ والأنفةَ والحميّةَ، وليعتقَ رقابَهم من رقِّ العبوديّةِ، فلا يَذِلُّ صغيرُهم لكبيرِهم ولا يهابُ ضعيفُهم قويَّهم، ولا يكون لذي سلطانٍ بينهم سلطانٌ إلّا بالحقِّ والعدلِ. وقد تركَ الإسلامُ بفضلِ عقيدةِ التوحيدِ ذلك الأثرَ الصالحَ في نفوسِ المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أَنَفَةٍ وعزّةٍ، وإباءٍ وغَيْرَةٍ، يضربون على يدِ الظالمِ إذا ظلَمَ، ويقولون للسلطانِ إذا جاوزَ حدَّه غيرها سلطانه: قفْ مكانك، ولا تغلُ في تقدير مقدار نفسِك، فإنّما أنت عبدٌ مخلوقٌ لا ربٌّ معبودٌ، واعلمْ أنّه لا إلَهَ إلا الله.

---

(١) الموجدة: الحقد.

هذه صورةٌ من صورِ نفوسِ المسلمين في عصر التوحيد. أمّا اليومَ وقد داخلَ عقيدتَهم ما داخلَها من الشِّركِ الباطنِ تارةً والظاهرِ أخرى، فقد ذلّتْ رقابُهم، وخفقَتْ رؤوسُهم، وضرعَتْ نفوسُهم، وفترَتْ حميّتُهم، فرضوا بخطةِ الخسفِ، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهمُ السبيلَ إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسَهم، وأموالَهم، ومواطنَهم، وديارَهم، فأصبحوا من الخاسرين.

واللهِ، لن يسترجعَ المسلمون سالفَ مجدِهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسِهم من سعادةِ الحياةِ وهناءتها، إلّا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدةِ التوحيدِ. وإنَّ طلوعَ الشمسِ من مغربها، وانصبابَ ماءِ النهرِ في منبعِه، أقربُ من رجوعِ الإسلام إلى سالفِ مجدِه، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدَيِ اللهِ، ويقولُون للأوّلِ كما يقولون للثاني: «أنت المتصرّفُ في الكائناتِ، وأنتَ سيّدُ الأرضين والسموات».

إنَّ اللهَ أغيرُ على نفسِه من أن يسعدَ أقوامًا يزدرونه، ويحتقرونه، ويتّخذونه وراءهم ظهريًا. فإذا نزلتْ بهم جائحةٌ، أو ألمّتْ بهم ملمّةٌ[1]، ذكروا الحجرَ قبل أن يذكروه، ونادوا الجذعَ قبل أن ينادوه.

بمَنْ أستغيثُ؟ وبمَنْ أستنجدُ؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمّةِ الفادحةِ؟ أأدعو علماءَ مصرَ وهم الذين يتهافتون على «يوم الكنسة»[2] تهافُتَ الذبابِ على الشرابِ؟ أم علماءَ الآستانةِ وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني[3] فيلسوفَ الإسلامِ ليحيوا أبا الهدى الصّيادي شيخ الطريقة الرفاعية؟ أم علماءَ العجمِ وهم الذين يحجّون إلى قبرِ الإمامِ كما يحجّون إلى البيتِ الحرامِ؟ أم علماء الهند وبينهم أمثالُ مؤلّفِ هذا الكتابِ؟

يا قادةَ الأمّةِ ورؤساءها، عذَرْنا العامّةَ في إشراكها، وفساد عقائدها، وقلنا إنّ العامّيَ أقصرُ نظرًا، وأضعفُ بصيرةً من أن يتصوّرَ الألوهيّةَ إلّا إذا رآها ماثلةً في النّصُبِ، والتماثيلِ، والأضرحةِ والقبور. فما عذرُكم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرأون صفاتِه ونعوتَه، وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وقوله مخاطبًا نبيه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾. وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؟

إنكمُ تقولونَ في صباحِكم ومسائكم وغدوِّكم ورواحِكم: «كلُّ خيرٍ في اتباعِ مَنْ سَلفَ، وكلُّ شرٍّ في ابتداعِ مَنْ خلفَ». فهل تعلمون أنّ السلفَ الصالحَ كانوا يجصّصون[4] قبرًا، أو يتوسّلون بضريحٍ؟ وهل تعلمون أنّ وَاحدًا منهم وقفَ عند قبرِ النبي ﷺ، أو قبرِ أحدٍ من

(١) الملمّة: المصيبة.

(٢) يوم يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي للتبرّك بكنس ترابه.

(٣) جمال الدين الأفغاني (ت١٢١٣هـ/١٧٩٧م) فيلسوف الإسلام في عصره. له «إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم».

(٤) يجصّصون: يطلون بالجصّ، أي الكلس.

أصحابِه وآل بيتِه، يسألُه قضاءَ حاجةٍ، أو تفريجَ[١] همٍّ؟

وهل تعلمون أنّ الرفاعي[٢] والدسوقي[٣] والجيلاني والبدوي[٤] أكرمُ عند اللهِ وأعظمُ وسيلةٍ إليه من الأنبياءِ والمرسَلين، والصحابةِ والتابعين؟

وهل تعلمون أنّ النبيَّ ﷺ حينما نَهى عن إقامةِ الصورِ والتماثيلِ، نهى عنها عبثًا ولعبًا، أم مخافةَ أن تعيدَ للمسلمين جاهليَّتَهُمْ الأولى؟ وأيُّ فرقٍ بين الصورِ والتماثيلِ وبين الأضرحةِ والقبورِ، ما دامَ كلٌّ منها يجرُّ إلى الشركِ، ويفسدُ عقيدةَ التوحيدِ؟

واللهِ، ما جهلتم شيئًا من هذا، ولكنّكم آثرتُم الحياةَ الدنيا على الآخرةِ، فعاقَبكُمُ اللهُ على ذلك بسلبِ نعمتِكم، وانتقاضِ أمرِكم، وسلّطَ عليكم أعداءكم يسلبون أوطانَكم، ويستعبدون رقابَكم، ويخرّبون ديارَكم، واللهُ شديدُ العقابِ.

❋ ❋ ❋

السياسة

حضرةَ السيّدِ الفاضلِ:

ما لك لا تكثرُ من الكتابةِ في الشؤونِ السياسيّةِ، إكثارَك منها في الشؤونِ الأخلاقيّةِ والاجتماعيّةِ؟ وكيف يضيقُ بالسياسةِ قلمُك، وقد وسعَ ما هو أدقُّ مذهبًا منها؟ فاكتبْ لنا في السياسةِ، فأمّتُك تحبُّ أن تراك سياسيًّا، والسلامُ.

«فلان»

أيّها الكاتبُ:

يعلمُ اللهُ أنّي أبغضُ السياسةَ وأهلَها بغضي للكذبِ والغشِّ، والخيانةِ والغدرِ.

أنا لا أحبُّ أن أكونَ سياسيًّا، لأنّي لا أحبُّ أن أكونَ جلّادًا، لا فرقَ عندي بين السياسيّين والجلّادين، إلّا أنّ هؤلاء يقتلون الأفرادَ، وأولئك يقتلون الأممَ والشعوبَ.

هل السياسيّ إلّا رجلٌ قد عرفتْ أمّتُه أنّه لا يوجدُ بين أفرادِها من هو أقسَى منه قلبًا، ولا أعظمُ كيْدًا، ولا أكثرُ دهاءً ومكْرًا، فنصّبَتْه للقضاء على الأمم الضعيفةِ، وسلبِها ما وهبَها اللهُ من الحسناتِ، وأجزلَ لها من الخيراتِ؟

---

(١) تفريج: تخفيف.

(٢) هو أبو العباس أحمد الحسيني (ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) صوفي، شافعي المذهب، مؤسّس الطريقة الرفاعيّة. له: «الطريق إلى الله».

(٣) هو محمد بن عرفة (ت١٢٣٩هـ/ ١٨١٥م) فقيه مالكي. له: «الحدود الفقهيّة».

(٤) هو أبو العباس أحمد (٦٥٧هـ/ ١٢٧٦م) متصوّف تنسب إليه الطريقة الأحمديّة أو البدويّة، له ألقاب عدة منها. القطّاب أي الفارس، وأبو الفتيان، والغضبان، ومجيب الأسارى من بلاد النصارى. من مؤلفاته: «صلوات واذكار»، و«وصايا».

أليس أكبرُ السياسيّين مقامًا، وأعظمهُم فخرًا، وأسْيَرُهم ذكرًا، ذلك الذي نقرأُ صفحاتِ تاريخه، فنرى حروفَها أشلاءَ القتلى، ونقطَها قطراتِ الدماءِ؟

أيستطيعُ الرجلُ أن يكونَ سياسيًّا إلّا إذا كان كاذبًا في أقواله وأفعالِه، يُبطنُ ما لا يُظهرُ، ويُظهر ما لا يبطنُ، ويبسِمُ في موطنِ البكاءِ، ويبكي في مواطنِ الابتسامِ؟

أيستطيعُ الرجلُ أن يكونَ سياسيًّا، إلّا إذا عرفَ أن بين جنبيه قلبًا متحجّرًا لا يقلقُه بؤسُ البائسين، ولا تزعجُه نكباتُ المنكوبين؟

كثيرًا ما يسرقُ السارقُ، فإذا قضى مأربَه من عمله، رفع يديه إلى السماءِ متضرّعًا إلى الله تعالى أن يرزقَه المالَ حلالًا حتى لا يتناولَه حرامًا. وكثيرًا ما يقتلُ القاتلُ، فإذا فرغَ من أمرِه، جلسَ بجانبِ قتيلِه يبكي عليه بكاءَ الثاكلِ وحيدَها، ويتمنّى بجدعِ الأنفِ لو ردّ إليه حياتَه، وافتداه بنفسه.

أمّا السياسيّ، فلا يرى يومًا في حياته أسعدَ من اليومِ الذي يعلمُ فيه أن قد تمّ له تدبيرُه في هلاكِ شعبٍ، وقتلِ أمّةٍ، وآيةُ ذلك أنّه في يومِ انتصارِه - كما يسمّيه هو - أو في يومِ جريمتِه - كما أسمّيه أنا وتسمّيه العدالةُ الإنسانيّةُ - يسمعُ هتافَ الهاتفين باسمِه، واسمِ الجريمةِ التي ارتكبَها مطمئنَّ القلبِ، مثلجَ الصدرِ، حتى ليُخَيّلَ إليه أن الفضاءَ بأرضِه وسمائِه أضيقُ من أن يسعَ قلبَه الطائرَ المحلّقَ فرحًا وسرورًا.

يقولون: إنّ السياسةَ ليست عِلْمًا من العلومِ التي يتلقّاها الإنسانُ في مدرسةٍ أو يدرسُها في كتابٍ، وإنّما هي مجموعةُ أفكارٍ قانونُها التجاربُ، وقاعدتُها العملُ. أتدري لماذا؟

لأنّ العلماءَ أشرفُ من أن يدوّنوا المكايدَ والحِيَلَ في كتابٍ، ولأنّ المدارسَ أجلُّ من أن تجعلَ بجانبِ دروسِ الأخلاقِ والآدابِ، دروسَ الأكاذيبِ والأباطيلِ، وإلّا فكلُّ طائفةٍ من المعلوماتِ المتشابهةِ تدخلُ بطبيعتِها تحت نظامٍ يؤلّفُها، ويجمعُ شتاتَها، ويسمّى علمًا.

هؤلاء هم السياسيّون، وهذه هي أخلاقهُم وغرائزُهم، فهل تظنُّ، يا سيّدي، أنّ رجلًا نصّبَ نفسه لخدمةِ الحقيقةِ، ومناصرتِها على الباطل، واستنقاذِ الفضيلةِ من مخالبِ الرذيلةِ، ووقَفَ قلمَه على تهذيبِ النفوسِ وترقيةِ الأخلاقِ، وملأ في رسائلِه فضاءَ الأرضِ والسماءِ بكاءً على الضعفاءِ والمساكين والمظلومين والمضطهدين، يستطيعُ أن يكونَ سياسيًّا، أو محاسبًا للسياسيّين؟

❁ ❁ ❁

خداع العناوين

لقد جهلَ الذين قالوا: إنّ الكتابَ يُعرفُ بعنوانه. فإنّي لم أرَ بين كتبِ التاريخِ أكذبَ من كتابِ «بدائع الزهور»[1] ولا أعذبَ من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب «جواهر

---

(١) هو بدائع الزهور في وقائع الدهور، وضعه ابن إياس في تاريخ مصر، وينتهي في العصر العثماني.

الأدب»[١]، ولا أرقّ من اسمه، كما لم أرَ بين الشعراءِ أعذبَ اسمًا، وأحطّ شعرًا من «ابن مليك»[٢] و«ابن النبيه»[٣] و«الشاب الظريف»[٤].

لقد كثرَ الاختلافُ بين العناوينِ وبين الكتبِ حتى كدنا نقولُ: إنّ العناوينَ أدلُّ على نقائضِها منها على مفهوماتِها، وألصقُ بأضدادِها منها بمنطوقاتها، وأنّ العنوانَ الكبيرَ حيث الكتابُ الصغيرُ، والكتابَ الجليلَ حيث العنوانُ الضئيل.

الأتقياء:

لولا خداعُ العناوينِ ما سمعْنا صالحًا تقيًّا كلَّ مَنْ حرّكَ سبحته، وأطالَ لحيتَه، ووسّعَ جبّته، وكوّرَ عِمامَته، ولقد نعلمُ أنّ وراءَ هذا العنوانِ كتابًا أسودَ الصفحاتِ كثيرَ السقطاتِ، وأنّ تحت هذا الستارِ الحريريّ الرقيقِ نفسًا سوداءَ مظلمةً، لا ينفذُ إليها شعاعٌ من أشعّةِ الرحمةِ، ولا تهبُّ عليها نَسْمَةٌ من نَسَماتِ الإحسانِ.

لن يؤمنَ المؤمنُ حتّى يبذلَ في سبيلِ اللهِ، أو في سبيلِ الجماعةِ من ذاتِ نفسِه، أو ذاتِ يدِه، ما يشقُّ على مثلِه الجودُ بمثلِه، أمّا الجودُ بالشفاهِ للهمهمةِ، والأناملِ للمسبحةِ، فعملٌ لا يتكلّفُ صاحبُه له أكثرَ ممّا يتكلّفُ لتقليبِ ناظرَيْهِ، وتحريكِ هُدْبَيْه؛ وهل خلقتِ الشفاهُ إلّا للتحريكِ، والأناملُ إلّا للتقليبِ؟

إنّ للإيمانِ مواقفَ يمتحنُ اللهُ فيها عبادَه ليعلمَ الذين صدَقوا ويعلمَ الكاذبين، فإنْ بذلَ الضنينُ بمالِه في مواقفِ الرحمةِ والشفقةِ، والشحيحُ بنفسِه نفسَه في سبيلِ الذودِ عن حَوْضِه، والذبِّ[٥] عن عشيرتِه وقومِه، وضعيفُ العزيمةِ ما يملكُ من قوّةٍ وأيْدٍ في مغالبةِ شهواتِ نفسِه، ومقاومةِ نزواتِها، فذلك المؤمنُ الذي لا يشوبُ إيمانَه رياءٌ ولا دهانٌ، ولا يخالطُ يقينَه خِداعٌ ولا كذبٌ، أو لا، فَأَهْوِنْ بهمهمتِه ومسواكِه ومسبحتِه، وهو بعنوانِ المنافقِ الكاذبِ أجدرُ منه بعنوانِ التقيِّ الصالحِ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾.

الأمجاد:

يقولون إنّ الولدَ سرُّ أبيه، ويريدُون بذلك أنّه المرآةُ التي ترتسمُ فيها صورتُه، والبذرةُ التي تكمنُ فيها حقيقتُه، وعلى هذه القاعدةِ بنى البانون قاعدةَ المجدِ، فأعظموا شأنَ الرجلِ الذي يمسكُ بطرفِ سلسلةٍ في النسبِ يتّصلُ طرفُها الأعلَى بعظيمٍ من عظماءِ النفوسِ، أو شريفٍ من شرفاءِ الأخلاقِ.

---

(١) هو جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، وضعه الإربلي (بدر الدين بن محمد) وهو كتاب في النحو.

(٢) هو علي بن محمد (٩١٧هـ/ ١٥١١م) شاعر وأديب. له «النفحات الأدبيّة من الرياض الحمويّة».

(٣) هو علي بن محمد (ت٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) شاعر منشئ، مدح الأيوبيين، وتولّى ديوان الإنشاء للملك الأشرف موسى. له ديوان شعر صغير.

(٤) هو شمس الدين محمد التلمساني (ت٦٨٩هـ/ ١٢٨٩م) شاعر انصرف إلى اللهو والعبث. له ديوان.

(٥) الذبّ: الدفاع.

ثمّ ما زالَ الناسُ يعبثون بعنوانِ الشرفِ، ويتوسّعون في معناه حتّى نظّموا في سلكِه الجبابرةَ الذين يسمّونهم أمراءَ، والظَّلَمَةَ الذين يسمّونهم ملوكًا، والسفّاحين الذين يسمّونهم قوّادًا، واللصوصَ الذين يسمّونهم أغنياءَ. فساقَهم الخطأُ في فهمِ الشرفِ إلى الخطأ في فهمِ المجدِ، فسمّوا ماجدًا كلَّ من وُلِدَ في فراشِ مَلِكٍ، وإنْ كانَ الحاكمَ بأمر الله[١]، أو أميرٍ وإن كان الحجّاج[٢]، أو وزيرٍ وإن كان ابنَ الزيّات[٣]، أو قائدٍ وإن كان تيمورلنك[٤]، أو غنيٍّ وإن كان قارون[٥].

لا مجدَ إلّا مجدُ العلم، ولا شرفَ إلا شرفُ التقوى، ولا عظمةَ إلّا عظمةُ الآخذين بيدِ الإنسانيَةِ المعذّبةِ، رحمةً بها وحنانًا عليها.

أولئك هم الأمجادُ، وأولئك الذين يفخرُ الفاخرُ بالاتّصال بهم، والانتماءِ إليهم، وأولئك هم المُفلِحُون.

الأغنياء:

لم أرَ بين جماعةِ المتسوّلين الذين يضربون في الأرضِ وراء لقمةٍ يتبلّغون بها، أو خرقةٍ يتّقون بها لفحةَ الرمضاءِ[٦]، وهبةَ النكباءِ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمةَ الليل بكاءً ونحيبًا على صغارٍ كفراخ القطا[٧] يتلوّون في مضاجعهم من الجوع تلوّيَ الأفاعي المضطربة فوق الرمالِ الملتهبةِ، وتحت الشمسِ المحرقة، أسوأَ حالًا ولا أنكدَ عيشًا، ولا أعظمَ شقاءً من هؤلاءِ الفقراءِ الذين يسمّيهم الناسُ أغنياءَ.

يأكل الموسِرُ[٨] الباخلُ كما يأكلُ الفقيرُ، ويجلسُ كما يجلسُ، وينامُ كما ينامُ، ويشتهي كما يشتهي حتّى لتكادُ تثبُ أمعاؤه من جوفِه، وتسيلُ أحشاؤه من بين أشداقِه شوقًا إلى ما حرّمَ على نفسِه من أطايبِ العيشِ ولذائذه، ويستنُّ[٩] استنانَ الجوادِ الضامرِ في ميدانِ السَّبْقِ وراءَ الدرهمِ البعيدِ منالُه، حتّى تنبهرَ أنفاسُه، وتتخاذلَ أوصالُه، حتّى لو تخيَّلَ أن نجومَ السماءِ دنانيرُ منثورةٌ، لطارَ إليها بغيرِ جناحٍ، فسقط هاويًا؛ أو أنّ في بطنِ الأرضِ كنزًا مذخورًا، لتمنّى أن لو انفجرَ بركانُها تحت قدميه، فابتلعَتْه، فأصبحَ من الهالكين.

---

(١) هو منصور بن عبد العزيز (ت٤١١هـ/ ١٠٢١م) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر. اشتهر بعدله في بداية خلافته وبالظلم والاستبداد في نهايته. اختفى فجأة.

(٢) هو الحجّاج بن يوسف الثقفي (ت٩٥هـ/ ٧١٤م) قائد وخطيب عربي. تولّى إمرة الجيش في عهد عبد الملك بن مروان. قضى على ابن الزبير وابن الأشعث. أسس مدينة واسط في العراق.

(٣) هو محمد بن عبد الملك (ت٢٣٣هـ/ ٨٤٧م) وزير المعتصم والواثق العباسيين، عالم باللغة والأدب، وكان داهية.

(٤) تيمورلنك (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٥م) حفيد جانكيز خان ملك المغول كان بطّاشًا يقتل على الظنّة.

(٥) قارون: من أثرياء العبرانيين في عهد موسى. ذهب الله بماله، وورد اسمه في القرآن الكريم.

(٦) الرمضاء: شدّة الحرّ.

(٧) القطا: ج القطاة، وهي طائر يشبه الحمام.

(٨) الموسر: الغنيّ.

(٩) استنّ الجواد: أسرع في عدوه.

الغنيُّ هو الغنيُّ بما في يدِه عمّا في أيدي الناس، والفقيرُ هو الذي لا يقنعُه في هذه الحياة مقنعٌ؛ ولا تقفُ به نفسُه عند مطمعٍ.

فانظرْ تحت أيّ عنوانٍ من هذين العنوانين تضعُ البخلأَ الموسرين؟!

المجرمون:

حضرتُ مجلسًا من مجالسِ الأحكامِ، حكمَ فيه قاضٍ مرتشٍ على متّهم سرقَ رغيفًا، فوضعتُ يدي على فمي مخافةَ أن يخرجَ أمرُ نفسي من يدي، فأهتفَ صارخًا لمَا ألَمَّ بقلبي من الرّعبِ والفزعِ، صرخةً تدوّي بها جوانبُ القاعةِ دويّ الموجِ الثائرِ، في البحرِ الزّاخرِ قائلًا فيها: مَهْلًا، رُويدًا، أيّها الحاكمُ الظالمُ، فأنت إلى قاضٍ عادلٍ تقفُ بين يدَيه، أحوجُ منك إلى كرسيّ فخمٍ تجلسُ عليه. ولو عدلَ القانونُ بينك وبين هذا الماثلِ بين يدَيْك لبتَّ وأعلاكُما الأسفلُ.

إنّك ترتزقُ في كلِّ شهرٍ ثلاثين دينارًا، فَلَمْ تَرْتَشِ إلّا لأنّكَ شرهٌ طمّاعٌ، ولم يَسْرِقْ ذلك السارقُ الرغيفَ إلّا لأنّه جائعٌ مرتاعٌ. ولو ملكَ ثلاثين درهمًا فقط، ما فعلَ فعلتَه التي فعلَ. فأنت مجرمٌ إلّا أنّك في وشاحٍ شريفٍ، وهو شريفٌ إلّا أنه في شملةٍ[١] مجرمٍ.

فيا لله لِلحقيقةِ التي عبثَتْ بها القوانين، ولعبتْ بعقولِ الناسِ فيها العناوينُ.

ربّ نفسٍ بين جدرانِ السجونِ أطهرُ قلبًا، وأنقى رُدْنًا[٢]، وأبيضُ عرضًا، من مثلِها بين جدرانِ القصورِ. وربَّ طريدةٍ من طرائدِ المجتمعِ الإنسانيِّ ساقَها القدرُ الذي لا مفرَّ منه إلى وقفةٍ بين أعوادِ المشنقةِ، كان أجدرَ بها ذلك المرابي الذي ينصبُ حِبالةَ مالِه لخرابِ البيوتِ العامرةِ، وقتلِ النفوسِ الطاهرةِ، أو ذلك القائدُ الذي يَسْفُكُ في موقفٍ واحدٍ من مواقفِه دمَ مائةِ ألفٍ أو يزيدون، في غيرِ سبيلٍ سوى سبيلِ المجدِ المصنوعِ والفخرِ الموضوعِ، أو ذلك السياسيُّ الذي يدبّرُ المكيدةَ للقضاءِ على أُمّةٍ ضعيفةٍ آمنةٍ في سربِها، سعيدةٍ في عيشِها، فيستعبدُ أحرارَها، ويستذلُّ أعزاءها، ثم يسلبُها أثمنَ ما تملكُ يمينُها من حريّتِها واستقلالِها، وسعادتِها وهناءتِها.

المُتَمَدْيِنون:

ليس بين المصريّ وبين أن يأخذَ من إخوانِه المصريين لقبَ الشابّ العصريّ، أو الإنسانِ الراقي إلّا أن يصقلَ جبهتَه، ويصفّفَ طرّته[٣]، ويفتحَ فمَه للابتسامِ المتصنّعِ ويقوّسَ يدَه للسلامِ المتعمّلِ، ويكثرَ في حديثِه من ذِكْرِ المدنيّةِ الغربيّةِ وشؤونها، وسردِ أسماءِ نسائها ورجالها، وطُرَفِها ونوادرِها، ويستحسنَ ما تستحسنُه - وإن كان البِرازَ والانتحارَ - ويستطرفَ ما تستطرفُه - وإنْ كان الزندقةَ والإلحادَ - ثم يزعمُ أنّه أرقى النّاسِ أدبًا، وأحسنُهم أخلاقًا، وأدقُّهم نظرًا في إدراكِ سَقَطاتِ الناسِ وعثراتِهم، وتحليلِ طبائعِهم وغرائزِهم.

ثم لا يحولُ تَمَدْيُنُه هذا بينه وبين أن يكونَ فاسقًا ينتهكُ الحرماتِ، أو مدمنًا يترامى على

---

(١) الشملة: اللباس. (٢) الردن: الكمّ.
(٣) الطرّة: شعر الجبهة.

أعتابِ الحاناتِ، أو أحمقَ لا يصفحُ عن ذنوبٍ، ولا يغضي عن هفوةٍ، وسفيهًا يشتمُ حتى أميرَه وسلطانَه، ووالدَه وأستاذَه، أو وقاحَ الوجهِ لا يستحي لمكرمةٍ، ولا يستخذي لمروءةٍ، وشحيحًا لا يشركُ صاحبَه في مطعمٍ، ولا في مشربٍ، ولا يفتحُ بابَه لضيفٍ زائرٍ أو طارقٍ حائرٍ، زاعمًا أنّ المُتَمَدْنِينَ شيءٌ وذاكَ شيءٌ آخر.

إن كان حقًّا ما يقولون من أنّ التمدُّنَ يصقلُ الطباعَ الخشنةَ، وينيرُ النفوسَ المظلمةَ، ويهذّبُ الأخلاقَ الجافيةَ ويوسّعُ الصدورَ الحرجةَ، فكثيرٌ ممّنْ ندعوهم متمَدْنِينَ متوحّشون، وكثيرٌ ممّنْ نسمّيهم همجيين مهذّبون.

لو كان بي أن أكتبَ لمحوِ الفسادِ من المجتمعِ الإنسانيّ والقضاءِ على شرورِه وآثامِه، لَمَا حرّكْتُ يدًا، ولا جرّدْتُ قلمًا، لأنّي أعلمُ أنّ طلبَ المحالِ عثرةٌ من عثراتِ النفوسِ، وضلّةٌ من ضلالاتِ العقولِ، ولكنّني أطلبُ مطلبًا واحدًا - لا أرى في عقولِ الناسِ وأفهامِهم ما يحولُ بينهم وبين تصوّره وإدراكِه - هو أن يهذّبوا قليلًا من هذه المصطلحاتِ التي أنِسُوا بها والعناوينِ التي جمدوا عليها، فلا يسمّون المنافقَ تقيًّا، ولا المتمجّدَ ماجدًا، ولا البخيلَ غنيًّا، ولا الفقيرَ مجرمًا، ولا المتوحشَ متمدْنِيًا، حتى لا ينزعَ محسنٌ عن إحسانِه، ولا يستمرَّ مسيءٌ في إساءتِه.

❁ ❁ ❁

الإغراق

بين الإغراقِ في المدحِ والإغراقِ في الذمِّ تموتُ الحقيقةُ موتًا لا حياةَ لها من بعدِه إلى يومِ يُبعثون.

يَسْمَعُ السامعُ أنّ زيدًا ملكٌ كريمٌ، ثم يسمعُ أنّه شيطانٌ رجيمٌ، فيخرجُ منه صفرَ اليدين، لا يعلمُ أين مكانُه من هذين الطرفَيْن.

يقولون إنّ المشعوذين إذا أرادوا أن يسحرُوا أعينَ الناسِ علقوا في سقفٍ من السقوفِ قطعةً من المغناطيس، ووضعوا مقابلَها في الأرضِ قطعةً أخرى، ثم يتركُون في الفضاءِ قطعةً من الحديدِ لا تزالُ تضربُ بين هذَيْن الجاذبَيْن.

هكذا تضطربُ الحقيقةُ في أيدي المغرقين اضطرابَ الحديدِ في أيدي المشعوذِين.

الحقيقةُ بين الكاذبِ والكاذبِ، كالحَبْلِ بين الجاذبِ والجاذبِ، كلاهما ينتهي به الأمرُ إلى الانقطاع.

لو علِمَ الذي ينصّبُ نفسَه للموازنةِ بين الأشخاصِ أنّه جالسٌ على كرسيّ القضاءِ، وأنّ النّاسَ سيسألونه عمّا قالَ، كما يسألون القاضي عمّا حكمَ، ما طاشَ سهمُه في حكمِه، ولا ركبَ متنَ الغلوِّ في تقديره.

كما أنّه يجبُ على القاضي أن يقدّرَ لكلِّ جريمةٍ ما يناسبها من العقوبةِ، كذلك يجبُ على

الكاتبِ أن يضعَ كلَّ شخصٍ في المنزلةِ التي وضعتْه فطرتُه فيها، وأن لا يعلوَ به فوقَ قدرِه، ولا ينزلَ به دون منزلتِه.

ليس بين كتّابِ هذا العصرِ من لم يقرأْ في التاريخِ القديمِ متناقضاتِ الحكمِ على الأشخاصِ، وليس بينهم مَنْ لَمْ يتمنَّ أن يكونَ في موضعِ أولئك المؤرّخين المتطرّفين، حتّى لا يغلوَ غلوَّهم، ولا يتطرّفَ في أحكامِهم.

أيّها الكتّابُ المحزونون: لا يحزنْكم ما كان، فقضَى ذلك الزمانُ بخيرِه وشرِّه، ولا سبيلَ إلى رجوعِه، ولئنْ فاتَكم أن تكونوا مؤرّخي العصرِ الماضي، فلن يفوتَكم أن تكونوا مؤرّخي العصرِ الحاضرِ، وكما أنّ للماضي مستقبلًا، وهو حاضرُكم هذا، فسيكون لهذا الحاضرِ مستقبلٌ آتٍ يحاسبُكم فيه رجالُه على إغراقِكم في أحكامكم، كما تحاسبون اليوم رجالَ الماضي على غلوّهم في أحكامِهم، وتطرّفهم في آرائهم.

إنّ من المتناقضِ بين أقوالِكم وأعمالِكم أن تنقموا من المؤرّخين المتقدّمين ما أنتم فاعلون اليوم، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كلُّ كاتبٍ عندكم أكتبُ الكتّابِ، وكلُّ شاعرٍ أشعرُ الشعراءِ، وكلُّ مؤلّفٍ أعلمُ العلماءِ، وكلُّ خطيبٍ رئيسُ الأمةِ؛ وكلُّ فقيهٍ إمامُ الدين، فأين الفاضلُ والمفضول؟ وأين الرئيسُ والمرؤوسُ؟ وكيف يكون زيدٌ اليوم أفضلَ من عمرٍو، ويكون عمرٌو غدًا أفضلَ منه؟ وأين ملكةُ التمييزِ التي وهبَكمُ اللهُ إيّاها لتميّزوا بها بين درجاتِ النّاسِ ومنازلِهم؟ وهل بلغَ التفاوتُ بينكم في عقولِكم وأذواقِكم أن يكونَ الرجلُ الواحدُ في نظرِ بعضِكم خيرَ النّاسِ وفي نظرِ البعضِ الآخرِ شرَّ الناسِ؟!

إنْ حبستُ الآن قلمِي عن الكتابةِ لأتجرّدَ من نفسي ساعةً من الزمانِ، فتخيّلتُ كأنّي رجلٌ من رجالِ العصورِ الآتيةِ، وأنّي ذهبتُ إلى دارٍ من دورِ الكتبِ القديمةِ لأراجعَ تاريخَ أحدِ عظماءِ عصرِكم هذا، فقرأتُ ما كتبتُموه عنه في كتبكُم وجرائدِكُم، فرأيتُه تارةً عظيمًا وأخرَى حقيرًا، ومرّة شريفًا، ومرةً وضيعًا، ورأيتُه عالمًا وجاهلًا، وذكيًّا وغبيًّا، وعاقلًا وممرورًا[1] في آنٍ واحدٍ، فخرجتُ أضلَّ ممّا دخلْتُ، لا أعرفُ من تاريخِ الرجلِ أكثرَ من أنّه رجلٌ، أي أنّه ذكَرٌ بالغٌ من بني آدم.

أيّها القومُ، إنّم لا تستطيعون أن تكونوا رجالًا عادلين في أحكامِكم وآرائِكم، إلّا إذا أصلحْتُم نفوسَكم أوّلًا، وتعلمْتُمْ كيف تستطيعون أن تتجرّدُوا من أهوائِكم وأغراضِكم قبل أن تتناولوا أقلامَكم.

أيّها القومُ، إن عجزتُمْ عن أن تكونوا عادلين، فكونوا راحمين؛ فارحمُوا أنفسَكم وأعفوها من الدخولِ في مآزقَ أنتمْ عاجزون عنها، وارْحَمُونا فقد ضاقتْ صدورُنا بهذه المتناقضاتِ، وسئمتْ نفوسُنا تلك المبالغاتِ.

❁ ❁ ❁

---

(١) الممرور: المصاب بخبل في عقله.

اللقيطة

مرَّ عظيمٌ من عظماءِ هذه المدينةِ بزقاقٍ من أزقّةِ الأحياءِ الوطنيّةِ في ليلةٍ من ليالي الشتاءِ ضريرٍ نجمُها، حالكٍ ظلامُها، فرأى تحت جدارٍ متداعٍ فتاةً صغيرةً في الرابعةَ عشْرةَ من عمرِها جالسةَ القرفصاءَ[١] وقد وضعتْ رأسَها بين ركبتَيْها اتقاءً للبرْدِ الذي كان يعبثُ بها عبثَ النكباءِ[٢] بالعُوْدِ[٣]، وليس في يدِها ما تتّقيه به إلّا أسمالٌ تتراءَى مزقُها[٤] في جسمِها العارِي كأنها آثارُ سياطِ المستبدين في أجسامِ المستعبدين.

وقف الرجلُ أمامَ هذا المشهدِ المحزنِ المؤثرِ وِقْفَةَ الكريمِ الذي تؤلمُه مناظرُ البؤسِ، وتزعجُ نفسَه مواقفُ الشقاءِ، ثمّ تقدّمَ نحوها، ووضعَ يدَه على عاتِقها برفقٍ، فرفعَتْ رأسَها مرتاعةً مذعورةً، وهمّتْ بالفِرارِ من بين يديه وهي تصيح: «لا أعودُ.. لا أعودُ».

فلم يزلْ يمسحُها[٥]، ويروّضُها حتّى هدأَ رَوْعُها، وعاد إليها رشدُها، وعلمتْ أنّها ليست بين يدي الرجلِ الذي تخافُه، فنظرَتْ إليه نظرةً لو أنّها اتّصلَتْ بلسانٍ ناطقٍ وفمٍ لحدثّتْ عمّا وراءها من لواعجِ الأحزانِ وكوامنِ الأشجانِ.

- ما اسمكِ أيّتها الفتاةُ؟
- لا أعلمُ يا سيّدي.
- بماذا ينادونكِ؟
- يدعُونَني اللقيطةَ.
- وهل أنتِ لقيطةٌ كما يقولون؟

- نعم يا سيّدي، لأنّني لا أعرف لي أبًا ولا أمًا، في الأحياء ولا في الأمواتِ، سوى رجلٍ يتولّى شأني، ويضمّني إليه في منزله، وكنتُ أحسبُه أبي، فيمتلئُ قلبي سرورًا به، وعطفًا عليه. فلمّا رأيتُ أنّه يعذّبني عذابًا أليمًا، ويحمّلُني من أثقالِ الحياةِ وأعبائها ما لا يحمّلُه الآباءُ أبناءهم، علمتُ أنّي وحيدةٌ في هذا العالمِ، وفهمتُ معنى الكلمةِ التي ينادينِي بها، فألَمَّ بنفسي من الحزنِ والألمِ ما اللهُ عالمٌ به.

وكنتُ كلّما مشيتُ في الطريقِ، ورأيتُ فتاةً صغيرةً سألتُها ألك أم؟ فتجيبني: نعم، ثمّ تقصُّ عليّ من قصصِ نعمتِها ورفاهيتِها، وعطفِ أمِّها عليها، ورأفتِها بها ما يزيدُني همًّا، ويملأُ قلبي يأسًا، حتّى كان يُخيّلُ إليّ أنّني أذنبْتُ قبل وجودي في هذا العالمِ ذنبًا عاقبَني اللهُ عليه بهذا الوجودِ، بيدَ أنّي صبَرْتُ على هذا الرجلِ، وعلى ما كان يكلّفني به من التسوّلِ على قارعةِ

---

(١) القرفصاء: أن يحتبي الرجل بيديه فيضعهما على ساقَيه وهو جالس.
(٢) النّكباء: الرّيح تقع بين ريحين.
(٣) العُود: الغصن بعد أن يُقطع.
(٤) المزق: القطع.
(٥) مسحه: أمر يده عليه.

الطريقِ، إبقاءً على نفسي، وضنًّا بحياتي، أن تغتالها غوائلُ[١] الدهرِ.

وكان كلّما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه، اشتطَّ[٢] في ظلمي، ولؤمَ في معاملتي، حتى صار يضربني ضربًا مبرّحًا، كلّما عدتُ إليه عشاءً بأقلَّ من المبلغِ الذي فرضَ عليَّ تقديمَه في كلّ يومٍ.

ولم أزلْ أصابرُه، وأحتملُ منه ما يعجزُ عن احتمالِه مثلي برهةً من الزمان، حتى جاءني الليلةَ بداهيةِ الدواهي، ومصيبةِ المصائبِ، فقد حاولَ أن يسلبَ من بين جنبيّ جوهرةَ العفافِ التي لم يبقَ في يدي ما يعزّيني عمّا فقدتُه من هناءةِ الحياةِ ونعيمِها سواها.

فلم أرَ بدًّا من أن أفرَّ من بين يديه، متسلّلةً تحت جنحِ الظلامِ من حيث لا يراني، وما زلتُ أمشي على غيرِ هدًى، لا أعرفُ لي مذهبًا ولا مضربًا، حتى أويتُ إلى هذا الزقاقِ كما تراني. فهل لك، يا سيّدي، أن تحسنَ إليّ كما أحسنَ الله إليك؟ وأن تبتاعَ لي رغيفًا من الخبزِ أتبلغُ به، فقد مرّ بي يومان لم أذقْ طعامًا ولا شرابًا؟

لم يسمعِ الرجلُ من الفتاةِ هذه القصّةَ المحزنةَ حتى استقبلَها بدموعٍ حارّةٍ تنحدرُ على خدّيه انحدارَ العقدِ وَهَىٰ سِلْكُهُ[٣]، فانتثرَ. ثم أخذَ بيدِها، ومشى بها صامتًا واجمًا يكادُ لا يهتدي سبيلَهُ حتّى بلغَ قصرَه، وهناكَ صنعَ بها صنعَ الكريمِ بأهلِه، وأبلغَها من دهرِها ما لم تكن تمنّي نفسَها بالوشلِ القليلِ منه. وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى ظهرتْ في ذلك القصرِ العظيمِ فتاةٌ جديدةٌ من أجملِ الفتياتِ وجهًا، وأرقِّهنَّ شمائلَ، وأكرمِهنّ أخلاقًا، وأكملِهنّ آدابًا، لا يعرفُ الناسُ عنها سوى أنّها ابنةُ قريبٍ لصاحبِ القصرِ مات عنها وخلّفها يتيمةً، فكان إلى هذا القصرِ مصيرُها.

وكان لصاحبِ القصرِ فتاةٌ من الفتياتِ اللواتي ربّينَ التربيةَ الحديثةَ التي يسمّونها «التربية العصرية»، ويريدون منها التربيةَ الإفرنجيّةَ، فكانت كلُّ ما حصّلَتْ من العلومِ والمعارفِ والفنونِ الآتية:

(١) الرطانةُ الأعجميّةُ حتى مع خادمِها الزنجيّ، وكلبِها الروميّ.

(٢) الولوعُ بمطالعةِ الرواياتِ الغراميّةِ الفاسدةِ.

(٣) البراعةُ في معرفةِ أيِّ الأزياءِ أعلقُ بالقلوبِ وأجذبُ للنفوسِ.

(٤) الكبرياءُ والعظمةُ، واحتقارُ كلِّ مخلوقٍ سواها حتى أبوَيها.

(٥) الأثَرَةُ وحبُّ الذاتِ حبًّا يملأُ قلبَها غَيْرَةً وحسدًا، حتى إنّها لا تستطيعُ أن تسمعَ وصفًا من أوصافِ الحسنِ يوصَفُ به سواها.

رأتْ هذه الفتاةَ اللقيطةَ قد أصبحتْ تقاسمُها قلبَ أبيها وقلوبَ زائراتِها من النساءِ بما وهبَها الله من جمالٍ في الخلقِ، وحلاوةٍ في الطبعِ، وعذوبةٍ في النفسِ، فأضمرتْ لها في قلبِها

---

(١) الغوائل: ج الغائلة، وهي المصيبة.

(٢) اشتطّ في الأمر: تمادى به.

(٣) وَهَىٰ السِّلْك: ضَعُف فانقطع وتناثرت حبّاته.

من البغضِ والموجدةِ ما يضمرُه دائمًا أمثالُها من اللواتي رُبّينَ تربيتَها، ونهجْنَ في الحياةِ منهجَها. فكانتْ تتعمّدُ إساءتها وازدراءها، وتُغرَي بتبكيتها[1] وتأنيبها، والفتاةُ لا تبالي بشيءٍ من هذا وفاءً لسيّدِها وولّيِ نعمتِها، وذهابًا بنفسِها عن النزولِ إلى منزلةِ من يغضبُ لمثلِ هذه الهناتِ، حتّى حدثَتْ ذاتَ يومِ الحادثةُ الآتيةُ:

دخلَ صاحبُ القصرِ قصرَه ليلةً من الليالي، فبينما هو صاعدٌ في السلّم، إذ عثر برقعةٍ ملقاةٍ، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة:

سيّدتي:

أنا منتظرُك عند منتصفِ الليلِ في بستانِ القصرِ تحت شجرةِ السروِ المعهودةِ.

«حبيبك»

فما أتمّ الرجلُ قراءةَ الرقعةِ حتّى دارتْ به الأرضُ الفضاءُ، وحتّى لمسَ قلبَه بيمينِه ليعلمَ هل طارَ من مكانِه أم لا يزالُ باقيًا فيه. ثمّ كأنّه أرادَ أنْ يخفّفَ ما ألَمَّ بنفسِه من الحزنِ والقلقِ فقال: لعلّ ذلك الموعدَ مع الفتاةِ اللّقيطةِ، ومن الظلم أن أتعجّلَ باتّهامِ ابنتي قبل أنْ أقفَ على الحقيقةِ. فنظرَ في ساعتِه فإذا الساعةُ قريبةٌ، فرجعَ أدراجَه، وما زالَ يترفّقُ في مشيتِه، ويتنقّلُ في الحديقةِ من شجرةٍ إلى شجرةٍ حتّى وصلَ إلى شجرةِ اللقاءِ، فكمنَ وراءها ينتظرُ ما خبّأ له الدهرُ من حَدَثانِه، وما أضمرَ له الغيبُ في طيّاتِه.

لم تكنِ الرسالةُ رسالةَ الفتاةِ الوضيعةِ، بل رسالةُ السيّدةِ الشريفةِ، وبينما كانت الثانيةُ واقفةً في غرفتِها أمامَ مرآتِها تختارُ لنفسِها أجملَ الأزياءِ وأليقَها بموقفِ اللقاءِ، كانت الأولى نائمةً في غرفتِها نومًا هادئًا مطمئنًّا، لا تزعجُه زورةُ الطيفِ، ولا تروعُه أحلامُ الشبابِ، حتّى سمعَتْ وقعَ أقدامِ سيّدها على سلّم القصرِ فاستيقظَتْ.

ثمّ رابَها موقفُه، فأشرفَتْ عليه من حيث لا يشعرُ بمكانها، فعرفَتْ كلَّ شيءٍ، وعرفَتْ أنّ سيّدَها سيقفُ على سرّ ابنتِه الذي كانت تعالجُ كتمانَه زمنًا طويلًا، وأنّه لا بدّ قاتلٌ نفسَه في ذلك الموقفِ حزنًا ويأسًا. فعناها من أمره ما عناها، ثم أطرقتْ برأسِها لحظةً تتلمّسُ وجهَ الحياةِ في دفعِ هذه النازلةِ، وتتطلّبُ المخرجَ منها، ثم رفعَتْ رأسَها، وقد قرّرتْ في نفسِها أمرًا.

نزلتْ مسرعةً من سلّمِ القصرِ، فرأتِ الفتاةَ قد خرجَتْ من بابِ القصرِ إلى ذلك الموعدِ، فأدركَتْها، وأمسكَتْ بطرفِ ثوبِها، فارتاعَتِ الفتاةُ، والتفتَتْ إليها وقالتْ لها: ماذا تريدين منّي؟ أتتجسّسين عليّ!؟ قالت لها: لا يا سيّدتي. وأفضَتْ إليها بالقصّةِ من مبدئها إلى منتهاها، فسقطَ في يدها، وعلمَتْ أنّ أباها قد وقفَ على سرِّها، فقالَتْ لها: لا تزعجي نفسَك، فإنّ أباك لا يعلمُ أيّتنا صاحبةُ الكتابِ، فعودي إلى غرفتِكِ، وسأذهبُ إلى الموعدِ مكانك، حتى إذا رآني هناك، ذهبَ من نفسه ما كان يخالجُها من الشكّ في أمرِك.

---

(١) التبكيت: اللوم والتعنيف.

ثم استمرّتْ أدراجَها حتّى وصلَتْ إلى تلكَ الشجرةِ، وهنالك برزَ الرجلُ من مكمَنه، واقتربَ منها حتّى عرفها، فحمدَ اللهَ على سلامةِ شرفِه وشرفِ ابنتهِ، ثم قال لها:

أيّتها الفتاةُ، إنّي أحسنْتُ إليك، واستنقذْتُك من يدِ البؤسِ والشقاءِ، فأسأتِ إليَّ بما فعلتِ، حتّى كدتُ الليلةَ أهلكُ حزنًا وكمدًا، وألصقُ بابنتي ذنبَكِ وأحملُ عليها عارَك، فاخرجي من منزلي، فاللئيمُ ليس أهلًا للإحسان.

فخرجَتْ خائبةً تتعثّرُ في أذيالها، حتّى وصلَتْ إلى شاطئ النهر، وهنالك أخرجتْ مذكّرتَها من محفظتِها، وكتبَتْ فيها آخر كلمة خطّتها أناملُها:

«أحمَدُ الله أنّي قدرتُ على مكافأةِ الرجلِ الذي أحسنَ إليّ بستر عارِه، وإزالةِ همّهِ وحُزْنِهِ».

ثم ألقتْ بنفسها في النهر، وما هي إلّا دورةٌ أو دورتان حتى افترقَ ذانك الصديقان الوفيّان، جسمُها وروحُها، فطفا منهما ما طفا، ورسبَ ما رسبَ.

وفي صباح تلك الليلةِ عثرَ رجالُ الشرطةِ بجثّةِ الفتاةِ الشهيدةِ، فعرفُوها، وعادوا بها إلى منزلِ سيّدِها، فبكاها بكاءً كثيرًا، وندمَ على ما أساءَ به إليها من طردِها وإزعاجِها، ثم أمرَ بدفنها، ولم يبقَ في يده من آثارها غيرُ حقيبتِها.

مرّتِ الأيامُ تلوَ الأيامِ، وجاءتِ الحوادثُ إثرَ الحوادثِ، وظهرَ للرجلِ من أخلاقِ ابنتِه وطباعِها، وتهتّكِها واستهتارِها، ما لم يكنْ يعرفُه من قبلُ، حتّى ضاقَ بأمرِها ذَرْعًا، وجلسَ في غرفتِه في إحدى الليالي يفكّرُ فيما ساقَ إليه الدهرُ من خطوبِه ورزاياه، ثم ألمَّ به الضجرُ، فقامَ إلى صندوقِه يتفشُ عن شيءٍ يتلهّى به، فعثرَ بتلك الحقيبةِ، ولم يكن قد فتحَها قبلَ اليوم، فإنّه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمةِ الأخيرةِ التي كتبتْها الفتاةُ على شاطئِ النهر قبلَ موتِها، فما أتى على آخرِها حتّى عرف كلَّ شيءٍ، فسقطَ مغشيًّا عليه يعالجُ من الحزنِ والألمِ ما يعالجُ المحتضِرُ من سكراتِ الموتِ.

وما استفاقَ من غشيتِه حتّى صار يهذي هذيانَ المحموم، ولبثَ على هذه الحالِ بضعةَ أشهرٍ، يمرضُ ثم يبلّ[1]، ثم يمرضُ ثم يبلّ، حتى أدركَتْهُ رحمةُ اللهِ، فمرضَ مرضًا لم ينقضِ إلّا بانقضاءِ أجلِه.

فيا أيّها الوالدُ المجهولُ، الذي قذفَ بتلك الفتاةِ البائسةِ في بحرِ هذا الوجودِ الزاخرِ، أعلمْتَ قبلَ أنْ تفعلَ فعلتَك التي فعلتَ أنّك ستبرزُ إلى هذا العالمِ فتاةً تلاقي شقاءه وآلامَه وما لا قبلَ لها باحتماله؟

ويا أيُّها الآباءُ العظماءُ، إن كنتم تريدون أن تسلّموا بناتِكم إلى هذه المدنيّةِ الغربيّةِ تتولّى شأنهن، وتكفلُ لكم تربيتَهُنّ، فانتزعوا من جنوبِكم قبلَ ذلك غرائزَ الشهامةِ، والعزّةِ، والإباءِ والأنفة، حتّى إذا رزأكم الدهرُ فيهنّ، وفجعَكم في أعراضِهنّ وقفتُمْ أمام ذلك المشهدِ هادئين مطمئنّين، لا تتعذّبون ولا تتألّمون.

---

(١) أبل المريض من مرضه: أوشك على الشفاء منه.

ويا أيّها الناسُ جميعًا، لا تحفلُوا بعد اليومِ بالأنساب والأحسابِ، ولا تفرّقوا بين تربيةِ الأكواخِ وتربيةِ القصورِ، ولا تعتقدوا أنّ الفضيلةَ وقفٌ على الأغنياءِ، وحبائسُ على العظماء، فقد علّمتهم ما أضمرَ الدهرُ في طيّاتِ أحداثِه من رذائلِ الشرفاءِ وفضائلِ اللقطاءِ.

❁ ❁ ❁

الصُّندوق

حضرةَ السيّدِ الفاضلِ:

يوجدُ في ضريحِ السيّدِ البدويّ صندوقٌ توضَعُ فيه النذورُ، ويبلغُ مجموعُها في العامِ نحوَ ستّة آلافِ جنيه، فإذا فُتحَ ذلك الصندوقُ، يختصُّ بعضُ الخلفاءِ بأخذِ نحو الربعِ ممّا فيه، والباقي يوزَّعُ على أصحابِ الأنصبةِ الكثيرين الذي يعدُّون بالمئاتِ. فهل ترَوْن أنّ هذه القسمةَ شرعيّةٌ، مع أنّ الذين يأخذون الألوفَ أغنياءُ والذين يأخذون الآحادَ فقراءُ؟

أَفْتِنا أيّها السيّدُ الفاضلُ بما يوجبُه الإنصافُ والعدلُ الدينيُّ في هذه المسألةِ التي أصبحتِ الشغلَ الشاغلَ للكثيرِ من الناسِ؟

«ابن جلا»

أيُّها السائلُ، أراكَ تسألُني عن القسمةِ الشرعيّةِ في هذا المجالِ كأنّك تعتقدُ أنّه ميراثٌ شرعيٌّ، وأنّ لهؤلاءِ الذين تسمّيهم أصحابَ الأنصبةِ من الحقِّ في هذا المالِ مثلَ ما للوارثين في مالِ المورّثين.

إنّ الذي أعلمُه أنّ هذا الحقَّ المزعومَ حقٌّ موهوبٌ، لا يستطيعُ أن يحملَه الحاملُ على وجهٍ من الوجوهِ الشرعيّةِ، لأنّ الذين يضعون المالَ في هذا الصّندوقِ وأمثالِه، لا يريدون بذلك أن يهَبوه أحدًا من السَّدَنةِ والخدمِ، ولو أنّ ذلك كان غرضَهم لوضعُوه في أيديهم بدلًا من الصّندوقِ، ولكنّهم لما تصوّروا أنّ ذلك الميتَ حيٌّ في قبرِه يسمعُ نجواهم، ويفهمُ حديثَهم، ويلبّي دعاءهم، تجسّمَ في نظرهم هذا الخيالُ، فأرادوا أن يعطوه جميعَ أحكامِ الأحياءِ وصفاتِهم حتّى حبَّ المالِ وادّخارَه، فخُيّلَ إليهم أنّ الصّندوقَ من الميتِ بمنزلةِ الكيس من الحيِّ، فهم يَهَبُونه المالَ، ويضعونه في صندوقِه، لأنّهم يعجزون عن وضعِه في يدِه.

أما كيفيّةُ تصرّفِ الميتِ بهذا المال، وكيف ينفقُه وفي أيّ شيء ينتفعُ به، فذلك أمرٌ لا يخطرُ ببالهم، ولا يدخلُ في باب مقصدِهم وأغراضِهم.

فإن وُجدَ بينهم من يعلمُ أنّ مرجعَ هذا المالِ إلى سَدَنةِ[1] الضريحِ، وخدمتِه، فعلمُه هذا لا يُستفادُ منه أن يهبَه لهمْ، أو يمنحُه إياهم، لأنّهم لو أرادوه على أن يعطيَهم ذلك المالَ، أو

(١) السدنة: جمع سادن، وهو خادم الهيكل.

يُعطيهم بعضَه، ويستبقي لنفسِه البعضَ الباقي، لما وسعَه ذلك، ولا رأى مَنْ فعلَه أنّه عملَ عملًا صالحًا.

بل هو يعتقدُ أنّ أخذَهم المالَ من الصندوقِ بعد أن يضعَه فيه أمرٌ لا علاقةَ له به ولا شأنَ له فيه، لأنّ المالَ قد خرجَ من يدِه إلى صاحبِ الضريحِ، وصاحبُ الضريحِ يتصرّفُ في مالِه كيفَ يشاءُ.

فهو في جميعِ حالاتِه وشؤونِه لا يهبُ هبةً صحيحةً، ولا يتصرّفُ تصرّفًا شرعيًّا، ولا يضعُ صَدَقةً في موضعِها، ولا يطرقُ بابًا من أبوابِ البرِّ المسنونةِ.

وعندي أنّ مثلَ هذا المالِ بعد أن خرجَ من يدِ صاحبِه إلى غيرِ يدٍ، وانقطعَتْ ملكيّتُه الأولى من حيث لم تقمْ مقامَها ملكيّةٌ أخرى، يعتبرُ مالًا مهمَلًا، لا صاحبَ له، ولا علاقةَ لأحدٍ به.

وأحسنُ الحالاتِ الشرعيّةِ والعقليّةِ في هذا المالِ أن يُنْفَقَ في مصارفِ الصدقاتِ التي اعتبرَها الشارعُ واعتمدَها، وافتتحَها بأداةِ الحصرِ التي تمنعُ غيرَها من الاشتراكِ معها في حكمِها في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾.

فإن كان بين هؤلاءِ المتظلّمين من قلّةِ أنصبتِهم في ذلك الصّندوقِ ذو حاجةٍ داخلٌ في قسمِه من الآيةِ الشريفةِ، فله الحقُّ في ذلك المالِ من حَيْثُ كونُه فقيرًا معدَمًا، كعامّةِ فقراءِ المسلمين، لا من حَيْثُ أنّ له صلةً بصاحبِ الضريحِ تسوّغُ له أن يكونَ من ذوي الأنصبةِ والسهامِ في صندوقِه، فإنّ أمثالَ هذه الصلاتِ والعلائقِ قد انقطعَتْ بانقطاعِ الجاهليّةِ الأولى؛ فلا هياكلَ اليومَ ولا سدنةَ، ولا وسطاءَ ولا شفعاءَ، ولا أقراطَ تعلّقُ في آذانِ الأصنامِ، ولا عقودَ تقلّدُ بها أعناقُ الأوثانِ، ولا مالَ يوضَعُ مع الموتى في قبورِهم لينتفعوا به بعد بعثِهم من مراقدِهم، وإنّما الناسُ جميعًا سواءٌ بين يدَي اللهِ سبحانَه وتعالى، لا فضلَ لأحدٍ منهم على أحدٍ إلّا بالتقوى، ولا زلْفَى لأحدٍ يزدلفُ بها إليه إلّا يقينُه وإيمانُه، وبرُّه وإحسانُه.

ذلك ما أراه في هذه المسألةِ وهذا ما أعتقدُه فيها، ولا أعلمُ إن كنتُ أرضيتُ الناسَ فيما كتبتُ أو أغضبتُ، وإنّما أعلمُ أنّني أرضيتُ ضميري وخالقي، وحسبي ذلك وكفَى.

❁ ❁ ❁

الغناء العربي

الغناءُ بقيّةُ خواطرِ النفسِ التي عجزَ عن إبرازِها اللسانُ، فأبرزَتْها الألحانُ، فهو أفصحُ الناطقين لسانًا، وأوسعُهم بيانًا، وأسرعُهم نفاذًا إلى القلوبِ وامتزاجًا بالنفوسِ، واستيلاءً على العقولِ، وأخذًا بمجامعِ الأفئدةِ.

وبيانُ ذلك أنّ النطقَ ثلاثُ طبقاتٍ تختلفُ درجاتُها باختلافِ درجاتِ الإبلاغِ والتأثيرِ فيها،

فأدناها النثرُ وأوسطُها الشعرُ، وأعلاها الغناءُ، فلو أنّ عاشقًا برّحَ به الهجرُ مثلًا فأرادَ أن يبلّغك ما في نفسه من ذلك، فإن قال لك: إني مهجورٌ، فحسب، فقد أبلغَك بعضَ ما في نفسِه، وتَرك في قلبِك من الأثرِ بمقدارِ ما تحتملُه طبقةُ النثرِ من التأثير، وإنْ أنشدَك قول الشاعر:

فَوَاكَبِدا من حبِّ مَنْ لا يُحبُّني ... ومِنْ زفراتٍ ما لَهُنَّ فَناءُ

أو قول الآخر:

كأنّ قطاةً علّقتْ بجناحِها ... على كبدي منْ شِدّةِ الخفقانِ

فقد سلكَ بك طريقَ الخيالِ، وصوَّر لك خواطرَ نفسِه بصورةٍ أوضحَ من الصورة الأولى، وتركَ في نفسِك أثرًا أعظمَ من الأثرِ الأولِ، وإن رفعَ عقيرتَه[1]، وكان يجيدُ التوقيعَ يتغنّى بقول القائل:

وَارَحْمَتَا للغريبِ بالبلدِ النا ... زحِ ماذا بنفسِه صَنَعا

فارقَ أحبابَه فما انتفَعُوا ... بالعيشِ من بعدِه وما انتَفَعا

فقد صوَّر لكَ قلبَه كما هو، وألمسَك موضعَ الألمِ والحزنِ منه، فبلغَ بك التأثيرُ منتهاه، وربّما بكيتَ عند سماعِه حزنًا ورحمةً، وما بكيتَ إذ بكيتَ إلّا لأنّ الغناءَ لم يُبقِ بقيةً من خواطرِ هذه النفسِ القريحةِ إلّا نطقَ بها لك، وأسمعَك إيّاها، وكما أنّ الأبياتِ قيودُ المعاني كذلك الألحانُ قيودُ الأبياتِ. فلا يزالُ المعنَى مشرَّدًا ههنا وههنا حتّى يحتويَه بيتٌ من الشعرِ؛ فإذا هو مستقرٌّ في مكانه. ثم لا يزالُ البيتُ يتجانفُ عن الآذانِ ذاتَ اليمينِ وذاتِ الشمالِ، حتّى يقودَه الصوتُ الحسنُ، فإذا هو مستودعٌ في الصدورِ.

والغناءُ فنٌّ من فنونُ الطبيعةِ، تهتدي إليه الأممُ بالفطرةِ المترنّمةِ في هديرِ الحمامِ وخريرِ المياهِ، وحفيفِ الأشجارِ، فمن أبكاه الحمامَ غرّدَ تغريدَه كلّما أرادَ البكاءَ، ومن أطربَه صوتُ الناعورةِ رنّ رنينَها ليُطربَ جمَلَه أو ناقتَه فينشطانِ للمسيرِ. وما زالَ هذا الفنُّ مبتديًا ببداوةِ الأمّةِ العربيّةِ، لا يكادُ يتخطّى فيها حُداءَ الجمالِ، ومناغاةَ الأطفالِ، حتّى إذا انتقلتْ من مضيقِ الحاجياتِ إلى منفسحِ الكماليّاتِ، توسّعتْ فيه وزادَتْ في أنغامِه وضروبِه، وتفنّنت في آلاتِه وأدواتِه.

وكذلك كان شأنُ العربِ في جاهليّتِهم، ينظمونَ أشعارَهم على نسبٍ متوازيةٍ، وأنغامٍ متوازنةٍ؛ والشطرُ والتفعيلةُ يوازنان الشطرَ والتفعيلةَ كذلك، فكأنّما كانوا يهيّئون لأنفسِهم بمذهبهم هذا في الشعرِ ألحانًا موسيقيّةً، غير أنّ معارفَهم لم تكنْ تتسعُ لأكثرَ من هذا النوعِ من الموسيقى؛ وهو نوعُ التناسبِ الشعريّ الذي هو قطرةٌ من بحرِ هذا الفنِّ الزاخرِ.

ثُمّ استمرَّ شأنُهم على هذا حتّى جاءَ الإسلامُ، واختلطتِ الأمّةُ العربيّةُ بالأمّةِ الفارسيّةِ التي

---

(١) العقيرة: كناية عن رفع الصوت.

كان لها من حضارتِها وتمدينِها متّسعٌ للبراعةِ في هذا الفنّ، ومنتدحٌ[١] في مناحيه ومقاصدِه، ووفدَ الكثيرُ من مغنّي الفرسِ والرومِ مواليَ في بيوتِ العربِ، وفي أيديهم العيدانُ والطنابيرُ، والمعازفُ والمزاميرُ، يلحّنون بها أشعارَهم الفارسيّةَ والروميّةَ، فسمعَها منهم العربُ، فاقتبسوها، ولحّنوا بها أشعارَهم تلحينًا بزّوا[٢] فيه أساتذتَهم، وولّدوا ألحانًا وأنغامًا لم يأتِ بها من قبلهم، شأنُهم في جميعه الفنونِ والصناعاتِ التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمَدْيِنَةِ المعاصرةِ لهم، وظهرَ فيهم رجالٌ أذكياءُ كان لهمُ الفضلُ الباهرُ في تقديمِ الغناءِ واتّساعِه مثلُ ابن سريج[٣]، ومخارق[٤]، وطويس[٥]، وإبراهيم الموصلي[٦]، وابنه إسحاق[٧]، وإبراهيم بن المهدي[٨]، ومعبد[٩]، الذي طالما ضُربَتْ به وبحسن صوتِه الأمثالُ على ألسنةِ فحولِ الشعراءِ، كقول أبي عبادة البحتري[١٠] في وصفِ فرسٍ كان أهداه إليه أحدُ الأمراء:

هزجُ الصهيلِ كأنّ في نبراتِهِ نَغَمَاتِ مَعْبَدَ في الثقيلِ الأوّلِ

والثقيلُ والخفيفُ الأولّ والثاني أسماءُ اصطلحَ عليها العربُ ومرجعُها إلى حركاتِ الأصابعِ الخمسِ في أوتارِ العودِ الخمسةِ شدّةً وضعفًا، وما أحسن قول أبي العلاء المعرّي:

ولقدْ ذَكَرْتُكِ يا أميمةُ بعدَما نزلَ الدليلُ إلى الترابِ يسوفُه[١١]

وهواكِ عندي كالغناءِ لأنّه حسنٌ لديّ ثقيلُهُ وخفيفُهُ

وبالرغم من غضارةِ الدينِ وغضاضتِه في ذلك العهد - عهد الصدر الأول - وشدّتِه في النهي والتلهّي بالغناءِ والعزفِ والزمرِ وأمثالِها، ونَعْيِه على من يحترفُ ذلك، أو يتخلّقُه، فقد كان للمغنّين الشّأنُ الرفيعُ في مجالسِ الخلفاءِ والأمراءِ، والنصيبُ الأوفرُ من جوائزِهم

---

(١) المنتدح: المكان الواسع. (٢) بز: تفوّق.

(٣) هو عبيدالله بن سريج (ت٨٩هـ/ ٧١٦م) من أشهر المغنّين في عصر صدر الإسلام، وأوّل من ضرب على العود بمكّة.

(٤) مخارق (ت٢٣١هـ/ ٨٤٥م) من مشاهير المغنّين في العصر العباسي. تعلّم على إبراهيم الموصلّي ونادم الرشيد والمأمون.

(٥) هو عيسى بن عبدالله (ت٩٣هـ/ ١١٧م) من مشاهير المغنّين في العصر الإسلامي.

(٦) إبراهيم الموصلي (ت١٩٠هـ/ ٨٠٤م) من أشهر موسيقيي العرب برع في الغناء والعزف على العود. اشتهر بعده ابنه إسحق.

(٧) هو إسحق بن إبراهيم الموصلي (ت٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) من مغنّي العصر العباسي الأوّل، برع في العزف على العود، وكان منقطعًا إلى الرشيد والبرامكة.

(٨) إبراهيم بن المهدي (ت٢٢٤هـ/ ٨٣٩م) عم المأمون وأخو الرشيد بويع بالخلافة في غياب المأمون. تعاطى الغناء والعزف.

(٩) معبد (ت١٢٦هـ/ ٧٤٣م) نابغة الغناء في العصر الأموي، ضربت شهرته الآفاق.

(١٠) البحتري (ت٢٨٥هـ/ ٨٩٧م) شاعر عباسي مجيد، مدح المتوكّل، واشتهر بوصف الطبيعة والعمران.

(١١) ساف التراب: اشتمه. يريد أنّه ذكر حبيبه في أشدّ أوقات محنته، وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل، اشتمّ التراب ليستدلّ منه على الأرض.

وصلاتِهم، ولا غروَ في ذلك، فلسطانُ الوجدانِ فوق سلطانِ الأديانِ، ولقد بلغَ من شأنِ المغنّين وإدلالِهم على الخلفاءِ أنّ إسحاق الموصليّ شتم إبراهيم بن المهدي في حضرةِ أخيه الرشيد[١] غيرَ هيّابٍ ولا وجل، فما استطاعَ أخو الخليفة أن ينتصفَ لنفسِه منه هيبةً وإجلالًا.

وكان ابن عائشة[٢] المغنّي لا يغني إلّا لملكٍ، أو وليّ عهده، حتّى كان الخليفةُ إذا أرادَ أن يختارَ من بين أبنائِه من يعهدُ إليه بالأمرِ من بعدِه لا يكتبُ له بذلك عهدًا، بل يأذنُ لابن عائشةَ أن يغنّيَ عنده، فلا تطلعُ عليه شمسُ الغدِ حتى يفدَ الناسُ إليه يهنّئونه بولايةِ العهدِ، فإن دعاهُ إلى الغناءِ لديه أميرٌ أو وزيرٌ، وجدَ في قوّةِ الدالّةِ بنفسِه ما يدفعُ به الطلبَ عنه.

ويروى أنّ ابن عتيق[٣] وهو من تعلّمَ في شرفِ البيت وجلالِ المحلِّ رأى ابن عائشة يومًا وحلقُه مخدوشٌ، فقال: من فعلَ بك هذا؟ قال: فلانٌ. وأشارَ إلى ضاربه، فمضى، ونزعَ ثيابَه وعادَ فَجَلَسَ للرجلِ على بابه، فلما خرج أخذ بتلبيبه[٤]، وجعلَ يضربُه ضربًا موجِعًا، والرجلُ يصيحُ: أيّ شيءٍ صنعتُ؟ وما ذنبي إليك؟ وهو لا يجيبُه حتى بلغَ منه، وأقبل الناسُ، فحالوا بينه وبينه، وسألوه عن ذنبِه، فقال: إنه أرادَ أن يكسرَ مزمارًا من مزامير داود[٥]. يريدُ أنّه خنقَ ابن عائشة وخدشَه في حلقِه. وممّا يُروى من حوادثِ تيهِه وترفّعِه أنّه خرجَ من عند الوليد بن عبد الملك[٦] وقد غناه:

أَبَـعْـدَكَ مَـعْـقِـلًا أرجُـو وحِـصْـنًـا قَـدَ اعْـيَـتْـنِـي الـمـعـاقـلُ والـحـصـونُ

فأطربَه وأمرَ له بثلاثين ألفَ درهمٍ وكثيرٍ من الثيابِ.

فبينا هو يسيرُ، إذ نظرَ إليه رجلٌ من أهلِ واديْ القرى كان يشتهي الغناءَ، فدنَا من غلامِه وقال: من هذا الراكبُ المختالُ؟

قال: ابن عائشة المغنّي.

فدَنا منه، وقال: جُعِلْتُ فداكَ أنت ابنُ عائشة؟

قال: نعم.

قال: عائشة أم المؤمنين؟

قال: لا، أنا مولى لقريش وعائشة أمّي. وحسبُك هذا فلا تكثرْ.

---

(١) هو هارون الرشيد (ت١٩٣هـ/٨٠٩م) الخليفة العباسي الخامس، ابن المهدي والخيزران، ازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم.

(٢) هو محمد بن عائشة (ت١٠٠هـ/٨١٧م) موسيقار شهير في العصر الأموي. يضرب به المثل في ابتدائه بالغناء.

(٣) هو الحسين بن عتيق (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م) شاعر من أدباء الأندلس ومؤرّخيها، كان يجيد اللعب بالشطرنج.

(٤) التلبيب: ما يدور بالعنق من ثياب.

(٥) داود (ت٩٧٠ ق.م) ثاني ملوك اليهود ووالد سليمان الحكيم، اشتهر بمقتل جليات الجبّار، إليه تنسب المزامير.

(٦) الوليد بن الملك (ت٩٦هـ/٧١٥م) الخليفة الأموي السادس، وأول من أحدث المستشفيات في الإسلام. في عهده دخل طارق بن زياد وموسى بن نصير الأندلس.

قال: وما هذا الذي بين يدَيك؟

قال: غنّيتُ أميرَ المؤمنين صوتًا، فأطربتُه، فأمرَ لي بهذا المالِ وهذه الكسوةِ.

قال: جُعلتُ فداءك. هل تمنّ عليَّ بأن تُسْمِعَني ما أسمعتَه إياه؟

فقال له: ويلك! أمثلي يكلَّمُ بمثل هذا الطريقِ؟

قال: فما أصنعُ؟

قال: الحقْني إلى المنزلِ؛ يريدُ مخاتلتَه والنجاةَ منه.

وحرّكَ بغلةً شقراءَ تحته لينقطعَ عنه، فعدا معه، حتى وافيا المنزلَ كفرسَي رهان. ودخلَ ابنُ عائشة فمكثَ طويلًا طمعًا في أن ينصرفَ، فلم يفعلْ.

فلمّا أعياه قال لغلامه: أدخلْه. فلمّا دخلَ، قال له: من أين صبّك الله عليَّ؟

قال: أنا رجلٌ من أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء.

قال له: هل لك فيما هو أنفعُ لك منه؟

قال: وما ذاك؟

قال: مائتا دينارٍ وعشرةُ أثوابٍ تنصرف بها إلى أهلِك.

فقال له: جعلتُ فداءك. والله، إنّ لي لبنيّةً ما في أذنُها، علمَ الله، حلقةٌ من الورقِ[١]، وإنّ لي زوجةً عليها، يشهدُ الله، قميصٌ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على خلّتي وحاجتي، لكان الصوتُ أعجبَ إليَّ منه.

وما زال به حتى رحمَه ابنُ عائشةَ، وغنّاه الصوتَ بعد لأيٍ[٢]، فَطَرِبَ الرجلُ له طربًا شديدًا، وجعلَ يحرّك رأسَه، وينطحُ بها الجدارَ حتّى خيفَ أن يندقَّ عنقُه، ثم انصرفَ ولم يرزأه في ماله شيئًا.

وفي هذا الحديثِ فوق الغرضِ الذي سقناه لك ما يدلُّ على أنّ الغناءَ العربيّ كان قريبًا إلى القلوبِ، وأنّه كان منها بمنزلةِ الأصابعِ من الأوتارِ، فإذا لمسَها، رنّتْ رنينَ الثكلى والمرزوءَة في واحدِها. وأنّ الوجدانَ العربيّ وجدانٌ رائقٌ شفافٌ تأخذُ منه مختلفاتُ الأنغامِ، فوق ما تأخذُ الكهرباءُ من الأجسامِ، كما تبلغُ منه نظراتُ الغرامِ، فوق ما تبلغُ من عقلِ شاربِها المدامُ[٣].

وكانت الأصواتُ عندهم تُنسبُ إلى واضعيها، وتسمّى بأسماءِ أصحابها كما هو الشّأن في الشعر، فيقال: صوتُ إسحاق أو معبد، كما يقال شعر مسلم[٤] أو بشار[٥]. وكان المغنّي

---

(١) الورق: الفضة.

(٢) اللأي: الجهد.

(٣) المدام: الخمرة.

(٤) هو مسلم بن الوليد (ت٢٠٨هـ/ ٨٢٣م) شاعر عباسي مدح الرشيد، استخدم البديع ولقب بـ«صريع الغواني».

(٥) هو بشار بن برد (ت١٦٨هـ/ ٧٨٤م) شاعر من كبار الهجائين عاش في العصر العباسي، اتهم بالزندقة.

أحرصَ على صوتِه من الكريمِ على عرضِه، فإذا صنعَ صوتًا لا يسمحُ لأحدٍ من المغنّين أنْ يأخذَه عنه حتّى يغنّيَه مرارًا، وتُعرَفَ نسبتُه إليه، كما يفعلُ اليومَ المخترعون والصانعون من أخذِ الامتيازاتِ بمخترعاتهم ومصنوعاتِهم.

وكان لإسحاق الموصلي القدرةُ الغريبةُ على مخاتلةِ المغنّين عن أصواتِه، حتّى صنعَ مرّةً صوتًا، وأرادَ الفحولُ منهم أن يأخذوه بعدما سمعُوه منه أكثرَ من سبعين مرّة، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وكانت مجالسُ الغناءِ عندهم تشبهُ أن تكون مجالسَ علم لدراسةِ هذا الفنِّ وتهذيبِه، فكان أحدُهم لا يحجمُ إن رأى في صوتِ صاحبِه مأخذًا أن يفاجئَه بالانتقادِ، ويبيّن له مواضعَ الخطأ مهما عظمَ شأنُ المجلسِ وشأنُ صاحبِه.

وكانت تقعُ بينهم المنافساتُ الشديدةُ في ذلك كما تقع بين العلماءِ في مجادلاتِهم ومناظراتِهم ممّا يدلُّ على أنّ الغناءَ العربيَّ كان له عند العربي، صبغةٌ جدّيةٌ فوق صبغةِ اللهوِ، وأنّ الغربيين في هذا العهدِ ليسوا بأعلمَ بصناعةِ الغناءِ ولا أقومَ على أمرها من العربِ في ذلك العهدِ. ولو أن العربَ توسّعوا في فنونِه وضروبِه، لبلغوا الغايةَ التي لا غايةَ وراءها، ولكنّهم كانوا قلّما يَحْفِلون بإدخاله في الأغراضِ العاليةِ كالحروبِ والشؤونِ الوطنيّةِ وأمثالِ ذلك من المناحي والمقاصدِ إلّا قليلًا.

كما ورد في تاريخ الدولةِ العباسيّةِ أنّ أعداءَ البرامكةِ[١] لمّا أرادوا الإيقاعَ بهم، وعلموا أنّ سبيلَ الوشايةِ بهم إلى الرشيد سبيلٌ وَعْرٌ، دسّوا له من القيان من يغنّيه بقول عمر بن أبي ربيعة[٢]:

لَـيْـتَ هـنْـدًا أنْـجَـزَتْـنـا مـا تَـعِـدْ وشَـفَـتْ أنْـفُـسَـنـا مـمّـا تـجِـدْ

واسْـتَـبَـدَّتْ مـرّةً واحـدةً إنّـمـا الـعـاجـزُ مـنْ لا يـسـتـبـدْ

فحرّكَ ذكرُ العجزِ والاستبدادِ ما كان كامنًا في نفسِ الرشيدِ من شعورِه بِسُلطانِ البرامكةِ عليه واستبدادِهم بالأمرِ من دونه، فقال عند تمام الصوت: «نعم إنّي عاجز». ثم كانَ أمرُه معهم بعد ذلك ما كان.

ولقد مضى الصدرُ الأولُ من الإسلام وشأنُ فنِّ الغناءِ العربيّ هذا الشأنُ العظيمُ خصوصًا في أواخر الدولةِ الأمويّةِ وأوائلِ الدولةِ العباسيّةِ، ثم أخذتْ شمسُه الباهرةُ تنحدرُ إلى الغروبِ بانحدارِ اللغةِ العربيّةِ وشعرِها حتى أصبحَ في حضارةِ الأندلسِ قدودًا وموشّحات، بعد أن كان قصائدَ ومقطّعاتٍ، فكان لا يسمعُ أبناء العرب في ذلك العهد إلّا إلى قول المغنّي:

---

(١) البرامكة: أسرة فارسيّة تقلّد أبناؤها الوزارة في العهد العباسي. نكبهم الرشيد.

(٢) عمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ/ ٧١١م) شاعر غزلي رقيق الأسلوب. ديوانه معرض لأسماء النساء. تزهّد في أواخر حياته.

كحلُ الدجَى يجري من مقلةِ الفجرِ على الصباح
ومعصمُ النهر في حللٍ خضرِ من البطاح

أو قوله:

كلّلي يا سحبُ تيجانَ الربَى بالحلي
واجعلي سوارَها منعطفَ الجدولِ

وليت الأمرَ وقفَ عند هذه الموشّحاتِ فإنّها وإنْ لم تكنْ شعريّةَ اللفظِ فهي شعريّةُ المعنى عاليةُ الخيالِ، وهي على علّاتِها خيرٌ من شعرِ العامّةِ الذي قضى عليه فسادُ اللغةِ وانحطاطُها بانتهاجِه والتغنّي به كالزجلِ، والمَوَاليا، والقوما، والدوبيت، وكان ويكون، وغير ذلك ممّا يسمّى في عهدِنا هذا بالأدوارِ والتواشيحِ والأغصانِ والمذاهبِ وأمثالِها.

فهل لجماعةِ المغنّين في عصرِنا أن يعفونا من: «أحب جميل طبعه الدلال» ومن: «يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك»، ويأخذوا بنا في مسلكٍ أشرفَ من هذا المسلكِ، ويعيدوا للغناءِ العربيّ عهدَه الأولَ كما صنعَ شعراءُ العصرِ برفيقه الشعرِ. فلقد كان الشعرُ والغناءُ أخوَيْن أليفَيْن، رضيعَيْ ثديٍ وضجيعَيْ مهدٍ، ثم ضربَهما الدهرُ بضرباتِه، فافترَقا. فماذا علينا لو قصّرنا مسافةَ البعدِ بينهما؟ وماذا على المغنّين والشعراءِ في مصر، لو عقدوا بينهم عهدًا أن يهذّبوا أخلاقَ أمّتهم، ويرفعُوا شأنَها ليكونَ لهم من الفضلِ في نهضتِها وارتقائِها ما عجزَ عن دركِهِ الفلاسفةُ والحكماءُ.

فينظمُ الشاعرُ المقطّعاتِ الرقيقةَ العذبةَ السائغةَ في فضائلِ الأعمالِ ومكارمِ الأخلاقِ، كالشجاعةِ والشهامةِ والشرفِ وحبِّ الوطنِ والاتحادِ والتزهيدِ في صغائرِ الأمورِ، والترغيبِ في عظائمِها، فيأخذُها منه المغنّي، ولا يتكلّفُ في تلحينها أكثر ما يتكلّفُه في تلحين سواها من الأدوارِ والمواويلِ، ثم يغنّيها في الناسِ غيرَ مبالٍ بما يفاجئُه به ضعفاءُ النفوسِ الجامدون من الانتقادِ الملازمِ لكلِّ عملٍ شريفٍ في مبدئه.

وفي اعتقادي أنّ لهذه الطريقةِ من الأثرِ الحسنِ في نفوسِ العامّةِ وتهذيبِ أخلاقهم وطباعِهم، وتقويمِ ألسنتِهم وعقولِهم، ما يخلّدُ للملحّنين والمغنّين أجملَ ذكرٍ في تاريخ عظماءِ الرجالِ.

❁ ❁ ❁

التوبة

علمَ فلانٌ، وكان شابًا من شبانِ الخلاعةِ واللّهوِ، وقاضيًا من قضاةِ المحاكم، أنّ المنزلَ الذي يجاورُ منزله يشتملُ على فتاةٍ حسناءَ من ذواتِ الثّراءِ والنّعمةِ والرّفاهيةِ والرّغدِ، فرنا إليها النظرةَ الأولى، فتعلّقَها، فكرّرها أخرى، فبلغَتْ منه، فتراسلا ثم تزاوَرا، ثم افترقا، وقد خُتِمَتْ روايتُهما بما تُختَمُ به كلُّ روايةٍ غراميةٍ يمثّلها أبناءُ آدمَ وحواءَ على مسرحِ هذا الوجودِ.

عادتِ الفتاةُ إلى أهلِها تحملُ بين جنبَيها همًّا يضطرمُ في فؤادها، وجنينًا يضطربُ في

أحشائِها، وقد يكونُ لها إلى كتمانِ الأول سبيلٌ، أمّا الثاني فسرٌّ مذاعٌ، وحديثٌ مشاعٌ، إنِ اتسعَتْ له الصدورُ، لا تتسعُ له البطونُ، وإنْ ضنَّ به اليومُ، لا يضنُّ به الغدُ.

ذلك ما أسهرَ ليلَها وأقضَّ مضجعَها[١]، وملكَ عليها وجدانَها وشعورَها، فلم ترَ لها بدًّا من الفِرارِ بنفسها، والنجاةِ بحياتِها، فعمدَتْ إلى ليلةٍ من الليالي السوداءِ فلبستها، وتلفّعَتْ بردائِها، ثم ألقتْ بنفسها في بحرِها الأسودِ، فما زالت أمواجُها تترامَى بها، حتّى ألقتْها إلى شاطئِ الفجرِ، فإذا هي في غرفةٍ صغيرةٍ في إحدى المنازلِ الباليةِ، في بعضِ الأحياءِ الخاملةِ، ومعها ذلك الجنينُ المضطربُ.

كان لها أمٌّ تحنُو عليها، وتفتقدُ شأنَها، وتجزعُ لجزعِها، وتبكي لبكائها ففارقَتْها، وكان لها أبٌ لا همَّ له في حياته إلّا أن يراها سعيدةً في آمالها، مغتبطةً بعيشها، فهجرَتْ منزلَه، وكان لها خدمٌ يقمْنَ عليها ويسهَرْنَ بجانبها، فأصبحَتْ لا تسامرُ غيرَ الوحدةِ، ولا تساهرُ غيرَ الوحشةِ، وكان لها شرفٌ يؤنسُها ويملأُ قلبَها غبطةً وسرورًا، ورأسَها عظمةً وافتخارًا، ففقدَتْهُ، وكان لها أملٌ في زواجٍ سعيدٍ من زوجٍ محبوبٍ، فرزأَتْها الأيّامُ في أملِها.

ذلك ما كانت تناجي نفسَها به صباحَها ومساءها، بكورَها وأصائلها، فإذا بدا لها أن تفكّرَ في علّةِ مصائبها، وسببِ أحزانِها علمَتْ أنّه ذلك الفتَى الذي وعدَها أن يتزوّجَها، فخدَعَها عن نفسِها، ولم يفِ بعهدِه لها، فقذفَ بها، وبكلِّ ما تملكُ يدُها في هذا المصيرِ.

فلا يكادُ يستقرُّ ذلك الخاطرُ في فؤادها، ويأخذُ مكانَه من نفسِها حتّى تشعرَ بجذوةِ نارٍ تتّقِدُ بين جنبيها من الحقدِ والموجدةِ على ذلك الفتَى لأنّه قتلها، وعلى المجتمعِ الإنسانيّ لأنّه لا يأخذُ القاتلَ بجريمتِه، ولا يسلكُه في سلسلةِ المجرمين.

وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى جاءها المخاضُ، فولدَتْ وليدتَها من حيث لا ترى بين يدَيْها من يأخذُ بيدِها، أو يساعدُها على خَطْبِها غيرَ عجوزٍ من جاراتها ألمّتْ بشأنها، فمشَت إليها وأعانَتْها على أمرِها بضعَ ساعاتٍ، ثم فارقَتْها تكابدُ على فراشِ مرضها ما تكابدُ، وتعاني من صروفِ دهرِها ما تعاني.

ولقد ضاقَ صدرُها ذرْعًا بهذا الضّيفِ الجديدِ، وهو أحبُّ المخلوقاتِ إليها، وأكثرُهم قربًا إلى نفسها. فجلستْ ذاتَ ليلةٍ، وقد وضعَتْ طفلتَها النائمةَ على حجرِها، وأسندَتْ رأسَها إلى كفِّها، وظلّتْ تقولُ:

لَيتَ أمّي لم تلدْني، وليتني لَمْ أكنْ شيئًا.

لولا وجودي، ما سعدتُ، ولولا سعادتي، ما شقيتُ، وإنْ كان في العالمِ وجودٌ أفضلُ منه العدمُ، فهو وجودي.

لقد كان لي قبل اليومِ سبيلٌ إلى النجاة من هذه الحياةِ، أمّا اليومَ، وقد أصبحْتُ أمًّا، فلا سبيل.

---

(١) أقض مضجعها: شغل بالها.

أأقتلُ نفسي، فأقتلَ طفلتي؟ أم أحْيَا بجانبها هذه الحياةَ المريرةَ؟

لا أحسبُ أنّ الموتَ تاركي حتّى يذهبَ بي إلى قبري، فماذا يكونُ حالُ طفلتي من بعدي؟

إنّها ستعيشُ من بعدِي، وتشقَى في الحياةِ شقائي، لا لذنبٍ جَنَتْه ولا لجريمةٍ أجرمَتْهَا، سوى أنّني أمُّها.

هل تعيشين أيّتها الفتاةُ حتّى تغفري لي ذنبَ أمومتي حينما تسمعين قصّتي وتسمعين شِكاتي؟

لم يبقَ في يدي يا بنيّتي، من حلاي إلّا قليلٌ سأبيعُه كما بِعْتُ سابقَه، فماذا يكونُ شأني وشأنُك بعد اليوم؟

محالٌ أن أعودَ إلى أبي فأقصَّ عليه قصّتي، لأنّه لم يبقَ لي ممّا يعزّيني عن شقاءِ العيشِ وبلائِه، إلّا أنّ أهلي لا يعرفون شيئًا عن جريمتي، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الأعزّاء، وَلَأنْ يبكوا مماتي، خيرٌ لي ولهم من أن يبكوا حياتي.

وكذلك ظلّتْ تلك البائسةُ المسكينةُ تحدّثُ نفسها تارةً، وطفلتَها أخرى بمثلِ هذا الحديثِ المحزنِ الأليمِ، حتّى غلبَها صبرُها على أمرِها، فأرسلَتْ من جفنيها قطراتٍ حارَّةً من الدّموعِ هي كلُّ ما يملكُ الضعفاءُ العاجزون، ويقدرُ عليه القانطونَ اليائسون.

دارتِ الأيامُ دورتَها، وباعتِ الفتاةُ جميعَ ما تملكُ يدُها، وما يحملُ بدنُها، وما تشتملُ عليه غرفتُها من حلي وثيابٍ، وأثاثٍ ورياشٍ، ولم يبقَ لها إلّا قميصُها الخَلقُ وملاءتُها وبرقُعُها، ولم يبقَ لطفلتِها إلّا أسمالٌ[1] بالياتٌ تنمُّ عن جسمِها نميمةَ الوجهِ عن السريرةِ، فكانت تقضي ليلَها شرَّ قضاءٍ حتى إذا طارَ غرابُ الظلامِ عن مجثمِه، أسبلَتْ برقعَها على وجهِها، واتّزرَتْ بمئزَرِها، وأنشأتْ تطوفُ شوارعَ المدينةِ، وتقطعُ طرقَها، لا تبغي مقصدًا، ولا تريدُ غايةً سوى الفرارِ بنفسِها من هَمِّها، وهمُّها لا يزالُ يساورُهَا، ويترسّمُ مواقعَ أقدامِها.

وأحسبُ أنّ عجوزًا من عجائزِ المواخيرِ رأتْها، فألمّتْ ببعضِ شأنها فاقتفَتْ أثرَها حتى دخلتْ غرفتَها، فوغلتْ عليها، وسألتها ما خطبُها؟ فأنسَتِ الفتاةُ عند رؤيتِها، وكذا يأنسُ المصدور بنفثاتِه، والبائسُ بشكاتِه، فأصرحَتْ لها بسرّها، وألقَتْ إليها بخبيئةِ صدرِها، ولم تتركْ خبرًا من أخبارِ نعيمِها، ولا حدثًا من حوادثِ بؤسِها لم تحدّثْها به، فعرفَتِ الفاجرةُ محنتَها، ورأتْ بعينها ذلك الماءَ من الحسنِ الذي يجولُ في أديمِ وجهها جَولان الراحِ في زجاجتِها، وعلمَتْ أنّها إن أحرزَتْها في منزلها، فقد أحرزَتْ غنى الدهرِ، وسعادةَ العمرِ، وما هو إلّا أنْ أرسلَتْ إليها بعضَ عقاربِها، ونفثَتْ في نفسِها بعضَ رقَاها، حتّى غلبَتْها على أمرِها، وقادَتْها إلى منزلِها، وما هي إلّا عشيّةٌ أو ضحاها حتّى بلغَتْ بها الغايةَ التي لا مفرّ لها، ولا لأمثالِها من بلوغِها.

عاشَتْ تلك البائسةُ في منزلِها الجديدِ، عيشًا أشقَى من عيشِها الأولِ في منزلِها القديمِ،

---

(١) الأسمال: الثياب الرثّة البالية.

لأنّها ما كانت تستطيعُ أن تصلَ إلى لقمتِها - وهي كلُّ ما حصلَتْ عليه في حياتِها الجديدةِ - إلّا إذا بذلَتْ راحتَها وشرّدَتْ نومَها، وأحرقَتْ دماغَها بالسهرِ، وأحشاءها بالشرابِ، وصبرَتْ على كلِّ من يسوقُه إليها حظّها من سباعِ الرجالِ وذئابِهم، على اختلافِ طبائعِهم، وتنوّعِ أخلاقِهم، لأنّها لم ترَ بدًّا من ذلك. فاستَسْلَمَتِ استسلامَ اليائسِ الذي لم تتركْ له ضائقةُ العيشِ إلى الرّجاءِ سبيلًا.

ولو أنّ الدهرَ وقفَ معها عند هذا الحدِّ، لهانَ الأمرُ، ولألِفَتِ الشقاء ومُرِّنَتْ عليه كما يألفُه ويُمرَّنُ عليه كلُّ مَنْ سارَ في الطريقِ التي سارتْ فيها. ولكنّه أبَى إلّا أن يسقيَها الكأسَ الأخيرةَ من كؤوسِ شقائِه، فساقَ إليها ذئبًا من ذئابِ الرجالِ كان ينقمُ عليها شأنًا من شؤونِ شهواتِه ولذّاتِه، فزعمَ أنّها سرقَتْ كيسَه في إحدى لياليه التي قضاها عندها، ورفعَ أمرَها إلى القضاءِ، واستعانَ عليها ببعضِ أترابِها الساقطاتِ اللواتي كنّ يحسدْنَها، وينفسْنَ عليها حسنَها وبهاءَها حتّى أدانها.

جاء يومُ الفصلِ في أمرِها، فسيقَتْ الى المحكمةِ، وفي يدِها فتاتُها، وقد بلغتِ السابعةَ من عمرِها، فأخذَ القاضي ينظرُ في القضايا ويحكمُ فيها بما يشاءُ حتى أتى دورُ الفتاةِ، فما وقفَتْ بين يديه، ووقعَ بصرُها عليه، حتّى شُدِهَتْ عن نفسِها، وألمّ بها من الحَيْرَةِ والدهشةِ ما كاد يذهبُ برشدِها؛ ذلك أنّها عَرَفَتْهُ، وعَرَفَتْ أنّه ذلك الفتى الذي كانَ سببَ شقائها، وعلّةَ بلائها.

فنظرتْ إليه نظرةً شزراءَ، ثم صرخَتْ في وجهِه صرخةً دوّى بها المكانُ دويًّا وقالت:

رويدَك يا مولاي القاضي، ليس لك أن تكونَ قاضيًا في قضيّتي! فكلانا سارقٌ، وكلانا خائنٌ. والخائنُ لا يقضي على الخائنِ، واللصُّ لا يصلحُ أن يكون قاضيًا بين اللصوصِ.

فعجبَ القاضي والحاضرون لهذا المنظرِ الغريبِ، وغضبَ لهذه الجرأةِ العجيبةِ، وهمّ أن يدعوَ الشرطيَّ لإخراجها، فحسرَتْ قناعَها عن وجهِها، فنظرَ إليها نظرةً ألمَّ فيها بكلِّ شيءٍ، فشعرَ بالرعدةِ تتمشّى في أعضائه، وسكنَ في كرسيّه سكونَ المحتضرِ في سريرِ الموتِ، وعادَتِ الفتاةُ إلى إتمامِ حديثِها فقالت:

أنا سارقةُ المالَ، وأنت سارقُ العِرضَ، والعِرضُ أثمنُ من المالِ، فإنت أكبرُ منّي جنايةً، وأعظمُ جُرْمًا.

إنَّ الرجلَ الذي سرقتُ مالَه يستطيعُ أن يعزّيَ نفسَه عنه باستردادِه أو الاعتياض عنه، أمّا الفتاةُ التي سَرَقْتَ عِرضَها، فلا عزاءَ لها، لأنّ العِرضَ الذاهبَ لا يعودُ.

لولاك ما سرقْتُ، وما وصلْتُ إلى ما إليه وصلْتُ، فاتركْ كرسيَّك لغيرِك، وقفْ بجانبي ليحاكمَنا القضاءُ العادلُ على جريمةٍ واحدةٍ أنت مدبّرُها، وأنا المسخّرَةُ فيها.

إنّ شريعةً تعلمُ أنّنا شركاءُ في جريمةٍ واحدةٍ، ثم تأتي بنا إلى هذا المكان، فتوقفُ أحدَنا

في أشرفِ المواقفِ، وتوقفُ الآخرَ في أدناها، لشريعةٌ ظالمةٌ ليس بينها وبين العدلِ نسبٌ موصولٌ، أو زمامٌ غيرُ منقضبٍ.

رأيتكَ حين دخلتُ هذه القاعةَ، وسمعتُ الحاجبَ يصرخُ لمقدَمِك، ويستنهضُ الصفوفَ للقيام لك، ورأيتُ نفسي حين دخلْتُ والعيونُ تتخطّاني، والقلوبُ تقتحمُني، فقلت: يا للعجبِ!! كم تكذبُ العناوينُ! وكم تخدعُ الألقابُ! وكم يعيشُ هذا العالمُ في ضلالةٍ عمياءَ، وجهالةٍ جهلاً!!

بَخٍ بَخٍ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادةَ، شهادةَ العلمِ والفضلِ والأخلاقِ والآدابِ. ومرحًى مرحًى لأولئك الذين أقعدُوكَ هذا المقعدَ، ووضعُوا بين يدَيْك هذا القانونَ، وأوقفوا أمامَك هذا الشرطيَّ يأتمرُ بأمرِك وينزلُ على حكمِك.

إنّ تحت هذه الثيابِ التي تلبَسُونها، معشرَ القضاةِ، نفوسًا ليست بأقلَّ من نفوسِنا شرًّا، ولا أخبثَ منها مذهبًا، وربّما لا يكونُ بيننا وبين الكثيرِ منكم فرقٌ إلّا في العناوينِ والألقابِ، والشمائلِ والأزياءِ.

أتيتَ بي إلى هنا لتحكمَ عليَّ بالسجنِ، كأنْ لم يكفِك ما أسلفتَ إليَّ من الشقاءِ، حتى أردتَ أن تجيء بلاحق لذلك السابق.

ألمْ أحسنْ إليك بساعةٍ من ساعاتِ السرورِ، فترعَاها؟ ألست إنسانًا ذا شعورٍ وإحساسٍ، فترثي لشقائي وبلائي؟

إن لم تكنْ عندي وسيلةٌ أمتُّ بها إليك، فوسيلتي عندك ابنتُك هذه، فهي الصّلَةُ الباقيةُ بيني وبينك.

فرفعَ القاضي رأسَه، ونظرَ إلى ابنتِه الصغيرةِ نظرةَ رحمةٍ وإشفاقٍ، وقد قرّر في نفسِه ألّا بدّ له من أنْ يُنصفَ تلك البائسةَ وينتصفَ لها من نفسِه، غيرَ أنّه أرادَ أن يخلصَ من هذا الموقفِ خلوصًا جميلًا، فأعلنَ أنّ المرأةَ قد أصيبت بدخلٍ في عقلِها، وأن لا بدّ من إحالتِها على الطبيبِ، فصدّق الناسُ قولَه.

ثمّ قامَ من مجلسِه بنفسٍ غيرِ نفسِه، وقلبٍ غيرِ قلبِه، وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى استقالَ من منصبِه بحجّةِ المرضِ، ولم يزلْ يسعى سعيَه حتى ضمَّ إليه ابنتَه، واستخلصَ أمّها من قرارتِها، وهاجرَ بها إلى بلدٍ لا يعرفُهما فيه أحدٌ، فتزوَّجَ منها وأنسَ بعشرتِها، واحترفَ في دار هجرته حرفةً لولا مخافةُ أن أدلَّ عليه إذا ذكرتُها لذكرتُها.

ولا يزالُ حتّى اليوم يكفّرُ عن سيّئاتِه إلى زوجتِه بكلِّ ما يستطيعُه من صنوفِ الرّعايةِ، وأنواعِ الكرامةِ، حتى نسيَا ما فاتَ، ولم يبقَ أمامَهما إلّا ما هو آتٍ.

❁ ❁ ❁

البائسات

زرتُ منذ أيام حاكمَ بلدةٍ في منزلِه، فرأيتُ بين يدَيْه فتاةً في الثانيةَ عشْرةَ من عمرها بائسةً عليلةً، تشكُو ألمًا في عنقِها، وجرحًا في ذراعِها، وهمًّا في نفسِها، وتديرُ في الحاضرين عيونًا حائرةً مضطربةً كأنّما هي مركّبةٌ على زئبقٍ رجراجٍ؛ فسألت: ما شأنُها؟ فعلمتُ أنّ أهلَها زوّجُوها وهي في هذه السنّ وعلى هذه السذاجةِ من رجلٍ وحشيِّ الخَلْقِ والخُلُقِ.

ثمّ زفّوها إليه، فحاولَ أن يفترشها، وهي على حالةٍ لا تستطيعُ معها أن تلمّ بفراشٍ، فامتنعَتْ عليه، فأرادَ اغتصابها، فعجزَ، فضربَها هذا الضربَ الذي رأينا آثارَه في جسمَها، ففرّتْ منه إلى منزلِ أهلِها، فنقموا منها هذا الإباءَ الذي سمّوه بلادةً وغفلةً، وأعادُوها إلى منزلِ زوجِها كما يعادُ المجرمُ الفارُّ من سجنِه إليه مرّةً أخرى.

وهنالك عادَ زوجُها إلى عادتِه معها، فعادَت هي إلى فرارِها، فعادَ أهلُها إلى قسوتِهم وجبروتِهم.

فلمّا أعياها الأمرُ، خرجتْ إلى الطريقِ العامّةِ هائمةً على وجهِها لا تعرفُ لها مذهبًا ولا مستقرًّا، حتّى رُفعَ أمرُها إلى ذلك الحاكمِ، فأمرَ باستدعائِها، وآواها في منزلِهِ ليخلّصَها من ذلك الموقفِ الذي كانت فيه بين ذراعَيْ وجبهةِ الأسدِ.

وما فرغَ من هذه القصّةِ حتى رفعتْ إليه حادثةٌ أخرى تشبهُ الحادثةَ الأولى من جميعِ وجوهِها، إلّا أنّ الزوجَ في هذه المرّةِ خدعَ زوجَه عن نفسِها، وسقاها مخدّرًا، فعقرَها كما عقرَ شقيّ ثمود الناقةَ من قبلُ.

إنّ المرأةَ المصريّةَ شقيّةٌ بائسةٌ، ولا سببَ لشقائِها وبؤسِها إلّا جهلُها وضعفُ مداركِها.

إنّها لا تحسنُ عملًا، ولا تعرفُ بابَ مرتزقٍ، ولا تجدُ بين يديها سلعةً تتّجرُ بها، وتقتاتُ منها إلّا قلبَ الرجلِ، فإن استطاعتْ أن تمتلكَه، عاشتْ عيشًا رغدًا، أو لا، فلا مفرَّ لها من الشقاءِ؛ من المهدِ إلى اللحدِ.

ودون امتلاكِها هذا القلبَ القاسي المتحجرَ أهوالٌ عظامٌ، وعقباتٌ جسامٌ، لو كلّفَ الرجلُ نفسَه على ما به من قوّةٍ وأيدٍ وسَعَةِ حيلةٍ أن يجتازَ واحدةً منها، لسقطَ بين اليأسِ والاستسلامِ.

متى بلغتِ الفتاةُ سنَّ الزواجِ، سواءً أكان ذلك على تقديرِ الطبيعةِ أم على تقديرِ أولئك الجهلاءِ أولياءِ تينِك الفتاتَيْن، استثقلَ أهلُها ظلّها، وبرمُوا بها، وحاسبُوها على المضغةِ والجرعةِ، والقومةِ والقعدةِ، ورأوا أنّها عالةٌ عليهم، وأنْ لا حقَّ لها في العيشِ في منزلٍ لا يستفيدُ من عملِها شيئًا، وودّوا لو طلعَ عليهم وجهُ الخاطبِ، أيِّ خاطبٍ كان، يحملُ في جبينِه آيةَ البُشْرَى بالخلاصِ منها.

وإنّ قومًا هذا مبلغُ عقولِهم من الفهم، وقلوبِهم من القسوةِ، وهذه منزلةُ فِلْذاتِ أكبادِهم من نفوسِهم، لا يمكنُ بحالٍ من الأحوالِ أن يفاوضوها في اختيارِ الزوجِ، أو يحسنُوا الاختيارَ لها

حين يختارون، فإذا دخلتْ هذا المنزلَ الجديدَ الذي لا تعرفُه، ولا تعرفُ شأنًا من شؤونِ أهلِه، دخلتْ في دورِ الجهادِ العظيمِ بينها وبين قلبِ الرجلِ.

فإنْ كانتْ ذاتَ جمالٍ أو مالٍ، فقد استوثقَتْ لنفسِها، وأمنَتْ آلامَ الهجرِ وفجائعَ التطليقِ، وإلّا فهي تقاسي كلَّ صباحٍ ومساءٍ في الحصولِ على الحسنِ المجلوبِ، والجمالِ المصنوعِ، آلامًا جثمانيّةً تطفئُ نورَ شبيبتِها، وتذبلُ زهرةَ حياتِها، وتلاقي في سبيلِ مصانعةِ الزوجِ ومداراتِه والبكاءِ في موضعِ الابتسامِ إن ابتسمَ، والابتسامِ في موضعِ البكاءِ إن بكى، ما يجعلُ أخلاقَها قَضاءً مملوءًا بالكذبِ والكيدِ، والخبثِ والرياءِ؛ وهي فوقَ ذلك تنتظرُ من فمِ زوجِها في كلِّ ساعةٍ كلمةَ الطلاقِ، كما ينتظرُ القاتلُ من فمِ قاضيه كلمةَ الإعدامِ.

ليستْ كلمةُ الإعدامِ من قبيلِ الاستعمالِ المجازيّ، فما أنسَ لا أنسَ ليلةً زرتُ فيها صديقًا لي، فرأيتُ عند بابِ منزلِه امرأةً بائسةً ليس وراء ما بها من الهمِّ غايةٌ وكأنّما هي الخيالُ رقّةً وذبولًا، ووراءها صبيةٌ ثلاثةٌ يدورون حولها ويجاذبونها طرفَ ردائها، فتسبلُ فضلَ مئزرِها على مآقيها المقرّحةِ رأفةً بهم أن يلمّوا ببعضِ شأنِها، فيبكوا لبكائها. فسألتُها عن شأنِها فأخبرتْني أنّها مطلّقةٌ من زوجِها، وأنّ بيدها حكمًا من المحكمةِ الشرعيّةِ بالنفقةِ لأولادها، وقد مرّ عليها زمنٌ طويلٌ و«الإدارة» تماطلُ في إنفاذِه. فجاءَتْ إلى هذا الصديقِ تستعينُ به على أمرِها، ثم أخذتْ تشرحُ من حالِها وحالِ أطفالِها في مقاساةِ الشدّةِ، ومعالجةِ القوتِ ما أسالَ شؤونَنا[1]؛ وصعّدَ زفراتِنا وأمسكْنا له أكبادنا «خشيةَ أن تصدّعا».

فخفّفْتُ أنا والصديقُ شيئًا من آلامِها، فانصرفَتْ؛ وفي صباحِ تلك الليلةِ سمعْنا أنّ امرأةً فقيرةً ماتَتْ بحمّى دماغيّةٍ. فسألْنا، فعلمْنا أنّها صاحبتُنا بالأمس، وأنّها ماتتْ شهيدةَ الزوجيّةِ الفاسدةِ.

أيّها الرجلُ:

إن كنتَ تعتقدُ أنّ المرأةَ إنسانٌ مثلُك وهبَها اللهُ مداركَ مثلَ مداركِك، واستعدادًا مثلَ استعدادِك، فعلّمها كيف تأكلُ لقمتَها من حرفةٍ غيرِ هذه الحرفةِ النكدةِ، وإلّا فأحْسِنْ إليها، وارحَمْها كما ترحمُ كلبَك وشاتَك.

إنْ كنتَ زوجًا، فلا تطردْها من منزلِك بعد أن تقضيَ مأربَك منها كما تصنعُ بنعلِك التي تلبَسُها. وإن كنتَ أبًا، فهذه فِلْذةُ كبدِك، فلا تَضِقْ بها ذَرْعًا، ولا تلقِ بها في حجرِ وحشٍ ضارٍ، يأكلُ لحمَها، وَيَمْتَصُّ دمَها، ثم يُلقي إليك بعظامِها.

ويا أيُّها المحسنُون: واللهِ، لا أعرفُ لكم بابًا في الإحسانِ تنفذون منه إلى عفوِ اللهِ ورحمتِه أوسعَ من بابِ الإحسانِ إلى المرأةِ.

علّموها لتجعلوا منها مدرسةً يتعلّمُ فيها أولادُكم قبل المدرسةِ، وأدّبوها لينشأَ في حجرِها المستقبلُ العظيمُ للوطنِ الكريمِ.

---

(١) الشؤون: الدمع.

الحسد

لو عَرَفَ المحسودُ ما للحاسدِ عندَه من يدٍ، وما أسدَى إليه من نعمةٍ لأنزلَه من نفسِه منزلةَ الأوفياءِ المخلصين، ولوقفَ بين يديه تلك الوقفةَ التي يقفُها الشاكرون بين أيدي المحسنين.

لا يزالُ صاحبُ النعمةِ ضالًّا عن نعمتِه، لا يعرفُ لها شأنًا، ولا يقيمُ لها وزنًا، حتى يدلَّه الحاسدُ عليها بنكرانِها، ويرشدَه إليها بتحقيرِها، والغضِّ منها، فهو الصديقُ في ثيابِ العدوِّ، والمحسنُ في ثيابِ المسيءِ.

أنا لا أعجبُ لشيءٍ عجبي لهذا الحاسدِ، ينقمُ على محسودِه نعمَ اللهِ عليه، ويتمنّى لو لم تبقَ له واحدةٌ منها، وهو لا يعلمُ أنّه في هذه النقمةِ، وفي تلك الأمنيَّةِ قد أضافَ إلى محسودِه نعمةً هي أفضلُ من كلِّ ما في يديه من النِّعم.

وجهُ الحاسدِ ميزانُ النِّعمةِ ومقياسُها، فإنْ أردتَ أن تزنَ نعمةً وافْتِكَ، فارمِ بخيرِها في فؤادِ الحاسدِ، ثم خالسْهُ نظرةً خفيفةً، فحيث ترى الكآبةَ والهمَّ، فهناك جمالُ النعمةِ وسناؤها.

ليس بين النِّعمِ التي يُنعمُ بها اللهُ على عبادِه نعمةٌ أصغرُ شأنًا، وأهونُ خطرًا من نعمةٍ ليس لها حاسدٌ، فإن كنت تريدُ أن تصفوَ لك النِّعمُ، فقفْ بها في سبيلِ الحاسدين، وألقِها في طريقِ النّاقمين، فإن حاولوا تحقيرَها وازدراءها، فاعلمْ أنّهم قد منحُوك لقب «المحسود»، فليهنأ عيشُك، وليعذُبْ موردُك.

إنْ أردتَ أن تعرفَ أيُّ الرجلين أفضلُ، فانظرْ إلى أكثرهما نقمةً على صاحبِه، وكلفًا بالغضِّ منه، والنيلِ من كرامتِه، فاعلَمْ أنّه أصغرُهما شأنًا وأقلُّهما فضلًا.

قد جعلَ اللهُ لكلِّ ذنبٍ عقوبةً مستقلةً يتألّمُ لها المذنبُ عند حلولِ أجلِها. فالشاربُ يتألّمُ عند حلولِ المرضِ، والمقامرُ يتألّمُ يومَ نزولِ الفقرِ، والسّارقُ يتألّمُ يومَ دخولِ السجنِ.

أمّا الحاسدُ، فعقوبتُه حاضرةٌ دائمةٌ، لا تفارقُه ساعةً واحدةً.

إنّه يتألّمُ لمنظرِ النعمةِ كلّما رآها. والنعمةُ موجودٌ من الموجوداتِ الثابتةِ التي لا يلمُّ بها التنقّلُ من مظهرٍ إلى مظهرٍ، والتحوّلُ من موقفٍ إلى موقفٍ؛ فهيهاتِ أن يفنَى ألمُه، أو ينقضي عذابُه، حتى تقرَّ عينُه التي تبصرُ، ويسكنَ قلبُه الذين ينبضُ.

الحسدُ مرضٌ من الأمراضِ القلبيّةِ الفاتكةِ، ولكلِّ داءٍ دواءٌ، ودواءُ الحسدِ أن يسلكَ الحاسدُ سبيلَ المحسودِ، ليبلغَ مبلغَه من تلك النِّعمةِ التي يحسدُه عليها، ولا أحسبُ أنّه ينفقُ من وقتِه ومجهودِه في هذا السبيلِ أكثرَ ممّا يُنفقُ من ذلكِ الغضِّ من شأنِ محسودِه، والنيلِ منه، فإنْ كان يحسدُه على المالِ، فلينظرْ أيّ طريقٍ سلكَ إليه، فيسلكه، وإن كان يحسدُه على العلمِ، فليتعلّمْ، أو الأدبِ، فليتأدّبْ. فإن بلغَ من ذلك مأربَه، فذاك، وإلّا فحسبُه أنه ملأ فراغَ حياتِه بشؤونٍ لولاها لقضاها بين الغيظِ الفاتكِ، والكمدِ القاتلِ.

❋ ❋ ❋

الوفاء

يا صاحبَ النظراتِ:

تزوّجْتُ منذ سنةٍ من زوجٍ صالحةٍ طيّبةِ القلبِ والسريرةِ، فاغتبطتُ بعشرتِها برهةً من الزمان، وقد عرضَ لها في هذه الأيام رمدٌ في عينَيْها، فذهبَ ببصرِها فأصبحَتْ عمياءَ، وأصبحْتُ أعمَى بجانبها، وقد بدَا لي أنْ أطلّقَها وأتزوّجَ من غيرِها. فماذا ترى؟

«إنسان»

أيُّها الإنسانُ، لا تفعلْ، فإنّك إنْ فعلْتَ، كان عليك إثمُ الخائنين وجرمُ الغادرين، وكنِ اليومَ أحرصَ على بقائِها بجانبِك منك قبل اليومِ، لتستطيعَ أن تدّخرَ لنفسك عند اللهِ من المَثُوبةِ والأجرِ ما يدّخرُ أمثالُك من الصابرين المحسنين.

لا تقلْ إنّها عمياءُ، فلا خيرَ لي فيها، ولا غبطةَ لي بها، فإنّك ستجدُ بين جنبَيْك من لذّةِ المروءةِ والإحسانِ والجودِ والإيثارِ ما يَحْسُدُك عليه النّاعمُون بالحورِ الحسانِ، في مقاصيرِ الجنانِ.

اجلسْ إليها صباحَك ومساءَك، وحادِثْها محادثةَ الصديقِ صديقَه، بل الزوجِ زوجَه، وتلطّفْ بها جهدَك وروّحْ عن نفسِها ما يساورُها من الهمومِ والكروبِ وقلْ لها: لا تجزعي، ولا تحزني؛ فإنّما أنا بصرُك الذي به تبصرين، ونورُك الذي به تهتدين.

أُعيذك أيّها الإنسانُ باللهِ ورحمتِه، والعهدِ وزمامِه، ألّا تجعلَ لهذا الخاطرِ السيءِ - خاطرِ الطلاقِ والفراقِ - سبيلًا إلى نفسِك، فإنّها لم تُسِئْ إليك فتسيءَ إليها، ولم تنقضْ عهدَك فتنقضَ عهدَها، فإن كنتَ لا بدّ ثائرًا لنفسِك، فاثأرْ من القدرِ إنِ استطعْتَ إليه سبيلًا.

إنّ عجزًا من الرجلِ وضعفًا أنْ يغضبَ، فيمدّ يدَه بالعقوبةِ إلى غيرِ من أذنبَ إليه، ويعتدي عليه.

إن لم يكنِ احتفاظُك بزوجِك وإبقاؤك عليها عدْلًا يسألُك اللهُ عنه، فليكنْ إحسانًا تحاسبُك الإنسانيّةُ فيه.

إنّك قد خسرْتَ بصرَها، ولكنّك ستربحُ قلبَها، وحسبُ الإنسانِ من لذّةِ العيشِ وهناءتِه في هذه الحياةِ قلبٌ يخفقُ بحبّه، ولسانٌ يهتِفُ بذكرِه.

إنّها أسعدَتْك برهةً من الزمانِ، فليخفِقْ قلبُك رحمةً بها، بقدرِ ما خفقَ سرورًا بعشرتِها.

لا أحسبُ أنّها كانت تاركتَكَ، أو غادرةً بك، لو أنّ هذا السهمَ الذي أصابَها قد أصابَك من دونها، فاحرصِ الحرصَ كلّه على ألّا تكونَ امرأةٌ ضعيفةٌ أسبقَ منك إلى فضيلةِ الصّدقِ والوفاءِ.

إلى من تَعْهدُ بها بعد فراقِك إيّاها؟ وأيُّ موطنٍ من المواطنِ هيّأتَه لمقامِها؟ وماذا أعدَدْتَ لها من الوسائلِ التي تستعينُ بها على عيشِها؟ وتأنسُ بها في وحشتِها ووحدتِها؟

كيف يهنأُ لك عيشٌ، أو يغمضُ لك جفنٌ، إذا أظلّك الليلُ فذكرتَها، وذكرتَ أنَّها تقاسي في وحدتِها، من الوحْشَةِ ما لا قِبَلَ لها باحتمالِه، وأنّها ربّما طلبَتْ جرعةَ ماءٍ، فلا تجدُ من يقدّمُها إليها، أو كسرةَ خبزٍ، فلا تجدُ من يدلُّها عليها، أو ربّما قامتْ من مضجعِها في سكونِ الليلِ وهدوئِه تتلمّسُ الطريقَ إلى حاجةٍ من حاجاتِها، فأخطأ تقديرُها، فصدمَها الجدارُ في جبينِها صدمةً أسالَتْ دمَها حتّى امتزجَ بدمعِها؟

أيّها الإنسانُ، إن لم تكنْ عادلًا، ولا وفيًّا، ولا محسنًا، فارحَمْ نفسَك من هذا الخيالِ الذي لا بدّ أنّه سيساورُك، ويفتُّ في عضدِك ويزعجُك من مرقدِك، فإن لم تكن هذا ولا ذاك، فَغَيْرَك أخاطبُ لأنّي لا أحسنُ إلّا مخاطبةَ الإنسانِ.

إنّي محدّثُك عن صديقٍ لي من كرامِ الناسِ وأوفيائهم تزوّجَ امرأةً حسناءَ، فاغتبطَ بها برهةً من الزمانِ، ثم أصابَها الدهرُ بمثلِ ما أصابَ به زوجَك، ولم يتركْ لها من ذلك النُّورِ الذاهبِ إلّا كما تتركُ الشمسُ من الشفقِ الأحمرِ في حاشيةِ الأفقِ، فلم يقنعْه من الوفاءِ لها أنِ استبقاها واستمسكَ بها، بل كان يحرصُ جهدَه على ألا تعلمَ أنه ينكرُ من أمرِها شيئًا، فكانَ يعتبُ عليها في بعضِ الأحايينِ في أشياءَ لا يؤاخَذُ بها عادةً إلّا النّاظرون المبصرون؛ يريدُ بذلك أن يلقيَ في رُوعِها أنّه لا يزالُ يُعدّها ناظرةً مبصرةً، وأنّه لا يرى شيئًا جديدًا طَرَأَ عليها، رحمةً بها وإبقاءً على ما كانت تحبُّ أن تحاولَه من الاعتدادِ بنفسِها والإدلالِ بمزاياها.

ولقد قرأتُ جملةً صالحةً من نوادرِ العربِ في آدابهم، ومكارمِ أخلاقِهم، ورقّةِ شعورِهم، ولطفِ وجدانِهم، فلمْ أرَ بينها نادرةً أوقعَ في النفسِ، ولا أجملَ أثرًا في القلبِ، من قول أبي عُيَيْنَة[1]، الكاتبِ المعروفِ في عهدِ الدولةِ العباسيّةِ، وكان كفيفَ البصرِ: اختلفتُ إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد أربعين عامًا، فما سمعتُه مرّةً يقولُ لغلامِه عند تشييعي: خذ بيدِه يا غلامُ، بل يقول: اخرجْ معه يا غلامُ.

فإن كنتَ تريدُ أن يسجَّلَ لك من الوفاءِ في صفحاتِ القلوبِ، ما سُجِّلَ لأحمد بن أبي دؤاد[2] في صفحاتِ التاريخِ، فلا تطلّقْ زوجَك، ولا تنقمْ منها أمرًا قد خرجَ حكمُه من يدِها، وإن أبيتَ إلّا أن تأخذَ لنفسِك حظّها من لذائذِ العيشِ، فاعلمْ أنّه ما من لذّةٍ يتمتّعُ بها الإنسانُ في حياتِه إلّا ويشوبُها الكدرُ، أو يعقبُها الألمُ، إلّا لذّةُ البرّ والإحسانِ.



(١) هو موسى بن كعب (ت١٤١هـ/٧٥٨م) والٍ، من كبار القواد، وأحد الرجال الذين رفعوا عماد الدولة العبّاسيّة، وهدموا أركان الدولة الأمويّة.

(٢) أحمد بن أبي دؤاد (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس الفتنة في قضيّة خلق القرآن. كان فصيحًا عارفًا بأنساب العرب.

خبايا الزّوايا

جلسَ قاضي التحقيقِ ليلةَ أمسِ على كرسيّ قضائه، ووقفَ عن يمينِه رجلٌ من ذوي الأسنان[١] قذرٌ «دميم» المنظرِ، تسنحُ شعراتُه البيضُ في باديةِ رأسِه ولحيتِه سنوحَ الشررِ الأبيضِ في الدخانِ الأسودِ، وتتمشّى في أديمِ وجهِه غبرةٌ قاتمةٌ من رآها، علمَ أنّها نسيجُ دخانِ الحشيشةِ، الذي ينفثُه من فيه صباحَه ومساءه وغدوَّه ورواحَه، ووقفَ عن يسارِه صبيةٌ ستّةٌ نحلُ الأبدانَ جوعُ الأكبادِ، لم يتركْ لهمُ الدهرُ - آكلُ الناسِ وشاربُهم - إلّا هيكلًا من العظمِ تلمعُ في رأسِه عينان جائلتان، لا يستقرّان في محجريهما إلّا إذا استقرّ الزئبقُ الرجراجُ في قرارٍ مكينٍ.

نظرَ إليهم قاضي التحقيقِ نظراتٍ تمازجُها الرحمةُ، وتخالطُها الشفقةُ، والقضاةُ لا يرحمون ولا يشفقُون، لولا أنّ من المناظرِ مناظِرَ تستهوي القلوبَ القاسيةَ، وتذيبُ الأفئدةَ المتحجّرة، وأنشأَ يسألُهم واحدًا فواحدًا ما شأنُهم؟ وما خطبُهم؟ وما مصيرُهم؟ فكان جوابُهم جوابًا واحدًا خلاصتُه أنّ هذا النمرَ اللّابسَ ملابسَ الإنسانِ رأى خلّتَهم[٢] من حيث يَخْفى مكانُها، فَثَغَرَ[٣] فيها ثغرةً انحدرَ منها إلى أعراضِهم، فعبثَ بها ما شاءَ وشاء العابثون. فكانوا في دارِه الضّروعَ التي يحتلبُها، حتى إذا استنفد درّتها[٤]، ألحّ على دمائها فاستنزفَها.

ثم قالوا إنّه كان يديمُ مطالَ الجوعِ في بطونهم، فإذا علمَ أنّهم هلكوا، أو كادوا طفقَ يعلّلُهم باللقمةِ بعد اللقمةِ، والمُضْغَةِ بعد المضغةِ، ويرمُقُهم[٥] العيشَ ترميقًا لا إبقاءَ عليهم، بل على ما يصلُ إلى يدِه من المالِ من طريقِهم، وزعمُوا أنّه كان يريبُه منهم في بعض الأحيانِ تمرُّدهم عليه واحتفاظُهم بأعراضِهم من دونه، فيملأ أدمغتَهم بدخانِ الحشيشةِ ليسرقَ عقولَهم، ويحلّ عقدةَ إبائهم، ويتركُهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون.

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحدّ حتّى سقطَ منهم اثنان بين يدي القاضي، فراعَه من أمرِهم ما راعَه، ثم علمَ أنّه الجوعُ، فأمرَ لهم بخبزٍ وأدمٍ، فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدرادَ الوحشِ فريستَه، وقد وقفَ ذلك الذئبُ المستأنسُ ينظرُ إليهم نظرةً شزراءَ كتلك النظرةِ التي يرمي بها الصائدُ صيدَه، إذا أفلتَ من حبالتِه.

بذلك حدّثني من رأى هذا المنظرَ بعينِه، فارتعْتُ لسماعِ حديثِه الارتياعَ كلّه، وحسبتُ أنّه يحدّثني عن حادثةٍ وقعتْ في مبدأ الخليقةِ في مغارةٍ من مغاورِ الجنِّ أو شفعةٍ[٦] من شفعاتِ الجبالِ.

---

(١) الأسنان: جمع السن، وهو العمر.
(٢) الخلة: الحاجة.
(٣) ثغر الشيء: ثلمه وفتحه.
(٤) الدرة: اللبن.
(٥) رمقه الشراب: أعطاه إياه حسوة حسوة.
(٦) الشفعة: رأس الجبل.

وقلت له: أتعلمُ أيّها الرجلُ أنّك تحدّثني عن إنسانٍ؟

قال: لا تعجلْ فما حدّثتك إلّا عن رجلٍ حمّارٍ لا يفارقُ وجهَه صورةُ حمارِه ليلَه ونهارَه، وربّما سرَتْ إليه تلك النتيجةُ من هذه المقدّمةِ، فكيف بك لو علمتَ أنّ هذه الرذيلةَ لا يترفّعُ عنها في هذا البلدِ كثيرٌ من الأتقياءِ والصالحين، والأشراف، والمستورين؟

قلت: لا تحدّثني عن شيءٍ، فلم يبقَ في قلبي متّسعٌ، لاحتمالِه أكثرَ ممّا احتملتُ. والأمرُ لله وحدَه.

ليستْ مسألةُ الزوايا وخباياها أمرًا يُستهانُ به، أو تغضي العيونُ عليه فإنّنا نريدُ أن نُعِدَّ لوطننا رجالًا ذوي شجاعةٍ وإقدام، وعزّةٍ وأنفةٍ، من الذين إذا عظُمَ الخطبُ، كانوا حماةَ الديارِ، وإذا اشتدَّ البأسُ، لا يولونَ الأدبارَ[١].



القمار

لا أستطيعُ أن أعتقدَ ما يسمّونه الجنونَ الفرعيّ، ويريدون منه أن يكونَ الإنسانُ مجنونًا في شأنٍ واحدٍ من شؤونِه، عاقلًا في باقيها، وعندي أنّ الرجلَ إمّا أن يكونَ عاقلًا أو مجنونًا، ولا ثالثَ لهما.

العقلُ قوّةٌ يقتدرُ بها المرءُ على ضبطِ نفسِه عن شهواتِها، فموقفُه أمامَها موقفٌ واحدٌ، فإمّا أن يغلبَها جميعًا أو تغلبَه جميعُها.

أمّا ما يراهُ الرّائي أحيانًا من استهتارِ الرجلِ في بعضِ الشهواتِ استهتارًا يستهلكُ نفسَه وعقلَه، وزهدَه في بعضِها زهدَ الأعفّاءِ القانعين، فذلك لأنّه رغبَ في الأولى، فاسترسلَ وراء رغبتِه، ولم يدعُه إلى الأخرى داعٍ من شهواتِ قلبِه ونزعاتِ نفسِه، ولو دعاه لخفَّ إليه ولبّاه، ولن يسمّى الرجلُ زاهدًا أو عفيفًا إلّا إذا أمسكَ نفسه عن شهوةٍ تدعوه إليها، فيدفعُها، وتثورُ ثائرتُها بين جنبَيْهِ، فيقمَعُها.

لا تقلْ إنّ السكّيرَ عاقلٌ، إنْ رأيتَه غيرَ فاسقٍ ولا عاهرٍ، واعلمْ أنّه يؤثرُ الفسقَ ولا تجذبُه إليه جواذبُه، ولو آثره، لكانَ موقفُه من المواخيرِ موقفَهُ من الحاناتِ.

ولا تقلْ إنّ الفاسقَ عاقلٌ، إنْ رأيتَه غيرَ سارقٍ ولا مختلسٍ، فإنّه لا يحبُّ السرقةَ ولا الاختلاسَ، ولو أنّه أحبّهما، لكان في التسلّلِ إلى أعماقِ الدُّورِ والقصورِ أبرعَ منه في التسلّلِ إلى مكامنِ الفسقِ والفجورِ.

ولا تقلْ إنّ المقامرَ عاقلٌ، إنْ رأيتَه لا شاربًا ولا فاسقًا، فإنّ القمارَ قد استهلكَ شهوتَه

---

(١) الأدبار: ج الدبر، وهو الظهر.

واستخلصَها لنفسِه، ولم يدَعْ فيها فُضْلَةً لسواها، ولولا ذلك، لكان أكبرَ السارقين، وأفسقَ الفاسقين.

ولو كُنْتَ من المصانعين، الذين يزخرفون لأربابِ الرذائلِ رذائلَهم حتّى يصوِّرُوها في نظرِهم فضائلَ بما يُلبسونها من أثوابِ التأويلِ، ويُصبغونها من ألوانِ التعليلِ، لما استطعْتَ أن تصانعَ المقامرَ لأنّ حالَهُ من الجهلِ الفاضحِ، والغباوةِ المُسْتَحْكِمةِ، أبعدُ الحالاتِ عن عذرِ المعتذرين، وتأويلِ المتأوّلين.

ما جلسَ المقامرُ إلى مائدةِ القمارِ، إلّا بعد أنِ استقرّ في ذهنِه أنّ الدرهمَ الذي في يدِه سيتحولُ بعد هينهةٍ من الزمنِ إلى دينارٍ، ويعودُ به إلى أهلِه فرحًا مغتبطًا، وأحسبُ أنّ العقولَ العشرةَ مجتمعةً ومتفرّقةً، تعجزُ عن إدراكِ هذه العقيدةِ ومثارِها.

إنْ كان يؤملُ الربحَ لأنّه يرَى عن يمينِه رجُلًا قد ربحَ، فلمَ لا يخافُ الخسرانَ لأنّه يرى عن يساره مائةَ خاسرين؟ وإن كان يضحكُه منظرُ الربحِ لأنّه يرى في بعضِ مواقفِه أحدَ الرابحين ضاحكًا، فلمَ لا يبكيه منظرُ أصدقائه ورفقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حواليه تساقطَ جنودِ المعركةِ تحت القذائفِ المنطلقةِ.

ما أشبهَ المقامرَ الذي يطلبُ من الدينارِ الواحدِ مائة دينارٍ بالكيميائي الذي يطلبُ من القصديرِ فضّةً، ومن النّحاسِ ذهبًا، كلاهما يتاجرُ بالأحلامِ في سوقِ الأوهامِ، فيربحُ ربحًا مقلوبًا ويكسبُ كسبًا معكوسًا، وما أشبَهَهما جميعًا بذلك الرجلِ الذي علمَ أنّ في صحراءَ من صحاري أواسِط إفريقيا كنزًا دفينًا لا تُعرَفُ له بقعةٌ معيّنةٌ، وليس عليه دليلٌ، فحملَ فأسَه على كتفِه، ومشَى في تلك الصحراءِ يحفرُ الحفرةَ التي تستنفذُ قوّتَه وتستهلكُ متْنَه، وتبلغُ من نفسِه ما لا يبلغُ كرُّ الغداةِ ومرُّ العشيّ، حتى إذا بلغَ قرارتَها، وعلمَ أنّه لم يعثرْ بضالّتِه، تركَها، وبدأَ يحفرُ غيرَها بجانبِها، فلا يكونُ نصيبُه من الأخرى أوفرَ من نصيبِه من الأولى، وهكذا، حتّى أدركَه الموتُ، وهو في بعضِ تلك الحفرِ. فكانَ هو نفسُه الكنزَ الدفينَ، إلّا أنّه كنزٌ لا يَطْمَعُ فيه طامعٌ، ولا يرغبُ فيه راغبٌ.

إن كنتَ لم تسمعْ في حياتِك باجتماعِ النقيضين وتلاقي الضدّين، فاعلمْ أنّ المقامرَ في آنٍ واحدٍ أجشعُ الناسِ، وأزهدُ الناسِ، فلولا حبُّه المالَ، لما هانَ عليه أن يبذلَ راحتَه، وشرفَه، وسعادتَه، وحياتَه في سبيلِه! ولولا زهدُه فيه، لَمَا أقدمَ باختيارِه على تبديدِه على مائدةِ القمارِ لا لغايةٍ يطلبُها، ولا لِمَأرَبٍ يسعَى إليه.

أنا لا أريدُ أن أنصحَ للمقامرَ بتركِ القمارِ، لأنّي أعتقدُ أنّ من يملكُ عقلًا مثلَ عقلِه، وفهمًا مثلَ فهمِه، لا يستطيعُ أن يفهمَ كلمةً مما أقولُ، ومن عجزتْ حوادثُ الدهرِ وعِبَرُ الأيامِ عن أن تردَّ عليه ضالّةَ عقلِه وتهديَه السبيلَ إلى نفسِه، لا تنفعُه كلمةُ كاتبٍ، ولا موعظةُ واعظٍ.

وإنّما أريدُ أن أقولَ للذين لم يُقدَّرْ لهم أن يخطُوا خطوةً واحدةً في هذه الطريق الوَعْرةِ حتى

اليوم: لا تقامروا جدًّا ولا هَزْلًا، فإن هزلَ القمارِ يجرُّ إلى جِدِّه، ولا تمرُّوا بمعاهدِ القمارِ قصدًا ولا عفوًا، فإنّ من حامَ حول الحِمى يوشكُ أن يقعَ فيه، ولا تصاحبوا المقامرين بحالٍ من الأحوالِ، فإنّهم لا يرضَون عنكم حتى تتّخذوا ملّتهم. فإن فعلتم، خسرْتم مالَكم، وشرفَكم، وعزّتَكم، وكرامتَكم من حيث لا تجدون من رحمةِ القلوبِ ورأفتِها ما يعوّضُ عليكم ما خسرتم، فارحمُوا أنفسَكم إن كنتم راحمين، واتّقوا الله إن كنتم مؤمنين.

❋ ❋ ❋

الأوصياء

مرضَ فلانٌ مرضَ الموتِ فلمْ يحفلْ بالمنيّةِ لأنه اقتطفَ زهرةَ الحياةِ جميعَها، ولأنّ الثمانين قد ألحّتْ عليه بصبحِها ومسائها، وليلِها ونهارِها، فلم تتركْ له خيطًا من خيوطِ الأملِ، ولا شعاعًا من أشعّةِ الرجاءِ لولا أنّ بين يدَيْه ولدًا صغيرًا في السابعةِ من عمرِه قد ماتتْ أمّهْ منذ عهدٍ قريبٍ. وللشُيُوخِ الكبارِ إلى أبنائهم الصغارِ حنينُ الإبلِ إلى أعطانِها[1]، فنظرَ إليه، وهو يحومُ حول فراشةِ نظرةً طويلةً لم يسترجعْها إلّا مبلّلةً بالدمعِ المنسجمِ، ثم زفرَ زفرةً حرّى، خُيّلَ لرائيها أنّها الزفرةُ الأخيرةُ، وأنشأ يقول:

أي بنيّ، من لي بقلبٍ يرعاك مثلِ قلبي، وعينٍ تسهرُ مثلِ عيني، وروحٍ ترفرفُ فوق رأسك مثلِ روحي، ونفسٍ تضمُّ جوانِحَها عليك مثلِ نفسي؟

أي بنيّ، كأنّي بركبِ الموتِ، وقد نزلَ بي، وحلّ بساحتي، وكأنّي به، وقد احتملني من فضاءِ القصرِ إلى مضيقِ القبرِ، ومن نورِ الحياةِ، إلى ظلمةِ الموتِ، وكأنّي بك، وقد طفقتَ تنشدني، فلا تجدُني، وتفتّشُ، فلا تراني ففزعتَ وارتعتَ، ثمّ صرخْتَ فصعقْتَ، ولم تجدْ بجانبك من يمسحُ دمعَك، ويخفّفُ حزنَك.

من لِي بصديقٍ أثقُ بودِّه وإخلاصِه، ورحمتِه وحنانِه، فأكِلْ إليه أمرَك، وأعتمدُ عليه في تأديبِك وتخريجكِ، وإبلاغِك ما أرجو لك من السعادةِ في مستقبلِ دهرِك؟

فما أتمّ نجاءَه حتى دخلَ عليه صديقُه الوحيدُ الذي كان يأنسُ به ويستخلصُه لنفسِه، وقد سمعَ آخر نجواه، فقال له: هوّنْ عليك يا مولايَ، فأنا صديقُك الذي تنشدُه، وأنا والدُ ولدِك من بعدِك، وخليفتُك بعدَ اللهِ عليه. ثم تهافتَ على فراشِه وظلّ يبكي لبكائه، وينشجُ[2] لنشيجِه، فاستنارَ قلبُ الرجلِ بنورِ الأملِ وقال: أحمَدُك اللّهمّ قد رحمتَ ولدي، وحفظتَ بيتي.

وما هي إلّا أيامٌ قَلائلُ حتّى كتبَ الشيخُ كتابَ الوصيّةِ بيدِه، ثم أجابَ دعوةَ ربِّه تاركًا في يدِ ذلك الصديقِ الكريمِ مجدَه وشرفَه، ومالَه وولدَه.

---

(١) الأعطان: ج عَطَن، مَبْرَكُ الجمال. (٢) نشج: بكى.

اتّخذَ الشيخُ ذلك الرجلَ صديقًا له في الأعوامِ الأخيرةِ من أعوامِ حياتِه بعدما رآه يكثرُ الاختلافَ إليه، ويطيلُ اللبثَ بجانبه، ويلازم الوقوفَ عند أمرِه ونَهْيِه، ويخفُّ لقضاءِ حاجاتِه ولباناتِه، ذلك إلى ما كان يراه متجمّلًا به من صلاحٍ مملوءٍ بالركعاتِ والسجداتِ، والتسبيحاتِ المتوالياتِ، وعفّةٍ حتّى عن اللقمةِ يصيبُها على مائدتِه، وتورّعٍ حتّى عن الجرعةِ يتجرّعها في حضرته، فاستخلصَه لنفسِه، وأنزلَه من قلبِه المنزلةَ التي لا ينزلُ معه فيها غيرَ ولدِه، وأصبحَ آثرَ الناسِ عنده حتّى ما يستطيعُ فراقَه لحظةً، ولا يصبرُ عنه ساعةً، إلى أن أَحسَّ باقترابِ الأجلِ، فأوصاه بما أوصَى، وعهدَ إليه بما عهدَ.

هذا هو تاريخُ ذلك الصديقِ في حياةِ الشيخِ، أمّا تاريخُه بعد مماتِه فأسمعُك منه ما تهوي له الأفلاكُ عجبًا، وتخرُّ له الجبالُ هدًّا.

لم تكن صلاتُه إلّا رياءً ونفاقًا، وركوعُه وسجودُه إلّا كيدًا ومداهنةً، وعفّته وزهادتُه إلّا حِبالةً نصبَها ليعلقَ بها عقلُ الشيخِ، وقد علقَ، فيسلبَه مالَه وولدَه، وقد فعلَ. وما كان اختلافُه إليه، ولا تردّدُه عليه إلّا طمعًا في هذا المصيرِ الذي صارَ إليه.

فلمّا علمَ أن قد تمّ له من أمرِه ما أرادَ، أطلقَ يدَه في مالِ الصغيرِ يعبثُ به عبثَ النكباء[1] بالعُودِ، ويبتاعُ به لنفسِه ما شاءَ أن يبتاعَ من قصورٍ ودورٍ وبساتينَ وضياعٍ، فنبَه ذكرُه بعدما كان خاملًا، ونبتَ ريشُه بعدما كان عاريًا، وأصبحَ صاحبَ السلطانِ المطلَقِ في ذلك القصرِ يُذِلُّ مَنْ يشاءُ ويعزُّ مَنْ يشاءُ.

أمّا شأنُه مع الولدِ، فقد علمَ أنّه سيبلغُ عمّا قليلٍ أشدَّه، ويملكُ رشدَه، وأنّه سيقطعُ عليه لذّتَه، ويقفُ له موقفَ المعترضِ سبيله، ويحاسبُه على القليل والكثير، والصغير والكبير، فلم يرَ بدًّا من أن يعدّ لذلك اليومِ عدّتَه، فعمدَ إلى الولدِ فقطعَه عن المدرسةِ لأنّه لا يحبُّ أن ينشأَ متعلّمًا، ثم أغرى به من سَاقَهُ إلى مواطنِ الفسقِ ومجامعِ الفجورِ، لأنّه لا يحبُّ أن ينشأَ عاقلًا، وما زالَ ينفقُ عليه وعلى الموكلين بإفسادِه من وراءِ حجابٍ حتّى علقَ الشرابُ برأسه علوقَ السلالِ بالصدورِ، فأصبحَ بين الحاناتِ والمواخيرِ، كالطائرِ بين الأغصانِ لا يرسلُ الساقَ إلّا ممسكًا ساقًا.

فكأنّما وكلَ بعقلِه مقراضًا يضعُ له في كلِّ يومٍ منه بضعةً حتّى كادَ يأتي عليه، فما بلغ السنَّ التي يرشدُ فيها القاصرون حتّى استحالَ الوصيُّ على القاصرِ قيّمًا على المعتوهِ، ولم يبذلْ في سبيلِ الوصولِ إلى ذلك أكثرَ من لُقَيماتٍ ألقاها من فتاتِ تلك المائدةِ إلى أعضاءِ المجلس الحسبيّ، فأدخلوه تلك الجنّةَ الزاهرةَ بغيرِ حسابٍ.

شرعَ اللهُ شريعةَ الحجرِ على السفهاءِ والمعتوهين، وإقامةِ القوّامِ عليهم، رحمةً بهم، فاستحالتْ على يدِ المجالسِ الحسبيّةِ نقمةً عليهم، وأصبحَ اللصّ الذي يجهلُ صناعةَ فتحِ

(١) النكباء: الريح بين ريحين.

الأقفالِ، ويتّقي مغبّةَ تسلّقِ الجدرانِ، قادرًا على أن يسرقَ ما يشاءُ تحت رايةِ هذه الشريعةِ المقلوبةِ من حيث يأمنُ على نفسِه الوقوفَ أمامَ محكمةِ الجناياتِ، وجرَّ الأغلالِ الثقالِ في غياباتِ السجونِ.

وانتقلَتِ الثرواتُ العظيمةُ من أيدي أصحابِها مخافَةَ أن يُسْرِفوا فيها إلى أيدي آخرين يبدّدونها تبديدًا، ويمزّقون أديمَها تمزيقًا، من حيث لا يكونُ بينهم وبين المورثِ صلةُ نسبٍ، أو وشيجةُ رحم، حتى أصبحَ السعيُ إلى جمعِ المالِ وادّخارِه للوارثين في هذا العصرِ عملًا من الأعمالِ الباطلةِ، وضربًا من ضروبِ الخَرَقِ الواضحِ، والجهلِ الفاضحِ.

فمن لي إنْ أنا دبّرتُ المالَ وجمعتُه أن لا يكونَ خليفتي عليه من بعدي لصًّا من أولئك اللصوصِ الذين تمنحُهم المجالسُ الحسبيّةُ، ما تمنعهم الشرائعُ الإلهيّةُ؟ ومن لي أن أعيشَ إلى أن أدركَ ولدي فأتولّى أمرَ تربيتِه بنفسي قبلَ أن يظفرَ به في حداثتِه ظفرٌ جارحٌ من أظفارِ أولئك الأوصياءِ فيميتَ نفسَه، ويقتلَ عقلَه، ويفسدَ عليه حياتَه، ويلبسَه من الفضيحةِ والعارِ ما يقلقُ نفسي في عالمِها، ويزعجُ عظامي في مرقدِها.

فلقد حدّثني من قصَّ عليَّ تلك القصةَ أنّ ذلك الوصيَّ لما علمَ أن قد تمَّ له من الحجْرِ على ذلك الغلامِ ما أرادَ، عمدَ إلى تزويجِه من فتاةٍ حسناءَ من بناتِ الأشرافِ ما كان يعنيه أن يزوّجه منها، لولا أنّ له في ذلك مأربًا من المآرب الفاسدةِ.

فإنّها ما كادت تخلعُ ثوبَ عرسِها، حتّى أنشأ يختلفُ إليها، ويكثرُ ازديارِها في الجناحِ الذي تسكنُه من القصرِ، بما له على زوجِها وعليها من حقِّ الولايةِ والرعايةِ، وبحجّةِ النظرِ في شؤونِها ومرافقِها.

ثمّ ما زال يختلُها عن نفسِها، ويزيّنُ لها ما يزيِّنُه الشيطانُ للإنسانِ حتّى علقَتْ بحِبالتِه[1]، كما علقَ بها غيرُها من قبلها، فكرهَتْ زوجَها، وبرمَتْ به.

فرابَه من أمرِها ما رابَه، فرصدَها ليلةً من الليالي حتّى عرفَ سرَّها، ومواضعَ هواها، فشكا فلمْ يجدْ سامعًا، ثم بكى فلمْ يجدْ راحمًا، فكان يقضي كثيرًا من لياليه في غرفةٍ من غرفِ القصرِ واجمًا مطرقًا، مُسْلِمًا رأسَه إلى ركبتيه، ودمعَه إلى خديه، لا سميرَ له ولا مؤنسَ إلّا رناتُ الضحكاتِ التي تنهلُّ عليه من مخدعِ زوجِه.

فكان يثبُ تارةً وثبةَ الأسدِ، فيثيرُ في القصرِ ثائرةً شعواءَ تضجُّ لها جوانبُه، فيتسارعُ إليه الخدمُ، فيضربون على يدِه وفمِه، وأخرى يعودُ إليه بلهُه وخبلُه، فينظرُ إلى هذه المناظرِ المؤلمةِ نظرَ الضاحكِ اللّاعبِ.

مرّتْ على تلك الحوادثِ سنواتٌ استأثرَ فيها ذلك الوصيُّ بتلك الدائرةِ الواسعةِ، وألحَّ عليها بكلكَلِه، حتّى اجتزّ وبرَها، ثم استكشطَ جلدَها، فلم يبقَ منها إلّا هيكلٌ عظميٌّ قائمٌ،

---

(١) الحبالة: الشباك.

فلمّا علمَ أنْ قد قامتْ قيامةُ الناسِ عليه، وأنّ قصّته مع الغلامِ وزوجتِه قد ملأتْ مسمعَ الخافقَيْن، وأنّ نجمَه الثاقبَ قد مالَ إلى الأفولِ، عمدَ إلى حيلةٍ شيطانيّةٍ ختَم بها تلك الروايةَ الغريبةَ بهذا الفصلِ المحزنِ الأليم.

تَفتّحَ للغلامِ بعد انقباضِه، وابتسمَ إليه بعد تقطيبِه، وابتاعَ له جميعَ ما اقترحَه عليه من ثوبٍ فاخرٍ، ومركبٍ فارهٍ، ومزاهرَ وعيدانٍ وكؤوسٍ ودنانٍ، ثم خلا به في ساعةٍ من ساعاتِ نشوتِه وارتياحِه فقال له: أيّها الصديقُ قد آن أوانُ استقلالِك بشأنِك وانفرادِك بأمرِك، فاكتبْ إلى المجلسِ الحسبيّ رقعةً تطلبُ فيها رفعَ الحجْرِ عنك، واكتبْ توقيعَك على هذه «المخالصة» براءةً لذمّتي.

فاستُطيرَ الغلامُ فرحًا وسرورًا، وما لبثَ أن كتبَ الأولى، ووقّع على الأخرى، ثم أوعظَ إلى المجلسِ الحسبيّ بتلبيةِ طلبِه، فلبّاه، وقضَى برفْعِ الحجْرِ عنه. فاستقبلَ تلك النعمةَ استقبالَ الظامئِ كأسَ الشرابِ، وكان لا بدّ له من أن يشربَ حتى يبشمَ. ففتّشَ بين يديه عن مالٍ ينفقُه، فلمْ يجدْ.

وكان الرجلُ قد وكلَ به عونًا من أعوانه يداخلُه، ويتحيّنُ فرصةَ حاجتِه إلى المالِ فيمنحُه ما يريدُ، فكان يُعطيه المالَ باليمينِ، ويأخذُ منه صكَّ البيعِ باليسارِ. وما زالَ هذا يعطي، وذاك يأخذُ حتى أصبحَ نصفُ «الدائرة» بعد عامين ملكًا لعونِ الوصيِّ، وللوصيّ غدًا بثمنٍ لا يساوي عِشْرَ معشارِها، بل بغيرِ ثمنٍ، وهل ابتاعَها مبتاعُها إلّا بمالها، وأنفقَ عليها إلّا ثمرتَها؟

هنالك قام الوصيُّ وقعدَ، ونادَى في الناسِ بصوتٍ يشبهُ صوتَ الحقِّ، ونغمةٍ تشاكلُ نغمةَ الصدقِ: أيّها الناسُ قد كنت أنذرتُكم بمصيرِ هذا الغلامِ أن صار أمرُه إلى نفسِه، فكذّبتم قولي، وسفّهتم رأيي، وما زلتم تقولون وتتقوّلون حتى أحرجْتم صدري، ودفعتموني إلى الغدرِ بذلك العهدِ الذي أخذَه عليّ ذلك الصديقُ الكريمُ أن أتولّى شأنَ ولدِه من بعده، ولا أتخلّى ساعةً واحدةً عن رعايتِه وتعهّدِه، فكان ما كان ممّا تعلمون من تبديدِ ثروتِه وتمزيقِها، فها أنتم ترَون بأعينِكم شؤمَ رأيكم وجريرةَ سَعْيِكم.

ثم أعاد كرّته على الغلامِ، وسعَى سعيَه في المجلسِ الحسبيّ فأعادَ سيرتَه الأولى، ووضعَ في عنقِه غلًا لا فكاكَ له من بعده، إلى يومِ يبعثون.

ليت شعري، هل يعلمُ ذلك المقبورُ في لحدِه ما صنعتْ يدُ الحَدَثان بمالِه وولدِه، وأنّ المالَ قد ورثَه غيرُ وارثِه، واستأثرَ به غيرُ صاحبِه؟ وأنّ ولدَه قد أصبحَ بعد ذلك المُلْكِ الكبير، والجنّةِ والحرير، يطلبُ المضغةَ فتعوزُه، والجرعةَ فتلتوي عليه؟ وأنّه يبيتُ الليالي ذواتِ العددِ مطّرحًا في زوايا الحاناتِ، لا وطاءَ غيرُ أديمِ الترابِ، ولا غطاءَ غيرُ قطعِ السحابِ؟ وهل أعدَّ عدّتَه للوقوفِ بين يدَي اللهِ تعالى في ذلكَ اليومِ المشهودِ؟ يوم تُكْشَفُ الهناتُ، وتُفضَحُ العوراتُ، فيمسكُ ولدَه بيمناه ووصيّه بيسراه، ثم يناجي ربّه ويقول:

اللهمّ أعدِني على هذا الكاذبِ الذي ختلَني وخدَعني، وخفرَ ذمّتي، وخاسَ بعهدي، وخانَ أمانتي، وأفسَد وصيّتي، وخذْ لولدي بحقِّه من هذا الظالمِ الذي سرَقَ مالَه، وهتكَ عِرْضَه، وعذّبَ نفسَه، ونغّص عيشَه، فأنت أعدلُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين.

❁ ❁ ❁

العام الجديد

في مثلِ هذا اليومِ من كلّ عامٍ يقفُ ركبُ العالمِ السائرِ بمنزلةٍ من منازلِ الحياةِ، فينزلُ عن مطاياه ليستريحَ فيها ساعةً مِنْ وعثاءِ السفرِ[1] بعد أن نالَ منه الأينُ[2] والكلالُ، وأضناه سُرَى الليلِ وسَيرُ النهارِ، ثلاثَمائةٍ وخمسةً وستين يومًا.

هنالك يجتمع السَّفْر[3] في صعيدٍ واحدٍ، فيتعارفون ويتصافحون، ويتفقّدُ بعضُهم بعضًا، فيجدون أنّ فلانًا ماتَ جوعًا، وفلانًا ماتَ ظمأً، وآخرَ افترسَه سبعٌ، وآخر قتلَه لصٌّ، وآخرَ مات غيلةً، وآخرَ سقط عيًّا، وآخرَ طارت به قنبلةٌ، وآخرَ هوَتْ به طيارةٌ، وآخرَ اجتاحَه بركانٌ، وآخر تردّى عليه معدنٌ.

ثمّ يعودون إلى جرائدِ الإحصاءِ، فيدوّنون فيها حاضرَهم، كما دوّنوا ماضيهم، ثمّ يوازنون بين هذا وذاك، فيجدون أنّ الحاضر شرٌّ، وأنّ ميادينَ الحروبِ لا تزالُ ملوّثةً بالدماء، ومصانعَ الموتِ لا تزالُ تفتنُّ في عددِه وتستكثرُ من أدواتِه، وأنَّ جذورَ الشرِّ القديمةَ لا تزالُ نائبةً بنفوسِ البشرِ، حتّى ما يتمنّى أحدٌ أن تقعَ على أحدٍ، وأنّ سحبَ البغضاءِ القاتمةَ لا تزال مخيّمةً على المجتمعِ الإنسانيّ من أدناه إلى أقصاه شعوبًا وقبائلَ، وأجناسًا وأنواعًا، ومذاهبَ وأديانًا، ومنازلَ وأوطانًا.

فيبغضُ الرجلُ صاحبَه لأنّه يخالفُه في جنسِه، فإنْ عَرَفَ أنه يوافقُه، أبغضَه لأنّه يخالفُه في دينِه، فإن وافقَه فيه، أبغضَه لأنّه ينطق بغير لغتِه، فإن نطق بها، أبغضَه لأنّه لم يشاركْه في وطنه، فإن كان مشاركًا له، أبغضَه لأنّه يزاحمُه في حرفتِه، فإن بَعُدَ عن طريق مزاحمتِه، أبغضَه لأنّه يخالفُه في رأيِه، فإن لم يخالفْه، أبغضَه لأنّه لا يحاكيه في لونه، فإن لم يجدْ شيئًا من هذا ولا ذاك، أبغضَه لأنّه شخصٌ سواه! كأنّ قضاءً حتمًا على الإنسانِ أن يبغضَ كلَّ صورةٍ غيرِ الصورةِ التي يراها كلَّ يومٍ في مرآتِه.

فإذا فرغوا من النظرِ في جرائدِ حسابِهم، والموازنةِ بين حاضرِهم وماضيهم، أضافوا إلى سيّئاتهم الماضيةِ سيّئةَ الغشِّ والكذبِ، فتناسوا كلّ هذا، ووضعَ كلٌّ منهم يدَه في يدِ أخيه مهنّئًا

---

(١) وعثاء السفر: مشقّته. (٢) الأين: التعب.
(٣) السفر: المسافرون.

له بالعيدِ السعيد، داعيًا له بدوامِ الغبطةِ والهناءةِ، ثم تنادوا للرحيلِ ليستقبلوا المرحلةَ الآتيةَ بعد قطعِ المرحلةِ الماضيةِ.

علامَ يهنِّئُ الناسُ بعضُهُم بعضًا؟ وماذا لقوا من الدنيا، فحرصُوا على البقاءِ فيها؟ ويغتبطون المراحلَ التي يقطعونها منها؟ وهل يوجدُ بينهم شخصٌ واحدٌ يستطيعُ أن يزعمَ أنّه أصبحَ سعيدًا كما أمسى؟ أو أمسى سعيدًا كما أصبحَ، أو أنّه رأى بروقَ السعادةِ قد لمعَ في إحدى لياليه، ولم يرَ بجانبه ما يرى في الليلةِ البارقةِ من رعودٍ قاصفةٍ، ورياحٍ عاصفةٍ، وصواعقَ محرقةٍ، وشهبٍ متطايرةٍ؟

بأيّةِ نعمةٍ من النِّعم، أو صنيعةٍ من الصنائع، تمنّ يدُ الحياةِ على إنسانٍ لا يُفلِتُ من ظلمةِ الرحمِ إلّا إلى ظلمةِ العيشِ، ولا يُفلِتُ من ظلمةِ العيشِ إلّا إلى ظلمةِ القبرِ، كأنّما هو يونس، الذي التقمَه الحوتُ، فمشى في ظلماتٍ بعضُها فوق بعض! وأيّةُ يدٍ من الأيادي أسدَتْها الأيامُ إلى رجلٍ يظلُّ فيها من مهدِه إلى لحدِه حائرًا مضطربًا، يفتّشُ عن ساعةِ راحةٍ وسلامٍ تهدأُ فيها نفسُه، ويثلُجُ صدرُه، فلا يعرفُ لها مذهبًا، ولا يجدُ إليها سبيلًا.

إن كان غنيًّا، اجتمعتْ حوله القلوبُ الضّاغنةُ، واصطلحتْ عليه الأيدي الناهبةُ، فإمّا قتلتْه، وإمّا أفقرتْه. وإن كان فقيرًا، عدَّ الناسُ فقرَه ذنبًا جنتْه يداه، فتتناولَتْهُ الأكفُّ بالصفعِ، والأرجلُ بالركلِ، والألسنُ بالقذفِ، حتّى يموتَ الموتةَ الكبرى بعد أن ماتَ الموتةَ الصغرى. وإن كان عالمًا ولعَ الحاسدون بذمّه وهجوه، وتفنّنوا في تشويه سمعتِه، وتسويدِ صحيفتِه، ولا يزالون به حتّى يعطيَهم العهودَ والمواثيقَ التي يرضونها أن يعيشَ عالمًا كجاهلٍ وحيًّا كميتٍ، وأن يكتمَ علمَه في صدرِه، فلا يُفضي به إلى لسانٍ ولا قلمٍ، حتّى يدركَه الموتُ؛ وإن كان جاهلًا، اتّخذَه العالمون مطيّةً يركبونها إلى مقاصدِهم وأغراضِهم من حيث لا يهادنونها، ولا يرفقون بها حتّى يعقروها. وإن كان بخيلًا، ازدرتْه القلوبُ، واقتحمَتْه العيونُ وتقلّصتْ له الشفاه، وبرزتْ له الأنيابُ، وانقبضتْ له الأسرّة، والتَهَبَتْ له الأنظار، وأرسَلَتْ إليه الأغصانُ ألسنةَ نيرانِها حتّى تحرقَه؛ وإن كان كريمًا محسنًا، عاشَ مترقّبًا في كلِّ ساعةٍ من ساعاتِ ليلِه ونهارِه شرَّ الذين أحسنَ إليهم إمّا لأنّه أذاقَهم جرعةً باردةً فاستعذبوها، فاستزادوه فلم يفعلْ، فهم ينتقمون منه، أو لأنّهم من أصحابِ النُّفوسِ الشريرةِ الذين يُخيَّلُ إليهم أنّ المحسنَ يريدُ أن يبتاعَ منهم نفسَه بما يسدي، وهم يأبَون إلّا أن يتناولوا منه الإحسانَ بلا مقابلٍ، فهم ينقمون عليه إنْ عرفَ كيف يفلتُ من أيديهم.

لا سعادةَ في الحياةِ إلّا إذا نشرَ السلامُ أجنحتَه البيضاءَ على هذا المجتمعِ البشريّ، ولن ينتشرَ السلامُ إلّا إذا هدأتْ أطماعُ النفوسِ، واستقرّتْ فيها ملكةُ العدلِ والإنصافِ، فعرفَ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، وقنعَ كلٌّ بما في يدِه عمّا في يدِ غيرِه، فلا يحسدُ فقيرٌ غنيًّا، ولا عاجزٌ قادرًا، ولا محدودٌ محدودًا، ولا جاهلٌ عالمًا، وأشعرتِ القلوبُ الرحمةَ والحنانَ على

البائسين والمنكوبين. فلا يهلكُ جائعٌ بين الطّاعمين ولا عارٍ بين الكاسين، وامتلأتِ النفوسُ عزّةً وشرفًا، فلا يبقى شيءٌ من تلك الحبائلِ المنصوبةِ لاغتيالِ أموالِ الناسِ باسمِ الدينِ مرّةً والإنسانيّةِ أخرى.

ولا ترى طبيبًا يدّعي علمَ ما لم يعلمْ ليسلبَ المريضَ روحَه ومالَه، ولا محاميًا يخدعُ موكّلَه عن قضيّتِه ليسلبَ منه فوق ما سلبَ منه خصمُه، ولا تاجرًا يشتري بعشرةٍ ويبيعُ بمائة، ثمّ ينكرُ بعد ذلك أنّه لصٌّ خبيثٌ، ولا كاتبًا يضربُ الناسَ بعضَهم ببعض حتّى تسيلَ دماؤهم، فيمتصَّها كما يضرب القادحُ الزّنْد ليظفرَ بالشررِ المتطايرِ منهما.

وما دامتْ هذه المطالبُ أحلامًا كاذبةً وأمانيَّ باطلةً، فلا مطمعَ في سلامٍ ولا أمانٍ، ولا أملَ في سعادةٍ ولا هناءةٍ، ولا فرقَ بين أمسِ الدهرِ ويومِه، ولا بين يومِه وغدِه، ولا فرقَ بين مغفلاتِ أيّامِه غيرَ ما عرفتُ وما ذاقَ أحدٌ من نغماتِه غيرَ ما ذقتُ، وليفرحْ بالعامِ الجديدِ من حمَدَ ما مضى من أيّامِه وسالفِ أعوامِه.

❋ ❋ ❋



سحر البيان

رأيتُ في إحْدَى رواياتِ شكسبير[١]، وهي الروايةُ المعروفةُ بروايةِ «يوليوس قيصر» موقفًا لبطلَيْن من أبطالِ الفصاحةِ، وفارسَيْن من فرسانِ البيانِ؛ وقد وقفَ كلٌّ منهما من صاحبِه موقفَ اللّاعبِ من اللّاعبِ، ووقفَ الشعبُ الرومانيُّ بينهما موقفَ الكرةِ من أقدامِ اللاعبين؛ تعلُو بها حينًا وتسفلُ أحيانًا، فلا تثبتُ صاعدةً ولا تستقرُّ هابطةً، فعلمتُ أنّ العامّةَ عامّةٌ في كلِّ عصرٍ، والشعبَ شعبٌ في كلِّ مِصْرٍ، وأنّ سوادَ الأمّةِ تحت صرحِ فرعون[٢] مثلُه تحت عرشِ قيصر[٣]، وأنّ رأسَ التاريخِ اليسوعيِّ، مثلُه في ذنبِ التاريخِ المحمّدي، تدنُو به كلمةٌ، وتنأى به أخرى، وتجذبُه دمعةٌ، وتدفعُه ابتسامةٌ، وتطيرُ بلبّه الشعريّاتُ والخيالاتُ طيرانَ الريحِ الهوجاءِ بذرّاتِ الهباءِ.

علمَ بروتسُ[٤] الشريفُ الرومانيّ أنّ يوليوسَ قيصرَ قد استعبدَ الشعبَ الرومانيّ، وأذلَّ نفسَه

---

(١) هو وليم شكسبير (ت١٠٢٦هـ./١٦١٦م.) شاعر مسرحيّ إنكليزي، امتاز بتحليله عواطف القلب البشري. من مؤلّفاته: «هملت» و«روميو وجوليات» و«يوليوس قيصر»، وغيرها. ترجم خليل مطران بعضًا منها إلى العربيّة شعرًا.

(٢) فرعون: من ملوك مصر القديمة.

(٣) هو يوليوس قيصر (ت٤٤ق.م.) من كبار رجال الدولة والقواد في روما والعالم.

(٤) هو مرقص يوليوس (ت٤٢ق.م.) سياسي روماني كانت له الباع الطولى في مؤامرة على يوليوس قيصر ولي نعمته. اشتهر فيه القول: «حتّى أنت يا بروتس».

ذلًا ملكَ عليه حواسّه ومشاعرَه حتّى ما يكادُ يشعرُ بمرارته؛ وكذلك الذلّ إذا نزلَ بالنفوسِ، سلبَها كلَّ شيءٍ حتى الشعورَ بنزوله فيها، وعلمَ أنّ حياةَ ذلك الشعبِ بموتِ ذلك القيصرِ، فهانَ عليه أن يقتلَ صديقَه وسيّدَه، افتداءً لأمّتِه ووطنِه، فطعنَه طعنةً نجلاً[1]، سلبَتْه نفسَه في لحظةٍ واحدةٍ، فهاجَ الشعبُ الرومانيّ على القاتلِ وأعوانِه، هياجَ الأمواجِ الثائرةِ على السفنِ الماخرةِ، فوقفَ الرجلُ خطيبًا أمامَ ذلك الشعبِ الهائجِ المحتدم وقفةَ المستبسلِ المستميتِ، وكان لا بدَّ له في هذا الموقفِ من أحدِ المصيرَيْن، إمّا نصرٍ يعلو به إلى مداركِ الأملاكِ، أو خذلانٍ يهوي به الى مقرِّ الأسماكِ، ومن أحدِ المخرجَيْن، إمّا مخرجِه مرفوعًا على محفّةِ الأبطالِ، أو محمولًا على أعناقِ الرجالِ، فبعد لأيٍ ما استطاعَ بعضُ الزعماءِ أن يسكّنَ ثائرةَ الثائرين ويستدرجَهم إلى سماعِ دفاعِ القاتلِ عن نفسِه، أو التفكّهِ بمنظرِه المضحكِ، وهو يتلمّسُ في هذه الظلمةِ الحالكةِ المخرجَ من جريمتِه.

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة): أيُّها الرومانيّون، أتعدونني بالصبرِ قليلًا على سماعِ ما أقولُ من حلوِ الكلامِ ومرِّه، إكرامًا لموقفي، وإكرامًا للعدلِ؟

أنا لا أريدُ أن أخدَعكم، ولا أعبثَ بعقولِكم وأهوائِكم، بل أريدُ منكم أن تنظرُوا إلى قضيّتي نظرَ الحذرِ المتيقّظِ الذي لا يُعطي هوادةً ولا يلقي قيادًا لأنّي لا أعتقدُ أنّ في زاويةٍ من زواياها كمينًا أخافُ أن تقعَ عليه العيونُ.

أيُّها الرومانيّون، إن كان بينكم صديقٌ لـ«قيصر» يحبّه ويذوبُ حزنًا عليه، فليسمحْ لي أن أقولَ له: أيُّها الصديقُ الكريمُ، إنّ بروتسَ قاتلَ قيصرَ كان يحبّه أكثرَ منك.

أيُّها القومُ، واللهِ لو كذبتُ الناسَ جميعًا، ما كذبتُكم، فاعلَمُوا أنّي ما قتلتُ قيصرَ لأنّي كنت أبغضُه، بل لأنّي كنتُ أحبُّ روما أكثرَ منه؛ كان قيصرُ طمّاعًا فقتلتُه، ففي ساعةٍ واحدةٍ منحتُه دمعي، وقلبي، وخنجري.

أنا لا أصدّقُ أنّ بينكم من يحزنُ لموتِ قيصرَ، فأنتم رومانيّون، والرومانيُّ لا يحبُّ أن يعيشَ ذليلًا.

من منكم يكرهُ أنْ يكونَ رومانيًّا؟ من منكم يكرهُ أن يكونَ حرًّا؟ من منكم يحتقرُ نفسَه؟ من منكم يزدري مصلحَةَ وطنِه؟ إن كان بينكم واحدٌ من هؤلاءِ، فليتكلّمْ، لأنّه هو الذي يحقُّ له أن يثأرَ لنفسِه منّي، لأنّي لمْ أسِئْ إلى أحدٍ سواه.

الشعب: لا، لا، ليس فينا واحدٌ من هؤلاءِ.

بروتس: إذن أنا لم أُسِئْ إلى أحدٍ منكم.

(١) الطعنة النجلاء: الطعنة الواسعة.

وهنا دخل أنطونيوس[١] صديقُ قيصر، ورأسُ الناقمين على قتلتِه والمطالبين بثأرِه وآخرون يحملون على أيديهم جثّةَ قيصرَ لتأبينِه في هذا المجمعِ الحاشدِ، فاستأنف بروتسُ الكلامَ، وقال:

ها هي جثّةُ قيصرَ، وها هو صديقُه أنطونيوس جاء ليأبّنه، فاستمعوا له، واعلموا أنّ قيصرَ المذنبَ غيرُ قيصرَ الماجدِ، وقد سمعْتُمْ ما قيلَ عن الأوّلِ، فاسمعوا ما يقالُ عن الثاني، واسمحُوا لي أن أقولَ كلمةً أختتمُ بها خطابي:

أيّها الرومانيّون، إنّ الخنجرَ الذي ذبحتُ به قيصرَ في سبيلِ روما لا يزالَ باقيًا عندي لذبحِ بروتس في سبيلِ قيصرَ إذا أرادتْ روما ذلك.

تأثير الخطبة

الشعب: لِيَحْيَ بروتس.

أحد الناس: أنا أقترحُ أن نحملَه على الأكفّ إلى منزله.

آخر: انصبوا له تمثالًا.

آخر: امنحوه عرشَ قيصرَ.

آخر: إنّه أفضلُ من قيصرَ.

آخر: إنّ قيصر كان ظالمًا.

آخر: إنّه كان الظلمَ بعينه.

آخر: لتهنأْ روما بالخلاصِ منه.

آخر: ألَا نسمعُ تأبين أنطونيوس؟

آخر: نعم نسمعُه لأنّ بروتسَ أمرَ بذلك.

وهنا نزلَ بروتس والقلوبُ طائرةٌ حولَه، والعيونُ حائمةٌ عليه، ثم وقفَ على أثرِه أنطونيوس فرمقَه الشعبُ بعينِ الغضبِ والحقدِ.. ولولا إشارةُ من بروتسَ، ما استطاعَ أن يثبتَ في موقفِه لحظةً واحدةً، ثم أخذَ يتلو كلمةَ التأبينِ المشهورةَ التي هي آيةُ الآياتِ في اللغةِ الإنكليزيّةِ فصاحةً وبيانًا.

القصيدة

أنطونيوس: أيّها الرومانيّون.

أحد الناس: اسمعُوا ما يقولُ أنطونيوس.

آخر: لا.. لا نسمعُه.

أنطونيوس: اسمعُوني إكرامًا لبروتس.

أحد الناس: ماذا يقولُ هذا الرجلُ عن بروتس؟

---

(١) هو انطونيوس مرقص (ت٣٠ق.م.) قائد روماني كان صديق يوليوس قيصر. حالف أوكتافيوس ثم خاصمه بعد أن فتنته كليوباتره ملكة مصر.

آخر: لا يقولُ شيئًا.

آخر: إذن نسمعُه.

أنطونيوس: أيّها الأصدقاءُ، إنّني ما جئتُ هنا الساعةَ لأرثيَ قيصرَ، بل لأدفنَ جثّتَه.

أيّها القومُ، ما من أحدٍ من الناسِ إلّا وله في حياتِه أعمالٌ حسنةٌ وأخرى سيّئةٌ.

أمّا حسناتُه، فتموتُ بموتِه، وأمّا سيّئاتُه، فتبقى من بعده إلى يومِ يُبعثون.

كذلك كان قيصرُ في حياتِه ومماتِه، وكذلك كانت سيّئاتُه.

أيّها القومُ، ما كنتُ لأستطيعُ أن أقفَ موقفي هذا بينكم ولا أن أقولَ كلمة ممّا أريدُ أن أقولَ لولا أنّ بروتسَ قاتلَ قيصرَ أمرَني بالوقوفِ وأمرَني بالكلامِ، وها أنتم أولّا تَرون أنّني قد أطعتُه، وأذعنْتُ له لأنّه رجلٌ شريفٌ.

أيُّها القومُ، يقولُ الشريفُ بروتُس إنّ قيصرَ كان رجلًا طمّاعًا، وأنا لا أستطيعُ أنْ أخالفَه فيما يقولُ، لأنّه رجلٌ صادقٌ لا يكذبُ.

أنا لا أستطيعُ أنْ أقولَ إنّ قيصرَ كان رجلًا قانعًا معتدلًا، لأن الشريفَ بروتسَ يقولُ غيرَ هذا.

كلُّ ما أستطيعُ أنْ أقولَه إنّ الفديةَ التي افتدَى بها أعداؤنا أسراهم الذين جيءَ بهم إلى روما، قد ملأتِ الخزانةَ العامّةَ حتى فاضَتْ بها.

كلُّ ما أستطيعُ أنْ أقولَه إنّي رأيتُ قيصرَ بعينيّ يبكي لبكاءِ الفقراءِ، ويحزنُ لحزنهم، ويبيتُ الليالي ذواتِ العددِ ساهرًا لا يغمضُ له جفنٌ حدبًا[1] بهم، وعطفًا عليهم.

كلُّ ما أستطيعُ أن أقولَه إنّي عرضتُ بنفسي تاجَ الملكِ على قيصرَ في «لوبركال» عدّةَ مرّاتٍ، فأباه زهدًا فيه، وتعففًا عنه.

كنت أستطيعُ أن أقولَ إنّ الطمع لا يسكنُ قلبًا مثلَ هذا القلبِ، ولا يخالطُ فؤادًا مثلَ هذا الفؤادِ، لولا أنّ بروتسَ يقولُ إنّ قيصرَ رجلٌ طمّاعٌ وأنا لا أستطيعُ مخالفتَه، لأنّه رجلٌ شريفٌ.

أيّها الرومانيّون، إنّكم أحببتُمْ قيصرَ قبل اليوم حبًّا جمًّا، فما الذي يمنعُكم اليومَ من البكاءِ عليه.

إن لم تبكُوه لصفاتِه الكريمةِ، فابكوه لأنّكُم كنتم تحبّونه، ابكوه لأنّه كان بالأمسِ ينطقُ بالكلمةِ فتدوّي في صدورِ العظماءِ دويَّ الرعدِ في آفاقِ السماءِ، فأصبحَ اليومَ مطّرحًا مهينًا في ظلِّ هذا الحائطِ، ولا يجدُ بين الناسِ مَنْ يأبهُ له، ولا من يعطفُ عليه.

أيّها العقلُ الإنسانيُّ، كيف حالَتْ حالُك، وتغيّرتْ آيتُك؟ وكيف انتقلْتَ من الصدورِ الأنسيّةِ، إلى الصدور الوحشيّةِ، وكيف ضلَلْتَ سبيلَك، وعميَتْ عليك مذاهبُك، فحسبْتَ الخيرَ شرًّا، والشرَّ خيرًا، واختلطَ عليك الأمرُ، فلم تستطعْ أنْ تميّزَ بين الحسناتِ والسيّئاتِ والمكارمِ والجرائمِ.

أيّها الرومانيّون، عفوًا إنْ هذيتُ بينكم، أو أسأتُ إليكم، واعلمُوا أنّ الحزنَ قد قسمَ

---

(١) حدبًا: عطفًا.

فؤادي قسمَيْن: قسم على هذا المنبرِ، وقسم في ذلك النعشِ.

أيُّها الأصدقاءُ، إنّ بين جنبيَّ قلبًا يخفقُ بحبّكم والعطفِ عليكم، والرأفةِ بكم، ولولا مخافةُ أن تنفجرَ صدورُكم حزنًا وجزعًا لقلتُ لكم: إنّ قيصرَ قُتِلَ مظلومًا.

إنّني أعتقدُ أنّ بروتسَ ورفاقَه قومٌ شرفاءُ عظماءُ، لذلك أحبُّ أنْ أسيءَ إلى نفسي وإلى قيصرَ وإليكم قبل أنْ أقولَ إنّهم أخطأوا في قتلِ قيصرَ.

«وهنا صمت أنطونيوس وأرسَلَ من جفنَيْه بضعَ قطراتٍ من الدموعِ».

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه): يلوحُ لي أنّ ذلك الرجلَ يقولُ شيئًا معقولًا.

آخر: إنّك إنْ أمعنْتَ النظر، وجدْتَ أنْ قيصرَ قد أُسيءَ إليه.

آخر: لقد أثّر في نفسي زهدُه في تاجِ الملكِ.

آخر: لقد أحزنني عليه أنّه كان يبكي رحمةً بالفقراءِ.

آخر: إنّ الذي يرثي لبؤسِ البؤساءِ لا يكونُ طمّاعًا ولا ظالمًا.

آخر: إذًا فسيكونُ لمقتلِ قيصرَ شأنٌ غيرُ الشأنِ الأولِ.

آخر: لا بدّ من عقابِ القاتلِ.

آخر: (يقول لجليسه) أنظر إلى أنطونيوس فهو يبكي وينتحبُ.

آخر: ليس في رومةَ رجلٌ أشرفُ من أنطونيوس.

أنطونيوس: أتأذنون لي أن أفارقَ موقفي هذا لحظةً، لأقفَ قليلًا بجانبِ جثّةِ القتيلِ؟

الشعب: نعم... نعم.

(فنزل أنطونيوس ومشَى حتّى وصلَ إلى جثّةِ قيصرَ، وهو لا يزالُ في ملابسِه التي قُتِلَ فيها، ولا تزالُ طعناتُ الخناجرِ ظاهرةً في قَبائِه) ثمّ قال:

أنطونيوس: من كان يملكُ منكم دموعًا فليعدَّها لهذا الموقفِ العظيمِ، فإنّه موقفٌ يحتاجُ إلى كلِّ ما في عيونِكم من دموعٍ.

إنّكم تعرفون جميعًا هذا القَباء[1]، ولكنّكم لا تعرفون من تاريخِه شيئًا، أنا أعلمُ أنّ قيصرَ لبسَه أوّلَ ما لبسَه في مساءِ اليومِ الذي انتصرَ فيه على «الدفي» ذلك الانتصارَ العظيمَ الذي نالتْ به روما فخرَ الأبدِ.

(ثمّ وضعَ يده على أحدِ الثقوبِ التي في القباءِ وقال): في هذا القباءِ الشريفِ مزّقتْ جثّةُ هذا الفاتحِ العظيمِ.

ومن هذا الثقبِ مرَّ خنجرُ بروتسَ إلى صدرِ قيصرَ. ومن هذا الثقب أطلَّ دمُ قيصرَ ليرَى

---

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

بعينِه وجهَ الضاربِ، وأحسبُ أنّ جميعَ أفرادِ النوعِ الإنسانيِّ قد مرّوا بخاطرِ قيصرَ واحدًا واحدًا قبلَ أنْ يمرَّ بخاطرِه صديقُه «بروتُس».

عرفَ قيصرُ أن قاتلَه هو صديقُه، وصنيعةُ إحسانِه، ففترَتْ همّتُهُ، وعجزَ عن المقاومةِ، لأنّ الطعنةَ التي أصابتْهُ في جسمِه، لم تكنْ بأقلَّ من الطعنةِ التي أصابتْهُ في قلبِه، ولم يكنْ منظرُ المُدَى[1] والخناجرِ، أبشعَ في نظرِه من منظرِ الخيانةِ والغدرِ، هنالك عجزَ قيصرُ عن أن يقولَ شيئًا غيرَ الكلمةِ التي ودّعَ بها قاتلَه الوداعَ الأخير:

«وأنتَ أيضًا يا بروتس»؟

وهنالك تحت تمْثال «بومباي» وُجِدَ قيصرُ قتيلًا، وقد لفَّ وجهَه بقبائِه حتّى لا تتألَمَ نفسُه مرّةً ثانيةً بمنظرِ كُفْرِ النعمةِ ونكرانِ الجميلِ.

ها أنتم تبكون على قيصرَ، فشكرًا لكم على هذه الدموعِ الكريمةِ التي طهّرتم بها ما لوّثَتْ به يدُ الظلمِ تربةَ هذه الأرضِ من الدماءِ.

إنكم تبكون لمنظرِ قَباءِ قيصرَ الممزّقِ، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزَّقَ من جثّتِه؟

(ثم دنا وكشفَ القباءَ عن جسمِه، وقال):

إنّ في كلِّ جرحٍ من هذه الجروحِ لسانًا يشكو إليكم، فاستمعوا له فهو أنطقُ من لسانِ الرثاءِ.

أحد الناس: يا له من منظرٍ فظيعٍ!

آخر: وارحمتاه لقيصرَ!

آخر: إنّ يومًا يُقْتَلُ فيه قيصرَ ليومٌ شرُّه مستطيرٌ!

آخر: يا للدناءةِ والسفالةِ!

آخر: يا للغدرِ والخيانةِ!!

آخر: الانتقامَ.. الانتقامَ.

الشعب (وهو يضج ضجيجًا عظيمًا): حرّقوا القتلةَ، مزّقوهم، لا تبقوا على أحد منهم.

أنطونيوس: مهْلًا! مهْلًا! أنا لا أريدُ أن أُشعِلَ بينكم فتنةً عمياءَ، ولا أريدُ أن تطالبوا القتلةَ بالدماءِ التي أراقوها، فإنّني لا أزالُ أعتقدُ أنّهم قومٌ شرفاءُ، وربّما كانوا يعرفون أسبابًا لقتلِه لا نعرفُها، وإنّما أريدُ أن أقولَ لكم: إنّ قيصرَ كان يحبّكم حبًّا جمًّا، فهو يستحقُّ رثاءَكم له، وبكاءَكم عليه.

لولا أنّي أؤثرُ البقاءَ عليكم، ولولا أنّي أحبُّ تخفيفَ ما ألمَّ بقلوبِكم من الحزن على فقيدِكم، لتلَوْتُ عليكم وصيّتَه، لتعلمُوا أنّ الرجلَ كان يحبّكم، وأنّه ما كان خليقًا أنْ يُقْتَلَ بينكم، وفيكم عينٌ تطرفُ وعرقٌ ينبضُ.

---

(١) المدى: جمع مدية، وهي السكّين.

الشعب: اقرأ الوصيّةَ.

أنطونيوس: إنّي أخاف على صدورِكم أنْ تنشقَّ حزنًا على القتيلِ الشهيدِ.

الشعب: نريدُ سماعَ الوصيّةِ.

أنطونيوس: إنّه يُعطي كلَّ فردٍ من أفرادِ الشعبِ الرومانيّ خمسةَ وسبعين فرنكًا، ويوصي بجميعِ غاباتِه ومتنزّهاتِه للأمّةِ.

أحد الناس: يا له من رجلٍ كريمٍ!

آخر: يا له من رجلٍ شريفٍ!!

آخر: ويلٌ للقتلةِ!

آخر: الثورة.. الثورة.

آخر: سنحرقُ منزلَ بروتس.

ثم خرج الشعبُ يتدفّقُ في شوارعِ روما تدفّقَ الأمواجِ الثائرةِ في القاموسِ المحيطِ.

أنطونيوس (في موقفه وحدَه): أيّتها الفتنةُ العمياءُ قد أيقظتُك من مرقدِك، فارفعي رأسَك، وامضي في سبيلِك، واشتعلي حتى يحرقَ لسانُك أديمَ السماءِ ووجهَ الغبراءِ.

وهكذا استطاعَ أنطونيوس في موقفٍ واحدٍ أن يستعبدَ الشعبَ الرومانيَّ لنفسِه قبل أنْ يُفيقَ من استعبادِ قيصرَ له. وكذلك الأممُ الضعيفةُ الجاهلةُ لا مفرَّ لها من إحدى العبوديّتَيْن: إمّا العبوديّةُ لحملةِ التيجانِ، أو لحملةِ البيانِ.



الكبرياء

حضرةَ السيّدِ الفاضلِ:

لي في البلدةِ التي أسكنُها كرامةُ الحاكمِ، لأنّي أشغلُ وظيفةً عاليةً فيها، وقد بدا لي أن أختلفَ إلى المسجدِ لصلاةِ الجمعةِ، فاختلفتُ حتّى فاجأني يومًا من الأيّامِ ما لم يكن في الحسبانِ.

حدَثَ أنّ صعلوكًا[١] يعرفُني، ويعرفُ مقامي، تمادَى في وقاحتِه وسوءِ أدبِه، حتّى وقفَ بجانبي في الصلاةِ، فاشمأزّتْ نفسي من هذا الأمرِ اشمئزازًا عظيمًا، وحاولْتُ أن أحتملَه فلم أستطعْ، فخفتُ إنْ أنا طردتُه أنْ يؤاخذَني الناسُ به، فهل تعرفُ مسوّغًا شرعيًّا يفرّقُ بين درجاتِ الناسِ في مواقفِ الصلواتِ؟

«سائل»

(١) الصعلوك: الفقير.

يا مولانا الحاكم:

رُحْماكَ بهذا الصعلوكِ المسكينِ الواقفِ بجانبِك، لا تضنَّ[1] عليه بمَذْقةٍ[2] من ظلِّكَ الظليلِ أن تمتدَّ إليه فتقيَهُ أشعّةَ التصعلكِ الحارّةَ التي يتلظّى فيها، ولا تحرمْه نفحةً من نفحاتِك العطرةِ التي تهبُّ من بين أردانِك علّه يجدُ فيها روحَ الحياةِ، ويتنسّمُ منها نسيمَ السعادةِ والهناءةِ، فيهدأُ ساعةً من الزمانِ عن الشعورِ بمصائبِه ورزاياه، وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليك، إنّ اللهَ يحبُّ المحسنين.

ليَفْرَخْ رُوعُكَ، وَلْيَثْلُجْ صدرُك، واعلمْ أنّ هذا المسكينَ الواقفَ بجانبِك لا يستطيعُ مهما نالَ منه العدمُ، وبرّحَ به الشقاءُ، أن يقتطعَ قطعةً من سعادتِك أو يفتلذَ فِلذةً من شرفِك، فشرفُك كالمصباحِ تستمدُّ منه المصابيحُ، ونورُه نورُه، وبهاؤه بهاؤه.

لا تظلمِ الرجلَ ولا تقلْ إنّه وقحُ الوجهِ، أو سيّىءُ الأدبِ، فإنّي - بما أعلمُ من أخلاقِ هؤلاءِ البائسين وطباعِهم وآمالِهم التي تعتلجُ بها صدورُهم، وتهتفُ بها أحلامُهم - أعتقدُ أنّه ما وقفَ بجانبِك إلّا طمعًا في دورةِ الفلكِ التي علتْ بك، وأنزلتْكَ منازلَ العظماءِ، أنْ تدورَ به كذلك فتنزلَ بهِ منزلتَك، وتعلُو به إلى مقامِك، فاغفرْ له جهلَه وقصورَه، فمثلُك مَنْ يقيلُ العثرةَ[3] ويسترُ الزلّةَ.

إنّك تريدُ منّي أن ألتمسَ لك من أبوابِ الشريعةِ الإسلاميّةِ بابًا يسوّغُ لك طردَ هذا الصعلوكِ المجترىءِ عليك من موقفِه الذي اختارَه لنفسِه بجانبِك فاسمعْ ما أُلقِي عليك.

إنّ الذي وقفتَ بين يدَيْه في مُصلّاك أعظمُ شأنًا، وأجلُّ خطرًا، من أن يحفلَ بثوبِك اللامعِ، وجبينِك الساطعِ، وردائِك المطرّزِ، وقميصِك المحبّرِ، وأن يعرفَ لك من الفضلِ والشرفِ أكثرَ ممّا تعرفُ لصاحبِك فما كان له أنْ يأمرَك بالتقدّمِ عليه في موقفِ الصلاةِ، ولا أن يأمرَه أن يقفَ منك موقفَ العبدِ من السيّدِ، والمحكومِ من الحاكمِ.

إنّ للجمعةِ والجماعةِ فضائلَ كثيرةً، وحِكَمًا جمّةً، أرادَها الشارعُ منهما، وإنّك لن تجدَ بين هذه الحِكَمِ، وتلك الفضائلِ، حكْمَةً أغلى، ولا فضيلةً أنفسَ من خُلُقِ التواضعِ الذي يشعرُ به العظيمُ عندما يرى أنّه قد وقفَ من الفقيرِ في ذلك الموقفَ المقدّسَ موقفَ الأخِ من أخيه والكفْىءِ من كفيئِه.

إن كنتَ تريدُ، يا مولانا الحاكمَ، من اختلافِك إلى المسجدِ ألّا تتركَ للفقيرِ موقفًا من المواقفِ يملكُ فيه الخيارَ لنفسِه، حتى موقفَه بين يدي ربِّه، فخيرٌ لك أن تستصحبَ معك عند ذهابِك شرطتَك وأعوانَك لتأمرَهم فيه بما يرضيك من طردِه وإقصائِه والتنكيلِ به جزاءً له على

---

(١) ضنّ: بخل.

(٢) المذقة: اللبن يخالطه ماء؛ وهنا بمعنى الشيء التافه القليل.

(٣) أقال العثرة: أبعد السقوط.

وقاحتِه وسوءِ أدبِه، فإنْ تمّ لك من ذلك ما أردتَ، فاحذرْ أن تنطقَ بعد ذلك بكلمةِ العبوديّةِ، بعدما نطقْتَ بكلمةِ الألوهيّةِ، حتّى لا تجمعَ على نفسِك بين رذيلتَي الظلمِ والرياءِ.

فإن كنتَ تريدُ الصلاةَ للصلاةِ فاعلمْ أنّ اللهَ لا يقبلُها منك، ولا يجزلُ لك ثوابَها، حتّى تقفَ بين يدَيْه موقفَ من خالطَتِ الخَشْيَةُ قلبَه، وملكَتْ عليه السكينةُ سمعَه وبصرَه، فلم يعدْ يبصرُ شيئًا ممّا حوله، ولا يعلمُ أواقفٌ هو في صفوفِ الملوكِ، أو في زمرةِ الصعاليك؟

أيّها العظماءُ:

ليستِ العظمةُ التي تعرفونها لأنفسِكم إلّا منحةً من الفقراءِ إليكم، فلولا تواضعُهم بين أيديكم ما علوتُمْ، ولولا تصاغرُهم في حضرتِكم ما استكبرْتُم، فلا تجزوهم بالإحسانِ سوءًا، ولا تجعلوا الكفرَ مكانَ الشكرِ، تستدفعوا النقمَ، وتستديموا النعمَ.

أيّها العظماءُ:

ما هذه القصورُ التي تسكنونها، ولا هذه الدورُ التي تَعمُرونها[1]، وهذه الأرديةُ التي تجرّون أذيالَها، إلّا ألوانًا وأصباغًا لا علاقةَ بينها وبين حقائقِ نفوسِكم، ولا صلةَ لها بجواهرِ أفئدتِكم وقلوبِكم، وما هو إلّا أن تطلعَ عليها شمسُ الحقيقةِ حتّى تذهبَ بها ذهابَها بألوانِ السّحابِ وأصباغِ الثيابِ، فإذا أنتم عراةٌ مجرّدون، لا تشفعُ لكم إلّا فضائلُكم، ولا تنفعُكم إلّا مواهبُكُمْ ومزاياكُمْ.

أيّها العظماءُ:

لا عذرَ لكم في الكبرياءِ في جميعِ حالاتِكم وشؤونِكم، فإنْ كنتم من أربابِ الفضائلِ، فحريٌّ بالفاضلِ أن لا يشوّه وجهَ فضيلتِه برذيلةِ الكبرياءِ، أوّلًا، فما تحملُ الأرضُ على ظهرِها أسمجَ وجهًا، ولا أصلبَ خدًّا من جهلةِ المتكبّرين، فانظروا أين تنزلون، وفي أيّ مقامٍ تقيمون؟



الانتحار

قرأتُ في بعضِ الصحفِ أنّ رجلًا من تجّارِ المسلمين انتحرَ لا لضيقِ يدٍ، أو شدّةِ مرضٍ، أو بؤسِ حالٍ، بل لأنّه حزنَ على وفاةِ صديقٍ له فقتَلَ نفسَه.

إنَّ الرجلَ المؤمنَ يعتقدُ ولا شكَّ بسوءِ عاقبةِ المنتحرِ، فكيفَ هانَ عليه، وهو في آخرِ يومٍ من أيّامِ حياتِه، أنْ يضمَّ إلى خسارةِ دنياهُ، خسارةَ آخرتِه، وهي العزاءُ الباقي له عنْ كلِّ ما لاقاهُ في حياتِه من شقاءٍ وعناءٍ؟

(١) عَمَر المكان: ملأه.

إنّ الانتحارَ نزعةٌ فاسدةٌ وعادةٌ مستهجنةٌ، رمتْنا بها المدنيّةُ الغربيّةُ فيما رمتنا به من مفاسدِها وآفاتِها.

ولقد كنّا نعجبُ قبلَ اليوم من تهالكِ الشرقيّين على حبِّ تقليدِ الغربيّين حتّى فيما يؤذيهم في شرفِهم وكرامتِهم، وكنّا إذا أردْنا المبالغةَ في تمثيلِ هذا التهالكِ، قلنا: يوشكُ أن يقتلَ الشرقيُّ نفسَه بنفسِه إذا علمَ أنّ تلك عادةٌ من العاداتِ الغربيّةِ. فقد صارَ قريبًا ما كان بعيدًا، وأصبحَ مألوفًا ما كنّا نعدُّه فرضًا من الفروض.

الانتحارُ منتهى ما تصلُ إليه النفسُ من الجبنِ والخوَرِ، وما يصلَ إليه العقلُ من الاضطرابِ والخبَلِ، وأحسبُ أنَّ الإنسانَ لا يقدمُ على الانتحار، وفي رأسِه ذرّةٌ من العقلِ والشعورِ.

حبُّ النفسِ غريزةٌ ركّبَها اللهُ تعالى في نفسِ الإنسانِ لتكونَ يَنبوعَ حياتِه وعمادَ وجودِه، والمنتحرُ يبغضُ نفسَه أشدَّ ممّا يبغضُ العدوُّ عدوَّه، فهو شاذٌّ في طبيعتِه، غريبٌ في خلقِه، معاندٌ لإرادةِ اللهِ تعالَى في بقاءِ الكونِ وعمرانِه، ومن كان هذا شأنَه كان بلا قلبٍ ولا عقلٍ.

لا عذرَ للمنتحرِ في انتحارِه مهما امتلأ قلبُه بالهمِّ ونفسُه بالأسَى، ومهما ألمَّتْ به كوارثُ الدهرِ، وأزمتْ به أزماتُ العيشِ، فإن ما أقدمَ عليه أشدُّ ممّا فرَّ منه، وما خسرَه أضعافُ ما كسبَه.

ولو كان ذا عقلٍ، لعلمَ أنّ سكراتِ الموتِ تجمعُ في لحظةٍ جميعَ ما تفرّقَ من آلامِ الحياةِ وشدائدها في الأعوامِ الطوالِ، وأنّ قضاءَ ساعةٍ واحدةٍ فيما أعدَّ اللهُ لقاتلِ نفسِه من العذابِ الأليم أشدُّ من جميعِ ما يشكو منه، وما يكابدُه من مصائبِ حياتِه وأرزائها، لو يعمّرُ ألفَ سنةٍ.

ما أكثرَ همومَ الدنيا، وما أطولَ أحزانَها، لا يفيقُ المرءُ فيها من همٍّ إلّا إلى همٍّ، ولا يرتاحُ من فاجعةٍ إلّا إلى مثلِها، ولا يزالُ بنوها يترجّحون فيها ما بين صحّةٍ ومرضٍ، وفقرٍ وغنًى، وعزٍّ وذلٍّ، وسعادةٍ وشقاءٍ، فإذا صحَّ لكلِّ مهمومٍ أن يمقتَ حياتَه، ولكلِّ محزونٍ أن يقتلَ نفسَه، خلَتِ الدنيا من أهلِها، واستحالَ المقامُ فيها، بل استحالَ الوفودُ إليها، وتبدّلتْ سنّةُ اللهِ في خلقِه، ولن تجدَ لسنّةِ الله تبديلًا.

ما سُمّيَ القاتلُ مجرمًا إلّا لأنّه قاسي القلبِ متحجّرُ الفؤادِ، وأقسى منه قاتلُ نفسِه، لأنّه ليس بينه وبينها من الضغينةِ والمَوْجِدَةِ ما بين القاتلِ والمقتول، فهو أكبرُ المجرمين، وأقسَى القاتلين.

يخدعُ المنتحرُ نفسَه إنْ ظنَّ أنّه مقتنعٌ بفضلِ الموتِ على الحياةِ، وأنّه إنّما يفعلُ فَعْلتَه عن رؤيّةٍ وبصيرةٍ، فإنّه لا يكادُ يضعُ قدمَه في المأزقِ الأوّلِ من مآزقِ الموتِ، حتّى يثوبَ إلى رشدِه وهُداه، ويحاولُ التخلّصَ ممّا وقعَ فيه لو وجدَ إلى ذلك سبيلًا.

إنْ ألقَى نفسَه في الماءِ، تخبّطَ، وبسطَ يدَه إلى مَنْ يرجُو الخلاصَ على يدِه، وودَّ لو يفتدي نفسَه بكلِّ ما تملكُ يمينُه؛ وإنْ حبسَ نفسَه في غرفتِه ليموتَ مختنقًا بالغازِ، ودّ لو سقطَ عليه سقفُ الغرفةِ ليستنشقَ نسمةً من نسماتِ الهواءِ، ولو عاشَ بعد ذلك كسيرَ اليدِ والرجلِ، فاقدَ السمعِ والبصرِ.

إنّ فكرةَ الانتحارِ نزعةٌ من نزعاتِ الشيطانِ، وخطرةٌ من خطراتِ النّفسِ الشرّيرةِ، فمن

حدّثَتْه نفسُه، بقتلِ نفسِه فليتريَّثْ ريثما يتبيّنُ كيف يكونُ صبرُه على احتمالِ سكراتِ الموتِ، وآلامِ النّزعِ، وماذا يكونُ حديثُ الناسِ عنه بعد موتِه، وهل يمكنُ أن يوجدَ بينهم عاذرٌ له أو مشفقٌ عليه، أو مقتصدٌ في النَّيْلِ منه والسخريةِ به؟ وليعرضْ على مخيّلتِه قبلَ ذلك أشكالَ العذابِ، وأنواعَ العقابِ التي أعدّها اللهُ في الدارِ الآخرةِ لأمثالِه.

إنّي لا أظنّه بعد ذلك فاعلًا إلّا إذا كان وحْشًا في ثوبِ إنسانٍ، أو بطلًا من أبطالِ المارستان.

❀ ❀ ❀

الحياة الشعريّة

لولا الحياةُ الشعريّةُ التي يحياها الناسُ أحيانًا، لسمجَ في نظرِهم وجهُ الحياةِ الحسيّةِ، ومَرّ مُذاقُها في أفواهِهم، حتّى ما يغتبطُ حيٌّ بنعمةِ العيشِ، ولا يكرهَ ميتٌ طلعةَ الموتِ.

لذلك ترَى كلَّ حيٍّ يهربُ من الحياةِ الحسيّةِ جدّ الهربِ، لاجئًا إلى الحياةِ الشعريّةِ من أيّ بابٍ من أبوابِها، لأنّه يرَى في هذه ما لا يراه في تلك ممّا يريحُ فؤادَه، ويثلجُ صدرَه، وينفي عن نفسِه السّآمةَ والضجرَ من صنوفِ المناظرِ وأفانينِ المشاهدِ، وغرائبِ المؤتلفاتِ، وعجائبِ المختلفاتِ.

لولا حبُّ الحياةِ الشعريّةِ، ما وُجِدَ في الناسِ كثيرٌ من المولعين بتخديرِ أعصابِهم كشاربي الخمرِ، ومدخّني الحشيش، وآكلي الأفيون. وهي وإنْ كانت في نظرِهم حياةَ سعادةٍ يتخلّلُها شقاءٌ، إلّا أنّها خيرٌ عندهم من حياةِ شقاءٍ لا تتخلّلُها سعادةٌ. ولولا حبُّ الحياةِ الشعريّةِ، ما وُجِدَ في الناسِ هذا الجمعُ الغفيرُ من الشعراءِ المتخيّلين، والعابدين المتبتّلين.

لا يجدُ السكّيرُ لذّةَ العيشِ وهناءتَه إلّا إذا أسلمَ نفسَه إلى كأسِ الشرابِ، فنقلَتْه من هذا العالمِ البسيطِ المحدودِ إلى عالمٍ واسعِ النطاقِ، شاسعِ الأطرافِ يرى فيه كلَّ ما تشتهي نفسُه أن تراه، فإن كان قبيحَ الوجهِ مشوّهَ الخِلْقةِ، تَخيّلَ أنّه شَرَكُ الأبصارِ، وفتنةُ النظّارِ، وأن القلوبَ محلّقةٌ على جمالِه تحليقَ الأطيارِ على الأشجارِ؛ وإنْ كان فقيرًا مُعْدَمًا لا يملكُ فَلْسًا واحدًا، توهّمَ أنّه جالسٌ على عرشِ الملكِ، والصولجانُ في يمينِه، والتاجُ فوق رأسِه، واعتقدَ أنّ عبيدَ اللهِ تعالى جميعًا عبيدُه، وجنودَ المملكةِ بأسرِهم جنودُه، حتى ذلك الجنديّ الذي يسحبُه على وجهِه إلى غرفةِ السجنِ ليقضيَ فيها ليلتَه.

وجملةُ القولِ إنّ عينَه لا تقعُ على ما يحزنُه من المنظوراتِ، وإنّ أذنَه لا تسمعُ ما ينفّرُه من المسموعاتِ، حتى ليرى الجمالَ الباهرَ في وجهِ العجوزِ الشمطاءِ، ويسمعُ في صوتِ الرعدِ القاصفِ ألحانَ الغناءِ.

ولا يشعرُ المتعبّدُ بنعيمِ الحياةِ إلّا إذا جُنَّ الليلُ، وأوَى إلى معبدِه، وخَلَا بنفسِه، فتَخيّلَ أنّ له أجنحةً من النورِ كأجنحةِ الملائكةِ يطيرُ بها في جوِّ السماءِ، فيرى الجنةَ والنارَ، والعرشَ والكرسيّ، ويسمعُ صريرَ القلمِ في اللوحِ، ويقرأُ في أمّ الكتابِ حديثَ ما كان وما يكونُ.

ولا يستفيقُ الشاعرُ من همومِ الحياةِ وأكدارِها ومصائبِها وأحزانِها، إلّا إذا جلسَ إلى منضدتِه، وأمسكَ بيراعِه، فطارَ به خيالُه بين الأزهارِ والأنوارِ، وتنقّلَ به بين مسارحِ الأفلاكِ ومسابحِ الأسماكِ، ووقفَ تارةً على الطلولِ الدَّوارسِ، يبكي أهلَها النَّازحين وقُطّانَها المفارقين، وأخرى على القبورِ الدَّوائرِ، يندبُ جسومَها البالياتِ، وأعظمَها النَّخِراتِ.

ليس الأملُ إلّا بابًا من أبوابِ الحياةِ الشعريّةِ، ولا يوجَدُ بين قلوبِ البشرِ قلبٌ لا يخفقُ بالآمالِ العظامِ والأمانيّ الحِسانِ؛ فالأملُ هو الحياةُ الشعريّةُ العامّةُ التي يعيشُ في ظلّها النَّاسُ جميعًا أذكياءُ وأغبياءُ، فُهماءُ وبُلداءُ. والأملُ هو السدُّ المنيعُ الذي يقفُ في وجهِ اليأسِ، ويعترضُ سبيلَه أنْ يتسرّبَ إلى القلوبِ، ولو تسرّبَ إليها لضاقتْ بالنّاسِ هذه الحياةُ، وثقلَ عِبؤها على عواتقِهم، فطلبوا الخلاصَ منها، ولو إلى الموتِ، طلبًا للتغييرِ والانتقالِ، وشغفًا بالتحوّلِ من حالٍ إلى حالٍ.

يقولون: أشقَى الناسِ في هذه الحياةِ العقلاءُ. ويقولون: ما لذّةُ العيشِ إلّا للمجانين.

إتدري لماذا؟ لأنّ نصيبَ الأوّلين من الحياةِ الشعريّةِ أضعفُ من نصيبِ الآخرين؛ وذلك أنّ عقلَ العاقلِ يحولُ بينه وبين استمرارِ الطّيرانِ في فضاءِ الخيالاتِ الذهنيّةِ والمغالطاتِ الشعريّةِ، فلا يرى سوى ما بين يدَيْهِ من الحقائقِ الملموسةِ، ولا يسمحُ له علمُه بأحوالِ الدنيا وشؤونِها، ومعرفتُه أنّ المصائبَ والآلامَ لازمٌ من لوازمِها التي لا تفارقُها، يؤمنُ منها في طبيعتِها من دوام السرورِ واستمرارِ الهناءةِ، فلا يطلبُ سَعَةَ العيشِ من وراء الأملِ كبقيّةِ المؤمّلين، ولا يتلذّذُ بتصديقِ ما لا يكونُ تلذّذَ المجانين.

والحقَّ أقولُ، لولا الحياةُ الشعريّةُ التي أحياها أحيانًا في هذه الكلماتِ التي أكتبُها، لأحبَبْتُ، زاهدًا في هذه الحياةِ الحسّيّةِ، أن تطلعَ الشمسُ من مغربِها إيذانًا بانقضاءِ العالمِ وفنائِه، ولتمنّيتُ حبًّا في الانتقالِ من حالٍ إلى حالٍ أن أنتقلَ، ولو إلى رحمةِ اللهِ.

❁ ❁ ❁



رباعيّات الخيّام

وقفتُ برباعيّاتِ عمر الخيام[1] يومًا من الأيّام كما يقفُ مسافرٌ ضلَّ به سبيلُه في فلواتِ الأرضِ ومجاهلِها بوادٍ معشبٍ أريضٍ[2] في وسطِ فلاةٍ جرداءَ عند مُنْقَطَعِ العمرانِ، فما خطوتُ فيه بعضَ خطواتٍ حتى رأيتُ ما شاءَ اللهُ أن أرى من أنوارٍ بيضاءَ، وورودٍ حمراءَ، وألوانٍ من النَّباتِ، مُشْتَبِهاتٍ وغيرِ مُشْتَبِهاتٍ، وغدرانٍ مطردةٍ متسلسلةٍ تنبسطُ في تلك الديباجةِ الخضراءِ

(١) عمر الخيام: (ت نحو ٥٣٦/ ١١٣٢م.) عالم وشاعر فارسيّ رقيق - ترجمت رباعيّاته إلى أكثر لغات العالم.

(٢) أريض: كثير العشب.

تبسّطَ النُّجومِ البيضاءِ في الدّيباجةِ الزرقاءِ، وأسرابٍ من الحمائمِ والعصافيرِ والبلابلِ والشحاريرِ، تتطايرُ من فرعٍ إلى فرعٍ، وتنتقلُ من غصنٍ إلى غصنٍ، وتجتمعُ لتفترقَ، وتفترقُ لتجتمعَ، وتتقاتلُ مرّةً، وتتلاءمُ أخرى، وتصعّدُ حتّى تلامسَ بأجنحتِها جلدةَ السماءِ، ثم تهبطُ حتّى تصافحَ صفحةَ الماءِ، ولا تزالُ تغرّدُ في صعودِها وهبوطِها تغريدًا مختلفَ النغماتِ، متنوّعَ النبراتِ، فيتألّفُ من ذلك الاختلافِ والتنوّعِ نغمٌ لذيذٌ لا أعرفُ له شبيهًا إلّا تلك الصورةَ الخياليّةَ التي أتخيّلُها في نغمِ الحورِ الحسانِ، في فراديسِ الجنانِ.

فلمْ أزلْ أتقلّبُ في أعطافِ تلكَ الغلائلِ الخضراءِ، وأجرُّ ذيولَ تلك الجداولِ البيضاءِ، وأقلّبُ طرفي فلا أرَى رائحًا ولا غاديًا، أتسمّعُ فلا أسمعُ هاتفًا ولا داعيًا، حتّى وقفَ بيَ الحظُّ على دوحةٍ فرعاءَ[1]، مائلةٍ على رأسِ بعضِ الجداولِ، وقد اضطجعَ في ظلّها على قطيفةٍ من ذلك العشبِ الناعمِ رجلٌ هانئٌ باسمٌ، يقرأُ تارةً سورةَ الجمالِ في وجهِ فتاةٍ جالسةٍ بين يدَيْه، ويقبّلُ أخرى ثغرَ الكأسِ التي تتلألأُ في يمينِه، ويترنّمُ بين هذا وذاك بمقطوعاتٍ شعريّةٍ بديعةٍ، يمثّلُ فيها جمالَ الطبيعةِ وهدوءَها، وسعادةَ الوحدةِ وهناءتها، ويطيرُ بأجنحةِ خيالِه في عالمٍ بديعٍ من عوالمِ الغيبِ، تاركًا هذا العالَمَ الحافلَ بالهمومِ والآلامِ، طاردًا عن نفسِه كلَّ خاطرٍ من خواطرِ الشرورِ والآثامِ، ليستكملَ لذّتَه في الحياةِ التي يحياها بين ظلِّهِ، ومائهِ، وكأسِه، وفتاتِه.

فإنْ مرّ بخاطره ذكرُ الملوكِ والأمراءِ وما ينعمون به من عزٍّ وسلطانٍ، ولذّةٍ واستمتاعٍ، قال: ما لي وللملكِ والسّلطانِ، والحاشيةِ والجندِ، والقصورِ الشمّاءِ، والجنانِ الفيحاءِ، هنالك المحنةُ والشقاءُ، والفتنةُ الشعواءُ، والهمومُ والأرزاءُ، والدماءُ والأشلاءُ، والعويلُ والبكاءُ، وهنا الراحةُ والسُّكونُ في ظلالِ الوحدةِ والانفرادِ، حيث لا سيّدَ ولا مسودَ، ولا عابدَ ولا معبودَ، وبين هذين الثغرين ثغرِ الفتاةِ، وثغرِ الكأسِ، وذينك الصديقَيْن: هذا الكتابِ المفتوحِ، وذلك الغصنِ المطلِّ، كلُّ ما يتمنّى السعداءُ لأنفسِهم من غبطةٍ في الحياةِ وهناءةٍ.

وإنْ ذكرَ الآخرةَ، وما أعدَّ اللهُ فيها من العذابِ للمسرفين على أنفسِهم، قال: إنّ من العجزِ أنْ أبيعَ عاجلَ السعادةِ المعلومِ بآجلِها المجهولُ، أنا اليومَ موجودٌ، فلا بدّ أنْ أستمتعَ بمتعةِ الوجودِ، أمّا الغدُ، فلا علمَ لي به، ولا بما قُدّرَ لي فيه، وعسيرٌ عليَّ أن أتصوّرَ أنّنا معشرَ الأحياءِ الناطقين قطعٌ من المعدنِ الصامتِ تدفنُ اليومَ في باطنِ الأرضِ لينبشَ عنّا النابشون غدًا.

ثم يعودُ إلى نفسِه مستغفرًا اللهَ من ذنبِه في شكِّه وارتيابِه فيقولُ: اللّهمّ إنّك تعلمُ أنّي ما كفرتُ بك مذ آمنتُ، ولا أضمرتُ لك في قلبي غيرَ ما يضمرُ المؤمنون الموحّدون، فاغفرْ لي آثامي وذنوبي، فإنّي ما أذنبتُ عنادًا لك، ولا تمرّدًا عليك، ولكنّها الكأسُ غلبتْني على أمري،

---

(١) الدوحة الفرعاء: الشجرة العظيمة.

وحالتْ بيني وبين عقلي وأنتَ أجلُّ من أنْ تقاضيَني مقاضاةَ الدائنِ غريمَه، لأنّك كريمٌ؛ والكريمُ يمنحُ العطيةَ منْحًا، ولا يقرضُها قرْضًا، ويسبغُ نعمتَه الوارفةَ الظليلةَ حتى على العصاةِ والمجرمين.

وأحيانًا يستشعرُ قلبُه الرحمةَ بالعبادِ، فيبكي أحياءهم وأمواتَهم، ويقولُ مخاطبًا فتاتَه: رويدًا أيّتها الفتاةُ في خطاكِ على هذه الأعشابِ النّابتةِ، فلعلّ جذورَها ممتدّةٌ إلى كبدِ فتاةٍ مثلِك كان لها قلبٌ مثلُ قلبِك، ووجدانٌ مثلُ وجدانِك، وجمالٌ ورُواءٌ مثلُ جمالِك ورُوائِك، ثمّ ضربَ الدهرُ ضرباتِه فإذا أنت في غلالةِ هذه الأشعّةِ البيضاءِ، وإذا هي في دجنّةِ[١] تلك الأعماقِ السوداءِ، فارفقِي بها، واسكبي هذه الفُضْلةَ من كأسِك على تربتِها علّها تتسرّبُ إليها، فتطفىءُ ذلك اللاعجَ الذي يعتلجُ بين جوانِحها.

ثمّ يَتَخَيّلُ أحيانًا كأنّه واقفٌ بين يدَي رجلٍ خزّافٍ يحرقُ حمأتَه[٢] في تنّورِه فيقولُ له: رحمةً أيّها الخزّافُ بهذه النّارِ، فقد كانتْ بالأمسِ إنسانًا مثلَك، وستكونُ أنتَ في مستقبلِ الأيامِ حمأةً مثلَها؛ وربّما ساقَك القدرُ إلى يدِ خزافٍ تحتاجُ إلى رحمتِه ورفقِه، فارفقْ بها اليومَ، يرفقْ بك خزّافُك غدًا.

وآونةً يلبَسُ ثوبَ الواعظِ المُنْذرِ، فينعي على السُّعداءِ سعادتَهم، ويذكّرُهم بما آلتْ إليه حالُ الملوكِ السّالفين، والأجيالِ الماضين، من خرائبِ دورهِم وعمرانِ قبورِهم، وغروبِ شموسِهم، وعفاءِ آثارِهم.

ثمّ ينتقلُ من ذلك إلى البكاءِ على نفسِه، وترقّبِ ذلك اليوم الذي تُصوِّحُ[٣] فيه زهرتُه، وتنطفىءُ جذوتُه، وتضعُفُ منّتُه، ويمحو نهارُ مشيبِه ليلَ شبابِه، فيزحفُ إلى قبرِه خطوةً خطوةً حتى يتردّى فيه، فيعودُ كما كان سرًّا مكتومًا في ضمائرِ الأقدارِ، وذرّةً هائمةً في مجاهلِ الأكوانِ.

وهكذا ما زال يتنقّلُ من عِبْرةٍ بليغةٍ، إلى عِظَةٍ بديعةٍ، ومن خيالٍ جميلٍ إلى تشبيهٍ رقيقٍ، ومن وصفٍ ناطقٍ، إلى تمثيلٍ صادقٍ، حتّى أصبحْتُ أعتقدُ أنّ هذه النَّفسَ التي تشتملُ عليها بردةُ هذا الشاعرِ الجليلِ مرآةٌ صافيةٌ قد تمثّلَ فيها هذا الكونُ بأرضِهِ وسمائِه، وليلِه ونهارِه، وناطقِه وصامتِه، وصادحِه وباغمِه، وأنّ فخارَ الأعرابِ بمتنبّيها[٤] ومعرّيها[٥]، والفرنسية

---

(١) الدجنّة: الظلمة.

(٢) الحمأة: الطين الأسود الفاسد الرائحة.

(٣) تصوّح: تتشقّق وتيبس.

(٤) المتنبّي الشاعر العباسي الشهير (ت٣٥٥هـ./٩٦٥م.) مدح سيف الدولة أمير حلب، ثم كافورًا. أفضل شعره في الحكمة والفلسفة ووصف المعارك.

(٥) أبو العلاء المعرّي الشاعر والفيلسوف العباسي (ت٤٥٠هـ./١٠٥٧م.) فقد بصره وهو في الرابعة من عمره. كان يتمتّع بذكاء حاد. له: «سقط الزند» و«اللزوميات» و«رسالة الغفران».

بلامارتينِها[١] وفكتورِها[٢]، والسكسون بشكسبيرها[٣] وملتونها[٤]، والطليان بدانتها[٥]، والألمان بغوتها[٦]، والرومان بفرجيلها[٧]، واليونان بهوميرها[٨]، ومصر القديمة ببنتاؤورها، ومصر الحديثة بأحمدها[٩]، لا يقلّ عن فخارِ فارسَ بخيّامها.



إلى تولستوي[١٠]

قفْ ساعةً واحدةً نودّعْك فيها قبلَ أنْ ترحلَ لطيّتِك، وتتّخذَ السبيلَ إلى دار عزلتِك، فقدْ عشْنا في كنفِك على ما بيننا وبينك من بُعْدِ الدارِ، وشطِّ المزارِ، عهدًا طويلًا كنّا فيه أصدقاءك، وإن لم نرَك، وأبناءَك، وإن كان لنا آباءُ من دونك؛ وعزيزٌ علينا أنْ تفارقَنا قبل أن نقضي حقَّ عشرتِك بدمعةٍ نذرفُها بين يدَيْك في موقفِ الوداعِ.

حدّثَنا الناسُ عنك أنّك ضقْتَ بهذا المجتمعِ الإنسانيِّ ذَرْعًا بعد أنْ أعجزَك إصلاحُه وتقويمُه، فأبغضتَه، وعفْتَ النظرَ إليه، وأبغضتَ لبغضهِ كلَّ شيءٍ حتى زوجَك وولدَك، ففررْتَ بنفسِك منه إلى غابٍ تسمعُ زئيرَ سباعِه، أو ديرٍ تأنسُ برنّةِ ناقوسِه، وأسجلْتَ أن لا تعودَ إليه، وأن تقطعَ كلّ صِلَةٍ بينك وبينه إلى الأبدِ. فعذرْنَاك، ولم نعتبْ عليكَ، ولم نسمِّك جبانًا ولا رعديدًا[١١]، ولا

---

(١) ألفونس دي لا مارتين الشاعر الفرنسي الشهير (ت١٢٨٧هـ./١٨٦٩م.) زعيم الحركة الرومانطيقيّة. زار الشرق. له: «التأمّلات» و«جوسلين» و«رحلة إلى الشرق».

(٢) فيكتور هيجو الشاعر الفرنسي (ت١٣٠٣هـ./١٨٨٥م.) من أعلام الحركة الرومانطيقيّة. له: «البؤساء» و«الشرقيات» و«أوراق الخريف».

(٣) تقدّمت ترجمته.

(٤) هو جون ملتون (ت١٠٨٦هـ./١٦٧٤م.) من مشاهير الشعراء الإنكليز، وواضع الملحمة الشهيرة: «الفردوس المفقود».

(٥) هو دانته ألياري (ت٧٢٢هـ./١٣٢١م.) أعظم شعراء إيطاليا، ومن رجالات الأدب العالمي وضع ملحمته الشعريّة: «الكوميديا الإلهيّة».

(٦) غوته (ت١٢٤٩هـ./١٨٣٢م.) من مشاهير الكتاب الألمان، له «فوست» و«آلام ڤرتر».

(٧) فرجيل (ت١٩ق.م.) أعظم شعراء روما وواضع «الإنيادة».

(٨) هو هوميروس (القرن ٩ق.م.) شاعر ملحمي يوناني وضع «الإلياذة» و«الأوذيسّة».

(٩) هو أحمد شوقي (ت١٣٥١هـ./١٩٣٢م.) شاعر مصري مجيد، له ديوان شعري وعدة مسرحيات أشهرها «مصرع كليوباترة».

(١٠) هو لاون تولستوي (ت١٣٢٩هـ./١٩١٠م.) كاتب قصصي حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبّة والسلام. أشهر رواياته: «الحرب والسلم». وقد كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أنّه ترك منزله هائمًا على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة، أو في إحدى الغابات.

(١١) الرعديد: الجبان.

موليًا ولا مدبرًا، لأنّك قاتلْتَ فأبلَيْتَ، حتى لم يبق في غمدِك سيفٌ، ولا فوقَ عاتقِك رمحٌ، ولا في كنانتِك[1] سهمٌ. والعدوُّ كثيرٌ عددُه، صعبٌ مراسُه، وافرةٌ قوّتُه، والشجاعةُ في غيرِ موضعِها جنونٌ، والوقوفُ أكثرَ من ثمانين عامًا أمامَ عدوٍّ لا أملَ في براحِه، ولا مطمَع في زيالِه عنادٌ.

وهل يكونُ مصيرُك إنْ أنت ثبتَّ في موقفِك حتى سقطتَ قتيلًا في المعركةِ إلّا مصيرَ أولئك الفلاسفةِ العظماءِ من قبلِك الذين قاتلُوا حتّى قتلُوا فهدرَتْ دماؤهم، واغتمضَتْ عيونُهم قبل أنْ يرَوا منظرًا من مناظرِ الصلاحِ والاستقامةِ في المجتمعِ البشريِّ يعزّون به أنفسَهم عن أنفسِهم، ويروّحون به ما يجدون بين جوانحِهم من ألمِ النزعِ، وفي أفواهِهم من مرارةِ الموتِ؟

ماذا لقيتَ من الدنيا؟ وما الذي أفدتَ منها؟ وأين وقعَ علمُك وفضلُك؟ ولسانُك وقلمُك؟ وقوّةُ عارضتِك، ومضاءُ حجّتِك، من آثامِ الناسِ وشرورِهم وقسوةِ قلوبِهم وأفئدتِهم، وظلمِ ألسنتِهم وأيديهم؟

قلتَ لقيصرَ: أيّها الملكُ، إنّكَ صنيعةُ الشعبِ وأجيرُه، لا إلهُه ومعبودُه، وإنّك في مقعدِك فوق عرشِك لا فرقَ بينك وبين ذلك الإكارِ[2] في المزرعة، وذلك العاملِ في المصنعِ، كلاكما مأجورٌ على عملٍ يعملُه، وكلاكما مأخوذٌ بإتقانِ ما يعملُ، فكما أن صاحبَ المصنعِ يسألُ العاملَ هل وفَى عملَه ليوفّي له أجرَه؟ كذلك يسألُك الشعبُ: هل قمتَ بحمايةِ القانونِ الذي وُكِلَ إليك حراستُه فأنفذْتَه كما هو من غيرِ تبديلٍ ولا تأويلٍ؟

هل عدلْتَ بين الناسِ، وآسيتَ بين قويّهم وضعيفِهم، وغنيّهم وفقيرِهم، وقريبِهم وبعيدِهم؟

هل استطعْتَ أن تستخلصَ عقلَك من يدي هواك، فلمْ تدعْ للحبِّ ولا للبغضِ سلطانًا على نفسِك يعدلُ بك عن منهجِ العدلِ ومحجّتِه؟

وهل أصمتْ أذنُك عن سماعِ كلماتِ الملقِ والمداهنةِ والمدحِ والثناءِ، فلم تفسدْ على الناسِ فضائلَهم، ولم تقتلْ عزّةَ نفوسِهم ولم يذهبْ بهم الخوفُ من ظلمِك، أو الطمعُ في ضعفِك، مذهبَ الزلفَى إليك بالكذبِ والنميمةِ والتجسّسِ، والتسقّطِ، وذلةِ الأعناقِ وصرعِ الخدودِ؟ فإن وجدَك الشعبُ عند ظنّه، ورآك أمينًا على العهدِ الذي عهدَ إليك به، أبقَى عليك، وأبقَى لك عرشَك وتاجَك، وحفظَ لك يدَك التي اصطنعتَها عنده، وأحسنَ إليك كما أحسنْتَ إليه، أو لا، كان له معك شأنٌ غيرُ هذا الشأنِ، ورأيٌ غيرُ ذلك الرأيِ.

فما سمعَ منك هذه الكلماتِ حتّى أكبرَها وأعظمَها، لأنّه لم يجدْ بين الكثيرين الذين يعاشرونَه من يُسمعُه مثلَها، فحقدَ عليك، وأضمرَ لك من الشرِّ ما يضمرُ أمثالُه لأمثالِك، واستعانَ على مطاردتِك بأولئك الذين أذلَّ نفوسَهم، وأفسدَ ضمائرَهم بظلمِه وجورِه من قبلُ لبعدهم عن مقاتلةِ الحقّ ومصارعته في مواقفِ خوفِه وقلقِه.

وقلتَ للغرندوق الروسيّ: ليس من العدلِ أن تملكَ وحدَك - وأنتَ نائمٌ في سريرِك، بين

---

(١) الكنانة: الجعبة. (٢) الإكار: الفلاح.

روضِك ونسيمِك وظلّك ومائِك - هذه الأرضَ التي تضمُّ بين أقطارِها مليون فدانٍ، ولا يملكُ واحدٌ من هؤلاءِ الملايين - الذين يفلحونها ويحرثُونها، ويبذرون بذورَها ويستنبتون نباتَها، ويسوقون ماشيتَها، ويتقلّبون بين حرِّها وبردِها وأجيجِها وثلجِها - شبرًا واحدًا فيها، فاعرفْ لهم حقّهم، وأحسنِ القسمةَ بينك وبينهم، وأشعرْ قلبَك الخجلَ من منظرِ شقائِهم في سبيلِ سعادتِك، وموتِهم في سبيلِ حياتِك، واعلمْ أنّ الأرضَ للهِ يورثُها من يشاءُ.

ثمّ لم تقنعْ بما بذلتَ له من العظةِ والنصيحةِ حتى ضربتَ له مثلًا من نفسِك، فعمدْتَ إلى أرضِك، فجعلتَها قسمةً بينك وبن القائمين عليها من الزّارعين، ثم عمدْتَ إلى فأسِك فحملتَها، وماشيتِك، فأخذتَ بزمامِها، ولم تزلْ سائرًا حتّى بلغتَ مزرعتَك الصغيرةَ التي استبقيتَها لنفسِك، فضربتَ مع الضاربين، وخضتَ مع الخائضين! لتعلّمَ ذلك الجبارَ بفعلِك ما لم تستطعْ أن تعلّمَه إيّاه بقولِك، فسخرَ منك، ورثَى لعقلِك، وألّفَ من أحاديثِك روايةً غريبةً يروّح بها عن نفسِه - في مجتمعات أنسِه ولهوِه - وما يساورُه من السآمةِ والضجرِ.

وقلت للكاهن: إنّ المسيحَ عاشَ معذّبًا مضطهدًا، لأنّه لم يرضَ أنْ يقرَّ الظالمين على ظلمِهم، وإنّه أبَى أن يخفيَ المصباحَ الذي في يدِه تحت ثوبِه، بل رفعَه فوقَ رأسِه غيرَ مبالٍ بنقمةِ الملوكِ على ذلك النورِ الذي يكشفُ سوآتهم، ويهتكُ أستارَهم، وأنت تزعمُ أنّك خليفتُه، وحاملُ أمانتِه، والقائمُ بنشرِ آياتِه، والمترسّمُ مواقعَ أقدامِه في خطواتِه، فما هذه الجلسةُ الذليلةُ التي أراك تجلسُها تحت عروشِ الظالمين؟ وما هذه اليدُ التي تبسطُها إليهم بالمودّةِ والإخاءِ كأنّما تريدُ أن تعقدَ بينك وبينهم عهدًا أن يظلموا ما شاؤوا، ويسلبوا ما أرادوا باسمِك واسمِ الكتابِ الذي تحملُه في يدِك، وما هذه السلطةُ التي تَزْعُمُها لنفسِك أن تُدْخِلَ الجنّةَ من تشاءُ، وتُخْرِجَ منها من تشاءُ؟ وما هذه القصورُ التي تسكنُها، والديباجُ الذي تلبَسُه، والعيشُ الباردُ الذي تنعمُ به؟ وأنت الراهبُ المتبتّلُ الذي كتبَ على نفسِه الانقطاعَ عنِ الدنيا وزخرفِها إلى عبادةِ اللهِ، والانكماشِ في طاعتِه.

ذلك ما قلتَ للكاهنِ، فكان جوابُه أن أرسلَ إليك كتابَ الحِرمان، وهو يعلمُ أنّك لا تعترفُ له بالقدرةِ على إعطاءٍ ولا منعٍ، ولكنّه أرادَ تشويهَ سمعتِك، والغضَّ من كرامتِك، وإغراءَ العامّةِ بِك، فكان ذلك كلَّ ما أفَدتَ من نصيحتِك وعِظَتِك.

وأبكَاكَ منظرُ المنفيّين في سيبيريا، وما يلاقون من صنوفِ العذابِ، ويعالجون من أنواعِ الآلامِ، فصرختَ صرخةً دوّى بها المَلآن الأعلى والأدنى، وقلتَ: أيُّها الناسُ، إنّ الشرّ لا يدفعُ الشرّ، وإنّ الأشقياءَ مرضى، فعالجوهم، ولا تنتقموا منهم، فالتربيةُ الصالحةُ تمحو الجرائمَ، والانتقامُ يلهبُ نارَها، واجعلوا المدارسَ مكانَ السجونِ، والمعلّمين مكانَ السجانين. فلم يسمعْ صرختَك سامعٌ، ولا بكى لبكائك باكٍ، وما زال القضاةُ يحكمون والجندُ يصادرون، والسجّانون يعذّبون، والمسجونون يصرخون.

وأزعجَك منظرُ الدماءِ المتدفّقةِ في معاركِ الحروبِ، وبكاءُ النساءِ المُعْوِلاتِ خلفَ أزواجِهنّ

وأولادِهنّ وإخوتهنّ، وهم سائرون إلى حربٍ لا يعرفون لها مصدرًا ولا موردًا، وقد حملَ بعضُهم لبعضٍ ضغائنَ وسخائمَ[1]، لا سببَ لها إلّا ذلك الوهمُ الذي غرسَه في قلوبِهم قساةُ السياسةِ، فخُيّلَ إليهم أنّهم أعداءُ، وهم أصدقاءُ، فخلعوا ثوبَ الإنسانِ، ولبسوا فروةَ السبعِ، وأنشبَ كلٌّ منهم ظفرَه في صدرِ أخيه كأنّه يفتشُ عن قلبِه لينتزعَه من مكانه، ذلك القلبِ الذي لو شقّ عن سويدائِه، لوجدَ لنفسِه فيه مكانًا عليًّا، لولا جورُ السياسةِ وضلالُها.

فما أغنَى عنك بكاؤُك وحنينُك، ولا أجدَى عليك عويلُك وأنينُك، فالحربُ لم تزلْ باقيةً، ومصانعُ الموتِ لم تكتفِ بما أعدّتْ من المهلكات لمعاركِ الأرضِ، حتّى أصبحَتْ تعدُّ مثلها لمعاركِ السماءِ.

فهنيئًا لك أيُّها الرجلُ العظيمُ، ما اخترتَ لنفسِك من تلك العزلةِ الهادئةِ المطمئنّةِ، لقد نجوْتَ بها من حياةٍ لا سبيلَ للعاقلِ فيها إلّا أنْ يسكتَ، فيهلكَ غيظًا، أو ينطقَ، فيموتَ كمدًا.

ربّما استطاعَ الحكيمُ أنْ يحيلَ الجهلَ عِلْمًا، والظلمةَ نورًا، والسوادَ بياضًا والبحرَ برًّا، والبرّ بحْرًا، وأن يتّخذَ نفقًا في الأرضِ، أو سلّمًا إلى السّماء، ولكنّه لا يستطيعُ أن يحيلَ رذيلةَ المجتمعِ الإنسانيّ فضيلةً، وفسادَه صلاحًا.

ما دامَ الإنسانُ لا ينتهي عن ظلمِ الإنسانِ حتّى يخافَه، وما دام لا يحسنُ إليه إلّا إذا أرادَ أن يتّخذَ عبدًا يعبدُه من دونِ الله، وما دام للأثرةِ هذا السلطانُ الأكبرُ على أفرادِ المجتمعِ، ومن أكبرِ كبارِه إلى أصغرِ صغارِه، فإنسانُ اليومِ هو بعينِه إنسانُ الغاباتِ والأحراشِ بالأمسِ، لا فرقَ بينه وبينه، سوى أنّه قد أوَى اليومَ بشرورِه ومفاسدِه إلى بيتٍ من الزجاجِ يفعلُ فعلاتِه من ورائه، ولكنّ الزجاجَ شفّافٌ لا يكتمُ ما وراءه.

❀ ❀ ❀

وارحمتاه[2]

في ذلك الإقليمِ القاحلِ، في تلك الصحراءِ المُحْرِقةِ طائفةٌ من فقراءِ المسلمين وبائسيهم، لا يملكونَ من الحولِ غيرَ قلوبٍ يملؤها اليقينُ بالله، والثقةُ به، ولا من الحياةِ غيرَ ألسنةٍ تهتُفُ به في صباحِها ومسائِها، وبكورِها وأصائِلها بالدعاءِ إلى الله تعالى أن يتولّى أمرَها، ويسدّدَ خطاها، وييسّرَ لها السبيلَ إلى الخلاصِ من عدوِّها القاهرِ الذي نزلَ بها في دارِ أمنِها وسكونِها نزولَ القضاءِ النّافذِ، يريدُ أن يسلبَها ما أبقتِ الأيّامُ في يدِها؛ وما أبقتْ في يدِها سوى لُقَيْمَاتٍ غيرِ سائغةٍ، وجرعاتٍ غيرِ هنيئةٍ، وظلٍّ غيرِ ظليلٍ.

وَارَحْمَتَاه لجماعةِ المسلمين في طرابلسَ! إنّهم عاجزون عن أن يعدّوا لعدوِّهم الزّاحفِ

(١) السخائم: ج السخيمة. وهي الحقد.

(٢) كتبت أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب.

عليهم بقنابِله وقذائفِه غيرَ أجسام ستصبحُ عمّا قليلٍ أشلاءً مبعثرةً تحت كلّ كوكبٍ، وقلوبٍ لا تزالُ تنبضُ حتّى تسمعَ طلقاتِ المدافعِ والبنادقِ فتسكنَ، وأرواحٍ ستطيرُ في آفاقِ السماءِ طيرانَ ذلك الدخانِ في أجوازِ الفضاءِ.

وارحْمَتَاه لهم! إنّهم يستغيثون، فلا يجدون مُغيثًا، ويستصرخون، فلا يسمعون مُجيبًا، وقد تقطّعتْ بهم الأسبابُ، وأعوزَتْهمُ الوسائلُ، وسُدَّتْ في وجوهِهم السبُلُ، فلا يبقى لهم منها إلّا سبيلُ الموتِ، وفي الموتِ راحةُ البائسين والمنكوبين من شقاءِ الحياةِ وبلائِها، لولا أنّهم يتركون مِن بَعْدِهِم بين يدي ذلك العدوِّ الظالم أراملَ ضعفاءَ، وأيتامًا صغارًا، وشيوخًا كبارًا، لا يعلمون ماذا أضمرَ لهم القَدَرُ في صدرِه من نعيمٍ أو شقاءٍ.

كأنّي أراهم وقد غلَتْ في صدورِهم حميّةُ الدينِ والوطنِ، ودارَتْ في رؤوسِهم سكرةُ العزّةِ العربيّةِ، فأبوا إلّا أنْ يزحفوا إلى الموتِ الأحمرِ زحفَ المستقتلِ المستبسلِ الذي يعلمُ أنّ بابَ الحياةِ السعيدةِ الأبديّةِ لا يفتحُ إلّا بين يدي الأرواحِ التي احتقرَتْ أجسادَها وازدرَتْها، فتجرّدَتْ من أثوابِها الرَّثّةِ الباليةِ وألقَتْها من ورائها. وكأنّي أرى الرجلَ منهم، وقد دخلَ إلى بيتِه ليعدَّ عدّتَه، ويودّعَ أهلَه الوداعَ الأخيرَ، فبكت أمّه، وناحَتْ زوجُه، وصاحَ ولدُه، فبكى لبكائهم، ورنّ لرنينهم، لا جزعًا من الفراقِ، لأنّه فراقٌ يعزّيه عنه لقاءُ الله تعالى، ولا خَشْيَةً من الموتِ، لأنّه يعلمُ أنّ الحياةَ الذليلةَ أحقرُ من أن يضنَّ بها صاحبُها، بل مخافةَ أن تستبدَّ بأعراضِ بيتِه وحُرُماتِه، تلك الأيدي الظالمةُ التي لا ترحمُ صغيرًا، ولا تعطفُ على كبيرٍ، أو أن يهلكوا من بعده جوعًا وفقرًا، لأنّه لم يتركْ لهم قوتًا يتبلّغون به، ولا عمادًا يعتمدون عليه.

فإذا علم أنّ موقفَه بين أهلِه موقفٌ جللٌ يكادُ يغلبُ فيه على صبرِه، نظرَ نظرةً في السماءِ أرسلَ فيها إلى ربّه جميعَ ما تهتِف به نفسُه القريحةُ من وجدٍ ورحمةٍ وبكاءٍ وحنينٍ، وأملٍ ورجاءٍ، ثمّ انفتلَ من بين أيديهم، ومضَى لسبيله لا يَلوي على شيءٍ ممّا وراءه، حتى يبلغَ ساحةَ الحربِ، فلا يزالُ يقرعُ باب الحياةِ الأخرى حتّى يُفتَح له.

هنالك تنوحُ النائحاتُ، وتبكي الباكياتُ، وتطيرُ النفوسُ، وتصعقُ القلوبُ، وترنّ المنازلُ والدورُ بالنحيبِ والتَّعدادِ، وهنالك ترى المرأةَ المسلمةَ المخبّأةَ التي لم ترَ في حياتِها وجهَ الشمسِ إلّا من كوّةِ بيتِها برزةَ الوجهِ، عاريةَ الرأسِ، حيرَى مولهةً هائمةً في الطرقِ والمذاهبِ، تسائلُ الغادينَ والرائحين ما فعلَ اللهُ بولدِها أو زوجِها أو أخيها، فإمّا بقيتْ في حَيْرتِها بياضَ يومِها، وسوادَ ليلِها، وإمّا عادَتْ إلى بيتِها بالثقلِ القاتلِ، والحزنِ الدائم.

وهنالك ترى الشيوخَ الكبارَ والأطفالَ الصغارَ، والعاجزين والضعفاءَ لائذين بالتلالِ والآكامِ، يحاولون أن يتّقوا بها صواعقَ الحربِ وشهُبَها، فلا تقيهم، أو عائذين بالمضايقِ والشعابِ يفرّون إليها من وجوهِ الخيلِ وسنابِكها[١] فلا تحميهم.

---

(١) سنابك الخيل: رؤوس حوافرها.

وهناك ترى أولئك القومَ الذين يسمون أنفسَهم مجاهدين، أو فاتحين، أو قوَّادًا عظامًا، أو سواسًا كبارًا، يمشون بين بيوتِ المسلمين ومجامعِهم مشيةَ الفرحِ المختالِ، وينظرون إلى أولئك المساكين الذين سرقوا حريّتَهم واستقلالَهم، وانتهبُوا أرواحَهم وأموالَهم، نظرَ السيّدِ إلى مولاه الذي ملكَ ولاءه بمالِه، واستعبدَه بفضلِه وإحسانِه، وربّما رموا إليهم في تلك الساعةِ بلُقَيْمَاتٍ كتلك التي يُلقيها سيّدُ الكلبِ إلى كلبِه، أو الراعي إلى ماشيتِه، ليُشهدوا العالَمَ الإنسانيَّ أجمعَه على كرمِهم وسخائِهم، وعطفِهم ورحمتِهم، وأنّهم ما سفكوا الدماءَ، ولا قطّعوا الأوصالَ، ولا أيّمُوا النساء[1]، ولا يتّمُوا الأطفال[2]، ولا انتهكُوا الحرماتِ إلّا خدمةً للإنسانيّةِ العامّة وإجلالًا لشأنِها.

لا أحسبُ أنّ مسلمًا دخلَ الإيمانُ قلبَه فملأه رحمةً وإحسانًا، وعطفًا وحنانًا، يستطيعُ أن يتّخذَ لجنبه في ظلمةِ الليلِ مضجعًا، أو يجدَ لنفسِه في ضحوةِ النهارِ قرارًا، حزنًا على هؤلاءِ المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارقِ الأرضِ، ومغاربِها يلتمسون ناصرًا يعينُهم على أمرِهم، أو مُنجدًا يدفعُ عنهم عاديةَ البلاءِ، فلا يجدُون إلّا أمَمًا إسلاميّةً قد أصابَها مثلُ ما أصابَهم من قبل، فهي تعجزُ عن النظرِ لنفسِها، فأحرى ألّا تنظرَ لغيرها، فلم يبقَ بين أيديهم من الأملِ إلّا تلك الرحمةُ التي يعتقدون أنّها باقيةٌ لهم في قلوبِ الأفرادِ من إخوانِهم المسلمين أن يمدّوهم بقليلٍ من القوتِ يستعينون به على جهادِ عدوّهم، ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضوّرون جوعًا من بعدهم.

أيّها المسلمون:

إنّكم لن تجدُوا بعدَ اليوم موقفًا هو أقربُ إلى اللهِ، وأدنى إلى رحمتِه وإحسانِه، وأجلبُ لمغفرتِه ورضوانِه، من موقفِكم أمامَ هؤلاءِ الضعفاءِ المساكين، تُطعمون جائعَهم، وتكسون عاريَهم، وتسلّحون أعزلَهم، وتعالجون جريحَهم، وتخلفون قتيلَهم في أهلِه وولدِه.

إنّكم إنْ تُحسِنوا إليهم، تحسنوا إلى أنفسِكم، وإنْ تُنقِذُوهم من كربتِهم، تنقذوا جامعتَكم وملّتكم، فإنّ بينكم وبينهم لحمةً أقوى من لحمةِ النسبِ، ووشيجةً أوثقُ من وشيجةِ القربى، وإنّكم جميعًا تصلّون إلى قبلةٍ واحدةٍ، وتهتفون في الغَداةِ والعَشيِّ بذكرٍ واحدٍ، وتتوجّهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم إلى إله واحدٍ، وتقفون في بيتِ الله بين حرمِه والمقامِ موقفًا واحدًا.

أيّها المسلمون:

إنّكم إنِ اجتمعتُمُ اليومَ، فلن تفترقوا غدًا، وإن هُديتُم لرشدِكم في موقفِكم هذا لن تضلّوا من بعده أبدًا، وإنّكم إنْ قدّمتُمْ بين أيديكم هذا العملَ الصالحَ، أحسنَ اللهُ جزاءكم، وأعانَكم على أمركم، ووفى لكم بما وعدَكم من نصرِه ومعونتِه، و﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

❀ ❀ ❀

---

(١) أيّموا النساء: جعلوهنّ دون أزواج. (٢) يتّموا الأطفال: جعلوهم دون آباء.

خطبة الحرب

يا أبطالَ برقةَ[١]، وليوثَ طرابلسَ، وحُماةَ الثُّغورِ، وذادةَ المعاقلِ والحصونِ، صبرًا قليلًا في مجالِ الموتِ، فها هي نجمةُ النصرِ تلمعُ في آفاقِ السماءِ، فاستنيروا بنورِها، واهتدُوا بهَدْيِها حتّى يفتحَ اللهُ عليكم.

إنَّ اللهَ وعدَكم النصرَ، ووعدتموه الصبرَ، فأنجِزُوا وعدَكم ينجزْ لكم وعدَه.

لا تحدّثوا أنفسَكم بالفرارِ، فواللهِ إنْ فررتُمْ لا تفرّون إلّا عن عِرضٍ لا يجدُ له حاميًا، وشرفٍ لا يجدُ له ذائدًا، ودينٍ يشكو إلى اللهِ قومًا أضاعوه، وأنصارًا خَذَلُوه.

إنّكم لا تحاربون رجالًا أشدّاءَ، بل أشباحًا تتراءَى في ظلالِ الأساطيلِ، وخيالاتٍ تلوذُ بأكنافِ الأسوارِ والجدرانِ، فاحمِلوا عليها حملةً صادقةً تطيرُ بما بقيَ من ألبابها، فلا يجدُون لبنادِقهم كفًّا، ولا لأسيافِهم ساعِدًا.

إنّهم يطلبون الحياةَ، وأنتم تطلبون الموتَ، ويطلبون القوتَ، وتطلبون الشرفَ، ويطلبون غنيمةً يملأون بها فراغَ بطونِهم، وتطلبُون جنّةً عَرضُها السمواتُ والأرضُ، فلا تجزعوا من لقائِهم، فالموتُ لا يكونُ مرَّ المذاقِ في أفواهِ المؤمنين.

إنّكم تعتمدون على اللهِ، وتثقون بعدلِه ورحمتِه، فتقدّموا إلى الموتِ غيرَ شاكين ولا مرتابين، فما كان اللهُ ليخذلَكم، ويكلَكم إلى أنفسِكم، وأنتم من القومِ الصادقين.

إنّ هذه القطراتِ من الدماءِ التي تسيلُ من أجسامِكم، ستستحيلُ غدًا إلى شهبٍ ناريةٍ حمراءَ تهوي فوق رؤوسِ أعدائكم فتحرقُهم؛ وإنّ هذه الأنّاتِ المتصاعدةَ من صدورِكم ليستْ إلّا أنفاسَ الدماءِ صاعدةً إلى إلٰه السماءِ أنْ يأخذَ لكم بحقّكم ويُعديكم على عدوِّكم، واللهُ سميعُ الدعاءِ.

إنّ أعداءَكم قتلوا أطفالَكم، وبقَرُوا بطونَ نسائِكم، وأخذُوا بلحَى شيوخِكم الأجلّاءِ، فساقوهم إلى حفائرِ الموتِ سوقًا، فماذا تنتظرون بأنفسِكم؟

أجلبوا عليهم بخيلِكم ورجلِكم وأصدقوا حملتَكم عليهم، وجعجعُوا بهم، واقتلوهم حيث ثقفتُموهم[٢]، واطْلبُوهم بكلِّ سبيلٍ، وفوقَ كلِّ أرضٍ، وتحت كلِّ سماءٍ، وأزعِجُوهم حتّى عن طعامِهم وشرابِهِمْ، ويقظتِهم ومنامِهم، فما أعذبَ الموتَ في سبيلِ تنغيصِ الظالمين!

احفروا لأنفسِكم بسيوفِكم قبورًا، فالقبرُ الذي يُحْفَرُ بالسيفِ لا يكونُ حفرةً من حُفَرِ النارِ.

لا تطلبوا المنزلةَ بين المنزلتَيْن، ولا الواسطةَ بين الطرفَيْن، ولا العيشَ الذي هو الموتُ أشبهُ منه بالحياةِ، بلِ اطلبُوا إمّا الحياةَ أبدًا، وإمّا الموتَ أبدًا.

---

(١) برقة: المنطقة الشرقية من ليبيا.

(٢) ثقفه: أدركه ووصل إليه.

غدًا ينتهكُ أعداؤكم حرمةَ أرضِكم وديارِكم؛ ويملكون عليكم نساءكم وأولادَكم، ويطأون بحوافرِ خيولِهم مساجدَكم ومعابدَكم، وينظمون في ثقوبِ آنافِكم مقاودَ يقودونكم بها إلى مواقفِ الذلِّ والهوانِ؛ كما تقادُ الإبلُ المخشومةُ إلى معاطنِها[1]، فافتدوا أنفسَكم من هذا المصيرِ المُهين بجولةٍ تجولونها في سبيل اللهِ، ثم تموتون موتَ الجبانِ في حياتِه وحياةَ الشجاعِ في موتِه، فموتوا لتعيشُوا، فواللهِ، ما عاشَ ذليلٌ، ولا ماتَ كريمٌ.

إنّ هذه الأساطيلَ الرابضةَ على شواطئكم، والمدافعَ الفاغرةَ أفواهَها إليكم والبنادقَ المسدّدَة إلى صدوركم ونحورِكم، لا يمكنُ أن يتألّفَ منها سورٌ منيعٌ يعترضُ سبيلَكم في رحلتِكم من هذه الدارِ إلى تلك الدارِ؛ فسيروا في طريقِكم إلى آخرتِكم، فإنّ الأعداءَ إن ملكوا عليكم طريقَ الحياةِ، لا يملكون عليم طريقَ الموتِ.

المستميتُ لا يموتُ، والمستقتلُ لا يُقْتَلُ، ومن يهلكُ في الإدبارِ أكثرُ ممّنْ يهلكُ في الإقدامِ، فإن كنتم لا بدَّ تطلبون الحياةَ، فانْتزِعُوها من بين ماضِغي الموتِ.

إنّ كتّابَ التاريخِ قد علّقوا أقلامَهم بين أناملِهم، ووضعُوا صحائفَهم بين أيديهم، وانتظروا ماذا تملُون عليهم من حسناتٍ أو سيّئاتٍ، فأملُوا عليهم من أعمالِكم ما يتركُ في نفوسهم مثلَ ذلك الأثرِ الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائفُ البيضاءُ التي سجّلَها التاريخُ لأولئك الأبطالِ العظام.

موتُوا اليوم أعزاءَ قبل أن تموتوا غدًا أذلّاءَ.

موتوا قبل أن تطلبوا الموتَ فيعوزَكم، وتنشدوه فيعجزَكم.

موتوا اليومَ شهداءَ في ساحةِ الحربِ تكفّنُكم ثيابُكم، وتغسلُكم دماؤكم، وتصلّي عليكم ملائكةُ الرحمن قبلَ أن يسبقَ قضاءُ اللهِ إليكمْ، فيموتَ أحدُكم، فلا يجدُ بجانبه مسلمًا يصلّي عليه صلاةَ الجنازةِ، ثم يمشي وراء نعشِه إلى قبرِه حتّى يودِعَه حفرتَه، ويخلي بينه وبين ربِّه.

إنّ الشيخَين أبا بكر[2] وعمر[3]، والفارسَيْن خالدًا[4] وعليًا[5]، والأسدَيْن حمزة[6] والزبير[7]،

---

(١) المعاطن: ج المعطن، وهو المبرك او المربض.

(٢) هو أبو بكر الصديق (١٣٥هـ./٦٣٤م.) أوّل الخلفاء الراشدين، ووالد عائشة زوج النبيّ (ﷺ).

(٣) هو عمر بن الخطاب (ت٢٣هـ./٦٤٤م.) ثاني الخلفاء الراشدين وأوّل من لقب بـ«أمير المؤمنين»، اشتهر بعدله.

(٤) هو خالد بن الوليد (ت٢١هـ./٦٤٢م.) من القواد المشهورين في عصر صدر الإسلام، لقّبه النبيّ بـ«سيف من سيوف الله». قاد معركة اليرموك وانتصر فيها على الإفرنج.

(٥) هو عليّ بن أبي طالب (ت٤٠هـ./٦٦١م.) رابع الخلفاء الراشدين، وربيب النبيّ (ﷺ) وابن عمّه وصهره على ابنته فاطمة.

(٦) هو حمزة بن عبد المطلب (ت٣هـ./٦٢٥م.) عمّ النبيّ (ﷺ) من سادات قريش في الجاهلية وصدر الإسلام.

(٧) هو الزبير بن العوّام (ت٣٦هـ./٦٥٦م.) ابن عمّه النبيّ (ﷺ) قاتل مع النبيّ (ﷺ) في معظم غزواته.

والفاتحَيْن سعدًا[١] وأبا عبيدة[٢]، والبطلَيْن طارق بن زياد[٣] وعقبة بن نافع[٤] وجميعَ حماةِ الإسلامِ وذادتَه، من السابقينَ الأولين والمجاهدين الصابرين، يشرفون عليكم اليوم من علياءِ السماء، لينظروا ماذا تصنعون بميراثِهم الذي تركُوه في أيديكم، فامضُوا لسبيلِكم، واهتكُوا بأسيافِكم حجابَ الموتِ القائم بينكم وبينهم، وقولوا لهم إنّا بكم لاحقون، وإنّا على آثارِكم لمهتدون.

إنَّ هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلّموا أعناقَكم إلى أعدائكم، فإنّكم إنْ فعلتم، لن يعبدَ اللهُ بعدَ اليوم على ظهر الأرض أبدًا.

❊ ❊ ❊

الإنسانيَّة العامة

الجامعةُ الإنسانيّةُ هي الكليّةُ العامةُ التي يلجأُ إلى كنفِها هذا المجتمعُ الإنسانيُّ كلّما أزمَتْه أزمةٌ، أو نزلَتْ به نازلةٌ، وهي المطلعُ الذي تشرقُ منه شمسُ الرحمةِ الإلهيّةِ على هذا الكونِ، فتنيرُ ظلماءه، وتكشفُ غمّاءه، وهي الحكمُ العدلُ الذي يفصلُ في قضايا المجتمعاتِ البشريّةِ حين تنفصمُ عُرْوَتُها، ويدبُّ دبيبَ العداوةِ والبغضاءِ بين أحيائِها، وهي السلطانُ المطلقُ الذي يجلسُ على كرسيّ عظمتِهِ وجلالِه، فتخرُّ له الجباهُ سجّدًا، وتبتدرُ يدَيْه الأفواهُ لثمًا وتقبيلًا.

الجامعةُ الإنسانيّةُ هي الجامعةُ الأساسيّةُ الثابتةُ التي رأتْ طينةَ آدمَ أوّلًا، وسترَى نفخَةَ إسرافيلَ[٥] آخرًا والتي تسيرُ مع الإنسانِ حيث سارَ في برّه وبحرِه، وسهلِه وحزْنِه[٦]، وحياتِه وموتِه، وتدورُ معه حيث دارَ في إيمانِه وكفرِه وصلاحِه وفسادِه، واستقامتِه، واعوجاجِه، لا يتغيّرُ لونُها، ولا يتحوّلُ ظلُّها، ولا تستحيلُ مادّتُها، ولا تبلَى جدّتُها على كرّ الليالي ومرّ الأيامِ.

ما من جامعةٍ من الجامعاتِ القوميّةِ، أو الجنسيّةِ، أو الدينيّةِ، أو العائليّةِ إلّا وهي تعتمدُ

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص (ت٥٥هـ./٦٧٥م.) أحدُ العشرة المبشرين بالجنّة وكان راميًا ماهرًا اشترك في موقعة اليرموك مع خالد بن الوليد.

(٢) هو أبو عبيدة بن الجراح (ت١٨هـ./٦٣٩م.) لقّبه الرسول بـ«أمين الأمّة» كان داهية وعادلًا تولّى =القيادة العامّة لجيوش فتوح الشام بعهدي أبي بكر وعمر بن الخطاب.

(٣) طارق بن زياد (ت١٠٢هـ./٧٢٠م.) قائد عربي أصله من البربر. فتح الأندلس بأمرة موسى بن نصير.

(٤) عقبة بن نافع (ت٦٣هـ./٦٨٣م.) من كبار القادة المسلمين، وابن أخت عمرو بن العاص، بنى القيروان، وغزا شمالي أفريقيا.

(٥) إسرافيل: من الملائكة، وهو أوّل من سجد لآدم أوكله الله النفخ في الصور يوم القيامة.

(٦) الحزن: الأرض الغليظة.

على الجامعةِ الإنسانيّةِ في سيرِها، وتستظلُّ بظلِّها، وتهتدي بهَدْيِها، فالمجاهدُ الوطنيُّ يقولُ: إنّي أُدافعُ عن وطني، وأحمي حوزتَه، وأقومُ على ثغورِه وعوراتِه مقامَ الذائدِ المناضلِ، لأنّي أعتقدُ أنّي إنْ أغفلتُ ذلك، وأغفلَه في وطنِه كلُّ مضطلعٍ[1] بمثلِ ما أنا مضطلعٌ به في وطني، تساقطتِ الحواجزُ القائمةُ في وجهِ المطامعِ البشريّةِ؛ فجرَى سيلُها متدفّعًا لا يقومُ له شيءٌ حتى يأتي عليه. والمجاهدُ الدينيّ يقولُ: إنّي أعتقدُ أنّ الإنسانيّة لا تزال معذّبةً يأكلُ قويُّها ضعيفَها، ويغتالُ كبيرُها صغيرَها؛ ويستضعفُ حاكمُها محكومَها، حتّى تدينَ بالدين الذي أدينُ به، فأنا إنْ حاربتُ البلادَ، وقاتلتُ العبادَ، فإنّما أريدُ بخوضِ هذا البحرِ الأحمرِ من الدماءِ أنْ أصلَ إلى سفينةِ الإنسانيّةِ المشرفةِ على الغرقِ، فأستخلصَها من يدِ الموتِ الذي يحيطُ بها.

هكذا يقولُ دعاةُ الدّينِ ودعاةُ الوطنِ، ودعاةُ كلِّ جامعةٍ، وهكذا يجبُ أن يقولوا، فإن لم يفعلوا، وأبوا إلّا أنْ يغفلُوا ذكرَ الجامعةِ الإنسانيّةِ في دعائهم إلى جامعاتهم التي يدعون إليها، فَسَدَ عليهم أمرُهم في كلِّ ما يقولون وما يفعلون.

ليس لصاحبِ وطنٍ من الأوطانِ، أو صاحبِ دينٍ من الأديانِ أن يقولَ لغيرِه ممّنْ يسكنُ وطنًا غيرَ وطنِه، أو يدينُ بدينٍ غيرِ دينه: أنا غيرُك، فيجبُ أن أكونَ عدوَّك، لأنّ الإنسانيّةَ وحدةٌ لا تَكَثُّرَ فيها ولا غيريّةٌ، ولأنّ هذه الفروقَ التي توجدُ بين الناسِ في آرائهم ومذاهبهم، ومواطنِ إقامتهم وألوانِ أجسادِهم، وأطوالِهم وأعراضِهم، إنّما هي اعتباراتٌ ومصطلحاتٌ، أو مصادفاتٌ واتّفاقاتٌ، تعرضُ لجوهرِ الإنسانيّةِ بعد تكوينِه واستتمامِ خلقِه، وتتواردُ عليه تواردَ الأعراضِ على الأجسامِ.

ففي كلِّ بلدٍ، وفي كلِّ عصرٍ يستعجمُ العربيّ ويستعربُ الأعجميّ، ويسلمُ المسيحيّ ويتمسّحُ المسلمُ، ويلحدُ المؤمنُ ويؤمنُ الجاحدُ، ويستشرقُ المغربيُّ، ويستغربُ المشرقيُّ، ولو شئتُ أن أقولَ، لقلتُ إنّه لا يوجدُ فوقَ رقعةِ الأرضِ من لا يزالُ يمسُكُ حتّى اليومِ بطرفِ سلسلةٍ، ينتهي طرفُها الآخر بوطنٍ غيرِ وطنِه، ودينٍ غيرِ دينِه، وأمّةٍ غيرِ أمّتِه.

إذا جازَ لكلِّ إقليمٍ أن يتنكّرَ لغيرِهِ من الأقاليم، جاز لكلِّ بلدٍ أن يتنكّرَ لغيرِه من البلادِ، بل جازَ لكلِّ بيتٍ أن ينظُرَ تلك النظرةَ الشزراءَ إلى البيتِ الذي يجاورُه، بل جازَ للأبِ أن يقولَ لولدِه، وللولدِ أن يقولَ لأبيه: إليك عنّي، لا تمدَّ عينيك إلى شيءٍ ممّا في يدي، ولا تطمعْ أن أُوثِرَك على نفسي بشيءٍ ممّا اختصصْتُك به، لأنّني غيرُك، فيجبُ أن أكونَ عدوَّك المحاربَ لك. وهناك تنحلُّ كلُّ عقدةٍ، وتنفصمُ كلُّ عروةٍ، ويحملُ كلُّ إنسانٍ لأخيه بين أضلاعِه من لواعجِ البغضِ والمقتِ ما يرنّقُ عيشَه[2]، ويطيلُ سهدَه، ويقلقُ مضجَعه ويحبّبُ إليه صورةَ الموتِ، ويبغّضُ إليه وجهَ الحياةِ، وهنالك يصبحُ الإنسانُ أَشْبَهَ شيءٍ بذلك الإنسانِ الأولِ في وحشتِه وانفرادِه، يقلّبُ وجهَه في آفاقِ السماءِ، وينبشُ بيديه طبقاتِ الأرضِ، فلا يجدُ له في الوحشةِ مؤنسًا، ولا على الهمومِ معينًا.

---

(١) المضطلع: الناهض بالأمر، والقائم به. (٢) رنّق عيشه: كدّره.

الجامعةُ الإنسانيّةُ أقربُ الجامعاتِ إلى قلبِ الإنسانِ، وأعلقُها بفؤاده، وألصقُها بنفسِه، لأنّه يبكي لمصابِ من لا يعرفُ - وإن كان ذلك المصابُ تاريخًا من التواريخِ، أو أسطورةً من الأساطير - ولأنّه لا يرى غريقًا يتخبّطُ في الماء، أو حريقًا يتلظّى في النارِ، حتى تحدّثَه نفسُه بالمخاطرةِ في سبيلِه، فيقفُ وِقْفَةَ الحزينِ المتلهّفِ إنْ كان ضعيفًا، ويندفعُ اندفاعَ الشجاع المستقتلِ إنْ كان قويًّا، ويسمعُ وهو بالمشرقِ حديثَ النّكباتِ بالمغربِ فيخفقُ قلبُه، وتطيرُ نفسُه، لأنّه يعلمُ أنّ أولئك المنكوبين إخوانُه في الإنسانيّةِ، وإنْ لم يكنْ بينَه وبينهم صِلَةٌ في أمرٍ سواها، ولولا أنّ ستارًا من الجهلِ والعصبيّةِ يسبلُه كلَّ يوم غلاةُ الوطنيةِ والدينِ أو تجّارُهما على قلوبِ الضعفاءِ السذّجِ، لما عاشَ منكوبٌ في هذه الحياةِ بلا راحمٍ ولا ضعيفٌ بلا معين.

لا بأسَ بالفكرةِ الوطنيّةِ، ولا بأسَ بالحميّةِ الدينيّةِ، ولا بأسَ بالعصبيّةِ لهما، والذَّودِ عنهما، ولكن يجبُ أن يكونَ ذلك في سبيلِ الإنسانيّةِ وتحت ظلالِها، أي أن تكونَ دوائرُ الجامعاتِ كلُّها داخلةً في دائرةِ الإنسانيّةِ العامّةِ غيرَ خارجةٍ عنها، والوطنيّةُ لا تزالُ عملًا من الأعمالِ الشريفةِ المقدّسةِ حتى تخرجَ عن حدودِ الإنسانيّةِ، فإذا هي خيالاتٌ باطلةٌ، وأوهامٌ كاذبةٌ، والدينُ لا يزالُ غريزةً من غرائزِ الخيرِ المؤثرةِ في صلاحِ النفوسِ وهداها حتى يتمرّدَ على الإنسانيّةِ وينابذَها، فإذا هو شعبةٌ من شعبِ الجنونِ.

فإن كانَ لا بدَّ للإنسانِ من أن يحاربَ أخاه أو يقاتلَه، فليحاربْه مدافعًا لا مهاجمًا، وليقاتلْه مؤدّبًا لا منتقمًا، وليكن موقفُه أمامَه في جميعِ ذلك موقفَ العادلِ المنصفِ، والشفيقِ الرحيم، فيدفنَهُ قتيلًا، ويعالجُه جريحًا، ويكرمُه أسيرًا، ويخلفُه على أهلِه وولدِه بأفضلِ ما يخلفُ الرجلُ الكريمُ أخاه الشقيقَ على ولدِه من بعده، وليكنْ شأنه معه شأنَ تلك الفئةِ المتحاربةِ التي وصفَها الشاعرُ في قوله:

إذا احْتَرَبَتْ يومًا ففاضَتْ دِمَاؤُها ... تذَكّرَتِ القُرْبَى ففاضَتْ دُمُوعُها

❋ ❋ ❋

أدوار الشعر العربي

كانتِ العربُ في جاهليَّتِها أمّةً هائمةً متبدّيةً على الفطرةِ النقيّةِ البيضاءِ، لا تعبثُ الحضارةُ بجمالِها، ولا تعبثُ المدنيّةُ في صورتِها، شمسُها في آفاقِها، فتنبسطُ أشعّتُها على سهولِها وحزونِها ونجادِها ووهادِها، من حيث لا يعترضُ سبيلَها من الظلِّ سحبٌ، ولا من السقوفِ حجبٌ، وينبتُ نباتُها حيث يجري ماؤها، لا تعبثُ فيه الأيدي بتربيعٍ ولا تدويرٍ، ولا تقويسٍ ولا تعريجٍ، ويجري ماؤها في سبيلِه حيث ينسابُ به تسلسلُه واطّرادُه، لا تُلوي به عن قصدِه الحفائرُ، ولا تنتصبُ في وجهِه القناطرُ، ويهيمُ وحشُها في جبالها؛ وطيرُها في أجوائِها من

حيث لا يحبسُ الأولَ عرينٌ موصودٌ، ولا الآخرَ قفصٌ محدودٌ، والشعرُ من وراء ذلك كلِّه مرآةٌ صافيةٌ تتمثّلُ فيها تلك المناظرُ الفطريّةُ على طبيعتِها وفطرتِها.

ينطقُ العربيّ بما يعلمُ، ويقولُ ما يفهمُ، ويصوّرُ ما يرى، ويحدّثُ عمّا تمثّلَ في نفسِه حديثًا صادقًا لا تكلّفَ فيه ولا تعمّلَ، لأنّ كلَّ ما هو محيطٌ به من هواءٍ وماءٍ وأرضٍ وسماءٍ، وطعامٍ وشرابٍ، ومرافقَ وأدواتٍ، على الفطرةِ السّليمةِ الخاصّةِ، فأحرى أن يكونَ شعرُه كذلك.

ذلك كان شأنَ الشعرِ العربيّ والعربُ على فطرتهم، وذلك معنى قولهم: الشعرُ ديوانُ العربِ؛ لأنّه صورةُ حياتهم الاجتماعيّةِ والأدبيّةِ، ومثالُ خواطِرهم الحقيقيّةِ والخياليّةِ، فإن ظنّ ظانٌّ أنّ التماثيلَ والنصبَ والصورَ والتهاويلَ، وبقايا الآثارِ، وقطعَ الأحجارِ التي نراها في خرائبِ اليونانِ والرومانِ، والفينيقيّين والفراعنةِ، أدلُّ على تواريخِ أولئك الأقوام من الشعرِ العربيّ على تاريخِ العربِ، قلْنا له: ما من ديوانٍ من دواوينِ الأممِ الماضيةِ إلا وقد تحدّثَ المؤرخون بعبثِ الأيدي به ولعبِها بسطورِه وسجلّاتِه، أمّا الديوانُ العربيّ فصورةٌ صحيحةٌ وآيةٌ ثابتةٌ، لا تغييرَ فيها ولا تبديلَ.

ثم جرَتْ بعد ذلك جوارٍ بالسّعدِ والنّحسِ؛ فانتقلتِ الأمّةُ العربيّةُ من بداوتِها إلى حضارتِها، وهاجرَ معها شعرُها بهجرتِها؛ فطلعَ جيشُ المولّدين يحملُ لواءه الشاعران الجليلان، بشّار[1]، وأبو نُواس[2]، فطرقوا معانيَ لم تكن مطروقةً، ونهجُوا مناهجَ لم تكن معروفةً، فقلنا لا بأسَ، فالشعرُ العربيُّ أوسعُ من أن يضيقَ بحاجاتِ أمّتهِ وضروراتِها، في جميعِ شؤونِها وحالاتِها، حتّى جاء أبو تمّام[3] شيخُ الصناعةِ اللّفظيّةِ، فسلك إلى كثيرٍ من معانيه البديعةِ طريقَ اللفظِ المصنوعِ والأسلوبِ المتكلّفِ، فثغرَ في الشعرِ العربي ثغرةً ألحَّ عليها السّائرون على أثرِه من بعدِه بأظفارِهم وأنيابِهم حتى صيّروها فُوّهةً واسعةً لا تمنعُ ما وراءها، ولا تدفعُ ما أمامها، فأصبحَ الشعرُ على عهدِ ابن حِجّة[4]، وابن الفارض[5]، وابن مليك[6]، والصّفدي[7]، والسّراج[8]،

---

(١) تقدّمت ترجمته.

(٢) هو الحسن بن هانئ (ت١٩٩هـ./٨١٤م.) من كبار الشعراء العباسيين. لقّب بشاعر الخمرة.

(٣) هو حبيب بن اوس الطائي (ت٢٣١هـ./٨٤٥م.) من الشعراء العباسيين، مدح عددًا من الخلفاء العباسيّين ولا سيّما المعتصم.

(٤) هو أبو بكر بن علي بن عبدالله الحموي (ت١٣٦٦هـ/١٤٣٣م) شاعر وأديب. وُلد ونشأ وتوفي في حماه في سوريا له مؤلفات كثيرة، منها «خزانة الأدب»، و«ثمرات الأوراق».

(٥) هو عمر بن علي (ت٦٣٣هـ./١٢٣٥م.) متصوّف، من مفكّري الإسلام. له ديوان أشهر ما فيه تائيته الكبرى التي عرفت بـ «نظم السلوك».

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) هو صلاح الدين خليل (ت٧٦٤هـ./١٣٦٢م.) أديب ومؤرّخ، كثير المؤلفات منها «الوافي بالوفيات».

(٨) هو أبو بكر محمد (ت٣١٨هـ./٩٢٩م.) نحوي أخذ عن المبرّد. له: «شرح كتاب سيبويه».

والورّاق[١]، وأبي الحسن الجزّار[٢]، والصفيّ الحِليّ[٣]، وأمثالِهم، أشبَه شيءٍ بتلك الآنيةِ الصينيّةِ التي يضعُها المترفون في زوايا مجالسِهم وعلى أطرافِ موائدهِم ظهرًا زاهيًا، وبطنًا خاويًا، لا تشفي غلّةً، ولا تبضُّ بقطرةٍ، ولا تسمنُ ولا تغني من جوعٍ، ثم جاءَ على أثرِ هؤلاءِ من تدلّى إلى منزلةٍ أدونَ من هذه المنزلةِ، فجاؤوا بشيءٍ هو أشبهُ الأشياءِ بتلك التفاعيلِ التي وضعَها الخليل[٤] ميزانًا للشعر، لا يروقُ لفظُها، ولا يفهمُ معناها.

وعلى هذا المورد الوبيلِ وقفَ الشعرُ الوبيل؛ وقفَ الشعرُ العربيُّ بضعةَ قرونٍ وقفةً لا يتزحزحُ عنها، ولا يتحلحلُ، حتّى أنزلَ اللهُ إليه من ملائكةِ البيانِ رسلًا في هذا العهدِ الأخيرِ أخذوا بيدِه، ونشروه من قبره ونفضُوا عنه غبارَه، فأصبحْنا نرى في أبرادِ الكثيرِ منهم، أجسامَ امرىء القيس[٥]، والنَّابغة[٦]، ومسلم[٧]، وأبي نواس، وأبي عبادة[٨]، والشريف[٩]، ومهيار[١٠] لا فرق بينهم وبينهم سوى أنّ هؤلاءِ مقلّدون يتبعون الآثارِ وأولئك مبتدعون يفترعون الابكار.



حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيعُ أنْ أتصوّرَ الفرقَ بين رجلٍ يمدُّ يدَه إلى خزانةِ بيتي فيسرقُ مالي، وبين آخرَ يمدُّ لسانَه أو قلمَه إلى شرفي فيستلبُه، كلاهما مجرمٌ فاتكٌ، وكلاهما لصٌّ مغتالٌ، وإن كان أوّلُهما في نظرِ القانونِ، وفي عرفِ الناسِ أكبرَهما إثمًا، وأسوأهما أثرًا.

المالُ خادمٌ من خدّام الشرفِ، وحاجبٌ من حجّابه والوقوفِ عل بابِه، ولولا مكانُ الشرفِ، والكلفُ بصيانتِه، والضنُّ به أنْ يعبثَ بجوهرِه عابثٌ، ما كان لامرىءٍ في هذا المَعْدِنِ

---

(١) هو محمد بن عمر (ت. بعد ٢٤٠هـ./٨٥٤م.) فقيه شافعي غلب عليه التصوف. له: «العالم والمتعلّم».

(٢) هو أبو الحسن يحيى (ت٦٧٤هـ./١٢٧٤م.) شاعر مصري كان له نفوذ عند الصاحب كمال الدين بن العديم.

(٣) هو صفيّ الدين الحلي (ت٧٥١هـ./١٣٤٩م.) شاعر عراقيّ، أغرم بالبديع، وكان أوّل من نظم البديعيات.

(٤) هو الخليل بن أحمد الغراهيدي (ت١٧٠هـ./٧٨٦م.) من أئمّة اللغة والأدب، وواضع علم العروض.

(٥) امرؤ القيس (ت٥٤٠؟) شاعر جاهليّ مشهور، وأوّل من وقف واستوقف وبكى الديار وعرصاتها. لقّب بذي القروح، والملك الضليل.

(٦) هو النابغة الذبياني (٦٠٤؟) من فحول الشعراء الجاهليين مدح الغساسنة والمناذرة. ا شتهر باعتذارياته.

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) هو البحتري وقد تقدّم تخريجه.

(٩) هو الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ./١٠١٦م.) من كبار الشعراء، جمع «نهج البلاغة».

(١٠) هو مهيار الديلمي (ت٤٢٥هـ./١٠٣٧م.) شاعر عراقي تتلمذ للشريف الرضي وأسلم على يديه.

الصّامتِ أرَبٌ[١] أكثرَ من أن يقيمَ به صلبَه، ويمسكَ به حوباءه، فإنْ كان سارقُ المالِ مجرمًا من حيث كونُه هاتكًا لذلك الحجابِ المسبلِ دون الشّرفِ، فجديرٌ بمن يسرقُ الشرفَ نفسَه أن يكونَ رأسَ الجانين وأكبرَ المجرمين.

يكون للرجل - من الصحفيّين مثلًا - عند الرجلِ من كرام الناسِ وسراتِهم وذوي السيرةِ الصالحةِ فيهم مأربٌ من المآربِ التي لا يعرفُ لنفسِه فيها حقًّا، ولا يمتُّ إليها بسببٍ من الأسبابِ الظّاهرةِ أو الباطنةِ، فما هو إلّا أنْ يمتنعَ عليه حتّى يرميَه بسهم جارحٍ من سهامِه النّافذاتِ، يصيبُ به مقتلًا من شرفِه وكرامتِه، ولا ذنبَ له عنده إلّا أنّه لم يكنْ من لحيته يلفُّ عثنونَها[٢] على يدِه ثم يقودُه بها إلى حيث شاءَ كما تقادُ السائمةُ إلى مصرعِها.

يحبُّ الرجلُ المجدَ حبًّا يملأُ ما بين جوانحِه، ويكلفُ به حتّى يصبحَ آثرَ عنده من نفسِه التي بين جنبيه، ويقضي لكلفِه به، وحرصِه عليه سوادَ ليلِه يساهرُ الكوكبَ حتّى ينحدرَ إلى مغربِه، وبياضَ نهارِه يسايرُ الشمسَ حتّى تغربَ في حمأتِها، ويقيمُ بينه وبين شهواتِ نفسِه ونزعاتِ قلبِه حربًا عوانًا يحملُ في سبيلها ما لا يستطيعُ أن يحملَه بشرٌ، حتى إذا أمكنَه المقدارُ منه، وبدأَ ينهلُ أولَ نهلةٍ من موردِه الباردِ العذبِ، رآها ممزوجةً بذلك العلقمِ المرِّ الذي صبّه له في إنائه ذلك المجرمُ الأثيمُ.

إنَّ بين جدرانِ بعض تلك القاعاتِ التي يسمّونها «إدارات» قومًا مفاليكَ قد دارت عليهم الأيّامُ دورتَها، وسلبَتْهمُ المواهبَ التي يعيشُ بها أمثالُهم، ممّنْ ولدَ مولدَهم ونشأَ منشأَهم، فضاقتْ بهم سبلُ العيشِ التي ما كانتْ تضيقُ بهم، لو أنَّ اللهَ أبقَى لهم بعد أنْ سلبَهم فضيلةَ الفهمِ والعلمِ، فضيلةَ العملِ الصالحِ والسيرةِ المستقيمةِ، فلم يجدوا بين أيديهم منفذًا ينفذون منه إلى القوتِ، ففتحوا حوانيتَ للاتّجارِ بأعراضِ الناسِ وكرامتِهم سمّوها صحُفًا، وأكثرُ مشتملاتِها أعراضُ الأشرافِ والعظماءِ وأربابِ الجدِّ والعملِ، الذين سبقوهم إلى فردوسِ السعادةِ، وخلّفوهم وراءهم يتآكلون غيظًا لحرمانِهم ممّا أفاضَ اللهُ عليهم؛ فهم إن فتّشْتَ عنهم، وكشفتَ عن دخائلِ نفوسِهم، علمتَ ألّا فرقَ بينهم وبين أولئك الفوضويّين الذين يدينون بقتلِ الملوكِ والأمراءِ، وأستغفرُ اللهَ، فللفوضويّين رأيٌ في تلك الجرائمِ يرَونه، وفكرةٌ خاصّةٌ يعتقدون صحّتها، بل هم كقطّاع الطريقِ الذين يهاجمون الغادين والرّائحين ولا ذنبَ لهم عندهم إلّا أنّهم مزوّدون وهم مقفرو الأيدي من الزادِ.

ولقد يكونُ خطبُهم سهلًا ومصابُهم محتمَلًا، لو أنّهم صرّحوا عن أنفسِهم، وأبدوا للناس صفحاتِ وجوهِهم، وطلبوا قوتَهم من طريقِ الكدية[٣] الواضحةِ البيّنةِ، ولكنّهم مراؤون مخادعون، يشتُمون باسمِ الموعظةِ، ويقرضون الأعراضَ باسم النّصيحةِ، ويتّهمون الأبرياءَ

---

(١) الأرب: الغاية. (٢) العثنون: اللحية.

(٣) الكدية: الاستعطاء.

باسم الغَيْرَةِ الدينيّةِ أو الأدبيّةِ، وواللهِ، ما بهم من أدبٍ ولا دينٍ، ولا عظةٍ ولا نصيحةٍ، ولكنّهم قومٌ محدودون، قد بلغَتِ الفلاكةُ منهم مبلغًا، وضاقتْ بهم الأرضُ الفضاءُ على رحبِها، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنَّيْلِ من شرفِ الشرفاءِ، وتنغيصِ لذّةِ السُّعداءِ. . ويطلبون قوتَهم فيما بين هذا وذاك من يدِ تلك الفئةِ السَّاذَجَةِ التي لا تستطيعُ أن تفرّقَ بين الكاتبِ الذي يكتبُ ليقوّمَ معوجًا، أو يصلحَ مختَلًا، أو يرفعَ بدعةً باطلةً، أو يكشفَ عن حقيقةٍ خافيةٍ، وبين الآخرِ الذي يدورُ مع الدِّينارِ دورةَ الحرباءِ مع الشمسِ، لا يفارقُه حتّى تفارقَها، والذي لا يلذّه شربُ الماءِ إلّا ممزوجًا بدم.

وواللهِ، ما أدري من الذي أقامَهم هذا المقامِ وعهدَ إليهم هذا العهدَ، ومن الذي أوكَلَ إليهم النَّظرَ في شؤونِ الناسِ والفصلَ في قضاياهم، والقيامَ على حسناتِهم وسيّئاتهم، وما هم بالبررةِ الأتقياءِ الذين يصلحون أن يكونوا أمثلةً حسنةً في منازلِهم، فيكونوا قدوةً صالحةً في أمّتِهم، ولا بالعلماءِ الفضلاءِ فنهتدي بهداهم، ونستنَّ بسنّتهم، ولا بالصّادقين المخلصين فَنَتَعبَّدُ بإجلالِهم وإعظامِهم، بل ليس لواحدٍ منهم فضلُ الصانعِ في مصنعِه، أو التاجرِ في حانوته، أو العاملِ في معملِه، فيصلحُ أن يكون حكَمًا في قضايا الأشرافِ والنبلاءِ، وميزانًا لحسناتِهم وسيّئاتهم. وعندي أن لو جُمِعَتْ عيوبُ الناسِ جميعُها في كِفّةِ ميزانٍ، ووُضِعَتْ في الكفةِ الأخرى عيوبُهم الجامعةُ للسفاهةِ والكذبِ والنميمةِ والتجسّسِ، وهتكِ الأعراضِ، واتّهامِ الأبرياءِ، واستهواءِ الضعفاءِ، لثقُلَتْ كفّتُهم أمامَ كِفّةِ الذين يزعمون أنّهم يقوّمون معوجَّهم ويثقّفون منآدهم[1]، ويصلحون ما فسدَ من شؤونهم.

❁ ❁ ❁

الرِّثاء

ما أنسَ لا أنسَ رجلًا كان خيرَ من لقيتُ من الرجالِ، وكان يُعجبُني منه أدبُه وفضلُه، وعفّتُه وحياؤه، وشرفُ نفسِهِ، وطهارةُ قلبِه، وأنّه كان صبورًا محتملًا تقرعُ الخطوبُ صفاةَ قلبِه فترتدُّ عنها ثانيةً، كما ترتدُّ الكرةُ عن الحائطِ إذا قَرَعَتْه.

كان فقيرًا لا يملكُ من الدنيا أكثرَ ممّا يقيمُ صلبَه، ويمسكُ حوباءه[2]، ويسترُ سوأتَه، فزوّجَه أبوه بابنةِ عمٍّ له لم يكنْ مثلَها في دمامتِها، وسوءِ خلُقِها، وجفاءِ طبعِها، ممّنْ يطمعُ مثلُه في جمال خلقِه، ولينِ حاشيتِه، وانسجامِ طبعِه، فكبرَتْ نفسُه عن مخالفةِ أبيه، لأنّه كان برًّا به، مُطيعًا له، نازلًا عند أمرِه ونهيِه، وعن مجافاةِ زوجِه واطّراحِها والانقباضِ عنها، لأنه كان واسعَ الصدرِ، فسيحَ رقعةِ الحلمِ، رقيقًا بالضعفاءِ والعاجزين،

---

(١) يثقفون منآدهم: يقوّمون اعوجاجهم.

(٢) الحوباء: النفس.

فتزوّجها وفي نفسه من الم والألمِ ما يلهبُ الجوانح، ويذيبُ لفائفَ القلوبِ.

وأذكرُ أنّي على طولِ عشرتي له، ولصوقِ نفسي بنفسِه، ما سمعْته يشكو إليَّ يومًا من الأيَّام ما كان يعالجُه من سوءِ عشرتِها، ويكابدُه من شرورِها التي لا تغبُّه ليلَها ونهارَها ثقةً بالله ورحمتِه، وإيثارًا لفضيلةِ الصبرِ والجلدِ، وسكونًا إلى ما جرَتْ به الأقلامُ في ألواحِ المقاديرِ، فكنتُ أرحمُ صمتَه وسكونَه، وأرثي لجمودِ عينَيْه عن البكاءِ، لأنّي أعلمُ أنّ نيرانَ الأحزانِ لا يسكنُ اضطرامُها، ولا يهدأُ اعتلاجُها، إلّا باطّرادِ العبراتِ وتصاعدِ الزفراتِ.

وكان كلُّ ما ينعمُ به من لذائذِ هذه الحياةِ وأطايبِها، أنّه كان يسافرُ في كلِّ شهرٍ مرَّةً أو مرّتَيْنِ إلى أحدِ أصدقائهِ في الريفِ، فيقضي عنده يومَيْن أو ثلاثةً، ثم يعودُ وفي ثغرِه ابتسامةٌ تتلألأُ تلألؤ نجمةِ الصبحِ قبل انحدارِها إلى مغربِها، ثم لا تلبثُ أن تتلاشَى، ولا يلبثُ أن يعودَ إلى جمودِه الأوّلِ، لا يحزنُ، فيبكي، ولا يفرحُ، فيبتسمُ، حتّى يُخَيّلَ للناظرِ إليه أنه يعيشُ في عالمٍ غيرِ هذا العالمِ، لا يظلّله ليلٌ ولا يضيئُه نهارٌ.

قضيتُ في صحبتِه على حاله تلك بضعَ سنين أعلمُ من دخيلةِ نفسِه ما يَحْسَبُ أنّي أجهلُه، فأكاتمُه ذلك العلمَ جهدي رفقًا به، وإشفاقًا عليه، حتّى زرتُه في منزلِه ذاتَ يوم، فرأيتُه جاثمًا في مقعدِه الذي كان يقتعدُه من غرفتِه، وقد أطرقَ إطراقًا طويلًا ذهلَ فيه عن نفسِه، فلم يشعرْ بدخولي حتّى أخذْتُ مكاني، فرفعَ رأسَه، فأدهشني من منظرِه اصفرارُ وجهِه، وذبولُ عينيه، وما كان يغشى جبينَه من دُخانِ تلك النارِ التي تشتعلُ بين جوانحه، ثم نظرَ إليّ نظرةً طويلةً لا عهدَ لي بمثلِها من قبلُ وقال:

- أتعتقدُ أنّ اللهَ موجودٌ؟ قلت: نعم. معالجًا نفسي على كتمانِ ما كان يذهبُ بلبّي من تنكرِ حالِه، وتغيّرِ أطوارِه.

قال: وتعتقدُ أنّه عادلٌ؟ قلت: نعم.

قال: وراحمٌ؟ قلت: نعم.

فبسط يدَه إليّ فعلَ الضّارعِ المستصرخِ وقال:

- هل لك أنْ تحدّثني أيّها الصديقُ عن نزولِ الصّواعقِ، وثورةِ البراكينِ، وطغيانِ البحارِ، وغرقِ السُّفنِ، وانتشارِ الأوباءِ، وفتكِ الأدواءِ، ونكباتِ الفقرِ والجوعِ، وتلك العيونِ التي لا تزالُ منهلّةً بالبكاءِ، والضّلوعِ التي لا تزالُ ملتهبةً بنيرانِ الهمومِ والأحزانِ؟ هل تعتقدُ أنّ ذلك كلَّه عدلٌ منَ اللهِ ورحمةٌ؟

قلت: نعم، إنّ اللهَ يمتحنُ عبادَه ليعلمَ الذين صبروا فيدّخر لهم في دارِ نعيمِه من المثوبةِ والأجرِ أضعافَ ما كانوا يقدرون لأنفسِهم من سعادةِ الحياةِ وهناءتِها.

قال: إنّ اللهَ أكرمُ من أن يجعلَ الشرّ طريقًا إلى الخيرِ، وألّا يحسنَ إلى عبادِه إلّا بعد أن يسلبَهم الإساءةَ.

قلت: ذلك ما كتبَ على نفسِه أن يجازيَ كلَّ عاملٍ بعملِه، إنْ خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

قال: إنّه كتبَ على نفسِه الرحمةَ.

قلت: نعم، إنّه أكرمُ الكرماءِ، وأرحمُ الرحماءِ.

قالَ: حدّثني عن الولدِ الصغيرِ الذي لم يخالطْ نفسَه شرٌّ، ولم يتسرّبْ إلى قلبه كيدٌ، ما لي أراه مفترشًا حجرَ أمّهِ وقد تولّى الليلُ إلّا أقلّه يتقلّبُ على مثلِ جمرِ الغضَى ممّا يساورُه من الآلام؟ فينتفضُ تارةً ويختلجُ أخرى، ويصرخُ صرخاتٍ تستمطرُ الدموعَ، وتحولُ بين العينِ وبين الدموعِ؟ وما لي أرَى أمَّه باكيةً مولّهةً، ذاهلةَ اللبِّ موجعةَ القلبِ، تفزعُ لفزعاتِه، وتصرخُ لصرخاتِه وقد اختبلَ عقلُها والتاثَ[١] أمرُها، وعظُم يأسُها، وفنيَتْ حيلتُها، وقلّ مساعدُها، وضعُف ناصرُها، فأنشأتْ تقلّبُ وجهَها في السماءِ ضارعةً إلى اللهِ تعالى أن يأخذَ بيدِها، ويرحمَ نفسَها برحمةِ ولدِها، وبينا هي تنتظرُ صوتَ الإجابةِ يرنُّ في آفاقِ السماءِ، إذا بها تسمعُ حشرجةَ[٢] الموتِ في صدرِ ولدِها، وإذا به ينزعُ نزعًا مؤلمًا يطير باللبِّ، ويَذْهَبُ ببقيّةِ الصَّبرِ، حتّى تفيضَ[٣] نفسُه، فماذا جنَى هذا الولدُ الصغيرُ، حتّى أصبحَ لا يستحقُّ رحمةً من اللهِ ولا رأفةً؟

قلت: وما يدريك لعلّ اللهَ أرادَ به خيرًا، فرحمَه بالموتِ المعجّلِ من حياةٍ علمَ أنّه سيلقَى فيها مثلما تلقَى أنت اليوم من الشقاءِ الممضِّ والعذابِ الأليم؟

فنالتْ هذه الكلمةُ من نفسِه، وجمدَ أمامَها جمودًا طويلًا، ثم قال: أحسنتَ أيّها الصَّديقُ، ليت الذين يشقَون في هذه الحياةِ يشعرون بصغرِ هذه الدنيا، وحقارةِ شأنِها، فيتمنّون لو لم تلدْهم أمّهاتُهم، ولم يُكتبْ لهم سطرٌ واحدٌ في الوجودِ؛ وبعد، فهل لك في سفرةٍ معي إلى ذلك الصديقِ الريفيّ نقضي عنده يومًا واحدًا، ثم نعودُ؟ على أن تكونَ معي كما كان موسى مع الخضر، لا تسألني عن شيء حتّى أحدث لك منه ذكرًا؟

فوافيتُ رغبتَه، وقبلتُ شرطَه ثم قام وقمتُ، ولو أنّني ملكتُ في هذه اللحظة الدنيا بحذافيرها لوهبتُها لمَنْ يكشفُ لي سرّ صديقي، ويدلّني على مكانِ نكبتِه التي زعزعتْ نفسَه، وصهرَتْ قلبَه، وملكَتْ عليه لبّه، وكادَتْ تعبثُ بيقينِه.

وما هي إلّا ساعاتٌ حتّى بلغنَا المنزلَ الذي أردناه، وقد أظلَّ الليلُ بجناحيه، فقضَيْنا واجبَ التحيةِ والسلامِ، ثم خلا الصديق بصديقِه خلوةً طويلةً لا أعلمْ ما دارَ فيها بينهما، ثمّ خرجا إليّ، فجلسنا ساعةً نتحدّثُ، ثم قمنا إلى فراشنا، فنمتُ نومًا متقطّعًا مملوءًا بالوساوسِ والهواجسِ، فما انتصفَ الليلُ حتّى شعرتُ أنّ صديقي يتحرّك في فراشِه، ويطيلُ النظرَ إليّ ليعلمَ أنائمٌ أنا أم مستيقظٌ؟ فتناومتُ حتّى رأيتُه قد قامَ من مكانه يختلسُ الخطى اختلاسًا حتى

---

(١) الثاث الأمر: اختلط والتبس.

(٢) الحشرجة: ترداد الصوت في الحلق عند الموت.

(٣) فاضت النفس: خرجت.

وصلَ إلى المِشْجَب[١] فلبسَ أثوابَه، ثمّ تسلّلَ من الغرفةِ، فخفقَ قلبي خفقةَ الرّعبِ والفزعِ وقلت: لا بدّ أنّ الرجلَ يريدُ بنفسِه شرًّا، وأنا أكونُ ألأمَ الناس، إن أنا تركتُه يصنعُ بنفسِه ما يشاءُ، فقمتُ على أثره أتتبّعُ خطواتِه، وأسيرُ وراءه من مدرجةٍ إلى أخرى، حتى بلغ مقبرةَ البلدِ، فوقفَ هنيهةً يشرفُ على تلك النّواويسِ العظامِ التي جثَمَتْ في أمكنتِها جثومَ الآبالِ في معاطنِها.

ثم مشَى يتصفّحُ القبورَ قبرًا قبرًا، فخُيِّلَ إليّ أنّه شبحٌ من أشباحِ الموتَى يهيمُ في أرجاءِ تلك المقبرةِ الموحشةِ، فملكني من الخوفِ والرعبِ ما كادَ يحلُّ عقدَةَ لساني، لولا إجلالي لهذا الموقفِ الرهيبِ، وشعوري أنّني واقفٌ على أبوابِ تلك الدورِ التي سَلبَ خوفُها العاقلين عقولَهم، وأطار طائرَ الغمضِ عن أجفانِهم، ونغّصَ عليهم ما يتمنّون أن يصفَو من طعامهم وشرابهم، والتي يفدُ إليها كلّ يوم، وفودُ البشرِ محمولين على أيدي أهليهم، وذوي أرحامهم، ليقدّموهم بأنفسِهم هديّةً إلى الحشراتِ والديدانِ لتأكلَ لحومَهم، وتمتصَّ دماءهم، وتتّخذَ من سوادِ عيونِهم وبياضِ ثغورِهم، مراتعَ ترتعُ فيها كما تشاءُ، من حيث لا يملكُ مالكٌ منهم عن نفسِه دفعًا، ولا يعرفُ إلى النجاةِ سبيلًا.

مرّتْ بخاطري تلك الذكرى، فملكَتْ عليّ نفسي حتى ذهلتُ عن موقفي، وأنسَتْني الحَيْرَةُ في أمرِ نفسي الحَيْرَةَ من أمرِ صديقي، وفيما يعالجُه منذ الليلةِ من غرائبِ الشؤونِ وعجائبِها، ثم استفقتُ فرأيتُه جاثيًا أمامَ قبرٍ من تلك القبورِ جثيَ العابدِ بين يدي معبودِه، فدلفْتُ[٢] إليه حتّى دنَوتُ منه فسمعتُه يقولُ:

اللّهمَّ، إنّك تعلمُ أنّي ما كفَرْتُ نعمتَك، ولا خفَرْتُ ذمّتَك، ولا هتكتُ حرمةً من حرماتِك، ولا نزلتُ عند سخطِك وغضبِك، ولا تبرّمتُ بقضائك وقدرِك، وأنّك أحسنْتَ إليّ بتلك الطفلةِ إحسانًا عظيمًا لأنّك أنقذْتَ بها حياتي من همومِها وآلامِها، ثم لمْ تلبَثْ أنْ سلبتَنيها وشيكًا أهنأ ما كنت بها وأرجَى ما كنت إلى قضاء ساعاتِ العمرِ بجانبها، فاغفرْ لي جزعي وحزني فكثيرٌ عليّ أنْ لا أجزعَ ولا أحزنَ.

لقد تبدّلتِ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتِ، وكأنّما استحالتْ في نظري حقائقُ الأشياءِ، فأصبحتُ لا أرى في النجمةِ لألأَها، ولا في الزهرةِ جمالَها، ولا في السماءِ صفاءها، فهل كانت فتاتي سرَّ هذا الوجودِ حتى إذا ذهبتْ ذهبَ بذهابها كلُّ شيءٍ؟

لقد ذهبتْ بيَ الأيامُ فيما مضَى كلَّ مذهبٍ، وجرّعَتْني من كؤوسِ الشقاءِ جُرعًا ما احتملَ فمٌ قبلَ فمي مرارتَها، فاغتفرْتُ لها كلَّ ذنوبِها عندي حينما أسدَتْ إليّ تلك اليدُ التي أنستْني جميعَ همومِ الحياةِ وآلامِها؛ وأما اليوم وقد صفرتْ منها يدي، وأقفرَ بفراقِها ربعي، وحالتْ تلك الصفائحُ بيني وبينها، فلا عزاءَ ولا سلوى.

---

(١) المشجب: ما تعلّق عليه الثياب.

(٢) دلفت: مشيت ببطء.

من لي بضربةٍ من ضرباتِ الدهرِ تذهبُ بذاكرتي جملةً واحدةً، فلا أعودُ أذكرُ أيامَ حياتِها معي ومقعدَها بجانبي، وصوتَها الرقيقَ، وحديثَها العذبَ، وصفاءَ عينيها، ورونقَ وجهِها، وصورةَ قومتِها، وجيئتَها، وذهوبَها، وضحكَها، وبكاءها ويقظتَها، ومنامَها، وحزنَها لفراقي، وسرورَها بلقائي، فإنّي كلّما ذكرتُ ذلك شعرتُ كأنّ قلبي المجموعَ قد استحالَ إلى أفلاذٍ صغيرةٍ تتطايرُ في أجوازِ الفضاءِ.

اللّهمّ، إنّي أعلمُ أنّ الدنيا ليستْ بدارِ قرارٍ، فلا أملَ في البقاء فيها، والركونِ إليها، والاستمتاعِ بلذّةِ العيشِ فيها، وأنّها الجسرُ الذي يمرُّ به الأحياءُ إلى دارِهم الأخرى. وكلُّ ما كنت أطمعُ فيه منها أن يكونَ لي كما للناس جميعًا رفيقٌ يُعينني على قطعِ تلك الشقّةِ البعيدةِ، ويهوّنُ عَلَيَّ آلامَ وحشتِها وكآبتِها، فحرمْتَني ذلك الرفيقَ المعينَ، فكيف أسيرُ، وأين أعيشُ؟

اللّهمّ، إنّك سلبتَني كلَّ شيءٍ حتى الدّموعَ التي يريحُ بها الباكون أنفسَهم، ويطفىءُ بها المحزونون لواعجَ قلوبِهم، فأصبحَ الحزنُ يغلي بين جوانحي غليانَ الماءِ في القدرِ المحكمةِ الغطاءِ، فامننْ عليَّ بدمعةٍ واحدةٍ أطفىءُ بها غليلي، ولا أحسبُ أنّك تمنعُنيها، فالدموعُ هي الرحمةُ العامّةُ التي كتبتَ على نفسِك أن تعالجَ بها نكباتِ المنكوبين، وبؤسَ البائسين.

اللّهمّ، لا ريبةَ في عدلِك، ولا ظنّةَ في كرمِك، ولا اعتراضَ على قضائِك وقدرِك، ولا سخطَ في ابتلائِك ومحنتِك، خرجَ أمرُ نفسي من يدي، وأصبحتُ لا أستطيعُ أن أبصرَ ما بين يدي، فاغفرْ لي سقطي وزلَلِي.

اللّهمّ، إنّك منعتَني حظّي من الحياةِ، فلا تمنعْني حظّي من الموتِ، فاستردَّ إليك عاريتَك التي أعرتَنيها، فقد عجزتُ عن حملِها؛ وضقْتُ ذرْعًا بأمرِها؛ إنّك بعبادِك رؤوفٌ رحيمٌ.

وما أتمَّ كلمتَه حتى صاحَ صيحةً عظمَى، ثمّ سقطَ على صفائحِ القبرِ، فعلمتُ أنّ الرجلَ قدِ انفجرَ، وأنّ اللهَ قد استردّ وديعتَه إليه، واختارَ للرجلِ ما عنده، فذعرتُ، وارتعدتُ، والتفتُّ حولي، فإذا صديقُه واقفٌ ورائي يَشْهدُ المنظرَ الذي أشهدُ، ويذرفُ من الدموعِ أضعافَ ما أذرفُ، فدنونا منه معًا وحرّكناه، فإذا هو ميتٌ، فنقلناه إلى المنزلِ، وبتْنا حولَ سريرِه نقضي حقَّ صحبتِه تارةً بالدموعِ وأخرى بالإطراقِ والخشوعِ، وهنالك قصَّ عليّ ذلك الصديقُ قصّتَه، وكشفَ لي عن خبيئةِ أمرِه فقال: إنّه قضَى زمنًا طويلًا يشكو إليّ آلامَ نفسِه التي يعالجُها من سوءِ عشرةِ زوجِه وخشونةِ طبعِها، وجفاءِ خلقِها، ثم اقترحَ عليّ يومًا من الأيام أن أزوّجَه من أختي ففعلتُ رحمةً به وإشفاقًا عليه، من حيث لا يعلمُ أبوه، ولا أحدٌ من أهلِه بذلك، فكان يزورُنا في كلّ شهرٍ مرّةً أو مرّتين، وظلَّ على ذلك عدّةَ سنين، حتّى وعكَتْ تلك المسكينةُ وعكةً ذهبَتْ بها إلى ربّها؛ وتركَتْ له فتاةً في الخامسةِ من عمرِها، فكانتْ هي عزاءَه الوحيدَ عن كلِّ ما فاته من نعيمِ الحياةِ وهناءتِها، وكان يختلفُ إليها كما كان يختلفُ إلى أمِّها، وشغفَ بها شغفًا بلغَ به حدَّ الجنونِ، وكان كثيرًا ما يقول لي: إنّني أشعرُ أنّ حياتَيْنا أنا وهذه

الطفلةُ حياةٌ واحدةٌ، وإنّا إمّا أن نعيشَ معًا، أو نموتَ معًا. وكأنه ألهمَ بما سيكون، فقضى الله أن تمرضَ الفتاةُ مرضةً شديدةً لم تمهلْها أكثرَ من خمسةِ أيامٍ، ثم لحقتْ بأمّها، ولمّا تسلخ الثّامنة من عمرها، فنعيتُها إليه بكتابٍ أرسلتُه إليه بالأمس، فجاءَ وجئتُ معه، ثمّ كان بعد ذلك ما قدّرَ اللهُ أن يكون.

دفنتُ صديقي بيدي، وألحدتُه بجانب ابنتِه التي قطَع جسرَ الحياةِ الطويلَ في لحظةٍ واحدةٍ شوقًا إليها، ووجدًا عليها، ثم عدتُ إلى بلدتي صفرَ الكفِّ من ذلك الإنسانِ الذي كنتُ مالئًا منه يدي، والذي كنت أجلّه وأعظّمه حيًّا ولا أزال أبكيه وأذكرُه مَيْتًا، وأتّخذُ حياتَه الشريفةَ الحافلةَ بمواقفِ الصبرِ والجلدِ، والوفاءِ والكرمِ عبرةً أعتبرُ بها حتّى يجمعَ اللهُ بيني وبينه.

كفى حُزنًا بموتِك ثمّ إنّي ... نفضْتُ ترابَ قبرِك منْ يديّا

وكانتْ في حياتِك لي عِظاتٌ ... وأنت اليومَ أوعظُ منك حيّا

❀ ❀ ❀

الشّعر

كتبَ إليّ كاتبٌ يقولُ: عرفناك قبلَ اليومِ شاعرًا ما تكادُ تكتبُ سطرًا، ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تكادُ تنظمُ بيتًا، فلمَ لم تكتبْ في عهدِك الأوّلِ، ولمَ لم تنظمْ في عهدِك الثاني؟ كأنّما ظنّ عافاه اللهُ أنّني أكتبُ اليومَ بقلمٍ غيرِ قلمِ الأمسِ، أو أهيمُ في وادٍ غيرِ ذلك الوادي! وهلِ الشعرُ إلّا نثارةٌ[1] من الدرِّ ينظمُها الشاعرُ إن شاءَ شعرًا، وينثرُها الكاتبُ إن شاءَ نثرًا؟ أو نغماتُ الموسيقى يسمعُها السامعُ مرّةً من أفواه البلابلِ والحمائمِ، وأخرى من أوتارِ العيدانِ والمزاهرِ، أو عالمٌ من عوالمِ الخيالِ، يطيرُ فيه الطائرُ بقادمتَيْن[2] من عروضٍ وقافيةٍ أو خافيتين[3] من فقرٍ وأسجاعٍ.

الكاتبُ الخياليّ شاعرٌ بلا قافيةٍ ولا بحرٍ، وما القافيةُ والبحرُ إلّا ألوانٌ وأصباغٌ تعرضُ الكلامَ فيما يعرضُ له من شؤونِه وأطوارِه التي لا علاقةَ بينها وبين جوهرِه وحقيقتِه، ولولا أنّ غريزةً في النفسِ أن يردّدَ القائل ما يقول، ويتغنّى بما يردّدُ ترويحًا عن نفسِه، وتطريبًا لعاطفتِه، ما نظمَ ناظمٌ شعرًا ولا روى عروضيٌّ بحرًا.

ما كان الرجلُ العربيّ في مبدأ عهدِه ينظمُ الشعر، ولا يعرفُ ما قوافيه وأعاريضُه، وما عللُه وزحافاته؟ ولكنّه سمعَ أصواتَ النواعيرِ، وحفيفَ الأوراقِ، وخريرَ المياهِ، وبكاءَ الحمائمِ،

---

(١) النثارة: ما تناثر من الشيء.
(٢) القادمة: مفرد قوادم، وهي عشر ريشات في مقدّم جناح الطائر.
(٣) الخوافي: ريشات صغار إذا ضمّ الطائر جناحيه اختفت.

فلذّ له صوتُ تلك الطبيعةِ المترنّمةِ، ولذّ له أن يبكيَ لبكائها، وينشجَ لنشيجِها، وأن يكونَ صداها الحاكي لرنّاتِها ونغماتِها؛ فإذا هو ينظمُ الشعرَ من حيث لا يفهمُ من شؤونه سوى أنّه تلك النغمةُ الموسيقيّةُ العذبةُ الخالبةُ، ولا من أبحرِه وضروبِه سوى أنّها صورةٌ من صورِه، ولونٌ من ألوانِه.

ذلك منتهى نظرِ العربيّ إلى الشّعرِ، وذلك ما دعاه إلى أنْ يسمّيَ النبيَّ الذي بعثَه اللهُ إليه شاعرًا، وهو يعلَمُ أنه ما قصدَ في حياته قصيدةً، ولا رجزَ أرجوزةً، ولكنّه سمعَ من كتابِ الله وآياتِه المفصّلات أبلغَ الكلامِ وأفصحَه، وأعلقَه بالنفوس، وآخذَه بالألباب، وأملكَه للعواطف والمشاعرِ، وأجمعَه لصنوفِ التشبيهاتِ البديعةِ، والاستعاراتِ الدقيقةِ والمجازاتِ الرائعة، والكناياتِ المستطرفةِ، وأمثالُ تيك ممّا لا ينطقُ به الناطقُ في أكثرِ مناحيه ومنازعِه إلّا عند ذهابِه مذهبَ الخيالِ الشعريِّ فشبّه له، فسمّى ما سمعَه شعرًا، وسمّى الناطقَ به شاعرًا، وما هو بشاعرٍ ولا ساحرٍ ولا كاهنٍ ولا مجنونٍ.

ما كلُّ موزونٍ شعرًا، وما كلُّ ناظمٍ شاعرًا، فالوزنُ ملَكَةٌ تعلَقُ بالنفسِ من طولِ ترديدِ المنظومِ والتغنّي به مقطّعًا تقطيعًا، يوازِنُ تفاعيله؛ فهو نغمةٌ موسيقيّةٌ، ولحنٌ خاصٌّ من ألحانِ الغناءِ، يتمثّلُ في قول الملكِ الضليل[1]:

* قـفـا نَـبْـكِ مـن ذكـرَى حـبـيـبٍ ومـنـزلِ *

كما يتمثّلُ في قولِ الخليل:

* فَـعُـولُـنْ مـفـاعِـيـلُـنْ فَـعُـولُـنْ مـفـاعِـلُـنْ *

ويتراءَى في أوتارِ الحلقِ الناطقِ كما يتراءَى في أوتارِ العودِ الصامتِ.

أمّا الشعرُ، فأمرٌ وراء الأنغامِ والأوزانِ، وما النّظمُ بالإضافةِ إليه إلّا كالحلي في جيدِ الغانيةِ الحسناءِ، أو الوشيِ في ثوبِ الديباجِ المُعْلَم. فكما أنّ الغانيةَ لا يحزنُها عَطَلُ جيدِها، والديباجَ لا يزري به أنّه غيرُ معلمٍ، كذلك الشعرُ لا يذهبُ بحسنِه وروائه أنّه غيرُ منظومٍ ولا موزونٍ.

ذلك هو الفرقُ بين الشّعرِ والنظمِ، وها أنت لا ترى صلةً بينهما غيرَ تلك الصّلةِ الاصطلاحيّةِ التي لا منشأَ لها سوى ما اعتادَه الناسُ من أنّهم ينظمون ما يشعرون به، وتلك الصلةُ هي التي خلطتْ بينهما وعمّت على كثيرٍ من الناسِ أمرَهما، وهي التي أدخلتْ النّظامين في عدادِ الشُّعراءِ وألقتْ عليهم جميعًا رداءً واحدًا لا يستطاعُ معه التّمييزُ بينهما إلا للقليلِ من الناقدِين، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدةَ ذات المائةِ بيتٍ، فلا نجدُ بيتًا، ونتصفّحُ الديوانَ ذا المائة قصيدةٍ، فلا نعثرُ بقصيدةٍ، وأصبحْنا لا نكادُ نجدُ بيننا قارئًا غيرَ شاعرٍ لأنّه لا يوجدُ بين الناسِ من يعجزُه تصوّر تلك النغمةِ العروضيّةِ وتصويرِها حتى العامةِ والأمّيين.

---

(١) هو لقب امرئ القيس، وقد تقدمت ترجمته.

ولقد كتبَ الكاتبُون في تعريفِ الشعرِ، وأمعنُوا إمعانًا بَعُدَ به عن مكانه وضلَّ به عن قصدِه، وعندي أنّ أفضلَ تعريفٍ له أنّه (تصويرٌ ناطق) لأنّ قاعدةَ الشّعرِ المطّردةَ هي التأثيرُ، وميزانَ جودتِهِ ما يتركُ في النفسِ من أثرٍ، وسرُّ ذلك أنّ الشاعرَ يتمكّنُ ببراعةِ أسلوبِه، وقوّةِ خيالِه، ودقّةِ مسلكِه، وسعةِ حيلتِه، من رفعِ ذلك السّتارِ المسبلِ بينه وبين السّامعِ، فيريه نفسَه على حقيقتِها حتى يكادَ يلمسُها ببنانِه، فيصبحُ شريكَه في حسّه ووجدانِه، يبكي لبكائِه، ويضحكُ لضحكِه، ويغضبُ لغضبِه، ويطربُ لطربِه، ويطيرُ معه في ذلك الفضاءِ الواسعِ من الخيالِ، فيرى الطبيعةَ بأرضِها وسمائِها، وشموسِها وأقمارِها، ورياضِها وأزهارِها، وسهولِها وجبالِها، وصادحِها وباغِمِها[١] وناطقِها وصامتِها، من حيث لا ينقلُ إلى ذلك قدمًا، أو يلاقي في سبيله نصَبًا، فإن سمعَ قولَ القائلِ:

وقَانا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وَادٍ ... سَقاهُ مُضاعفُ الغَيْثِ العَميمِ

نزلْنا دَوْحَهُ فَحَنا عَلَيْنا ... حُنُوَّ المُرْضِعاتِ على الفَطِيمِ

وأرشَفَنا على ظَمَإٍ زُلالًا ... ألَذَّ من المُدامةِ للنَّديمِ

يصدُّ الشَّمسَ أنّى واجهَتْنا ... فَيَحْجُبُها، ويأذَنُ للنَّسيمِ

يروعُ حَصاهُ حاليةَ[٢] العَذارى ... فتلمسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ

خُيّلَ إليه أنّه يخطرُ في ذلك الروضِ البليلِ بين أنوارِه وأزهارِه، خطرانَ النسيمِ بين ظلالِه وأشجارِه، وأنّه يرى بعينِه أولئك العذارى السانحاتِ، وقد راعهنّ منظرُ الحصباءِ اللامعِ فوق تلك الديباجةِ الخضراءِ، فتولّهْنَ وفزعْنَ إلى جوانبِ عقودِهنّ يلمسْنَها بأطرافِ بنانهنّ، يحسبْنَ أنّ قد وهَتْ فانتثرَتْ جواهرُها على بساطِ ذلك الروضِ الأريضِ.

وإن سمع قول الآخر:

ودارِ ندَامى عطّلُوها وأدْلَجُوا ... بها أثرٌ مِنْهمْ جَديدٌ ودَارِسُ

حَبَسْتُ بها صَحْبي وجمّعْتُ شَمْلَهمْ ... وإنّي على أمْثالِ تِلْكَ لَحابِسُ

أقَمْنا بها يَوْمًا ويَوْمًا وثالثًا ... ويَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرحّلِ خامِسُ

تُدارُ عَلَيْنا الرَّاحُ في عَسْجَدِيّةٍ ... حَبَتْها بأنواعِ التَّصاويرِ فارسُ

قرارتُها كِسْرَى وفي جَنَباتِها ... مَها تدّريها[٣] بالقِسِيِّ الفَوارسُ

فَللرّاحِ ما زرّتْ عَلَيْه جيوبُها ... ولِلماءِ ما دارَتْ عليه القَلانِسُ

تمثّلَ له كأنه مرّ في ضاحيةٍ من ضواحي بغدادَ بدارٍ موحشةٍ، فسمعَ فيها أصواتَ قومٍ يلهون ويقصفون[٤]، ويقرعون الكؤوسَ بأمثالِها، فاقتربَ منها وأطلّ من خصاصِ[٥] بابِها، فرأى

---

(١) من بغم الغزال إذا صوّت بأرخم صوته، فهو باغم.

(٢) الحالية: لابسة الحلي.

(٣) أدرى الصيد: ختله.

(٤) قصف: أقام في أكل وشرب ولهو.

(٥) الخصاص: الثقب.

أولئك القومَ مجتمعين حول دَنٍّ من الخمرِ قد تكاملت سنّه، وشيّبَ الدهرُ فودَيه[١] ففصدُوه فسالَ دمُه الأحمرُ في كؤوسٍ من الذّهبِ منقوشةٍ نقوشًا فارسيّةً، قد صُوّرَتْ في قرارِها صورةُ كسرى فارسَ، ودارَتْ في جوانبها صورُ فرسانِه متنكّبي قسيّهم يطاردون بقرَ الوحشِ الهاربَ من بين أيديهم، ورآهم يملأون الكؤوسَ خمرًا إلى ما يوازي أعناقَ أولئك الفرسانِ ثم يمزجونها بالماءِ إلى ما يغطّي رؤوسهَم، فتسلّلَ من مكانِه مغتبطًا بمجتمِعِهم، وبما هُيّئَ لهم من الهناءةِ والنّعمةِ فيه، ثم مرّ بتلك الدَّارِ بعد أيامٍ فرآها مقفرةً من أهلِها لا تسمعُ بها نغمةٌ ولا نأمة[٢] فدخلَها فلمْ يرَ فيها إلّا أعوادَ ريحانٍ قد يبسَ أكثرها، مبعثرةً في جوانبها، وخطوطًا كانت رسمتها زقاقُ الخمرِ فوقَ تربتِها في غدوِّها ورواحِها بين أولئك الندماءِ فانصرفَ حزينًا مكتئبًا يسمعُ صفيرَ الريحِ الضاربةِ في جوانبِها فيردّدُ قول القائل:

رُبَّ رَكْـبٍ قـد أنـاخُـوا حَـوْلَـنـا ... يـشـربـون الـخَـمْـرَ بـالـمَـاءِ الـزُّلالِ
عـصَـفَ الـدَّهـرُ بـهـم فـانْـقَـرَضُـوا ... وكـذاك الـدَّهْـرُ حـالًا بـعـد حـالِ

وإن سمع قول الآخر:

ويَـوْمٍ كـتـنّـورِ الإمـاءِ سـجَـرْنَـه[٣] ... وأوقـدْنَ فـيـه الـجزلَ حتّى تَـضَـرَّمَا
رمـيـتُ بـنفسي في أجيجِ سُـمُـومِـه ... وبـالـعِيسِ حَتّى بَضَّ مِـنْـخَـرُهـا دَما

شعرَ كأنّ لهيبَ تلك الهاجرةِ يهبُّ في وجههِ فيشيحُ عنه فرارًا من لفحاتِه، ويكادُ يبكي رحمةً بذلك الشبحِ المصهورِ الذي ملكَتْ عليه تلك التنوفةُ[٤] الحمراءُ سبيلَه، وحالتْ بينه وبين نفسِه، فلا هو بصابرٍ إنْ رامَ صبرًا، ولا بناجٍ إن أرادَ نجاءً.

وإن سمع قول الآخر:

وَارَحْـمـتـا لـلـغـريـبِ في الـبَـلـدِ الـنّـا ... زحِ، مـاذا بِـنَـفْـسِـه صـنَـعـا؟
فـارقَ أحْـبـابَـه فـمـا انـتـفـعُـوا ... بـالـعـيـشِ مـن بَـعْـدِه ولا انـتـفَـعـا

همَلَت عيناه حزنًا على ذلك الغريبِ الحائرِ، وتمنّى أنْ لوِ التقَى به في بعضِ مذاهبِه فعطفَ عليه وآنسَ وحشتَه، ثم أخذَ بيدِه فأنزلَه من بيتِه منزلًا كريمًا وأبدلَه أهلًا بأهلٍ، وجيرانًا بجيرانٍ.

وإن سمع قول الآخر:

وإنّ الـذي بَـيْـنـي وبَـيْـنَ بنِـي أبِـي ... وبَـيْـنَ بـنِـي عـمّـي لـمـخـتـلـفٌ جِـدًّا
فـإنْ أكـلُـوا لَـحْـمِـي وفَـرْتُ لُـحومَـهُـم ... وإنْ هـدَمُـوا مَـجْـدِي بنَـيْـتُ لـهـم مَـجْـدَا
وإنْ ضَـيّـعُـوا غَـيْـبِـي حَـفِـظْـتُ غـيُـوبَـهـم ... وإنْ هـمْ هَـوَوا غِـيّـي هَـوَيْـتُ لـهـم رُشْـدَا
وإنْ زَجَـرُوا طـيـرًا بِـنَـحْـسٍ تـمـرُّ بـي ... زَجَـرْتُ لـهـم طـيـرًا يَـمُـرُّ بـهـم سَـعْـدا

---

(١) الفودان: ناحيتا الرأس.
(٢) النأمة: الصوت الخفيّ.
(٣) سجر الرجل التنور: ملأه وقودًا.
(٤) التنوفة: الأرض الواسعة.

ولا أحملُ الحِقدَ القديمَ عليهِمُ ... ولَيْسَ رئيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا
لهُمْ جُلُّ مالي إنْ تتابَعَ لي غنًى ... وإنْ قلَّ مالي لَمْ أكَلِّفْهُمُ رِفْدَا
وإنّي لعَبْدُ الضيفِ ما دامَ ثاويًا ... وما شيمةٌ لي غيرُها تُشْبِهُ العَبْدَا

أكبر تلك المكرمةَ وأجلَّها، ونظرَ إليها وهي في علياءِ سمائِها، نظر الفلكيّ إلى كوكبِه الساري، وشعرَ كأنّ نورَها قد لمعَ فامتدَّ شعاعُه إلى نفسِه فأضاءها.

ولا غروَ أن يبلغَ من نفسِه هذا المبلغَ، فطالما كان للشعرِ السلطانُ الأكبرُ على النفوسِ العظيمةِ، فقد نكبَ الرشيدُ البرامكةَ عندما دسّ له أعداؤهم ذلك المغنّي الذي غنّاه هذا الصوت:

لَيْتَ هنْدًا أنجزَتْنا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أنفسَنا ممّا تجِدْ
واستبدَّتْ مرّةً واحدةً ... إنّما العاجزُ من لا يَسْتَبِدْ

وأمر السفاحُ بقتل وجوه بني أميةَ بعدما قرّبهم وأدناهم عندما دخلَ عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله:

لا تُقيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عثَارا ... واقْطَعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ[1] وغِراسِ
أنزَلُوها بحيثُ أنزلَها اللهُ ... بِدارِ الهَوانِ والإتّعاسِ
خَوْفُهُمْ أظهرَ التودُّدَ فيهِمُ ... وبِهِمْ منكُمُ كَحزِّ المَواسي
أقْصِهِمْ أيّها الخليفةُ واحْسُمْ ... عَنْكَ بالسَّيفِ شَأفَةَ الأرْجَاسِ
فَلَقَدْ ساءَني وسَاءَ سِوائي ... قربُهُمْ من نمارقٍ وكراسي

بل عطفَ عمر بن الخطاب[2] رضي الله عنه على الحطيئة[3] وأطلقَه من سجنه حين سمعَه يقول:

ماذا تقولُ لأفْراخٍ بذي مَرَخٍ ... حُمْرِ الحَواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتَ كاسِبَهُم في قَعْرِ مُظْلمةٍ ... فاغفرْ عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ

بل سمع النبيّ ﷺ قول قتيلة بنت الحرث[4] تعاتبُه في قتلِه أخاها النضر بن الحرث[5] على ما بينه وبينه من صلةِ القرابة:

أمحمّدٌ يا خَيْرَ ضَنْءِ كريمةٍ ... في قَوْمِها والفَحْلُ فحلٌ معرقُ
ما كان ضَرَّك لو مَنَنْتَ، وربّما ... منّ الفَتَى، وهو المغيظُ المحنقُ

---

(١) الرقلة: النخلة التي تفوت اليد.
(٢) عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته.
(٣) الحطيئة (نحو ٥٩هـ./٦٧٨م.) شاعر مخضرم امتاز بالهجاء فخافه الناس، سجنه عمر بن الخطاب، ثم أطلقه.
(٤) قتيلة بنت النضر بن الحارث (ت٢٠هـ./٦٤٠م.) شاعرة أدركت الجاهلية والإسلام. أسر أبوها في وقعة بدر، فأمر النبيّ (ﷺ) بقتله، فرثته.
(٥) النضر بن الحارث (ت٢هـ./٦٢٤م.) صاحب لواء المشركين ببدر. أمر النبيّ (ﷺ) بقتله لأنّه كان يؤذيه.

والنضرُ أقربُ مَنْ أصَبْتَ وسيلةً ... وأحقُّهم، إنْ كانَ عِتْقٌ، يَعْتَقُ
ظلّتْ سيوفُ بني أبيهِ تنوشُه، ... لله أرحامٌ هناك تشقّقُ

فبكى وقال - وهو من لا ظنةَ[1] في عدله، ولا ريبةَ في حكمه -: «لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته».

لا مؤثرَ في نفسِ الإنسانِ مثلُ الشعر، وما خضعَ الإنسانُ لشيءٍ في جميعِ أدوارِ حياتِه إلّا للشعر، وللشعرِ الفضلُ الأوّلُ في نبوغِ الإنسانِ وارتقائِه وبلوغِه هذا المبلغَ الباهرَ من التفوّقِ والكمالِ. . ولقد أحبَّ الإنسانُ الشعرَ ناطقًا وصامتًا، أمّا الناطقُ فقد عرفته، وأمّا الصامت، فالتماثيل التي يرادُ بنصبها تمثيلُ حياةِ عظماءِ الرجالِ: شعرٌ، وهذه النغماتُ الموسيقيّةُ التي تصوّرُ خواطرَ القلوبِ ووجداناتِها، فتهيّجُ عاطفةَ الحبِّ في نفسِ العاشقِ، وعاطفةَ الحماسةِ في نفس الجنديّ: شعرٌ؛ وهديرُ الأمواجِ: شعرٌ، لأنّه يمثلُ عظمةَ الجبّارين؛ وظلامَ الليل: شعرٌ، لأنه يطلقُ دموعَ الباكين؛ وحفيفَ الأوراقِ: شعرٌ، لأنه يمثّل تناجي العشّاقِ؛ وبكاءَ الحمائم: شعرٌ، لأنّه يمثّلُ فجيعةَ البَيْنِ ولوعةَ الفراقِ. تلك النغماتُ الشعريّةُ التي نسمعُها من فمِ الإنسانِ مرّةً، وفمِ الطبيعةِ أخرى، هي التي زخرفَتْ لنا هذه الحياةَ، وألبستْها ذلك الثوبَ الناعمَ الأبيضَ حتى أحْبَبْناها، وولعْنا بها، وحرصْنا عليها، وأعدَدْنا العدّةَ للبقاءِ فيها. . والسكونِ إليها، فكتَبْنا ودوّنّا وألّفنا واخترعْنا، وتعلّمْنا فعلّمْنا، وبنينا فشيّدْنا، وغرسْنا فجنَيْنا، وعملْنا فربِحْنا، واجتهدْنا فأثرَيْنا، وأمّلنا فسعَيْنا، وسعَيْنا فبلَغْنا، فكأنّ الشعرَ سرُّ هذهِ الحياةِ، وعلّةُ هذا الوجودِ، لا تطيرُ إلينا الحقائقُ إلّا على جناحِه، ولا يطيبُ لنا العيشُ إلّا في جوارِه، فلنمجّدِ الشعراءَ كلَّ التمجيدِ، ولنكبرْهُم كلَّ الإكبارِ، فهم مشارقُ شموسِ الحكمةِ، ومطالعُ كواكبِ الفضلِ، وهم الينابيعُ الصافيةُ التي يترقرقُ ماؤها، ثم يتسرّبُ إلى الأفئدةِ فيملأها سعادةً وهناءةً.

❁ ❁ ❁

الشهيدتان

لم تغتمضْ عيناي ليلةَ أمسِ، لأنّني بتُّ أسمعُ في الدارِ الملاصقةِ لبيتي أنينَ امرأةٍ متوجّعةٍ، تعالجُ همًّا ثقيلًا، وتشكو مرضًا أليمًا، ويُخَيَّلُ إليّ أنّي لا أسمعُ بجانبها معلّلًا يعلّلُها، ولا جليسًا يتوجَّعُ لها، فلمّا أصبحَ الصباحُ ذهبتُ إليها، فإذا قاعةٌ صغيرةٌ مظلمةٌ لا تشتملُ على أكثرَ من سريرٍ بالٍ يتراءى فوقَه شبحٌ ماثلٌ من أشباحِ الموتى، فترفّقْتُ في مشيتي حتّى دنَوْتُ منها، وكأنّها شعرَتْ بمكاني فحرّكَتْ شفتَيْها تطلبُ جرعةَ ماءٍ، فأسعفْتُها بها. . فاستفاقَتْ

---

(١) الظنة: التهمة.

قليلًا، فوقفتُ بجانبها أسائلُها عن خطبِها[1]، فأنشأَتْ تقصُّ عليَّ قصّتَها بصوتٍ خافتٍ متقطّعٍ كنت كأنّي أنتزعُه من بين ماضغَيها انتزاعًا وتقول:

زوّجني أبي منذ سنواتٍ من رجلٍ مزواجٍ مطلاقٍ، لا يكادُ يصبرُ على امرأةٍ واحدةٍ عامًا واحدًا، ولو كان للفتاة رأيٌ في نفسِها من دون رأيِ أوليائها لعرفْتُ كيف أُحْسِنُ الاختيارَ لنفسي، بل لو لم يكن في الأمرِ إلّا أن أتبتّلَ كما تتبتّلُ الراهباتُ، أو أتزوّجَ زواجًا ينتهي بي إلى هذا المصير، لكان لي في الرهبانيّةِ رأيٌ غيرَ ما يراه النساءُ جميعًا، ولكنّني عجزتُ فأذعنْتُ، وحُملتُ إليه فاستقبلَني بأحسن ما يستقبلُ به الزوجُ الكريمُ أحظَى نسائِه لديه، وأكرمَهنّ عليه، فكان يريبُني من ذلك ما يريبُ الفريسةَ من ابتسامةِ الأسدِ.

وكنت أنتظرُ يومَ الفراقِ كما ينتظرُ المجرمُ يومَ القِصاصِ، فما أفقتُ من صرعةِ النفاسِ حتّى علمتُ أنّه خطبَ فتزوّجَ فبنَى، وأنّني أصبحتُ في المنزلِ وحيدةً منقطعةً لا مؤنسَ لي إلّا طفلتي الصغيرةُ، فجزعتُ عند الصدمةِ الأولى، ثمّ نزلتُ على حكمِ القضاءِ الذي لا أملكُ ردَّه، ولا أعرفُ وجهَ الحيلةِ فيه.

واحتملْتُ طفلتي إلى بيتِ أبي، فوجدتُه مريضًا مشرفًا، فبكى رحمةً بي، واستغفرَني من ذنبِه إليَّ فغفرتُه له، وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى مضَى لسبيلِه مفجوعًا برزئي الذي نزلَ بي، فعلمتُ أنّ الدهرَ قد سجّلَ عليَّ في جريدةِ الشقاءِ أيامًا طوالًا لا أعلمُ متَى يكونُ انقضاؤها، ولا أدري ما اللهُ صانعٌ فيها، فظللتُ أستكتبُ الناسَ الكتبَ إلى ذلك الرجلِ أسألُه القوتَ، لأستعينَ به على تربيةِ طفلتِه، أو التسريحَ، عسى أن يبدّلني اللهُ خيرًا منه زكاةً وأقربَ رحمًا، فضنّ بالأولى، واستعظمَ الأخرى.

فلمْ أرَ لي سبيلًا غيرَ سبيلِ العمل، فلبثْتُ بضعَ سنين ساهرةَ الليلَ، قائمةَ النهارَ، استقطرُ الرزقَ من سمّ الخياطِ، فلا أبلغَ منه الكفافَ، حتى نالَ منّي الجهدُ، فذهبتُ بمعضلةٍ من الأدواءِ خرجتُ لها عن كلِّ ما أملكُ من حيلةٍ وذخيرةٍ، وكسوةٍ وآنيةٍ، وأصبحتُ لا أملكُ درهمًا أبتاعُ به قارورةَ الدواءِ، ولا أجدُ مزقةً أمسكُ بها قوائمَ هذا السريرِ المتداعي، ولم يقنعِ الدهرُ منّي بذلك حتى رماني بالداهيةِ الدهياءِ التي يصغرُ بجانبها كلُّ عظيمٍ من خطوبِه ونكباتِه؛ فقد كتبتُ إلى ذلك الرجلِ منذ شهرٍ أصفُ له حالتي، وأُفضي إليه بذاتِ نفسي، وأسألُه أنْ يمدَّني وابنتي بقليلٍ من القوتِ نمسكُ به تلكَ الصبابةِ التي أبقَتْها خطوبُ الأيامِ وأرزاؤها من أعظُمِنا وجلودِنا، ولبثْتُ أترقّبُ رجعَ الكتابِ كما يترقّبُ الغريقُ سوادَ السفينةِ.

فإنّي لجالسةٌ منذ أيامٍ على هذا المقعدِ أعدُّ على الدهرِ ذنوبَه إليَّ وسيّئاتِه عندي، فلا أفرغُ من عقدٍ إلّا إلى عقدٍ، ولا أنتهي إلّا إلى حيث أبتدىءُ، وقد أجلستُ طفلتي بين يدي أتطلّعُ إلى وجهِها الساطعِ في ظلماتِ تلك الخطوبِ كما يتطلّعُ الملّاحُ في ظلماتِ بحرِه إلى نجمةِ

(١) الخطب: المصيبة.

القطبِ، إذ هجمَ عليَّ ذلك الظالمُ الجبّارُ فاختطفَ ابنتي من بين يدي من حيث لا أملكُ دفعًا لما نابني، ولا أجدُ ما أذودُ به عن نفسي، إلّا زفراتٍ لا يسمعُها سامعٌ، وعبراتٍ لا يرحمُها راحمٌ، فشعرتُ كأنّ سهمَ الدهرِ الذي كان يروغُ قبل اليوم ههنا وهنا، قد أصابَ في هذه المرةَ المقتلَ، فبتُّ ليلتي كما يجبُ أنْ تبيتَ امرأةٌ بائسةٌ معدمةٌ قد فجعَها الدهرُ بكلِّ ما تملكُ يدُها، وبكلِّ ما تتعلّقُ به آمالُها، فأصبحتْ لا تجدُ أمامَها يدًا تنبسطُ إليها، ولا عينًا تبكي عليها، وقد مرّ بي على ذلك نيّفٌ وعشرون ليلةً لا يرقأُ لي دمعٌ[1]، ولا يهدأُ بي مضجعٌ، حتّى إذا اختلسْتُ من يدِ الظلامِ نعسةً تراءَتْ لي تلك الفتاةُ في نومي كأنّها صارخةً باكيةً تهتفُ باسمي، وكأنّ أباها يوسعُها ضرْبًا وتعذيبًا، وكأنّني أحاولُ استنقاذَها ممّا هي فيه، فلا أجدُ إليها سبيلًا، وهأنذا أشعرُ أنّ سحابةَ الموتِ تغشى على بصري. وأنّي مفارقةٌ هذا العالمَ قبل أن ألقيَ على ابنتي نظرةً أتزوّدُ بها منها قبلَ أن أفارقَ هذه الدارَ.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحدّ، حتى جَرَضتْ[2] بريقها، وتتابعتْ أنفاسُها، وشطرَ بصرها، فجثوتُ عند سريرِها أدعو لها الله أن يُعينَها على أمرِها، ويمدَّها بحرمتِه وإحسانِه، فإنّي لكذلك، وقد استغرقْتُ في هذا المشهدِ الذي بين يدي استغراقَ العابدِ في هيكلِه، إذ رأيتُ من خلالِ الدموعِ التي كانت تزدحمُ في عيني شبحًا منتصبًا عند بابِ الغرفةِ، فتأمّلتُه، فإذا رجلٌ يُمْسِكُ بيده فَتاةً صغيرةً، فتقدّمتُ نحوه، فرأيتُه خاشعًا مستكينًا ينظرُ إلى فتاتِه نظراتِ الوجدِ والرحمةِ، والفتاةُ كأنّها خرقةٌ باليةٌ لا يتحرّكُ بها عضوٌ، ولا ينبضُ بها عرقٌ.

فقلت: من أنت وماذا تريدُ؟

قال: أنا زوجُ هذه المرأةِ ووالدُ هذه الفتاةِ.

قلت: لعلّك جئتَ تستغفرُها من ذنبِك إليها في التفريقِ بينها وبين ابنتِها؟

قال: يا سيّدي، ما زالتِ الفتاةُ مذ فارقتْ أمّها تبكي عليها بكاءً مرًّا، وتهتفُ باسمِها في يقظتِها ومنامِها، حتّى سقطَتْ مريضةً لا ينفعُها طبٌّ، ولا ينجعُ فيها دواءٌ، فلمّا رأيتُ أنّ الأمرَ قد وصلَ بها إلى هذا الحدِّ جئتُ بها إلى أمّها أرجو أن تجدَ بين ذراعَيْها شفاءً من دائها.

قلت: ذلك موكولُ إلى القضاءِ، ولا يعلمُ الغيبَ إلّا اللهُ. ثم تقدّمتُ نحو الفتاةِ، فرأيتُها تجودُ بنفسها، فاحتلمتُها برفقٍ حتّى وضعتُها بين ذراعي أمّها، فما هو إلّا أن هتفَتِ الفتاةُ بأمّها، والأمُّ بفتاتِها، حتّى فاضَتْ نفساهما معًا، كأنّما كانتا من الردى على ميعاد!

الآن وقد عدتُ من دفنِ تينك الشهيدتَين، وجلستُ لكتابةِ هذه السطورِ، أشعرُ أنّ نفسي تسيلُ من بين جنبي حزنًا على تلك المرأةِ المسكينةِ، لا بل حزنًا على جميعِ البائساتِ من النساءِ اللواتي يقتلهنّ الرجالُ كلَّ يوم صبرًا بسيفِ الطلاقِ الماضي[3]، من حيث لا يجدْنَ راحمًا يرحمُهنّ، ولا ثائرًا يثأرُ لهُنَّ.

---

(١) رقأ الدمع: سكن وانقطع.
(٢) جرضت بريقها: غصّت به.
(٣) الماضي: القاطع.

الدُّعاء

وهي خلاصةُ قصيدةٍ لفكتور هيجو:

قومي، يا بنيّةُ، إلى الصلاة، فقد نزلَ ستارُ الليلِ، ودبَّ الشَّفقُ الأحمرُ في حاشيةِ الأفقِ، وأطلّتْ عيونُ الكواكبِ من فروجِ السحبِ، وأجرى البدرُ المنيرُ ليقتَه الفضّيّةَ البيضاءَ على صفحةِ النهرِ، ومَسَحَتْ أيدي النسائمِ المبتلّةُ بندَى الليلِ عن أوراقِ الأشجارِ، غبارَ النهارِ.

قومي، يا بنيّةُ، إلى الصلاةِ، فقد ماتَ النهارُ، وماتَتْ بموتِه الآلامُ والأحزانُ والأحقادُ والأضغانُ، والمظالمُ والمآثمُ، ولم يبقَ من تلك الأعاصير والزوابعِ ما يعترضُ وفدَ الدعاءِ في طريقِه إلى أبوابِ السماءِ.

قومي، يا بنيّةُ، إلى الصّلاةِ، فقد أوَى الناسُ إلى منازلِهم، والطيورُ إلى وكناتِها، والوحوشُ إلى أوجرتِها، وأخذتِ الطبيعةُ مكانَها من مرقدِها، ولم يبقَ من أصواتِها إلّا أنينُ الرّاحةِ المتمثّلُ في جعجعةِ[1] هذه المركبةِ المقبلةِ، وجؤارِ هذه السائمةِ العائدةِ من حقولِها، ودمدمةِ تلك الرياحِ الضّاربةِ في ذوائبِ الأشجارِ، وأعالي الأبراجِ.

قومي، يا بنيّةُ، إلى الصلاةِ، فقد جاءتِ الساعةُ التي يجثُو فيها الأطفالُ حول أسرّتِهم حفاةَ الأقدامِ، عُراةَ الرؤوسِ، شواخصَ الأبصارِ، يطلبون الرّاحةَ من اللهِ تعالى لآبائِهم وأمّهاتِهم وللناسِ أجمعين، فترنُّ أصواتُهم، في علياءِ السماءِ، رنينَ نغماتِ الموسيقى في أجوازِ الفضاءِ، فيردّدُها الملائكةُ طائرين بها إلى عرشِ الرَّحمنِ، فإذا فرغوا من دعائهم، وقَضوا حقَّ اللهِ عندهم، وحقَّهم عند أنفسهم، ذهبُوا إلى مضاجعِهم، وناموُا نومًا هادئًا مطمئنًّا تتطايرُ فيه الأحلامُ الجميلةُ حول أفواهِهم الباسمةِ، كما تتطايرُ أسرابُ النحلِ حول أحواضِ الأزهارِ.

قومي، يا بنيّةُ، إلى الصلاةِ، واطلبي الرَّحمةَ لتلك التي الْتَقَطَتْ ذرّتَك الأولى من عالمِها، ثمّ اتخذَتْ لك من حنايا ضلوعِها سريرًا قبلَ سريرِك، ومن أحشائِها مهادًا قبل مهادِك، والتي قدّمَ لها الدهرُ كأسَيْ شقائِه ونعيمِه، فشربَتِ الأولى وآثرتْكِ بالأخرى.

اطلبي لها الرحمةَ فإنّها كانت طيّبةَ القلبِ، طاهرةَ النفسِ، تحبُّ حتّى من لا يحبُّها، وترحمُ حتّى من لا يرحمُها، وتبتسمُ ابتسامةً عذبةً صافيةً لا يمازجُها ذلك الرَّيبُ الذي يمازجُ ابتساماتِ النساءِ، وتمدُّ يدَها إلى اجتناءِ كلِّ ثمرةٍ إلّا ثمرةَ الشجرةِ المنهيّ عنها، وكانت تقفُ أمامَ مسرحِ الحياةِ الحافلِ بالزخارفِ والتهاويلِ وقفةَ المتمهّلِ الذي يتّهمُ سمعَه وبصرَه، وتنظرُ إليه نظرةَ الحكيمِ العاقلِ الذي يعلمُ أنَّ السعادةَ الكاذبةَ أمرُ مذاقًا في الأفواه من الشّقاءِ الصّادقِ، وأنّ الذين يضحكون سرورًا بهذه الصورِ الخاليةِ إنّما يبكون من حيث لا يشعرون، وأنّ الجالسين حول مائدةِ الشهواتِ واللّذائذِ إنّما يقامرون بأنفسِهم ولا بدّ أنّهم خاسرون،

(١) الجعجعة: هنا، الجلبة، الصوت.

فتحوّلُ بصرَها، وتشيحُ بوجهها، وتعودُ أدراجها، بقلبٍ غيرِ مخدوعٍ، وفؤادٍ غيرِ مصدوعٍ.

اذكري، يا بنيّةُ، أن تطلبي الرحمةَ لأبيك كما تطلبينها لأمّك، فهو أحوجُ إليها منها، ولأنّ الخطايا قد أثقلَتْ ظهرَه فأصبحَ لا يستطيعُ أن يرفعَ رأسَه إلى السَّماءِ؛ وغَلَّتْ يدَه، فلا يستطيعُ أن يمدَّها إلى اللهِ بالدعاءِ.

إنّني أشعرُ، يا بنيّتي، حينما أسمعُ نشيدَ دعائك أنّني أسمعُ صوتَ انقسامِ القيودِ عن قدمي، وأنّ تلك السحابةَ السوداءَ التي تغشى على عيني تنقشعُ عنها قليلًا قليلًا، وكأنّ جناحيَ المهيضَ[1] قد نبتَ له ريشٌ ناعمٌ جميلٌ أحاولُ أن أطيرَ به في أعالي السماءِ.

اطلبي الرحمةَ للآباء العائدين إلى منازلهم تحت جنحِ الظلامِ بدموعٍ منهلّةٍ، وقلوبٍ واجمةٍ، بعد أن سايروا الشمسَ من مشرِقها إلى مغربِها، فلم يجدوا ما يمسحون به دموعَ أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلِهم.

اطلبي الرحمةَ للأمّهاتِ الجالساتِ حولَ أسرّةِ أبنائهنّ المرضى وقد رجفَتْ قلوبُهنّ، وحارَتْ أبصارُهنّ مخافةَ أن يذقْنَ مرارةَ الثُّكلِ، والثُّكلُ كثيرٌ على قلوبِ الأمّهاتِ.

اطلبي الرحمةَ للبخيلِ الذي يجيعُ بطنَه ويشبعُ صندوقَه، والأحمقِ الذي يبتسمُ للمَعانِ الحريرِ في صدرِه، والذهبِ في أصابعِه، والملكِ الذي يشعلُ نارَ الحربِ في أمّتِه، ليطفىءَ نارَ غضبِه، والزوجِ الذي لا يحاسبُ نفسه على ليلةِ سوءٍ يقضيها خارجَ بيتِه، ويحاسبُ زوجَه على ابتسامةٍ تَبْسِمُها لرجلٍ غيرِه، وسائرِ البائسين الذين لا يشعرون ببؤسِهم، والأشقياءِ الذين يظنّون أنّهم سعداءُ.

اطلبي الرحمةَ لأولئك الذين عمرُوا الأرضَ وبنوا دُورَها، وشادوا قصورَها، وزخرفوا سهولَها وجبالَها، وأغوارَها، وأنجادَها، فجازَتْهم سوءًا بما عملوا، وابتلعَتْهم في أعماقِ جوفِها، فأصبحوا في تلك الحفرةِ المظلمةِ الموحشةِ التي تختلطُ فيها الرؤوسُ بالأقدامِ، والنِّعالُ بالتِّيجانِ، والتي ينطوي فيها كلّ قديمٍ تحت كلّ حديثٍ، انطواءَ اللّجةِ تحت اللّجةِ في البحرِ المحيطِ، يتألّمون ولا ينطقون، ويستصرخون فلا يجدون من يسمعُ نداءهم، أو يلبّي دعاءهم.

اطلبي الرحمةَ لهم، فإنّ الدعاءَ الخالصَ يستحيلُ في نظرِهم إلى روضةٍ غنّاءَ تزهرُ فوق أجداثِهم، واركعي فوق التربةِ التي يئنّون تحتها، واسقيها من دموعِك قطراتٍ باردةً تبلُّ غلّتَهم، وتطفىءُ جذوةَ الحزنِ الملتهبةَ في أحشائهم؛ إنّهم إلى الرحمةِ محتاجون وإلى اللهِ راغبون.

اطلبي الرحمةَ للأبرارِ والفجّارِ، والعصاةِ والطائعين، والملحدين والمؤمنين، وكلِّ دارجةٍ في الأرضِ، وكلِّ سابحةٍ في السماءِ، ولا تيأسي أن يستجيبَ اللهُ دعاءك. فلكلِّ بدايةٍ نهايةٌ، ولكلّ سائلةٍ قرارٌ.

كما أنّ النهرَ يصبُّ في البحرِ، والطائرَ يقعُ على الغصنِ، والشَّمسَ تجري لمستقرِّها، والنفسَ تصعدُ إلى عالمِها، كذلك أبوابُ السماءِ مفتوحةٌ لخالصِ الدعاءِ.

❁ ❁ ❁

---

(١) المهيض: المكسور.

الكوخ والقصر

أنا إن كنتُ حاسدًا أحدًا على نعمةٍ، فإنّي أحْسُدُ صاحبَ الكوخِ على كوخِه قبل أن أحْسُدَ صاحبَ القصرِ على قصرِه؛ لو أنَّ للأوهامِ سلطانًا على النُّفوسِ، لما تضاءلَتِ الفقراءُ بين أيدي الأغنياءِ، ولا ورمَ أنفُ الأغنياءِ أن يتّخذهم الفقراءُ أربابًا من دون اللهِ.

أنا لا أغبطُ الغنيّ إلّا في موطنٍ واحدٍ من مواطنِه، إنْ رأيتُه يشبعُ الجائعَ ويؤاسي الفقيرَ، ويعودُ بالفضلِ من مالِه على اليتيم الذي سلبَه الدهرُ أباه، والأرملةِ التي فجعَها القدرُ في عائلتها، ويمسحُ بيده دمعةَ البائسِ والمحزونِ، ثم أرثي له بعد ذلك في جميعِ مواطنِه الأخرى.

أرثي له إنْ رأيتُه يتربّصُ وقوعَ الضَّائقةِ بالفقيرِ ليدخلَ عليه مدخلَ الشيطانِ من قلبِ الإنسانِ فيمتصّ الثمالةَ الباقيةَ له من ماله ليسدَّ في وجهِه بابَ الأملِ، وأرثي له إن رأيتُه يعتقدُ أنّ المالَ هو منتهى الكمالِ الإنسانيِ، فلا يطمعُ في فضيلةٍ ولا يحاسبُ نفسَه على رذيلةٍ، وأرثي له وأبكي على عقلِه إنْ مشى الخُيَلاَ، وطاولَ بعُنُقِه السَّماءَ، وسلّمَ بإيماءِ الطرفِ، وإشارةِ الكفِّ، ومشَى في طريقِه يخزرُ بعينِه خزرًا ليرى هل سجدَ الناسُ لمشيتِه، أو صعقوا من هيبتِه؟ وأرحمُه الرحمَةَ كلَّها، إنْ عاشَ شحيحًا جِدًّا مقتّرًا على نفسِه وعيالِه، بغيضًا إلى قومِه وأهلِه، ينقمون عليه حياته، ويستبطئون ساعةَ حتفِه.

أمّا الفقيرُ، فهو أسعدُ الناسِ عيشًا، وأروحُهم بالًا، إلّا إذا كان جاهلًا مخدوعًا يظنُّ أنّ الغنيَّ أسعدُ منه حظًّا، وأرغدُ عيشًا، وأثلجُ صدرًا، فيحسدُه على النِّعمةِ التي أسبغَها اللهُ عليه، ويجلسُ في كسرِ بيتِه جلسةَ الكئيبِ المحزونِ يصعّدُ الزفرةَ فالزفرةَ، ويرسلُ العبرةَ فالعبرةَ. ولولا جهلُه وبلاهةُ عقلِه، لعلمَ أن رُبَّ صاحبِ قصرٍ يتمنّى كوخَ الفقيرِ وعيشَه، ويرى أنّ ذلك السِّراجَ الضَّعيفَ الذي لا يكادُ ينيرُ نفسَه أسطعُ ذبالًا، وأكثرُ لألاءً من تلك الشُّموعِ الباهراتِ التي تأتلقُ بين يديه، وأنّ تلك الحشيةَ من الشَّعرِ أو الوبرِ أنعمُ ملمسًا، وألينُ مضجعًا من وسائدِ الحريرِ ونضائدِ الديباجِ.

لقد بلغَ الضَّعفُ وصِغَرُ النفسِ بكثيرٍ من الناسِ أنّهم يحفلون بالأغنياءِ لأنّهم أغنياءُ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبلُّ غلّةً أو يسيغُ غصّةً؛ وليتَ شِعْري إن كان لا بدّ لهم من إجلالِ المالِ وإعظامِه حيث وجدَ، فلمَ لا يقبّلون أيدي الصَّيارفةِ، ولا ينهضون إجلالًا للكلابِ المطوّقةِ بالذهبِ، وهم يعلمون ألّا فرقَ بين هؤلاءِ وهؤلاءِ؟

لو عاملَ الفقراءُ بخلاَ الأغنياءِ بما يجبُ أن يعاملوا به، لوجَدُوا أنفسَهم في وحشةٍ من أنفسِهم، ولشعَرُوا أنّ بدراتِ الذهبِ التي يكنزونها إنّما هي أساورُ ملتفّةٌ على أقدامهم، وأغلالٌ آخذةٌ بأعناقهم، ولعلموا أنّ الشرفَ في كمالِ الأدبِ، لا في رنين الذهبِ، وفي جلائلِ الأعمالِ، لا في أحمالِ المالِ.

فَلْيُعَظِّم الناسُ الكرماءَ، وليَحْتَقِرُوا الأغنياءَ، وليعلمُوا أنّ الشرفَ شيءٌ وراءَ الغنى والفقرِ، وأنّ السّعادةَ أمرٌ وراء الكوخِ والقصرِ.

❁ ❁ ❁

على سرير الموت

مررتُ يومًا من الأيّام على بابِ منزلٍ صغيرٍ في أحدِ الأزقّةِ الضيّقةِ، فرأيتُ حوله مجمعًا حافلًا تصطكُّ فيه الأقدامُ بالأقدام، وتمتزجُ فيه الأنفاسُ بالأنفاسِ، وقد تخلّله قومٌ من رجالِ الشرطةِ، وسمعتُ قائلًا يقول: «قَبّح اللهُ الانتحارَ». وآخرَ يقول: «أحسبُه شابًا غريبًا لأنّي لم أرَ عينًا تدمعُ عليه»، فعلمتُ أنّ هناك شابًا منتحرًا، وأنّ هذا الحادثَ سببُ هذا الاجتماعِ.

لم أقنعْ بالإجمالِ، فأحبَبْتُ معرفةَ التفصيلِ، فحاولتُ الدخولَ إلى المنزلِ، فما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، فتربّثتُ حتى لمحتُ رجلًا من رجالِ الشرطةِ أعرفُه فدخلتُ معه، وهنالك رأيتُ على سريرِ الموتِ فتًى في نحو العشرين من عمره، رقيقَ الجسمِ أصفرَ اللونِ، لم تستطعْ يدُ الموت أن تمحوَ كلّ آثارِ جمالِه، بل بقيتْ منه بقيّةٌ كتلك البقيّةِ من الطيبِ التي يستنشقُها الإنسانُ في الزهرةِ الذابلةِ.

اهتمّ الضّابطُ بملابسِه لعلّه يجدُ فيها ما يدلُّ عليه، واهتمَّ الطّبيبُ بجثّتِه ليعرفَ علّةَ موتِه، أمّا أنا فجلستُ بجانبِهِ جِلْسَةَ الكئيبِ المحزونِ أفكّرُ في مصيبتِه، وأندبُ شبابَه وجمالَه، فلمحْتُ حولَ سريرِه أوراقًا منثورةً، فجمعْتُها ووضعْتُها في محفظتي من حيث لا يشعرُ الضابطُ ولا الطبيبُ بما أفعلُ، علّني أجدُ فيها عبرةً من العبرِ.

وما هي إلّا ساعةٌ، حتّى قرّرَ الطبيبُ أنّه منتحرٌ بشربِ مادّةِ الزّرنيخِ، وقرّرَ الضابطُ نقلَ جثّتِه إلى المستشفى، فنُقلتِ الجثّةُ، وانفضَّ الجمعُ المزدحمُ، ثمَّ لم أعدْ أعلمُ بعد ذلك من أمرِه شيئًا.

خَلَوْتُ بنفسي والأوراقَ، فنثرتُها، فرأيتُها مجموعةَ خواطرِ عاشقٍ، تناولَ كأسَ الحبّ بيدِه، فارتشفَ منها الرَّشفةَ الأولى، فوجدَها حلوةَ المذاقِ، فألصقَ الكأسَ بفمِه، واستمرَّ يشربُ لا يرفعُها، ولا يشعرُ بالمرارةِ المتجدّدةِ في جرعاتِها حتّى أتى على الجرعةِ الأخيرة، فإذا هي السُّمّ النَّاقعُ الذي قتلَه، وذهبَ بحياتِه.

قرأتُ تلك المذكراتِ، فبكيتُ بكاءَ رحمتُ نفسي منه، ثمّ طويتُها وألقيتُ بها بين أوراقي، وظلّتْ على ذلك أعوامًا طوالًا.

وبينا أنا أقلّبُ أوراقي ليلةَ أمسِ، إذ عثرتُ بها في سفطٍ[1] صغيرٍ، قد اصفرّ لونه لتقادمِ

---

(١) السفط: وعاء للطيب وأدوات النساء.

العهدِ عليه، كما يصفرُّ الكفنُ حول الجثّةِ الباليةِ، فشعرتُ برعدةٍ تتمشّى في أعضائي، وتخيّلتُ أنّها في هذا السّفطِ شبحُ كاتبِها في ذلك القبرِ.

ثمّ عدتُ إلى نفسي، فنثرتُها للمرّةِ الثانية، وأعدتُ قراءتها، فرأيتُ قلبَ العاشقِ مرسومًا فيها رسْمًا صحيحًا في حالَيْ سعادتِه وشقائِه، وهأنذا أنشُرها في النَّاسِ لتكونَ عبرةً يعتبرُ بها المخاطرون بقلوبِهم في هذا السبيلِ، سبيلِ الحبِّ القاتلِ.

— ١ —

رأيتُها فأحبَبْتُها، وما كنتُ أعرفُ الحبَّ من قبلِها.

كان قلبي في ظلامٍ حالكٍ لا يرى حتّى نفسَه؛ فلمّا أشرقَ فيه الحبُّ، أشرقتْ فيه شمسٌ ساطعةٌ منيرةٌ؛ لها من الشّمسِ نورُها وجمالُها، وليس لها منها حرارتُها ولذعتُها.

كنت أشعرُ قبلَ اليوم كأنّ قلبي في صحراءِ هذه الحياةِ وحيدٌ موحشٌ لا يعرفُ القلوبَ، أو يعرفُها ثم ينكرُها، فلمّا أحبَبْتُ، رأيتُ بجانبه قلبًا يؤنسُه ويزيلُ وحشتَه، فوجدتُ بين جوانحي من اللّذّةِ والغبطةِ ما لو قُسّمَ على القلوب جميعًا، ما خالطَها حزنٌ، ولا مسّها ألمٌ.

كنت أسمعُ باسمِ السعادةِ، ولا أفهمُ معناها غيرَ أنّي كنت أسمعُهم إذا ذكروها، ذكروا بجانبها القصرَ والحديقةَ، والفضّةَ والذّهبَ، والسُّلطةَ والجاهَ، والشُّهرةَ والصّيتَ، فلمّا أحْبَبْتُ، اعتقدتُ ألّا سعادةَ في الدنيا غيرُ سعادةِ الحبِّ، وأيقنْتُ أنّ النَّاسَ جميعًا إنّما يطلبون سعادةَ الأجسامِ لا سعادةَ النفوسِ، فمَثَلُهم كمَثَلِ الدفينِ المكفّنِ بالحريرِ والديباجِ، وباطنُه مسرحُ الدودِ ومرتعُ الهوامِ والحشراتِ.

— ٢ —

أحببتُها قبلَ أن أعرفَ عنها شأنًا من الشؤونِ سوى أنّها تحبّني، فكأنّني ما منحتُها قلبي إلّا لأنّها منحَتْني قلبَها، وهو ثمنٌ قليلٌ في جانبِ هذه المنحةِ الغاليةِ التي ما كنت أحدّثُ نفسي بها، ولا كانت تستطيعُ أن تمثّلَها في عيني خواطرُ الأمانيّ، ولا سوانحُ الأحلامِ.

عشتُ دهرًا بين أقوامٍ لا يعنيهم أمري، ولا يهمُّهم شأني، وذقتُ من آلامِ الحياةِ وشقاءِ العيشِ ما لا يستطيعُ أنْ يحتملَه بشرٌ، فسمعتُ من يسألُني: كيف حالُك؟ ومن يقول لي: ما أشدَّ جزعي لمصابك؟ ومَنْ يتباكَى رحمةً بي وإشفاقًا عليّ، ولكنّي لم أرَ بجانبي يومًا من الأيّامِ عينًا تدمعُ، ولا قلبًا يخفقُ!

رأيتُ مَنْ يحبُّ جمالي كما يحبُّ تمثالًا مُتقَنَ الصنعِ، ومن يحبُّ مالي كما يحبُّه في كيسِه أو خزانتِه، ومن يعجبُ بحديثي إعجابَه بروايةٍ بديعةٍ، ولكنّي لم أرَ في حياتي من يحبّني!

أمّا اليومَ فقد وجدتُ بجانبي القلبَ الذي يخفقُ لأجلي، والعينَ التي تبكي في سبيلي، والنفسَ التي تحبّني لا لشيءٍ سواي، فقليلٌ لها منّي أن أمنحَها حياتي فكيفَ أبخَلُ عليها بقلبي!

ـ ٣ ـ

جلستُ إليها للمرّةِ الأولى فحدّثَتني نفسي أن أمدَّ يدي إلى يدِها فأضعَها على صدري لأطفئ بها غلّتي، فما لمستُها حتى نظرتْ إليّ نظرةَ العاتبِ، وقالت: كن رجلًا في حبّك، واتركِ الطفولةَ لغيرِك.

إن كنت تحبّني لنفسي فها أنت قد ملكْتَها عليّ وأحرزْتَها من دوني.. وإن كنت تحبّني لهذه الصورةِ الجسمانيّةِ فما أضعفَ همّتَك.. وما أصغرَ نفسَك!

أتذرفُ دمعَك، وتسهرُ ليلَك، وتذيبُ حبّةَ قلبِك، من أجلِ عظمةٍ تلمُسُها أو جلدةٍ تلثُمُها؟

أنت شريفٌ في نفسِك، فكن شريفًا في حبِّك، واعلمْ أنّني ما أحبَبْتُ غيرَ نفسِك فلا تحبَّ غيرَ نفسي.

وما وصلَتْ من حديثِها إلى هذا الحدّ حتى رأيتُني قد صغرْتُ في عينِ نفسي، وتمنّيتُ أن لو عجّلَ إليّ أجلي قبل أن يمرَّ هذا الخاطرُ الفاسدُ في ذهني. ثم استوهَبْتُها ذنبي فوهبَتْه لي، وما عذتُ من بعدها إلى مثلِها.

ـ ٤ ـ

الآن عرفتُ مبلغَ عظمتِها، وفضلَ هدايتِها، ومقدارَ ما يبلغُه الحبُّ الشريفُ من النفسِ، فهأنذا أشعرُ كأنّ نفسي مرآةٌ يغشاها الصدأُ، وكأنّ الحبَّ صيقلٌ يصقلُها فيجلو صفاتِها شيئًا فشيئًا.

كنت أحملُ بين جوانحي لأعدائي ضغنًا وحقدًا، فأصبحتُ لا أشعرَ بما كنت أشعرُ به من قبلُ، لأنّ الحبَّ ملكَ عليّ قلبي، واستخلَصه لنفسِه فلم يتركْ فيه مجالًا لشيءٍ سواه.

كنتُ ضيّقَ الصدرِ إن مسّني ألمٌ.. سريعَ الغضبِ إنْ فاتني مأربٌ.. فأصبحْتُ فسيحَ رقعةِ الحلمِ، لا يستفزّني غضبٌ، ولا يُحرجني محرجٌ لأنّي قنعتُ بسعادةِ الحبِّ، فلم أحفلْ بعدها بشيءٍ سواها.

كنتُ شديدَ القسوةِ، متحجّرَ القلبِ، لا أعطفُ على بائسٍ، ولا أحنو على ضعيفٍ، فأصبحْتُ أشعرُ بالمصيبةِ أراها تصيبُ غيري ولا تصيبني، وأتألمُ لبؤسِ كلِّ بائسٍ، وحزنِ كلِّ محزونٍ، لأنّ الحبَّ أشرقَ في قلبي فملأه نورًا.. فارتفعَ ذلك الستارُ الذي كان مسبلًا بينه وبين القلوبِ.

وجملةُ القولِ إنّني كنتُ وحْشًا ضاريًا أعيا العالمين رياضتُه وتذليلُه، فصرتُ بين يدي الحبِّ الشريفِ إنسانًا شريفًا، وملِكًا كريمًا.

ـ ٥ ـ

خرجتُ بها في الليلِ إلى ضِفّةِ النهرِ، وكان الماءُ رائقًا، والسماءُ صافيةً، وفي كلٍّ منهما نجومٌ وكواكبُ تتلألأ في صفحتِه، فاختلطَ علينا الأمرُ حتّى ما نفرّقَ بين الأصلِ والمرآةِ ولا ندري أين مكانُ الماء من مكانِ السماء، فمشينا طويلًا لا ينبسُ أحدنا بكلمةٍ، وكأنّ سكونَ

الليلِ قد سرَى إلى أفئدتِنا، وملأ ما بين جوانحنا، فأمسكنا عن الحديثِ هيبةً وإجلالًا.

وكنتُ أشعرُ في تلك الساعةِ بخفّةٍ في جسمي، وصفاءٍ في نفسي حتى كان يُخَيَّلُ إليّ أنّي لو شئتُ أن أطيرَ لطرتُ بغيرِ جناحٍ، وأنّ في استطاعتي أن أخترقَ بنظري حجبَ السماءِ وأنفذَ إلى الملأ الأعلى، فأرى هنالك ما هو محجوبٌ عن نظرِ الناسِ أجمعين، وحتّى صرتُ أتمنّى أن يضلّ النجمُ سبيلَه، فلا يهتدي إلى مغربِه، وأن يختبىءَ الليلُ في بردتِه، فلا يعثرُ به فجرُه، وأن تستمرَّ مشيتُنا هذه ما ضلَّ النجمُ وما دام الظلامُ.

فالتفتُّ إليها وسألتُها: هل تشعرين بالسعادةِ التي أشعرُ بها؟

قالت: لا، لأنّي أعرفُ من شؤونِ الأيّامِ وأحوالِها غيرَ ما تعرفُ، ولأنّي لا أنظرُ إلى الدنيا بالعينِ التي تنظرُ بها إليها!

أنت سعيدٌ بالأمل، وأنا شقيّةٌ بالحقيقةِ الواقعةِ.

إنّك سعيدٌ لأنّكَ تظنُّ أنّ سعادتَك دائمةٌ لا انقطاعَ لها، وأنا شقيّةٌ لأنّي أتوقّعُ في كلِّ لحظةٍ زوالَها وفناءها.

إنّك إن استطعْتَ أن توقفَ الشمسَ في كبدِ السماءِ، وأن تحولَ بين الأرضِ ودورتِها، وأنْ تمنعَ الساكنَ أنْ يتحرَّكَ، والمتحرّكَ أن يسكنَ، فاضْمَنْ لنفسِك استمرارَ السعادةِ وبقاءَها.

وهنا أمسكَتْ عنِ الكلامِ، وأطرقَتْ برأسِها طويلًا، فرأيتُ مدامعَها تنحدرُ على خدَّيْها بيضاءَ صافيةً كاللؤلؤِ المكنونِ، فبكيتُ لبكائِها، وقلت: لِمَ تبكين؟ قالت: خوفَ الفراقِ. قلت: فراقُ الحياةِ، أو فراقُ الموتِ؟ قالت: أمّا فراقُ الحياة فإنّني لا أخافُه، لأنّه لا تُوجدُ قوّةٌ في العالمِ تستطيعُ أن تَحُولَ بيني وبينك، إنّما أخافُ فراقَ الموتِ، لأنّه الفراقُ الذي لا حيلةَ لي فيه.. ولا منتدحَ عنه. قلت: هل لكِ أن نتعاهدَ على أن نعيشَ معًا ونموتَ معًا؟ قالت: ذلك ما يهوّنُ عليّ ألمي. فتعاهَدْنا، ثمّ رجعْنا أدراجَنا، والليلُ يشمّرُ أذيالَه للفرارِ من النهارِ، ثمّ افترقْنا على ميعادٍ، وذهبَ كلٌّ منّا لسبيلِه.

– ٦ –

ألا يستطيعُ هذا الدهرُ الغادرُ أن ينامَ ساعةً واحدةً عن هذا الإنسانِ؟

ألا يستطيعُ أن يستقيَه كأسًا واحدةً لا يخالطُها كَدَرٌ، ولا يمازجُها شقاءٌ؟

ألا يستطيعُ أن يحرمَه السعادةَ بتاتًا فلا يذيقُه من كأسِها قطرةً واحدةً ما دامَ يريدُ أن يمنحَه اليومَ ليسلبه غدًا؟

إنّ الإنسانَ لا يعجزُ عنِ احتمالِ الشقاءِ الدائم، ولكنّه يعجزُ عن احتمالِ السعادةِ المتقطّعةِ.

يقولون: إنّ الأملَ حياةُ الإنسانِ، وما قَتَلَ الإنسانَ ومزّقَ شملَ حياتِه إلّا الأملُ.

ليتني ما سعدْتُ، لأنّني ما شقيتُ إلّا بسعادتي، وليتني ما أَمّلْتُ، لأنّ اليأسَ القاتلَ ما جاءني إلّا من طريقِ الأملِ الباطلِ.

ماتتِ الفتاةُ التي كانت شمسَ حياتي، وأشعّةَ آمالي، ويَنبوعَ سعادتي وهناءتي.

ماتتِ الفتاةُ التي كانت ملءَ الدنيا جمالًا وبهاءً، فماتَ بموتها كلُّ حيٍّ في هذا الوجودِ.

أرى الأرضَ غيرَ الأرضِ، والسماءَ غيرَ السماءِ، وأرى الطيورَ صامتةً لا تغرّدُ، والغصونَ ساكنةً لا تتحرّكُ، وأرى النجومَ آفلةً، والأزهارَ ذابلةً، والطبيعةَ واجمةً حزينةً، لا يفترُّ ثغرُها ولا يتلألأ جمالُها، وأرى الدنيا كأنّما عادتْ إلى عهدِها الأوّلِ لا يسكنُها إنسانٌ، ولا يخطرُ بها حيوانٌ، وكأنّني فيها آدمُها الوحيدُ المسكينُ يندبُ جنّته ويشكو وحدتَه.

أيّها الدهرُ الغادرُ! إن غلبْتني عليها فإنّك لن تستطيعَ أن تغلبَني عن نفسي، لك أنْ تُخرجَ من الدنيا من تشاءُ، ولكن ليس لك أن تردَّ إليها من تَخْرجُ منها.

ويا أيّتها النفسُ الهائمةُ في سمائها، لا تجزعي ولا تعجلي، فواللهِ لأفينَّ بعهدِك ولأذهبنَّ عمّا قليلٍ وحشتَك ليكوننّ عهدنا في مستقبلِنا كعهدِنا في ماضينا، فما تعارفنا في العالمِ الأولِ إلّا بأرواحِنا فلنَكُنْ كذلك في العالمِ الثاني.

❃ ❃ ❃

غدر المرأة

يقصّون في بعضِ الأساطيرِ القديمةِ أنّ حكيمًا من حكماءِ اليونان كان يحبّ زوجتَه حبًّا ملكَ عليه قلبَه وعقلَه.. وأحاطَ به إحاطةَ الشعاعِ بالمصباحِ المتّقدِ، وكان يمازجُ هناءتَه الحاضرةَ شقاءُ مستقبلٍ يسوقُه إلى نفسِه الخوفُ من أنْ تدورَ الأيّامُ دورتَها، فيموتَ ويفلتَ من يدِه ذلك القلبُ الذي كان مغتبطًا باعتلاقِه إلى صائدٍ آخرَ يعتلقُه من بعده، وكان كلّما أبثَّ[1] زوجتَه سرَّه، وشكَا إليها ما يساورُ قلبَه من ذلك الهمِّ، حنَتْ عليه، وعلّلته بمعسولِ الأماني، وأقسمَتْ له بكلِّ محرجةٍ من الإيمانِ أنّها لا تستردُّ هبةَ قلبها منه حيًّا وميتًا.

فكان يسكنُ إلى ذلك الوعدِ سكونَ الجرحِ الذربِ تحت الماء الباردِ.. ثم لا يلبثُ أن يعودَ إلى هواجسِه ووساوسِه، حتّى مرّ في بعضِ روحاتِه إلى منزلِه في إحدى الليالي المقمرةِ بمقبرةِ المدينةِ.. فبدا له أن يدخلَها ليروّحَ عن نفسِه همومَ الموتِ بوقفةٍ بين قبورِ الموتَى، وكثيرًا ما يتداوَى شاربُ الخمرِ بالخمرِ، ويلذّ للجبانِ وهو يرتعدُ فرَقًا الإصغاءُ إلى حديثِ المردةِ والجانِ، فرأى في بعضِ مذاهبِه بين تلك القبورِ امرأةً متسبّلةً جالسةً أمامَ قبرٍ جديدٍ لم يجفّ ترابُه وبيدِها مروحةٌ من الحريرِ الأبيضِ مطرّزٍ بأسلاكٍ من الذهبِ، تحرّكها يمنةً ويسرةً لتجفّفَ بها بللَ ذلك الترابِ، فعجبَ لشأنها وتقدّمَ نحوها فارتاعتْ لمرآه.. ثم أنسَتْ به حينما عرفَتْهُ.. فسألَها ما شأنها.. وما مقامُها هنا؟ ومن هذا الدفينُ؟ وما هذا الذي تفعلُ؟

---

(١) أبثّه السرّ: أطلعه عليه.

فأبتْ أن تجيبَه عمّا سألَ حتى تفرغَ من شأنها، فجلسَ إليها وتناولَ المروحةَ منها، وظلَّ يساعدُها في عملها حتى جفَّ الترابُ، فحدّثتْهُ أنّ هذا الدفينَ زوجُها، وأنّه مات منذ ثلاثةِ أيامٍ، وأنّها جالسةٌ من الصباحِ مجلسَها هذا لتجفّفَ ترابَ قبرِه وفاءً بيمينٍ كانت قد أقسمَتْها له في مرضِ موتِه ألّا تتزوّجَ من غيرِه حتّى يجفَّ ترابُ قبره، وأنّ هذه الليلةَ هي ليلةُ بنائِها بزوجِها الثاني فأبَى لها وفاؤها لهذا الدفينِ الذي كان يحبّها، ويحسنُ إليها أن تحنَثَ بيمينٍ أقسمَتْها له.. أو تخيسَ بما عاهدتْه عليه، ثم قالت له: هل لك يا سيّدي أن تقبلَ هذه المروحةَ هديّةً منّي إليك.. وجزاءً لك على حسنِ صنيعِك معي؟ فتقبّلها منها شاكرًا بعد أن هنّأها بزواجِها الجديد! ثمّ انصرفَ وليس وراء ما به من الهمِّ غايةٌ، ومشى في طريقهِ مِشيَةَ الرانحِ النشوانِ يحدّث نفسَه ويقول: إنّه أحبّها وأحسنَ إليها، فلمّا مات جلسَتْ فوق قبرِه لا لتبكيَه.. ولا لتذكرَ عهدَه، بل لتتحلّلَ من يمينِ الوفاءِ التي أقسمَتْها له؛ فكأنّها وهي جالسةٌ أمامَ زوجِها الأولِ تعدّ عددَ الزواجِ من زوجِها الثاني، وكأنّما اتّخذَتْ من صفائحِ قبرِه مرآةً تصقلُ أمامَها جبينَها، وتصفّفُ طرّتَها وتلبَسُ حليتَها للزفافِ إلى غيرِه.

وما زال يحدّثُ نفسَه بمثلِ هذا الحديثِ حتى رأى نفسَه في منزله من حيث لا يشعرُ، ورأى زوجَه ماثلةً أمامَه مرتاعةً لمنظرِه المؤلمِ المحزنِ، فقال لها: إنّ امرأةً خائنةً غادرةً أهدَتْ إليّ هذه المروحةَ فقبِلتُها منها إليك.. لأنّها أداةٌ من أدواتِ الغدرِ والخيانةِ، وأنت أولى بها منّي. ثم أنشأ يقصُّ عليها قصّةَ المرأةِ حتّى إتى عليها، فغضبتْ وانتزعتِ المروحةَ من يدِه ومزّقَتْها إرَبًا إرَبًا.. وأنشأتْ تسبُّ تلك المرأةَ وتشتمُها، وتنعي عليها غدرَها وخيانتَها وسفالتَها ودناءَتها، ثم قالت: ألَا يزالُ هذا الوسواسُ عالقًا بصدرِك ما دمتَ حيًّا؟ وهل تحسبُ أنّ امرأةً في العالمِ ترضَى لنفسِها بما رضيَتْ به لنفسِها تلك المرأةُ الغادرةُ؟ فقال لها: إنّكِ أقسمتِ لي ألّا تتزوّجي من بعدي، فهل تفِيْنَ بعهدِك؟ قالت: نعم، ورماني الله بكلِّ ما يرمي الغادرَ إن أنا فعلتُ. فاطمأنّ لقسمِها وعادَ إلى هدوئه وسكونِه.

مضى على ذلك عامٌ، ثم مرضَ الرجلُ مرضًا شديدًا، فعالجَ نفسَه، فلم يجدِ العلاجَ حتّى أشرفَ على الموتِ، فدعا زوجتَه وذكّرَها بما عاهدَتْه عليه، فاذكّرَتْ. فما غربتْ شمسُ ذلك اليومِ حتى غربَتْ شمسُه، فأمرَتْ أن يُسجّى بردائِه ويتركَ وحدَه في قاعتِه حتى يُحْتَفَلَ بدفنِه في اليومِ الثاني، ثم خلَتْ بنفسِها في غرفتِها تبكيه وتندبُه ما شاء اللهُ أن تفعلَ. وإنّها لكذلك إذ دخلَتْ عليها الخادمُ وأخبرَتْها أنّ فتًى من تلاميذِ مولاها حضرَ الساعةَ من بلدتِه ليعودَه حينما سمعَ بخبرِ مرضِه، فلمّا سمعَ حديثَ موتِه ذُعِرَ ذعرًا شديدًا، وخرّ في مكانه صعقًا، وأنّه لا يزال صريعًا عند بابِ المنزلِ لا تدري ما تصنعُ في أمرِه، فأمرَتْها أن تذهبَ به إلى غرفةِ الأضيافِ، وأن تتولّى شأنَه حتّى يستفيقَ، ثم عادتْ إلى بكائِها ونحيبِها، فلمّا مرَّ الهزيعُ الثاني من الليل دخلَتْ عليها الخادمُ مرّةً أخرى مذعورةً مرتاعةً وهي تقول: رحمتَك وإحسانَك يا

سيّدتي فإنّ ضيفَنا يعالجُ من آلامِهِ وأوجاعِه عذابًا أليمًا، وقد حرتُ في أمرِه، وما أحسبُه إنْ نحن أغفلْنا أمرَه إلّا هالكًا.

فأهمّها الأمرُ، وقامتْ تتحاملُ على نفسِها حتى وصلَتْ إلى غرفةِ الضيفِ، فرأتْه مسجّى على سريرِه، والمصباحُ عند رأسه فاقتربَتْ منه، ونظرَتْ في وجهِه، فرأتْ أبدعَ سطرٍ خطّته يدُ القدرةِ الإلهيّةِ في لوحِ الوجودِ، فخُيّلَ إليها أنّ المصباحَ الذي أمامها قبسٌ من ذلك النورِ المتلألىءِ في ذلك الوجهِ المنيرِ، وأنّ أنينَه المنبعثَ من صدرِه نغمةٌ موسيقيّةٌ محزنةٌ ترنّ في جوفِ الليلِ البهيمِ، فأنساها الحزنُ على المريضِ المشرفِ الحزنَ على الفقيدِ الهالكِ، وعناها أمرُه، فم تتركْ وسيلةً من وسائلِ العلاجِ إلّا توسّلَتْ بها إليه حتّى استفاقَ، ونظرَ إلى طبيبتِه الراكعةِ بجانبِ سريرِه نظرةَ الشكرِ والثناءِ، ثمّ أنشأ يقصُّ عليها تاريخَ حياتِه، فعرفَتْ من أمرِه كلَّ ما كان يهمُّها أن تعرفَه، فعرفَتْ مسقطَ رأسِهِ، وسيرةَ حياتِه وصِلتَه بزوجها، وأنّه فتًى غريبٌ في قومِه لا أبَ له، ولا أمَّ، ولا زوجةَ ولا ولدَ.

وهنا أطرقَتْ برأسِها ساعةً طويلةً عالجَتْ فيها من هواجسِ النفسِ ونوازعِها ما عالجَتْ، ثم رفعَتْ رأسَها وأمسكَتْ بيدِه؛ وقالت له: إنّك قد ثكلتَ أستاذَك، وأنا ثكلتُ زوجي، فأصبحَ همُّنا واحدًا، فهل لك أن تكونَ عونًا لي، وأن أكونَ عونًا لك على هذا الدهرِ الذي لم يتركْ لنا مساعدًا ولا معينًا. فألمَّ بخبيئةِ نفسِها، فابتسمَ ابتسامةَ الحزنِ والألمِ، وقال لها: من لي يا سيّدتي أن أظفرَ بهذه الأمنيةِ العظمى، وهذا المرضُ الذي يساورني ولا يكادُ يهدأُ عنّي قد نغّصَ عليّ عيشي، وأفسدَ عليّ شأنَ حياتي، وقد أنذرني الطبيبُ باقترابِ ساعةِ أجلي إن لم تدركْني رحمةُ الله، فاطلبي سعادتَك عند غيري، فأنت من بناتِ الحياةِ، وأنا من أبناء الموت.

فقالت له: إنّك ستعيشُ، وسأعالجُك ولو كان دواؤك بين سحري ونحري. قال: لا تصدّقي ما لا يكونُ يا سيّدتي فأنا عالمٌ بدوائي، وعالمٌ بأنّي لا أجدُ السبيلَ إليه. قالت: وما دواؤك. قال: حدّثَني طبيبي أنّ شفائي في أكل دماغِ مَيْتٍ ليومِه، وما دام ذلك يعجزني فلا دواءَ لي ولا شفاءَ.

فارتعدَتْ وشحبَ لونُها، وأطرقَتْ إطراقةً طويلةً لا يعلمُ إلّا اللهُ ماذا كانت تحدّثُها نفسُها فيها.. ثم رفعَتْ رأسَها وقالت: كن مطمئنًّا فدواؤك لا يعجزني. ثم أمرتْه أن يعودَ إلى راحتِه وسكونِه، وخرجَتْ من الغرفةِ متسلّلة حتّى وصلَتْ إلى غرفةِ سلاحِ زوجِها فأخذَتْ منها فأسًا قاطعةً، ثم مشَتْ تختلسُ خطواتِها اختلاسًا حتى وصلَتْ إلى غرفةِ الميتِ، ففتحَتِ البابَ فدارَ على عقبِه، وصرّ صريرًا مزعجًا، فجمدَتْ في مكانِها رعبًا وخوفًا، ثم دارَتْ بعينَيْها حولَها فلم ترَ شيئًا فتقدّمَتْ لشأنِها حتّى دنَتْ من السريرِ، ورفعَتِ الفأسَ لتضربَ بها رأسَ زوجِها الذي عاهدَتْه ألّا تتزوّجَ من بعدِه، ولم تكدْ تهوي بها حتّى رأتِ الميتَ فاتحًا عينَيه ينظرُ إليها، فسقطتِ الفأسُ من يدِها، وسمعَتْ حركةً وراءَها، فالتفتَتْ فرأتِ الضيفَ والخادمَ واقفَين يتضاحكان ففهمَتْ كلَّ شيءٍ.

وهنا تقدّمَ نحوها زوجُها وقال لها: أليستِ المروحةُ في يدِ تلك المرأةِ أجملَ من هذه الفأسِ في يدِك؟ أليستِ أَلَيْسَتِ التي جفّفتْ ترابَ قبرِ زوجِها بعد دفنِه أفضلَ من التي تكسرُ دماغَه قبلَ نعيِه؟ فصارَتْ تنظرُ إليه نظرًا غريبًا، ثم شهقَتْ شهقةً كانت فيها نفسُها.

❃ ❃ ❃

الضّاد[1]

كان العربُ الأوّلون أحرارًا في لغتهم، يضعون لكلٍّ ما يخطرُ ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظِ، لا يتقيّدون بقاعدةٍ ولا شرطٍ، ونحن عربٌ مثلُهم تجري في عروقنا دماؤهم، كما تجري في عروقهم دماءُ آبائهم من قبلُ، فسهمُنا في الضادِ سهمُهم، وحقُّنا فيها حقُّهم، فلمَ يضعون الألفاظَ للتّفاهم والتّخاطبِ، ولا نضعُها مثلَهم لمثلِ ما وضعوا وحاجاتُنا أكثر من حاجاتِهم، ومَرافقتُنا أوفرُ عددًا من مرافقِهم، وأوسعُ فصولًا وأنواعًا؟

أين باديتُهم الخلاءُ المقفرةُ التي لا يعمرُها إلّا القليلُ من الخيامِ المبعثرةِ بين معاطنِ الإبلِ، ومرابضِ الشّاءِ، من مدائننا الفاخرةِ الزّاخرةِ الحافلةِ بصنوفِ الموجوداتِ، وأنواعِ الآلاتِ، وغرائبِ المصنوعاتِ، وأكثرُها مستحدثٌ متطرفٌ لم تتداولْه السنونُ والأيامُ، ولم تعصفْ به عواصفُ القرونِ والأعوامِ.

أليس من الظُّلم المبينِ والغُبنِ الفاحشِ، أن تضيقَ حاجاتُهم عن لغتهم، فيتفكّهوا بوضعِ خمسمائة اسم للأسدِ، وأربعمائة للدّاهيةِ، وثلثمائة للسَّيفِ ومائتين للحيّةِ وخمسين للنّاقةِ؟ وتضيق عن حاجاتِنا، فلا نعرفُ لأداةٍ واحدةٍ من آلافِ الأدواتِ التي يضمّها المعملُ اسمًا عربيًّا واحدًا؟ اللّهمّ إلّا القليلَ التافهَ من أمثالِ: المسبر[2] والمبرد، والمنشار والمسمار؟

أيكونُ لسفينة البرّ - وهي لا تحملُ إلّا الرجلَ، أو الرجلَ ورديفَه - مائتا اسم ومائتان من الأسماءِ لأعضائها وأوصالها، ورحلِها وكورِها، ولا يكونُ لسفينةِ البحرِ - وهي المدينةُ المتنقّلةُ في الدأماء[3] - القليلُ من ذلك الحظّ الكثير؟

كان لعربِ الجاهليّةِ الأولى مؤتمرٌ لغويٌّ يعقدونه في كلِّ عام بالحجازِ بين نخلةَ والطائف، يجتمعُ فيه شعراؤهم وخطباؤهم، يتناشدون، ويتساجلون، ويتحاورون، ويتطارحون، ويعرضون أنفسَهم على قضاةٍ منهم يوازنون بينهم، ويحكمون لمبرّزِهم على مقصّرِهم، حكمًا لا يردُّ ولا يعارضُ. ولقد شعروا بضرورة عقدِ هذا المؤتمرِ عندما أحسّوا بتشعّب لغتِهم بين اليمنِ والشّام ونجدٍ وتهامةَ لصعوبةِ التواصلِ في تلك البقاعِ، وبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها، فكان مطمحَ

---

(١) الضاد: عنوان اللغة العربيّة.

(٢) المسبر: آلة لقياس العمق.

(٣) الدأماء: البحر.

أنظارِهم في ذلك المجتمع توحيدَ لغتِهم وجمعَ شتاتِهم، والرجوعَ بها إلى لغةِ قريش التي هي أفصحُ اللغاتِ، وأقربُها مأخذًا، وأسهلُها مساغًا، وأحسنُها بيانًا.

أيقدرُ هؤلاءِ العجزةُ الضعفاءُ في جاهليّتهم الأولى على ما نعجزُ عنه نحن؟ ونحن إلى مؤتمرهم أحوجُ منهم إليه، لأنّ تشعّبَ اللُّغةِ في عصرِهم لا يمكنُ أن يبلغَ مبلغَه في عصرنا بين لغةِ الأدباءِ ولغةِ العلماءِ، ولغةِ الدواوين، ولغةِ المتصوّفين، ولغةِ المترجمين، ولغاتِ العامّةِ التي لا حصرَ لها.

إن كان الجاهليّون في حاجةٍ إلى مجتمعٍ لتوحيدِ اللغاتِ المتشعّبةِ، فنحن في حاجةٍ إلى مجتمعاتٍ كثيرة؛ مجتمعٍ لجمعِ المفرداتِ العربيّةِ المأثورةِ، وشرحِ أوجهِ استعمالها الحقيقيّةِ والمجازيّةِ في كتابٍ واحدٍ يقعُ الاتفاقُ عليه والإجماعُ على العملِ به، ومجتمعٍ دائمٍ لوضعِ أسماءَ للمسمّيات الحديثةِ بطريق التعريبِ أو النّحتِ أو الاشتقاقِ، وآخرَ للإشرافِ على الأساليبِ العربيّةِ المستعملةِ، وتهذيبِها وتصفيتها من المبتذلِ السّاقطِ والمستغلقِ السّافرِ، والوقوفِ بها عند الحدِّ الملائمِ للعقول والأذهان، وآخر للمفاضلةِ بين الكتّاب والشعراءِ والخطباءِ، ومجازاةِ المبرّزِ منهم والمقصّر، إنْ خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

❋ ❋ ❋

سياحة في كتاب

أعجبُ ما أعجبُ له من أمرِ نفسي أنّي أحبُّ الجمالَ خيالًا، أكثرُ ممّا أحبّه حقيقةً، فيُعجبُني وصفُ الرّوضِ أكثرَ ممّا يُعجبُني مرآه، ولا أطربُ لمنظرِ الفتياتِ الجميلاتِ، طربي لمنظرِ القصائدِ الغزليّاتِ، وأحبُّ أن أقرأَ وصفَ المدنِ الجميلةِ، وما كتبَه الكاتبون عن قصورِها ودورِها، وسهولِها وبطاحِها، وأنهارِها وجداولِها، وميادينِها وتماثيلِها، وأنديتِها ومجامعِها، ولا يهمّني أن أراها، كأنّني أريدُ أن أستديمَ لنفسي تلك اللذّةَ الخياليّةَ، وأخافُ أن تحولَ الحقيقةُ بيني وبينها، وأحسبُ أنّي لو كنت عاشقًا لأصبحتُ أضحوكةَ العاشقين، وأعجوبةَ الهازئين والسّاخرين، ولكان مثَلي مثلَ ذلك الرجلِ الذي أحبَّ امرأةً، فاستزارها، فمنعَتْه حينًا، ثم زارَتْه، فلمّا رآها، تركها، وذهبَ لينامَ فعجبَتْ لشأنِه وسألتْه: ما بالُه؟ فقال لها: أريدُ أن أنامَ علّني أرى طيفَك في المنام!

جاء يومُ شمِّ النسيم، فخرجَ الناسُ إليه يستقبلونه استقبالَ الجيشِ المدجّج للملكِ المتوّج، ويرحّبون به ترحيب العشّاقِ بيوم التلاقِ، بعد طولِ الفراقِ، ويبسِمُون له ابتسامَ الرياضِ الزاهرةِ للسُّحبِ الماطرةِ، وقد ذهبوا في شأنه المذاهبَ كلَّها؛ فمن صاعدٍ إلى رؤوسِ الجبالِ، وساربٍ في سهلِ الرمالِ، وواقفٍ موقفَ الإعجابِ والإجلالِ، بين جمالِ الأنوارِ، وأنوارِ الجمالِ، ومقلبٍ طرفَه بين حسنِ الزهراتِ وحسنِ الفتياتِ، لا يعلمُ أتشبهُ القاماتُ الغصونَ، أم الغصونُ القاماتِ.

ذهبَ الناسُ في ذلك اليومِ تلك المذاهبَ، وما كان لي أن أذهبَ مذهبَهم لأنّي لا أعجبُ بما يعجبون، ولا أهتفُ لما يهتفون، فقبعْتُ في كسرِ بيتي أفتّشُ عن ضالّةِ خيالٍ أجدُ فيها من السعادةِ والهناءةِ ما يجدُه الهائمون بين ثغرِ الحسناءِ وثغرِ الصَّهباءِ، فلمحْتُ بجانبي كتابَ بلاغةِ العربِ، وهو الكتاب الذي ترجمَه الأستاذ «كامل حجّاج»، وجمعَ فيه نفائسَ اللّغةِ الفرنسيّةِ، وزبدةَ ما جادتْ به قرائحُ كتّابِها وشعرائها، فقلت: حسبي من الرياضِ هذه الزهراتُ، ومن النسائمِ تلك النفحاتُ.

خطوتُ الخطوةَ الأولى من سياحتي في هذا الكتابِ، فرأيتُني واقفًا تحت نافذةِ قصرِ اللوفرِ في باريس، ورأيتُ الناسَ وقوفًا في ذلك الميدانِ الفسيحِ، وقد هاجَ بعضُهم في بعضٍ، حتى ضاقَتْ بهم رقعةُ الأرضِ، ورأيتُهم يمدّون أعناقَهم إلى تلك النافذةِ، وينظرون إليها نظرةَ الفلكيّ إلى كوكبِه اللامعِ، ويرقبون منها ما يرقبُ الروضُ من غاديةِ السحبِ. وإنّهم لكذلك، إذ أطلَّ عليهم نابليون الأول من نافذة قصرِه كما يطلُّ البدرُ من وارءِ الأفقِ يحملُ بين يديه طفلَه الصغيرَ كما يسمّيه الناس، وملك روما كما يسمّيه أبوه، فضجّ الناسُ لمطلعِه ضجيجًا ملأَ مسمعِ الخافقين، وابتسموا لمرآه ابتسامًا أضاء ما بين المشرقَيْن والمغربَيْن، وهنا سمعتُ الشاعرَ الكبيرَ[1] يخاطبُ ذلك الملكَ العظيمَ بصوتٍ يشبهُ صوتَ البحرِ الزاخرِ قائلًا له:

رويدًا أيّها الرجلُ المغرورُ بالتاجِ والسريرِ، والملْكِ الكبيرِ، والجيشِ الخاضعِ، والشعب الطائعِ، أنت تقدّرُ لطفلِك في مستقبلِ الأيّامِ مُلْكًا كملكِك، ومجدًا كمجدِك، وعزًّا وسلطانًا كعزِّك وسلطانك، غيرَ عالم بما تكتمُه ضمائرُ الأيامِ من الحوادثِ العظامِ، والخطوبِ الجسامِ، فهل أخذْتَ على الأيامِ عهدًا لنفسِك، فتأخذَه لولدِك؟ وهل وثقتَ بما في يدِك، فتثقَ بما في يدِ غيرِك؟

أيّها الملكُ المغرورُ: إنّك ستفارقُ عمّا قليلٍ هذا القصرَ الكبيرَ إلى الكوخِ الحقيرِ، وسيحيطُ بك الجندُ في منفاك إحاطةَ الإخضاعِ والإذلالِ، لا إحاطةَ الإعظامِ والإجلالِ، وسيموتُ ولدُك محرومًا هذا العرشَ الذي هيّأتَه له، بل محرومًا بضعة أشبارٍ من تربةِ فرنسا يضطجعُ فيها ضجعةَ الموتِ.

أيّها الملكُ المغرورُ: لا تقلْ إنّ المستقبلَ لي، فإنّما المستقبلُ لله.

تركتُ هذا الموقفَ الفخمَ الجليلَ، وقد امتلأتْ نفسي عبرةً بمصائبِ الأيامِ، ومصارعِ الكرامِ، وتقلّباتِ الدهرِ ما بين رفعٍ وخفضٍ، وإبرامٍ ونقضٍ، ومشيتُ حتى وصلْتُ إلى بريّةٍ جرداءَ، ودويّةٍ قَفْراءَ[2]، لا يطرقُها إنسانٌ، ولا يدبُّ بها حيوانٌ، فلمحْتُ على البعدِ رجلًا يمشي على بعضِ الشواطئِ فوق أرضٍ رمليّةٍ يخدعُ ظاهرُها، ويقتلُ باطنُها، ويدبّ ماؤها في

---

(١) فيكتور هيجو.

(٢) الدويّة القفراء: الصحراء الواسعة الخالية من الإنس.

أحشائها، دبيبَ الصهباءِ في الأعضاءِ، ويكمنُ في صدورِها كمونَ الأسرارِ في صدورِ الأقدارِ.

فما هي إلّا بضعُ خطواتٍ حتى وقعَ نظري على رجلٍ مسكينٍ غاصَتْ قدماه في الرملِ، فحاولَ نزعَهما، فغاصَ إلى ركبتَيْه، فتحلحلَ، فغاصَ إلى صدرِه، وما زالَ يساعدُ على نفسِه بنفسِه، ويهبطُ شبرًا كلّما حاولَ إن يرفعَ فترًا، حتى لم يبقَ منه على ظهرِ الأرضِ غيرُ فم يصرخُ بالنداءِ، وعينٍ تذرفُ بالبكاءِ، ثمّ ما لبثَ أن غطاهما الرملُ، فرفعَ يديه بالدعاءِ، فلم يجدْ من رحمةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ.

وقفتُ أمام هذا المشهدِ المؤثّرِ المحزنِ وقفةً أرسلْتُ فيها بضعَ قطراتٍ من الدّمعِ على هذا البائسِ المسكينِ، وقلت في نفسي: إنّني عجزتُ عن إسعادِه في نكبتِه، ومعونتِه في شدّتِه، فلا أقلَّ من أن أسعدَه بقليلٍ من الأسفِ على مصيرِه المحزنِ الأليمِ.

ثم فارقتُه ومشيتُ حتى بلغتُ منزلَ الشاعرِ لامرتين، فرأيتُه جالسًا في غرفتِه الصغيرةِ، وليس معه من يؤنسُه غيرُ كلبِه المقعي على عتبةِ بابِهِ، فسمعتُه يخاطبُه ويقول له:

أيّها الكلبُ الأمينُ، قد هجرَني النّاسُ وبقيتَ بجانبي؛ وخانني الأصدقاءُ ووفيتَ لي؛ فأنت في نظري أوفَى الأوفياءِ، وأصدقُ الأصدقاءِ؛ ولولا أنّك كريمُ الأخلاقِ متواضعٌ، تأبى إلّا أنْ تعرفَ لسيّدِك منزلَته من السّيادةِ عليك، وتحفظَ له فضلَ ما أسدَى من النعمةِ إليك، لأكبرتُ جلستَك هذه عند عتبةِ البابِ، ولأجلستُك بجانبي على فراشي، لأنّك صديقي ومؤنسي، ولأنّك أحقُّ بالإكرامِ من كثيرٍ من أولئك الذين يفترشون الطنافسَ، ويتوسّدون الوسائدَ. وحسبي منك هذه النظراتُ التي تلقيها عليّ بهدوءٍ وسكونٍ، كأنّك تقرأُ فيها صفحةَ وجهي، وما غابَ عنك من دخيلةِ أمري، وكأنّني أسمعُك تقول: ما بالُه، وما شأنُه؟ وما الذي يبكيه؟ ليتني أعرفُ دخيلةَ أمرِه، وليتني أستطيعُ أن أكونَ فداءه! فحسبي منك ذلك، وهل يطمعُ الإنسانُ أن يجدَ من أوفى أصدقائه أكثرَ ممّا أجدُه في لفتاتِك، وألمحُه في نظراتِك؟

سمعتُ لامرتين يناجي كلبَه بهذا النجاءِ الرقيقِ، فتسلّلْتُ وذهبتُ لشأني وأنا أقول في نفسي: إذا كان لامرتين - وهو أشعرُ شاعرٍ في فرنسا، وفرنسا مهبطُ وحيِ الشعرِ - لم يجدْ له صديقًا وفيًا غيرَ كلبِه المقعي على عتبةِ غرفتِه، فأين يذهبُ سائرُ الشعراءِ، ومتى يجدون الأصدقاءَ؟

تركتُ منزلَ لامرتين وذهبتُ إلى منزل «دي موسّيه[1]»، فرأيته معتزلًا في غرفةٍ من غرفِ منزله يبكي بكاءً مرًّا، ويزفرُ زفيرًا شديدًا، تكادُ تتقطّعُ له أحشاؤه. فقلت: ليت شعري ما أبكاه؟ وما الذي دهاه؟

فسمعتُه يترنّمُ بقصيدةٍ من قصائدِه يشرحُ فيها تاريخَ وجْدِه وهواه، شرحًا مؤثّرًا مؤلمًا حتى كان يُخَيَّلُ إليّ أن كلَّ بيتٍ من أبياتها جذوةُ نارٍ ملتهبةٌ. وسمعتُه يشكو من خيانةِ حبيبتِه «جورج

---

(١) هو الفرد دي موسيه (ت١٢٧٥هـ./١٨٥٧م.) شاعر وكاتب فرنسي، تغنّى بالألم. له: «الليالي».

صاند»[١]، ويعالجُ نفسَه على أن يسلوَها، ويتناسَى عهدَها وزمامَها، فلا يجدُ إلى ذلك سبيلًا، وما هو إلّا أن أتمّ قصيدتَه حتّى تغيّرَ لونُه وشخصَ بصرُه، واضطربَ اضطرابَ الأغصانِ اليابسةِ بين أيدي الرياحِ العاصفةِ. ثمّ أخذَ يهذي هَذَيانَ المحموم، ويخلطُ في كلامِهِ خلطًا شديدًا، فعلمتُ أنّ الرَّجلَ قد جُنَّ، وأنّ العالَمَ الشعريّ قد فُجِعَ إلى الأبدِ.

فمضيت لسبيلي، وأنا أسألُ الله العافيةَ وأقولُ: إنّ جمالَ المرأةِ أحقرُ من أنْ يقتلَ أوفرَ عقلٍ، وأعجزُ أن يطفىءَ أكبرَ قريحةٍ.

ولكنّها الأقدارُ تجري بحكمِها عليـنا وأمرُ الغيبِ سرٌّ مُحَجَّبُ

تركتُ منزل دي موسّيه، ومشيت في شارعٍ من شوارعِ باريس، فرأيتُ شيخًا رثَّ الثيابِ، زريَّ الهيئةِ، يمشي مشيةً هادئةً مطمئنةً، ويجرُّ في رجلَيْه نعالًا باليةً، قد أطلّتْ أصابعُه من خروقِها كما تطلُّ الحياتُ من أجحارِها. فأتبعتُه نظري، فرأيتُه لا يرفعُ طرفَه سكونًا وإطراقًا، ولا يكادُ يحرّكُ عضوًا من أعضائه رزانةً ووقارًا، فقلت في نفسي: إنّ لهذا الرجل شأنًا. فمشيتُ وراءه حتّى رأيتُه قد وقفَ على بابِ حانوتِ إسكافٍ، فلم يجدْ صاحبَ الحانوتِ في مكانِه، فجلسَ على الأرضِ ينتظرهُ حتى يعودَ فيخصفَ[٢] له نعلَه، فسألتُ بعضَ المارّةِ عنه فقال: هذا «كورني[٣]» شاعرُ فرنسا.

فأخذتْني الدهشةُ، وملكَني العجبُ، حتى كاد يحولُ بيني وبين عقلي، وقلت في نفسي: ويحٌ لكم معشرَ الناسِ! أتضنّون بقطعةٍ من الجلدِ الأسمرِ، على رجلٍ يقلّدُ أعناقَكمُ الدرَّ والجوهرَ، أعجزْتُم عن أن تجمعوا أمرَكم على أن تمسحُوا هذه الغضونَ عن تلك الجبهةِ التي تجودُ عليكم كلَّ يومٍ بما يفرّجُ كربتَكم، ويخفّفُ محنتَكم. ثم رجعتُ أدراجي وأنا أقول: كان قضاءً حتمًا على الدهر ألّا يُنيلَ هؤلاءِ الأدباءَ من دهرِهِم ما يريدون ولا يمنحُهم من العيشِ ما يشتهون.

إنَّ في جلسةِ «لامارتين» منفردًا في منزلِه لا مؤنسَ له غيرُ كلبِه، وفي عزلةِ «دي موسّيه» في غرفتِه بين دموعِه وأحزانه، وفي جلسة «كورني» أمام حانوتِ الإسكافِ ينتظرُ ترقيعَ نعلِه، لآيةً للمتفكّرين، وعبرةً للمعتبرين.

* * *

الآنَ عدتُ من سياحتي في ذلك الكتابِ أشكرُ للكاتب ما كتبَ، وللمترجم ما ترجمَ، وأقول: من لي في كلّ يومٍ بسياحةٍ مثلِ هذه السياحةِ في كتابٍ مثلِ هذا الكتابِ؟

❁ ❁ ❁

---

(١) جورج صاند أديبة فرنسيّة أحبها دي موسّيه. (٢) خصف النعل: خرزها بالمخرز.

(٣) هو بيار كورني (ت١٠٩٦هـ./ ١٦٨٤م.) شاعر فرنسي له عدّة مسرحيات، منها: «السيد».

دمعة على الأدب

ماتَ بالأمسِ إمامُ الشعرِ البارودي[١]، وإمامُ النثرِ محمّد عبده[٢]، فجزعْنا ما جزعْنا، وسكبنا عليهما من الدموعَ ما سكبْنا، ثم كفكفْنا من تلك الدموعِ، وخفّضْنا من زفراتِ الضلوعِ، حينما سمعْنا قولَ القائل: إن في الباقي عزاءً عن الفاني، وإنّ الأبناءَ خلفًا من الآباء، ولقد كرّ على عهدِهما الشهرُ بعد الشهرِ، والدهرُ بعد الدهرِ، والأدبُ جاثمٌ في مكمنِه، هامدٌ لم يُبْعَثْ من مرقدِه بعدما قبرناه، ولم ينشرْ من قبرِه بعدما واريناه، فتساءلنا: أين الباقي الذين يزعمون؟ والخلفُ الذي يذكرون؟

أين فطاحلُ اللغةِ العربيّةِ، لا السياسيّةِ، وأربابُ الأقلامِ العربيّةِ لا الأعجميّةِ؟

عذرنا المويلحي الكبير[٣] واليازجي[٤]، لأنّهما ماتا ولحقا بصاحبَيْهما، فهل ماتَ شوقي[٥] وحافظ[٦] والبكري[٧] والمويلحي[٨] الصغير؟

ما مات منهم أحدٌ، وإنّما كانت حياةُ ذينك الرجلَين حياةَ الصّناعيّين، وكان لوجودِهما سرٌ من الأسرارِ ينبعثُ في الألسنةِ فيطلقها، والأقلامِ فيجريها، وكانت منزلتُهما من الأحياءِ منزلةَ الأمّ من مصابيحِ الكهرباءِ، تشتعلُ المصابيحُ بتيّارِها، وتضيءُ بأسرارِها، فإذا فرغتْ مادّتُها وانقضى أجلُها، عمّ الظّلامُ واشتدّ الحلكُ، والمصابيحُ - كما هي - جسمٌ بلا روحٍ، ولفظٌ بلا معنى.

أمّا شوقي، فقد طارَ في جوٍّ غيرِ هذا الجوِّ، وهامَ في وادٍ غيرِ ذلك الوادي، وما زالت تعبثُ به الأنواءُ حتّى أغرقَتْه في شبرٍ من الماء. وأمّا حافظ، فقد انقبضَتْ حياتُه النثريّةُ قَبْلَ انقضاءِ البؤساءِ[٩]، أمّا حياتُه الشعريّةُ، فلم يبقَ منها غيرُ نظمِ المقالاتِ السّياسيّةِ من العامِ إلى

---

(١) هو محمود سامي البارودي (ت١٣٢٣هـ./١٩٠٤م.) سياسيّ وشاعر امتاز بالسهولة، وهو من أركان النهضة.

(٢) هو الشيخ محمد عبده (ت١٣٢٤هـ./١٩٠٥م.) من علماء المسلمين الداعين إلى التجديد والإصلاح. ناوأ الإنكليز، وحرّر جريدة «الوقائع المصريّة». شرح نهج البلاغة.

(٣) هو إبراهيم بن عبد الخالق (ت١٣٢٥هـ./١٩٠٦م.) كاتب وسياسي وصحفي مصري، من مؤسّسي النهضة الأدبيّة الحديثة. أنشأ جريدة «مصباح الشرق».

(٤) هو إبراهيم اليازجي (ت١٣٢٥هـ./١٩٠٦م.) من مؤسّسي النهضة الأدبيَّة واللغويّة. درس العربيّة على أبيه الشيخ ناصيف. أسّس مجلّة الضياء، وشرح ديوان المتنبّي.

(٥) تقدمت ترجمته.

(٦) هو حافظ إبراهيم (ت١٣٥١هـ./١٩٣٢م.) من كبار الشعراء المصريين. لقب بـ «شاعر النيل».

(٧) هو محمد توفيق البكري (ت١٣٥١هـ./١٩٣٢م.) شاعر وفقيه وشيخ مشايخ الطرق الصوفيّة في مصر. له: «المستقبل للإسلام».

(٨) هو محمد بن إبراهيم (ت١٣٤٩هـ./١٩٣٠م.) أديب وصحفي مصري. من أعماله: «حديث عيسى بن هشام».

(٩) هو كتاب لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسي ترجمه حافظ إبراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمّه.

العام، وأين هذه القيثارةُ البسيطةُ ذاتُ اللحنِ الواحدِ من ذلك العودِ الأجودِ الرنّانِ الذي كنّا نسمعُ منه مختلفَ الألحانِ وأفانينَ الأشجانِ؟

وأمّا البكريّ والمويلحيّ، فقد قضَيا حقَّ التأليفِ، هذا بصهاريجه[١] وذاك بفتراتِه[٢] ثم لحقَا بالسابقَيْن، ومضَيا على أثرِ الماضيين:

أيــن سُــكّــانُــكَ لا أيْــنَ لَــهُــمْ أحِــجــازًا أوْطَــنُــوهَــا أمْ شــآمــا

أين الروضةُ الغنّاءُ التي كنا نتفيأُ ظلالَها، ونهصُرُ أغصانَها، ونقطفُ ما شئنا من ورودِها ورياحينِها؟ وأين البلابلُ التي كانت تتنقّلُ بين أشجارِها، فتطربُ بالأغاريد، وتستهوي بالأناشيد.

فـاسْألْـنـهـا واجْـعَـلْ بـكـاكَ جـوابًـا تَـجِـدِ الـدَّمْـعَ سـائـلًا ومُـجـيـبـا

أنا لا أعجبُ لشيءِ عجبي لهؤلاءِ الأدباءِ؛ يحزنون، فلا يبكون، ويطربون، فلا يضحكون، ويأملون بلا أنينٍ، ويعشقون بغيرِ حنينٍ.

أيطربُ البلبلُ فيغردُ، ويشجي الحمامُ فينوحُ، ويطربُ الشاعرُ، ويشجي الكاتبُ، فلا ينطقُ لسانهما ولا يهتزّ قلمهما؟

لما أسنَّ[٣] عمرُ بن أبي ربيعة، ورأى أنّ شعرَ الغزلِ والتّصابي غيرُ لائقٍ بِشَيْبِهِ ووقارِه، عزمَ على هجرِه، فما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا، وغُلبَ على أمره كما يغلبُ المرءُ على غرائزه وسجاياه، فاحتالَ لذلك بأن حلفَ ألّا يقولَ بيتًا من الشِّعر إلّا أعتقَ رقبةً، فشكا إليه رجلٌ حبًّا برّحَ به، فحنّ واهتاجَ، ونظمَ أبياتًا في شأن الرجلِ ووجْدِه، ثم أعتقَ عن كلّ بيتٍ رقبةً.

فهل نذرَ أدباؤنا ما نذرَ عمر بن أبي ربيعة، وهمْ في شرخِ الشّبابِ وَإبّانِ الفتوّةِ؟ إن كانوا فعلوا ذلك، فأسألُ اللهَ لهم قصّةً كقصّةِ عمرَ تهيّجُ أشجانَهم، فتحنثُ إيمانَهم، والأمّةُ كفيلةٌ لهم بوفاءِ النذورِ، وكفّارةِ الإيمانِ:

وذو الـشّـوقِ الـقـديـمِ وإنْ تَـعَـزّى مـشـوقٌ حـيـنَ يَـلْـقَـى الـعـاشـقـيـنـا

❀ ❀ ❀

❀

(١) هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» للسيد البكري.

(٢) هو كتاب «فترة من الزمن» المسمّى «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي.

(٣) أسنّ: بلغ سنّ الشيخوخة.

النظرات

(3)



البيان

أعرفُ أديبًا من أفضلِ الأدباءِ في هذا البلدِ المضْطَلِعينَ باللّغةِ وفنونِها، الحافظِينَ للكثيرِ المُمْتِعِ من مَنْثُورِها، إلّا أنّه لا يكتبُ كلمةً في صحيفةٍ، ولا ينشرُ في الناسِ كتابًا، وإلّا أعجمَ كتابتَه[1] وأبْهمَهَا، وتعمّلَ فيها تعمّلًا يأخذُ على القارىءِ عقلَه وفهمَه، فلا يدري أيَّ سبيلٍ يأخذُ بين مسالِكِها وشِعابِها، وكنت أحسبُها غريزةً من غرائزِه الغالبةِ عليه، الآخذةِ مِنْ نفسِه مأخذَ الطبيعةِ الثابتةِ والملَكَةِ الرّاسخةِ، فلا سبيلَ له إلى التخلّص منها، والنزوعِ[2] عنها، حتّى اطّلَعْتُ له عِنْد بَعْضِ أصدقائه على كتابٍ صغيرٍ كان قَدْ أرسَلَهُ إليهِ في بعض الشؤونِ الخاصّةِ، وكتبَه بتلك اللغةِ السَّهْلةِ البسيطةِ التي يسمّونها اللّغة العاميّة، فأُعْجبتُ بأسلوبه في كتابه هذا إعجابًا كثيرًا، ورأيتُ أنّه أبلغُ ما قرأتُ له في حياتي من كتبٍ ورسائلَ، وعلمتُ أنّ الرجلَ فصيحٌ بفطرتِه، قادرٌ على الإبانةِ عن أغراضِه ومَرامِيه، كأفضلِ ما يتقدّرُ متقدّرٌ على ذلك، إلّا أنّه يتكلّفُ[3] الركّةَ والتعقيدَ في كتابتِه تكلّفًا، ويأخذُ نفسَه أخذًا. ولو أنّه أرسلَ نفسُه على سجيّتها[4]، فكتَبَ جميعَ رسائلِه ومؤلّفاتِه بتلك اللُّغةِ الجميلةِ العذبةِ التي كتبَ بها هذا، لكانَ من أعظمِ الكتّابِ شأنًا، وأرفعِهم صوتًا في عالمِ الكتابةِ والأدبِ، ولكن هكذا قدّرَ له أن يقضيَ بنفسِه على نفسِه.

وقرأتُ منذ أيّامٍ لأحدِ الشعراءِ المتكلّفين ديوانَ شعرٍ، فلم أفهمْ منه غيرَ خطبتِه النثريّةِ، ولم يعْجِبْني فيه سوَاهَا، وما أحسبُها أفلتَتْ من يدِه، ولا جاءَتْ في هذه الصورةِ من الجودةِ والحسنِ، إلّا لأنّه أغفلَ العنايَةَ بها، والتدقيقَ في وضعِها، فأرسلَها عفوَ الخاطرِ إرسالَ من يعلمُ أنّه إنّما يسألُ عن الإجادةِ في الشعرِ، لا عنِ البراعةِ في النثرِ، وأنّ الناسَ سيغتفرُون له ضَعْفَ الكاتبِ، أمامَ قوّةِ الشاعرِ، غيرَ عالمٍ أنّه كاتبٌ من أفصحِ الكتّابِ وأبْيَنِهِمْ، ولو شاءَ لكانَ شاعرًا من أقدرِ الشعراءِ وأفضلِهم، وأنّه ما أحسنَ إلّا حيثُ ظنَّ الإساءَةَ، ولا أساءَ إلّا حيث ظنَّ الإحسانَ.

وواللهِ، لا أدرِي ما الذي يستفيدُه هؤلاءِ الأدباءُ من سلوكِهم هذا المسلَكَ الوَعْرَ الخشِنَ في أساليبِهم الكتابيّةِ والشعريّةِ، وتكلّفِ الإغرابِ والتعقيدِ فيها، وهم يعلَمُون أنّهم إنّما يكتبُونَ للناسِ لا لأنفسِهم؛ وأنّ الناسَ، خصُوصًا في هذا العصرِ، عصرِ المدنيّةِ والعملِ، والحركةِ

---

(١) أعجم الكتاب: لم يعربه، أبهمه. (٢) النزوع عن الشيء: الكفّ عنه.
(٣) تكلّف الشيء: تحمّله على مشقّة، وهو ليس من عادته.
(٤) السجيّة: الطبيعة.

والنشاطِ، أضنُّ بأنفسِهم وبأوقاتِهم من أن يقفُوا الوقفاتِ الطوالِ أمامَ بيتٍ من الشعرِ يعالجُون فهمَه، أو سطرٍ منَ النثرِ يُعانون كسرَ صخورِ ألفاظِه عن معانيه.

ولِمَ لا يؤثر أحدُهمْ، إنْ كان يكتُب للمنفعةِ العامّةِ أن يستكثرَ من سوادِ المنتفعِين بعلمِه وفضلِه، أو للشُّهرةِ والذكرِ أن ينتشرَ له ما يريدُ من ذلك بَيْنَ جميعِ طبقاتِ الأمّةِ عامّتِها وخاصّتِها، علمائِها وجهلائِها؛ وهل الشعرُ والكتابةُ إلّا أحاديثُ سائرةٌ، يحادثُ بها الشُّعراءُ والكتّابُ الناسَ، ليفضوا إليهم بخواطرِ أفكارِهم، وسوانحِ آرائِهم، وخلجاتِ نفوسِهم، وهلْ يَعْنِي المتحدّثَ في حديثِه شيءٌ سوى أن يعيَ عنه الناسُ ما يقولُ، وأن يجدَ بين يَدَيْهِ سامِعًا مُصْغِيًا، ومقبِلًا محتفِلًا. وأيُّ فرقٍ بين أن يجلسَ الرجلُ إلى جمعٍ من أصدقائِه ليقصَّ عليهم بعضَ القصصِ، أو يفضيَ إليهم ببعضِ الآراءِ، فيتلطّفَ في تفهيمِهم، وإيصالِ معانيه إلى نفوسِهم، ويفتنَّ في اجتذابِ ميولِهم وعواطِفهم، وبين أن يجلسَ إلى مكتبِه ليبعثَ إليهم بهذه الأحاديثِ نفسِها من طريقِ القلمِ؛ ولِمَ لا يعنيه في الأُخرى ما يعنيه في الأولى؟

ليس البيانُ ميدانًا يتبارَىٰ فيه اللغويّون والحفّاظُ، أيُّهم أكثرُ مادةً في اللغةِ، وأوسعُ اطّلاعًا على مفرداتها، وتراكِيبِها، وأقدرُ على استظهارِ نوادرِها وشواذِّها ومترادِفِها ومتوارِدِها، ولا مُتحَفًا لصورِ الأساليبِ وأنواعِ التراكيبِ، ولا مَخْزنًا لأحمالِ المَجَازاتِ والاستعاراتِ، وحقائبِ الشواهدِ والأمثالِ؛ فتلك أشياءُ خارجةٌ عن موضوعِ البيانِ وجوهرِه، إنّما يُعنَى بها المؤلِّفون والمدوِّنون، وأصحابُ القواميسِ والمعاجمِ، وواضِعُو كتبِ المترادِفاتِ، ومصنّفُو فقهِ اللغةِ وتاريخِ أدبِها؛ أمّا البيانُ، فهو تصويرُ المعنَى القائمِ في النفسِ تصويرًا صادقًا يمثّلُه في ذهنِ السّامعِ كأنّه يراهُ ويلمُسُه، لا يزيدُ على ذلك شيئًا، فإنْ عجزَ الشاعرُ أو الكاتبُ - مهما كبُرَ عقلُه، وغزُرَ علمُه، واحتفلَ ذهنُه - عن أن يصلَ بسامعِه إلى هذه الغايةِ، فهو إنْ شئتَ أعلمُ العلماءِ والفضلاءِ، أو أذكَى الأذكياءِ؛ ولكنَّه ليس بالشاعرِ ولا بالكاتبِ.

ما أشبهَ الجمودَ اللُّغويَّ في هذه البيئةِ العربيّةِ بالجمودِ الدينيِّ! وما أشبهَ نتيجةَ الأوّلِ بنتيجةِ الآخرِ!

لم يزلْ علماءُ الدِّينِ يتشدَّدونَ فيه ويتنطّعون[1]، ويقتطِعُون من هضبتِه الشمّاءِ صخورًا صمّاءَ يضعُونها عقبةً في سبيلِ المدنيّةِ والحضارةِ، حتى صيّروه عِبْئًا ثقيلًا على كواهلِ الناسِ وعواتِقِهم، فملَّهُ الكثيرُ منهم، وبرِمُوا[2] به، وأخذُوا يطلبُون لأنفسِهم الحياةَ الطيّبةَ من طريقٍ غيرِ طريقِه، ولَوْ أنهم لانُوا به معَ الزّمانِ وصروفِه، وتمشَّوْا بأوامرِه ونواهِيه مع شؤونِ المجتمعِ وأحوالِه، لاستطاعَ الناسُ أن يَجْمَعوا بين الأخذِ بأسبابِ دينِهم، والأخذِ بأسبابِ دنياهُمْ.

ولم يزلْ جماعةُ اللغويّين، وعَبَدَةُ الألفاظِ والصورِ يتشدَّدُون في اللّغةِ، ويَتَحذْلقُون، ويتشبّثون بالأساليبِ القديمةِ، والتراكيبِ الوحشيّةِ، ويغالُون[3] في محاكاتِها واحتذائِها، ويأبَون على الناسِ إلّا أن يجمدُوا معهم حيث جمدُوا، وينزلُوا على حُكْمِهم فيما أرادُوا، ويُحاسبُونَ

(١) يتنطّعون: يتفحّصون، يبالغون. (٢) برموا به: ملّوا.

(٣) يغالون: يبالغون.

الكاتبين والنّاطقين حسابًا شديدًا على الكلمةِ العربيّةِ، والمعنَى المبتكرِ، ويُقيمُونَ المَناحاتِ السوداءَ على كلِّ تشبيهٍ لم تَعْرِفْهُ العربُ، وكلِّ خيالٍ لم يَمُرَّ بأذهانهم، حتّى ملّهمُ الناسُ، وملّوا اللغةَ معهم، فتمرّدُوا عَلَيْهم، وخلعُوا طاعتَهم، وطلبُوا لأنفسِهم الحريّةَ اللغويّةَ التّامّةَ في جميعِ مواقفِهم وعلائِقهم، فسقطُوا في اللّغةِ العاميّةِ في أحاديثِم، وشبه العاميّةِ في كتاباتِهم، وكادتْ تنقطعُ الصّلةُ بين الأمّةِ ولغتِها، لولا أنْ تداركَها اللهُ برحمَتِه، فقيّضَ لها هذا الفريقَ العاملَ المستنيرَ من شُعراءِ العصرِ وكتّابهِ الذين عرفُوا سرَّ البيانِ، وأدركُوا كُنْهَهُ[١]، فاتّخذُوا لأنفسِهم في مناحيِهم الشعريّةِ والكتابيّةِ أسلوبًا وسَطًا مُعْتَدِلًا، جمعُوا فيه بين المحافظةِ على اللّغةِ، وأوضاعِها وأساليبِها، وبين تمثيلِ روحِ العصرِ، وتصويرِ الحياةِ. ولولاهُمْ، لبقِيَتِ اللغةُ في أيدِي الجامدِين، فماتَتْ، أو غلبَتْ عليها العاميّةُ، فاسْتَحالَتْ.

* * *

قال لي أحدُ الأدباءِ المتكلّفين في مَعْرِضِ اعتذارٍ عن نفسِه، وقد عتَبْتُ عليه في هذا المنهجِ الخشِنِ الوَعْرِ الذي ينهجُه في أسلوبه: أنتَ تعلمُ أنّ الناسَ في هذا البلدِ، قد ألِفُوا من طريقِ خَطَأ الحِسِّ أن ينظرُوا بعينِ الإجلالِ والإعظامِ إلى كلِّ أسلوبٍ شعريٍّ، أو كتابيٍّ معقّدٍ غامضٍ، وإنْ تفِهَتْ معانيه، وهانَتْ أغراضُه، وبعينِ الازدراءِ والاحتقارِ إلى الأساليبِ السهلةِ البسيطةِ، وإنِ اشْتَمَلَتْ على أشرفِ الأغراضِ، وأبرعِ المعاني، أيّ أنّهم لا يرَون السهولةَ والانسجامَ، حتى يتوهَّمُوا التفاهةَ والفسولةَ[٢]، ولا يرَونَ الركاكةَ والمعاظلةَ[٣]، حتى يظنُّوا الحِذْقَ والبراعةَ، وسموَّ المعاني وشرفَها.

وهي حالةٌ طبيعيّةٌ في جميعِ النفوسِ البشريّةِ أن تزدريَ المبذولَ لها، وتستسنيَ قيمةَ الممنوعِ عنها، وليس هذا شأنَهم مع أدباءِ العصرِ فحسب، بل مع أدباءِ كلِّ عصرٍ وجيلٍ، فهم يسمّونَ البحتريَّ، وأبا نُواسٍ، والشريفَ الرضي، وأمثالَهم: شعراءَ الألفاظِ، ويسمّون المتنبّي، والمعرّي، وابنَ الرومي، وأشباهَهم: شعراءَ المعاني؛ ليس بين الأوّلين والآخرين فرقٌ في جودةِ المعاني وشرفِها، إلّا أنّ الأوّلين أمطرُوها على الناسِ، وبعثرُوها تحت أقدامِهم، فهانَتْ عليهم، وضنَّ بها الآخرون، ووعَّرُوا سبيلَها، فعظُمَتْ في أعينِهم، وحلَتْ في صدورهم.

قال: ولقد عرَضْتُ السِّلْعتَيْن في سوقِ الأدبِ؛ فكتبتُ أتفهَ المعاني وأدونَها في أخشنِ الأساليبِ وأوعرِها، فنفقَتْ في تلك السوقِ نَفَاقًا عظيمًا، وكثرَ المعجَبُون بها والمكبرون لها؛ وكتبتُ أشرفَ المعاني وأبرعَها في ألطفِ الأساليبِ وأعذبِها، فما أبِهَ لها إلّا القليلُ من الناسِ، وربّما لم يأبَهْ لها أحدٌ؛ فلم أرَ بدًّا من أنْ أنتهجَ لنفسي في الكتابةِ الخطّةَ التي أعلمُ أنّها أجدرُ بي، وأجدَى عليّ.

---

(١) كنه الشيء: حقيقته.
(٢) الفسولة: الضعف.
(٣) المعاظلة: التعقيد.

فعجبتُ لرأيه عجبًا شديدًا، وقلتُ له: أمّا هذا الذي تذكرُه، فإنّي لا أعرفُه إلّا لفئةٍ قليلةٍ من القرّاءِ فاسدةِ الذوقِ، لا يعبأُ بها عابئٌ وليسَ هذا رأيَ جمهورِ المتأدّبين، بل ولا رأيَ العامّةِ من أبناءِ هذه اللّغةِ؛ وهبْ أنّ الأمرَ، كما تقولُ، فالأدبُ ليس سِلْعةً من السِّلَعِ التجاريّةِ لا همّ لصاحبِها سوى أن يحتالَ لَنفاقِها في سوقِها، إنّما الأدبُ فنٌّ شريفٌ يجبُ أن يُخْلِصَ له المتأدّبون - بأداءِ حقّهِ والقيامِ على خدمتِهِ - إخلاصَ غيرِهم من المشتغلين ببقيّةِ الفنونِ لفنونِهم؛ والأدباءُ هم قادةُ الجماهيرِ، وزعماؤهم، فلا يَجْمُلُ بهم أن ينقادُوا للجماهيرِ، وينزلُوا على حكمِهم في جهالتِهم، وفسادِ تصوّراتِهم. ولم أزلْ به حتّى أذعنَ للرأيِ الذي رأيتُه له، فحَمِدْتُ اللهَ على ذلك.

* * *

ليس من الرأيِ، ولا من المعقولِ أن يَنْظِمَ الشعراءُ الشعرَ، ويكتُبَ الكتّابُ الرسائلَ - في هذا العصرِ عصرِ الحضارةِ والمدنيّةِ، وبين هذا الجمهورِ الذي لا يعرفُ أكثرَ من العاميّةِ إلّا قليلًا - باللّغةِ التي كان ينظمُ بها امرؤ القيسِ، وطَرَفةُ، والقُطاميّ، والخَطَفِي، ورُؤبةُ والعَجّاجُ، ويكتبُ بها الحجّاجُ، وزيادٌ، وعبدُ الملكِ بْنُ مراوانَ، والجاحظُ، والمعرّيّ، في صورِ العربيّةِ الأولى؛ فليس عصرُنا كعصرِهم، ولا جمهورُنا كجمهورِهم. وأحسبُ لو أنّهم نُشِرُوا[1] اليومَ من أجداثِهم، لما كان لهم بدٌّ من أنْ ينزِلُوا إلى عالمِنا الذي نعيشُ فيه، ليخاطبونا بما نفهمُ، أو يعودُوا إلى مراقدِهم من حيثُ جاؤُوا.

ليستِ الأساليبُ اللغويّةُ دِينًا يجبُ أنْ نتمسّكَ به، ونحرصَ عليه حِرْصَ النَّفْسِ على الحياةِ، إنّما هي أداةٌ للفَهْمِ وطريقٌ إليه، لا تزيدُ على ذلك، ولا تَنْقُصُ شيئًا.

يجبُ أنْ نحافظَ على اللّغةِ باتّباعِ قوانينِها، والتمسّكِ بأوضاعِها ومميّزاتِها الخاصّةِ بها، ثمّ نكونُ أحرارًا بعد ذلك في التصورِ، والتخيّلِ، واختيارِ الأسلوبِ الذي نريدُ.

يجبُ أن يشفَّ اللفظُ عن المعنى شفوفَ الكأسِ الصافيةِ عن الشرابِ، حتّى لا يَرى الرائي بين يدَيْه سوى عَقْلِ الكاتبِ ونَفْسِ الشّاعرِ، وحتّى لا يكونَ للمادّةِ اللفظيّةِ شأنٌ عنده، أكثرَ ممّا يكونُ للمرآةِ من الشأنِ في تمثيلِ الصورِ والمخائلِ[2].

ويجبُ أن يتمثّلَ المعنى في ذهنِ المتكلّمِ قبل أن يتمثّلَ اللفظَ، حتى إذا حسُنَ الأوّلُ، أفاضَ على الثاني جمالَهُ ورونقَه؛ فاللفظُ لا يَجْمُلُ حتّى يجملَ المعنَى، بل لا مفهومَ للّفظِ الجميلِ إلّا المعنَى الجميل.

لو لم يكنْ للفصاحةِ قانونٌ يرجِعُ إليه من يريدُ معرفتَها، ومقياسٌ تقاسُ عليه، لوجبَ أن يكونَ قانونُها العقليُّ أن يَتْرُكَ القائلُ في نفسِ السامعِ الأثرَ الذي يريدُه، فإنْ عجزَ عن ذلك، فلا أقلّ من أنْ يصوّرَ له المعنَى القائمَ في نفسِه، فإن لم يكنْ هذا ولا ذاك، فاحترافُ أيّةِ

---

(١) نشروا: بُعِثوا من قبورهم. (٢) المخائل: جمع مخيلة، وهي الخيال.

حِرفةٍ من الحرفِ، مهما صغُر قدرُها، واتّضعَ شأنُها، أعودُ بالنفعِ على الأمّةِ، وأجدَى عليها من حِرْفَةِ القلمِ.

لا يبكِ شاعرٌ بعد اليوم، ولا كاتبٌ سقوطَ حظِّه في الأمّةِ، ولا يقضِ حياتَه ناعيًا عليها جهلَها وقصورَها، كلّما رآها منقبضةً عنه غيرَ حافلةٍ به، ولا مصغيةٍ إليه، فالأمّةُ قد ارتقَتْ واستنارَتْ، وأصْبَحَتْ طماحةً متطلّعةً، لا يقنعُها من قَلَم الشّاعرِ أنْ يرنَّ على صفحةِ القِرْطاسِ دون أن يطربَها، ويملكَ عواطفَها، ولا من قلمِ الكاتبِ أن يُسَوِّدَ بياضَ الصحفِ دون أن ينيرَ لها أذهانَها، ويغذّي عقولَها ومداركَها؛ فإن كان لا بدّ باكيًا، فَلْيَبْكِ على نفسِه ولْيَنْعِ عجزَهُ وقصورَه، وليَعْلَمْ أنّه لو استطاعَ أن يكتبَ للأمّةِ ما تفهمُ، لاستطاعَتِ الأمّةُ أن تفهمَ عنه ما يقولُ.

إنّني لا ألومُ على الرّكاكةِ والتفاهةِ الأغبياءَ الذين أظلمتْ أذهانُم، فأظلمَتْ أقلامُهم؛ وظلمةُ القَلَمِ أثرٌ من آثارِ ظُلْمَةِ العقلِ؛ ولا الجاهلين الذي لم يدرسُوا قوانينَ اللُّغةِ، ولم يمارسُوا أدبَها، ولم يتشبّعُوا بروحِ منظومِها ومنثورِها، ولا العاجزين الذين غلبَتْهم إحدى اللغاتِ الأعجميّةِ على أمرِهم، فأصبحُوا إذا ترجمُوا ترجمُوا، ترجمةً حرفيّةً ليس فيها مميّزٌ واحدٌ من مميّزات العربيّةِ، ولا خاصّةٌ من خواصّها؛ وإذا كتبُوا، كتبُوا بأسلوبٍ عربيّ الحروفِ أعجميّ كلِّ شيءٍ.

بعد ذلك، فهؤلاءِ جميعًا لا حولَ لنا فيهم ولا حيلةَ؛ لأنّهم لا يستطيعون أن يكونُوا غيرَ ذلك؛ إنّما ألومُ المتأدّبين القادرِين الذين عرفُوا اللغةَ، واطّلعُوا على أدبِها، وفهمُوا سرَّ فصاحتِها، وأنقمُ منهم عدولَهم عن المحجّةِ في البيانِ، إلى الجَمْجَمةِ[1] والغمغمةِ[2] فيه؛ وأنعي عليهم نقصَ القادرِين على التمامِ.

❁ ❁ ❁

الناشئ الصغير[3]

لي ولدٌ وحيدٌ في السابعةِ من عمرِه، لا أستطيعُ على حبّي إيّاه، وافْتِتاني به أنْ أتركَهُ من بعدي غنيًّا لأنّي فقيرٌ، وما أنا بآسفٍ على ذلك، ولا مبتئسٍ، لأنّي أرجُو بفضلِ اللهِ وعونِه، ورحمَتِه وإحسانِه، أن أتركَ له ثروةً من العقلِ والأدبِ، هي عندي خيرٌ ألفَ مرّةٍ من ثروةِ الفضّةِ والذهبِ.

أحبُّ أن ينشأَ معتمِدًا على نفسِه في تحصيلِ رِزْقِه، وتكوينِ حياتِه. لا على أيِّ شيءٍ آخرَ، حتّى على الثروةِ التي يتركُها له أبوه. ومنْ نَشَأَ هذا المنشأَ، وألِفَ ألّا يأكلَ إلّا من الخبزِ الذي

---

(١) الجمجمة: عدم الإفصاح في الكلام. (٢) الغمغمة: الكلام غير الواضح.

(٣) كتبت هذه المقالة ردًا على السؤال: «أيّهما أصلح للإنسان: أن يولد فقيرًا أو غنيًّا»؟.

يصنعُه بيدِه، نَشأ عَزُوفًا[1] عَيُوفًا[2] مترفّعًا لا يتطلّعُ إلى ما في يدِ غيرِه، ولا يستعذبُ طعمَ الصَّدَقَةِ والإحسانِ.

أحبُّ أن ينشأ رجلًا، ولا سبيلَ إلى الرجولةِ إلّا من ناحيةِ العملِ، وقلّما يعملُ العاملُ إلّا بسائقٍ من الضرورةِ، ودافعٍ من الحاجةِ. وفرقٌ بين الغنيّ الذي يعملُ لتنميةِ ثروتِه وتعظيمِ شأنِها شرَهًا وفضُولًا، وبين الفقيرِ الذي يعملُ لتحصيلِ قُوتِه، وتقويمِ أوَدِ[3] حياتِه.

أحبُّ أن يعيشَ فَرْدًا من أفراد هذا المجتمعِ الهائلِ المُعْتَرِكِ في مَيْدانِ الحياةِ، يصارعُ العيشَ ويغالِبُه، ويزاحمُ العاملين بِمَنْكِبَيْهِ، ويفكّرُ ويتروّى، ويجرّبُ ويختبرُ، ويقارنُ الأمورَ بأشباهِها ونظائرِها، ويَسْتَنْتِجُ نتائجَ الأشياءِ من مقدّمتِها، ويَعْثُرُ مرّةً وينهضُ أخرى، ويخطئُ حينًا ويصيبُ أحيانًا؛ فمن لا يخطئُ لا يصيبُ، ومن لا يعثرُ لا ينهضُ، حتى تستقيمَ له شؤونُ حياتِه.

ذلك خيرٌ له من أن يجلسَ في شُرْفَةٍ من شُرَفِ قصرِه مُطِلًّا على العاملِين، والمجاهِدِين، يُمَتِّعُ نظرَه بمرآهم كأنّما يشاهدُ روايةً تمثيليّةً في أحدِ ملاعبِ التمثيلِ.

أحبُّ أنْ يمرَّ بجميعِ الطبقاتِ، ويخالطَ جميعَ الناسِ، ويذوقَ مرارةَ العيشِ، ويشاهدَ بعينَيْه بؤسَ البؤساءِ وشقاءَ الأشقياءِ، ويسمعَ بأذنَيْه أنّاتِ المتألّمين، وزفراتِ المتوجّعين ليشكرَ اللهَ على نعمتِه، إن كان خيرًا منهم، ويشاركَهم في همومِهم وآلامِهم، إن كان حظُّه في الحياةِ مثلَ حظِّهم، لتنموَ في نفسِه عاطفةُ الرِّفْقِ والرَّحمةِ، فيعطفَ على الفقيرِ عطفَ الأخِ على الأخِ، ويرحمَ المسكينَ رحمةَ الحميمِ للحميمِ.

أمّا الغنيُّ الذي لم يذقْ طعمَ الفَقْرِ في حياتِه، فقلّما يشعرُ بآلامِ النَّاسِ ومصائبِهم، أو يعطفُ على بأسائِهم وضرّائِهم؛ فإنْ حاولَ يومًا أنْ يمدَّ يدَه بالمعونةِ إلى بائسٍ منكوبٍ، فَعَلَ ذلك متفضّلًا ممتنًّا، لا راحمًا، ولا متألّمًا.

والألمُ هو اليَنبوعُ الذي تتفجّرُ منه جميعُ عواطفِ الخيرِ والإحسانِ في الأرضِ، وهو الصلةُ الكبرَىٰ بين أفرادِ المجتمعِ الإنسانيّ، والجامعةُ الوحيدةُ التي تجمعُ بين طبقاتِه وأجناسِه؛ بل هو معنَى الإنسانيّةِ، وروحُها، وجوهرُها، فمَنْ حُرِمَ، حُرِمَ كلَّ فضيلةٍ من فضائلِ النفس، وكلَّ مَكْرُمَةٍ من مَكْرُماتِها، وأصبحَ بالصخرةِ الصَّلْدَةِ[4] أشبهَ منه بالإنسانِ الناطقِ.

أحبُّ أن يجوعَ، ليجدَ لذّةَ الشبعِ، ويظمأ ليستعذبَ طعمَ الرِّيِّ، ويتعبَ ليشعرَ بِبَرْدِ الرَّاحةِ، ويسهرَ لينامَ مِلْءَ جفونِه، أيْ أنّني أحبُّ له السعادةَ الحقيقيّةَ التي لا سعادةَ في الدنيَا سوَاها.

وما السعادةُ في الدنيا، إلّا لمحاتُ البَرْقِ تخفُقُ حينًا بعد حينٍ في ظلماتِ الشقاءِ؛ فمَنْ لا يرَى تلك الظلماتِ لا يرَاها.

---

(١) العزوف: المتزهّد.
(٢) العيوف: الكاره، والزاهد.
(٣) الأود: الإعوجاج.
(٤) الصلدة: القاسية.

وأشقى الأشقياءِ أولئك المُتْرَفُون[1] الناعمُون الذين يوافيهِمُ الدهرُ بجميعِ لذائذِهِمْ ومُشْتَهَيَاتِهِمْ، فلا يزالُون ينعمُون فيها، ويتقلَّبون في جنباتِها، حتّى يستنفِدُوها، فيستولي على عقولِهم مرضُ السآمةِ والضجرِ، فيتألّمون من الرَّاحةِ أكثرَ ممّا يتألمُ التّعِبُ من التعبِ، ويقاسُون من عذابِ الوجودِ أكثرَ ممّا يقاسي المحرومُ من عذابِ الحرمانِ؛ وقد تدفعُهم تلك الحالةُ إلى الإلمامِ بِمُشْتَهَياتٍ غريبةٍ لا تتّفقُ مع الطبيعةِ البشريّةِ، ولا تدخلُ تحت حُكمِها تَفْرِيجًا عن كربَتِهِمْ، وتنفيسًا عن أنفسِهِمْ، وما هؤلاءِ المساكينُ الذين نراهُم سَهارَى طوالَ لياليِهم في ملاعبِ القمارِ، ومجالسِ الشّرابِ، ومواقفِ الرّهانِ، إلّا جماعةُ الفارّين من سجونِ السآمةِ والمَلَلِ؛ يعالجون الداءَ بالداءِ، ويَفِرُّون من الموتِ إلى الموتِ.

أحبُّ أن يكونَ غنيًّا بالمعنَى الحقيقيِّ، لا بالمعنَى الاصطلاحيّ، أي أن يكونَ مُسْتَغْنِيًا بنفسِه عن غيرِه؛ لا كثيرَ المالِ والثّراءِ، وما سمّي المالُ غنًى إلا باعتبارِ أنّه وسيلةٌ إلى الغنى وطريقٌ إليه، وهو اعتبارٌ خَطأٌ ما في ذلك ريبٌ.

فإنّ أكثرَ الناسِ فقرًا إلى المالِ، وأشدَّهم وَلَعًا بإحرازِه، وأعظمَهُم مخاطرةً بكرامَتِهِم وفضائلِ نفوسِهِم في سبيلِه همُ الأغنياءُ، أصحابُ المالِ والثّراءِ، وإنْ كان في الدنيا شيءٌ يُسَمّىٰ قناعةً واعتدالًا، فهو في جانبِ الفقراءِ المقلّين، أكثرَ منه في جانبِ الأغنياءِ الكثيرين.

ولا يزالُ المرءُ يعتبرُ المالَ وسيلةً إلى الحياةِ، وذريعةً من ذرائِعها، حتى يَكْثُرَ في يدِه، فإذا هو في نظره الحياةُ نفسُها، يجمعُه، ولا يدري ما يريدُ منه، ويعبدُه، وهو لا يرجُو ثوابَه، ولا يخشَى عقابَه، ويستكثرُ منه، وهو على ثقةٍ من نفسِه بأنّه لا ينتفعُ بقليلِه، فضلًا عن كثيرِه.

وإذا بلغَ المرءُ في حالتِه العقليّةِ إلى درجةٍ أن تنقلبَ في نظرِه حقائقُ الكونِ، وتتغيّرَ نواميسُه، فيرَى الرؤوسَ أذنابًا، والأذنابَ رؤوسًا، والوسائلَ غاياتٍ، والغاياتِ وسائلَ؛ فقلْ: على عقلِه السلامُ.

لا أكرَهُ أن ينشأَ ولدي غنيًّا، ولا أحبُّ أن أعرّضَه لمخاطرِ الفَقْرِ وآفاتِه، ولكنّي أخافُ عليه الغنى أكثرَ ممّا أخافُ عليه الفقرَ.

أخافُ عليه أن يعتدَّ بالمالِ اعتدادًا كثيرًا، ويقدّرَه فوقَ قدرِه، ويعتبرَه الكمالَ الإنسانيَّ كلَّه؛ فلا يهتمُّ بإصلاحِ أخلاقِه، وتهذيبِ نفسِه؛ وألّا يجدَ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ عشرائِه وخلطائِه، مرآةً يرَى فيها هناتِه وعُيوبَه، لأنّ عُشَراءَ الأغنياءِ متملّقون، مُداهِنون، يطوون سيّئاتِهم، ويُزَخْرِفون حَسَناتِهم.

أخافُ عليه أن تستحيلَ نفسُه إلى نفسٍ ماديّةٍ جامدةٍ، لا تفهمُ من شؤونِ الحياةِ غيرَ المادّةِ، ولا تُعْنىٰ بشيءٍ سواها، فيصبحُ رجلًا قاسيًا صُلْبًا، ميّتَ النفسِ والعواطفِ، لا يرحمُ بائسًا، ولا يعطفُ على منكوبٍ، ولا يرثي لأمّةٍ، ولا يبكي على وطنٍ، ولا يَشْتَرِكُ في شأنٍ من الشؤونِ العامّةِ خيرِها وشرِّها، ولا يعنيه، ما دامَ راضيًا عن نفسِه مغتبطًا بحظّه، أسَقَطَتِ السماءُ على الأرضِ، أمْ بَقِيَتْ في مكانِها.

---

(١) المترفون: الأغنياء.

أخافُ عليه أن يحتقرَ العلومَ والآدابَ، ويزدَرِي المواهبَ والعقولَ، والفضائلَ والمزايا، فيصبحَ عارَ أمّتِه وشنَارها[1]، وَوَصْمَتَها الخالدةَ التي لا تزولُ؛ ومن أشرَبَ قلبه حبَّ المالِ، ونزلَ من نفسِه إلى قرارتِها، لا يحترمُ غيرَه، ولا يقيمُ إلّا لأربابهِ وَزْنًا، ويُخيَّلُ إليه أن مَنْ عداهم من الناسِ، لا قيمةَ لهم في الحياةِ، بل لا حقَّ لهم في الوجودِ.

أخافُ عليه، إن تزوّجَ، أن يأبَى الزواجَ إلّا من غنيّةٍ يرى أنّها هي التي تليقُ بمقامِه ومنزلتِه، ومنِ اشترطَ الغنَى في زوجةٍ، قلّما تنزعُ نفسُه إلى اشتراطِ شيءٍ سواه، فيسقطُ في زواجهِ سقطةً يشقَى بها طولَ حياتِه من حيث لا ينفعُه مالُه، ولا جاهُه.

أخافُ عليه، إنْ ولدَ، ألّا يجدَ بين أوقاتِه ساعةَ فراغٍ يتولّى فيها النظرَ في تهذيبِ ولدِهِ وتربيتِه، فيتركُه صغيرًا في أيدي الخدمِ، وكبيرًا في أيدي عشراءِ السوءِ، فيصبحُ نكبتَه الكبرَى في حياتِه، وعارَه الدائمَ بعد مماتِه.

أخافُ عليه أن يقضيَ أيامَه ولياليَه مروّعًا مذعُورًا، خافقَ القلبِ، مستطارَ الفؤادِ، تقتُلُه الخسارةُ، إنْ خسرَ، ويصعقُه فوتُ الرِّبْحِ، إنْ فاتَه، ويطيرُ بنومِه وهدوئِه هبوطُ الأسعارِ، ونزولُ الأسهمِ، وتقلّباتُ الأسواقِ، وخُسرانُ القضايا، ومنازعاتُ الخصومِ، والآفاتُ السماويّةُ، والجوائحُ الأرضيّةُ.

وما حزنُ الفقيرِ الذي أنفقَ آخرَ دِرْهَمٍ بيدِه من حيث لا يعرفُ له طريقًا إلى سواه على نفسِه، وعلى مستقبلِه، بأشدَّ من حُزنِ الغنيِّ الشحيحِ على الدرهمِ الذي نَقَصَ من مِلْيونِه، أو الذي كان يُؤمّلُ أنْ يتمّمَ به مليونه، فلمْ يُتَحْ له.

وما ليلةُ البائسِ المسكينِ الذي يتصايحُ أولادُه من حولِه جوعًا، ولا يجدُ ما يَسُدُّ به رمقَهم، بأطولَ من ليلةِ الغنيِّ الذي يسقطُ إليه الخبرُ بأنّ سلعةً من سِلعِه، قد نفقَتْ، أو أنّ سَهْمًا من أسْهمِه، قد نزلَ.

وحدّثني مَن رأى بعينِه من جُنَّ، وهو واقفٌ ينظرُ إلى قصرٍ من قصورِه يحترقُ. وسمِعْتُ كثيرًا من حوادِثِ المنتحرين والمصعوقين على أثرِ النكباتِ الماليّةِ، والخسائرِ التجاريّةِ التي لا تُفقِرُهم، ولا تصلُ بهم إلى درجةِ الإملاقِ[2]، وكلُّ أثرِها عندَهم أنّها تنقُلُهم إلى منزلةٍ في الغِنَى أدْنَى من منزلتِهم الأولى.

أخافُ عليه أنْ يصبحَ واحدًا من أولئك الوارِثين المستهتِرين الذين لا عملَ لهم في حياتِهم سوى هَدْمِ حياتِهم بأيديهِمْ، وهَدْم ما تركَ لهم آباؤُهم وأجدادُهم من مالٍ وجاهٍ، فأندبُ حظّي في قبري، وأقرعُ السِّنَّ[3] على أنْ لم أكن فارقتُ هذه الحياةِ، لا مالَ لي فيها ولا ولد.

ولا أزالُ أذكرُ حتّى الساعةِ، أنّني مَررْتُ بأحدِ شوارعِ القاهرةِ من بضعِ سنينَ، فرأيتُ في

---

(١) الشنار: العيب والذلّ.
(٢) الإملاق: الفقر.
(٣) قَرْعُ السّنّ: كناية عن الندم.

مكانٍ واحدٍ منه منظرَيْن مختلفَيْن؛ رأيت غلامًا من الوارثين جالسًا بإحدى الحاناتِ، يمرحُ في نعمائِه، وآخرَ من المتشرّدين نائمًا تحت الرصيفِ على مقربةٍ منه، يضطربُ في بأسائِه.

أمّا الأوّلُ، فقد كان جالسًا بين مائدتَي شَرابٍ وقِمارٍ، تسلبُ الأولى عَقْلَهُ، والأخرى مالَه، وقد أحاطَ به جماعةٌ من الخُلَعاءِ الماكرين، يلعبون بعقلِه لعبَ الغِلْمانِ بالكُرةِ في ميدانِها؛ يضحكون لِنُكاته، ويُؤَمّنون على أقواله، ويصدّقون أكاذيبه، ويتحرّكون بحركتِه، ويَسْكُنون بسكونه، وهو يقهقهُ بينَهُم قهقهَةَ المجانين، ويَصِيحُ صياحَ الثعالبِ.

وأمّا الثاني، فقد كان عَاريًا إلّا قليلًا، يفتحُ إحْدَى عينَيْه من حينٍ، إلى حينٍ كلّما رنَّتْ في أذنِه ضَحِكاتُ هؤلاءِ السكارى وضوضاؤهم، ويضمُّ ركبتَيْه إلى صدرِه، كلّما أحسّ صوتَ مَرْكَبةٍ مارّةٍ بجانبِه، وقد يبسطُ كفّه أحيانًا، وهو مغتمضٌ، إنْ خُيِّل إليه أنّ يدًا تمتدُّ إليه بالإحسانِ، ولا يدَ هناك ولا إحسانَ.

رأيتُ هذَيْن المنظرَيْن الغريبَيْن المتناقضَيْن، فثارتْ في نفسي تلك الساعةَ عاطفتانِ مختلفتانِ: عاطفةُ البغْضِ والاحتقارِ للأوّلِ، وعاطفةُ الرحمةِ والشفقةِ على الثاني، وقلتُ في نفسي: لو كان لي ولدٌ، وكان لا بُدَّ له من أنْ يكونَ أحدَ هذَيْن الغُلامَيْن، إمّا الوارثَ الجالسَ فوق الرصيفِ، ينثرُ الذهبَ نثرًا، أو المتشرّدَ النائمَ تحته، يسألُ الناسَ لقمةً، فلا يجدُها، لفَضّلْتُ أن أراه بين فئة المتشرّدين، على أن أراه بَيْنَ فئةِ الوارثين؛ لأنّي أرجُو له في الأولى، أنْ يجدَ بين الرّاحمين راحمًا يُحسِنُ إليه، ويَسْتَنْقِذُه من شقائِه، ويأخذُ بيدِه في طريقِ الحياةِ الطيّبةِ الصالحةِ، أمّا في الثانية، فإنّي لا أرجُو له شيئًا.

إنّ للرحمةِ طَيْشًا كطَيْشِ القسوةِ والشدّةِ، وأطيشُ الراحمين ذلك الذي يستنفدُ أيامَ حياتِه في جمعِ الثروةِ لأولادِه، دائبًا ليلَه ونهارَه، لا يهدأُ، ولا يفترُ من حيث يُغْفِلُ النظرَ في شأنِ تربيتِهم وتعليمِهم، ضنًّا بهم أن يُزْعِجَ نفوسَهم بشيءٍ من تكاليفِ الحياةِ وأعبائِها؛ فإذا ذهبَ لسبيلِه، وخلّى بينهم وبين ذلك المالِ الذي جَمَعَه لهم، لا يكونُ لهم من الشأنِ فيه أكثرُ ممّا يكونُ لجماعةِ الحمّالين في الأثقال التي يحملونَها من مكانٍ إلى آخر، فهم ينقلونَه من خزائنِه شيئًا فشيئًا إلى خزائنِ الخمّارين، والمُرابين[1]، والعاهِرين حتى ينفدَ؛ فإذا فرغُوا منه جلسُوا في عَرَصَاتِهم[2] المقفرةِ جلسةَ الباكي الحزين، صُفْرَ الأكفِّ، فارغي الجيوبِ، مطرقي الرؤوسِ، لا حولَ لهم ولا حيلةَ، فقد أضاعوا حياتَهم، وحياةَ آبائِهم وأجدادِهم، وعدمُوا في عام واحدٍ، أو عامَيْن قرنًا كاملًا مجيدًا من أعلاه إلى أسفلِه، ولا يعلمُ إلّا اللهُ ماذا يكونُ شأنُهم بعد ذلك.

ولو أنّ أباهُمْ كان يرحمُهم رحمةً حقيقيّةً، ويشفقُ عليهم إشفاقًا صحيحًا، لرحمَهم من هذا المصير المحزنِ، وضنَّ بهم على هذا التراثِ المشؤومِ.

---

(١) المرابي: الذي يعطي المال بالفائدة. (٢) العَرَصَات: ج العَرَصَة، وهي ساحة الدار.

يقولون: إنّ الفقرَ يدفعُ إلى الجرائمِ، والقتلِ، وارتكابِ السرقاتِ، وأنا أقولُ: إنّنا إذا استطَعْنا أن نفهمَ الجريمةَ بمعناها الحقيقيِّ، وألّا ننخدِعَ بصوَرِ الألفاظِ وألوانِها، علِمْنا أنّ للأغنياءِ جرائمَ كجرائمِ الفقراءِ، بل أشدَّ منها خطرًا، وأعظمَ هَوْلًا.

فإن كان بين الفقراءِ اللصوصُ، والقتلةُ، والشُّطّارُ، والعيّارون، وقاطعُو الطرقِ، فبينَ الأغنياءِ: المحتالُون، والمزوّرون، والمغتصِبُون، والخائِنُون، والمداهِنُون، والمماطِلُون، وأصحابُ المعامل والشركات الذين يغذّون أجسامَهم بدماءِ عمّالهم، والتجارُ الذين يَسْرِقُون من الأمّةِ في يومٍ واحدٍ باسم الحريّةِ التجاريّةِ، ما لا يَسْرِقُه منها جميعُ لصوصِ البلدِ، وعيّاروه في شهرٍ كاملٍ؛ والقُوّامُ والأوصياءُ الذين يورّثون التركاتِ من دونِ وارثِيها، ويأكلون أموالَ اليتامى والمعتوهين باسم صيانتِها والمحافظةِ عليها؛ والسماسرةُ الذين يغتالُون الأسواقَ بأجمعِها؛ والمُرابُون الذي يختلسون الثرواتِ بأكملِها؛ والسياسيّون الذي يسرقون الممالِيكَ بحذافيرِها.

على أنّ جرائمَ اللصوصيّةِ، والسرقةِ، والقتلِ ليست جرائمَ الفقرِ بل جرائمَ الغنى؛ فلولا شُحُّ الأغنياءِ بأموالِهم، وكَلَبُهِمْ عليها، وحيازتُها عن الفقراءِ، لما وُجِدَ في الأرضِ قاتلٌ، ولا سارقٌ، ولا قاطعُ طريقٍ. ولا يَسْرِقُ السَّارقُ، ولا يَسْلُبُ السَّالبُ، ولا يَلِصُّ اللِّصُّ، إلّا جُزءًا من حقّه الذي كان يجبُ أن يكونَ له، لو كان للمال زكاةٌ، وللرحمةِ سبيلٌ إلى الأفئدةِ والقلوبِ.

ليَفتَحِ الأغنياءُ المدارسَ، ولْيَبْنُوا الملاجىءَ، وَلْيُنْشِئُوا المصانعَ والمعاملَ للعاطِلين والمتشرّدين، ولْيَتَعَهّدُوا المنكوبينَ والساقطين في ميادينِ الحياةِ العامّةِ بالمساعدةِ والمعونةِ، فإنْ وجدُوا بعد ذلك لصوصًا، أو قتلةً، أو مجرمين، فليتّهموا الفقرَ، وينعُوا عليه جرائمَه وآثامَه.

لا أريدُ أنّ أقولَ إن الغنى علّةُ فسادِ الأخلاقِ، وإنّ الفِقْرَ عِلَّةُ صلاحِها، ولكنّ الذي أستطيعُ أنْ أقولَه عن تجربةٍ واستقراءٍ: إنّي رَأَيْتُ كثيرًا من أبناءِ الفقراءِ ناجحين، ولم أرَ إلّا قليلًا من أبناءِ الأغنياءِ عاملِين.

إنّ العلومَ والمعارفَ، والمُختَرَعاتِ والمُكتَشَفاتِ، والمدنيّةَ الحديثَة بأجمعِها حسنةٌ من حسناتِ الفَقْرِ، وثمرةٌ من ثمراتِه؛ وما المِدادُ الذي كُتبتْ به المصنّفاتُ، ودُوّنَتْ به الآثارُ، إلّا دموعُ البؤسِ والفاقةِ؛ وما الآراءُ الساميةُ والأفكارُ الناضجةُ التي رفعَتْ شأنَ المدنيّةِ الحديثةِ إلى مستواها الحاضر إلّا أَبْخِرةُ الأدمغةِ المحترقةِ بنيرانِ الهمومِ، والأحزانِ؛ وما انفجَرَتْ ينابيعُ الخيالاتِ الشعريّةِ والتصوّراتِ الفنيّةِ، إلّا من صُدوعِ القلوبِ الكسيرةِ، والأفئدةِ الحزينةِ، وما أشرقَتْ شُموسُ الذكاءِ والعقلِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، إلّا من ظُلماتِ الأكواخِ الحقيرةِ، والزوايا المهجورةِ؛ وما نبغَ النابغُون من فلاسفةٍ وعلماءَ، وحكماءَ وأدباءَ، إلّا في مهودِ الفقرِ، وجحورِ الإملاقِ؛ ولولا الفقرُ ما كان الغنى؛ ولولا الشقاءُ ما وُجِدَتِ السعادةُ.

إن المجتمعَ الإنسانيَّ اليومَ ميدانُ حربٍ يعتركُ فيه الناسُ ويقتتلون؛ لا يرحمُ أحدٌ أحدًا، ولا يُلوي مقبلٌ على مدبرٍ، يعدُون ويُسرِعون، ويتصادمُون ويختطبُون، ويأخذُ بعضُهم

بتلابيب[١] بعضٍ كأنهم هاربُون من معركةٍ، أو مُفلتُون من مارستان[٢]، ودماءُ الشرفِ والفضيلةِ تسيلُ على أقدامِهم، وتموجُ موجَ البحرِ الزاخرِ يغرقُ فيه مَنْ يغرقُ، وينجُو مَنْ ينجُو.

أتدرونَ لِمَ سقطتِ الهيئةُ الاجتماعيّةُ هذا السقوطَ الهائلَ الذي لم تصلْ إلى مثلِه في دورٍ من أدوار حياتِها الماضيةِ؟ ولِمَ هذا الجنونُ الاجتماعيُّ الثائرُ في خاصّتِهم وعامّتِهم، علمائِهم وجهلائِهم؟ ولِمَ هذه الحروبُ القائمةُ، والثوراتُ الدائمةُ، والقتالُ المستمرُّ بين البشرِ جَماعاتٍ وأفرادًا، وقبائلَ وشعوبًا، وممالكَ ودولًا؟

لا سببَ لذلك سوى شيءٍ واحدٍ: هو أنَّ الناسَ يعتقدُون اعتقادًا خطأً أنّ المالَ معيارُ السعادةِ وميزانُها الذي توزَنُ به، فهم يسعَون إليه لا من أجلِ الجمعِ والادّخارِ، كما يجبُ أن يكونَ، بل ومن أجلِ القوتِ وكفافِ العيشِ، والمـــالُ في العالمِ كميّةٌ محدودةٌ لا تكفي لِمَلْءِ جميعِ الخزائنِ، وتهدئةِ كافّةِ المطامعِ، فهم يتناهَبُون به، ويتصارعُون من حوله كما تتصارعُ الكلابُ حول الجِيَفِ المُلْقاةِ، ويسمّونَ عملَهم هذا تنازعَ الحياةِ، أو تنازعَ البقاءِ؛ وما هو بالتنازعِ ولا التناظرِ، إنّما هو التفاني والتناحرُ، والدمُ السائلُ، والعدوانُ الدائمُ، والشقاءُ الخالدُ.

والعلاجُ الوحيدُ لهذه الحالِ المخيفةِ المزعجةِ أن يفهمَ الناسُ ألّا صلةَ بين المالِ والسعادةِ؛ وأنّ الإفراطَ في الطلبِ شقاءٌ كالتقصيرِ فيه، وأنّ سعادةَ العيشِ وهناءَه، وراحةَ النفسِ وسكونَها، لا تأتي إلّا من طريقٍ واحدٍ هو الاعتدالُ.

* * *

الآن أستطيعُ غيرَ خاشٍ لومًا ولا عتبًا، أن أقضيَ للناشىءِ الفقيرِ على الناشىءِ الغنيِّ قضاءً لا مجاملةَ فيه، ولا محاباةَ، ومن ذا الذي يجاملُ الفقراءَ ويحابيهم؟! وأن أقولَ للناشىءِ الفقيرِ: صبرًا، يا بنيّ، وعزاءً، فإنّك لم تُخلَقْ إلّا للعملِ، فاعملْ واجتهدْ، ولا تعتمدْ في حياتِك إلّا على نفسِك، ولا تحصدْ غيرَ الذي زرعَتْه يدُك، فإنْ لم تجدْ معلّمًا يعلّمُك، فعلّمْ نفسَك. والزمنُ خيرُ مؤدّبٍ ومهذّبٍ، وإن ضاقَتْ بك المدارسُ، فادرسْ في مدرسةِ الكونِ، ففيها علومُ الحياةِ بأجمعِها.

وإن كنتَ ممّنْ لا يعدّون وظائفَ الحكومة ومناصبَها غنمًا عظيمًا كما يعدّها القَعَدَةُ العاجزون؛ فها هوذا فضاءُ الأرضِ أمامَك، فامشِ فيه، وفتّشْ عن قُوتِك كما تفتشُ عنه الطيورُ التي ليس لها مثلُ عقلِك وقوّتِك، فإنّ الله لم يخلقْك في هذا العالمِ، ولم يبرزْك إلى هذا الوجودِ لتموتَ فيه جوعًا، أو تهلكَ ظمأً. ولا تصدّقْ ما يقولونه لكَ من أنّ الناشىءَ الغنيَّ أسعدُ منك حالًا، وأوفرُ حظًّا، وإنْ راقَك منظرُه، وأعجبَك ظاهرُه، فلكلِّ نفسٍ همومُها وآلامُها، وهمومُ الفقرِ، على شدّتها، أقلُّ همومِ الحياةِ، وأهونُها.

وحسبُك من السعادةِ في الدنيا ضميرٌ نقيٌّ، ونفسٌ هادئةٌ، وقلبٌ شريفٌ، وأن تعملَ بيدِك،

---

(١) التلابيب: ج التلبيب، وهو الطوق من الثياب. (٢) المارستان: المستشفى.

فترى بعينِك ثمراتِ أعمالِك تنمُو بين يدَيْك، وتترعرعُ، فتغتبطُ بمرآها اغتباطَ الزارعِ بمنظرِ الخضرةِ والنماءِ في الأرضِ التي فلحَها بيدِه، وتعهّدَها بنفسِه، وسقاها من عرقِ جبينِه.

❁ ❁ ❁

قتيلة الجوع

قرأتُ في بعضِ الصحفِ منذُ أيام أنّ رجالَ الشرطةِ عثَرُوا بجثّةِ امرأةٍ في جبلِ المُقَطّم، فظنّوها قتيلةً، أو منتحرةً حتى حضرَ الطبيبُ، ففحصَ أمرَها، وقرَّرَ أنَّها ماتَتْ جُوعًا.

تلك أوّلُ مرّةٍ سمعْتُ فيها بمثلِ هذه الميتةِ الشنعاءِ في مصرَ، وهذا أوّلُ يومٍ سجَّلتْ فيه يدُ الدهرِ في جريدةِ مصائبِنا، ورزايانا هذا الشقاءَ الجديدَ.

لم تمتْ هذه المسكينةُ في مفازةٍ[1] منقطعةٍ، أو بيداءَ مجهل؛ فنفزعُ في أمرِها إلى قضاءِ اللهِ وقدره كما نفعلُ في جميعِ حوادثِ الكونِ التي لا حولَ لنا فيها ولا حيلةَ، بل ماتتْ بين سَمْعِ الناسِ وبصرِهم، وفي ملتقَى غادِيهم برائِحهم، ولا بدّ أنّها مرّتْ قبل موتِها بكثير من المنازلِ تطرقُها، فلم تسمعْ مُجيبًا، ووقفتْ في طريقِ كثيرٍ من النّاسِ تسألُهُم المعونةَ على أمرِها، فلم تَجِدْ من يمدُّ إليها يدَه بلقمةٍ واحدةٍ تسدُّ بها جوعَتَها. فما أقسَى قلبَ الإنسانِ! وما أبعدَ الرحمةَ من فؤادِه! وما أقدرَه على الوقوفِ موقفَ الثباتِ والصبرِ أمامَ مشاهدِ البؤسِ ومواقفِ الشقاءِ!

لِمَ ذهبَتْ هذه البائسةُ المسكينةُ إلى جبلِ المقطّم في ساعتِها الأخيرةِ؟ لعلّها ظنَّتْ أنّ الصخرَ ألينُ قلبًا من الإنسانِ، فذهبَتْ إليه تبثُّه شكْوَاها، أو أنَّ الوحشَ أقربُ منه رحمةً، فجاءَتْهُ تستجْدِيهِ فُضْلَةَ طعامِه. وأحسبُ لو أنّ الصخرَ فهمَ شكواها، لأشْكَاها[2] ولو أنّ الوحشَ ألمّ بسريرةِ نفسِها، لرثَى لها، وحنَا عليها، لأنّي لا أعرفُ مخلوقًا على وجهِ الأرضِ يستطيعُ أن يملكَ نفسَه ودموعَه أمامَ مشهدِ الجوعِ وعذابِهِ غيرَ الإنسانِ.

ألَمْ يلتقِ بها أحدٌ في طريقِها، فيرَى صُفْرةَ وجهِها، وترقرقَ مدامِعِها، وذبولَ جسمِها، فيعلمُ أنّها جائعةٌ، فيرحمُها؟!

ألَمْ يكنْ لها جارٌ يسمَعُ أنينَها في جوفِ الليلِ، ويرَى غدوَّها ورواحَها حائرةً ملتاعةً في طلبِ القُوتِ، فيكفيها أمرَه؟!

أأقفرتِ البلادُ من الخبزِ والقوتِ، فلا يوجدُ بين أفرادِ الأمّةِ جميعِها من أصحابِ قصورِها إلى سكانِ أكواخِها رجلٌ واحدٌ يملكُ رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجتِه، فيتصدّقُ به عليها؟!

اللّهمَّ، لا هذا ولا ذاك، فالمالُ، والحمدُ للهِ، كثيرٌ، والخبزُ أكثرُ منه، ومواضعُ الخِلّاتِ والحاجاتِ باديةٌ مكشوفةٌ، يراها الراؤون، ويسمعُ صدَاها السامعون، ولكنّ الأمّةَ التي ألِفَتْ

(١) المفازة: الأرض المقفرة.

(٢) شكا إليه فأشكاه: أي أرضاه وقبل شكواه.

ألّا تبذلَ معروفَها إلّا في مواقفِ المفاخرةِ والمكاثرةِ، والتي لا تفهمُ من معنى الإحسانِ إلّا أنّه الغُلُّ[1] الثقيلُ الذي يوضَعُ في رقابِ الفقراءِ لاستعبادِهم واسترقاقِهم، لا يمكنُ أن ينشأ فيها محسنٌ مخلصٌ، يحملُ بين جنبَيْه قلبًا رحيمًا.

لقد كان الإحسانُ في مصر كثيرًا في عصرِ الاكتتاباتِ والحفلاتِ، وفي العهدِ الذي كانت تسجّلُ فيه حسناتُ المحسنين على صفحاتِ الجرائدِ تسجيلًا يشهدُه ثلاثةَ عشرَ مليونًا من النفوس، فأمّا اليومَ، وقد أصبحَ كلُّ امرىءٍ موكولًا إلى نفسِه، ومسؤولًا أمامَ ربِّه وضميرِه أن يتفقَّدَ جيرتَه وأصدقاءه، وذوي رحِمِه، ويلتمسَ مواضعَ خَلّاتِهم وحاجاتِهم ليسدَّها، فها هم الفقراءُ يموتون جوعًا بين كثبان[2] الرمالِ وفوق شِعاف[3] الجبالِ من حيث لا راحمَ ولا معينَ.

لقد كان في استطاعةِ تلك المرأةِ المسكينةِ أنْ تَسْرِقَ رغيفًا تتبلّغُ به، أو درهمًا تبتاعُ به رغيفًا، فلَمْ تفعلْ، وكان في استطاعتِها أن تَعْرِضَ عِرْضَها في تلك السوقِ التي يَعْرِضُ فيها الفتياتُ الجائعاتُ أعراضَهُنَّ، فلم تفعلْ، لأنَّها امرأةٌ شريفةٌ تفضّلُ أن تموتَ بحسرتِها، على أن تعيشَ بعارِها، فما أعظمَ جريمةَ الأمّةِ التي لا يموتُ فيها جُوعًا غيرُ شرفائِها وأعفّائِها!

❀ ❀ ❀

الأدب الكاذب

كنّا وكان الأدبُ حالًا قائمةً بالنفسِ تمنعُ صاحبَها أن يُقْدِمَ على شرٍّ، أو يحدّثَ نفسَه به، أو يكونَ عَوْنًا لفاعليه. فإن ساقَتْهُ إليه شهوةٌ من شهواتِ النفسِ، أو نزوةٌ من نزواتِ العَقْلِ، وجدَ في نفسِه عند غشيانِه من المَضَضِ والارتماض[4] ما ينغّصُه عليه، ويكدّرُ صفوَه وهناءَه.

ثمّ أصبحنا، وإذا الأدبُ صورٌ ورسومٌ، وحركاتٌ وسكناتٌ، وإشاراتٌ والْتِفاتاتٌ، لا دخلَ لها في جوهرِ النفسِ، ولا علاقةَ لها بشعورِها ووجدانِها. فأحْسَنُ الناسِ عند الناسِ أدبًا وأكرمُهم خُلُقًا، وأشرفُهم مذهبًا، من يكذبُ على أن يكونَ كذبُه سائغًا مهذّبًا، ومن يخلفُ الوعدَ على أن يُحْسِنَ الاعتذارَ عن إخلافِه، ومن يبغضُ الناسَ جميعًا بقلبِه على أن يُحبَّهم جميعًا بلسانِه، ومن يقترفُ ما شاءَ من الجرائمِ والذنوبِ على أن يحسنَ التخلّصَ من نتائجِها وآثارِها.

وأفضلُ من هؤلاءِ جميعًا عندَهم أولئك الذين برعُوا في فنّ «الآداب العالية»، أي فنِّ الرياءِ والنفاقِ، وتفوّقوا في استظهارِ تلك الصورةِ الجامدةِ التي تواضعَ عليها «جماعة الظرفاء» في التحيّة والسلامِ، واللّقاءِ والفراقِ، والزيارةِ والاستزارةِ، والمجالسةِ والمنادمةِ.

وأمثالُ ذلك ممّا يرجعُ العلمَ به غالبًا إلى صغرِ النفسِ وإسفافِها، أكثرَ ممّا يرجعُ إلى أدبِها

---

(١) الغُل: القيد.
(٢) الكثبان: ج الكثيب، وهو تلّ من الرمل.
(٣) الشعاف: ج الشعفة، وهي أعلى الشيء.
(٤) الارتماض: الاحتراق من شدّة الحزن.

وكمالِها؛ فكانَ الناسُ لا يستنكرون من السيّئةِ إلّا لونَها، فإذا جاءَتْهُم في ثوبٍ غير ثوبِها أنِسُوا بها، وسكنُوا إليها؛ ولا يعجبُهم من الحسنةِ إلّا صورتُها، فإذا لم تأتِهم في الصورةِ التي تعجبُهم وتروقُهم، عافُوها وزهدُوا فيها، أي أنّهم يفضّلون اليدَ الناعمةَ التي تحملُ خِنْجَرًا، على اليدِ الخشنةِ التي تحملُ بَدْرَةً[1]، ويُؤثِرون كأسَ البلورِ المملوءةَ سُمًّا على كأسِ الخزفِ المملوءةِ ماءً زلالًا.

ولقد سمعتُ بأُذنيّ من أخذَ يعدُّ لرجلٍ من أصدقائِه من السيّئاتِ ما لو وُزّعَ على الخلقِ جيمعًا للوّثَ صحائِفَهُم. ثمّ ختمَ كلامَهُ بقولِه: وإنّي على ذلك أحبّهُ وأجِلّه، لأنّه رجلٌ «ظريفٌ»!

وأغربُ من ذلك كلِّه أنّهم وضعُوا قوانينَ أدبيَّةً للمغازلةِ، والمعاقرةِ، والمقامرةِ، كأنّ جميعَ هذه الأشياءِ فضائلُ لا شكَّ فيها، وكأنّ الرذيلةَ وحدَها هي الخروجُ عن تلك القوانينِ التي وُضِعَتْ لها. وما عهدُنا ببعيدٍ بذلك القاضي المصريّ الذي أجمعَ الناسُ في مصرَ منذ أيّامٍ على احتقارِه وازدرائِه، لا لأنّه لعبَ القمارَ، بل لأنّه تلاعبَ بأوراقِ اللعبِ في أحدِ أنديةِ القمارِ، وسَمَّوْه لصًّا دنيئًا؛ والقمارُ لصوصيّةٌ من أساسِه إلى ذُرْوَتِه.

* * *

أعرفُ في هذا البلدِ رجلَيْن يجمعهُما عملٌ واحدٌ، ومركزٌ واحدٌ: أحدُهما خيرُ الناسِ، والآخرُ شرُّ الناسِ، وإن كان الناسُ لا يَرَوْنَ رأيي فيهما.

أمّا الأولُ، فهو رجلٌ قد أخذَ نفسَه مُنْذُ نَشْأتِه بمطالعةِ كتبِ الأخلاقِ، والآدابِ ومزاولتِها ليلَه ونهارَه، فقرأَ فيها فصُولَ الصِّدْقِ والأمانةِ، والعفّةِ والزهدِ، والسماحةِ والنجدةِ، والمُروءةِ والكرمِ، وقصصَ السُمَحاءِ والأجوادِ، والرُّحماءِ والمُؤثِرين على أنفسِهم، وافْتَتَنَ بتلك الفضائلِ افتتانًا شديدًا، ثمّ دخلَ غمارَ المجتمعِ بعد ذلك، وقدِ استقرّ في نفسِه أنّ الناسَ قد عَرَفُوا من الأدبِ مِثْلَ ما عَرَف، وفهمُوا من معناه مثلَ ما فهمَ، وأخذوا منه بمثلِ الذي أخذَ فغضبَ في وجهِ الأشرارِ، وابتسمَ في وجهِ الأخيارِ. والأوّلون أكثرُ عَدَدًا، وأعظمُ سُلْطةً وجاهًا، فَسُمِّيَ عند الفريقين شَرِسًا متوحّشًا؛ وامتدَح إحسانَ المحسنِ، وذمَّ إساءةَ المسيءِ، والمحسنون في الدنيا قليلُون، فسمّيَ وقحًا بذيئًا حتّى بين المحسنين؛ وبذلَ معروفَه للعاجزِ الخاملِ، ومنعَه القادرَ النابهُ، فلم يشعرْ بمعروفِه أحدٌ، فسمّي بخيلًا؛ واعتبرَ الناسَ بقِيَمِهم الأدبيَّةِ، لا بمقاديرِهم الدنيويّةِ، فلقيَ الأغنياءَ والأشرافَ بمثل ما يلقَى به العامّةَ والدهماء[2]؛ فسمّي متكبّرًا؛ وقال لمَنْ جاءَه يساومُه في ذمّتِه: إنّي أحبُّك ولكنّي أحبُّ الحقَّ أكثرَ منك؛ فكثُرَ أعداؤه وقلّ أصدقاؤه.

أمّا الثاني، فَأقلُّ سيّئاتِه أنّه لا يفي بوعدٍ يَعِدُهُ، ولكنّه يحسنُ الاعتذارَ عن إخلافِ الوعودِ، فلا يسمّيه أحدٌ مِخْلافًا؛ وما رآه الناسُ في يوم من أيّامِه عاطفًا على بائسٍ أو منكوبٍ، ولكنّه يبكي لمصابِ البائسين والمنكوبين، ويستبكي لهم فعُدَّ من الأجوادِ السُّمَحَاءِ؛ وكثيرًا ما أكلَ

---

(١) البدرة: الكميّة من النقود.

(٢) الدهماء: جماعة الناس.

أموالَ اليتامَى، وأساءَ الوصايةَ عليهم، ولكنّه لا يزالَ يمسحُ رؤوسَهم، ويحتضنُهم إلى صدرِه في المجامعِ والمشاهدِ كأرحمِ الرحماءِ، وأشفقِ المُشْفِقِين؛ فسمّي الوصيَّ الرحيمَ؛ ولا يفتأ ليلَه ونهارَه ينالُ من أعراضِ النّاسِ، ويستنزلُ من أقدارِهم، إلّا أنّه يخلطُ جدّه بالهَزْلِ، ومرارتَه بالحلاوةِ، فلم يعرفِ الناسُ عنه شيئًا سوى أنّه الماجنُ الظريفُ.

ذلك هو الأدبُ الذي أصبحَ في هذا العصرِ رأيًا عامًّا يشتركُ فيه خاصّةُ الناسِ وعامّتُهم، وعقلاؤهم وجهلاؤهم؛ ويعلّمُه الوالدُ ولدَه، والأستاذُ تلميذَه؛ ويقتتلون اقتتالًا شديدًا على انتحالِه والتجمّل به، كما يقتتلون على أعزِّ الأشياءِ وأنفسِها، حتّى تبدّلَتِ الصورُ، وانعكسَتِ الحقائقُ، وأصبحَ الرجلُ المخلصُ أحرجَ الناسِ بصدقِه وإخلاصِه صدرًا، وأضلَّهم بهما سبيلًا، لا يدري أيكذبُ فيُسخطَ ربَّه، ويُرضيَ الكاذبين؟ أم يصدقُ، فيرضي نفسَه، ويُسخطَ الناسَ أجمعين؟ ولا يعلمُ أيهجرُ هذا العالمَ إلى عُزْلَةٍ منقطعةٍ يقضي فيها بقيّةَ أيامِ حياتِه غريبًا شريدًا؟ أم يبرزُ للعيونِ، فيموتُ همًّا وكمَدًا؟

* * *

يجبُ أن يكونَ أدبُ النفسِ أساسَ أدبِ الجوارحِ، وأن يكونَ أدبُ الجوارحِ تابعًا له، وأثرًا من آثارِه، فإنْ أبى الناسُ إلّا أنْ يجعلوا أدبَ الحركاتِ والسَّكَناتِ أساسَ صِلاتِهم وعلائِقهم، وميزانَ قيَمِهم وأقدارِهم، فلْيَعْتَرِفوا أنّ العالمَ كلَّه مسرحٌ تمثيليٌّ، وأنّهم لا يؤدّون فيه غيرَ وظيفةِ الممثّلين الكاذبين.



إيفون الصغيرة[1]

«مترجمة»

ماتَتْ وكأنّها لم تمُتْ، ليس على وجهِها أثرٌ واحدٌ من آثارِ الآلامِ التي قاسَتْها في مرضِها، يحسبُها الرائي نائمةً نومًا هادئًا لذيذًا، ويُخَيَّلُ إليه أنّه يسمعُ صوتَ أنفاسِها المتردّدةِ، ويرى هبوطَ صدرِها وارتفاعَه.

أينَ صُفْرةُ المَوْتِ ونحولُه، أينَ آلامُ النزعِ وشدائدُه، أين الغُضُونُ[2] التي خلّفَتْها الأوجاعُ فوق جبينِها، والدوائرُ الزرقاءُ التي رسَمتْها حولَ جفنَيْها؟

---

(١) هي مرثيّة أحد الشعراء في فتاة صغيرة عَثَرَ بها في طفولتها على باب إحدى الكنائس في فرنسا ناظرُ مدرسة قروية، وكان شيخًا كبيرًا، مات جميع أولاده وأحفاده، وبقي هو من بعدهم وحيدًا مستوحشًا، فأنس بها حين وجدها أنسًا شديدًا، وسماها «إيفون الصغيرة» لأنّه لم يكن يعلم من أمر نسبها شيئًا. فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها، فأصابها مرض لم يمهلها إلّا بضع ليال حتى ذهب بها إلى ربّها.

(٢) الغضون: ج الغضن، وهو تجعّد الجلد.

لقد ماتَ كلُّ ذلك بموتِها، فعادَ لها رونقُها وبهاؤُها؛ وأصبحَتْ كأنّما قد خُلقَتِ الساعةَ، ولمّا تنبعثِ الروحُ في جسدِها.

بهذا الوجهِ الجميلِ المشرقِ، كانتْ جالسةً منذ أيام قلائلَ أمام المدفأةِ باسمةً مطمئنّةً تلاعبُ هِرّتَها، وبهذا الفمِ الأرجوانيِّ القاني، كانت تغنّي أمامَ قفصِ عُصفورِها أُنشودةَ السّعادةِ والحياةِ، وبهاتَيْنِ اليَدَيْن البيضاوَيْن الليّنَتَيْن، كانت تقطفُ أزهارَ الربيعِ، وتقدّمُها هديّةً إلى أبيها الشيخِ؛ أمّا اليوم، فقدِ انقضَى ذلك كلُّه، لأنّ حياتَها قدِ انقضَتْ.

آخرُ كلمةٍ نطقَتْ بها قبلَ موتِها «سأموتُ السّاعةَ، فأْتُوني بعصفورِي أودِّعه». فأتَوها بقفصِ عصفورِها، وعلّقُوه بقائمِ سريرِها، فظلَّتْ تنظرُ إليه باسمةً منطلقةً، وظلَّ العصفورُ يلعبُ ويغرّدُ تغريدًا شجيًّا، وهو لا يعلَمُ أنّه ينشدُ فوقَ رأسِها أنشودةَ الموتِ.

وهنا وقفَ الشيخُ الذي تبنّاها بجانبِ فراشِها واجِمًا(١) حزينًا، مشرّدَ اللبِّ، ذاهلَ العقلِ؛ ومدّ يدَه إلى يدِها الضعيفةِ الواهيةِ التي كانت بالأمسِ عكّازَ شيخوختِه، وسنَدَ حياتِه، فأخذَها ووضعَها على صدرِه، كأنّما يريدُ أن يمدَّ حياتَها بتلك البقيّةِ الباقيةِ في قلبِه من الحياةِ، لتعيشَ من بعدِه ولو ساعةً واحدةً، حتّى لا يَراها تموتُ بين يدَيْه. وظلَّ على حالِه تلك هنيهةً، ثمّ التفتَ فجأةً إلى أصدقائِه، وقال لهم: ها هي ذي الحرارةُ قد بدأَتْ تدبُّ في جسمِها شيئًا فشيئًا، فَنَظَرُوا إليه آسفِين محزونين، ثم نكسُوا أبصارَهم، وأسبلُوا مدامعَهم، فظلَّ يديرُ بينهم عيونًا حائرةً، ويتنقّل بنظراتِه ههنا وههنا، كأنّما يسألُهم المعونةَ على أمرِه، ومن ذا يعينُ على القدرِ، أو يعترضُ سَهْمَ المنيّةِ(٢) القاتلِ.

وما هي إلّا لحظةٌ، حتى شعرَ أنّ يدَها تجذبُ يدَه، فانتفضَ، وحنَا عليها، فطوَّقَتْه بذراعَيْها الضعيفَتَيْن، وضمّتْهُ ضمّةً كانت فيها نفسُها.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون: ماتَتْ «إيفونُ الصغيرةُ»، ماتتِ الطفلةُ الوديعةُ الجميلةُ، ماتَتِ الفتاةُ الرزينةُ الصابرةُ. في سبيلِ الله نجمٌ تلألأَ في سماءِ الحياةِ لحظةً، ثم هوَى، وغصنٌ أزهرَ في رَوْضِ المُنَى ساعةً، ثم ذَوى، وقدحٌ من البلّورِ، لم تكدْ تلمسُه الشفاهُ حتى انكسرَ، وعقدٌ من اللؤلؤ لم ينتظمْ في سِمْطِه(٣)، حتى انتثرَ.

هذه الغرفُ التي طالَما أنارَتْها بابتسامتِها حتى في الساعةِ التي تختفي فيها جميعُ الابتسامات؛ والحديقةُ التي كانتْ تقضي فيها كلَّ يوم بضعَ ساعاتٍ من ليلِها، أو نهارِها تُلاعبُ أطيارَها، وتقطفُ أزهارَها، وتتعهَّدُ أشجارَها؛ والمماشي التي كانت تخطرُ على حصبائِها، فيصيّرُها شعاعُ خدَّيْها ياقوتًا ومَرْجانًا، وقد خلَتْ جميعُها منها، وهيهاتَ أن يُسْعِدَها الحظُّ برؤيتِها بعدَ اليومِ.

---

(١) الواجم: المطرق لشدّة الحزن. (٢) المنيّة: الموت.

(٣) السمط: الخيط.

كانتْ «إيفون» جميلةَ الخُلُقِ، طيّبةَ النفسِ، نقيّةَ الضميرِ، تُحِبُّ الأحياءَ جميعَهم ناطقَهم وصامِتَهم، فلا تبذلُ من ودِّها لهرّتِها المريضةِ أقلَّ ممّا تبذلُ منه لأبيها الشيخِ العجوزِ، ولا تتودّدُ إلى الشيوخِ الفانين أصدقاءِ أبيها وسجرائِه[1] أكثرَ ممّا تتودّدُ إلى وافدٍ غريبٍ، يهبطُ قريتَها للمرّةِ الأولى في حياتِه، وما علِمُوها قَطُّ اختلفت مع فتًى، أو فتاة من تلاميذِ مدرستِها، لأنّها كانتْ تستهوي الطيّبَ منهم بلطفِها وأدبِها، والخبيثَ بعفوِها وصفحِها.

وهي وإنْ لمْ تكنْ تعلمْ أنّها لقيطةٌ، ولكنّ من كان ينظرُ في عينَيْها، ويرى ذبولَهما وانكسارَهما ولمعانَهما الذي يُشْبِهُ لمعانَ الدمعِ الرقراقِ، يُخيَّلُ إليه أنّها قد أُلهِمَتْ ما كتَمَهُ الناسُ عنها؛ وأنّها كانت تعلمُ أنّها لا تعيشُ في بيتِ أبيها بوصايةِ جدِّها كما كانُوا يقولُون لها، بل في بَيْتِ مُحْسنٍ كريمٍ لا يعرفُ من تاريخِها، ولا من أمرِ ميلادِها شيئًا.

وكانتْ لا تزالُ تتراءَى بينَ شفتَيْها ابتسامةٌ حُلْوةٌ هي الرقيةُ التي كانت تفتحُ بها أقفالَ القلوبِ، ثم تنزلُ فيما تشاءُ منها المنزلةَ التي تريدُها، ولم تكنِ ابتسامتُها ابتسامةَ التصنّعِ والتكلّفِ التي يرثُها أكثرُ الفتياتِ عن أمهاتِهنّ، بل ابتسامةَ الحبِّ والإخلاصِ، والحُنُوِّ والعطفِ.

لذلك عجّلَ الموتُ إليها، لأنّ سكانَ السماءِ لا يستطيعُون أن يعيشوا طويلًا على ظَهْرِ الأرضِ.

دقّتْ أجراسُ الكنيسةِ تَنْعاها، فلمْ تسمَعْها، ولو سمِعَتْها، لاهتزّتْ لها في سريرِها شَوْقًا ولهفَةً كما كان شأنُها في حياتِها. ثم جاءَتْ ساعةُ الدفنِ، فحملُوها على أيديهم، ومشَوْا بها، حتّى وصلُوا إلى الكنيسةِ، فوضعُوا نعشَها في رُكْنٍ من أركانِها، ثم اجتمعُوا حولَها يودّعُونها الودَاعَ الأخيرَ، فبكاها الشيوخُ الذين كانوا يحبُّونها، ويأنسون بها والفتيانُ والفتياتُ من تلاميذِ مدرستِها، والنساءُ اللواتي كنّ يُحبِبْنَها من أجلِ حبّها أبناءَهُنّ، وبكاها أكثرُ من هؤلاءِ جميعًا ذلك الشيخُ المسكينُ لأنَّها كانت كلَّ دنياهُ، فخسِرَها في ساعةٍ واحدةٍ.

وظلَّ كثيرٌ من الوقوفِ يردّدُ ذكراها، فيقولُ أحدُهم: طالما رأيتُها في هذا الرُّكْنِ نفسِه جالسةً وحدَها، وبيدِها الكتابُ المقدّسُ تَتْلُو آياتِه.

ويقولُ الآخر: لقد دَخَلْتُ الكنيسةَ ليلةً، فرأيتُها هائمةً وحدَها في الظلامِ الحالكِ تحت هذهِ الأقبيةِ، فعجبْتُ لصلاحِها وتقواها.

وتقول امرأةٌ: لقد عثرَتِ ابْنتي يومًا من الأيّامِ في مُنْصَرَفِها من مدرستِها ببعضِ الأحجارِ عثرةً برّحَتْ بها، فاحتملتْهَا على ظهرِها، حتّى جاءَتْ بها إلى المنزلِ.

وتقولُ أخرى: لقد كنتُ أراها تمرُّ كلَّ يومٍ بجارتِنا فلانةَ المسكينةِ، فتُعطيها رغيفًا من طعامِها، ثُمّ تستمرُّ أدراجَها إلى مدرستِها.

وهكذا ظلَّ كلٌّ منهم يذكرُ ما يعرفُ عنها، حتى حانَتْ ساعةُ الدفنِ، فعلَتِ الأصواتُ

---

(١) السجراء: ج السجير، وهو الصديق المخلص.

بالبكاءِ، ثم غيّبوها في قبرها، وحَثَوا[١] عليها الترابَ، وكان الليلُ قد أظلَّ المكانَ بجناحَيْه، وسادَ فيه سكونٌ موحشٌ رهيبٌ، فانصرفوا مطرقين واجِمين يقولون:

«وارحمتاه لها! لقد خرجتْ من الدنيا غريبةً كما وَفَدَتْ إليها».

❁ ❁ ❁

الملاعب الهَزْلِيّة

كنتُ آلَيْتُ على نفسي[٢] منذ أُعْلِنَتْ هذه الحربُ، قبّحَها اللهُ، وقبّح كلَّ ما تأتي به، ألّا أكتبَ كلمةً في صحيفةٍ سيّارةٍ في شأنٍ من الشؤونِ العامّةِ خيرِها وشرِّها حتى ينقضيَ أجلُها، وأن أتركَ هذا القلمَ هادئًا مطمئنًّا في مرقدِه مُدْرَجًا في ذلك الكفنِ الأبيضِ الرقيقِ المنسوجِ من خيطِ العنكبوتِ حتى يأتيَ ذلك اليومُ الذي يستطيعُ فيه أن ينبعثَ كما يريدُ، لا كما يُراد منه. ولكنّ نازلًا نزلَ بهذا المجتمعِ المصريّ منذ عامٍ أو عامَيْن، لم أَحْفِلْ به في مبدئه، ولم أُلقِ له بالًا، وعددتُه في النوازلِ الصغيرةِ المتردّدةِ التي لا تلبثُ غيومُها أن تنعقدَ في سماءِ البلدِ، حتى تَهُبَّ عليها نسمةٌ من نَسَماتِ الروحِ الإلهيّ فَتَنْقَشِعَ.

ولكن ها قد مضَى العامُ والعامانُ، وهو باقٍ في مكانِه لا يتحوّلُ، ولا يتحلحلُ، بل تزدادُ قدمُه على الأيّام ثباتًا ورسوخًا، وأَحْسَبُه سيبقَى في مستقبلِ أيّامِهِ أضعافَ ما بقِيَ في ماضيها، إنْ لم نُثِرْ عليه، معشرَ الكتّاب، حربًا شعْواء تهزّ جدرانَه هزًّا، وتدكّه دكًّا، وتلحقُ أعاليه بأسافله، لذلك كتبتُ هذه الكلمةَ غيرَ مُبالٍ بتلك الأليةِ[٣] التي كنت آليتها، فلعلّ أصدقائي من أفاضلِ الكتابِ يساعدونني في هذا الشأنِ الذي، إنْ عجزْنا عنه اليومَ، فما نحن بقادرين عليه غدًا.

نزلَتْ بالأمة المصريّةِ نازلةُ تلك المقاذرِ العامّةِ التي يسمّونها الملاعبَ الهزليّةَ، وما هي في شيءٍ من الهزلِ، ولا الجدِّ، ولا علاقةَ لها بالتمثيلِ والتصويرِ، ولا بأيِّ فنٍّ من الفنونِ الأدبيّةِ، فأقبلَ عليها الناسُ إقبالًا عظيمًا، وأُغْرِمُوا بها غَرامًا شديدًا؛ فلْيُقْبِلوا عليها ما شاؤوا، ولْيَفْتَتِنُوا بها ما أرادُوا. ولكنّ فريقًا واحِدًا من الأمّةِ هو الذي نضنُّ به على تلك المواطنِ الساقطةِ أن تطأها قدمُه، أو تظلّلَ سماؤها رأسَه، لأنّا نَضِنّ به على كلِّ مَنْقَصةٍ في العالمِ تزري به، أو تنالُ من كرامتِه.

ذلك الفريقُ المضنونُ به وبكرامتِه، هو أنتم معشرَ الطلبةِ المصريين، إخوانَنا وأبناءَنا، وعنوانَ مجدِنا وشرفِنا، وصورةَ وجودِنا وحياتِنا، ومناطَ أمانيّنا وآمالِنا، فائذنُوا لكاتبٍ من كتّابكم، وصديقٍ من أصدقائكم، أن يحادثَكُم قليلًا في هذا الشأنِ كما يحادثُ الأبُ ولدَه، أو الأخُ أخاه؛ لا قاسيًا، ولا متجبّرًا، بل عاتبًا متلطّفًا، وأملُه عظيمٌ أن ينتهيَ الحديثُ بينه

---

(١) حثا التراب: صبّه.
(٢) آليت على نفسي: أقسمت.
(٣) الألية: القسم.

وبينكم على ما يُحِبُّ لكم، وما يعتقدُ أنّكم تحبُّون لأنفسِكم.

الحقَّ أقولُ: إنّ الحياءَ يكادُ يعقدُ لساني بين أيدِيكُمْ، فلا أدري كيف أحدِّثُكم، ولا ماذا أقولُ لكم؟

أأعِظُكُمْ في أمرٍ أنتم تعلمُون من نتائجِه وآثارِه وسوءِ عُقباه مثلَ ما أعلمُ، أو أدعُوكُم إلى اجتِنَابِ سيّئةٍ، لا أَحْسَبُ أنّ بَيْنَ كبارِكم وصغارِكم من يجهلُ أنّها السيّئةُ العظمى التي لم تُرْزَإِ الأمةُ بمثلِها في حاضرِ تاريخِها أو ماضِيه! أو أقولُ لكم: إنّ هذه الأماكنَ التي تطؤها أقدامُكم، إنّما هي مقابرُ المَجْدِ والشَّرَفِ، ومدافنُ الفضائلِ والأخلاقِ، ومصارعُ الأعراضِ والحُرُماتِ! وهل غاب ذلك عن عِلْمِ أَحَدٍ مِنكم فأُعْلِمَكُمْ منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهلُ أحدٌ منكم شيئًا ممّا أقولُ، ولكنّه الشبابُ يُغري الضعيفَ العاجزَ عن احتمالِ سلطانِه وسيطرتِه بالإقدامِ على تلك المخاطرِ المُهْلِكةِ، فيمضي إليها قُدُمًا، لا يجهلُ مكانَ الخطرِ منها، ولكنّه يَعْجِزُ عن مغالبةِ نفسِه، ومُناوَرَتِها، حتّى يتردّى فيها، وربّما كان هذا هو كلَّ الفرقِ بيني وبينكم.

إنّني لا أرَى في هذه المجامعِ التي تَفْتَتِنُون بها، وتتهافَتُون عليها حسنةً تَغْتَفِرُ سيّئةً، أو جمالًا يَفِي بقبحٍ، أو خيرًا يعزي عن شرٍّ. فتمثيلُها سخيفٌ باردٌ، لا يستطيعُ من أوتيَ حظًّا قليلًا من سلامةِ الذوقِ أنْ يصبرَ نفسَه ساعةً واحدةً على النظرِ إليه؛ ومِلَحُها ثقيلةٌ مستبشعةٌ، لو نطقَ بها ناطقٌ في مجتمعٍ من المجتمعاتِ الخاصَّةِ، ثم قلّبَ نظرَه في وجوهِ الجالسين حوله، لرأى في ابتساماتِ السخريةِ المترقرقةِ في شفاهِهم، ما يذيبُه حياءً وخجَلًا. وأناشيدُها سوقيّةٌ مبتذلةٌ في موضوعِها، وصورةِ أدائها، لا يَطْرَبُ لِمِثْلِها إلّا أصحابُ الأذواقِ العاميّةِ الخشنةِ الذين يَطْرَبُون لنشيدِ الأذكارِ وطبولِ الزار وتعدادِ النائحاتِ، وضجيجِ الباعةِ في الأسواقِ، فماذا بقيَ فيها من وجوهِ الحسنِ بعد ذلك؟

بقيَ فيها الهزءُ والسخريةُ بالطبقاتِ الشريفةِ العاملةِ في الأمّةِ كالفلاحين آبائنا وأولياءِ نِعْمتِنا، والشيوخِ حفظةِ دينِنا، وأئمّةِ لغتِنا، والمحامين والأطبّاء والمعلّمين أفاضلِ الأمّةِ وعيونِها، وغيرِهم من طبقات الأمّةِ كالصُّنّاعِ والخدمِ والأكّارين(١) وأمثالِهم.

بل بقيَ ما هو شرٌّ من هذا جميعِه، وهو تمثيلُ الشهواتِ البدنيّةِ والنفسيّةِ بجميعِ ألوانِها وضروبِها على مشهدٍ من رجالِنا ونسائِنا، وأطفالنا، وتصويرِها بتلك الصورةِ القبيحةِ التي تُرخَى على مثلِها الستورُ، وتقامُ من حولها الدعائمُ والجدرانُ.

فلو أنّ غريبًا وفَد إلى هذا البلدِ، وهو لا يعلمُ من شأنِه شيئًا، فذهَبَ إلى مكانٍ من تلك الأمكنةِ ليرى في مرآتِه صورةَ الأمّةِ ممثَّلَةً في مسارحِها الوطنيّةِ لقضَى عليها للنظرةِ الأولى بأنّها أحطُّ الأممِ وأدْنَاها.

ذلك إلى ما يسمعُه فيها من ألفاظِ السبِّ والشتمِ، وجُمَلِ الفحشِ والهجوِ التي لا يطرقُ أذنَه

(١) الأكارون: ج الأكّار، وهو الفلّاح.

مثلُها في موقفٍ من مواقفِ حياتِهِ، أو مشهدٍ من مشاهدِها، إلّا إذا قُدّرَ له أن يتغلغلَ بنفسِه يومًا من الأيامِ في تلك الأحياءِ العامّةِ الساقطةِ، حتّى يصِلَ إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان»، فيسمعُها هناك في مشاجراتِ القرّادين، ومهاتراتِ[1] الشحّاذين.

ولقد قال لي أحدُ الأصدقاءِ الظرفاءِ مرّةً إنّ شتائمَ «أم شولح» قد انتقلتِ إلى بيتي، ولا أعرفُ كيف انتقلَتْ إليه، فإنّي أسمعُ الكثيرَ منها منذُ أيّامٍ يتردّدُ في أفواهِ الأطفالِ هازلين، وفي أفواهِ الخدمِ جادّين.

أتدرون، أيُّها الأصدقاءُ، من هم هؤلاءِ الذين يسمُّون أنفسَهم ممثّلين، ويسمّون ما يَهْذُون به في مسارحِهم روايات، والذين يدعونكم، معشرَ المتعلّمين الراقين، إلى حضورِ مجامعِهم باسمِ الآدابِ والفنون؟

لو أنّ جماعةً من الزامرِين، وآخرين من الطبّالين، وآخرين من القرّادين، وجماعةً غيرَهم من الرمّالين، والمدّاحين، والصفّاعين، والبهلوانيّة، والحُواةِ[2] والرّقاةِ، وبقيّةِ السائلين المستجدِين الذين يمرّون بأبوابِ المنازلِ كلَّ يومٍ ضاجّين، صارخين، فلا نُلقي لهم بالًا، ولا نعيرُهم أذنًا، اتّفقُوا فيما بينهم على أن يكونُوا جماعةً واحدةً، يدًا واحدة في مكان واحد لكانوا هم بعينِهم جُوَقَ كشكش والبربري وشرفنطح[3]، لا فرق بينهم وبينهم سوى أنّ أولئك يقفُون بأبوابِنا ضارعين مبتهلِين يقنعُون باللُّقْمَةِ، ويجتزئون بالشربةِ، وهؤلاء يأبون إلّا أن نقفَ على أبوابهم، ونتعلّقَ بأستارِها، فلا يَفْتَحُ لنا حُجّابُهم إلّا إذا دَفَعْنا الإتاوة[4] المضروبةَ عليها.

وألطفُ كلمةٍ سمعتُها في هذا الشأنِ قولُ بعضِ المفكّرين «كان الشرُّ مفرّقًا في أنحاءِ البلدِ، فجمَعَهُ كشكشُ في مكانٍ واحدٍ».

فهل تَسمحُ لكم نفوسُكم أيّها الأصدقاءُ، وأنتُمْ عيونُ الأمّةِ اليقظةُ، وعقولُها المفكّرةُ، أن تنخدعُوا بألاعيبِ هؤلاءِ الخُبَثاءِ المحتالين، فترفعُوهم بأيديكم إلى هذه المرتبةِ العاليةِ التي لم يُخْلَقُوا لها، ولا يمتُّون إليها بسببٍ من أسبابِ العلم، أو الذكاءِ، أو الشرفِ، أو الخُلُق؛ وها هم أولاءِ نوابغُ الممثّلين في أمّتكم أشقياءُ بائسون، لا يكادون يجدُون بين ظهرانيكُم ما يقيمُون به أودَ عيشِهِم، أو يعينُهم على ما هم بسبيلِه من خِدْمَةِ الفنِّ والقيامِ عليه.

مَنِ الذي يذهبُ لمشاهدةِ التمثيلِ الجدّي الشريفِ في مسارحِ أبيض ورشدي وعكاشة وأمثالِهم، إنْ كنتُمْ أنتُمْ لا تذهبُون إليها؟! ومن هو أولى بها من بعدِكم، إن قَطَعْتُم صِلَتَكُمْ بها؟!

أيُعجبكم ألّا يرى الزائرُ لتلك المسارحِ الشريفةِ حين يزورُها غيرَ العامّةِ والسُّوقةِ والأمّيين

---

(١) المهاترات: ج المهاترة، وهي الشتم بقبيح الكلام وأباطيله.

(٢) الحواة: ج الحاوي، وهو مروّض الحيات.

(٣) جوق كشكس والبربري وشرفنطح: جوقات تمتهن التمثيل الفكاهي عادة.

(٤) الاتاوة: هنا السعر.

والجاهلين، فإذا فتّشَ عنكم في مكانٍ آخرَ غيرِها، رآكم مزدحِمين في مراقصِ كشكش، والبربري، وأمثالِهما، راضِين عن مقامِكم فيها، مغتبِطين بسفسافِها وهذيانَاتِها!؟

ألا تخشَون أن يستنتجَ مستنتجٌ منهم بعد ذلك، وقد راعَهُ هذان المشهدان الغريبان - مشهدُكُم في الأجواقِ الهزليّةِ الساقطةِ، ومشهدُ العامّةِ والسوقةِ في الأجواقِ الجدّيّةِ الشريفةِ - أن الأمّةَ المصريّةَ أمّةٌ غريبةُ الشأنِ، يُفسِدُها العلمُ، ويصلحُها الجهلُ، أو أن يتطرّفَ متطرّفٌ منهم في رأيِه، فيقول: ليتَ الأمّةَ عاشتْ جاهلةً عمياءَ، موفورًا لها حظُّها من الأخلاقِ والآدابِ. فذلك خيرٌ لها من عِلْمٍ يهوي بها في مهواةِ الشقاءِ والعارِ.

لقد رأيتُ في حياتي صنوفَ الحيلِ، والكيدِ، وضروبِ السَّمَاجةِ والوقاحة، فلم أرَ بين المحتالين والمتوقّحين من هو أعظمُ كيدًا، ولا أسمجُ وجْهًا من هؤلاءِ القومِ.

إنّهم يحاولُون دائمًا أن يُلْبِسُوا مفاسِدَهم وشرورَهم ثوبَ الفضيلةِ والجدِّ، وهو، إن كان ثوبًا شفّافًا ينمُّ عمّا وراءه، إلّا أنّه يكفيهم للذودِ عن أنفسِهم في موقفِ الجدلِ والمناظرةِ، كما يكفي البرقُع[1] الشفافُ المرأةَ المتهتّكَةَ للدخولِ في سلكِ المُخدَّراتِ المُتَحَجِّبَاتِ.

يمثّلون الفلاحَ أقبحَ تمثيلٍ، ولا يتركون مفسدةً من المفاسدِ، ولا رذيلةً من الرذائلِ إلّا ويلصقونها به؛ وينشدون مختلفَ الأناشيدِ في السخريةِ بشكلِه، والهزءِ بصفاتِه وأعمالِه، ثم لا يخجَلون أن يقولُوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد (ما دامتْ بلادُنا زراعيّةْ، حبُّوا الفلاحَ، إن كنتم تحبّوا وطنَكُمْ).

وينتقدون في رواياتِهم فسادَ الرّجالِ وخلاعةَ النساءِ، وينقمُون على المصريّ تبديدَ أموالِهِ في سبيل شهواتِه، وليس للنساءِ في مسارحِهم عملٌ سوى إغراءِ الشبانِ، وإغوائِهم، وإفسادِ عقولِهم وابتزازِ أموالِهم في الساعةِ التي تمثَّلُ فيها هذه الرواياتُ، وتُلْقَى هذه الأقوالُ!

ويهدمون اللغةَ العربيّةَ هَدْمًا بهذه اللهجةِ العاميّةِ السَّاقطةِ التي يكتبون بها رواياتِهم، وينظمُون بها أناشيدَهم، وينشرونها في كلّ مكانٍ، ويُفْسِدون بها المَلَكاتِ اللّغويّةَ في أذهانِ المتعلّمين، ثمّ يزعَمُون بعد ذلك أنّهم أنصارُ اللُّغَةِ العربيّةِ وحماتُها، فيقولون بتلك اللهجة العاميّةِ الساقطةِ (ما لها لغتنا العربية، آل همجية، يادي المصيبة يادي العار، فشر... دي لغة المدنية اتمسّكوا بها صغار وكبار).

ولا يستحيَون أن يجمعُوا في نشيدٍ واحدٍ من روايةٍ واحدةٍ بين قولِهم «أبيع هدومي عشان بوسة، من خدك القشطة يا ملبن، يا حلوة زي البسبوسة يا مهلبية تمام واحسن» وبين قولِهم: «مصر يحميك ربّك، ما تشوفي إلا أيام سعدك» أي أنّهم يصفعون الأمّةَ على وجهِها هذه الصفعاتِ المؤلمةَ، ثمّ يحاولون أن يَتَرضّوْها بعد ذلك بترديدِ كلماتِ «الوطنيّة»، و«حب وطنك»، و«مت في سبيلِ الأوطان»، وأمثالِها من الكلماتِ العذبةِ الجميلةِ التي لا معنًى لها في

---

(١) البرقع: القناع.

أفواههم، إلّا أنهم يعتقدون أنّ المصريين قد بلغوا من الغفلةِ والبلهِ مبلغًا لا يبلغُه أطفالُ المكاتبِ، ولا سكانُ المارستانات.

لا أرى لكم، معشرَ الطلبةِ المصريين، أمامَ هذه النازلةِ العظمَى التي نزلتْ بنا إلّا أن يَنْتَدِبَ فريقٌ من عقلائكم نفسَه لنصيحةِ إخوانِه بالامتناعِ عن الذهابِ إلى تلك الملاعبِ، وشرحِ مضارِّها وسيئاتِها لهم، فإنّ امتناع فريقٍ منكم يؤثّر على فريق آخر، وهكذا حتّى يصبحَ في عُرْفِكم جميعًا أنّ الدخولَ إلى تلك الأماكنِ عارٌ يَخْجَلُ مرتكبُه من الظهورِ به بين أصدقائِه ومعارفِه.

نحن في حالةٍ نحتاجُ فيها إلى أنْ يعلَمَ الناسُ عنّا في كلِّ مكانٍ أنّنا أمّةُ أخلاقٍ وآدابٍ، وأنّ في نفوسِ أفرادِنا من الصفاتِ والمزايا ما يرفعُنا إلى مصافِّ الأمم العظيمة؛ ومقياسُ عظمةِ الأممِ عند العالمِ، إنّما هو بصفاتِها ومزاياها قبل أن يكونَ بأيِّ شيءٍ غيرِ ذلك، فإن فات آباؤنا أن يورثونا خُلُقَ العظمةِ والإباءِ في عهدِهم، فلْنَتَخَلَّقْ به نحن، لنورِّثَه أبناءنا من بعدنا.

إنّكُمْ لا تذهبُون في الحقيقةِ إلى هذه الأماكنِ وحدَكم، بل يذهبُ إليها معكم إخوانُكم وأخواتُكم، وبقيّةُ أفراد أسرِكم، لأنّكم تقصّون عليهم عند عَوْدَتِكُمْ منها ما شاهدتُم، وتروُون لهم ما سمعتُمْ، فكأنّ سكّانَ البلدِ جميعًا، رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، يجتمعون في هذه البؤرِ الفاسدةِ في ساعةٍ واحدةٍ. فهل يستطيعُ متصوّرٌ أن يتصوَّرَ خطرًا على الأمةِ وعلى أخلاقِها وآدابِها أعظمَ من هذا الخطر؟

إنّني لا أدعوكم إلى الامتناعِ عن الإلمام بهذه المقاذرِ العامّةِ من أجلِ أنفسِكم فقط، بل من أجلِ إخوتِكم وأخواتِكم اليوم، ومن أجلِ أبنائِكم وأحفادِكم غدًا، ومن أجلِ مستقبل الأمّةِ المصريّةِ كلِّها الذي أعتقدُ أنّه أمانةٌ في أيديكم، ووديعةٌ موكولةٌ إلى كرمِ نفوسكم، وشرفِ ضمائرِكم.

اهدموا هذه الأماكنَ هَدْمًا بالإعراضِ[1] عنها واحتقارِها، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالِها الباليةِ هاتفين صائحين صياحَ الظافرِ المنتصر قائلين: ها قد نَجَتِ الأمةُ من خطرٍ عظيمٍ، وها نحن قد قمنا جميعًا بالواجبِ علينا لوطنِنا.



الشيخ علي يوسف

هكذا تقومُ القيامةُ، وهكذا ينفخُ في الصورِ، وهكذا تطوى السماءُ طيّ السجلِّ للكتابِ.

أفيما بين يومٍ وليلةٍ يصبحُ هذا الرجلُ الذي كان ملءَ الأفئدةِ والصدورِ، وملءَ الأسماعِ والأبصارِ، وملءَ الأرجاءِ والأجواءِ، جُثّةً ضاويةً[2] نحيلةً مُدْرَجةً في كفنٍ، مُلْحَدَةً في مهوًى من باطنِ الأرضِ سحيقٍ؟

---

(١) الإعراض: الابتعاد.

(٢) الضاوي: الضعيف.

ما أعظمَ الفرقَ بينَ الحياةِ والموتِ! تغربُ الشمسُ، فلا تَلْبَثُ أن تُطِلَّ من مشرقِها، وتتراكَمُ السحبُ فوقَها، فلا تلبَثُ أن تنفرجَ عنها حينما تهبُّ عليها الرياحُ الباردةُ. وتَعْرى الأشجارُ عن أوراقها، ثم تعودُ إلى جمالِها مخضرَّةً نضرةً، حينما تهبُّ عليها نسماتُ الربيعِ. وينامُ الأحياءُ في مضاجعِهم، حتى إذا طلعَ عليهم الكوكبُ النهاري، وعبثَتْ أشعّتُهُ بأهدابِ جُفونِهم، قامُوا من مراقدِهم، وذهبُوا في سُبلِهِمْ التي خُلِقُوا لها. ويموتُ الميتُ، فلا ينتظرُه منتظرٌ، ولا يؤملُ أوبتَه آملٌ، فكأنّ ما صار إليه: العدمُ الذي لم يَسْبِقْهُ وجودٌ.

اللّهمّ، إنّا نعلمُ أنّ الموتَ غايةُ كلِّ حيٍّ، وأنّ مقاديرَك التي تُجريها بين عبادِك ليسَتْ سِهامًا طائشةً، ولا نياقًا عشواءَ[1]، وأن ورودَ الحياةِ لا يمكنُ أنْ تنبتَ إلّا في التربةِ التي نبتَتْ فيها أشواكُ الموتِ. ولكنّنا لا نستطيعُ أن نملكَ عيونَنا من البكاءِ، ولا قلوبَنا من الجزعِ، إذا فارقَنا عزيزٌ علينا، لأن ساحةَ الصبرِ التي منحْتَنا أضيقُ من أن تَسَعَ نازلةَ البلاءِ التي ابتلَيْتَنا، فاغفر اللّهمّ لنا عجزَنا وبكاءَنا على الهَلْكَى والذاهبين.

اللّهمّ، إنّك تعلمُ أنّا نسيرُ من حياتِنا هذه في صحراءَ محرقةٍ، لا نجدُ فيها ظلًّا نستظلُّ به، ولا أكمةً نأوي إليها، وأنّ الصديقَ الذي نعثرُ به في طريقِ حياتِنا هو بمنزلةِ الدَّوْحةِ الخضراءِ التي ننتهي إليها في تلك الصحرآءِ بعد الأينِ[2] والكلالِ، وطول السير والسُّرى[3]، فنترامَى في ظلالِها الوارفةِ هانئِين مغتبطِين؛ فإذا هبّتْ ريحٌ عاصفةٌ على تلك الدوحةِ، فاقتلعَتْها من جذورِها، وطارَتْ بها في جوِّ السماءِ، وأصبَحْنا من بعدِها ضاحِين بارزِين، فإنّا لا نجدُ بدًّا من البكاءِ والجزعِ، لأنّ من الشقاءِ ما لا يُستطاعُ احتمالُه، ولا يُطاقُ تجرّعُ كأسِه.

لقد كان هذا الرجلُ العزاءَ الباقي لنا عن كلِّ ذاهبٍ، والنجمَ المتلألىء الذي كنّا نتنوّرُه من حينٍ إلى حينٍ في هذه السماءِ المظلمةِ المدلهمّةِ[4] المقفرَةِ من الكواكبِ والنجومِ، والدوحةَ الخضراءَ التي كنّا نلوذُ بظلالِها من لفحاتِ هذه الحياةِ وزفراتِها؛ فنحن إنْ بكَيْناه، فإنّما نبكي الأملَ الذاهبَ، والسعادةَ الراحلةَ، والحياةَ الطيّبةَ؛ ومن هو أولى بالتفجّع والبكاءِ من سعادتِنا وآمالِنا؟!

ما كنّا نرجُو لهذه الأمّةِ غيرَ هذين الرجلَين، ميْتِ الأمسِ الشيخ محمد عبده، وميتِ اليوم الشيخ علي يوسف، فقد كانا لها طُودَيْن[5] شامخَيْن رابضَيْن على أكتافِها، يُمسكُها الأوّلُ أنَ تزلَّ بها مزالقُ المدنيّةِ الخالبةُ، فيذهبَ دينُها، ويُمسكُها الثاني أن تطيرَ بها أحلامُ السياسةِ الكاذبةِ، فتذهبَ جامعتُها، واليومَ لا نرجو لها من بعدهما أحدًا، فويلٌ للأمّةِ في دينِها، وويلٌ لها في جامعتِها.

العلماءُ والخطباءُ والكتّابُ في هذا الأمّةِ كثيرٌ، ولكنّ الرجالَ قليلٌ.

---

(١) العشواء: مؤنث الأعشى، وهو الذي ساء بصره بالليل.

(٢) الأين: التعب، كذلك الكلال.

(٣) السرى: السير ليلًا.

(٥) الطّود: الجبل.

إنّما ينفعُ الأمةَ ويضطلعُ بخطوبِها، ويحملُ أعباءَها على عاتقِه الرجلُ الذي يشعرُ من نفسِه بأنّه ينزلُ منها منزلةَ رئيسِ الأسرةِ من أسرتِه التي يعلمُ أنّه مأخوذٌ بالقيامِ عليها، والسعيِ لها، فيقومُ لها بكلِّ ما تريدُ، ويسعَى لها سعيَ الكادحِ المُجِدِّ، ويَرْحَمُ صَغيرَها، ويحنُو على كبيرِها، ويحتملُ مغارمَها، ويغتفرُ عَبَثَ أطفالِها، وجَهْلَ شُيوخِها، ويرى لها في كلِّ شأنٍ من شؤونِها خيرًا ممّا ترَى لنفسِها، أرضَاها ذلك أم أغضبَها، من حَيْثُ لا يمنُّ عليها بذلك، ولا يطلبُ عندها جزاءً، ولا أجرًا، بل من حيث لا تعلمُ ما يلاقي بينه وبين نفسِه آلامَ الحياةِ، وما يعالجُ من شدائدِها في سبيلِها.

وكذلك كان شأنُ الشيخِ علي يوسف في أُمّتِه، فقد ماتَ بموتِهِ آخرُ من بقيَ لها من الرجال.

لقد كان الذين يعرفونه أقلَّ من الذين يجهلونه، لأنَّ الذين ينظرونَ ببصائرِهم أقلُّ من الذين ينظرون بأبصارِهم، ولأنّ الحقيقةَ الكامِنةَ في سُوَيْداءِ قلبِهِ، كانتْ أعمقَ مكانًا، وأدقَّ مسلكًا من أن تتناولَها النظرةُ الطائرةُ، ولأنّه كان مُخْلصًا متحنّثًا[1] يعملُ في سِرِّهِ أكثرَ ممّا يعملُ في علانيتِه. ثمّ لا يدلُّ بنفسه في كلتا الحالتَيْنِ على نفسِه.

رأيتُه في حادثةِ الأزهر - في تلك الأيامِ التي كان يظنُّ فيها كثيرٌ من الناسِ أنّه حربٌ على الأزهرِ والأزهريّين - يقضي كثيرًا من لياليِهِ متردّدًا على أبوابِ القائمين بالأمرِ، ضارعًا إليهم أن ينيلُوا هؤلاءِ القومَ مطالبَهم، أو بعضَ مطالبِهم، قائلًا عنهم ما كان يقولُه النبيّ ﷺ عن فئة حنين «اللّهمّ إنْ تُهْلِكْ هذه الفئة، فَلَنْ تُعْبَد بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا»، فلا يقفُ في سبيلِهِ إلّا حماقةُ أولئك الذين كان يظنُّ هؤلاءِ المساكين أنّهم أصدقاؤهم، وهم أعْدَى أعدائِهم.

ورأيتُه يضمُّ إلى كنفِه كثيرًا من أصدقائه الذين نبَا بهم الدهرُ[2] بعد سقوطِ دولةِ «عبد الحميد»، وتنكَّرَ لهمُ الناسُ جميعًا، خصوصًا أولئك الذين كانوا يزدلِفُون إِلَيْهم أيامَ إقبالِهم، ويمرّغون وجوهَهم على أعتابِ قصورِهم، وكان يلاقي في سبيلِ ذلك من عَتَبِ العاتبين عليه، ولومِ اللائمين له ما لا يُستطاعُ احتمالُه، فلمْ يبالِ بشيءٍ من ذلك.

ورأيتُ كثيرًا من أعدائِه الذين كانُوا في بعضِ أيامِ حياتِهم حربًا عليه، وشقاءً له، يعودون إلى حظيرتِه واحدًا بعد آخرَ يستغفرونه، فيجلسُ إليهم، ويتحدّثُ معهم حديثَ المودّةِ والإخاء كأنّما كانوا معه على ميعاد.

وما رأيتُه في يومٍ من أيامِ حياتِهِ حاقدًا ولا واجِدًا، ولا منتقِمًا ولا طالبًا بثأر، ولا ذائدًا[3] عن نفسه إلّا في الساعةِ التي يعلمُ فيها أنْ قد جدَّ الجدُّ، وأنْ قد أصبحَ عِرْضُه وشرَفُه على خطرٍ. ولم أرَ سائلًا دخل إليه يشكُو حاجةً من الحاجِ، صادِقًا كان فيها أم كاذبًا، ويسألُه

(١) متحنّثًا: متعبّدًا، خارجًا من الإثم. (٢) نبا بهم الدهر: جفاهم.

(٣) الذائد: المدافع.

المعونةَ عليها من مالِه، أو جاهِه إلّا أعانَه عليها ما وَجَدَ إلى ذلك سبيلًا، رحمةً وإشفاقًا، لا رياءً ونفاقًا، وكان يرى الرأيَ، ويرى الناسُ جميعًا غيرَه، فلا يَثْنيه عنه ثانٍ، حتى يتحدّر سترُ الغيبِ عن وجهِ المستقبلِ، فإذا هو مصيبٌ، والناسُ جميعًا مخطِئون.

ففي سبيلِ اللهِ، يا علي، ما فَقدْنا بفقدِك، وفي ذمّةِ اللهِ وجوارِه تلك الروحُ الطيّبةُ الطاهرةُ التي عاشَتْ ما عاشتْ في هذه الدنيا سرًّا كامنًا بين أحشاءِ ضلوعِك، لا يكتنِهُها ولا يستشفُّ باطنها إلّا قليلٌ من الناس، فما رآها الناسُ جميعًا رأيَ العينِ إلّا وهي طائرةٌ في جوّ السماءِ إلى ربّها، وكذلك شأنُ هذه الأمّةِ البائسةِ المحدودةِ، لا ترى رجالَها، ولا تعرفُ مكانَهم، ولا تشعرُ بعظمَتِهِمْ، إلّا وهم ذاهبُون إلى قبورِهم حيث تنقطعُ الصِّلةُ بينها وبينهم؛ فمثَلُها ومثَلُهم كمثَلِ صاحبِ الدارِ الذي يجهلُ أنّ في أرضِها كنزًا مخبوءًا، حتى إذا باعَها ممّن يستخرجُ ذلك الكنز منها، جلسَ إلى ظلّ حائطِها يبكي بكاءَ البائسِ المحزونِ.

لقد كنتَ، يا علي، مثلَ الحقيقةِ ينتفعُ الناسُ بوجودِها، ولا يفهمونها، بل كنتَ أفضلَ من الحقيقةِ لأنّ الحقيقةَ يخدُمُها أعداؤها وأصدقاؤها، أمّا أنت، فكنتَ تخدمُ أصدقاءَك وأعداءَك؛ أمّا الأوّلون، فلأنّك كنتَ تحسنُ إليهم بجاهِك، أو بمالِك، أو برأيِك؛ وأمّا الآخرون فقد كانُوا يقتاتُون من تلك القطراتِ من الدماءِ التي كانوا يستقطرونها من عِرْضِك وشرَفِك؛ فويلٌ للفريقَيْن معًا من بعدِك.

وكنت القُطْبَ الذي تدورُ حوله رحَى الأقلامِ في هذا البلدِ، فقد كانتْ وظيفةُ الكتّابِ أن يشرحُوا آراءَك، أو يفسّروا كلماتِك، أو يكتنهُوا مقاصدَك، أو يوافقوك أو يخالفوك، أو يمدحُوك أو يذمُّوك، فإنْ كتبوا في شأنٍ من الشؤونِ غيرِ هذا، فترُوا واستبردوا، فَواضَيْعَةَ الأقلامِ! وما أضيقَ مذاهبَ الكتّاب بعد رحيلِك!

وكنت العصمةَ التي تعتصمُ بها الأمّةُ في مواقفِ بؤسِها وشقائِها، ومواطنِ خُطوبِها وكُروبِها، وما أحسبُ إلّا أنّ الدهرَ مدخرٌ لها من ذلك في مستقبلِ أيامِها أكثرَ ممّا ادّخرَ لها في ماضيها، فما أكثرَ شقاءَها وبلاءَها بعد اليوم!

أيُّها الراحلُ الكريمُ: لقد كنتُ أرجو أن أجدَ بين جنبيّ بقيّةً من الصبرِ أغالبُ بها هذا الحزنَ الذي أعالجُه فيك، حتى يبلَى على مدَى الأيامِ كما يبلَى الكفنُ، لولا قدرٌ أبعدَني عن موطنِك في آخرِ أيامِ حياتِك، فحرمني جلسةً أجلسُها بجانبِ سريرِك، أسمعُ فيها آخرَ كلمةٍ من كلماتِك، وأرَى آخرَ نظرةٍ من نظراتِك، وحالَ بيني وبين خطوةٍ أخطوها تحت نعشِك، أُجْزيكَ فيها ببعضِ ما خطوتَ لي فيَ حياتِك من الخطواتِ الواسعاتِ، ووقفةٍ أقفُها عند قبرِك ساعةَ دفنِك، أذرفُ فيها على تربتِك أوّلَ دمعةٍ يذرفُها الباكون عليك؛ فلئنْ بكيتُ موتَك يومًا، فسأبكي حِرْماني وداعَك أيامًا طِوالًا حتى يجمعَ اللهُ بيني وبينَك.

❁ ❁ ❁

العظمة

إنْ رأيتَ شاعرًا من الشعراءِ، أو عالمًا من العلماءِ، أو نبيلًا في قومِه، أو داعيًا في أمّتِهِ قد انقسمَ الناسُ في النظرِ إليه، وفي تقديرِ منزلتِه انقسامًا عظيمًا، وانفرجَتْ مسافةُ الخُلْفِ بينهم في شأنِه، فافتَتنَ بحبّهِ قومٌ، حتى رفعُوه إلى رتبة الملكِ، ودانَ ببغضِهِ آخرون، حتى هبطُوا به إلى منزلةِ الشيطانِ، فاعلمْ أنّه رجلٌ عظيمٌ.

العظمةُ أمرٌ وراءَ العلم والشعرِ، والإمارةِ والوزارةِ، والثّروةِ والجاهِ. فالعلماءُ والشعراءُ والنبلاءُ كثيرون، والعظماءُ منهم قليلون، وإنّما هي قوّةٌ روحيّةٌ موهوبةٌ غيرُ مُكْتَسبَةٍ تملأُ نفسَ صاحبِها شعورًا بأنّه رجلٌ غريبٌ في نفسِه ومزاجِ عقلِه، ونزعاتِ أفكارِه وأساليبِ تفكيرِه، غيرُ مطبوعٍ على غرارِ الرجالِ، ولا مقدودٍ على مثالِهم، ولا داخلٍ في كليّةٍ من كليّاتِهم العامّةِ.

فإذا نَزَلتْ نفسُه من نفسِه هذه المنزلةَ أصبحَ لا ينظرُ إلى شيءٍ من الأشياءِ بعينٍ غيرِ عينِه، ولا يسمعُ بأُذنٍ غيرِ أذنِه، ولا يمشي في طريقٍ غيرِ الطريقِ التي مهّدَها بيدِه لنفسِه، ولا يجعلُ لعقلٍ من العقولِ، مهما عظُم شأنُه، وشأنُ صاحبِه سلطانًا عليه في رأيٍ أو فكرٍ، أو مشايعةٍ لمذهبٍ، أو مناصبةٍ لطريقةٍ، بل يرى لشدّةِ ثقتِه بنفسِه، وعلمِه بضعفِ ثقةِ الناسِ بنفوسِم أنّ حقًّا على الناسِ جميعًا أن يستقيدوا له، وينزلُوا على حكمِه، ويترسّموا مواقعَ أقدامِه في مذاهِبِهِ ومرامِيهِ.

فترى جميعَ أعمالِه وآثارِه غريبةً نادرةً بين آثارِ الناسِ وأعمالِهم، تبهرُ العيونَ وتدهشُ الأنظارَ، وتملأُ القلوبَ هيبةً وروعةً.

فإن كان شاعرًا كان مبتكِرًا في معانيه أو طريقتِه، أو كاتبًا أخذَ على النفوسِ مشاعرَها وأهواءَها، أو فقيهًا هدمَ من المذاهب قديمًا وبنَى جديدًا، أو ملكًا شغلَ من صفحاتِ التاريخِ ما لم يشغلْه ملكٌ سواه، أو وزيرًا ساسَ أمّتَه بسياسةٍ جديدةٍ لا عهدَ لهم بمثلِها من قبلُ، أو قائدًا ضربَ الضربةَ البِكْرَ التي ترنُّ في مسمعِ الجوزاءِ.

تلك هي العظمةُ، وهذا هو الرجلُ، ومنْ كان هذا شأنَه كان فتنةَ الناسِ في خَلَواتِهم ومجتمعاتِهم، ومعتركَ أنظارِهم وأفهامِهم، ومثارَ الخُلْفِ والشقاقِ بينهم في استكْناه أمرِه وتقديرِ منزلتِه، فَيُعْجَبُ به الذين فُطِرُوا على الإعجابِ بكلِّ غريبٍ، والافتتانِ بكلِّ جديدٍ، حتى ينتقلَ بهم الإعجابُ به إلى الافتتانِ بأقوالِه وأفعالِهِ وحركاتِه وسكناتِه، والإغراقِ في حبّه والمشايعةِ له، والسيرِ بعجائبِه وغرائبِه في كلِّ صقْعٍ ونادٍ.

فيقعُ ذلك من نفوسِ مناظريه وحاسدِيه والمتمرّدين على عبقريّتِهِ ونبوغِه موقعًا غيرَ جميلٍ، فلا يجدون لهم بدًّا من مقابلةِ الإغراقِ في حبّه بالإغراقِ في بغضِه، على قاعدةِ المشادّةِ والمعاندةِ. وهناكَ تحتدمُ المعركةُ الهائلةُ بين أنصارِه وخصومِه، فيهاجمُه هؤلاءِ، يحاولون استلابَ عظمتِه منه، ويناضلُ عنه أولئك، يريدُون استبقاءَها في يدِه، وهو واقفٌ بينهم يديرُ

أنظارَه فيهم هانئًا مغتبطًا، لا يحزنُ ولا يبتئسُ، لأنّه يعلَمُ أنّ جميعَ هذه الأصواتِ الصّارخةِ الصّاخبةِ حَوْله إنّما هي أبواقُ شهرتِه وعظمتِه.

لا أريدُ أنْ أقولَ إنّ الرجلَ العظيمَ مصيبٌ في كلِّ ما يرَى وما يفعلُ، وما ينتهجُ لنفسِه وللناسِ من المناهجِ والخططِ، فربّما كان من هو أضعفُ منه قوّةً وأخملُ ذكرًا أسدَّ منه رأيًا، وأصدقَ نظرًا، وإنّما أريدُ أنْ أقولَ إنّ أحدًا من الناسِ لا يستطيعُ أن يشغلَ أقلامَ الكتّابِ، وعقولَ المفكّرين، وألسنةَ الناطقين، وقلوبَ المحبّين والمبغضين إلّا الرجلُ العظيمُ.

أحبَّ عليًّا[١] قومٌ، حتى كَفَرُوا بحبّه؛ وأبغضَه آخرون، حتى كَفَروا ببغضِه. وسمّى بعضُ الناسِ أبا بكرٍ[٢] وعُمَرَ[٣] شيخَي المسلمين، وأنكرَ بعضهُم صحبتَهما وإخلاصَهما.

وعاشَ مُحْيي الدين بن العربي[٤] بين فِئةٍ تراهُ قطبَ الأولياءِ، وأخرى تراهُ شيخَ المُلْحِدِين.

واغتبطَ فريقٌ من المسلمِين بابن رشد[٥]، فسمّوه فيلسوفَ الإسلام، ونقَمَ عليه فريقٌ، فملأوا وجهَه بصاقًا في المسجدِ الجامعِ.

وسمّى قومٌ صاحبَ كتابِ الإحياء حُجّة الإسلام[٦]، ومزّق آخرون كتابَه، ونثروهُ في مهابِّ الرياح.

وعاشَ المعرّي[٧] بين رِضا الراضين عنه، ونقمةِ الناقمين عليه، يلثمُ الأوّلون مواطىءِ نِعاله، ويسحبُهُ الآخرون على وجهِه في الطرقاتِ العامّةِ.

وشربَ سقراطُ[٨] كأسَ السمِّ بين أفواهٍ باسمةٍ شَمَاتةً به، وعيونٍ دامعةٍ حزنًا عليه.

وجرت الأقلام بمدح المتنبّي[٩] تارةً، فإذا هو سيّدُ الشعراءُ، وبِذَمِّهِ أخرى، فإذا هو أكبرُ المتكلّفين.

---

(١) هو علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ/ ٦٦١م) رابع الخلفاء الراشدين، وربيب النبي (ﷺ) وابن عمه وصهره على ابنته فاطمة.

(٢) هو أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ/ ٦٣٤م) أول الخلفاء الراشدين ووالد عائشة زوج النبيّ (ﷺ).

(٣) هو عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ/ ٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين، وأوّل من لقّب بـ «أمير المؤمنين».

(٤) هو محي الدين محمد بن علي (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) صوفيّ لقّب بالشيخ الأكبر.

(٥) هو أبو الوليد محمد (ت ٥٩٢هـ/١١٩٨م) فيلسوف عربي، دافع عن الفلسفة ضدّ الغزالي، سمّاه الغرب بـ«الشارح»، نظرًا إلى شروحه الكثيرة لأرسطو.

(٦) هو كتاب «إحياء علوم الدين» وضعه الغزالي (أبو حامد محمد) المتوفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م وهو كتاب ضخم في أربعة أجزاء، الغاية منه إنماء الناحية الروحيّة في الفرائض الشرعيّة، وإيصال النفس إلى ذرى محبّة الله. لقّب صاحبه بـ«حجّة الإسلام».

(٧) هو أبو العلاء المعرّي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٧م) شاعر وفيلسوف عربي، كان أعمى منذ حداثته اشتهر بتشاؤمه، ولقّب برهين المحبسين.

(٨) هو سقراط (٤٧٠-٣٩٩ق.م) فيلسوف يوناني، جعل محور فلسفته معرفة الإنسان نفسه. اتهم بالزندقة، فقتل مسمومًا.

(٩) هو أبو الطيب المتنبّي (ت٣٥٥هـ/ ٩٦٥م) من كبار شعراء العرب، ارتبط اسمه بسيف الدولة أمير حلب.

ورفعَ قومٌ شكسبير[١] إلى مرتبةِ الكمالِ الإنسانيّ، فقالوا نابغةُ الدهرِ، وهبطَ به آخرون إلى أدنى منازلِ الخِسّةِ والدناءةِ، فقالوا المتحلُ الكذّابُ.

وافتتَنَ المُفْتَتِنُون بنابليون الأول[٢]، فعلَوا به إلى رتبةِ الأنبياءِ، وتنكّرَ له خصومُه وأعداؤه، فسلَكُوه في سلك الحَمْقَى والممرورين، وذاقَ كلٌّ من لوثر[٣]، وكالفين[٤]، وغليلو[٥]، وفولتير[٦]، ونيتشه[٧]، وتولستوي[٨]، كأسي الحبّ والبغضِ في حياتِه وبعدَ مماتِه إلى القطرةِ الأخيرةِ منهما، وما انقسمَ الناسُ في هذا البلدِ في هذا العصرِ في شأنِ رجلٍ من الرجالِ انْقِسامَهُم في شأنِ جمالِ الدين[٩] ومحمّد عبده[١٠] وسعد زغلول[١١] ومصطفى كامل[١٢] وعلي يوسف[١٣] وقاسم أمين[١٤].

وما كان واحدٌ من هؤلاءِ في المنزلةِ التي يرفعُه إليها المغرقُون في حبّه، أو ينزلُ به إليها الغالُون[١٥] في بغضِه، ولكنّهم كانوا قومًا عظماءَ، فانقسمَ الناسُ في شأنِهم، وذهبُوا في أمرِهم هذه المذاهبَ البعيدةَ المترامية، ولا ينقسمُ الناسُ هذا الانقسامَ العظيمَ إلّا في شأنِ الرجلِ العظيمِ.

---

(١) هو وليم شكسبير (ت١٠٢٦هـ/١٦١٦م) شاعر مسرحي إنكليزي، امتاز بتحليله عواطف القلب البشري. ترجم خليل مطران بعض مؤلفاته إلى العربيّة شعرًا.

(٢) هو نابوليون بونابرت (ت١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م) أمبراطور فرنسي اشتُهر بانتصاراته، قاد حملة إلى مصر، وانتصر في معركة الأهرام. حمل من الفاتيكان أوّل مطبعة عربيّة إلى مصر.

(٣) هو مارتين لوثر (ت٩٦٤هـ/١٥٤٦م) لاهوتي ومفكّر، انفصل عن الكنيسة ونادى بالبروتستانتيّة. ترجم التوراة إلى الألمانيّة.

(٤) هو يوحنّا كلفين (٩٨٢هـ/ ١٥٦٤م) مصلح فرنسي، نشر مذهبًا في فرنسا وسويسرا عرف باسمه.

(٥) غليلو (ت١٠٥٣هـ/ ١٦٤٢م) أحد أكبر علماء زمانه، اكتشف حركة دوان الشمس حول الأرض.

(٦) هو فرانسوا ماري (ت١١٩٣هـ/ ١٧٧٨م) مؤلّف فرنسي من نوابغ زمانه. اشتهر بنقده اللّاذع - من مؤلّفاته: كنديد.

(٧) نيتشيه (ت ١٣١٩هـ/ ١٩٠٠م) فيلسوف ألماني، قال إنّ الحياة ليست غير تنازع بقاء وبقاء الأصلح. يتلخّص مذهبه بـ«إرادة القوّة».

(٨) هو لاون تولستوي (ت ١٣٢٩هـ/ ١٩١٠م) كاتب قصصي روسي، انتقد مساوىء العادات محاولًا إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبّة، من مؤلفاته: الحرب والسلم».

(٩) هو جمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٦هـ/١٨٩٧م) فيلسوف الإسلام في عصره، دعا إلى توحيد الإسلام تحت راية واحدة.

(١٠) هو الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٤ه/ ١٩٠٥م) سياسي مصري، ومن علماء المسلمين الداعين إلى التجديد والإصلاح. من مؤلفاته: رسالة التوحيد، وشرح نهج البلاغة.

(١١) سعد زغلول (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م) سياسي مصري من كبار المجاهدين في سبيل الاستقلال؛ أسّس الحزب «السعدي» أو «الوفد».

(١٢) هو مصطفى كامل باشا: نابغة مصر في عصره (ت١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) وأحد مؤسّسي نهضتها الوطنية، مولده ووفاته في القاهرة. تميّز بفصاحته وسحر بيانه، وقاوم الاحتلال الإنكليزي بخطبه ومقالاته وكتبه.

(١٣) هو الشيخ علي يوسف (ت ١٣٣١هـ/١٩١٣م) صحافي مصري، أسّس مجلّة «الآداب» ثم جريدة المؤيّد.

(١٤) هو قاسم أمين (ت ١٣٢٧هـ/١٩٠٨م) كاتب مصري اشتهر بدعوته إلى تحرير المرأة.

(١٥) الغالون: المبالغون.

ليس معنى الوجودِ في الحياةِ أن يتخذَ المرءُ لنفسِه فيها نفقًا يتّصلُ أولُه ببابِ مهدِه، وآخرُه ببابِ لحدِه، ثم ينزلقُ فيها انزلاقًا من حيث لا تراهُ عينٌ، ولا تسمعُ دبيبَه أُذُنٌ، حتى يبلغَ نهايتَه كما تفعلُ الهوامُ[1] والحشراتُ والزاحفاتِ على بطونِها من بناتِ الأرضِ، وإنّما الوجودُ قرعُ الأسماعِ، واجتذابُ الأنظارِ، وتحريكُ أوتارِ القلوبِ، واستثارةُ الألسنةِ الصامتةِ، وتحريكُ الأقلامِ الراقدةِ، وتأريثُ[2] نارِ الحبِّ في نفوسِ الأخيارِ، وجمرةِ البغضِ في قلوبِ الأشرارِ.

فعظماءُ الرجالِ أطولُ الناسِ أعمارًا وإن قصرتْ حياتُهم، وأعظمُهم حظًّا في الوجودِ وإن قلّتْ على ظهرِ الأرضِ أيامُهُمْ.

العظمةُ كالحقيقةِ يَخْدُمُها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحملُ أحجارَ هيكلِها على رؤوسِهم هادمُوها وبُناتُها، فحيث ترَى سوادَ[3] الأعداءِ، فهناك سوادُ الأصدقاءِ، وحيث ترَى الفريقَيْن مجتمعَيْنِ في صعيدٍ واحدٍ، فاعلمْ أنّ العظمةَ ماثلةٌ على عرشِها العظيمِ فوق أعناقِهم جميعًا.

العظمةُ قصرٌ مشيّدٌ مرفوعٌ على ساريتَيْن منحوتَتيْنِ من حبِّ الناسِ وبغضائِهم، فلا يزالُ ذلك القصرُ ثابتًا في مكانِه، لا يتزعزعُ ولا يتحلحلُ ما بقيَتا في مكانهما، فإذا سقطَتْ إحداهما، عجزَتِ الأخرى عنِ الاستقلالِ به، فسقطَتْ بجانبِ أختِها، فسقَطَ هو بسقوطِهما.

لا يُعجبنّك أنْ يتّفقَ الناسُ جميعًا على حبِّك، لأنّهم لا يتّفقونَ إلّا على حبّ الرجلِ الضعيفِ المهينِ الذين يتجرّدُ لهم من نفسِه وعقلِه، ورأيِهِ ومشاعرِه، ثم يُقْعي[4] على ذنبه تحت أقدامِهم إقعاءَ الكلبِ الذليلِ، يضرِبُونه فيصطبرُ لهم، ويعبثون به فيبصبِصُ بذنبِه[5] طلبًا لرضاهم، ويهتِفون به فيقتربُ، ويزجرونه فيزدجرُ.

ولا يُعْجبُك أن يتّفقوا على بغضِك، لأنّهم لا يتّفقون إلّا على بغضِ الخبثاءِ الأشرارِ الذين لا يحبُّون أحدًا من الناسِ، فلا يحبُّهم من الناسِ أحدٌ.

وليُعجبْكَ أن يختلفُوا في شأنِك، وينقسمُوا في أمرِك، ويذهبُوا في النظرِ إليك وتقديرِ منزلتِك كلَّ مذهبٍ، فتلك آيةُ العظمةِ، وذلك شأنُ الرجلِ العظيمِ.

كنِ القائدَ الذي تعتركُ الجيوشُ حولَه من بين ذائدٍ عنه، وعادٍ عليه، ولا تكنِ الجنديَّ الذي يَسْفُكُ دمَه ليسقيَ به دوحةَ العظمةِ التي ينعمُ في ظلالِها القائدُ العظيمُ.

كنِ الناطقَ الذي تحملُ الريحُ صوتَه إلى مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، ولا تكنِ الريحَ التي تختلفُ إلى آذانِ الناسِ بأصواتِ الناطقين من حيث لا يأبهون لها ولا يعرفون لها يدَها.

كنِ النبتةَ النضرةَ التي تعتلجُ ذرّاتُ الأرضِ في سبيلِ نُضْرتِها ونمائِها، ولا تكنِ الذرّةَ التي تطؤها الأقدامُ، وتدوسُها الحوافرُ والأخفافُ.

---

(١) الهوام: ما لا يقتل من الحشرات.
(٢) التأريث: إشعال النار.
(٣) سواد: معظم.
(٤) يُقعي: يجلس على مؤخّرته.
(٥) بصبص بذنبه: حرّكه.

كنْ زعيمَ الناسِ إنِ استطعْتَ، فإنْ عجزْتَ، فكنْ زعيمَ نفسِك ولا تطلبِ العظمةَ من طريقِ التشيّعِ للعظماءِ والتلصّقِ بهم، أو مناصبتِهم العداءَ والوقوفِ في وجهِهم، فإنْ فعلْتَ كنتَ التابعَ الذليلَ، وكانوا الزعماءَ والأعزّاءَ.

❀ ❀ ❀

الانتقاد

سألني بعضُ الأصدقاءِ عن رأيي في الانتقادِ وشروطِه وحدودِه، وآدابِهِ وواجباتِه؛ ورأيي فيه ألّا شروطَ له ولا حدودَ، ولا آدابَ ولا واجباتِ، وأنّ لكلِّ كاتبٍ أو قائلٍ الحقَّ في انتقادِ ما يشاءُ من الكلامِ، مصيبًا كان أم مخطئًا، محقًّا أم مبطلًا، صادقًا أم كاذبًا، مخلصًا أم غيرَ مخلصٍ؛ لأنّ الانتقادَ نوعٌ من أنواعِ الاستحسانِ والاستهجانِ. وهما حالتان طبيعيّتان للإنسانِ، لا تفارقانِه من صرخةِ الوضعِ، إلى أنّةِ النّزعِ[1].

وكلُّ ما هو طبيعيٌّ فهو حقٌّ لا ريبةَ فيه ولا مِراءَ، فإن أصابَ الناقدُ في نقدِه، فقد أحسنَ إلى نفسِه وإلى الناسِ، وإنْ أخطأَ، فسيَجِدُ من الناسِ مَنْ يدلُّه على موضعِ الخطأ فيه، ويُرْشِدُه إلى مكانِ الصوابِ منه، فلا يزالُ يتعثّرُ بين الصوابِ والخطأ حتى يستقيمَ له الصوابُ كلُّه.

فإنْ أبَينا عليه أن ينتقدَ إلّا إذا كان كفوءًا في علمِه، ومخلِصًا في عملِه كما يشترطُ عليه ذلك أكثرُ الناسِ، فقدْ أبَينا عليه أنْ يخطَّ سطرًا واحدًا في الانتقادِ، وقضَينا على ذهنِه بالجمودِ والموتِ، لأنّنا لا نعرفُ لهاتَيْنِ الصفتَيْنِ حدودًا معيّنةً واضحةً، فكلُّ منتقدٍ يَزْعَمُها لنفسِه، وكلُّ منتقدٍ عليه يجرّدُ منتقدَه منهما، ومتى سمحَ الدهرُ لعاملٍ من العاملين بالإخلاصِ الكاملِ في عملِه، فَسَيَسْمَحُ به لجماعةِ المنتقدين!

على أنّ المنتقدَ الناقمَ لا تمنعُه نقمتُه من أن يكونَ مصيبًا في بعضِ ما يقولُ، لأنّه لم يأخذْ على نفسه عَهْدًا أنْ يختلقَ جميعَ المآخذ التي يأخذُها، وألّا يكتبَ إلّا الباطلَ والمحالَ، وإنّما هو رجلٌ عيّابٌ بالحقِّ وبالباطلِ، فهو يفتّشُ عن السيّئاتِ الموجودةِ، حتّى يفرغَ منها، فيلجأَ إلى السيّئاتِ المختلقةِ.

ولقد كُتبَ أوّلُ انتقادٍ في التاريخِ بمدادِ الضغينةِ والحقدِ؛ فقد كانت توجدُ في عصورِ اليونانِ القديمةِ طائفةٌ من الشعراءِ يجوبون البلاد، ويتغنّون بالقصائدِ الحماسيّةِ، والأناشيدِ الوطنيّةِ في الأسواقِ والمجتمعاتِ، وبين أيدي الأمراءِ والعظماءِ، فيكرمُهم الناسُ ويجلّونهم إجلالًا عظيمًا، ويُجزِلون لهمُ العطايا والهِبَاتِ. فنفّسَ عليهم مكانتَهم هذه جماعةٌ من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافَهم، ولا يحظَوْن عند الملوكِ العظماءِ حُظوتَهم، فأخذوا يَعيبونَهم،

---

(١) النزع: الموت.

ويَكتبون الكتبَ في انتقادِ حركاتِهم وأصواتِهم، ومعاني أشعارِهم وأساليبِهم، وكان هذا أوّلَ عهدِ العالمِ بالانتقادِ. والفضلُ في ذلك للضغينةِ والحقدِ؛ فلرذيلةِ الحقدِ الفضلُ الأوّلُ في وجودِ الانتقادِ وبزوغِ شمسِه المنيرةِ.

كذلك لا يمنعُ الجاهلَ جهلُه من أن يكونَ رأيُه في استحسانِ الكلامِ واستهجانِه رأيًا صائبًا. لا، بل ربّما كان شعورُه بحسنِ الكلامِ وقبحِهِ - متى رُزِقَ حظًّا من سلامةِ الذوقِ واستقامةِ الفهمِ - أصحَّ من رأيِ الأديبِ المتكلّفِ الذي يتعمّلُ الانتقادَ تعمّلًا، ويتعمّقُ تعمّقًا كثيرًا في التفتيشِ عن حسناتِ الكلامِ وسيّئاتِه، حتى يضلَّ عنهما، ورُبَّ ابتسامةٍ أو تقطيبةٍ يمرّان بوجهِ السامعِ العامي عفوًا أنفعُ للأديبِ حين يراهما، وأعونُ له على معرفةِ مكانِ الحسنةِ والسيّئةِ من كلامِهِ، من مجلّدٍ ضخمٍ يكتبُه عالمٌ متضلّعٌ بالأدبِ واللغةِ في نقدِ شعرِه أو نثرِه.

وإذا كان من الواجبِ على كلّ شاعرٍ أو كاتبٍ أن يَنْظِمَ، أو يكتبَ للأمّةِ جميعِها، أو خاصّتِها أو عامّتِها، فلمَ لا يكونُ من حقِّ كلِّ فردٍ من أفرادِها متعلّمًا كان أو جاهلًا، أن يدليَ برأيِهِ في استحسانِ ما يستحسنُ من كلامه، واستهجَانِ ما يستهجنُ منه؟

وهل رفعَ العظماءَ من رجالِ الأدبِ إلى مواقفِ عظمتِم، وسجَّلَ لهم أسماءَهم في صحائفِ المَجْدِ، إلّا منزلَتُهم التي نَزَلُوها من نفوسِ السَّوادِ الأعظمِ من الأمّةِ، والمكانةُ التي نالوها بين عامّتِها ودهمائِها؟

وبعدُ، فلا يتبرّمُ بالانتقادِ، ولا يضيقُ به ذرعًا، إلّا الغبيُّ الأبلهُ الذي لا يبالي أن يقفَ الناسُ على سيّئاتِه فيما بينهم وبين أنفسِهم، ويزعجُه كلَّ الانزعاجِ أنْ يتحدّثوا بها في مجامِعِهم، ولا فرقَ بين وقوفهم عليها، وحديثِهم عنها، أو الجبانُ المستطارُ الذي يخافُ من الوهمِ، ويَفْرُقُ من رؤية الأشباحِ، ولو رجَعَ إلى أناتِه ورويّتِه، لعلمَ أنّ النقدَ إنْ كان صوابًا، فقد دلّه على عيوبِ نفسهِ، فاتّقاها، أو خطأً، فلا خوفَ على سمعتِه ومكانتِه منه، لأنّ الناسَ ليسوا عبيدَ الناقدين ولا أسْراهم، يأمرونهم بالباطلِ، فيُذعِنُون، ويدعُونَهم إلى المحالِ، فيتبعون، ولئنِ استطاعَ أحدٌ أن يخدعَ أحدًا في كلّ شأنٍ من الشؤونِ، فإنّه لا يستطيعُ أن يخدعَه في شعورِ نفسِه بجمالِ الكلامِ أو قبحِه.

ولو أنّ الأَصْمَعِيّ[١] وأبا عُبَيْدَةَ[٢] وأبا زَيدٍ[٣] ....

(١) هو أبو سعيد عبد الملك (ت ٢١٤هـ/٨٢٨م) لغويّ عربي شهير وحافظ لغة البدو، لولاه لكنّا فقدنا الكثير من أشعار العرب. من كتبه: الأصمعيات.

(٢) هو معمَر بن المثنى (٢١١هـ/ ٨٢٥م) عالم باللغة والشعر. جمع الكثير من أخبار العرب وأنسابهم كما جمع نقائض جرير والفرزدق وشرحها. من كتبه: نقائض جرير والفرزدق.

(٣) هو أبو زيد الأنصاري (ت ٢١٧هـ/ ٨٣١م) لغويّ ونَحْويّ عربي. كان أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة. من مؤلّفاته: كتاب النوادر في اللغة. وقد يكون أبا زيد القُرَشي (القرن العاشر) شاعر وأديب ينسب إليه كتاب «جمهرة أشعار العرب».

والـمُـبَرِّدَ(١) والـجـاحـظَ(٢) والـقـاليَّ(٣) وقُـدامَـة(٤) وابـنَ قُـتيبـةَ(٥) والآمـديَّ(٦) وأبـا هـلال(٧) والجُرجانيَّ(٨)، بعثوا في هذا العصر من مراقدهم، وتكلّفوا أن يَذُمّوا قصيدةً يحبُّها الناسُ من شعرِ شوقي(٩) مثلًا، لما كرهوها، أو يمدحوا مقالةً يستثقِلها الناسُ من نثر «فلان»، لما أحبّوها. فالحقيقةُ موجودةٌ ثابتةٌ لا سبيلَ للباطلِ إليها، فهي تختفي حينًا، أو تتنكّرُ، أو تتراءى في ثوبِ غيرِ ثوبها، ولكنّها لا تنمحي، ولا تزولُ.

فَلْتَنْطِقْ ألسنةُ الناقدينِ بما شاءَتْ، ولتَتَّسِعْ لها صدورُ المُنْتَقَدين ما استطاعَتْ، فلقد حُرِمْنا الحريّةَ في كلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِنا، فلا أقَلَّ من أن نتمتَّعَ بحريّةِ النظرِ والتفكيرِ.

❁ ❁ ❁

يوم العيد

أفضلُ ما سَمِعْتُ في بابِ المروءةِ والإحسانِ، أنّ امرأةً بائسةً وقفَتْ ليلةَ عيدٍ من الأعيادِ بحانوتِ تماثيلَ في باريسَ يَطْرُقُه الناسُ في تلك الليلةِ لابتياعِ اللّعبِ لأطفالِهم الصغارِ، فوقعَ نظرُها على تمثالٍ صغيرٍ من المَرْمَرِ هو آيةُ الآياتِ في حسنِه وجمالِه، فابتهجَتْ بمرآه ابتهاجًا عظيمًا، لا لأنّها غريرةٌ(١٠) بلهاءُ يستفزُّها من تلك المناظرِ الصبيانيّةِ ما يستفزُّ الأطفالَ الصغارَ، بل لأنّها كانت تنظرُ إليه بعينِ ولدِها الصغيرِ الذي تركتْهُ في منزلِها ينتظرُ عودتَها إليه بلعبةِ العيدِ، كما وعَدتْهُ.

فأخذتْ تساوِمُ صاحبَ الحانوتِ فيه ساعةً، والرجلُ يغالي به مغالاةً شديدةً، حتى علمَتْ أنّ يدَها لا تستطيعُ الوصولَ إلى ثمنِه، وأنّها لا تستطيعُ العودةَ بدونِه، فساقَتْها الضرورةُ التي لا يقدّرُها إلّا مَنْ حملَ بين جنبَيْه قلبًا كقلبِ الأمِّ وفؤادًا مستطارًا كفؤادِها، إلى أنْ تمدَّ يدَها خفْيَةً

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٦هـ/ ٨٩٨م) نحوي وممثّل للمذهب البصري بالنحو. خصمه «ثعلب» ممثّل المذهب الكوفي. من مؤلّفاته «الكامل».

(٢) هو أبو عثمان عمرو بن بَحْر (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٨م) أديب عباسي مشهور، إليه تنسب الجاحظيّة، وهي إحدى فرق المعتزلة. من كتبه: البخلاء، والحيوان وغيرهما.

(٣) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٧هـ/ ٩٦٧م) لغوي شهير. له كتاب الأمالي.

(٤) هو قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) كاتب عراقي شهير له: نقد الشعر، ونقد النثر.

(٥) هو أبو محمد عبدالله (ت٢٧٧هـ/ ٨٨٩م) فقيه ومؤرّخ ومحدّث ونحوي وأديب، له: الشعر والشعراء.

(٦) هو الحسن بن بشر (ت٣٧١هـ/ ٩٨١م) كاتب وأديب عراقي له: المؤتلف والمختلف.

(٧) هو أبو الهلال العسكري (ت بعد ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م) أديب وشاعر له. كتاب الصناعتين: النظم والنثر.

(٨) هو عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) لغوي شهير له: كتاب أسرار البلاغة.

(٩) هو أحمد شوقي (ت١٣٥٢هـ/ ١٩٣٢م) شاعر مصري شهير له ديوان: الشوقيّات، وعدة مسرحيات، أشهرها: مصرع كليوباترة.

(١٠) الغَريرة: التي لا تجربة لها.

إلى التمثالِ، فتسرقَه من حيث تظُنُّ أنّ الرجلَ لا يراها، ولا يشعرُ بمكانِها، ثم رجَعت أدراجَها، وقلبُها يخفقُ في آنٍ واحدٍ خفقتَيْنِ مختلفتَيْنِ، خفقةِ الخوفِ من عاقبةِ فعلتِها، وخفقةِ السرورِ بالهديَّةِ الجميلةِ التي ستقدّمها بعد لحظاتٍ قليلةٍ إلى ولدِها.

وكان صاحبُ الحانوتِ من اليقظةِ وحدّةِ النظرِ بحيث لا تفوتُه معرفةُ ما يدورُ حول حانوتِه، فما برحَتْ مكانَها حتى تبعها، يترسَّمُ مواقعَ أقدامِها حتى عَرفَ منزلَها. ثم تركَها وشأنَها، وذهبَ إلى مخفرِ الشرطةِ، فجاءَ منه بجنديّين للقبضِ عليها، وصَعِدُوا جميعًا إلى الغرفةِ التي تسكنُها، ففاجأُوها وهي جالسةٌ بين يدَيْ ولدِها تنظرُ إلى فَرْحتِهِ وابتهاجِه بتمثالِه نظراتِ الغبطةِ والسرورِ، فهجمَ الجندياِنِ على الأمِّ، فاعْتَقَلاها، وهجمَ الرجلُ على الولدِ، فانتزعَ التمثالَ من يدِه، فصرخَ الولدُ صرخةً عظمَى، لا على التمثالِ الذي انتُزِعَ منه، بل على أمّهِ المرتعدةِ بين يدَيْهِ، وكانتْ كلمةٌ نطقَ بها، وهو جاثٍ بين يَدي الرجلِ: رحْمَاك بأمّي يا مولاي، وظلّ يبكي بكاءً شديدًا.

جمدَ الرجلُ أمامَ هذا المنظرِ المؤثرِ، وأطْرَقَ إطراقًا طويلًا، وإنّه لكذلك، إذْ دُقّتْ أجراسُ الكنائسِ مؤذنةً بإشراقِ فجرِ العيدِ، فانتفضَ انتفاضةً شديدةً، وصعبَ عليه أن يتركَ هذه الأسرةَ الصغيرةَ المسكينةَ حزينةً منكوبةً في اليومِ الذي يفرحُ فيه الناسُ جميعًا، فالتفتَ إلى الجنديّين، وقال لهما: أظنُّ أني أخطأتُ في اتّهامِ هذهِ المرأةِ، فإنّي لا أبيعُ هذا النوعَ من التماثِيلِ، فانصرَفا لشأنِهما.

والتفتَ هو إلى الولدِ، فاستغفرَهُ ذنبَهُ إليه وإلى أمّه، ثمّ مشَى إلى الأمّ، فاعتذرَ إليها عن خشونتِه وشدّتِه، فشكَرَتْ له فضلَه ومروءَتَهُ، وجبينُها يرفضُّ[1] عرقًا حياءً من فعلتِها، ولمْ يفارِقْهما حتّى أسدَى إليهما من النعمِ ما جعلَ عيدَهما أسعدَ وأهنأَ ممّا كانا يظنّان.

* * *

لا تأتي ليلةُ العيدِ حتّى يطلعَ في سمائِها نجمان مختلفان، نجمُ سعودٍ، ونجمُ نحوس: أمّا الأوّلُ فللسُّعداءِ الذين أعدُّوا لأنفسهم صنوفَ الأرديةِ والحللِ، ولأولادِهم اللُّعَبَ والتماثيلَ، ولأضيافِهم ألوانَ المطاعمِ والمشاربِ، ثمّ ناموا ليلتَهم نومًا هادئًا مطمئنًّا تتطايرُ فيه الأحلامُ الجميلةُ حول أسرّتِهم تطايُرَ الحمائمِ البيضاءِ حول المروجِ الخضراء؛ وأمّا الثاني فللأشقياءِ الذين يبيتُونَ ليلتَهم على مِثْل جَمْرِ الغضَا[2] يئنّون في فراشِهم أنينًا يتصدّعُ له القلبُ، ويذوبُ له الصخرُ حزنًا على أولادِهم الواقفين بين أيديهِم يسألونهم بألسنتِهم وبأعينِهم: ماذا أعدُّوا لهم في هذا اليومِ من ثيابٍ يفاخِرُون بها أندادَهُم، ولُعَبٍ جميلةٍ يزينون بها مناضِدَهم؟ فيعلّلونهم بوعودٍ يعلمونَ أنّهم لا يستطيعونَ الوفاءَ بها.

فهل لأولئك السعداءِ أن يمدُّوا إلى هؤلاءِ الأشقياءِ يدَ البرّ والمعروفِ، ويفيضُوا عليهم في

---

(١) ارفضّ: سال. (٢) الغضا: نوع من الشجر.

ذلك اليومِ النَّزْرَ القليلَ ممّا أعطاهم الله ليسجّلوا لأنفسِهم في بابِ المروءةِ والإحسانِ ما سجّلَ لصاحبِ حانوتِ التماثيل؟!

إنّ رجلًا لا يؤمنُ بالله ورسلِه، وآياتِه وكتبِه، ويحملُ بين جنَبيْهِ قلبًا يخفق بالرحمةِ والحنانِ، لا يستطيعُ أن يَمْلِكَ عينَه من البكاءِ، ولا قلبَه من الخفقانِ عندما يرَى في العيدِ في طريقِه إلى معبدِه، أو مُنْصَرَفَه[1] من زياراتِه، طفلةً مسكينةً باليةَ الثوبِ، كاسفةَ البالِ، دامعةَ العينِ، تحاولُ أن تتوارَى وراءَ الأسوارِ والجدرانِ خجَلًا من أثوابِها وصواحبِها، أَنْ تَقعَ أنظارُهنّ على بؤسِها وفقرِها ورثاثةِ ثوبِها وفراغ يدِها من مثلِ ما تمتلىءُ به أيديهنَّ، فلا يجدُ بدًّا من أن يدفعَ عن نفسِه ذلك الألمَ بالحنوِّ عليها، وعلى بؤسِها ومتربَتِها[2] لأنّه يعلمُ أنّ جميعَ ما اجتمعَ له من صنوفِ السعادةِ وألوانِها لا يوازي ذرّةً واحدةً من السعادةِ التي يشعرُ بها في أعماقِ قلبِه عندما يَمْسَحُ بيدِه تلك الدمعةَ المترقرقةَ في عينَيْهَا.

حسبُ البؤساءِ من مِحَنِ الدهرِ وأرزائِه أنّهم يقضُون جميعَ أيامِ حياتِهم في سجنٍ مُظْلمٍ من بُؤسِهم وشقائِهم، فلا أقلَّ من أن يتمتّعوا برؤيةِ أشعّةِ السعادةِ في كلّ عامٍ مرةً أو مرّتين.

❁ ❁ ❁

من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيعُ أن ننكرَ عليكم، معشرَ الأبناءِ، أنّ شبابَكُم أعظمُ قوّةً ونشاطًا، وأبعدُ همةً، وأقوى عزيمةً، من شيخوختِنا، وأنّ أيدينا الشاحبةَ المعروفةَ لا تستطيعُ أن تصلَ إلى ما تصلُ إليه أيديكم الفتيّةُ المقتدرةُ، وأنّ آراءَكم وأفكارَكم، وجميعَ تصوّراتِكم وآمالِكم التي تتلوّنُ بها شبوبيّتُكم أكثرُ حدّةً وحرارةً، وأبعد غَوْرًا وعُمْقًا من آرائِنا وتصّوراتِنا، ولكنّ الذي ننكرهُ عليكم ونعتبُ عليكم فيه أشدَّ العتبِ هو زِرايتكم[3] علينا، واحتقارُكم لنا، ورميُكم إيّانا بالجمودِ مرّةً، والخرفِ أخرى كلّما اختلَفْنا معكم في شأنٍ من الشؤونِ.

كما أنّنا ننعِي عليكم كبرياءَكم وخُيَلأَكُم، واعتدادَكم بأنفسِكم هذا الاعتدادَ العظيمَ الذي يُخَيَّلُ إليكم معه أنّ هذه الألوانَ الجميلةَ التي تتلوّنُ بها حياتُكم الحاضرةُ إنّما هي خاصّةٌ بكم، ووقفٌ عليكم، لم تمرَّ بعصرٍ غيرِ عصرِكم، ولم يَزْهُ بها شبابٌ غيرُ شبابِكم، وأنّكم أنتم أصحابُ الفضلِ الأوّلِ في ابتكارِها وافتراع عذْرَتِها.

ولو أنّكم استطعْتُم أنْ تحمِلُوا أنفسَكم على الرويّةِ والأناةِ، وأن تنتقلُوا بأنظارِكم من الحاضرِ إلى الماضي - وإن لم يكنْ ذلك من طبيعةِ الشبابِ ولا من خصائصِه - لعلِمْتُمْ أنّ

---

(١) مُنْصَرَفُهُ: وقت انصرافه. (٢) المتربة: الحاجة.

(٣) الزراية: العتاب.

هذا العهدَ الذي يمرُّ بكم اليومَ، والذي تفاخرُونَنا به، وتدلّون علينا بأحلامِه وأمانيّهِ، وتصوراتِه وخيالاتِه، مرّ بنا مثلُه في زمانِنا. فقد كان لنا شبابٌ مثلُ شبابِكم، نتصوّرُ فيه كما تتصوّرون، ونفكّرُ كما تفكّرون، ونردّدُ في أنفسِنا وأحاديثِنا وعلى أسلاتِ أقلامِنا جميعَ هذه الآراءِ والأفكارِ التي تردّدُونها اليومَ، حتى انطوَى ذلك العهدُ، وزالَتْ معالمُه، وهدأتْ على أثرِه تلك الثورةُ النفسيّةُ الهادئةُ التي كانتْ تعتركُ بين جوانحِنا، ودخلْنا غمارَ الحياةِ الحقيقيّةِ حياةِ الجدِّ والعملِ، والنظرِ والتأملِ، والخبرةِ والتجربةِ، فاستطَعْنا أنْ نرجِعَ إلى نفوسِنا، ونثوبَ إلى رِشدِنا، وأن نهبطَ بهدوءٍ وسكونٍ إلى أعماقِ قلوبِنا، ونستعرضَ تلك الآراءَ والأفكارَ، والأحلامَ والآمالَ، بإمعانٍ وتدقيقٍ، فاستطَعْنا أنْ نميّزَ صالحَها من فاسِدها، وصادِقَها من كاذبِها، ومعقولَها من موهومِها، وأن نقلّبَ الأشياءَ على جميعِ وجوهِها، ونرى وجوهَ الحسنِ فيها، ووجوهَ القبحِ، ونوازنَ بين هذه وتلك.

فأخذْنا بما أربَتْ[1] حسناتُه على سيّئاتِه، وأطّرحْنا ما زادتْ سيئاتُه على حَسَناتِه. فلا فضلَ لكم في الحقيقةِ في هذا الذي تزعمون أنّ لكم الفضلَ فيه وحدَكم من دونِ الناسِ جميعًا، وإنّما الفضلُ للشبابِ ومزاجِه وطبيعتِه وحدّتِه. ولا علاقَة للعلمِ والجهلِ، والذكاءِ والغباوةِ، والتقدمِ والتأخّرِ بشيءٍ من ذلك.

وللشبابِ خصائصُ كثيرةٌ، وصفاتٌ متعدّدةٌ، وأخصّ صفاتِه قِصَرُ النظرِ، وسرعةُ الحكمِ، والعجزُ عن إحكامِ الصلةِ بين أدوارِ الزمانِ الثلاثةِ: ماضِيه وحاضِرة ومستقبلِه.

فهو لا يستطيعُ أن يتصوّرَ تصوّرًا ثابتًا متينًا أنّ الماضي أساسُ الحاضرِ، ومنبعُ وجودِه، لا يشرقُ إلّا من مطلعِه، ولا ينبتُ إلّا في تربتِه، وأنّ المستقبلَ بيدِ الطبيعةِ القاسيةِ وقوانينها الصارمةِ.

وليس أقربَ إليه من أن يتصوّرَ أنّ في استطاعتِه أن يمحوَ بيدِه في لحظةٍ واحدةٍ وجهَ الكونِ بأرضِه وسمائِه، ثم يخلقَه خلقًا جديدًا على الصورةِ التي يريدُها ويتصوّرُها، وأنّ في إمكانِه أن يحيلَ الترابَ أمواهًا، والأمواهَ تربًا، وأن يحجبَ بيدِه وَجْهَ الشمسِ، فلا ينبعثُ لها شعاعٌ إلّا بإرادته، وأن يُرغمَها متى أرادَ أنْ تمزّقَ حجابَ الليلِ وتبرزَ في سمائه.

ولا يزالُ يتخبّطُ في أمثالِ هذه التصوّراتِ والأحلامِ التي لا فائدَة فيها، ولا نتيجةَ لها، حتى تطلعَ في رأسِه أوّلُ طليعةٍ من طلائعِ الشيخوخةِ فتهدأَ ثورتُه، وتفترَ حدّتُه، ثم لا يلبثُ أن يسقطَ جاثيًا بين يدَي القوّةِ الإلهيّةِ، والقوى الطبيعيّةِ معترفًا بعجزِه، وقصورِه، وفراغِ يده من كلِّ حولٍ وقوّةٍ هاتفًا: إنّ للكونِ إلهًا لا أستطيعُ محادتَه، وللطبيعةِ سنّةٌ لا أستطيعُ تبديلَها.

كنّا نفكّرُ كثيرًا في شأنِ المرأةِ كما تفكّرون اليومَ، ولا نجدُ حديثًا ألذَّ، ولا أطربَ من الحديثِ عنها، وكنّا لشدّةِ إعجابنا بها، واهتمامِنا العظيم بترفيهِها وتدليلِها، والوقوعِ من نفسِها موقعًا جميلًا، ندافعُ عنها ضدَّ أنفسِنا، ونطلبُ لها من النفوذِ والسيطرةِ علينا أكثرَ ممّا تطلبُه

---

(١) أربى: زاد.

لنفسِها، ونتمنّى بجذْعِ الأنفِ، لو أنّنا رأيناها متمتّعةً بالحرّيةِ إلى أقْصَى حدودِها، فتتبرّجُ كما تشاءُ، وتَسْفُرُ كما تريدُ، وتجلسُ إلى الرجلِ جَنْبًا لجنْبٍ في المجتمعاتِ العامّةِ والخاصّةِ، دون أن يعارِضَها معارضٌ، أو يكدّرَ عليها صفوَها مكدّرٌ.

بل كُنّا نذهبُ في مجاملتِها ومحاسنتِها إلى أكثرَ من ذلك، فكنّا نغتفرُ لها سيّئاتِها الأدبيّةَ، ونسمّيها سقطاتٍ، أي هفواتٍ فرديّةً لا أهميّةَ لها، ونُغريها بمحاسبةِ زوجِها حسابًا شديدًا على خيانتِه لها، ومقابلةِ فِعْلاتِه بمثلِها، لأنّنا كنّا نقرّرُ لها مبدأَ المساواةِ بينها وبينه، ونقولُ لها: ليس من العدلِ أن يغضبَ الزوجُ من خيانةِ زوجتِه إذا كان هو يخونُها.

وكنّا نظنُّ أنّ هذه الآراءَ آراءٌ حقيقيّةٌ راسخةٌ في نفوسنا، صادرةٌ من أعماقِ قلوبِنا. ثمّ عَلِمْنا بعد ذلك أنّنا كنّا مخدوعين فيها، وأنّها آراءُ الشبابِ وخواطرُه، وأحلامُه وتصوّراتُه، ولا يثقلُ على الشبابِ في ريعانِه شيءٌ مثلُ ذلك الحجابِ المسبلِ على وجهِ المرأةِ، وذلك الجدارِ القائمِ بينها وبينه.

وكنّا نبتهجُ بكلّ جديدٍ كما تبتهجُون، وننفرُ من كلّ قديم كما تنفرون، ونعدُّ الأوّلَ آيةَ الآياتِ مهما سَخُفَ واستبردَ، والثاني نكبةَ النكباتِ مهما غلَتْ قيمتُه ونَفِسَ قدرُه، لا لأنّنا وازنّا بينهما، وفاضَلْنا بين مزاياهما، فحكمْنا عليهما، بل لأنّنا كنّا قريبي عهدٍ بزمنِ الطفولةِ؛ والطفلُ سريعُ المللِ، كثيرُ السآمةِ، لا يصبرُ على لعبتِه أكثرَ من يومٍ، ثم يملُّها، فيكسُرها، ويستبدلُ منها.

وكنّا مولَعين بالتقليدِ وَلَعَكُم به، لا نكادُ نعرفُ لأنفسِنا صورةً خاصّةً ترتكزُ عليها أعمالُنا في الحياةِ، بل كانتْ تمرُّ بنا جميعُ الصورِ على اختلافِ أنواعِها وألوانِها، فنلتقِطُها بأسرعَ ممّا يلتقطُ «الفلم» صُورَه، كأنّ فضاءَ حياتِنا معملٌ لتجاربِ الحياةِ واختباراتِها.

وكان العارفُ منّا بلغةٍ أجنبيّةٍ، لا يلبثُ أن يفتتنَ بها وبأصحابِها افتتانًا شديدًا ربّما حملَه على احتقارِ لغتِه وتاريخِها، فيترفّعُ عن ذكرِ رجالِها وعظمائِها في أحاديثِه واستشهاداتِه، ويسخرُ منهم كلّما جرَى ذكرُهم على لسانِ أحدٍ غيرِه، لا لأنّه يفهمُهم، أو يفهمُ غيرَهم، بل لأنّه كان بسيطًا غريرًا، يحتقرُ كلَّ ما في يدِه، ويستعظمُ كلَّ ما في يدِ غيرِه.

ولم نعرفْ إلّا بعدَ زوالِ ذلك العهدِ أنّنا كنّا مخطئين في جميعِ هذه التصوّراتِ والأفكارِ، وأنّها لم تكنْ عقائدَ راسخةً في نفوسِنا، بل أشباحًا وصوَرًا تتراءَى في حياتنا، فنعجبُ بها، ونستطيرُ فرحًا وسرورًا بجمالِ منظرِها، وبهجةِ ألوانِها، فأصبحْنا معتدلين في آرائِنا، متّئدين في أحكامِنا.

نحبُّ حرّيةَ المرأةَ، ولكنّا نكرهُ فُسْقَها وفجورَها؛ ونأخذُ موادّ المدنيّةِ والحضارةِ من الأممِ المتمدّنةِ، ولكنّا لا نقلّدُها؛ ونحن نُحِبُّ أدبَ الغربيّين، ونعجبُ بأدبائِهم وعلمائِهم، ولكنّا لَا نحتقرُ من أجلِ ذلك رجالَنا وتاريخَنا.

نحن لا نطلُب منكم، معشرَ الأبناءِ، وأنتم في ثورةِ الشبابِ ونشوتِه أن تكونوا معتدلين متّئدين في أحكامِكم وتصوّراتِكم، أو هادِئين في مطامِعِكم وآمالِكم، فليس من الرأيِ أنْ نطلبَ

عندكم ما لم نكنْ نطلبُه عن أنفسِنا، ولكنّ أمرًا واحدًا كنّا نحرصُ عليه في عهدِنا أشدَّ الحرصِ هو الذي نطلبُ إليكم أن تحرصُوا عليه مثلنا، وتضنّوا به ضنّنا.

كنّا نعتقدُ مثلَكم أنّنا خيرٌ من آبائِنا وأجدادِنا، وأوسعُ منهم علمًا، وأقوى إدراكًا، وربّما اعتقدْنا في الكثيرِ منهم كما تعتقدُون فينا اليوم أنّهم جاهلون أو مخرّفون، أو متأخّرون أو جامدون، إلّا أن ذلك لم يكنْ يمنعُنا من أنْ نحفظَ لهم منزلَةَ الأبوّةِ وكرامَتَها، فلا نلقّبُهم بلقبٍ من هذه الألقابِ التي تلقّبونَنا بها؛ ولا نذكّرُهم في حضورِهم أو غيبتِهم بكلمةِ سوءٍ تنغّصُ عليهم ما قُدّرَ لهم أن يقضُوه بيننا من أيامِ حياتِهم، وكان شأنُنا معهم في برّهم وإكرامِهم، واحترامِ عقائدِهم ومذاهبِهم مع اتّساعِ مسافةِ الخُلْفِ بيننا وبينهم شأنَ خالدِ بن عبدالله القُسري[1] أميرِ العراقِ إذْ كان مسيحيًّا، فأسلمَ وحَسُنَ إسلامُه، وكان أبوه لا يزالُ على دينِه، فطلبَ إليه أن يبنيَ له بيعةً في قصرِه يقومُ فيها بأداءِ واجباتِه الدينيّةِ، فبناها له كما أرادَ، ولم يَنْعَ عليه شأنًا من شؤونِه طول أيامِ حياتِه حتى ذهبَ إلى ربّه.

ذلك ما نضرعُ إليكم فيه أنْ تحفَظُوه لنا كما حفظنَاهُ من قبلِكم لآبائِنا وأجدادِنا، واذكرُوا أنْ سيأتي عليكم ذلك اليومُ الذي أتَى علينا، وأنّكم ستكرهُون فيه أنْ يعاملَكُم أبناؤُكُم وأحفادُكم بمثلِ ما تعاملونَنا به اليومَ. فاتّقوا الله فينا، وفي شيخوختِنا، فنحن آباؤُكم الذين وَلَدْناكُم، وأساتذتُكم الذين ربّيناكُمْ، ومن أكبرِ العارِ عليكم وعلى تاريخِكم أن تسبُّوا أساتذَتكُم وآباءَكم، وأن ترمُوهم في وجوهِهِمْ بالجهلِ والجمودِ وما هم بجاهلين ولا جامدين، ولكنّهم شيوخٌ عاجزون.

❁ ❁ ❁

الموتى

«مترجمة»

دُقّتْ أجراسُ المَساءِ تنعي اليومَ الراحلَ، وتندبُ جمالَه الزائلَ، وأخذتْ قِطعانُ الماشيةِ تعودُ من مراعيها إلى حظائرِها، ومشى وراءَها رعاتُها يَهُشّون عليها بعصيّهم، لا يريدُون بها شرًّا ولا أذى، لأنّهم يحبّونها ويرحمُونها، بل يخافُون عليها الضلالَ، فهم يهدُونها الطريق.

ومدّ الظلامُ رُواقَه الأسودَ على جسمِ الطبيعةِ المنبسطةِ كأنّما ظنّ أنّها تنامُ كما ينامُ البشرُ، فهو يقيها بردَ الليلِ وغائلتَه.

وسادَ سكونٌ رهيبٌ في تلك الأنحاءِ، فلا يُسمعُ إلّا صوتُ البلبلِ يشكرُ للقمرِ ما أهدَى إلى جناحَيْهِ من أشعّةٍ مُتَلألِئةٍ، ونعيبُ البوم يمدُّ صوتَه بالشكوى إلى اللهِ تعالى في سمائِه، وما شكاتُه إلا أنّ بني آدمَ يطأون أرضَه، وينتهكُون حرمةَ خُرُباتِه المقدَّسَةِ.

---

(١) هو خالد بن عبدالله بن يزيد القسري (ت١٢٦هـ/٧٤٣م) أحد خطباء العرب وأجوادهم، أمير العراقين في عهد هشام بن عبد الملك.

وهنالك تحت ظلالِ الأشجارِ الضخمةِ اليابسةِ رقدَ أسلافُ سكانِ تلك المزرعةِ تحت أعماقِ الأرضِ رقدةً طويلةً، بل أكثرَ من طويلة، لأنّها لا نهايةَ لها، فلا نسماتُ الصباحِ الباردةُ، ولا تغريدُ الطيورِ الصادحةُ ولا صياحُ الديكةِ، ولا رنينُ الأجراس، ولا هتافُ الرعاةِ، يوقظُهم من رقدتِهم هذه.

أسفي عليهم لقد أمْسَوا، ولا نيرانَ تُوقَدُ في أكواخهم، ولا زوجاتٍ صالحاتٍ يذهَبْنَ ويَجِئْنَ في تهيئَةِ طعامِ عشائِهم، ولا صبيةَ صغارًا يستقبلونهم عند عودتِهم ليقبّلوهم ويستقبلُوا قُبلاتِهم. أولئك الرقودُ الهامدون كانوا بالأمس أشدّاءَ أقوياءَ تمدُّ السنابلُ أعناقَها خاضعةً لمناجِلهم، ويئنُّ ظهرُ الأرضِ وبطنُها تحت وطأةِ محاريثِهم، وتُرعدُ جذوعُ الأشجارِ الضخمة فَرَقًا من ضرباتِ فؤوسِهم.

أولئك الوجومُ الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين، يرقصُون ويغنّون ويجدُون السعادةَ والبهجةَ في كلِّ ما يحيطُ بهم، فيطربُون لوقعِ حوافرِ ماشيتِهم على الحَصْباءِ، كأنّما يسمعُون قيثارةً مطربةً، ويجدُون في ضجعتِهم فوقَ الأعشابِ اليابسةِ الراحةَ التي يجدُها أصحابُ الأسِرَّةِ فوق مهادِهم الوثيرِ، ويشعرُون في تناولِهم ألوانَ الطعامِ الشهيِّ على موائدِهم، ويغترفُون بأكفِّهم المياهَ من الأنهرِ والخلجانِ فيلتذّون بارتشافِه كأنّما يتناولون صافيةَ الصهباءِ في كؤوسِ البلورِ والذهبِ.

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تُنْصَبْ لهمُ التماثيلُ، ولم تُرفعْ فوق قبورِهم القبابُ كانوا في حياتِهم شرفاءَ عظماءَ، لأنّهم كانوا متحابّين متآخين، لا يَحْسُدُ فقيرُهم غنيَّهم، ولا يبغي قويُّهم على ضعيفِهم، ولا يحقدُون ولا يَغْدُرون، ولا يخافون شيئًا حتى الموتَ، ولا يَعْبُدُون إلهًا إلّا الله.

كذلك كانوا بالأمسِ، واليومَ طواهُمُ الرمسُ[1]، فرحمةُ اللهِ عليهم يومَ كانوا على ظهرِ الأرضِ، وبعدما أصبحُوا في بطنِها.

فَلْيَجْثُ[2] فوقَ رمالِ هذه القبورِ المُبَعْثَرةِ، وبين أحجارِها المتهدّمةِ المتساقطةِ، أربابُ المطامعِ في الحياةِ، وطلّابُ المجدِ والعظمةِ خاشعين مستكينين، خافِضينَ رؤوسَهم إجلالًا وإعظامًا، وليمسكُوا قليلًا عن الإدلالِ بعزِّهم وجاهِهم، والمكاثرةِ بفضّتِهم وذهبِهم وليخفُوا في أعماقِ نفوسِهم ابتساماتِ الهزءِ والسخريةِ المترقرقةِ عن شفاهِهم، وليعلمُوا أنّ طريقَ المجدِ والعظمةِ التي يسيرون فيها، وإن كانت مخضرّةً جميلةً، مفروشةً بالأعشابِ، محفوفةً بالأزهارِ، فإنّها تؤدّي في نهايتِها إلى هذا المصيرِ الذي صارَ إليه هؤلاءِ المقبورُون.

أيّها الناعمُون في عيشِهم، المدلّون بعزِّهم وجاهِهم، المفتخرون بقوّتِهم وجمالِهم لا تحتقرُوا هؤلاء المقبورين المساكين، إنْ رأيتم أجداثَهم مشعّثةً باليةً، وقبابَهم متهدّمةً خاويةً، ولم ترَوا أسماءَهم منقوشةً بأجملِ الألوانِ وأزهاها على صفائحِ قبورِهم، وأصغوا قليلًا تسمعُوا آياتِ مدحِهم والثناءَ عليهم تردّدُها الجداولُ والغدرانُ، والحقولُ والمروجُ، والطيورُ المغرّدةُ

---

(١) الرمس: القبر. (٢) جثىٰ وجثا: جلس على ركبتيه.

فوق أعالي الأشجارِ، والسوائمُ الحائمةُ على ضفافِ الأنهارِ، فهم أصحابُ اليدِ التي رصّعتِ التاجَ للملكِ، وصنعَتِ السيف للقائِد، ونسَجتِ المُسوحَ[١] للراهبِ، وبنتِ القصورَ للأمراءِ، وصاغتِ الحُليّ للأميراتِ، وغرستِ العشبَ للسائمةِ، ووضعتِ الحبَّ للطائرِ، وهيّأتْ للأحياءِ جميعِهم - ناطقِهم وصامتِهم - طعامَهم وشرابَهم، ودِثارَهم[٢] ومِهادَهم.

أيّها العظماءُ: لا تخلّدُ التماثيلُ المنصوبةُ غيرَ ذكرى ناحتِيها، ولا تطمسُ السطورُ الذهبيّةُ المنقوشةُ فوق صفائحِ القبورِ سطورَ السيّئاتِ التي يخطُّها التاريخُ في صفحاتِه، ولا تسمعُ آذانُ الموتِ الصمّاءُ نغماتِ الملقِ المتردّدةَ في أناشيدِ الرثاءِ.

رُبّ يدٍ تحت هذه الأرضِ، لو أُتيحَ لها الحظّ في حياتِها، لكانتْ يدَ العازفِ الذي يشنّفُ الأذانَ، أو يدَ البطلِ الذي يهزُّ العروشَ، ويزعزعُ التيجان، أو يدَ الشاعرِ الذي يثيرُ الأشجانَ، ويبعثُ إلى القلوبِ السرورَ أو الأحزانَ. وربَّ قلبٍ في هذه الحفائرِ المظلمةِ، لو عاشَ في جوٍّ غَيْرِ هذا الجوِّ، وعالمٍ غَيرِ هذا العالمِ، لكان قلبَ ملكٍ عظيمٍ مملوءٍ بالآمالِ العظامِ، والأمانيّ الجسامِ أو قلبَ زعيمٍ جريءٍ يحاسبُ الظالمين على ظلمِهم، ويذودُ النومَ عن أجفانِهم، أو قلبَ نائبٍ كبيرٍ يستهوي ببلاغتِه القلوبَ، ويسترعِي الأسماعَ، فتدوّي له بالتصفيقِ قاعةُ مجلس النوّابِ.

كم من لؤلؤةٍ لم تعثرْ يدُ الغواصِ بها، فظلّتْ دفينةً بين صدفتَيها! وكم من زهرةٍ أريجةٍ لم تكدْ تتفتّحُ، حتى هبّتْ عليها رياحُ الصحراءِ المحرقةُ، فأذبلَتْها! وكم من ماسَةٍ وضّاءةٍ عجزَ المعدّنون عنِ استخراجِها من مَعْدِنِها، فانطفأ نورُها في مَنْجَمِ الفحمِ المظلم! وكم من قريحةٍ وقّادةٍ لم تصقُلها العلومُ والتجاريبُ، فعاشَتْ مغفلةً مُهْمَلة، حتى انطفأتْ شعلتُها، ولو أنّها صقَلَتْها لغيّرتْ وجْهَ الكونِ، وبدّلَتِ الأرضَ غيرَ الأرضِ!

نعم كان بين هؤلاءِ القرويّين المقبورين مَنْ كان له قلبٌ كقلب (همبدان)، إلّا أنّ التاريخَ لا يعرفُه، ومَنْ كان له لسانٌ كلسان (مِلْتُن[٣])، إلّاأنّه لم ينصبْ له تمثالٌ، ومن كانت له همّةٌ كهمّةِ (كروموِيل[٤])، إلّا أنه لم يَقُدِ الجيوشَ؛ ولكنّهم عاشُوا في هذا الفلواتِ المنقطعةِ عن العلمِ والحضارةِ، فدفنَ الجهلُ مواهبَهم، وأخمدَ الفقرُ نارَ ذكائِهم وفهمِهم، فمرّوا بهذه الدنيا، ولم يشعرْ بهم أحدٌ، ثمّ ماتوا ولم يذكرْهم أحد.

هنيئًا لهم جهلُهم وخمولُهم، فلو أنّهم كانوا عظماءَ لقضَوا أيامَ حياتِهم يسفكُون الدماءَ، ويمزّقون الأشلاءَ، ويغتالون حقوقَ الضعفاءِ سعيًا وراءَ أغراضِهم ومطامِعهم، لا بل إنّهم كانوا عظماءَ ولكنّهم بريئون من آثارِ العظمةِ وجرائِمها.

---

(١) المُسُوح: ج المِسْح: ثوب ينسج من الشعر، يُلْبَسُ تقشّفًا.

(٢) دثارهم: أثوابهم.

(٣) هو جون ملتن (ت١٠٨٦هـ/ ١٦٧٤م) شاعر إنكليزي شهير. له الفردوس المفقود.

(٤) هو أوليفر كروموِيل (ت١٠٧٠هـ/١٦٥٨م) سياسي إنكليزي. تولى الحكم بصورة ديكتاتوريّة.

رحمةُ الله عليهم، لقد ذهبوا ولمْ يبقَ لهم من بعدِهم ممّا يدلُّ عليهم سوى حجرٍ قديمٍ ملقًى في طريقِ مقبرتِهم، قد كُتِبَ عليه بخطٍّ سقيمٍ هذا البيتِ البسيطِ من الشعر:

«أيُّها المارُّ في هذا المكانِ احترمْ تربتَه، ولا تطأْ بقدمَيْك رُفاتَ الموتَى».

هذا كلّ ما طمِعوا فيه من شؤونِ الحياةِ بعد موتِهم. لم يطلبُوا تمثالًا يقامُ لهم، ولا قبّةً تُرفعُ فوق أضرِحَتهِمْ، ولا صفحةً خاصةً من صفحاتِ التاريخ تخلّدُ فيها أعمالهُم، بل لم يطلبُوا طاقةَ زَهْرٍ تُؤنسُ مضجَعَهم، ولا قطرةَ غيثٍ تبلُّ ثراهم فما كان أقنعَهم وأزهدَهم!

❁ ❁ ❁

الزهرة الذابلة

وَرَدَ إليَّ من صاحبِ التوقيعِ الكتابَ الآتي:

أنا تلميذٌ في السابعةَ عشرةَ من عمري، حصلْتُ على شهادةِ الدراسةِ الابتدائيّةِ، ثم تقدّمْتُ لامتحانِ الكفاءةِ، فلمْ أُفلِحْ؛ غيرَ أنّي عزمْتُ على الكدِّ للعام المقبلِ، وما دريتُ ما يُخفي الغيبُ في سرِّهِ، حتّى فُوجِئْتُ بمرضِ «الحمّى» العُضالِ الذي ضَعْضَعَني، وما كدتُ أُشْفَى منه بعدَ مدّةٍ حتى أصابني «الصممُ» الكاملُ، فضاعَتْ بذلك آمالي، وأظلَمَتِ الأرضُ في وَجْهِي، فرأيتُ أنْ أستغيثَ بك لعلّك تُسْدِي إليّ جميلًا بكلمةِ تعزيةٍ من عندك، وأنا أحقُّ الناسِ بالعزاءِ؛ والسلام.

٦ يناير سنة ١٩١٤.

لا أستطيعُ أنْ أعزّيكَ عن مصابِك يا بنيّ، فهو فوقَ ما يحتملُ المتحمّلُ، ويطيقُ الجَلْدُ الصبورُ، ولو حاولْتُ ذلك منك، لكذَبْتُكَ وغشَشْتُك، ولكان شأني معك شأنَ أولئك الخادِعين من المعزّين الذين يتخلّفون ليلَهم ونهارَهم إلى منازلِ المنكوبين والمرزوئين ليقولُوا للثاكلِ[1]: «لقد قدّمتِ بين يديك شفيعًا يشفعُ لك يومَ حسابِك بين يدي ربّك» وللباكي أباه «ما مات من خلّف مثلك»، وللباكي أخاه: «إنّ في الباقي عزاءً عن الماضي»، وللباكية زوجها: «الشبابُ غضٌّ والرجالُ كثيرٌ»، وللفاقد بصرَه: «حسبُك ممّا فقدْتَ من نورِ بصرِك ما أبقَى اللهُ لك من نورِ بصيرتِك»، وللمحتضر المشرف: «إن في لقاءَ ربّك عوَضًا من لقاءِ الدنيا»، ولمن حلّتْ به نكبةٌ مثلُ نكبتِك: «لقد كفاك اللهُ بما ابْتلاكَ سماعَ أقوالِ الكذبِ وكلماتِ السوءِ». وكأنّما هم يحسبُون أنّ الفواجعَ والرزايا صفقاتٌ تجاريّةٌ، إذا قاسَ فيها المرءُ ربحَه بخسران، ووازنَ بين دَخْلِه وخَرْجه، هان عليه هذا لذاك، واغتفرَ ما فاتَ لما هو آتٍ، ولا يعلمُون أنّ الحزنَ على الذاهبِ المفقودِ إنّما هو زفرةٌ من زفراتِ الحبِّ، أو نفثةٌ من نفثاتِ الودّ، ولا دخلَ للحساب والمعاوضةِ في شيءٍ من ذلك، وأنّ أقسى الآباءِ قلبًا، وأصلبَهم فؤادًا، لو ساومَه مساومٌ في فلذةِ كبدِهِ،

(١) الثاكل: مَنْ فَقَدَ ولده.

ووضعَ تحت قدميه خزائنَ الأرضِ والسماءِ، لكان رأيُه في ذلك رأيَ ابنِ الروميّ في قوله:

وما سَرَّني إنْ بِعْتُه بثوابِه ... ولَوْ أنّهُ التخليدُ في جنّةِ الخُلْدِ

وإنّ الأمَّ تبكي وحيدَها كما تبكي عاشرَ عَشَرَةٍ من أولادِها، والصديقُ يبكي فراقَ صديقِه وإن كثرَ أصدقاؤه في كلّ محلّةٍ يحلُّ بها، والزوجةُ تبكي زوجَها وإنْ كان تحت كلِّ نافذةٍ من نوافذِ منزلها خطيبٌ يترقّبُها، وإنّ البائسَ المسكينَ الذي يعيشُ من دنياه في مثلِ جُحرِ الضبّ[1] ضَنْكًا وبؤسًا يضنُّ بحياتِه الضنَّ كلَّه، إذا أحسَّ بوشكِ فراقِها، وإنْ عَلِمَ أنّه سينتقلُ منها إلى جنّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ.

فهم في الحقيقةِ يَسْخَرون من مصائبِ الناسِ وأرزائِهم، ويؤلمون نفوسَهم فوق ألمِها باحتقارِ أحزانِهم وازدرائِهم، وتصغيرِ شأنِها في أعينِهم، ويُلْقُون في نفوسِهم اليأسَ من أن يجدُوا بجانبِ قلوبِهم قلوبًا تُحِسُّ بإحساسِها، وتشعرُ بشعورِها، من حيث يظنّون أنّهم يخفّفون عنهم آلامَهم، ويأخذونَهم بنسيانِها.

وأعوذُ بالله أن أكونَ، يا بنيّ، من الكاذبين في تعزيتِك، أو الغاشّين لك فيها، ولو أردتُ نفسي على ذلك لما استطعتُ، وكيف يستطيعُ أنْ يعزّيكَ عن مصابِك من لا يستطيعُ أن يعزّيَ نفسَه عن مصابِه فيك، فقد تركَ كتابك هذا بين جنبيّ لوعةً من الحزنِ، لا أحسبُ أنّها دون لوعتِك التي تعتلجُ بين جنبَيْك من الحزنِ على نفسِك، حتى صِرْتُ كأنّي أنا الذي ابْتُلِيتُ بما ابتُلِيتَ به، وكأنّ الذي أصابك من البلاءِ قد أصابَني من دونك؛ فلقدِ انقطعَ عنك بفقدِك سَمْعَك، أيُّها البائسُ المسكينُ، كلُّ ما كان بينك وبين الناسِ جميعًا من سببٍ وصِلَةٍ، فأصبحتَ وأنتَ في دارِ الأنسِ والاجتماعِ، وبين ضوضاءِ الحياةِ وضجيجِها، كأنّك تعيشُ من وحشتِك وكآبتِكَ في مدينةٍ متحجّرةٍ من مُدُنِ التاريخِ القديم، لا تأنسُ فيها بأحدٍ، ولا يأنسُ بك فيها أحدٌ، ولا ترَى بين يدَيْك إلّا نُصُبًا ماثلةً، وتماثيلَ جامدةً.

تحسبُ العينُ أنّهم جِدُّ أحْيَاءٍ ... لَهُمْ بَيْنَهُم إشارةُ خرسِ

ولا يرفّهُ عن نفسِك في ساعةٍ من ساعاتِ ضيقِك وضجرِك نغمةُ غناءٍ، ولا رنّةُ حُداءٍ، ولا خريرُ نهرٍ، ولا تغريدُ طيرٍ، ولا حفيفُ شجرٍ، ولا زفيفُ ريحٍ، ولا ثُغاءُ شاةٍ، ولا نقيقُ ضفدعٍ، ولا صريرُ جندبٍ، سواءٌ لديك ليلُك ونهارُكَ، وصبحُك ومساؤُك، ويقظتُك ومنامُك.

فإنْ فررْتَ من وحشتِك هذه إلى مجتمعٍ من المجتمعاتِ العامّةِ، فجلستَ إلى الناس تتفرج[2] فيها ممّا بك، لا تسمعُ شيئًا مما يقولون، ولا يعنيهم أن يسمعُوا شيئًا ممّا تقولُ، فإنْ قلّبْتَ نظرَك في وجوهِهم لتتسقّطَ حرفًا من حروفِهم، أو تتفهّمَ حركةً من حركاتِ شفاهِهم، أو إشارةً من إشاراتِ أيديهِم، أنكرُوا عليك نظراتِك، وسخرُوا منك فيما بينهم وبين أنفسِهم؛ لا بلْ ربّما

---

(١) الجحر: مأوى الضبّ، والضبّ هو نوع من الحيوانات، كثير عقد الذنب.

(٢) تفرّج: تطلب الراحة والفرجة

صارَحُوك بكلمتِهم التي يضمُرونها في أنفسِهم، ورمَوا بها في وجهِك من حيث لا تعلمُ.

فإنْ رَأوا منك أنّك تقتضِبُ الأحاديثَ اقتضابًا، وتذهبُ منها في أوديةٍ غيرِ أوديتِهم، وأنّك تحدِّثُهم فلا تحسنُ تقدير صوتِك على مقياسِ أسماعِهم، فتعلُو به عليها، أو تنزلُ به دونها، وأنّك تبتسمُ في موضعِ التقطيبِ، وتقطّبُ في موضعِ الابتسامِ، أصبحُوا ينظرُون إليك بتلك العينِ التي ينظرُون بها إلى الأطفالِ الصغارِ والبلهِ الأغرارِ، فإنَ ألمَمْتَ بسرّ نظرتِهم هذه إليك، ألمَّ بك من الحزنِ والهمِّ ما لا طاقةَ لك باحتمالِه، وأصبَحْتَ ترتابُ بكلِّ نظرةٍ تتّجهُ إليك، وكلِّ ابتسامةٍ تتراءَى لك، واعتادَك سوءُ الظنِّ بكلِّ جالسٍ يجلسُ إليك من أصدقائِك وعشرائِك، بلْ من أبوَيك وأهلِيك، فلا يكادُ يسلمُ لك صديقٌ، أو يصفُو لك حميمٌ.

فإذا فَررْتَ من الناسِ نجاةً بنفسِك من لؤمِهم وقسوتِهم، فَرَرْتَ إلى خلوةٍ موحشةٍ قاتمةٍ تتراءَى لك فيها خيالاتُ الذكرَى المؤلمةِ كلّما وازَنْتَ بين حاضرِك وماضيك، وقارنْتَ بين ما كنتَ ترجُو لنفسِك في أيّامِك الأولى، وما انتهَى إليه أمرُك في أيّامِك الأخرى، فلا تنفعُك خلوةٌ ولا يؤنسُك اجتماعٌ.

وأخوفُ ما أخافُ عليك إنِ استمرَّ بك هذا الشأن - ولا أسألُ اللهَ لك دوامَه - وظللتَ تنطقُ ولا تسمعُ، وتقولُ ولا تفهمُ ما يقالُ أن تصبحَ في يوم من أيّامِك لا سامعًا ولا ناطقًا، فالسَّماعُ مادّةُ النطقِ التي يستمدُّ منها قوّتَه وحياتَه، ومن لا يسمعُ لا يُحْسِنُ النطقَ، ومن لا ينطقُ لا يُحْسِنِ التفكيرَ.

وكثيرٌ عليك يا بنيّ، وأنتَ زهرةٌ يانعةٌ في روضِ الشبابِ، وابتسامةٌ لامعةٌ في ثغرِ الآمالِ، وفجرٌ مشرقٌ في سماءِ الحياةِ أن تصعدَ على هذه الربوةِ الزّاهرةِ المخضلّةِ[1] من ربَى الحياةِ، فلا تلبثُ إلّا قليلًا، حتّى يمرَّ بك فارسُ الدهرِ، فيختطفَك من مكانك، ثم لا يعدُو بك إلّا قليلًا حتّى يُلْقِيَك على هذه الصخورِ الصمّاءِ.

فوارحمتاه لك يا بنيّ ممّا بك اليومَ! وممّا يستقبلُك به الدهرُ غدًا، فأسألُ اللهَ تعالى لك أن يرفعَ عنك محنتَك، أو يمنحَك عينًا ثرّةً[2] من الدمع لا ينضبُ معينُها، تَسْكُبُ منها صباحَ كلِّ يومٍ ومساءَه سَجْلًا[3] على فؤادِك المُلْتاعِ فَتُبرِّدَ غلّتَه، وتَفْثَأَ[4] لوعتَه. فالدموعُ هي الرحمةُ العامّةُ التي يلجأ إليها المنكوبُون المحزونون يومَ لا يجدُون لأنفسِهم في مذهبٍ من مذاهبِ الأرضِ، ولا في سبيلٍ من سُبُلِ السماءِ ناصرًا ولا معينًا، والسلامُ عليك - من الراثي لك، الباكي عليك - ورحمةُ اللهِ.

❀ ❀ ❀

(١) المخضلّة: المبتلّة بالندى.
(٢) ثرّة: غزيرة.
(٣) السجل: ملء الدلو.
(٤) فثأ لوعته: سكّن حزنه.

الوجهاء

جَرَى بيني وبين أحدِ الوجهاءِ المصريّين الحديثُ الآتي:

الكاتب: ما هذه الطبقةُ التي تكسُو وجهَك فتحجُبُ منه ما يحجبُ صفحةَ السَّماءِ من السُّحُبِ السَّوداءِ؟

الوجيه: إنّ بين جنبيّ همًّا يعتلجُ، وكمَدًا يَذْهَبُ باللُّبِّ، ويطيرُ بشظايا القَلْبِ، ونارًا من الحزنِ متأجّجةً مضطرمةً، دخانُها هذا الذي تراهُ

الكاتب: أحقٌّ ما تقولُ، وأنت الرجلُ السعيدُ بحظِّهِ، المغتبطُ بعيشِهِ؛ قصرُ غمدانَ، وخورنقُ النعمانِ، وحورٌ وولدانٌ، وظِلٌّ ظليلٌ، ونسيمٌ عليلٌ، وخزائنُ تموجُ بالذهبِ موجَ التنّورِ باللهبِ؛ ذلك إلى ما أسبغَ اللهُ عليك من صحّةِ البدنِ وسلامةِ الحواسّ! وأمدَّك به من الجاهِ العريضِ، والكلمةِ النافذةِ، والشفاعةِ المقبولةِ، فليت شِعْري ما شِكاتُك بعد ذلك؟

الوجيه: أشكُو الفقرَ الباطنَ في الغِنَى الظاهرِ، والشقاءَ المقبلَ في السعدِ المدبرِ، وإنّي لأرَى في السماءِ غمامةً دكناءَ[1] تُوشكُ أن تنفجرَ بالصاعقةِ الكبرى والكارثةِ العظمَى.

الكاتب: ما كنتُ أحسبُ أنّ الشقاءَ يمرُّ لك ببالٍ بعد ما أعطاك الدهرُ عهدًا مكتوبًا بتلك الأحرفِ الذهبيّةِ ألّا يسّددَ سهمَه إليك، ولا يدورَ بدورته عليك.

الوجيه: متَى كان للدهرِ عَهْدٌ يُوثَقُ به، أو ذمامٌ يُعتَمدُ عليه، فالناسُ في يدِه كالكُرةِ ذاتِ الألوانِ في يدِ الصبيّ، يديرُها، فترَى الأسودَ في مكانَ الأبيضِ، والأبيضَ في موضِع الأسودِ، وكذلك بقيّةُ الألوانِ تعلُو أسافلُها وتسفلُ أعاليها، ودورةُ السعودِ والنحوسِ أسرعُ في عمرِ الدهرِ من لمحِ الطرْفِ ولفتةِ الجيدِ.

الكاتب: هل لك أنْ تحدّثني من أيّ منفذٍ نفذَ الدهرُ إليك، وما عهدتُك شاربًا ولا عاهِرًا، ولا مقامِرًا ولا مُسْتَهْتِرًا؟ وما للدهرِ مدخلٌ يتسرّبُ منه إلى خزائنِ الأغنياءِ غيرُ هذا المدخلِ.

الوجيه: أين يذهبُ بك أيُّها الصديقُ، وهل يُوتَى الأغنياءُ في هذا البلدِ إلّا من طريقِ المَجْدِ الباطلِ، والسُّمْعَةِ الكاذبةِ؟ وهل يُكِبُّ العظماءَ على وجوهِهم، ويُلصِقُ بالرَّغام معاطِسهم[2]، إلّا الشغفُ بنظرةِ الأميرِ، ولفتةِ الوزيرِ، وزورةِ المديرِ. وأنتَ تعلمُ أنّ رجلًا مثلي لا يمكنُ أن يكونَ له مطمعٌ في المجدِ الصحيحِ، فلستُ بصاحبِ علمٍ، فأفخرَ به، ولا صاحبِ قلمٍ فأمتَّ بما يمتُّ به أصحابُ الأقلامِ من خدمةِ المجتمعِ الإنسانيّ وتهذيبِه؛ فلم يبقَ أمامي غيرُ هذا المجدِ الكاذبِ، وهو مجدُ القُربَى من الحكّامِ والعمالِ. ولا سبيلَ إليه إلّا ببَذْلِ ثمنٍ غالٍ تقصرُ عنه خزائنُ قارون[3] وكنوزُ روكفلر[4].

---

(١) دكناء: مائلة إلى السواد، مغبرّة اللون. (٢) الرغام: التراب، المعاطس: الأنوف.

(٣) قارون: من أثرياء العبرانيين أيام موسى، غضب الله عليه فذهب بثروته.

(٤) هو جون روكفلر (ت ١٣٥٧هـ/١٩٣٧م) رجل أعمال أميركي، أسّس شركة «ستاندر أويل».

وقد أنفقتُ فوق الطاقةِ ووراءَ الفاقةِ في بناءِ القصورِ نزُلًا للحكّام، وغرسِ البساتينِ منازِهَ لهم؛ وإعدادِ الفرشِ والآنيةِ لمآربهم وولائمهم؛ فلمّا نضبَ معينُ الذهبِ، وعيّتِ الأرضُ أنْ تثمرَ فوق ما تُثمرُ، لجأتُ إلى مصرفٍ من المصارفِ الماليّةِ، فأثْقَلَني بالديونِ، وأرْهَقَني بالطلبِ، ففزعْتُ منه إلى آخرَ، ثم إلى آخرَ، فكنتُ كناقشِ الشوكةِ بالشوكةِ، أو غاسلَ الدم بالدمِ، ولو كُشِفَ لك من أمري ما كشفَ لي منه، لعلمتَ أنّ جميعَ ما كنتُ أملُك من أطيانٍ وعقارٍ، ودورٍ وقصورٍ لم يبقَ لي منه إلّا تلك الأرقامُ السوداءُ المسطورةُ في جرائدِ الصيارفِ، وهأنذا اليومَ طريدُ المصارفِ والغرماءِ، وغريمُ القضاءين: قضاءِ الأرضِ وقضاءِ السماءِ.

ذلك كلُّ ما يستفيدُ الوجيهُ من وجاهتِه قبّحَها اللهُ، وقبّحَ كلَّ ما تأتي به، فلا تَحْسُدِ الوجيهَ على مظهرِه الكاذبِ، وزُخْرُفِه الباطلِ ولا تنفسْ عليه بؤسَه الكامنَ، وشقاءَهُ الخفيَّ، فهو أتعسُ خلقِ اللهِ، وأكثرُهم همًّا، وأثقلُهُم مؤونةً، وأخسرُهم حاضرًا ومستقبلًا.

يكونُ عندَه من الضياعِ، أو العمائرِ جملةٌ لا تثمرُ له من المالِ أكثرَ ممّا يسعُ ترفيهَ نفسِه، وتربيةَ أولادِه، وصلةَ رَحِمِهِ، فيسمّيه الناسُ وجيهًا؛ والوجاهةُ كلمةٌ صغيرةٌ معناها في نظرِ الناسِ كبيرٌ، كأنّما هي عندَهم من جوامعِ الكلمِ.

فالوجيهُ في إصطلاحِهم هو الرجلُ الذي يمدُّ لكلِّ غريبٍ نزلَ بلدَه مائدةً، ويُسبغُ العطاءَ على كلّ عابرِ سبيلٍ مرَّ بحيّه، ويشتركُ في جميعِ الجرائدِ والمجلاتِ، وإنْ كان أمّيًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ، ويبتاعُ تذاكرَ حفلاتِ الجمعيّاتِ الخيريّةِ على اختلافِ ألوانِها وأشكالِها، وإنْ كان لا ينتفعُ بواحدةٍ منها، ويشتركُ في جمعيّةِ الرفقِ بالحيوانِ، وجمعيّاتِ الرفقِ بالإنسانِ، ويبتاعُ المؤلّفاتِ الحديثةَ التي يكلّفُه المديرُ أو المأمورُ بابتياعِها وإنْ كانت في علمِ الأرتماطيقي[1]، أو علم المنطق، وكانَ هو عمدةً أو شيخَ بلدٍ.

ولا تتمُّ شروطُ الوجاهةِ عنده فيأخذُ منها بالحظِّ الأوفرِ إلّا إذا بذلَ للحكومةِ المعونةَ الكبرى في مشاريعها من بناءِ المستشفياتِ والمدارسِ والكتاتيبِ، وأمثالِ ذلك ممّا تضربُه الحكومةُ علينا ضربَ الجزيةِ على أهلِ الذمّةِ في سالفِ الأزمانِ، والتي لا فرقَ بَيْنَها وبين خراج الأطيانِ وعشورِ النخيلِ وعوائدِ الأملاكِ.

الكاتب: إنّها تبرّعات ومبرّات لا إجبارَ فيها ولا إلزامَ، فالحكومةُ لا تُشْهِرُ عليكم سلاحًا، ولا تُعِدُّ لكم سجْنًا، وكلُّ ما في الأمرِ أنّ رجالَها يخطبُون فيكم، ويدعُونَكم إلى هذه الأعمالِ الصالحةِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ.

الوجيه: لا أزالُ أكرّرُ القولَ: إن رجالَ الحكومةِ يضربُون علينا ضرائبَ ليستْ في شرعٍ ولا قانونٍ. والوجيهُ في الحقيقةِ كالعبدِ في اصطلاحِ علماءِ التوحيدِ، مجبورٌ باطنًا، مختارٌ ظاهرًا؛ أمّا الظاهرُ، فهو ما ترَوْنَه من إقامةِ المحافلِ، وخطابةِ الخطباءِ، والتلطّفِ في الطلبِ، وشكرِ

---

(١) الأرتماطيق: علم الحساب والأرقام.

المحسنِ على إحسانِه؛ وأمّا الباطنُ، فهو أنّ الوجيهَ منّا - كما علمتَ - مُفْلِسٌ من جميعِ أنواعِ المجدِ إلّا مجدَ الزّلْفَى عند الحكام، والحكّامُ يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه، ولا يفتحُون له باب القربَى منهم إلّا علَى مقدارِ ما يفتحُ من أبوابِ خزائِنه لهم؛ فمنّا: من يزورُه المديرُ، أو المفتّشُ، لأنّه وهّابُ الآلافِ، أو المأمورُ، لأنّه من أصحابِ المئاتِ، ومن لا يزورُه أحدٌ منهم، ولا ينهضُ له إذا أقبلَ، ولا يشيّعُه إذا انصرَف، لأنّه لا يلبّي دعوةً، ولا يحضرُ مجمَعًا، ولا يكتبُ رقمًا في قائمةِ اكتتابٍ، فلا يَلْبَثُ أن يسلسَ قيادَه، ويصحبَ عنادَه. هذا هو الاستبدادُ الخفيُّ الذي تُرْغِمُ الحكومةُ به أنفَ الوجهاءِ من غيرِ أنْ تَشْهرَ عليهم سلاحًا، أو تعدَّ لهم سَجْنًا، ولكنّها تبلغُ به في شهرٍ واحدٍ ما كانت تعجزُ عنه حكومةُ السجنِ والكرباجِ و«الويركور» و«البطانطا» والعوائدِ الشخصيّةِ في عدّةِ أعوامٍ، ولقد راجعتُ صحيفةَ حسابي في هذا العام - عام الأزمةِ والجدبِ - فوجدْتُ أنّي دفعْتُ خَراجَ الأطيانِ مرّتين، ولا أعلمْ كم أدفعُه في السنةِ الآتيةِ.

الكاتب: هبْ أنّ الأمرَ صحيحٌ كما تقولُ، فالحكومةُ لا تودعُ هذا المال خزانتَها، ولا تقضي به غرَضًا من أغراضِها الخاصّةِ، وإنّما تنفقُه فيما ينفعُ الأمّةَ في تربيتِها وتهذيبِها، وتقدّمِها وارتقائِها.

الوجيه: ذلك ما يجبُ أنْ تنفقَ عليه الحكومةُ من خزائنِها التي تُملَأُ من أموالِ الأمّةِ لهذه الأغراضِ التي تذكُرُها، ولكنّها تضنُّ بمالٍ هي في حاجةٍ إليه لإصلاحِ السودانِ، وبناءِ العمائرِ، وتشييدِ القصورِ، وترقيةِ كبارِ الموظّفين خصوصًا الأجانبَ منهم، وإقرار عيونِ السيّاحِ الأوروبّيين بالمناظرِ البهيجةِ والمشاهدِ الجميلةِ. فلا ترى لها بدًّا من حملِ تلك الحمالات على أعناقِها بلا رحمةٍ، ولا شفقةٍ، ولا نظرٍ إلى ما تتكبّدُه في هذا السبيلِ ممّا يذيبُ الشحمَ، ويُعْرِقُ العظمَ، وليتَها كانت تتدرّجُ في الطلبِ، وتهادنُ فيه، فتدركَ في ذلك سياسةَ الحكوماتِ السالفةِ المعروفةِ باستبدادِها وإرهاقِها.

فقد حُكيَ عن أحدِ رؤسائِها أنّه عَلِمَ أنّ أحدَ المُديرين سَلَبَ أهالي مديريّتِه المالَ دفعةً واحدةً، وأنّهم ضاقُوا به ذَرْعًا، فأحضرُه في مجلسِه وأمرَ أن تنزعَ من لحيتِه شعراتٌ متفرقةٌ، فما أبهَ لذلك ولا احتفلَ، ثمّ أمرَ أن تنتزعَ من رأسِه خصلةٌ من الشعرِ مرّةً واحدةً، فصرخَ وتألّمَ، فقالَ له: هكذا يجبُ أن يكونَ أخذُ الأموالِ من الرعيّةِ، متفرّقًا تحتمِلُه، لا مجتمِعًا تتألّمُ له.

الكاتب: حسبُك من ذلك ثوابُ اللهِ وأجرُه على إحسانِك وبذْلِك المالَ في سبيلِه، ولَلْآخرةُ خيرٌ وأبقَى.

الوجيه: من أينَ يأتيني الثوابُ والأجرُ، وهل يثابُ المرءُ إلّا على قدرِ نيّتِهِ وإخلاصِه في عملِه؟ وإني أعترفُ لك عنّي وعن جميعِ الوجهاءِ أمثالي بما عَرَفْتُ من أحوالِهم، ومارسْتُ من طباعِهم، أنّنا لا نريدُ من بذلِ ما نبذلُ إلّا رِضَا الحاكمِ، والتودّدِ إليه، وموافاةَ رغبتِه لاستكمالِ أسبابِ الوجاهةِ مرّةً، وقضاءِ المآربِ والحاجاتِ أخرى.

واللهِ، لقد أفسدَ علينا هؤلاءِ القومُ بخطّتِهم هذه غرائزَنا وسجايانا، وعوّدونا من الرياء في الإحسانِ والنفاقِ في المعاملةِ خطّةً قسَتْ معها قلوبُنا، واستَحْجَرَت أفئدتُنا، حتّى إنّ أحدَنا يكادُ لا يحسنُ بالدرهمِ الواحدِ إلى جارِه البائسِ الفقيرِ إلّا أمامَ قاضٍ فَطِنٍ وشُهودٍ عُدولٍ، وحتّى زهدَ فينا الفقراءُ، ولوَتِ المساكينُ وجوهَها عن أبوابِنا، وجفانا ذوو الرحمِ والأقرباءُ، وأصبحتْ قصورُنا في نظرِهم قبورًا يستدرّون لها الرحماتِ، لا مناهلَ يرجون منها الصدقاتِ، وأقفرتْ «مضايفُنا» إلّا من عربدةِ المُطَرْبَشين[1]، ورَطانَةِ[2] المُبَرْنَطين[3]، فمن أين لثوابِ اللهِ أن يعرفَ طريقَنا عافاك اللهُ؟

الكاتب: أتغضِبُك كلمةُ الحقِّ، إنْ قلتُها لك أيُّها الصديقُ؟

الوجيه: قلْ ما تشاءُ، فقد ملأَ الهمُّ ما بين جوانحِي، فاستحجَرَ قلبي حتى ما يغضبني حقٌّ ولا باطلٌ.

الكاتب: أعجبُ ما رأيتُ من أمرِك في حديثِك معي أنّك تعرفُ الحقَّ وتتنكَّرُ له كأنّك لا تعرفُه، وتمدُّ يدَك إلى الصوابِ حتّى تكادَ تلمسُه، ثم تَعْجِزُ عنه. فقد زعمتَ أنّ مجدَ القربَى من أولياء الأمرِ باطلٌ، ولقد أصبْتَ فيما تقولُ. فما شأنُك به؟ وما نهوضُك إليه؟ وما لك واللصوقُ بأمرٍ أنت تعلمُ قلّةَ جدواه، وسوءَ مغبّتِه؟

ولقد كان الطريق مختصرًا إلى المجدِ الصحيحِ والشرفِ الصميم، لو كنت أكبرَ منك همّةً، وأصحَّ رأيًا، وأقوى عزيمةً. فمجدُ الكرم ليس بأقلَّ شأنًا من مجدِ السيفِ والقلمِ، ولا أرى أنّك كنتَ تنفقُ في سبيلِه إلّا بعضَ ما أنفقتَ في هذا المجدِ الكاذبِ، وما كان يصيبُك في الأوّلِ من الشقاءِ ما أصابَك في الثاني، فالكريمُ مُعَانٌ على أمرِه، ومبارَكٌ له في عيشِه، متى صحَّ له معنَى الكرمِ، وكانت الرحمةُ غريزةً من غرائزِه تسوقُه إلى تفقّدِ الضعفاءِ، ومواساةِ الفقراءِ، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرًا سوى ما وعدَ اللهُ به المحسنين من حُسْنِ المَثُوبةِ والأجرِ، ورفعِ الذكرى في الآخرةِ والأولى.

ولكنكم بخلتُم بأموالِ الأمّةِ عليها واحتَجَنْتُموها[4] من دونها، وأبتْ لكم همّتُكُمُ الضعيفةُ أن يكونَ لكم كما كان لأمثالِكم في الأممِ الأخرى آثارٌ في بناءِ المدارسِ والملاجىءِ والمستشفياتِ تُسَمّى بأسمائكم، وتُسجَّل في صحيفةِ أعمالكم، فتنالون بها ما تريدُون من مجدِ الدنيا والآخرةِ، فعاقَبَكُمُ اللهُ على ذلك بأنْ سلّطَ عليكم مَنْ يعبثُ بعقولِكم، ويلعبُ بأموالِكم، ويُرْغِمُكم على الإحسانِ إرغامًا، من حيث يكونُ له الغُنْمُ، وعليكم الغُرْمُ؛ فلا ذكرًا حصّلتم، ولا مالًا حفظتم! ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[5].

❋ ❋ ❋

(١) المُطَرْبَشين: ج المطربَش وهو الطُرْبوش. (٢) الرَّطانة: التكلّم بلغة غير مفهومة.
(٣) المُبَرْنطين: ج المبرنط وهو لابس (البرنيطة) والمقصود هنا الأجانب.
(٤) احتجن الشيء: ضمّه إلى نفسه واحتواه. (٥) الأنعام: ١٢٩.

جرجي زيدان

لا أعلمُ أين تذهبُ نفسُ الإنسانِ بعد موتِه، ولا أين مكانُها الذي تستقرُّ فيه بعد فراقِ جسدِها، ولا ما هي الصلةُ التي تبقَى بين المرءِ وبين حياتِه الأولى بعد رحيلِه عنها، فإنْ كانَ صحيحًا ما يقولون من أنّ ساكنَ القبورِ يستطيعُ أن يجدَ بين صخورِها ورجامِها منفذًا يشرفُ منه على هذه الدارِ، فيُسرُّه ما تركَ وراءَه فيها من ذكرٍ جميلٍ، وثناءٍ عاطرٍ، وسيرةٍ صالحةٍ، ومجدٍ باقٍ، فإنّ نصيبَ جُرجي زيدان[1] اليومَ من الهناءِ والغبطةِ بما تركَ في حياتِه الأولى من جليلِ الآثارِ، وصالحِ الأعمالِ أوفرُ الأنصبةِ وأجزلُها.

ما أنعمَ اللهُ على عبدِه نعمةً أثْنَى قيمةً، ولا أغلَى جوهَرًا، ولا أحسنَ أثرًا من نعمةِ اليقينِ بالجزاءِ الصالحِ على العملِ الطيّبِ، فهو يعتقدُ أنّه مُجْزَى على عملِه، مُكَافَأٌ به، مؤمنًا كان أم ملحِدًا، معترفًا بنَعيم الآخرةِ، أم منكِرًا له، فإن كان الأوّلَ، ساقَه إلى العملِ الصالحِ شغفُه بجنّةِ الخُلْدِ وحُورِها ووُلدانِها، ولُؤلُؤها ومَرْجانِها، ورَوْحِها ورَيْحانِها، وإن كان الثاني، ساقَه إليه شغفُه بالذكرِ الجميلِ، والسيرةِ الصّالحةِ، والحياةِ الباقيةِ في ألسنةِ الأجيالِ وبطونِ التواريخ. ولولا هاتانِ الجنّتانِ، جنّةُ المؤمنينَ، وجنّةُ الملحِدين، ما جدَّ في هذه الحياةِ جادٌّ، ولا عَمِلَ فيها عاملٌ.

إنْ ميدانَ الحياةِ أضيقُ من أن يسعَ بين غايتَيهِ العملَ الصالحَ والجزاءَ عليه معًا؛ وكيفَ يسعُهما، والمرءُ لا يكادُ يَفرَغُ في حياتِه من عملِه الذي يتوقّعُ عليه الجزاءَ قبل أن تنطفىءَ ذُبالةُ حياتِه، وتحترقَ فحمةُ شبابه؟ حيث تموت في قلبه لذّةُ العظمةِ، وتنضبُ في فؤادِه شهوةُ المجدِ، فإنْ فرغَ منه قبلَ ذلك، لا يتركُ له حُسّادُه ومنافسوه ساعةً من ساعاتِ فراغِه يستطيعُ أن يسكنَ فيها إلي نفسِه، ليستشعرَ بَرْدَ الراحةِ ولذّةَ الجزاء. فلا بدّ أن يكونَ للجزاءِ حياةٌ أُخرى غيرُ هذه الحياةِ، إمّا حياةُ الأجرِ، أو حياةُ الذكرِ.

ماتَ جرجي زيدان، فنحن نبكِيهِ جميعًا؛ أما هو، فيبتسمُ لبكائنا، ويرى في تفجّعَنا عليه والتياعَنا لفراقِه منظرًا من أجملِ المناظرِ وأبهاها، لأنّه يعلمُ أنّ هذه الدموعَ التي نرسلُها وراءَ نعشِه أو نمطرُها فوق ضريحِه إنّما هي ألسنةٌ ناطقةٌ بحبّه وإعظامِه، والاعترافِ بفضلِه، والثناءِ على عملِه، وأنّها المدادُ الإلهيُّ النورانيُّ الذي تُكْتَبُ به في صحيفةِ تاريخِهِ البيضاءِ آياتُ مَجْدِه الخالدِ، وعظمتِه الباقيةِ، وذلك ما كان يريدُ أن يكونَ.

مات جرجي زيدان، فبكاه صديقُه لأنّه كان يحمَدُ وُدَّهَ وإخاءَه؛ وبكاه جارُه، لأنّه كان يجدُ في جوارِه لذّةَ الأنسِ وجمالَ العشرةِ؛ وبكاه مُعْتَفيه[2]، لأنّه كان ينتفعُ بمالِه؛ وبكاه صنيعتُه، لأنّه

---

(١) جرجي زيدان (ت ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) أديب ومؤرّخ لبناني. أسّس في القاهرة مجلة «الهلال» ثم «دار الهلال» للطباعة والنشر. من كتبه: تاريخ التمدّن الإسلامي.

(٢) المعتفي: طالب المعروف.

كانَ ينتفعُ بجاهِه؛ وبكاه قارئُ كتبِه، لأنّه كان يجدُ فيها من غزارةِ المادّةِ، وجمالِ الأسلوبِ، وسهولةِ التناولِ ما لا يجدُ في غيرِها؛ وبكاه قارئُ رواياتِه، لأنّه كان يجدُ في خيالِها وبراعةِ تصوّراتِها، عونًا له على همومِ الحياةِ وآلامِها؛ أما أنا، فبكيتُه لأمرٍ فوقَ ذلك كلّه.

تطلعُ الشمسُ صباحَ كلِّ يومٍ من مشرقِها على هذه الكائناتِ ناطقِها وصامتِها، ساكنِها ومتحرّكِها، جامدِها وسائلِها، فتستمدُّ جميعُ ذرّاتِها منها مادّةَ حياتِها التي تقومُها، أو صورتَها التي تتشكّلُ بها، وتأخذُ منها الأغراسُ نماءها، والأزهارُ ألوانَها، والنارُ حرارتَها، والأجسامُ الحيّةُ قُوّتَها، والأجسامُ الجامدةُ صُورتَها، والأجواءُ طهارتَها ونقاءَها، والآفاقُ جمالَها وبهاءَها؛ وكذلك كان جرجي زيدان في سماءِ هذا البلد.

كان بطلًا من أبطالِ الجِدِّ والعملِ، والهمّةِ والنشاطِ، يكتب أحسنَ المجلّات، ويؤلّفُ أفضلَ الكتبِ، وينشئُ أجملَ الرواياتِ، ويناقشُ ويناضلُ، ويبحثُ وينقّبُ، ويستنتجُ ويستنبطُ، ويجيبُ السائلَ ويفيدُ الطالبَ في آنٍ واحدٍ، لا يشغلُه شأنٌ من تلك الشؤونِ عن غيرِه. ولا يشكو مللًا ولا ضجرًا، ولا يستشعرُ خوَرًا[1] ولا فتورًا. فكانَ القدوةَ الحسنةَ بين فريقِ المستنبرين من المصريّين، يتعلّمون منه أنّ قليلًا من العلم يتعهّدُه صاحبُه بالتربيةِ والتغذيةِ ثم يقومُ على نشرِه وإذاعتِه بين الناسِ أنفعُ له ولأمّتِه من العلمِ الكثير، والعملِ القليل.

ولو شئتُ أن أقولَ لقلتُ: إنّ جرجي زيدان كان رئيسَ البعثةِ العلميّةِ السوريّةِ التي وفدَتْ إلى مصر في أواخرِ القرنِ الماضي، فغيَّرَتْ وجهَ العالمِ المصريّ تغييرًا كليًّا، وغرسَتْ في صحرائِه القاحِلَةِ المُجْدِبةِ أغراسَ الجِدِّ والعملِ، والشجاعةِ والإقدامِ، والهمّةِ والاستقلالِ، وعلّمَتْ أبناءَه كيفَ يؤلّفون ويترجمونَ، وينشئون الجرائدَ والمجلّاتِ، وكيف يتّخذون من هذا العملِ الشريفِ صناعةً يقوّمون بها حياتَهُم الماديّةَ، وحياةَ أمّتِهم الأدبيّةَ، ويتّقون بها مذلّةَ الوقوفِ على أبوابِ الدواوين صباحَ مساءَ يتكفّفون رؤساءَها، ويسألونهم أن يتّخذوهم عبيدًا لهم، يخدمونهم على موائدِ عزِّهم وسعادتِهم التي يجلسون عليها؛ فإمّا عطفوا عليهم، فألقوا إليهم بالنزرِ الخسيسِ من فُتاتِ تلك الموائدِ، وإمّا طردُوهم منها كما يطردون الكلابَ العاويةَ.

وكان شريفَ النفسِ، بعيدَ الهمّةِ، متجملًا بصفاتِ المؤرّخِ الحقيقيِّ الذي لا يتشيّعُ ولا يتحيّزُ، ولا يداهنُ ولا يجاملُ، ولا يتركُ لعقيدتِه الدينيّةِ مجالًا للعبثِ بجوهر التاريخِ وحقائقِه.

فكتبَ، وهو المسيحيُّ الأرثوذكسي، تاريخَ الإسلام في كتبِه ورواياتِه كتابةَ العالِمِ المحقّقِ الذي لا يكتمُ الحسنةَ، إذا رآها، ولا يشمتُ بالسيّئةِ، إذا عثَرَ بها.

فاجتمعَ بين يدَيْهِ في مجالسِ علمِهِ من أبناءِ الأمّةِ الإسلاميّةِ، خاصّتِها وعامّتِها، عربِها وعجمِها، جَمْعٌ لم يجلسْ مِثْلَهُ بين يدَي عالمٍ من علماءِ الإسلامِ، ولا مؤرّخٍ من مؤرّخيه في هذا العصر. فأقامَ بهذا العملِ العظيمِ لهذا الدين القويمِ حُجَّتَه أمام أولئكَ المتعصّبين من

---

(١) الخور: التعب.

الأوروبيين الذين لا يثقُون في خبرٍ من أخبارِه، ولا في بحثٍ من أبحاثِه، بحديثِ شيعتِه وأبنائِه. وكان في تسامحِه هذا القدوةَ الصالحةَ للمؤرّخِ، يَتعلّمُ منه كيف يُكتَبُ التاريخُ، بلسانِ التاريخِ لا بلسانِ الدِّينِ، والمثلَ الأعلَى للعالمِ، يَتعلَّمُ منه كيف يستطيعُ أنْ يتجرَّدَ من عواطِفه، وميولِ نفسِه، وخواطرِ قلبِه أمامَ الأمانةِ والعلمِ، والوفاءِ بحقِّهِ.

وكان مستقيمًا في عملِه، أمينًا في علائِقه، لا يكذبُ، ولا يتلوّنُ ولا يَخِيسُ بعهدِه، ولا ينكثُ وعدَه، ولا يكسُو بضاعتَه لونًا غيرَ لونِها ليزخرفَها على الناسِ، ويجمّلَها في عيونِهم، فتعلّمَ منه العاملون أنّ الكذبَ في المعاملةِ ليس شرطًا من شروطِ الربحِ، ولا سببًا من أسبابِ النجاحِ.

وكان واسعَ الصدرِ، فسيحَ رقعةِ الحلمِ، وقفَ له في طريقِ حياتِه كما وقفَ لغيرِهِ من قبلِه، ومن بعده فريقُ المقاطعين في هذا البلدِ الذين لا ينطِقُون، ولا يسكتُون عن مقاطعةِ الناطقين. فلبسُوا ثوبَ الانتقادِ ليشتمُوه، وكمنُوا وراءَ أكمةِ الدينِ ليرمُوه، فَيُصْموه[1].

وقالوا إنّه شوّهَ وجهَ التاريخِ الإسلاميّ، وعبثَ بحقائقِه، لم يسألوه من أين نقلَ، ولا كيفَ استند؟ بل سألوه لِم لم يكتبْه كما كتبوا؟ ويستنتجْ منه مثلَ ما استنتجُوا؟ كأنّما لم يكفِهم منه أن يرَوه بينهم مسيحيًّا متسامحًا، حتّى أرادوا منه أن يكونَ مسلمًا متعصّبًا، يكتبُ التاريخَ بلسانِ الدّين كما يكتبون: وينهجُ فيه كما ينهجون.

فلما لم يجدُوه حيث أرادوا، رمَوه بسوءِ القصدِ في عملِه، وخبثِ النيّةِ في مذهبِه، ولم يستطيعُوا أن يُروّضُوا أنفسَهم الجامحةَ على أن يقولوا: إنَّ الرجلَ باحثٌ مستنتجٌ، يخطىءُ مرّةً ويصيبُ أخرى، أو يقولوا إنّ له في تاريخِ الإسلامِ حسناتٍ تصغرُ بجانبها سيّئاتُه فيه فلنغتفرْ هذه لتلك.

وما أحسبُ أنّ أحدًا منهم كان يعتقدُ شيئًا ممّا يقولُ، ولكنّهم كانوا يَرون أنّ الدّين سلعةٌ تُباعُ وتُشترَىٰ، وأنّ سلعتَه مُلكٌ لهم، ووقْفٌ عليهم، لا يجبُ أن تُعرضَ في حانوتٍ غيرِ حانوتِهم؟

وكانوا يظنّون أنّ الرجلَ تاجرٌ مثلُهم يريدُ أن يفتحَ في سوقِهم الحانوتَ التي يخافونها، فاستوحشوا منه، وأنكرُوا مكانَه، واستثقلوا ظلّه. وقالوا مرّةً: إنه مسيحيٌّ لا يُؤمَّنُ على الإسلامِ ولا على تاريخِه، كأنّما ظنّوا أنّه ينقلُ حوادثَ التاريخِ ووقائعَه من توراةِ موسى أو إنجيل عيسى! وقالوا أخرى: إنّه سوريٌّ دخيلٌ وفد على هذا البلدِ مسترزقًا أو متجرًا، فما هو بمخلصٍ ولا بأمينٍ. وفاتهم - عفا الله عنهم - أنّه إن كان ضيفًا فليس من أدبِ الضيافةِ، ولا من خلالِ المروءةِ والكرمِ أن يمنَّ المضيفُ على ضيفِه بيدِه عندَه، وأن يعدَّ عليه لُقَيْمَاتِه التي يُطْعَمُها على مائدتِه، وإن كان تاجرًا، فقد باعَهم بهذا النّزْرِ الخسيسِ من متاعِ الدنيا وزخرفِها جوهرَ عقلِه، وينبوعَ ذكائِه ومادةَ حياتِه، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين.

ووالله، ما أدري كيف تتّسعُ صدورُهم للخمّارِ الروميّ، واللصِّ الإيطالي، وللفاجرِ الأرمنيّ أن يفتحَ كلٌّ منهم في كلِّ موطىءِ قدمٍ من مدنِهم وقراهم حانًا يسلبُ فيه عقولَهم، أو مقمرًا يسرقُ

---

(١) يصموه: من الفعل أصمى بمعنى رمى فأصاب.

فيه أموالَهم، أو ماخورًا يهتكُ فيه أعراضَهم، فلا يطاردونه ولا يحاربونه، ولا يسمّونه دخيلًا ولا واغلًا[١]؟ ثم يضيقون ذَرْعًا بالعالمِ السوريّ، أو العراقيّ، أو المغربيّ، ينزلُ أرضَهم نزول الديمةِ الوطفاءِ[٢] بالصحراءِ المحرقةِ، فيعلّمهم العلمَ، ويهذّبُ نفوسَ أبنائهم، ويثقّفُ عقولَ ناشئتهم، ويبعثُ في نفوسِ ضعافِ العزائمِ منهم روحَ الهمّةِ والنشاطِ، والشجاعةِ والإقدامِ.

ذلك هو شقاءُ الأممِ، وهذا هو جوابُ السائلين عن أسبابِ سقوطِها وانحطاطِها.

لم يَضِقِ الرجلُ ذرعًا بهذا كلّه، بل كان شأنُه معهم أنْ كان يعتبُ عليهم ولا يشتمُهم، وينبّهُهم إلى أدبِ المناظرةِ وواجباتِها، ولا يؤنّبُهم، ويدعُوهم إلى اتّخاذ كلمةِ الحقِّ سواءً بينه وبينهم، ولا يمكرُ بهم، حتى انقلبَ عنهم يحملُ لواء الفضيلةِ والحلمِ، وإن كان مخطئًا، وانقلبُوا عنه يحملون فوق ظهورِهم رذيلةَ التعصّبِ والجهلِ، وسوءَ الخلقِ، وضيقَ العَطَنِ، وإن كانوا مصيبين.

ولقد وضعَ بخطّتِه هذه في مناظرةِ خصومِه ومجادلتِهم أوّلَ حجرٍ في بناءِ الأخلاقِ الفاضلةِ في هذه الأمّةِ، فتعلّمَ منه كثيرٌ من أدباءِ هذا البلدِ وعلمائِه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتَمُوا، وأنْ يتعاوَنوا على الحقيقةِ المبهمةِ فيكشفُوا الغطاءَ عن وجهِها دون أن يريقُوا في معاركِهم قطرةً واحدةً من دمِ الفضيلةِ والشرفِ، فإن تمّ لهذه الأمةِ في مستقبلِ حياتِها حظّها من شرفِ الأخلاقِ، وعلوّ الهمّةِ، ونبالةِ المقصدِ في جميعِ شؤونِها وأغراضِها، فلنتذكّرْ دائمًا أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسّسوا في أرضِها هذه الدولةَ الفاضلةَ، دولةَ الآداب والأخلاقِ.

نحن لا تعوزُنا المؤلّفاتُ ولا المترجمات، فالمؤلّفون والمترجمون، والحمدُ للهِ، كثيرون، وإنّما الذي يعوزُنا روحٌ عاليةٌ تخفقُ في سماءِ هذه الأمّةِ خفوقَ النجمِ الزاهرِ في سمائِه، وتشرقُ في نفوسِ أبنائِها إشراقَ الشمسِ في دارتها، فَتَبْعَثُ العزيمةَ في قلبِ العاجزِ، والشجاعةَ في فؤادِ الجبانِ، وتقوّمُ من الأخلاق مُعْوَجَّها، وتصلحُ من الآداب فاسدَها، وتثبّتُ من العقول مضطربَها؛ وتعلّمُ كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ، وقويٍّ وضعيفٍ: أنّ قيمةَ المرءِ في حياتِه أداءُ واجبِه للإنسانيّةِ أولًا ولأمّتِه ثانيًا، ولنفسِه أخيرًا، وأنّ الحبَّ سعادةُ الإنسانِ، والبغضَ شقاؤُه وبلاؤُه، وأنّ الفرقَ بين الدّينِ الخالصِ والدينِ المشوبِ أنّ الأولَ يتّسعُ صدرُه لكلِّ شيءٍ حتى لمخالفِيه ومحاربِيه، وأنّ الثاني يضيقُ صدرُه بكلّ شيء حتّى بنفسِه، وأنّ اللهَ تعالى أوسعُ رحمةً، وأعلى حكمةً، من أن يسدَّ في وجوهِ عبادِه كلَّ طريقٍ للوصولِ إليه إلّا طريقَ السيفِ والنارِ.

وإنّ هذه الأحقادَ الدينيّةَ التي تلتَهِبُ في صدُورِ الناسِ التهابًا لا تؤجّجُها في صدروِهم الأديانُ نفسُها، بل رؤساءُ الأديانِ الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتّجرُون بها في أسواقِ الغباوةِ والجهلِ، وإنّ الذين يقدّسون الأحقادَ، ويباركونها، ويعتبرونها جزءًا من ماهيةِ الدينِ، ومقوّمًا من مقوّماتِه، إنّما يقولون من حيث لا يشعرون: إنَّ الإلحادَ في العالمِ، والفوضَى الدينيّةِ فيه، وعبادةَ الشمسِ والقمرِ، والتربِ والحجرِ، أنفعُ للمجتمعِ، وأحسنُ عليه عائدةً من عبادةِ اللهِ المعبودِ.

---

(١) الواغل: الداخل على قوم يأكلون دون دعوة. (٢) الديمة الوطفاء: المطر المخصب.

ولقد كان جرجي زيدان روحًا من تلك الأرواحِ العاليةِ تمنّيناها برهةً من الزمانِ حتّى وجدْناها، فلم ننعمْ بها إلّا قليلًا، ثم فقدْناها أحوجَ ما كنّا إليها، فذلك ما يُبكينا عليه ويُحزننا على فراقِه.

* * *

الكاتبُ كالمصوّرِ، كلاهما ناقلٌ، وكلاهما حاكٍ، إلّا أنّ الأولَ ينقلُ مشاعرَ النفسِ إلى النفسِ، والثاني ينقلُ مشاهدَ الحسِّ إلى الحسِّ.

وكما أنّ ميزانَ الفضلِ في التصويرِ أن تكونَ الصورةُ والأصلُ كالشيءِ الواحدِ، كذلك ميزانُ الفضلِ في الكتابةِ أن يكونَ المكتوبُ في الطرسِ خيالَ المكنونِ في النفسِ.

بهذه العينِ التي لا أزالُ أنظرُ بها دائمًا إلى الكتابةِ والكتّابِ، وأُوازِنُ بها بين أقدارِهم ومنازِلِهم؛ كنتُ أقرأ ذلك الأسلوبَ العذبَ البديعَ الذي كان يكتبُ به المرحومُ جرجي زيدان كتبَه ورواياتِه، فأتخيّلُه مرآةً نقيّةً صافيةً قدِ ارتسَمَتْ فيها صورةُ نفسِه جليّةً واضحةً لا غموضَ فيها ولا إبهامَ.

وقليلًا ما كنت أجدُ في نفسي هذا الشعورَ عند النظرِ في كتابةِ كاتبٍ سواه لأنّ الكاتبَ إنِ استطاعَ أن ينالَ ثناءَ الناسِ وإعجابَهم ببلاغةِ لفظِه، أو براعةِ معناه، أو سَعَةِ خيالِه، أو قوّةِ حُجّته، فإنّه لا يستطيعُ أن ينالَ الثقةَ من نفوسِهم إلّا إذا كان من الصادقين المخلصين.

كنتُ أرَى عذوبةَ نفسِه في عذوبةِ لفظِه، وطهارةَ قلبِه في طهارةِ لسانِه، وصفاءَ ذهنِه في وضوحِ أغراضِه ومراميه، وجمالَ ذوقِه في جمالِ ملاحظاتِه واستنتاجاتِه، وكان خيرُ ما يُعجبُني منه تَرَفُّعَهُ عن مجاراةِ المتكبّرين من الكتّابِ في كبريائهم، ونزولَه في كثيرٍ من مواقفِه إلى منازلِ العامّةِ ليحدّثَهم بما يفهمُون، لأنّه كان من كتّاب المعاني لا من كتّابِ الألفاظِ، ولأنّه كان يؤثرُ أن يتعلّمَ عنه الجاهلون على أنْ يرضَى عنه المتحذلِقُون.

وإنْ كان الرجلُ هو الأسلوبَ كما يقولون، فلا أعلمُ أنّ أحدًا في هذا البلدِ كان أولَى بوصفِ الكاتبِ من المرحومِ جرجي زيدان، فوارحمتاه له! وواأسفًا عليه!

❁ ❁ ❁

احترام المرأة

نَعَمْ إنّ الرجالَ قوّامون على النساء كما يقولُ اللهُ تعالَى في كتابِه العزيزِ، ولكنّ المرأةَ عمادُ الرجلِ، وملاكُ أمرِه، وسرُّ حياتِه من صرخةِ الوضعِ[١] إلى أنّةِ النزعِ[٢].

لا يستطيعُ الأبُ أنْ يحملَ بين جانحَتيْهِ لطفلِه الصغيرِ عواطفَ الأمِّ، فهي التي تحوطُه

(١) الوضع: الولادة. (٢) النزع: الموت.

بعنايتِها ورعايتِها، وتبسطُ عليه جناحَ رحمتِها ورأفتِها، وتسكبُ قلبَها في قلبِه حتى يستحيلا إلى قلبٍ واحدٍ، يخفقُ خفوقًا واحدًا، ويشعرُ بشعورٍ واحدٍ. وهي التي تسهرُ عليه ليلَها، وتَكْلَؤُه[1] نهارَها، وتحتملُ جميعَ آلامِ الحياةِ وأرزائِها في سبيلِه، غيرَ شاكيةٍ ولا متبرّمةٍ، بل تزدادُ شغفًا به، وإيثارًا له، وضنًّا بحياتِه بمقدارِ ما تبذلُ من الجهودِ في سبيلِ تربيتِه. ولو شئتُ أن أقولَ لقلتُ إنّ سرَّ الحياةِ الإنسانيّةِ، وينبوعَ وجودِها وكوكبَها الأعلى الذي تنبعثُ منه جميعُ أشعّتِها، ينحصرُ في كلمةٍ واحدةٍ هي «قلبُ الأمّ».

ولا يستطيعُ الرجلُ أنْ يكونَ رجلًا حتّى يجدَ إلى جانبِه زوجةً تبعثُ في نفسِه روحَ الشجاعةِ والهمّةِ، وتَغْرُسُ في قلبِه كبرياءَ التبعةِ وعظمتِها؛ وحسبُ المرءِ أنْ يعلمَ أنّه سيّدٌ، وأنّ رعيّةً كبيرةً أو صغيرةً تضع ثقتَها فيه، وتستظلُّ بظلِّ حمايتِه ورعايتِه، وتعتمدُ في شؤونِ حياتِها عليه، حتّى يشعرَ بحاجتِه إلى استكمالِ جميعِ صفاتِ السيّدِ ومزاياهُ في نفسِه، فلا يزالُ يعالجُ ذلك من نفسِه، ويأخذُها به أخذًا، حتّى يتمَّ له ما يريدُ.

وما نَصَحَ الرجلَ بالجدِّ في عملِه، والاستقامةِ في شؤونِ حياته، وسلوكِ الجادّةِ في سَيْرِه، ولا هَداهُ إلى التدبيرِ ومزاياه، والاقتصادِ وفوائدِه، والسعيِ وثمراتِه، ولا دفعَ به في طريقِ المغامرةِ والمخاطرةِ، والدأبِ والمثابرةِ، مثلُ دموعِ الزوجةِ المنهلّةِ، ويدِها الضّارعةِ المبسوطةِ.

ولا يستطيعُ الشيخُ الفاني أنْ يجدَ في أخرياتِ أيّامِهِ في قلبِ والدِ الفتَى من الحنانِ والعطفِ، والحبِّ والإيثارِ، ما يجدُ في قلبِ ابنتِه الفتاة؛ فهي التي تمنحُه يدَها عُكّازًا لشيخوختِه، وقلبَها مستودَعًا لأسرارِه، وهواجسِ نفسِه، وهي التي تسهرُ بجانبِ سريرِ مرضِه ليلَها كلَّه تتسمَّعُ أنفاسَه، وتُصغي إلى أنّاتِه، وتحرصُ الحرصَ كلّه على أن تفهمَ من حركاتِ يدَيْه، ونظراتِ عينَيهِ حاجاتِه وأغراضَه.

فإذا نزلَ به قضاءُ اللهِ، كانتْ هي من دونِ ورثتِه جميعًا الوارثَة الوحيدةَ التي تعدُّ موتَه نكبةً عظمَى، لا يُهَوّنُها عليها، ولا يخفّفُ من لوعتِها في نفسِها، أنّه قد تركَ من بعدِهِ ميراثًا عظيمًا. وكثيرًا ما سمعَ السامعون في بيتِ الميتِ قبل أن يجفَّ ترابُ قبره أصواتَ أولادِه يتجادلون ويشتجرون، في الساعةِ التي يجتمعُ فيها بناتُه ونساؤه في حجراتهنّ نائحاتٍ باكياتٍ.

وجملةُ القولِ إنّ الحياةَ مسرّاتٌ وأحزانٌ؛ أمّا مسرّاتُها، فنحن مَدِينُون بها للمرأةِ، لأنّها مصدرُها وينبوعُها الذي تتدفّقُ منه، وأمّا أحزانُها، فالمرأةُ هي التي تتولّى تحويلَها إلى مسّراتٍ أو ترويحَها عن نفوسِ أصحابِها على الأقلِّ، فكأنّنا مدينون للمرأةِ بحياتِنا كلّها.

وأستطيعُ أن أقولَ، وأنا على ثقةٍ ممّا أقولُ، إنّ الأطفالَ الذين استطاعُوا في هذا العالمِ أنْ يعيشُوا سُعَداءَ، معنيًّا بهم، وبتربيتِهم، وتخريجِهم على أيدي أمّهاتِهم بعد موتِ آبائهم أضعافُ الذين نالوا هذا الحظَّ على أيدي آبائِهم بعد فقدِ أمهاتِهم، وللرحمةِ الأميّة الفضلُ العظيمُ في ذلك.

(١) تكلؤه: تحرسُه.

فليتَ شِعْري! هل شكرْنَا للمرأةِ تلكَ النعمةَ التي أسدَتْها إلينا، وجازَيْناها بها خيرًا؟

لا، لا، لأنّنا إن منَحْنَاها شيئًا من عواطفِ قلوبِنا وخوالجِ نفوسِنا، فإنّنا لا نمنحُها أكثرَ من عواطفِ الحبِّ والودِّ، ونَضِنُّ عليها كلَّ الضنِّ بعاطفةِ الاحترامِ والإجلالِ، وهي إلى نَهْلَةٍ واحدةٍ من نهلاتِ الإجلالِ والإعظامِ أحوجُ منها إلى شؤبوبٍ[١] متدفّقٍ من الحبِّ والغرامِ.

قد نحنُو عليها ونرحمُها، ولكنّها رحمةُ السيّدِ بالعبدِ، لا رحمةُ الصديقِ بالصديقِ. وقد نصفُها بالعفّةِ والطهارةِ، ومعنى ذلك عندنا أنّها عفّةُ الخدرِ والخباءِ، لا عفّةُ النفسِ والضميرِ.

وقد نهتمُّ بتعليمِها وتخريجِها، ولكن لا باعتبارِ أنّها إنسانٌ كاملٌ لها الحقُّ في الوصولِ إلى ذروةِ الإنسانيّةِ التي تريدُها، والتمتّعِ بجميعِ صفاتِها وخصائِصها، بل لنَعهَدَ إليها بوظيفةِ المربيّةِ، أو الخادمِ، أو الممرّضةِ؛ أو لنتخذَ منها ملهاةً لأنفسِنا، ونديمًا لسمرِنا، ومؤنِسًا لوحشتِنا، أي أنّنا ننظرُ إليها بالعينِ التي ننظرُ بها إلى حيواناتِنا المنزليّةِ المستأنسةِ لا نُسدي إليها من النعمِ، ولا نخلعُ عليها من الحللِ، إلا ما ينعكسُ منظرُه على مرآةِ نفوسِنا، فيملأها غبطةً وسرورًا.

إنّها لا تريدُ شيئًا من ذلك، إنّها لا تريدُ أن تكونَ سريّةَ الرجلِ ولا حظيّتَه، ولا أداةَ لهوِه ولعبِه، بل صديقتَه وشريكَةَ حياتِه.

إنّها تفهمُ معنى الحياةِ كما يفهمُها الرجلُ، فيجبُ أن يكونَ حظُّها منها مثلَ حظِّه.

إنها لم تُخلَقْ من أجلِ الرجلِ، بل من أجلِ نفسِها، فيجبُ أن يحترمَها الرجلُ لذاتِها لا لنفسِه.

يجبُ أن ينفّسَ عنها قليلًا من ضائقةِ سَجْنِها لتفهمَ أنّ لها كيانًا مستقلًّا، وحياةً ذاتيّةً، وأنها مسؤولةٌ عن ذنوبِها وآثامِها أمامَ نفسِها وضميرِها، لا أمامَ الرجلِ.

يجبُ أن تعيشَ في جوِّ الحريّةِ الفسيحِ، وتستروحَ رائحتَه الأريجةَ، ليستيقظَ ضميرُها الذي أخمدَه السجنُ والاعتقالُ من رقدتِه، ويتولّى بنفسِه محاسبتَها على جميعِ أعمالِها، ومراقبةَ حركاتِها وسكناتِها، فهو أعظمُ سلطانًا، وأقوى يدًا من جميعِ الوازعين المسيطرين.

يجبُ أن نحترمَها لتتعوّدَ احترامَ نفسِها، ومنِ احترمَ نفسَه كان أبعدَ الناسِ عن الزلّاتِ والسَقَطاتِ.

لا يمكنُ أن تكونَ العبوديّةُ مصدرًا للفضيلةِ، ولا مدرسةً لتربيةِ النفوسِ على الأخلاقِ الفاضلةِ، والصّفاتِ الكريمةِ، إلّا إذا صحَّ أن يكونَ الظلامُ مصدرًا للنورِ، والموتُ علّةً للحياةِ، والعدمُ سلّمًا إلى الوجودِ.

كما لا أريدُ أنَ تتخلّعَ المرأةُ وتستهترَ، وتهيمَ على وجهِها في مجتمعاتِ الرجالِ وأنديتِهم، وتمزّقَ حجابَ الصيانةِ والعفّةِ المُسْبَلَ عليها، كذلك لا أحبُّ أن تكونَ جاريةً مُسْتَعْبَدةً للرجلِ،

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر، وهنا كناية عن العطف والمحبّة.

يملكُ عليها كلّ مادّةٍ من موادّ حياتِها، ويأخذُ عليها كلَّ طريقٍ حتى طريقَ النظرِ والتفكيرِ.

وبعدُ؛ فإمّا أنْ تكونَ المرأةُ مساويةً للرجلِ في عقلِه وإدراكِه، أو أقلَّ منه. فإن كانتِ الأولى، فليُعَاشِرْها معاشرةَ الصّديقِ للصّديقِ، والنظيرِ للنظيرِ، وإن كانتِ الأخرى، فليكُنْ شأنُه شأنَ المعلّمِ مع تلميذِه، والوالدِ مع ولدِه، أي أنّه يعلّمُها ويدرّبُها، ويأخذ بيدِها حتى يرفعَها إلى مستواه الذي هو فيه، ليستطيعَ أن يجدَ منها الصديقَ الوفيَّ، والعشيرَ الكريمَ. والمعلّمُ لا يستعبدُ تلميذَه ولا يستذلُّه، والأبُ لا يحتقرُ ابنَه ولا يزدريهِ.

❋ ❋ ❋

الانتقام

«مترجمة»

- ١ -

قَضَى المسيو «كابريني» برهةً طويلةً من أيّامِ حياتِه سعيدًا مغتبِطًا بزوجةٍ جميلةٍ، وثروةٍ صالحةٍ، وخلقٍ طيّبٍ شريفٍ يحبّبهُ إلى الناسِ جميعًا. ثم نكبَهُ الدهرُ نكبةً عظمى ذهبتْ بمالِه وبزوجتِه، فبكاهما ما شاء الله أن يفعلَ.

ثم بَلِيَ حزنَه كما تبلَى جميعُ الأحزانِ في قلوبِ الناسِ، ولم يجدْ بدًّا من أن يعيشَ لابنتِه «إيلين» ليتولّى تربيتَها وإسعادَها، فالتحقَ بِمَصْرِفٍ من المَصارفِ الماليّةِ بمرتّبٍ قليلٍ.

ثم لم يزلْ يجِدُّ ويجتهدُ في خدمةِ العملِ الذي وُكِلَ إليه حتّى أصبحَ بعد مدّةٍ قصيرةٍ وكيلًا لذلك المصرفِ، فكان يعملُ فيه سحابةَ نهارِه، ثم يعودُ ليلًا إلى منزلِه، فيَرى ابنتَه منهوكةً مُضَعْضَعةً لكثرةِ ما كانت تبذلُ من الجهدِ في خدمةِ المنزلِ، ومناظرةِ شؤونِه، فرأى أنْ يتزوّجَ ليخفّفَ عنها بعضَ متاعبِها وآلامِها، ففعلَ.

وكان سَيّءَ الحظِّ في اختيارِه، فتزوّجَ من امرأةٍ فاسدةٍ خليعةٍ، لا همَّ لها في حياتِها سوى ترفيهِ عيشِها، وتدليلِ نفسِها، والتقلّبِ بين أعطافِ شهواتِها ولذائذِها. فلم ينتفعْ منها بشيءٍ، بل زادَتْ همومُه وآلامُه، وأثقالُ عيشِه؛ ولكنْ ماذا يعملُ، وقد وُضعتِ السلّةُ في عنقِه، وانتهى الأمرُ، وأصبحَتِ ابنتُه بعد أن كانت سيّدةَ بيتِها، وأميرةَ نفسِها، أسيرةً في يدِ امرأةٍ قاسيةٍ داهيةٍ، تسومُها أنواعَ الخَسْفِ وألوانَ العذابِ. فكانتْ تحتملُ ذلك كلَّه بصبرٍ وجَلَدٍ، وكانت تكتمُهُ أباها كِتمانًا شديدًا ضنًّا براحتِه وسكونِه؛ بل كانت تكتُمُ عنه علائقَ زوجتِه وصِلاتِها بمعارفِها وأصدقائِها رحمةً به وإشفاقًا عليه.

وكثيرًا ما كان يعودُ إلى منزلِه في بعضِ لياليِه حامِلًا بعضَ دفاترِ المَصْرِفِ في يدِه ليتمّمَ فيها العملَ الذي أعجلَه الوقتُ عن إتمامِه هناك، فيجلسُ إلى مكتبِه ساهرًا ليلَه، مُكِبًّا على عملِه، ذائدًا النومَ عن عينَيْهِ حتّى يغلبَه على أمرِه، فينامُ في مكانِه، والقلمُ معلّقٌ بين أصابعِه في

الساعةِ التي تكونُ فيها زوجتُه بين جمعٍ من أصدقائِها وعشرائِها في بعضِ الملاعبِ أو الحاناتِ راقصةً لاهيةً عابثةً بجميعِ الفضائلِ الإنسانيّةِ.

فإذا استيقظتِ ابنتُه أثناءَ الليلِ ورأتْه على هذه الحالةِ، مشتْ إليه برفقٍ وهدوءٍ، وجلسَتْ على كرسيّ أمامَه، واجتذبَتْ إليها الدفترَ الذي بين يدَيْه، وأتمَّتْ فيه العملَ من حيثُ قطعَه، ثم توقظُه بعد ذلك لينامَ في فراشِه، فيشكرَ لها يدَها ومعونتَها، ثمّ يسألُها سؤالَ الممتعِضِ المتمرمرِ: ألمْ تعدْ فلانةُ حتّى الآن؟ فتجيبُه أن لا، فيذهبُ إلى سريرِه حاملًا بين جنَبيْهِ من الهمِّ والألمِ ما اللهُ به عليمٌ.

وجملةُ القولِ أنّه كان شقيًّا منحوسًا، يسيرُ من شؤونِ حياتِه في ظلمةٍ داجيةٍ لا ينتهي بصرُه فيها إلى مدًى، ولا يرَى في سمائِها نَجْمًا يتنوّرُه إلّا ذلك النجمَ الضئيلَ الذي كان يلمعُ من حينٍ إلى حينٍ في جبينِ ابنتِهِ الراحمةِ الشفوقةِ، فيتنفَّسُ أمامَه تنفّسَ الراحةِ، ويأذنُ لفمِه أن يبتسمَ في ضوئِه ابتسامةَ الغبطةِ والسرورِ.

فإنّه لجالسٌ ذاتَ يوم في غرفةِ مكتبِه من المصرفِ، إذ دعاه إليه مديرُه، وأعطاهُ ورقةً ماليّةً قيمتُها خمسةُ آلافِ فرنكٍ ليودِعها الخزينةِ، ويسجّلها في دفاترِ المصرفِ، فتناوَلَها منه، وعادَ بها إلى غرفتِه، ووضعَها على مكتبِه، وتناوَلَ الدفترَ ليقيّدَها. فما أمسكَ القلمَ بيدِه، حتى دخلَ عليه بوّابُ المصرفِ وقالَ له: إن فتاةً من هيئتِها كَيْتُ وكَيْت، واقفةٌ بالبابِ تسألُ عنك، وهي تكتمُ اسمَها، وتأبى الدخولَ إلى هنا.

فاضطربَ اضطرابًا شديدًا، ومرّ بخاطرِه أنّها ابنتُه، وأنّ حادثًا عظيمًا حدثَ بالمنزلِ دعاها إلى الحضورِ إليه في المصرفِ، وما حضرَتْ إليه فيه قبلَ اليوم، فتركَ كلَّ شيءٍ في مكانِه، وخرجَ مسرعًا ليراها، فإذا هي بعينِها واقفةٌ بجانبِ الجدارِ وِقْفَةَ الحياءِ والخجَلِ، وإذا بيدِها كتابٌ تحملُه من زوجتِه، فاختطَفَهُ منها وقرأه، فإذا هي تقولُ له فيه: إنّها تريدُ أن يرسلَ إليها في هذه الساعةِ أربعةَ آلافِ فرنكٍ لتبتاعَ بها حليةً جميلةً رأتْها في بعضِ المخازنِ، وأنّها إنْ فاتَها أنْ تبتاعَها اليومَ، فربّما لا تجدُها غدًا.

فانفرجَتْ شفتاه عن ابتسامةِ الغيظِ والألمِ وأخذ ابنتَه ناحيةً، وقال لها: بلّغيها أنّني لا أملكُ هذا المبلغَ اليومَ ولا غدًا، ولا أستطيعُ ذلكَ العامَ كلَّه، ثمّ ألقَى عليها نظرةَ العاتبِ لحضورِها إليه في المصرفِ، وكان لا يحبُّ ذلك منها، فأطرقَتْ برأسِها ولم تقلْ شيئًا، لأنّها لا تستطيعُ أنْ تقولَ له إنّ زوجتَه هي التي أرغمَتْها على ذلك، فتزيدَ همومَه همًّا جديدًا، ثمّ عادَتْ أدراجَها.

وكان بين عمّالِ المصرف عاملٌ سيّءُ الأخلاقِ، فاسدُ النفسِ والضميرِ، ما زال منذ دخلَ هذا المكانَ يرصدُ الغفلةَ من مديرِه أو وكيلِه، علّه يتوصَّلُ إلى اختلاسِ شيءٍ من المال، فدخلَ غرفةَ الوكيلِ في اللحظةِ التي خرجَ فيها لمقابلةِ ابنتِه ليقدّمَ إليه بعضَ الأوراقِ، فلم يجدْهُ، ولمحَ الورقةَ الماليّةَ التي تركَها على المكتبِ، فحدَّثَتْهُ نفسُهُ باختلاسِها، فدارَ بنظرِه ههنا وههنا، ثم انقضَّ

عليها ووضَعها في جيبِه، وخرجَ متسلّلا، لم يشعرْ أحدٌ بدخولِه ولا بخروجِه.

وما هي إلّا لحظةٌ حتى عادَ المسيو «كابريني» وفي يدِه الكتابُ الذي أرسلَتْه إليهِ زوجتُه، فمزّقه وألقَى به في السلّةِ، ثمّ ألقَى نظرةً إلى المكتبِ، فلم يرَ الورقةَ الماليّةَ حيث تركَها، فذُعرَ ذعرًا شديدًا، وأخذ يفتّشُ عنها في كلِّ مكانٍ فلم يجدْها.

فاشتدّ حزنُه وهمُّه، وأخذَ يسألُ العُمّالَ والخدمَ عمّن دخلَ غرفتَه في غيابِه، فلم يعترفْ له بذلك أحدٌ، فظلَّ يصرخُ صرخاتٍ عظمَى تقيمُ المصرفَ وتقعدُه؛ فسمعَ المديرُ الضوضاءَ، فحضرَ ليرَى ماذا حدَثَ، فأفضَى إليه الرجلُ بالقصّةِ كما هي لم يكتُمْهُ منها شيئًا إلّا أنّه لم يَشَأْ أنْ يخبرَه بموضوعِ الرسالةِ التي جاءَتْ فيها ابنتُه ضنًّا بأسرارِه البيتيّةِ أنْ يعلمَها أحدٌ غيرُه.

فارتابَ به الرجلِ، وما كان يعتدّ عليه بسيئةٍ قبلَ اليوم، ولا يعرفُ له ماضيًا مريبًا، ولكنّه كان يعلمُ أنّه فقيرٌ مقلٌّ، فظنَّ به الظنونَ، وقديمًا كان الفقرُ ينبوعَ التهمِ، ومثارَ الشكوكِ والريبِ.

وتركَهُ مكانَه وخرجَ إلى العمالِ والخدمِ يحادِثُهم في هذا الشأنِ علّه يصلُ إلى معرفةِ الحقيقةِ، فأخبرَه البّوابُ أنّ الفتاةَ التي حضرَتْ إليه كانتْ تحمِلُ في يدِها كتابًا، وأنّه أخذَها جانبًا، وأسرّ إليها حديثًا لم يَسْمَعْ منه شيئًا. فازدادَ شكُّه وارتيابُه، وعادَ إليه، فوجدَه واقفًا في مكانِه مذهولًا، يقلّبُ كفَّيْهِ، فلمْ يقُلْ له شيئًا، وأخذَ يدورُ بعينَيْهِ في أنحاءِ الغرفةِ، ويقلّبُ بيدِه الأوراقَ علّه يعثرُ بذلك الكتابِ الذي أخبرَه به البوابُ، فلمْ يجِدْه، فألقَى نظرةً إلى السلّةِ، فرأى تلك المِزَقَ الصغيرةِ، فجمعَها، فإذا هي الكتابُ الذي يريدُه. فقرأَه، ثمّ ألقَى على الرجلِ نظرةً شزراءَ[1]، وقال له: إنّي أتّهمُك يا مسيو كابريني بأنّك اختلسْتَ تلكَ الورقةَ وأرسلْتَها إلى زوجتِك مع ابنتِك لتبتاعَ بها الحلْيَةَ الجميلةَ التي أعجَبَتْها.

فَدُهِشَ الرجلُ دهشةً عظيمةً، وَوَرَدَ عليه ما طار بلبّه، وأخذَ عليه أنفاسَه، فصمتَ لحظةً، وبعد لأْيٍ استطاعَ أن يقول له: نعم إنّها أرسلَتْ إليّ هذا الكتابَ ولكنّي لم أَحْفِلْ به، ولم أرسلْ إليها شيئًا، بل ردَدْتُها ردًّا قبيحًا لأنّني رجلٌ فقيرٌ لا أملكُ هذا المقدارَ، ولأنّني رجلٌ شريفٌ لا أختلسُه.

ولم يحفلِ المسيو «لورين» بدفاعِه، ولم يَرْثِ لضراعتِه واسترحامه، ولم يَلْبَثْ أن رفعَ أمرَه إلى القضاءِ، فما أتى آخرُ النهارِ حتّى كان الرجلُ في السِّجْنِ، وكانتِ ابنتُه المسكينةُ في حالٍ من الهمِّ والحزنِ تستثيرُ الأشجانَ، وتستذرفُ العبراتِ، أمّا زوجتُه، فلم يكنْ يهمُّها في تلك الساعةِ شيءٌ سوى السعيِ للحصولِ على ثمنِ الحليةَ الجميلةِ من طريقٍ غيرِ هذا الطريقِ.

لم ينفعِ الرجلَ دفاعُه عن نفسِه، ولا دفاعُ ابنتِه عنه، ولا شهادةُ الذين شهدُوا بشرفِه واستقامتِه من جيرانِه وأصدقائه؛ لأنّ القضاةَ لا يستطيعُون أن يصدّقوا أنّ رجلًا عظيمًا ثريًّا مثلَ المسيو «لورين» صاحبِ المصرفِ المشهورِ يكذبُ أو يلفّقُ، أو يخطيءُ في فراستِه وتقديرِه،

---

(١) نظرة شزراء: نظرة ملؤها الغضب.

وأنّ رجلًا فقيرًا مقلًّا مثلَ المسيو كابريني، يتعفّفُ عن اختلاسِ المالِ الذي يقعُ تحت يدِه متى وَجَدَ السبيلَ إلى ذلك.

وكثيرًا ما ساقتْ أمثالُ هذه الأقيسةِ الفاسدةِ، والنظراتِ الطائشةِ الحمقاءِ، الأبرياءَ والأشرافَ إلى أعماقِ السجونِ، وقضَتْ عليهم وعلى أهلِيهم القضاءَ الأخيرَ، كما قضَتْ على هذا الرجلِ المسكينِ اليومَ؛ فإنّ قاضي التحقيقِ لم يلبثْ أن سمعَ شهادةَ خَصْمِه عليه، وعرفَ قصّةَ الكتابِ الذي أرسلَتْه إليه زوجتُه حتى اقتنَع بإجرامِه، وأحالَه إلى محكمةِ الجناياتِ.

فاستُطيرَ عقلُ «إيلين» وجُنَّ جنونُها، فلم تجدْ بدًّا من أنْ تذهبَ إلى المسيو لورين لتستعطِفَه لأبيها، وتضرعَ إليه أن يساعدَها على خلاصِه.

فذهبَتْ إليه في منزله، فاستأذنَتْ عليه، فأذنَ لها، فدخلَتْ، فدُهِشَ دهشةً عظمى حين رأى أمامَه فتاةً جميلةً بارعةً، بل آيةً من آياتِ الحسنِ والجمالِ، لا عيبَ فيها إلّا أنّها نحيلةٌ صفراءُ متضعضعةٌ، وقد يكونُ الضعفُ والفتورُ عند بعضِ الناسِ حِلْيةً من حُلِيّ الجمالِ.

فافتتنَ بها حينَ رآها، إلّا أنّه أخطأ في الحكمِ عليها، كما أخطأ من قبلُ في الحكمِ على أبيها، فظنَّ أنّه يستطيعُ أن يستثمرَ لنفسِه ضرورتَها وحاجتَها.

فأخذَ يحدّثُها في الشأنِ الذي جاءَتْ من أجلِه، ثم ذهبَ معها في الحديثِ مذاهبَ أخرى، لم تفهمْ غرضَهُ منها إلّا بعد حينٍ، لأنّها لم تألفْ سماعَ مثلِها قبلَ اليوم. فأخذَ وجهُها يربدُّ شيئًا فشيئًا، ثم انتفضَتِ انتفاضةَ الليثِ في غِيلِهِ[1]، وألقَتْ عليهِ نظرةً هائلةً، لو ألقَتْها على رجلٍ غيره لصُعقَ في مكانِه. ولكنّه كان رجُلًا وقاحًا متبلّدًا، فلم يحفلْ بنظراتِها، وتقدّمَ نحوَها، وحاولَ أن يغلبَها على أمرِها، فدافعَتْ عن نفسِها دفاعًا شديدًا حتى عجزَتْ.

فأرادَتِ الفرارَ من بين يدَيْهِ، فاعترضَ طريقَها، فدارَتْ بنظرِها في أنحاءِ الغرفةِ تتلمّسُ سبيلًا إلى الخلاصِ، فوقَع نظرُها على مسدّسٍ كان فوقَ مائدتِه، فاختطفَتْه لتهدّدَه به، فانطلَقَتْ منه رصاصةٌ خطأً فأصابَتْه في ذراعِه، فصرخَ صرخةً عظمَى، وما هي إلّا لحظاتٌ قلائلُ حتى قُبِضَ عليها، وسيقَتْ إلى السِّجْنِ بتهمةِ أنّها دخلَتْ على المسيو «لورين» في منزلِه لتسألَه أنْ يساعدَها على تبرئةِ والدِها، فَلَمْ يَحْفِلْ بها، فأخرجَتْ مسدّسًا كانتْ تُخفيه في طيّ ردائِها، وأطلقَتْهُ عليه لتقتُلَه، فلم تُصِبْه إلّا في ذراعِه.

وقد كان في استطاعةِ المسيو لورين أن يعترفَ بالحقيقةِ التي يعرفُها حقَّ المعرفةِ، فلم يفعلْ، ولو فعلَ لما ضرّه ذلك شيئًا، وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى حكمَتْ عليها محكمةُ الجناياتِ بالسجنِ خمسَ سنين، وكانت قد حكمَتْ على أبيها قبل ذلك بالسِّجْنِ عامَيْن.

- ٢ -

دخلَتْ «إيلين» سجنَ النساءِ لتقضيَ فيه المدّةَ المقدَّرَةَ لها، ووُضعتْ في غرفةٍ واحدةٍ مع

---

(١) الغِيل: الشجر الكثير الملتفّ، وهو موضع الأسد.

امرأةٍ عجوزٍ ساقطةٍ قضَتْ جزءًا عظيمًا من حياتِها في هذاالمكانِ المظلم القاتم حتّى ألفَتْه، وجمدَتْ نفسُها عليها، فلم تعدْ تَحْفِلُ بشيءٍ في هذا العالم ولا تفكّرُ إلّا في الساعةِ التي يقدَّمُ فيها إليها الطعامُ، فتلتَهِمُه التهامًا، وهي تضحَكُ وتغنّي كأنّما هي سعيدةٌ هانئةٌ، وكأنّها أبعدُ الناسِ عن الهمومِ والأحزانِ.

فذُعِرَتْ إيلينَ حين رأتْها ذعرًا شديدًا، وتسلّلَتْ إلى زاويةٍ من زوايا الغرفةِ، فقبعَتْ فيها، واستسلَمَتْ لهمومِها وأحزانِها، ولمْ تَدعْ قطرةً من الدمعِ في عينَيْها إلّا ذرفَتْها، وأبتْ أن تتناولَ الطعامَ الذي قدّمَه إليها السجّانُ، فوضعَه بين يدَيْها، وتركَها وشأنَها.

فبكَتْ ما شاءَ اللهُ أن تفعلَ حتى هدأ بعضُ ما بها، فعمدَت إلى كتابٍ صغيرٍ من كتبِ الأخلاقِ كانت لا تزالُ تحمِلُه في جيبِها ما تفارقُه، فأخرجَتْه، وأخذتْ تتلهّى بتقليبِ صفحاتِه.

فكانَ أوّلُ ما وقَع نظرُها عليه من كلماتِه هذه الكلمة «العفوُ أشدُّ أنواعِ الانتقام» فانتفَضَتْ عند قراءتِها انتفاضًا شديدًا، وعلقَ نظرُها بها ما ينتقلُ عنها، وأخذَتْ تَراجعُ الحوادثَ التي مرّتْ بها، وتستعرضُها واحدةً بعد أُخرى، وتفكّرُ في المظالمِ التي نالَتْها ونالَتْ أباها، وما اقترفَا ذنبًا، ولا جَنَيا على أحدٍ، حتى أوردَتْهما هذا الموردَ من الشقاءِ.

فشعرَتْ بدبيبِ الشرِّ في نفسِها للمرّةِ الأولى في حياتِها، وظلّتْ تقولُ في نفسِها: إنّ الذين مرّتْ على ألسنتِهم أمثالُ هذه الكلماتِ إنّما كانوا يعيشون في عصرٍ غيرِ هذا العصرِ، وبين ناسٍ غيرِ هؤلاءِ الناسِ، ولو أنّهم عاشُوا بيننا، لكان لهم في العالمِ وأهلِيه رأيٌ غيرُ هذا الرأيِ، ولمَا اجترأوا على المجازفةِ بتدوينِ هذه الأفكارِ في كتبِهم، لأنّ العفوَ لا يكونُ انتقامًا إلّا من أصحابِ الضمائرِ الطيّبةِ الطّاهرةِ التي تصدُرُ عنها سيّئاتُها زلاتٍ وهفواتٍ، أمّا الضمائرُ القاسيةُ المتحجّرةُ التي لا تعبأُ بشيءٍ، ولا تخجلُ من شيءٍ، فلا يزيدُها العفوُ والصفحُ إلّا تمرّدًا وطغيانًا.

وإنّها لذاهبةٌ هذه المذاهبَ الغريبةَ في تصورّاتِها وخيالاتِها، إذ دنَتْ منها جارتُها العجوزُ تختلسُ الخطَى إليها اختلاسًا، حتّى وقَفَتْ وراءَها، ونظرَتْ في الصفحةِ التي تنظرُ فيها، فوقعَ نظرُها على تلك الكلمةِ التي تنعمُ النظرَ فيها، فقهقهَتْ ضاحكةً بصوتٍ عالٍ غريبٍ، فارتَعدَتْ «إيلين» والتفتَتْ وراءَها صارخةً: ماذا تُريدينَ يا سيّدتي؟

قالت: لا تخافي، يا بُنيّتي، ولا تُراعي، فما أنا بمجنونةٍ كما ظننتِ وكما يظنُّ سكانُ هذه الدارِ، ولكنّني رأيتُك مستغرقةً في هذا الكتابِ لا ترفعينَ نظرَك عنه، فجئتُ لأقولَ لك: دعي الكتبَ وشأنَها لا تحفلِي بها، ولا تُعوّلي على شيءٍ فيها، فإنّ أصحابَها الذين وضعُوها غرباءُ عن هذا العالمِ، لا يفهمون من شؤونِه شيئًا، إلّا كما نفهمُ نحن من شؤونِ عالمِ الجنِّ، أو سكّانِ المرّيخِ، بل هم قومٌ معتوهُون ممرورُون، قضَوْا أيامَ حياتِهم في معتزلاتِهم الخاصّةِ، فملّوا وسئموا، وأرادُوا أنْ يُروّحُوا عن أنفسِهم ويتلهّوا بما يُسرّي عنهم مَلَلَهم وسآمتَهم، فأخذوا يدوّنون هذه المبادىءَ التي انتزعُوها من جوانبِ أدمغتِهم، لا من طبيعةِ المجتمعِ الذي يحيطُ بهم، ويقرون الآراءَ التي يستحسنونها ويعجبُون بها، لا التي تتّفقُ مع طبيعةِ الكونِ

وخصائصِه؛ فهم ينصحُون المجرمَ أن يُقْلِعَ عن إجرامِه، ثم يُخَيّلُ إليهم أنّه قد أفلحَ ونزعَ، فيطلبون إلى من أجرمَ إليه أن يعفوَ عنه، قائلين له: «إنّ العفوَ أشدُّ أنواعِ الانتقام» كأنّ الفضيلةَ عندهم هي الحالةُ الأساسيّةُ للنفوسِ، وكأنّ الإجرامَ عَرَضٌ من أعراضِها الطارئةِ عليها لا يلبثُ أن تهبَّ عليه نسمةٌ من نسماتِ العظةِ والاعتبارِ حتّى تذهبَ به، فما أسخفَ عقولَهم! وما أقصرَ أنظارهم! وما أبعدَهم عن فهمِ حقائقِ الحياةِ، وطبائعِ النفوسِ.

دعي الكتبَ يا بُنَيّتي لا تنظري فيها، وانزَعي عنك همومَك وأحزانَك، وكلي الطعامَ الذي يقدَّمُ إليك هانئةً مغتبطةً لا تلوينَ على شيءٍ ممّا وراءَك. فسيأتي قريبًا أو بعيدًا ذلك اليومُ الذي يُفتَحُ لك فيه هذا البابُ المُوصَدُ دونك، فتخرجين إلى الانتقامِ من الرجلِ الذي أساءَ إليك، وساقَكِ إلى هذا المكانِ، وتنالين منه فوقَ ما نالَ منك، كما سأفعلُ أنا يومَ خروجي بالرجلَ الذي ساءَني وأفسدَ عليّ حياتي؛ فليس العفوُ أشدَّ أنواعِ الانتقامِ - كما يقولُون - بل الانتقامُ أعظمُ ملاذّ الحياةِ.

فهدأتْ نفسُ إيلين قليلًا، واستطاعتْ أن تتناوَل شيئًا من الطعامِ الذي قُدّمَ إليها، إلّا أنّها كانت إذا جاء الليلُ، رأتْ أباها في منامِها يقاسِي أنواعَ العذابِ، وصنوفَ الآلامِ في سجنِه؛ فتصبحُ باكيةً نادبةً، لا يهوّنُ عليها آلامَها بعضَ التهوين إلّا ثرثرةُ تلك العجوزِ وهذيانُها. حتّى نامَتْ ليلةً، فرأتْه مَيْتًا على سريرٍ من أسرّةِ مستشفى السجنِ تحيطُ بجثّتِه شمعتانِ مضيئتانِ، فاستقظَتْ فزعَةً مذعورةً تبكي وتنتحبُ، وما هي إلّا هنيهةٌ حتّى دخلَ عليها السجّانُ يدعُوها لمقابلةِ مديرِ السجنِ، فذهبَتْ إليه فأبلَغها أنّ أباها توفّي الليلةَ في المستشفى، فصُعقَتْ صعقةً كادَت تذهبُ بنفسِها، ثم استفاقَتْ فإذا هي في غرفةِ سجنِها، وإذا هي أشدُّ عبادِ اللهِ بؤسًا، وأعظمُهم شقاءً.

- ٣ -

قضَتْ «إيلين» سنواتِها الخمسَ في سَجْنِها، ثم خرجَتْ، فمشَتْ معها رفيقتُها العجوزُ تشيّعها إلى البابِ وتقولُ لها: لا تَنْسَيْ يا بُنَيّتي أن تنتقمِي من عدوِّك الذي أساءَ إليك، وتنكّلي به تكيلًا عظيمًا، وسأتبعُك على الأثرِ عمّا قريب لأنتقمَ من عدوّي مثلَك. وهلْ لمثلي ومثلِك في هذه الحياةِ الشقيّةِ البائسةِ عزاءٌ غيرُ عزاءِ الانتقام؟!

فودّعتها وانصرفَتْ، لا تعلمُ أين تذهبُ، ولا أيَّ طريقٍ تسلكُ، بل لا تعلمُ أين تجدُ قوتَ يومِها، أو المضجعَ الذي تأوي إليه سوادَ ليلتِها، فقد انقطعَتْ صِلَتُها بالعالمِ كلّه بعد موتِ أبوَيْها، وطُبعَ على جبينِها اسمُ «المجرمة» الذي خرجَتْ به من سجنِها.

ولم تزلْ سائرةً عدّةَ ساعاتٍ حتى شعرَتْ بالتعبِ والنصبِ، وأحسّتْ بالجوعِ يعبثُ بأحشائِها، فحدّثَتْها نفسُها بالانتحارِ فرارًا من الألمِ وزهْدًا في الحياةِ، وظلّتْ تترجّحُ ساعةً بين الأنسِ بهذا الخاطرِ، والنفورِ منه حتى غلَبها على أمرِها، فأخذَتْ طريقَها إلى النهرِ؛ وكانتِ الليلةُ داجيةً مكفهرّةً تلمعُ بروقُها، وتهطلُ غيومُها، وتدمدمُ رعودُها، وتعصفُ رياحُها.

فاستمرّتْ أدراجَها حتّى إذا لم يبقَ بينها وبين النهرِ إلّا بضعُ خطواتٍ، سمعَتْ قعقعةَ مركبةٍ مقبلةً نحوها من بعد يمزّقُ نورُ مصباحَيْها المشتعلتَين أحشاءَ الظلماتِ، فتريّثَتْ هنيهةً في مكانِها حتّى مرّتِ المركبةُ بها فإذا المسيو «لورين» جالسًا بين بضعِ فتياتٍ خليعاتٍ يعابثُهنّ ويداعبُهنّ، ويقهقهُ قهقهةً عاليةً ترنُّ في أجوازِ الفضاءِ، فاختبأتْ وراءَ بعضِ الأشجارِ حتّى مرّ، ثمّ برزَتْ من مخبئِها تحدّثُ نفسَها، وتقولُ ها هو ذا المجرمُ سعيدٌ في حياتِه، مغتبطٌ بحظِّهِ، يتقلّبُ في أعطافِ العيشِ الناعم، لا ينغّصُ عليه عيشَه منغّصٌ، ولا يكدّرُ حياتَه مكدّرٌ، وها أنذا البريئةُ الطاهرةُ التي لم ألوّثْ يدي في حياتي بجريمةٍ، ولم أقترفْ بيني وبين ضميري إنّما أهيمُ في هذا الوادي الفسيحِ على وجهي لا أعرفُ لي ملجأ ولا مأوًى، ولا أعرفُ سبيلًا للعيشِ ولا مذهَبًا، ولو عرفتُ لما استطَعْتُ أن أنتفعَ بمعرفتي لأنّني عند الناسِ مجرمةٌ قاتلةٌ؛ ومن ذا الذي يأمنُ على نفسِه أن يتّصلَ بالقتلةِ المجرمين، أو يعطفَ على بأسائِهم وضرّائِهم!

لا، لا؛ لا بدَّ أنْ أعيشَ، ولا بدّ أنْ أنتقمَ، وما دامتِ الشرائعُ الإلهيّةُ والقوانينُ الوضعيّةُ قد عجزَتْ عن أن تنتصفَ للناسِ من الناسِ فَلْيَنْتَصِفِ الناسُ بأنفسِهم لأنفسِهم.

وانحدرَتْ من طريقِ النهرِ إلى طريقِ المدينةِ، وقد ودّعَتْ في تلك اللحظةِ جميعَ خواطرِ الخيرِ التي مَلأتْ فضاءَ نفسِها طول حياتِها، وخلعَتْ ذلك الثوبَ الجميلَ المتلألِئَ الذي لبسَتْه مُذ برزَتْ إلى الوجودِ حتى اليوم - ثوبَ الشرفِ والكرامةِ والطهارةِ والأدبِ - واستحالَتْ نفسُها الطاهرةُ الكريمةُ إلى نفسٍ أخرى غيرِها لا صلةَ لها بها، فلم ينحدرْ برقعُ الظلامِ عن وجهِ الصباحِ حتّى رآها الناسُ سائرةً مع أحدِ العمّالِ المريبين هادئةً ساكنةً، باسمةً متطلّقةً لم يبقَ في وجهِها من دم الحياءِ إلّا بضعُ قطراتٍ قد أخذَ لونُها يستحيلُ شيئًا فشيئًا إلى لونِ البياضِ لتلحقَ بأخواتِها.

— ٤ —

وكذلك هوَتْ تلكَ الفتاةُ المسكينةُ البائسةُ في تلك الهوّةِ التي حفرَها المجتمعُ الإنسانيُّ لأمثالِها من الفتياتِ البائساتِ، فظلّتْ تنتقلُ من يدٍ إلى يدٍ، ومن مَضْجَعٍ إلى مَضْجَعٍ، وكأنّ الحظَّ الذي فارقَها وتجهّمَ لها في حياةِ الطّهارةِ والعفّةِ، أقبلَ عليها بوجهِه الباسمِ المتهلّلِ في حياةِ السقوطِ والفسادِ، فما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتى طلعَتْ في سماءِ باريسَ نَجمًا ساطعًا متلألئًا تنيرُ كلَّ أفقٍ تشرقُ فيه، وتعطّرُ كلَّ أرضٍ تخطرُ بأرجائها، وتعبثُ بألبابِ الرجالِ عبثَ النسائمِ بأوراقِ الأشجارِ.

فإنّها لجالسةٌ ذات ليلةٍ في مقصورةٍ من مقاصيرِ بعضِ الملاعبِ التمثيليّةِ في جَمْعٍ من أصدقائِها المفتتنين بها، إذْ وقعَ نظرُها على خصمِها المسيو «لورين» جالسًا في المقصورةِ المقابلةِ لها مع إحدَى خليلاتِه، فانتفضَتْ حين رأتْه، وثارَتْ في نفسِها ثائرةُ الغيظِ والحنقِ، وظلّتْ تردّدُ النظرَ في وجهِه طويلًا، فَلَمَحَها وهي تنظرُ إليه، فأعجبَهُ منظرُها البارعُ الجميلُ إلّا أنّه لم يعرفْها، فقد تغيّرَ كلُّ شيءٍ فيها حتّى ملامحُها وشمائلُها.

فما انتهَى الفصلُ الأوّلُ من الروايةِ حتّى نهضَ من مكانِه مسرعًا، وذهبَ يرودُ حولَ مقصورتِها، حتّى التقَى بأحدِ أصدقائِه في دهليزِ المقاصيرِ، فسألَه عنها، فأخبَره أنّها السيّدةُ «لوسي» المارسيليّةُ الحسناءُ أجملُ فتاةٍ وفدَتْ إلى باريسَ في هذا العامِ، فتوسّلَ إليه أن يقدّمَهُ إليها ففعَلَ.

فأحسنَتْ مُلْتَقَاه، وقد أضمرَتْ له في نفسِها شرّ ما يضمرُ عدوٌّ لعدوِّهِ وأقبلَتْ عليهِ تحدّثُه، وتتلطّفُ به، وتمدُّ له الحبالةَ التي اعتادَتْ أن تمدّها كلّ يومٍ لأمثالِه، فما لبثَتْ أن وقعَتْ من نفسِه، وملكَتْ عليه جميعَ مشاعرِه، ثم رفعَ الستارَ، فاستأذَنَها وعادَ إلى مقصورتِه، وقد حلّتْ من قلبِه محلًّا لم يحلّه أحدٌ قبلَها.

وفي صباحِ اليومِ الثاني أرسلَ إليها مع بعضِ رسلِه طاقةً جميلةً من الزهرِ قد دسَّ بين أوراقِها عَقْدًا بديعًا من اللؤلؤِ الثمينِ، فابتهجَتْ به حينَ رأتْه، لا لأنّها في حاجةٍ إلى العقودِ والدمالجِ، بل لأنّها علمَتْ أنّها قد وضَعَتْ يدَها على الزمامِ الذي تقودُه به إلى الهلاكِ.

ثم زارَها على الأثرِ، وخرَّ جاثيًا تحتَ قدمَيها مقدّمًا لها قلبَهُ وحياتَه، وكلَّ ما تملكُ يدُه، أي أنّه جثَا تحت قدمَي تلكَ الفتاةِ البائِسَةِ المسكينةِ التي جثَتْ تحت قدمَيْه منذ سنواتٍ تسألُه أن يساعدَها على فكاكِ أبيها من سجنِه، وتضرَعُ إليه أن يغفرَ له ذنبَه إليه إنْ كان يعتقدُ أنّه مذنبٌ، فلم يفعلْ، ولو أنّه فعلَ لابتاعَ بثمنٍ قليلٍ لا يوازي ربعَ ثمنِ العقدِ الذي قدّمَه الآنَ إليها قلبًا طاهرًا نقيًّا لم تلوّثْهُ الذنوبُ والآثامُ، ولم تعبَثْ به الأهواءُ والشهواتُ، وعاشَ عيشًا طاهرًا شريفًا مع خيرِ الزوجاتِ، وأفضلِهنّ خَلقًا وخُلُقًا، ولكنْ هكذا قُدّرَ لهؤلاءِ المساكينِ الضعفاءِ أن يضنّوا بالنزرِ اليسيرِ من أموالِهم على ابتياعِ القلوبِ الشريفةِ الطاهرةِ، حتى إذا لوَّثَتْها الذنوبُ والآثامُ، وأصبحَتْ نهبًا مقسّمًا في أيدِي الشهواتِ، بذلُوا في سبيلِ الوصولِ إليها جميعَ ما تملكُ أيدِيهم حتّى شرفَهم وحياتَهم.

فقد ابتاعَ المسيو «لورين» لخليلتِه الجديدةِ قصْرًا جميلًا أثّثه أثاثًا حسنًا، ونزلَ على حكمِها في كلِّ ما تريدُ وتشتهي حتّى أنفقَ عليها في عامٍ واحدٍ كلّ ما تملكُ يمينُه، ثم اضطرّ أن يعبثَ بودائعِ الناسِ المودَعةِ في مصرفِه، فمشَى في ذلك المزلقِ المنحدرِ مدًى بعيدًا أشرفَ منه على الخطرِ العظيمِ.

ثمّ حَدَثَ بعد ذلك أنْ فُتِحَتْ سوقٌ للإحسانِ في باريسَ وكانت «لوسي» إحدَى النساءِ اللواتي وقعَ عليهنّ الاختيارُ لبيعِ الأزهارِ فيها، وكانَ تجّارُ تلك السوقِ أجملَ نساءِ باريسَ على الإطلاقِ.

فجلسَتْ في حانوتِها المعدّ لها، وقد أمسكَتْ بيدِها زهرةً تعرضُها للبيعِ، وتَعِدُ من يبتاعُها منها أنْ يتناولَها بفمِه من فمِها.

فازدحَمَ حولَها كثيرٌ من الأغنياءِ يتزايدُون في ثمنِ تلكَ الزهرةِ، حتى برزَ رجلٌ من بينهم اسمه الكونت «مارسيال»، فعرضَ فيها: خمسماية فرنكٍ، فقالت لا أبيعُها إلّا بألف فرنك، فأمسكَ الكونت، وأمسكَ الناسُ جميعًا.

وإنّهم لكذلك، إذا بالمسيو «لورين» يتقدّمُ بهدوءٍ وسكونٍ وفي يدِه ورقةٌ بألف فرنك،

فوضعَها بين يَديْ لوسي وقال لها: لا يبتاعُ منك زهرتَك يا سيدتي أحدٌ سواي. فوضعَتْها بين ثناياها، فتناولَها منها بفمِه بأسلوبٍ رقيقٍ حسدَه عليهِ مزاحمُوه جميعًا، وخاصّةً الكونت مارسيال، فقدِ انصرفَ من موقفِه هذا وهو يقول: ما رأيتُ في حياتي صاحبَ مصرفٍ يذهبُ في حياتِه هذا المذهبَ من البذخِ والإسرافِ، ويبعثرُ المالَ بلا حيطةٍ ولا حذرٍ كهذا الرجلِ، وما أحسبُ أنّ ثروتَه الخاصّةَ تتّسعُ لكلِّ هذا، فلا بدَّ أن يكونَ لصًّا دنيئًا يسرقُ ودائعَ الناسِ ويبدّدُها، فويلٌ للمساهمين في مصرفِه ورحمةُ اللهِ على أموالِهم جميعًا.

وكان يتكلّم بصوتٍ عالٍ يسمعُه الناسُ جميعُهم، وليس بين الأحاديثِ أَسيرُ ولا أذيعُ من حديثِ السوءِ، فمشَتْ كلماتُه في المجتمعاتِ العامّةِ والخاصّةِ، فاضطربَ لها المساهمُون وأصحابُ الودائعِ اضطرابًا عظيمًا، ووصلَ الخبرُ إلى أعضاءِ مجلسِ إدارةِ المصرفِ، فهالَهُمُ الأمرُ، وأشفقُوا على سُمعةِ مصرفِهم أن تنالَ منها هذه الأراجيفُ[1]، فيسقطَ سقطةً لا قيامَ له من بعدِها، فقرّرُوا الاجتماعَ في يومٍ معيّنٍ لمراجعة حسابِه، وتفقّدِ أموالِه.

فلمّا علمَ ذلك المسيو «لورين»، أخذ يزوّرُ في الصكوكِ، ويعبثُ بدفاترِ الحسابِ طلَبًا للخلاصِ من التبعةِ، فلم يُجْدِهِ ذلك شيئًا، فقد فهمَ مجلسُ الإدارةِ كلَّ شيءٍ، فلم يرَ بدًّا من أن يرفَع الأمرَ إلى القضاءِ ففعلَ، والمسيو متسغرقٌ في شهواتِه ولذّاتِه، جاثٍ ليلَه ونهارَه تحت قدمَي خليلتِه، لا يشعرُ بشيءٍ ممّا يجرِي حولَه، لولا أنّ أحدَ أصدقائِه من المحامين وقفَ على الخبرِ، فزارَه في منزلِه ليخبرَه به، فلم يَجِدْهُ.

فذهبَ إلى منزلِ «لوسي»، فوجدَه، فأخبرَه أنّ الأمرَ قد صدرَ بالقبضِ عليه، وأنّه إنْ لمْ يبادرْ بالسفرِ في الحالِ، فقدْ هلكَ إلى الأبدِ، فأشارَ إلى «لوسي» أن تعدّ لَهُ حقيبةَ ملابسِه وأنْ تهيّيءَ نفسَها للسفرِ معه، وهو أعظمُ الناسِ ثقةً بها، وبحبّها وإخلاصِها، فتظاهرَتْ بالإذعان لأمرِه والرِّثاءِ له.

ولكنّها لم تلبثْ أن خرجتْ من الغرفةِ، حتى هُرِعَتْ إلى غرفةِ «التليفون» وبلّغَتْ رئيسَ الشرطةِ خبرَ عزمِه على الهربِ، وأشارَتْ عليهِ بإرسالِ من يقبضُ عليه في الحالِ، ثم أمرَتِ الخدمَ بإغلاقِ الأبوابِ، والوقوفِ في وجهِه إنْ أرادَ الفرارَ.

ثم عادَتْ إليه، فسألها: هل أعددتِ كلَّ شيء؟

فنظرَتْ إليه نظرةً غريبةً لم يفهمْ معناها، ثم انفرجَتْ ضاحكةً بصوتٍ عالٍ.

فدُهِشَ وسألَها: ما بالها؟

قالت: لا شيءَ سوى أنّك ستبقَى سجينًا هنا حتّى يأتيَ رئيسُ الشرطةِ للقبضِ عليك.

ثم ألقَتْ عليه نظرةً مخيفةً هائلةً، فعجبَ لأمرِها، ولم يعلمْ أمازحةٌ هي، أم نزلَ بها عارضٌ من عوارضِ الجنونِ؟ ووثبَ من مكانه مسرعًا ودَنا منها وقال لها: ماذا عرضَ لك يا لوسي؟

---

(١) الأراجيف: الأخبار المختلقة السيّئة.

فقد طلبْتُ إليك أن تهيّئي نفسَك للسفرِ معي، فهلْ فعلتِ؟ فقد دنتِ الساعةُ، ولسنا الآنَ في موقفٍ مزاحٍ، وأخافُ أن تفاجِئَنا الشرطةُ الساعةَ، فتفوتَ الفرصةُ.

فضحكَتْ ضحكةً أخرى، وقالت: قد بلّغْتُ رئيسَ الشرطةِ أنّك عازمٌ على السفرِ، وأشرْتُ عليه أن يبادرَ بإرسالِ الجنودِ ليقبضُوا عليك، وأمَرْتُ الخدمَ بإغلاقِ الأبوابِ حتّى لا تتمكّنَ من الهربِ قبل حضورِهم.

فجُنَّ جنونُه، وقد بدأ الريبُ يدبُّ في نفسِه وإنْ لمْ يفهمْ لِمَا يَرى سببًا. فركضَ إلى البابِ ليتحقّق الأمرَ بنفسِه، فوجَدَه مغلَقًا، فأمرَها أنْ تفتَحَه، فأبتْ، فهجمَ عليها هجمةً شديدةً، وهو يصيحُ: أين المفتاحُ أيّتُها العاهرةُ؟

فقالتْ: أتريدُ أن تقتلَني كما قتلتَ أبي بالأمس؟

فلم يفهمْ معنَى كلمتِها؛ ووقفَ في مكانِه ذاهلًا يقول لها: لم أفهمْ من أمرِك شيئًا، ماذا تُريدين؟ وما هو رأيُك؟

قالت: هو المسيو «كابريني» - وكيلُ مصرفِك بالأمسِ - الذي اتّهمتَه ظُلْمًا وعُدْوانًا بالسرقةِ، وأنت تعلمُ أنّه رجلٌ شريفٌ مستقيمٌ لو علمَ أن شربَ الماء يفسدُ مروءتَه ما شربَه، فكانتْ نهايةُ أمرِه أنْ ماتَ في سجنِه ميتةَ الأشقياءِ البؤساءِ، لا يعودُه من أهلِه عائدٌ، ولا يحتضنُه إلى صدرِه في ساعةِ نزعِه محتضنٌ، ولا يوجدُ بجانبِ مضجعِه من يسمعُ منه وصيّتَه الأخيرةَ.

فاصفرّ وجهُ لورين، وظلَّ جسمُه يرتعدُ ارتعادًا شديدًا، وأخذَ يحدّقُ النظرَ في وجهِها، ويتراجعُ شيئًا فشيئًا، ويقولُ بصوتٍ مضطربٍ متقطّعٍ إذن أنت لست. . .

فقاطعَتْهُ وقالت: نَعمْ لستُ حبيبتَك «لوسي» كما تعتقدُ، بل عدوّتُك «إيلين» التي تريدُ أن تنتقمَ منك لفجيعتِها في أبيها وفي نفسِها؛ أنا إيلين التي جئْتُ تحت قدَميْك منذ سبعةِ أعوامٍ تسألُكَ أن ترحمَ أباها، وترحَمَها فأبَيْتَ إلّا أن تساومَها في عِرْضِها، فلمّا ضنّتْ به عليك، أردْتَ النكايةَ بها، فاتّهمتَها بتهمةِ القتلِ كذبًا وافتراءً كما صنعْتَ بأبيها من قبلِها، فصدّقَ القضاةُ الأغبياءُ دَعْواك، فحكمُوا عليها بالسجنِ خمسَ سنوات، كابدَتْ فيها من صنوفِ العذابِ وأنواعِ الآلامِ ما لا يستطيعُ أن يحتمِلَه بشرٌ، ثم خرجَتْ من سجنِها مصفَرّةَ اليدِ من كلّ شيءٍ من بيتِها وأهلِها وكرامتِها وشرفِها، وكلُّ ما تملكُ يدُها من القوتِ الذي تقيمُ به صُلبَها بياض يومِها وسوادَ لَيْلَتها، وكان لا بدّ لها من المغامرةِ بنفسِها في إحدى الهوّتَيْن، إمّا هوّةِ الموت لترتاحَ من همومِ الحياةِ وآلامِها، أو هوّة الفسادِ لتنتقمَ على الموتِ، لأنّ نفسَها الطاهرةَ الطيّبةَ قد استحالَتْ إلى نفسٍ شرّيرةٍ حاقدةٍ لا تريدُ أن تسمحَ لعدوِّها أن يبنيَ سعادتَه على أنقاضِ شقائِها، وأنْ يُفْلِتَ من العقوبةِ التي هي النتيجةُ الطبيعيّةُ للذنوبِ والآثامِ، وها هي ذي، قد انتقمَتْ لنفسِها، وروّحَتْ عنها همومَها وآلامَها.

فنكّسَ رأسَه مليًّا ثمّ رفعَه وقال: إذن ما أحببتني قطُّ يا لوسي؟

قالت: نعم، بل ما اتصلْتُ بك إلّا لأسوقَك إلى هذا المصيرِ الذي صرتَ إليه اليومَ، أنت الآن متألّمٌ جدًّا؛ بل لا يوجدُ في العالمِ كلّه ألمٌ مثلُ الألمِ الذي يعتلجُ في أعماقِ نفسِك، لأنّك فقدْتَ في يومٍ واحدٍ شرفَك وكرامتَك، ومالَك وحرّيّتَك، وموضعَ حبِّك، ووجهةَ آمالِك في حياتِك؛ وهذا ما كنتُ أريدُه وأرجُوه، وهذه هي الساعةُ الوحيدةُ التي شعرْتُ فيها بلذّةِ العيشِ وهنائِه من بين ساعاتِ حياتي.

فنظرَ إليها نظرةً منكسرةً دامعةً وقال لها: ما كنتُ لِأَحْفَلَ بِخُسرانِ شيءٍ في الحياةِ لو أنّني ربحتُك يا لوسي، أما وقد أصبحتْ يدي صُفرًا منك، فلا خيرَ في العيشِ من بعدِك. ثم تهافَت على مقعدٍ بجانبِه وانفجرَ باكيًا ما تهدأ دموعُه ولا يفترُ نشيجُه[1]، حتى حضرَ الجندُ، فاعتقلُوه، وساقُوه إلى سجنِه وهو صامتٌ واجمٌ لا يرفعُ طَرْفَه، ولا يلتفتُ وراءه، وإيلين تشيّعه بنظراتِ السرورِ والاغتباطِ حتى انقطعَ أثرُه.

ـ ٥ ـ

نعم، إنّ الانتقامَ لذيذٌ جدًّا كما يقولُون، ولكنّها اللذّةُ التي يعقبُها النَّدَمُ والأسفُ، وتأتي على أثرِها الحسراتُ والآلامُ. وما استطاعَ منتقمٌ قطّ أن يزنَ عملَه بميزانِ العدلِ والحكمةِ فتهدأَ نفسُه ويستريحَ ضميرُه بعد فراغِه من انتقامِه كما تهدأُ نفسُ القاضي العادلِ بعد صدورِ حكمِه بالعقوبةِ التي يراها. والفرقُ بينهما أنّ القاضي يُصدرُ رأيَه عن نفسٍ هادئةٍ مطمئنّةٍ قادرةٍ على الرويّةِ والأناةِ، والمقارنةِ والمقابلةِ، والوزنِ والتقديرِ، والمنتقمَ يَصْدُرُ في عمله عن روحٍ هائجةٍ، محتدمةٍ، لا همَّ لها إلّا أن تلتهمَ وتستأصلَ، وتأتيَ على كلّ ما تستطيعُ الإتيان عليه، فهو يقضي قضاءَه لا ليعاقبَ المجرمَ على جريمتِه، ولا ليدفعَ عن المجتمعِ شرورَه وآثامَهُ، بل ليجرحَ نفسَه ويؤلمَها، وينالَ منها أقصى ما يرى أنّه كافٍ لشفاءِ حقدِه، وإطفاءِ غلّتِه، فيُجازِي على الشتمِ بالضربِ، وعلى الضربِ بالقتلِ، وعلى القتلِ بالتشويه والتمثيل.

ولا يأبَى أن يأخذَ البريءَ بذنبِ المجرمِ، والجارَ بذنبِ الجارِ، فالانتقامُ جريمةٌ كيفَما كان الباعثُ عليه والدافعُ له، وكلُّ جريمةٍ تتركُ في نفسِ صاحِبِها نصيبًا من الألمِ والحسرةِ بمقدارِها، ما من ذلك بدٌّ، ولقد صدقَ الذي يقول: إنّ العفوَ مرارةُ ساعةٍ ثم النعيمُ إلى الأبدِ، وإنّ الانتقامَ لذّةُ ساعةٍ ثم الشقاءُ الدائمُ الذي لا يفنَى.

عادَتْ إيلين إلى غرفتِها بعد ذهابِ «لورين» وكان الليلُ قد أظلَّها، فجلَسَتْ تراجعُ فِهْرِسَ حياتِها الماضيةِ، وتقلّبُ صفحاتِها صفحةً صفحةً، فشعرَتْ بدبيبِ السآمةِ والمللِ في نفسِها، وخُيّلَ إليها أنّها ستعيشُ بعد اليومِ عيشةً تافهةً مملولةً لا طعمَ لها ولا لذّةَ فيها. ورأتْ كأنّ سحابةً سوداءَ من شقاءِ الحياةِ وبؤسِها تدنُو منها شيئًا فشيئًا.

وأخذَتْ تسائلُ نفسَها هل أصابَتْ فيما فعلَتْ أم أخطأَتْ؟ وهل سَعِدَتْ بالانتقام أم شَقِيَت؟

---

(١) النشيج: الصوت في الصدر.

وهل كان خيرٌ لها أن تلقيَ بنفسِها في عُبابِ الماءِ عندما فكّرَتْ في ذلك يومَ خروجِها من سجنِها؟ أم تعيشَ لتضحّيَ بعِرْضِها وكرامتِها في سبيلِ انتقامِها؟ وهل خرجَتْ من المعركةِ التي خاضَتْها ظافرةً تمامَ الظفرِ، أمْ نالَها من الخُسرانِ فيها ما يَذْهَبُ ببهاءِ ذلك الانتصارِ الذي انتصرَتْهُ؟

ولم تزلْ تسائلُ نفسَها هذه الأسئلةَ، فلا تسمعُ جوابًا يُرضيها، حتّى مضَى الليلُ إلّا أقلَّه، فحاولتْ أن تأويَ إلى مضجعِها، فلم تستطعْ، وأنْ تسرّيَ عن نفسِها بعضَ همومِها، فأعجزَها ما أرادَتْ.

فلم تنقضِ دولةُ الظلامِ حتّى كانت قد حكمَتْ بنفسِها على نفسِها أنّها مجرمةٌ آثمةٌ، وأنّها لم تستفدْ من كلِّ ما عملَتْ سوى أنّها باعَتْ عِرْضَها بأبخسِ الأثمانِ وأدناها، وأنّها لم تسيءْ إلى الرجلِ الذي أرادَتْ منه بقدرِ ما أساءَت إلى نفسِها؛ فقرَّرتِ الالتحاقَ بأحدِ المستشفياتِ الخيريّةِ لتكفّرَ عن ذنبِها بخدمةِ المَرْضَى ومواساتِهم طولَ حياتِها، حتّى يوافيَها أجلُها.

- ٦ -

دخلتِ المستشفَى، وأخلَصتْ إلى اللهِ في عملِها، فسهِرَتْ على المرضَى، وأحسنَتْ مواساتِهم، وبذلَتْ في ذلك من الجهدِ ما يعجزُ غيرُها عنه حتّى أصبحتْ مضربَ المثلِ في صلاحِها وتقواها، ورحمتِها وإحسانِها.

وكانت المحكمةُ قد حكمَتْ على المسيو «لورين» بالسجنِ عامين، فلقيَ في سجنِه من المتاعبِ والآلامِ ما لا طاقةَ لمثلِه باحتمالِه، فسقط مريضًا لا يَحْفِلُ به أحدٌ، ولا يواسيه مواسٍ، حتى اشتدَّ به المرضُ وأشرفَ على الهلاكِ.

فنقلوه إلى المستشفَى الذي كانت تعملُ فيه «إيلين»، فعرفَتْهُ حين رأتْهُ رغمَ تغيّرِ صورتِه واستحالةِ حالتِه، فلم تستطعْ أن تملكَ عينَيْها من البكاءِ، وأخذَتْ نفسَها بتمريضِه والعنايةِ به، وظلّتْ على ذلك عدّةَ أيامٍ، وهو ذاهلٌ مستغرقٌ لا يشعرُ بشيءٍ ممّا حولَه.

حتّى استفاقَ في ليلةٍ من الليالي، فرآها واقفةً بجانبِ سريرِه تمدُّ إليه يدَها بالدواءِ، فظلَّ يحدّقُ النظرَ في وجهِها طويلًا حتى عرفَها فتناهضَ من مكانِه، وأكبَّ على يدِها يقبّلُها، ويسألُها العفوَ عن ذنبِه إليها، فازدادَ نشيجُها وبكاؤُها، وقالت له: إنّني أنا التي أسأتُ إليك، وأنا التي أطلبُ منك العفوَ والصفحَ.

وكأنّ حياتَها الجديدةَ التي انتقلَتْ إليها، قد أنْسَتْهَا حياتَها الأولى وأكاذيبَها وأباطيلَها، فلمْ يبقَ في قلبِها أثرٌ للبغضِ والمَوْجِدَةِ، وأصبحَتْ سريرتُها بيضاءَ نقيّةً لا تجولُ فيها غيرُ خواطرِ الخيرِ والإحسانِ، ولا تنطوي إلّا على حبِّ الإنسانيّةِ وحُبِّ الله.

وهكذا ظلّتْ تعالجُ هذا المسكينَ بإخلاصٍ لا تضمرُ مثلَه الأمُّ لواحدِها، وتقومُ على خدمتِه ليلَها ونهارَها، وما تهدأُ ولا تفترُ. ولكن الداءَ كان قد تمكّنَ منه، فلم يغنِ عنه العلاجُ شيئًا. وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى حضرَهُ الموتُ، فجلسَتْ بجانبِه تعزّيهِ وتواسِيه، وتُلقِي في رُوعِه أنّ اللهَ

غفرَ له جميعَ سيّئاتِه في حياتِه بما كابدَ فيها من العللِ والأسقامِ، والهمومِ والآلامِ؛ وأنّ جوارَ الله في دارِ جزائِه خيرٌ له من جواهرِ هذه الحياةِ الباطلةِ الفانيةِ حتّى أسلمَ روحَه بين ذراعَيْها.

وفي صباحِ اليومِ الثاني رآها الناسُ سائرةً بهدوءٍ وسكونٍ في طريقِ الديرِ وقد لبسَت مسوحَها وسوادَها، وعلّقَتْ صليبَها على صدرِها حتّى بلغته؛ ففتحَ بين يدَيْها بابَه العظيمُ الذي لا يخرجُ منه داخلُه إلى الأبدِ، فدخلَتْه وكانَ هذا آخرُ عهدِها بالعالمِ وما فيه.

❁ ❁ ❁

الخطبة الصامتة

لمّا بلغَ أميرَ المؤمنين عبدَالله بنَ الزبير[١] نعيُ أخيه مصعبِ بن الزبير[٢] أميرِ العراق صَعِدَ المنبرَ، فجلسَ عليه، ثم سكتَ. فجعلَ لونُه يحمرُّ مرّةً، ويصفَرُّ أخرى، فقال رجلٌ من قريش لآخرَ بجانبِه: ما له لا يتكلّمُ، فواللهِ، إنّه للخطيبُ اللبيبُ!؟ فقال له الرجلُ: لعلّه يريدُ أن يذكرَ مقتلَ سيّدِ العربِ فيشتدّ ذلك عليه، وهو غيرُ ملوم، إنْ جزعَ.

ووقفَ ليلةَ أمسِ سعدُ باشا زغلول في حفلةِ تأبينِ أخيهِ فتحي باشا زغلول، وأرادَ أن يقولَ كلمةً قصيرةً يشكرُ فيها القائمين بتلك الحفلةِ، فاختنقَ صوتُه بالبكاءِ، وأُرتجَ عليه، وهو الرجلُ الجَلدُ الصبورُ الذي ما جزعَ في حياتِه قطّ، والخطيبُ المفوّهُ الذي ما أرتجَ عليه مَرّةً في أصعبِ المواقفِ وأحرجِها، وأذهبِها بالعقولِ والألبابِ؛ فما أشبهَ هذا البطلَ الباكي بذلك البطلِ الجازعِ!

وكذلك عظماءُ الرجالِ يضنّون بدموعِهم على نكباتِ الدهرِ وأرزائِه أنفةً وإباءً، حتّى إذا نزلتْ بهم كارثةٌ من الكوارثِ التي لا أمرَ فيها إلّا للهِ وحدَه، لا يستحيَون أن يقفُوا بين يدَيه باذلين من شؤونِهم ما كانُوا يضنّون به من قبلُ.

على أنّ البكاءَ الذي حالَ بين سعد باشا وبين كلمتِه التي أرادَها، لم يحلْ بينه وبين أن يكونَ أفصحَ القائلين في ذلك الموقفِ وأنطقَهم. فقد خطبَ الخطباءُ، وأنشدَ الشعراءُ من قبلِه ساعتين كاملتين، فكان كلُّ ما كان لكلماتِهم من الأثرِ في النفوسِ، أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجابِ بفصاحةِ الفصيحِ، أو نباهةِ المؤرّخِ، أو بلاغةِ الشاعرِ، أو إبداعِ المبدعِ في معانيه، أو إحسانِ المحسنِ في إلقائِه، حتى وقفَ هو وأرسلَ من جفنَيْهِ تلك الدمعةَ الحارّةَ، فبكَى الناسُ جميعًا لبكائِه كبارًا وصغارًا، شيوخًا وشبّانًا، وكان مشهدًا مؤثّرًا لم نرَ مثلَه في حفلةِ تأبينٍ قبلَ اليومِ، فكان لتلك الخطبةِ القصيرةِ الصامتةِ المتفجّرةِ من قلبِ

---

(١) هو عبدالله بن الزبير بن العوام (ت٧٣هـ/ ٦٩٢م) أعلن نفسه خليفة على المسلمين، وثار على الأمويين فقتله الحجاج.

(٢) هو مصعب بن الزبير أخو عبدالله (ت٧١هـ/ ٦٩٠م) الخليفة المنافس لعبد الملك بن مروان الذي قتله. اشتهر بشجاعته وكرمه.

مصدوعِ مَكْلومِ الأثرُ في النفوسِ، ما لم يكنْ لتلكَ الخطبِ الناطقةِ الطوالِ.

ليسَ الذي يبكي صديقًا كان يأنسُ بحديثِه، أو عالمًا كان ينتفعُ بعلمِه، أو كريمًا كان يستظلُّ بظلالِ مروءتِه وكرمِه، كمثلِ الذي يبكي شظيّةً قد طارَتْ من شظايا قلبِه.

❁ ❁ ❁

اللفظ والمعنى

لم أرَ فيما رأيتُ من الآراءِ في قديمِ الأدبِ وحديثِه أغربَ من رَأْيِ أولئك الذين يفرّقون في أحكامِهم بين اللفظِ والمعنَى، ويصفونَ كلًّا منهما بصفةٍ تختلفُ عن صفةِ الآخرِ.

فيقولون: ما أجملَ أسلوبَ هذه القصيدةِ، لولا أنّ معانيها ساقطةٌ مرذولةٌ! أو ما أبدعَ هذه القطعةَ، لولا أنّ أسلوبَها قبيحٌ مضطربٌ! كأنّما يُخَيَّلُ إليهم أنّ اللفظَ وعاءٌ، وأنّ المعنَى سائلٌ من السوائلِ يملأُ ذلك الوعاءَ. فتارةً يكونُ خَمْرًا وتارةً يكونُ خلًّا، ويكونُ حينًا صافيًا وأُخرى كدرًا، والوعاءُ باقٍ على صورتِه لا يتغيّرُ؛ وما علِمُوا أنّهما متّحدانِ ممتزجانِ امتزاجَ الشمسِ بشعاعِها، والخَمْرِ بنشوتِها؛ فكما لا يجوزُ أن نقولَ: ما أجملَ الشمسَ وأقبحَ شعاعَها! ولا ما أعذَبَ الخمرةَ وأمرَّ نشوتَها! كذلك لا يجوزُ أن نصفَ اللفظَ بالجمالِ، والمعنَى بالقبحِ، أو نعكسَ ذلك.

فلْيَعْلَم الناشيءُ المتأدّبُ أنّه ليس للفّظِ كيانٌ مستقلٌ ولا حيّزٌ خاصٌّ، فجمالُه جمالُ معناه، وقبحُه قبحُه، وأنّ القطعَ الأدبيّةَ الشعريّةَ أو النثريّةَ التي نصفُ أسلوبَها بالجمالِ إنّما نصفُ بذلك معانيها وأغراضَها، وأنّ الذين يزعمُون من الشعراءِ أو الكتّابِ أنّ أساليبَهم الغامضةَ الركيكَةَ المضطربةَ تشتملُ على معانٍ شريفةٍ عاليةٍ كاذبون في زعمِهم أو واهِمُون.

لا يضطربُ اللفظُ إلّا لأنّ معناه مضطربٌ في نفسِ صاحبِه، ولا يغمضُ إلّا لأنّ معناه غامضٌ في نفسِه. ومحالٌ أن يعجزَ الفاهمُ عن الإفهامِ، ولا المتأثرُ عن التأثيرِ، ولا المقتنعُ عن الإقناعِ؛ وما البيانُ إلّا المرآةُ التي ترتسمُ فيها صورةُ النفسِ، فحيثُ تكونُ جميلةً فهو جميلٌ، أو قبيحةً فهو قبيحٌ، أو مضيئةً فهو مضيءٌ، أو مظلمةً فهو مظلمٌ.

فإذا استطعْنَا أن نتصوّرَ مرآةً تكذبُ في تمثيلِ الصورةِ الماثلةِ أمامَها، استطعْنَا أن نتصوّرَ بيانًا يختلفُ في وصفِه عن وصفِ نفسِ صاحبِه.

يقول القائلون بمذهبِ التفريقِ بين اللّفظِ والمعنَى عن مثلِ هذه القطعة:

ولـمّـا قـضَـيْـنـا مِـنْ مِـنًـى كـلَّ حـاجـةٍ ومَـسَّـحَ بـالأرْكـانِ مَـنْ هـوَ مـاسِـحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهارِي رِحالُنا ولـمْ يـعـلَـم الـغـادي الـذي هـو رَائـحُ
أَخَـذْنـا بـأطـرافِ الأحـاديـثِ بـيـنَـنـا وسَـالـتْ بـأعـنـاقِ الـمَـطِـيِّ الأبـاطـحُ

إنّها جميلةُ الأسلوبِ، ولكنّها تافهةُ المعنَى لا تشتمِلُ على أكثرَ من الوصفِ والتصويرِ، كأنّهم لا يعلمُون أنّ التصويرَ نفسَه أجملُ المعاني وأبدعُها، بل هو رأسُ المعاني وسيّدُها والغايةُ

الأخيرةُ منها؛ وقد رسمَ الشاعرُ في كلمتِه هذه صورةً واضحةً ناطقةً للحجيجِ في حلّهم ومرتحلِهم يسمعُها السامعُ بأذنيه وكأنّه يَراها بعينَيْه، فقد أتى بأجملِ المعاني في أجملِ الأساليبِ.

وإنّ وصفًا قصيرًا لحركةٍ صغيرةٍ من حركاتِ النفسِ كقول الشريف:

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي فمُذْ خَفِيَتْ عنّي الطلولُ تلفَّتَ القَلْبُ

لخيرٌ ألفَ مرّةٍ من قصيدةٍ طويلةٍ مملوءةٍ بالمعاني الغريبةِ، والخواطرِ المبتكَرَةِ، لا تمثّلُ الحقيقةَ، ولا تلتئمُ مع النفسِ ومزاجِها، كقصيدة المتنبي التي مطلعها:

* أيطمعُ في الخيمةِ العذل *

ويقولون أيضًا عن هذا البيت:

أنّى يكونُ أبا البريّةِ آدمُ وأبوك والثقلان أنتَ محمَّدُ

إنّه قبيحُ اللفظِ ولكنّه جميلُ المعنى، وهم واهمون فيما يقولُون، فإنّ ذلك المعنَى الجميلَ الذي يتوهّمونه ليس معنى هذا البيتِ، بل المعنى خطرَ على أذهانِهم، وانبعثَ في أفئدتِهم عند سماعِه، فألصقُوه به إلصاقًا، وتوهّموه له توهّمًا؛ أمّا البيتُ نفسُه، فلا معنًى له مطلقًا. وهذا شأنُ جميعِ المعانِي التي يتوهّمُها متوهّموها عند سماعِ بيتٍ مستغلَقٍ، أو كلمةٍ غامضةٍ، فهي بأنْ تكونَ معاني السامعين، أولى من أنْ تكونَ معاني القائلين.

إذا سمعتُ بيتًا من الشعرِ فأطرَبك أو أحزنَك، أو أقنعك أو أرضَاك، أو هاجَك وأنت ثائرٌ، أو تركَ أيَّ أثرٍ من الآثارِ في نفسِك، كما تتركُ النغمةُ الموسيقيّةُ أثرَها في نفسِ سامِعِها، فاعلمْ أنّه من بيوتِ المعاني، وأنّ هذا الذي تركَه في نفسِك من الأثرِ إنّما هو روحُه ومعناه. وإنْ مررْتَ ببيتٍ آخرَ فاستغلقَ عليك فهمُه، وثقُلَ عليك ظلُّه، وشعرْتَ بجمودِ نفسِك أمامَه، وخُيّلَ إليك أنّك بين يَدَيْ جُثّةٍ هامدةٍ لا روحَ فيها، فاعلمْ أنّه لا معنًى له، ولا حياةَ فيه، فإن وجدْتَ صاحبَه واقفًا بجانبه يحاولُ أنْ يوسوسَ لك أنّ وراءَ هذه الظلمةِ الحالكةِ المتكاثفةِ نورًا متوهّجًا يكمنُ في طيّاتِها، فكذّبْهُ، وفرَّ بنفسِك وأدبِك وذوقِك منه فرارًا لا عودةَ لك من بعدِه.

هذا هو الميزانُ الذي يجبُ أن تزنَ به الكلامَ. ونصيحتي إليك ألّا تصدّقَ تعريفًا واحدًا من تلك التعريفاتِ المتعدّدةِ المتناقضةِ التي يضعُها واضعُوها من الأدباءِ لأشعارِهم خاصّةً، ويزعمون أنّها للشعرِ عامّةً، واجعلْ شعورَ نفسِك هو الميزانَ الذي تزنُ به ما تسمعُ.

فكما أنّك لا تعتمدُ على تعريفٍ من تعريفاتِ الجمالِ، ولا تلجأُ إلى قانونٍ من قوانينِه عند وقوعِ نظرِك على وجهِ امرأةٍ لمعرفةِ درجتِها من الحسنِ، وكذلك لا تعتمدْ في استحسانِ ما تستحسنُ من الكلامِ، واستهجانِ ما تستهجنُ منه، إلّا على شعورِ نفسِك وإلهامِ حسِّك.

* * *

الشعرُ نغمةٌ موسيقيّةٌ قبلَ كلِّ شيءٍ. ثمّ يأتي بعد ذلك جمالُ الوصفِ، وحسنُ التصويرِ، وتمثيلُ الحقيقةِ، واكتناهُ أسرارِ الكونِ، وتحليلُ مشاعرِ النفسِ، وأمثالُ ذلك من الأغراضِ

والمقاصدِ، على أن تكونَ تلك النغمةُ الموسيقيّةُ أساسَها والروحَ السارية فيها، ليتحقّقَ الفرقُ بين الشعرِ والفلسفةِ؛ فالفلسفةُ غذاءُ العقلِ برزَانتِها وهدوئِها، وحججِها وبراهينِها، والشعرُ غذاءُ النفسِ برنّاتِه ونغماتِه، وأهازيجِه ونبراتِه.

نظمَ الشعراءُ الشعرَ من عهدِ الجاهليّةِ الأولى إلى اليومِ، فماتَ جميعُ ما نظمُوا ولم يبقَ منه إلّا البيتُ الموسيقيُّ الرنّانُ الذي لو لم يُغَنّهِ مُغَنّيه لغُنّي وحدَه، وسيموتُ شعرُ جميعِ الشعراءِ في هذا العصرِ ولا يبقَى منه في المستقبلِ إلّا كما بقيَ من الماضي في الحاضرِ.

❁ ❁ ❁

الآداب العامة

يتحدّثُ كثيرُ من الناسِ عن فئةٍ من الشبّانِ المصريين المتعلّمين قد ظهروا في هذه الأيام، واتّخذوا لأنفسِهم في حياتِهم العامّةِ طريقًا غيرَ الطريقِ اللائقةِ بهم وبكرامتهم، وبمنزلةِ العلَم الذي يزاولونه، فأصبحُوا متبذلين في شهواتِهم، مستهترين في ميولِهم وأهوائِهم، ينتهكونَ حرماتِ الأعراضِ ما شاؤوا وشاءَت لهم نزعاتُهم، ويعبثون بها في كلِّ مكانٍ عبثَ الفاتكِ الجريءِ الذي لا يخافُ مغبّةً، ولا يخشَى عارًا.

وأهولُ ما يتحدّثون به عنهم في هذه الشأنِ أنّهم يُغْرون الطالباتِ الصغيراتِ اللواتي لا يزلْنَ يَخْتَلِفْنَ إلى مدارسِهِنّ، أو اللواتي انقطعْنَ عنها منذ عهدٍ قريبٍ إلى منازِلِهِنّ، وينصبون لهنَّ صنوفَ الحبائلِ[1] وأنواعَ الأشراكِ لاصطيادِهِنَّ وإسقاطِهِنَّ في هوّةِ الإثمِ والعارِ، وهذا ما أريدُ أن أتكلّمَ عنه قليلًا!؟

أصحيحٌ ما يقولون عنكم أيُها الفتيانُ التعِسون أنّكم تتّخذون صلةَ العلمِ التي هي أشرفُ الصّلاتِ وأكرمُها صلةَ فسادٍ بينكم وبين أولئك الفتياتِ الضعيفاتِ، وأنّ الحِبالةَ التي تنصبونها لهنَّ لاصطيادِهنّ إنّما هي حِبالةُ القلمِ الذي هو أفضلُ أداةٍ للخيرِ، وأعظمُ وسيلةٍ للفضيلةِ، وخيرُ واسطةٍ للأدبِ والكمالِ؟

أصحيحٌ ما يقولون عنكم أنّكم تكتبون إليهنّ ليكتبْنَ إليكم، وتهدون إليهنّ صورَكم ليهدينَ إليكم مثلَها، فإذا امتلأتْ حقائبُكم وجيوبُكم بصورَهِنّ ورسائِلهن، أخذتم تنشرونها في كل مكان، وتعرضونها في كلِّ مَعْرِضٍ، وأخذَ بعضُكم يفاخرُ بكثرةِ ما يملكُ منها، أو بجمالِه ورونقِه، كما يفخرُ المرءُ بأفضلِ المزايا وأشرفِ الخصالِ؟

أصحيحٌ أنّكم تقفون لهنّ بكلّ طريقٍ، وتأخذون عليهنَّ كلَّ سبيلٍ، وتضايقونهُنّ في مَغداهُنّ ومراحِهنَّ، وحيث ذهبْنَ إلى عملٍ، أو خرجْنَ لزيارةٍ، أو برزْنَ في مجتمعٍ؛ فإذا عجزتُم عنهنَّ في

---

(١) الحبائل: ج حِبالة وهي المصيدة.

الطريقِ، أرسلتم وراءهُن الرُّسُلَ في منازِلهن يُخادِعْنَهُنَّ، ويخاتِلْنَهُنَّ. وربما توسلْتُم إليهنّ بأخواتِكم وبناتِ أعمامِكم، ليسفِرْنَ بينكم وبينهن، ويداخلنَهنّ مداخلةَ الأصدقاءِ حتى يجتذبنهنّ إلى منازِلكُمْ؟

أصحيحٌ أنّكم تقضون أكثرَ لياليكم مكبّين على كتابةِ رسائلِ الغرامِ، وأكثرَ أيامِكم حائِمين حولَ المنازلِ تنتظرون خدمَها الذين اصطنعتموهم ليحملُوا رسائلَكم إلى ساكنيها. وربّما جلسْتُمْ على أبوابها بجانبِ البوّابين والحوذيين ترقبُون نوافذَها وكُواها، علّها تنفرجُ لكم عمّا تحبُّون؟

أصحيحٌ أنّكُمْ أصبحتُم لا تقنعُون في أمرِ أولئك الفتياتِ البائساتِ اللواتي يقعْنَ في مخالبِكم بإفسادِ أخلاقهنّ حتّى تسجّلُوا عليهنّ ذلك الفسادَ تسجيلًا مُوَقَّعًا عليه بتوقيعاتهنّ، مُسْتَشْهَدًا عَلَيْهِنّ بصورِهّن وخطوطهنّ، لتملكُوا عليهنّ أمرَهنَّ بعد ذلك، وتحولُوا بينهنّ وبين التفلّتِ من أيديكم، والحياة بعيدًا عنكُمْ في جوٍّ غيرِ جوّكـم، وجوارٍ غيرِ جوارِكـم، عـذارَى أو متزوجات؟

أصحيحٌ أنّكُم لا تكتفون بإفسادِ نفوسهِنّ وضمائرهنّ، حتّى تفسدُوا عليهنّ عقولهنّ وصِحّتَهُنّ، فتشركوهنّ معكم في شربِ الخَمرِ، وتناولِ المخدّراتِ سائِلها وجامدِها، فلا تلبثُ أن تنتهيَ حياتُهنّ بما تنتهي به حياةُ النساءِ الساقطاتِ اللواتي يلفظْنَ أنفاسهنَّ الأخيرةَ في أقبيةِ الحاناتِ، أو بين جدرانِ المواخيرِ[1]؟

أصحيحٌ أنّكُمْ فقدْتُم في تلك السبيلِ التي تسلكونها خُلُقَ الرجولةِ والشهامةِ، فأصبحتُم تتجمّلون للنّساءِ بأخلاقِ النساءِ، وتزدلفون إليهنّ بمثل صفاتِهنّ وشمائلهنّ، وأصبَح الرجلُ منكم لا همَّ له في حياتِه إلا أنْ يتجمّلَ في ملبَسِهِ، ويتكسَّرَ في مشيتِه، ويرقّقَ من صوتِه، ويلوّن ابتساماتِه ونظراتِه بألوانِ التضعضعِ والفتورِ، ويقضي الساعاتِ الطوالَ أمامَ مرآتِه متعهِّدًا شعرَه بالترجيل[2]، وبشرتَه بالتنضيرِ، وثناياه بالصقلِ والجلاءِ، حتّى صارَ ذلك عادةً من عاداتِكم التي لا تنفكُّ عنكم، وحتّى سرَى التأنّثُ من أجسامِكم إلى نفوسِكم، فلمْ يبقَ فيكم من صفاتِ الرجولةِ وأخلاقِها غيرُ الأسماءِ والألقابِ؟

إنْ كان حقًّا ما يقولون، كلّه أو بعضَهُ، فرحمةُ الله عليكم أيّها الفتيانُ المساكينُ، وسلامٌ على الفضيلةِ والشرفِ، سلامَ من لا يرجُو عودةً ولا ينتظرُ إيابًا.

إنّ هذه الفتاةَ التي تحتقرونها اليومَ وتزدرونها، وتعبثُون ما شئتم بنفسِها وضميرِها إنّما هي في الغدِ أُمُّ أولادِكم، وعمادُ منازِلكم، ومستودعُ أعراضِكم ومروءاتِكم، فانظُروا كيف يكون شأنُكم معها غدًا، وكيف يكونُ مستقبلُ أولادِكم وأنفسِكم على يدِها.

أين تجدُون الزوجاتِ الصالحاتِ في مستقبلِ حياتِكم، إنْ أنتُمْ أفسدْتُمُ الفتياتِ اليومَ؟! وفي أيّ جوٍّ يعيشُ أولادُكم، ويستنشقون نسماتِ الحياةِ الطّاهرةِ إن أنتم لوّثْتُمُ الأجواءَ جميعَها، وملأْتُمُوها سُمُومًا وأكدارًا؟!.

---

(١) المواخير: ج الماخور، وهو الحانة، وهي موضع لشرب الخمرة.

(٢) الترجيل: التسريح.

لا تتكوّنُ أخلاقُ الفتاةِ في عهدِ طفولتِها، أو في عهدِ شيخوختِها، بل في عهدِ شبابِها، فإذا سَلِمَ لها ذلك العهدُ، فقد سلمَ لها كلُّ عَهْدٍ بعد ذلك، فدعُوها تجتز هذه المرحلةَ الوحيدةَ من مراحلِ حياتِها شريفةً طاهرةً، تجدُوا فيها بعد قليلٍ من الزمنِ خيرَ زوجةٍ للزوجِ، وخيرَ أمٍّ للولدِ، وخيرَ سيّدةٍ للمنزلِ.

لا تَعْجَلُوا عليها، وانتظرُوا بها قليلًا لتستطيعُوا أنْ تجدُوها غدًا زوجةً طاهرةً شريفةً في منازِلكم، بدَلًا من أن تجدوها فتاةً ساقطةً مزدراةً مطّرحةً على أعتابِ المواخيرِ والحاناتِ.

لا تزعمُوا بعد اليومِ أنّكم عاجزون عن العثورِ بزوجاتٍ صالحاتٍ شريفاتٍ يحفظْنَ لكم أعراضَكُم، ويحرسْنَ سعادتكم وسعادةَ منازِلكم، فتلك جنايةُ أنفسِكم عليكم، وثمرةُ ما غَرَسَتْ أيديكم، ولو أنّكم حفظْتُمْ لهنَّ ماضيهنّ لحفظْنَ لكم حاضرَكم ومستقبلَكم، ولكنّكم أفسدتموهُنّ، وقتلتُمْ نفوسَهُنّ، ففقَدْتُمُوهُنَّ عند حاجتِكم إليهنّ.

إنني لا أفزعُ في أمرِكم إلى القانونِ، فالقانونُ في هذا البلدِ مدنيٌّ لا أدبيّ، ولا إلى الحكومة، فالحكومةُ مشغولةٌ بشأنِ نفسِها عن شأنِ غيرِها: ولا إلى الدين، فقد ضعُفَ شأنُه في نفوسِكم حتّى هانَ أمرُه عليكم، ولا إلى آبائِكم وأولياءِ أمورِكم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحُوا يبكونَ مع الباكين عليكم، بل أفزعُ في أمرِكم إلى ضمائرِكم التي هي الأملُ الباقي لنا بعد فَقْدِ جميعِ آمالِنا فيكم، فاصغوا إلى صوتِها ساعةً، تسمعُوا منها هذا الرجاءَ الذي نرفعُه إليكم؛ وصوتُ الضميرِ أقوَى من كلِّ صوتٍ في العالم.

أصغوا إليه تسمعُوه يقولُ لكم: إنّ هؤلاءِ الفتياتِ اللواتي لا تستحيون أن تمدّوا إليهنّ أعينَكم وأيديَكم، إنّما هنّ أخواتُكم الحميماتُ، يجمعُكم وإيّاهن أبٌ واحدٌ وهو النيلُ، وأمٌّ واحدةٌ وهي البلدُ، وشرفُ الأخوةِ وهو الملجأُ الأمينُ لأعراضِ الأخواتِ وشرفِهنَّ.

يجبُ أنْ لا يُفتحَ قلبُ الفتاةِ لأحدٍ من الناسِ قبلَ أن يُفتحَ لزوجِها، لتستطيعَ أن تعيشَ معه سعيدةً هانئةً لا تنغّصها ذكرى الماضي، ولا تختلطُ في مخيّلتِها الصُّوَرُ والألوانُ. ولا أعرفُ فتاةً في هذا البلدِ بدأتْ حياتَها بغرام قطّ، فاستطاعَتْ أن تتمتّعَ بعدَه بحبٍّ شريفٍ.

ولا أزالُ أذكرُ حتّى اليوم حادثةَ ذلك الفتَى الذي أهدَتْ إليه حبيبتُه رسمًا موقّعًا عليه بتوقيعِها؛ فلمّا تزوّجَتْ - وكان لا يحبُّ ذلك منها - أرادَ الانتقامَ منها، فقطعَ رأسَ الصورةِ ووضعَها على جسم عارٍ بتلك الطريقةِ الفنيّةِ المعروفةِ، ثم أرسلَها مع كتابِ وشايةٍ إلى زوجِها ليلةَ عرسِها، فما لبثَتْ أن خسرَتْ في لحظةٍ واحدةٍ سمعتَها وسعادتَها.

وحدّثني من أثقُ به أنّ كثيرًا من الفتياتِ الفاسداتِ لا يتزوّجْنَ إلّا بعد أن يأخذْنَ على أنفسِهن عهدًاأمامَ أخلّائهنّ أن يكنّ لهم بعد الزواجِ، أي بعد أن يصبحْنَ مُطْلَقاتٍ من قيودِ العذرةِ وروابطِها. وقلّما تتزوّجُ فتاةٌ ذاتُ صلاتٍ فاسدةٍ من رجلٍ، إلّا وَردَتْ عليه ليلةَ البناءِ بها أو في صبيحتِها كتبُ الوشايةِ بها من الأشخاصِ الذين اتّصلَتْ بهم، وأخلصَتْ إِلَيْهِمْ، فانتهَى أمرُها في حياتِها الجديدةِ بالشقاءِ والعارِ.

نحن في حاجةٍ إلى أن نعلّمَ بناتِنا، لأنّنا لا نريدُ أن يعشْنَ جاهلاتٍ متأخّراتٍ. فتنحُّوا عن طريقِهِنّ، أيّها الغُوَاةُ المُفْسِدُون، ليستطِعْنَ أن يختلِفْنَ إلى مدارسِهِنَّ آمناتٍ مطمئنّاتٍ على نفوسِهنَّ وأعراضهِنّ؛ ولا تزعجُوهُنّ بفضولِكُمْ وإسفافِكم، فإنّنا لم نبعثْ بهنَّ في تلك السبيلِ لِيُفْسِدْنَ شرفَهن وعفّتهنَ، بل ليضفْنَ إلى فضيلةِ الأدبِ والكمالِ فضيلةَ العلمِ والمعرفةِ.

افسحُوا الطريقَ لهنَّ، وافسحُوا للعاملةِ الخارجةِ في طلبِ رزقِها، والأرملِ المسترزقةِ لبنيها، والفقيرةِ العاجزةِ عن قضاءِ حاجتِها إلّا بنفسِها، والذاهبةِ لصِلَةِ رحمِها، والسائرةِ لزيارةِ قبرِ فقيدِها.

ولا تكونوا حجرَ عثرةٍ في سبيلِ حريّةِ المرأةِ في ذَهابِها وجيئتِها واضطرابِها في مَذاهِبِ الأرضِ سعيًا وراءَ رزقِها، وقضاءِ مَصالِحِها، فإنْ أبيتم عليها ذلك، فاعترفوا أنّكم أعداؤها القساةُ المتوحّشون، لأنّكم تأبَون عليها إلّا إحدى الخطّتين القاتلتَيْنِ: إمّا الجهلَ الدائمَ، أو السقوطَ العظيمَ.

الفضيلةَ الفضيلةَ أيُّها القومُ! فهي العزاءُ الوحيدُ لهذه الأمّةِ المسكينةِ عن جميعِ آلامِها ومصائبِها، والأملُ الباقي لها، إن ضاعَتْ - لا قدّرَ اللهُ - ضاعَتْ جميعُ آمالِها وأمانيّها. والشرفَ الشرفَ، فربّما جاء يومٌ نديرُ فيه أعيُننا من حولنا فلا نجدُ ممّا تملكُ أيدينا شيئًا سواه.

❁ ❁ ❁

المؤتمر الإسلامي

سرّني منظرُ ذلك الرجلِ[١] العظيمِ، والداعي الكريمِ، وهو قادمٌ إلى مصرَ يجتازُ التخومَ، ويتخطّى البلدانَ، ويطوي الغبراءَ طيّ الكواكبِ الخضراءِ يقودُه الأملُ، ويسوقُه الرجاءُ، وبين جنَبيْه همّةٌ عاليةٌ، ونفسٌ كبيرةٌ، وقلب مشيّعٌ، وفؤادٌ في الأفئدة، كالنسرِ في الطيورِ، يحلّقُ في جوّ الإسلام تحليقَ من يحاولُ أنْ يظلّله بجناحَيْه.

سرّني منظرُه، وإنْ لم أرَهُ، وهو قائمٌ بين جماعةِ المسلمين يحاولُ أن يرأبَ صدعَهُمْ، ويَلُمّ شعثَهُم، ويجمعَ كلمتَهم، ويؤلّفَ بين قلوبِهم، ويدعوَ إلى اللهِ تعالى دعوةَ النبوّةِ الأولى، إلّا أنّ تلك عربيةٌ تدعو الأعجميّةَ، وهذه أعجميّةٌ تدعُو العربيةَ الفصحى.

هنا ذكرتُ الإسلامَ ومجدَه، والإسلامَ وجندَه، والإسلامَ ودولَته، والإسلامَ وصولتَه، وذكرتُ أبا بكرٍ[٢] وهو يقاتلُ أهلَ الردّةِ ويقول: واللهِ لو منعوني عقالَ بعيرٍ لقاتلتُهم عليه.

وذكرتُ عمرَ[٣] وهو واقفٌ في مرابضِ المدينةِ في حمارّة[٤] القيظِ يستقبلُ شبَحًا أسودَ يرفعُه

---

(١) كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير إسماعيل بك غصبر نسكي الروسي إلى مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة إلى مؤتمر إسلاميّ عامّ.

(٢) هو أبو بكر الصديق، تقدّمت ترجمته.

(٣) هو عمر بن الخطاب وقد تقدّمت ترجمته.

(٤) حمارّة القيظ: شدّة الحرّ.

الآلَ[1] ويخفضُه، ويطويه الأديمُ وينشرُه، حتى اقتربَ منه، فتبّنَه فإذا هو أعرابيّ قادمٌ من سوادِ العراقِ، فجعلَ يسايرُه، وهو راجلٌ والأعرابيُّ راكبٌ لا يعرفُه، ويسألُ ما فعل الله بسعدٍ[2] وجندِه، فيحدِّثُه القادمُ عن فتحِ القادسيّةِ والمدائنِ، وما أفاءَ اللهُ به على المسلمين من عرشِ كسرى وذخائِره، وتراثِ مرازبتِه ودهاقينهِ، وعمرُ لاهٍ عن نفسِه سرورًا بما سمعَ، وفرحًا بما تمّ.

وذكرتُ صلاحَ الدينِ[3]، وهو يقودُ الجَحْفَلَ[4] اللجبَ والجيشَ العرمرمَ، إلى حيث يستنقذُ الثغورُ، ويستخلصُ الأمصارَ، ويخوضُ جمرةَ الحربِ المتأجّجةِ ليفتديَ بنفسِه أجسامًا، إن لم تلتهِمْها النيرانُ، فكأنّه قُدَّ من صخرٍ.

وذكرت محمدًا الفاتحَ[5] وهو يلعبُ بكرةِ الأرضِ لعبَ الصبيّ بكرتِه، ويخترقُ بسفائنِ البحر رمالَ القفرِ، حتى نزل بالقسطنطينيةِ نزولَ القضاءِ من السّماءِ، وسجَدَ في معبدِ آيا صوفيا[6] سجدةَ الشكرِ للهِ على نعمتِه وحسنِ توفيقِه.

وذكرتُ صقرَ قريش[7] وقد طارَ من الشرقِ إلى الغربِ، فأنشأ وحدَه دولةً خضعَت لها أفريقيا وبعضُ أوروبا.

وذكرتُ مع أبطالِ الحربِ أبطالَ السلم فذكرتُ عمرَ بن عبد العزيز[8] وعدلَه، والمأمونَ[9] وفضلَه، والغزالي[10] وحكمتَه، وابنَ رشدٍ[11] وفلسفَته، ومعاويةَ وسياستَه، وعبدَ الملكِ وكياستَه. وذكرتُ مدارسَ بغدادَ وبخارى والإسكندريّةِ والقاهرةِ وغرناطةَ وإشبيليةَ وقرطبةَ.

وذكرتُ مترجمي كتبِ إقليدس[12] وبطليموس[13] وأرسطو[14]، وواضعي علومِ الجبرِ والمقابلةِ والكيمياءِ.

---

(١) الآل: السَّراب. (٢) هو سعد بن أبي وقاص وقد تقدمت ترجمته.

(٣) هو صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) مؤسّس الدولة الأيوبيّة. انتصر على الإفرنج في معركة حطين.

(٤) الجحفل اللجب: الجيش الكثير العدد.

(٥) محمد الفاتح (ت٨٨٧هـ/ ١٤٨١م) سلطان عثماني افتتح القسطنطينية، وشيّد المساجد.

(٦) أيا صوفيا: كنيسة في استنبول بناها يوستينيانوس الأوّل وحوّلها محمد الثاني إلى جامع بعد الفتح العثماني.

(٧) هو عبد الرحمٰن بن معاوية (ت١٧٢هـ/ ٧٨٨م) مؤسّس الدولة الأمويّة في الأندلس. لقب بـ«صقر قريش» أو بـ«عبد الرحمٰن الداخل».

(٨) عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ/ ٧٢٠م) الخليفة الأموي الثامن. اشتهر بتقواه وتمسّكه بالسنّة.

(٩) هو عبدالله بن هارون الرشيد (ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م) الخليفة العباسي السابع. قتل أخاه الأمين. وأنشأ بيت الحكمة، فازدهرت حركة الترجمة والنقل.

(١٠) هو أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) متكلّم لقب بـ«حجّة الإسلام». من مؤلفاته: إحياء علوم الدين، و«المنقذ من الضلال».

(١١) ابن رشد تقدمت ترجمته.

(١٢) إقليدس (القرن الثالث ق.م) رياضي يوناني وواضع مبادىء الهندسة المسطّحة.

(١٣) بطليموس فلكي وجغرافي يوناني. من مؤلفاته: «المجسطي».

(١٤) أرسطو (ت٣٢٢ق.م) فيلسوف يوناني ومعلّم الإسكندر من مؤلفاته: «الجدل»، و«النفس».

وذكرتُ مخترعي البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعةِ الدقّاقةِ التي أهداها الرشيد[١] إلى شارلمان[٢] ملك فرنسا، ففزعَ منها سامعُوها فزعًا شديدًا، وسمّوها شيطانًا رجيمًا أو آلةً سحريةً، أو مكيدةً عربيّةً. إلى كثيرٍ من أمثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية.

ثم ذكرتُ الإسلامَ إذ ضربه الدهرُ بضرباتِه، ورماهُ بنكباتِه، فأصبحَ أثرًا من الآثارِ، وخبرًا من الأخبارِ، وعليلًا حارَ فيه أطباؤه، وملّه عوّاده[٣]، وظلّ مترجّحًا بين داهيتَيْن، ومضطربًا بين غايتَيْنِ؛ إمّا أن يموتَ موتةً أبديّةً - وبالله العياذُ - أو يحيَا حياة مادّيةً، لا حياةً أدبيةً، وينهضُ جامعةً تجاريّةً، لا جامعة دينيّةً؛ ما دامتْ قاعدةُ الحكوماتِ، وما دامتِ الحكوماتُ عدوّةَ الأديانِ، وما دامتِ الأديانُ لا تستطيعُ التحليقَ إلّا في فضاءٍ من الحريّةِ لا ينتهي البصرُ فيه إلى مدًى.

لذلك أحزَنني عند سماعِ خطبةِ الخطيبِ ما يحزنُ الأشيبَ من ذكرى الشبابِ، إذا عثرَ بين أوراقِه على رسائلِ الحبِّ، وأناشيدِ الغرامِ، وأمضّني[٤] ما يُمِضُّ العاشقَ المفارقَ، إذا مرّ بالآثارِ وأطلالِ الديارِ، فرأى النُؤي[٥] والأحجارَ، وموقدَ النارِ ومجالَ الخيولِ، ومجرّ الذيولِ، فذكرَ ما كان ناسيًا، وهاجَ من وجدِه ما كان كامنًا، فبكى واستعبرَ:

وودَّ بجذْعِ الأنفِ لَوْ عادَ عَهْدُها ... وعادَ له فيها مصيفٌ ومربعُ

ليست الجاهليّةُ الأولى بأحوجَ إلى الإصلاحِ الدينيّ من الجاهليّةِ الأخرى، بل ربّما كانت هذه أحوجَ من تلك إليه.

كانتِ الجاهليّةُ الأولى تعبدُ الأوثانَ لتقرّبها إلى اللهِ زلفَى، وجاهليتُنا تعبدُ الأحجارُ والأشجارَ، والأحياءَ والأمواتَ، والأبوابَ والكُوى، والقواعدَ والأساطين: تبرّكًا، أو تقرّبًا، لفظان مترادفان، مختلفان لفظًا متّفقان معنًى. ومن ظنَّ غيرَ ذلك فقد خدعَ نفسُه.

كانتِ الجاهليّةُ الأولى متفرّقةً قبائلَ وشعوبًا، وجاهليتُنا متفرّقةً منازلَ وبيوتًا، بل آحادًا وأفرادًا، فلا تراحمَ ولا تواصلَ، ولا تعارفَ ولا تعاطفَ، حتى بين الأخِ وأخيه، والأبِ وبنيه.

كانتْ جاهليّتُهم تسفكُ الدماءَ في طلابِ الأوتارِ، وجاهليتُنا تسفكُها في سبيلِ السَّرقاتِ وقضاءِ الشهواتِ، وكان أفظعَ ما في جرائِمِهم وأدُ البنات[٦]، فصارَ أخفَّ ما في جرائِمِنا الانتحارُ، وكان بعضُهم يبغي على بعضٍ بسرقةِ مالِه، أو استياقِ ماشيتِه، ففعلنا مثلَ ما فعلُوا وفوقَ ما فعلُوا، ثم فَضُلناهم بعد ذلك بتزويرِ الأوراقِ، وتحريفِ الصكوكِ، وتقليدِ الأختامِ، والبراعةِ في النَّصبِ والاحتيالِ، يكاد يستوي في ذلك العالمُ والجاهِلُ، والشريفُ الهاشميّ، والفَلّاحُ القرويُّ.

وليتنا، إذ أخذْنا جاهليتَهم، أخذناها كما هي رذائلَ وفضائلَ، فيهونُ على المصلحين

---

(١) هو هارون الرشيد (ت١٩٣هـ/ ٨٠٩م) الخليفة العباسي الخامس. ازدهر في عهده الأدب والعلوم. فتك بالبرامكة.

(٢) شارلمان (ت١٩٨هـ/ ٨١٤م) ملك الإفرنج وامبراطور الغرب. كان على علاقة حميمة مع هارون الرشيد.

(٣) العواد: زوّار المريض. (٤) أمضّه: أحرقه وصعب عليه.

(٥) النُؤي: الحفرة حول الخيمة لمنع دخول السيل. (٦) وأد البنات: دفنهنّ وهنّ أحياء.

أمرُها، ولكنّا أسأنا الاختيارَ، فلَنَا خرافاتُهم الدينيّةُ وأدواؤهم الاجتماعيّةُ، وليس لنا كرمُهم ووفاؤهم، وغيرتُهم وحميّتهُم وعزّتُهم ومنعتُهم. فكيف لا يكونُ الأمرُ خطيرًا؟ وكيف لا تكونُ الجاهليةُ الأخرى أحوجَ إلى دعوةٍ كدعوةِ النبوّةِ من الجاهليّةِ الأولى؟

نبّئني عن الإسلامِ أين مقرُّه ومكانُه؟ وأين مسلكُه ومضطربُه؟ وفي أيِّ موطنٍ من المواطنِ حلّ، ومعهدٍ من المعاهدِ نزلَ؟

أفي الحاناتِ المواخيرِ التي يغصُّ بها الفضاءُ، وتئنُّ منها الأرضُ والسماءُ، والتي ينتهكُ فيها المسلمون حُرُماتِ دينِهم بلا خجلٍ ولا حياءٍ؟ كأنّما هم يشربون الماءَ الزُّلالَ، ويَغْشوْن البُضْعَ[1] الحلالَ. ولقد هانَ عليهم أمرُ أنفسِهم حتى لو وَجَدُوا بينهم من يرى التقيّةَ في عملِه، أو الاحتشامَ في أمرِهِ، سمّوه جبانًا جامدًا، أو متكلّفًا باردًا، كلُّ ذلك على مرأى ومسمعٍ من الحكومةِ الإسلاميّةِ، والمعاهدِ الدينيّةِ، والقضاءين الشرعيّ والنظاميّ؟

أم في حوانيتِ الباعةِ حيث الغشُّ الفاضحُ، والغبنُ الفاحشُ، مزخرفًا بالأقوالِ الكاذبةِ، والأيمانِ الباطلةِ؟

أم في مجالسِ الأحكامِ حيث للدينارِ الأحمرِ السلطانُ الأكبرُ على سلطانِ العدوِّ وسلطانِ الذمّةِ وسلطانِ الشرائعِ، اللّهمَّ إلّا ما كان من تلك الألواحِ المكتوبِ فيها (العدلُ أساسُ الملك) أو (وإذا حكمتُم بين الناسِ أن تحكمُوا بالعدلِ)؟

أم في المساجدِ حيث يعتقدُ المصلّون أنّه لو كان بين الصَّلاةِ والصَّلاةِ مائةُ عام، وكانت تلك الأعوامُ مملوءةً بالآثامِ والجرائمِ، والمفاسدِ والمظالمِ لكفَت تلك الحركاتِ التي يسمّونها صلواتٍ، ويحسبونها حسناتٍ، لغفرانِ تلك السيئاتِ؟

أم في معاهدِ الدين، حيث يتلقّى المتعلّمون الدينَ جسمًا بلا روحٍ، وعلمًا بلا عملٍ، كأنّما يتلهّون بدراسةِ إحدى الشرائعِ الداثرةِ، أو أحدِ الأديانِ الغابرةِ، وحيث يتلقّون كشكولًا[2] عجيبًا وخلقًا غريبًا من الأكاذيبِ، والترّهاتِ، فلا تكادُ تسمعُ من أفواهِهم إلّا حديثًا موضوعًا، أو قولًا مصنوعًا، أو خرافةً تاريخيّةً، أو بدعةً دينيّةً، وحيث يقضُون حياتَهم في المناظراتِ والمجادلاتِ، والتحاسدِ والتباغضِ، والتقاطعِ والتدابرِ، وهي بعينها الأخلاقُ والرذائلُ التي ما جاءَتِ الأديانُ إلّا لمحاربتِها والقضاءِ عليها، فهم يهدُمون من حيث يظنّون أنّهم يبنون، ويسيئون ويحسبُون أنّهم يُحسِنون صنعًا؟

أم في مجالسِ المتصوّفةِ، حيث الألعابُ الجمبازيّةُ، والحركاتُ البهلوانيّةُ، والسرقاتُ باسمِ العاداتِ، وانتهاكُ الحرماتِ بعنوانِ البركاتِ؟

إنْ أراد المصلحون لأنفسِهم نجاحًا، وللإسلام صلاحًا، فليبدأوا عملَهم بتهذيبِ العقائدِ الدينيّةِ، وتربيةِ النشءِ الحديثِ تربيةً إسلاميّةً، لا تربيةً ماديّةً، أي أنّهم يدخلون إلى الإصلاح

---

(١) البُضْع: الزواج، جمعه بُضوع.

(٢) الكشكول: وعاء يجمع فيه المتسوّل رزقه.

من بابِ الدينِ لا من بابِ الفلسفةِ، حتّى يجمعوا للمسلمين بين صلاحِ حالِهم ومآلِهم، ودنياهم وآخرتِهم، وحتى يكونَ الدينُ هو الزاجرَ والمؤدِّبَ، والمعلِّمَ والمهذِّبَ.

والإسلامُ وإن كان دينَ العقلِ والفطرةِ والإصلاحِ، إلّا أنّ الخطرَ كلَّ الخطرِ على المسلمين أن يكونَ في نظرِهم تابعًا للعقلِ، وأن يكونَ العقلُ الحكمُ بينهم وبينه، والخيرَ كلَّ الخيرِ في أن يكونَ الدينُ حاكمًا والعقلُ مفسّرًا ومبيّنًا؛ فإذا تمّ ذلك للمصلحين بالرفقِ والأناةِ، والحكمةِ والسياسةِ، فقد تمّ لهم كلُّ شيء، وتمَّ للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين: الدينيّةِ والسياسيّةِ، كما تمَّ لهم ذلك في العهدِ الأوّلِ من هذا البابِ نفسه، وفي هذه الجادّةِ المستقيمةِ.

فهل يستطيعُ دعاةُ الإصلاحِ في الجاهليّةِ الحاضرةِ أن يكونوا كدعاتِه في الجاهليّةِ الأولى؟ وهل يستطيعون أن يُخْلِصُوا لله في عملهم جادّين مثابرين، لا تأخذُهم فيه هوادَةٌ ولا عنه سنةٌ، وأنْ لا يرى كلٌّ منهم نفسَه بمنزلةِ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ، يتحملُ الأذى ويستسهلُ الوعرَ، ويحتملُ الكريهةَ، ولا يجعلُ لليأسِ إلى قلبِه سبيلًا، ولا للهوانِ على نفسِه سلطانًا؟

هل يستطيعُ المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحُوا في الآخرين ما أصلحَ المصلحون في الأوّلين؟ «لست أدري ولا المنجِّمُ يدري»؟

لَعَمْرُك ما تدري الطوارقُ بالحصَى ولا زاجِراتُ الطيرِ ما اللهُ فاعلُ

* * *

في أكواخ الفقراء

«مترجمة»

مضَى الليلُ إلّا قليلًا، والظلامُ مخيّمٌ على الكونِ بأجمعِه، والكواكبُ ملتفعةٌ[1] بأرديةِ السّحُبِ، ما يستشفُ منها الناظرُ بصيصًا ولا قبَسًا، والفضاءُ بحرٌ خِضَمٌّ مترامي الأرجاءِ، إلّا أنّه ساكنُ الصفحةِ، هادئُ النأمةِ[2]، يقْصُرُ فيه قابُ العين[3]، وتضلُّ في تيهِه أشعّةُ النظرِ حتّى عن نفسِها، والغيوثُ منهلّةٌ متواصلةٌ، تهمي بقوّةٍ واحدةٍ، وقوام واحدٍ، ولا تغزرُ ولا ترقُّ، ولا تضطربُ خيوطُها، ولا تختلفُ نغمتُها كأنّما هي شباكٌ ممتدّةٌ بين السماءِ والأرضِ.

وكوخُ السمّاكِ «فيليب» جاثمٌ في مجثمِه بين الأكواخِ المحيطةِ به، لا يرى فيه الداخلُ غيرَ مصباحٍ ضئيلٍ تجاهدُ ذبالتُه[4] جهادًا شديدًا في تمزيقِ قطعِ الظلامِ المتكاثفةِ حولَها، وغيرَ مَجْمَرةٍ هامدةٍ قد خبَتْ نارُها إلّا بقايا جمراتٍ شاحباتٍ قد التفّتْ بأكفانِها البيضاءِ، وأخذتْ طريقَها في مَدْرَجِ الفناءِ.

وقد يرى الناظرُ على ضوءِ ذلك المصباحِ الضئيلِ بضعَ شبكاتٍ معلّقةٍ بالجدارِ كأنّها الأشباحُ

---

(١) التفع بالرداء: اشتمل به وأداره على جسمه. (٢) النأمة: الصوت الضعيف.
(٣) القاب: المِقْدار، وهنا قدرة العين على الرؤية. (٤) الذبالة: فتيلة السراج.

المائلةُ، ومنضدةٌ عاريةٌ قد نُشرَتْ فوقها بضع آنيةٍ نحاسيّةٍ تلمعُ لمعانًا ضعيفًا في ذلك الحِندسِ[1] كأنّها عيونُ الجنادبِ، فإذا دارَ الواقفُ بنظرِه حولَه رأى حشيّةً مبسوطةً على الأرضِ قد اضطجعَ فوقها ثلاثةُ أطفالٍ متلاصقين آخذٌ بعضُهم بأعناقِ بعضٍ. كما تتآخذُ الأفراخُ في أعشاشِها، وكما يضمُّ الخوفُ الضلوعَ بعضَها إلى بعضٍ، وعلى مقربةٍ من فراشِهم امرأةٌ صفراءُ شاحبةٌ جاثيةٌ على ركبتَيْها تصلّي وتبتهلُ، وتدعو اللهَ تعالى بصوتٍ خافتٍ متهافتٍ أن يردّ لها زوجَها سالمًا، وكان قد خرجَ كعادتِه لصيدِ السّمكِ من البحرِ، فلم يعدْ حتّى الساعةِ.

وإنّها لكذلك، إذْ هبّتِ الزوبعةُ هبوبًا عظيمًا، فاهتزّتْ لها جوانبُ الكوخِ اهتزازًا شديدًا، وأنّ[2] لوقعِها الأطفالُ في لفائِفهم؛ فطارَ قلبُها فزَعًا ورعبًا، وخُيِّلَ إليها أنّ هديرَ الأمواجِ، ودمدمةَ الرعودِ، وزفيفَ الرّياحِ، وقعقعةَ السقوفِ والجدرانِ إنّما هي نذرُ السُّوءِ تنذرُها بمصيرِ زوجِها المسكينِ في أعماقِ ذلك الأوقيانوسِ العظيمِ، فظلّتْ تردّدُ بينها وبين نفسِها: ربِّ إنّي بائسةٌ مسكينةٌ لا سندَ لي ولا عضدَ، وإنّ هؤلاءِ الأطفالَ الصغارَ عاجزون لا يستطيعون أن يقوتُوا أنفسَهم، ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتِهم في شؤونِ حياتِهم، فاحفظْ لي ولهم حياةَ ذلك الرجلِ المسكينِ الذي أسلمَ أمرَه إليك، وأودَعَ حياتَه بين يديكَ، وخرجَ في طلبِ الرزقِ من ساحتِك ليعودَ به على هذه الأسرةِ الفقيرةِ المعدمةِ، فلم يعدْ حتّى الساعةِ، ولا ندري ما فعلتْ به يدُ الأقدارِ.

ما أعظمَ بؤسَنا وشقاءَنا، نساءَ الصيادين وأولادَهم!

إنّهم يتركوننا وحدَنا في هذه الأكواخِ الموحشةِ، ويذهبون لطلبِ العيشِ في ذلك التّيهِ المائيِّ العظيمِ الذي لا نهايةَ لعمقِه، ولا حدَّ لاتّساعِه، ولا عاصمَ من مخاطرِه، ويحاولون انتزاعَ أرزاقِهم من بين ماضغي تلك الأمواجِ الثائرةِ الفاغرةِ أفواهَها كالذئابِ الجائعةِ تحاولُ التهامَ كلِّ ما يدنو منها. ولعلّ القدرَ الذي نخشاه عليهم في هذه الساعةِ قد نزلَ بهم، فلم تُغْنِ عنهم شيئًا تلك الرقائقُ الخشبيّةُ المتلاصقة التي يسمّونها زوارقَ؛ ولعلّهم لبثوا ساعاتٍ طوالًا يصارعون الأمواجَ وتصارعهم، حتى غلبَتْهم على أمرِهم، فداروا بأعينهم حولهم ليفتّشوا عن زوارقِهم المنقلبةِ، فلم يرَوا منها إلّا بقاياها المتطايرةَ في مهابّ الرياحِ، فحاولوا أن يسبحُوا إليها، فأفلتَتْ من أيديهم؛ فنالَ منهم العياءُ، فهوَوا إلى ذلك القاعِ العميقِ ليصبحوا فيه طعامًا للأسماكِ التي كانوا يظنّون منذُ ساعةٍ أنّها ستصبحُ طعامًا لهم.

هنالك يأتينا نعيُهم، فنبكي وتندبُ، ونُهرَعُ إلى الشاطىء والهِين مدلّهين، ونقفُ أمامَ ذلك العالمِ المجهولِ الغامضِ صائحين أنْ رُدَّ إلينا أيُّها الوحشُ المفترسُ بُعولتَنا وأولادَنا، وأفلاذَ أكبادِنا، أو تكشّفْ عن نفسِك قليلًا علّنا نرَى جثثَهم في قاعِك العميقِ، فلا نسمعُ ملبيًّا ولا مجيبًا.

وهنا هدأتِ الزوبعةُ قليلًا، وخفتَتْ أصواتُ الرياحِ، فسكنَ بعضُ ما بها، ونهضَتْ من مكانها،

---

(١) الحندس: اللّيل.

(٢) انّ: تأوّه.

فتناولتِ المِصْباحَ، وفتحتْ بابَ الكوخِ، وقلَبَتْ وجهَها في السماءِ لترى كم بقيَ بينها وبين الصَّباحِ.

وكان الظلامُ لم يزلْ حالكًا، والمطرُ لم يزل منهلًّا، فمدّتْ يدَها بالمصباحِ أمامَها لترَى هل من مقبلٍ يتقدّمُ، أو شبحٍ يتحرّكُ، فلم يقعْ نورُه إلّا على كوخٍ بعيدٍ منفردٍ لا نورَ فيه ولا حركةَ، فتذكّرَتْ حينما وقعَ نظرُها عليه أنّه كوخُ تلك الأرملةِ المسكينةِ «جانت» التي ماتَ زوجُها غريقًا منذ بضعةِ شهورٍ، وخلّفَ لها أطفالًا صغارًا تقاسي الآلامَ الشدادَ، والأهوالَ العظامَ في تدبيرِ عيشِهم، وتقويمِ أوَدِهم، فمرّ بخاطرِها أن تزورَها وتتعرّفَ حالَها، لأنّها كانت تعلمُ أنّها مريضةٌ مدنَفةٌ[1]، وأنّها كابدَتْ ليلةَ أمسِ من دائها عناءً عظيمًا. وأقربُ ما تكوّنُ النفوسَ إذا جمعَتْها في صعيدٍ واحدٍ همومُ الحياةِ وآلامُها.

فأخذَتْ طريقَها إلى ذلك الكوخِ حتّى بلغَتْهُ، فوقفَتْ على بابِه، وقرعتْهُ مرارًا، فلم يردَّ عليها أحدٌ. فدفعتْهُ ففُتِحَ، فدخلَتْ رافعةً مِصْباحَها أمامَها، فأنارَ لها ما حولها، فرأتْ بين يدَيْها ما أرعدَ فرائصَها، واستوقفَ دقاتِ قلبِها، وأمسكَ الدمَ عن جريانِه في عروقِها.

رأتِ الكوخَ يهتزُّ ويضطربُ في أيدي الرياحِ المتناوحَةِ، ورأتْ مياه الأمطارِ تسيلُ من سقفِه الواهي الأخرقِ[2]، فتبلِّلُ كلَّ شيءٍ فيه. ورأتْ فراشًا قذِرًا من القشِّ قد رقدَتْ فوقه الأرملةُ «جانت» رقدةً ساكنةً جامدةً لا حسَّ فيها ولا حركةَ، فدنتْ منها ولمسَتْها بيدِها فإذا هي ميتةٌ، وإذا قطراتٌ من الماءِ تنحدرُ من السقفِ على جبينِها ورأسِها وغطائِها البالي الممزّقِ، فوقفَتْ أمامَ هذا المنظرِ المخيفِ المرعبِ ذاهلةً مشدوهةً ثم صاحَتْ:

هذه نهايةُ الفقراءِ على ظهرِ الأرضِ، وهذا مصيرُهم الذي يصيرون إليه بعد جهادِهم في سبيلِ الحياةِ زمنًا طويلًا، إنّهم يعيشون في هذا العالمِ مجهولين مغمورين لا يعرفُهم أحدٌ، ثم يخرجون منه متسلّلين متلاوِذين لا يشعرُ بخروجِهم حتّى أهلوهم وذوو أرحامِهم.

ما يدريني ألّا يكونَ مصيري ومصيرُ أولادِي غدًا هذا المصيرَ الذي أراه الآن، وقد لا تدخلُ عليّ في تلك الساعةِ جارةٌ من جاراتي تراني وترثي لحالي كما أرثي لحالِ هؤلاءِ المساكينِ؟

ثم خلعَتْ رداءَها فأسبلَتْه على جثّةِ الميتةِ؛ ودارت بمصباحِها في أنحاءِ الغرفةِ، فرأتْ طفلَيْها الصغيرَيْن نائمَيْن على فراشهما وجهًا لوجه، وعلى ثغرِ كلٍّ منهما ابتسامةٌ صغيرةٌ كأنّ شبحَ الموتِ الهائمَ حول مضجعِهما لا يُخيفُهما، ولا يزعجُ سكونَهما. ورأتْ رداءَ أمِّهما، وكانتْ تعرفُه قبلَ اليومِ، مُسْبَلًا عليهما، فخُيِّلَ إليها أنّها ترى منظرَ تلك المرأةِ المسكينةِ قبلَ ساعةٍ أو ساعتينِ، وهي تعالجُ في فراشِها سكراتِ الموتِ، ثم تلتفتُ من حينٍ إلى حينٍ إلى طفلَيها النائمَين، والمطرُ يتساقطُ عليهما والبردُ يعبثُ بأعضائِهما، فتشفقُ عليهما، وترثي لهما، حتّى ضاقتْ بها ساحةُ الصبر، فخلعتْ عنها رداءَها وهي أحوجُ ما تكونُ إليه، وألقتْهُ عليهما؛ ثم ألقتْ بنفسها على فراشِها وأسلمَتْ روحَها.

---

(١) المدنف: الذي اشتدّ عليه مرضه وسقمه. (٢) الأخرق: المثقوب.

وقفتْ ماري أمامَ هذه المناظرِ المؤلمةِ، والريحُ تئنُّ أنينَ الوالهين المتسلبين، والموجُ يعجُّ عجيجَ أجراسِ الموتِ، وقطراتُ الماءِ تنحدرُ من جبينِ المَيْتَةِ إلى خدّيْها الشاحبَيْن كأنّما هي تذرفُ دموعَ الحزنِ على فراقِ ولدَيْها، وكان الفجرُ قد أخذَ يمسحُ عن وجهِه صبغةَ الظلام، ويرسلُ بعضَ أشعّتِهِ في جوانبِ الكوخ، فأطفأَتْ ماري المصباحَ الذي بيدِها، ووضعَتْه جانبًا، ثمّ جثَتْ بجانبِ المَيْتَةِ، وصلَّتْ لها ما شاء اللهُ أن تفعلَ، ثم نهضَتْ ومشَتْ إلى مكانِ الطفلَيْن وحملَتْهما برفقٍ وسكونٍ ومشتْ بهما حتّى بلغَتْ كوخَها، فأضجَعَتْهما بجانبِ طفلَيْها، وأسبلَتْ عليهم جميعًا رداءً واحدًا.

ثم جلَستْ بجانبِهم تقولُ بينها وبين نفسِها: لا أدري أأصَبْتُ فيما فعلْتُ أم أخطأْتُ؟ وإنّما أدري أنّ المرأةَ التي أودعَ الله قلبَها شعورَ الأمومةِ وإحساسَها لا تستطيعُ أن ترى طفلَيْن طريحَيْن على فراشهما في كوخٍ عارٍ من كلِّ شيءٍ إلّا من جثّةِ أمِّهما، فتتركُهما وشأنَهما دون أن تعلمَ ما مصيرُهما بعد ذلك.

إنّ المنظرَ الذي رأيتُه ما كان يسمحُ لي بالتفكيرِ في نتيجةِ العملِ الذي أعملُه، فإنْ تبيّنَ لي بعد ذلك أنّني مخطئةٌ، فليس معنى هذا أنّي كنتُ أستطيعُ تجنّبَ الوقوعِ في هذا الخطأ، لأنّ قلبي من لحمٍ ودمٍ، لا من فولاذٍ وصّوانٍ.

نعم إنّ زوجي فقيرٌ، وإنّ طفليّ مُعْدَمانِ بائسانِ، لا يكادان يشبعان من الخبزِ، وإنّ عناءَنا في تربيةِ أربعةِ أطفالٍ سيكونُ ضُعفَ عنائِنا في تربيةِ طفلَيْن، ولكنْ لا يجوزُ لنا ضنًّا براحةِ أنفسِنا أن نتركَ طفلَيْن صغيرَيْن يموتانِ - على مرأى منّا ومسمعٍ - بَرْدًا وجوعًا.

ذلك ما سأقولُه لزوجي عند رجوعِه، وما أحسبُه قاسيًا، ولا متوحّشًا فينكرُ عليَّ فعلتي هذه، ويأمرني بإلقائِهما خارجَ البابِ.

ثم وقفتْ عن الكلام فجأةً لأنّها سمعَتْ صريرَ البابِ وهو يدورُ على عقبِه فارتعدَتْ، ثم علمَتْ أنّها الريحُ، فأطرقَتْ برأسِها ساعةً ذهبَتْ فيها بتصوّراتِها وأفكارها كلَّ مذهبٍ فبكَتْ وضحكَتْ، وغضبَتْ ورضيَتْ، وأملَتْ ويئسَتْ، ورَحَمَتْ وقسَتْ، وحَمِدَتْ فعلتَها وندمَتْ عليها، وأحسنَتِ الظنَّ بزوجها، وأساءَتْه به، وظلَّ فؤادُها نهبًا مقسّمًا في يدِ الهمومِ والأفكارِ حتى شعرَتْ بسوادٍ يتقدّمُ نحوَها، فاستُطيرَ قلبُها خوفًا ورعبًا، وانتبهَتْ، فإذا زوجُها داخلٌ يحملُ شبكتَه على ظهره، والماءُ يقطرُ منها، فنهضَتْ إليه وعانقَتْه، ثم ألقَتْ نظرَها على وجهِه فأنكرتْ شحوبَه وتضعضعَه كما أنكرَ ذلك منها حين رآها، وسألَتْهُ كيف كان حظُّه الليلةَ، وماذا كان شأنُه مع العاصفةِ، فألقَى بشباكِه وقصبِه على الأرضِ وظلَّ يقولُ لها: أمّا الليلةُ، فكانتْ مزعجةً جدًّا، لم أرَ في حياتي مثلَها؛ وأمّا الصيدُ، فها هي يدي صفرٌ منه كما ترَين، ولولا رحمةُ اللهِ بي وبكمْ لهلكْتُ وما أنا بآسفٍ على شيءٍ ما دمتُ أراكم بخيرٍ، وكيف حالُ الولدَيْن؟ فارتعشَتْ وقالَتْ: هما بخيرٍ، قال: ما لي أراكِ شاحبةً صفراءَ؟ وكيف قضيْتِ ليلَتك؟.

فأطرقتْ برأسِها وقالتْ: قضيتُها في خياطةِ قميصَيْن للولدَيْن، وكنتُ كلّما سمعتُ صوتَ

العاصفةِ وهديرَ الأمواجِ خِفْتُ عليك، أمّا الآن، فقدْ زالَ كلُّ شيءٍ والحمدُ للهِ.

ثم نظرَتْ إليه وبين شفتَيْها كلمةٌ تحاولُ أن تنطقَ بها، فلا تستطيعُ، ثم استنصرَتْ جَلَدَها وقوّتَها وقالت: وشيءٌ آخر أحزنَني جدًّا، قال: وما هو؟ قالت: قد علمتُ الساعةَ قبل رجوعِك بقليلٍ أنّ جارتَنا «جانت» قد لبَّتْ دعوةَ ربّها، وأنّ ولدَيْها الصغيرَيْن قد أصبحَا وحيدَين في هذا العالمِ لا عائلَ لهما.

فاضطربَ عند سماعِ هذه الكلمةِ، ونهضَ من مكانِه، وتمشّى قليلًا، ثم ألقى بقبّعته المبلّلةِ بالماءِ على سريره، وظلّ يعبثُ بشعرِ رأسِه، فيشدُّه حينًا، ويمسحُه أخرى، وهي تتبعُه بنظراتِها لتفحصَ صورةَ نفسِه المرتسمةَ على وجهِه، ثم جلسَ إلى المائدةِ القائمةِ في وسطِ الكوخِ، وظلَّ يقولُ بينه وبين نفسِه بصوتٍ ضعيفٍ متهدّج:

ربِّ إنّي وإن كنتُ رجلًا جاهلًا فَدْمًا[1] لا أستطيعُ أن أفهمَ حكمتَك في حرمانِ هذين الولدَيْن البائسَيْن من أمّهما، إلّا أنّني معترفٌ بوجودِ تلك الحكمةِ لا أنكرُها، ولا بدّ أنّ الذين يعلمُون أكثرَ ممّا أعلمُ، يفهمون من شؤونِك وتصرفاتِك فوق ما أفهمُ!

نعم إنّني فقيرٌ مسكينٌ أعيشُ تحت رحمةِ المصادفاتِ والاتفاقاتِ، وربّما مرّ عليّ وعلى أولادي أيامٌ لم نجدْ فيها ما نأتدِمُ[2] به، ولكنْ ماذا أصنعُ وقلبي يتألّمُ لحالِ هاتين اليتيمتَيْن الصغيرتَيْن أكثرَ ممّا يتألمُ من الجوعِ والسغبِ[3]؟

ثم التفتَ إلى زوجتِه وقال لها: إنّني متألمٌ جدًّا يا ماري، ويُخَيَّلُ إليّ أنّ روحَ تلك المرأةِ المسكينةِ واقفةٌ الآنَ أمامَ هذا البابِ تقرعُه وتضرعُ إلينا أنْ نأخذَ ولدَيْها إلينا، ونكفلَهُما من بعدِها، ولكنْ كيف العملُ يا إلهي؟

فقالت: إنّي أكادُ أسمعُ هذا الصوتَ الذي تسمعُه يا فيليب. وإنّ ألمي عظيمٌ كألمِك.

فصمتَ هنيهةً، ثم انتفضَ انتفاضةً شديدةً ودنا منها وقال لها: ألم يمتْ لنا طفلان في العامَيْن الماضيَيْن يا ماري؟

قالت: بلى.

قال: ما نصنعُ لو أنّهما بقيَا حيَّيْن حتّى اليوم؟

قالت: لا شيءَ سوى أنّنا نفزَع إلى اللهِ في أمرِهما.

قال: فلنفزعْ إلى اللهِ في أمرِ هذين الطفلَيْنِ اليتيمَيْنِ، وكأنّ ولدَيْنا لا يزالان حيَّيْن حتى اليوم، أو كأنّهما بُعثَا من قبرهما بعدَ موتِهما.

إذهبي إليهما يا ماري وأحضريهما، فربّما استيقظَا بعد هنيهةٍ من نومِهما فرأيا منظرَ أمّهما المَيْتَةِ في فراشِها، فماتا خوفًا ورعبًا.

---

(١) الفدم: الأحمق.
(٢) نأتدم: نأكل.
(٣) السغب: الجوع.

اذهبي إليهما واحملِيهما برفقٍ وهدوءٍ دون أن توقظِيهما وأضجِعيهما على فراشِ ولدينا، فسيكونُ منظرُهم جميعًا جميلًا جدًّا حينما يستيقظون من نومِهم، وينظرُ بعضُهم في وجوهِ بعضٍ، وحرامٌ عليّ النبيذُ واللحمُ بعد اليومِ لأستطيعَ أن أقومَ بنفقةِ هذه الأسرةِ الكبيرةِ التي أصبحتُ سيّدَها وعائلَها، اذهبي يا ماري، وثقي أنّ الله سيملأُ علينا بيتَنا خبزًا وفحمًا ببركةِ هؤلاءِ الأطفالِ الطاهرين.

فتهلّل وجهُها بِشرًا وسرورًا، ونهضَتْ من مكانِها، ومشَتْ إلى مضجعِ الأطفالِ، فرفعَت عنهمُ العطاءَ، ونظرَتْ إلى زوجِها صامتةً لا تقولُ شيئًا فما وقعَ نظرُ «فيليب» على هذا المنظرِ الغريبِ حتّى استُطِيرَ فرحًا وسرورًا، وهرعَ إلى زوجتِه واحتضنَها إلى صدرِه وقال لها: ما أشرفَ قلبَك يا ماري!

يا سكّان القصورِ: ليتكُم من سكّانِ الأكواخِ، لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين.

❁ ❁ ❁

الضّمير

أتَدْرِي ما هو الخُلُقُ عندي؟

هو شعورُ المرءِ أنّه مسؤولٌ أمامَ ضميرِه عمّا يجبُ أن يفعلَ.

لذلك لا أُسمّي الكريمَ كريمًا حتّى تستويَ عندَه صدقةُ السرِّ وصدقةُ العلانيةِ، ولا العفيفَ عفيفًا حتّى يعفَّ في حالةِ الأمنِ كما يَعِفُّ في حالةِ الخوفِ، ولا الصادقَ صادقًا حتّى يَصْدُقَ في أفعالِه صِدْقَه في أقوالِه، ولا الرحيمَ رحيمًا حتّى يبكيَ قلبُه قبلَ أن تبكيَ عيناه، ولا المتواضعَ متواضعًا حتّى يكونَ رأيُه في نَفْسِه أقلَّ من رأيِ الناسِ فيه.

التخلّقُ غيرُ الخلقِ، وأكثرُ الذين نسمّيهم فاضِلين متخلّقين بخلقِ الفضيلةِ، لا فاضلون، لأنّهم إنّما يلبَسون هذا الثوبَ مصانعةً للناسِ، أو خوفًا منهم، أو طمَعًا فيهم، فإنِ ارتقوا عن ذلك قليلًا، لبسوه طمَعًا في الجنّةِ التي أعدّها اللهُ للمحسنِين، أو خوفًا من النارِ التي أعدّها اللهُ للمسيئين.

أمّا الذي يفعلُ الحسنةَ لأنّها حسنةٌ، أو يتّقي السيّئةَ لأنّها سيئةٌ، فذلك من لا نعرفُ له وجودًا، أو لا نعرفُ له مكانًا.

لا ينفعُ المرءَ أن يكونَ زاجرَه عن الشرّ خوفُه من عذابِ النارِ، لأنّه لا يعدمُ أن يجدَ بين الزعماءِ الدينيّين من يلبّسُ له الشرُّ لباسَ الخيرِ، فيمشي في طريقِ الرذيلةِ، وهو يحسبُ أنّه يمشِي في طريقِ الفضيلةِ؛ أو خوفُه من القانونِ، لأنّ القوانين شرائعُ سياسيّةٌ وُضِعَتْ لحمايةِ الحكوماتِ لا لحمايةِ الآدابِ؛ أو خوفُه من الناسِ، لأنّ الناسَ لا ينفرون من الرذائلِ بل ينفرون ممّا يضرُّ بهم، رذائلَ كان أم فضائلَ، وإنّما ينفعه أن يكونَ ضميرُه هو قائدَه الذي يهتدي به، ومنارَه الذي يستنيرُ بنورِه في طريقِ حياتِه.

وما زالتِ الأخلاقُ بخيرٍ حتّى خذلَها الضميرُ وتخلّى عنها، وتولّتْ قيادَتها العاداتُ والمصطلحاتُ، والقواعدُ والأنظمةُ، فَفَسَدَ أمرُها، واضطربَ حبلُها، واستحالتْ إلى صُوَرٍ ورسومٍ وأكاذيبَ وألاعيبَ؛ فرأينا الحاكمَ الذي يقفُ بين يدَي اللهِ ليؤدّيَ صلاتَه وأسواطُ جلّاديه تمزّقُ على مرأى منه ومسمعٍ جسمَ رجلٍ مسكينٍ لا ذنبَ له عندَه إلّا أنّه يملك صُبابةً[1] من المالِ يريدُ أن يسلبَه إيّاها؛ والأميرَ الذي يتقرّبُ إلى اللهِ ببناءِ مَسْجِدٍ قد هَدَمَ في سبيلِه ألفَ بيتٍ من بيوتِ المسلمين؛ والفقيهَ الذي يتورّعُ عن تدخين غليونه في مجلسِ القرآن، ولا يتورعُ عن مخالفةِ القرآن نفسِه من فاتحتِه إلى خاتمتِه؛ والغنيَّ الذي يسمعُ أنينَ جارِه في جوفِ الليلِ من الجوعِ، فلا يرقُّ له، ولا يحفلُ به، فإذا أصبحَ الصباحُ ذهبَ إلى ضريحٍ من أضرحةِ الأولياءِ، ووضعَ في صندوقِ النّذورِ بَدْرةً من الذهبِ قد ينتفعُ بها من لا حاجةَ به إليها؛ والمومسَ التي تتصدّقُ بنفسِها ليلةً في كلّ عامٍ على روحِ بعضِ الأولياءِ، وعندها أنّها قد كفّرتْ بذلك عن سيئاتِها طولَ العام.

إلى كثيرٍ من أمثالِ هذه النقائصِ التي يزعمُ أصحابُها، ويزعمُ لهم كثيرٌ من الناسِ أنّهم من ذوي الأخلاقِ الفاضلةِ والسيرةِ المستقيمةِ.

الخُلُقُ هو الدمعةُ التي تترقرقُ في عينِ الرحيمِ، كلّما وقعَ نظرُه على منظرٍ من مناظرِ البؤسِ، أو مشهدٍ من مشاهدِ الشقاءِ.

هو القلقُ الذي يساورُ قلبَ الكريمِ، ويحولُ بين جفنَيْه والاغتماضِ كلّما ذكرَ أنّه ردّ سائلًا محتاجًا، أو أساءَ إلى ضعيفٍ مسكينٍ.

هو الحُمْرةُ التي تلبَسُ وجهَ الحيِّ خجلًا من الطارقِ المنتابِ الذي لا يستطيعُ ردَّه، ولا يستطيعُ مدّ يدِ المعونةِ إليه.

هو اللّجلَجَةُ[2] التي تعتري لسانَ الشريفِ حينما تحدّثُه نفسُه بأكذوبةٍ ربّما دفعتْه إليها ضرورةٌ من ضروراتِ الحياةِ.

هو الشررُ الذي ينبعثُ من عينَيْ الغيورِ حينما تمتدُّ يدٌ من الأيدي إلى العبثِ بعِرْضِه أو بكرامتِه.

هو الصرخةُ التي يَصْرُخُها الأبيُّ في وجهِ من يحاولُ مساومتَه على خيانةِ وطنِه، أو ممالأةِ عدوِّه.

الخُلُقُ هو أداءُ الواجبِ لذاتِه، بقطعِ النظرِ عمّا يترتّبُ عليه من النتائجِ؛ فمن أرادَ أنْ يعلّمَ الناسَ مكارمَ الأخلاقِ، فَلْيُحْيِ ضمائرَهم، وليبثَّ في نفوسِهم الشعورَ بحبِّ الفضيلةِ، والنفورَ من الرذيلةِ بأيّةِ وسيلةٍ شاءَ، ومن أيّ طريقٍ أرادَ.

فليستِ الفضيلةُ طائفةً من المحفوظاتِ تُحشَى بها الأذهانُ، بل ملكاتٌ تصدرُ عنها آثارُها صدورَ الشعاعِ عن الكوكبِ، والأريجِ عن الزهرِ.

❁ ❁ ❁

(١) الصبابة: البقيّة.

(٢) اللجلجة: التردّد في الكلام.

مدرسة الغرام

كنتُ لا أسألُ اللهَ تعالَى إلّا تقدّمَ هذه الأمّةِ وارتقاءَها، وبلوغَها في المدنّيةِ مبلغًا يؤهّلُها لمجاراةِ الأممِ الغربيّةِ في عظمتِها وسلطانِها، فأصبحتُ أسألُه ألّا يستجيبَ دعائي وألّا يُنيلَها من تلك المدنَّيةِ فَوْق ما أنالَها.

أصبحْتُ أعتقدُ أنّ مفاسدَ الأخلاقِ والمدنيّةَ الغربيّةَ شيئان متلازمان وتوأمان متلاصقان، لا افتراقَ لأحدِهما عن صاحبِه إلّا إذا افترقَتْ نشوةُ الخمرِ عن مرارتِها. فكيف أتمنّاها لأمّةٍ هي أعزُّ عليّ من نفسي التي بين جنبيّ؟

قرأتُ حوادثَ الانتحارِ في الغربِ، فقلتُ: قومٌ قد ضعفَتْ قلوبُهم عن احتمالِ حوادثِ الدهرِ وأرزائِه، فلم يستطيعوا الوقوفَ في طريقِها وقفةَ الشجاعِ المستقلِّ، ففرّوا من وجهها إلى حيث يجدون الراحةَ الدائمةَ في أعماقِ القبورِ، وما أكثرَ الجبناءَ في مواقفِ الحربِ وميادين الجهادِ!

قرأتُ حوادثَ المبارزةِ، فقلتُ: قومٌ قد عجزَتْ يدُ المدنيّةِ الحاضرةِ أن تستلَّ من بين جنوبِهِم ما كانوا يعتقدون في عهدِ الهمجيّةِ الأولى من أنّ العرضَ إناءٌ، إذا ألَمَّ به القذَى لا يغسلُه إلّا الدمُ المسفوحُ، وكثيرًا ما أوردَتِ العقائدُ النفوسَ مواردَ الحتوفِ.

قرأتُ حوادثَ عشّاقِ الموتى الذين يتسلّلون تحت جنحِ الظلامِ إلى المقابرِ فينبشونها عن رفاتِ الفتياتِ المقبوراتِ، شوقًا إلى لثمةٍ من خدٍّ يرشحُ صديدُه، أو رشفةٍ من ثغرٍ يتناثرُ دودُه، حتّى إنّه ليروقُهم من منظرِ الساكناتِ تحت الرجامِ فوق ما يروقُهم من منظرِ المقصوراتِ في الخيامِ.

فلمّا طاردَتْهُمُ الحكومةُ عن أمنيتِهم، وحالتْ بينهم وبين مواطنِ غرامِهم، ومواقفِ عشقِهم وهيامِهم، رأوا أن يحتالوا على الإلمامِ بأولئك الموتَى خيالًا، لمَّا فاتهم الإلمامُ بهم حقيقةً، فأنشأوا لأنفسِهم في باطنِ الأرضِ قاعةً كبرى، كسَوا جدرانَها بالأستارِ السوداءِ، ووضعُوا في وسطِها صندوقًا من صناديقِ الموتى تنامُ فيه فتاةٌ حيّةٌ تتصنّعُ الموتَ باصفرارِ لونها، وإسبالِ جفونِها، وسكونِ أنفاسِها، فإذا لجَّ بأحدِهِم الشوقُ إلى الإلمامِ بفتاةٍ ميتةٍ، نزلَ إلى تلكِ القاعةِ السوداءِ وعالجَ مخيّلتَه على أن يتصوّرَها قبرًا مظلمًا موحشًا، يضمُّ بين أقطاره فتاةً ميتةً، لا حراكَ بها، فيلمَّ بها وهو يسمعُ نغماتِ الأحزانِ من قيثارةٍ أعدّتْ وراء القاعةِ لتجسيمِ ذلك الخيالِ.

قرأتُ هذا، وقرأتُ أنّ منهم من تجاوزَ به جنونُه وهوَسُه إلى الغرامِ ببعضِ أنواعِ الحيوانِ، حتّى إنّهم نصبوا لأنفسِهم مواخيرَ خاصّةً يلمّون فيها بالدجاجِ والبطّ والأوزّ إلمامَ غيرِهم بالنساءِ البغايا، فقلتُ لا عجبَ في ذلك. وهل هو إلّا فنٌّ من فنونِ الجنونِ التي لا يجدُ المرءُ إلى حصرِها سبيلًا!

إن كنتُ أغتفرُ للمدنيّةِ الغربيّةِ كلَّ ذنوبها، فإنّي لا أغتفرُ لها ذنبَها في مدرسةِ الغرامِ التي أنشأها قومٌ من الأمريكيّين في وسطِ مدينةٍ من مدنِ أمريكا ليعلّموا فيها النساءَ والرجالَ فنونَ الحبِّ والمغازلةِ جهرةً من حيث لا يرَون في ذلك بأسًا، ولا يجدون فيه متلوّمًا.

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي:

يوم الأحد: دروس استعداديّة.

يوم الإثنين: الغزل.

ثوم الثلاثاء: المطارحة.

يوم الأربعاء: صناعة التقبيل والتخميش.

يوم الخميس: فلسفة الدلال والتصبّي.

يوم الجمعة: اختيار مواعيد اللقاء.

يوم السبت: الامتحان.

هذه هي المدرسةُ الغراميّة، وهذا نظامُها. فهل سمعْتَ في حياتِك أنّ أمّةً من الأممِ المتوحّشةِ التي يسمّونها الأممَ البهيميّةَ إشارةً إلى ما بينها وبين البهائمِ من حبّ الشهواتِ والاستهتارِ فيها، قد بلغتْ في تهتّكِها وفسادِ أخلاقِها مبلغَ تلك الأمّةِ التي يقولون عنها إنّها زهرةُ المدنيّةِ الحديثةِ، وتاجُها المرصَّعُ.

لماذا نسمّي الزنوجَ قبائلَ متوحّشةً، ونحن نعلمُ فيما نعلمُ من أخلاقِهم أنّهم لا يتركون عزّابَهم ينامون وسطَ البيوتِ مخافةَ أن يكونَ لهم سبيلٌ إلى مخالطةِ النساءِ، فيأخذونهم جميعًا إلى مكان خاصّ بهم خارجَ القريةِ يبيتون فيه فوقَ هضبةٍ مرتفعةٍ، ينثرون حولها ترابًا معبدًا، حتى إذا أراد أحدُهم أن يختلسَ من ظلامِ الليلِ غرّةً نمَّ أثرُه عليه، كمانعلمُ أنّهم يخيطون فروجَ العذارى حيطةً وحذرًا ليحفظوا أعراضَهُنّ لأزواجِهنّ سالماتٍ بريئاتٍ.

ولماذا تسمّى الأمّةُ الأمريكيّةُ أمةً متمدّنةً، وها هي ذي تفتحُ المواخيرَ باسم المدارسِ حتّى لا تكونَ في نفسِ أحدٍ من الناسِ غضاضةٌ في دخولها، والأخذِ بنصيبِه من لذائذِها وشهواتِها!!

إذا كان توحّشُ الأوّلين لإغراقِهم في صَوْنِ الأعراضِ، والحيطةِ لها فالآخرون أكثر منهم توحّشًا لإغراقِهم في هَتْكِها وابتذالِها، والإغراقُ في الخيرِ خيرٌ من الإغراقِ في الشرّ.

فيا أيُّها الزنجيُّ المسكينُ، لقد ظلمَك مَنْ سمّاك متوحّشًا، ويا أيها الأمريكيُّ المتوحّشُ لقد كَذَبَكَ مَنْ سمّاك مُتَمَدْيِنًا.

أيُّها الزنجيُّ الأسودُ: إن كنت أسودَ اللونِ، فالفضيلةُ أعلى قَدْرًا من أنْ تتنزلَ لاعتبارِ السوادِ ذنبًا تنفرُ منه، وجريمةً لا تغتفرُها! وإن كنتَ جاهلًا، فهلِ استفادَ صاحبُك من علمِه إلّا إمتاعَ نفسِه بشهواتِها ولذائذِها، والتفنّنَ في فجورِ الحياةِ وفسوقِها تفنّنًا لا أحسبُك تحنُّ إليه، أو تتقطّعُ نفسُك حسراتٍ عليه؟ وإن كنتَ عاريًا فربّما لبسْتَ من الفضيلةِ ثوبًا يحسدُك عليه - لو يعقلُ - ذلك الذي يفخرُ عليك بخزِّهِ وديباجِه ودِمَقْسِهِ وحريرِه:

ولو بتّما عند قدْرَيْكُما لَبِتَّا وأعلاكُما الأسفَلُ[1]

(١) أي لو تنزّل كلٌّ منكما المنزلةَ التي يستحقّها لأخذَ الأعلى مكانَ الأسفل، والأسفلُ مكانَ الأعلى.

أمس واليوم

مَثَلُنا ومَثَلُ آبائِنا الأوّلين من قبلِ طلوعِ شمسِ هذاالتمدينِ الحديثِ ومن بعدِه كَمَثَلِ رَجُلٍ ضلَّ به طريقُه في ليلةٍ ليلاً غدافيّةِ الإهابِ[١]، حالكةِ الجلبابِ قد تجسّدَ ظلامُها حتّى كادَ يلمسُ بالراحِ، فانقلبَ جوهرًا بعد إذْ هو عرضٌ، فأصبحَ كأنّما هو فحمٌ سائلٌ، أو مدادٌ جامدٌ، فأنشأ هذا الضالُّ المسكينُ يخبطُ في ذلك الديجورِ ترفعُه النجادُ، وتخفضُه الوهادُ لا يرى علمًا، فيهتدي به، ولا يتنوّرُ نجمًا، فيعتمدُ في سراه عليه.

وإنّه لكذلك وقد استوتْ في نظرِه الجهاتُ الستُّ، فسماؤه أرضٌ، وأرضُه سماءٌ، ووراءَه أمام، وأمامه وراء، وإذا بقرنِ الشمسِ قد نجمَ في جبهةِ الأفقِ، وأفرغَ في ناظرِه المملوءِ بالظلمةِ قطراتٍ ملتهبةً من ذائبِ أشعّتِه المتلألئةِ، فعَشيَ بعد أن كان بصيرًا، فما أغنى عنه ذلك الضياءُ شيئًا، وما زالَ في ضلالِه القديم، إلّا أنّ ذاك ضلالُ الظلام، وهذا ضلالُ الضياءِ وهو شرُّ الضلالين، وأقتلُ الداءين، فإنّ ضلالَ الظلامِ يتخلّلُه بريقُ الأملِ في الضياءِ، فأمّا وقد أصبحَ الدواءُ داءً، فلا أملَ في الشفاءِ.

لَوْ بِغَيْرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ كنتُ كالغصّانِ بالماءِ اعتصاري

ذلك مثلُنا ومثلُ آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنيّةِ الجديدةِ التي همَى سيلُها على هذا العالمِ الإنسانيِّ، فرأى الغربَ تربةً طيّبةً صالحةً، فسقّاها فاهتزّتْ، وربَتْ، وأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، ورأى الشرقَ تربةً طيّبةً صامتةً متحجّرةً قد نجم[٢] فيها كثيرٌ من الأعشابِ الضعيفةِ، والجذورِ الفاسدةِ؛ فأمّا ما تحجّر منها، فلم تُغنِ عنه السقيا شيئًا، وأمّا ما اخضرَّ وترعرعَ، فقد نَمَا فاسدًا كأصلِه، وكان خيرًا له لو ذهبَ ذلك الفيضانُ به وبجذورِه.

أي أنّ المدنيّةَ الحديثةَ تمشّتْ في صدرِ الغربِ بقدمٍ متثاقلةٍ، فما خفقَ لها قلبُه ولا اضطربَ، ثم وضعتْ يدَها في أيدي الغربيّين فَصَعِدَتْ بهم إلى سمائها خطوةً خطوةً كما يُعَوّدُ الطفلُ الصغيرُ على المشي، وما أعجلَتْهم عن أمرِهم كما أعجلَتْنا، فبلغُوا ما أرادوا، وهوَينا إلى أعمقِ ممّا كنا، كالحجرِ الثقيلِ يُرْمىٰ به في الجوّ، فإذا ارتدَّ ارتدَّ إلى حفرةٍ يدفنُ نفسَه فيها.

أي أنّ الغربيّين أحسّوا فنهضُوا، فجدّوا فأثرُوا، فتمتّعوا بثمراتِ أعمالِهم؛ ونحن أغفلنا جميعَ هذه المقدّماتِ ووثبنا إلى الغايةِ وثبًا فسقَطْنا.

فمهما كان نصيبُ آبائنا من الجهلِ، وانفراجِ المسافةِ بينهم وبين هذه المدنيّةِ الحاضرةِ، فقد كانوا على علّاتِهم، أسعدَ منّا حالًا وأروحَ بالًا، وأهنأ عيشًا، وأسدّ خطواتٍ في سبلِ الحياةِ؛ وكانت المعيشةُ فيهم اجتماعيّةً أكثرَ منها فرديّةً.

فكانتِ الأسرةُ الواحدةُ أشبهَ شيءٍ بالمملكةِ الدستوريّةِ المنتظمةِ يديرُها عقلٌ واحدٌ في جسومٍ

---

(١) غدافيّة الإهاب: شديدة الظلام، بلون الغراب. (٢) نجم: ظهر.

كثيرةٍ متّفقةٍ في الرأيِ والدينِ والمذهبِ والأخلاقِ والعاداتِ؛ تجتمعُ حول المائدةِ كما تجتمعُ في نادي المُسَامَرةِ، وتتلاقَى في قاعةِ الصلاةِ كما تتلاقَى في ساحةِ المتنزهِ.

يحبّون اللهَ فلا يختلفونَ إلّا في الطريقِ إلى رضاه، ويحبّون الوطنَ ولا يختلفون إلّا في الطريقِ الى خدمتِه، ويحترمون عاداتِهم وأخلاقَهم ولغتَهم المكوِّنةَ لهيئتِهم الاجتماعيّةِ، ويفرّون من العاداتِ والمشاربِ الغريبةِ عنهم فرارَهم من الأسدِ مخافةَ أن يرقّ هذا الحاجزُ القائمُ بينهم وبين الأممِ الأخرى، فتنحلَّ جامعتُهم، فتهدأ حميّتُهم، فتجمدَ نفوسُهم، فإذا هم ميّتون، ثم لا يُبعثون.

وكان بين الصغارِ في الأسرةِ والكبارِ فيها معاهدةُ رحمةٍ واحترام يحترمُ الصغيرُ الكبيرَ، فيُكْبِرُ عملَه وإرادتَه ومذهبَه، فإذا أنزلَ نفسَه منه هذه المنزلةِ، أصبحَ بحكم الطبيعةِ مرآةً له تنطبعُ فيها تلك الأعمالُ والإراداتُ والمشاربُ، حتَّى إذا أصبحَ الصغيرُ كبيرًا، وجدَ من صغيرِه ما وجد منه كبيرُه، فلا تزالُ سلسلةُ التوارثِ في الأسرةِ متّصلةً اتصالًا تعيا به الحوادثُ، وتكبُو دونه عادياتُ الليالي.

ويرحمُ الصغيرَ الكبيرُ فلا يألُوه نصحًا في حاضرِه ومستقبلِه، ولا يفتأُ يطلبُ عنده ما عند نفسِه حتّى يتمّ بينهما التناسخُ، فإذا هو هو، حتّى إذا قضَى اللهُ فيه قضاءَه لا تفقدُ الأسرةُ بفقدِه شيئًا.

فمن لنا اليومَ بتلك السعادةِ التي أثكلَتْنا إيّاها المدنيّةُ الغربيّةُ يومَ أظلّتنا بعلومِها ومعارفِها، ومخترعاتِها الخاليةِ، وزخارفِها اللامعةِ الباطلةِ، فانقلبَتِ المعيشةُ البيتيّةُ اجتماعيّةً فرديّةً محضةً؛ فالأخَوان متناكران، والزوجان متنافران، والولدُ شقيٌّ بأبيه، والأبُ شقيٌّ بولدِه، وكأنّ ساحةَ المنزلِ ساحةُ الحربِ، لا ترى فيها غيرَ وجوهٍ مقطّبةٍ ونفوسٍ منقبضةٍ، وأشلاءٍ فوق أشلاءٍ، ودماءٍ أثر دماءٍ، وشقاءٍ ليس يعدله شقاءٌ.

ومن كان في شكٍّ من هذه الحقائقِ فإنّي أكِلُه إلى جداولِ القضايا في المحاكم فإنْ لم يرَ أنّ أكثرَ المخاصماتِ فيها - خصوصًا المدنيّةَ منها - واقعةٌ بين الأقاربِ وذوي الرحمِ، فلَه حكمُه ما شاء.

إنْ أَبيْتَ إلّا أنْ تتمثَّلَ لك الحقيقةُ بأكملِ وجوهِها، فاسمعْ قصّةَ رجلٍ مصريّ كان ذا ثروةٍ متوسّطةٍ عاشرَتْ آباءه أجيالًا متعدّدةً؛ فما كانت تضيقُ بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثةُ أولادٍ و«امرأةٌ جديدةٌ» متعلّمةٌ تعرفُ كلَّ شيءٍ إلّا واجباتِها وواجباتِ منزلِها وزوجِها وأولادِها، وليتَها جهلَتْ كلَّ شيءٍ إلّا هذا، فتكونُ قد علمتْ كلَّ شيءٍ، وتحبُّ مطالعةَ الرواياتِ الغراميّةِ الفاسدةِ حبًّا ملكَ عليها مشاعرَها وخوالجَها، فربّما عرضَ لها المهمُّ من الأمرِ فلا تخفُّ له قبلَ فراغِها من الفصلِ الذي تُطالعُهُ.

وتحبُّ التمثيلَ، فتقضي ليلَها في مشاهدتِه، ونهارَها في سردِ وقائِعه ومشاهدِه على صواحبِها وأترابِها، وربّما كانتْ تهمسُ في آذانِهم أن ليتَها ترَى (روميو) فتكونَ له (جوليت)[1]، وتبغضُ الحجابَ بغضَ الحرائرِ للسفورِ.

---

(١) روميو وجوليت: اسم رواية لشكسبير.

فيومُها نصفان: نصفٌ للخروجِ، ونصفٌ للتهيّؤ له، فهي خارجَ المنزلِ من مَطْلِعِ الشمسِ إلى مغربِها، بنَى بها زوجُها بعد وفاة زوجتِه الأولى، فلم يغتبطْ بها غيرَ عامٍ واحدٍ، ثم ضربَ الدهرُ ضرباتِه، فإذا بينهما عِيشَةٌ لا أظنُّ أنّ الجحيمَ أشدُّ نكالًا منها.

أمّا أولادُه، فأدخلَهم مدارسَ مختلفةً تعلّموا فيها لغاتٍ مختلفةً: الإنكليزيّةَ والفرنسيّةَ والألمانيّةَ، ثم تخرّجوا، هذا انكليزيٌّ بفظاظَتِه وخشونتِه، وهذا فرنسيٌّ بخلاعتِه واستهتارِه، وذاك ألمانيٌّ بخيلائه وكبريائِه، وجميعُهم متفرنجون مشربًا ومذهبًا ومطعمًا وملبسًا ومسكنًا، وما فيهم مَنْ تفرنجَ هِمّةً وعمَلًا.

خرجُوا من المدارسِ بلا دينٍ ولا وطنٍ. أمّا الدّينُ، فلأنّ أكثرَ مدارسِنا حتى الأهليّةِ منها ماديّةٌ محضةٌ، لا تعلّقَ للدين بشأنٍ من شؤونِها، والدّينُ خلقٌ شأنُه كبقيّةِ الأخلاقِ، لا يرسخُ في النفسِ إلّا بتكرّرِ الصورِ الدينيّةِ وتداوُلِها عليه، فإنْ بَعُدَ عهدُها به، أغفلَتْه وأنكرَتْه، وكذلك كانَ شأنُ هؤلاءِ الأولادِ المساكينِ، فقسَتْ قلوبُهم، وجمدَتْ نفوسُهم، وفقدُوا بفقدِ دينِهم أطيبَ عزاءٍ يستروحُه الإنسانُ في هذه الحياةِ المملوءةِ بالمصائبِ، الحافلةِ بالكوارثِ والهمومِ.

والإنسانُ مهما طالَ حولُه، وكثرَ طولُه، واتّسعَتْ مذاهبُ قوّتِه، فليس ببالغٍ من دهرِه المعاندِ ما يريدُ، لولا زهرةُ الأملِ التي يتعَهّدُها الدينُ بالسقيا في قلبِ المؤمنِ، فيستروحُ منها ما يروّحُ عن قلبِه، ويسرّي عن نفسِه. ولولا يقينُه أنّ هناك حولًا أكبرَ من حولِه، وطولًا أعظمَ من طولِه، وإلهًا قادرًا يقرّبُ إليه ما يريدُ ممّا ضاقَ ذرعُه، وعيّتْ عنه قوّته.

وأمّا الوطنُ، فلأنّ المدارسَ عندنا تديرُها من وراء ستارٍ أيدٍ أجنبيّةٌ تربّي التلاميذَ لها لا لأوطانِهم.

فكنتَ ترى منزلَ الرجلِ كأنّما هو مجمعٌ من مجامعِ السفراءِ، تركيٌّ متمسّكٌ بتركيّته، وإنكليزيٌّ يهتِفُ ليلَه ونهارَه بأنّ الدولةَ الإنكليزيّةَ سيّدةُ البحارِ، وأنّ الشمسَ لا تغيبُ عن أملاكِها، وفرنسيٌّ يعبدُ فرنسا ويسبّحُ بحَمْدِها، ويصفُها بأنّها أمّةُ العدلِ والرحمةِ، وأنّ أسعدَ المستعمراتِ مستعمراتُها، وألمانيٌّ يستظهرُ خطبَ الامبراطورِ، ويتكهّنُ أنّ المستقبلَ لألمانيا يوم يُمحَى اسمُ انكلترا وفرنسا من مصوّرات الجغرافيا.

وكثيرًا ما يقعُ بين المتفرنس والمتألمن النزاعُ الطويلُ في شأنِ الألزاس واللورين[١]، وبين المتألمن والمتكلنز الشقاقُ العظيمُ في واقعةِ واترلو، وأي القائدَين كان له الفضلُ فيها بلوخن أو ألنجتون؟ ولا يتّفقون إلّا في الساعةِ التي يذكُرون فيها أمّتهم، فإنّهم يمثّلونها لأنفسِهم وللناسِ أقبحَ تمثيلٍ، ويُلبِسونَها ورجالَها قديمًا وحديثًا أثوابَ البراقعِ المضحكةِ، غير مستحيين من أنفسِهم ولا من الناسِ، ولا مبالين بالأدمعِ المنهلّةِ من ناحيةِ والدِهم الجالسِ ناحيةً يندبُهم، ويندبُ نفسَه معهم؛ فبئسَ الاختلافُ حينَ يختلفون، ولا حبّذا الاتفاقُ يومَ يتّفقون.

---

(١) الألزاس واللورين: مقاطعتان في فرنسا.

وهكذا انحلّتِ الجامعةُ في هذا المنزلِ، وتفرّقَ أفرادُ تلك الأسرةِ أيّما تفرّقٍ، وانقسموا على أنفسِهم كلَّ الانقسامِ، فلا يصطحبون في متنزهٍ، ولا يجتمعون لصلاةٍ، ولا يَتَصافَوْن في سَمَرٍ، ولا يتّفقون في شأنٍ من شؤونهم البيتيّةِ، حتّى أصبَح لكلٍّ منهم من المأكلِ والمشربِ والملبسِ وجميعِ مرافقِ الحياةِ ما يطالبُه به خلقُه المباينُ لخلقِ أخيه أو أبيه.

فأنّى لهم التعاضدُ الذي كان لآبائهم من قبلُ في خوضِ غمراتِ الحياةِ؟ وأنّى لوطنِهِمْ أنْ يسعدَ بهم بعد عجزِهم عن إسعادِ أنفسِهم؛ والمنزلُ قوامُ الأمّةِ تسعدُ بسعادتِه، وتشقَى بشقائِه؟

وأي شأنٍ لهذه المعلوماتِ الكثيرةِ التي حشوا بها أذهانَهم، وهل أفادوا بها إلّا هذرًا في المنطقِ، وثرثرةً في اللسانِ، وشغلًا للأذهانِ، لا يغني عن سعادةِ الحياةِ وهنائِها فتيلًا؟

ولو عقلوا أنّ ذلك العلمَ القليلَ الذي كان يعلمُه آباؤنا ونسمّيه جهلًا وهمجيّةً، وهو خيرٌ من علمِنا الكثيرِ المستفيضِ الذي نساجلُهم به، وننعي عليهم تاريخَهم من أجلِه، لأنّهم كانوا بقليلِهم هذا يعملون ما نعجزُ عنه نحن بكثيرِنا.

أجل إنّهم كانوا يجهلون عددَ أقسامِ الأرضِ، وأنَّ مصرَ في شمالِ إفريقيا، وسوريا في غرب آسيا، ولكنّهم كانوا يعلمون أن وطنَهم حيثما حلَّ من أقسامِ الأرضِ محبوبٌ لديهم، وأنّ أبناءَ وطنِهم إخوةٌ لهم يسعدُون معًا ويشقَون معًا، وأنّ سعادتَهم في استقلالِهم، وشقاءَهم في امتدادِ اليدِ الأجنبيّةِ إليهم.

وكانوا يعتقدون كثيرًا من الخرافاتِ والأوهامِ، وأنّ هناك أرواحًا خيريّةً وشرّيّةً تنفعُ وتضرُّ. وكانوا يتمسّحون بالمعابدِ والمشاهدِ، ويطأطئون رؤوسَهم بين يدي رؤساءِ الأديانِ تحنّثًا وتعبّدًا، وعندي أنّ دينًا خرافيًّا خيرٌ من لا دينٍ، لأنّ لهذه المعبوداتِ الوهميّةِ في نفوسِ العابدين لها سلطانًا قاهرًا يقاومُ أهواءَ الشرِّ فيها، ويطهّرُها من كثيرٍ منَ الرذائلِ التي تعيَا بها القوانينُ الشرعيّةُ والوضعيّةُ، كالخيانةِ والكذبِ، والحقدِ والحسدِ، وسَفْكِ الدماءِ، واغتيالِ الأموالِ، وغيرِ ذلك من الشرورِ الإنسانيّةِ التي لا تُزْجَرُ النفسُ عنها ما لم يكنْ منها لها زاجرًا، والتي فشَتِ اليوم بين طبقاتِ المتعلّمين الذين أخذوا العلمَ مجرّدًا عن روحِ التربيةِ وصبغةِ الأخلاقِ.

ولقد كان آباؤنا على علّاتهم يعتمدُون في أكثرِ عقودِهم من بيعٍ وشراءٍ، وهبةٍ وقرضٍ، ورهْنٍ على صِدْقِ ألسنتِهم، ووفاءِ قلوبِهم، فكان الرجلُ يأمنُ أن يقرِضَ صاحبَه الآلافَ المؤلّفةَ من الذهبِ بلا كتابةِ صكٍّ ولا شهادةِ شاهدٍ، فأصبَحْنا نكتُب الصكوكَ، ونستشهدُ الشهودَ على الدانقِ والسحتوتِ[١]، والويلُ كلُّ الويلِ لصاحبِ الحقِّ إذا ضاعَ صكُّه، أو أنكرَ شهودُه وكثيرًا ما يفعلون.

وجملةُ الحالِ أنّهم كانوا يجهلون أكثرَ ما نعلمُ، ولكنْ لم يجنِ عليهم جهلُهم أكثرَ ممّا جنَى علينا علمُنا، وكانوا محرومين أكثرَ ممّا ننعمُ به اليومَ من مساكنَ فاخرةٍ ومراكبَ فارهةٍ،

---

(١) الدانق والسحتوت: من العملات.

وملابسَ زاهيةٍ وفُرُشٍ وثيرةٍ، وآنيةٍ صقيلةٍ وأدواتٍ للمأكلِ والمشربِ ثمينةٍ، ولكنّهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسِهم شيئًا من هذا كلِّه لأنّهم ألفوا معيشتَهم البسيطةَ كما أَلِفْنا نحن هذه المعيشةَ المركّبةَ، فنحن وهم سواءٌ في الرضا بحالتَيْنا، إلّا أنّ معيشتَنا يكدِّرُها الفقرُ والإفلاسُ الآجلُ أو العاجلُ، ومعيشتَهم لم يكنْ يكدِّرُها من ذلك شيءٌ، وها هي دفاترُ المصارفِ وبيوتُ الأموالِ مكتظّةٌ بديونِ الفلّاحين التي كانوا في غنًى عنها، لولا المدنيّةُ الحاضرةُ التي قلبَتِ الكماليّاتِ في نظرِهم إلى حاجيّاتٍ؛ فبنوا القصورَ، وشادوا الدورَ، وما شادوا لَوْ يعلمون إلّا قبورًا دفنوا فيها راحتَهم وهناءَهم، ومستقبلَ ذرّيتِهم من بعدِهم.

فإنّ هؤلاءِ الأولادَ المساكينَ بعد أن خرجُوا من المدارسِ بلا دينٍ، ولا وطنٍ أرادوا أن لا يُبقوا في قوسِ الحرّيةِ منزعًا، فأطلقوا لأنفسِهم العنانَ في سبيلِ الشهواتِ واللذائذِ، فكانوا يسهرون الليلَ بين رنينِ الكؤوسِ وضربِ الدفوفِ، ثمّ ينامون النهارَ بين التمطّي والثؤباءِ[١]، حتى نبَتْ بهم وظائفُهم التي هي كلُّ ما حصلوا عليه من علومِهم ومعارفِهم، فأبعدتْهم عنها.

فأصبحُوا كَلًّا[٢] على أبيهم وعلى الناسِ، لم ينفعْهم علمُهم، ولم تُغْنِ عنهم شهادتُهم بعد أن نفختِ الكبرياءُ في صدورِهم، فأبَوا أن ينزلوا للاحترافِ بما يقوّمُ حياتَهم كما يفعلُ أولئك الذين أنضوا ركائبَ شبابِهم في طريقِ تقليدِهم، وباعوا في سوق التشبّه بهم كلّ ما تملكُ أيمانُهم وقلوبُهم، وبعد أن ملكتِ الشهواتُ قيادَهم، فما وجدُوا في أنفسِهم متّسعًا لسواها، فأغروا بثروةِ أبيهم يأخذون منها بالحقِّ تارةً وبالباطلِ تاراتٍ.

وكانوا قد قلّصُوا ظلالَها أوّلًا بنفقاتِ دراستِهم، وثانيًا بابتياعِ ما حَسُنَ لفظُه وقَبُحَ معناه من السِّلَعِ الأوربيّةِ، التي تُفني خزائنَ روكفلر[٣] وروتشلد[٤] قبل الوصولِ إلى إشباعِ بطونِ تجّارها، فَنَضَبَ معينُها ولم يبقَ منها حتّى الذماءُ[٥]، فتبدّلَ ذلك النعيمُ شقاءً وتلك السعادةُ والرفاهيةُ فقرًا وعدَمًا.

أما الوالدُ فقضى شهيدَ العلومِ والمعارفِ، والمخترعاتِ والمستحدثاتِ، وأمّا الأولادُ فاغتالتْ أحدَهم يدُ الزهريّ، وكانت لأمثالِه من المغتالين، واحتوى الآخرَ فراشُ السلّ حيث لا زائرَ ولا طبيبَ، وافترشَ الثالثُ ترابَ السجنِ على أثرِ جنايةٍ دفعَه إليها العَوزُ والحاجةُ، وفرّتِ «المرأةُ الجديدةُ» إلى مَعْرِضِ الأعراضِ حيث يبتاعُها الشقاءُ بثمنٍ بخسٍ وهو فيها من الزاهدين:

كأنْ لم يكنْ بين المجونِ إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمرْ بمكّةَ سامرُ

هذه قصّةُ منزلٍ من منازلنا، وكلُّ المنازلِ بيننا ذلك المنزلُ إلّا ما رحمَ اللهُ، فلو أنّ باكيًا بكى على ما آلتْ إليه حالةُ هذه الأسرةِ الشقيّةِ فهو إنّما يبكي أسَرًا متعدّدةً وأمّةً كاملةً:

---

(١) الثوباء: التثاؤب والتمطّي. (٢) الكلّ: العالة، المصيبة.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) هو ماير أنسلم روتشيلد (ت١٢٢٨هـ/ ١٨١٢م) مصرفي يهودي، ألماني الأصل. اشتهرت هذه الأسرة بالغنى.

(٥) الذماء: بقيّة النفس.

لقد لامني عند القبورِ على البكا رفيقي لِتَذْرافِ الدموعِ السوافِكِ
فقلتُ له: إنّ الأسَى يبعثُ الأسَى دعُوني فهذا كلّهُ قبرُ مالكِ[1]

وجملةُ القولِ أنّ للحاضرِ سيّئاتٍ فوق سيّئاتِ الماضي، فلا خيرَ في العصرين، ولكنّ ويلًا أخفُ من ويلين، والأممُ لا تسعدُ بمعرفةِ الخيرِ والشرِّ، فالخيرُ والشرُّ معروفان حتّى لأمّةِ النملِ، وإنّما سعادتُها في معرفةِ خيرِ الخيرين وشرِّ الشرَّيْن، ولئِنْ دام هذا الحالُ، واطّردَ المقياسُ فالغدُ شرٌّ من اليومِ كما كان اليومُ شرًّا من الأمسِ.

❁ ❁ ❁

المرقص

حدّثَ أحدُ الأصدقاءِ قال: ذهبتُ ذاتَ ليلةٍ إلى مرقصٍ من مراقصِ الأزبكيّةِ، ولم أكنْ زرتُه ولا زرتُ غيرَه من قبلُ، فرأيتُ على بابِه جنديًّا يتمشّى في عَرَصَتِه مشيةً هادئةً مطمئنّةً، فذُعِرْتُ لمرآه، وتراجعْتُ قليلًا قليلًا، وكدتُ أعتقدُ أنّني أخطأتُ الطريقَ إلى المرقصِ، وأنّني بين يدَي دارٍ من دور الحكومةِ يحرسُها حاجبُها، لولا أنّني لم أرَ في وجوهِ الداخلين ذلك الخوفَ والاضطرابَ، والذلَّ والانكسارَ، الذي اعتدتُ أن أراه في وجوهِ الشاكين والمتظلّمين.

وقفتُ ساعةً أتردّدُ بين الإقدامِ والإحجامِ حتّى لَمَسَ كتفي لامسٌ، فالتفتُّ ورائي، فإذا صديقٌ من أصدقائي يسألني: ما وقوفُك ههنا؟

فقلت له ما قاله أبو العيناء[2] لصاحبِه حينما سألَه عن سببِ بكورِه: أراك تشاركني في الفعلِ وتفردني بالعجبِ.

قال: أنا أفتّشُ عن ابن عمي.

قلت: وأنا أفتّشُ عنك.

فابتسم وقال: هيا بنا ندخل قبل أن تمتدَّ سلسلةُ التفتيشِ إلى حيث ما لا نهايةَ له. وأمسكَ بيدي حتّى جَازَ بي بابَ المرقصِ.

فسألتُه ما هذا الجنديُّ الواقفُ أمامَ الباب؟

قال: كيف ذهبَ عنك أنّ حكومتَنا قد أصبحتِ اليومَ حكومةً مدنيّةً لا أدبيّةً، فتساوتْ في نظرِها «المصالحُ» والمراقصُ، واختلطَ عليها الأمرُ بين مواقفِ القضاءِ، ومعاهدِ البغاءِ، فأصبحَ الجنديُّ يحمي أبوابَ العاهرات كما يحمي أبوابَ الوزاراتِ، ويقفُ أمام الباراتِ موقفَه أمام الإداراتِ.

وإنّ العينَ لا تكادُ تملكُ مدامعَها سحًّا وتذرافًا كلّما أبصرتُ هذا الجنديَّ الظريفَ واقفًا

---

(١) الأبيات لمتمم بن نويرة يرثي أخاه مالكًا.

(٢) أبو العيناء (ت٢٨٤هـ/٨٩٦م) شاعر عباسي مشهور بنوادره وقصصه.

هذا الموقفَ الذليلَ، يسمعُ قِراعَ الدفوفِ لا قراعَ السيوفِ، ويرى حمرةَ الصهباءِ لا حمرةَ الدماءِ، ويحمي الفسقَ والفجورَ لا القلاعَ والثغورَ؛ وما أعجبُ لشيءٍ عجبي لهذه الحكومةِ التي تضنُّ بجنديِّها أن يشتمَه شاتمٌ أو يلمسُه لامسٌ، فتغضبُ له غضبةً مُضَريّةً[1] تتراءى فيها الشهامةُ والحميّةُ، والعزّةُ والنخوةُ، ثم لأتضنّ به أن توَجّرَه نائحةً في الجنائزِ، أو قوّادًا في المراقصِ، وهو هو بعينه الذي يمثّلها في وقفاتِه، وينوبُ عنها في غدواتِه وروحاتِه.

هذا ما كان يحدّثني به ذلك الصديقُ وهو سائرٌ بي إلى قاعةِ المرقصِ حتّى وصلتُ إليها، فماذا رأيتَ؟

إن كنت لم تسمعْ في حياتِك أنّ فدانًا واحدًا من الأرضِ يبتلعُ في جوفِه ستّةَ ملايين من الأفدِنة فاعلمْ أنّه المرقصُ الذي يأكلُ وحدَه جميعَ ما تنبتُه تربةُ مصرَ من الخيراتِ والبركاتِ، فكأنّه العينُ التي تَسعُ الفضاءَ بأرضِه وسمائِه، أو القلبُ الذي يحملُ في سويدائه علمَ ما كان وما يكونُ.

رأيتُ الدنانيرَ ذائبةً في الكؤوسِ، والعقولَ جامدةً في الرؤوسِ، والحبائلَ منصوبةً لاستلابِ الجيوبِ، والسهامَ مسدّدةً لاصطيادِ القلوبِ، ورأيتُ من كنتُ أحسبُه أوفرَ الناسِ عقلًا وأذكاهم قلبًا، ومن كنت أراه فأغضي بين يديه إجلالًا وإكبارًا، واقعًا في حِبالةِ بَغيٍّ[2] تقيمُه وتقعدُه، وتطويه وتنشرُه، وتعبثُ به عبثَ الطفلةِ بلعبتِها؛ وهو في غيرِ هذا المكانِ قيصر الرومان عزّةً وفخارًا، وكسرى فارس أنفةً واستكبارًا.

رأيتُ من يزعمُ أنّ اللهَ قد وهبَه عقلًا يخترقُ أشعّةَ حُجُبِ الغيبِ، وعلمًا تتساوى أمامَه المادّةُ وما وراءها، ومن لا يزالُ يتمثّلُ صبحَه ومساءه بقول الشاعر:

وعلمتُ حتّى ما أسائلُ واحدًا عن حرفِ واحدةٍ لكي أزدادَها

يجهلُ قضيّةً من القضايا الأوليّةِ التي يَشْتركُ في فهمِها الأذكياءُ والأغبياءُ، والعلماءُ والجهلاءُ.

رأيتُه يجلسُ في المرقصِ فتمرُّ به البَغِيّ فما هي إلّا لمحةُ طرْفٍ، أو غمزةُ كفٍّ حتّى تحدّثَه نفسُه أنّه قد وقعَ من نفسِها، وملأ فراغَ قلبِها، فيدعوها إليه فتجلسُ بجانبِه، فما هي إلّا ابتسامةٌ خاليةٌ، أو كلمةٌ كاذبةٌ، حتّى يقسمَ بكلّ محرجةٍ من الإيمانِ، أنّ نفسَه صادقةٌ فيما حدّثَته، وأنّ الفتاةَ قد علقَتْ به علوقًا لا نجاةَ لها من بعدِه إلى يوم يبعثون.

هنالك يبذلُ لها ما يشاءُ من نفسِه وشرفِه ومالِه، ويرَى أنّ ذلك قليلٌ في جانب ما تبذلُ له من دقائقَ تقضيها بين يدَيْه، وابتساماتٍ تجودُ بها عليه.

لقد كذَبتْك نفسُك أيّها الرجلُ فها هي المرآة بجانبِك، فهل ترى فيها منظرًا رائعًا أو جمالًا ساطعًا، يأسرُ أقسى النساءِ قلبًا، وأعصاهنّ عنانًا.

---

(١) الغضبة المضريّة: كناية عن الشدّة، ومضر قبيلة عربيّة كبيرة العدد.

(٢) البغيّ: العاهرة والجمع بغايا.

إنّ الفتاةَ التي أسمعَتْكَ كلمةَ الحبِّ قد أسمعَتْها قبلَك وستسمعُها بعدَك كلَّ صاحبِ جيبٍ مثلِ جيبِك، وعقلٍ مثل عقلِك.

وإنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أقولُ فأمسكْ عن فتحِ الزجاجاتِ لحظةً قصيرةً، ثم انظرْ بعد ذلك أين مكانُك من نفسِها، وموقعُك من قلبِها، فإنْ لم تمطرْ عليك سحائبَ اللعناتِ، وتجعلْكَ غرَضًا لسهامِ التهكّماتِ، فأنت أصدقُ الصادقين، وأنا أكذبُ الكاذبين.

رأيتُ هناك كلَّ حاسّةٍ من الحواسِّ قد لبستْ منظارًا يكبّرُ المنظوراتِ، ويضاعفُ المسموعاتِ، تغني المغنيّةُ بصوتٍ مضطربِ النغماتِ، باردِ الترجيعاتِ، ثقيلِ الحركاتِ والسكناتِ، فتمتلىءُ أرجاءُ القاعةِ بالآهاتِ، وتدوّي فيها الصيحاتُ المزعجاتُ، وتطلُّ العجوزُ الدردبيسُ[1] على الناسِ بوجهٍ مغضّنٍ وجفنٍ مقرّحٍ، وسنٍّ بارزٍ، وخدٍّ غائرٍ، فتطيرُ حولَها القلوبُ، وتتحلّبُ لها الأفواهُ، وتترامَى تحت أقدامِها الوجوهُ، فقلتُ في نفسي: أهذا هو المرقصُ الذي تُخْرَبُ فيه البيوتُ العامرةُ، وتَذْبُلُ فيه الرياضُ الزاهرةُ؟

أهذا هو الذي تتدفّقُ فيه الأموالُ الغزارُ تدفُّقَ الأنهارِ في البحارِ، وتُقبرُ فيه نفوسُ الكرامُ قبل أن تُقبَرَ تحت الرجام؛ واللهُ لا يبلغُ العدوُّ منّا بخيلِه ورجلِه وأساطيلِه وقنابلِه، ولا الأرضُ بزلازلِها وبراكِينها، ما يبلَغُ منّا المرقصُ ببغاياه.

قال المحدّثُ: والحقَّ أقولُ إنّي دخلتُ المرقصَ وأنا أحسبُ أنّي أنفّسُ عن نفسي كربةً، فرأيتُ ما زاد نفسي همًّا، وملأ قلبي غيظًا، فقلتُ لصاحبي: هل لك في القيام؟ فقامَ وقمتُ وأنا أقول: والله ما أدري ما تَرَكَ هذا المكانُ للمارستان؟



الماضي والحاضر

عندي أنّ الفضيلةَ والرذيلةَ كالجمالِ والقبحِ أمران اعتباريان يختلفان باختلافِ الأمكنةِ والأزمنةِ، فكما أنّ الجمالَ في أمّةٍ قد يكونُ قبحًا في أمّةٍ أخرى كذلك الفضيلةُ في عصرٍ قد تكونُ رذيلةً في عصرٍ آخر.

ليست الفضائلُ والرذائلُ أسماءَ توفيقيّةً كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلُها، وليست الفضيلةُ فضيلةً إلّا لأنّها طريقُ السعادةِ في الحياةِ، ولا الرذيلةُ رذيلةً إلّا لأنّها طريقُ الشقاءِ فيها، فحيث تكونُ السعادةُ في صفةٍ فهي الرذيلةُ، وإنْ كانت صفةَ الكرم.

اعتادَ علماءُ الأخلاقِ في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ من عهدِ آدمَ إلى اليومِ أن ينشروا لنا في كلِّ كتابٍ يؤلّفونه، أو رسالةٍ يدوّنونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان، يكتبون على

(١) الدردبيس: العجوز الداهية.

رأسِ أحدِهما عنوانَ «الفضائل»، وتحته كلماتُ الشجاعةِ، والكرمِ، والأمانةِ، والوفاءِ، والعفّةِ والمروءةِ والصدقِ، والعدلِ، والرحمةِ، وعلى رأسِ ثانيهما عنوان «الرذائل»، وتحته كلماتُ الجبنِ، والبخلِ، والخيانةِ، والغدرِ، والطمعِ، والكذبِ، والظلمِ، والقسوةِ.

وأرى أنّه قد آن لهم أن يعلموا أنّ الناسَ اليومَ غيرُهم بالأمسِ، وأنّ أساليبَ الحياةِ الحاضرةِ غيرُ أساليبِ الحياةِ الماضيةِ، وأن كثيرًا من الصفاتِ التي كانت في عهدِ البداوةِ والسذاجةِ رذائلُ يجتويها[١] الناسُ، ويتبرّمون بها، ويستثقلون منها، قد أصبحت في هذا العصر عصرِ المدنيّةِ الماديّةِ المؤسّسةِ على المنافعِ والمصالحِ حالةً واقعةً مقرّرةً في نظامِ المجتمعِ البشريِّ، وأُسُسًا ثابتةً تُبنَى عليها جميعُ أعمالِه وشؤونِه؛ فلا بدَّ للناسِ منها، ولا غنَى لهم عنها، ولا مندوحةَ[٢] لهم إن أرادوا أن يخوضوا معتركَ الحياةِ مع خائضيه من أن يتعلّموها تعلّمًا نظاميًّا، ويدرسُوها مع ما يدرسون من علومِ الحياةِ التي يتوقَّفُ عليها نظامُ عيشِهم، ويتألّفُ منها شأنُ سعادتِهم وهنائِهم.

كان الكرمُ فضيلةً يومَ كان الناسُ يحفظون الجميلَ لصاحبِه، ويعرفون له يدَه التي أسداها إليهم، فإذا هوَى به كرمُه في هوّةٍ من هوى الفقرِ، لا يعدمُ أن يجدَ من بين الذين أحسنَ أليهم، أو عظُمَ في نفوسِهم شأنُ إحسانِه - من يمدُّ إليه يدَ المعونةِ ليستنقذَه من شقائِه، أو يرفِّه عليه. أمّا اليومَ، وقد أنكرَ الناسُ الجميلَ، واستثقلوا حملَه على عواتِقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبِه يومَ تزلّ بِهِ قدمُه، ويصبّون على رأسِه جميعَ ما في كتبِ المترادفاتِ من أسماءِ الجنونِ وألقابِه، فليس الكرمُ فضيلةً، وليس من الرأيِ الدُّعاءُ له والحضُّ عليه.

وكانتِ الرحمةُ فضيلةً يومَ كان الناسُ صادقين في أحاديثِهم عن أنفسِهم، فلا يعترفُ بالبؤسِ إلّا البائسُ، ولا يلبَسُ القديمَ إلّا من عجزَ عن لبسِ الجديدِ، أمّا اليومَ، وقد ذلّتِ النفوسُ، وسفلَتِ المروءاتُ، فلبسَ الفقرَ غيرُ الفقيرِ، وانتحلَ البؤسَ غيرُ البائسِ، وأصبحَ نصفُ الناسِ كسالى متبطّلين لا عملَ لهم إلّا اللجوءُ إلى ظلالِ القلوبِ الرحيمَةِ يعتصرونها ويحتلبون دَرّتَها حتّى تجفَّ جفافَ الخشفِ[٣] البالي، فالرحمةُ هي الفقرُ العاجلُ، والخسرانُ المبينُ.

وكانتِ الشجاعةُ فضيلةً يومَ كان الناسُ ينصرون الشجاعَ ويؤازرونَه ويتّبعون خطواتِه في طريقِه التي يذهبُ فيها، فلا يتخلّون عنه، ولا يخذلونه حتّى يتمَّ له الظفرُ الذي يريدُ، أمّا اليومَ وقد فترَتْ هِمَمُ الناسِ، ووهَتْ عزائمُهم، وماتَتْ في نفوسِهم الحفائظُ والغيرُ، ووَكَلَ كلٌّ أمرَه إلى صاحبِه، فإنْ رأوْه قائمًا بدعوةٍ وطنيّةٍ أو اجتماعيّةٍ، أغروه بالمضي فيها، ووقفوا عن كثبٍ ينظرون ماذا يفعلُ، فإنْ ظفرَ هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمةَ التي غنِمَها؛ وإنْ فشلَ خذلوه، وتنكّرُوا له، فالشجاعةُ لا يجدُ صاحبُها من ورائها إلّا التهلكةَ والشقاءَ.

---

(١) يجتوي: يكره. (٢) لا مندوحة: لا مَفرَّ.

(٣) الخشف: الخزف وما شابه.

وكانتِ القناعةُ فضيلةً يومَ كان الفضلُ هو الميزانَ يزنُ به الناسُ أقدارَ الناسِ وقيمَهم، ويومَ كان الفقرُ مفخرةً للشريف إذا عُقِدَتْ يدُه، وعزفَتْ نفسُه. والغنى معرّةً[١] للدنيء إذا سَفُلَتْ مساعيه وأغراضُه، أمّا اليومَ وقد ماتَ كلُّ مجدٍ في العالمِ إلّا المجدُ الماليّ، وأصبحَ الناسُ يتعارفون بأزيائِهم ومظاهِرهم، قبلَ أنْ يتعارفوا بصفاتِهم وأعمالِهم، فالقناعةُ ذلُّ الحياةِ وعارُها، وبؤسُها الدائمُ، وشقاؤها الطويلُ.

وكان الغضبُ رذيلةً يومَ كان الناسُ يعرفون فضيلةَ الحلمِ ويقدّرونها قدرَها، ويطأطئون رؤوسَهم إجلالًا لصاحبِها، أمّا وقد أصبحَ الناسُ أشرارًا يحملون شرورَهم على كواهِلِهم، ويدورون بها في كلِّ مكانٍ يطلبون لها رأسًا يصبّونها عليه، ولا يعجبُهم مثلُ الرأسِ الضعيفِ المتهالكِ الذي لا يحسنُ الذيادَ عن نفسِه، فلا خيرَ في الحلمِ، والخيرُ كلُّ الخيرِ في الغضبِ.

الحياةُ معتركٌ أبطالُه الأشرارُ، وأسلحتُهم الرذائلُ، فمن لَم يحاربْهم بمثلِ سلاحِهم، هلكَ عند الصدمةِ الأولى.

يجبُ أن يكونَ الناسُ جميعًا إمّا فضلاً ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياءَ ليتّقيَ بعضُهم بأسَ بعضٍ. أمّا أن يتقلّدَ سوادُهم سلاحَ الرذيلةِ، والنزرُ القليلُ منهم سلاحَ الفضيلةِ وهو أضعفُ السلاحَيْن وأوهاهُما، فليس لذلك إلّا معنًى واحد: هو أن يهلكَ أشرافُ الناسِ وفضلاؤهم في سبيلِ أدنيائِهم وأنذالِهم.

إنّ الدعاءَ إلى البرِّ والإحسانِ، والرحمةِ والشفقةِ، والعدلِ والإنصافِ، والصدقِ والإخلاصِ في هذا العصرِ، إنّما هو حِبالةٌ ينصبُها الأقوياءُ الماكرون للضعفاءِ الساذجينِ ليخدعُوهم بها عن مائدةِ الحياةِ التي يجلسون عليها، فيستأثروا بها من دونهم.

فلا يدعو الداعي إلى الكرمِ إلّا لينقلَ ما في جيوبِ الناسِ إلى جيبِه، ولا إلى العفوِ إلّا ليصيبَ بشرِّه من يشاءُ دون أن ينالَه من الشرِّ شيءٌ، ولا إلى القناعةِ إلّا ليقلّلَ من سوادِ المزاحمين له على أعراضِ الحياةِ ومطامعِها، ولا إلى الصدقِ إلّا ليتمتّع وحدَه بثمراتِ الكذبِ ومزاياه.

كلُّنا يكذبُ، فلمَ يُعيبُ بعضُنا بعضًا بالكذبِ والتلفيقِ؟ وكلُّنا يبتسمُ لعدوِّه وصديقِه ابتسامةً واحدةً، فلمَ نستنكرُ الرياءَ والمصانعةَ؟ وكلُّنا يطمعُ في أن تكونَ له وحدَه جميعُ خيراتِ الأرضِ وثمراتُها، فلمَ نستفظعُ الطمعَ والجشعَ؟ وكلُّنا يتربّصُ بصاحبِه الغفلةَ ليختلَه[٢] عمّا في يدِه، فلمَ نشكُو من الظلمِ والإرهاقِ؟

إنّنا لا نفعلُ ذلكَ إلّا لأنّا نريدُ أن نستخدمَ الفضيلةَ في أغراضِنا ومآربنا كما كان يستخدمُ رجالُ الدينِ الدينَ في الأعصرِ الماضيةِ.

يجبُ أنْ يتعلّمَ الطفلُ من أوّلِ يومٍ يجلسُ فيه أمامَ مكتبِ مدرستِه أنّ الموجودَ في الحياةِ غيرُ الموجودِ في الكتبِ، وأنّ قصصَ الفضائلِ التي يقرأونها، ونوادرَ المروءاتِ والكرمِ

---

(١) المعرّة: العيب والمساءة. (٢) خَتَل: خَدَع.

والإيثارِ، وأحاديثَ الشهامةِ والشجاعةِ وعزّةِ النفسِ وإبائها، إنّما هي رواياتٌ تاريخيّةٌ قد مضتْ وانقضَى عهدُها، حتى لا يصبحَ ناقمًا على العالم يومَ ينكشفُ له وجهُه؛ ويرى سَوْءاتِه وعوراتِه، وحتّى لا يضيعَ عليه عمرُه بين التجاربِ والاختباراتِ.

وليتَ الذين يعرفون من شؤونِ الرذائلِ ودخلِها فوقَ ما أعلمُ يضعون للناشيءِ كتابًا مدرسيًّا على نمطِ كتبِ التاريخِ يوضحون له فيه كيف يكذبُ التاجرُ، ويغشّ الصانعُ، ويلفّقُ المحامي، ويدجّلُ الطبيبُ، ويختلسُ المرابي، ويرائي الفقيهُ، ويصانعُ السياسيّ، ويتقلّبُ الصحافيّ، ثم يقولون له: هذه هي الحياةُ، وهذا هو ما يجري فيها، فإن أردتَها على علّاتها، فذاك، أو لا، فدونك مغارةٌ موحشةٌ في قِمّةٍ من قممِ الجبالِ، فعشْ فيها وحيدًا بعيدًا عن العالمِ وما فيه، وكلْ ممّا تأكلُ حشراتُ الأرضِ، واشربْ ممّا تشربُ منه حتّى يوافيَك أجلُك.

الشرُّ لا يقاوَمُ إلّا بالشرِّ، والظلمُ لا يُدفعُ إلّا بالظّلم. وحاملُ السيفِ لا يُغمدُه في غِمْدِه إلّا أمامَ حاملِ سيفٍ مثلِه؛ والسيلُ الجارفُ لا يقفُ عن جريانِه إلّا إذا وجدَ في وجههِ سدًّا يعترضُ طريقَه؛ والظالمُ لا يظلمُ إلّا إذا وجدَ بين يدَيْهِ ضعيفًا، والمحتالُ لا يحتالُ إلّا إذا وجدَ أمامَه غبيًّا، والناسُ لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمنُ بعضُهم بأسَ بعضٍ إلّا إذا برزوا جميعًا في ميدانٍ واحدٍ، يتقلّدون سلاحًا واحدًا، من نوعٍ واحدٍ.

من أرادَ الفضيلةَ للفضيلةِ فسبيلُها المقدّسُ الشريفُ معروفٌ لا ريبةَ فيه، فَلْيَسْلُكْهُ كما يشاءُ، ومَنْ أرادَها على أن تكونَ وسيلةً من وسائلِ العيشِ، في عصرٍ مثلِ هذا العصرِ، وناسٍ مثلِ هذا الناسِ، فليَعْلَمْ أنه قد أخطأ الطريقَ، وأضلَّ السبيلَ.

ما أجملَ الفضيلةَ، وما أعذبَ مذاقَها، وما أجملَ العيشَ في ظلالها، لولا أنّ شرورَ الأشرارِ وويلاتِهم قد حالت بيننا وبينها! فرحمةُ الله عليها، وواأسفًا على أيّامِها وعهودِها.

❋ ❋ ❋

الشيخوخة المتمردة

حدَثَ منذ عهدٍ قريبٍ أنّ أحدَ الوجهاءِ الريفيّين كان يختلفُ إلى أسرةٍ كريمةٍ ليخطبَ إليها فتاةً من فتياتِها لابنِه، ثمّ اتّفقَ أن وقعَ نظرُه على تلكَ الفتاةِ عَرضًا، فشُغِفَ بها حبًّا، وخطبَها لنفسِه، فلم يرَ أهلُها مانعًا من أن يزوّجوها منه على تقدّمِ سنّهِ، وإدبارِ أمرِه، لأنّه أكثرُ من ابنِه مالًا، وأوسعُ جاهًا وسلطانًا، فكانتْ نتيجةُ ذلك أنْ هجرَ الابنُ منزلَ أبيه هجرةً لا رجعةَ له من بعدِها، لأنّه كان يحبُّ الفتاةَ حبًّا جمًّا، وأصابَ الفتاةَ ذهولٌ شديدٌ لا يزالُ ملازمًا لها حتّى اليوم، وأصبحَ الشيخُ حزينًا بائسًا، لأنّه أصبحَ بلا زوجةٍ ولا ولدٍ.

سمعتُ بهذه الحادثةِ، فتألّمتُ لها كثيرًا، ثمّ قرأتُ حادثةً أخرى وقَعَتْ في فرنسا في العامِ الماضي سأقصّها عليك لتوازنَ بين الحادثتين كما وازنْتُ، وتستنتجَ منهما ما استنتجتُ:

فُجِعَتْ سيّدةٌ اسمها «مرجريت بونفيل» بوفاةِ زوجِها، وهي في الخامسةِ والثلاثين من عمرِها. وكانت امرأةً بارعةَ الجمالِ، رائعةَ الحسنِ، لا يراها الرائي حتّى يُخَيَّلَ إليه أنّها الكوكبُ المشبوبُ[١] رونقًا وبهاءً، وأنّها لا تزالُ في مستهلِّ العقدِ الثالثِ من عمرِها.

فاستوحشَتْ لوفاةِ زوجِها استيحاشًا شديدًا، وبدأتْ تختلفُ إلى بعضِ الأنديةِ العامّةِ علّها تروِّحُ عن نفسِها وحشتَها وكآبتَها. فاتّصلَتْ هناك بفتًى من نبلاءِ الفتيانِ أعجبَها منه جمالُ صورتِه، وعذوبةُ أخلاقِه، وحلاوةُ سمرِه، ورقّةُ آدابِه، فأحبّته وافتتنَتْ به، وأضمرَتْ في نفسِها أن تتذرّعَ بكلِّ ما تعرفُ من الوسائلِ للزواجِ منه، وإنْ كان أصغرَ منها سنًّا بنحوِ عشرِ سنين.

فلم تزلْ تتودّدُ إليه، وتستدني قلبَه، حتّى نزلَتْ من نفسِه المنزلةَ التي تريدُها، وكانتْ إذا جلسَتْ إليه للحديثِ معه يتردَّدُ على لسانِها كثيرًا ذكرُ ابنتِها التي خلّفَتْها من زوجِها المُتوفّىٰ. فكانَ يُخَيَّلُ إليه أنّ تلك الابنةَ طفلةٌ في الخامسةِ أو السادسةِ من عمرِها، حتّى زارَها في منزلِها يومًا من الأيّامِ، فحملَ معه لطفلتِها هديّةً من اللعبِ التي يحبُّها الأطفالُ، ويطرَبُون لها، فلمّا وقعَ نظرُ مرجريت عليه وعلى ما يحملُ ضحكَتْ وقالَتْ: ما هذا الذي تحملُ؟

قال: إنّها هديّةٌ لماري أريدُ أنْ أقدّمَها إليها وأين هي؟ فأرادَتِ العبثَ به وقالت له: إنّك تجدُها في الجهةِ الشرقيّةِ من الحديقةِ على شاطئِ الجدولِ، فاذهبْ إليها، وقدّمْ لها هديّتَك بنفسِك.

فذهبَ حيث أشارَتْ، فراعَهُ أنّه لم يجدْ أمامَه طفلةً في السادسةِ من عمرِها كما كان يظنُّ، بل فتاةً كاعبًا رائعةَ الجمالِ في السادسةَ عشرةَ. فوقفَ أمامَها موقفَ الحائرِ الذاهلِ لا يدري ماذا يفعلُ، ولا ماذا يقولُ، حتّى رنَّتْ من ورائِه ضحكةُ مرجريت، وكانت قد تبعَتْه من حيث لا يشعرُ، فارفضَّ جبينُه عرقًا.

وتقدَّمَتْ مرجريت نحو ابنتِها وقالتْ لها: أقدّمُ لك يا ماري صديقي جورج الذي حضرَ اليومَ ليهديَكِ حصانًا خشبيًّا جميلًا، فهلْ تُحْسِنينَ ركوبَ الخيلِ الخشبيّةِ؟

فابتسمَتْ ماري وفهمَتِ القصّةَ، فأثّر في نفسِها خجلُ جورج وارتباكُه، فمشَتْ إليه ووضعَتْ يدَها في يدِه وقالت له: أشكرُ لك هديّتَك يا سيّدي، وأتقبّلُها منك باغتباطٍ وسرورٍ، وأعدُك أنّي سأحفظُها لك عندي تذكارًا دائمًا لاأنساه، فسُرّي عنه ما لحقه من الخجلِ، وجلسوا جميعًا يتحدّثون ويسمرون، ومرّ لهم أطيبُ يومٍ مرّ لأحدٍ حتى أظلّهم الليلُ، فاستأذنَ جورج وعادَ إلى منزلِه.

وأصبحَ بعد ذلك يختلفُ إلى منزلِ مرجريت لا من أجلِ الأمِّ وحدَها، بل من أجلِ الأمِّ والبنتِ، حتّى حضرَ صباحَ أحدِ الأيّامِ، وكانتِ الأمُّ قد خرجَتْ لبعضِ شأنها، فوجدَ ماري وحدَها، فشعرَ في نفسِه بشيءٍ من الارتياحِ لم يكنْ يشعرُ بمثلِه من قبلُ، وكأنّه كان يتمنّى أن يجدَها خاليةً، فوجدَها، وكانت جالسةً على شاطئِ الجدولِ في المكانِ الذي رآها فيه أوّلَ ما رآها.

فجلسَا معًا يتحدّثان حديثًا طويلًا ذهبَا فيه مذاهبَ مختلفةً، حتّى أشرفَا على ذلك الموردِ

(١) المشبوب: المشتعل.

العذبِ من الحبِّ، فورَدَاه، فإذا كلٌّ منهما يضمرُ لصاحبِه من الوجدِ فوقَ ما تضمرُ الأفئدةُ والقلوبُ، وإنّهما لمضطجعان وجهًا لوجهٍ على ذلك البساطِ الأخضرِ الجميلِ ضجعةً يتمنّى المصوّرُ أن يراها، فيرسُمَها، فيرسمَ صورةَ السعادةِ الكاملةِ التي يفتّشُ عنها الناسُ جميعًا، فلا يجدونها، إذ وقفتْ بهما الأمُّ من حيث لا يشعران. فرابَها منظرُهما، وخُيّلَ إليها أنّهما يتحدّثان في شأنٍ غيرِ الشأنِ الذي يأخذان فيه عادةً أمامَها، فأصغتْ إليهما، فألمّتْ بطرفٍ من حديثِهما، فدارتْ بها الأرضُ الفضاءُ دورةً كادَتْ تُصعقُ فيها، وتمثّلَ لها أنّ صرحَ حياتِها الشامخَ العظيمَ، قد خرَّ بين يدَيْها دفعةً واحدةً.

فثارَتْ من حولها عبرةٌ قاتمةٌ حجبَتْ عن عينِها كلَّ شيءٍ، فأملستْ من مكانها إملاسًا، ومشَتْ تتحامَلُ على نفسِها حتّى وصلتْ إلى غرفتِها، فتهافتَتْ على فراشِها، وبكتْ ما شاءَ اللهُ أن تفعلَ حتّى هدأ بعضُ ما بها.

فمسحتْ عَبْرتَها بيدِها، فإذا المرآةُ أمامَها، وإذا شعراتٌ بيضٌ سانحاتٌ في رأسِها تهتفُ بها أنْ قدِ انقضَى عصرُ شبابِك أو كادَ، وقد خطَوْتِ الخطواتِ الأولى إلى شيخوختِك، فأخلي مكانَك لابنتِك، فهي أولى به منك. وحسبُك من السعادةِ أن تفرحي لفرحِها، وتهنئي لهنائها. واعلمي أنّ للطبيعةِ حُكْمًا قاسيًا لا يختلفُ عليه مختلفٌ، ولا يتمرّدُ عليه متمرّدٌ إلّا هلكَ.

ومرّتْ بها على حالتِها تلك ساعةٌ كانت عواطفُ قلبِها ونوازعُه تعتركُ فيها اعتراكًا، وكان يميلُ بها الميزانُ نحو نفسِها مرّةً، فتثورُ ثائرتُها، وتأبى إلّا أن تتمتّعَ بالحياةِ الطيّبةِ كما يتمتّعُ بها أمثالُها، ونحو ابنتِها أخرى، فتلينُ عريكتُها، ويسلسُ قيادُها، وتقولُ في نفسِها: إنّها أولى به منّي، لأنّه خُلِقَ لها، وخُلِقَتْ له، حتى غلبتْ نزعةُ الخيرِ فيها على نزعةِ الشرِّ.

فخرجتْ من غرفتِها باسمةً متطلّقةً، حتّى وصلَتْ إلى مكانهما، فرأتهما مستغرقَيْن في شأنِهما الذي كانا فيه، لا يشعران بشيءٍ ممّا حولَهما، فصاحتْ بهما: أأنتما هنا يا ولديّ؟ فاضطربا إذ رأياها، فابتسمَتْ لهما، ووضعَتْ يدَها في أيديهما وعادَتْ بهما إلى غرفتِها، وجلسَتْ تتحدّثُ إليهما حديثًا طويلًا انتهَى بعقدِ الخطبةِ بينهما. وما هي إلّا أشهرٌ قلائلُ، حتّى زُفّتْ، وولدتْ لهما بعد عامٍ واحدٍ طفلةٌ كان نصيبُها ذلك الحصانَ الخشبيَّ الذي أهداه أبوها لأمّها منذ عامين حين ظنَّ أنّها طفلةٌ في السادسةِ من عمرِها.

وكانتْ قد بقيتْ بقيّةٌ من مرارةِ الألمِ في أعماقِ قلبِ مرجريت لم تزلْ تتضاءَلُ شيئًا فشيئًا، حتّى رنّ في أذنِها يومًا من الأيّامِ صوتُ حفيدتِها تدعوها «جدتي» فكان هذا آخرَ عهدِها بها.

وكذلك استطاعتْ مرجريت أنْ تعيشَ بعد ذلك سعيدةً هانئةً في ظلِّ سعادةِ ابنتِها وهنائِها.

ذلك ما فعلَ الرجلُ في السبعين من عمرِه، وهو يخطُو إلى القبرِ خطواتٍ حثيثةً، وهذا ما فعلتِ المرأةُ وهي نصفٌ لا إلى الشيخوخةِ ولا إلى الشبابِ، فجوزيَ هو على تمرّدِه على الطبيعةِ، وخروجِه عن سنتها شرَّ الجزاءِ، وجوزيَتْ هي على تعقّلِها ورزانتِها، وتأدّبها بأدبِ الحياةِ، أحسنَ الجزاءِ.

❀ ❀ ❀

عجائز بوشنج

القاعدةُ المطّردةُ في هذا البلدِ أنّ الرجلَ إذا ابتسمَ له دهرُه يومًا من الأيّام فنقلَه من أرضِ الخصاصةِ والفقرِ، إلى سماءِ الثروةِ والغنَى، بنَى بينه وبين ماضيه سدًّا مُحْكَمًا لا تنالُ منه المعاولُ، ولا تعصفُ به العواصفُ، ثم ألْقَى وراءَ ذلك السدِّ جميعَ متعلّقاتِ ذلك الماضي، زيَّه وهيأتَه، ولغتَه ولهجتَه، ومناخَه ومسكنَه، وعاداتِه وأخلاقَه، وأصحابَه وعشراءَه؛ وجميعَ صلاتِه وعلائِقه. ولو استطاعَ أن يلقيَ بالأثرين الوحيدين الباقيين له: صورتَه واسمَه لفعلَ.

يريدُ أنّه قد أصبَح إنسانًا غيرَ ذلك الإنسانِ الأوّلِ، لا صِلَة له به، ولا شأن له معه، وأنّه قد خُلِق خلقًا جديدًا.

إنّها لخلّةٌ رديئةٌ جدًّا ما رأيتُ في الخلالِ أقبحَ منها.

إنّه يفعلُ ذلك لأنّه يعتقدُ أنّ الفقرَ عيبٌ «وعار»، والفقرُ ليس بعيبٍ ولا عارٍ، فإن كانَ لا بدَّ له أنْ يرَى ذلك، فليعلَمْ أنّه قد قضَى على أبوَيه وأهلِه وعشيرتِه وأصدقائِه، بل على السوادِ الأعظمِ من أمّتِه، بل على نفسِه أيضًا، لأنّه قضَى عصرَ شبابِه؛ والشبابُ هو الحياةُ من مبدئِها إلى منتهاها، في الفقرِ والخصاصةِ[1]، والعـدم والإقلالِ.

ولا أدري ماذا يكونُ شأنُه غدًا، إذا استردَّ الدهرُ هبتَه منه، وكثيرًا ما يستردُّ الدهرُ هباتِه وعطاياه، بل لا يكاد يَهَبُ هبةً، أو يمنحُ مِنحةً حتّى يستردَّها.

عذرتُه في ثوبِه الذي خلَعه، وقلتُ: قد لبسَ لكلِّ حالةٍ لبوسَها. وفي دارِه التي هجرَها، وقلتُ: لا بدَّ أن يكونَ هناك فرقٌ بين حياةِ السعةِ وحياةِ الضيقِ. وفي لهجتِه التي غيّرها، لأنّه يعيشُ في قومٍ غيرِ القومِ الذين كانَ يعيشُ فيهم، وفي خدِّه الذي صعَّرَه[2]، وصدرِه الذي أبرزَه، وأنفِه الذي شمخَ به، لأنّ للثروةِ طغيانًا كطغيانِ الشرابِ، ولا سبيلَ إلى دفعِه والخلاصِ منه. ولكنّني لا أستطيعُ بحالٍ من الأحوالِ أنْ أعذرَه في زوجِهِ التي طلّقَها واستبدلَ بها سواها.

إنّها رفيقةُ حياتِه، وعشيرةُ صباه، وشريكتُه في سرَّائِه وضرَّائه، ويُسْرِهِ وعسرِه، وشبَعِه وجوعِه، وريِّهِ وظمئِه، وأحسبُ أنّها كانت إذا خلَتْ بنفسِها، وخلا لها وجهُ السماءِ، بسطتْ يدَيْها بالدعاءِ إلى اللهِ تعالى أن يبدّلَ عسْرَه يُسرًا، وضيقَه سَعةً، وشدّتَه رخاءً. ليس من الرأيِ ولا من الوفاءِ أن يخلعَها فيما يخلعُ من أثوابِه وأرديتِه، وأن يلقيَها وراءَ ذلك السدِّ كما يلقي نعلَه وأداتَه.

إنّها شارَكتْهُ في شدّتِه، فيجبُ أنْ تشاركَه في رخائِه، واحتملَتْهُ والدهرُ مدبرٌ عنه، فيجبُ أن يحتمِلَها والدهرُ مقبلٌ عليه، وأقرضَتْه الصبرَ على عشرتِه، فيجبُ أن يوفّيَها الصبرَ على عشرتِها إنْ كان يرَى أنّها عبءٌ ثقيلٌ عليه.

---

(١) الخصاصة: الفقر.

(٢) صعّر خدّه: أماله تكبّرًا وتيهًا.

أيريدُ أنْ يتمنّى النساءُ جميعًا لأزواجهنَّ دوامَ الفقرِ والفاقةِ حتّى لا يستبدلوا بهنّ يومَ يجدون السبيلَ إلى ذلك؟

إنّهنّ يتمنَّيْنَ ذلك فعلًا، بل يسعَيْنَ له سعيَهُنّ، لأنهنّ يجدْنَ الأمانَ على أنفسِهنّ في ضاحيةِ الفقرِ، أكثرَ ممّا يجدْنَه في ظلالِ الغنى، فيا لَلْفظاعةِ والهولِ! ويا لَلْمعيشةِ النكدةِ المريرةِ! ويا للشقاءِ الذي يهدّدُ الحياةَ الزوجيّةَ وينذرُها بالمحوِ والفناءِ!

حدّثني مَنْ أثقُ به أنّه دُعِيَ إلى وليمةٍ أقامَها أحدُ أولئك الحديثي النعمةِ، فلمّا قضوا ليلتَهم وانصرفوا، لفتَ نظرَهم منظرُ امرأةٍ بائسةٍ واقفةٍ تحت جدارِ البيتِ تتحدّثُ إلى بعضِ الناسِ، وتقولُ لهم: إنّها سيّدةُ هذا البيتِ بالأمسِ، وإنّ زوجَها طلّقَها وطردَها هي وطفلَها الصغيرَ في اليومِ الذي أنعمَ الله فيه عليه بنعمةِ الغنى؛ وليتَه صنعَ بها ما يصنعُ الكريمُ بأهلِه، فكفاها مؤونةَ العيشِ، وحماها عاديةَ الشقاءِ، بل تركَها في قريتِها وحيدةً منقطعةً، لا يعودُ عليها بقليلٍ من المالِ ولا بكثيرٍ، ولا ذنبَ لها ولا لولدِها عندَه سوى أنّه أصبحَ ذا زوجةٍ جديدةٍ، وولدٍ جديدٍ؛ وقالت: إنّها تحاولُ منذ ساعتين أن تدخلَ المنزلَ لتقابلَه وتسألَه المعونةَ والمساعدةَ، فيمنعُها الخدمُ.

إنّه لموقفٌ مؤلمٌ جدًّا أنْ تقفَ امرأةٌ على بابِ البيتِ الذي كانتْ سيّدَتَه بالأمسِ موقفَ السائلِ المتكفّفِ فلا تجدُ من يمنَحُها ما يمنحُ السائلين المتكفّفين.

لا يجدُ المرءُ لذّةَ الطعامِ إلّا إذا ذكرَ الظمأ، ولا لذّةَ السعادةِ إلّا إذا تمثّل أمامَ عينَيْهِ عهدَ الشقاءِ؛ فما أحوجَه - إذا انتقلَ من عذابِ الفقرِ إلى نعيمِ الغنى - إلى أصدقاءِ عهدِه الأوّلِ وعشرائِه، ليجلسَ إليهم من حينٍ إلى حينٍ، ويتحدّثَ معهم عن ماضِيه وحاضرِه، فيشعرَ بلذّةِ الانتقالِ من حالٍ إلى حالٍ، وما أحوجَه إلى زوجِه التي قضى معها عهدَ شقائِه أنْ تبقَى معه في عهدِ سعادتِه، ليرى في مرآةِ وجهِها صورتَه القديمةَ والحديثةَ، فيعلمُ حين يقارِنُ بينهما أنّ فضلَ اللهِ عليه كان عظيمًا.

وتُعجِبني كثيرًا قصّةُ خالد بن برمك جدّ البرامكة، وكان رجلًا أعجميًّا من قريةٍ من قرى فارسَ اسمُها «بوشنج»، وفد إلى بغدادَ وحظيَ عند الخليفةِ، فولّاه الوزارةَ؛ فلمّا ركبَ في الموكبِ الذي اعتادَ أنْ يركبَ فيه الوزراءُ يومَ العهدِ إليهم بذلك المنصبِ العظيمِ، وقفَ الناسُ له صفوفًا على جانبَيْ الطريقِ، وأطلّتْ عليه النساءُ من نوافذِ الدورِ والقصورِ، وهو مطرقٌ واجمٌ، فقال له أحدُ أصدقائِه، وكان يسيرُ بجانبه: ألا ترى هؤلاءِ النساءَ الجميلاتِ المشرفاتِ عليك من نوافذِ قصورِهنّ؟ قال: نعم أراهنّ ولكنّني كنتُ أفضّلُ أن أرى بدلًا منهم عجائزَ «بوشنج».

أي أنّه كان يتمنّى أنّ العيونَ التي رأتْه بالأمسِ وهو وضيعٌ، تراه اليومَ وهو رفيعٌ.

❁ ❁ ❁

الأجواء

ما زِلْتُ منذ حدثَتْ تلك الحادثةُ الكبرى التي رجفَ لها قلبُ مصرَ، وسالتْ لها دموعُ الفضيلةِ حزنًا وأسًى، وتحدّثَ المتحدّثون عن أولئك الفتياتِ الساقطاتِ اللواتي يعِشْنَ في تلك السجونِ العميقةِ التي يسمّونها بيوتًا عيشَ البؤسِ والفاقةِ، أعجبُ لهنّ ولأمرِهنَ، وأقولُ في نفسي:

ليتَ شِعْري لِمَ يرضيْنَ لأنفسِهنّ هذه الحياةَ الشقيّةَ النكدةَ التي لا يجدْنَ فيها علالةً من العيشِ يتعلّلْنَ بها عمّا فقدْنَ من شرفِهِنّ وكرامتِهنّ؟

وَلِمَ يصطبرْنَ على ظلمِ ذلك الرجلِ الجبّارِ الذي يستبدُّ بهنّ، ويستأثرُ بجميعِ شؤونهنّ ومصالِحهنّ، ويسوقُهن بين يدَيْه سَوْقَ الراعي ماشيتَه؟

ولِمَ لا يهربْنَ من وجهِه ويذهَبْنَ في مذاهبِ الأرضِ حيث شِئْنَ، يطلبْنَ لأنفسِهِنّ الحياةَ في جوٍّ حرٍّ مطلقٍ، والأجواءُ الحرّةُ المطلقةُ كثيرةٌ، وأسبابُ العيشِ فيها متنوّعةٌ، وما على وجهِ الأرضِ جوٌّ أسوأ من جوِّهِنّ الذي يعِشْنَ فيه، فيخفْنَ أنْ يصرْنَ إليه.

ولمْ أصدّقْ ما يقولُه بعضُ الناسِ في تأويلِ ذلك من أنّ ذلك الرجلَ الجبّارَ قد ضربَ حولهن نطاقًا من بأسِه وقوّتِه، فلا سبيلَ لهنَّ إلى اختراقِه؛ ففي البلدِ حكومةٌ نظاميّةٌ لا تسمحُ بقيامِ حكومةٍ أخرى بجانبِها، أو إنّه وضعَ في أعناقِهِنّ أغلالًا من الديونِ، وليس في وسعِهِنّ أن يبرحْنَ مكانَهُنّ حتّى يؤدّينها، فإنّ من لا يبالي بحقِّ الله، ولا حقِّ عِرْضِه، لا يبالي بحقوق الناسِ.

ولم أزلْ في حَيْرتي هذه حتّى قرأتُ بالأمسِ قصّةً وقفتُ منها على سرٍّ هذا الخلقِ الغريبِ في النساءِ، فأنا أروي لك خلاصتَها لتقفَ منها على مثلِ ما وقفتُ.

* * *

توفّيَتْ زوجُ أحدِ الدوقاتِ العظامِ في فرنسا، فحزنَ عليها حزنًا شديدًا لأنّها كانت أحبَّ إليه من نفسِه التي بين جنبَيْهِ، فكان يروّحُ عن نفسِه بالاختلافِ إلى الأنديةِ الخاصّةِ والعامةِ حتى ملَّها وسئِمَها؛ فمرّ بخاطرِه يومًا من الأيّامِ أن يزورَ حيّ «مونمارتر»، وهو القرارةُ التي تنصبُّ فيها جميعُ قاذوراتِ باريسَ الاجتماعيّةِ وفضلاتِها.

فظلّ سائرًا بمركبتِه يستطرقُ من زقاقٍ إلى زقاقٍ، ومن معبرٍ إلى معبرٍ حتى وقفَ ببابِ خانٍ في زقاقٍ مظلمٍ مهجورٍ سمعَ من داخلِه ضوضاءَ عظيمةً تكادُ تتصدّعُ لها أركانُه، فانحدرَ إليه وأطلَّ من بابِه فوقعَ نظرُه على طوائفَ كثيرةٍ من الصنّاعِ والعمّالِ، والغوغاءِ والمتطلّبين، والمتشرّدين وأشباهِ اللصوصِ والمجرمين، ما بين قائمٍ وقاعدٍ، وصائحٍ وهاتفٍ، ومُمسكٍ قدحَه بيدِه يجرعُ منه الجرعاتِ الكبارَ، ويصرخُ صراخَ المجانين، ولابطٍ بالأرضِ قد بلغَ منه السكرُ مبلغَه، فكبّه على وجهِه، وراقصٍ يوقعُ حركاتِ قدمَيْه على نغمةِ شبّابةٍ ينفخُ فيها آخر.

وقد عقَدَتِ الأبخرةُ المتصاعدةُ في سماءِ الحانِ سُحُبًا متكاثفةً يرى الرائي من خلالِها بعدَ

لأيِ ما مائدةً مستديرةً في وسَطِ المكانِ ترقصُ عليها فتاةٌ بائسةٌ عاريةُ الثيابِ إلّا قليلًا، وتنثرُ على الناسِ نثاراتٍ من الورقِ الرقيقِ الملوّنِ، والناسُ من حولها طائرون بها فرحًا، يداورونها ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبحِ ما خاطبَ به أحدٌ أحدًا، وربّما مدّ بعضُهم إليها يدَه فجذبَها من ثوبِها جَذْبًا شديدًا حتى يكادُ يزلقُها من مكانِها، أو دفعَها في صدرِها بعصاه فآلَمَها، وهي تبتسمُ مرّةً، وتقطّبُ أخرى.

فلمْ يدرِ الرجلُ أهو في مارستان من مارستانات المجانين، أم في حظيرةٍ من حظائرِ الوحوشِ الضاريةِ، ولكنّه رأى على كلِّ حالٍ منظرًا غريبًا لم يرَ مثلَه قطُّ، فأعجبَه وسكنَ إليه، وكذلك الملولُ يعجبُه كلُّ ما يطردُ عن نفسِه عاديةَ المللِ، ولو كان منظرَ الجحيم.

فانتبذَ في الحالِ مكانًا قصيًّا، وجلسَ إلى مائدةٍ منفردةٍ، وألقى نظرةً على تلك الفتاةِ الراقصةِ فإذا هي رائعةُ الجمالِ، إلّا أنه جمالٌ مبعثرٌ مذالٌ[١]، كما يعثرُ العاثرُ باللؤلؤةِ الثمينةِ بين القُماماتِ[٢] المجتمعةِ، فلا يزالُ ناظرًا إليها لا يقلعُ حتّى فرغتْ من رقصتِها، ونزلَتْ تدورُ بعينيها علّها تجدُ من يدعوها إلى لقمةٍ تسدُّ جوعتَها، أو كأسٍ تبلُّ بها غلّتَها، حتّى مرّتْ على مقربةٍ من الدوقِ، فدعَاها للجلوسِ معه، فاستُطيرَتْ فرحًا وسرورًا، لأنّها لمْ ترَ قبلَ اليومِ زائرًا مثلَه في فخامةِ هيئتِه، وجلالِ منظرِه.

وأخذَ يتحدّثُ إليها ويسائلُها عن نفسِها، فعلمَ أنّها تكابدُ أشدَّ ما كابدَ امرؤٌ قطّ في حياتِه من بؤسٍ وشقاءٍ، وقد سمعَ في صوتِها نغمةً تختلفُ بعضَ الاختلافِ عن تلك النغمةِ الفاجرةِ الوقحةِ التي يسمعُها السامعون من أفواهِ النساءِ الفاجراتِ، فوقَع في نفسِه أنّه إنْ أنقذَ تلك الفتاةَ المسكينةَ المتألّمةَ من بؤسِها وشقائِها، فقد أحسنَ إليها وإلى الإنسانيّةِ إحسانًا عظيمًا، فسألَها: ألها بأحدٍ من الناسِ صِلَةٌ من زواجٍ أو مخالّةٍ[٣]؟

فأطرقتْ برأسِها وأجابتْ: أنْ لا، فعرضَ عليها رأيَه الذي رآه لها، فاستطارَتْ به فرحًا وسرورًا، وما هي إلّا ساعةٌ، أو بعضُ ساعاتٍ حتى كانتْ بجانبِه في مركبتِه، فسارَ بها إلى منزلِه.

وهناك تغيّرَ من شأنِها كلُّ شيءٍ، فأصبحَتْ تلك الفتاةُ البائسةُ المسكينةُ الضاويةُ[٤] الصفراءُ ذاتُ الأسمالِ الباليةِ[٥]، والقبّعةِ القذرةِ والحذاءِ المرقّعِ سيّدةً فخمةً، يتلألأُ وجهُها بنورِ العزّةِ والكرامةِ، وتسيلُ على أعطافِها مخائلُ النعمةِ والرفاهيةِ حتى ظنّ كثيرٌ من الناسِ أنّها من ذواتِ الشأنِ في الحياةِ، وأنّ الدوقَ يوشكُ أن يتزوّجَ منها.

وكان الدوقُ يعيشُ وحدَه في قصرِه، لا يعاشرُ إلّا خدمَه، ولا يختلفُ إليه إلّا القليلُ من أصدقائِه القدماءِ من حينٍ إلى حينٍ، لأنّه كان منقطعًا لا زوجَ له ولا ولدَ، ولا قريبَ ولا نسيبَ.

---

(١) المذال: من الفعل أذال بمعنى أهان.
(٢) القمامات: الأوساخ.
(٣) المخالّة: الصداقة.
(٤) الضاوية: الضعيفة.
(٥) الأسمال البالية: الثياب القديمة.

فكانتْ «مارسيل» ملهاتَه التي يتلهّى بها في وحدتِه، وأنسَه الذي يأنسُ به في وحشتِه، وكانت هي سيّدةُ المنزلِ، والآمرةُ الناهيةُ فيه لا ينازعُها في ذلك منازعٌ. وظلَّ الأمرُ بينهما على ذلك شهورًا عدّةً، وكانا يخرجان أصيلَ كلِّ يومٍ في مركبتِهما إلى ضاحيةِ المدينةِ يرتاضان في غابتها وبساتينها ساعةً أو ساعتَيْن، ثم يعودان.

فإنّهما لعائدَين ليلةً من الليالي من مُتَنَزَّهِهما، إذ مرّتْ بهما المركبةُ على مقربةٍ من حيّ «مونمارتر»، فاقترحتْ عليه «مارسيل» أنْ يمرّا بذلك الحيّ ليلهوَا بمناظرِه الغريبةِ، ومشاهدِه العجيبةِ، فأذعنَ لرغبتِها.

وظلّا يخترقان شوارعَه وأزقّتَه حتى بلغا الحانَ الذي وجدَها فيه، فطلبَتْ إليه أنْ يأذنَ لها بدخولِه لترَى ما حلّ بأصحابِه وزائريه من بعدِها، فلمْ يرَ في ذلك بأسًا، ودخلَ معها، فوجدَاه على هيئتِه التي تركاه عليها، واتّجها إلى بعضِ الموائدِ المنفردةِ، فجلسَا إليها، فما وقعَ نظرُ الناسِ على مارسيل حتى هاجُوا هياجًا عظيمًا، وهتفُوا لها هتافًا شديدًا، وأقبلُوا عليها يحيّونها ويعتنقونها، وهي تبتسمُ لهم، وتعطفُ عليهم، وتطربُ لنغماتِ أحاديثِهم الوحشيّةِ المزعجةِ، ثم لم يلبثوا أنْ جذبوها من مكانها، وأصعدوها إلى المائدةِ لترقصَ لهم، فكأنّما ثارتْ في نفسِها ثائرةُ الطربِ القديمِ، فرقصَتْ وافتنّتْ في رقصِها ما شاءَتْ. حتّى أتمّتْ دورَها، ثم نزلَتْ وودعتْهم وداعًا لطيفًا، وانصرفَتْ هي والدوقُ.

وهنا بدأتْ تشعرُ بمللٍ شديدٍ من حياتِها الحاضرةِ التي تحياها في قصرِ الدوقِ، حتّى أصبحَ يُخَيَّلُ إليها أنّ هذا القصرَ الذي تعيشُ فيه إنّما هو سجنٌ، وأنّ هذا الرجلَ الذي يحبُّها ويُكْرِمُها وينزلُ على حكمِها في جميعِ ما تحبّ وتشتهي إنّما هو سجّانُها، وأنّ هذا السكونَ الذي يحيطُ بها إنّما هو سكونُ الموتِ الذي يخيّمُ في فضاءِ القبورِ.

فكانتْ إذا خلَتْ بنفسِها، تراءَى لها في فضاءِ خيالِها منظرُ الحانِ ومنظرُ زائريه، وموقفُها فوقَ المائدةِ الخشبيّةِ بين جماعةِ الأشرارِ والغوغاءِ، وهم يجاذبونها ثوبَها، ويشدّون يدَها، ويصبّون عليها فضلاتِ كؤوسهم، فتطربُ لتلك الحياةِ الهائجةِ الثائرةِ، وتحنُّ إليها حنينَ العاشقِ المفارقِ.

ولم تزلْ هذه الفكرةُ تنمو في نفسِها شيئًا فشيئًا، حتّى أخذَتْ مكانَها من قلبِها، فعزمَتْ على الفِرارِ بنفسِها والعودةِ إلى عيشتِها الأولى.

فنهضَتْ من فراشِها ذاتَ ليلةٍ، والقصرُ ساكنٌ هادىءٌ قد هجعَ كلُّ من فيه، فخلعَتْ أثوابَها وحُلاها، وألقَتْها على بعضِ المقاعدِ، وارتدتْ بدَلًا منها أثوابها الأولى التي جاءَتْ بها، وكانت لا تزالُ ملقاةً في بعضِ الغرفِ، وتسلّلَتْ من بابِ القصرِ حيث لا يشعرُ أحدٌ بمكانها، وأخذَتْ سبيلَها إلى حيِّ «مونمارتر».

وهكذا قُضِيَ عليها أن تشقَى، بل هي التي قضَتْ بنفسِها على نفسِها.

ولقد كان أسفُ الرجلِ عظيمًا جدًّا حينما تفقَّدَها في صباحِ اليومِ الثاني، فلمْ يجدْها خصوصًا عندما رأى ثيابَها وحُلَاها ملقاةً على بعضِ المقاعِد، وعلمَ أنّها هي التي آثرتِ الفرارَ، واختارَتْه لنفسها، فبكاها كثيرًا، وعادَتْ له وحشتُه التي كان يعالجُها من قبلُ.

ومرّ على ذلك عامٌ أو بعضُ عام، وبينما هو مقبلٌ على قصرهِ في ليلةٍ من الليالي إذ لمحَ على عتبةِ البابِ امرأةً مسكينةً تئنُّ وتتوجّعُ، وتحاولُ أنْ تمدَّ يدَها إلى حلقةِ البابِ لتطرقَه، فلا تستطيعُ، فدنَا منها ليتبيَّنها، فإذا هي مارسيل، أو هي شبحٌ متهافتٌ باقٍ منها.

فلمّا أحسّتْ به، مدّتْ ذراعَيْها إليه، وقالتْ له بصوتٍ خافتٍ ضعيفٍ: اغفرْ لي ذنبي يا مولاي، فدُهِشَ لمنظرِها دهشةً شديدةً، ورقَّ لحالتِها، فأمرَ الخدمَ بحملِها إلى القصرِ، فحملُوها إلى غرفتِها التي كانت تنامُ فيها، وهي في حالةٍ من البؤسِ والشقاءِ تذيبُ الأكبادَ، وتستذرفُ الدموعَ.

ثم جلسَ إليها يسائلُها عن شأنِها، فقالت: إنّها مريضةٌ مُدْنَفةٌ منذُ شهورٍ عدّةٍ، وأنّها قد عجزتْ عن أن تجدَ سبيلًا إلى علاجِها من دائِها لفقرِها وفاقتِها، فما زالَ المرضُ يأخذُ منها مأخذَه حتّى مزّقَ صدرَها تمزيقًا، فلم تجدْ بدًّا من أن تأتيَ إليه لتستغفرَه من ذنبها، وتسألَه أن يُعينَها على أمرِها، لأنّها لا تعرفُ في الدنيا لها راحمًا سواه.

فسألَها لمَ فرّتْ من قصرِه؟ وما الذي كانتْ تنقمُه منه؟

فقالتْ: لا أعلمُ، وإنّما هو قدرٌ قدّرَه اللهُ، ولا حيلةَ لامرئٍ فيما قدّرَه وقضاه.

فسألَها: أين كانت تعيشُ بعد فرارِها؟

قالت: في المكان الذي أنقذتني منه، فأبيتُ لشقوتي وبلائي إلّا أن أعُودَ إليه لتنفَذَ فيَّ إرادةُ اللهِ.

فرثى لحالها، وأمرَ باستدعاءِ الطبيبِ لينظرَ في أمرِها، فلمْ يستطعِ الطبيبُ أن يصنَع شيئًا، لأنّه جاء بعد الأوانِ، وما أصبحَ الصباحُ حتّى صعدَتْ روحُها إلى خالقِها، وخلّفَتْ للدوقِ حسرةً فوقَ حسرتِه الأولى بوفاةِ زوجتِه، فلمْ ينتفعْ بحياتِه طويلًا بعد ذلك.

* * *

لكلِّ جوٍّ من الأجواءِ رائحةٌ خاصةٌ به يألفُها أصحابُه ويستنيمون[1] إليها، فحولُوا أيُّها الرجالُ بين نسائكم وبين تلك الأجواءِ الخبيثةِ، ولا تقولوا إنهنّ سيجزعنَ منها ويهجرْنَها حين يستنشقن رائحتَها، فالرائحةُ الخبيثةُ لا يتألّمُ منها إلّا البعيدُ عنها.

* * *

(١) استنام: سَكَن واستقرّ.

الرسائل

كتاب في التقاضي:

أنا إنْ سألتُك حاجتي، أعزَّك اللهُ، وبسطْتُ إليك يدَ رجائي، فقد طرقتُ بابَ المكارم، واستمطرْتُ غيثَ المراحم، ورجوتُ واحدَ الدهرِ همّةً وحزمًا، ونادرةَ الوجودِ كرمًا وفضلًا؛ فإن أنجزتَها فليست أولى الهمَم، ولا واحدةَ النعم، فلكم سبقتْ إليَّ منكم أيادٍ تخرسُ دونها ألسنةُ الشكرِ، وتضيقُ بها جرائدُ الحصرِ ولقد مثلت، أيّدَك اللهُ، بين أن أستشفعَ إليك بذوي الجاهِ عندك، والزلفَى لديك وبين أن أكِلَ ذلك إلى كرمِك وفضلِك، وما طُبعتْ عليه نفسُك الشريفةُ من خلالِ الخيرِ، وسجايا البرِّ، فرأيتُ أنّ الثانيةَ بك أحرى، وبفضلِك أجدرُ، والسلامُ.

كتاب مقاطعة:

أتلقّى كتابَك وقد أبللتُ مِنْ مَرَضِ حبّك، وصحوتُ من رقدةٍ طالَ عليَّ الغيبُ فيها، حتى خفتُ أن تتّصلَ برقدةِ الموتِ، فلم تَرُعْني روائعُك[1] ولا أجدَى عندي اعتذارُك، ولا أخذَ حديثُك من قلبي مأخذَه من قبلُ، ولم أرَ بين سطورِك ذلك النورَ الذي كانَ يملأُ عيني روعةً[2]، وقلبي هيبةً، فالحمدُ لله الذي أدالني منك، وأعتقني من رقّك، وكشفَ لي من مكنونِك ما كشفَ غشاءَ الهوَى عن بصري. فجفّتِ الدموعُ التي طالما أذلتُها[3] بين يديك، وقرّتِ العينُ التي كنتُ أساهرُ بها الكواكبَ شوقًا إليك، ولم يبقَ في خاطري من ذكرِك إلّا كما بقي في قلوبِ الناسِ من الوفاءِ.

والحبُّ شجرةٌ يغرسُها الأملُ في القلبِ، ثمّ يغذوها بمائِه وهوائِه، فلا تزالُ تشتجرُ أغصانُها، وترفّ[4] ظلالُها وترنُّ أطيارُها، حتّى يعصفَ بها عاصفٌ من اليأسِ، فتموتَ.

ولقد عالجتُ هذا القلبَ الشموسَ[5] في الرجوعِ إلى سالفِ عهدِك، وسابقِ ودِّك، فجمحَ جموحَ المُهْرِ الأرنّ[6]، وركبَ رأسَه إلى حيث لا مطمعَ في أوبتِه[7]؛ وله العتبَى فيما فعل، فقد مَلّكني قيادَه برهةً من الزمانِ، فأسأتُ عشرتَه، وخفرتُ ذمته[8]، وأرغمتُ معطسَه، وركبتُ به في سبُلك أخشنَ مركبٍ، وأنهلتُه من جفائِك وكبريائِك شرَّ منهلٍ، فما هو إلّا أنْ أمْكَنَتْهُ العزّة، فانطلقَ انطلاقَ السجينِ من سجنِه، والطائرِ من قفصِه، فلا أوبةَ حتّى يؤوبَ القارظان[9] ويبلى الجديدان[10].

---

(١) أي: لم تعجبني محاسنك.

(٢) الروعة: المسحة من الجمال.

(٣) أذلتها: هتنها.

(٤) رف النبات: اهتز واضطرب.

(٥) الشموس: الصعب الانقياد.

(٦) المهر الأرن: النشيط.

(٧) الأوبة: العودة.

(٨) حفز ذمّته: نكث عهده.

(٩) هذا مثل يضرب للغائب لا يرجى إيابه. والقارظان هما اللذان يجمعان القرظ، وهو ورق السلم يستعمل في الدباغة.

(١٠) الجديدان: الليل والنهار.

إذا انصرفتْ نفسي عنِ الشيءِ لم تكدْ ... إلـيـه بـوجـهٍ آخـرَ الـدهـرِ تـقـبـلُ

كتاب تهكّم:

علمتُ أنّ ساسانيًا طرقَ بابَك بالأمسِ، وما زالَ يكيدُ لك ويماحِكُك[١]، ويتغلغلُ في مواضعِ الضّعْفِ من قلبِك، حتّى خدعَك عن نفسِك، واقتصفَ زهرةً من روضِه، وراحَ يفترُّ عن ثغرٍ باسمٍ، ورحتَ تقرعُ سنّ نادمٍ، فما هذا الخلقُ الغريبُ الذي اعتنقْته؟ ومتَى أقامَك آدمُ وصيًّا على أولادِه من بعدِه، تكسو عاريَهم، وتشبعُ جائعَهم؟ على أنّ الفقراءَ في الدنيا كثرٌ قد ضاقتْ بهم خزائنُ الأرضِ والسماءِ، فكيف تسعُهم خزائنُك؟ وهل بين الدرهمِ الذي أعطيتَ والدراهمِ الذي أبقَيْتَ، إلّا حرفٌ واحدٌ[٢]؟

فليتَ شعري من أين ذهبت، ومن أيّ باب نفذَ هذا الشيطانُ إلى قلبِك؟ وإنّ أخوفَ ما أخافُ عليك أن تكونَ أتيتَ من بابِ الخدعةِ الشيطانيّةِ التي يسمّونها الرحمةَ.

فإن كانت هي، فالخطبُ عظيمٌ، والبلاءُ جسيمٌ، فإنّك حيثما ذهبْتَ وأنّى حللْتَ، لا تقعُ عينُك إلّا على يدٍ شلّاءَ، ورجلٍ بتراءَ، وعينٍ عمياءَ، وصورةٍ شوهاءَ، وثوبٍ مخرقٍ، وشلوٍ ممزّقٍ، وطريحٍ على التراب سقيمٍ، وجسم أعرَى من أديمٍ، فإن لم تفارقِ الرحمةُ قلبَك، فارقَ المالُ جيبَك، فطفتَ مع الطائفينَ وتسوّلْتَ مع المتسولين، ثم لا تجدُ لك راحمًا ولا معينًا.

فارحمْ نفسَك قبل أن ترحمَ سواك، ولا تنسَ أن تردّدَ في صباحِك ومسائِك، وفي مستأنفِ خطواتِك، وفي أعقابِ صلواتِك، كلمةَ ابنِ الزياتِ «الرحمةُ خورٌ[٣] في الطبيعة».

وعلمتُ أنّك دُعيتَ إلى وليمةِ فلانٍ، فتحلّبَ لها فوك، ورقصَتْ لها أشداقُك، فطرتَ إليها، ثم وقعتَ على خبزِها وشوائِها، وفاكهَتِها وحلوائِها مثلَجَ الصدرِ ثابتَ القدمِ، ساكنَ القلبِ، طيّبَ النفسِ، كأنّك لا تعلمُ أنّها لذّةُ الساعةِ، ومرارةُ العمرِ، وشبعُ اليومِ، وجوعُ الأبدِ، وأنّك إنّما طمعتَ بما في الحِبالةِ من الحَبِّ، تأكلُه اليومَ ليأكلَك غدًا.

فمن لك بالنجاةِ من مضيفِك إذا جاءَك يومًا يتقاضاك دَيْنَه، وقد حفّتْ به كوكبةٌ من خلّانِه وصَحْبِه، فطارَ لِمَرْآهُ لبُّك، وتمشّى له قلبُك في صدرِك، وخيَّرَكَ بين لحمِ شاتِك ولحمِك، فالفقرُ إن منحتَ، والعارُ إن منعتَ.

وأعجبُ من ذلك أنّك ما برحتَ الوليمةَ حتّى أخذَ المغنّي مجلسَه، فسمعتَ وطربْتَ، ومن طربَ شربَ، ومن شربَ وهبَ، ومن وهبَ جربَ، ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك، واكتفائك بقرصِك وزيتِك، وخولتِك بصندوقِك في كسرِ بيتك، حيث لا تزورُ ولا تزارُ، منادحُ

---

(١) ماحَكَ: خاصَمَ ونازَعَ.

(٢) إشارة إلى الفرق بين مفرد «الدراهم» وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم، وأنّه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست إلّا درهمًا إلى درهم.

(٣) الخور: الضعف والانكسار.

عن هذه اللقمةِ التي أسهرتْ ليلَك، وأقضّتْ مضجعَك، وأقعدَتْكَ مثلَ روقِ الظبيِ خيفةً وحذارًا؛ فإيّاك والعودَ إلى مثلِها يطلْ غمُّك، وَيَسْودَّ عيشُك؛ والسلام.

كتاب يأس:

كتابي إلى سيّدي ومولايَ، والنفسُ بين جنّةٍ من الأملِ تغنّي أشجارُها، وترنُّ أطيارُها، وتشتجرُ أغصانُها، وتعتنقُ غدرانُها، وهاجرةٍ من اليأسِ تتلظّى نارُها، ويعتلجُ أوارُها، وتحولُ بين الجفونِ واغتماضِها، والجنوبِ ومضاجعِها، والقلبُ يهبطُ به الخوفُ، فيتمشّى بين الأضالعِ مِشيةَ الطائرِ الحذرِ، ثم يدركُه الأمنُ، فيقرُّ في مستقرّه قرارَ الماءِ في نهايةِ منحدرِه.

وحالي كحالِ هذه الدنيا تضطربُ ما بين فرحٍ وهمٍّ، وسرورٍ وحزنٍ، وقبضٍ وبسطٍ، ومدٍّ وجزرٍ؛ أذكرُ اللهَ ورحمتَه وإحسانَه، ورأفتَه وحنانَه، فيشرقُ لي من خلالِ ذكراه وجهُ الحياةِ الناضرِ، وثغرُها البارقُ، وجمالُها الساطعُ، وبِشْرُها الضاحكُ.

ثم أذكرُ الدهرَ وصروفَه، والعيشَ وحتوفَه، والأيامَ وما أعدّتْ في طيّاتِها لبنيها عن عثراتٍ في الخطواتِ، ونكباتٍ في الغدواتِ والروحياتِ، وما أخذَتْهُ من العهدِ على نفسِها من الوقوفِ بين النفوسِ وآمالِها، والقلوبِ وأمانيها، فألمسُ صدري بيدي لأعلمَ أين مكانُ قلبي من أضالعي، ثمّ أنثني على كبدي من خشيةِ أن تصدّعَا.

فليتَ اللهَ يُصِيخُ لي فيمطرُ عليّ قطرةً واحدةً من غيوثِ رحمتِه وإحسانِه أبلُّ بها غلّتي، وأطفىءُ بها لوعتي، أو ليت القدرَ ينشبُ أظافرَه بين سحري[1] ونحري نشوبًا لا يستقي بعدَه عرقًا نابضًا، ولا نفسًا متردّدًا، فيستخلصُني من موقفٍ أنا فيه كالمريضِ المشرفِ، لا هو حيٌّ فيُرجَى، ولا مَيْتٌ فيُبكَى.

يقولون: «ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحةُ الأملِ!» وأقولُ: ما عذّبَ اللهُ عبادَه بنازلةِ القضاءِ، وصاعقةِ العذابِ، وطاغيةِ الطوفانِ، والزلزالِ الأكبرِ، والموتِ الأحمرِ، والخوفِ من الجوعِ، والنقصِ في الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ، بمثلِ ما عذّبهم بالأملِ الباطلِ. وما ليلةٍ نابغيّةٍ[2]، ضريرٍ نجمُها، حالكٍ ظلامُها، يبيتُ منها صاحبُها على مثلِ روقِ الظبيِ خيفةً وحذارًا، فوق أرضٍ تعزفُ جنّاتها[3] وتحومُ عقبانُها، وتزأرُ سباعُها، وتعوي ذئابُها، وتحت سماءٍ تتهاوَى نجومُها، وتتوالَى رجومُها، وتتراكمُ غيومُها، بأسوأ في نفسِه أثرًا من رجاءٍ كاذبٍ يتردّدُ بين جنبَيْه، تردّدَ الغُصّةِ بين لحييه لا هي نازلةٌ فَيَطْعَمُهَا، ولا صاعدةٌ فيقذفُها.

قد أصبحتُ أحسدُ الوحوشَ الهائمةَ على وجوهِها في بطونِ الأوديةِ، وقُننِ[4] الجبالِ، أن أراها ساربةً في مساربِها، سارحةً في مسارحِها، تتناولُ رزقَها رغدًا من بوارقِ المصادفاتِ،

---

(١) السحر: الرئة.

(٢) ليلة نابغيّة: أي ليلة خوفٍ قضاها النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي من غضب الملك النعمان.

(٣) جمع: جان.

(٤) القنن: الرؤوس.

ومفاجآتِ المقاديرِ، لا يعنيها الأسفُ على فائتٍ من العيشِ ولا يقلقُها الطمعُ في آتٍ من الرزقِ، قد قنعت من الماءِ بالكدرِ، ومن العيشِ بالجشبِ[١]، فتساوَى لدَيْها شحمُها ولحمُها، وشيحُها وقيصومُها[٢]، وسعدُها ونحسُها ونعيمُها وبؤسُها، فما تحفلُ بنوازِلِ القضاءِ، ولا رجومِ السماءِ، ولا تبالي أسقطَتْ على الموتِ أم سقطَ الموتُ عليها؟

فمَنْ لي بهذا العيشِ من عيشٍ! مَثَلِي فيه كمَثَلِ رجلٍ زلّتْ به قدمُه، فسقطَ في جوفِ بئرٍ بعيدٍ غورُها، ناءٍ مكانُها، فما زال يتخبّطُ ويضطربُ، ويَهُبُّ ويثبُ، حتى عثرَ بمرقاةٍ[٣] علقتْ رجلُه بها. ثمّ تلمّسَ أخرى غيرَها فما وجدَها، حتّى بلغَ منه الجُهد أو كادَ، فلم يصبرْ على الثانيةِ صبرَه على الأولى، فسقطَ، فخافَ الغرقَ، فعادَ إلى نفسِه، فعادَ إلى سقوطِه، فلا هو بالغٌ رأسَ البئرِ، فينجو من الموتِ ولا بالغٌ قرارةَ الماءِ فينجو من الشقاءِ.

ارمِ بطرفِك حيث شئتَ من الناسِ؛ هلْ تبصرُ إلّا صريعًا صرعَه أملُه؟ أو قتيلًا قتلَه رجاؤه؟ أو صديقًا يشكُو غدرَ صديقٍ كان يعدُّه لنوائبِ الدهرِ، فأصبحَ عونَ النوائبِ عليه؟ أو باكيًا يبكي وليدًا كان يرجوه لمستقبلِ دهرِه ففجعَتْه الأيامُ فيه؟ أو ساعيًا دائبًا وراء غايةٍ يطلبُها من الدهرِ، فلا يقربُ منها حتّى يبتعدَ عنها، ولا يمسكُ بها حتّى تفلتَ من يدِه؟ أو ساهرًا متململًا، لولا أملُه أن تنيلَه الأيامُ ما يشتهيه من هواه، ما باتَ شاكيًا باكيًا، داعيًا مناجيًا لا تراه إلّا عينُ السماءِ، ولا تسمعُه إلّا أذنُ الجوزاءِ؟

هذه حالتي، وذلك همّي، وهذا ما وسوسَ لي أنْ أعتزلَ الناسَ جميعًا، وأفارقَ عشيرتي وصحبتي، ويراعي[٤] ومحبرتي، علّني أجدُ في البعدِ عن مثاراتِ الأماني، ومباعثِ الآمال راحةَ اليأسِ، فاليأسُ خيرُ دواءٍ لأمراضِ الرجاءِ.

فها أنا ذا قابعٌ في كسرِ بيتي، ولا مؤنسَ لي إلّا وحشتي، ولا أنيسَ إلّا وحدتي، أتخيّلُ البيتَ قبرًا، والثوابَ كفنًا، والوحشةَ وحشةَ المقبورين في مقابرِهم لأعالِج نفسي على نسيانِ الحياةِ، وأمانيِّها الباطلةِ، ومطامعِها الكاذبةِ، حتّى يبلغَ الكتابُ أجلَه، وهذا آخر عهدي بك وبغيرِك، والسلامُ.



الكلمات

الجرائد:

لا أرى الصحفَ في مصر إلّا ناديًا من أنديةِ القمارِ، ولا هؤلاءِ الكتابَ إلّا جماعةً من اللّاعبين،

(١) الجشب: الخشن من الطعام.
(٢) الشيح والقيصوم: نوع من النبات.
(٣) المرقاة: الدرجة التي يرقأ أي يصعد فيها.
(٤) اليراع: القلم.

قد وضعوا رؤوسَ المصريين على مائدةِ اللعبِ كما توضعُ الأكرُ[١] على طاولة «البليار»، ثمّ داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبُها في الصباحِ «زيد»، ويخسرُها في المساءِ «عمرو»، وربّما لا يأتي آخرُ الليلِ، حتّى يدورَ النحسُ دورتَه عليهم جميعًا، فيخسرُها الكلُّ ويكسبُها صاحبُ النادي.

عبد الحميد:

حضرتُ منذ أشهرٍ قلائلَ تمثيلَ روايةٍ في مسرحٍ عربيٍّ اختتمَها جوقُ التمثيلِ ينشيدٍ للسلطانِ عبد الحميد يصفُه فيه ناظمُه بالعدلِ، والرحمةِ، والرفقِ، والإحسانِ، ويدعو له بسلامةِ عرشِه وطولِ بقائِه، فما سمعَ الناسُ باسمِه حتّى هتفوا له هتافًا يصمُّ المسامعَ، وصفّقوا له تصفيقًا كادَ يضمّ أضلاعَ المسرحِ بعضَها إلى بعضٍ.

وحضرتُ ليلةَ أمسِ منظرًا من مناظرِ الصورِ المتحرّكةِ، فرأيتُهم يمثّلون ذلك السلطانَ بعينِه رجلًا ظالمًا سفّاحًا، ضعيفَ الهمّةِ، ساقطَ النفسِ، زَمِنَ[٢] المروءةِ، جبانًا مستطارًا، ورأيتُهم عمدُوا إلى صورتِه، فجعلوها مواطىءَ أقدامِهم، ومضاربَ سيوفِهم؛ فما رأى الناسُ هذا المنظرِ حتّى راقَ في أعينِهم، وابتهجوا لمرآه ابتهاجًا ملأَ فضاءَ صدورِهم، فتمشّى في أعصابِ أدمغتهم حتّى وصلَ إلى أعصابِ أيديهم، فصفّقوا له تصفيقًا شديدًا بتلك الأكفِّ التي رأيتُهم يصفّقون بها في مسرحِ التمثيلِ.

أنا لا أعلمُ إنْ كانَ عبدُ الحميدِ ظالمًا أو عادلًا، كريمًا أو لئيمًا، شريفًا أو وضيعًا، وإنّما أعلمُ أنّني سأموتُ قبل أن أقفَ على حقيقةٍ تاريخيّةٍ في أمرِه ما دامَ الناسُ عامّتُهم وخاصّتُهم، كتّابُهم وشعراؤهم، علماؤهم وجهلاؤهم، همُ الناسُ الذين يقولُ فيهم القائل:

والناسُ مَنْ يلقَ خيرًا قائلون له ... ما يشتهي، ولأمّ المخطىءِ الهَبَلُ

الشهرة:

لا يمكنُ أن تكونَ الشهرةُ بحالٍ من الأحوالِ ميزانًا للفضلِ في مصرَ، خصوصًا في عالمِ الأدبِ، ولن يجريَ الفضلُ والذكرُ في ميدانٍ واحدٍ إلّا إذا سلمَ السابقُ من كيدِ العابثِ، وخدعةِ الأريبِ. وأنّى لنا ذلك وفي شعراءِ مصرَ من يغتصبُ الشهرةَ اغتصابًا، ويُلصقُها بنفسِه إلصاقًا، ويتزعُ إليها بوسائلَ لو عرفَها الناسُ، لأنزلوه منزلتَه، وألبسوه حلّتَه؛ بينما ترَى الآخرَ، قد قنعَ من أدبِه بلذّةِ نفسِه، وإمتاعِ وجدانِه، فلا يترنّمُ بقصائدِه في المنتديّاتِ والمجامعِ، ولا يبتاعُ من الصحفِ الأسماءَ والألقابَ، ولا يستخدمُ الكتابَ لإطرائِه والإشادةِ بذكرِه، ولا يتمّمُ ما يجدُه من النقصِ في أدبِه بالغضِّ من أدبِ غيرِه، فترَى للأوّلِ في هذا البلدِ الساذَجِ دويًا كدويّ الرعدِ، وترى الآخرَ مطّرحًا مجفوًّا لا يؤبَهُ له؛ والدرُّ في الصدفِ أغلى قيمةً وأرفعَ قدرًا من جميعِ ما على وجهِ الأرضِ من ألواحِ البلّورِ وإن كان ملءَ العيونِ حسنًا وبهاءً، ورونقًا وماءً.

---

(١) الأكر: ج الأكرة، وهي الكرة. (٢) الزمن: المريض.

فكاهة:

حدّثني بعض الأصدقاءِ أنّه دخلَ في أيّام الحربِ الروسيّةِ اليابانيّةِ حانوتَ حلّاقٍ معروفٍ بالثرثرةِ أكثرَ من أفرادِ طائفتِه ليحلقَ له رأسَه، وكان عنده جماعةٌ من زائريه، فأجلسَه على كرسيّ أمام المرآةِ، وأمسكَ بالموسى، وأنشأ يحلقُ له رأسَه حلقًا غريبًا، لا عهدَ له بمثلِه من قبلُ، فكان يحلقُ بقعةً ويتركُ إلى جانبها أخرى مستطيلةً أو مستديرةً، وأخرى مثلّثةً أو مربّعةً حتى ريعَ الرجلُ، وظنَّ أنّ الحلّاقَ قد أصابَه مَسٌّ من الجنون، فارتعدَ بين يديه، وخافَ أن يمتدّ به جنونُه إلى ما لا تُحمَدُ عقباه، واعتقلَ لسانُه، فما يستطيعُ أن يسألَه عن سرِّ عملِه.

فما انتهى الحلّاقُ من أشكالِه الهندسيّةِ، ورسومِه الجغرافيّةِ، حتّى التفتَ إلى جلسائه، وقال لهم كأنّه يتمّمُ حديثًا سابقًا بينه وبينهم: لأجل فضِّ النزاعِ بيننا ها قد رسمتُ لكم خريطةَ الحربِ الروسيّةِ اليابانيّةِ في رأسِ «الزبون» هنا طوكيو، وهنا بور أرثر، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصرَ أوياما، وفي هذا الخطّ مرّ الأسطولُ الروسيّ، وفي هذه البقعةِ تلاقَى الأسطولان، وهنا أخذ يتكلّمُ بحدّةٍ وحماسةٍ عن شجاعةِ اليابانِ وبسالتِهم، ثم أردفَ كلامَه بقوله: «وفي هذه البقعةِ ضربَ اليابانيون الروسَ الضربةَ القاضيةَ» وضربَ بجُمْعِ يدِه أمَّ رأسِ الزبون، فقامَ صارخًا يولولُ، ويهرولُ مكشوفَ الرأسِ يلعنُ السياسةَ والسياسيّين والروسَ واليابانيين، والناسَ أجمعين.

لا أعلمُ إنْ كان المحدّثُ هازلًا، أو مجدًّا، وإنّما أعلمُ أنّه قد أجادَ التمثيلَ!

الأقسام:

لا أعرفُ فرقًا بين حنثِ الحانثِ[1] في يمينه، وكَذِبِ الكاذبِ في حديثِه؛ كلاهما ضعيفُ المُنّةِ، وكلاهما ساقطُ الهمّةِ، وكما لا يستطيعُ الكاذبُ أن يكونَ صادقًا، كذلك لا يستطيعُ الحانثُ أن يكونَ بارًّا، وناقضُ العهدِ أن يكونَ وفيًّا. فخداعٌ من المتكلّم أن يزعمَ أنّ لأحاديثِه من الشأنِ في مواقفِ الأقسامِ ما ليس لها في غيرِ تلك المواقفِ، وأنّه يتحرّجُ في الحنثِ، ما لا يتحرّجُ في الكذبِ، فإن من يَسْتَصْغِرُ جرمَ الكذبِ، لا يستكبرُ من بعده جرمًا.

الدين:

أيُّها الناشئُ: إنّ من الناسِ قومًا قد ضعفتْ نفوسُهم عن احتمالِ ثقلِ الدين، وسلطانِ أمرِه ونهيِه، فخرجوا عليه، ونبذوا طاعتَه، ثم علموا أنّ الناسَ سيأخذون عليهم ضعفَهم وعجزَهم، فلم يجدوا معذرةً يعتذرون بها إليهم غيرَ دعوى إنكارِ الدين وجحودِه استثقالًا وتبرّمًا، لا تقلّدًا وتمذهبًا، وما هم بمنكريه.

فاعلمْ أنّ اللهَ سيبتليك بهم، وأنّهم سيزيّنون لك إنكارَ ما يزعمون أنّهم ينكرونه، وسيخيّلون

---

(١) الحانث: الذي يخلف بوعده.

إليك أنّك لن تستطيعَ أن تبلغَ ما تريدُ من هذه المدنيّةِ الحاضرةِ، وأن تنالَ الحظوةَ الباسقةَ في نفوسِ أصحابِها، إلّا إذا تنكّرْتَ لدينِك، وتسلَّبْتَ منه، وخفرتَ ذمّتَه، فاحرصِ الحرصَ كلَّه على أن لا يعلقَ بنفسك عالقٌ من هذه الخيالاتِ الباطلةِ.

واعلمْ أنّك إلى نفسِك أحوجُ منك إلى الناسِ وإنّ الناسَ لا يغنون عنك من الله شيئًا، إن أنت آثرْتَ مرضاتَهم على مرضاتِه، وأنّ الحياةَ الحافلةَ بصنوفِ الشقاءِ، وأنواعِ الآلامِ، والتي لا يفيقُ المرءُ فيها من غمرةٍ إلّا إلى غمرةٍ، ولا يئل[1] من عثرةٍ إلّا إلى عثرةٍ، لا يعينُ عليها إلّا عقيدةٌ راسخةٌ يلوذُ بها الحائرُ، كلّما عثرت خطواته، وتداركت عثراته، ويَسْتَرْوِحُ من أعطافها رائحة الجنة، كلّما ضاقَ ذرعُه باحتمالِ جحيمِ العذابِ.

الحقيقة:

قال لي بعض الناس: إنّ قومًا يغرقون في مدحِك، فهلّا زجرتَهم فقلت له: إنّ آخرين قد أغرقوا في ذمّي، فلم أصنعْ سيئًا، فدعِ الأكاذيبَ يقرعُ بعضُها بعضًا، فربّما استطارَتْ من تلك المعركةِ شرارةٌ تضيءُ للناسِ مكانَ جوهرةِ الحقيقةِ المُذالة[2] تحت الأقدامِ، فيلتقطونها.

الانتقاد:

بين نقدِ المؤلّفاتِ هنا ونقدِها هناك فرقان: أحدُهما يتعلّقُ بالناقدِ، والآخرُ يتعلّقُ بأثرِ النقدِ في الأذهانِ. أمّا الأولُ، فهو أنّ الناقدَ هناك ينتقدُ الكتابَ من حيث ذاتُه، فلو لم يكنْ للكتابِ صاحبٌ معروفٌ لا ينتقدُه، وهنا ينتقدُه باعتبارِ شخصِ مؤلّفِه، أي أنّه لا ينتقدُ الكتابَ بل صاحبَ الكتابِ في كتابِه؛ وأمّا الثاني، وهو أثرٌ طبيعيٌّ للأوّلِ، فهو أنّ للانتقادَ هناك أثرًا ظاهرًا في الكتابِ من رواجِه وكسادِه وشهرتِه وخمولِه، فكما يقول المنتقدُ يقولُ الناسُ بقوله، وهنا يمرُّ الانتقادُ بالأذهانِ مرًّا، فلا يبقى من آثارِه فيها إلّا أثرٌ واحدٌ، وهو أنّ الكتابَ جليلُ القدرِ، سنِيُّ القيمةِ، ولولا ذلك، ما احتفَل بأمرِه محتفلٌ، لذلك رأيتَ كثيرًا من عقلاءِ الأدباءِ لا يرضَون عن أنفسِهم إلّا إذا انتقدَ الناقدون مؤلّفاتِهم. بل رأيتُ من يتوسّلُ إلى بعضِ الناقدين أن ينتقدَ مؤلّفه، بل رأيتُ من يبلغُ به الأمرِ أن ينتقدَ كتابَه بنفسِه بتوقيعِ منحولٍ، أولئك همُ الذين يعرفون قيمةَ المنتقدين عندنا، وأثرَ انتقاداتهم في نفوسنا، أمّا الذين يغضبُهم الانتقادُ، ويجرحُ صدورَهم، فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئًا.

الحزم:

إنّ الدرهمَ الذي تمنحُه من لا يستحقُّه، قد خرَج من يدِك، فلا سبيلَ بك إلى وجدانِه في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقُّه، وإنّ الدينارَ الذي تُعطيه الشاربَ ليشتريَ به كأسًا يقتلُ بها نفسَه، قد استحالَ عليك أن تعطيَه الفقيرَ العائلَ ليشتريَ به رغيفًا يسدُّ به جوعةَ أولادِه.

---

(١) يئل: من الفعل وأل بمعنى طلب النجاة. (٢) المُذالة: المُهانة.

الألم:

إنّ في كثيرٍ من الآلامِ التي نعالجُها لذائذَ ومسرّاتٍ يدركُها من عرفَ أنّ الإنسانَ غافلٌ بطبيعتِه عمّا يهدّدُه من مصائبِ هذه الحياةِ وأرزائِها، وأنّ الآلامَ الضعيفةَ التي تنالُه من العثراتِ الصغيرةِ هي نُذُرٌ تأتيه من عالمِ الغيبِ، لتحذّرَه من الآلامِ الشديدةِ التي تنالُه من السقطاتِ الكبيرةِ.

الغفران:

ليس الحقدُ واحتمالُ الضغينةِ غريزةً من الغرائزِ اللّازمةِ للإنسانِ، فإنّ الرجلَ قد يصفحُ عن سيّئاتِ الأطفالِ لأنّهم لا يملكون الخيارَ لأنفسِهم، ويذكرُ لأصحابِ السيّئاتِ من الموتى حسناتِهم لأنّ الزمنَ الذي ذهبَ بهم ذهبَ بخيرِهم وشرِّهم، فلمَ لا نغتفرُ ذنوبَ أولئك الذين ما أذنبوا إلّا بعد معركةٍ مستمرةٍ قامَتْ بين عقولِهم وقلوبِهم، ثم سقطوا على أثرِها صرعى لا يملكون لأنفسِهم ضرًّا ولا نَفْعًا؟

الدعوى:

إنْ أردتَ أن تكونَ في الأمةِ الجاهلةِ كلَّ شيءٍ، فادْعُ لنفسِك كلَّ شيءٍ تنلْ بقولك في الزمنِ القصيرِ، ما لا ينالُ غيرُك بفعلِه في الزمنِ الطويلِ. فإنّ الكاذبَ لا يزالُ يكذبُ حتّى يصدّقَه الناسُ، ثم لا يزالُ يكذبُ حتّى يصدّق نفسَه.

الدين والوطن:

مَنْ لا خيرَ له في دينِه لا خيرَ له في وطنِه، لأنّه إنْ كان بنقضِه عهدَ الوطنيّةِ غادرًا فاجرًا، فهو بنقضِه عهدَ اللهِ وميثاقَه أغدرُ وأفجرُ. وإنّ الفضيلةَ للإنسانِ أفضلُ الأوطانِ، فمنْ لم يحرصْ عليها، فأحرى به ألّا يحرصَ على وطنِ السقوفِ والجدرانِ.

الحلم:

إذا تورّدَ متورّدٌ بكلمةِ سوءٍ، فلا تبتئسْ بها، فإنّك في موقفِك هذا بين اثنتين: إمّا أن يكونَ الرجلُ صادقًا فيما يقولُ أو كاذبًا، فإن كانت الأولى، فاحمَدِ اللهَ تعالى على أنْ قيّضَ لك من أرْشَدَك إلى عيبِك، وكشفَ لك عن خبيئَةِ نفسِك، وإنْ كانتِ الأخرى، فاربأْ بنفسِك أن تكونَ من الجاهلين الذين يتوهّمون أنّ في استطاعةِ الأكاذيبِ أن تبقى زمنًا طويلًا على ظهرِ الأرضِ.

الأدب:

لا تكافىءِ السفيهَ على سفهِه بمثلِه، فإنّك إن فعلتَ، قضيتَ له على نفسِك، وأصبحْتَ شريكَه في الخلّةِ التي تزعمُ أنّك تنقمُها منه، فإن كنتَ لا بدَّ منتقمًا، فليكنْ مثَلُك مثلَ الأحنف بن قيس[١]، إذ جاءه رجلٌ قد جعلَ له بعضُ الناسِ جعلًا[٢] على أنْ يُغضبَه، فما زال يسبّه ويشتمُه،

---

(١) الأحنف بن قيس (ت٧٢هـ/ ٦٩١م) قائد شهيد وقف موقف المحايد في معركة الجمل.

(٢) الجعل: الأجر.

ويلحُّ في ذلك إلحاحًا محرجًا والأحنفُ ساكتٌ لا يقولُ شيئًا حتى ضاقَ بالرجلِ أمرُه، فانقلبَ إلى قومِه باكيًا نادبًا يأكلُ إصبعَه أكلًا ويقول: والله ما سكت عنّي إلّا لهواني عليه.

الأخلاق:

مَثَلُ المتعلّم غيرِ المتأدّبِ كَمَثَلِ شجرةٍ عاريةٍ لا تورقُ ولا تثمرُ قد انتصبَتْ للناسِ في ملتقى الطرقِ تعترضُ الرائحَ، وتصدُّ سبيلَ الغادي، فلا الناسُ بظلّها يستظلّون، ولا هم من شرِّها ناجون.

الاعتدال:

بين الجبنِ والتهّورِ منزلةٌ هي الشجاعةُ والإقدامُ، وبين البخلِ والإسرافِ منزلةٌ هي الكرمُ، وبين العفوِ والانتقامِ منزلةٌ هي العقوبةُ، وبين العجزِ والجهلِ منزلةٌ هي الحكمةُ، فليكنْ من أفضلِ ما تأخذُ به نفسَك التريّثُ والتثبّتُ عند النظرِ في الفرقِ بين مشتبهِ الفضائلِ والرذائلِ. واعلمْ أنّك لا تزالُ كريمًا حتّى تُنفِقَ مالَك في غيرِ موضعِه، فإذًا أنتَ مسرفٌ، وأنّك لا تزالُ حليمًا حتّى تغضبَ للباطلِ، فإذًا أنت جهولٌ، وأنّك لا تزال جبانًا حتّى تقاتلَ عن عرضِك وشرفِك، فإذًا أنت شجاعٌ، وأنّ كلَّ الناسِ يعرفون الفضائلَ والرذائلَ ويفهمون معانيها؛ أمّا إدراكُ الفرقِ بين غوامضِها ومتشابهاتِها فتلك مرتبةُ العقلاءِ الأذكياءِ.

البرّ:

ربّما كان لكَ من أبوَيك أو من ذوي رحمِك ممّنْ تولّوا شأنَك في مُفْتَتَحِ عمرِك من لم تساعده شؤونُ دهرِه أو عصورُ نشأتِه على أن ينالَ حظًّا من العلم والمعرفةِ مثلَ ما نلْتَ، فإيّاك أنْ يدعوَك ذلك إلى تسفيهِه، أو تجبيهِه، أو السخريةِ به، أو الإدلالِ بنفسِك عليه، فإنّك إنْ فعلتَ، خسرتَ من الأدبِ أضعافَ ما كسبتَ من العلمِ، على أنّه ربّما كان لكبيرِك هذا الذي عققتَه، وظلمتَه، وكفرْتَ بفضلِ نعمتِه عليك من العلمِ بتجاربِ الحياةِ ومقاتلِها، ومواردِ الأمورِ ومصادرِها ما يبهرُ علمَك الذي تعتدُّ به، وتدلُّ بمكانِك منه عليه، وهناك تكونُ قد خسرتَ فوق خسرانِ أدبِك ما كان خليقًا بك أن تتلقّاه بين يديه من علومِ التجاربِ التي ليست علومُ الدراسةِ بالإضافةِ إليها إلّا كالنقطةِ من البحرِ والذرّةِ من الفقرِ.

الشقاء:

السببُ في شقاءِ الإنسانِ أنّه دائمًا يزهدُ في سعادةِ يومِه، ويلهو عنها بما يتطلّعُ إليه من سعادةِ غدِه، فإذا جاء غدُه اعتقدَ أنّ أمسَه كان خيرًا من يومِه، فهو لا ينفكُّ شقيًّا في حاضرِه وماضيه.

❋ ❋ ❋

الفتاة والبيت

الكلمةُ التي قرّظَ بها المرحوم كاتب «الفتاة والبيت».

حضرةَ صديقِ الكاتبِ الفاضلِ أنطون أفندي الجميل[1].

أهديتَ إليّ كتابَك: الفتاة والبيت، فأهديتُه إلى ابنتي، لأنّه مكتوبٌ لها ولأترابِها من الفتياتِ الناشئاتِ، وربّما كانت وكنّ أقدرَ منّي ومن الرّجالِ جميعًا على فَهْمِ مزيّتِه، وتقديرِ منزلتِه، فلما قرأتْه، عادتْ إليّ تقولُ إنّني لم أهدِ إليها في حياتِها خيرًا من هذا الكتابِ.

سامحَها اللهُ، فقد كان فيما أهديتُ إليها كتابَ «النظرات» فقد فضّلته على كتابِ أبيها، ولكن ما لها وللنظراتِ، وأمثالِها من كتبِ الكلّياتِ العامةِ والخيالاتِ السائرةِ، فهي فتاةٌ على بابِ المستقبلِ يهمّها أن تعرفَ أسبابَ الحياةِ المنظمّة التي لا تستطيعُ فتاةٌ في هذا العصرِ أن تعيشَ بدونها والتي عجزَ أبواها عن أن يُرشداها إليها، لأنّهما بقيّةٌ من بقايا العصرِ الماضي عصرِ المصادفاتِ والاتّفاقاتِ، ولا يزالُ عصرُهما لاصقًا بهما حتى اليومِ. ويعنيها أن تعلمَ كيف تنسجُ من أخلاقِها وآدابِها ثوبًا يُغنيها جمالُه عن الجمالِ، وتعيشُ من عقلِها وحكمتِها في ثروةٍ تقومُ لها مقامَ ثروةِ المالِ، وكيف تدبّرُ القليلَ من الرزقِ وتنتفعُ به، إنْ قُدّرَ لها أن تعيشَ عيشَ المقلّين، وتحسنُ التصرّفَ في الكثير منه وتُبْقي عليه إن قُدّرَ لها حظُّ المكثرين، وكيف تكونُ شمسًا مشرقةً في أفقِ بيتها تضيءُ نفوسَ جميعِ ساكنيه، من زوجِها إلى خادمتِها، فتستعدُ بهم ويسعدون بها، وكيف تتولّى أمرَ نفسِها بيدِها، حتى لا يخدَعَها الخدمُ عن مالِها، إنْ كانت ذاتَ خدمٍ، أو تستغني عن معونتهم، إن عجزتْ عن اتّخاذِهم، وكيف تستنبطُ من ثقبِ الأبرةِ، في اليومِ الذي تفقدُ فيه عائِلَها ومعينَها، قطراتٍ من الرزقِ تقيمُ بها أوَدَها، وتصونُ بها ماءَ وجهِها؟

وكتابُك - يا سيّدي - هو الجوابُ عن جميعِ ما تطلبُه، وتسائلُ نفسَها عنه، فلا غروَ إن أعْجَبَها وأطربَها، ولا عجبَ إن فضّلَتْه على كلِّ كتابٍ حتى كتابِ أبيها.

أشْكُرُ لك، يا أنطون، تلك اليدَ البيضاءَ التي أسدَيْتَها إليّ وإلى أمّتِك، وأنصحُ لجميعِ الآباءِ والأمّهاتِ أن يجعلوا كتابَك هذا خيرَ هديّةٍ يقدّمونها إلى فتياتِهم، وأن يأخذوهنّ بتلاوتِه مع كتبِ صلواتهنّ في مطلعِ كلِّ شمسٍ ومغربِها، فما أحرزتِ الفتاةُ في بيتِها خيرًا من كتابِ «الفتاة والبيت».



البعث

«هي قصةٌ خياليةٌ، الغرضُ منها تمثيل أبي العلاءِ المعرّي في أخلاقِه وآرائِه لم يُكتبْ منها غيرُ هذه الأيامِ الثلاثةِ، وقد نشر في الذيلِ من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميّزُ بين الحقائقِ التاريخيّةِ والتصوّراتِ الخياليّةِ».

---

(١) أنطون الجميّل (١٣٦٨هـ/١٩٤٨م) أديب لبناني الأصل. ومن أركان الصحافة العربيّة. رئيس تحرير الأهرام، وكان عضوًا في مجلس الشيوخ المصري.

اليوم الأوّل

نبا بي مضجعي ليلةً لهمٍّ نزلَ بي، والهمُّ رسولٌ من رسلِ الشرّ ينزلُ بأهدابِ العيونِ، فلا يزالُ يسعَى سعيَهُ حتّى يوقظَ الفتنةَ بين أشياعِها، فظللتُ أساهرُ الكوكبَ حتّى ملّني ومللتُه، وضاقَ كلٌّ منّا بصاحبِه ذرْعًا.

فلمّا تقضّى الليلُ إلا أقلَّه ولم يبقَ إلّا أنْ تنفرجَ لِمّةُ[1] الظلام عن جبينِ الصباح، سمعتُ طارقًا يدقُّ البابَ دقًّا ضعيفًا ما كدتُ أتبيّنُه لولا هدوءُ الليلِ وسكونُهُ، فقلتُ: مَنِ الطارقُ؟

قال: غريبٌ حائرٌ ضلّ به سبيلُه في هذه الرقعةِ السوداءِ وأعوزَهُ المأوى، يطلبُ كريمًا يعتمدُ عليه، ومضجعًا يأوي إليه، وقد أعدَّ لمن يُسدي إليه تلك النعمةَ ذخيرةً صالحةً من شكرٍ لا يبلَى ودعاءٍ لا يخيبُ.

فأعجبتُ بعابرِ سبيلٍ يمرُّ بعفوِ لسانه من فصيحِ القولِ وصحيحِه ما يُعيي على جهدِ المتكلفين، وتزويق المزورين[2]، وقلت في نفسي: ما لهذا الرجلِ بدٌّ من شأنٍ. وفتحتُ البابَ، فإذا شيخٌ كنتيٌّ[3] من حملةِ أعباءِ الدهرِ، قصيرُ القامةِ، ناحلُ الجسم، زريُّ الهيئةِ، قد نيّف على الثمانين من عمره، فخُيّلَ إليّ أن ظهرَه المحدودبَ قوسٌ، وأنّ عصاه التي يعتمدُ عليها وترٌ قد شُدَّ إلى تلك القوسِ، وأنّه قد أعدَّ من هذه وتلك سلاحًا يذودُ به عن نفسِه عاديةَ المنون.

فلمّا شعرَ بمكاني، رفعَ رأسَه إلي ورماني بنظرةٍ خلْتُ أنّها نفذَتْ إلى موضعِ الأسرارِ من قلبي، وأحاطتْ بما بين قِمّةِ رأسي وأخمصِ قدمي، فرأيتُ وجهًا أسمرَ اللونِ، قدِ انتثرتْ في أكنافِه حفائرُ الجُدَريّ، وأساريرَ تنطوي تارةً على عبرِ القرونِ، وحوادثِ الدهورِ، وتنفرجُ أخرى عن أنوارِ الصلاحِ والتقوى، ولحيةً بيضاءَ إلّا أنّها شعثاءُ، وعينَيْنِ كبيرتَيْن مستديرتَيْن ينبعثُ منهما نورٌ ساطعٌ خفّاقٌ لا يراه الرّائي حتّى يطرقَ له إجلالًا وإعظامًا، وسحنةً غريبةً لا عهدَ لي بمثلِها في حمراءِ الأممِ وسودائها، وأحسبُ أن لو كان بين يدي مثالٌ من صورِ الناسِ في القرونِ الغابرةِ لنسبتُها[4].

فمشيتُ إليه مِشيةَ الهائبِ الوجِلِ وقلت: على الرحبِ والسعةِ يا سيّدي، لقد حللتَ بمنزلٍ أنت صاحبُه ووليُّ الأمرِ فيه، ثم قدّمتُ إليه يدي، فمشى معي يتوكّأُ ويتحاملُ، ويهمسُ بهذه الكلمة:

ما أوسعَ الموتَ يستريحُ به الجسمُ المعنَّى ويخفت اللجب[5].

حتّى وصلْنا إلى غرفةِ الأضيافِ، فأعادَ النظر إليّ وقال: اذهبْ لشأنِك فأنا في حاجةٍ إلى الانفرادِ بنفسي، فتركتُه وذهبتُ إلى غرفةِ منامي، وقد أخذَ منظرُ الرجلِ مكانًا من قلبي،

---

(١) اللمّة: في الأصل الشعر المتفرّق على الجبين، وهنا بقايا الليل.

(٢) زوّر الشيء: حسّنه وقوّمه.

(٣) الرجل الكنتي: الكبير السن وهو نسبة إلى قوله: كنت في شبابي كبت وكيت.

(٤) نسبتها: أي ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور.

(٥) اللجب: الضجّة.

وشغلني من أمرِه ما كادَ ينسيني همومَ نفسي، فلمْ أزلْ أقلّبُ النظرَ في حالِ، وأذهبُ المذاهبَ في استبطانِ سرّه حتى أخذَ عيني نومٌ ثقيلٌ لم أستيقظْ منه إلّا في صفرةِ الأصيلِ.

سألتَ الخادمَ عن الضيفِ فعلمتُ أنّه أخذَ حظَّه من المطعمِ والمشربِ، والمضجع والمستحمّ، وأنّه لا يزالُ في مصلّاه، فهبطتُ إليه في خلوتِه أهيبَ ما أكونُ له، فرأيتُه جالسًا إلى قبلته يقلّبُ وجهه في السماءِ، ويكرّرُ هذا الدعاءَ:

اللّهمّ لا رادّ لقضائك، ولا سخطَ على بلائك، أمرتَ فأطعنا، وابتليتَ فرضينا، فأمطرْنا غيثَ إحسانِك، وأذقْنا بردَ رحمتِك، وألهِمْنا جميلَ صبرِك، وثبّتْ قلوبَنا على طاعتِك، فلا عونَ إلّا بك، ولا ملجأَ إلّا إليك، إنّك أرحمُ الراحمين، وأعدلُ الحاكمين.

ثم أطرقَ بعد ذلك إطراقًا طويلًا خِلتُ أنّه وصلَ فيه إلى مقام التجريدِ، وأنّ الذي أراهُ بين يديّ جَسَدٌ هامدٌ قد أسرَى بروحِه إلى الملأ الأعلى، فجعلتُ أختلسُ الخطا إليه حتى صاقبته(١).

فرفعَ رأسَه إليّ ذاهلًا، وقال: أنت هنا؟ قلتُ: نعم.

قال: في أيّ سنةٍ نحن من تاريخِ الهجرة؟

فعجبتُ لسؤاله، وقلت: في السنةِ التاسعةِ والعشرين بعد الثلثمائة والألف.

قال: ما اسمُ هذا المصرِ الذي تعمرونه؟

قلت: القاهرة المعزّيّة.

قال: أفي هذه الأمّةِ كثيرٌ مثلك؟

قلت: لم أفهمْ ما تريدُ يا سيّدي.

قال: لقد استفتحتُ هذه الأبوابَ التي تليك، فلم أجدْ من ورائها إلّا ضعيفًا لا يلبثُ أن يراني حتّى يَرعدُ مني فرَقًا، فيوصدُ بابَه في وجهي، أو ضنينًا يرى بؤسي وشِكاتي، فيزوي ما بين حاجبيه، ثم ينصرفُ عنّي، أو أعجميًّا لا يفهمُ ما أقولُ، ولا أفهمُ ما يقولُ.

قلت: ما في هذه الحالةِ أعجميّ.

قال: إنّهم خاطبوني بلحنٍ لا أعرفُه وإن شئتَ أعدتُه عليك كما سمعتُه، ثم أخذَ يسردُ عليّ الكلماتِ العاميّةَ التي سمعَها من الناسِ في طريقِه إليّ سرْدًا متواصلًا كما تسردُ الببغاء كلماتِها.

فقلت: إنّك قد أعدْتَ ياسيّدي بذكائك هذا عهدَ أبي العلاء المعرّي، فإنّهم يتحدّثون عنه أنّه كان إذا سمعَ أعجميًّا يتكلّمُ حفظَ كلامَه بدون أن يفهَم معناه(٢).

فما سمعَ كلمتي هذه حتّى اضطرب جسمُه، وانكفأ لونه(٣)، ورأرأ بمقلتيه(٤)، وزحفَ إليّ

---

(١) صاقب الشيء: قاربه، ودنا منه.

(٢) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصًا متعدّدة تتضمّن أنّه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمنًا طويلًا حتى يلقيه كما سمعه.

(٣) انكفأ [illegible] تغيّر.

(٤) رأرأ بمقلتيه: حركهما وأدارهما.

حتى اصطكّتْ ركبتانا. فعجبتُ لأمرِه، وما رأيتُ من استحالةِ حاله. ثم قال لي: من هو هذا المعرّي الذي حدّثوك عنه؟

قلت: رجلٌ من علماءِ الأمّةِ العربيّةِ وشعرائها عاشَ في القرن الرابع والخامس من الهجرة، نقرأ سيرتَه في كتبِ التاريخِ والأدبِ، ونعجبُ بفهمِه وعلمِه وذكائِه كلّ الإعجابِ.

قال: وما ظنّك به؟

قلت: إنّ الناسَ في أمرِه مختلفون، ومن يرفضُه أكثرُ ممّن يتشيّعُ له.

قال: ومن أيّهم أنت؟

قلت: ممّنْ يتشيَّعُ له، فقد قرأتُ كتبَه قراءةَ مستثبتٍ مستبصرٍ فما شككتُ في مذهبِه ودينِه.

قال: أكنت تؤثرُ أن تكونَ في عصرِه أو أن يكونَ في عصرِكِ حتّى تراه؟

قلت: ما أَعْدِلُ بهذه الأمنيةِ غيرَها.

قال: قد بلغَك اللهُ طلبتَك.

قلتُ: لم أفهمْ يا سيّدي، شيئًا ممّا تقولُ.

قال: أكاتمٌ أنت عَلَيَّ سرّي؟

قلت: نعم.

قال: أتقسُم؟

قلت: إنّ للوفاءِ عندي حرمةً مثلَ حرمةِ القسمِ، ولو كنت متّهمًا نفسي لأقسمتُ.

قال: الآن عرفتُك، أنا أحمدُ بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعرّي.

فما قرعَتْ هذه الكلمةُ مسمعي حتى أسقطَ في يدي، وعلمتُ أنّي قد هلكتُ. وكان أوّلَ ما كان منّي أن التفتّ ناحيةً لأرى هل أجدُ السبيلَ إلى الهربِ، إن عرضَ لي من هذا الجنونِ عارضُ سوءٍ.

وكأنّه ألمّ بما في نفسي فقال: لا ألومُك على ما ظننتَ، فقد قدّرتُ قبل أن ألقيَ إليك كلمتي هذه أنّها بالغةٌ منك ما بلغَتْ، فهل تؤمنُ بالله؟

قلت: نعم.

قال: وتؤمن بالبعثِ.

قلت: نعم.

قال: وما يُريبُك من رجلٍ أماتَه اللهُ ثم بعثَه بعد موتِه؟

قلت: ذلك يوم يبعثون.

قال: هَبْها قصّةَ إبراهيمَ، إذ قال له ربّه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[1] وبعد؛ فوالله يا بنيّ، ما كفرتُ منذ آمنتُ، ولا كذبتُ منذ

(١) البقرة: ٢٦٠.

عرفتُ أن الصدقَ منجاةٌ من النارِ، ولا استردَّ اللهُ منّي نعمةَ العقل بعد ما منحني إياها، ولو كذبتُ الناسَ جميعًا ما كذبتَك، فقد أسلفتَ إليَّ من أياديك ما لا أحتاجُ بعدَه إلى كذبةٍ أتنفّقُ بها عليك، أو أزدلفُ بها إليك، وإنّي قاصٌّ عليك قصّتي، فأصغِ لها، ولك بعد ذلك حكمُك.

فسرّى عنّي قليلًا ما كان ألمَّ بنفسي من القلقِ، فأقبلتُ عليه بوجهي، فأنشأ يقول:

لا أزالُ يا بنيّ، حتى الساعةِ أشعرُ بمرارةِ الحسابِ في فمي، فقد حوسبتُ حسابًا غيرَ يسيرٍ على الكبيرِ والصغيرِ، والدقيقِ والجليلِ، والقومةِ والقعدةِ، والخطرةِ واللمحةِ، وكلٌّ ما وجدتُه حاضرًا بين يدي في صحائفي، فكادَتْ حسناتي تكافىءُ في المِيزان سيّئاتي، ولولا تلك الكلماتُ التي كنتُ أردّدُها في حياتي الأولى في تزهيدِ الناسِ في النسلِ والزواجِ[1]، فقد

---

(١) من أقوال أبي العلاء في النهي عن الزواج ما جاء بها على صور مختلفة؛ فتارةً كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله:

قَدِمَ الفتَى ومضَى بغيرِ تثيّةٍ	كهلالِ أوّلِ ليلَةٍ من شهرِهِ
لَقَدِ اسْتَراحَ مِنَ الحياةِ معجّلٌ	لو عاشَ كابدَ شدّةً في دهرِهِ

وتارة كان يفضّل بقاءه في عالم الغيب كقوله:

وإذا أرَدْتُمْ للبنينَ كرامةً	فالحزمُ أجْمَعُ تَرْكُهُمْ في الأظهُرِ

وتارة كان يظهر سروره بأنّه لم يتزوجْ ولم ينسل كقوله:

تواصلَ حبلُ النسلِ ما بينَ آدم	وبيني ولم يوصلْ بلامي باءُ
تشاءَب عمرو إذ تشاءَبَ خالدٌ	بعدوى فما أعدتني الثوباءُ

وقوله:

بِنْتُ عَنِ الدُّنيَا ولا بِنْتُ لي	فيها ولا عُرْسٌ ولا أختُ

وقوله:

لقدْ صرتُ في الدنيَا غَبِينًامرزَّءًا	فأغنَيْتُ نَسلي من أذاةٍ ومن غُبْنِ
فإنْ تَحْكُمِي بالجَوْرِ فيَّ وفي أبي	فلنْ تحكمِيه في بناتِي وفي ابْنِي

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولدٍ جنايةً منه عليه كقوله:

ليذمْ والدًا ولدٌ ويعتبْ	عليه فبئس عمري ما سعى له

وقوله:

هذا جناهُ أبي عليّ	وما جنيتُ على أحد

وظاهر أنّ الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ما كان يتصوّره من أنّ الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الإنساني ولا خلاصَ له منه إلّا من طريق العدم المحض، وأنّ إسناده الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الإمعان في تصوير هذا الشقاء وتبيُّن ضرورة اتصاله بالإنسان وأنّه لو لم يولد، لما كان شقيًّا. وقد أوضح غرضه هذا توضيحًا بيّنًا في قوله:

ألا تفكّرت قبل النسل في زَمَنٍ	به حَلَلْتَ فتدري أين تُلْقيهِ
ترجو له من نعيم الدهر مُمْتَنِعًا	وما عَلِمْتَ بأنّ العيشَ يُشقِيهِ
شكَا الأذى فَسَهِرْتَ الليلَ وابتكَرتْ	به الفتاةُ إلى شَمْطَاءَ تَرقيهِ
وأُمُّه تَسْأَلُ العَرّافَ قَاضِيةً	عَنْهُ النُّذورَ لعلّ الله يُبْقيهِ
وأنتَ أرْشَدُ منها حِينَ تَحْمِلُهُ	إلى الطبيبِ يُداويهِ ويَسْقيهِ
ولَوْ رَقى الطفلَ عيسى أو أُعيدَ له	بُقراطُ ما كانَ مِنْ مَوْتٍ يُوقّيهِ

دخلتُ بها في زمرةِ المفسدين الذين تنكّروا لإرادةِ اللهِ، وأغفلُوا حكمتَه في خلقِ النوعِ البشريّ. وطال حسابي عليها وحجاجي فيها، وكان لا بدّ من العقابِ، ففزعتُ إلى الروحِ الشريفةِ المحمّديةِ مستشفعًا بها لا أريدُ القضاءَ، ولكن أريدُ اللطفَ فيه، فتعلّقَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم بقوائم العرشِ الإلهي وقال:

اللّهمّ إنّك تعلمُ أنّ عبدَك هذا عاشَ في تلك الدارِ كارهًا لها، متبرّمًا بها، متسخّطًا عليها، حابسًا نفسَه في كسرِ بيته فرارًا من أهلها، يترقّبُ فراقَها في جميعِ آنائه وفيناتِه حتى لو رأى الشمسَ طالعةً لتمنّى ألّا يرَى مغربَها، ولو رآها غاربةً لتمنّى ألاّ يرى مشرقَها، وقد قضَى قضاؤك الذي لا مردَّ له، ولا محيصَ عنه أن تعاقبَه على ما اجترحَ من السيئاتِ في دارِ العملِ، فأسألُك بقلمِك النورانيّ الذي تمحو به في لوحِك ما تشاءُ وتثبتُ، أن تقيَ جسمَه الذي طهّره في الحياةِ الدنيا بالزهدِ في شهواتِها ولذائذِها، والصبرِ على آلامِها وأهوالِها من عذاب النارِ، وأنْ تجعلَ عذابَ قلبه فداءَ عذابِ جسمِه، فعاقبْه بإرجاعِه إلى تلك الدارِ التي كانت جحيمَه ومستقرَّ عذابه، وحسبُه من العقابِ أن يلقَى فيها آخرَ ما لقي فيها أوّلًا، إنّك بعبادك لطيفٌ خبيرٌ.

فقبلَ اللهُ شفاعةَ نبيّه، وقضى أن أعودَ إلى الدار الأولى لأقضيَ فيها من الأيّامِ بعد ما قضيتُ فيها من السنين، وقد علمَ سبحانه وتعالى أنّي كنت في العهدِ الأوّلِ أحمَدُه على العمَى كما يحمَدُه غيري على البصرِ، فردّ إليّ بصري لتنفذَ مشيئتُه في عقابي وتعذيبي؛ فلَهُ الحمدُ على سرّائِه وضرّائِه.

هذه قصّتي قصصتُها عليك، وهذا أوّلُ يومٍ من الأيّامِ التي سأقضِيها في دارِكم هذه، فاكتمْ عليّ أمري حتى ينقضيَ أجلِي، وكنْ لي خيرَ معينٍ على همومِ الحياةِ وبأسائها، فقد اغتبطتُ بك مذ رأيتُك وعلمتُ أنّ اللهَ ما قيّضَك لي إلّا وهو يريدُ أن يخَفّفَ عنّي العذابَ مرّةً أخرى.

فما أتمَّ قصّتَه حتى ابتدرتُ يديه لثمًا وتقبيلًا، وعلمتُ أنّي أحرزتُ في بيتي كنزًا لا أعدلُ به كنوزَ الأرضِ ظاهرَها وباطنَها، وشعرتُ بما أضاءَ بين جوانحي من سرورٍ ما كان يكدّرُه عليّ إلّا خوفُ انقضائِه.

ثم ما زلنا نتحدّثُ حتى كادَتْ تحترقُ فحمةُ الليلِ، فوضعتُ يدي في يدِه وعاهدتُه على كتمان سرّه، ثم ودّعته وتركتُه في خلوتِه على أن نلتقيَ غدًا.

اليوم الثاني

ما كنتُ أجهلُ قبل اليومِ رأيَ الشيخِ في الطعام، وما يحبُّ منه وما يكرهُ، ولكنّني ظننتُ أنّه بُعثَ بطبيعةٍ غيرِ طبيعتِه، ورأيٍ غيرِ رأيِه فقدّمتُ إليه في طعامِ العشاءِ دجاجاتٍ رَبلاتٍ[1] كنت أعددتهنّ للضيفان من قبلُ.

---

(١) الربل: الكثير اللحم.

فلما أخذَ بصرَه المائدةَ، صار ينظرُ إليها مرّةً وإليّ أخرى ثم قال: ما اسمُ هذا الطعامِ الذي تقدّمُه إلي؟

قلت: إنهنّ دجاجاتٌ لم يكن للخادمِ الصغرى عندي شأنٌ غيرُ رعايتِهِنّ والقيامِ عليهم والحدبِ بهنّ، فكانت تؤثرهن بأفضلِ ما نؤثرُها به من طعامٍ وشرابٍ، وتنزلُهُنّ من نفسِها منزلةَ الواحدِ من أمّهِ حتّى امتلأنَ واكتنزن[1] واستدرنَ للذبح، وقد كنتُ أُبقي عليهنّ كلّما طرقني طارقٌ إبقاءً على الفتاةِ أن ينفجرَ صدرُها حزنًا على أترابها الصغيراتِ؛ أما اليوم فلمْ أرَ من ذلك بدًّا، فذبحتُهُنّ إكرامًا لك، فسالَ من دموعِ الفتاةِ عليهن أكثرَ ممّا سالَ من دمائهنّ.

فوجمَ الشيخ، ثم أطرقَ إطراقًا طويلًا سمعتُه يهينم[2] فيه بهذه الكلماتِ:

وارحمتاه! ألَا تزالُ هذه المُدَى موكلَةٌ بهذه الأعناقِ، ألَا يزالُ الحيوانُ الناطقُ ينكرُ على الإنسانِ الصامتِ حتّى حِسَّه ووجدانَه، ويأبَى إلّا أن ينظمَه في سلكِ الجماداتِ الصمِّ، لأنّه صامتٌ لا ينطقُ، وأخرسُ لا يبين.

ربما كان زقاءُ الديكِ، وقوقأةُ الدجاجةِ، وصرصرةُ البازي، وهديلُ الحمامِ، وزقزقةُ العصفورِ، وثُغاءُ الشاةِ، ومواءُ الهرّةِ، وخوارُ الثورِ، وحنينُ النيبِ[3] بكاءً بغيرِ دموعٍ، وشكوَى بغيرِ لسانٍ، وربّما كان يكتمُ ذلك الذبيحُ في نفسِه من الوجدِ والرجاءِ والبرجاءِ[4] ما لو استطاعَ أن يبيّن عنه لأبكى العيونَ دماءً، وفجّرَ الصخورَ عيونًا.

ثمّ رفعَ إليّ وقال: أما سمعتَ الدجاجاتِ يقلن لك شيئًا عندَما أردتَ ذبحَهُنّ؟

قلتُ: لا يا مولاي. ومتى قلن للناس شيئًا فيقلْنَ لي؟

فنظرَ إليّ نظرةً شزراءَ لا أنسى سهمَها الواقعَ في قلبي ما حييتُ ثم قال: أمَا لو أن اللهَ منحَ ذابحَ الدجاجةِ من نورِ البصيرةِ ما منحَه من نورِ البصرِ لسمعَها تقول له: مهْلًا، رويدًا أيُّها القاتلُ السفّاكُ، لا تدنُ منّي، ولا تمدُدْ يدَكَ إليّ، فلا شأنَ لك معي ولا تِرَةَ[5] لك عندي.

أنا صاحبةُ الحقِّ المطلقِ في حياتي، وأنا لا أريدُ أن أموتَ، ولا رغبةَ لي في فراقِ الحياةِ، لأنّ ورائي أفراخًا صغارًا هنّ إلى حياتي أحوجُ منك إلى مماتي، وليسَ من الرأي أن أكِلَ أمرَهن إليك من بعدي، لأنّك شرهٌ طمّاعٌ لا يشبعُ بطنُك، ولا تهدأُ مديتُك.

أنت لا تملكُ أن تعطيَني الحياةَ، فلا تملكْ أن تسلبَني إيّاها.

كلُّ ما تستطيعُ أن تمنَّ به عليّ أنّك تطعمني وتسقيني، فهل تعلمُ أنّك ما كنتَ تطعمني إلّا فُتاتَ مائدتِك، ولا تسقيني إلّا غُسالةَ يديك، وأنّك ما كانت تصنعُ ذلك رحمةً بي ولا إحسانًا إليّ بل لتهيىءَ لنفسِك ما يسدُّ شهوتَك، ويطفىءَ لوعتَها، وهل تعلمُ أنّك أنت الذي سجنتني في

(١) اكتنز اللحم: اجتمع وصلب.
(٢) يهينم: يتكلّم بصوت خافت.
(٣) النيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنّة.
(٤) البرجاء: الشدّة.
(٥) الترة: الثأر.

أقفاصك، وحلتَ بيني وبين رزقِ اللهِ أُطْعَمُه أنّى ذهبتُ وأين حللتُ، من حيث لا يُساوِمُني فيه مساومٌ، ولا يحاسبني عليه محاسبٌ؟!

أمِنْ أجلِ الخُشارةِ[١] القَذِرةِ والجريمةِ الكدرةِ تَسْلُبني حياتي، وتُفْجِعُ بي أفراخي، ولا ذنبَ لي ولا لهنّ عندك إلّا أنّا كنّا زينةَ بيتِك ولعبةَ أطفالِك وحماةَ آلِك من بناتِ الأرضِ[٢] وهوامِها، ورسلَ الفجرِ المنيرِ إليك.

لا تظلمِ السبعَ اليوم، ولا تَنْقُمْ منه وحشيّته وافتراسَه فكلاكما وحشٌ، وكلاكما مفترسٌ، لا فرقَ بينك وبينه إلّا أنّه لا يحسنُ الذبحَ والطبخَ كما تحسنُ، فهو يبقرُ البطونَ بأظافره، وأنت تفري الأوداجَ[٣] بمداك[٤]، لا بل إنّ جريمتَك أكبرُ من جريمتِه وعذرَك أضعفُ من عذرِهِ، لأنّه يفترسُ ليشبعَ بطنَه، وأنت على ذلك من القادرين.

استضعفتني فبرزتَ إليّ، فهلّا برزتَ لشبلِ الأسدِ، أو ديسمِ الدبِّ، أو فرعلِ الضبِّ، أو حرش الحيّةِ، أو هيثم النسرِ، أو ناهض العقاب؟

ما أخبثَك أيُّها الإنسانُ عاجزًا، وما أظلمَك قادرًا، وما أشقاك بنفسِك وأشقَى العالمين بشقائك!

ذلك ما كان يسمعُه الذابحُ من ذبيحتِه لو أن اللهَ وهبَه أُذنًا كالآذانِ وبصيرةً كالبصائرِ، ولكنّ الناسَ لا يعلمون.

هيه يا صاحبَ الدجاجاتِ! حَدِّثْني عنك: ألمْ يكن لك في جميعِ ما تنبتُ الأرضُ من بقلِها وقثائِها، وفومِها وعدسِها، وبصلِها منادحُ لإكرامي والقيامِ بحقّي، وأنت تعلمُ أنّني رجلٌ سلختُ في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيِّفًا وأربعين سنةً لم أذقْ فيها لحمَ الحيوانِ، ولا ثمارَه ولا نتاجَه، فحميتُ نفسي حتّى عسلَ النحلِ، وبيضَ الدجاجِ، وألبانَ ذواتِ الأثداءِ، وأقنعتُها بالبلسنِ طعامًا والبلس حلوى[٥] لأنّي كنتُ أعلمُ أنّه طعامي الذي لا يلائمني غيرُه ولا يشبعني سواه، وأنّ لحمَ الحيوانِ إنّما خُلِقَ للشفاه الغليظةِ، والأنيابِ العريضةِ، والأظافرِ الحادّةِ، والجلودِ المزأبرة[٦]، والأعضاء المتوثّبةِ، والهاماتِ الضخمةِ.

وكنت أرَىٰ أنّ أكَلةَ اللحوم إنّما يخادعونَ أنفسَهم فيها، ويجترّونها إلى طباعِهم اجترارًا لا يأكلونها إلّا إذا عالجوها بالطَبخِ، والصفِّ[٧]، والتقديد، والشيّ والقلي، ومزجوها بالخضرِ والتوابل، والأبازير والأقزاح[٨] مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهرِ النباتِ، حتى إذا

---

(١) الخشارة: فضالة المائدة.
(٢) المراد ببنات الأرض: الحشرات التي تخرج من بطنها.
(٣) الأوداج: العروق. (٤) المدى: جمع مدية، وهي السكّين.
(٥) البلسن: العدس. والبلس: التين.
(٦) الثوب المزأبر: الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه. (٧) الصف: تشريح اللحم عراضًا.
(٨) التوابل وما يليها: ما يطيب المطبوخ من الأشياء اليابسة.

نزلَ بهم عارضُ مرضٍ نزعوا عنها، وبرئوا إلى اللهِ منها، وفزعوا إلى النباتِ في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم، كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوعِ إلى غذائهم الطبيعيّ الذي خُلِقُوا له.

وأعجبُ ما كنت أعجبُ له من أمرِهم أنّهم كانوا ينكرون عليّ رأيي في تركِ ذلك الطعامِ، ويُمعنون في مسألتي عنه، وحجاجي فيه، وحملي عليه، ويلحّون في ذلك إلحاحًا شديدًا، حتى ظننتُ أنّهم قاتلي من دونه[١] كأنّما يزعمون في ضوضائهم هذه أنّهم إنّما يأكلون لحمَ الحيوانِ باسم الشريعةِ الدينيّةِ لا باسم القرمِ والجعم[٢].

أو أنّ اللهَ تعالى أنزلَ عليهم قرآنًا ألّا يقيمَ لهم يومَ القيامةَ وزنًا، ولا يقبلَ منهم صَرْفًا ولا عدلًا، إلّا إذا قدموا عليه ببطونٍ بُجْرٍ[٣]، مكتظّةٍ بلحومِ الحيوانِ تتقدّمُ بين أيديهم في مُنْصَرَفِهم من الحساب لتفتحَ لهم أبوابَ الجنان، وكأنّهم فرغوا من أداءِ ما افترضَ اللهُ عليهم أن يؤدّوه وَتَرْكِ ما أمرَهم أن يتركوه، فلم يبقَ بين أيديهم من أبوابِ العبادةِ إلا بابُ التورّعِ عن أكلِ اللحمِ مخافةَ أن ينقلبَ المباحُ بإعراضِهم عنه حرامًا، كما ترك النبيّ ﷺ صلاةَ التراويح بعد أدائِها مخافةَ أن تنقلبَ سنّتُها باستمرارِه عليها فريضةً[٤].

وأحسبُ أنْ لَوْ كُنْتُ فيهم من أكلةِ السُّحُتِ[٥]، أو الميتةِ، والدم ولحم الخنزير، أو أموالِ الناسِ بالباطلِ، لأوسعُوا لي في صدورِهم من العذرِ ما لم يوسعوا في تركِ مباحٍ ما تركتُه نقمةً على الشريعةِ أو تبرّمًا بها، أو تمرّدًا عليها، ولكنّني كنتُ امرأً جزوعًا يُزْعِجُني منظرُ الشرائحِ الحيوانيّةِ على مائدتي، لأنّه يذكّرني بمنظرِ الذبيحةِ وارتياعها ولهها بين حبلِ الذابحِ وسكّينِه.

وكنتُ فقيرًا لا أملكُ في كلِّ عامٍ من الرزقِ إلّا نيّفًا وعشرين دينارًا لا يتّسعُ مثلُها لمثلِ ما يتّسع له عيشُ الناعمين المترفين[٦] وما كنتُ أجدُ السبيلَ إلى غيرِها إلّا من طريقِ

---

(١) كتب ابن أبي عمران إلى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتًا مؤلمًا، ويعرض عليه أن يحمل بعض الأمراء على أن يرسل إليه ما يكفيه مؤونة ذلك إحراجًا له وإعناتًا، وأبو العلاء يومئذ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل «ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب، وقد عجز عن القيام في الصلاة فإنما يصلّي قاعدًا والله المستعان».

(٢) القرم والجعم: شهوة اللحم. (٣) بجر، جمع أبجر: وهو الممتلىء.

(٤) من كلام أبي العلاء في الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها:

يَعيبُ أناسٌ أن قومًا تَجَرّدوا ... لِحِمامِهِم نُصْبَ العيونِ الشّوازِرِ
لَقَدْ سَعِدوا إنْ كانَ لَمْ يُجْنَ عِنْدَهُمْ ... مِنَ الوِزْرِ إلا تَرْكُهُم للمآزِرِ

(٥) السحت: الحرام.

(٦) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله «وما حثّني على ترك اللحم أنّ الذي لي في السّنَةِ نيّفٌ وعشرون دينارًا، فإذا أخذ خادمي بعضَ ما يجب، بقي ما لا يعجب، فاقتصرت على فول وبلسن، وبعض ما لا يعذب في الأحسن» ومن كلامه الدال على أنّه كان فقيرًا معوزًا قوله:

واتّهامِيَ بالمالِ أَوْجَبَ أنْ يُطْلَبَ مِنّي ما يَقْتَضي التّمويلُ
ويقولُ الغُواةُ خَوّلَكَ اللهُ ... كَذِبْتُمْ لِغَيْرِيَ التّخويلُ

الكُذْبةِ والتكفّفِ أي بقبول صِلاتِ الأمراءِ وصدقاتِ المحسنين. وقد عَلِمَ اللهُ من شأني أنّني رَجُلٌ لو عَلِمْتُ أنّي إنْ أَذَلْتُ ما صان الله من ماءِ وجهي على عتبةِ أميرٍ أو قدمِ وزيرٍ، أمطرَتِ السماءُ عليَّ ذهبًا، واستحالتِ الحصباءُ تحت قدمي درًّا ما فعلتُ ضنًّا بنفسي على هذا الموقفِ المستوبل[1] وإيثارًا للرضا بقضاءِ اللهِ وقدرِه في قسمةِ أرزاقِه بين عباده.

فلم أرَ خيرًا من تركِ طعامٍ لو اشتهيتُه، لمَا قدرتُ عليه، ولو قدرتُ عليه، لمَا اشتهيتُه من حيث لا يكونُ للتحريمِ والتحليلِ، ولا للإيمانِ والزندقةِ في ذلك مدخل.

وما زال المتورّعون من السلفِ الصالحِ يتركون ما هو لهم حلالٌ مطلقٌ من لذائذِ هذه الحياةِ وشهواتِها، ويجزعون من ملامستِه والدنوِّ منه جزعَهم من اجتراحِ السيّئاتِ وانتهاكِ الحرماتِ.

فقد كان النبيّ ﷺ يجيعُ نفسَه من غيرِ عوزٍ، وكانت عائشةُ[2] رضي الله عنها تقول: «إنّ رسول اللهِ لم يمتلىء قطّ شبعًا، وربّما بكيْتُ رحمةً له ممّا أرى به من الجوعِ، فأمسحُ بطنَه بيدي وأقولُ: نفسي لك الفداءُ لو تبلّغتَ من الدنيا بقدرِ ما يقوّيك، فيقول: يا عائشةُ إخواني من أولي العزمِ من الرسلِ قد صبروا على ما هو أشدُّ من هذا، فمضوا على حالهم، فقدِموا على ربّهم، فأكرَم مَآبَهُم وأجزلَ ثوابَهم، وكان يقولُ: شرارُ أمّتي الذين يأكلون مخ الحنطة»[3]. وعلا عمرُ رضي الله عنه ولدَه عبد الله بن عمر بالدرة[4]، إذ دخلَ عليه، فرآه يجمعُ في طعامِه بين الثريدِ والشواءِ. وكان بعضُ الصالحين يعدُّ الجمعَ بين الخبزِ والملحِ شهوةً فيتجنبُها. وكان بعضُهم يَعْجُنُ دقيقَه ويجفّفُه في الشمسِ، ثم يأكلُه قائلًا: كسرةٌ وملحٌ حتى يتهيّأ في الآخرةِ الشواءُ، ومنهم من لم يأتدمْ قط في حياته لا بالجواذبِ[5] والكبابِ ولا بالخلِّ والزيتِ.

فهل كان واحدٌ من هؤلاءِ بطِرًا بنعمةِ اللهِ، ومحرِّمًا ما حلّلِ الله؟ لا، فما كلُّ من أبغضَ حلالًا حرّمَه، ولا كلُّ من أحبَّ حرامًا حلّله، فقد اعتقدَ صاحبُ أبي حنيفة[6] بحلِّ النبيذ، فلمّا أريدَ عليه قال: لو قطّعتُ إرْبًا إرْبًا ما حرّمته، ولو قطعتُ إربًا ما شربتُه.

وعلم النبيّ ﷺ بحلّ الطلاقِ ثم قال: أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطلاقُ، بل لو تبيّنتُ لعلمتُ أن قاعدةَ التحريمِ والتحليلِ في الشرائعِ الدينيّةِ مصادرةُ النفوسِ في ميولها وشهواتِها، والنفوسُ لا تنفرُ إلّا ممّا حَلّ لها، ولا تشتهي إلّا ما حُرّمَ عليها.

فويلٌ لي من هؤلاءِ الناسِ، شَرَكْتُهم في دنياهم، فقالوا: شرهٌ طماعٌ، وصدفتُ لهم عنها،

---

(١) المستوبل: الرديء.

(٢) عائشة (ت٥٨هـ/٦٧٨م) زوج النبي (ﷺ) وبنت أبي بكر الصديق.

(٣) مخ الحنطة: خالصها.

(٤) الدرة: السّوط يضرب به؛ كان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة تكاد لا تفارق يده.

(٥) الجواذب: طعام يتّخذ من سكر وأرز ولحم.

(٦) أبو حنيفة: هو نعمان بنت ثابت (ت١٥٠هـ/٧٦٧م) إمام المذهب الحنفي وأعظم أئمة مذاهب المجتهدين الأربعة بالشرع الإسلامي.

فقالوا زنديقٌ ملحدٌ، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[١].

وما وصلَ من حديثِه إلى هذا الحدّ حتى بلغَ منه الجهدُ أو كاد، فَتَفصَّدَ جبينُه عرقًا، واستسرّ حديثَه يبين، فرثيتُ له ممّا به، وأمرتُ برفعِ المائدةِ من بين يديه، وقدمتُ له مقترحَه من الطعام، فلبثنا نأكلُ صامتَيْن حتى فرغنا.

فأردتُ أن أرفّه عليه ما ألمّ به من الهمِّ فقلت له: يا مولاي إنّ للحيوان اليومَ شأنًا غيرَ ذلك الشأنِ الذي تعرفُه له من قبلُ، فقد ذهبَ كثيرٌ من الناسِ مذهبَ الرفقِ به والإحسانِ إليه، واجتمعَ في كلِّ مدينةٍ من مدنِ العالم قومٌ من الراحمين المحسنين يأخذون أنفسَهم بمناظرةِ المدارجِ والسبلِ والأسواقِ العامةِ، فإذا وجدُوا من يحملُ على دابتِه فوقَ ما تحتملُ أو يسوطُها سوطًا عنيفًا[٢] رفعوا إلى الحاكم أمرَه، أو رأوا حيوانًا هزيلًا أو مَهيضًا[٣] حملوه إلى مكانٍ خاصٍّ بمعالجةِ أمراضِ الحيوانِ، فعالجوه، إنْ وجدُوا إلى الرجاءِ فيه سبيلًا، وإلّا قتلوه رحمةً به، وإشفاقًا عليه.

قال: لقد أحسنوا في الأولى وأساؤوا في الأخرى، ومن لهم بعلمِ ما استتر وراءَ حجبِ الغيبِ من كوامنِ الأقدارِ في تحديدِ الآجالِ، وها نحن نرَى في كلِّ يومٍ مريضًا يبلّ بعدَ إشرافِه وَبُكاءُ الباكياتِ حوله، وصحيحًا يخترمُ في اجتماعِ قوّتِه، واستكمال فتوّتِه وغليانُ ماءِ الشبابِ في وجهِه كما تُخْتَرمُ الثمرةُ الغضّةُ مِنْ غصنِها الناضر، فهلّا وكلُوه إلى منيّتِه تأتيه هادئةً مطمئنةً حيث يسوقُها القدرُ إليه.

ما أحسبُ هؤلاءِ الراحمين الذين تحدّثُني عنهم إلّا مُرائين مصانعين، ولا هذه الرحمةَ التي ينتحلونها لأنفسهم إلّا حِبالةً من الحبائلِ نصبوها لاصطياد العقولِ واختتالِ النّفوسِ، ولا أنّهم أرادوا بما فعلوا إلّا أن يقولَ الناسُ عنهم إنّهم رحموا الحيوانَ فأحرى أن يرحموا الإنسانَ، فمَثَلُهم كمثَلِ المرائين في الدينِ الذين يتورّعون عن الثمرةِ حلالًا تذرّعًا إلى البدرةِ حرامًا.

يا بني آدمَ، دعوا النوقَ في مراحِها، والشاءَ في دروبِها، والوحشَ في كِناسِه، والضبَّ في جُحرِه، والذئبَ في وجاره، والقطا في أفاحيصِه، ولا تزعجوا العصافيرَ في أعشاشِها، ولا الحمامَ عن محاضنِها، ولا اليعاسيبَ عن خلاياها، ولا الأسماكَ عن مسارحِها، وجنّبوها نخاخَكم وشباكَكم، وقترَكُم[٤] وزباكم[٥]، ومُداكم وشفارَكم، فإنّ لها نفوسًا كنفوسِكم، ووجدانًا كوجدانِكم، ورجاءً في الحياةِ كرجائِكم، واعلمُوا أنّ الله تعالى ما أغوى بعضَكم ببعض، ولا سلّطَ قويَّكم على ضعيفِكم، ولا أجرى هذه الينابيعَ من الدماءِ بين أحيائكم إلّا بعد أن ضريتم[٦] بهذه اللحوم ضراءَ السباعِ بفرائسها، وقطّعْتُم إلى المتعةِ بها ما شئتم من

(١) يوسف: ١٨.
(٢) ساط دابته سوطًا: أي ضربها بالسوط.
(٣) المهيض: الكسير.
(٤) القتر: جمع قترة بضم القاف، وهو الناموس الذي يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد.
(٥) والزبى: جمع زبية بضم الزاي وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الأسد.
(٦) ضري الوحش باللحم: اعتاده وألفه.

الحلاقيم والغلاصِم والأوداجِ والأباهرِ(١)؛ فارحمُوها ترحموا أنفسَكم، واعصموا دماءها يعصمِ اللهُ دماءكم؛ إنّكم إلى الرحمةِ محتاجون، وإلى الله راغبون(٢).

ثم سكتَ بعد ذلكَ سكوتَ المجهدِ المتعبِ، وكان الظلامُ قد أظلّنا بجناحَيه، فشعَرْتُ أنّ سِنةً من النومِ قد رنّقت(٣) في عينيه، فانسللتُ من بين يديه، وتركتُه في مضجعِه على أنْ ألقاه غدًا.

اليوم الثالث

أصبحتُ في اليوم الثالثِ، فإذا الشيخُ قد فارقَ خلوتَه إلى حديقةِ المنزلِ، فافترشَ ترابها، وتوسَّدَ أعشابَها، وأنشأ يردّدُ النظرَ بين أزهارِها وأنوارِها، ويبسِمُ للعصافير تتنقّلُ بين أنجمِها(٤) وأشجارِها، ويُصغي إلى سرارِ الحديثِ بين حصبائِها ومائِها، فعرفتُ المدخلَ إلى قلبِه والوسيلةَ إلى سرورِه وغبطتِه، فاقترحتُ عليه البروزَ إلى ضاحيةِ البلدِ ليرفّه عن نفسِه ما ألَمّ بها من الحزنِ والألمِ.

---

(١) الغلاصم: جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق، والأباهر: جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

(٢) للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن إيذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب:

لقد ساءني مَغْدُ الفقير بجهله ... على العِير ضَرْبًا ساءَ ما يَتَقَلّدُ
يُحَمّلهُ ما لا يُطيقُ فإنْ وَنى ... أحالَ على ذي قَترةٍ يتجلّدُ

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله:

لكِ النصحُ مني لا أعاديكِ خاتلًا ... بمَكْرٍ ولكنّي أغاديكِ مُكرِما
إذا ما حَذرْتِ الصَّقْرَ يومًا، فحاذري ... أخا الإنس أيّاما وإنْ كان مُخرِما
يَصوغُ لكِ الغادي قِلادةَ هالِكٍ ... مِنَ الدّم تُخْبي وَجْدَكِ المتضرّما

وقوله في النهي عن صيد الوحش:

لا تَطْردِ الوحشَ فما يلبث ... المطرودُ في الدّنيا ولا الطاردُ

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة:

روّحْ ذبيحك لا تُعْجِلْهُ مِيتته ... فتأخذِ النّحْضَ منهُ وهو يختلجُ

وقوله في الاعتراض على صيد الأسماك:

جاروا على حَيوانِ البَرّ ثُمّ غدوا ... على البحار فقالوا الصيدُ ما فيها
لم يقنع الحَيّ منها ما تَقَنّصَهُ ... حتى أجازَ أناسٌ أكْلَ طافيها

وقوله يبكي على الطائر المقتول:

وابكِ على طائرٍ رماه فَتًى ... لاهٍ فَأوْهى بفهره الكَتِفا
أو صادَفَتْهُ حِبالةٌ نُصبتْ ... فَظلّ فيها كأنّما كُتِفا
بَكّر يبغي المَعاش مجتهدًا ... فَقُصّ عقد الشّروقِ أو هَتَفا
كأنّه في الحَياة ما فرع الغصن ... فَغنّى عَلَيْهِ أو هَتَفا

(٣) يقال رنق النوم في عينيه إذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أي تحليقه ورفرفته بجناحيه.

(٤) الأنجم: جمع نجم بفتح النون، وهو ما نجم من النبات على غير ساق.

فخرجنا يتوكأ على يدي مرّةً وعلى عصاه أُخرى حتّى وصلْنا إلى وادٍ أفيحَ يهتزُّ بصنوفِ الأشجارِ، وأفانينِ الأزهارِ، ويتراءَى في ألوانٍ من النباتِ، مشتبهاتٍ وغيرِ مشتبهاتٍ، من هائجٍ وعميمٍ، وبارضٍ وجميمٍ[١] وركومٍ وأعنابٍ، وسنابلَ وأعشابٍ، وتفيضُ أرجاؤها بالجداولِ والغدرانِ، والقنى والخلجانِ، مطّرداتٍ ومنعطفاتٍ، ومجتمعاتٍ ومفترقاتٍ، يفضي أولاها إلى أُخراها، ويتّصلُ أقصاها بأدناها، ويعطفُ كبيرُها على صغيرِها، وقويُّها على ضعيفِها؛ فكأنّها صلالٌ رقشاءُ قد فرّتْ من حرِّ الظهيرةِ إلى هذا الروضِ الأريضِ تبتردُ بين روابيه وأكَمَاتِه، ومصاعدِه ومنحدراتِه.

فهي تنقبضُ وتنبسطُ، وتنسابُ وتتمعّجُ[٢]، وتقبلُ وتدبرُ، وتقومُ وتقعدُ، وتتواثبُ وتتراجعُ، وتتواصلُ ثم تتقاطعُ؛ وكأن حفيفَ أوراقه، وخريرَ مائِه، وتغريدَ أطيارِه، وضجيجَ نواعيرِه، وعجيجَ سائمتِه أنغامٌ مختلفاتٌ يتألّفُ من مجموعها لحنٌ بديعٌ يسمعُه السامعُ، فيُخيَّلُ إليه أنّه هابطٌ من أبوابِ السماءِ، أو أنّ سكان الألمب[٣] فوق عروشِهم يغنّون، وسكّانُ الأرضِ بين أيديهم يستمعون.

هنالك وقفَ الشيخُ أمامَ هذا المشهدِ المؤثرِ وِقْفَةَ الحائرِ المشدوهِ، وقد مُلِكَتْ عليه مشاعرُه، وحِيلَ بينه وبين نفسِه، فجمدَ في مكانه كأنّه نصبٌ من الأنصابِ، ووقفتُ وراءه أعجبُ لجمودِه وسكونِه حتّى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه، فلم أرجعْ إلى نفسي حتى سمعته يقول:

للمليكِ المذكرّات عبيدٌ	وكذاك المؤنثات إماءُ
فالهلالُ المنيفُ والبدرُ والفر	قدُ والصبحُ والثرى والماءُ
والثريّا والشمسُ والنارُ والنثرةُ	والأرضُ والضحى والسماءُ
هذه كلُّها لربِّك ماعا	بك في قولِ ذلك الحكماءُ

ثم التفتَ إليّ وقال: كلُّ الناسِ يطلبون الحقيقةَ، وكلُّهم عاجزون عنها لأنّهم يطلبونها من صحائفِ التاريخِ، والمؤرّخون يصانعون ويداهنون؛ أو من أفواهِ الفقهاءِ، والفقهاءُ تجّار يرتزقون، لا هداةٌ يرشدون؛ أو من خطراتِ عقولهم، وقد أفسدَها عليهم القائلون والكاتبون[٤]. والحقيقةُ موجودةٌ ولكنّهم لايعرفونها لأنّهم لا يعرفون الطريقَ إليها.

---

(١) الهائج من النبات الذي اصفر ويبس والعميم منه ما عم الأرض والبارض أول ما يبدو من النبات فإذا تحرك قليلًا فهو الجميم.

(٢) تمعجّت الحية: تلوت في سيرها وتثنت.

(٣) الألمب: جَبَلٌ في اليونان كان مجمع آلهتهم، ويقولون إن لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون.

(٤) كثيرًا ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التي يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلبًا للربح منهم كقوله:

ويقال للكرامِ قولًا وما في	المِصْرِ إلا الشخوصُ والأسماءُ =

قلت: وأين نجدُها، قال: في هذه الأوديةِ الفيحاءِ، تحت تلك القبّةِ الزرقاءِ، بين الظلِّ والماءِ.

هنا يرى الإنسانُ ربّه في الغريسةِ يلقي بها غارسُها في التربةِ، فإذا هي نبتةٌ زاهرةٌ مستويةٌ على سوقِها تعجبُ الزرّاعُ، ويراهُ في الحبّةِ الدقيقةِ، في الصرّةِ المستديرةِ، في النواةِ الصغيرةِ التي لا تلبثُ أنْ تأخذَ مكانَها من مغرسِها حتى تصيرَ نخلةً سحوقًا تملأُ الأرضَ خيرًا بجذوعها، وسعفِها، وجريدِها، وقنواتِها، وعثاكيلِها، وطلعِها، وبلحِها، وَبَسْرِها، ويراه في الكواكبِ الماثلةِ في السماءِ والأسماكِ السابحة في الماء، والأجواءِ المملوءةِ بالهواءِ، والليلِ إذا يغشى، والنهارِ إذا تجلّى، فيمتلىءُ قلبُه يقينًا صافيًا رائقًا لا تعبثُ به المناظرتُ، ولا تشوّهُ جمالَه المجادلاتُ، ولا يحتاجُ بعدَه إلى متكلّم يعلّمُه النظرَ، ولا فقيهٍ يلقّنهُ الجدلَ، فلا دليلَ على اللهِ غيرُه، ولا هادي إليه سواه[1].

= وأحـاديـثُ غـيّـرتـهـا غـواةٌ ... وافـتـرتـهـا لـلـمـكـسـبِ القُـدماءُ

غـلـب الـمـيـن منذ كـان عـلـى الـخـلـق ... ومـاتَـتْ بـغـيـظـهـا الـحُـكَـمَـاءُ

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين في التاريخ القديم:

وادّعـوا لـلـمـعـمّـريـن أمـورًا ... لـسـت أدري مـا هـنّ والـمـشـهـور

أتـراهُـمْ فـيـمـا تـقـضـي مـن الأيـام ... عـدوا سـنـيّـهـم بـالـشـهـور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون أن أول من شاب من الرجال هو سيدنا إبراهيم عليه =السلام:

مـا أقبحَ المَيْنَ قلتم لـم يَشِبْ أحدٌ ... حتى أتى الشيبُ إبراهيمَ عن أَمَمِ

كَـذَبْـتُـمْ ونـجـومُ الـلـيـل شـاهـدةٌ ... إنّ الـمـشـيـب قـديـمًا حَلّ في اللّحَمَ

وقوله:

لـعـمـري لَـقَـدْ فَـضَـحَ الأولـيـن ... مـا كَـتـبـوا ومـا سَـطّـرُوا

(١) كان أبو العلاء من أشدّ الناس بغضًا للمناظرات الدينية لاعتقاده أنها تورث الأحقاد والأضغان فضلًا عما تلقيه أحيانًا من الشكوك في نفوس الضعفاء وكان يكره من المتناظرين أن المنافسة وحب الغلب كثيرًا ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهات كما يظهر ذلك من مثل قوله:

لولا التنافسُ في الدنيا لَما وُضِعَتْ ... كتب التناظر لا المُغني ولا العُمُدُ

قـد بـالـغـوا فـي كـلام بَـانَ زُخْـرُفُـه ... يوهي العيونَ ولم تثبتْ له عُمُدُ

ومـا يـزالـون فـي شَـأْمٍ وفـي يَـمَـنٍ ... يـسـتـنـبـطـونَ قـيـاسًـا مـا لَـه أَمَـدُ

فَـذَرْهُـمْ ودنـيـاهـمْ فَـقَـدْ شُـغِـلـوا بـهـا ... ويـكـفـيـكَ مـنـهـا الإلـهُ الـواحـدُ الـصَّـمَـدُ

وقوله:

مِـلَـلٌ غـدرت فـرقًـا وكـلّ شـريـعـة ... تـهـدي لـمـضـمـر غـيـرهـا أكـفـارهـا

وقوله:

عـلـم الـفـتـى الـنـظـارُ أن بـصـائـرًا ... عَـمِـيَـتْ فكم يـخـفـي الـيـقـيـن وكـم يَـعِـمْ

لـو قـال سِـيـدُ غـضـا بُـعِـثْـتُ بـمـلّـةٍ ... مـن عِـنْـد ربّـي قـالَ بـعـضـهـمو نَـعَـمْ

وقوله:

هـذا الـفـتـى أوقـحُ مـن صَـخْـرَةٍ ... يـبـهـت مـن نـاظـره حـيـثُ كَـانْ

ويـدّعـي الإخـلاصَ فـي ديـنـه ... وَهْـو عـن الإلـحـادِ فـي الـقـول كَـانْ

يـزعُـم أن الـعـشـر مـا نـصـفُـه ... خـمـسٌ وأنّ الـجِـسْـم لا فـي مَـكـانْ

هنا يرى الإنسانُ السائمةَ تأكلُ العشبَ، والعشبَ يأكلُ الترابَ، والترابَ يأكلُ السائمةَ، فيستحيلُ الجمادُ نباتًا، والنباتُ حيوانًا، والحيوانُ جمادًا. فيعلمُ أنّ المواليدَ الثلاثةَ مادّةٌ واحدةٌ تتلوّنُ ذرّاتها وتشكلُ جواهرُها، ويعلمُ أنّ هذا الإنسانَ الفاخرَ بنفسِه، والمدلّ بعظمتِه واقتداره، ربّما كان بالأمسِ صفيحةً[١] ملقاةً على جانبِ قبرٍ، وربّما يكون في الغدِ جلدةً باليةً في ذؤابةِ[٢] نعلٍ.

هنا يرى الإنسانُ الأرضَ الصلفاءَ يمرُّ بها الماءُ وتُلْقَى فيها البذورُ، فلا تلبثُ الشمسُ أنْ تجفّفَ ماءَها، والريحُ أنْ تعصفَ بذورَها، فيعلمُ أنّ الحقائقَ الدينيّةَ لا يمكنُ أن تستقرَّ في قلوبِ الأشرارِ إلى أن تبلغَ شغافَها، وأنّ الناسَ ما اختلفوا إلّا لأنّهم جاحدون، ولا اقتتلوا إلّا لأنّهم ملحِدُون.

هنا يرى الإنسانُ الشمسَ طالعةً من مشرقِها، مصفرّةَ اللونِ متقاربةَ الخطواتِ مخافةَ أن تطيرَ إليها رشاشةٌ سوداءُ من مآثمِ هذا العالمِ ومخازيه، ثم لا تلبثُ أن تأخذَ مكانَها من كبدِ السماءِ حتى تنحدرَ إلى مغربِها هاربةً فتنغمسُ في ماءِ البحر قبلَ غروبِها لتغسلَ عن جرمِها الأبيضِ المشرقِ ما ألمّ به من تلك الأدرانِ والأوحالِ.

ويرى الليلَ مقبلًا يقطّبُ وجهَه، ويزوي ما بين حاجبيه، ويربدُّ شيئًا فشيئًا، حتى يسودّ غضبًا على هذا المجتمعِ البشريّ فيما يقترفُه تحت ستارِه من المفاسدِ والشرورِ، ولا يزالُ مادًّا يدَيْه بالدعاءِ إلى الله تعالى أن يعجلَ أوبتَه إلى مستقرّه حتى يستجيبَ له، ويداولَ بينه وبين النهار.

ويرى الكواكبَ قد كمنتْ وراء سترِ الظلامِ، ثم أطلّتْ بعيونها على هذاالعالم الأرضيِّ مرغمةً لتنفّسَ عن رفيقِها الليلِ بعضَ ما خالطَ قلبَه من الهمِّ والكمدِ، فلا تلبثُ أجفانُها أن تطرفَ انغلاقًا وانفتاحًا مخافةَ أن يصيبَها سهمٌ نافذٌ من سهامِ الأشرارِ، التي تتطايرُ يمنةً ويسرةً، وصعودًا وهبوطًا، فلا يقومُ لها شيءٌ إلّا أتتْ عليه.

هنا يرى الإنسانُ الحقيقةَ في هذا العالمِ عاريةَ الجسمِ، ويسمعُ صوتَها واضحَ النبراتِ من حيث لا يحجبُ بصرَه تكلّفُ المتكلفين، ولا خداعُ الخادعين، ولا يصدّ سمعَه قرعُ النواقيسِ، ولا صياحُ المؤذّنين.

فقلت: حسبُك يا مولاي، فقد نالَ منك أجيجُ هذه الرَّمضاءِ، وإنّي أرى في رأسِ هذا الوادي رجُلًا أحسبُه فلاحَ هذه الأرضِ، فامضِ بنا إليه علّهُ ييسّر لنا ظِلةً نفيءُ إليها، وجرعةً باردةً نفثأُ بها هذه الصارّة[٣]؛ فمشينا إليه حتى بلغناه، فرأيناه مكبًّا على تربتِه يفلحُها ويقلّبُ عاليها سافلَها، وقد شرستْ يدُه، وششنتْ قدماه، وزأبرَ صدرُه[٤]، وأفرغَ قرصُ الشمسِ في

---

(١) الصفيحة: الحجر العريض.

(٢) الذؤابة من النعل ما أصاب الأرض من المرسل منها على القدم.

(٣) يقال فثأ القدر إذا سكن غليانها، الصارة: العطش.

(٤) شرست اليد إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق، وششنت القدم إذا خشنت وغلظت، وزأبر الثوب إذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه.

رأسِه جعبةَ سهامِه، فتصبّبَ عرقًا، حتى سالتْ منه على قدَميه قطراتٌ كقطرات البخارِ تسيلُ على جوانبِ القِدْرِ المضطرمِ.

فحيّيناه بتحيةٍ حيّانا بأحسنَ منها، وأفضينا إليه بطلْبَتِنا، فأشارَ بيدِه إلى كوخِه، وكان منه على بعد كثبٍ، فإذا عريشٌ من عيدانِ القصبِ مسجّجٌ[1]، قدِ ارتفعَ فوقه سقفٌ من جذوعِ الأشجارِ، واعتمدَ على أسيطينةٍ[2] من اللبنِ الأسودِ وامتدّتْ أمامَه صفةٌ مستطيلة، واستدارَ به نؤيٌ يمنعُ عنه مسيلَ الماءِ.

فدخلناه، فلمْ نرَ فيه إلّا رِثّةً[3] من المتاعِ لا تكادُ تزيدُ على جوالقِ الخبزِ اليبيسِ، وخلقانٍ من القمصِ والأبرادِ، وقدرٍ وأثفيةٍ[4]، وجرَّةٍ مملوءةٍ ماءً، وحشيّةٍ[5] مفكّكةٍ تضطربُ في جوفِها حشوةٌ من الليفِ اضطرابَ الجنينِ في جوفِ الحاملِ، فشربْنا حتى ارتوَيْنا، وأخذْنا من تلك الحشيّةِ مضجَعًا، وما زلْنا على حالنا تلك سكوتًا لا نتكلّمُ حتى جاء الرجلُ، وقد مالَ ميزان النهارِ يقزلُ[6] في مشيتِه، ويحملُ فأسَه على عاتقِه، ويجرُّ وراءه ولدَيْن صغيرَيْن له بين الثامنةِ والعاشرةِ، فجلسَ وجلسَ ولداه بين يديه، وأنشأَ يُلقي إلينا معاذيرَه، ويتوجّعُ لعجزِه عن إكرامِنا وإسعافِنا بما نحبُّ، فعذرْنَاه.

ثم جَرى بينه وبين الشيخِ الحديثَ الآتي - وكنتُ أترجمُ بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان:

الشيخ: من يملكُ هذه الأرضَ؟

الفلاح: هي لسيّدي ومولاي - أطال الله بقاءَه، وأتمَّ عليه نعمتَه - صاحبِ هذا القصرِ الذي تراه - وأشارَ إلى قصرٍ فخمٍ يرفرفُ بأجنحتِه في هذه البقعةِ الخضراءِ رفرفةَ الحمامةِ البيضاءِ في القبّةِ الزرقاءِ.

الشيخ: أراكَ تدعو له، وتتمنّى له الخيرَ والسعادةَ، فلعلّك سعيدٌ بجوارِه، مغتبطٌ بمكانِك منه، ولعلّه يمدُّك ببرِّه وإحسانِه، ويغدقُ عليك من نعمتِه ما يطلقُ لسانَك بحمدِه والثناءِ عليه.

الفلاح: حسبي من سيّدي أن أرى وجهَه مرّةً في كلّ يوم أو يومين، ممتطيًا فرسَه الدهماءَ، في ركبٍ من أصحابِه وحاشيتِه، مارًّا بهذه الاجمالات الملتَفّةِ، يتنزّهُ ويتروّحُ، ويطاردُ الثعالبَ والذئابَ، مطاردةَ الشجاعِ المستقتلِ، ثم يعودُ إلى قصرِه مسرورًا مغتبطًا بمصبحِه وممساه.

الشيخ: إنّما أسألكَ عن أياديه عندَك وصنائعِه لديك، لا عن منازهِه وطرائدِه وملذّاته وشهواتِه.

الفلاح: وهل يوجدُ في بابِ النعمِ جليلِها ودقيقِها، نعمةٌ أجلُّ قدرًا وأسنَى قيمةً من أن أكونَ عبدًا مملوكًا لسيّدٍ كهذا السيّدِ، رفيعِ الجاهِ، جليلِ القدرِ، واسعِ النعمةِ، تطأطئُ بين

---

(١) يقال سجج الحائط: إذا طلاه بطبقة رقيقة من الطين.

(٢) أسيطينة: تصغير أسطوانة.

(٣) رثة المتاع بكسر الراء: ساقطه.

(٤) الأثفية: الحجر الذي توضع عليه القدر.

(٥) الحشية: الفراش المحشو.

(٦) قزل: عَرَجَ، والقَزَلُ أقبح العرج..

يدَيْه رؤوسُ العظماءِ، ويختلفُ بين حضرتِه كبارُ الأمراءِ؟

الشيخ: أيّها الرجلُ: ما عن هذا أسألُك، إنّما أسألُك هل يسلّمُ عليك سيّدُك هذا إذا مرّ ببابِك، أو يخلو بك أحيانًا ليتعرّفَ همَّك، وما تهتفُ به نفسُك من رغباتِك وحاجاتِك؟

الفلاح: الحقَّ أقولُ، يا سيّدي، إنّي ما سمعتُ في حياتي بأعجبَ من سؤالك هذا، ومتى كان السيّدُ يخاطبُ عبدَه إلّا بالأمرِ والنهي، أو يرفعُ إليه طرفَه إلّا بالنظرِ الشزْرِ، أو يلامسُ بيدِه جسْمَه إلّا للتأديبِ والتهذيبِ؟ ولقد تمرُّ بي وبعيالي الليالي ذواتُ العددِ ولا نكادُ نجدُ من الخبزِ المخشوشبِ ما يملأ بطونَنا، فلا أجدُ في نفسي من الحزنِ والألم ما أجدُ من نسيانِ سيّدي إيايَ بضعةَ أيّام، أو إغفالِه أمري ونهيي وزجري وتأديبي، وقد أعدّ لَي - حفظَه اللهُ وأمتعني بدوامِ رعايتِه وعنايته - عِصِيًّا غلاظًا يتعهّدني بها من حينٍ إلى حينٍ كلّما نسيتُ أوامرِه، أو قصّرتُ في رعاية غرَضٍ من أغراضِه، فأغتبطُ بذلك الاغتباطَ كلَّه لأنّي أعلمُ أنّي منه على ذكر[1]، وأنّي قد نزلتُ من نفسِه منزلةَ من لا يهونُ عليه إغفالُه واطّراحُه وإلقاءُ حبلِه على غاربِه.

الشيخ: وأين أمّ هذين الولدين؟

الفلاح: ماتت رحمَها اللهُ في سبيلِ خدمةِ سيّدِها، فقد كنّا يومًا نمتَح[2] على حافّةِ بئرٍ، فزلقتْ أقدامُنا وأنبتَّ بنا الحبلُ، فسقطنا، أمّا هي، فاستأثرَ اللهُ بها، وأمّا أنا فانكسرتْ رجلي وقدّرَ اللهُ لي الحياةَ، فما أسفتُ على أن لم أكنْ قد لحقتُ بها فأكونُ قد هلكتُ في سبيلِ خدمةِ سيّدي كما هلكتْ ليترحَّمَ عليَّ كما ترحّمَ عليها، ويأمرَ بدفني في مقبرةِ أجدادِه كما أمرَ بدفنِها.

الشيخ: ربّما كنتَ قانعًا من إحسانِ سيّدِك إليك وعطفِه عليك بما تعودُ به على نفسِك وعيالِك من غلّةِ هذه الأرضِ وثمراتِها؟

الفلاح: لا واللهِ، يا سيّدي، ما أَعْلَمُني نازعتُ سيّدي نعمتَه وسعادته في قفيز[3] برّ، أو حفنةِ تمرٍ، إلّا أنْ تسقطَ بين يدي تمرةٌ أعلمُ أنّه لا يأبَهُ لها فتكونُ قسمةً بيني وبين ولدَيّ، أو أحتطبُ من أطرافِ الوادي بضعةَ أعوادٍ من الحطبِ أشعلُها تحت قِدْرِي وأستغفرُ اللهَ ممّا سهوتُ عنه أو أخطأتُ فيه.

وهنا رأيتُ أبا العلاءِ كأنّما يحاولُ أن يكاتمني دمعةً تترجّحُ في مقلتيه، فأشرتُ إليه بالقيامِ.

فقمْنا ومشَيْنا صامتَيْن لا ينطقُ، ولا أنطقُ حتى بلغنا المنزلَ، وقد سترَ الظلامُ فقلتُ: أرجو يا مولاي أن أكونَ قد بلغتُ ما أردتُ لك في مخرجِك هذا من السرورِ والغبطةِ.

قال: ما نغّصَ عليَّ يومي إلّا منظرُ ذلك الرجلِ الأبلهِ المسكينِ في صغرِ سنِّهِ وسقوطِ همّتِه وذلّةِ جانبِه. وما أحسبُ إلّا أنّ الظلمَ قد ألحَّ على نفسِه حتى قتلَها وَسَلَبَها حسّها ووجدانَها، فأصبَح لا يعرفُ لنفسِه حياةً ذاتيّةً مستقلّةً عن حياةِ ذلك الإنسانِ الذي يسمّيه سيّدَه، فهو لا يفرحُ

---

(١) الذكر: التذكر.

(٢) متح الماء متحًا: نزعه، واستخرجه من البئر.

(٣) القفيز: نوع من المكاييل.

إلّا لفرحِه، ولا يغتبطُ إلا باغتباطِه، ويرضيه منه كلُّ شيءٍ حتى سوءُ مجازاتِه إيّاه على إخلاصِه إليه وتعبّدِه له، بضربِه وتعذيبِه وتقتيرِ الرزقِ عليه، وكذلك يفعلُ الظلمُ في نفوسِ المستضعفين.

ثم تركني وانحدرَ إلى مخدعِهِ وهو يهتفُ بهذه الكلمات:

يَخْشُنُ مَرأى لبني آدم وكُلُّهم في الذَّوْق لا يَعْذُبُ
أَفْضَلُ من أفْضَلِهم صَخْرةٌ لا تَظْلُمُ النّاس ولا تَكْذِبُ

❁ ❁ ❁

الأربعون(١)

الآن وصلتُ إلى قِمّةِ هرمِ الحياةِ، والآن بدأتُ أنحدرُ في جانبِه الآخر، ولا أعلمُ هل أستطيعُ أن أهبطَ بهدوءٍ وسكونٍ حتى أصلَ إلى السفحِ بسلامٍ، أو أعثرَ في طريقي عبرةً تهوي بي إلى المصرعِ الأخيرِ هويًّا.

سلامٌ عليك أيّها الماضي الجميلُ، لقد كنتَ ميدانًا فسيحًا للآمالِ والأحلامِ، وكنّا نطيرُ في أجوائك البديعةِ الطلقةِ غادين رائحين طيرانَ الحمائمِ البيضاءِ في آفاقِ السماءِ، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجرُ ولا نسأمُ، بل نعتقدُ أنّ في العالمِ همومًا وآلامًا، وكان كلُّ شيءٍ في نظرِنا جميلًا حتى الحاجةُ والفاقةُ، واحتمالُ أعباءِ الحياةِ وأثقالِها، كان كلُّ منظرٍ من مناظرِك قد لبسَ ثوبًا قشيبًا من نسيجِ الزهرِ الأبيضِ، فأصبحَ فتنةَ الأنظارِ، وشركَ الألبابِ!

وكان يُخيَّلُ إلينا أنّ هذا الزورقَ الجميلَ الذي ينحدرُ بنا في بحيرتِك الصافيةِ الرائقةِ سيستمرُّ في طريقِه مطردًا مندفعًا لا يعترضُه معترضٌ، ولا يُلوي به عن طريقِه لاوٍ إلى ما لا نهايةَ لاطّرادِه وتدفُّعِه.

وكان كلُّ ما نعالجُ فيك من آلامٍ وهمومٍ، أن يكونَ لنا مأربان من مآربِ الحياةِ، فنظفرُ بأحدِهما ويفوتُنا الآخرُ، أو غرضان من أغراضِها، فنصلُ إلى القريبِ، ونبيتُ دون البعيدِ.

وكان كلُّ ما يستذرفُ الدمعَ من أعينِنا هجرَ حبيبٍ أو طلعةَ رقيبٍ أو أرَقَ ليلةٍ أو ضجَرَ ساعةٍ، أو نظرةَ شزرٍ يلقيها بغيضٌ، أو نفثةَ شرٍّ يرمينا بها حقودٌ، ثم لا تلبثُ مسراتُنا ومباهجُنا أن تطردَ تلك الآلامَ أمامَها كما يطردُ النهرُ المتدفّقُ الأقذارَ والأكدارَ بين يدِه وتسلَم لنا الحياةُ سائغةً لا كدرَ فيها ولا تنغيصَ.

سلامٌ عليك أيّها الشبابُ الذاهبُ، سلام على دوحتِك الفينانةِ الغنّاءِ، التي كنا نمرحُ في ظلالِها، مرحَ الظباءِ العفرِ في رملتِها الوعثاءِ، ننظرُ إلى السماءِ فيُخَيّلُ إلينا أنّها مغدًى ومراحٌ

---

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنوّ أجله رحمه الله وبرد ثراه.

لنا، وإلى الآفاقِ البعيدةِ فيُخيَّلُ إليناأنَّها مجرَى سوابقِنا ومجرُّ رماحِنا، فكأنَّ العالمَ كلَّه مملكتُنا الواسعةُ العظيمةُ التي نسيطرُ عليها، ونتصرّفُ في أيّ أقطارِها شئنا.

أبكيكَ يا عهدَ الشبابِ، لا لأنّني تمتّعتُ فيك براحٍ أو غزلٍ، ولا لأنّي ركبتُ مطيَّتَك إلى لهوٍ أو لعبٍ، ولا لأنّي ذقتُ فيك العيشَ باردَ الهواءِ كما يذوقُه الناعمون المترفون، بل لأنّك كنت الشبابَ وكفى.

أبكيكَ لأنّي كنتُ أرَى في سمائِك نجمَ الأملِ لامعًا متلألئًا يؤنسُني منظرُه، ويطربُني لألاؤه، وينفذُ إلى أعماقِ قلبي شعاعُه المتوهّجُ الملتهبُ، فلمّا ذهبْتَ ذهبَ بذهابِك، فأصبحَ منظرُ تلك السماءِ منظرَ فلاةٍ موحشةٍ مظلمةٍ، لا يضيئها كوكبٌ، ولا يلمعُ فيها شعاعٌ.

أجلْ، لم أتمتّعْ فيك بمتعةٍ من المُتَعِ، ولا بلذّةٍ من الملاذّ، ولا نلتُ في عهدك مأربًا من مآربِ المجدِ أو الجاه، ولكنّي كنت أؤمّلُ وأرجو. وبذلك الأملِ كنت أعيشُ، وتحت ظلالِ ذلك الرجاءِ كنت أهنأُ وأنعمُ.

أمّا اليومَ وقد بدأتُ أنحدرُ من قِمّةِ الحياةِ إلى جانبها الآخرِ، فقد احتجَب عنّي كلُّ شيءٍ، ولم يبقَ بين يدي ممّا أفكّرُ فيه إلّا أن أعدَّ عدّتي لتلكَ الساعةِ الرهيبةِ التي أنحدرُ فيها إلى قبري.

مضى عهدُ الشبابِ، وبدأتُ اختلفُ إلى الأطبّاءِ الثلاثةِ: طبيبِ العيونِ، وطبيبِ المعدةِ، وطبيبِ الأسنانِ، وتقاربَتْ خطواتي، فأصبحَ فرسخي ميلًا، وباعِي ذراعًا، ونعى الناعون إليّ كثيرًا من أصحابي وأترابي، أي أنّهم نعوا إليّ نفسِي، ورأيتُ أصدقائي الذين نشأتُ معهم في طريقي، فأنكرْتُ استحالةَ حالِهم، واغبرارَ وجوهِهم، واحمرارَ خدودِهم، وابيضاضَ شعورِهم، فعلمتُ أنّني أوّلُهم، وأنّهم ينكرون منّي ما أنكرُ منهم، ودعا لي الداعون بالقوّةِ والنشاطِ وطولِ البقاء، وحسنِ الختامِ، أي أنّ قوّتي في هبوطٍ، ونشاطي في اضمحلالٍ، وسلامتي في خطرٍ، وحياتي على وشكِ الانحدارِ إلى مغربِها.

ومررتُ بمجامعِ الشبّانِ الحافلةِ بالقوّةِ والنشاطِ والمرحِ والسرورِ، فخُيِّلَ إليّ أنّني غريبٌ عنهم، لا صلةَ لي بهم، ولا شأنَ لي معهم، وأنّني أعيشُ في عالمٍ غيرِ العالمِ الذي يعيشون فيه.

وانتقلتُ من النظرِ في شأنِ نفسي، وشأنِ مستقبلي إلى النظرِ في شأنِ أولادي، وشأنِ مستقبلِهم، لأنّ مستقبلي أصبحَ ماضيًا، وغدًا أصبحَ أمسِ لا رجعةَ له إلى الأبدِ.

وسمعتُ كلمة «الجدّ» يهتفُ بها أحفادي الصغارُ، فلم أنكرْها، ولم أبتئسْ كأنّني معترفٌ أنّها الكلمةُ التي يجبُ أن أسمعَهَا. ونصحني الناصحون بالاقتصادِ والتدبيرِ إبقاءً على مصلحةِ أولادي الفقراءِ، كأنّهم يقولون لي إنّك موشكٌ أن ترحلَ، فأعدَّ لمن وراءك من أهلِك وبنيك ما يُغنيهم عنك يوم يفقِدُون وجهَك.

وهدأتْ نفسي بعد ثورتِها وجماحِها، فأصبحتْ سمْحًا كريمًا، عَفُوًّا غفورًا، لا أبغضُ أحدًا، ولا أحقدُ على أحدٍ، ولا أقابلُ ذنبًا بعقوبةٍ، ولا إساءةً بمثلِها، كأنّني أقولُ في نفسي؛

ما لي وللعالمِ ولمَا يحويه من خيرٍ وشرٍّ وأنا مفارقُه وشيكًا، إن لم يكنِ اليومَ فغدًا.

وأخذتُ أتحدّثُ عن الماضي أكثرَ ممّا أتحدّثُ عن الحاضرِ، لا لأنّ الأولَ أجملُ من الثاني، بل لأنّ الشبيبةَ أجملُ من الشيخوخةِ.

وذكرتُ الجلسةَ البسيطةَ التي كنت أجلسُها أيامَ الطلبِ في غرفتي العاديّةِ الصغيرةِ بين زملائي الفقراءِ البسطاءِ، فبكيتُها ورثيتُها، ولم تُنسِني إيّاها جلستي اليومَ في منزلي الأنيقِ الجميلِ بين خيرِ الناسِ أدبًا، وفضلًا، ومجدًا، وشرفًا، لأنّ الأولى كانت في سماءِ الأحلامِ الحلوةِ اللذيذةِ، أمّا الثانيةُ، ففي أرضِ الحقيقةِ المرّةِ المؤلمةِ.

وكنت أنعمُ في صباي بكثيرٍ من الملاذّ الوهميّةِ الكاذبةِ، فكنتُ، أجدُ في نفسي غبطةً عظمى حينما أجلسُ لمطالعةِ قصّةِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، أو سيرةِ سيف بن ذي يزن[١]، أو حروبِ عنترةَ[٢]، أو وقائعِ أبي زيد، أو أساطيرِ الجنّ والشياطين، وحين آوي إلى مضجعي، فأرى في منامي رؤًى بديعةً يجتمعُ لي فيها جميعُ ما أحبُّ وأشتهي من مطالعِ الحياةِ ومآربِها، وملاذّ العيشِ ومباهجِه، وحين أختلفُ إلى مقابرِ الصالحين، ومزاراتِ الأولياءِ وأقفُ موقفَ الضّراعةِ أمامَ حَلقاتِ أبوابهم، فأشعرُ بسكينةٍ في قلبي يبعثُها الأملُ ويُزجيها الرجاءُ.

والآن وقد حرمتُ ذلك كلّه منذ الساعةِ التي عرفتُ فيها أنّ أساطيرَ الأولين أكاذيبُ وأباطيلُ، وأنّ الرؤى والأحلامَ هوسٌ وجنونٌ، وأنّ الأولياءَ والصالحين أحياءً كانوا أو أمواتًا في شاغلٍ بأنفسهم عن غيرِهم لا يستطيعون نفعًا ولا ضرًّا؟ أي أنّني شقيتُ حين علمتُ، وكنتُ سعيدًا قبلَ أن أعلمَ.

وكان كلُّ ما أفكّرُ فيه أن أشيدَ لي بيتًا جميلًا أعيشُ فيه عيشَ السعداءِ الآمنين في مدينةِ الأحياءِ، فأصبحتُ وكلُّ ما أفكّرُ فيه الآن أن أبنيَ لي قبرًا بسيطًا يضمُّ رفاتي في مدينةِ الأمواتِ.

وكنتُ أُدهَشُ لبلاغةِ البليغِ، وذلاقةِ الخطيبِ، وبراعةِ الشاعرِ، وقدرةِ الكاتبِ الصائغِ، ونبوغِ المبتكرِ، وأطْرَبُ لكلِّ عظيمٍ وجليلٍ ممّا أرى وممّا أسمعُ، فأصبحتُ لا أُدْهَشُ لشيءٍ، ولا أَعْجَبُ من شيءٍ، لأنّ مرآةَ نفسي قد صدئتْ، فلا ينطبعُ فيها غيرُ الكوكبِ الفخمِ العظيمِ، وأين ذلك الكوكبُ فيما يقعُ عليه نظري من كواكبِ السماءِ ونجومِها.

ما أنا بآسف على الموتِ يومَ يأتيني، فالموتُ غايةُ كلِّ حيٍّ، ولكنّي أرى أمامي عالَمًا، مجهولًا لا أعلمُ ما يكونُ حظّي منه، وأتركُ ورائي أطفالًا صغارًا لا أعلمُ كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي ومن ورائي، ما بَالَيْتُ أسقطتُ على الموت أم سقطَ الموتُ عليّ؟!

لِيكُنْ ما أرادَه اللهُ، أمّا ما أمامي، فاللهُ يعلمُ أنّي ما ألممتُ في حياتي بمعصيةٍ إلّا وتردّدْتُ

---

(١) سيف بن ذي يزن (ت٥٧٤) ملك حميري. اشتُهرت قصّته التي وُضعت في القاهرة وراجت في الأوساط العربيّة للشعور القومي العميق الذي يسودها.

(٢) هو عنترة بن شداد (ت ٦١٥) شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. اشتُهر بشجاعته.

فيها قبل الإلمامِ بها، ثم ندمتُ عليها بعد وقوعِها، ولا شككتُ يومًا من الأيّامِ في آياتِ الله وكتبِه، ولا في ملائكتِه ورسلِه، ولا في قضائِه وقدرِه، ولا أذعنْتُ لسلطانٍ غيرِ سلطانِه، ولا لعظمةٍ غيرِ عظمتِهِ، وما أحسبُ أنّه يحاسبُني حسابًا عسيرًا على ما فَرّطتُ في جنبِه بعد ذلك.

وأمّا مَنْ ورائي، فاللهُ الذي يتولّى السائمةَ في مرتعِها، والقطاةَ في أُفحوصِها، والعُصفورَ في عشِّه، والفرخَ في وكرِه، سيتولّى هؤلاءِ الأطفالَ المساكين، وسيبسطُ عليهم رحمتَه وإحسانَه.

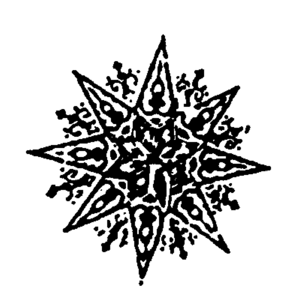
وداعًا يا عهدَ الشبابِ، فقد ودّعتُ بوداعِك الحياةَ، وما الحياةُ إلّا تلك الخفقاتُ التي يخفقُها القلبُ في مطلعِ العمرِ، فإذا هدأتْ، فقد هدأَ كلُّ شيءٍ، وانقضى كلُّ شيءٍ!

أيا عهدَ الشبابِ وكنتَ تندَى ... على أفياءِ سرحتِك السلامُ





في سبيل التاج



حول الرواية

تدور الروايةُ حول استبسال البلقانيّين في الدفاع عن وطنهم، وصمودهم أمام الأعداء بعد أن استنهض هِمَمَهم الأسقفُ «أتين» الذي كان «أعظم رجال المملكة عقلًا، وأسماهم إدراكًا، وأقواهم سلطانًا على نفوس الجيش والشعب»، فجمع الشمل، وحمل الملك «ميلوش» على التمرّد ضدّ الأتراك.

وحدث أن مات الملك، وكان هناك رجلان مؤهّلان لقيادة البلاد هما الأسقف «أتين»، وقائد الجيش «برانكومير»، فانقسم الناس إلى فريقين: أحدهما يدعو إلى الأسقف، والآخر يدعو إلى «برانكومير». ولكن بفضل أحد سعاة الخير التفّ القوم حول الأسقف، ونادوا بإبقاء «برانكومير» في مركزه لمعرفته بأساليب الحرب.

ولمّا توفّيت زوجة القائد، تزوّج من فتاة ساحرة الجمال، ملكت قلبه، وسيطرت على عواطفه، وكان له ولد يُدعى «قسطنطين».

ونتيجة لضعف القائد أمام زوجته كانت المؤامرة بأن استطاع أحد القوّاد الأتراك أن يُغري هذه الزوجة، ويعدها بتنصيب زوجها ملكًا، إذا ساعد الجيش التركيّ على اختراق الجبهة الحدوديّة، وإلّا عادت الحرب، ولا يعلم إلّا الله متى تنتهي، وماذا تكون عاقبتها.

وبفضل دهائها وقوّتها، استطاعت أن تقنع زوجها، فذهب إلى الحدود بزيّ الحارس لتنفيذ الخيانة. ولمّا عرف «قسطنطين» بغاية والده من غجريّة كان قد أنقذها من أحد الجنود الأتراك، ذهب إلى أبيه محاولًا إقناعه بالعدول عن رأيه، ولمّا لم يستطع، قتَلَهُ بسيفه، وأنذر جيوشه بقدوم الأعداء، فصدّوهم برباطة جأش. ولمّا وجد البلقانيّون جثّة قائدهم ظنّوا أنّه استُشْهِد في المعركة، فاعتبروه شهيدًا، وأقاموا له نُصبًا تخليدًا لذكره.

وبالرغم من موت القائد، راحت الزوجة تسعى للحصول على تاج الملك مع «قسطنطين» وهي لا تعرف أنّه هو الذي قتل والده بسبب الخيانة، وأخيرًا أطلعها على الحقيقة، فثارت ثائرتها، وراحت تقتنص الفرص لتثأر لزوجها، إلى أن توصّلت إلى الملك، وأقنعته بأنّ «قسطنطين» هو الذي يسعى إلى خيانة وطنه. وهنا وقع قسطنطين بين أمرين أحلاهما مرّ وهما: إمّا أن يعترف بالحقيقة، فيشوّه سمعة والده الذي اعتبره الناس بطلًا قوميًّا، وإمّا أن يُقتل ويُعتبر خائنًا لوطنه؛ فآثر أن يضحّي بنفسه في سبيل سمعة والده وشرف أسرته.

ولم تكشف الحقيقة إلّا قبيل موت «بازيليد»، أي بعد خمسة وثلاثين عامًا.

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير:
حسن الشريف

انصرفتْ عقولُ الكتّابِ، والمفكّرين في هذه الأيام، وفي جميعِ البلادِ إلى الاشتغالِ بالمسائلِ السياسيّةِ، والمشاكلِ الاجتماعيّةِ التي أوجدَتْها الحربُ الأخيرةُ، وانصرفَتِ الأقلامُ وراءَ العقولِ تحاولُ إنارةَ السبيلِ لقادةِ الشعوبِ، علّهم يستطيعون إقالةَ هذا العالمِ من عَثْرتِهِ.

ولقد كان من جرّاءِ ذلك أن أُهملَ الأدبُ إهمالًا، نزلَ به إلى مرتبةٍ دون التي كان يشغلُها في نفوسِ القرّاءِ والمؤلّفين، فانحطّ التأليفُ الأدبيُّ انحطاطًا قد يستمرّ ما استمرّتْ حالةُ العالمِ على ما هي عليه.

ولم يكنْ تأثيرُ هذه الأزمةِ الأدبيّةِ في مصر بأقلّ منه في غيرِها، إذِ انصرفَ معظمُ الأدباءِ عن فنّهم، وعلى الأخصّ في السنةِ الأخيرةِ إلى الاشتغالِ بقضيّتِنا السياسيّةِ الكبرى، فانقطعَ ظهورُ الكتبِ الأدبيّةِ، أو كاد، وأوشكَتْ مسارحُ التمثيلِ أن تغلقَ أبوابُها لقلّة ما يقدّم إليها من الروايات، ورأتْ صحفُ الأدبِ أنْ لا بقاءَ لها، إلّا إذا ولّتْ وجهَها شطرَ السياسةِ، فوقفَتْ جلّ أعمدَتِها على شرحِ وتأويلِ ما يحمله إلينا البرقُ من الأخبار، وبذلك وقفَتْ نهضتُنا الأدبيةُ، منتظرةً أن تمرَّ العاصفةُ، وتصفُو السماءُ، فتستأنفَ سيرَها، ويعودَ إليها عزّها ونشاطها.

بيدَ أنّ العنايةَ الساهرةَ على الفنونِ، قد أبتْ أن تذبلَ شجرةُ الأدبُ في مصر، ولمَّا تُونِع[1] أزهارُها، فلم تدعِ السياسة تستأثرُ بأقلامِ جميع الكتّابِ، بل أبقَتِ للأدبِ أئمّته وأنصاره، فلم يؤيسْهم شغفُ الجمهورِ بسياسةِ العالمِ وانصرافِهِ عن كلّ ما عداها، وظلّوا رافعين لواء فنّهم في وسطِ الزوابعِ والأعاصير، عالمين أنّ الأدب أفيدُ[2] غذاء لروحِ الأمّة وعقلها، وأكبرُ مهذّب لأحساسها وشعورها.

وفي طليعة هذا النفر من أئمّة الفنّ وخدّامه، لا أتردّدُ في ذكر اسم السيّد «مصطفى لطفي المنفلوطي» الذي لم يبخلْ على قرّائه العديدين[3] بأوَيْقياتِ فراغِه، فوقفَها على الكتابةِ والتأليفِ، ولم تحلْ أعمالُ وظيفتِه الحكوميّة بينه وبين أن يُخرجَ للناسِ بضعةَ مؤلّفاتٍ قيّمةٍ آخرُها هذه الروايةُ الشيّقةُ الممتعةُ «في سبيل التاج» التي نقدّم اليوم طبعتها الرابعة إلى جمهور القارئين.

---

(١) تونع: تتفتّح ويحين قطافها. (٢) يريد: أكثر فائدة، وهذا خطأ.

(٣) يعني الكثيرين، واستعمال «عديد» بمعنى «كثير» خطأ شائع.

فرانسوا كوبيه مؤلّف «في سبيل التاج» شاعرٌ عركَ صروفَ الزمان، وجسّ بإصبعه مصائبَ الإنسان، فلم تزد قلبَه، مناظرُ البؤسِ والفاقةِ، إلّا لينًا وحنانًا، حتى إنّ القارئَ لا يرى في شعره إلّا عبرةً حارةً أرسلَتْها عيناه إشفاقًا وحنوًّا على الذين تخطّتهم السعادةُ، وغضبت عليهمُ الحياةُ، حتى لقّبه عارفُوه بحقّ «معزّي المنكودين والبائسين، وشاعر الضعفاء والمحزونين».

وُلد كوبيه سنة ١٨٤٢، ولم تمكّنه بنيتُه السقيمة من تتميم دراسته، فانقطع عن تلقّي الدروس في معاهدِ العلمِ، وانصرفَ إلى قراءة الكتب والاطّلاع على أوضاع الأقدمين، وكان يشعر بميل شديد غريزي إلى الشعر، فنظم منه بضعَ قصائدَ لم تصادفْ إعجابًا من الذين أسمعهم إيّاها، فرأى أنّ النار أحقّ بها من المطبعة، فأحرقها، وطلّق الشعرَ وهجرَ الأدبَ، وسعى حتى حصل على وظيفة في الحكومة استولى عليها، ظنًّا منه أنّه لم يُخْلَقْ لصناعةِ القلمِ، وأنّ رغبته في الشعرِ ما هي إلّا نزعةٌ مفتونٍ، تصبو نفسُه إلى ما لا قبل له به، ولا طاقةَ له علَيه.

بيد أنّ الفطرةَ ما لبثت، حتى غلبتِ اليأس في نفس الشاب، فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزّقه في الغد، حتى وفق لكتابة «صندوق البغايا المقدسة» (Le Reli Puaire) ونشره بين الناس، فصادف رواجًا وإقبالًا شجّعاه على الاستمرار والمثابرة، وزاده تشجيعًا أن صارت بعض منظوماته تُتلى على المسارح وفي الحفلات. وما زالت شهرته تنمو، حتّى اهتمّت بشأنه إحدى الممثّلات الشهيرات «مدام أجار» ورأت فيه قابليّةً للتأليف التمثيلي، فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح، فعمل بنصيحتها، وكتب «عابر السبيل» (Le Passant)، وهي روايةٌ ذاتُ فصلٍ واحدٍ. ما كادت تظهر، حتى تخاطفتها المسارح، ومثّلتها «سارا برنار»، فطار صيت المؤلّف الشاب، وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد.

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتبًا شعريّةً متتابعةً أهمُّها «المودّات»، و«اعتصاب الحدادين»، و«المتواضعون»، وبعض قصص نثريّة منها «المجرم»، و«شيونيه»، وكثير من الروايات التمثيليّة، ونخصّ بالذكر منها «عواد كريمون»، و«مدام ده مانتنون»، و«سيفير ونوريلي»، و«في سبيل التاج».

وفي عام ١٨٨٤، انتخب عضوًا بمجمع علماء فرنسا، ثمّ انكبّ على السياسة، وسار فيها شوطًا بعيدًا كاد ينسيه الشعر والأدب، وتُوفّي سنة ١٩٠٨، وهو رئيس فخري لجمعية الوطن الفرنسوية[١].

هذا ملخّص حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على أقرانه بأنّه لم يقلّد أحدًا من الأوائل ولا المعاصرين، «والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعر من الشعراء»، وبأنّ معظم المواضيع التي طرقها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدّم إليها قبلَه أحدٌ من المؤلّفين. ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه:

«إنّ نفثات قلم هذا الشاعر، قد أثرت في جميع القلوب، وتمكّنت منها، لأنّ أساسها

(١) يريد الفرنسيّة.

الطبيعة، وأحسن ما يبرع في الكتابة عنه، ويصل فيه إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس بالمشاعر والأخلاق الاعتياديّة، والحقائق الواقعة. وهذا النوع من الكتابة لا يتيسّر إلّا لأصحاب الأذواق السليمة، والذكاء المتوقّد الخارق، وهو يحتاج إلى مهارة فائقة وبراعة زائدة، فإنّ أقلّ خطأ فيه، لا يلبث أن يبدو للعيان مجسّمًا، وإنّه وإن كان في استطاعة كلّ إنسان مهما كانت منزلته من العلم، أن يفهم هذا الشاعر، ويتأثّر بأغراضه ومراميه، ولكن لا يستطيع أن يسبر كنهه، ويتذوّق طعم أدبه إلّا مَنْ رُزق حظًّا وافرًا من العلم والذوق السليم. وبالجملة، فقرّاء هذا الشاعر العظيم كثيرون جدًّا، ومن جميع الطبقات، ولكنّ قرّاءه الحقيقيّين قليلون».

* * *

أمّا رواية «في سبيل التاج» التي نحن بصددها، فمأساة شعريّة تمثيليّة وصفها المؤلّف في سنة ١٨٩٥، وأراد أن يجاري بها عميدي الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر: «كورني»، و«راسين». وهي رواية أخلاقيّة، بطلها فتًى تعارضتْ في نفسَه عاطفتان قويّتان: حبّ الأسرة وحبّ الوطن؛ فضحّى الأولى فداءً للثانية، ثم ضحّى حياته فداءً لشرف الأسرة، ولقد تجلّت في هذه المأساة عبقريّة الشاعر، ومواهبه الكبيرة، فالأسلوب سهل ممتع، والأفكار متسلسلة متماسكة، والوقائع جليّة واضحة، وأخلاق أشخاص الرواية تفسرها أقوالهم، وحركاتهم، فلا غموض فيها، ولا إبهام.

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذه المأساة مذاهب شتّى، حتّى قال بعضهم إنّها خير ما أخرج للناس من عهد راسين إلى يوم ظهورها.

قال الأستاذ «إميل فاجيه» العضو بالمجمع العلمي الفرنساوي[١] عن هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه «آراء في التمثيل» ما معناه:

إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوّة، والمتانة، والوضوح مع البيان، والبلاغة، وحسن التصوير، أمكننا أن نَحْكُمَ بأن هذه الرواية ستمثّل إلى ما شاء الله بدون أن يملّها الجمهور، أو يشعر بسأم من سماعها، وأنّ «فرانسوا كوبيه» بكتابته للفصل الثالث منها على الأخص، قد ضمن لذكراه الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة، وهو الفصل المعَنْوَن في التعريب بعنوان «الجريمة».

وقال الأستاذ «جول لومتر»، العضو بالمجمع العلمي الفرنساوي، في الجزء التاسع من كتابه «خواطر في التمثيل»، بعد أن أطنب في وصف شاعريّة كوبيه، وفي تقدير مواهبه: إنّ رواية «في سبيل التاج» لَهِيَ من صنع فتًى قديرٍ، وشاعرٍ عظيم، ورجل ذي ضمير حيّ وقلب كبير. وإذا كان فيها بعض النقص، فهذا النقص لم يخل منه كورني، ولا فيكتور هوجو، ولا غيرهما من كبار الفنّيين.

(١) يريد «الفرنسي» لأنّ النسب إلى فرنسا: فرنسيّ.

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب: إنّ المُشاهد لتمثيل رواية «في سبيل التاج»، ليشعر منذ الهنيهة الأولى براحة واطمئنان، ثم لا يلبث حتى يتأكّد أنّه سيشاهد عملًا متقنًا، وفنًّا نظيفًا، ولقد يكون أحسنَ ما في القطعة تنسيقُ الأفكار، وتحليلُ العواطف، وترتيبُ الحوادث، وتصويرُ النفوس والأشخاص.

هذا رأي كبيرين من زعماء الحركة الأدبية في فرنسا نورده هنا، ليعلم القرّاء منزلة هذه الرواية من نفوس الأدباء في الغرب، ومبلغ تقديرهم لمؤلّفها.

ولقد تناول السيّد مصطفى لطفي المنفلوطي هذه المأساة، ونقل موضوعها إلى اللغة العربية في قالب روائي جميل بعد أن أضاف إليها أشياء، وحذف منها أخرى، وأخرجها لقرائه قصّةً يستهوي أسلوبُها القلوبَ، وتسترعي وقائِعُها الألبابَ بقلمٍ عذبٍ، وعبارةٍ رقيقة، وديباجةٍ بديعةٍ، لا نطيل الكلام في وصفها، لأنّ قرّاء العربيّة يعرفونها لهذا الكاتب العظيم، ويعترفون له بها، ولم يفته أن ينقل إلى العربيّة قطعًا كاملة من الرواية يستطيع القارئ أن يتبيّن منها قوّة المؤلّف، ومع أنّ الرواية ملخّصة تلخيصًا، فقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصوّر الروح الأصلية للمؤلّف تصويرًا مؤثرًا، وأن يملك من نفوس قُرَّاء العربيّة، ما ملكه فرانسوا كوبيه من نفوس قرّاء الفرنسيّة.

ولا يفوتنا هنا أن نقول إنّ الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية في إبّان الحركة الوطنية الأخيرة، وقد أوحت إليه الحوادث السياسية التي لا تزال ماثلة في الأذهان، صفحاتٍ تفيض وطنيّة وغَيْرة، حتى لكأنّه قد أفضى إلى أمّته في هذا الكتاب بكثير ممّا لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية، والحقَّ أقول إنّنا كثيرًا ما كنّا نعتب عليه في سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين في هذه الحركة، حتى قرأنا هذه الرواية، فإذا روحه الوطنيّة الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلًا، وإذا الروايةُ تمثّل الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلّقاتها.

وبالجملة، فرواية «في سبيل التاج» كتاب الوطنيّة الخالدة في ثوب قصّة خياليّة تملك لبّ القارئ بجمالها، وتتولّى تهذيب نفسه بآدابها وفضائلها، وما أحوجنا أن تجري الأقلام الأدبية في هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيّد المنفلوطي في هذه المأساة المؤثرة، ليتلقّى النشءُ الحديثُ دروسَ وطنيّته من طريق العواطف والوجدان، وقلّما تصل الوطنيّة إلى أعماق القلوب، وتتغلغل في شغافها إلّا من هذا الطريق.

أول يونيه سنة ١٩٢٠

حسن الشريف

مقدمة

لا يزالُ التاريخُ يحفظُ في صفحاتِه حتّى اليوم تلك الوقائعَ الحربيّةَ الهائلةَ التي وقعتْ في القرن الرابعَ عشرَ بين الدولةِ العثمانيّةِ، والشعوبِ البلقانيّةِ أيامَ أغارَتِ الأولى على الثانيةِ تُريدُ افتتاحَها، والاستيلاءَ عليها، فدافعَتِ الثانيةُ عن نفسِها دفاعًا مجيدًا استمرّ زمنًا طويلًا، حتّى غلبتْ على أمرِها، فسقطَتْ في يدِ القوّةِ القاهرةِ، ودخلَ التركُ البلقانَ، وحوّلُوا كنائسَها إلى مساجدَ، وفرضُوا على أهْلِها الإتاوات الثقيلة[1]، وعزلوا مَلِكَها الذي كان يحاربُهم، ويناوئُهم، وملّكوا عليها ملكًا من أهلها اسمه «ميلوش»، فلبثَت في حكم الأتراك عهدًا طويلًا، عانت فيه من ضروب الذلّ، والهوان ما يعانيه كل شعب مغلوب على أمره، حتى قيّض الله لها رجلًا من رجال الدين المخلصين اسمه الأسقف «أتين»، عزّ عليه ضياعُ بلاده، وسقوطُها في يد أعدائها، وأن تتحوّل فيها الكنائسُ إلى مساجد، وتَجْأرَ في أرجائها أصواتُ المؤذّنين بدلًا من أصوات النواقيس، وألّا يجدَ المسيحيّون في عقر ديارهم مكانًا يؤدّون فيه فروض صلواتهم غيرَ الصحاري والفلوات.

فأخذ يتنقّل في أرجاء البلاد، ويمشي بين شعوبِها وقبائِلها يدعو باسم الدين مرةً والوطنيّةِ أخرى، ويستنهضُ هممَ الرجالِ للدفاع عن وطنهم، وتحرير بلادِهم من يد ذلك القاهرِ المغتصب، حتى جمع كلمةَ الأمّة كلّها من حوله على اختلاف عناصِرها ومذاهِبها، وكذلك تتّفق كلمة الأمّة أمامَ الخطر الداهم والقضاء الشامل.

ثم أشارَ على ملكِهِ أن يخلعَ طاعةَ الترك، ويطردَ رعاياهم من بلاده، ويمتنعَ عن دفع الجزية والإتاوة، وينادي بحرّية البلقان؛ واستقلاله، فجبُن الملك عن ذلك في أول الأمر، ثم أسْلَسَ له، وأذعن لرأيه، ففعل ما أشار له عليه؛ فأحقد ذلك الترك، وآسفهم، واستثار حقدهم وضغينتهم، فوجّهوا إلى البلاد البلقانية جيشًا عظيمًا وافر العدّة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام أرطغرل باشا؛ فثار البلقانيون جميعًا رجالًا ونساء للدفاع عن أنفسهم، والذود عن وطنهم، واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغاري العظيم الأمير ميشيل برانكومير، فظلّ يحاربُ الأتراك عدّة أعوام، يدال له عليهم فيها، ويدال عليه[2]، ولكنّهم لا يستطيعون اجتياز حدود بلاده، واقتحام جبالها، حتى عيّ القائد التركي بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه إلّا من طريق الدسيسة والكيد، وكذلك فعل. . .

---

(١) الإتاوة: الخراج والجزية.

(٢) يتداولون النصر والهزيمة.

الإهداء

إلى البطل المصري العظيم سعد زغلول

«تشرحُ هذه الروايةُ سيرةَ بطلٍ من أبطالِ الوطنيّةِ العاليةِ، قد جمعَ اللهُ له من صفاتِ الشجاعةِ، والثباتِ، والعزيمةِ، والغَيْرَةِ، والإخلاصِ، والتضْحيةِ ما جمعَ لك منها، فأذنْ لي أنْ أهدِيَ روايتَه إليكَ، وأنْ أقدّمَ البطلَ البلقاني، إلى البطلِ المصريّ لتأنسَ روحُ كلٍّ منكما بروحِ صاحبِهِ، وإنْ باعدَ بينكما الزمنُ، واختلفَتْ بكما الدارُ، فإنْ تفضّلْتَ بقبولِ هديّتي، وما أحسبُك ضانًّا بذلك عليّ، فلتكُنْ جائزتي عندك عليها أن تشهدَ لي بينَك وبين نفسِك، أنّني قد وضعتُ لبنةً صغيرةً في ذلك البناء الضخمِ الذي شدْتَه لأمّتِك ووطنِك، وحَسْبي ذلك؛ وكَفَى».

أول يونيه سنة ١٩٢٠.

مصطفى لطفي المنفلوطي



الجاسوس

اجْتَمَعَ جُنُودُ الفرقةِ البلقانيَّةِ ذاتَ ليلةٍ في مُعسكَرِهِمْ، يَشْرَبُونَ، ويَطْرَبُونَ، ويرقُصُونَ على نَغم قيثار الموسيقيّ البوهيميّ المسكينِ «بانكو» الذي كان يَفِدُ إلى معسكَرِهِمْ كلَّ لَيْلَةٍ، يُغَنّيهم قِطَعًا حماسيّةً مؤثّرةً، يذكِّرُهُمْ فيها بمَجْدِ وطنِهِمْ، وتاريخِهِ العظيم، فيرقُصُونَ على غِنائِهِ، ويَطْرَبُون، ويُحْسِنُون إليه بما فضلَ من زادِهِمْ وشَرَابِهِمْ. ثمّ جَلَسُوا بَعْدَ فراغِهِم، يَتَحَدَّثُونَ في شأنِ ذلكَ الحادثِ العظيمِ الذي حَدَثَ في بلادِهِمْ منذ أيام، وهو مَوْتُ الملِكِ ميلوش، وعَزْمَ الجَمْعِيَةِ الوَطَنِيَّةِ على الاجتماعِ للنَّظَرِ فيمَنْ يخلفُهُ على العَرشِ مِنْ بَعْدِهِ، فانْقَسَمُوا في رأيِهِمْ قسمَيْنِ: فريق يَرَى اخْتِيارَ الأسقفِ أتين، وفريق يَرَى اختيارَ القائدِ برانكُومير، فقالَ الجنديُّ الرومانيُّ «أورش»، وهو مِنْ أشياعِ الأسقفِ وأنصارِهِ: «نعم، إنّ النصرَ قد تَمّ لنا على يَدِ قائدِنا العَظِيم ميشيل برانكومير، ولكنْ مَنِ الذي مَهَّدَ له النصرَ، وأعدَّ له عدَّتَهُ قبلَ أنْ يُعقدَ له اللواءُ على الجيشِ؟ أليس الأسقف أتين؟

من الذي يُنكرُ أنّ ذلك الرجلَ التقيَّ الصالحَ، هو الذي طافَ البلادَ مِنْ أقْصَاها إلى أقْصَاها عشرةَ أعوام كاملةٍ، يَسْتَنْهِضُ الهِمَمَ، ويَسْتَثِيرُ حَفَائِظَ[1] النُّفُوسِ، ويَسْتَحْيي مَيْتَ العزائم، ويُهيّجُ عاطِفَةَ الثأرِ والانتقامِ في نُفُوسِ الرجالِ، والنساءِ، والفِتْيَانِ، والفَتَيَاتِ، ويُلْقِي على تلاميذِ المدارِسِ في مدارِسِهِمْ، أناشِيدَ الحرّيّةِ والوطنيّةِ، فَيَسْتَظْهِرُونها مع دُرُوسِهِمْ، ويَتَغَنَّون بها في مسارِحِهِمْ، وملاعِبِهِمْ، ومَغْدَاهم، ومراحِهِمْ[2]؟.

مَنِ الذي يُنكرُ أنَّهُ الذي عَلَّمَ الشعبَ البلقانيّ دُرُوسَ الوطنيّةِ الشريفةِ العاليةِ، وغَرَسَ في قلُوبِهِمْ أنَّ الحَيَاةَ الذليلَةَ، خيرٌ منها الموتُ الزؤامُ، وأنَّ الحرّيّةَ حَيَاةُ الأمم، ورُوحُها، والرقّ مَوْتُها، وفنَاؤُهَا، وأنّ الأمةَ التي تَرْضَى بضَياعِ حرّيّتِها، واسْتِقْلَالِها، وتَقْبَلُ أنْ تَضَعَ يدَها في يدِ غاصِبِهَا إنّما هي أحطُّ الأممِ، وأدناها، وأحقُّها بالزَوالِ والفَناءِ؟.

ولم يزَلْ يفِيضُ على نُفُوسِهِمْ من نفسِهِ تلك الروحَ الوطنيَّةَ العاليةَ، ويُملي عليهم أمثالَ هذه الآياتِ الذهبيّةِ الشريفةِ، حتى صفَتْ ضَمائرُهُمْ من أدْرَانِ الذلِّ والمَهانةِ، وأدْرَكُوا من مَعْنَى الحيَاةِ ما لم يَكُنْ يُدْرِكُه آباؤُهُمْ من قَبْلُ، فأصْبَحوا كما تراهُمُ اليومَ حماةَ الوطنِ وذادَتَهُ[3]، يَبْذُلُونَ في سبيلِهِ مِنْ ذاتِ أيدِيهم، وذاتِ نفوسِهِمْ ما لا يبذلُ مِثْلَهُ إلّا الأممُ الراقِيَةُ الشريفةُ في سبيل الذَّوْدِ عن مَجْدِها، والدِّفَاعِ عن حرّيّتِها واسْتِقْلَالِها، ويُقدِمُون إلى المَوْتِ زُرَافاتٍ،

---

(١) الحفائظ: ج الحفيظة، وهي الحقد. (٢) مغداهم ومراحهم: صباحًا ومساءً.
(٣) الذادة: ج الذائد، وهو المدافع.

ووِحْدَانا[١]، فرِحِينَ متهلّلين، كأَنَّهُمْ ذاهِبُون إلى مراقِصِ «فيدين» ومَلاعِبِهَا؛ لأَنَّهُمْ يَعْلَمُون أَنَّ قَطَراتِ الدِّمَاءِ التي يَبْذُلُونَها في سَبِيلِ حرّيّتِهِمْ واسْتِقْلالِهِمْ، إنّما هي المِدَادُ الأَحْمَرُ الذي تُسَجَّلُ لهم به في صفحاتِ تاريخِهِم، آياتُ المَجْدِ والفَخَارِ. وأنّ الأشلاَ[٢] التي ينثُرونَها في تربةِ وطنِهِمْ، ثمّ يَسْقُونَها من دمائِهِمْ، إنّما هي البُذُورُ الطيّبَةُ التي تُنبِتُ لبلادِهِمُ المُسْتَقْبَلَ الحرَّ الشريفَ.

مَنْ مِنَّا يَجْهَلُ أَنَّهُ هو الذي اسْتَطاعَ، وَحْدَهُ، مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ البَلْقانِ جَمِيعًا أَنْ يَقِفَ أمامَ مَلِكِهِ وِقْفَةَ الأَسَدِ الهَصُورِ، ويَصِيحَ في وَجْهِهِ قائلًا له: حتّى متى أيُّها الملكُ الضَّعيفُ، المهينُ، تبيعُ وطنَكَ، وأبناءَه لأَعْدَائِكَ، وأعْدَائِهِ، بَيْعَ السلعِ المعروضَةِ في حَوَانِيتِ التجّارِ بأبخسِ الأثمان وأدْنَاها؟ وإلامَ تَضَعُ هذِهِ السلاسِلَ، والأغلالَ، في أعْناقِ أَبْناءِ أُمَّتِك، لتَقُودَهُمْ بها إلى حيثُ يُمَرِّغُونَ جباهَهُمُ الشريفَةَ تحت مَوَاطِئِ أقدامِ ذلك العَدُوِّ المغتَصِبِ، صاغِرِينَ ضارِعِين؟ ثمّ تَزْعَمُ بعد ذلك أَنّكَ مَلِكٌ عَظِيمٌ جالسٌ على عَرْشٍ شَرِيفٍ. ولو حقّقْتَ أمرَك لعلِمْتَ أنّكَ نخاسٌ[٣]، دَنيءٌ، يَبِيعُ الرَّقِيقَ في سُوقِ النخاسَةِ، بل أدْنَى مِنْ نَخّاسٍ؛ لأنّ النَّخَّاسَ لا يَتّجِرُ في أَبْنَاءِ أُمَّتِهِ، ولا أَفْرادِ أُسْرَتِهِ! فاهْتَزَّ الملكُ لكلمَتِهِ هذِهِ اهْتِزَازَ القَصَبَةِ الجَوْفاءِ بين مَهَابِّ الرياحِ، وطَأْطَأَ لها رأسَهُ إجلالًا وإعظامًا، ولم يَلْبَثْ أنْ عَزَمَ عَزْمَتَهُ الشريفةَ التي تَرَوْنَها اليَوْمَ، والتي أَنْقَذَتِ الوطنَ مِنَ العارِ، ورَفَعَتْهُ إلى ذُرْوَةِ المَجْدِ والفَخَارِ.

وهنا ضَجَّ القَوْمُ جَمِيعًا ضَجَّةَ السُّرُورِ والاسْتِحْسَانِ، وصَاحُوا: أَحْسَنْتَ يا أورش، أَحْسَنْتَ إِحْسَانًا عَظِيمًا؛ إلّا نَفَرًا قليلًا من أشياعِ القائِدِ، وصَنَائِعِه، فإنَّهُم امتعضُوا لهذِهِ الكلمَةِ، وغصُّوا بها[٤]، وقامَ أَحَدُهُم واسْمُهُ لازار، وكانَ الحارسَ الخاصّ لقَصْرِ القائدِ وأمينَه، وموضِعَ ثقَتِهِ، وثِقَةِ زوجَتِهِ الأميرةِ بازيليد، وطلَبَ الإذْنَ في الكلامِ، فأذِنُوا له، فقالَ: «إنّي أُرِيدُ أنْ أعترِضَ على صدِيقي أورش في كلمَتِهِ التي قالَها في فَضْلِ أسْقُفِنَا العظيمِ، وأثرِهِ الجَلِيلِ في خدْمَةِ الدينِ والوطنِ، ولكنّ الذي أراهُ، وأسْتَصْوِبُه أنّ لرجالِ الدينِ شؤونًا خاصّةً بهم، لا يَجْمُلُ بكرامَتِهِم أن يَتَعَدّوها إلى غيرِها من أعمالِ الحياةِ، وإنّي أَضِنُّ بأسْقُفِنَا العَظِيمِ أنْ تشغَلَهُ مشاغلُ الملكِ، وملاهيه عن شؤونِ الدينِ التي تَصْبُو لها نفسُهُ طولَ حَياتِهِ؛ والرأيُ الذي أراهُ، أنْ يُعْقَدَ المُلْكُ إلى القائدِ ميشيل برانكومير، ليقودَ الأُمَّةَ جميعَها بتلك السياسةِ الحَكِيمَةِ الرشيدَةِ التي قادَ بها الجيشَ، ورَفَعَهُ إلى مَنَاطِ السماكِ[٥] الأعلَى.

فاعْتَرَضَهُ جنديٌّ كان جالسًا على مقربَةٍ منه، وقال له: «لمَ لا تَضِنُّ بالقائدِ ميشيل، أن تَشْغَلَهُ مَشَاغِلُ الملكِ، وملاهِيه، عمّا هو بسَبِيلِهِ مِنْ قيادَةِ الجيشِ، وتدبيرِ شُؤُونِه؟» فأجابَ: إنّ قيادَةَ الجَيْشِ وزعَامَةَ الملكِ، أمْرَان مُتَشَابِهَان، لأنّهما يَتَعَلَّقَانِ بشؤُونِ الحَيَاةِ، وأعمالِها، وأمّا

---

(١) زرافات ووحدانًا: جماعات وآحادًا. (٢) الأشلاء: ج الشلو، وهو العضو.

(٣) النخاس: تاجر الرقيق.

(٤) غصوا بها: أخذتهم الغُصّة، كما يشرق الشارب بالماء أو الآكل ببعض الطعام. وهنا بمعنى: انزعجوا.

(٥) السماك: كلّ ما رفع.

الشؤونُ الدينيَّةُ، فلا علاقةَ لها بالشُّؤونِ الدُّنْيَوِيَّةِ بحالٍ من الأحْوَالِ، فدَعُوا الكاهنَ مُسْتَرِيحًا في مَعْبَدِهِ، مُسْتَغْرِقًا في صَلَوَاتِهِ وعِبَادَتِهِ، واخْتَارُوا لملكِكُمْ رجُلَ الأمَّةِ وبطَلَها، وحامي ذِمَارِها وحِمَاها، الأميرَ «برانكومير». فعلَتْ أصْوَاتُ الصاخِبِينَ والصائِحِينَ، والمُسْتَحسِنِينَ والمُسْتَهْجِنِينَ، وذهَبَ كلٌّ في صَيْحَتِهِ المَذْهَبَ الذي يَرَاهُ، ويَتَشَيَّعُ له.

وإنَّهُمْ لكَذٰلِكَ، إذا بصَوْتٍ صارِخٍ في وسَطِ هذِه الضوضَاءِ[1] يَقُولُ: «اسْتَمِعُوا منّي أيُّها القومُ كلمةً واحِدَةً، وهي فَصْلُ الخِطَابِ في قَضِيَّتِكُمْ هذه، ولا أطْلُبُ إليكُمْ أنْ تَسْتَمِعُوا منّي سِوَاها. فالْتَفَتَ الجمعُ، فإذا الضابطُ «ألبير»، وهو جنديٌّ شَيْخٌ عَرَفَ القائدَ برانكومير صغيرًا، وخدَمَهُ كبيرًا، وعاشَ معه في منزلِهِ في عَهْدِ زوجَتِهِ الأولى كأنَّهُ أحدُ أفْرَادِ أسْرَتِهِ؛ ولَمْ يُفَارِقْهُ إلّا مُنْذُ عامَيْنِ اثْنَيْنِ، أيْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ بأيامٍ قَلَائِلَ. فأنصتُوا إليه، فإذا هو يَقُولُ: «أنتُمْ تَعْلَمُونَ جميعًا صِلَتي بالقائدِ برانكومير، ومَكَانَتي عِنْدَهُ، وإنّي أعرفُ مِنْ شؤُونِهِ الخاصّةِ والعامّةِ ما لا يَعْرِفُهُ أحدٌ غَيْرِي.

ولقد عَرَفْتُ مِنْ خلائقِهِ وسَجَاياه في خِدْمَتِهِ، أنَّهُ أبْعَدُ الناسِ جَمِيعًا عن مَطَامِعِ الحَيَاةِ ومَظاهِرِهَا، وأرغَبُهمْ[2] عَنْ سَفَاسِفِ الأمُورِ ودَنَايَاها، وأنّهُ جنديٌّ صَمِيمٌ، مُعتَزٌّ بجندِيَّتِهِ، وشَظَفِها، وخُشُونَةِ العَيْشِ فيها، لا يُؤثِرُ عليها أيَّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الحَياةِ مَهْما عَلَا شأنُهُ، وعلَتْ قِيمَتُهُ؛ فمَنْ ظنَّ مِنْكُم أنَّهُ يُرْضِيهِ ويُجامِلُهُ بتَرْشِيحِهِ لمَنْصِبِ الملكِ، فقدْ أخْطأَ في ظَنِّهِ خَطَأً عظيمًا، وإنْ كان للأسقف «أتين» مُزاحِمٌ على الملك بين أشرافِ البلقانِ وسادتِهِ، فهو غيرُ القائدِ «برانكومير».

فهَدَأَتِ الأصواتُ، وسكَنَتِ الضَّوْضَاءُ عند سَماعِ هذه الكلمَةِ الهادِئةِ الرزينَةِ التي يَنْطِقُ بها جنديٌّ شريفٌ صادقٌ، وكادَتْ تَكُونُ فَصْلَ الخِطَابِ في القَضِيَّةِ، لولا أنّ «أورش» – وهو ذلك الجنديَّ المُتَشَيِّعُ للأسْقُفِ، والدّاعي له – قد نَهَضَ من مكانِهِ مرّةً أخْرَى، ونَظَرَ إلى الجنديِّ «ألبير» مُبْتَسِمًا ابْتِسَامَةَ الهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ، وقالَ له: «نعم، يا سيّدي، إنّكَ صادِقٌ فيما تَقُولُ؛ لم تزدْ حَرْفًا على ما تَعْرِفُ، ولم تنقصْ، ولكنِ ائذَنْ لي أنْ أقولَ لك إنّكَ إنّما تحَدَّثْتَ في كلامِكَ عَنِ الماضي القديم الذي حَضَرْتَهُ وشاهَدْتَهُ، أمَّا الحاضرُ، فلا تَعْرِفُ مِنْهُ شَيْئًا، فإنْ أذِنْتَ لي، حدَّثْتُكَ عَنْهُ، وقُلْتُ لك: إنّ الأميرَ برانكومير اليومَ، غَيْرُهُ بالأمس، وإنّ تلك النفسَ العاليةَ المترفِّعَةَ التي كُنْتَ تَعْرِفُ بالأمسِ مكانَها من بين جنبَيْهِ، قدِ استَحالَتِ اليَوْمَ إلى نفسٍ توّاقَةٍ مُتَطَلِّعَةٍ تَصْبُو إلى المعالي، وتَفْتَتِنُ بالعُرُوشِ، وإنَّهُ هو الذي يدعُو بنفْسِهِ إلى نَفْسِهِ، ويُرْسِلُ الدعاةَ في كلِّ مكانٍ لتأييدِهِ، ومساعَدَتِهِ على نَيْلِ المُلْكِ.

فاسْتُطِيرَ ألبير غَضَبًا، وقال: أتُرِيدُ أن تَقُولَ إنّ أخلاقَ قائدِنا قد تَغَيَّرَتْ، وإنَّه قدْ أصْبَحَ رَجُلًا صَغِيرَ النَّفْسِ مُبْتَذَلًا؟

---

(١) الضوضاء: الضجّة.

(٢) رغب عن الشيء: ابتعد عنه.

قال: لا، ما إلى هذا ذَهَبْتُ، ولكنّي أريدُ أنْ أقُولَ: إنّهُ قد أصْبَحَ مُنْقَادًا في شؤونِ حياتِهِ لرأيِ غَيْرِهِ، لا لرَأْيِ نَفْسِهِ. وربّما لو تُرِكَ وشَأْنَهُ، لكانَتْ له في حياتِهِ خطةٌ غَيْرُ هذه الخطّةِ التي يَنْتَهِجُها اليَوْمَ. فانْتَفَضَ القَوْمُ، واضْطَرَبُوا، ونَظَرَ بَعْضُهُمْ في وجوهِ بَعْضٍ، ومشَتِ الهَمَساتُ بين الأفواهِ والآذانِ.

وسمِعَ الخطِيبُ اسمَ قسطنطين يتردَّدُ مِرَارًا في أفواهِ الهامِسِينَ، فَصَاحَ في القَوْمِ: أنتُمْ مخْطِئُونَ جَمِيعًا فيما تَذْهَبُونَ إليه. فإنَّ ابْنَ قائِدِنا، وزَهْرَةَ شبيبَتِنا، وضابطَ فرقَتِنا، أعْلى هِمَّةً ممّا تَظُنُّونَ.

فصَرَخَ لازار: قُلْ مَنْ هو الشخْصُ الذي تُرِيدُ؟

فجَلَسَ أورش، ولم يَقُلْ شَيْئًا، إلّا أنّهُ هَمَسَ في أذنِ جنديٍّ كانَ بجانِبِهِ: «الزوجة الجديدة».

فسرَتْ هذه الكلِمَةُ بين الجموعِ سَرَيَانَ الكهرباء في أسْلاكِها، حتى بَلَغَتْ مَسْمَعَ الموسيقار بانكو، فبرَقَتْ لها عَيْنَاهُ بريقَ الفَرَحِ والسرورِ، لأنَّه لم يَكُنْ موسِيقارًا بوهيميًا كما زَعَمَ، ولم يكنِ اسْمُهُ بانكو كما يسمّونَهُ، بل هو الضابطُ المشهورُ إبراهيم بك، أحدُ أركانِ حربِ القائدِ التركيِّ العظيمِ أرطغرل باشا وقدْ وَجَدَ في هذِهِ الكلمَةِ التي سمِعَها ما كان يُرِيدُ أنْ يَكُونَ، وعَثَرَ بالثُّلْمَةِ[1] التي يَنْحَدِرُ منها إلى أغْراضِهِ، ومآرِبِهِ.

وما أوَى القَوْمُ إلى مضاجِعِهم، وأخذَ النومُ بمعَاقِدِ أجْفَانِهِمْ، حتى دَبَّ ذلك الجاسوسُ المتَنَكِّرُ على يدَيْهِ، وبَلَغَ مَضْجَعَ الجُنْديِّ إزار حارسِ قصرِ القائدِ، وموضِعِ ثقَتِهِ، وأكْبَرِ أشياعِ زَوْجَتِهِ، وأنصارها، فاضطَجَعَ بجانِبِهِ، وظلَّ يَهْمِسُ في أذُنِهِ ساعةً طويلةً كان يَتَرَدَّدُ فيها اسمُ الأميرةِ بازيليد زوجةِ القائدِ الجديدة، حتى تَمَّ لهما الاتّفاقُ على ما يُرِيدَانِ، ثم أسْلَما عُيُونَهُما إلى الكَرَى، فَنامَا.

❁ ❁ ❁

قسطنطين

تُوُفِّيَتْ زَوْجَةُ الأميرِ برانكومير مُنْذُ عامَيْنِ، وكانتِ امْرَأَةً من النِّسَاءِ الصالِحاتِ القَانِتَاتِ، ذَوَاتِ النفُوسِ العاليَةِ، والهِمَمِ الكُبْرَى. فَوَرِثَ ابْنُها قسطنطين عنها هذه الأخْلاقَ الكرِيمَةَ، كما وَرِثَ عن أبيه صِفاتِ الشجاعَةِ، والعزيمةِ، والصّبْرِ، واحْتِمالِ المكَارِهِ في سَبيلِ خِدْمَةِ الوَطَنِ والأمّةِ، فكانَ خَيْرَ ابْنٍ لخَيْرِ أبٍ وأمٍّ، وكان يَدَ أبيهِ اليُمْنَى، ودِرْعَهُ الواقِيَةَ الأمِينَةَ في جَميعِ وقائِعِهِ ومشاهِدِهِ، حتى ذاعَ[2] صِيتُهُ في جَمِيعِ أنْحاءِ المَمْلَكَةِ، وأحَبَّهُ الشعبُ والجُنْدُ حُبًّا كادَ يَرْفَعُهُ إلى ما فوق مَنْزِلَةِ أبيهِ، لولا حُرمَةُ الأبُوَّةِ، وجَلَالُ الشيخُوخَةِ، ومَكَانُ التّارِيخِ.

فلمّا ماتَتْ أمُّهُ، تَزَوَّجَ أبُوهُ مِنْ بَعْدِها فتاةً يونانِيَّةً اسْمُهَا «بازيليد»، يُقَالُ إنّها من سلالةِ

---

(١) الثلمة: الثقب أو الخلل في الحائط أو نحوه. (٢) ذاع: انتشر.

قياصِرَةِ بيزنطة «القسطنطينية»، وهيَ فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ ساحِرَةٌ، تَسْتَهْوِي القُلُوبَ، وتَجْتَلِبُ الألْبَابَ، ذاتُ نَظَراتٍ غَرِيبَةٍ لامِعَةٍ، يَقْضِي المتفرِّسُ فيها حِينَ يَرَاها أنَّها نَظَراتٌ مُرِيبَةٌ، ألِفَتِ الاختِلابَ، والافْتِتَانَ من عَهْدٍ بَعِيدٍ؛ فنزلَتْ من قَلْبِ القائدِ الشيخِ مَنْزِلَةً لَم يَنْزِلْها مِنْهُ أحَدٌ من قَبْلِها ولا مِنْ بَعْدِها؛ حتى زَوْجَته الصالِحَةُ، وَوَلَدُهُ النَّجِيبُ، فأصْبَحَ مُسْتَهامًا بها، مُسْتَسْلِمًا إليها، لا يَصْدَعُ إلّا بأمْرِها، ولا يَصْدرُ إلّا عَنْ رَأْيِها، ولا يَرَى حُلْوَ العَيْشِ، وجَمَالَهُ، إلّا بجَانِبِهَا، ولا يَسْتَرْوِحَ رائِحَةَ السّعَادَةِ، والهَنَاءِ، إلّا إذا هَبَّتْ عليه من ناحِيَتِهَا، وكانَتِ امْرَأَةً طَمُوحًا مُتَطَلِّعَةً، لا يَعْنِيها مِنْ شُؤونِ حَيَاتِها إلّا مَظَاهِرُ السُّؤْدَدِ والعَظَمَةِ، ولا يَغْلبُ على مَشَاعِرِها، وعَوَاطِفِهَا إلّا ذِكْرَى تاريخِ آبائِها، وأجْدَادِهَا، ومَصَارِعِ قَوْمِها في «بيزنطة» بِيَدِ الأتراكِ الفاتِحِينَ.

وكَانَتْ لا تَزَالُ تَتَحَدَّثُ في مجالِسِهَا العامَّةِ والخَاصَّة، بنُبُوءَةٍ قدِيمَةٍ تَنبّأَ لها بَعْضُ المُتَنَبِّئِينَ. ومُجْمَلُها أنَّ كاهِنًا عرّافًا دَخَلَ منزِلَ أبيها، وهي طِفْلَةٌ لَعُوبٌ، لا تَزالُ تَحُومُ حَوْلَ مَهْدِها، فَنَظَرَ إليها طويلًا، ثم قالَ لأمِّها: إنّ ابْنَتَكِ هذِهِ سَتَكُونُ مَلِكَةً عظِيمَةَ الشأنِ في مُسْتَقْبَلِ أيّامِهَا. ورُبَّما كان اهْتِمامُها بهذِهِ النُّبوءَةِ، واحتِفالُها بها، وتصْدِيقُها إيّاها هو السببَ في قَبُولِها الزّوَاج من شَيْخٍ هَرِمٍ، مُدْبِرٍ، قلّما يَعْني بمثلِهِ مِثْلُها. على أمَلِ أنْ تُحَقِّقَ لها الأيامُ على يَدَيْهِ آمالَها، وأمَانِيّها.

فَظَلَّتْ تَغْرِسُ في نَفْسِهِ هذِهِ الأمْنِيَّةَ الجَمِيلَةَ المَحْبُوبَةَ مدّةً مِنَ الزّمانِ، وتَسْقِيها بماءِ حُسْنِهَا وجَمالِها، حتّى ملأَتْ بها فضاءَ قَلْبِهِ، وشَغَلَتْهُ بها عن كلِّ شاغِلٍ سِوَاها.

ولم يَزَلْ هذا شأنَها معه، حتّى ماتَ الملِكُ ميلوش، وجَاءَتِ الساعةُ التي تَنْتَظِرُها، فَهَتَفَتْ به: ها قد حانَتِ الفُرْصَةُ التي كُنّا نَرْقُبُها، وها قَدْ بَدَأتْ تَتَحَقَّقُ نُبوءَةُ ذلكَ العَرّافِ الخَبِيرِ التي تَنَبّأَ لي بها، وما هو بالكاذِبِ ولا المُتَخَرّص. ثم زجّتْ به في طريقِ مُزاحَمَةِ الأسقفِ أتين على المُلْكِ؛ فانْقَادَ لها، ومَشَى في الطريقِ التي رَسَمَتْهَا له، وأخَذَ يَدْعُو الناسَ لنَفْسِهِ، ويَسْتَكْثِرُ مِنْ سَوَادِ أشْيَاعِهِ وأنْصارِهِ، ويُدَاخِلُ أعْضَاءَ الجَمْعِيَّةِ الوطنِيَّةِ، ويُدَاهِنُهُمْ، ويَتَوَسَّلُ إليهم أنْ يُساعِدُوه على نَيْلِ أمْنِيّتِهِ التي يَرْجُوها، مُدلًّا بمكانَتِهِ من خدْمَةِ الأمّةِ والوطنِ، وأيادِيه في الذَّوْدِ عنهما، وبما بذَلَ منْ صِحَّتِهِ، وشَبَابِهِ في مُقَاتَلَةِ الأعْدَاءِ، ومُدَافَعَتِهِمْ تلك السنين الطّوال، حتى اشْتَعَلَ رأسُهُ شَيْبًا، ولمَسَتْ قَدَمَاهُ رأسَ المُنْحَدَرِ المؤدّي إلى القَبْرِ.

هذا ما كانَ يَشْغَلُ القائدَ وزَوْجَتَهُ في ذلك التّارِيخِ، أمّا ابْنُهُ قسطنطين، فكانَ بمَعْزَلٍ عن هذا كلّهِ. فإنّ وفاةَ أمّهِ التي كان يُحِبُّها حبًّا شَدِيدًا، تَرَكَتْ في نَفْسِهِ أثرًا مِنَ الحُزْنِ لا يَبْلَى، وملأَتْ فَضَاءَ حَيَاتِهِ همًّا، ونَكَدًا، وكان يَجِدُ بعض العَزَاءِ عن ذلك الهمِّ الذي نَزَلَ به في حنانِ أبِيهِ عليه، وعِنَايَتِهِ به، حتّى تَزَوَّجَ من تِلْكَ المَرْأَةِ اليونانِيّةِ، وأسلَمَ إليها نَفْسَهُ وقَلْبَهُ، فَفَقَدَ، بِفَقْدِ عَطْفِ أبِيهِ عَلَيْهِ، وحَنَانِ أمِّهِ، كلَّ أمَلٍ له في الحيَاةِ، وأصْبَحَ يَشْعُرُ في نَفْسِهِ بذِلّةِ اليُتْمِ التي يَشْعُرُ بها أولَئِكَ المَساكِينُ المُنْقَطِعُونَ، الذين لا يجِدُونَ بَيْنَ أيدِيهِمْ قُلُوبًا راحِمَةً، ولا أفْئِدَةً عاطِفَةً!

فَكَانَ يُخاطِرُ بنَفْسِهِ في المعَارِكِ التي يَحْضُرُها مخاطَرَةَ اليائِسِ المُسْتَقْتِلِ رَاجِيًا أنْ يُرِيحَهُ المَوْتُ مِنْ همُومِ نَفْسِهِ، وآلامِها، فَزَجَّ بنَفْسِهِ ذاتَ يَوْمٍ في مَعْرَكَةٍ كُبْرَى، اسْتَبْسَلَ فيها اسْتِبْسَالًا

عَظِيمًا، واسْتَقْتَلَ مَعَهُ جُنْدُهُ، يَطْلُبُونَ المَوْتَ حيثُ يَطْلُبُهُ، فلم يَبْلُغْ أُمْنِيَّتَهُ التي يَتَمَنَّاها، ولكنَّهُ انْتَصَرَ في تِلْكَ المَعْرَكَةِ انْتِصَارًا باهِرًا، وأَنْقَذَ مِنْ يَدِ التّركِ شِعْبَ[1] «تراجان»؛ وكانَ المَلْجَأَ العَظِيمَ لهم، والمَرْكَزَ الأكبرَ لحركاتِهِمْ، وأعْمَالِهِمْ.

وإنَّهُ لَيَتَأَثَّرُ الجَيْشَ المُنْهَزِمَ، ويَشْتَدُّ في أعْقَابِهِ[2]، إذْ لَمَح على البُعْدِ فَارِسًا تركِيًّا قابِضًا بيَدِهِ على شَعْرِ فَتَاةٍ مُسْكِينَةٍ، يُرِيدُ اقْتِسارَها[3] وإكْرَاهَهَا على الرّكُوبِ مَعَهُ، وهي تَمْتَنِعُ وتتأبّى[4]، وتحاوِلُ الإفْلاتَ مِنْ يَدِهِ، فَيَضْرِبُها بسَوْطِهِ ضَرْبًا مُؤلِمًا وَجِيعًا؛ فأَزْعَجَهُ هذا المَنْظَرُ، وآلَمَهُ، فرَكَضَ جَوَادَهُ حتّى أَدْرَكَ ذلك الفارسَ، فَضَرَبَهُ على هامَتِهِ بسَيْفِهِ ضَرْبَةً قَضَتْ عَلَيْهِ، فَرَكَعَتِ الفَتَاةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ضارِعَةً، تَسْأَلُهُ أن يُنقِذَها من شَقَائِها، ويَقُودَها مَعَهُ إلى حَيْثُ يَشَاءُ، فَرَثَى لحَالِها، وأَحْزَنَهُ مَنْظَرُها دون أنْ يَعْلَمَ مِنْ أمْرِها شَيْئًا.

فأَرْدَفَها[5] خَلْفَهُ، وركَضَ بها، حتّى بَلَغَ مَوْضِعَ الخيام، فَتَرَكَها بَيْنَ الأسْرَى، وعادَ من تلك المَوْقَعَةِ ظافِرًا مَنْصُورًا، يُهَنِّئُهُ الشعبُ، ويَهْتِفُ له في كلِّ مكان يَمُرُّ به، حتّى وَصَلَ إلى القَلْعَةِ الكُبْرَى، فدَخَلَ على أبِيهِ، وأَلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ الأعْلامَ التي غَنِمَها في المَعْرَكَةِ، فأَمَرَ برانكومير بقَتْلِ الأسْرَى، وكان ذلك شأنَهُ فيهم كلّما قُدّمُوا إليه، حتّى جاءَ دَوْرُ الفَتَاةِ. فجَثَتْ بين يدَيْهِ، ومَدّتْ إليه يدَها مُسْتَغِيثَةً تَطْلُبُ العَفْوَ وتَقُولُ له إنّها فَتَاةٌ نَوَرِيّةٌ[6] مسْكِينَةٌ، لا شأنَ لها في الحَرْبِ، ولا علاقةَ لها بأهْلِهِ، وأنّ أمّها باعَتْها منذُ عامَيْنِ من جنديٍّ تركيٍّ أساءَ عِشْرَتَها، وعذّبَها عذابًا أليمًا، حتى قيّض اللهُ لها هذا الفَتَى الكَرِيمَ، فاسْتَنْقَذَها مِنْ يَدِهِ؛ وأشارَتْ إلى قسطنطين.

فرَكَعَ قسطنطين بجانِبِهَا، وسأَلَ أباهُ العَفْوَ عَنْهَا، وقال له: إنّني قَدْ أنْقَذْتُ حَيَاتَها بالأمسِ، فأنقِذْ حَيَاتَها اليومَ، واجْعَلْهَا حِصّتي الوحِيدَةَ مِنَ الغَنِيمَةِ، وأعِدُكَ أنّي لا أطلبُ غَنِيمَةً سِوَاها. فأحْفَظَ[7] ذلك قلبَ الأميرةِ بازيليد زوجِ أبيه، وكانَتْ حاضِرَةً تَسْمَعُ حَدِيثَهُ، فنَظَرَتْ إليه نَظْرَةَ الازْدِراءِ والاحْتِقَار - وكانَ هذا شأنَها معه كلّما الْتَقَتْ به - وأنْشأَتْ تَنْعِي عَلَيْهِ اهْتِمامَهُ بشَأْنِ فتاةٍ نَوَرِيةٍ، راقِصَةٍ، طَرِيدَةِ غاباتٍ وفَلَواتٍ، ورَبِيبَةِ حاناتٍ ومُعَسْكَرَاتٍ. وقالتْ له: لقد كان جَدِيرًا بكَ، وأنْتَ ذلك الجنديُّ الشّرِيفُ، سَلِيلُ ذلك القائدِ العظيمِ، والأميرِ الجليلِ أنْ تُلْقِيَ بمِثْلِها إلى حارس من حراسِ بابِك، أو جنديٍّ من جنودِكَ، يَتَلَهّى بها كما يَتَلَهّى الكَلْبُ بالعَظْمَةِ المطرُوحَةِ تحت أرْجُلِهِ، بَدَلًا من أنْ تَصِلَ حياتَك الشّرِيفَةَ الطاهرةَ بحيَاتِها الدّنِيئَةِ الساقِطَةِ.

فثارَتْ ثَوْرةُ الغَضَبِ في نَفْسِه، وأضْغَنَهُ[8] عليها هذا الرّياءُ الكاذبُ، والشرفُ المتكلّفُ؛

---

(١) الشعب (بكسر الشين): الطريق في الجبل، وما انفرج بين الجبلَيْن.

(٢) يتأثّر: يتبع الأثر. والأعقاب: ج العقب، وهو مؤخر القدم. والمعنى أنّه يتعقّب الفارّين والمنهزمين.

(٣) الاقتسار: القهر والإكراه. (٤) تتأبّى: تتشدّد في الإباء.

(٥) أردفها: أركبها وراءه على ردف فرسه.

(٦) النور: جنس من الناس دأبهم الترحال من مكان إلى آخر.

(٧) أحفظ قلبها: ملأه حفيظة، أي حقدًا وغضبًا. (٨) الضغن: الحقد.

وكان يَعْلَمُ مِنْ شُؤُونِ نَفسِها، وخَبَايَا قَلْبِها ما لا تَظُنّ أنّه يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْهُ. فَنَظَرَ إليها نَظْرَةً شَزْرَاءَ مُلْتَهِبَةً، وقالَ لها، وهو يَعْلَمُ أنّ ما سَيَقُولُهُ سَيُغْضِبُها، ويُؤْلِمُها، ويَمْلأُ صَدْرَها غُصّةً وحُنْقًا: إنّ اللهَ لم يَخْلُقِ الضُّعَفَاءَ والمساكِينَ، لِيَكُونُوا تُرابًا لنا تَدُوسُهُ أقْدَامُنا، وتَطَأُهُ نِعالنا كلّما وَجَدْنا إلى ذلك سَبِيلًا، ولم يَمْنَحْنا القُوّة، والعِزّةَ لِنَتّخِذَ منها أسْواطَ عذابٍ، نُمزّقُ بها أجسامَهُمْ، ونَسْتَنْزِف بها دِمَاءَهُمْ. وكُلُّ ذُنوبِهِمْ عندنا أنّهُمْ أذِلّاءُ مُسْتَضْعَفُونَ، لا يَمْلِكُونَ مِنَ القُوّةِ، والعِزّةِ مِثْلَ ما نَمْلِكُ، ولا يَذُودُونَ عن أنْفُسِهِمْ بِمِثْلِ ما نَذُودُ.

وأحسبُ أنّهُمْ لو كَانُوا أقْوِيَاءَ، أو أعِزّاءَ مِثْلَنا، أو أعَزَّ وأقْوَى منّا، لخفْنَاهُمْ، واتّقَيْنَا جانِبَهُم، ونَظَرْنا إليهم بالعَيْنِ التي نَنْظُرُ بها إليهم اليومَ، لأنّ القويَّ الذي يَتَنَمّرُ[1] على الضُّعَفاءِ، لا بُدَّ أن يَكُونَ جَبانًا ذليلًا أمامَ الأقْوِياءِ.

إنّنا الآنَ في حَرْبٍ مع عَدُوٍّ قاهِرٍ، جَبّارٍ، نَنْقُمُ[2] منه جَوْرَهُ، وظُلْمَهُ، واسْتِضْعَافَهُ إيّانا، واستِطَالَتَهُ علينا بقوّتِهِ، وكَثْرَتِهِ. فجدِيرٌ بنا ألّا نَفْعَلَ ما نَنْقِمُهُ منه، ونأخُذُهُ به، عسى أن يَرْحَمَنا اللهُ، ويَنْظُرَ إلينا بعَيْنِ عَدْلِهِ وإحْسَانِهِ، ويَنْتَصِفَ لضعفِنا من قوّتِهِ، وقلّتِنا من كَثْرَتِهِ!

إنّا لا نَحْمِلُ هذه السيوفَ على عَوَاتِقِنا[3]، لِنَقْتُلَ بها النِّسَاءَ، والأطْفَالَ، والضّعَفَاءَ، والعُزّلَ الذين لا سِلاحَ لهم، ولا قُوّةَ في أيْدِيهِمْ، بلْ لِنُقارِعَ بها الأبطالَ، والأكْفاءَ[4] في ميادِينِ الحروبِ، ومواقفِ النّزِلِ.

إنّي لا أعرفُ شرَفًا غَيْرَ شَرَفِ النفسِ، ولا نَسَبًا غيرَ نَسَبِ الفَضِيلةِ، وإنّ هذه البائسةَ المسكينَةَ التي تَحتَقِرُونها، وتَزْدَرُونَها، لم تَصْنَعْ ذَنْبَها بيَدِها، ولا سعَتْ إليهِ بقَدَمِها، بل هكذا قُدّرَ لها أنْ تَنْبُتَ في هذا المَنْبِتِ القَذِرِ الوبيءِ، فوَبِئَتْ وقَذِرَتْ؛ وليس في اسْتِطاعَتِها أنْ تَعُودَ إلى العدمِ مرّةً أخرَى، لتَخْلُقَ نَفْسَها خَلْقًا جَدِيدًا في جوٍّ غيرِ هذا الجوّ، وتُرْبَةٍ غَيْرِ هذ التربةِ، فما هو ذَنْبُها؟ وما هي جَرِيمَتُها؟ وأيُّ حِيلَةٍ لها في هذا المَصِيرِ الذي ساقَها القَدَرُ إليه؟

إنّما الإثْمُ على الذين يَقْتَرِفُونَ الذُّنُوبَ، وهم يَعْلَمُونَ مَكَانَها من الرّذِيلَةِ، ومكَانَ أنْفُسِهِمْ من اقْتِرَافِها، ويحوّلُونَ زِمَامَ حَيَاتِهِمْ بأيدِيهِمْ من طريقِ الخَيْرِ إلى طريقِ الشّرِّ، إيثارًا لها، وافْتِتَانًا بها؛ أولئك هم الآثِمُونَ المُذْنِبُون الذين يَجْدُرُ بنا أن نَقْسُوَ عليهم، ونَشْتَدَّ في مؤاخَذَتِهِمْ. أمّا الضُّعَفَاءُ، والمساكين الذين لا حَوْلَ لَهُمْ في شَأْنِ أنْفُسِهِمْ، ولا حِيلَةَ، فَهُمْ برَحْمَتِنا وعَطْفِنا أحقُّ مِنْهُمْ بعَتَبِنا ولَوْمنا فإنْ وجَدْنا السبيلَ إلى معاوَنَتِهِمْ، ومُسَاعَدَتِهِمْ، واسْتِنْقاذِهِمْ من وَهْدَةِ الشّقاءِ التي هَوَوا فيها، فذاك؛ أو، لا. فَلْنَدَعْهُمْ وشأنَهُمْ، تَذْهَبْ بهِمُ المقادِيرُ حيث شاءَتْ من مذاهِبِهِمْ، ولا نُزِدْهُمْ بكِبْرِيائِنَا، واستِطَالَتِنا بُؤْسًا على بُؤْسِهِمْ، وشَقَاءً على شَقَائِهِمْ.

---

(١) يتنمر: يصطنع طباع النمر.
(٢) ننقم: نكره.
(٣) العاتق: الكتف.
(٤) الأكْفاء: ج الكُفء: الجدير، المستحقّ.

إنّنا ما أُصِبْنَا بما أُصِبْنَا به مِنْ هذِهِ النَّكْبَةِ الشّعْواءِ[١]، والدَّاهِيَةِ الدَّهْياءِ التي نزلَتْ بنَا مِنْذُ عَشْرَةِ أعْوامٍ ما تُفارِقُنا ولا تَهْدَأُ عَنّا، إلّا مِنْ ناحِيَةِ كِبْرِيائِنا، وخُيَلائِنَا، واعْتِدادِنا بأنْفُسِنا في جَمِيعِ شُؤُونِنَا وأعْمَالِنا، واحْتِقارِ غَنِيِّنا لفَقِيرنا، وقَوِيِّنا لضَعِيفِنا، وسيِّدِنا لمَسُودِنا، فسلَّطَ اللهُ علينا ذلك العَدُوَّ القاهرَ الذي لا يَعْتَمِدُ في جمِيعِ شؤونه، ومَوَاقِعِه، إلّا على قُوَّتِه وأيْدِهِ[٢]، لأنّنا لم نَعْتَمِدْ في يوم من أيامِ حَيَاتِنا في جمِيعِ صِلاتِنَا، وعَلائِقِنا، إلّا على قُوَّتِنا وأيْدِنا. والجزاءُ من جِنْس العَمَلِ، «وما ظَلَمَهُمُ اللهُ، ولكِنْ كانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون».

فاصْفَرَّ وَجْهُ بازيليد، وارْبَدَّتْ شَفَتَاها، وكأنّما خُيِّلَ إلَيْهَا أنَّهُ يَلْمُزُها، ويُرِيبُها[٣]، ويُشِيرُ في حديثِه إلى ماضِيها القديم، وحوادِثِ صِبَاها السالِفَةِ. فصَمتَتْ، ولم تَقُلْ شَيْئًا، إلّا أنّها انْتَحَتْ ناحِيَةً، وأخذَتْ تَبْكي وتَنْتَحِبُ؛ والدُّموعُ هي السّلاحُ الوَحِيدُ الذي تَعْتَمِدُ عليهِ المَرْأةُ في جَمِيعِ شُؤُونِها وعَلائِقِهَا.

فعَظُمَ الأمرُ على برانكومير، وأكبرَ[٤] أنْ يخاطِبَ ولدُهُ زَوْجَتَهُ المَحْبُوبَةَ هذا الخِطابَ الجافي الغَلِيظَ، فأنْحَى عليه باللّائِمَةِ الشّدِيدَةِ، وقال له: إنّك لم تُسِئْ إلى نَفْسِك في تَنَزّلِكَ إلى حِمَايَةِ هذه النَّوَرِيَّةِ الساقطَةِ، واهتِمامِكَ بشأنِها، بَقَدْرِ ما أسَأتَ إلى أبِيك في مجابَهَةِ زَوْجَتِهِ ومغايَظَتِها، وَسُوء الرَّدِّ عليها بهذه اللَّهْجَةِ الشّدِيدَةِ القَاسِيَةِ، ولولا هذه الرّاياتُ الحمرُ التي ألْقَيْتَها اليومَ تحت قَدَمَيّ بأهِلّتِها البيضاءِ، لما اغْتَفَرْتُ لك هذِهِ الجَرِيمَةَ التي اجْتَرَمْتَها؛ فاذْهَبْ لشأنِكَ ولا تَعُدْ إلى مِثْلِهَا.

كذلك تمّ لقسطنطين ما كان يُرِيدُهُ من أنْقاذِ تِلْكَ الفَتَاةِ المِسْكِينَةِ من يَدِ المَوْتِ، بَعْدَما أنقَذَها مِنْ يَدِ الشَّقاءِ. فذَهَبَ بها إلى الجَناحِ الذي يَسْكُنُهُ من القَلْعَةِ، وجَلَسَ إليها يُحادِثُها في شَأْنِها وشَأْنِ ماضِيهَا، ويُسَائِلُها عَنْ دِينِها، ومَذْهَبِها، وَوَطَنِهَا، وقَوْمِها، فلم يَرَ بين يدَيْهِ إلا فَتاةً ساذَجَةً جاهِلَةً، لا تَعْرِفُ لها وطنًا ولا بِيئَةً، ولا تَدِينُ بدِينٍ مِنَ الأدْيَانِ، ولا مَذْهَبٍ من المذَاهِبِ، ولا تَفْهَمُ من شؤونِ حَيَاتِها، إلّا أنّها فردٌ مُبْهَمٌ مِنْ أفرادِ هذا المُجْتَمَعِ المائِجِ المُضْطَرِبِ، تَمْتَدُّ بامْتِدادِهِ، وتَنْحَسِرُ بانْحِسَارِهِ. لا تَعْرِفُ الآمالَ، ولا تُفَكِّرُ فِي المُسْتَقْبَلِ، ولا تَحْفِلُ بالماضِي، ولا يَتَّسِعُ عَقْلُها لأكْثَرَ من السَّاعَةِ التي تَعِيشُ فيها، ولا تَتَألَّمُ إلّا كما يَتَألَّمُ الأطْفَالُ، ولا تَفْرَحُ إلّا كما يَفْرَحُ المجانِينُ.

وقد صَفَتْ نَفْسُها من كلِّ شائِبَةٍ مِنْ شَوائِبِ النفُوسِ البَشَرِيَّةِ. فلا تَحْقِدُ، ولا تَغْضَبُ، ولا تَكْرَهُ، ولا تَحْسِدُ، ولا تَطْمَعُ، ولا تَتَطَلَّعُ، ولا تشْغلُ ذِهْنَها بترتِيبِ الصُّوَرِ والأفكارِ، واسْتِنْتَاجِ النتائِجِ مِنَ المقدّماتِ. فأصْبَحَ يَنْظُرُ إليها نَظَرَ الأبِ الرحيمِ إلى طِفْلِهِ اللّاعِبِ بين يدَيْهِ.

وأصْبَحَتْ تَجْلِسُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ جِلْسَةَ الكَلْبِ المُخْلِصِ تَحْتَ قدمَيْ سَيِّدِه، ولا تُحَدِّثُهُ حتى

---

(١) الشعواء: المتفرّقة. (٢) الأيد: القوة.

(٣) يلمزها: يشير إلى عيوبها، ويريبها: يضعها موضع الريبة.

(٤) أكبر الأمر: اعتبره كبيرًا.

يُحَدِّثَها، ولا تَرْفَعُ نَظَرَها إليه حتى يُنادِيها، وكان يقولُ في نَفْسِهِ كلما نَظَرَ إليها، وإلى سذاجَتِها، وطَهَارَتِها، وبلاهَةِ عَقْلِها، وغَفْلَتِهِ: أهكذا قُضِي على الإنسانِ في هذِهِ الحياةِ، ألّا تَخلصَ نفسُهُ من شوائِبِ الرذيلَةِ والشرِّ، حتى يُسْلَبَ عَقْلُهُ وإدْرَاكُهُ قَبْلَ ذلك، وألّا يُمْنَحَ مِقْدارًا من الصّدْقِ والشّرَفِ، حتى يُحرمَ في مُقَابِلِهِ مِقْدارًا من الفِطْنَةِ والذّكَاءِ. فلَيْتَ شِعْري، هل عَجزَتِ الطّبِيعَةُ عن أنْ تَجْمَعَ للمَرْءِ بين هاتين المزيّتَيْنِ: مَزِيّةِ العَقْلِ الذي يَعِيشُ به، والخلقِ الذي يَتَحلّى بحِليَتِهِ؟ أو أنّ للهِ في ذلك حكمةً لا نَعْلَمُها، ولا نُدرِكُ كُنْهَهَا[١]؟

وكأنّما كان يشعُرُ في نَفْسِهِ باقْتِدارِهِ على أن يَجْمَعَ لتِلْكَ الفَتَاةِ المِسْكِينَةِ بين هاتين الفضِيلتَيْنِ، وأن يَصُوغَ من نَفْسِها ذلك المِثَالَ الغريبَ الذي عجِزَتْ يدُ الطبِيعَةِ عن صِيَاغَتِهِ. فبدَأَ يَهْتَمُّ بشَأْنِها اهْتِمامًا عَظِيمًا، ويَتَبَسَّطُ معها في الحديثِ تَبَسُّطَ النّظِيرِ مَعَ نَظِيرِهِ ذاهِبًا معها في كلِّ وادٍ من أوْدِيَتِهِ، مَعْنِيًّا كلّ العِنَايَةِ بتَثْقِيفِها، وتعلِيمِها، وإنارَةِ ما أظلمَ من بَصِيرَتِها، ولكنْ بأسْلُوبٍ غيرِ الأسْلُوبِ الذي كان يُعَلِّمُهُ به مُعَلِّمُهُ في المدْرَسَةِ، فأرْشَدَها إلى وُجُودِ اللهِ لا مِنْ طَرِيقِ البَراهِينِ الجدَلِيّةِ، والقَضَايا الكلامِيّةِ، بلْ مِنْ طَرِيقِ الآثار، والمصنُوعَاتِ الناطِقَةِ بجَمَالِها، ولُطْفِ تَكْوِينِهَا عن قُدْرَةِ صانِعِهَا وإبْدَاعِ خَالِقِهَا، وأرْشَدَها إلى الفَضِيلَةِ من طريقِ الفَضِيلَةِ نَفْسِها لا مِنْ طريقِ الترغِيبِ في الثوابِ، والتخويفِ من العِقابِ، ليكونَ أدَبُها أدَبَ نَفْسٍ، لا أدبَ دَرْسٍ، ولِتَمْتَزِجَ الفَضِيلَةُ بنَفْسِهَا امتِزَاجًا لا تُزَعْزِعُهُ عَوَاطِفُ اليأسِ، ولا عَوَامِلُ الرّجَاءِ.

فكانَتْ تَعْجَبُ لحدِيثِه ومَرَامِيهِ عَجَبًا شدِيدًا، وتَجِدُ فيه من اللّذّةِ والغِبْطَةِ، ما لا تَذْكُرُ أنّها شَعَرَتْ بمِثْلِهِ في حَيَاتِها في حَدِيثِ أيِّ مُتَحدِّثٍ يَتَحدَّثُ إليها، وتَعْجَبُ أكثرَ من كلِّ شيءٍ لتَنَزّلِ مِثْلِ هذا الأميرِ الجليلِ، والسّيّدِ الشريفِ إلى مُجالَسَتِها، ومُثَافَنَتِها[٢]، والنزولِ عند حكمِها فيما يُغْضِبُها ويُرْضِيها.

فقالت له مرّةً، وهي تحاوِرُهُ: إنّك تُحدِّثُني، يا مولاي، كأنّك لا تَعْرِفُ مَنْ أنا.

قال: إنّي أعرِفُكَ كما تَعْرِفِينَ نَفْسَكِ، وأعرفُ أنّك أختي في الإنسانيّةِ، وهي الأمّ الرؤوم[٣] التي لا يَسْتطيعُ أحدٌ مِنْ بَنِيها أنْ يَمُتَّ إليها[٤] بأكثر مما يمتُّ به إلى إخْوَتِهِ، وما للأختِ ملجأٌ تلجَأُ إليه في شدَّتِها غيرُ عَطْفِ أخِيها، وحَنانِهِ عليها.

قالت: ولكنّك تَعْلَمُ أنّي فتاةٌ مُذْنِبَةٌ ساقِطَةٌ.

قال: كلُّ الناسِ مُذْنِبُون آثِمُون، وإنّما تَخْتَلِفُ صُوَرُ الذّنوبِ، وأشْكالُها، وأساليبُ اقْتِرافِها[٥].

قالت: لم أرَ في حَيَاتي، مُنْذُ نَشَأْتُ حتّى اليوم، عَفِيفًا قطُّ ابْتَسَمَ في وَجْهي!

قال: ذلك لأنّ الناسَ مُراؤُونَ مخادِعُون، يَزْعَمُون لأنفُسِهِمْ مِنَ الفَضَائِلِ والمزَايَا ما تُنْكِرُهُ

---

(١) الكنه: الحقيقة.
(٢) المثافنة: المواجهة.
(٣) الرؤوم: العطوف.
(٤) يمتّ: يتوسّل وينتسب.
(٥) الاقتراف: الارتكاب.

نُفوسُهُمْ عليهم، فَهُمْ يَحتَقِرُون المُذنِبَ، ويَزدَرُونَهُ، لا لأنَّهم أطْهارٌ أبرِيَاءُ كما يَزعَمُون، بَلْ لِيُوهِمُوا الناسَ أنَّهم غيرُ مُذنِبِينَ، ولو أنَّهم تَكَاشَفُوا، وتَصَارَحُوا، وصَدَقَ كلٌّ مِنْهُمْ صاحِبَهُ الحديثَ عن نفسِهِ، لتَتارَكُوا[1]، وتَهَادَنُوا، ولما أخذَ أحدٌ منهم أحَدًا بذَنْبٍ ولا جَرِيرَةٍ!.

وكذلك أصْبَحَتْ «ميلتزا» العزاءَ الوحيدَ لقسطنطين عن هُمومِهِ، وآلامِهِ. فَقَدْ وَجَدَ بين جَنْبَيْها تلك النفسَ الطاهرةَ البريّةَ التي طالما نَشَدَها قَبْلَ اليومِ، فأضلّها[2]، وتَطَلَّبَها، فأعْيَاه طِلابُها، ووَجَدَ في صَدْرِها ذلك القلبَ المُحبَّ المُخْلِصَ الذي بكاه، وندَبَهُ نَدْبًا شَديدًا يَوْمَ ماتَتْ أمُّهُ، ويومَ تولّى[3] عنه حَنَانُ أبيه.

وكان يَتَحَدَّثُ معها في كلّ شيءٍ من شؤونِ الحياةِ دقيقِها وجليلِها، ويُفْضِي إليها بكلِّ خَبيئةٍ من خَبايا نَفْسِهِ، إلّا ذلك الهمَّ العظيمَ الذي كان يُعَالِجُهُ في أطواءِ نَفْسِهِ وأعْمَاقِها، ويُكَابِدُ منه ما يُقْلِقُ مَضْجَعَهُ، ويَصِلُ لَيْلَهُ بنهارِهِ، وهو استِحَالَةُ حالِ أبيه[4]، وانتِقَاضُ قَلْبِهِ عليه، وانْقِيادُهُ ذلك الانقيادَ الأعْمَى إلى تلك الفَتَاةِ اليونانيّةِ الدخِيلَةِ التي لا يَعْنيها من شأنِهِ سِوَى أنْ تَتَّخِذَ من عاتِقِهِ سُلّمًا، تَصْعَدُ عليه إلى سَماءِ المَجْدِ، ثم لا تُبَالي بعد ذلك أن تَدْفَعَهُ بقَدَمِها بعد بلُوغِ غايَتِها، فيَسْقُطَ في الهوَّةِ التي قُدِّرَ له أنْ يَهْوِيَ فيها.

إلّا أنّ ميلتزا الذّكِيَّةَ بفِطْرَتِها المتفَانِيَةَ في حُبِّها وإخلاصِها، لم يكُنْ يَفُوتُها أنْ تَرَى بِعَيْنِ فِطْنَتِها وذَكَائِها في تلك الزاويةِ المُظْلِمَةِ من زَوَايا قَلْبِهِ، ذلك الهمَّ الخفيَّ المكتنَّ[5]، وكان يُساعِدُها علىٰ فَهْمِهِ واسْتِكْنَاهِهِ[6]، تلك الأحاديث التي كانت تَسْمَعُها تَدُورُ من حينٍ إلى حينٍ بين القائدِ وزوجَتِهِ، عِنْدَما كانا يَمُرَّانِ بها، أو يقِفَان على مَقْرُبَةٍ منها، وهي جالسةٌ تحت بَعْضِ الجُدْرَان، أو في ظِلالِ بَعْضِ الأشجارِ، لا يَحْفِلان بها، ولا يُلْقِيَان لها بالًا.

فقد سمِعَتْهُ مَرّةً يقول لها: إنّني أحِبُّك، يا بازيليد، حبَّ المرءِ نَفْسَهُ التي بين جَنْبَيْهِ. ولقد عِشْتُ حَيَاتي كلّها قانعًا مِنَ العيشِ بتلك اللَّذّةِ الوَحْشِيَّةِ الدَّمَويَّةِ: القَتْلِ، والأسْرِ، وسفكِ الدماءِ، وتَقْطِيعِ الأوْصالِ، حتّى رأيتُكِ تَتَطَلَّعِين إلى تاجِ المُلْكِ، وتَشْتَهِينَ أن تَضَعِيهِ فوق رأسِكِ، فأحْبَبْتُهُ مِنْ أَجْلِكِ، وأصْبَحْتُ لا أقترحُ على الدهرِ أمْرًا سِوَى أنْ أرَى تلك الجَبْهَةِ اللامِعَةِ المُضِيئَةِ، يَتَلألأُ فوقَها ذلك التاجُ المرصَّع البديعُ. فلا تَيْأسِي منه ولا تَقْنَطِي، واعلمِي أنّي سأتيكِ به، وإن كان كَوْكَبًا نائِيًا[7] في آفاقِ السماءِ، أو درّةً راسبةً في أعماقِ البحارِ.

وسَمِعَتْها مرّةً تقولُ له: ما أجملَ وجهَكَ، يا برانكومير، وما أبدعَ ضياءَهُ ولألأهُ، وما أنْصَعَ هذه الشعورَ البيضاءَ التي تدورُ به دَوْرَةَ الهالةِ بالقمرِ! وما أجملَ تاجَ الملكِ يوم يُوضَعُ على رأسِك، فتَتَّحِدُ الأضواءُ الثلاثةُ جَمِيعُها، ويَمُوجُ بعضُها في بعضٍ، فتَتَراءَى في أجمل شَكْلٍ، وأبدعَ مَنْظَرٍ؟!

---

(١) تتاركوا: ترك كلّ منهم صاحبه.
(٢) أضلّها: لم يهتدِ إليها.
(٣) تولّى: غاب.
(٤) استحال: تغيّر.
(٥) المكتنّ: المستور.
(٦) استكناهه: معرفة كنهه وحقيقته
(٧) النائي: البعيد.

إنّك ستكونُ ملِكًا، يا مولاي! وستكُونُ أعظمَ ملوكِ العالم شأنًا، وأرْفعَهُمْ مقامًا، وستَجْتَمِعُ فوقَ عَرْشِكَ الرَّفيعِ الأمجادُ الثلاثةُ: مَجْدُ النَّسَبِ، ومَجْدُ الحُروبِ، ومَجْدُ المُلْكِ. وقد ألقى الكاهنُ في نفسي كَلِمَتَهُ التي تَنَبَّأَ لي بها، وما هو بالكاذِبِ، ولا المجنونِ. فكنْ على ثِقَةٍ من صِدْقِهِ، وحِكْمَتِهِ، واعلمْ أنَّهُ ليس بينَك وبين التاج إلا خُطْوَةٌ واحِدَةٌ، فاْخْطُها بهمّةٍ وعزيمةٍ، تَبْلُغِ الغايةَ التي تُرِيدُ.

وسمِعَتْها مرَّةً تقولُ له: إنّني لا أخافُ على أمَلِنا أحَدًا مِنَ الناسِ سِوَى وَلَدِك قسطنطين فَقَدْ عَلِمْتُ أمسِ مِنْ بَعْضِ أصْدِقَائِهِ أنَّهُ يُنْكِرُ عليك كلَّ الإنكار هذا المَسْعَى الذي تَسْعَاه اليَوْمَ. كما سمِعْتُ أنَّه يُثَبِّطُ الناسَ عَنْكَ، ويُزَحْزِحُهُمْ من حَوْلِك، ويُلْقِي في قُلُوبِهِم اليَأْسَ مِنْ نَجاحِك.

ولقد حدّثني عنه بعضُ الناسِ أنّ ذاكرًا ذَكَرَ له مرَّةً ولايةَ العَهْدِ مُهَنِّئًا إيّاه بها، فغضِبَ، واحْتَدَّ، وتغَيَّظَ عليه تغيّظًا شديدًا، وقال له: إنّني جندي وُلِدْتُ في ساحَةِ القتالِ، وسأمُوتُ فيها.

وإنّ كلِمَةً كهذِهِ الكلمةِ المؤثِّرةِ يَقُولها أميرٌ مُطاعٌ في الجيشِ والشعبِ كولدِك، لا بُدّ أن تترك أثرًا سيّئًا في نفوسِ الناسِ جميعًا، وتفتّ في عَضدِ أنصارِك وأعْوانِك، وربّما كانَتْ سَبَبًا في القضاءِ على آمالِك وأمانِيِّكَ. ولا أعلمُ لخطَّتِهِ هذه سَبَبًا سِوَى ذلك البغضِ الشديدِ الذي لا يزالُ يُضْمِرُهُ لي في أعماقِ قلبِهِ، مُذْ دَخَلْتُ بَيْتَكُم حتّى اليوم، وما أذْنَبْتُ إليه ذَنْبًا، ولا أسْلَفْتُ عِنْدَه جريرَةً. فهو يؤثِر أنْ يَحْرِمَ نَفْسَهُ وبَيْتَهُ ذلك الشرفَ العظيمَ الخالدَ على أنْ يَرَاني جالسةً على العَرْشِ بجانبِك، أسْتَظِلُّ بظِلِّ نِعْمَتِكَ، وأُشارِكُكَ في التمتُّع بمَجْدِك وسُلْطانِكَ.

فقاطَعَها الأميرُ، وقال لها: لا تُصَدّقي، يا بازيليد، شيئًا ممّا يَقُولُون. فقسطنطين أبرّ بي، وأعظمُ حبًّا وإخلاصًا من أنْ يَعْتَرِضَ سبِيلَ رَغْبَةٍ يَعْلَمُ أنّي أرْغَبُها، وأصْبُوا إليها، ولا أعلمُ أنّه يَبْغُضُك، أو يُضْمِرُ لكِ في نفسِهِ شيئًا من الشرّ الذي تَذْكُرين، بل هو يَحْتَرِمُك، ويُجِلُّكِ إجلالَهُ إيّايَ، ويحبُّ لك من الخيرِ، ما يحبُّ لي ولِنَفْسِهِ، ولا يُؤْثِرُ على مُرَاضَاتِنا شَيْئًا.

وكذلك ظَلَّتْ ميلتزا تَسْمَعُ أمْثَالَ هذه الأحاديث، فتَعْلَمُ منها ما يَدُورُ بنَفْسَيْ هذَيْنِ الشخصَيْنِ الطامِعَيْنِ. وتَعْلَمُ أنّ هذا الذي يَدُورُ بنفسَيْهِما إنّما هو علَّة ذلك الهمِّ الذي يعالِجُهُ قسطنطين في أعماقِ قَلْبِهِ، ويُكابِدُهُ؛ ولكنْ لم يَخْطُرْ ببالِها مرَّةً أن تَنْقُلَ إليه شيئًا ممّا سمِعَتْهُ، إعْظامًا له وإجْلالًا، وضنًّا بنَفْسِها وبأدَبِها أنْ تُفَاتِحَهُ في أمْرٍ، لم يَشَأْ هو أن يُفاتِحَها فيه.

❀ ❀ ❀

التاج

جَاءَ اليَوْمُ المُعَيَّن لاجْتماعِ الجَمْعِيَّةِ للنظَرِ في انتخَابِ المَلِكِ الجَدِيدِ، فنَظَرَتْ في المَسْأَلَةِ نَظَرًا خَالِصًا مُجرَّدًا عنِ المَيْلِ والهوَى، فرَأَتْ أنّ العَدُوَّ لا يَزَالُ على الأبْوَابِ، وأنَّهُ لا يَزَالُ قويَّ الشكيمَةِ صَعْبَ المراسِ، وأنَّ الوطنَ يَحْتَاجُ إلى الأمِيرِ برانكومير قائدًا، أكثرَ ممّا يَحْتَاجُ إليه مَلِكًا!

وأنَّ الأسْقُفَ «أتين» أعظمُ رِجالِ المَمْلَكَةِ عَقْلًا، وأسْمَاهُمْ إدْرَاكًا، وأقواهُم سُلْطانًا على نُفُوسِ الجَيْشِ والشّعْبِ؛ فقرَّرَتْ تَقْلِيدَهُ مُلْكَ البلقانِ، وأعْلَنَتْ قَرارَها في جميعِ أنحاءِ المَمْلَكَةِ. فَقابَلَهُ الشّعبُ بالرّضا والتسليم، ولم يَخْتَلِف عَلَيْهِ إلّا العَدَدُ القَلِيلُ مِنْ أشيَاعِ القائِدِ وأنْصارِهِ.

ثُمّ أُقِيمَتْ حَفْلَةُ التَّتْوِيجِ بَعْدَ أيّام، فحَضَرَها جميعُ وجُوهِ المَمْلَكَةِ وعُيُونِها، ورِجَالِ السياسَةِ والجَيْشِ، ما عَدَا القائدَ برانكومير. فلم يأخُذْهُ المَلِكُ بهذه الهَنَةِ[1]، بلْ أعْتَبَهُ[2]، وأعْطاهُ من نَفْسِهِ الرِّضا، ولم يَقْنَعْ في أمرِهِ بذلك، حتّى أعْلَنَ عَزْمَهُ على السّفَرِ إلى الحُدودِ لزِيارَتِهِ في قَلْعَتِهِ.

وما لَبِثَ أنْ سافَرَ في جَمْعٍ من حاشِيَتِهِ وجُنْدِهِ، وكانتْ رُسُلُهُ قد تَقَدَّمَتْهُ لإنباءِ القائِدِ بمَقْدَمِهِ، فامْتَعَضَ لِذٰلِكَ، وتَمَرْمَرَ[3]، وكانتْ تُحدِّثُهُ نفسُهُ أنْ يُسافِرَ إلى بَعْضِ الجِهاتِ حتّى لا يَسْتَقْبِلَهُ عِنْدَ قدُومِهِ، لولا أنْ أشارَتْ عَلَيْهِ بازيليد بغَيْرِ هذا الرأيِ، فأذْعَنَ لها رَاغِمًا، ونَزَلَ لانْتِظارِهِ أمامَ بابِ القَلْعَةِ حتّى حَضَرَ.

فحيّاهُ الملكُ حينَ رآهُ تحيّةَ الإجْلالِ والإعْظام، وعانَقَهُ عِنَاقًا طَويلًا، وقالَ له: أمّا الملكُ الجالسُ على عرشِ البلقانِ، وصاحبُ الأمرِ والنّهْيِ فيه، فهو أنتَ يا برانكومير، وأمّا أنا، فإنّي خادِمُكَ الأمينُ، المخلِصُ، القائمُ بتَنْفِيذِ أوَامِرِكَ، وتَجْيِيشِ الجيوشِ لك، وإمْدادِكَ بما تَحْتَاجُ إليه منَ العدّةِ والمؤنةِ. واعلمْ أنّ الأمّةَ لم تضنَّ عَلَيْكَ بالعَرْشِ والتّاجِ، ولا رأتْ أنّ أحدًا أجْدَرُ بهما مِنك، ولكنَّها ضنّتْ بك أنت - وأنت حصنُها المنيعُ، ودِرْعُها الواقِيَةُ، وبطلُها الذي لا يغْني غناءَهُ في مَوْقِعِةِ أحَدٌ - أنْ يَشْغَلَكَ شاغلُ الملكِ عن شأنِكَ الذي أنت فيه، والذي نَصَبْتَ له نَفْسَكَ طوالَ حياتِكَ، فآثَرْتَ بقاءَكَ في هذه القلْعَةِ، تَحْمِيها وتَحْمِي المَمْلَكَةَ بحمايَتِها. فإنْ لم تكنِ الملكَ الجالسَ على عرش «فيدين» فأنت الملكُ المتبوِّئُ عَرْشَ الأفئدةِ والقلُوب.

واعلمْ أنّني ما قدمتُ إليكَ مقدَمي هذا لأعْتَذِرَ عندك من ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ إلَيْكَ، أو لأتوجّعَ لك منْ كارِثةٍ نزلَتْ بك؛ لأنّي أعلمُ أنّك أجلُّ وأرفعُ من أن تعتَبِرَ عِبْءَ المُلكِ، وهمَّهُ نِعْمَةً تأسفُ على فَقْدِها، بل جِئْتُ لأبارِكَكَ، وأمسحَك، وأدعُو لك اللهَ أنْ يمدَّكَ بروحٍ من عندِهِ، حتّى يَتِمَّ لنا على يَدِكَ النصرُ الذي نَرْجُوهُ لأنفُسِنا، فَيأمَنَ البلقانُ أبَدَ الدهرِ أنْ تخفِقَ على ربوعِهِ بَعْدَ اليومِ رايةٌ غَيْرُ رايةِ المسيحِ، أوْ يرنَّ في أجوائِهِ صَوْتٌ غَيْرُ صوتِ الله.

ثمّ تَقدَّمَ نحوَه، وَوَضَعَ يَدَهُ على رَأسِهِ يُبارِكُهُ ويُصَلّي لَهُ، وبرانكومير يتميَّزُ غَيْظًا وحَنَقًا، ولكنَّهُ يَتَجَلَّدُ ويَسْتَمْسِكُ، حتّى فَرَغَ الأسْقُفُ من شأنِهِ، فلَمْ يَرَ بدًّا من أنْ يَسْتَقْبِلَ حَفَاوَتَهُ بمثْلِها، فمَدَّ إليه يَدَهُ وهنّأَهُ بالملكِ، واعْتَذَرَ إليهِ منْ تَقْصِيرِهِ في حُضُورِ حَفْلةِ التَّتْويجِ، فَقَبِلَ عُذْرَهُ، وقَضَى بقيّةَ يومِهِ عندَهُ هانِئًا مُغْتَبِطًا، لا يَرَى إلّا أنّه قد أرْضاه، ومَحا أثرَ ذلك العتبِ منْ نفسِهِ.

ثمّ عادَ بموكبِهِ راضِيًا مَسْرُورًا، فشيَّعَهُ القائدُ إلى ضاحيةِ المدينةِ، ولَبِثَ واقِفًا مكانَهُ ساعةً

---

(١) الهنة: الذنب الصغير. (٢) أعتبه: أزال عتبه وأرضاه.

(٣) تمرمر: اهتزّ واضطرب.

يَنْظُرُ إلى ذلك الموكِبِ الفَخْمِ العَظيمِ، ويَسْمَعُ موسيقاهُ الشجِيَّةَ الجميلةَ، حتّى غابَ عَنْ بَصَرِهِ. فانقلبَ إلى قصرِه ثائِرًا مُهْتَاجًا يَصِيحُ ويجأرُ، ويَهْذي هَذَيانَ المحمومِ، حتّى بلغَ غرفتَهُ الخاصّة، فَوَقَفَ بجانِبِ نافذَةٍ عاليَةٍ مُشْرِفَةٍ على الجماهيرِ الغادِيَةِ والرائحَةِ في طرقِهَا ومذاهِبِها؛ وأنشأ يحدِّثُ نَفْسَهُ ويقول:

تبًّا لك أيُّها الشعْبُ الخائِنُ الغادِرُ، لَقَدْ جازَيْتَني شرَّ الجزَاءِ على عَمَلي، وكفَرْتَ بِنِعْمَتي التي أسْدَيْتُها إلَيْكَ، ويَدِي التي اتّخَذْتُها عِنْدَك، وأيّامَ كنتُ أسْهَرُ لِتَنامَ، وأشْقَى لتسعَدَ، وأقْضِي لياليَّ الطوالَ سَجِينًا في قَلْعَتي لا أبْرَحُها، ولا أنتقلُ منها لأدبّرَ لك أمْرَ الحمايةِ التي تحمِيك، وتصُونُ أرضَك ودِيارَك، وأنتَ لاهٍ ولاعبٌ، هانِئٌ مغتبطٌ، يمرحُ عامّتُك في منازِعِهِمْ، ومسارِحِهِمْ ليلَهُمْ ونهارَهُمْ، ويُقيمُ خاصّتُك حَفَلاتِ الرقْصِ، والغِناءِ في قصُورِهِمْ، وأنديَتِهِمْ. فكانَ جَزائي عندَكَ أن ضَنَنْتَ عليّ بالعرشِ الذي أنا عمادُهُ، وملاكُهُ، وحَامِلُ قوائِمِه، وعُمُدِهِ، وآثرْتَ به كاهنًا مأفونًا[1]، لا شأنَ له في حَياتِهِ سِوَى أنْ يَمْسَحَ رُؤُوسَ الأطفالِ، ويُهمهِمَ حَوْلَ أسرَّةِ الموتَى؛ فبِئْسَ ما جَرَرْتَ على نفسِكَ مِنَ الوَيْلِ في فِعْلَتِكَ التي فَعَلْتَ، وبئسَتِ الساعةُ التي رأيتَ فيها هذا الرأيَ الفائلَ الخَطِلَ[2].

لقد فَلَلْتَ[3] بيَدِك سَيْفَكَ الذي كانَ يَحْمِيكَ ويصونُك، وأطْفَأْتَ جُذْوَةَ الحماسَةِ في صَدْرِ قائدِك الذي كان يَذُودُ[4] عَنْك، وعَنْ عِرْضِك، ويَحْمِي أرْضَكَ وديارَك؛ فابْتَغِ لك بَعْدَ اليومِ قائدًا يَتَوَلّى حِمايَتَكَ، وصِيانَتَكَ، أو فاطْلُبْ إلى أسقُفِكَ التقِيّ الصالحِ الذي تَوّجْتَهُ بيَدِك، واخْتَرْتَهُ بنفسِك لِنَفْسِك، أن يَسْتَنْزِل لك بدَعَواتِهِ النصرَ من آفاقِ السّماءِ!

وإنّه ليردِّدُ في موقفِهِ أمثالَ هذه الكَلِماتِ، ويَنْفُثُ سُمُومَ الحِقْدِ والشرِّ على العالم بأجْمَعِهِ، إذ دخَلَتْ عليه الأميرةُ باسِمةً متطلّقةً، تختالُ في حُلَلِها وحَلاها، فأخذَتْ بيدِهِ وقالتْ له: ارفقْ بنفسِك، يا برانكومير، واعلمْ أنّ نبوءَةَ الكاهِنِ لا تكذِبُ، ولا تخيبُ، أُبشِّرُكَ أنّكَ ستكونُ بعد شَهْرٍ واحدٍ مَلِكًا على البلقانِ، ولا تسألْني كيف يكونُ ذلك! فدُهِشَ لأمْرِها، وحاوَلَ أنْ يَسْأَلَها عن مَعْنَى كَلِمَتِها، ومأتاها. فلم تمكّنْهُ من ذلك، لأنّها تهافَتَتْ عليهِ[5]، واعْتَنَقَتْهُ، ووضَعَتْ على فَمِهِ قُبْلَةً شهيّةً أطفأتْ بها جُذْوَةَ حِدّتِهِ وغضَبِه، ثم أفلتَتْ من يدِهِ، وعَادَتْ أدْرَاجَها.

❀ ❀ ❀

المؤامرة

اضْطَجَعَتْ بازيليد في سَريرِها، وجَلَسَتْ خادِمَتُها صوفيا تحت قدَمَيْها تُروّحُ لها بمروَحَتِها،

---

(١) المأفون: الضعيف الرأي والأحمق.
(٢) الرأي الخطل: الفاسد المضطرب.
(٣) فللت السيف: ثلمت حدّه.
(٤) يذود: يدافع.
(٥) التهافت: السقوط.

وتحدِّثُها حديثَ تلكَ الآمالِ الحسانِ التي لا تزالُ تَتَراءَى لها في يَقْظَتِها، وتحلمُ بها في مَنامِها، وإنّهما لكذلك، إذ قُرِعَ البابُ قَرْعًا خَفِيفًا، فعرفَتْ صوفيا مَنِ القارعُ، وفتَحَتْ له، فإذا «بانكو» الجاسوسُ التركيُّ متنكِّرًا في زِيّ الموسيقارِ المسْكِينِ.

فدَخلَ، وَحَيّا الأميرةَ تحيّةَ الإجْلال والإعْظام، ثمّ أخذَ مقعدَهُ الذي كان يَقْتَعِدُه في الغرفةِ كُلَّ ليلَةٍ، وأنْشأَ يَضربُ على قيثارَتِهِ قطْعَةً رومانيّةً جميلةً من تلك القطعِ التي كان أعدّها مُنْذُ عَهْدٍ طوِيلٍ، ليخلبَ بها لُبَّ تلك المرأةِ، ويَسْتَهْوِيهَا حتّى أتمّها. فطَربَتْ لها طربًا شديدًا، ثم دعَتْ خادِمَتَها، فأرْسَلَتْهَا في بعضِ الشؤونِ.

فلمّا خَلَا بها المكانُ ألْقَى الموسيقيُّ قيثارتَهُ جانبًا، وخلَعَ عنهُ رِداءَ التّنكُّر، ثم مَشَى إلى سريرِها، فجَلَسَ بجانِبِها وقالَ لها: ماذا تمّ في المسألةِ، يا بازيليد؟ فَقَدْ طالَ مقامي في هذا البلدِ، وأخْشَى أنْ يَرْتابَ بي أحَدٌ، وليس في اسْتِطاعَتِي أنْ أبْقَى هنا أكثرَ من ثلاثةِ أيامٍ، ثمّ أنْصرِفُ لِشَأني.

فاعْتَدَلَتْ في جَلْسَتِها، وقالتْ له: لقد فاتَحْتُ الأميرَ لَيْلَةَ أمسِ في المسألةِ، وعرَضْتُ عليه مُقْتَرَحَكَ الذي اقْتَرَحْتَهُ، فأصْغَى إلى حَدِيثي في مَبْدَإِ الأمرِ، ثم لم يلبَثْ أنِ اكْفَهَرَّ وَجْهُهُ واكْتَأَبَ، وأبَى أنْ يَقْبَلَ منّي كلِمَةً واحِدَةً في هذا الشأنِ، وظَلَّ يقاطِعُني ويُعارِضُني مُعارَضَةً شديدةً؛ فلم أشَأْ أنْ أُلِحَّ عليه مخافةَ أنْ يرتابَ بي وبمَقْصِدي، وسأسْتَأْنِفُ مَعَهُ الحديثَ الليلةَ بَعْدَ رُجُوعِهِ منَ المُعَسْكَرِ، وأرْجُو أنْ يَنْتَهِيَ بإذْعانِهِ وتسليمِهِ، ولا يفُتْكَ، يا سيّدي، أنّ من أصعبِ الأمورِ على رجلٍ شريفٍ عظيمٍ مثلِ برانكومير أن يتحوَّلَ في ساعةٍ واحدةٍ عن أخلاقِهِ وطبيعتِهِ، وأن ينقلبَ فجأةً من رجلٍ وطَنيٍّ مخلصٍ يبذلُ دمَهُ وحياتَهُ في سبيلِ الدفاعِ عن وطنِهِ والذَّوْدِ عنه، إلى خائنٍ سافلٍ، يَبِيعُ ذلكَ الوطنَ العزيزَ عليه من أعدائِهِ بعَرْضٍ تافِهٍ من أعْرَاضِ الحياةِ، فلا بُدّ من مُهادَنَتِهِ ومؤاتاتِهِ، وأخذِهِ بالرويّةِ والتؤدَةِ.

قال: ليس في الأمرِ خِيانَةٌ ولا دناءَةٌ، ولا بَيْعُ وطنٍ، ولا أمّةٌ. فإنّا لا نُريدُ أن ندخلَ بلادَكم مستَعْبِدِين، أو مسترقّين، بلْ أصْدِقاءَ مُخلصِين، وما خَطَرَ ببَالِنا قَطُّ حينما فكّرْنا في افتِتَاحِ بلادِكُم، والنزولِ بها أنْ نُصادِرَكم في حرّيّتِكم الدينيّةِ والاجتماعيّةِ، أو نسلبَ أموالَكُمْ، ونَنْتَهِكَ أَراضيكُم، أوْ نُغلِقَ أبوابَ كنائِسِكُمْ ومعابِدِكُمْ، أو نُخْرِسَ أصواتَ نواقِيسِكُمْ، وأجراسِكُمْ، بلْ لنَكُونَ أعوانَكُمْ على تَرْقِيَةِ شؤونِكُمُ الاجتماعِيّةِ والاقتصاديّةِ، والسيرِ بكم في طريقِ المدنيّةِ الأدبيّة والسياسيّةِ، حتّى تَبْلُغُوا الذُّرْوَةَ العُلْيَا مِنْهُما، وَلِنَحْمِيَكُمْ فوقَ ذلك مِنْ أعدائِكُمُ المَجَرِيّين الذين يطْمَعُون في امتِلاكِ بلادِكُمْ، واغْتِيَالِها، ونَدْفَعَ عَنْكُمْ شرورَهُمْ ومطامِعَهُمْ، فنحنُ أصْدِقاؤُكُمْ المخلِصُون الأوفياءُ، من حيث تَظُنُّونَ أنّنا أعداؤُكُمْ وخُصُومُكُمْ.

فابْتَسَمَتْ بازيليد ابتسامةَ الهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ، ونظرَتْ إليه نظرَةَ عَتَبٍ وتأنيبٍ، وقالَتْ له: إنّ برانكومير، يا صَدِيقي، ليس مَوْجُودًا مَعَنا لنَخْدَعَهُ بأمثالِ هذه الأساليبِ الكاذبةِ. أمّا أنا فإنّي

لا أنخدِعُ بها، ولا أغْتَرُّ، لأنّي أعلمُ كما تعلَمُ أنتَ، وكما يعلَمُ الساسَةُ الكاذِبُون جميعًا أنّ الفاتحينَ من عَهْدِ آدمَ إلى اليومِ وإلى أنْ تبدلَ الأرضُ غيرُ الأرضِ والسمواتِ، لا يفتحونَ البلادَ للبلادِ، بل لأنفسِهِمْ، ولا يمتلِكُونَهَا لرفعِ شأنِها وإصْلاحِ حَالِها، والأخذِ بيَدِها في طريقِ الرقيِّ والكمالِ كما تقول، بلْ لامْتِصَاصِ دَمِها، وأكْلِ لحمِهَا وعرقِ عظمِها[1]، وقَتْلِ جميعِ مواردِ الحَياةِ فيها.

والأمَّةُ إنْ لم تتولَّ إصلاحَ شأنِها بنفسِها، لا تُصْلِحُها أُمَّةٌ أخْرَى، مَهْما حَسُنَتْ نِيَّتُها، ونَبُلَ مَقْصِدُها؛ والصّلاحُ إن لم يَنْبُتْ في تربةِ الأمةِ نفسِها، ويُزْهِرْ في جوِّها، ويأتلفْ معَ مزاجِ أفرادِها وطبيعتِهِم لا ينفعُها، ولا يُجدي عليها، ويكونُ مثلُهُ مَثَلَ الزهرةِ التي تُنْقَلُ من مَغْرِسِهَا إلى مغرِسٍ آخَر، فهي تُزْهِرُ فيه أيامًا قلائلَ، ثم لا تلبثُ أنم تَذْبُلَ وتَذْوِي.

فإنْ وُجِدَ بَيْنَ أولئك الطامِعينَ من يَذْهَبُ في سياسَتِهِ الاستعماريّةِ مذهبَ الإصلاحِ والتشييد، فَكَما يُسمِّنُ صاحبُ الشاةِ شاتَهُ، ليَذْبَحها، ويأكُلَها، وكما يَتَعَهَّدُ صاحبُ المزرعَةِ مزرعَتَهُ بالرِّيِّ والتسميدِ، ليَسْتَكْثِرَ غَلّتَها وثمرَاتِها.

أمّا الحريّةُ الدينيّةُ التي تُريدُونَ أنْ تمنُّوا بها علينا، فما أهوَنَها عليكم ما دامَتْ لا تعطِّلُ لكم غَرَضًا، ولا تقِفُ لكم في سبيلِ مطمعٍ. وقديمًا كان الفاتحونَ يَخْدَعُونَ الشُّعُوبَ الجاهِلَةَ بإرْضَائها في شؤونِ دِينِهَا، ليَسْلبُوا شؤونَ دُنْيَاها، ويوجّهونَ نظَرَها إلى الشؤونِ الروحيّةِ الخالصةِ، ليقطَعُوا عليها طريقَ النظرِ في الشؤونِ المادّيّةِ الحيويّةِ، فكان مَثَلُهمْ في ذلك مَثَلَ اللصّ الذي يدسُّ لمَنْ يُريدُ سرِقَتَهُ مادةً مخدِّرَةً في طعامِهِ لا تكلِّفُهُ إلا ثَمنًا يَسيرًا، ليَسْتَوْلِيَ على الجمِّ الكثيرِ مِنْ دَنانيرِهِ ودَراهِمِهِ، على أنّ القوّةَ الدينيّةَ في الأمّة أثرٌ مِنْ آثارِ القوّةِ السياسيّةِ، فإذا ضَعُفَ أمْرُ الأمّةِ في سياسَتِها ضَعُفَ أمْرُها مع الأيامِ في دِينِهَا. ولا بقاءَ لدينٍ منَ الأديانِ يَعيشُ تحت سُلْطانِ دينٍ آخَر، ويَسْتَظِلُّ برايَتِهِ، إلّا كما يَبْقَى الثلجُ تحتَ أشعّةِ الشمسِ وحرارَتِها، ومَنْ ظَنَّ غيرَ ذلك، فَعَلَى عَقْلِهِ العفاءُ!

أمّا حمايتُكُمْ إيّانا من أعدَائِنا، فليس لنا على وَجْهِ الأرضِ عدُوّ سَواكُم، فاحْمُونا من أنْفسِكم قَبْلَ أن تَحْمُونا من غَيْرِكُمْ. وهَبْ أنّ المجريّين أعْدَاؤُنا كما تَقُولُون، فهل يطمَعُون في شيءٍ أكْثَرَ ممّا تطمَعُون فيه أنْتُمْ؟ وهل يحاوِلُونَ منّا غيرَ هذا الفتحِ الذي تُحاوِلُونَهُ اليومَ؟ وهلْ مِنَ الرأي أنْ يهبَ الإنسانُ متاعَهُ رجلًا، مخافةَ أنْ يَغْلِبَهُ عليه رَجلٌ آخر؟ أوْ أنْ يَذْبَحَ نَفْسَهُ بيَدِهِ، فِرَارًا من ذابحٍ يُريدُ أنْ يَذْبَحَهُ؟

إنّكم ما جِئْتُم هنا لِتَحْمُونا من أعْدَائِنا، بلْ لتَحْتَمُوا بنا من أعدائِكُم، لأنّكُمْ إنّما أرَدْتُمْ بامتِلاكِ هذه البلادِ، واستعمارِها أنْ تَتَّخِذُوا مِنْ حصُونِها، وقِلاعِهَا وجبَالِها، وأسوارِهَا، ودماءِ أبْنائِها، وأرواحِهِمْ وقايةً لكم تَتَّقُون بها زَحْفَ المجريّين عليكم، وعدوانَهُمْ على أرضِكُمْ.

---

(١) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم.

هذه هي الحقيقةُ التي لا رَيْبَ فيها، فإنْ كنتَ تُريدُ بما قلتَهُ أنْ تُعلِّمَني ما أَلَقِّنُه لذلك الرَّجُلِ الذي اتَّفقْنا على خِدَاعِهِ، وخَتْلِهِ(١)، فإنّني أحْفَظُ كثيرًا من أمثالِ هذه الرّقى والتعاويذِ، فلا حاجةَ بي إلى سماعِها مِنْكَ، فلنَعْمَلْ في المسألةِ معًا مُتَكاشِفين مُتَصارِحين.

ولْتَعْلَمْ أنّ الذي أسْعَى لإعْطائِك إيّاه وتسليمِك زِمامِه، إنّما هو الوطنُ بأجمَعِهِ: أرْضُهُ وسماؤهُ، وبرُّه وبحرُهُ، وخيراتُهُ وثمراتُهُ، وحريّةُ أهْلِهِ وسعادَتُهُمْ، وأنّ الثمنَ الذي أتقاضاهُ في سبيلِ ذلك ثمنٌ بخسٌ ضئيلٌ، لا يَزيدُ عن كرسيّ من الخشبِ مُموّهٍ بالذهبِ يسمّيهِ الجُهَلاءُ عَرْشًا، وهو في البلدِ المغلوبِ على أمرِهِ، المسلوبِ حريّتَهُ واستقلالَهُ، سجنٌ ضيّقٌ. لولا خدعُ الحياةِ وأكاذيبُها، لما استطاعَ الجالسُ عليه أنْ يَهْدَأَ ساعةً واحِدَةً.

فأنا أبيعُك هذا الوطنَ الثمينَ، وآخذُ منك ذلك الكرسيَّ الحقيرَ، وأنا عالمةٌ قِيمَةَ ما أُعْطِي، وقيمَةَ ما آخُذُ. فلا تحسبُ أنّك تخدَعُني، أو تُداهِنُني(٢) في هذه الصّفقَةِ، وأُقْسِمُ لك بشرَفي، وشرفِ «بيزنطة» لو كان هذا الوطنُ وطني، وكانَتَ تربتُهُ مَدْفَنَ آبائي وأجْدَادِي، لما بِعْتُكَ ذرَّةً واحدةً من ترابِهِ بجميعِ عُرُوش الأرضِ وتيجَانِها.

فاصْفَرّ الجاسوسُ، واربدَّ وَجْهُهُ، وقال: إنّنا ما اجْتَمَعْنا هنا لتفسير مَعْنَى الفُتُوح والاستِعْمارِ، بل لأعْرِضَ على زَوْجِكِ هذا العَهْدَ السلطانيّ بتقليدِهِ مُلْكَ البلقانِ، وإلباسِه تاجَهُ إنْ هو تمكّنَ من إخلاءِ التخوم(٣) من حرّاسِها، وسهّلَ لجيشِنا اجْتِيَازَها، فإنْ قَبِلَ فَذَاك، أو لا، عُدْتُ بعد ثلاثةِ أيّامٍ إلى مركزِ الجيشِ، ورفَعْتُ الأمرَ إلى سلطاني، وقائدي، وعادَتِ الحربُ إلى شأنها الأولِ، أو أشدَّ، ولا يَعْلَمُ إلّا اللهُ متى تَنْتَهي، وماذا تَكُونُ عاقِبَتُها؟

فتَنَاوَلَتْ منه العَهْدَ، وقالت له: سنَلْتَقِي بَعْدَ ليلتَيْنِ أو ثلاثٍ، وسأُخْبِرُك بما تمّ عليه الاتّفَاقُ.

فَقَامَ إلى مكانِهِ الأوّلِ، وأخَذَ يَضْرِبُ على قيثارَتِهِ بَعْضَ الأناشيدِ الدّينِيّةِ، وما هي إلّا لحظةٌ، حتى عادتِ الوصيفَةُ، وكان الليلُ قدِ انْتَصَفَ، فاستأذَنَ للانصِرافِ، وانْصَرَفَ.

❋ ❋ ❋

الأمل

الحبُّ شقاءٌ كلُّهُ، وأشقَى المحبّين جميعًا أولئك الذين يُحِبُّون بلا أمَلٍ، ولا رَجَاءٍ!.

إنّهم يَذْرِفُونَ دموعَهُمْ، وهُمْ عالِمُونَ أنّهم يَسْكُبُونَها في أرضٍ قاحِلَةٍ جَدْبَاءَ لا تُنْبِتُ لهم راحةً، ولا سعادةً، ويَسْهَرُونَ لياليِهم، وهُمْ يعتَقِدُون أنّ ظُلْمَتَها لا تنحَسِرُ عن فَجْرٍ مُنيرٍ، أو صُبْحٍ سَعيدٍ، ويُطْرِقُونَ برؤوسِهِمْ في خلواتِهِم، لا ليُفَكِّرُوا متى تَنْتَهِي أيّامُ شقائِهِمْ، أو تبتَدِئُ

---

(١) الختل: الخداع. (٢) تداهنني: تخدعني.

(٣) تخوم: الحدود.

أيامُ سعادَتِهِمْ، فحَيَاتُهُم كُلُّها شقاءٌ، لا فرقَ بين أمْسِها وغَدِها، وحاضِرِها ومستقبَلِها، بل لِيُفَكِّرُوا متى يَرْحَلُونَ عن هذه الدارِ، لِيَسْتَرِيحوا من آلامِها، وهمومِها.

فإن كان لا بُدَّ لنا من أن نَذْرِفَ قَطْرَةً من دموعِنا على شَقِيٍّ في هذه الأرضِ، فَلْنَذْرِفْهَا على والدٍ ثَكِلَ ولدَهُ في رَيعانِ شبابِهِ؛ أحَبَّ ما كان إليه، وألْصَقَ ما كان بقلبِهِ، من حيث لا أملَ له في رجعَتِهِ، ولا رَجاءَ في لقائِهِ. أو عَاشِقٍ عِلمَ في ساعةٍ، ما كان يَتَوَقَّعُها، أنّ حبيبَتَهُ قد تزوَّجَتْ من غيرِهِ، وأنّها ستسافِرُ اليومَ، أو غدًا إلى وطنٍ ناءٍ لا رَجْعَةَ لها منه أبدَ الدّهْرِ، فوقَفَ أمامَها، يُوَدِّعُها وَداعًا لا يقولُ لها فيه: إلى الغدِ، أو إلى المُلْتَقى، ولا يأخُذُ عليها فيه عَهْدًا، أو ميثاقًا؛ بل يَصْمُتُ صَمْتًا تَذُوبُ في كَبِدِهِ القَرِيحَةِ ذَوْبًا، حتى إذا غابَتْ عَنْ بَصَرِهِ، وانْقَطَعَ آخِرُ آثارِها، رَجَعَ أدْرَاجَهِ، وهو يَعْلَمُ أنْ لا نصيبَ له في العَيْشِ بَعْدَ اليومِ، وأنّ هذا آخرُ عَهْدِهِ بالحياةِ.

أو فَتاةٍ بائسةٍ مسكينةٍ، كتبَ لها شَقَاؤها أنْ يعلَقَ قَلْبُها بعظيمٍ من عظماءِ الحيَاةِ المدلّلين بأنفسِهِمْ، ومكانَتِهِمْ، فلا تَسْتَطِيعُ الصُعُودَ إليه في سمائِهِ، وليسَ مِن شأنِ مِثْلِهِ أن يَهْبِطَ إليها في أرْضِها، فهي تَبْكِيهِ، ولا يشعُرُ ببُكائِها، وتَهْتِفُ باسْمِه ليلَها ونهارَها، ولا يسمَعُ نداءَها، ولا يَزالُ هذا شأنَها، حتى يُوافِيها أجَلُها فَيُرِيحُها.

كذلك كان شَأنُ ميلتزا، فإنّها أحَبَّتْ سيّدَها حُبَّ العابدِ إلهَهُ المعبودَ، وافتُتِنَتْ به افتِتانًا، كانت تحسبُهُ في مَبْدإِ أمْرِها عاطِفَةَ وَلَاءٍ وإخلاصٍ، فإذا هو لَوْعَةُ الحُبِّ، وحُرْقَةُ الغَرَامِ، ولكن أنّى لها، وهي الفتاةُ النَّوَرِيَّة الساقِطَةُ المسكينةُ، أن يمتدَّ بها مطمَعُها إلى ذلك الكوكبِ النائي في سمائِهِ، أو أنْ تمُتَّ إليه بسببٍ من تلك الأسبابِ التي يمتُّ بها الناسُ بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ، فكانتْ، وهي أقرَبُ الناسِ إليه، أبْعَدَ الناسِ عنه، وأنآهُم من مكانِهِ، لا تستَطِيعُ أن تَتَجاوَزَ في موقِفِها معه منزلةَ الخادمِ من المخدُومِ، والسيّدِ من المسُودِ، والصنيعَةِ من صاحبِ النعمةِ.

وكان يُقْلِقُها أشدَّ القلقِ، ويكادُ يُذيبُها حَياءً وخَجَلًا، خَوْفُها أنْ يَطّلِعَ منها على سريرَةِ نَفْسِها، أو أنْ يَعْثُرَ يَوْمًا مِنَ الأيّامِ بتِلْكَ اللّوْعَةِ المتأجِّجَةِ في صَدْرِها، فيَتَّهِمَهَا في عَقْلِها، ويَسْخَرَ، بينَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ، بتَصَوُّرَاتِها، وآمالِها. فكانتْ تفرُّ مِنْ نظَراتِهِ، كلّما وقَعَتْ عليها، حتى لا يَرَى في عينَيْها أثرَ الدمعِ، ولا حمرةَ السهرِ، وتَهْرُبُ مِنَ الخلْوَةِ به جهدَها، حتى لا يرتابَ في اصفِرَارِ وَجْهِها، واضطِرابِ أوْصَالِها، وذهولِ عَقْلِها، ولَجْلَجَةِ لِسَانِها.

أي أنّها كانَتْ محرُومَةً كلَّ شيءٍ، حتى اللذّةَ الضئيلةَ التي يتمتّعُ بها أقلُّ المحبّين حظًّا، وأخْيَبُهُمْ في الحبّ سَهْمًا، وهي الإفضاءُ بمكْنُونِ صَدْرِها إلى ذلك الذي تُحِبُّهُ، وتَعْبُدُهُ.

وكان كلُّ ما يَعْرِفُ قسطنطين من شأنها أنّها فتاةٌ مُخْلِصَةٌ وفِيّةٌ، تحبُّهُ حُبَّ العَبْدِ الشكورِ لسيّدِهِ المُنْعِمِ، وكان يجدُ من بلاهَتِها، وسذَاجَتِها، وطهارَةِ قَلْبِها، ونقائِهِ، وصِدْقِ لسانها، وإخلاصِ قَلْبِها، مَلْهاةً يَتَلَهَّى بها عن همُومِهِ، وأحزانِهِ، ومتّكأً يَتَّكِئُ عليه في ساعاتِ إعيائه،

ونصَبِه[١]، لا يَزيدُ على ذلك شَيْئًا.

فكانتْ إذ جنَّ اللّيلُ[٢]، وأخذَتِ الجنوبُ مضاجِعَها، جلَسَتْ في فراشِها تساهِرُ الكوكَبَ، وتطالِعُه، وتزفرُ زَفَراتٍ حرّى موجِعَةً، وهي لا تَعْلَمُ ماذا تَشْكو، ولِمَ تَبْكِي! لأنّها لا تَعْرِفُ لها غَرَضًا ولا غايَةً.

ولو اسْتَطاعَتْ أنْ تَفْهَمَ مِنْ شؤُونِ نَفْسِها ما يَفْهَمُ الناسُ من شؤونِ نُفُوسِهِمْ، لعَرَفَتْ أنّها إنّما تَبْكِي على أنْ ليس لها في الحَيَاةِ، كما للنّاسِ، أمَلٌ ولا رَجَاءٌ.

هذا هو الحبُّ الطاهِرُ البريءُ الذي لا تَشوبُهُ الأغراضُ والغاياتُ؛ ولا تُحيطُ به الرِّيَبُ، والشكُوكُ، والذي طالما نَشَدَهُ الناسُ في كلِّ مكانٍ، فأضَلّوه، وذابَتْ قلوبُهُمْ حَسْرَةً عليه، فلم يَجِدُوهُ. وأيّ سعادةٍ في الدنيا أعظمُ من سعادةِ نفسٍ تَجِدُ بين يَدَيْها نَفْسًا طاهِرَةً، مخلصَةً، تُحِبُّها، وتَعْبُدُهَا، وتمتزجُ بها امتِزاجَ الماءِ بالخَمْرِ، والأرِيجِ بالزَّهْرِ؟ ولقد ظَفِرَ قسطنطين مِنْ تلك الفَتَاةِ بهذه النفسِ المخلِصَةِ المتعبّدة التي تحزنُ لحُزْنِهِ، وتفرَحُ لفرَحِهِ، وتَغْضَبُ لغضَبِهِ، وتَرْضَى لرِضَاهُ، ولا تَعْرِفُ لها وُجودًا مُنْفَصِلًا عَنْ وُجُودِهِ، ولا حَياةً مُسْتَقِلَّةً عَنْ حَيَاتِهِ. فكانَتْ مِنْهُ بمنزلَةِ المرآةِ منَ الوَجْهِ: تَقْطِبُ إذا قَطَبَ، وتَبْتَسِمُ إذا ابْتَسَمَ، وتَطِيرُ فَرَحًا، وسُرُورًا بانتصاراتِهِ، وتذهَبُ كَمَدًا، وحُزْنًا لآلامِهِ وأحْزانِهِ، وتُحِبُّ أباه حُبَّه إيّاه، وتنفرُ من زَوْجِ أبيهِ نُفُورَه منها.

وهو إنْ لم يكُنْ يُفَاتِحُها في شأنٍ من شؤونِهِ الخاصّةِ، ولا يُفْضِي إليها بسرٍّ من أسرارِ بَيْتِهِ، وعائِق بَعْضِ أفرادِهِ بِبَعْضٍ، إلّا أنّها كانَتْ تَشْعُرُ أنّ تلك المرأةَ اليُونانِيَّةَ الدّخِيلَةَ خَطَرٌ عَظِيمٌ على الوَالِدِ والوَلَدِ، بلْ على الأمَّةِ بأسْرِها.

وكان شُعُورُها هذا يقُودُها إلى مُراقَبَتِها ومُلاحَقَتِها في كلّ مكانٍ، وتَرصُّدِ[٣] حركَاتِها وسُكنَاتِها، علّها تَهْجُمُ منها على ذلك السرِّ الهائلِ، تَتَوَهَّمُهُ تَوَهُّمًا، ولا تَعْرِفُه، فَتَكتَشِفُهُ، وتُمزّق عنه الستارَ، حتى واتاها القَدَرُ يَوْمًا مِنَ الأيّامِ فعَثَرَتْ به.



السر

رَجَعَ قسطنطينُ مِنْ بَعْضِ غَزَواتِهِ، فدخَلَ على ميلتزا، فرآها مُطرقةً واجِمَةً، فلم يُلْقِ لها بالًا، وخَلَعَ رداءَهُ، ثم جلسَ على كُرْسِيِّهِ جلسةَ الراحةِ والسكونِ. وإنّه لكذلك، إذ طرَقَ مسمَعَهُ صَوْتُ تلك القيثارَةِ البديعَةِ التي كان يَسْمَعُها من حينٍ إلى حينٍ، تصدَحُ في قصرِ أبيهِ، فَطَرِبَ لها طَرَبًا شديدًا، وافْتَرَّ ثَغْرُهُ بَعْدَ عبُوسِهِ، ثم نظَرَ إلى ميلتزا، وهي جالسةٌ تحت قدمَيْهِ،

(١) النصب: التعب والإعياء.
(٢) جنّ الليل: أظلم.
(٣) ترصّد: مراقبة.

فرآها مصفرّةَ مغبرّةَ الوَجْهِ ذاهِلَةً، كأنّ نكْبَةً من النَكَباتِ العِظامِ قد نزلَتْ بها.

فعَجبَ لأمرِها، وقال لها: ألا تَطْرَبين معي، يا ميلتزا، لهذه النغماتِ الشجيّةِ البديعةِ؟!

فرفَعَتْ رأسَها إليه، وكأنّ دمعةً لامعةً تَتَرَقْرَقُ في عَيْنَيْها، وقالتْ له: لا، يا مولاي!

فدُهِشَ لقولِها، وقال: ولِمَ؟

قالت: لأنّي لا أحِبُّها!

قال: ولِمَ لا تُحِبِّينَها؟

قالت: لأنّي لا أُحِبُّ صاحِبَها.

قال: وهل تعرفينَه؟ أليس هو ذلك الرجلَ البائسَ المسكينَ، الذي يختلِفُ إلى الأميرةِ من حينٍ إلى حينٍ، ليُسْمِعَها أناشيدَ قَوْمِها، وأغانِيها، فتَعُودَ عليه ببعضِ نَوالِها؟[1]

قالت: إنّه ليسَ بسائلٍ، يا سيّدي، ولا مسكين، بل هو الضابطُ العظيمُ إبراهيمُ بك أحدُ قوّادِ الجيشِ التركيّ.

فانْتَفَضَ قسطنطين مَذْعُورًا، واسْتَوَى في مَكانِهِ جالِسًا، وقال: ماذا تقُولِينَ؟

قالتْ: إنّي كنتُ مخدوعَةً به قبلَ اليوم؛ حتّى رَأَيْتُهُ ليلةَ أمسِ واقفًا تحت شَجَرَةٍ وارِفَةٍ من أشجارِ الحديقةِ، يُصلّي صلاةَ المُسْلِمِينَ مُطْرِقًا، خاشِعًا، مُسْتَقْبِلًا قِبْلَتَهُمْ. فارْتَبْتُ في أمْرِهِ، ثمّ دَنَوْتُ منه، وأمْعَنْتُ النظرَ في وَجْهِهِ من حيث لا يَشْعُرُ بمكاني، فعرَفْتُهُ، وذكَرْتُ أنّه ذلك البطلُ العظيمُ الذي كُنْتُ أراه في مُعَسْكَرِ الجَيْشِ التركيِّ، لا يَزالُ مُرافقًا للقائِدِ الكبيرِ، يسيرُ في ركابِهِ حيث سارَ، ويَتَنَقَّلُ معه في غَدَواتِهِ، ورَوْحَاتِهِ؛ وإنْ غابتْ عنّي معرِفَتُهُ، فلن تَغِيبَ عنّي معرفةُ تلك الشجّةِ[2] الهلاليّةِ الواضِحَةِ في جَبِينِهِ، وذلك الخالِ[3] الأسودِ المرتسم تحت عينِه اليُسْرَى، بلْ أعرفُهُ من تلك النغماتِ الشجيّةِ التي يُغَنِّيها الآنَ.

وهنا توقّفَتْ عنِ الكَلام، واضطرَبَتْ، وكأنّ كلِمَةً حائِرَةً تَخْتَلِجُ بَيْنَ شَفَتَيْها. فعجبَ قسطنطين لأمرِهَا، وسألَها ما بالُها، فأطرقَتْ هُنَيْهَةً، ثم رفعَتْ رأسَها، فإذا دمعةٌ تَنْحَدِرُ على خَدِّها، واستمرَّتْ في حَدِيثِها تقولُ: نعم، إنّني أعرِفُهُ من تلك النغماتِ التي كان يَدْعُوني إلى الرَّقْصِ عليها في خيمَتِهِ في المُعَسْكَرِ، وهو جالسٌ بين صَحْبِهِ، وخلّانِهِ من قوّادِ الجَيْشِ، ورؤسائِهِ، يُغنّيهِمْ ويُطْرِبُهُمْ، فأرقُصُ أمامَهُمْ رَقْصَ الطائرِ المذبوح، وفُؤادِي يَتَمَزَّقُ لوعَةً وأسًى، لا أهِنُ، ولا أفترُ، ولا أسْتَعْفِي، ولا أعتذِرُ، مخافةَ أن يَرَى سَيِّدِي الجنديّ ذلك منّي، فيُعاقِبُني.

فقد كان يُحاسِبُني على الضّعْفِ، والعَجْزِ، والحياءِ، والخَجَل، والتلوّم[4]، والاحْتِشام، محاسَبَةَ القاضِي المجرمِينَ على الذنوبِ والآثام، فاعْذُرْني، يا سيِّدِي، إنْ بَكَيْتُ لحظةً بين يدَيْك، فإنّي وإنْ كُنْتُ وُلِدْتُ في مَهْدِ الشّقاءِ، ونَشَأْتُ في حِجْرِ البؤسِ والآلام، فقد كانت

---

(١) النوال: العطاء.
(٢) الشجّة: الجرح في الرأس خاصّة.
(٣) الخال: الشامة.
(٤) التلوّم: البطء.

تلك الأيامُ التي قَضَيْتُها في ذلك المُعَسْكَرِ، أو في بُؤْرَةِ السُّقُوطِ والعارِ، أشقَى أيّامي وأعْظَمَها شِدّةً وبُؤْسًا؛ لا أذْكُرُها إلا بَكَيْتُ لذِكْرَاها، وأسْبَلْتُ رِدَائي على وَجْهِي حَياءً منها، وخَجَلًا.

على أنّني أحْمَدُ الله إليك، فقد بسَطْتَ إليّ يَدَ رَحْمَتِكَ وإحْسانِك، واسْتَنْقَذْتَني من مخالبِ ذلك الشقاءِ أيأس ما كنت من الخلاصِ منه؛ أحسنَ الله إليك، وهوّن عليك همُومَك وآلامَك.

وكانت تتكلَّمُ، وقسطنطين لاهٍ عنها بقصّة ذلك الجاسوسِ، لا يكادُ يشعرُ بشيءٍ ممّا حَوْلَهُ.

ثم التَفَتَ، وقال لها: إذن هو جاسوسٌ مُتَنَكِّرٌ؟!

قالت: ذلك ما أعتَقِدُهُ، يا مولاي، ولا أرْتَابُ فيه.

فظلّ يَدُورُ في الغرفةِ دورةَ الهائم المختبلِ[1] لا يهدأُ، ولا يتريّثُ، وظلّ على ذلك ساعةً، ثم انقضَّ بَغْتَةً على ردائِهِ، فاختَطَفَهُ، وخَرَجَ من الغرفةِ مُسْرِعًا. فأدرَكَتْهُ ميلتزا، وتعلَّقَتْ بأطرافِ ثوبِه، وقالتْ له: أين تُريدُ يا مولاي؟

قال: أريدُ أنْ أقْبِضَ على ذلك الجاسوسِ المجرم، وأرْفَعَ أمرَهُ إلى الأميرِ، ليرَى رأيَهُ فيه.

قالتْ: إنّ القيثارَةَ قدِ انْقَطَعَ صَوْتُها، ولا بُدّ أنْ يَكُونَ قد ذهَبَ لسبيلِهِ، فدَعْهُ وشأنَهُ.

قال: لا بُدّ لي من أنْ أكشِفَ أمرَهُ على كلّ حالٍ، حتى لا يَعُودَ إلى هذا المكانِ مرَّةً أخرَى.

قالت أضْرَعُ إليكَ، يا سيّدي، أنْ تملِكَ نَفْسَكَ، وأنْ تَهْدَأَ لحظةً واحدةً، حتى أتمّمَ لك بقيّةَ حديثي.

فَجَمَدَ في مكانِهِ وقالَ لها: ماذا عِنْدَكِ بَعْدَ ذلك؟

قالت: إنْ كنتَ تُريدُ أنْ ترفَعَ أمْرَ الرَّجُلِ إلى أبيك ليَعْرِفَ حقِيقَتَهُ، فاعْلَمْ أنَّهُ يَعْرِفُهُ حقَّ المعرفَةِ، بل هو أعْلَمُ به منّي ومنك!

فثارَ ثائرُهُ، وصَرَخَ في وجْهِها قائلًا: ماذا تقولين أيّتُها الفتاةُ؟ وجرّدَ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ، وأهْوَى به عَلَيها.

فاسْتَخْذَت له[2]، ومَدَّتْ إليه عُنُقَها وقالت: اضْربْ يا مولايَ، فدَمي حَلالٌ لك، وإنْ شِئْتَ فاستَمِعْ منّي كلمةً واحدةً قَبْلَ أنْ تَفْعَلَ، فإنّ شرفَكَ وشرَفَ بيتِك رَهْنٌ بما أقولُ! فجَمَدَ السّيْفُ في يدِه، وظلّ شاخِصًا إليها يَنْتَظِرُ كلِمَتَها.

فقالَتْ: نعم، قد تَمَّ الاتّفاقُ بَيْنَ أبيك وزَوْجَتِهِ، وذلك الجاسوس التركيّ على أن يُخْلي أبوك تخومَ المملكةِ من حرّاسها هذه الليلةَ؛ لتَتَمَكَّنَ الجيوشُ التركيّةُ مِنِ اجْتِيازِها. فإنْ فَعَلَ، أصْبَحَ في الغَدِ سيّدَ البَلْقانِ، ومَلِيكَها.

قال: ومن أين لك عِلْمُ ذلك؟

قالت: قد سَمِعْتُ الحدِيثَ الذي دَارَ بينَهُم في هذا الشأنِ، ورأيتُ ورقةً منشورةً بين أيْدِيهم، يقرَأونَها، ويَتَداوَلُونَها، وما أحْسبُها إلّا وثيقةَ العَهْدِ الذي تَعاهَدُوا عليه؛ فإن كنتَ لا

(١) المختبل: الذي ذهب عقله. (٢) استخذى: خضع.

تزالُ في رَيْبٍ من ذلك، فدونَك الغُرْفةَ المجاورةَ لغرفةِ الأمير، فادْخُلْها برِفْقٍ وهدوءٍ، ودَعْ أُذْنَكَ على خَصَاصِ[1] البابِ المغلقِ بينهما، كما صَنَعْتُ أنا مُنْذُ ساعةٍ، تَسْمَعْ ما يَتَحَدَّثُونَ به، ولك حكمُكَ بعد ذلك.

فشعَرَ قسطنطين أنّ الأرضَ والفضاءَ تَدُورُ به، وأنّ الشمسَ قد لَبِسَتْ قِنَاعَها الأسودَ، فما يَرَى شُعَاعًا من أشعّتها، وأن فرائِصَه تَرْتَعِدُ، وتَصْطَكُّ، فما تكادُ تَحْمِلُهُ، فَتَراجَعَ إلى جدارٍ قائمٍ وراءه، فأسْنَدَ ظهرَهُ إليه، حتّى هَدَأَ قليلًا، ثم مَشَى يَتَحَامَلُ على نَفْسِه، حتّى دَخَلَ الغرفةَ التيْ وَصَفَتْها ميلتزا، ومَشَى إلى البابِ الموصَدِ بين الغُرْفَتَيْنِ، ووقَفَ بجانبِهِ يَتَسَمَّعُ، فلم يَسْمَعْ شيئًا، حتّى ظنّ أنّ الغرفةَ خاليةٌ، ثم سمِعَ صَوْتَ أبيه، فانْتَبَهَ وتجَمَّعَ للإصغاءِ، فإذا هو يَقُولُ لزَوْجَتِهِ بصَوْتٍ خافتٍ مُتَهَدِّجٍ[2]: هل سافرَ الرَّجُلُ؟

قالت: نعم، سيّدي! وما أحسبُ إلّا أنّه تجاوَزَ أطْرَافَ التُّخُومِ الساعةَ، فإنّ جَوَادَهُ أفرَهُ الجيادِ[3] وأسْرَعُها.

فصَمَتَ ولم يقُلْ شيئًا.

فدَنَتْ منه، وقالت له بنغمةٍ حلوةٍ ساحرةٍ: ما هذا الاصفرارُ الذي يكْسُو وجْهَك، يا مشيل؟ وما هذه الكآبةُ السوداءُ التي تَتَدَجَّى في عينَيْك[4]؟ فهل أنْتَ نادِمٌ على ما كان؟

قال: لا، ولكنّني أخشَى الفَشَلَ.

قالت: لا أعْرِفُ للفَشَلِ بابًا يُمكِنُهُ أنْ يَدْخُلَ عليك منه، فأنْتَ قائدُ الجَيْشِ، وصاحِبُ الأمرِ والنَّهْيِ فيه، فإنْ كان كلُّ ما يَعْنِيك مِنَ الأمْرِ، ألّا تظهرَ يَدُك في هذا العملِ، فقُم الساعةَ، والبَسْ ثيابَ أحدِ الحرّاسِ، واذهبْ إلى مكانِ الحارسِ الأولِ القائم على حِرَاسَةِ الرابيةِ الأولى، وارْقَبْهُ حتّى تأتيَ ساعةُ انْصِرَافِهِ واستِبْداله، فأظهِرْ له كأنّك الحارسُ الذي يخلفُهُ في مكانه، واهتِفْ له بكلمةِ السرّ التي بَثَثْتَها بين جنودِك؛ وحرّاسُ المداوَلَةِ كثيرون لا يكاد يعرفُ بَعْضُهُمْ بعضًا، فإذا انصرفَ لشأنه، أخَذْتَ مكانَه من حيث لا يَعْلَمُ من أمْرِك شيئًا، حتى إذا رأيتَ الجيشَ التركيّ مُقْبلًا في منتصَفِ الليلِ، وعَلِمْت أنّه قد أشْرَفَ على التخومِ، وملكَ رأسَ الطريقِ إلى «فيدين»، عُدْتَ أدْرَاجَك إلى القصر مُتَنَكِّرًا كما ذَهَبْتَ، لم يَشْعُرْ بك أحدٌ في ذَهابِك أو إيابِك، وكأنّنا قد فوجِئْنا بهذه النازلةِ مفاجأةً لا نملِك معها للأمرِ دَفْعًا، ولا رَدًّا.

فَطَارَتْ نَفْسُ قسطنطين شَعَاعًا[5] عند سَماعِ هذه الكلماتِ، وكادَ يَصْرُخُ صَرْخَةً عُظْمَى يَرْتَجُّ بها القصرُ، وأرجَاؤه، لولا أنّه طَمِعَ في أن يَسْمَعَ من أبيه كلمةَ شرفٍ وإباءٍ، تهدمُ صَرَحَ تلك الخِيَانَةِ الذي تَبْنِيهِ يَدُ زوجَتِهِ. فأرْهَفَ أذنَيْهِ ليَسْمَعَ جَوَابَهُ، فسَمِعَهُ يَقُولُ بنغمةِ الفارحِ المُغْتَبِطِ،

(١) الخصاص: ثقب الباب.
(٢) المتهدّج: المتقطع المرتعش.
(٣) أفره الجياد: أكرمها.
(٤) يتدجّى: يظلم. والدجى: الظلام.
(٥) طارت نفسه شعاعًا أي تفرّقت من الخوف والانزعاج.

بعد كلام كثيرٍ لم يَفْهَمْهُ: نعم، هذا هو الرأيُ السديدُ، ولقد أمِنْتُ الآنَ كلّ شيءٍ، فَأْتِيني بلباسِ الحارسِ، فقد عَزَمْتُ، ولا مردّ لِعَزمي، فتهافتَتْ على عُنُقِهِ، وقبّلَتْهُ قُبْلَةً طويلةً رَنّ صَوْتُها في أرجاءِ الغرفةِ، ثم ذهبَتْ لشأنِها.

فما سمِعَ قسطنطين هذه الكلمةَ، حتى أظلمَتْ عيناهُ، واكْفَهَرَّ وَجْهُهُ، وتداركَتْ ضَرَباتُ قَلْبِهِ، وحاوَلَ أن يَصيحَ، فخَانَهُ صَوْتُهُ، فَسَقَطَ مَغشِيًّا عليه؛ ولكن بين ذراعَيْ ميلتزا، لأنّها كانَتْ واقِفَةً وراءَهُ تَرْصُدُهُ من حيث لا يَشْعُرُ بمكانِها، حتى إذا هَوَى تَلَقّتْهُ بين ذراعَيْها، وقادَتْه إلى غُرْفَتِها.

❀ ❀ ❀

الجريمة

جَثَمَ اللّيلُ في مجثَمِهِ، ونَشَرَ أجْنِحَتَهُ السوداءَ على الكونِ بأجْمَعِهِ، فَهَجَعَ تَحْتَ ظلالِها الأحْيَاءُ جَميعًا مِنْ بشَرٍ وحيَوانٍ، ولم يَبْقَ ساهِرًا، وَسطَ هذا السكونِ المخيّم، إلّا عَيْنا القائدِ برانكومير في شِعْبٍ[1] تراجان يُديرُهما ها هُنَا وها هُنَا، فيَنْظُرُ بهما تارةً أمامَهُ، وأخرى وراءَه، ليرَى هل يَرْصُدُهُ أحَدٌ، أَوْ يَتَأثّرُ[2] حَركَاتِهِ وأعمالَهُ؟ ويُقَلّبُهما أحيانًا في صفحةِ السماءِ، فيرَى عُيُونَ النجوم مُحدقَةً فيه، فيُخَيّلُ إليه أنّها عيونُ الله ناظرةً إليه نظراتِ الوعيدِ والتهديدِ، وكأنّ صائحًا يَصيحُ به من جوانِبِ الملأ الأعلى: اصنعْ ما تشاءُ، أيّها الرَّجُلُ الخائنُ، واكتمْ عمَلَكَ عن عُيُونِ الناسِ جميعًا، فإنّي ناظرٌ إليكَ، ومُسجّلٌ عليك هذه الجِنايَةَ العُظْمَى التي تَجْنيها على وطنِكَ وقَوْمِكَ، فيَتَضاءَلُ ويَتَصاغَرُ، ويمرُّ بخاطِرِه قولُ أمّه له في عَهْدِ طُفولَتِه، فيما كانت تُمْليهِ عليه من آدابِ الحكماءِ، وأقْوالِهم: «إنّ كواكبَ السماءِ، ونجومَها تشهدُ بين يَدَي الله على جَميعِ جَرائم البَشَرِ التي ليس لها شهودٌ!».

ثم لا يلبَثُ أن يُسَرّي عن نَفْسِه، ويذهبَ به خيالُهُ إلى المُلْكِ، وعَرْشِهِ، وتاجِهِ، وصولجانِهِ، وعزِّه، ومجدِهِ. ثم يُلْقي نظرةً عامّةً على الجبالِ المحيطةِ به، والسهولِ المنبسطةِ من حولِهِ، والأنهار المائجةِ بأشّعةِ النجوم، ولألائِها، فيقولُ: غدًا تُصْبحُ هذه الجزيرةُ كلُّها جزيرَتي، وأهلُها خدَمي وحَشَمي، يَأْتَمِرُونَ بأمْري، ويُذْعِنُونَ لقُوّتي وسُلْطاني، وغدًا يَتَلألأُ التاجُ على جَبينِ بازيليد، فتصبحُ أسعدَ نساءِ العالمِ أجمع، وأُصْبحُ بسَعادَتِها أسعدَ رجالِه.

ثُمّ يُخَيّلُ إليه كأنّه يَرى بازيليد ماثِلةً بين يدَيْه، تنظُرُ إليه نظرَاتِها الساحِرَةَ الفاتِنَةَ، فيمُدُّ ذراعَيْه لاستقبالِها، ويُناجِيَها قائلًا:

إنّني لا أزَالُ على العَهْدِ الذي عاهَدْتُكِ عَلَيْهِ، مُذْ فارَقْتُكِ حتّى الساعةِ، لم أندمْ، ولم أتردَّدْ، ولا مرّ بخاطري أنْ أحْفِلَ بشيءٍ في العالمِ سوى أنْ أُنِيلَكِ البُغْيَةَ التي تَبْتَغِينَها.

---

(١) الشعب: (بكسر الشين) الطريق في الجبل. (٢) يتأثّر: يتتبّع الأثر.

إنّ القُبْلَةَ التي وضَعْتِها على شَفَتي مُنْذُ ساعةٍ قد أثلجَت صَدْرِي، وأسكَنَتْ جميعَ مخاوِفي، ووَسَاوِسي، فأنَا أُقْدِمُ على الجريمةِ إقدامَ الهادئ المطمئِنّ، لا أشعُرُ بثِقْلِها، ولا أفكِّرُ في نتائِجِها، بل لا أشعُرُ أنّها جريمةٌ، يخفِقُ لها قلبي خَفْقَةَ الأسفِ والنَّدَم.

لقد أَقْسَمْتُ لك على الوفاءِ بالعهدِ، ولا بُدَّ لي مِنْ أنْ أَبَرَّ بقَسَمِي، ولو كُنْتُ أقْسَمْتُ لك على حِرْمانِ نَفْسِي مِنْكِ - وأنتِ الحياةُ التي لا حياةَ لي بدُونِها - لاسْتَحْيَيْتُكِ أن أحنَثَ في قَسَمِي أو أن أخِيسَ بعَهْدِي[١].

أقسمتُ لك أن أخُونَ وطنِي، وها أنذا أخونُهُ كما أرَدْتِ، رَاضِيًا مُسْتَسْلِمًا لا أندُبُهُ، ولا أرْثِي له، فَرضاكِ هو الوطنُ كلُّه، بل هو الدنيا بأجمعِها، فليذهبِ الوطنُ كلّه، وَلْيَفْنَ العالمُ بأسرِه، فأنتِ لي كلّ شَيْءٍ فيهما.

وكان يحدِّثُ نفسَهُ بهذا الحديثِ، وهو جالسٌ على رابِيةٍ[٢] مُرْتَفِعَةٍ في شِعْبِ «تراجان»، تحت القَوْسِ الرومانيّ، بجانبِ هضَبَةٍ عاليةٍ من الحطبِ، أُعِدَّتْ للإحْراقِ إنْذارًا للْجَيشِ بالعدوِ عِنْدَ زَحْفِهِ، وكانتِ الهضباتُ المحيطةُ بتلك الرابيةِ المبعثرةِ من حولِها، سوداءَ قاتمةً تتراءَى في ظلمةِ الليلِ، ووحشتِه في صورِ وحوشٍ مخيفةٍ، هائلةٍ، فاغرةٍ أفواهَها، أو مقعيةٍ على أذنابِها[٣]، أو مُتَوَثِّبةٍ للهجوم، فلا يقعُ نظرَهُ عليها، حتى يَطيرَ قلبُهُ شَعاعًا، فَيُسْرِعُ إلى الاغتماضِ، فلا يفارِقُهُ خيالُها إلا بَعْدَ حينٍ.

وما كان الرَّجُلُ جَبَانًا، ولا رِعْدِيدًا، فهو بَطَلُ البلقانِ، وحامِيهِ، وسيِّدُ مَنْ أنجبَتْ به ميادينُ قتالِهِ، وساحاتُ نزالِهِ... ولكنَّها الجريمةُ تنتزعُ قَلْبَ المُجْرِمِ مِنْ جَنْبَيْهِ، وتَغْشَى على عينَيْه البَصِيرتَيْنِ، فيُصْبِحُ بلا قلبٍ، وبلا نَظَرٍ، يَرَى ما لا يَرى النـاسُ، ويَخْشَـى ما لا يخشونَـهُ، فهـو لا يخـافُ الوحوشَ، والهوامَ[٤] والجنَّ، والشياطينَ، والصخورَ، والأحجارَ، بل يخافُ جَرائِمَهُ وآثامَهُ!

وإنّه لكذلك، إذْ خُيِّلَ إليه أنّ إحْدَاها تتحرَّكُ من مكانِها، وتتحلْحلُ[٥] تَحَلْحُلَ الليثِ[٦] المتوثِّبِ، فاستُطِيرَ قلبُهُ فَرَقًا[٧] ورُعْبًا، وحاولَ أن يتَّهِمَ نظرَه، ويَسْتَرِيبَ به، فلم يَسْتَطِعْ، لأنَّهُ ما لبِثَ أن رأى في ذُرْوَةِ تلك الهضبةِ رأسًا يتحرَّك، وينظُرُ إليه بعينَيْنِ متّقِدَتَيْنِ.

فصرخَ صرخةَ الكلب الجبَانِ الذي يَنْبَحُ للشبحِ المُقْبِلِ نحوه؛ لا جرأةً وإقدامًا، بل جُبْنًا وفَرَقًا، وقال: مَنْ هناك؟ فانْحدَرَ الشبحُ إليه من أعلى الهَضَبَةِ، وقال له بِصوتٍ خَشِنٍ أجَشَّ: لا ترتَعْ يا أبتِ[٨]؛ فأنا ولَدُك قسطنطين.

فوَثَبَ من مكانِهِ وِثبَةَ الملْسُوعِ، وقال له بصوتٍ مُتَهَدِّجٍ مختنِقٍ: ما الذي جاءَ بك إلى هُنا؟ ومن أنبَأك أنّي في هذا المكانِ؟

---

(١) خاس بعهده: غدر ونكث.
(٢) الرابية: التلّة.
(٣) مقعية على أذنابها: جالسة مثل جلوس الكلاب.
(٤) الهوام: دواب الأرض كالحيات ونحوها.
(٥) تتحلحل: تتحرّك.
(٦) الليث: الأسد.
(٧) الفرق: الخوف.
(٨) لا ترتع: لا تخف.

قال له: وأنتَ ما الذي جاءَ بك إلى هنا يا أبتِ؟ وماذا تُريدُ أن تفعَلَ؟ إنّني أسألُكَ عن مِثْل ما تَسْألُني عنه!

فأسْقِطَ في يدِهِ[١]، وطارَ طائرُ عَقْلِهِ، وأحسَّ بالخطرِ المُقْبِلِ، إلّا أنّه تَجلّدَ، واسْتَمْسَكَ، وقال بلهْجَةِ الآمِرِ المسيطِرِ: وما سؤالُك عنْ مثلِ هذا أيُّها الفَتَى الجريءُ؟ وما شأنُك بي، وبما أفْعَل؟ وكيف فارَقْتَ حِصْنَكَ في هذه الساعةِ من اللّيلِ؟ ومنْ أذَنَك بذلك[٢]؟

قال: لم أَستأذِنْ في ذلك أحَدًا غيرَ واجبي، إنّني أعلمُ كلَّ شيءٍ، يا أبتِ، وأعلمُ أنَّك ما جئتَ إلى هذا المكان إلّا لترتكِبَ أفظعَ جريمةٍ يرتكِبُها إنسانٌ في العالم!

فصاحَ برانكومير، وهو يتميَّزُ غَيْظًا، وحَنقًا[٣]: كذبْتَ أيُّها الغُلامُ الوقحُ، واجْتَرَأْتَ على ما لم يَجْترِئْ عَلَيْهِ أحدٌ من قَبْلِك؟ عدِ الآن إلى حِصْنِكَ، ولا تَبْقَ بَعْدَ صُدُورِ أمري أليك لحظةً واحدةً، فإنْ حاوَلْتَني في ذلك، فأنتَ أعْلَمُ بما يكُونُ؛ إنَّك لا تفهمُ شيئًا مِنْ أسراري، وخُوَيْصَاتِ نَفْسِي[٤].

وليسَ لك أنْ تَسْأَلَني عنها، لأنّك جنديٌّ، والجنديُّ لا يسألُ قائدَهُ، بل يأتَمِرُ بأمرِهِ، ولو كان الموتَ الزؤامَ. عُدْ إلى مخفَرِكَ، وتَوَلَّ حراستَهُ بنَفْسِك، ولا تأذَنْ لجَفْنِك بالغَمَضِ لحظةً واحِدَةً، وسأُحَدِّثُكَ غدًا في هذا الشأنِ حديثًا طويلًا، تَعْلَمُ منه كلَّ شيءٍ.

فَتَضَعْضَعَ قسطنطين أمامَ هذه اللهجةِ الرزينةِ الهادئةِ، وجَثا[٥] على رُكْبَتَيْهِ بين يدَيه، وقالَ له: عَفْوًا، يا أبتِ، لقد أخطَأْتُ في سُوءِ ظَنّي بك، فأنتَ أشرفُ من أن تَضَعَ نَفْسَك حيث أرادُوا أنْ يَضَعُوك، وما أحسبُ كَلِمَتك التي قُلْتَها للأميرةِ مُنْذُ حينٍ في تلك الخلوةِ الرهيبةِ، إلا كلمةَ مَزْحٍ ودعابةٍ، أرَدْتَ بها مُدَارَاتها، وملايَنَتَها، أو الهزءَ والسخريةَ بها، حتّى إذا فُصِلَتْ عنك، وخَلَا بك مكانُكَ مَحَوْتَ بِظَهْرِ يَدِك عن فَمِك تلك القُبْلَةَ الأثيمةَ التي خَتَمْتَ بها ذلك العَهْدَ الأثيم، ثمّ قُلْتَ لها في نفسِكَ: إنّني قد عاهَدْتُ الله، أيّتُها المرأةُ البلهاءُ قَبْلَ أنْ أعاهِدَكَ، أنْ أكونَ أمِينًا لوَطَني، وفيًّا له، فلا أحفِلُ بعهدٍ غيرِ هذا العهدِ، ولا بيَمِينٍ غيرِ تلك اليَمِينِ.

ثم خِفْتَ أنْ تَكُونَ قد استَرابَتْ بك[٦]، أو مرَّتْ بخاطِرِها خلجةُ شكٍّ في أمرِك، فأخَذْتَ للأمرِ حيطتَها من طريقِك، فجئْتَ بنفسِكَ لتَتَوَلّى حِراسةَ التخُومِ، وحِمايَتها، حتى إذا شَعَرْتَ بسوادِ الجيشِ التركيّ مُقْبِلًا أشعلْتَ النيرانَ إنذارًا لجيشِك بالخطَرِ الداهِم، وخيّبْتَ آمالَ أعدائِك فيما يَكِيدُون لكَ، ولقَوْمِكَ. أليس كذلك، يا أبتِ؟ نعم. إنّه كذلك بلا شَكٍّ، ولا رَيْبٍ، فأشْعِلِ النارَ الآنَ، وَدَعْها تَسْطَعُ في هذا الفضاءِ الواسعِ، وتبدِّدُ بلَألائِها هذه الظلماتِ المتَكاثِفَةَ، فإنّي

---

(١) أسقط في يده: تحير فلم يدر ماذا يفعل. (٢) أي: من أذن لك في ذلك.

(٣) يتميّز غيظًا: ينقطع من الغيظ.

(٤) الخويصة: تصغير الخاصة؛ يعني خصائصه الدقيقة.

(٥) جثا: ركع. (٦) استرابت: داخلتها الريبة.

أشعُرُ بسوادٍ مُقْبِلٍ من بعيدٍ، يَتَقَدَّمُ شَيْئًا فشَيْئًا، وما أحسبُهُ إلّا فيالقَ العدُوِّ، وجيُوشَهُ.

انظُرْ، يا أبتِ، واخترقْ بنظَرِكَ هذا الفضاءَ الشاسعَ، ألا تَرَى تحت خطّ الأفقِ أشباحًا تَتحرَّك، وتَتَقدَّمُ؟ إنّه لَيُخَيَّلُ إليّ أنّها أعلامُ الجيُوشِ التركيّةِ تَخْفِقُ في أجوائِها. وربّما لا تمضي ساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ، حتى تكونَ قد وصلَتْ إلى هنا!.

أسرِعْ بإشْعالِ النارِ، أو عُدْ أنت إلى قَصْرِك، وخُذْ لنَفْسِك راحَتَها فيه، ودَعْني أتولّى عنك إشْعَالَها، فالخطرُ مُوشِكٌ أنْ يَقَعَ! ما من ذلك بُدٌّ!!

ما لي أراك جامِدًا، يا أبتِ؟ وما هذا الذهولُ الذي يَتَوَلَّاكَ؟ أَشْعِلِ النارَ، أوْ تَنَحَّ عن طريقي لأُشعِلَها.. أشعِلْها فالوقتُ ضيّقٌ من التأمُّلِ والتفكيرِ!

فَرَفَعَ برانكومير رأسَهُ، ونَظَرَ إلى ولَدِهِ نَظْرَةً جامِدَةً، وقال له: إذن أنتَ تَتَّهِمُنِي، يا قسطنطين، وتَرْتابُ بي! ما أشقاني، وأَسْوَأَ حَظّي! ولدي، وفِلْذَةُ كَبِدي، ووارِثُ اسْمِي، ولقَبي يَتَّهِمُني، ويَتَجَسَّسُ عليّ، ويقِفُ وراءَ الأبوابِ، يَنْظُرُ من خَصَائِصِها[1]، لِيَسْمَعَ ما يَدُورُ بيني وبين زَوْجي في خلْوَتي! فَيا للعارِ، ويا للشقاءِ!

أيُّها الولَدُ العاقُّ المسكينُ، إذهبْ لشأنِك فإنّي أريدُ أنْ أبْقَى هنا اللّيلَةَ وحْدي، ولا تجازِفْ بمخالَفَةِ أمْرِ قائدٍ تَعَوّدَ أنْ يأمرَ، فيُطاعَ، وليس من شأنِ مثلِه أن يصبِرَ لحظةً واحدةً على مخالفةِ أمرِهِ. إنّني سأبْقَى هنا وَحْدِي، وسأشْعِلُ النارَ بنَفْسِي عندما أُرِيدُ إشْعالَها، فلا حاجَةَ بي إلى مَشُوْرَتِكَ ومَعُونَتِكَ.

عُدْ أدْرَاجَك إلى حِصْنِك، ولا تُضِفْ إلى جريمةِ التجسّس على أبيك جريمةَ معانَدَتِهِ، ومخالفَةِ أمرِهِ، واعلمْ أنّك الآن جُنْدِيٌّ أمامَ قائدِهِ، لا ولدٌ بين يَدَي أبيهِ.

فَأَنَّ قسطنطين، وتأوَّهَ آهةً طويلةً، وقال: وارَحْمَتَاهُ لي، ولك يا أبتِ! الأمرُ صحِيحٌ لا رَيْبَ فيه، والجَريمةُ على وَشْكِ الوُقُوعِ.

ثم صَمَتَ صَمْتًا طويلًا، لا تطرفُ له فيه عَيْنٌ؛ ولا تنبَعِثُ له جارِحةٌ، ثم انتفضَ فَجْأةً، وصاحَ بلهجةٍ شديدةٍ صارمةٍ: أبي، إنّني سأبْقَى هنا.

فذُهِشَ ميشيل لعنادِهِ وصلابَتِهِ، وقال له: ما أراني الآنَ إلّا أمامَ عدوٍّ لدودٍ لا ولدٍ بارّ مطيعٍ.

قال: لا، يا أبتِ؛ بل أمامَ ولدٍ بارّ مطيعٍ، ولولا ذلك ما جَشَّمْتُ[2] نَفْسِي مشقّةَ المجيءِ إليك في هذه الساعةِ منَ اللّيلِ، ولا وقَفْتُ أمامَك هذا الموقفِ الخطرِ المُميتِ. إنّني لم أفْعَلْ ذلك من أجْلِ نَفْسي، بلْ منْ أجْلِك، ومن أجلِ شرَفِك. إنّني أحبُّكَ كما أُحِبُّ وَطني، وما على وَجْهِ الأرضِ شيء أَحَبُّ إليّ منكما، وكما أتمنّى له أنْ يعيشَ حرًّا مستَقِلًا، أتمنّى لك نْ تَعِيشَ شريفًا عظيمًا، فإذا ضَاعَ وَطَني، وكان ضياعُهُ على يَدِك أنتَ، فَقَدْتُ في ساعةٍ واحِدَةٍ جميع ما أُحِبُّ في هذه الحياةِ.

(١) خصائص الباب: ثقوبها وشقوقها.

(٢) جشم الأمر: تكلّفه وأتاه على مشقّة.

فارْحَمْ ولدَكَ المسكينَ الذي لا يزالُ يُضمِرُ لك في قلبِهِ حتّى الساعةِ ذلك الحبَّ القديمَ الذي تَعْرِفُهُ، واسْتَبْقِ له تلك السعادةَ التي لم يَبْقَ له في الحياةِ سعادةٌ غَيْرُها.

تَنَحَّ قليلًا عن طريقي، وَأْذَنْ لي أنْ أصِلَ إلى هذه الرابيةِ لِأُشْعِلَ نارَها، فيرَاها حرّاسُ الرّوابي جميعًا، فَيُشْعِلُوا نيرانَهُم، فيَنْهَضَ الجيشُ للدِّفَاعِ عنِ الوطنِ، فقد أزِفَتِ الساعةُ، ولم يَبْقَ سبيلٌ للأناةِ والتفكيرِ.

ثمّ انْدَفَعَ إلى مكانِ الرابيةِ مُسْرِعًا؛ فاعْتَرَضَهُ أبوه، ووقَفَ في وجْهِهِ وِقْفَةَ الصّخْرَةِ العاتِيَةِ في وَجْهِ الريحِ العاصفِ، وقالَ له: لا آذَنُ لك بالتقدُّمِ خطوةً واحدةً، ودون ما تُريدُ الموتُ الزؤامُ!

فطاشَ[١] عَقْلُ قسطنطين، وجُنَّ جنُونُه، وقال له: احذَرْ يا أبتِ! فإنّ في هذه السماءِ المشرقةِ علينا بنجومِها وكواكِبِها، إلهًا يَنْتَقِمُ من الظالِمِين، ويُجازي الخائنِينَ بخيانَتِهِمْ شرَّ الجزاءِ، وما أنتَ بناجٍ من عِقابِهِ، ولا مُفْلِتٌ منْ جزائِهِ.

لقد حدّثَتْني نَفْسِي في تلك الساعةِ الهائلةِ التي سمِعْتُك فيها تؤامِرُ على وطنِكَ وأُمّتِكَ، بأفْظَعِ ما تحدّثُ به نفسٌ صاحبَها، وكنتُ على وشكِ أن أرفعَ أمْرَكَ إلى الملكِ، أنتَ وزَوْجُك، وأكْشِفَ له دخيلةَ أمركما، فلم أفعلْ، لأنّي ضَنَنْتُ بك على المَوْتِ الدنيءِ الذي يموتُهُ الخائنونَ المجرمونَ أمثالُك، وأشْفَقْتُ على ذلك الشرفِ العظيمِ الذي بلغَ في علُوِّه مناطَ السماءِ الأعلى، أنْ يُصْبِحَ مهانًا مذالًا[٢]، تَدُوسُهُ الأقدامُ، وتطأُهُ النِّعالُ، وكرِهْتُ أنْ يمرّ السابِلَةُ من رُعاعِ الناسِ[٣]، وغَوْغائِهِمْ على قَبْرِكَ بعد مَوْتِك، فَيَبْصُقُوا عليه كأنّما يَبْصُقونَ على قَبْرِ الشيطانِ، وربّما نَبَشُوا عنْ جُثّتِك، تَشَفّيًا منك وانتِقَامًا، فأخْرَجُوها من قبرِها، وأسْلَمُوها إلى جَوَارِحِ الطيرِ، وكواسِرِ الوحشِ، تمزِّقُ أشلاَءَها، وتُبَعْثِرُ عِظَامَها.

أشْفَقْتُ عليكَ من كلِّ هذا، وأشْفَقْتُ على نَفْسِي أنْ يَرَانِي الناسُ في طريقي، فيُشِيرُوا إليّ بأصابِعِهِمْ، ويقُولُون: هذا هو الولدُ السافلُ الذي وشَى بأبيهِ، وأورَدَهُ موردَ التَّهْلُكَةِ؛ فبئسَ الولدُ، وبِئْسَ الوالدُ. ولا يلِدُ الخوَنَةُ المجرمون غيرَ الأذْنِيَاءِ الساقِطِينَ! فنَهْنَهْتُ نَفْسِي، وملكْتُ عليها زمامَها، وقَلْبِي يَذُوبُ حُزْنًا ولوعةً، وقلت: لعلّني أستطِيعُ أنْ أتدَارَكَ الأمرَ من طريقٍ غيرِ تلك الطريقِ، وأن أتمكّنَ في آنٍ واحدٍ من إنقاذِ أبي، وإنقاذِ وَطَني من حيث لا أخْسَرُ أحدًا منهما في سبيلِ الآخرِ، فجئتُ، وقلبي مُمْتَلِئٌ أملًا ورَجاءً.

أما الآنَ، وقد يَئِسْتُ من كلِّ شيءٍ، فإنّي أكادُ أشعُرُ بالندمِ على ضياعِ تلك الفُرْصَةِ التي ملكْتُها ساعةً من الزمانِ، فسرّحْتُها، ولم أنتفِعْ بها، وكأنّ صَوْتًا خفيًّا يهتِفُ بي من أعماقِ قلبي: إنّك قد أشفَقْتَ على نفسِك مرةً، وعلى أبيك أخرى، ولم يخطر ببالِك لحظةً واحدةً أن تُشْفِقَ على وَطنِك، وقَوْمِكَ.

---

(١) طاش: جهل وأخطأ، طار.

(٢) مذالًا: متضعًا.

(٣) رعاع الناس: سفلتهم.

فأسألك مرّة أخرى، يا سيّدي، وربّما كانتْ هي المرّةَ الأخيرةَ، أن تَنْتَحِيَ عنْ طريقي، فإنّني قد عزمْتُ عزمًا لا مَرَدَّ له أنْ أقْتَحِمَ هذه الرابيةَ، لأُضْرِمَ نارَها؛ رَضِيتَ أمْ أبَيْتَ، سقَطَتِ السماءُ على الأرضِ، أمْ بقِيَتْ في مكانِها!

فأطرَقَ برانكومير لحظةً، ذهبَتْ به فيها الهمومُ، والأفكارُ كلَّ مذهبٍ، ثمّ رَفَعَ رأسَهُ، فإذا دَمْعَةٌ كبيرةٌ تترَقْرَقُ في عينَيْهِ، ونظَرَ إلى ولدِهِ نظرةَ عَتبٍ، وتأنيبٍ، وقال له: نعم، يا بنيّ! إنّكَ أخطَأْتَ خطأً عظيمًا إذ أضَعْتَ الفُرْصَةَ العظِيمَةَ التي لاحَتْ لك، وقد كان جدِيرًا بِكَ أنْ تَفْتَرِصَها، ولا تسرِّحَها، وأن تُلْقِي في عنقِ أبيك في تلك الساعةِ التي رابَكَ فيه من أمره ما رابَك، غُلًّا ثقيلًا تقودُهُ به إلى حضرةِ الملكِ متّهمًا إيّاه بجريمةِ الخيانةِ الكبرى، ليأمرَ بقَتْلِه، فتُمَتِّع نظرَك برؤيتِهِ مصلُوبًا على بابِ المدينةِ، والجماهيرُ من حولهِ يبصُقُون على وجههِ ويصفَعُون قَذالَه[1]، ويرجُمُونَهُ بالحِجَارَةِ على مَرْأَى من ضبّاطِهِ، وجنودِهِ، وأسرتِهِ، وأصدقائِهِ، وربّما اشتركَ هؤلاءِ جميعًا معهم في عَمَلِهِمْ.

نعم إنّها فرصةٌ ثمينةٌ جدًّا، قد أضَعْتَها بتردُّدِكَ، وتحيّرك، وقد كان جديرًا بك أنْ تُقْدِمَ إقدامَ العازم المصمّم، كما كان يفعلُ أبوكَ لو كان في مكانك، فقد عوّدْتُ نَفْسِي أنّني إذا عَزَمْتُ على أمرٍ، لا أتردَّدُ فيه، ولا أتريَّثُ، وقد عزَمْتُ الآن على ألّا أُشْعِلَ هذه النارَ، فلا أُشعِلُهَا، ولا آذَنُ لك بإشعالِها، بل لا آذَنُ لك بالتحرّك من مكانِك خطوةً واحدةً!.

فوقَفَ قسطنطينُ حائِرًا مُلْتاعًا يترجَّحُ بين اللّهفِ على وطَنِهِ الذي نبتَ في تربتِه، وعاشَ بين أرضِهِ وسمائِهِ، وبين أنْ يعقَّ أباهُ الذي أبرزَهُ إلى الوجودِ، وَوَهَبَهُ نعمةَ الحياةِ التي ينعَمُ بها. فأسْنَدَ رأسَهُ إلى صخرةٍ كانتْ بجانبِهِ حائِرًا، مُضَعْضَعًا، تتوارَدُ في رأسِهِ الخواطرُ، والأفكارُ، يُصارِعُ بَعْضُها بعضًا، ويشتَدُّ بعضُها في أثرِ بعضٍ، حتى بلغَ منه الإعياءُ مبلَغَهُ، فنظَرَ إلى أبيهِ نظرةً منكَسِرةً حائرةً تفيضُ حُزْنًا ويأسًا، وقال:

أيُرْضِيكَ، يا ميشيل برانكومير، يا بطلَ البلقانِ، وحَامِيها، وأشرفَ من أنجبتْ به أصلابُ رجالِها وأرحامُ نسائها، أنْ يملِكَ العدوّ علينا هذه البلادَ العزيزةَ الكريمةَ، فيَقْتُلَ أبناءَها، ويستَحِلَّ حُرُمَاتِها، وينكّسَ صُلْبَانَها، ويهدمَ صوامِعَها ومعابِدَها، ويُخرسَ فيها كلَّ صوتٍ غيرِ صوتِ الأذانِ على ذُرَى المنائِرِ؟

قال: نعم، يُرْضيني ذلك، لأنّني أَحْسَنْتُ إليها، فكفَرتْ بِنِعْمَتِي، وجازَتْني شرَّ الجزاءِ على صَنِيعي!

قال: إن لم تفعلْ ذلك من أجلِها فافعَلْهُ من أجْلِ ربّك.

قال: أيَّ ربٍّ تُريدُ؟ إنّني لا أفعلُ شيئًا من أجلِهِ، فهو مُمالِئٌ مُداجٍ[2] لا يُحبُّ إلّا قَساوِسَتَه، وكُهّانَهُ، ولا يَرَى رؤوسًا تصلحُ للتيجان غيرَ رؤوسِهِم الصغيرةِ الصلعاءِ، ولكنّني

---

(١) قذاله: قفاه.

(٢) المداجي: المداري بالعداوة.

سأنتزعُ بالرّغمِ من ذلك التاج من ذلك الرأس الذي توّجه به، وأضعُهُ على رأسي.

قال: ولكنّك تعلمُ يا أبتِ، أنّ التاجَ الذي يَتَناوَلُه متناولُه من يَدِ عدوِّهُ ليس بتاجٍ شريفٍ.

قال: ولكنّه تاجٌ على كلِّ حالٍ!

قال: ألا تخافُ أن يَثْقُلَ يومًا على رأسِك، ويَقْضِي عليك؟

قال: إنّكَ تُهينُني، يا قسطنطين، وتُهدِّدُني؛ ولقد بلَغْتَ بوقاحَتِك الغايةَ التي لا غايةَ وراءَها، فتَجَمَّلْ قليلًا، ولا تَنْسَ أنّك إنّما تُخاطِبُ أباك!

قال: عَفْوًا، يا أبتِ، وغُفرانًا، فلَقَدْ بلغَ بي اليأسُ مَبْلَغَهُ، حتّى أصْبَحْتُ لا أفْقَهُ ما أقولُ!

ثم دنا منه وأمسكَ بيدِه، وأنشأَ يخاطِبُهُ بصَوْتٍ ضَعِيفٍ مُتَهافِتٍ، ويقولُ:

عدْ إلى نفسِكَ لحظةً واحدةً يا أبتِ، وراجعْ فِهْرِسَ تاريخِكَ الشريفِ، واذكُرْ تلك الأيّامَ المجيدةَ التي أبلَيْتَ فيها في الدفاعِ عن وطنِك، وقومِك بلاءً سجّلَهُ لك التاريخُ في صفحاتِه البيضاءِ بأقلامِهِ الذهبيّةِ، وتلك الوقائعَ الحربيّةَ الهائلةَ التي كنت تَسْتَقْبِلُ فيها الموتَ استقبالَ العريسِ ابتساماتِ عروسِه الحسناءِ ليلةَ زفافِها، وتَضْحَكُ للهولِ فيها ضحكَ الزهرِ لقطراتِ النّدى، والنبتِ لأشعّةِ الشمس، ثم تعودُ منها منصُورًا مظفّرًا يستقبِلُك نساءُ القُرَى، وَفَتَياتُها في كلِّ طريقٍ مرَرْتَ به بدفوفِهِنَّ وعيدانِهِنّ يُغَنّينَك ويرقُصْنَ بين يدَيْك؛ ويرتَشِفْنَ قطراتِ الدماءِ من كؤوسِ جراحاتِك، ويَنْثُرْنَ الأزهارَ تحت قَدَمَيْك، ويناديِنَك باسمِ المخلّصِ العظيمِ، وخليفةِ المسيحِ في الأرضِ.

اذْكرْ تلك الأعلامَ الوطنيّةَ التي تخفِقُ على أبوابِ المدينةِ، وأسوارِها، وترنُّحَها طرَبًا وسُرُورًا عند رُؤْيَتِك، وترَامِيها على قدمَيْك، كلّما مَرَرتَ بها كأنّها تحاولُ تَقْبِيلَهما، ولَثْمَهُما، واخْشَ إنْ مَرَرْتَ بها بعد اليوم أن تشيحَ بوجهِهَا عنك احتِقارًا، وازْدِراءً، وتضمَّ أطرافَها إلى نفسها ترفّعًا، وإباءً حتى لا تَلْمَسَ جسمَك، ولا تخفِقَ فوق رأسِك.

لا تَبِعْ أمّتَك، يا أبتِ، بعَرَضٍ تافهٍ من أعراضِ الحياةِ، فالتاجُ الذي يَتَناولهُ صاحبُهُ من يدِ عدوِّه ليس بتاجِ المُلْكِ؛ إنّما هو قَلَنْسُوَةُ الإعدامِ.

كيف يَهْنَؤُكَ ذلك الملكُ، وأنتَ ترى أمّتَكَ المسكينةَ راسِفَةً في قيودِ الذلّ، والاستعبادِ، تبكي، وتستَصْرِخُ، ولا منجدَ لها، ولا معين، وتئنُّ في يدِ عَدُوِّها القاهرِ أنينَ المحتضرِ المشرفِ، ولا من يسمعُ أنينَها، أو يُصْغي إلى شكاتها.

كيف يَهْنَؤُك ذلك العيشُ وأنتَ تَرَى أبناءَ وطَنِك أَسارَى أذلّاء في قبضةِ أعدائِهِمْ، يسوقُونَهُمْ بين أيدِيهِمْ سَوْقَ الجزّارِ ماشِيَتَهُ إلى الذبحِ، فإنْ خفَقَ قلبُك خفقةَ الرحمةِ بهم، أو العطفِ عليهم، لا تستطيعُ أن تمدَّ يدَك لمعونَتِهِمْ وإنقاذِهِمْ، لأنّك قد بِعْتَهُمْ، ونَفَضْتَ يَدَك منهم، فلا سبيلَ لك إليهم بعد ذلك.

اذكرْ، يا أبتِ، تلك الأيامَ التي لقِيَ فيها هذا الشعبُ المسكينُ، على يدِ هؤلاءِ القومِ

الظالمين، ما لم يَلْقَ شعبٌ في الأرضِ على يدِ فاتحٍ، أو مُغْتَصِبٍ، أيّامَ كنّا غرباءَ في أوطانِنا، أذلّاءَ في ديارِنا، نمشي فيها مِشْيَةَ الخائِفِ المذعورِ، ونَنْتَفِضُ انتفاضَةَ الهارِبِ المُتَنكِّرِ، لا نعلمُ أيَسْقُطُ الشقاءُ علينا من علياءِ السماءِ، أم يَنْبَعِثُ إلينا من أعماقِ الأرضِ؟ وهل يخرجُ الخارجُ منّا من منزلِهِ، ليَعُودَ إليهِ، أو لِيَرِدَ الموردَ الذي لا رَجْعَةَ له منه أبدَ الدهرِ؟

اذكرْ أيامَ كانُوا يملِكُونَ علينا كلَّ شأنٍ من شؤونِ حياتِنا حتّى زروعَنا وضروعَنا[١] ومياهَ أنهارِنا، وأشعةَ شموسِنا، فأَصْبَحْنا، ولا شأنَ لنا في وطننا إلّا كما يكونُ لعمالِ المزرعةِ ونواطيرِها من الشأنِ فيها، ويحصُون علينا كلَّ حركةٍ من حركاتِنا، وكلَّ سَكَنَةٍ من سَكَنَاتِنا، حتّى نَبَضاتِ قلوبِنا، وخواطِرَ أفكارِنا، وفلتاتِ ألسنَتِنَا، وأحاديثَ آمالِنا، ويحاسِبُونَنا على النظرةِ، واللفتةِ، والأنَّةِ، والزفرةِ، والقَوْمَةِ، والقَعْدَةِ، ثم يقضون فينا بما يَشَاؤُونَ من أقضيتِهِمْ، فلا ينحسِرُ ظلامُ ليلةٍ من الليالي إلّا عن مصلوبٍ تهفو به الرياحُ السافياتُ، أو طريحٍ مُرْتَهَنٍ في أعماقِ السجونِ!

اذكرْ أيامَ كانتْ كلمةُ الوطنِ جريمةً يعاقَبُ عليها قائِلُها بحرمانِه من ذلك الذي يهتِفُ باسْمِهِ، وكلمةُ الدينِ إثْمًا عظيمًا يذهبُ بصاحبِهِ إلى أحدِ القبرَيْنِ، إمّا المنشورِ، وإمّا المحفورِ[٢].

اذكرِ الدموعَ التي كانت تذرِفُها الأمَّهَاتُ على أطفالِهِنَّ المذبوحين فوق حُجورِهِنَّ، والصيحاتِ التي كانتْ تَصِيحُها الزوجاتُ، والأخواتُ الواقفاتُ بأبوابِ السجونِ على أزواجهنَّ، وإخوتهنّ، والزفراتِ التي كان يصعّدُها اليتامَى الثاكِلُون على حافاتِ القبورِ حنينًا إلى آبائِهِمْ وأمهاتِهِمُ الهالِكِينَ!

اذكرْ ذلك كلَّه، ولا تَنْسَهُ؛ لا بل أنت تذكُرُهُ وتعرفُهُ كما تعرفُ نفسَك، لأنّك أنتَ الذي قصصتَهُ علينا، ومثّلْتَهُ لأعْيُنِنا، وقلُوبِنا، وأرَيْتَنا من ويلاتِهِ ومصائِبِه ما لم نَرَهُ. ولطالما كنتَ تبكي عند ذكراه بكاءَ الطفلِ الثاكلِ أمّهُ، فنبكي لبكائِك، وننشجُ لنشيجِك[٣].

ألا تسمعُ هذه الأصواتَ المخيفةَ التي تحمِلُها إلينا الرياحُ من ذلك الجانبِ الغربيِّ؟ إنّها أصواتُ الموتَى من جنودِك وأبطالِك، يضجُّون في قبورِهِمْ صائحين: وا وَيْلَتَاه! ها هي السماءُ تُوشِك أنْ تنقضَّ على الأرضِ! وها هي أقدامُ العدوِّ تدنُو من تخومِ البلقان، وبِطاحِهِ، توشكُ أن تطأَ بنِعالِها قبورَنا وتُزْعِجَنا من مراقِدِنا، وها هو قائدُنا المحبوبُ برانكومير العظيمُ الذي سفَكْنَا دماءَنا، وبَذَلْنَا أرواحَنا في سبيلِ ظَفَرِه، وانتصاره، يُساوِمُ عدُوَّنا في وَطَنِنا، ويحاولُ أن يبيعَهُ نساءَنا، وأولادَنا الذين تركناهم أمانةً في يدِهِ؛ ففي سبيلِ اللهِ ما سفكْنا، وفي ذمّةِ القدَرِ ما بذَلْنَا!

ألا تسمعُ هذه الهَمْهَمَةَ الهابِطَةَ علينا من آفاقِ السماءِ؟ إنّها أصواتُ الملائكةِ الأبرارِ،

---

(١) الضروع: جمع ضرع وهوَ من الحيوان بمنزلة الثدي من المرأة، وهنا الماشية الحلوب.

(٢) يعني الصلب على أعواد من خشب، أو الدفن في التراب!

(٣) النشيج: غصة الحلق بالبكاء.

يَصِيحُونَ، ويصخبُونَ، وهم وقوفٌ بين يدي ربّهم يقولون له: حتّى متى يَسَعُ حلمُكَ وأناتُك هذا الخائنَ الغادِرَ الذي يبيعُ أمَّةً من أممِ المسيحِ إلى أعدائها، وأعداءِ دينِها، ويسلّمُ إليهم أرواحَها، وأعراضَها، فاقضِ اللّهمّ فيه قضاءَكَ العادلَ، واضرِبْهُ الضربةَ التي تَجْعَلُهُ عِبْرَةً للخائِنِينَ، ومَثَلًا في الغادِرِينَ.

إليّ أيّتُها الذكرياتُ القديمةُ والانتصاراتُ العظيمةُ، والأيامُ الغرُّ المحجّلةُ[1]، المكتوبةُ بمدادِ الذهبِ في صَفَحاتِ التاريخِ؛ مدّي إليّ يدَ مساعَدَتِك، وأَعِينيني على ذلك الرجلِ البائسِ المَسكينِ، وتمثّلي أمامَ عينَيْهِ، لتذكّريهِ بِنفسِهِ وتاريخِك، علّه يَحْمَرُّ خَجلًا عند رؤيتِكِ، ويقشعرُّ بدَنُهُ رهْبَةً من خيالِ الجريمةِ التي يُريدُ ارتكابَها.

إليّ أيّتُها الفضائلُ الإنسانيّةُ والكلماتُ العاليةُ، من شرفٍ، وعزةٍ، وترفّعٍ، وإباءٍ، وأمانةٍ وإخلاصٍ؛ تعالينَّ إليّ جميعًا، واجثينَّ معي بين يدَيهِ، واضرعنّ إليه أنْ يُنْصِفَكنَّ، ويعدلَ في أمرِكُنّ، ولا يَقْضِي للرذيلةِ عليكنّ، وقلْنَ له: إنّك إنْ خَذَلْتَنا، ونفَضْتَ يَدَكَ منّا، فلنْ نجدَ لنا مِنْ بَعْدِكَ ناصرًا، ولا معينًا.

يا أطفالَ البلقانِ، وصغارَها الناشئين من فتيةٍ وفتَياتٍ أقْبِلُوا إليه جَمِيعًا، واجتمِعُوا من حولِه، وتعلّقُوا بأهدابِ ثوبِهِ، واسْكبُوا ما تستطِيعُون أن تسكُبُوا من دمُوعِكُم، وشؤونِكم[2] تحت قدمَيْهِ، وقُولُوا له: رحمةً بنا أيُّها الأبُ الرحيمُ، والسيّدُ الكريمُ، وحنانًا علينا، لا تكِلْنا إلى أعدائِنا، وأعداءِ وطنِنا، ولا تجعلْ مستقبَلَنا، ومستقبَلَ بلادِنا في أيدِيهم، يسومُوننا الخَسْفَ[3]، ويُذيقُوننا ألوانَ العَذابِ، فإنْ أبَيْتَ إلّا أن تَفْعَلَ، فجرِّدْ سيفَكَ من غِمْدِهِ، واقطعْ به أعناقَنا، فذلك خيرٌ لنا من هذا العيشِ المؤلمِ المريرِ.

وكان يتكلّم، ودموعُهُ تنهمِرُ على خدَّيْهِ دائبةً ما تهدأُ، ولا تَرْقأُ[4]، وأبوه يضطربُ بين يدَيْهِ اضطرابَ الدوحةِ[5] المائلةِ في مهابِّ الرياحِ الأربعِ، ويزفرُ زفراتٍ محرقةً ملتهبةً، وقد قامتْ في نَفْسِهِ تلك المعركةُ الهائلةُ التي تقومُ في كلِّ نفسٍ شريفةٍ بين الواجبِ، والشهوةِ.

يَتَمَثَّلُ له الأولُ في وَجْهِ قسطنطينَ العبوسِ المكتئبِ، فيرتعدُ ويضطربُ، وتتراءى له الثانيةُ في وجهِ بازيليد الضاحكِ المشرقِ، فيَخُورُ ويَتَضَعْضَعُ، لا يستطيعُ أن يُعْرِضَ عن نداءِ وطَنِهِ، لأنّه نداءٌ يصلُ إلى أعماقِ قلبِهِ، ويبلغُ صميمَهُ، ولا أنْ يفلتَ من سلطانِ شهوتِهِ، لأنّه سلطانٌ قاهرٌ جبارٌ، لا يفلتُ منه قويٌّ، ولا ضعيفٌ.

فوضَع إحدى يدَيْه على عينَيْه، ومدّ الأخرى أمامَهُ كأنّما يطاردُ أشباحًا مخيفةً هائلةً تتقدَّمُ نحوَهُ، وظلّ يصيحُ بأعلى صوتِهِ: اصمُتْ، يا قسطنطين. اصمُتْ، يا ولَدِي. لا أستطيعُ أنْ

---

(١) يوم أغر: يوم أبيض، من أيام المفاخر، ومن أيام النصر والسعادة.
(٢) الشؤون: مجاري الدمع في العين.
(٣) سامه الخسف: أذلّه.
(٤) ترقأ: تجفّ.
(٥) الدوحة: الشجرة العظيمة.

أحتَمِلَ أكثرَ ممّا احتَمَلْتُ. آهِ منَ القدرِ وأحكامِهِ، والدهر وتصرّفاتِهِ، ووَيْلي من الشقاءِ المكتوبِ، والبلاءِ الحتم. من لي بيدٍ قويّةٍ تُنقِذُني من هذا الشقاءِ المحيطِ بي؟ فقد أصبحتُ وما على وجهِ الأرضِ أحدٌ أَجْدَرُ بالرحمةِ والشفقةِ منّي، الْعَنُوني جميعًا، يا أولادي، وأبناءَ وطنِي، وانتقمُوا منّي بأفظعِ أنواعِ الانتقام، فإنّني خائِنٌ لئيمٌ، لا أستَحِقُّ رحمتَكُمْ، ولا مغفِرَتَكُمْ.

ثم صمَتَ صَمْتًا عمِيقًا، لا يَنْبِسُ فيه، ولا يتحرّك، وظلّ على ذلك هنيهةً، ثم نظرَ أمامَهُ نظرةَ الدهشةِ، والذهولِ، فخُيِّلَ إليه أنّه يرى شَبحًا يتقدَّمُ نحوَه، فمدَّ يدَهُ إليه، وأخذَ يُناجيه ويقول: بازيليد! ألا تستطيعِينَ أن تحلّيني من ذلك القسمِ الذي أقسمْتُهُ لك، فقد ضعُفَ كاهِلي عن احتمالِه، واحتمالِ أثقالِه، ولا أريدُ مُلْكًا ولا تاجًا ولا صَوْلجانًا، بل لا أريدُ أن أبْقَى على ظهرِ الأرضِ يومًا واحدًا. الموت! من لي به في هذه الساعةِ، فأنجو من همومي، وآلامي.

فتهلَّلَ وَجْهُ قسطنطين غبطةً وسرورًا، ووقَعَ في نفسِهِ أنّ الرّجُلَ، قد تلوَّمَ واستَخْذَى، وبَدَأَ يَسْتَفْظِعُ ذَنْبَهُ، ويَسْتَهْوِلُهُ: فَترامَى على عُنُقِهِ، واحْتَضَنَهُ إليه، وظلَّ يقولُ بنغمةِ الفارحِ المغتبِطِ: أحْمَدُك اللّهمّ، قد أنقذتَ لي أبي! فحنَا أبوه عليه، وظلّا متعانِقَيْنِ ساعةً، لا يُسْمَعُ فيها إلا تردُّدُ أنفاسِهِما، ونشيجُ بكائهما، ثم افترقَا بغتةً، واشرَأبّا بأعْنَاقِهِما[1] حينما سمِعا في لحظةٍ واحدةٍ حسيسَ[2] جيشِ العدوّ، وهو مقبِلٌ من ناحيةِ الشمالِ، وكان ما سَمِعاه في هذه المرّةِ حقيقةً لا وهمًا.

فارتجلا في وقتٍ واحدٍ حركتَيْنِ مختلفَتَيْنِ، إذ وثبَ قسطنطين إلى الرابيةِ وثبةً عُظْمَى، ليُضرِمَ نارَها، ووثَبَ أبوه وثْبَةً أعظمَ منها، فاعترَضَ سبيلَهُ، وصرَخَ في وجْهِه: قِفْ مكانَك، لا تتقدَّمْ خطوةً واحدةً! فأصابَ قسطنطين مثلُ الجنونِ، وقال له: تنحَّ عن طريقي، أيّها المجرمُ الأثيمُ، فقد فرغَ صبري.

قال: إنّك لا تستطيعُ أنْ تمرَّ إلّا على جثّتي. فارتعدَ قسطنطين، وبرقَتْ عيناه، وذهَبَتْ به الأفكارُ مذاهِبَها وقال له: أيّ كلمةٍ هائلةٍ نَطَقْتَ بها، أيُّها الرجُلُ الشقيُّ؟ أيّ قضاءٍ قضيتَ به على نفسِك! تنحَّ عن طريقي، فإنّ نَفْسي تحدّثني بأفظع ما تحدّثُ به نفسٌ صاحِبَها في هذا العالم، قال: إنّك لا تستطيعُ أن تَقْتُلَ أباك..

قال: أستطيعُ أن أفْعَلَ كلَّ شيء في سبيلِ وطني، إنّني وَقَفْتُ سَيْفي طولَ حياتي على خدمَتِك، وحمايَتِك، والذودِ عنك أيامَ كنتَ لوطنِك وقومِك، أمّا الآن فإنّي أغْمُدُ ذلك السيفَ نفسَهُ في صدرِك طيبَ النفسِ مثلوجَ الفؤادِ، لأنّي أعتقدُ أنّي لا أغمُدُهُ في صدرِ أبي، بل في صدرِ خائنِ وطني.

قال: لا تَنْسَ أنّ لي يدًا أقوى من يدِك، وسيفًا أمْضَى من سيفِك.

قال: إنّي لا أجهلُ ذلك، ولكنّك تُقاتِلُ في سبيلِ الدناءَةِ، والخيانَةِ. وأقاتلُ في سبيلِ الواجبِ، والشرفِ. واللهُ مطّلِعٌ علينا من علياءِ سمائِه، وهو الحكمُ العدلُ بيننا. فجرّدَ برانكومير

---

(١) اشرأب: رفع رأسه لينظر. (٢) الحسيس: صوت خفي.

سيفَهُ، وهجَمَ على ولدِهِ هجمةً قويّةً، فجرّدَ الآخرُ سيفَهُ، وتلقّى ضرباتِه بأشدَّ وأنكى منها، وما هي إلّا جولةٌ أوْ جولتان، حتّى حكمَ القاضي العادلُ حكمَه، فسقَطَ الظالمُ، ونجا المظلومُ!.

فنظرَ قسطنطين إلى جُثّةِ أبيهِ الساقطةِ تحت قدمَيْهِ نظرةً جامدةً صامتةً لا يعلَمُ ما وراءَها، ثم أغمدَ سيفَه، وصاحَ بأعلَى صوتِه: رَحْمَتَكَ اللهمّ، فإنّي لا أستطيعُ أن أفعلَ غيرَ ما فعلتُ، ثم هجَمَ على الرابية فأشعلَ نارَها، فضاءَتْ بها أرضُ البلقان وسماؤها.

وفي اليوم الثاني نشر الملك أتين على الأمّةِ هذا البلاغ:

حاولَ العدوُّ ليلةَ أمسِ تَبْييتَ[١] جُيُوشِنا، وأخَذَها على غِرّةٍ[٢]، وكادَ يظفرُ بذلك لولا أنِ انْتَبَهَتِ الفرقةُ الأولى من الجيشِ، ونَهَضتْ للدفاع بقيادة ضابِطِها العظيم قسطنطين برانكومير، فأبْلَتْ في المعركةِ بلاءً عظيمًا، ووقَّفَتِ العَدُوَّ في مكانِهِ ساعةً كاملةً، حتى نهضَتْ بقيَّةُ الفرقِ لمساعَدَتِها، فدارَتْ معركَةٌ هائلةٌ بين الجيشَيْنِ انتهتْ بانتصارِنا وانهزامِ العدوِّ إلى مواقعه الأولى، ولكنّ المصابَ العظيمَ الذي عمّ الجيشَ، وشملَ الأمةَ بأسْرِها هو موتُ قائدِنا العظيم «ميشيل برانكومير» فقد وُجِدَ في أثناءِ المعركةِ قتيلًا بضرَبةِ سيفٍ في خَاصِرَتِهِ بين صخورِ تراجان تحت القوسِ الروماني، وسيُحْتَفَلُ بتشييع جنازَتِهِ غدًا احتفالًا عسكريًّا جليلًا، يليقُ بمقامِ شهيدِ الوطنِ وبطلِهِ العظيمِ!

أمّا الذي خلفَهُ في قيادةِ الجيشِ، فهو ولدُه الضابطُ الشجاعُ منقذُ الأمّةِ «قسطنطين برانكومير».



الضمير

مضَى الليلُ إلّا قليلًا وقسطنطينُ ساهرٌ في فراشِه، لا يغمضُ له جَفْنٌ، ولا يطمئنُّ له جَنْبٌ، لأنّ مصرعَ أبيه في شِعْبِ تراجان، لا يَزالُ ماثلًا أمامَ عينَيْهِ ما يفارقُهُ لحظةً واحدةً، وكان كأنَّهُ يَرَى الجثّةَ بين يدَيْهِ، تَتَلوَّى، وتَتَمَرْمَرُ، وَتَنْظُرُ إليه نظراتٍ حادةً ملتهِمَةً، وكأنّ جُرحَها الدامي بين أضلاعها، لا يزالُ يتدفَّقُ منه الدمُ، فثارَ من مكانِه هائِجًا مذعُورًا، وحاولَ أنْ يطردَ هذا الخيالَ عن نظرِهِ، فلم يستطِعْ، فمدَّ يدَهُ إلى ذلك الجرح الموهوم الماثلِ أمامَهُ يُريدُ أنْ يعترِضَ سبيلَ الدم المتدفِّقِ منه، فغلبَهُ على أمرِه وازداد في تدفُّقِهِ وانبثاقِهِ حتّى ملأَ أرضَ الغرفةِ جميعَها، وصبغَ بلونِهِ الأحمرَ القاني جميعَ ما فيها من فرشٍ وأثاثٍ وآنيةٍ وثيابٍ، فاشتدَّ فزعُهُ وارتياعُهُ، ولم يَسْتَطِعْ أن يحتَمِلَ أكثرَ ممّا احْتَمَلَ، فوقَعَ مغشيًّا عليه.

وظلّ على ذلك ساعةً، حتّى انفثأَتْ حرارةُ دَمِهِ[٣] فاسْتَفاقَ من غَشْيَتِهِ، وجلَسَ إلى نفسِه يناجيها ويقول:

---

(١) التبييت: المفاجأة ليلًا. (٢) الغرّة: الغفلة.

(٣) انفثأت: هدأت.

إنّني على ثقةٍ من نفسي، لم أفعلْ إلّا ما يجبُ على كلِّ رَجُلٍ شريفٍ أنْ يفعَلَهُ، فما هذا الخوفُ الذي يساوِرُني! وما هذه الصورُ المخيفَةُ التي تتراءَى لي في يَقْظَتي وأحلامي؟ كان يجبُ عليَّ أن أضربَ - لأنّه ما من ذلك بدٌّ - ففعَلْتُ، فلِمَ أرتابُ في عمَلي؟ ولِمَ أرتَعِدُ ارتعادَ المجرمين الآثمين؟ إنّ الرّجُلَ لا يخافُ إلّا ذنبَهُ، وأنا لم أُذنِبْ إلى أحدٍ، لأنّ الرَّجُلَ الذي قتلتُهُ كان يُريدُ أن يقتُلَ أمّةً بأسْرِها، فأنقَذْتُها بقَتْلِه، بل أنْقَذْتُ عِشْرينَ أمّةً من أمم المسيحِ في أوروبا.

ألا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَقْتُلَ الأفعى دَفعًا لأذاها، والوحشَ كَسْرًا لشِرّته[1]، واللصَّ اتّقاءً لضررِهِ؟! إنّني لم أفعلْ غيرَ ذلك، فما لي أرى وجهَ السماءِ أحمرَ قانئًا، ليلَه ونهارَه، وما لي أجدُ مذاقَ الدم في كلّ كأسٍ أشرَبُها من ماءٍ أو خمرٍ، وما لي لا أستطيعُ النظرَ إلى يدي خَوْفًا ورُعْبًا.

إنّني لَم أقْتُلْ أبي، ولكنّني أحييتُهُ لأنّه إنْ كان يحيا اليوم في قلوبِ الناسِ حياةَ العظمةِ والمجدِ، وكان تِمْثالُهُ إلهًا معبودًا، يُطيفُ به الشعبُ[2]، ويُقَبّلُ أركانَه، ويتبرّكُ بلمْسِهِ واسْتِلامِه، وكان اسمُه طغراءَ الأسماءِ[3] الشريفةِ المسجّلةِ في التاريخ - فإنّما ذلك بفضلِ الضربةِ التي ضربتُهُ إيّاها، ولولا ذلك، لعاشَ بقيّةَ أيامِ حياتِهِ عيشَ الأدنياءِ الساقطين، أو ماتَ موتَ الخوَنَةِ المجرمين.

وهنا انْتَفَضَ، واصْفَرَّ وارفضّ جبينُه عرقًا[4]، وقالَ بصوتٍ ضعيفٍ مُخْتَنِقٍ: نعم، إنّ ذلك كلَّهُ صحيحٌ لا رَيْبَ فيه، ولكنّني قَتَلْتُ أبي!

ثم لم يلبَثْ أنْ عادَتْ إليه مخاوِفُهُ، ووساوِسُهُ، فرَأى الجثّةَ والمصرَعَ، والطعنةَ النّجلاء، والدمَ المتدفّقَ، وسمعَ تلك الأصواتَ التي تهتِفُ به في كلِّ مكانٍ: «يا قاتلَ أبيه! يا أكبرَ المجرمين! يا عارَ البشريَّةِ، وشنَارَها![5]» فجُنَّ جنونُهُ، وثارَ ثائرُهُ، وعادَتْ له سيرَتُهُ الأولى.

ولم يزلْ هكذا ليلَهُ كلَّه: يهدأُ حينًا، ويثورُ أحيانًا، حتّى نَشَرَ الفجرُ رايتَه البيضاءَ في آفاقِ السماءِ، فاستَرْوَحَ رائِحَةَ الأنسِ، وشعَرَ ببَرْدِ الراحةِ، فأوَى إلى مَضْجَعِهِ.

كذلك كانَ شأنُ قسطنطين دائمًا، وكذلك كانت أكثرُ لياليهِ مُذْ حدَثَ ذلك الحادثُ العظيمُ.

❀ ❀ ❀



الأزهار

دَخَلَتْ ميلتزا غرفةَ قسطنطين صَباحَ ليلةٍ من تلك اللّيالي الطويلةِ الليلاءِ وبيدِها باقةٌ مِنَ الزهرِ تُريدُ أن تُقدّمَها إليه، فرأتْهُ مضطجعًا على كرسيِّهِ مُسْتَغرِقًا في نومِهِ، وآثارُ الدمعِ ظاهرةٌ بين أهدابِ عينَيْهِ، وفي صفحَتَيْ خدَّيْهِ، فرثَتْ لحالِهِ، وجلسَتْ تحت قدمَيْهِ، ترقُبُ يَقْظَتَهُ رُقْبى

---

(١) شرّته: حدته ونشاطه، شرّه. (٢) أطاف: أحاط.

(٣) الطغراء: العلامة التي تكتب فوق البسملة، أو فوق المسكوكات السلطانيّة.

(٤) ارفضّ: سال أو رشح. (٥) الشنار: أقبح العيب.

المجوسيّ طلعةَ الشمسِ من مشرقِها. فحملَ النسيمُ إلى رأسِه نفحاتِ تلك الأزهارِ، فانْتَعشَ، وتحرَّكَ في مكانِهِ، وفتَحَ عينَيْه، فرآها تبتَسمُ وتُهلِّلُ، فقال: ميلتزا!

قالتْ: نعم، يا سيّدي، نعمْتَ صَباحًا، ونعمَتْ جميعُ أيامِك بكورِها، وأصائِلِها[١]. ثم مدَّتْ يدَها إليه بالباقةِ، وقالتْ له: فقدِ اقتَطَفْتُ لك صباحَ اليومِ هذه الأزهارَ الجميلةَ الي تُحبُّها أكثرَ من سواها، لتَسْتَرْوِحَها، فتروّحَ عن نفسِكَ، بِريّاها[٢]، همومَها وأحزانَها، فتناوَلَ الباقةَ منها، واسْتَنْشَقَها، وتنفَّسَ تَنَفُّسَةً طويلةً، ثم نظرَ إليها نظرةً حلوةً عذبةً، وقال لها:

أتَعْلَمِين، يا ميلتزا أنّني اسْتَنْشِقُ في هذه الأزهارِ التي تُهْدينَها إليّ أنفاسَكِ الأريجةَ العطِرَةَ، وأنّ الذي يُنعِشُني، ويُحْيِيني، ويرفّهُ عنّي همومي وآلامي في هذه الباقةِ إنّما هو أريجُك، لا أريجُ الأزهارِ؟

فارْتَعَدَتْ ميلتزا لأوّلِ كلمةِ حبّ سمِعَتْهَا من فمِهِ، وظلَّ قَلْبُها يَخْفِقُ خَفقانًا شَدِيدًا، وملكَ الدهشُ عليها عقلَها ولسانَها، فلم تستطِعْ أن تنطِقَ بحرفٍ واحدٍ، وظلّتْ شاخِصَةً إليه ببصَرِها.

فاسْتَمَرَّ في حديثِهِ يقول: لقد كنتُ أطلبُ الموتَ قَبْلَ دُخولكِ، وأتمنّاهُ تمنّيًا شديدًا حتى رأيْتُك، ورأيْتُ هذا الجمالَ المتلألىءَ في عينَيْك، وشمَمْتُ أنفاسَكِ العطِرَةَ المُنْبَعِثَةَ مِنْ أوْرَاقِ أزهارِك؛ فأحْبَبْتُ الحياةَ من أجْلِك، وأصْبَحْتُ أتمنّى أنْ أعيشَ لأرَاكِ، وأقْضِي بقيَّةَ حيَاتي بجانِبِك، فشُكرًا لكِ، يا صَدِيقتي، فأنتِ النَّجْمَةُ الوحِيدةُ الباقِيَةُ في سماءِ حيَاتي بعد ما غَربَتْ جميعُ نجومِها وكواكِبِها، والشعاعُ المضيءُ الذي ينبعِثُ إلى أعماقِ سِجْني المظلم، الحالكِ، فيبدّدُ ظلمَتَهُ، ويُنيرُ جوانِبَها، ويملأُ قلبي أمَلًا ورجاءً، والواحةُ المخصبةُ الخضراءُ التي ألجأُ إليها، كلّما قطعتُ مرحلةً في صحراءِ هذه الحياةِ المحروقةِ، فأنامُ تحت نخيلِها، وأتبرَّدُ ببَرْدِ مياهِها.

قالت: ليتَني أستطيعُ أن أكونَ عند ظنِّكَ، يا سيّدي، بل لَيْتَني أستطيعُ أنْ أُقَاسِمَك هذه الهمُومَ، والأحزانَ التي تُعالِجُها، أو أحْتَمِلَها عنك جمِيعَها، حتّى لا أرَاك، بين يدي، إلّا باسمًا مُتَطلِّقًا في جميع آناتِك، وساعاتِك. إنّني أمَتُكَ الوضيعةُ المسكينةُ، يا سيّدي، وليسَ لفتاةٍ مِثْلي أنْ تَسْأَلَكَ عن سبب همُومِك، وأحزانِك، ولكنّني أستطيعُ أن أضْرَعَ إليك أنْ تسرّيَها عن نفسِك، وتهوّنها عليك، فأنت رجلٌ فاضلٌ شريفٌ. وقد قُلْتَ لي قَبْلَ اليومِ: إنّ الرَّجُلَ الفاضلَ الشريفَ، يعيشُ من شرفِهِ، وفضيلتِهِ في سعادةٍ لا يهنأ بمثلِها الملوكُ في قصورِهِمْ.

قال: ومن أين لك أنّني رجلٌ فاضلٌ، شريفٌ؟

قالت: لو لم تكُنْ كذلك لمَا أحْبَبْتُك؟ فابْتَسَمَ قليلًا، وقال: إذن أنت تُحبِّينَني، يا ميلتزا؟!

قالت: نعم، يا سيّدي، أكثرَ من كلِّ شيءٍ في العالم، ولولا كرامةُ أمِّكَ عليك، وجلالُ ذِكْرَاها في قلبِك، لقُلْتُ لك إنّها ما كانت تُحِبُّكَ في حياتها أكثرَ ممّا أحِبُّك اليومَ!

---

(١) البكور: جمع بكرة، وهي أول النهار. والأصائل: جمع أصيل، وهو آخر النهار.

(٢) الريا: العطر.

فأطرَقَ قسطنطين لتلك الذكرى المؤلِمَةِ، ومرَّتْ بجبينِهِ سحابةٌ سوداءُ قاتمةٌ، فرفَعَ رأسَهُ وقال لها: حَسْبُكِ، يا ميلتزا، لا تُذَكِّرِيني بأمّي، فما أحْسَبُها الآنَ إلّا ناقِمَةً عليّ في قبرِها، تَلْعَنُني، وتَسْتَعْدِي رَبَّها عليّ[١]، وتَسْأَلُ اللهَ صَبَاحَها، ومساءَها أن يُعاقِبَني، وينْتَصِفَ لها منّي، واخجلتاهْ من نَفْسِي يومَ ألقاها في تلك الدارِ، ويجمَعُ الموقفُ العظيمُ بيني وبينَها!

فارتاعَتْ ميلتزا عند سماعِ هذه الكلمةِ، وذهبَتْ بها الظّنُونُ كُلَّ مَذْهَبٍ، وظلّتْ تَنْظُرُ إليه نَظَرًا غَرِيبًا حائِرًا، وقد بدأَتْ تفهَمُ ذلك السرَّ الهائلَ الذي أعْياها أمْرُهُ زمنًا طويلًا، وتُدْرِكُ السببَ في حزنِ قسطنطين هذا الحزنِ الشديدِ الذي يُقيمُهُ ويُقْعِدُهُ، ويُساوِرُ نفسَهُ، ويُقْلِقُها منذ قُتِلَ أبُوه حتّى اليوم؛ وكأنّه قد ألَمّ[٢] بما دارَ في نفسِها، وتردَّدَ في خاطرِها، فظَلَّ ناظرًا إليها بلهَفٍ، وشَوْقٍ يَنْتَظِرُ أوّلَ كلمةٍ تنطِقُ بها بَعْدَ هذا الصَّمْتِ الطويلِ انتظارَ المتَّهَمِ أوّلَ كلمةٍ ينطِقُ بها قاضِيه بَعْدَ سَمَاعِ دفاعِهِ، حتّى رآها تَبْتَسِمُ، وتتهلَّلُ، وتقولُ له: هوّنْ عليك الأمرَ، يا سيّدي، ولا تَرتبْ في نفسِك، ولا في ضميرِك، فما أنت بمُجْرِمٍ ولا قاتلٍ، ولكنّك رجلٌ شريفٌ، ولولا أنّك كذلك، لما أحْبَبْتُك.

فمَدَّ يَدَهُ إليها، فَتَنَاوَلَ يَدَها، وقال لها: أتَعِدِينَني، يا ميلتزا، أنْ تَكْتُمِي في صدرِكِ كُلَّ شيءٍ؟

قالت: نعم أعِدُك وَعْدًا لا أخِيسُ به.

قال: وشيءٌ آخرُ، يا ميلتزا.

قالت: وما هو يا سيّدي؟

فأدْناها مِنْهُ، وضمَّها ضَمَّةً خفيفةً إلى نفسِهِ، وقال لها: أتُقْسِمِينَ لي على الحُبِّ حتّى الموتِ؟

قالت: نعم، يا سيّدي، أقْسِمُ لك.

قال: بِمَ تُقْسِمِينَ؟

قالتْ: بكلِّ ما تسكُنُ به نَفْسُك.

قال: «ضعِي يدَك على الخنجرِ، وأقْسِمي به.

قالت: أفعلُ على شرطٍ واحدٍ.

قال: وما هو؟

قالت: أنْ تُهْدِيَني إيّاه بعد ذلك.

قال: وماذا تصنَعِينَ به؟

قالت: أقْتُلُ به نَفْسِي يومَ يَحلُّ بك مكْرُوهٌ!

فناوَلها إيّاه، وهو يقولُ في نفسِه ربّما حلَّ بي عمّا قريبٍ ذلك المكروهُ الذي تتوقَّعِين! فوضَعَتْ يَدَها على الخنجرِ، وأقْسَمَتْ به أنْ تُحافِظَ على حبِّهِ، والإخلاصِ له حتّى الموتِ؛

---

(١) أي: تستنصِرُه، تطلب منه العون والمساعدة عليه.

(٢) ألَمّ: عرف.

فَتَهلَّلَ قسطنطين فَرَحًا، وسرورًا، ونزَعَهُ عن خاصِرَتِهِ، وعَلَّقَهُ في منطقَتِها، ثم ضَمَّها إلى صَدْرِهِ ضَمَّةً شديدةً، وقبّلها في ثغرِها قُبْلَةً كانَتْ عزاءَها الوحيدَ عن كلّ ما مرّ بها في حَيَاتِها.

❀ ❀ ❀

حديث

جُرِحَ الجنديُّ «أورش» في إحْدَى المعارِكِ، فَلزِمَ بَيتَهُ، وتولَّتْ ابنتُهُ «أنا» معالَجتَهُ، وكان يزُورُهُ بعضُ أصدقائِه من الجنودِ في الفَيْنَةِ بعد الفَيْنَةِ[1]، فزارَه أحدَ الأيّام الجنديُّ «لازار»، وكان لا يزالُ حارِسًا لقصر القائِدِ «برانكومير» والخادمَ الأمينَ لأرْمَلَتِهِ بازيليد، وثقتَها المُؤْتَمَنَ على جميعِ أسْرَارِها ودَخَائِلِها.

فقالَ له «أورش» حين رآه: هل من جديدِ اليومَ، يا لازار؟

قال: نعم قد فَشَلَ جيشُنا في الواقعةِ الأخيرةِ، كما فَشَل في الواقعةِ الماضيةِ والوقائعِ التي تقدَّمَتْها، ولا أعلمُ متى تَنْتَهي هذه الانكساراتُ، فقد تمّتْ عدّتُها حتى الأمسِ عشرًا، ولا أعلمُ ما يأتي به الغدُ؛ أمّا القَتْلَى والجَرْحَى، فهم كثيرون لا يُحْصَى لهم عَدَدٌ، وما بيتُك بالبَيْتِ الوحيدِ الذي تَتَرَقْرَقُ فيه الدماءُ والدموعُ، ففي كلّ بيتٍ من بيوتِ المدينةِ شاكُون، ومتألّمون.

فقال أورش: لا رَيْبَ أنّ قسطنطين غَيْرُ أبيهِ، ولَقَدْ فَقَدْنا بفَقْد ذلك الرجلِ العظيم قائِدًا كان خيرَ القوّادِ وأبرَعَهُمْ، وأوسَعَهُمْ عِلْمًا وتجرِبَةً، وأعلَمَهُمْ بمواردِ الأمورِ ومَصَادِرِهَا، لم يفلتِ النصرُ من يدِه في جميعِ معاركِهِ أكثرَ من مرّةٍ أوِ اثْنَتَيْنِ، حتى ماتَ في الواقعةِ الأخيرةِ، وسيفُهُ مُصلَتٌ[2] في يدِهِ، ميتَةَ البَطَلِ الشريفِ، فماتَ بموتِهِ الظفرُ والانتصارُ، وأدارَ الزمانُ وجهَهُ عنّا، ولا يعلمُ إلّا اللهُ متى يُقْبِلُ بعد إدبارِهِ.

فقالت له ابنتُه «أنا»، وكانتْ جالسةً تحت قدمَيْهِ تُضَمّدُ له جراحَه: لقد قلت لي يا أبتِ قبلَ اليوم: إنّ قسطنطين قائدٌ عظيمٌ، لا يُشَقّ له غبارٌ[3]، فما الرأيُ الذي تَرَاهُ فيه الآن؟

قال: نعم، كان قائدًا عظيمًا في حياةِ أبيهِ، وتحت لِوَائِهِ، أمَّا اليومَ، وقد استقلَّ بالرأي وحدَهُ، وانْقَطَعَ عن ذلك الوَحْيِ الذي كان يُرشِدُهُ ويُهْدِيه، فقد انْتَقَضَ عليه أمْرُه، وأصْبَحَ حائرًا مُضْطَرِبًا لا يَدري ماذا يَفْعلُ، ولا كيف يصرفُ وقائِعَه، ومواقِفَه.

فقالت: إنّ جيشَنا لم يَنْكسِرْ قطُّ في واقعةٍ من تلك الوقائعِ التي تذكُرُونَها كما تَتَوَهَّمُون، لأنّه لم يَتَخلَّ عن مَرْكَزِهِ، ولم يسلِّمْ شِعْبًا واحدًا من تلك الشِّعابِ التي يَحْرُسُها؛ أمّا القَتْلَى والجَرْحَى وكَثْرَتُهُمْ، فَهُمْ في جيوشِ أعدائِنا أكثرُ منهُمْ في جيوشِنا أضْعافًا مضاعَفَةً وحَسْبُنا ذلك فَوْزًا وانتِصَارًا.

---

(١) أي الحين بعد الحين.

(٢) أصلت السيف: أبرزه، أو أخرجه من غمده.

(٣) لا يشقّ له غبار: أي لا يُدرك في المعارك.

فقال لازار: لقد كانت خطةُ القائدِ ميشيل خطةَ دفاعٍ مَحْضٍ لا يحولُ عنها ولا يَتَزَحْزَحُ، والجبالُ بين يدَيْه تحميه وتَحْفَظُ مواقِفَهُ. أما قسطنطين، فقد أخذَ نفسَهُ بالهجوم على العدوِّ في حُصُونِهِ ومواقِعِه، وتَرَكَ الجبالَ التي تَحْميه من ورائه، فكثُرَ القَتْلَى والجَرْحَى في جيشِنا، وهي خطةٌ مخاطرةٌ ومغامرةٌ، لا يركبُها إلّا القائدُ اليائسُ، أو المجنونُ، ولا أعْلَمُ أيّ الرجلَيْنِ هو؟

قال أورش: أحسبُه يائسًا قانطًا، فإنّي أشعُرُ كما يشعُرُ كثيرٌ من الناسِ أنّ سَحنَتَهُ قد تغيَّرَتْ منذ مَوْتِ أبيهِ تَغيُّرًا عَظِيمًا، وأصْبَحَ حزينًا منقبِضًا لا تُفارِقُ الكآبةُ عينَيْهِ، وجَبِينَهُ، وَلَمْ أرَ في حَيَاتي ثاكِلًا حَزِنَ على فقيدِهِ حُزْنَ هذا المسكينِ على أبيه.

قال لازار: ولقد حدّثني بعضُ خدمِ القصرِ، وحرّاسِهِ أنّهُ يَسْتَيْقِظُ من نومِهِ في بعضِ لياليهِ صارِخًا متفزّعًا، يستغيثُ، ويَسْتَنْجِدُ كأنّما هو يَنْدَمُ على جريمةٍ ارْتَكَبَها، أو يخافُ شَبَحًا هائِلًا مُقْبِلًا عليه.

فقالت «أنا»: إنَّكُمْ تَظْلِمُون قائدَنا ظُلمًا عَظِيمًا؛ فقسطنطين أفضلُ القوّادِ وأشرَفُهُمْ، وما هو بجانٍ ولا مجنونٌ.

فَنَظَرَ إليها لازار شَزْرًا[1]، وقال: بل هو جانٍ، أو على وَشكِ ارْتكابِ جريمةٍ هائلةٍ، فقد رابني منه مذ وليَ قيادَةَ الجيشِ عفْوُهُ عنِ الأسْرَى الذين يقدَّمُون إليه، وإنزالُه إيّاهم منزلةَ الإكرامِ والإعزازِ، واهتمامُهُ بشأنِهِمْ كأنَّهُمْ ضيوفٌ وافِدُون، لا أعداءُ محاربون؛ كما رابَني منه أكثرَ من ذلك اعتِزَالُه الناسَ، وانقطاعُهُ عَنْهُمْ جميعًا، حتّى عن زَوْجِ أبيهِ التي تُحِبُّهُ حُبَّ الأمِّ لولدِها وفِلْذَةِ كبِدِها؛ فإنّه مُنْذُ هَجَرَ قَصْرَها، وعاشَ في بيتِهِ الجديدِ الذي يسكُنُه اليومَ لم يَزُرْهَا مرَّةً واحدةً، ولا دَعَاها إلى زيارتهِ حتّى الساعةِ.

فقالت «أنا»: أكُلُّ أفعالِ قسطنطين قد أصْبَحَتْ مُريبَةً عِنْدَكُمْ، لا تُحْمَلُ على مَحْمَلٍ حَسَنٍ، إكرامُهُ للأسْرَى المساكين، وإشفاقُهُ على ذلّهِم وَضَعْفِهِمْ؟

قال: ليس هذا رأيي وحدِي بل رأيُ أكثرِ الجنودِ، فقد أصبَحُوا يعتَقِدُون أنّ قائِدَهُمْ يقودُهُم إلى الموتِ الزؤامِ عَمْدًا لسرٍّ خفيٍّ يُضمِرُهُ في نفسِهِ، وما أحسبُهُمْ قادِرِينَ على احْتِمالِ هذه الحالةِ زمَنًا طويلًا.

فاحْتَدَمَتْ «أنا» غَيْظًا، وقالت: إنّ قسطنطين أشرفُ ممّا تَظُنُّون، وهلْ تَرَوْنَ مُحالًا أو غرِيبًا أنْ يَحْزَنَ المرءُ على أبيهِ بَعْدَ فَقْدِهِ؟

ثم الْتَفَتَتْ إلى أبيها، وقالت له بسذاجَةٍ ورقّةٍ: أُقْسِمُ لك يا أبتِ لو أنّ مَكْرُوهًا أصابَكَ من هذا الجُرحِ الذي في فَخْذِك - لا أذنَ اللهُ بذلك وقدّر - لحزِنْتُ عليك حُزْنًا يَصْغُرُ بجانِبِه حُزْنُ قسطنطين على أبيه!

فابْتَسَمَ أبُوها، وضمَّها إلى صَدْرِهِ، وقال لها: إنّنا لا نذهبُ في أمرِهِ، يا بنيّةُ، حيثُ ظَنَنْتِ، ولا

(١) النظر الشزر: النظر الممتلئ غضبًا.

نتّهِمُهُ بخيانةٍ ولا ممالأةٍ، ولكنّا نخافُ عليه أنْ يكونَ قد نَفَدَ اليأسُ إلى قلبِه فَضَعْضَعَهُ، وأنْ تكونَ نفسُه قد حدَّثَتْهُ بمسَالَمةِ أعدائِه، ومؤاتَاتِهِمْ، فأعدّ لذلك العدَّة التي رآها. واليأسُ هو الخديعةُ الكبرى التي يَدُسّها الشيطانُ دائمًا في نفوسِ الأممِ الضعيفةِ التي يُريدُ قَتْلَها، والقضاءَ عليها.

وهنا دَخَلَ بعضُ الجنودِ لعِيادَةِ أورش، وتَلاهُمْ آخرون من بعدِهِمْ، واشْتَرَكُوا جميعًا في الحديثِ، وأنشأ لازار يَنْفثُ سمومَ سعايَتِهِ، ووِشَايَتِهِ في صدورِهِمْ، حتّى أجْمَعُوا رأيَهُمْ على أنّ قسطنطين يَخُونُ أمّتَهُ ويُمالِئُ أعداءَها عليها، وأنّ الرأيَ الصوابَ نْ يرفَعُوا أمرَهُ إلى الملكِ، ليأمرَ بعزلِهِ عنِ القيادَةِ، ويَعْهَدَ بها إلى غيره، ثم انْصَرَفُوا.

❀ ❀ ❀

الدسيسة

بَيْنَما كانَ قسطنطين جَالِسًا صَبِيحَةَ يَوْم في غُرْفَتِهِ، إذْ دَخَلَ عليه حارِسُ بابِهِ يَسْتَأْذِنُهُ لبازيليد أرْمَلَةِ أبيهِ، فانْقَبَضَ صَدْرُهُ، واشمأزّتْ نَفْسُهُ، لأنّه لَمْ يَكُنْ رآها، ولا أذِنَ لها بمقابَلَتِهِ، مُذْ ماتَ أبُوهُ حتّى اليوم، فأذِنَ لها بَعْدَ لأيٍ[1]. فدخَلَتْ عليه، وحَيَّتْهُ، وجَلَسَ بِجانِبِهِ. وأنشأتْ تُعاتِبُه في انْقِباضِهِ عنها، ووحشتِهِ منها، وسوءِ رأيِهِ فيها، وتُقْسِمُ له بِحُرْمَةِ ذلك الدّفينِ الكريمِ الذي كان يُحِبُّهُ، ويُحِبُّها أنّها لا تُضْمِرُ له في نَفْسِها مَوْجِدَةً ولا حِقْدًا، ولا تَحْمِلُ له بين جنبَيْها غَيْرَ الحبِّ الخالصِ، والوُدِّ المتين.

ثم قالت له: إنّني برغم آلامي، وأحزاني التي أعالِجُها مذ نَزَلَتْ بي تلك النازلةُ العُظْمَى حتّى اليوم، لم أرَ بُدًّا من أن آتي إليك في هذه الساعةِ الشديدةِ عليك راجِيَةً أنْ أعينَك عليها، وأهوّنَ علَيك أمرَها، وربّما وجَدْتُ السبيلَ إلى خلاصِك منها.

فالْتَفَتَ إليها مُنْدَهِشًا وقال: أيّ ساعةٍ تريدين؟ وما هي الشدّةُ التي أنا فيها؟

قالت: كأنّك لا تعلَمُ أنّ الخطرَ الذي يحيطُ بك عظيمٌ جدًّا لا قِبَلَ لك باحْتِمالِهِ، وأنّ جنودَكَ قد أصْبَحُوا يَنْقمُون عليك نقمَةً عُظمَى، ويَبْغُضُونَكَ بُغضًا لا حَدَّ له، ولا تحدّثُهم نفوسُهم بشيءٍ سوى نفسِ الطريق إلى الوصولِ إليك لِيَقْتُلُوك.

فاصْفَرَّ وجهُهُ، وقال: وماذا ينقمُون منّي؟

قالت: ينقمُونَ منك مخاطَرَتَك بهم في تلك المعاركِ الهائلةِ التي تكادُ تُفْنِيهم، وتَقْضِي عليهِمْ، وفَشَلَك في جميعِ الوقائعِ التي قُمْتَ بها مذ وُلِّيتَ قيادَةَ الجيشِ حتّى اليوم، وقد امتدّ بهم الحقدُ عليك إلى الظنِّ بك، فأصْبَحُوا يَعْتَقِدُون أنّك خائنٌ ممالئٌ للعدوّ، وأنّك ما سلَكْتَ هذه الخطّةَ المعوجّةَ في حروبِك، إلّا لتُمَكِّنَ الأعداءَ من اجْتِيازِ الحدودِ واقتحام البلادِ.

---

(١) بعد لأي: بعد بطء وشدّة.

فانْتَفَضَ انْتِفاضَةً شديدةً، وارْبَدّ وَجْهُهُ، ونزَّتْ في رأسِهِ سَوْرَةُ الغَضَبِ[١] وقال: مَنِ الذي يتّهمني بالخيانَةِ؟

قالت: جنودُك ورجالُك.

قال: إنّهم كاذِبون فيما يقولونَ ما في ذلك رَيْبٌ، إنْ كُنْتِ صادِقَةً فيما تقولين.

قالت: ما كَذَبْتُ عليك قَبْلَ اليوم، ولا غَشَشْتُكَ في النصيحةِ، ولقد زَادَهُم حقْدًا عليك، وموجِدَةً أنّ العدوَّ قدِ اجتازَ الجِبَالَ ليلةَ أمسِ، وربّما لا يَمُرُّ يومانِ أو ثلاثةٌ، حتّى يَكُون قد وَصَلَ إلى أبوابِ العاصمةِ، وسيَصِلُ بَرِيدُك الساعةَ، فيَنْقُلُ إليك هذا الخبرَ المحزنَ الأليمَ.

فصرخَ صرخةً عظْمَى دوَّتْ بها أرْجَاءُ الغرفةِ، ووثبَ منْ مكانِهِ وهو يقولُ: آهٍ يا وَطَني العزيز! وابْتَدَرَ البابَ يُرِيدُ الخروجَ منه؛ فأمسكَتْ بيدِهِ، واجْتَذَبَتْهُ إليها، وقالتْ له: مَهْلًا. أين تُرِيدُ؟

قال: أدْعُو جُنُودِي، وأجْمَعُ مَنْ تفرَّقَ منهم في الثُّكْناتِ والقلاعِ، وأذهبُ بهم إلى الحدودِ للدفاعِ عن القلعةِ الكبرى، فالوطنُ في خَطَرٍ عَظِيمٍ.

قالت: لا تَفْعَلْ. فقد خَرَجَ الأمرُ منْ يَدِكَ. واعلمْ أنّ جَمِيعَ جنُودِك المقيمين في ثُكْناتِ المدينةِ وأرباضِها[٢] قد أصْبَحُوا مُتَمَرِّدِين عليك لا يُطِيعُونَكَ، ولا يَأْتَمِرونَ بأمْرِكَ!

فلم يَحْفِلْ بكلامِها، وأسْرَعَ إلى النافِذَةِ، وأشْرَفَ منها على الساحةِ العامّةِ، وظَلَّ يَصِيحُ: أيُّها الجنُودُ! النفيرَ النفيرَ! الأُهْبَةَ الأُهْبَةَ[٣]!

فما سَمِعَ الجندُ صوتَهُ، ورَأوا وجْهَهُ حتى هاجُوا، واضْطَرَبُوا، وأخَذُوا يَصيحُون داخلَ القصرِ وخارجَه: لِيَسْقُطِ الخائنُ، لِيَسْقُطِ المجرمُ!

فظلّ يُشيرُ إليهم بيدِهِ، يحاولُ إسْكاتَهُمْ، واستِرْعاءَ أسماعِهِمْ، وهم مستمرُّون في ضَجِيجِهِمْ، وصياحِهِمْ لا يَهدأُون، ولا يَفْتُرُونَ، فعادَ إلى مكانه يائسًا متَضَعْضِعًا ليس وراءَ ما به من الهمِّ غايةٌ.

فدَنَتْ بازيليد منه، وقالتْ له: قد علِمْتَ الآن أنّني لم أكذبْكَ القولَ، ولم أخْدَعْك، وأنّني لم أقدمْ إليك مقدَمي هذا في هذه الساعةِ العصيبةِ، إلّا لتخليصك، وإنْقَاذِك، وإنْقاذِ الوطَنِ وأبنائِه.

فرفَعَ نظرَهُ إليها مُنْدَهِشًا وقال: أنتِ؟

قالتْ: نَعَمْ، أنا. في الوقتِ الذي لا أجِدُ فيه بجانِبِك من يأخُذُ بيَدِك، أو يعينُك على أمْرِك، فأصْغِ لما أقولُ:

إنّ الملكَ سيزورُ قصرَك الساعةَ، لِيَسْتَنْجِدَ بك على دَفْعِ هذا الخطرِ الداهمِ، وإنْ شئتَ فقُلْ لِيَسْتَعِينَ بك على الاحْتِفاظِ بتاجِه الذي يضنُّ به ضَنَّه بحياتِه، ولا يَحْفِلُ بشيءٍ سواه، وقد علم الجُنْدُ ساعةَ حضورِهِ، فهُمْ ينتظِرُونَه في هذه الساعةِ، حتّى إذا طلّ عليهِمْ في موكِبِهِ، هُرِعُوا إلَيْه[٤]

---

(١) سورة الغضب: شدّته.
(٢) الأرباض: الضواحي.
(٣) الأهبة: أي تأهّبوا.
(٤) هُرعوا: أسرعوا.

ضاجّين صارخين، يَتَقَدَّمُهُم جَرْحَاهُمْ، وزِمْنَاهُم[١]، ورَمَوك بين يدَيْه بتلك التُّهْمَةِ العظيمةِ التي يردِّدُونَها الآن، ويَصيحُون بها في كلّ مكانٍ. فإمّا أنْ يصدّقَهُمْ، فقد هلَكْتَ هلاكًا لا نجاةَ لك مِنْ بعدِهِ، أو يَرْتابَ بهم، فلا يَرَى بدًّا من أنْ يسلكَ سبيلَ الحكمَةِ في مُداراتِهِمْ، ومُدافَعَتِهِمْ، فيأمُرَ بعَزْلِكَ عنِ القيادَةِ، والعَهْدِ بها إلى غيرِك إرْضاءً لهم، وتَسْكينًا لثائِرِهِمْ. فإنْ فَعَلَ، فقدِ انْتَشَرَتْ لك في الأمّةِ قالَةُ سوءٍ لا تستطيعُ أن تمحُوَ عارَها عنك أبدَ الدهرِ.

فظَلَّ يَرْتَعِدُ، ويَضْطَرِبُ، ويُرَدِّدُ بينه وبين نفسِهِ: رَبِّ ماذا أصنَعُ؟ فالخَطْبُ أعظمُ ممّا أحْتَمِلُ!

فاقْتَرَبَتْ منه، ووَضَعَتْ يَدَها على كتِفِه، وحنَتْ عليه حُنُوَّ الأمِّ على رَضِيعِها، وقالت له بتلك النَّغْمَةِ العَذْبَةِ الجَميلَةِ التي قَتَلَتْ بها أباهُ مِنْ قَبْلُ: نعم يا بنيّ، إنّ الخَطْبَ أعظمُ ممّا تَحْتَمِلُ، ولم يَبْقَ بين يدَيْك إلّا أنْ تسلكَ تلك الطريقَ التي شرَعَ أبوك في سلُوكِها قَبْلَ موتِهِ، وعَجزَ عنِ الاسْتِمْرارِ فيها إلى نهايَتِها، فَخَسِرَها، وخسِرَ حياتَهُ على أثَرِها.

فَنَظَر إليها مُنْدَهِشًا، وقال: ماذا تُريدين؟

فَصَمَتَتْ لحظةً، ثم استَنْجَدَتْ قُوَّتَها وشَجاعَتَها، وقالتْ له: أتدري يا قسطنطين، لِمَ ذَهَبَ أبوك إلى شِعْبِ تراجان، وجَلَسَ تحت القوسِ الروماني في اللّيلةِ التي مات فيها؟

فرَجَعَتْ إلى ذِهْنِهِ الذِّكْرَى المؤلمةُ، وقد بدأَ يَفْهَمُ ما تَرْمي إليه في حَدِيثِها، فراعَهُ الأمْرُ، وهالَهُ، إنّما تَماسَك، وتَجَلَّدَ، وظَلَّ ناظِرًا إليها نظراتٍ جامدةً ساكنةً أشْبَهَ بنَظَراتِ الموتى في النَّزْعِ الأخيرِ؛ فاسْتَمَرَّتْ في حديثِها تقولُ:

إنّه ذَهَبَ إلى ذلك المكانِ، ليستقبِلَ الجيشَ التركيّ عِنْدَ قدومِهِ، ويأذَنَ له باجْتِيَازِ الحدُودِ والوصولِ إلى فيدين، ولو فَعَلَ لنَجّى الوطنَ من خطرٍ عظيم، ولأطْفأَ نارَ هذه الحربِ التي تلتَهِمُ البلادَ الْتِهَامًا يكادُ يَقْضِي عليها، ولكانَ اليومَ مَلِكًا جالسًا على عَرْشِ البلقانِ، لا تمثالًا أجْوَفَ مُنْتَصِبًا في الميدان، ولكنَّهُ عَجِزَ في الساعةِ الأخيرةِ عنِ الاحتِفاظِ بقوّتِهِ وعزيمَتِهِ، فما رأى سوادَ الجيشِ التركيّ مُقْبِلًا نحوَهُ، حتى نَسِيَ عُهُودَهُ، ومواثِيقَهُ، وابْتَدَرَ الرابيةَ الأولى[٢] فأشْعَلَ نارَها، وأيْقَظَ الجيشَ من رَقْدَتِهِ، واسْتَثارَهُ للأهْبَةِ والدفاعِ، وما كَفَاهُ ذلك حتّى جَرَّدَ سيفَهُ للقِتَالِ، وخاضَ المعركةَ بنفْسِهِ، وظَلَّ يقاتِلُ حتّى هَلَكَ.

فَعَجِبَ قسطنطين لتلك الجرأةِ الغريبَةِ التي لا يَشْتَمِلُ على مِثْلِها صَدْرُ امرأةٍ في العالَم، ولا رَجُلٍ، ثم قالَ لها بهدوءٍ، وسكونٍ لا يعلمُ إلّا اللهُ ما يَكْمُنُ وراءَهما: وبَعْدُ؛ فماذا تُريدين؟

فَأَطْمَعَها فيه سكونُهُ وهدوؤه، وخُيِّلَ إليها أنّه قد استُخْذِيَ للأمرِ واسْتَسْلَمَ، فقالت: إنّ العهدَ السلطانيّ لأبيك بملِك البلقان لا يَزَالُ باقِيًا بيَدِي حتّى الساعةِ، وهو مذيَّلٌ بتَوْقِيعِ السلطانِ، ومختُومٌ بخَتْمِ آل «برانكومير»، فَلَسْنا في حاجةٍ إلى تغييرِ حَرْفٍ منه، أو كتابةِ عَهْدٍ جديدٍ، وقد قابَلْتُ رسولَ القائدِ التركيّ ليلةَ أمسِ، واتَّفَقْتُ مَعَهُ على كلِّ شيءٍ، فكُنْ أعقَلَ مِنَ

---

(١) الزمني: المصاب بعلّة مزمنة. (٢) ابتدارها: سبق إليها.

أبِيكَ وأبْعَدَ مِنْهُ نَظَرًا. واْعلَمْ أنّ التركَ لا بُدَّ مُقْتَحِمُو هذه البلادِ وآخِذُوها، أبْطأوا أم أسْرَعُوا. فقدِ اجْتَازُوا عقبةَ الجبالِ اليومَ، وسيجتازونَ بقيّةَ العَقَباتِ غَدًا، أو بَعْدَ غدٍ؛ ما من ذلك بُدٌّ، فخيرٌ لك أنْ تُهادِنَهُمْ وتُسَالِمَهُمْ، وتَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يدًا تَنْفَعُك لدَيْهِمْ غدًا، وأنْ تَفْتَحَ لهم بيَدِك ما اسْتَغْلَقَ عليهم من أبوابِ البلادِ بدَلًا من أنْ يَغْلِبُوكَ عليها، لتَحْتَفِظَ لنفسِك بذلك العَرْشِ الذي هو عَرْشُك، وعَرْشُ أبيك من قَبْلِك، لولا طمعُ ذلك المختلسِ وفضُولِه!

إنّ الجنودَ يضجُّونَ، ويصخبون، ويُوشِكُ الملكُ أن يحضُرَ، فيرفَعُوا إليه أمْرَك، ويهتِفُوا بين يدَيْهِ بسقُوطِك، وخِيانَتِك، فيأمرَ بالقبضِ عليك، وسجنِك. فاغضَبْ لنفسِك، وافْعَلْ ما أشَرْتُ به عليك لتَسْتَطِيعَ أنْ تأمرَ أنت بالقبضِ عليه، وسَجْنِه بعد بِضْعِ ساعات، ويَدينُ لك البلقان، مِنَ البوسفورِ إلى الأدرياتيك.

أمّا أنا، فإنّي لا أطْلُبُ جزاءً عندك عن نُصْحي لك، وإخْلاصِي إليك سوى أنْ تَمنَحَني لديك منزلةَ الأمِّ الحنُونِ، وتأذَن لي أنْ أجْلِسَ على أدْنَى دَرَجَةٍ من درجاتِ عَرْشِكَ، أخْدُمُكَ، وأمدُّكَ بِرأيي، ومَشُورتي، وأسْتَظِلُّ بظلال مَجْدِكَ وشرَفِكَ حتّى الموت. ثم أخرجَتْ من حقيبتِها العهدَ السلطاني، وأرَتْهُ إيّاه، فأخَذَ يَقرأُهُ في يدِها حتّى أتمّهُ.

فقالت له: قُم الساعةَ، وسافِرْ إلى الحدودِ، وقُدْ جَيْشَكَ بِنَفْسِكَ، وَتَقَهْقَرْ به كأنّك تَفْعَلُ ذلك مُضْطرًا، وأنْقِذْ نَفْسَك، ووَطَنَك من هذا الخطرِ العظيم.

ها هي طبُولُ الملكِ تَقْتَرِبُ منّا شَيْئًا فشيئًا. واعلمْ أنّ قلمَ القُدْرَةِ معلّقٌ الآنَ بين إصبعي اللهِ ليكتُبَ به في صفحَاتِ الغَيْبِ أحدَ الحكمَيْنِ: إمّا لك بالصعُودِ إلى العَرْشِ، أو عليك بالهبُوطِ إلى أعماقِ السجونِ، فأحْسِنِ الاختيارَ لنفسِكَ، ولا تَكُنْ عَدُوَّها الأحمقَ المأفونَ.

فَرَفَعَ رأسَهُ، ونَظَرَ إليها نَظْرَةً ناريّةً ملتهِبةً، لو رَسَمَتْها رِيشَةُ المصوِّرِ الماهرِ، لأحرَقَتِ القُرْطَاسِ الذي رُسِمَتْ فيه! ثمّ قالَ لها بهُدُوءٍ، وسُكُونٍ: قد قُلْتِ لي، يا سيّدتي، مُنْذُ هُنَيْهَةٍ إنّ أبي قَدْ ذَهَبَ إلى شِعْبِ تراجان، ووقَفَ تحت القوسِ الروماني، ليَسْتَقْبِلَ الجيشَ التركيَّ عِنْدَ قُدُومِهِ، ويَأْذَنَ له بالمرورِ، فخانَهُ عَزْمُهُ، ونسِيَ ميثاقَهُ، فلم يَفْعَلْ. وأنا أقولُ لك: إنّكِ مخطِئَةٌ في سوءِ ظنِّكِ به، فإنّه لم يزلْ مُتَمَسّكًا برأيِهِ في تلك الليلةِ، محافِظًا على عَهْدِهِ، حتّى حالَتِ الحوائِلُ بينَهُ وبين الوَفَاءِ.

قالت: وَمَا الذي طَرَأَ عليه؟

قال: طَرَأَ عليه الموتُ، فحالَ بينَه وبين ما يُرِيدُ.

قالت: وهل تعلَمُ كيف ماتَ؟

قال: نعم، أنا أعلمُ الناسِ بذلك، لأنّه لم يكُنْ حاضِرًا مَعَهُ في تلك الساعةِ، وفي ذلك المَوْقِفِ سواي.

فارْتَعَدَتْ؛ ونَظَرَتْ إليه مُنْدَهِشَةً، وقالت له: ألَمْ يَمُتْ قَتِيلًا بيَد أعْدَائِهِ؟

قال: لا، بل بيَدِ أصدَقِ أصْدِقائِهِ، بل بيَدِ أقْرَبِ الأقرباءِ إليه، وأمَسّهم بهم رَحِمًا[١].

فطَاشَ عَقْلُها، وجُنّ جنونُها، وصاحَتْ: ماذا تُريدُ أنْ تَقُولَ؟

قال: أريدُ أن أقولَ إنّني أنا الذي قَتَلْتُهُ بيَدِي جزاءً له على خِيانَتِهِ لوَطَنِهِ!

قالت: أنتَ، يا وَلَدَهُ، وفِلْذَةَ كَبِدِهِ؟!

قال: نعم، وأنتِ التي وضَعْتِ في يميني ذلك السيفَ الذي قَتَلْتُهُ بهِ، لأنّك أفْسَدْتِ نَفْسَهُ، وقَتَلْتِ شعورَه، وأغْرَيْتِهِ بخِيانَةِ وَطَنِهِ، وسَلَبْتِهِ جَوْهَرَةَ الشرفِ الثمينةَ التي كانت تضيءُ ما بين جَنْبَيْهِ، وكانت أكْرَمَ الجواهِرِ وأغلَاها. فلم أرَ بُدًّا من أن أقتُلَهُ، لأسْتَنْقِذَ الوَطَنَ مِنْ يَدِهِ.

فتألَّمي ما شِئْتِ أيّتُها المرأةُ الشرّيرةُ وتَعَذّبي، وتَجرَّعي كؤوسَ الحَسْرَةِ والنّدَم على ما أفلتَ مِنْ يَدِك من أمانيِّكِ وآمالِكِ، وحسْبي انْتِقَامًا منك على جريمَتِكِ التي أَجْرَمْتِها إليّ، وإلى أبي، وإلى الطبيعةِ أن تَعْلَمِي أنّني أنا الذي خَيَّبْتُ آمالَك، وهدَمْتُ بيَدِي ذلك الصرحَ العظيمَ الذي أنفَقْتِ في تشييدِهِ أيّامَ حَياتِك.

نعم أنا الذي قَتَلْتُهُ بيَدِي، واقْتَرَفْتُ أعظمَ جريمةٍ يَقْتَرِفُها إنسانٌ في العالم. ولولاك لما أقْدَمْتُ على ذلك، ولا خطَرَ ببالي أنّ إنسانًا في الوجودِ يُقْدِمُ عليه، ولو كان في اسْتِطاعَتي أنْ أكشِفَ أمرَكِ، وأهتِكَ السترَ[٢] عن جريمَتِك لفعَلْتُ، ولكنّني لا أسْتَطِيعُ أنْ أفعلَ، إشْفاقًا على سُمْعَةِ ذلك الرجلِ المسكينِ الذي قضَى عليه سوءُ حَظِّهِ أنْ يكونَ شريكًا لك في حياتِك، وفي جَرائِمك.

فعِيشِي معذَّبَةً مِثْلي فريسَةً لآلامِك، وأحْزانِك، واستَنْفِدِي ماءَ شؤونِكِ[٣] حُزْنًا على الذي فاتكِ، والزوجِ الذي رَحَلَ عنكِ؛ واسْهَري لياليك الطوالَ خائفةً مرتَعِبَةً من شبَحِ الجريمةِ التي اجْتَرَمْتِها، وخيالِ الدماءِ التي سَفَكْتِها. وليطِرْ قلبُكِ خَوْفًا وهَلَعًا كلّما ذكَرْتِ أنّك قد وضَعْتِ في يدِ الولدِ سَيْفًا ليَقْتُلَ به الوالدَ، فماتَ الوالدُ قتيلًا، وعاشَ الولدُ مُعَذّبًا، ولتَطُلْ حياتُكِ على ظَهْرِ الأرضِ لتَطُولَ آلامُكِ، وأحزانُكِ، حتى إذا نَزَلَ بك الموتُ، نَزَلَ بهيكَلٍ يابسٍ من العظمِ، قد أحْرَقَتْهُ اللوعاتُ، وأضْوَتْهُ الحَسَراتُ[٤]، وافْتَرَسَتْهُ الهمومُ والأحزانُ.

وهنا سمِعَتْ ضجّةً عظيمةً في الساحةِ، وهاتِفون يهتِفُون: المَلِكُ! المَلِكُ! فاكتأبَ قسطنطين، وتقبَّضَ وجْهُه، وتهلّلَتْ بازيليد، وتطلَّقَتْ، وطوَتْ وثيقَةَ العَهْدِ برِفْقٍ، وَوَضَعْتَها في جَيْبِها، ثم قالتْ له: نعم، إنّني سأعيشُ، يا قسطنطين، حزينةً باكيةً كما قُلْتَ ما من ذلك بُدّ؛ ولكنّي لا آذَنُ لك أنْ تَعيشَ يَوْمًا وَاحِدًا بَعْدَ اليَوْم على ظَهْرِ الأرضِ حتّى لا تَرَى بِعَيْنَيْك مصائِبي وآلامي، وتَشْمَتَ بهُمُومِي وأحْزَاني، فَقَدْ دَسَسْتُ لك الدّسِيسَةَ في الجيشِ حتى ثارَ عليك، ووضعَ في عُنُقِكَ ذلك الغُلَّ الثقيلَ، غُلَّ الخيانةِ الذي لا خَلاصَ لك منه، وسَتَرَى الآن بقيّةَ ثأرِي وانْتِقامي!

---

(١) أمسهم به رحما: ألصقهم قرابة.

(٢) هتك الستر: مزّقه.

(٣) ماء شؤونك: أي دمع عيونك.

(٤) الضاوي: الهزيل الضعيف.

وهنا دَخَلَ المَلِكُ والجنودُ مِنْ حَوْلِهِ، يَتَقَدَّمُهُمْ لازار، وهو يَصِيحُ وهُمْ يَصيحُونَ من خَلْفِهِ: إنّه خائِنٌ، يا مولاي، قد مالأَ الأعداءَ علينا، إنّه أفْنَى رِجَالنا، ورَمَّلَ نساءَنا، ويَتَّمَ أطفالَنا. فأعْدِنا عليه[1]، وانتَقِمْ لنا منه وللوطن! والمَلِكُ يَقُولُ: دَعُوني وشأني، لا أصَدِّقُ شيئًا ممّا تقولُون.

ثم الْتَفَتَ إلى قسطنطين، وقال له: أيُّها البطلُ العظيمُ؛ إنّ الوطنَ في خَطَرٍ، وقد جِئْتُ أسْتَنْجِدُ بك على دَفْعِ هذه النازِلَةِ التي نَزَلَتْ بنا، وسأكُونُ في المَعْرَكَةِ المقبِلَةِ جنديًّا من جُنُودِك، أقاتِلُ بجانِبِكَ، وأُبَارِكُ خُطُواتِك، ولا تَبْتَئِسْ بما يَقُولُ هؤلاءِ القومُ، فإنَّهم لا يَعْلَمُون من أمْرِكَ شَيْئًا.

إنّا لا نَعْرِفُ اليومَ تحت سماءِ البلقانِ بَطَلًا غَيْرَك، وما كنّا نَعْرِفُ قَبْلَ اليومِ بَطَلًا غيرَ أبِيك، ولا نُضمِرُ لكما في قلوبِنا غيرَ الإجلالِ والإعظامِ لمكانِكُما من خِدْمَةِ الوطن، وحمايَتِهِ والذّودِ عنه، أمّا الحظُّ الذي فارَقَك في تلك الوقائع الماضِيَةِ، فأبشِّرُك أنّ عَهْدَ فِراقِهِ لا يَطُولُ، وأنّهُ سيَعُودُ إليك بعد أيامٍ قلائلَ بالوَجْهِ الطلقِ الجميلِ، وستَمْحُو بانتِصَارَاتِكَ المُقْبِلَةِ جَميعَ آثارِ تلك الهزائمِ السالِفَةِ.

ثم التَفَتَ إلى الجنودِ، وقالَ لهم: يا أبطالَ البلقانِ وحُماتَهُ، لا تَخْذُلُوا قائِدَكُمْ، ولا تَخْفِرُوا ذِمَّتَهُ[2]، فهو سيّدُكُمْ اليومَ، وابنُ سيّدِكُمْ بالأمسِ، واعْلَمُوا أنّني لا أُصْغِي إلى تُهْمَةٍ لا أعرفُ لها بُرْهانًا، ولا دَلِيلًا.

فصَمَتَ القَوْمُ صَمْتًا عَمِيقًا، وسَادَ بَيْنَهُمُ السكوتُ هُنَيْهَةً، وقد بدأتْ مراجِلُ غَيْظِهِمْ ومَوْجِدَتِهِمْ تَفْتُرُ، وتَتَقاصَرُ، وهنا انْفَرَجَ الجمعُ، وإذا ببازيليد تَتَقَدَّمُ رُوَيْدًا كما يَنْسابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الأرْقَمُ[3] نحو مَوْقِفِ الملكِ، حتّى مَثُلَتْ بين يدَيْه، وقالت له بصوتٍ عالٍ سَمِعَهُ جميعُ الجنودِ: أنا التي أُقَدِّمُ لك على تُهْمَتِهِ الدليلَ والبُرهان!

فدُهِشَ الملكُ عِنْدَ رُؤْيَتِها، وقال: الأميرةُ؟

قالت: نعم، يا مولاي، أرْمَلَةُ القائدِ ميشيل برانكومير، إنّني أتّهمُ هذا الرجلَ بخيانَةِ قَوْمِهِ وممالأةِ أعْدَائِهِمْ عليهم، وأقولُ لك إنّه كَتَبَ بينَهُ وبينَهُم عَهْدًا على أن يَفْتَحَ لهم أبوابَ البلادِ في الساعةِ التي يُريدُونها، فيَمْنَحُوه في مُقَابِلِ ذلك عَرْشَ البلقان وتاجَهُ. وقد دعاني الساعةَ ليُشْرِكَني مَعَهُ في هذه الجريمةِ التي يُريدُ اقْتِرافَها، ويَسْأَلَني أنْ أساعِدَه عليها، فلم أرَ بُدًّا من أن أرفعَ أمرَه إليك؛ أمّا البرهان الذي تُريده، فها هو ذا.

ومدَّتْ يدَها إليه بتِلْك الوثيقَةِ، فتَناوَلها الملكُ ذاهِلًا، وأخذ يَقْرأُها، وهو يَرْتَعِدُ ويَرْتَجِفُ، ويقولُ في نفسه: ماذا أرى؟ إخلاءَ الحدودِ! اجتيازَ الجبالِ! العرشَ! التاجَ! خَتْم برانكومير! يا للهولِ، ويا للفظاعةِ! ثم نظرَ إلى قسطنطين، فإذا هو تمثالٌ جامِدٌ لا يَتَحَرَّكُ، ولا يطرفُ[4].

فَتَقَدَّم نحوَهُ خُطْوَةً، وقال: ما هي كلِمَتُك يا قسطنطين؟

فصَمَتَ، ولم يَقُلْ شيئًا.

---

(١) أعدنا عليه: انصرنا عليه.

(٢) خفر الذمّة: خان العهد.

(٣) الأرقم: أخبث أنواع الأفاعي.

(٤) يطرف: يحرّك جفنه.

فالتفَتَتْ بازيليد، وقالتْ له: أتَسْتَطيعُ أن تُنْكِرَ شيئًا ممّا أقولُ؟

فأوْثَقَتْهُ وِثاقًا لا يستطيعُ معه قَبْضًا، ولا بَسْطًا، إلّا أنّه رَفَعَ رأسَهُ، ونَظَرَ إليها نظرةً غريبةً مُبْهَمَةً لم يعلَمْ غيرُها ماذا يُريدُ بها، ثم عادَ إلى صَمْتِهِ، وإطْرَاقِهِ.

فَهاجَ الجندُ، وأخَذُوا يَصِيحُون: القَتْلَ القَتْلَ! الانتقامَ الانتقامَ! وظَلَّ الملكُ يُشِيرُ إليهم بيدِه يَدْعُوهُمْ إلى السكونِ والهدوءِ حتّى هَدَأُوا.

فَتَقَدَّمَ نحو قسطنطين خطوةً ثانيةً، ووضَع يدَه على كتِفِهِ، وسألَهُ مرّةً أخرَى: ماذا تَقُولُ، يا قسطنطين؟ دافِعْ عن نَفْسِك، فإنّ سُكُوتَكَ حُجّةٌ عليك. لا تَصْمُتْ، ولا تُطْرِقْ، وقُلْ كلِمَةً واحِدَةً فإنّي أُصَدِّقُكَ في كلِّ ما تَقُولُ.

فاسْتَمَرَّ في صَمْتِهِ وإطْراقِهِ، وهو يَقُولُ في نَفْسِهِ: كيف أُدافِعُ عن نَفْسِي، وأيُّ سبيلٍ أسْلُكُهُ إلى ذلك، والسُّبُلُ جميعُها وَعْرَةٌ شائِكَةٌ، لا تَقْوَى قَدَمِي على اجْتِيازِها، إنّني لا أسْتَطِيعُ أن أبرِّئَ نَفْسِي إلّا إذا اتَّهَمْتُ أبي، وقد قَتَلْتُهُ مرّةً، فلا أقْتُلُهُ مَرَّةً أخرى، ثم ابْتَسَمَ ابْتِسامَةَ المُمْتَعِضِ، وقالَ في نَفْسِهِ: قد كنتُ أطلُبُ المَوْتَ بكلِّ سَبِيل، حتّى جاءَني يَسْعَى إليّ بقَدَمَيْهِ. فلِمَ أخْشَاهُ، وأرْتَاعُ مِنْهُ؟ فَلْيَكُنْ ما أرادَ اللهُ أنْ يَكُونَ.

ثم رَفَعَ رأسَهُ إلى الملكِ، وقال له: ليس عندي ما أقولُه لك، يا سيّدي، فاصْنَعْ بي ما تَشاءُ.

فَصاحَ الجُمْهُورُ: ليَسْقُطِ الخائنُ! ليُقْتَلِ المُجْرِمُ! وهَجَمُوا عليه، ليَفْتِكُوا به، فاعْتَرَضَ المَلِكُ طريقَهُمْ، وقال لهم: دَعُوه وشأنَهُ، فإنّ أمرَهُ موكُولٌ إلى مَجْلِسِ القَضَاءِ. أمّا نحن، فليس بين أيْدِينا إلّا أنْ نُفَكِّرَ الآنَ في الطريقِ إلى الدفاعِ عن وطَنِنا وحِمايَتِهِ، ودَفْعِ هذه النازلةِ المِلمّةِ بنا، فسِيرُوا بنا أيُّها الجنُودُ الأبطالُ إلى ساحةِ الحربِ، وأنا قائِدُكُم.

ثم الْتَفَتَ إلى الحرسِ، وأمَرَهُمْ بالقَبْضِ على قسطنطين، والذَّهابِ به إلى السجنِ، حتّى يَفْصِلَ القضاءُ في أمْرِهِ.

فهَتَفَ به قسطنطين وقال: لي كلمةٌ واحدةٌ أحِبُّ أنْ أقُولَها لك، يا مولاي. فذُهِلَتْ بازيليد، وارْتَعَدَ لازار، واشْرَأَبَّ القومُ بأعناقِهِمْ، والْتَفَتَ إليه الملكُ وقال: ماذا تُرِيدُ أنْ تَقُولَ؟

قال: أنت تعلمُ، يا مولاي، أنّني جُنْدِيٌّ قديمٌ وُلِدْتُ في ساحَةِ الحَرْبِ، وقَضَيْتُ حَيَاتي في ميادِينِها، ولا أمْنيةَ لي في الحياةِ غيرُ أنْ أموتَ فيها؛ وأنتَ الآنَ قائدُ الجيشِ، وصاحِبُ الأمرِ والنَّهيِ فيه، فَأْذَنْ لي أنْ أسِيرَ في رِكابِكَ جنديًّا صغيرًا، لا قائدًا، ولا أمِيرًا، لأقاتِلَ مَعكُمْ حيثُ تقاتِلون، ولك عليّ عَهْدُ اللهِ، وميثاقُه ألّا أعُودَ من تلك المعركة إلّا مُنْتَصِرًا، أو محمولًا على الأعواد[1] إلى حيث آوي إلى منزلي الأخيرِ الذي لا رَجْعَةَ لي منه، علّني أكفِّرُ بذلك عن زَلّتي التي زَلَلْتُها، وأنْتَقِمُ من نَفْسِي بِنَفْسِي.

فَعَجِبَ الملكُ لأمرِهِ، وظلّ يُرَدِّدُ نَظرَهُ في وجْهِهِ هُنَيْهَةً، وكأنّ نفسَهُ كانت تحدِّثُهُ ببراءَتِهِ،

---

(١) الأعواد: هنا النعش.

وطهارَتِهِ. إلّا أنّه لم يَلْبَثْ إلّا قليلًا، حتّى زَوَى وَجْهَهُ عنه[1] وقال له: لا أسْتَطيعُ أنْ آذنَ لك بشيءٍ، فالموتُ في ساحةِ الحَرْبِ منزلَةٌ لا ينَالُها إلّا الأُمَناءُ المخلِصُونَ!.

فَتَنَفَّسَ الجَمْعُ الصُّعَداءَ[2]، وخَرَجَ الملكُ يُحيطُ به جُنُودُهُ وحرّاسُهُ، وهو يردِّدُ بينه وبين نفسِه: وارحمتاه لك، أيُّها الفَتَى المسكينُ! المسكينُ!.

فتَقَدَّمَ الحراسُ إلى قسطنطين، فَقَيَّدُوهُ، وجاءَتْ بازيليد، فوقَفَتْ بجانِبِه، وقالت بِصَوْتٍ خَافِتٍ لا يَسْمَعُهُ سِوَاهُ: نعم، إنّني سأقضِي ما بقِيَ من أيّامِ حياتي حزِينَةً باكِيَةً متألّمةً كما قلت، ولكنّي قدِ انْتَقَمْتُ لنَفْسِي بِنَفْسِي، وحَسْبِي ذلك وكَفَى.

فلم يرفَعْ نظرَهُ إليها احتِقارًا، وازدِراءً، بل رَفَعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقال: قد كُنْتُ أسألُكَ الموتَ، يا ربُّ، في كلِّ حينٍ، وأضرَعُ إليك فيه لَيْلي ونَهَارِي، فبَعَثْتَ به إليّ، ولكن في أفْظعِ صُورَةٍ، وأهْوَلِها؛ فامدُدْ إليّ يدَ معُونَتِكَ، ورَحْمَتِكَ، لأستطيعَ أنْ أشرَبَ الكأسَ حتى ثُمالَتِها[3]، وخُذْ بِيَدِي في شدّتي، فَقَدْ تخلّى الناسُ جميعًا عنّي، وأصْبَحْتُ أحْتَمِلُ ما أحْتَمِلُ مِنَ الآلامِ وحْدِي، وليسَ بجانبي مَنْ يُخَفِّفُ لَوْعَتي، أوْ يَمْسَحُ بيدِهِ دَمْعَةً من دُمُوعي.

فخَرَجَتْ ميلتزا من وراءِ سِتَارٍ كانَتْ مُخْتَبِئَةً في طيّاتِهِ، وتَقَدّمَتْ نحوَهُ، وجثَت تحت قَدَمَيْهِ المُوثِقَتَيْنِ، وقالت له: لست وحدَك، يا مولاي، فهأنذا! فتهلَّلَ وجْهُهُ بعد عُبُوسِه، وقال: أحْمَدُك اللّهمّ حَمْدًا كثيرًا.

ثم خَرَجَ مَعَ الجُنودِ يرسُفُ[4] في قيودِهِ حتّى وَصَلُوا به إلى السجنِ، فأوْدَعُوه، وأوْصَدُوا البابَ من دونِهِ، فرَبَضَتْ ميلتزا على عَتَبَةِ البابِ رُبُوضَ الكَلْبِ الأمينِ على قَبْرِ سيّدِهِ الدّفينِ، وأنشأتْ تَنْدُبُهُ، وتَبْكِيهِ بكاءً تَهْتَزُّ له جَوانِبُ الأرضَ، وتَتَدَاعَى له أركانُ السماءِ!.

❁ ❁ ❁

التمثال

انتصَرَ الملِكُ في الواقِعَةِ التي حَضَرَها، وقادَ فيها الجيوشَ بنَفْسِهِ انتِصارًا عظيمًا كان الفَضْلُ الأكبرُ فيه لتلكَ الروحِ الدينيّةِ التي كان يَبُثُّها في نُفُوسِ جُنْدِهِ أثناءَ المَعْرَكَةِ.

فقد كان يمشي بين الصفوفِ بطَيْلَسَانِهِ الأسْوَدِ، والصليبُ في يَدِهِ، يهتِفُ باسْمِ المسيحِ، والمسيحيّةِ، ويُنادي: دافِعُوا، يا أبناءَ يَسوعَ، عن دينِكُم وكَنِيسَتِكُمْ، واعْلَمُوا أنّكُم إنْ غُلِبْتُمْ اليومَ على أمْرِكُم، فلنْ تَقُومَ للصليبِ قائمةٌ أبدَ الدهرَ.

وَهُمْ يَسْتَبْسِلُونَ، ويَسْتَقْتِلُونَ، ويَصْبِرُونَ للمَوْتِ صَبْرَ الكِرَامِ، حتّى بَرَقَتْ لهم بارِقَةُ النّصر،

---

(١) زوى وجهه: قبضه.

(٢) تنفّس الصعداء: أي نفسًا ممدودًا طويلًا من توجّع.

(٣) الثمالة: البقية الأخيرة في الكأس.

(٤) يرسف في القيد: يمشي ببطء.

فأطبَقُوا على جيوشِ العَدُوّ من كلِّ جانِبٍ، وتَقَهقَرَتْ أمامَهُم إلى ما وراءِ الحُدُودِ، وتَخلَّتْ عَنْ جَمِيعِ المعابِرِ والجبالِ التي اجْتَازَتْها بالأمس.

فاحْتَفَلَ الشَّعْبُ بهذا النَّصْرِ احتِفَالًا عَظِيمًا دامَ عِدّةَ أيامٍ، ولم يَكُنْ للنّاس حَدِيثٌ فيه سوى حديثِ قسطنطين، وجريمتِهِ التي اجْتَرَمَها، والجزاءِ الذي سَيَلْقاهُ في سبيلِها، وكلُّهُم يَتَمَنّى بِجَذْعِ أنفِه[١]، وأنْ يُشاهِدَ مَصْرَعَهُ، ويَرى دِمَاءَهُ تَتَدَفَّقُ من بَيْنِ لِحْيَيْهِ[٢].

ولم يزلْ هذا شأنَهُمْ، حتّى دَنا اليَوْمُ الذي يَجْتَمِعُ فيه مَجْلِسُ القضاءِ للنَّظَرِ في تلك القَضِيَّةِ، فذَهَبَ الملكُ ليلةَ المحاكَمَةِ إلى السجينِ في سِجْنِهِ، وخلَا به ساعةً يَسْأَلُهُ عن جريمتِهِ، وشُرَكائِهِ فيها، وأعوانِهِ عليها، وحاولَ في ذلك محاوَلَةً كثيرةً، فلم يَنْطِقْ بشيءٍ، ولا دافَعَ عن نَفْسِهِ بِحَرْفٍ واحِدٍ، حتّى عيَّ[٣] الملِكُ بأمْرِه.

فأمَرَ بإخراجِهِ من السجنِ إلى الساحةِ العامّةِ المقام فيها تمثالُ أبيهِ، وأمَرَ أنْ يُشَدَّ بأغلالٍ إلى قاعِدَةِ التمثالِ نِكايةً به، وتَمْثِيلًا، ثم قالَ له: أنظُرْ أيُّها الخائنُ ماذا بَنَى أبُوك لنفسِهِ من المَجْدِ، وماذا صَنَعَتْ يَدُك بذلك البناءِ الذي ابْتَناهُ! وتَرَكَهُ وانْصَرَفَ.

فلمّا انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ، أطْرَقَ ساعَةً يُفَكِّرُ في شأنِهِ، وفي مصيرِهِ الذي صَارَ إليه، ثُمَّ رفَعَ رأسَهُ إلى التمثالِ، وكانَ اللّيلُ قد هَدَأَ، وسَكَنَ، ونامَتْ كلُّ عَيْنٍ فيه حتى عيونُ العَسَسِ والحرَّاس، فأنشأَ يُناجِيهِ ويَقُولُ:

هَنِيئًا لك أيُّها الرجُلُ مَجْدُكَ، وعظمتُكَ، وتمثالُكَ الشامخُ الرفيعُ الذاهبُ بعلُوِّهِ في آفاقِ السماءِ!.

هنيئًا لك الصيتُ البعيدُ، والشهرةُ الذائعةُ، والشرفُ الخالدُ المسجّلُ لك في صفحاتِ التاريخِ؛ وأنّ الناسَ لا يمرُّون بتمثالِك، حتّى يَجْثُوا تحت قاعدَتِه جُثِيَّهُمْ تحت قدمَي الإلهِ المعبودِ!.

أتَرى بَعْدَ ذلك أنَّك مظلومٌ، أو مغبُونٌ، أو أنّ الضربةَ التي أصابَتْكَ مِنْ يَدِي قد حَرَمَتْكَ شَيْئًا في هذِهِ الحياةِ تَنْدُبُهُ، وتأسَفُ عليه؟

لقد كُنْتَ في الساعةِ الأخيرةِ من أيّامِ حياتِك، ولم يَكُنْ بينَك وبين الانحدارِ إلى قَبْرِكَ إلّا بِضْعُ خطواتٍ قصارٍ، فَكُلُّ ما كان منّي لك أنّني أنْقَذْتُك من تلك الميتةِ الدنيئَةِ السافِلَةِ التي كُنْتَ تُرِيدُها لِنَفْسِكَ، وقدَّمْتُ لك بَدَلًا منها ميتةً شريفَةً مقدَّسَةً ترمُقُهَا العيونُ، وتَنْقَطِعُ من دونها الأعناقُ. وألْبَسْتُكَ تاجًا أشرفَ من ذلك التاجِ الذي كُنْتَ تطلُبُهُ، وتَسْعَى إليه. وأجْلَسْتُكَ على عَرْشٍ أرْفَعَ من جميعِ عُرُوشِ الأرضِ، وهو عَرْشُ التاريخِ!

لا تَسْتَبْقِ في نَفْسِكَ شَيْئًا مِنَ الضِّغْنِ عليّ، ولا تُضْمِرْ لي في قَلْبِكَ، وأنت في عالَمِ الحقِيقَةِ المجرَّدَةِ الذي لا يُخالِطُهُ كذبٌ، ولا رياءٌ، غَيْرَ ما يَجِبُ على المريضِ المُبِلِّ[٤] أنْ يُضْمِرَهُ

---

(١) جدع الأنف: قطعة.

(٢) اللحيان: منبتا شعر اللحية على الجانبين؛ يريد عنقه.

(٣) عيّ: تحيّر.

(٤) أبل المريض: نجا من مرضه.

لِطَبِيبِهِ الذي شفاه من دَائِهِ، وأنْقَذَهُ مِنْ شقَائِهِ، فإنْ كان لا بُدَّ لك أنْ تَرَى أنّني أجْرَمْتُ إليك، وَوَتَرْتُك[١]، فهأنذا أكفِّرُ عن جريمتي بأعْظَم ما كفَّرَ بها مُجْرِمٌ عن جَرِيمَتِهِ!

انظرْ يا أبتِ، ماذا صَنَعَتْ فِعْلَتُك التي فَعَلْتَ بولدِكَ. ها هو الغُلّ يُحيطُ بعُنُقِهِ حتّى يكادُ يَخْنُقُهُ، وها هي القيودُ تَعَضُّ قَدَمَيْهِ، وتُدْمِيهما، وها هو السيفُ مجرَّدٌ فوق هامَتِهِ[٢]؛ لا تطلُعُ الشمسُ من مشرقِها، حتّى يَسْقُطَ عليها، فيَفْصِلَها عن جُثَّتِها، وها هُمُ الناسُ جميعًا رجالًا ونساءً، كِبارًا وصِغارًا، يَلْعَنُونَهُ بألْسِنَتِهِمْ وقُلُوبِهِمْ في كلِّ مَكَانٍ، ويُضْمِرُونَ له من الحِقْدِ والبَغْضاءِ ما لو امتدّ إلى جِسْمِهِ، لأحْرَقَهُ، وأحالَهُ رَمادًا بارِدًا!

أنتَ المُجْرِمُ، وأنا المعاقَبُ، أنْتَ الخائنُ وأنا المأخُوذ بِخِيانَتِكَ، أنت الممتَّعُ بنِعْمَةِ الشرفِ العظيمِ الذي لا تَسْتَحِقُّه، وأنا المُتَسَرْبِلُ بِسِرْبَالِ الخيانة الدائمةِ التي لا أسْتَحِقُّها؟ لقد أخطأَ القَدَرُ في أمْرِنا مرّتَيْنِ، فرفَعَكَ من حيث تَسْتَحِقُّ الوَضْعَ، ووَضَعَنِي مِنْ حَيْثُ أسْتَحِقُّ الرّفْعَ، ولو أنّه أنْصَفَ في حُكْمِهِ بَيْنَنا، لأخَذَ كلٌّ مِنّا مكانَ صاحِبِهِ، فأصْبَحَ التمثالُ لي، وأصْبَحَ السّجْنُ لك!

هنيئًا لك مجدُكَ، وشَرَفُكَ، وصيتُكَ، وسُمْعَتُكَ، أهَنِّئُكَ لا تَهْنِئَةَ الهازِئِ الساخر، بل تَهْنِئَةَ الفارحِ المُغْتَبِطِ، لأنَّك أبي، ورئيسُ أُسْرتي، وسيّدُ قَومي، وحبيبٌ إليّ جدًّا أنْ يعيشَ أبي عظيمًا في حياتِه، وبَعْدَ مَماتِهِ!

إنّ آلامي، يا أبتِ، عَظِيمَةٌ جدًّا لا تَسْتَطِيعُ أن تَحْتَمِلَها نَفْسٌ بشرِيَّةٌ في العالمِ، ولكنْ يُهَوّنها عليّ أنّني أمُوتُ من أجلِكَ، وفي سبيلِ مجدِك وشرَفِك، وأنّني لم أخرجْ من الدنيا، حتّى رأيتُ تمثالَك العظيمَ مشرِفًا من علياءِ سمائِه على جبالِ البلقانِ وهِضَابِها كما تشرفُ الشمسُ من أبْرَاجِها على ما تَحْتِها.

ما أنا بنادِمٍ على ما كانَ، ولا خائفٍ ممّا يَكُونُ، فَلْيَأْتِ المَوْتُ إليّ في الساعةِ التي يُرِيدُها، فقد قُمْتُ بواجِبي لك، ولبِلادِي؛ وحَسْبي ذلك وكَفَى.

كان لا بُدّ لي أنْ أقتُلَكَ، فَفَعَلْتُ، ولكنّني قَتَلْتُكَ، فَيَجِبُ أنْ أُقْتَلَ بك، كلانا أجْرَمَ، وكلانا لقِيَ جزاءَ إجْرَامِهِ.

أجْرَمْتَ إلى الوطنِ، فانتَقَمْتُ له منك، وأجْرَمْتُ إلى الطبيعةِ فمِنَ العَدْلِ أن تَنْتَقِمَ لنَفْسها منّي، فما ظلَمَ أحدٌ منّا صاحِبَهُ، ولا اعْتَدَى عليه.

ارفعْ رأسَك، أيُها الرجُلُ، تِيهًا وعُجْبًا، وزاحِمْ بمِنْكَبَيْك[٣] أجْرَامَ السماءِ وكواكِبَها، فقد غَسَلَ ابنُكَ بدمِهِ جُرْمَكَ، وعارَك. فإنْ لم تَكُنْ شريفًا بنَفْسِك، فحَسْبُك شَرَفًا أنك والدُ الولَدِ الشريفِ.

ولم يَزَلْ في مناجاتِهِ هذه، حتّى مَضَتْ هَدْأَةٌ مِنَ الليلِ، فالْتَفَّ بِرِدَائِهِ، ووَضَعَ رأسَهُ على قاعِدَةِ التمثالِ، وأسْلَمَ نَفْسَه إلى نومٍ طويلٍ.

---

(١) وتره: أصابه بمكروه أو ظلم. (٢) الهامة: الرأس.

(٣) المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

النهاية

ازدَحَمَ الناسُ يومَ المحاكَمَةِ في السّاحَةِ الكُبْرى ازْدِحامًا عَظِيمًا، يَنْتَظِرُونَ عَوْدةَ الملِكِ من مجلِسِ القَضاءِ، ليُعْلِنَ حكمَهُ أمامَ المتَّهَمِ، والمَتَّهَمُ هادئٌ ساكنٌ تحت قاعِدَةِ التمثالِ، لا يَنْتَظِرُ شيئًا، لأنّه يَعْلَمُ أنَّ الموتَ جزاؤه الحَتْمُ، وقد وطّنَ[1] نفسَهُ عليه، فلم يَعُدْ يَحْفِلُ به.

وإنّهم لكذلك، إذ أقْبَلَ الملِكُ، تُحيطُ به حاشيَتُهُ، فاشرَأَبَّتْ إليه الأعناقُ لسَماعِ كَلِمَتِهِ.

ولم يزلْ سائرًا بين الصفوفِ، حتى وقفَ أمامَ المتَّهَمِ، فنَظَرَ إليه نظرةً طويلةً، ثم صاحَ بأعْلَى صوتِهِ: يا قسطنطين برانكومير، إنّ الجريمةَ التي اقْتَرَفْتَها عظيمةٌ جدًا لا يفِي بها قَتْلُكَ، وسَفْكُ دمِك؛ لذلك رَأَى مجلِسُ القضاءِ أن يحكمَ عليك بالحياةِ بدلًا من الموتِ.

فقاطَعَتْهُ الجماهير: الموتَ الموتَ! لا بُدَّ من قَتْلِهِ! لا يمكنُ أنْ يَعِيشَ!

فأشارَ إليهم بالهدْوءِ، والسكونِ، حتّى يَسْمَعُوا بقيّةَ كلامِهِ، فهَدَأُوا.

فاسْتَمَرَّ يقولُ: وأنْ تظلَّ طولَ أيامِ حياتِك مقرونًا بأغلالِكَ هذه إلى قاعدَةِ تمثالِ أبيك، ليتردّدَ وجْهُهُ في وجهِك ليلَك ونهارَك، فتموتَ في مكانِك حياءً منه، وخجَلًا، وأنْ يؤذَنَ لكلِّ مارٍّ بك من عليّةِ الناسِ، وغوغائِهِمْ أن يَبْصُقَ على وجْهِكَ، ويَصْفَعَكَ على قَذَالِك، وينالَ منك ما يشاءُ إلّا أنْ يَسْلُبَكَ حياتَكَ.

فصاحَتِ الجماهيرُ: يعيشُ الملكُ، يَحْيَا العدل! يَسْقُطُ الخائنُ. وظلُّوا يُرَدِّدُون هذه الكلماتِ وأمثالَها وَقْتًا طويلًا.

هنا ذَرَفَتْ عَيْنا ذلك الرجلِ العظيمِ الذي لم يَبْكِ في يوم من أيامِ حياتِهِ لضَرْبَةِ سَيْفٍ، أو طعنةِ رمحٍ، أو رَشْقَةِ سَهْمٍ، وعلا صوتُ نحيبِه ونشيجِهِ، كما تفعلُ النساءُ الضّعيفاتُ في مواقفِ حزنهِنَّ وثُكْلِهِنَّ، وما كان مثلُهُ من يَبْكي أو يذرِفُ دمعةً واحدةً من دموعِهِ، لو أنّ الذي كتبَ له في صحيفةِ الغيبِ مِنَ الشقاءِ كان الوقوفَ بين السيفِ والنَّطعِ[2]، أو السقوطَ بين آلاتِ العذابِ تنالُ من جسمِهِ، وأطرافِهِ ما تشاءُ؛ ولكنّه الشرفُ، شديدًا جدًّا على صاحبِه أن تنزلَ به نازلةٌ مذِلّةٌ، أو يتّصلَ به ظفرٌ جارحٌ من أظفارِ الهوانِ، فإذا شَعَرَ بشيءٍ من ذلك هالَهُ الأمرُ، وراعَهُ، وخارَتْ عزيمتُهُ، ووهَنَتْ قوّته، فَبَكى بكاءَ الضعفاءِ، وأعْوَلَ إعوالَ النساءِ.

ولقد رَضِيَ قسطنطين من حظِّهِ من الحياةِ بالموتِ فرارًا من العارِ الذي لحِقَهُ، وهرَبًا من نظراتِ الناظرين إليهِ، ومَوْجِدَةِ الواجِدِينَ عليه، أمّا وقد علمَ أنّهُ سيَعيشُ والعارَ معًا رفيقَيْنِ متلازِمَيْنِ، لا يَفْتَرِقانِ، ولا يَنْفَصِلانِ، فلم يبقَ بين يدَيْهِ سبيلٌ غيرُ البكاءِ. فبكى ما شاءَ اللهُ أن يَفْعَلَ. وأخذَ يردِّدُ بينه وبين نفسه: يا للبؤسِ! ويا للشقاءِ! لقدِ اسْتَحَالَ عليّ كلُّ شيءٍ حتّى الموتُ.

---

(١) وطنّ نفسه: هيّأها.

(٢) النطع: فرش من جلد كان يبسط للمحكوم عليه بالموت ليذبح فوقه فهو بين السيف من فوقه والنطع من تحته.

ثم رفعَ طَرْفَهُ إلى السماءِ، وقالَ بصوتٍ خافتٍ متقطّع: رحمتَكَ، اللّهم، وإحْسانَك، فقد أصْبَحْتُ عاجزًا ضَعِيفًا، لا أملِكُ من شؤونِ نفسي شيئًا، فامْدُدْ إليّ يدَ عنايَتِكَ، ولطفِكَ لأستطيعَ أن أتمِّمَ واجبي إلى النهايةِ!

وهنا وقَفَ لازار فوقَ هضبةٍ مرتفعةٍ - وكان لا يزالُ رأسَ الفتنةِ وشعلتَها - وأخذَ يصرُخُ بصوتٍ عالٍ قائلًا: إنْ رأى مولانا الملكُ أن يأذَنَ لنا بتَنْفِيذِ أمرِهِ الساعةَ، فقد أوشكَتْ صدُورُنا أنْ تَنْفجِرَ؛ فصاحَ الجمهورُ من ورائِهِ صيحَتَهُ، ودَعُوا بمثلِ دعْوَتِهِ! فاصفرَّ وجهُ الملكِ، وارْتَجفَتْ أطرافُهُ ارتجافًا خَفِيفًا، ثم قالَ بصَوْتٍ متهافتٍ: لكم ما تشاؤون! وتحوَّلَ من مكانِهِ يُريدُ الانْصِرَافَ.

وهنا برزَتْ ميلتزا من بين الجماهيرِ، واندَفَعَتْ نحو قسطنطين تَسْبُقُ المُنْدَفِعِينَ إليه، وهي تقولُ: فَلْيَبْقَ لك أيُّها المسكينُ على الأقلّ قلبٌ واحدٌ يَرْحَمُكَ، ويَعْطِفُ عليك! وضمَّتْهُ إلى صَدْرِها كأنما تُريدُ أنْ تقِيَهُ بنَفْسِها فسَمِعَ المِلِكُ صَوْتَها، فالْتَفَتَ فرآها، ولم يكُنْ يَعْرِفُ من شأنِها شيئًا، فعجِبَ لأمرِها، وأشارَ إلى الجماهيرِ بالسكُوتِ، حتى يعلمَ ما خَطْبُها، ثم مشى نحوها، وقال لها: أتَعْلَمِين أيَّتُها الفتاةُ من هذا الذي تَحْمِينَ، وما جريمتُه التي اقْتَرَفَها!

فرفَعَتْ رأسَها إليه، وألقَتْ عليه نظرةَ الليثِ في عرينِهِ، وقالت له: لا أعلمُ من أمرِه شيئًا سوى أنّني أُحِبُّهُ، ولا آذنُ لأحدٍ أن ينالَهُ بمكروهٍ وفيَّ بقيّةُ رَمَقٍ من الحياة!

قال: إنّه ارتكبَ جَريمةَ الخيانةِ الكبرى للأمّة والوطن، وقد حَكَم عليه مجلسُ القضاءِ بالتعذيب، ولا بُدَّ من إنفاذِ حكمِه. قالت: إنّ الحبَّ فوق العدلِ، وفوقَ القانونِ، وفوق كلِّ شيءٍ في العالم، فمزّقوني إرْبًا إرْبًا، لتستطِيعُوا أنْ تَصِلُوا إليه.

فلمعَتْ في ثغر قسطنطين ابتسامةٌ في وسط هذه الدُّجُنَّةِ الحالِكَةِ[1] من الهمُوم والأحزانِ، وضَمَّها إلى نفسِهِ، وقال لها: شكرًا لك، يا ميلتزا. فقد أَحْيَيْتِ نَفْسِي المَيْتَةَ، وسرَّيْتِ عنّي همُومي وآلامي، ذُودي عنّي يا صديقتي، وصُوني وجْهي من العار الذي يُريدُون أن يُلْصِقُوهُ به، فلم يَبْقَ لي في العالم مَنْ يَرْحَمُني، ويَعْطِفُ عليّ سِوَاكِ!

وأخذَتِ الجماهيرُ تَصِيحُ: اقْتُلُوهما معًا، مزِّقُوا جِسْمَيْهِما بالسيوفِ، وانثُرُوا أشلاءَهما في الفضاءِ.

ثم تَدَافَعُوا نحوَهما تدافُعَ الصخور الهائلةِ من أعالي الجبالِ، فصاحَتْ ميلتزا: أيَّتُها الوحوشُ الضارِيَةُ، والخلائقُ الساقطَةُ، مهما كثُرَ عَدَدُكُمْ، وعظُمَتْ قُوَّتُكُمْ، فإنّكم لن تَسْتطِيعُوا أن تَصِلُوا إليه، أو تُلْحِقُوا به إهانةً من الإهاناتِ التي تُضْمِرُونَها في نُفُوسِكُم، فإنْ أبَيْتُمْ إلّا أن تَفْعَلُوا، فاعْلَمُوا أنّني أنا الفتاةُ الضعيفةُ المسكينةُ قادرةٌ على أنْ أخَلِّصَهُ من أيدِيكُمْ! فلم يَحْفِلُوا بكلامِها، ولم يَفْهَمُوا غَرَضَها، واسْتَمَرُّوا في اندِفاعِهِمْ وتَدَفُّقِهِمْ.

وهنا حَدَثَ ذلك الحادثُ الهائلُ الذي شَخَصَتْ له الأبْصَارُ، وذُهِلَتْ له العقولُ، وجَمَدَتْ لمنظرِهِ الدّمَاءُ في العروقِ، فقد علِمَتْ ميلتزا أنَّ القَضاءَ واقعٌ لا مَفَرَّ منه، وأنّ القومَ لا بُدَّ

(١) الدجنة الحالكة: الظلمة الشديدة.

بالِغُون من قسطنطين ما يُرِيدُون، وأنْ لا طاقةَ لها بحمايَتِهِ والذَّوْدِ عنه، وهالَها هَوْلًا عَظِيمًا، وكَبُرَ في نفسِهَا أنّ ذلك الوجهَ الشريفَ المتلألئَ بنورِ الفضيلةِ، والكرم، والطهارةِ، والبراءةِ يُصْبِحُ هَدَفًا دَنِيئًا لهؤلاءِ الغوغاءِ الثائرين، يَلْطِمُهُ مَنْ يَلْطِمُ، ويَبْصُقُ عليه مَنْ يَبْصُقُ.

فلمّا أصْبَحُوا على مَقْرُبَةٍ منهما، ولم يَبْقَ بينهم وبينهما إلّا بِضْعُ وَثَباتٍ، حنَتْ عليه، وهَمَسَتْ في أذُنِهِ قائلةً: في اسْتِطاعَتِكَ، يا سيِّدِي، أنْ تُنَجِّيَ نَفْسَك بكلمةٍ واحدةٍ تعتَرِفُ فيها بكلِّ شيءٍ!

فَرَفَعَ طَرْفَهُ إلى السماءِ، ثم ألقاهُ على تِمْثالِ أبيه، ثم نَظَرَ إليها نظرةً دامِعَةً حزينةً وقال: «لا أسْتَطِيعُ»!.

فجرَّدَتْ من مِنْطَقَتِها خِنْجَرَها الذي كانت قدِ اسْتَهْدَتْهُ إيّاهُ فيما مضى، ورَفَعَتْهُ في الهواءِ، ثم طَعَنَتْهُ به في صَدْرِه طَعْنَةً نَجْلاءَ، وهي تقولُ: مُتْ شريفًا أيُّها الرَّجُلُ العظيمُ كما عِشْتَ شَرِيفًا، وسأتْبَعُكَ إلى سمائِك التي تصعدُ إليها؛ فَسَقَطَ مُضَرَّجًا بدمَائِهِ، وهو يقولُ بصَوْتٍ ضعيفٍ مُتَقَطِّعٍ: شُكْرًا لكِ يا ميلتزا.

وكان القومُ قد بَلَغُوا مَوْقِفَهما، فَرَفَعَتِ الخنجرَ مرّةً أخرى وطَعَنَتْ نَفْسَها، فَتَرنَّحتْ قليلًا، ثم سقَطَتْ على مَقْرُبَةٍ منه، وكان لا يَزالُ يعالِجُ السكرةَ الأخيرةَ، ففَتَحَ عينَيْهِ، فرآها، فأخَذَ يَسْحَبُ نفسَهُ سَحْبًا، حتّى بَلَغَ مَصْرَعَها، فألْقَى يدَهُ عليها، وظلَّ يَجْذِبُها نَحْوَهُ كأنّما يُحاوِلُ أنْ يَضُمَّها إلى نفسِه فلم يَسْتَطِعْ، فسقَطَ رأسُهُ على صَدْرِها فشَعَرَتْ به فضاءَتْ ما بَيْنَ شَفَتَيْها ابتسامةٌ ضئيلةٌ، لم تَلْبَثْ أنِ انْطَفَأتْ، وتَغَلْغَلَتْ في ظُلُماتِ الموتِ. وظلّا على هذه الحالةِ حتى فاضَتْ نَفْساهما[1].

فأثَّرَ هذا المَنْظَرُ الرَّهِيبُ في نُفُوسِ الجماهيرِ، وسَكَنُوا في مواقِفِهِمْ سُكُونًا عَمِيقًا، لا تتخَلَّلهُ نَأمَةٌ[2]، ولا حَرَكَةٌ، وظَلُّوا على ذلك ساعةً حتّى نطَقَ الملكُ بصَوْتٍ خَشِنٍ أجشَّ تُخالِطُهُ رَنَّةُ الحُزْنِ، والأسفِ قائلًا: أيُّها المسيحيّون، صلّوا جميعًا لِهٰذَيْنِ البائِسَيْنِ الشقيَّيْنِ، واسْألُوا اللهَ لهما الرحمةَ والغفرانَ.

ثم رَفَعَ قَلَنْسُوَتَهُ، وجَثَا على رُكْبَتَيْهِ، فَرَفَع القومُ قُبَّعاتِهِمْ، وجَثُوا حول الجُثَّتَيْنِ، وأخَذُوا يَتْلُونَ صَلَواتِهِمْ بنغْمَةٍ حزينةٍ مؤثرةٍ، كأنّما هم يبكونَ عزيزًا عليهم، أوْ شهِيدًا من شُهَدائِهِمْ، وما فَعَلُوا غيرَ ذلك لو كانوا يعلمون.

* * *

ظلَّتْ هذه الحقيقةُ مجهولةً، لا يَعْلَمُها أحدٌ من الناسِ خمسةً وثلاثين عامًا، حتى حضرَ «بازيليد» الموتُ، فظلّتْ تَهْذِي بها في مَرضِها، وتُردِّدُها في يَقْظَتِها وأحْلامِها، وتتألَّمُ لذِكْرَاها ألَمًا شديدًا على مَسْمَعٍ من كاهِنِهَا وعُوَّادِها، حتى فاضَتْ رُوحُها؛ فَعَلِمَ الناسُ - ولكن بعد عَهْدٍ طويلٍ، وبَعْدَ أنْ تَبَدَّلَتْ شؤونُ البلقانِ غير شؤونه - أن «قسطنطين برانكومير» أشرفُ الناسِ وأفضلُهُمْ، وأعْظَمُهُمْ وطنِيّةً وإخلاصًا، لأنّه ضَحّى أباه في سبيلِ إنقاذِ وطنِهِ، ثم ضحّى نَفْسَه في سبيلِ إنقاذِ شرفِ أبيه، فبَلَغَ في وطنِيَّتِهِ وشرفِ نفسِهِ الغايةَ التي لا غايةَ وراءَها.

«تمت»

---

(1) فاضت النفس: خرجت، ماتت.

(2) النأمة: الصوت الضعيف.

ماجدولين



حول الرواية

«تحت ظلال الزيزفون» (Sous les Tilleuls) هي الرواية التي كتبها الأديب الفرنسي ألفونس كار (١٨٠٨-١٨٩٠)، وقد اطّلع المنفلوطي على تعريبها، فأعجب بها وأعاد صياغتها بأسلوبه الخاص، ونشرها تحت عنوان «ماجدولين» أو «تحت ظلال الزيزفون». والرواية هي باكورة أعمال ألفونس كار الأدبيّة كتبها متأثّرًا بالمدرسة الرومنسيّة التي سيطرت على الأدب في تلك الحقبة من تاريخ فرنسا. وقد اعتمد على أسلوب المراسلة في تدوين أحداثها، تاركًا لعنصر الخيال دورًا أساسيًا في تحريك أشخاص الرواية بين أحضان الطبيعة الخارجيّة التي أحبّها الكاتب وجعلها الإطار الأساسي لروايته.

لقد تأثّر المنفلوطي برواية ألفونس كار، وبادر إلى نقلها إلى اللغة العربيّة، لما فيها من دعوة صريحة إلى التمسّك بقيم الحقّ والخير والجمال التي تجسّدها البيئة القرويّة الريفيّة الساذجة. فأحداث القصة تدور في جوّ ريفي، يتميّز بالبساطة والعفويّة والصدق والإخلاص والقناعة، شبيهٍ بالجو الذي نشأ فيه المنفلوطي بمصر؛ على خلاف حياة المدينة القائمة على الخداع والكذب والغشّ والنفاق، حيث يتهافت الناس على جمع المال دون مراعاة أبسط المبادئ والقيم الخلقيّة. والرواية تحاول التأكيد على أنّ الخلاف الحادّ بين بيئة القرية وبيئة المدينة، يؤدّي إلى خلاف أكثر حدّة بين مفهومين للسعادة: أحدهما يعتبر أنّ السعادة هي نتيجة نجاح المرء في التلاؤم والتكيّف مع الظروف الواقعيّة التي تحيط به. والمفهوم الآخر يعتبر أنّ المال هو مفتاح السعادة أيًّا كانت الوسائل المستخدمة في الحصول عليه.

لم يكن المنفلوطي يجيد اللغة الفرنسيّة لينقل رواياته مباشرة إلى اللغة العربيّة، لذلك كان يخرج غالبًا عن الأصل، فيلجأ إلى الاستطراد والتطويل وإلى الحذف والإضافة، وفقًا لمزاجه، أو رغبة في إظهار مقدرته البيانيّة حينًا، واللغويّة حينًا آخر. وكان ميله إلى المداخلة، يدفعه إلى التخلّي عن الترجمة الحرفيّة والانصراف إلى إسداء النصائح والإرشادات، بما يتّفق مع المفاهيم الأخلاقيّة السائدة في بيئته، لأنّ معظم قرّائه كانوا من شبّان وشابّات مصر وسائر الأقطار العربيّة.

والرواية في أساسها، تدور حول فتًى اسمه استيفن من أسرة متوسّطة الحال، يحبّ المطالعة، ويتعشّق الموسيقى، ويأنس للطبيعة، ويجد لذّته في العزلة والبعد عن الناس؛ يترك منزله بعد وفاة أمّه وزواج أبيه، ليسكن وحيدًا في غرفة متواضعة، حيث يحبّ ابنةَ صاحب المنزل واسمها ماجدولين، فتبادله الفتاة الحبّ، فتتغيّر نظرة الفتى إلى الوجود، ويمتلئ قلبه

أملًا وبهجة. وتتكرّر اللقاءات بين استيفن وماجدولين في أحضان الطبيعة الخلّابة. وعلى ضفاف الأنهر، أو تحت شجرة الزيزفون القائمة في وسط حديقة المنزل، أو في زورق على صفحة البحيرة القريبة من المنزل، فيحلم العاشقان بحياة مستقبليّة سعيدة، ويرسمان في خيالهما صورة بيتهما العتيد الذي سيضمّهما، وسيكون بيتًا متواضعًا تحيط به حديقة مزروعة بأزهار البنفسج، وأشجار الزيزفون.

لكنّ السعادة التي بدأت تلوح معالمها في خاطر الحبيبين، قطعها والد الفتاة حين صارح ابنته بأنّه غير موافقٍ على العلاقة التي تربطها بذلك الفتى الذي لا يستطيع أن يوفّر لها السعادة التي تستحقّها. وحين حاولت ماجدولين إقناع والدها بالعدول عن رأيه، جاء ردّه سريعًا، حيث كتب إلى الفتى رسالة عاجلة يدعوه فيها إلى مغادرة المنزل. إزاء هذا الواقع، جاءت ماجدولين إلى حبيبها تودّعه الوداع الأخير، فتعاهدا على الوفاء، وتبادلا خصلات من شعرهما تكون خاتمًا في إصبع كلّ منهما، حتّى يمنّ الله عليهما باللقاء مجدّدًا.

افترق الحبيبان، لكنّ فراقهما كان بالجسد فقط، لأنّ علاقتهما الروحيّة ظلّت قويّة، تعبّر عنها الرسائل المتبادلة التي لم تنقطع. وعاد استيفن إلى منزل والده الذي انتهز فرصة عودة ولده إلى البيت، ليزوّجه بفتاة ثريّة، فأقام لهذه الغاية حفلة راقصةً في داره، وطلب إلى ابنه أن يراقص تلك الفتاة ويتودّد إليها، لكن الفتى لم يشأ أن يغضب أباه، فأذعن لمشيئته مكرهًا، لكنّه صارحه فيما بعد بأنّه لا يمكن أن يقبل بهذا الزواج، ممّا أغضب الوالد والأقارب، فقرّروا طرد استيفن من البيت إلى غير رجعة، فخرج باحثًا عن عمل شريف يكسب به قوته، ويستعيد به حريّته المسلوبة، ويؤمّن له العودة بكرامة إلى حبيبته بعد توفير المال اللازم لتحقيق حُلمهما المشترك.

في تلك الأثناء، أقام استيفن في بيت حقير، وراح يبحث عن عملٍ يؤمّن له القوت، وظلّت ماجدولين تبعث إليه برسائلها المتكرّرة مؤكّدة له بقاءها على العهد مهما طال الانتظار. وفي تلك الغرفة الحقيرة الضيّقة، يحلّ إدوار ضيفًا على صديقه استيفن، ويقاسمه المأكل والمشرب والفراش. وكان إدوار على وشك بلوغ سنّ الرشد، حيث يخرج من تحت وصاية عمّه، ويرث ثروة طائلة، فيحسن استيفن معاملة إدوار، وينقذه من الموت إثر فضيحة أخلاقيّة أقدم عليها. وتشاء الأقدار أن تحلّ ماجدولين ضيفةً على صديقتها الثريّة سوزان، فتتعرّف إلى أسلوب الحياة التي يعيشها الأغنياء، وتطلعها صديقتها على ما تملكه من الحليّ والجواهر، وتتبادل الصديقتان الأحاديث والشجون، فتعرف ماجدولين أن صديقتها سوزان تعشق شابًّا غنيًّا مثلها، وأنّها على وشك أن تتزوّجه، فتبوح لصديقتها بحبّها لاستيفن الذي تنتظر عودته إليها بعد تغيّر حاله، فتلومها سوزان أشدّ اللوم، وتقنعها بأن تتخلّى عن أوهامها وتتزوّج صديقها إدوار الذي ورث ثروة لا بأس بها، وهو قادر أن يوفّر لها السعادة التي تصبو إليها كلّ فتاة.

وتمرّ الأيّام، ويرث استيفن ثروة أحد أعمامه، وينصرف إلى إعداد العدّة لتنفيذ حلمه، فيباشر بإنشاء البيت الذي سيضمّه مع حبيبته، والحديقة التي تحيط به، لينصرف بعدها إلى مفاجأة حبيبته بالخبر، وحين يدخل عليها في حديقة بيتها ليبلغها الخبر، يُفاجأ بها جالسة إلى جانب إدوار الذي خطبها إلى أبيها وهما على وشك أن يتزوّجا، وقد وضعت في إصبعها خاتمًا من الماس، مكان الخاتم الذي نسجته من شعره، وتعهّدت له بأنّه سيظلّ في إصبعها إلى آخر أيّام حياتها.

إزاء هذا الواقع المؤلم، يصاب استيفن بما يشبه الجنون، فيعتلّ جسمه، وتسوء حاله، ويدخل المستشفى، ويشرف على الموت، ولا يعود إلى رشده إلّا بعد أن تزوره ماجدولين برفقة صديقه إدوار، ويتأكّد أنّها لم تعد له ولا يمكن أن تعود إليه، فيعدل عن فكرة الانتحار، وينصرف كليًّا إلى الموسيقى، ويبرع فيها، ويصبح من أبرز أركانها. أمّا إدوار، فسرعان ما تسوء علاقته بزوجته تدريجيًّا كما تسوء حاله الماليّة، فيبدّد ثروته في القمار والشراب، ويعلن إفلاسه. فيبيع قصره، ويهاجر، حيث ينتحر بعيدًا عن زوجته الحامل التي تبيع بيت أبيها لتفي ديون زوجها.

وتتّصل ماجدولين باستيفن، بعد أن حلّت بها الكوارث المتعاقبة معلنةً توبتها، فتكتشف أنّه ما زال على حبّه لها، لكنّ كرامته تأبى عليه أن يعود إليها بعد الطعنة التي وجّهتها إليه. ومع ذلك فإنّه يبذل لها ولطفلتها أقصى حدود المعونة. وتتوالى الأحداث، فتأتي ماجدولين إلى بيت استيفن صباحًا، حيث تترك طفلتها الرضيعة مع رسالة مختومة تعلن فيها أنّها قررت الانتحار غرقًا في النهر المجاور، وأنّها تترك أمر طفلتها إليه. ولمّا أُبلغ استيفن بالأمر، هبّ مسرعًا إلى النهر، فاستعان بزورق أحد أصدقائه واستطاع انتشال ماجدولين إلى الشاطئ حيث تبيّن أنّها فارقت الحياة. وحين عاد استيفن وقرأ وصيّة ماجدولين، قرّر وضع حدّ لحياته، فأنشد سمفونيّة الموتى على غرار الموسيقار الكبير بيتهوفن، ثمّ استشهد الحاضرين أنّ جميع ما يملكه قسمة بين صديقه فرتز وماجدولين الصغيرة. وأوصى صديقه فرتز أن يدفنه مع ماجدولين في قبرها، وأن يتولّى شأن الطفلة الصغيرة حتّى تكبر وتختار زوجها بنفسها. وهكذا ضمّ ذلك القبر رفات حبيبين، فرّقتهما الحياة، وجمعهما الموت.

١ ـ من ماجدولين إلى سوزان

سواءٌ لديَّ أقرأتِ كتابي هذا أم مَزَّقتِهِ، فهو خِلْوٌ من كلِّ شيءٍ يهمّكِ العلمُ به أو النّظر إليه.

كلّ ما يمكنني أنْ أُطرفَكِ به من الأخبارِ، أنْ أقولَ لكِ: إنّ أشجارَ الربيعِ قد بَدَأتْ تبتسمُ عن أزهارِهَا، وإنّ النسيمَ العليلَ يحملُ إليَّ في غرفتي هذه الساعةَ التي أكتبُ إليكِ فيها، شذَى أوّلِ زهرةٍ من زهراتِ البنفسجِ وأوّلِ عودٍ من أعوادِ الزنبق.

ويمكنُني أنْ أخبرَكِ أيضًا - وإنْ كنتُ لا أعرفُ لمثلِ هذه الأخبارِ معنًى - أنَّ الغرفةَ التي كانتْ خاليةً في الدورِ الأعْلى من منزلنا، قد سَكَنَها اليومَ فتًى اسمُه «استيفن»، غريبُ الأطوارِ في وحشتِهِ، ونفورِهِ، وانقباضِهِ عن الناسِ، حتّى يكادُ يَظُنُّ الناظرُ إليه أنّه بائسٌ أو منكوبٌ، فهو ينزلُ في صبيحةِ كلِّ يومٍ إلى الحديقةِ، وبيدِهِ كتابٌ واحدٌ لا يغيّره، فإذا جلسَ للقراءَة فيه، علقَ نظرُه بأوّلِ سطرٍ يمرّ بهِ، ثمّ لا ينتقلُ عنه بعد ذلكَ، فهو في الحديقةِ مُطْرِقٌ إلى الأرضِ من حيثُ يظنُّ الرائي أنّه يقرأُ في كتاب.

فإذا رآني مارّةً أمامَهُ، رفَعَ رأسَه إليَّ وحيّاني تحيّةً وجيزةً، ثمّ انتقلَ من مكانِهِ وانسابَ بين الأشجارِ، أو صعدَ إلى غرفتِهِ. لذلكَ لم تتّصِلْ بيني وبينه معرفةٌ حتّى اليومَ، وربّما لا يقعُ شيءٌ من ذلكَ فيما بعد، لأنّي لا ألتمسُ السبيلَ إلى التَعرُّف به، ولا أحسَبُ أنّه يلتَمِسُه، فإنْ كنتِ لا بدَّ سائلةً عمّا يتساءَل عنهُ النساءُ في مثلِ هذا الموقفِ، فأقولُ لكِ: إنّ الفتى ليس بجميلٍ ولا جذّابٍ، بل إنّ في منظرِه من الخشونةِ والجمودِ، ما يُنَفِّرُ نظرَ الناظِر إليه؛ وأحسنُ ما فيهِ أنّي سَمِعْتُه ليلةً، وكانتْ نافذةُ غرفتي مفتوحةً، يغنّي غناءً شجيًّا مؤثّرًا، وإنْ كانَ لا يجري فيه على قاعدةٍ من قواعدِ النغمِ، فهو يُطْرِبُ البؤساءَ والمحزونين، ولا يُعْجِبُ الموسيقيينَ المتفنّنين.

ولقد تمكّنَ أبي من مجالسَتِهِ هنيهةً، فحدّثني عنه أنّه من المتعلّمين، الأذكياء؛ وبعد: فأحسَبُ أنّي أمْلَلْتُكِ، يا سوزان، بحديثٍ يتعلّقُ بإنسانٍ لا شأنَ لي ولا لكِ معه، فلا تعتبي عليَّ، فهذا كلُّ ما تستطيعُ أن تملأَ به صفحاتِ كتابِها فتاةٌ تعيشُ في قريتِهَا الصغيرةِ عيشًا متشابهَ الصورِ والألوانِ، لا فَرْقَ بين ليلِهِ ونهارِه، وصُبحِه ومسائِه، لا تطلع الشمسُ فيه على مرأًى جديدٍ، ولا تغربُ عن منظرٍ غريب.

❁ ❁ ❁

٢ ـ من ماجدولين إلى سوزان

الجوُّ رائقٌ، والسماءُ مصحيةٌ، وقرصُ الشمسِ يلتهبُ التهابًا؛ والأرضُ تهتزُّ، فتنبتُ نباتًا

حسنًا، والأرضُ تنتفضُ عن أوراقِها اللامعةِ الخضراءِ، والهواءُ الفاترُ يترقرقُ، فينبعثُ إلى الأجسامِ فيتركُ فيها أثرًا هادئًا لذيذًا، وكلّ ذلك لا قيمةَ لهُ عندي، ولا أثرَ له في نفسي، فإنّي أشعرُ أنّ الحياةَ مظلمةٌ قاتمةٌ، وأنّ هذا الفضاءَ، على سَعَتِه وانفراجِ ما بينَ أطرافه، ضيّقٌ في أعيني من كفّة الحابل[١]. وأنّ منظرَ العالم قد استحالَ إلى شيءٍ غريبٍ لا أعرفُه ولا عَهْدَ لي بمثلِهِ، فأظلُّ أنتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، وأفرُّ من الحديقةِ إلى المنزلِ ومن المنزلِ إلى الحديقةِ، كأنّني أفتّشُ عن شيءٍ، وما أفتّشُ عن نفسي التي فَقَدْتُها، ولا أزالُ أنشُدُها.

فإذا نالَ منّي التعبُ، أويتُ إلى أشجارِ الزيزفونِ في الحديقةِ، لأستريحَ في ظلالها قليلًا، فلا يكادُ يعلقُ نظري بأوّلِ زهرةٍ يروقُني منظرُهَا من بين أزهارِها، حتّى أشعرَ كأنّي أنتقلُ من هذا العالمِ شيئًا فشيئًا، إلى عالمٍ جميلٍ من عوالم الخيالِ، فأتغلغَلُ فيه كما يتغلغلُ الطائرُ المحلّقُ في غمارِ السحبِ، وتمرّ بي على ذلك ساعاتٌ طوالٌ، لا أعودُ بعدَها إلى نفسي، إلّا إذا شعرتُ بسقوطِ الكتابِ من يدي، فإذا استفقْتُ وجدتُني لا أزالُ في مكاني، ولا يزالُ نظري عالقًا بتلكَ الزهرةِ الجميلةِ التي وَقَفْتُ عليها.

يقولون إنّ فَصْلَ الربيعِ فصلُ الحبّ، وإنّ العواطفَ تضطرمُ فيه اضطرامًا، فتأنسُ النفوسُ بالنفوسِ، وتقتربُ القلوبُ من القلوبِ، وتمتلئُ الحدائقُ والبساتينُ بجماعاتِ الطيرِ صادحةً فوقَ زواهرِ الأغصانِ، وجماعاتُ الناسِ سائحةً بين صفوفِ الأشجارِ. أمّا أنا، فلا أصدّقُ من كلّ هذا شيئًا، فإنّ أجملَ الساعاتِ عندي تلكَ الساعةُ التي أخلو فيها بنفسِي، فأناجِيها بهمومي وأحزَاني، وأذرفُ من العبراتِ ما أبرّدُ به تلك الغلّةَ التي تعتلجُ[٢] في صدري.

وأعجبُ ما أعجبُ له من أمرِ نفسي، أنّني أبكي على غيرِ شيءٍ، وأحزنُ لغيرِ سببٍ، وأجدُ بين جنبيّ من الهمومِ والأشجانِ، ما لا أعرفُ سبيلَهُ ولا مأتاهُ، حتّى يُخَيّلُ إليّ أحيانًا أنّ عارضًا من عوارضِ الجنونِ قد خالطَ عقلي، فيشتدُّ خوفي واضطرابي.

إنّ الذين يعرفونَ أسبابَ آلامهم وأحزانهم غيرُ أشقياءَ لأنّهم يعيشونَ بالأملِ ويحيَوْنَ بالرجاءِ. أمّا أنا، فشقيّةٌ لأنّي لا أعرفُ لي داءً فأعالجُهُ، ولا يومَ شفاءٍ فأرجوه.

كلُّ أسبابِ العيشِ حاضرةٌ لديَّ، وأبي لا يعرفُ له سعادةً في الحياةِ غيرَ سعادتي، ولا هناءَ غيرَ هنائي، ولا يعجبُهُ منظرٌ من مناظرِ الجمالِ في العالم، سوى أنْ يراني باسمةً، ويرى أزهارَ حديقتِهِ ضاحكةً، بل ربّما أغفلَ أمرَ حديقَتِهِ أحيانًا، حتّى تذبلَ أوراقُها وتموتَ زهراتُها في سبيلِ قضاءِ مرافقي وحاجاتي، فأنا إنْ شكوتُ فإنّما أشكو بَطَرًا وأشرًا[٣]، وكفرانًا بأنعُمِ اللهِ التي يُسْبِغُها[٤] عليّ، ويُسْدِيها إليّ، فغفرانَك اللهمَّ ورحمَتَك، فإنّي ما اعترفتُ بجميلِكَ، ولا أحسنتُ القيامَ بشكرِ أياديك.

---

(١) الحابل: الصائد.

(٢) تعتلج: تضطرب.

(٣) الأشر: نكران النعمة.

(٤) أسبغ النعمة: أنجزها وأتمّها.

إنّي لأذكرُ، يا سوزان، تلكَ الأيامَ التي قضيناها معًا، وتلكَ السعادةَ التي كنّا نهصرُ[١] أغصانها، ونجني ثمارها، ونطيرُ في سمائها بأجنحةٍ من الآمالِ والأحلامِ، فأندُبُها وأبكي عليها، وأحِنُّ إليها حنينَ الليلِ إلى مطلعِ الفجرِ، والجَذْبِ إلى ديمة[٢] القَطْر.

❁ ❁ ❁

٣ - من إداور إلى استيفن

الآنَ عرفتُ أنّكَ لا تثقُ بي ولا تعتمدُ عليَّ، وأنّكَ لا تزالُ تنظرُ إليَّ بالعينِ التي تنظرُ بها إلى أولئكَ الذينَ آثرتَ مغاضبَتَهُمْ والتبرّمَ بهم من أفرادِ أسرَتِكَ. فقد كتمتَ عنّي ما كنتُ أرجو أن تفضِيَ به إليَّ من تبرُّمِ ذاتِ نفسِكَ فيما اعتزمتَ عليه من رحلتِكَ، لأعرفَ ماذا تريدُ وأينَ تريدُ، ولكنّي لم أؤثر أن أنزلَ بكَ في الودّ إلى المنزلةِ التي نزلتَ بي إليها، فلم أرَ بدًّا من أنْ أكتُبَ إليك.

إنّا نَبَتْنَا معًا، يا استيفن، في تربةٍ واحدةٍ، تحتَ سماءٍ واحدةٍ، يغذونا ماءٌ واحدٌ وجوٌّ واحدٌ. وما زلنا كذلكَ حتّى شَبَبْنَا، فاختلَفنَا كما تختلفُ الشجرتانِ المتجاورتانِ في منبتهما ثمرةً وشكلًا. ولذلك أنتَ تفرُّ منّي الفرارَ كلَّه، وتنقبضُ عنّي، ولا تراني أسلُكُ فجًّا من فِجَاجِ الأرضِ، إلّا سلكْتَ فجًّا غيرَه، لأنّكَ أصبحتَ تسعَدُ بحياةٍ غيرِ التي أسعدُ بها، وتهنأُ بعيشٍ غيرِ الذي أهنأُ به، وتطربُ لنغمةٍ غيرِ التي تسمَعُها منّي؛ ولا تستطيعُ أنْ ترى في وجهي تلكَ المرآةَ التي تحبُّ أن ترى فيها صورَتَكَ واضحةً جليّةً، لا غموضَ فيها ولا إبهام.

إنّكَ لا تبغضني، يا استيفن، ولكنّكَ لا تحبّ أن تراني، لأنّكَ تعلمُ أنّ لي في الحياة رأيًا غيرَ رأيكَ، وطريقًا غيرَ طريقِكَ، فأنتَ تخافُ أنْ تسمعَ منّي ما يفجعُكَ في تصوّرَاتِك وأحلامِك، ويكدّرُ عليك لذائذَكَ التي تجدُها في العيشِ في ذلكَ العالمِ الخياليّ المظلم، وتقنعُ بها فيهِ قَناعةَ الشعراءِ المحزونينَ بالعيشِ بين أشباحِ خيالاتهم السوداء.

كنْ كما تشاءُ، وعِشْ كما تريد، فستنقضي أيّامُ شبابكَ، وستنقضي بانقضَائِها أمانِيّكَ وأحلامُكَ؛ وهنالك تنزلُ من سمائِكَ التي تطيرُ فيها، إلى أرضي التي أسكُنُهَا، فنتعارفُ بعد التناكُرِ، ونتواصلُ بعد التَقاطُعِ، ونلتقيَ كما كنّا.

لا بدّ أنْ نفترقَ اليومَ، لأنّنا غيرُ متّفقينَ، ولا بدّ أن نجتمعَ بعد اليومِ، لأنّنا سنتّفقُ؛ فلا بأسَ أنْ تكتبَ إليَّ وأكتبَ إليكَ، وأن نتواصلَ على البعدِ إبقاءً على تلكَ الصلةِ التي بيننا، واحتفاظًا بها، ورعايةً لها، حتّى يأتيَ ذلك اليومُ الذي تجلو فيه عن نفسِها، وتبرزُ من مَكْمَنِها.

إنّ أهلك يَعْجَبُون لأمرِكَ كثيرًا، ويرونَ أنّكَ مَكَرْتَ[٣] بهم، وأَضْلَلْتَهُمْ عن مقاصدِكَ

---

(١) نهصر: نكسّر. (٢) الديمة: المطرة الخفيفة.

(٣) مكرت: من المكر أي الخداع.

وأغراضِكَ، فسافرتَ خفيةً من حيثُ لا يعلمونَ بأمرِك، ولا بنيّتك التي انتوَيْتَها، ويقولونَ إنّكَ ما سافرتَ على هذه الصورةِ، إلّا لأنّكَ عَدَلْتَ عن رأيكَ في الزواجِ من تلكَ الفتاةِ التي أعدّوها لكَ، وعندي أنّهم أصابوا فيما يقولونَ، وأنّك مخطئٌ فيما فعلتَ، لأنّكَ تعلمُ أنّ والدَكَ فقيرٌ لا يملكُ من المالِ أكثرَ مما يتّسعُ لأيّامِ حياتِه، ولقد كانَ لكَ في هذا الزواجِ من تلك الفتاةِ التي اختارها لكَ، حظّكَ من سعادةِ العيشِ وهنائِه لولا أنّكَ شاعرٌ؛ والشعراءُ يفهمونَ من معنى السعادةِ غيرَ ما يفهَمُه الناسُ جميعًا.

أخوكَ يحبّكَ كثيرًا، ولا يزالُ يحدّثني عنكَ كما أحدّثُه، فاذكُرْنا كما نذكُرُكَ واكتبْ إلينا بكلِّ شيءٍ.

❀ ❀ ❀

٤ ـ خواطر استيفن

مضى الليلُ إلّا أقلّه، ولم يبقَ إلّا أنْ تنفجرَ لِمَّةُ[١] الظلام عن جبينِ الفجرِ، ولا أزالُ ساهرًا قلقَ المضجعِ، أطلبُ الراحةَ فلا أجِدُها، وأهتفُ بالغمضِ فلا أعرفُ السبيلَ إليه.

إنْ كانَ إدوار يسخرُ منّي في كتابهِ ويهزأ بي، وينذِرُني بيوم أرى فيه أوهامًا كاذبةً وأحلامًا باطلة، ما كنتُ أحسبُه أمانيَّ وآمالًا، ويرى أنّ جميع ما أُقدّرهُ لنفسي من سعادةٍ في الحياةِ وهناءٍ، أشبهُ شيءٍ بالخيالاتِ الشعريّة التي يسعدُ الشعراءُ بتصوُّرِها، ولا يسعدونَ بوجودها. فلَئِنْ كانَ حقًّا ما يقوله، فما أمرّ طَعْمَ العيشِ، وما أظلَمَ وجهَ الحياة.

لا . . لا . . إنّ الذي غرسَ في قلبي هذه الآمالَ الحسانَ، لا يعجزُ عن أن يتعهّدها بلطفِهِ وعنايتِهِ، حتّى تخرجَ ثمارُهَا، وتتلألأ أزهارُهَا، وإنّ الذي أنبتَ في جناحي هذه القوادم[٢] والخوافي، لا يرضى أن يهيضَني ويتركَني في مَكَاني كَسِيرًا، لا أنهضُ ولا أطير. وإنّ الذي سَلَبني كلّ ما يأملُ الآملونَ في هذه الحياةِ من سرورٍ وغبطةٍ، ولم يبقَ لي منها، إلّا حلاوةُ الأملِ ولذّتُهُ، لأجَلُّ من أن يقسوَ عليَّ القسوةَ كلّها، فيسلبَني تلكَ الثُمالة[٣] الباقيةَ التي هي مِلاكُ[٤] عيشي، وقوامُ حياتي. . .

على أنّني ما ذهبتُ بعيدًا، ولا طلبتُ مستحيلًا. فكلّ ما أطمعُ فيه من جمالِ هذا العالمِ وزخرفِهِ، رفيقٌ آنسُ بقُرْبِهِ وجوارِه، وأجدُ لذّةَ العيشِ في التحدُّثِ معه، والسكونِ إليه؛ وما الرجالُ كما يقولونَ، إلا أنصافٌ مائلةٌ تطلبُ أنصافها الأخرى بين مخادِعِ النساءِ، فلا يزالُ الرجلُ يشعرُ في نفسِه بذلكَ النقصِ الذي كان يشعرُ به آدمُ قبل أن تتغيّرَ صورةُ ضلعِهِ الأيسرِ،

---

(١) اللِمَّة: ما تفرّق من الشَعر.

(٢) القوادم: الريش الكبير في جناح الطائر.

(٣) الثمالة: البقيّة.

(٤) ملاك الأمر: قوامه وعنصره الأساسي.

حتّى يعثرَ بالمرأةِ التي خُلِقَتْ له، فيقرّ قرارُه، ويُلقي عصاه.

وبعدُ: فأيُّ مقدورٍ من المقدوراتِ تضيقُ به قوّةُ اللهِ وحكمتُهُ؟ وأيُّ عقلٍ من العقولِ الإنسانيّةِ يستطيعُ أن يبدعَ في تصوّراتِهِ وتخيّلاتِهِ الذهنيّةِ، فوقَ ما تبدعُ يدُ القدرةِ في مصنوعَاتها وآثارِها؟ وهل الصوَرُ والخيالاتُ التي تمتلئ بها أذهانُنا، وتموجُ بها عقولُنا، إلّا رسومٌ ضئيلةٌ لحقائقِ هذا الكونِ وبدائِعِه؟ ولو أنّ سامعًا سمعَ وَصْفَ منظرِ الشمسِ عندَ طلوعها، أو مهبطِ الليلِ عندَ نزولِه، أو جمالِ غابةٍ من الغاباتِ، أو شموخِ جبلٍ من الأجبالِ، ثمّ رأى بعد ذلكَ عيانًا، ما كان يراهُ تصوّرًا وخيالًا، لَعَلِمَ أنّ جمالَ الكائناتِ فوقَ جمالِ التصوّراتِ، وحقائقَ الموجوداتِ فوقَ هواتفِ الخيالاتِ، لذلكَ أعتقدُ أنّي ما تخيّلْتُ هذه السعادةَ التي أقدّرُها لنفسي، إلّا لأنّها كائنٌ من الكائناتِ الموجودةِ، وأنّها آتيةٌ لا ريبَ فيها.

إنّ اليومَ الذي أشعرُ فيه بخيبةِ آمالي، وانقطاعِ حبلِ رجائي، يجبُ أن يكونَ آخرَ يومٍ من أيّام حياتي. فلا خيرَ في حياةٍ يحيَاهَا المرءُ بغيرِ قلْبٍ، ولا خيرَ في قلبٍ يخفقُ بغيرِ حبّ.

❋ ❋ ❋

٥ ـ الحبّ

نزلَ استيفن صبيحةَ يومٍ من الأيّام إلى حديقةِ المنزلِ، فرأى «مولر» والدَ ماجدولين واقفًا على رأسِ بعضِ الجداولِ، متكئًا على فأسِه، فلم يرَ بدًّا من أنْ يُحَيّيه، فحيّاه بتحيّةٍ حيّا بأحسنَ منها، ثم أرادَ أن يستمرّ أدراجَهُ، فرآه ينظرُ إليه نظرةَ المستوقفِ، ورأى كأنّ كلامًا يتحيّر في شدقيهِ، فاستحيا أنْ يمضيَ لسبيلِهِ، فوقف، فقال له مولر: ما أجملَ شمسَ هذا اليوم! وما أصفى سماءَه! فأرادَ استيفن نفسَه على كلمةٍ، يصلُ بها الحديثَ بينه وبينه، فلمْ يرَ شيئًا أقربَ إلى ذهنِهِ من أن يسألَه عن ابنتِهِ؛ ثمّ بدا له أنّه إنْ فعلَ، أرابَه، وألقى في نفسِه أمرًا غيرَ الذي يريدُ، وهي المرّةُ الأولى التي خطرَ له فيها أنّ في سؤالِ الرجلِ عن حالِ ابنته شيئًا غريبًا، أو أمرًا مريبًا.

ثمّ استمرّ مولر في حديثه يقول: إنّ منظرَ الطبيعةِ في هذه الساعةِ جميلٌ جدًّا، لا يكدّره عليَّ إلّا تلكَ الرعدةُ التي أشعرُ أنّها تتمشى في أعضائي، فما أمرَّ مذاقَ الشيخوخةِ! وما أثقلَ مؤونَتَها! وسلامٌ على الشبابِ وعهودِه الزاهرة، أيّام كنتُ لا أحفلُ بنكباء[1] ولا رمضاء[2]، ولا أبالي أنْ أبكّرَ في صبيحةِ كلّ يوم، تبكيرَ الغرابِ إلى قِممِ الجبالِ، وشواطئِ الأنهارِ، عاريَ الرأسِ، حافيَ القدمِ؛ أمرحُ، وألعبُ، وأتأثّرُ[3] طرائدَ الصيدِ في مسارحها وملاعبها، فأصبحتُ ولم يبقَ لي من تلكَ الذكرياتِ، إلّا وقوفي في هذه الضاحيةِ تحتَ هذه الشمسِ

(١) النكباء: الريح بين ريحين. (٢) الرمضاء: شدّة الحرّ.
(٣) تأثر: تتبّع الأثر.

المشرقةِ أنسجُ من خيوطِهَا البيضاءِ كساءً أتّقي به هذه الرعدة، وأمتّعُ نظري برؤيةِ الفتياتِ الصغيراتِ صواحبِ ماجدولين، وهنّ يلعبنَ معها فوق تلكَ الهضبةِ الثلجيّة.

وهنا وجدَ استيفن مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ، فقال: إنّ ماجدولين لم تنزلِ اليومَ كعادَتِها، فلعلّها بخيرٍ؟ قال: نعمْ، هي بخير، ولكنّ ضيفًا من أقربائنا نزلَ بنا أمسِ، فلم أرَ بدًّا من أن أوكلَ إليها أمرَه، والعنايةَ به، فتركتُهُما وذهبتُ لشأني، وإنْ كنتُ أعلمُ أنّ ماجدولين ليس في استطاعَتِهَا الصبرُ عن النزولِ إلى الحديقةِ، ولا يقنعُها من الشمسِ تلكَ الخيوطُ البيضاءُ التي تنحدرُ إليها من نافذةِ غرفَتِها. ثمّ ذهبا في الحديثِ بعد ذلكَ مذاهبَ مختلفةً. وإنّهما لكذلك إذْ فُتِحَ بابُ المنزلِ، وإذا ماجدولين وأرشميد، مقبلانِ، يحدّثها، فتتهلّل، وتحدّثه فيبتسمُ، وكأنّ منظرَهُما منظرُ عاشقَين يتغازلان، لا قريبَينِ يتسامرانِ، فخُيِّل لاستيفن أن هذا المشهدَ الذي يشهدُه غيرُ مستحسنٍ، ولا مستعذب.

ثمّ اقتربا منه، فصدَفَ[1] عنهما، يتلهّى بالنظرِ إلى بعضِ الزهراتِ، ووَدّ لو وجدَ السبيلَ إلى الهربِ لولا أنّهما اعترضَا طريقَه، فسلّما عليهِ، فردَّ ردًّا فاترًا.

ثمّ تركَهما مكانَهما، وانحدرَ إلى خميلةٍ من الخمائلِ، فما خَطَا فيها بعضَ خطواتٍ، حتّى سمع الفتى يُغرِبُ في الضَحِكِ، فما شكّ أنّهما في شأنه، وأنّه قد أصبحَ موضوعَ هزئهما وسخريّتهما، وأنّهما ما ضَحِكا، إلّا للعبثِ به، والزّرايةِ عليه، فأحسّ في قلبه بدبيبِ البغضِ لذلك الفتى، وودّ بجَدْعِ الأنفِ لو وجَدَ السبيلَ إلى منازلته في ميدانِ خصامٍ، يضربُه فيه ضربةً تهشّمُ أنفَه، وتخضّبُ الذي فيه عَيناهُ، ليُقْنعَه أنّه ليس سخريةَ الساخرِ، ولا أضحوكةَ الضاحك.

ثمّ عاد إلى نفسه يسائِلُها عن السببِ في انقباضِهِ ووحشتِهِ، وعن تلكَ الحالِ الغريبةِ التي ألمّتْ بفؤادِه منذُ الساعة، ويقول: ما لي ولهذا الفتى؟ وبأيّ حقّ أحملُ له بين جنبي ما أحملُ من الضغينةِ والموجدة[2]، فما أنا بعاشقٍ للفتاةِ، فأغارُ منه عليها، ولا هو بمزاحم لي على هوًى، فأبغضُه فيه. ولم يزَلْ يسائلُ نفسَه أمثالَ هذه الأسئلةِ، فلا تجيبُه، ويراجعُ عَقلَهُ، فلا يَهْدِيه، حتّى عرفَ أنّه لا يسمعُ خارجَ الخميلةِ صوتًا، فبرزَ من مكمنِه فلمْ يرَ أمامَه أحدًا، فخرجَ من الحديقةِ هائمًا على وجهه بين الغاباتِ والأحراشِ، حتّى أدبرَ النهار.

فعادَ إلى المنزلِ، وصعدَ إلى غرفته، وإنّه لَيَمُرّ أمامَ بابِ غرفة ماجدولين إذْ سمعَ صوتَ حديثٍ، فذكرَ ما كان قد نَسِيه، وعلمَ أنّها تسمَرُ مع قريبها أرشميد، وأنّه لا بدّ أنْ يكونَ سعيدًا بهذا الحديثِ، وهذه الخلوة، فَنَفِسَ[3] عليه ذلك، ولا يَنْفَسُ الإنسانُ على صاحبه شيئًا يكونُ في نظرِهِ حقيرًا. فتريّثَ في مشيته قليلًا، حتّى علمَ أنّه إنْ دنا من بابِ الغرفة، لا يشعران بموقِفِه، فَدَنا منهما، وأنشأ يتسمّعُ حديثهما، فلم يفهمْ كلمةً مما يقولان.

---

(١) صدف عنه: مال وانصرف.

(٢) الموجدة: الكره والضغينة.

(٣) نَفِس عليه الأمر: حسده عليه.

ثمّ انقطعا عن الحديث، وأنشأتْ ماجدولين تغنّي غناءً شجيًا قد يكونُ عذبًا لذيذًا في نفسِ استيفن، لولا أنّ أذنًا أخرى غيرَ أذنه تزاحِمُه على سَمَاعه. ثمّ انقطع الغناءُ أيضًا، فسمعَ خَفْقَ نعالٍ تتقدّم نحو الباب. فابتعدَ عن مكانه، حتّى خرجَ الفتى، وخرجتْ ماجدولين وراءَه، تشيّعه في غلالةٍ رقيقةٍ بيضاءَ لا تلبسُها الفتاةُ إلّا بين يدي عشيقها، أو من لا تحتشِمُه من ذوي قرباها، فرأى في وجهِهَا صورةً جديدةً غيرَ التي كانَ يراها من قبلُ، وأحسّ في نفسِه بشيءٍ غيرِ الذي كان يحسّ به عندَ رؤيَتِها.

ثمّ عادتْ إلى الغرفةِ، وأغلقتِ البابَ وراءَها، فعادَ إلى موقفِه الأوّلِ، وما زالَ راكعًا أمامَ بابها، حتّى مشتْ جذوةُ[1] النهار في فحمةِ الليل، فصعدَ إلى غرفته، وقد علم أن الذي قام بنفسِه منذُ اليومِ ليس الهذيانُ، ولا الجنونُ ولا الوسواسُ، ولا حرارةُ الحمى كما كان يظنّ، وإنما هو الحبّ!.

٦ ـ الدعوة

دخلَ مولر على ابنتِه ذاتَ يوم، فقال: يا بنيّة، إنّي دعوتُ اليومَ جارَنا الذي يسكنُ في الغرفةِ العليا من منزلِنا إلى العشاءِ عندَنَا في الساعةِ السابعةِ، فأعِدّي له الطعامَ، واعلمي أنّك ستُغَنّينا في هذه الليلةِ، فقد وَعَدْتُه بذلكَ، وقد لقيتُ من كرمِ هذا الفتى، وعُلوِّ همّته، وشدّة عارضتِه، وكثرةِ ذكائِه، وسَعَة علمِهِ بالنباتِ وطبائِعِه، ما حَبَّبَهُ إليّ، وأنزَلَه من نفسي المنزلةَ العليا، ولا بدّ أنْ أتّخذَه صديقًا، وأن تكونَ تلكَ الدعوةُ فاتحةَ تلكَ الصداقةِ. ثمّ تركَها، وخرجَ إلى الحديقةِ وظلّ مشتغلًا بشأنِه فيها، حتّى مالتِ الشمسُ إلى مغربِها، فعادَ إلى المنزلِ، وجلسَ إلى نافذةِ غرفتِهِ المطلّة على الحديقةِ، ينتظرُ ضيفَه.

وإنّه لكذلك، إذْ رآهُ خارجًا من بابِ الحديقةِ، يعدُو عَدْوًا شديدًا، وفي يده رسالةٌ مفضوضَةٌ[2]، فهتفَ بابنته يقولُ: يا مجدولين، ما أحسبُ إلّا أنّ جارَنا قد حِيلَ بينه وبينَ الوفاءِ بوعدِه، فقد رأيتُهُ الساعةَ خارجًا، يعدو من بابِ الحديقةِ، ثمّ رأيتُه قد سلكَ تلكَ الطريقَ التي لا ينتهي فيها السائرُ إلى غرضٍ إلّا بعدَ سفرِ عشرةِ أميالٍ. فقالت: لا بدّ أن يكونَ قد عرضَ له شأنٌ ما كانَ يقدّرُه في نفسِه. فلا بدّ أن ننتظِرَه حتّى يعود. ثمّ جلسا صامتَين، هذا يدخّنُ لفافَتَه وتلكَ تخيطُ ثوبَها، حتّى عَلِمَا أنّه لن يعودَ، فقاما إلى العشاءِ، ثمّ إلى المنام.

❋ ❋ ❋

(١) الجذوة: الحمرة الملتهبة. (٢) مفضوضة: مفتوحة.

٧ ـ الزيارة

جلسَ مولر إلى ابنتِه، فنظرَ نظرةً في النجوم، وقال: ما أحسبُ إلّا أنّ السماءَ ستمطِرُنا في هذه الليلةِ مطرًا غزيرًا، يبلّلُ هذه التربةَ الظامئةَ، ويملأُ هذهِ البقاعَ الجرداء، فما أجملَ الربيعَ! وما أجملَ غيوثَه المنهلّةَ! وما أجملَ أرضَه بعد أن يكسوها الغمامُ من نسج يده تلكَ الغلائلَ الخضراء! فقالت ماجدولين: لا تنسَ يا أبتِ، أنّ كثيرًا من ضعفاءِ السابلةِ[١]، وطرائدِ الليلِ، يعانونَ في مثل هذه الليلةِ الماطرةِ من تدفّقِ الغيوثِ فوقَ رؤوسِهم واعتراضِ الوحولِ في طريقِهم، وبُعْدِ الشقّة عليهم ما لا طاقةَ لهم باحتماله، فوا رحمتاه لهم! إنّ الشقاءَ كامِنٌ لهم في كلّ شيءٍ، حتّى في الشؤونِ التي يسعدُ بها غيرُهُم.

فاكتأَبَ مولر، وقال: نعم يا ماجدولين إنّهم أشقِياءُ بؤساءُ، ولا بدّ أن يكونَ استيفن واحدًا منهم، فقد مرّ الهزيعُ[٢] الأول من الليل، ولم يعدْ إلى المنزلِ حتّى الساعةِ، بعد ما قضى ليلةَ أمسِ خارجَه، فأخذتْ هذه الكلمةُ مكانَها من نفسِ ماجدولين، فأطرقتْ برأسِهَا، تقلّبُ صحائِفَ كتابها، ولا تقرأُ منهُ شيئًا. وإنّهما لكذلكَ، إذا طارقٌ يخفقُ الباب خفقًا ضعيفًا، فاضطربتْ ماجدولين، ودهشَ مولر، وقامتْ جنفياف إلى البابِ ففتَحْته، فإذا استيفن ماثلٌ بعتَبتِهِ، فاستأذنَ ودخلَ، وهو يقول: عفوًا يا سيّدي، إنْ كنتَ ترى أنّني لم أفِ لكَ بوعدي، فقدْ أرسلَ إليّ أخي كتابًا، يدعوني فيه إلى مقابلتِهِ على الحدودِ لتوديعِهِ قبلَ سفرِه إلى الحرب، فأعجَلَني كتابُه عن كلّ شيءٍ، حتّى عن اعتذاري إليكَ.

فمشيتُ إليه عشرةَ أميالٍ، لا أتريّثُ، ولا أتّئد[٣]، حتّى بلغتُهُ، فودّعْتُه وداعًا جمعَ بين السرورِ له، والحزنِ عليه. أمّا السرورُ، فلأنّي رأيتُه فرحًا مغتبطًا برحلتِهِ، يغنّي أنشودَة الحربِ مرّة، ويلاعبُ جوادَه أخرى، ويمشي مشيَةَ الخُيَلاء بين ريشِ قبّعتِهِ وخمائلِ سيفه. وأمّا الحزنُ، فلأنّي أخافُ أن يسبقني القدرُ إليه، فيحولَ بيني وبينه، فأصبحُ في هذه الحياةِ غريبًا منفردًا، لا أجدُ بين هذه القلوبِ الخافقةِ حولي، قلبًا يحزنُ لحزني، ولا بينَ هذه العيونِ الناظرةِ إليّ، عينًا تبكي لبكائي، وهنا ذُرِفَتْ من عينه دمعةٌ كادتْ تبكي لها ماجدولين، ولكنّها لم تفعلْ ذلك حياءً وخجلًا، وألقتْ عليه نظرةَ عطفٍ ورحمةٍ من حيثُ لا يشعرُ، حتّى إذا التفتَ إليها، استردّتْ نظرَتَها، وألقَتْها على صفحةِ كتابها.

فقال مولر: لا تجزعْ يا بنيّ، فاللهُ أرحمُ بكَ من أخيكَ، وأرحمُ بأخيكَ من نفسِهِ، ثمّ أخذَ بيده إلى مائدةِ الشاي وجلَسا يشربانِ معًا، وأنشأ مولر يحدّثُ صاحبَه عن الشاي ومغرسه، ومنبَتِه، وأعوادِه، وأوراقِه، وأنواعِه، وألوانِه، وطريقةِ طبخِهِ وأصلِ كلمته، ومصدرِ اشتقاقِها،

---

(١) السابلة: السالكون في الطريق.
(٢) الهزيع: الجزء من الليل.
(٣) اتّأد: تمهّل.

وآراءِ علماءِ النباتِ في ذلك، وردودِ بعضِهم على بعضٍ، وردودِه هو عليهم جميعًا.

وما زالَ يثرثرُ في ذلك، ويسهبُ ظانًّا أنّ استيفن حاضرٌ معه، واستيفن عنه في شغلٍ بما يختلسُ من نظراتِ ماجدولين وما تختلسُ من نظراتِهِ، حتّى فَرَغا من شأنهما، فاقترحَ مولر على ابنتِه أن تغنّيَ لهما صوتًا، فأنشأتْ تغنّيه بنغمةٍ تخالطُها رعدةُ الخائفِ، أو رنّةُ المحزون، فما أتت عليه، حتّى طربَ له استيفن طربًا مَلَكَ عليه قلبَه، وأحاطَ بعواطِفِه ومشاعره، وشعرَ كأنّ الفضاءَ يدورُ به، وكأنْ قد بُدّلَتِ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتِ. ثمّ خافَ أنْ يمتدّ به شوطُه إلى أبعدَ من ذلك فتناهَضَ للقيامِ، فمشى معه مولر إلى البابِ، يشيّعه[1] ويقول: زُرْنَا يا استيفن، كلّما بدا لكَ أنْ تفعلَ، فما دونَ مزارِكَ بابٌ موصدٌ. فانصرفَ بقلبٍ غيرِ قلبِهِ، وعقلٍ غيرِ عقلِهِ، وحالٍ بين جنبيهِ، غريبةٍ لا عَهْدَ له بمِثلِها من قبل.

❁ ❁ ❁

٨ ـ المراة

قضتْ ماجدولين ليلَتَها راكعةً في معبدِهَا، مستغرقةً في صلاتها، تدعو اللهَ تعالى أن يُعينَهَا على أمرِهَا، وينيرَ لها ظلمةَ هذه الحياةِ الجديدةِ التي بدأتْ تسيرُ فيها، وقد ألمّت بنفسها في تلكَ الساعةِ عاطفةٌ غريبةٌ متنوّعةُ الألوانِ، مختلفةُ الأشكالِ، كأنّما هي مزيجٌ من الحبّ والخوفِ، والسرورِ والحزنِ والأملِ الواسع، والرجاءِ الخائب. فكانتْ تبتسمُ مرّةً، حتّى تلمعَ ثناياها، وتبكي أخرى، حتّى يبتلَّ رداؤُها، ولا تعلمُ ما الذي أضحكَها، ولا ما الذي أبكاها؛ ولم تزلْ على حالِهَا تلك، حتّى حلّق طائرُ الكرى فوقَ أجفانها، فاضطجعتْ في مُصَلّاها، وأسلمتْ روحَها إلى خالقها.

أمّا استيفن، فقضي ليلَه جالسًا إلى نافذةِ غرفتِهِ، يقلّبُ وجهَهُ في السماءِ كأنّما هو يساهرُ كواكبَهَا ونجومَهَا، ويُفْضِي إليها بما ألمّ بنفسِهِ في تلكَ الساعةِ من سرورِه، إلّا أنه أصبحَ يشعرُ في نفسِهِ ببردِ الراحةِ من البحثِ على ضالّةِ غرام، ظلّ ينشدُها، ويتعلّقُ بآثارِهَا عهدًا طويلًا، حتّى وجدها، وأنّ نفسَه التي كانتْ حبيسةً بيْنَ جنبيهِ، قد أشرقتْ عليها شمسُ الحبّ، فانتعشتْ ورفرفَتْ بجناحَيْهَا في الفضاء.

فأنشأ يحدّثُ نفسه، ويقول: أحمَدُكَ اللهمَّ، فقد ظفرتُ بالحياةِ التي كنتُ أقدّرُها لنفسي، ووجدتُ المرأةَ التي كنتُ أصوّرُها في مخيلتي، وما المرأةُ إلّا الأفقُ الذي تشرقُ منه شمسُ السعادةِ على هذا الكونِ، فتنيرُ ظلمتَه، والبريدُ الذي يَحْمِلُ على يده نعمةَ الخالقِ إلى المخلوق، والهواءُ المتردّدُ الذي يهبُ الإنسانَ حياتَه وقوّته، والمعراجُ الذي تعرّجُ فيه النفوسُ من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى، والرسولُ الإلهيّ الذي يطالعُ المؤمنُ في وجهِه جمالَ الله وجلالَه،

---

(١) يشيّعه: يودّعه.

ففي وجهِ هذهِ الفتاةِ التي عثرتُ بها اليومَ، قد عثرتُ بحياتي وسعادتي، ويقيني وإيماني.

وكانَ يُخَيَّلُ إليه وهو يحدّثُ نفسه بهذا الحديثِ، أنّ الحبّ الذي ملأَ قلبه، قد فاضَ عنه إلى جميعِ الكائناتِ التي يراها بين يديهِ، فكان يرى في صفحةِ السماءِ صورةَ الحبّ، ويسمعُ في حفيفِ الأشجارِ صوتَ الحبّ، ويَسْتَرْوِحُ في النسيمِ المترقرقِ رائحةَ الحبّ، ويرى في كلّ ذرّةٍ ثغرًا باسمًا، وفي كل نأمة[1] عودًا ناغمًا.

ولم يزلْ يهتفُ بهذه التصوّراتِ، حتّى انحدرَ برقعُ الليلِ عن وجهِ الصباحِ، فهجَعَ في مرقدِهِ قليلًا. ثمّ قام فنزلَ إلى الحديقةِ يترقّبُ نزولَ ماجدولين إلى منتزَهاتها، فلم تنزلْ، حتّى أخذتِ الشمسُ مكانها من كبدِ السماءِ، فرابَه[2] من أمرها ما رابه، فلم يرَ بُدًّا من زيارةِ مولر، فمشى إلى المنزلِ بقدمٍ مضطربةٍ وقلبٍ خفّاقٍ، حتّى بلغَ البابَ، فقرعَهُ، ثمّ شعرَ أنّ شُعْبَةً من شُعَبِ قلبِهِ قد سقطتْ بين أضلاعِهِ، وأنّ لسانَه قد التوى عليهِ، فأصبحَ لا ينطقُ، ولا يبينُ، فندمَ على أن لم يكنْ قد سلكَ سبيلًا غيرَ تلكَ السبيل، وتمنّى لو فترتِ الخادمُ قليلًا في خطواتِها إليهِ، حتّى يستجمعَ رويّتَهُ وأناتَهُ، ويستردَّ إليه ما تفرّق من شمله.

فكانَ له ما تمنّاه، ولم تفتحْ جنفياف البابَ، إلّا بعد فراغِهَا من شأنٍ كانَ لها، فسألها: أينَ مولر، فمشتْ أمامَه إلى قاعةِ الأضيافِ، ثمّ تركَتْهُ وذهبتْ لتخبرَ سيّدها بمكانِه، وكانَ يقرأُ في قاعةِ الكتب، فلما خلا استيفن بنفسِه، أخذَ يدوّرُ بعينيهِ في جوانبِ الغرفة، فرأى على مرقبةٍ منه بابًا مفتوحًا يلوحُ من ورائِه سريرٌ قائم، فعلمَ أنّه مخدعُ ماجدولين؛ فتسمّع فلمْ يرَ أحدًا فهاجَه الشوقُ إلى اقتحامِهِ فاقتحَمَه، وهو يعلمُ أنّها المخاطرةُ بعينِها، ولكنّه كانَ على حالٍ لا ينتفعُ فيها بما يعلمُ.

فدخلَ، واقتربَ من السريرِ، فوجدَ الفراشَ لا يزالُ مشعّثًا[3]، ولكأنّ رأسَ ماجدولين من الوسادةِ لا يزال منخفضًا، ورأى بين يدي السرير حوضًا مملوءًا ماءً وإلى جانبه كرسيٌّ قد انتشرَ فوقَهُ رداءٌ مبتلّ، ثمّ نظرَ إلى الأرضِ، فرأى بَللًا يمثّلُ أقدامًا صغيرةً، فعلم أنّ في هذا السريرِ كانتْ ماجدولين نائمةً، وفي هذا الماءِ كانتْ تبتردُ، وبهذا الرداءِ كانت تتمسّح، وعلى هذه الأرضِ كانتْ تنتقلُ، فجَمُدَ في مكانِه جُمودَ الصنم في هيكله، وأخذَ يقولُ في نفسه لقد سعدَ السريرُ الذي لامَسَها، والرداءُ الذي ضَمّها، والأرضُ التي لَثَمَتْ أقدامَها، والماءُ الذي انحدرَ على جسمِها، ثمّ مشى إلى الرداءِ المنتشرِ، فأخَذَ يلثُمُه كما يلثُم العابدُ المتشدّدُ ستائرَ معبده.

وتهافَتَ[4] على الأرضِ يقبّلُ آثارَ تلكَ الأقدام. ثمّ خُيِّلَ إليه أنّه يسمعُ من ورائِه صوتًا، فرجعَ إلى نفسِه وعادَ منفتلًا إلى مكانه الأوّل، فما لبثَ إلّا قليلًا، حتّى دخلَ عليه مولر، فحيّاهُ وقال له: عفوًا يا استيفن، فقَدْ شغلني عنكَ أنّي كنتُ أفتّشُ في قواميسِ اللغةِ عن أصولِ أعلامٍ نباتيّةٍ، ما زلتُ معنيًّا بأمرها منذُ اليوم، فهلْ لكَ أن تكونَ عونًا لي عليها؛ على شرط أن لا

---

(١) النأمة: الصوت.

(٢) راب: أوقع في الشك.

(٣) المشعّث: المفرّق.

(٤) تهافت: سقط.

تفارقَ منزلي قبل الغداء؟ فابتسمَ استيفن ابتسامةَ الرضا والقبولِ، لأنّه علم أنّه سيقضي وقتًا طويلًا في منزلِ ماجدولين.

ثمّ ذهبا معًا إلى قاعةِ الكتبِ، فلمّا أخذا مكانَهُما منها، أنشأ مولر يسردُ على صاحبهِ تلكَ الأعلامَ التي يقول إنّها تشغلُهُ ويشرحُ له مدلولاتِها، وما رآه علماءُ النباتِ في مصادر اشتقاقِهَا، وما بدا له في المآخذِ عليهم؛ فإذا وردَ في كلامه اسم كتابٍ، قامَ إلى خزانةِ الكتبِ، واستخرجَه، وتصفّحَ أوارقَهُ، حتّى يجدَ الكلمةَ التي يريدُها، فيتلُوها بنغمةِ الهازئِ الساخر، ويقول: هكذا يرى الأستاذُ فلان! أمّا أنا، فأرى غيرَ ما يَراه؛ وماذا عليَّ إنْ بدا لي غيرُ ما بدا له، فالعلم ليسَ وقفًا على المؤلّفينَ والمدوّنين. وإنما هو قَرْعُ الحجّةِ بالحجّةِ، ودفعُ الرأيِ بالرأيِ.

وما زالَ يهدرُ في حديثه هديرَ الجملِ المخشوشِ[1]، واستيفن لاهٍ، يردّدُ النظرَ إلى بابِ القاعةِ من حينٍ إلى حين، علّه يرى ماجدولين داخِلَة، فقال له مولر: أراكَ تنظرُ إلى البابِ كثيرًا، كأنّك تخافُ أن يَلِجَ علينا الغرفة والجٌّ، فيكدّرُ علينا خَلْوَتَنا. فاعلم أنّه ما من أحدٍ في هذا المنزلِ يستطيعُ أن يخالفَ أمري، ويقتحمَ عليَّ بابَ قاعتي من غيرِ إذنٍ، وهنا صاحتِ الخادمُ تدعوه إلى الغداءِ، فلم يقطَعْ حديثَه، فصاحتْ به مرّةً أخرى، فنهضَ متثاقلًا، ومشى متباطئًا لا يقطعُ حديثَهُ، حتّى وصلا إلى غرفةِ الطعام، فَرَاعَ استيفن أنّه لم يرَ حولَ المائدةِ غيرَ مقعدين، فعلمَ أنّ أحدَهُما له، وأنّ الآخر لا يمكنُ أنْ يكونَ لأحدٍ غير مولر. فوجَمَ وجومَ الحزينِ المكتئبِ، واستمرّ يأكُلُ صامتًا، لا يتحدّثُ، ولا يصغي إلى حديثٍ، حتّى فرغا.

فقال له مولر: لقد أرادَ اللهُ بي خيرًا إذْ أرسلَكَ إليّ في هذا اليوم. فقد كدتُ لا أجدُ لي في هذه الوحدةِ مؤنسًا، ولا على هذه المائدةِ رفيقًا، فإنّ ابنتي سافرتْ منذُ الصباحِ لزيارةِ إحدى صواحِبها، ولا أحسَبُها راجعةً قبلَ المساءِ. فهل لكَ أن تنزلَ الحديقةَ، لنرتاضَ[2] فيها قليلًا؟ فنزلا، فما أمعَنَا فيها إلا قليلًا، حتّى سمع مولر صوتَ الخادمِ تصيحُ به من النافذةِ أن قد عادتْ سيّدتُها، فمدّ يده إلى استيفن مودّعًا وتركَهُ مكانَهُ حائرًا مشدوهًا، وليسَ وراءَ ما بهِ من الهمّ غاية.

❊ ❊ ❊



٩ ـ الحيرة

كانَ من أمرِ استيفن بعد ذلكَ أنّه كلما رأى ماجدولين في الحديقةِ، فرّ من وجهِهَا، وسلكَ طريقًا غيرَ طريقه، ليخلوَ بنفسِه لحظةً، يصوّرُ فيها الموقفَ الذي يقفهُ بين يديها، والتحيّةَ التي يجملُ به أن يحيّيها بها، فلا يصلُ إلى ما يريدُ من ذلكَ، حتّى يراها راجعةً أدراجَهَا إلى

(١) الخشاش: عود يجعل في أنف الجمل ليشدّ به اللجام.

(٢) ارتاض: مشى.

المنزلِ، فكانَ يحملُ في سبيلِ ذلكَ من الهمّ ما يقلقُ مضجَعَه، ويطيلُ سُهْدَه، ويحولُ بينه وبين قرارِه، فلا يرى بدًّا من الفرارِ بنفسه إلى الغاباتِ والأجماتِ، والهيامِ على وجهِه في قمَمِ الجبالِ، وعلى ضفافِ الأنهارِ، ليروّحَ عن نفسِهِ بعضَ ما ألمّ بها. واستمرّ على ذلكَ أيّامًا طوالًا، لا يمشي في الحديقةِ ولا يرى ماجدولين ولا يزورُ مولر، حتّى تلفَتْ نفسُه، وذهبَ به اليأسُ كلّ مذهبٍ. فعادَ يومًا من بعضِ مذاهِبِه محمومًا لا يكادُ يتماسَكُ ضعفًا واضطرابًا، فلزمَ غرفَتَه أيّامًا، يعالجُ داءَ قلبِهِ وداءَ جسمِهِ ما لا طاقَةَ له باحتماله.

وكانتْ جنفياف قد ألمّتْ بجملةِ حالِهِ، فكاشَفَتْ بها سيّدها، فَصَعِدَ إلى غرفتِهِ ليعودَه، فرآهُ مستفيقًا بعضَ الاستفاقَةِ، فسأله عمّا به فانتحَلَ له عذرًا. فجلسَ إليه يحادثُه ساعةً، فلمّا أرادَ القيامَ، مدّ استيفن يدَهُ إلى طاقةِ بنفسج كانتْ في آنيةٍ إلى جانبِ وسادَتِه، وقال له: إنّي جمعتُ هذه الطاقةَ لماجدولين لأنّي أعلمُ وَلَعَها بالغريبِ المستطرفِ من الزهر، فلعلّكَ تنوبُ عنّي في تقديمِهَا إليها، فأخذَها مولر شاكرًا، وانصرف.

ومرّتْ بعدَ ذلكَ أيّامٌ كانَ فيها استيفن بينَ يأسِ الحياةِ ورجائِها، حتّى أدركَتْهُ رحمة الله فأبَلَّ[1] من مرضِه، فنزلَ إلى الحديقةِ، وقد استقرّ في نفسِه العزمُ على أن لا يفرَّ من وجهِ ماجدولين إذا رآها، وأن يتقدّمَ نحوَها، فيحيّيها ويحادِثَها، وينفُضَ لها جملةَ حالِه، ولم يلبثْ أنْ رآها مقبلةً عليه وجهًا لوجه، فلم يَرَ سبيلًا للفرارِ من بين يَدَيْها، فحيّاها فحيّتْهُ، ثمّ أغضى[2] فأغْضَتْ. فلم يرَ بدًّا من المخاطرةِ بكلمةٍ، يخرجُ بها من هذا الصمتِ المعيبِ، فاستنصَر قوّتَه، وتجمَّعَ تجمُّعَ من يريدُ الوثوبَ فوق هوّةٍ عميقةٍ، وأرادَ أن يقولَ شيئًا، فسمَعَها تتكلّم.

فاستفاقَ وحمدَ الله على أنْ كَفَاهُ تلكَ المؤونَةَ؛ قالت: أراكَ يا سيّدي شاحبَ اللونِ، خائرَ النفسِ، فلعلّكَ عالجتَ من مرضِكَ هذا عناءً كبيرًا؟ قال: نعم، قالت: أشكرُ لكَ يا سيّدي، هديّتَكَ الثمينةَ التي بعثْتَ بها إليّ، ولقد أعجبَتْني منها أنّ تلكَ الزهرةَ هي أحَبُّ الزهور إليّ، فكأنّما ألهمتَ ما في نفسي، وإنّي أعْجَبُ لشعرائنا في أغفالِهم ذكرَ هذه الزهرةِ في أشعارِهم، كما ذكروا غيرها ممّا لا يقومُ مقامها، ولا يكافِئُها في حسنِها وروائها، ولا أذكُرُ أنّي قرأتُ لأحدٍ منهم شعرًا فيها. إلّا قطعةً صغيرةً لشاعرنا جيني، وهنا وَجَد استيفن متّسعًا في الحديثِ عن الشعرِ والشعراءِ، والنباتاتِ والزهر، فاستمرّ يحادِثُها ساعةً، حتّى حانَ وقتُ رجوعِهَا، فودّعَتْهُ وانصرفتْ، فَصَعِدَ إلى غرفته. وقد عَزَمَ أن يراسلها فيما عَجِزَ عن مفاتحتِهَا فيه.

❀ ❀ ❀

١٠ ـ من سوزان إلى ماجدولين

كنّا قد عزمْنَا على أنْ نزورَكِ في قريتِكِ، يا مجدولين، أنا ووالدي، فحدَثَ حادثٌ حالَ

---

(١) أبَلّ: شُفي من مرضه. (٢) أغضى: سكت.

بيننا وبين ذلك: دعَانا أحدُ الأصدقاءِ لزيارتِهِ في بلدتِه، وهي على بعدِ ثلاثةِ فراسخَ من قريتِنَا، ولا تبعدُ عن قريتكِ إلّا قليلًا، فذهَبْنَا إليه صبيحةَ يوم، وقضينا في منزلِهِ عدّةَ ساعاتٍ، حتّى إذا زلفت[1] الشمسُ عن كبدِ السماءِ، خرجَ القوم إلى الخلاءِ، للتنزّهِ في غاباتِهِ وأَجَمَاتِهِ، وأنتِ تعلمينَ فيما تعلمينَ من أمري، أنّني لا أجدُ في نفسي تلكَ اللذّةَ التي يجدُهَا الشعراءُ المتخيلونَ في جمالِ الطبيعةِ وحسنِها، وبهجَتِها وروائها، ولا أغتبطُ بما يغتبطونَ به من منظرِ الغاباتِ، والأحراشِ، والجبالِ، والآكام، ولا أطْرَبُ لخريرِ الماءِ، ودويّ الريحِ، وهزيم الرعدِ، وحرارةِ الشمسِ، ووعث[2] الطريقِ، وخشونةِ الأرضِ، واقتحامِ الصخورِ، والتعثّرِ بينَ أغوارِ الفلاةِ وأنجادِها، كما يطربون.

ولكنني لم أرَ بدًّا من مصانَعَتِهِم، ومجاملتِهِمْ، فمشيتُ صامتةً، ومشوا يتحدّثون بجمالِ الحياةِ القرويّة، ويتمدّحُونَ بعيشِ العزلةِ بين سكونِ الطبيعةِ وهدوئِها، وجمالِ الكائناتِ وجلالها؛ والله يعلم أنّه ما من أحدٍ منهم يعلمُ من نفسِه أنّه صادقٌ فيما يقول، أو أنّه يتمنّى لنفسِه ذلكَ الشقاءَ الذي يُحْسَدُ الأشقياءُ عليه، فكان مَثَلُهُمْ في ذلك، كمثلِ أولئكَ الكتّابِ المرابينَ الذين يكتبونَ الفصولَ الطوالَ في مدح الفلّاحِ، والتنويهِ بذكره، والثناءِ على يدهِ البيضاءِ في خدمةِ المجتمعِ الإنساني، حتّى إذا مرّ ذلكَ المسكينُ بأحدِهِم وأرادَ أن يمدّ يده لمصافحته، تراجَعَ، وكفكَفَ يده ضنًّا بها أن تلوّثَهَا بأقذارِها تلكَ اليدُ السوداءُ.

وما زلنا كذلكَ، حتّى بلغْنَا شاطئَ النهرِ، فراعَنَا أن رأينا هنالكَ جمعًا عظيمًا من الناسِ، يتدفّعُ فوقَ الشاطئِ الآخرِ تَدَفُّعَ الموجِ المتراكم، ويشيرُ إلى الماء بأصبَعِه وينادي: الغريق الغريق! النجدة النجدة! فالتَفَتْنا حيثُ أشاروا؛ فإذا رجلٌ بين معتركِ الأمواجِ، يصارعُ الموتَ والموتُ يصرَعُه، ويغالبُ القضاءَ والقضاءُ يغلبُه، يطفو تارةً، فيمدّ يدَه إلى الناسِ، فلا يجدُ يدًا تمتدُّ إليه، ويرسُبُ أخرى، حتّى تنبسطَ فوقه صفحةُ النهرِ، فتحسَبُه من الهالكين.

وما زالَ يتخبّطُ ويتشبّثُ، ويظهَرُ، ثمّ يختفي، ويتحرّكُ، ثمّ يسكنُ، حتّى كَلَّ ساعِدُهُ، وَوَهَتْ قوّتُه، وابيضّتْ عيناه، واستحالَ أديمه، ولم يبقَ أمامَ أعيننا منه إلا رأسٌ يضطربُ ويدٌ تختلجُ، فبكى الباكون، وأعولَ المُعْوِلون، ونظرَ الناسُ بعضُهم إلى بعضٍ، كأنّما يتساءلون عن رجلٍ رحيم، أو شهمٍ كريم، وإنّهمْ لكذلكَ، إذا رجلٌ عارٍ يدفعُ الجمعَ بمنكبيه، وينزلقُ بين الناسِ انزلَاقَ السهمِ إلى الرمية، حتّى ألقى بنفسِه في النهرِ وسبحَ حيثُ هبطَ الغريقُ، فهبط وارءَه، وما هي إلّا نظرةٌ والتفاتَةٌ، أنِ انفرجَ الماءُ عنهُما، فإذا هما صاعِدَان، وقد أمسَكَ الرجلُ بذراعِ الغريق. فكبَّرَ الناسُ إعجابًا بهمّةِ المخلّصِ، وفرحًا بنجاةِ المسكين.

ولكنّا ما كِدْنَا نستفيقُ من هذا المنظرِ المحزنِ، حتّى راعَنَا منظرٌ آخرُ أجلُّ منه وقعًا وأعظمُ هولًا، فقد رأينا الغريقَ كأنّما جُنَّ جنونُه فظَنَّ أنّ مخلصَه يريدُ به شرًّا، وأنّه ما أمسَكَ بذراعِهِ،

---

(١) زلف: اقترب، مال. (٢) وَعْث الطريق: تعسّر سلوكه.

إلّا وهو يريدُ أن يهويَ به إلى قاعِ الماءِ فيعيدَه سيرتَه الأولى، فأفلتَ منه وضربَه بجميعِ يدهِ في صدرِه ضربةً شديدة، ثمّ أنشبَ أظافِرَه في عنقِه، ولفّه بساقيهِ لفّةً خِلْنَا أنّ عظامَه تئنُّ لها أنينًا، فاستيأسَ الرجلُ، وعلمَ أنّه هالكٌ ما من ذلك بدٌّ، فرفعَ يديهِ إلى السماءِ، وهتفَ باسمٍ أظنّه اسمَكِ، يا ماجدولين، فلم أفهمْ ماذا يريدُ، ولا من هي تلكَ التي يريدُ.

ثمّ ما لبثَا أن هوى الماءُ بهما، وجرى مجراهُ فوقَهُما، فخفَقَتِ القلوبُ، ووجفتِ[1] الصدورُ، وخَفَتَتِ الأصواتُ، وامتدّتِ الأعناقُ، وتواثبتِ الأحشاءُ وتزايلتِ الأعضاءُ، ومشى اليأسُ في الرجاءِ مشيَ الظلامِ في الأضواءِ، ومرّتْ على ذلكَ دقائقُ لا تضطربُ فيها موجةٌ، ولا تهبّ نسمةٌ، ففزعتُ إلى أبي ذاهلةً حائرةً، وقلت: أيتعذّبُ الغرقى كثيرًا في مصارعَةِ الموت؟ فبكى لبكائي، وقال: نعم يا بنيّةُ، ولقد يبلغُ الأمرُ ببعضهم أن يدورَ بيدِه في قاعِ الماءِ، يفتّشُ عن حجرٍ يضربُ به رأسَه ضربةً قاضيةً، يستريحُ بها من الآلام والأوجاع.

فركعتُ على كثيبٍ من الرملِ، ورفعتُ إلى السماءِ يديّ، وقلت: اللّهمَّ إنّكَ أعدلُ مِنْ أن تجازيَ بالإحسانِ سوءًا وبالخير شرًّا، فلقد أبلى هذا الرجلُ في إنقاذِ هذا الغريقِ بلاءً حسنًا، وبذلَ في سبيلِ ذلكَ من ذاتِ نفسه ما ضنَّ به الناسُ جميعًا، فامدُدْ يدَكَ البيضاءَ التي طالما مَدَدْتَهَا لإنقاذِ البائسينَ واكشفْ عنهُ كربَتَهُ التي يعالجُهَا؛ إنّك أرحمُ الراحمين.

ثمّ استغرَقْتُ في دُعَائي، فلم أعدْ أشعرُ بشيءٍ ممّا حولي، حتّى سمعتُ ضجّةً على الشاطئِ، فاستفقْتُ، فإذا النهرُ يتثاءَب عن الرجلِ، وإذا الرجلُ صاعدٌ وحدَه، حتّى بلغَ سطحَ الماءَ فهتفَ به الناس: أنِ انجُ بنفسِكَ فقد أبليتَ! فأبى عليه كرمُه ووفاؤُه أن يكونَ قاسيًا أو منتقمًا، فألقى بنفسِه في الماءِ مرّة أخرى، وعادَ بالغريقِ يحملُه على كتفِه، وما زالَ يسبَحُ به حتّى بلغَ الشاطئَ فسقَطَا جميعًا. فتولّى القوم أمرهما، وما زالوا بهما حتّى أفاقا.

فمشى الغريقُ إلى مخلّصه بعد ما ألمّ بقصّته معه، يتوجّعُ له ويمسَحُه، ويشكرُ له يدَه عنده، ويعتذرُ له عن ذنبِه إليهِ، ثمّ انفضّ[2] الجمعُ، وبقي الرجلُ وَحْدَهُ، فلبسَ ثيابَه، ثمّ مشى يتحامَلُ على نفسِه إلى شجراتِ بنفسج كنَّ على الشاطئِ، فأخذَ يقتطفُ من زهراتها ويضعُها في منطقتِه، كأنّما يريدُ أن يتّخذ منها طاقَةً يجعلُها لتلكَ الحادثةِ تذكارًا، فتركناه على حالِه، وعدنا إلى المنزلِ صامتينَ محزونينَ، وقد فاتنا ما كنّا نُؤَمّلُ من زيارتِك في ذلك اليوم.

لا أستطيعُ أنْ أكتبَ إليكِ غيرَ هذا، فقدْ أصبحتُ لا أذكرُ تلكَ الحادثَة إلّا وأجدُ لذكرَاهَا من الألمِ في نفسي، ما يُخَيّلُ إليَّ أنّها حاضرةٌ بين يديّ، وربّما كتبتُ إليكِ فيما بعدُ، والسلام.

❁ ❁ ❁

(١) وجف: اضطرب.
(٢) انفضّ: تفرّق.

١١ ـ المكاشفة

مالَ ميزانُ النهارِ، وانحدرتِ الشمسُ إلى مغربها، ودبَّ الظلامُ في الأضواءِ دبيبَ البغضاءِ في الأحشاءِ، وسَكَنَ كلُّ صوتٍ إلّا صوتُ العصافيرِ المزدحمةِ على أبوابِ أعشاشها. وجلسَ استيفن في الحديقةِ تحتَ ظلالِ أشجارِ الزيزفون، يترقّبُ نزولَ ماجدولين. وقد كتبَ لها كتابًا نطقَ فيه قلمُه بما عجزَ عنه لسانُه، فنَشَره بين يديهِ، وأنشأ يقلّبُ نظرَه فيه، فَخُيِّلَ إليه أنّه غيرُ مستعذبٍ ولا سائغ، وأنّ في كلِّ جملةٍ من جمله موضعَ ضعفٍ، فاستقرّ رأيه على أن يطويه، حتّى يكتبَ لها خيرًا منه، ثمّ رآها مقبلةً نحوَه، تحمِلُ في يدِهَا كتابًا، فلما دنتْ منه، ابتسمتْ له وقالت له: أتذكرُ يا سيّدي، مكانَ الشجراتِ التي اقتطفتَ منها زهراتِ البنفسجِ التي أهديتها إليّ؟ فاضطربَ لسؤالِهَا، وقال: نعم، إنّها على ضفّةِ نهرٍ صغيرٍ يبعدُ عنّا فرسخًا أو فرسخين، قالت: اقرأ هذا الكتابَ فإن لكَ فيهِ ذكرًا.

فأخذَ منها كتابَ سوزان في حادثةِ الغريقِ، وأمرَّ نظرَه عليهِ مرارًا، فعرفَ كلّ شيءٍ، فردّه إليها صامتًا، وهو لا يدري ماذا يقولُ، فقالت: إنّك تكتمُ عنّي نفسَكَ يا استيفن، فقد عرفتُكَ، وعرفتُ يدَكَ البيضاءَ في حادثةِ الغرقِ، وبَلأَك فيها، وما عالجتَ من آلامِ الحمّى على أثرِها، ثمّ مدّتْ يدَهَا إليه فصافَحَته، فلم يكنْ بين تلامسِ كفّيهما، وخفوقِ قلبيهما، إلّا كما يكونُ بين تلامسِ أسلاكِ الكهرباءِ، واشتعالِ مصابيحِها.

ولبثا بعد ذلكَ ساعةً صامتين، لا يَنْطِقَان، إلّا أنّ في الجبينِ لغةً لا تقرأُها إلّا العيونُ، فقرأ استيفن في وجهِ ماجدولين لوعةَ الحبّ، وألَمَ الحزنِ، واضطرابَ الجأشِ[1]، وحيرةَ النفسِ، وقرأتْ في وجهه الحبَّ، والسعادةَ، والدهشةَ والسرورَ المتلألئَ، والدمعَ المترقرقَ، فهاجَها هذا المنظرُ، فأرسلتْ من محاجِرَها أوّلَ دمعةٍ من دموعِ الحبّ، فبكى لبكائِها، وحنَا عليها حُنُوَّ المرضعاتِ على الفطيم، وشعرَ في نفسِه، وقد ضمّها إليه، بتلك العاطفةِ اللذيذةِ التي يجدُها الغريبُ النائي عن أهلِهِ وجيرانِه، إذا لاقى في مطارحِ غربتِهِ غريبًا مثله يأوي إليه، ويحنُو عليه. ثمّ أخذَ بيدِهَا، فألصَقَها بكبدِه كما يفعلُ المريضُ بيدِ عائدِه، ليدلّه على موضعِ ألمه، وكأنّما هو يقولُ لها: إنّ لغةَ اللسانِ لا تكشفُ لكِ عمّا اشتملَتْ عليه أضالعي من الوجدِ بك، والحنينِ إليك، فالمسي قلبي بيدِكِ، لتعرفي مكنونه، وتكشفي غامِضَ سريرتِهِ.

ثمّ خرّ راكعًا بين يديها، وقال: أتحبّينَني يا ماجدولين؟ فلم تُجِبْ، فأعادَ كلمتَه، فاستمرّتْ في صمتِها، فمدّ يدَه إليها ضارعًا وقال: رحماكِ يا ماجدولين! إنّني أخافُ أن أكونَ في حلم، وأنْ تكونَ هذه السعادةُ التي أراها بين يديّ خيالًا من الخيالاتِ الكاذبةِ التي كانتْ تتراءى في أحلامي الماضيةِ، فأغتبطُ بها، وأسكنُ إليها، حتّى إذا ما استيقظتُ وجدتُ يديَّ صفرًا منها،

(١) الجأش: الصدر.

فأسمِعِيني كلمةَ الحبّ لأعلمَ أنّكِ حاضرةٌ لديّ، وأنّني لستُ واهمًا ولا حالمًا.

ومرّتْ بهما على ذلكَ ساعةٌ لا يعرفُ مكانَها من نفسِهما إلّا من مرّتْ به في يومٍ من أيّامِ شبابِه ساعةٌ مثلُها. فقد كانا يشعُرَانِ أنّهما في معزلٍ عن العالمِ، وأنّ مكانَهما من تلكَ الحديقةِ في انفرادِهما، وسكونِهما، وهنائِهما، وغبطتِهما مكانُ آدمَ وحواءَ من جنّتهما، قبلَ أن يأكلا من الشجرة، ويهبِطا إلى الأرض، وأنّ روحَهما قد تجرّدَتْ عن جسمِهما، فطارتْ ترفرفُ بأجنحتِهَا في فضاءِ الملأ الأعلى، فرأتْ مداراتِ الشموسِ في أفلاكِها، وحركاتِ الكواكبِ في منازلها، ومرّت بين صفوفِ الملائكةِ، وسمعتْ زَجَلها وتسبيحَهَا تحتَ قوائمِ العرشِ، ودخلتْ جنّة الخلدِ، فرأتْ حُورَهَا وولْدَانها، ولؤلؤَهَا ومُرْجَانها، وروحَها وريحانَها.

فلم يستفيقا من غَمْرَتِهما، حتّى سمعتْ ماجدولين صوتَ جنفياف تناديها، فمدّتْ إليه يدها مودّعةً، وهي تقول: غدًا في مثلِ هذه الساعةِ في هذا المكان. فمدّ يدَه إليها ذاهلًا، لا يعلمُ ماذا يرادُ به، ثمّ مضتْ، ومضى بنظراتِه على آثارها، حتّى اختفتْ آخرَ طيّة من طيّاتِ ردائِها الأبيضِ، فجَمُدَ في مكانه ساعةً، لا يتحرّكُ، ولا يلتفتُ كأنّما يتخيّلُ أنّها لا تزالُ جالسةً بين يديه، فلمّا سمعَ خَفْقَ بابِها، دارَ بعينيهِ حولَ نفسِه يمنةً ويسرةً فعلمَ أنّه جالسٌ وحدَه.



١٢ ـ النشوة

خرجَ استيفن بعد ذَهابِ ماجدولين هائمًا على وجهِهِ، يعدُو في عرضِ الفضاءِ، ينحدرُ إلى يمينِهِ مرّةً، وإلى يسارِه أخرى، وكأنّما يريدُ أن يُشْهِدَ الأرضَ والسماءَ، والبحارَ والأنهارَ، والجبالَ الشمّاءَ، والسهولَ الفيحاءَ، والحيوانَ الناطقَ، والجمادَ الصامت، على سرورِه وغبطتِه، وكانَ يشعرُ في نفسِه أنّ السعادةَ التي نالها هي فوقَ ما يحتملُ طَوْقُه. فكانَ كلّما مرّ بأحدٍ من الناسِ، حدثتْهُ نفسه أن يفضيَ إليه بقصّته، ليحملَ عنه جزءًا من سعادتِهِ. ومرّ بأطفالٍ يلعبونَ، فجمعَهُمْ حولَهُ، وأخذَ يقبّلُهم واحدًا بعدَ واحدٍ، ثمّ نثرَ عليهم كلّ ما مَعَه من المالِ، وبودّه لو ملكَ مفاتيحَ الأرزاقِ فأسبغَ[1] على الناس جميعًا أنعمه وآلاءه[2]، فمحا بؤسَهم وشقاءَهم، وما زالَ يتغلغلُ في أحشاءِ الظلامِ مُتَيَامِنًا، مُتَيَاسِرًا، صَاعدًا، مُنْحَدرًا، حتّى رأى بابَ الحديقةِ مفتوحًا بين يديهِ، فاقتحَمَه ومشى إلى مكانِه الأوّلِ، فجلسَ فيه، وأخذَ ينظرُ إلى شعاعِ النورِ المنبعثِ من بين ستائرِ غرفةِ ماجدولين، فخُيِّلَ إليه أنّه يرى قيامَها وقعودَها، وجيئَتَها وذَهَابها، ويسمعُ حفيفَ ثوبها، وخشخشةَ أوراقِ كتابها، حتّى انطفأَ المصباحُ، فصعدَ إلى غرفتِه، وجلسَ إلى مكتبِهِ، يكتبُ إليها كتابًا طويلًا، ثمّ نالَ منه التعبُ، فقامَ إلى سريرِهِ

---

(١) أسبغ: وسّع. (٢) الآلاء: النعم.

ونامَ نومًا هادئًا لذيذًا، حلمَ فيه أحلامًا ما رأى مثلها بعد ليالي طفولته الجميلة.

❋ ❋ ❋

١٣ ـ من استيفن إلى ماجدولين

لا أزالُ أشعرُ حتّى الساعةِ بجمالِ ذلكَ المقامِ الذي قُمْتُهُ بين يديكِ أمسِ ولا أزالُ ألمسُ صدري بيدي، لأعلَمَ أينَ مكانُ قلبي من أضالعي، مخافةَ أن يكونَ قد طارَ سرورًا بتلكَ السعادةِ التي هي كلّ ما يتمنّى المحبّ أن يكون؛ والتي لا أعتقدُ أنّ أبناءَ الخلودِ يقدّرون لأنفسِهم في دارِ نعيمِهِمْ خيرًا منها، ولو أنّ لامرئٍ أن يعبدَ من يسدي إليه أفضلَ النعمِ وأسبَغَها، وأجمعَها لكلّ خيرٍ وبرٍّ، لوجدتِني يا ماجدولين، ساجدًا بين يديكِ في كلّ مطلعِ شمسٍ، سجودَ العبدِ الشاكرِ للإلهِ المنعِمِ.

إنّ اللهَ لم يهبْني نعمةَ الجمالِ التي وَهَبكِ، ولم يجمّلْني بمثلِ ما جَمَّلَكِ به من رقّةِ الحِسّ وعذوبةِ النفسِ، فإنْ أنتِ أحببتِني، فقد أحببتِ فتًى مجرّدًا من مزايا الفتيانِ؛ لا يستطيعُ أن يمتّ إليكِ بمثلِ ما تمتّين به إليه، ولا أنْ يُنيلَكِ من السعادةِ ما أَنَلْتِهِ منها، فإنْ كنتِ ترينَ أنّ الإخلاصَ في الحبّ والوفاءَ بالعهدِ، وهبةَ النفسِ هبةً خالصةً بلا ندمٍ ولا أسف، مزيّةٌ أستحقُّ لها محبّتَكِ، فها أنذا أقدّمُها بين يديكِ، فتقبّلِيَها منّي، وقولي إنّكِ سعيدةٌ، كما أنا سعيد بكِ.

❋ ❋ ❋

١٤ ـ العهد

قَدّمَ استيفن كتابَه إلى ماجدولين يدًا بيدٍ فدهشتْ حينما رأتْهُ، وألقتْ إليهِ نظرةَ الحائرِ المتردّد؛ فنظرَ إليها استيفن نظرةَ المتوسّلِ المستعطفِ، فتناوَلتْهُ منهُ، وخبّأَتْهُ في ثنايا صدرِها، وقالت: أصحيحٌ يا استيفن، ما حدّثتْنِي به سوزان في كتابها أنّ اسمي كانَ آخرَ كلمةٍ هَتَفْتَ بها في الساعةِ التي كنتَ تحسَبُ أنّها آخرُ ساعاتِك في الحياة؟ قال: نعم، ولقد نلتُ ببركةِ هذا الاسم ما كنتُ أُقَدّرُ لنفسي من النجاةِ، عندما هتفتُ به؛ فقد علمتُ أنَّ اللهَ ما منحَكِ هذهِ المنحةَ من الجمالِ، ولا جمَّلكِ به من محاسِنِ الخلالِ، إلّا وأنتِ آخرُ بناتِ حواءَ عنده، وأكرَمهُنّ عليه، فهو أضنُّ بكِ من أن يجرحَ قلبًا يخفقُ بحبّكِ، أو يُخرِسَ لسانًا يهتفُ بذكركِ، فَعُذْتُ باسمِك في شدّتي، كما يعوذُ المؤمن في شدّته باسم الله، فكانَ لي خيرَ معاذٍ وملاذ.

قالت: إنّكَ قد لقيتَ في شدّتكَ هذهِ عناءً كثيرًا، ولقد كنتَ فيما فعلتَ من القوم المحسنين؛ قال: قَلّما كنتُ محسنًا قبل اليوم، ولكنّه الحبُّ ملأَ القلبَ رحمةً وحنانًا، ويصغّرُ في عينيه عظائمَ الأمورِ وجلائلها، ويوحي إليه أفضلَ الأعمالِ وأشرَفَها. أمّا ما لقيتُ في ذلكَ

اليوم، فقد كانَ فوقَ ما يحتملُ المحتملُ، فقد خُيِّل إليّ أنّني أهْوِي في منحدرٍ لا أعرفُ له قرارًا؛ وأن جسمي يتفتّحُ عن روحي تفتّحًا، فَتُمْلِسُ منه إملاسَ[1] الفرخِ من بيضَتِه، فلمّا ذكرتك، استروحتُ من ذكراكِ ما استروحَ يعقوبُ من قميصِ يوسفَ.

فلمّا نجوتُ، علمتُ أنّك سببُ نجاتي، فما بلغتُ الشاطئَ، حتّى جمعتُ تلكَ الزهراتِ، فأرسلتُهَا إليكِ تذكارًا لتلكَ النعمةِ السابغةِ[2] التي أسديتِها إليّ، فمدّتْ يدَهَا إلى صدرِها، وأخرجتْ منه طاقةَ زنبقٍ، وقالت: إنّ أبي قد جَمَع لي بها هذهِ الأزهار صباحَ هذا اليوم فأنا أقدّمُها إليكَ ردًّا لتحيّتكَ التي حيّيتني بها، فتناوَلها منها، ونَثَرها بين يديه وأخذَ يؤلّفُ بين أشتاتِها وينظمُها في سلكٍ مستديرٍ، حتّى صارتْ إكليلًا جميلًا، فوضَعَه على رأسِهَا وقال: إنّ من يرى هذا الإكليلَ الزاهرَ فوقَ هذا الجبينِ الساطعِ، لا يرى إلّا أنّه إكليلُ عرسٍ على رأسِ عروسٍ. فأخذتْ كلمَتُه هذه مأخَذَهَا من نفسِهَا، فأطرقتْ قليلًا، ثمّ رفعتْ رأسها، فإذا دمعةٌ رقراقةٌ تترجّحُ في محجريها.

فقال: لا تبكي يا ماجدولين، فما في قوى في هذا العالمِ كلّها قوّةٌ تستطيعُ أن تَحولَ بيني وبينك، قالتْ: إنّما أبكي خوفًا من الحبّ، وما أنا إلّا فتاةٌ مَسكينةٌ منقطعةٌ، أشعرُ بالحيرةِ التي تشعرُ بها كلُّ فتاةٍ لا أمَّ لها ترشدُها ولا ناصرَ لها يعينُها. قال: ألا تعتقدينَ أنّ قلبَكِ نقيٌّ طاهر؟ قالت: ذلك ما أعتقدُهُ وأشهدُ الله عليه، قال: إذنْ، فالله هو الذي ينصُركِ ويعينُكِ، وهو الذي يأخذ بيدِكِ في حَيرتِكِ، وينيرُ لكِ السبيلَ في ظلماتِ هذه الحياة، لا تخافي من الحبّ يا ماجدولين، ولا تخافي من غضَبِ اللهِ فيه، واعلمي أنّ الذي خلقَ الشمسَ، وأودَعَها النور، والزهورَ، وأودَعَها العطرَ، والجسمَ، وأودعه الروحَ، والعينَ، وأودَعَها النورَ؛ قد خلقَ القلبَ، وأودعَهُ الحبّ، وما يباركُ الله شيئًا كما يباركُ القلبينِ الطاهرينِ المتحابّينِ، لأنّهما ما تحابّا إلا إذعانًا لإرادَته، ولا تعاقَدا، إلّا أخذًا بسنّته في عبادِه، فامدُدِي إليَّ يدكِ، وأقسمي بما أقسمُ به أن نعيشَ معًا، فإنْ قُدِّرَ لنا أن نفترقَ كان ذلكَ الفراقُ آخرَ عهدِنَا بالحياة، فمدّتْ إليه يدَها، فتقاسَما، وتعاهَدا، وكانتِ الشمسُ قد انحدرتْ إلى مغرِبها، فافترقا.

❃ ❃ ❃

١٥ ـ من استيفن إلى ماجدولين

كتبتُ إليكِ كثيرًا، فلم تكتبي إليّ كثيرًا، ولا قليلًا، لأنّكِ تعتقدينَ ما يعتقدُه كثيرٌ من النساءِ من أنّ المرأةَ التي تكتبُ إلى حبيبِها كتابَ حبٍّ، آثمةٌ أو غيرُ شريفةٍ، أمّا أنا، فأعتقدُ أنّها إنْ لم تفعلْ، فهي مرائيةٌ مصانِعةٌ، لأنّ المرأة التي وهبَتْ قلبَهَا هبةً خالصةً، لا يخالطُها شكٌ،

---

(١) الإملاس: السقوط. (٢) السابغة: التامّة.

ولا ريبةٌ، لا ترى مانعًا يمنعُها من أن تكتبَ لحبيبها في غيبَتِه، بمثلِ ما تحدّثُه بهِ في حضرَتِه.

إنّ الحِيطَةَ في الحبّ رأيٌ تراه لنفسِهَا المرأة البغيُّ التي تتّخذُ لها كلّ يومٍ حبيبًا، تقسمُ بين يديه بكلّ محرجةٍ من الإيمانِ أنّها ما فتحتْ بابَ قلبَها لزائرٍ قبله، فهي تخافُ أن تسجّلَ بيدِها على نفسها في يومِها، ما يفسدُ عليها أمرَها في غَدِها، أمّا المرأةُ الشريفةُ، فما أغناها من ذلكَ كلّه، لأنّها تحبُ، فتخلصُ فتقول، فتكتبُ ما تقول.

أكتبي إليَّ يا ماجدولين، فإنَّ الذي يستطيعُ أنْ يكتُمَ سرّ حديثِكِ، لا يعجزُ عن أنْ يكتُمَ سرّ كتابِكِ، واعلمي أنّ رجلًا غيري ذلك الذي يتّخذُ من رسائِلِك سيفًا، يجرّده فوقَ عنقِك، إنْ بدا لكِ في الفرارِ منه رأي، وإنّ فتاةً غيرَكِ تلكَ التي ترضى لنفسِهَا أن تهبَ قلبَها إلى رجلٍ، يتّجرُ بأسرارِ النساء.

❀ ❀ ❀

١٦ ـ البحيرة

مَضَتْ على استيفن وماجدولين بعدَ ذلكَ أيّامٌ كانا يلتقيانِ فيها في المنزلِ أو في الحديقةِ أو في الغابةِ أو على ضفّةِ النهرِ، وكثيرًا ما كانا يجلسانِ بجانبِ شجراتِ البنفسجِ، ويذكرانِ حادثةَ النهرِ، وطاقَةَ الزهرِ، وأحيانًا كانا ينزلانِ في زورقٍ صغيرٍ، يسيرانِ به في البحيرةِ ساعةً أو ساعتينِ، ثمّ يعودان.

فنزلا في الزورقِ يومًا، وكانتِ الشمسُ قد لبستْ ثوبَها الثالثِ، ثمّ ما لبثتْ أنْ هوتْ إلى مستقرّها على أن ترسلَ من خلفِها سَليلَها القمرَ إلى هذا الوجودِ، ليقومَ عنها بحراستِه، حتّى تعودَ إليه، فأمعَنا في البحيرةِ، وكانتْ هادئةً ساكنةً كصفحةِ المرآةِ، وكان النسيمُ باردًا رَطْبًا، يترقرقُ، فيلامسُ الوجوهَ بخفّةٍ كما تلامسُ يدُ الحسناءِ وَجْهَ حبيبِها، وقد سكنَ كلّ شيءٍ إلّا صوتُ قطراتِ الماءِ المنحدرةِ من المجاذيفِ إلى البحيرةِ، ونقيقُ الضفادعِ من حينٍ إلى حين.

ثمّ هتَكَ القمرُ سِتْرَ الظلامِ، وأرسلَ أشعّته الزرقاءَ إلى الزورقِ، والبحيرةِ والشاطئِ، وما وراءَ ذلك، فكانا يريانِ على ضوئِه بعضَ الأشجارِ كأنّها أشباحٌ متحرّكة، ويتخيّلانِ أنّ عيونَ الحشراتِ الساريةِ بين لفائفِ الأعشابِ، شَرَرٌ يتقدّحُ، فلذّ لهما هذا المنظرُ البديعُ، وذلكَ السكونُ العميقُ، وتلكَ الوحدةُ التي لا يكدّرُها عليهما مكدّر، وتركا الزورقَ يمشي بهما حيثُ يشاء، وينحدرُ كما يريدُ، وأنشآ يتحدّثانِ، فقال استيفن:

إنّي أؤثرُ يا ماجدولين أن يكونَ البيتُ الذي نَسكنُه في المستقبلِ على شاطئٍ بحيرةٍ كهذه البحيرة، وأن يكونَ لنا زورقٌ أوسعُ من هذا الزورقِ، وأجملُ منه شكلًا، نقضي فيه الليالي المقمرةَ بين الرياضةِ، والصيدِ، والاستحمامِ، ولا بدّ أن يكونَ للمنزلِ حديقةٌ صغيرةٌ، نغرسُ بها ما نشاءُ من الكرومِ، والأعنابِ، والأزهارِ والأنوارِ، وسأتولى بنفسي غرسَ شجراتِ البنفسجِ

لكِ، وسأنشرُ على جدرانِ الحديقةِ والمنزلِ غلائلَ رقيقةً من الخضرةِ اليانعة، أمّا المنزل، فأرى أنْ يكونَ مشتملًا على طبقتين، طبقةٍ عليا يكونُ فيها أربعُ غرفٍ: غرفةٌ للأضيافِ وأخرى للمكتبةِ، وأخرى للملابسِ، وصمَتَ لحظةً، ثمّ قال: أمّا الرابعةُ، فهي التي تكونُ لي ولكِ.

فاحمرّتْ ماجدولين خَجَلًا، ثمّ قالت: لقد فاتَكَ أن تذكرَ غرفتينِ أخريينِ، إحداهما لأخيكَ، والثانيةُ لأبي، قال: نعم، لقد فاتني ذلكَ، فلا بدّ إذنْ أنْ تكونَ الطبقةُ العليا مشتملةً على ستّ غرفٍ، أمّا الطبقة السفلى، فتشتملُ على قاعةِ الطعام، ومخزنِ المؤونةِ، وبيتِ الخدَمِ والحمّامِ، إلى ما يلحقُ ذلكَ من مرافقِ البيتِ وحاجاتِه. قالت: لقد فاتَكَ أيضًا أنّ الحديقةَ لا يجملُ منظرُهَا، إلّا إذا كان في وسطها حوضٌ صغيرٌ، يتدفّقُ ماءً نميرًا[1]، قال: نعم، وسنتّخذه لتربيةِ الأسماكِ الملوّنةِ، ولا يفوتُنا أن نحوطَهُ بسياجٍ عالٍ من الأغصانِ المشتبكةِ وقايةً لأطفالِنا الصغار.

فأخذتْ هذه الكلمةُ مأخذَهَا من نفسِ ماجدولين، واصفرّ لها وجهُها، ثمّ أطرقتْ برأسِهَا طويلًا، فحنَا عليها استيفن، وسألَها عمّا بها، فرفعتْ رأسها فإذا هي تبكي، فقال: ما بكِ يا ماجدولين؟

قالت: إنّ الدّهر يا استيفن، أضنُّ بالسعادةِ من أنْ يهبَهَا كلّها لشخصٍ واحدٍ، وأخافُ أن نكونَ كاذبينَ في آمالنا، أو مخطئينَ في تصوّر مستقبلِنا، فليتَ الدهرَ - إن كانَ يعلمُ أنّه سيحول بيننا وبين سعادتنا في المستقبلِ، ويكدّرُ علينا صفو عيشنا بفاجعةٍ من فواجعِهِ، أو نازلةٍ من نوازله - أنْ يمدَّ إلينا يدَه في هذه الساعةِ، فيستلَّ حياتَنا من بين يدَيْ أجلنا، لتخفَّ في أفواهنا مرارةُ الموت؟

قال: لا تخافي يا ماجدولين، فإنّ سلطانَ الدهرِ، لا تمتدّ يده إلى مواقفِ الحبّ، إلّا إذا أرادَ المحبّونَ أنفُسُهم أن يكونَ له هذا السلطانُ عليهم، فكوني معي، أتّخِذُ مِنْ حبّكِ عدّةً أنازلُ بِها حوادثَ الدهر وأرزائه، وأفسِدُ عليه حوله وقوّته؛ فصمتت واجمةً، ثمّ ألقتْ نظرَها على البحيرةِ ومجرى الزورقِ منها، وقالت: لو أنّ لأمرىءٍ أن يتمنّى لنفسِه ما يشاءُ، لتمنّيْتُ أن يكونَ هذا الطريقُ الذي نسيرُ فيه طريقَ الأبديّة، وأن يظَلّ هذا الزورقُ مطّردًا بنا في مسيرِه، لا يقفُ في طريقه شيءٌ، حتّى يلجَ بنا أبوابَ السماء.

ثمّ تنفّسَتِ الصعداء، وقالت: حسبُنا يا استيفن، فقد أوشكَ القمرُ أن يغيبَ، وأنا لا أحبّ أن أرى مغيبَه، لأنّي أخافُ أن تغربَ سعادَتُنا بغروبِه، فنظرَ إليها واجمًا متكئبًا، كأنّما دارَ بنفسه ما دارَ بنفسِهَا من المخاوفِ والأوهام، ثمّ قامَ إلى المجاذيفِ يحرّكُها، واضطجعتْ تحتَ قدميه، وما زالا حتّى بلغا الشاطئَ، ثمّ مشيا حتّى بلغا المنزلَ، فلمّا أرادا أن يفترقا، أدنى يَدَها من فمه يحاولُ أن يقبّلَها، فأبتْ، فقبّلها في جبينِها، فارتعدتْ، وألقتْ عليه نظرةَ عتبٍ أخذتْ من نفسِه مأخَذَها، وانصرفت.

---

(١) النمير: الصافي.

١٧ ـ من ماجدولين إلى استيفن

ماذا صنعتَ يا استيفن؟ إنّكَ سلبتَني الليلةَ الماضيةَ راحتي وسكوني، فإنّي كلّما تذكّرتُ تلكَ القبلةَ التي وَصَمْتَ بها جبيني، شعرتُ كأنّ نارًا مشتعلةً تتأجّجُ بين أضالعي، وأنّ صحيفتي التي لم تزلْ بيضاءَ حتّى ليلةِ أمسِ، قد أصبحتْ تضطربُ في بياضِها الناصعِ نقطةٌ سوداءُ، فأحاولُ أن أطردَهَا من أمامي، فأكونُ كالأرمَدِ الذي يحاولُ أن يطردَ الغشاوةَ السوداءَ عن عينيهِ، فلا يستطيعُ، لقد سَكَبَتْ عيناي كثيرًا من العبراتِ، وتوسّلْتُ كثيرًا إلى الله تعالى أنْ يغفرَ لي ذنبي، ولا أدري ما هو صانعٌ بي، ولا كيفَ أستطيعُ أنْ أقفَ بين يديهِ يومَ الحسابِ بهذا الجبينِ المسودّ منِ الإثم، وهذا الوجهِ المحمرّ من الخجلِ؟ لا أكتمُكَ يا سيّدي، أنّني لولا أن عزّيتُ نفسي عن هذه النكبةِ بأنّك أخذتَ منّي تلكَ القبلة أخذًا، ولم أمنَحْهَا لك منحةً، لقتلتُ نفسي بيدي. لا تَعُدْ إلى مثلِهَا يا استيفن، إلّا إذا أردتَ أنْ تراني يومًا من الأيّام بين يديكَ جثّةً هامدة.

❀ ❀ ❀

١٨ ـ من استيفن إلى ماجدولين

ما كنتُ أعلمُ قبلَ اليومِ أنّ الفتاةَ التي تحبّ، وتعاهِدُ من تحبّ، وتقسمُ بين يدَيْ حبيبها يمينَ الإخلاصِ والوفاءِ علَى أنْ تكونَ له كما يكونُ لها، وألّا يجعلَ ليدٍ غيرِ الموتِ سبيلًا إلى التفريقِ بينهما، تستكثرُ عليه قبلةً شريفةً، يأخذُها من جبينِهَا كما يأخذُها الأخُ من جبينِ أخته، والمتعبّدُ من يدِ كاهنه.

ما أحسبُ إلّا أنّكِ قد خدعتِ نفسَكِ بنفسِكِ، يا ماجدولين، حينَ ظننتِ أنّكِ عاشقةٌ، وما أنتِ من الحبّ في شيءٍ، لأنّ الفتاةَ التي تحبّ، لا ترى بأسًا في أنْ تمنحَ قبلةً لحبيبِهَا منحةً، ولا تنتظرُ أن يأخُذَهَا منها أخذًا.

الآن عرفتُ أنّ بكاءَكِ بين يديّ، واضطرابَ يدِكِ في يدي، وخفوقَ قلبكِ عند رؤيتي، إنّما كانَ أثرًا من آثارِ الخوفِ، لا مظهرًا من مظاهرِ الحبّ، وأنّ عطفَكِ عليّ وتحبُّبَكِ إليّ ولُصُوقَكِ بي، لم يكنْ لأنّك كنتِ تحبّينَني، بل لأنّ فتاةً مسكينةً ضعيفةً مثلَكَ، لا بدّ لها أنْ تشعرَ بالميلِ إلى كلِّ رجلٍ قويٍّ بجانبها.

تقولينَ لي إنّكِ قضيتِ ليلَكِ أمسِ معذّبةً، لا يهنأُ لكِ مضجعٌ، ولا يغتمضُ لكِ جفنٌ، أمّا أنا، فأقول لكِ: إنّي لم أقضِ في حياتي ليلةً أهنأَ من تلكَ الليلةِ، لأنّي بتُّ أتخيّلُ تلكَ القبلةَ التي تناوَلْتُها من جبينِك، كأنّها ثغرٌ منضّدٌ[1] يبتسِمُ إليّ أرقَّ ابتسامٍ وأعذَبَه، فأشعرُ بروحِ الحبّ

(١) المنضّد: المجموع بعضه إلى بعض.

تدبّ في أعضائي دبيبَ الحميّا[1] في وجهِ شاربِها، أمّا اليومَ، فإنّي أصبحتُ أتخيّلُها تمثالًا جامدًا من الحجرِ الصلدِ ماثلًا بين يديَّ، لا يتحرّكُ، ولا ينطق.

عفوًا، يا ماجدولين، فإنّي ما تناولتُ تلكَ القبلةَ من جبينِك، إلّا وأنا أعتقدُ أنّي أقبّلُ زوجتي، لأنّي لا أرى فرقًا بين عهدِ الإخلاصِ الذي يؤخذُ بين يَدَيِ الحبّ، وعقدِ الزواجِ الذي يعقدُ بين يَدَيِ الكاهن. وأشكرُ تلكَ الساعاتِ القليلةَ التي سعدتُ فيها على يدِكِ، وإنْ كانتْ سعادةً موهومةً. ويمكنني أنْ أقول لك إنّي ما نَقَضْتُ - حتى الساعةَ - ذلكَ العهدَ الذي عاهدتُكِ عليه، وإنّي لا أزالُ أحبّكِ كما كنتُ، لأنّي ما كنتُ أحبَبْتُك، لأجازيَكِ على حبٍّ بمثله؛ ولا لأنّكِ جميلةٌ، أو عاقلةٌ، أو ذكيّةٌ، ولا لشيءٍ ممّا يحبّ الرجالُ له النساءَ، بل أحبَبْتُكِ للحبِّ نفسِه، والسلام.

❃ ❃ ❃

١٩ - من ماجدولين إلى استيفن

عفوًا، يا استيفن، فما كنتُ أحسبُ أنّ كلمتي بالغةٌ منكَ ما بَلَغَتْ، أو أنّها ذاهبةٌ بك هذهِ المذاهبَ كلّها، فاغفرْ لي ذنبي، فواللهِ، ما احتفظتُ بعرضي إلّا لكَ، ولا منعتُكَ نفسي اليومَ، إلّا لأبذلَها لكَ غدًا؛ أنتَ اليومَ حبيبي، وغدًا تكونُ زوجي، وكلّ ما صنعتُهُ أنّي توسّلْتُ إلى حبيبي أن يزفّني طاهرةً نقيّةً إلى زوجي، أمّا الخداعُ الذي تذكرُه في كتابكَ، فأنا أعتقدُ أنّك تَعلمُ مِنْ أمري غيرَ ما تقولُ، ولكنّك غضبتَ، فقلتَ غيرَ ما علمت.

❃ ❃ ❃

٢٠ - من مولر إلى استيفن

أكتبُ إليكَ كتابي هذا، ويَدي ترتعدُ خَجَلًا، ونفسي تسيلُ حُزنًا، لأنّي ما كنتُ أقدّرُ في نفسي أنْ سَتَمُرُّ بي ساعةٌ من ساعاتِ حياتي، أرى نفسي فيها مضطرًّا أنْ أقولَ لصديقي الذي أُجِلُّهُ، وأعظّمُه، وأُنزلُهُ من نفسي خيرَ منزلة: إنّي لا أستطيعُ أنْ أستقبلَكَ في منزلي بعدَ اليوم، بل لا أستطيعُ أنْ أحتملَ بقاءَكَ في المنزلِ الذي أسكنُهُ، وتسكنُهُ ابنتي، لأنّ لي شرفًا أُبقي عليهِ أكثرَ ممّا أُبقي على صداقةِ الأصدقاءِ، على أنّني أرجو ألّا تزالَ تعدّني صديقَكَ المخلصَ إليك، كما إنّي لا أزالُ أعدُّكَ كذلكَ، وإن فرَّقَتْ بيننا الأيّام.

❃ ❃ ❃

---

(١) الحميّا: الخمرة.

٢١ ـ حديث

جَلسَتْ ماجدولين في غُرفتها تَخِيطُ ثوبًا لها، ربّما كانتْ تُعِدّه لليلةِ عرسِهَا، فَنَدَّتْ[1] إبرتُهَا من يَدِها، فرفعتْ رأسَهَا، فإذا أبُوها ماثلٌ ببابِ الغرفةِ، فدهشَتْ لمرآه، وراعَهَا منظرُ سكوتِهِ وجموده. ثمّ مشى إليها بقدَم مطمئنّةٍ، حتّى وضَعَ يده على عاتِقِهَا، وقال: أتعلمين، يا ماجدولين، أنّي أرسلتُ جنفياف الساعةَ بكتابٍ إلى استيفن، أمنعُهُ فيه من دخولِ بيتي، بلْ أمنعُهُ من البقاءِ في منزلي؟ قالتْ: لا أعلمُ من ذلك شيئًا، ولا أعرفُ لصنيعِكَ هذا سببًا، قال: لا سَبَبَ له، إلّا أنّه يحبُّكِ، قالت: إنّه لا يحبّني، ولكنّه يحبُّ أن يتزوّجَ بي. قال: ذلكَ ما لا أريدُ أن يكونَ. قالت: ولماذا؟ قال: لأنّه لا يصلحُ أنْ يكونَ زوجًا لك. قالت: أنا أعلم أنّكَ اتّخَذْتَهُ لنفسِكَ صديقًا، وأنك تعرفُ له مكانَه من الفَضلِ والنُّبْلِ، فكيفَ ترضى أن تتّخِذَ لنفسِكَ صديقًا، من لا ترى أنّه لا يصلحُ أن يكونَ لابنتِكَ زوجًا؟

قال: إنّي أصادِقُه، لأنّه شخصٌ كريمٌ، ولا أحبُّ أن أصاهِرَه، لأنّه بائسٌ فقيرٌ، فقد عثرتُ بكتابٍ سَقَطَ منه، فقرأتُهُ، فعرفْتُ أنّه لا يملكُ ما يقوتُ به نفسَه، فأحرى ألّا يملكَ ما يقوتُ به أهلَه، قالت: إنّكَ حدّثْتَني عنه أنّه فتًى ذكيٌّ متعلمٌ، ومن كانَ هذا شأنَه، لا يكونُ بينَه وبينَ الغِنَى، إلّا بضعُ جولاتٍ يجولُها في ميدانِ هذا العالمِ، فيعودُ من بعدِهَا رجلًا غنيًّا، وزوجًا صالحًا، قال: إنّ في أخلاقِهِ من الأَنَفَةِ والترفُّعِ ما يحولُ بينَه وبينَ النجاحِ، قالتْ: إنّ الحبَّ يُقَوِّمُ ما أعْوَجَّ من الأخلاق، ويُحيي مَيِّتَ الأملِ في نفسِ المحبّ، فلا تُطفِئ جمرةَ الحبّ التي تشتعِلُ في قلبه، فإنّكَ إن فعلتَ، قَتَلْتَهُ، وقتلْتَ أَمَلَهُ، وأتلَفْتَ عليه حياته. قال: يا بنيّة، إنّي أعلمُ من أخلاقِ الناسِ وشؤونِهم، ما لا تعلمين، وقد رأيتُ أنّي أكونُ مخاطرًا بكِ وبمستقبلِكِ، وبكلِّ ما أرجو لكِ من سعادةٍ في العيشِ وهنائه، إنْ أنا رضيتُ لكِ الزواجَ الذي أعلم أنّ شرّهُ أكثرُ من خيرهِ بل أعلمُ أنّه شرٌّ كلُّه لا خيرَ فيه، فانظري، يا بنيّةُ، في أمرِ نفسِكِ بعينِ غيرِ عينِ الحبّ، فإنّها دائمًا حولاءُ، واذكري أنَّ أباكِ الذي يحبّكِ، ويُنزلُكِ منْ نفسه منزلةً لا يغلبكِ عليها غالبٌ، لا يمكنُ أنْ يكونَ غاشًا لكِ، أو خادعًا.

فركعتْ بين يديهِ ومدّتْ يدَهَا إليه ضارعةً، وأنشأتْ تسترحمُه بالبكاءِ مرّةً والدعاءِ أخرى، فكانتْ كأنّها تستنبطُ الماءَ من الصخرِ، أو تستنبتُ الربيعَ في القفرِ، حتّى وَهَتْ[2] قوّتُها، فسقطتْ تحتَ قدميهِ، فتركَهَا مكانها، ومَضَى لسبيلِهِ، وهو يقول: إنّكِ اليومَ تجهلينَ، وغدًا تعلمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) ندّ: شرد، شذّ.

(٢) وهى: ضعف، انشقّ، تمزّق.

٢٢ ـ الخبر

دَخَلَتْ جنفياف عَلَى استيفن في غرفَتِهِ، وقد جَلَسَ إلى مصباحٍ ضعيفٍ يقرأُ في كتابٍ، فأعطَتْهُ كتابَ سيِّدِها، ورجعتْ أدراجَها، وكانَ أول كتابٍ جاءَه من مولر، فمرّ بخاطره، وهو يفضُّ غلافَه، كلُّ شأنٍ إلّا الشأنَ الذي كُتِبَ فيه، فما أمرّ نظرَه عليهِ، حتّى فَهِمَ كلّ شَيء.

فلو أنّ راميًا سدَّدَ إلى قلبِهِ سهمًا جديدًا، فنفَذَ إليه ما بَلَغَ منه ما بَلَغَ هذا الكتابُ، ولو أنّ نازلةً من نوازلِ القدرِ، هَوَتْ عليه، فاختطفتْ نفسَهُ من بين جنبيه، لكانَ في مصابها رأيٌ غيرُ رأيِهِ في هذا المصاب، فقد سَكَنَ على أثرِ ذلكَ سكونًا لا تطرفُ فيه عينٌ، ولا ينبضُ فيه عِرْقٌ، ولا يخفقُ قلبٌ، ولا يتحرّكُ خاطرٌ، حتّى لَيَكَادُ يعتقدُ الناظرُ إليه في تلكَ الساعةِ أنّ هناكَ منزلةً وسطى بين الحياةِ والموت. تنعبثُ فيها الحواس في سبلِهَا، ولكنّها لا تعودُ إلى الدمَاغ بِشيءٍ مما تحسُّ به.

واستمرَّ على ذلكَ ساعةً، ثمّ انتفضَ انتفاضَ الطائرِ المذبوحِ، ودارَ بعينَيْهِ يمنةً ويسرةً، كأنّما يفتّشُ عن شيءٍ أضاعَه، فرفَعَ نظرَهُ على الكتابِ، وهو ملقًى بجانبِهِ، فقرأه مرّة أخرى، ثمّ ضربَ جَبْهَتَهُ بيده، وأنشأ يقولُ بصوتٍ خافت: لا أملَ لي بعدَ اليوم، ها أنذا، وها هو ذا الكتابُ بين يدي، وما أنا بحالمٍ، ولا الكتابُ بكاذبٍ؛ نعم، إنّ مولر طردَني من بيتِه، وقَتَلَ نفسي قتلًا، وفجَعَني في جميعِ آمالي، وحالَ بيني وبينَ ماجدولين. أي إنّه فرّقَ بين روحي وجسَدِي، إنّه فعل ذلكَ، وهو لا يدري ماذا يفعلُ، إنّه اجْتَرَمَ هذه الجرائمَ كلّها ساكنًا هادئًا، كأنّما هو يعبثُ بفأسِه في أرضِه، أو يحوّلُ جدولَه من طريقٍ إلى طريقٍ. لقد قسا عليَّ قسوةً، لم يَقْسُهَا أحدٌ من قبله على أحدٍ، إنّه عَلِمَ أنّي فقيرٌ لا أملكُ شيئًا، ورأى أن الفقرَ جريمةٌ، لا عقابَ لها إلّا القتلُ، فقتلني.

ثمّ إنّه كأنّما جُنّ جنونًا، فَثَارَ من مكانِهِ ثورةَ الأسدِ الهائج، وتمثّل له كأنّ مولر ماثلٌ بين يديهِ، فمشى إليه مهدّدًا، وصارَ يهذي ويقول:

مهلًا، رويدًا أيّها الشيخُ الأبلَهُ، أظننتَ أنّي بينَ يديكَ شاةٌ خرقاءُ، أو دجاجةٌ بلهاءُ، تقدّمُ نفسَهَا لسكّينِ الذابحِ حينما يريد؟ لا . . . لا! أنا إنسانٌ عاقلٌ، ورجلٌ شجاعٌ، لا بدّ أن يكونَ لي أملٌ أحيا ،،، وسعادةٌ أنعَمُ بها؛ ولا بدّ أنْ أقاتِلَ عن أمَلي وسعادَتي، حتّى أَبلُغَهُما أو أُقْتَلَ دونهما.

كذبتَ أيّها الرجلُ، إنّك أضعفُ من أن تمدّ يدَكَ إلى هذا الرباطِ المقدّسِ فتقطَعُهُ، إنّك أعجزُ من أن تنتزعَ شعرةً من شعورِ رأسِكَ البيضاءِ، فأحرى أنْ تعجزَ عن أن تنتزعَ روحًا عن جَسَدِها.

إنّ الذي بيني وبين ماجدولين، شيءٌ لا تَصِلُ إليهِ يَدُكَ، ولا يمتدُّ إليه سلطانُكَ، ولا يتعلّقُ به أمرُكَ ونَهْيُكَ، وعطاؤك وَمَنْعُكَ.

إنّكَ تستطيعُ أن تَطْرُدَني من بيتِكَ، لأنّكَ تملكُهُ، وأنْ تحبسَ ابنتك في غرفَتِها، لأنّك

أبوها، ولكنّكَ لا تستطيعُ أن تمنعَ قلبينا أنْ يتحابّا ونفسَيْنَا أنْ تتّصِلا.

إن الذي خلقَ الإنسانَ، وأسدى[١] إليه نعمةَ الحياةِ والرزقِ، لم يسترقَّهُ بهذه النعَم، ولم يملكْ عليهِ قلبَهُ ثمنًا لها، بلْ تَرَكَهُ حرًّا، يحبّ من يشاءُ، ويبغضُ من يشاءُ، وأنتَ تريدُ أيّها الشيخُ الضعيفُ، المسكينُ، أن يكونَ لكَ على قلوبِ الناسِ سلطانٌ فوقَ سلطانِ الله، وإرادةٌ فَوْقَ إرادَتِه.

أيُّ شأنٍ لكَ عندنا، وأيُّ صلةٍ لكَ بنا؟ وقد ذَهَبَ عصرُكَ، وذَهَبْتَ بذهابه، وأصبَحْنا لا نعدّ وجودَكَ وجودًا، ولا حياتَكَ حياةً، فإنْ نظرْنَا إليكَ فكما ننظر في ساعة من ساعاتِ فراغِنَا إلى صفحةٍ من صفحاتِ التاريخِ الغابر.

إنّ عقلَكَ الذي بَلِيَ ورثَّ، وانتشَرَتْ فوقَهُ طبقةٌ سوداءُ من القِدَمِ، لا يصلحُ أن يكونَ مرآةً صادقةً نرى فيها وجوهَنا، ونتحاكمُ إليها في سعادَتِنا وشقائِنا.

إنّكَ شَرِهٌ طَمّاعٌ، رأيتَ أنّ ماءَ حياتِكَ قد نَضَبَ، وأنّ أغْرِبَةَ[٢] الفناءِ السودِ تحلّقُ فوقَ رأسِكَ المشتعلِ شيبًا، فعزّ عليكَ أن تَموتَ، فجئتَ إلينا تحاولُ أن تقاسِمَنَا حياتَنَا الجديدةَ الغضَّةَ، فكان مَثَلُكَ كمثلِ ذلكَ الملكِ الظالمِ الذي كانَ يمتصّ دماءَ الأطفالِ ظنًّا منه أنّ ما يَنْقُصُ مِنْ حياتهم يزيدُ في حياته.

إنّني لم أكنْ أريدُ بكَ أيّها الشيخُ المأفونُ[٣]، ولا بابنَتِكَ شرًّا، ولا ضَيْرًا، بلْ كنتُ أُعِدُّ لها عيشًا هنيئًا رَغْدًا في مستقبلِ حياتها، فأنا خيرٌ لها منكَ، لأنّكَ ما أردتَ بها فيما صَنَعْتَ اليومَ، إلّا عذابًا دائمًا، وشقاءً طويلًا.

وأعجبُ من ذلكَ كلِّهِ أنّكَ تذكرُ في كتابكَ الصداقَةَ، والإخاءَ، والإخلاصَ كأنّك تَظُنُّ أنّ البُلْهَ، قد بَلَغَ منّي مبلَغَه منكَ، وأنّي أجهلُ أنّك شيخٌ مُدَاجٍ[٤] مصانعٌ، تكتبُ الحكمَ بالإعدامِ، وكأنّكَ تكتبُ بطاقةَ دعوةٍ إلى وليمةٍ، وتقدّمُ قطعةَ الحلوى، وقد دَسَسْتَ في باطنها نَاقِعَ[٥] السمّ، وترفع قبّعتكَ احترامًا لمن يقطرُ خنجرُكَ من قلبِه دمًا.. وهنا بلغَ منه التعبُ مبلغًا، فسقطَ مكبًّا على وجهِهِ، يبكي بكاءَ الطفلَ الصغيرِ، وينشجُ نشيجًا محزنًا، ثمّ جَثَا على ركبتيهِ، ورفَعَ وجهَهُ إلى السماءِ وأنشأَ يقول:

رحمتَكَ، اللّهُمَّ، وإحسانَكَ، فأنْتَ تعلَمُ أنّي رجلٌ ضعيفٌ، لا ناصرَ لي، ولا معينَ، فكنْ أنتَ ناصري ومعيني. اللّهُمَّ، إنّي أعترفُ بأنّي أذنبتُ إليكَ في اعتزازي بنفسي، واعتدادِي بَحَوْلي وقوّتي، وأنّي أغفلتُ قضاءَكَ وقَدَرَكَ، وما تجريهِ على عِبَادِك من أحكام السعادةِ والشقاءِ، والسلبِ والعطاءِ، فقدّرْتُ لنفسي من سعادةِ المستقبلِ، وهنائِه ما لا أَمْلِكُهُ، ولا سبيلَ لي إليهِ، إلّا بمعونَتِكَ وقوّتِكَ، فاغفرْ لي ذنبي، وخُذْ بيدي في نكبتي، فقد أصبحتُ أعجزَ الناسِ عن الصبرِ والاحتمال.

---

(١) أسدى: منح، وهب.
(٢) أغربة: جمع غراب وهو الطائر المعروف.
(٣) المأفون: الضعيف الرأي.
(٤) المداجي: الذي يخفي عداوته.
(٥) الناقع: المميت.

ثمَّ سكنَ بعد ذلكَ سكونًا عميقًا، ولم يزلْ باسطًا يديهِ، رافعًا رأسَه إلى السماء، كأنّما كانَ ينتظرُ، أو يسمعُ هاتفًا يهتفُ به من الملأ الأعلى؛ فلم يلبثْ أنْ رأى، من خلالِ دموعِهِ الحائرةِ في عينيه، شَبَحًا من نورٍ يتلألأُ أمامَه، وكانَ المصباحُ قد انطفأ، وأضاءتِ الغرفةُ بأشعّةِ القمرِ، فمسَحَ دموعه بيمينِهِ، ونظرَ، فإذا هي ماجدولين!

❀ ❀ ❀

٢٣ ـ الوداع

لبثتْ ماجدولين في غُرْفَتها، بعد أن فَارَقَها أبوها ساعةً، تقلّبُ النظرَ في أمرِهَا، فلا ترى في ذلكَ الظلامِ الحالِكِ نجمًا يتلألأ، ولا ذبالة[1] تضيءُ، فبكتْ ما شاءَ اللهُ أن تفعلَ، حتّى مَضَى الليلُ إلّا أقلّه، فَحَدَّثَتْهَا نفسُهَا بأمرٍ ما كانتْ تحدّثُهَا به، لولا لوعةُ الحبّ، وفَجْعَةُ البينِ، وقامتْ تختلسُ خطواتِهَا اختلاسًا، وما على وَجْهِ الأرضِ قلبٌ أضعفُ من قلبهَا، ولا لوعةٌ أشدُّ من لوعَتِها، حتّى وَصَلَتْ إلى السلَّم، فَصَعِدَتْ تسترِقُ درجاتِهِ، حتّى انتهتْ إلى أعلاهُ، فوقفتْ قليلًا، تستغفرُ الله من ذنبها، وتسألُهُ إحسانَه، ورحمَتَه.

ثمّ مشتْ إلى غرفةِ استيفن، ودفعَتِ البابَ قليلًا، فرأتْهُ جاثيًا على ركبتَيْهِ، يهتفُ بدعائِه، فأثّرَ منظرُه في نفسِهَا، وأخذتْ تبكي لبكائِه! وتدعو بدُعَائِهِ، حتّى التفتَ فرآها، فخَفَقَ قلبُه خفقًا متداركًا، وتعلّقَتْ أنفاسُه، وجَمُدَ نظرُه، وتزايلت[2] أوصالُه، حتّى ما يكادُ يتحرّكُ من مكانه، فمدَّ إليها يدَه كالمستغيثِ المتلهّفِ، فدَنَتْ منه وقالت: إنّي جئتُك، لأودّعَك، يا استيفن، ولا أستطيعُ أنْ أبقى عندَكَ طويلًا، فهلْ تستطيعُ أنْ تَعِدَني وعدًا صادقًا، ألّا تتركَ نفسَكَ في يدِ الهمومِ تعبثُ بها كيفَ تشاء، وألّا تجعلَ لليأسِ سبيلًا إلى قلبك، حتّى يجمعَ اللهُ بيني وبينك؟

قال: ذلكَ أمْرُهُ إليكِ، فأنتِ التي تستطيعينَ أن تجعَليني شجاعًا صبورًا متحمّلًا، وأنتِ التي تملكينَ أنْ أحيا بالأمَلِ، أو أموتَ باليأسِ، قالتْ: إنّي أقولُ لكَ اليومَ، يا استيفن، كلمةً كانَ يمنعني الحياءُ أنْ أقولَهَا لكَ قبلَ اليوم، وهي أنّي أحبَبْتُك حبًّا ملأَ فراغَ قلبي، فما يَسَعُ غيره، ونزلَ منه منزلةَ الروحِ من الجسد، فما ينتقلُ عنه، وقد عاهَدْتُكَ على الزواجِ بين يَدَيِ الله، ويَدَيْ ضميري، وما أنا بخائنةِ ضميري، ولا بكاذبةِ ربّي، فسافِرْ، يا استيفن، وفتّشْ عن سعادَتِنَا في كلّ مكانٍ، وبكلّ سبيلٍ، حتّى تجدَهَا، وَعُدْ إليّ بعد ذلكَ، فإنّي سأكونُ لكَ ما حييتُ، سافِرْ حيثُ شئت، وتقلّبْ في البلادِ كما أردتَ، وَعُدْ إليَّ بعدَ عام، أو عامين، أو عشرةَ أعوام، أو أكثرَ من ذلك، فإنّكَ ستجدُني كما تركتَني نقيّةً طاهرةً، ووفيّة. واْعلَمْ أنّ اللهَ ما ألهمَني الصبرَ عنكَ، وألهمَكَ مثلَ ذلكَ في مثلِ هذا الموقفِ الذي تطيشُ فيه العقولُ،

---

(١) ذبالة: فتيلة.

(٢) تزايل: تفرّق.

وتطيرُ رواجعُ الأحلامِ، إلّا وقد أرادَ بنا خيرًا في جميعِ شؤوننا، وقدّرَ لنا السعادةَ والهناءَ في مستقبلِ أيّامنا؛ سافرْ، يا استيفن، غدًا، واكتبْ إليَّ بكلِّ ما تلاقِي من خيرٍ أو شرٍّ، لأقاسِمَكَ سرّاءَكَ وضرّاءَكَ، وسأكتبُ إليك كما تكتبُ إليّ.

فسَكَنَ ثائِرُهُ قليلًا، وقال: إنّ سفري سيكونُ طويلًا، يا ماجدولين، فهل لكِ أن تزوّدِيني بقليلٍ من الزادِ، أستعينُ به على بُعْد الشقّة، وعناءِ المسير؛ فمدّتْ يَدَهَا إلى شَعْرِهَا، وقصّتْ منه خصلةً، فأعطاها من شَعْرِهِ مثلَهَا، ثمّ تراجعتْ قليلًا قليلًا، وهي تنظرُ إليه بعينٍ مِلْؤُها الحبّ والجَزَع، والصبابةُ والدموعُ، فقامَ إليها ليدرِكَها، فاختَفَتْ.

❁ ❁ ❁

٢٤ ـ السفر

استيقظَ استيفن صباحَ يومِ الرحيلِ، وأطلَّ من نافذةِ غرفتِهِ المشرفةِ على الحديقةِ، فرأى الأفقَ يتفتّحُ عن نفسِهِ شيئًا فشيئًا، ورأى الشمسَ قد هَبّتْ من مرقَدِها، ولا تزالُ في جفنِهَا سِنَةُ[1] الغمضِ، ثمّ رآها، وقد لبستْ ثوبَهَا الأوّلَ، وخَطَتْ بعضَ الخطواتِ إلى مطلعها، فمشَتْ أمامها حاشيةٌ من الأضواءِ، تتقدّمُها كما تتقدّمُ الملكَ حاشيتُه في مطلعِهِ من بابِ قصره، ثمّ نظرَ إلى السماءِ من ناحيةِ المشرقِ، وقد انتشرتْ في أنحائِهَا تفاريقُ السحبِ، ومَشَتْ في جذوتها[2] حمرةُ النور، فخُيِّلَ إليه أنّه يرى هنالكَ برجًا عظيمًا تضطرمُ فيه النارُ اضطرامًا، وأنّ دخانَ تلكَ النارِ، يتراكَمُ فوقَهَا مرّةً، وينفرجُ عنها أخرى، ثمّ رأى أشعّةَ الشمسِ البيضاءَ، تخالطُ حبّاتِ الطَلّ[3] في أوراقِ الزهرِ، والطلُّ لم يَجْرِ ذَائِبُه، فكانَ كأنّه يرى أحجارَ الماسِ تضيءُ، فتنعكسُ عنها ألوانٌ مختلفةٌ بديعةٌ، تملكُ القلوبَ والأبصارَ، ولم يكنْ يسمعُ في تلكَ الساعةِ من الأصواتِ غيرَ طنينِ النحلِ، وهو مُكِبٌّ على أزهارِهِ يرشُفُ كؤوسَهَا، ويتطايَرُ من حولها كما تَتَطَايَرُ الأحلامُ اللذيذةُ حولَ الأطفالِ الصغار.

فألقى على تلكَ المناظرِ كلّها نظرةً عامّةً، لم يسترجِعْهَا إلا مبلّلَةً بالدمعِ، حينما ذَكَرَ أنّه سيفارقُ عمّا قليلٍ هذه الدارَ، ويفارقُ بفراقِهَا سعادتَه وهناءَه، ويفارقُ ظِلالَ الزيزفونِ التي كانَ يجلسُ إليها مع ماجدولين، والجدولَ الذي كانا يمشيانِ بجانبِه، والزورقَ الذي كانا يتنزّهَان فيه، والمقعدَ الذي كانَ يقتعِدُه من الحديقةِ، لينتظِرَ مجيئَها، أو ليرى خيالَهَا من نافذةِ غرفَتِهَا، والغرفةَ التي كانَ يشرفُ من نافِذَتِها، ليسمعَ نغماتِ صوتِهَا العذبِ، وطاقاتِ الزهرِ التي كانتْ تهديها إليه، فيستروحُ منها نسيمها.

---

(١) السِّنة: النعاس.

(٢) الجذوة: الجمرة الملتهبة.

(٣) الطَلّ: الندى.

فلَمْ يزلْ يبكي بكاءَ الشيخِ على عهودِ صباهُ، حتّى كادتْ تُتْلَفُ نفسُه؛ ولولا أنّه ذَكَرَ حديثَها معه ليلةَ أمسِ، فعزّى نفسَه عن فراقِهَا بإخلاصِهَا ووفائِهَا، وما عَقَدَتْ بينها وبينه من العهودِ، لَقَضَى في مكانِهِ أسفًا. ثمّ قامَ إلى حقيبَتِه، فوضَعَ فيها ملابسَه ومرافِقَه، ونزلَ إلى الحديقةِ، فودّعَ أزهارَها، وأشجارَها، ومجالسَها ومقاعِدَها، ولم يتركْ جذعًا لم يقبّلْه، ولا غُصْنًا لم يلثُمْهُ، ولا مقعدًا لم يمرّغْ خَدّهُ فوقَه، ويبلّلْهُ بدموعِه. ونقَشَ اسمَه واسمَ ماجدولين على كثيرٍ من المقاعدِ والجذوعِ، واقتطفَ من كلِّ شجرةٍ زهرةً، وجمعَ تلكَ الأزهارَ في طاقةٍ واحدة، وتركَهَا على بعضِ المقاعدِ لماجدولين، ثمّ ذهبَ إلى البستانيّ، واتّفقَ مَعَهُ على أنْ يحمله على فرسِه إلى (كوبلانس)، ثمّ فَارَقَ (ولفاخ)، بينَ وجدٍ يقتُلُهُ، وأملٍ يُحْيِيه.

❁ ❁ ❁

٢٥ ـ من ماجدولين إلى استيفن

سافرتَ، يا استيفن، وأصبَحْتَ بعيدًا عنّي، وما أحسَبُ أنّي أراكَ في عهدٍ قريبٍ، فما أعظمَ بؤسي وشقائي، وما أشدَّ ظلمةَ الوحشةِ المحيطةِ بي.

لقد خَدَعْتُ نفسي يومَ أَشَرْتُ عليكَ بالسفرِ، فقد ظَنَنْتُ أنّ بين جنبيّ ذخيرةً من الصبرِ، والاحتمال أقوى بها على تَجَرُّعِ كأسِ فراقِك المريرةِ، فلمّا فَقَدْتُ وجهَكَ، علمتُ أنّي فتاةٌ ضعيفةٌ بائسةٌ، لا تقوى على احتمالِ أكثرَ ممّا تطيقُ من الآلامِ، والأحزانِ، وأنّني فيما أدليتُ به إليكَ من تلك النصيحةِ إنّما كنتُ أحدّثُ عن خواطرِ عقلي، لا عن شعورِ نفسي.

لقد كنتُ أرجو أن يكونَ آخرَ عهدي بكَ، يومَ رحيلِكَ، وقفةٌ أقفُها في نافذةِ غرفتي، أُحَيّيكَ فيها تحيّةَ الوداعِ، وأُلقي عليكَ فيها آخرَ نظرةٍ من نظراتِ الحبّ، لولا أنّني خفتُ عليك الجزعَ، أنْ تراني باكيةً، وعلى نفسي التلفَ، أنْ أراكَ جازعًا، فافتديتُكَ، وافتدَيْتُ نفسي بهذه اللوعةِ التي تتأجّجُ اليومَ في صدري، فما أصعبَ الوداعَ، وما أصعبَ الفراقَ بلا وداع!

ونزلتُ بعد سَفَرِكَ إلى الحديقةِ، فلم أَجِدْكَ، ووجدتُ على بعضِ مقاعِدِهَا طاقةَ الزهرِ التي تركْتَهَا لي قبلَ سفرِكَ، فلثمْتُها، ولَثَمْتُ شخصَك فيها، ثمّ مشيتُ إلى ذلكَ المقعدِ الذي كنّا نجلسُ عليه معًا تحتَ شجرةِ الزيزفون، فجلستُ فيه وحدي، ونشرتُ بين يديَّ رسائِلَكَ الماضيةَ، وأنشأتُ أقرؤُها، وأُصغي إلى حديثِكَ فيها، فَخُيِّلَ إليَّ أنّك جالسٌ بجانبي، تحدّثني فمًا لفم، وأنّ ما يقعُ عليه نظري في صفحاتِ رسائِلِكَ، إنّما هي نبراتٌ تسمَعُها أذني لا خطوطٌ تُبْصِرُهَا عيني، فسَكَنْتُ لذلكَ الخيالِ ساعةً، سكونَ الطفلِ الباكي لنشيدِ المَهْدِ، حتّى سمعتُكَ تدعوني في بعضِ أحاديثك «يا خطيبتي»، وهي تلكَ الكلمةُ الحلوةُ العذبةُ التي تهبطُ حلاوَتُهَا إلى أعماقِ قلبي، كلّما سَمِعْتُهَا، فانتفَضْتُ وألقيتُ نظري على مكانِكَ الذي تخيّلْتُهُ بجانبي، فَوَجَدْتُهُ خاليًا، فَعَلِمْتُ أنّ تلكَ الساعةَ الجميلةَ الّتي مرّتْ بنا تحتَ هذه السماءِ

الصافيةِ، وفوقَ تلكَ المقاعدِ الجميلةِ، وبين مشتبكِ هذه الغصونِ والأوراقِ، قد ذهَبَتْ، ولم يبقَ لي منها غيرُ ذكراها، فبكيتُ ساعةً طويلةً لا عِلْمَ لي بمدَاهَا، ثمّ اسْتَفَقْتُ، فصعدتُ إلى غرفتي، وجلستُ إلى منضَدَتي، أكتبُ إليك هذا الكتاب.

فمتى تعودُ، يا استيفن؟ ومتى تعودُ، بعودتِكَ، الأيّامُ الحسان؟!

❃ ❃ ❃

٢٦ ـ من ماجدولين إلى استيفن

لقد كابدتُ[١] بالأمسِ ليلةً ليلاً، فلم ينحدِرْ كوكبُ الشمسِ إلى مغربها، حتّى سمعتُ صوتَ العاصفةِ يهدرُ في كلّ مكانٍ. رأيتُ آفاقَ السماءِ قد اربدّتْ[٢] واقشَعرّتْ، ثمّ ارفَضّتْ[٣] عن غيوثِهَا[٤] المنهلّةِ، فذكرتُ أنّكَ لا تزالُ على الطريقِ، وأنّك تقاسي في تلكَ الساعةِ من عثراتِ الطريقِ وعقباتِهِ، وقَفْقَفَةِ البردِ ورعشَتِهِ عناءً عظيمًا، فالتحفتُ ردائي، وأويتُ إلى بعضِ زوايا غرفتي، وظلَلْتُ أبكي على فراقِكَ مرّة، وعلى شقائِكَ أخرى، وأذودُ النومَ عن عيني ذِيادًا، لأنّني لا أستطيعُ أن أكونَ راضيةً عن نفسي، ولا هانئةً في مضجعي إن نِمْتُ في ساعةٍ لا تجدُ فيها أنتَ إلى الراحةِ سبيلًا، حتّى مضى اللّيل إلّا أقلّه، فشعرتُ أنّ النعاسَ الذي كان يغالبُ جفنيَّ، قد غلَبَني عليهما، فنمتُ في مكاني نومًا مشرّدًا، مذعورًا، حتّى استيقظتُ مع الصباحِ، فإذا الريحُ ساكنةٌ، والشمسُ ساطعةٌ، والجوُّ باسمٌ، طَلْقٌ، فحمدتُ الله على ذلك.

إنّي أَعُدُّ الساعاتِ واللحظاتِ، يا استيفن، وأنتظرُ بشوقٍ عظيمٍ وصولَ أوّلِ كتابٍ منكَ يبشّرني ببلوغِكَ مستقرّكَ سالمًا، فمتى يأتي كتابُك إليّ؟

❃ ❃ ❃

٢٧ ـ من ماجدولين إلى استيفن

لم تَكْفِ الأربعونَ ساعةً التي مرّتْ بي، لتخفيفِ شيءٍ من همومي وأحزاني، فلقد قَضَيْتُها حائرةُ الذهنِ، مشرّدَةَ اللّبِّ، أُقَلّبُ عيني في كلّ مكانٍ، فلا أجدُ في بارقةٍ من بوارقِ الحقيقةِ، ولا سانحةٍ من سوانحِ الخيالِ عزاءً ولا سلوى، فصعدتُ إلى غرفَتِكَ المهجورةِ، علّني أجِدُ في مقامي بها ساعةً، علاجَ ما أكابِدُهُ من همومٍ، وأحزانٍ، فلمّا بَلَغْتُهَا ووضعتُ يدي على مفتاحِهَا، شعرتُ برعشةٍ شديدةٍ ملأتْ ما بينَ قمّةِ رأسي إلى أخمصِ قدميّ؛ فلقد خُيّلَ إليّ أنّني لو فتحتُ هذا البابَ، وجدتُكَ وراءَه واقفًا تبتسِمُ إليَّ، وتفتحُ ذراعَيْكَ لاستقبالي.

---

(١) كابد: تحمَّل الأذى والمشقّة.
(٢) اربدّ: أصبح بلون الغبراء، أي التراب.
(٣) ارفض: تفرّق وزال.
(٤) غيوث: جمع غيث وهو المطر.

فلمّا فَعَلْتُ، لم أجدْ غيرَ الوحشةِ السائدةِ، والسكونِ المخيّم، وغيرَ سريرِكَ المشعّثِ[١]، وأوراقِكَ المبعثرةِ في كلّ مكانٍ، والغبارِ المنتشرِ في أرضِهَا وسمائِها، فمَهّدْتُ ما تشعّثَ، وجَمَعْتُ ما تبعثَرَ، ومسحتُ الغبارَ عن المقاعدِ والنوافذِ، وأعَدْتُ الغرفةَ إلى عهدِهَا الأوّلِ أيّامَ كنتَ تسكُنُهَا، وتزيّنُهَا، كأنّما أبَيْتُ إلّا أنْ تكونَ غرفَتَكَ المعدّةَ لكَ، المسماةَ باسمِكَ، حاضرًا كنتَ، أو غائبًا.

ووجدتُ على بعضِ المقاعدِ بضعةَ دراهمِ في كيسٍ صغيرٍ، فعلمتُ أنّها أجرةُ الغرفةِ التي يتقاضَاها أبي، قد تركتَها لهُ، ليأخُذَهَا من حَيثُ لا تراهُ، فأَخَذْتُها لأحملَها إليهِ، ثمّ أستَوهِبُهُ إيّاها لأبتاعَ بها حليةً، أو ذخيرةً أتقلّدُها، كأنّها هديّةٌ مُرْسَلَةٌ منكَ إليّ.

سأحملُ نفسي، يا استيفن، على الصبرِ عنكَ، حتّى يطويَ القدرُ مسافةَ البعدِ بيني وبينَكَ. وستكونُ تَعِلّتي[٢] التي أتعلّلُ بها منذُ الساعةِ كلّما، هاجَ بي هائجُ الشوقِ إليكَ، أنّك ما بعدتَ عنّي، إلّا لتقتربَ منّي، ولا فارَقْتَني، إلّا لأنّكَ آثرتَ اجتماعًا آمنًا طويلًا على اجتماعٍ مصرّدٍ[٣] غيرِ مأمونٍ، فامضِ في سبيلكَ، أيّها الصديقُ المحبوبُ، وذلّلْ بهمَّتِكَ جميعَ العقباتِ التي تعترضُ سبيلَ سعادتِنَا، وهنائِنا، حتّى نلتقيَ بعد ذلكَ لقاءً تُنْسِينَا حلاوتُهُ مرارَةَ ذلكَ الماضي المحزنِ الوبيل[٤].

❁ ❁ ❁

٢٨ ـ من استيفن إلى ماجدولين

بالأمسِ كنّا، وكانَ يجمعُنَا بيتٌ واحدٌ، لا يكدّرُ صفاءَنا فيه مُكَدِّرٌ، واليومَ نحنُ، وبيني وبينَك، خمسونَ فرسخًا لا تمسّ يدي يدَكِ، ولا تعبثُ أناملي بشعرِك، ولا أستنشقُ عبيرَ أنفاسِكِ، ولا يرنُّ صوتُك العذبُ في جوانبِ قلبي، ولا تضيءُ ابتساماتُكَ الجميلةُ ظلماتِ نفسي. ولا تلتقِي أنظارُنا في مكانٍ واحدٍ، ولا تمتزجُ أنفاسُنا في جوٍّ واحدٍ، فلا السماءُ صافيةٌ كعهدي بها، ولا الجوُّ باسمٌ، طَلْقٌ كما أعرفُهُ، ولا الماءُ صافٍ، عذبٌ، ولا الهواءُ رقراقٌ، عليلٌ، ولا الروضُ متفتحٌ عن أزهارِه، ولا الزّهرُ متنفّسٌ عن عبيرِهِ، كأنّما كُنْتِ سِرّ الجمالِ الكامنِ في الأشياءِ، فلمّا خَلَتْ مِنْكِ، أقفرتْ، واقشعرّتْ، وَنَبَتْ[٥] عنها العيونُ والأنظارُ.

ولقد لقيتُ في «كوبلانس» أبي، وأهلي، وكثيرًا من أبناءِ وطني، فلم يُغْنِ لقاؤُهُمْ عن لقائِكِ، ولم أَجِدْ في وجوهِهِمْ ذلكَ الأنسَ الذي كنتُ أجدُه فيها قبلَ أن أعرفَكِ، فأصبحتُ أشعرُ في مقامي بينَهُم، بما يشعرُ به الغريبُ المَنْبِتِ الذي يعيشُ في وطنٍ غيرِ وطنه، ودارٍ وأهلٍ، غيرِ دارِه وأهلِهِ، فمتى تنقضي أيّامُ غربتي؟ ومتى أعودُ إلى أهلي ووطني؟

---

(١) شعّث: فرّق، بدّد.
(٢) التعلّة: ما يتوسّله المرء ليشفى من مرضه.
(٣) مصرّد: قليل.
(٤) الوبيل: الشديد.
(٥) نبا: تباعد.

قد أحزَنَني كثيرًا ما تكابدينَهُ[١] من الآلام والأحزانِ من أجلي، ولو كُشِفَ لكِ من أمْرِ نفسِكِ ما كُشِفَ لي منها، لعرفتِ أنّكِ أسعَدُ منّي حظًا، وأروَحُ بالًا، لأنّكِ تعيشين في المواطنِ التي شَهِدَتْ سعادَتَنا، وهناءَنا، والتي نَبَتَتْ في تربتِها آمالُنا، وأحلامُنا، فكلُّ ما حولَكِ يذكّركُ بحبّكِ، وأيّام سعادَتِك؛ أمّا أنا، فكُلُّ ما حولي غريبٌ عنّي، أُنْكِرُهُ ولا أكادُ أعرِفُه. كأنّما هو مؤتمِرٌ بي أن ينتزعَ منّي ذكرى تلكَ الأيّامِ الجميلةِ التي قضيتُهَا بجانبِكِ، وهي كلُّ ما أصبحتُ أملِكُه من بعدك.

سأكونُ شجاعًا كما أمرتِ، يا ماجدولين، وسأبذلُ جهدي في تذليلِ كلّ عقبةٍ تقفُ في طريقِ سعادتي بِك، فاكتبي إليَّ كثيرًا؛ وحدّثيني عن كلِّ ما يحيطُ بكِ من الأشياءِ، وما يعرضُ لكِ من الشؤونِ، صغيرِها وكبيرِها، لأجدَ على البعدِ عنكِ لذّةَ القُرْبِ منكِ، واجعلي حبّكِ عونًا لي في مقاصدي وآمالي، فحبُّكِ هو الذي يُحْيِيني، وهو الذي من أجلِه أعيشُ وأبقى.

❁ ❁ ❁

٢٩ ـ حفلة رقص

أقامَ والدُ استيفن في بيتِهِ حفلةً راقصةً، وأمرَ ولَدَهُ أن يشهَدَها، ولم يكنْ قد شهدَ حفلةَ رقصٍ قبلَ اليومِ، فأذعنَ على كُرْهٍ منه. فلمّا اجتمعَ الجَمْعُ، وماجَتْ قاعةُ الرقصِ بالراقصينَ، والراقصاتِ، وقفَ استيفن موقفَ الحيرةِ، والخجلِ أمامَ هذه المناظرِ المدهشةِ الغريبةِ، لا يدري ماذا يفعلُ، وأيَّ سبيلٍ يأخذ؟ وخُيِّلَ إليه أنّ هناكَ قانونًا موضوعًا للحركاتِ، والسكناتِ، والجيئاتِ والروحاتِ، وأنّ من أغفلَ حَرْفًا واحدًا من حروفِ ذلكَ القانونِ، أَخَذَتْهُ العيونُ، ودارتْ به الأنظارُ، وَرَنّتْ حولَه ضحكاتُ الهزءِ والسخرية. وكانَ لا بُدّ له من أنْ يخرجَ من موقفِهِ هذا إلى حالةٍ من الحالاتِ، كيفما كانَ شأنُها.

فلمَحَ على البعدِ شمعةً، يتضاءَلُ نورُها بين الشموعِ المحيطةِ بها، فخَطَرَ له أن يتلهّى بإصلاحِ ذُبَالَتِها[٢]، فمشى إليها، يتخبّلَ في ثيابه تَخَبُّلًا، لأنّها لم تكن ثيابَه، بل ثيابَ بعضِ أقربائِه أعارَهُ إيّاها هذهِ الساعاتِ من الليلِ وصاحبُهَا أطولُ منه قامةً، وأضخَمُ جسمًا، فلما دَنَاها، رأى أنّ ذُبَالتها قد التَوَتْ على نَفْسِهَا، فطالَتْ، واسودّتْ، وغرقتْ في الدهنِ المحيطِ بها، فبدا له أن يقرضَ أعلاها ليصفُوَ أسفلُها، ثمّ يمسحُ الدهنَ السائلَ حولها، فما هو إلّا أنْ مدَّ يَدَه بالمقراضِ إليها، حتّى انطفأتْ وتطايَرَ دهنُهَا إلى ثوبِه فانتشرَ في أنحائِهِ، فجمَدَ في مكانِهِ جمودَ المقراضِ في يدِه، واستحالَ إلى تمثالٍ مضحكٍ مائلٍ بين أعمدةِ الشموعِ، لا يستطيعُ أن ينقُلَ قدميهِ، حياءً وخجلًا.

---

(١) كابد: قاسى، تحمّل. (٢) ذبالتها: فتيلتها.

فوقَعَ ما كانَ يخافُهُ، وعقَدَتْ حولَهُ الأنظارُ نطاقًا، ومَشَتِ البسماتُ، والغمزاتِ في الأفواهِ، والعيونِ، ومرّ به في موقفه هذا أحدُ الظرفاءِ المتأنّقينَ وكانَ لا يعرفه، فَأَسَرَّ في أذنه «أما تعلم، يا سيّدي، أنّ إصلاحَ الشموعِ في الحفلاتِ عملٌ غيرُ لائق؟» وسمعَ فتاةً تقولُ لصاحَبتِها، وقد وقفَتَا به: «ما أجملَ زركشةَ هذا الثوب»، فأجابَتْها الأخرى: «إنّه آخرُ طرازٍ في الكرنفال». فلم يجدْ بدًّا من النجاةِ بنفسه، ففرّ من مكانِهِ هاربًا لا يلوي على شيءٍ، حتّى دخلَ بعضَ القاعاتِ الخاليةِ، وجلسَ على مقعدٍ فيها، يمسحُ بشفرةِ المقراضِ ما تناثَرَ على ثوبِهِ من الشمعِ.

فلحقَ به أبوه بعد قليلٍ، وقال له: ما بقاؤُك هنا وحدكَ، يا استيفن، إنّ أسرة البارون قد حضرتْ، ولا بدّ لكَ من مقابَلتِهَا والبقاءِ معها، حتّى تنصرفَ، فامتعضَ[١] استيفن في نفسه، وتثاقَلَ في مكانِه لأنّه عرفَ ما يرادُ منه، فألحَّ عليه أبوه، فأذعن. ومشى إلى مكانِ هؤلاءِ القومِ، فحيّاهُمْ، وحيّا تلك الفتاةَ التي يريدونَ خطبَتَها له تحيّةً جامدةً لا تشبهُ تحيّةَ الخطباءِ، ولا المحبّين، بل لا تنقصُ عن تحيّةِ المتنافرينَ المتناكرين إلّا قليلًا. ثمّ لم يلبثْ أنْ وَجَدَ السبيلَ إلى الخلاصِ منها، فانفتَلَ من مكانِهِ، وخرجَ إلى فضاءِ الحديقةِ، وجلسَ على بعضِ مقاعدها، ينقُمُ على المحافِلِ والمراقِصِ، وما ضمّتْ بين أطرافِهَا من رذائِلَ، وشرورٍ، ويقول:

ويلٌ لهؤلاءِ القومِ المرائينَ الكاذبينَ، يفسقونَ ويزعَمُون أنّهم يرقُصون، ويقترفونَ صنوفَ السيّئاتِ والآثام، ويقولونَ إنّهم يغنّونَ أو يطربونَ، ووالله ما اجتمعوا إلا ليخطفَ العاشقُ معشوقَتَهُ من يَدِ زوجِهَا، أو أخِيها، أو أبِيها، حينَ أعْيَتْهُ الوسائلُ إليها، أو لتفتّشَ الزوجةُ التي ملّتْ زوجَهَا، وسَئِمَتْهُ عن عشيرٍ جديدٍ غيرِ مملولٍ، أو ليلقِيَ الأبُ بابنَتِه العانسِ الشوهاءِ بين ذراعي فتًى من الفتيانِ الأغرارِ، يرجو أن يُعْمِيه الشغفُ الحاضرُ بها عن النظرِ إلى عيوبِهَا، فيقعُ في حُبَالَتِهَا، ويصبحُ على الرغمِ منه زوجًا لها.

إنْ كانوا يريدونَ الغناءَ، فلمَ لا يغنّونَ إلّا راقصين، أو الرقصَ فلمَ لا يرقصُ الرجلُ إلّا مَعَ امرأةٍ؟ ولا ترقصُ المرأةُ إلّا مع رجلٍ؟ ثمّ لا يرقصونَ إلّا متلاصقينَ متماسكينَ، كأنّهم بين جدرانِ مخادعِهِم، أو وراءَ أستارِ نوافذِهِمْ، وأبوابِهِمْ.

من لهذا الزوجِ الغبيّ الذي يُلقي بزوجَتِهِ عاريةَ الصدرِ، والظهرِ، والذراعينِ، والكتفينِ، بين ذراعي فتًى جميلٍ ساحرٍ، يلاصِقُهَا، ويخاصِرُها، ويقلّبُها بين يدي شهواتِه ما شاء أنْ تعودَ إليه ساعةَ تعودُ، بالعقلِ الذي ذهبتْ به، وبالقلبِ الذي كانتْ تحمِلُه بين أضالعها؟ ومن لهذا الأبِ الأبلهِ المأفونِ[٢] الذي تبرّمَ بابنَتِهِ، ويستثقلُ مكانَهَا منهُ، فيقذفُ بها بين مخالبِ هذه الوحوشِ المفترسَةِ، ألّا تعودَ إليهِ بعدَ قليلٍ حاملةً، مع همّها الأوّلِ، همّينِ آخرين، عارًا على رأسها، وجنينًا في أحشائها.

---

(١) امتعض: تضايق. (٢) المأفون: الضعيف الرأي.

إنّهم يقودونَ[١] على أنفسِهم من حيثُ لا يشعرونَ، ويمزّقونَ أعراضَهُم بأيديهم، وهم يحسَبُونَ أنّهم يحسنونَ صنعًا.

ولم يزلْ يهتفُ في نفسِه بأمثالِ هذه التصوّراتِ الغريبةِ، حتّى انصرفَ الناسُ فلم يحضُرِ انصرافَهُمْ، كما لم يحضُرِ اجتماعَهُمْ، وكان أبوهُ قد أشارَ إلى جماعةٍ من أهل بيتِه، وخاصّة أصدقائِه أن يتخلّفوا، ففعلوا، فلمّا خلا بهم المكانُ، دَعَا استيفن أمامَهُم، وقالَ له على مشهدٍ منهم: قد كنتُ دَعَوْتُكَ إلى مصاهرةِ هذهِ الأسرةِ منذُ عام، ودَلَلْتُكَ على مكانِ الخيرِ لكَ في هذه الصفقةِ الرابحةِ، فأبيتَ، واستعصَيْتَ، وفَرَرْتَ منّي راكبًا رأسَكَ إلى حيثُ لا أعلمُ لكَ مذهبًا.

فلمّا عدتَ في هذهِ المرّةِ، ظَنَنْتُ أنّك قد أذعَنْتَ وأصحبت[٢]، وفهمتَ معنى الحياةِ كما يفهَمُهَا الناسُ جميعًا، فجئتَ تطلبُهَا من الطريقِ التي يطلبُونها منهُ، فأقمتُ هذه الحفلةَ الراقصةَ، وأنفقتُ في سبيلها ما لا طاقةَ لي باحتمالِهِ لا أريدُ بها إلّا أن تكونَ موضعَ الصلةِ بينَك، وبينَ تلكَ الفتاةِ التي اخترتُها لكَ، والخطوةَ الأولى إلى خُطْبَتَها، فَأَبَيْتَ إلّا تمرُّدًا، وعنادًا، كأنّما ظَنَنْتَ أنّني باقٍ لكَ الدهرَ، أكفَلُكَ وأَقُوتُكَ، أو خُيِّلَ إليكَ أنّ هذا العِلْمَ الذي تُدِلُّ[٣] به وتعتزُّ بمكانكَ منه منجمٌ من مناجِمِ الذهبِ، يخرجُ لكَ ما يقوتُكَ اليومَ، ويقوتُ مَن وراءَك من بنيكَ، وأهلِ بيتِكَ غدًا، فإنْ كانَ هذا ما ذَهَبْتَ إليهِ، فاعلمْ أنّ ثروتي لا تتّسعُ لأكثرِ من أيّام حياتي، ولا تتّسعُ في حياتي لأكثرِ منَ الإنفاقِ عليكَ طِفلًا، وغلامًا، وفتًى.

ثمّ أنْتَ وشأنَكَ بعد ذلك، وأنّ هذه الفنونَ الأدبيّةَ التي هي كلُّ ما تملكُ يَدُكَ في هذه الحياةِ، ما صَلُحَتْ أن تكونَ في زمنٍ من الأزمانِ وسيلةً من وسائلِ الرزقِ، ولا سببًا من أسبابِ العيشِ، ولن تكونَ كذلكَ أبدَ الدهرِ، لأنّ السعادةَ حقيقةٌ من الحقائقِ، لا يُتَوَصَّلُ إليها من طريقِ الخيالِ، فإنْ أردتَ لنفسِكَ الخيرَ، فدونَكَ الرأيُ الذي رأيتُهُ لكَ، وأنتَ أعلمُ به؛ أو لا، فَدُونَكَ الأرضُ الفضاءُ، فامشِ في مناكِبها ما شئتَ، واطلبْ لنفسِكَ الرزقَ من الوجهِ الذي تعرِفُه؛ فقد أصبحَ وجودُكَ في منزلي، على حالَتِكَ هذه من البطالةِ والفراغِ، عارًا عليَّ، وعلى أهلِكَ جميعًا، بل عارًا على نفسِك، إنْ كنتَ من الشاعرين.

ثمّ التفَتَ إلى القوم، وقالَ لهم: ها أنذا قد أشْهَدْتُكُم عليه، وبَرِئتُ إليه، وإليكُمْ، وإلى الله من ذَنْبِهِ، فلا مَعْتَبَةَ عليَّ بعدَ اليوم.

فقال أحدُ أقربائِه: «إنّي لم أرَ في حياتي جُنونًا مثل هذا الجنون»!

وقال آخر: «لعلّه سَقَطَ في هوّةٍ من هوى الغرامِ، فلا مناصَ[٤] له من الارتباطِ في قعرها، حتّى الموت»!

وقالت زوج أبيه: «لعلّه أحبَّ عروسَ الشعرِ فغنيَ بها عن كلّ عروس سواها»!

---

(١) يقودون: يزنون. (٢) أصحب البعير: ذل وانقاد.

(٣) تُدلّ: من الإدلال وهو الوثوق بالمحبّة والإفراط فيها.

(٤) المناص: الملجأ.

وقال عمّه، وهو يزمجرُ غضبًا: «قبيحٌ بالفتى أنْ يكونَ في سنٍّ كهذه السنّ حاملًا فوقَ كاهِلِه قوّةً كهذه القوّة، ثمّ يرضى لنفسِهِ أنْ يكونَ عالةً على قومِهِ وذَوِيه».

فطارَ طائرُ الحلم من رأسِ استيفن، واختفى من وجهِهِ ذلكَ الفتى الحييّ الخجولُ الذي كان يذوبُ منذُ ساعةٍ خَجلًا أمامَ النظراتِ، واللفتاتِ، وحلّ محلّه رجلٌ هائلٌ جبّارٌ لا يخشى أحدًا، ولا يبالي شيئًا، فرفَعَ رأسَهُ، ونظرَ إلى الجمعِ نظرةً شزراء[1] ذُهِلَتْ لها أنظارُهم، وخفقَتْ لها قلوبُهم، ثمّ التفتَ إلى أبيه، وقال له: إنّي لا أعتبُ على واحدٍ من هؤلاءِ، لأنّهم سمعُوك تغنّي، فضربوا على نغَمتِكَ، أمّا أنتَ فإنّي أقولُ لكَ: نعم، إنّك قد أحسنتَ إليَّ فيما مضى كما تقولُ، ولكنْ لا يَجْمُلُ بكَ أنْ تمنَّ عليَّ إحسانَك هذا، ولا يجمُلُ بي أن أشكُرَه لكَ، أو أُثني عليكَ به، لأنّك أبٌ، وللأبوّةِ ثمنٌ لا بدّ لكَ من أدائِهِ، واحتمالِ المؤونَةِ فيه.

على أنّك لم تمنَحْني في يومٍ من أيّامك الماضيةِ عطفَكَ ولا رحمتَكَ، ولو فعلتَ، لكانَ ذلكَ خيرًا لي من كلّ ما أسديتَ إليَّ من صنوفِ البِرّ والمعروفِ، بل كانَ شأنُك معي في كلّ آناءِ حياتِكَ، شأنَ رجلٍ عابرٍ في سبيلٍ، وَجَدَ في طريقِهِ طفلًا ملفّفًا في قماطِهِ، مطّرحًا تحتَ جدرانِ بعضِ المنازلِ، أو على باب إحدى الكنائسِ، فالتقَطَهُ، وكَفَلَهُ منّةً، وإحسانًا، لا رحمةً، وحنانًا، فقد أبعَدْتَني عنكَ، أنا وأخي، مُنْذُ ماتَتْ أمّي، وبَنَيْتَ بزوجَتِكَ الحاضرةِ قبلَ أن أبلُغَ السابعةَ من عمري، ووضعتَني في جحورِ قومٍ لا تجمعُني بهم جامعةُ محبّةٍ، ولا تعطفهم عليَّ آصرةُ رَحِمٍ، ولم أجِدْ فيهم مَنْ يُذَكّرني بكَ، أو يُحَبِّبُكَ إليّ، أو يحدّثني عنكَ حديثًا واحدًا، وكنتُ كلّما عدتُ إليكَ في أيّامِ إجازتي من العام، استقبَلْتَني بالوَجْهِ الذي تستقبلُ به أبعدَ الناسِ عنك، وأصغرَهُم شأنًا عندَكَ، فلا تختصّني بكلمةٍ طيّبةٍ، ولا تؤثِرُني بنظرةِ رحمةٍ، ولا تسهَرُ عليّ في مرضٍ، ولا تتفقّدُني في شدّةٍ، ولا تبتسِمُ لِلِقائي، ولا تحزنُ لِفِراقي.

وكثيرًا ما سهرتُ الليالي ذواتِ العددِ، أندبُ حظّي عِندَك، وأضرعُ إلى الله تعالى أن يُدْنِيَ قلبَكِ من قلبي، ويرزقَني حُبَّكَ، وحنانَكَ، فلم يستجِبْ دُعَائي؛ فاستوحَشَتْ نفسِي من نفسِي، وغلبتْ على طبعي هذه النفرةُ التي لا تزالُ ملازمةً لي حتّى اليومَ، ولولاكَ، لما كنتُ نَفُورًا ولا مُتوحشًا، وقسا قلبي القسوةَ كلّها، فأصبحتُ لا أعطفُ على أحدٍ ولا أحبُّ أحدًا، لأنّي لم أتعَلّم العطفَ، ولا الحبَّ من أحدٍ، ولمّا لم أجدْ في الناسِ من أحبُّهُ وأصطفِيه، أحببتُ نفسِي، وحرّيّتي، واصطفيتُهما وآثرتُهما على كلِّ شيءٍ في العالمِ، فلا أحتملُ أنْ أرى من ينازعُني فيهما، أو يغالبُني عليهما.

إنّ حياتي لي، وأنا صاحِبُها الذي أتولّى شأنَها، فلا سلطانَ لأحدٍ غيري عليها ولا شأنَ لكائنٍ من كانَ فيها سوايَ، فلا أسيرُ في طريقٍ غيرِ الطريقِ التي ترسمُهَا يدي، ولا أبني مستقبلَ حياتي على أساسٍ غيرِ الأساسِ الذي أضَعُه بنفسي، ولا أحبُّ إلّا الفتاةَ التي أُحبّها

---

(١) شزراء: حمراء من الغضب.

أنا، لا التي يُحبُّهَا الناسُ لي، ولا أعاشرُ إلّا المرأةَ التي أقيسُ سعادتي معها بمقياسِ عقلي، لا بمقياسِ عقولِ الآباءِ والأعمامِ.

فَهَاجَ القومُ عليهِ هِياجًا عظيمًا، وصرخَ أبوه في وَجْهِهِ، وثاوَرَه[1] عمُّه يريدُ الفتكَ به، وتناوَلَتْهُ الألسنُ بالشتمِ، والسبِّ، فلمْ يأبَهْ بذلكَ كلِّه؛ ولم يتزلزلْ من موقِفِه، واستمرّ في حديثه يقول:

بأيّ حقٍّ تريدونَ أنْ تسلبوني حرّيّتي، وتملكُوها عليَّ، أبحقِّ العطفِ الذي بذلتموه لي، فيما مَضَى، وما عرفتُ بينَكُم محبًّا لي، ولا راحمًا؟ أَمْ بحقِّ الكرامةِ والبُقْيا، وقد كنتُمْ جميعًا تضربونني صغيرًا، وها أنتُمْ أولاء اليوم تشتمونني كبيرًا؟.

إنّي قائلٌ لكُمْ جميعًا كلمةً لا أقولُ لكم غيرَها بعدَ اليوم: إنّي لا أحبُّ إلّا من يحبّني، ولا أكرّمُ إلّا من يكرّمُني، ولا أُذْعِنُ إلّا لرأيي وإرادتي، ولا أبيعُ حياتي، وحرّيّتي، حتّى لخالِقِهما الذي منحني إيّاهما بثمنٍ من الأثمانِ مهما غلا.

إنّي لا أطلبُ منكُمْ مالًا، ولا معونةً، ولا أشكو إليكم فقرًا، ولا عدمًا، وسأرسُمُ لنفسي بنفسي خطّةَ حياتي، فإنْ قُدِّرَ ليَ النجاحُ فيها، فذاكَ؛ أو لا، فحسبي من السعادةِ أنّني قضيتُ أيّام حياتي حرًّا طليقًا، لا سبيلَ لأحدٍ عليّ، ولا شأنَ لكائنٍ من الكائناتِ عندي، حتّى يوافِيَني أجلي، وهذا فراقُ ما بيني وبينكم.

ثمّ انفتلَ من بينِ أيديهم، وهَرَعَ إلى غرفَته، فبدّلَ ثيابَهُ، وتناولَ حقيبَةَ ملابسِه، وخرجَ هائمًا على وجهِهِ، يخترقُ أحشاءَ الظلماتِ، حتّى خرجَ إلى ضاحيةِ المدينةِ، فتبعه فتًى من أبناءِ أخوالِهِ، كانَ قد أَلَمَّ ببعضِ قصّته، فقال له: أينَ تريدُ يا استيفن؟ قال: إلى حيثُ أرسلني أهلي؛ فبكى قريبُه مرثاةً له ممّا هو فيه، وقال له: وارحمتاه لكَ أيّها البائسُ المسكين! ثمّ دسَّ له في جيبِهِ بضعَ قطعٍ من الذهبِ، لم ينتبِهْ لها استيفن إلّا بعدَ ذهابِهِ، فشكَرَها له في نفسِه، ثمّ مضى لسبيله.

❁ ❁ ❁

٣٠ ـ النفس العالية

لا تخضَعُ النفسُ العاليةُ للحوادثِ ولا تَذِلُّ لها، مهما كانَ شأنُها، ولا تلينُ صعدتها[2] أمامَ النكباتِ، والأرزاءِ[3] مهما عَظُمَ خَطبُهَا، وَجَلَّ أَمْرُها، بَلْ يزيدُها مَرُّ الحوادثِ، وعضُّ النوائبِ قوّةً ومراسًا، وربّما لَذَّ لها هذا النضالُ الذي يقوم بينها وبينَ حوادِثِ الدهرِ، وأرزائه؛ كأنّما يأبى لها كبرياؤُها وترَفُّعُهَا أنْ يوافِيَها حظُّها من العيشِ، سهلًا، سائغًا، لا مشقّةَ فيه،

---

(١) ثاوره: وثب عليه. (٢) الصعداء: القناة المستوية.

(٣) الأرزاء: المصائب.

ولا عَنَاءَ، فهي تحاربُ، وتجالدُ في سبيلِهِ، وتغالبُ الأيّام عليه مغالبةً، حتّى تنالَهُ من يَدِهَا قوّةً، واغتصابًا، فمَثَلُها بين النفوسِ كمَثَلِ الليثِ بين السباعِ، لا تمتدُّ عينه إلى فريسةِ غيره، ولا يهنأُ له طعامٌ غيرُ الذي تجمَعُه أنيابُهُ، ومخالبه.

كذلكَ كانتْ نفسُ استيفن بعدَ نزول تلكَ النكباتِ به، فإنّه لم يجزَعْ، ولم يتألّمْ، ولم يَعْبَثِ اليأسُ بقلبِهِ، بل فارقَ (كوبلانس) كما دَخَلَها ساكنَ النفسِ، مطمئنَّ الضميرِ، مملوءَ القلبِ ثقةً، وأملًا، فلم يَزَلْ سائرًا بقيَّةَ ليلتِهِ يطوي الأرضَ على قدميهِ طيًّا، حتّى مَشَتْ في جلدةِ الظلام أشعّةُ الفجرِ، فالتَفَتَ فإذا بقيّةٌ من شبحِ (كوبلانس) لا تزالُ ماثلةً، فألقى عليها نظرةً واجمةً مكتئبة، ثمّ قال:

الوداعُ، أيّها القومُ الذين طردوني من بينهِمْ، ولم يزوّدُوني لقمةً واحدةً أتبلّغ بها في طريقي، ولا دابَّةً أحملُ عليها حقيبَتي، ولا كلمةً طيّبةً آنَسُ بها في مطارحِ غربتي؛ لقد نبذتُ حُبّكُمْ من قلبي، نَبْذَ الفمِ النواةَ، ونَفَضْتُ يدي منكم، نَفْضَ المودّعِ يَدَهُ من ترابِ الميت؛ فأصبَحَ قلبي، وضميري، وحبّي، وحناني، ونفسي، وحياتي، وكلُّ ما تملكُ يدي ملكًا خالصًا لذلكَ الإنسان الذي أحبّني وأحبَبْتُه، ولا ينزلُ معه في سويداءِ قلبي نازلٌ، وسيكونُ حبُّه مناري الذي أهتدي به في ظلماتِ حياتي، حتّى أبلغَ ذروةَ السعادةِ التي أطلُبُها لنفسي. وهناك ترونَ أيّها القومُ الجفاةُ القساةُ أنّ ذلكَ الفتى الخاملَ المسكينَ الذي وقَفَ بينكم بالأمس مهانًا ذليلًا لا يكادُ يرفَعُ طَرْفَهُ إليكم حياءً، وخجلًا، قد أصبحَ رجلًا نابهًا، عظيمًا، غنيًّا بمالِهِ، وجاهِهِ عن مالِكُمْ، وجاهِكُمْ، وسعيدًا بين أهلِهِ، وأولادِه سعادةً لا يحفلُ من بعدِهَا بنسَبِكُمْ، ولا برَحِمِكُم.

ثمّ مشى في طريقه، يعلّل نفسَه بالآمالِ الحسانِ، ويرسمُ لمستقبلِ حياتِهِ ما شاءَ من الخطَطِ والنظُمِ، وكانَ كلّما أتعبَه المسيرُ، دَفَعَ إلى أصحابِ العجلاتِ المارّةِ في طريقه، تحملُ الأثقالَ، دِرْهمًا أو درهمين، ليحمِلوه على عجلاتِهم، أو يأذنوا له بالجلوسِ في مؤخّرتِهَا ساعةً أو ساعتين، ثمّ يعود إلى شأنِهِ الأوّلِ، حتّى وصل عندَ مجتنحِ الأصيل إلى «جوتنج» وهي البلدةُ التي تعلّمَ في مدرستِها، وقَضَى فيها أكثرَ أيّامِ صباه.

❋ ❋ ❋

٣١ ـ النفس الشعريّة

ذهبَ استيفن ساعَةَ هبطَ «جوتنج» إلى أستاذِهِ القديمِ في الموسيقى «هومل»، ليفضِيَ إليه بشأنِهِ، ويستعينَ به على قضاءِ حاجَتِه، وكانَ له بمثابةِ الأبِ الرحيم، يحبّه، ويكرّمُه، ويؤثِرُه على تلاميذِه جميعًا، فلمّا وقفَ بين يديهِ عَقَلَ[1] الحياءُ لسانَه، فلم يستطِعْ أنْ يقولَ له شيئًا.

---

(١) عَقَلَ: ربط.

وكذلكَ شأنُ أصحابِ النفوسِ الشعريّة، يملأُ الشعرُ نفوسَهم عزّةً وخُيَلاءً، فتملأُ العزّةُ وجوهَهُمْ حياءً وخجلًا، فلا يذلّونَ ولا يَضْرَعون، ولا يجرُؤون على شيءٍ ممّا يجرؤ عليه الناسُ جميعًا كأنّ تحليقَهُم الدائمَ في سماءِ الخيالِ، وطيرانَهُمْ في تلكَ الأجواءِ العالية غادِين رائحينَ، قد مَثَّلَ لنفوسِهِم أنّهم يعيشونَ في ملأ أرفع من الملأ الذي يعيشُ فيه الناسُ؛ فإنْ عَرَضَتْ لهم حاجةٌ من الحاجاتِ أَبَوْا أنْ يسألوها أحدًا من سكّانِ الأرضِ، وربّما أنفوا أن يسألُوها ساكِنَ السماءِ، ذهابًا بأنفسِهِم من مواطنِ الضّعةِ والمهانَةِ، وضنًّا بأديم[1] وجوهِهِم أن يُخْلِقَه[2] السؤالُ، وكذلكَ يعيشون فقراءَ، ويموتونَ بؤساء.

لذلكَ لم يستطعْ استيفن أنْ يُفْضِيَ بحاجتِهِ إلى أستاذِهِ في المقابلةِ الأولى، فَزَعَمَ أنّه إنّما جاءَ، ليتلقّى عنه دروسًا في الموسيقى، وظلّ يختلفُ إليه أيّامًا، يسمعُ غناءَه، ويحفَظُه عنه، حتّى جَرَى بينهما، يومًا من الأيّام، ذِكْرُ الحياةِ والمستقبلِ، فسأله أستاذُه عمّا رسَمَ من الخطَطِ في مستقبلِ حياتِهِ، فقال: لا أدري حتّى الساعة، فقالَ: لا أعرفُ لكَ سبيلًا غير هذا الفنّ الذي تحبّه وتستهيمُ به، وأرى أنّ غرامَكَ به سيجْعَلُكَ غدًا من أصحابِ الشأنِ العظيم فيه، فنَفَضَ له استيفن إذ ذَاكَ جُمْلَةَ حَالِهِ، وصارَحَهُ برغبَتِهِ التي يريدُهَا، فوعَدَهُ بمساعَدَتِه، والأخذِ بيده، فانصرفَ مغتبطًا مسرورًا.



٣٢ ـ من ماجدولين إلى استيفن

لم أستطعْ أنْ أكتبَ إليكَ منذ شهرينِ، لأنّي كنتُ مريضةً، وسأقصُّ عليكَ قصّةَ مَرَضي.

خرجتُ ذاتَ ليلةٍ، لأُلقي برسالةٍ كنتُ كتبتُهَا لكَ في صندوقِ البريدِ في قرية «هال»، فلمّا بعدتُ عن «ولفاخ»، وغابَ عنّي شَبَحُهَا، وأصبحتُ في منتصفِ الطريقِ بينها وبين «هال»، هبّتْ عليَّ ريحٌ عاصفةٌ شديدةٌ دوّتْ بها جوانبُ الأفقِ، وقَعْقَعتْ لها قبّةُ السماءِ، حتّى حسبتُها توشِكُ أن تنقضّ، وأخذتْ تجاذِبُني ثوبي مجاذبةً شديدةً، كأنّما تأبى إلّا أن تنتزِعَه منّي، أو تنتزِعَني معه، فحدّثَتْني نفسي بالعودةِ من حيثُ أتيتُ، ثمّ ذكرتُكَ وذكرتُ أنّكَ تنتظرُ رسالتي، فاستمرَرْتُ أدراجي، ومشيتُ في طريقي أَتيَامَنُ مع الريحِ مرّة، وأتياسَرُ أخرى، وأندفعُ متقدّمَةً، وأكرُّ راجعةً، فمن رآني في تلكَ الساعةِ، خُيِّلَ إليه أنّه يرى فتاةً بائسةً مرزأة[3]، قد لعبتِ النارُ بأثوابِهَا، وعلقتْ بأطرافِهَا وأوصالِهَا، فهي تهيمُ على وجهِهَا في كلّ مكانٍ، تطلبُ الخلاصَ ممّا هي فيه، فلا تجدُ إليه سبيلًا.

فلم أصلْ إلى تلكَ القريةِ إلّا بعدَ ساعتينِ، فألقيتُ الكتابَ في الصندوقِ ثمّ رجعتُ؛ وكانتِ

---

(١) أديم الوجه: صفحته. (٢) أخلق: أبلى.

(٣) مرزأة: من الرزء وهي المصيبة.

العاصفةُ قد هدأتْ قليلًا؛ ولكنَّها ما هدأتْ، إلّا لتفتحَ الطريقَ إلى الغيثِ الهاطِلِ، فلمْ تهدأْ ثورَتُها، حتّى ثارَ ثائِرُهُ، وأخذَ يتساقَطُ سقوطًا شديدًا، فابتلَّ ردائي، ومشَتِ الرعدةُ في جميعِ أعضائي، واشتدّتْ ظلمةُ الليلِ، فما أهتدي إلى طريقي.

ولقد حدّثَتْني نفسي لشدّةِ ما نالني من التعبِ والإعياءِ، وما ملأَ قلبي من الخوفِ والوحشة، أنْ أسلّمَ نفسي إلى كنفٍ[1] من أكنافِ الهضابِ، أو سفحٍ من سفوحِ الجبالِ، أنتظرُ فيه منيّتي، حتّى توافِيَني، فحالَ بيني وبين ذلكَ أنّي أريدُ أنْ أحيَا لكَ، وأتولّى شأنَ سعادَتِكَ التي عاهَدْتُكَ على أن أتولّاها لكَ، وأنّي إنْ قتلْتُ نفسِي، قتلتُكَ معي، فَبَعَثَ ذكرُكَ في نفسي قوّةً غالَبتُ بها الطبيعةَ، وعواصِفَها، وثلوجَهَا، وبروقَهَا، ورعودَهَا، حتّى بلغتُ المنزلَ بعد لأيٍ[2]، فسقطتُ مريضةً محمومةً.

ولقد كابدتُ في مرضي شدّةً عظمى، لم أرَ مثلها فيما مرَّ بي من أيّامِ حياتي، دبّ اليأسُ في نفسي دبيبَ المنيّةِ في الأجل، وظننتُ أنّي لا بُدّ هالكةٌ، وأنّي لا أراكَ بعدَ اليوم، فلم يكنْ يحزنُني في تلكَ الساعةِ شيءٌ سوى أنّكَ ستسمَع بخبرِ موتي، ولا تسمعُ معه أنّكَ كنتَ الإنسانَ الوحيدَ الذي كنتُ أفكّرُ فيه في ساعتي الأخيرةِ، فحاولتُ أنْ أكتبَ إليكَ كتابَ وداعٍ، أبثّكَ فيه بعضَ شأني، فلم أستطعْ.

ثمّ شعرتُ في فترةٍ من فتراتِ السكونِ التي تتخلّلُ سكراتِ الحمّى، أنّي أستطيعُ النهوضَ من فراشي، فكتبتُ إليكَ كتابًا أوصيتُ لكَ فيه بجميعِ ما تملكُ يدي، وما تملكُ يدي إلّا كتبي، ومحفظةَ رسائِلِكَ، والخاتمَ الذي نسجتُهُ من شَعْرِكَ، وذخيرةً من الذهبِ ورثْتُهَا عن أمّي، وهي أعزُّ الأشياءَ عندي، وكيسًا صغيرًا يشتمِلُ على بعضِ قطعٍ فضيّةٍ وذهبيّةٍ ممّا كنتُ أستفضِلُه من نفَقَاتي، ثمّ طويتُ الكتابَ، وأعطيتُه لجنفياف لتوصِلَهُ إليكَ بعد موتي؛ ولكنَّ الله كانَ أرحمَ بي وبكَ من أن يحرمَني منكَ، ويفجعَكَ بي؛ فمدّ إليَّ يدَ مَعونَتِهِ، وإحسانِهِ، واستنقَذَني من مخالبِ الموتِ؛ فحمدتُ له منّتَهُ، ونعمَتَهُ، ولقد بكيتُ كثيرًا عندما أعَدْتُ النظرَ في تلك الوصيّةِ المكتوبةِ، لأنّي تمثّلْتُ حُزْنَكَ، وتَفَجُّعَكَ، وخيبةَ آمالِكَ لو قُدِّرَ لكَ أن تقرأَها، فرثيتُ لكَ ممّا بكَ، وبكيتُ لبكائكَ.

رجائي عندَك، يا استيفن، أنْ تكتبَ إليَّ عنوانَ أخيكَ في الجيشِ، لأنّي أريدُ أن أبعثَ إليه بهديّةٍ أخطبُ بها ودّه إكرامًا لك، فقد أصبحتُ أحبُّهُ من أجلِكَ حبًّا كثيرًا، وأترقّبُ بفرحٍ وسرورٍ ذلكَ اليومَ الذي يضمّنا، وإيّاه، بيتٌ واحدٌ تحتَ سماءٍ واحدة.

لا يُحْزِنْكَ، يا استيفن، ما قَصَصْتُ عليكَ، فتلكَ حادثةٌ ماضيةٌ، قد ذهبَتْ وانقضَتْ، ولم يبقَ منها في نفسي، حتّى آثارُهَا، فليذهبِ الماضي بخيرِه وشرِّه، وليأتِ لنا المستقبلُ بما نريد.

❁ ❁ ❁

---

(١) الكنف: المخبأ والملجأ. (٢) اللأي: الجهد.

٣٣ ـ من استيفن إلى ماجدولين

عفا الله عنكِ، يا ماجدولين، أكنتِ تظنّينَ أنّي أستطيعُ أنْ أحيَا من بعدِكِ ساعةً واحدةً أتمتّعُ فيها بالحياةِ وطيبِها، والدنيا ونسيمِها، فأوصيتِ بما أوصيتِ بهِ إليّ؟

إنّكِ لا تعلمينَ أنّك روحي التي أحيَا بها في هذا العالَم، ودنيايَ التي أتنسّمُ فيها رائحةَ السعادةِ والهناءِ، وأنّ اليومَ الذي يخلو فيه مكانُكِ من الدنيا، هو آخرُ عهدي بالعالَم وما فيه.

متى أهدى الميتُ إلى الميتِ؟ وأوصى القبرُ إلى القبرِ؟! ومتى عاشَ المحبُّ بعد فَقْدِ حبيبِهِ ساعةً واحدةً؟ أو هَنِئَتْ له لحظةٌ من لحظاتِ عيشِه، إن قُدِّرَ له أن يعيشَ من بعده؟!

إنّ لي في الحياة كما للناسِ أمانيَّ كثيرةً، وبودّي لو استطعتُ أن أبيعَها جميعَها بأمنيةٍ واحدةٍ، وهي أنْ أموتَ يومَ أموتُ بين ذراعيكِ، ملقيًا رأسي على صدرِكِ، شاخصًا بعيني إلى وجهِكِ المشرقِ الجميلِ، وأن يكونَ صوتُكِ آخرَ ما أسمعُ من الأصواتِ، وصورتُكِ آخرَ ما أرى من الصورِ، عالمًا أنّ من يموتَ ميتةً كهذه، تفتّحَتْ له أبوابُ السماءِ، واتّصلَتْ سعادةُ دنياهُ بسعادةِ أخراه، فلا يشعرُ بشقاءِ الموتِ، ولا ما بعدَ الموت.

هنيئًا لك إبلالك[١] من مرضِكِ، وشكرًا للهِ على صنيعَتِه عندَكِ في شفائك، وصنيعَتِه عندي في حِفْظِ حياتِكِ لي، وما أحسَبُ أنّ اللهَ أرادَ بي، أو بكِ سوءًا فيما كانَ، ولكنّه يبتَلِينا اليومَ، لنعرفَ مقدارَ ما يستقبِلُنا به من السعادةِ غدًا.

سأكتبُ لأخي «أوجين» بشأنِ الهديّة التي أزمعتِ أنْ ترسِلِيها إليه، وإنّي شَاكِرٌ لكِ شكرًا جزيلًا، عطفَكِ عليه، وحبَّكِ إيّاه.

أمّا عنوانُه، فهو: «الفصيلةُ الثالثةُ، من قسمِ الجيادِ الخفيفَةِ في جيشِ الحدودِ».

❋ ❋ ❋

٣٤ ـ الحظّ

مرَّ الشتاءُ، واستيفن يختلفُ إلى أستاذه «هومل»، وأستاذُه يسعى لَهُ سعيَ المجدِ الملحّ، فلا ينجَحُ، حتّى أوشكَ أنْ ينفدَ ما كانَ مَعَهُ من المالِ، ولم يبقَ في يده منهُ إلّا بقيّةٌ غيرُ صالحةٍ، لا يعلَمُ ما هو صَانِعٌ بَعْدَها، فلم يجدْ له بدًّا من أنْ يأخذَ نفسَه بالتقتير، ويحملَ عليها العيشَ حملًا شديدًا، فأكلَ التافِهَ من الطعام، ولبسَ الخلقانَ[٢] من الثيابِ، وغَنيَ بالأكلةِ عن الأكلتينِ، وبالخبزِ عن الأدم[٣]. يقول لَي عمّي: إنّ من كانَ فتًى قويًّا مثلَكَ، لا يجمُلُ به أنْ

---

(١) الإبلال: الشفاء من المرض. (٢) الخلقان: البالي.
(٣) الأدم: كلّ طعام يؤكل بالخبز.

يعيشَ عالةً على أهلِهِ وذويهِ، وهاأنذا على فتوّتي وقوّتي، أكادُ أموتُ جوعًا. فما أقسى قلوبَ قومي، وما أبعدَ الرحمةَ عن أفئدتِهِمْ!! لقدْ كانَ في استطاعَتِهِم أن يقبلُوني عندَهُم ضيفًا، عامًا، أو عامين، حتّى يفتحَ الله لي بابًا من أبوابِ الرزقِ، فأرحَلُ عنهُمْ، أو أنْ يهيّئوا لي قبلَ أن يطردوني من بيتِهِم ملجأً، أعتصمُ به في المكانِ الذي طردوني إليه، حتّى لا أموتَ ميتةَ الغرباءِ المشرّدين.

وكانَ أكبرُ ما يحزنُهُ من أَمْرِ فاقتِهِ أنّه وَعَدَ ماجدولين بالسعي إلى الثروةِ والنجاحِ فيها، وملأَ قلبها ثقةً، وأملًا في المستقبلِ، وأنّ فشلَهُ إنْ قُدِّرَ له الفشلُ سيقتُلُها، ويُلقي بها في مهواةِ اليأسِ والشقاءِ، فرثَى لها، وأشفَقَ عليها إشفاقًا عظيمًا، ووَدَّ لو صَلُحَتْ حياتُه لأنْ يكونَ ثمنًا لسعادَتها، فبذَلَها في سبيلِهَا، ثمّ رحلَ عن الدنيا طيّبَ النفسِ عنها، وعن جميعِ آمالِهِ، وأمانيه فيها.

ولقد مرّ به يومًا - في بعضِ مواقفِهِ بجانبِ بعضِ الجدران - فتًى زريٌّ[1] الهيئةِ سيّئُ الحالِ، ومدّ إليه يَدَهُ يسأله بعضَ المعونةِ، فَزَوى وجهَه عنه حياءً وخجلًا، فقال له الفتى: أقسمُ لك بالله، يا سيّدي، إنّي تركتُ زوجتي ورائي ما تطيقُ الوقوفَ من الطوى[2]، ولقد مرّ بي، وبها يومانِ ما نجدُ ما نتبلّغُ به، إلّا البكاءَ والدموعَ. فانتفضَ استيفن انتفاضةً شديدةً، والتَفَتَ إليه، وقال له: أتحبُّ زوجَتَكَ كثيرًا أيّها الفتى؟ قال: نعم، يا سيّدي، كما أحبُّ حياتي.

فأطرقَ برأسِه هنيهةً، وظلَّ يقولُ في نفسه: إنّه يستعدي[3] عطفَ الناسِ، ورحمتَهَمْ على جوعِ زوجتِهِ، وطواها، والناس لا يعطفون، ولو عَقَلَ لَعَلِمَ أنّه يسألُهم حقًّا من حقوقِهِ المقدسةِ لا يعترضُه من دونه معترضٌ، إلا استحلّ دمَهُ، ومشى على جثّتِهِ إليه، فلا جريمةَ في الدنيا أكبرُ من أنْ يرى الإنسانُ المرأةَ التي يحبّها، تموتُ بين يديهِ جوعًا، فلا يفعلُ شيئًا أكثرَ من أن يغمضَ عينيها ويسجيها[4] بثوبها، ثمّ يجلسُ بجانبِ سريرِها، يبكِيها ويندبُهَا، ومدّ يَدَهُ إلى جيبِهِ، فأخرجَ كلَّ ما كانَ معهُ من المالِ، فأعطاهُ للفتى صامتًا، ومشى في طريقهِ وهو يقول: لقد أنقذتُها من مخالبِ الجوعِ بضعةَ أيّامٍ، وأسأل الله أن يقيّضَ لهما من يتولّى شأنهما بعد ذلك.

وكذلكَ عادَ استيفن إلى مأواه، وهو لا يملكُ من متاعِ الدنيا، حتّى قوتَ يومه.



٣٥ ـ من ماجدولين إلى استيفن

مرّتْ بي اليومَ صديقتي سوزان، وهي عائدةٌ من مَصيفِهَا إلى كوبلانس، فاغتبطتُ بزيارَتها

---

(١) زريّ: حقير، ذميم. (٢) الطوى: الجوع.

(٣) استعدى فلان فلانًا على فلان: طلب إليه أن يعديه عليه، أن ينصفه منه.

(٤) يسجّيها: يغطّيها.

اغتباطًا عظيمًا وتمنيّتُ أنْ لو كنتَ حاضرًا بيننا لتراهَا فترى أجملَ الفتياتِ وجهًا، وأرقَّهُنّ شمائلَ وأعذَبهنّ حديثًا، وأجمعَهُنّ لأفضلِ الصفاتِ وأكرَمِهَا، فهي تنطقُ بلغاتٍ كثيرةٍ، وتحسنُ الرسمَ والتصويرَ، وتوقّعُ على جميعِ أنواعِ الأوتارِ، وتغنّي غناءً ساحرًا فتّانًا، ولها ثغرٌ وضّاءٌ لا يفارقُه الابتسامُ لحظةً واحدةً، ولا يطربُها في الحياةِ شيءٌ مثلُ مناظرِ اللهوِ واللعبِ، ولا يعجبُها حديثٌ مثلُ حديثِ المحافلِ والمراقصِ، وقد أصبحتُ مفتتنةً بها لا أكادُ أصبرُ عنها لحظةً واحدةً، ورجائي إليكَ، يا استيفن، أن تحبَّها كما أُحِبّها، وأن تتودّدَ إليها كثيرًا يومَ تراها.

❁ ❁ ❁

٣٦ ـ من استيفن إلى ماجدولين

سأحبُّ صديقتَكِ يا ماجدولين كما أَمَرْتِ، ولكنْ ليسَ لأنّها جميلةٌ فاتنةٌ كما تقولين، فقد ملأَ جمالُكِ فضاءَ قلبي، فلم تبقَ فيه بقيّةٌ لسواكِ، ولا لأنّها ترقصُ، أو تغنّي فإنّ نفسي الحزينةَ لا يشفِيهَا من دائها إلّا أحدُ الأمرين: إمّا لقاؤُكِ، أو الموتُ، بل لأنّها تؤنسُ وحشَتَكِ، وتخفّفُ آلامَكِ، وتعينُكِ على احتمالِ أعباءِ الحياةِ وأثقالِها، فاشكُرِيها عنّي شكرًا جزيلًا، وبلّغِيها تحيّتي، وسَلَامي.

لا يزالُ الدهرُ عابسًا في وجهي، ولكنّني صابرٌ محتملٌ لا أيأسُ، ولا أستسلمُ، ولا تفترُ لي همّةٌ حتّى أنالَ بغيتي؛ والسلام.

❁ ❁ ❁

٣٧ ـ من أوجين إلى استيفن

وصلتْ إليّ هديّةُ السيدة ماجدولين، فشكرتُ صنيعَهَا شكرًا جزيلًا، ولقد أصبحتُ بفضلِ هديّتِها صاحبَ رداءٍ جديدٍ كنتُ في أشدّ الحاجة إليه، وكانتْ يدي تقصرُ عنه، فاتبعتُه وأصبحتُ فخورًا مختالًا بين أترابي، وعشرائي، فَبَلّغْ صاحبةَ الهديةِ شكري، وأرجو أنْ أراها في عهدٍ قريبٍ، فأجزيَهَا خيرًا بما فعلتْ، فإنْ عجزتُ عن ذلكَ، فلا أعجزُ عن أن أحدّثَها عن الوقائعِ الغريبةِ التي شاهدتُهَا، أحاديثَ جميلةً عذبةً تملأُ قلبها غبطة، وسرورًا.

شاهدتُ بالأمس أوّلَ وقعةٍ من وقائعِ الحربِ، فجزعتُ عند الصدمةِ الأولى، ولكنّني ما لبثتُ أن سمعتُ صهيلَ الخيلِ، وقرعَ الطّبولِ، وأزيزَ الرصاصِ، وأنغامَ الموسيقى الحربيّةِ حتّى انتشيتُ، واندفعتُ بجوادي اندفاعَ السيلِ المنهمرِ، لا أشعرُ بشيءٍ ممّا حولي، ولا أرى إلّا بريقَ سيفي في يدي. ولقد امتلأتْ نفسي غبطةً وسرورًا، عندما رأيتُ جيشَ العدو يتَقَهْقَرُ أمامَ جيشنا، حتّى خُيّلَ إليّ أنّني أنا الذي زحزَحْتُه وحدي عن مكانِه، وألجأْتُهُ إلى الفرار. وقد

عرفَ قائدي فضلَ ما أبليتُ في هذه المعركةِ، فرقّاني إلى درجةِ «صفّ ضابط»؛ ولي أملٌ أنْ أعودَ إليكم في عهدٍ قريبٍ باسم «الضابط أوجين».

❁ ❁ ❁

٣٨ ـ من استيفن إلى ماجدولين

قد ابتسمَ لي الدهرُ قليلًا، يا ماجدولين؟ فقد زارني أستاذي بالأمسِ في الخانِ الذي أنزلُهُ بعدَ ما انقطعتُ عن زيارتِهِ بضعةَ أسابيعَ لأمرٍ ما، وبشّرني أنّه وَجَدَ لي عملًا في بعضِ المدارسِ الصغيرةِ بوظيفةٍ شهريّةٍ قليلة... وقال لي: إنّ مديرَ المدرسةِ وَعَدَهُ أنْ يضاعفها لي ضعفينِ بعد ثمانيةِ شهورٍ، فحمدت الله على ذلك.

لا صعبٌ في الحياة، يا ماجدولين، غيرُ الخطوةِ الأولى، فإذا خطاها المرءُ، هانَ عليه ما بعدَها، فلنهنأْ منذُ اليومِ باللقاءِ، ولنغتبطْ بالسعادةِ التي طالما تمنّيناها، حتّى بلغناها.

❁ ❁ ❁

٣٩ ـ من إدوار إلى استيفن

لا يزالُ النزاعُ قائمًا بيني وبين عمّي، يأبى إلّا أنْ أعيشَ عَيْشَ المقلّينَ، وآبى إلّا أن أتمتّعَ بمالي الذي ورثتُه عن أبي كما أحبّ وأشتهي، ولا أدري ما الذي يعنيهِ من الحرصِ على مالٍ يعلَمُ أنّه ليسَ له، وأنّ مصيره مهما طالتِ الأيّامُ لصاحبه؟ ولكنّها خَلّة[1] البُخلاءِ، والأشِحّاءِ، لا يقعُ في أيديهم شيءٌ من مالهم، أو من مالِ غيرهم، حتّى تتلوّى أصابِعُهُم عليه التواءَ الحيّةِ على العَصا، ثمّ لا يفلتُ منها بعد ذلكَ، فَمَثَلُهُمْ كمثلِ الحِبالةِ[2] التي تنطبقُ حافتَاها على كلّ ما يدنو منها، وإنْ لَمْ تجنِ لنفسِهَا من وراءِ ذلك شيئًا.

على أنّها أيامٌ قلائلُ ستنقضي، وسأبلغُ الرشدَ بعدَ بضعةِ شهورٍ، فلا يبقى لَهُ ولا لغيرِهِ عليَّ من سبيل.

أَلْمَمْتُ ببعضَ شأنِكَ الحاضرِ، وعلمتُ أنّ أهلَكَ قد نقموا منك مخالفَتَكَ إيّاهم، فوكّلُوكَ إلى نفسِكَ، ونفضوا أيديهم منك، فتركتَ لهم «كوبلانس»، وسافرتَ إلى «جوتنج» تطلبُ لنفسِكَ فيها الرزقَ من طريقِ العملِ، فلم يوافِقْكَ حتّى اليوم ما تريدُ، فليتَ الذي كانَ، يا صديقي، لم يكنْ، وليتَكَ أخذتَ بذلكَ الرأي الذي رأيتُهُ لكَ من قبلُ، وسلكتَ إلى الحياة طريقًا غيرَ هذا الطريقِ الخياليّ الذي تسلكُهُ اليومَ، فتزوّجْتَ من الفتاةِ التي اختارُوها لكَ،

---

(١) الخَلّة: الخصلة. (٢) الحِبالة: المصيدة.

وظفرتَ بنعمةِ العيشِ في ظلالها، فلا سعادةَ في الدنيا، يا صديقي، غيرُ سعادةِ المالِ، وكلّ ما في أدمغةِ البشرِ من علمٍ، وعقلٍ، وما في أجسامِهِمْ من قوّةٍ، وأيد[1]، وما في نفوسهِمْ من فضائلَ، ومزايا، إنّما هيَ سبلُ المالِ، وذرائعُ إليه.

أهديكَ تحيّتي، وسلامي، وربّما زرتُكَ في «جوتنج» في عهدٍ قريبٍ، فقد ضقتُ ذرعًا بذلكَ الرجلِ، وأصبحتُ لا أطيقُ البقاءَ معه لحظةً واحدةً في بلدٍ واحد.

❀ ❀ ❀

٤٠ ـ من استيفن إلى إدوار

لا تعتبْ عليَّ، يا صديقي، إنْ قلتُ لكَ إنّ لي في الحياة رأيًا غيرُ رأيكَ وغيرُ ما يراهُ الناسُ جميعًا.

إنّني لا أعرفُ سعادةً في الحياةِ غيرَ سعادةِ النفسِ، ولا أفهمُ من المالِ إلا وسيلةً من وسائلِ السعادةِ، فإنْ تمّتْ بدونِه، فلا حاجةَ إليه، وإنْ جاءتْ بقليلِهِ، فلا حاجةَ إلى كثيرِه.

ماذا ينفعُني من المالِ، وماذا يُغْني عنّي يومَ أُقَلّبُ طَرْفي حولي، فلا أرى بجانبي ذلكَ الإنسانَ الذي أحبُّه، وأؤثِرُه، وأرى في مكانِهِ إنسانًا آخرَ لا شأنَ لي معه، ولا صِلَةَ لقلبي بقلبِه، فكأنّني، وأنا خالٍ به، خالٍ بنفسي منقطعٌ عن العالمِ، وما فيه.

إنّ الرجلَ الذي يتزوّجُ المرأة لمالها، إنّما هو لصٌّ خائنٌ، لأنّه إنّما يأخذُ من مالها باسمِ الحبِّ، وهو لا يحبُّها، وعاجزٌ أخرقُ، لأنّه قعدَ عن السعيِ لنفسِه، فوكَلَ أمرَهُ إلى امرأةٍ ضعيفةٍ تقوتُه وتموّنُه، وساقطُ المروءةِ مبتذلٌ، لأنّه يأجرُ جسمَه للنساءِ، كما تأجرُ البغيُّ نفسَها للرجال، ليستفيدَ من وراءِ ذلكَ قوتَهُ.

نعمْ إنّني بائسٌ فقير، كما تقولُ، ولكنّني أسعى لنفسي سعيَ المُجدِّ الدؤوبِ، وقد بدأتُ أنجَحُ في مسعايَ منذُ الأمس، فقد حصلتُ على وظيفةٍ صغيرةٍ ستكونُ كبيرةً فيما بعد، واستأجرتُ لي غرفةً بسيطةً، فأصبحتُ ذا مسكنٍ خاصّ، وسينتهي بؤسي، وشقائي، وأنال السعادةَ التي أرجُوها، وسيكونُ أعظمُ ما أغتبطُ بهِ في مستقبلِ حياتي، أنّني أنا الذي صغْتُ إكليلَ سعادتي بيدي.

أحيّيكَ، يا إدوار، وأرجو ألا تعتبَ عليَّ فيما قلتُ لكَ، ولعلّكَ تَفِي بوعدِكَ لي، فأراكَ في جوتنج في عهدٍ قريب.

❀ ❀ ❀

---

(١) الأيد: الشدّة.

٤١ ـ غرفة استيفن

سكنَ استيفن بعدَ حصولهِ على وظيفتِه الجديدةِ في غرفةٍ صغيرةٍ طولُها عشر أقدام، وعرضُها سبع؛ ووضَعَ فيها سريرًا من خشبٍ، ومنضدةً عاريةً يكتبُ عليها ليلًا، ويأكلُ علَيها نهارًا؛ وكرسيّينِ مختلفي الحجم والشكلِ، يجلسُ على أكبرِهما وأصلحِهما شأنًا، ويضعُ حقيبةَ ملابسِه على الآخر: ومنصبًا للَطبخ، وجرّةً للماءِ، وبعضَ آنيةٍ أخرى. وكانَ بغرفته كوّةٌ تشرفُ على سطوحِ منازلَ قديمةٍ مهجورةٍ، لا يسكنُها أحدٌ.

فلمّا أشرفَ منها، ورأى ذلك المنظرَ الموحشَ اشمأزّتْ نفسُه قليلًا، ثمّ قال: لا بأسَ، فذلكَ خيرٌ لي من أن يطّلعَ على خَلّتي[1] أحدٌ، ثمّ لمحَ على البعدِ دوحةً[2] عظيمةً مورقةً في بعضِ المنازلِ القاصيةِ، فقال: تلكَ هي الروضةُ التي أفتحُ عليها نظري كلّ صباح، وهل يتمتّعُ صاحبُهَا الذي يملِكُها، ويتعهّدُهَا منها بأكثرَ من ذلك؟

ثمّ رأى على مقربةٍ منه كنيسةً صغيرةً، فقال في نفسه: أرجو أن تساعِدَني دقّاتُ ساعَتِهَا على معرفةِ المواقيتِ، ثمّ ما لبثَ أن سمعَ رنينَها، فأخذَ يعدّها فرحًا مبتهجًا، وهو يقول: لن أشتريَ ساعةً بعد اليوم.

وكذلكَ اغتبطَ استيفن بمسكنِهِ الجديدِ على صِغَرِهِ وحقارَةِ شأنه اغتباطًا عظيمًا، لأنّه أوّلُ مسكنٍ نزلَ فيه عندَ نفسِه، وابتاعَ أثاثَه، وأدواتِهِ من مالِهِ، وظلّ يقول في نفسه: في المسكن الخاصّ يستطيعُ المرءُ أن يكونَ حرًّا في قيامِهِ، وقعودِهِ، وجلوسِهِ، واضطجاعِهِ، ونومِهِ على الهيئة التي يريدُها لا يتكلّفُ ولا يتعمّلُ، يجاملُ الناسَ، ولا يرائيهم، ولا يضعُ نفسَه في القالبِ الذي يصنَعُونه له، فيرفعُ يدَه في الهواءِ بغتةً دونَ أن يخافَ وقوعَهَا على وجهِ أحدٍ، ويستعينُ بتقليبِ يدِه، وتحريكِ رأسِهِ على النظرِ، والتفكيرِ، دونَ أن يسمّيَهُ أحدٌ مجنونًا، أو مختبلًا، ويمدّ قدميهِ في الناحيةِ التي يريدُهَا، لا يخشى محاسِبًا يحاسبُهُ على الأدبِ، أو يلاحيه[3] في قواعِده، وأصولِهِ، أيْ أنّه يكونُ على الصورةِ التي خلقَهُ الله عليها، لا يزيدُ على ذلكَ، ولا ينقصُ شيئًا.

وكانَ لا بدّ له من أن يعيشَ عيشَ الإقلالِ والتقتيرِ، فلا يلاقي في ذلكَ عناءً عظيمًا، لأنّه كانَ قنوعًا متجزئًا، فقسّمَ دَخْلَهُ بين نفقاتِ طعامِهِ، وشرابِهِ، وملبسِهِ، وأجرةِ مسكنِهِ، ووفاءِ ما عليه من دينِ الأثاثِ الذي ابتاعَه، وعاشَ عيشةً ساكنةً لا يكدّرها عليه مكدّرٌ، لأنّها كانتْ مملوءةً أملًا، ورجاء.

❁ ❁ ❁

---

(١) الخَلّة: الفقر والحاجة.
(٢) الدوحة: شجر يطول ويسمو.
(٣) يلاحيه: يلومه، يعاتبه.

٤٢ ـ الطارق الجديد

جلسَ استيفن في غرفتِهِ غَدَاةَ يومٍ من أيّامِ الآحادِ، وهيَ الأيّامُ التي يشعرُ فيها بالراحةِ من عناءِ الدرسِ ونَصَبِه[١]، فسمعَ خَفْقَ نعلٍ ثقيلةٍ على السُّلَّمِ، يختلفُ صوتُها عن صوتِ نعلِ جارتِهِ العجوز التي كانتْ تختلفُ إليه من حينٍ إلى حينٍ، لتملأَ جرّةَ الماءِ من البئرِ، فدهشَ وتَسَمَّعَ، فإذا القادمُ يصيحُ باسمِهِ صياحًا عاليًا، فخُيِّلَ إليه أنّه يعرفُ صاحبَ هذا الصوتِ؛ فابتدرَ البابَ، ففتحَهُ فإذا صديقُهُ «إدوار»، فابتهجَ بمرآهُ، وعانَقَهُ عناقًا طويلًا، وقال له: لقد وفيتَ بوعدِكَ أيّها الصديقُ، فلكَ الشكرُ على ذلكَ، ولقد كنتُ أترقّبُ حضورَكَ تَرَقُّبَ المقرورِ[٢] أشعّةَ الشمسِ، والظامئِ ديمةَ[٣] القطرِ.

فقال له: سأنزلُ عندَكَ في غرفتِكَ هذه الصغيرةِ ضيفًا شهرينِ أو ثلاثةَ، وهي المدّةُ الباقيةُ لي على بلوغِ سنّ الرشد؛ ولقد اشتدَّ النزاعُ بيني وبين عمّي، حتّى أصبحتُ لا أطيقُه، ولا يطيقُني، ففارقتُ منزلَه، وأقسمتُ ألّا أرى وجهه، حتّى تنتهيَ قضيّةُ الوصايةِ التي بيني وبينه، ثمّ دخل، وهو يقول: ما أجملَ هذه الغرفةَ وأبدعَ شكلَها! إنّها أوسعُ ممّا كنتُ أظنُّ، وأجملُ ممّا كنتُ أقدّرُ.

وعَمدَ إلى حقيبته، ففتَحها، وأخرجَ منها زجاجةَ عطرٍ، ومشطًا، وبضعةَ مناديلَ من الحريرِ، وقدّمها هديّةً إلى استيفن، فقَبِلَها منه شاكرًا، ثمّ قامَ استيفن إلى شريحةِ لحمٍ كان يعدّها لطعامِ الغدِ، فاشتوَاها، ووضَعَهَا على المائدةِ، ووضَعَ بجانبها زجاجةً من الخمرِ، وقطعةً من الجبنِ، ثمّ أخذا يأكلانِ، ويتحدّثانِ، ويتذاكرانِ أيّام طفولتِهِما الماضية؛ وكذلكَ قضيا بقيّةَ يومِهِما مسرورينِ مغتبطينِ، حتّى أتتْ ساعةُ النوم، ففرشَ استيفن لنفسِهِ حشيّةً في بعضِ جوانبِ الغرفةِ، وتركَ السريرَ لضيفِه، وناما.

ولمَّا أصبحا، أعطى استيفن «لإدوار» قبلَ ذهابِهِ إلى المدرسةِ جميعَ ما كانَ معهُ من المالِ، وقالَ له: إنّ وظيفتي في الشهرِ مائتا فرنك، أنفقُ منها على الطعامِ والشرابِ ستينَ، وأحفظُ الباقي لأجرةِ الغرفةِ، وسدادِ دينِ الأثاثِ الذي ابتعتُه، وقد أنفقتُ منها خمسينَ فرنكًا في الأيامِ العشرةِ الماضية، وها هو ذا الباقي، فَتَوَلَّ أنتَ إنفاقَه، فأنتَ ربُّ البيتِ منذُ اليوم، وصاحبُ الشأنِ فيه، ثمّ تركه ومضى، فلم يلبثْ «إدوار» أنْ نزلَ إلى السوقِ، فاشترى لحمًا وخبزًا وتوابِلَ، وفاكهةً، وخمرًا، وأنفقَ في سبيلِ ذلكَ اثني عَشَرَ فرنكًا، وجلسَ يطبخُ، ويشتوي، حتّى انتصفَ النهارُ، وحضرَ استيفن، فقال له: ما هذا يا إدوار؟! أوليمةٌ هي؟ قال: نعم، وليمةُ الاحتفالِ بقدومي. فابتسمَ استيفن، وقال له: لقد أحسنتَ فيما قلتَ، وذكَّرْتَني بما كنتُ عنه لاهيًا.

---

(١) النصب: التعب.
(٢) المقرور: من القرّ وهو البرد.
(٣) الديمة: المطر الخفيف.

وجلس يؤاكِلُه، حتّى فرغَا من الطعام، فقالَ له إدوار: أرى أن الغرفةَ تنقُصها بضعةُ أشياءَ لا بدّ لنا منها، فَأذَنْ لي بمشتراها، وأَعِدُكَ ألّا أبتاعَ إلّا ما لا بُدَّ لنا منه، ولا أُنفقَ في سبيلِ ذلكَ إلّا ثمنًا قليلًا، فقال له: لكَ ما تريدُ. فخرجَ، ثمّ عاد بعدَ ساعةٍ، يقتادُ كلبًا أسودَ ضخمًا، ووراءه حمّالٌ يحملُ له مرآةً كبيرةً ومشجبًا[1] للثيابِ، وهو يقول: ما أقبحَ الغرفةَ التي لا مرآةَ فيها، وما أشدَّ وحشةَ البيْتِ الذي لا ينبحُ فيه كلبٌ، على أنّني لم أنفقْ في جميعِ ما ابتعتُه أكثرَ من عشرينَ فرنكًا، وأظنُّكَ ترى، يا استيفن، كما أرى أنّها صفقةٌ رابحةٌ نادرةٌ قلّما يتّفقُ مثلُهَا لأحدٍ، فَضَحِكَ استيفن، وقال له: ما أعذَبَ جنونَكَ، يا إدوار! قال: وهل تطيبُ الحياةُ بغيرِ جنون؟

وكذلكَ لم يأتِ اليومُ العشرون من الشهرِ، حتّى صَفُرَتْ أيديهما من النقودِ، ولم يُجْدِ عليهما الكلبُ، ولا المشجبُ، ولا المرآةُ شيئًا. فقال استيفن: ما العملُ يا إدوار؟ قال: الأمرُ أهونُ ممّا تظنُّ، وسأرى لكَ الرأيَ الذي ينفعنا. ثمّ تركَه، وخرجَ. وعادَ بعد قليلٍ يصحَبُهُ أحدُ الحمّالينَ، ورجلٌ آخرُ من تجّارِ الأثاثِ، فوقَفَ على عتبةِ الغرفةِ، وقال للرجل: خُذْ هذا السريرَ فإنّه يضايقُ الغرفةَ كثيرًا، ولا ظَهْرَ أثْبتُ تَحتَ جسدِ النائمِ مِنْ ظَهْرِ الأرضِ، وخُذْ هاتينِ الوسادتينِ الزائدتين، فالوسادةُ الواحدةُ إذا ثنيتْ تكفي صاحبَها. ثمّ نظرَ إلى استيفن، وقال له: أليس كذلك يا صديقي؟ فانتبَه استيفن وكانَ مكبًّا على منضدتِهِ، يكتبُ كتابًا إلى ماجدولين، ففهمَ كلَّ شيءٍ، وقال: بلى، يا إدوار.

قال: أتظنُّ أنَّ زجاجًا رقيقًا كزجاجِ هذه النافذةِ يبقى طويلًا على هذه الرياحِ العاصفةِ في هذا الشتاءِ الشديد؟ قال: لا، قالَ: أليسَ من الحَزْمِ أنْ ننتفع بثمنِهِ، بدلًا من أنْ نتركَهُ لعبةً في أيدي الرياح، تعبثُ به ما تشاء؟ قال: ذلكَ هو الرأي، فمشى إلى النافذةِ، فانتزعَ ألواحَهَا واحدًا بعد آخرَ، وأعطاهَا الحمالَ، ثمّ قالَ له: وهل ترى أنّنا في حاجةٍ إلى مثلِ هذا الغطاءِ الثقيلِ، في مثل هذه الغرفةِ الضيّقة؟ قال: لا، فأمرَ الحمّالَ بِحَمْلِهِ، ثمّ قال له: وهل تضعُ في هذه الخزانةِ شيئًا تخافُ عليه أن يُسْرَق؟

فضحكَ استيفن، وقال له: لو كانَ عندي ما أخافُ عليه، لم نَصِرْ إلى ما صِرْنَا إليه، قال: إذنْ ما بقاءُ هذا القفلِ فيها؟ ثمّ مدَّ يدَهُ إليه، فانتزَعه من مكانِه، وظلّ يقلّبُ نظرَه في الغرفةِ، حتّى وَقَعَ على المنضدَةِ، فذعر استيفن، وقال له: انتظِرْ، يا إدوار، لا تَمْسُسْها، حتّى أتمّمَ رسالتي، فضحك وقال: إنّي أتركها لكَ إكرامًا لماجدولين، وأخذَ يساومُ الرجلَ في ذلك الأثاثِ، حتّى باعَهُ منه بثلاثينَ فرنكًا. ثمّ عادَ إلى استيفن، وقال له: ماذا ترى فيما تمّ؟

قال: أرى أن تعطِيَني هذا المال الذي مَعَكَ، لأتولّى إنفاقَه بدلًا منك؛ فإنّكَ لا تستطيعُ أن تكونَ حازمًا.

قال: أظنّ أننا قد بدأنا نختلفُ، يا صديقي، لأنّكَ تحبُّ التقتيرَ، وهو لا يعجبني، وأنا

---

(١) المشجب: خشبة تُعَلّق عليها الثياب.

أحبُّ السعةَ، وهي لا ترضِيكَ، فخيرٌ لي ولكَ أن نقتسِمَ راتِبَكَ بيننا قسمين، وأن يعيشَ كلٌّ منّا وحدَه بالقسم الذي يصيبه. وصَمَتَ هنيهة ثم قال: على أنّ افتراقنا في المعيشةِ لا يتمّ إلّا إذا افترقنا في السَكَنِ، فَلْيَخْتَصَّ كلُّ منّا بجهةٍ من الغرفةِ مستقلّةٍ عن جهةِ صاحبِهِ، وها أنذا أقسمُهَا بيننا قسمةً عادلةً.

ثم عمد إلى قطعة من الجصّ[1]، وخطّ بها وسطَ الغرفةِ خطًّا مستطيلًا، وقال: هذا قِسْمِي؛ أنا وكلبي، ومرآتي، ومشجبي، وهذا قسمُك وحَدَكَ؛ وهو خيرٌ من قسْمِي، وأكثرُ منه مرافقَ ومنافعَ، لأنّ فيه المنصبَ الذي تطبخُ عليه طعامَك، والمنضدَةَ التي تكتبُ عليها رسائِلَكَ، والنافذةَ التي تمدّ في فضائِهَا ذراعَكَ كلّما أردتَ أن تلبسَ قميصَكَ، أو معطَفَكَ، فأغربَ استيفن في الضحكِ، وخرجَ لشأنه، وتركَ له الغرفةَ يفعلُ فيها ما يشاء.

وكذلكَ استمرَّ إدوار ينغّصُ على استيفن عيشَهُ، واستيفن لا يغضبُ ولا يشكو، بل لا يشعُرُ بألمٍ، ولا ضيقٍ، لأنّهُ كانَ صديقَهُ، وكفى.

❁ ❁ ❁

٤٣ ـ التضحية

خرجَ إدوار ذاتَ يومٍ يرتاضُ[2] في بعضِ أطرافِ القريةِ، وبقيَ استيفن وحدَه يدوّنُ في دفترِهِ بعضَ نغماتٍ موسيقيّةٍ لدروسِ الغدِ، وإنّه لكذلكَ إذْ سمعَ على السُلّم خَفْقَ نعالٍ كثيرةٍ، وأصواتًا مختلفةً، وصياحًا عاليًا؛ فدهشَ، وقامَ إلى الباب، ففتحه، فإذا رجلٌ طويلُ القامةِ عريضُ الكتفين يلبسُ لباسَ عمّالِ المناجِمِ، تشتعِلُ عيناهُ نارًا، ويتدفّقُ الزبَدُ من شفتيهِ، وقد أمسَكَ بيده سيفينِ عريضين، فلمّا وقَعَ نظرُهُ على استيفن، قال له: أأنتَ المسمى إدوار؟ فعلمَ استيفن أنّ الرجلَ يريدُ بصديقِهِ شرًّا، وأنّه لا يعرفُ شخصَه، فأشفقَ منه، وأرادَ أن يعرفَ ما تِرَتُهُ[3] عنده، فقال له: نَعَمْ أنا هو، فماذا تريدُ منّي؟

فابتدَرَه الرجلُ بلطمةٍ على وجهِه، أظلمتْ لها عيناهُ، وقال له: لعلَّ شجاعَتَكَ التي دَفَعَتْكَ إلى مغازلةِ زوجتي، وانتهاكِ حرمةِ بيتي، والعبَثِ بشرفي، لا تفارقُكَ في هذه الساعةِ حينَ أدعوكَ إلى مبارزتي على ضفافِ النهر، وها هُمْ أولاءِ شهودُ المبارزةِ؛ فليختَرْ كلٌّ منّا من يشاءُ منهم، فأخذَ استيفن منه السيفَ صامتًا وَقَدْ فَهِمَ كلَّ شيءٍ، وكانَ مُلِمًّا بعضَ الإلمامِ بقصّةِ إدوار مع زوجِ هذا الرجلِ، وأشفقَ عليه أن يصيبَه من تلك المبارزةِ شرّ، ولأنّه كان يعلَمُ أنّه لم يجرّدْ في حياتِهِ سيفًا قطّ.

---

(١) الجصّ: الكلس. (٢) يرتاض: يسير.

(٣) الترة: الانتقام.

فمشى مع خصمِه صامتًا، لا يقولُ له شيئًا، حتّى بلغا ضفّةَ النهرِ، وجرّدا سيفيهما للقتالِ، وهنا ذكَرَ استيفن ماجدولين ووَدّ لو استطاعَ أن يكتبَ إليها كلمةَ وداعٍ، فنظرَ إلى الشهودِ، وقال: هل أجدُ مع أحدٍ منكم بطاقةً صغيرة؟ فأعطاه أحدُهُمْ ما أرادَ، فكتبَ هذه الكلمةَ الموجزة «إنّي أموتُ في مبارزة شريفةٍ، وأنتِ آخرُ من أفكّرُ فيه، فالوداعُ، يا ماجدولين».

وكانَ أحدُ الملّاحين واقفًا على مقدّمةِ سفينتِه بجانبِ الضفّةِ، فرأى استيفن وهو يكتبُ كلمةً، ثمّ رآه وهو يقلّبُ نظره حولَه، يفتّشُ عن رسولٍ يبعثُ بها معه، فأثّرَ منظرُهُ في نفسِهِ، وتقدَّمَ نحوه، وقال له: إئذنْ لي، يا سيّدي، أن أحملَ رسالَتَك إلى من تريد، فشكر له استيفن صنيعَه، وأعطَاهُ الرسالةَ بعد ما كتبَ عنوانها على ظَهْرِها، ثمّ شرع في المبارزةِ، فكانتْ يَدُهُ فيها أعجزَ من يدِ خصمِه، فجُرحَ بعدَ ضرباتٍ في ذراعِهِ جرحًا بليغًا، فأوقفَ الشهودُ المبارزةَ، وتصافحَ الخصمانِ، والملّاح لا يزالُ واقفًا مكانه، فقال له استيفن، وهو ساقطٌ على الأرضِ بصوتٍ ضعيف: مزّقِ الرسالةَ التي معَكَ، فلا حاجةَ إليها الآنَ، فمزّقها الرجلُ، ودنا منه فأخرجَ من جيبه منديلًا فعصَبَ ذراعه، ثمّ أنهضه من مكانه، وأخذَ بيده، وظلّ سائرًا معه، حتّى صعدَ إلى غرفته، فأضجعَه على فراشِه، وجلسَ بجانبه، يضمّدُ جراحَه ويواسيه.

❁ ❁ ❁

٤٤ ـ الصداقة

جلس إدوار إلى صديقِهِ في الليلةِ التي عزمَ على السفرِ في غَدِهَا وكانَ جرحُهُ قد أشرفَ على البرءِ، وقال له: سجَّلْتَ لنفسِكَ بدمِكَ، يا استيفن، في صفحةِ قلبي نعمةً لا أنساها لكَ مدى الدهر، كما لا أنسى لكَ أنّكَ وأنتَ في أشدّ حالاتِ بؤسِكَ وضيقِكَ قد آويتني وواسيتني أيّامًا طوالًا، واحتملتَ لي ما لا يحتَمِلُه أخٌ لأخيه، ولا حميمٌ لحميمِه، فلو أنّني جمعتُ لكَ في يومٍ واحدٍ جميعَ ما كافأ به الناسُ بعضَهُم بعضًا على الخيرِ، والمعروفِ مذ خلقتِ الدنيا حتّى اليوم، لما جازَيْتُكَ بعضَ الجزاء على الخيرِ الذي صَنَعْتَ.

فقال له استيفن: إنّني لم أسْدِ[1] إليكَ يدًا تستحقُّ مكافأة. ولكنّكَ صديقي، وللصداقةِ آثارٌ طبيعيّةٌ تتبَعُها، وتنبعِثُ وراءَها جريانَ الماء في منحدَرِه، فإنْ كنتَ لا بدَّ شاكرًا، فاشكُرِ الصداقةَ التي ظَلّلَتْنا بجناحَيها مذ كنّا طفلينِ صغيرينِ، والبؤسَ الذي لفّ شملي بشملِكَ، وخلَطَ نفسي بنفسِك، وحوّلَ قلبينا القريحينِ الكسيرينِ إلى قلبٍ واحدٍ، وإن قُدِّرَ لكَ يومًا من الأيّامِ أن تمدَّ يدَكَ لمعونتي، فليكنْ ذلك منكَ إذعانًا لرحمةِ قلبِكَ، وحنانِه لا مكافأةً على خيرٍ، ولا مجازاةً على معروف.

---

(١) أسدى: أنعم.

إنّني شقيٌّ مذْ ولدتُ، يا إدوار، فأنا أحبُّ الأشقياءَ وأعطفُ عليهم، لأنّني واحدٌ منهم، ولا صداقةَ في الدنيا أمتنُ ولا أوثقُ من صداقةِ الفقرِ والفاقةِ، ولا رابطةَ تجمعُ القلبينِ المختلفينِ، مثلُ رابطةِ البؤسِ، والشقاءِ، فلو أنّني خُيِّرْتُ بين صحبة رجلين: أحدِهما، فقيرٌ يضمّ فاقَتَه إلى فاقتي فيضاعِفُها، وثانيهما، غنيٌّ يمدُّ يدَه لمعونتي، فيرفّه عنّي ما أنا فيه من شدّةٍ وبلاءٍ، لآثرتُ أوّلهما على ثانيهما، لأنّ الفقيرَ يتّخذني صديقًا، والغنيّ يتّخذني عبدًا، وأنا إلى الحريّةِ أحوجُ منّي إلى المالِ.

يظنُّ السعيدُ دائمًا أنّ السعادةَ التي يمرحُ في ظلّها، إنّما هي منحةٌ سماويّةٌ قد آثَرَهُ اللهُ بها من دونِ عبادِه جميعًا لفضيلةٍ كامنةٍ في نفسِه، لا يشاركُهُ فيها غيرُهُ، ولا يعرفُها اللهُ لشخصٍ في العالمِ سواه، وليسَ في استطاعَتِه أن يتصوّرَ بحالٍ من الأحوالِ أنّ السعادةَ عاريةٌ[1] من عواري الدهرِ، يأتي بها اليوم، ويذهبُ بها غدًا، ولعبةٌ من ألاعيبِهِ، يختلفُ بها بين الناسِ، أخذًا وردًا، ويداولها بينَهُمْ، عطاءً وسلبًا، فتراهُ واثقًا بها مستنيمًا[2] إليها، ينطقُ بذلكَ لسانُه، وتهتفُ به حركاتُهُ، وسَكَنَاتُه وملامحُ وجهِهِ، وابتساماتُ ثغرِهِ.

ومن كانَ هذا شأنَه نظرَ إلى غيرِهِ من البائسين المحدودين[3] الذين لا يتمتّعونَ في حياتهم بمثلِ متعتِهِ، ولا يهنأون فيها بمثلِ نِعْمتِهِ نَظَرَ الشمسِ إلى ذرّاتِ الترابِ المبعثرةِ على سطحِ الأرضِ، فهو يمنّ عليهم باللفْتَةِ والنظرةِ، ويحاسبُهم على القَعْدَةِ والقومَةِ، ويتقاضَاهم إجلالَهُ وإعظَامَهُ، كأنّما يتقاضَاهُمْ حقًّا من حقوقِهِ المقدّسةِ التي لا ريبَ فيها؛ فإنْ أَذِنَ لأحدهم يومًا من الأيّامِ أن يجلسَ في حضرته لا يعجبُه منه إلا خضوعُه له، واستخذاؤُهُ بينَ يديه، وتضاؤُلُهُ أمامَ نظراته المترفّعةِ، تضاؤُلَ الحمامَةِ الساقِطَةِ، تحتَ أجنحةِ النسرِ المحلّقِ.

ثمّ لا يجازيه على ذلكَ بأكثرَ من دعائِه إلى مائدتِهِ، أو الإنعام عليه بفضْلِ مالِهِ أو خلقانِ[4] ثيابه، لا يبعثُه إلى ذلكَ باعثُ رحمةٍ أو حنانٍ، بل لِيُرِيَهُ فَرْقَ ما بينه وبينه في مظاهرِ الحياةِ، وزخارِفِها، وحظوظِ الأيّامِ، وحدودِها، وليضيفَ إلى عنقِه المثقلِ بأغلالِ الفقرِ، غلًّا جديدًا من الذلّةِ والاستعباد، فإذا أرادَ المسكينُ أن يفضِيَ إليه بِهَمٍّ من همومِ قلبه ترويحًا عن نفسه، وترفيهًا لآلامه أعرضَ عنه وبرمَ به، وخُيِّلَ إليه أنّه ما ذهبَ معه هذا المذهبَ في حديثِهِ، إلّا وقد أَضْمَرَ في نفسِه أن يقاسِمَه مالَهُ، أو يساكِنَه قَصْرَهُ، أو يشاطِرَه نعمَتَهُ وسعادَتَهُ، فلا يعزّيه عن بأسائِه بأكثرَ من أن يلومَه على تبذيره وإسرافِه، أو على بلَادتِهِ وغفلتِهِ.

ثمّ يختمُ حديثَه معه بقوله: إنَّ جميعَ ما يصيبُ المرءَ في حياتِهِ من بؤسٍ وشقاءٍ، ليس الذّنْبُ فيه على القدرِ، بل على قصورِ الإنسانِ وجهلِهِ، وعدم اضطلاعِهِ بشؤونِ الحياةِ، وتجاريبِها، وإنَّ اللهَ تعالى أعدلُ من أنْ يمنحَ نعمةَ جاهِلَها، أو يسلُبَهَا مستحقَّها، أي أنه يجمعُ عليه بين بليّتين: بليّةِ الهمّ، وبليّةِ اليأسِ من انفرَاجِه، وانقشاعِه.

---

(١) العارية: كل شيء يعار ثم يُستردّ بعد حين.

(٢) استنام: سكن، استقرّ.

(٣) المحدود: المحروم.

(٤) الخلقان: البلى.

لا يستطيعُ الغنيُّ أن يكونَ صديقًا للفقيرِ، لأنّه يحتقرُه ويزدَريه، فلا يرى فيه فضيلةً يصادِقُهُ عليها، أو يصطَنِعُه من أجلِهَا، ولأنَّه يشعرُ من نفسِه باقتدارِهِ على احتمالِ أعباءِ الحياةِ وَحْدَهُ دونَ أن يعينَه عليها معينٌ من الفقراءِ أو الأغنياءِ. أمّا صديقُ الفقيرِ، فهو الفقيرُ الذي يُصْغِي لشكاتِه إذا بثّها إليه، ويفهَمُ معناها إذا سمعَهَا منه، ويعزّيه عنها إذا فَهِمَهَا عنه، ويجعلُ له من صدره متكأً ليِّنًا، يلقي رأسَه عليه، وهو تَعِبٌ مكدودٌ، فيجدُ فيه بَرْدَ الراحةِ والسكون.

لذلكَ أحبَبْتُك، يا إدوار، واتّخذتُكَ صديقًا، وكانَ الشقاءُ هو الوثيقةَ التي تعاقَدْنا فيها أن يكونَ كلٌّ منّا عونًا لصاحبِهِ على دهرِه، وجُنَّةً[1] له من دونِ نكباتِ الأيّامِ وأرزائها[2]؛ مهما تقلّبَتْ بهما الأحوالُ، أو فرّقَتْ بينهما الأيّام.

فأخذَ إدوار بيدِ استيفن، وأقسمَ لَهُ بكلّ محرجةٍ من الإيمانِ، ألّا يهدأ له في حياته رُوعٌ، ولا يثلجَ له صدرٌ، حتّى يراهُ ظافرًا من دَهرِه بالسعادةِ التي يرجُوها، ثمّ عرضَ عليه أن يضَعَ بين يديهِ جزءًا من ثروتِهِ التي صارتْ إليه، فأبى، وقال: أمّا هذه، فلا، لأنّي لا أريدُ أن أشتريَ سعادَتي في دنياي، إلّا بأَشْرَفِ أثمانها.

وفي الصباحِ مشى استيفن مع إدوار ليودّعَهُ، حتّى بلغا مكانَ الافتراقِ، فتعانَقَا طويلًا، وبكى استيفن على صديقِهِ، ثمّ افترقا.

❁ ❁ ❁

٤٥ ـ من استيفن إلى ماجدولين

خرجتُ ليلةَ أمسِ أرتاضُ على شاطئ النهرِ، فلمّا استقبلتُ الفضاءَ، شعرتُ أنّ أوراقَ الأشجارِ تضطربُ اضطرابًا سريعًا في خفوتٍ وهمسٍ، وأنّ الهواءَ يمشي متثاقلًا مترجّحًا، يتحامَلُ بعضُه على بعضٍ، ورأيتُ قِطَعَ السحابِ الضخمةَ السوداءَ تنتقلُ في صحراءِ السماءِ تَنَقُّلَ قطعانِ الفِيَلَةِ في غاباتها، وخُيّل إليّ أنّي أسمعُ في أعماقِهَا قعقعةً مبهمةً، تدنُو حينًا، وتنأى أحيانًا، وكأنّما قد راعَ هذا الصوتُ الأجشُّ طيورَ الماءِ، وحشراتِ الأرضِ، فرأيتُ الطيورَ مرفرفةً على سطحِ النهرِ، تستبقُ إلى أوكارِهَا، والحشراتِ متعاديةً بين الصخورِ تتسرّبُ إلى أحجارِها، ورأيتُ السوادَ قد صَبَغَ كلَّ شيءٍ حتّى لونَ الماءِ؛ فقبّةُ السماءِ، ورقعةُ الأرضِ، والأفقُ الذي يصلُ بينهما، منجمٌ أجوفُ عميقٌ من مناجمِ الفحمِ، يحاولُ البرقُ أن يجدَ له في جدرانِهِ العاتيةِ الصمّاءِ، منفذًا ينحدرُ منهُ إلى جوفِهِ، فلا يستطيعُ إلّا الومضةَ بعد الومضةِ، تعتلجُ بين طبقاتِهِ ولا تنفذُه.

ثمّ ما لبثتْ هذهِ الطبيعةُ الصامتةُ الخرساءُ، أن هَدَرتْ، وزمجرَتْ، فهبّتِ الزوبعةُ من كلّ مكانٍ، تخبطُ بيديها أوراقَ الأشجارِ، فتطيرُ بها كلّ مطارٍ، وتهتزُّ السقوفُ، والجدرانُ هزًّا

---

(١) الجُنّة: الوقاية. (٢) الأرزاء: المصائب.

وتضربُ بعضُها ببعضٍ، ثمّ أقبلَ المطرُ يمزّقُ قطعَ السحابِ، ويفتحُ لنفسِهِ والبرقِ طريقًا في خلالِها، ثمّ هَمَى، فسالتْ به الأوديةُ والأرجاءُ، وامتلأتِ الأخاديدُ والأغوار. وكنتُ على مقربةٍ من كوخِ صديقي «فرتز»، وهو فلّاحٌ فقيرٌ أسدى إليّ فيما مضى من الأيّامِ صنيعةً، لا أزالُ أحفظُهَا له حتّى اليوم.

فلجأتُ إليه، فخُيّلَ إليَّ حينَ دخلتُه، أنّه مقفرٌ موحشٌ ليس به أنيس، ثمّ أضاءَ البرقُ، فرأيتُ في داخلِهِ منظرًا من أجملِ المناظرِ وأبدعِهَا، رأيتُ زوجَ الرجلِ وأولادَها جاثينَ على أقدامِهِم، خاشعينَ باسطي أيديَهُمْ إلى السماءِ، يدعونَ الله تعالى بدعواتٍ جميلةٍ، يردّدونَها بصوتٍ شجيٍّ محزن. فخُيِّلَ إليَّ، ولا مصباحَ هناكَ، ولا ضياءَ، أنّي أرى إشراقَ وجوهِهِم، وتلألُؤهَا في هذه الدجنّةِ[1] الحالكةِ، وأحسّتْ بي المرأةُ، فالتَفَتَتْ إليّ، وقالت: لَمْ يَعُدْ «فرتز» حتّى الساعة، ونحنُ نخشى أنْ يكونَ قد أصابَهُ مكروهٌ من أهوالِ تلكَ الليلةِ، فنحنُ ندعو الله تعالى أن يردَّه إلينا سالمًا.

فأثّرَ في نفسي هذا المنظرُ تأثيرًا شديدًا، وقلتُ في نفسي: «ويلٌ للذينَ يحاولونَ أن يسلبوا أمثالَ هؤلاءِ المساكينِ إيمانَهُم ويقينَهُم، إنّهم يسلبونَهُم حياتَهُم التي يحيونَ بها في هذا العالم، وكلَّ ما تملكُ أيديهم من سعادةٍ وهناء». وشعرتُ بحزنٍ شديدٍ في أعماقِ قلبي، لحرماني من مثلِ هذهِ السعادةِ النفسيّةِ التي ينعمُ بها هؤلاءِ القومُ، فجثوتُ بجانبهِمْ، أهتفُ بهتافِهِمْ، وأدعو بدعائِهِمْ، وأضرَعُ إلى الله أنْ يمنحني يقينًا مثلَ يقينِهِمْ، ولم أدرِ أنّ ما أنا فيه إنّما هو اليقينُ الذي أنشدُهُ، وأضرعُ إلى الله فيه.

ثمّ رفعتُ رأسي، فإذا «فرتز» واقفٌ على عتبةِ الباب، فهُرعتْ زوجتُهُ إليه، تقبّلُه، وتنضُو[2] عنه رداءَه المبتلّ، ودارَ أولادُه، يلثمونَهُ، ويتقبلونَ لثماتِهِ الأبويّةَ الرحيمةَ، ويستطيرونَ فرحًا به وسرورًا، ثمّ احتملُوه جميعًا إلى المائدةِ، وجلسُوا حولَه، يحادِثُونه، ويسألُونه عمّا كابدَ من أهوالِ هذهِ الليلةِ، وشدائِدِها، وجلستُ على مقربةٍ منهُ، أسمعُ حديثَهُمْ، وأستشفُّ سريرةَ نفوسهم، فأخذَ منظرُهُمْ هذا من نفسي مأخذًا شديدًا. وكدتُ - وما حَسَدْتُ أحدًا في حياتي على نعمةٍ قطّ - أنْ أحسدَهُم على نعمتِهِم هذه، وقلتُ في نفسي: زوجةٌ تحبُّ زوجَها وتبكي رحمةً به وإشفاقًا عليه، وأولادُه يجثونَ على أقدامِهِم، ويمدّونَ أيديهم إلى الله تعالى ضارعينَ أن يحفظَ لهم حياةَ أبيهم، وأبٌ يبكي فرحًا برؤيةِ أولادِه بينَ يديهِ سالمينَ مغتبطينَ: إنّها السعادةُ النفسيّةُ العاليةُ التي لا تستمدُّ بهجَتَها، ورواءَها من القصورِ، والرياضِ، والأثاثِ، والرياشِ، والفضّةِ، والذهبِ، بل من الحبّ الخالصِ، والودّ المتين.

وكذلك سيكونُ شأنُنَا في مستقبلِنَا، يا ماجدولين، كُتِبَ لنا أن نعيشَ عيشَ الفقراءِ المقلّينَ؛ ولكنّنا سنكونُ على فَقرِنا، وإقلالنا سعداءَ مغتبطين.

---

(١) الدجنّة: الظلمة السوداء.

(٢) نضا الثوب: خلعه.

لم يبقَ بيني وبين الحصولِ على تلكَ الزيادةِ التي وعدوني بها، إلّا ثلاثةُ أشهرٍ سأسافرُ من بعدِهَا إليكِ في «ولفاخ»، لأخطُبَكِ إلى أبيكِ، وأضعَ يدي في يدِكِ، فلا يبقى للشقاءِ بعدَ اليوم إلينا من سبيلٌ.



٤٦ ـ من ماجدولين إلى استيفن

سافرتْ سوزان إلى «كوبلانس»، وتَرَكَتْني حزينةً آسفةً على فراقِها، ولكنّني سألحقُ بها عمّا قليلٍ، فقد وَعَدها أبي أنْ نسافرَ إليها بعد شهرٍ واحدٍ، لنقضيَ عندَها بقيّةَ أيّام الشتاءِ، وسأكتبُ إليكَ عند وصولي، لتكونَ على بيّنةٍ من ذلكَ، فلعلّكَ تجدُ السبيلَ إلى موافاتي هناكَ، فأراكَ ولو على البعدِ؛ والسلام.



٤٧ ـ من ماجدولين إلى استيفن

وصلنا منذُ ثلاثةِ أيّامٍ أنا وأبي إلى «كوبلانس»، ونزلنا ضيفينِ في منزلِ سوزان، وأنا مغتبطةٌ بلقائِهَا، وبالسعادةِ التي أجدُهَا في منزلها اغتباطًا عظيمًا، وقد أخْبَرَتْني اليومَ أنّها ابتاعتْ لها مقصورةً في ملعبِ «الأوبرا»، نذهبُ إليها مساءَ كلِّ أحدٍ؛ فها نحنُ أولاءِ قد وجدنا المكانَ الذي يمكننا أن نتراءَى فيه أو نتلاقى إن استطعنا.

فتعالَ إليَّ، يا استيفن، ولا يَحُلْ بينَك وبينَ ذلكَ أنّكَ سترى مرّةً ثانيةً وَجْهَ ذلكَ البلدِ الذي أُبعِدْتَ عنه، واجتَوَيْتَه[1] وخرجْتَ منه ناقمًا عليه.. اغتفرْ كلَّ شيءٍ من أجلي.



٤٨ ـ الحياة الجديدة

سافرتْ ماجدولين مع أبيها إلى «كوبلانس»، ونزلتْ في ضيافةِ صديقَتِها سوزان، فأدهَشَها منظرُ القصرِ، وأبهاؤه، وحجراتُه، وما يشتملُ عليه من أثاثٍ ورياشٍ، وما يتلألأ في جوانبِهِ من زخرفٍ وآنية؛ وأعجبَهَا منظرُ الوصائفِ في إقبالهنّ، وإدبارهنّ، وما يتراءينَ فيهِ من ألوانِ الثيابِ، وأنواعِ الأزياءِ، حتّى خُيِّلَ إليها وهي واقفةٌ أمامَ المرآةِ تنظرُ إلى نفسِهَا، وإلى موقفهنّ

(١) اجتوى: كره.

بجانبِهَا، أنّهنّ فوقَ أن يخدِمْنَهَا أو يسعينَ بين يديها، بل تَمَثَّلَ لها أنّهنَّ يسخرنَ في أعماقِ نفوسهنَّ بمنظرِهَا، ومنظرِ ثيابها القرويّةِ القصيرةِ المخطّطةِ التي خاطَتْهَا بيدِهَا.

وكثيرًا ما كانتْ تحدّثُها نفسُهَا، كلّما بَدَتْ لها حاجةٌ من الحواجِ، أنْ تقومَ إلى قضائِهَا بنفسِهَا، خجلًا منهنّ وحياءً، والله يعلمُ كَمْ نالها في مبدإ أمرِهَا من حيرةٍ وارتباكٍ، كلّما جلستْ إلى طعامٍ، أو شرابٍ، أو شهدتْ مجمعًا، أو حضرَتْ ملعبًا؛ وكم كابَدَتْ[1] من عناءٍ في صياغةِ نفسِهَا على أوضاعِ تلكَ الحياةِ الجديدةِ التي انتقلتْ إليها، حتّى أسلسَتْ، واستقادت.

وكانتْ سوزان قد أعدّتْ لها أنواعَ الأقمشةِ من حريرٍ، ومخملٍ، وخزٍّ، وصوفٍ، وفروٍ، فخاطَتْ لها، خيّاطَةٌ ماهرةٌ، ثوبًا للرقصِ، وآخرَ للملعَب وآخَر للمائدةِ وقميصًا للبيتِ، وغلائلَ للنومِ؛ فرقصَتْ، وغنّتْ، وأنِسَتْ بمنظرِ الراقصاتِ والمغنّياتِ، وتحدّثتْ بأحاديثِ فتياتِ «كوبلانس»؛ وذهبتْ مذاهبهنَّ في آرائهنَّ وتصوّراتهنَّ، ولذّتْ لها هذهِ الحياةُ الجديدةُ لذّةً عظمى، وملأتْ ما بين جوانِحَها، حتّى غلبتها على أمرِها، فتضاءَل في نظرِهَا كلُّ شيءٍ في ماضيها، إلّا حبُّها لاستيفن.



٤٩ ـ الفتنة

دخلتْ ماجدولين على سوزان ذاتَ ليلةٍ في غرفَتِهَا الخاصّةِ في القصرِ، وهيَ غرفةٌ بديعةٌ فاخرةٌ، قد كسيتْ أرضُهَا، وجدرَانِها بالقطيفةِ الحمراءِ المطرّزةِ، وأُسْبِلَتْ على نوافذها، وأبوابها ستائرُ حريريّةٌ بيضاءُ، تتراءَى في خلالها أسلاكُ الفضّةِ اللامعةُ، وتدورُ في أطرافِهَا ألوانُ الفصوصِ[2] المتلألئةِ، وانتثرتْ في جوانِبِهَا، وأركانِهَا المقاعدُ الثمينةُ، والمناضدُ الجميلةُ، وآنيةُ الفضّةِ والذهبِ، وأصصُ[3] الريحانِ والزهرِ، فرأتْ بين يديها صناديقَ صغيرةً من الفضّةِ، فقالتْ لها سوزان حين رأتها: لقدْ أرسلَ إليَّ خطيبي اليومَ هديّةَ الزواجِ، فهلْ تحبّين أنْ تريها؟

قالتْ: لا أَحَبُّ إليّ من ذلكَ، ففتحتْ سوزان الصناديقَ أمامَهَا واحدًا بعدَ آخرَ، فإذا عقودٌ، ودمالجُ، وأساورُ، وأقراطٌ مصوغةٌ أجملَ صياغةٍ وأبدعَها، مرصّعةٌ بأنفَسِ اللآلئِ، وأثمنِ الجواهِرِ، فدُهِشَتْ ماجدولين لمنظَرِها، وظلّتْ تقلّبها بينَ يديها ساعةً، ثمّ تناولتْ قِرْطًا صغيرًا من الماسِ، فوضَعَتْهُ في أذنيها، فاقترحَتْ عليها سوزان أن تتقلّدَ الحليةَ بأجمَعِها، لترى منظَرَهَا عليها.

---

(١) المكابدة: المعاناة.

(٢) الفصوص: ما يُركّب في الخواتم من حجارة كريمة.

(٣) الأصص: ج الأصيصة، وهي الإناء الذي تزرع فيه الرياحين.

ففعلَتْ ووقفَتْ بها أمامَ المرآة، وأقبلتْ بها وأدبرتْ. فقالت لها سوزان: ما أحوجَ جمالَك، يا ماجدولين، إلى مثلِ هذه الحليةِ، وما أحوجَ هذه الحليةِ إلى مثلِ هذا الجمالِ، وإنّي لا أتمنّى على اللهِ شيئًا، سوى أنْ أراكِ خطيبةَ رجلٍ من ذوي النعمةِ والثراءِ، يحبّكِ، ويستهيم بكِ، ويملأُ فضاءَ حياتِكِ هناءً ورغدًا. ثمّ أنشأتْ تصفُ لها قصرًا بديعًا ابتنَاهُ لها خطيبُهَا في إحدى ضواحي «كوبلانس»، وأعدَّ لها فيه من أسبابِ النعمةِ والرفاهيةِ، ما لا يُعِدُّ مثلَهُ أصحابُ التيجانِ لنسائِهِمْ وحظيّاتِهِم[1]، وختمتْ حديثها بقولها:

وفردريك، فوقَ ذلكَ، فتًى جميلٌ ساحرٌ، لا تَقَعُ العينُ على أبدعَ، ولا أظرفَ منه، وهو يحبّني حبًّا شديدًا، ولا أحسَبُ أنّ الذي أُضْمِرُ له من الحبّ أقلَّ ممّا يُضْمِرُ لي. فأطرقتْ ماجدولين هنيهةً، ولم تكنْ قد أفضَتْ إلى صديقَتِهَا حتّى الساعةِ بسرّ حبّها لاستيفن، ثمّ رفعتْ رأسها، وقالت: هل تكتمينَ سرّي، يا سوزان، إنْ أفْضَيْتُ به إليك؟ قالت: نعم، ومن يَكْتُمُهُ إن لم أكتُمْه؟

فقصّتْ عليها قصّتَها مع استيفن، وذكرتْ لها ذلكَ العهدَ الذي أخَذَهُ كلٌّ منهما على صاحِبِهِ أنْ يعيشَ له، وألّا يفرّقَ بينهما إلّا الموتُ، فقالت سوزان: إنّي أذكرُ أنّكِ كتبتِ لي عنهُ وكانَ حديثَ عهدٍ بالنزولِ بدارِكُمْ، إنّه غيرُ جميلٍ، ولا جذّابٍ، قالت: نَعَمْ هو كذلكَ، ولكنّني أحببتُ فيه أخلاقَه أكثرَ من كلِّ شيءٍ، وإنّ رجلًا يخاطرُ بنفسِه، من دونِ الناسِ جميعًا، في سبيلِ إنقاذِ غريقٍ لا يعرفُ من هو، حتّى أنقَذَه، وكادَ يهلكُ دونَ ذلكَ، لهو أشرفُ الرجالِ، وأنبلُهُمْ قصدًا، وأعلاهم همّةً، ولقد شَهِدْتِ أنتِ بنفسِكِ ذلكَ المنظرَ وكتبتِ لي عَنهُ، وعلمتِ منه أكثرَ ممّا أعلم. قالتْ: أهوَ الرجلُ؟ قالت: نعم؛ قالت: إنّي أذكرُ ذلكَ، ولقد أُعْجِبْتُ به في ذلكَ اليومِ إعجابًا عظيمًا، وهل هو غنيّ؟ قالت: لا، ولكنّه يسعى إلى الكفافِ من العيشِ، وسيناله، وحسبي منه أنّه يحبّني حبًّا لا يحبّه أحدٌ أحدًا، قالت: ما أقبحَ المهرَ، يا ماجدولين، إذا كانَ كلُّه حبًّا، إنّكِ إذًا تريدينَ أنْ تتبتّلي، وتستوحشي، وتهجري العالمَ كلّه بجمالِهِ ورونَقِهِ، إلى غرفَةٍ خاملةٍ في أحدِ المنازلِ المهجورةِ المنفردةِ، تقتلينَ فيها نفسَك همًّا، وكمدًا.

فصمتَتْ ماجدولين، ولم تستطِعْ أنْ تقولَ شيئًا، لا اقتناعًا برأيِ صديقَتِهَا، بلْ حَيَاءً منها وخجلًا، ثمّ افترقتا.



٥٠ ـ الملعب

جلست ماجدولين، وسوزان في مقصورةِ الأوبّرا، وجلسَ بجانبهما ألبرت ابنُ عمّة

---

(١) الحظية: السرية المكرمة عند سيّدها، من الاحتظاء: وهو النزول منزلة الكرامة.

ماجدولين، وأشميد ابن عمّ سوزان، وهما فتيانِ جميلانِ متأنّقانِ في مَلْبَسِهما، وحِلْيَتهما شأنُهما في حياتهما، شأنُ أمثالهما من الفتيانِ الأثرياءِ المستهترينَ الذين تنقسُم حياتُهم كلُّها إلى ساعتينِ اثنتين، واحدةٍ للضحكِ والسرورِ، والأخرى لتصبّي النساء، واستغوائِهِنّ؛ فينفقونَ على الأولى عقولَهُم، وعلى الثانية أموالَهُم، حتّى لا يبقى لَهُمْ من هذا ولا ذاكَ شيءٌ.

جلسا يقلّبانِ النظرَ في وجوهِ الجالسينَ في المقاصيرِ المماثلةِ لهما فإنْ وَجَدَا وجهًا جميلًا، تغامزَا، وتهامسا، أو قبيحًا ضَحِكا، وسخرا، ثمّ علا صوتُهُما بالضحكِ والسخريةِ؛ فلم تلبثْ سوزان أن اشتركتْ معهما. ثمّ تبعَتْهَا بعد قليلٍ ماجدولين، ولم يكنْ ذلكَ من شأنِهَا، أو ممّا يلتئِمُ مع مزاجِهَا، ولكنّها فعلَتْهُ مجاملةً لهما. ثمّ لم تلبثْ أن طَرِبَتْ لهذا الأسلوبِ من المجونِ، وأنِسَتْ به، فأخذتْ فيه أخذَهُمَا، وبينما هي تقلّبُ نظرَها في المقاصيرِ المجاورةِ لمقصورَتِهَا، إذ رأتْ امرأةً في سنّ الشيخوخةِ، تلبسُ زينةَ الفتياتِ، وحليتَهُنّ، فلفتَتْ نظرَ أصدقائِها إلى ذلكَ، فضحكوا لِفِطْنَتِهَا ضحكًا عاليًا رنّانًا، لا لأنّ هناكَ فطنةً تستحقُّ الإعجابَ، والإطراءَ، بل لأنّهم أرادوا أن يجازُوها مجاملةً بمجاملةٍ، ومصانعةً بمصانعةٍ، فخدَعَها هذا الإطراءُ، فاسترسلتْ في نكاتِهَا ومجونِهَا، حتّى كادتْ تستأثرُ بالحديثِ وحدَها، من دونهم جميعًا.

وإنّهم لكذلكَ، إذْ هتفَ ألبرت وأشار إلى رجلٍ جالسٍ على كرسيٍّ في مؤخّرةِ الصفوفِ وقال: هل رأيتُمْ أعجَب من هذا القردِ اللابسِ ثوبَ الإنسان؟ فقال أشميد: أذكرُ أنّي رأيتُ هذا الوحشَ المستأنسَ مرّةً قبلَ اليوم، ولا أدري أينَ رأيته؟ وقالت سوزان: أظنّه قدمَ الملعبَ الساعةَ، فإنّي لم أرَهُ قبلَ هذه اللحظةِ، وما أحسَبُه إلّا الشيطانَ الذي كانوا يخيفونَنا به صغارًا، ولا نراهُ، فقال أشميد: إنّ حلّته وإنْ كانتْ ثمينةً فاخرةً، فهي من الحللِ التاريخيّة التي لا يلبسُهَا إلّا الممثلونَ. فأجابَ ألبرت: لعلّه سَرَقَها من قبورِ الفراعِنَةِ، أو دورِ الآثار، فإنّ من يملكُ مثل هذه الحلّةِ الثمينةِ، لا يعجزُ عن أن يشتريَ مشطًا يمشّطُ به شعرَه المشعّثَ[1]، فقالت سوزان: لا عارَ على الرجلِ أن يكونَ قبيحًا، ولكنّ القبيحَ أن يلبسَ ثيابًا جميلةً، تختلفُ صورَتُها عن صورتِهِ، فتلفتُ الأنظارَ إلى قبحِهِ، ودَمَامتِه.

ثمّ التفتوا جميعًا، فرأوا ماجدولين قد تراجعتْ إلى الوراءِ وهي ترتعدُ، وتضطربُ، وقد استحالتْ حمرةُ وجهِهَا إلى صفرةٍ كصفرةِ الموتِ، فسألوها ما بالُهَا؟ فزعَمَتْ أنّها مقرورةٌ[2]، وأنّها تشعرُ برعدةٍ في جسمِهَا، ودوارٍ في رأسها؛ ولم تكنْ صادقةً فيما تقولُ، ولا يمكنُ أن تَصْدُقَهُمْ فيما تقولُ، لأنّ الرجلَ الذي يسخرونَ منه، ويتناوَلُونَه منذُ حينٍ بألسنتِهِمْ، ويذهبونَ كلَّ مذهبٍ في تحميقِه وتجهيلِهِ، والسخريةِ به، إنما هو خطيبُها الذي تحبّهُ، وتستهيمُ به، فأمسكوا عن الضحكِ هنيهةً، وأقبلوا عليها يعلّلونها، حتّى هدأَ ما بها، فانصرفوا إلى الروايةِ

---

(١) المشعّث: المتفرّق.

(٢) مقرورة: مصابة بالبرد.

يشاهدونَ فُصُولَهَا، وعادتْ هي إلى مجلسِهَا الأوّلِ، وظلّتْ تخالسُ[١] استيفن النظرةَ بعد الأخرى، حتّى انتبهَ لها، فحيّاها بابتسامةٍ خفيفةٍ لم يشعرْ بها أحدٌ غيرُها، ثمّ ما لبثتِ الروايةُ أنِ انتهتْ، فنهضوا للانصراف، وألقتْ ماجدولينُ على استيفنْ نظرةً ضمّنَتْهَا معنى شكرِهَا إيّاه على اهتمامِهِ بها، وحضورِه لرؤيتِها، ثمّ انصرفوا.

❁ ❁ ❁

٥١ ـ الرجل والمرأة

ينظرُ الرجلُ إلى المرأةِ في حبّه إيّاها، بعينٍ غيرِ العينِ التي تنظرُ بها إليهِ في حبّها إيّاه، فهو يَرَاها أداتَهُ الخاصّةَ به، التي لا حقَّ لإنسانٍ غيرِه في التمتّع بها بوجهٍ من الوجوه، ويرى أنّ حقًّا عليها أنْ تختصّه بجميعِ مزاياها، وصِفَاتها، فلا تقعُ على حُسْنِهَا عينٌ غيرُ عينه، ولا تسمعُ رنّةَ صوتِهَا، أذنٌ غيرُ أذنِه، ولا يشعرُ بروعةِ جمالها، قلبٌ غيرُ قلبه؛ فيغارُ عليها من النظرِ، واللفتةِ، وكلمةِ الاستحسانِ، وبسمةِ الإعجابِ. ويُخَيَّلُ إليه أنّ الناظِرينَ إليها، والمحتفلينَ بها، والمتحدّثينَ بأحاديثِ حسنِهَا وجمالِهَا، إنّما همْ قومٌ جناةٌ متلصّصونَ، قد مدّوا أيديَهُمْ إلى خزانةِ ذخائرِه التي يملِكُها وحدَهُ من دونِ الناسِ جميعًا، فاختلسوا جوهرةً لا حقَّ لَهُمْ فيها، وفازوا بها من دونه؛ فَيُلِمّ بنفسِهِ من الألمِ والامتعاض، ما يُلِمُّ بنفسِ الشحيحِ المختبلِ[٢]، إذا رأى السابلة[٣] تفرّ من حرّ الهاجرةِ إلى جدرانِ دارِه، لتستذريَ بظلالِها ساعةً من الزمان، وإنْ لم يضرَّهُ ذلك شيئًا.

وقد يكونُ من أشهى الأشياءِ إلى نفسه، وأعجبِهَا إليه، أن يرى الناسَ قد أجمعوا رأيهم على استقبَاحِهَا، والزرايةِ عليها، وَوَصْفِها بأقبحِ الصفاتِ وأشنعِهَا، وأنّها قد أصبحتْ في نظرِهِمْ ضحكةَ الضاحكين، وآيةَ السابلين، حتّى يكونَ جمالُهَا سرًا من الأسرارِ الخفيّةِ، لا تراهُ عينٌ غيرُ عينِهِ، ولا يبلغُ صميمَهُ نفسٌ غيرُ نفسه.

أمّا المرأةُ، فتنظرُ إلى الرجلِ الذي تُحبُّه، نظرَهَا إلى حِلْيَتِهَا التي تلبسُهَا، وتعتزُّ بها، وتُدِلُّ[٤] بمكانها على أترابِهَا، ونظائِرِهَا، فلا أوْقَعَ في نفسها، ولا أشهى إلى قلبِهَا من أن تسمعَ الرجالَ يقولونَ عنه إنّه رجلٌ عظيمٌ، والنساءُ يَقُلْنَ عنه إنّه فتًى جميلٌ، فهي تحبّهُ لخيلائِهَا، أكثرَ مما تحبّهُ للذّاتِهَا وشهواتِهَا، وترى في إعجابِ المعجبينَ به، وافتنَانِ المفتتناتِ بحسنِهِ وجمالِهِ، اعترافًا منهُمْ بحسنِ حظّها، وسطوعِ نجمِهَا، واكتمالِ أسبابِ سعادَتِهَا وهنائِهَا، وهذا كلّ ما يعنيها من شؤونِ حياتها.

لذلكَ شعرتْ ماجدولين بلوعةِ الحزنِ في أعماقِ قلبِهَا، حينما عرفَتْ أنّ حِليَتَها التي كانتْ

---

(١) خالس: سارق. (٢) المختبل: الفاقد العقل، المجنون.
(٣) السابلة: [illegible] المتروكة وحدها في المرعى. (٤) أدَلَّ عليه: وثق بمحبّته.

ترجو أن تفاخرَ بها أترابَها غدًا، وتكاثرهنّ بحسنِهَا وجمالِها، قد بَذَأَتها[1] العيونُ، واقتحَمَتْهَا الأنظارُ، وسخرَ منها الرجالُ والنساءُ جميعًا، وظلّتْ تفكّرُ في ذلكَ ساعةً، كابدتْ فيها من آلامِ النفسِ ولواعِجِهَا ما تكابدُ نَفْسُ المحتضرِ في ساعتِهِ الأخيرةِ. ثمّ لم تلبثْ أنْ عادتْ إلى نفسِهَا، وظلّتْ تقول: إنّهم لا يعرفونَ من أمرِهِ، ولا أمرِ نفسِه شيئًا، ولو أنّهم علموا من شأنِه بعضَ الذي أعلمُ، وعرفوا ما تنطوي عليه جوانحُهُ من الفضائلِ والمزايا، لأعظَمُوا منه ما استصغَرُوا، وأجلّوا ما احتقَرُوا، ولأنزلُوهُ من نفوسهم المنزلةَ التي يستحقُّها فَضْلُهُ وكَرَمُهُ.

وهنا ذكرتْ آمالَهُ وأحلامَهُ، وبؤسَهُ وشقاءَه، وما يكابدُه في حياتِه من شدّةٍ وبلاءٍ في سبيلِ عيشِه مرّةً، وحبّه أخرى، فبكتْ، رحمةً به، وإشفاقًا عليه.

وهكذا أخذَ حبُّهَا يستحيلُ إلى رحمةٍ وشفقةٍ، والحبُّ إذا استحالَ إلى هذينِ، فقد آذنَ نجمُهُ بالأفولِ.

❀ ❀ ❀

٥٢ ـ من استيفن إلى ماجدولين

رأيتكِ يا ماجدولين بعدَ افتراقنا عامًا كاملًا، وكانتْ ساعةً من أسعدِ الساعاتِ وأهنئِها، غفرتُ من أجلها جلَّ سيئاتِهِ عندي، بل نسيتُ عندَها أنّني ذُقْتُ طَعْمَ الشقاءِ ساعةً واحدةً في يوم من أيّامِ حياتي، وظلَلْتُ أقولُ في نفسي: هذا شأني، ولم أرَهَا إلّا لحظةً واحدةً على البُعْدِ، فكيفَ بي إذا أصبَحَتْ كلُّ ساعاتِ حياتي، ساعاتِ لقاءٍ واجتماعٍ؟ إنّي أذكرُ ذلكَ، يا ماجدولين، فيُخَيَّلُ إليّ أنّ قلبي أضعفُ من أن يحملَ هذه السعادةَ كلّها، وأنّها يومَ توافيني، ستذهَبُ إمّا بعقلي، أو بحياتي.

عفوًا، يا صديقَتي، فَقَدْ أذنبتُ إليكِ بيني وبينَ نفسي ذنبًا، لا بدَّ لي من أن أعترفَ لكِ به، حتّى لا أكونَ قد أذنبتُ إليكِ ذنبًا آخرَ بكتمانه، وإخفَائه.

تركتُ (جوتنج)، وقلبي يخفقُ رُعْبًا، وخوفًا، أنْ تكونَ الحياةُ الجديدةُ التي انتقلتِ إليها، قد نالتْ من نفسِكِ منالها من نفوسِ الفتياتِ الضعيفاتِ اللواتي تتلوّنُ قلوبُهُنّ، وأهواؤُهنّ بلونِ الهواءِ الذي يستنشِقْنَه، والجوِّ الذي يعشنَ فيه، فلمّا رأيتكِ، ورأيتُ تلك السحابةَ السوداءَ من الحزنِ التي كانتْ تغشى وجهَكِ وتظلّله، ومنظرَ عينيكِ الساجيتين[2] المنكسرتينِ المملوءتينِ كآبةً، وحزنًا، علمتُ أنّي مخطئٌ في هواجِسي وظنوني، وأنّ المكانَ الذي شغلتُهُ من قلبكِ، لا يزالُ آهلًا بي كعهدِي به، وأنّ تلكَ الريبةَ التي عَرَضَتْ لنفسي فيكِ، إنّما هي وساوسُ الحبّ، وأوهامُه.

غيرَ أنَّ لي عندك أمنيةً واحدةً، وأحبّ أن تأذَني لي بذكرِهَا وأنْ تنوّليني إيّاها.

---

(١) بذأ: احتقر.

(٢) الساجي: الساكن، الهادئ.

رأيتُكِ في الملعَبِ تلبسين ثيابًا رقيقةً ناعمةً، تشفُّ عن ذراعَيكِ، وكتفَيكِ ونحرِك، وتكادُ تنمُّ عن صدرِكِ وثَدْيَيكِ، ورأيتُ الأنظارَ حائمةً حولَكِ، تكادُ تنتهبُك انتهابًا، فاشتدّ ذلكَ عليَّ كثيرًا، وأَلَمَّ بنفسي من الغيظِ والألمِ، ما اللهُ عالمٌ به، وما أحسبُ أنّكِ كنتِ راضيةً عن نفسِكِ في هذا المظهرِ الذي ظهرتِ به بينَ الناس، ولكنّك خضَعْتِ فيه لرأيِ النساءِ، ورأيهنّ في هذا الشأنِ، أَخْيَبُ الآراءِ، وأطيَشُها، فرجائي عندَكِ أن تنزعي عنكِ هذه الشفوفَ المهلهلةَ، وأن تعودي إلى ثيابِكِ القرويّةِ الأولى، صَوْنًا لجسمِكِ من عَبَثِ الأنظارِ وفضولِهَا، فليسَ يكفيني منكِ أنْ تهبيني قلبَكِ، وتؤثريني بمحبّتِكِ، بلْ لا بُدّ لكِ من أن تذودِي عنكِ قلوبَ الرجالِ، وأفئدَتَهُمْ، فلا تجعلي لها سبيلًا إلى الافتِتَانِ بكِ، أو الاهتمامِ بشأنِك، لا بالبشاشةِ والوداعةِ، ولا بالتزيّنِ والتحلّي، ولا بالتَجمُّلِ والتأنّقِ.

واعلمي أنّ المرأةَ لا تُخْلِصُ للرجلِ الذي تحبُّه الإخلاصَ كلَّه، حتّى تؤثِرَه بجميعِ مزاياها وصفَاتها، فلا تحفلُ برأيِ أحدٍ فيها غيرِ رأيِهِ، ولا تنزلُ منزلةَ الرضَا في قلبِ غيرِ قلبِهِ، ولا تأذنُ لكائنٍ مَنْ كانَ أنْ يقولَ لها في وجهِهَا، أو بينَهُ وبين نفسِه، أو في رؤيَاهُ وأحلامِهِ، إنّها جميلةٌ، أو فاتنةٌ، أو ما أظرَفَها وأبدَعَها! حتّى توافِيَهُ يومَ تُوافِيهِ طاهرةً نقيّةً كاللؤلؤةِ المكنونَةِ التي يلتقِطُهَا ملتقِطُهَا من صَدَفَتِها.

تحيتي إليكِ، وإلى السيّدةِ سوزان؛ وسأذهبُ مساءَ كلّ أحدٍ إلى الملعبِ، لأراكِ، وألتمسَ السبيلَ إلى لقائك.



٥٣ ـ الدسيسة

دَخَلَتْ سوزان على ماجدولين في غرفتِهَا، فرأَتْهَا جالسةً جلسةَ الحزينِ المكتئبِ، ورأتْ ذلكَ الكتابَ في يدِهَا، فاختطَفَتْهُ منها قبلَ أن تتمكّنَ من إخفائِه، فقرأَتْهُ، ثمّ ابتسمت وقالت لها: لم يَبْقَ على خطيبِكِ هذا، يا ماجدولين، سوى أنْ يأمرَكِ بأنْ تشوّهي وجهَكِ، أو تفقَئي إحدى عينَيكِ، أو تجدَعِي أنفَكِ، أو تهشّمي مقدّمَ أسنانِكِ، حتّى تبذأَكِ[1] العيونُ، وتقتَحِمَكِ الأنظارُ، وتَقْشَعرَّ لرؤيَتِكِ الأبدانُ، فلا يَجْرُؤ أحدٌ على أن يقولَ لكِ بلسانِه، أو بينَه وبينَ نفسِهِ، إنّكِ جميلةٌ وفاتنةٌ، وأن تحملي بيدِكِ قيثارةً رنّانةً تطوفينَ بها أنحاءَ البلاد كما كان يفعلُ شعراءُ اليونانِ والرومان في عصورهم الأولى، وتتغنّين عليهما بمدحِهِ، والإشادةِ به، وتنشدينَ أناشيدَ الثناءِ على حسنِهِ وجمالِهِ.

فما أَقَلَّ عَقْلَهُ، وأقصَرَ نَظَرَهُ، وأجهَلَهُ بالحياةِ وشؤونِها، إنّي لأحسَبُه قد أعدَّ لكِ في بيتِهِ منذُ

(١) بذأ: احتقر.

الساعةِ قفصًا من حديدٍ، يستقبلُكِ به يومَ تزفّينَ إليه، ليسجنَكِ فيه، ثمّ يقفُ على بابكِ حارسًا يقظًا، يصونكِ من عبثِ العيونِ، وفضولِ الأنظارِ، فلا ترينَ إلّا وجهَهُ، ولا تسمعينَ إلّا صوتَهُ، ولا تشعرين بوجودِ أحدٍ في العالمِ سواه.

فقالت ماجدولين: إنّكِ تتّهمينَهُ، يا سيّدتي، بما ليسَ فيه، فهو من أحسنِ الناس أدبًا، وأشرفِهِمْ نفسًا، وأطيَبِهِمْ قلبًا، ولكنّه محبٌّ، وكلُّ محبٍّ غيورٌ. قالت: أعاذني اللهُ، وإيّاكِ من حبٍّ يختلسُ الحياةَ اختلاسًا، ويأتي عليها بأسرعَ من ضربةِ السيفِ، وكرّةِ الطرفِ؛ واللهِ، لو جاءَ في خطبتي مَلَكٌ من ملائكةِ السماءِ يحملُ على رأسِه تاجَ الملأ الأعلى، ويمهرني بالجنّةِ التي أعدّهَا اللهُ للمتّقينَ، وما فيها من حُورٍ ووُلْدَانٍ، ورَوْحٍ وريحانٍ، ويعدُني بالخلودِ الدائمِ، والنعيمِ الذي لا يفنى على أن يضعَني في قفصٍ مثل هذا القفصِ الذي أعدَّهُ لكِ هذا الخطيبُ المأفونَ[1]، لآثَرْتُ موتَ الفجأةِ، والتغلغلَ في أعماقِ السجونِ، والفرارَ إلى أدْيِرَةِ الصحاري المنقطعةِ، على الرضا به، والنزولِ على شَرْطِه.

ثمّ نهضَتْ قائمةً، وقالت: محالٌ أنْ أخاطِرَ بكِ، وبمستقبلكِ، يا ماجدولين، وأنْ أتركَكِ فريسةً في يدِ هذا الوحشِ المفترسِ، ينغّصُ عليكِ عيشَكِ، ويكدّرُ صَفْوَ حياتِكِ، ويقطفُ زهرةَ شبابِكِ الغضّةَ قبلَ أوانِها، ثمّ حَيَّتْها، وانصرفَتْ إلى مخدَعِها.

فقضتْ ماجدولين بعدَ انصرافِهَا ليلةً ليلاءَ، لا تستريحُ فيها من الضجعةِ[2] إلّا إلى القعدةِ، ولا من القعدَةِ إلا إلى القَومَةِ، تتلمسُ بارقةَ الصوابِ في هذه الدُجُنَّةِ[3] الحالكة، فلا تهتدي إليه، وتقلّبُ أمرَها ظهرًا لبطنٍ، فلا يزيدُها التقليبُ إلّا جهلًا، حتّى غَلَبَتْهَا السِنَةُ[4] على عينيها، فنامت.



٥٤ ـ من أوجين إلى استيفن

صدرَ أمرُ القيادةِ العليا للتهيُّؤِ للسفرِ بعد بضعةِ أيّام إلى جهةٍ لا نعرفُهَا، ويقولُ ضبّاطُنا إنَّ هناكَ ستكونُ الواقعةُ الكبرى التي يفصلُ فيها في مستقبَلِ الحربِ، ولا أعلمُ ماذا يُعِدُّهُ القضاءُ لي في ذلكَ اليوم. فإنْ قَدّرَ لي اللهُ النجاةَ فسأكتبُ إليكَ، وإنْ كانتِ الأخرى، فستقرأُ اسمي بين أسماءِ القتلى في جريدةِ الحربِ، ولا يُحْزِنْكَ في ذلكَ اليومِ مصيري، فهو مصيرُ كلِّ رجلٍ شريف.

لي إليكَ حاجةٌ، يا استيفن، أرجو ألا تَضِنَّ عليّ بها:

---

(١) المأفون: الضعيف الرأي.
(٢) الضجعة: الرقدة.
(٣) الدجنّة: الظلمة السوداء.
(٤) السِنة: النعاس.

قد بَلِيَ سرجي، ووَهَتْ[١] علائِقُه، ولم يبقَ معي من المالِ بعد ما أنفقتُ عطائي كلَّه في هذا الشهرِ بين اللعبِ، والشرابِ، ما أبتاعُ به سرجًا غيره، فابْعَثْ إليّ بعشرينَ فرنكًا قبلَ مرورِ عشرةِ أيّام، فإنْ فاتَكَ أن ترسِلَ إليّ في ذلكَ الوقتِ، فلا ترسلْ إليّ شيئًا فإنّه لا يصلني. وتحيّتي إليكَ، وإلى السيّدة ماجدولين.

❀ ❀ ❀

٥٥ ـ العرس

استطاعَ استيفن بعد سفرِ صديقِهِ إدوار أنْ يستفضِلَ جزءًا من مرتّبِهِ الشهريّ، فاجتمعَ له بعدَ بضعةِ أشهرٍ خمسونَ فرنكًا، استأجرَ بسبعةٍ منها الحلّةَ التي ذهبَ بها إلى ملعبِ الأوبرا لرؤيةِ ماجدولين، وابتاعَ بخمسةٍ تذكرةَ الملعبِ، غيرَ ما أنفقَ على طعامِهِ، وشرابِه، وسفرِه، وبقيَ معه بعدَ ذلكَ اثنانِ وعشرونَ فرنكًا. فلمّا عادَ إلى جوتنج، لبثَ بضعةَ أيّام ينتظرُ كتابًا من ماجدولين ردًّا على كتابِهِ الأوّل، فلم يأتِهِ، فَسَاءَ ظنُّهُ، ووقَعَ في نفسِه أنّه قَدْ أغْضَبَهَا، وآسَفَها فيما كتبَ إليها، فاشتدّ حزنُهُ، وغمُّهُ، وكتبَ لها رسالةً أخرى، يعتذرُ إليها فيها عمّا وردَ في رسالته الأولى، فكتبتْ إليهِ أنّها كانتْ عاتبةً عليهِ في سوءِ ظنّه بها، واشتدادِه في مؤاخَذَتِها، وأنّها قد قبلتْ عذرَه، وسألتهُ ألّا ينقطعَ عن زيارةِ الملعبِ، لتراهُ، فعزمَ على أنْ يسافِرَ يومَ الأحدِ، ليراها ويلتمسَ السبيلَ إلى مقابلتِهَا بكلِّ وسيلةٍ، ليجدّدَ لها اعتذارَه بنفسِه، ويشكرَ لها صَفْحَها عنهُ، ورِضَاها.

فبينما هو جالسٌ في غرفتِهِ صباحَ اليومِ الذي عَزَمَ فيه على السفرِ، إذْ جاءَه كتابُ أخيهِ، فحزنَ عندَ قراءَتِهِ حزنًا شديدًا، وذكرَ أنّه لا يملكُ من متاعِ الدنيا غيرَ هذه القطعِ القليلةِ، وأنّه في حاجةٍ إليها، لينفِقَهَا على زيارةِ ماجدولين، فلبثَ حائرًا لا يدري ماذا يصنَعُ، ثمّ غلبَتْهُ عاطفةُ الحبّ على كلِّ عاطفةٍ سواها؛ فقامَ ليهيّئَ نفسَه للسفرِ، وابتاعَ نَعْلًا جديدةً، لأنّ نعلَهُ القديمةَ كانتْ قد بليتْ، وبلغتْ آخرَ درجاتِ الاحتمال، فعجزَ عن استئجارِ الحلّةِ التي استأجَرَها في المرّةِ الأولى، فلم يجد بدًّا من أنْ يستصلِحَ حلّتَه التي يلبَسُها، فرتَقَ فُتُوقَهَا، وصَبَغَ بالمدادِ الأسودِ ما ابيضَّ من خيوطِهَا، ثمّ ركبَ عجلةً وسافرَ إلى «كوبلانس» في الساعة الأولى من الليلِ، فأكل في بعضِ المطاعمِ الصغيرة.

ثمّ ذهبَ إلى الملعبِ، فلمْ يرَ ماجدولينَ في مقصورَتِها، فلمْ يقلَقْ لذلكَ كثيرًا وقال: لعلَّ لها شأنًا شغلَهَا عن التبكيرِ، وهي آتيةٌ ما من ذلكَ بدٌّ. وأقبلَ على المسرحِ يتلهّى بالنظرِ إلى فُصُوله، فرأى بين القطعِ الممثّلةِ مشهدَ رجلٍ من أربابِ الثراءِ، والنعمةِ، قد استهامَ بحبّ امرأةٍ، واستهامَتْ به، ثمّ نزلتْ به نكبةٌ من النكباتِ الماليّة، فتنكّرَتْ له، وبرمَتْ به[٢]،

---

(١) وهت: ضعفت. (٢) برم به: تضايق.

وعزمتْ على مقاطَعَتِهِ، والرحيلِ عنه، فجثا الرجلُ بين يديها يتسعطِفُهَا، ويسألُها ألّا تفعلَ، فأبتْ، وصارَحَتْهُ بالسببِ الذي يدعوها إلى مقاطَعَتِه، وقالتْ له فيما قالت:

«إنّ المرأةَ لا تحبُّ الرجلَ قطّ، بلْ تحبُّ فيه نفسَها، فإنْ كانَ من أربابِ المالِ، أحبّتْ فيه زينَتَهَا، ولهوَهَا، أو من أربابِ الجمالِ، أحبّتْ فيهِ لذّتَها وشهوَتَها، فإن لم يكن أحدَ الاثنينِ، فهي لا تحبُّ إلّا هذين». فاشمأزّ استيفن عندَ سماعِ هذه الكلمةِ، وقال في نفسه: إنّهم يمثّلونَ أخلاقَ البغايا الفاسقاتِ، ويزعمونَ أنّهم يمثّلونَ أخلاقَ النساءِ عامّةً، ها هي ذي ماجدولين تكادُ تعبُدني حبًّا، وما أنا من أربابِ الجمالِ، فتحبّ فيّ شهوَتَها، ولا من أربابِ المالِ، فتحبَّ فيّ زينَتَها، ولقد أرادَ اللهُ بها خيرًا إذْ كفاها مؤونةَ سماعِ هذه الكلماتِ المنفّرَةِ، ولو سَمِعَتْهَا، لآلَمَتْهَا ونالتْ من نفسِهَا منالًا عظيمًا.

ثمّ انتظرَ بعد ذلكَ ساعةً فلم يبقَ له أملٌ في مجيئِها، وعَلِمَ أنّ هناكَ شأنًا عظيمًا عَرَضَ عليها، فَشَغَلها عن الحضورِ، فاشتدَّ عليه الأمرُ كثيرًا، ورأى ألّا بُدّ له من الوقوفِ على شأنِها قبلَ العودةِ إلى قريته، وخشيَ أنْ تكونَ مريضةً. فخرجَ من الملعبِ، ومشى في طريقِ قصر سوزان، وهو لا يعلمُ كيفَ يلتمسُ السبيلَ إلى الوصولِ إليها، حتّى داناه، فرأى أنوارًا كثيرة تتلألأُ في أبهائِهِ، وحجراتِهِ، وتتدفّقُ من نوافِذِه، وكواه[1]، وسمعَ ألحانًا مختلفةً تتردّدُ في أنحائِهِ، ورأى الخَدَم رائحينَ غادينَ في صحونِه، وأفنيَتِه، يحملونَ على أيديهم آنيةَ الشرابِ، وصحفَ الطعامِ، فعلمَ أنّها وليمةٌ عامّةٌ، ولكنّه لم يدرِ ما المرادُ بها!

فدنا من البابِ، فرأى عجلاتٍ كثيرةٍ مصطفّةً أمامَه، ورأى حوذيًا[2] متّكئًا على كرسيّ عَجَلتِه، فسأله: ما هذه الليلةُ الحافلةُ في هذا القصر؟ فصعّدَ الرجلُ نظرَه فيه، وصوّبَه، ثمّ قالَ له، وهو لا يفارقُ متّكأه: إنّه عرسُ السيّدة سوزان ابنةُ صاحبِ هذا القصرِ. فاطمأنّ، وهدأَ، وعلم بأنّ ما بصاحِبَتِه من بأسٍ، وعزم على الانصراف. ثمّ حدثَتْهُ نفسُه أنْ يحتالَ لرؤيتها، ولو على البعدِ لحظةً واحدةً قبل انصرافِه، فمشى إلى ظلّةٍ دانيةٍ من ظللِ القصرِ، فوقَف تحتَها يفكّر في الوسيلةِ التي يتذرّعُ بها إلى الدخولِ، فما لبثَ أنْ رأى عجلةً مقبلةً تحملُ بعضَ الكبراء، ورأى الخدمَ يهرعونَ إليها، فانتقلَ من مكانِه، واختلَطَ بهم كأنّه واحدٌ منهم، ولا تختلفُ هيئتُه عن ذلكَ إلّا قليلًا.

ثم نزلَ الزائر، فمشى بين يديه مع الماشينَ، حتّى اجتازَ فناءَ القصرِ، ووصلوا إلى قاعةِ الرقصِ، فدخلَ الرجلُ، ودخلَ معه الخدمُ، وبقيَ هو وحدَه على الباب يستشفُّ من ألواحِ زجاجِهِ ما وراءَها من المناظرِ، فرأى الراقصينَ والراقصاتِ يَسْبَحونَ في بحرٍ من الهناءِ والسرورِ، ويطيرونَ في أجواءٍ مختلفةٍ من اللذائذِ والمناعمِ، فظلّ يديرُ عينيه بينهُم، يفتّش عن

---

(١) الكوى: جمع كوّة وهي الطاقة والنافذة الصغيرة في الجدار.

(٢) الحوذي: سائق العربة.

ماجدولين، حتّى لمحها ترقُصُ مع رجلٍ، فتبيّنه فإذا هو صديقُه إدوار، فلمْ يأبَهْ لذلكَ كثيرًا، إلّا أنّ ما راعَهُ، وأزعَجَهُ، وكادَ يَطيرُ بِلُبِّهِ أنه رآها ترقُصُ في ثوبٍ رقيقٍ شفّافٍ، لا يكادُ يحجِبُ جارحةً من جوارِحهَا، وخُيِّلَ إليه أنّ صدرَهَا ملتصقٌ بصدرِ مُخاصِرِهَا، وأنّ رأسها ملقًى على كتِفه، وخدَّهَا تحتَ متناوَلِ لثماتِهِ، وأنّه يحتضِنُهَا أكثرَ ممّا يخصرُها، فأَنَّ أنينًا مؤلمًا، وقال في نفسه: ماذا فعلتْ بكِ الأيّام يا ماجدولين؟!

وحدّثَتْهُ نفسُه أنْ يقتحمَ البابَ، ويتغلغلَ بين الزائرينَ، حتّى يبلغَ مكانَها ويلقِيَ عليها نعرةَ[1] عتبٍ وتأنيبٍ، ثمّ يعودُ أدراجَه، ولكنّه استحيا لها ولنفسِه أنْ يراه الناسُ في هذه الأثوابِ الجافيةِ الغليظةِ، فتماسَكَ على مِ، وأنشأ يسرّي عن نفسه ويقول: هذا شأنُ جميعِ الراقصينَ والراقصاتِ، وهذه أثوابُهُم التي يلبسونَها، ومواقِفهم التي يقفِونها، برُّهُمْ وفاجِرُهُمْ، وتقيُّهُم وعاهِرُهُمْ، فلا ألومُها، ولا أعتبُ عليها، فَلْتَلْبَسْ ما تشاءُ من الثيابِ، ولترقُصْ مَعْ مَن تشاءُ من الرجال، فحسبي منها أنّي أنا الشخصُ الوحيد الذي يتيّمها، ويخلبها، ويملأُ فراغَ قلبَها من بين هؤلاءِ جميعًا.

ثمّ أعادَ النظرَ مرّةً أخرى، فرآها قد فَرَغَتْ من الرقصِ ومشتْ هي وإدوار إلى مقعدٍ قريبٍ من البابِ، فجلسا عليه، فلم يرَ في مجلسِهما بأسًا، ولا مسترابًا، فهدأ ثائِرُه، بل أعجَبَه ما رأى من عنايةِ صديقِهِ بها، وعطفِهِ عليها، وخُيِّلَ إليه أنّه ما رقَصَ معها، ولا احتفَلَ بها إلّا من أجلِه، وأنّهما ما اجتمَعَا على هذا المقعدِ في هذه الساعةِ إلا ليتحدّثا بشأنه، ويتذاكرا أيّامه وعهودَه، ثمّ ما لبثَ أن لمَحَ في أصبعِهَا خاتمًا فتبيّنه فإذا هو الخاتمُ الذي نَسَجَتْهُ من شعرِهِ، والذي لا تزالُ تحدّثُه عنه في رسائِلِها، كلّما كتبتْ إليه، فاغتبطَ بذلكَ اغتباطًا عظيمًا، ولم يبقَ في نفسِه من ذلكَ الخاطِرِ المؤلِم الذي مرّ بذهنِهِ منذُ ساعةٍ أثرٌ واحد.

وإنّه لكذلكَ إذ دُفِعَ البابُ بغتةً وخرجَ منه فتًى متأنّقٌ من الزائرينَ يهزّ في يدِهِ سوطًا مستطيلًا، فرآه واقفًا، فظَنّه بعضَ الخدمِ، فصرخَ في وجهِه وبلهجةِ الآمر أن يدعوَ له سائقَ عجلتِهِ، وسمّاه له، فارتبكَ قليلًا، ثمّ لم يَرَ بدًّا من الامتثالِ مخافةَ أن ينكشفَ من أمره ما كانَ خافيًا، فهرعَ إلى الباب الخارجيّ يهتفُ باسم غيرِ الاسمِ الذي سمعَه، وكانَ قد نسِيَه، فأدركَهُ الفتى، وقد طارَ الغضبُ في دماغِهِ، فضرَبَه بالسوطِ على وجهِهِ ضربةً أدمَتْه وأخذَ يسبُّه ويشتُمُه، فاحتملَ استيفن تلكَ الضربةَ صامتًا، ومشى في طريقِهِ لا يلوي على شيءٍ.

وما أبعدَ إلّا قليلًا، حتّى انحدرتْ من جفنِهِ دمعةٌ جرتْ على خدّه فأصابتْ موضِعَ الضربةِ منه فآلمتْهُ، فهتفَ صارخًا: ماذا لقيتُ في سبيلِكِ يا ماجدولين؟!

❋ ❋ ❋

---

(١) نعره: خالفه الرأي.

٥٦ ـ المريض

عادَ استيفن إلى «جوتنج»، فوجدَ كتابًا من قريبِهِ الذي كان قد أحسَنَ إليه بتلكَ القطعِ الذهبيّة يوم خروجِهِ من «كوبلانس» شريدًا طريدًا، يقولُ لهُ فيهِ إنّه مريضٌ مشرفٌ، وإنّه يحبُّ أنْ يراهُ بجانبِهِ في ساعتِهِ الأخيرةِ، فرثى له، وحزنَ عليهِ حزنًا شديدًا، ورأى ألّا بُدَّ من موافاةِ رغبتِهِ في الذهابِ إليه؛ فاستأذنَ المدرسةَ في بضعةِ أيّامٍ يقضيها بجانبِهِ، فلم تأذنْ له إلّا بثلاثةٍ، فسافرَ إليه، وكانَ يسكُنُ بيتًا في ضاحيةٍ من ضواحي «كوبلانس»، لا يرى فيه إلّا وَجه خادمِهِ وطبيبِهِ. وكانتْ زوجَتُه قد ماتَتْ منذُ عهدٍ قريبٍ، وليسَ له من الأقاربِ الأدنينَ غيرُ ابنِ عمّ له من قساةِ الأغنياءِ، وجُفَاتِهِم، لا يحبّه، ولا يحفلُ بشأنه.

فدخلَ عليه استيفن في ساعةٍ من ساعاتِ الليلِ، فرآه ساهرًا يئنُّ من الآلام والأوجاعِ، وقد نالَ منه الداءُ منالًا عظيمًا؛ فأصبحَ لا يستطيعُ النطقَ إلّا همهمةً وتجمجمًا[١]؛ فجلسَ بجانبه يتوجّعُ له، ويواسيه، حتّى استطاعَ الرجلُ بعد لأيٍ[٢] أنْ يقول له: لقد مرت بي بضعةُ أشهرٍ، وأنا طريحُ هذا الفراشِ لا أفارقُهُ لحظةً واحدةً، حتّى مللتُ وبرمتُ[٣]، وأصبحتُ أخشى غائلةَ الضجرِ أكثرَ ممّا أخشى غائلةَ المرضِ، فلا تفارِقْني بعدَ الآنِ، حتّى يَحْكُمَ اللهُ في أمري بما يشاء.

فلبثَ معه الثلاثةَ أيّامِ التي أجازوه بها، ثمّ عَزَمَ على العودةِ، فتوسّل إليه المريضُ بانكسارِ عينيهِ، وترَقْرُقِ الدمعِ فيهما، ألا يفارِقَه حتّى يقضيَ اللهُ في أمره بقضائِه، وكانَ قد ثَقُلَ، وأشرفَ، وأصبحَ على حالةٍ لا تُرْجى له مَعَها الحياة، فتذمّم[٤] استيفن أنْ يفارقَه على حالِهِ تلكَ، وكتبَ إلى المدرسةِ يستأذنُها في بضعةِ أيّامٍ أخرى يتخلّفُها، وأدلى إليها بعذرِه في ذلكَ، ولبثَ ينتظرُ جوابَها، فلم يأتِه، فاشتدّ به القلقُ. ثمّ جاءَ منها بعدَ حينٍ كتابٌ تقولُ له فيه إنّها لم ترَ بدًّا من الاستغناءِ عنه، والاستبدالِ منه، وأنّها قد أرسلتْ إليه ما بقيَ له عندَها من مرتّبه، فما أتى على آخرِ الكتابِ، حتّى صاحَ صيحةً كادتْ تنقطعُ لها أضالِعُهُ، وسقَطَ مغشيًّا عليه وهو يقولُ: «رحمَتُكَ اللّهُمَّ، فقدْ عجزتُ عن الاحتمالِ».



٥٧ ـ الموت

نامتِ العيونُ، وهدأتِ الجفونُ في مضاجِعهَا، وسكنتْ كلُّ ساريةٍ في الأرضِ، وكلُّ سابحةٍ في السماء؛ وظلّ استيفن وحدَه ساهرًا بجانبِ مريضِه المحتضر، يسمَع حشرجَةَ الموتِ في

---

(١) الجمجمة: ترداد الكلام في الصدر.
(٢) اللأي: الجهد.
(٣) برم: تضايق.
(٤) تذمّم: استحيا.

صدرِه ترنّ في هدوءِ الليلِ وسكونِه، فيُخَيَّلُ إليه أنّه واقفٌ في وسطِ فلاةٍ موحشةٍ تعزفُ جِنانُها[١] وتزمجرُ غيلانها[٢]، فامتلأتْ نفسُه رهبةً ووحشةً، وأنّ هناكَ معركةً قائمةً بين الروحِ والجسدِ، تأبى إلّا أنْ تفارِقَه، ويأبى إلّا أنْ يتشبّثَ بها، فيدركُهُ من التعبِ والنصبِ ما لا يحتملِ محتملٌ، حتّى عيَّ بأمرِها، فتساقَطَ خائرًا مستسلمًا لا تطرفُ له عينٌ، ولا ينبضُ له عِرْقٌ، فوضَع استيفن أذنَه على صدرِه فلمْ يسمعْ شيئًا؛ فعلم أنّ الأمرَ قد انقضَى، وأنّ الراقِصَ قد ألقَى قناعَهُ، والممثّلَ قد خلَعَ ثوبَ تمثيلِهِ، وأنّ عُنصُرَي الحياةِ قد افترقا. وعادَ كلٌّ منهما إلى أصلِه، فطارَ منهما ما طَارَ، ورسبَ ما رسبَ.

فجثا بجانبِ الميتِ يرثِيهِ، ويتوجّعُ له، ويبكي عليه مرّةً، وعلى نفسِه أخرى، ومرّتْ أمامَ نظرِه في تلكَ الساعةِ روايةُ حياتِهِ الماضيةِ من مبدئِها إلى منتهَاها، فظلّ يقرؤُها صفحةً صفحةً، ويقلّبُ نظرَهُ في سطورِها وكلماتِها، فرأى بؤسًا وشقاءً، وأحزانًا، ودموعًا، وجدودًا[٣] عاثرةً ونحوسًا متتابعةً، حتّى انتهى إلى الصفحةِ الأخيرةِ منها، فقرأَ فيها كتابَ العَزْلِ الذي جاءَه من المدرسةِ، فانتفضَ عندَ قراءَته انتفاضًا شديدًا، وصاحَ صيحةً عُظمى دوّتْ بها أرجاءُ الغرفةِ قائلًا: ما هذا! هل فقدتُ ماجدولين؟

ثمّ أطرقَ إطراقًا طويلًا لا يعلمُ إلّا اللهُ أينَ سَبَحَتْ نفسه فيه، ولَبِثَ على ذلكَ ساعةً، ثمّ رَفَع رأسَه، فإذا عيناهُ جمرتانِ ملتهبتانِ، وإذا وجهُهُ أسودُ مربدٌّ[٤] كأنّما قد لبسَ نسيجًا غيرَ نسيجِهِ، فدارَ بنظرِه في أنحاءِ الغرفةِ دورةَ الحيّةِ الرّقطاءِ بجوهرتيها في جنباتِ جحرِها، حتّى وَقَعَ على خزانةِ المالِ التي كانَ يأمرهُ الميتُ في حالِ مرضِه بالإنفاقِ منها، فعلقَ بها ساعةً لا ينتقلُ عنها، ولا يتحوّلُ، كأنّ عينيهِ قد استحالتا إلى مسمارينِ لامعينِ من مساميرِها، ثمّ وثبَ على قدميهِ فجأةً، وقد أصابَهُ مثلُ الجنونِ، وهتفَ صارخًا:

لا بُدَّ لي من النجاحِ في حياتي، ولا أسمحُ لعقبةٍ من العقباتِ مهما كانَ شأنُها أن تقفَ في طريقي، وإنّ الدهرَ لَأَعْجَزُ من أن يعترضَ سبيلي، أو يغلبَنِي على أمري، فهو لا يغلبُ إلّا الضعفاءَ، ولا يقهرُ إلّا الأغبياءَ، وما أنا بواحدٍ منهم، وإنّ من الجُبْنِ والخورِ أن أضَعَ حياتي بين يديهِ، يتصرّفُ بها كيفَ يشاء، فلأَكُنْ أنا دهرًا وحدي، أتولّى شأنَ نفسي بنفسي، وأتصرّفُ بحياتي على الصورةِ التي أريدُهَا، لا أتقيّدُ بقانونٍ ولا نظامٍ، ولا أَسْجُنُ نفسي في هذه الدائرةِ الضيّقةِ التي يسمّونها الفضيلةَ. فما سقَطَ الساقطونَ في معتركِ الحياةِ، ولا داسَتْهُمْ أقدامُ المعتركينَ فيه، إلّا لأنّهم وقفوا من ميدانٍ في نقطةٍ واحدةٍ لا يتحوّلون عنها ولا يتحلحَلُون، فلم ينتبهوا إلى الضرباتِ المختلسةِ التي جاءَتْهُم من خلفِهِمْ، فقضَتْ عليهم، ولو أنّهم داروا مع المعركةِ حيثُ دارتْ، وتقلّبوا في جنباتِهَا كرًّا وفرًّا، لَظَفَرُوا بالغنيمةِ مع الظافرينَ، ولنجوا

---

(١) الجنان: الجنّ.
(٢) الغيلان: جمع غول.
(٣) الجدود: الحظوظ.
(٤) مربدّ: بلون التراب.

من غائلةِ[١] الموتِ الزؤام[٢].

لا رذيلةَ في الدنيا غيرُ رذيلةِ الفَشلِ، وكلُّ سبيلٍ يؤدّي إلى النجاحِ فهو سبيلُ الفضيلةِ، وما نَجَحَ الناجحونَ في هذهِ الحياةِ، إلّا لأنّهمْ طرقوا كلَّ سبيلٍ يؤدي إلى نجاحِهِم، فاقتحَمُوه غيرَ متذمّمين، ولا متلوّمين، وما سقطَ الساقطونَ فيها إلّا لأنّهم تأثّموا، وتحرّجوا، وأطالوا النظرَ والتفكيرَ، وقالوا: هذا حلالٌ وهذا حرام.

من همُ الذينَ يملكونَ الدورَ، والقصورَ، والضياعَ الواسعةَ، والرباعَ الحافلةَ، والذين تموجُ خزائنُهُمْ بالذهبِ، مَوْجَ التنوّرِ باللهبِ؟ أليسوا اللصوصَ والمجرمينَ الذين يسمّون أنفسَهُم ويسمّيهم الناسُ سراةً[٣] ووجوهًا؟

من هم الذين يسهرونَ الليلَ طاوينَ لا يطرقُ النومُ أجفانَهم، ويقضُونَ أيّامَهُم هائمينَ على وجوههم يفتّشونَ عن الرزقِ في كلّ مكانٍ، لا يظفرونَ منه باللقمةِ، أو الجرعةِ إلّا إذا أراقوا في سبيلِهَا محجمًا[٤] من دماء قلوبهم؟ أليسوا الأشرافَ والفضلاءَ الذين يسمّيهم الناس، ويسمّونَ أنفسهم معهم رَعَاعًا، وغوغاء؟

أنا لا أعترفُ بقانونِ الملكيّة، ولا قانونِ الوراثَةِ لأنّ المالكين سارقونَ، ولأنَّ الوارثينَ أبناءُ السارقينَ، فلا أسمّي نفسي لصًّا إلّا إذا سَرَقْتُ فقيرًا يكدَحُ لقوتِهِ ليلَهُ ونهارَه، فلا يبلغُ منه إلّا الكفافَ، ولا أسمّي نفسي ظالمًا إلّا إذا ظَلَمْتُ عادلًا مستقيمًا لم يظلمْ في حياته نَمْلَةً في حبّةِ شعيرةٍ يسلبُهَا إيّاها.

إنّ نشاطَ الرذيلةِ، وشطَاطَها أحرصُ من أن يتركَ للفضيلةِ المتّئدةِ المترفّقةِ في سيرها شيئًا وراءَه تبلغه، فتلتقِطُه، فَلأُغَامِرْ في ميدانِ هذه الحياةِ مغامرةً، فإنْ ظفرتُ، فذلكَ ما رجوتُ، أو لا، فقد أبليتُ في حياتي عُذرًا.

وكانَ يهذي[٥] بأمثالِ هذه التصوّراتِ، وهو يضربُ في أرجاءِ الغرفةِ ذهابًا وجيئةً بخطواتٍ واسعةٍ متلاحقةٍ، ثمّ وقفَ بغتةً، وألقى نظرةً على الجثّةِ المسجّاةِ أمامَهُ، وقال: لقد أصبَحْتَ ميتًا أيّها الرجلُ، فلا يغنيكَ من المالِ الذي تركتَهُ وراءَك شيءٌ، ولا شأنَ لكَ بمن يخلفُكَ عليهِ من بعدِكَ أكانَ صديقَكَ أم عدوَّكَ، أم أقربَ الناسِ وحميمَك الذي واسَاكَ وجامَلَكَ في ساعاتِكَ الأخيرةِ، وقامَ لكَ بما لم يَقُمْ لكَ به صديقٌ ولا حميمٌ، حتّى أضاعَ آمالَهُ، ومستقبلَ حياتِه في سبيلِكَ أنْ توصي إليه بمالِكَ، فهو أحوجُ إليهِ من ابن عمّكَ السعيدِ المجدودِ[٦] الذي لا يبالي أَزَادَ مالُكَ على مالِه، أم نقصَ منه، فأنا قائمٌ عنكَ بعد موتِكَ بما فاتَكَ أن تقومَ به في حياتِك.

ثمّ أدارَ ظهرَه إلى الجثّةِ، ومشى إلى الخزانَةِ وكانتْ على كثبٍ منه، فوضعَ يدَهُ على مفتاحِهَا

---

(١) الغائلة: الهلاك.
(٢) الزؤام: السريع.
(٣) سراة: جمع سريّ وهو السيّد.
(٤) المحجم: الكأس.
(٥) يهذي: يتكلّم بغير المعقول.
(٦) المجدود: صاحب الحظّ.

فشعرَ برعدةٍ شديدةٍ تتمشّى في أعضائِهِ، وخُيِّلَ إليه أنّ الغرفةَ كلّها عيونٌ ترقبُهُ وتحدّقُ في وجهِهِ، وأنّ روحَ الميتِ تلقي عليه من نوافذِ جثّتِها نظراتٍ شزراءَ[١] ملتهبةً يكادُ أوارُهَا[٢] يصلُ إليهِ، فيحرقه، فتريّثَ في مكانِه قليلًا، ثمّ تماسَكَ واستجمَعَ لبّه وأنَاتَهُ، وأدارَ المفتاحَ، فدارَ البابُ على عقبِه، وصرّ في دورانِهِ صريرًا خشنًا، فارتعدَ، وتمثّلَ له أنّ صوتًا أجشَّ من أصواتِ الحرّاسِ الأشدّاءِ يهتفُ به، ويخاشِنُه، فابتعَدَ عن البابِ خطوةً، ثمّ التفتَ يمنةً ويسرةً، فلم يرَ شيئًا، فقالَ إنّها خيالاتُ الشقاءِ تلاحقُني في كلِّ مكانٍ، ومدَّ يدَهُ إلى الأوراقِ يقلّبُها على نورِ مصباحٍ ضعيفٍ كانَ في يدِه حتّى عثرَ بالسفاتجِ[٣] التي يريدُها.

فما وضَعَ يَدَهُ عليها، حتّى شعرَ أنّ دَمَه الذي كان يغلي في عروقِهِ غليانَ الماءِ في مرجله[٤]، قد هدأ وبرَدَ، حتّى كادَ يقفُ عن الجريانِ، وأنّ قطراتٍ باردةً من العَرَقِ تنحدرُ من جبينِه على وجهِهِ متتابعةً، وأحسَّ نفسَهُ بذلكَ السكونِ العميقِ الذي يشعرُ به الهائجُ المصروعُ بعد استفاقَتِهِ من صَرَعِه، وخُيِّلَ إليه أنّ الخزانةَ التي أمامَهُ تهتزّ، وتضطربُ، ويموجُ بعضُها في بعض، ثمّ ما لبثتْ أنِ استحالتْ إلى مرآةٍ ثقيلةٍ لامعةٍ، فوقَعَ نظرُه على صورتِهِ فامتلأ قلبُه خوفًا وذعرًا، وأنْكَرَتْ نفسُه نفسَه، فقد رأى في أساريرِ وجهِهِ تلكَ السحنةَ المنكرةَ التي يعرفُها في وجوهِ المجرمينَ، ورأى في عينيهِ تلكَ النظراتِ الطائرةَ الشاردةَ التي ينظرُ بها المحكومُ عليهِ بالموتِ إلى سيفِ الجلّادِ حينَ يلمعُ فوقَ رأسِه، فظلّ يرتعدُ، ويضطربُ، وظلّتِ الأوراقُ تتساقَطُ من يدِهِ واحدةً بعد أخرى.

وإنّه لكذلكَ إذْ أحسّ بيدٍ ثقيلةٍ قد وُضِعَتْ على كتفِه، فلمْ يأبَهْ لها في أوّلِ الأمرِ، وظنَّها بعضَ الخيالاتِ التي لا تزالُ تعاوِدُهُ منذُ الليلة، إلّا أنّه لم يلبثْ أن أحسّ ببرودتِها فوقَ كاهلِهِ، فتمالَكَ في نفسِه، وتجمّع تَجَمُّعَ المتوقِّعَ ضربةً هائلةً تسقطُ على أمّ رأسِه، ثمّ التفتَ قليلًا ليرى ماذا دَهاه، فإذا الميتُ واقفٌ خلفَهُ عاريَ الجسمِ ينظرُ إليه بعينينِ جامدتينِ، فصَرَخَ صرخةً عُظْمَى ودَفَعَهُ بيدِه دفعةً شديدةً فَسقَطَ على الأرضِ بعيدًا عن مضجعِهِ الأوّلِ فرنّتْ عظامُ رأسِه على أرضِ الغرفةِ رنينًا شديدًا، فاختبَلَ وأصَابَهُ الجنونُ، وألقى المصباحَ من يدِهِ، فانطفأ فازدَادَ رُعْبُهُ وفزَعُه، وهَرَع يطلبُ البابَ للفرارِ منه، فلمْ يهتدِ إليه، فظلّ يعدو في أنحاءِ الغرفَةِ، ويتلمسُ جدرَانَها مقبلًا مدبرًا لا يعثرُ حتّى يقومَ، ولا يقومُ حتّى يعثُرَ، وقد خُيِّلَ إليهِ أنّ الجثّةَ تعدو وراءَه، وتتعقّبُه حيثُما ذهبَ، حتّى أعياهُ الجهدُ عن الحركةِ، فسقطَ مغشيًّا عليه.

ولم يكنْ ما رآهُ في هذه المرّةِ خيالًا بلْ حقيقةً لا ريبَ فيها، فقد عاودتِ الميتَ الحياةُ لحظةً، ففَتَحَ عينيهِ للمرّةِ الأخيرةِ، فرأى بابَ خزانتِه مفتوحًا ورأى إنسانًا لا يعرفُ من هو يقلّبُ أوراقَه، فدفَعَه الحرصُ الغريزيُّ الذي لا يفارقُ الإنسانَ من مبدإِ ساعاتِ حياته إلى

(١) شزراء: حمراء من الغضب. (٢) أوارها: لهيبها.
(٣) السفاتج: السندات والإيصالات والوثائق الماليّة.
(٤) المرجل: القِدْر.

نهايتَها إلى الوثوبِ على قدميهِ والإهواءِ بيده على كَتِفِ السارقِ، ثمّ كانَ ما كان من سقوطِه على أرضِ الغرفةِ، فكانَ في سقطَتِه القضاءُ عليه.

لم يستفقْ استيفن من غشيتِهِ، حتّى طلعَ الفجرُ وأرسلَ بعضَ أشعّتِه من نافذةِ الغرفَةِ، ففتَحَ عينيهِ وظلَّ ينظُرُ حولَه يمنةً ويسرةً، فرأى المصباحَ الساقطَ والخزانةَ المفتوحةَ والأوراقَ المبعثرةَ والجثّةَ الملقاةَ، فذكَرَ كلَّ شيءٍ وقامَ يتحامَلُ على نفسِهِ، فأعادَ كلّ شيءٍ إلى مكانِه، ونَقَلَ الجثّةَ إلى مضجَعِها وأسبلَ عليها غطاءَها. ولم يلبثْ أنْ جاءَ الطبيبُ، فلما رأى الصدعَ في رأسِ الميتِ قال لاستيفن: أحسَبُ أن المريضَ قد ثارَ من فراشِه في ساعَتِه الأخيرةِ ولم يكنْ مَعَهُ من يتولّى شأنَه، فسقَطَ بعيدًا عن مضجعِه، فأصابَه ما أصابه؛ فارتعَدَ استيفن، وقال: نعم يا سيّدي، ولقد كنتُ نائمًا في تلكَ الساعةِ، فلم أستطعْ مساعَدته، ولم أستيقظْ إلّا على صوتِ سقطَتِهِ، فاحتَمَلْتُهُ إلى مكانِهِ، وكانَ أسفي لذلكَ عظيمًا، فلم يرَ الطبيبُ بأسًا فيما قالَ، وانصرف لشأنه.

وما انقضى النهارُ، حتّى دُفِنَ الميتُ وحَضَرَ دفنَه وارثُهُ، وسافرَ استيفن إلى «جوتنج» وهو يردّد في طريقه قوله: «ويل لي من مجرم أثيم»، فما وصلَهَا حتّى كانَ قد بلَغَ آخرَ درجاتِ الاحتمالِ، فسقطَ في فراشه مريضًا مدنفًا[1]، لَا يفارِقُهُ خيالُ تلكَ الهائلةِ التي كابَدَها لحظةً واحدة.



٥٨ - إدوار

علقَ إدوار بماجدولين منذُ الليلةِ التي رآهما فيها استيفن من وراءِ ألواحِ الزجاجِ يرقُصانِ معًا، فأنشأ يختلفُ إلى منزلِ سوزان، وكانَ يمتُّ إليها بِحَبْلِ قرابةٍ، ليرى حبيبتَه، ويستدني قلبها، وكانَ من أقدرِ الناس على مثلِ ذلكَ، لعذوبةٍ يعرفُهَا له النساءُ في أخلاقِهِ، وحلاوةٍ تجتذبُ قلوبهنَّ في أحاديثِهِ، فأنستْ به وبمحضرِه، وأعجَبَهَا منه أنّه كانَ يسردُ عليها كلّما جلسَ إليها أحاديثَ المحافلِ والأنديةِ؛ ويُطْرِفُها بغرائِبِهما، ونوادِرِهما، ويذكر لها أسماءَ الراقصينَ والراقصاتِ، وفَضْلَ ما بينهم في البراعةِ والافتِنانِ، ويشرحُ لها أنواعَ الرقص غربيّهُ وشرقيّهُ، قديمهُ وحديثهُ، وتاريخَ كلِّ نوعٍ منه، ومنشأه، ومصيرَه، ويقصُّ عليها قصَصَ الغرام التي تنشأ كلَّ يوم في قاعاتِ الرقصِ بينَ النساءِ والرجال، وكانَتْ حديثَةَ عهدٍ بذلكَ كلّه، فلم يكنْ شيءٌ من الأشياء أعجبَ إليها من ذكرِهِ وترديدِهِ.

وكان إذا جرى ذكرُ استيفن بينهما، أثنَى عليهِ، وأطراهُ، وقصَّ عليها طُرَفًا من نوادرِ طفولتِهما وصباهما، وما مرّ لَهُما في حَيَاتِهما الأولى من بؤسٍ ورغدٍ وشدّةٍ ورخاءٍ. ثمّ يصفُ لها بلهجةٍ

---

(١) المدنف: الشديد المرض.

الحزينِ المتفجّعِ حياةَ البؤسِ والشقاءِ التي يحيَاهَا اليومَ في «جوتنج» وغرفَته التي يسكُنُهَا، وأثاثَهَا الذي تشتملُ عليه، وثيابَهُ التي يملِكُها، ثمّ يُتْبِعُ ذلكَ بالتوجّعِ له، والتألّم لبؤسِهِ وشقائِهِ، ومحاربةِ الدهرِ إيّاه في مساعيهِ وأغراضِهِ، فتصغي إلى حديثِهِ وتُقْبِلُ عليه إقبالًا عظيمًا.

ولمْ يزلْ بها، حتّى خَلَبَهَا[1]، ووقعَ من نفسِهَا، وأصبحتْ لا تكادُ تصبرُ عن مجلسِهِ ساعةً، ولا تزالُ تفتقِدُهُ، وتسائِلُ نفسَهَا عنه كلّما غابَ عنها، وهي تظنُّ أنّها إنّما تحبّهُ من أجلِ استيفن، ولو كُشِفَ لها عن دخيلةِ نفسِهَا، لعلمَتْ أنّها قد بدأتْ تَنْسَى استيفن من أجلِهِ.

ولقد أعجبتْ سوزان تلكَ الصلةُ التي نشأتْ بين صديقَتِهَا، وقريبِها، ورضيتْ عنها الرضا كلّه، ورأتْ أنّ الله قد أرادَ بِهِ وبها خيرًا؛ فرزقَهُ أفضلَ الفتياتِ جمالًا وأدبًا، ورزقَهَا خيرَ الفتيانِ ثروةً وجاهًا، وكانتْ تعرفُ شيئًا عن عيوبِ إدوار، ولكنّها كانتْ ترى أنّها عيوبٌ خاصّةٌ به لا تتعدّاهُ إلى غيره، وكانتْ تعتقدُ أنّ المرأةَ لا ترى في زوجِهَا الغنيّ، الذي يملأُ فضاءَ بيتِهَا نعمةً ورغدًا، عيبًا واحدًا، مهما كثرتْ عيوبُه.

فأنشأتْ تسعى سعيَهَا للبلوغ بهما إلى الغايةِ التي تريدُهَا لهما؛ فأشارتْ على إدوار أن يتودّدَ إلى الشيخِ مولر، ويداخِلَهُ مداخلةَ الصديقِ صديقَه، وقالت له: إنّهُ رجلٌ مفتونٌ بحبّ النباتِ والزهرِ، فلا يعجبُهُ إلّا الحديثُ عنهما! ولا ينزلُ من نفسه المنزلةَ العليا، إلّا مَنْ يعلَمُ أنّه يشاركُه في العلم بهما، والاهتمامِ بأمرهما؛ وكانَ إدوار قد درَسَ شيئًا من علم النباتِ في مدرستِهِ، فاستعانَ ببستانيّ حديقتِهِ على معرفةِ ما كانَ يجهلُهُ منه، وغرسَ في حديقةِ بيتِهِ بعضَ أنواعِ الزهر الغريبةِ، وعرفَ خصائصَهَا، وصفاتِها، ثمّ خالطَ الرجلَ، وداخلَهُ ودعَاهُ إلى بيتِه، وأراه حديقتَه، ومشى معه في كلّ مكانٍ وجاراهُ في كلِّ حديثٍ، فلم يلبثْ أن أعجبَهُ، ووقعَ من نفسه؛ وهكذا أصبحَ أثيرًا[2] عند الأب وابنته.



٥٩ ـ سريرة المراة

ما أبغضتْ ماجدولين استيفن، ولا أحبّتْ إدوار، ولكنّها لبستْ حالًا جديدةً لم تكنْ تلبسُهَا من قبلُ، فكانَ لا بدّ لها من أنْ تلبسَ معها جميعَ آثارِهَا ومتعلّقَاتِها، فقد أَلِفَتِ المجامعَ والمحافلَ، وأنِسَتْ بالمراقصِ والملاعبِ، وصادقتِ النساءَ المتحضراتِ المتأنقاتِ، وغنّت كما يغنِينَ، ورقصتْ كما يرقصنَ ومشتْ في مثلِ أزيائهنّ، وتحدّثتْ بمثلِ أحاديثهنّ، وفهمتْ من سعادةِ الحياةِ وهنائِها، المعنى الذي يفهَمْنَ، ورأتْ في الرجالِ والنساءِ، والصلةِ التي بينهما، الرأيَ الذي يَرَيْنَ، فتناسَتِ استيفن، لأنّه صورةٌ من صورِ الحياةِ الماضيةِ التي عافَتْهَا،

---

(١) خلبها: سحرها.
(٢) الأثير: المكرَّم.

واجتوَتْهَا[1] وأحبّتْ إدوار، لأنّه مظهرٌ من مظاهرِ الحياةِ الجديدةِ التي أحبّتْهَا، وافْتَتَنَتْ بها.

على أنّها كانت إذا خَلَتْ إلى نفسها، وَهَدَّأَتْ عنها ضَوضَاءَ الحياة وضَجِيجَها، واستطاعتْ أن تمدّ نظرَها إلى أعماقِ سريرتها، حتّى ترى ما في قرارَتِهَا تراءى لها شبحُ استيفن في نحولِهِ، واصفرارِهِ، وحزنِهِ، واكتئابِهِ، وبؤسِهِ وشقائِهِ، ومنظرِ عينيهِ الممتلئتينِ حزنًا ودموعًا، وقلبِه المتّقد حبًّا وغرامًا، ونفسِه الشاعريّةِ الهائمةِ في أوديةِ الهموم والأحزانِ، فتحنّ إليه حنينَ الغريبِ إلى داره، والشيخ إلى عهودِ صباه، وتذكرُ أيّامه الماضيةَ التي قَضاها معها، فتبكي حسرةً عليه وإشفاقًا، بل وجدًا به وغرامًا، ثمّ لا تلبثُ أنْ ترى سحابةً بيضاءَ من النورِ ماثلةً أمامَ عينيها، فلا تزالُ تنبسطُ، وتستفيضُ، حتّى تشفَّ عن قاعةِ الرقصِ التي شهدَتْهَا ليلةَ عرس سوزان، فترى الوجوهَ المشرقةَ، والثغورَ الباسمةَ، والذهبَ اللامعَ، والجوهرَ الساطعَ، والغلائلَ المطرّزةَ، والحُلَلَ المدبّجَة[2] والصدورَ اللاصقةَ بالصدورِ، والأذرعَ المحيطةَ بالخصورِ، والجوَّ المائجَ بالأنوارِ، والروضَ الحافلَ بالأزهارِ، وترى العروسينِ كالفرقدينِ يبسمانِ للسعادةِ المقبلةِ عليهما، ويتدفّقُ تيّارُ الحبّ والصبابةِ بين قلبيهِمَا، فيتضاءَل أمامَ عينيها ذلكَ الشبحُ الأوّلُ، ثمّ لا يلبثُ أنْ يتغلغلَ في ظلماتِ الوجودِ الحالكةِ، حتّى يغيبَ عن نَظَرِها، فلا يبقى له عينٌ ولا أثر.

ولقد دخلتْ سوزان عليها صبيحةَ يوم في غرفَتِهَا، وكانَ قد مضى على زفافِهَا شهرانِ، فقالتْ لها: أتدرينَ ما اتّفقنَا عليه أنا وأبوكِ لَيلةَ أمسِ، يا ماجدولين؟ قالتْ: لا، قالت: أنْ نسافِرَ جميعًا إلى ضياعِ زوجي في «سان مارك»، لنقضيَ فيها أسبوعينِ، أو ثلاثةً، ثمّ ننتقلَ إلى ولفباخ، وهي على بضعةِ أميالٍ منها، فنستضيفَكُم أسبوعًا واحدًا نقضِيه في التنزّهِ بين مزارعِ القرى ودساكرِها، ثمّ نفترقُ بعد ذلك. فتهلّلَ وَجْهُ ماجدولين فرحًا بتلكَ السياحةِ الجميلةِ التي ستقضِيَها مع أصدقائِها في أجملِ البقاعِ وأبهَجِها، ثمّ ما لبثَتْ أَنِ اكتأبَتْ وتَغَضَّنَ[3] جبينُها، لأنّها ذكرتْ ساعةَ الفراقِ القريبةَ، وأنّها ستعودُ بعدَ أيّامٍ قلائلَ إلى عُزْلَتِها في قريتِهَا، وتعيشُ فيها عيشةَ الوحشةِ، والوحدةِ بعيدةً عن «كوبلانس»، ومَجامعِهَا، ومزدحمِ الحياة، فاشتدَّ ذلك عليها كثيرًا.

وأَلَمَّتْ سوزان بما دار في نفسها، وعرفت مأتاه، إلّا أنّها تباهلتْ واستمرّتْ في حديثها تقول: وسيصحبُنَا في سياحَتِنا هذه إدوار، وسيكونُ أُنْسُنَا به وبعشرَتِهِ عظيمًا، ألا ترينَ رأيي في ذلكَ، يا ماجدولين؟ ففهمت ماجدولين مقصَدَهَا، وأينَ تريدُ أن تذهبَ في حديثِهَا. فقالت: ليذهبْ مَعَكُمْ من تشاؤونَ من أصدقائِكُم، وخُلَطَائِكُم، فلا شأنَ لي في ذهابِ من يذهبُ أو بقاءِ من يبقى، فابتسمتْ سوزان واستطردتْ في حديثها تقول: ولقد اتّفقنَا كذلكَ على ألّا يسافرَ إدوار معنا إلّا باسم خطيبكِ، وقد قَطَعْنَا هذا الأمرَ من دونَكِ، لأنّا نَعلَمُ أنّكِ لا ترينَ لنفسِكِ، إلّا الرأيَ الذي نَراهُ لكِ.

---

(١) اجتوى: كره. (٢) المدبّج: المزيّن.
(٣) تغضّن: تكسّر وتجعّد.

فاضطربتْ ماجدولين، وقالت: لقد قلتُ لكِ، يا سوزان، قبلَ اليومِ إنّني لا أستطيعُ أن أتزوّجه، قالت: لماذا؟ وهلْ تطمعُ الفتاةُ في زوجٍ أفضلَ منه عقلًا وأدبًا، وشرفًا وجاهًا، وهو فوقَ ذلك يحبُّكِ، ويستَهيم بكِ، ولا يؤثِرُ على سعادَتِكِ، وهنائِكِ غرضًا من أغراضِ الحياةِ، ولا مأربًا من مآربها؟ قالت: ولكنّهُ لا يستطيعُ أن يحبّني محبّة استيفن إيّاي، قالت: أمّا هذه فنَعَمْ، لأنّه يحبُّكِ حُبّ العقلاءِ والأكياسِ لا حُبَّ النوكى[1] والمأفونين[2].

إنّ هذا الذي تزعمينَ أنّه يحبّكِ، ويتسهيمُ بكِ لا يحبّكِ، بل يحبُّ فيكِ المرأةَ الخياليّةَ التي يتخيّلُها في ذهنِهِ، والتي لم يخلقِ اللهُ لها مثالًا في هذا العالم، ولا يعبُدُكِ، بل يعبدُ إلهَهُ الموهومَ الذي يظنُّ أنّه حالٌّ في جثمانِكِ كما كانَ يعبُدُ آباؤُنا الأولونَ آلهَتَهُمْ في جذوعِ الأشجارِ، وقِطَعِ الأحجار.

إنّهُ يتخيّلُكِ مَلَكًا من ملائكةِ السماءِ تحيطُ بوجهِهِ هالةٌ من النورِ، ويرفرفُ في جنبيهِ جناحانِ أبيضانِ متلألئانِ تلألؤَ الأشعّةِ، ويحملُ بين أضلاعِهِ نفسًا غريبةً عن النفوسِ في جوهرِهَا ومعدَنِها، قد جَمّلَها الله بجميعِ صنوفِ الكمالِ، وطهّرَهَا من أدناسِ الحياةِ وأرجاسِها، فلا تفهَمُ شهوةً من الشهواتِ، ولا تَشعرُ بلذّةٍ من اللذائذِ، ولا تعرفُ فَرْقَ ما بينَ السعادةِ والشقاءِ، والغنى والفقرِ، والراحةِ والتعبِ، والسرورِ والحزن.

فويلٌ لكِ يومَ تنحسِرُ عن عينيهِ بعد ساعةٍ واحدةٍ من لقائِهِ بكِ غشاوةُ الحبّ الأوّلِ، فيراكِ كما أنتِ، ويرى فرقَ ما بينَكِ وبين الصورةِ الخياليّةِ الهائمةِ في رأسِه، إنّه لا بدّ يبغضُكِ ويحتقِرُكِ، ويَهْوِي بكِ إلى أدنى دركاتِ الذلّ والشقاء، ولا نهايةَ للإغراقِ في الحبّ غيرُ الإغراقِ في البغضِ، فإنْ كانَ لا بدّ لكِ من أن تحتفظِي بمكانتِكِ في قلبِهِ، فلا تتزوّجيهِ، ودعيهِ ينظرُ إليكِ دائمًا بهذه العينِ التي ينظرُ بها إليكِ اليومَ، ولا تخشَيْ عليهِ أن يشقَى بفراقِكِ، فليستْ فجيعَتُهُ فيكِ يومَ يفقدُكِ، بأعظمَ من فيجعته في آمالِهِ وأحلامِهِ يومَ يراكِ ويرى في ثوبِكِ امرأةً غيرَ المرأةِ التي كان ينتظِرُها، ويطيرُ شوقًا إليها.

أنتِ لا تعلمينَ من شؤونِ الحياةِ ودخائِلِهَا مثلَ ما أعلمُ، يا ماجدولين، ولقد خَبرتُ فيما خبرتُ من صروفِهَا، وتجاربِهَا أنّ الغرامَ أضعفُ العلائقِ بين الزوجينِ، والمصلحةُ أقواهَا وأوثَقُهَا، وأنَّ الحبُّ كالزهرةِ، والمالَ كالطلّ الساقِط عليها، فإذا انقطعَ الطلُّ عن الزهرةِ بضعةَ أيّامٍ، ذَوَتْ أوراقُها وتساقَطتْ، ثمّ تطايرتْ في مهابِّ الرياحِ الأربعِ، وأنّ هذه الثورةَ النفسيّةَ التي يسمّونها الصبابةَ، أو الوَجْدَ، أو الوَلَهَ، أو الهيامَ، والتي لا يزالُ يهتفُ بذكراها الشعراءُ، وتطيرُ في سماءِ خيالها ألبابُ الرجالِ والنساءِ، إنّما هي عَرَضٌ من أعراضِ الأعصابِ المريضةِ، يهيّجُهُ البُعْدُ ويطفِئُهُ القُرْبُ، ثمّ تبقى بعدَ ذلكَ الحاجةُ إلى العيشِ ومرافِقِهِ، والسعادةِ وأسبابِهَا، فإنْ أعوز ذلكَ، فقد ماتَ الحبّ في القلبِ، ودُفِنَتْ جثّتُه في ضريحِ الفقرِ، والفقرُ

---

(١) النوكى: الحمقى. (٢) المأفون: الفاقد العقل.

يطوي في أحشائه جميعَ عواطفِ القلوبِ وخوالجِهَا، بلْ ربّما دارتِ الوساوسُ، والأوهامُ في رأسِ ذينكَ الزوجينِ اللذين كانّا متحابّينِ بالأمسِ، فرأى كلٌّ منهما في وجهِ صاحبِهِ صورةَ الشؤمِ لهُ، وألقى عليهِ تبعةَ بؤسِهِ وشقائِهِ، فاستحالَ حبُّهُما إلى بغضٍ متغلغلٍ في سويداءِ القلبِ، لا ينتزِعُه إلّا الموت.

أنتِ فقيرةٌ، يا ماجدولين، واستيفن أفقرُ منكِ، لا تضمّي فقرَهُ إلى فقركِ، وليَخْتَرْ كلٌّ منكما لنفسِهِ العشيرَ الذي يعلَمُ أنّه يُسعِدُه، ويملأُ فضاءَ حياتِه غبطةً وهناءً، فإنْ كانَ لا بدّ لكِ من الوفاءِ له فإنّ أوفى ما يكونُ المرءُ لصاحِبِهِ حينَ يؤثِرُ مصلحَتَهُ على مصلحَةِ نفسِه، ويكفكِفُ من نزعاتِ قلبِه وأهوائِه في سبيلِ سعادَتِه وهنائِه، فليكنْ ذلكَ شأنَكِ معه، واحتملي مرارةَ فراقِهِ، وألَمَ الحرمانِ منه رحمةً به، وإبقاءً على حياتِهِ التي توشكُ أنْ تعبثَ بها نكباتُ الدهرِ، وأرزاؤه.

فقد أصبحتُ أخشَى عليه - وفي رأسِه هذا العقلُ الصغيرُ المختبلُ[١]، وبين جنبيه مثلُ هذا القلبِ الضعيفِ المستطارِ - إنْ بعثرَ به جدّه[٢] فيما يحاولُ من الأملِ الذي يسعى إليهِ من أجلِكِ، فيدفعه جنونُ الطمعِ إلى سلوكِ طريقٍ غيرِ طريقِ الشرفِ، فيقترفُ جريمةً، أو ينتهكُ حرمةً، أو تثورُ برأسِهِ ثائرةُ اليأسِ، فيقتلُ نفسَه طلبًا للراحَةِ من عناءِ الحياةِ وشقائِها، فإنْ فعلَ، فأنتِ الجانيةُ عليه، والمُوردَةُ إيّاهُ هذا الموردَ من التلفِ، فانظري كيفَ يكونُ موقفُكِ بين يدي ربّكِ، وضميرِك غدًا، إنْ تمّ ذلكَ على يدِك؟

فاستعبرتْ ماجدولين باكيةً، وما بكَتْ إلّا رحمةً بذلكَ البائسِ المسكينِ وإشفاقًا عليهِ أن ينالَهُ بسبَبِهَا هذا الشقاءُ العظيم؛ وأطرقَتْ مليًّا ثمّ رفعَتْ رأسها وقالت: دعيني الساعةَ وحدي، يا سوزان، فإنّني في حاجةٍ إلى الخَلْوةِ بنفسي.



٦٠ ـ الجريدة العسكرية

التحمَ جيشُنَا أمسِ بجيشِ العدوّ، واستمرّتِ المعركةُ عشرَ ساعاتٍ، لقيَ فيها جنودُنا من بأسِ العدوّ، وشدّتِه، وقوّةِ مراسِهِ هولًا عظيمًا، حتّى بلغَ منهمُ اليأسُ أو كادَ، ثمّ برزَ من بين صفوفِنَا ضابطٌ من ضبّاطِ الفرسانِ اسمه «أوجين ولتز»، فهتفَ بجنودِه «ورائي أيّها الأبطالُ!»، وانقضَّ على العدوّ انقضاضَ النازلةِ السماويّةِ، فانقضّ معه جنودُهُ، فسَرَتِ الحميَّةُ في نفسِ الجيشِ بأجمعه، فهجَمَ وراءَه، وما هي إلّا جولةٌ، أو جولتانِ، حتّى تمّتِ الهزيمةُ للعدوّ، ففرّ يطلبُ النجاةَ لنفسِهِ في كلّ مكانٍ، فتبعنَاه، وأمعَنّا فيهِ قتلًا، وأسرًا، وغنمنَا منهُ غنائمَ كثيرةً.

إلّا أنّه حَدَثَ لذلكَ الضابطِ الشجاعِ في نهايةِ المعركةِ حادثٌ كَدَّرَ صَفْوَ ذلكَ الانتصارِ، فإنّه

---

(١) المختبل: الفاسد.
(٢) جدّه: حظّه.

بينما كانَ يتتبَّعُ آثارَ العدوّ، ويضربُ في مؤخّرتِهِ، إذِ انقطَعَ حِزَام سَرْجِه وكانَ باليًا واهيًا، فعجزَ عن التماسُكِ، فسقطَ عن جوادِه فداسَتْهُ جوافرُ الخيلِ، ثمّ انتبَه لهُ مَنْ في الحياةِ، فقضى ساعةً يتألّم ألمًا شديدًا، ويهتفُ باسم أخٍ له اسمُه «استيفن»، حتّى فاضَتْ روحُه، فحزنَ الجيشُ عليه حزنًا شديدًا، وبكاهُ القوادُ ورؤساءُ الفرقِ، ثمّ دُفِنَ باحتفالٍ عظيمٍ لائقٍ بشجاعَتِهِ، وإقدامِهِ، وحميّتِهِ التي ليسَ لها مثيل.

❁ ❁ ❁

٦١ ـ البيت الجديد

وقفَ استيفن على عتبةِ بابِ بيتِهِ الجديدِ وكانَ البنّاؤونَ لا يزالونَ يشتغلونَ باستصلاحِ بعضِ أنحائِهِ، فهتفَ بصديقِهِ فرتز، فلبّاه، فقال له: هلْ تمّ بناءُ الغرفتينِ الجديدتينِ على الصورةِ التي اتّفَقْنا عليها؟

قال: نعم، يا سيّدي، وتمّ كذلكَ تجصِيصُهما، وتزجِيجُ نوافِذِهما، فجزاه خيرًا.

ثم التفتَ إلى البستانيّ وقالَ له: هل غرسْتَ أشجارَ الفاكهةِ التي أَرْسَلْتُهَا إليكَ بالأمس؟

قال: نعم، يا سيّدي، وستكونُ الكرمةُ المنبسطةُ فوقَ الجدارِ من أبدعِ الكرماتِ، وأجملِهَا.

قال: لا تنسَ أنْ تكسُوَ السورَ كلّه باطنَهُ، وظاهِرَهُ بأزهارِ البنفسجِ كما أَمَرْتُكَ.

قال: سأفعلُ يا سيّدي إنْ شاءَ الله.

فتركَهُ، ودخَلَ المنزلَ، فألقى على الطبقةِ السفلى نظرةً عجلى، ثمّ صعدَ إلى الطبقةِ العليا، ووقفَ في بهوٍ متّسعٍ تدورُ به الحجراتُ، وقال: ها قد أصبحَ البيتُ على الصورةِ التي اتّفقنا عليها منذُ عامينِ أنا وماجدولين، في الطبقة السفلى غرفةُ المائدةِ والمطبخُ، وغرفُ المؤونةِ والمرافقُ، وفي الطبقةِ العليا غرفةُ الأضيافِ، ومخدعُ النوم، وقاعةُ الكتبِ وغرفةُ الشيخِ مولر.

ثمّ فَتَحَ بابَ الغرفةِ الخامسةِ، وألقى عليها نظرةَ ألمّتْ بجميعِ ما فيها، فاغرورقَتْ عيناهُ بالدموعِ وقال: لقد كنتُ أرجو، يا أوجين، أنْ تشرِكَني في سعادَتِي كما شَرَكتَني في شَقَائي، ولكنْ هكذا أرادَ القدرُ أن يفرّقَ بيني وبينَك، وأنْ تكونَ سعادتي منغّصَةً بذكراكَ أبدَ الدهر، فوا أسفًا عليك يا أخي! أسفًا لا يفارِقُني حتّى الموت.

وستمرّ الأيّام وتكرُّ الدهورُ والأعوامُ، وسأنسى كلّ ما مرَّ بي من حوادثِ الدهرِ: خيرِهَا وشرِّهَا، وبؤسِهَا ورَغْدِهَا، ولا أنسى أنّني ضَنَنْتُ عليكَ بتلكَ الدراهم القليلةِ التي سألتَنِيها أحوجَ ما كنتَ إليها، وأنّ يدي هي اليدُ الخفيّةُ التي أوردَتْكَ هذا الموردَ من الردى، فاغفرْ لي ذنبي واعفُ عنّي، والقَني يومَ تَلْقاني في آخِرَتِكَ بذلكَ الوجْهِ البشوشِ الغضّ الذي كنتَ تلقاني به في حياتِك، فأنا من لا يعيشُ إلّا بذكرِكَ، ولا يموتُ إلّا بغصّتِكَ، وأقفلَ بابَ الغرفَةِ وقال: لن يُفْتَحَ هذا البابُ بعد اليوم.

ثمّ كفكفَ عبرته، وسرّى عن نفسِه، وأشرفَ على الحديقةِ، يتلهّى بالنظرِ إليها، فوقَعَ نظرُه على حوضِ الماءِ المبنيّ في وسطِهَا، فعادَ إلى مناجاةِ نفسِه يقول: وها هو الحوضُ الذي سنربّي فيهِ الأسماكَ ذاتَ الألوانِ المختلفةِ، وها هو السياجُ الذي رأينا أن نقيمَه من حولِهِ خوفًا على أولادِنا المستقبلينَ من السقوطِ، وها هي أزهارُ البنفسجِ التي تحبّها ماجدولين، وتؤثِرُها على الأزهارِ جميعها تملأُ البيتَ داخلَه وخارجَه.

إنّها لا تعلمُ الآنَ شيئًا عن هذهِ السعادةِ المهيّأةِ لها، وربّما كانتْ تكابدُ اليومَ أشدَّ حالاتِ يأسِهَا، وحزنِهَا بعدَ انقطاعِ رسائلي عنها أيّامًا طوالًا، وسأباغِتُها بها مباغَتَةً لا يزولُ أثَرُهَا من نفسِهَا أبدَ الدهرِ، فقد شقِينا ما استطاعَ الشقاءُ أن يكونَ، وسنسعَدُ بعدَ اليومِ سعادةً تُنْسِينا همومَنَا الماضيةَ وآلامَنَا، ولا نذكرها إلّا كما نذكرُ دموعَ طفولَتِنَا، وبكاءَها.

ثمّ نزل، ومشى في الحديقةِ مع صديقِهِ فرتز، يناظِرُ القائمينَ بتنظيمِ أغراسِهَا، وتمهيدِ طُرُقَاتِها، وينتقِلُ بين أشجارِهَا، وأزهارِهَا مسرورًا مغتبطًا، وكأنّه لم يَذُقْ طَعْمَ الشقاءِ في دهرِهِ يومًا واحدًا.



٦٢ - بروتس

ما كانَ استيفن قبلَ اليوم آمرًا، ولا ناهيًا، ولا صاحبَ بيتٍ، ولا حديقةٍ، بل ولا صاحبَ أيّ شيءٍ من الأشياءِ، إلّا إذا كانتْ أثوابُه الباليةُ المرقّعةُ شيئًا تتعلّقُ به الحيازةُ والمُلْكُ، فقدْ عادَ إلى جوتنج بعدَ تلكَ الليلةِ الليلاءِ التي كابَدَها في غرفةٍ قريبةٍ صِفْرَ اليدينِ من كلّ شيءٍ حتّى من آمالِهِ وأمانيهِ، فقضَى في فراشِ مرضِهِ بِضعةَ أيّام كابدَ فيها من آلام جسمِه، ونفسِه ما يعجزُ عن احتمالِهِ، ثمّ أبَلّ[1] قليلًا، فأنشأ يفكّرُ فيما يصنعُ بعد الذي كانَ من فشلِهِ وانقطاعِ رجائِهِ به، فخطرَ له الانتحارُ، ثمّ منعَهُ منه أنه سيكونُ آخرَ عهدِه بماجدولين، فلا يراهَا بعدَ اليوم، وفكّرَ في الرجوعِ إلى أهلِهِ والإذعانِ لهم في رغبتِهِم التي يرغبُونَها إليهِ، ثمّ ذَكَرَ المواثيقَ التي أعطاهَا لماجدولين، ألّا يبتغي بها بدلًا حتّى الموت، فَعَظُمَ عليه أن يخيسَ[2] بعهدِهِ، ومرّ بخاطِرِهِ الفرارُ بنفسِه إلى أيّةِ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ، يطلبُ فيها السلوَّ، والراحَةَ، والتفرُّجَ ممّا به، ولكنّه أشفقَ على ماجدولين أنْ يقتُلَهَا الحزنُ عليهِ من بعدِه، وهو إنّما يحيَا في هذا العالمِ مِنْ أَجْلِها.

ولم يزلْ يراوحُ بين هذه الفِكَرِ، ويستدني بعضًا منها، ويذودُ بعضًا، حتّى صَحّتْ عزيمتُه على أنْ يكتُبَ كتابًا إلى ماجدولين، ولم يكن قد كتبَ إليها منذُ عهدٍ بعيدٍ، يقصُّ عليها قصّته، وما آلَ إليه أمرُه، ويحلّلُها من اليمينِ التي أقسمَتْهَا له، ثم يضعُ أمرَه بين يديها، فإمّا أحْيَتْهُ،

---

(١) أبلّ: شفي من مرض. (٢) خاس بوعده: أخلف.

فعادَ إلى أَمَلِهِ، وسَعْيِهِ، أو قَتَلَتْهُ فاكتفى مؤونةَ قَتْلِ نفسِه بنفسِه. فإنّه لَيَكْتُبُ ذلكَ الكتابَ، إذْ دخلَ عليه رسولُ البريدِ يحملُ إليه رسالةً من مسجّلِ القريةِ التي ماتَ فيها قريبُهُ يقولُ لهُ فيها: إنَّ الميتَ، قد أوصَى إليهِ في كتابٍ وصيَّته بعشرينَ ألفَ فرنكٍ يأخذُها في الحالِ، وعشرةِ آلافٍ يأخذُها في كلّ عامٍ، فاستُطِيرَ فرحًا، وسرورًا وقال: أحمدُكَ اللّهمَّ غَلَلْتَ يدي عن أنْ آخُذَ هذا المالَ حرامًا، حتّى بَعَثْتَ بهِ إليَّ حلالًا، ومزّقَ الكتابَ الذي كانَ يكتُبُهُ وعلمَ أنَّ أيّامَ محنَتِهِ قدِ انقضَتْ، وأنّه قد أدّى للدهرِ ما عليه له من ضريبةِ الشقاءِ، فلمْ يبقَ بينَ يديهِ إلّا أنْ يستقبلَ السعادةَ المقبلةَ عليه خالصةً هنيئةً لا يكدّرُهَا عليه مكدّرٌ، حتّى الموت.

وأنشأ يفتّشُ بمعونةِ صديقه «فرتز» عن بيتٍ صغيرٍ يشرفُ على نهرِ «جوتنج» ويكونُ على الضفّةِ التي تمنّاها هو وماجدولين، ليلةَ ركبَا زورقَ البحيرةِ، وتحدّثَا عن آمالِهما، ومستقبَلِهما، فوجدَ بيتًا يشبهُهُ، فابتاعَهُ، واستصْلَحَهُ، وحوّلَه إلى الصورةِ التي أرادَهَا، وأخذَ يؤثّثُ غُرَفَه، ويغرسُ أشجارَ حديقَتِه.

وإنّه لكذلِكَ، إذْ قرأ في الجريدةِ العسكريّةِ خبرَ وفاةِ أخيهِ، فبكاه كثيرًا، ثمّ ما لبثَ أن تجلّدَ واصطبرَ، ودفنَ حُزْنَهُ في أعماقِ قلبهِ، وألهاهُ سرورُهُ بحاضِره عن التفكيرِ في ماضيهِ، فابتاعَ خاتمًا للخطبةِ ثمينًا، وأعدَّ عُدَّتَهُ للسفرِ إلى «ولفباخ»، وكانَ قد علمَ أنّ ماجدولين قد عادتْ إليها من «كوبلانس» منذُ عهدٍ قريبٍ، ليباغِتَها بتلكَ السعادةِ التي هيّأها لها، ويخطبَهَا إلى أبيها، ثمّ يعودُ بها إلى «جوتنج»، لِيُرِيَهَا البيتَ الجديد.

ثمّ ركبَ عجلَتَهُ في صباحِ أحدِ الأيّامِ، وسافرَ وقلبُه يخفُقُ فرحًا، وسرورًا، حتّى وصلَ إلى ضاحيةِ القريةِ، فتركَ العجلةَ مكانَها، وأمرَ السائقَ أن ينتظِرَه، حتّى يعودَ، ونزلَ يمشي على قدميهِ، ويقلّبُ نظرَهُ في تلكَ المعاهدِ التي قَضَى فيها أيّامَ سعادَتِه الأولى، وأشرقَ على قلبِهِ من سمائِها أوّلُ شعاعٍ من أشعّةِ الحبّ، فرأى الغابةَ التي كانَ يهيمُ فيها وحدَهُ في الليالي المقمرةِ مناجيًا نفسَه بحبّهِ وغرامِهِ، ومصوّرًا لها أعذبَ الآمالِ وأحلاها، ومرَّ بالنهرِ الذي اقتحَمَه منذُ عامينِ، لاستنقاذِ ذلكَ الرجلِ الذي كانَ مشرفًا على الغرقِ، حتّى كادَ يغرقُ مَعَهُ لولا معونةُ اللهِ وعنايَتُهُ، ووقَفَ على ضفّةِ البحيرةِ التي كانَ يتنزّهُ فيها هو وماجدولين، ساعةَ الأصيلِ، ويقضيانِ الساعاتِ الطوالَ بين سمائِهَا، ومَائِها.

ثمّ أشرفَ على بيتِ الشيخِ مولر، فلاحتْ له أعالي أشجارِ الزيزفونِ التي كانَ يجلسُ تحتَهَا هو وماجدولين كما كانَ يَرَاها في ذلكَ العهدِ، ورأى من خلالِ أوراقِهَا غرفَتَهُ العاليةَ التي كانَ يسكُنُهَا، فعادتْ إلى ذهنِهِ تلكَ الأيّامُ الماضيةُ التي قَضَاها في هذهِ المواطِنِ، فرأى صُبْحَهَا ومساءَها، وليلَهَا ونهارَهَا، وبكورَهَا وأصائِلَهَا، وكلَّ ما مرَّ لهُ فيها من سرورٍ وحزنٍ، ورجاءٍ ويأسٍ، وصحّةٍ ومرضٍ، ورخاءٍ وشدّةٍ، حتّى خُيِّلَ إليهِ أنّه لا يزالُ مقيمًا في ذلكَ المنزلِ حتّى اليوم، وأنّه إنّما خرجَ الساعةَ من غرفَتِهِ، لقضاءِ بعضِ حاجاتِهِ، وها هوذا عائدٌ إليها.

ولم يزلْ يَهيمُ في أمثالِ هذه التصوّراتِ، حتّى وصلَ إلى بابِ الحديقةِ، فوقفَ على عتبتِهِ، وقال: ها هوذا البابُ الذي خَرَجْتُ منهُ بالأمسِ طريدًا شريدًا لا أملِكُ من أمرِ نفسي، ولا أمرِ مستقبَلي شيئًا، وها أنذا أدخُلُهُ اليومَ آمنًا مطمئنًّا، كما أدخُلُ بيتي، وأزورُ أهلَهُ، وقومَهُ، كما أزورُ أهلي، وقومي، لا أخشى عينًا، ولا رقيبًا، ولا أتّقي غائلةً[1] من غوائلِ الدهرِ، ولا رزيئةً[2] من رزاياهُ، فما أعجبَ تقلّباتِ الأيّامِ، وأغربَ ما تأتي بهِ الأقْدارُ!

ثمّ مشى في الحديقةِ يقلّبُ نَظَرَهُ في أشجارِهَا، وأغراسِهَا، وجداوِلِها وطرقَاتِها، ويقولُ في نفسه: لقد بقيَ كلُّ شيءٍ على ما هو عليهِ، فها هي ثغرةُ الحائطِ الغربيّ، لا تزالُ باقيةً كما هي، وها هي الصخرةُ العاتيةُ السوداءُ، ملقاةٌ في مكانِها تحتَ الجدارِ كما تَرَكْتُهَا، وها هي أعشاشُ الطيورِ فوقَ قمّةِ شجرةِ السنديانِ، تختلفُ إليها عصافيرُها غاديةً رائحةً، كعهدي بها.

ثمّ التفتَ إلى يمينِهِ وقال: وها هو الجذعُ الذي حَفَرْنا عليه اسمَيْنَا أنا وماجدولين، ثمّ مشى إليه فرأى الكتابةَ لا تزالُ على حَالِها، كأنّما قد حُفِرَتْ بالأمسِ، فاغرورَقَتْ عيناهُ بالدموعِ، وجثا بين يدي الجذعِ، وأهوى بفَمِه إليه فلثَمَهُ كأنّما يشكُرُ لهُ تلكَ اليدَ التي أسدَاها إليهِ في احتفاظِهِ بتلكَ الذكرَى القديمةِ التي أودَعَهُ إيّاها. وهَبّتْ على وجهِهِ في تلكَ الساعةِ نسمةٌ، مَرّتْ قبلَ مرورِهَا عليهِ بأزهارِ الحديقةِ وأعشابِها، فحمَلَتْ إلى رأسه تلكَ المجموعةَ العطريّةَ البديعةَ التي طالما استروَحَها في هذا المكانِ نفسِه مع ماجدولين، ولا يحملُ الذكرى القديمةَ مثلُ الأريجِ العَطِرِ! فهاجَ وَجْدُهُ وحنينُه، وأخذَ يعانقُ الهواءَ، ويضمّهُ إليهِ كما يضمُّ حبيبًا ملقًى بينَ ذراعيه.

ولم يَزَلْ سائرًا، حتّى وَصَل إلى رأسِ الطريقِ الموصِلِ إلى مكانِ المقعدِ الذي كانَ يجلسُ عليه، هو وماجدولين، تحتَ أشجارِ الزيزفون، ولم يبقَ بينَه وبينَه إلّا خطواتٌ قليلةٌ، فاشتدّ تَأثُّرُهُ، وخَفَقَ قلبُه خفقانًا شديدًا، وحدّثَتْهُ نفسُهُ أنّ ماجدولين جالسةٌ هناكَ الساعةَ وحدَهَا، تبكي، وتنتَحِبُ، وتندبُ آمالها وأحلامَها، وتفكّرُ في انقطاعِ كتبِهِ عنها، فأشفَقَ عليها أنْ يباغِتَهَا بالخبرِ مباغتَةً فيقْتُلَهَا، فأخَذَ يهيّئُ في نفسِه طريقةَ إلقائه. ثمّ مالَ برأسه قليلًا، فرأى طرفَ المقعدِ، ورأى ذَيْلَ ثوبٍ حريريٍّ أبيضَ منسدلًا عليهِ، فاستطيرَ فرحًا وسرورًا وقال؛ ها هي ذي جالسةٌ كما كُنْتُ أتوقّعُ أنْ أراها، فَثَبِّتِ اللّهُمَّ قَدمي وقَدَمَها في ذلكَ الموقفِ الجَلَلِ العظيم.

ثمّ انعطفَ، فما وَقَعَ نَظَرُهُ على المقعدِ، حتّى جَمُدَ واصفرَّ، ووَقَفَتْ دورةُ الدم في عروقِهِ، وتعلّقَتْ بين لَحْيَيْهِ[3] فما تصعدُ ولا تهبطُ! فقد رأى ماجدولين جالسةً بجانبِ فتًى تبسمُ لهُ ويبسمُ لها، وقد أخذَ يَدَهَا وألقى رأسَهُ على صدرِهَا، وحَنَا عليها حُنُوَّ المحبِّ على حبيبِهِ، فظلّ يقولُ في نفسِه: ما هذا الذي أرى! إنّني لا أفهَمُ من كلِّ ذلكَ شيئًا.. إنّها ماجدولين بعينها!

فمنْ هو هذا الإنسانُ الجالسُ إليها، أليسَ هو صديقي إدوار؟ نعم هو بعينِهِ، فما مجيئُهُ هنا

(١) الغائلة: الهلاك. (٢) الرزيئة: المصيبة.
(٣) اللحيان: عظما الفك الذي عليهما الأسنان.

في هذهِ القريةِ، وما وجودُه في هذا البيتِ؟ وما جلوسُهُ بجانبِهَا هذهِ الجلسةَ الغريبة؟ ثمّ شدّ بيدِه على قلبِهِ كأنّما يحاولُ أن يحبسَه عن الفرارِ، ومشى يقتَلِعُ قدميه اقتلاعًا كأنّما هو شبحٌ من الأشباحِ الهائمةِ في ظلالِ الليلِ، حتّى دَنَا منهما، ففزعا إذْ رأياه، ووثَبَا على أقدامِهما وثبةً واحدةً، ثمّ ما لبثا أن اختلفَ شأنُهُما، فأخذَ إدوار بطرفِ شاربِهِ يعبثُ به، ويقلّبُ عينيهِ في السماءِ، كأنّه منجّمٌ يفتّشُ عن النجم السابعِ والسبعينَ، بعدَ المائةِ والخمسةِ والعشرينَ مليونًا، كما يصنَعُ المنجّمونَ، وأطرقتْ ماجدولين إلى الأرض فَسَكَنَتْ في إطراقِهَا سكونًا عميقًا، لا تتخلّلُهُ حركةٌ، ولا نأمة[1].

فظلَّ استيفن يردّدُ نظرَه بينهما باهتًا مشدوهًا لا يقولُ لهما شيئًا، ولا يفهَمُ من موقِفِهما أمرًا، ثمّ مشى خطوةً إلى ماجدولين، وقد أخذَ الذهولُ مأخَذَهُ من عقلِهِ، فنسيَ المنظرَ الذي رآهُ منذُ لحظةٍ، وأنشأَ يخاطِبُهَا باسمًا متطلّقًا ويقولُ لها: لقد انقضَتْ أيّامُ شقائِنا، يا ماجدولين، ولقدْ أصبحْتُ والحمدُ لله صاحبَ ثروةٍ لا أقولُ إنّها عظيمة، ولكنّها كافيةٌ لسعادَتِنا وهنَائِنا، فجئتُ إليكِ أتَنَجَّزُ وَعْدَكِ، وأخطبُكِ إلى أبيكِ، ثمّ أذهبُ بكِ إلى جوتنج، لأريَكِ البيتَ الجديدَ الذي ابتعْتُهُ لكِ منذُ عهدٍ قريبٍ، وسترينَ حينَ ترينَهُ أنّه على الهيئةِ التي تمنّيْنَا أن يكونَ عليها ليلةَ رَكِبْنَا زورقَ البحيرةِ، وتحدّثْنَا عن آمالِنَا وأمانينا.

فارتعدتْ ماجدولين، وَامتُقِع[2] لونُها، وقالتْ بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ، كأنّها تهمسُ في نفسِهَا ببعضِ الأحاديثِ: «إنّي أهنئُكَ بصلاحِ حالِكَ يا سيّدي»، فعجبَ استيفن لذلكَ، واستطيرَ عقلُهُ، وقال في نفسه: ما هذا الذي أسمَعُ، إنّها تهنّئني بصلاحِ حالي، كأنّها ترى أنّ لي حالًا خاصّة بي مستقّلةً عن حالِها، فليتَ شعري ما بَالُهَا! وما هذا السكونُ المخيّمُ عليها! وما هذا الوجْهُ الغريبُ الذي تلقاني به؟! لقد كنتُ أخشَى أنْ أقتُلَهَا، فرحًا وسرورًا، فإذا هي تقتُلُني، همًّا وكمدًا.

ثمّ نسيَ هذا المنظرَ الأخيرَ كما نسيَ الأوّلَ، فأخرجَ من جيبِهِ خاتمَ الخطبةِ، ومشى إليها خطوةً أخرى، ليقدّمَهُ إليها، فَمَا وقَعَ نظرُهُ على إصبعِهَا، حتّى تراجَعَ خائفًا مذعورًا، فقد رأى فيه خاتمًا غيرَ ذلكَ الخاتَمِ الذي نَسَجَتْهُ مِن شَعْرِه، وكانتْ تحدّثُه عنهُ في رسائِلِها كثيرًا، وتقولُ له إنّه لا يفارقُ إصبَعَها لحظةً واحدةً، فاشتدَّ خفوقُ قلبِهِ، واضطرابُه، وظلّ يدورُ بعينَيْهِ حائرًا ملتاعًا، لا يعلَمُ أخيالًا يرى أم حقيقة؟ وازدحمتِ الدموعُ في عينيهِ، تتبادَرُ إلى السقوط، فمدّ يَدَهُ إلى ماجدولين ضارعًا، وقال لها: ألا تستطيعين، يا سيّدتي، أنْ تقولي لي كلمةً واحدةً، فإني أشعرُ أنّي على وشكِ الجنون؟

فرفعتْ رأسَها، ونظرتْ إليه كأنّها تريدُ أن تقولَ له شيئًا، ثمّ عادتْ إلى إطراقِهَا وسكونِهَا، وهنا تَقَدَّمَ نحوه إدوار، ووضَعَ يَدَهُ على كتفَيْهِ وقال له: حَسْبُكَ هذا، يا استيفن، فإنّكَ تقتلُ

---

(١) النأمة: الصوت. (٢) امتُقع اللون: تغيّر من حزن أو خوف أو مرض.

السيّدةَ قتلًا، فانتبَهَ استيفن، وكأنَّهُ لم يَكُنْ رآهُ قبلَ هذهِ اللحظةِ، فَصَعّدَ نَظَرَهُ فيه، وصوّبَهُ وقالَ له: إنّني لم أكنْ أتوقّعُ أنْ أراكَ هنا في هذا المكانِ، يا إدوار! فقال له: سواءٌ أتوقّعْتَ أمْ لَمْ تَتَوَقّعْ، فقد كانَ يجبُ عليكَ أنْ تستأذِنَ قبلَ الدخولِ، ولم يكنْ يجمُلُ بكَ، وأنتَ في هذه السنّ المتقدّمَةِ أن تنسى أوّلَ درسٍ يتلقّاهُ التلميذُ في مدرسَتِهِ في أدبِ الزيارةِ والاستئذانِ.

فانتَفَضَ استيفن انتفاضَةً شديدةً، وعَلَتْ جبينَهُ سحابةٌ بيضاءُ لم تَزَلْ تتّسِعُ وتستفيضُ، حتّى لبستْ وَجْهَهُ كلّه، فَصَارَ كأنّه البردُ الناصِعُ، واسترختْ يَدَاه كَما يَكْسِرُ الطائرُ جناحيهِ للوقوعِ، وشَعَرَ بتخاذلِ أطرافِهِ، فَتَراجَعَ إلى شجرةٍ وراءَه، فاستندَ إليها، ثمّ نَظَرَ إلى إدوار نظرةً يقطرُ منها الدمُ، وقال لَهُ تلكَ الكلمةَ التي قَالها يوليوس قيصر حينما طُعِنَ من خَلْفِهِ، فالتفَتَ، فرأى أنّ الذي طَعَنَهُ هو صديقُهُ وَصَفِيُّهُ: «حتّى أنتَ يا بروتس»!؟ وَصَمَتَ لحظةً، حتّى رَجعتْ إليه نفسُه، ثمّ التفَتَ إلى ماجدولين، وقالَ لها بصوتٍ خافتٍ متهدّجٍ[1] تتطايَرُ معهُ أجزاءُ نفسه: أصحيحٌ ما يقولُ هذا الرجلُ يا ماجدولين؟ وهل ترينَ كما يرى، أنّني أخطأْتُ في دخولي عليكِ بغيرِ استئذانٍ؟ وهل تعتقدينَ، أنّ له شأنًا عندَكِ، يسمَحُ له بأنْ يتولّى أمرَ مؤاخَذَتي بالنيابةِ عنكِ؟

فاعترضَ إدوار بينَهما، ومدَّ يَدَهُ إليها وقالَ لها: هيّا بنا، يا سيّدتي، فقدْ طَالَ جلوسُنَا في هذا المكانِ، حتّى مَللنَا، فأعطَتْهُ يَدَهَا، وتَبِعَتْهُ صامتةً مُطْرِقَةً حتّى دخلا البيتَ، وتركَاه في مكانِهِ ينظرُ إليهما، وهما يبتعدانِ عنه شيئًا فشيئًا، حتّى اختَفَيا، وسُمِعَ خَفْقُ البابِ وراءَهما، فَظَلّ شاخصًا إلى البابِ الذي دَخَلاه لا يتحرّكُ، ولا يطرفُ، ولا تنبعثُ له جارحةٌ، ولا ينبضُ له عرقٌ. ومرّتْ به على ذلكَ ساعةٌ، ثمّ أخذَ يحدّثُ نفسَهُ ويقول:

إنّ إدوار يخاطِبُني بلهجةِ الآمرِ الناهي كأنّ له شأنًا في هذا البيتِ فوقَ شأني، فلا بُدّ أن يكونَ له هذا الشأنُ الذي يزعُمه، ولا بُدَّ أن يكونَ قد استمَدّه من ماجدولين نفسِها، فقد رأتْهُ بعينِها، وهو يحتقرُني، ويزدَرِيني، بل يسبّني ويشتمُني فلم تَقُلْ لَهُ شيئًا، لا! إنّها وافَقَتْهُ على أكثرَ من ذلكَ، فقد مدَّ يَدَهُ إليها، ودَعَاها للدخولِ مَعَهُ إلى المنزلِ، وهي تعلمُ أنّه لا يريدُ بذلكَ إلّا طَرْدي، وإذلالي، فتبعَتْهُ طائعةً مُذْعنةً، ولم تلتفتْ إليّ ساعةَ انصرافِهَا التفاتةً واحدةً، تعتذرُ بها عن عَمَلِها هذا، وها قد مضتْ ساعةٌ بعدَ ذهابها، ولم تعدْ إليّ لترى ماذا حلّ بي من بعدِهَا، فليتَ شعري ما دهاني عندها؟ وما هذا الذي بينَها وبينَ إدوار؟ إنّني أخشَى أن يكونَ خطيبَها، وأنْ يكونَ هذا الخاتمُ الذي في يدهَا خاتمَ الخِطبةِ الذي أهداهُ إليها، وأنْ تكونَ تلك الجلسةُ التي رأيتُهُ يجلسُهَا بجانبِهَا، جلسةَ غرامٍ يتشاكيانِ فيها الحبّ، ويتباثّانِه، فإنْ كانَ ما ظنَنْتُهُ حقًا، فهي فتاةٌ مجرمةٌ، خائنةٌ، لأنّها وَعَدَتْني بالانتظارِ، حتّى ييسّرَ اللهُ لي سبيلَ الرزقِ، فلم تَفِ بوعدِهَا، بل أقسمتْ لي الأيمانَ التي لا فسحةَ فيها على الوفاءِ حتى الموتِ، فلم تَبَرَّ بيمينها.

لا.. لا، إنّها لا تستطيعُ أن تفعلَ ذلكَ، لأنّها تعلمُ حقّ العلمِ أنّها لي، وأنّني صاحبُ

---

(١) متهدّج: متقطّع.

الشأنِ فيها من دونِ الناسِ جميعًا، فقد اشتريتُهَا بدمِ حياتي، وبجميعِ دموعي، وآلامي، وكابدتُ في سبيلِهَا من نكباتِ الدهرِ، وأرزائِه ما يخرجُ احتمالُه عن طَوْقِ البشرِ، فَجُعْتُ حتّى أشرفتُ على الموتِ، وعريتُ حتّى حَبَسْتُ نفسي عن الخروجِ من غرفتي، إلّا في ذمامِ الليلِ، وحمايته، ونمتُ في الليالي القرّةِ الباردةِ في ممرّ الهواءِ الجاري بلا غطاءٍ، ولا دثارٍ[1]، وخرجتُ تحتَ جنحِ الظلامِ أفتّشُ في صناديقِ القمامةِ عن لقمةٍ متروكةٍ، أو عظمةٍ مطروحةٍ أسدُّ بها رَمَقي، وبعتُ الخبزَ الأبيضَ بالخبزِ الأسودِ، لأستطيعَ أنْ أجدَ لقمةً لغدائي، وأخرى لعشائي، وما زلتُ أرقّعُ قميصي، حتّى صارَ القميصُ الرقاعَ، وذهبَ القميصُ بأجمعِهِ، بل ركبتُ في سبيلها ما هو أعظمُ من ذلكَ، فقد قَتَلْتُ أخي، ومثّلْتُ بالرجلِ الذي أحسنَ إليّ في حياتِهِ، وبعدَ مماته، وحدثتُ نفسي بسرقَةِ مالِهِ، بل مَدَدْتُ يدي إليه، فأصبحتُ بذلكَ من المجرمين.

إنّها لا تستَطِيعُ أن تنتزعَ يدها من يدي، ولا أنْ تفصلَ حياتَها من حياتي، فقد خُلِقَتْ لي، كما خُلِقْتُ لها، وها هو اسمي محفورٌ بجانبِ اسمها على جذورِ أشجارِ حديقَتِها، وها هي شعراتُ رأسِهَا، منسوجةٌ في الخاتمِ الذي ألبسُه منذُ عامينِ، وها هي الأرضُ، والسماءُ، والبحيرةُ، والفلكُ، والشمسُ، والقمرُ، والأشجارُ، والأعشابُ، والطيورُ، والأزهارُ تشهَدُ بحبّنا، وغرامِنا، ومواقفِ آمالِنَا، وأحلامِنَا، وأيمانِنَا التي أقسمنَاها ألّا يفرّقَ بيننا إلّا الموتُ، فإذا كانتْ نفسُهَا قد حَدَّثَتْها بمقاطَعَتي، واتخاذِ سبيلٍ في الحياةِ غيرِ سبيلي، فقد قَضَتْ عليَّ وعلى نفسِهَا في آنٍ واحدٍ، لأنّ الحياةَ الواحدةَ لا يمكنُ أن تنقسِمَ إلى حياتينِ تعيشُ كلٌّ منهما مستقلّةً عن الأخرى.

ثمّ تأوّه آهةً طويلةً، وقال: من لي بمنْ أبيعُهُ نصفَ حياتي على أن يكشِفَ لي الحقيقةَ التي أجهَلُهَا؟ ولقد كانَ جديرًا بي أن أقفَ في طريقِهِما عندمَا حاولا الفرارَ منّي، وآبى عليهما أنْ ينصَرِفَا، إلّا بعدَ أن يعترِفَا لي بحقيقةِ أمرِهما، ويمزّقا عن وجهَيْهما هذا الستارَ الذي أسبلاه عليهِما، فإنْ أبَيَا، قتلتُهُما غيرَ ظالم ولا آثم، فليسَ من العدلِ، ولا من الرحمةِ أنْ يذهَبَا إلى خلوَتِهِما، لينعَما فيها بما يشاءَان أنْ ينعَمَا به، ويتركاني في هذا المكانِ وحدي، أعالجُ ما أعالجُ من الهمومِ والآلامِ.

ثمّ قامَ يتحامَلُ على نفسِه، حتّى خرجَ من بابِ الحديقةِ، ومشى يترنّحُ في مشيتِهِ تَرَنُّحَ الشاربِ الثملِ[2]، فما ابتعدَ إلّا قليلًا، حتّى سمعَ صوتًا شديدًا يخفقُ وراءَه، فالتفتَ، فإذا إدوار خارجٌ من الحديقةِ ممتطيًا صهوةَ جوادٍ أصهَب[3]، فاختبأ استيفن وراءَ ربوةٍ على الطريقِ، حتّى دَنَا منه، فخرجَ إليه وأمسَكَ بعنانِ جوادِه، فذعِرُ إدوار إذْ رآهُ ولكنّه تماسَكَ، وقال له: ماذا تريد، يا استيفن؟ قال: أريدُ أن أسألَكَ عن سببِ اختلافِكَ إلى هذا البيتِ، وعن الشأنِ

---

(١) الدثار: ثوب يلبس فوق الثوب الذي يلي الجسد يُستدفأ به.

(٢) الثمل: السكران. (٣) الأصهب: الأحمر والأشقر.

الذي لكَ فيه، وما أعرفُ لكَ فيه شأنًا قبلَ اليوم. قال: لا أستطيعُ أن أجيبَكَ على سؤالِكَ هذا، وأنتَ آخذٌ بعنانِ جوادي لا تتركُه؛ فَدَعْهُ وسَلْني ما تريدُ، فتركَ استيفن العنانَ، إلّا أنّه وقفَ في وجهِ الجوادِ، فقال له إدوار: لو غيركَ سألني هذا السؤالَ بهذهِ اللهجةِ الجافّةِ الخشنةِ التي تخاطِبُني بها، لما كانَ لها جوابٌ عندي، سوى أنْ أقولَ له إنّي حرٌّ مطلقٌ أتصرّفُ في شأنِ نفسي كيفَ أشاء، فأزورُ ما أزورُ من المنازلِ، وأتركُ ما أتركُ منها، دونَ أن أعرفَ لإنسانٍ في الوجودِ حقًّا في مراقبتي، أومساءَلتي عمّا أفعلُ. ولكنْ إكرامًا للصداقةِ التي بيني وبينكَ، أستطيعُ أن أجيبَك على سؤالِكَ هذا جوابًا موجزًا، فأقول لك:

إنّي أختلفُ إلى بيتِ الشّيخ مولر، لأنّي خطيبُ ابنتِهِ، وسأبني بها بعد شهرٍ واحدٍ، ولو شئتَ لحضرتَ حفلةَ عرسنا، بل أنا أدعوكَ إلى ذلك، فارتعَدَتْ شفتا استيفن، وشعرَ بالموتِ يتسرّبُ إلى قلبهِ قليلًا قليلًا، وقال له بصوتٍ خافتٍ ضعيفٍ: أتعني ماجدولين؟ قال: نعم، وليسَ لمولر ابنةٌ غيرها. فأطرقَ استيفن هنيهةً، ثمّ رفعَ رأسَه وقال له: ولكنّك تعلمُ، يا إدوار، أنّي أحبّها، وأنها كلُّ حظّي في هذهِ الحياةِ، وأنّ انتزاعَهَا من يدي إنّما هو بمثابةِ انتزاعِ حياتي من بينِ جنبيّ، فهلْ يهونُ عليكَ، وأنا صديقُك، ورفيقُ صِبَاكَ، وشريكُكَ الدائمُ في سرّاءِ الحياةِ وضرّائِها، أن تقتُلَني؟

قال: أنا أعلمُ أنّكَ تحبُّ هذه الفتاةَ، وأنّكَ اسْتَمَلْتَهَا في بعضِ أيّام حياتِكَ الماضيةِ بعضَ الاستمالةِ، حتّى كادتْ تسقُطُ في أحبولةِ الشقاءِ التي نَصَبْتَهَا لها، لَولا أنْ تدارَكَهَا أبوها، فاستنقَذَها من يَدِك، وطردَكَ من بيتِه طردًا قبيحًا، وحماها ذلكَ المستقبلَ المظلمَ الذي كنتَ تهيّئُه لها، فقاطَعَه استيفن، وقال له: ولكنَّكَ لم تُجِبْني على سؤالي الذي سألتُكَه، قال: وما سؤالك؟ قال: سألتُكَ: هلْ يهونُ عليكَ قتلي، وأنتَ أخي وصديقي، ورفيقُ طفولَتي وصبايَ؟

قال: إنّي ما أردتُ قَتْلَكَ، بلْ أردتُ حياتَكَ، فقد تركْتُ لكَ السبيلَ بعملي هذا إلى الرجوعِ إلى نفسِكَ، والتفكيرِ في شأنِ حاضرِكَ ومستقبلِكَ، فلعلّكَ إن رَوَّأْتَ[1] في أمرِكَ قليلًا، علمتَ أنَّ خيرًا من هذهِ الحياةِ المضطربةِ المبعثرةِ التي تقضِيَها بينَ أحلام خائبةٍ، وأمالٍ كاذبةٍ، الرجوعُ إلى أهلِكَ، والانضواءُ إليهم، والسكونُ تحتَ أجنحتِهِم، والإذعانُ لهم فيما يريدونَ لكَ من الخيرِ في تزويجكَ من تلكَ الفتاةِ الثريّةِ التي اختارُوها لكَ، ولا يذهبْ عليكَ أنّ زواجَكَ من فتاةٍ موسرةٍ[2]، تُظَلِّلُ بوارفِ نعمَتِهَا ضاحي[3] فَقْرِكَ، خيرٌ لكَ من القعودِ مقعدَ الذلِّ، والمترَبَةِ[4] بجانبِ فتاةٍ فقيرةٍ، تضمّ شَقَاءَها إلى شقائِكَ، فتَعيا بحملِهِما معًا، فها أنتَ ترى أنّني أردتُ لكَ الخيرَ فيما فعلتُ، وأسديتُ إليكَ نعمةً إنْ جهلتَهَا اليومَ، فستعرفُها غدًا، وستهدأُ عمّا قليلٍ هذه العاصفةُ الثائرةُ في رأسِكَ، فتعرفَ لي مكانَ اليدِ التي اتّخذْتُهَا عندَكَ، وتشكُرَهَا لي شكرًا جزيلًا.

---

(١) روّأ في الأمر: تأمّل ولم يتسرّع.
(٢) موسرة: غنيّة.
(٣) ضحى الشيء: برز للشمس فهو ضاح.
(٤) المتربة: الحاجة والفاقة.

فما أتى إدوار على آخرِ كلماتِهِ، حتّى طارَ الغضبُ في رأسِ استيفن، وبرزَتْ من مكمَنِهَا تلكَ السَّوْرَةُ التي كانتْ رابضةً وراءَ سكونِه، فانقضَّ عليه ولبَّبَهُ[1] وهزّه هزًّا شديدًا، حتّى كادَ يقتلعُه من سرجِهِ، وأنشأ يقول له: الآنَ عرفتُ مكانَ الخديعةِ التي خَدَعْتُمْ بها تلكَ الفتاةَ المسكينةَ أيّها القومُ الأشرار، ومن أيّ بابٍ دخلتُمْ إلى قلبِهَا، فَعَبَثْتُم به، وإلى عقلِهَا، فطرتُم بصوابِهِ، فقد علمتُمْ ما تضمِرُه لي بينَ جوانِحهَا من الحبّ والإخلاصِ، وأنّها لا تبتَغِي بسعادَتي بدلًا من أغراضِ الحياةِ ومآربِها، فألقيتُم في رُوعِهَا أنّها علّةُ ما ألاقيهِ في هذهِ الحياةِ من بؤسٍ وشقاءٍ، وألّا سبيلَ لي إلى أنْ أنالَ من حياتي حظًّا من سعادةِ العيشِ وهنائِه، إلّا إذا أيأسَتْني من نفسِهَا، وانتزعَتْ يدَهَا من يدي، وقطعَتْ ما كانَ موصولًا من الودّ بيني وبينها، فصدّقَتْ حديثَكُم، وأزعَجَها هذا المصيرُ الذي خَيَّلْتُمْ لها أنّني سأصيرُ إليه بسببها، فأذْعَنَتْ لرأيكم، واستقادَتْ لكم، وفَعَلَتْ ما اقْتَرَحْتُمْ عليها رحمةً بي، وإشفاقًا عليَّ.

كذلكَ استطعتُمْ أن تستثمروا ضعفَهَا، وتستغلّوه لأنفسِكُم، وما بكُمْ من رحمةٍ بي ولا بها، ولكنْ هكذا أرادَ الشيخُ الجشعُ المأفونُ[2] أن يستَمتِعَ بنعمةِ المالِ الذي يعبُدُه ويَدِينُ به، فباعَكَ ابنتَه بيعَ الإماءِ في سوقِ الرقيقِ، وهكذا أردتَ أن تتمتّعَ بشهواتِكَ البهيميّة التي لا تفهَمُ من شؤونِ الحياةِ شأنًا غيرَها، ولا يعنيكَ من زواجِكَ من مثلِ هذه الفتاةِ أمرٌ سواها، فمِثْلُكَ من يعجَزُ عن إدراكِ سريرةِ نفسِها، وما تُضْمِرُهُ بين جوانِحِهَا من نُبْلٍ وشرفٍ، وكلُّ ما تستطيعُ أن تفهَمَهُ منها أنّها فتاةٌ وضيئةٌ حسناءُ، تشبهُ في بهائِهَا، ورونَقِهَا رونَقَ أولئكَ الفتياتِ الجميلاتِ اللواتي طَالما خَدَعتهُنَّ عن أنفسِهِنّ، وقضيتَ لياليكَ في مقاصيرِهنّ، ثمّ ما لبثْتَ أن نَفَضْتَ يَدَكَ منهنّ، وتركتَهُنّ يندُبْنَ حياتهنّ وآمالهنّ، ولو استطعتَ أن تسلُكَ إلى المتعَةِ بهذهِ الفتاةِ تلكَ السبيلَ التي سَلَكْتَهَا إلى المتعةِ بأولئك الفتياتِ، لَفَعَلْتَ، ولما جَشَّمْتَ نفسَكَ مشقّةَ الزواجِ منها، ولأَغْنَتْكَ ليلةٌ واحدةٌ تقضِيها في مخدعِهَا، عن أن تحبسَ نفسَكَ عليها الدهرَ كلَّه.

ومَنْ كانَ هذا همَّه من حياتِهِ، فويلٌ لزوجَتِهِ منهُ، وويلٌ له منها، وويلٌ لهما من شقائِهما الدائمِ الطويل.

فقالَ لهُ إدوار: إنْ كنتَ تريدُ أنْ تقولَ إنّها أُرغِمَتْ على زواجِهَا إرغامًا، أو خُدِعَتْ فيه خديعةً، فأنت مخطئٌ في ظنّكِ، لأنّها قد نَسيتْ كلّ ماضِيها خيره وشرّه. ولم يبقَ بين يديها، إلّا حبُّها لخطيبِهَا، وإخلاصُها إليه، وتعليلُ نفسِهَا باليومِ الذي تَسْعَدُ فيه بجانبِهِ.

فاستطيرَ استيفن غضبًا، وقال: كذبتَ أيّها الرجلُ الساقطُ. إنّها أشرفُ ممّا تَظُنُّ، وانقضّ عليه يريدُ الفتكَ به، فأمسكَ إدوار بيديهِ، وقال له بنغمةِ المستعطفِ المسترحم: أتريدُ أن تقتُلني، يا استيفن؟ فاستخذى استيفن وتضاءَلَ، وتراءى له طيفُ ذلكَ الودِّ القديمِ الذي كانَ بينَه وبينَه، ونظرَ إليه بعينينِ مغرورقتينِ بالدموعِ، وقال له: لا، يا إدوار، لا أستطيعُ أن أقتُلَكَ،

---

(١) لببه: أخذ بتلبيبه أي جمع أثيابه.   (٢) المأفون: الفاقد العقل.

لأنّكَ صديقي، ولقد وقفتُ مرّةً في حياتي، أسفُكُ بضعَ قطراتٍ من دَمي فداءً عنكَ، فلا أندمُ على معروفي قطّ، ولا أستردّ يدي التي اتّخذْتُها عندَ الله فيكَ أبدًا.

ثمّ ألقى برأسه على قربوس[1] السرجِ، وأخذَ يدَ إدوار بين يديهِ، يبلّلُها بدموعِهِ، وظلّ يناشِدُه ويقول: إنّني لا أدعوكَ، يا إدوار، باسمِ الصداقةِ التي رَضعنَا ثَدْيَها منذُ طفولتنا معًا كما يتقاسَمُ الأخوانِ ثديَ أمّهما، ولا باسم المدرسةِ التي أظلّتنا سماؤُها، وأقلّتنا أرضُها خمسةَ أعوام كاملةٍ آنسُ بكَ فيها، وتأنَسُ بي، وأعينُكَ على أمرِكَ، وتعينُني على أمري، ولا باسم ذلكَ الشهيدِ المسكينِ أوجين الذي كانَ كريمًا عليكَ وعليّ، وكان يرعى لكَ ودّكَ، ويحفظُ عهدَك، حتّى ماتَ، وهو يعتقدُ أنّه قد تركني من بعدِهِ في كلأةٍ[2] أخٍ كريم، وصديقٍ حميم، ولا باسم اليمينِ التي أقسَمْتَهَا لي ليلةَ سفرِكَ من «جوتنج» ألّا يَهدأَ لك في حياتِكَ رَوْعٌ، ولا يثلَج لكَ صدرٌ، حتّى أنالَ أمنيتي من حياتي، بلْ أدعوكَ باسمِ الرحمةِ والشفقةِ، لأنّك محسنٌ كريمٌ، ولأنّي بائسٌ مسكينٌ، وليسَ للبائسِ المسكينِ من سبيلٍ في حياتِه، غيرُ رحمةِ المحسنِ الكريم.

فلم يعبأ إدوار بذلكَ كلّه، وتغفّلَهُ وهمزَ[3] جوادَه، فطارَ به ملءَ فروجِهِ، فركضَ استيفن وراءَه، فلم يدرِكْه، وكانَ قد أعياهُ الجهدُ، فسقطَ في مكانِه، وهو يقول: «لا بدّ أنْ يكونَ ما قالَهُ صحيحًا».

ولم يزلْ في سقطَتِهِ تلكَ، حتى مرّ به بعضُ السابلةِ[4]، وكانَ قد رآهُ عندَ حضورِه، فعرفَهُ، فأذِنَ به سائقَ عجلتِه، فهرعَ إليه الحوذيُّ[5] وأخذَ بيدِه حتّى أركبَ العجلة، ثمّ ذهبَ به إلى منزلِه.

فما انفردَ بنفسِه في غرفتِه، حتّى أخذَ يصيحُ صياحَ المجانين، ويضربُ رأسَهُ بالجدرانِ، وهو يقول: «آه! لقد فقدتُكِ يا ماجدولين».

ـ من استيفن إلى ماجدولين

أصحيحٌ يا ماجدولين أنّ ما كانَ بيننا قد انقَضَى؟! وأنّنا أصبَحْنا متناكرين غير متعارفينِ لا يذكرُ الواحدُ منّا صاحبَهُ، إلّا كما يذكرُ حُلمًا من أحلامِ صباهُ قد عَفَتْ[6] آثارَهُ الأيّامُ والأعوام؟

أصحيحٌ أنّنا إذا التقينَا بعدَ اليوم في طريقٍ واحدٍ، مَضَى كلٌّ منّا في سبيلِهِ دونَ أن يلوي على صاحِبه، أو في مجتمعٍ لا يكونُ بيَنَنَا من الشأنِ، إلّا كما يكونُ بين سائرِ رجالِ هذا المجتمعِ ونسائِه، أو في خلوةٍ لا نجدُ ما نتحدّثُ به أو لا نتحدّثُ إلا بحديثِ الأجواءِ والأمطارِ؟

---

(١) القربوس: القسم المقوّس من السرج.

(٢) الكلاءة: الرعاية و[illegible]

(٣) همز: ضرب بالسوط والمهماز.

(٤) السابلة: المارّو[illegible] الطريق.

(٥) الحوذي: سائق العربة

(٦) عفت: محت.

ما أسرعَ تقلّباتِ الأيّام! وما أغرَبَ تصاريفَها وشؤونَها؟!

أفيما بينَ يوم وليلةٍ، تنهدمُ جميعُ الآمالِ الجسامِ التي بنينَاها، وأحكَمْنَا بناءَها، وبَذَلْنَا في سبيلهَا همومَنَا، وآلامَنَا، وأرقْنَا من أجلِها كلَّ ما نملكُ من دموعٍ، وشؤونٍ، وتصبحُ أثرًا من الآثارِ الدارسةِ التي يتحدّثُ عنه التاريخُ الحاضرُ كما يتحدّثُ عن التاريخ الغابر!؟

هكذا تقومُ الساعةُ، وهكذا ترجفُ الراجفةُ[1]، وهكذا تُنْثَرُ الكواكبُ في الفضاءِ، وتُطْوَى السماءُ طيَّ السجلِّ للكتاب.

لقد كنتُ أحسبُ، يا ماجدولين، ألّا يتولّى ذلكَ الأمرَ منّا غيرُ الموتِ، أمّا وقد تولّيناهُ من أنفسِنَا بأنفسِنَا، ونَسَجْنَا خيوطه بأيدِينا، ونحنُ أحياءُ، فتلكَ أعجوبةُ الدهرِ التي لم يرَ مثلَهَا راءٍ، ولا سمعَ بمثلِ حديثِهَا سامعٌ؟

ماذا أنكرتِ منّي، يا ماجدولين؟ وماذا دهاني عندَكِ؟

لقد أحبَبْتُكِ حبًّا، لم يحبّه أحدٌ من قبلي أحدًا، وأخلصْتُ لكِ إخلاصًا، لا يضمِرُ مثلَهُ أخٌ لأخيه، ولا والدٌ لولَدِه، وأجلَلْتُكِ إجلالَ العابدِ لمعبودِهِ، فما خنتُكِ في سرٍّ، ولا جهرٍ؛ ولا كذبتُكِ في قولٍ، ولا عملٍ، وملأتُ فراغَ حياتي كلّه بكِ، فلا أنظُرُ إلّا إليكِ، ولا أشعرُ إلّا بكِ، ولا أحلمُ إلا بطيفِكِ، ولا أطربُ لرؤيةِ الشمسِ ساعةَ شروقِهَا، إلّا لأنّي أرى فيها صورَتَكِ، ولا لسماعِ أغاريدِ الطيرِ في أفنانِهَا، إلّا لأنّي أسمعُ فيها نغمةَ حديثِكِ، ولا لمنظرِ الأزهارِ الضاحكةِ في أكمامِهَا، إلّا لأنّها تمثّل لي ألوانَ جمالِكِ، ولا تمنّيتُ لنفسي سعادةً في هذهِ الحياةِ إلّا من أجلِ سعادَتِكِ، ولا آثرْتُ البقاءَ، فيها إلا لأعيشَ بجانبكِ، وأستمتِعَ برؤيتِكِ.

إنْ كنتِ ترينَ أنّي لا أستحقُّ محبّتَكِ، وأنّي أصغرُ شأنًا من أن أملأَ فراغَ قلبِكِ، فأحبّي فيَّ حبّي إيّاكِ، وإخلاصي لكِ، واجزيني خيرًا بما بذلتُ لكِ في حياتي من دموعٍ، وآلامٍ، وشجونٍ، وأحزانٍ، واعلمي أنّك إنِ استطعتِ أنْ تجدي بين الرجالِ من يرضيكِ بجمالِهِ، أو مالِهِ، أو حَسَبِهِ، أو جاهِهِ، فإنّكِ لا تستطيعين أن تجدي فيهم من يحبُّكِ محبّتي، أو يخلصُ لكِ إخلاصي.

أنّهمْ قد خدعوك، يا ماجدولين، وزيّنوا لكِ حُبَّ المالِ والشهواتِ، وخيّلوا إليكِ أنْ الحياةَ طعامٌ، وشرابٌ، وثوبٌ فاخرٌ، وقصرٌ باذخٌ، وعقدٌ ثمينٌ، وقرطٌ جميلٌ، وأنّ الزواجَ شركةٌ ماليّةٌ يتعاونَ فيها الزوجانِ على جمعِ المالِ واكتنازِه، وما علموا أنّ الزواجَ الماليّ، نوعٌ من أنواعِ البغاءِ، وأنّ المرأةَ التي تتزوّجُ الرجلَ لمالِهِ، لا تتزوّجُه كما تزعَمُ، بل تبيعُه نفسَها بيعًا، كما تبيعُ البغيُّ جسمَها لعاشِقِها، بل هي أحطُّ لقمةٍ تقيم بها أَوَدَهَا[2]، أو خرقةٍ تسترُ بها ضاحِي[3] جلدِها، فينفسحُ لها صَدْرُ العذرِ في ذلكَ، بل من أجلِ عقدٍ ثمينٍ تطمعُ في أن تُزَيّنَ به صدرَهَا، أو ثوبٍ فاخرٍ تكاثِرُ به أترابَهَا، أو قصرٍ جميلٍ تستمتِعُ في جوّه بأنواعِ لذائِذِها.

---

(١) الراجفة: القيامة.

(٢) الأود: الاعوجاج وهنا بمعنى الحاجة.

(٣) الضاحي: الظاهر البارز.

لا تصدّقي، يا ماجدولين، أنّ في الدنيا سعادةً غيرَ سعادةِ الحبّ، فإنّ صَدّقْتِ فويلٌ لكِ منكِ، فإنّك قد حَكَمْتِ على قلبِكِ بالموت.

لقد كنتِ عندي آخرَ من يحفلُ بأمثالِ هذه المظاهرِ الكاذبةِ، ويأبَهُ لها، وكانَ أكبرُ ما أعْظَمَكِ في عيني، وأَجَلَّكِ في نفسي، واستعبَدَني لكِ أنّكِ المرأةُ التي وجدتُ فيها، وحدَهَا من بين النساءِ جميعًا، قلبًا نقيًّا طاهرًا، يفيضُ بالحبّ النقيّ الطاهرِ الذي لا تشوبُه[1] شوائبُ النوازعِ والشهواتِ، ولا يكدّرُهُ مكدِّرٌ من أعراضِ الحياةِ، ومطامِعِها، فهل كنتُ مخطِئًا في ظنّي؟

لا.. لا. إنّكِ لا تزالينَ صاحبةَ ذلكَ القلبِ الذي أعرفُه حتّى الساعةِ، وهذا هو الذي أخافُهُ عليكِ، وأرثي لكِ من أجلِه.

أنتِ لا تعلمين شيئًا من شؤونِ إدوار، وأنا أعلَمُ من شؤونِهِ كُلَّ شيءٍ وأخصُّ ما أعلمُ منها، أنّه لا يحمِلُ بين جنبيهِ قلبًا مثلَ قلبِكِ، ولا يفهَمُ من معنى الحبّ وسرّه، المعنى الذي تفهمينَ، ولا يستطِيعُ أنْ يكونَ شريكًا لك بحالٍ من الأحوالِ في شعورِكِ، ووجدانِكِ. وكلُّ شأنِه معَكِ أنّه رآكِ، فاستملَحَكِ، فاشتَهاكِ، والملاحةُ عَرَضٌ زائلٌ، والشهوةُ ظلٌّ مُتَنَقِّلٌ، فأخشى عليكِ أن ينالَكِ بعد قليلٍ على يدِه ذلكَ الشقاءُ الذي تفرّينَ منه اليومَ، وألّا ينفعَكِ، ولا يُجْدِي عليكِ شيئًا في ذلكَ الحينِ مالٌ ولا نسبٌ، ولا فضّةٌ ولا ذهبٌ، ولئِنْ تمّ لكِ ذلكَ، لأكوننَّ أشقى الناسِ عيشًا، وأعظَمَهُمْ بؤسًا، لأنّي أحبُّكِ، وأحبُّ لكِ السعادةَ في كلّ موطنٍ تكونينَ فيه، من أجلِكِ لا من أجلِ نفسي.

ليتَ شعري! هل يصلُ صوتي إلى أعماقِ قلبِكِ، يا ماجدولين، كما كانَ يصِلُ إليهِ قبلَ اليوم؟ وهل تستطيعينَ أن تتصوّري كما كنتِ تتصورينَ من قبلُ أنّني أحبّكِ لنفسِكِ أكثرَ ممّا أحبُّكِ لنفسي، وأنّني فيما أفضيتُ به إليكِ من تلكَ النصيحةِ إنّما أردتُ سعادَتَكِ وهناءَكِ، أكثرَ ممّا أردتُ سعادةَ نفسِي وهناءَها!



٦٤ ـ من استيفن إلى ماجدولين

لَقَلَّما أبقَى على ما أرى.

الحياةُ مظلِمةٌ في عيني، والدنيا موحشةٌ مقفرةٌ، لا أسمعُ فيها حسًّا ولا حركةً. الليلُ متواصلٌ لا ينقطعُ، وكأنّ الناسَ رقودٌ في مضاجعهِمْ ليلَهُمْ ونهارَهُمْ، لا يستيقظونَ، ولا يستفيقونَ، ويُخَيَّلُ إليّ أنّني أعيشُ في صحراءَ نائيةٍ منقطعةٍ عن العالم وما فيه، لا يمرّ بها طيرٌ، ولا يجري فيها نهرٌ، ولا يَطَأُ تربَتَها إنسانٌ، ولا يجولُ في أكنافِهَا حيوانٌ، وأنّني أهيمُ

(١) تشوبه: تخالطه.

فيها، وحدي، ليلي ونَهَاري أطلبُ الخلاصَ منها، فلا أعرفُ السبيلَ إليه، وأحملُ نفسي على البقاءِ فيها، فيقتُلُني الضجرُ والضيقُ.

فمتى يحينُ حَيْني[1] وتأتي ساعتي، فأرتاحُ من همومي وآلامي؟

لا شيءَ يعزّيني عنكِ في العالم، يا ماجدولين، لأنّكِ كنتِ لي كلَّ شيءٍ فيه، فلمّا فقدتُكِ، لمْ أجدْ عنكِ عوضًا، ولا بدلًا، وكنتُ كَمَنْ قامرَ في ساعةٍ واحدةٍ بجميعِ ما تملكُ يده، فلما خَسِرهُ، خَسِرَ كلَّ شيءٍ.

كانتْ لي آمالٌ كبارٌ، وأمانٍ حسانٌ، وكانتْ لي نفسٌ مملوءةٌ بعظائمِ الأمورِ وجلائِلِها، وكنتُ أشعرُ بقوّةٍ في جسمي، لا يقومُ لها شيءٌ في هذا العالم، فأصبحتُ رجلًا ضعيفًا، خامدًا، متألّمًا، يائسًا، قَانِطًا، لا أشعرُ، ولا أفكّرُ، ولا آخذُ، ولا أَدَعُ، ولا أتّجه إلى مقصدٍ، ولا أتعلّق بغرضٍ، ولا أجلبُ لنفسي خيرًا، ولا أدفعُ عنها ضرًّا، ولا شأنَ لي بينَ الناسِ أكثرُ من شأنِ جثّةٍ ملقاةٍ لا روحَ فيها، أو حجرٍ مطروحٍ في قارعةِ الطريق.

ألا تخافينَ، يا ماجدولين، أنْ يأخُذَكِ الله بذنبي يومَ يأخُذُ الناسَ بذنوبهمْ، ويسألَكِ عن هذه النفسِ الطيّبةِ الطاهرةِ التي قَتَلْتِهَا، وفَجَعْتِهَا في جميعِ فضائِلِها ومواهِبِها، وأنْ يتبَعَكِ صوتي في كلّ مكانٍ تكونينَ فيه، في خلواتِكِ ومجتمعَاتِكِ، ومنامِكِ، ويقظَتِكِ، وبينَ ذراعي زوجِكِ، وبجانِبِ مهودِ أولادِكِ، ويصيحَ بكِ: إنّكِ قد قَتَلْتِ رجلًا، لو عاشَ، لكانَ أفضلَ مثالٍ للأزواجِ الصالحينَ، والآباءِ الرحماءِ، والأصدقاءِ الأوفياءِ، ولكانَ خيرَ النّاسَ للناسِ جميعًا؟!

ألم تعدِيني، يا ماجدولين، أنْ تسهري على سعادَتي، وتحرسِيها كما تحرسُ الملائكةُ سعادةَ البشرِ وهناءَهُم؟ فهأنذا أشقى الناسِ جميعًا، وأعظمُهُم بؤسًا وبلاءً، فأينَ ما وَعَدْتِني به؟

تعالي إليَّ، وقِفي أمامي ساعةً واحدةً، لأراكِ، وأرى في وجهِكِ صورةَ سعادتي الزائلةَ، وآمالي الضائعةَ، وأسمِعيني صوتَكِ العذبَ الجميلَ الذي أسمعتِنيه من قبلُ، وأَلْقِي عليَّ نظرةً واحدةً من نظراتِكِ العذبةِ الرائقةِ، تُحيي بها نفسي الميتةِ؛ وقولي لي صدقًا، أو كذبًا إنّكِ لا تزالينَ تحبّينني، وتعطفينَ عليَّ، ثمّ لا تزيدي على ذلك شيئًا؛ فقد أصبحتُ أقنعُ منكِ بكلِّ شيء.

أقسم لك يا ماجدولين، إنّني لو رأيتُكِ في طريقي، لهرعتُ إليكِ، وجَثَوْتُ تحتَ قدميكِ، كما يجثو العابدُ تحتَ قدمي معبودِه، وسألتُكِ البرّ والإحسانَ، كما يفعَلُ السائلُ المستجدي، فإنْ أعرضْتِ عنّي، زحفتُ وراءَكِ على ركبتيّ، وتعلّقْتُ بأهدابِ ثوبِكِ، حتّى تصغِي إليَّ، وتسمَعِي شكاتي.

ولكنْ ماذا أقولُ لكِ؟ وماذا عندي من الأحاديث، فأحدّثكِ به؟ لا شيءَ عندي سوى أنْ أذرفَ دموعي تحتَ قدميكِ، وأمدَّ يدي إليكِ صامتًا، ثمّ أضعُ حياتي بين يديكِ، فإمّا أحييتِني، أو قَتَلْتِني.

إنّني أتألّمُ كثيرًا، يا ماجدولين؛ ولا أحسَبُ أنّ في العالمِ نفسًا تحملُ ما تحملُهُ نفسي من

---

(١) الحين: الهلاك.

الآلامِ والأوجاعِ، فارحميني، واعطفِي عليَّ، فإنْ لم أكنْ كفؤًا لمحبّتِكِ، فامنحيني صداقَتَكِ، فإنْ أبيتِهَا، فأسبلي عليّ سِتْرَ حمايتِكِ، فإنْ ضَنَنْتِ بها، فائذني أنْ أسيرَ وراءَكِ في كلِّ مكانٍ تسيرينَ فيه كما يتبَعُكِ كلبُكِ الذليلُ، لأراكِ وأسمعَ صوتَكِ، وأستنشقَ الهواءَ الذي يحيطُ بكِ، لأنّي لا أستطيعُ أن أعيشَ في العالمِ دونَ أن تكونَ لي صِلةٌ بكِ.

كنتُ قد وضَعْتُ قبلَ اليومِ بين يديكِ سعادَتي وهنائي، أمّا الآنَ، فقد حالَتِ الحالَ؛ وتراجعتِ الآمالُ، وأصبحتُ لاَ أطمعُ في أنْ أضعَ بين يديكِ شيئًا غيرَ حياتي.

فهل تُبقينَ عليها؟

❋ ❋ ❋

٦٥ ـ من استيفن إلى ماجدولين

لِيَ اللهُ من بائسٍ مسكينٍ، فقد ذَبُلَتْ زهرةُ حياتي قبلَ أن تَتَفَتّحَ، ودبّتْ إليَّ الشيخوخةُ وأنا لا أزالُ في ريعانِ الشبابِ، وانطفأَ ما كان مشتعلًا في قلبي من الهمّةِ وفي رأسي من الذكاءِ، وفي جسمي من القوّة، وانقطعَ ما كانَ موصولًا بيني وبين الناسِ جميعًا، فماتَ أخي، وطَرَدني أبي، وعاداني أهلي، ولم يكنْ باقيًا لي في العالمِ سواكِ، ثمّ انقضى ما كانَ بيني وبينَكِ، فأيُّ أرَبٍ لي في العيشِ من بعدِ ذلك.

أتدرينَ لِمَ أؤثرُ الحياةَ على الموتِ، يا ماجدولين، وقد كانَ الموتُ أروحَ لي ممّا أكابدُه؟ لأنّي لستُ على يقينٍ ممّا بعده، وأخشى إنْ حَلَّ بي أن ينتزعَ منّي ذكرى تلكَ الأيّامِ الجميلةِ التي تمتّعْتُ فيها بحبّكِ وعطفِكِ، وبحلاوةِ الأملِ فيكِ، والتي هي كلُّ ما بقيَ في يدي بعدَ الذي كانَ، ولولاَ ذلك، لَقتلتُ نَفسِي، ثمّ استحالت روحي إلى طائرٍ جميلٍ، يطيفُ بكِ، ويرفرفُ على رأسِكِ حيثما ذهبتِ، ويتناولُ الحَبَّ من يدكِ مرّة، والقبلاتِ من فِمِكِ أخرى، فأظفرُ منكِ مَيْتًا بما عجزتُ عنهُ حيًّا.

إنّكِ سلبتني سعادتي، يا ماجدولين، ولكنّكِ لم تعطني شيئًا بدلًا منها أعيشُ به، بلْ تركتِني وشأني، كما يتركُ المسافرُ رفيقَه الجريحَ الظامئَ في الصحراءِ المحرقةِ لا ظلَّ فيها، ولا ماءَ، وينجو بنفسِه غيرَ مبالٍ بما تصنعُ به المقاديرُ من بعدِه، فما أقسَاكِ، وما أبعدَ الرحمةَ من قلبك!

رُدي عليَّ أمانيَّ، وآمالي، ولياليَّ التي قضيتُها فيكِ ساهرًا متململًا، وحياتي التي وضعتُهَا بين يديكِ، ووكلتُ أمرَها إليكِ، وأعيدي إليَّ عطفي، وحَناني، ورحمتي وإشفاقي، وجميعَ عواطفِ قلبي التي ضَنَنْتُ بها على أهلي وقومي جميعًا، وآثرتُكِ بها من دونِهم، وعقيدتي في الحبّ، والهناءِ، وإيماني باللهِ، وبقاءِ الخيرِ في الأرض.

ماذا تقترحينَ عليَّ، يا ماجدولين، وأيّةُ ذخيرةٍ من ذخائرَ الأرضِ، أو كنزٍ من كنوز السماء تحبّين أنْ أضعَه بين يديكِ؟ أتريدينَ قصرًا من المرمَرِ الأبيضِ، أو صهريجًا مملوءًا باللؤلؤ

الرطبِ، أم بساطًا مصوغًا من الجوهر، أم حلّةً منسوجةً من أشعّةِ الشمسِ، أم تاجًا مرصّعًا، تتضاءَلُ بين يديه تيجانُ الملوكِ والأقيال[١]؟ لقد أصبحَ ذلكَ كلّه لكِ، وليسَ بينِكِ وبينَه، إنْ أردتِه، إلّا أنْ تُعيدي إلى قلبي الأملَ الذي سلبتِنيه، فأصبحَ أقوى الناسِ جميعًا وأقدرَهُم على امتلاكِ ناصيةِ الكونِ بأجمعِه؛ أرضِه وسمائِه.

آه ما كانَ أشدَّ سروري، وفَرحي يومَ أعددتُ لكِ ذلكَ البيت الصغيرَ في «جوتنج»، وبنيتُ لكُ فيه تلكَ الغرفةَ الزرقاءَ الجميلةَ، ووضعتُ فيها ذلكَ السريرَ، كنتُ أرجو أن يكونَ الدوحةَ الفينانة[٢] التي أنعمُ بكِ في ظلالِها، وأنشأتُ تلكَ الحديقةَ البديعةَ التي لم أدَعْ زهرةً تحبّينها، أو يحبّها أبوكِ إلّا غرستُها فيها، وكنتُ كلّما دخلتُ ذلكَ المنزلَ، ووقفتُ في فنائِه لحظةً، خُيِّلَ إليّ أنّه آهِلٌ بكِ، وأنّ صوتكِ العذبَ الشجيَّ، يرنُّ في أنحائِه، وأنّ أولادَنا يلعبونَ بين أيدينا في حديقتِه، ويقطفونَ أزهارَهَا، وورودَهَا، ويقدّمُونها هديّةً إلينا؛ بل كنتُ أتخيّلُ عندما كنتُ أدخلُ غرفةَ زينتِكِ أنّي أراكِ جالسةً إلى مرآتِكِ فيها، تمشّطينَ شعرَكِ الأصفرَ الجميلَ، وأنّني واقفٌ وراءَكِ، أغمسُ يدي في ذلكَ الخليجِ الذهبيِّ الرجراجِ، وأختلسُ منهُ قبلةً بعد أخرى.

أما اليومَ، فقد ذَبُلَ كلُّ شيءٍ فيه، وضَوَى[٣]، فانقطعَ الماءُ عن حديقَتِهِ، وذوتْ أشجارُه وأزهارُه، وعصفتِ الريحُ بنوافِذِه وأبوابِهِ، وكستِ الترب أرضَه وسقوفَهُ، فأصبحَ كالعروسِ الحسناءِ التي نزلتْ بها منيّتُهَا ليلةَ زفافها.

أصبحتِ لا تكتبينَ إليّ حرفًا واحدًا، ولا تجيبينَ عن كتابٍ واحدٍ من كتبي، وما كانَ ذلكَ من شأنِكِ قبلَ اليوم؛ فاكتبي إليّ كلمةً واحدةً قولي فيها ما تشائينَ من خيرٍ أو شرٍّ، فقد وطّنْتُ نفسي على احتمالِ كلِّ شيء.



٦٦ ـ من استيفن إلى ماجدولين

لم تكتبي إليَّ تلكَ الكلمةَ التي ضرعتُ إليكِ فيها، وعهدي بكِ أنّكِ مشيتِ قبلَ اليوم على قدميكِ بضعَ ساعاتٍ كابدتِ فيها ما كابَدْتِ من الأهوالِ العظامِ، حتّى وَصَلْتِ إلى صندوقِ البريدِ في قريةٍ بعيدةٍ عن قريتِكِ، فَبَعَثْتِ إليّ برسالتِكِ، فهل ذهبَ ذلكَ الماضي بأجمعِه، ولم يبقَ في نفسِكِ منهُ أثرٌ واحد؟

لا أستطيعُ أنْ أصدّقَ ذلكَ، فكلُّ ما حولَكِ يذكّركِ بي، وبأيّامي التي قضَيْتُها معكِ،

---

(١) الأقيال: جمع قيل وهو الرئيس. (٢) الفينانة: ذات الأغصان الطويلة الليّنة.
(٣) ضوى: مال، زال.

فهناكَ الشمسُ التي كنّا نستقبلُها معًا طالعةً، ونودّعُها غاربةً، والقمرُ الذي كان يشرفُ علينا من علياءِ سمائِه، ويرسلُ إلينا أشعّته الفضيّةَ البيضاءَ، فتضمّنا غلالتُها، والمقعدُ الذي كنّا نجلسُ عليه بينَ الظلِّ والماءِ، ويدُكِ في يدي، ورأسُكِ على صدري، وخدُّكِ تحتَ متناولِ لَثَماتي، والبحيرةُ التي كنا نقضِي فيها كلّ يوم ساعةَ الأصيلِ، سائرين على ضفّتها، صامتين، تتحدّثُ قلوبُنا بما تمسِكُ عنه ألسنَتُنَا، ثمّ نعودُ وبودّنا أنْ لو استمرَّ بنا المسيرُ أبدَ الدهرِ إلى دارِ الخلودِ، والغرفةُ التي التقينا فيها ليلةً، وبلَلْنا تربَتَها بدموعِنا، وأقسمْنَا، بين سمائِها وأرضها، يمينَ الوفاءِ حتّى الموت.

إنّي أناديكِ في اليوم مائةَ مرّةٍ، يا ماجدولين، صارخًا، مستغيثًا، باكيًا، منتحبًا؛ لا أهدأُ، ولا أستريحُ، وأنتِ لاهيةٌ عنّي بذلكَ الشأنِ الجديدِ الذي استحدثْتِهِ لنفسِك؛ لا تسمعينَ ندائي، ولا ترثِينَ لمصابي؛ وما أعلمُ أنّي أذنبتُ إليكِ في حياتي ذنبًا واحدًا، تأخُذِينَني به، بلْ أعلمُ أنّي اقترَفْتُ جميعَ الذنوبِ، والآثامِ من أجلِك.

إنْ كنتِ مررتِ مرّةً في حياتِكِ بامرأةٍ جاثيةٍ على قبرِ زوجِها، تندُبه، وتبكِيهِ أحرّ بكاءٍ، وأشجاهُ، لأنّها كانتْ تحبّه حبًّا جمًّا، ولأنّهُ تركَها في ريعانِ شبابها فقيرةً معدمةً، وتركَ لها أطفالًا صغارًا، لا حولَ لهم في الحياةِ، ولا قوّةَ، فحزنتِ لحزنِها، وبكيتِ لبكَائِها.

أو رأيتِ في طريقِكِ فتاةً فقيرةً هائمةً على وجهِهَا، تبكي، وتنتحبُ، وتسألُ الغادينَ والرائحينَ أن يمنحُوها دِرْهمًا واحدًا، تبتاعُ به دواءً لأخيها الصغيرِ المريضِ الذي لا سَنَدَ له غيرها، ولا عائلَ له سواهَا، فأويتِ لها، وأسعَفْتِهَا بطَلْبَتِهَا.

أو مررتِ بضفّةِ نهرٍ، فرأيتِ امرأةً واقفةً به، تعولُ، وتصيحُ، وتستصرخُ الناسَ لوحيدِها الذي يغرقُ في النهرِ أمامَها، فلا تجدُ من يعينُها عليهِ، حتّى سقَطَ سقطةً لم يَطْفُ من بعدها، فَجُنَّ جُنُونُها، واندفعتْ وراءَه بثيابِها، فطواهُما البحرُ معًا في لحظةٍ واحدةٍ، فأعْظَمْتِ نكبَتَهَا، وبكيتِ مصيرها.

أو سمعتِ بقصّةِ ذلكَ الشيخِ المسكينِ الذي دخلَ عليه الجندُ منزلَه، وهو جاثٍ بجانبِ زوجةِ المحتضرةِ، وابنتِه المريضةِ، ليأخذُوه إلى السجنِ لأنّه كانَ قد سرَقَ من أجلِهما بالأمسِ رغيفًا يقيمُ به أَوَدَهُما[١]، فسألَ الجندَ أن يمهلُوهُ ساعةً واحدةً حتّى يرى ما يصنعُ القضاءُ بعيلتِه، فأبوا ذلكَ عليهِ، فعَظُمَتْ عليه النازلةُ[٢] فذهبتْ بعقلِهِ، فعدلَ به الجند عن طريقِ السجنِ إلى طريقِ المارستان[٣]، أو سمعتِ بقصّةِ ذلكَ الرجلِ الذي ضلّ في مفازةٍ مقفرةٍ، فاشتدَّ به العطشُ، وهامَ على وجهه في كلِّ مكانٍ، يطلبُ الماءَ فلا يجدُه، حتّى أعياهُ الجهدُ، وعجزَ عن المسير، ثمّ لمحَ على البُعْدِ صفحةَ ماءٍ تترقرقُ، فما زالَ يزحفُ على ركبتيهِ إليها، ويخضّبُ الحصى بدَمِهِ

(١) الأود: الاعوجاج وهنا بمعنى الحاجة. (٢) النازلة: المصيبة.
(٣) المارستان: المستشفى.

المتدفّقِ، حتّى إذا دَانَاهَا، ولـم يبقَ بينَه وبينَها إلّا خطوةٌ واحدةٌ، سقطَ من دونِهَا ميتًا.

أو قرأتِ قصّةَ تلكَ المرأةِ التي رآهَا الناسُ في إحدى المجالاتِ جالسةً أمامَ كوخِهَا، وفي حُجْرِهَا كتلةٌ لحمٍ حمراءُ مختلفةٌ، وبينَ يديها قِدْرٌ يتصاعدُ بخارُها، فلمّا دنوا منها، هَالَهُم أن رأوا في يدِهَا سكّينًا مخضبّة بالدمِ، ورأوا قَدَمًا صغيرة بارزةً من القِدْرِ، فعلموا أن الجوعَ قد أفقَدَهَا عقلَها، وأنّ هذهِ الكتلةَ الحمراءَ التي في حُجْرِهَا إنّما هي رضيعُها، قد ذَبَحَتْهُ، وأنشأتْ تقطّعُ أوصالَهُ بمُدْيَتِهَا[١] وتطبخُها لتأكُلَها.

إنْ كنتِ سمعتِ بخبرِ هؤلاءِ المنكوبينَ، وسمعتِ أنينَ المعذّبينَ في السجونِ، وصراخَ المرضى في المستشفياتِ، وضحكَ المجانينِ في المارستاناتِ[٢]، فرثيتِ لهم، وأويتِ لمصابهِمْ، فاعلمي أنّني أشقَى من هؤلاءِ جميعًا، وأنّني أولَى منهُمْ برحمتِكِ وإشفاقِكِ، وعطفِكِ وحنانِك.

لم تَبْقَ فيَّ بقيّةٌ تحتملُ أكثرَ ممّا احتملتُ، وربّما لا أستطيعُ أن أكتبَ إليكِ غيرَ هذا الكتابِ، فقد بلَغَ بي الضعفُ منتَهاه، وأظلَمَ بصري، فما أكادُ أبصِرُ شيئًا. فالوداعُ، يا ماجدولين، وداعُ الحياةِ إنْ كانَ لا يزالُ في الأَجَلِ بقيّةٌ، أو وداعُ الموتِ إنْ كانتِ الأخرى.

❀ ❀ ❀

٦٧ - من ماجدولين إلى ستيفن

لا أكتمُكَ، يا سيّدي، أنّي بكيتُ كثيرًا عندَ قراءةِ رسائِلكَ، ولكنّني عدتُ إلى نفسي، وقلتُ إنّها زفرةٌ من زفراتِ اليأسِ، ستطفِئُها الأيّامُ كما أطفأتْ غيرَهَا من زفراتِ اليائسينَ، وربّما علمتُ بعدَ قليلٍ منَ الأيّامِ، أنّ اللهَ قد اختارَ لكَ فيما كانَ، وأنّه قد أعدَّ لكَ من حيثُ لا تحتسبُ حياةً أسعدَ وأهنأَ من هذهِ الحياةِ التي تندُبُها، وتبكِيها.

أنتَ تعلمُ، يا استيفن، أنّني فتاةٌ فقيرةٌ، وأنّك فتًى لا مالَ لكَ، أو لا تملكُ من المالِ ما يقومُ بشأنِكَ، زوجًا، ووالدًا، فخيرٌ لي ولَكَ، أنْ نفترقَ، وأنْ يسلُكَ كلٌّ منّا في حياتِه الطريقَ التي يعلَمُ أنّها تنتهي به إلى سعادةِ عيشِه وهنائِه، أَحْبَبْنَا ذلكَ أم كَرِهْنَا، فَتَنَاسَ كلَّ شيءٍ، يا صديقي، وسافرْ إلى كوبلانس واستصلِحْ عليكَ إباكَ وأهلَكَ، وتزوّجْ من الفتاةِ التي اختارُوها لكَ، وحسبُكَ منّي أنْ أكونَ صديقَتَكَ الوفيّةَ لكَ ما حَيِيتُ، ولا تحمِلْ في نفسِكَ ضغينةً لصديقِكَ إدوار، فقد علم الله أنّه ليسَ لهُ يدٌ في شيءٍ ممّا كان، وإنّما هو رأيٌ رأيتُهُ لنفسِي، ولم أستشِرْ فيه إلّا عقلي وضميري؛ فأنا صاحبَتُه، والمأخوذَةُ به إنْ كُنْتُ لا بُدَّ آخذًا به أحدًا؛ والسلامُ عليكَ من صديقَتِك التي ترجو عفوَكَ وغفرانَكَ.

❀ ❀ ❀

---

(١) المدية: السكّين. (٢) المارستانات: المستشفيات.

٦٨ ـ من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيتُ كلَّ شيءٍ، يا ماجدولين، فاختاري لنفسِكِ في حياتِكِ ما شئتِ، وها هي ذي رسائِلُكِ عائدةٌ إليكِ فليسَ من الرأي بقاؤُها عندي بعدَ اليوم، وإنّي أتقبّلُ صداقَتَكِ بالصدرِ الرحبِ الذي تقبّلْتُ به حبَّكِ من قَبْلُ، أمّا النقمةُ، فإنّي لا أنقمُ عليكِ، ولا على خطيبِكِ شيئًا، بل أسألُ اللهَ لكما السعادةَ في حاضِرِكُما ومستقبَلِكُما.

❁ ❁ ❁

٦٩ ـ الزفاف

ازدَحَمتِ الكنيسةُ بسكّانِ قريةِ ولفباخ رجالًا ونساءً، وظلّوا جميعًا ينظرونَ إلى البابِ بشوقٍ وتَلَهُّفٍ، ينتظرونَ حضورَ العروسينِ، ثمّ ما لبثوا أنْ سمعُوا صوت العجلاتِ وهي مقبلةٌ، فنهضوا جميعًا على أقدامِهِم، واصطفّوا صفوفًا متتاليةً لاستقبالِ القادمينَ، ثمّ دَخَلَ إدوار آخذًا بيدِ ماجدولين، وهي لابسةٌ ثوبًا أبيضَ ناصعًا كأنّما قد قُدَّ من جُرمِ[1] الزهرِ، وعلى رأسِهَا إكليلٌ من الزهرِ، يتلألأُ في شعرِهَا الذهبيّ الجميلِ. ودخلَ وراءَهما الشيخُ مولر، وسوزان، وأبوها وزوجُها، واشميد ابن عمّة ماجدولين، وألبرت ابنُ عمّ سوزان، وكثيرٌ من أهلِهِ وأهلِهَا.

فرأى الناسُ أجملَ فتاةٍ رأوهَا في حياتِهِمْ، فدعوا لها ولزوجِهَا بالسعادةِ والهناءِ، وملأوا أرجاءَ المعبدِ هتافًا بهما، وثناءً عليهما، ثمّ مَشَيَا إلى المذبحِ، وركعا بين يدي القسيسِ على وسادتينِ من القطيفةِ المزركشةِ، فركَعَ الناسُ بركوعِهِما، وركَعَ استيفن معهُم، وكانَ قد جاءَ إلى المعبدِ قبلَ حضورِ الناسِ، واختبأ وراءَ ساريةٍ من سواريه فلَمْ يشعُرْ بهِ أحدٌ، وظلّ يقولُ في ركوعِهِ بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ لا يحسّه أحدٌ: «اللهمَّ احرسْهَا بعينِ عنايتِكَ وأسبِلْ[2] عليها سترَ حمايتِكَ، وامنَحْهَا السعادةَ والهناءَ في نفسِها، وعيشِها، واكتبْ لها في صحيفةِ حياتِها ما كنتُ أسألُكَ أن تكتبَ لي في صحيفةِ حياتي».

ثم بدأ القسّيسُ يتلو صلاتَه، وجاءَتِ الساعةُ التي ينطقُ فيها بكلمتِهِ الأخيرةِ التي لا مَرَدَّ لها، ولا رجعةَ فيها، فشعرَ استيفن أنّ قلبَه يخفقُ خفقانًا شديدًا، ويضربُ ضربًا يعلو صوتُه على أصواتِ النواقيسِ، فأمسَكَ على أحشائِه، وأغمضَ عينيهِ وقَبَعَ في أعماقِ نفسِه، واستلهَمَ اللهَ الصبرَ على نكبتِه، ثمّ غَشِيَتْهُ غاشيةٌ[3] لم يشعرْ بما كانَ فيها، حتّى استفاقَ بعد ساعةٍ، فإذا الكنيسةُ خاليةٌ مقفرةٌ، تعتلجُ الظلمةُ في أرجائِها، وتضربُ رياحُ الليلِ الباردةُ في نوافذِهَا

---

(١) الجرم: اللون. (٢) أسبل: مدّ.
(٣) الغاشية: المصيبة.

وكُواها، فزفرَ زفرةً حرّى كادتْ تتساقَطُ لها أضلاعُهُ، وجعلَ يقولُ في نفسه:

لقد قُضِيَ الأمرُ، وخرجتْ ماجدولين من يدي، وأصبحتْ كفّي صِفرًا من جميعِ آمانيَّ وآمالي، فما العملُ؟ وكيفَ أعيشُ؟ وأين أقضي بقيّة أيّام حياتي؟ وأيّةُ غايةٍ بَقِيتْ لي في هذا العالم أحيَا من أجلِها؟ ثمّ خرجَ هائمًا على وجهِه، لا يعلَمُ أيَّ فجٍّ يسلكُ من فجاجِ الأرضِ، والأرَضُ أضيَقُ في عينيهِ من كفّةِ الحابل، فإذا هو أمامَ بيتِ الشيخِ مولر، فرأى المدعوّينَ منصرفينَ من الحفلةِ زُمَرًا، فاختفى بركنٍ مظلم من أركانِ السورِ، حتّى انقطعَ خَفْقُ الأقدام، وعلمَ أنّ المكانَ قد خلا بأهلِه، فرمى البيتَ بنظرةٍ شزرةٍ[1] ملتهبةٍ لو اتّصلَتْ شرارةٌ من شرارِهَا بسقفٍ من سقوفِهِ، أو كوّةٍ من كواهُ، لأتتْ عليه في لحظةٍ واحدةٍ، ثمّ ما لبثَ أنْ رأى النورَ قد انطفأ في جميعِ الغرف والقيعانِ، إلّا غرفةً واحدةً، فعلمَ أنّها غرفةُ العرسِ.

فلم يتمالكْ أنْ ثارَ من مكمَنِه ثورةَ الأسدِ المهتاجِ وأخذَ يدورُ حولَ السورِ ذهابًا وجيئةً، وهو لا يعلمُ لِمَ يدورُ وأينَ ينتهي، حتّى وقع نظرُه على ثغرةٍ مفتوحةٍ فيهِ فوقَفَ أمامَهَا لحظةً، ثمّ حدَّثَتْهُ نفسُه باقتحامِهَا، فرأى حَجَرًا ضخمًا معترضًا في فجوَتِها، فما زالَ به، حتّى زحزَحَه عن مكانه، ثمّ انحدرَ إلى الحديقةِ غيرَ خائفٍ، ولا وجلٍ، ولا مبالٍ بما أقدَم عليه، وأخذَ سَمْتَهُ[2] إلى سلّم الدارِ، حتّى بلغَه، فصعدَه يختلسُ الخُطى اختلاسًا، حتّى وصلَ إلى بابِ الغرفةِ المضيئةِ، فوقفَ بهِ، وأحسّ أصواتًا من ورائِه، فشعرَ برعدةٍ تتمشّى في جميع أعضائِه، وخُيِّلَ إليه أنّ قلبَه ينحدرُ في هوّةٍ عميقةٍ لا قرارَ لها وأخذَ يقول في نفسه:

إنّها الآنَ له وبينَ يديه لا يحولُ دونَهما حائلٌ؛ وكأنّي به وهو يضمّها الآنَ إلى صدرِه، ويلصُقُ فَمَهُ بفمِها، ويوسِعُهَا لثمًا وتقبيلًا، فتعطيهِ من نفسِهَا ما يعطِيهَا من نفسِه، ثمّ نظرَ من ثقبِ البابِ فلم يرَ شيئًا أمامَه، فوضَعَ أذنَه عليهِ وأصغَى إلى حديثِهما، فرنّتْ في مسمَعِه أصواتُ الضحكاتِ والقبلاتِ، وسمِعَها تقولُ له فيما تناجيه به «أنتَ حياتي التي لا حياةَ لي بدونِها»، فَجُنّ جنونُه، وحدَّثَتْهُ نفسُه أن يضربَ البابَ بقدَمِه ضربةً هائلةً، تطيرُ به ثمّ يقتَحِمُه عليهما، فيقتُلُهُما، ويخضّبُ سريرَ العرسِ بدمِهما، ثمّ يقتلُ نفسَه على أثرِهما. واستنصرَ قوّته على ذلك، فخَذَلَتْهُ، فوقَفَ بين الإقدامِ والإحجام، يغلي دمُهُ في عروقِهِ غليانَ الماءِ في مِرْجَلِه[3]، ويمزّقُ صدرَه بأظافِره تمزيقًا شديدًا، حتّى امتلأَ قميصُهُ دمًا، وتناثرتْ أفلاذُ جلدِه بين أصابعِهِ، وهو لا يشعُرُ بألم، بل لا يعلَمُ أنّه يصنعُ من ذلك شيئًا، حتّى أعياهُ الجهدُ، فزلّتْ به قَدَمُهُ فانقلَبَ إلى أسفلِ السُّلّم وهو بينَ الحياةِ والموت.

ولم يزلْ في سَقْطَتِهِ تلكَ حتّى استيقظتِ الخادمُ «جنفياف» مبكّرةً قبلَ أنْ يستيقظَ أحدٌ من أهلِ البيتِ وضيفانِه، فرأتْهُ صريعًا في مكانِهِ، فراعَهَا أمرُهُ، وأدهَشَهَا وجودُه في هذا المكانِ،

---

(١) شزرة: غاضبة.
(٢) السَمت: الطريق الواضح.
(٣) المرجل: القدر الكبيرة.

ثمّ رأتِ الدمَ العالقَ بثوبهِ وأظافره، فظنّتْهُ قتيلًا، فحاولتْ أن تصيحَ، فَخَانها صوتُها، فأكبَّتْ عليه لتعلمَ ما شأنُه، فأحسّتْ رَجْعَ أنفاسِه، فهدأتْ قليلًا، وعلمتْ أنّه في غشيةٍ جديدةٍ، فأشفقتْ عليه، وكانتْ تحبّهُ وتكرّمُه، ولم تزلْ تنضَحُ جبينَه بالماءِ، وتمسَحُ صدرَه حتّى استفاقَ، فدارَ بعينيهِ حولَ نفسِه، فذكَرَ ما كانَ، ورأى جنفياف بين يديهِ، فاحمرّ وَجْهُهُ خجلًا، وسألَها هلْ عرفَ شأنَهُ أحدٌ غيرها؟ قالتْ: لا. فاعترفَ لها بمجملِ قصّته، وناشدَهَا اللهَ والمودَّة أن تكتُمَ عليهِ ما كانَ، فوعَدَتْهُ بذلكَ فقامَ يتحامَلُ على نفسِه حتّى خرجَ من المنزلِ، ومشى في طريقِ قريتِه.

❁ ❁ ❁

٧٠ ـ الهذيان

قالتْ جوزفين زوجُ فرتز للطبيب، وكانتْ تتولّى تمريضَ استيفن: لقدْ أصبحتُ أخشى على الرجلِ أنْ يصيبَه شرٌّ عظيمٌ، وأَخْوَفُ ما أخافُ عليه أن تنزلَ بعقلِهِ نازلةٌ من نوازلِ الجنونِ، فقد أصبحَ لا ينطقُ إلّا باسمِ تلكَ المرأةِ، ولا يفكّرْ إلّا فيها، ولا يرى في يقظَتِهِ أو في منامِهِ غيرَها، فيتخيَّلُها تارةً مقبلةً عليه، فيبتسِمُ لها، ويتهلّلُ، ويفتّحُ ذراعيهِ لاستقبالِها؛ وأخرى منصرفةً عنهُ، فيضرَعُ إليها، ويهتفُ باسمِهَا هتافًا عاليًا، ويحاولُ النهوضَ من فراشِه لإدراكِهَا والتشبّثِ بها؛ فهو إمّا ضاحكٌ أو باكٍ، أو هاتفٌ، أو ضارعٌ، أو مسترحمٌ.

ولئنْ دامتْ لهُ حالتُه هذه بضعةَ أيّام أخرى، ذهبتِ النكبةُ بعقلِهِ، أو بحياتِهِ، وما أحسبُ أنّ شيئًا غيرَ ظَفَرِه بتلكَ المرأةِ، أو اتّصالِهِ بها يشفيهِ من دائِه، فقالَ الطبيب: لقد خاطرتُ اليومَ بآخرِ ما في كنانتي[١] من الأسهم، فسافرتُ إلى قريةِ ولفباخ، وقابلتُ ماجدولينَ على غيرِ سابقِ معرفةٍ لي بها ووصفتُ لها حالةَ المريضِ في جنونِهِ واستهتارِه بها، وقيامِهِ وقعودِهِ بأمرِهَا ليلَهُ ونهارَه، وسألتُهَا أن تزورَه زورةً واحدةً عسى أن تنفعَهُ، وترفِّهَ عنه بعضَ ما به، فأبى زوجُها عليها ذلكَ إباءً شديدًا، فلم أزلْ به أسترحمُهُ، وأستعطِفُهُ، وأنشدُهُ اللهَ والمروءَةَ حتّى أذعَنَ بعدَ لأيٍ[٢]، واشترطَ أن يصحَبَها في زيارتِها، فقبلَتْ ذلكَ منهُ على مَضَضٍ، وقد تَرَكْتُهُما الآنَ يتهيّآنِ للحضورِ على أثري.

ثمّ مشى إلى المريضِ، وجسّ نَبَضَه، وأَمَرَّ يدَه على رأسِه، وقال: يا للعجب! لقد قَصَدْتُهُ ليلةَ أمسِ مرّتينِ في ساعةٍ واحدةٍ، فما أجدى ذلكَ عليه شيئًا، ثمّ جلسَ بجانبِهِ ينضَحُ جبينَهُ بالماءِ، ويجرّعُهُ بِضْعَ قطراتٍ من الدواء.

وإنّه لكذلكَ، إذ قُرِعَ البابُ قرعًا خفيفًا، ففتحَ، فدخلتْ ماجدولين ووراءَها إدوار، فلم

(١) الكنانة: جعبة السهام. (٢) اللأي: الجهد.

يشعُرِ استيفن بهما عندَ دخولهما، ثمّ فتحَ عينيهِ بعدَ قليلٍ، ونظرَ إلى جوزفين وقال لها: أينَ ثيابي التي أمرتُكِ بإحضارِها؟ أما تعلمينَ أنّ اليومَ يومُ الأحدِ، فأطرقَتِ المرأةُ واجمةً، وأدارتْ ماجدولين وجهَهَا حتّى لا يرى أحدٌ اصفرارَهَا.

فتقدّمَ نحوها الطبيبُ، وسألها أن تدنُوَ منهُ، وتنادِيَه باسمِه لعلّه يعرِفُها، فَدَنَتْ من سريرِه، ووقَفَتْ أمامَ وجهِهِ، فنظرَ إليها نظرةً ذاهلةً، ثمّ أدارَ رأسَه وأغمضَ عينيه، فعلمتْ أنّه لم يعرِفْهَا، فنادَتْهُ باسمِه بذلكَ الصوتِ الرخيمِ العذبِ الذي طالَما سمعَهُ من قبلُ، فمَلكَ عليهِ مدارِكَهُ ومشاعِرَه؛ فكأنّ موجةً كهربائيّةً اندفعتْ في جسمِهِ دفعةً واحدةً، فانتفَضَ من مكانِهِ، وفتحَ عينيهِ، وتناهَضَ متّكئًا على إحدى يديهِ، وظلّ يضربُ بيديهِ على جبهَتِه كأنّما يستحيي في ذهنِه ذكرى قديمةً طالَ عليهَا العهدُ، ويديرُ رأسَه يمنةً ويسرةً، ويقلّبُ نظرَهُ في وجوهِ الجالسينَ، حتّى وقعَ على ماجدولين، فأخذَ يحدّقُ في وجهِهَا تحديقًا شديدًا، ثمّ ابتسمَ، ومدّ يدَهُ نحوها وقال لها:

شكرًا لكِ، يا ماجدولين، فقد جَشّمْتِ نفسَكِ مشقّةَ المجيءِ إليّ، وقد كنتُ على وَشكِ أنْ أذهبَ إليكِ الساعةَ، لولا أنّ النومَ طرقَني، فغلبَني على أمري، فهلُمّي بنا الآنَ فقد حانَ الوقتُ، وما أحسبُ إلّا أنّ أصدقاءَنا ينتظرونَنَا الآنَ في الكنيسَةِ، وكأنّني أراهُمْ، وقد جلسوا في دهليزِهَا صفوفًا متتاليةً، ينظرونَ إلى البابِ بشوقٍ، وتَلهُّفٍ يترقّبونَ حضورَنا، وأرى القسيسَ يُعِدُّ لنا وسادتينِ من القطيفةِ المزركشةِ، لنركَعَ عليهما أمامَ المذبحِ، وكأنّني أشمُّ رائحةَ البخورِ متصاعدةً من الموقِدِ، وأسمعُ أصواتَ النواقيسِ تقرعُ قرعًا متتابعًا.

ثمّ صَعَّدَ نَظرهُ فيها وصوّبَه وقال لها: ما أجملَكِ يا ماجدولين، وما أجملَ هذا الثوبَ الأبيضَ الذي ترتدِينَهُ، إنّك لا ينقُصُكِ الآنَ غيرُ إكليلِ الزهرِ. ثمّ مدَّ يدَهُ إلى أزهارٍ كانتْ بجانبِهِ فأخذَ يضفرُ منها إكليلًا جميلًا، ويتأنّقُ في تنسيقِه وتنظيمِه، ثمّ نظرَ إلى الطبيبِ، وقد خُيِّلَ إليه أنّه الشيخُ مولر فقال: ائْذَنْ لي يا أبتاهُ أنْ أضعَ هذا الإكليلَ على رأسِ ابنتِكَ، فنظرَ الطبيبُ إلى ماجدولين نظرةَ استعطافٍ يسألُها فيها أنْ ترحَمَه، وألّا تنغّصَ عليه هناءَه الذي يتخيّلُه، فوضَعَ استيفن الإكليلَ على رأسِهَا، وهي واجمةٌ صفراءُ كأنّما قد انتفضَتْ من كفنٍ وقال لها: أتذكرينَ، يا ماجدولين، يومَ وضَعْتُ على رأسِكِ منذُ عامينِ في ساعةٍ من ساعاتِ أُنسِنَا ولهوِنَا إكليلًا مثلَ هذا الإكليلِ فتفاءَلْنَا بذلكَ خيرًا وقلنا: ليسَ بكثيرٍ على الأيّامِ أن يُصبِحَ جِدًّا ما لَهَوْنَا به، وحقيقةً ما حَسِبنَاهُ خيالًا؟ فها قد صَدَّقَ اليومُ فألَنا، وصَحَّتْ آمالُنا وأحلامُنا، فالحمدُ للهِ على ذلكِ ولهُ الشكرُ على آلائه[1] ونعمائه.

ثمّ نظرَ إلى جوزفين، وقالَ لها: إنّي أشعرُ بضيقٍ في صدري لا أعلمُ له سببًا، فافتَحِي هذه النافذةَ لأستنشِقَ هواءَ هذا الصباحِ الجميلِ؛ ففعلتْ، فأخذَ يقلّبُ وجهَهُ في السماءِ ويقول: ها

---

(١) الآلاء: النعم.

هي ذي الطبيعةُ تُهدِي إلينا في يوم عرسِنَا أجملَ ذخائرِهَا، وأعلاقِها[١]، وهواءَها العليلَ، وشَمسها الساطعةَ، وسماءَها الصافيةَ الجميلةَ، فشكرًا لها على يَدِهَا عندنا، وشكرًا للدهرِ الذي أنالَني أمنيتي، وأظفَرَني بها بعدَ أنْ كنتُ على وشَكِ اليأسِ منها.

ثمّ التفتَ، فوقَعَ نظرُه على إدوار، فهشّ له، وابتسمَ في وجهِهِ، وقال له: شكرًا لكَ يا صديقي، ما أحسبُ إلّا أنّكَ الذي أشرتَ على ماجدولين بزيارتي في منزلي، ولولاكَ لحالَ بينها وبين ذلكَ الحياءُ الذي لا يفارِقُهَا في جميعَ آناءِ حياتِها، فأمدُدْ إليّ يَدَكَ وكُنْ أوّلَ من يُهنئني بسعادَتي من بينِ أصدقائي، فأنْتَ أكرمُهُم عليّ حميعًا، وآثرُهُمْ عندي. أتذكُرُ، يا إدوار، أيّامَ كنّا نعيشُ في هذه الغرفةِ الصغيرةِ التي نحنُ فيها الآن عيشَ البؤسِ والشقاءِ، وكنّا نتساقَى من الوردِ كؤوسًا تُنْسِينا حلاوَتُها مرارةَ الحياةِ وآلامَها، وكنتُ لا أجلسُ إليكَ مجلسًا، إلّا قَصَصْتُ عليكَ فيه شأني مع ماجدولين، وأبثُّكَ وجدي بها، ورجائي فيها، وقلتُ لكَ، كلّما رأيتُكَ تنظرُ إليّ نظراتِ الهزءِ والسخرية: إنّها قد أقسَمَتْ لي يمينًا محرجةً ألّا يفرّقَ بيني وبينها إلّا الموتُ، وإنّها لَنْ تخِيسَ[٢] بعهدِهَا أبدًا. وإنّ هذه السحابةَ السوداءَ التي تراهَا متلبدةً في سماءِ حياتي، لا تستطيعُ أنْ تثبتَ طويلًا على أشعّةِ الحبِّ الحارّةِ المتدفّقةِ، والحبُّ إلهٌ قادرٌ لا يعْجِزُهُ شأنٌ في هذا العالمِ، ولا يَثْبُتُ على قدرَتِه شيءٌ؟ فها أنتَ ترى أنّني لم أكنْ كاذبًا في تصوّراتي وأحلامِي، وأنّ أمانيَّ وآمالي لم تكنْ كَمَا كنتَ تَظُنُّهَا خيالاتِ شاعرٍ، ولا هواجسَ مجنونٍ.

ثمّ تناولَ يدَ ماجدولين، وأهوى بفَمِه إليها ليقبّلَهَا، فلَمَعَ أمامَ عينيهِ شعاعٌ خاطفٌ من أشعّةِ الخاتمِ الماسيّ الذي يتألّقُ في إصبَعِهَا، فاضطربَ ومرّ بخاطِرِهِ مرورَ البرقِ منظرُ ذلكَ الخاتمِ بعينِه يومَ رآه في يدِهَا للمرّةِ الأولى، وهي واقفةٌ بجانبِ إدوار في حديقةِ منزلِها، فتراخَتْ يَدُهُ وامتُقِع[٣] لونُه، وانطفأَ ذلكَ الشعاعُ الذي كانَ يلمَعُ في عينيهِ، وارفضّ جبينُه عرقًا، وأخذَ صوابُه يعودُ إليه شيئًا فشيئًا، فظلَّ يقولُ بصوتٍ خافتٍ متهدّج: لا.... لا، لا حقَّ لي في تقبيلِ يدِهَا، لأنّها ليستْ لي ولا شأنَ لي عندَها.

ثمّ تناولَ غطاءَه فأسبَلَهُ على رأسِه وأخذَ يبكي بكاءً شديدًا، ويقولُ للطبيبِ: ليخرُجُوا عنّي جميعًا، فلا شأنَ لَهُمْ عندي، ولا شأنَ لي عندَهُمْ. فاغرورقَتْ عينا ماجدولين بالدموع، ومدّتْ يَدَهَا إليهِ كالضارعَةِ، وهمّتْ بالركوعِ بجانبِ سريره، فجذَبها إدوار جذبًا شديدًا، فتبعَتْهُ متثاقلَةً، خطوةً والتفاتَةً، وهي تقولُ بينها وبينَ نفسها: «وارحمتَاهُ لكَ أيّها البائسُ المسكين».

وما انقضَى النهارُ، حتّى تركَ إدوار قريةَ «ولفباخ» وسافَرَ بزوجَتِه إلى «كوبلانس».

❀ ❀ ❀

---

(١) الأعلاق: جمع عِلق وهو النفيس من كلّ شيء. (٢) خاس بالعهد: نقضه.

(٣) امتُقع اللون: تغيّر من حزن أو خوف أو مرض.

٧١ ـ اليأس

لبثَ استيفن في سريرِ مرضِهِ شهرينِ كاملينِ كَابَدَ فيهما من آلامَ النفسِ والجسمِ ما قُدِّرَ له أن يكابدَه، ثمّ أبلّ[١] قليلًا، فهجرَ فراشَهُ، وأخذَ يهيمُ على وجهِهِ ليلَهُ ونهارَه، ينامُ حيثُ يجدُ مضجعًا ليّنًا، أو خشنًا، ويأكلُ حيثُ يجدُ لقمةً بيضاءَ أو سوداءَ، لا يستقرّ بمكانٍ، ولا يأوي إلى ظلٍّ، ولا يتعهّدُ جسمَه أو ثوبَهُ بما يصلحُ شأنَهما، واستبدَّ به الحزنُ، فدَقَّ[٢] جسمُه، وغارتْ عيناهُ، واسترسلَ شعرُ رأسِه ولحيتِه، وآضَتْ[٣] نضرةُ وجهِه شحوبًا وحمرةُ خدّيه اصفرارًا، وأصبحَ آيَةَ السابلينَ[٤] وعبرةَ الغادينَ والرائحين.

وكان لا يمرُّ بكوخِ صديقِهِ «فرتز» إلّا اتّفاقًا، فإذا مرّ به خرجَ الرجلُ إليه وزوجُهُ وأولادهُ، وتعلّقُوا به، وناشدُوه اللهَ، والمودّةَ أنْ يدخُلَ معهم كوخَهُم، فيدخلَ، فلا يلبثُ إلّا ساعةً أو بعضَ ساعةٍ، حتّى يدركَهُ المللُ، فيثورُ ثورةَ الوحشِ المهتاجِ، ويفرُّ من بينِهِمْ راكضًا، وقد عادَ إلى شأنِهِ الأوّل.

وكثيرًا ما كانَ يمرُّ في تطوافِهِ بمنزلِهِ الصغيرِ الذي بناهُ في «جوتنج»، وبنى فيه صروحَ آمالِهِ الذاهبةِ وأمانيه الضائعةِ، فيصرفُ وجهَهُ عنه، ولا يطيقُ النظرَ إليه، وربّما انكفأ راجعًا حينَ يلمَحُ أوّلَ شرفةٍ من شرفاتِهِ حتّى لا يمرَّ به، ولا يقَعَ نظرُهُ عليه.

وكانَ إذا ركبَ رأسَ طريقٍ مشى فيه قُدُمًا، لا يقفُ، ولا يتريّثُ، ولا ينظرُ يمنةً ولا يسرةً، حتّى يعترضَهُ نهرٌ أو جدارٌ، أو يَرَى بين يديهِ مجتمعًا من الناسِ، فيستفيقُ من ذُهولِهِ، ويعودُ أدراجَه.

ولقد استمرّ به المسيرُ يومًا في بعضِ غدواتِه حتّى وَصَلَ في منتصفِ النهارِ إلى «كوبلانس»، فأخذَ يهيمُ في شوارِعِهَا وطرقاتِهَا، والناسُ ينظرونَ إليهِ وإلى منظرِهِ الغريبِ، وشعرِه المشعّثِ الثائرِ، ونظراتِهِ الحائرةِ المتبدّدةِ، ويَعْجَبُونَ لأمره.

وإنّه لكذلكَ إذْ مرّتْ على القربِ منه عجلةٌ، فسمعَ فيها ضحكًا عاليًا خُيِّلَ إليه أنّه يعرفُ نغمَتَهُ، فالتفتَ فإذا ماجدولين وإدوار، فصعقَ في مكانِهِ وتراجَعَ إلى جدارٍ كانَ وراءَه، فاستنَدَ به إليهِ وهو يقول: «ما أسعدَهُما وأهنأ عيشَهُما، إنّهما يبنِيَان سعادَتَهما على أنقاضِ شقائي» ثمّ ذهلُ عن نفسِه وظلّ في ذهولِهِ ساعةً، فلم يستفقْ حتّى رأى حلقة منَ الناسِ محيطةً به ورأى قومًا يتضاحَكُون، ويتغامزونَ، ويشيرونَ إليه إشاراتِ الهزءِ والسخريةِ، فرمَاهُمْ بنظرةٍ شزراءَ[٥] رجفتْ لها قلوبُهُمْ، وخَطَا خطوةً واسعةً إلى الأمامِ، فهالَهُمْ منظرُه، وتفرّجُوا له عن طريقِه، فسارَ في سبيلِهِ لا يلوي على شيءٍ ممّا وراءَه حتّى بلغَ ضاحيةَ المدينةِ، فرأى نهرًا جاريًا على

---

(١) أبلّ: شفي من مرضه.
(٢) دقّ: أصبح نحيلًا.
(٣) آض: صار، تحوّل إلى.
(٤) السابلون: عابرو الطريق.
(٥) شزراء: غاضبة.

رأسِ مزرعةٍ خضراءَ فجلسَ على ضفّتِهِ يؤامرُ نفسَهَ على الموتِ ويقول:

لقد كذبَ الذين قالوا إنّ الانتحارَ ضعفٌ وجبنٌ، وما الضعفُ ولا الجبنُ إلّا الرضا بحياةٍ كلّها آلامٌ وأسقامٌ فرارًا من ساعةِ شدّةٍ مهما كابدَ المرءُ من الغُصَصِ والأوجاعِ، فهي ذاهبةٌ ولا رجعةَ لها بعدَ ذلك.

وهل يوجَدُ في بابِ الجهالاتِ أقبحُ من جهالةِ الرجلِ الذي يفضّلُ حياةً يموتُ فيها مائةَ مرّةٍ على مَوْتَةٍ سريعةٍ عَجْلى تريحُهُ من هذه الميتاتِ المتقطّعةِ المتداولة؟

إنّي لا أدري لِمَ يضيقُ الرجلُ بثوبِهِ، فينزَعُه، ويسمُجُ[1] في نظرِهِ منزلُهُ، فيهجرُهُ، ويتبرّمُ بصاحبِهِ، فيفارقُهُ، ويثقلُ على ظهرِه حملُهُ، فَيُلقي به، فإذا ضاقَتْ به حياتُهُ لا يخلَعُها، ولا يحدّثُ نفسه بالخلاصِ منها، والحياة إذا بَؤُسَتْ كانتْ آلَمَ للنفسِ، وأثقلَ مؤونةً عليها من ثوبٍ ضيّقٍ، أو حِمْلٍ ثقيلٍ.

إنّا لا نخافُ الانتحارَ إلّا لأنّا نحبُّ الحياةَ، ولا نحبُّها على ما هي حافلةٌ به من الكوارثِ والمحنِ إلّا لأنّنا جهلاءُ وأغبياءُ، نطمعُ في غيرِ مطمعٍ ونرجو ما لا يمكنُ أنْ يكونَ، فمثَلُنا في ذلكَ كَمَثلِ لاعبِ القمارِ يزدادُ طمعًا في الربحِ كلّما ازدادَ خسارةً، فلا يزالُ يخسرُ، ولا يزالَ يطمعُ، حتى تصفرَ يدُه من كلِّ شيءٍ.

إنّا لم نأتِ إلى هذا العالمِ باختيارنا، فلِمَ لا نخرجُ منهُ متى شِئْنا؟ وإنّا لم نكتُبْ على أنفسِنا عهدًا بين يَدَيْ أحدٍ أنْ نبقى فيهِ بقاءَ الدهرِ، فلا يُسَمّى سَعْيُنَا في الخلاصِ منه خيانةً وغدرًا، أو كفرانًا بنعمةِ اللهِ وإحسانه؟

إنّها هفوةٌ هَفَاها شيشرون الروماني في ذلكَ العهدِ القديم حينما قال «إنْ كانَ لصاحبِ الرايةِ في الحربِ حقٌّ في إلقائها على عاتِقِهِ، كانَ للإنسانِ حقٌّ في قتلِ نفسه»، وجارَاهُ المجتمعُ الإنسانيُّ كلُّهُ على هفوتِهِ هذه حتّى اليومَ دونَ أن يخطُرَ على بالِ فردٍ من أفرادِه أن يقول له: إنّ لصاحِبِ الرايةِ الحقَّ كلَّ الحقِّ في إلقائها عن عاتِقِهِ، إذا ثَقُلَ حَمْلُهَا عليه.

أعجبُ من ذلكَ أنّهم لا يذكرونَ الانتحارَ، إلّا ذكروا اسمَ الله بجانبهِ وافتنّوا في تصويرِ غضَبِهِ، ونقمَتِهِ على المنتحرينَ، واللهُ أعدلُ وأرحمُ من أن يَبْتَلِيَ عبدًا من عبيدِه ببليّةٍ، لا تطيبُ له معها الحياةُ، ثمّ يأبى عليهِ إلّا أنْ يربطَ بجانبها مَدَى الدهر، ولا يبتغي لنفسِهِ طريقًا إلى الخلاصِ منها.

وكذلكَ صحّتْ عزيمَتُهُ على الانتحارِ، وأخذَ يفكّرُ في الصورةِ التي يفارقُ فيها الحياةَ، فلم يزلْ يقلّبُ وجوهَ الرأيِ في ذلكَ، حتّى اهتدى إلى صورةِ أعجَبَهُ خيالُهَا الشعريُّ، وهي أن يكتُبَ كتابًا إلى ماجدولين، يبثّها فيه آلامَه وأحزانَه، ويحدّثُها عن عزمِهِ على الانتحارِ وعن المكانِ الذي سيلقي نفسُه فيه منَ النهرِ، ثمّ ينزعُ من إصبَعِهِ خاتَمَهُ المنسوجَ من شعرِها، ويضَعُه

(١) سمج: أصبح قبيحًا.

على فَمِهِ، ويضَعُ يدَه عليه ويقبّلُه بلهفةٍ شديدةٍ، ثمّ يلقي بنفسِه في الماءِ على هذه الحالةِ، فإذا أَتَتْ ماجدولين وأخرجَتْهُ من النهرِ ورأتْ هذه الصورةَ المحزنةَ التي ماتَ عليها أثّرَ في نفسِهَا إخلاصُهُ ووفاؤه، وأسِفَتْ على نفسِهِ أسفًا عظيمًا، وألمَّ بنفسِها الذمُّ على فعلَتِهَا معه، فلا تزالُ تذكُره طولَ حياتِها، وتندُبُ مصرَعَه ومصيرَه حتّى تلحقَ به.

وهنا رنّتْ في أذنِهِ تلكَ الضحكةُ العاليةُ التي سمعَهَا منذُ ساعةٍ، وهي راكبةٌ عجلَتَها معَ زوجِهَا، فطارَدَ ذلكَ الخيالَ من رأسِه، واضمحَلّ في مسراهُ اضمحلالَ الأبخرةِ الذاهبةِ في آفاقِ السماءِ، وعادتْ له أَنَاتُهُ ورويّتُهُ، وقال في نفسه: إنّ مَنْ كانَ مثلَهَا في خيانَتِهَا وغدرِهَا، وصلابةِ قلبِهَا، وقسوتِهِ لا يبالي ما أقدمُ عليهِ من شؤونِهِ، فربّما وردَ عليها كتابي، فأغفَلَتْهُ ثمّ سمعتْ بخبرِ موتي فتنفَّسَتْ تَنَفُّسَ الرحمةِ والدعةِ، واغتبطتْ بينها وبين نفسِهَا بانقشاعِ تلكَ الغيمةِ السوداءِ التي كانتْ تغشى سماءَ حياتها، وأعجَبَها أنّها قد أصبحتْ آمنةً مدى الدهرِ من أنْ يُذَكِّرَهَا مُذَكِّرٌ بخيانَتِها، أو يتراءَى لها في مَسْلَكٍ من مسالِكِهَا شبحُ تلكَ الخيانةِ التي اقترفَتْهَا.

ثمَّ أَنَّ أَنَّةً مؤلمةً وقال: «ويلٌ لي من بائسٍ مسكين! لقد استحالَ عليَّ كلُّ شيءٍ حتّى الموتُ».

❁ ❁ ❁

٧٢ ـ السعادة

قالَ فرتز لاستيفن وقد ركبَ معهُ في زورقِهِ ساعةَ الأصيلِ، فسارَ بهما يشقُّ عبابَ الماءِ شقًّا: رَفِّهْ عليكَ قليلًا، يا سيّدي، فذلكَ أمرٌ قد فاتَ واستبدّ به من قُدِّرَ له؛ وليسَ لي في فائتٍ حيلةٌ، ولا لما قضى اللهُ مَرَدٌّ، ولو شئتُ أنْ أقولَ لك لقلت: إنّه غيرُ جميلٍ بكَ في فضلِكَ وأدبِكَ، ووفورِ عقلِكَ واكتمالِهِ، وعزّةِ نفسِكَ وأَنَفَتِهَا أن تحبسَ حياتَكَ كلَّها على امرأةٍ قد عَلِمْتَ ألّا خَيرَ لكَ فيها، وأنّها قد خانَتْكَ، وخَذَلَتْكَ، وبلغَتْ بكَ في الشقاءِ المبالغَ التي لم يبلغْهَا أحدٌ، وطعنَتْ قلبَكَ تلكَ الطعنةَ النجلاء[1] التي لا يُبلُّ منها جريحٌ إلّا بمعونةٍ من رحمةِ اللهِ وإحسانه وإنّها - وأنتَ تشقى الشقاءَ كلَّهُ في سبليِها - تقضي ساعاتِ ليلَها ونهارِهَا، بين ذراعي زوجِهَا هانئةً مغتبطةً، غيرَ حافلةٍ بكَ، ولا آسفةٍ عليكَ، ولا ذاكرةٍ لكَ ذمّةً، ولا عهدًا، فأينَ شرفُكَ وإباؤُكَ؟ وأينَ عزّةُ نفسِكَ وأنفتُهَا؟ وأين تَرَفُّعُكَ الذي أعرفُهُ لكَ ويعرفُهُ لك الناسُ جميعًا عن مواطنِ المهانةِ والضّعَةِ؟ الحقَّ أقولُ إنّي لا أعرفِ سهمًا أخيبَ من سَهْمِكَ، ولا رأيًا أضعفَ من رأيِكَ، ولا حياةً أضيَعَ من حياتك.

لقد سلبَتْكَ هذه المرأةُ، يا سيّدي، زهرةَ عمرِكَ، فحسبُكَ ذلكَ، واستبقِ لنفسِكَ ما بقيَ

(١) النجلاء: الواسعة.

منه، وتمتّعْ فيه بما أعَدَّ اللهُ لكَ في هذه الحياةِ من لذائذَ ومُتَع، لا تنفَدُ ولا تبلى، واطلبِ السعادةَ إنْ أردْتَهَا بينَ أحضانِ الطبيعةِ وأعطافِها وفي كلّ ما يحملُ بساطُ الأرضِ، وتظلّلُ قبّةُ السماءِ، فالطبيعةُ أمٌّ حنونٌ تضمّ بين ذراعَيْهَا أولادَها البؤساءَ المحزونينَ، فتمسَحُ همومَهُمْ عن صدورِهم، ودموعَهم عن مآقيهم، وتملأُ قلوبَهُم غبطةً وهناء.

اطلبِ السعادةَ في الحقولِ والغاباتِ، والسهولِ والجبالِ، والأغراسِ والأشجارِ، والأوراقِ والأثمارِ، والبحيراتِ والأنهارِ، وفي منظرِ الشمسِ طالعةً وغاربةً والسُّحْبِ مجتمعةً ومتفرّقةً، والطيرِ غاديةً ورائحةً، والنجومِ ثابتةً وساريةً، واطلبْهَا في تَعَهُّدِ حديقَتكَ، وتخطيطِ جداولها، وغَرْسِ أغراسِهَا وتشذيبِ أشجارِها، وتنسيقِ أزهارِهَا، وفي وقوفِكَ على ضفافِ الأنهارِ، وصعودِكَ إلى قممِ الجبالِ، وانحدارِكَ إلى بطونِ الأوديةِ والوهادِ، وفي إصغائِكَ في سكونِ الليلِ وهدوئِه إلى خريرِ المياهِ، وصفيرِ الرياحِ، وحفيفِ الأوراقِ، وصريرِ الجنادبِ، ونقيقِ الضفادعِ؛ واطلبْهَا في مودّةِ الإخوانِ وصداقَةِ الأصدقاءِ، وإسداءِ المعروفِ، وتفريجِ كربةِ المكروبِ، والأخذِ بيدِ البائسِ المنكوبِ، ففي كلِّ منظرٍ من هذه المناظرِ، أو موقفٍ من هذه المواقفِ، جمالٌ شريفٌ طاهرٌ يستوقفُ النظرَ، ويستلهي الفكرَ، ويستغرقُ الشعورَ، ويحيِي مَيْتَ النفسِ والوجدانِ، ويملأُ فضاءَ الحياةِ هناءً ورغدًا.

إنّكُمْ تأبونَ، يا أهلَ المدنِ، إلّا أنْ تشتروا سعادةَ الحياةِ بدمائِكُم وأرواحِكُم والسعادةُ حاضرةٌ بين أيديكم لا ثمنَ لها ولا قيمة، ولكنّكُم تجهلونَها، وتُعْرِضُونَ عنها، وتظنّونَ ألّا وجودَ لها إلّا في أحضانِ النساءِ، وبينَ أستارهنّ وأرائِكِهِنّ، فتبذلونَ في سبيلِهَا من دموعِكُمْ وآلامِكُمْ ما لا قبلَ لكُمْ باحتمالِهِ، فلا تلبثونَ أن تذبلَ حياتُكُمْ، وتضوي[1] أجسامُكُم، وتنطفئَ جذوةُ نفوسِكُم قبلَ أوانها، فتموتُوا أضيَعَ ميتةٍ وأخسَرَها، لا أملًا أَفَدْتُمْ، ولا حياةً حفظتم.

إنّما يشقى في هذا العالمِ أحدُ ثلاثةٍ: حاسدٌ يتألّمُ لمنظرِ النِّعَمِ التي يسبغُها اللهُ على عبادِه، ونعَمُ اللهِ لا تنفَدُ، ولا تفنَى، وطمّاعٌ لا يستريحُ إلى غايةٍ من الغاياتِ حتّى تنبعثَ نفسُه وراءَ غايةٍ غيرِها، فلا تفنى مطامعُه، ولا تنتهي متاعبُه، ومقترفُ جريمةً من جرائمِ العرضِ والشرفِ، لا يفارقُهُ خيالُها حيثما حَلّ وأينما سارَ، وما أنتَ، يا سيّدي، بواحدٍ من هؤلاءِ؛ فمن أيّ بابٍ من الأبوابِ يتسرّبُ الشقاءُ إلى قلبِك؟.

أنتَ شاعرٌ، يا مولاي، وقلبُ الشاعرِ مرآةٌ، تتراءى فيها صُوَرُ الكائناتِ صغيرُهَا وكبيرُهَا، دقيقُهَا وجليلُهَا، فإن أعوزَتْكَ تلكَ السعادةُ، فَفَتِّشْ عنها في أعماقِ قلبكَ، فقلبُكَ الصورةُ الصغرى للعالمِ الأكبرِ وما فيه.

السماءُ جميلةٌ، والشاعرُ هو الذي يستطيعُ أنْ يدرِكَ سرَّ جمالِهَا، ويخترقَ بنظراتِهِ أديمَهَا الأزرقَ الصافي، فيرى في ذلكَ العالمِ العلويِّ النائي ما لا تراهُ عينٌ، ولا يمتدُّ إليه نَظَر.

---

(١) تضوي: تضعف.

والبحرُ عظيمٌ، والشاعرُ هو الذي يشعرُ بعظمَتِهِ وجلالِهِ، ويرى في صفحَتِهِ الرجراجةِ صُوَرَ الأممِ التي طواها والمدنِ التي مَحَاهَا والدولِ التي أبادَهَا، وهو باقٍ على صورَتِهِ لا يتغيّرُ، ولا يتبدّلُ، ولا يَبْلَى على العصورِ والأيّام.

والليلُ موحشٌ، والشاعرُ هو الذي يسمعُ في سكونِهِ وهدوئِهِ أنينَ الباكينَ، وزفراتِ المتألمينَ، وأصواتَ الدعاءِ المتصاعدةَ إلى آفاقِ السماءِ، ويرى صُوَرَ الأحلامِ الطائفةِ بمضاجعِ النائمين، وخيالاتِ السعادةِ، والشقاءِ الهائمةَ في رؤوسِ المجدودين، والمحدودين(١).

والشاعرُ يرى الجمالَ في كل شيءٍ يتناوَله سمعُهُ وبصَرُهُ حتّى في الزهرةِ الذابلةِ والنبتةِ الحائلةِ(٢)، والنحلةِ الطائرةِ، والفراشةِ الحائمةِ، وفي مدارجِ النمالِ، وأفاحيصِ(٣) القطا، والنؤي(٤) المنهدمِ، والحدثِ البالي، والشبحِ المخيف، والخيالِ الرائعِ، وفي الضفدعةِ الملقاةِ على شاطئِ البحرِ، والدودةِ الممتدّةِ في باطنِ الصخرِ، فهو من خيالِهِ الواسعِ في نعمةٍ دائمةٍ، لا تنفَدُ، ولا تَبْلى.

أنتَ كالطائرِ السجينِ في قفصِه، فمزّقْ عن نفسِكَ هذا السجنَ الذي يحيطُ بِكَ، وَطِرْ بجناحَيْكَ في أجواءِ هذا العالمِ المنبسطِ الفسيحِ، وتنقَّلْ ما شئتَ في جنَباتِهِ وأكنافِهِ، واهتفْ بأغاريدِكَ الجميلةِ فوقَ قِمَمِ جبالِهِ، ورؤوسِ أشجارِهِ، وضفافِ أنهارِهِ، فأنتَ لم تخلَقْ للسجنِ والقيدِ بل للهتافِ والتغريد.

فأطرقَ استيفن ساعةً ذهبَتْ بها نفسُهُ كلَّ مذهبٍ، ثمّ رفعَ رأسَه وقال: إنّي أحاولُ ذلكَ، يا فرتز، منذُ أيّامٍ طوالٍ فلا أستطيعُه، ولو كانَ لي فيما قَضَى اللهُ حيلةٌ، لسَحَقْتُ قلبي بقَدَمي سَحْقًا، ثمّ أسْلَمْتُ ذرَّاتِهِ إلى الرياحِ الأربعِ تذهبُ بها حيثُ تشاءُ، ولكنْ لا سبيلَ إلى ذلك، وإنّما هو بلاءٌ قد بليتُ به لِحَيْنٍ قَدْ أُريدَ لي، على أنّي أعاهِدُكَ منذُ الساعةِ عهدًا لا أخيسُ(٥) به ألّا تراني بعدَ اليوم ذاكرًا لها، ولا باكيًا عليها، أما ما يُضْمِرُه القلبُ من ثُكْلٍ ولوعةٍ، فأسألُ اللهَ أنْ يعينَني عليه، فقالَ له فرتز: ذلكَ كلُّ ما أريدُهُ منكَ، والله يتولّى شأنَهُ، ويعينُك على بقيّةِ أمْرِك.

❀ ❀ ❀

٧٣ ـ الهدوء

الحبّ قطرةُ غيثٍ صافيةٌ تنزلُ بالتربةِ الطيّبةِ، فتثمرُ الرحمةَ، والشفقةَ، والبرّ والمعروفَ، وبالتربةِ الخبيثَةِ، فتثمرُ الحقدَ والغضبَ، والشرَّ، والانتقام، وكان استيفن طيّبَ القلبِ طاهرَ

(١) المجدود: صاحب الجد أي الحظ، والمحدود: المحروم.
(٢) الحائلة: المتغيّرة.
(٣) الأفحوص: المكان الذي تبيض فيه القطاة.
(٤) النؤى: حجارة الموقد.
(٥) أخيس: أكذب.

السريرةِ، فاستحالتْ تلكَ الآلامُ التي كانتْ تعتلجُ في نفسِهِ إلى وجدانٍ طاهرٍ شريفٍ يشعرُ ببؤسِ البائسينَ، فيرثي لهم، وفجيعةِ المتفجعينَ، فيبكي عليهِمْ، ولقد وَفَى بعهدِهِ الذي عاهَدَ عليه صديقَه فرتز، فأمسَك عن ذِكْرِ ماجدولين والتفكيرِ فيها، وأخذَ نفسَه بنسيانِها ونسيانِ ماضِيها معَهُ، فاستقامَ له بعضُ الذي أرادَ، وتراجَعَتْ آلامُ نفسِهِ، وأحزانُها إلى زاويةٍ منفردةٍ من زوايا قلبِهِ، فمكنَتْ فيها، فلم يَعُدْ يشعرُ بها إلّا في الفينةِ بعد الفينةِ، ولا يذكرُها إلا كما يذكرُ المستيقظُ حلمًا ضئيلًا من أحلامِهِ المزعجةِ ساعةً أو بعضَ ساعةٍ، ثمّ يمضي لسبيلِهِ.

وكانَ أكبرُ ما أعانَهُ على هدوئِهِ وسكونِهِ أنّه أخَذَ نفسَه بعملِ الخيرِ والمعروفِ، فوجدَ فيه لذّةً تفوقُ لذّةَ تلكَ الآمالِ والأحلامِ، فولعَ به ولعًا شديدًا، وأصبحَ لا يسمَعُ بمنكوبٍ قريبٍ منه، أو ناءٍ عنه إلّا ذَهَبَ إليه، وأعانَهُ على نكبتِهِ جُهْدَ استطاعَتِهِ، ولا يطرُقُ عليه بابَه في دُجَى الليلِ، أو ضحوةِ النهارِ طارقٌ لحاجةٍ من الحاجاتِ، إلّا أخذَ بيدِه فيها، واحتَمَلها في نفسِه، أو في مالِهِ، واتّخذَ أُسرةَ صديقِه فرتز أسرةً له فَعَالَهَا[١]، وواساهَا، وخَلَطَ نفسَه بها، وأصبحَ أخًا لكبيرِها، ووالدًا لصغيرِها، ووجَدَ في نفسَه من الأنسِ بها والاغتباط بعشرتها ما كانَ يتمنى لنفسِه طولَ حياته أنْ يكونَ له بينَ زوجتِهِ وأولادِهِ.

وعادَ إلى فنّه القديمِ فنِّ الموسيقى، وكانتْ قد شغلَتْهُ عنه تلكَ الشؤونِ الماضيةِ، فتعهَّدَه بنفسِه واستحيَاه واستجدَّ جميعَ آلاتِهِ وأدواتِهِ، فكان إذا جُنَّ الليلُ، وخَلا بنفسِه، قامَ إلى قيثارَته، فلعبَ بأوتارِها، أو جلسَ إلى البيانو، فوقّعَ عليه بعضَ الألحانِ القديمةِ الحديثةِ توقيعًا يجيدُ فيه إجادةً لا عَهْدَ له بمثلِهَا من قبلُ، فقد صقلتْ تلكَ الآلامُ الماضيةُ التي كابدَهَا في حياتِهِ صفحةَ نفسِه وأثارَتْهَا، وملأَتْهَا شعورًا ووجدانًا، وسَمَتْ بها إلى سماءٍ فوقَ سمائِهَا الأولى، فتجلّتْ بجلالها ورونَقِها في نبراتِ صوتِهِ حين يتنغّمُ، وحركاتِ أناملِه حين يوقّعُ. وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ، حتّى ارتقى به الأمرُ إلى منزلةِ الابتكارِ، فوضَعَ ألحانًا جديدةً محزنةً كانتْ تتفجّرُ من ذلكَ القلبِ المصدوعِ تَفَجُّرَ المياهِ الصافيةِ من صدوعِ الأحجارِ، فتنسابُ في أفئدةِ البائسينَ والمحزونينَ، وتتغلغَلُ في أعماقِ قلوبهم، حتّى تَبْلُغَ سويداءَها.

وما كانَ استيفن عالمًا من علماءِ الموسيقى، ولا حافظًا من كبارِ حفّاظِها، ولا كانَ نصيبُه من الإلمامِ بقواعدِهَا وأصولِهَا أكثرَ من نصيبِ زملائِهِ ولِدَاتِهِ[٢]، ولكنّه كانَ ذا قلبٍ، والقلبُ هو الينبوعُ الثجّاجُ[٣] الذي ينفجرُ منهُ الشعرُ والموسيقى وسائرُ الفنونِ الأدبيّة، وليسَ أشعرُ الشعراءِ أحفظَهُمْ لقواعدِ اللغةِ وقوانينِهَا، بل أدقُّهُمْ شعورًا وألطفهم حسًا، وليسَ أفضلُ المغنينَ أعلمَهُمْ بفنونِ النغمِ، وضروبِ الإيقاعِ، بل أنطَقَهُم قلبًا، وأفصَحَهُم فؤادًا، وما مَلَكَ نوابغُ الممثلينَ أفئدةَ الناسِ وقلوبَهُمْ في مواقفِ تمثيلِهِم، ولا استدرّوا دموعَ الباكينَ من محاجِرِها،

---

(١) عالها: قام بأعبائها.

(٢) لِدَات المرء: رفاقه الذين هم من عمره.

(٣) ثجّاج: شديد الانصباب.

إلّا لأنّ لهم قلوبًا حزينةً متفجّعةً تتأثّرُ بصُوَرِ الوقائعِ التي يمثّلونها؛ فإذا بكوا صَدَقُوا في بكائهم، وإذا تفجّعوا، تفجّعوا بقلوبِهم، ولا يفهَمُ لغةَ القلبِ غيرُ القلبِ، ولا يشعرُ بسرّ من النفسِ غيرُ النفسِ.

وَرُبَّ أنّةٍ بسيطةٍ ساذجةٍ يسمَعُها السامعُ في جوفِ الليلِ من ثاكلٍ منكوبٍ، تأخذُ من نفسِه ما لا تأخذُ قطعةٌ شعريّةٌ بليغةٌ مملوءةٌ بغرائبِ المعاني وبدائعِ التصوّراتِ، ينظمُهَا شاعرٌ غيرُ باكٍ، ويغنّيها مغنٍّ غيرُ محزونٍ، وما قواعدُ الشعرِ والموسيقى والرسم والتصويرِ، إلّا حدودٌ يتّقي بها المقلدونَ المحتذونَ الوقوعَ في الخطأ الفنّيّ، أما الملهَمُونَ فما أغناهُم برقة وجدانِهِمْ، ولطفِ حسِّهِمْ، وصفاءِ نفوسِهِمْ، وسلامَةِ طباعِهِمْ عن التمثيلِ والاحتذاء.

❀ ❀ ❀

٧٤ ـ من ماجدولين إلى سوزان

كنتُ أرجو أن تطولَ عِشْرَتُنا في «كوبلانس» أكثرَ ممّا طالتْ وألّا يفرّقَ بيني وبينَكِ إلّا الموت، ولكنْ هكذا أرادَ زوجُكِ أن يطويَ بكِ هذه المرحلةَ البعيدةَ وأن يحرمني أعزّ صديقةٍ كنتُ لا أجدُ لذة العيشِ إلّا بجوارها، ولا أستسيغُ طَعْمَ الحياةِ إلا مَعَها، ولعلّكِ هائنةٌ في موطنِكِ الجديد كما كنتِ هائنةً في «كوبلانس».

أنا سعيدةٌ، والحمدُ لله، لا أشكو شيئًا غيرَ فراقِكِ، وحرماني رؤيتِك؛ وإدوار لا يزالُ يحبّني، وينزلُ عندَ رغباتي، ويتفقّدُ جميعَ مرافقي وحاجَاتي فلَهُ الشكرُ على ذلك.

لا أكتمُكِ، يا سوزان، أنّي كنتُ أشعرُ في نفسي ببعضِ الحُزْنِ على ذلكَ الفتى المسكينِ الذي لَقِيَ في سبيلي الشقاءَ العظيمَ الذي تعلَمِينَه، ولقد سررتُ اليومَ سرورًا عظيمًا حينما علمتُ من أخبارِه أنّه قد نَسِيَ ذلكَ الماضي جميعَه خيرَه وشرَّه، وأنّه قد عادَ إلى رُشْدِهِ وصوابِه، ونزَعَ عنه تلكَ التصوّراتِ الغريبةِ، والخيالاتِ السوداءِ التي كانتْ تخالطُ عقلَهُ براحَتِهِ وسكونِهِ، وأصبحَ يأنسُ بالناسِ، ويشعرُ بلذّةِ المخالطَةِ، والاجتماعِ، ويعيشُ في بيتِهِ الذي بناه في «جوتنج» عيشًا هادئًا ساكنًا، لا يمازجُه حزنٌ ولا كَدَرٌ؛ بلْ سمعتُ عنه ما هو أكثر من ذلك، وهو أنّه يشتغلُ بفنّ الموسيقى اشتغالًا يستغرقُ جميعَ مشاعِرِه وعواطفِهِ، وأنّه قد بَرَعَ فيه براعةً غريبةً لا يبلغُ مبلغَهُ فيها إلّا القليلُ من الناسِ؛ ويقولُ الذين حدّثوني حديثَهُ إنّ شأنَهُ في ذلكَ الفنّ سيكونُ شأنًا عظيمًا، وربّما بلغَ فيه بعدَ قليلٍ من الأعوامِ مبلَغَ النّابهينَ[١] من نوابغِهِ وأفذاذِه[٢]، فحمدتُ الله على ذلكَ حمدًا كثيرًا، لأنّي كنتُ أشعرُ في أعماقِ نفسي بالحزنِ عليه، والرثاءِ له بل النقمةِ على الدهرِ من أجلِهِ. وكانَ يُخَيَّلُ إليَّ أنّه لو ماتَ في سبيلِهِ هذا، لتنَغَّصَ عليّ عيشي، ولقضيتُ

(١) النابه: الشهير، العبقريّ. (٢) الفذّ: العالم الذكيّ.

بقيّةَ أيّامِ حياتي محزونةَ النفسِ موحشةَ القلبِ، حتّى يوافِيَني أَجَلي.

اكتبي إليَّ كثيرًا يا سوزان، وحدّثيني عن كلّ ما يحيطُ بكِ من الأشياءِ، فذلكَ ما يعزّيني عن فراقِكِ بعضَ العزاء.

❀ ❀ ❀

٧٥ ـ من ماجدولين إلى سوزان

أنعي إليكِ مع الأسفِ والدي، فقدْ ماتَ رحمةُ الله عليهِ بعد مرضٍ لازَمَه خمسةَ أشهرٍ، وكنتُ قائمةً بتمريضهِ كلَّ المدّةِ في «ولفباخ»، حتّى مَضَى لرحمةِ ربّه، ولم أعدْ إلى «كوبلانس» إلّا منذُ أيّامٍ قلائلَ، وهذا ما حالَ بيني وبينَ الردّ على كتبِكِ التي أرسلتِهَا إليّ، فسامحيني في تقصيري، وابكي معي ذلكَ الأبَ البرَّ الرحيمَ الذي أحبّني في حياتِه فوقَ ما يحبُّ الآباءُ أبناءَهم، وماتَ وهو لا يأسفُ على فَقْدِ شيءٍ في الدنيا سواي، ولقد كنتُ أسمعُ قبلَ اليوم أن الفتاةَ الثاكِلَ لا تبكي أبَاها وهي متزوّجةٌ، كما تبكِيه عذراءَ، فأرتابُ في ذلك ارتيابًا كثيرًا، حتّى ماتَ أبي، فبكيتُهُ بكاءً لا تبكِيه متزوّجةٌ، ولا عذراءُ، فرحمةُ الله عليهِ وعلى أيّامِهِ الغُرِّ الحسانِ، وعلى نفسِه الطيّبةِ الطاهرة.

ولقد عزّاني عن فقدِهِ بعضَ العزاءِ أنّ كثيرًا من صَوَاحبي وأصحابِ زوجي كَتبُوا إليَّ كُتُبَ تعزيةٍ رقيقةٍ حَمَلَتْ عن نفسِي بعضَ همومِهَا وأشجانِهَا، والذي عجبتُ له كلَّ العجبِ، وملأ نفسي دهشةً وحيرةً أنّي وجدتُ بين تلكَ الكتبِ كتابًا من استيفن أرسَلَهُ إليّ من «جوتنج» يعزّيني فيه أجملَ تعزيةٍ وأرقَّها، ويتفَجّعُ فيه على الميتِ تفجّعًا عظيمًا، ويخاطِبني بتلكَ اللهجةِ التي لا يخاطِبُ بها المرءُ إلّا أكرمَ أصدقَائِه عليه، وآثَرَهُمْ عنده، فعجبْتُ لأمرِه كثيرًا، وقلتُ في نفسي إنّ كانَ الرجلُ لا يزالُ يضمرُ لي في قلبِهِ حتّى اليوم بقيّةً من ذلكَ الإجلالِ القديم بعد الذي كانَ بيني وبينَه، فهو أكرمُ الناسَ خُلقًا، وأشرفُهُمْ نفسًا، وأعلاهُم همّةً، على أنّ الذي سرّني في عَمَلِهِ هذا أكثرَ من كلِّ شيءٍ أنّه قد غَفَرَ لذلكَ الشيخِ المسكينِ تلكَ الإساءَةَ التي كان يظنُّ أنّه أسلَفَها إليه، فمضى لربّه طاهرَ النفسِ نقيّ الصحيفةِ، لا يحملُ تبعةً، ولا يجرُّ وراءَه إثمًا.

ألا تعجبينَ معي، يا سوزان، لهذا الإنسانِ الغريبِ الذي كنّا نتهمُهُ بالأمسِ في عقلِهِ، وننزلُ به إلى مرتبةِ المخالطينَ[1] المغرورينَ الذين لا يصلحونَ لشأنٍ من شؤونِ الحياة كيفَ استحالتْ حالُهُ، وهدأتْ ثورَةُ نفسِه، وأصبحَ رجلًا كريمًا مهذّبًا عاملًا مستقيمًا طيّبَ السريرةِ والنفسِ، لا يحقدُ ولا يضغنُ، ولا يأبى إلّا أنْ يغفرَ الذنبَ الذي لا يغفِرُه أحدٌ، وينسى الإساءَةَ التي لا ينساها إنسانٌ!؟ أُهديكِ، يا سوزان، تحيّتي، وبلّغي فردريك تحيّتي، وتحيّةَ إدوار.

---

(١) المخالطين: المجانين.

٧٦ ـ من ماجدولين إلى سوزان

لم تكتبي إليَّ يا سوزان منذُ ثلاثةِ أشهرٍ إلا كتابًا واحدًا لا يزيدُ على خمسةِ أسطرٍ، وهو قليلٌ لا يُقْنِعُني منك، فإنْ لم تكتبي إليّ، لتعزِيَتي وتسريةِ همومِ نفسي، اكتبي إليّ لأعلَمَ أنّكِ سعيدةٌ هانئةٌ في موطنِكِ الجديد.

أشعرُ، يا سوزان، منذُ ماتَ أبي أنّني ضيّقةُ الصدرِ، خائرةُ النفسِ، ولا أدري ما الذي طرأ على إدوار، فقد تغيّرَ بعضَ التغيُّرِ عمّا كانَ عليهِ، وأصبحَ لا ينظرُ إليَّ بالعينِ التي كان ينظرُ بها إليَّ من قبلُ، ولا أريدُ أن أقولَ إنّه أبغضَني، أو تبرّمَ بي، أو فَتَرَ عن خدمَتي، والقيام بشأني، بلْ أريدُ أنْ أقولَ إنّني أصبحتُ أرى في عينيهِ قصرًا عنّي وازورارًا[1] لا عهدَ لي بهما من قبلُ، وصارت ابتسامَتُه مزيجًا من المجاملةِ والحبّ، وكانتْ خالصةً للحبّ قبلَ ذلك، وأصبحتْ تتخلّلُ أحاديثَنا فتراتٌ طويلةٌ موحشةٌ ما كانتْ تتخلّلُها قبلَ اليوم.

وكنتُ لا أذهبُ معه في الحديثِ مذهبًا أستحسنُ فيه أمرًا، أو أستهجِنُهُ، إلّا ذهبَ معي فيه، فأصبحَ يستهجِنُ أكثرَ ما أستحسنُ، ويستحسنُ أكثرَ ما أستهجنُ، كأنّما يعتمِدُ مغايَظَتِي ومحادّتي، وصارَ يأنسُ بالزائرينَ والوافدينَ، ويُطيلُ جلوسَه معهم، وقلّما كانَ يهتمُّ بهم، أو يهشُّ[2] لِلِقائِهِمْ، أو يستخفّهُ شيءٌ غيرُ الجلوسِ معي، والحديثِ إليّ، وكنتُ لا أبتسِمُ إلى رجلٍ من الرجالِ ابتسامةَ ودٍّ، أو مجاملةٍ، أو أتبسَّطُ معه في حديثٍ إلّا وَجَمَ لذلكَ وجومًا يظهرُ في عينيهِ وفلتاتِ لسانِهِ، فأصبحَ لا يأبَهُ لشيءٍ من ذلكَ، ولا يحفَلُ به، والغيرةُ دخانُ الحبّ، فإذا انطفأتْ نارُهُ، انقطعَ دُخَانُه.

لا يُحْزِنْكِ من ذلكَ شيءٌ، يا سوزان، فربّما كنتُ واهمةً أو متخيّلةً، وربّما كتبتُ إليكِ بعد قليلٍ أنّني هانئةٌ سعيدةٌ، وأنّ هذا الوهمَ لا أثرَ له في نفسي.

❁ ❁ ❁

٧٧ ـ من سوزان إلى ماجدولين

لا شكَّ إنّكِ واهمةٌ، يا ماجدولين، فإنّ إدوار يحبّكِ حبًّا شديدًا، ولا يؤثِرُ على رِضاكِ غرضًا من أغراضِ الحياةِ ومآربِها، وأرى لكِ أنْ لا تتغَلْغَلِي بنفسِك هذا التغلغلَ كلَّه في بواطنِ الأشياءِ وأعماقِها، فعَفْوُ الحياةِ خير من مجهودِهَا؛ والسعادةُ كالزهرةِ لا تزالُ ناضرةً ما قَنَعَ رائِيها منها بمنظَرِها وأريجِهَا، فإذا جاوزَ إلى لَمْسِهَا والعبثِ بها، ذَبُلَتْ وذَوَتْ، وذهبَ جمالُها ورواؤُها؛ وأهديكِ تحيّتي وسلامي.

---

(١) الازورار: الميل، الانحراف.

(٢) هشّ: ارتاح وانشرح.

٧٨ ـ من ماجدولين إلى سوزان

لقد وقعَ لي منذُ أيّام أمرٌ غريبٌ لا أجدُ لي بدًّا من الإفضاءِ به إليك:

دعيتُ أنا وإدوار منذُ أيّام قلائلَ إلى حفلةِ أنسٍ قال صاحِبُهَا حينَ دعانا إليها: إنّ الذي سيقومُ بأدوارِ الغناءِ والتوقيعِ فيها صديقٌ له من مهرةِ الموسيقيّين وحذّاقِهِمْ، فسألنَاه عن اسمِهِ، فأبى إلّا أن يباغِتَنَا به مباغَتَةً، وقالَ إنّه حديثُ عهدٍ بذلكَ الفنّ، وإن هذا أوّلُ عهدِهِ بالغناءِ في المجامعِ العامّةِ، وظلَّ يُثْني عليهِ ثناءً عظيمًا، ويذهبُ في تقريظِهِ[1] والإشادةِ به كلَّ مذهبٍ؛ فلم يكنْ لي همٌّ عندما ذهبتُ إلى تلكَ الحفلةِ، إلّا رؤيةَ ذلكَ الموسيقيّ الماهرِ واستماعِ أغانيهِ وألحانِهِ.

فَظَلَلْتُ شاخصةً إلى كرسيّ البيانو أنتظرُ ذلكَ الذي سيتقدّمُ من بينِ الحاضرينَ، فيجلسُ عليه حتّى رأيتُ فتًى نحيلًا ساهِمَ الوجهِ، تتراءى بين أعطافِهِ مخايل[2] العزّةِ والشرفِ قد مشى إلى ذلكَ الكرسيّ، حتّى جلسَ عليه بلباقَةٍ وظَرْفٍ، فتأمّلْتُه، فإذا هو «استيفن»، وما كدتُ أعرفُهُ، فقد اختَفَى من وجهِهِ ذلكَ الإنسانُ الأشعَثُ الأغبرُ الخشنُ الأعضاءِ والملامحِ، وحلَّ محلَّهُ إنسانٌ آخرُ ظريفٌ، متأنّقٌ، هادئُ الحركاتِ، حلوُ الشمائلِ، يكادُ يحسَبُه الناظرُ إليه للمرّةِ الأولى جميلًا، وما هو بجميلٍ، ولا مستملحٍ، ولكنّه جمالُ نفسِهِ قد فاضَ على جسمِهِ، فكَسَاه رونَقَهُ وبهاءَه.

ثمّ بدأَ التوقيعَ، فأنشَأَتْ أناملُهُ تلعبُ بأوتارِ البيانو، فكأنّما كانتْ تلعبُ بأفئدتِنَا وقلوبنا، وأخذَ يغنّي في أثناءِ توقيعِهِ غناءً مشجيًا محزنًا خُيّلَ إلينا ونحنُ نسمَعُه أنّنا قد انتقَلْنا من هذا العالمِ إلى عالمٍ آخَر من عوالمِ الأرواحِ، وأنّ ما نسمَعُه ليسَ صوتًا صاعدًا من عالمِ الأرضِ، بل هابطًا من آفاقِ السماء حتّى أتى على النغمةِ الأخيرةِ، فلم يملك السامعونَ أنفسَهُم أنْ هرعوا إليه جميعًا وداروا به يهنّئونَه، ويقرّظُونه، ويردّدُون في أحاديثهم أنّهم ما سمعُوا في حياتِهم توقيعًا أفضلَ من توقيعِه، ولا ألحانًا أبدعَ من ألحانه، وهو يشكُرُ لهمْ ثناءَهم عليه واحتفاءَهم به، ويبتسمُ لهم فيما بين ذلكَ ابتسامةً هادئةً غريبةً، لا يعلم الناظرُ إليها، أمتكلَّفَةٌ هي، أَمْ هي ابتسامَتُهُ التي لا تنفرجُ عن غيرِها شفتاه؟ وكيفما كان الأمرُ، فقد خُيّلَ إليّ أنّي رأيتُ فيها معنًى دفينًا لا أحسَبُ أنّ أحدًا من الناسِ أدركَهُ سوايَ، وهو أنّها مصبوغة بصبغةٍ رقيقةٍ من الحزنِ العميق.

ولقد كادتْ تحدّثني نفسي لكثرةِ ما نالني من الطربِ، وخالطَ قلبي من الجذلِ[3] والسرورِ أن أذهبَ إليه أهنّئُه كما يفعلُ سائرُ الناسِ، فلم أستطعْ حتّى أرى رأيَ إدوار، فلم ألبثْ أنْ رأيتُهُ يمشي إليه، فتبعتُهُ حتّى هنّأَهُ، فهنّأْتُه مثلَهُ وكنتُ أتوقّعُ أن أرى على وجهِهِ عندَ رؤيتنا حالةً من حالاتِ الغضبِ أو الارتباكِ. فلم أرَ إلّا رجفةً خفيفةً مرّتْ بشفيتهِ عندَما نظرَ إلينا، ثمّ عادَ

---

(١) التقريظ: المدح.

(٢) مخايل: جمع مخيلة وهي العلامة.

(٣) الجذل: الفرح.

إلى ابتسامتِهِ وتَطَلُّقِهِ، وأنشأَ يحدّثُنا بسكونٍ وهدوءٍ، كأنّما هو يتمّمُ حديثًا كان بيننا وبينه من قَبْلُ، فعلمتُ أنّ الرجلَ قد مَحَا من سجلِّ حياتِهِ تلكَ الأعوامَ التي شَقَى فيها، وَمَحا معها ذكرى علاقَتِنا ببؤسِه وشقائِه، وأصبحَ لا يرى بين يديهِ إلّا امرأةً قد منحَتْهُ في عهدٍ من عهود حياتها الماضيةِ، ودَّهَا، وإخلاصَها وإلّا رجلًا قد صادَقَهُ، وآخاهُ، وقاسَمَهُ بؤسَهُ وشقاءَه في أيّامِ طفولتِهِ وصباهُ، ثمّ لا يزيدُ على ذلكَ شيئًا، فلم ينقضِ الليلُ، حتّى ذهبَ ما كانَ بينَه وبيننا من الوحشةِ والجفاءِ، وذهبنا معه في الحديثِ مذاهبَ مختلفةً. ووعَدَه إدوار أنْ يزورَه في منزلِهِ في عهدٍ قريبٍ، ثمّ افترقنا.

❁ ❁ ❁

٧٩ ـ من ماجدولين إلى سوزان

لا أزالُ، يا سوزان، ضيّقةَ الصدرِ كثيرةَ الهمّ، ولا يزالُ إدوار قريبًا منّي بعنايتِهِ واهتمامِهِ بعيدًا عنّي بقلبِهِ وعواطفِهِ، فقد ملأَ فراغَ قلبِهِ بشؤونٍ مختلفةٍ لا أعرفُها ولا آبَهُ لشيءٍ منها، ولم يتركْ فيه للحبّ إلّا زاويةً صغيرةً لا تتّسعُ ولا تنقبضُ، ولا تجدُ العواطفُ لنفسِهَا فيها مجالًا، فهو يحبّني حبًّا هادئًا فاترًا ربّما لا يزيدُ عن محبّته لخيولِهِ وعجلاتِهِ، وقصورِهِ وبساتينِهِ، وأحسبُ أنّه لو أرادَ أن يزيدَ على ذلكَ شيئًا، لما استطاع، لأنّ نفسَه ليستْ تلكَ النفسَ الشعريّةَ المتلألئةَ التي تذهبُ في الحبّ كلَّ مذهبٍ، وتطيرُ في سمائِهِ كلّ مطارٍ، ولأنّه لا يفهمُ من الحبّ أكثر من ذلكَ المعنى المادّيّ البسيطَ الذي يفهَمُه الحيوانُ الأعجَمُ[1]، بل لا يدركُ من شؤونِ الحياةِ جميعها غيرَ ما يقعُ تحتَ حواسّهِ ومشاعِرِه.

والآنَ أستطيعُ أنْ أعترفَ لكِ، يا صديقتي، بأنّني ما شعرتُ في يوم من أيّامِ حياتي معَهُ على حبّي إيّاه، وإعجابي به بأنّ نفسي خالطَتْ نفسَه، أو لامسَتْهَا، أو امتزجَتْ بها ذلكَ الامتزاجَ الذي يُحِيلُ النفسينِ المختلفينِ إلى نفسٍ واحدةٍ، بل كنتُ أرى دائمًا أنّه، وإنْ كانَ يحبّني، ويستهيمُ بي، ويبذُلُ لي من ذاتِ نفسِه وذاتِ يدِهِ، كلَّ ما يستطيعُ أن يبذُلَه زوجٌ لزوجَتِهِ، فهو عاجزٌ عن أن يُشْغِلَ في قلبي نارَ ذلكَ الحبِّ الشعريِّ الجميلِ الذي لا تقنعُ المرأةُ من الرجلِ بدونِهِ، ولا تأنسُ منه بشيءٍ سواه. ونارُ الحبِّ إنْ لمْ يتعهَّدْهَا متعهّدُها بالتأريثِ[2] والتأجيجِ، فترتْ وانفَثَأَتْ[3]، واستحالتْ جذوتُها إلى رمادٍ، والحبُّ كالطائرِ لا حياةَ له إلّا في الغدوِّ، والرواحِ، والتغريدِ، والتنقيرِ، فإذا طالَ سجنُه في قفصِ القلبِ تضعضَعَ وتهالَكَ، وأحنى رأْسَهُ، ثمّ قضى.

---

(١) الأعجم: غير الناطق.

(٢) أرّث النار: أضرمها بقوّة.

(٣) انفثأ: سكن، هدأ.

وأعظمُ ما أشكو من الهموم في حياتي معه أنّني أصبحتُ أشعرُ منذُ أيّام طوالٍ أنّي أعيشُ في عُزْلَةٍ منقطعةٍ عن العالمِ كلّه، لا أنيسَ لي فيها، ولا سميرَ، فإذا مرّ بخاطري فكرٌ من الأفكارِ، أو اختلجَ في نفسي غرضٌ من الأغراضِ، أو خفَقَ قلبي خفقةَ سرورٍ، أو حزنٍ، أو ارتياحٍ، أو انقباضٍ، لا أستطيعُ أن أفضِيَ إليه بشيءٍ من ذلكَ مخافةَ ألا يفهمَهُ، أو يفهمَ منه غيرَ ما أريدُ فيزدَرِيه، ويزدَرِيني من أجلِهِ، ويوسِعُني هزءًا وسخريةً، فلا أجدُ لي بدًّا من أن أتكتّمَهُ في نفسي، وأطويه بين أضالعي.

ألا ترينَ بعد هذا، يا سوزان، أنّني في أشدّ الحاجةِ إليكِ وإلى بقائِكِ بجانبي، لتأخذي بيدي في ظلماتِ حياتي وتحمِلي عنّي بعضَ همومي وأشجاني: فهل يُقَدِّرُ لي اللهُ أنْ أراكِ بين يديّ في عهدٍ قريب؟



٨٠ ـ الوحدة النفسيّة

لقد صدقَتْ ماجدولين فيما قالتْ، فقد ملّها إدوار بعدَ عامينِ اثنينِ من زواجهِ منها وبَرِمَ[١] بها، وانتهى أمرُه معها بما ينتهي بهِ كلّ زوجٍ تعقدُه يدُ الشهوةِ، ولقد ملّ منها، أكثرَ من كلّ شيءٍ، تلكَ الوحشةَ التي كانتْ سائدةً على نفسِهَا، وذلكَ السكونَ المخيّمَ على عواطِفِها ومشاعرِها، وذهابها في تصوّراتِها وآرائها، مذهبَ الخيالِ الشعريّ الذي لا يألفُهُ، ولا يأنسُ به، ولا يلتئمُ مع طبيعةِ نفسِه ومزاجِها. فلقد كانتْ نفسُه نفسًا ماديّةً ضاحكةً، ونفسُهَا نفسًا رُوحيّة مكتئبةً؛ وقد تكلّف كلٌّ منهما الخروجَ عن طبعِهِ برهةً من الزمانِ لغرضٍ طارئٍ من أغراضِ الحياةِ.

فأخرَجَهَا عن طبعِهَا ذلكَ اللألاءُ الساطعُ الذي بهرَ عينَيها عندَ انتقالها من القريةِ إلى المدينةِ، وتلكَ الضوضاءُ العظيمةُ التي أحاطَتْ بأذنيها، وحالتْ بينَهَا وبين سماعِ صوتِ قلبِها، وأخرجَهُ عن طبعِهِ أنّه أحبَّها وافتُتِنَ بها، وكان لا بدَّ لهُ من أن يقَعَ من نفسِها، وينزلَ عند رغبَتِها، فتجمّلَ لها في أحاديثِهِ ومنازِعِه، وتصوّراته، وآرائِه بما يتجمّلُ به كلُّ رجلٍ لكلِّ امرأةٍ عند خُطْبَتِها حتّى اتّصلا بصلةِ الزواجِ، وأخذا يتراجعانِ شيئًا فشيئًا إلى طبعِهِما وسجيّتِهما، ويذهبانِ في الحياةِ مذهَبَهُما الذي فُطِرَا عليه، فتنافَرَا وتناكرا، واستوحَشَ كلٌّ منهما من صاحِبِه، ولقد يكونُ إدوار خيرَ الأزواجِ، لو أنّه تزوّجَ امرأةً مثلَ سوزان ماديّةَ النفس.

وقد تكونُ ماجدولين أسعدَ الزوجاتِ، لو أنّها تزوّجَتْ رجلًا مثلَ استيفن شعريّ الطبيعةِ؛ وما خَدَعَتْ سوزان ماجدولين في تزيينِ هذا الزواجِ لها وإغرائِها به، ولا أرادَتْ بها في ذلكَ

(١) برم بها: سئمها وملّها.

سوءًا، لأنّها لم ترَ لها إلّا ما ترى مثلَهُ لنفسِهَا، ولا سلكَتْ بها إلّا الطريقَ التي سلكَتْ مثلَهَا في حياتها.

والهفوةُ التي يهفُوها الرجالُ والنساءُ جميعًا في مسألةِ الزواجِ أنّهم يتساءَلون عن كلّ شيءٍ من جمالٍ، أو مالٍ، أو خُلُقٍ، أو ذكاءٍ، أو علمٍ، أو عقلٍ، أو عفّةٍ، أو أدبٍ، ويغفلون النظرَ في ملاكِ هذه الأشياءِ جميعِها وزمامِها، وهو الوحدةُ النفسيّةُ بين الزوجين؛ فالنفسُ نفسان: ماديّة تقفُ عند مظاهرِ الحياةِ ومرائيها، وروحيّةٌ تتغلغَلُ في أعماقِهَا وأطوائِها.

وأصحابُ النفسِ الأولى همُ أولئكَ الجامدونَ المتبلّدون الذين يدورُون في الحياةِ حولَ محورِ أنفسِهِم، ولا يحفلُون بشيءٍ فيها إلّا بما يتّصلُ بمطامِعِهم أو بشهواتِهم، والذين إذا شغفوا بشيءٍ باعتبارِ علاقتِهِ بأجسامِهِم، لا بنفوسهم، وإذا أعجبوا بمنظرٍ من المناظرِ، أعجبوا به من حيثُ قيمَتُهُ ومنفعَتُه لا من حيثُ بهاؤُهُ ورونَقُه، وإذا وقفُوا أمامَ قصرٍ باذخٍ جميلٍ، شغلَهُمْ النظرُ في غلّتِهِ وثمرتِهِ عن الشعور بجمالِهِ وعظمتِهِ، وإذا أشرفوا على الطبيعةِ، ضاقَتْ صدورُهُم بمناظرِ غياضِهَا، ورياضِهَا، وآجامِهَا[1]، وأحراشِهَا، واستوحشوا منها وحشةَ السائرِ في فلاةٍ جرداءَ، أو الهائمِ في مغارةٍ جوفاءَ، وإذا صادقُوا الناسَ، صادقُوهُم على المنفعةِ أو الشهوةِ، أو عادوهم فيهما، يضحكُون والعالمُ باكٍ، ويعرسونَ والدنيا في مأتمٍ، ولا يبالونَ أهلكَ الناسُ أم بقوا، ما داموا باقينَ، وسعدوا أم شقوا ما داموا سعداءَ مغتبطين.

وأصحابُ النفسِ الثانية هم أصحابُ الملكاتِ الشعريّة الذين صَفَتْ قلوبُهُمْ، فأصبحَتْ كالمرائي المجلوّةِ، فيتراءَى فيها العالمُ بما فيهِ من خيرٍ وشرٍّ، ففرحوا بخيرِهِ، وحزنوا لشرّهِ، ورقّتْ أفئدتُهُمْ، فشعروا بألمِ المتألّمينَ فتألّموا معهم، وببكاءِ الباكينَ، فبكوا عليهم، وخَفَّتْ أرواحُهُمْ فطاروا بأجنحتِهِم في آفاقِ السماءِ، وحلّقوا في أجوائِها فأشرَفُوا على الطبيعةِ، ورأوها في جميعِ مظاهرِها ومرائيها، فوجدوا في رؤيتِهَا من اللذّةِ والغبطةِ ما زاحمَ في قلوبهم حبَّ المالِ والشهواتِ، فاعتدَلُوا في مطامعِهِم، وترفّقُوا في مساعيهِم، وازدرُوا كلَّ لذّةٍ في الحياةِ غيرِ لذّةِ الحبِّ، وكلَّ جمالٍ غيرِ جمالِ الخيال.

ولا تلتئِمُ النفسُ الماديّةُ بالنفسِ الروحيّةِ بحالٍ من الأحوال، ولا تأنسُ بها، ولا تجدُ لذّة العيشِ معها؛ وليسَ الذي يفرّقُ بين الصاحبينِ، أو الزوجينِ، أو العشيرينِ تفاوتُ ما بينَهُما في الذكاءِ، أو العلمِ، أو الخُلقِ، أو الجمالِ، أو المال؛ فكثيرًا ما تصادَقَ المختلفون في هذه الصفاتِ، وتخادَنُوا[2] وصفَتْ كأسُ المودةِ بينهم؛ وإنّما الذي يفرّقُ بينهما اختلافُ شأنِ نفسَيْهِما، وذهابُ كلٍّ منهما في منازعِهِ، ومشاربِهِ، ورغباتِهِ، وآمالِهِ، وتصوّراتِهِ، وآرائِهِ غيرَ مذهبِ صاحبِهِ، وأنْ يكونَ أحدُهما ماديًّا ضاحِكًا للحياةِ سعيدًا بضحكِهِ، والآخرُ روحيًّا باكيًا عليهَا سعيدًا ببكائِهِ، وهذا هو الذي كانَ بين إدوار وماجدولين.

---

(١) الآجام: الغابات.

(٢) تخادن: من الخدن وهو الرفيق.

ولم يكنِ الجمالُ وحدَه هو كلّ مزايا ماجدولين، بل كانَ أقلَّهَا شأنًا، وأدناها قيمةً، ولكنَّ إدوار لم يستطعْ أن يفهَمَ شيئًا غيره أو يُعْنى بأمرٍ سواهُ؛ فما هو إلّا أنْ حصَلَ في يدِهِ، واستنفَدَ متْعَتَهُ به، حتّى بدأ الملَلُ يدبُّ في نفسِه دبيبًا خفيفًا، فلم تشعُرْ به ماجدولين في مبدأ الأمرِ، ثمّ أخذتْ تحسّهُ شيئًا فشيئًا، فذُعِرتْ وارتَاعَتْ، وملأ الريبُ ما بين جوانحها؛ وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ حتّى أخذتْ تنقشِعُ عن عينيها تلكَ الغَيَابَةُ[1] عن صورةِ الرجلِ الذي تعاشِرُهُ وتزعَمُ أنّها تحبّه، فرأتْ صورةً لا تعجِبُها، ولا تروقُهَا، ولا تخالِطُ نفسَها، ولا تمازجُهَا، وعادتْ إلى ماضِيَها معه، فأخذتْ تقرأُ صفحاتِهِ صفحةً صفحةً، حتّى أتَتْ على آخرها، فتبيّنَ لها أنّها لم تكنْ تحبّه، أو أنّها كانتْ تحبُّ فيه شيئًا غيرَ نفسِه وأنَّ الصلَةَ التي بينها وبينه إنّما هي صِلَةُ الزوجةِ بالزوجِ لا صِلَةُ القلبِ بالقلبِ، فعرفتْ أنّها لم تحسنِ الاختيارَ لنفسِها وأنّ شقاءً طويلًا ينتظِرُها فيما بقيَ لها من أيّامِ حياتِها.

❁ ❁ ❁

٨١ ـ من سوزان إلى ماجدولين

أراكِ تحدّثينَني في كتبكِ كثيرًا عن استيفن كأنّكِ قد نسيتِ أنّه أصبحَ رجلًا غريبًا عنكِ لا شأنَ لكِ به، وأنّ ما كانَ بينَكُما قد انقضَى وذهبَ لسبيلِهِ، وأغربُ من ذلكَ أنّكِ تكتبينَ عنه بلهجةٍ أفضلَ من اللهجةِ التي تكتبينَ بها عن زوجكِ، وأخافُ أن يكونَ لالتقائِهِ بكِ في تلكَ الحفلةِ التي قَصَصْتِ عليّ قصّتَها صلةٌ بهذا الألم الجديدِ الذي أصبحتِ تشعرينَ به اليومَ، فما عهدتُكِ قبلَ الآن باكيةً، ولا شاكيةً، ولا ناقمةً من زوجكِ شأنًا من شؤونه، ولا متبرّمَةً بعشرتِهِ، ولا ضيّقةَ الصدرِ بأطوارِه وأخلاقِه، ولا طائرةً في سماءِ الخيالِ ليلَكِ ونهارَكِ تفتّشينَ عن الحبّ الشعريّ، وتتلمّسينَهُ تَلَمُّسَ من لا يرى لنفسِه غَنَاءً عنه، ولا يعرفُ معنًى للحياةِ بدونِه. فخُذِي حَذَرَكِ من نفسِك، يا ماجدولين، واعلمِي أنّ ما كانَ يُعَدُّ بالأمسِ هفوةً من الهفواتِ الصغيرةِ، يصبحُ اليومَ جُنُونًا مطبقًا لا يماثِله جنونٌ، ولا يوحِشَنَّكِ منّي ما أقولُ لكِ، فأنا لا أتّهمُكِ ولا أرتابُ فيك، وأنتِ أعلمُ بذلكَ، ولكنّي أخشى عليكِ أن يتلاقى في مكانٍ واحدٍ من قلبِكِ ذكرى ماضيكِ وهناءُ حاضرِكِ، فيصطرِعا، فينغّصُ عليكِ أولُهما، فلا الماضي تدركينَ ولا بالحاضرِ تسعَدِين.

هذا ما أريدُ أنْ أقولَهُ لكِ، وهذا ما أطلبُ إليكِ أن تتعّدِيه من نفسِكِ، وتتولّي حراسَتَه من قلبِكِ أنْ يأتيَ يومٌ لا ينفعُكِ فيه تَعَهُّدٌ ولا انتقاد.

❁ ❁ ❁

(١) غيابة الأمر: ما سُتر منه.

٨٢ ـ من ماجدولين إلى سوزان

لا علاقةَ لاستيفن بهذا الهمّ الذي أشعرُ به، وليسَ بيني وبينَه أكثرُ ممّا يكونُ بين صديقينِ احتمَلَ أحدُهُما في سبيلِ الآخرِ في عهدٍ من عهودِهِ الماضيةِ أقصَى ما يُسْتَطاعُ احتماله من المشقّةِ والمؤونةِ، فعرفَ له الآخرُ يدَه، وشكرَهَا لهُ، وجازاهُ ودًّا بودّ، ومعروفًا بمعروف.

أمّا هذا الذي تريدينَ أنْ تذهبي إليهِ في كتابِكِ، فأقسمُ لكِ إنّي لا أعرفُ له أثرًا في نفسي، ولا أحسبُ أنّ له أثرًا في نفسِه، فقد رأيته في تلكَ الليلةِ التي قصَصْتُ عليكِ قصّتَها، ثمّ رأيتُه بعدَ ذلكَ مرّتين، فلم أرَ في نظراتِ عينيهِ، ولا ملامحِ وجهِه، ولا نغمةٍ في حديثِهِ أثرًا من ذلكِ الحبّ القديمِ الذي تعرفينَهُ. وكلُّ ما يستطيعُ الناظرُ إليه أنْ يلمَحَه في وجهِه تلكَ المسحةُ الرقيقةُ من الحزنِ التي تتراءَى في عينَيْهِ حينَ ينظرُ، وفي ابتسامَتِهِ حينَ يبتسمُ، وما هو بحزينٍ ولا مكتئبٍ، ولكنّها صورةُ الألمِ القديمِ، قد رسَمَهَا الماضي على وجهِهِ ثمّ ذهبَ، فبقيتْ هي من بعدِه دليلًا عليه كما تبقى صورةُ الجرحِ بعدَ التئامه، فاطمئنّي، يا سوزان، وَلْيَكُنْ رأيُكِ فيَّ اليومَ رأيَكَ بالأمسِ، ولا يُقِمْ هذا البعدُ الذي بيني وبينَك، حجابًا بين نفسِي ونفسِك.

❀ ❀ ❀

٨٣ ـ قلب استيفن

نبهَ ذكرُ استيفن، وعَظُمَ شأنُه، وأصبحَ نابغةً من نوابغِ الموسيقى، وانتشرَ له صيتٌ بعيدٌ في جوتنج، وما يليها من البلدانِ، ثمّ امتدّ صيتُه إلى كوبلانس، فزارَهُ في قريتِهِ كثيرٌ من المغنّينَ والممثلينَ، واقترحوا عليه تلحينَ القطعِ التمثيليّة، وأجزلوا له الأجرَ عليها، فلحّنَهَا أفضلَ تلحينٍ وأبرَعَهُ، ودرّتْ عليهِ أخلافُ الرزقِ، وسالَ واديهِ بالذهبِ سيلًا، وكان أبوه قد ماتَ وورّثَه تلكَ الصبابةَ من المالِ التي كانت في يدِه، فكانَ إذا ذهبَ إلى كوبلانس، ليقضيَ فيها ليلةً أو ليلتين لبعضِ شؤونِهِ الخاصّةِ، نَزلَ في بيتِه، وزارَه فيه أصدقاؤُه وخلّانه، والمعجبونَ بفضلِهِ، والمعترفونَ بصنائِعِه وأياديه.

ولقد وَجَدَ في تلكَ الخطّةِ التي انتهَجَهَا لنفسِه في حياتِهِ بعضَ العزاءِ عمّا لقيَ في ماضِيه، إلّا أنّه كثيرًا ما كانَ يخلُو بنفسِه في هدوءِ الليلِ وسكونِه، فتمرُّ أمامَ نظرِه على الرغم منه جميعُ آلامِهِ وهمومِهِ الماضيةِ، فيذكرُ الليلةَ التي خرجَ فيها من كوبلانس شريدًا طريدًا، لا يَجدُ مواسيًا ولا معينًا، والليلةَ التي ذهبَ فيها إلى عرسِ سوزان لرؤية ماجدولين، فضربَه أحدُ الزائرينَ على وجهِهِ سوطًا فأدمَاهُ، والليلةَ التي كابَدَ فيها الأهوالَ العظامَ في غرفة قريبِهِ ليلةَ وفاته حتّى أشرفَ على الجنون، والليلةَ التي قَضَاها طريحًا تحتَ سلّم دارِ ماجدولين حتّى الصباحِ، وهي خاليةٌ بزوجِها في غرفةِ عرسِهَا، تعانقُهُ، وتقبّلُه، وتقولُ له: «أنتَ حياتي التي لا حياةَ لي

بدونها»، ويتراءى له مرّةً شَبَحُ أخيه «أوجين» وهو ساقطٌ في حومةِ الوغى تحتَ سنابكِ الخيلِ، تدوسُهُ، وتخوضُ في أحشائِهِ، وأخرى منظرُ ماجدولين، وهي جالسةٌ مع إدوار على مقعدِ حديقَتِهَا، تناجيهِ بالحبِّ، ويناجِيها، إلى ما بقيَ من أيّام بؤسِه وليالي شقائِه.

ثمّ تتمثّلُ أمامَ عينيهِ روضَةُ آمالِهِ، وهي مورقةٌ خضراءُ، يتسلسَلُ ماؤُها، ويترقرَقُ هواؤُها، ثمّ يراها وقد عصفَتْ بها ريحُ الحوادثِ، فَصَوّح[1] نبتُها، وذَبُلَ زهرُهَا، واستحالتْ إلى قفرةٍ جرداءَ لا يترنّحُ فيها غصنٌ، ولا يهتفُ بها طيرٌ، فيُخَيّلُ إليه أنّه يعيشُ وحدَه منقطعًا عن العالمِ كلّه وما فيه، لأنّ ماجدولين ليستْ بجانِبِهِ، وأنّ ما يتمتّعُ به من مجدٍ ومالٍ لا قيمةَ له عندَهُ لأنّها لا تقاسِمُه إيّاه، وأنّ هذه الألحانَ التي يضعُهَا، والأصواتَ التي يغنّيها إنّما هي مأتمٌ يقيمُه بنفسِه على نفسِه وعلى آمالِهِ الذاهبةِ، وأمانيِّهِ الضائعَةِ، فتمتلئُ نفسُه غمًّا وحسرةً، فلا يجدُ له سبيلًا سوى أن يتناولَ قيثارتَهُ، فيضمَّهَا إلى صدرِهِ، ويبثُّهَا هُمومَ قلبِهِ وآلامَ فؤادِهِ، ويبكي ما شاءَ الله أن يفعلَ، حتّى يجدَ بعضَ الراحةِ في نفسهِ، فيأوي إلى فراشِه، وينامُ نومًا طويلًا، ثمّ يستيقظُ بارئًا مستفيقًا.

ولم يزلْ هذا شأنَهُ، حتّى التقى بماجدولين في تلكَ الليلةِ التي قَصَّتْ هي قصَّتَهَا على سوزان، فاغتبطَ بمرآها اغتباطًا ممزوجًا ببعضِ الألمِ لذكراها، وذكرى ماضِيه مَعَها، إلّا أنّه تجلّدَ واستمسَكَ، وكاتَمَ نفسَه غصّتَهَا، فلم تشعرْ بشيءٍ ممّا دارَ في نفسِه حتّى انصرفت.

وما هيَ إلّا أيامٌ قلائلُ، حتّى زارَه إدوار في بيته كما وَعَدَه، واعتذرَ إليه عن فعلتِهِ التي فَعَلها معهُ، فقَبِلَ عذرَهُ قبولَ من لا يرى من قبولِه بدًّا، بلْ زَعَمَ له حينَ جرى بينهما ذِكْرُ ذلكَ الماضي وشؤونِه، أنّ حبّهُ لماجدولين لم يَكُنْ إلّا خدعةَ النفسِ، ونزعةً طائشةً من نزعاتِ الشبابِ، وأنّه قد بدأَ يملُّ بماجدولين ويأجمها[2]، فلم يعدْ يحفلُ بأمرِهَا، ولا يفكّرُ في ماضيها، ولا حاضرِها، وأصبحَ ولا همَّ له إلّا أنْ يجدّد صداقته مع رجلٍ قد أصبحَ من أصحابِ الشأنِ العظيم، والمظهرِ الفخمِ، والثروةِ الطائلةِ، فَصَدّقَهُ في زَعْمِهِ، وسَكَنَ إليهِ وذهبَ في مجاملتِهِ والتودّدِ له كلّ مذهبٍ، ثمّ ردَّ له استيفن الزيارةَ في بيتِه في اليومِ الثاني، ورأى ماجدولين وحادثَها وتبسّطَ معها تَبَسُّطَ من لا يحفلُ بحاضِرَهَا، ولا يُعْنَى بماضيها، ثمّ لم يزلْ يراها بعد ذلكَ في منازلِ بعضِ أصدقائِهِ، أو في المحتفلاتِ العامّةِ وحدَها، أو مع إدوار، فيحسنُ ملتقَاهَا، ويؤثِرُها بعطفِه ورعايتِه.

إلّا أنّه كانَ يتجنّبُ جهدَه أن يجلسَ معها مجلسًا منفردًا، أو يتحدّثَ إليها حديثًا خاصًّا لأنّه كانَ قد أخذَ على نفسِه بنسيانِهَا ونسيانِ ماضِيها، فلا يحبُّ أن يستثيرَ ذلكَ، ولأنّه كانَ لا يزالُ يمسكُ في نفسِهِ بعضَ العتبِ عليها في غَدْرَتِها بهِ، فلا يحبُّ أن تَرى ذلكَ في نغمةِ حديثِهِ، أو لحظاتِ عينيهِ أنفةً وكبرياءً، وذهابًا بنفسِه مذهبَ من لا يبالي بمَنْ لم تبالِ بِهِ، ولم تَرْعَ له ذِمَامًا ولا عهدًا.

---

(١) صوّح النبات: يبس وذبل.

(٢) أجم: ترك وأهمل.

وجملةُ حَالِهِ معها أنّه كانَ يجمَعُ لها في قلبِهِ في آنٍ واحدٍ بين عاطفتينِ مختلفتينِ، عاطفةِ الرضا، وعاطفةِ السخطِ، فهو يحبّها ولا يستطِيعُ مقاطَعَتَها، ويَجِدُ[1] عليها، فلا يريدُ أن تَشْعُرَ بحبّه إيّاها.

❁ ❁ ❁

٨٤ ـ قلب ماجدولين

ما زالَ المللُ يأخذُ من نفس إدوار، حتّى ملَّ بيتَه، واجتواه[2]، وأنشأ يطلبُ لنفسِه السعادةَ خارجَه بعدما فَقَدَها داخِلَه؛ فأخذَ يتلهّى بتلكَ الشؤونِ التي يعالجُ بها فقراءُ القلوبِ أمراضَ مللِهِمْ، وسآمتِهم، فقامرَ، ثمّ ضَاربَ، ثمّ ولعَ بالشرابِ، ثمّ قضى بعضَ لياليهِ خارجَ منزلِهِ، فاشتدّ ذلكَ على ماجدولين، ونالَ منها منالًا عظيمًا، وساءَ ظنُّها بالحياةِ وما فيها، فقَبُحَ في نظرِهَا كلُّ مظهرٍ من المظاهرِ الماديّةِ التي أحبّتْهَا هنيهةً من الزمان، واستهامتْ بها، فعافتْ المراقصَ، والمحافلَ، وزهَدَتْ بالمظاهرِ، والمفاخرِ، وملّتْ كلَّ شيءٍ حتّى ثيابَها وزينَتَها، وأصبحتْ لا تفكّرُ ليلَها، ونهارَها إلّا في الكلمةِ التي قالها استيفن في بعضِ كتبه الماضية «لا تصدّقي، يا ماجدولين، أنّ في الدنيا سعادةً غيرُ سعادةِ الحبّ، فإن صدّقْتِ، فويلٌ لكِ منكِ، فإنّكِ قد حَكَمْتِ على قلبِكِ بالموتِ».

إلّا أنّها راضَتْ نفسَهَا مع الأيّام على مكروهِهَا، واصطبرتْ للحالةِ التي طرأَتْ عليها، صبرًا جميلًا لا يتخلّله تَذَمُّرٌ ولا شكوى؛ فقد علمتْ أنّ القدرَ قد جرى في أمرِها بما هو كائنٌ، وأنّها قد أصبحتْ زوجةً لرجلٍ، قد أقسمتْ له بينَ يدي الله يمينَ المحبّةِ والولاءِ، فلا بُدَّ لها من الوفاءِ له، والإخلاصِ إليه، واحتمالِ كلِّ مكروهٍ في عشرتِهِ، حتّى يقضيَ اللهُ في أمرِها بقضائه.

وكان يعزّيها عن شقائِها بعضَ العزاءِ أنّها كانتْ ترى استيفن من حينٍ إلى حين، وتحضرُ بعضَ مجالسِه ومجتمعاتِهِ، فتسمَعُ في حديثه ذلكَ الأسلوبَ الشعريَّ البديعَ، وتلكَ التصوّراتِ السماويّةَ العاليةَ التي طالما سحرَتْها، وملكَتْ عليها قلبَهَا وأهواءَها، وترى تلكَ الشهرةَ العظيمةَ التي تنتشِرُ له شيئًا فشيئًا في أقطارِ البلادِ، فتمتلئُ نفسُها إكبارًا وأعظامًا، ولا يملكُ قلبَ المرأةِ من الرجلِ مثلُ الشهرةِ، وامتدادِ الصيتِ، وكانَ يداخِلُها شيءٌ من إعجابٍ بنفسِها كلّما ذكرت أنّها قد نزلتْ في عهدٍ من عهودِ حياتها الماضيةِ منزلةَ الحبّ من ذلكَ القلبِ الطاهرِ الشريف، فتجدُ في سعادةِ الماضي وذكراهُ بعضَ العزاءِ عن شقاءِ الحاضر.

إلّا أنَّ أمرًا واحدًا لَمْ يَخْطُرْ ببالِها، ولم يدخُلْ في أحاديثِ نفسِها، وهو أن تَعودَ إلى حبّهِ بعد ما نَفَضَتْ يَدَها منه، أو أنْ تكونَ الصِلَةُ التي بينَها وبينَهُ صِلةَ حبٍّ وغرام.

---

(١) يجد عليها: من الوجد والموجدة بمعنى الغضب. (٢) اجتوى: كره.

٨٥ ـ من ماجدولين إلى سوزان

قد أطّلعتُ منذُ أيّامٍ قلائلَ على سرٍّ ليتني لم أطّلع عليهِ، وليتني مُتُّ قبلَ أن أعرفَ منهُ حَرفًا واحدًا.

قد أفلسَ إدوار، وباعَ جميعَ ما يمتلِكُ، ولا تزالُ عليهِ بقيّةٌ من الدينِ لا سبيلَ له إلى أدائِها، وهاأنذا أعدّ عدّتي لبيعِ جواهري وحلاي، علّني أستطيعُ أنْ أستنقِذَ البيتَ الذي نسكنُهُ، ولا أدري ما يكونُ شأنُنا بعدَ ذلكَ، ولقد فاتَحْتُه ليلةَ أمسِ في هذا الشأنِ، فراوغَني قليلًا ثمّ أعترفَ لي بكلِّ شيءٍ وقال: إنّه أنّما أتى من قِبَلِ المقامرةِ أوّلًا والمضارَبَةِ آخرًا، وأنّ طَمَعَه في الثروةِ، واستهتارَه بها هو الذي أفقَدَهُ إيّاها، فعاتبتُه في ذلكَ عتابًا لا أظنُّ أنّني أثقلتُ عليه، ولكنْ أتدرينَ، يا سوزان، ماذا قال لي؟ قال: إنّه لم يُخْطِئ في حياتِه إلّا في أمرٍ واحدٍ، وهو أنّه تزوّجَ من زوجةٍ فقيرةٍ لا تستطيعُ أن تمدّ لهُ يدَ المعونةِ في ساعاتِ شدّتِهِ؛ ولقد صَدَقَ فيما قالَ، فليسَ للرجلِ الغنيّ أن يتزوّجَ إلّا امرأةً غنيّةً، تُلائمُ نفسُهُ نفسَهَا، وليسَ للمرأةِ الفقيرةِ أن تتزوج إلّا رجلًا فقيرًا، يشابِهُ عيشُهُ عيشَهَا.

إنّني لا أبكي، يا سوزان، على نفسي، فقد قضيتُ أكثرَ أيّام حياتي فقيرةً معدمةً لا أملكُ من متاعِ الدنيا شيئًا، بل على ذلكَ الجنينِ المسكينِ الذي يختلَجُ في أحشائي، والذي سأَلِدُهُ غدًا للفقرِ والمتربةِ[1]، والذلّ والشقاءِ.

لقد أصبحتُ لا أسألُ اللهَ إلّا موتَةً عاجلةً، تذهبُ بي وبهِ وتريحُني، وتريحُه من شقاءِ الحياةِ وعَنائِها، والويلُ لي ولَهُ إنْ عشتُ بعدَ اليوم ساعةً واحدة.



٨٦ ـ الغرفة الزرقاء

مرضَ إدوار على أثرِ تلكَ النكبةِ التي نزلتْ به، مرضةً شديدةً كادتْ تُتْلَفُ فيها نفسُه، ثمّ أبلّ[2] بعضَ الإبلالِ، فاقترحَ عليه استيفن - وكانَ قد لازَمَه مدّةَ مرضِه، ومدَّ إليه يدَ المعونةِ في نكبته - أنْ يسافرَ معه إلى «جوتنج» ليفرّجَ قليلًا ممّا به، فَفَعلَ، وسافرتْ معهما ماجدولين، حتّى بلغتْ بهم العجلةُ ضاحيةَ القريةِ، فاستقبلهم «فرتز»، وزوجُه، وأولادُهُ على ضفّةِ النهرِ فرحينَ مغتبطينَ، وكانوا على موعدٍ منهم، فصافَحَ استيفن فرتز، وعانَقَه معانَقَةَ الصديقِ لصديقِه، وقبّلَ جبينَ جوزفين، وضمّ الأولادَ إليه، وأنشأَ يقبّلُهم ويديرُ لهم خدّيهِ، فيقبّلُونه، ويهتفونَ له، ويقولون: لقد طالَ غيابُكَ عنّا في هذهِ المرّة، يا سيّدي، حتّى ظَنَنّا أنّك قد آثرتَ الإقامةَ في «كوبلانس» على الإقامةِ بيننا.

---

(١) المتربة: الفاقة والحاجة.

(٢) أبلّ: شفي من مرضه.

وقال أكبرُهُمْ - وكانَ في الثالثةَ عشرةَ من عمره -: هأنذا ألبسُ الرداءَ الجديدَ الذي أرسلتَهُ إليّ، فشكرًا لك يا سيّدي، فسأله هل أصبحَ يستطيعُ نَشْرَ شراعِ الزورقِ وحدَهُ بلا مساعدٍ ولا معين؟ قال: نعم، وأستطيعُ أيضًا أن أطويَهُ وقتِ اشتدادِ العاصفة، قال: سأرى الآنَ ذلكَ أيّها الملّاحُ الصغيرُ. وقال أوسطُهُمْ، وكان في التاسعةَ من عمره: لقد بلي حذائي، يا سيّدي، فهَلْ جئتَني بحذاءٍ جديد؟ قال: نعم لقد جئتُكُم جميعًا بأحذيةٍ جميلةٍ، وقبّعاتٍ فاخرة.

فرحَ الأولادُ، وتهلّلَتْ وجوهُهُمْ، وأحاطوا بأمّهم، يهمسُونَ في أذنها بهذا النبأ الجديدِ، وتشبّثَتْ بردائِهِ الطفلةُ الصغيرةُ وقالت له: لقد ولدت الشاةُ التي أهديتَها إليّ، صغيرًا أبيضَ اللونِ أسودَ العينينِ، فتعالَ معي أريكَ إيّاه، فتبسّمَ، وضمَّها إليه وقال لها: سأذهبُ معكِ، يا فكتورين، عمّا قليلٍ، ثمّ التفت إلى ماجدولين وقال لها: إنّهم يحبّونني كثيرًا، وأنا الآنَ أعيشُ بينَهم كأنّني أعيشُ في أسرتي بينَ أهلي وقومي، فارتعدَتْ ماجدولين، واصفرّ وجهُهَا، وظلّت تقول في نفسها: «لقد أصبحَ سعيدًا بنفسِه، وكانَ يظنُّ أنّه لا يستطيعُ أن يكونَ سعيدًا بدوني».

ثمّ ركبوا الزورقَ جميعًا، وأخذَ الملّاح الصغيرُ ينشرُ الشراعَ، ويصيحُ باستيفن، ها أنذا، يا سيّدي، أنشرُ الشراعَ وحدي بلا مساعدةٍ ولا معين، فيقول له: أحسنتَ، يا بنيّ، أحسنتَ! حتّى عبروا النهرَ إلى الضفّةِ الأخرى، فاعتمَدَ إدوار على ذراعِ استيفن، ومشوا جميعًا على أقدامِهِم إلى المنزلِ، وكان على كثبٍ منهم، فتقدّمَ فرتز وكان معه مفتاحُ البابِ، ففتحه.

فدخلوا الحديقةَ، ووقَعَ نظرُ ماجدولين على حائِطِ السورِ فرأَتْهَا مكسوّةً بغلالةٍ بديعةٍ من أزهارِ البنفسجِ، تدورُ بها من جميعِ جوانبها، فذكرت ذلكَ الكتابَ الذي كَتَبَهُ إليها استيفن منذُ خمسةِ أعوامٍ قبيلَ زفافِها إلى إدوار، وقال لها فيه: إنّه قد كَسَا سورَ البيتِ الذي ابتناهُ لها في جوتنج بأزهارِ البنفسجِ التي تحبّها. ثمّ التفتَتْ فرأتْ حوضَ الماءِ المقامَ في وسطِ الحديقةِ، ورأتْ حولَهُ ذلكَ السياجَ الذي قالَ لها استيفن في كتابه إنّه قد أقامَه حولَهُ خوفًا على أولادِهِما من السقوطِ ثمّ لمحتْ في زاويةٍ من زوايا الحديقةِ كرسيًّا طويلًا مؤلّفًا من مقعدين متقابلينِ، وأرجوحةً صغيرةً من أراجيحِ الأطفالِ، فعجبَتْ من احتفاظِهِ بهذه الآثارِ التي تؤلمُهُ، وتذكّرُه بشقائِهِ الماضي، ثمّ قالت في نفسها: ما أحسَبُ أنّه تعمَّدَ إبقاءَها والمحافظة عليها، ولكنّه ترَكَها وشأنَها، فبَقِيَتْ في مكانِهَا على حالها.

وهنا شعرت بتلك الغضاضة[1] التي يشعرُ بها الذليلُ في موقفِ ذلّه ومهانَتِهِ، وظلّت تقولُ في نفسِها: إنّه ما عَفَا عنها، ولا غَفَر لها سيئَتَها عندَه، ولا أمسَكَ عن عتابِها وتأنيبِهَا، ولا أعطَاها من نفسِه هذا الوجهَ من الرضا، إلّا لأنّه يحتقِرُها ويزدَريها، ويراها أصغرَ في عينيهِ من أنْ يأخُذَها بذنبٍ، أو يعتدَّ عليها بسيّئةٍ، وإنّ هذه النظرةَ العذبةَ التي أصبحَ ينظرُ بها إليها إنّما هي نظرةُ العزيزِ المترفّعِ التي يلقِيها على البائسِ الشقيّ الذي يستحقُّ عَطْفَهُ ومرحمته، فأخَذَ من

(١) الغضاضة: العيب والذل.

نفسها هذا الخاطرُ مأخذًا شديدًا، وأحزَنَها، وملأَ قلبَهَا غصّةً وألمًا أنّها قد فقدَتْ كلَّ ما كانَ لها في قلبِه، حتّى منزلةَ الاحترام.

وكانَ استيفن قد أنشأَ في طَرفٍ من أطرافِ الحديقةِ غُرَفًا أعدَّهَا لمنامِهِ وجلوسِه ونزولِ ضيفانِهِ، وتركَ المنزلَ جميعَه لا يطرقُهُ، ولا يأوي إليه طلبًا لراحةِ نفسِه من آلام الذكرى وهمومِها، فأعدَّ لإدوار غرفةً منها ذهَب به إليها ساعةَ وصولِهِ، وكانَ إدوار يشكو بقيّةً من الألم في جسمِه، فما أخَذَ مضجعَه من فراشِه، حتّى استغرقَ في نومِهِ، وأقبلَ الليلُ فعادتْ أسرةُ فرتز إلى بيتها ولجأ بستانيّ الحديقة إلى مخدعِه، وبقي استيفن وحدَهُ مع ماجدولين وهي المرّةُ الأولى التي جلسَ إليها منفردًا منذُ أن افترَقا.

فَعادتْ إلى ذهنِهِ تلكَ الصورةُ القديمةُ التي كان يتخيّلُها في ماضيهِ لسعادتِهِ وهنائِهِ، وظلّ يقولُ في نفسه: ها هو البيتُ وها هي الحديقةُ، وها هو النبتُ والشجرُ والليلُ والقمرُ والسماءُ الصافيةُ والأشعّةُ المترقرقةُ والنسيمُ العليلُ والسكونُ السائدُ، وها هو حوضُ الماءِ تسبحُ فيه الأسماكُ غاديةً ورائحةً، وها هي ماجدولين جالسةٌ ليسَ بيني وبينها حائلٌ، ولكنّني لا أستطيعُ أن أمدّ يدي إليها، بلْ لا أستطيعُ أنْ أملأ نظري منها لأنّ بيني وبينَها على شدّةِ هذا القربِ بُعْدَ ما بيني وبينَ ذلكَ النجمِ المتألّقِ في أفقِ السماء.

وظلَّ مستغرقًا في خيالِهِ هذا حتّى فاتَحَتْهُ ماجدولين الحديثَ، وقالت له: ما أجملَ دارَكَ، يا استيفن، وما أبدَعَ منظرَهَا إنّها أجملُ ممّا كنتُ أتوقّعُ، فَخُيِّلَ إليه أنّها تهزأُ منه، وتستهينُ بآلامِهِ، فلا تبالي أنْ تُذكِّرَهُ بها، فداخَلَهُ ما لم يملكْ نفسَه معه وقال لها: إنّ من يعيشُ في قصرٍ جميلٍ فخم كقصرِكِ الذي تعيشينَ فيه في كوبلانس، لا يعبأُ بمنزلٍ كهذا المنزلِ، فشعرتْ أنّه يؤنّبُها، ويعرِّضُ لها بتلكَ الإساءةِ التي أسلَفَتْها إليهِ فيما مضى، فتألّمتْ في نفسِها ألمًا ممزوجًا ببعضِ الغبطةِ والارتياح لأنّها عَلِمَتْ أنه لا يزالُ يفكّرُ فيها، ولا يزالُ يضمُر في نفسِه بقيّةً من ذلكَ الحبّ القديم. وأرادتْ أنْ تتغلغَلَ إلى أعماقِ نفسِه، فقالتْ له: حيثما يجدُ المرءُ سعادَتَهُ في مكانٍ مهما صَغُرَ شأنُه، فهو أجملُ القصورِ وأفخَمُهَا؛ فنظرَ إليها نظرةً منكسرةً كادَ يقولُ لها فيها إنّه ليسَ بسعيدٍ، وإنّه أشقى إنسانٍ على وجهِ الأرضِ، ثمّ استردَّهَا سريعًا، فلم تشعرْ بها، وظَلَّ صامتًا.

فذهبت معه في الحديثِ مذاهبَ أخرى، حتّى مَضَتْ قطعةٌ من الليلِ، فنهضَتْ من مكانِها، ونهضَ بنهوضِهَا، وتَمَشّيَا قليلًا في أنحاءِ الحديقةِ، حتّى مرّا بِسُلّم الطبقةِ العليا فقالتْ له: هل تأذنُ لي، يا استيفن، أنْ أصعدَ إلى هذهِ الطبقةِ لأراها، وهلْ تتفضّلُ بالصعودِ معي إليها؟ فاضطرب قليلًا ثمّ قال لها: لكِ ما شئتِ، سيّدتي، وصعدَ معها ذلكَ السُّلّمَ الذي لم تطأْهُ قَدَمُهُ منذُ خمس سنين، حتّى بلغا أعلاه.

فمشى إلى الغرفة الأولى وفتَح بابها وقالَ لها: ها هي الغرفةُ التي كنتُ أعددْتُها لجلوسي

ودارستي، ولا حاجةَ لي بها الآنَ؛ فقد اتّخذْتُ من بينِ غرفِ الحديقة بدلًا منها، ثمّ تركَهَا، وفتحَ بابَ الغرفةِ الثانيةِ وقال: وها هي الغرفةُ التي كنتُ أعدَدْتُها لمقامَ أبيكِ رحمةُ اللهِ عليهِ أيّامَ كنتُ أظنُّ أنّه سيساكِنُني في هذا المنزلِ، ويعيشُ معي فيه، فرأت فرشًا جميلًا وأثاثًا حسنًا، وأصص[1] زهرٍ وريحانٍ قد يبستْ، وجفّ وَرَقُها، وتناثَرَ في أنحاءِ الغرفةِ، فشعرتْ بانقباضٍ في نفسِهَا لذكرى أبيها، واغرورقَتْ عينَاها بالدموعِ.

ثمّ انتقلَ إلى الغرفةِ الثالثةِ ومدّ يَدَهُ إلى مفتاحِهَا ثمّ استردّهَا وقال بصوتٍ خافتٍ مُتَهَدّج[2]: عفوًا، يا ماجدولين، فإنّني لا أستطيعُ أن أفتحَ هذه الغرفةَ، لأنّها الغرفةُ التي كانتْ مُعَدّةً لأخي أوجين، وقد آليتُ على نفسي أنْ لا أفتحَ بابَهَا ما حَيِيتُ، فأثّرَ في نفسِهَا منظَرُه، وأكبرتْ حُزْنه وألمه، وقالت له: أحزينٌ أنتَ حتّى اليومَ على أوجين، يا استيفن؟ قال: نعم، حزنًا لا يفارِقني حتّى الموت.

ثمّ مشى إلى الغرفةِ الأخيرةِ، ومدّ يدَهُ إلى مفتاحِهَا بهدوءٍ وسكونٍ، ففتَحَها، ثمّ انحرفَ عنها قليلًا، وأطرقَ برأسه ولم يَقُلْ شيئًا، فألقَتْ عليها ماجدولين نظرةِ ألمّتْ بجميعِ ما فيها، فرأتْ غرفةً جميلةً رَحْبَةً، قد دهنَتْ جدرانُها باللونِ الأزرقِ، وبُسِطَ في أرضِهَا بساطٌ أزرقُ، وأقيمُ في أحدِ أركانِها سريرٌ من النحاسِ الأبيضِ مغطّى بملاءةٍ حريريّةٍ زرقاءَ، ورأتْ منضدةً جميلةً قد صُفّتْ عليها أدواتُ زينةِ النساء، وخزانةٌ للملابسِ، ومرآةٌ كبيرةٌ، وكرسيًّا طويلًا ذا مقعدينِ، وبضعةَ مقاعدَ أخرى كلّها زرقاءُ اللونِ، وقد عَلَتْهَا جميعَهَا طبقةٌ رقيقةٌ من الغبارِ، فعلمتْ أنّها أمامَ الغرفةِ الزرقاءِ التي حدّثَهَا عنها في بعضِ رسائِله الماضيةِ وقال لها إنّه لونُ البنفسجِ الذي تحبّه، فثارتْ في نفسِهَا تلكَ الذكرى القديمةُ، ومشتْ ما بين قمّةِ رأسِها وأخمصِ قدمِهَا رعدةٌ شديدةٌ كادتْ تتزايَلُ لها أعضاؤُها، واشتدّ خفوقُ قلبِهَا واضطرابُه.

ثمّ نظرتْ إليه، فإذا هو مطرقٌ صامتٌ، وإذا دموعُهُ تنحدِرُ على خدّيهِ يتبعُ بعضُها بعضًا، فهالَهَا منظرُهُ، وازدحَمَتِ الدموعُ في عينيها تتبادرُ إلى السقوطِ، فأخذَتْ يدَهُ بين يديها وقالتْ له: ما بكَ، يا استيفن؟ وكأنّما قد راعَهُ أن يفضَحَ الدمعُ سرّه الذي كانَ يكتُمُه منذُ عهدٍ طويلٍ، فاجتذَبَ يدَهُ من يَدِها برفقٍ وقالَ لها: لقد هاجَني ذكرُ أخي أوجين، وأشارَ إليها بالنزولِ، فنزلا حتّى وصلا إلى مكانِهما الأوّلِ من الحديقةِ، فقالتْ له: رفْهْ عليكَ قليلًا، يا صديقي، فليسَ فيما قضَى اللهُ حيلةٌ، ولا لفائتٍ مَرَدٌّ، ولقد ماتَ أخوكَ ميتةً كريمةً لم يَمُتْهَا أحدٌ قبلَه، فليكنْ صبرُكَ عليه كريمًا كمِيتَتِهِ.

فرفَع رأسَه إليها، وقالَ لها: إنّني أستطيعُ أنْ أنسى كلَّ عهدٍ من عهودِ حياتِهِ الماضيةِ، ولا أستطيعُ أنْ أنسى تلكَ الأيّامَ التي أحبَبْتُهُ فيها، وأحبّني، وأخلصْتُ له فيها، وأخلَصَ لي، ولقد جَمَعَتْ بيني وبينه المصائبُ مذْ كُنّا طفلينِ صغيرينِ، وألّفَتْ ما بين قلبينا الكسيرينِ، حتّى

(١) أصص الزهر: الأواني التي تزرع فيها. (٢) متهدّج: مرتعش، متقطع.

أصبحْنَا قلبًا واحدًا يشعرُ بشعورٍ واحدٍ ويتألّم بألمٍ واحدٍ، ولا تزالُ حاضرةً أمام عينيّ حتّى الساعةَ تلكَ الأيّامُ التي قضينَاها معًا في مدرسةِ جوتنج بعيدينِ عن أبوينا، ورحمتِهما، وعطفِهما، لأنّ أمّنا كانتْ قد ذهبتْ إلى قبرها، وأبانا كانَ يقسُو علينا، ولا يحفلُ بنا؛ وقد بَؤُسَ عيشُنَا بؤسًا يَغيَا به الصغيرُ، ويطيرُ لَه لُبُّ الكبيرِ، وبلغنا في الشقاءِ المبالغَ التي لا يبلغُهَا إلّا اليتامى المنقطعونُ عن الأهلِ، والرحم، أو أبناءُ السبيلِ المشردون في آفاقِ البلاد، وكنّا نرتدي أرثَّ الثيابِ، ونأكلُ أتفَهَ الطعام، ولا نحتذِي إلّا الأحذيةَ المرقّعةَ، ولا نلبسُ إلّا القلانسَ المخرّقَة، ولا نجدُ ما نستعينُ به على إصلاح شأنِ ملابسِنَا وأجسامِنَا، فكنّا نلاقي بسببِ ذلكَ من معلّمينا أشدَّ العقابِ وأقساهُ، فنحتملُ الألمُ بصبرٍ وجلد. ولا نستطيعُ أن نعتذرَ إليهم عذرًا شديدًا نقيمُ به وَجْهَنا، لأنّنا إنْ فَعَلْنا قد عَقَقْنَا أبانا، وتركْنَا للألسنَةِ سبيلًا إليه، وهذا ما لا نحبُّ أنْ يكونَ.

وكانَ طلبةُ المدرسةِ في شأننا قسمين: هازئٍ لا يزالُ يسخرُ بنا وراحِمٍ لا يزالُ يتوجّعُ لنا، ودمعةُ الراحمِ كابتسامةِ الساخرِ وكلاهما يؤلمُ النفسَ ويملؤُها غصّةً وأسًى، فكنّا نضيقُ بالحالينِ، ونتألّم في الموقفينِ، وكثيرًا ما كانَ يأمرنا معلّمونا كلّما زارَهُم زائرٌ كريمٌ بالانزواءِ في الركنِ المظلم من أركانِ قاعةِ الدرسِ، حتّى لا يخجَلوا بنا أمامَه فإذا انصرفَ عُدْنا إلى مقاعِدِنَا كما كنَّا؛ فكنّا نجدُ في نفوسَنا من المضَضِ والألم ما لا يعلَمُ سبيلَهُ إلّا اللهُ؛ وكان الطلبةُ يخرجونَ جميعًا في أيّام الآحادِ مع المعلّمينَ للتنزّهِ في الأحراشِ والغاباتِ، أو على ضفّةِ النهرِ، أو على سفحِ الجبلِ في أزياء جميلةٍ، وشاراتٍ حسنةٍ ما عدانا، فقدْ كانَ معلّمُنا يتطلّبُ علينا العِلَلَ في ذلكَ اليوم، حتّى يأمرَ بسجنِنَا في بيتِ الدجاجِ تبرُّمًا بنا، واستثقالًا لزيّنا وهيئَتِنا.

فإذا خَلا بنا المكانُ اختلفَ شأنُنا اختلافًا عظيمًا، فأظلُّ أبكي، وانتحِبُ، ويظلُّ أوجين يلعَبُ، ويمرَحُ لأنّه كان على صغرِ سنّه أوسَعَ منّي صدرًا، وأكثرَ احتمالًا؛ وكانَ لا يعرفُ سبيلًا لتعزِيتي وتسريَةِ همومِ نفسي غيرَ هذا السبيلِ، فلا يزالُ يغنّي، ويصيحُ، ويقلّدُ أصواتَ الحيوانِ، ويطاردُ الدجاجَ والأوزّ، ويفتنُ في مجونِهِ ولهوِهِ حتّى تهدأَ نفسي، ويجفّ مدمعي، ولا أرى لي بدًّا من المضيّ معَهُ في شأنِه. وكنتُ أرحَمُه، وأحنُو عليه حُنُوَّ الأمِّ على رضيعِها، فلا أستطيعُ أن أراهُ باكيًا، أو شاكيًا، أو مستوحشًا، أو متألّمًا، وكانَ يُخَيَّلُ إليّ أنّني لو رأيتُ دمعةً واحدةً تجري على خدّه، لقتلتُ نفسي حزنًا وكمدًا، وكثيرًا ما كنتُ أتمارضُ ساعةَ الغداءِ، أو أتظاهَرُ بالشبع إنْ رأيتُ الطعام قليلًا في أيدينا حتّى يستطيعَ أن يأخُذَ حظَّهُ منه، فلا أرى على وجهِهِ صفرةَ الجوعِ، ولطالما ضَمَمْتُ في الليالي الباردة غطائي إلى غطائِهِ وأسبَلْتُهُ عليه من حيثُ لا يشعرُ رحمةً به، وحنوًّا عليه، حتّى إذا أصبحَ الصباحُ، ورآني نائمًا بجانبِهِ بغيرِ غطاءٍ ضمّني إلى صدرهِ وقبّلَني، وقالَ إنّك تقتلُ نفسَك، يا استيفن، من أجلي!

ولم يزلْ هذا شَأْنَنا، حتّى وَفَدَ علينا إدوار، وكانَ منكوبًا بمثلِ نكبَتِنا، فتقاسَمْنَا نحنُ الثلاثةُ هذا الشقاءَ، وتعاونّا عليه برهةً من الزمانِ حتّى فرّقَتْ بيننا الأيّام.

وهنا اختنقَ صوتُه بالبكاءِ، فلمْ يستَطِع المضيَّ في حديثِهِ، وأطرَقَ إطراقًا طويلًا ثمّ رفَعَ رأسَهُ، فإذا عيناه محمرَّتانِ من البكاءِ، فألقى على ماجدولين نظرةً طويلةً دامعةً، وقال لها: أتدرينَ، يا ماجدولين، ماذا صَنَعْتُ بهذا الأخ الذي كنتُ أحبّهُ أكثرَ من كلِّ إنسانٍ في العالم، وكانَ يحبُّني أكثرَ ممّا أحبُّه؟ قالت: لا أعلمُ أنّك صنعتَ به شيئًا، قال: إنّي قد قَتَلْتُهُ، فذُعِرَتْ ماجدولين، واصفرّ وجهُهَا، وقالت: إنّي لا أفهمُ ما تقولُ! قال: كتبَ إليّ من ميدانِ القتالِ أنّ سَرْجَهُ بالٍ ممزّقٌ يوشِكُ أنْ يخذِلَه في الميدانِ، وأنّه في حاجةٍ إلى عشرينَ فرنكًا ليبتاعَ بها سرجًا جديدًا، وكنتُ قادرًا عليها، فضَنَنْتُ بها عليهِ، فانقطعَ به سَرْجُهُ أثناءَ المعركةِ، فداسَتْهُ حوافرُ الخيلِ، فمات، فاستعبرتْ ماجدولين باكيةً، وقالت: وا أسفاهُ عليه وعلى شبابِهِ الغضِّ، وغصنِهِ الباسقِ النضيرِ.

فحدَّقَ استيفن في وجهِهَا تحديقًا، وقالَ لها: وهل تدرينَ لِمَ ضَنَنْتُ عليهِ بهذا المالِ الذي سألَنِيهِ؟ قالتْ: لا. قال: لأنّني كنتُ لا أملكُ سواه، وكنتُ بينَ أن أرسِلَه إليهِ ليبتاعَ به السرجَ الذي يريدُه، أو أنفقُهُ في السفرِ إلى كوبلانس لأراكِ، فآثرتُ رؤيَتَكِ على حياتِهِ. فنكستْ ماجدولين رأسها، واحمرّ وجهُهَا حياءً وخجلًا، وظلّ جسمُهَا يرتعِدُ ارتعادًا شديدًا، ثمّ عاد إلى حديثه يقول: وهل تعلمينَ ماذا تمّ لي بعدَ أن سافرتُ إليكِ هذه السفرة؟ فصمتَتْ ماجدولين ولم تَقُلْ شيئًا، فقال: ذَهَبْتُ إليكِ في ملعبِ الأوبرا، فلم أجِدْكِ، فانتظرتُكِ طويلًا، فلم تأتِ، فقلقْتُ عليكِ قلقًا عظيمًا، وذهبتُ إلى بيتِ سوزان لأقفَ على أمرِكِ، فرأيتُ هناكَ وليمةً حافلةً، فسألتُ عنها، فعَلِمْتُ أنّها عرسُ صديقَتِك، فأبيتُ أن أذهبَ دونَ أن أراكِ، ولو على البعدِ لحظةً واحدةً، ثمّ أنصرِفُ لشأني؛ وكانَ لا بُدّ لي من أنْ أحتالَ لذلكَ احتيالًا، فاختلَطْتُ بالخدَمِ كأنّني واحدٌ منهم، وكانتْ ثيابي أشبَهَ بثيابِهِم حتّى تمكّنْتُ من الدخولِ إلى فناءِ القصرِ، ووصلتُ إلى بابِ قاعةِ الرقصِ، فنظرتُ من زجَاجِها، فرأيتُكِ ترقصينَ مع إدوار تلكَ الرقصةَ التي كنتِ تفتَحِين بها حياتَكِ الجديدةَ معه. وبينما أنا كَذلكَ إذ دُفِعَ البابُ دفعًا شديدًا، وخرجَ منه أحدُ الزائرين، فأمرَني أمرًا لم أحسنِ القيامَ به، فضربَني على وجهِي سوطًا لا يزالُ أثرُهُ باقيًا على خدّي حتّى الساعة.

وهُنا وَضَع يدَهُ على خدّه كأنّما قد وَقَعَ السوطُ عليهِ في هذهِ اللحظةِ وانفجرَ باكيًا بصوتٍ عالٍ، وترَكَهَا مكانَها، ومشى في الطريقِ الموصِلِ إلى مخدعِهِ، فلحقتْ به عندَ بابِ المخدعِ، وتشبّثَتْ بردائِهِ، ومدّتْ يدها إليه ضارعةً، وقالت له: ألا تستطيعُ أنْ تعفوَ عنّي يا استيفن؟ فجذَبَ رداءَه منها، وألقى عليها نظرةً شزراء[1] هائلةً، وقال لها: اذهبي أيّتها السيّدةُ إلى مخدعِ زوجِك، فإنّه مريضٌ، وربّما كانَ في حاجةٍ إليكِ؛ ثمّ دخلَ مخدَعه، وأقفلَ بابَه فلبثَتْ في موقِفِها ساعةً باهتةً مذهولةً، ثمّ انصرفَتْ إلى مخدعِ زوجِها.

في هذهِ اللحظةِ علمَتْ أنّه لا يزالُ يحبّها. ويستهيمُ بها، وأنّها تحبّه حبًّا يستعبِدُها ويملكُ

---

(١) شزراء: غاضبة.

عليها كلّ عاطفةٍ من عواطفِ قلبها، وإنْ قد حيلِ بينَها وبينَه إلى الأبدِ، فقضَتْ في مضجعِهَا ليلةً ليلاً ما يكادُ يغربُ لها نجمٌ، ولا يطلعُ لها فجرٌ، وما كانَ ليلُهُ بِأَقَرّ من ليلِهَا.

❁ ❁ ❁

٨٧ ـ من ماجدولين إلى سوزان

لم يبقَ لي بدٌّ من أنْ أعترفَ لكِ بكلِّ شيء.

قد أصبحتُ أحبُّ استيفن حبًّا لم أضمِرْ له مثلَه فيما مَضَى من أيّامِ حياتي، لأنّه حبٌّ بلا أملٍ، ولا رجاء.

لا بلْ أعتقدُ أنّني ما سَلَوتُه يومًا من الأيّام، ولا نسيتُه، وأنّني كنتُ أخدَعُ نفسي، وأكذبُها حينما ظَنَنتُ أنّني أستطيعُ أنْ أحيا بدونِه، أو أسكنَ إلى عِشرةِ إنسانٍ سواه.

إنّه لا يزالَ يحبّني، ويستهيمُ بي، ولا يزالُ يذكُرُ الماضي كأنّه لا يزالَ حاضرًا بين يديهِ، وقد كنتُ أجهلُ ذلكَ منه، ولا أرى له أثرًا في وجهِه حتّى جلستُ إليه منذُ ليالٍ مجلسًا منفردًا، فجرى بيني وبينَه حديثٌ ثارتْ فيه عواطفُ نفسِه ثورةً شديدةً، فبكى، وتألّمَ، وغضبَ، واحتدَمَ، فعلمتُ أنّه لم يَنْسَ شيئًا وأنّه إنّما كانَ يكاتِمني لواعِجَ نفسِه وآلامها، ويطوي أحناءَ[١] ضلوعِهِ على مهجةٍ تتحرّق لوعةً وأسًى، فرثيتُ لهُ، وبكيتُ لبكائه، وأكبرتُ فيه تلكَ العاطفةَ الشريفةَ عاطفةَ الولاءِ والإخلاص لامرأةٍ قد غَدَرَتْ به أقبحَ غدرٍ، وخانَتْهُ أفظعَ خيانةٍ، وملأتْ عليهِ فضاءَ حياتِه بؤسًا وشقاء.

إنّه لم يفكّرْ في الزواجِ حتّى الساعة، ولم يفتحَ بابَ الطبقةَ العليا من منزلِهِ التي كانَ أعدّها لسكنانا إلّا مرّةً واحدةً منذُ ليال. وكان ذلكَ من أجلي، ولا تزالُ غرفةِ العرسِ باقيةً على عهدِهَا كما هي، ولقد رأيتُهَا، فرأيتُ الغبارُ منتشرًا فوقَ سريرِها، ومقاعِدِها، وأستارِها، فشعرتُ عندَ النظرِ إليها بما يشعرُ به الماثلُ أمامَ جَدَثٍ[٢] بالٍ قد ضمّه إليه، وطوى به بينَ تربهِ وأحجارِه.

لقد خسرتُ، يا سوزان، كلَّ شيءٍ، ولم يبقَ في يديَّ من جميع أمانيَّ وآمالي أملٌ واحدٌ، فقد ضاعَتِ الثروةُ التي بِعْتُ سعادَتي بها، وتنغّص عليّ الزواجُ الذي وضعتُ فيه جميعَ آمالي، وخرجَ من يدي ذلكَ الرجلُ الذي أحبَبْتُه أكثرَ من كلّ إنسانٍ في العالم، والذي لا أستطيعُ أن أُحِبَّ إنسانًا سواه، ولا أعلمُ ماذا بقيَ لي في ضميرِ الدهرِ بعدَ ذلكَ من مخاوفَ وأهوال.

إنّني أشعرُ بخوفٍ شديدٍ ترتعِدُ له مفاصلي، وأظنُّ أنّ ساعةَ العقابِ قد دَنَتْ، ولقد أذنبتُ ذنبًا عظيمًا، فلا بدَّ أن يكونَ عقابي عظيمًا.

---

(١) الأحناء: جمع حنو وهو كلّ ضلع فيه اعوجاج.

(٢) الجدث: القبر.

٨٨ ـ من ماجدولين إلى سوزان

قد حلّتِ النكبةُ الكبرى، فقد تَركني إدوار وسافرَ إلى جهةٍ لا أعرِفُها سوى ما يقولُ بعضُ الناسِ من أنّه ركبَ البحرَ من هامبورج إلى أميركا، ولا أعلمُ أصِدْقًا ما يقولونَ، أم كذبًا!

وكانَ استيفن، أحسنَ اللهُ إليه، قد أصلَحَ له بعضَ شأنِهِ بعدَ نزولِ تلكَ النكبةِ به، وبذلَ له من المعونةِ ما لا يبذُلُهُ أخٌ لأخيهِ، ولا حميمٌ لحميمِهِ، ولكنّه لم يَئِلْ[1] من عثرتِه هذه، حتّى عادَ إلى سيرته الأولى، واندفعَ في المقامرةِ اندفاعَ المجنونِ. فما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ، حتّى استدانَ نيّفًا ومائةَ ألفِ فرنك، ولم يبقَ له بدّ من السقوطِ، فبعتُ جميعَ جواهري وحُلاي علّني أستنقِذُه من سَقطتِه، فلم أصنعْ شيئًا، ثمّ استيقظْتُ صباحَ يوم من الأيّام، فذهبتُ إلى مخدعِهِ فلمْ أجدْه، فسألتُ عنه الخدمَ، فأخبرني أحدُهُم أنّه لَمَحَهُ خارجًا في الغلسِ[2] من بابِ القصرِ، وبيده حقيبةُ سفرٍ، ولا يعلَمُ أينَ ذهبَ.

ثم علمتُ بعدَ ذلكَ أنّه باعَ القصرَ إلى أكبرِ غُرَمَائِهِ، وأخذَ بقيّة ثمنِهِ، وهربَ، وتركَ سائرَ الغرماءِ وشأنَهم دون أن يوفيَهُم ديونَهم، فعرفتُ أنّه - وقد فعلَ هذه الفعلةَ التي لا يُقْدِمُ عليهَا رجلٌ شريفٌ - غيرُ عائدٍ من بعدِهَا أبدًا، ولم أرَ بدًّا من أنْ أقومَ عنه بوفاءِ بقيّة ديونِهِ ضنًّا بكرامَتِه، وإبقاءً على شرفِهِ، فبعتُ في سبيلِ ذلكَ البيتَ الذي ورثْتُهُ عن أبي في ولفباخ والمزرعةَ التي بجانِبِه، وقد سألتُ عنه في كلّ مكانٍ، وسافرتُ للتفتيشِ عنهُ في كلّ جهةٍ أعلمُ أنّ له شأنًا فيها أو صلةً بها، فَلَمْ أقفْ لهُ على أثرٍ، ولا يعلمُ إلّا اللهُ كم ذَرَفْتُ من الدموعِ، وكابَدْتُ من الآلامِ منذُ حلّتْ تلكَ النكبةُ بي حتّى اليوم.

ولقد أرسلَ إليَّ بالأمسِ مالكُ القصرِ الجديدِ ينذرُني بالخروجِ بعدِ شهرٍ واحدٍ، ويُلحُّ في ذلكَ إلحاحًا شديدًا، ولا أدري ماذا أصنعُ ولا أينَ أذهبُ؟ فليسَ لي قريبٌ آوي إليه، ولا حبيبٌ أرجو معونَتَه، ولا أملكُ ما أستعينُ به على قضاءِ ما قُدِّرَ لي أن أقضيه في هذا العالم من أيّام حياتي، وقد انقطعَ استيفن عن زيارَةِ كوبلانس، فأصبحتُ لا أراه، ولا أسمعُ به ولاَ أعلَمُ سَبَبَ انقطاعِهِ، ولقد حدَّثَتْني نفسي كثيرًا بالانتحارِ، فحالَ بيني وبينَ ذلكَ أنني إنْ قَتَلْتُ نفسي قَتَلْتُ معي هذا الجنينَ المسكينَ الذي لا ذَنْبَ له. وكثيرٌ على الأمّ أنْ تمدّ يَدَها لقتلِ ولدِها، فتعالي إليَّ، يا سوزان، أو ائذني لي أنْ آتي إليكِ، لا، بل لا بدّ من مجيئِك إليّ، لأنّني لا أستطيعُ أن أحتملَ مشقّة هذا السفرِ البعيدِ وأنا في الشهرِ الأخيرِ من حملي.

إنّي أنتظرُ كتابًا منكِ بعدَ أيّامٍ قلائلَ، فلم يبقَ لي في العالمَ منْ أعتمِدُ عليه أو أرجو معونَتَهُ سواكِ.

❃ ❃ ❃

---

(١) لم يئل: لم يرجع.

(٢) الغلس: الظلام.

٨٩ ـ من ماجدولين إلى سوزان

كنتُ أنتظرُ أنْ يأتِيَني منكِ كتابٌ بالأمسِ، فلمْ يأتني، فليتَ شعري ماذا حَدَث؟ أمريضةٌ أنتِ؟ أم شَغَلَكِ عنّي شأنٌ عظيمٌ لا يسمحُ لكِ بمراسلتي؟ أكتبي إليَّ على كلّ حالٍ، فقد بلغتْ بي الشدّةُ منتَهاها، وانقطعَ عنّي الناسُ جميعًا، فلا أرى أحدًا من صواحبي ولا من أصدقاءِ زوجي.

الحياةُ مظلمةٌ في عيني، ولقد بكيتُ كثيرًا، حتّى جَفّتْ مدامعي، وفكرةُ الانتحارِ تعاوِدُني اليومَ أكثرَ من ذي قبل؛ فانظري في أمري، يا سوزان، واكتُبي إليَّ يا سوزان. اكتبي إليّ أنّكِ قادمةٌ، أو ائذَني لي بالسفرِ إليكِ، فإنْ لَمْ يأتِني منكِ كتابٌ غدًا، فلا أعلمُ ماذا سيكونُ شأني بعدَ غدٍ.

❃ ❃ ❃

٩٠ ـ من فردريك إلى ماجدولين

أكتبُ إليكِ كتابي هذا وسوزان في أشدّ حالاتِ مرضِهَا وقد أمرَني الطبيبُ أنْ أجنّبَها كلّ ما يؤثّر في نفسِهَا من سرورٍ أو حزنٍ، وقد جنّبْتُها كلّ شيءٍ حتّى الاطّلاعَ على الرسائلِ التي تردُ عليها من صواحِبِها، وقد سهرتُ بالأمسِ، ففَضَضْتُ كتابَكِ الأخيرَ الذي أرسلتِه إليها عفوًا، فألممْتُ بطرفٍ من الشدّةِ التي تكابدِينَهَا، فأسفتُ لذلكَ كثيرًا، وهمَمْتُ أنْ أُطلِعَهَا على الرسالةِ، أو أكتبَ إليكِ على غيرِ علمٍ منها بالحضورِ إلينا، ولكنّني أشفقتُ عليها أن يقتُلَهَا الحزنُ لمصَابِكِ، أو الفرحُ برؤيتِكِ، فرجائي إليكِ أن تنتظري بحضورِك بضعةَ أسابيعَ، حتّى أحتال للأمرِ، أو تهدأ عن سوزان علّتُهَا، والسلامُ عليكِ من صديقِكِ الذي يَرثي لكِ، ويتألّمُ لألمك.

❃ ❃ ❃

٩١ ـ الجزاء

قرأتْ ماجدولين ذلكَ الكتابَ، فرابَهَا أمرُهُ، ووقَعَ في نفسِها أنّ سوزان ليستْ بمريضةٍ، ولا عاجزةٍ عن قراءةِ رسائِلِها كما يقولُ زوجُها، وأنّها تريدُ مدافَعَتَها، والتخلّصَ منها. فهالَهَا الأمرُ، وتعاظَمَهَا وظلّتْ ساعةً بين الشكّ واليقينِ، حتّى دخلتْ عليها فتاةٌ من صواحِبِها وصواحبِ سوزان كانتْ تختلفُ إليها من حينٍ إلى حين، فسألتْهَا ماجدولين متى كانَ آخرُ عهدِهَا برسائلِ سوزان؟ فقالت: قد جاءَني منها كتابٌ بالأمسِ، تهنّئني فيهِ بعيدِ ميلادي، وتقترحُ عليَّ أنْ أسافِرَ إليها، لأقضِيَ عندَها في «برلين» فَصْلَ الربيعِ، فكتبتُ إليها شاكرةً لها تهنِئَتَها، وأستَعْفِيهَا السفر. فصمتَتْ ماجدولين، ولم تَقُلْ شيئًا حتّى انصرفتِ الفتاةُ، فقالتْ بينها وبين نفسها: لا عتبَ عليها فيما فَعَلَتْ، إنّما هي الإرادةُ الإلهيّةُ تأبى إلا أنْ تجازِيَني غدرًا بغدرٍ، وكفرانًا بكفران.

٩٢ ـ الدموع الأخيرة

استيقظَ سكّانُ قريةِ ولفباخ في صباحِ أحدِ الأيّامِ، فإذا بهم يرونَ تلكَ الفتاةَ التي فارَقَتْهُم بالأمسِ وهي أنضَرُ الفتياتِ وجهًا وأسعدُهُنَّ حالًا، قد عادتْ إليهم صفراءَ متضعضعةً شاحبةَ اللونِ باليةَ الثوبِ. تمشي مشيةَ الذليلِ المهينِ، وتقتلِعُ قدمَيْهَا في مسيرِها اقتلاعًا. فعجبوا لأمرِهَا ورثوا لها، ولم تزلْ سائرةً في طريقِهَا، حتّى مرّتْ أمامَ ذلكَ البيتِ الذي قَضَتْ فيه أيّامَ طفولتِهَا وصباها، وسعدَتْ فيه بالحبِّ الشريفِ الطاهرِ أيّامًا طوالًا، حتّى فارقَتْهُ، ففارَقَها هناءُ الحياةِ ورَغْدُهَا. فخفق قلبُها خفقةَ الألمِ والحزنِ، ووقفَتْ أمامه ساعةً تقلّبُ نَظَرَها في جنباتِهِ، وأنحائِه، فرأتِ السكونَ مخيمًا، والوحشةَ سائدةً، فَعَلِمَتْ أنّه لا يزالُ مهجورًا، وكانَ بابُ الحديقةِ مفتوحًا، فحدَّثَتْهَا نفسُها بدخولِها.

فدخَلَتْهَا وخَطَتْ فيهِ بضعَ خطواتٍ، فلمحتِ البستانيّ وزوجَتَه جالسينَ إلى أصلِ شجرةٍ من الأشجارِ العظامِ يطبخانِ طعامَهُما، فمشتْ إليهما، حتّى صارتْ على كثبٍ منهما، فأنكرَاها إذْ رأياها، ثمّ عرفَاها، فانتفَضَا من مكانِهما انتفاضًا، ومَشَيا إليها فحيّياها، ونظرَ الرجلُ إليها نظرةً واجمةً مكتئبةً وقال لها: ما الذي طرأَ عليكِ يا سيّدتي؟ فأفْضَتْ إليه بمجملِ قصّتها، ثمّ قالت له: أريدُ أن أستأجرَ الغرفةَ العليا من المنزلِ لأقضي فيها شهرًا أو شهرينِ، وربّما لا أحتاجُ إليها أكثرَ من ذلكَ. فاستأذِنْ لي صاحبَ البيتِ في أمرِها.

فاستعبر الرجلِ باكيًا، وظَلّ يعجَبُ لتقلّباتِ الأيّامِ، وتبدّلِ صورِهَا وألوانِهَا، ويندبُ ذلكَ الزمنَ الذي قضَاهُ في خدمَتِها، وخدمَةِ أبيها. وما هي إلّا ساعةٌ حتّى أعدَّ لها الغرفةَ التي أرادَتْهَا، فصعدتْ إليها، فوجَدَتْها باقيةً على عهدِها أيّام كان استيفن يسكُنُها، وذكرتْ ذلكَ اليومَ الذي صعدتْ فيه إليها بعد سَفَرِه، وأصلَحَتْ من شأنِهَا، وبلّلَتْ تربتَها بدموعِهَا حزنًا على فراقِه، وظلّتْ تقولُ في نفسها: قد كنتُ أبكي قبلَ اليومِ على فراقِهِ، أما اليومَ فقد أصبحَ ذلكَ الفراقُ قطيعةً دائمةً لا واصلَ لها، فمن لي بدموعٍ تعينُني عليها؟ وخَلَتْ بنفسها تتذكّرُ أيّامَهَا، وهمومَهَا، وأشجانَهَا، وتذرفُ آخر ما أبقى لها الدهرُ في أجفانِها من دموعٍ، ومَنْ هو أولى بالبكاءِ والهمّ منها، وقد ضربَها الدهرُ بجميعِ ضرباتِهِ وتنكّرَ لها كلُّ وجهٍ من وجوهِ الحياة، فهجَرَها زوجُها، وخانَتْهَا صديقَتُها، ونقمَ عليها الرجلُ الذي تحبّه، وفقدتِ الثروةَ التي بَذَلَتْ في سبيلِهَا سعادَتَها، وأصبحَتْ لا تستطيعُ أنْ تطلبَ الراحةَ من طريقِ الموتِ، لأنّها لا تستطيعُ أن تقتُلَ ولدَهَا، ولا أن تجدَهَا في الحياةِ لأنّها لا تملكُ ما تستعينُ به على عيشها.

وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ، حتّى جاءَها المخاضُ فلم يحضَرْ غيرُ زوجةِ البستانيّ، وعجوزٌ من جاراتِها القديماتِ، فولدتْ طفلةً جميلةً لم تبتسِمْ عندَ رؤيتِهَا إلّا لحظةً واحدةً، ثمّ أخذتْ

تبكِيها بكاء الثاكلِ وحيدَها ساعةَ موتِه. وما كادتْ تنهضُ من نفاسها[1]، حتّى جاءَها الخبرُ بأن أدوار قد انتحرَ شنقًا في فندقٍ من فنادقِ «شيكاغو» كانَ ينزلُ فيه منذُ سافرَ إلى أمريكا، على أثرِ ليلةٍ قضَاها في المقامرةِ، وخسِرَ فيها كلّ ما كان بيدِه من المالِ، فسقطتْ عند سماعِ الخبرِ مغميًّا عليها، وهي تقول: «وايتمَ ولداه»!

ثمّ استفاقتْ بعد حينٍ، فإذا هي تمثالٌ صامتٌ جامدٌ، لا تنطقُ ولا تبكي ولا تشكُو ولا تتألّمُ، ولا تضُمّ طفلَتَها إلى صدرِهَا إلّا إذا أزعَجَها بكاؤُها، ولا تطلبُ الطعامَ في غداةٍ ولا عشيّ، ولا تتناولُ منهُ حينَ يقدّمُ إليها إلّا المضغةَ أو المضغتين، ثمّ ترفَعُ يدَهَا عنه، وتمرّ بها الساعاتُ الطوالُ وهي ذاهبةٌ ببصَرِها في السماءِ لا يعلَمُ إلّا الله أينَ تذهبُ، ولا أينَ تتغلغَلُ نفسُها في ظلماتِ هذا الوجودِ، فإذا ثابَتْ[2] نفسُها إليها سألتِ البستانيّ هلْ أتَاها كتابٌ. أو سألَ عنها أحدٌ؟ فيجيبها أن: لا، فتعودُ إلى صَمْتِهَا وذهولها.

❀ ❀ ❀

٩٣ ـ قلب استيفن

أصبح استيفن بعد انتقاض[3] جرحِ قلبِهِ عليهِ في تلكَ الليلةِ التي حادثَ فيها ماجدولين ثائرًا مهتاجًا، لا يهدأُ ولا يستريحُ، ولا يسكنُ إلى نومٍ ولا يقظةٍ، ولا يهنأُ باجتماعٍ ولا خَلوةٍ، فبدا له أنْ يسافرَ إلى بعضِ مقاطعاتِ الشمالِ، ليروّحَ عن نفسِه همومَها وآلامَها. فسافرَ سفرةً طويلةً زارَ فيها كثيرًا من المدنِ، واجتمَع بكثيرٍ من علماءِ الموسيقى، والمغنّين، وكتّابِ الرواياتِ الغنائيّة الذين سمعوا به، ولم يَرَوه، فاحتفلوا به احتفالًا عظيمًا، وأجمَلُوا مودّتَه وعشرتَهُ، ونظمَ في تلكَ السفرةِ بعضَ القطعِ الشعريّةِ الجميلةِ، ولحّنَهَا ولحّنَ كثيرًا من أغاني الرواياتِ التمثيليّةِ التي لا تزالُ خالدةً حتّى اليوم، فازدَادَ صيتُه انتشارًا، وبلغَ من العظمةِ أوجَها الأعلى، وأجمَعَ الذين سمعوا غناءَه، أو توقيعَه أنّ سماء ألمانيا لم تطلعْ فيها منذُ ماتَ «بتهوفن» شمسٌ مثلُ شمسِه، ولا أشرقَ فيها نجمٌ أسطعُ مِن نَجْمِه.

وظلّ في حياته هذه بضعةَ أشهرٍ، حتّى وردَ إليهِ في أحدِ الأيّام كتابٌ من أحدِ أصدقَائِه في كوبلانس يخبره فيه خبرَ إدوار، ويقصّ عليهِ قصّةَ سفرِه وانتحارِه، فحزنَ عليه وعلى مصيرِه حزنًا شديدًا، وبكاهُ بكاءَ الوفيّ الكريم الذي لا يأبى أن ينسى في موقِفِ الموتِ كلّ شأنٍ من شؤونِ الحياة، ولم يذكُرْ له في تلكَ الساعةِ من ماضِيهِ إلا شيئًا واحدًا فقط، وهو أنّه كانَ صديقَه، ورفيقَ طفولتِهِ وصباه، وأنيسَ وحدتِهِ في أيّام بؤسه وشقائه لا يزيدُ على ذلكَ شيئًا.

ورأى أنّ لا بدّ له من العودةِ، ليرى ما حلّ بماجدولين بعد نزولِ تلكَ النكبةِ بها، وليمدّ

---

(١) النفاس: آلام الولادة.
(٢) ثاب: رجع، عاد.
(٣) انتقاض الجرح: معاودته.

إليها يدَ معونتِهِ في بأسائِها التي صارتْ إليها، فسافرَ إلى كوبلانس فقضَى فيها ليلةً، ثمّ ذهَب إلى جوتنج، وظلّ يتسقّطُ أخبارَها حتّى عرف عنها كلّ شيءٍ، وعلم أنّها تعيشُ مع طفلتَهَا عيشَ البؤسِ والشقاءِ في الغرفةِ العليا التي كان يسكُنُها من بيتِهَا الأوّلِ؛ فنسي في تلك الساعةِ موجدَتَه[١] عليها، واستحالَ غضبُه ونقمَتُه إلى رحمةٍ وشفقةٍ، فركبَ عجلَته في الصباحِ، وسافرَ إلى ولفباخ حتّى بلغَها ضحوةَ النهارِ، فأخذَ في طريقِهِ إلى بيتِ الشيخِ مولر حتّى بلغَه، فسألَ البستانيّ عنها، فقَصّ عليه مجملَ قصّتها، ووصفَ له حياتَها الغريبةَ التي تحياها منذُ عادتْ إلى القريةِ، وذكرَ له صمتَها، وسكونَها، وذهولَها واستغراقَها، واستبدادَ الهمّ بها استبدادًا يكادُ يقتُلُها، ويأتي على حياتِها.

فقالَ له: استأذِنْ لي عليها، فإنّي أحبُّ أنْ أراها، قال: إنّها تقضِي أكثرَ أوقاتها جالسةً على ذلكَ المقعدِ الذي كنتما تجلسانِ عليه معًا في أيّامِكما الماضية، وقد تركتُهَا الساعةَ هناك، فاذهبْ إليها إذا شئتَ؛ فمشى إليها حتّى رآهَا جالسةً على الهيئةِ التي وَصَفها الرجلُ، فلم تشعُرْ به حتّى صارَ أمامَها، فانتفضَتْ إذْ رأتْهُ انتفاضةً تزايلتْ[٢] لها أعضاؤُها، وتساقَطَتْ فيها نفسُها، فلم تستطعِ النهوضَ من مكانِها؛ وأُرْتِجَ[٣] عليها فلم تنطقْ بحرفٍ واحدٍ؛ فجلسَ بجانبِهَا، وقلبُه يذوبُ حسرةً وأسًى، وأخذَ يعزّيها عن نكبتِها، ويتوجّعُ لما حلّ بها، ويَعِظُها بالصبرِ على مُصَابِها، فثابَتْ إليها نفسُها شيئًا فشيئًا، ونظرتْ إليه نظرةً منكسرةً، وقالت له: قد كنتُ أحتملُ هذه النكباتِ كلَّها بصبرٍ وجَلَدٍ لو أنّكَ عفوتَ عنّي يا استيفن.

فأطرَقَ مليًّا، ثمّ رَفَعَ رأسَه إليها وقال لها: أما العفوُ فإنّي لا أستطيعُه لأنّني لا أستطيعُ أنْ أنسى، فاصفرّ وجهُهَا اصفرارًا شديدًا، وشعرتْ أنّ روحَهَا تتسرّبُ من بين جنبيها قطرةً قطرةً، ونظرتْ إليه بعينينِ يَترقرَقُ في إنسانيهما[٤] الدمعُ، وقالت له: ألا يذكّرُكَ، يا استيفن، هذا المكانُ الذي نجلسُ فيه بشيءٍ من ماضِينا؟ قال: لا يذكّرني إلا بشيءٍ واحدٍ، وهو أنّي شهدتُ فيه ذلكَ المشهدَ الذي فجعَني في جميعِ أمانيّ وآمالي، وقَتَل قلبي قتلةً لم يَحْيَ من بعدِها حتّى اليوم. قالت: إنّكَ تقسو عليّ كثيرًا، يا استيفن، ولو شئتَ لرحمتَني، وأشفَقْتَ عليّ.

فنظرَ إليها نظرةً شديدةً، وقد تمثّلَتْ أمامَ عينيه جميعُ آلامِه الماضيةِ دفعةً واحدةً، وقال لها: ذلكَ شأنُ المرأةِ في كلّ زمانٍ وفي كلّ مكانٍ تزعَمُ أنّها ضعيفةٌ واهنةٌ وأنّ الرجلَ قويّ مقتدرٌ، فهي تسألُه عن كلّ شيءٍ، ولا تسألُ نفسَها عن شيءٍ، ألم تكوني قاسيةً عليّ يومَ تركتِني في هذا المكانِ وحدي منذُ خمسةِ أعوامٍ أقاسي أعظَمَ ما قاسى امرؤٌ في حياتِه من الهموم والآلام، وأخذتِ بيدِ خطيبِكِ على مشهدٍ منّي ومرأًى، وذهبتِ به إلى غرفتِكِ دونَ أن تلتفتي إليّ التفاتةً واحدةً لتري ما حلَّ بي من بعدِكِ، وهل أنا باقٍ على قيدِ الحياةِ، أم ذهبتِ النكبةُ

---

(١) الموجدة: الغضب والحقد.
(٢) تزايل: تفرّق.
(٣) ارتج: أقفل.
(٤) إنسان العين: ناظرها.

بما بقيَ من رَمَقي؟ ألم تكوني قاسيةً عليَّ أيّامَ أرسلتُ إليكِ تلكَ الرسائلَ التي ضرعتُ إليكِ فيها ضراعةً لا تحتَمِلها نفسٌ من نفوسِ البشرِ، فأغفلتِهَا وأهملتِهَا، ولم تعبَئي بدموعي الغزارِ التي سكَبْتُهَا فيها، ولم تكتبي إليَّ إلا كلمةً واحدةً بعد حينِ قَطَعْتِ بها آخرَ خيطٍ كان في يدي من خيوطِ الرجاء؟

إنّني لا أزالُ أذكرُ حتّى الساعة أنّكِ سألتِني في تلكَ الرسالةِ أن أتناسى ذلكَ الماضي؛ وأن تحلَّ الصداقَةُ بيننا محلَّ الحبِّ، فها أنذا قد جئتُ إليكِ باسمِ الصداقَةِ التي تواثَقْنَا عليهَا منذُ ذلكَ العهدِ أتفقّدُك وأتعهّدُ شأنَكِ، وأهيّئُ لكِ حياةً هنيئةً تحَيَيْنَها مع طفلتِكِ في أيّ مكانٍ تشائينَ، آمنةً غدراتِ الدهرِ ونكباتِهِ ما مدّ اللهُ في أجلي. فاستعبرتْ باكيةً، ومدّتْ يدَها إليهِ ضارعةً، وقالت: أهذا كلُّ ما بقيَ لي في قلبِكَ، يا استيفن؟ فهاجَتْ وجدَهُ مدامِعُهَا، وانبعثَتْ من مكانِها في لحظةٍ واحدةٍ جميعُ عواطفِ قلبِهِ المختلفةُ، وظلّت تتداولُ نفسَهُ واحدةً بعد أخرى، فذكر حبّه إيّاها، وحاجَتَه إليها، وأنّه لا يستطيعُ أن يعيشَ سعيدًا في الحياة بدونِها، ثمّ ذكَرَ خيانَتَها، وغدرَهَا، وقسوَتَها عليهِ، وزرايتَها به وبآلامِهِ، ودموعِهِ، فمحتْ عاطفةُ الغضَبِ من نفسِه عاطفةَ الحبّ، ولكنّه ما لبثَ أنْ رأى دموعَهَا المنهمرةَ على خدّيها، ومنظرَ بؤسِها، وشقائِها، ويديها الممدودتينِ بالضراعةِ إليه، حتّى عاد إلى عطفِهِ وإشفاقِهِ، وحدَّثَتْهُ نفسُه أن يأخُذَها بين ذراعيهِ، ويضمّها إلى صدرِه، ويقول لها: قد نسيتُ كلَّ شيءٍ يا ماجدولين، فتعالي إليّ، فإنّني لا أستطيعُ أن أعيشَ سعيدًا في الحياةِ بدونك. ثمّ مرّتْ بخاطره مرورَ البرق تلك الساعةُ التي وقفَ فيها على بابِ غرفَتِهَا ليلةَ عرسِهَا، وسمعَهَا تلقي بنفسِهَا بين ذراعي زوجِهَا، وتقبّلُه، وتستقبلُ قبلاتِه، فثارتْ في نفسِه عاطفةُ العزّةِ والأنفةِ التي لم تفارقْهُ في يومٍ واحدٍ من أيّامِ حياتِه، وقال في نفسه: إنّني لا أمدُّ يدي إلى فضلاتِ الرجالِ، ولا ألبسُ أكفانَ الموتى.

وكذلك ظلّ يتقلّبُ ساعةً بين أيدي هذه العواطفِ المختلفَةِ، وهو صامتٌ مذهولٌ، وماجدولين ناظرةٌ إلى شفتَيهِ نظرةَ المتّهمِ إلى شفتي قاضِيه، تنتظرُ تلكَ الكلمةَ التي تفصلُ في أمرِها، فترفعُها إلى سماءِ السعادةِ التي لا سماءَ فوقَها، أو تهوي بها في مهواةِ الشقاءِ التي لا قرارَ لها. ثمّ مدّتْ يدها إلى يدِه، فأخذَتْهَا برفقٍ، وضمّتْهَا إلى صدرِهَا، وأنشأتْ تقبّلُها، وتبلّلُها بدموعِها.

فتناسى في تلكَ الساعةِ كلّ شيءٍ، وحَنا عليها وأهوى بفَمِه إلى فَمِها حتّى إذا لم يبقَ بين تلامسِ شفتيهما إلّا ممرُّ الهواءِ بينهما، إذْ سمعها تقول له وهي ترتعدُ بين يديهِ «أنتَ حياتي التي لا حياةَ لي بدونها» وهي بعينِهَا الكلمةُ التي سَمِعَها منها منذُ خمسةِ أعوامٍ، وهي تقولُها لزوجِهَا ليلةَ زفافِهَا في غرفةِ عرسِهَا، فما رنّتْ في أذنِهِ، حتّى وَثَبَ على قدميهِ وَثْبَةَ الهائج المختبل[1]، وانتزعَ يدَه من يدِها، ودفَعَها عنهُ دفعًا شديدًا، فسقطَتْ تحتَ المقعدِ، وقالَ لها بصوتٍ شديد قارع: لم يبقَ لكِ في قلبي شيءٌ أيّتها السيّدةُ منذُ ذلكَ اليومِ الذي وضَعَ الكاهِنُ

(١) المختبل: المجنون.

فيه يدَهُ على رأسِكِ ورأسِ زوجِك، وبارَكَكُما، وَدُقَّتْ على أثرِ ذلك أجراسُ الكنيسةِ مؤذنةً بانقضاءِ كلِّ شيء.

ثمّ تركَهَا مكانها، ومشَى خافِضَ الطرفِ مطأطِئَ الرأسِ حتّى وصلَ إلى بابِ الحديقةِ، فرأى البستانيّ واقفًا في مكانِهِ، فأخرجَ من جيبِهِ كتابًا مختومًا وقال له: أعطِ هذا لماجدولين، ثمّ ركبَ عجلَتَهُ، وذهبَ في سبيله.

فمشى البستانيّ إليها، فرآها ساقطةً تحتَ المقعدِ تعالجُ سكرةً كسكرةِ الموتِ، فما زالَ حتّى رجعتْ إليها نفسُها، فأعطاها الكتابَ، فأخذته من يدِه صامتةً، وصعدَتْ إلى غرفَتِهَا وقد لبسَ وجهُهَا ذلكَ اللونَ الذي يغشَى وجوهَ المنذَرين بالموتِ، فقضتْ ليلَتَهَا ساهرةً بجانبِ مصباحِها تكتبُ مرّة، وتذرفُ دموعَهَا أخرى، وتضمّ طفلَتَها إلى صدرِها فيما بين ذلك، حتّى انصدَعَ عمودُ الصباح.

❁ ❁ ❁

٩٤ ـ الكارثة

قال فرتز لزوجتِه، والشمسُ تشرفُ على الدنيا من وراءِ خدرِها، والكونُ يمسحُ عن عينيهِ سِنَة[1] الكرى: أمّا أنا فإنّي باقٍ هنا، لأنّي أريدُ أنْ أصطادَ لاستيفن نوعًا من السَمَكِ قالَ لي صباحَ الأمسِ إنّه يحبُّ أن يكونَ على مائدتِهِ اليومَ، واذهبي أنتِ إليه، وانتظريه حتّى يستيقظَ، ولا تأخذي معكِ من الأولادِ غيرَ طفلِكِ الرضيعِ، وأغلبُ ظنّي أنّه لا يستيقظُ من نومِهِ إلا متأخّرًا، فقد عادَ أمسِ من تلكَ السفرةِ التي سافَرَها إلى ولفباخ حزينًا مكتئبًا كثيرَ الهمّ والشَجنِ؛ فسألتُه عن شأنِه، فلم يخبِرْني بشيءٍ، فجلستُ إليه أحدّثُه أحاديثَ مختلفةً رجوتُ أن أسرّي بها عن نفسِه، فلم يصغِ إليّ حتّى انتصفَ الليلُ، فأذنَني بالذهابِ إلى منزلي، فتركتُهُ وهو يعالجُ النومَ، فلا يجدُ سبيلًا إليه.

قالتْ: مسكينٌ هذا الرجلُ، ما أحسبُ أنّ أحدًا شَقِيَ في هذه الحياةِ شقاءَه، أو لاقى فيها ما لاقَاهُ، والناسُ يحسبونَه سعيدًا مغتبطًا، ويحسدُونه على نعمتِهِ وهنائِه. قال: نعم لقد فَتَكَ ذلكَ الغرامُ القديمُ بنفسِه فتكةً لا أحسبُ أنّه بارئٌ منها أبدَ الدهرِ، فوارحمتاهُ له! وواأسفاهُ عليه! اذهبي إليه، يا جوزفين، وانتظري يقظَتَه، واحذري أن يزعِجَه بكاءُ طفلِكِ، وربّما لحقتُ بكِ بعد قليلٍ.

فذهبتْ حاملةً طفلَهَا على يدَها، حتّى دَنَتْ من بابِ الحديقةِ، فمرّتْ على مقربةٍ منها مرورَ البرقِ امرأةٌ مقنّعةٌ في أخلاقٍ[2] رثّةٍ مشعّثةٍ، تسرعُ في مشيتِهَا وتتعثّرُ في ذيلِهَا، فَعَجِبَتْ لأمرِهَا ولكنّها لم تحفلْ بها، ودخلتِ الحديقةَ، فراعَهَا أن رأتْ بين يديها في دهليزِ البابِ

---

(١) السِنة: النعاس.

(٢) الأخلاق: الثياب البالية.

سفطًا[(١)] صغيرًا كأنَّ فيه شيئًا يضطربُ، فدنَتْ منه فرأتْ طفلًا رضيعًا ملفوفًا بثيابه يمتصّ ثَدْيًا صناعيّةً موضوعةً بجانبِهِ. فذكرتْ تلكَ المرأةَ التي رأتْهَا منذُ لحظةٍ تسرعُ في مشيَتِها كالخائفةِ المذعورةِ، وقالتْ في نفسها: إنّه طفلُها ما من ذلك بدٌّ قد أَثِمَتْ[(٢)] فيه، وحاولتِ التخلُّصَ من عارِه، فألقَتْهُ هنا.

وهتفت بالبستانيّ وكان يعملُ في ناحيةٍ أخرى من الحديقةِ، فلبّاها، فسألته عن السفطِ، فدهشَ إذ رآهُ وقال: إنّه لم يرَهُ إلّا الساعة، فلم ترَ أنْ تصنعَ شيئًا دون أن ترى رأي استيفن، فذهبتْ إلى مخدعِهِ، وأشرفَتْ عليه، فرأتْهُ مستيقظًا في فراشِهِ، فدعَاهَا حينَ رآها، فدخلتْ إليه وقالتْ له: قد كنتُ أظنُّ أنّك لا تستيقظُ اليومَ إلّا ضحوةَ النهار، قال: إنّي لمْ أنَمْ حتّى الساعة، فقصّتْ عليهِ قصّةِ السفطِ، وأخبرَتْهُ خبرَ المرأةِ المقنّعةِ التي رأتْهَا، ووصفتْ له حالتَهَا في اضطرابِهَا وتخيّلِهَا، فداخَلَه ريبٌ عظيمٌ، ونفَضَ غطاءَه عنهُ نفضًا، وخرجَ مسرعًا في مباذِلِهِ حتّى بلغَ مكانَ السفطِ، فرآه ورأى الطفلَ في مضجعِهِ منه، ورأى بجانبِهِ هنة[(٣)] بيضاءَ، فتأمّلها فإذا كتابٌ مختومٌ، فأخذَه وقرأ في عنوانِه «من ماجدولين إلى استيفن» ففضّه بسرعةٍ، وأمرّ نظرَه عليهِ إمرارًا، فلمحَ بين سطورِه كلمةَ «الموت» فصرخَ في وجه جوزفين:

أينَ ذهبتْ تلكَ المرأةُ التي حدثتِني عنها؟ قالتْ: ذهبتْ في هذا الطريقِ، وأشارتْ إلى طريق النهرِ! فصرخَ صرخةً عظمى، وقال: إنّها ماجدولين، وإنّها قد ذهبتْ إلى الموت، وألقى الكتابَ من يدِه، وعدا عدوًا شديدًا حتّى أشرفَ على النهر، فرأى خلقًا كثيرًا مجتمعينَ على ضفّتِه وكلّهم يشيرُ إلى الماءِ بأصبعِه، فنظرَ حيثُ يشيرونَ، فرأى الغريقةَ تضطربُ في أيدي الأمواجِ، وتمدّ يَدَها ناحيةَ الضفّةِ كالمستغيثةِ، وكانت الزوبعةُ ثائرةً، والريحُ تعصفُ من كلّ جانبٍ، ورأى صديقَه فرتز يحثُّ زورَقَهُ إليها لإنقاذِها، فأخذَ يهتف ويقول: أَدْرِكْهَا يا فرتز، أنقذْهَا يا صديقي، إنّها ماجدولين.

ثمّ نضا[(٤)] ثوبَه عنه وهَمّ بإلقاءِ نفسِه في الماءِ، فأشفقَ عليه الناسُ أن يصيبَه مكروهٌ فاعترضوا سبيلَه، فدفَعَهُم عنه دفعًا شديدًا، واقتحَمَ النهرَ وظلّ يسبحُ وراءَ الزورقِ، والموجُ يدنو منه مرّةً، وينأى به أخرى حتّى بلغَه بعد لأيٍ[(٥)] فتشبّثَ به، وكانَ الزورقُ قد دنا من مكانِ الغريقَةِ، تطفو وترسُبُ، ويتموّجُ شعرُها على سطحِ الماءِ مرّة بعدَ أخرى.

في هذه الساعةِ، والقلوبُ خافقةٌ والنفوسُ ذاهلةٌ والناسُ يهتفونَ بالدعاءِ مرّةً ويصرخونَ صرخاتِ الفزعِ أخرى، ثارتْ موجةٌ هائلةٌ حولَ مكانِ الغريقةِ كالطودِ[(٦)] الشامخ، ولبثتْ لحظةً تعجّ وتصطخبُ، فصاحَ الناسُ بصوتٍ واحد: رحمتَكَ اللّهُمَّ وإحسانَك، ثمّ انحسرتْ فإذا سطحُ الماءِ أملسُ منبسطٌ، وإذا الغريقةُ لا عينَ ولا أثر.

---

(١) السفط: وعاء من أعواد الشجر.
(٢) أثمت: ارتكبت الإثم أي الجريمة.
(٣) هَنَةٌ: شيئًا.
(٤) نضا الثوب: خلعه.
(٥) اللأي: الجهد.
(٦) الطود: الجبل.

وما رأى استيفن هذا المنظرَ، حتّى جُنّ جنونُه، وألقى بنفسه في الماءِ، وغاصَ حيثُ غاصَتْ، فاندفَعَ فرتز وراءَه، وهبطَ مهبطَه، وما زالا يرسُبانِ مرّة، ويطفوان أخرى، ويصارعَانِ في هبوطِهما وصعودهما جبابرةَ الأمواجِ صراعًا شديدًا، ثمّ انفرجَ الماءُ عنهما، فإذا هما صاعدانِ يحملانِ الغريقةَ فوقَ أيديهما، ولا يعلمانِ أحيّةٌ هي أمْ ميتة؟ وما زالا يسبَحانِ حتّى بلغا الضفّةَ فطرحَاها، وأكبَّ الناسُ عليها يتسمّعُون ضرباتِ قلبها، ويتلمّسُون أنفاسَهَا، واستيفن واقفٌ ناحيةً يشخصُ ببصرِهِ إليها، وينتظرُ قضاءَ الله فيها.

ثمّ انتبَه فإذا القومُ جاثونَ من حولها وقد رفَعَوا قبّعاتِهِمْ عن رؤوسِهِمْ، وأخذوا يهمهمُونَ بصلواتهم، فعلمَ أنّ الأمرَ قد انقضَى، فسكنَ للحادثِ سكونًا عميقًا لا تتخلّلُه زفرةٌ ولا أنّةٌ؛ وجثا بجانبِ الجاثين يصلّي بصلاتِهِمْ، ويدعو بدعائِهِم، فأبكى منظرُه الناسَ جميعًا، وهالَهُمْ من سكونِهِ وجمودِهِ فوقَ ما كانَ يهولُهُمْ من جَزَعِهِ وبكائِه، ثمّ أخذوا ينصرفونَ واحدًا بعدَ آخرَ، حتّى إذا لم يبقَ منهُمْ أحدٌ نهضَ استيفن من مكانه، ومشَى إلى الجثّةِ، فاحتَمَلها على يديهِ، وسارَ بها إلى المنزلِ، وفرتز يتبعُه صامتًا. فصعَدَ إلى الطبقةِ العليا، ودخلَ إلى تلك الغرفةِ الزرقاءِ، فأضجَعَها على ذلكَ السريرِ الذي كان بالأمسِ سريرَ عرسِهَا، فأصبحَ اليومَ لحدَهَا الأخير.

وجثا على درجاتِ السريرِ جثيَ العابدِ على درجاتِ الهيكلِ، وظلَّ على حالِهِ تلكَ بضعَ ساعاتٍ لا يطرفُ ولا يتحرّكُ، حتّى حلّتْ ساعةُ الدفنِ، فنهضَ من مكانِهِ، وأكبَّ على الجثّة، وكشفَ الغطاءَ عن وجهِهَا، وتناوَلَ من فَمِهَا تلك القبلةَ التي كانتْ تحرمُهَا عليه الحياةَ، حتّى أحلّها له الموتُ، ثمّ سقطَ مغشيًا عليه.



٩٥ ـ من ماجدولين إلى استيفن

ماذا أصنعُ بالمالِ من بعدِكَ يا استيفن، بل ماذا أصنعُ بالحياةِ جميعِهَا بعد ما فقدتُكَ، وانقطَعَتْ أسبابُ دنيايَ من أسبابِ دنياك.

كنتُ أرجو أن أعيشَ لكَ، وأن أقدّمَ إليكَ في مستقبلِ حياتِكَ هناءً أفضلَ من الهناءِ الذي كنتَ ترجُوه في ماضيكَ، لأكفّرَ بذلكَ عن سيّئتي التي أسلَفْتُهَا إليكَ، فَحُلْتَ بيني وبين ذلك، لأنّكَ كنتَ واجدًا عليَّ، وكنتَ ترى ألّا بدّ لكَ من الانتقام بنفسِك، فقضيتَ بذلكَ عليّ وعلى نفسِك في آنٍ واحدٍ، لأنّي أعلَمُ أنّك تحبّني، وأنّكَ لا تستطيعُ أنْ تهنأَ بالحياةِ من بعدي.

كنتُ أشعرُ أنّ بينَ جنبي ثروةً من الحبّ، تملأُ فضاءَ حياتِكَ هناء ورغدًا، وكنتُ أرى أنّ في استطاعتي أنْ أمنَحَكَ في كلّ ساعةٍ من ساعاتِ حياتِكَ من السعادةِ ما لا تستطيعُ امرأةٌ في العالمِ أنْ تَمنَحه رجلًا في الكثيرِ من الأعوامِ، ولم أكنْ أرجو على ذلك أجرًا سوى أن أراكَ

سعيدًا بين يدي، وأن أعيش بجانبِكَ عيشَ النبتةِ الضعيفةِ بجانبِ الدوحةِ العظيمةِ، يفيءُ عليها ظلُّها، ويترقرقُ عليها نسيمُها.

لِمَ لَمْ تَعْفُ عنّي، يا استيفن؟ وواللهِ ما أحببتُ أحدًا في الحياةِ غيرَكَ، ولا سكنتْ نفسي إلى عِشرةِ إنسانٍ سواكَ، ولم يستطعِ الرجلُ الذي نَقَمْتَ منّي زواجي منه، وحاسَبْتَني عليهِ حسابًا شديدًا أن ينتقِصَ ذرّةً واحدةً من ذلكَ الحبّ الذي أضمَرْتُه لكَ في قلبي مُذْ عرفتُكَ، فلو أنّكَ أغضيتَ عن هفوتي، وأذِنْتَ لِحِلْمِكَ أنْ يَسَعَ جهلي، لوجدتَ بين يديكَ فتاةً عذراءَ بقلبِهَا وعواطِفِهَا لم تمسّها يدٌ، ولا عبثَ بفؤادِهَا عابثٌ، ولا فرّقَ بينها وبين تلكَ الفتاةِ القرويّةِ الساذجةِ التي أحبَبْتَهَا في ولفباخ حبًّا جمًّا، وعاهَدْتَهَا على المحبّةِ والولاء.

كانتِ الكأسُ مترعةً بين أيدينا، وكانَ منظرُهَا جميلًا رائقًا تأخذُهُ العينُ، ويهفو له القَلْبُ، وكانَ جديرًا بنا أن نتساقَاها قطرةً قطرةً، حتّى نأتيَ على القطرةِ الأخيرةِ منها، ثمّ نموتُ معًا سعيدينِ بنشَوتِها كما عشنا سعيدينِ بتَساقِيها، ولكنّكَ كنتَ شقيًّا سيّئَ الحظّ، فدفَعْتَهَا عنكَ بقدمِكَ دفعًا شديدًا فكسَرْتَهَا، وأَرَقْتَ ما فيها، فأصبحنا لا نجدُ لذّةَ الحياةِ إذا عشنا، ولا نهنأُ بضجعةِ الموتِ إذا مُتْنا.

لِمَ لم تعفُ عنّي، يا استيفن؟ وقد عاقَبَني الدهرُ بذنبِك عقابًا أليمًا، وأخذَ لكَ منّي فوقَ ما تستطيعُ أن تأخُذَ لنفسِكَ بنفسِكَ، فسلبني الثروةَ التي فتَنَتْنِي عنكَ، والزوجَ الذي مالأتُهُ على الغدرِ بكَ، والهناءَةَ من الحبّ التي كانتْ تلسَعُ في قلبي، فتضيءُ ظلمَتَهُ إلى نارٍ آكلةٍ تحرقُهُ وتضطرمُ في أنحائِه، وتتغلغَلُ في أعماقِه وأطوائِه، ولم يتركْ فيَّ موضعًا واحدًا يَسَعُ عقوبَتَكَ وانتقامَكَ.

أتدري، يا استيفن، من هي تلكَ المرأةُ التي جَلَسْتَ إليها بالأمسِ تقرعُها وتؤنّبُها، وتعدُّ عليها ذنوبَها وآثامَهَا، وتتلذّذُ بمنظرِ ذلّهَا وضراعَتِها؟

إنّها لم تكنْ إلّا شبحًا من الأشباحِ الضئيلةِ المتهافتةِ، قد ذهبَ الدهرُ بجميعِ قواها، وضعضَعَ جميعَ حواسّها ومشاعرِهَا، ولم يتركْ لها من آثارِ الحياةِ إلا عينًا تنظرُ، ولا ترى، وأذنًا تسمعُ، ولا تعي، ونفسًا ذاهلةً عن كلّ شيءٍ، حتّى عن نفسِها، وروحًا تتسرّبُ من بين جنبيها شيئًا فشيئًا ذاهبةً في سبيلِهَا.

تلكَ هي المرأةُ التي قَسَوْتَ عليها، ولم تَرحَمْ بؤسَها وضعفَهَا، فمدَدْتَ إليها يَدَكَ القويّةَ القادرةَ، وطَعَنْتَهَا، وهي جريحةٌ مثخنةٌ تلك الطعنةَ النجلاءَ[1] التي نفذتْ إلى قلبِهَا، وقَضَتْ عليها القضاءَ الأخير.

قد غفرتُ لكَ كلَّ شيءٍ، يا استيفن، لأنّي أحبُّكَ، ولأنّي أعلمُ أنّكَ ما قسوتَ عليَّ هذه القسوةَ كلَّها إلّا لأنّك تحبّني، فامنَحْنِي عفوَكَ ومغفرتَكَ، وأنزِلْني من نفسِكَ المنزلةَ التي كنتُ أنزلُها من قبلُ، والتي أبذلُ اليومَ حياتي في سبيلِهَا، فإنْ كنتَ، لا بدّ، آخذًا الموتى بذنوبِهِم،

---

(١) النجلاء: الواسعة.

فلا تأخُذْ بذنبي تلكَ الطفلةَ اليتيمةَ المسكينةَ التي لا سَنَدَ لها ولا عَضَد، فهي وإنْ كانتِ ابنةَ المرأةِ التي خانَتْك فهي ابنةُ المرأةِ التي أحبَّتْك، وإنّي أعيذُها بكرمِكَ وفضلِكَ، أن تذوقَ طَعْمَ الشقاءِ على عهدِكَ، أو أن تحلَّ بها كارثةٌ من كوارثِ الدهرِ بين سمعِكَ وبصرِك.

أطعِمْهَا، وتَصَدَّقْ عليها، فطالما أحسنتَ إلى أبويها من قبلِهَا، واجعلْ لها من صدرِكَ الرحيم ملجأً تجدُ فيه حَنانَ الأمّ، ورعايةَ الأبِ، ولا تَكِلْهَا إلى نفسِهَا تصارعُ أهوالَ الحياةِ، وآلامَهَا، فتصرعُهَا، وتَوَلَّ بنفسِكَ أمرَهَا في الساعة التي تجتازُ فيها تلكَ العقبةَ الكبرى من عقبات الحياةِ، حتّى تسقطَ سقطةً تشقَى بها أبدَ الدهرِ، واذكرْ لها دائمًا أنّ أمّها كانتْ تحبُّهَا حبًّا جمًّا، وأنّها ما آثرتِ الموتَ على الحياةِ، إلّا لأنّها عجزتْ عن أن تعيشَ بجانِبَها، ولأنّها كانتْ شقيّةً مرزأة[1]، فأشفقَتْ عليها أن يطيشَ إليها سَهْمٌ من سِهَامِ شقائها.

الوداعُ، يا استيفن، الوداعُ، يا أحبَّ الناسِ إليَّ، إنّني أفارقُ هذهِ الحياةَ، وأنتَ آخرُ من أفكّرُ فيه، وكلّ ما آسفُ عليه، فاذكُرْني، ولا تنسَني، وتعهَّدْ بالزيارةِ قبري من حينٍ إلى حين إنْ كان مُقَدَّرًا لي أنْ يكونَ لي قبرٌ على ظهرِ الأرضِ، واحتفظْ بالوديعةِ التي أودَعْتُكَ إيّاها، فهي تذكاري الدائمُ المقيمُ عندَكَ، وليُهَوِّنْ عليكَ فقدي، أنّ روحي قد امتزجَتْ بروحِك امتزاجًا لا يغيّرُهُ فناءٌ ولا بِلًى، فلِئِنْ فَرّقَتْ بيننا الأقدارُ في هذه الدّار، فسنلتقي في الدارِ الأخرى لقاءً لا ينغّصُه علينا موتٌ ولا فراق.

الوداعُ، يا استيفن، وآخرُ كلمةٍ أقولُها لكَ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ حياتي: «إنّني أحبّكَ، وإنّني أموتُ من أجلك».



٩٦ ـ المقبرة

استطاعَ استيفن أنْ يستفيقَ من غشيتِهِ في أصيلِ اليوم الثاني، ففتَحَ عينيه ودارَ بهما حولَه، فرأى فرتز، وزوجَتَه، وأولادَه جلوسًا تحتَ قدميهِ يبكُونَه ويتوجّعونَ له، فظلّ شاخصًا ببصرِه هنيهةً، ثمّ التفتَ إلى فرتز، وألقى عليه نظرةً طويلةً، وقال له: هل دفنتُمُوها؟ فأطرقَ فرتز واجمًا وقالَ بصوتٍ خافت: نعم، يا سيّدي، منذُ الأمسِ، قال: وأين طفلَتُها؟ قال: قد كَفَلَتْهَا جوزفين، وهي تتولّى إرضاعَهَا مع طفلَتِها. قال: وأين ذلكَ الكتابُ؟ قال: ها هو ذا يا سيّدي، وأعطاهُ إيّاه، فأمرَهُ بالانصرافِ إلى منزلِهِ، فانصرفَ هو وأسرتُه، فلمّا خلا استيفن بنفسه أخذَ يقرأُ الكتابَ، ونفسُه تتطايَرُ لوعةً وأسًى، حتّى فرغَ منه، فبكى ما شاءَ الله أن يفعَلَ، ثمّ أخذته كظمة[2] شديدةٌ، فذهلَ عن نفسِه وظلّ مستغرقًا في ذهولِه بضعَ ساعاتٍ، حتّى انتصفَ الليل.

---

(١) مرزأة: مصابة. (٢) الكظمة: حَبْس الغَيظ.

فثارَ من مكانِهِ بغتةً، وكأنّه طافَ بعقلِهِ طائفٌ من الجنونِ، وخرجَ إلى الحديقةِ، فمشى في أنحائِهَا يتسمّعُ، فلم يشعُرْ بحركةٍ، ورأى البستانيّ نائمًا في غرفتِهِ، ورأى فأسَه على بابِها، فتناوَلَها وفتحَ بابَ الحديقةِ بهدوءٍ وخرجَ، فلما استقبَلَ الفضاءَ أخذ سَمْتَه[1] إلى المقبرةِ حتّى بَلَغَها، وكان الجوّ مكفهرًّا والريحُ عاصفةً والسحبُ تحجبُ وجهَ القمرِ، ولا تنحسرُ عنه إلّا حينًا بعد حينٍ، ثمّ لا تلبثُ أن تعودَ إلى تراكُمِهَا وتكاثُفِهَا، وكانَ يحيطُ بالمقبرةِ من جهاتِها الثلاثِ سورٌ متهدّمٌ كثيرُ الثغراتِ والفجواتِ؛ ويمتدّ مع جهتِهَا الرابعة نهرٌ جوتنج، وقد قامتْ على ضفّتِهِ أشجارٌ عاليةٌ غبياءُ تعصفُ الريحُ بفروعِهَا وأوراقِها عصفًا شديدًا، فيتألّفُ من حفيفِها وخريرِ ماءِ النهرِ الجاري بجانبها صوتٌ غليظٌ أجشٌّ يملأُ القلوبَ روعةً ورهبةً.

فلم يزلْ استيفن سائرًا في طريقِهِ، حتّى لاحتْ له رؤوسُ تلكَ الأشجارِ، وسمعَ حفيفَ أوراقِهَا، وخريرَ المياهِ المتدفّقةِ من تحتَها، فخُيِّلَ إليهِ أنّها أشباحٌ سوداءُ من الجنّ تتقدّمُ نحوَه في جوفِ الليلِ راقصةً مترنّحة، وتدمدِمُ بأصواتِها المخيفةِ المريعةِ، فمشَتْ في جسمِهِ رعدةُ الخوفِ إلّا أنّها لم تمنَعْهُ من المضيّ في وجهِهِ.

فاستمرّ في سبيلِهِ، حتّى دخلَ المقبرةَ، وكانَ القمرُ يظهرُ حينًا، فيرشدُه إلى الطريقِ، ثمّ لا يلبث أن يتوارى في غمارِ السحب، فيقِفُ عن المسيرِ، فإذا تراءى له رأى على ضوئِه نواويسَ الموتى، وقد جفّتْ فوقَ تربَتِهَا تلكَ الأشجارُ القصيرةُ التي أغفلَ غارسوها أمرَها بعد أن بَلِيَ في قلوبِهِمْ حزنُهُمْ على موتاهُمْ. ولم يزلْ يتصفّحُ أوجهَ القبورِ، حتّى رأى بين يديهِ قبرًا حديثًا لا تزالُ تربَتُهُ مخضلّةً، فأكبّ عليه يتصفّحُ جوانبَه، فقرأ على أحدِهَا على شعاعٍ ضعيفٍ بعثَهُ إليهِ القمرُ في تلكَ الساعةِ اسم ماجدولين.

فجَثَا على ركبتيه وهمهَمَ بصلاةٍ قصيرةٍ، ثمّ نهضَ قائمًا على قدميهِ، وتناولَ الفأسَ التي أتى بها معَهُ وضربَ بها الأرضَ ضربةً شديدةً؛ فلم يسمَعْ لضربتِهِ صوتًا لشدّةِ عَصْفِ الرياحِ وزفيفِها[2] في تلكَ اللحظةِ؛ ثمّ أخذَ يحفرُ حتّى ضربَ ضربةً أخرى رنّتْ رنينًا شديدًا ملأَ أرجاءَ المقبرة.

فاقشعَرّ بَدَنُه، وبردَ دمُه في عروقِه، وسقطَ على ركبتيهِ، وسقطَتِ الفأسُ من يدِه لأنّ الضربةَ كانتْ قد أصابتِ التابوتَ الذي يحوي الجثّة؛ فخُيِّل إليه أنّها أصابتْ جمجمةَ الميتةِ، وكانَ القمرُ قد برزَ من وراءِ غمامتِهِ في تلكَ الساعةِ، وأضاءَ المقبرةَ كلّها، فتمثّلَ لَهُ أنّ القبورَ قد تفتّحَتْ جميعًا، وأنّ الموتى قد أخرجُوا رؤوسَهُم منها، وأخذوا ينظرونَ إليه بعيونٍ ملتهبةٍ متوقّدةٍ، فطارَ من رأسِهِ ما بقيَ فيه من الصوابِ وتركَ الفأس مكانها، وركضَ ركضًا شديدًا، وهو يتخيّلُ أنّ الموتى يتأثّرونَهُ ويركضونَ وراءَه حتّى وصل إلى المنزلِ متطرّحًا من الكلال[3]، وهو يصيحُ «ما كفاني أنْ قَتَلْتُها حتّى مَثَّلْتُ بها».

---

(١) السَمْت: الطريق.
(٢) زفيف الرياح: سرعتها.
(٣) الكلال: التعب.

وسمعَ البستانيّ صيحتَه، فاستيقظَ وذهبَ إليه فرآه على تلكَ الحالةِ، فقال له: ما بكَ يا سيّدي؟ فهدأَ قليلًا عندما رآه، ونهضَ من مكانِه وقال له: اتْبَعْني، فتبعَهُ الرجلُ صامتًا لا يعلمُ أين يريدُ حتّى بلغَ المقبرةَ، وكانَ القمرُ لا يزالُ مشرقًا في جنباتها، فمشَى إلى ذلكَ القبرِ، فانحنى عليه، فرأى أثرَ الفأسِ في التابوتِ، ولم يرَ شيئًا ممّا كان تخيّله، فسكنَ وهدأَ، وعلم أنّه إنّما كان في ثورةٍ من ثوراتِ الجنونِ، فأمرَ الرجلَ أن يعيدَ الترابَ إلى ما كانَ عليه، فأعادَه، ثمّ أمرَه أن يأخذَ فأسَه ويعودَ إلى المنزلِ، ففعلَ، وجَثا هو بجانبِ القبرِ يلثُم تربَتَهُ وأثَرَهُ، ويلصقُ خدّيه بصفائِحِهِ وأحجارِه، ويبكي بكاءً شديدًا حتّى اشتفَتْ نفسُه، ثمّ انصرفَ لسبيله. وهو يقول: قد كنتُ أرجو أن أدفَنَ بجانبِكِ، يا ماجدولين، فلم أوفّق إلى ذلكَ، وأحسبُ أن ذلكَ منّي غيرُ بعيد.

وأصبحَ منذُ ذلكَ اليوم حائرَ النفسِ منقبضَ الصدر كئيبًا مستوحشًا، ينظرُ إلى الحياةِ وما فيها نظرَ الغريبِ النازلِ بدارٍ لم يطرقْهَا من قبلُ، ولم يأنسْ بالمُقَام فيها، فهو يُعِدّ عُدَّتَه للرحيلِ عنها، ثمّ ما زالَ يلجّ به الأمرُ حتّى أصبحَ يستوحشُ من الناسِ، ويتبرّمُ بمرآهُمْ، ويستنكِرُ سماعَ أصواتِهِمْ، فانقطَعَ عن الاختلافِ إلى ما كانَ يختلفُ إليه من أصدقائِهِ ومعارفِهِ، وأبى أن يُقابِلَ أحدًا من زائريهِ، وأمسى لا يفارقُ خيالَهُ في نومِهِ، ويقظتِهِ، وذهابِهِ، وجيئَتِهِ منظرُ ماجدولين، وهي تغرقُ في النهرِ، وغدائرُها الذهبيّةُ الصفراءُ طافيةٌ على وجْهِ الماء، ويداها تتحرّكان حركاتِ الاستغاثةِ، فلا تجدُ مغيثًا ولا معينًا.

فكانَ يجد في نفسه لتلك الذكرى ألمًا ممضًا يقيمُه ويقعِدُه براحَتِهِ وسكونِهِ، فيصرخُ كلّما تراءى له ذلكَ الخيال: نعم أنا الذي قَتَلْتُها، وانتزعْتُ حيَاتَها من بين جنبيها، وفرّقْتُ بينها وبين فلذةِ كبدِهَا، فويلٌ لي، ما أشقاني! وما أسوأَ حظّي! لقد كُتِبَ لي أنْ أقتُلَ بيدي جميعَ الذين يحبّونني على ظهرِ الأرضِ، وأنْ أبقى من بعدِهِمْ شقيًّا معذّبًا أبكيهم وأندبُهم، لا أستطيعُ أنْ أنساهُم، ولا يقيّضُ لي أنْ أَلْحَقَ بهم.

ولقد استيقظَ صباحَ يومٍ من الأيّام ضيّقَ الصدرِ كثيرَ الضجرِ، فخرجَ من المنزلِ هائمًا على وجهِهِ، ومشى في طريقٍ ممهّدةٍ بينَ المزارعِ لا يدري أينَ يذهبُ ولا أيّة غايةٍ يريدُ، واستمرّ به المسيرُ بضعَ ساعاتٍ، فإذا هو أمامَ قريةِ ولفباخ، فهاجَتْ في نفسِهِ تلكَ الذكرى الماضيةَ، ومشى إلى بيتِ الشيخ «مولر»، فراعَه وأدهَشَه أنّه لَمْ يَرَ أثرًا لذلكَ البيت ولا لتلكَ الحديقةِ، فلا غرفَ، ولا قيعانَ، ولا سقوفَ، ولا جدرانَ، ولا أشجارَ، ولا أغراسَ، بل رأى أنقاضًا مبعثرةً، وجذوعًا متناثرةً، وأحجارًا ذاهبةً ههنا وههنا. فعلمَ أنّ مالكَ البيتِ الجديدِ قد هَدَمَه، وانتزعَ أشجارَ حديقتِهِ وأغراسَهَا، فأحزَنَه المنظرُ وآلمه، ووقفَ أمامَه مُطْرقًا خَاشعًا وقوفَ العابِدِ أمام محرابِه؛ وللبِلى والدروسِ[1] جلالٌ في النفسِ فوقَ جلالِ الجدّةِ والعمرانِ.

(١) الدروس: زوال الأثر.

وظلّ على ذلك ساعةً، ثمّ أخذَ يدورُ بعينيهِ في تلكَ العَرَصَاتِ[١] الخاليةِ، ويتلمّسُ أثرًا من آثارِ تلكَ المعالم التي قَضَى فيها أيّامَ سعادَتِه الأولى كما يتلمّسُ الساري في ظلمةِ الليلِ نجمةَ القطبِ في أطباقِ السحبِ، فلم يَجدْ شيئًا، فهتف صارخًا: ماذا صَنَعَ الدهرُ بي وبها؟ لقد أثكَلَنيهَا وأثكَلَني كلَّ شيءٍ بعدَها حتّى آثارَها، وظلّ يناجي تلكَ الأطلالَ الدوارسَ، ويستنطِقُ نُؤيَها[٢] وأحجارَها ويسائِلُها عن أهلها وساكنيها، فلا يجيبُه غيرُ الصدى المتردّد حتّى عيَّ بموقفه، فانصرفَ ولقلبِهِ وجباتٌ كأنّها شقائقُ برقٍ في السماءِ لوامع.

❀ ❀ ❀

٩٧ ـ بيتهوفن

انقطعتْ أخبارُ استيفن عن كوبلانس وأنديتِهَا ومجامِعِهَا، وكانَ غرّةَ جبينِها المتلألئةَ، وشمسَ جمالها الساطعةَ، فتساءَل عنه أصدقاؤه، ومعارِفُه، وصنائعُ أيادِيه وفواضِلِه، والمعجبونَ بذكائِهِ ونبوغِه، حتّى عرفوا قصّته، وما كانوا يعرفونَ شيئًا منها قبلَ اليوم، فهالَهُم الأمرُ وتعاظَمَهُم، وأشفَقُوا أنْ تختطفَ يدُ الدهرِ من أيديهم تلكَ الحياةَ النضرةَ الزاهرةَ التي لم يتمتّعوا بها إلّا قليلًا من الأيّام، فمشى بعضُهم بذلك إلى بعضٍ، واجتمَعَ منهم جَمْعٌ عظيمٌ ضمَّ بين حاشيتَيْه كثيرًا من كبارِ الموسيقيين، ونوابغِ الممثلينَ ورجالِ الشعرِ والأدبِ، فأجمعوا رأيهم على زيارتِهِ في قريتِهِ، وألّا يزاولوا به، حتّى يهجُرَ عزلَته، ويعودَ إلى حياتِهِ الأولى بينهم، فكتبوا إليه أنّهم وافدونَ لزيارتِهِ غدًا.

ثمّ ركبوا في أصيل اليومِ الثاني عجلاتِهِم، واستصحَبَ كثيرٌ منهم نساءَهُم وفتياتِهم، وذَهَبوا إلى القريةِ فاستَقْبلَهُمْ استيفن على بابِ دارِه باسمًا متطلّقًا كأنّه لا يضمِرُ بين جنبيه لوعةً ولا أسًى، وكأنّ قلبَه لا يذوبُ بينَ أضالعِهِ ذوبَ السبيكةِ في بوتَقَتِها، فطمعوا فيه إذْ رأوه.

وخُيِّلَ إليهمْ أنّه قد برئَ ممّا به أو كادَ، وأنّ هذه الصفرةَ الرقيقةَ التي لا تزالُ تلبسُ وجهَه إنّما هي أثرٌ من آثارِ ذلكَ الماضي سيذهَبُ مع الأيّام. وكانَ قد أعدَّ لهم في الحديقةِ مائدةً عظيمةً للعشاءِ، فجلسوا إليها وكانوا نيّفًا وثلاثينَ رجلًا وامرأة وجلسَ هو بينَهُم يحدّثُهم، ويطرفُهُم بِمُلَحِهِ ونوادِرِه، وتجنّبَ في أحاديثِهِ معهم كلَّ ما يتعلّقُ بكارثَتِهِ، فلم يجرؤْ أحدٌ منهم أن يفاتِحَه فيها حتّى فرغوا من الطعام فتفرّقوا في أنحاءِ الحديقةِ زمرًا زمرًا يرتاضُون، ويسمرونَ، حتّى مَضَتْ قطعةٌ من الليلِ، فاقترحَ أحدُهُمْ أن يُؤتى بالبيانو إلى فضاءِ الحديقةِ، ليوقّع عليه من يشاءُ منهم، فأُتيَ به.

فجلسَ إليه الموسيقي «فردريك» ووقّعَ عليه لحنًا من ألحانِ الموسيقار العظيم «بيتهوفن»، فطربَ له السامعونَ طربًا عظيمًا، وقال أحدهم: لقد كان بيتهوفن الرسولَ الإلهيّ الذي بعثَهُ الله

(١) العَرَصات: ج عَرَصَة: القطعة من الأرض.

(٢) النؤي: حفرة حول الخيمة تمنع تسرّب الماء إلى داخلها.

إلى البشرِ، ليخاطِبَهُم بلغَتِهِ، فهو الرجلُ الذي استطاعَ وَحْدَهُ من دونِ الموسيقيين جميعًا أن ينطقَ بلسانِ الطبيعةِ، ويردّدَ أنغامَهَا وأهازيجَهَا وأنْ يكونَ في غنائِه هادئًا كالماءِ، وصافيًا كالسماءِ، وعميقًا كالبحرِ، وصادحًا كالطيرِ، وخافقًا كالنجم.

فقال الموسيقي «مورات» نعمْ، ولكنّه كانَ سيّئَ الحظِّ عاثِرَ الجدِّ، فقد قضى حياتَه فقيرًا معدمًا يسعى إلى الكفافِ من العيشِ، فلا يجدُهُ، وخاملًا مغمورًا يطلبُ الشهرةَ من طريقِ الفنّ، فلا يظفرُ بها، حتّى ماتَ شريدًا طريدًا في وطنٍ غيرِ وطنِهِ وبينَ قومٍ وأسرةٍ غيرِ قومِهِ وأسرتِه. فقال الشاعر: «سيدروف» من منكُم يحفظُ تاريخَ حياتِه الأخيرةِ، فيقصّه علينا؟ فقال استيفن: أنا أقصّهَا عليكم لأنّي أعلمُ الناسِ به، فقد كانَ أستاذي «هومل» رحمةُ الله عليه صديقَهُ الذي عاشَرَهُ في آخرِ أيّامِ حياتِهِ حتّى ماتَ، وتولّى دفنَه بيده. وكانَ كثيرًا ما يقصّ عليّ ذلكَ التاريخَ، وهو يبكي بكاءً شديدًا، فأنا أرويه لكم كما كان يحدّثُني به، ثمّ أقبل عليهم، وأنشأ يقول:

لقد قَسَا الدهرُ على بيتهوفن قَسْوَةً عظمى لم يَقْسُهَا على أحدٍ من قبلِهِ من رجالِ الفنونِ والآدابِ، فقد وَضَعَ للعالمِ تلكَ الموسيقى السماويّةَ العاليةَ التي حاكى بها الطبيعةَ في نغماتِهَا وَرَنّاتها، وصوّرَ فيهَا أدقّ عواطفِ القلوبِ وخوالِجِهَا، فلم يحفلْ بها الناسُ كثيرًا، ولم يأبهوا لها، وكانوا قد أَلِفُوا قبلَ ذلك تلكَ الموسيقى الصناعيّةَ المتكلّفَةَ التي كان يتأنّقُ الموسيقيونَ الماضونَ في تنسيقِها، وتدبيجِها تأنُّقَ النحّاتِ في صنعِ الدميةِ الجميلةِ التي لا روحَ فيها، وافتَتَنُوا بها افتتانًا عظيمًا، فلم يستطيعوا أن يفهموا غيرَهَا، أو يهشّوا لشيءٍ سواها، ولم يَكُنْ مصابُه بِجَهْلِ الناسِ إيّاه، واحتقارِهِم له بأقلّ من مصابِهِ بحسدِ حسّادِهِ من أبناءِ حرفتِهِ، وأضغانِهِم عليه، بل لم يَكُنْ له مصابٌ غيرُ هولاءِ، فهمُ الذينَ وقفوا في وجهِهِ، واعترضوا سبيلَهَ، واستقبلُوه حينَ وقَفَ عليهم بتلكَ القيثارةِ الجميلةِ الرنّانةِ بابتساماتِ الهزءِ والسخرية، وذهبوا كلَّ مذهبٍ في النيلِ منه، والولعِ به، والغضِّ من شأنِهِ، وما كانوا يجهلُون فضلَهُ ومقدارَه، وقيمَةَ ما استحدَثَهُ في الفنّ من بدائِعِ المبتكراتِ وغرائِبِهَا، ولكنّهم عجزوا عن الصعودِ معه إلى ذروتِهِ التي صَعِدَ إليها، فلم يكنْ لهمْ بدٌّ من أن يثيروا حولَ كوكبِهِ الساطعِ المتلألئِ في سماءِ الموسيقى، هذه الغبرةَ السوداءَ من المثالبِ[1] والمطاعِنِ، فلا يدري الناسُ بأشعَّته، ولا بمكانها حتّى إنّ «هايدن» نفسَه، وكانَ أكثرهم اعتدالًا وأدناهُم إلى العدلِ والإنصافِ، لم يستطِعْ أن يسمَحَ لنفسه بأنْ يقولَ عنه في تقريظِهِ[2] أكثرَ من أنّه «عازفٌ ماهرٌ»، فكانَ مَثَلُهُ في ذلك مَثَلَ من يقولُ عن شاعرٍ مثلِ شاعِرِنا «جيتيه»: إنّه «يحسن الإملاء»!.

ولَمْ يزلْ هذا شأنَهم مَعَه، حتّى نغّصُوا عليه حياتَه، وذهبوا براحَةِ نفسِه وسكونِها، وملأوا قلبَه وساوسَ وأوهامًا، فساءَ ظَنُّهُ بنفسِهِ، وأصبحَ يرتابُ معهم كما يرتابُون في اقتدارِهِ ونبوغِهِ، ولولا أنّ صديقَهَ «هومل» كانَ مرآتَه الصادقةَ التي يرى فيها نفسَه من حينٍ إلى حينٍ، لنَفَضَ يدَه

(١) المثالب: العيوب. (٢) التقريظ: المدح.

من الموسقى نَفْضَ اليائسِ القانطِ، ولحُرِمَتِ الأمّةُ الألمانيّةُ هذه القيثارةَ البديعةَ الساحرةَ التي لم يخلقِ اللهُ لها شبيهًا في العالم منذ خلقَتِ الدنيا حتّى اليوم، فويلٌ للأشرارِ الخبثاءِ، ماذا كانوا يريدونَ أنْ يصنعوا وماذا كانَ يكونُ شأنُ الموسيقى في العالَم، لو تمّ لَهُمْ ما أرادوا؟

ولم يستطِعْ بيتهوفن أنْ يصبرَ طويلًا على هذه المظلمةِ الفادحةِ التي نالَتْهُ، وضاقَ ذرعُهُ بتلكَ النظراتِ المؤلمةِ التي أصبحَ الناسُ ينظرونَ بها إليه كلّما مشى في طريقٍ، أو ظهرَ في مجتمع، فلم يطق المقامَ بينهم، ولا العيشَ فيهم. فظلّ يتنقّلُ في أنحاءِ البلادِ غدوًا ورواحًا، لا يهبطُ ببلدةٍ حتّى يطيرَ به الضجرُ إلى غيرها، ولا تطلعُ عليه الشمسُ في مكانٍ، حتّى تغربَ عنه في مكانٍ آخرَ. وكانَ له في مبدإ أمرِه ثروةٌ صالحةٌ يعودُ بها على نفسِه، وذوي قرباه. ولكنّه كان من أصحابِ الملكاتِ الشعريّةِ؛ والشعرُ والحزمُ لا يجتمعانِ في رأسٍ واحدٍ، فلم يزلْ به إسرافُهُ، وتخرُّقُهُ حتّى أضاعَها، فأصبحَ لا يملكُ أداةً من أدواتِ الرزقِ غيرَ قيثارَته، وقيثارتُهُ سلعةٌ كاسدةٌ في سوقِ الفنونِ، لا يبتاعُهَا منهُ أحدٌ، فزهدَ المجامعَ والمحافلَ، وعافَ المدائنَ والقرى؛ وفرّ بنفسِه إلى الغاباتِ، والأحراشِ، وقممِ الجبالِ، وضفافِ الأنهارِ. وهنالكَ في خلواتِهِ ومعتزلاتِهِ حيثُ لا يسمعُ صوتًا غيرَ الطبيعة، ولا يرى وجهًا غيرَ وجهِ الله، أخذَ يبثُّ قيثارَتَه آلامَهُ وأحزانَهَ، ويسكبُ مدامِعَه الغزيرةَ بين مثانِيها ومثالِثِهَا، ويضعُ، وهو جائعٌ طاوٍ صفْرُ اليدِ والأحشاءِ، تلكَ الموسيقى العظيمةَ التي يعيشُ الموسيقيّون اليومَ ببركَتِهَا عيشَ السعداءِ، وينعمونَ في ظلالِها بنعمةِ العيشِ الرغيد.

وكثيرًا ما كانَ يستمرُّ بِهِ المسيرُ، حتّى يصلَ إلى جزرِ الدانوبِ، فيهيمُ على ضفافِ ذلك النهرِ أيّامًا طوالًا لا يفترشُ إلا العشبَ، ولا يلتحفُ غيرَ الطلّ، ولا يُطْعَمُ إلّا ما يقذفُ به إليهِ النهرُ من أحيائِه، حتّى يعبرَ به صديقُه «هومل»، فيعودُ بِهِ إلى العمران.

ولم يقنعِ الدهرُ منهُ بذلكَ، حتّى رماه في آخرِ أيامه بالصَّمَم، فلم يأسفْ لهذه النكبةِ كثيرًا، بل قالَ في نفسه: إنّي أحمدُ الله على ذلكَ، فقد كفاني نصفَ شرورِ الناسِ، فلَعَلّهُ يكفيني نصفَهَا الآخر؛ فلا أرى في وجوهِهِم ولا أسمعُ أصواتهم. ولقد صدقَ فيما قال، فقد أخذَ الناسُ يسمّونَه بعد نزول تلك الكارثةِ به بالموسيقيّ المجنون، فلم يسمَعْ شيئًا مما يقولون.

وأصبحَ منذُ ذلكَ اليومِ هادئًا ساكنًا، لا يشكو ولا يتضجّرُ، بلْ لا يشعرُ ولا يتألّم، وذهبَ إلى غابةٍ قريبةٍ من مدينة «بادن»، فعاشَ فيها وحيدًا منفردًا لا يسمَعُ إلّا صوتَ قلبِهِ، ولا يصغي إلّا لتلكَ النغماتِ الداخليّةِ التي تتردّدُ بِدونِ انقطاعٍ في أعماقِ نفسه، ولا يرى أحدًا من الناسِ غيرَ صديقه «هومل» من حينٍ إلى حين؛ فإذا جاءَه طرحَ عليه ما وضعَه من الألحانِ، فيحمِلُهُ عنه إلى الناسِ من حيثُ لا يشعرُ، وهو باقٍ في مكانِهِ لا يفارقُه.

وكان الناسُ قد أصبحوا يألفونَ أنغامَه بعضَ الشيءِ، ويصغونَ إليها لا لأنّ حسّادَه قد هدأوا عنه، أو انقطعوا عن مناوأتِه، والغضّ منه، بل لأنّ للطبيعةِ سلطانًا فوقَ سلطانِ الضغائنِ والأحقادِ، ولأنّ السحُبَ المتلبّدَة في آفاقِ السماءِ لا تستطيعُ أن تطفئَ نورَ الشمسِ، بل تَحْجُبُ ضياءَها عن العيونِ لحظةً من الزمانِ ثمّ لا تلبثُ أنْ تنقشعَ عنها، فإذا هي مِلْءُ العيونِ والأنظار.

ولم يقضِ في عزلَتِهِ هذه زمنًا طويلًا، حتّى وردَ عليه كتابٌ من ابنِ أختٍ له في «فيينا» كانَ قد تبنّاه في صغرِه، وأحبّه كثيرًا يقول له فيه: إنّني متّهَمٌ بتهمةٍ عظيمةٍ لا سبيلَ لي إلى الخلاصِ منها إلّا بحضورِك، فسافرَ إليه دونَ أن يقابلَ صديقه «هومل»، ولم يكنْ معه من المالِ ما يقومُ بنفقاتِ سفرِه، فكان يمشي على قدميهِ حينًا، ويركبُ عجلاتِ النقلِ أحيانًا، حتّى نَالَ منه الجهدُ، وأصبحَ عاجزًا عن المسيرِ، وكان الطريقُ إلى «فيينا» لا يزالُ بعيدًا، فمرّ ذاتَ ليلةٍ ببيتٍ منفردٍ في ظاهرِ إحدى القرى، فوقَفَ ببابِهِ وأخذَ يقرعُه قرعًا خفيفًا، فخرجَ إليه صاحبُ البيتِ وسأله، ما شأنه؟ فقال له: إنّني شيخٌ أصمّ غريبٌ عن هذه الديارِ، وقد أظللني الليلُ وعجزتُ عن المسيرِ، فلا أستطيع المضيَّ في سبيلي، فأذِنْ لي بمضجعٍ آوي إليه بقيّةَ ليلتي، وإن شئتَ فأمرْ لي بكسرةِ خبزٍ أَسُدُّ بها رمقي.

فأشفَقَ عليهِ الرجلُ، وأوى له، وأحلّهُ من بيتِهِ أكرمَ محلٍّ وأسماه، وكان للرجلِ ابنتانِ في سنّ الشبابِ فقامَتَا بين يديهِ تخدمانِه حتّى رجعتْ إليه نفسُه، فدعُوهُ إلى المائدةِ، فأكَلَ معهم، ثمّ مشى إلى مصطلًى[1] في أحدِ أركانِ القاعةِ، فجلسَ إليه يصطلي ويجفّف ثيابه.

وكانَ صاحبُ البيتِ من المولعينَ بالموسيقى والمغرمينَ بتوقيعِهَا ليلتهُم ونهارَهم، فما فرغَ من الطعامِ، حتّى جلسَ أمام البيانو، وأخذَ يقلّبُ دفترَ الموسيقى الذي بين يديهِ، حتّى وقعَ على ما يريدُ منه، فأشارَ إلى ابنتيهِ أن تأخذا قيثارتَيْهِما، ففعلتا. وأخذوا يعزفونَ جميعًا بنغمةٍ واحدةٍ، فاغتبطَ بيتهوفن بمنظرِهِمْ وإنْ لم يسمَعْ من غنائِهِمْ شيئًا وكلّ ما استطاعَ أن يفهَمَهُ من شأنِهم أنّ لذلك اللحنِ الذي يوقّعونَه سلطانًا عظيمًا على نفوسِهِم، فقدْ رآهُمْ متأثّرينَ عند توقيعِهِ أثرًا شديدًا، ورأى صاحبةَ البيتِ، وخادمَتَها قد تركَتَا ما كانتا تشتغلانِ به من شؤونِ البيتِ وأعمالِهِ، ووقفَتَا للاستماعِ وقد سكنَتْ أطرافُهُما وتهلّلَ وجْهَاهُما، وذهَبَتا ببصرِهما في السماءِ كأنّما تتبَعانِ أثرَ تلكَ النغماتِ في طريقِهَا إلى الملأ الأعلى، حتّى انتهتِ القطعةُ، فاغرورقتْ عينا الفتاةِ الصغرى بالدموعِ، وألقَتِ الكبرى بنفسِها بين ذراعي أمّها، وبَكَتْ بكاءً شديدًا.

فنهضَ بيتهوفن من مكانِهِ، ومشى إليهم وقالَ لهم: إنّني لم أستطعْ أنْ أسمعَ شيئًا من ألحانِكم أيّها الأصدقاءُ، ولكنّي استطعتُ أنْ أفهَمَ أنّها ألحانٌ جميلةٌ مؤثّرةٌ، فتأثّرْتُ معكم وطَرِبْتُ لطربِكُمْ، ولقد كنتُ قبلَ أن تحلّ بي هذه النكبةُ التي ترونَها أُحِبُّ الموسيقى حبًّا شديدًا، ولا يَلَذُّ لي في الحياة شيءٌ مثلُ استماعِها، فهل تأذنون لي أنْ أنظرَ في دفترِ الموسيقى، لأقرأَ القطعةَ التي كنتُمْ توقّعونها؟

فأومأوا إليه بالإيجابِ، فأكَبّ على الصحيفةِ فما وقعَ نظرُهُ على القطعةِ، ورأى اسم صاحبَهَا في رأسِهَا حتّى اصفرّ لونُه، وارتَعَدَتْ يدُهُ وارفضَّ[2] جبينُه عرقًا، ثمّ أخذَ يبكي بكاءً شديدًا. فانتبَه القومُ إليه، ونهضوا من مكانِهم مذعورين، وأحاطوا به يسألونَهُ ما خَطْبُهُ، فأشارَ

(١) المصطلى: موقد النار. (٢) ارفضّ: سال، جرى.

بإصبعِه إلى عنوانِ القطعةِ، فلم يفهموا ما يريدُ، فقال لهم: إنّها قطعتي أيّها الأصدقاءُ وأنا الموسيقيّ بيتهوفن. فدهشوا جميعًا، وظلّوا ينظرونَ إليه باهتين مذهولين، ثمّ رفعوا قبّعاتهم عن رؤوسِهِمْ، وجثوا بين يديهِ خاضعينَ متخشّعين، وتناولوا يدَهُ وأخذوا يقبّلونها واحدٌ بعد الآخرِ.

فكانتْ هذه الساعةُ هي الساعةَ الوحيدةُ التي ذاقَ فيها لذّة الاحترامِ في حياتِهِ، وكانتْ هي بعينها الساعةَ التي رفرفَ على رأسِه فيها طائرُ الموتِ، فقد شعرَ تلك اللحظةَ بوخزةٍ مؤلمةٍ في جنبِه، فتساقَطَ في مكانِهِ، فتلقّوه على أيديهِمْ، واحتملُوه إلى سريرِه، وسهروا بجانبهِ الليلَ كلَّه يعلّلونه ويستَشفُونَ له، فيستفيقُ مرّة، ويستغرقُ في غشيته أخرى، حتى الصباح.

وكان صديقُه هومل قد عرفَ أمرَ سفرِه، فتبعَهُ في الطريقِ التي سلَكَها، وظلَّ يسائلُ عنه في كلّ مكانٍ حتّى عرفَ القرية التي وَصَلَ إليها، والبيتَ الذي نزله، فصعَدَ إليه، فرآه في سكرتِهِ التي يعالجها، فجلسَ بجانبه يبكِيه، ويتوجّع له، حتّى انتبه له بيتهوفن بعد حين. فابتَسَم له إذْ رآه وقال له: هل جئتَني بقيثارتي يا هومل؟ قال: نعم، يا سيّدي، وها هي ذي؛ فتناولها منه، وتناهَضَ متّكئًا على إحدى يديه؟ حتّى تمكّن من الجلوسِ، وأنشأ يوقّع على مسمعِ من القومِ لحنَه المحزنَ المشهور «ربّ لِمَ أشقَيْتَني وما أشقيتُ أحدًا من عبادِكَ». فما أتمّه حتّى ارتعدَتْ يداه، وجَحَظَتْ عيناهُ بالموتِ، ثمّ فتحَ عينيهِ بعد لحظةٍ، فرأى صديقه هومل، فأمسَك بيده، ونظرَ إليه نظرةً طويلة وقال: ألم أكُنْ في حياتي عظيمًا يا هومل؟ قال: بلى وأكبرُ من عظيم، فتهَلّلَ وجهُه بالبِشْرِ، وأسبَلَ عينيه وهو يقول «الآنَ أموتُ سعيدًا»، ثمّ قضى!

وفي اليوم الثاني حُمِلَ ذلكَ الرجلُ العظيمُ إلى مقبرةِ تلك القريةِ الحقيرةِ فدفِنَ فيها؛ ولم يُشَيّعْ جنازَتَه غيرُ صديقِه هومل، وأفرادِ تلك الأسرةِ التي ماتَ بينها؛ وكانَ هذا كلَّ حظّهِ من الحياة.

❁ ❁ ❁



٩٨ ـ لحن الموت

ما وَصَل استيفن في حديثِه إلى هذا الحدّ، حتّى اصفرّ لونُه، وتغضّنَ جبينُه وأطرقَ برأسه إلى الأرضِ، فانتبه إليه القومُ فإذا هو واضعٌ يده على قلبهِ، وإذا دموعُه تنحدِرُ على خدّيهِ متتابعةً؛ فقالَ له أحدُهم: ما بكَ يا استيفن؟ فرفَعَ رأسه بعد هنيهةٍ وقال: إنّما أبكي على هذا الرجلِ المسكينِ الذي عاشَ في حياتِهِ شقيًّا، وماتَ مسكينًا، ولم يبتسِمْ لهُ الدهرُ في يوم من أيّام حياتِه ابتسامةً واحدةً، يكافِئُه بها على يدِه التي أسْدَتْ إلى هذا المجتمعِ، وكأنّما قد كُتِبَ للعاملينَ على وجهِ الأرضِ جميعًا أن يعيشوا فيها عيشَ الأشجارِ العظيمةِ في الصحاري المحرقة، تظلّلُ الناسَ بوارفِ ظلّها، وهي تصطلي حرَّ الهاجرةِ وأوَارَها[1]، ولو أنّ القدر

(١) الأوار: شدّة الحرّ.

أنصَفَهُمْ، وأوفاهُمْ أجورَهم، لما سَعِدَ أحدٌ في الحياةِ سعادَتَهُم، ولا هَنَأَ فيها هناءَهم.

فصَمَتَ القومُ جميعًا، وقد شعروا أنّه إنّما يحدّثُ عن نفسِه، ويرسِلُ في حديثِهِ بعضَ الزفراتِ التي تعتلجُ في صدره.

وإنّهم كَذلكَ إذْ نهضَ من مكانه بغتةً، ومشى بقدمٍ هادئةٍ مطمئنّةٍ حتّى وصلَ إلى كرسيّ البيانو، فجلسَ عليه ثمّ التفتَ إلى القومِ، وقال لهم: هل تأذنونَ لي أيّها الأصدقاءُ، وقد قَصَصْتُ عليكم تاريخ حياة بيتهوفن أنْ أُسْمِعَكُم لحنَهُ الأخيرَ الذي وقّعهُ في آخرِ ساعاتِ حياته؟ فتهلّلَتْ وجوهُهُمْ فرحًا، وقد ظنّوا أنّه إنّما يريدُ أن يسرّيَ عن نفوسِهِم تلكَ الكآبَةَ التي غشيَتْهَا منذُ الساعة؛ فقالوا جميعًا: نعم!

فبدأ يوقّعُ ذلكَ اللحنَ «ربّ لِمَ أشقَيْتَني وما أشقيتُ أحدًا من عبادِك»، ويغنّيه بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ، ثمّ أخذتْ عواطِفُه تشتعِلُ شيئًا فشيئًا، فَعَلا صوتُه، وأنشأتْ نغماتُهُ تنتشرُ في أجوازِ الفضاءِ، فسمعَ القومُ تلك الموسيقى السماويّةَ العاليةَ التي لم يخلقِ اللهُ لها مثيلًا، والتي هي غايةُ ما أنتجَه العقلُ البشريّ، فأطرقُوا برؤوسِهِم إجلالًا لهذه العظمةِ المشرفةِ عليهم من سمائِهم، وخُيِّلَ إليهم أنّهم لا يرونَ بينهم مغنّيًا يوقّعُ على أوتارِه، بلْ ثاكلًا متفجّعًا، يذرفُ مدامعَه، ويصعّدُ زفراتِه، حتّى الموسيقي «مورات» همَسَ في أذنِ أحدِ الجالسين بجانبِهِ قائلًا «إنّ الرجلَ لا يغنّي بل يموتُ وإنّي أشمُّ من أنفاسِه رائحةَ الكبدِ المحترقَةِ».

وكانَ كلّما استمرّ في غنائِه، اشتدَّ تأثُّرُهُ، والتهبَتْ عواطِفُهُ، وتلوّنَ صوتُهُ بلونِ الأنينِ المحزنِ، حتّى فَنِيَ عَنْ نفسِه وعمّا حَولَهُ، واستولت عليه حالةٌ غريبةٌ من الذهولِ والاستغراق.

وما أتى على النغمةِ الأخيرةِ، وكانتْ أعلى النغماتِ، وأطولَها، وأذهَبَها في أجوازِ الفضاءِ، حتّى نهضَ القومُ جميعًا على أقدامِهِمْ وأخذوا يصفّقونَ تصفيقًا شديدًا، ويهتفُون «ليحيا استيفن».

وإنّهم ليُصَفّقونَ هذا التصفيقَ الشديدَ، ويدعونَ له بالحياةِ الطويلةِ؛ يتدافعونَ إلى مكانِهِ لتهنئَتِه وتمجيدِه؛ إذ بهم ينظرونَ إليه، فيرونه مائلًا برأسه على ظهرِ كرسيّه، وقد اقشعرَّ وَجْهُهُ، وتغيّرتْ سُحْنَتُه[1]، وأمسَكَ بكفّه على أحشائِه، فطارَتْ ألبابُهُم، وطاشَتْ عقولُهُم، ومرّتْ بخواطِرِهِم جميعًا مرورَ البرقِ تلكَ الصورةُ التي ماتَ عليها بيتهوفن في قصّتِه التي قَصّها عليهم منذُ الساعة؛ فتشاءَموا، وانقبضَتْ نفوسُهُم، وأحاطَ به جماعةٌ منهم، فاحتَمَلُوه إلى سريرِه، وحضرَ الطبيبُ ففحَصَهُ ثمّ نظرَ إليهم نظرةَ اليأسِ، فأطرَقُوا واجمينَ مكتئبينَ، واحتاطُوا بسريرِه ينتظرونَ قضاءَ الله فيه.

ففتحَ عينيه بعدَ ساعةٍ، ودارَ بها حولَه ونطقَ باسم «فرتز»، وكانَ حاضرًا فلبّاه، فنظرَ إليه طويلًا، ثمّ نطقَ باسم «ماجدولين الصغيرة»، فما لبثَ أنْ جاءَه بها، فضمّها إلى صدرِه، وقبّلَهَا قبلةً امتزجَتْ فيها عاطفةُ الرحمةِ بعاطِفَةِ الذكرى، وظلّ ينظرُ بعينِهِ إلى السماءِ مرّة، وإلى فرتز أخرى، كأنّما يوصيهِ بالطفلةِ ويستشهِدُ الله على ذلكَ.

---

(١) السحنة: علامات الوجه.

ثم التفتَ إلى القومِ، وقالَ بصوتٍ ضعيفٍ متهافت: «أُشهدُكُم أيّها الأصدقاءُ أنّ جميعَ ما تملكُ يدي قسمة بينَ هذين» وأشارَ إلى فرتز والطفلةِ؛ ثمّ عادَ إلى ذهولِه، واستغراقِه، وأخذَ يجودُ بنفسِه، وظلَّ على ذلكَ ساعةً، ثمّ فتحَ عينيهِ مرّة أخرى، فرأى القومَ يبكونَ من حولِه، ويتفجّعونَ له، فمرّتْ بشفتيهِ ابتسامةٌ خفيفةٌ كأنّما اغتبطَ بمنظرِ تلكَ العظمةِ التي تجلَّتْ له في دموعِ هؤلاءِ العظماءِ، وأخذَ يقلّبُ عينيهِ فيهم.

فتقدّمَ نحوه الموسيقي فردريك وكانَ أعظمَ القومِ شأنًا، وأكبرَهُمْ سنًّا، وقال له: هل توصي بشيءٍ، يا مولاي؟ فحاولَ النطقَ، فلم يستطِعه، فظلّ يعالجُهُ حينًا، حتّى استقادَ له. فأنشأ يقول: وأوصيتُكَ، يا سيدروف، أن تكتبَ تاريخَ حياتي كما يعلَمُهُ فرتز، ثمّ تنشُره في الناسِ، وأوصيكَ، يا فرتز، أن تدفنَني مع ماجدولين في قبرِها وأن تتولّى شأنَ هذه الطفلةِ الصغيرةِ، وتحمِيها ممّا تحمي منهُ أهلَكَ وَوَلَدَكَ، حتّى إذا يفعَتْ زوّجْتَهَا من الزوجِ الذي تختارُهُ لنفسِهَا.

وأوصيكُم جميعًا ألا تحزَنُوا على موتي، فإنّني وإنْ قضيتُ حياتي شقيًّا فها أنتم ترونَ الآنَ أنّني أموتُ بينكُم سعيدًا، وكان هذا آخرَ ما نطقَ به، ثمّ أسلَم روحَه.

وكذلك انتهتْ حياةُ الرجلِ العظيمِ الذي قَتَلَ الحبُّ جَسَدَهُ، ولكنّه أحيا نفسَه وسجّلها في سجِلّ النفوسِ الخالدات.



٩٩ ـ النهاية

أمّا أسرةُ فرتز فقد سعدَ حالُها، وأصبحتْ في نعمةٍ واسعةٍ من العيشِ لا ينغّصُها عليها إلّا ذكرى ذلك المحسنِ الكريمِ، وأمّا ماجدولين الصغيرةُ، فقد تولّى فرتز شأنَها وربّاها مع وَلَدِه «برنار» - الذي رضعتْ معهُ في صغرِه - تربيةً قرويّةً ساذجةً بعيدةً عن مفاسدِ المدينةِ وآفاتِها، حتّى شبّا، فتحابّا حبًّا شريفًا طاهرًا، فانتهى بهما الأمرُ إلى الزواجِ، فعاشا أسعدَ عيشةٍ وأهنأها. وأما المنزلُ، فقد اشترَتْهُ جمعيةُ الموسيقى الملوكيّةُ في برلين، وحفظَتْه تذكارًا لاستيفن، ولا يزالُ حتّى اليومِ مزارًا يزورُه الناسُ، ويشاهدونَ فيه آثارَ ذلكَ التاريخ الذي دوّنه الشاعر «سيدروف»، ويرون حديقَتَه، وأزهارَ البنفسجِ المنتشرةَ في أنحائِها، والحوضَ المقامَ في وسطِهَا، والسياجَ الدائرَ من حوله، والمقعَد الذي جلسَ عليه استيفن، وماجدولين ليلةَ عاتَبَهَا، وغاضَبَهَا، والغرفةَ الزرقاءَ التي كانتْ غرفةَ عرسِ ماجدولين أولًا، ولحدَهَا أخيرًا، ومكتبةَ استيفن، وقيثارَته، والبيانو الذي وقّعَ عليه في ساعَتِهِ الأخيرةِ «لحنَ الموت».

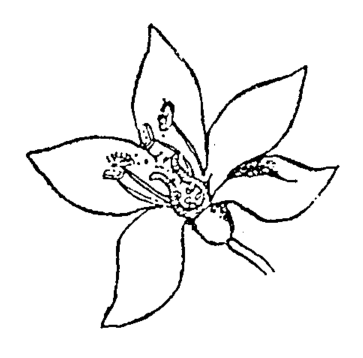
فإذا فرغوا من زيارةِ المنزلِ، ذهبوا إلى المقبرةِ، فزاروا ذلك القبرَ الذي دفنَ فيه الشقيّانِ البائسان، فيبلّلُ تربتَهُ بالدمعِ منهم من نُكِبَ في حياتِهِ بمثلِ نَكْبَتِهِما، أو عاشَ فيها شقيًّا كعيشِهِما.

تمت

الفضيلة

أو

پول و ڤرجيني



حول الرواية

«پول وفرجيني» أو «الفضيلة» هي الرواية التي كتبها الأديب الفرنسي برناردان دي سان بيار في السنة ١٧٨٧م. واطّلع المنفلوطي على ترجمة لها، لأنّه لم يكن يتقن اللغة الفرنسيّة، فأعجب بها إعجابًا شديدًا لما فيها من تمجيد للفضيلة ودعوة إلى مكارم الأخلاق، وأعاد صياغتها بأسلوبه الأدبيّ المميّز، وأهداها إلى فتيان مصر وفتياتها حيث يقول في مقدّمة كتابه:

«يعجبني من الفتى الشجاعةُ والإقدامُ، ومن الفتاة الأدبُ والحياءُ، لأنّ شجاعةَ الفتى ملاكُ أخلاقه كلّها، ولأنّ حياءَ الفتاة جمالُها الذي لا جمالَ لها سواه، فأنا أُهدِي هذه الرواية إلى فتيان مصرَ وفتياتِها، ليستفيد كلٌّ من فريقَيْهِما الصفةَ التي أُحبّ أن أراها فيه، وليضعا حياتَهما المستقبلةَ على أساس الفضيلة كما وضعها بول وفرجيني».

إنّ هذه الروايةَ ملكت على المنفلوطي لُبّه لأنَّ أحداثها تدور في بيئة قَرويّةٍ ريفيّة شبيهةٍ بالبيئة التي نشأ فيها، ولأنّ أشخاصَها جميعًا نماذجُ تجسّد قيم الخيرِ والحقِّ والجمال أصدقَ تجسيد. ولشدّة تأثّره بموضوعها عَمَد إلى تلخيصِها شعرًا في قصيدة جَعَلَها في نهاية روايته. وقد حاول المنفلوطي أن يُقيّد نفسَه بنصّ الرواية وتسلسل موضوعاتها لكنّه تجاوز هذه القيود وخرجَ على دائرة الأصل. فلجأ إلى الاستطراد والتطويل المملّ وأسهب في الوعظ والإرشاد وأضاف بعض الفقرات التي هي إلى المداخلات أقربُ منها إلى عمليّة الترجمة والنقل، معتمدًا في ذلك كلّه على براعته في الوصف، وعلى سلاسة أسلوبه، وعلى مقدرته في اختيار الجمل والتعابير والألفاظ المترادفة ممّا جعلنا نقعُ عنده على كلماتٍ غريبةٍ مهجورةٍ سَقَط استعمالُها مع الزمن نتيجة تخلّيه عن الكلمة القريبة المألوفة وسعيهِ إلى استخدام الكلمة البعيدة غير المألوفة.

لقد لاقت رواية «بول وفرجيني» رواجًا منقطع النظير في فرنسا جعل إمبراطورها نابوليون بونابرت يمنحُ صاحِبَها وسام الشرف؛ ذلك أنّ الرواية، كما يزعُم مؤلّفها برناردان دي سان بيار، مستمدّةٌ من الواقع، وأنّ أشخاصها عاشوا في جزيرة «موريس» الإفريقية في المحيط الهندي مقابل جزيرة «مدغشقر» حيث أُتيح للكاتب أن يسافر أثناء تأدية خدمته العسكريّة في الجيش الفرنسي. وبينما كان يقيم على أرض الجزيرة في تلك الأثناء صادف أن مرّ بكوخ مهدّم فوقف يتأمّله، فإذا بشيخ عجوز يخبره بأنّ هذا الكوخ كان لامرأتين فرنسيتين إحداهما مرغريت والأخرى هيلين. فالأولى كانت عشيقةَ نبيلٍ من نُبلاء فرنسا عاشرها ثم هجرها فهجرت بدورها إلى جزيرة «موريس» لتسترَ عارَها وتلدَ منه طفلًا أسمته «بول»، وتمضي بقيّة حياتها في الصلاح والتقوى. أمّا الأخرى فكانت من أسرةٍ نبيلة تزوّجت رجلًا من أسرة فقيرة،

على غير رضى أهلها، وهربت معه لتعيشَ بعيدًا عن قومها في تلك الجزيرة النائية. وسرعان ما فقدتِ المرأةُ زوجَها وولَدَتْ منه طفلةً جميلة أسمتها «ڤرجيني».

وعاشت السيّدتان في كوخ واحد تعملان في غزل النسيج والزراعة كما يعملُ أبناء تلك الجزيرة، وتربّيان طفليهما على حبّ الفضيلة وعلى فعل المعروف إلى أن بلغا مرحلة المراهقة. وشاءت الأقدار أن تستلم هيلين أمُّ ڤرجيني رسالةً من عمّتِها الثريّةِ النبيلةِ العجوز تطلب منها العودةَ إلى فرنسا مع ابنتها لأنّها قرّرت أن توصي بجميع ثروتها لحفيدتِها فرجيني. وبعد حيرة وتردّد حاولت الأمّ إقناعَ ابنتِها بالسفر إلى فرنسا ولكنّ الفتاة رفضت طلب أمّها لأنّها كانت متعلّقة بحبيبها بول ولا تودّ فراقه. لكنّ حاكمَ الجزيرة بالاتّفاق مع كاهنها استطاعا أن يضغطا على الأم ويحملا الفتاة على السفر بعد أيّام ثلاثة على مَتْنِ أوّلِ سفينة متّجهة نحو فرنسا.

وتمرّ سنوات ثلاث وأخبار فرجيني منقطعةٌ تعلّم بول أثناءها القراءة والكتابة، وحاول أن يسافر إلى فرنسا ليعمل خادمًا هناك علّه ينجحُ في لقاء حبيبته التي وعدته بالعودة إليه مهما طال الزمن. لكنّ فرجيني استطاعت أن توصل رسالة إلى أهلها تُعْلِمُهم فيها بأنّها في طريق عودتها إليهم لأنّ عمّتها طردتها من قصرها بعد أن رفضت الزواج بأحد الأشراف الذي اختارته لها. وفي الوقت المحدّد وصلت السفينة إلى مقربة من جزيرة «موريس» الإفريقيّة، لكنّها لم تستطع الاقتراب من الشاطئ لأنّ عاصفةً هوجاء هبّت على الجزيرة. واستطاعت فرجيني أن ترسل مع أحد البحّارة رسالة إلى أمّها تعلِمُها فيها بأنّها على متن السفينة وأنّ اللقاء سيتمّ صباح الغد. واشتدّت العاصفة خلال الليل وجنحت السفينة إلى منطقة صخريّة بعد أن تمزّقت أشرعتها فتحطّمت قرب الشاطئ على مرأىً من أبناء الجزيرة، وكان بول من أشدّ المتحمّسين لإنقاذ السفينة التي تحمل حبيبتَه العائدةَ إليه وقد حاول المستحيل للوصول إليها دون جدوى. وحاول أحدُ البّحارة أن ينقذها قبل لحظات معدودة من غرق السفينة وطلب إليها أن تخلع ثوبها ليحملها على ظهره إلى الشاطئ قبل أن يرمي بنفسه في الماء لكنّها رفضت أن يضمّها عارية إلى جسمه. فصاح الناس من كلّ جانب: أنْقِذْها، أنْقِذْها! لكنّ موجةً هائلةً ضربت السفينة فأوقعت البحّار في الماء، فأغمضَ الناسُ عيونَهم خوفًا، ثمّ نظروا إلى السفينة من جديد، فإذا كلّ شيء قد انقضى...

أمّا بول فقد أصابه ما يشبه الجنون وقضى أيّامه الأخيرة شريدًا هائمًا مستوحشًا إلى أن اهتدى إلى قبر فرجيني بعد ثمانية أيّام فودّع حياته هناك ليلتحق بها حيث تعيش في علياء سمائها. ثم ما لبثت المرأتان أن لحقتا بولديهما بعد أقلّ من شهر، وخلا ذلك الكوخ البسيط من سكّانه إلى الأبد.

●

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع
الأستاذ محمود خيرت المحامي

في سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومةُ الجمهورية الفرنسيّة بإقامة تمثال من البرونز صنعه «دافيد» المثّال الشهير في إحدى ميادين ثغر الهافر لرجل جليل عظيم الهيبة تتألق ملامِحُه بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللطف وهو مُمْسِكٌ بإحدى يديه قرطاسًا وبالأخرى قلمًا وعند قدميه صبي وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارّة.

من هما ذانك الصبيان المتصافحان؟ وما معنى تلك الشجرة التي ليست من نباتات هذه البلاد؟ وما عسى أن يكون ذلك الرجل الذي كتب له الحظ أن يكون مَحَلًا لعناية «دافيد» واهتمام الجمهورية؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلّد ذكرى رجل من أبنائها قضى حياتَه مُحِبًّا للحريّة واستقلال الرأي، وإن ناله بسببهما الأذى، منقبًا عن الحكمة وهو يتفانى في تمجيدها، عاشقًا للطبيعة وهو يتغنّى بمحاسنها، وينسق قلمه القدير كل يوم للأدب إكليلًا يانعًا من أزاهير الجمال، وتسمو به نفسُه الطاهرة الأبيّة إلى سماء الإنسانية للعمل على تخفيف ويلات البشر وآلامه، فكان رجلًا ذكيًا عالي الهِمّة، حكيمًا كبيرَ النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها كاتبًا فذًا جمّ الشعور، ملأت فراغ قلبه فيوضُ الرحمة بالبشر إلى حدٍّ يجعله في صفّ القديسين.

وما كان هذا الرجل بحاجة إلى أثر يخلده - وفي رأسه وقلمه ونفسه مِثْلُ تلكَ الآثارِ الخالدة يحيا بها على تعاقب السنين.

* * *

وُلد برناردين دي سان بيير في التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٢٧ بالهافر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دي سان بيير حتى إنّه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب (شفاليه) وأخذ يحلّي صدره بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب.

ولقد كان في صباه رقيق المشاعر، عصبيَّ المِزاج، كثيرَ الجري وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهورية واسعة من طائفة العاثرين البائسين يكون هو واضعَ شريعتهم ومنظمَ حياتهم ليضمنَ لهم سعادةَ العيش فكان في هذا الخاطر مثل جان جاك روسو، إلّا أنّ هذا كان يرى أن يعود الناس إلى فطرتهم الأولى طاهرين من الأرجاس خالصين من الأدران، فيعيشون عيشةً صافيةً هنيّةً في ظلّ شريعةِ الكون التي سنّها الخالق، أما برناردين فكان يرى أن يصنع

لهم نظامًا جديدًا يحاربُ به قسوةَ الحياة الحالية وويلاتها.

ولكنّه كان لا يَزال طفلًا قليلَ الحول والحيلة حتى إنّ أحد أعمامه - وكان قُبطانًا لسفينة تجارية - أخذه معه إلى جزر المارتينيك ولكنه عاد منها مثقلًا بالهموم وكراهية العيش فسلّمه أبوه لجوزويت كاين.

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية إلى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشّرين عن رحلاتهم في البلاد الموحشة حتى تمنى لو أنه يقفو أثرهم فيهدي إلى سبيل السعادة فريقًا من عباد الله الأشقياء الجاهلين.

على أنّ أباه عَجّل بنقله إلى مدرسة رووين ثم إلى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش، ولكنه كما ذكرنا كان عنيدًا لا يسمع غير صوت نفسه وإن خرج بعد ذلك عن حدود الواجب حتى إنّ رئيسه عقد مجلسًا لتأديبه ثم أوقفه.

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطة لتلمسّ الرزق فيها ولكنها كانت مهددة بالإغارة من جانب الأتراك فعاد أدراجه وأخذ يعيش من بعض دروس في الحساب يعطيها لمريديه.

وهكذا أحدق به الهم وعضّه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجدْ عند أحد صدرًا يسعه في محنته، ولا قلبًا يحنو عليه في كُربته فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العُزلة على البقاء في هذا العالم القاسي قائلًا: «إنّ العزلةَ جبلٌ عالٍ تريني قمّتُهُ الناسَ صغارًا».

على أنه لم يعدم صدرًا آخر يفيض عليه من حنوه الأبدي الخالد، هو صدر الطبيعة، فاستنام إليها وأحبها وفنى في عشقها.

لقد حببها إليه أيضًا أنه رأى ذات يوم عودًا هزيلًا من «الفراولة» نبت على حافّةٍ نافذته فلمّا أخذ يتأمله قام في نفسه أن يصفَه بكل دقائقه ويصفَ ما حوله من حشرات صغيرة وذباب، ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئًا فشيئًا إلى حدٍّ أعجزه من متابعتها وعند ذلك أدركَ مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها.

وإن نفسًا مثلَ نفس برناردين لا تعرف اليأس، فعزم على الهجرة من وطنه إلى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولا يحقد عليه لأن «من أحبّ وطنه تغرّب في سبيله» كما قال في ترجمة حياته.

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت في رأسه فسافر إلى روسيا لعلّه يجد عند ملكتها «كاترين» ما يساعده على إخراجها إلى نور الوجود على شواطئ بحر قزوين، ولكنّ سهمَه طاش فارتحل إلى فنلندا ثم إلى بولونيا فألمانيا فصحاري أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة «موريس» التي كتب عنها روايته، ولكنه في كل هذه الأدوار كان سوءُ الحظ حليفَه فاضطُر إلى العودة لوطنه ثانيًا وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديون ذاهبًا إلى أن العيب لم يكن على النظم التي تشرع للناس ولكن على نفس القائمين بها.

وكان في أسفاره لا يكاد يرفع طَرْفَه عن الطبيعة التي طالما أحبّها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه كان يغلب عليه في تفهمها مزاجه الشعري وهو يعتقد أن خواطره ليست هي التي تتجه إلى الطبيعة ولكنها هي التي توجه إليها آلاف الأشكال المختلفة الرائعة. وهكذا كان يغرس على طول طريقه بذور خيالاته ليحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهيّة وهو يرى في كل ذرة من ذراتها نفسًا حيّة ناطقة حتى صهره البحث وأنضجته التجربةُ ولكنّ شقاء الحظ جرّعه آخر ما في كأسه فعاد كما ذكرنا وهو يقول في نفسه: أصبح الناس لا يعرفون قدر الإحسان فكيف رفعتهم الأقدار؛ ولكن حسبي أن التجربة أصارتني هرمًا فأصبحتُ لا أطمع في غير الراحة.

نعم إنّه أحسّ بعزمه قد وهن، وكأن الشباب الطامح إلى لقاء الحوادث ومجالدتها قد ذاب فيه وفني وهو مع ذلك لا يتجاوز الثلاثين من عمره، أضفْ إلى ذلك ما آلت إليه حالُه من الفاقة والبؤس ففكّر في وضع كتاب عن تلك الجزر التي زارها، وما شاهد فيها ودوّن في مذكراته عنها.

ولكنّ كتابه الذي كان يظنّ أنه وضع به أساسَ مجده لم يصادفْ إلّا نجاحًا قليلًا لأنه أفسد عليه قلوبَ الحكام بما ذكره فيه من خلل إدارة المستعمرات وفساد نظامها.

إلّا أنّ هذا السفر قد أكسبَه الاتصالَ بكتّاب عصره وفلاسفته فَعَرفوه وعَرَفَهم، ولكنه لم يلبثْ أن أنكرهم لأنه أدرك أنهم كغيرهم قومٌ لا يعرفون معنى العدل والحق اللذين كانا دَعامة خلقه حتى إنه قاطعهم وهجرهم لأنّ ألَمَ شوكةٍ واحدة - كما كان يقول - تُنسي المرء لذة مائة وردة يشمّها ولذلك عَمَد إلى ما دوّنه من أبحاثه في الطبيعة فجمعها في كتاب نشره على الناس على ما بها من التفكك وعدم الارتباط، ولكنّ هذا الكتاب الناقص أو تلك الأطلال الدوارس - كما كان يسميها - كانت وحدةً معنوية حيّة خيرًا مائة مرة من أية وحدة علمية لأنّها تمثّل جلالَ القدرة حاضرةً دائمًا في الذهن ماثلةً للعين حتى إنّ نجاحَه كان فوقَ أمله فَعَرَفَ الناس قدره وأحبوه.

وهكذا أمكنه أن يزحزح نفسه شيئًا من أحمال شقائه فابتاع منزلًا صغيرًا اختاره في طريق ضيق يسكنه الفقراء حتى يشعر أنّه بين أفراد عائلته الطبيعية، وعلى مقربة من حديقة الحيوان كي لا يحرم من متابعة أبحاثه.

* * *

وقد كان من نتائج تلك التجاريب الطويلة الشاقة أن برناردين اعتقد أنّ سعادة الإنسان قائمةٌ على سلوك سبيل الحياة حسبما تتطلّبه الطبيعةُ والفضيلة، وأنّ الفضيلةَ العامّة مهما بلغ من اتساعها فإنّ مكانها الأول في نفس كل فرد. ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التي حاول إنشاءها واقتصر على وصف حياة بعض الأسر المنزوية في ظلال الوحدة التي تتذوق طعم النعيم في حجر الطبيعة، وعند بساط الفضيلة.

وهكذا ظهر سفره الخالد (بول وفرجيني) فهزّ أوتار المشاعر وملك أزمّة القلوب، وكان فجرًا لليل الأدب وتاجًا على رؤوس الأقلام وشعلةً صافيةً باردةً فاضَ بها فؤادُه الذي غمرته الفضيلةُ والصبرُ والرحمةُ. وكان لظهوره تأثير عظيم في جميع أنحاء فرنسا، فأبكى كل عين وصعّد كل زفرة، ولم تبق أُسرةٌ لها ولد إلّا سمّته «بول» أو ابنة إلّا سمّتها «فرجيني».

وكان أكبر ما أثره في نفوس الناس من هذه الرواية أن حوادثها صحيحة ليس فيها من الخيال إلّا النسق والترتيب، فقد قال مؤلفها في مقدمتها: «إني لم أتخيّل قصة روائية أصوّر فيها حياةً سعيدةً تمتّعت بها أسرة أوروبية في وسط ذلك القفر، بل يمكنني أن أقول إنّ أشخاص هذه الرواية قد عاشوا حقيقة في تلك الأصقاع وتمتعوا بالسعادة التي وصفتها، وإن تاريخهم في مُجْمَله صحيحٌ شَهِدَ به كثير من سكان تلك الجزيرة، ولم أُضفْ عليه إلّا بعض جزئيات ليست بذات بال».

وقد تنبّأ بمبلغ تأثير روايته في النفوس قبل ظهورها فقال: «أردت عندما وضعت هذه الرواية أن أعرف مقدار تأثيرها في القراء على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ومشاربهم وميولهم، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات فَبَكَيْن، ثم تلوتُها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين فَبَكُوا، فعلمت أني كتبتها للناس جميعًا وأرضاني هذا الحكم الصامت كل الرضا». على أنّ هذا السِفر، إذا كان قد هزّ عالم البيان إلى هذا الحد فإنّه لم يكنْ ابنَ يومه، وإنّما كانَ ثمرة مجهود بطيءٍ طويل حتى خرج للناس من ظلمات الفكر إلى فضاء الحقيقة وعليهِ ثوبُ الشباب القشيب، فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التي تضع بذورها في السكون وتنضجها في الظل، فإذا وافى اليوم الذي تظهر ثمرتها فيه أخذت بالألباب والأبصار.

وكثيرًا ما كان يسأله الناس كيف وضعه، وكيف انتهى منه، فيقول لهم: حسبكم أنّه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الأسئلة غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذّة السرور الذي شعرت به، وإلا كان مَثَلُكم كَمَثل الطفل، يقعُ نظره على وردةٍ فيذهبُ خاطره إلى محاولة اهتدائه لكيفية صنعها، وعند ذلك ينثرها ورقة ورقة حتى إذا بلغ غايته لا يرى أمامه شيئًا.

على أنّ جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين في حلٍّ من موقفهم هذا فهم معذورون إذا تساءلوا عن زهرة هذا السِفْر القيّم كيف نشأت، وعلى أيّ طريقة نبتت، وبماء أي خاطر متقد سُقِيَت، وتحت أي مؤثرة من مؤثرات النفس أينعت ففاضت على الأجيال بالأريج والألوان والجمال.

ولكن عناصر مثل هذا العمل الكبير دفينة في نفس حياة الكاتب إذا صحّ أنّ كل مؤلّف يتمثّل في سطوره.

على أن برناردين إذا كان لم يُخْلَقْ كاتبًا فإنّ المشاهدة والتجربة والدرس هذّبت قلمه وأنضجته، حتى إذا انقضت حياتُه هزيلةً بائسةً طائرةً في مهاب الحوادث، وقد أحاطتها الأيام

بإطار من الشيخوخة لم يرَ بديلًا منها إلّا نفثاتُ قلمه بين سطور السِفر الفيّاض، ولذلك قال عنه بعض قارئيه: «ليست هذه الرواية أثرًا للكاتب، وإنما هي أثر خالد للغة الفرنسية».

على أنّ الرواية، وإن كانت لم تَقُمْ إلّا على وصف الطبيعة الجافة الخشنة، فإنّ القارئ لا يكادُ ينتهي منها، حتى يشعر بدبيب النشوة في مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة حوادثها، ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل القرى السهلة بعبارته الساحرة الجذابة، فهي التي أنطقت الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالًا حيًا قدسيًا خالدًا حتى إنّ بعضَ قُرّائه صاح، وقد هزّه الطرب «إنني لا أرى هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة، ولكني أرى حولها وُجوهًا ضاحِكَةً مُسْتَبْشِرة وقلوبًا تَسيلُ سعادةً وهناء»، وحتى قال شاتوبريان «إنّ السحر الذي يتشعّع من سطور هذا الكتاب ليس غيرَ عِظَةٍ تتلألأ في ثناياها، تَحْكي تألّق القمر فوق عُزلةٍ مزدانة بالزهور».

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعد ما حاربته الليالي وخاصمه الحظ أَنْ عَرَفَ قدرَه أولئك الذين جَهِلوه حتى توجّهت إليه عناية لويس السادس عشر فقلّده إدارةَ حديقةِ النباتات ومُتحفِ التاريخ الطبيعي، وإذا كانت الثورة قد أفقدته هذا المركز وسلبته تلك النعمة التي أصبح فيها، فإنّ نابليون بونابرت شمله برعايته وغمره بإحسانه فأنساه مرارة الأيام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يَعُدْ في حاجة إلى الأوسمة الخيالية التي كان يحلُم بها في صباه، وكان إذا قابله قال له: «متى تؤلّفُ لنا يا برناردين روايةً ثانية؟».

هذه هي رواية بول وفرجيني، وهذا هو كاتبُها الذي كان يقول في أول أمره «إنّ إنكارَ الناس لجميلي والأحزان التي لا تفارقني وضآلَةَ مُرتزقي، وآمالي الضائعة، كل هذه المصائب تجمعت لتحاربني فأفسدت عليَّ صِحّتي وأزاغت صوابي حتى إنّ كلّ ما يقع تحت بصري، أصبحتُ أراه متحرّكًا مضاعفًا كأنني «أوديب الملك» أرى شمسين فأصبح يقول: «هكذا بعد ما قاست سفينة حياتي من زعازع الحوادث أخذت تتقدم آمنة مطمئنةً إلى بر السعادة».

محمود خيرت



إهداء الرواية

يُعْجبني مِنَ الفتى الشَجَاعَةُ والإقدامُ، ومن الفتاةِ الأدبُ والحياءُ، لأنّ شجاعةَ الفتى ملاكُ أخلاقِهِ كلّهَا، ولأنّ حياءَ الفتاةِ جمالُها الذي لا جمالَ لها سواه، فأنا أُهدي هذه الروايةَ إلى فتيانِ مصرَ وفتياتِهَا؛ ليستفيدَ كلٌّ مِنْ فَريقَيْهِما الصفةَ التي أحبُّ أنْ أراها فيه، وليضَعَا حياتَهما المستقبلةَ على أساسِ الفضيلةِ كما وَضَعَها: بول وفرجيني. .

مصطفى لطفي المنفلوطي



١ - جزيرة موريس

هي إحدى الجزُرِ الإفريقيّةِ الواقعةِ في المحيطِ الهنديِّ على مقربةٍ من جزيرةِ «مدغشقر» وعلى مَدًى غيرِ بعيدٍ مِنْ جَزائرِ «سيشيل»، وهيَ جزيرةٌ قفراءُ بَلْقَعٌ[١] ليسَ بها إلّا قليلٌ من السكّانِ السودِ متفرّقينَ في جبالِهَا وغاباتِهَا يستعبدُهُمْ بضعةُ أفرادٍ من المهاجرينَ الأوربيّينَ النازلينَ بينهُم ويسخّرونهم في حِرَاثَةِ الأرضِ، واستِنْبَاتِها، واستخراجِ معادِنِهَا، واستنبَاطِ أمواهِهَا، وتقليمِ أشجارِهَا، كما هو شأنُ المستعمرينَ الأوروبيّينَ في جميعِ الأصقاعِ التي يعيشونَ فيها.

❁ ❁ ❁

يرى المُقْبِلُ على هذهِ الجزيرةِ شَرقيَّ الجبلِ القائمِ خلفَ عاصمَتِهَا «بورلويس» واديًا مستطيلًا مسوّرًا بسورٍ طبيعيٍّ من الآكامِ والصخورِ قد تراءَتْ في وسَطِه أطلالُ كوخَيْنِ دارِسَيْنِ[٢] لم يبقَ منهما إلّا أنصافُ جدرانِهِمَا، وبضعةَ جذوعٍ ناخرةٍ سوداءَ متناثرةٍ حولَهُما، ويرى الأرضَ المحيطةَ بهما مختلفةَ الألوانِ ما بين سوداءَ وخضراءَ وصفراءَ، مختلفةَ السطوحِ ما بينَ أنجادٍ وأغوارٍ، وأحافيرَ وأخاديدَ، ومُنْعَرَجاتٍ ومُسْتَدِقاتٍ، إلى كثيرٍ من الجداولِ والغُدْرانِ القَائمةِ والمُتَدَاعيةِ، كأنّما كانَ يعيشُ فيها قبلَ اليومِ قومٌ يتولّونَ حَرْثَهَا وزَرْعَها وتقسيمَهَا وتخطيطَهَا، ثمّ ضَرَبها الدهرُ بضرباتِهِ فرحَلَ عنها ساكنُوها أو رحلوا عَنِ العالمِ أجمعِه.

ولم يكنْ لذلكَ الوادي على اتّساعه وانفراجه إلّا فجوةٌ[٣] واحَدةٌ من ناحيتِه الشماليّةِ، وعلى يسارِه ذلكَ الجبلُ العظيمُ الذي يسمّونَهُ جبلَ الاستكشَافِ، لأنّهم كانوا يرقُبُونَ من قمّتِهِ السفنَ القادمةَ إلى الجزيرةِ، وبسَفْحِه تقعُ مدينةُ «بورلويس» قصبةُ الجزيرةِ ومقرُّ حاكِمها الفرنسيّ، وهي مدينةٌ صغيرةٌ نصفُ متحضّرةٍ يتفرّعُ عن يمينِهَا طريقٌ لاحبٌ[٤] عريضٌ ينتهي بضاحيةِ «بمبلموس». وهناكَ الكنيسةُ المسمّاةُ بهذا الاسم قائمةٌ بمماشِيها المتدرّجةِ المتصاعدَةِ المحفوفَةِ بأشجارِ الخيزرانِ وَسْطَ أفْيَحَ[٥] فسيحٍ. ثمّ الحرجاتُ والآجامُ بعد ذلكَ منبسطةٌ ممتدّةٌ إلى ساحلِ البحرِ حيثُ يُرى هنا خليجُ «تومبو» أي خليجُ القبر. وعلى يمينه رأسٌ يُسَمّى «كاب ماليرو» أيْ الرأسُ البائس. ثمّ الخضمّ[٦] الفسيحُ بعد ذلك تنتشرُ على صفحتِهِ عدّةُ جزرٍ صغيرةٍ مقفرةٍ كأنّها السفنُ السابحةُ على سطحِ الماء. وأكبرُ ما فيها جزيرة «كوان دمير» تتهادَى بينها كأنّها البرجُ العظيم.

---

(١) بلقع: خال من الناس.
(٢) دارسين: ممحوّي الأثر.
(٣) الفجوة: الفتحة.
(٤) اللاحب: الواضح.
(٥) الأفيح: المكان الواسع.
(٦) الخضمّ: البحر الواسع.

ولا يزالُ يَسْمَعُ المقبلُ على ذلكَ الوادي حين يدنو منه عصارَ الرياحِ الضاربةِ في بطونِ الجبالِ، وأحشاءِ الغاباتِ، وذوائبِ الأشجفِ، ودمدمةَ الأمواجِ المتوثّبة على صخورِ الشاطىءِ وهضابِهِ حتّى إذا وصلَ إلى مكانِ الكوخينِ انقطعَ عن سَمَعِهِ كلُّ شيءٍ فلا يحسّ إلّا صدًى ضعيفًا لحفيفِ سُعَفِ النّخلِ، ولا يسمعُ إلا وسوسة الأمطارِ المتساقطةِ برفقٍ ولينٍ على رؤوسِ الصخورِ الملساءِ، فترسمُ على جوانِبِهَا المكسوّة بالطحلبِ ألوان الطيفِ[1]، ثمّ تنحدرُ عنها متسلسلةً إلى حيثُ تسقي أحواضَ الأزهارِ المهملةِ التي لا تمتدّ إليها يَدٌ، ولا يقتطِفُهَا مقتطفٌ، ثمّ تُفْضِي بعد ذلكَ إلى الغدرانِ والأفنيةِ فتمدّها بالجمّ الكثيرِ من أمواهِهَا، وإلى خمائلِ الأشجارِ ولفائفِ الأعشاب، فتتسرّبَ في أحشائها تَسَرُّبَ الأفاعي الرقطاءِ في بطونِ الرمالِ، ولا يرى بين يديهِ إلّا هضابًا شمّاءَ قد نبتَتْ في سفوحِهَا، وعلى قِمَمِهَا وبينَ فروجها مجاميعُ الأشجارِ الباسقةِ التي تعابثُ أشعّةُ الشمسِ أوراقَهَا الخضراءَ المترعةَ، وتَكْسُوها بما شاءتْ من ضروبِ الألوانِ ذهبيّها وفضّيّها وأرجوانيّها وناريّها.

ولا تنحدرُ إلى قاعِ الوادي وتنبسطُ في أرجائِهِ إلّا وقتَ الظهيرة، فإذا أدبرَ النهارُ وطفلت[2] الشمسُ للإيابِ كانَ منظرُ الأصيلِ أبدعَ منظرٍ رآه الرّائي في جمالِ ألوانِهِ وانسجام ظلالِهِ، ورقّةِ أضوائِهِ وتَلَهُّبِ أُفُقِهِ وذهابِ العينِ بينَ أرضِهِ وسمائِهِ في أبهى من الحلّةِ السبراءِ[3] والروضةِ الغنّاءِ، فإذا انحدرتِ الشمسُ إلى مغرِبها خَيّم السكونُ على كلِّ شيءٍ من ماءٍ وهواءٍ، وكوكبٍ ونجمٍ، واستحالَ المنظرُ إلى وحشةٍ مخيفةٍ كوحشةِ القبورِ، لا نأمة[4] فيها ولا حركةَ ولا بارقَ ولا خافقَ.

❁ ❁ ❁

٢ ـ الشيخ

كانَ يَلَذّ لي كثيرًا أنْ أختلفَ إلى هذا المكانِ الجميلِ صباحَ مساءَ، وأنْ أستريحَ إلى منظرِهِ الهادىءِ الساكنِ، فإنّي لجالس ذاتَ يوم على صخرةٍ من صخورِهِ العالية أقلّبُ الطرفَ بين أرضِهِ وسمائِهِ، وأفكّر في شأنِ هذينِ الكوخَينِ الدارسينِ وفيما تنطقُ به آياتُهما من العظاتِ والعبرِ وآثارِهما من الأحاديثِ والسيرِ، إذْ مرّ بي شيخٌ هرمٌ من سكّانِ تلكَ الجزيرةِ قد نيّفَ على السبعينَ من عمرِهِ، يعتمدُ على عصًا عجراءَ[5] في يده ويلبسَ سراويلَ واسعةً وصُدارًا ريفيًّا بسيطًا، وقبّعةً عريضةً من الخوصِ كشأنِ سكّانِ تلكَ الأصقاعِ، وله شعرٌ أبيضُ مستطيلٌ مسترسلٌ على كتفيه، وقد تلألأَ وجهُه الأبيضُ النحيفُ الضاربُ إلى السمرةِ بذلكَ النورِ الساطعِ

---

(١) الطيف: هي الألوان المنحلة عن أشعة الشمس.

(٢) طفلت الشمس: أي دخلت في الطفل - أي الأصيل.

(٣) السبراء: المخططة. (٤) النأمة: الصوت.

(٥) عصا عجراء: ذات عجر، أي عقد في وسطها.

الذي يتلألأُ دائمًا في وجوهِ الريفيّين الأتقياءِ، نورِ البساطةِ والطهارةِ، والنبلِ والشرفِ.

فأنِسْتُ به وبمنظرِهِ الجميلِ الأنيقِ وبدأتُه بالتحيّةِ، فرفعَ رأسه إلي متوسّمًا وألقى عليّ نظرةً هادئةً مطمئنّةً، ثمّ ردّ تحيّتي ردًّا جميلًا وكأنّما شعرَ لي بمثلِ الذي شعرتُ له به من العطفِ والودّ، فأقبلَ نحوي باسمًا متهلّلًا، وجلس على صخرةٍ محاذيةٍ للصخرةِ التي أجلسُ عليها، وألقى عَصَاه تحتَ قدميهِ ووضَعَ قبّعته بجانبِهِ، فأقبلتُ عليه وقلت له: لَعَلّكَ تعيشُ في هذه الجزيرةِ، يا سيّدي، منذ زمنٍ طويل؟ قال: نعم طَويتُ فيها رداءَ شبابي، وها أنذا أطْوي فيها رداءَ شيخوختي، وستبردُ عظامي غدًا تحتَ صخورها وجنادلها[(١)]. قلت: هلْ لكَ أن تحدّثَني قليلًا عن شأنِ هذينِ الكوخينِ الدارسينِ، وعمّنْ كانَ يسكُنُهُما قبلَ أن تعبثَ بهما يدُ البلى وتعصفَ بهما عواصفُ الدهرِ وأرزاؤه[(٢)]؟ فوجمَ قليلًا، وظلّ صامتًا لا يقولُ شيئًا، وقد انتشرتْ على جبينِه اللامعِ المتلالئِ غمامةٌ رقيقةٌ من الهمّ والاكتئابِ، ثمّ تنهّدَ تنهيدةً طويلةً اختلجتْ لها أعضاؤُهُ وقال:

نعم يا بنيّ، إنّ هذا الوادي الذي تراهُ اليومَ خرابًا يبابًا[(٣)] لا يمرّ به المارُّ إلّا ليقفَ على ربوعِهِ وأطلالِهِ وقفةَ المتأمّلِ المعتبر، كان منذُ عشرينَ عامًا روضةً غناءَ يعيشُ فيها أقوامٌ سعداءُ بأخلاقِهِمْ وفضائِلِهِمْ ما كان يخطرُ ببالهم، ولا ببالِ من يراهُمْ أنّ مصيرَهُمْ سيكونُ هذا المصيرَ الذي تراه اليوم. وإنّ قصّتهم لقصةٌ غريبةٌ مؤثّرة تستثيرُ الأشجانَ وتستذرفُ الدموعَ؛ إلّا أنّ أبطالَهَا ليسوا ملوكًا ولا قادةً، ولا من أصحابِ القصورِ والدورِ، والحدائقِ والبساتينِ، والمسارحِ والملاعبِ، والوقائعِ العظيمةِ، والحوادثِ الجسيمةِ، كما هو شأنُ أبطالِ الرواياتِ التي تقرأونها، بلْ قومٌ فقراءُ مغمورون تقتحمهُم العيونُ وتتخطّاهُم الأنظارُ. ومن كان هذا شأنَهم لا يحفلُ بهم أحدٌ من الناسِ، ولا يُعنى بسماعِ شيءٍ من أخبارِهِمْ وتواريخِهم، لأنّ الناسَ لا يستطيعونَ أن يَفْهموا السعَادةَ منَ الطريقِ الذي ألفُوه واعتادُوه، فهم لا يصدّقونَ أنّ قومًا فقراءَ متقشّفينَ يعيشونَ في أرضٍ قفرةٍ جرداءَ منقطعةٍ عن العالمِ بأجمعِهِ قد استطاعوا أنْ يكونُوا سعداءَ من طريقةِ الفضيلةِ والبساطة.

فأكبرتُ الرجلَ في نفسي وأعظمتُه، وعلمتُ أنّه يحملُ بين جنبيهِ نفسًا كبيرةً ساميةً تختلفُ صورَتُها عن صورةِ هذهِ الأسمالِ[(٤)] الحقيرةِ التي يلبَسُها. وقلتُ له: نعم يا سيّدي، إنّني أعترفُ لكَ أنّنا، معشرَ الأوروبيين، لا نَفهَمُ من معنى السعادةِ إلّا ذلكَ الذي تقرلُهُ، ولا نعجبُ بالقصّة إلّا إذا كانَ أبطالُها أولئكَ الملوكَ الظَلَمَةَ والقوّادَ السفاكين؛ ولكنّنا لا نستطيعُ أنْ نُصغيَ في بعضِ الأحايينِ بلذّةٍ وسرورٍ إلى أحاديثِ الفقراءِ والبائسين؛ ومهما بلغتِ القَسْوَةُ بالقلبِ الإنساني، وغمرتِ الشهواتُ شعورَه ووجدانَه، فلا بُدّ أنْ تهبّ عليه من حينٍ إلى حينٍ نفحةٌ من نفحاتِ الفطرةِ الإلهيّةِ تنعشُه وتوقِظُ شعورَه، فيستطيعَ أن يعودَ إلى نفسه قليلًا، وأن

---

(١) الجنادل: الصخور الصلبة.

(٢) أرزاء: جمع رزء وهي المصيبة.

(٣) اليباب: الخراب.

(٤) الأسمال: الثياب البالية.

يفهمَ أنّ في العالم صنوفًا من السعادةِ التي يعرفُها ويألفُها، وربّما أكبرَهَا وأعظَمَها، وتمنّاها لنفسه وَوَدّ لو طالَ استمتاعُه بها.

فَقُصَّ عليَّ قصّتَك يا سيّدي، فما أنا - لو علمت - إلّا رجلٌ بائسٌ مسكينٌ قد أخطأتْه السعادةُ حيثُ طلبَهَا من المدنِ والحواضرِ بين الدورِ والقصورِ، فلعلّه يجدُها في القفرِ الموحشِ بين الهضابِ والصخور.

فوضع يده على جبينه المغضّن[1] كأنّما هو يفتّشُ في طيّاته عن بعضِ الذكرياتِ القديمةِ، أو يستجمعُ ما تفرّق من شواردها.

وأنشأ يحدثني ويقول:



٣ ـ مدام دي لاتور

في عام ١٧٢٦ قَدِمَ هذه الجزيرةَ فتًى من «نورماندي» اسمه «مسيو دي لاتور»، ليطلبَ رزقه في هذهِ الجزيرةِ المقفرةِ بعدَ ما أعياه طلبُه في فرنسا، وعجزَ عن أن يجدَ له فيها معينًا حتى من أهلِهِ وذوي رَحِمِه. وكانتْ تصحبُه زوجتُه وهي فتاةٌ نبيلةٌ، جميلةُ الصورةِ، كريمةُ الخلقِ، طيّبةُ العنصرِ، أحبّها وأحبّتْه وأرادَ أن يخطبها إلى قومِهَا فَأَبَوْها عليهِ لأنّه كانَ فقيرًا مُقِلًّا، ولأنّهمْ كانوا من المدلّين بأنفسِهم وبوَفْرِهِم وثرائِهم ومكانتِهم في الهيئة الاجتماعيّة، فلم يكنْ ممّا يهون عليهم أن يُصهِروا[2] إلى رجلٍ ليس من أكفائِهم ولا نُظَرَائِهم، فتزوّجها سرًّا بدونِ مَهْرٍ، وهاجرَ بها إلى هذه الجزيرة علّه يجدُ سبيلًا إلى العيشِ فيها، فتركَهَا هنا وسافرَ إلى جزيرةِ «مدغشقر» ليبتاعَ منها طائفةً من الزنوجِ يستعينُ بهم عندَ عودتِه إلى استصلاحِ بعضِ الأراضي المهجورةِ، فيقتاتُ منها هو وزوجته.

فلم يُتِحْ له الحظُّ الذي أرادَ لأنّه سافر إلى «مدغشقر» في الفصلِ الذي يوبأ[3] فيه مناخُها، ويمتلىء فيه جوّها بالحميّاتِ والرياحِ السامّةِ القاتلة، فلم يلبثْ أن اشتكى شكاةً ذهبتْ بحياته، وكانَ يحملُ معه بعضَ الأثاثِ وشيئًا من المالِ، فتناهَبَتْهُ الأيدي هناكَ كما هو الشأنُ دائمًا في تراثِ الغرباء من الأوروبيّين الذين يموتونَ بعيدًا عن أوطانِهم في تلكَ الجزرِ النائية. فأصبحت امرأتُه أرملةً مسكينةً لا سندَ لها ولا عضدَ، ولا من يعينُهَا على أمْرِهَا إلّا جاريةٌ زنجيّةٌ كانتْ قد ابتاعَتْهَا عند حضورِهَا ببعضِ دريهمات. ولم تكنْ تعتمدُ على ما يعتمدُ عليه أكثرُ المهاجرين المقيمينَ في هذه الجزيرةِ من عونِ الحاكمِ ومساعدته، أو الصلة ببعضِ أصحابِ الجاه والنفوذ لأنّها كانتْ أجَلَّ في نفسها من ذلك، ولأنّها لم يكنْ يَغْنِيها، بعد أن فقدتْ ذلكَ الزوجَ الكريمَ

---

(١) المغضن: المبلّل، النديّ.

(٢) أصهر إليه: صاهره.

(٣) وبئت الأرض: كثر فيها الوباء.

الذي كان موضعَ آمالها ووجهةَ حياتها، أن تكونَ لها صلةٌ مع أحدٍ من الناسِ كائنًا من كان.

أكسبها يأسُهَا هذا قوّةً وجلَدًا وصحَّتْ عزيمتُهَا على أن تعتمدَ في حياتِهَا على نفسِهَا، وأن تتّخِذَ لها قطعةً من الأرضِ تستصلِحُهَا بيدِها، هي وجاريتُها علّها تجدُ فيها قُوتَهَا ومُرْتَزَقَهَا.

والأرضُ في هذهِ الجزيرةِ على جَدْبِها، وإقفارِها لا يعدمُ أن يجدَ فيها الإنسانُ بِضْعَ قطع خصبةٍ صالحةٍ للنماءِ والاستثمار، ولكنّها كانتْ تريدُ العزلةَ والانفرادَ والفرارَ بنفسها عن أبصارِ الناسِ وأسماعِهِمْ، فتركَت المواضع الخصبةَ الميثاءَ وأوغلتْ في المجاهلِ البعيدة تفتّش عن قطعة أرضٍ معتزلة في سفح جبل أو بطنِ غورٍ، أو وراء منقطعٍ لا يطرقُهَا طارقٌ ولا يمرّ بها سابل،[1] حتّى وصلت إلى هذا المكانِ الذي نحنُ فيه، فأعجَبَهَا منظرُه الهادئُ المنفردُ، وسكنتْ نفسُها إليه سكونَ الطائرِ الغريبِ إلى العشّ المهجورِ، وكذلكَ شأنُ البائسينَ المنكوبينَ يشعرونَ دائمًا بحاجتِهِم إلى الفرارِ بأنفسِهِم من ضوضاءِ العالم وجلبتِهِ إلى المعتزلاتِ النائيةِ القصيّةِ، والمواطنِ الخشنةِ الوعرةِ، كأنّما يخيّلُ إليهم أَنّ صخورَها وهضابَها قلاعٌ حصينةٌ يعتصمونَ بها من كوارثِ الدهرِ، وأرزائِهِ، أو كأنّما يتوهّمون أنّ هدوءها وسكونَها يسري إلى قلوبهم وأفئدتِهِم فيروّحَ عنها بعضَ ما بها ويملؤُها راحةً وسكونًا.

إلّا أنّ العناية الإلهيّة - التي تتولّى حراسةَ الإنسانِ وتمدُّه بلطفِهَا وعنايَتِهَا من حيثُ لا يقدرُ ولا يحتسبُ، وترى له دائمًا خيرًا ممّا يرى لنفسِه - أبتْ أن تسلّمها إلى وحشتِهَا وكآبتها، فأتاحتْ لها صديقةً كريمة تؤنسُ وحشتَهَا وتعينُهَا على أمرِهَا.

❀ ❀ ❀

٤ ـ مرغريت

كانتْ تعيشُ في هذه الأرضِ، قَبْلَ عامٍ واحدٍ من حضورِ «مدام دي لاتور»، امرأةٌ صالحةٌ كريمةٌ رقيقةُ الحالِ، اسمها «مرغَريت»، وفدتْ إليها على إثرِ نكبةٍ حلّتْ بها في مسقطِ رأسها «بريتانيا»، وخلاصَتُها أنّ نبيلًا من النبلاءِ الاصطلاحيّينَ، أي الذين اصطلحَ الناسُ على تلقيبهِمْ بهذا اللقبِ، نزلَ بلدَتَها للاصطيافِ بها، فرآها، فأحبّها، وكانتْ فتاةً غريرةً ساذجة تصدّقُ كلّ ما يقالُ عنها، فصدّقتْ ما حدّثها به عن الحبّ والزواجِ، والسعادةِ والرغد. كأنّما خُيّلَ إليها أنّ العظماءَ في أحاديثِهِمْ وعهودِهِمْ، كما هُمْ عظماءُ في مظاهرهم، وأزيائِهِم لا يخلفونَ إذا وعدوا، ولا ينكثونَ إذا عاهدوا، فاتّصلتْ به اتصالَ الزوجِ بزوجِهَا حينما وعَدَهَا أن يتزوّج منها عند عودَتِهِ إلى وطنِهِ واستئذانِ أبويه.

---

(١) السابل: المار في الطريق المطروقة، جمعه سوابل وسابلون.

وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ، حتّى ملَّها واجتَوَاها[١] كما ملّ الكثيراتِ من قبلِهَا، فرحلَ عنها فجأةً أعظمَ ما كانتْ غبطةً به وأملًا فيه، وتركَ لها تحتَ وسادَتِها شيئًا من المالِ خُيِّلَ إليه أنّه الثمنُ الذي يقومُ لها بوفاءِ ما بذلتْ من عِرْضِها وشرفها؛ فجُنَّ جنونُها وهُرِعَتْ إلى فُرضةِ البحر التي علمتْ أنّه سيسافرُ منها، فلم ترَ من سفينتِه الماخرةِ على سطحِ الدأماءِ،[٢] إلا ما يرى الرائي من أعقابِ النجم المُغْرب[٣]، فبكتْ إلى ما شاءَ اللهُ أن تفعلَ، ثمّ عادت إلى منزلها داميةَ العينِ قريحةَ القلبِ، ولم تلبثْ إلّا قليلًا حتّى شعرتْ أنّها تحملُ جنينًا في أحشائِها، فأُسقطَ في يدِهَا،[٤] وعلمتْ أنّه قد استحالَ عليها البقاءُ بينَ أهلِهَا، وقومِهَا بعدما فقدتْ تلك الجوهرةَ الثمينةَ التي هي كلُّ ما تملكُ العذراءُ في يدها، وكلُّ ما تستطيعُ أن تقدّمه مهرًا لزوجِها، فأزمعت الرحيلَ إلى إحدى المستعمراتِ النائيةِ، لتواريَ في قاعِهَا السحيقِ سَوْأَتها وَعَارَها، فوفدتْ إلى هذهِ الجزيرةِ بعد عناءٍ كبيرٍ وعقباتٍ عظمى، واستطاعتْ بمعونةِ بعضِ المحسنينَ الراحمينَ أن تبتاعَ لها خادمًا زنجيًّا يعينُهَا على أمرِها، ويساعِدُها على حراثةِ الأرضِ التي أوت إليها، واستخراجِ ثمراتها.

وعاشتْ هنا عيشَ الصالحاتِ القانتات،[٥] لا تعرفُ أحدًا من الناسِ، ولا يعرفُها أحدٌ سواي، وكانتْ تجلسُ دائمًا على هذه الصخرةِ العاليةِ أمامَ كوخِهَا تُرْضِعُ ولدَهَا، وتنسجُ نسيجَهَا. فلما وفدتْ هيلين «مدام دي لاتور»، رأتْهَا جالسةً في مكانها الذي اعتادتِ الجلوسَ فيه؛ فعجبتْ لأمرِهَا وأنستْ بمرآها أُنسًا عظيمًا لأنّها ما كانتْ تتصوّرُ، قبلَ أن تراها، أنّ في الناسِ إنسانًا له حالٌ تشبهُ حَالَهَا؛ فدنت منها وحيَّتْها، ثمّ جلستْ بجانبِهَا، وأخذتْ تسائِلُهَا عن شأنِهَا، فقصّتْ عليها مرغريت قصّتَها كما وقعتْ وكشفتْ لها بشجاعةٍ وإخلاصٍ عن مكانِ المصرعِ التي زلّتْ فيه قدمُهَا، ولم تكتُمْهَا من أمرِهَا شيئًا، ثمّ خَتَمَتْ حديثها بقولها: إن الله لم يظلِمْنِي، ولم يقسُ عليَّ فيما فعلَ، بل عاقَبَني على جريمتي التي اقترفْتُهَا عقابًا عادلًا شريفًا؛ فله العيّ[٦] معطيًا وسالبًا، ولَهُ الحمدُ على نَعْمَائِهِ وبأسائه.

رَثَتْ لها هيلين «مدام دي لاتور»، وأَوَتْ[٧] إليها، وأعجبها منها إخلاصُهَا وصراحَتُهَا وقوّةُ يَقِينها وإيمانُهَا، فلم ترَ بدًّا من أن تمنحَها من بناتِ قلبها[٨] مثلَ ما منحتها، فأفْضَتْ إليها بسرِّها، وحدّثَتْهَا حديثَهَا من مَبْدئِه إلى منتهاه؛ فقالت لها مرغريت: أمّا أنا يا سيّدتي، فقد لاقيتُ عقوبتي التي أستحِقُّها بما أسرفتُ على نفسي وفرّطْتُ في أمري، فما شأنُكِ أنتِ، وأنتِ فتاةٌ صالحةٌ شريفةٌ لا ذنبَ لكِ ولا جريرة؟

---

(١) اجتوى الشيء: كرهه.
(٢) الدأماء: البحر.
(٣) المغرب: المنحدر إلى مغربه.
(٤) أسقط في يده: - على صيغة المبني للمجهول - تحير وندم.
(٥) القانت: المطيع.
(٦) له العي: أي له الرضى.
(٧) أوى له: رق له وأشفق عليه.
(٨) بنات القلوب: همومها وأسرارها.

ثمّ دَعَتْهَا إلى كوخِها الحقيرِ فلبّتْ دعوَتَها، ودخلتْ معها راضيةً مغتبطةً وهي تقول: أَحْمَدُكَ اللّهُمّ، فقد وجدتُ لي في هذا المغتربِ النائي أختًا لم أجدْ مثلها بين أهلي وقومي، وما أحسبُ إلّا أن آلامي قد انتهت.

كنتُ أسكنُ في ذلكَ الحينِ وراء هذا الجبلِ على بعدِ مرحلةٍ ونصف من كوخ مرغريت، ولكنّي كنتُ على بعدِ ما بيني وبينها، واعتراضِ هذه العقباتِ دوننَا، متّصلًا بها أزورُهَا وأتفقّدُ حالها، وأرعى لها ما يَرْعَى الجارُ لجارِه الملاصق، وتلكَ خلّةٌ لا توجدُ إلّا في سكّانِ القفارِ المهجورة والمغترباتِ النائيةِ، فلا الجبالُ الشامخةُ، ولا الصحاري الشاسعةُ، ولا الشقّةُ البعيدةُ بقادرةٍ على أن تفرّقَ بينهم وتمنعَ اتّصالَ بعضِهِم ببعضٍ، كأنّما هم يقطُنونَ محلّةً واحدةً، أو منزلًا واحدًا؛ أمّا في أوروبا فكثيرًا ما يعيشُ الرجلُ بجانب الرجلِ، لا يفصلُ بينه وبينه إلا جِدارٌ قائمٌ، أو ممرّ ضيّقٌ، أو ظلّةٌ دانيةٌ، ثمّ هو لا يعرفه ولا يحييه، وربّما أنكرَ وجهَهُ وصورته، وهناكَ قلّما يستطيعُ القادمُ الغريبُ أن ينزلَ ضيفًا، إلّا عندَ نفسه في أخصبِ البلادِ، وأغناها وأرغدِهَا عيشًا، وأصلحِهَا حالًا؛ وهنا يجدُ ساعةَ نزولِهِ المنزلَ الرحبَ، والمناخَ الكريمَ في كلّ دارٍ وكوخٍ، سواء في ذلكَ فقراءُ الناسِ وأغنياؤُهم، وسوقتهم وأشرافُهُمْ؛ كأنّ الناسَ حين يعودونَ إلى حياتهم الفطريّة الأولى حياةِ البساطةِ والسذاجةِ، والعيشِ في الأجواءِ الحرّةِ المطلقةِ، تعودُ لهم معها أخلاقُهُمْ الطبيعيّةُ الجميلةُ التي فطروا عليها من كرمٍ وسماحةٍ، وجودٍ وإيثارٍ، وودٍّ وإخاء.

وبعد: فلمّا سمعتُ أنّ جارتي قد نزلتْ بها ضيفةٌ غريبةٌ أتيتُ إليها أتفقّدُ حالَهَا، وأُعينُها على أمرها، فإذا أنا بين يدي فتاةٍ جميلةٍ رائعةٍ تحيطُ بوجهِهَا المشرقِ المتلألىءِ هالةٌ وضّاءةٌ من الشرفِ والنبلِ، تغشاها سَحَابةٌ خفيفةٌ من الهمّ والكآبةِ، ويتراءى في عينيها المتضعضعتين الذابلتينِ الأثرُ الذي يراه الإنسان دائمًا في عيون الفتيات المنكسرات: الذلُ والانكسارُ في ميدان الحياة.

وما هو إلّا أن جلستُ إليها جلسةً خفيفةً حتّى ألممتُ بشأنها كلّه، فأخذتُ أحدّثها وصديقَتَها عن مستقبلِ حياتِهما في هذه الجزيرةِ، وكيفَ تستطيعانِ أن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين، فاقترحتُ عليهما أن تتّخذا هذا الوادي مزرعةً لهما تقتسمانها بينهما، ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادِمَاهما الزنجيّان؛ فأعجبهما مقترحي وعَهِدَا إليّ بتنفيذِ ما أشرتُ به.

وكانتْ مساحةُ الوادي نحو عشرين فدانًا، فقسمته قسمين: قسمًا أعلى وقسمًا أدنى: أمّا الأوّلُ فيبتدئ من رؤوسِ تلك الصخورِ العاليةِ التي تكسو السحبُ أرديتها الشفافةَ البيضاء. وتنبعثُ من خلالها أمواهُ نهر «اللاتينيه»، وينتهي عند هذهِ الفجوةِ التي تراها أمامَك، ويسمّونه هنا «لامبرازير» لأنّها تشبه في شكلِهَا فوهةَ المدفعِ، وتكثرُ في هذا القسمِ الصخورُ والوعورُ التي يتعذّرُ السيرَ فيها؛ إلّا أنّه كثيرُ الأشجارِ والنخيلِ، حافلٌ بالينابيع والغدران.

وأمّا الثاني فيبتدئُ من هذا المكانِ منحدرًا مع النهرِ الجاري بجانبه إلى نهاية الوادي، حيثُ

ينحرفُ النهرُ بعد ذلكَ سائرًا في رملةٍ ميثاء[1] بين جبلينِ شامخينِ إلى مصبّه في البحرِ، وأرضُ هذا القسم سهلةٌ ليّنة كثيرةُ الخضرةِ والأعشابِ، إلّا أن المستنقعاتِ تكثرُ فيها في فصلِ الأمطارِ، وتكادُ تتحجّر تربتُهَا أيامَ الجفافِ، فتصبحُ كأنّها أرضٌ صخريّةٌ، فهما في الحقيقةِ قسمانِ متعادلانِ تتكافأ حسناتُهُمَا وسيّئاتُهُمَا.

فلمّا فرغتُ من تهيئتِهما، اقترعتُ بين السيّدتينِ عليهما، فكان القسمُ الأعلى نصيبَ هيلين «مدام دي لاتور» والقسمُ الأدنى نصيبَ مرغريت، فرضيتْ كلٌّ منهما بنصيبِهَا إلّا أنّهما أبَتَا أن تفترَقا في مسكنِهما وعيشِهما، فرأيتُ أن أُنشىءَ لهما كوخينِ متجاورينِ تجدانِ فيهما من السعةِ والراحةِ لهما ولوليديهما أكثرَ ممّا تجدانِ في الكوخِ الواحدِ، وأنْ أجعلَ أحدَهُما في ذيلِ القسمِ الأوّلِ وثانيها في رأسِ القسمِ الثاني، فتسكنَ كلٌّ منهما في أرضِهَا، وكأنّها تعيشُ مع صاحبتها في مسكنٍ واحدٍ، فأعجبَتْهُمَا تلك الفكرةُ، واغتبطَتَا بها، فاستعنتُ بالزنجيّين على قطعِ الأشجارِ من الجبالِ واجتلابِ الأخشابِ من الغاباتِ وصنعِ موادِ البناءِ، وأنشأتُ لهما كوخينِ فسيحينِ يدورُ بهما سياجٌ متينٌ من الأغصانِ المتشابكَةِ، وغرستُ حولَهُما خميلةً من أشجارِ اللانينيه تظلّلهما، وتقيهما وَهْجَ الشمسِ وغائلةَ المطر.

وهنا صمتَ الشيخُ وأطرقَ. ثمّ رفعَ رأسَهُ بعد قليلٍ، فإذا دمعةٌ رقراقةٌ تترجّحُ في مقلتيهِ، كلّما حاولتْ أن تسيلَ، أمسكَهَا واستمرّ في حديثه يقول:

نعم بنيتُهُما وشيّدْتُهما، وأنشأتُ لهما السقوفَ والأبوابَ والكوى والنوافذَ، وها أنذا أراهُما الآنَ بين يديّ ساقطين متهدمين، فلا أبوابَ ولا سقوفَ ولا نوافذَ ولا كوى ولا قطّانَ[2] ولا سكّان، وكأن الله تعالى أرادَ أن يستديمَ تلكَ الذكرى في نفسي، فلا تبرحُ مخيّلتي حتّى تذهبَ معي إلى قبري فأبقى على هذهِ البقايا المائلةِ من جدرانِهما وأحجارِهما، ليستثيرَ مرآها شجني، ويهيج آلامي وأحزاني، أو كأنّ طوارقَ الحَدَثانِ التي لا تبالي أن تعصفَ بقصورِ الملوكِ وصروحِ الجبابرةِ، وتذهبَ ببقاياها وآثارها إلى الأبد، وقفتْ وقفةَ الإجلالِ والإعظام أمامَ هذه الأكواخِ الحقيرةِ المشعّثةِ، فأبتْ أن تقضي عليها القضاءَ كلّه إجلالًا لها، واحترامًا لذكرى أصحابها الأوفياءِ المخلصين.

وبعدُ، فَلَمْ أكدْ أفرغُ من بناءِ الكوخينِ حتّى شَكَتْ هيلين، وجاءَها المخاضُ، فولدتْ طفلةً جميلةً كأنّها النجمُ اللامعُ في سطوعِه وإشراقِه، وسألتني أنْ أكونَ (عَرَّابها)، وأن أتولّى تسميَتَها كما توليتُ تسميةَ ولدِ صديقتها. فأشرتُ على مرغريت أن تفعلَ لأنّي أردتُ أنْ تكونَ لها أمًّا ثانيةً، فسمّتْها «فرجيني» وقالت لأمّها: سَيَهَبُ الله ابنتك نعمةَ الفضيلةِ والعفّةِ فتحيا حياةً سعيدةً هانئة، فإنّي ما فقدتُ السعادةَ إلّا منذُ اليوم الذي انحرفتُ فيه عن طريقِ الفضيلة.

❋ ❋ ❋

(١) الميثاء: السهلة الليّنة.
(٢) قطّان: سكّان.

٥ ـ الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نِفَاسِها[1] بارئةً نشطةً، فأخذتْ، هي وصديقتها مرغريت، تعملان في أرضهما بمعونةِ الزنجيّ (دومينج)، وهو رجلٌ كهلٌ قد نيّفَ على الخمسينَ من عمرِه، إلّا أنّه كانَ فتيَّ الهمّةِ والعزيمةِ واسعَ الخبرةِ في شؤونِ الزراعة الجليلةِ وأساليبها، فكان يغرسُ في كلّ أرضٍ ما يناسِبُها من البذورِ والأغراس، لا يفرّق بين القسمينِ ولا يمنحُ أحدَهُما من اهتمامه وعنايتِهِ أكثرَ ممّا يمنحُ الآخر؛ فزرعَ الذرةَ في التربةِ المتوسطة، والحنطةَ في الأرضِ الجيّدة والأرزَّ في التربة السبخة[2]، والقرعَ والقثاءَ وما أشبَهَهُما من النباتِ المتسلّق حولَ الصخورِ، وفوقَ رؤوس الهضاب، وزرعَ البطاطا في التربة الجافّة اليابسة، وشجيراتِ القطنِ في الربواتِ العاليةِ، وقصبَ السكّرِ في الأرضِ القويّة المتينةِ، وغرسَ على ضفّة النهرِ حولَ الكوخينِ أشجارَ الموزِ ذاتِ الأوراقِ العريضةِ، والأفياءِ الظليلةِ، ولم يَفُتْهُ أن يزرعَ لنفسِه بضعَ شجيراتِ من التبغِ يروّحُ بتدخينها عن نفسِهِ همومَ دَهْره وآلامه.

وكان يذهبُ - فوق ذلك - إلى الغاباتِ البعيدةِ والأحراشِ النائيةِ لاحتطابِ الحطبِ، واجتلابِ أعشابِ الوقودِ، ويقضي جزءًا عظيمًا من يومِه في تمهيدِ الأرضِ وتذليلِها، وتكسيرِ الصخورِ وَرَصْفِ الحصى، وإنشاءِ الممرّاتِ والمستدقّاتِ والجداولِ والأقنيةِ؛ وكانَ يقومُ بهذا العملِ كلّه وحدَهُ راضيًا مغتبطًا لا أُعينُه عليه إلّا بالرأيِ والإرشادِ، لأنّه كانَ يحبّ سيّدتيه حبًّا جمًّا، ويخلصُ لهما إخلاصًا عظيمًا، وربّما كانَ للغرامِ يدٌ خفيّة في ذلكَ النشاطِ الغريبِ المنبعثِ في أنحاءِ نفسه، كما هو الشأنُ في أكثرِ حركاتِ الناسِ وسكَنَاتِهم، فإنّه كانَ مغتبطًا كلّ الاغتباطِ بتلكَ الصلةِ التي نَشأتْ بينه، وبين الزنجيّة «ماري» في العملِ، وبودّه لو استحالتْ إلى صلةٍ أخرى غيرِها أدنى إلى نفسه، وألصقَ بفؤاده، وقد تمّ له بعدَ عامٍ واحد من اتّصاله بها ما أرادَ؛ فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها، فبَنَى بها ليلةَ عيدِ ميلادِ فرجيني وسعدَ بجوارِهَا سعادةً، لا تختلفُ في روحِها وجوهَرِها عن السعادةِ التي يهنأُ بها البيضُ المتمدّنون.

وكانتْ ماري فتاةً نشطةً حاذقةً ذكيّةَ الذهنِ صَناعَ اليدِ، متحلّيةً بكثيرٍ من الصفاتِ الفاضلةِ، وقد استفادتْ في مسقطِ رأسها «مدغشقر» العلمَ ببعضِ الصنائعِ اليدويّة التي يزاولها الناسُ هناك؛ فكانتْ تجيدُ صنعَ السلالِ من لحاء[3] أشجارِ القصبِ، ونسجَ المآزرِ والمطارفِ من خيوط بعضِ الأشجارِ الليفيّة، وكانت تحسنُ القيامَ على خدمةِ المنزلِ، ومناظرتِهِ وترتيبِ أثاثِهِ وتربيةِ الطيورِ الداجنة، وَرَعْيِ الماشية ومزاولةِ الطبخِ والغسْلِ، فإذا فرغتْ من عَمَلِها، حملتْ ما فضلَ عن حاجةِ البيتِ من فاكهةٍ وحبوبٍ - ولم يكن بالشيء

(١) النفاس: فترة الولادة وما يليها.
(٢) الأرض السبخة: ذات التربة المالحة.
(٣) لحاء الشجرة: قشرتها.

الكثير - إلى سوقِ المدينة، فباعَتْهُ فيها، ثمّ عادتْ ببضعةِ دريهماتٍ تعطيها لسيّدتها.

أي أنّ المزرعةَ كان يعيشُ فيها امرأتانِ وطفلانِ وخادمانِ وكلبٌ للحراسةِ وعنزتانِ للّبن وبضعُ دجاجاتٍ للبيضِ، ولا أكثرَ من ذلكَ ولا أقلّ.

وكانَ لا بُدَّ للسيّدتين من أنْ تعملا عملًا يعينُهُما على عيشِهِما، ويروّحُ عنهما سآمة الوحدةِ وملَلَهَا، فكانتا تغزلانِ بياضَ نهارِهما وأحيانًا سوادَ ليلهما على ضوءِ القمرِ، فاستطاعتا أن تجدا رزقَهُما، ولكنْ مقتّرًا مكدودًا؛ فأكلتا الدخن[1] والذرةَ، وشربتا الماءَ الرنق[2]، ولبستا القمصَ البنغاليّةَ الخشنةَ التي يلبسُهَا الإماءُ في هذه الجزيرة. ومشتا على الأرضِ حافيتينِ غير منتعلتينِ، إلّا في اليومِ الذي كانتا تذهبانِ فيه إلى الكنيسةِ في حيّ «بمبلموس» لأداءِ الصلاةِ، وقلّما كانتا تذهبانِ إلى «بورلويس» عاصمةِ الجريرةِ إلّا في الدرجةِ القصوى من الضرورةِ حياءً من نفسيهما، وفرارًا من أعينِ الساخرينَ والهازئين؛ فإنْ فعلتا نالهما من الألمِ والامتعاضِ ما ينغّصُ عليهما يومَهُما، ويستثيرُ كامِنَ حزنهما وألمهما، ولا يزالُ هذا القلقُ يساورُهُما حتّى تعودا إلى مزرعتهما، فإذا أشرفَتَا عليها، ورأَتَا على بعدٍ، منظرَ خادميهما المخلصينِ وهما يهبطانِ إليهما من قمّةِ الجبل ليساعداهما على صعودِه وتسلّقِهِ، وشعرتا بنسيم الحريّةِ العليلِ، يهبّ عليهما، ويمازجُ أنفاسَهُما، نَسِيَتَا في هذا المعزَلِ المنفردِ كلَّ ما لحقَهُمَا وآلم نفسَيْهما من خشونةِ الناسِ وقسوَتِهم وفضولهم وكبريائِهِم، وكأنّما قد نبتَتَا في هذه البقعةِ بين نخيلِها وأشجارِها، ولم تَرَيا طولَ حياتهما بقعةً سواها.

ولقدْ عشتُ في كلِّ جوٍّ وبيئةٍ، وَخالطتُ جميعَ الطبقاتِ والأجناسِ، وعاشرتُ الناسَ أخيارًا وأشرارًا، وأعلياءَ وأدنياءَ، وحضرتُ مواقفَ الحبّ بين المتحابّينَ والصداقةِ بين المتصادقين، فلم أرَ في حياتي منظرًا أجملَ ولا أبهجَ، ولا أحلى في العينِ، ولا أوقعَ في النّفسِ، من منظرِ الحُبِّ والصداقةِ بين هاتينِ السيّدتينِ الكريمتين، حتّى كانَ يُخَيَّلُ إليَّ أحيانًا أنّ نَفْسَيْهما قد استحالتا إلى نفسٍ واحدةٍ، يحملها جسدانِ، وكنتُ إذا حدّثْتُ إحداهما شعرتُ كأنّي أحدّثُ الأخرى معها، وإذا حدثتهما معًا، كنتُ كأنّي أحدثُ نفسًا واحدةً ذاتَ صورةٍ واحدةٍ ولونٍ واحدٍ. فلقد وَحّدَتْ بينهما الهمومُ والآلامُ، ومازَجَتْ بين نفسيهما الوحدةُ والعزلةُ، والفكرة والرأي، والحاجةُ والمصلحةُ، والذكرى المؤلمة والبؤسُ المشترك، فنطقتْ كلٌّ منهما بما نطقتْ به الأخرى، وشعرتْ بما شعرتْ به، وفكّرت فيما فكرتْ فيه، وكأنّ الله تعالى إذ زوى[3] عنهما الأرضَ الفسيحةَ ذاتَ الطولِ والعرضِ، وحرمَهُما فيها نعمةَ العيشِ الهنيّ، أبدلَهُما منها بتلكِ الروضةِ الغنّاءِ من الحبِّ والإخلاصِ، لتعيشا فيها ناعمتينِ هانئتينِ، لا تمرّ بسمائهما غيمةٌ، ولا ترجفُ بأرضهما رجفة.

فإنِ اضطرمتْ بين جوانِحِهما في بعضِ الأحايين نارٌ أقوى من نارِ الصداقةِ وأشدُّ منها لهيبًا

---

(١) الدخن: نبات بريّ له حبّ صغير كحب السمسم. (٢) الرنق: الكدر.

(٣) زوى: أبعد ومنع.

واستعارًا، لا تلبثُ أن تهبَّ عليهما عاصفةٌ من دينِهما وتقواهما، فتلوي بهما عن سبيلِهَا، وتطيرُ بهما إلى العالم الثاني كما تتطايرُ الشعلةُ الملتهبةُ في جوّ السماءِ، إذا فقدتْ مادّتها التي تتغذّى بها على وجهِ الأرض.

وكانَ أعظمُ ما يؤنسُهما، ويروّحُ عنهما، ويمازِجُ بين شعورِهما وإحساسِهما، رؤيةَ طفليهِما الصغيرينِ بين أيديهما يمرحانِ، ويلعبانِ، ويعدوانِ، ويطفرانِ، وينامانِ في مهدٍ واحدٍ، ويستحمّانِ في إناءٍ واحدٍ، ويطيرُ كلٌّ منهما شوقًا إلى صاحبه، إذا فقدَ مكانَهُ وغابَ عنه وجهُه كأنّهما أخوانِ شقيقانِ، بل توأمانِ متشابهان.

وكثيرًا ما كانتْ ترضِعُ إحداهُما ولدَ الأخرى، فتمنحُهُ من عطفِهَا وحنانِهَا ما تمنحُ ولدَهَا، حتّى قالت هيلين مرّةَ لمرغريت: «سيكونُ لكلٍّ منّا ولدانِ ولكلٍّ من ولدينا أمّان».

وكان اجتماعُ ذينك الطفلينِ اليتيمينِ على ثديٍ واحدٍ بعد ما فجعَهُما الزمانُ بأسرتيهما، وحرمَهُما حنانَ أبويهما وعطفَهُما سببًا في نموّهما وترعرُعِهما، وسرورِهما وغبطَتِهما، كالصنوينِ الباقيين من شجرتينِ، قد عصفتِ الريحُ بهما وبأغصانِهما إذا لُقِّحَ أحدُهُما بالآخر أورقا وأثمرا بأبهى وأجملِ ممّا لو بقيَ كلٌّ منهُما في مكانه.

وكانَ يلذُّ لأمّيهما كثيرًا الحديثُ عنهما وعن مستقبلِ حياتهما، وعن اتّصالهما بعقدةِ الزواجِ متى بلغَا أشدَّهُما، كأنّما قد بقيتْ في زوايا قلبيهما بقيّةٌ من ذلك الألمِ الماضي: ألِم حرمانِهما الهناءَ الزوجيّ الذي كانتا تتعللان به في مؤتلفِ حياتهما، فهما تتعلَّلان عنه برؤية ولديهما متمتّعينِ به.

إلّا أنّ حديثَهُما هذا كانَ ينتهي أحيانًا ببكائِهما ونشيجِهما حينما تذكران أنّهما قد أساءتا إلى نفسَيْهما بطموحِ إحداهما إلى منزلةٍ في الحياةِ فوق منزلتها، ونزولِ الأخرى فيها إلى مقامٍ دونَ مقامها، فعاقَبَتْهُمَا الطبيعةُ على تمرّدهما وشذوذِهما بهذا العقابِ المؤلمِ الشديدِ الذي تقاسيانِهِ وتذوقانِ مرارته.

ولكنّهما لا تلبثانِ أنْ تسمَعَا صوتَ طفليهما الصغيرينِ، يبكيانِ في مهدِهِما، ويتناغيانِ، حتّى تعودا إلى سكونهما واستقرارِهما، وتشعرانِ ببردِ العزاءِ، يتدفّقُ في صدريهما، خصوصًا عندما تذكُرَانِ أنّ الهناء الذي فاتهما في ماضيهما لنْ يفوتَ ولديهما في مستقبلِ أيّامهما، وكانتا تقولانِ إنّهما سيقضيانِ حياتَهُما بعيدينِ عن مفاسدِ المدنيّة وشرورِها وتقاليدِها العمياءِ وأوهامِهَا الباطلةِ، فلا ينالُهُمَا من أذاها شيء.



٦ ـ حياة الطفولة

ولمْ أرَ فيما رأيتُ من عجائبِ الأشياءِ وغرائبها أغربَ من تلكَ الصلةِ التي كانتْ بين هذينِ الطفلينِ الساذجين الطاهرين، ولا أعجبَ من ذلكَ الامتزاجِ الذي بينَ روحَيْهِمَا، فإذا شكا بول

شكتْ فرجيني لشكَاته، وإذا بكى لا يخفضُ عبرتَه، ولا يسرّي حزنَه إلّا رؤيتُهَا باسمةً بين يديه، وكثيرًا ما كانتْ تتألّمُ بينها وبين نفسها لبعضِ الشؤون، فلا يدلُّ على ألمها وحزنِهَا إلا بكاؤه ونشيجُه، فكانتْ إذا ألمّ بها أَلَمٌ، طوتْ عليه ضُلُوعها، وكاتَمَتْهُ نفسَها ضنًّا به أن تراهُ باكيًا أو متألمًا.

وما جئتُ هنا مرّةً في شأنٍ من الشؤونِ، إلّا رأيتُهُما معًا يحبوان[1]، أو يدرجانِ، أو يتداعبانِ، أو يتماسكَانِ، أو يستبقانِ إلى غايةٍ، أو يتخاطَفَان لعبةً، فلم يكنْ شيءٌ من الأشياء بقادرٍ على أن يفرّقَ بينهما، حتّى ظلامِ الليلِ ووحشته؛ فقد كانَ لهما مهدٌ واحدٌ ينامانِ فيه معًا عاريين كعادةِ الأطفالِ في هذه الجزيرةِ، وقد تلازما، وتآخذا، وتوسّدَ كلٌّ منهما ذراعَ صاحبه كأنّما يخشيانِ أن يفرّقَ بينهما حادثٌ من حوادثِ الدهر.

وكانَ أولُ ما نطقا به من الكلماتِ كلمتي الأخ والأختِ، وهي كلمةٌ جميلةٌ جدًّا ما خلقَ اللهُ في الكَلِم أجملَ ولا أحلى ولا أشرفَ معنًى ولا أطرَب نغمةً منها، ويزيدُهَا جمالًا وحسنًا صدورُهَا من أفواهِ الأطفالِ الصغارِ كأنّها عهدٌ يأخذونَهُ على أنفسِهِمْ منذُ اليوم أن يكونَ كلٌّ منهم لصاحبه غدًا، أو كأنّها رايةُ السلام البيضاءُ، يرفعونَها على رؤوسهِمْ، ويلوّحونَ بها في الآفاق.

ثمّ أخذتْ تلكَ العلاقةُ الطفليّة البسيطةُ تستحيلُ مع الأيّام إلى صداقةٍ جديّةٍ يشعرُ فيها كلٌّ منهما بحاجَتِهِ إلى الآخرِ وإلى معونَتِهِ ومساعدَتِهِ، فبدآ يشتركانِ في خدمةِ المنزلِ ومناظرةِ شؤونِهِ، ومعاونَةِ أمّيهما فيما هما بسبيلِهِ من طلبِ العيشِ، ومعالجةِ القوتِ كلٌّ فيما هيَّأتْهُ طبيعتُهُ له.

فلحقتْ فرجيني بالزنجيّة «ماري»، تتعلّمُ منها الطبخَ والغَسْلَ والنسيجَ وإعدادَ المائدةِ وتهيئةَ الفراشِ وخياطةَ الملابسِ وصنعَ السلال. إلا أنّها كانتْ تُعْنَى بما يتعلّقُ بأخيها بول قبلَ كلِّ شيءٍ، ولحقَ بول بدومينج يعينُه بفأسِهِ الصغيرةِ التي كانتْ لا تفارقُ عاتِقَهَ على فَلْحِ الأرضِ وحرثِها، وتخطيطِهَا وتقسيمِهَا، وتحويلِ مياهِهَا وقَلْعِ حشائشها، وتسلُّقِ رباها وتقليم أشجارها، فإذا عثرَ في طريقِهِ بزهرةٍ جميلةٍ، أو فاكهةٍ طيّبةٍ، أو طائرٍ في عشّه، أو حشرةٍ في حفرتها، أو سمكةٍ ملوّنة، أو محارةٍ ظريفة، احتفظَ بها في جيبِهِ ليقدّمَهَا هديّةً لفرجيني حينَ يعودُ إليها.

وكانا على اختلافِ شأنِهما واستقلالِ كلّ منهما بعمَلِه عن عملِ صاحِبِه، على اتصالٍ دائم ببعضِهِما، فحيثُ وُجِدَتْ فرجيني، فقد وجد بول معها، أو على مَقْرُبَةٍ منها، أو مُنْحَدِرًا إليها، أو مُشْرِفًا عليها، أو هَاتِفًا بها، ما من ذلك بدّ.

وأذكرُ أنّي كنت منحدرًا ذاتَ يوم من قمّةِ الجبلِ، وكانَ الجوُّ ماطرًا مكفهرًّا، فرأيتُ فرجيني مقبلةً نحو المنزلِ مِنْ أقصَى الحقديقة، وقد رفعتْ إزارَهَا من خلفِهَا، وأسبَلَتْهُ على رأسِهَا لتتّقي به المطرَ المتساقط، فهرعتُ إليها لأساعِدَهَا على المسيرِ، فلمّا دنوتُ منها، رأيتُ أنّ ذلك

(١) حبا الولد: زحف على يديه ورجليه.

الإزارَ الذي يضمّها لا يضمّها وحدَها، بل يضمُّ معها أخاها بول، فنظَرا إليَّ ضاحكينِ متهلّلَيْنِ كأنّهما مغتبطانِ باهتدائِهما إلى تلكَ الفكرةِ الجميلةِ التي استطاعَا بها أنْ يلجآ من ذلكَ الغيثِ المنهملِ إلى ظلَّةٍ واحدةٍ، فذكّرني منظرُهُما هذا، ومنظرُ رأسَيْهِما الصغيرينِ المتلاصقَيْنِ في ذلك الإزار بمنظرِ طفلي «ليدا»، وقد حفرا معًا في محارةٍ واحدة.

وكانتْ حياتُهما بسيطةٌ ساذجةٌ لأنّ ذهنَهُما كانَ بسيطًا ساذجًا خاليًا من مشاغلِ الحياةِ المركّبةِ وهمومِهَا، فلا يفكّرانِ في شأنٍ غيرِ شأنهما ولا يسبَحانِ في محيطٍ غيرِ محيطهما، ولا ينتقلان بذهنِهما من الحاضرِ إلى الماضي أو المستقبلِ، ولا تترامى أبصارُهُمَا إلى ما وراءِ الأفقِ المحيطِ بهما كأنّما يظنّانِ أنّ العالم ينتهي حيثُ تنتهي جزيرتُهُما.

ولقد أراحَهُما من عناءِ البحثِ والتفكيرِ جهلُهُما وأميّتُهما وبعدُهُما عن همومِ العلمِ ومشاغِلِه؛ فلم يُقدَّرْ لهما أن يَسْهَرا ليلهما منكبّينِ على المذاكرةِ والمدارسةِ حتّى يغلبهما النومُ، فيناما في مكانهما، ولم يذرُفَا الدموعَ الغزارَ يومًا من أيّامِهما أمامَ معضلةٍ من معضلاتِ العلمِ، أو مشكلةٍ من مشكلاتِه، حتّى تتقرّحَ أجفانهما، ولم يُثِرْ غيظَهُما وحَنَقَهُما عجزُهُما عن التغلّبِ على خصومِهِمَا في ميدانِ المجادلةِ والمناظرةِ، حتّى تنشقَّ مرارتُهُما غيظًا وحنقًا، وما شعرا في ساعةٍ من ساعاتِ حياتِهما بحاجتِهما أن يعرفَا غيرَ ما يعرفانِ، لأنّهما يعلمانِ أنّهما ما خُلِقا إلّا ليعيشا سعيدينِ هانئينِ، وها هي السعادةُ تظلّلُها بأجنحَتِها البيضاء، وتتدفّقُ بحرًا زاخرًا تحتَ أقدامهما، وإلّا ليؤدّيا واجبَ الحبّ والإخلاصِ لذينِكَ الشخصينِ الكريمينِ عليهما، وها هما يقومانِ بهذا الواجبِ بأفضلِ ما يقومُ به عبدٌ لسيّده، بل عابدٌ لمعبوده.

فما بهما من حاجةٍ إلى من يعلّمهما أنّ الكذبَ حرامٌ لأنّهما لا يكذبانِ، ولا أنّ السرقةَ جريمةٌ لأنّ جميعَ ما يقعُ تحتَ متناولِ يدهما ملكٌ مشتركٌ للجميعِ ليسَ أحدٌ أولى به مِنَ الآخر، ولا أنّ الجشعَ رذيلةٌ لأن ما يشتملُ عليه كوخُهما بسيطٌ محدودٌ لا يحتملُ جشعًا ولا نهمًا، ولا أنّ البرَّ بالوالدين واجبٌ، لأنّهما كانا يعبدانِ أمّيهما عبادةً هي فوقَ البرِّ والإحسان، ولا أنّ الصلاةَ فريضةٌ لأنهما، وإن لم يذهبا إلى الكنيسةِ إلّا قليلًا، فقد كانا يصلّيانِ في كلّ أرضٍ وفي كلّ جوٍّ: في البيتِ والمزرعةِ، والقمّةِ والرابيةِ، والسهلِ والجبلِ، وفي بكورِ الأيّام وأصائِلِها، وأوائِلِ الليالي وأواخِرِها.

* * *

وكذلكَ أشرقت حياتُهما الأولى إشراقَ الفجرِ المنيرِ في صفحةِ الأفقِ مبشّرًا بيوم صحوٍ جميلٍ، وأخذتْ تمرّ بهما الأيّامُ عذبةً صافيةً جريانَ الغديرِ المترقرقِ على بياضِ الحصباءِ سواءٌ ليلُها ونهارها، وصبحُها ومساؤُها.

وكان من شأنِ فرجيني أن تستيقظَ صباحَ كلِّ يومٍ مبكّرةً، والطيرُ لم يفارقْ وكرَهُ، فتحملُ جرّتها، وتذهبُ إلى نبعٍ صافٍ كان على بعد مرحلةٍ من المزرعةِ فتستقيَ منه، ثمّ تعودُ، فتجلسَ

لتهيئةِ طعامِ الإفطارِ، حتّى إذا برزتِ الشمسُ من خِدْرِها، وأخذتْ تنفضُ بيدِها غبارَ الظلامِ عن وجهِ الأرضِ، وتمسَحُ جبينَ الطبيعةِ المكتئبِ بريشةِ أشعّتِها الذهبيّة، أقبلتْ مرغريت من كوخِهَا، هي وولدُها، فتبادلوا جميعًا تحيّةَ الصباحِ، ثمّ اصطفّوا لأداءِ الصلاةِ، وبسطوا أيديهم إلى السماءِ ضارعينَ إلى الله تعالى أن يكلأَهُم بعينِ رعايتِهِ، ويبسطَ عليهم جناحَ رحمتِهِ، وأن يهيّءَ لهم من أمرِهمْ رشدًا، فإذا انتهوا من صَلَاتهم خَرَجُوا خارجَ الكوخِ لتَنَاوُلِ الطعامِ على مائدِةِ من العشبِ الأخضرِ تحتَ ظلّةٍ دانيةٍ من الأغصانِ المتشابكةِ تتساقَطُ عليهم قِطَعُ النورِ من فجواتِهَا كأنّها النثارُ الفضيّ اللّامع.

فكانَ أثرُ ذلكَ الغذاءِ الطبيعيِّ البسيطِ تحتَ هذه السماءِ الصافيةِ، وفوقَ تلكَ الأرضِ النديّةِ المخضلّة عظيمًا في نموّ الولدينِ وترعرعهما، ونضرةِ وجوهِهِما وحلاوةِ ملامِحِهما، فلم تبلغْ فرجيني الثانيةَ عَشْرةَ من عُمُرِها حتّى استقامَ عودُها، واعتدلَ قوامُها وتهدّلَ شعرها الأصفرُ اللامعُ على كتفَيْهَا كأنّما قد نسجَ من خيوطِ اشمسِ، وأضاءتْ عيناها الزرقاوانِ بنورٍ سماويٍّ غريبٍ كأنّه قبسٌ من النورِ الإلهيّ؛ فإن ابتسمتا، كانتا كأنّهما ثغرانِ ضاحكانِ، وإن قطبتْ، سَبَحَتَا وحدَهُما في جو السماء، حتّى تلتقيَ زرقتُهُما بزرقَتِهَا.

أمّا بول فقد كانتْ قامَتُه أطولَ قليلًا من قامةِ فرجيني، ونظرُه أحدَّ من نَظَرِها، وأنفُه أكثر شممًا من أنفِهَا، ولونُه أقربَ إلى السمرةِ من لونِها، أي أنّ ملامِحَه كانت تذهبُ مذهبَ الرجولةِ في تكوينها واستدارَتِها، وكانتْ تنبعثُ من عينيهِ نارٌ من القوّةِ والنشاطِ تكادُ تلتهبُ التهابًا لولا تلك الأهدابُ النديّة الحافّةُ بهما.

وكان لا يزالُ ثائرًا مهتاجًا ما يهدأُ، ولا يسكُنُ، حتّى تُقْبِلَ عليه فرجيني، وتجلسَ بجانبِهِ، فإذا هو الطفلُ الصغيرُ بساطةً وسَذاجةً، ووداعةً ولطفًا.

وكثيرًا ما كانا يجلسانِ معًا صامتينِ هادئينِ ساعاتٍ طوالًا على ضفّة نهرٍ، أو حافّةِ ينبوعٍ، أو ربوةٍ عاليةٍ، أو قمّةٍ مشرفةٍ، وقد اضطجعَ كلّ منهما بجانب الآخرِ ومدّ قدميه العاريين فكأنهما تمثال رخاميّ عتيقٌ من تماثيل أولاد «بينلوب»،[1] وكأنَّ حياتَهُما حياةُ الملائكةِ الأبرارِ في عالمها العلويّ، لا تشعرُ بحاجتها إلى الحروفِ والكلماتِ في التَعبيرِ عن شعورِهَا وإحساسِهَا.

وَلِمَ يتكلّمانِ وقد قامتْ لهما نظراتُهما المتمازجةُ، وابتساماتُهُما المتماوجةُ مقامَ الألسنةِ في نطقِهَا وإفصاحِهَا، ولم يكن حبّهما حبًّا صناعيًّا، ولا متكلّفًا فيحتاجا إلى استدامته واستبقائه وتأريث[2] نارِه في قلبيهما بالملقِ والدهانِ، والتدليلِ والترفيهِ، وخلابةِ الألفاظِ وسحرِ البيان، لا بلْ لو سُئِلَ أحدُهما عن الحُبِّ وتعريفِهِ وصفاتِهِ لما استطاعَ أن يجيبَ بشيءٍ لأنّه لا يفهَمُ من الحبّ سوى أنّه حاجةٌ إلى بقاءِ صاحبِهِ بجانبِهِ لا يفارقُهُ، ولا يغيبُ عن وجهِهِ، ولا يزيدُ على

(١) بينلوب: زوجة عولس أحد أبطال اليونان في عهدها القديم.

(٢) أرث النار: أوقدها.

ذلكَ ولا ينقصُ شيئًا، ولقد استقرَّ هذا الشعورُ في نفسَيْهِما، ومَلَكَ عليهما حواسّهُما، وخوالِجَهما فلم يفكّرا في تشخيصِهِ وتحديدِه، واستعراضِ صُوَرِه وألوانه؛ فكانَ أشبهَ شيءٍ بالإيمانِ في قلوبِ العجائز، والإلهامِ في أنفسِ الحيوانِ، والعبقريّة في أذهانِ الخاملينَ المغمورين، فهما ينعمانِ بحبٍّ هادىءٍ لَطيفٍ لا جَلَبَةَ فيه ولا ضوضاءَ، ولا تجاذُبَ ولا تَآخُذ، ولا شكوى، ولا عتابَ، ولا سهرَ، ولا قلقَ، ولا خوفَ من الطوارقِ، ولا خشيةَ من الفواجىء.

إلّا أنّ هيلين، وقد رأتْ فتاتَهَا تنمو وتترعرعُ، ويتلألأُ وجهُهَا بتلكَ المحاسنِ الباهرةِ، بدأتْ تفكّرُ في أمرِهَا وأمرِ مستقبَلِهَا، وتقولُ في نفسِها: ماذا يكونُ مصيرُ هذه الفتاةِ المسكينةِ غدًا إن عَدَتْ عليَّ عوادي الدهر[1]، وفرّقتِ المنيّةُ بيني وبينهما، وخلّفَتْهَا وحدَهَا هنا في هذه القفرة المجدبة بين هذه الخلائقِ الغريبةِ وحيدةً منقطعةً لا سَنَدَ لها ولا معين؟

وكانتْ لها في فرنسا عمّةٌ ثريّةٌ ثراءً واسعًا، إلّا أنّها كانتْ امرأةً متكبّرةً تيّاهةً شديدةَ الذهابِ بنفسها، مدلّةً بجاهِهَا ونفوذِها، مشرّدةً في آرائِها وأفكارِها، فنقمتْ عليها أشدَّ النقمةِ لاتّصالها بذلكَ الفتى الفقيرِ الذي اختارَتْهُ زوجًا لها، واعتبرتْ حادِثَتَهَا هذه نكبةً من أعظمِ النكباتِ التي حلّتْ بها وبأسرَتِها، فأبتْ أن تغفرَ لها زلّتُها، وأنّ تمدَّ لها يدَ المعونةِ عندما عزمتْ على السفرِ إلى هذهِ الجزيرةِ، واستهانتْ بدموعِهَا وآلامِهَا، وضراعَتِهَا ومُنَاشَدَتِهَا، فسافرتْ وقد آلتْ على نفسِهَا أنْ لا تلجأ إليها في شأنٍ من شؤونِ حياتِهَا ما تَرَدَّدَ لها نَفَسٌ على وجهِ الأرض.

أمّا الآنَ، وقد أصبحتْ أمًّا، يَعْنيها من أمْرِ فَتَاتِها ما يعني الأمّهاتِ من أمرِ فتياتهنّ، فلمْ ترَ بدًّا مِنْ أنْ تحملَ نفسها على ذلكَ المكروهِ الذي عافَتْهُ برهةً من الزمانِ، فكتبتْ إلى تلكَ العمّةِ القاسيةِ كتابًا طويلًا أفْضَتْ إليها فيه بخواطِرِ نفسها ووساوِسِ قلبهَا، وقصّتْ عليها قصّةَ حضورِها إلى هذه الجزيرةِ، وما كانَ من وفاةِ زوجِها على أثرِ حضورِها وحياتِها الشقيّةِ التي كانتْ تَحياها الآنَ من بعدِه وحيدةً منقطعةً لا ناصرَ لها ولا معينَ، وظلّت تحدّثُها حديثًا طويلًا عن ابنَتِها وما تخشاهُ عليها في مستقبلِ حياتِها إنْ نَشَبَ بها ظفرٌ جارحٌ من أظفارِ الدهرِ، وفرّقتِ المنيّةُ بينها وبينها، ثمّ قالتْ في خِتَام كتابها:

«إنْ كنتِ ترينَ أنّني لا أزالُ مذنبةً بعد ذلكَ، وأنّ تلكَ الدموعَ السخيّة التي رويتُ بها ثرى الأرضِ اثني عشرَ عامًا، لا تكفي لمحوِ زلّتي من صحيفةِ أعمالي، فارحمي هذه الفتاةَ المسكينةَ مِنْ أجلِهَا لا مِنْ أجلي فهيَ حفيدةُ أخيكِ وغصنُ دوحتك[2]، والبقيّة من أسرتك».

لبثتْ تنتظرُ ردًّا على كِتَابها، فلم يأتِها، فأَتْبَعَتْهُ بآخرَ، ثمّ بآخر، وضَرَعتْ في ذلكَ ضراعةً، لم يكنْ مثلَها مما يهونُ على مثلِهَا لولا عاطفةُ الأمومةِ ورحمَتُها، حتّى كانت سنة ١٧٣٨ أي بعد قدومِهَا هنا باثني عشرَ عامًا وبعدَ مرورِ ثلاثِ سنواتٍ على قدوم مسيو «دي لا بوردنيه» حاكمًا على الجزيرة إذ علمتْ أنّ ذلك الرجلَ يسأل عنها ليسلّمها كتابًا وردَ عليها من عمّتها،

---

(١) عوادي الدهر: مصائبه. (٢) الدوحة: شجرة تسمو وتطول.

فاستطيرتْ فرحًا وسرورًا، وعلمتْ أنّ أيّام شقائها قد انتهتْ، وأن الله رحَمَها، ورثيَ لبؤسِهَا وشقائها، وهرعَتْ إلى «بورلويس» لمقابلتِهِ، فدخلتْ عليه في ذلكَ الثوبِ البنغاليّ الخشنِ الذي اعتادتْ أن تلبسَه في بيتِهَا غيرَ حافلةٍ بشيءٍ إلّا تلكَ السعادةِ التي ستقدّمها عمّا قليلٍ لابنَتِها. فاستقبَلها الرجلُ استقبالًا جافًّا خشنًا، وهي المرأةُ الشريفةُ الطاهرةُ التي تغضى العيونُ بين يديها إجلالًا وإكبارًا، والبائسةُ المسكينةُ التي تهابُها النفوسُ مرثاةً لها، ومرحمةً لبؤسِهَا وشقائِها، ولم يزدْ على أنْ أومأ إليها برأسه إيماءةً خفيفة، ثم تقدّمَ نحوها بعظمةٍ وكبرياءٍ وأعطاها كتابَها.

فاختطفَتْه من يدِهِ، وأنشأتْ تقرأُه بلهفةٍ وسرورٍ، إلّا أنّها لم تقرأ منه بضعةَ سطورٍ، حتّى امتقع[1] لونُها، وارتعشتْ يدُهَا، وترنّحت في مكانِها تَرَنُّحَ الشاربِ الثمل[2]، فقد كتبتْ إليها عمّتُها تؤنّبها وتقرّعُهَا تقريعًا مؤلمًا مهينًا، وتشمَتُ بها وبمصيرِها، وتقول لها: هذا جزاءُ تمرّدِكِ وعصيانِكِ وخروجِكِ عن أهلِكِ وقومِكِ وانقيادِكِ إلى شهوتِكِ البهيميّة واسترسالِكِ فيها استرسالًا دفَعَ بكِ إلى أحضانِ ذلك الفتى الوضيعِ المهينِ الذي لا يليقُ به أن يحلّ سيورَ حذائك حتى جلبتِ على نفسِك وعلى أهلِكِ العارَ الذي لا يُمحى، ولقد أحسنتِ كلَّ الإحسانِ بمغادرتِكِ هذه البلادَ، وفرارِكِ إلى تلكَ الجزيرةِ النائيةِ المنقطعةِ لتدفني فيها نفسَكِ وعارَكِ إلى الأبد، وما موتُ زوجِكِ، وولادةُ ابنتِكِ، وشقاءُ عيشِك، والوساوسُ التي تعتلجُ في صدرك خوفًا على فتاتك وعلى مستقبلها، إلا عقوبةٌ أنزلَها اللهُ بك ليمحص[3] عنك ذنوبك، ويمهّد لك سبيلَ غفرانِ سيئاتِكِ، فاصبري، ولا تجزعي حتّى يقضيَ الله قضاءَه فيكِ.

ثم أنشأتْ تُدِلُّ عليها بنفسها، وتفاخِرُهَا بعفّتِها وطَهَارَتِها، وترفُّعِها وإبائها، وأنّها قضت أيّامَ حياتِها عانسًا متبتّلةً، ما تزلقُ بها شهوتُها في هوّةٍ من تلك الهوى التي تزلقُ فيها أقدامُ النساء الجاهلاتِ، ولا تُسْلِمُ قيادَها إلى رجلٍ من الرجالِ كائنًا من كان ضنًّا بحريّتها أنْ تعبثَ بها أيدي المطامعِ والأهواء.

وكانتْ كاذبةً فيما تقولُ، فهيَ امرأةٌ دميمةٌ شوهاءُ غريبةُ الأخلاقِ والأطوارِ، ليسَ لها من المزايا إلّا ثروتُها الطائلة وجاهُهَا الواسعُ ومكانَتُها من البلاطِ الملكي. وكان كبرياؤُها الكاذبُ يأبى عليها إلّا أن تتزوّج من رجلٍ من ذوي البيوتاتِ العظيمةِ والألقابِ الضخمة، وليس من هؤلاءِ جميعًا من يرضى أن يبيعَهَا نفسَه بيعًا مهما بلغَ منْ رقّة الحالِ وشظفِ العيش، ولم يزلْ هذا شأنَها حتّى تجاوزتْ سنّ الزواجِ، وضاعتْ بين سخافَتِها وكبريائها.

ثمّ ختمتْ كتابَها بقولها «لا بُدّ لكِ أن تعملي لنفسِك، فقد علمتُ أنّكِ في جزيرةٍ صالحةٍ للعملِ والاستثمار، وأنَّ جميعَ المهاجرينَ الذين يؤمّونها، يعودونَ منها بالثروةِ الطائلةِ والربحِ

---

(١) امتقع اللون: تغيّر من حزن أو خوف أو مرض. (٢) الثمل: السكران.

(٣) محص: خلّص من الغش والعيب.

الكثيرِ، على أنّني قد كتبتُ إلى مسيو دي لا بوردنيه حاكمِ الجزيرة، أوصيهِ بكِ خيرًا، فاعتمدي عليه وعلى معونَتِه، ولا تكتبي إليَّ بعدَ اليوم.

وكانتْ صادقةً في كلمَتِها هذه؛ فإنّها كتبتْ إلى ذلكَ الرجلِ كتابًا توصِيهِ بها فيه؛ إلّا أنّها ملأَتْهُ بذمِّها وثَلْبِهَا[1] والاستطالةِ عليها في عرضِهَا وشرفها كأنّها تتلمّسُ لنفسِهَا عذرًا عندَهُ في قسوتها عليها وعنفِهَا بها وضنّها عليها بالمعونةِ والمساعدة.

فكانَ من أثرِ ذلكَ في نفسِه أن ازدَرَاها، واحتقَرَها، وتجهّمَ لها حينَ رآها ثمّ ودّعها بمثلِ ما استقبَلَها به لم يسألها عن شأنٍ من شؤونها، ولم يمنَحْهَا غيرَ وعودٍ كاذبةٍ كان ينطقُ بها بلهجةٍ جافّةٍ خشنةٍ مملوءةٍ ضجرًا وملَلًا، فكأنّما أوصَتْهُ بقَتْلِهَا والقضاءِ عليها.



٧ ـ العزاء

عادتْ هيلين إلى المزرعةِ ونفسُها تسيلُ لوعةً وأسًى، فما بلغتْ كوخَهَا حتّى ألقتْ بالكتابِ على المنضدةِ، وتهافَتَتْ على سريرِها باكيةً منتحبةً، فهرعتْ إليها صديقتُهَا تسألها ما شأنُها، فأشارتْ إلى الكتاب، وقالت: ها هي ذي خلاصةُ حياتي من أوّلها إلى آخرِها، ولم تكنْ مرغريت تحسنُ القراءةَ فأتتها بالكتابِ، فأنشأتْ تقرأه عليها وفؤادُها يتمزّقُ لوعةً وأسًى، فقاطَعَتْهَا مرغريت وأقبلتْ عليها تقولُ لها: متى تَخَلّى اللهُ عنّا يا هيلين فنلجأَ إلى الناسِ في شؤوننا، ونعتمدَ عليهِمْ في رزقِنا، ونحنُ أغنياءُ عنهم بما هيّأَ اللهُ لنا من القوتِ في هذه الجنّةِ الصغيرةِ التي نعيشُ فيها، فما فينا مَنْ يشكُو جوعًا، أو عطشًا، ولا من يمشي عارِيًا أو حَافِيًا، ولا من يبيتُ مغتمًّا أو محزونًا، فَروِّحِي عن نفسِك؛ فاللهُ أرحمُ بكِ وبنا من الأقاربِ والأصدقاءِ، ثمّ عجزتْ عن امتلاكِ نفسِها ومتابعةِ حديثِها، فاختنقَ صوتُها بالبكاءِ، فتهافَتَتْ هيلين على عنقِهَا، وضمّتْهَا إلى نفسِهَا، وظلّت تقول لها: آه يا صَديقتي! آه يا صديقتي.

وكانت فرجيني واقفةً بجانبها، فأثّر في نفسها هذا المنظرُ المحزنُ؛ فاستعبرتْ باكيةً، وظلّتْ تتناولُ يدَ أمّها مرّةً ويدَ مرغريت أخرى، فتقبّلُهما وتبلّلهما بدموعِهَا وتقول لهما: أرجو أنْ لا يكونَ ذلك من أجلي؛ فبكى لبكائِها الزنجيّانِ وكانا واقفينِ عند البابِ واشتدّ نحيبُهُما ونشيجُهُما؛ أما بول فقد عَصَفَتْ في رأسِه عاصفةُ الغضَبِ، وظلّ يضربُ الأرضَ بقدميهِ، ويشيرُ بيديه متهددًا متوعّدًا، لا يعلمُ من يهدّدُ، ولا من يتوعّدُ، ولا على أيّ رأسٍ من الرؤوسِ يُرسِلُ صاعقةَ غَضَبه، لأنّه لم يفهمْ ممّا كانَ شيئًا، فكانَ هذا المأتمُ الغريبُ في تلكَ الساعةِ الرهيبةِ مظهرًا من مظاهرِ الإخلاصِ والولاءِ بين قومٍ جَمَعَتْهُم جامعةُ البؤسِ والشقاءِ، ووحّدت

(١) ثلب: لام وعاب.

بين قلوبهم الهمومُ والآلامُ، واجتمعتِ القلوبُ على شيء هو أجمعُ لشَمْلِهَا، وأوثقُ لرباطِها من اجتماعِها حولَ مواقفِ الهمومِ والأحزانِ، فَسُرِّيَ[١] عن هيلين قليلًا، وضمّت بول وفرجيني إلى صدرِها وقالتْ لهما: إنّكما، وإنْ كنتُما يا ولديَّ سببَ أحزاني وآلامي، ولكنّ الشقاءَ لم يأتني منكُما. فلم يفهما شيئًا ممّا تقول، ولكنّهما علما أنّها قد هدأتْ، وسكنتْ، وأنّها تبتسمُ لهما، فاعتنقاها وقبّلاها.

وما لبثوا جميعًا أن عادُوا إلى سرورِهم وغبطتِهم ولعبِهم ومرَحِهم.

وكانت تلكَ الحادثةُ أشبهَ شيءٍ بسحابةٍ اعترضتْ وجهَ الشمسِ ساعةً، ثمّ اضمحلّت.

❃ ❃ ❃

٨ ـ الاستعمار الأوروبي

مضتْ على ذلكَ أيّامٌ والولدانِ ينموانِ في جوّهما نموَّ النباتِ المحيطِ بهما وينمو معَهُما طِيبُ أخلاقِهما وحُسْنُ سجاياهما؛ فبينا فرجيني جالسةٌ في الكوخِ ذاتَ يومٍ تهيّئُ طعامَ الإفطارِ لأسرَتها كعادَتها، والشمسُ لا تزالُ في خدرِها، وأمّاها قد ذهبتا مع دومينجَ لأداءِ صلاةِ الأحدِ في كنيسةِ «بمبلموس»، وبول في الحديقةِ يشذّبُ بعضَ أشجارها، وماري وراءَ الكوخِ تشتغلُ ببعضِ شؤونها، إذ دخلتْ عليها زنجيّةٌ مسكينةٌ آبقة[٢] كأنّها الهيكلُ العظميّ نحولًا وهزالًا ليس عليها من الثيابِ إلّا خرقةٌ باليةٌ تدورُ بحقويها[٣].

فجَثَتْ على ركبتَيها بينَ يديها باكيةً منتحبةً، وأنشأتْ تقول لها: الرحمةَ يا سيّدتي فإنّي أكادُ أموتُ جوعًا، وقد مرّ بي يومانِ، وأنا أجوبُ هذه الأحراشَ والغاباتِ، أتوارى مرّةً، وأظهرُ أخرى، وأقتاتُ كلَّ ما هو فوقَ الترابِ مخافةَ أن تَقَعَ عيونُ بعضِ الفضوليّين من الصيّادين، فيعيدوني إلى سيّدي، والموتُ أهونُ عليَّ من أنْ أعودَ إليه، فهو رجلٌ قاسٍ غليظٌ، لا يزالُ يجلدُني، ويمزّقُ لحمي بسوطِه كلّما بدا له أن يفعلَ ذلك، ثمّ كشفَتْ ثوبَها عن جسمِها وأشارتْ إلى مواضِع الضربِ منه، فإذا خطوطٌ حمراءُ ملتهبةٌ لا يستطيعُ نظرُ الناظرِ أن يثبتَ أمامَها لحظةً واحدة. ثمّ قالت: ولقد حدّثْتُ نفسي كثيرًا بالانتحارِ، فما كان يمنعني منه إلّا الخوفُ والجزَعُ، ثمّ سمعتُ الناسَ يتحدَّثونَ عنكُم حديثًا حسنًا، ويقولونَ إنّكم، وإنْ كنتُم من هذا الجنسِ الأبيضِ المخيفِ، ولكنّكُم قومٌ محسنونَ راحمونَ، فأضرعُ إليكِ يا سيّدتي، أن ترحميني وتعودي عليَّ بلقمةٍ أتبلّغ[٤] بها، وأن تحولي بيني وبين الشقاء.

وهنا اشتدّ بكاؤُها ونحيبها، فأوتْ[٥] لها فرجيني، ورقّتْ لها رقّةً شديدةً، ونهضتْ إلى

---

(١) سُرِّيَ الهمّ: زال وانكشف.
(٢) الآبقة: الهاربة من مولاها.
(٣) الحقو: الخصر.
(٤) تبلّغ بالطعام: أكل منه مقدار حاجته.
(٥) أوى له وإليه - بالقصر -: رحمه ورثى له.

الطعامِ الذي كانتْ أعدّتْهُ لأسرَتِها فأتَتْهَا به، فالتهمَتْهُ في لحظاتٍ قليلةٍ، وأخذَ وجهُهَا يتطلّقُ فرحًا وسرورًا، فقالت لها فرجيني: أتحبّين أن أذهبَ معكِ إلى سيّدك، وأشفعَ لكِ عنده علّه يعفو عنك ويرحَمُكِ، ويكونُ لكِ في مستقبله خيرًا منه في ماضيه؟ وما أحْسَبه إلّا فاعلًا حين يرى بؤسَكِ وشقاءَك ومنظَر جسمِكِ المعذبِ المقروحِ، فشكرتْ لها الجاريةُ فضلَهَا ورَحْمَتَها، وقالت لها: سأتبَعُكِ يا سيّدتي، حيثُ شئت فأنتِ ينبوعُ الرحمة والإحسان.

فهتفتْ فرجيني ببول، فحضرَ، فحدّثَتْهُ حديثَ الجاريةِ، والرأيَ الذي رأته لها، فوافَقَهَا على رأيها، واقترحَ عليها أن يرافِقَهَا في رحلتها. ثمّ سارا معًا، والجاريةُ تتقدّمهما، وتخترقُ بهما الغاباتِ والأجماتِ في ممرّاتٍ مستدقّةٍ غامضةٍ تعرفُهَا، وكانتْ تعترضُهُما في مسيرهما بعضُ هضباتٍ عاليةٍ كانا يجدانِ مشقّةً عُظْمى في تسلّقِهَا حتّى أشرَفَا وقتَ الظهيرةِ على ضفّةِ النهرِ الأسودِ حيثُ مقامُ الرجلِ، فانحدرا إليهِ، وهناكَ شاهدا أبنيةً عظيمةً فخمةً تحيطُ بها حدائقُ غناء وأدواحٌ ملتفّة ومزارعُ منبسطةٌ وعبيدٌ كثيرون منتشرونَ في كلّ مكانٍ يحرثونَ ويحصدون، ويحفرونَ، وينقبونَ، ويخوضونَ الأوحالَ، ويَحْمِلونَ الأثقالَ ويَقْطَعونَ الصخورَ، ولمحا صاحبَ المزرعةِ يتمشّى بينهم مشيةَ الخيلاءِ و«غليونه» في فَمِهِ ينفثُ منه الدخانَ، وبيده عصا خيزرانٍ طويلةٌ، وهو رجلٌ طويلُ القامةِ مهزولُ الجسم، غائرُ العينينِ مقطّبُ الجبين، كأنّما قد جثمتْ روحُه الشريرةُ بين عينيه، واستعدّتْ للوثوبِ على كلّ من يدنو منها.

فارتاعتْ فرجيني لمنظرِهِ المرعبِ المخيفِ إلّا أنّها لم تجدْ بدًّا من التقدّم، فَمَشَتْ نحوه خائفةً مضطربةً، تعتمدُ على يدِ بول، والجاريةُ من خلفِهما تتبعُهُما حتّى بلغَتْهُ، فَجَثَتْ بين يديهِ وأخذتْ تضرعُ إليه أن يعفوَ عن جاريتِهِ المسكينة، ويرحَمَها، وتناشدُه الله والكتابَ في ذلك.

فلم يكترثْ في مبدأ أمرِه لمنظرِ فتًى وفتاةٍ فقيرينِ زريّين في ملبسِهما وهيأتِهما، إلّا أنّه لما وَقَع نظره على فرجيني ورأى منظَرَها البديعَ الجذّاب، وشعرَهَا الأصفَر الذهبيَ المسترسلَ على ظهرها، وتلكَ العصابةَ الزرقاءَ التي تدورُ بجبينِها الأبيضِ المشرق، ورأى ماءَ الحياةِ يترقرقُ في وجهَها تَرَقْرُقَ الطلِّ في ورقاتِ الوردِ، وسمعَ صوتَهَا الرخيمَ المتهدّجَ[1] كأنّه ينبعثُ من آلةٍ موسيقيّةٍ شجيّةٍ، بهتَ رشدُه، وأخرجَ غليونَه من فمِهِ، وابتسمَ ابتسامةً نكراءَ، وتقدّمَ نحوَهَا قليلًا، وألقى عليها نظرةً فاجرةً مريبةً، وقال لها: قد عَفَوْتُ عنها أيّتها الفتاةُ الجميلةُ لا من أجلِ اللهِ، ولا من أجلِ الكتابِ، بل من أجلِكِ أنت.

فأشارتْ فرجيني إلى الجاريةِ أن تتقدّمَ، لتشكُرَ لسيّدِها نعمَتَهُ وفضله. ثمّ انكفأتْ راجعةً تركضُ رَكْضَ الهاربِ، وبول يتبَعُها، حتّى ارتقيا الجبلَ الصغيرَ الذي هَبطَا منه وجَلَسا تحتَ دوحةٍ من أدواحِهِ يستريحان، وكان التعبُ قد نالَ منهما منالًا عظيمًا، فقد قَطَعَا في ذلكَ اليومِ خمسةَ فراسخَ في أرضٍ صخريّةٍ وعرةٍ لا يستريحان فيها، ولا يهدآن ولا يتبلغان[2] بطعامٍ. ولا

(١) المتهدّج: المرتعش، المتقطّع.
(٢) تبلغ بالشيء: اكتفى به وقنع.

شرابٍ، فقال بول لفرجيني: ها قد مالَ ميزانُ النهارِ، وبينَنَا وبينَ مزرعتنا مفازةٌ[١] منكرةٌ لا أحسَبُ أنّنا نستطيعُ قَطْعَهَا قبل الغروبِ، وليسَ في هذه البطحاءِ المحيطةِ بنا شجرةٌ واحدةٌ ذاتُ ثَمرٍ صالحٍ نطعمُهُ، أو ننقعُ ظمأنا بعصارَتِه، وأنتِ ظامئةٌ جائعةٌ لا طاقةَ لكِ بالصبرِ على ذلكَ أكثرَ ممّا صبرتِ، فخيرُ لنا أن نعودَ إلى مزرعةِ مولى الجاريةِ، ونطلبَ إليه أن يمدّنا بشيءٍ من الطعامِ والشرابِ، وما نَحْسَبُهُ ضانًا علينا بهما.

فوجمتْ فرجيني، وقالت: لا يا بول. إنّ هذا الرجلَ قد ملأَ قلبي خوفًا ورُعْبًا، وما أحبُّ أنْ أرى وجهه مرّةً أخرى، واذكر تلكَ الكلمةَ التي كانتْ تقولها لنا أمّي دائمًا «إنَّ خُبْزَ الأشرارِ يملأُ الفمَ حصًى». فلنمضِ في سبيلِنا، وما أحسبُ أنَّ اللهَ يخذلُنا، أو يتخلّى عنّا.

قال: وما العمل؟ والشِقَّةُ[٢] بعيدةٌ، والمنالُ وَعْرٌ، والأرضُ قاحلةٌ جدباءُ لا ماءَ فيها، ولا ثمرَ، ولا شيءَ مما يتبلّغُ به المتبلّغُ، أو يتعلّل به الظامىء؟

قالت: إنّ اللهَ الذي يسمعُ زقزقةَ العصفورِ الصغيرِ في عشّهِ فيرسلُ إليه الحبّةَ التي تشبعه، سيسمعُ دُعَاءَنا، ويردّ لهفتنا، وما ذلكَ عليه بعزيزٍ.

ثمّ سارا في طريقِهما فما أبعدَا إلّا قليلًا حتّى سَمِعَا خريرَ ماءٍ على البعدِ فانتعشَا وصاحَا بصوتٍ واحد: إنّ ههنا ماءً. وتبعا الصوتَ حتّى وصلا إلى صخرةٍ عظيمةٍ عاليةٍ ينفجرُ من صدوعِها ماءٌ زلالٌ رقراقٌ كأنّه ذوبُ البلّورِ في شفوفِه ولمعانِه، فَشَربا منه حتّى ارتويا، ووجَدَا من حولِهِ بعضَ الأعشابِ التافهةِ فأصابا منها قليلًا، ثمّ جلسا في مكانِهِمَا.

وإنّهما لكذلكَ إذْ لمحا على البُعدِ نَخْلةً سامقةً من نخيلِ الجوز، والجوزُ أنواعٌ كثيرةٌ متعدّدةٌ، وهذا النوعُ منها دقيقٌ مستطيلٌ لَا يزيدُ حجمُ ساقِهِ عن حجم ساقِ الإنسان إلّا قليلًا، وربّما ذهبَ في الهواءِ ستّينَ قدمًا أو أكثرَ، وله في شعفاتِه[٣] لفائفُ ضخمةٌ متراكمةٌ أشبهُ بلفائفِ الكرنبِ تحملُ في جوفها طَلْعًا أبيضَ ناصعًا حلوَ الطعمِ جيّدَ الغذاء.

فاتّجها بها إذْ رأياهَا، وهُرَعَا إليها، وكانا بينَ أن يَصْعَداها، وهو ما لا سبيلَ إليه، أو يقطَعَاها، وهو ما تَعْيَا به قوّتهما، لأنّ جذعَها على رقّته، ونحافَته مؤلّفٌ من خيوطٍ ليفيّة متداخلةٍ متينةِ النسيجِ، سميكةِ القشرةِ، تعيا بها الفؤوسُ القاطعة، فلم يبقَ أمامَهُما إلّا أنْ يحرقَاها فتهويَ بينَ يديهما، فيظفرا بثَمرِها، ولم يكنْ لديهما نارٌ، ولا شيءٌ مما تقتدحُ به النار، وليسَ في تلكَ المدرةِ[٤] جميعها، على كثرةِ صخورِهَا وأحجارِها، واختلافِ صُوَرِها وأشكالِهَا حجرٌ من أحجارِ الاقتِدَاحِ، ففتقتِ الحاجةُ لبول حيلةً من أغربِ الحيلِ وأبدَعِها، وقديمًا فتقتِ الحاجاتُ حِيَلَ الرجالِ، واستثارتْ دَفَائنَ ذكائهِمْ وفطنتهِمْ، وما انتفعَ العالَمُ في جميع شؤونِهِ وأحوالِهِ بمثل ما تفتقُهُ الحاجاتُ والضروريّات، ولا نبتَتْ أغراسُ المعارفِ

(١) المفازة: الصحراء المقفرة.
(٢) الشقّة: السفر البعيد.
(٣) شعفاته: أعاليه.
(٤) المدرة: أراد بها طبيعة الأرض.

والعلومِ والمستكشفاتِ والمخترعاتِ إلّا في تربةِ الفقرِ والإقلال، فعمد إلى ظَرٍّ[١] رقيقِ الأطرافِ ممّا يقومُ لدى سكّانِ تلكَ الأصقاعِ مقام المُدَى[٢] في منفَعتِها، وجَدواها.

فبرى بهِ طرفَ غصنٍ يابسٍ متينٍ حتّى صيّرَه كالسهم، ثمّ عَمَدَ إلى غصنٍ آخرَ من نوعٍ غيرِ نوعِهِ، فثَقَبَهُ ثقبًا دقيقًا بحدّ ذلكَ الحجرِ نفسِه، ثمّ أدخلَ طرفَ الغصنِ الأوّلِ في ثقبِ الغصنِ الثاني بعد ما شدّ عليه بقدَمِه، وظلّ يديرُه بكلتَا يديهِ بسرعةٍ عظيمةٍ، فما هي إلّا لحظاتٌ حتّى التهبَ الغصنانِ وانبعثَ منهما دخانٌ وشرر، فجمَع بضعةَ أعوادٍ يابسةٍ وأوراقٍ جافّةٍ وألقاها على النار فاشتعلتْ، فأدناها من ساقِ النخلةِ فنشبتْ بها، ولم تلبثْ إلّا قليلًا حتّى هوت بين يديهِ هويّ الكوكبِ الناريّ من سمائِهِ.

فأخذَ يفضّ اللفافاتِ عن طلعِهَا الأبيضِ النضيرِ، وجلسَ هو وفرجيني يشتويان ويأكلانِ ألذّ طعام وأهنأَهُ حتّى اكتفَيا؛ ومرّتْ بهما ساعةُ سرورٍ، وغبطةٍ نسيا فيها بؤسَهُما وشقاءَهُما، ثمّ ما لبِثَا أن جمعا شتاتَ نفسيهما، وأخذَا يتمثّلان حيرتَهُما وضلالَهُما، وبُعْدَ الشقّةِ[٣] بينهما وبينَ أرضهما، ويذكران قَلَقَ أمّيهما عليهما، وجزَعَهُما لغيابهما، ويقولانِ في نفسيهما: لا بدّ أن تكونَ الظنونُ قد ذهبتْ بهما مذاهبَ سيّئةً في شأنهماحينما عادَتا من الكنيسةِ إلى المزرعةِ فلمْ تجداهما، ولم تعرفَا الوجهَ الذي ذهبا فيه.

ثمّ نهضَا من مكانِهما وأخذا يدورانِ بأنظارِهِما يمنةً ويسرةً ليتعرّفا الطريقَ التي أتيا منها، فأضلّاها، فَسُقِطَ في أيديهما، ولم يعرفَا كيفَ يعودانِ. وكان بول أهدأَ من فرجيني روعًا، وأثبتَ جأشًا، فظلّ يعلّلها، ويهدّىء روعها، ويقول لها: إنّ كوخنا يكونُ دائمًا في مثلِ هذه الساعةِ تحتَ قرصِ الشمسِ، فإذا نحنُ اتّجهنا جهةَ الشرقِ، لا نحيدُ عنهُ يمنةً ولا يسرةً، ثمّ إذا صَعَدْنَا هذا الجبلَ المثلّثَ الرأسِ الذي نراهُ أمامَنَا لا نلبثُ أن نجدَ أنفُسَنا في مزرعتنا.

وأخذا يسيرانِ في الوجهةِ التي توهّماها، فمرّا بغاباتٍ كثيرةٍ وأدواحٍ ملتفّةٍ وهضابٍ عاليةٍ وأنهارٍ جارية لَمْ يَطَأِ السائحونَ لها أرضًا حتّى اليوم، وظلّا على ذلكَ ساعتينِ، حتّى اعترَض طريقَهُما نهر واسعٌ، يتدفّق ماؤُه تدفّقًا، فذُعرتْ فرجيني لمنظرِه ومنظرِ الصخورِ السوداءِ الجاثمةِ في مجراهُ، واستحالَ عليها أن تضعَ قدَمَها، فلم ينشب[٤] بول أن حملَها على ظهرِه، وخاضَ بها الماءَ لا يحفلُ بتيّاره المتدفّق ولا بصخورِه المتزلّقة، وظلّ يقولُ لها وهو سائر بها: لا تَخْشَيْ شيئًا يا أختاه، فإنّني جَلْدٌ قويّ لا يعجزني حملُ شيء من الأشياءِ كيفما كانَ شأنه، وأشعرُ أنّي أزدادُ قوّةً وجَلَدًا حينَ أكون معك؛ وأستطيعُ أن أقولَ لكِ إنّ نفسي كانت تحدّثني بشرٍّ عظيم لذلكَ الرجلِ مولى الجارية حينما ظَنَنْتِ أنّه احتقرَكِ وازدَراكِ فلم يحفلْ بك ولا برجَائِكِ ولو أنّه فعلَ لبطشتُ به بطشةً لا أبالي بعواقبها.

---

(١) الظرّ: الحجر المحدد.

(٢) المدى: جمع مدية، وهي السكّين.

(٣) الشقّة: السفر البعيد.

(٤) لم ينشب: لم يلبث.

فاضطربت فرجيني، وقالت له: ولكنّكَ لا تفعلُ يا بول إلّا إذا أردتَ أن تكونَ غلامًا شرّيرًا، دَعِ الأشرارَ يا صديقي وشأنَهُم؛ لا تهجمْ، ولا تعترضْ طريقَهُم، عسى أن يموتَ شرُّهُمْ في صدورهم حينما لا يجدُ له مضربًا ولا منتدحًا[١]. ثم تنهّدتْ، ورفعتْ رأسها إلى السماءِ، وقالت: آه يا رب، لِمَ لَمْ تجعلْ طريقَ الخيرِ سَهْلًا ليّنًا كطريقِ الشرّ؟

ولم يَزَلْ سائرًا بها حتّى بَلَغَ الضفّةَ الأخرى، وأرادَ أن يستمرّ في سبيلِهِ حاملًا إيّاها على ظهرِه، ويصعدَ بها الجبلَ المثلّثَ الرأسِ اعتزازًا بقوّته وبأسِه، فألحّتْ عليه ألا يفعلَ، فأنزلها.

واستمرّا سائرين في أرضٍ وَعْرةٍ كأداء[٢] كاطّراد السيفِ تحفى فيها النعالُ، وتدمَى الأقدامُ؛ وكانتْ فرجيني، قد نسيتْ نعلَهَا في كوخِهَا حينما وَرَدَ عليها من أمرِ تلكَ الزنجيّة المسكينةِ ما أذهَلَها، وطارَ بلُبِّهَا، فأضرّ بها الجهدُ، وأدمى قدمَيْهَا المسيرُ، فلم تزلْ تتحاملُ على نفسِهَا حتّى وصلتْ إلى جدولِ ماءٍ جارٍ، فترامتْ على ضفّته، وأخذتْ تنضحُ قدميها بمائه، ثمّ مدّتْ يدَهَا إلى شجرةٍ فرعاءَ حانيةً عليها، فاقتطعتْ بعضَ أعوادها وأوراقِهَا ونسجتْ منها لنفسِهَا ما يشبهُ النعلَ، فانتعَلَتْهُ، فهدأ بعضُ ما بها.

وأقبلتْ على بول، تقول له: ها هي ذي الشمسُ، قد أشرفتْ على المغيبِ، ولا تزالُ الشقّةُ[٣] بيننا وبين المزرعةِ بعيدةً جدًا، وقد نالَ منّي التعبُ، ولم يبقَ لي جَلَدٌ على المسير؛ فاتركني وحدي هنا، واذهبْ إلى المزرعةِ لتخبرَ أهلنا خبرَنَا فيطمئنّوا علينا، وابعثوا إليّ من قِبَلِكُمْ من يحملني إليكم، فأبى بول مستعظمًا الأمرَ، وقال: الموتُ أهونُ عليّ من أنْ أتركَكِ وحدَكِ في هذا المكانِ الموحشِ المقفرِ، فسأبقى معكِ ما بقيتِ، فإن أظلّنا الليلُ قطعتُ لكِ نخلةً من نخيلِ الجوزِ، فأطعمتُكِ ثمرَها كما فعلتُ الغداةَ، ثمّ نسجتُ لك من أعوادِهَا وأغصَانِها مهَادًا ليّنًا تنامينَ عليه، وأنا ساهرٌ بجانبِكِ حتّى الصباح.

فأذعَنَتْ لرأيه، وكانتْ قد شعرت بشيءٍ من الراحةِ بعد ما خصفت[٤] قدميها بتلك الأعواد المخضلّة، فقامتْ تعتمدُ بيُمْنَاها على فرعٍ قَطَعَتْهُ من تلك الشجرةِ، وبيسراها على كتفِ بول، حتّى بلغا غابةً كثيفةً قد أحاطَ بها من جميعِ أقطارِهَا كثيرٌ من الأدواحِ الباسقةِ الملتفّةِ، فَدَخَلاها. وما أمْعَنا فيها إلّا قليلًا، حتّى احتجبَ عنهما وجهُ الشمسِ وراءَ تلكَ الهضابِ الشامخةِ، والأدواحِ العاليةِ، وغابَ عن عَيْنَيْهِما الجبلُ المثلّثُ الرأسِ، وكان عَلَمَهُما الذي يهتديانِ به، فإذا هما في مضلّة بهماءَ لا يريانِ فيها غيرَ الصخورِ العاليةِ، والهضابِ المشرفةِ والأشجارِ المتشابكَةِ والمسالِكِ المتشابهةِ والأعماقِ المتغلغلةِ، فذُعِرَ بول ذعرًا شديدًا، ووقفَ في مكانه حائرًا ذاهلًا لا يدري ماذا يأخذُ وماذا يَدَعُ؟

ثمّ اندفع يعدو ههنا وههنا هائمًا مخبولًا علّه يجدُ طريقًا، أو مَسْلَكًا، أو دليلًا يهديه

---

(١) المنتدح: المكان الواسع من الأرض. (٢) الأرض الكأداء: الشاقة الوعرة.

(٣) الشقة: السفر البعيد.

(٤) خصف الشيء على الشيء: ألصقه به وأطبقه عليه.

الطريق، فلم يجدْ، فتسلّقَ شجرةً عاليةً، ووقفَ بين فَرْعَيْنِ من فروعها وظلّ يدور بنظرِه حولَهُ، ليرى موضعَ الجبلِ المثلث الرأسِ، أو يرى قرصَ الشمسِ في منحدرِها إلى مغربها، فلم يَر غيرَ ذوائبِ الأشجارِ العاليةِ تَتَلأْلأُ على أوراقِها الخضراءِ أشعّةُ الشمسِ الذهبيّةُ قبلَ انحدارها إلى الغروب وغيرَ الظلالِ الممتدّةِ التي يرسلها الليلُ طلائعَ لجيوشِهِ الزاحفةِ المتدفّقةِ.

وكانتِ الريحُ قد هَدَأتْ، وخَفَتَ صوتُها ساعةَ الغروبِ، وسادَ السكونُ على كلّ شيءٍ، فأصبحتِ الغابةُ كأنّها كوكبٌ من كواكبِ السماءِ السابحةِ في أجوازِ الفضاءِ لا يدبُّ فيها حيوانٌ، ولا يخطرُ إنسانٌ. فملكَ الخوفُ قلبَ بول وجُنَّ جنونُه وأخذَ يصيحُ بأعلى صوتِهِ لا يدري من يحدّثُ ومن ينادي: الغَوْثَ، الغَوْثَ، النَّجْدَةَ، النجدة، إليّ أيّها الناسُ لتنقذوا فرجيني البائسةَ المسكينة. فلم يُجِبْهُ غيرُ الصدَى المتردّد.

ولم يزلْ يكرّرُ هذا النداءَ، والصدى يردّدُ صوتَه، حتّى خُيِّلَ إليه أنّ صوتَهُ قد أصبحَ صدًى من تلكَ الأصداءِ، فنزلَ من مكانِهِ حائرًا متضعضعًا، ليسَ وراءَ ما به من الهمِّ غاية. ثمّ وقفَ، وأجالَ نظرَهُ في الفضاءِ، فلمْ يرَ ماءً، ولا ثَمَرًا ولا نخيلًا ولا شَجَرًا ولا كُنًّا[1] ولا مأوًى، ولا شيئًا ممّا يقتاتُ به المُقْتَاتُ، أو يتعلّلُ به المتعلِّلُ، فصرَخَ صرخةً عظمى، وتهافَت على الأرض باكيًا منتحبًا، فذعرتْ فرجيني حينَ رأتْهُ على تلكَ الحالِ، وهُرعتْ إليه وضَمَّتْهُ إلى نفسِهَا وظلّتْ تقول له: لا تبكِ يا بول، فإنّ بكاءَكَ يقتُلُني همًّا وكَمَدًا، واغفر لي جريمتي التي أجرَمْتُهَا إليك، فلولايَ لما قاسيتَ هذا البلاَ الذي تقاسِيه الآنَ، ولقد كانَ خيرًا لي ألّا أُقْدِمَ على عملٍ من أعمالِ الخيرِ أو الشرّ إلّا بعد استشارةِ أمّي، ثم قالت له: دَعِ البكاءَ، وتوجّهْ إلى اللهِ تعالى بالضراعةِ والابتهالِ عسى أن يفرّجَ كربَتَنَا، ويجعلَ لنا من أمْرِنا مَخْرَجًا.

وجثيا[2] يصلّيانِ صلاةً طويلةً استغرقتْ شعورَهُما ووجدانَهما، وذهبتْ نفساهُما فيها حيثُ تذهبُ نفوسُ القانتينَ المتبتّلين في مواقفِ خشوعِهِمْ وابتهالِهِمْ. وكانتِ الشمسُ قد انحدرتْ إلى مغربها، ولم يبقَ منها في حاشيةِ الأفقِ إلّا كما يبقى على صفحةِ البحرِ الهادىءِ من آثارِ السفينةِ الماخرةِ، فَلَبِثا على ذلكَ هنيهةً، ثمّ استفاقا على صوتِ كلبٍ ينبحُ نباحًا شديدًا، فصاح بول: إنّه كلبُ أحدِ الصيّادين الذين يرصدونَ الأيائلَ[3] في أعماقِ هذهِ الغاباتِ ليطلقوا عليها كلابَهُم فتعقِرُهَا. ثمّ اشتدّ نباحُ الكلبِ، وأخذَ يدنو منهما شيئًا فشيئًا، فارتعدت فرجيني، وقالت: يُخَيّلُ إليّ يا بول، أنّي أسمعُ صوتَ كلبِنا «فيديل» لا بلْ هو بعينِهِ، وما ارتبتُ فيه قطّ.

وما أتمّتْ كَلِمَتَها، حتّى كانَ الكلبُ «فيديل» تحتَ أقدامِهِما، يتمسّح بهما ويجاذِبُهما أثوابَهما، ويكادُ لو استطاعَ أن يبكيَ فرحًا بهما، ثمّ ما لبثا أنْ رأيا الزنجيّ دومينج مقبلًا عليهما، فازدادَ سرورُهما واغتباطُهُما. وما إنْ وَقَعَ نظرُ الرجلِ عليهما، حتّى هرعَ إليهما وجثا

---

(١) الكنّ: الوقاء والسِّتر.

(٢) جثيا: الأصح أن يقال، جثوا من جثا يجثو.

(٣) الأيائل: جمع أيل - بالتشديد -: حيوان كالوعل.

تحتَ أقدامِهِما باكيًا مستعبرًا، وظلّ يقول لهما: لقد مرّ بأمّيكما اليومَ يا ولديّ، يومٌ، ما مرّ بهما مثلَهُ منذُ نَزلا هذهِ الأرضَ حتّى اليوم. ولقد كانَ جَزَعُهما عظيمًا جدًّا حينما عادَتا من الكنيسةِ فلم تجداكُما، ولم تعرفا أيَّ سبيلٍ سلكتما ولا أيَّ أرضٍ اشتملت عليكما، ولم تستطعْ ماري أن تقولَ لهما شيئًا لأنّها كانتْ مشتغلةً ببعضِ الشؤونِ وراءَ الكوخِ في الساعةِ التي خَرَجْتُما فيها، فلم تَرَاكُما، وقد فتّشْنَا عنكُما كلَّ غادٍ ورائحٍ، فَلَمْ نجدْ من يدلّنا عليكما.

فرأيتُ أن أستعينَ بالكلبِ «فيديل» على تَتَبُّعِ آثاركما، فأحضرتُ له بعضَ أثوابِكُما، وألقيتُها بين يديه، فاشتمّها، وكأنّه علمَ ما يريدُ منه، فألصقَ خيشومَهُ بالأرضِ، وانبعثَ في الطريق التي سرتُما فيها فِعْلَ الدليلِ الحاذقِ، فَتَبِعْتُه أخترقُ الغاباتِ والأجماتِ، وأتسلّقُ الصخورَ والهضاب، وأجتازُ الجداولَ والأنهارَ، وأشعرُ بجميعِ ما شعرتما به من المتاعبِ والآلام، حتّى بلغنا ضيعةَ الرجلِ الأوروبي على شاطىءِ النهرِ الأسودِ، وهنالكَ حدّثني بعضُ الذين عرفتَهُمْ من عبيدِه وأُجَرَائِهِ أنّكما حضَرْتُما إليهِ، لتسألاه العفوَ عن زنجيّةٍ مسكينةٍ كانتْ قد أبقت[1] منه، وخافتِ الرجوعَ إليه، فوعدكُما بالعفوِ عنها، ثمّ ما لبثْتُما أن عدتُما أدراجَكُما قبلَ أن تعلَمَا ما تمّ في شأنها.

فاضطربت فرجيني، وقالت: وماذا تمّ في شأنها؟ ألم يعفُ الرجلُ عنها؟ فابتسمَ دومينج وقال: نَعَمْ عَفَا عن قَتْلِها وإزهاقِ روحها، أما دونَ ذلكَ فلا، فإنّه ما لبثَ على أثرِ ذهابكما أن أمرَ بشدّها إلى بعضِ الأشجارِ عاريةً، وظلَّ يجلدُهَا بسوطِهِ حتّى تناثَرَ لحمُهَا، وتدفّق دَمُها، ثمّ ترَكَهَا مكانَها تتأوَّهُ آهاتٍ تستبكي العيونَ، وتذيبُ الأكبادَ، وقد رأيتُها بعيني، فلم أستطعِ البقاءَ أمامها لحظةً واحدة.

وما أتمّ كلمته، حتّى صعقتْ فرجيني، وهتفتْ بكلمَتِها التي كانتْ تردّدها دائمًا: آه يا ربّ! لِمَ لَمْ تجعلْ طريقَ الخيرِ سهلًا لينًا كطريقِ الشرّ!؟.

ثمّ عاد الزنجيّ إلى حديثه يقول:

ثم انكفأ «فيديل» راجعًا، فتبعتُه، فسارَ قليلًا على شاطىءِ النهرِ الأسودِ، ثمّ صَعِدَ الجبلَ الصغيرَ المشرفَ عليهِ، فَصَعِدْتُ وراءَه حتّى قادني إلى عينِ ماءٍ جاريةٍ رأيتُ على مَقْرُبَةٍ منها نخلةً من نخيلِ الجَوْزِ ساقطةً محترقةً، لا يزالُ ينبعثُ دخانُها وبقايا طلعٍ مشويٍّ متناثرٍ حولها، فعلمتُ أنّكما جِئْتُما بهذا المكانِ، وأنّ الجوعَ قد نالَ منكما منالًا عظيمًا، فتجشّمْتُما في طلبِ الطعام هذا العناءَ الكثير.

ثمَ قادني الكلبُ بعد ذلكَ إلى هنا كما تريانِ، ونحنُ الآنَ على مَقْرُبَةٍ من الجبلِ المثلّثِ الرأس، وبينَنَا وبينَ المزرعةِ أربعةُ فراسخَ، وقدْ أرسلتْ لكما سيّدتاي هذا الطعامَ، فكلاهُ وخُذَا لنفسِكُما راحَتَهَا وسكونَها، ثمّ نرى بعد ذلكَ كيفَ نعودُ. وأخرجَ لهما طعامًا كثيرًا، وأثمارًا متنوّعةً وركوةَ ماءٍ قراحٍ وشيئًا من شرابِ الليمونِ المحلّى بالسكّر، وجلسوا جميعًا

---

(١) أبَقَ العبدُ: هرب من سيّده.

يأكلونَ ويشربونَ فرحينَ مغتبطين لولا ما كانَ ينغّصُ على فرجيني أحيانًا من ذكرى تلكَ الزنجيّةِ المسكينةِ المعذّبةِ حتّى فرغوا من الطعامِ، وتهيّأوا للمسيرِ، فإذا بول وفرجيني ضعيفانِ متضعضعانِ، لا يستطيعانِ الانتقالَ خطوةً واحدةً لما نالهما من الأينِ[1] والإعياء.

فوقفَ دومينج وقفةَ الحائرِ المُضطرِبِ، لا يدري ماذا يصنعُ: أيحملُهُما على عاتِقِه، وهو ما لا طاقَةَ له به، أم يقضي الليلَ بجانبِهما، ووراءَهما أُمّاهُما تنتظرانِهما انتظارَ الظامىءِ الهيمانِ علالةَ الماءِ البارد؟ أم يرجعُ إلى المزرعةِ وحدَه ليعودَ منها بِمَنْ يساعِدُه على حَمْلِهِمَا؟ وكيفَ له بتركِهما وحدَهُما في هذه القفرةِ الموحشةِ التي لا يعلَمُ إلّا اللهُ ماذا تضمّ بين أقطارِها من مخاوفَ وأهوالٍ. فتنفّسَ تنفسةً طويلةً، وأنشأ يقول: أسفي على تلكَ الأيّام المواضي حينَ كنتُ أحملُكُما فيها يا ولديّ على ذراعٍ واحدةٍ ما أشكو، ولا أتبرّم[2]، أما اليومَ، فقد وَهَنَ عظمي، وضَعُفَ متني، وتقاربتْ خُطاي، ولم يبقَ لي في الحياةِ إلّا هذه الخطواتُ البطيئاتُ التي أخطُوها إلى قبري.

وإنّه لكذلكَ، إذْ لَمَحَ أشباحًا سوداءَ تنحدرُ إليه من قمّةِ الجبلِ كأنّها قطعُ الليلِ، فراعَهُ منظرَهُم، ثمّ تبيّنها، فإذا قومٌ من الزنوجِ السودِ الآبقينَ من ظلمِ مواليهم البيضِ في شعابِ الجبالِ ومخارِمِها. وكانوا قد سمعوا، وهم في مكمَنِهم حديثَهُ مع الولدينِ، ورأَوا حيرتَهُ في أمرِهما، فجاءوا لمساعَدَتِه، وقال له زعيمهم: إنّ هذينِ الأبيضينِ الصغيرينِ من أطيبِ الناس قلبًا، وأشرفهم نفسًا، وأدناهم رحمةً، فقد جشما اليومَ نفسَهُما عناءً عظيمًا في سبيلِ مساعدةِ زنجيّةٍ مسكينةٍ كان قد بلغَ بها الشقاءُ والبلاءُ مبلغهما، فرحماها، وأويا إليها وذَهَبا بها إلى سيّدها ليشفَعَا لها عنده، ويسألاه العفوَ عنها والمرحمةَ بها، وقد رأيناهما صباحَ اليوم وهما سائرانِ معها إلى شاطِىءِ النهرِ الأسودِ، فشكرنا لهما في أنفسِنا فضلَهُمَا ونعمَتَهُما، وَعَجِبْنا كيفَ استطاع ذلكَ الإهابُ[3] الأبيضُ الدميمُ أن يضمّ بين أقطارِه قلبًا غيرَ أسودَ، وقد سمعنا الآنَ حِوارك معهما وعَلِمْنا أَنّهما في حاجةٍ إلى من يحمِلُهُما إلى مزرعتهما، فجئنا نتولّى ذلكَ بأنفسِنَا مكافأةً لهما على نعمَتِهما التي أسدَيَاها إلى تلكَ الطريدةِ المسكينة.

ثمّ أشارَ إلى أصحابِه، فأقطعوا في لحظاتٍ قليلةٍ بضعةَ أعوادٍ من الأشجارِ العاتيةِ، وصنعوا منها ما يشبهُ المحفّة، فصعدَ إليها بول وفرجيني وحمَلَها أربعةٌ منهم على عواتِقِهم، ومشى الباقونَ أمامهُمْ ينيرون الطريقَ بمشاعلهم، ويغنّونَ أغانيهم الخاصّة كأنّما قد نسوا جميعَ همومِهِم وآلامِهِم التي يعالجونها في أنفسهم حتّى وصلوا عندَ منتصفِ الليلِ إلى المزرعة.

وكانت هيلين ومرغريت تنتظرانِ ولديهما منذُ غروبِ الشمسِ عندَ سفحِ الجبلِ، وقد نصبَتَا حولهما على أبعادٍ مختلفةٍ بعضَ المشاعِلِ الكبيرةِ لتريا على ضوئِها وجوهَ القادمين، فَما لمحتا المحفّة على بعدٍ، حتّى طارتا إليها، وضمّتا ولديهما إلى صَدْرَيْهما باكِيَتَيْنِ منتحبَتَينِ، فبكى

---

(١) الأين: الجهد والتعب.

(٢) تبرّم بالأمر: ضجر منه وسئمه.

(٣) الإهاب: الجِلْد.

الولدان لبكائهما، وبكى الجميعُ لبكائهم، والتفتتْ هيلين إلى ابنتها؛ فقالت لها: العفوَ يا أمّاه، فقد جاءَتني اليومَ زنجيّة مسكينةٌ آبقةٌ من سيّدها تَتَضوَّرُ[1] جوعًا، وتسيلُ نفسُها همًّا وكمدًا، فسألتْنِي أن أطعَمَها وأسقِيَهَا وأن أنقذَها من بؤسها وبلائها، فقدّمْتُ لها ما شاءَتْ من الطعامِ والشرابِ، ثمّ جِرْتُ في أمرِهَا بعد ذلكَ، فلمْ أرَ خيرًا لها من أن أصحَبَها إلى سيّدها، وأسألَهُ العفوَ عنها والمرحمةَ بها.

وأبى بول إلّا أن يصحبني، فذهَبْنَا إلى شاطىءِ النهرِ الأسودِ، فلمّا فرغنا من شأننا وأردنا الرجوعَ ضَلَلْنَا الطريقَ، وظَلَلْنَا حائرينَ ساعاتٍ طوالًا، حتّى وافانا دومينيج، وكان التعبُ قد نالَ منّا منالًا عظيمًا، فعجزنا عن المسيرِ، فتقدّمَ هؤلاءِ الزنوجُ الطيبونَ لمساعدتنا، وصنعوا لنا هذه المحفّة وحملونا عليها رحمةً بنا ووفاءً بذلك المعروفِ القليلِ الذي بذلناهُ لمواطِنَتِهِم المسكينة، وكذلك يجزي الله المحسنينَ خيرَ جزاءٍ بما فعلوا.

فضمّتْهَا أُمُّها إلى صدرها، وقالت: قد عفوتُ عنكما يا ولديَّ، ولا حَرَمَكُما اللهُ نعمةَ العطفِ على البائسينَ والمنكوبين.

ثمّ عادوا جميعًا إلى أكواخهم فرحينَ مغتبطينَ، وقدّموا للزنوجِ كثيرًا من الطعامِ والشرابِ، فشكروا لهم فضلَهُمْ وانصَرَفُوا.



٩ ـ السعادة

وهنا تنفّسَ الشيخُ الصعداءَ، ثمّ قال: أستطيعُ أن أقولَ لكَ يا بنيّ، إنّ السعادةَ ينبوعٌ يتفجّر من القلبِ، لا غيثٌ يهطلُ من السماءِ، وإنّ النفسَ الكريمةَ الراضيةَ البريئةُ من أدرانِ الرذائلِ وأقذارِها، ومطامعِ الحياةِ وشهواتِها، سعيدةٌ حيثما حلَّت، وأنّى وجدت؛ في القصرِ وفي الكوخِ، في المدينةِ وفي القريةِ، في الأنسِ وفي الوحشةِ، في المجتمعِ وفي العزلةِ، بين القصورِ والدورِ، وبينَ الآكام والصخورِ، فمنْ أرادَ السعادةَ، فلا يسألْ عنها المالَ والنَسبِ، وبينَ الفضةِ والذهبِ، والقصورِ والبساتينِ، والأرواحِ والرياحينِ، بل يسألْ عنها نفسَه التي بين جنبَيْه، فهي ينبوعُ سعادتِهِ وهنائِه إنْ شاءَ، ومصدرُ شقائِهِ وبلائه إن أراد.

وما هذه الابتساماتُ التي نراها تتلألأ في أفواهِ الفقراءِ والمساكينَ، والمحزونينَ، والمتألمينَ، لأنّهم سعداءُ في عيشِهِمْ، بل لأنّهمْ سعداءُ في أنفسهم؛ وما هذه الزفراتُ التي نسمعُهَا تتصاعَدُ من صدورِ الأغنياء، والأثرياء، وأصحابِ العظمةِ والجاهِ، لأنّهم أشقياءُ في عيشِهِم، بلْ لأنّهم أشقياءُ في أنفسِهِم.

---

(١) تضوّر: صاح.

وما كَدّرَ صفاءَ هذه النفوسِ، وأزعجَ سكونَهَا وقرارَها، وسَلَبَها راحَتَها وهناها مثلُ عاطفةِ البغضِ، ولا أنارَ صفحَتَها، وجلى ظلمَتَها مثلُ عاطفةِ الحبّ، فأشقى الناسِ جميعًا المبغضونَ الذين يضمرون الشرّ للعالم، فيجزيهم العالم شرًّا بشرّ، وأسعدُهم جميعًا المحبّونَ الذينَ يحبّونَ الناسَ، ويمنحونَهُمْ وُدَّهُمْ وصفاءَهُمْ، فيمنحهُم الناسُ من بناتِ قلوبِهِمْ مثلَ ما منحوهم.

وكذلك استطاعتْ تلكَ الأسرةُ الفقيرةُ المسكينةُ أن تكونَ سعيدةً هانئةً على فقرِها وإقلالِها وجعجعةِ[١] المصائب بها، فقد كانتْ تحمل بين جُنُوبِها نفوسًا طاهرةً شريفةً لا تضمرُ حقدًا، ولا تعرفُ غلًّا، فأحبّتِ القريبَ والبعيدَ، والمحسنَ والمسيءَ، وعطفتْ على الناسِ جميعًا: من تَمُتُّ إليه بِصلَةٍ ومن لا تَمُتُّ إليه بشيء.

ولم تحقدْ على الناسِ، أو تضمرْ لهمْ في نفسِهَا شرًّا، وما لها إلى الناس حاجَةٌ، ولا رأيَ لها في مطالبتها بشيء ممّا في أيديهم من مالٍ أو جاهٍ، أو قوّةٍ أو سلطانٍ، فقد قنعتْ من عيشِها بما قسمَ اللهُ لها، ولم تطلبْ مزيدًا، ورضيتْ من حياتِهَا بهذه العلالةِ[٢] القليلةِ التي تتعلّل بها، فأراحتْ نفسَها من همومِ المطامعِ ومتاعِبها.

وكانت أحاديثُها التي تجري بينها أحاديثَ طاهرةً بريئةً، لا تطغى فيها الألسنةُ والأفكارُ، ولا تتناولُ شيئًا من شؤونِ الناسِ خاصِّها أو عامِّها، والغيبةُ رسولُ الشرّ بين البشرِ، بل هي أساسُ الشرورِ جميعِها قديمِها وحديثِهَا، لأنّ المرءَ إذا اعتقدَ من طريقها الشرّ في صديقِهِ أو عشيرِهِ، ومَلكَتْهُ فكرةُ سوءِ الظنّ به أبغضَه واجتواه[٣]، وحَذِرَهُ واتّقاهُ، وكانَ لا بدّ له من إحدى اثنتين: إمّا أنْ يصارِحَه ببغضِه إيّاهُ، فتصبحَ حياتُه معه حياةً نكدةً لا نهايةَ لهمومِهَا وآلامِها، أو يماذقُه[٤] ويداوِرُهُ، فيصبحَ رجلًا منافقًا كذابًا؛ وخيرٌ له من هذا وذاكَ ألّا يسمعَ عَنِ الناسِ خيرًا أو شرًّا.

نعم، إنّها لم تكنْ تعتمدُ في حديثِهَا على العلمِ والتاريخ كما يعتمدُ الناسُ في مجتمعاتِهِمْ، ولا كانتْ محاضراتُها حافلةً بالشواهدِ والأمثالِ والعظاتِ والعبرِ والمقارناتِ والموازناتِ؛ ولكنّها كانتْ لذيذةً شهيّةً رقيقةً مستملحة. لأنّها كانتْ تستمدّ جمالَهَا ورونَقَهَا من كتابِ الطبيعةِ المفتوحِ أمامَهَا، وكتابُ الطبيعةِ هو الكتابُ المشرقُ المنيرُ الذي لا يقبلُ تأويلًا، ولا يحتاجُ إلى تفسيرٍ؛ والذي يرى فيه قارؤوهُ الحياةَ كما خَلَقَهَا اللهُ؛ فلا حاجةَ به إلى من يدلُّه عليه، أو يرشدُهُ إليه.

وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ، حتّى انتشرَ لتلكِ الأسرةِ الكريمةِ بين سكّانِ تلكَ الجزيرةِ ذكرٌ عطرٌ؛ فأخذَ الناسُ يتحدّثونَ بأدَبِها ولُطْفِها؛ ومروءَتِها وكرمِهَا، وأياديها الظاهرةِ والخفيّةِ، ورحمَتِها الخاصّة والعامّة، وإن لم يعرفوا لها أسمًا ولا لقبًا، فإذا سألَ السائلُ من السابلة[٥] أو الطارئين مَنْ هُمْ؟ كانَ جوابُ المجيبِ: إنّهم قومٌ طيّبونَ وكفى؛ كشجراتِ البنفسجِ المختبئةِ بين لفائِفِ الأدغالِ ينشَقُ الناسُ طيبَهَا ويحمدون عَرْفَهَا[٦]، وإنْ لم يعرفوا مَكَانها.

---

(١) الجعجعة: اشتداد الصوت.
(٢) العلالة: ما هو قدر الحاجة من القوت ونحوه.
(٣) اجتواه: كرهه.
(٤) يماذقه: لا يخلص له المودّة.
(٥) السابلة: الطريق المسلوكة.
(٦) العَرْف: الرائحة الطيّبة.

١٠ ـ العمل

وكانَ بول وهو في الثالثةَ عشرةَ من عمره كأنّه في الخامسةَ عشرة قوّة ونشاطًا، وهمّة وعزيمةً، وذكاءً وفطنةً، فكانَ لا يملُّ العملَ نهارَه ولا ليلَه، ولا يتلهّى عنهُ بما يتلهّى به أمثالُهُ من الغلمانِ في مثلِ هذه السنّ، وكأنّما كانَ يشعرُ في نفسِه أنّه مسؤولٌ عن هذهِ القفرةِ الموحشةِ، أن يُحيلَها إلى جنّة فيحاءَ من جنانِ الأرضِ؛ فلا بُدّ له أنْ يعملَ حتّى يصلَ إلى الغايةِ التي يريدُهَا، وكانَ لا يعملُ قبلَ أنْ يفكّرَ، ولا يفكّرُ إلا تفكيرًا صحيحًا مستقيمًا، وقد وهَبَه الله قريحةً وقّادةً وذهنًا خِصْبًا، وذَوْقًا سليمًا ومخيّلةً قويّةً قادرةً على جمع شواردِ الأشياءِ، والتأليفِ بين متنافِرَاتها، فرسم في ذهنِه صورةً بديعةً لذلكَ الوادي الجميل كما يفعلُ المهندسُ الماهر، وأخذَ نفسَهُ بالعملِ لإبرازِهَا وتحقيقِهَا فلم يخطِئ، ولم يُضطرّ، ولم يلجأ إلى الاستشارةِ إلّا في القليل النادرِ مما يستعصي مثلُهُ على أمثاله.

فكان لا يراهُ الرائي إلا غاديًا أو رائحًا أو مصعّدًا أو منحدرًا، أو متسلقًا شجرةً، أو مُكِبًّا على قناةٍ، أو حاملًا غرسًا، أو خائضًا نهرًا، ودومينج وراءَه يعينُه على ما يعجزُ عنه من حملِ الأثقالِ وتحويلِ المياهِ ونَقْلِ الأغراسِ، فأنشأَ الحظائرَ المختلفةَ للحنطةِ والشعيرِ والدخنِ والذرةِ والقطنِ والقصب، تزخر كلّ حظيرةٍ بما فيها من ماءٍ وثمرٍ. وَغَرَسَ أشجارَ الليمونِ والبرتقالِ والتمرِ الهنديّ، ونخيلِ البلحِ والجوزِ، وألوانًا من الأزهارِ والأنوارِ تتألّقُ في أغصانها تَأَلُّقَ الأحجارِ الكَريمةِ في التيجانِ المرصّعة. وأجرى المياهَ حولَ تلك الأغراسِ وفي خلالها بنظامٍ دقيقٍ كأنّما قد خَطّها بالبركارِ، وزَرَعَ الأكماتِ والروابي المشرفةَ على الوادي من جميعِ نواحيهِ، فتراءتْ لعينِ الناظرِ كأنّها قبابٌ لطافٌ أو أهرامٌ صغارٌ مكسوّةٌ برقاقِ الخزّ والديباجِ على اختلافِ أصباغِهَا وألوانِها، ولم يتركْ بقعةً جَدْبَةً، ولا أرضًا صُلبةً إلّا هزّ تربتها، وأحيا مواتّها، فاستحالتْ إلى روضة أنفٍ[1] تتدفّق ثمارًا وأزهارًا، وتسيل عيونًا وغدرانًا.

وأعجبُ ما كان يعجبُ الناظرَ في هذه الروضةِ الزاهرةِ منظرُ المياهِ المتدفّقةِ من أعالي الجبالِ، تنثرُ الخصبَ حولها نثرًا، وتدورُ بالربى والهضابِ قلائدَ وعقودًا، والخمائلِ والأشجارِ أوشحةً ومناطقَ؛ وتتلوّى في سيرِها وتدفُّقِها تلوِّيَ الحياتِ المذعورةِ الهائمةِ على وجهِهَا، حتّى إذا انتهتْ إلى السفحِ، مشتْ برفقٍ وهدوءٍ تنبسطُ فيَ مذاهِبَها ومناحِيها، ثمّ تتلاقى أطرافِهَا فتكوّنَ بركًا صغيرةً مستديرةً تحفّ بها الأعشابُ المخضرّة كما تحفُّ بالعيونِ أهدابُها.

فإذا انعكستْ على تلكَ البركِ زرقةُ السماءِ خُيِّلَ إليكَ أنّها المرايا[2] الصافياتُ في أُطرِها[3] أو أحجارُ الفيروزِ في خواتمها. ولمّا كانتِ الأرضُ في تلكَ الدائرةِ متدرّجةً غير مستويةٍ فقد

---

(١) الأنف من الرياض: ما لم يرعه أحد.
(٢) المرايا: جمع مرآة.
(٣) الأطر: جمع إطار، وهو ما يحيط بالشيء.

راعى أن يغرسَ الأدواحَ الباسقةَ في البقاعِ المنخفضةِ، والأشجارَ المتوسطةَ في الأماكنِ المتوسّطةِ، والشجيراتِ القصيرةَ في المشارفِ العاليةِ، فاستوتْ رؤوسُ الأشجارِ في علوّها وارتفاعها كأنّما قد قُرِضَتْ[١] ذوائِبُها بمقراضٍ؛ أو كأنّما غرسها غارسُها في بطحاءَ مستويةٍ.

وكانَ يعمدُ إلى الهضابِ العاليةِ ذاتِ الجباهِ البارزةِ فيغرسُ بين يديها الأشجارَ العظيمةَ المورقةَ، فتتلاقى ذؤابةُ الشجرِ بذؤابةِ النهضةِ، فتتكوّنُ منهما قبّةٌ جوفاءُ، تشرفُ على مجلسٍ رطبٍ ظليلٍ كانوا يَفيئون إليه من حرّ الهاجرة، فإذا همْ في روضةٍ يانعةٍ من رياضِ الجنّة تزخرُ أشجارها، وترنّ أطيارُها، وترفّ ظلالها، وتتهادى نسائمُها. وأجمل من هذا وذاكَ أنّه غرسَ صفينِ متقابلينِ من الأشجارِ الوحشيّة الضخمةِ، يمتدّان على مدًى بعيدٍ، فيتألّفُ منهما دهليزٌ ضيّقٌ مستطيلٌ لا تنفذُ إليه أشعّةُ الشمس، ولا تكادُ تصلُ إليه أضواءُ النهارِ، فإذا دخَلَهُ الداخلُ خُيِّلَ إليهِ أنّه يسيرُ في نفقٍ مظلمٍ تحتَ الأرضِ، وشعرَ بوحشةٍ غريبةٍ أشبَه بتلكَ الوحشةِ التي يشعرُ بها سكّانُ السراديبِ في سراديبهم أو عَمَلَةُ المناجِمِ في أعماقِ مناجمهم.

في أحضانِ ذلكَ الوادي الجميلِ، وفي ذمّة تلكَ الجنّةِ الزاهرةِ، وبينَ أعطافِ تلكَ الدوائرِ الواسعةِ المخضرّةِ من الرُبى والهضابِ كانَ يعيشُ هؤلاءِ القومُ في أكواخِهِمُ البسيطةِ عيشًا سعيدًا هانئًا متمتّعين بما لا يتمتّع به الأثرياءُ في قصورهِمْ وبساتينهِمْ، والسعداءُ في جنّاتهمْ وعيونهم، فإذا انقضى النهار وأوتِ الشمسُ إلى خِدْرِهَا، صعدوا إلى صخرةٍ عظيمةٍ تشرفُ على ذلكَ الوادي جميعِه، فيتجلّى أمامَهُمْ منظرُه العام بعيونِهِ وغدرانِهِ وأعشابِهِ وأشجارِهِ وخمائلِهِ وكرومِهِ ومروجِهِ وحرجاتِهِ وظلالِهِ وأضوائِه. فإذا ألقوا بأنظارِهِمْ في جوّ السماءِ المائجِ فوقَ رؤوسهمْ بأضوائِهِ وأنوارِهِ، خُيِّلَ إليهِمْ أنّهم بينَ سماءين متقابلتينِ: سماءٍ تنبتُ الكواكبَ والنجومَ، وأخرى تنبتُ الأزهارَ والأنوارَ؛ أو روضتينِ مترانيتين: تتألّقُ في إحداهما الزنابقُ البيضاءُ على ديباجةٍ زرقاءَ، وفي أخراهما الورودُ الحمراءُ على قطيفةٍ خضراء.

❀ ❀ ❀

١١ ـ التاريخ

وكانوا يسمّون هذه الصخرة «اكتشاف الصداقة» لأنّ بول غرسَ في قمّتَها شجرةَ الأثلِ[٢] ورفع في أعلاها منديلًا أبيضَ يشبهُ العلمَ، وناطَه[٣] بخيوطٍ مختلفةٍ تسترسلُ في أسفلِ الشجرةِ، فإذا لمحني مقبلًا على البُعْدِ، شدّ الخيطَ فانتشرَ المنديلُ، واضطربَ في الهواء، وكان ذلك إعلانًا للأسرةِ بقدومي كما يرفعُ العلمُ على قمّةِ الجبلِ إعلانًا بقدومِ سفينةٍ إلى الشاطىء.

---

(١) قرض: قصّ، قطع. (٢) الأثل: شجر صلب يكثر قرب المياه.

(٣) ناط: علّق.

وكذلكَ كانَ شأنُهم دائمًا في تسميةِ الأماكِن والبقاعِ والجذوعِ والأشجارِ التي يحبّونها بأسماءٍ لطيفةٍ، يرمونَ بها إلى غرضٍ، ويسجّلون بها فكرةً معيّنَةً، فكانَ يُخيّل إليَّ أنّهمْ يلقون عليها أشعّةَ أرواحهم النورانيّةَ الساميةَ، فتدبُّ فيها حياةٌ جديدةٌ فوقَ حياتها الأولى، فأطلقوا اسم «ميدان الاتفاق» على بساطٍ من العشبِ الأخضرِ مسوّرٍ ببضعِ شجيراتٍ متّسقاتٍ من أشجارِ البرتقالِ كان بول وفرجيني يرقصانِ عليه معًا في ضوءِ القمرِ، وأطلقوا اسم «الدموع الممسوحة» على شجرةٍ عتيقةٍ جلستْ تحتَها هيلين ومرغريت لأوّل عهدهما باللقاء وأخذتْ كلٌّ منهما تقصّ على صاحبتها، وتبثّها أحزانَها وآلامَها، فتضمّها الأخرى إلى نفسها، وتعزّيها عن همّها، وتمسحُ لها دموعها وسمّوا حقلًا من القمحِ باسم «نورماندي» مسقطِ رأسِ هيلين، وآخَر من الأرزّ باسم «بريتانيا» مسقطِ رأسِ مرغريت، إلى كثيرٍ من أمثالِ تلكَ الذكرياتِ القديمةِ، كأنّما أرادوا، وقد هَجَروا بلادَهُمْ إلى الأبدِ، وحالتْ الحوائلُ بينهُمْ وبينها أن يستصحِبُوها معهُمْ تصوّرًا وخيالًا بعد ما فقدُوها سَكَنًا ومَوْطِنًا ليأنسوا بها بعضَ الأنسِ، ويلطّفوا من حرارةِ شوقِهِمْ إليها.

وأغربُ من ذلكَ أنّ الزنجيّين «ماري ودومينج» لم يكن قلبُهُما خاليًا من ذلك الشعورِ الطيّبِ الشريفِ، شعورِ الوفاءِ للوطنِ والحنينِ إليه، فأطلقوا اسم «أنغولا» و«فول بودانت» على بعضِ حقولِ الدخنِ ومنابتِ القرعِ شغفًا بأوطانِهما وعهودِ صباهما، وضنًّا بذكراها أن تزول.

وكانتْ تعجبني من هؤلاءِ القوم كثيرًا تلكَ الروحُ الأثريّةُ الغالبةُ على شعورهِمْ، ووجدانِهِمْ لأنّي أعتقدُ أنّها هي بعينِهَا روحُ الوفاءِ والإخلاصِ، وأنّ من لا خير فيه لماضِيه فلا خيرَ فيه لحاضِره ومستقبله.

وما زلتُ مُذْ نشأتُ لا أُؤثرُ منظرًا من مناظرِ الحياةِ، ولا مشهدًا من مشاهدِ الحسنِ والجمالِ على منظرِ أثرٍ قديمٍ أعثرُ به في سفرةٍ من أسفاري في باديةٍ منقطعةٍ، أو صحراءَ شاسعةٍ، فأقفُ بين يديه ساعةً من نهارٍ، وأرى في نؤيه[1] وأحجارِه وصخورِه المبعثرةِ وأعمدتِهِ المتناثرةِ ونقوشِهِ المحفورةِ على بقايا جدرانِهِ صورةَ أولئكَ القومِ البائدينَ الذين كانوا يسكنونَه، ويعمرون عَرَصَاتِهِ[2] ومغانِيه، وكأنّي أسمعُ في صفيرِ رياحِهِ، وعزيفِ جنّه وغيلانه[3] صائحًا يصيحُ بي: لقد كانَ يعيشُ في هذا المكانِ عالمٌ مثلُ عالَمِكُمْ، يشعرونَ كما تشعرونَ، ويفكّرونَ كما تفكّرون، ويأملونَ في الحياةِ الطيّبةِ الهانئةِ كما تأملون. وهم، وإنْ ذهبوا بأجسامِهِمْ، وخَلَا وَجْهُ الأرضِ من سميرِهم وأنيسِهم، فهم باقونَ بينَكُمْ بأرواحِهِمْ وآثارهم، وما أنتمْ يا أبناءَهُم وأحفادَهُم، وحملةَ أسرارِ حياتِهم، إلا أرواحُهم وآثارُهم التي بقيتْ على الأرضِ مِنْ بَعْدِهِم.

هنالك أشعرُ أنّني قد انتقلتُ من حاضري إلى ماضيَّ، وأنّني أعيشُ في تلكَ العصورِ القديمةِ بين آبائي وأجدادي، أحدّثُهم ويحدثونني، وأُفْضِي إليهم بذاتِ نفسي ويفضُونَ إليَّ بذواتِ

---

(١) النؤي: حجارة الموقد وغالبًا ما تكون ثلاثة. (٢) العرصات: الساحات أمام البيوت.

(٣) الغيلان: جمع غول وهي حيوانات تتشكّل بألوان متعدّدة.

نفسِهِم، فأقضي على ذلك ساعةً من الزمانِ، ثمّ أذهبُ لشأني وقد فاضتْ نفسي شعورًا بأنَّ النفسَ الإنسانيّةَ خالدةٌ باقيةٌ لا تنالُ منها دعاباتُ الزمانِ، ولا تعبثُ بصورتها الأيّامُ والأعوام.

وكنتُ لذلكَ شديدَ الشغفِ بحفرِ الكلماتِ أو نَقْشِهَا على كلّ ما يقعُ عليه نظري من الجذوعِ والأشجار والصخورِ والأحجارِ، وكلِّ ما أمرُّ به في طريقي ممّا أحبُّه وأرضَاهُ، وأتمنّى له الخلودَ البقاءَ كأنّني كنتُ أريدُ أن أمدَّ الأجيالَ المقبلةَ بالذكرياتِ العظيمةِ كما أمَدَّتْنَا الأجيالُ الماضيةُ بذكرياتِها وعهودِها، فحفرتُ على ساقِ شجرةِ العلم كلمة «هوراس» اللاتيني: «وقاكِ اللهُ شرَّ العاصفة، ولا عبثَتْ بكِ إلا أيدي النسائم»، وعلى جذعِ شجرةٍ كان بول يجلسُ تحتَها أحيانًا ليشاهدَ منظرَ البحرِ الهائجِ قول الآخر: «ما أعظمَ سعادَتَكَ لأنّكَ لا تعرفُ إلهًا غيرَ إله النبات» وعلى بابِ كوخِ هيلين، وكان هو مجتمعَ الأسرةِ ومنتداها هذه الكلمة: «وهنا ضميرٌ صالحٌ ونفسٌ لا تعرِفُ الخداع».

وكانت فرجيني تستثقِلُ هذه الكلماتِ وتراها غامضةً ومتكلّفة، وقالت لي مرّة: حبذا لو أنّكَ كتبتَ على شجرةِ العَلَم «ثابتٌ دائمًا رغمَ اضطرابه» بدلًا من كلمتِكَ التي كَتَبْتَهَا، فأجبتها: ذلك إنّما يقالُ في موقفِ الحثّ على الفضيلةِ، فاحمرَّ وجهُهَا خجلًا وصمتَتْ.

ذلكَ كان شأنَ هذا الوادي فيما مضى، أمّا اليومَ، فقدْ عَفَا فيه كلُّ شيءٍ، ودَرَسَ كلُّ أثرٍ، ولم يبقَ من تلك الرسوم الماضيةِ إلّا كما يبقى من الوشْمِ في ظاهرِ اليد، وأصبحتُ أعيشُ في هذا المكانِ كأنّني أعيشُ بين خرائبِ أثينا أو أطلالِ منف، وما مضى على تاريخنا أكثر من عشرين عامًا.



١٢ ـ مخدع فرجيني

لم أرَ فيما رأيتُ من المناظرِ الجميلةِ والمشاهدِ الفاتنةِ المؤثّرةِ منظرًا أبدعَ ولا أجملَ ولا أعلقَ بالقلوبِ ولا أشهى إلى النفوسِ من منظرِ ذلكَ المكانِ الذي كانوا يسمّونه «مخدع فرجيني»، وهو كهفٌ صغيرٌ منحوتٌ في أصلِ الصخرةِ الكبرى كأنّه مضجعُ النائم يتفجّرُ بين يديهِ نبعٌ غزيرٌ صافٍ، تحفّ به نخلتانِ من نخيلِ الجوزِ كانتْ مرغريت قد بذرتْ بذرةَ إحداهما منذُ أربعةَ عشرَ عامًا يومَ ولادةِ ولدها بول، وبذرتْ هيلين بذرة أخرى منذُ ثلاثةَ عَشَرَ عامًا يوم ولادةِ ابنتها فرجيني، فنبتَتَا مع الولدين، وسمّيتا باسميهما، وما ذهبتا مَذْهَبَهُما في جوّ السماء حتّى تَدَانتْ سُعُفَاتُهما واشتبَكتا كأنّهما تتعانَقَان، وكانتْ نخلةُ بول أطولَ قليلًا من نخلة فرجيني، لأن بول كان أسنّ من فرجيني لعام واحدٍ وأطولَ قامةً منها.

وربّما كانَ هذا المكانُ هو المكانَ الوحيدَ الذي تركُوه للطبيعةِ تذهبُ في شأنِه حيثُ شاءتْ من مذاهبِها دونَ أن يتناوَلُوه بتهذيبٍ ولا تنسيقٍ، فنبتتْ من حول المياه المنبسطة بقيعٌ شجيرات

مختلفةِ الألوانِ والأشكالِ والأحجامِ والأطوالِ ما بينَ ضخمِ الجذوعِ ودقيقِها، ومنتشرِ الفروعِ ومجتمعِها، وضاربٍ في أعماقِ الأرضِ، وذاهبٍ في جوِّ السماءِ، فاختلفتْ ثمراتُها وزهراتُها، وطعومُها ومذاقاتُها، وروائحُها ونفحاتُها، ودَبَّ إلى ظهرِ تلك الصخرةِ المشرفةِ فنشرَ عليه غلالةً رقيقةً من أزهارِه ورياحِينه، ثمّ انحدرَ عنها خيوطًا دقيقةً ناعمةً ترفرفُ في الهواء كما ترفرفُ شعورُ الحسناءِ على ضفافِ الماء.

ولم يكنْ شيءٌ من الأشياءِ أحبَّ إلى فرجيني وأشهى إلى نفسِهَا من أن تأويَ في أوقاتِ راحَتِها وفراغِها إلى هذا المكانِ الجميلِ لتمتّعَ نظرَها بمرأى تلكَ المياهِ الثلجيّة البيضاءِ المتفجّرةِ من ذلك النبعِ الغزيرِ، ومرأى تينك النخلتينِ البديعتينِ المتعانقتينِ على ضفّته، ومنظرِ تلكَ المروجِ الخضراءِ المنبسطةِ من حوله، وكانوا لذلك يسمّونه «مخدع فرجيني».

وكانتْ تستصحبُ معها كلّما ذهبتْ إلى هناكَ غنيماتِها وأعنزَهَا، فتتركها ترعى بين يديها، ويعجبُها أن ترى واحدةً منها، وقد وثبتْ إلى ظهرِ الصخرةِ ووقفتْ على مؤخّرِ أطرافها، واشرأبّتْ بعنقِهَا لتتناولَ بفمِهَا بعضَ الأغصانِ فتقضمَهَا قضمًا، فكأنّها معلّقة في الهواءِ، أو كأنّها تمثالٌ ماثلٌ في الفضاء.

وربّما أخذتْ معها ملابسَها وملابسَ الأسرةِ، فغسلَتْهَا على حافَةِ النبعِ أو جلستْ ناحيةً، تحلبُ ألبانَ ماشيتِها، ثمّ تمخضُها[1].

وكانَ بول يختلفُ إلى هذا المكانِ من حينٍ إلى حينٍ كلّما أمكَنَتْهُ الفرصةُ، فيجلسَ إلى فرجيني جلسةً هانئةً سعيدةً يغتبطانِ فيها بتلكَ العزلةِ الهادئةِ الساكنةِ وذلكَ المنظرِ الساحرِ البَديع.

وكانَ أعظمُ ما يروقُهُما ويستثيرُ سرورَهُما وغبطَتَهُما منظرَ الطيورِ البحريّةِ وهي مقبلةٌ من شاطىءِ البحرِ الهنديّ مع الظلام زمرًا ترسمُ في صفحةِ السماءِ خطوطًا مستقيمةً ومتعرّجةً، ودوائرَ تامّةً وناقصةً، وتغرّدُ أغاريدَها المختلفةَ الألحانِ والنغماتِ، حتّى تنزلَ بهذا المعتزلِ الساكِنِ الظليلِ، لتقضيَ فيه سوادَ ليلها، فإذا انقضتْ دولةُ الظلامِ، ونَشَر الفجرُ رايتَهُ البيضاءَ في آفاقِ السماءِ طارتْ مع أضوائِه، وذهَبتْ من مذاهبها حيث تشاء.

وكأن بول قد عزّ عليهِ ألّا تتمتّعَ فرجيني بذلكَ المنظرِ البديعِ الرائقِ في جميعِ أوقاتِها فأخذَ ينقلُ إلى الأشجارِ المحيطةِ بهذا المكانِ من الغاباتِ القريبةِ فراخَ الطيرِ في أعشاشِها، فتتبَعُها أمّهاتُها، وما هيَ إلّا أيّامٌ قلائلُ، حتّى اتخذَتْ لها في الروضِ الأريض[2] موطنًا جديدًا، تروحُ إليه، وتغدو، فأنِسَتْ بها فرجيني أنسًا عظيمًا، وعطفتْ عليها عطفَ الأمّ الرؤوم على صغارها، فكانت تطعمُهَا وتسقِيها، وتحملُ لها في حجرِهَا حبوبَ القمْح والذرةِ، فتنثرُها بينَ يديها فإذا رأتها الطيورُ مقبلةً من بعيدٍ تطايرتْ إليها من أوكارِهَا وأعشاشِهَا صادحَةً مترَنّمةً، وحامتْ فوقَ رأسها تلقّطُ الحَبّ من يَدِهَا مرّة ومن الأرضِ أخرى، فيكونُ منظرُ ا في اختلافِ

(١) مخض اللبن: حرّكه ليستخرج زبدته. (٢) الأريض: الكثير العشب.

ألوانها وتمعّجِهَا[١] واضطرابِ حركاتِها أشبهَ شيءٍ بمنظر الثوبِ الملفوفِ، قد عبثتْ أشعّةُ الشمسِ بخيوطِهِ الحريريّةِ، فماجَ بعضُه في بعضٍ، فتظلّ فرجيني لاهيةً بهذا المنظرِ مفتتنَةً به، وبول مغتبطٌ باغتباطها راضٍ عن نفسِه برضَاها حتّى يعودا معًا ساعةَ الغروبِ إلى كوخِهِما.

وهنا تنفّس الشيخُ الصعداءَ، وألقى أمامَه نظرةً بعيدةً جامدةً كأنّما ينظرُ إلى شبحٍ مقبلٍ عليه، فألقيتُ نظري حيثُ ألقى نظرَهُ فإذا هو محدّقٌ في تلكَ البقعةِ التي سمّاها «مخدَع فرجيني»، وأخذَ يهمهِمُ كأنّما يحدّثُ نفسه ويقول:

أيّها الولدانِ العزيزانِ، إنْ أنْسَ شيئًا فإنّني لا أنسى أيّامكما العذبةَ الجميلةَ التي ملأتما فيها حياتي سرورًا وغبطةً، وكنتما لي صديقينِ حميمينِ ما أنكرُ منكما ولا تنكرانِ منّي شيئًا، ولا أنّكما كنتما أبرَّ الناسِ بي وأحدَبَهُم[٢] عليَّ حتّى أصبحتُ أشعرُ أنّني أعيشُ بجانبِكُما في أسرتي بين أهلي وقومي، وأنّ أيّامَ صبايَ قد عادتْ لي بوجهِهَا الطلقِ النضيرِ، فسلامٌ عليكما حيثُ كنتما، وسلامٌ على عهدِكُما البائدِ الدارسِ عهدِ الصلاحِ والبرِّ والفضيلةِ والشرفِ والحبِّ والوفاءِ.

❀ ❀ ❀

١٣ ـ ليالي الشتاء

وكانَ إذا جاءَ الشتاءُ، وسالتِ الأجواءُ بردًا وقرًّا، وأوتِ الطيورُ إلى أوكارِها، والوحوشُ إلى أجحارِها، قَضَوْا داخلَ أكواخِهِمْ لياليَ سمرٍ جميلةً، يجتمعون فيها حولَ منضدتهم العاريةِ على ضوءِ مصباحٍ ضئيلٍ يُلقي أشعّته الصفراءَ الخفّاقَةَ على ما نيطَ[٣] بجدرانِ الكوخِ من معاولَ وفؤوسٍ، وقواطعَ ومناشيرَ، وما كُدِّسَ في أركانِهِ من حقائبَ وجوالقَ، وقربٍ وروايا[٤]، فترى كأنّها الأشباحُ الجاثمةُ، أو الوحوشُ الرابضةُ، فيتحدّثُ بول عن حقولِهِ وأغراسِهِ، وغلّاتِهِ وثمراتِهِ، وأحواضِهِ، ومستنبتاتِهِ، وما نَضَجَ من أزهارِها، وما لم ينضَجْ؛ وما نَقَلَ منها إلى الظلِّ، وما أبقى تحتَ أشعّةِ الشمسِ؛ وعن الكرومِ وعناقيدِها، والقمحِ وسنابلِهِ، والذرةِ وأعوادِها، وتحدّثُهُمْ فرجيني عن عصارةِ القصبِ، ومنقوعِ الشعيرِ، وشرابِ الليمونِ، وأمثالِ ذلك من الأشربةِ التي تعلّمَتْ من أمّها صُنْعَها، واعتادت أنْ تقدّمها لأسرتها صباحَ كلِّ يوم ومساءَه.

وقد تحدّثُهُمْ أحيانًا عن حديقَتِها الصغيرةِ، فتظلّ تصفُ لهم نَبْعَهَا المتفجّرَ الثجاج[٥]، ونخلتيها الباسقتينِ المتعانقتينِ، وما نبتَ حولهما من ألوانِ الزهرِ وصنوفِ العشبِ، وما يختلفُ إلى خمائِلِهَا وأشجارِهَا من أسرابِ الطيرِ وجماعاتِها ليلَهَا ونهارَها صادحةً مترنّمةً كأنّها فرقةٌ

---

(١) تمعّج: تلوّى في مشيه كالحيّة. (٢) حدب عليه: عطف وانحنى.

(٣) نيط: المجهول من ناط بمعنى علّق.

(٤) الروايا: جمع راوية وهي الإناء من جلد يحفظ فيه ماء الشرب.

(٥) الثجّاج: المتدفق بغزارة.

موسيقيّةٌ تتّحدُ نغماتُها وتختلفُ رنّاتها، وتقصُّ عليهم مرغريت بعضَ القصصِ الغريبةِ المملوءةِ هَوْلًا ورعبًا كقصّة السائح المسكين الذي ضلّ به طريقُه في إحدى الليالي الداجيَة المدلهمّة[١] في بعض غابات بريتانيا الموحشةِ، فخرجَ عليه بعضُ اللصوصِ من مكمَنِهِمْ فسلبُوه مالَهُ وراحِلَته، ثم خافوا جريرَتَهُم ،فقتلوه، وألقوه في أحشاءِ الغابةِ، أو قصّةَ السفينةِ التي عصفتْ بها الريحُ في بحر الشمالِ، وأحاطَ بها الموجُ من كلّ جانبٍ، وأخذتْ عليها جميعُ السبلِ، فغرقتْ، وغرقَ معها رُكّابها، ولم يبقَ من آثارِها إلّا بضعةُ ألواحٍ ألقاها الموجُ على جوانبِ بعضِ الصخورِ الناتئة.

فيتأثّر بول وفرجيني لسماعِ أمثالِ هذهِ القصصِ تأثّرًا شديدًا، ويتفجّرُ في قلبيهما ينبوعٌ صافٍ من الرقّةِ والرحمةِ بهؤلاءِ البائسينَ المنكوبينَ، ويتمنّيانِ بكلّ ما تملكُ أيديهما أنْ لو وفّقا في يومٍ من أيّامِ حياتهما إلى هدايةِ سائحٍ ضالٍّ عن طريق أو إنقاذِ غريقٍ من مخالبِ الموت.

وكثيرًا ما كانتْ تقرأ عليهم هيلين شيئًا من قصص «العهد القديم» وبعضِ آياتٍ من «العهد الجديد» فيسمَعُها الآخرونَ ساكنينَ خاشعينَ تسيلُ نفوسُهُمْ أسًى، وعيونُهم أدمعًا. إنّهم ما كانوا يحفلون كثيرًا بتَفَهُّمِ مضامينها، واكتناهِ أسرارِها، كأنّما كانوا يشعرونَ أنفسَهُم أنّهم أغنياءُ عن هذا كلّه بما وهبهُمُ اللهُ من إيمانٍ فطريٍّ بسيطٍ، لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ ولا توضيحٍ، ومن يقينٍ راسخٍ في أعماقِ قلوبِهِم، يثلجُ صدورهُم، ويملأُ فضاءَ نفوسِهِم راحةً وسكينة.

حتّى كانَ يُخَيَّلُ إليهم أحيانًا أنّ الفضاءَ الذي بين أيديهِمْ إنّما هو معبدٌ مقدّسٌ يصلّونَ للهِ في أيّة بقعةٍ من بقاعِهِ شاءوا، ويرونَ الله في أيّ مطلعٍ من مطالِعِهِ أرادوا، وكأنّ الطبيعةَ بين أيديهم إنجيلٌ مفتوحٌ تقومُ فيه الآياتُ المنظورة مقامَ الآياتِ المتلوّة، والبراهينُ الحسيّة مقامَ البراهينِ التوقيفيّةِ المقروءة، وهل للرحمةِ الإلهيّة إلّا تلكَ الثمراتُ التي نبتتْ لهم في أرضٍ مقفرةٍ مجدبةٍ لا ينبتُ مِثْلَها غيرُ الجهدِ والشقاء؟ وهل القدرةُ الربّانيّة إلا تلكَ الجنّةُ الأرضيّةُ الزاهرةُ التي اختلفتْ أوضاعُهَا وأشكالُهَا، وطعومُهَا، وروائِحُها، وقد سُقِيَتْ بماءٍ واحدٍ، وأشرقتْ عليها شمسٌ واحدة؟ وهل العنايةُ الصمدانيّة إلا ذلكَ التوفيقُ الغريبُ الذي ضمّ بعضَهُم إلى بعضٍ على بُعْدِ دَارِهِمْ واختلافِ مواطنهم؟ فتكوّنت منهمْ أسرةٌ واحدةٌ متحابّةٌ متآلِفَةٌ يُغْنِيها اجتماعُها واتّفاقها عن الأهلِ والوطنِ، والمالِ والنسب؟

وكانتْ تجري بينهم تلكَ الأحاديثُ والطبيعةُ خارجَ الكوخِ هائجةٌ صاخبةٌ، تجلجِلُ رعودُها، وتعصفُ رياحُها، وتتدفّقُ سيولُها، وتصخبُ أمواجُها، فَيَحْمَدونَ الله تعالى على أنْ كفاهُمْ شرورَهَا وويلاتِها، ومنحَهُمْ هذا الملجأَ الأمينَ الذي يفزعونَ إليه من كوارثِها وأرزائِها. ثمّ لا تلبث السِّنَة[٢] أن تخالطَ أجفانهم، فينسلّوا إلى مضاجعهِم وينامونَ نومًا هادئًا ساكنًا، لا قَلَقَ فيه ولا اضطرابَ، ولئن كانَ صحيحًا ما يقولونَ من أن لكلِّ امرىءٍ في الحياةِ يومين: يومَ

---

(١) المدلهمّة: الشديدة السواد. (٢) السِّنَة: النوم والنعاس.

بؤسٍ ويومَ نعيم فلقدْ كانَ لهؤلاء القومِ من دون الناس جميعًا يومٌ واحدٌ، لا يرونَ فيه غيرَ وجهِ النعيم، ولا تطلُع عليهم شمسُه إلّا بما يحبّون ويرتضون.

وكانَ الدهرُ يأبى عليهم أحيانًا إلّا أن يُجْرِيَ حُكْمَهُ فيهم، كما يجريه على الناسِ جميعًا، فيأذن لبعضِ غيومِه القاتمةِ أن تُلِمّ بسمائِهِمْ الصافيةِ، فتغشى صفحتَهَا، وتكدّرَ صَفَاءَها، فإذا نزلتْ بأحدِهم نازلةُ مرضٍ أو همٍّ رأيتَ الباقينَ قد أحاطوا به، وبَسَطوا عليه جناحَ عطفِهِمْ ورحمتِهِمْ، وكأنّما قد أصيبوا من دونِهِ بالذي أصيبَ به ولا يزالونَ يلاطِفونه، ويداوِرُونه حتّى ينتزعوا الهمّ من بينِ جنبيه انتزاعًا، فإذا هو بارىءٌ سليمٌ كأنْ لم يَشْكُ قبلَ اليومِ همًّا ولا ألمًا.

وكانوا يَذْهبونَ أيّامَ الآحادِ، لأداءِ الصلاةِ في كنيسةِ «بملبموس» ذاتِ القبّةِ العاليةِ التي تراها هناكَ في وسطِ ذلكَ السهلِ الفسيحِ مشاةً على أقدامهم لا يشكونَ تعبًا ولا نَصَبًا، فإذا وصلوا إليها، رأوا كثيرًا من الأثرياءِ وأربابِ النعمةِ مقبلينَ في هوادِجِهم المحمولةِ على أعناقِ عبيدهم في رونقٍ بديعٍ، يملأُ العينَ بهجةً، والقلبَ روعةً، فلا يحفلونَ بهم، ولا يكترثون، ولا يحسدونَهُمْ على ما آتاهم اللهُ من نعمةٍ، بل كانوا يتجنّبون جهدَهُمْ أنْ يخالطوهم، أو أن يجيبوا داعيَ مودّتهم لأنّهم كانوا يعتقدونَ أنّ القويَّ لا يمنحُ الضعيفَ ودّه ومحبّته إلا ليبتاعَ منهُ ماءَ وَجْهِهِ وكرامَةَ نفسه، ولا يبذلُ لهُ القليلَ من برّه ومعروفِهِ إلا ليستعبده، ويستأثِرَه، ويملكَ عليه زمامَ حياته، وهم لا يريدونَ أن يبذلوا من ذلك شيئًا.

كما أنّهم يتجنّبونَ جهدهُمْ مخالطةَ الهمجِ والرعاعِ، وأسقاطِ الناسِ وأشرارَهم ضنًّا بنفوسهم أنْ يسريَ إليها من طريقِ المخالطةِ الساقطةِ ما يُشَوّه جمالَهَا ويغشّي لألأَهَا، فاتّهمهم الناسُ بالضعفِ مرّة وبالكبرياءِ أخرى، ومضوا معهم على ذلكَ عهدًا طويلًا حتّى عرفوهُمْ حقّ المعرفةِ، واستشفّوا سريرةَ نفوسهم، فعلموا أنّهم أشرفُ من هذا وذلك؛ فإنّهم ما كانوا يضنّون بأنفسِهِمْ أنْ يقفوا الوقفاتِ الطوالَ مع من يعترض طريقَهُم من الناسِ، فيسألهم حاجةً من الحاجِ، أو يستعينُ بهم على كارثةٍ من كوارثِ الدهر، أو يدعوهُم إلى زيارةِ مريضٍ، أو مساعدةِ منكوبٍ، ولا يأبونَ أن يدخلوا الأكواخَ القذرةَ الوبيئةَ لزيارةِ المرضى ومؤاساتِهم وتفقُّدِ حالةِ المنكوبينَ والبائسين.

فإذا دخلوا على مريضٍ جلسوا حولَهُ طويلًا، وعلّلوه كثيرًا، وأحاطُوه بعطفِهِمْ وعنايتِهِمْ، فتقدّمُ له مرغريت الدواءَ، وفرجيني الابتساماتِ، وهيلين التعزيةَ، وبول النصائحَ الطبيعيَّة، فكانوا يعالجونَ في آنٍ واحدٍ نفسَه وجَسَدَه، ثمّ يعودونَ وقد خالطتْ نفوسَهم عاطفتانِ مختلفتان: عاطفةُ الحزنِ على أولئكَ المعذّبينَ المتألّمينَ وعاطفةُ الغبطةِ بما وفّقهم اللهُ إليه من تَسْرِيَةِ همومِهِمْ وتهوينِ آلامِهِم.

وكان منزلي على مَقْرُبَةٍ من تلكَ الكنيسةِ ليسَ بينها وبينه إلّا طريقٌ واحدٌ يمتدّ بجانبِ الجبلِ صُعُدًا حتّى يصلَ إليه، فإذا قَضَوْا حاجتهم من مؤاساةِ البائسِ وتعليلِ المريض وتعزيةِ المنكوبِ

سلكوا تلكَ الطريقَ إلى منزلي، ليقضُوا عندي بقيّة يومهم، فكنتُ أعدّ لهم الغداءَ على شاطىءِ جدولٍ صغيرٍ تحتَ ظلّةٍ دانيةٍ من شجرِ الموزِ، وكانَ غداؤُنا بسيطًا جدًّا؛ لا يزيدُ على ما يقذفُه إلينا البحرُ من أسماكِهِ وما يُسْقِطُهُ علينا الشجرُ من أثماره وما نظفرُ به في فضاءِ الجوّ من سارحٍ أو بارحٍ، وربّما ضَمَمْنَا إليه شيئًا من التوابلِ والأفاويه المركّبة من الأعشابِ الهنديّة الحارّة. فإذا قَضَينا غداءَنا جلسْنَا للراحةِ فوقَ هضبةٍ عظيمةٍ على شاطىءِ البحرِ لنمتّعَ أنظارَنا برؤيةِ أمواجِه، وهي مقبلةٌ علينا يتلو بعضُها بعضًا، حتّى تنكسِرَ تحتَ أقدامنا، ثمّ تنبسطُ قليلًا على ذلكَ الشاطىءِ الرمليّ الفسيحِ، ثمّ تتلاشى كأنّها لم تكن.

وكان بول إذا رآها مقبلةً فرّ من بين يَدَيْها كأنّه طريدُها الذي تطلبه. وربّما تلكّأ في جَرْيِهِ عَمْدًا حتّى تدركه، فإذا هو مكفّنٌ في كفنٍ صافٍ من نسيجِها الأبيضِ، فتصرخُ فرجيني حين تراه على هذه الحالة صرخةً عظمى كأنّ الأمرَ قد بلغ عندها مَبْلَغَ الجِدّ، أو كأنّها ترى من وراء حجبِ الغيبِ منظرًا مخيفًا يروّعُها ويزعجها، فتظلُّ تقول بينها وبين نفسها: يُخَيَّلُ إليّ، وأنا أنظرُ إلى هذا البحرِ المائجِ المصطخبِ، أنّني أرى بين كلّ موجتين قبرًا محفورًا.

ثمّ لا تلبثُ أن تعودَ إلى نفسها، وتثوبَ إلى رُشْدِها وتستأنِفَ سرورَهَا ومرحَهَا، فيدعوها بول إلى الرقصِ معه فيرقصانِ معًا على بساطِ الرملِ الأصفرِ تلكَ الرقصةَ الزنجيّةَ البسيطةَ التي لا هُجْر[1] فيها، ولا يشوبها عارٌ ولا إثمٌ. ثمّ يغنّيانِ بعضَ قطعٍ جميلةٍ، لا أزالُ أذكرُ منها حتّى اليوم قطعةَ «البحر الزاخر» التي يثني فيها قائِلُها على الحياةِ الهادئةِ البسيطةِ فوقَ ظهر اليبسِ، ويذمّ الحياة القلقةَ المضطربةَ على سطحِ الماء، وينعى نعيًا كثيرًا على أولئك الذين يدفعُهُم شَرَهُهُمْ وطَمَعُهُم إلى ركوبِ البحر واحتمالِ مخاطره وكوارثِهِ طلبًا للثراءِ الواسعِ والمالِ الكثيرِ بدلًا من بقائهمْ في أوطانهم بين أهليهِمْ وعشيرتهم والقناعةِ بما قسمَ الله لهم من الرزق.

وكان يخطرُ لفرجيني أحيانًا أن تمثّلَ بعض الرواياتِ القصيرةِ التي سمعَتْهَا من أمّها، فتظهرُ على مسرحِ الشاطىءِ الرمليّ حاملةً جَرّتها على رأسِها كأنّها ذاهبةٌ إلى بعضِ الآبارِ للاستقاءِ حتّى إذا بلغتْ مكان البئرِ وقفَ دومينج وماري ومرغريت في طريقها كأنّهم رعاةُ مدين يحولونَ بين ابنةِ شعيب وبينَ البئرِ، فيلمَحُها بول على البعدِ، فيسرعُ لنجدتها، ويحملُ على الرعاةِ حَمْلةً شديدةً حتّى يمزّقَهُمْ كُلَّ ممزّقٍ كما فعل موسى، ثمّ يضعُ لها فوقَ رأسها طاقةً جميلةً من الزهرِ الأحمرِ ليضعَ الجرّة فوقَها فكأنّه يكلّلها بإكليلِ الزواجِ، فأقومُ أنا بتمثيل دورِ «شعيب»، وأزوّجُ ابنتي «صفورة» من الفتى «موسى».

وأحيانًا كانت تمثّل دورَ البائسةِ «راعوث»، حينما عادتْ إلى بلدِهَا بعدَ غيابٍ طويلٍ، فترى نفسَها غريبةً منقطعةً لا أهلَ لها ولا رَحِم، فتظلّ سائرةً في طريقها مُطْرِقَةَ الرأسِ ساهمةَ الوجه حتّى تلمحَ جماعةَ الصيّادين، وكان يمثلهم دومينج وماري ومرغريت يحصدونَ في مزرعتهِمْ،

---

(١) الهُجْر: القبيح، المشين.

فَتَتْبَعُ خطواتهم وتلتقطُ بعضَ السنابلِ الساقطةِ، لتتبلّغ بها، فيراها بول وهو يمثّل دورَ «بوعز» أحدِ نبلاءِ المدينةِ، فتدركه رقّةٌ لها، فيتقدّمُ نحوها، ويسألها عن شأنها، فترتعدُ بين يديه وتجيبُه على أسئلتِهِ بصوتٍ خافتٍ متهدّج،[١] فتذرفُ عيناه الدموعَ رحمةً بها ومرثاةً لها، ويأخذُ بيدها حتّى يقفَ بها أمامَ شيوخِ المدينةِ في منتداهم ويعلنَ زواجَه منها رغم فقرِها وإقلالها.

وهنا تذكرُ هيلين حياتَها الأولى وأنّها كانتْ أشبَه شيءٍ بحياةِ تلكَ الفتاةِ الإسرائيليّةِ المسكينةِ، وأنّها لقيتْ من أهلِها، وجفائِهم وغلظتِهِم مثلَ ما لقيت؛ وكابدتْ[٢] من آلامِ الحياةِ وهمومِهَا مثلَ ما كابدتْ، فتبكي بكاءً طويلًا.

ثمّ لا تلبثُ أن تصلَ بخيالها إلى النهايةِ الطيّبةِ التي خُتِمَتْ بها تلكَ الرواية فتهدأُ نفسُها قليلًا، وتتفاءَلُ خيرًا لابنتِهَا أن يكون مصيرُها هذا المصيرَ السعيد.

وجملةُ القول أنّنا كنّا نتمتّع في ذلكَ اليوم بجميعِ ما يتمتّعُ به السعداءُ في منتدياتِهِمْ ومجتمعاتهم ومعاهِدِ أُنْسِهِمْ ولهوِهِمْ من أكلٍ وقَصفٍ، ورقصٍ وتمثيلٍ، ولعبٍ ومزاحٍ، لا فرقَ بيننا وبينهم، إلّا أنّنا لا نزخرفُ المسرَح الذي نتنقّلُ عليه بالصورِ الكاذبةِ للبحرِ والشاطىءِ والصحراءِ والسماءِ، والكواكبِ والنجومِ، والنباتِ والعشبِ، وهديرِ الأمواجِ وزفيفِ الرياحِ ودمدمةِ الرعودِ كما يزخرفونَ، فكلُّ ذلك حاضرٌ بين أيدينا حقيقةً لا خيالًا.

ولا نزالُ هكذا حتّى تدنوَ ساعةُ الأصيلِ، ويقفَ قرصُ الشمسِ وقفةَ الوداع على قمّةِ الجبلِ متوهّجًا كاللهبِ الأحمرِ، فيظلُّ ينثرُ ذرّاتِهِ الذهبيّةَ في عرضِ الفضاءِ، وتظلُّ قطعُ الأنوارِ تتساقطُ من بين فجواتِ الأغصانِ كأنّها الدنانيرُ المبعثرةُ، وتستحيلُ أوراقُ الزهرِ في سكونِ ذلكَ الجوّ وهدوئه إلى أحجارٍ جامدةٍ من الزمرّدِ والياقوتِ والماسِ والفيروزِ. ويُخيّلُ للنّاظرِ إلى الجذوعِ المائلةِ كأنّها بقايا بركانٍ قديمٍ قد غمرها في سالفِ العهدِ، ثمّ انحسرَ عنها، فإذا هي أعمدةٌ صَدِئَةٌ من البرونز القائم.

ثمّ لا يلبثُ الظلامُ أن يمتدّ وينبسطَ، فإذا الفضاءُ سكونٌ ووحشة، وإذا البحرُ خشيةٌ وجلالٌ، وإذا الطيرُ جاثمةٌ على أوكارها، تفرّ إليها من وَحشةِ الظلامِ وهَوْلِهِ، وإذا كلُّ شيءٍ صامتٌ جامدٌ إلّا ما كان من جرجرة الآذيّ[٣] تصلُ إلى آذاننا من حينٍ إلى حينٍ كأنّها الزئيرُ المنبعثُ من حلوقِ الوحوشِ الضاريةِ، فنجمدُ أمام هذا المنظرِ الرهيبِ ساعةً ذاهلين مستغرقينَ، وكأنّنا قد انتقلنا إلى عالمٍ آخرَ من عوالِم الملأ الأعلى حافلٍ بعجائبِ المنظوراتِ وغرائبِ المشاهداتِ، ثمّ نعودُ إلى أنفسنا، فيودّعُ بعضُنا بعضًا، ثمّ نفترقُ إلى أكواخنا.

❁ ❁ ❁

---

(١) متهدّج: مرتجف.
(٢) كابد: تحمّل.
(٣) الآذي: موج البحر.

١٤ ـ آدم وحواء

نشأ بول وفرجيني في هذه الجنّةِ الأرضيّةِ منشأ أبوينا الأولين في جنّتهما السماويّة، فكان بول مثالَ آدم، له قامةُ الرجلِ وشطاطُه[١]، وبساطُه الطفلِ وسذاجَتُه، وكانتْ فرجيني مثالَ حواءَ لها جمالُ الأنوثةِ وحلاوتُها، وَدَعَةُ النفسِ وعذوبَتُها.

وكانا يعيشانِ في مُعْتَزَلِهما هذا حُرّين مُطْلَقَيْنِ، لا يسيطِرُ عليهم مسيطرٌ من تلكَ القيودِ التي تسيطرُ على عقولِ الناشئينَ، وضمائرِهم في تلكَ البلادِ التي يسمّونها بلادَ الحريّةِ والطلاقَةِ، ولا تسجنُهُما العلومُ والمعارفُ في سجنهَا الضيّقِ المظلمِ الذي يحولُ بينَهُما، وبين التبسّطِ والاضطرابِ في فضاءِ الكونِ كما يشاءَان.

ولم تكنْ لديهما ساعةٌ لمعرفةِ أوقاتِ الليلِ والنهارِ، ولا تقويمٌ لمعرفةِ الفصولِ والأعوام، ولم يتلقّيا درسًا واحدًا في علمِ الهيأةِ ونظامِ الكواكبِ والنجوم. ولكنّ الطبيعةَ استطاعتْ أن تمنحَهُما من نفسِهَا ما تَمنحُ العلومُ والمعارفُ أمثالَهُما، فاستعانا بالأشعّة والظلامِ على معرفةِ الأوقاتِ، وبنضوجِ النباتِ وظهورِ الأثمارِ وتلَوُّنِ الأزهارِ على معرفةِ الفصولِ، وبعددِ ما غَرَسا من الأشجارِ على عددِ ما مرّ بهما من السنينِ والأعوامِ فكانا يقولان: «قد حانَ وقتُ الغداءِ» إذا انقبضتْ ظلالُ أشجارِ الموزِ، وتضاءلَتْ تحتَها. و«قَرُبَ الليلُ» إذا التفّتْ أوراقُ التمر هنديّ على أثمارِها، وكانا إذا وعَدا أحدًا بزيارةٍ جَعَلا ميعادَها ظهورَ قَصَبِ السكّر أو نضوجَ النارنجِ، وإذا سألْتَ فرجيني عن عمرِها أجابت: قد أثمرتِ الكرومُ مذْ ولدتُ أربعَ عشرةَ مرّة، وأشجارُ البرتقالِ ثمانيةً وعشرين، وإذا سئل بول بِكَمْ يكبرُ فرجيني[٢] أجابَ: بمقدارِ ما بينَ النخلتينِ الماثلتينِ على حافّةِ النبعِ. كأنّ حياتَهما متصلةٌ بحياةِ النباتِ، أو كأنّهما إلهانِ من آلهةِ الحقولِ التي تعيشُ بينها وترعاها.

فكانا لا يعرفانِ تاريخًا غيرَ تاريخهما، ولا يطالعانِ مصوّرًا غيرَ مصوّرِ جزيرتهما، ولا يقرآن كتابًا غيرَ كتابِ الطبيعةِ المفتوحِ أمامَهُما، ولا يفهمانِ فلسفةً غيرَ أنّ عملَ الخيرِ سعادةٌ، وعملَ الشرّ شقاءٌ، ولا يحفظانِ آيةً غيرَ آيةِ التفويضِ إلى الله تعالى في كلّ ما يأخذانِ، وما يَدَعَان.

وكانا إذا خَلَوَا بأنفسِهما جرتْ بينهما أحاديثُ بسيطةٌ ساذجةٌ، لا يتكلفانِ فيها ولا يتعمّلانِ، ولا يحاولانِ أنْ يضعا حجابًا بين ما يدورُ في سريرتهما، وما ينطقُ به لسانُهُما.

ولقد سمعتُهُما مرّةً يتحدّثانِ من حيثُ لا يشعرانِ بمكاني، وكان بول قد عادَ من عَمَلِهِ ساعةَ الغروبِ، فرمى بفأسِهِ وحقيبتِه إلى الأرضِ، وجلسَ إلى فرجيني يقول لها:

إنّي لأراكِ يا فرجيني وأنا متعبٌ مكدودٌ ما أكاد أتماسَكُ، فأنسَى تعبي وشقائي وكأنّني لم أحملْ في يومي فأسًا، ولم أفلحْ أرضًا، وربّما وقَعَ نظري عليكِ وأنا على قمّةِ الجبلِ وأنتِ في

---

(١) الشطاط: الطول وحسن القوام. (٢) يكبر فلان فلانًا: يزيد عليه في العمر.

سفحِهِ، فَيُخَيَّلُ إليّ أنّكِ وردةٌ بين الورودِ النابتةِ حولك. إلّا أنّكِ أنضرُ منها حسنًا، وأطيبُ أريجًا؛ فإذا غبتِ عن ناظري وراءَ أكمةٍ من الأكماتِ أو تحتَ ظلّةٍ من الظّللِ استطعتُ أن أعرفَ المكانَ الذي أنتِ فيه، لأنّني أشعرُ أنّ موجةً من النورِ تحيطُ بكِ حيثُما ذهبتِ، وأنّى حَلَلْتِ، فإذا بَرقَ لي شعاعُها، علمتُ أينَ تحلّينَ من بطنِ الوادي، فلا أحتاجُ للسؤالِ عنكِ، فإذا رأيتُكِ وأنتِ عائدةٌ إلى المنزلِ خُيِّلَ إليّ جمالُ مشيتِكِ ورشاقةُ حركاتِكِ كأنّك قطاةٌ[1] تنتقلُ على بساطِ الخضرةِ، وأنّك موشِكَةٌ أنْ تستقلّي بجناحِكِ في جوّ السماء.

إنّكِ كلُّ شيءٍ يا فرجيني، إنّكِ حياتي التي لا أستطيعُ أن أعيشَ بدونِها لا بلْ لا استطيعُ فراقَهَا لحظةً واحدة. إنّ زرقةَ عينيكِ أصفى من زرقَةِ السماءِ، وإنّ نضارةَ وجهِكِ أجملُ من نضارةِ الربيعِ، وإنّ ماءَ الحُسْنِ الذي يجولُ في أديمِكِ لهو الكوثَرُ الذي يصفُه الكتابُ المقدّسُ فيما يصفُ من بدائعِ الجِنَان.

أسمعُ صوتَكِ الذي هو أشبَه شيءٍ بصوتِ الطائرِ الغرِدِ، فيخفقُ قلبي خفقانَ أجنحةِ ذلكَ الطائرِ، وأضعُ يدي في يدِكِ، فتنبعثُ في جسمي رِعشةٌ شديدةٌ كرعشةِ الخائفِ المذعورِ، وما أنا بخائفٍ ولا مذعور!.

أتذكرينَ يا فرجيني يومَ حملتُك على ظهري، واجتزتُ بكِ ذلكَ النهرَ المتدفّقَ ونحنُ عائدان من زيارةِ ذلكَ الرجل الشّرير؟

لقد كنتُ في ذلكَ الوقتِ تعبًا واهنًا، ولكنّني ما شعرتُ بملامسةِ جسمِكِ لجسمي حتّى خُيِّلَ إليّ أنّني قد استحَلْتُ إلى طائرٍ خفّاقِ الجناحينِ، ولو أنّك اقترحتِ عَلَيَّ في تلك الساعةِ أن أطيرَ بكِ في آفاقِ السماءِ لفعلتُ.

لا أستطيعُ أن أفهمَ ما هذا الذي يؤثّرُ عليَّ منكِ يا فرجيني؟ لا أخافُكِ ولا أخشَاكِ، بل أحبّكِ وآنَسُ بكِ، فلِمَ أضطربُ حين أراكِ، ولِمَ أرتعدُ حينَ يلمسُ جسمي جسمَكِ؟!

إنّكَ لا تستطيعينَ أن تحبّيني كما تحبّني أمي، أو تعطفي عليّ عطفَها، أو تقاسمِيني همومي، وآلامي مقاسَمَتَهَا، ولكنّني أشعرُ أنّ الذي أضمِرُه لكِ من الحبِّ والعطفِ فوقَ الذي أضمِرُه لها، ولقد عدتُ الآنَ من المزرعةِ وكانَ أمامي الطريقان: طريقي إلى الكوخِ فلم أَنْتَبِهْ إليه، وطريقي إليكِ فجئتُكِ دونَ أن أشعرَ بما أفعلُ أو أعرفَ لذلكَ سببًا.

ما أحسبُ إلّا أنّ حادثَةَ الجاريةِ الآبقةِ[2] كانت هي السببُ في ذلك، فإنْ أَنسَ، لا أنسى صورةَ ذلكَ الألمِ الشديدِ الذي ارتسَمَ على وجهِكِ يومَ جَثَت لكِ البائسةُ المسكينةُ تحتَ قدميكِ، وقصّتْ عليكِ قصّتها، ولا تلكَ الدموعَ الغزارَ التي ذرفتِهَا رحمةً بها وإشفاقًا عليها، ثمّ ما خَاطَرْتِ به بعد ذلكَ من راحةِ نفسِكِ وهدوئِها في سبيلِهَا.

إنّك طيّبةُ القلبِ يا فرجيني، إنّك تحبينَ الخيرَ للخيرِ لا تطلبينَ جزاءً ولا أجرًا، إنّك

---

(١) القطاة: طائر صحراوي بحجم الحمامة. (٢) الآبقة: الهاربة من سيّدها.

تتألّمين لمصابِ المساكينَ والبائسينَ أكثرَ ممّا يتألمُ جميعُ الناس.

تعالَيْ إلى جانبي، وخُذي هذا الغصنَ الأخضرَ الذي قطعتُه لكِ الساعةَ من شجرةِ الليمونِ الكبرى، وَضَعِيه حينَ تنامينَ تحتَ سريركِ، فإنّه يملأُ لكِ فضاءَ الكوخ عطرًا وشذًى، وخذي هذا القرصَ من العسلِ، فقد عثرتُ به في جوفِ صخرةٍ عاليةٍ في قمّةِ الجبل، وسيكونُ فطورُنا في الصباحِ شهيًّا جميلًا.

تعالَيْ إليَّ يا فرجيني، وضَعي رأسَكِ على فخذي لأشعرَ بالراحةِ من جميعِ متاعبي وآلامي، وتحدّثي إليّ قليلًا فحديثُكِ غذاءُ نفسي وراحةُ ضميري.

فتُخْرِجُ منديلَها من جيبِهَا، وتمسحُ لهُ عرقَ جبينِه، ثمّ تضطجِعُ وتضعُ رأسَها على فخذِهِ وتظلّ تقول له:

أترى يا بول، منظرَ هذهِ الأشعّةِ الصفراءِ الساقطةِ على رؤوسِ الصخورِ وذوائبِ الأشجارِ، ومنظرَ ذلكَ الشفقِ الأحمرِ الممتدّ على حافةِ الأفقِ، وتلكَ اللآليءَ اللامعةَ الجميلةَ على سطحِ الماء؟!

إنّها جميلةٌ جدًّا، ولكنّها لا تستطيعُ أن تبعثَ السرورَ إلى نفسي كما يبعثُهُ جلوسي بجانِبِكَ وامتزاجُ أنفاسِي بأنفاسِك.

إنّني أحبُّ والدتي حبًّا جمًّا، ولكنّني أحبُّها أكثَر من كلِّ وقتٍ في الساعة التي أراهَا تحنو عليكَ فيها، وتضمُّكَ إلى نفسِهَا، وتدعُوكَ يا ولدي! وربّما غفرتُ لها إغضاءَها عنّي أحيانًا، ولكنّي لا أستطيعُ أنْ أغفرَ لها إغضاءَها عنك.

إنكَ تتساءَل في نفسك: لِمَ تحبّني أكثرَ من كلّ شيءٍ في العالم؟ أما أنا فإنّني أحبّكَ هذا الحبّ نفسه، ولكنّني لا أسألُ نفسي عن سببِ ذلكَ، لأني أعلَمُ أنّ الطائرينِ اللذينِ ينشآن في منشأ واحدٍ وجوٍّ واحدٍ يتعاطفانِ ويتآلفانِ حتّى ما يكادُ يصبرُ أحدُهما عن صاحبه لحظةً واحدة.

انظرْ إليهما! ها هما يتصايَحان، ويتهافَتَان على بعدِ ما بينهما، كأنّ كلًّا منهما يقولُ لصاحبه: تعالَ إلى جانبي ولا تفارِقْني، فإنّني لا أستطيعُ أن أجدَ لذّةَ الحياةِ بعيدًا عنك.

كذلك نحنُ يا بول، نَشَأْنَا في منشأ واحدٍ، ورضَعْنَا ثديًا واحدًا، ونمنا في مهدٍ واحدٍ، وابترَدْنَا في حوضٍ واحدٍ فأصبَحْنَا شخصًا واحدًا، فإذا افترقْنا ساعةً ظلَّ كلٌّ منّا يهتفُ بصاحبه ويناجِيه: أنتَ بمزمارك على قمّةِ الجبلِ، وأنا بأنشودتي في سَفحِهِ كما يفعلُ ذانكَ الطائرانِ المتناجيانِ على أفنانِهما حتّى نلتقي.

تقولُ إنّكَ أحبَبْتَني منذُ ذلكَ اليومِ الذي رأيتني فيه، أعطفُ على تلكَ الجاريةِ المسكينةِ، وأنا أقولُ لكَ إنّني أحبَبْتُك من ذلكَ اليومِ نفسه، فإنّني لا أستطيعُ أنْ أنسى أنّكَ أوشكتَ أن تخاطرَ بنفسِكَ في سبيلي حينما عزمتَ على مقاتَلَةِ الرجلِ الشريرِ من أجلي، بل خاطرتَ بها فعلًا حينما حَمَلْتَنِي على ظهرِكَ، وأنتَ تَعِبٌ مكدودٌ، واجتزتَ بي ذلكَ النهرَ الزاخرَ المتدفّقَ لا تعلمُ أَتَصِلُ إلى ضفّته، أمْ تسقطُ دونَ ذلك.

إنني أجثو كلّ يوم بينَ يدي ربي أسأله الرحمةَ لأمّي وأمّكَ وماري ودومينج حتّى إذا مرّ ذِكْرُكَ على لساني، ارتعشتْ شفتاي وشعرتُ كأنّني أرتشفُ على الظمأ جرعةً باردةً ما خلقَ اللهُ أهنأ ولا أطيبَ منها.

لِمَ تتسلّقُ الصخورَ من أجلي يا بول؟ ولِمَ تجشّمُ نفسَكَ هذا العناءَ الشديدَ فوقَ عنائِكَ الذي تكابِدُهُ طولَ يومك؟ إنّني لا أفكّرُ في شيءٍ وأنتَ غائبٌ عنّي سوى أن تعودَ إليَّ سالمًا موفورًا، فإذا رأيتُكَ كنتَ أنتَ الهديّةَ الثمينةَ التي تقدّمُها إليّ، وتستحقُّ من أجلِهَا شكري وحمدي.

❋ ❋ ❋

١٥ ـ الخفقة الأولى

ما لفرجيني حزينةٌ مكتئبةٌ لا تضيءُ الابتساماتُ ثَغْرَهَا كما كانتْ تضيئُه من قبل؟!.

ما لها واجمةٌ صفراءُ تمشي مطرقةً، وتجلسُ واهنةً[١]، وكأنّ همًّا من همومِ الحياةِ الثقالِ يملأُ ما بينَ جانحتيها، ولا هَمَّ هناكَ ولا حزن!.

ما لها تلجأُ إلى الخلواتِ والمعتزلاتِ، وتتجنّبُ جُهْدَها أنْ تُخَالِطَ الناسَ حتّى أُسْرَتَها وقومَها، وحتّى صديقَهَا الوحيدَ الذي هو أعزُّ عليها من نفسِها التي بين جَنْبَيْها؟!

ما لهذه الخضرةِ الزاهيةِ البديعةِ، ولتلك السماءِ الصافيةِ المتلألئةِ، ولذلك المنظرِ البديعِ الجذّابِ، منظرِ الشمسِ في طلوعِهَا وغروبها، والطيرِ في غدوّها ورواحِهَا، لا يروقُها ولا يستثيرُ سرورَهَا وبهجَتَهَا، ولا يُسَرّي عنها هُمُومَهَا كما كانَ شأنُها قبلَ اليوم؟!

ذلك لأنّ قلبَها قد خفقَ الخفقةَ الأولى، والحبُّ إذا خالطَ قلبَ الفتاةِ لأوّلِ عَهْدِهَا به نَقَلَها من حياةِ السرورِ والبهجةِ إلى حياة الهمومِ والأكدار.

نَعَمْ قد تحولتِ الصداقةُ في قلبِ فرجيني إلى حبّ، وللحبّ شأنٌ غيرُ الصداقَةِ وحالٌ غيرُ حالِها، وشعورٌ وإحساسٌ غيرُ شعورها وإحساسها، وكما أنّ المرأةَ الفارغةَ تشعرُ بتغيير في جميعِ حالاتِها الجسميّة إذا بدأتْ بذرةُ الجنينِ تنمو في أحشَائِها، كذلك الفتاةُ الخالية تشعرُ بتغيّرٍ في جميعِ حالاتها النفسيّة إذا أحسّتْ بدبيبِ الحبّ في قلبِهَا. وربّما كانَ هذا الشعورُ هو دليلَهَا الوحيدَ على أنّها قد أحبّتْ قبلَ أن تعرفَ ما الحبُّ وما الغرام.

لقد كانتْ فرجيني تجهلُ في مبدإِ أمرِها حقيقةَ الحالِ التي طرأتْ عليها، ولا تفهَمُ منها شيئًا سوى أنّها قلقةٌ مستوحشة، لا تأنُس للناسِ أنسَهَا الأوّلَ، ولا تَجِدُ في الجلوسِ إلى أُسْرَتها، ولا في الذهابِ إلى «مخدعها» الراحةَ التي كانتْ تجدُهَا من قبل؛ فكانتْ تهيمُ على وجهِهَا في القفارِ والغاباتِ، وضفافِ الأنهارِ وقِمَمِ الجبالِ، ما تكادُ تستقرّ في مكانٍ واحدٍ، فإذا وقعَ

---

(١) واهنة: من الوهن وهو التعب.

نظرُها على بول في بعضِ غدواتِها أو روحَاتِها طارتْ إليهِ فَرَحًا وسُرورًا، وبسطتْ إليه يدَهَا لتعانِقَه، فإذا دانَتْهُ، انقلبتْ فجأةً من سرورٍ إلى حزنٍ، ووقفتْ في مكانِها جامدةً جمودَ الدميةِ في محرابِهَا، يتلهّبُ وجهُهَا حمرةً، ويَرْفَضُّ[1] جبينُها عَرَقًا، فيعجُب بول لشأنِها، ويظلّ يقول لها: إنّ الخضرةَ اليومَ زاهيةٌ جدًّا، وإنّ الشمسَ ساطعةٌ متلألئةٌ تضيءُ كلّ شيء، حتّى الأنفاقَ والأغوارَ، وكلُّ ما في الوجودِ ضاحكٌ مستبشرٌ ما عداكِ يا فرجيني، فهلْ لكِ أن تحدّثيني ما الذي أَلَمَّ بكِ؟ وما هذه الغبرةُ القاتمةُ التي تلبسُ أديمَ وَجْهِك؟ ثمّ ينقضّ عليها ليضمَّها إلى صدرِه كعادَتِهِ، فَتَمْلَسُ من بين يديه إملاسًا، وتركضُ هاربةً إلى أمّها لتضعَ رأسها في حجرِهَا، فيظلّ بول واقفًا مكانَه يعجبُ لأمرِها عجبًا شديدًا، لا لأنّ الذي يضمرُ لها من الحبّ أقلُّ من الذي تضمرُ له، أو لأنّ نفسَه خاليةٌ من الهمّ الذي يخالطُ نفسها، ولكنّ المرأةَ ضعيفةٌ خائرةٌ لا تملكُ من الصبرِ والجلَدِ بين أيدي النكباتِ النفسيّة التي تنزلُ بها ما يملكُ الرجل، فإذا أحبّتْ لأوّل عهدِهَا بالحبّ، وكانتْ شريفةً فاضلةً، خرج بها الحبُّ إلى حالةٍ أشبهَ بالجنونِ والخبلِ، وما هي بجنونٍ ولا خَبَلٍ، ولكنّها حَيْرَةُ النفسِ وضلالُها.

ولم يزلْ هذا شأنَها حتّى جاءَ شهرُ ديسمبر وهو الشهرُ الذي تشتدُّ فيه حرارةُ الشمسِ في تلكَ المنطقةِ اشتدادًا عظيمًا، وتظلّ تصبّ عليها أشعّتَهَا عموديّةً كأنّها السهامُ المنبعثةُ من أقواسِهَا، وتنقطعُ عنها ريحُ الجنوبِ التي تعتادُها طولَ العامِ، وتهبُّ عليها بدلًا منها أعاصيرُ شديدةٌ تزلزلُ أرضَها زلزالًا، وتطيرُ بما شاءَتْ من معالِمِها ومجاهِلِها، وتشقّقُ ما أرادتْ من أطرافِها وأنحائِها، فيثورُ الغبارُ ملتفًّا في جوِّ السماءِ، ثمّ يجمدُ في مكانه ما يتزحزحُ ولا يتحلّلُ كأنّه العُمُدُ المنتصبةُ، وتصبحُ سفوحُ الجبالِ وجوانبُ الهضابِ كأنّها أُتُنٌ[2] مشتعلةٌ تنفثُ أوارَها[3] من حولها، فتلتهبُ الأجواءُ بالتوائِهَا حتّى ما يستطيعُ متنفسٌ أنْ يتنفّسَ إلّا زفيرًا، ولا مستنشقٌ إلّا شواظًا ولهيبًا، وحتّى ما يجدُ المبتردُ ضحضاحَ ماءٍ في غديرٍ من الغدرِ، أو خليجٍ من الخلجانِ يبتردُ فيه، ويزحزحُ عن عاتِقِه ذلكَ القميصَ الناريَّ اللّاصِقَ به. وتتساقطُ الماشيةُ في ظلالِ الأشجارِ وفي سفوحِ الجبالِ واهنةً متضعضعةً مادّةً ألسِنَتَها إلى السماءِ، كأنّها أيدٍ مبسوطةٌ بالدعاءِ إلى الله تعالى أن يجودَ عليها بقطرةٍ تَبلُّ غلّتها، وتطفىء لاعِجَهَا، وكأنّ ثغاءَها وعجيجَهَا وصفيرَ الرياحِ السافياتِ[4] من حولها وطنينَ البعوضِ الحائم عليها مناحةٌ قائمةٌ على هذه الطبيعةِ الميتَةِ، فإذا أقبلَ الليلُ عجزتْ يدُه الباردَةُ النديّةُ أن تخفّفَ شيئًا من لهيبِ ذلكَ الأتونِ المَسْتَعِرِ، وظهرَ القمرُ في أفقِ السماءِ أحمرَ كامدًا كأنّه الوجهُ المخضّبُ بالدمِ ثمّ يمشي في طريقِهِ متثاقلًا متطالعًا كأنّما هو يَسْبَحُ في لجّةٍ عميقةٍ من السحبِ المحيطةِ به.

في ليلةٍ من تلكَ الليالي الداجيةِ السوداءِ عجزتْ فرجيني عن أنْ تأخذَ لنفسِهَا راحَتَها في

---

(١) ارفضّ: جرى وسال.

(٢) الآتن: جمع أتون وهو موقد نار الحمّام.

(٣) الأوار: اللهيب.

(٤) السافيات: التي تنثر التراب والحصى.

مضجعِهَا، وعجزَ الكرى[1] عن أن يلمّ بأجفانِهَا، فثارتْ من مكانِهَا متململَةً وأخذتْ سَمْتَها[2] إلى مخدعها عساها أن تجدَ فيهِ ما يروّحُ عن نفسِهَا، وكانَ القمرَ لا يزالُ يرسلُ ذلكَ النزرَ القليلَ من أشعّته الكامدةِ، فأزعَجَها أنّها لم تجدْ من جدولِهَا المترعِ المتدفّقِ إلّا خيطًا دقيقًا يلمعُ في ضوءِ تلكَ الأشعّةِ الباهتةِ كأنّه ثعبانٌ ممدودٌ يتقلّبُ على حرّة سوداءَ، ثمّ مشتْ إلى حوضِها الصغيرِ الذي اعتادتْ أن تستحمّ فيهِ، فلمْ تجدْ فيهِ إلّا ضحضاحًا[3] من الماء ما يكادُ يغمرُ جسمَها، فخلعتْ ملابسَهَا ونزلتْهُ فاستطاعتْ أن تجدَ قليلًا من الراحةِ، وكانَ أولُ ما مرّ بخاطِرِها في تلك الساعة بَعْدَ أنْ عادت إليها نفسُها ذكرى تلكَ الأيّامِ الماضيةِ التي كانتْ تستحمّ فيها مع بول، وهما طفلان صغيرانِ في هذا الحوضِ الصغيرِ، وذكرتْ كيفَ كانا يقضِيَانِ الساعاتِ الطوالَ على ضفافِهِ عاريين يرقُصان ويمرحان، ويعتليانِ الهضابَ والرّبَى، ويتسلّقانِ النخيلَ والأشجارَ ليقطَعَا أغصانَها أو يجنِيَا ثمارَها.

ثمّ ألقتْ رأسَها على صدرِها، فرأتْ بين ثديَيْها وفوقَ ذراعيها العاريينِ ظلّ النخلتينِ المسمماتينِ باسمها واسم بول، وقد طالتْ عثاكيلُهما[4]، وانتشرتْ سعفاتُهما، وكبر جوزُهما ولصقتْ كلٌّ منهما بالأخرى لصوقًا شديدًا، فأثار ذلكَ المنظرُ في نفسِهَا شعورًا غريبًا لم تستطعْ أن تفهَمَه، ولا أنْ تفهَمَ ما الذي يقلقُهَا منه، فلم تطقِ البقاءَ في مكانها لحظةً واحدة، فنهضتْ إلى ثوبِهَا فأسبلَتْهُ على جسمِهَا، واندفعتْ راكضةً إلى كوخِهَا، وأيقظتْ أمّها من منامِهَا واضطجعتْ بجانِبِهَا، وأخذتْ بيدِهَا، وظلّتْ تضغطُ عليها ضغطًا شديدًا، كأنّما تريدُ أن تبثّها ألمها وتفضيَ إليها بسرّها، فلا تستطيعُ، وتحاولُ أن تنطقَ باسم بول، فيحتبسُ لسانُها في فَمِها. ثمّ لا يلبثُ ذلكَ السعيرُ المتأجّجُ في صدرِهَا أن يستحيلَ إلى زفيرٍ فشهيقٍ فبكاءٍ، فتذرفُ من دموعِهَا ما شاءَ الله أن تذرفَ حتّى يهدأَ ما بها وأمّها صامتةٌ ساكنةٌ تفهمُ كلّ شيءٍ ولا تقولُ شيئًا سوى أن ترفَعَ نظرَهَا إلى السماءِ سائلةً الله تعالى بنظراتِها السابحةِ في ذلكَ الفضاءِ أن يمنحَ ابنتَهَا الهدوءَ والسكينةَ وأن يقِيهَا العثراتِ والزلّات.

ولم يَزَلِ الحرُّ آخذًا في اشتدادِه حتّى استثارَ من مياهِ البحرِ أبخرةً عظيمةً، ما زالتْ تتكاثَفُ وتتجمّعُ حتّى انعقدتْ في سماءِ الجزيرةِ ظلّةً سوداءَ، فاحتجَبَ قرصُ الشمسِ وتلفّعتِ[5] الجبالُ والهضابُ والربى والآكامُ بأرديةٍ بيضاءَ من الضبابِ، فما تكادُ تقعُ عينُ الناظرِ على منظرٍ مستبين، ثمّ ما لبثَ الرعدُ أن قَصَفَ قصفًا شديدًا دوّتْ به أرجاءُ الجبالِ، وأخذَ البرقُ يرسلُ شرارَتَهُ الحمراءَ في خلالِ السحبِ الكثيفةِ المتراكمة؛ فأثارَ بعضًا منها، وعجزَ عن بعضٍ، ثمّ انفجرتِ السماءُ عن أمطارٍ غزارٍ سالتْ بها الأوديةُ والقيعانُ، وسبَحَتْ فيها الربى والهضاب، وما هي إلا لحظاتٌ قليلةٌ حتّى أصبحَ ذلكَ الحوضُ الواسعُ بحرًا عجاجًا يعبّ عبابُهُ،

---

(١) الكرى: النوم.
(٢) السمت: الطريق الواضح.
(٣) الضحضاح: الماء القليل.
(٤) عثاكيل النخيل: عناقيده.
(٥) تلفّع بالثوب: تغطّى به.

وتصطخبُ أمواجُه، واختفى كلُّ شيءٍ من هواديه وأعلامِهِ وأطمِهِ[١] وذراه، ولم يبق طافيًا منهُ على سطحِ الماءِ إلا تلكَ الربوةُ العاليةُ التي يرفرفُ فوقَهَا العلمُ الأبيضُ علمُ الاستكشافِ، فكانَ منظرُهَا في وسطِ ذلكَ البحرِ العجاجِ منظرَ السفينةِ المضطربةِ في أيدي الأمواجِ السائرةِ، فصعدتْ إليها تلك الأسرةُ المسكينةُ تنتظرُ قضاءَ الله فيها وفي زروعِهَا وضُرُوعها.

وظلّتِ الحالُ على ذلك عدّةَ ساعاتٍ، ثمّ هدأتِ العاصفةُ، ورقّتِ السحبُ، واستطاعتِ الشمسُ أن ترسلَ من خلالها بعضَ الأشعّة البيضاءِ في أنحاءِ الفضاءِ، وأخذَ بول ودومينج يفتحانِ للمياهِ المتراكمةِ شعابًا ممتدّةً في أطرافِ الحوضِ تنحدرُ منها إلى البحرِ، حتّى لم يبقَ منها بعدَ ساعةٍ إلّا ما ركَدَ في الحفائرِ والأغوارِ، والبطونِ والوهادِ، فذعر بول وفرجيني لمنظرِ الأشجارِ الساقطةِ، والجذوعِ المتهافتةِ، والأغصانِ المتناثِرةِ، والأزهارِ المبعثرةِ كأنّهم يشهدونَ أطلالًا باليةً، قد عصفتْ بها وبساكنِيهَا أيدي الحَدَثَان[٢] وعوادي[٣] الزمان.

وخطر لفرجيني أن تذهبَ لزيارةِ حديقَتِها، لترى ما فعلتْ تلكَ الحوادثُ بها، فعرضَ عليها بول أن يصحَبَها، فسارا معًا حتّى أشرفَا عليها، فإذا هي قفرٌ يبابٌ[٤] لا شجرَ ولا طيورَ، ولا أعشابَ ولا جداولَ ولا غدرانَ، إلّا ما كان من تلكَ البلابلِ الضاويةِ الواقفةِ على ذوائبِ بعضِ الأشجار، ترعدُ بردًا، وتغرّدُ تغريدًا شجيًّا هو بالأنينِ والبكاءِ أشبهُ منه بالترجيعِ والغناء.

فأطرقتْ فرجيني إطراقَةً طويلَةً، ثمّ رفعتْ رأسَها، والتفتتْ إلى بول، وقالت له: لقد ضاعتْ كلُّ آمالي في الأرضِ يا أخي، فلم يبقَ لي إلّا أملي في السماء! لقد غرستُ تلكَ الجنّةَ الزاهرةَ، وأجريتُ في خِلَالها الجداولَ والغدرانَ، وأنشأتُ في أنحائِهَا ما شئتُ من الحظائرِ لماشيتي والأعشاشِ لطيوري، وكانتْ أنسي وراحتي وملجأ همومي وأحزاني.

وها هي ذي أيدي الحَدَثَان[٥] قد عصفتْ بها، وعفّتْ رسومَهَا ومعالِمَها ومَحَتْ سطورَها من كتابِ الدهرِ كأنْ لم تَغْنَ بالأمس، فلم يبقَ لي ما آنَسُ به في هذا العالم، ولا ما أسكنُ إليه، فلا أطلبُ لنفسي سعادةً غيرَ هذه السعادةِ في عالمٍ غيرِ هذا العالَمِ لا تعصفُ به العواصفُ، ولا تجتاحُهُ السيول، ولا تنالُ منه أيدي الصروفِ والغِيَر[٦].

فاضطربَ بول عندَ سماعِ هذه الكلماتِ، وسَرَتْ في نفسِه رِعدةٌ شديدةٌ مَلَكَتْ ما بينَ أقطارِه، فصمَتَ هنيهةً، ثمّ التفتَ إليها، وقال لها: هوّني عليكِ الأمرَ يا فرجيني، فكلّما يعرضُ الموتُ على الحياةِ تعرضُ الحياةُ على الموتِ، وأعِدُكِ وعدًا صادِقًا أنّ كلّ شيءٍ سيعودُ إلى ما كانَ عليه، وسترينَ عمّا قليلٍ خمائِلَك وأشجارَكِ، ومياهَكِ وظلالَكِ، وأطيارَكِ وأعشاشَك، عائدةً إلى شأنها الأوّل، فيعودَ لك أنسُكِ واغتباطُكِ وسرورُكِ وابتهاجُكِ.

---

(١) أطمه: أماكنه المرتفعة.
(٢) الحدثان: مصائب الدهر.
(٣) عوادي الزمان: مصائبه ونوائبه.
(٤) يباب: خراب.
(٥) الحدثان: مصائب الدهر.
(٦) الغِيَر: حوادث الدهر.

فرفعتْ طرفَهَا إلى السماءِ، وظلّتْ على ذلكَ ساعةً كأنّما تحاولُ أن تطيرَ بروحِهَا إلى ذلكَ الملأ الأعلى، ثمّ وضعتْ يدَهَا على عاتِقِهِ وقالت له: أتدري ما هو خيرٌ من هذا كلّه يا بول؟ قال: لا، قالتْ: إنّ لسميّكَ «بول» الرسولِ عندي منزلةً لا تَعْدِلُهَا منزلةٌ أخرى؛ وقد رأيتُ له صورةً عندكَ تحتفظُ بها في أطواءِ ثيابكَ، فرجائي إليكَ أن تُهديني إيّاها، قال: لا أَحَبَّ إليّ من ذلك، وانطلقَ يعدو إلى كوخِهِ عَدْوَ الظليم[1] ليأتي بها، وهي صورةٌ أثريّةٌ قديمةٌ كانتْ تحملُها مرغريت في قلادَتِهَا منذُ زمنٍ بعيدٍ، فلما ولدتْ ولدَهَا بول ورأتْ في ملامحِ وجهِهِ ما يشبهُ ملامحَ ذلكَ القديسِ العظيمِ سمّتْهُ باسمِهِ وناطت[2] تلك القلادةَ بعنقِهِ كتميمةٍ تحفظُه من عادياتِ الدهرِ وغوائلِ الأيام.

ولم يزلْ حاملًا إيّاها، حتّى كبرَ وأينعَ، فاحتفظَ بها في صندوقِهِ بين ملابسِهِ كأعزّ شيءٍ لديهِ حتّى سمِعَ فرجيني تقترحُ عليه أن يهديَها إيّاها، فلم يكنْ شيءٌ من الأشياءِ أَحَبَّ إليه من أن يفعلَ راضيًا مغتبطًا.

وما هي إلّا ساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ، حتّى عادَ بها طائرًا فَرِحًا، فقدّمَها إليها فسُرّتْ بها سرورًا عظيمًا، وجرى ماءُ البِشْرِ في وجهها طلقًا غدقًا[3]، وقالت له: ستبقى هذه الصورةُ تذكارَكَ الدائمَ عندي ما حييتُ، ولنْ تفارقَ عنقي قطّ حتّى الساعةِ الأخيرةِ من ساعاتِ حياتي، ولن أنسى أبدَ الدهرِ أنّك قد أهديتَ إليّ الشيءَ الوحيدَ الذي تملكُه، فَحَنَا عليها، وهمّ أن يحتضِنَهَا إلى صدرِه، فأفلتَتْ من يدِه برفقٍ، وركضَتْ هاربةً إلى حجرِ أمّها كعادَتِها.

فوقفَ بول في مكانِهِ حائرًا مكتئبًا مذهوبًا به كلَّ مذهبٍ، تعبثُ بعقلِهِ الوساوسُ والأوهام.

ولقد طالَ هذا الأمرُ بينهما، وأصبحتْ حياتُهما غريبةً مضطربةً لا عهدَ لهما بمثلِهَا من قبل، فخَلَتْ مرغريت يومًا من الأيّامِ بهيلين، وقالتْ لها: لِمَ لا نزوّجُ بول من فرجيني، فقد بدآ يشقيانِ في عَيشِهِما، وأخافُ أن يمتدّ بهما الأمر إلى ما هو أعظمُ شرًّا من ذلك، وعندي أنّه متى تكلّمتِ الطبيعةُ وَجَبَ الإصغاءُ إليها والإذعانُ لها، وما شَقِيَ الناسُ هذا الشقاءَ الذي نراهُمْ يعالجونَهُ كلّ يومٍ إلّا لأنّهم تمرّدوا على الطبيعةِ، وخلعوا طاعَتَها، وسوَّلَتْ لهم نفوسُهُمُ السيرَ في طريقٍ غيرِ طَرِيقِهَا. فقالت هيلين: إنّ الولدين لا يزالانِ صغيرين وفقيرين؛ فماذا يكونُ شأنُهما غدًا إنْ قُسِمَ لهما أن يلدا أولادًا كثارًا في قفرةٍ مثلِ هذه القفرةِ لا يعينُ المرءَ فيها على العيشِ غيرُ المالِ؟ إنّنا كابَدْنَا أعظمَ ما يكابدُ امرؤٌ في العالمِ من عناءٍ وشقاءٍ في سبيلِ تربيتهما وتغذيتهما، فمن لهما - وهما ضعيفانِ ساذجانِ، وقد رَحَلْنَا عنهما إلى عالمنا الآخر الذي ينتظرُنَا ورَحَلَ معنا دومينج وماري - بقوّةٍ تعينُهما على أمرهما، وأمرِ حياتهما العائليّةِ المستقبلةِ! وإنّ الزمانَ قد دارَ دورَتَه، وقد أصبحتُ أشعرُ منذُ أعوامٍ بآلامٍ شِدَادٍ تخالطُ كلَّ جزءٍ من أجزاءِ

---

(١) الظليم: ذكر النعام. (٢) ناط: علّق.

(٣) الغدق: الكثير الماء.

جسمي، وأرى أنّني أسيرُ سيرًا حثيثًا في تلك الطريقِ التي يسيرُ فيها الذاهبونَ إلى حفائرِهِمْ، وأنْ ليس بيني وبينها إلّا خطواتٌ قليلةٌ، وقد أصبحَ دومينج شيخًا هرمًا، لا يكادُ يحمل عبءَ نفسِه، وأصبحتْ ماري مقربةً من ذلك، فلا يبقى لهما مساعد ولا معين.

والرأيُ الذي أراهُ أن نباعِدَ بينَهُما، فنرسلَ بول إلى بعضِ أصقاعِ الهندِ ليتّجرَ فيها بما يتّجرُ به الأوربيّونَ المنتشرونَ في تلك البلادِ علّه يتلهّى عن فرجيني بشواغِلِه وأعمالِهِ، وربّما عادَ عليه من ذلكَ ما يعينُه على أمرِها وأمرِه غدًا.

ثمّ اتفَقَتَا على أن تستشيراني في هذا الأمرِ، فأشرتُ عليهما بما رأتا، وقلتُ لهما: إنّ في هذهِ الجزيرةِ وفيما حولها من الجزرِ كثيرًا من السلعِ التي تنفقُ نفاقًا عظيمًا في الأسواقِ الهنديّةِ كالقطنِ والآبنوسِ والأصباغِ وما إليها، فإذا سافر بول بها، فَبَاعَهَا هناكَ، ثمّ عادَ ببعضِ السلعِ الهنديّةِ الغريبةِ فباعَها هنا، وطالَ مرانُهُ على ذلك واعتيادُه رجوتُ له في مستقبلِ حياتِهِ خيرًا كثيرًا.

فعَهِدَتَا إليّ أنْ أفاتِحَه في هذا الشأنِ، فخلوتُ به ذاتَ يوم، وأنشأتُ أحدّثه حديثًا طويلًا عن التجارةِ وفضائِلِها ومزاياها، وعن الضربِ في آفاقِ الأرضِ وثمراتِهِ وفوائِدِه، ثمّ أفضيتُ إليه بذلكَ المقترحِ، فأصغى إليّ وهو صامتٌ واجمٌ لا يقولُ شيئًا حتّى انتهيتُ من حديثي، فرفع رأسه إلي وقال: وهل يوجدُ عملٌ أعظمُ ثمرةً وأعوَدُ فائدةً من عملِ الفلّاحِ الذي يقومُ بزراعةِ حقلٍ من الحقولِ لا يعطيه إلّا القليلَ من جهدِه، وأقلَّ من القليلِ من مالِه فيعودُ عليه منه ضعفُ ما بذلَ له خمسينَ أو ستّينَ مرة؟! ومتى كانتِ البحارُ يا سيّدي، وطاءً[1] ليّنًا أخاطرُ فيه بنفسي لأربحَ شيئًا أستطيعُ أن أربحَه من بيعِ ما فَضَلَ عن حاجَتِنا من حبوبٍ وأثمارٍ في أسواقِ هذه الجزيرةِ وما حولها من الجزر!

وأيّةُ حاجةٍ بنا إلى المالِ الكثيرِ ونحن والحمدُ لله في سَعَةٍ من العيشِ، لا نشكو جوعًا ولا ظمأً، ولا ضيقًا ولا ضجرًا، ولا نطلبُ لأنفسنا منزلةً في الحياةِ فوقَ المنزلةِ التي نحنُ فيها؟ ولا أكتمُكَ يا سيّدي أنّني أخافُ المالَ، وأخشاهُ خشيةً شديدةً، وأقشعرّ من ذكرِه كلّما سمعتُ به، وأعتقدُ أنّنا لا نزالُ سعداءَ في هذهِ الحياةِ ما دمنا بعيدينَ عنه وعن التفكيرِ فيه، فإنْ قُدّر لنا يومًا أن نشقَى فيها فإنّما شقاؤنا يكون على يدِه وبشؤم طالعِه، فلنتمتعْ بالسعادةِ التي قسم الله لنا، ولا نجني على أنفسِنا بالتكليفِ والمحاولةِ وركوبِ الطريقِ الهوجاءِ التي لا نعرفُها، ولا نعرفُ غايتها ولا منتَهاها، واللهُ أعلم بنا منّا وأحنى علينا من آبائنا وأُمّهاتنا.

فوقفتُ بينَ يَدَي هذه الكلماتِ الحكيمةِ المملوءَةِ شرفًا وفضيلةً موقفَ الجمودِ والصمتِ، لا أستطيعُ أن أقولَ له شيئًا، ولا أنكرُ عليه أمرًا، ولا أفضي إليه بسرِّ ذلك المقترحِ الذي اقترحْتُهُ عليه ضنًّا به أنْ يهلَكَ يأسًا وجزعًا.

❀ ❀ ❀

(١) الوطاء: كل ما يُفترش وهو عكس الغطاء.

١٦ ـ الرسالة

وهنا وصلتْ سفينةٌ من فرنسَا تحملُ كتابًا لهيلين من عمّتها تقولُ لها فيه إنّها ندمَتْ على ما كانَ منها في الماضي مِنْ قَسْوَتها عليها ونبوّها[1] بها واطّراحِها إيّاها، وأنّها قد بلغت السنّ التي تحتاجُ فيها إلى قلبٍ رحيمٍ من قلوبِ أهلها أو ذوي رَحِمِهَا يخفقُ بجانِبَها لأنّها تعيشُ في بلدٍ لا أهلَ لها فيه ولا رَحِم، فهي تقترحُ عليها أن تحضرَ إليها بنفسِهَا، فإنْ حالَ دونَ ذلكَ حائلٌ أرسلتْ إليها ابنتَها بدلًا منها لتكونَ بجانبَها في ساعَتِها الأخيرة، وقالتْ لها إنّها قد عزمتْ على أن توصيَ لفرجيني بجميعِ ثروَتها من بعدها.

فوقع ذلكَ الكتابُ من نفوسِهم جميعًا موقعَ الدهشةِ والعجبِ وكأنّما قد نزلتْ بهم كارثةٌ من أعظمِ كوارثِ الدهرِ، فقد تمثّلَ لَهُمْ أنّ هيلين ستفارقُهُم وينقطعُ أُنسُها عنهُمْ، وأنّ ذلكَ الوادي سيقفرُ منها ومن فواضِلِها وأياديها بعد ما عمرتْهُ أعوامًا طوالًا، فوجَمَتْ[2] مرغريت، وأطرقَتْ فرجيني، وجمدَ بول مكانَه جمودَ الصنمِ، واستعبر دومينج وماري، ومرّت بهم على ذلكَ ساعةٌ لم تمرَّ بهم مثلُهَا مذْ وَطِئتْ أقدامُهم هذهِ الأرضَ حتّى اليوم.

ثمّ التفتتْ هيلين إلى مرغريت باسمةً وقالت لها: هدّئي روعَك يا صديقتي، فإنّني لنْ أفارقَكِ قطّ، وما أحسبني مستطيعةً ذلكَ لو أردتُهُ، فقد سعدتُ بكِ برهةً من الزمانِ لا أستطيعُ أنْ أنساها، أو أنسى يدَكِ البيضاءَ فيها، ثمّ أقبلتْ عليهِمْ جميعًا وقالتْ لهم: كونوا مطمئنّينَ يا أولادي فسأبقى معكُمْ حتّى أموتَ بينكُم، وأدفنَ في التربة التي تعيشونَ فيها، ولقد جَرَحَ الدهرُ قلبي فيما مضى جُرحًا داميًا فكنتُمْ أنتم أطبّاءَه وأُسَاته[3]، وما زلتمْ به تنفونَ عنه غثاثته[4] وتنضحونه بالباردِ العذبِ من ودّكم وإخلاصِكُم وعطفِكُم ورحمتِكُم حتّى التأمَ أو كادَ، فلنْ أكفرَ بنعمتِكُم قطّ، ولنْ أجازيَكُم على إحسانِكم شرّ الجزاء، ولئن كانتْ قد بقيتْ في أعماقِ قلبي بقيّةٌ من ذلكَ الشجنِ القديم والذكرى المؤلمةِ، فذلكَ ما لا يدَ لكُم فيه، ولا حيلَةَ لكم في أمرِهِ، ولا توجدُ قوّةٌ في العالم سواءُ أعشتُ في هذا الكوخِ الحقيرِ أم في ذلكَ القصرِ العظيمِ تستطيعُ أن تشفيَني من دائي إلّا أن يمدَّ الله إليّ يدَ معونته ورحمته.

فما سمعوا منها ذلكَ حتّى استطيروا فرحًا وسرورًا وداروا بها يقبّلونها ويعتنِقُونها ويهنّئونها بوفائِها وإخلاصها. الله ما أشرفَهُم وأكرَمَ نفوسَهُم! إنّ الثروة الطائلةَ التي يقتَتِل عليها الناسُ اقتتالًا وينحرُ بعضُهم بعضًا في سبيلها، تعرضُ نفسها عليهم عرضًا، فيأبونَها، ويطيرونَ فرحًا بالخلاصِ منها.

وإنّهم لكذلكَ إذْ سَمِعُوا ضوضاءَ خارجَ الكوخِ وأصواتًا غريبة فدخلَ عليهم دومينج وأخبرهُم

---

(١) نبوّها: نفورها وعدم اطمئنانها.
(٢) وجم: سكت وعجز عن الكلام.
(٣) الأساة: جمع آسيّ وهو الطبيب المداوي.
(٤) الغثاثة: الضعف والفساد.

أنّ سيّدًا عظيمًا يركبُ مركبًا فارهًا ووراءَه عبيدٌ كثيرونَ يقصدُ هذا الكوخَ، وما أتمّ كلمَتَه حتّى دخلَ ذلك السيّدُ العظيم، فإذا هو حاكمُ الجزيرةِ المسيو «لابوردينيه»، فنهضوا له إجلالًا وإعظامًا، وحيّوه بتحيّةِ الحاكمينَ، وقدمتْ له مرغريت كرسيًّا من القشّ، فجلسَ عليه، وقدّمتْ هيلين شرابَ الأرزّ في إناءٍ بسيطٍ من القرعِ، فتناوله مغالبًا نفسَه على كتمانِ ما شعرَ به من التَقَزُّز حينما شربه، ثمّ دارَ بعينيه في أنحاءِ الكوخِ، فعجبَ لحقارَته ورثاثَتِه وبساطةِ ما يشتملُ عليه من الآنيةِ والأثاث، وبدأ حديثَه بمعاتبةِ هيلينَ في انقطاعِهَا عن زيارتِهِ تلك المدّةَ الطويلة، وأنّها لم تلجأُ إليه في ساعاتِ شدّتها وبؤسِها ليمدّها بالمعونةِ التي تحتاج إليها!

وكان بول واقفًا بجانبِ البابِ يسمعُ حديثَه، ويلقي عليه نظرةً شزراءَ[1]، وكأنّما قد أُلْهِمَ ما يدورُ في نفسه، وما قَدِمَ من أجله، فتقدّمَ نحوَه خطوةً وقال له: إنّك لستَ بصادقٍ فيما تقول يا سيّدي، لأنّ أمّي ذهبتْ إليكَ في بيتِكَ منذُ أعوام، فازدَريْتَها واحتقرْتَها، ولم تأذنْ لها أن تجلسَ على كرسيّ بين يديك، ولقد أراد اللهُ بها خيرًا، إذْ كَفَاها مؤونةَ حَمْلِ منّتك، أو منّةِ أحدٍ من الناس غيرك؛ فالتفتَ الحاكمُ إلى هيلين وقالَ لها: ألكِ ولدٌ أيضًا يا سيّدتي؟ قالت: لا، ولكنّه ولدُ صديقتي مرغريت، وهو يسمّيني أمّه لأنّه رَبِيَ مع فرجيني في مهدٍ واحدٍ، ورضعَ معها ثديًا واحدًا، وأحبها حبًّا لا يحبّه الأخُ أخاه.

فنظر إليه الحاكمُ، وقالَ له: ادْنُ منّي يا ولدي، فدنا منه، فمسَحَ بيده رأسه، وقال له: إنّك لا تزالُ صغيرًا يا بنيّ. فإذا بلغتَ مبلغَ الرجالِ، وفهمتَ ضروراتِ الحياةِ وأحكامَهَا، أدركْتَ مبلغَ شقاءِ هؤلاء القومِ الذين تسمّونهم حكّامًا، وعلمتَ أنّ أعظمَ ما يشقونَ به في حياتهم أنّهم ليسوا أحرارًا في إجراءِ العدالةِ بين الناسِ وإراحةِ الحقوقِ على أهلها وتحرّي الصدق فيما يقولونَ والفضيلةَ فيما يفعلون.

فتناولَ بول يده، وهزّها هزًّا شديدًا، وقال له: أشكر لكَ صدقَكَ وصراحتَكَ يا سيّدي وإن كنتَ قد أسأتَ إلينا فيما مضى، وأظنّ أنّي أستطيعُ أن أتّخذكَ صديقًا لي منذُ اليوم، فابتسمَ الحاكم، وقال: ولي الشرفُ العظيمُ بذلك يا ولدي.

ثمّ أشارَ إلى هيلين أنّه يريدُ محادثتها على انفرادٍ، فأشارتْ إليهم جميعًا فانصرفوا، فأقبلَ عليها يقول لها: لا بدّ أنْ تكوني قد قرأتِ الكتابَ الذي أرسلَتْهُ إليكِ عمّتُك اليومَ، وقد جاءَني منها كتابٌ في البريدِ نفسِه تطلبُ إليّ فيه أن أزورَكِ، وأبذلَ كلّ ما أملكُ من الجهدِ في حملِكِ على السفرِ إليها، أو أرسلَ ابنتَكِ فرجيني بدلًا منكِ، وأرى أن ترسلي إليها ابنَتَك، فهي فتاةٌ ناشئةٌ فتيّة ذاتُ نُضرةٍ وجمالٍ، وليسَ من الرأي أن تدفني مثلَ هذه الحياةِ الغضّة النديّة في مثلِ هذه التربةِ القاحلةِ المحرقةِ والحياةُ السعيدةُ هنالكَ تنتظرُها وتمدّ ذراعيها لاستقبالها، وإنّي وإنْ كُنْتُ أعلمُ أنّي أطلبُ إليكِ ما يَشُقّ عليك، ويفتّ في عَضُدِكِ، ولكنّني أعلم أيضًا أنّك أرحمُ

(١) شزراء: حمراء من الغضب.

بابنَتِكِ وأحنى قلبًا عليها من أنْ تَحُولي بينها وبينَ تلكَ السعادةِ التي تنتظِرُها هناكَ من أجل متعةِ نفسِكِ برؤيتها جالسةً بين يديكِ. وأعتقدُ أنّكَ لا ترينَ بأسًا من التضحيةِ بشيءٍ من عواطفِكِ النفسيّة في سبيلِ راحتها وسعادتِها وهناءةِ عيشها طولَ أيّام حياتها.

لقد كتبَ إليّ وزيرُ المستعمرات أنْ أُعْنَى بهذه المسألةِ عنايةً كبرى، وألّا أدَعَها تفلتُ من يدي ما وجدتُ إلى ذلك سبيلًا، ومعنى ذلك عندَه أنْ آخُذَكِ بالشدّةِ في هذا الأمرِ، وأُكْرِهَكِ منه على ما لا تحبّين، ولكنّي لم أحفلْ بكلامه، ولم أكترثْ له، بل جئتُ إليك بنفسي، لأعْرِضَ عليكِ الأمرَ عرضًا، لا لألزِمَكِ به إلزامًا، وإنّي أَكِلُ[1] إليكِ وإلى رحمتِكِ وشفقتِكِ، ولعقلِكِ ورزانَتِك مستقبلَ هذه الفتاةِ المسكينةِ؛ فاختاري لها ما يجبُ أن تختارَه الأمُّ الرؤومُ لابنتِهَا، على أنّ صلتها بكِ لن تنقطعَ في مستقبلِ الأيّام، وستسمعينَ غدًا من أحاديثِ هناءَتها ورغْدِهَا ورفاهيّتها ونعمتها ما ينيرُ لكِ ظلمةَ الوحشةِ التي تشعرينَ بها بعدَ فراقِها، على أنّها ربّما عادتْ إليكِ بعد قليلٍ من الأيّام، فإنّ عمّتك على ما أعلمُ في الدورِ الأخير من أدوارِ حياتها، وهي هامة اليوم[2] أو غد.

فقالت له هيلين: إنّني ما تمنّيتُ على اللهِ في حياتي شيئًا سوى أنْ أرى ابنتي سعيدةً في حياتها هانئةً بعيشها، إلّا أنّني لا أحبُّ أنْ أفتات[3] عليها في أمرٍ من أمورِها، فلا بدّ لي من أخذِهَا بالرفقِ واللينِ حتّى تذعنَ لما أريدُ؛ وأرجو أن يعينَني اللهُ على ذلك، وأظنُّ أنّي أستطيع أن أفضيَ إليكَ بالأمرِ غدًا أو بعدَ غدٍ؛ قال: أرجو أن تعجلي بقدرِ ما تستطيعينَ؛ فالسفينةُ موشكةٌ على السفرِ، ولا أحسَبُها باقيةً عندنا أكثرَ من ثلاثة أيّامٍ، ولا أعلمُ متى تعودُ بعد ذلك.

ثمّ نهضَ قائمًا، وأخرجَ من جيبه كيسًا كبيرًا مملوءًا بالقطعِ الذهبيّة، ووضَعَه على المائدةِ وقال: هذه هديّة عمّتكِ إليكِ لتستعيني بها على شأنِكِ وشأنِ فرجيني؛ وودّعَها ومضى.

❋ ❋ ❋

١٧ ـ الوداع

لم يثقلْ هذا الأمرُ كثيرًا على نفسِ هيلين، بل صادفَ هوًى من قلبِهَا ولم تكنْ كاذبةً في قولِها للحاكم إنّها لا تتمنّى على اللهِ في حياتِهَا شيئًا سوى أن تَرى ابنتَها سعيدةً في حياتها، هانئةً بعيشها؛ إلّا أنّها لا تحبّ أن تفتاتَ عليها في أمرها؛ فإنّ الحاكمَ لم يتجاوزْ عتبةَ بابِ الكوخِ حتّى دعتْ إليها ابنتَهَا وخَلَتْ بها، وأنشأتْ تحدّثُها حديثًا طويلًا قالت لها فيه: إنّني أصبحتُ يا بنيّتي امرأةً عليلةً منهوكةً؛ لا قوّة لي ولا عزيمةَ؛ وما مرغريت بأحسنَ حالًا منّي؛

---

(١) أَكِلُ: من الفعل وَكَلَ إليه الأمرَ أي سلّمه وتركه وفوّضه إليه.

(٢) الهامة: هنا بمعنى الجثّة. (٣) افتات في الأمر: استبدّ به.

وقد صارَ دومينج وماري شيخينِ ضعيفينِ، والشيخوخةُ أسرعُ إلى سكّانِ هذه المناطقِ الحارّة منها إلى سكّانِ المناطق الأخرى؛ وبول لا يزالُ فتًى غريرًا عاجزًا عن أن يستقلّ بنفسِه فيما يعالجُ من شؤونه.

فماذا يكونِ حالُكُما غدًا لو أنّكما أصبحتُما تحملانِ وحدكما عبءَ هذه الحياةِ الثقيلةِ على عاتقكما؛ وكيفَ يهونُ عليكما أن تَريا أولادكما الصغارَ غدًا بائسينَ أشقياءَ لا يملكونَ لأنفسهم، ولا تملكون لَهُمْ نفعًا ولا ضرًا؟ وقد مثّلْتُ لنفسي بينَ أنْ تعيشي بجانبي، فأراكِ فقيرةً معوزةً تشقينَ ليلَك ونهارَك في جمعِ قُوتِك كما تشقَى الأجيرةُ العاملةُ، وبينَ أن تفارقيني بضعةَ أعوام أسمعُ في أثنائِها على البعدِ من أنباءِ سعادتِكِ وهناءتِك، ونعمتِك ورغدِك، ما يثلجُ صَدْري، ويُذْهِبُ بوحشةِ نفسي؛ فوجدتُ أنّي أستطيعُ احتمالَ الثانيةِ، وأعجزُ عن احتمالِ الأولى، فسافري يا بنيّتي، وكوني غدًا عكّازَ شيخوختي وعمادَ حياتي ومُعِينتي على دهري.

فرفعتْ فرجيني رأسَها إليها، فإذا دمعةٌ رقراقةٌ تتلألأُ في عينَيْها، ونطقتْ بتلكَ الكلمةِ التي عجزتْ عن أنْ تنطقَ بها قبلَ اليومِ فقالتْ: «وكيفَ لي بِتَرْكِ بول يا أمّاه؟».

قالت: إنّما أطلبُ إليكِ السفرَ من أجلِ بول لا من أجلِ غيره، فهو غلامٌ مسكينٌ يبذلُ من راحتِهِ وقوّتِهِ في سبيلِ العملِ ما أحْسَبُ أنّه قاتِلُهُ وذاهبٌ بحياته إنْ طالَ عليه أمرُه، فارحميه واشفِقِي عليهِ، وأنقذِيه من بؤسِه وبلائه؛ ولقد آثَرْتُ أنْ أفارقَكِ، وأحتملَ كلَّ مكروهٍ في سبيلِ ذلكَ حتّى الموتَ ضنًّا بكِ وبسعادتكِ، فكوني مثلي، وفارقيه رحمةً به وإبقاءً عليه، وليكنْ حبُّكِ إيّاه عظيمًا مجيدًا كحبّي إيّاكِ، ولنْ يعظُمَ الحبُّ ولنْ يَمْجُدَ إلّا إذا بُنِيَ على أساسٍ من التضحيةِ والبذل.

قالتْ: ألم تقولي لي يا أمّاهُ، قبلَ اليومِ إنّ للكون إلهًا يتولّى شأنَه ويرعَاه؟ وقد رَعانا وتولّى شأنَنَا بالأمسِ، فلن يتخلّى عنّا غدًا؟

أَلَمْ تقولي ليْ إنّنا ما خُلِقْنَا إلّا للعمل، وإنّ العملَ هو ينبوعُ الحياةِ ومادّتها التي لا تفنى، فَلِمَ تَطلبين إليّ اليومَ أنْ أعتمدَ في حياتي على غيرِه وألتمسَ الرزقَ من سبيلٍ غيرِ سبيلِه؟ دعيني أعيشُ بجانبِكِ يا أمّاه وبجانبِ بول ومرغريت ودومينج وماري، وعلى مقربةٍ من شويهاتي وأعنزي وطيوري وعصافيري، وبينَ أحضانِ هذا الوادي الجميلِ الذي أَنِسْتُ به وأَحبَبْتُه وأَلِفْتُ ليلَه ونهارَه، وكواكِبَه ونجومَه وظلالَه، فإنّني لا أستطيعُ أنْ أعيشَ بين قومٍ لا أعرفُهُم ولا أفهَمُهُم، ولا أَحْسَبُني أَحْمَدُهُم إنْ عرفتُهُمْ وفهمتُهُمْ.

دعيني أعيشُ ممّا قسمَ الله لي من الرزقِ، ولقد رَزَقني الجمَّ الكثيرَ الذي لا أطلبُ فوقَه مزيدًا، ولا ابتغي بهِ بَدَلًا! لقد عشتُ في هذا الوادي خمسةَ عَشَرَ عامًا ما شكوتُ ولا تألّمتُ، ولا بِتُّ جائعةً أو ظامئةً أو ساخطةً أو ناقمةً، فَلِمَ تطلبين إليّ أنْ أتركَ ما لا يُريبُني إلى ما يُريبُني، وأنْ أبيعَ هذا الحاضرَ المعروفَ بذلكَ الغائبِ المجهولِ؟ وإنّ نفسي لتحدّثني بشرٍّ عظيمٍ في هذه السفرةِ التي تدعونني إليها، وما أزعَمُ لنفسي عِلْمَ ما في الغيبِ، ولكنّي أشعرُ

بخوفٍ شديدٍ لا أعرفُ له سببًا، وحسبي أن أعلَمَ أنْ لا سبيلَ لي إلى الوصولِ إلى ذلكَ العالمِ الثاني، إلّا إذا ركبْتُ تلك المطيّةَ الوعرةَ التي يسمّونها البحرَ حتّى تسيلَ نفسي رهبةً وجزعًا.

فأطرقتْ هيلين صامتةً، ولم تستطعْ أن تقولَ شيئًا لأنّها وإنْ كانتْ من أشهى الأشياءِ إليها أنْ ترى ابنَتَها بعيدةً عن بول في تلكَ الأيّامِ، وأنْ تراها آخذةً بحظّها من تلكَ السعادةِ التي تنتظِرُها هناكَ، إلّا أنّها رَحِمَتْهَا وأشفَقَتْ عليها فلم تستطعْ أن تجادِلَها فيما تقول.

ثمّ قالتْ بعدَ قليلٍ: إنّني لا أحبُّ أنْ أَشُقَّ عليكِ يا بنيّتي في شأنٍ من شؤونِكِ الخاصّة بكِ، فاختاري لنفسِكِ الحياةَ التي تحبّينها وتؤثرينها، غيرَ أنّي أضرعُ إليكِ في أمرٍ أرجو ألا يثقلَ عليك. قالت: وما هو؟ قالت: أنْ تكتُمِي سرّكِ الذي تعالجينه بينَ جنبيكِ، فلا تبوحي به لأحدِ الناسِ كائنًا من كانَ حتّى لبول نفسِه، وأنْ تجعلي الفضيلةَ والطهارةَ والشرفَ والعفّةَ رائدَكِ في كلّ ما تقولينَ وما تفعلينَ، وأنْ تأخذي نفسَكِ بالأناةِ والرفقِ في جميعِ خطواتِكِ وتصرفاتِكِ اتقاءَ العثرةِ والزلّةِ، وأنْ تجعلي نُصْبَ عينيكِ دائمًا أنّ الرجلَ لا يحترمُ إلّا المرأةَ التي تضنّ بنفسِهَا عليه، ولا يحتقرُ مثلَ المرأة التي تبذلُ نفسها له، أيْ أنّه يحبُّ المرأةَ الفاضلةَ أكثرَ ممّا يحبُ المرأة الجميلة، بل لا يعرفُ للمرأة جمالًا غيرَ جمالِ الأدبِ والعفّةِ وإنْ زعم في نفسه غيرَ ذلك، قالت: ذلك ما أعرفُهُ يا أماه، ولا أعرفُ شيئًا سواه.

وما أتى المساءُ حتّى وفدَ إلى الكوخِ كاهنُ الجزيرة، وهو رَجُلٌ من أولئكَ الدعاةِ الماكرينَ الذين تستعينُ بهم الحكوماتُ الاستعماريّة على غزوِ القلوبِ الضعيفةِ وحيازَتها بلا سفكِ دمٍ ولا إنفاقِ مالٍ، والذين يكونون دائمًا في حاشيةِ حكّامِ المستعمراتِ ليعينُوهُمْ على ما هم آخذونَ بسبيلِه من الفتحِ والغزو، وكان هذا الكاهنُ يختلفُ إلى هذهِ الأسرةِ من حينٍ إلى حين ليرشدَهَا ويباركَها. فلمّا رأوه قادمًا إليهم ظنّوه أنّه إنّما جاءَ لزيارتهِمْ كعادتِهِ التي اعتادها، فأحسنوا استقباله وتحيّتَه.

ورأتْ هيلين أن تكاشِفَه بذلكَ الأمرِ الذي كان يَشْغَلُها، فكاشَفَتْهُ به، فلمْ يلبثْ أنْ قضى فيه قضاءً مبرمًا، وأعلنَ أنّ اللهَ يأمرُ هيلين بالبقاءِ في الجزيرة ويأمرُ فرجيني بالسفرِ إلى فرنسا! وأنّهما إنْ لم تفعلا، فقدْ خالَفَتَا إرادةَ اللهِ وباءَتا بسخطِهِ وغضبه، فذعرتْ فرجيني ذعرًا شديدًا، ولم تجدْ بدًّا من الخضوعِ والإذعانِ، فانصرفَ الكاهنُ عائدًا إلى قصرِ الحاكمِ ليرفعَ إليه ما تمّ من الأمرِ على يده.

وما أصبحَ الصباحُ حتّى عَلِمَ سكّانُ الجزيرةِ أنّ تلكَ الأسرةَ الفقيرةَ الخاملةَ التي تسكنُ ذلكَ الوادي المقفرِ الموحشِ قد أمْطَرَتْهَا السماءُ فضّةً وذهبًا، فوفدَ إليهِ الوافدونَ من كلّ مكانٍ ما بين مستمنحٍ يطلبُ حاجةً، ومستعينٍ يطلبُ معونةً، وتاجرٍ يعرض سلعةً، فأعطتِ السائلَ، وأعانتِ المسترفدَ، وابتاعت من الأنسجةِ والشفوفِ وصنوفِ الديباجِ والخزّ وأنواعِ الأثاثِ والرياشِ ما يزيدُ عن حاجتها، وما يضيق به كوخُها. وخلعَ جميعُ أفرادِهَا أسمالهم[1] القديمةَ

---

(١) الأسمال: الثياب القديمة.

البالية وقمصهم البنغاليّةَ الخشنةَ، وارتدوا ملابسَ جديدةً بديعةَ الشكلِ والهندام، ولبستْ فرجيني ثوبًا حريريًّا أزرقَ مطرزًا بالقصبِ، واعتصبَتْ بعصابةٍ ورديّة زاهيةٍ، ولَصَقَ ثوبُها بجسمها، فمثّله تمثيلًا بديعًا، ووَصَفَه وصفًا دقيقًا.

وبول يرى كلّ هذا، ولا يفهمُ منه شيئًا لأنّ أحدًا منهم لم يجرؤ أن يكاشِفَه الأمرَ، إلّا أنْ يظنَّ ذلكَ ظنًّا، فعَظُمَ حزنُه واكتئابُهُ وساورَتْهُ الوساوسُ والهمومُ، فرحمته أمّه ممّا به، وكانتْ تمسكُ في نفسها شيئًا من العتبِ على صديقتها هيلين في رضَاها بسفرِ ابنتها وتضحيَتِهَا بابنِهَا في سبيلِهَا، فدعَتْهُ إليها وخَلَتْ به، وقالتْ له: لِمَ تعلّلُ نفسَكَ يا بنيّ، بالآمالِ الكاذبةِ، والأمانيّ الضائعةِ، ولِمَ تتطلّعُ إلى ما تقصُرُ عنه يدُكَ ويضيقُ به ذَرْعُك[1]؟ ولقد آنَ أنْ أكشفَ لكَ حقيقةَ أمرِكَ الذي كتمتهُ عنكَ زمنًا طويلًا لتعلَمَ من أنتَ، ولِتُقَدّرَ آمالَكَ على مقدارِ حقيقَتِك، لا على مقدارِ تصوّرِك؛ فاعْلَمْ أنّ أمّكَ امرأةٌ فلّاحة وَضِيعَةٌ، لا حَسَبَ لها ولا نَسَب، وأن قَدَرًا من الأقدارِ الجارية بين الناسِ قد نزلَ بها في صباها، فحادَ بها عن طريقِ الشرفِ والاستقامةِ، فحملت بكَ من سِفَاح[2]، أي أنّك لا أبَ لك يعرفُه الناسُ، ولا لقبَ لكَ غيرُ لقبِ أمّك، فلا تَقِسْ نفسَك بفرجيني، فهي فتاةٌ شريفةٌ نبيلةٌ من أسرةٍ كريمةٍ مشهورةٍ، ولها عمّةٌ مثريةٌ كانتْ قد أغفلتْ أمرَها حقبةً من الزمان لأمرٍ ما، ثمّ ذَكَرَتْهَا اليومَ، فأرسلتْ في طلبها لتعيشَ معها في باريس متمتّعةً بثروتِها الطائلةِ، حتّى إذا ذهبتْ لِسَبيلها ورثَتْ عنها هذه الثروةَ من بعدها، فلا تطمَعْ في أنْ تتصلَ بها يومًا من الأيّام إلّا أن تكونَ فلتةٌ من فلتاتِ الدهر، أو أعجوبةٌ من أعاجيبِ الأيّام، وأرِحْ نفسَك من هموم الأماني ومتاعبها، والله أولى بكَ وبي من كلّ مخلوق.

واعلمْ يا بنيّ أنّني لم أقترفْ هذا الجرمَ الذي ذكرتُهُ لكَ، وأنا أعلمُ أنّي آثمةٌ أو مذنبةٌ، ولكنّه قضاءُ الله قد جرى بما لا حيلةَ لي، ولا لأحدٍ من الناس في أمرِه، فاغفرْ لي خطيئَتي إنْ كنتَ ترى أنّني مخطئةٌ أو أنّني الجالبةُ لكَ هذا الشقاءَ الذي تكابِدُه في حياتك.

ثمّ أسلمَت رأسَها إلى ركبَتَيْهَا وبكتْ بكاءً طويلًا.

فحنى عليها بول، وطوّق عنقَها بيديه وقال لها: لا تبكِ يا أمّاه، فما أنتِ بائسةٌ ولا شقيّة ما دمتُ مَعَكِ، أمّا هفوتُكِ التي تتحدّثين عنها، فما أحسبُ إلّا أنّ اللهَ سبحانَه قد غَفَرها لكِ، نعمْ سوفَ يغفرُها لكِ لأنّكِ قد كفّرتِ عنها بدموعِكِ وآلامِكِ وشقائكِ الذي كابدتِهِ زمنًا طويلًا، وكوني على ثقةٍ من أنّك أجلُّ في عينيّ وأكبرُ في نفسي من أنْ أعدَّ عليكِ أمثالَ هذه الهفواتِ والعثراتِ، وأنّني لا يعنِيني أكانَ أبي معلومًا أم مجهولًا، شريفًا أم وضيعًا، لأنني ما فكّرْتُ يومًا من الأيّامِ أنْ أفخرَ به أو أعتمدَ في حياتي عليه، أمّا تلكَ التي حدثتني عنها، فسأحمِلُ نفسي على نسيانِها وسَلْوتِهَا، وأرجو أن يعينَني اللهُ على ذلكَ، ولقد شعرتُ قبلَ اليومِ بانقباضِهَا عنّي وتجهّمها لي! ولا بدّ أن تكونَ قد وقفتْ من بضعةِ شهورٍ على هذا السرّ الذي

---

(١) الذَرْع: الصدر. (٢) السِفاح: الزنى.

أطلعتِني عليهِ اليومَ فازدرَتْني واحتقَرَتْني ونفضَتْ يدَها منّي إلى الأبد، والأمرُ لله وحدَه.

ثمّ نهضَ قائمًا، وقد ظنّ أنّه قد شُفِيَ ممّا به، فتنفّسَ نَفَسَ الراحةِ ومضى لسبيلِه.

إلّا أنّه لَمْ يبعدْ إلّا قليلًا حتّى شعرَ بوخزةٍ في قلبِهِ فلم يُبالَ[1] بها، ثمّ تتابعتِ الوخزاتُ، فخُيِّلَ إليه أنّ قلبَه يرفرفُ ما بين أضلاعِهِ رفرفةَ الطائرِ بأجنحته، وأنّه يحاول أن ينبعثَ من مكانِهِ ويطيرَ في أجوازِ الفضاءِ، فصرخَ صرخةً عظمى، وظلّ يهتف: آه يا فرجيني.. آه يا فرجيني! حتّى وصلَ إلى صخرةٍ عاليةٍ على شاطىءِ البحرِ، فتهافَتَ عليها، وأسلم رأسَهُ إلى ركبتيه، وذهبتْ به نفسُه مذاهبَ لا يعلمها إلا الله.

وظلّ على حاله ساعةً حتّى انحدرَ قرصُ الشمسِ إلى مغربِهِ، وبدأَ كوكبُ الليلِ يخطرُ في جوّ السماءِ محفوفًا بحاشيةٍ من سُحُبِهِ وغيومِهِ، فلا يكادُ يلمحُه اللامحُ من خلالها إلّا كما يُلْمَحُ وجهُ الحسناءِ من وراءِ خمارِها، ثمّ أخذ يرسلُ أشعّته الباهتةَ الخضراءَ على ما تحتهُ من صخورٍ وهضابٍ، ورمالٍ وتلالٍ، فأضاءَتها، وأضاءت فيما أضاءَتْهُ ذلكَ الشبحَ الضئيلَ الجاثمَ على تلكَ الصخرة المنفردة.

وإنّه لكذلكَ إذ شعرَ بيدٍ قد وُضِعَتْ على عاتِقِه وبأخرى ترفَعُ رأسَه، فانتبه فإذا فرجيني واقفةٌ أمامَه ودموعُهَا تترقرقُ في عينيها، فذُعِرَ إذ رآها، وظلّ ينظرُ إليها حائرًا مضطربًا، فقالت له: ما بقاؤُكَ هنا وحدَكَ في هذا المكانِ يا بول؟ فقال لها: لقد حدّثوني عنكِ أنّك مسافرةٌ بعد يومينِ أو ثلاثة، وأنّك ذاهبةٌ لتفتّشي لكِ عن أخٍ آخرَ غيري يصلحُ لكِ وتصلحينَ له، لأنّكِ عرفتِ أنّك فتاةٌ شريفةٌ ثريّةٌ لا يجملُ بكِ أن تتّصلي بفتًى وضيعٍ مسكينٍ مثلي، فأحزَنني ذلكَ حزنًا عظيمًا، وكنتُ أظنُّ أنّني أستطيعُ أنْ أحملَ نفسي على الصبرِ عنكِ واليأسِ منكِ فعجزتُ، فلم أرَ بدًّا من أنْ أروّحَ عن نفسي ببضعِ قطراتٍ من الدمع أذرفُهَا في هذا المكانِ الخالي.

ثمّ أشارَ إليها أن تجلسَ بجانبِهِ، وأقبلَ عليها، وظلّ يقولُ لها: إلى أينَ تريدينَ أن تذهبي يا فرجيني؟ وأيُّ أرضٍ تلكَ الأرضُ التي اختَرْتِهَا وآثَرْتِها على أرضِكِ التي نشأتِ فيها، وألفتِ ماءَها وهواءَها، وظلالَها وأفياءَها، وخضراءَها وغبراءَها!؟ وأيُّ قلبٍ ذلكَ القلبُ الذي رأيتِ أنّه يحملُ لكِ في سويدائِه من الحبّ والعطفِ أكثرَ ممّا يحملُ لكِ قلبُ أمّك فاستبدلْتِهِ بهِ وسَكَنْتِ إليه من دونه؟!

لمن تتركينَ تلكَ المرأةَ المسكينةَ وأنتِ أُنْسُ وحشَتِهَا وسميرُ وَحْدَتِها وعمادُ حياتِها وكلُّ أملِهَا ورجائِها في هذا العالم؟.

وكيفَ تستطيعُ أن تهنأَ بنومِهَا حيثما تمدّ يدَها في ظلالِ الليلِ، وسكونِهِ إلى مضجعِكِ، فلا تراكِ بجانبِهَا، وكيفَ تستقبلُ وجْهَ النهارِ إذا فتحتْ عينَيْها في الصباحِ، فلا تقعانِ على وجهِكِ المشرقِ الجميلِ، أو تجدُ لذّةَ الطعامِ والشرابِ إذا جلستْ إلى المائدةِ، فلا تراكِ بين الجالسينَ إليها، أو

(١) لم يُبالِ بها: لم يَهْتَمّ لها.

تصغي إلى أصواتِ الطبيعةِ المترنّمةِ وصوتُكِ لا يجلجِلُ بينها، ولا تنبعثُ رنّتُه بين رنّاتها!؟.

وكيفَ لي بتعزيتِها وتعزيةِ أُمّي عن همومهما وأحزانِهما، إذا دخلتُ إليهما، فرأيتهما باكيتينِ منتحبتينِ تسألان عنكِ الليلَ والنهارَ، والأصائلَ والأسحارَ، والظباءَ السانحة(١) والطيور البارحة(٢)، فلا تسمعانِ ملبيًا ولا مجيبًا ولا تقبلانِ عزاءً ولا سلوى!؟.

وصمتَ هنيهةً ثمّ قالَ وعيناهُ مخضلّتانِ بالدموع: وماذا أصنعُ أنا من بعدكِ أيّتها الغادرةُ القاسيةُ إذا ظلَلْتُ أفتّشُ عنكِ في كوخِك ومخدعِك، وتحتَ ظلالِ الأشجارِ، وعلى ضفافِ الأنهارِ، وفي جميعِ الأماكنِ التي أعلمُ أنّك تأوينَ إليها، لأجلسَ إليكِ ساعةً أتمتّعُ فيها بلذّةِ حديثِكِ وحلاوةِ سَمَرِك، فلا أراكِ في واحدٍ منها؟ ومن لي بِمَنْ يستقبلني حينما أعودُ من المزرعةِ تَعِبًا لاغبًا(٣)، فيبتسمُ تلكَ الابتسامةَ العذبةَ الجميلةَ التي تذهبُ بجميعِ أوجاعي وآلامي؟ ومن ذا الذي يصحبُني في هدوءِ الليلِ وسكونِهِ إلى شاطىءِ البحرِ، وقد بسَطَ القمرُ أشعّتَه على أمواجِهِ المنبسطةِ، وصبغَهَا بلونِه الفضّيّ الجميلِ، فيجلسُ بجانبي على رملةٍ من رمالِهِ الميثاء، فيسمعني تلك الأناشيدَ الساحرةَ الخالبةَ التي تستغرقُ شعوري ووجداني، وتملكُ عليَّ مداركي وعواطفي؛ ويُخَيّلُ إليّ حينَ أسمعُها أنّها هابطةٌ من الملأ الأعلى، وأنّها نغماتُ الحورِ الحسانِ في فراديس(٤) الجنان؟!.

إنّني لا أستطيعُ أن أعيشَ من بعدكِ يا فرجيني، ولا أستطيعُ أنْ أسألَك أن تصحبيني معكِ في سفرِك، فأنتِ أجلُّ من ذلكَ شأنًا وأعظمُ خطرًا، ولقد أفْضَتْ إليَّ أمّي اليومَ بسرّ حياتك وسرّ حياتي فعلمتُ أنّكِ فتاةٌ شريفةٌ جدًّا، وأنّني فتًى وضيعٌ جدًا لا أصلُحُ أن أكونَ أخًا لكِ، بل لا أصلُح أن أكونَ عشيرَكِ وجليسَكِ، وإنّما أسألُكِ أن تأذني لي بركوبِ السفينةِ التي تركبينها لأكونَ ملّاحًا من ملّاحيها أو خادمًا من خَدَمِهَا، فأراكِ على البعدِ فأجدُ في رؤيتِكِ راحتي وسلوتي، وأعِدُكِ وعدًا صادقًا ولا أغدرُ فيه ولا أحنثُ أنّني لا أجالسُكِ، ولا أدنو منك ولا أتّصلُ بكِ بوجهٍ من الوجوه إلّا إذا عرضَ لكِ خطرٌ من الأخطارِ، فإنّني أبذُلُ لكِ في تلكَ الساعةِ جميعَ ما تملكُ يدي، وما تملكُ يدي غيرُ حياتي، فأبذُلُهَا لكِ طَيِّبَ النفسِ عنها.

ما الذي طرأَ عليكِ يا فرجيني؟ وما الذي نالَ من نفسِك هذا المنالَ كلّه، حتّى استحالتْ حالتُكِ إلى حالةٍ أخرى أكادُ أُنْكِرُها ولا أعرفها؟

كنتِ تخافينَ البحرَ أشدَّ الخوفِ، وتجزعينَ لرؤيةِ عواصِفِه وأنوائِه جَزَعَ الأطفالِ الصغارِ، وتعجبينَ كلَّ العجبِ للذين يخاطرونَ بأنفسهم في ركُوبِهِ، فإذا أنتِ مزمعةٌ أن تعبريهِ، وأن تلبثي بين أمواجِهِ الثائرةِ تسعينَ يومًا كاملةً!

---

(١) السانحة: المارّة من جهة اليسار إلى جهة اليمين.

(٢) البارحة: المارّة من جهة اليمين إلى جهة اليسار.

(٣) لاغب: ضعيف.

(٤) فراديس: جمع فردوس أي الجنّة.

كنتِ تتألّمينَ أشدَّ الألمِ لفراقِ أمّكِ يومًا واحدًا، فها أنتِ تريدينَ أن تفارِقِيها فراقًا طويلًا لا يعلمُ مداه إلّا اللهُ تعالى، وما لَكِ حيثُ تذهبينَ من الأرضِ أمٌّ سواها!.

كنتِ تقولين إنّني لا أجِدُ لذّةَ الحياةِ بعيدةً عنكَ، فها أنتِ تجدينها بعيدةً عنّي جدًّا بين أقوامٍ لا تعرفينَهُم، ولا تمتّينَ إليهِمْ بِصِلَةٍ من الصلاتِ أو سَبَبٍ من الأسباب.

لقد شعرتُ بهذا الطارىءِ الجديدِ الذي طرأَ على نفسِكِ مُذْ رأيتُكِ تلبسينَ هذا الثوبَ الضيّقَ اللاصِقَ بجسمِك، وعهدي بكِ أنّكِ تضيقينَ ذرعًا[1] بالريحِ العاصفةِ إذا مدّتْ يَدَها إليكِ، وحاولتْ أن تعبثَ بذيلِ ردائِك، أو تدورَ بقميصِكِ حولَ جسمِكِ، ولا أدري ماذا يكونُ شأنُك غدًا إذا فارَقْتِ هذه القفرةَ الموحشةَ إلى ذلكَ العالمِ المزدحمِ الهائلِ الذي يتدفّقُ حريّةً واستهتارًا، ويسيلُ نعمةً ورغدًا؟

نَعَمْ إنّكِ قد مللتِنِي يا فرجيني، ومَلَلْتِ الحياةَ بجانبي، وأصبحتِ تشعرينَ بالحاجةِ إلى المالِ الذي لا أستطيعُ تقديمَهُ لكِ وإلى العيشِ الرغدِ الذي تَقْصُر يدي عنه، فلا ألومُكِ ولا أعتَبُ عليكِ، ولكنّني أسألُكِ هل أنتِ على ثقةٍ أنّ المالَ هو السبيلُ الوحيدُ إلى السعادةِ التي تنشدينها؟ وأنّكِ تكونينَ في ذلكَ الفناءِ الواسعِ أسعدَ منكِ في هذه الزاويةِ الضيّقة؟ إنّني أخافُ أن تكوني مخطئةً فيما تظنّين.

إنّني لا آسي على نفسي يا فرجيني، فقدْ عرفتُ مَنْ أنا، وعرفتُ من أنتِ وأصبحتُ لا أملَ لي في أنْ أعيشَ في دائرةٍ أوسعَ من الدائرةِ التي خلقتُ لها، ولكنّني أضنُّ بكِ على الدهرِ وأرزائِه[2] أنْ يمتدَّ إليكِ ظفرٌ من أظفارِه الجارحةِ فأهْلِكَ على إثرِكِ همًّا وكَمَدًا.

فإمّا أن تعدلي عن السفرِ، أو تأذني لي بالسفرِ معكِ، فإنّني لا أستطيعُ أن أحولَ بين قلبي وبينَ القلقِ عليكِ ما دمتِ غائبةً عنّي، فإنْ أبيتِهِمَا فودّعيني منذُ الساعةِ الوداعَ الأخير، فلا أملَ لي في الحياةِ من بعدك.

فلم تستقبِلْهُ إلا بدموعِها تنحدرُ على خدّيها تَحَدُّرَ حَبّاتِ العقدِ وَهَى[3] سِلْكُهُ فانتثر، وأنشأت تقول له:

إنّني إنّما أسافرُ من أجلِكَ يا بول، لا مِنْ أجلِ نفسي، لأنّني أصبحتُ أشفقُ عليكَ الإشفاقَ كلّه من هذا الشقاءِ الذي تكابدُه في سبيلي وسبيلِ هذه الأسرةِ المسكينةِ، وطالما بكيتُك بيني وبين نفسي، كلّما رأيتُكَ صاعدًا شُرُفًا[4]، أو عابرًا نهرًا، أو سالكًا وَعْرًا، أو حاملًا ثقلًا، حذرًا عليكَ أنْ تزلّ بكَ قدمُكَ في هوّةٍ من الهوى فتهلِكَ فأهلِكَ على إثْرِكَ؛ فأنا إنْ فارقْتُك، فإنّما أفارِقُكَ بجسمي لا بنفسي، لأعودَ إليكَ بعد قليلٍ من الأيّامِ بالراحةِ الطويلةِ من آلامِ هذه الحياةِ ومتاعِبِها؛ ولنستطيعَ أن نتمتّعَ غدًا في هذا المُعْتَزَلِ الساكنِ الجميلِ متعةً لا يكدّرها علينا مكدّرٌ حتّى الموت.

---

(١) ذرعًا: صدرًا.
(٢) الأرزاء: المصائب.
(٣) وهى: انقطع.
(٤) الشرف: المكان العالي المشرف.

ورجائي إليكَ ألّا تعودَ مرّةً أخرى إلى ذلكَ الحديثِ المزعجِ الذي حدّثتنيه الساعةَ، فإنّما نحنُ أخوانِ توأمانِ، نشأنا معًا، ودَرَجْنَا معًا، وشربنا الحياةَ من كأسٍ واحدةٍ، وسَلَكْنَا سبيلَهَا من طريقٍ واحدةٍ، هذا هو نَسَبُنا، وهذا هو حَسَبُنا، لا نعرفُ غيره ولا نفهمُ شيئًا سواه، وإنّي قائلةٌ لكَ كلمةً ما كان يمنعني أنْ أقولَهَا لكَ قبلَ اليوم إلا الخجلُ والحياءُ: لو أنّ الدنيا عرضتْ عليّ بحذافيرها على أنْ أبتاعَهَا بشوكةٍ تشاكها أو لحظةٍ تتألّم فيها لأبيتها غيرَ آسفةٍ ولا نادمة.

على أنّني لا ذَنْبَ لي فيما كان، فقد أَمَرَتْني أمّي بالسفرِ ولا أستطيعُ أنْ أخالفَ لها أمرًا، وأبلغني الكاهنُ أنّ تلكَ إرادَتُه ومشيئَتُه، ولا قِبَلَ لي بالخروجِ عن إرادته، وبعد: فها أنذا بين يديكَ، فَمُرْني بما تشاءُ من أمرِكَ أُطِعْكَ وأُذْعِنْ إليكَ، غيرَ مباليةٍ بشيءٍ بعدَك، فكلّ ما في الحياةِ هيّنٌ إلّا أن أراكَ جازعًا أو متألّمًا.

فصاحَ بول صيحةَ الفرحِ والسرورِ وقال: سافري يا فرجيني، وسأسافرُ معكِ لأقيكِ بنفسي عادياتِ الدهر، وطوارقَ الحَدَثانِ[1]، فإنْ حَيِينا حَيينا معًا، وإن هلكْنَا هلكنا معًا. ثمّ دَنا وضمّها إلى صدرِه فشعرَ بالراحةِ التي يشعرُ بها المُلْقِي عصاهُ بعدَ سفرٍ طويل.

وكنّا نفتّشُ عنهما في تلكَ الساعةِ أنا وهيلين ومرغريت ولا نعرفُ لهما مكانًا حتّى سمعنا صيحةَ بول حينَ صاحَ، فقصدنا إليه؛ فما وقعَ نظرُه علينا، حتّى انتفَضَ من مكانِه ومشى إلينا، ثمّ التفتَ إلى هيلين، وألقى عليها نظرةً ما ألقى عليها مثلَها قبلَ اليوم، وقال لها بنغمةِ الهازىء الساخر: نِعْمَ الأمُّ أنتِ يا سيّدتي، ونِعْمَ ما تسدينه إلى ولديكِ الكريمينِ عليكِ من نعمةٍ سابغةٍ[2]، ويدٍ بيضاءَ إذ تريدين أن تفرّقي بينهما، وتمزقي شَمْلَ حياتهما، وتعذّبي قلبَيْهما الناشئينِ الضعيفينِ بصنوفِ العذابِ وألوانِ الآلام، وأنتِ تعلمين أنّهما متحابّانِ متآلفانِ، لا يستطيعُ أحدهما أن يصبرَ عن صاحِبِهِ لحظةً واحدةً، وأنّ افتراقَهُما هو القضاءُ عليهما معًا.

لقد كنتِ يا سيّدتي، أزهدَ الناسِ في المالِ، وأشدَّهُمْ نقمةً عليه، وزرايةً به، وزهدًا فيه؛ فما الذي بدا لكِ في شأنه حتّى أصبحتِ تخاطرين بولديك العزيزينِ عليكِ في سبيله؟ بل تخاطرينَ بكرامتِكِ وعزّةِ نفسك، لأنّك تريدين أن ترسلي ابنَتَكِ إلى تلكَ الأرضِ التي أهانَتْكِ، واحتقَرَتْكِ؛ وأَبَتْ أن تسمحَ لكِ بالبقاءِ فيها، والعيشِ تحتَ سمائها، عقابًا لك على هفوةٍ صغيرةٍ ما كانَ مثلُهَا جديرًا بمثلِ هذا العقابِ المؤلم الشديد!.

نعم إنّها ابنتُكِ وأنتِ صاحبةُ الشأنِ فيها، ما ينازعُكِ في ذلكَ منازعٌ، ولكنّني أنا أيضًا أخُوها وصديقُها وعشيرُها، فَصِلَتي بها عظيمةٌ جدًّا لا تفترقُ عن صلتِكِ إلّا قليلًا، ولئنْ فرّقَ بيني وبينها النسبُ، فلقد جَمَعَنَا الحبّ والإخاء، والودّ والوفاءُ، والولادةُ في مهدٍ واحد، والرضاعُ من ثديٍ واحدٍ، وبكائي عليها إنْ مسّها ألمٌ، وبكاؤها عليّ إنْ نالني وَصَبٌ[3]،

---

(١) الحِدْثان: مصائب الدهر. (٢) السابغة: الطويلة، الوافية.

(٣) الوصب: الألم الدائم.

ومخاطرةُ كلٌّ منّا بنفسِه في سبيلِ صاحبه حتّى يستنقذَ حياتَهُ من يدِ أجَلِهِ أو يهلكَ دونَ ذلكَ؛ واشتركنا معًا في الخيرِ والشرِ، والنعيمِ والبؤسِ، والجوعِ والشبعِ، والريّ والظمأ، وخوضِ الأنهارِ واجتيازِ القفارِ، وتسلّقِ الجبالِ ومقاساةِ الأهوالِ، فكيفَ لي بالصبرِ على فراقِهَا، أو لها بالصبرِ على فراقي؟!

أبعديها عنّي ما شئتِ ولكنّي سأتبَعُها، وأترسّمُ آثارَهَا حيثما حلّتْ من الأرضِ، فإنْ أبيتمُ إلّا أن تقفوا في وجهي، وتَحُولوا بيني وبينَ ركوبِ السَفينةِ التي تحملها خضتُ البحرَ وراءَها خَوْضًا، لا أبالي بالمخاطرِ التي تعترضني في طريقي، فإنْ قُدِّرَتْ لي النجاةُ، فذاكَ، أو لا، فحسبي منها أنّها تُلْقِي عليَّ في الساعةِ الأخيرةِ من ساعاتِ حياتي نظرةً من نظراتِها، وأن تذرفَ في سبيلي دمعةً من مدامِعَها، فيكون شَخْصُها آخرَ ما أرى من الأشياءِ، وصَوْتَها آخرَ ما أسمعُ من الأصوات.

فاستعبرتْ هيلين وقالت: وماذا يكونُ حالُنا من بعدِكَ يا بول؟

قال: وهل تظنّونَ أنّني أبقَى من بعدِهَا إنسانًا تستطيعونَ أن تنتفعوا بي في شأنٍ من شؤونكم؟ أو أن يبقى لي من الفَهْمِ والإدراكِ ما يعينُني على مأربٍ من مآربِ هذه الحياة؟ إنّها فِكْرِي وعَقْلي، وتصوّري وإدراكي، وقوّتي وعزيمتي، وحَيَاتي من مبدئِها إلى منتهاها، فإنْ أردتُمْ أن تفقدوني إلى الأبدِ، فأبعِدُوها عنّي، وودّعوني الوداعَ الأخيرَ قبلَ أن تودّعوها.

ثمّ اختنقَ صوتُه بالبكاءِ وحاولَ أن يذرفَ دمعةً واحدةً يروّحُ بها عن نفسه فلم يستطعْ، فارتعدَ جسمُه، واستحالَ لونُهُ، وشاعتْ نظراتُهُ، ولمعتْ عيناه، ولبسَ وجهُهُ أغربَ صورةٍ لبسَهَا في حياتِهِ وظلّ يهذي ويقول:

أيّتها المرأةُ القاسيةُ! لا متّعَكِ اللهُ برؤيةِ ابنتِكِ بعدَ اليوم ولا أعادَها البحرُ إليكِ إلّا جثّةً باردةً طافيةً على أمواجِه، ولا وقَعَتْ عيناكِ عليها إلّا محمولةً على الأيدي إلى مقرّها الأخيرِ، ولتكنْ ذكراها مبعثَ ألمٍ دائمٍ لكِ لا يفارقُكِ حتّى الموت.

ثمّ دارَ على نفسِه دورةً سريعةً وسقَطَ مغشيًا عليه: فبكتْ هيلين ومرغريت، وبكيتُ أنا أيضًا على جفافِ دمعتي ونضوبِ مادّة حياتي لأنّني أصبحتُ والدًا لهذا الولدِ المسكينِ؛ وأيُّ والدٍ يستطيعُ أنْ يملكَ نفسَه ومدامعَه أمامَ دموعِ ولدِه المنهلّةِ بين يديه. وظَلَلْتُ أقولُ في نفسي: ويلٌ لكِ أيّتها القارّةُ المشؤومةُ، لا خلاصَ منكِ ولا نجاةَ من يدِكِ أبدَ الدهر، فقد فرّتْ منكِ تلكَ الأسرةُ المسكينةُ، ولجأتْ إلى أقصى مكان يمكنُ أن تنالَهُ يدٌ في العالم فما زلتِ بها ترسلين وراءَها عقاربَكِ واحدةً بعد أخرى حتّى أزعجتِهَا من مستقرّها، واستطعتِ بحفنةٍ واحدةٍ من الدنانيرِ أن تفسدي عليها حياتَها وتبدّدي ما أجتمَع من أمرِها، وأن تعيديها إلى حبائِلِكِ المنصوبةِ التي ظَنَّتْ أنّها قد أفلتَتْ منها أبدَ الدهرِ، فواشقاءَك! وواشقاءَ العالمِ بك!

وهنا تقدّمَتْ فرجيني تمشي بخطواتٍ خفيفةٍ مختلسةٍ حتّى جلستْ إلى جانبه، وقدْ تلألأ وجهُهَا

بنور سماويٍّ غريبٍ لا يشبه نورَ القمرِ ولا نورَ الشمس، ولا نورَ أيِّ كوكبٍ من كواكبِ الأرضِ والسماءِ، بلْ هو مَبْعَثُ ذاتِه ومنبعُ نفسِه، وأكبّتْ على أذنِهِ تقولُ له: سواءٌ بقيتَ هنا يا بول أو رحلتَ فإنّي أقسمُ لكَ بدموعي ودموعِك، وآلامي وآلامك وبما قدّر لنا أن نلقاهُ في حياتِنا من شقاءٍ ولوعةٍ، إنّني أكونُ لكَ ما حييتُ ولا أكونُ لأحدٍ غيرِكَ، أقسمُ لكَ على ذلكَ بين يَدَيْ أمّي وأمّكَ؛ وبين يدي هذا الشيخِ الجليلِ، فهم شهودي على ما أقولُ، والله من ورائِهم مُحيط.

فكأنما صَبّتْ على جسمه سَجْلًا[1] من الزلالِ البارِدِ، فانتفضَ ورأرأ[2] بمقلتيهِ واستوى جالسًا، وظلَّ يدورُ بنظرِه حوله، ثمّ أسبلتْ عيناهُ الدموعَ في هدوءٍ وسكونٍ، فاحتضنَتْهُ أمّه إلى صدرِها، وبكَتْ حتّى امتزجتْ دموعُه بدموعِهَا، فهمستْ هيلين في أذني: إنّ الموقفَ مؤلمٌ جدًّا ولا صَبْرَ لي على مُشَاهَدَتِه؛ فتقدّمْتُ نحو بول، وجذبْتُ يدَه وقلت له: هيّا بنا يا ولدي إلى المنزلِ، وقد انتصفَ الليلُ، فمشى معي صامتًا لا يقولُ شيئًا ولا يلوي على شيءٍ ممّا وراءه، حتّى بلغنا الطريقينِ: طريقي إلى كوخي وطريقَه إلى كوخِه، فقلت له: هل لكَ أن تتركَ أهلَكَ الليلةَ يستريحونَ من آلامِهِمْ ومتاعبهم، وتذهبَ معي إلى كوخي لتبيتَ عندي، ثمّ تعودَ في الصباح؟ وكنْ على ثقةٍ أنّ فرجيني لا تسافرُ بعد اليوم فقد عزمتُ غدًا أن أكلّمَ الحاكمَ في أمرِها، والحاكمُ لا يردُّ لي رجاءً، وما أحسبُ إلّا أنّ الأمرَ سينتهي على ما تحبّ وترضى، فأسْلَمَ لي يَدَهُ فَقُدْتُهُ كما تُقَادُ السائمة[3] البلهاءُ حتّى وصلنا إلى المنزلِ، فقضى ليلَته قَلِقًا مروّعًا لا يذوقُ النومَ إلّا لِمَامًا حتّى أصبحَ الصباح.

❀ ❀ ❀

١٨ ـ السفر

وهنا صمتَ الشيخُ وأطرقَ برأسِه فدنوتُ منه وقلتُ له: ما بكَ يا سيّدي؟ قال: بي أنّ هذه الذكرى تُهمّني، وتبعث شجوني وأحزاني ولا أرى لكَ يا ولدي فائدةً من ذكرها، فالحياةُ كما تعلم ذاتُ لونينِ أبيضَ وأسودَ، وأنتمْ معشرَ المتمدّنين لا تحبّونَ منها إلّا لونَها الأبيضَ، فلا أريدُ أنْ أنحرفَ بكَ إلى ما لا تحبّ من لونيها، قلتُ: قلْ يا سيّدي، فنحنُ أبناءُ الدموعِ والآلامِ، وسلائلُ البؤسِ والشقاء؛ وما لنا أنْ نبرأ من أصولِنَا وأعراقِنَا، أو نذهبَ في حياتنا مذهبًا غيرَ مذهبِ آبائنا وأجدادنا، وهل يطهّرُ معدنَ النفسِ من أخلاطِهِ وشوائبِهِ وينقّيهِ من أدرانِهِ وأكداره غيرُ تلك الألسنِ الناريّة التي تنبعثُ من صدورِ المتألّمين وقلوبِ المحزونين؟ على أنّنا لا بدّ لنا أن نفهمَ الحياةَ كما خلقتْ خيرَها وشرَّها، سعودَها ونحوسَها، ولا بد لنا

---

(١) السَجْل: الدلو الملأى بالماء. (٢) رأرأ: حرّك جفنيه وحدّد نظره.

(٣) السائمة: الماشية التي تُرسل لترعى كما تشاء.

حينَ ننظرُ إلى نصفِ الكرةِ الذي يقابلُ وَجْهَ الشمسِ أن نعلَمَ أنّ نصفَها الآخرَ مظلمٌ قاتم، وأنّنا ونحنُ في ضوء النهارِ سيدورُ الفلكُ دورَتَه فنصبحَ في ظلمةِ الليلِ البهيمِ، فرفع رأسَه واستمرّ في حديثه يقول:

جاءَ الصباحُ، فنهضَ بول من مضجَعِهِ القلقِ المضطربِ، ومشى في طريقه إلى كوخِه، ومشيتُ وراءَه أرقبُه على البعدِ من حيثُ لا يشعرُ بمكاني.

فلم يزلْ سائرًا حتّى لمحَ الخادمَ «ماري» واقفةً على رأسِ هضبةٍ عاليةٍ تنظرُ جهةَ البحرِ، فذُعِرَ إذ رآها، وناداها: أين فرجيني يا ماري؟ فأطرقتْ برأسِهَا وبكتْ، فَجُنّ جنونُه، وعَلِمَ بمَا كان، وهرعَ إلى شاطىءِ البحرِ يعدو عَدْوَ الظليم[1]؛ فلم يرَ أمامَه على سطحِ الماءِ شيئًا، وحدّثه الناسُ هناكَ أن السفينةَ قد أقلعتْ قبيلَ الفجرِ، وأنّها قد تجاوزتْ مَدَى البصرِ فلا سبيلَ إلى رؤيتها، فَكَرّ راجعًا حتّى وصلَ إلى ذلكَ الجبلِ العظيمِ الذي يسمّونه جبلَ الاستكشافِ، فارتقاهُ بأسرعَ من لمحِ البصرِ على وعورَتِهِ وتشَعُّبِ مسالِكِهِ حتّى بلغَ قمّته العليا وضربَ الفضاءَ بنظره، فلم يرَ في عرضِ البحرِ إلّا نقطةً سوداءَ صغيرةً تتلاشى شيئًا فشيئًا، فعلمَ أنّها السفينةُ التي تحملُ فرجيني، فاستمرّ نظرُه عالقًا بها لا يفارقُها حتّى غابتْ عن عينيه، فظلَّ واقفًا حيثُ هو ينظرُ حيثُ ينظرُ، كأنّما يظنُّ أنّها لا تزالُ باقيةً في مكانها، وظلَّ على ذلك ساعةً حتّى نشأتْ أمام عينيه سحابةٌ سوداءُ حجبتْ عنه كلّ شيءٍ فلوى رأسَه وانفجرَ منه باكيًا، وأنشأ يعجُّ عجيجًا محزنًا يرنّ في أجوافِ الغاباتِ والأدغالِ وتُرَدِّدُ صداه أكنافُ الجبالِ.

فصَعَدْتُ درجاتٍ من الجبلِ، حتّى كنتُ منهُ بحيثُ يسمعُ صوتي، وظلَلْتُ أناديهِ، وأضرعُ إليه أن ينزلَ، فلم يفعلْ إلّا بعد لأي[2]، فتناولتُ يدَه، وذهبتُ به إلى كوخِه، فبكتْ أمّاه إذْ رأتاه، وكانتْ صورَتُه قد استحالت إلى أغربِ صورةٍ لبسَهَا في حياته، وكأنّ بؤسَ الحياةِ جميعَه قد تجمّعَ واتّخذَ له مكانًا بين حاجبيه، فظلَّ ساعةً صامتًا لا يقولُ شيئًا سوى أنْ يدورَ بطرفه ههنا وههنا كالذّاهلِ المختبلِ؛ ثمّ أخذَ يتكلّمُ كأنّما يحدّثُ نفسَه ويقول: ولم لَمْ ينبؤوني بالساعةِ التي تسافرُ فيها لأقضيَ حقّ وَدَاعِهَا قبل أن تفارقني؟ إنّهم لو فعلوا، لما زدتُ شيئًا على أن أدنُوَ منها، وأقبّلَها قبلةَ الوداع، ثم أقول لها: إنْ كنتِ تذكرين يا فرجيني أنّي أسأتُ إليكِ يومًا من الأيّام أو بدرَتْ منّي بادرةٌ آلمتْكِ وجَرَحَتْ نفسَك، فاغنري لي ذنبي قبلَ أن تفارقيني، وإنْ كنتِ عزمْتِ على أن تجعلي فراقَكِ هذا الفراقَ الأخيرَ الذي لا لقاءَ بعده، وأنْ تتّخذي لكِ في المكان الذي تذهبينَ إليه آخرَ غيري، تمنحينَه من عطفِكِ وودّكِ مثلَ ما كنتِ تمنحينني، فأنتِ في حِلٍّ من ذلك. وهنيئًا لكِ ما تختارينَ وما تؤثرينَ، فلا تَكُنْ ذكراي سببًا في تنغيصِ عيشِك المقبلِ، وتكديرِ حياتِكِ الجديدة، ثمّ أنْصَرِفُ بعد ذلكَ لشأني وقد هَدَأَتْ نفسي وبردُ غليلي، ولكنّهم لم يشفقوا عليّ، ولم يرحموني لأنّني ولدٌ مسكينٌ لا شأنَ لي في

---

(١) الظليم: ذكر النعام. (٢) اللأي: الجهد والمشقّة.

الحياة، بلْ لا مكانَ لي بينَ الأمكنةِ التي يجلسُ فيها ذوو الأصولِ والأنساب.

فدنتْ منه هيلين، وما بينَ القلوبِ قلبٌ أكثرُ من قلبِهَا لوعةً وأسًى وتناولتْ يده، وقالت له: كُنْ رجلًا يا بني كما كنتَ طولَ أيّام حياتِك، واعلمْ أنّنا ما كنّا نعرفُ الساعة التي تسافرُ فيها فرجيني، فقد طرق بابَنا بعد عودتِنا إلى الكوخ، وفي هدوء الليلِ وسكونِه حاكمُ الجزيرةِ، ووراءَه أعوانُه وجنودُه، وقال لنا: إنّ الريحَ قد اعتدلتْ والسفينةُ على وشَكِ السفر، فلتستعدَّ الفتاةُ، فأبتْ فرجيني أنْ تسافِرَ قبلَ أنْ تراكَ؛ وظلّت تهتفُ باسمك وتنادِيك وتبكي بكاءً مرًّا؛ فلم يجدِ الحاكمُ بدًّا من أنْ يأمرَ رجالَه بحَمْلِهَا، فاحتملوها إلى هودجٍ كانوا قد أعدّوه لها، وساروا بها إلى شاطىء البحرِ وهي لا تنفكُّ عن ذكرِكَ والبكاءِ عليكَ حتّى أقلعتِ السفينة.

فرفَعَ بول إليها نظرَه، وظلّ يردّدُهُ بينها وبينَ أمّه؛ ثمّ قالَ لهما: فتّشا لكما الآنَ عن ولدٍ غيري يدعوكُما بأمّه، ويحملُ عنكما همومَكُما وآلامَكُما، فقد فقدتماني إلى الأبدِ. ثمّ انفتلَ من مكانِهِ مسرعًا، وخرجَ هائمًا على وجهه يمرّ بكلّ مكانٍ كانتْ تجلسُ فيه فرجيني، فيجلسُ فيه وبكلّ شجرةٍ كانتْ تستظلُّ بظلّها فيقفُ تحتَها وبكلِّ جدولٍ كانتْ تنامُ على ضفّته فينامُ مكانَها، وأخذَ يخاطبُ الماشيةَ التي يجدُها في طريقه كأنّها تعقلُ منه ما يقول فيقول لها: مسكينةٌ أنتِ أيّتها السائمة[1] الضعيفةَ؛ من ذا الذي يرحمُكِ ويعطفُ عليك بعد صاحبتِك؟ ويقولُ للطيور التي تغرّدُ في أعشاشها: لا تنتظري بعدَ اليومِ من يحملُ إليكِ الطعامَ في حجره، والماءَ في يده فقد سافَرَتْ فرجيني؛ ورأى الكلب «فيديل» سائرًا في طريقه يسوفُ[2] الترابَ ويشتمّه كأنّما يفتّشُ عن شيءٍ ضاع منه؛ فقال له: فتّشْ ما شئتَ، فإنّك لن تراها بعدَ اليوم؛ ورأى عنزة تتبعُه حيثُ سارَ فالتفتَ إليها، وقال لها: أنا سائر وحدي؛ وليست فرجيني معي، فانصرفي لشأنِك.

ولم يزلْ هذا شأنَه حتّى بلغَ الصخرةَ التي جلسَ عليها مَعَها ليلةَ الأمسِ فارتقاهَا، ورمَى بنظرِهِ في الفضاءِ حتّى استقرّ في المكانِ الذي شاهد فيه تلكَ النقطةَ السوداءَ من البحرِ في الصباحِ، فلم يزلْ نظرُه عالقًا به كأنّما يظنُّ أنّ السفينةَ لا تزالُ باقيةً فيه، وظلّ على ذلكَ ساعاتٍ طوالًا.

وكنا نتتبّعهُ على البعدِ من حيثُ لا يشعرُ بمكاننا؛ ونترقّبُ مذاهبَه ومراميه ونرثي له ممّا به؛ وقد أصبَحْنَا، ولا شأنَ لنا غيرُ رعايتِه وملاطفَتِه وتهوينِ خَطْبِهِ عليه، وتسريةِ همومِه وأحزانِه ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا، حتّى استطَعْنا بعد لأيٍ[3] أنْ نعودَ به إلى الكوخ، واستطاعَ هو بعدَ مرورِ يومين كاملين لم يَذُقْ فيهما طعامًا ولا شرابًا أن يصيبَ شيئًا من الطعَام، فكانَ إذا جلس على المائدةِ خُيِّلَ إليه أنّ فرجيني لا تزالُ بجانبه، فيظلّ يحادِثُها ويلاطِفُها كما كان يفعلُ من قبل، ويضعُ بين يديها أصنافَ الطعامِ التي يعلَمُ أنّها تحبّها، ثمّ لا يلبثُ أن يتنبّه لنفسِه، فيطرقُ

---

(١) السائمة: الماشية المتروكة في المرعى. (٢) يسوف: يشمّ.

(٣) اللأي: الجهد والمشقّة.

برأسه خجلًا وحياءً، وتظلّ عيناه تنهملانِ بالدموعِ، ثمّ ينهضُ من مكانه، وينصرفُ لشأنه.

وكانَ لا يعجبُه من الأحاديثِ مثلُ الحديثِ عنها، ولا يطربُه خطابٌ مثلُ خطابِ هيلين حين تناديه: يا زوجَ ابنتي، أو يا صهري العزيز، فاستطاعَ الهدوءُ أن يجدَ شيئًا فشيئًا إلى نفسه سبيلًا، فأخذَ يجمعُ آثارَ فرجيني من جميعِ أماكِنِها ومظانّها، فجمعَ طاقةً من الزهرِ كان قد أهداها إليها قبلَ سفرَها بيومٍ واحد، وعصابةً حمراءَ كانتْ تعتصبُ بها في أيّامِ الأعيادِ، وكأسَ الشاي التي كانت تشربُ بها، وزجاجةَ العطرِ التي كانت تحفَظُها في صندوقِها، ومشطَ الأبنوس[1] الذي كانتْ تمشّطُ به غدائرها، وأمثالَ ذلك من الأدواتِ والآنيةِ ووضعها في مكانٍ واحدٍ سمّاه «متحف فرجيني»، فكانَ يختلفُ إليها من حينٍ إلى حينٍ ليلثمها ويقبّلها ويضمّها إلى صدرِه كأنّما هو يضمّ صاحبتها.

وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى عادتْ إليه تلكَ الروحُ العظيمةُ الشريفةُ التي كانتْ تملأُ ما بين جنبيه روحُ الرجولةِ والهمّة، والعزّةِ والأنفةِ، فعزّ عليه أن يرى أمّيه، وهما ضعيفتانِ منهوكتانِ، تختلفانِ إلى المزرعةِ لمناظرتها والقيامِ عليها، فأخَذَ يحملُ عنهما ذلكَ العبءَ شيئًا فشيئًا حتّى استقلّ به، فعادَ له جِدّه ونشاطُه وأصبحَ العملُ ملهاتَه الوحيدةَ التي يلجأُ إليها من همومِه وأحزانِه، ويعتصمُ بها من وساوسِه وبلابله.

وكانَ يأنسُ بي في ذلكَ الحينِ أنسًا عظيمًا ويقضي معي جميعَ أوقاتِ فراغِهِ لأنّني كنتُ أعزّيه وأهوّنُ عليه همومَه وآلامَه، لا بالدموعِ والبكاءِ كما كانتْ تفعلُ أمّاه، بلْ بالحديثِ والسمرِ وسَرْدِ القصصِ وضربِ الأمثال واستخراجِ العبرِ والعظاتِ من مشاهِد الكونِ ومناظره. فاقترحَ عليّ يومًا من الأيّام أن أعلّمه الكتابةَ والقراءَة، ولعلّه كان يضمرُ في نفسه أن يعرفَ السبيلَ إلى مراسلة فرجيني، فأعجبني مقترحُهُ هذا وأخذتُ أعلّمه ما أرادَ، وأقسمُ لكَ يا ولدي، أنّني ما رأيتُ في حياتي ذهنًا أحدَّ ولا أمضى ولا فطرةً أقْوَمَ ولا أسْلَمَ من ذِهْنِ هذا الغلام وفطرته.

فقد استطاعَ بعد بضعةِ شهورٍ لا تزيدُ على تسعةٍ أو عشرةٍ أن يقرأَ فصلًا طويلًا من كتابٍ أدبيّ بسيط وأن يكتبَ مسوّدَةَ رسالةٍ لفرجيني.

وما هو إلّا عامٌ وبعضُ عامٍ حتّى طَلَبَ إليّ أن أعلّمه فنَّ الفلاحة، ولعلّه أرادَ أن يصِلَ من طريقه إلى الثروةِ الواسعةِ إرضاءً لفرجيني، وعلمَ تقويمِ البلدانِ ليعرفَ النقطةَ التي تحلّها فرجيني من سطحِ الأرضِ، وعلمَ التاريخ ليعرفَ شيئًا من شؤونِ أولئك القومِ الذين تعاشرهم فرجيني، فعلّمَتُه من ذلكَ ما يستطيعُ أن يقومَ به مثلي، ولم يلبثْ إلّا قليلًا، حتّى استطاعَ أن يستقلّ بنفسِه في دراسةِ تلكَ العلومِ وغيرها ممّا بدا له أن يعرفَه، ويزاوله.

فأصبحَ يشعرُ بلذّة عظمى ما كان يشعرُ بمثلِها مِنْ قَبْلُ، وسمتْ نفسُه إلى درجةٍ عاليةٍ من الفهمِ والإدراكِ لم يسمَحِ الدهرُ بمثلها لفتًى في مثلِ سنّه وفي مثل الزمنِ الذي قضاهُ في

(١) الأبنوس: شجر استوائي خشبه صلب.

الدراسة؛ وأصبحَ ينظرُ إلى الحياة وشؤونها نظرةَ الفيلسوفِ الحكيم، ففهمَهَا على حقيقَتِهَا، واستشفّ الكثيرَ من بواطِنِها وخفاياها؛ وعرف الفروقَ الدقيقةَ بين الخيرِ والشرِّ، والصلاحِ والفسادِ، والإساءَةِ والإحسانِ، فلم يَشْتَبِهْ عليه مَسْلَكٌ من المسالك ولا سبيلٌ من السبل؛ وكانَ السببُ في ذلك أنّه تعلَّمَ العلمَ لا ليتّخذه آلةً يتوصّلُ بها إلى غرضٍ من أغراضِ الحياة أو مطمعٍ من مطامعها، ولا ليتجَمَّلَ به بين الناسِ كما يفعلُ أولئك الفاخرونَ المغرورونَ الذين يعتبرونَ العلم حِلْيَةً من الحُلي يفاخرونَ بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة، وجواهِرِهم الثمينةِ، وقصورِهِم الشامخة، ومراكبهم الفارهة[١]، بل ليفهمَ الحياةَ على حقيقَتِهَا، ويراها كما خَلَقَها اللهُ لا كما عبثَتْ بها يدُ الإنسانِ، فكانَ له ما أراد.

وكذلكَ استطاعَ الحبُّ أنْ يخلقَ من هذا الغلامِ الهمجيّ المتوحّشِ إنسانًا كاملًا مستنيرَ الذهنِ مستوِيَ العقلِ فيّاضَ الشعورِ والإحساسِ، واستطاعتْ شمسُه المشرقةُ أن ترسلَ أشعّتها الوضاءَة إلى أعماقِ ذلكَ القلبِ المظلم القاتم، فتنيرَ جوانبَه، وتبددَ ظلماءَه، واستطاعتْ شعلتُهُ الملتهبةُ أن تُطَهِّرَ بنارها تلكَ النفسَ الصدئَةَ المتبلدة، وتستخلصَها من أخلاطها وشوائبها، فإذا هي سبيكةٌ صافيةٌ من الذهبِ تتوهّجُ توهّجًا وتلتمعُ التماعًا، إلّا أنّه لم يمضِ على ذلكَ زمنٌ طويل حتّى بدأ يملّ التاريخَ لكثرةِ ما يشتملُ عليه من وصفِ المجازرِ البشريّة والمصارعِ الإنسانيّة الآخذِ بعضُها بأعناقِ بعض، ومن تلكَ الجداولِ المستطيلةِ الحافلةِ برذائلِ الملوكِ والأمراءِ وفظائعِ الأشرافِ والنبلاء وما سوّدوا به صحائف حياتِهم وحياةِ العالمِ أجمعَ من عارٍ وشنار[٢]، كما ملّ تقويمَ البلدانِ لكثرةِ ما يحتويهِ من أسماءِ الأمكنةِ والبقاعِ، والجبالِ والتلالِ، والأنهارِ والنهيراتِ التي لا نهاية لها، ولا فائدةَ منها.

وشغفَ الشغفَ كلَّهُ بالأدبِ شعرًا ونثرًا، قصصًا وروايات، وأماليَ[٣] ومحاضراتٍ، ولأنّه خلاصةُ العقلِ البشريّ وزبدتُه الأخيرةُ التي تمخّضَ عنها؛ لأنّه المرآةُ الصافيةُ التي تتراءى فيها صورةُ الحياةِ على حقيقَتِها ومشاعِرُ النفوسِ بكلِّ ما تشتملُ عليه من حبّ وبغضٍ، وسرورٍ وألم، وطمعٍ ويأسٍ، وارتياحٍ وانقباضٍ. وكان خيرُ ما يعجبه من الشعرِ شعرَ «هومير»[٤] Homêros ومن النثر قصةَ «تليماك»[٥] Télémaque لأنّها تصور حياةَ الفطرةِ والبساطةِ، وتمثّلُ المشاعرَ النفسيّة بدقائقِها وأجزائِها، وترسمُ مزالقَ الشهواتِ التي تزلّ فيها أقدامُ البشرِ من فجرِ التاريخ حتّى اليوم، فإذا جلسَ لقراءَتها ووصلَ إلى قصّة أنتيوت

(١) الفاره: النشيط الخفيف. (٢) الشنار: الأمر القبيح الشنيع.

(٣) الأمالي: جمع إملاء.

(٤) شاعر يونانيّ عاش في القرن التاسع قبل الميلاد قيل: إنه كان أعمى. وضع ملحمة «الإلياذة» و«الأوذيسّة» وهما ملحمتان مشهورتان.

(٥) هي القصة المشهورة «مغامرات تليماك» (Les aventures de Tétémaque) التي كتبها الكاتب الفرنسي فنالان Fénélon (١٦٥١م - ١٧١٥م) وقد كتبها سنى ١٦٩٩ بهدف تربية دوق بورغانيا.

وأوخاريس[١] خُيِّلَ إليه أنّ فرجيني مثالُ الأولى في إبائها وعزّتها ومثالُ الأخرى في رقتها وعذوبتها، فتهيجُ أشجانُه، وتسيل عبراتُه، فيلقي كتابَه جانبًا ويسبحُ في فضاءِ الخيالِ سبحًا طويلاً.

وكان من أبغضِ الأشياءِ إليه مطالعةُ تلكَ الرواياتِ الغراميّة التي وضعَها واضعوها، لا ليهذّبوا بها الطباعَ البشريّة، ولا ليصوّروا فيها الحياةَ الاجتماعيّةَ على حقيقتها، بل ليستثيروا بها شهواتِ الناسِ وفضولَ أطماعهم ويلهبوا بنارِهَا ما بَرَدَ من عواطفهم وهدأ من لواعِجِهِمْ، ولينزلوا بالحبّ من سمائه الرفيعة المقدّسةِ إلى تلكَ الحَمْأةِ القذرةِ من الرذائلِ والمثالب[٢]، وكانَ يقولُ في نفسِه كلّما قرأ شيئًا منها: ليت شعري، هل تستطيعُ فرجيني أن تنجوَ بنفسِهَا من شرورِ ذلكَ المجتمعِ الخبيثِ الذي تتحدّثُ عنه هذه الروايات؟! إنّني أخافُ عليها خوفًا شديدًا.

❀ ❀ ❀

١٩ - أوروبا

مرّتْ ثلاثةُ أعوام، ولم يَرِدْ على هيلين كتابٌ من ابنتها ولا من عمّتها، فقلقتْ لذلكَ أشدَّ القلقِ لأنّها لم تعرفْ عن ابنتها شيئًا منذُ سافرتْ حتّى اليوم، سوى ما كانتْ تسمَعُه من حينٍ إلى حين من أفواهِ بعضِ الطارئينَ على الجزيرةِ أنّها وصلتْ سالمةً إلى بيتِ عمّتها، وأنّها تعيشُ في ذلكَ البيتِ عيشًا سعيدًا يحسدُها عليه الحاسدون. ثمّ وردَ عليها منها بعد حينٍ ذلكَ الخطابُ، ولا أزالُ أحفظُ صورتَه حتّى اليوم:

والدتي:

كتبتُ إليكِ قبلَ اليومِ كتبًا كثيرةً، ثمّ علمتُ من عهدٍ قريبٍ أنّها لم تصلكِ، فأرسلتُ إليكِ هذا الكتابَ من طريقٍ آخرَ غيرِ الطريقِ الذي كنتُ أرسلُ إليك منه.

لا أحدّثكِ كثيرًا عن سفري وأدوارِه سوى أنْ أقولَ لكِ إنّ فراقَك كانَ له تأثيرٌ على نفسي عظيمٌ ما كنتُ أقدّره من قبل، فقد بكيتُ كثيرًا وتألّمتُ كثيرًا حتّى رحمني من كان معي، وكانَ يُخَيّلُ إليّ والسفينة تمخرُ بي في عبابِ البحرِ أنّني إنّما أفارقُكِ فراقًا لا رجعةَ لي منه أبدَ الدهر؛ ولقد شعرتُ بوحشةٍ عُظمى في الساعةِ التي دخلتُ فيها قصرَ عمّتي، فقد خُيِّلَ إليّ أنّه على جمالِه ورونقِه وحسنِ نظامِه وبديعِ هندامه وكثرةِ الذاهبينَ والآتين في أبهائِه وحجراتِه، مقبرةٌ موحشةٌ لا نأمة[٣] فيها ولا حركةَ، ولقد سألتني عمّتي حينَ وقفتُ بين يديها بصوتٍ خشنٍ جافّ لا تجولُ في أديمِهِ قطرةٌ واحدةٌ من الرحمة: ماذا تعلمتُ في صغري؟ فلمّا عرفتْ أنّني

---

(١) أنتيوت وأوخاريس: من أبطال قصة «تليماك». (٢) المثالب: العيوب.

(٣) النأمة: الصوت.

لم أتعلّمْ شيئًا حتّى القراءةَ والكتابةَ، قالت: إنّكِ لا تزيدينَ في شأنِكِ على شأنِ هؤلاءِ الخدمِ الوقوفِ بين يديّ، ولم تَنْشَئي منشأ خيرًا من منشئِهِم.

ثمّ أمرتْ بإرسالي إلى ديرٍ في ضواحي باريس أتعلّمُ فيه أنواعَ العلوم، فعلّموني القراءَةَ والكتابةَ، فسرّني منهما أنّي أستطيعُ مراسلَتكِ وقراءةَ رسائلك، ثمّ أخذوا يعلّمونني التاريخَ وتقويمَ البلدانِ والحسابَ والهندسةَ والرسمَ والعلومَ الدينيّةَ وبعضَ الألعابِ الرياضيّة، فلم أَحْفِلْ بشيءٍ من هذا كلّه لأنّي شعرتُ ببغضه والنفورِ منه، واعتقدتُ أنْ لا فائدة لي فيه، فوصفني أساتذتي ورفيقاتي بالبلادَةِ وعسرِ الفهم، فلم أبالِ بذلكَ لأنّي ما دخلتُ الديرَ لأرضيهم ولا لأنالَ الحظوةَ في عيونهم.

على أنّ عمّتي تُعْنَى بي عنايةً كبرى، وتبذلُ في سبيلِ راحتي ورفاهيّتي وتيسيرِ مرافقي وحاجاتي مالًا كثيرًا، وقد خصّصَتْ لخدمتي فتاتينِ متأنقتين من وصائِفِهَا لا عملَ لهما نهارَهُما وليلَهما إلّا القيامُ على زينتهما وحليتهما وقضاءِ ما يتبقّى من أوقاتِ فراغِهِما في أحاديثَ تافهةٍ مرذولةٍ لا لبّ لها ولا ثمرةَ، كأنّما تمثّلان على مسرحٍ أو تلعبانِ في ملعبٍ، ويُخَيّلُ إليَّ أنّ عمتي قد أوعزتْ إليهما ألا تدعواني بلقبي الذي أحبّه وأوثره، فهما تسمّيانني دائمًا «الكونتسة فرجيني» بدلًا من «فرجيني دي لاتور» أي أنّها تأبى عليّ أن أحملَ اسمَ والدي الذي أحبّه وأعطفُ عليه وأفخرُ به كلّ الفخر، ولا أستطيعُ أنْ أنسى ما كابَده في حياتِهِ من شقاءٍ وألمٍ في سبيلِكِ وسبيلِ سعادَتِكِ حتّى سقط في مصرعِه المحزنِ المؤلم في صحارى مدغشقر غريبًا وحيدًا لا يعطفُ عليه عاطفٌ، ولا يبكي عليه باك.

ويُخَيّلُ إليَّ فوق ذَلك أنّها أمرتهما ألا تسمَحَا لي بالتحدّثِ عنك وعن حياتي الماضيةِ معك؛ فإذا ذكرتُكِ، أو ذكرتُ شيئًا عن تلكَ الجزيرةِ التي قضيتُ فيها زهرةَ حياتي، نظرتَا إليَّ نظراتِ الهزءِ والسخريةِ، وقالتا لي: إنّكِ باريسيّة يا سيّدتي، فلا يَجْمُلُ بكِ أنْ تتحدّثي أمثالَ هذه الأحاديثِ عن تلك الأصقاعِ المتوحّشة. وأغربُ من هذا أنّها على جُودِها وسخائِها وبسطة يدها وإحاطتها إيّاي بجميعِ صنوفِ الرعاية والإكرام لا تسمحُ ببقاءِ درهمٍ واحدٍ في يدي، كأنّها تخشى أن أبعثَ إليكِ بشيءٍ من المالِ، ولا أدري ماذا يعنيها من ذلكَ، على أنّني أعترفُ لها بأنّها قد صدقَتْ في فراستها[1] فإنّني ما كنتُ أتأخّرُ عن أن أبعثَ إليكِ بجميعِ ما يصلُ إلى يدي، لو وصلَ إلى يدي شيءٌ، ولكن ماذا أصنع وأنا فقيرةٌ معوزةٌ لا أملكُ شيئًا، بل أنا الآنَ أفقرُ منّي في كلّ عهدٍ مضى لأنّني عاجزةٌ عن أن أمدّ يدي بالمعونةِ إلى من تهمّني معونَتُه.

ولقدْ سألتُهَا مرّةً لِمَ لا ترسلُ إليكِ شيئًا من المال تستعينينَ به على عيشِك في تلكَ البلادِ المقفرة؟ فكان جوابُها: إنّ الحياةَ في تلكَ البلادِ لا تحتاجُ إلى كثيرٍ من المالِ، وإنّ المالَ يفسدُها ويربكُهَا، ويحوّلها من حياةٍ بسيطةٍ هادئةٍ إلى حياةٍ مركّبةٍ مزعجةٍ مملوءةٍ بالمتاعبِ

(١) فراستها: استدلالها بظواهر الأمور على بواطنها.

والشواغلِ، فلم أستطعْ أن أفهَم شيئًا ممّا تقول، ولكنّني فهمتُ أنّها لا تكترثُ بكِ، ولا تحفلُ بشأنك؛ وما كنتُ أريدُ أن أقصّ عليكِ شيئًا من هذا لولا أنّكِ أوصيتِني أنْ أصدقَكِ الحديثَ عن لكّ ما أراهُ وأشعرُ به من خيرٍ أو شرّ. فليتَكِ تحضرينَ إليّ، يا والدتي، لتعيشي بجانبي، وتحملي عنّي بعضَ ما أكابدُه من الوحشةِ والكآبة في هذهِ البلاد.

فإنّ حياتي على رَغْدِهَا ورخائِهَا، وَتَوفُّرِ أسبابِ النعمةِ فيها شقيّةٌ جدًّا، لا أجدُ فيها أنسًا ولا اغتباطًا، فلا الرياضُ الزاهرةُ، ولا القصورُ الشامخةُ، ولا الأثوابُ الجميلةُ، ولا الجواهرُ الثمينةُ، ولا المراكبُ الفارهة[1]، بقادرةٍ على أن تذهبَ بشيءٍ من وحشتي وضجري لأنّني لا أجدُ حولي تلكَ القلوبَ الطيّبةَ الرحيمةَ التي ألفتُها وأحبَبْتُها، وامتزجَ شعوري بشعورها، فأنا أعيشُ من بعدها في ظلمةٍ حالكةٍ لا يلمعُ فيها نجمٌ، ولا يضيءُ كوكبٌ، ولولا أنّي أعلمُ أنّ بقائي هنا إنّما هو تنفيذٌ لإرادتك ونزولٌ على حكمك ما أطقتُ البقاءَ ساعةً واحدة.

ولقد كنتُ أجهلُ في مبدإِ أمري أخلاقَ سكّانِ هذه البلادِ وطبائعَ نفوسِهِم، وأعتقدُ أنّ ظواهِرَهم مِرْآةُ بواطِنِهم، وأنّ الله قد منحهُمْ من الفضائلِ النفسيّة بمقدارِ ما منحهُمْ من جمالِ الصورِ ونضرةِ الأجسامِ حتّى تكشّفَ لي أمرهم، فرأيتُ أنّي أعيشُ بين قوم ممثّلين لا علاقةَ بين قلوبِهِمْ وألسنَتِهم، ولا صلةَ بين خواطرِ نفوسِهِم وحركاتِ أجسامِهِم، فهم يكذبونَ لَيلَهُم ونهارَهم في جميعِ أقوالهم وأفعالهم، لا يرونَ في ذلك بأسًا، كأنّ الكذبَ هو الأساسُ الأوّلُ لحياتهم الاجتماعيّة، وكأنّ الصدقَ عَرَضٌ من أعراضِها الطارئة عليها، وكأنّ لهم نظامًا خاصًا بهم يختلفُ عن نظامِ البشرِ جميعًا في كلّ مكانٍ وزمان.

ولقد لبثتُ زمنًا طويلًا أكتبُ إليكِ الكتابَ بعد الكتابِ، ثمّ أنتظرُ ردّه فلا يردُ إليّ شيءٌ، وكنتُ أعجبُ لذلكَ كلَّ العجبِ، وأذهبُ في تأويله مذاهبَ مختلفةً حتّى علمتُ منذ أيّام قلائلَ أنّ الوصيفةَ التي كنتُ أعتمدُ عليها في حَمْلِ كتبي إلى البريدِ كانتْ تحملُهَا إلى عمّتي، فتقرؤها وتمزّقها، فأحزنني ذلكَ حزنًا عظيمًا، ثمّ أفضيتُ بالأمرِ إلى صديقةٍ لي من طالباتِ المدرسةِ كنتُ أثقُ بها كثيرًا، فأخذتْ على نفسِهَا أن تتولّى إرسالَ ما أريدُه من الكتبِ إليكِ، وها هوذا عنوانُها مرسلٌ مع هذا فابعثي إليّ برسائلك من طريقها.

وبعد: فليسَ في هذه الحياةِ التي أحياها هنا ما يروقُني ويعجبُني، فإنّني لا أزالُ حتّى الساعة أعيشُ في قفرةٍ موحشةٍ لا يؤنسني فيها غيرُ أولئكَ الوصيفاتُ السخيفاتُ اللواتي لا أطيقُ رؤيَتَهنّ ولا سماعَ أحاديثهنّ، وغيرُ شيخٍ هرمٍ من أصدقاءِ عمّتي يزعَمُ أنّه يحبّني ويعطفُ عليّ وأحسبُ أنّه كاذبٌ فيما يقول، لأنّي لا أشعرُ بحبّه ولا العطفِ عليه. فأنا أقْضِي جميعَ أوقاتي مكبّةً على منسَجي، أروّحُ عن نفسي بالنسجِ والتطريزِ، وستجدينَ في الحقيبةِ المرسلةِ إليكِ مجموعةً من الجواربِ والمناديلِ والعصائبِ والأخمرةِ هي قسمةٌ بينَكِ وبينَ أمّي مرغريت

---

(١) الفارهة: النشيطة الخفيفة.

وقلنسوةً لدومينج وثوبًا لماري، وكنتُ أودّ أن أرسلَ إليها كثيرًا من أثوابي الخليعة لولا أنّ الوصائفَ هنا لا يسمحْنَ لي بذلك لأنّهنّ يتقاسمنَ ملابسي ويقرّرنَ مصيرَها قبلَ أن أخلعَها.

تحيّتي إلى أمّي مرغريت ووالدي دومينج ومربيتي ماري وأستاذي الشيخِ الجليلِ وكلبي الأمينِ «فيديل» وإلى جميعِ شويهاتي وأَعْنُزي وطُيوري وعَصَافيري، واعلمي يا والدتي أنّني في أشدّ الحاجةِ إلى بقائي بجانبكِ وإلى الرجوعِ إلى تلك الحياةِ الطيّبةِ السعيدةِ التي فقدتُها ولا أزالُ أبكي عليها، وأنّني أعيشُ كما تعيشُ النبتةُ الغريبةُ في أرضٍ غيرِ أرضها ومُناخٍ غيرِ مُناخها. فهي صائرةٌ إلى الذبولِ والاضمحلال، وأرجو أن أراكم جميعًا عندي قريبًا أو أراني عندكم والسلام، «فرجيني دي لاتور».

وكانوا جميعًايصغونَ إلى الكتاب عندَ تلاوته ويذرفونَ الدموعَ مدرارًا حتّى فرغتْ هيلين من قراءته، فعجبَ بول أنّها لم تذكر اسمَهُ في كتابها، ولم ترسلْ إليه تحيّتها كما أرسلَتْهَا لكلّ مَنْ في الجزيرة حتّى لطيورها وعصافيرها، ولم يعلمْ أنّ الفتاةَ تؤجلُ دائمًا الحديثَ عن أهمّ الأشياءِ لديها وأجَلِّهَا شأنًا عندَها إلى آخرِ كتابِها، فقد لمحتْ هيلين بعد ذلكَ حاشيةً منفردةً في زاويةِ الكتابِ فقرأتْهَا فإذا هي تقول:

«بلّغي أخي بول تحيّتي وشوقي، وقولي له إنّني قد أرسلتُ باسمِهِ حقيبةً صغيرةً تشتملُ على بضعةِ أنواعٍ من البذورِ الأوروبيّةِ التي يغرسونها هنا ويحتفلونَ بها احتفالًا كثيرًا معنونةً بأسمائنا، فإنّني أرغبُ إليه أن يُعْنَى عنايةً خاصّة بزهرةِ البنفسجِ، فيغرسُهَا تحتَ نخلتي الجوزِ المسماتين باسمي واسمه، وأن يحبّها كما أَحبَبْتُهَا لأنّها على جمالِها ورقّتها حييّةٌ خجولةٌ لا تألفُ إلا المخابيء والمكامنَ، ولا تحبّ أن تقعَ عليها عيونُ الناس، إلا أنّ رائحتَها تنمّ عليها أكثرَ ممّا تنمُّ أيّةُ رائحةٍ على زهرتها، وأوصيه أيضًا أن يغرسَ الزهرةَ السوداءَ التي يسمونها «زهرة الحداد» في ظلّ الصخرةِ التي جلسْنَا عليها معًا «ليلةَ الوداع»، وقد سمّوها بهذا الاسم لأنّها تشتملُ على نقطةٍ صفراءَ فاقعةٍ تدورُ بها دائرةٌ سوداءُ كما يدورُ الخمارُ الأسودُ بوجهِ الفتاة الحزينةِ في موقفِ الثكْلِ، وأن ينقشَ على تلكَ الصخرةِ كلمةَ «صخرة الوداع»، ويحيّيها عنّي كما يحيّي جميعَ الأمكنةِ والبقاعِ التي يعلَم أنّي أحبُّها، وبلّغيهِ أيضًا أنّي لا أزالُ أذكُرُه، وأنّني لنْ أنسى قطّ أياديه البيضاءَ التي أسدَاها إليّ فيما مضى من أيّامِ حياتي، وإنّني دائمًا عند ظنّهِ بي».

فاستطيرَ بول فرحًا وسرورًا، وتناولَ الكيسَ الصغيرَ الذي أرسلَتْهُ إليه فوجَدَ على نسيجِهِ الرقيقِ الأبيضِ الحرفينَ الأولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصبِ على شكلِ زهرتين متعانقتين، فَسُرَّ بذلكَ سرورًا عَظِيمًا وكانَ اغتباطُه بالكيسِ أكثرَ من اغتباطِهِ بما اشتمَلَ عليه.

وقد كتبتْ هيلين إلى ابنتِهَا كتابًا. قالتْ لها فيه: إنّها وجميعَ أفرادِ الأسرةِ أصبحوا بعد فرقتها في وحشةٍ مخيفةٍ لا يهوّنُها عليهِمْ شيءٌ من الأشياء، وإنّ الموتَ أهونُ عليهِمْ من أن يعيشوا بعيدينَ عنها منقطعينَ عن رؤيتها، وإنّها لا ترى بأسًا من رُجُوعِهَا إلى الجزيرةِ متى أرادتْ ذلك.

وكتبَ إليها بول، يشكرُ لها هديّتها، ويقول لها: إنّه قد أصبحَ الآنَ عالمًا من علماءِ الفلاحةِ، وإنّه سيقومُ بغرسِ تلكَ البذورِ في أماكِنها المناسبةِ لها حَسبَ القواعدِ التي يرسمُها ذلك الفن؛ وإنّها ستراها حينَ عودتها زاهرةً ناميةً، تحيّيها بابتساماتها اللطيفةِ وتنشرُ عليها ظلالَها وأفياءَها. ثمّ أخذَ يبثّها آلامَ نفسِه ولواعجَها[1] التي قاساها مِن بَعْدِها، ويشكو لها شَكَاةً لم تترك دمعةً في محاجِرِها عندَما قَرَأَتْهَا إلّا استذرَفَتْهَا.

ثمّ أخذَ بعدَ ذلكَ يهيّئُ الأحواضَ لغرسِ تلكَ البذورِ ويعدّ لها عدّتها من ظلٍّ وماءٍ، فأُنْفِقَ في ذلكَ وقتًا طويلًا ثمّ غرسَها، فلم تلبثْ إلا قليلًا حتّى ذبلتْ وتضاءلت، إمّا لأنّها ميتةٌ لا حياةَ فيها، أو لأنّ التربةَ غيرُ صالحةٍ لنمائها، أو لأنّ الشرقَ شرقٌ والغربَ غربٌ، فمحالٌ أن يمتزجا ويختلطا ويشتركا في نظامٍ واحدٍ وحياةٍ واحدةٍ، فتطيّرَ بذلكَ وتشاءَم وزادَه حزنًا وألمًا ما أصبحَ يسمعُه من أفواهِ بعضِ المهاجرين الطارئين علَى الجزيرةِ من الرواياتِ الغريبةِ التي تفترقُ ما تفترقُ، ثم تتّفق على أنّ فرجيني موشكةٌ أن تتزوّج، فلمْ يحفلْ بذلكَ في مبدأ الأمرِ، ثمّ حفلَ واهتم، لأنّ أخبارَ السوءِ لا يمكنُ أن تمرّ دونَ أن تتركَ أثرَها على النفسِ.

وبدأ يصدّق ما يسمعُه، لا لأنّه يعتقدُ صدقَ القائلينَ بلْ لأنّه وقعَ في الخطأ الذي يقعُ فيهِ الناسُ دائمًا، وهو اعتقادُ أنّ الدخانَ لا يمكنُ أن ينبعثَ من غيرِ نارٍ، وَفَاتَهُمْ أنّ تلكَ النارَ التي يتحدّثونَ عنها قد تكونُ نارَ الحقدِ والبغضِ المشتعلةَ في الصدورِ فيكونُ الدخانُ الذي ينعبثُ عنها إنّما هو دخانُ المختلقاتِ والمفترياتِ. وكان يقرأُ فيما يقرأ من الرواياتِ أحاديثَ الغدرِ والخيانةِ التي يرويها الراوون عن النساءِ، فيقولُ في نفسه ربّما أفسدَ ذلكَ المجتمعُ الخبيثُ نفسَهَا وحوّل حياتَها الطيبةَ الطاهرةَ إلى طريقٍ غيرِ طريقِهَا، فنسيتْ أقسامَهَا[2] وعهودَها وأيمانها المحرجةَ التي أقسَمَتْها بين يدي ألّا تَستبدلَ بي أخًا سواي. والنفسُ الإنسانيّة كما يقول «روسّو»[3] Jean Jaques Rousseau مرآةٌ تتراءى فيه مختلفاتُ الصورِ والألوانِ، والمرءُ كما يقول «موبسان»[4] (Guy De Maupassant) ابنُ البيئةِ التي يعيشُ فيها.

فكأنَّ استنارةَ ذهنه وَسَعَةَ دائرةِ معارفِهِ واضطلاعَه بشؤونِ العالم وأحواله كانَ شقاءً عليهِ وويلًا له، ولعلّه لو بقيَ قدمًا جاهلًا كما كانَ لا يجولُ نظرُه في أفقٍ أوسعَ من الأفقِ الذي يعيشُ فيه؛ كانَ من أبعدِ الأشياءِ عن ذهنِهِ أن يتصوّرَ أنّ فرجيني غادرةٌ خائنة.

وكانَ إذا حزّ به الأمر، ولَجّتْ به الوساوسُ والهمومُ، فَزِعَ إليّ وألقى بين يديَّ أثقالَه وأعباءَه، فأحدّثُه أحاديثَ كثيرةً عنِ الدهرِ وتقلّباتِهِ والأيّامِ وصروفِها وما يتداوَلُهُ الناسُ في

---

(١) اللواعج: جمع لاعج، وهو الحبّ المحرق. (٢) الأقسام: جمع قَسَم بمعنى الحَلَف واليمين.

(٣) هو الكاتب الفرنسي المشهور جان جاك روسو (١٧١٢م - ١٧٧٨م). له عدّة مؤلّفات فلسفيّة واجتماعية، منها «العقد الاجتماعي»، و«اعترافات».

(٤) شاعر فرنسي مشهور (١٨٥٠م - ١٨٩٣م)

دنياهُمْ من نعيم وبؤسٍ وجدةٍ وفقرٍ وراحةٍ وتعبٍ وصحّةٍ ومرَضٍ ورجاءٍ يُشْرِقُ في ليل اليأسِ حتّى يحيله نهارًا ساطعًا، ويأسٍ يغشى نهارَ الرجاءِ حتّى يبدّلَهُ ظلامًا قاتمًا، وخيرٍ لا يزالُ يطاردُ الشرّ حتّى يطردَه ويأخذَ مكانه، وشرٌّ لا يزالُ يغالبُ الخيرَ حتّى يغلبَهُ ويفلجَ عليه، فيجدُ في أحاديثي هذه ملهاةً يتلهّى بها حينًا عن شواغِلِهِ وهمومِهِ.

❁ ❁ ❁

٢٠ ـ الطبيعة

وهنا قلتُ للشيخِ: هل لكَ يا سيّدي أن تحدّثني قليلًا عن نفسِك! فإنّي أشعرُ منذُ جلستُ إليكَ أنّي أجلسُ إلى رجلٍ من عظماءِ الرجالِ ليستْ مثلُ هذه الأرض ممّا تُنْبِتُ مثلَه في وفورِ عقله وسَعَةِ مدارِكه واكتمال أهْبَتِه، وكثرةِ تجاربِهِ واختباراته، ولا بدّ أنّ حادثًا من حوادثِ الدهرِ العظامِ قد قذفَ به إلى هذهِ الجزيرةِ النائية فعاشَ فيها كما أرادتِ المقاديرُ أنْ يكون.

فرفَعَ رأسَه إليّ وقال: سأحدّثُكَ عن نفسي قليلًا يا بنيّ، فلا أَحَبُّ للمرءِ من أن يجدَ إلى جانبِهِ جليسًا يستطيعُ أن يسكُبَ نفسَه في نفسِه، ويُفْضِي إليه بسريرَةِ قلبِه، ثمَّ اعتدلَ في جلسَتِهِ وأنشأ يقول:

إنّي أسكنُ يا بنيّ، على بعدِ فرسخٍ ونصفٍ من هذا المكانِ على ضفّةِ جدولٍ صغيرٍ ممتدّ بجانبِ ذلكَ الجبلِ الذي يسمّونه «الجبل الطويل» وهنا أقضي أيّامَ حياتي وحيدًا منفردًا لا زوجَ لي ولا ولدَ، ولا أنيسَ ولا عشيرَ، وعندي أنّ سعادةَ المرءِ لا تعدو إحدى حالتين: أنْ يوفّقَ إلى زوجٍ صالحةٍ تحبّه ويحبّها وتُخْلِصُ إليه ويُخْلِصُ إليها، فإنْ أعوزَهُ ذلكَ فسعادَتُهُ أن يهجرَ العالَمَ كلّه إلى مُعْتَزَلٍ ناءٍ كهذا المعتزلِ يتمتّعُ فيه بجوارِ نفسِه وعشْرَتِها، وقد قَضَى اللهُ أنْ أُحْرَمَ الأولى فلمْ يبقَ لي بدٌّ من اختيارِ الثانيةِ.

والعزلةُ هي المرفأُ الأمينُ الذي تلجأُ إليه سفينةُ الحياةِ حِينَ تتقاذَفُهَا الأمواجُ، وتصطلحُ عليها هُوجُ الرياحِ، وهي الواحةُ الخصبةُ التي يفيءُ[١] إليها السَّفْرُ[٢] بين الأيْنِ[٣] والكلالِ، فيجدونَ في ظلّها الظليلِ راحتَهُم من سموم الصحراءِ ولوافحِ الرمضاءِ[٤]، وهي المنزلةُ الأولى التي ينزلُها المرءُ في طريقِهِ من الدنيا إلى الآخرةِ ليستجمَّ ذهنَه، ويَجْمَعَ أمرَهُ، ويعدَّ عدَّتَه للقاءِ الله تعالى، لذلك كانتِ العزلةُ دائمًا في الشعوبِ الشقيّةِ المضطهدةِ التي لا إرادةَ لها أمام إرادةِ حاكميها الظالمينَ وملوكِهَا المستبدين كما كانَ شأنُ المصريينَ والرومانِ واليهودِ فيما مضى من التاريخِ وكما هو شأنُ الهنودِ والصينيينَ والإيطاليينَ والشعوبِ الشرقيّةِ اليوم.

---

(١) يفيء: يرجع.
(٢) السَّفر: المسافرون.
(٣) الأين: التعب.
(٤) الرمضاء: شدّة الحرّ.

وقد يكونُ ذلكَ أحيانًا في الأممِ المتمدّنة المتحضّرة، فإنّ للمدنيّةِ شقاءً كشقاءِ الهمجيّةِ لا يختلفُ عنه إلّا في لونِهِ، وصبغَتِهِ. فإنّ وقوفَ الإنسانِ في وسطِ ذلكَ المزدحَم الهائلِ بين الجواذبِ المختلفَةِ والدوافعِ المتعدّدة وحيرةِ عقلِهِ بين مختلفِ المذاهبِ والشيعِ والآراءِ والأفكارِ يحاولُ كلٌّ منها أن يجذبَه إليهِ ويسيطرَ عليه، ويستأثرَ به وهو فيما بينها كالريشةِ الطائرةِ في مهابِّ الرياحِ لا تستقرّ في قرارٍ، ولا تهبطُ في مهبطٍ، متّبعةً عقليّةً لا قبلَ له باحتمالها، ولو أنّه كانَ أسيرًا في قومٍ متوحّشين، وقد شدّه آسروهُ إلى جذعٍ من جذوعِ النخلِ، وأخذَ كلٌّ منهُمْ بعضوٍ من أعضائِهِ يجذبُهُ جذبًا شديدًا ليمزّقوه إربًا إربًا لكانَ ذلكَ أهونَ عليه من هذه الحالة التي لا يستطيعُ أنْ يتمتّعَ فيها بهدوئِهِ النفسيّ وسكونِهِ الفكريّ كما تتمتّعُ السائمة[١] على وجهِهَا في مسارِحِها ومرابِعَها، فلا يجدُ لهُ بدًّا من الفرارِ بنفسِه إلى حيثُ يجدُ نفسَه ويظفَرُ بكيانِهِ.

ولا سبيلَ له إلى وُجدانِ نفسِه والعثورِ بها إلّا في مثلِ هذهِ الصخرةِ النائيةِ المنقطعةِ التي يستَطِيعُ أن يجمعَ في ظلالِهَا ما تفرّقَ من أمرِه، وَتَبَعْثَرَ من قُوّتِهِ، ويصغيَ في وسطِ ذلكَ السكونِ والهدوءِ إلى صوتِ قلبِهِ حينَ يحدّثُه أصدَقَ الأحاديثِ وأجمَلَهَا عن الخالقِ والمخلوقِ، والحياةِ والموتِ، والبقاءِ والفناءِ، وطبيعةِ الكونِ وأسرارِ الخليقةِ، فيشعرُ بالراحةِ بعد ذلكَ العناءِ الكثيرِ والكدِّ الطويلِ كالسيلِ المتحدّرِ من أعالي الجبالِ لا يزالُ يحملُ في طريقِهِ الأقذاءَ والأكدارَ، فإذا بلغَ الحضيضَ استحالَ إلى بركةٍ هادئةٍ ساكنةٍ يتلألأُ في صفحَتِهَا الصقيلةِ اللامعةِ جمالُ السماءِ وبهجةُ الملأ الأعلى.

ولقد كنتُ أحدَ أولئكَ الفارّينَ بأنفسِهِمْ من لَجَبِ[٢] المدنيةِ وضوضائِها، وضلالِها وحيرَتِها، وقنعتُ منها بذلكَ الكوخِ البسيطِ الذي بنيتُه بيدي على ضفّةِ ذلكَ الجدولِ الصغيرِ، ولقد رزقَني الله أرضًا خصبةً جيّدةَ التربةِ أقضي جميعَ أوقاتي في حَرْثِهَا وفَلْحِهَا وتصريفِ مياهِهَا وتشذيبِ أشجارِها لا معينَ لي إلّا قوّتي، ولا أنيسَ لي غيرُ وحدتي، فإنْ شعرتُ بشيءٍ من المللِ رجعتُ إلى تلكَ الأسفارِ[٣] القليلةِ التي اخترتُها لصحبتي حينَ نفضتُ يدي من جميعِ الأصدقاءِ والأصحابِ لأحادثَ على صفحَاتِها أولئكَ الرجالَ العظامَ أصحابَ المبادىءِ القويمةِ والعقائدِ الثابتةِ والآراءِ الناضجَةِ الذين لم يكتُبوا ما كَتَبُوا ليوفوا رغبةَ الناسِ في أهوائِهِم ومطامِعِهِم، ولا ليعجبُوهُمْ من ذكائِهِمْ وفطنتهِمْ وغرابةِ ابتداعهم، بلْ ليكشِفُوا الغطاءَ برفقٍ وهدوءٍ عن وجهِ الحقيقةِ، فيراها الناسُ كما هي غيرَ مشوّهةٍ ولا مزخرفةٍ، لا يبتغونَ على ذلكَ أجرًا سوى أن يروا الإنسانيّةَ الشقيّةَ المعذبةَ ناهضةً من حضيضِ بؤسِهَا وشقائِهَا، إلى ذروةِ سعادَتِها وهناءَتِها.

فإذا جَلَسْتُ لقراءتها رأيتُ في مرآتها ذلكَ العالَم الذي فارَقْتُهْ وَاجْتَوَيْتُه[٤]، ورأيتُ شقاءَه

(١) السائمة: الماشية تترك وحدها في المرعى.
(٢) لجب: ضجّة.
(٣) الأسفار: جمع سِفر وهو الكتاب.
(٤) اجتويته: كرهته.

الذي يكابدُه وآلامَه التي يعالجُهَا دون أن يحسّ أنّه يشقى أو يتألّمُ فأشعرُ بما يشعرُ به ذلكَ الذي نجا من سفينةٍ موشكةٍ على الغرقِ إلى صخرةٍ عاليةٍ في وسطِ البحرِ فأشرفَ منها على بقايا تلك السفينةِ المحطّمةِ مبعثرةً على سطحِ الماءِ، فشعرَ ببردِ الراحَةِ وَطِيبِ الحياة.

ولقد أصبحتُ بَعْدَ أن فارقتُ الناسَ، وصرتُ بمنجاةٍ منهم أحْنُو عليهم، وأرثي لبؤسهم وشقائِهم، وأضمرُ لهم من العطفِ والحبّ ما لم أكنْ أضمِرُه لهم من قبلُ، وأتمنّى لهم النجاةَ من شقَائِهِمْ الذي يعالجونه وبؤسهم الذي يُكَابِدُونهُ على كثرةِ ما قاسيتُ منهم في مقامي بينَهُم من الهمومِ والآلامِ والمهاناتِ، ولم يكنْ بيني وبينَهُم سوى أنّني كنتُ أدعوهم إلى الحياةِ الطيّبةِ السعيدةِ، حياةِ الطبيعةِ والفطرةِ، وأنعى عليهم ذلكَ التكلّفَ والتعمّلَ في مطاعِمِهم ومشارِبِهم وملابِسِهم ومساكنِهم وعقائِدِهم ومذاهِبِهم وآرائِهم وأفكارِهم وصلاتِهم وعلائِقِهم وأقول لهم: أيّها الناسُ عودوا إلى أحضانِ أمّكم الطبيعةِ، فهيَ أحنى عليكم وأرأفُ بكُم من كلّ شيءٍ في هذا العالم، وأعلموا أنّ جميعَ ما تكابِدُونَ من الآلام والأسقامِ في حياتِكُم إنّما هو عقوبةٌ لكم على عقوقِكُم لها وتَمَرُّدِكُمْ عليها وكُفْرِكُمْ بسُنَنِهَا وشَرائعها، فاشربوا قراحَ الماءِ، إنْ شَرِبتُمْ، وكُلُوا بسيطَ المآكلِ، إنْ أكلتم، واقنعوا حينَ تلبسونَ بما يسترُ عورَتَكُمْ وحينَ تسكنونَ بما يجمَعُ شملَكُم، ووَحِّدُوا نظرَكُمْ إلى الأشياءِ والشؤونِ بقدر ما تستطيعونَ تتّحِدوا فيما بينكم، وتهدأْ عنكُمْ نارُ تلك البغضاءِ التي تتقلّبون فيها ليلَكُم ونهاركم.

واعلَمُوا أنّ الحياةَ أبسطُ من أن تحتاجَ إلى كلّ هذه الجلبةِ والضوضاءِ، فخذُوهَا من أقربِ وجوهِهَا وأليَنِ جوانِبِهَا، واقنعوا منها بالكفافِ الذي يُمْسِكُ الحوباءَ[1]، ويعينُ على المسير، فإنّما أنتم مارّونَ لا مقيمونَ، ومجتازونَ لا قَاطِنونَ، ولا يوجدُ بؤسٌ في العالم أعظمُ من بؤسِ رجلٍ مسافرٍ نزلَ على عينِ ماءٍ ليطفىءَ ببردِهَا غلّته، ويجدَ في ظلالها راحَتَه ساعةً من نهار، ثمّ يمضي لسبيلٍ، فصدَفَ عنها وظلّ يشتغلُ بحفرِ عين أخرى بجانِبِها، فلم يكدْ يبلغُ قاعَها حتّى كانَ قد نالَ منه الجهدُ فهلكَ دونَ مرامِه ظمأ وعياءً.

ولا يقذفَنَّ في رُوْعِكُمْ[2] أنّي أريدُ أن أذهبَ بكم إلى بغضِ الحياةِ وَمُقْتِهَا، ولا إلى تعذيبِ أنفسِكُم بالحرمانِ من أطايبِهَا ولذائذها، فالزهدُ عندي سخافةٌ كالجشع كلاهما تَكَلُّفٌ وَتعمُّلٌ لا حاجةَ إليه وكلاهما خروجٌ عن القصدِ وضلالٌ عن السبيلِ، وإنّما أريد أن تترفّقوا في الطلبِ ولا تمعنوا فيه إمعانًا، فالإمعانُ فيه والاستهتارُ به حربٌ شعواءُ[3] يقيمُها القويّ على الضعيفِ والجشعُ المُتَكَالِبُ على القَنُوعِ المعتدلِ يسلبُه ما بيده ويحرمُه القليلَ التافهَ الذي يتبلّغُ به باسمِ جهادِ الحياةِ وتنازعِ البقاءِ. فكانَ جزائي عندهُمْ على هدايتِهم وإرشادِهِمْ ومحاولةِ استنقاذِهِم من يدِ الشقاءِ الذي يعالجونَهُ أنْ سخروا بي واحتَقرُوني وسمّوني مجنونًا، ولم يقنَعُوا في أمري بتركي وشأني

---

(١) الحوباء: الروح، النفس. (٢) الرُّوع: القلب، العقل، الذهن.

(٣) شعواء: منتشرة الأرجاء، فسيحة، شاملة.

كما يُتْرَكُ المجانينُ وشأنَهُم، بل اتخذوني عدوًّا لهم يُحَاربونني كما يُحَاربون اللهَ والطبيعةَ، ولا ذَنْبَ لي عندهُمْ إلّا أنّني أسمّي المالَ شقاءً، ويسمّونه سعادةً، وأسمّي الجاهَ مؤونةً ويسمّونه متعةً، وأسمّي اللجاجَ في الطَلَبِ والتهالكَ فيه جنونًا وخبلًا[1]، ويسمّونه حكمةً وحزمًا.

ثمّ لا يلبثونَ إلّا قليلًا، حتّى يروا بأعينِهم كذبَ ظنونِهم وخيبةَ آمالهم، ويسقطوا في الهوّة التي كنتُ أقدّر لهم السقوطَ فيها، فلا يكونُ أثرُ ذلكَ في نفوسهم أن يؤمنوا بسنّةِ اللهِ والطبيعةِ، ويذعنوا لأحكامِهِ وأحكامِهَا، ويعودوا باللّائمةِ على أنفسِهِمْ فيما كانَ منهم، كما يتوقّعُ المتوقِّعُ أن يكونَ، بل ينقمونَ على الأرضِ والسماءِ والخالقِ، والمخلوقِ والدنيا والآخرةِ، ويثيرونَ الثائرةَ على الشرائعِ الأرضيّةِ والسماويّةِ، والنظُم الطبيعيّةِ والوضعيّةِ، وعليَّ أنا أيضًا لأنّني لم أَهْوِ معهم في الهوّةِ التي هَوَوْا فيها، كأنّني أنا الذي أشقَيْتُهم وابتليتُهُمْ، وأوردْتُهُمْ هذا الموردَ الوبيلَ، وما أشقاهُمْ إلّا الطمعُ لو كانوا يعلمون.

وأمّا الآن، فقد نجوتُ من هذا كلّه والحمدُ لله، وأرحتُ نفسي إلى الأبدِ من رؤيةِ تلكَ المناظرِ المؤلمة الممضّة: مناظرِ المتهافتينَ ليلَهُم ونهارَهُم في تلكَ الحفائرِ الجوفاءِ التي حَفَرَتْهَا في طريقهم أيدي المطامعِ والشهواتِ، وانقطعَ عن أذني ذلكَ الدويُّ الهائلُ الذي كان يُزْعِجُني ويقلقني، وأصبحتُ في وحدتي هذهِ أتمتّعُ بالهواءِ طلقًا غيرَ مكدّر، والنورِ ساطعًا غير منغّصٍ، والجمالِ خالصًا غيرَ مشوّه، أتبسّطُ في أنحاءِ نفسي حيثُ أشاءُ ومتى أشاءُ وأناجي اللهَ والطبيعةَ وجهًا لوجه لا يحولُ بيني وبينهما حائلٌ؛ وأفكّر على الطريقةِ التي أريدُها لا التي يريدُهَا الناسُ؛ وأنسجُ ثوبي على مقدارِ جسمي، لا على مقدارِ جسومِ الآخرينَ، وأُشْرِفُ من قمّةِ وحدتي وعزلتي على ذلكَ العالمِ الذي فارَقْتُهُ واجتويته[2]، فأعجبُ لتلكَ الهمومِ والآلامِ التي يعالِجُهَا لغيرِ علّةٍ ولا سببٍ ولتلكَ المعركةِ الهائلةِ التي يشنّها بعضُ أفرادِه على بعضٍ على غيرِ طائلٍ سوى أنْ يهلكَ أحدُهُمْ في سبيلِ الآخر، ثمّ يهلكَ الآخرُ في سبيلِ آخرَ.

وهكذا تمتدُّ سلسلةُ الهلاكِ فيهم إلى ما لا نهايةَ لها كقِطَعِ الأمواجِ التي تتواثَبُ على الصخورِ المعترضَةِ في مجراهَا، فتتكسّر عليها واحدةً بعد أخرى، ثمّ تتلاشى كأنْ لم تَكُنْ. فأحمدُ الله على نجاتي منهُمْ وخلاصي من أيديهم، وعلى أنّني أستطعتُ أنْ أعيشَ على حسابِ نفسي لا على حسابِ الضعفاءِ والمساكين، وأنْ أتناولَ لقمتي مغموسةً بدمي لا بدماءِ الضحايا والهلكى، وأن أعودَ بما فَضَلَ على حاجتي على البائسينَ والمساكين والساقطينَ في هوى اليأسِ المنقطعينَ عن قافلةِ الحياةِ، ولو أنّ جميعَ لذائذِ الدنيا مأكلًا ومشربًا، وملبسًا ومسكنًا، وُضِعَتْ لي في كفّه، ثمّ وضعتْ لي في الكفّةِ الأخرى لذّتي في هدايةِ تائِهٍ ضَلّ به طريقُه، أو معونةِ يائسٍ انقطع به أمَلُه لرَجَحَتْ عليها.

وهكذا أقضي حياتي في تلكَ الجنّة الصغيرةِ على ضفّة ذلكَ النهرِ الصغيرِ وبينَ يدي ذلكَ

---

(١) الخبل: فساد العقل. (٢) اجتوى: كره.

الخضمِّ العظيمِ متمتّعًا بما شئتُ من جمالِ الدنيا وبهجَتِها، ورغْدِ العيشِ ونعيمِه، ومناظرِ الطبيعةِ ومشاهدِهَا. فالسماءُ فوقي تتلألأُ بنجومِهَا وكواكبِهَا، والبحرُ أمامي يعجُّ بأمواجِه وأثباجِه[١]، والأرضُ بين يديّ تختالُ في أثوابها وأبرادِها، والأصواتُ المنعبثةُ من البحرِ الزاخرِ والجدولِ المتسلسلِ والشلالِ المتدفّق والريحِ العاصفةِ والأشجارِ المترنّحةِ والطيورِ الصادحةِ فرقةٌ موسيقيّةٌ مختلفةُ الآلاتِ والنغماتِ، تسمعني ما لم أسمَعْهُ يومًا من أيّامِ حياتي في أكبرِ معهدٍ غنائيٍّ، من أكبرِ فرقةٍ موسيقيّة.

فإذا جلستُ أمامَ كوخي على تلكَ الصخرةِ العاليةِ التي اعتَدْتُ أنْ أجلسَ عليها رأيتُ النخلَ الباسقَ مصطفًّا بعضُه وراءَ بعضٍ كأنّه السطورُ في الكتابِ، رؤوسُه العاليةُ المتشابكَةُ كأنّها غابةٌ ممتدّةٌ بين السماءِ والأرضِ، ورأيتُ الجدولَ المتسلسِلَ وهو يجري في خلالِ الخمائلِ الملتفّةِ جريانَ القمرِ الساري في أعماقِ السحبِ المتكاثِفَةِ، فلا يَرى منه الرائي إلا بوارقَ خاطفةً تلمعُ من حينٍ إلى حينٍ. وأُلقي نظري تارةً على الروضِ الجميلِ الذي غَرَسْتُهُ بيدي فأرى صنوفَ أشجارِه وألوانَ أزهارِه وأنواعَ كرومِهِ وأعنابِه، فأراه في سكونِ الريحِ وهدوئِها معبدًا قد لبسَ الجلالَ والوقارَ، وانتثرتْ في جَنَباتِهِ أشخاصُ الراكعينَ والساجدينَ، وفي هبوبها وانبعَاثها مرقصًا، تترنّحُ فيه القدودُ وتعتنِقُ القاماتُ، وتتقابلُ الحركاتُ والسكناتُ.

ثمّ أنظرُ إلى السيلِ المتدفّقِ من أعالي الجبالِ، فأرى تلكَ المعركةَ الهائلةَ التي تجري بينَه وبينَ الصخورِ الناتئةِ في طريقِه يهاجمُهَا فتدفَعُه، ويَثِبُ عليها فتمزّقُه، فتتطايَرُ أجزاؤه في جوّ السماءِ كأنّها شظايا ألواحِ البلّورِ، فيشتدُّ غيظُه وحَنَقُهُ، وإرغاؤه وإزبادُه ويحاولُ أن يثأرَ لنفسه منها، فلا ينالُ آخِرًا أكثرَ ممّا نالَ أولًا، وهي جامدَةٌ في مكانِها، لا تحرّكَ ساكنًا، ولا تمدّ يدًا، فلا يجدُ له بدًّا من الفرارِ من وَجْهِهَا، شأنَ الطيشِ والنَزَقِ[٢] بين يدي الرزانةِ والحِلْمِ، فينحدرُ عنها إلى السهلِ متغلغلًا في أعماقِ الخمائلِ والأدغالِ كأنّما يتوارى حياءً وخجلًا.

ثمّ لا يلبثُ أنْ يستحيلَ بعد ذلكَ إلى مِرآةٍ صافيةٍ تتراءى فيها صُوَرُ النخيلِ والأشجارِ وظلالُ القِمَمِ والهضابِ كأنّما قد خطّها رسّامٌ ماهِرٌ بريشةٍ رقيقةٍ في صحيفةٍ ناصعة.

وأَعَظَمُ ما أعجب له من تلكَ المناظرِ مناظرُ الطيورِ الغريبةِ حينَ تفِدُ في أواخرِ فصلِ الصيفِ أسرابًا من أقاصي البلادِ مجتازةً ذلكَ الخضمَّ العظيمَ إلى حيثُ تتلمّسُ رزقَهَا الذي أعوَزَهَا في أرضِها، فتقعُ على ذوائبِ الأشجارِ وضفافِ الأنهارِ وتحلّقُ فوقَ الجداولِ والغُدُر شاديةً مترنّمَةً مرفرفةً بأجنحَتِها الجميلةِ ذاتِ الألوانِ اللامعةِ المتَلألئةِ، وكأنّما قد خلعتْ من نفسِهَا على الجزيرةِ بُرْدًا مُفَوَّفًا[٣] ترفّ حواشِيّه وأهدابُه، وترجفُ متونُه وأثناؤُه، وتموجُ خيوطُه بعضُها في بعض، فأجدُ من الأنسِ بها والغبطةِ بعشرتِهَا ما يملأُ قلبي بهجةً وحبورًا، إلّا أنّها لا تمكثُ أكثرَ

---

(١) الأثباج: جمع ثبج وهو من الشيء وسطه ومعظمه.

(٢) النزق: الجهل والحماقة.

(٣) المفوّف: المخطّط من الثياب.

من شهرٍ أو شهرينِ ثمّ تعودُ أدراجَهَا، فأجدُ من الوحشةِ لفراقِهَا ما يجدُ العشيرُ لفراقِ عشيره.

وقد أجلسُ أحيانًا على شاطىءِ البحيرةِ لأتفكّهَ بمنظرِ القرودِ السوداءِ وهي تَثِبُ من شجرةٍ إلى شجرةٍ، ومن غصنٍ إلى غصنٍ، وقد احتضنَتْ أولادَهَا إلى صدورِهَا، أو تركَتْهَا معلّقةً بأذنابِها، وقد يكونُ بين الشجرةِ والشجرةِ والنخلةِ والنخلةِ جدولٌ واسعٌ أو نهرٌ متدفّقٌ، فيكونُ لها في غدوّها ورواحِها، ووَثْبِهَا وقَفْزِهَا، وضحكِهَا مرّة وغضبِهَا أخرى، وترفّقِهَا الغريبِ في طلبِ عيشِهَا وتحصيلِ رزقها منظرٌ بديعٌ رائقٌ لا تكدِّرُهُ حبائلُ منظومةٌ، ولا تزعجُه قذائفُ منطلقةٌ. وأستطيعُ أنْ أقولَ لكَ، يا بنيّ، إنّني، وقد عاشرتُ الوحوشَ الضاريةَ والذئابَ المفترسةَ والنمورَ الكاسرةَ والقردةَ الشرسةَ، وخَبِرْتُ أخلاقَهَا وطباعَهَا ومنازعَهَا ومشاربَهَا، ورأيتُ أنّها لا تفترسُ إلّا إذا جاعتْ، ولا تشرِسُ إلّا إذا أُهيجَتْ، ولا تطمعُ في أكثرَ من كفافِ عيشها، وعلالةِ حياتها، أصبحتُ أعتقدُ أنّ الإنسانَ أضرى منها وأشرسُ وأنّه مخدوعٌ أو خادعٌ في تفضيلِ نفسِه عليها.

ولم يزلْ هذا شأني حتّى نزلَتْ بالجزيرةِ تلكَ الأسرةُ الصالحةُ الكريمةُ، فكانتْ أيّامي معها غُرَّةَ أيّامِ حياتي وكوكبَ سمائِهَا الساطعِ، فواأسفي عليها، ووافجيعتي بالحياةِ من بعدِهَا!

❋ ❋ ❋

٢١ ـ الحديث

وحسبُكَ الآنَ يا بنيّ ما عرفتَ من شأني، فلأَعُدْ بكَ إلى شأنِ ذلكَ الولدِ المسكينِ، فقد حدّثْتُكَ عنهُ أنّه كانَ يختلفُ إليّ كثيرًا بعدَ سفرِ فرجيني ليطلبَ عندي عزاءَه وسلواهُ وراحةَ نفسِه من بلابِلِها[١] ووساوسِها.

فوفدَ إليّ ذاتَ يومٍ وكنتُ جالسًا تحتَ شجرةٍ قصيرةٍ كانتْ قد غرسَتْها فرجيني فيما غرسَتْ من الأشجارِ الكثيرةِ التي كانتْ تحملُ معها بذورَها حيثما ذهبتْ وأينَما حلّت، قائلة: لعلّ اللهَ يمنحُهَا النماءَ والنضرةَ فيهتدي بها ضالٌّ، أو يفيءَ إليها حائرٌ أو يتعلّلَ بها ظامىءٌ، فجلسَ بجانبي وأطرقَ إطراقةً طويلةً ثمّ رفعَ رأسَه وقال:

أنا حزينٌ جدًّا يا والدي، ويُخَيَّلُ إليَّ أنّ فرجيني قد نسيَتْني وأنّ يدي قد أصبحتْ صُفرًا منها إلى الأبدِ، فلقدْ مَرّ على سفرِهَا ثلاثةُ أعوامٍ لم ترسِلْ إليّ فيها إلّا كتابًا واحدًا منذُ ثمانيةِ شهورٍ، ثمّ انقطعتْ رسائلُها بعدَ ذلكَ، ولا أعلَمُ ماذا دَهَاها وماذا دهاني عندَهَا، ولقد حدَّثَتْني نفسي اليومَ أنْ أسافرَ إلى فرنسا أسعى إلى مقابلةِ ملكِهَا لأتولّى خِدْمَتَهُ، وأتوصّلَ من طريقه إلى جمعِ ثروةٍ طائلةٍ أستطيعُ أن أتقدّمَ بها إلى جدّةِ فرجيني، فلا ترى مانعًا - وقد جمعتُ في يديَّ بين حاشيتي المجدِ والشرفِ - أن تزوّجني من حفيدَتِها.

---

(١) البلابل: جمع بلبال وهو الهمّ والوسواس.

قلت: أَلَمْ تحدّثني يا وليديّ قَبْلَ اليوم أنكَ لا تتّصلُ بنسبٍ شريفٍ أو أنّك لا تعرفُ لكَ أبًا؟.

قال: وأيّةُ علاقةٍ للأبوّةِ والبنوّةِ بما نحنُ فيه؟ إنّني لا أريدُ أنْ أتقدّمَ إلى الملكِ بحسَبي ونَسَبي، بل بكفايتي وجدارتي وخدمتي التي أقدّمها لوطني؛ وهلْ يوجدُ في الناسِ من يأخذني بذنبٍ لستُ صاحِبَه ولا صاحبَ الرأي فيه بلْ لم أكنْ حاضِرَهُ ولا شاهِدَه لأنّه وَقَعَ قَبْلَ وجودي في هذا العالم؟ على أنني لا أعدُّ ما كانَ ذنبًا لأنّ والدتي أطهرُ وأشرفُ مِنْ أنْ تقترفَ الجرائمَ والذنوب.

قلت: إنّك تحدّثني بلسانِ الحقيقة؛ أمّا لسانُ الاصطلاحِ فهو أنّ من كانَ مثلَكَ مغمورَ النسبِ أو مقطوعَهُ فلا سبيلَ له إلى أن يلمسَ بأطرافِ قدمه أدنى درجةٍ من درجات المجدِ، بل لا سبيلَ له أنْ يأخذَ لنفسِه مكانًا مطمئنًّا بين الطبقاتِ العاليةِ الرفيعةِ التي يسمّونَها طبقاتِ الأشرافِ والنبلاء.

قال: إنّك قد قلتَ لي قَبْلَ اليومِ كما قرأتُ في كثيرٍ من الكتبِ، إنّ عظمةَ فرنسا إنّما حُمِلَتْ على عواتقِ أولئكَ الرجالِ المغمورينَ الذين لا يمتّونَ إلى الناسِ بحسَبٍ أو نَسَبٍ، ولا شأنَ لهم في حياتهم سوى أنّهم قد أدّوا لوطنهم خدماتٍ جليلةً كانتْ هي وسيلَتهم الوحيدةَ إلى بلوغِ ذروةِ المجدِ التي بلغوها، فهلْ كنتَ تخدَعُني فيما قلتَ لي وكانَ يخدَعُني أولئكَ الكاتبون؟

قلت: لم أخدَعْكَ يا بنيّ، ولا خدعُوك، وإنّما كنتُ أحدّثُكَ عن الماضي، أما اليومَ فالملوكُ متكبّرونَ متغطرسونَ لا يؤثرون مزيّةً من المزايا على مزيّة الحسَبِ والنَسَبِ، ولا يعرفونَ مفخرةً يفخرونَ بها سوى أنّهم من سلالةِ أولئكَ الملوكِ الماجدينَ، فهم لا يقرّبونَ ولا يُدْنُونَ إلّا من أمْسَكَ بطرفِ سلسلةٍ يمسِكُ بطرفها الآخر أميرٌ من الأمراءِ أو قائدٌ من القوّادِ أو نبيلٌ من النبلاءِ، وهؤلاءِ هم أعوانُهُمْ وأنصارُهُمْ ووزراؤُهُمْ وقوّادُهُمْ وولاتُهُمْ وعمّالُهُمْ وجلساؤُهُمْ وسمّارُهم ومواضعُ ثقتهِم وأمناءُ أسرارِهِم، وأحاطوا بهم إحاطةَ السحبِ الكثيفةِ بالكواكبِ النيّرةِ، فلا يأذنونَ لشعاعٍ من أشعّتهم أن يصلَ أحدًا من الناسِ سواهم، فكانتْ نتيجةُ ذلكَ أنْ ماتَتْ المواهبُ والمزايا وقُبرتِ العزائِمُ والهمَمُ، وأصبحَ كتّابُ الأمّةِ وشعراؤُها وحكماؤُها وعلماؤُها ورجالُ الفنونِ فيها أضعفَ الناسِ وأهونَهُمْ خطرًا وأدنَاهُمْ منزلةً في ترتيبِ درجاتِ الإنسانيّةِ، لأنّهم قد حُرِمُوا الاتّصالَ بتلكَ الشمسِ المشرقةِ التي تمدّهُمْ بالقوّةِ والحياةِ، وتبعثُ فيهم روحَ النشاطِ والعمل.

قال: وماذا عليّ إن اتّصلْتُ بنبيلٍ من أولئكَ النبلاءِ، وعشتُ تحتَ كَنَفِهِ لِأَصِلَ من طريقِهِ إلى الغايةِ التي أريدها؟

قلت: إنّكَ لا تستطيعُ أن تنالَ الحظوةَ عنده إلّا إذا نزلتَ على حُكْم أهوائِهِ وشهواتِهِ أي أن تجعلَ نفسَك جسرًا يمشي عليه إليها وذلكَ ما تأباهُ عليكَ عزّةُ نفسِكَ وأَنَفَتُهَا.

قال: يُخَيّلُ إليَّ أنّي إنْ قمتُ بواجبي لأمّتي ووطني، وأدّيتُ للإنسانيّةِ العامةِ خدمةً عظمى يرنّ صداها في جميعِ الآفاقِ لا أعدمُ أنْ أجِدَ بينَ الأشرافِ المحسنينَ من يتولّاني بحمايتِهِ ورعايتِهِ ويأخذُ بيدي إلى المنزلةِ التي أستحقُّها.

قلت: استمعْ منّي كلمةً أقولُهَا لكَ يا بنيّ: لقد كانَ اليونانُ والرومانُ والمصريّونَ حتّى في أدوارِ سقوطِهِم وانحطاطِهِم يبجّلونَ الفضيلةَ ويعظّمونَ شأنها ويقدّسونَ المواهبَ والمزايا أعظمَ تقديسٍ، ويعرفونَ لأصحَابِها أقدارَهُم ومنازِلَهُم، ويبسطونَ عليها جناحَ مودّتِهِمْ ورحمتِهِمْ، ولعلّكَ قرأتَ من ذلكَ شيئًا في كُتُبِ التاريخ. أمّا اليومَ فقد انقضى ذلكَ كلُّهُ، وأصبحَ الشرفُ محصورًا بين الجاهِ والمالِ، فلا يظفرُ به إلّا ذو مَنْصِبٍ عالٍ أو مالٍ كثيرٍ، وقد يعطفُ بعضُ أولئكَ الذين يسمّونَهُم النبلاء على بعضِ أصحابِ المواهبِ والمزايا كالشعراءِ والكتّابِ والموسيقيينَ والمصوّرينَ، لا لأنّهم يحترمونَهُمْ ويُجِلّونَهُمْ أو يمجّدونَ ذكاءَهُم ونبوغَهم، بل ليزيّنوا بهم مجالِسَهُم كما يزيّنوها بالتحفِ والذخائرِ، وليمتّعوا أنفُسَهُم بمنظرِ ذلّتهم وخضوعِهِمْ بين أيديهم كما يمتّعونها بمنظرِ مُضْحِكِيهِم وَمُجّانِهِمْ، وما أحسبُ أنّكَ ترضى لنفسِكَ بهذهِ المنزلةِ أو أن يكونَ منتهى آمالِكَ في حياتك أن تُصْبِحَ خليعًا ماجنًا.

قال: إنْ فاتني أنْ أعيشَ في كنفِ رجلٍ شريفٍ فَلَنْ يفوتَني أنْ أعيشَ في كنفِ حزبٍ من الأحزابِ أو جماعةٍ من جماعاتٍ أخدمُها وأُخْلِصُ لها فأنالُ الحظوةَ عندها.

قلت: إنّكَ تستطيعُ أن تفعلَ ذلكَ، ولكنْ على أن تضربَ بينَك وبينَ ضميرِكَ سدًّا إلى الأبد، فالهيئاتُ كالأفرادِ لا يعنَيها إلا مصلَحَتُها وفائِدَتُها، وكثيرًا ما تكونُ مصلَحَتُها في جانبٍ والحقُّ في جانبٍ آخر، بل ذلكَ هو الأعمُّ الأغلبُ في أمرِهَا. فإمّا جَارَيْتَهَا فهلكتَ أو نَابَذْتَهَا فاستُهْدِفَت لغضبِهَا ومُقْتِهَا.

قال: الموتُ أهونُ عليَّ مِنْ أن أخطوَ خطوةً واحدةً لا يَرْضَى بها ضميري.

قلت: إذن وَدِّعْ جميعَ آمالِكَ وأمانيّكَ وَدَاعًا دائمًا لا لقاءَ بينكما من بعده.

قال: واشقاءَاه! لقد أُخِذَتْ عليَّ جميعُ السبلِ! وَسُدّتْ جميعُ المسالك، ويُخَيّلُ إليّ أنّني سأقضي بقيّة أيّام حياتي في ظلمةٍ داجيةٍ لا ينفذُ إليها شعاعٌ من أشعّةِ الرحمةِ ولا يلمعُ فيها بارقٌ من بوارقِ الإحسانِ، وأنْ قد حِيلَ بيني وبينَ فرجيني إلى الأبد.

قلتُ: إنّكَ واهمٌ يا بنيّ فما أنتَ بشقيٍّ كما تظنّ، وما الشقاءُ إلّا تلكَ العظمةُ التي تتطلّبُها وتسعى إليها، إنّكَ تعيشُ من حريّتِكَ واستقلالِكَ، وهدوئكَ وسكونِكَ، وطهارَةِ ضميرِكَ وصفاءِ سريرتِكَ في سعادةٍ لا يتمتّعُ بها متمتّعٌ على ظهرِ الأرض، فما حاجَتُكَ إلى تلك العظمةِ التي لا سبيلَ لكَ إلى بلوغها إلّا إذا مشيتَ إليها على جسْرٍ من الكذبِ والرياءِ، والملقِ والدهانِ[1]، والموارِبةِ والمداجاةِ، والظلمِ والإثم؟ ونصبتَ نفسَكَ ليلكَ ونهارَكَ لمحاربةِ الدسائسِ والدَّنايا بالدَّنَايا، والأكاذيبَ بالاكاذيبِ، وملأتَ فراغَ قلبكَ حِقدًا وموجدةً على الذينَ يسيئُون إليكَ، أو يجترِئُونَ عليكَ، وكنتَ في آنٍ واحدٍ أذلَّ الناسِ لمنْ هُمْ فوقَكَ وأقساهُمْ على من هُمْ دونَكَ.

ثمّ لا تحصلُ بعد ذلكَ كلّه على طائلٍ سوى أن تُطْعَمَ لقمةً يُطْعَمُهَا جميعُ الناسِ، وتستُرَ

---

(١) الدهان: الخداع.

سوأةً لا يوجدُ في الناسِ من لا يسترُها، وما أحسبُ فرجيني ترضَى لكَ ولا لنفسِهَا أنْ تكونَ وسيلتُكَ إليها هذه الوسيلةَ الدنيئةَ الحقيرةَ وهي الفتاةُ الشريفةُ الفاضِلَةُ التي لها طهارَةُ المَلَكِ في سمائِهِ وصفاءُ الكَوكبِ في أفقِهِ. واعلمْ يا بنيّ أنّ الفقيرَ يعيشُ من دنياهُ في أرضٍ شائكةٍ قد ألِفَهَا واعتادَهَا، فهو لا يتألّمُ لوخزاتِها ولذعاتِهَا، ولكنّه إذا وجدَ يومًا من الأيام بينَ هذه الأشواكِ وردةً ناضرةً طارَ بها فرحًا وسرورًا، وأنّ الغنيّ يعيشُ منها في روضةٍ مملوءةٍ بالورودِ والأزهارِ قد سئِمَهَا وبرمَ[1] بها، فهو لا يشعرُ بجمالِهَا، ولا يتلذّذُ بطيبِ رائحتِهَا، ولكنّه إذا عثرَ في طريقِهِ بشوكةٍ تألّمَ لها ألمًا شديدًا لا يشعرُ بمثلِهِ سواهُ، وخيرٌ للمرءِ أن يعيشَ فقيرًا مؤمّلًا كلَّ شيءٍ، من أن يعيشَ غنيًّا خائفًا من كلّ شيءٍ.

قال: إنّما أريدُ المجدَ الأدبيَّ لا المجدَ الماليّ.

قلت: نعمْ، إنّ المجدَ الأدبيّ مجدٌ عظيمٌ وشريفٌ ولكنّه لا يصلُ بكَ إلى الغايةِ التي تريدُها. إنّ الأدباءَ والحكماءَ والمصلحينَ والمفكّرينَ همْ عظماءُ هذا العالمِ وساداتُه، وهم الكواكبُ النيّرةُ التي تطلعُ في سمائِهِ الداجيةِ المدلهمّةِ فتنيرُ أرجاءَها وتبدّدُ ظلماتِهَا، وهم الأشعّةُ الباهرةُ التي تنفذُ إلى أعماقِ القلوبِ المظلمةِ القاتمةِ فتذيبُ جهالاتِهَا وضلالاتها وتطيرُ بأوهامِهَا وأحلامها، وهم المنائرُ العاليةُ التي يهتدي بها الحائرُ، ويستنيرُ بها الضالُّ، ويعرفُ بها المدلجُ[2] الساري أيَّ شِعْبٍ من الشعابِ يسلُكُ وأيّةَ غايةٍ من الغاياتِ يريد؟

وهمُ الأطبّاءُ الماهرونَ الذينَ يتولّونَ القلوبَ الكسيرةَ اليائسةَ فيعالجونَ همومَهَا وآلامَهَا ويملأونَ فَضَاءَها رجاءً وأملًا، إلّا أنّ سبيلَهُم إلى ذلك من أوعَرِ السبلِ وأخشَنِها لأنّهم أنصارُ الخيرِ، وللشرّ أنصارٌ أشدُّ منهم قوّةً وأكثرُ عِدّةً وعَدَدًا، وهمْ دائمًا هَدَفٌ لغضبِ الملوكِ لأنّهم يثيرونَ ثائرةَ الشعوبِ عليهم وغضبَ النبلاءِ لأنّهم يحتقرونَ نُبْلَهُمْ ويزدرُون مجدَهُم وعظَمَتَهم، وغضَبَ الكهنةِ لأنّهم ينعونَ عليهم رياءَهم وكذبَهم، وغضبَ العامّة لأنّهم يطاردون أهواءَهُمْ وشهواتِهِم، أيْ أنّ العالمَ كلّه حربٌ عليهم من أدناهُ إلى أقصاهُ، وقلّما تنتهي حياتُهم إلّا بما انتهتْ به حياةُ سقراطَ الحكيمِ وهومير الشاعرِ وأفلاطون الفيلسوفِ وفيثاغورس الرحيمِ من قتلٍ أو صلبٍ أو إلقاءٍ في السجنِ أو تشريدٍ في الأرض.

ولا ذنب لهم إلّا أنْ أحبّوا البشرَ وعَطَفوا عليه، وتألّموا لألمه، وبكَوْا لبكائِهِ، فنقمَ البشرُ منهم هذه العاطفةَ الطيّبةَ الكريمة، وانتقَمَ لنفسه منهم بازهاقِ أرواحِهِم أو تعذيبِ أجسامِهِم أو تقطيعِ أوصالِهِم، ولم يقنعْ في أمرهم بذلكَ حتّى شَوَّهَ وَجْهَ تاريخهم وَسَوَّدَ صفحاتِه بما شاءَ من الوصماتِ والعيوبِ، ولم تستطعْ شمسُ الحقيقةِ أن تبدّدَ تلكَ الظلماتِ المحيطةَ بهم وبتاريخِ حياتِهم إلّا بعد عدّةِ قرونٍ وأجيال.

قال: لولا فرجيني ما أسفتُ على شيءٍ في الحياةِ، ولا بكيتُ على فائتٍ منها.

---

(١) برم بالأمر: ضاق به.
(٢) المدلج: السائر ليلًا.

قلت: إنّ فرجيني باقيةٌ على عهدِهَا لم تتغيرْ فاحذرْ أنْ تخسَرَها من حيثُ تريدُ أن تكسَبَها، وٱعْلمْ أنّها ما قطعَتْ رسائِلَها عنكَ، إلّا لأنّها عازمةٌ على الرجوعِ في عهدٍ قريبٍ، فانتظرْ رجوعَهَا بعدَ قليلٍ من الأيّام، وأَعِدَّ نفسَكَ لحياةٍ مستقبلةٍ سعيدةٍ يستغفرُ لكَ الدهرُ فيها عن جميعِ سيّئاته إليكَ. فأضاءَتْ حولَ ثغرِهِ ابتسامةٌ لم تُضِئْهُ من عهدٍ بعيدٍ وقال: أأنتَ على ثقةٍ ممّا تقول؟ قلت: نعم. فكأنّما قد نزلَ عليه بهذهِ الكلمةِ وحيُ السماءِ، فَمَا أصبحَ الصباحُ حتّى رأيتُهُ مشمّرًا عن ساعديه، يجولُ في أكنافِ «حديقة فرجيني» يشذّبُ أشجارَهَا ويشقّ أنهارَها ويحوّلُ مياهَها ويسقي ما ذَبُلَ من أغراسِهَا، وقد لبسَ بُرْدًا قشيبًا من الجِدِّ والنشاطِ لا عهدَ له بمثلِهِ منذُ أعوامٍ ثلاثة.

❀ ❀ ❀

٢٢ ـ السفينة

وفي عصرِ يومِ ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى بول العلمَ الأبيضَ يخفقُ على قمّةِ جبلِ الاستكشافِ، فعلمَ أنّ سفينةً قادمةً إلى الجزيرةِ، فطمعَ أن تكونَ السفينةَ التي تحملُ فرجيني، فانحدرَ إلى شاطىءِ البحرِ فِيمَن انحدرَ إليه من سكّانِ الجزيرة ليتعرّفَ شأنها، فعرفَ أنّ دليلَ المرفأ قد ركبَ زورقَه إليها منذ ساعاتٍ وأنّه لم يَعُدْ حتّى الساعة. فجلسَ في انتظارِه حتّى عادَ وحدَه، فأخبرَ أنّ السفينةَ اسمها «سان جيران» وربّانها اسمه المسيو «أوبن» وأنّ الريحَ لا تساعِدُها على دخولِ المرفأ الليلةَ، ولا يمكنها الوصولُ إليه إلّا الغدَ، وكانَ يحمل في يدِه عدّةَ رَسَائلَ لبعضِ سكانِ الجزيرة، بعضُها آتٍ من فرنسا وبعضُها مرسلٌ من ركّابِ السفينةِ أنفسِهِم.

فسمعَ بول فيما سمعَ من الأسماءِ اسم مدام دي لاتور «هيلين» فاختطفَ الرسالةَ من يدِ الرجلِ اختطافًا، وقرأ عنوانها فإذا هو بخطّ فرجيني، فطارَ بها فرحًا وسرورًا، وأخذَ يعدو إلى المزرعةِ عدو الظليم[1]، فرأى على البعدِ أفرادَ الأسرةِ واقفينَ على رأسِ هضبةٍ عاليةٍ ينتظرونَه، فرفعَ يدَه بالرسالةِ وصارَ يلوّحُ بها في الجوّ كأنّما يحملُ رايةً بيضاءَ حتّى بلغَ مكانَهم، فقدَّمَ الرسالةَ إلى هيلين فَفَضّتْ غلافَها وأَمَرّتْ عليها نظرَهَا، فعلمتْ أنّ ابنتَها قادمةٌ على هذهِ السفينةِ نفسها، وأنّ السببَ في عودَتها من فرنسا أنّ عمّتَها حاولتْ كثيرًا أن تغيّرَ من طباعِهَا وأخلاقها، وتذهبَ بها في حياتِهَا مذهبًا غيرَ مذهبها الأوّلِ فعجزتْ عن ذلك، وأنّها عرضَتْ عيها أن تزوّجها من عظيمٍ من عظماءِ البلاطِ فرفضتْ، فنقمَتْ عليها نقمةً عظمى، وأصبحتْ تحتقرُهَا وتزدريها وتنظرُ إليها بالعينِ التي تنظرُ بها إلى فتاةٍ مخبولةِ العقلِ فاسدةِ الذهنِ أسيرةِ الأوهامِ والأحلام.

ثمّ ما لبثَتْ أن حَرَمَتْهَا من ميراثِها وسلَبَتْهَا كلّ ما كانتْ تُسْبِغُه عليها من النعمِ، ولم يبقَ إلّا

---

(١) الظليم: ذكر النعام.

أنْ تطردَهَا من منزلها طردًا، فلم تجدْ بدًّا من الرجوعِ، فركبتْ أوّلَ سفينةٍ عَلِمَتْ أنّها ذاهبةٌ إلى إفريقيا، ثمّ ختمتْ رسالتها بقولها: إنّني أكتبُ لكِ هذه الرسالةَ وأنا على ظهرِ السفينةِ «سان جيران» وبيننا وبين الشاطئ أربعةُ فراسخَ، ولا نستطيعُ الدخولَ إلى المرفأ إلّا في الغدِ كما أخبرَنَا بذلك الدليلُ، وفي الغدِ نلتقي إن شاءَ الله تعالى.

وما انتهوا من قراءةِ الرسالةِ حتّى استطيروا فرحًا وسرورًا وأخذَ الزنجيّانِ يرقصانِ ويقفزانِ ويهتفانِ بصوتٍ عالٍ «قد عادتْ فرجيني! قد عادتْ فرجيني» وكان أوّلُ ما مرَّ بخاطرِ بول في هذه الساعةِ أن يذهبَ إلى كوخي ويبشّرني برجوعِ فرجيني ويشكُرَ لي نبوءَتي التي تنبّأْتُ له بها في أمرِهَا، وكانتْ قد مضَتْ هدأةٌ من الليلِ، فاستأذنَ أمّه في ذلكَ فأذنته، فَمَشى ومَشَى أمامَه دومينج يحملُ مشعلًا كبيرًا حتّى وصلَ إليّ بعدَ ساعتينِ، وكنتُ قد أويتُ إلى مضجعي فأيقظَني من نومي وألقَى إليّ ببشراهُ، فلم يكنْ سروري بها بأقلَّ من سرورِه، وقال: هيّا بنا نذهبُ إلى الشاطئ لننتظرَ فرجيني فإنّ السفينةَ تَصِلُ في الصباحِ.

فقمتُ إلى ثيابي فأسبَلْتُها عليَّ وذهبتُ معه، وكانتِ الليلةُ حالكةً مدلهمّةً قد احتجبتْ كواكبُهَا وراءَ الغمامِ الكثيفةِ الآخذِ بعضُها بأعناقِ بعضٍ كأنّها القافِلَةُ السائرةُ في الصحراء. فمشينا لا نهتدي بشيءٍ سوى غريزَتِنا التي تقودُ خطواتِنَا دائمًا في مفاوزِ الأرضِ ومجاهِلِها، وكنّا نسمعُ من حينٍ إلى حينٍ فرقعةً هائلةً آتيةً من ناحيةِ البحرِ تشبه دَمْدَمَةَ الرعدِ وليستْ بها فلا نفهَمُ منها شيئًا.

فإنّا لسائرونَ، إذْ لَمَحْنَا زنجيًا ضَخْمَ الجثّةِ يمرّ بجانبنا، فاستوقَفْتُهُ وسألته من أينَ أقبل؟ فقال: إنّي مرسَلٌ من شاطئ جزيرةِ الذهبِ إلى الحاكمِ لأبلّغه أنّ سفينةً قد ألقى بها التيارُ إلى ما وراءِ جزيرةِ العنبرِ تطلقُ مدافِعَها من حينٍ إلى حينٍ، أي أنّها في خطرٍ، وأنّها في حاجةٍ إلى المعونة. سألتُهُ: هل يعرفُ اسمها؟ فأجاب أن لا، وانطلقَ لسبيلِه، فالتفَتَ إليَّ بول وقلت له: أخافُ أن تكونَ سفينةَ «سان جيران» وخيرٌ لنا أن ننحدرَ إلى الشاطئ.

وكانتِ الطلقاتُ قد انقطعتْ على الحقيقةِ، فمشى معي صامتًا لا يقولُ شيئًا حتّى أشرفْنَا بعدَ قَطْعِ ثلاثِ مراحلَ على ذلكَ الشاطئ، وكانتِ الطلقات قد انقطعتْ، فراعني سكوتُها أكثرَ ممّا راعني دَوِيُّها، ثمّ ظهرَ القمرُ في كبدِ السماءِ محاطًا بثلاثِ دوائرَ سوداءَ كأنّه متمنطقٌ بنطاقِ الحدادِ فرأينا على نورِه الضعيفِ الباهتِ منظرَ البحرِ، وهو ثائرٌ مهتاجٌ تموجُ ظلماتُه بعضُها في بعض، وترتَطِمُ أمواجُه بصخورِ الشاطئ أو هضابه، فينبعِثُ لها صوتٌ أجشُّ كأنّه أنينُ الثكلى أو حشرجَةُ المحتضر، وقد يتطايرُ منها أحيانًا شَرَرٌ لامِعٌ كذلكَ الشررِ الذي يتطايرُ من أجنحَةِ الحُبَاحِب[1]، ورأينا الصيادينَ مكبّين على زوارِقِهم ينقلونَها من الماءِ إلى اليبسِ ويطرحُونها فوقَ الرمالِ خوفًا عليها من الهلاكِ، ولمحنا على مقربةٍ منّا جماعةً من الناسِ مجتمعينَ حولَ

---

(١) الحباحب: حشرة ليليّة مضيئة.

نارٍ عظيمةٍ يستدفئونَ بها فقصَدْنَا إليهم، وجلسْنَا على مقربةٍ منهم، وسمِعْنَاهم يتحدّثون أنّ السفينةَ قد حادَ بها التيارُ عن طريقِهَا، ودفَعَها إلى شاطىءِ جزيرةِ العنبرِ حيثُ الخطرُ عظيمٌ لا حيلةَ فيه، وإنّها إنْ لم تبادر بدخولِ المضيقِ الذي بين جزيرةِ العنبر وجزيرة «سان لوي» فمصيرُها الهلاكُ ما من ذلك بدٌّ، وكانَ بول يسمعُ هذا كلّه، وهو صامتٌ مطرقُ الرأسِ كأنّه لا يفهمُ منه شيئًا.

ولم يزلْ هذا شأنَنَا حتى بدأتْ حاشيةُ الظلام ترقّ عن بياضِ الفجرِ فتلمعُ بعضُ أشعّته من خلالِهَا كما يلمَعُ الماءُ من خلالِ الطحلَب[1]، فحاوَلْنَا أن نرى سَطْحَ البحرِ فلمْ نستطعْ، لأنّ الضبابَ كانَ كثيفًا جدًّا، وكأنّما قد بنى دونَ السماءِ سماءً أخرى لا يرى الرائي من خلالها غيرَ بعضِ القممِ العاليةِ تطفو وترسُبُ كما يطفو الغريقُ ويرسُبُ في عبابِ الماءِ، ثمّ استطَعْنا بعد حينٍ أن نرى على سطحِ البحرِ شيئًا أشبَهَ بغمامَةٍ كثيفةٍ، فتأمّلْنَاه، فإذا هو جزيرةُ العنبر التي زعموا أنّ السفينةَ محتبسةٌ بشاطِئِها، إلّا أنّنا لم نرَ السفينةَ بحالٍ من الأحوال.

وهنا حضرَ المسيو لا بوردنيه حاكِمُ الجزيرةِ راكبًا جوادَه ووراءَهُ فصيلةٌ من الجندِ تحملُ بنادِقَها على عواتِقِها، فأمرَهَا أنْ تَصْطفّ صفًّا واحدًا، ففعلتْ، فأمرَها أنْ تطلقَ بنادِقَها فأطلقَتْهَا، فلم نلبثْ أنْ رأينا نورًا لَمعَ على سطحِ البحرِ وأعقبَهُ دويُّ مدفعٍ، فعلمنا أنّ السفينةَ غيرُ بعيدةٍ عنّا، فتقدّمْنا جميعًا نحوَ الشاطىء لنتحقّقَ من رؤيَتِها، فاستطعْنَا بَعْدَ لأيٍ[2] أن نرى شَبحَهَا الغارقَ في عُبابِ الضبابِ وأنْ نرى سواريها الذاهبةَ في كبدِ السماءِ وأن نسمعَ رغمَ جرجرة الآذي[3] زَمْجَرَةَ صوتِ ربّانها وهو يصرخُ صرخاتِه العظمى التي يستنهضُ بها هِمَمَ رِجالِه. فأمرَ الحاكمُ بإعدادِ زورقٍ لنجدَتِها وإشعالِ النارِ على طولِ الشاطىء لترى على ضوئِها الزورقَ المعدّ لإنقاذِها، فما رأتِ النارَ حتّى أخذتْ تطلقُ مدافِعَها تباعًا، واستمرّ التخاطبُ بهذه اللغةِ الناريّة بينها وبينَ الشاطىء ساعةً طويلة.

وإنا لكذلكَ إذْ دَلَفَ[4] إلى الحاكم شيخٌ زنجيٌّ هَرِمٌ يدبّ على عصاه وقال له: إنّنا نسمعُ يا سيّدي منذُ الليلةِ زمجرةً هائلةً تنحدرُ إلينا من قمّةِ الجبلِ، ونرى أوراقَ الأشجارِ تهتزُّ وتضطربُ دونَ أن تهبَّ علينا ريحٌ، ونرى طيورَ البحرِ هاربةً إلى البرّ أسرابًا دون أن يزعجَها مزعجٌ أو يطارِدَهَا مطاردٌ، فهي العاصفةُ ما في ذلكَ ريبٌ ولا شكّ، أنقذوا السفينةَ قبلَ هبوبها، فإنْ لم تفعلوا فانفضوا أيديكم منها إلى الأبد.

فاصفرّ وَجْهُ الحاكمِ وشعرَ برعدةٍ شديدةٍ في جسمه. إلّا أنّه تجلّد واستمسك، وصاح: سأنقذُهَا ولو كان في ذلك حياتي.

---

(١) الطحلب: خضرة تعلو الماء المزمن. (٢) اللأي: الجهد والمشقّة.

(٣) الجرجرة: - في الأصل - ترديد البعير صوته في حنجرته. والآذي: الموج.

(٤) دلف: مشى ببطء.

ولقد صَدَقَ الزنجيّ فيما قال، فقد لبسَ الجوّ حلّةً غريبةً لا عَهْدَ لَهُ بمثلِهَا من قبلُ وكأنّما انبعثَ في جميعِ أوصالِه رعشةٌ شديدةٌ كتلكَ الرعشةِ التي تنبعثُ في جسمِ المحموم، وأقبلتْ طيورُ البحرِ من كلِّ صوبٍ هاربةً إلى البرّ كأنّ مطارِدًا يطارِدُها ويشتدّ على أثرها، وتراءتْ قِطَعُ السحابِ سوداءَ قاتمةً تلمعُ في خلالِها نقطٌ ناريّةٌ حمراءُ كما يلمَعُ بصيصُ النارِ من خلالِ الرمادِ، وامتلأ الجوُّ بفحيحِ الأفاعي وطنينِ البعوضِ وزمجرةِ الوحوش.

❀ ❀ ❀

٢٣ ـ العاصفة

في نحو الساعةِ السابعةِ سمِعْنَا قعقةً عُظْمَى قد انبعثتْ من جميعِ جهاتِ البحرِ في آنٍ واحدٍ، فاهتزّتِ الأرضُ والسماءُ ودارتِ الأرضُ والفضاءُ، وانقلبَ عالي كلّ شيءٍ سافِلَهُ وصاحَ الجميع: «العاصفة».

هنا رأينا منظرًا هائلًا مخيفًا جمدَتْ له دماؤنا في عروقِنا، ومشتْ له قلوبنا في صدورِنا، وما أحسبُ إلّا أنّه ستمرُّ بنا الأيّامُ والليالي ولا نستطيعُ أن نَنْسَاهُ حتّى تبردَ أعظُمنا في ثراها.

رأينا الضبابَ الذي كانَ يحولُ بيننا وبينَ رؤيةِ السفينةِ قد انحسرَ دفعةً واحدةً، فإذا السفينةُ ذرةٌ هائمةٌ في ذلكَ الفضاءِ الواسع تقبلُ بها الريحُ وتدبرُ، وتعلو بها الأمواجُ وتَسْفُلُ، إن حاولتِ الدنوّ من الشاطئِ وقفتْ في وجهِهَا الصخورُ الناتئةُ المحدّدةُ الأطرافِ كأنّها رماحٌ مصوّبةٌ إلى صدرِهَا، أو أرادتِ النكوصَ على عقبَها والانسيابَ في طريقٍ أخرى غيرِ هذه الطريقِ عجزتْ عن مقاومَةِ التيارِ لأنّها أصبحتْ مجرّدةً من جميعِ قواها وأسلحَتِهَا، فقلوعُهَا ممزّقةٌ، وألواحُهَا متناثرةٌ وحِبَالها متطايرةٌ، وسوارِيها[1] منكّسةٌ، وأعلامُها ساقطةٌ، ورجالها متهافِتُونَ على سطحِهَا لما نَالَهم من الأينِ[2] والإعياءِ، وقد بدأ مؤخرُها يهبطُ، ومقدّمها يرتفعُ، أي أنّ الهلاكَ قاب قوسينِ[3] منها أو أدنى.

وكانتِ العاصفةُ في تلك اللحظةِ، قد بلغتْ أشدَّها فرأينا الموجَ يرتفعُ ارتفاعَ الجبالِ حتّى يصكّ بمنكبه منكبَ السماء.

ثمّ يندفع إلى الشاطئِ هويَّ العقابِ إلى وكرِه فينسفُ رمالَه وحصَاهُ، ويطيرُ بشظيّاته في جوّ السماء، ثمّ لا يلبثُ أن يتراجعَ مجرجرًا في تراجُعِه جرجرته في تدافعه كالسهمِ الأليم في حالتي وقعِهِ ونزعِهِ، ويتركُ وراءَه بقعةً واسعةً من الرملِ كصفحةِ المرآةِ في لَمَعانِهَا واستوائِهَا.

(١) السواري: الأعمدة المنصوبة في وسط السفينة تعلّق عليها الأشرعة.
(٢) الأين: التعب والمشقّة.
(٣) قاب قوسين: كناية عن القرب، والقاب هو المقدار.

ورأينا المضيقَ الواقعَ بين شاطئِ الجزيرتين يُرْغِي ويُزبِدُ كأنّما يشتعل من أتونٍ[١] متّقدٍ، ويرمي بالزبَدِ من حفافيه[٢] كما يتناثر العهن[٣] المنفوشُ عن المندفِ. أمّا السماءُ فقد أصبحتْ ميدانًا تتسابقُ فيه قطعُ الغيومُ الطائرةِ إلى غاياتِهَا، فلا تفرغُ حلبةٌ حتّى تنشأ حلبةٌ أخرى، فأصبحَ البرّ والبحرُ، والسماءُ والأرضُ، والماءُ واليَبَسُ، والسهلُ والجبلُ، قيامةً كبرى يموجُ فيها كلُّ شيءٍ ويضطربُ كلّ شيءٍ، فلم نعدْ نعلمُ أنحنُ وقوفٌ في أماكننا أم طائرونُ في جوّ السماء؟ وهل طغى الماءُ على اليبسِ فأحالَهُ ماءً أم لا يزال الماءُ ماءً واليبسُ يبسًا؟.

❀ ❀ ❀

٢٤ ـ الكارثة

وبينما نحنُ ذاهلونَ على أنفُسِنَا وعن كلّ ما يدورُ حولَنا، إذ طرقَ آذانَنَا صوتٌ عظيمٌ فاستفَقْنَا، فإذا السفينةُ قد اصطدَمَتْ بإحدى الصخورِ العظيمةِ، وإذا آخرُ جريرٍ[٤] من أجِرَّتِهَا قد انقطعَ، فانبعثَتْ في تلكَ اللحظةِ صيحةُ ألمٍ من جميعِ القلوبِ؛ وإذا بول يهجمُ على البحرِ ليلقيَ بنفسِه فيه فاعترضْتُ طريقَه أنا ودومينج وحاوَلْنَا أنْ نمنَعَه فلمْ نستطعْ وظلّ يصيح: دعوني أنجّي فرجيني. فلمْ يكُنْ لنا بدٌّ من أنْ نتركَه وشأنَه، غيرَ أنّنا عقدْنَا في وسطِهِ حبلًا طويلًا وأبقَينَا طرفَه في أيدينا خوفًا عليه من الهلاك.

فاقتحمَ الماءَ وكانَ منظرُه في تلكَ اللحظةِ منظرًا مخيفًا مرعبًا كأنّما هو منتفضٌ من كَفَنٍ، وكأنّما صورَتُه قد استحالتْ إلى صورةِ وحشٍ ضارٍ لا يقومُ له شيءٌ إلا أتَى عليه، فظلّ يعومُ مرّة ويتسلّقُ الصخورَ أخرى، ويعاني في سبيلِ ذلكَ ما لا يستطيعُ أن يحتمِلَه بشرٌ، حتّى دنا من السفينةِ أو أوشَكَ أن يدنُوَ، فلطَمَهُ تيّارٌ قويّ لطمةً شديدةً أعادَتْه إلى الشاطئِ كما كان مجروحَ الساقِ، مهشّمَ الأعضاءِ، فلم يضعفْ ولم يَهُنْ، ولم يبقَ إلا بمقدارِ ما تنفَّسَ الراحةَ ثمّ عادَ إلى شأنِه الأوّل.

وكانَ الموجُ يهدأُ حينًا عن السفينةِ، فيخيّلُ إلينا أنّها واقفةٌ على اليبسِ فنرى أشرِعَتَها الممزّقة وألواحَهَا المتناثرةَ ورجالَهَا المتهافتينَ على سطحِهَا من الإعياءِ والتعبِ وربّانَها الواقفَ في مقدّمتها وقفةَ الليثِ الهصورِ[٥] يصرخُ صرخاتِه العظمى التي تدوّي بها أجوازُ الفضاءِ، ثمّ يغطّي عليها حينًا فيضربُ فوقَها قبّة جوفاءَ تغمُرها كما يغمرُ القبرُ دفينه.

وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى بدأ سطحُ السفينَةِ يتشقّقُ وبدأ الماءُ يتسرّبُ إلى أحشائِها؛ وعلمَ

---

(١) الأتون: موقد نار الحمام.
(٢) تثنية حفاف: وهو الجانب.
(٣) العهن: الصوف المصبوغ.
(٤) الجرير: الحبل.
(٥) الهصور: من صفات الشجاعة في الأسد.

ركّابُها أنّهم هالكونَ إنْ بقوا فيها فأخذوا يلقونَ ما على سطحِهَا من ألواحٍ ومجاذيفَ وصناديقَ وأقفاصٍ، ثمّ يلقونَ بأنفسِهِم وراءَها.

وهنا ظَهَرَ منظرٌ هائلٌ عظيمٌ هلعتْ له القلوبُ وزاغتْ له الأبصارُ وفاضتْ له الشؤونُ[١] من آماقِها لهفةً وجزعًا.

ظهرَ في مؤخّرِ السفينةِ منظرُ فتاةٍ رائعةِ الجمالِ، غضّةِ الشبابِ، نبيلةِ المنظر واقفةٍ على قدميها العاريتين، وقد ضمّتْ بإحدى يَدَيْهَا قميصَها إلى صدرِهَا ومدّت يدَها الأخرى إلى ذلك البائسِ المسكينِ الذي يخاطرُ بحياتِهِ ويكابدُ أعظمَ الشدائدِ والأهوالِ في سبيلِ الوصولِ إليها، فلَمْ نعلَمْ أهيَ تستغيثُ به لينقِذَها أم تشيرُ إليه أن يعودَ إلى مكانه رحمةً به وإشفاقًا عليه؟ فكانَ منظرُها في تلكَ الساعةِ منظرَ صورةٍ بديعةٍ مرسومةٍ في صفحةِ السماء.

من هي هذه الفتاةُ؟ إنّها فرجيني! إنّها الفتاةُ الطاهرةُ الشريفةُ التي تجثو الفضيلةُ خاشعةً بين يديها. إنّها الفتاةُ الكريمةُ المحبوبةُ التي نبتَتْ من كلّ قلبٍ، فهي حبيبةٌ إلى كلّ قلبٍ. إنّها الرحمةُ الإلهيّةُ التي طالما أحسنَتْ إلى البائسينَ، وفرّجَتْ كربةَ المكروبين[٢] وبكتْ رحمةً بالمنكوبينَ والمرزوئين[٣]. إنّها النورُ السماويُّ الذي طالما أشرقَ في القلوبِ اليائسةِ الحزينةِ فأنارَ حلكَتَهَا وبدّدَ ظلمَتَهَا، وملأها رجاءً وأملًا، لذلكَ لم تبقَ عينٌ من العيونِ إلّا فاضتْ مدامِعُهَا، ولا نَفْسٌ من النفوسِ إلّا سالتْ من بين أضالِعِهَا، ولا يدٌ من الأيادي إلّا أرتفعتْ إلى السماءِ ضارعةً إلى الله تعالى أن ينقذَهَا من بلائها.

علمَ الملاحونَ أنّ السفينةَ قد بدأتْ تهوي إلى مستقرّها وأنّ ظلمةَ الموتِ قد أخذَتْ تخيّمُ فوقها، فنفضوا أيديهم منها نَفْضَ المودّعِ يدَهُ من ترابِ الميتِ، وأخذوا يقذفُون بأنفسِهِم إلى الماءِ لا يعلمونَ أينَ ذاهبونَ إلى الحياةِ أم إلى الموت؟ وسفينةُ النجاةِ واقفةٌ في مكانِها من الشاطىءِ لا تستطيعُ أن تتقدّمَ خطوةً واحدةً خوفًا على نفسِها من الهلاك.

وأخذتْ همّة بول تضعفُ وتفترُ لأنّه كان قد استنفَدَ جميعَ قواه فلم يبقَ له منها ما يمسكُ به رَمَقَه.

وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى خلا سَطْحُ السفينةِ من كلِّ شيءٍ إلّا من فرجيني واقفةً في مؤخّرتها تنتظرُ قضاءَ اللهِ فيها، ورجلٍ بحّارٍ واقفًا في مقدّمتها قد خلعَ ملابسه ثمّ لمحَ فرجيني واقفةً موقفَها هذا، فأبى له كرمُه ووفاؤه إلّا أن يمدّ لها يدَ المعونة لينقذَهَا، فمشَى إليها، وجَثَا بينَ يديها وطلبَ منها أن تَخْلَعَ ثوبها ليحمِلَهَا على ظهرِه ويسبَح بها.

أتدري ماذا كانَ بعدَ ذلك؟

كانَ أنْ غلبَ الحياءُ على الفتاةِ حينما رأتْ رجلًا عاريًا بين يديها يريدُ أن يضمّها عاريةً إلى جسمِه فأشاحتْ بوجهِها عنه، وأشارتْ برأسها أن لا، فصاحَ الناسُ من كلّ جانب: أنقذها!

---

(١) الشؤون: عروق الدموع.
(٢) المكروب: المحزون.
(٣) المرزوء: المنكوب، المصاب.

أنقذها! فوثبَ الرجلُ قائمًا على قدميه ومدّ يده إلى ثوبها ليجرّدَها منه.

وهنا وا أسفاه أقبلتْ موجةٌ عظيمةٌ كالجبَلِ الأشمّ تندفِعُ نحو السفينةِ اندفاعَ القضاءِ النازل وتزمجرُ في اندفاعِهَا زمجرةَ الليثِ الهصورِ، فذُعِرَ البحّارُ إذ رآها وطاشَ عقلُه، وما لبثَ أن قفزَ من مكانِه، وألقى بنفسِه في الماء.

أمّا فرجيني فلم تَخَفْ ولم تَطُشْ بلْ لبثَتْ في مكانِها كما هي وقد علمتْ أنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، فضمّتْ قميصَها إلى جسمِهَا بيدٍ، ووضعَتْ يدَها الأخرى على قلبِهَا، وسبَحَتْ بنظرها في الفضاءِ، فأصبحَ منظرُهَا منظرَ مَلَكٍ كريم يطيرُ بجناحَيْهِ في جوّ السماء.

وما هو إلّا أنْ أغمضَ الواقفونَ عيونَهُم جزعًا من هذا المنظرِ الهائلِ المخيفِ ثمّ فتحُوها فإذا البحرُ قد ابتلعَ كلّ شيءٍ وإذا كلُّ شيءٍ قد انقضى.

* * *

وهنا صَمَتَ الشيخُ وأسلَمَ رأسَه إلى ركبتِه وأخذَ يضطربُ اضطرابًا شديدًا كأنّما يعالجُ غصّةً تعتلجُ في صدره، ثمّ لم يلبثْ أنْ انفجرَ باكيًا ينشجُ نشيجَ[1] الأطفالِ، فهاجَني بكاؤُه فبكيتُ حتّى ذهلتُ، ولم أستَطِعِ الرجوعَ إلى نفسي إلّا بعد حينٍ، فرأيته لا يزالُ في ذهولِهِ واستغراقِه، فنبّهْتُه فانتبَه، وعادَ إلى حديثه يقول:

يا لهُ من يوم عظيم هائلٍ! يا لها من ذكرى مؤلمةٍ مريرةٍ، يا لها من حسرةٍ لا انقضاءَ لها حتّى الموت! لقَد مرّ على تلكَ الحادثَةِ عشرونَ عامًا ولا تزالُ تلكَ الفتاةُ ماثلةً أمامي كأنّني لا أزالُ أراها، إنّ فرجيني كانتْ عزيزةً عليَّ جدًّا بل كانتْ أعزَّ مخلوقٍ عندي، ولو كانَ لي ابنةٌ، لما نَزلتْ من نفسي تلكَ المنزلةَ التي نَزِلَتْهَا، وكانَ كلّ أملي في حياتي أن أعيشَ في ظلّ عطفِهَا ورحمتها، وحنانِها وشفقَتِها، حتّى تتولّى إغماضَ عيني بيدِها في ساعتي الأخيرة فلم يقدّرْ لي ما أريدُ. لقد هجرتُ العالمَ كلّه ولجأتُ إلى هذا المعتزلِ البعيدِ النائي هربًا من الشقاءِ فتبعَني الشقاءُ حيثُ ذهبتُ، وما أحسَبُه تاركي بعد ذلكَ حتّى ينزلَ معي إلى قبري.

ثمّ تنفّسَ الصعداءَ وقال: ولكنّ الذي يهوّنُ وجدي عليها أنّها الآنَ سعيدةٌ في سمائِهَا مغتبطةٌ بعيشِهَا متمتّعةٌ برحمةِ ربّها ورضوانِه، وأنّ تلكَ المرارةَ التي ذَاقَتْها ساعةَ موتها قد زالتْ من فَمِها إلى الأبد.

نعم إنّ يومَهَا كانَ يومًا هائلًا جدًّا، فلقد بَكَاها كلُّ مَنْ رآها حتّى الزنوجُ الذين ألفوا البؤسَ والشقاءَ، فلم يبقَ في عيونِهِمْ موضعٌ للبكاء وكانَ أكثرُهُمْ بكاءً عليها ذلكَ البحّارُ المسكينُ الذي حاولَ إنقاذَها فحالَ القضاءُ بينَه وبينها، فقد كانَ يُخَيَّلُ إليهِ أنّه أجْرَمَ إجرامًا عظيمًا بالفرارِ منها وتركِهَا وشأنها؛ فجلسَ على الرملِ بعد خروجِه يلطُمُ وجهَهُ وينتفُ شعره ويقولُ:

---

(١) النشيج: الصوت في الصدر.

اللهمَ أغفرْ ذنبي فقد كنتُ أرجو أن أنالَ السعادةَ بافتدَائِها بحياتي ولكنّ اللهَ أرادَ شقائي.

أما بول المسكين فقد جذبنَاهُ قبلَ ذلكَ إلى الشاطىء، فجَثَا على ركبتَيْهِ يشاهدُ ذلكَ المنظرَ المؤلمَ وهو يرتعدُ ويضطربُ اضطرابَ الغصنِ في مهابّ الرياحِ حتّى انقضى، فسقطَ مغشيًّا عليه يتدفّقُ الدمُ من فمِهِ وأذنيهِ وأنفهِ، فظلَلْنَا نعالجهُ ساعةً طويلةً حتّى استفاقَ بعد لأْيٍ[1]، ودارَ بنظره حولَه كالذاهلِ المخبولِ، ثمّ انتفضَ انتفاضةً شديدةً وعادَ إلى ذهولِهِ واستغراقِه، فأمرَ الحاكم أن يُنْقَلَ إلى خيمَتِه الخاصّةِ، وأمرَ طبيبَه بالقيامِ عليهِ والعنايةِ به وظلّ هو ملازمًا لهُ لا يفارِقُه.

فتركتُهُ حيثُ هو، وذهبتُ أنا ودومينج إلى الساحلِ لنفتّشَ عن جثّة فرجيني، وكانتِ الزوبعةُ قد هدأتْ قليلًا فقضَينَا في البحثِ عنها زمنًا طويلًا فلمْ نعثُرْ بها؛ فاشتدَّ حزنُنَا، واستولى اليأسُ على نفوسِنا، وبدأ الرعبُ يدبُّ في قلوبِ الكثيرِ منّا، فصاحَ بعضُ الناسِ وقد أدركَه مثلُ الجنون:

ألا يوجدُ لهذا الكونِ إلهٌ يدبّرهُ ويرعاه؟ ألا يوجدُ بين هؤلاءِ الناسِ من يستحقّ هذه الميتةَ التي ماتَتْهَا هذه الفتاةُ سواها؟ والنفسُ الضعيفةُ تعجزُ دائمًا عن احتمالِ صدماتِ القضاءِ فلا تجدُ بُدًّا حينَ تصدمُها من أن تروّحَ عن نفسِها بالسخطِ والغضبِ، وقد تَخْرُجُ في سخطِهَا أحيانًا عن صوابِهَا وهُدَاها، فليرحَمْهَا اللهُ، فإنّها ما أتتْ إلّا من ناحيةِ الإيمانِ باللهِ والثقةِ بعدلِهِ ورحمتِهِ.

وهنا مرّ بعضُ الناسِ وأخبرَنَا أنّ التيّارَ قد ألقى ببقايا السفينةِ على شاطىءِ الخليجِ المسمّى خليجَ «تومبو» أي خليجَ القبرِ، فذهبنا إليه نرجو أن نعثرَ بالجثّةِ هناك، فوجدنَاها غارقةً في الرملِ إلّا جزأَها الأعلى فنبشْنَا عنها فإذا هي على الصورةِ التي رأينَاهَا عليها في ساعَتِهَا الأخيرةِ وكأنّها حيّةٌ باقيةٌ لم تَمُتْ، وكأنّ ماءَ الحياةِ لا يزالُ يجولُ في وجهها لولا اصفرارٌ قليلٌ في خديها؛ وإذا هي لا تزالُ ضامّةً ثوبها إلى جسمِهَا وواضعَةً يدَهَا الأخرى على قلبِها، وكأنّ أنامِلَهَا تقبضُ على شيءٍ، ففتحْتُهَا فرأيتُهَا قابضةً على صورةِ الرسولِ بول التي كانَ بول قد أهداها إليها قبلَ سفرِهَا، فَوَعَدَتْهُ أن تحتفظَ بها إلى آخرِ رمقٍ من حياتها؛ فكأنّها تودّعُ صديقَهَا الحميمَ الوداعَ الأخيرَ في صورةِ ذلكَ القديسِ العظيم، فأكْبَرْتُ هذا الإخلاصَ العظيمَ كلّ الإكبارِ، وأيقنتُ أنّ النفسَ الطاهرةَ كالذهبِ الخالصِ لا يغَيّرُهَا شأنٌ من شؤونِ الحياةِ أو الموت.

ثمّ حملنَاها إلى كوخٍ قريبٍ لبعضِ الصيّادينَ وعهدتُ إلى بعضِ النساءِ أن يتولّيْنَ شأنَها حتّى نعودَ، وصعدتُ إلى الوادي لأبلّغَ تلك المرأتينِ المسكينتينِ ذلكَ الخبرَ الهائلَ، وما أحسبني وقفتُ في حياتي موقفًا أشدَّ من هذا الموقفِ، فدخلْتُ عليهما في الكوخِ، فرأيتُهما جاثيتينِ تصلّيانِ وتدعوان اللهَ تعالى بسلامةِ ابنتهما من شرّ هذهِ العاصفةِ، وكانَ الليلُ بدأ يُرْخِي سدولَهُ[2] على الكائناتِ ويضربُ عليها سرادقًا[3] من وحشتِه وكآبتِهِ، فما وَقَعَ نظرُهما عليّ حتّى ذعَرَتا وارتاعَتَا وصاحتا: أين فرجيني؟

---

(١) اللأي: الجهد والمشقّة. (٢) سدوله: ستائره.

(٣) السرادق: الخيمة.

فلم أستطعْ أن أنطقَ بشيءٍ سوى أنّني أطرقتُ برأسي، فدَنَتْ منّي هيلين وقد استحالتْ إلى شبحٍ من أشباحِ الموتى وقالتْ لي بصوتٍ خافتٍ متهافتٍ: هل ماتت؟ فاستمرَرْتُ في إطراقي، ففهمتْ كلَّ شيءٍ، وما هي إلّا صيحةٌ واحدةٌ صاحَتْهَا من أعماقِ قلبها، ثمّ سقطَتْ في مكانِهَا لا يختلجُ في جسمِهَا عِرْقٌ واحدٌ، ودارتْ مرغريت بنظرِها، فلمْ ترَ ولدها أمامها، فسألتني: وأين بول؟ فتلطَّفْتُ في قصّ قصّته عليها، وحلفت لها بالله إنّني أرجو له حُسْنَ العاقبةِ، فلم تعبأْ بما أقولُ، ولم يكنْ جَزَعُهَا على ولدِهَا، بأقلَّ من جزعِ صاحبتها على ابنَتِها.

ولا استطيعُ أنْ أصِفَ لكَ يا بنيّ هولَ تلكَ الليلةِ في ذلكَ الكوخِ، فلمْ تكنْ ليلةَ بكاءٍ وعويلٍ وولولةٍ وصياحٍ كما تكونُ ليالي الثكلِ في بيوتِ الثاكلينَ، بل ليلةَ حزنٍ صامتٍ عميقٍ يحبسُ الدموعَ عن الانطلاقِ والزفراتِ عن التصعيدِ. وَمَا أنسَ لا أنسى منظرَ تلكَ المرأةِ المسكينةِ، وهي ساقطةٌ تحتَ أعباءِ ذلكَ الحزنِ الثقيلِ تئنُّ أنينَ الدفينِ تحتَ أنقاضِ البيتِ الساقطِ، وتقلِّبُ وجهَهَا في السماءِ تسألها دمعةً واحدةً، تروّح بها عن نفسِهَا فلا تُعْطَاها، وقد تغمغِمُ أحيانًا بكلماتٍ مبهمةٍ لا يستمعُ منها السامعُ غيرَ قولها: ابنتي! حبيبتي! مسكينة أنتِ! الرحمةُ يا رب! المغفرةُ يا إلهي! ومرغريت تجلس بجانبهَا تارةً لتعزّيَها وتهوّنَ عليها مُصَابَها. وتخرجُ خارجَ الكوخِ تارةً أخرى لتبكيَ ولَدَها ما شاءَ اللهُ أنْ تفعلَ، فكانَ منظرُ إخلاصِهما في تلكَ الساعةِ أعجبَ منظرٍ رأيتُهُ في حياتي. أمّا دومينج وماري فقد ظلّا يدورانِ ليلَهُما حولَ الكوخِ، يلطمانِ خدودَهُما ويخمشانِ[1] وجوهَهُما وينتفانِ شعورَهُما، ويرسلانِ صرخاتِهما المحزنَةَ الأليمةَ في جوّ السماءِ حتّى تلفَا أو كادا.

ولم يزلْ هذا شَأنَنا جميعًا حتّى انبثقَ نورُ الفجرِ، فانسلَلْتُ في صمتٍ وسكونٍ من حيثُ لا يشعرُ بي أحدٌ، وانحدرتُ إلى الشاطىء فرأيتُ الحاكِمَ قد أعدَّ كلَّ شيءٍ لتشييعِ جنازةِ فرجيني، فكسوا نعشَهَا بصنوفِ الزهرِ وأنواعِ الرَّيْحانِ، وحملَهُ ثمانٍ من عذارى «سان لوي» لابساتٍ حُلَلًا بيضاءَ مشرقةً، وتَبِعَهُ نحو مائتي طفلةٍ من أطفالِ الديرِ يمشينَ صفوفًا متتاليةً، ويحملنَ في أيديهنّ سُعَفَ النخلِ وطاقاتِ الزهرِ، ويرتّلنَ الأناشيدَ الدينيّةَ بنغمةٍ شجيّةٍ محزنةٍ، ومشى في المقدّمةِ حاكمُ الجزيرةِ ووراءَه ضبّاطُه وجنودُه منكّسي أسلحتَهُم مُطْرِقي رؤوسَهم، والناسُ فيما وراءَ ذلكَ بحرٌ يعجّ بالبكاءِ والعويلِ، والأنّاتِ والزفراتِ؛ وكانتْ مدافعُ الحصونِ ترسلُ طلقاتِهَا من حينٍ إلى حينٍ، فتردّد صداهَا مدافِعُ السفنِ الراسيةِ على الشاطىء.

ولم نزلِ سائرينَ في طريقِنَا حتّى وَصَلْنَا إلى كنيسةِ «بامبلموس» وهناكَ حيُّ الزنوجِ المساكينِ الذي كانتْ تزورُه فرجيني في أيّام الآحادِ بعدَ أداءِ الصلاةِ في الكنيسةِ فتعُولُ فقراءَه وتطعِمُ جائعيهِ وتعودُ مرضَاهُ وتعطفُ على أيتامِه وأرامِلِه، فخرجَ رجالُهُ ونساؤُه وفتيانُه باكينَ صارخينَ، فبَكَينَا جميعًا لبكائِهِم، وكانتْ مناحةٌ عامّةٌ جادَ فيها من لم يجد، وبكى فيها مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ

---

(١) خمش وجهه: جرحه وخدشه.

بالبكاءِ، ولقد رأيتُ بعيني أولئكَ الأبطالَ الأنجادَ الذين يأنفونَ أن يذرفوا دمعةً واحدةً من مدامِعِهم والرماحُ تنوشُهم والسيوفُ تأخذهم من كلّ جانبٍ، يتهافتونَ على الجذوعِ والأحجارِ باكينَ منتحبينَ انتحابَ الأطفالِ الصغارِ.

ورأيتُ جماعةً من نساءِ مدغشقر وموزمبيق آتياتٍ يحملنَ على عواتقهنّ أقفاصَ الفاكهةِ حتّى وضعنَهَا حولَ القبرِ، وعلّقْنَ على أغصانِ الأشجارِ المحيطةِ به خِرَقًا بيضاءَ ناصعةً كعادتهنّ التي اعتَدْنَها في موتاهنّ الأعزّاء، ورأيتُ جماعةً أخرى من نساءِ الهندِ والبنغال يحملنَ أقفاصَ الطيرِ على عواتقِهنَّ ليرسِلْنَهَا فوقَ القبرِ ساعةَ الدفن، ولعلّهنّ يُرِدْنَ من ذلكَ تمثيلَ صعودِ الروحِ إلى سمائها. فما أجلَّ الفضيلةَ، وما أعظَمَ شأنها، إنّها الشريعةُ العامّةُ التي يدينُ بها الناسُ جميعًا، عالمُهُمْ وجاهِلُهُمْ، مؤمِنُهُمْ وملحِدُهُمْ، حاضِرُهُمْ وبادِيهم؛ والمعبدُ المشتركُ الذي يقفُ فيه الجميعُ صفًّا واحدًا أمامَ هيكلٍ واحدٍ، يرتّلونَ آيةً واحدةً بنغمةٍ واحدة.

وكانوا قد حفروا للميتَةِ قبرًا تحتَ شجرةِ خيزرانٍ مورقةٍ في الجانبِ الغربيّ من كنيسةِ «بامبلموس» كانتْ تجلسُ تحتَها دائمًا هي وبول حينما كانا يأتيانِ لزيارةِ الكنيسةِ وتوزيعِ الصدقاتِ على الفقراءِ والمساكينِ، فلمّا حلّتْ ساعَةُ الدفنِ اشتدّ البكاءُ والنحيبُ، وهُرِعَتِ الفتياتُ إلى النعشِ يلمسْنَه بأيديهنّ، ويُشِرْنَ إليه بمناديلهنّ وخِرَقِهِنَّ، ثمّ يمسحنَ وجوههنّ تبرّكًا كما يفعلنَ أمامَ تمثالِ العذراءِ، وجأرتِ[1] الأمّهاتُ بالدعاءِ إلى اللهِ تعالى أن يمنحَ بناتهنَّ الفضيلةَ التي مَنَحَهَا هذه القديسةَ المباركةَ ليحيَيْنَ حياتَها، ويَمُتْنَ موتَتَها، وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى انحدرَ إلى مغربِه ذلكَ الكوكبُ الفخمُ الذي خَفَقَ في سماءِ العالمِ لحظةً ثمّ اختفى.

❀ ❀ ❀

٢٥ ـ أحزان بول

نقلنا بول في محفّةٍ إلى كوخِه بعدَ ما أَبَلَّ[2] قليلًا، وكنتُ خائفًا عليهِ وعلى أُمّيهِ أشدَّ الخوفِ من تلكَ الساعةِ التي يتلاقونَ فيها، ولكنّ الله تعالى جَعَلَ خيرًا ما كنتُ أحسَبُه شرًّا، فلم يقعْ نظرُهُما عليه حتّى نهضَتَا إليهِ وضمَّتاه إلى صدرِهما وانفجرَتَا بالبكاءِ، فنفّسُ الدمعُ عن تلكَ الحرقةِ الكامنةِ التي ظلّتْ تعتلجُ في صدورِهما يومينَ كاملين، وكأنّ شعاعًا لامعًا قد انبعثَ من عينيهِ اللامعتينِ إلى قلبيهما، فأضاءَهما بنورِ العزاءِ والسلوى، فطَفِقَتَا تُقبّلانِهِ وتلثُمانِهِ، وتمزجانِ دموعَهما بدموعِهِ، وقد أنزلَ الله عليهِمْ جميعًا السكينةَ والصبرَ، فاستحالتْ تلكَ العاصفةُ التي كانتْ تعصفُ بقلوبهم ليلَهَا ونهارَهَا إلى سكونٍ يشبهُ سكونَ الموت. فلا نواحَ ولا عويلَ ولا تذَمُّرَ ولا شكوى إلّا ما كانَ من تلكَ العبراتِ التي تنحدرُ من آماقهم في صمتٍ وسكون.

---

(١) جأر: رفع صوته.

(٢) أبلَّ: شُفِيَ من مرضه.

وبعدَ هنيهةٍ حضرَ الحاكمُ ليعزّيَ هيلين عن نكبَتِهَا فعزّاها، وحدّثَها طويلًا عن عمّتها، عن ذلك المسلكِ الوحشيّ الذي سلكَتْهُ مع ابنَتِها، فكانَ جوابُها على ذلكَ كلّه أنْ سألتِ الله لها العفوَ والمغفرةَ، ثمّ اقتربَ من فراشِ بول وتناولَ يدَه وقالَ له: يجبُ أنْ تسافرَ يا بُنَيّ إلى فرنسا وسأعطِيكَ كتابَ وصاةٍ تستعينُ به على عملٍ ينفعُك، وينفَعُ أهلَكَ، وسأتولّى عنكَ رعايةَ أمّيكَ، وكفالتَهُما في غيبَتِك، فألقى عليه بول نظرةً طويلةً لا يعلمُ إلّا اللهُ ماذا يريدُ منها، ثمّ جذبَ يَدَهُ وأدارَ وجهَهُ للحائطِ، فاكتأبَ الرجلُ قليلًا، ثمّ نهضَ وقالَ له: سأعودُ مرّةً أخرى يا بنيّ، وانصرف.

ولم يكنْ لي بدٌّ في هذه الأيّامِ من أنْ ألزمَهُم لأقُومَ بخدمَتِهِم وقضاءِ حاجاتِهِم ولأتولّى بنفسي تمريضَ هذا الولدِ المسكينِ، فلزمتُ فراشَه ليلي ونهاري ما أكادُ أفارقُه حتّى استطاعَ بعد ثلاثةِ أسابيعَ أن ينشَطَ من علّتِه، إلّا أنّه استحالَ إلى شخصٍ آخرَ غيرِ ذلكَ الشخصِ الأوّلِ، وكأنّما انطفأ في قلبِهِ ذلكَ المصباحُ المنيرُ الذي كان يمدّ حواسّهُ ومشاعِرَه بالنورِ والإشراقِ، فأصبحَ ذاهلًا مذهوبًا به تحدّثُه فلا يكادُ يفهَمُ الحديثَ ولا يكادُ يردّ عليه إنْ فَهِمَه.

وكانتْ تدنو منه هيلين أحيانًا فتقولُ له: إنّني كلّما رأيتُكَ يا ولدي يُخَيَّلُ إليّ أنّ ابنتي لا تزالُ حيّةً باقيةً أرَاهَا وأحادِثُها، تريدُ بذلكَ تسريَةَ همّه وإزالةَ وحشةِ نفسِه، فلا يكادُ يسمَعُ اسمَ فرجيني حتّى ينتفضَ انتفاضًا شديدًا ويخرُجَ من الكوخِ هائمًا على وجهِهِ، فلا يعودُ إليه حتّى يعودَ به مِن يَرَاهُ. وكثيرًا ما كانَ يذهبُ وحدَه إلى «مخدعِ فرجيني»، فيجلسُ هناكَ تحتَ النخلتينِ المسماتينِ باسمِه وباسمِها شاخصًا ببصرِه إلى البركَةِ التي كانَا يستحمّانِ فيها أيّامَ طفولتِهِما، ويظلّ على ذلكَ عدّةَ ساعاتٍ حتّى أذهبَ إليهِ وأعودَ به إلى الكوخِ.

وخرجَ ذاتَ يوم فتبعتُه أنا ودومينج، وكنتُ أتبَعُهُ دائمًا حيثُ سارَ، فصعَدَ جبلَ «المورن» ثمّ انحدرَ إلى سفحِهِ الآخرِ، ومشى في الطريقِ الموصلِ إلى كنيسةِ بامبلموس، فاستطيرَ قلبي خوفًا وهلعًا وخفْتُ أن ينتهِيَ به المسير إلى قبرِ فرجيني؛ وكنتُ لا أستطيعُ مَنْعَهُ أو الوقوفَ في وجهه، لأنّ الطبيبَ أمرني ألّا أحاولَهُ في أمرٍ يريده، وأنْ أترُكَ له الحركَةَ في جميعِ ما يأخذُ وما يَدَعُ، وقال لي: إنّ هذا هو علاجُه الوحيدُ الذي لا علاجَ له سواهُ من وحشةِ نفسِه وكآبَتِهَا.

فظلّ سائرًا لا يلتفتُ يمنةً ولا يسرةً حتّى بلَغَ مكانَ القبرِ لا يخطِئه. فجثَا فوقَ تربَتِهِ تحتَ ظلالِ شجرةِ الخيزرانِ يصلّي ويبتهلُ، فعجبتُ لذلكَ أشدَّ العجبِ لأنّني كنتُ على ثقةٍ من أنه لا يعلَمُ حتّى الساعةِ هلْ أُخرِجَتْ جثّةُ فرجيني من البحرِ أم ذهَبَتْ طعامًا للسَمَكِ؟ فلم أجدْ بدًّا أنا ودومينج من أن نجثُوَ جَثيه[1] وندعُوَ دُعاءَه فالتفتَ فرآنا، فسألتُهُ لِمَ يصلّي في هذا المكانِ؟ فقال إنّه المكانُ الذي كنّا نجلسُ فيه معًا حينما نأتي إلى هُنا أيّامَ الآحادِ لزيارةِ الكنيسةِ وتوزيعِ الصدقاتِ على الفقراءِ والمساكينِ، ويُخَيَّلُ لي أنَّ هذه البقعةَ أحبُّ بقعةٍ إليّ على وجهِ الأرضِ وأدناها إلى نفسي، فعلمتُ أنّه قد أُلْهِمَ، وأنَّ طِيبَ تُرابِ القبرِ دلَّ على القبر.

---

(١) الأصح: جثوه من جثا يجثو جثوًا.

ثمّ نهض قائمًا على قدميهِ وذهبَ ببصرِه في السماءِ وظلّ على ذلكَ ساعةً، فَخُيِّلَ إليَّ أنّه قد طارَ بنفسِه إلى ذلكَ العالمِ الآخرِ ليفتّشَ عن تلكَ النفسِ الحبيبةِ إليه التي فارَقَتْهُ فراقَ الأبد؛ فأصبحَ لا يهنأُ له العيشُ من بعدها، ثمّ ما لبثَ أن انتفضَ انتفاضةً شديدةً وانحدرَ إلى شاطىءِ البحرِ، فذعرتُ وارتعتُ، ولم أجدْ بدًّا من أن أقفَ في وجهِه، وقلت له: عُدْ بِنَا إلى الكوخِ يا بول، وكُنْ عندَ ظنّي بكَ، فلم يَعْبَأْ بما أقولُ، واستمرّ سائرًا في طريقِه حتّى أشرفَ على البحرِ وشخصَ ببصرِه إلى النقطةِ التي غرقَتْ فيها السفينةُ، فخِفْتُ أن يكونَ قد حَدّثَ نفسَه بذلكَ الأمرِ العظيمِ، فدنوتُ منه وقلتُ له: إنّ المنتحرَ يا بول لا يصعَدُ إلى ملكوتِ السماء، فلم يزدْ على أن صَاحَ: آه يا فرجيني! آه يا فرجيني، وسقطَ مغشيًا عليه فحملنَاهُ إلى الغابةِ ولم نَزَلْ به حتّى استفاقَ فحاولَ أن يتقدّمَ نحو الشاطىءِ مرّةً أخرى، فضرَعْتُ إليهِ ألّا يفعَلَ، فأمسَكَ على مَضَضٍ، وبعد لأيٍ[1] ما استطَعْنَا أن نعودَ به إلى الكوخ.

وأصبحَ بعد ذلكَ لا شأنَ له إلا طروقُ الأماكنِ التي عاشَ فيها مع فرجيني أو اتّفَقَ لهما فيها شأنٌ من الشؤونِ، فزارَ الملعبَ الذي كانَا يلعبانِ فيه وهما طفلانِ صغيرانِ ويحفرانِ في رملِهِ الحفرَ العميقةَ الواسعةَ ويملآنِهَا بالماءِ وصغارِ السمكِ ويجلسانِ على ضِفَافِهَا يصطادانِ، واجتازَ الطريقَ التي مشيا فيها تحت وابلِ المطرِ وقد أسبَلَتْ إزارَهَا على رأسِهِ لتقِيَهُ ممّا تَقِي منه نفسَها، فكانَ منظرُهما منظرَ الدميةِ في المحرابِ.

ومشى في الطريقِ التي مشيا فيها يومَ ذهبا إلى ضفّةِ النهرِ الأسودِ ليشفَعَا للزنجيّةِ الآبقةِ[2] عندَ سيّدها، ومرّ بالمكانِ الذي قطعَا فيه نخلةَ الجوزِ وأحرقَاها ليأكُلا طلعَهَا الأبيضَ حينَ أزمَتْ بهما أزمَةُ الجوعِ، ودخلَ الغابةَ التي أضَلّا فيها الطريقَ حتّى أظلّهُما الليلُ وهما تائهانِ مشرّدانِ، وجَثَا عند الشجَرةِ التي جثيا[3] عندَها يصلّيانِ ويدعوانِ الله تعالى أنْ يبعثَ إليهما من يهديهما السبيلَ. وجلسَ بجانبِ الهضبةِ التي كانتْ تنتظِرُه عندها حتّى يعودَ من المزرعَةِ تعبًا مكدودًا فتمسحُ عرقَ جبينِه بمنديلِهَا وتبتَسِمُ له تلكَ الابتسامةَ العذبةَ الجميلةَ التي تُنْسِيه آلامَه ومتاعِبَه.

ومرّ بالشاطىءِ الرمليّ الذي كانا يرقصانِ فيه تلكَ الرقصةَ الزنجيَّةَ الساذجةَ ويمثّلانِ على مسرحِهِ بعضَ قصصِ الكِتَابِ المقدّسِ، وجلسَ طويلًا على الصخرةِ التي جلسا عليها ليلةَ الوداعِ يتعاتَبَانِ ويَتَشَاكيانِ، وكان هذا آخرَ عهدِه بها حتّى قضى الله قضاءَه فيها.

ولم يَدَعْ هضبةً ولا صخرةً ولا شجرةً ولا نخلةً ولا ظلّةً ولا كرمةً كانا يجلسانِ إليها، أو يفيئَانِ إلى ظلّها إلّا زَارَها وبكى عندَهَا طويلًا. كأنّما كانَ يشعُرُ في نفسِه أنّه مفارِقُهَا، ولا بدّ له من وَدَاعها فهو يودّعُهَا وداعَ الآسفِ الحزينِ.

وكذلكَ قَضَى أيّامَه الأخيرةَ وحيدًا شريدًا هائمًا مستوحشًا يأكلُ حيثُ يجدُ طعامًا ويشرَبُ

---

(١) اللأي: الجهد والتعب. (٢) الآبقة: الهاربة من سيّدها.

(٣) جثيا: الأصح جثوا جثوًا.

حيثُ يجدُ شرابًا، ويأوي إلى كلّ ظلّ وينامُ تَحْتَ كلّ كوكبٍ، حتّى تخوّنه السقْمُ وأضواه[١] الهمُّ، فغارتْ عيناه، وانكفأ لونُهُ، وذَوَتْ نضرَتُه، وأصبحَ مثلَ الخيالِ رقّةً وذبولًا. فأزعجني أمرُهُ، ورثيتُ له ولأمّيْهِ البائستينِ المسكينَتَين اللتينِ تبكيانِه ليلَهُما ونهارَهُما على ضعفِهِما وسقمِهِما وإدبارِ أمرِهما، ولم أكنْ فاتَحْتُهُ حتّى اليوم بكلمةٍ واحدةٍ في شأنِ نكبتِه التي نُكِبَ بها رَحْمَةً به وإبقاءً على حشاشته[٢] القريحة أنْ يؤلمَهَا المسّ ويهيّجَها البعثُ. فلمّا استحالتْ حالُه إلى ما أرى رأيتُ أن أذهبَ في معالجتِهِ مذهبًا غيرَ المذهبِ الأوّل فجلستُ إليهِ ذاتَ يومٍ وقلتُ له: أتعلمُ يا بول أنّ فرجيني قد أخلَصَتْ إليكَ إلى آخرِ رَمَقٍ في حياتِهَا إخلاصًا لم يَرَ مثلَهُ راءٍ ولا يتحدّثُ بمثلِهِ متحدّثٌ؟ فانتفضَ قليلًا ورفعَ رأسه إليّ ورمَقَ ينتظرُ ما أقول.

فأخرجتُ له صورةَ الرسولِ بول وأريتُه إيّاها فاختَطَفَهَا من يدي بيديهِ الضعيفتينِ المرتعشتين وقال: وأينَ وَجَدْتُها؟ قلتُ: على صدرِ فرجيني حينما وَجَدْنَا جثّتَها على شاطىءِ البحرِ وقد وضعتْ يدَهَا عليها كأنّما تضمُّكَ فيها إلى نفسِها وتودّعُكَ الوداعَ الأخير. قال: وهل وَجَدْتُم جثّتَها؟ قلت: نعم وَجَدْنَاها على ضفّةِ الخليجِ عشيّةَ اليومِ الذي غرقَتْ فيه تحتَ طبقةٍ من الرملِ قد سَتَرَتْ منها الجزءَ الذي تحبّ أن تستُرَه من جسمِهَا. قال: وأينَ دفنتُمُوها؟ قلت: في الجانبِ الغربيِ من كنيسةِ «بامبلموس» تحتَ شجرةِ الخيزرانِ الكبرى حيثُ ذهبتَ وجثوتَ وصلّيتَ من حيثُ لا تدري. فتنفّسَ تنفسةً طويلةً كادتْ تنقطعُ لها حيازيمُهُ، وأكبَّ على الصورةِ يغمُرُها بدموعِهِ وقبلاتِهِ فافترَصْتُ هذه الفرصَةَ وأنشأتُ أقول له:



٢٦ ـ الموت

ما هذه الدموعُ التي تذرفها يا بنيّ ليلَكَ ونهارَكَ ما تهدأُ ولا تفتُرُ، وما هذا الحزنُ الذي تحملُهُ بين أحناءِ ضلوعِكَ لا يتفرّجُ عنك بوجهٍ من الوجوهِ ولا حيلةٍ من الحِيَلِ؟ ومَتَى كانَ الموتُ نكبةً من النكباتِ العظامِ التي يهلكُ المرءُ في سبيلِهَا جزعًا وتتساقَطُ نفسُه من دونها حسرات؟ وهل هو إلّا الانتقالُ من منزلٍ إلى منزلٍ والتحوّلُ من موطنٍ إلى موطنٍ؟ وربّما كان الذي تنتقلُ إليه خيرًا من الذي تنتقل منه، ومن أينَ لكَ أنّ الله تعالى لم يُرِدْ لصاحِبَتِكَ خيرًا حينَ استأثَر بها واختارَ لها ما عِنْدَه، وأنّه ما نَقَلَهَا من هذِه الدارِ إلى تلكَ الدارِ إلا لينقذَهَا من شقاءٍ عَلِمَ أنّها ستكابدُه فيها وستلاقي منه آلامًا جسَامًا؟

وهلْ يمكنُ أنْ يكونَ لها مصيرٌ إنْ قُدِّرَ لها البقاءُ في هذهِ الحياةِ غيرُ هذا المصيرِ بعدما تجهّمَ لها الدهرُ وحارتْ بها السبلُ وانتهى أمرُها مع عمّتِها بما انتهى إليهِ من سوءِ الحالِ وخيبةِ

---

(١) أضواه: أضعفه، أهزله.

(٢) الحشاشة: النفس، الروح.

الأمل؛ وبعدما قضى عليها أن تقضيَ بقيّةَ أيّام حياتها في هذهِ القفرةِ المجدبةِ المحرقَةِ التي لا ماءَ فيها ولا ثمر؛ وهل كنتَ تؤثِرُ أن تراها شقيّةً معذّبةً بين يديكَ، تفلَحُ الأرضَ، وتكسرُ الصخرَ، وتخوضُ الوحْلَ، وتتسلّقُ الأشجارَ، وتعبُرُ الأنهارَ، لتعينَكَ وتعينَ أطفالَهَا المستقبلينَ على العيشِ بعدما أَلِفَتِ النعمةَ والرغدَ والعيشَ الهنيءَ في قصرِ عمّتها عدّة أعوام لا ترى فيها صخرًا ولا حجرًا، ولا زَمَلًا[1] ولا مَدَرًا، ولِمَ لا يُهْنِؤُكَ ويفرِحُك، ويملأُ قلبَك غبطةً وسرورًا، أن تعلَمَ أنّها الآنَ سعيدةٌ في عيشِها، هانئةٌ بمصيرها مغتبطةٌ بما وفّقتْ إليه من قدومِهَا على ربّها طاهرةً نقيّةً لمْ تلوّثْ صحيفتَها برشاشةٍ واحدةٍ من ذلكَ الرشاشِ الكثيرِ الذي تلوّثُ به صفحاتُ الفتيات؛ مجزيةً أحسنَ الجزاء على موقِفِها الشريفِ العظيم موقفِ العزّةِ والأنَفَةِ والصبرِ والاحتمالِ الذي وقفَتْهُ في ساعَتِهَا الأخيرة؟

ومَنْ هو أولى منكَ وأنتَ صديقُهَا وحبيبُهَا وألصقُ الناسِ بها بالسرورِ لسرورِها والغبطةِ لِغبطَتِها والابتهاجِ بمصيرِها السعيدِ الذي صارتْ إليه؟ وأنا أُجِلُّكَ كُلّ الإجلالِ عن أن يكونَ حبّكُ إيّاها حبًّا مادّيًّا يزعجُه افتراقُ الأجسامِ ويكدّرُ صفوَه اختلافُ الموطنِ والمقام؟ ولو أنّكَ عُدْتَ إلى نفسِك قليلًا لعلمتَ أنّها لم تفارِقْكَ، ولم تنأَ عنكَ، وأنّها جالسةٌ إليكَ تحدّثُكَ وتسمَعُ حديثَك.

ولا شكّ عندي في أنّها عاتبةٌ عليكَ أشدَّ العتبِ في هذهِ العجاجة[2] السوداءِ من الحزنِ التي تثيرُها على أثرِهَا كأنّها ذاهبةٌ إلى الجحيم تستقبلُ أنواعَ العذابِ وألوانَ الآلام، أو كأنّ كلَّ الذي كانَ يعنيكَ منها شهواتُك ولذائِذُك، فلمّا فاتَتْكَ بكيتَهَا كما يبكي الطفلُ لعبَتَه النافقة[3]، وكأنّني أسمَعُها تهتفُ بكَ قائلة: «لا تبكِ يا بول فإنّني سعيدةٌ ناعمةٌ متمتّعةٌ برحمةِ ربّي ورضوانِه متقلّبةٌ في أعطافِ نعمَتِه التي أسبَغَها عليّ مكافأةً لي على صبري واحتمالي، وما استقبلتُ به همومَ حياتي وآلامَها من سكينةٍ وجَلَدٍ، فاصبرْ كما صبرتُ واحتملْ من آلامِ الحياةِ ما احتملتُ، يحسنِ اللهُ جزاءَك ويجزلْ أجْرَكَ ويرفَعْكَ إلى المنزلةِ التي رَفَعَني إليها فنعيشَ معًا في سعادةٍ دائمةٍ ليستْ سعادةُ الدنيا بالإضافةِ إليها إلّا وهمًا من الأوهامِ أو حُلْمًا من الأحْلام».

فلم يزدْ أنْ رَفَعَ رأسَهُ إليّ وقال لي: ما دامتِ الحياةُ شقاءً وعذابًا وما دامَ الموتُ سعادةً وهناءَة وما دامتْ فرجيني تنتظِرُني في علياءِ سمائِهَا لأعيشَ بجانِبِهَا العيشَ الذي أرجُوه وآمُلُهُ ولا أؤثِرُ عليه عيشًا سواه، فلا خيرَ في الحياةِ من بعدِهَا وما أشوَقَني إلى الذي يدنِيني منها!

وهنا عَلِمْتُ ألّا حيلةَ لي فيما قَضَى الله وقدَّره وأنّ الفتى قد نَفَضَ يَدَهُ من هذهِ الحياةِ إلى الأبد ولا يدَ في العالم تستطيعُ أن تُدِيرَه إلى وجْهَةٍ غيرِ الوجهةِ التي يسيرُ فيها غيرُ يدِ اللهِ، فقمتُ وقامَ، ولا أسَفَ في الدنيا أعظمُ من أسفي عليه، ولا فجيعةَ أكبرُ من فجيعتي فيه.

❀ ❀ ❀

---

(١) الزمل: الرفيق، الزميل. (٢) العجاجة: الدخان، الغبار.

(٣) النافقة: الميتة، وهنا المفقودة.

٢٧ ـ الإيمان

جزى اللهُ الإيمانَ عنّا خيرًا فلولاه لثقلَتْ على عواتِقِنَا هذه الهمومُ التي نعالِجُها ولولاهُ لعجزنَا عن أنْ نتنفّس نَفَسَ الراحةِ الذي يعينُنَا على المسيرِ في صحراءِ هذهِ الحياةِ القاحلةِ، فهو النجمُ الخافِقُ الذي يلمَعُ من حينٍ في سماءِ الليلةِ المظلمةِ المدلهمّة[١] فينيرُ أرجاءَها، وهو الدوحةُ الفينانة[٢] التي يلجأ إليها المسافرُ من حرورِ الصحراءِ وسمُومِهَا فيجدُ في ظلالِها راحتَهُ وسكونَهُ، وهو الجرعةُ الباردةُ التي يظفرُ بها الظامىءُ الهيمانُ، فيقفعُ[٣] بها غلّتَهُ، ويفثأ[٤] لوعَتَه، وهو المطرةُ الشاملةُ التي تنزلُ بالأرضِ القاحلةِ فتهتزُّ تربَتُها وتحيي مورتها[٥] وتبعثُ في صميمها القوّة والحياةَ.

وهلْ كُنّا نستطيعُ أن نبقى لحظةً واحدةً في هذه الدارِ التي لا نُفلِتُ فيها من همّ إلّا إلى همّ، ولا نفزَعُ من رزءٍ إلّا إلى رزء، ولولا يقينُنا أن هذه الطريقَ الشائكةَ التي نسيرُ فيها إنّما هي سبيلُنا الوحيدُ الذي يُفْضِي بنا إلى النعيم الذي أعدّهُ اللهُ في جوارِهِ للصابرينَ من عِبَاده؟ وهل كانَ في استطاعة مريضِنَا الذي يئِسَ من الشفاءِ، وفقيرِنَا الذي عجزَ عن القوتِ، وثاكلتِنَا التي فَقَدَتْ واحِدَها من حيثُ لا ترجو سواهُ أن يحتفظوا بعقولهِمْ سليمةً ومداركهِمْ صحيحةً وعزائِمِهِمْ متماسكةً لولا أنّهم يعلمونَ أنّ حياتَهم لا تنقضِي بانقضاءِ أنفاسِهِم على ظهرِ الأرضِ، وأنّ هناكَ حياةً أخرى في عالمٍ غيرِ هذا العالمِ لا سَقَم فيها ولا مَرَضَ، ولا بؤسَ ولا شقاء؟

لذلكَ استطاعتْ هيلين ومرغريت في أواخرِ أيّامِهما أنْ تحتَفِظَا بسكونِهِما وهدوئِهِما أمامَ هذه الحوادثِ المؤلمة التي تقضُّ أصلادَ الصفا[٦] وتذيبُ لفائفَ القلوبِ، فكنتُ إذا دخَلْتُ عليهما رأيتُهُما في فراشِ مرضِهِما صابرتينِ محتملينِ كأنّهما لا تعالجانِ في أعماقِ قلوبهما أشدَّ الآلام النفسيّة وأهولَها، فإذا نظرَتَا نظرَتَا إلى السماءِ، وإذا نطقَتَا نطقَتَا باسمِ اللهِ وسألتاهُ العفوَ عنهما، والرحمةَ بهما، ثمّ لا تلبثُ أعينُهُما أن تتلألأَ بنورِ الأملِ والرجاءِ كأنّما قد وَقَعَ في نفسهما أن اللهَ قد استجابَ دعاءَهما، وتقبّلَ قربانَهُما، ووعدَهُما المثوبةَ[٧] العظمى في دارِ نعمَتِه وجزائه.

ولقد دخلتُ صباحَ يوم على مرغريت في اللحظةِ التي استيقَظَتْ فيها من نومِهَا فقصّتْ عليّ أنّها رأتْ فرجيني في منامِهَا تسبَحُ في غمرةٍ من النورِ وقد لبسَتْ قميصًا أبيضَ فضفاضًا كأنّما قد نُسِجَ من خيوطِ الشمسِ، ولم تزلْ تهبطُ من أوجِهَا رويدًا رويدًا، حتّى أصبحتْ في حَرَمِ

---

(١) المدلهمّة: الشديدة السواد.

(٢) الفينانة: الطويلة الأغصان.

(٣) قفع: منع.

(٤) فثأ: سكّن، هدّأ.

(٥) المورة: الغبار والتراب.

(٦) أصلاد الصفا: الصخور القاسية الصلبة.

(٧) المثوبة: المغفرة.

الأرضِ، فمدّتْ يدَهَا إلى بول فأخذتْ به من ضِبعَيه[١] وطارتْ في جوّ السماءِ، فتشبّثَتْ بردائِهِ فطرتُ وراءَه، ولا أعلمُ كيفَ طرتُ؟ ثمّ نظرتُ تحتي فإذا هيلين طائرةٌ ورائي، وإذا ماري ودومينج طائرانَ وراءَها.

ثمّ دخلتُ على هيلين في كوخِهَا في الساعةِ نفسِهَا فقصّتْ عليّ هذه الرؤيا بعينِها، فعجبْتُ لذلكَ أشدَّ العجبِ، وأيقنتُ أنّ الله قد اصطفى هؤلاءِ القومَ لنفسِهِ، وأنزَلَهُمْ منازلَ الأبرارِ الصالحينَ، وأنّهم، وإنْ كانوا لا يزالونَ على قيدِ الحياةِ، فقد لحقوا بالعالمِ الآخرِ، وأصبحوا ملائكةً بين الملائكةِ المقرّبين.

ولقد صدقَتْ هذه الرؤيا كما هي، أما بول فقد مَاتَ بعد ذلكَ بثمانيةِ أيّام، وكانَ قد خَرَجَ في بعضِ خَرْجَاتِه التي اعتادَها دونَ أن أراه، فافتقَدْتُه عدّةَ ساعاتٍ فلمْ أجدْهُ، فانحدرتُ إلى حيّ بامبلموس فوجدتُهُ جاثيًا على قبرِ فرجيني وقد ضمّ إلى صدرِه صورةَ بول الرسولِ التي خلّفَتْهَا له، فحرّكْتُهُ فإذا هو ميتٌ، فَحَزِنّا له ودفنّاه معها في قبرها. وأمّا مرغريتُ فقد لحقتْ بولدِهَا بعدَ ثلاثةِ أيّام من وفاتِهِ قَضَتْهَا صابرةً متجلّدةً لا تُذْرَفُ لها دمعةٌ ولا تَصْعَدُ لها أنّةٌ، وكان وداعُهَا لصديقَتِهَا وداعًا هادئًا ساكنًا لم تَزِدْ فيه على أنْ قالتْ لها: «سنلتقي هناك» كأنّما تفترقانِ على ميعادٍ، ثمّ أسلمتْ روحها.

وأمّا هيلين فقدْ ماتَتْ بعد شهرٍ من ذلكَ التاريخِ على ذلكَ الفراشِ الحقيرِ في ذلكَ الكوخِ البسيطِ، لا يحيطُ بها غيري وغيرُ ماري ودومينج، بعد ذلكَ المُلْكِ الكبيرِ والجنّة والحريرِ والنعمة السابغة[٢] والمتعةِ الواسعةِ، أما أنا... وهنا سَكَتَ سكتةً طويلةً كانتْ أوصالُهُ ترتعدُ فيها ارتعادًا شديدًا، ثمّ قال بصوت خافت متهدّج: «فقد بقيتُ وحدي»، وانفجرَ باكيًا بكاءَ ثاكلٍ فَجَعَهَا الدهرُ في أفلاذِ كبدِهَا جميعًا في ساعةٍ واحدةٍ، فلا صبرَ لها ولا عزاءَ، وبعدَ لأيٍ[٣] ما استطاعَ أوْ يعودَ إلى حديثه فقال:

وهنا لم أجدْ بدًّا من أنْ أنقُلَ ماري ودومينج إلى كوخي، فلم يعيشا بعدَ مواليهم بضعةَ شهورٍ ثمّ لحقَا بهم، فخَلَتِ الأرضُ منهُمْ جميعًا، حتّى مِنْ كلبِهِمْ وماشيتِهِمْ وطيورِهِمْ وعصافيرِهِمْ وأصبحوا تحتَ الترابِ أجسادًا هامدةً وعظامًا نخرةً تسفي عليهم السوافي[٤]، وتدورُ عليهم الدوائرُ، ويتحدّثُ عنهم المتحدّثونَ كما يتحدّثونَ عن الشعوبِ الغابرةِ والأممِ الخاليةِ، ولمْ يبقَ من آثارهم غيرُ تلكَ الجدرانِ المتهدّمةِ التي تراها، وقد خَلّدَ أهلُ الجزيرةِ ذكرَهم في كثيرٍ من الأماكنِ التي عاشوا فيها. فسمّوا الرأسَ الذي عجزت السفينةُ عن اجتيازِه فكانَ في ذلكَ هلاكُها «الرأس البائس»، والخليجَ الذي وُجِدَتْ جُثّةُ فرجيني على شاطِئِه دفينةً في الرملِ «خليج القبر»، والمضيقَ الذي غرقَتْ فيه السفينةُ «مضيق سان جيران»، وسمّوا مخدع

(١) الضِبع: الناحية
(٢) السابغة: الطويلة، الوافية.
(٣) اللأي: الجهد والمشقة.
(٤) السوافي: الرياح التي تنثر التراب.

فرجيني التي كانتْ تخلو فيه بنفسِهَا «كهف الفتاة»، وشجَرةَ الخيزرانِ التي ظلّلَتْ قبرَهُم جميعًا «الشجرة المقدسة»، والوادي الذي عاشُوا فيه «الوادي السعيد».

ثمّ لمْ تلبثِ الأيّامُ أن تذهبَ بهذه الذكرى كما ذهَبَتْ بأصحَابِها، لأنّ الناسَ أصبحوا ينطقونَ بهذهِ الأسماءِ ولا يفهمونَ معناها، فوارحمتاه لَهُمْ! لقد ضَنَّ الدهرُ عليهِمْ بكلِّ شيءٍ حتّى بالذكرى.

وقد عَلِمْتُ بعدَ مرورِ بضعِ سنواتٍ على هذه الحادِثَةِ أنّ تلكَ العمّة القاسيةَ التي ضنّتْ بمالها على ابنةِ أخيها وتركَتْهَا تموتُ بؤسًا وجوعًا في هذه الجزيرةِ المنقطعةِ، ثمّ حَرَمَتْ منه حفيدَتَها، وتركَتْهَا تهلكُ يأسًا وهمًّا في أعماقِ المحيطِ لَقِيَتْ جزاءَ غلظَتِهَا وقسوَتِها، فَلَمْ تسمَعْ بخبرِ غرقِ فرجيني وموتِ أمّها، حتّى أصابَها مثلُ الجنونِ وملأَت رأسَها الوساوسُ والهواجسُ، فكانتْ تندُبُهما تارةً وتبكي مصيرَها حتّى تشرفَ على التلفِ؛ وتهوّنُ على نفسِهَا أمرَهُما تارةً أخرى قائلةً إنّها لم تفعلْ شيئًا سوى أنّها أبعدتِ العارَ عنها وعن أسرَتها، فكانَ ما قدّرَ الله أن يكونَ، وكانتْ تنقُمُ أشدَّ النقمةِ على الفقراءِ والمساكينِ كلّما رأتهُمْ في طريقِهَا، فتصيح: أما كَانَ خيرًا لهؤلاءِ الأشقياءِ أنْ يذهبوا إلى المستعمراتِ الإفريقيّة، فيموتُوا فيها، ويُريحونا من شرورِهِمْ وويلاتهم؟ ثمّ لا تلبثُ أنْ تشعرَ بالعطفِ عليهِمْ والرثاءِ لهم فتذهبُ إلى الكنيسةِ بمالٍ كثيرٍ تضعُه في صندوقِها باسمِهم كأنّما تظنّ أنّ الله تعالى يغفرُ لها جرائمَهَا وآثامَهَا بهذه الرشوةِ التي تقدمها إليه.

وكانتْ لا تزالُ ترى في يقظَتِها ومنامِهَا وقومَتِهَا وقَعْدَتِها، وذهوبَها وجيئَتِها أشباحًا مخيفةً، تلوّحَ لها في وجهِهَا، وتهدّدُها أفظعَ تهديدٍ وأهولَهُ، فَتَرْفَضُّ هاربةً منها، فتراها أمامَها حيثُما ذهبتْ وأينما حلّتْ، فتفزعُ إلى الكاهنِ تسألُهُ أنْ يشفِيَها من دائها، وما داؤُها إلّا ذنوبُها وآثامُهَا التي أسْلَفَتْها! فما حيلةُ الكاهنِ فيها؟

وكانتْ كلّما مرّ بخاطِرِها أنّ أقرباءَها البعيدينَ الذين لا تحبُّهُم ولا يحبّونها سيرثُونها من بعدِها اشتدّ ذلكَ عليها كثيرًا، فتخرجُ إلى الطريقِ حاملةً بدرةً من الذهبِ في يدِهَا فتنثرُهَا نثرًا. فرفَعَ القومُ أمرَهَا إلى القضاءِ واتّهموها بالجنونِ، ولم يزالوا بها حتّى أرسلُوها إلى المارستان[1] وسكَنُوا قصرَهَا من بعدِهَا، ووضعوا أيديهم على مَالِها وكأنّ الله قد أرادَ أن يسقِيَها الكأسَ حتّى ثمالَتِهَا، فأبقى لها من الفَهْمِ والإدراكِ ما تستطيعُ به أن تَعْلَمَ أنّ مالَهَا الذي تعبَتْ كثيرًا في جمعِهِ وتدبيره، واقترفَتْ كثيرًا من الذنوبِ والآثام في سبيلِ الاحتفاظِ به والحرصِ عليه يتمتَّعُ به في حياتِها خصومُها وأعداؤُها، فنالَ ذلكَ منها منالًا عظيمًا، ولم تلبثْ أن ماتَتْ حاملةً معها حَسْرَتَها إلى قَبْرِها.

وكذلكَ ينتقمُ اللهُ من الأشحّاءِ الذينَ يضنّونَ بمالِهم على أصحابِ الحقِّ فيه بنقلِهِ إلى الأيدي التي لا تستحقّه: سُنّةُ الله التي لا تتبَدّلُ ولا تتغيّرُ، وَصَمَتَ هنيهةً ثمّ ألقى نظرةً عامّةً على ما يدورُ حوله وأنشأ يقول:

---

(١) المارستان: المستشفى.

سلامٌ عليكُم أيّها القومُ الأبرارُ والملائكةُ الأطهارُ، لقد عشتُمْ ما عِشْتُم في هذهِ الدارِ وأنتُمْ غرباءُ عنها لا تعرفُكُم ولا تعرفونَهَا، ولا تأنسُ بكم ولا تأنسونَ بها لأنّكُمْ من عنصرٍ غيرِ عنصرِها وجوهرٍ غيرِ جوهرِهَا، ثمّ رحلتُمْ عنها كما جئتُمْ إليها، لم يشعُرْ بكُمْ شاعرٌ، ولم يحفلْ بأمرِكم حافلٌ، فكنتُمْ كَحُلْمٍ لذيذٍ ألمّ بالعيونِ الهاجعةِ، ثمّ مضى لسبيلِه.

هذه آثارُكُم عافية[١] وديارُكم خاليةٌ ومساكنكُمْ لا يأوي إليها غيرُ الضبّ واليربوعِ، ولا يُسْمَعُ فيها غيرُ الزئيرِ والعواءِ، فلا نورٌ ولا نارٌ، ولا روضٌ ولا ماءٌ، ولا مرتعٌ ولا حديثٌ ولا سمرٌ، ولا عينٌ ولا أثرٌ، كأنّ وجودَكُم الدنيا بجمالها ولألائِها، وكأن ذهابَكُم القيامةُ التي تزلزلُ كلَّ شيءٍ وتأتي على كلّ شيءٍ.

سلامٌ عليكُم يا بنيّ؛ لقد كنتُمْ أُنْسِي وحَيَاتي وسلوَتي وعَزَائي ومتعَة نفسي وراحةَ ضميري والروضةَ الأُنُفَ[٢] التي أقطفُ ما أشاءُ من أزهارِها ورياحينِها وألجأُ إلى ما أحبُّ من ظلالِهَا وأفيائِهَا، أمّا اليومَ فقد سَمَجَ وجهُ الدنيا في نظري وأصبحَ عبءُ الحياةِ ثقيلًا على عاتقي لا أستطيعُ احتِمَالَهُ ولا الاستقلالَ به.

سلامٌ عليكَ أيّها الولدُ الطيّبُ الكريمُ الذي نشأَ في تربةٍ ساذجةٍ بسيطةٍ، فنشأَ ساذجًا بسيطًا لا ينالُ الناسَ بشرٍّ ولا يعتقدُ في الناسِ شرًّا، ولا يضمِرُ في نفسِه إلا الوفاءَ والإخلاصَ حتّى لكلبِهِ وَشَاتِهِ والكوخِ الذي يأويه والظلِّ الذي يفيءُ عليه.

سلامٌ عليكِ أيّتها الفتاةُ الشريفةُ الطاهرةُ التي صِيغَ قلبُهَا من الرحمةِ والشفقةِ، فبكَتِ البائسَ والفقيرَ واليتيمَ الذي لا عائِلَ له، والأرملةَ التي لا معينَ لها بكاءً صادقًا لا تسمَعُه إلا أذنُ الليلِ، ولا ترعَاه إلّا عيونُ الكواكبِ، ولم يَكُنْ صِدْقُهَا في أدبها وحيائِهَا بأقلَّ من صِدْقِهَا في رحمتِهَا وإحسانِهَا، ففرّت من قارّة إلى أخرى حياءً من نفسِهَا، ثمّ فرّتْ من العالمِ بأجمعِهِ ضنًّا بجسمِهَا أن تلمَسَه يدُ منقِذِهَا.

سلام عليكُما أيّتها المرأتانِ الصابرتانِ اللتانِ عَلّمَتَا ولديهما الفضيلةَ وغذّتاهما بلبانِها فكانَتَا خيرَ الأمّهاتِ لخيرِ الأبناءِ، واللتانِ لم تسخُطَا في حياتهما يومًا واحدًا ولم تنقُما ولم تشكُوَا لأحدٍ غيرِ خالِقِهما على كثرةِ ما ألمّ بهما من المصائبِ ونَالَهُمَا من الأرزاءِ ثقةً برحمةِ ربّهما وإحسانِهِ وسكونًا لقضائِهِ وقدَرِهِ حتّى خَرَجَتَا من دنياهما خروجَ السبيكَةِ من البودقة[٣] طهارةً وصفاءً.

سلامٌ عليكما أيّها الزنجيّانِ المخلصانِ اللّذان حفظَا الصنيعةَ من حيثُ لا يحفظُهَا أحدٌ، وشكَراها من حيثُ لا يشكُرُها شاكرٌ، ولم يَحُلْ سوادُ جلدِهِما وخشونةُ منبتِهِما ووحشةُ نفسهما من أن يحمِلا بينَ جوانحهما عواطفَ الودّ والإخاءِ التي لا يزالُ البيضُ في أوروبّا يَنْشُدُونها في كلِّ مكانٍ على ألسنةِ كتّابِهِمْ وشعرائِهِم وخطبَائِهِمْ ووعّاظِهِمْ رجاءَ الوصولِ إليها، فلا يجدونَ إليها سبيلًا.

(١) عافية: دارسة، ممحوّة. (٢) الأُنُف: التي لا ترعى.
(٣) البودقة: البوتقة وهو الوعاء الذي يذاب فيه المعدن.

سلامٌ عليكم يا بنيّ من والدكم الحزينِ الباكي الذي بليتْ عظامُكم في قبرِهَا، ولم يَبْلُ ذكرُكُم في قلبِهِ، والذي ظَلَّ يختلفُ إلى وادِيكم عشرينَ عامًا يندبُكم ويبكِيكُم، ويسألُ اللهَ أن يلحِقَه بكُم، فلا يستتبُّ لهُ ما يريد.

* * *

ثمّ تناولَ عَصَاه واعتمدَ عليها ونَهَضَ قائمًا كأنّه يقتلعُ نفسَه من الأرضِ اقتلاعًا وكأنّما قد خَطَا نحو القبرِ عَشَرَ سنواتٍ كاملةٍ في تلكَ الساعاتِ القليلةِ التي قَضَاها معي، فأصبحَ حِمَامُه[1] اليومَ أو غدًا، وكانتِ الشمسُ قد آذنتْ بالمغيبِ، ولم يبقَ منها في دائرةِ الأفقِ إلّا كما يبقى في جنباتِ الكأسِ من فضلِ الشرابِ، فألقى عليهَا نظرةً هادئةً مطمئنّةً، ثمّ مشى في طريقِه بخطواتٍ بطيئةٍ وأوصالٍ مرتعدةٍ ودموعُه تنحدِرُ على خدّيهِ انحدارَ المُزْنَةِ الهاطلةِ، فلبثْتُ في مكاني أنظرُ إليه وقلبي يذوبُ رحمة به وإشفاقًا عليه حتّى انحدرَ في بعضِ البطونِ وغابَ عن نظري.

❀ ❀ ❀

٢٨ ـ النهاية

عدتُ إلى منزلي الذي أنزِلُهُ وحاولتُ أنْ آويَ إلى مضجَعِي فنبَا بي[2]، وأن أستزيرَ الغمضَ فامتنعَ عليَّ، وأنْ أهدأَ في مكاني ساعةً واحدةً فلم أستطِعْ، وكانَ أكبرُ ما يشغَلُني وينفّرُ النومَ عن عيني حالةَ ذلكَ المسكينِ، فقد هاجَتْ تلكَ القصّةُ التي قصّها عليّ ألَمًا دفينًا في نفسِه وشجنًا كامنًا، فاستحالَ في بضعِ ساعاتٍ إلى هيكلٍ من العظمِ تتردّدُ أنفاسُه في صدرِه تردُّدَ الريحِ في جوانبِ الهيكلِ الخَرِبِ. وانصرفَ عنّي يمشي مِشيةَ الطائرِ المذبوحِ يجرّ شلوَهُ[3] جرًّا؛ وتمثَّلَ لي أنه الآنَ طريحُ فراشهِ في زاويةٍ من زوايا كوخِه يكابِدُ آلامَ المرضِ أو آلامَ النزاعِ من حيثُ لا يعينُه معينٌ ولا يرحَمُهُ راحمٌ، فاشْتَدَّ ذلك عليّ كثيرًا وشعرتُ بشعبةٍ من شُعَبِ قلبي قد سَقَطَتْ.

وما أصبحَ الصباحُ حتّى عقدتُ العزمَ على زيارَتِه في وادِيه عِلى بعد الشقّة بيني وبينَه لأتفقَّدَ شأنه، وأقضيَ حقّ صحبته؛ فسلكتُ الطريقَ التي وَصَفَها لي مرارًا في حديثِه، ولم أزلْ أصعَدُ النجادَ، وأهبطُ الوهادَ، وأضَلُّ مرّةً وأهتدي أخرى حتّى أشرفتُ منزلقَ الشمسِ عن كبدِ السماءِ على كوخِهِ المنفردِ في ذلكَ الوادي الموحشِ، فانحدرتُ إليه وكنتُ أرجو أن أراه واقفًا على بابه، أو جالسًا على مقربةٍ منه، فلم يَقَعْ نظري على شيءٍ، وكانَ السكونُ سائدًا عميقًا لا يَسْمَعُ فيه السامعُ نأمةً[4] ولا حركةً كأنّه سكونُ المقابرِ، اللّهم إلّا عصفورًا صغيرًا يغرّدُ من حينٍ إلى آخرَ تغريدةً شجيّةً مؤثّرةً كأنّما هو يوقّعُ لحنًا من الألحانِ المحزنةِ على نغمٍ واحدٍ

---

(١) الحِمام: الموت.
(٢) نبا به: جفاه.
(٣) الشلو: العضو.
(٤) النأمة: الصوت.

وميزانٍ مطّردٍ، فرفعتُ نظري إليه فإذا هو واقعٌ على شجرةٍ قصيرةٍ منفردةٍ أمامَ بابِ الكوخِ تذكّرْتُ عندَ رؤيتِهَا أنّها الشجرةُ الوحيدةُ التي حدّثني عنها أنّ فرجيني غَرَسَتْهَا أمامَ كوخِهِ منذُ عهدٍ بعيدٍ، وأنّه يحبّها كثيرًا ويأنسُ بها من أجلِهَا، فدنَوْتُ منها، فراعَني أنْ رأيتُ تحتَها شبحًا معفّرًا بالترابِ، فتبيّنْتُه فإذا هو الشيخُ، فحرّكْتُهُ، فإذا هو مَيْتٌ، فهالني الأمرُ وتعاظَمَني، وشعرتُ بقلبي يتمزّقُ لوعةً وأسًى وبنفسي تَسِيلُ رحمةً وإشفاقًا، وقلتُ: يا لهُ من رجلٍ مسكينٍ! لقد ماتَ ولا صديقَ يوسّدُ رأسَه أو يسبلُ أجفانَهُ ولا عينَ تبكي عليه غيرُ ذلكَ العصفورِ الصغيرِ الذي ينوحُ فوق رأسه.

* * *

ولم ينقضِ اليومُ حتّى دفنّاهُ تحتَ تلكَ الشجرةِ التي ماتَ تحتَهَا، والتي كان يحبّها ويأنسُ بها، ثمّ انصرفنا

ولا عَيْنَ إلّا وَهْيَ عَيْنٌ من البُكَا ... ولا خَدَّ إلّا للدُموعِ بِهِ خُدُّ

انتهت

❀ ❀ ❀

بول وفرجيني

يا بني الفقرِ سلامٌ عاطرٌ ... من بني الدنيا عليكُم وثناءْ
وسقى العَارِضُ من أكواخكُمْ ... معهدَ الصدقِ ومهدَ الأتقياءْ
كنتُمُ خيرَ بني الدنيا ومَنْ ... سعدوا فيها وماتوا سُعداءْ
عشتُمُ من فقركُمْ في غبطةٍ ... ومن القِلّةِ في عيشٍ رَخاءْ
لا خصامٌ، لا مراءٌ بينكُمْ ... لا خداعٌ، لا نفاقٌ، لا رِياءْ
خُلُقٌ برٌّ وقلبٌ طاهرٌ ... مثلُ كأسِ الحرّ معنًى وصفاءْ
ووفاءٌ ثَبُتَ الحُبّ به ... وثباتُ الحبّ في الناسِ الوفاءْ
أصبحَتْ قصّتُكم معتبرًا ... في البَرَايا وعزاءَ البؤساءْ
يجتلي الناظرُ فيها حكمةً ... لم يسطّرْهَا يراعُ الحُكَماءْ
حِكَمٌ لم تقرأوا في كُتْبِهَا ... غيرَ أنْ طالعتُمُ صُحُفَ القَضَاءْ
وكتابُ الكونِ فيه صُحُفٌ ... يقرأُ الحكمةَ فيها العقلاءْ

* * *

إنّ عيشَ المرءِ في وحدتِهِ ... خيرُ عيشٍ كافلٍ خيرَ هناءْ
فالوَرَى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ ... وشقاءٌ ليسَ يحكيه شَقَاءْ

وفقيرٌ لِغَنيٍّ حاسدٌ وغنيٌّ يستذلُّ الفُقَراءْ
وقويٌّ لِضعيفٍ ظالمٌ وضعيفٌ من قويٍّ في عَنَاءْ
في فضاءِ الأرضِ منأًى عنهُمُ ونجاءٌ منهُمُ أيُّ نَجاءْ
إنّ عيشَ المرءِ فيهم ذِلّةٌ وحياةُ الذّلِ والموتُ سواءْ

* * *

ليت (فرجيني) أطاعَتْ بولسًا وأنَالَتْهُ مُنَاهُ في البَقَاءْ
وَرَثَتْ للأدمعِ اللّاتي جَرَتْ من عيونٍ ما دَرتْ كيفَ البكاءْ
لم يكنْ من رأيِها فُرْقَتُهُ ساعةً لكنّه رأيُ القضاءْ
فارقَتْهُ لم تكنْ عالمةً أنّ يومَ الملتقى يومُ اللقاءْ
ما (لفرجيني) و«باريس» أمَا كانَ في القفرِ عن الدنيا غَنَاءْ؟
إنّ هذا المالَ كأسٌ مُزِجَتْ قطرةُ الصهباءِ فيه بدمَاءْ
لا ينالُ المرءُ منه جرعةً لم يكنْ في طيّها داءٌ عَيَاءْ
عرضوا المجدَ عليها باهرًا يدهشُ الألبابَ حسنًا ورواءْ
وأرَوْهَا زخرفَ الدنيا وَمَا راقَ فيها من نعيمٍ وثراءْ
فأبَتْه وأبى الحبُّ لها نَقْضَ ما أبرَمَهُ عهدُ الإخاءْ
ودعاهَا الشوقُ للقَفْرِ وما ضَمّ من خيرٍ إليه وهنَاءْ
فغَدَتْ أهواؤهَا طائرةً بجناحِ الشوقِ يزجيهَا الرجاءْ
يَأْمُلُ الإنسانُ ما يأمُلُهُ وقضاءُ الله في الكونِ وراءْ

* * *

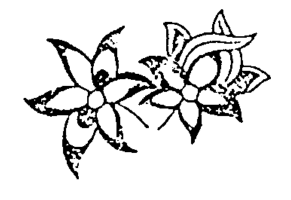
ما لهذا الجوِّ أمسى قاتمًا ينذرُ الناسَ بويلٍ وبلاءْ
ما لهذا البحرِ أضحى مائجًا كَبِناءٍ شامخٍ فوقَ بناءْ
وكأنّ الفُلْكَ في أمواجِهِ ريشةٌ تحمِلُها كفُّ الهواءْ
و (لفرجيني) يدٌ مبسوطةٌ بِدُعَاءٍ حينَ لا يُجْدي دُعاءْ
لَهَفِي والماءُ يطفُو فوقَهُ هيكلُ الحسنِ وتمثالُ الضياءْ
زهرةٌ في الروضِ كانتْ غضّةً تملأُ الدنيا جمالًا وبَهاءْ
من يراهَا لا يَراها خُلِقَتْ مثلَ خَلْقِ الناسِ من طينٍ وماءْ
ظنّتِ البحرَ سماءً فَهَوَتْ لتباري فيه أملاكَ السماءْ
هكذا الدنيا وهذا منتَهَى كلِّ حيٍّ ما لحيٍّ، مِنْ بَقاءْ

مصطفى لطفى المنفلوطي

الشاعر

أو

سيرانو دي برجراك



حول الرواية

رواية «الشاعر» أو «سيرانو دي برجراك» كتبها الأديب الفرنسي إدمون روستان ونقلها إلى العربيّة صديق المنفلوطي الدكتور محمّد عبد السلام الجندي نقلًا شبه حرفيّ ثمّ اطّلع المنفلوطي على ترجمتها وعاد بدوره فصاغها بأسلوبه الأدبيّ المميّز.

والرواية في الأصل تمثيليّة حوّلها المنفلوطي من قالبها التمثيليّ إلى قالب قصصيّ، إذ يؤكد في مقدّمةٍ كتبها بيده للرواية قائلًا: «وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيّدت نفسي به تقييدًا شديدًا، فلم أتجاوز إلّا في حذف جمل لا أهميّة لها أو زيادة بعض عبارات اضطرّتني إليها ضرورة النقل والتحويل بدون إخلال بالأصل والخروج عن دائرته، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي بعينه[١]».

وقد أفرد المنفلوطي في مقدّمته الطويلة مكانًا بارزًا لأشخاص الرواية الأساسيّين فوصفهم وصفًا دقيقًا يساعد القارئ على فهم الأدوار التي سيلعبونها في سياق القصّة.

وقد اختلف أسلوب المنفلوطي في هذه الرواية عنه في سائر أعماله إذ قيّد نفسه بالنصّ وعدل عن أسلوبه المطّاط الذي عوّدنا عليه في سائر رواياته، فتخلّى عن الجمل المكرّرة ذات المعنى الواحد التي ترهق كاهل المعنى ولا تنمّ إلّا عن براعة صاحبها في استخدام تعابير اللغة وتسخيرها في خدمة أفكاره وأغراضه. ويمكن القول إنّ أسلوبه في هذه الرواية بلغ منتهى السهولة في التعبير إذ تخيّر الكلام السهل وابتعد عن الجمل المترادفة، وعن الألفاظ والتعابير الغريبة والمعاني المبهمة. وربّما كان السبب في ذلك عائدًا إلى كون المنفلوطي أعجب إلى حدّ بعيد بموضوع الرواية وأشخاصها الذين هم بمعظمهم من الشعراء والذوّاقة، حيث إنّ معظم المواضيع التي يطرحها هؤلاء الأشخاص تدور حول الشعر وطبيعته وحول البلاغة والبيان وجمال التفكير والتعبير.

أمّا الرواية، فموجزها أنّ فتاة فرنسيّة حسناء اسمها روكسان كانت مولعة بالأدب والشعر، وهي من أسرة ثريّة ونبيلة وقع في حبّها الكثير من الأشراف والنبلاء وقادة الجيش، وكان ابن عمّها الشاعر سيرانو دي برجراك يحبّها ولكنّه كان لا يأمل بنيل رضاها بسبب دمامة خلقه وكبر أنفه إلى درجة لافتةٍ للنظر. وكان سيرانو ملتحقًا بفرقة من فِرق الجيش الفرنسي مع زميل له بهيّ الطلعة اسمه كريستيان ولكنّه كان بعيدًا عن الفطنة والذكاء لا يحسن تركيب الكلام ولا يتذوّق الفن والجمال.

وسرعان ما تقع عين روكسان على كريستيان فتعشقه وتحاول التقرّب منه وتبوح بأسرار قلبها لابن عمّها سيرانو، فيحاول هذا الأخير بدوره أن يساعدها رغم الحبّ الذي يكنّه لها في

(١) راجع مقدمة الكتاب بقلم المنفلوطي. والذي يسترعي الانتباه أنّ المنفلوطي لم يكن يعرف الفرنسيّة، وربّما كان في كلامه هذا يشير إلى ترجمة صديقه وليس إلى النصّ الأصلي للرواية.

أعماق قلبه، ولا يجرؤ أن يبوح لها به، طمعًا في أن تظلّ هناك علاقة واهية بينهما، أيًّا يكن نوعها وأيًّا تكن نتائجها. فكان سيرانو يلقّن كريستيان ما يجب أن يقوله لحبيبته ليحتفظ بمكانته لديها، ويكتب له الرسائل العاطفيّة التي تلهب أشواقها. باختصار كان سيرانو يستخدم جمال كريستيان ليوصل أحاسيسه ومشاعره إلى قلب ابنة عمّه روكسان.

وتشاء الأقدار أن يقع الكونت دي جيش قائد الفرقة التي يعمل في صفوفها كلّ من كريستيان وسيرانو في حبّ روكسان، فتحاول أن تتملّص من هذا الحبّ عن طريق الخديعة وتنجح بمساعدة سيرانو لها في الزواج سرًّا بكريستيان. لكنّ الكونت ينتقم من الثلاثة معًا بإبعاد سيرانو وكريستيان إلى ساحة القتال. ومن ميدان المعركة راح سيرانو يكتب الرسائل باسم كريستيان ويرسلها إلى روكسان، بعد إطلاع كريستيان عليها قبل إرسالها. وفي إحدى تلك الرسائل لاحظ كريستيان آثار دَمعة من دموع سيرانو على الرسالة فأدرك أنّ سيرانو يشاركه في حبّ روكسان، ففاتحه بأمر تلك الدمعة، فأقسم له، أنّ من يحمل وجهًا بشعًا وأنفًا غليظًا كأنفه، لا يطمع في حبّ فتاة مثل روكسان.

فذكر له كريستيان أنّها أقسمت أنّها تحبّ فيه روحه ولا تحبّ فيه جسده، فانتعش سيرانو لهذا الكلام، وما لبث كريستيان أن أيقن أنّ روكسان لا يعنيها جمال الجسد، بقدر ما يعنيها جمال الروح، فقرّر أن يخرج من حياتها وأبلغها أن سيرانو سيحدّثها حديثًا خطيرًا وانطلق يائسًا إلى قتال العدوّ حيث سقط في المعركة مع أوّل طلقة نار. لكن سيرانو استطاع أن يتابع الجهاد ويقود الأبطال في المعركة وينتزع النصر لفرقته، بعد أن كادت الغلبة تتمّ لجيش العدوّ.

وانتهى الأمر بروكسان في أحد الأديرة حيث كان سيرانو يزورها في كلّ أسبوع للقائها ومؤاساتها. أمّا هو، فقد أوقع به أعداؤه جراحًا قاتلة، فتحامل وسار باتّجاه الدير وراح يحدّثها حديثه الأخير وهي لا تدري أنّه مصاب إصابة قاتلة. فطلب منها أن تخرج له الكتاب الأخير الذي استلمته من كريستيان قبل استشهاده والذي وعدته بأن تطلعه عليه، وهي لا تعلم أنّه بخطّ يده. فراح سيرانو يقرأه وهو مغمض العينين وهو يردّد قائلًا: الوداع يا روكسان فإنّي سأموت بعد قليل. . .

وكانت روكسان تسمع كلامه وتقول: إنّه يناديني ويحدّثني؛ ثمّ ما لبثت أن أدركت أنّ هذا الكلام هو ذاته الكلام الذي سمعته ليلة التقت حبيبها كريستيان للمرّة الأخيرة وهو شبيه بالكلام الذي سمعته ليلة التقت حبيبها من فوق الشرفة وتكلّمت معه منذ خمسة عشر عامًا، فأيقنت أن كلام الرسالة التي تحتفظ بها في صدرها، هو كلام سيرانو ذاته الذي يتكلّم أمامها في تلك اللحظة. وبعد لحظات لفظ سيرانو أنفاسه الأخيرة بين ذراعي ابنة عمّه روكسان، فأدركت في الحال جميع أسرار حياتها السابقة فعانقته العناق الذي ضنّ به الدهر عليه في حياته وسمح به بعد مماته وهي تردّد قائلة: «آه ما أشقاني! لقد أحببت في حياتي حبيبًا واحدًا ففقدتُه مرّتين».

مجيد طراد

١٩٩٦/٩/١٥

إهداء الرواية

إلى الشعراء

مؤلف هذه الرواية شاعر وبطلها شاعر، وأكثر أشخاصها شعراء، وموضوعها الشعر والأدب، وعِبرتها أنّ النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات، وأنّها هي التي يهيم بها الهائمون، ويتولّه المتولّهون، حين يظنون أنّهم يعشقون الصور ويستهيمون بمحاسن الوجوه.

لذلك أقدمها هدية إلى الشعراء فهم رجالها وأبطالها وأصحاب الشأن فيها، ولا أطلب عندهم جزاء عليها أكثر من أن أراهم جميعًا في حياتهم الأدبية والاجتماعية سيرانو دي برچراك.

أول مايو سنة ١٩٢١

مصطفى لطفي المنفلوطي

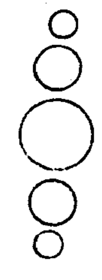


مقدمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندي، على هذه الرواية التي عرّبها عن اللغة الفرنسية تعريبًا حرفيًا، حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة، وطلب إليّ أن أهذّب عبارتها، ليقدمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها، ففعلت؛ واستطعت في أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة، وأن أستشفّ أغراضها ومغازيها التي أراد المؤلف أن يضمنها إياها، فأعجبني منها الشيء الكثير، وأفضل ما أعجبني منها أنّها صوّرت التضحية تصويرًا بديعًا، وهي الفضيلة التي أعتقد أنّها مصدر جميعِ الفضائل الإنسانية ونقطة دائرتها فرأيت أن أحوّلها من القالب التمثيلي إلى القالب القصصي ليستطيع القارئ أن يراها على صفحة القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل، وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيّدت نفسي به تقييدًا شديدًا، فلم أتجوّز إلّا في حذف بعض جمل لا أهميّة لها، وزيادة بعض عبارات اضطرتني اليها ضرورةُ النقل والتحويل واتساقُ الأغراض والمقاصد بدون إخلال بالأصل، أو خروج عن دائرته. فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي بعينه إلّا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين ومقدرة الكاتبين. وما لا بد منه من عروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى وخاصّة إذا قيد المعرّب نفسہ وحبس قلمه عن التصرف والافتنان.

مصطفى لطفي

المنفلوطي



أشخاص الرواية

سيرانو دي بِرْچراك

شاعر فرنسيّ من شُعَراءِ القرنِ السابع عشر، نشأ غريبًا في أطواره وأخلاقه، متفردًا بصفاتٍ قلَّ أن تجتمعَ لأحدٍ من معاصريه، فكَانَ جامعًا بين الشَجاعة إلى درجة التهوّر، والخجل، إلى دَرَجةِ الضعفِ، وبينَ القَسْوة إلى معاقبةِ أعدائه على أصغرِ الهَفَوَات[١]، والرقّة إلى البكاء على بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حِرْفته، وكانَ كريمًا مِتْلافًا[٢] لا يُبقي على شيء ممّا في يدِهِ، وعفيفًا لا يمدّ يده إلى مخلوقٍ كائنًا من كان، وصريحًا لا يتردد لحظة واحدة في مجابهةِ صاحبِ العيبِ بعيبه كيفما كان شأنه، وكيفما كانت النتيجة المترتّبة على ذلك.

فكان عدوّ الكاذبينَ والمُرائينَ والمغرورينَ والسَفَلَةِ، والمتملّقين، أي أنّه كانَ عدوًّا للهيئة الاجتماعيّة التي يعيشُ فيها تقريبًا، كما كانتْ عدوّةً له كذلك لا تهدأُ عن مشاكسته[٣] ومناوأته[٤] وابتغاء الغوائل به[٥].

ولم يكن له من الأصدقاء إلّا أفرادٌ قَلَائلُ جدًّا هم الذين يفهمون حقيقةَ نفسِه، وجوهرها، ويقدّرونه قَدْره وقَدْر صفاته الكريمةِ التي كان يتّصفُ بها.

وكان الخُلُقُ الغالبُ عليه من بين جميع أخلاقه خُلُقُ العِزّة، والأَنَفةِ، فكانَ شديدَ الاحتفاظ بكرامته، والضنّ[٦] بِعرضه أن ينالَ منهما نائل أو يعبثَ بهما عابث، وكان لا يُرى في أكثر أوقاته إلّا مبارزًا أو مناضلًا أو ثائرًا أو مهتاجًا أو واضعًا يده على مقبض سَيْفه أو مُلْقيًا قفازه[٧] على وجه خصمه شأنَ الفوارس الأبطال في ذلك العصر.

وكانت بليّتُهُ العظمى في حياته ومنبعُ شقائهِ وبلائه أنّه كان دميمَ الوجهِ كبير الأنف جدًا إلى درجة تلفتُ النّظَرَ وتثير الدهشة، وكان يعلم ذلكَ من نفسه حقّ العلم ويتألم بسببه تألّمًا كثيرًا لأنّه كان عاشقًا لابنة عمّه «روكسان» الشّهيرة بجمالها النّادر وذكائها الخارق.

وكان يعتقدُ أنّ المرأة مهما سَمَتْ أخلاقُها وجلّت صِفاتها لا يمكنُ أن تقعَ في أحبولةٍ[٨] غراميّة غيرِ أحبولة الجمال، ولا تُعنى بحُسنٍ غيرِ حُسْنِ الوجوه والصُوَر، فكان وهو أشجعُ الناسِ وأجرؤهم، وأعظمهم مخاطرةً، وإقدامًا لا يجسُرُ أن يفاتحَ حبيبته هذه في شأن حبّه حياءً من نفسه وخَجَلًا.

---

(١) الهفوات: الأخطاء.
(٢) متلافًا: من أتلف ماله، إذا أنفقه بغير حساب.
(٣) المشاكسة: العداء والخصومة.
(٤) المناوأة: المخاصمة.
(٥) الغوائل: جمع غائلة وهي الهلاك.
(٦) الضنّ: البخل.
(٧) القفاز: لباس اليد.
(٨) الاحبولة: الفخّ، المكيدة.

فكانَ أنفُه سبَبَ شقائه من جهتين: أنّه وقف عقبة بينه وبين غرامه، وأنّه كانَ المنفذَ العظيمَ الذي ينحدر منه أعداؤه وخُصُومه إلى السخرية به والتهكّم عليه، وهو لا يطيقُ ذلك ولا يحتمله. فكان النزاع بينه وبينهم دائبًا لا ينقطعُ، وكان لا ينتهي غالبًا إلّا بمبارزة يخرجُ منها في الغالبِ فائزًا منتصرًا ولكنْ كثيرَ الخصومِ والأعداء.

وكان جنديًّا في فصيلة شبّانِ الحرسِ من الجيشِ الفرنسي، وكان أفرادُ تلك الفصيلة جميعُهُم من الجاسكونيين مثله، وهم قوم معروفونَ بخشونةِ الأخلاقِ ووعورتها، وبكثرة التبجّح والادّعاء والغرور والكذب، ولهمْ مع ذلك فضيلةُ الشجاعةِ والصبرِ والقَناعةِ والشرفِ وعزّة النفس.

وكان سيرانو متصفًا بحسناتهم مترفعًا عن سيّئاتهم، فكان له في نفوسهم أسمى منزلة مِن الإجلال والإعظام، وكانوا يحبّونه حبًّا شديدًا ويذعنون لرأيه ويستطرفون أحاديثَه، ودعاباتِهِ ويفاخرون به وبنبوغه وشجاعته وجرأته وصراحته كما كان يَفْخَرُ بهمْ وبعصبيّتهم.

وكان من أسوأ الشعراء حظًّا في حياته، فقد قضى عمره كلّه خاملًا مغمورًا يجهلُ الدهماءُ قدرَه لأنّهم لا يفهمونه، وينكرُ الأدباء فضلَه لأنّهم يبغضونَه ويَجِدون عليه[1] وينقمونَ منه خشونَتَهُ وشدَّته في مؤاخذتِهم ونقدِهم، فلم يكنْ يحفلُ بذلكَ كثيرًا لأنّه كانَ مخلصًا لا يهمّه إلّا أن يكونَ عظيمًا في عينِ نفسِه، ثمّ لا يبالي بعدَ ذلكَ بما يكونُ.

وكثيرًا ما كانَ ينظمُ الروايةَ الجليلةَ ذات المغزى العظيمِ والأسلوبِ الرائقِ فلا يفكّر في إهدائها إلى أحدٍ من العظماءِ ليتوسّلَ بذلك إلى نشرها وترويجها وحَمْلِ الفرقِ التمثيليّة على تمثيلِها كما كان يفعلُ الشعراءُ في عصره أنَفَةً وإباءً وضنًّا بنفسه أن يقفَ موقفَ الذلِّ والضراعةِ على أيّ بابٍ من الأبواب كيفما كانَ شأنه. وربّما سرقَ بعضُ الروائيين قطعًا من رواياته فضمّنوها رواياتهم وانتفعوا بها فلا يغضبُهُ ذلكَ ولا يزعِجُه، وكلُّ ما كانَ يفكّر فيه أو يسألُ عنه في هذا الموقفِ ماذا كانَ وَقْعُ تلك القطعةِ في نفوسِ الجماهيرِ حينما سمعوها؟

ولقد أخلصَ في حبّه لابنة عمّه «روكسان» إخلاصًا لم يُسْمَعْ بمثله في تاريخ الحبّ، فأحبّها وهي لا تعلم بحبّه، وتألّم في سبيل ذلكَ الحبّ ألمًا شديدًا وهي لا تشعرُ بألمه. وأحبّت غيرَه فلم يحقِدْ ولم ينتقمْ، بل كان أكبرَ عَوْنٍ لها في غرامها الذي اختارته لنفسها ولم يلبثْ أن اتّخذ حبيبَها الذي آثرته صديقًا له، وأخلصَ في مودّته إخلاصًا عظيمًا وأعانَه على استمرارِ صِلَتِهِ بها، وبقاءِ حبّه في قلبها، لأنّه ما كان يهمّه شيءٍ في العالم سوى أن يراها سعيدةً في حياتها مغتبطةً بعيشها، وهذا كلُّ حظّه في الحياة.

ولم يزلْ هذا شأنَه طولَ حياته حتّى خرجَ من دنياه، ولم تعلمْ روكسان بسريرة[2] نفسه إلّا في الساعةِ الأخيرة التي لا يُغني عندها العلمُ شيئًا.

---

(١) يجدون عليه: يغضبون عليه.

(٢) سريرة الرّجل: ما يكتمه في نفسه ويخفيه عن الناس.

روكسان

ابنة عمّ سيرانو دي برچراك، وهي فتاةٌ شريفةٌ متعلّمة وافرةُ الفضل والذكاء، عالية الهمّة، عفيفة الذيل[١] مولعة بالشعر والأدب، إلّا أنّها كانتْ تذهبُ في ذوقها الأدبي مذهبَ النساء المتحذلقات في ذلك العصر، أي أنّها كانتْ كثيرةَ التكلّف في أحاديثها وإشاراتها، وكان لا يعجبُها من الكلام إلّا ذلكَ النوعُ الذي يسمّونه بالصناعة اللفظية، ولا من المعاني إلّا تلكَ الخيالاتُ الطائرةُ الهائمةُ على وجهها التي لا أساسَ لها في الحياة، ولا وجودَ لها في فطرةِ النفسِ وطبيعتها.

وقد نشأتْ يتيمةً منقطعةً لا أهل لها ولا أقرباء إلّا ابن عمّها سيرانو، إلّا أنّها كانت تعيشُ عيشًا رغدًا هنيئًا بفضلِ الثروة الواسعة التي ورثتها عن أبويها.

فأحبَّها كثيرٌ من النبلاء والأشراف، وعرضوا عليها الزواجَ فلم تحفلْ بهم. وأحبّها «الكونت دي جيش» وهو أحد قواد الجيش الفرنسي وكان متزوّجًا بابنة أخت الكردينال دي ريشلييه، فأراد أن يستخدمَ نفوذَه، وجاهَهُ في حَمْلِها على الزواجِ من فتًى من أشياعه اسمه الفيكونت ڤالڤير على الطريقة المعروفة في ذلك العهد عند الملوكِ والنبلاءِ.

فدفعته عنها برفقٍ وحكمةٍ خوفًا على نفسها منه. وظلّتْ تماطله[٢] زمنًا طويلًا حتّى أحبها البارون كرستيان دي نوڤييت، فأحبّتْه وأخلصتْ له إخلاصًا عظيمًا، ولم يكنْ في الحقيقة متّصفًا بصفات الفطنةِ والذكاءِ والنبوغِ التي كانت تظنها مجتمعة فيه لولا الحيلةُ الغريبة التي احتالها عليها سيرانو حتى أوهمها ذلك، وهنا نكتةُ[٣] الرواية وبيتُ قصيدها، ثمّ تزوّجتْ منه بعد ذلك زواجًا سرّيًا، ولكنّها لم تكدْ تضع شفتها على الكأس حتّى انتُزِعَتْ منها وكان هذا آخر عهدها بسعادة الحياة وهنائها.

كرستيان دي نوڤييت

نبيلٌ من نبلاء الريفِ وَفَدَ إلى باريس ليلتحقَ بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي كما كانت عادة الأشراف في ذلك العهد، وهي الفرقة التي كان يعمل فيها سيرانو، وكان فتًى جميلَ الصورة شريفَ النفس طيّب القلب، إلّا أنّه كان أقربَ إلى البلادة منه إلى الذكاء، فوقع نظره على روكسان في حانة بورجونيا فأحبّها وأحبّته على البعد، وكان قد علم من أمرها أنّها فتاة قديرةٌ متفوّقةٌ ذكيّةُ الفؤاد غزيرةُ العلم قويّة الإرادة لا يعجبُهَا منَ الرجالِ إلّا الأذكياءُ المتفوقون.

فهاب الدنوَّ منها ومفاتحتها في شأن حبّه وخَشِيَ أن يسقطَ من عينيها سقطةً لا قيامَ له من بعدها ولم يزلْ هذا شأنَه حتّى أدركه سيرانو، واحتال له تلكَ الحيلةَ الغريبة المدهشةَ التي جعلت روكسان تعتقد أنّها قد أحبّتْ أذكى النّاس وأسماهم عقلًا وأبعدَهُمْ غورًا وأطلقَهُمْ لِسَانًا

---

(١) عفيفة الذيل: طاهرة، فاضلة. (٢) تماطله: تسوّفه وتؤجّله.

(٣) النكتة: المسألة الدقيقة التي لا يدركها إلّا العاقل.

وأبلَغهم قلمًا. لا يريد بذلك إلّا سعادَتها وهناءها، وهو يتهالك بينه وبين نفسه غمًّا[1] وكمدًا لأنّه وهو ظامئٌ هيمانُ يقدّم الكأس بيده للشاربين ولا يذوقُ منها قطرةً واحدة.

الكونت دي جيش

أحدُ قوّاد الجيش الفرنسي، وهو من أصلٍ جاسكوني كسيرانو وروكسان إلّا أنّه كانَ يذهبُ في حياته مذهبًا غيرَ مذهب أبناء جلدته الجاسكونيين في قناعتهم، وخشونتهم وبساطة عيشهم. بل كان رجلًا واسعَ المطامع شغوفًا بالمعالي متطلّعًا إلى المناصب العُليا والمراتبِ الكبرى. وقد تمَّ له ما أرادَ من ذلك بجدّه واجتهاده فأصبحَ قائدًا من قوّاد الجيش الفرنسي وصهرًا للكردينال دي ريشلييه.

وقد رأى روكسان في طريقه مرّة، فشُغف بها شَغَفًا عظيمًا وأراد أن يضمّها إليه من طريق تزويجها من أحدِ صنائعه، فاحتالتْ للخروجِ من ذلك المأزِق بحيلة لطيفة جدًا وتزوّجت من الرجل الذي أحبّته بمعونة ابن عمها سيرانو فعاداها الكونت من أجلِ ذلك وانتقمَ منها ومن زوجها ومنْ سيرانو انتقامًا هائلًا.

لينيير

شاعرٌ مِسْكينٌ من أصدقاءِ سيرانو، نَظَمَ قصيدةً طويلةً هَجَا بها الكونت دي جيش وعرّض فيها بقصّته مع روكسان وفضحَ جريمَته التي أراد أن يقترفَها معها، فحَقَد عليه الكونت حقدًا شديدًا ودسَّ له كمينًا مؤلفًا من مائة رجلٍ ليقتلوه عندَ رجوعه إلى منزله ليلًا لولا أنْ أدركَهُ سيرانو وأعانه على أعدائه فَنَجا.

لبريه

أحدُ أصدقاء سيرانو المخلصين وكان ينصحه دائمًا بالهدوء والسكينة، وينعي عليه شدّته وصرامته في أخلاقِهِ وطِبَاعِهِ وينصح له باتّخاذ خطّة في الحياة تناسب البيئة التي يعيش فيها رحمةً بنفسه وإبقاءً على راحَتِه، وسكونه، فلا يحفل بنصحه لأنّ له رأيًا في الحياة غيرَ رأيه، ومذهبًا غيرَ مذهبه، ولم يكنِ اختلافُهُما هذا في المشرب، والخطّة مانعًا لهما من الصداقة والإخلاص، ووفاءِ كلّ منهما لصاحبه حتّى ما كانا يستطيعان الافتراق ساعة واحدة.

مونفلوري

أحدُ الممثلين في حانة بورجونيا، وكانَ مشهورًا بحُسْنِ إلقائه لرواية «كلوريز» تأليف الروائي الشهير «بارو».

وكانَ سيرانو يبغضُهُ ويستثقل حركاتِه التمثيلية، وينقمُ عليه إعجابَهُ بنفسه على قُبْحه ودمامته ويأخذ عليه كثرة ترديد نظره أثناء التمثيل في مخادع السيّدات، يحاول افتتانَهُنّ واجتذابَ

(١) الغمّ: الحزن والأسى.

قلوبهنّ، وقد رآه مرّةً ينظرُ إلى روكسان نظرةً مريبةً فتعلّلَ عليه ببعض العلل، وأمره أنِ ينقطع عن التمثيل شهرًا كاملًا. فحاول الامتناعَ عليه، وعصيانَ أمره فأنزله من المسرح بالقوّة، وطرده رغم دفاع الكثيرين من الأشراف والنبلاء عنه وخاصّة الكونت دي جيش.

«راجنو»

طباخٌ مشهورٌ يبيع في حانوته الكبيرِ أفخرَ أنواعِ المطاعم من شواء وفطائر وحلوى، وكان محبًّا للشعرِ والأدبِ والتمثيلِ عطوفًا على البؤساء من الشعراء والممثلين، وكان يستقبلُهُمْ في حانوته استقبالًا حافلًا ويقدّمُ لهم على حسابه ما يقترحونَ من طعامٍ وشرابٍ.

وكانَ كلُّ حظّه منهم أن يجلسَ إليهم ويسمعَ محاوراتهم الأدبيّة، ويلتقطَ ما يتناثرُ حولهم من مسوّداتِ أشعارِهِمْ وفُصولِهِمْ ويُسمِعُهُم ما ينظمه من الشعر الضعيف التافه، فيتظاهرون باستحسانِهِ والإعجاب به إبقاءً على مودّته حتّى أدركَتْهُ حِرْفَةُ الأدب، فأفلسَ وأغلقَ حانوته، فأعانه سيرانو على شؤونِ حياته. وكان من أكبرِ أنصارِه والمتشيّعين له ولكنّ الحظّ كانَ قد فارقَهُ فلم ينجحْ في عملٍ من الأعمالِ التي اشتغلَ بها وظلّ البؤسُ ملازمًا له طولَ حياته.

«ليز»

زوجةُ راجنو، وهي امرأة فاسدةُ الأخلاق خبيثة النفس، كانت تَهْزأُ بزوجها وتسخَرُ منه وتنعي عليه اشتغالَهُ بالشعر، والأدبِ واهتمامَهُ بالشعراءِ والأدباءِ وعنايته بهم، وكانتْ تفضّل أن تقدّمَ هي بنفسها الحانوت كلّه لضابطٍ من ضباط الجيش تعجب به على أن يقدّمَ زَوْجُها راجنو لقمةً واحدة منه لأديبٍ من الأدباء، ولمّا رأت تَضَعْضُع حالِه وانتكاثَ أمره، فرّتْ مع أحدِ ضبّاط الجيشِ ولم يَرَها بعد ذلك.

كاربون دي كاستل

قائدُ فصيلة شبّان الحرس، وكانَ كلُّ أفرادها من الجاسكونيين وهو جاسكوني مثلهم، فكان يحبّهم حبًّا شديدًا ويعطف عليهم، وكان يعتمد في أعماله على سيرانو ويعدُّهُ خيرَ جنوده، والتاريخ يذكر له دفاعَهُ العظيمَ بفصيلته في ميدانِ «أراس» عن الموقع الذي اختار جيش العدو مهاجمته حتّى تمّ النصر للراية الفرنسية على الراية الإسبانية.



الفصل الأول:

«حانة بورجونيا»

في ليلة من ليالي سنة ١٦٤٠ بدأ الناسُ يفدونَ إلى حانة بورجونيا في باريس لمشاهدةِ رواية «كلوريز» وهي إحدى رواياتِ الشاعر المشهور «بَلْتازارْ بارو» ولم يكنْ للتمثيل في ذلك العصرِ دُورٌ خاصّة به، وإنما كانوا يمثّلون في الحانات أو المطاعم الكبيرة على مسارحَ خاصةٍ يُعِدّونها لذلك.

وكانَ جمهورُ المشاهدينَ في تلكَ الليلةِ كما هو شأنهم في جميع الليالي خليطًا من العمّالِ والجنودِ واللصوصِ والخدم والأشرافِ والعلماءِ والكتّابِ وأعضاءِ المجمع العلميِّ الفرنسي، قد اختلط بعضهم ببعض، وجلس أخيارهم بجانب أشرارهم.

فبينما العلماء يتناقشون في مباحثهم العلميّة، والأدباء يتحدثون في شؤونهم الأدبية، إذا فريقٌ من الخدم قد ألصقوا شمعةً بالأرض واستداروا من حولها حلقةً واسعةً وأخذوا يقامرونَ بالمالِ الذي سرقوه من أسيادِهِمْ في ساعاتِ لهوهم واستهتارهم، وآخرون من أبناءِ الأشرافِ قد تماسكوا بأيديهم وظلّوا يدورون حولَ أنفسهم راقصينَ مترنّحين، وآخرون من الغوغاء يأكلون ويقصُفُون[١] ويتسابّونَ ويتلاكمونَ ويجأرون[٢] بأصواتٍ عالية متنوّعة كأنهم في سوق من أسواق المزايدة، وجماعةٌ من الجند يتلهَّون بالمبارزةِ والملاكمة لا يبالون من يطأون بأقدامهمْ، أو يصيبونَ بشفراتِ سيوفهم.

وفئةٌ من الصعاليك قد اصطفّوا صفًّا واحدًا بين يدي لصّ من دهاةِ اللصوصِ ومناكيرهم[٣] يعلمهم كيف يسرقونَ الساعات من الصدورِ، ويمزّقون الجيوب عن الأكياس، وكيف يتغفّلونَ صاحبَ المِعطفِ عن مِعطفه، والقبّعةِ عن قبعته، والعصا عن عصاه، كأنه قائد يدرب جنوده على الحركات العسكرية، وفتًى من المتأنّفينَ المتظرّفين يطارد فتاةَ المقصفِ[٤] من ركنٍ إلى ركنٍ يحاول إمساكَهَا والعبثَ بها وهي تمتنعُ عليه وتتأبّى تأبّيًا أشبَه بالإغراءِ منه بالامتناع. وجنديٌّ من جنودِ الحرسِ قد تغفّل البوّابَ عند دخولِهِ وامَّلسَ[٥] من يده دون أن يدفعَ إليه شيئًا والبوابُ يطارِدُه ويلاحيه[٦] ويأخذ بتلابيبه[٧] فيجادلُ عن نفسه بأنّه حارسُ الملكِ وحرّاسُ الملك أحرارٌ يدخلونَ من الأمكنةِ ما يشاؤون.

---

(١) القصف: الإقامة في الشرب واللهو.
(٢) يجأرون: يحدّقون بنظرهم.
(٣) المناكير: الذين يقومون بأعمال منكرة.
(٤) المقصف: المقهى والملهى.
(٥) امّلس من يده: أفلت وتملّص.
(٦) يلاحيه: يلومه.
(٧) تلابيب الثوب: ما يحيط منه بالعنق.

وزمرةٌ من المتأدّبين قد انتبذوا ناحيةً من القاعة وأخذوا يندبون الأدَب وحظّه وشقاءَ أهليه وبلاَّهُم ويقول بعضهم لبعض: أليسَ من مصائبِ الدهر ورزاياه أن يقفَ موقفَ الممثّلِ بين هذا الجمهور الساقط أمثالُ «مونفْلوري» و«بلْرُوز» و«بويريه» و«جودلِيه» وأن تُمثَّل على مثلِ هذا المسرح الحقيرِ المبتذلِ رواياتُ أكابرِ الشعراءِ والروائيين أمثال «روترو» و«كورنيّ» و«بارو».

ولم يكنْ يضيءُ تلكَ القاعةَ على كبرِهَا واتّساعها إلّا بضعةُ مصابيحَ ضئيلةٍ تتراءى تلكَ الجماهير على نورِها كأنّها الأشباحُ المتحرّكة، أو الأرواحُ الهائمة، وقد يَسمعُ السامعُ فيها من حينٍ إلى حينٍ في وسط هذهِ الضوضاءِ صوتَ فتاةِ المقصفِ وهي تصيحُ خَلْفَ مِقْصفِها بصوتِهَا الرقيقِ الرنّانِ «اللبن»، «الحلوى»، «عصير البرتقال»، «عصيرِ الرمّان»، «الشّواء»، «الفطير»، «النبيذ»، أو صوتَ شيخٍ هرمٍ يسبّ ويحتدمُ ويضربُ الأرضَ بقدميه وهو عاري الرأسِ منقلبُ السحنةِ لأنّ أحَد الجالسِينَ في الطبقة العليا من الملعب قد أرسلَ على رأسه المستعارِ شِصًّا[1] فاجتذبه بهِ وظلّ معلّقًا في الفضاء على مرأًى من الجماهيرِ الضاحكينَ، أو صارخًا متألمًا قد وَضَعَ يدَهُ على عينه وظلّ يصيحُ: واغَوْثَاهُ واويلَتَاهُ لأنّ بعضَ المتفرّجينَ صوّب إليها حصاةً صغيرةً أو نواةً فأصابَها بها، إلى أمثالِ ذلكَ من صراخِ الصارخينَ وهتافِ الهاتفينَ من جميعِ جوانبِ القاعة: أشْعِلُوا الأنوارَ، ارفَعُوا الستار.

ولم يزلْ هذا شأنَهُمْ حتّى دقّتِ الساعةُ العاشرة من الليل، وقَرُبَ ميعادُ التمثيل، فدخلَ جماعةٌ من الأشرافِ المتأنقين يجرّرون أذيالَهُمْ، ويشمخونَ بأنوفهم، ويتأفّفون لضعف الأنوار وضوضاءِ الجماهير، ويصيحون: الطريق الطريق، أيّها الصعاليك، فتنفرجُ الصفوفُ لهم انفراجًا، حتّى بلغوا مكانَ المسرحِ، فصعدوا عليه، وجلسوا فيه على مقاعدَ متفرقةٍ في أنحائه جلسةً باردةً وَقِحَةً لا أدب فيها ولاَ احتشام.

وكانت المقاصير في ذلك التاريخ خاصة بالنساءِ لا يجلسُ فيها غيرُهُنّ إلّا مقصورةً واحدة بجانب المسرحِ كانَ يجلسُ فيها الكردينال إذا حضر أو من ينزل منزِلَتَهُ من عُظَماء المملكةِ ووجُوهِها.

«طاهي الشعراء»

جلسَ في رُكْنٍ من أركان القاعةِ في تلكَ الساعةِ شخصانِ منفردانِ، أحدهما الشاعر «لينيير» وهو رجلٌ بائسٌ مِسْكينٌ مغرمٌ بالشراب ومعاقرته، لا تكاد تفارقُ يدُهُ الكأسَ ليلَه ونهارَه، وثانيهما البارون «كرستيان دي نوفيّيت» وهو فتًى من أشرافِ الريفِ، جميلُ الطلعةِ، حَسَنُ الزيِّ والثيابِ، إلّا أنّ هِندامه على الطرازِ القديم.

حضر من «تورين» إلى باريس منذُ عشرينَ يومًا ليلتحقَ بفرقَةِ الحرسِ من الجيش الفرنسي، فلم يدخلْها إلّا صباحَ اليوم، فقالَ الشاعرُ للبارون: إنّ صاحبتك لم تحضر حتّى الساعة، وها

---

(١) الشص: حديدة عقفاء يصاد بها السمك تشبه الصنارة.

هي مقصورتها التي أشرتَ لي إليها لا تزالُ خاليةً، وقد اشتدَّ ظمئي فائذنْ لي بالذهابِ إلى إحدى الحاناتِ القريبةِ لأتناولَ قليلًا من الشرابِ ثمّ أعود إليك، فاضطرب كرستيان وتشبّثَ بثوبه وقال له: إنّكَ إنْ ذهبتَ لن تعودَ يا لينيير، وأنا في أشدّ الحاجة إليكَ، فإنّي أريد أن أعرفَ مَنْ هي؟ وما منبت دوحتها؟ وربّما بدا لي أن أزورَهَا الليلة في مقصورتها وأتعرّفَ إليها وليسَ في استطاعتي أن أُقْدِمَ على ذلك وحدي، فأنت تعلمُ أنني رجلٌ جنديّ ساذَجٌ حديثُ عهدٍ بهذا البلد وأهليه وآدابه ومصطلحاته، ويخيّل إليَّ وإنْ لم أكنْ قد حادثْتُهَا أو جلستُ إليها أنّها فتاةٌ ذكيّةٌ متوقدةٌ بارعة في أساليبِ الحديث ومناهجه، وأخاف إنْ أنا لقيتها وحدي أن أضعُفَ أمامها وأضطربَ أو أرتبكَ في حركة من الحركات بين يديها فأسقطَ من عينيها سقطة لا مَقِيلَ[١] لي منها أبدَ الدهرِ، فابقَ معي وكنْ عونًا لي عليهم لتتمَّ بذلك يدك[٢] عندي.

وهنا مرَّتْ فتاةُ المَقْصَفِ حاملةً على يدها صينيّةً فدنتْ منه فسألَهَا عمّا عندَها فظلّتْ تسردُ عليه أسماءَ فطائِرها وقدائِدها وأشرِبتها وحَلْواها وهو لا يأبه لشيءٍ من ذلكَ حتّى ذَكرتْ له نبيذَ «بوردو»، فتهلّلَ وجههُ وتَحلّب فُوهُ، وطلب إليها أن تأتِيَهُ بالجيّدِ منه، فأتتْ له بما أرادَ، فملأ كأسَه وبدأ يشربُ ويتغنّى، وما هي إلّا لحظةٌ حتّى قال لكرستيان: الآنَ أستطيعُ أن أبقى معكَ قليلًا أيّها الصديقُ الكريم.

وفي تلك اللحظةِ دخلَ القاعةَ رجلٌ قصيرٌ ضخمُ الجثّة غريبُ الهيئة في ملابسِ الطُّهاةِ وشمائلهم، فصرخ الجماهير حين رأوه: راجنوا! راجنو! فلم يَأْبَهْ لهم، ولم يَلْتَفِتْ إليهم، واندفعَ مُسْرِعًا إلى لينيير، وقال له بصوت متهدّج[٣] مضطرب دون أن يحيّيه أو يحيّي جليسه: ألم ترَ صديقنا سيرانو يا لينيير! قال: لا، وما لي أراك مضطربًا هكذا كأنك هاربٌ من معركة أو مأخوذٌ بجريمة. قال ما أحسَب إلّا أنّه سيحدُثُ الليلةَ في هذهِ القاعةِ حادثٌ عظيمٌ لا يعلم إلّا الله كيفَ تكون عاقبتُه.

فانزعج لينيير وقال: أيُّ حادثٍ تريد؟ قال: قد علمتُ الساعة أن سيرانو كان قد وَجدَ على الممثّلِ مونفلوري منذ أيّام في شأن من الشؤون لا أعلمه، فحكمَ عَليه بأنْ ينقطعَ عن التمثيل شهرًا كاملًا وهدده بالموت إنْ هو خالفَ أمرَهُ، وكنتُ أظنُّ أنَّ الرجل قد أذعن لهذا الحُكْم ضنًّا بنفسه وبحياته، ولكنّني رأيتُه الساعةَ واقفًا في حجرة الممثّلين يترنّم بقطعةٍ تمثيلية وأظنّ أنّه سيقوم بتمثيل دوره الذي اعتاد أن يمثله في رواية «كلوريز» وهو دور «ڤيدين» فإن فَعَلَ فقد وقعتْ الكارثةُ العظمى التي لا حيلةَ لنا ولا لأحدٍ من الناسِ في دفعها، وسيرانوا كما تعلمُ رجلٌ مخاطرٌ جريءٌ، لا يبالي بعواقب الأمور ولا يفكّر في نتائجها.

فقهقه لينيير ضاحكًا وقال: يا له من قاضٍ غريب! ويا له من حُكم عجيب! هدّئ روعَكَ يا

---

(١) المقيل: هنا بمعنى اللجوء وأصلها في القيلولة وهي استراحة المسافر.

(٢) اليد: هنا بمعنى النعمة.

(٣) متهدّج: مرتجف.

صديقي، فالأمرُ أهونُ ممّا تظنّ، فربّما لا يحضُر سيرانو أو لا يمثل مونفلوري فلا يقع شيء من المكروه الذي تتوقّعه.

ثمّ التفتَ إلى كرستيان وقال له: أقدم اليك المسيو راجنو طاهي الشعراء والممثلين وهو اللّقب الذي اختارَه لنفسِهِ وعُرفَ به بين الناس جميعًا، لأنّه صديقُهُمْ المخلصُ الذي يحبّهم ويكرّمهم ويذودُ عنهم ويفتحُ لهم بابَ مطعمِه على مصراعيه يأكلون منه ما يشتهونَ، ويشربونَ ما يقترحونَ، لا يتقاضاهم على ذلك أجرًا سوى قصيدةٍ من الشعرِ يُملونها عليه، أو قطعةٍ تمثيليّةٍ يمثّلونها بين يديه، أي أنّه يملأ لهم أفواههم طعامًا، فيملأون له أذنيه كلامًا، والأذن كما تعلم ليست طريقًا إلى المعدة كالفم.

وهو فوقَ ذلكَ شاعرٌ متفنّنٌ مطبوعٌ ينظمُ أكثرَ شعرِهِ في وصفِ فطائرِهِ وحلواهُ، فانحنى راجنو بين يديْ كرستيان وقال: نعم يا سيّدي إنّني صديقُ الشعراءِ والممثلينَ، بل عبدُهُمْ ومولاهم، وصنيعةُ فَضْلِهِمْ وإحسانِهم، وإنّ ساعةً أقضِيها في حضرتِهِمْ أسمعُ طرائفَ أشعارِهم، وبدائعَ فصولهم، لَهِيَ عندي ساعةُ الحياةِ التي لا أعدِل بها ساعةً غيرها. فشكرَ له كرستيان فضلَهُ وأدبَهُ وأثنى خيرًا على شَرَفِ عواطِفِه واكتمالِ مروءَته.

وما هي إلا كرّةُ الطرفِ أنْ عاد إلى راجنو قلقُه واضطرابُه وأخذ يَدُورُ بعينيه في الجماهير يفتّش عن سيرانو فقال له لينيير: إنّه لم يحضُرْ حتّى الآن، وها هو الوقّادُ قد بدأ في إشعال المصابيح وها هو السِتّارُ قد أوشكَ أن يرتفعَ وما أظنه حاضرًا بعد ذلك.

«سيرانو»

وكانَ رجلٌ من الأشرافِ اسمُهُ المركيز دي جيجي جالسًا على مَقْرُبَةٍ منهم يسمعُ حديثَهم ويُنْصِتُ لِحوارهم، فوضع يدَهُ على كَتف راجنو فالتفت راجنو إليه فقال له: أتستطيعُ أن تخبرني من هو سيرانو هذا الذي تتحدثون عنه؟ فهزّ راجنو رأسه كالمستغرب وقال له: إنّي لأعجب لأمرك يا سيّدي، فهي أوّل مرة سمعت فيها أنّ إنسانًا في العالم لا يعرف السيّد سيرانو! قال: إنّي أعرف عنه شيئًا قليلًا، وأريدُ أن أعلم أنبيلٌ هو أم صُعلوك؟ قال إنْ كنتَ تريدُ من النُبلِ شيئًا غيرَ الشرائطِ والأوسمةِ والذهبِ والفضّةِ والحريرِ والديباجِ فهو أنبلُ النبلاءِ وأشرفهُم، لأنّه جنديٌ شجاعٌ، جريء في مواقفِه ومشاهِدِه، صادقٌ في قولِه وفعلِهِ، لا يحابي ولا يجاملُ، ولا يتذلّلُ ولا يتزلّفُ، ولا يخضعُ في شأنٍ من شؤونِ حياتِه إلّا للحقّ الذي يعبدُه ويدينُ له، ولو عرفتَه يا سيّدي، لعرفتَ أفضلَ النّاسِ خُلقًا، وأشرفَهُم نفسًا، وأطيبَهُم قلبًا، وأشدَّهُمْ عطفًا على البؤساء والمنكوبين.

وهو فوق ذلك شاعرٌ مجيدٌ، وعالم فاضلٌ، وناقدٌ بارع. أمّا شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها، حتّى لو أرادَ مصوّرُنا العظيم «فيليب دي شامپيني» أن يرسمه كما هو لعجزَ عن ذلكَ أو كادَ، فإنّ الناظرَ إليه لَيَعْجَبُ كلّ العجبِ لمنظرِ قبّعتِهِ المحلّاة بالريشاتِ الثلاث، وردائه الملوّنِ الجميلِ، وقبائِهِ الواسعِ المسدّسِ الأطرافِ الذي يرفعُ مؤخّرَه بطرفِ سيفِهِ ثمّ يمشي به

مختالًا كأنّه طاووسٌ يجرّ ذَنَبَهُ وراءَه. وله أنفٌ هائلٌ جدًا لا يراه الرائي حتّى يُذْعَر ويرتاعَ ويقفَ أمامه مدهوشًا منذهلًا يعجب لصاحبه كيف استطاع أن يحمله في رقعة وجهه وكيف لا يلتمس السبيل إلى الخلاص منه. أما هو فراضٍ عنه كل الرضا، لا يشعرُ بِثِقْلِهِ، ولا يفكّر في الخلاص منه بحال من الأحوال، والويل كلّ الويل لمن يرفعُ نظره إليه أو تختلجُ شفتاه بابتسامةِ العجَبِ منه أو السخرية به، فإنّ رأسَهُ يطيرُ بضربة واحدة من حَدّ سيفه.

فقال له المركيز: كيفما كان الأمر فإنّني أستطيع أن أقولَ لك وأنا على ثقةٍ ممّا أقول: إنه أعجزُ من أن يمنعَ مونفلوري عن التمثيلِ بل هو لا يحضُر الحفلَة الليلةَ فرارًا من وعيدِه الكاذب، فقال راجنو: وأنا أراهنُ على حضورِه بدجاجةٍ مشويّةٍ من مطعم «راجنو» الشهير، ولا أرزؤكَ دانقًا[١] واحدًا إن أنا ربحتُ الرّهانَ. ثمّ أدارَ ظهره إليه وجلسَ يتحدّثُ إلى لينيير وكرستيان.

وإنّه لكذلك إذ لمح رجلًا مقبلًا على البُعْدِ، فقال لصاحبيه: ها هو المسيو «لبريه» صديق السيد سيرانو الحميم، فائذنا لي بالذهاب إليه علّني أستطيعُ أن أعلمَ من شأنه شيئًا، ثمّ تركهما وذهب إليه، فرآه يقلّب نظره في الجماهير ويلتفتُ يَمنة ويَسرة فقال له: لعلّك تفتّش عن سيرانو أيّها الصديق؟ قال: نعم، وإنّي قلق من أجله جدًا، قال: قد فتّشتُ عنه قبلك فلم أجدْه، ثم انتحى به ناحية من القاعة وجلسا معًا يتحدثان.

«روكسان»

وهنا ظهرتْ روكسان في مقصورتها، فضجّ الجمهورُ حين رآها ضجيجَ السرورِ والابتهاج، وصاحَ أحدُ الأشرافِ الجالسين على المسرح: آه يا إلهي! إنّ جمالها فوق ما يتصوّرُ العقلُ البشريّ، وقال آخر: إنّها زهرة تبتسمُ في أشعة الشمس، وقال آخر: إنّها روضةٌ يانعة[٢] يحمل النسيم ريّاها العطر إلى القلوب فينعشها، وكان كرستيان مشغولًا بأداء ثمن الشراب الذي شربه لينيير، فلم ينتبه إليها.

ثم التفت فرآها فارتعد واصفرّ وجهُه وأخذَ بيد لينيير وقال له: ها هي ذي فقل لي من هي؟ إنّني خائف جدًّا يا صديقي، فضَعْ يدكَ على قلبي فما أحسبُ إلّا أنّه يحاول الفرار من مكانه رهبةً وجزعًا، حدّثْني عنها واذكُرْ لي كلَّ ما تعلمُ من أمرها، وارفُقْ بي في حديثك، حتّى لا تقضيَ على الأمل الوحيد الباقي لي في حياتي.

فقهقه لينيير ضاحكًا وقال له: بخٍ بخٍ[٣] لك يا كرستيان، لقد أحسنتَ الاختيار لنَفسك كلّ الإحسانِ، وما أحببتَ إلا أجملَ فتاةٍ في فرنسا، فإن كان صحيحًا ما تقول من أنّها تمنحك من ودّها مثل ما تمنحها وأنّها تنظرُ إليك بمثل العين التي تنظر بها إليها فأنت أحسنُ الناسِ حظًا، وأسعدهم طالعًا.

---

(١) الدانق: سدس الدرهم. (٢) يانعة: ناضجة.

(٣) بخ، بخ: عبارة تدلّ على الاستحسان.

إنّها السيدة مادلين روبان الشهيرة بروكسان، وهي فتاةٌ عذراءُ يتيمةٌ لا أهلَ لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيرانو دي برْچراك الذي كانوا يتحدثون عنه الآن، وهي على فَرْط جمالها وكثرةِ محاسنها عفيفةٌ طاهرةُ الذيلِ عاقلةٌ رزينةٌ تجلسُ إلى أذكياء الرجال وتحادثهم وتفتتن بتصوراتهم وأفكارهم، وتخوضُ معهمْ في كلّ شأن من شؤون الحياة حتّى شأن الحب، ولكنها لا تأذن لأحد أن يحبّها أو أن يعبث بقلبها، فإن حاولَ ذلكَ منهم محاولٌ دافَعَتْهُ عنها برقّة وأدب ورفق وحكمة فسلم لها شرفُها وكَرَمُها.

ولا عيبَ فيها إلّا أنّها من فريقِ الأديباتِ المتحذلقاتِ اللواتي أفسدَ الأُدباءُ المتحذلقونَ أذواقَهنّ الأدبيّة، فذهبنَ مذهبَ التكلّفِ والتعمُّلِ في أحاديثهنّ وحِوارِهنّ، فلا ينطقنَ بكلمةٍ صريحةٍ خاليةٍ من التشابيهِ والمجازاتِ والإشاراتِ والكنايات، ولا يواجِهْنَ المعاني التي يُرِدْنَ الإفضاء بها إلى السامعينَ مواجهةً بل يَدُرْنَ حولَهَا دوراتٍ كثيرةً حتّى يصلَن إليها، فإذا أردنَ أن يقلنَ في أحاديثهن العادية: أشرقَتِ الشمسُ قلنَ «ذرّ قرنُ الغزالةِ» أو: أقبلَ الليلُ، قلنَ «هجمَ جيشُ الظلامِ» أو: طلعتِ النجومُ، قلن «تَجَلَتْ عروسُ الزنج في قلائدها الدريّة» أو: ها هو ذا الكرسيّ فاجلِسْ عليه، قلن «ها هو ذا الكرسيّ يفتحُ ذراعيهِ لاستقبالِكَ فتفضّلْ بإلقاءِ نفسِكَ بين أحضانه» أي أنّهنّ لا يعجبهنّ من الألفاظِ الّا المتكلّفُ المصنوعُ ولا من المعاني إلّا المجلوبُ المغتصبُ ولا من الشعراء والكتّابِ إلّا المتكلّفونَ المتشدِّقونَ في أساليبهمْ وتصوراتهمْ.

وهي سَعيدةٌ في عيشها مُغْتبطةٌ بحياتِهَا، لا ينغّصُ عليها صفوَهَا غيرُ هذا الرجلِ الهمجيّ المتوحّشِ الذي تراه واقفًا بجانبها الآن، فالتفتَ كرستيان فرأى رَجُلًا رشيقًا متأنقًا حَسَن الزيّ والهندام متّشحًا بوشاح حريريّ أزرقَ، متقلدًا سيفًا عسكريًا مرصّعًا قد أسنَدَ ذراعَهُ إلى ظهر كُرسِيّها كأنه يحتضِنُها، وظلّ يحادثُها بصوتٍ منخفضٍ كأنّه يسارّها ويناجيها.

فقالَ لهُ وهو يرتجفُ غيظًا وحنقًا من هذا الرجل؟ وكان لينيير قد ثقل وبدأ يتمتم ويتلعثم فقال بنغمة الفأفاء[١]: إنّه الكونت دي جيش أحدُ قوّادِ الجيش الفرنسي وصهرُ الكردينال دي ريشلييه وزير فرنسا العظيم، وقد أحبّ روكسان وأغرم بها غرامًا شديدًا، ولمّا رأى أنْ لا سبيلَ له إليها من طريق المخالّة[٢] لأنّها شريفةٌ مترفّعة، ولا من طريقِ الزواج لأنه متزوج بابنة أخت الكردينال أراد أن يزوّجها من رجل ساقط من أشياعه لا تحبه ولا تأبه[٣] له اسمه الفيكونت «ڤالڤير» طمعًا في أن ينالَ منها من طريقة ما لم ينلْ من طريقٍ آخر.

فهالها الأمر وتعاظَمَها وأبتْ أن تُذعِنَ لرأيه أو تنزلَ على حكمه، ولكنّه لا يزالُ يلحُّ عليها ويضايقها وهي تدافعه عنها بلطف وأدب وحذر واحتياط، وأخافُ إن استمرّتْ هذه الحال أن

(١) فأفأ: أكثر الفاء في كلامه وظلّ يرددها فهو فأفاء.

(٢) المخالة: المصاحبة من الخلة بالكسر أي الصداقة.

(٣) أبه بالشيء: احتفل به.

ينتهيَ بها الأمر إلى الخضوع والاذعان، لأنّ الرجلَ قويّ جريءٌ مُدِلٌّ بمكانه من قيادة الجيش وبحظوته عند الكردينال، وليس في أنحاء المملكة جميعها من يجرُؤ على التفكير في مشادّته أو الخلاف عليه. ولقد أثّرت هذه الحادثة في نفسي تأثيرًا شديدًا وأشفقتُ على تلكَ الفتاةِ المسكينةِ أن يستبدّ بها وبمستقبلها رجلٌ جائرٌ متوحّشٌ كهذا الرجلِ.

فنظمتُ قصيدةً رنّانةً شرحتُ فيها قصّته معها وهجوتُهُ فيها هجاءً مرًا لا أحسَبُ أنه يغتفره لي مدى الدهر، وإن شئتَ أن تسمعَ هذه القصيدةَ فهاكها؛ وكان الشرابُ قد نال منهُ أقصى مناله فنهضَ قائمًا على قدميه، وأخذ يصوّب إلى الكونت نظرةً هائلة مخيفة ورفع الكأس بيده وحاول أن يتغنّى بقصيدته فأسكته كرستيان وقال له: لا تفعل فإنّي ذاهب. قال إلى أين؟ قال: أفتش عن ڤالڤير. قال: ماذا تريد منه؟ قال: أقتله، قال: إنّي أخاف عليك منه لأنه أقوى منك، وربّما قتلك، قال: لا أبالي بالموتِ في سبيلها، قال: انظر ها هي ذي تنظر إليك، وتحدّقُ فيك تحديقًا شديدًا فلا يَشغلك شاغل عنها، أما أنا فإنّي ذاهبٌ لشأني فإنّ أصدقائي ينتظرونني في الحان ولا خير لي في الكأس من دونهم، فائذنْ لي بالذهاب.

فأذن له فانصرفَ. وظلّ هو شاخصًا إلى مقصورة روكسان يبادلها نظرات الحبِّ والشغفِ ويفضي إليها من طريقِ الصمتِ والسكونِ بما عجز عن الإفضاء به من طريق الكلام. وكان الكونت دي جيش قد نزل من مقصورتها ومشى في القاعة يحفّ به جمع عظيم من حاشيتِهِ وأصدقائِهِ يتملّقونَهُ ويدهُنونه، وحسّادُه ومنافسوه من نبلاءِ القومِ وأشرافِهِمْ يتغامزونَ عليه فيما بينهم، ويرمونه بنظراتِ الحقدِ، والحرد، ويسمّونه القائد المغرور مرّة والجاسكونيَّ الكذاب أخرى، حتّى إذا مرّ بينَ أيديهِمْ نهضوا له إعظامًا وإجلالًا وانحنَوْا بين يديه وداروا به يصانعونه ويماسحونه حتّى بلغ مكانَ المسرح، فصعدَ إليه هو وأتباعه وجلس على كرسيّه المعدّ له، ثمّ التفت حوله وقال: أين الفيكونت ڤالڤير: فأجابه: ها أنذا يا سيّدي، قال: تعال بجانبي لأحدّثَكَ قليلًا.

وكان كرستيان واقفًا مكانه ينظرُ إليه على البعد نظراتِ الحقدِ والموجدة، فما سمع اسمَ ڤالڤير حتّى ثار ثائرهُ، وغلى دَمُه في رأسه، وعلمَ أنّه قد وَجَد خصمه، فوثبَ من مكانه وثبة عُظمى وصاح ها قد عرفتُه وسألطمه بقفّازي على وجهه لطمة هائلة، ووضع يده في جيبه ليخرج قفازه منه فدُهِشَ حين عثرتْ يده فيه بيدٍ أخرى غريبة فقبضَ عليها بشدّةٍ والتفت وراءه فإذا لصٌّ قبيح المنظر زريُّ الهيئة يحاول سرقته، فصاحَ فيه: من أنتَ وماذا تريد: فتضعضع الرجل واستخذى واستُطيرَ عقلُهُ خوفًا ورعبًا.

ثمّ ما لبث أن عاد إلى نفسِهِ واستجمَعَ قواه وقال له: عفوًا يا سيدي، فإنّي ما أردتُ سرقتك، وإنّما هو تمرين بسيط، فقد تلقّيتُ الساعةَ أوّلَ درسٍ من دروس اللصوصيّةِ عن أستاذي «بوار» وقد بعثني إليك كما بعثَ غيري إلى غيرك لا لنسرقَكُمْ أو نَحُولَ بينكم وبينَ أموالكم، بل لنستوثِقَ من أنفسنا أننا قد حَذِقْنَا دروسَنَا واستَظْهَرناها، فاعْفُ عني واغتفر لي هذه الزلّة، واعلم أن في صدري سرًا هائلًا جدًا ينفعُكَ نفعًا عظيمًا أن أُفضِيَ به إليك، وهو

خيرٌ لكَ منّي ألف مرة. فضحك كرستيان طويلًا وقال: أيّ سرٍّ تريد: قال: إنّ صديقك الذي كان جالسًا معك منذ هنيهة وقد نسيتُ، اسمه الآن هو في الساعة الأخيرة من ساعات حياته إن لم تسرع إلى نجدته، قال: أتريد لينيير؟ قال: نعم، فدهش كرستيان وقال: لم أفهمْ ما تريدُ، قال: إنّه كان قد هجا منذ أيّام عظيمًا من عظماءِ هذا البلد بقصيدةٍ مقذِعةٍ[1] فحقدها عليه حقدًا شديدًا ورأى أن ينتقِمَ لنفسِهِ منه فأعدّ له مائة رجلٍ يكمنونَ لَهُ الليلةَ في جنحِ الظلامِ عندَ باب «نيل» في طريقه إلى منزله ليقتلوه، وأنا أحدُ أولئكَ الرجالِ، فأخرجِ الآنَ واطلبْهُ في الحاناتِ التي يجلسُ فيها، وهي «المضغطُ الذهبي» و«التّفاحَةُ الخشبيّةُ» و«الحزامُ الممزّقُ» و«المشاعلُ» و«الأقماعُ الثلاثة»، واتركْ له بطاقة في كلّ واحدةٍ منها لتنذِرَه بهذا الخطرِ الداهم، قال: ومنْ هو ذلك العظيم الذي دبّر له هذه المكيدة؟ قال: ذلكَ سرُّ المِهنة لا أستطيعُ أن أبوحَ به.

فضحكَ كرستيان وقال: لا حاجة بي إليك فقد عرفتُه، ثمّ خلّى سبيله، فذهب لشأنِهِ، والتفتَ هو إلى مقصورةِ روكسان فرآها ملتفتةً إليه لا تكادُ ترفعُ نَظَرَها عنه فألقى عليها نظرةً حزينةً وقال في نفسه: وا أسفاه! لا بدّ لي أن أتركها الآن، ثمّ ألقى على الفيكونت نظرةً ملتهبةً وقال: وأن أتركه أيضًا، لأنّي أريد إنقاذ لينيير. ثمّ تركَ الملعبَ وانصرَف ليفتّش عن صَديقه في تلكَ الحاناتِ الخمس.

«البطل»

بدأ الموسيقيّون يوقّعون على نغماتهم الرقيقةِ الشجيّةِ، وسكنتِ الجماهيرُ تنتظرُ رَفْعَ الستارِ، فهمس «لبريه» في أذن راجنو: تُرى هل يظهر مونفلوري على المسرح الآن؟ قال: نعم ما من ذلك بد، لأنّه صاحبُ الدورِ الأول في الرواية، ولأنه قد عَلِمَ أنّ سيرانو لا يحضر بعد الآن، وأظنّ أنّي قد خسرتُ الرهانَ، قال: فليكن، فقد كنت أتوقع من حضوره شرًا عظيمًا.

وهنا دق الجرسُ ثلاثَ دقاتٍ، ثمّ ارتفع الستارُ، فظهرَ مونفلوري على المسرح لابسًا ملابس راعٍ وعلى رأسه قبّعةٌ محلّاة بالورودِ مائلةٌ إلى أذنه، وفي يده أرغولٌ طويلٌ ينفخُ فيه، فصفّقَ له الجمهورُ تصفيقًا كثيرًا، فشَكَرهم بإيماءة رأسه، ثمّ أنشأ يمثل دور ڤيدين ويتغنّى بهذه القطعةِ «هنيئًا للذين يبتعدون عن قصورِ الملوكِ جهدهم، بل يعتزلونَ العالم بأسرِهِ ويفرّونَ منه إلى مكانٍ ناءٍ في منقطعِ العمران لا يرون فيه غير وجهِ الطبيعةِ الجميل. . .».

وهنا رنّ صوتٌ عظيم في جوانبِ القاعة يقول: «ألم أحرّم عليك التمثيل شهرًا كاملًا يا مونفلوري»؟ فدهش الجمهور وجمَدَ مونفلوري في مكانه والتفَت الناسُ يمنة ويسرةً يفتّشون عن صاحبِ الصوتِ أين مكانه، ووقفَ النساءُ في المقاصير ينظرنَ ماذا جرى، وهمس راجنو في أذن لبريه: قد ربحتُ الرهان يا صديقي فها هو سيرانو قد حضر، فقال لبريه: ليته لم يحضر، وليتك خسرت كلّ شيء.

وما هي إلّا لحظة حتّى ظهر سيرانو يتخطّى الرقّاب، ويدفع المقاعدَ بين يديع دفعًا ويزمجر

---

(١) الاقذاع: الشتم المؤلم.

زمجرةَ الرعدِ حتّى وصل إلى كرسيٍّ أمام المسرح فاعتلاه وهزّ عصاه الطويلة في وجه الممثل وقال له: اتركِ المسرحَ حالا يا أحقر الممثلين، وإلّا فأنتَ أعلمُ بما يكون، فسخطَ جمهورٌ من الناسِ سخطًا شديدًا وضجّوا من كلّ ناحية: مَثِّلْ يا مونفلوري، مَثِّلْ ولا تخف.

فتشجّعَ مونفلوري وعاد إلى التغنّي بقطعته: «هنيئًا للذينَ يبتعدونَ عن قصورِ الملوكِ جهدهم، بل يعتزلون العالم بأسره. . .» فقاطعه سيرانوا وصاحَ وهو يزأر زئير الليثِ: كأنّك تأبى أيّها الغبيُّ الأحمقُ إلّا أن أجعل ظهركَ مزرعةً لعصايَ هذه فأترك المسرح حالًا فقد أوشكتُ أن أغضبَ. فاحتدم الجمهور غيظًا وأخذوا يصيحون: صه أيها المجنون، مثّلْ يا مونفلوري، إنّه فضول غريب، إنّها سماجةٌ نادرة.

فعاد إلى الممثل هدوؤُهُ وسكونه، وعاد إلى التغنّي بقطعته «هنيئًا للذين. . .» فما نطق بأوّل حرفٍ منها حتّى وثب سيرانو من كرسيّه الذي كان واقفًا عليه إلى أقرب كرسي إلى المسرح وهزّ عصاه في وجهه وصاح: لا تمثل أيها الدبّ الهائل، ولا تنطق بحرف واحد، فإن فعلت ضربتك بعصايَ هذه على وجهك ضربةً لا تعرفُ من بعدها أين مكان أنفك منك، قد أمرتُكَ وليسَ في العالمِ قوّةٌ تستطيعُ أن تعترضَ أمري.

فطاشَ عقل مونفلوري وتلجلج لسانه والتفتَ إلى الأشرافِ الجالسينَ على المسرح من حوله وقال: النجدة يا سادتي، فنظر أحدهم إلى سيرانوا نظرة عظمة وكبرياء وقال له: كفى هذيانًا أيّها الفضولي الثرثارُ، فقد أزعجتنا بضوضائك وكدّرْتَ صفونا، والتفت آخر إلى الممثل وقال له: مَثّلْ يا رجل ولا تحفلْ بشيء فأنا أحميك، وقال آخر لقد تجاوز الحدّ هذا الوَقِح حتّى كادَ يفرغُ صبرنا.

فاتّجه إليهم سيرانو وأنشأ يخاطبهم بهدوءٍ وسكونٍ ويقول: يجب على حضراتِ السادةِ الأشرافِ أن يلزموا أماكنهم، ويحافظوا على حيدتهم، فإنّي أشعرُ أنّ عصاي تتلهّف شوقًا إلى التهام شرائطهم وأوسمتهم، فانتفضَ الأشرافُ غيظًا وتناهضوا للقيامِ، وهاجَ الجمهورُ هياجًا شديدًا وأحاط جمع عظيم منهم بكرسيّ سيرانو وأخذوا يصيحونَ في وجهه ويولولون، ويقلّدون أصوات الحيوان كالدّيك والهرّ والكلبِ والحمارِ.

فاستدار نحوهم سيرانوا وألقى عليهم نظرةً هائلةً مخيفةً فتراجعوا قليلًا إلّا أنّهم ظلّوا مستمرّين في هياجهم، وضوضائهم، وأخذوا يغنّون بصوتٍ واحد أنشودة هزليّةً يقولون فيها: «برغمك يا سيرانو ستمثل رواية كلوريز، برغمك يا سيرانو سيمثل مونفلوري» يكررونها مرارًا.

فاستدار إليهم ثانية وزمجر في وجوههم وصرخَ فيهم صرخةَ هائلة وقال: ألا تستطيعون أيّها السفلةُ الأوغادُ أن تتركوا سيفي هادئًا في غمده ساعة واحدة، لا أحبّ أن أسمعَ منكم هذه الأنشودةَ مَرّةً أخرى وإلا حطّمتُكُمْ جميعًا، فقال له أحدهم: إنّك لستَ بشمشمون الجبّار الذي ضرب جمعًا عظيمًا من الناس بفكّ كلبٍ فَقَتَلَهُمْ، فالتفت اليه وقال له: أستطيعُ أنْ أكونَ مثله لو أنّك أعرتني فكّكَ يا هذا.

ثمّ التفت إلى مونفلوري فرآه لا يزال واقفًا في مكانه فقال: يا للعجب، إنه لم ينفّذ أمري حتّى الآن، إنّه يأبى إلّا أن أجعلَ هذا المسرحَ مائدة أُشرّحُ عليها لحمه تشريحًا. فعادَ مونفلوري إلى استنجادِهِ واستصراخِهِ وظلّ يقول: النجدةَ النجدةَ، الغوثَ الغوثَ، فازدادَ غَضَبُ الجمهور وهياجُهُمْ وأحاطوا بكرسيِّ سيرانوا من كلّ ناحيةٍ وأخذوا يهدّدونه وينذرونه بالويل والثبور، وعادوا إلى الترنّم بأنشودتهم الأولى وتقليدِ أصواتِ الحيوان.

فاستدار إليهم فجأةً، ثمّ وثب من كرسيّه إلى الأرض وتقدّم نحوهم بعصَاهُ فتقهقروا بين يديهِ حتّى اتّسعتِ الدائرةُ من حوله اتّساعًا عظيمًا، فصاحَ فيهم: إنّي آمركم جميعًا أن تسكتوا، لا ينطق أحد منكم بحرفٍ واحدٍ بعد الآن، إنّي أعرفُ صُوَر وجوهكم جَميعها فليسَ في استطاعةِ واحدٍ منكم أنّ يُفلِتَ من يدي، من ذا الذي يريد أن يكون أوّلَ ناطقٍ ليكون أول قتيل؟

ثمّ مرّ بهمْ يتصفّحُ وجوهَهُمْ واحدًا فواحدًا ويقول: مَنْ ذا الذي يريدُ؟ أأنتَ أيّها الفتى؟ أم أنتَ أيها الكَهْلُ؟ أم أنتَ أيّها الشيخُ الهَرِمِ؟ مَنْ منكم يجب أن يكونَ اسمُه أوّل اسم في جريدة الأموات؟ لم يجبني أحدٌ بحرفٍ واحدٍ، ما سكوتكُم؟ أجَبُنْتُمْ؟ ما لَكُمْ تَفرّونَ من وجهي! قَلّدوا أصواتَ الحيوانِ، غنّوا الأُنشودةَ الباردةَ. أرى صمتًا عميقًا وسكونًا سائدًا، لا حَرَكَة ولا إشارةَ، أظنُّهُمْ قد ماتوا من شدّةِ الخوفِ، الآنَ أستطيعُ أنْ أستمرَّ في عملي.

ثمَّ اتّجهَ إلى المسرحِ وأنشأ يقول بصوتٍ خشنٍ أجشّ: أيّها الأشرافُ، أيّها الغوغاءُ، أيّها الرجالُ، أيّتها النساءُ، لا أريدُ أن أرى على جسم المسرحِ هذا الدمّل القذرَ الخبيثَ، فإنْ لم ينفجْر من نفسِهِ فجَّرْتُهُ بهذا المِبضعِ القاتلِ، ولا أحبُّ أنْ يَعترضَ أحدٌ منكُمْ إرادتي أو أخذتُ البريءَ بذنبِ المجرمِ والجارَ بذنبِ الجارِ. ثمّ وضع يده على مقبضِ سيفِه وقد استحالْت صورَتُه إلى صورةِ وحشٍ هائلٍ قد كشّرَ عن أنيابِه للفتك بكلّ من يدنو منه.

فسكنَ الجمهورُ سكونًا عميقًا لا نأمة[1] فيه ولا حركة، فقالَ مونفلوري بصوتٍ خافتٍ متقطّع: إنّك بإهانتك إياي يا سيّدي قد أهنت الإلهة «تالى» قال: لا شأن لك بتلك الإلهة أيّها الأحمق المأفون[2]، لأنّها إلهة التمثيل لا إلهةُ السخافاتِ، ولو أنّها شاهدتْ موقفَك هذا وأنتَ تمثّلُ بهذا الجسم الضخمِ الغليظِ وهذه الحركاتِ الباردةِ الثقيلة لتناولتْ مني عصايَ هذه وضربَتْكَ بها على أحقرِ عضوٍ في جسمك.

وهأنذا أُصفّقُ ثلاثَ مرّاتٍ، وعندَ التصفيقة الثالثةِ لا بدّ أنْ تتلاشى مِنَ المسرحِ يا رأسَ الثور، أسمعتَ؟ فحاولَ مونفلوري أن يتكلّم، فصفَّقَ سيرانو التصفيقة الأولى، فطارَ قلبُ الممثّل فرقًا[3] ورعبًا. وظلّ يقلّبُ نظرَه في الجماهيرِ فلم يجدْ بينهُمْ مُعينًا ولا ناصرًا، فأنشأ يقولُ بصوتٍ مرتعدٍ: سادتي... سادتي... أيرضيكمْ أنْ أُهانَ في حضرتكم وأنْ يُهانَ الفَنُّ

(١) النأمة: الصوت. (٢) المأفون: الضعيف الرأي.

(٣) الفرق: الخوف.

على مرأى منكم ومسمع؟ فصفّقَ سيرانو التصفيقة الثانيةَ، فاشتدّ اهتمامُ الجماهيرِ وتطالّتْ أعناقُهُمْ، وتحوّلوا من الهياج والغضبِ إلى الاهتمامِ بمعرفةِ النتيجةِ، وأخذَ بعضُهُمْ يهمسُ في أذن بعضٍ بأمثالِ هذه الكلمات: سيبقى، سيخرجُ، سيجبنُ، سيقاومُ، لا يستطيعُ البقاءَ، لا يليقُ به الفرارُ، فحاولَ مونفلوري أن يقولَ شيئًا آخرَ ولكنَّه سمعٌ التصفيقَةَ الثالثةَ فاختفى منَ المسرحِ كأنّما قد غاصَ في مهوًى عميقٍ.

فهتفَ الجمهورُ لسيرانو هتافًا عظيمًا إلّا بضعةَ أفرادٍ قلائلَ، لا بل أخذَ الكثيرُ منهم يسبُّ الممثّلَ ويشتمه ويسخرُ منه. وجلسَ سيرانو على كرسيّه جلسةَ الفائز المنتصر، فتقدّمَ نحوع فتًى من المتفرّجينَ وقال له: أتأذن لي يا سيّدي أن أسألَكَ ما هو السببُ في بغضك مونفلوري؟ فصمت سيرانو لحظة ثمّ ألقى عليه نظرةً باسمةً هادئة وقال له: عندي لذلك سببان:

أولهما، قبحُ تمثيله ورداءةُ حركاته، وأنَّه يغنّي الشعر العذبَ الرقيقَ بصوتٍ مأخوذ مختنقٍ فيفسده على صاحبه وينغّصه على الناس. أمّا السبب الثاني، هو سرِّي الخاص الذي لا يمكنني أن أبوحَ به لأحد. فتقدّم نحوه فتًى آخرُ وقال له: ولكنّكَ حرمتَنَا على كلّ حالٍ مشاهدةَ رواية «كلوريز» وما كنا نؤثر ذلكَ ولا نرضاهُ، قال: أظنُّ أنّي لم أحرمْك شيئًا نفيسًا أيّها الفتى، فإنّ نَظْمَ «بارو» كنثره كلاهما باردٌ غثٌّ لا يساوي شيئًا، ولذلك قد كفيتُكُم وكفيتُ نفسي مُؤونَة سماع روايته السخيفة غير آسفٍ عليها.

فصاحتُ فتاةٌ في المقاصير: من ذا الذي يعيب شاعرنا بارو؟ أيستطيع أحدٌ أن يجرُؤَ على ذلك؟ وتكلمتْ فتياتٌ أخريات بمثل كلامها، فرفعَ سيرانو نظرَهُ إلى المقاصير وأنشأ يخاطبهنّ ويقول: لَكُنَّ يا سيّداتي، أن تكنّ جميلات رائعات كما تشأنَ، وَلَكُنّ أن تختلبنَ الألباب وتستلبنَ العقول بحسنِكُنّ ودَلّكُنّ، ولَكُنَّ أن تبتسمن الابتسامات اللامعة البديعة التي تضيءُ بنورِهَا ظلماتِ هذه الحياة، ولَكُنَّ أن تبعثنَ السعادةَ والغبطةَ والسرورَ والبهجةَ في نفوسِ الناسِ جميعًا فَيَحْيَوْا بفضلِكُنّ في هذا العالم حياةَ المسرّةِ والهناء، ولكُنّ أن توحين روح الشعر إلى الشعراء وتملينها عليهم بسحركنّ وفتنتكُنّ فيستطيعوا أن يطيروا بأجنحتهم في أجواء السمواتِ العلا وَيُشْرِقُوا منها على الدنيا ومن فيها شموسًا وأقمارًا. لكُنَّ كل هذا، ولكِنْ ليس لَكُنّ أن تجلسنَ في محكمة الشعر لتحكُمْنَ في قضية الشعراء.

وكان «بلْروز» صاحبُ الحان واقفًا على مقربة منه فقال له: وما رأيكَ يا سيّدي، في المال الذي خسرتُهُ الليلةَ بسببكَ؟ قال: هذه هي الكلمةُ الوحيدةُ المعقولةُ التي سمعتها الليلة في هذا المكانِ. ثمّ ضرب يده في جيبه وأخرجَ منه كيسًا مملوءًا فضّة، ورمى به إليه، فتهلَّل بِلْروز فرحًا وابتهاجًا وقال له: بمثل هذا الثمن آذن لك يا سيدي، بالحضور كلّ ليلة وبتعطيل ما تشاء من الروايات. ثم التفت إلى المتفرجين وقال لهم: قد انتهى التمثيل يا سادتي فهيّا جميعًا إلى الباب لتستردوا نُقُودَكم.

«الأنفيات»

وهنا تقدّم رجلٌ زريٌّ[1] الهيئة قَذِرُ المنظرِ تلوحُ على وجهه سماتُ المهانة والضَعَةِ ممزوجةً بالوقاحةِ والسَماجة وقال له بصوت خشنٍ أجشّ: لا يقفُ موقفَكَ هذا يا سيّدي، ولا يجرُؤ على مثل ما جرُؤتَ عليه إلّا أَحَدُ رجلين: أمّا عظيمٌ، أو صنيعةُ رجلٍ عظيم، فهل لك أن تخبرني من هو مولاك الذي أنت صنيعته؟ فعجب سيرانو لأمره وظلَّ يردّد نظره فيه ساعة ثمّ قال له: ما أنا بصنيعه أحدٍ أيّها الرجلُ. قال: أليسَ لكَ سيّدٌ يحميكَ ويرعاكَ؟ قال: لا، قال: ألا تلجأ في ساعاتِ شدّتك وحرجك إلى نبيل من نبلاء هذا البلد أو أميرٍ من أمرائه يُسْبِلُ عليك سِتْرَ حمايته، قال: قلتُ لك «لا» مرّتين، فهل ترى حتمًا لازمًا أنْ أقولها لكَ مائة مرّةٍ لتفهمها؟

ثمّ وضع يده على مقبض سيفه وقال: ليس لي حامٍ ولا سيّدٌ غيرُ هذا، فقال: إذنْ لا تطلعُ عليكَ شمسُ الغدِ حتّى تكونَ قد شددتَ رَحْلَكَ وتزوّدْتَ زادَكَ وغادرتَ باريس إلى بلدٍ ناءٍ لا رجعةَ لك منه أبَد الدهرِ. قال: لماذا؟ قال: لأنّ مونفلوري الذي أهنتَهُ الليلةَ صنيعةُ رجلٍ عظيمٍ هو الدوق «دي كندال» وذراعُ هذاالرجلِ طويلة جدًا تتناولُ أبعدَ الأشياءِ ولو كانت في قرن الشمس.

قال: ولكنّها ليستْ أطولَ من ذراعي حين أَصِلُها بسيفي. . . قال إنّكَ لا تستطيعُ أن تزعَمَ في نفسكَ أنّكَ. . . فقاطعه سيرانو وصاح: أستطيعُ أنْ أزعَمَ كلّ شيءٍ أيّها الفضوليّ الثرثار، فاغربْ من وجهي واطلب لنفسك طريقَ الخلاص منّي. فظل الرجلُ جامدًا مكانَه يحدّقُ فيه تحديقًا شديدًا لا يَطرفُ ولا يتحرّكُ فانفجر سيرانو غيظًا وانقضَّ عليه وأخذ بتلابيبه[2] وقال له: اخرجْ من هنا حالًا أو حدّثني ما لي أراكَ تنظرُ إلى أنفي هذه النظرةَ المريبَة؟ فصعق الرجلُ في مكانه وظلّ يرتعدُ بين يديهِ وكان يعلمُ كما يعلمُ الناسُ جميعًا أنّ سيرانو لا يغضبُ لشيء من الأشياءِ غضبَهُ لأنفِهِ ولا ينتقمُ لشيء انتقامَه لهُ وقال: أنا يا سيّدي! قال نعم أنتَ فما الذي تراهُ غريبًا فيه؟ قال إنّكَ واهمٌ يا سيّدي، فإنّني وأقسم لكَ، ما فكّرْتُ قطّ في شيء ممّا تقولُ، قال: أتراه رخوًا متهدّلًا كخرطوم الفيل؟ قال: لا يا سيّدي، قال: أو محدودبًا كمنقارِ البومَة؟ قال: لا يا سيّدي، قال: أو يُخَيّلُ إليكَ أنّ أرنبته دملٌ كبيرٌ يزعِجُكَ منظرُه؟ قال: أبدًا يا سيّدي، ما فكّرْتُ في ذلكَ قطّ، قال: أو يتراءى لكَ أنّ الذُبابَ يمشي متزلّقًا فوقَ تضاريسِه؟ قال: لا يا سيّدي، لم يَخطُرْ ببالي شيءٌ من ذلكَ، وأقسِمُ لكَ، قال: أتراه أعجوبةً من أعاجيبِ الدهرِ أو فلتةً من فلتاتِ الطبيعةِ؟ قال: لا يا سيّدي، لا هذا ولا ذاك، قال: أترى لونَهُ مضرًّا بالنظرِ أو وضعَه خارجًا عن الحدّ أو شكلَهُ مخالفًا للآدابِ العامّة؟ قال: آه يا إلهي! إنّني لم أسمحْ لنفسي بالنظرِ إليه مطلقًا، قال: وَلِمَ لا تسمحُ لنفسِكَ بالنظر إليه، أتشمئزّ منه؟ قال: أبدًا يا سيّدي وأقسِمُ لكَ، قال: أهو في نظرِكَ كبيرٌ جدًا إلى هذا الحدّ؟ قال: لا بلْ صغيرٌ جدًّا لا أكادُ أشعرُ به، قال: أتهزأ بي أيّها الرجلُ؟ قال: عفوًا يا سيّدي، فإني لا أدري

---

(١) زريّ الهيئة: قبيح المنظر.

(٢) تلابيب القميص: أطواقه.

ما أقول، قال: وهل تظنّ أيّها الغبيّ الأحمقُ أنّ الأنفَ الصغيرَ مفخرةٌ من المفاخِرِ التي يعتز بها صاحبها؟

نعم إنّ أنفي كبيرٌ جدًا لا يكبرُه أنفٌ في هذا البلد، وذلك ما أفخرُ به كلّ الفخرِ، لأنّ الأنفَ الكبير عنوانُ الكرم والشرفِ والشجاعةِ والشممِ، وأنا ذلك الذي اجتمعتْ له هذه الصفاتُ جميعُها. أمّا الوجه الكرويّ الأملسُ المجرّدُ من هذا العنوانِ الشريفِ كوجهك هذا فلا يستحقّ غير اللطمِ.

ولطمه على وجهِهِ لطمةً هائلةً، ثم وَكَزَهُ برجله، ففرّ الرجلِ هاربًا من بين يديه وهو يصيح: النجدةَ النجدةَ! فعاد سيرانو إلى مكانه وجلسَ على كرسيه مفتخرًا معتزًّا وظلّ يقول، هذا إنذار منّي لجميع الفضوليين الثرثارين الذين يحاولونَ أن يهزأوا بهذا الموضع الناتئ في وجهي أن لا يفعلوا، فإن حدثَتْهُمْ نفوسُهم بشيء من ذلكَ سواءٌ أكانوا مِنَ الغوغاءِ أم النبلاء، فليَعْلموا أنّني لا أسمحُ لهم بالفرار من يدي كما سمحتُ لهذا الجبان الرعديد قبل أن أغرسَ ذُباب سيفي في سويداءِ قلوبهم.

فانتفضَ الأشرافُ غيظًا وثاروا من أماكنهم، وقالَ الكونت دي جيش: يخيّلُ إليّ أنّ الرجلَ قد بدأ يضايقنا، ثمّ انحدر من المسرح تتبعُهُ حاشيتُهُ حتّى دنا من سيرانو والتفتَ إلى أصحابه وقال لهم: ألا يوجَد بينكم من يصلحُ لمقارَعةِ هذا الرجل؟ فقال الكونت ڤالڤير: أنا صاحبه يا سيّدي، فانتظرْ قليلًا فإنّي سأفوّقُ[1] إليه سهمًا لا قِبَلَ له بالنجاةِ منه.

ثمّ تقدّمَ نحو سيرانو، وهو جالس على كرسيّه جلسةَ العظمةِ والكبرياءِ وظلّ يردّد النظرَ في وجهه طويلًا ثمّ قال له: إن أنفك أيها الرجلُ قبيحٌ جدًا. فرفع سيرانو نظره إليها بهدوء وسكون ثمّ قهقه قهقهةً طويلةً وقال: ثمّ ماذا؟ قال: لا شيء سوى أن أقول لكَ مرّة أخرى: إنّ أنفَكَ أعجوبةٌ من أعاجيبِ الزمان، فنهضَ سيرانو عن كرسيّه متثاقلًا وتقدّم نحوه خطوةً وألقى عليه نظرةً من تلكم النظراتِ الهائلة التي اعتاد أن يصرعَ بها خصومَه حين يُلْقِيها عليهم، وقال له: ثم ماذا؟ فاضطرب الفيكونت وشعرَ بدبيبِ الخوفِ في قلبه وقال: لا شيء، قال أهذا هو السهمُ القاتلُ الذي أردتَ أن ترميني به؟ لقد كنت أظن أنّك أذكى من ذلك.

فازداد اضطرابُ الفيكونت وقال: وماذا تريد؟ قال: أريد أن أقول لك إنّ مجالَ القولِ في الآناف[2] ذو سعةٍ، ولو كان عندكَ ذرّةٌ واحدةٌ من الفطنةِ والذكاءِ أو أنّ لكَ بعضَ العلم بأساليب الخطابِ ومناهجه لاستطعتَ أن تقول لي في هذا الموضع شيئًا كثيرًا، كأن تقول لي مثلا بلهجة «المتنطّعين»[3]: لو كان لي أيها الرجل أنفٌ مثل أنفك هذا لأرحتُ نفسي والعالَم منه بضربةٍ واحدةٍ من حدّ سيفي، وبلهجة «المتلطّفين» حبذا لو صنعتَ يا سيّدي لأنفكَ هذا

---

(١) فوّق السهم: جعل رأسه على وتر القوس، استعدادًا للرماية.

(٢) الآناف: جمع أنف.

(٣) المتنطّعون: الذين يدّعون الفصاحة في كلامهم.

كأسًا خاصة به فإني أراه يشربُ معك من كأسك التي تشربُ منها، وبأسلوب «الواصفين»: ما أرى أنفَكَ إلّا صخرةً عاتيةً، أو قِمّةً عالية. أو هضبةً مشرفةً، أو رَوْشنًا[١] مُطلًا، أو رأسًا ناتئًا، أو لِسَانًا ممتدًّا، وبنغمةِ «الفضوليين»: ما هذا الشيءُ النّاتئ في وجهِكَ يا سيّدي؟ أمحّارةٌ مستطيلةٌ، أم دواةٌ للكتابةِ، أم صندوقٌ للأمواسِ، أم عُلبة للمقاريضِ؟ وبلهجة «الماجنين»: أبلَغَ بكَ غرامُكَ بالطيور يا سيّدي أن تبني لها في وجهك برجًا خاصًّا لتقعَ عليه كلّما قطعتْ شوطًا من أشواطها؟ وبأسلوب «المداهنين» هنيئًا لك يا سيّدي هذا القصرُ الفخمُ الذي بَنَيْتَهُ لنفسِكَ على هذه الربوةِ البديعة.

وباللهجة الشعريّة: أأنفُكَ القيثارةُ التي توقّعُ عليها إلهةُ الشعرِ أنغامَهَا الشجيّة؟ وبروح السذاجةِ: في أيّ ساعةٍ تُفتحُ أبوابُ هذا الهيكلِ يا سيّدي الحارس؟ وبالبساطة الريفية: ما هذا يا سيّدي؟ أأنف ضخمٌ؟ أم لفتةٌ كبيرة؟ أم شمّامة صغيرةٌ؟ باللهجة العسكرية: صوّب هذا المدفعَ نحو فرقةِ الفرسانِ أيّها الجندي، وباللغة الماليّة: أتريدُ أن تضعَ أنفَكَ هذا في «اليانصيب»؟ إنّه يكونُ بلا شكّ النمرةَ الكبرى، وباللغة التمثيلية: أهذا هو الأنفُ الذي أفسدَ تخطيطَ وجهِ صاحبه فسادًا عظيمًا؟ يا لهُ من مجرمٍ أثيم، ومعتدٍ زنيم[٢].

ويمكن أن تقولَ لي «متعجرفًا» ألا تخافُ أيّها الرّجلُ وأنتَ تنفثُ دخانَ لُفافتك من هذه المدخنةِ الضخمةِ أن يصيحَ الناسُ حينَ يرونَكَ: الحريقَ، الحريقَ، و«متأدبًا» لقد أخلَّ هذا النتوء البارز في وجهك يا سيّدي بتوازنِ جسمِكَ فاحترسْ من السقوط، «ومتأنقًا»: ألا يجملُ بك يا سيّدي، أن تضع لأنفِكَ هذا مظلّةً خاصّةً به حتّى لا يتغيّرَ لونُه من تأثيرِ حرارةِ الشمسِ، و«متحذلقًا»: إنّ الحيوانَ الضخمَ الذي سماه الفيلسوف أرستوفان «تِيتَلْخَرْ تيفِيلو جَمَلوس»[٣] هو الحيوانُ الوحيد الذي يمكنه أن يحملَ في وجهه كميّةً من اللحم توازنِ الكميّة التي تحملها في وجهك» و«مازحًا»: ما أجملَهُ مِشْجبًا[٤] لتعليق القلانسِ والطيالسِ، و«مغاليًا»: ليسَ في استطاعة أيّ ريحٍ مهما اشتدَّ هبوبُها أن تجلبَ لأنفِكَ الزكام، غير ريحِ السَموم، و«متهكمًا»: ما أجمَله إعلانًا لو وُضِعَ على واجهةِ حانوتٍ من حوانيتِ الروائحِ العطريّةِ، و«متفجعًا»: ما البحر الأحمرُ إلّا الدمُ الذي فُصِد[٥] من أنفِك.

ذلكَ ما يجبُ أن تقولَه لي لو كانت في رأسك ذرّة واحدةٌ من الفطنةِ والذكاءِ، على أنّك لو استطعتَ لحالَ بينك وبين ذلك الخوفُ والرعبُ، لأنك تعلم أنّني إن سمحتُ لنفسي بالسخريةِ من نفسي أحيانًا فإنّني لا أسمحُ لأحدٍ بالسخرية منّي مطلقًا. فلقد جمعتَ في نفسك بين الغباوةِ والجهلِ والجبنِ والخَورِ، حتّى لأحسبُ أنّكَ لا تحسنُ هجاءَ كلمةٍ في اللغةِ غيرِ كلمةِ الحماقةِ ولا تحملُ في رأسك معنًى غيرَ معناها.

---

(١) الروشن: الرف، الكوّة. (٢) الزنيم: اللئيم.
(٣) حيوان خيالي ضخم والكلمة منحوتة من تيتل، خرتيت، فيل، جمل، لكبر حجم هذه الأنواع من الحيوان.
(٤) المشجب: عود يدق في الحائط وتُعلّق فيه الثياب. (٥) فصد العِرْق: استخرج دمه.

فجنّ الكونت دي جيش غيظًا وقال للفيكونت: من رأيي أن نترك هذا المجنون وشأنه فإنّنا ممتحَنون الليلة برجلٍ لا بدّ أن يكون قد أفلتَ الساعة من يد حارسِ المارستان[١]، فقال الفيكونت: إنّ الذي يغيظني ويؤلمني أنْ تصدرَ أمثالُ هذه الكلمات المملوءة كبرًا وعظمة من حقيرٍ مفلوك[٢] لا يملك من مَتَاعِ الدنيا شيئًا حتّى قفازًا في يده، ولا يحمل على ثوبه أي علامة من علاماتِ الشرف، فارتعشَ سيرانو غيظًا ولكنّه تجلّدَ واستمسكَ وأنشأ يقولُ بصوتٍ هادئ رزين:

نعم أعترف لكَ يا سيّدي بأنني رجلٌ فقيرٌ مفلوكٌ لا أملك من مَتَاع الدنيا شيئًا وأنني لا أحملُ على صدري أي هِنَةٍ[٣] من تلك الهِنات التي تسمّونها شاراتِ الشرفِ، ولكنْ ائذنْ لي أن أقولَ لكَ كلمةً واحدةً ثمّ أنتَ وشأنَكَ بعد ذلك.

إنّني لا أحفل يا سيّدي، بالصورِ والرسومِ والأزياء والألوانِ، ولا يعنيني جمالُ الصورةِ وحسنُها ولا برقشةُ الثيابِ ونمنمتها، وحسبي من الجمال أنني رجلٌ شريفٌ مستقيمٌ، لا أكذبُ ولا أتلوّنُ، ولا أداهن[٤] ولا أتملّق، وأنّ نفسي نقيّة بيضاءُ غير ملوّثة بأدران[٥] الرذائلِ والمفاسدِ، فلئنْ فاتني الوجهُ الجميلُ والثوبُ المفوّف[٦] والوسامُ اللامعُ والجوهرُ الساطعُ، فلم يفتني شرفُ المبدأ، ولا عزّة النفسِ، ولا إباء الضيمِ، ولا نقاءُ الضميرِ.

إنّ الجبهةَ العاليةَ يا سيّدي، لا تحتاجُ إلى تاج يزيّنُها، وإنّ الصدر المملوءَ بالشرفِ والفضيلةِ لا يحتاج إلى وسام يتلألأ فوقه، فليفخرِ الفاخرونَ بما شاءوا من فضّتهمْ وذهبهمْ، وألقابهمْ ومناصبهمْ، أما أنا فحسبي من الفخرِ أنّني أستطيعُ أنْ أمشيَ بينَ الناسِ برأسٍ عالٍ، وجبهةٍ مرتفعةٍ، ونفسٍ مطمئنّة، وثوبٍ نقيٍّ أبيضَ، لم تعلقْ به ذرةٌ من غبار العار، ولم تلوّثه شائبةٌ من شوائبِ السفالةِ والدناءةِ، لا أهابُ شيئًا، ولا أغضي لشيءٍ، ولا أخجل من شيءٍ.

نعم إنّني لا أملكُ قفّازًا في يدي كما تقول، ولكنْ أتدري ما السببُ في ذلكَ؟ السببُ فيه أنّني قطّعتُ جميعَ قفّازاتي على وجوهِ السفهاءِ والفضوليين الذينَ يعترضونَ طريقي مثلكَ عقابًا على وقاحتهمْ وفضولهمْ، ولم يكن باقيًا لي منها حتى ليلة أمسٍ إلّا زوجٌ عتيقٌ جدًّا احتَجْت إليه في موقفٍ كموقفي هذا معكَ، فرميتُ به وجهَ أحدِ السفهاءِ فلصَقَ بخده فتركتُه مكانَه وانصرفْت.

فجُنَّ الفيكونت غيظًا وأخذَ يهذي ويقول صعلوكٌ بائسٌ، وقحٌ، حقيرٌ، سافلٌ، فانحنى سيرانو بين يديهِ رافعًا قبّعته عن رأسه وقال له: تشرّفْتُ بمعرفةِ اسمِكَ يا سيّدي، أما أنا فاسمي سيرانو سافينيان هركيل دي برچراك الجاسكوني، فصاحَ الفيكونت: صَهْ أيّها النذلُ الساقطُ، فجمدَ سيرانو لحظةَ ثمّ انحنى على نفسِه وأخذَ يتلوَّى ويصيحُ كأنّما أُصيبَ بألم شديدٍ في بعضِ أعضائه، فظنّ الفيكونت أن قد عَرَض له عارضٌ مميتٌ، فحنا عليه، وقالَ له: ماذا أصابك؟ فلم

(١) المارستان: المستشفى.
(٢) المفلوك: الغليظ.
(٣) الهنة: الخصلة من خصلات الشرّ.
(٤) المداهنة: الرياء والكذب.
(٥) الأدران: الأقذار.
(٦) الثوب المفوّف: الرقيق المخطّط.

يُجِبْ، وظلّ يصيحُ ويتأوّهُ، فقال له ما شَكَاتُك[١] أيها المسكين؟ قال خَدَرٌ شديدٌ يؤلمني جدًّا، قال في قدمِك؟ قال: لا، قال: في فخذِك؟ قال: لا. قال: إذنْ في ذراعِك، قال: ليته كانَ كذلكَ، قال: قلْ لي في أيّ مكانٍ هو؟ قال: في سيفي، فدهشَ الفيكونت وقال ماذا تريد؟ قال لقد طالَ لُبثُهُ في غمدِهِ زمنًا طويلًا فأصابه هذا التنميل الشديدُ ولا علاجَ له غير الامتشاق.

«المبارزة الشعرية»

ففَطِنَ الفيكونت لِمَا أراد وعَلِمَ أنّها المبارزة ما مِن ذلك بدٌّ، فتشجّعَ وقال: فليكنْ ما تريد، قال: أتعلم أنّني سأضربك ضربةً غريبة لم يرَ الراؤونَ مثلها؟ قال: خيالُ شاعرٍ كذّابٍ، قال: إنَّ الشاعر لا يكذبُ ولكنّه يقول ما لا يفهمه الأغبياء فيظنّونه كاذبًا، وفي استطاعتي أن أرتجلَ في أثناء القتال الذي يدور بيني وبينك موشّحًا لا أقول فيه شيئًا إلّا فعلته، وسيكونُ مركّبًا من خمسِ قطع يبتدئ أوّلُهَا بابتداءِ المبارزةِ وينتهي آخِرُها بانتهائها، أي بانتهاءِ حياتك يا فيكونت!

فصاح الفيكونت: كذبتَ، وإنّك لأَعْجَزُ من ذلك، قال: لم أكذبْ في حياتي قطّ، وها هو ذا عنوانُ موشّحي الجديد، وأخذَ يُلقي العنوانَ مادًّا به صوتَه كأنّما يمثّلُ على مسرحٍ ويقول «موشحُ القتالِ الذي دارَ بينَ السيّد سيرانو دي بِرْچراك وبينَ صعلوكٍ من الصعاليكِ المتنَبّلين اسمُهُ: الفيكونت ڤالڤير في حانة بورجونيا». ثمّ جردَ سيفه وبدأ يقاتلُ ويلقي موشّحه ويوقِعُ ضرباتِهِ على نغماتِهِ ويقول:

إنّني أَرمي بهدوءٍ قبّعتي، وأخلعُ من منكبيَّ ردائي، ثمّ أجرّدُ من غمده سيفي، ثمّ أتقدم نحوَكَ رشيقًا كسيلادون، وشجاعًا كاسكارايوس، ولا بدّ أنّي في المقطع الأخيرِ أُصيب.

كان جديرًا بك أن تضنَّ بنفسك على الموت، إنّ الموتَ لا بدّ آتٍ إليك، لا أدري أينَ أَضَعُ ذُباب سيفي من جسمك، أفي جنبك تحت ثديك؟ أم في قلبك تحتَ وِسَامِك؟ وعلى كلّ حالٍ ففي المقطع الأخير أصيب.

ترسُكَ يرنُّ تحتَ ضرباتِ سيفي، ذُباب سيفي يلتهبُ التهابًا، قلبُكَ يخفقُ من الرعبِ والخوفِ، فرائصك[٢] ترتعد وتضطربُ، فلا بد أنّي في المقطع الأخير أصيب.

ها أنتَ ذا قد بدأَت تتقهقرُ، لأنّي قد أفسدتُ عليك الضربةَ الوحيدةَ التي تعرفها، أوسعتُ لكَ المجالَ فاغتررتَ وهجمتَ، فلم تلبثْ أنْ فشلتَ وخُذِلْتَ، ويلٌ لكَ من المستقبلِ المظلمِ، فإني في المقطع الأخير أصيب.

اسألِ اللهَ رحمتَه وإحسانَهُ، فها هو ذا الموتُ يرفرفُ فوقَ رأسِكَ، قد سَدَدْتُ عليكَ جميعَ الأبوابِ ولم تَبْقَ لكَ حيلة في دَفْعِ القضاءِ، قد وعدتُ ولا بدّ أنْ أفي بوَعدي أنّني في الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير أصيب.

---

(١) الشكاة: الشكوى.

(٢) الفرائص: جمع فريصة وهي لحمة بين العنق والكتف ترتعد عند الخوف.

وهنا ضربَهُ ضربةً هائلة اخترقت صدرَهُ فسقطَ يترنّحُ من وَقْعِ الضربةِ، وضجّتِ القاعةُ بالتصفيقِ والتهليلِ، وأحاطَ القومُ بسيرانو يباركُونه ويمسحونَهُ، وأخذتِ النساءُ تنثر عليه الورودَ والأزهارَ، وكانت روكسان أكثرهُنَّ اهتمامًا بالمبارزة وأشدّهُنَّ سرورًا بنتيجتها، وظلَّ الجماهيرُ يصيحون بأصوات مختلفة: ما أشجَعهُ، ما أشعرَهُ، إنّه بطلٌ عظيم، حادثٌ بديعٌ، منظرٌ جميلٌ، شاعرٌ وبطلٌ معًا، لا يقولُ إلّا ما يفعلُ؛ قد أصابه في الكلمةِ الأخيرةِ من المقطع الأخيرِ كما قال.

وتقدم نحوه السيّدُ دارتنيان رئيسُ حراسِ الملكِ ومدَّ إليه يده، وقال له: ائذنْ لي يا سيّدي، أن أشكرَكَ وأصافحَكَ وأقولَ لكَ إنّك أفضلُ مبارزٍ رأيته في حياتي، فلم يزدْ سيرانو على أن ألقى عليهِ نظرةً هادئةً ساكنةً، ومدّ يده إليه فصافَحَهُ بسكونٍ، ثمّ أخذ الناس ينصرفونَ من القاعة تباعًا، وكان الممثل مونفلوري لا يزال واقفًا في الطريقِ العام، فظلّوا يسبُّونه ويشتمونه كلّما مروا به ويعيّرونه بالجبن والفرار، حتّى إذا لم يبقَ في الحانة أحدٌ قال لبريه لسيرانو: هل لك في أن نتخلّفَ هنا قليلًا أيّها الصديقُ لأنّي أريد أن أتحدَّثَ إليك في بعض الشؤون؟

فقال سيرانو لصاحب الحانة: أتأذن لنا أن نبقى هنا هنيهة أنا وصديقي لبريه؟ قال: نعم كما تشاء يا سيّدي، وسأخرج أنا وجماعة الممثلين لنتناولَ طعامَ العشاءِ ونتنزّه قليلًا، ثمّ نعود بعد ساعةٍ لتهيئة الرواية المقبلة وصاح بالخدم: أغلقوا الأبوابَ وأبقُوا الأنوارَ كما هي حتّى نعودَ. ثمّ انصرفَ هو وسائر الممثلين.

«سريرة سيرانو»

قال لبريه لسيرانو: وأنتَ ألا تريدُ أن تتعشّى أيضًا؟ قال: لا، قال لماذا؟ قال: لأنّي لا أملك نقودًا، فقهقهَ لبريه ضاحكًا، فدُهش سيرانو والتفتَ إليه وقال له: ممَّ تضحك؟ قال تذكرت ذلك الموقفَ الجميلَ وأنتَ تخرجُ كيسك من جيبك وترمي به بكلّ قواكَ إلى بِلْروز وتقول له: خذ هذا أيها الرجلُ فهو لك، قال ألا ترى أنّها كانتْ حركةً بديعةً، قال: نعم، ولكنّها لا تغني عن العشاء شيئًا، ولا أدري ماذا تصنع بعد اليوم وأنتَ لا تزالُ في الأسبوع الأوّل من الشهرِ، ولا أحسبُ أنّ أباكَ يرسلُ إليكَ النفقة الشهريّة مرّةً أخرى.

وكانت فتاةُ المقصفِ واقفةً على مقربةٍ منهما تسمعُ حديثهما دونَ أن ينتبها إليها، فتحرّكَتْ حركةً مسموعةً، فالتفتَ إليها سيرانو، فَمَشَتْ نحوه، ووضعتْ يدها على كتفِهِ، وألقتْ عليه نظرةَ عطفٍ وحنوٍّ لو أنّها ألقتها على وجهٍ غيرِ وجهه، لظنّها الناس لجمالها ورقّتها نظرةَ حبٍّ وغرام وقالت له: أنت ضيفي الليلة يا سيّدي، وها هو ذا الطعامُ بين يديك، فادْنُ من المائدة وتناولْ منها ما تشاء، فقال: شكرًا لكِ يا صديقتي، وبالرّغم من أنّ عَظَمتي الجاسكونية لا تسمحُ لي أن أمدَّ يدي لتَنَاوُلِ أيّ شيء من أيّ إنسان فإنّي ألبّي دعوتَكِ إبقاءً على صداقتكِ وودّكِ.

ثمّ تقدّم نحو المائدة وتناولَ ثلاث حبّاتٍ من العنب وقرصًا صغيرًا وكأسًا من الماء، وقال: هذا يكفيني، قالت له: خذْ شيئًا آخر، قال: لا حاجة بي إلى شيء بعد ذلك، إلّا إلى قبلةٍ من

يدكِ الجميلةِ فاسمحي لي بها. وتناول يدها فقبّلها ووجهُهَا يتلهّبُ حياءً وخجلًا، ثمّ وضعَ الطعامَ بين يديهِ وهو يتمتمُ بصوتٍ ضعيفٍ ويقول «لقمةٌ صغيرةٌ لا تملأ معدةَ طفلٍ، وثلاثُ حبّاتٍ من العنبِ لا تملأُ الفَمَ، آه ما أشدَّ جوعي».

ثم التفت إلى «لبريه» وقال له: ماذا كنت تريد أن تقول لي يا لبريه؟ تكلمْ فإنّي مُصْغٍ إليك، قال: كنتُ أريدُ أن أقول لكَ: إنّ هؤلاء الطائشين الممرورين الذين لا حديثَ لهم ليلهم ونهارهم إلّا حديثُ الطّعْنِ والضّرْبِ، والمغالبة، والمصارعة، سيفسدون عليك عقلك، ويهدمون نظامَ حياتِكَ، ولو أنّكَ جَرَيْتَ معهم في هذا المضمارِ طويلًا لكانتْ عاقبتُكَ أوخَم العواقبِ وأردأَها، سَلِ العقلاءَ أصحابَ العقولِ الراجحةِ والآراءِ المستحصِدة ماذا كانَ وَقْعَ حادِث الليلةِ في نفوسهم وخاصةً في نفس رجلٍ عاقل كيّسٍ كنيافة الكاردينال؟

فقال له، وكان قد انتهى من طعامه: أكانَ الكاردينالُ هنا؟ قال: نعم، ولا بد أن يكونَ رأيهُ فيكَ سيّئًا جدًّا، قال: لا، بل بالعكس، لأنّه شاعرٌ، والشاعرُ يعجبه دائمًا أن يرى بعينيه منظرَ سقوطِ رواية ينظمها شاعرٍ آخرَ، قال: ولكنّكَ قد اتّخذْتَ لكَ أعداء كثيرين لا أدري ماذا يكون شأنُك معهُمْ غدًا، قال: كم تظنّهم على وجه التقريبِ؟ قال: أربعين غير النساء، قال: اذكرْ لي بعضهم مثلًا: قال مونفلوري، دي جيش، دي جيچيي، ڤالڤير، بارو مؤلف الرواية، الممثلون، أعضاء المجمع العلمي. . .

قال: كَفى كفى، قد فهمتُ! إنّها نتيجة جميلة جدًا، كنتُ أظنّ أنّ أعدائي أصغر شأنًا من ذلك، فعجب لبريه لأمره وقال له: أعترفُ لك يا سيرانو، أنّني قد عَيِيتُ بأمرِكَ عَيَاءً شديدًا وأصبحتُ لا أدري إلى أينَ تصل بك هذه الحالةُ الغريبةُ وتلكَ الأساليبُ الشاذّةُ ولا أفهم ما هي حقيقةُ رأيك في الحياةِ ولا ما هي خطّتُكَ التي انتهجتَها لنفسِكَ فيها؟ فأطرق سيرانو لحظةً ثمّ رفع رأسَهُ وقال له: اسمعْ يا لبريه!

إنّ الخطط في الحياةِ كثيرةٌ ومتشعّبةٌ تشعّبًا يَحَارُ فيه العقلُ، ولقد ضللتُ في مسالكها برهةً من الزمانِ لا أعرفُ ماذا آخُذُ منها وماذا أَدَعُ، حتّى اهتديتُ أخيرًا إلى أبسطها وأسهلها.

قال: وما هو؟ قال: هو أن أكونَ موضعَ الإعجاب في كلّ شيء ومن كلّ إنسان، قال: فليكنْ ما تريد، ولكنْ على شرطِ أن تكونَ أفعالُكَ أشبَهَ بأفعالِ العقلاءِ منها بأفعالِ المجانين، قال: لا أستطيعُ أن أعرف الحدّ الفاصلَ بين العقلِ والجنون. قال: هلْ لكَ أن تخبرني لِمَ تضمرُ في نفسِكَ هذا البغضَ الشديدَ لمونفلوري وما أذكرُ أنّ الرجلَ أساءَ إليكَ في حياتِه قطّ؟ قال: أُبغضُه لأنّه وهو ذلك العُتُلُّ[1] البطينُ الذي لا تستطيعُ يدُه أنْ تصلَ إلى سرّته يظنّ نفسَهُ جميلًا يستطيعُ أن يخلُبَ قلوبَ النساءِ ويستهويَ ألبابهنَّ بخفّته ورشاقتِهِ، فإذا وقف في المسرحِ للتمثيل ألقى عليهنّ في مقاصيرِهنّ نظراتِ كنظراتِ الضفادعِ بصورةٍ تعافُها الأنفسُ وتندَى لها الوجوه.

(١) العُتُلّ: الكثير الأكل.

ولقد أضمرتُ له في نفسي تلكَ المَوْجدة[١] منذ الليلةِ التي رأيتُه يجترئُ فيها على أن يوجّه إليها نظراته الخنفسائيّة البشعة، فلقد خُيِّلَ إليَّ في تلكَ الساعةِ أنّ دودةً قذرةً سوداءَ قد دبّتْ من مكانها إلى وردةٍ نضرةٍ ناعمةٍ فلصقتْ بها، فأزعجني هذا المنظرُ المؤلمُ إزعاجًا شديدًا ولم أرَ بدًّا من معاقبتِهِ على جهلِهِ وغباوتِهِ، فحكمتُ عليه بالانقطاعِ عن التمثيل شهرًا كاملًا.

فقال لبريه: ومن هي تلكَ التي تريد؟ يُخَيلُ إليّ أنّكَ عاشق يا سيرانو. فابتسم ابتسامة الممتعض المتألّم ثمّ تنفّسَ تنفُّسَةً طويلةً كادتْ تَتَساقط لها جوانبُ نفسه، وقال: نعم يا لبريه، إنني أحبّ حبًّا قاتلًا لا بدّ أن يسوقني إلى القبر، قال: وهل يمكنني أن أعرفَ من هي تلك التي تحبّها؟ فإنّك لم تحدثْني عنها قبلَ اليوم، قال: أي فائدة لي من ذكرِهَا وهي لا تحبّني؟ قالَ: وكيفَ عرفتَ ذلك؟ هل فاتحتها في شيءٍ؟ قال: وكيفَ يمكنني أن أفاتحها وأنا أعلم أنّ هذا الأنفَ البشعَ القبيحَ الذي أحمله، يتقدَّمُني حيثما ذهبتُ وأنّى سلكتُ؟ فلا يسمحُ لي بالطمع في قلب امرأةٍ قبيحة شوهاء فضلًا عن جميلة حسناء. قال: ألا يمكنني أن أعرف من هي؟ قال: إذا عرفت أنّ سيرانو لا يمكنُ أن يُحبَّ إلّا أجملَ امرأةٍ في العالم أمكنكَ أن تعرف من هي. فصَمتَ لبريه هُنيهةً، وهو يفكّر حتّى عجزَ فقال: لم أستطعْ أن أفهم شيئًا فهل لك أن تصفها لي؟

قال: أما هذهِ فَنَعَمْ. هي الخطر العظيم الذي يحيط بالمرء من جميع نواحيه فلا يعرف له سبيلًا إلى الخلاص منه، هيَ المغناطيسُ الجذّابُ الذي يستهوي قلبَ الناظرِ إليه وعقلَهُ وجميعَ حواسّهِ ومشاعرِه، هي الوردةُ النضرةُ الناعمةُ التي تكمُن حيةُ الحب السامّةُ بين أوراقِها، من رأى ابتساماتها رأى الكمالَ الإنسانيّ كلّه، ومن رأى نظراتِها رأى الدعةَ واللطفَ والرقّةَ والعذوبةَ وجميعَ معاني الحياة الطيّبةِ اللذيذةِ. في كلّ حركةٍ من حركاتها، وإشارةٍ من إشاراتها، ولفتةٍ من لفتاتها، شمسٌ تضيءُ الكونَ وتنيرُ ظلماته!

ليس في استطاعة «الزُّهرَة» ربة الجمال وهي جالسة فوق علياء عرشها العظيم أنْ تضارِعَها في بهائها وجلالها، ولا في استطاعة «ديانا» إلهةِ الحبّ حينَ تسيرُ بخفّةٍ ورشاقةٍ وسط الرياضِ الناضرةِ أن تحاكيها في مِشيتها وهي سائرة على قدميها الصغيرتين في مماشي بستانها.

فقال لبريه: حسبُكَ يا سيرانو، فإنّك تحبُّ ابنة عمك روكسان، ولكن لا أدري لِمَ لا تُفْضِي إليها بذاتِ نفسِكَ ما دمتَ تحبّها وما دُمْتَ تمُتُّ إليها بصلة القربى التي بينك وبينها، قال: ذلك ما أعجزُ عنه يا صديقي، فإنني رجلٌ بائس مسكين قضى الله عليَّ أنْ أعيشَ في هذا العالم بلا أملٍ ولا رجاء. تأملْ في وجهي قليلًا وانظرْ هل يستطيعُ صاحبُ مثل هذاالوجهِ البَشِعِ الدميم أن يحيا في العالم حياةَ الحبّ والغرام؟ أو أن يكونَ له أملٌ في اختلابِ الأفئدةِ واجتذابِ القَلوب؟ قد تمرّ بي في بعض أيّامي ساعاتٌ أشعرُ فيها بحاجةِ قلبي إلى تلكِ الحياةِ الحلوةِ اللذيذةِ التي يحياها الناسُ جميعًا حياةِ الحبّ والغرامِ فأدخُلُ إحدى الحدائقِ العامةِ

---

(١) الموجدة: البغض.

وأمشي بين رياضِها وأزهارِها، واتنسّمُ روائحَها وأنفاسَها، فأنسى نفسي ويُخَيَّلُ إليَّ أنّي أسبحُ في جوٍّ رائقٍ صافٍ من العواطفِ والوجداناتِ.

فإذا رأيتُ في ضوءِ أشعّة القمرِ الفضّيّة امرأةً جميلةً تمشي وحدَها، خُيِّلَ إليَّ أنّي أستطيعُ أن أكونَ رفيقَها لآخذَ بذراعِهَا، وإذا رأيتُ فتًى وفتاةً سائرينَ على مهلٍ يتهامسانِ ويتناجيانِ وتتموّجُ أنوارُ الحبّ بينهما، خُيِّلَ إليَّ أنّ بجانبي رفيقةً حسناءَ ترفرفُ عليّ وعليها هذهِ الأجنحةُ البيضاءُ التي ترفرفُ عليهما، ثمّ أستسلمُ لهذه التصوّراتِ والأفكارِ واستغرقُ فيها ساعةً طويلةً حتّى إذا وقعَ نظري فجأةً على خيالِ وجهي في حائط الحديقةِ في ضوءِ القمرِ، عدْتُ إلى صَوَابي وأفقتُ من غيبوبتي ورجعتُ أدراجي إلى منزلي وبي مِنَ الحزنِ ما اللهُ به عليمٌ.

ثمّ نكّسَ رأسه مليًّا، وصمتَ صمتًا عميقًا كأنّما يعالج في نفسه ألمًا مُمضًّا، فحنا عليه لبريه وقال له: رحمةً بنفسك يا صديقي، فرفع رأسه، وقال: نعم إنّ آلامي عظيمة جدًّا لا يحتملها بشرٌ، فليت اللهَ إذْ خلقني على هذه الصورة الدميمةِ البشعةِ لم يخلقْ لي قلبًا خفّاقًا، أوليتَه إذ خلَق لي هذَا القلبَ الخفّاقَ، خلقَ لهُ أجنحة، يستطيعُ أن يطيرَ بها في جوّ الحبّ كما تطيرُ القلوبُ الخوافقُ، أما الآنَ فإنّي أشعرُ أنّي وحيدٌ في هذه الدنيا لا سَنَد لي فيها ولا عَضُد، ولا أنيسَ ولا عشيرَ، ولا زوجةَ ولا ولدَ. ثمّ عاد إلى إطراقِهِ مرّةً أخرى وأخذَ يبكي ويذرفُ دموعًا غزارًا في صمتٍ وسكون.

فانزعج لبريه، وأخذ بيده وقال له: أتبكي يا سيرانو؟ فانتفَض ورَفَعَ رأسه وقال: لا يا لبريه، إنّ البكاء قبيح بمثلي، ولا يوجد في العالم منظرٌ أقبحُ ولا أسمجُ من منظرِ الدمعةِ الجميلة وهي سائلةٌ على مثل هذا الأنف الضخم الطويل، لا شيءَ في العالم أبدعُ ولا أرقُّ ولا أجملُ من الدموعِ، وإني أضنُّ بها أن أُذِلَّها وأهينَها وأكدّرَ صفوَهَا وأشوِّهَ جمالها.

فتأثر لبريه لمنظرِهِ تأثرًا شديدًا وكاد يبكي لبكائه، ولكنّه تجلد واستمسكَ وقال له: لا تحزنْ يا صديقي، ولا تستسلمْ لهذه الأوهام فما الحبُ في الدنيا إلّا حظوظٌ وجدود[١]، وقد يأتيك عفوًا ما تظنُّ أنّه أبعدُ الأشياء منالًا منكَ؛ قال لا، أنتَ مخطئٌ يا لبريه، فإنّه لا يجوزُ لي أنْ أطمعَ في حبّ «كليوباتره» إلّا إذا كنتُ «قيصر»، ولا في حبّ «بيرنيس» إلّا إذا كنتُ «تيتوس»[٢]. قال: إنّ الله قد وهبَكَ من العقلِ والذكاءِ والصفاتِ الكريمةِ النادرةِ ما يقوم لك مقام الجمال، أَلَمْ ترَ تلك الفتاةَ بائعة الحلوى وهي تنظر إليكَ نظراتِ الحبّ والشغفِ على أثرِ تلكَ المبارزَة الغريبةِ التي انتصرتَ فيها على الفيكونت الليلة؟ كذلكَ كانَ شأنُ روكسان، فقد شاهدتُها وهي تتّبعُ

---

(١) الجدود: الحظوظ.

(٢) بيرنيس أميرة اسرائيلية من أسرة هيرود حكام جوديه بفلسطين رآها تيتوس الأمبراطور الروماني أثناء فتوحاته هناك فأحبها وأحبته فأتى بها إلى روما وأراد أن يتزوجها فأبى شعبه عليه ذلك إباء شديدًا فاضطر أن يعيدها بالرغم منه ومنها.

حركاتِكَ أثناءَ المبارزة باهتمام عظيم وقَلَقُها عليك ظاهرٌ في اضطراب أعضائِها واكفهرارِ وجهها، حتّى إذا انتصرتَ على خَصمِكَ، كانتْ هي أعظمَ الناسِ سرورًا بانتصارِك.

فانتعشَ سيرانو، وهدأتْ نفسُه قليلًا وقال: أصحيحٌ ما تقول يا لبريه؟ قال: نعم، ولا بد أنْ تكونَ تلك الحادثةُ قد تركتْ في قلبها أثرًا عظيمًا، فانتهزْ هذه الفرصة وفاتِحْهَا في شأن حبّك، قال: أخافُ أن تسخر منّي وهو الأمر الذي أخشاه أكثر من كلّ شيء في العالم.

وهنا ظهرتْ وصيفةُ روكسان داخلةً من البابِ الكبيرِ، ولم تزلْ سائرةً حتّى وقفتْ أمام سيرانو فدهشَ لرؤيتها دهشةً عُظمى، وخفقَ قلبُهُ خفقًا متداركًا، وقال: آهِ يا إلهي! إنّها وصيفَتُها! وظلّ يرتعدُ ويضطَربُ فانحنتِ الوصيفةُ بين يديه محيّية وقالت له: إنّ سيّدتي روكسان تسألُ ابن عمّها البطلَ الشجاعَ سيرانو دي برچراك متى يمكنها أن تراهُ على انفرادٍ لتحادثه في بعضِ الشؤونَ؟ وأين يكونُ مكانَ الاجتماع؟

فازدادَ اضطرابُهُ وارتعادُه وقال: تراني أنا؟ قالتْ: نعم، في المكان الذي تريده وفي الساعة التي تراها، قال: أه يا إلهي، كيفَ يمكنني أن أصدّقَ ذلك؟! قالت: إنّها ستذهبُ غدًا عندَ تفتُّحِ زهراتِ الصباحِ لسَمَاعِ خطبةِ الوعظِ في كنسية «سان روك»، ففي أيّ مكانٍ تحبُّ أنْ تقابِلَهَا بعد خروجَها من الكنسيةِ؟ فأرتج[1] عليه وظلّ يهمهِمُ ويتمتمُ وانتشرَ عليهِ رأيُه فلم يعرفْ ماذا يقول، فقالتْ له ما لي أراكَ مضطربًا هكذا؟ أسرِعْ بالجواب فإنها تنتظرُني.

فقال بصوتٍ خافتٍ متقطّع: إنّي أنتظرها في الساعةِ السابعةِ من صباحِ الغدِ في مطعم راجنو، قالتْ: وأينَ مكانُ هذا المطعم؟ قال: في رأسِ شارعِ سان أُنريه، قالت: سأبلغها ذلك، وانحنتْ ثانيةً بين يديه وانصرفت. فظلّ شاخصًا ببصرِهِ إلى السماءِ كالذاهلِ المشدوهِ وهو يردّد بينه وبين نفسه: آه يا الهي! كيف يمكنني أن أصدّق ذلك؟ إنّها أرسلتْ إليَّ وصيفتها تسألني أن أقابلَهَا على انفراد، فليتَ شعري ماذا تريدُ أن تقولَ لي؟

فقال له لبريه: تريد أن تقولَ لكَ إنّها تحبّك، ما في ذلك ريبٌ، ولقد تنبأتُ لك بذلك من قَبْلُ فلم تصدّقني. قال: كيفما كان الأمرُ فحسبيَ منها أنّي خطرتُ ببالها وأنّها تعلمُ أنّ في العالم إنسانًا اسمه سيرانو. قال: ما أحسبُكَ إلّا راضيًا عن نفسكَ الآنَ، ولا بدّ أن تكونَ قد هدأتْ تلك الثورةُ التي كانتْ قائمةً في نفسك! قال: لا، ما هدأَتْ ولا فَترتْ، بل أصبحتُ ثائرًا جدًا، وأشعر أنّ قوّتي قد ازدادتْ أضعافًا مضاعفةً، فلو لقيتُ الآنَ جيشًا كاملَ العدّة والعددِ لَقَهَرْتُهُ وحدي. ويُخيّلُ إليّ أنّ بينَ جنبيَّ عشرةَ قلوبٍ وأنّ في منطقتي عشرةَ سيوفٍ أستطيعُ أن أقاتلَ بها جميعها في آنٍ واحدٍ، ولا يكفيني أنْ أحاربَ الأقزام والضاوينَ والجبناءَ كذلكَ المِسخِ الذي حاربتُه الليلةَ بل لا بدّ لي مِنْ جبابرةٍ وعمالقةٍ أفخرُ بقتالِهِمْ والفَلج[2] عليهم.

---

(١) أرتج: أغلق.

(٢) الفلج: الفوز والظَفر.

«باب نيل»

وكان يتكلّمُ بصوت عالٍ ويصرخُ صرخاتٍ هائلةً مزعجةً تدوّي بها أرجاء القاعة كأنّما خُيّل إليه أنّه في ميدان حربٍ، وأنّه يقاتلُ أولئك العمالقة والجبابرة الذين ذكرهم.

وكان الممثلونَ قد عادوا من نزهتِهِمْ وأخذوا يهيّئونَ على المسرحِ الروايةَ المقبلة، فأزعجهُمْ صوتُ سيرانو وهو يصرخُ فَصَاحَ به أحدهم: ألا تزالُ باقيًا هنا حتّى الآنَ يا سيرانو؟ لقد أزعَجْتَنَا بضوضَائِك وصَخْبِكَ، فاهدأْ قليلًا لنستطيعَ أنْ نأخذَ في عملنا. فابتسمَ سيرانو وقال: عفوًا يا سادتي، فسأتركُ لكم المكانَ مسرورًا مغتبطًا، وَهَمَّ بالخروج.

فما راعَه إلّا جماعةٌ من الجنودِ والضبّاطِ قد دخلوا الحانةَ يحيطونَ برجلٍ يترنّحُ سُكْرًا. فتأمّله فإذا هو لينيير، فَهَرَعَ إليه مذعورًا وقال: ما بكَ يا صديقي؟ قال بلهجة متثاقلة: خُذْ هذه الورقةَ واقرأها، فإنّها تنذرني بأنَّ مائةَ رجلٍ يكمنون لي الليلة في طريقي إلى منزلي عند «باب نيل» ليقتلوني بسببِ تلكَ القصيدةِ التي تعلمها، فائذن لي بالذهابِ إلى منزلك لأنام فيه الليلة؛ فأطرقَ سيرانو هنيهةً وهو يهمهمُ قائلًا: مائة رجلٍ على رجلٍ واحد؟ ما أجبنهُمْ وأسفلَ نفوسهم!

ثمّ رَفَع رأسه وألقى على لينيير نظرةً عاليةً مترفّعةً، وقال له بهدوء وسكون: لينيير إنّك ستنامُ الليلة في بيتك، فَلَمْ يفهمْ غَرَضه، وقالَ له وهو يترنّحُ ويتمطق(١): ولكنّك تعلمُ يا سيّدي، أنّني رجل ضعيفٌ مسكينٌ لا أقْوى على مُقَاتلة هِرّ، فَمَنْ لي بلقاءِ مائة رجلٍ وحدي؟ قال: إنّني أنا الذي سَألقاهُم وأنا الذيْ سأقاتِلُهم، فَخُذِ المصباحَ من يدِ البوابِ وسِرْ أمامي، وأُقسِمُ لكَ أنّك ستنامُ الليلةَ في بيتك، وأنّني سأمهّد لك فراشكَ بيدي، لقد كنتُ أتمنّى منذُ هنيهةٍ أنْ أقاتِلُ جيشًا كاملَ العُدّةِ والعدد، وها هو ذا الجيشُ الذي كنتُ أتمنّاه قد وافاني وحدَه.

إنني في هذه الليلةِ بل في هذه الساعةِ على الأخصّ لا يجمُلُ بي أن أقاتلَ أقلَّ من هذا العددِ. فتقدّمَ نحوه لبريه ووضَعَ يدَهُ على كتفِهِ وأسرَّ في أذنه: «ألا يستطيعُ هذا الرجلُ أن ينامَ الليلةَ في غيرِ بيته؟ وهل تَرَى من اللازم الحتمُ أن تخاطرَ بنفسِكَ دفاعًا عن مثلِ هذا الأبلهِ المأفون(٢)»، وكانَ المُمَثّلونَ قد نزلوا من المسرحِ وأقبلوا يُشَاهِدونَ الحادثةَ. فَوَضَع سيرانو يَدَه على كتفِ لبريه وقالَ له وهو يبتسمُ ابتسامًا هادئًا لطيفًا: إنّ هذا السكّير الذي لا يفيقُ بل الزقَّ الذي لا ينفَدُ، هو أرقُّ النّاسِ قلبًا، وأجملُهُم حسًّا، وأشرفُهم شعورًا، رأيته مرّةً وقد خرَج من الكنيسة يومَ الأحدِ، فرأى المرأة التي يحبّها تتناولُ بيدها اللطيفةِ قليلًا من الماءِ المقدّسِ فظلّ يرقبها حتّى انصرفت، فهجمَ على الحوضِ الذي وضعتْ يدها فيه، وما على وجه الأرض شيءٌ أبغضُ إليه من الماءِ القراحِ، فما زال يكرعُ منهُ حتّى أتى عليه، فصاحتْ إحدى الممثلات: ما أجملَ هذه الحادثةَ! وما أرقَّ هذا الشعور!

فالتفَتَ إليها سيرانو، وقال لها: أليسَ كذلكَ أيّتها الفتاة: قالت: وارحمتاه لهذا الرجلِ

---

(١) تمطّق الطعام: تذوّقه.

(٢) المأفون: الأحمق، الذي لاخير فيه.

المسكينِ! يسمحُ مائةُ رجلٍ لأنفسهمْ أنْ يتّفقوا عليه. ألا تعلم ما هو السببُ في ذلك يا سيّدي؟ فلم يُجبْها سيرانو والتفتَ إلى جماعة الجندِ الذين دخلوا مع لينيير وقال لهم: ها أنذا ذاهبٌ إلى المعركةِ الليليّة فإنْ شئتم أن تكونوا معي فأنتمْ وشأنكم، غير أنّ لي عليكم شرطًا واحدًا فقط، هو أنّكم مهما رأيتم من الخطر المُحْدِق بي، فلا يتقدّمْ أحدٌ منكم لمساعدتي، وليكنْ مكانُكُم منّي مكانَ مُرَاسِلي الصحفِ ومندوبيها في المعارك، يشاهدُونها ولا يَقْرَبُونها.

فقالت الممثّلة: هل تأذنُ لي يا سيّدي، أن أذهبَ مَعَكُم حيثُ تذهبون؟ قال: نعم، آذنُ لكِ ولكلّ من أراد الذهابَ منكم. فصاحَ الممثّلونَ والموسيقيّون جميعًا: كلّنا نذهبُ معك. فابتهجَ سيرانو وتهلّلَ وجهُهُ وقال: يا له من موكبٍ شائقٍ بديع! ثمّ جرّد سيفه من غمده، وضربَ به الهواءَ وصاحَ صيحةَ القائدِ في جنده: ليتقدّم الضبّاطُ ثمّ الجندُ ثمّ الممثّلونَ ثمّ الممثّلاتُ ثمّ الموسيقيّون وهم يعزفونَ بألحانهم الحماسيّةِ، وليأخذْ كُلٌّ منكم في يده شمعةً أو مصباحًا، أمّا أنا فإنّي قائدكم العام، وها هي الريشة التي ناولتْني إيّاها يدُ المجد والفَخَارِ ترفرفُ فوق قبّعتي، فأخذوا يصطفّون كما أمرهم، وهم يمْجنون ويَضْحَكون كأنّهم ذاهبون إلى مرقصٍ.

وهنا التفت سيرانو إلى الممثّلة التي أعجبتها قصّة لينيير، وقال لها: لقد سألتني أيّتها الفتاةُ منذُ هنيهةٍ: لِمَ يتّفقُ مائةُ رجلٍ على رجلٍ واحدٍ مسكينٍ؟ فأقولُ لكِ جوابًا على ذلك: إنّهم ما فعلوا ذلك من أجله بل من أجلي، لأنّهم يعلمونَ أنّي صديقَه الذي لا يخذله. ثمّ أمرَ البوّابَ أن يفتحَ البابَ الكبيرَ على مصراعيه، ففعلَ، فتجلّى أمامه منظرُ باريسَ العامُ في ضوءِ القمرِ السّاطع، فوقفَ هنيهةً يتأمّلُ هذا المنظرَ البديعَ ويقولُ: آه لقد طلعَ البدرُ وتلألأتْ أشعّتُه! فاختفت باريس المظلمةُ وحلّتْ محلها باريسُ المنيرةُ، ها هي النجومُ اللّامعةُ تسطعُ في سمائها، وها هي أشعّة القمرِ تسيلُ على منحدرات سطوحِهَا، وها هو نهرُ السّين يرتجفُ تَحتَ أبخرته البيضاءِ ارتجافَ المرآةِ السحريّة.

إنّ الطبيعة تهيّئُ لنا ميدانًا جميلًا للقتالِ الرهيب فهيّا بنا جميعًا إلى «باب نيل».

ثمّ مشى، فمشى الجميعُ وراءَهُ ينقلونَ خطواتِهم على نَغَم الموسيقى.

❀ ❀ ❀

الفصل الثاني:



«المتشاعرون»

فتحَ راجنو طَاهي الشّعراءِ والممثلينَ مطعمَهُ مبكّرًا كعادتِهِ والطيورُ لا تزالُ جاثمةً في أوكارها، فجلسَ بين يَدَي مِنضدتِهِ ينظمُ على ضوءِ المِصْباح قطعةً شعريّةً في وصفِ «اللوزينج»[1] فكان يُكِبُّ على أوراقِهِ مرّة ليقيّدَ ما حضرَهُ من الأبياتِ وَيَرفَعُ عينيهِ إلى السّماءِ

---

(١) اللوزينج: نوع من الحلوى يؤدم بدهن اللوز.

أخرى ليستَمِدّ من إلٰهةِ الشّعرِ روحَها ويستلْهِمَهَا وَحْيَها. ولم يزلْ على ذلكَ ساعةً حتّى بدأتِ الشّمس ترسلُ أشعّتَها الأولى من خلالِ النوافِذِ والكُوى، ودوتْ في المطبخِ جَلَبةُ[١] العمّالِ وضوضاؤهم وصلصلة[٢] الآنيةِ والقدورِ، فألقى قلمه واعتدلَ في جَلْسَتِهِ وتأوّه آهةً طويلةً ثمّ قالَ مخاطبًا إلهةَ الشّعر: «وداعًا أيّتها الإلٰهةُ القويّةُ القادرةُ، قد انقضى اللّيلُ وانقضى سكونُهُ وهدوؤه وجاءَ النهارُ بجلبته وضوضائه فدعيني الآنَ واذهبي لشأنِكِ غيرَ مَقْليّةٍ[٣] ولا مُجْتواةٍ[٤] وموعِدُنا الليلةَ القابلةَ.

ثمّ مشى إلى المطبخِ فرأى في مدخلِهِ إناءً من النّحاس الأصفر، قد ألقتِ الشّمسُ عليه أشعّتها الصفراءَ فاشتدّ وميضُه[٥] ولألاؤه، فوقفَ أمامه لحظةً يتأمّله ويقول: ها هي الشّمسُ قد استطاعتْ أن تصنعَ ما لا يصنعُه الكيميائيُّ الماهر. فقد حوّلت النّحاسَ الأصفرَ بشعاعٍ واحد من أشعتها إلى عسجد[٦] وهّاج، ثمّ قالَ: ما أجملَ هذا المعنى وأبدعه، لا بُدَّ لي من تقييده حتى لا يفلت من يدي إذا احتجت إليه، وأخرجَ دفترَه من جيبه فقيّده. ثمّ وقفَ بأحدِ الغلمانِ وهو يشقّ بمدية[٧] في يده رغيفًا إلى شِقّين فقال له: لقد أخطأتَ القسمةَ أيّها الغلامُ فالمصراعانِ غير متوازنين، ورأى آخر يشوي في نصلٍ واحدٍ ديكًا كبيرًا وعصفورًا صغيرًا فقال له: إنّها طريقةُ الشّاعِر «مَالرْبْ» وهي لا تعجبني، فإمّا أن يكونَ البيتُ تامًّا كله أو مجزوءًا كلّه. ومرّ بطبّاخ يطبخُ مَرَقًا في قِدْرٍ فتناولَ الملعقة وأدارها فيه ثمّ قال له: «ما أرق هذا الحساء! إنّه كالشّعر المهلهلِ وأنا لا يعجبني إلا الجزْلُ المتينُ». ووقفَ أحدُ العمّال بين يديهِ وسأله: كَمْ قيراطًا تحبُّ أن يكونَ ارتفاعُ قبّة الفالوذج[٨] اليوم؟ قال: ثلاثةُ تفاعيلَ، وتقدّمَ بين يديهِ آخرُ حاملًا على يدِهِ صينيّة مغطّاةً بنسيجٍ رقيقٍ وقال له: لقد اخترعْتُ اليومِ هذا الشّكلَ يا سيّدي، فلعلّه يعجبُكَ، ثمّ رفع النّسيجَ فإذا قيثارةٌ مصنوعةٌ من الحلوى مغشّاةٌ بدقيقِ السّكّرِ الأبيضِ فتهلّلَ وجههُ فَرَحًا وصاحَ: فكرةٌ شعريّةٌ جميلةٌ لم يسبقْكَ إليها أحدٌ، وقد أعفيتُكَ اليومَ من العمل مكافأةً لَكَ على حُسْنِ تصوّرك وسموّ خيالِكَ، فاذهبْ لِشَأنِكَ وخُذْ هذه القطعةَ الفضيّة واشربْ بها نَخْبَ الفنونِ الجميلة.

«دواوين الشعراء»

ولم يزلْ يَطُوفُ بالعمّالِ ويخاطبهُمْ بهذا الأسلوبِ المضحِكِ الغريبِ، وهُمْ يتغامزونَ عليه ويتضاحَكُون من ورائه حتّى خَرجَ فَمشَى إلى قاعةِ الطعامِ، فرأى زوجته «لِيز» تصفّفُ على المائدةِ أنواعَ الحلوى والفَطائر والقَدَائدِ والرّشارشِ والرّقائقِ وقد اتخذتْ أوعيتَها وأكياسَها من

---

(١) الجلبة: اختلاط الأصوات.
(٢) الصلصلة: الأصوات.
(٣) مقليّة: من القلى أي البغض.
(٤) مجتواة: من اجتوى أي كره.
(٥) الوميض: اللمعان.
(٦) العسجد: الذهب الأصفر.
(٧) المدية: السكّين.
(٨) الفالوذج: نوع من الحلوى تصنع من الطحين.

صحائفِ الكتبِ الأدبيّة ودواوينِ الشعراءِ التي كانتْ تبتاعها من الورّاقينَ لهذا الغرضِ.

فألقى على الأكياسِ نظرةً حزينةً مكتئبةً وقال: أهكذا تصنعينَ بدواوينِ أصدقائي الشعراء المجيدينَ! لقد كنتُ أتمنّى أن أرى وجهَ الموتِ قبلَ أنْ أرى تلكَ الأعلاق النفيسةَ، والجواهرَ المنتقاةَ أوعيةً للفطائرِ والحلوى في حوانيتِ الطُهَاةِ والحلويّين، فوارحمتاه للأدبِ! وواأسفاه عليه وعلى عهدِهِ الزاهرِ النضيرِ! فألقت عليه نظرةَ ازدراءٍ واحتقارٍ وقالتْ له: إنّنا ما أردنا إهانةَ دواوينِ أصدقائِكَ ولا الزراية[1] بها، ولكنّنا علمنا أنّها لم تخلقْ إلا للعُثّة والأَرَضةِ[2] وأنّ شعاعَ الشّمسِ لنْ يصلَ إلى مكامنها أبدَ الدهرِ، فأردنا أنْ نحتالَ على النّاسِ في أمرِها، فنشَرْنَاها من قبورِهَا وقدّمناها إليهم لَفَائفَ للفطائرِ والحلوى علّهم يلمحونَها عرضًا فيقرؤونَها، فليشكرْ لَنَا أصدقاؤُكَ مِنّتَنَا عليهم ويَدَنا عندهم.

فاحتدمَ راجنو غيظًا وقالَ لها: أيّتها النَّملةُ الضعيفةُ لا تهيني الثورَ العظيمَ فيصرعَكِ بحافرِه صرعةً لا قيامةَ لكِ من بعدِهَا، فقالتْ: لعنةُ الله عليكَ وعلى جميعِ ثيرانك من عهد هومير[3] إلى عهدِكَ. وتركته وانصرفت.

وما هي إلّا هنيهة حتّى دخَل المطعمَ غلامٌ صغيرٌ يطلبُ قرصًا من الحلوى، فتناولَ راجنو أحدَ الأكياسِ وتأمّلهُ قبلَ أن يعطِيَهُ إيّاه، فوقعَ نظرهُ على هذِه الكلمةِ «ولمّا فارقَ عولس بينيلوب» فأعادَهُ إلى مكانِهِ، وقال: شعرٌ بديعٌ لا أستطيعُ أنْ أسمَحَ به. وتناوَل كيسًا آخر فقرأَ عليه هذا العنوانَ «إلى أپولّون» فقال: ولا هذا، ووضَعَه في مكانه، وتناولَ كيسًا ثالثًا فقرأ عليه «إلى فيليس» فقالَ ولا هذا أيضًا، وأراد أن يعيدَهُ إلى مكانه فالتفتتْ إليه زوجتُهُ فَخَافَهَا وأعطاهُ الغلامَ فأخذَه وانصرَف.

ولم يلبثْ أنْ تغفّلَ زوجتَهُ وعَدَا وراءَ الغلام حتّى أدركَهُ في الطريق، فضرعَ إليه أن يردّ له الكيسَ فارغًا، فأبى الغلامُ إلّا إذا أخذَ في مقابلَه قرصًا آخرَ أو أخذَ القرصَ بلا ثمنٍ، فردّ إليه راجنو الثمنَ وعادَ بالصحيفة فرحًا مغتبطًا يمسحُ عنها الدهنَ الذي غمرَها ويضمّها إلى صدرِه ويترنّم بأبياتها.

«الموعد»

وإنّه لكذلكَ إذْ فُتحَ البابُ فجأةً ودخَل سيرانو وهو مصفرّ الوجهِ شاحبُ اللّونِ على أثرِ تلكَ المعركةِ الليليّةِ التي دارتْ بينَه وبينَ أعداءِ لينيير. فسأل راجنو كم السّاعة الآن؟ قال: السادسة يا سيّدي، وقدّم له كرسيًّا فجلسَ عليه، ثمّ وقفَ بينَ يديهِ متأدّبًا متخشّعًا وقال له: أهنّئك يا سيّدي، بانتصاركَ العظيمِ الذي انتصرتَه ليلةَ أمسِ، فلقد كانت تلك المعركةُ أجملَ

---

(١) الزراية: من أزرى به إذا عابه واحتقره.

(٢) العُثّة والأرضة: حشرات صغيرة تفتك بالورق والقماش وما شابه.

(٣) هومير: صاحب الالياذة شاعر يوناني قديم.

معركة حضرتها في حياتي، وسيمرّ بي زمنٌ طويلٌ قبلَ أن أنساها وأنسى حُسْنَها وجَمَالها.

فالتفتَ إليه سيرانو وقال: أي معركة تريد؟ قال: معركة «بورجونيا» قال: لعلّكَ تريدُ المبارزةَ؟ قال: نعم أريد تلكَ المبارزةَ الغريبةَ التي ألّفتَ فيها بين نغمات سيفِكِ ونغماتِ شعرِكَ تأليفًا بديعًا كأحسنِ ما يصنعُ الموسيقارُ الماهرُ وارتجلتَ فيها ذلك الموشّحَ الجميلَ الذي لم يسبقْكَ إليه شاعرٌ من قبلكَ كأنّ إلٰهةَ الشّعرِ كانتْ مرفرفةً فوق رأسِكَ تمدّك بروحِهَا وقوّتِها.

فقالت ليز وهي تشيرُ إلى زوجها: نعم يا سيّدي، إنّه ما زالَ يلهجُ[1] بتلكَ الحادثةِ مذْ رآها حتّى الساعة لا يفارقُ خيالُهَا يقظتَه ولا منامَه حتّى لَيُخَيّلُ إليّ أنّه قد أصابه مسّ[2] من الشيطانِ، فقال راجنو: نعم، إنّها لم تفارقْ خيالي قطّ، وما حَسَدْتُ أحدًا في حياتي على موقفٍ من المواقفِ حَسَدي إيّاك على موقفِكَ هذا.

ثمّ مدّ يدَه إلى المائدةِ وتناولَ مُدْيةً[3] طويلةً وأخذ يلوّحُ بها في الهواء مُقْبلًا مُدْبرًا متقاصرًا متطاولًا كأنّما يمثّلُ تلكَ المبارزةَ ويترنّمُ في أثناءِ تمثيله بهذا الشطر «وفي المقطعِ الأخيرِ أُصِيب، وفي المقطع الأخير أُصيب» ثم يقول: ما أجملَ هذه النغمةَ! وما أبلغَ هذا الشّعرَ! وما أمتنَ تلكَ القافية! وسيرانو ينظرُ إليه مدهوشًا مستغربًا حتّى فرغَ من تمثيله، فقال له: كم السّاعةُ الآنَ يا راجنو؟ قال: ستّ وعشرونَ دقيقةً يا سيّدي، فقال في نفسه: لم يبقَ على السابعة إلّا القليل.

ثمّ وقفَ وأخذَ يتمشّى في أرجاءِ القاعةِ ذهابًا وجيئة فمرّ بليز وهي واقفةٌ بجانبِ المائدةِ، فلمحتْ في يدِهِ جرحًا داميًا، فقالتْ له: ماذا أصابك يا سيّدي؟ وما هذا الجرح الذي في يدك؟ قال: خدش بسيطٌ لا أهميّةَ له، فقالتْ: يُخَيّلُ إليّ أنّكَ كنتَ في معركة، قال: لا. قالت: أخافُ أنْ تكونَ كاذبًا، قال: هلْ رأيتِ أنفي يضطربُ؟ تلك هي العلامةُ الوحيدةُ للكذب في مذهبي. ثمّ التفتَ إليها وإلى راجنو وقال لهما: إنّني انتظر بعضَ النّاسِ هنا وأحبّ أن أكونَ معه على انفرادٍ فاتركا لي القاعة الآن، فلم يَبْقَ على حضورِه إلّا القليلُ. قال راجنو: ولكنْ ماذا أصنعُ بشعرائي يا سيّدي، وهمْ على وَشَكِ الحضورِ الآنَ؟ قال: لا بأسَ أن يحضروا على شرطِ أنْ تُؤْذِنَهم بالانصرافِ أو بالتّحوّل إلى غرفةٍ أخرى عندما أشير إليكَ.

ثمّ سأله: كم الساعةُ الآنَ، قال: ستٌّ وثلاثونَ دقيقةً، قال: أعطني قلمًا وقرطاسًا فإنّي أريدُ أنْ أكتبَ شيئًا، فجاءه بما أرادَ، فجلسَ على منضدةِ راجنو وأمسَكَ بالقلم وأنشأ يقول بينه وبين نفسه: ليس في استطاعتي أنْ أفاتحها في شيءٍ ممّا أحبّ أن أفاتحها فيه، فخيرٌ لي أن أكتبَ لها كتابًا أقدّمه إليها بنفسي عند حضورِهَا، ثمّ أتركُها وانصرفُ لشأني لتقرأهُ وَحْدَها.

وأطرقَ برأسهِ هنيهةً ثمّ تنفّسَ نَفَسًا طويلًا وقال: آه! لقد كنتُ أظنُّ أنّني شجاعٌ جريءٌ، لا أهابُ الإقدامَ على أيّ خطرٍ من الأخطارِ، مهما كانَ شأنُه. فإذَا أنا جبانٌ عاجزٌ لا حولَ لي

---

(١) يلهج: من لهج بالأمر إذا أولع به وثابر عليه. (٢) المسّ: الجنون.
(٣) المدية: السكّين.

فيما يَعرِضُ لي من الخطوبِ ولا حيلة. ويخيّلُ إليّ أنّ الموتَ أهونُ عَليّ من أن أقفَ أمامها وجهًا لوجه، وأفضي إليها بشيءٍ مما يجيشُ به صدري.

ثمّ أكبَّ على المنضدة وحاولَ أن يكتبَ شيئًا فازدحمتِ الأفكار في رأسه وانتشرت عليه خيالاتُه وتصوّراتُه فلمْ يستطعْ أنْ يكتبَ حرفًا واحدًا، فألقى القلمَ من يدِه، وقال: قبّحَ اللهُ التكلُّفَ والتعمُّل[1]. لولا أنّها تلميذةُ «المدرسةِ القديمةِ» وأنّها من فريقِ المتأنقين المتشدّقين المفتتنين بالصوّرِ والأساليبِ لما وَجد قلمي في طريقه ما يعترضُه دونَ الوصول إلى الغاية التي يريدها، فالكتاب مسطور في صدري بأكملِهِ وليسَ بيني وبينَه إن أردتُه إلّا أنْ أضعَ قلبي بجانبي وأستمليه ما يشعرُ به فيمليه عليّ ببساطة ووضوح.

ثمّ تناولَ القلمَ مرّةً أخرى وشرعَ في الكتابة فإذا صوتٌ غليظٌ أجشُّ[2] يقعقعُ[3] ناحيةَ الباب: «صباح الخير يا ليز». فرفَعَ سيرانو رأسَه فإذا ضابطٌ ضخمُ الجثّةِ هائلُ الخلقة ذو شاربين كثيفين مستطيلين، فسألَ راجنو: مَنِ الرّجل؟ فقال: إنه ضابطٌ من ضبّاطِ الجيشِ الفرنسي يسمّي نفسه «الرجل الهائل»، وهو كما يزعمَ بطلٌ من الأبطال المغاويرِ الذين لم يسمحِ الدهرُ بمثلهم في جيش من جيوش العالم، وهو صديقُ زوجتي ليز، ولا يأتي هنا إلا لزيارتها.

فألقى سيرانو على الضابطِ نظرةً شديدةً، ثمّ عاد إلى شأنه واستمرّ يكتبُ كتابه، ويهمهِمُ بينه وبين نفسِه من حينٍ إلى حين بأمثالِ هذه الكلمات: «أحبّكِ حبًّا يعجزُ القلم عن بيانه، لأنّ القلمَ مادّةٌ من مواد العالم الأرضي، والحبّ روحٌ من أرواح الملأ الأعلى»، «لا يرى الناسُ من عينيكِ الجميلتين سوى صفائِهما ورونَقِهما، أما أنا فإنّي أستشفُّ من ورائهما نَفْسَكِ الجميلةَ العذبةَ المملوءةَ رقّةً وشعورًا، فإذا قال الناس ما أجملَ عينيها وأحلاهما قلتُ ما أجملَ نفسَها المترقرقةَ في عينيها، وما أصفى أديمها».

إنّني أعيش في هذا العالم عيشَ اليائسِ القانطِ[4]، واليأس يقتلُ الفضائلَ في النفوسِ ويُميتها، فأحييني بالأملِ واخلقي منّي إنسانًا جديدًا تتخذي عندي بل عند العالم أجمعَ يدًا[5] لا أنساها لكِ أبدَ الدهرِ، وفي اعتقادي أنْ ليسَ بيني وبينَ أنْ أكونَ إنسانًا نافعًا في المجتمعِ بل نعمةً على الدنيا بأجمَعِها إلّا أن تُسْبلي عليّ سترَ حمايتِكِ ورعايتك».

«بؤس الأدباء»

وظل مستغرقًا في تصوّراتِهِ وأفكاره التي كانَ يرسمُهَا على قرطاسِه كما يرسمُ المصوّرُ منظرًا بديعًا من مناظرِ الطبيعةِ على لوحِهِ كما يراه لا يزخرفُ ولا يوشّي ولا يبتدعُ ولا يبتكرُ، فلمْ ينتَبِهْ إلى جماعةِ الشعراءِ حينَ دخلوا الحانوتَ هاتفينَ مهلّلينَ، وهم في ملابسهم الرزيّةِ[6]

(١) تعمّل في الأمر: اجتهد فيه واعتنى.
(٢) أجشّ: خشن، غليظ.
(٣) قعقع: صوّت.
(٤) القانط: من القنوط وهو اليأس وفقدان الرجاء.
(٥) اليد: هنا بمعنى الفضل لأنّ اليد هي أداة الفضل.
(٦) الرزيّة: المعيبة، الحقيرة.

الغبراءِ ونعالهم الباليةِ وقبّعاتِهم الممزّقةِ، فقالت «ليز» لزوجِها وأشارتْ إليهم: هَا هُمْ صعالكُكَ وقاذوراتك يا راجنو. فلم يعبأ بها، وقام لاستقبالهمْ والترحيبِ بهم فعانقُوه وحيّوه ودعُوه بالزميل والرصيفِ[1] والصديق وبكلِّ ما يحبّ من الألقابِ والنعوتِ، وهو فَرِحٌ مغتبطٌ.

فوقفَ زعيمهُمْ وَسْطَ القاعةِ وأخذَ يتشمّم بأنفِهِ ويقول: ما أزْكى رائحةَ بلاطِكَ يا ملكَ الطُّهاةِ والشوّائين! فانحنى راجنو بينَ يديهِ شاكرًا وقالَ له: ما أسعدَ السّاعةَ التي أراكُمْ فيها أيّها الأصدقاءُ الأوفياءُ.

ثمّ أشارَ لهم إلى المائِدةِ فَوَقفُوا حولها وَضربُوا بأعينهم في أنحائها، وظلّوا يأكلونَ ويقصفُون[2] ويمزحونَ ويمجُنونَ فيقولُ أحدهُم، وهو يشير إلى قطعةٍ من الحلوى ذاتِ رأسٍ مسنّم[3]: إنّ هذه القطعةَ لم تُحسنْ وَضْعَ قلنسوتها على رأسها فلا بُدّ من معاقبتها، فيقول له الآخر: وَبِمَ تعاقبها؟ فيقول: بهَشْمِ رأسِهَا، ثمّ يتناولُها فيهشمُها كلّها رأسًا وجسدًا. وينظر آخر إلى قطعة أخرى محشوّة بالقِشْدَة ويضغَطُها فتبرزُ قشدَتُها البيضاءُ فيقول: ما أجملها! كأنّها ثغرٌ ضاحِكٌ، فلا بدّ لي من تقبيلِهِ، ثمّ يدنيها من فمه ليقبّلها فيأكُلُها. ويقول آخر، وهو ينظرُ إلى قيثارة الحلوى التي صنعها ذلكَ العاملُ في الصباحِ وأجازه راجنو عليها: كانت القيثارةُ قبلَ اليومِ غذاءَ الأرواحِ، أما اليومَ فهي غذاءُ الأجسامِ، ثمّ ينقضُّ عليها فيأكُلُها.

وراجنو واقفٌ أَمَامهمْ يبتسمُ ويتهلّل ويقولُ في نفسه: ما أجملَ هذه المعاني وأبدَعها! يأبى الشّاعرُ إلّا أن يكونَ شاعرًا في كلّ موقفٍ وفي كلّ مقام. ثمّ قال: هل تأذنونَ لي أيّها السّادةُ أن أنشدَ بين أيديكم قصيدتي الجديدةَ التي نظمتُها في وصفِ «اللوزينج»[4] وسمّيتها باسمه فصاحوا جميعًا: نعم، نعم، ولا بدّ أنْ تكونَ قصيدةً جميلةً جدًا لأنّ عنوانَها جميلٌ جدًّا، فاغترّه مدحُهُم وثناؤهم، فرفَعَ عقيرته[5] وأخذَ ينشدُ قصيدتَه ويرجّع في إنشادها ترجيعًا مضحكًا وهم لاهونَ عنه بشَانِهِمْ لا يعبأونَ به، ولا يلتفِتُون إليه إلّا في الفيْنة بعدَ الفيْنةِ.

فقال له «الرجلُ الهائل»: ألا تراهُمْ يا راجنو، وهم يلتهمونَ حلواكَ وأنتْ لاهٍ عنهم بألحانِكَ وأغانيك؟ فمشى نحوَه وانحنى عليهِ وألقى في أذنهِ هذه الكلمات: إنّني أراهُمْ أيّها الغبيّ الأبله، ولكنّني أغضّ الطرفَ عنهم رحمةً بهمْ وإشفاقًا عليهم، فهمْ قومٌ بؤساء معدمونَ قلّما يرونَ وَجْهَ الطعامِ الشهيّ إلّا في حانوتي، وأظنّك لا تجهلُ أنّ ضيوفي أولى بالتّجلّة والإكرام من ضيوفِ زوجتي. وكانا على مقربةٍ من مكانِ سيرانو فانتبه لكلماتهِ الأخيرةِ فرفعَ رأسه وقال له: ادْنُ مني يا راجنو. فَدَنا منه فقال له: إنّكَ تعجبني جدًا أيّها الرجلُ، فالشعراء في هذا العالم كالشّجرة الوارفة في المهمه[6] القفر، يفيء إلى ظِلّها الغادون والرّائحونَ، وهي وحدَها التي تحتملُ حرَّ الهاجرةِ

(١) الرجل الرصيف: المحكم العمل.
(٢) القصف: الإقامة في الأكل والشرب واللهو.
(٣) المسنّم: المرتفع وأصلها في سنام الجمل.
(٤) اللوزينج: نوع من الحلوى يؤدم بدهن اللوز.
(٥) العقيرة: الصوت.
(٦) المهمه: البلد المقفر، والصحراء القاحلة.

ولَظَاها، فرحمةُ الله ورضوانُه على من يُحْسِنُ إليهم، ويتصدّقُ عليهم.

ثمّ عاد إلى شأنه الذي هو فيه، وظلَّ الشّعراءُ يأكلونَ ويقصفونَ ويبتاعونَ ما شاءوا من فطائرِ راجنو وحلواه بِطُرَفِهِم الأدبية وَمُلَحِهِم النادرة، حتى فُتح البابُ ودخلَ عليهم أحدُ زملائهم، وكان قد تخلّف عنهم قليلًا فَهَلّلُوا حينَ رأوه وصاحوا بصوتٍ واحد: لقد تأخّرتَ أيّها الصديقُ. قال: قد حالَ بيني وبينَ اللّحاقِ بكم ازدحامُ الناسِ ازدحامًا شديدًا عندَ باب «نيل» قالوا: وهلْ حدثَ شيءٌ هناكَ؟ قال: نعم كان ازدحامُهُمْ على ثمانيةِ قتلى، وجدوهُمْ هناكَ مضرّجينَ بدمائهم، ولا يعلمُ أحدٌ كيفَ قُتِلوا ولا من جنى عليهم هذه الجنايةَ الفظيعةَ، فانتبه سيرانو للحديثِ واعتدلَ في جلستِه وقالَ في نفسه: يا للعجب! كنت أظنّهمْ سبعةً فقط، إذن قد ربحنا واحدًا آخر.

فقال راجنو للمتكلّم: وما ظَنُّ النّاسِ بهذه الحادثة؟ قال: يقول بعضهم: إنّ رجلًا واحدًا هو الذي قام بمفرده بمقاتلةِ هؤلاءِ اللصوص وكانوا مائة أو يزيدونَ فانتصرَ عليهم جميعًا وفرَّق شملهم وقتلَ منهم هذا العددَ الكثير، ولقد رأينا العِصِيّ والخناجِرَ والمُدى[1] التي كانت مع أفرادِ تلك العصابةِ مبعثرةً ههنا وههنا. وظلّ الناسُ يلتقطونَ القبعاتِ التي طارتْ عن رؤوسِ المنهزمينِ من بابِ نيل إلى النهر.

فمشى راجنو إلى سيرانو، وقال له أَسامعٌ أنتَ هذا الحديثَ يا سيّدي؟ قال: نعم، قال: ما ظَنُّكَ ببطلِ هذه الواقعة؟ فرفعَ رأسَه إليه وقال: لا أعرفه. فهرعتْ ليز إلى صديقها «الرجل الهائل» تسأله: وأنتَ يا سيّدي؟ فابتسم وفتلَ شاربيه وغمز بعينيه وقال: أظنّني أعرفه.

وكان سيرانو قد أتمّ كتابه وأرادَ أن يوقّع عليهِ، ثمّ توقّف وقال: لا لزوم للتوقيع لأنّني سأقدّمه إليها بنفسي. ثمّ طواه ووضعَهَ في صدرِهِ ونهضَ قائمًا على قدميه وهتفَ براجنو، فأسرعَ إليه فسأله: كم السّاعةُ الآن؟ قال ستٌّ وخمسونَ دقيقةً، فقال: في نفسه لم يبقَ إلّا عشرُ دقائقَ. وأخذَ يتمشى في القاعة ذهابًا وجيئةً، وكانت ليز وصديقُها الضابطُ جالسين على انفرادٍ في أحدِ أركانِ القاعةِ، فخُيّلَ لسيرانو أنّه رأى بينهما شيئًا مُريبًا، فدنا منهما ووضعَ يده على كتفِ المرأة وقال لها: يُخَيّلُ إليّ أيتها السّيّدةُ، أنّ هذا البطلَ الجالسَ بجانبك يدبّر خطّةً للهجومِ على حصنك، فانتفضتْ وتظاهرتْ بالغضبِ وقالتْ له: ماذا تقول يا سيّدي؟ إنّ نظرةً واحدةً منّي تكفي لهزيمة من يحاول ذلك، قال: ولكنّي أرى عينيكِ ذابلتينِ متضعضعتينِ تلوحُ عليهما علائمُ الانكسار.

فاضطربتْ وحاولت أنْ تقولَ شيئًا، فخانَها صوتُهَا فصمتَتْ، فقال لها: أيّتها الفتاةُ إنّ راجنو يعجبني جدًّا، لذلك لا أسمحُ لأحدٍ أن يعبث بشرفِهِ أمامي. ثمّ التفتَ إلى الضابطِ فنظرَ إليه نظرةً شزراءَ وقال: ولقد سمعَ من كانتْ له أذنان، أليسَ كذلك أيّها «الرجلُ الهائل»!

---

(١) المُدى: جمع مدية وهي السكّين.

ثمّ تركها واستمرّ في سبيله، فهمستْ «ليز» في أذنِ صديقِهَا تقولُ له: إنّكَ تدهشني جدًّا يا صديقي، ولا أعلمُ سببًا لسكوتِكَ وَصَمْتِكَ، حتّى لَيُخَيَّلُ إليَّ أنّك تخافُه وتخشاه، قل له كلمةً تؤلمه وتكسرُ مِنْ شِرَتِهِ أو اسْخرْ من أنفه على الأقلّ، فإنّه موضعُ الضّعفِ منه. فنظرَ إليها ذاهلًا مشدوهًا وقد سَرَتْ في جسمه رعدةٌ شديدةٌ وقال: أنفُه؟ لا، لا، مَا لَنَا وللسخريةِ بمصائبِ الناسِ وأرزائهم.

ثمّ تسلّلَ من مكانه وخرجَ من القاعةِ فتبعَتْهُ، وكانتِ الساعةُ قد أشرفتْ على السابعة، فصاحَ سيرانو: قد جاءَ الميعادُ يا راجنو. فهتفَ راجنو بشعرائه: هيا بنا أيّها الأصدقاءُ، إلى الحجرة الثانية. فتباطأوا وتلكّأوا، فَظَلّ يدفعهُمْ بيديه وهم يتخطّفون[1] الحلوى ويتناهبونَها، حتّى أدخلهم الحجرةَ وأغلقَ بابَها عليهم، ووقفَ سيرانو على مقربةٍ من بابِ المطعمِ ينتظرُ قدومَ روكسان ويقولُ في نفسه: لا أعطيها الكتابَ إلّا إذا رأيتُ في وجهها بارقةَ أملٍ.

«اللقاء»

وهنا سُمِعَ حفيفُ ثوبٍ مقبلٍ، فخفقَ قلبه خفقانًا شديدًا ثمّ فُتح البابُ ودخلتْ روكسان ووراءها وصيفتُها وهي تخطر في مشيتها تلكَ الخطرةَ البديعةَ التي عُرفتْ بها وافتتنَ بها الناسُ من أجلها وقد أسبلتْ قِنَاعها على وجهِهَا، فحيّتْهُ فحيّاها تحيّةً محتشمةً، تترجّحُ بين الأدبِ والكبرياءِ وأشارَ لها إلى كرسيّ كانَ قد أعدّه لها، فجلستْ عليهِ، ثمّ تركها وذهبَ إلى الوصيفةِ، وكانتْ واقفةً على عتبةِ البابِ تُقلّبُ نظراتِها في صنوفِ الأطعمةِ المنتشرةِ على المائدة، فقالَ لها بلهجةِ المازحِ المداعب: أشرهةٌ أنتِ أيّتها الفتاةُ؟ قالتْ: نعم يا سيّدي، إلى الموت. فمشى إلى المائدة وتناولَ كيسين من أكياسِ الحلوى وقالَ لها: هاكِ قصيدتينِ بديعتينِ للشّاعرِ العظيم (بِنْسِرَادْ) فخذيهما، فلم تفهمْ ما يريدُ، وقالتْ: وماذا أصنعُ بهما؟ قال قد اتّخَذَتْهُما «ليز» كما اتخذتْ غيرهما من قصائدِ الشعراءِ المجيدين أكياسًا للحلوى، وأوعيةً للفطائر، فخذيهما واجلسي خارجَ البابِ فإنّكِ ستجدينَ فيهما من ألوانِ الحلوى ما تشتهينَ، ولا تعودي إلا بعد أن تشبعي، فتلألأ وجهُهَا فَرَحًا وسرورًا وتناولتِ الكيسينِ وعادتْ أدراجها.

ورجع سيرانو إلى روكسان، فوقف بين يديها حاسرَ[2] الرأسِ وقال لها: لقد أسديتِ[3] إليَّ يا سيّدتي، بزيارتكِ هذهِ نعمةً لا أنساها لكِ مَدَى الدهر، وإنّي أفتخرُ بهذهِ الثّقةِ التي أوليتنيها وأنتظرُ بكلّ شوقٍ سَمَاعَ ما تريدين أن تُفْضِي[4] به إليَّ. فحسرتْ قناعَهَا من وجهِهَا فأضاءَ ضوءَ القمرِ السّاطِعِ في الدُّجُنّةِ[5] الحالكةِ وقالتْ له: شكرًا لك يا ابنَ عَمّي، إنكَ قد أحسنتَ إليّ ليلةَ أمسِ إحسانًا عظيمًا بقتلكَ ذلكَ الفتى الوقحَ الجريءَ الذي حاولَ أن يعبثَ بكَ ويستهين

---

(١) تخطّف الشيء: أخذه بسرعة. (٢) حاسر: مكشوف.
(٣) أسدى إليه: أحسن. (٤) أفضي بالأمر: باح به وأعلنه.
(٥) الدجنّة: الظلمة.

بكرامَتِكَ فغضبتَ لنفسك غضبة الأبيِّ الأنوفِ ولم تَرِمْ[1] مكانَك حتّى غسلتَ بدمِه أثرَ الإهانَةِ التي لحقتْ بك، أتعرفُ هذا الفتى يا سيرانو؟ قال: لا يا سيّدتي، قالت أَبَارَزْتَهُ دونَ أن تعرفَ اسمه؟ قال: نعم، قالت: إنّه الفيكونت «ڤالڤير» الذي أراد أحدُ المغرمين بي من عظماء هذا البلد وهو الكونت دي جيش أن يزوجني به، على الرغمِ منّي، زواجًا لا أعرفُ كيفَ أُسمّيه؟ قال: زواجًا اسميًا! فأطرقتْ برأسها حياءً وخجلًا وقالت: نعم. فقالَ لها: ما أفظعَ ما تقولينَ! لقد أصبحتُ الآن راضيًا عن نفسي كلَّ الرضا في تلك الخطّةِ التي انتهجتُها معه والتي انتهت بانتهاءِ حياتِه بعد ما علمتُ أنّني إنّما كنتُ أقاتلُ في سبيلِكِ لا في سبيلِ نفسي، وأذودُ عن عينيكِ الجميلتينِ لا عَن أنفي.

فاستضحكتْ وأشارت له إلى كرسيّ بجانبها، فجلسَ عليه صامتًا ساكنًا ينتظرُ ما تقول، وسادَ السكونُ بينهما هنيهةً، ثمّ أقبلتْ عليه وقالت له: كنتُ أريدُ أن أقولَ لكَ كلمةً أخرى يا سيرانو، فهلْ تسمحُ لي بها؟ قال: نَعَمْ أسمحُ لكِ بكلِّ شيءٍ، فقولي ما تشائين. قالت: أتذكرُ تلكَ الأيام الماضيةَ التي قضيناها معًا، ونحنُ صغيرانِ في «برچراك» في تلكَ المروجِ الخضراءِ على ضفافِ البحيرة؟ فانتعشتْ نفسُه وخفَقَ قلبُه خفقانًا شديدًا وقال: نعم يا ابنة عمّي أيامَ كنتِ تأتين هناكَ مع أبويكِ لقضاءِ فصلِ الصيفِ في كلّ عام، قالت: إنّي أذكر تلكَ الأوقاتِ الجميلةَ كأنّها حاضرةٌ بين يديَّ، وأذكرُ تلك الأعوادَ الشّائكةَ التي كنتَ تقتطعُهَا بيديكَ من أشجارِ الغابِ وتتخذُ منها أسيافًا صغيرةً تلعبُ بها في الهواء كأنّكَ تبارزُ أشباحًا خفيّة تتراءى لك.

قال: نعم أذكرُ ذلكَ ولا أنساهُ وأذكرُ أنّكِ كنتِ تجمعينَ أعوادَ الذُّرةِ من الحقلِ، ثمّ تجلسينَ على ضفّةِ البحيرةِ لِتَتَّخذِي من خيوطِهَا شعورًا ذهبيةً لعرائِسِكِ الجميلةِ. قالت: نَعَمْ ما كانَ أجملَ تلكَ الأيّام! وما كان أسعدَ ساعاتها، وما كان أحلى مذاقَ العيشِ فيها! لقد كان يخيّل إليّ في ذلِكَ الوقتِ أنّني صاحبة السلطانِ المطلقِ عليكَ وأنّك تحبّني حبًّا شديدًا وتهتمّ بشأني اهتمامًا عظيمًا، بل تأتمرُ بأمري في كلّ ما أشيرُ به عليكَ وتَنزلُ عندَ جميعِ رَغَباتي وآمالي، وأظنُّ أنّي كنتُ جميلةً في ذلك الحينِ، أليس كذلك؟

فازدادَ خفقانُ قلبِهِ وَخُيِّلَ إليه أنّه يرى بينَ شفتيها ظِلَّ تلكَ الكلمةِ العذبةِ التي يتلهّفُ شوقًا إلى سَمَاعِها من فمها، فرفَعَ رأسهُ ونَظَرَ إليها نظرةً باسمةً عذبةً، وقال: نعم يا سيّدتي، كما أنتِ الآن، قالت: وكنتَ كثيرَ الشّغفِ بِتَسلُّقِ الأشجارِ الشّائكةِ والمخاطرةِ بنفسِكَ في ذلك مخاطرةً عُظْمى، فكنتَ إذا أصابَكَ جُرحٌ في يدك هرعتُ إليك وعطفتُ عليكَ عطفَ الأمّ الرؤوم على ولدها وأخذتُ يدكَ بين يديَّ هكذا.

ومدّت يدها إلى يَده، فجذَبَتْها إليها، فَوَقَعَ نظرُها على ذلكَ الجرحِ الدامي الذي أصابه في معركةِ الليلِ، فدهشتْ وقالت: ما هذا يا سيرانو؟ ثمّ ابتسمتْ وقالت: ألا تزالُ تتسلّقُ

(١) رام يريم المكان: غادره.

الأشجارَ حتّى الآن! فضحِكَ، وقال: نعم، لا أزالُ أحبُّ اللعبَ حتّى الآن، ولقد لعبتُ ليلةَ أَمسِ لعبةً شيطانيَّةً عند بابِ نيل سفكتُ فيها من دَم أعدائي فوقَ ما سفكوا من دَمي أضعافًا مضاعفةً. ثمّ حاولَ أن يستردَّ يَدَهُ فأمسكتْ بها وقالتْ له: لا، بل لا بدّ أنْ تَدَعَها لي الآنَ حتّى أرى الجرحَ، وأسبرَهُ[١] كما كنتُ أفعلُ في عهدِ طفولتي، وأعالجه بالطّريقةِ التي كنتُ أعالجُ بها جروحَك مِنْ قبل. ثمّ أخرجتْ مِنديلها من صدرِها، وغمستْ طرفَه في قدح من الماءِ، وظلّتْ تمسحُ به الجرَح برفقٍ وتُؤَدةٍ[٢] وتقولُ له: هكذا كنتُ أعالجُ جروحَكَ التي كانتْ تصيبُكَ من تَسَلُّق الأشجار الشّائِكة في عهدِ طفولتك الأولى، وهو يرتَعِدُ بَينَ يَديها، ويضطربُ من تأثيرِ ملامسة جسمِها لجسمه ويقول: نعم يا روكسان، إنّها رحمةٌ لا تكونُ إلّا في قلوب الأمّهات.

قالت له: قُلْ لي، كَمْ كانَ عددُ أعدائك الذي قاتلتهمْ في تلكَ المعركةِ؟ قال: مائة أو يزيدونَ، قالت مائة! يا للشّجاعةِ النادرة، قالَ: وربّما كنتِ لا تعلمينَ أنّها المرّةُ الثانيةُ التي قاتلتُ فيها من أجلكِ في ليلةٍ واحدةٍ. قالت: من أجلي؟ لم أفهم ما تريدُ، قال: نعم، لأنني إنّما كنت أدافعُ عن ذلك الشاعرِ المسكينِ الذي انتصرَ لك وذادَ عنكِ ومثّلَ بخصمِكِ أقبحَ تمثيلٍ في قصيدته التي هجاه بها فحقدها عليه ودسَّ له هؤلاءِ الرّعاع ليقتلوه في جنح الظلام.

قالت: ما أعظمَ شكري لكَ، يا ابن عمّي، وما أكبرَ شأنَ تلك النعمةِ التي أسديتَها إليّ. حدثني حديثَ الواقعةِ مِنَ مَبْدَئِها إلى مُنْتَهاها، فلا بُدّ أن تكونَ واقعةً غريبةً جدًا لم يسطّرِ التاريخُ مثلها. قال: سأحدّثُكِ عنها فيما بعد، أما الآن فحدّثيني أنتِ عن ذلكَ الأمرِ الذي جئتِني من أجلِهِ والذي لم تَجْرُئي على أن تفاتحيني فيه حتّى الآن، قالت، وهي لا تزالُ آخذةً بيده تمسَحُها وتَستغثُّها[٣]: أمّا وقد ألقينا نظرةً على ماضينا الجميلِ وجدَّدنا عهدَ تلكَ الذكرى القديمةِ وعلمنا أن الصلةَ التي بيننا صلةٌ وثيقةٌ محكَمةٌ لا تَنَالُ منها يَدُ الدهرِ، ولا تأخذُ منها عادِياتُ الأيام فاسمحْ لي أن أُفْضِي[٤] إليك بسرِّي وأن أقولَ لكَ بصراحةٍ: إنني عاشقةٌ يا سيرانو.

فتلألأَ وجهُه وانتعشتْ نفسُه، ومشتْ رعدةٌ خفيفةٌ في أجزاءِ جسمه وكادَ منظرُه ينمُّ[٥] عما في نفسه لولا تجلُّدُه واستمسَاكُه وقال لها: ومن هو هذا الإنسانُ السعيدُ الذي يتمتّعُ بنعمةِ حبّك؟ قالت: إنّه لا يعلمُ شيئًا ممّا أضمِرُه له في قلبي حتى الآن، ولم أفضِ إليه بسريرةِ نفسي حتّى الساعة، وسيكونُ سرورُه عظيمًا جدًّا حينما يعلمُ أنّ الفتاةَ التي يحبّها ويموتُ وجدًا بها تضمِرُ له بين جوانحها من الوَجْدِ فوقَ ما يضمِرُ لها. فازدَادَ سرورُه وانتعاشُه وقال: ألا تستطيعينَ أن تقولي لي من هو يا روكسان؟

قالتْ: سأصفُه لكَ لتكونَ أوّلَ ناطقٍ باسمه، وهو شابٌّ خجولٌ شديدُ الحياءِ يحبني حبًّا

---

(١) سبر الجرح: اكتشف عمقه. (٢) التؤدة: التأنّي.

(٣) استغث الطبيب الجرح: نقى غثيثته وصديده بمنديل ونحوه.

(٤) أفضى بالسرّ: باح به. (٥) نمّ: كشف.

يملكُ عليه كلّ حواسّه ومشاعِره، ولكنّه يكتُمُ سرّهُ في صدره. قال: وكيف وقفتِ على سريرة نفسه؟ قالت عرفتها من ارتجافِ شفتيه، واكفهرار[1] وجهِهِ وَتَدَلُّهِ نظراته، كلّما رآني، قال: ثمّ ماذا؟ قالت وهو ذكيٌّ نبيهٌ تلوحُ على وجهِهِ علائمُ التفوّقِ والنبوغ. فأطرقَ برأسه حياءً وحاولَ أن يجتذبَ يَدَهُ من يدَها وكانتْ قد انتهتْ من تَضْميدِهَا فقالت له: دعها لي الآن فهي لا تزالُ ملتهبةً بالحمّى، فتركها لها وهو يقول في نفسه: ما أسعدني وأعظمَ هنائي!

واستمرّتْ في حديثها تقول: وهو فوق ذلكَ شجاعٌ، مقدامٌ، شريفُ النفسِ، عالي الهمّة، يأبى الضيمَ ويأنفُ الذلّ، ولا يبيتُ على ضيمٍ يُرادُ به، قال هيه؟ قالت: وهو جنديٌّ في فصيلة شبَّانِ الحرسِ، أي في فصيلتك يا سيرانو، فهمهم بينَ شفتيه: «لم يبقَ في الأمرِ ريبٌ»، قالت: أمّا صورتُه فهي أجملُ صورةٍ خَلَقَها الله في العالم... فصعقَ عندَ سماعِ هذه الكلمةِ التي ذهبتْ بجميعِ آمالِهِ وأحلامِهِ، وتأوّهَ آهةً شديدةً كادتْ تخرجُ فيها نفسُه، فعجبتْ لأمره، وقالت له: ماذا أصابَكَ يا سيرانو؟ فتراجَعَ إلى نفسه سريعًا واستجمعَ مِنْ قواهُ في تلكَ اللحظةِ ما يعجزُ أشجَعُ الرّجالِ وأصبرُهُمْ عن استجماعِهِ فيها وقال: لا شيءَ، لقد أحسَسْتُ بوخزٍ في يدي مِنْ تأثير الحمّى، وقد ذهبَ الآن كلّ شيء.

وصمت لحظةً ثمّ قال: نعم ذهبَ كلّ شيءٍ، فتحدّثي فإنّي مُصْغٍ إليك. قالت: لقد أحببتُ هذا الفتى حبًّا مَلَكَ عليَّ عواطفي واستغرقَ مشاعري ولا عهد لي به إلا منذُ أيّام قلائلَ كنتُ أراه فيها يختلفُ إلى قاعة التمثيل، فيجلسُ منفردًا وحدَهُ فأنظرُ إليه من بعيدٍ، وقدْ جئتُك الآنَ أتحدّثُ إليك في شأنه، فأطرقَ هنيهةً ثمّ رَفَعَ رأسَه إليها وقال لها بصوتٍ سَاكِنٍ هادئ: ألم تتحدّثي إليهِ قبلَ اليوم؟ قالت: لم نتخاطبْ إلّا بالعيونِ، قال: وكيفَ عرفتِ جميعَ هذه الصّفاتِ التي ذكرتِهَا فيه وما حَادَثْتِهِ ولا جَلَسْتِ إليه؟ قالت: سمعتُها منذُ أيّام تحتَ أشجار الزيزفونِ في الميدان الملكيّ في مجتمعِ العجائز الفضوليّاتِ لا حَرَمَنَا الله ثرثرتَهنّ وفضولهنّ، قال: وهلْ هو من فرقةِ الشبّان؟ قالت: نعم شبّانُ الحرس، قال: أعترفُ لكِ يا سيّدتي، أنّني قد عجزتُ عن معرفةِ اسمِه فقولي لي من هو؟ قالتْ: هو «البارون كرستيان دي نوفييتْ» قال لا أذكرُ أني سمعتُ بهذا الاسمِ قبل اليوم، قالتْ: إنّه لم يدخلِ الفرقةَ إلّا في هذا الصباحِ تحت قيادة «كربون دي كاتسل جلو».

فصمتَ هنيهةً ثمَّ نَظَرَ إليها نظرةَ عطفٍ وحنوٍّ وقال لها: ولكنْ يُخَيَّلُ إليَّ يا روكسان، أنّك تخاطرين بقلبكِ في هذا الحبّ مخاطرةً عظمى لا تدرينَ ما عاقبَتُهَا وأنّك تلقينَ بنفسِكِ في هوّةٍ لا تعرفينَ السَّبيلَ إلى الخلاصِ منها. وكانتِ الوصيفةُ قد فرغتْ من طعامِهَا في هذه اللحظةِ، فدفعتِ البابَ وأطلّتْ برأسِها وقالت: قَدْ أكلْتُ كلّ شيءٍ يا سيّدي، فماذا أصنع؟ فالتفت إليها وقال: حسبُكِ ذلكَ؛ فاقرئي ما على الأكياسِ من الأشعارِ، ولا تعودي إلّا إذا دَعَوْتُك.

---

(١) اكفهرار الوجه: اسوداده.

فانصرفتْ وعادَ هو إلى إتمام حَدِيثه فقال: أنتِ يا ابنةَ عمّي، فتاةٌ رقيقةُ الشعورِ ذكيّةُ الفؤادِ لا يعجبُكِ إلّا التفوّقُ والنبوغُ ولا تأنسُ نفسُكِ إلّا بالذكاءِ الخارق والفطنةِ النادرة، فماذا يكونُ شأنُكِ غدًا لو أن ذلكَ الفتى الذي أحببتِهِ واصطفيتِهِ لنفسِكِ كانَ بليدًا أو عييًّا أو ضعيفَ الذهنِ أو خاملَ الفكر؟ قالت: لا يمكنُ أنْ يكونَ كذلكَ، قال: لماذا؟ قالت: لأنّ منظرَ شَعْره الذي يشبه في صفرتِهِ ولمعانِهِ منظرَ شَعر أبطال «أورفيه» يدلُّ على نُبُوغه وذكائِهِ. قال: ربّما كانَ جميلَ الشعرِ بديعَ الصورةِ ولكنّه بليدُ الذهنِ ضيّقُ العطن، قالت لَا أظنُّ ذلك، بلْ يُخَيَّلُ إليَّ وإن لم أجلس إليه ولم أسمع حديثه أنّه أَرَقُّ النّاسِ حديثًا وأعذبُهم سمرًا، وأفصحُهُمْ لسانًا، وأغزرهم بيانًا.

فقال في نفسه: نعمْ، كلُّ الألفاظِ جميلةٌ ما دامَ الفمُ الذي ينطقُ بها جميلًا، ثم قال لها: ولكن ماذا تصنعينَ لو تبيّنَ لَكِ أنّه جاهلٌ أحمقٌ؟ قالت: إذنْ أموتَ همًّا وكمدًا، قال هذا الذي أخافُ عليكِ منه، وصمتَ هنيهةً وهو يردّد بينه وبينَ نفسه: وارحمتاه لها! إنّها على شفا الهاوية. ثم قال لها: وفي أيِّ شأنٍ من شؤونِه تريدينَ أن تتحدّثي إليّ؟ قالتْ: قد علمتُ بالأمسِ أمرًا أحزنني جدًّا وأقلقَ مضجعي، فلم أُطْعَم الغمضَ ساعةً واحدة، قال: وما هو؟ قالت: علمتُ أنّ جنودَ فصيلتِكُم جميعَهُمْ من الجاسكونيين الجفاةِ، وأنّهم لا يحبّونَ أنْ يدخلَ فصيلَتَهُمْ غريبٌ عنهم، فإذا دخل ناوؤوه[١] وشاكسوه[٢] حتّى يُخْرِجُوه، وربما تعلّلوا عليه العِلَل فبارزوه وقتلوه.

ففطِنَ لغرضِهَا وقال: نعمْ، إنّهم يفعلون ذلك ولهم الحقُّ فيما يفعلون، وخاصّة إذا كانَ هذا الواغلُ[٣] عليهم أحدَ أولئك الأغبياءِ الجهلاءِ الذين ينتظمون في سلك الفرقةِ من طريقِ الشفاعاتِ والوصاياتِ لا من طريقِ الكفاءَةِ والاستحقاقِ. قالتْ: ذلكَ ما جئتُكَ من أجله، فقد أعجبني موقفُك الشريفُ الذي وقفتَهُ ليلَة أمسِ أمامَ ذلكَ الفتى الوقح البذيءِ الذي حاولَ أن يهزأَ بكَ وينال من كرامَتِكَ، وامتلأ قبي ثقةً بما كنتُ لا أزالُ أعرفُه لكَ طولَ حياتك من الشّجاعةِ والحميّةِ وعلوِّ الهمّة وإباءِ الضيم، فأتيتُ إليكَ أسألُكَ أن تتولّى كرستيان بحمايَتِكَ. فصمتَ سيرانو لحظةً ذهبتْ نفسُه فيها كلَّ مذهبٍ وتمثّلَتْ له روكسان في صورتينِ مختلفتين قَد وَقَفتْ إحداهما بجانب الأخرى، صورةُ امرأة عاشقةٍ مستهترةٍ تريدُ أن تسخّرهُ في غرضٍ من أغراضِهَا الغراميّةِ وتطلبُ إليه أن يضَعَ يده في تلك اليدِ التي قتلَتْه وأتلفتْ عليهِ نفسَه وأنْ يكونَ صديقًا لذلكَ الفتى الذي حَرَمَه سعادَتَه وهناءَه وقَطَع عليهِ سبيلَ حياتِهِ ووقَفَ عقبةً بينَه وبينَ آمالِهِ وأمانيه، وصورةُ امرأةٍ مسكينةٍ ضعيفةٍ من أقربائِهِ وذوي رَحِمِه قد نزلتْ بها نكبةٌ من النكباتِ العظام، ففزعت[٤] إليه فيها تسأله أنْ يُعِينها عليها ثقةً منها بفضلِهِ وكرمِهِ، وهمّتهِ ومروءَتِه، وهي لا تعلم مِنْ شؤون قلبه شيئًا، ولا تدري أنّ هذا الذي تفزعُ إليه فيه إنّما هي نفسُه بين جنبيه وحياتُه التي لا يملكُ في يدِهِ حياةَ غيرها.

---

(١) ناوأ: عادى.

(٢) شاكس: عاكس وعاسر.

(٣) الواغل: الداخل.

(٤) فزع إلى الأمر: لجأ إليه.

ثمّ ما لبثَ أنْ رأى الصورةَ الأولى تَتضاءلُ في نظرِهِ وتَتصاغرُ حتّى تلاشتْ واضمحلّتْ، وظلّتِ الثّانية ثابتةً في مكانها بارزةً واضحةً، تنظر إليه نظرةَ الضّراعَةِ والاسترحام، وتبسطُ إليه يدَ الرجاءِ والأملِ، فالتفتَ إليها وقد هبّتْ مِنْ بينِ أَرْدانه رائحةُ الكرمِ، وقالَ لها بصوتٍ قويٍّ رنّانٍ لا تتخلّلُه رنّةُ الحزنِ، ولا تمازِجُه نغمةُ اليأسِ «كوني مطمئنّة يا روكسان فإنّي سأتولّى حمايته».

وما عَلِمَ أنّه قد نطقَ في نطقِهِ بهذه الكلمةِ بحكم الموتِ على نفسِه، فقالتْ له: شكرًا لكَ يا ابن عمّي، فسأعتمدُ على وَعْدِكَ ما حَييتُ. قال: اعتمدي ما شئتِ. قالت: وكنْ صديقَه الوفيّ الذي يأخذُ بيدِهِ في جميعِ شدائدِهِ ومخاطِرِهِ. قال: بلْ أصدقَ أصدقَائه. قالت: وحُلْ بينه وبين التعرّضِ لأخطارِ المبارزاتِ والمشَاجراتِ. قال: إنّه لن يبارزَ قطّ، قالت: أتقسمُ لي؟ قال: لا، لأنّي ما تعوّدْتُ الكذبَ، فتلألأَ وجهُها فَرَحًا وسُرورًا وقالت: الآنَ يمكنني أنْ أنصَرِفَ آمنةً مطمئنّةً شاكرةً لكَ فضلكَ الذي لا أنساه قطّ.

ثمّ تناولتْ برقُعَها فألقَتْهُ على وجهِهَا وهي تقولُ: إنّكَ لم تتمّمْ لي حديثَ الواقعةِ التي جُرِحْتَ فيها، فحدّثني عنها قليلًا، يا للعجب! مائة رجل كانوا ضدّك؟ إنّكَ كفءٌ لكلِّ عظيمةٍ يا ابن العمّ، لا تنسَ أن تقولَ له أن يكتبَ إليَّ اليومَ كتابًا، حدثني حديثَ الواقعةِ يا صديقي، مائة رجل؟ يا للشّجاعةِ النّادرة! إنّ كرستيان لا يعلمُ أنّي أحبّه حتّى الساعة، فكنْ أوّلَ من يحملُ هذه البُشْرَى، قل لي: كيفَ استطعتَ أن تَلقى وحدَك هذا العدَد الكثيرَ؟ أو قلْ لي ذلكَ فيما بعد، لأنّني تأخّرتُ كثيرًا، ولا بدّ لي من الذهابِ الآن.

ثمّ نهضتْ ومدّتْ إليه يَدَها فقبّلها، فقالتْ له: إلى اللقاء يا ابنَ العمّ، إنّي انتظرُ من كرستيان كتابًا اليوم. ثمّ انصرفتْ، فوقفَ على عتبةِ البابِ يشيّعها[1] بنظراته حتّى غابت عن عينيه، ثمّ عاد يترنح[2] همًّا وحزنًا حتّى وصلَ إلى كرسيّه، فتهافَتَ عليه وهو يقول: إنّها تعجبُ لشجاعتي في تلك المعركة وأنا في هذه الساعةِ أشجعُ منّي في كلّ موقفٍ وقفتُه في حياتي.

وكان راجنو قد أحسّ بخروج روكسان فأَطَلّ من بابِ الحجرةِ، فرأى سيرانو جالسًا جلستَه تلك، فصاحَ به: أيمكننا الرجوعُ الآن يا سيّدي؟ قال: نعم، فأشارَ إلى أصدقائِهِ الشّعراءِ، فدخلوا جميعًا ودَخَلَ في تلك السّاعةِ نفسِهَا من بابِ المطعم «كاربون دي كاستل جالو» قائدُ فرقةِ الحرسِ وهو يهدرُ بصوتٍ كالرّعدِ: قد عرفنا كلَّ شيءٍ يا سيرانو، وإني أهنّئكَ من صميم قلبي بذلكَ النّجاحِ العظيمِ الذي أحرزتَهُ ليلةَ أمسِ على أعدائِكَ المائة. فنهضَ سيرانو متضعضعًا وانحنى بين يَدَيْ قائدِه وقال: شكرًا لكَ يا سيّدي، فقال: ما لي أراكَ شاحبًا مصفرًا، وما هذه الغبرةُ السوداءُ المنتشرة على وجهك؟ يخيّلُ إليَّ أنّك قد لقيتَ في تلكَ المعركةِ عناءً عظيمًا. قال: نعم يا سيّدي، قال: إنّ ورائي ثلاثين جنديًّا من أبناء فرقتكَ قد اجتمعوا في تلكَ الحانةِ المقابلةِ لهذا المطعم وهم يريدون تهنئتك والاحتفالَ بانتصارِكَ، فاذهبْ إليهم وقابِلْهُمْ. ثمّ قال:

---

(١) يشيّعها: يرافقها. (٢) يترنّح: يتمايل.

لا، بل لا بدّ أنْ يأتوا هُمْ إليكَ بأنفسهِمْ ليهنئوكَ تكرمةً لكَ وإعظامًا لشأنك.

ثمّ وقفَ على عتبةِ بابِ المطعم، وصاحَ بأعلى صوته: أيّها الأصدقاء! إنّ البطلَ لا يستطيعُ الحضورَ إليكم لأنّه تَعِبٌ قليلًا فاحضروا أنتمْ إليه. وما هي إلّا هنيهةٌ حتّى أقبلَ الجنودُ الثلاثون يزلزلونَ الأرضَ بخفْقِ نِعَالِهِمْ وصلصلةِ[1] أسحلتهم، ويطَمْطِمُون[2] بلغتهمْ الجاسكَونيّة: سانديوس - ميل ديوس - كاب ديوس - موردیوس - پوكاب ديوس. ثمّ دخلوا ففزع راجنو عند رؤيتِهِمْ لِمَا هالَهُ من طولِ قاماتِهِمْ وضخامَةِ أجسامِهِمْ وقال لهم: أكلُّكُم أيّها السّادة جاسكونيونْ؟ فأجابوا جميعًا بصوتٍ واحد: نعم كلّنا، ثمّ اندفعوا نحو سيرانو يقبّلونه، ويعانقونَه ويهزّونَ يَدهُ ويهتفون: لِيَحْيَ البطلُ، لِتَحْيَ جاسكونيا، ليحيَ الجيشُ، وهو يتململُ في نفسِهِ ويتبرّمُ، ولكنّه كان يبتسمُ في وجوهِهِمْ ويستقبلُ تهانئهم له بالشكرِ والارتياح.

وكانَ خبرُ تلكَ المعركةِ قد انتشرَ في أنحاءِ باريسَ جميعها فوفدَ جمهورٌ عظيمٌ من النّاسِ إلى المطعمِ يتقدّمهم «لبريه» صديقُ سيرانو وهم يصيحونَ: لِيَحْيَ البَطَلُ لِتَحْيَ فرنسا، ثمّ دخلوا جميعًا يركضونَ ويتدافعونَ ويحطّمونَ كلّ شيءٍ بينَ أيديهِمْ، وراجنو واقفٌ مكانه يتأمّلُ هذا المنظرَ الغريبَ بسرورٍ وارتياحٍ، ويقول: واطَرَبَاهُ ها هو ذا الفنُّ يتوَّجُ اليومَ في مطعمي، حتّى بلغوا مكان سيرانو فداروا به يهنّئونه ويقبّلونه وكلّهم يناديه: أيّها الأخُ، أيّها الصديقُ، أيّها الزميلُ، فيقول في نفسه: واعجبًا لكم أيّها النّاس! لم يكن لي بالأمسِ بينكُم صديقٌ واحدٌ واليومَ كلّكم أصدقائي.

ووقفتْ في تلك السّاعةِ مركبةٌ فخمةٌ أمامَ بابِ المطعمِ، ونزلَ منها ثلاثةٌ من الأشرافِ، فدخلوا الحانوتَ وظلّوا يدفعونَ النّاسَ أمامهم دفعًا حتّى دنوا من سيرانو فوضعَ أحدهُمْ يَدهُ في يده وَشَدَّ عليها بقوَّةٍ وقال له: أه لو كنتَ تدري يا صديقي مقدارَ سروري بكَ وبنجاحِكَ، فالتفتَ إليه سيرانو غاضبًا وقال له: ما أنا بصديقِكَ يا سيّدي، لأنّي ما عرفتُكَ قبلَ اليوم، وقال له الآخر: إنّ بعضَ السيّداتِ ينتظرنَكَ في مركبتهنَّ أمامَ البابِ لِتَهْنئتَكَ بانتصارِكَ، فلو تَفَضَّلْتَ بمرافقتي إليهنَّ لأقدّمكَ إليهنّ! فقال له: وكيفَ تسمحُ لنفسِكَ يا سيّدي، أن تقدّمني إلى غيرِك قبلَ أنْ تقدّمَ نفسَك إليّ؟

وقدّم إليه الثالث كأسًا من الخمرِ وقال له: اشربْ معي يا سيّدي نَخْبَ بأسِكَ وشجاعتك، فالتفتَ إليه وقال له: يخيّلُ إليّ يا سيّدي، أنّك أشجعُ منّي، لأنّك قدّمْتَ إليّ شيئًا قبلَ أن تعلمَ ما رأيي فيه. ثمّ دفَع الكأس عنه بقوّةٍ فهَراقها[3]، وجاءه أحدُ مراسلي الصحفِ وقد أمسكَ بيمينه قلمًا وبيسراهُ قرطاسًا وقال له: قصّ عليّ حديثَ واقعتِكَ أيّها الفارسُ البطلُ، لأنشُرَه في جريدتي، فنظَرَ إليه شزرًا وقال له: إنّني لم أقاتلْ من أجلِكَ يا سيّدي، ولا من أجلِ جريدَتِكَ بل من أجلِ صديقي لينيير.

---

(١) الصلصلة: الصوت. (٢) طمطم: تحدّث بكلام أعجميّ.

(٣) هراق: لغة في أراق بمعنى سكب.

فتململ لبريه من خشونَتِه وجفَائِه وكانَ جالسًا على مقربةٍ منهُ، فجذَبَهُ من ثوبه وقال له همسًا: ما الذي أصَابَكَ يا سيرانو! وما هذه الخشونةُ التي تستقبلُ بها أصدقاءَكَ الذين يهنئونَكَ ويمجّدونك؟ فقال له: لا تصدّقْ كُلَّ ما تراه يا لبريه، فليس لي في العالم صديقٌ سواك.

وإنّهمْ لكذلكَ، إذْ سادَ السّكونُ وانقطعتِ الضوضاءُ وانفرجَ الجمهورُ صفّين متقابلينِ خاشِعين مستكينين وإذا الكونت دي جيش القائدُ الفرنسيُّ العظيمُ قد أقبلَ يَجرّرُ أذيالَه ويسدّد أنفه إلى كبدِ السماء عظمةً وخيلاءً ووراءه كثيرٌ من الأشرافِ ورجالِ الجيشِ، حتّى توسّط القاعة فوقَفَ ونادى أين سيرانو؟ فالتفتَ سيرانو فرآه فدُهِشَ وقال في نفسه: لعلّه جاءَ أيضًا لتهنئتي، ولئنْ فَعَلَ لتكُوننَّ أعجوبةَ الأعاجيبِ. ثمّ أجابه وهو واقفٌ مكانَه لا يتحرّكُ ولا يحتفل: ها أنذا يا سيّدي، قال: أقدم إليك تهنئتي الخاصّة وأُبلّغكَ أنّ جنابَ القائدِ العام المارشال «دي جاسيون» قد أمرني أنْ أبلغكَ تهنئتَه لكَ وثناءَهُ عليكَ وإعجابَه بكَ واغتباطَه بعملِكَ العظيم الذي قمتَ به ليلةَ أمسِ وأضفتَ به إلى سجلِّ الشجاعةِ الفرنسيّة صفحةً من أشرف الصفحاتِ وأمجَدِهَا. ولقد كان في شك من صحّة الخبر لولا أنْ أقسمَ له بعضُ الضبّاطِ الذين صحبوكَ ليلَةَ أمسِ إلى «باب نيل» أنّهم شاهدوا الحادثة بأعينهم.

فرفع سيرانو نظره إلى الكونت بهدوءٍ وسكونٍ وقال له: لا شكّ أنّ للمارشال قَدَمًا راسخةً في الفنون الحربيّة وأساليبها ومثله من يقدرُ أقدارَ الرجالِ فبلّغْهُ شكري. فدُهِشَ النّاسُ لجوابه الخشنِ الجافي، وطاشَ عَقْلُ لبريه حتّى كاد يتفجّرُ غيظًا وحنقًا، إلّا أنّه تماسَكَ وتجلّدَ وهمسَ في أذنه: إنّ هذا لا يليقُ بكَ مطلقًا، قلْ له كلمةً أجملَ من هذه ردًّا على تحيّته، واستقْبِلِ الصّنيعةَ بمثلها، فصمتَ سيرانو هنيهةً ثمّ قال له بصوتٍ خافت: دعني يا لبريه فإنّني لا أُطيقُ أن أشكُرَ رجلًا جاءَ لتهنئتي بانتصاري عليه، فقال له: يُخَيّلُ إليّ أنّك متألّم يا صديقي. فانتفض سيرانو وقال: أنا؟! لا، أتظن أنني أتألم أمام أحد مهما برّحَ[1] بي الهمُّ وأمضني[2] أو أسمح لعدوٍّ من أعدائي أن يشمتَ بي ويرى بعينيه منظرَ بؤسي وشقائي؟ انتظرْ قليلًا فسوفَ ترى.

وكان الكونت قد جلسَ على كرسيّه المعدِّ لَهُ جلسةَ العظمةِ والكبرياءِ، فالتفَت إلى سيرانو وقالَ له بنغمةِ السّاخرِ الهازئِ: إنّ تاريخَكَ يا سيرانو حافلٌ بالحوادثِ والوقائع، ويخيّلُ إليّ أنّي رأيتُكَ في فرقةِ هؤلاء الجاسكونيين الشياطين، أليس كذلك؟ فصاحَ الجاسكونيّون جميعًا: نعم في فرقتنا ولنا بذلك الفخرُ العظيمُ. فالتفتَ الكونت إليهم وقلّبَ نظره في وجوهِهِمْ وهمْ وقوفٌ بجانبِ قائدهم «كاربون دي كاستل جالو» وقال: أكُلّ هؤلاء الذين تلوحُ عليهم مخائلُ[3] العظمةِ الكاذبةِ جاسكونيون؟

فهتفَ كربون بسيرانو وقال له: تفضّلْ أيّها البطلُ الباسلُ بتقديم فرقتي بالنّيابة عني إلى

---

(١) برّح: أتعب وآذى. (٢) أمضّ: آلم وأوجع.

(٣) مخائل: جمع مخيلة وهي العلامة والدلالة.

حضرة القائدِ العظيم، فمشى سيرانو نحو الكونت خطوتين، وأخذَ يقدّمُ إليه الفرقةَ بموشّحٍ بديعٍ ارتجله في الحال وضَمّنَهُ الثّناءَ عليهم والتّنويهَ ببداهَتِه وحضورِ ذهنه، وقال في نفسه: إنّ اصطناعَ شاعرٍ مجيدٍ كهذا الشّاعرِ مفخرةٌ عظمى لمنْ يصطنعهُ، وليسَ مِن الرأي أن يُفلتَ مثلُه من أيدينا، ثمّ استدناه منه وقال له: أتحبُّ أن تكونَ لي يا سيرانو؟ فانتفض وقال: لا يا سيّدي، ولا لأيّ إنسانٍ، قال: إنّ خالي الكردينال دي ريشلييه كثيرُ الإعجابِ بكَ وبأدبِكَ ويحبُ أنْ يراكَ فإنْ شئتَ قدّمتُكَ إليه! ولقد قيلَ لي إنّك نظمتَ منذُ عامينِ روايةً تمثيليّةً جميلةً لم تُوفَّقْ إلى تمثيلها حتّى اليوم، فلو أنّكَ ذهبتَ بها إليه ورفعتَها له، لعَرَف لكَ فضلَكَ فيها وأحسَنَ جزاءَكَ عليها كما أحسن من قبلكَ إلى غيركَ من الكتّابِ والشعراء[1].

فهمس لبريه في أذنِ سيرانو: لقد آن لروايتكَ «أجريبين» أن تمثَّل فَلْيُهنئكَ ذلك، فلم يلتفت إليه سيرانو، وقالَ للكونت بنغمة السّاخرِ المتهكّم: أحقّ ما تقول يا سيّدي؟ قال: نعم، والرّجلُ كما تعلمُ أديبٌ بارعٌ راسخُ القدَمِ في النقد الأدبي، وسينظرُ في روايتكَ هذه نَظَرَ النّاقدِ البصيرِ، وربّما أجْرى فيها قلم تهذيبه وتنقيحه فجاءتْ آيةَ الآياتِ في حسنها وجمالها.

فاكفهرّ[2] وَجْهُ سيرانو، وتفصّدَ[3] جبينُه عرقًا وقال للكونت: ذلكَ مستحيلٌ يا سيّدي، وإنّ دمي ليجمَدُ في عروقي عندما أتخيّلُ أنَّ إنسانًا في العالم يُحَدّثُ نفسَه بتغييرِ حرفٍ واحدٍ من قصيدةٍ من قصائدي، وما أنا في حاجة إلى الاستعانة على أدبي بأحدٍ من النّاس كائنًا من كان. قال: ولكنّكَ تعلمُ أنّه إذا أعجبه بيتٌ من الشعرِ دَفَع ثمنه غاليًا. قالَ: نعمْ، أعلمُ ذلكَ ولكنّه لا يستطيع أن يبذلَ فيه ثمنًا مثلَ الذي بذلته، لأنّني إنّما أسكُبُ فيه دَمَ قلبي حارًّا، ودَمُ القلبِ أغلى قيمةً من الفضّةَ والذهبِ. قال: إنّكَ أبيُّ النفسِ يا سيرانو، قال: نعم، وقد كانَ جَدِيرًا بكَ أن تفهمَ ذلكَ من قبل.

وهنا دخلَ رجلٌ يحملُ على يديه قبّعاتٍ كثيرةً قذرةً كانَ قد وجدَهَا في ميدان المعركةِ عند باب «نيل» من آثار الفارّينَ والمنهزمينَ فألقاها بين يدَيْ سيرانو، وقال له: ها هي أسلابُ المعركة التي تَرَكْتَها احتقارًا لها وازدراءً بها قد حَمَلْتُهَا إليكَ لا لأنها تستحقُّ عنايَتَكَ والتفاتكَ، بل لأنّها دليلٌ قاطعٌ على جُبْنِ أعدائِكَ ونَذَالَتِهِم. فضَحِكَ الجمهورُ طويلًا وظلّوا يهتفون: قبعاتُ الهاربين! قبعاتُ الهاربين! وقالَ سيرانو وهو ينظرُ خِلسةً إلى وَجْهِ الكونت: ليتَ شعري من هو ذلك الجبانُ النَذْلُ الذي جَرّدَ مثلَ هذا الجيشِ السّافل ليحاربَ به شاعرًا مسكينًا! ما أحسَبُهُ الآنَ إلّا خزيان[4] نادمًا يتمنّى أنْ لو انفجرتِ الأرضُ تحتَ قَدَمَيْهِ فهوَى في أعماقها أبدَ الآبدينَ.

فصاحَ الجمهورُ من كُلّ ناحية: لا شَكّ في ذلك. فارتعدَ الكونت غيظًا واربدّ وَجْهُهُ وصاح

---

(١) مما يذكر من مآثر الكردينال رشليه أنّه منشئ المجمع العلمي الفرنسي «الأكاديميه» وأنّه أكبر عون في عصره للأدب والأدباء.

(٢) اكفهرّ: اسودّ. (٣) تفصّد: سال.

(٤) الخزيان: من الخزي أي العار.

بصوتٍ أجشّ[١] كهزيم الرعدِ ماذا تقولون؟ أنا الذي جَرَّدَ هذا الجيشَ السّافلَ كما تقولونَ، لأنّني أردتُ تأديبَ ذلكَ الرجل الوقحِ البذيء، ولا يتولّى تأديبَ سافلٍ دنيءٍ مثله إلّا سَفَلَةٌ أدنياءُ. فقهقه سيرانو ضاحكًا وأخذَ يجمَعُ القبّعاتِ بحدّ سيفِهِ، ثمّ دفَعَها تحت قدمَيْ الكونت وقال له: إذنْ يمكنني يا سيّدي، أنْ أكلّفَكَ بردّ هذهِ القبعاتِ إلى أصدقائك.

فثارَ الكونت من مَكانه غاضبًا ونَظَرَ إلى سيرانو نظرةً ملتهبةً ينبعثُ الشررُ من جوانبها وقال له: هلْ قرأتَ أيّها الرّجلُ «دون كيشوت»[٢] قال: نعم قرأته وأنا حاسر[٣] الرأس إعجابًا بذلكَ البطلِ الشريفِ، قال: أتَذْكُرُ من قِصَصِه قصّة الطواحين الهوائية؟ فانحنى سيرانو وقال: نعم «في البابِ الثالثَ عَشَرَ». قال: ما رأيك فيمن يحاول مهاجمةَ تلك الطواحينِ أو اعتراضَ سبيلها؟ ففطن سيرانو لِمَا أرادَ وقال: ما كنتُ أظنُّ أن أعدائي طواحينُ هوائيةٌ تذهبُ معَ كلّ ريحٍ! قال: إنّها تمدّ أذرعها الطويلةَ لتتناولَ بها من يجسرُ على مقاومتها وتقذفُ به في الهوّةِ العميقةِ، قال: أو الكوكبُ العالي، فصاحَ الكونت: مركبتي وخدمي! فابتدر الأشرافُ تنفيذَ أمْرِهِ وظلّوا يتراكضونَ ويتدافعونَ كأنّهم بعضُ الخدم.

وما هي إلا لحظاتٌ حتّى حضرتِ المركبةُ فخرجَ الكونت وخرجَ بخروجِهِ جميعُ الأشرافِ والنّبلاءِ، مَنْ حَضَر منهم مَعَه وَمَنْ حضرَ قبلَ ذلك، لا يحيّونَ سيرانو ولا يدنونَ منه ولا يرفعونَ أنظارَهُم إليه مصانعةً للكونت ومداهنة[٤]. فمشى وراءَهم سيرانو يشيّعُهُم[٥] إلى الباب وهو يقولُ لهم: ماذا دَهَاكم يا أصدقائي؟ ما لَكُم تعرضون عنّي وتفرّونَ منّي؟ ما لكم لا تودّعونَ البطلَ الذي جئتم السّاعة لتهنئته وتكريمه؟ وما زال يشيّعهُمْ بأمثالِ هذه الكلماتِ، حتّى ركبوا جميعًا مركباتِهم وانصرفوا.

فعاد إلى مكانه الأوّلِ، وهتفَ بلبريه، فلبّاه، فاستدناه ومنه واحتضَنَه إلى صدره وقال له: أَلَمْ أَقُلْ لكَ أيّها الصّديقُ، إنّه ليسَ في العالمِ صديقٌ سواك!

«نَفس الشاعر»

نكّس لبريه رأسه مليًّا، ثمّ نظرَ إلى سيرانو نظرةً حزينةً مكتئبةً وقال له: قُلْ لي أيّها الصّديقُ، ماذا أعدَدْتَ لنفسِكَ من الوسائلِ غدًا للخلاصِ من هذه الهوّةِ العميقةِ التي قَذَفْتَ بنفسِكَ فيها؟ واسمحْ لي أنْ أقولَ لكَ إنّكَ قد جُنِنْتَ جنونًا لا أدري كيفَ يتركونَكَ بعده خارج

(١) الصوت الأجشّ: الغليظ.

(٢) رجل خيالي جعله الكاتب الإسباني الشهير «مجول سرفانتس» بطلًا لقصته الخيالية المضحكة المسماة بهذا الاسم التي ألفها سنة ١٦٠٥ وكان معاصرًا للشاعر الإنكليزي «شكسبير»، وباب الطواحين الهوائية أحد أبواب تلك القصة.

(٣) حاسر: مكشوف.

(٤) المداهنة: المخادعة وهي أن يظهر الإنسان عكس ما يضمر.

(٥) يشيّعهم: يرافقهم.

المارستان[١]، أليسَ كلُّ ما تستطيعُ الذودَ به عن نفسِكَ في سلوكِ هذه الخطّةِ العسراءِ أن تقولَ لي كما تقولُ كلَّ يوم إنكَ تحبّ أن تعيشَ حرًّا مستقلًا في حياتِكَ لا يسيطِرُ عليكَ أيُّ مسيطرٍ من القيودِ والتقاليدِ؟ فليكنْ لكَ ما تريد؛ ولكنْ هل تستطيعُ أنْ تنكرَ أنّكَ مغالٍ متطرّفٌ؟ إنّي لا أطلُب إليكَ شيئًا سِوَى أنْ تعترفَ لي بذلك.

فابتسم سيرانو وقال له: إنْ كانَ هذا هو كُلَّ ما يرضيكَ، فإنّي أعترفُ لك به. فتهلّلَ لبريه فَرَحًا وقالَ له: آه! لقد اعترفتَ أيّها الصّديق، فَلَزِمَتْكَ الحُجّة التي لا قبلَ لَكَ بِدَفْعِها قال: إنّني لا أُنكِرُ يا لبريه أنّني رجلٌ مغالٍ متطرّفٌ كما تقولُ ولكنْ في سبيل المبدأ والفكرة، والتطرّف قبيحٌ في كلّ شيءٍ إلّا في هذا السبيل قال: ولكنّكَ في حاجةٍ إلى شيءٍ من حُسْنِ السياسةِ وسَعَةِ الصدرِ ولينِ الجانبِ لتَسْتَطِيعَ أن تَصِلَ إلى المجدِ الذي تحبّه وتتعشّقُهُ.

فاستوى سيرانو في مكانِه جالسًا، وقد ظَلَّلَتْ جبينَه سحابةٌ سوداءُ من الهمّ واستحالتْ صورتُهُ إلى صورةٍ مريعةٍ مخيفةٍ وقال: ماذا تريد منّي يا لبريه! وما هي الخطّةُ التي تحبُّ أن ترسمَهَا لي، لأنفذَ من طريقها إلى المجدِ التي تتحدّثُ عنه وتزعمُ أنّي أتعشّقُه وأصبو إليه!

أتريدُ أنْ أعتمدَ في حياتي على غيري وأن أضعَ زِمامَ نفسي في يدِ عظيمٍ من العظماءِ أو نبيلٍ من النبلاءِ يصطنعني ويجتبيني[٢] ويكفيني مؤونة عيشي ويحملُ عنّي هُمومَ الحياة وأثقالَهَا فيكونُ مَثَلي مثَلَ شجرة «اللبلاب» لا عملَ لها في حَيَاتِها سِوى أنْ تلتفَّ بأَحَدِ الجذوعِ تلعَقُ قشرتَهُ وتمتصُّ مادّةَ حياتِهِ بدلًا من أن تعتمدَ في حياتِهَا على نفسها؟ ذلكَ ما لا يكون.

أتريدُ أنْ أحمِلَ نفسي على عاتقي، كما يحمِلُ الدلّالُ سلعتَهُ، وأدورَ بها في الأسواقِ مناديًا عليها: مَنْ منكُمْ أيّها الأغنياءُ والأثرياءُ والوزراءُ والعظماءُ وأصحابُ الجاهِ والسلطانِ، يبتاعُ نفسًا بذمّتها وضميرِها وعواطِفها ومشاعِرها بلقمةِ عيشٍ وجرعةِ ماء؟

أتريدُ أن أنصّبَ نفسي سخريةً في الأنديةِ الخاصّةِ والمجتمعاتِ العامة، ألعبُ كما يلعبُ القِرْدُ، وأنطُق كما تنطقُ البَبْغَاءُ، وأتلوّنُ كما تتلوّنَ الحِرباء[٣]، رجاءَ أنْ أجِدَ التفاتةً من عينيْ أميرٍ، أو أرى ابتسامةً على شفتَيْ وزير؟

أتريد أن تستحيلَ قامتي إلى قوسٍ من كَثْرَةِ الانحناء، وأنْ تتهدّلَ[٤] أجفاني من كَثْرةِ الإطراقِ والإغضاءِ، وأن تجتمع فوقَ ركبتيَّ طبقةٌ سميكةٌ من كثرةِ السّجود والجُثُوّ بين أيدي العظماء؟

أتريدُ أنْ يكونَ لي لسانان: لسانٌ كاذبٌ أمدَحُ به ذلكَ الذي اصطنعني واجتباني، ولسانٌ أعدّدُ به عيوبَه وسيئاتِه، وأنْ يكَون لي وجهان: وجهٌ راضٍ عنه لأنّه يذودُ عنّي ويحميني، ووجهٌ ساخطٌ عليه لأنّه يستعبدني ويسترقُّني؟

أتريدُ أن أقضيَ حياتي كلَّها واقفًا وَسْطَ دائرةٍ واحدةٍ أثب فيها وأطفرُ وأتطالُّ بعنقي ليتوهّمْ

---

(١) المارستان: المستشفى، المصحّ. (٢) يجتبيني: يختارني.
(٣) الحرباء: دابّة صغيرة تتلوّن في الشمس ألوانًا. (٤) تتهدّل: تسترخي.

النّاسُ أني طويلٌ وما أنا بطويلٍ؟ أو أن اتّخذ لي بوقًا ضخمًا أنفخُ فيه ليتوهَّم السّامعونَ أنّي جَهْوَريُّ الصّوتِ وما أنا إلّا نافخٌ في بوق؟

أتريدُ أنْ أُسيّر سفينةَ شِعْري في العالم بأذرعِ العظماءِ والكبراءِ، بدلًا من المجاذيفِ التي أنحتُها بفأسي، وبشعورِ «الدوقات» الفانياتِ بدلًا من الأشرعَةِ التي أنسجُهَا بيدي، وبتنهداتِ الأميرات العاشقاتِ بدلًا من الرياح الجارية التي يسخرها الله لي؟

أتريدُ أن أجعلَ حياتي الأدبيَّة تحتَ رحمةِ المقرّظين[1] والنّاقدينَ، والرّاضينَ والساخطينَ، فإنْ شاءوا رَفَعوني إلي عَلْياءِ السماء، وإنْ شاءوا هوَوا بي إلى أعماقِ الجحيم؟

ذلكَ ما لا يكونُ، والموت أهونُ عليَّ من ذلك.

أريدُ أن أعيشَ حرًّا مستقلًّا لا أخشى أحدًا ولا أهابُ شيئًا، لا يعنيني تهديدُ الجرائد التجاريّةِ الساقطةِ ولا يفرّحني أن تَنشرَ الصحفُ الكبيرةُ اسمي بالأحرفِ الضخمةِ في أكبرِ أنهارها، ولا أُبالي أَتَدَاوَل الناسُ قصائدي وتدارَسُوها ورنّت نغماتها في أرجاءِ المسارحِ، أم بقيتْ في كِسْرِ خزانتي أقرأُها بنفسي لنفسي وأتغنّى بها في ساعاتِ وحشتي وخلوتي.

أريدُ أنْ أعيشَ حرًّا مطلقًا، أضحك كما أشاءُ، وأبكي كما أريدُ، وأحتفظُ بنظري سليمًا، وصوتي رنّانًا، وخطواتي منتظمةً، ورأسي مرتفعًا، وقولي صريحًا، أنظمُ الشّعرَ في الساعة التي أختارُها، وفي الشأنِ الذي أريدُه، فإنْ أعجبني ما وَرَدَ عليَّ منه فَذَاكَ، وإلّا تركتُهُ غيرَ آسفٍ عليه وأخذتُ في نَظْمِ غيره، بدلًا من أنْ أتوسّلَ إلى الطابعينَ أنْ ينتشروه، والأدباءِ أن يقرّظوه، والممثلينَ أن يمثّلوه، والعظماءِ أن ينوّهوا به ويرفعوا مِنْ شأنه.

أحبُّ أن لا أنظمَ من الشّعر إلّا ما يجودُ به خاطري، وأن لا أنظمَ إلّا بالطّريقةِ التي أُرِيدُهَا أنا لا التي يريدُهَا النّاس لي، وأنْ لا أمتّعَ نظري إلا بمنظرِ الأزهارِ التي أغرسُهَا بيدي في حديقتي، فإن قَدّرَ الله لي منزلةً في الحياةِ فَلَنْ أكونَ مَدِينًا بها لأحدٍ غيري، ولنْ يكونَ فخرُهَا عائدًا إلّا عليّ وَحْدِي. ولا أسمحُ لأحدٍ من النّاسِ كائنًا مَنْ كَان أن يرفَعَني، بلْ لا بُدّ لي من أن أرفعَ نفسي بنفسي.

أريدُ أن أعيشَ حرًّا طليقًا أناضِلُ من أشَاءُ وأجادِلُ من أشاءُ، وأنتقدُ من أَشَاءُ، وأن أقولَ كلمتَي الخيرِ والشّرّ للأخيارِ والأشرارِ في وجوهِهِمْ، لا متملّقًا أولئكَ، ولا خاشيًا هؤلاءِ.

إنّ العبدَ المقيّدَ بقيودِ الإحسانِ والنّعم لا يمكنُ أنْ يكونَ حرًّا طليقًا، فليُعْفِني النّاسُ من أياديهمْ[2] وصنائعهِمْ لأنّي لا أحبُّ أن أكونَ عبدًا لهم، ولا أسيرًا في أيديهم.

وآخرُ ما أقولُ لكَ: إنّي أفضّلُ أنْ أعيشَ ممقوتًا مرذولًا عند الناسِ على أن أعيشَ ذليلًا مستعبَدًا لهم، ولا أحبُّ أنْ أرتفعَ ارتفاعَ الزيزفونِ والسروِ إذا كانتِ اليدُ التي ترفعني غيرَ يدي، وحسبي من الرفعةِ والشّرفِ أنْ أنالَ منهما نصيبي الذي قُسِمَ لي قدرَ ما تسمحُ به قوّتي ومواهبي لا أزيدُ على ذلك شيئًا.

---

(١) المقرّظون: المدّاحون. (٢) الأيادي: هنا كناية من النِّعم.

فقال له لبريه: عِشْ بنفسكَ وحيدًا كما شئتَ، ولكن لا تكُنْ عدوًّا للجميع.

قال: ربّما أكونُ مغاليًا في ذلكَ، ولكنْ ما دعاني إلى المغالاة في المعاداةِ إلا مغالاتُكُم معشَر المتكلفينَ والمتعلّمينَ في المصادقةِ والموالاةِ، وتصنُّعُكُمْ في اجتذابِ الخلّانِ والأصدقاء، وما بَغّضَ إليّ التوادَّ والتَّحَابَّ[1] إلّا بغضي لتلكَ الابتساماتِ الباردةِ الثقيلة التي تنفرجُ عنها شفاهُكُمْ كلّما قابلتم صديقًا أو عدوًّا، شريفًا أو وضيعًا، كريمًا أو لئيمًا، حتّى أصبحتُ لا أحبُّ شيئًا في العالم حبّي لبغضِ الناسِ إياي، ولا أكرهُ شيئًا كرهي لحبّهم لي وتودّدهِم إليّ.

هذا هو عيبي الوحيدُ الذي لا أعرفُ لنفسي عيبًا سواه، ولكنّه عيبٌ يعجبني جدًّا ويَلَذُّ لي كثيرًا، وإنّكَ لا تستطيعُ أن تُدْرِكَ مقدارَ ما أجدُ من اللذّةِ والغبطةِ في نفسي عندما أسير في طريقي، فأراه مملوءًا بنظراتِ البغضِ ملتهبًا بنيرانِ الحقدِ وأرى نفسي محاطًا بنطاقٍ محكمٍ من قلوب الساخطينَ والناقمينَ.

أمّا الشتائمُ التي أسمعُها واللّعناتُ التي تصوَّبُ إليّ فهي أشبَه الأشياءِ عندي بذلكَ البردِ المتساقطِ الذي يتناثرُ من الجوّ على ردائي، ثمّ ينزلقُ عنه إلى الأرضِ فأدوسُهُ بقدمي.

إنّ الصداقةَ الباردةَ المتفكّكة التي يسعى وراءَها النّاسُ أشبهُ شيءٍ «بالياقة» الإيطالية اللينة التي تتهدّلُ حولَ العنقِ فيتهدّلُ العنقُ معها، فهي - وإنْ كانتْ ليّنةً مريحةً - إلّا أنّها رخوةٌ مهلهلةٌ لَيستْ لها مُسكةٌ ولا قِوام.

أمّا العداوة فهي الدّرْعُ الفولاذيّةُ الصُلبةُ التي تدورُ بالجسم، فتحفظُ كيانَه وقوّتَه وتمنعُه من أنْ يضعفَ أو أن يخورَ وكلّ عدوٍّجديدٍ هو حلقةٌ جديدةٌ في تلكِ الدرعِ القويّة المتينة.

فقال لبريه: إنّني لم أرَكَ في حياتي راضيًا عن البغضِ مثلَ اليوم، وإنّ نفسي تحدّثني أنّ كارثةً من الكوارثِ العظمى قد نزلتْ بكَ، فأثارتْ هذه الخواطرَ في نفسِك.

فاضطربَ سيرانو وخَفَتَ صوتُه وهدأتْ تلكَ الزوبعةُ التي كانتْ ثائرةً في نفسه وقال: ماذا تقولُ يا لبريه؟ قال: أظنُّ أنّك قد عرفتَ منها عندما قابلتَهَا أنّها لا تحبّكَ، فأنتَ ناقمٌ على الحبّ راضٍ عن البغضِ، فنكسَ رأسَه وصمتَ صمتًا طويلًا، لا يقولُ فيه شيئًا ففهمَ لبريه كلّ شيءٍ.

«المعركة النفسيّة»

وفي هذه اللحظةِ دخلَ المطعمَ البارون كرستيان يختالُ في حلّته الجميلةِ ورونقِه الشّائق البديع، ورأى أبناءَ فرقَتِهِ مجتمعينَ، فتقدّم لتحيّتهم، فلم يعبأوا به وحاولَ أن يُداخِلَهُمْ ويتحبّبَ إليهم كما هو شأن أبناءِ الفرقةِ الواحدةِ عندما يجتمعونَ في مكانٍ واحدٍ، فانقبضوا عنه وتسلّلُوا من جوارِه، فلمْ يَرَ بُدًّا من أن ينتبذَ مكانًا قصيًّا[2] ويجلسَ فيه وحده، فلم يقنِعْهُم ذلكَ منه حتّى أرادوا إزعاجَه وإقلاقَه وكانَ من شَأنهمْ كما حَدَّثَتْ روكسان عنهم أنّهم لا يحبّونَ أن يدخلَ فرقتهم غريبٌ عنهم عصبيةً لأنفسِهمْ واحتفاظًا بجامعتهم. والجنوبيّون في فرنسا ينظرونَ

---

(١) التوادّ والتحابّ: من المودّة والمحبّة.

(٢) انتبذ مكانًا قصيًّا: قصد مكانًا بعيدًا.

دائمًا إلى الشّماليين بعينِ البغضِ والازدراء(١) ويسمّونَ تَرَفَهُمْ ونعومَتَهُمْ ضعفًا وجبنًا.

فمشى أَحدُهُم إلى سيرانو، وقال له، وهو يغمزُ كرستيان بعينه: قد كنتَ وعدتَنَا يا سيّدي، منذُ هنيهةٍ أن تقصّ علينا حديثَ الواقعةِ التي انتصرتَ فيها ليلَةَ أمسِ على أعدائك الشّماليين الجبناءِ، فحدّثْنا ذلكَ الحديثَ الآنَ ليكونَ درسًا تهذيبيًّا لهذا الفتى الشّماليّ المتأنّث، وأشارَ إلى كرستيان، فانتفضَ كرستيان غضبًا والتفتَ إلى المتكلّم، وقال له: ماذا تقول؟! وكان سيرانو مشتغلًا بمحادثةِ صديقه لبريه وكان يفضي إليه بشأنِهِ مع روكسان فلم يشعرْ بشيءٍ ممّا حوله.

فتركَهُ الفتى ومشى إلى كرستيان فوقَفَ أمامَهُ وقال له: عندي نصيحةٌ لكَ أيّها السيّد، أحبُّ أنْ أقدّمَها إليكَ لتنتفعَ بها في مستقبلِ حياتِكَ معنا، فألقى عليه كرستيان نظرةَ ازدراءٍ واحتقارٍ وأشاحَ بوَجهه عنه. فقال له الفتى: أترى هذا الرجُلَ ذا الأنفِ الكبيرِ والسّحنةِ المخيفةِ الجالسَ هناك؟ إنّ ههنا كلمةً لا يجوزُ لأحدٍ النّطقُ بها أمامَه مطلقًا، كما لا يجوزُ النّطقُ بكلمةِ الحبلِ في بيت المشنوق، وأحبُّ أنْ لا يفوتَكَ العلمُ بها ضنًّا بحياتِك. فعجبَ كرستيان لأمرِهِ ورفَعَ رأسه إليه وقال: أيّ كلمةٍ تريد؟ قال: انظرْ إلى وجهي تفهمْ معناها فإنّي لا أستطيعُ النّطقَ بها؟ ثمّ وضَعَ إصبعَه على أنفه وهو يَتَلَفَّتُ ويَتَحَذّرُ فقال له: أتريدُ كلمةَ الأنـ . . . فقاطعه الفتى وقال: صَه، إيّاكَ أن تتمّمَها فيسمعُهَا فيكونُ فيها هَلَاكُكَ.

فلم يرفع كرستيان طَرْفَهُ إليه أنفةً وكبرياءً، فتقدم نحوه فتًى آخرُ وقال له: ولا بدّ أن تَعْلَم أيضًا أنّ أحدًا من النّاسِ لا يحدّث نفسَه بمناوأةِ هذاالرّجل أو مخاشنَتِه، إلّا إذا كان من رأيه أن يلاقيَ حتفه قبل نهاية أجلِه. ثمّ وقفَ به آخرُ وقال له: احْذَرِ الحذَر كلَّهُ من أن تنطقَ على مسمع منه بهذهِ الكلمةِ أو ما يشبهها، لا تصريحًا ولا تلميحًا ولا كنايةً ولا تعريضًا، فقد قَتلَ في الأسبوع الماضي رجلًا أخنفَ(٢) لأنّه ظنّه يتخانَفُ هزءًا به وسخريةً، وقَتل آخر منذُ يومينِ لأنّه أخرجَ منديلَهُ من جيبِهِ وأدناهُ من أنفه.

وهكذا ظلّوا يتقدّمونَ نحوه واحدًا بعد آخَر ينذرونَه ويتوعّدونه ويهمسونَ في أذنِهِ بكلماتٍ مختلفةٍ ويشيرونَ بين يديه بإشاراتٍ غريبةٍ تهويلًا عليه وإرهابًا له، وهو صامتٌ ساكنٌ لا يرفع طَرَفَهُ إليهم حتّى بَرِمَ(٣) بهم، فنهضَ من مكانِهِ بهدوءٍ وَسُكونٍ ومشى إلى كاربون دي كاستل قائدِ الفرقةِ وهو جالسٌ على كرسيّهِ، فوقَفَ بين يديهِ وقال له: ماذا يصنعُ الإنسَانُ يا سيّدي القائد، إذا رَمَتْ به يدُ المقاديرِ بين جماعةٍ من الجنوبيينَ الوقحاءِ لا يزالونَ يشاكِسُونه ويناوئونَهُ ويستثيرونَ غيظَه وحفيظَته بسفاهتِهِمْ، ووقاحَتِهِمْ؟ فأجابَهُ القائدُ ببساطةٍ غيرَ محتفلٍ بهِ ولا مكترثٍ: يبرهِنُ لَهُمْ على أنّه، وإنْ كانَ شماليًّا، فهو شجاعٌ مثلُهُمْ. فانحنى كرستيان بين يديهِ

---

(١) الازدراء: الاحتقار.

(٢) الأخنف: من كان أحد جانبي صدره مخالفًا للآخر.

(٣) برم: تضايق.

وقال: سأفعلُ ما أَشَرْتَ به يا سيّدي، وعادَ إلى مكانِه الأوّلِ.

وكان سيرانو قد فَرغَ من حديثِهِ مع لبريه واعتدلَ في جَلْسَتِه فهرعَ إليه الجنودُ من كلِّ ناحيةٍ وأحاطوا به وقالوا: الحديثَ يا سيرانو. فاتّجهَ إليهِمْ وأنشأَ يقصُّ عليهم قصّتَهُ ويقول:

تقدّمْتُ نحوهم وحدي منفردًا وكانَ القمرُ يلمعُ في قُبّةِ السماءِ لمعانَ القطعةِ الفضيّةِ في رمالِ الصحراءِ، ثمّ لم يلبثْ أن غشيَتْهُ سحابةٌ دكناءُ فصارَ الظلامُ حالكًا مُدْلَهِمًّا[١] لا يستطيعُ المرءُ أن يرى فيه أبعدَ من... فقاطعَهُ كرستيان وقال «أنفِهِ» فدُهِشَ القومُ واصفرّ وَجْهُ سيرانو، وتهالَكَ في نفسه ثمّ صرخَ بصوتٍ كهزيمِ الرعدِ قائلًا: مَنْ هذا الرجلُ؟

وهمَّ بالهجومِ عليه ليفتكَ به، فقالَ لَهُ أحدُ الجنود: هو رجلٌ شماليٌّ دخلَ فرقَتَنا صباحَ هذا اليوم، فجمدَ سيرانو في مكانِهِ ذاهلًا، ومرَّ بخاطرِهِ كلمحِ البصرِ حديثُ روكسان فقالَ: صباحَ هذا اليوم! وما اسمُهُ؟ قال: يزعَمُ أنّ اسمَهُ البارون كرستيان دي نوڤييت. فتضَعْضَعَ سيرانو وتخاذلَ وشعرَ أنّ نفسَه تتسرّبُ من بينِ جنبيهِ وقالَ: آه! إنّه هو، ثم استحالتْ صورتُهُ إلى صورةٍ مرعبةٍ مخيفةٍ، وظلّتْ أطرافُهُ ترتجفُ ارتجافًا شديدًا، فتهافتَ على كرسيٍّ بجانبه وصمتَ صَمْتًا عميقًا لا حِسَّ فيه ولا حركة.

ثمَّ أخَذَ يعودُ إلى نفسِه شيئًا فشيئًا حتّى هدأَ، فألقى نظرَهُ على الجنودِ المحيطين به وقالَ لهم: ماذا كنتُ أقول لكم؟ لقد تذكّرْتُ، كنتُ أقولُ إنّ الظلامَ في تلكَ الساعةِ كانَ حالكًا جدًّا حتّى أنّ المرءَ لا يستطيعُ أنْ ينظُرَ إلى أبعدَ ممّا تحتَ قدميه... وتوقّفَ عن إتمام كلامِهِ لأنّه تذكَرَ مقاطعة كرستيان إيّاهُ عندَ وصولِهِ إلى هذه الكلمةِ فوثَبَ من مكانِه وَثْبَةَ النّمر الضائعِ وهجمَ عليه هجمةً ما كانَ عندَ الحاضرينَ ريبٌ في أنها تحملُ في طيّاتِها الموتَ الأحمرَ وهو يطَمْطِم[٢] بلهجتِهِ الجاسكونيّة: «موردِيوس، ميل ديوس».

ولكنّه لم يبلغْ مكانَه حتّى جمدَ أمامَه جمودَ التمثالِ فوقَ قاعِدَتِهِ، وظلّ يزفرُ زفيرًا متتابعًا ثمّ تراجَعَ بهدوءٍ وسكونٍ إلى مكانِهِ الأوّل والقومُ يتّبعونَه بأنظارِهِمْ ويعجبونَ لأمره ويقولون في أنفسهِمْ: ما لَهُ يُقدِمُ ثُمّ يُحْجِم! وما الذي يبدو له فيتراجع بَعْدَ اندِفَاعه! وما هي إلّا هنيهةٌ حتّى هدأ وسكنَ وعادَ إلى حديثه يقول: وكنتُ أعلمُ أنّني مُقْدِمٌ على خطرٍ من أعظم الأخطارِ وأنّني إنّما أحاربُ في الحقيقةِ رجلًا عظيم الجاهِ والسّلطانِ لو شاءَ أنْ يستحقَني بقدمِهِ كما يسحقُ السّائرُ النّملةَ الدّارِجَةَ[٣] في طريقِهِ لَفعلَ، بل لو شاءَ أن يضعني بين... فقاطعه كرستيان وقال «مِنخريه» فاهتزَّ سيرانو في كرسيّه يمنةً ويسرةً وَغَلا دَمُهُ في رأسه غليانَ الماءِ في مِرْجَله[٤]، ولكنّه لَمْ يتوقَّفْ بل استمرَّ في حديثه يقول... بين شِدْقَيهِ لَمَا حالَ بينه وبَين ذلكَ حائلٌ لأنّه صهرُ الكاردينال، والكاردينالُ هو كلُّ شيءٍ في فرنسا.

---

(١) المدلهمّ: الشديد السواد. (٢) طمطم: تكلم كلامًا غير فصيح.

(٣) الدارجة: من الفعل درج بمعنى مشى مشيًا بطيئًا. (٤) المرجل: القِدر، خزّان الماء.

ومرّتْ بي ساعةُ ضعفٍ كنتُ أقول فيها لنفسي «وهنا نظَرَ إلى كرستيان كأنّه يخاطِبه» إنّك قد عَرّضْتَ نفسَكَ أيّها الرجلُ المسكينُ بتهوُّرِكَ وجنونِكَ للهلاك الذي لا بُدّ لكَ منه، ووضعتَ إصبعكَ بين الشّجرة ولحائها[١]، وليسَ بكثيرٍ على رجلٍ قاسٍ مستبدّ كهذا الرّجلِ أن يُرغِمَ فَقَاطعه كرستيان وقال: «أنفَك» فتصامم[٢] سيرانو وكأنّه لم يسمَعْ شيئًا، وقال: إرادتَكَ على ما يريدُ، ولكنّني تجلّدْتُ واستَمْسَكْتُ ولم أعبأْ بهذهِ الاعتبارات جميعِها وقلتُ في نفسي: سِرْ أيّها الجاسكونيُّ الحرُّ وامضِ في سبيلك قُدُمًا لا تحفلْ بشيءٍ مما يعترضُ طريقَكَ وقُمْ بواجبِكَ الذي حَمَلْتَ عِبْئَهُ وعاهَدْتَ نفسَكَ عليه كما يفعلُ الحرُّ الشريفُ.

وبينا أنا أفكّر في ذلك إذْ لمحتُ شقيًّا من أولئكَ الأشقياءِ يهيّئُ لي في هذا الظلام الحالكِ المدلهمّ ضربةً قويّةً فما هو إلّا أنْ لَمَحْتُها حتّى رُغْتُ[٣] منها بأسرعَ مِنْ ضربةِ السّيفِ فأفسَدْتُها عليهِ ولكنّني لَمْ ألبثْ أنْ وجدتُ نفسي في الحال وجهًا لوجه. . . فقاطَعَهُ كرستيان وقال «أو أنْفًا لأنف» فزأر سيرانو زئيرًا مخيفًا ووضَعَ يدَهُ على مقبضِ سيفِه وصاحَ «يا لصواعِقِ السّماءِ ورجومها»[٤].

فذعِرَ القومُ وأيقنوا بالشّرّ وأتلَعُوا إليه أعناقَهُمْ لينظروا ماذا يفعلُ، فلمْ يفعلْ شيئًا، بل استمرَّ في حديثِهِ يقول: وجدتُ نفسي أمام مائةٍ من الغوغاءِ السّاقطينَ تنمُّ[٥] ثيابُهُم الباليةُ وأزياؤُهم القبيحةُ عن حقارتِهِمْ وسفالتِهِمْ، وتتصاعدُ من أردانِهم[٦] القذرةِ روائحُ كريهةٌ تملأ. . . فقاطَعَهُ كرستيان وقال «الأنفَ» فانفجرتْ شَفَتاهُ عن مثلِ ما تنفرجُ عنه شفتا الليثِ ولكنّهُ لم يتلفتْ إليه واستمرّ يقولُ. . . تملأُ الجوَّ وتزهقُ النَّفسَ، فلمْ أتردَّدْ لحظةً واحدةً في الهجوم عليهم ففتكْتُ باثنين منهم، ثمَّ أتبعتهما بثالثٍ، وإذا بأحدِهم يُصوِّبُ إليَّ سهمًا. . . فقاطعه كرستيان وقال «أنفيًّا» فلمْ يستطعْ على ذلكَ صبرًا، وهَبَّ من مكانه هبوبَ العاصفَةِ، وصرخَ صرخة عظمى: أُخرجوا من هنا جميعُكُم ودعوني معَ هذا الرجل وحدي!

ففروا من وجهِهِ جميعًا يستبِقُونَ البابَ ويتراكَضُون، ويهمسُ كلٌّ منهم في أذنِ صاحبه: إنّها وثبةُ الأسدِ ما في ذلكَ ريبٌ، وراجنو يقلّبُ كفّيهِ حزنًا وأسفًا ويقول: واأسفاه عليكَ أيّها الفتى المسكينُ، ما أحسبُهَا إلّا لمحةَ الطّرَفِ حتّى أراكَ قِطَعًا متناثرةً على مائدتي.

فلمّا خلا المكان بسيرانو وصاحبِه، ظلّا يتناظرانِ[٧] ساعةً في صمتٍ وسكونٍ لا يفوهانِ بحرفٍ واحدٍ، وكرستيان ينتظرُ وقوعَ الكارثةِ ويتأهّبُ لَهَا تأهّبَ الجريءِ المقدام. ثمّ ما لبثَ أن رأى سيرانو يتقدّمُ نحوَه رويدًا رويدًا حتّى وقفَ أمامه ووضَعَ يده على عاتقِهِ، فارتعَدَ كرستيان ارتعادًا خفيفًا، وبينا هو ينتظرُ عاصفةً من الشرّ تهبُّ عليه إذ سمعَهُ يناديه بنغمةٍ لطيفةٍ هادئةٍ ويقول له: سيّدي كرستيان! فرفع طَرْفَهُ إليه فرآه باسمًا متطلّقًا فعجبَ لأمره وقالَ له: ماذا تريدُ يا

---

(١) لحاء الشجرة: قشرتها.
(٢) تصامم: تظاهر بعدم السمع.
(٣) رغت: من راغ أي خادع.
(٤) رجوم السماء: شهبها ونجومها المتساقطة.
(٥) تنمّ: تدلّ، تشير.
(٦) أردان الثوب: أكمامه.
(٧) يتناظران: يتبادلان النظرات.

سيّدي؟ قال: أريدُ أنْ أعانقكَ وأقبّلكَ أيّها الصديقُ فتعالَ إليّ، فظلَّ كرستيان ينظرُ إليه نظرًا حائرًا متضَعْضِعًا، لا يفهمُ من أمْرِه شيئًا، فقا له سيرانو: تعالَ إليّ وقبّلْني فإنّي أخوها، وقد بعَثتني برسالةٍ إليكَ فاستمِعْها، فازدادتْ حَيْرَةُ كرستيان ولم يفهمْ ما يريدُ وقال له: أخو مَنْ يا سيّدي؟ قال: أخو الفتاةِ التي تحبُّها، قال: أيّ فتاةٍ تريد؟ قال: روكسان. قال: أأنت أخوها؟!

وظلّ يقلّبُ نَظَرَه في وجههِ، كأنّه يفتّشُ عن وَجْهِ الشّبه بين الأخوينِ فلا يَجِدَهُ، ففَطِنَ سيرانو لغرضِهِ وقالَ: أخوها تقريبًا، أي ابنُ عَمّها، فتلألأ وَجْه كرستيان سرورًا وقال: وَهَلْ حدَّثَتْكَ عنّي؟ قال: نعم، قال: وهلْ أخبرَتْكَ أنّها تحبّني؟ قال: ربّما، فازداد سرورُه واغتباطُه وقال له: ما أجملَ هذه البشْرَى التي جئتني بها يا سيّدي، وما أعظَمَ شُكْري لَكَ.

فابتسَمَ سيرانو وقال: ما أغربَ عواطفَ النفوسِ وما أسرعَ تقلّباتها، فقال: أُعْفُ عنّي يا سيّدي فقد أسأتُ إليكَ. قال: وما رأيُكَ في تلك الأنفيّات[١] التي رميتني بها منذُ هنيهة؟ قال: إنّني أستردُّها جميعَها وأجثُو تحتَ قدميكَ معتذرًا عنها معتمدًا على كَرَمِكَ وإحسانِكَ. قال: الآنَ أستطيعُ أنْ أقولَ لكَ إنّها اعترفتْ لي بأنّها تحبّكَ حبًّا شديدًا وشريفًا وتضمرُ لكَ في قلبها من الوَجْدِ مثلَ ما تضمِرُ لها، وقد كلّفَتْني أنْ أقولَ لكَ إنّها تنتظرُ منكَ اليومَ كتابًا، قال: واأسفاه يا سيّدي! ذلكَ ما لا أستطيعُهُ، قال: وَلِمَ؟ قال: لأنّني رجلٌ عاطلٌ من جميعِ المواهبِ والمزايا لا أملكُ حِلْيَةً من حُلى الدنيا غيرَ حليةِ الصمتِ، فإنْ عطَلتُ منها هلكتُ وافتضحتُ.

قال: عجبًا لكَ! ألا تستطيعُ أنْ تكتبَ كتابًا؟ قال: لا، لأنّي عَيِيٌّ[٢] بليد، قال: إنّك مغالٍ جدًا وحسبُكَ من الذكاءِ أنّكَ تعرفُ مقدارَ نفسِكَ، على أنّ أسلوبَكَ في مقاطعتي ومغايظتي يدلُّ على أنّكَ لم تُحرمْ فضيلةَ الشجاعةِ والذكاءِ. قال: أستطيعُ أحيانًا أنْ أكونَ شجاعًا، إذا كانَ الحديثُ بيني وبين رجلٍ، أما المرأةُ فإنّي أضعفُ النّاسِ مُنّة بين يديها، قال: ولكنّكَ جميلٌ، والجمالُ قوّةٌ يستمدُّ منها اللسانُ فصاحَتَه وبَيانَهُ. قال: لا أُنكرُ أنّ لنظراتي تأثيرًا خاصًّا على النساء، وأنّني ما مررت بهنّ إلّا استثرتُ بجمالي إعجابهنَّ ودهشتهنّ، ولكنّني أذوبُ حياءً وخجلًا، إذا جلستُ إليهنّ أو جَمَعُ الحديثُ بيني وبينهنّ، وربّما استطعتُ في بعضِ الأحيانِ أن أتحدّثَ إليهنّ في بعضِ الشؤونِ العامّة التي لا يتحَامى فيها أحدٌ أحدًا، حتّى إذا وصلنا إلى حديثِ الحبِّ كانَ الموتُ الأحمرُ أهونَ عليَّ من أن أنطقَ بحرفٍ واحدٍ فيه.

قال: إنّي لَأَعْجَبُ لأمركَ جدًّا يا كرستيان، ويُخَيّلُ إليّ أنّني لو كانَ لي مثلُ حظّكَ في الجمالِ لأحسنتُ الكلامَ في الحبّ. قال: ويُخَيَّلُ لي أنا أيضًا أنّني لو كان لي مثلُ حظّكَ في الفَصَاحَةِ لاستطعتُ الكلامَ فيه، قال: ليتني أستطيعُ إذا جلستُ إلى النساءِ أنْ أستثيرَ بجمالي إعجابهنّ ودهشتهنّ، قال: وليتني أستطيعُ إذا جلستُ إليهنَّ أن أسترعِيَ ببياني أسماعَهُنَّ.

وصمتَ كرستيان لحظةً ثمّ قال: ولقد حدّثوني عنها أنّها فتاةٌ ذكيّةٌ متفوّقة تتعشّقُ في الرّجالِ

---

(١) الأنفيّات: أراد بها الإشارة إلى عبارة «أنف». (٢) العييّ: العاجز عن النطق.

الذكاءَ والفطنةَ قبلَ أن تتعشّقَ فيهم الحسنَ والجمالَ، فماذا يكونُ شأني معها إذا كتبتُ إليها كتابًا فقرأَتْهُ فلم ترَ بين سطوره إلّا عِيًّا وركَاكةً وضَعفًا واضطرابًا. فقال وهو يصعّدُ نَظَرَهُ في وجههِ ويصوِّبهُ ويعجبُ بجمالِهِ ووضاءَته: يُخَيّلُ إليّ يا كرستيان، أنّك لو أعرتَني جمالَكَ أو لو أنّني أعرتُكَ لِسَاني لتألّفَ منّا إنسانٌ تامُّ المواهبِ والمزايا، قال: نعم، ما في ذلكَ ريبٌ، قال: ألا تتمنّى أنْ تكونَ ذلك الإنسانَ، قال: نعمْ أتمنّى أنْ أكونَهُ ولكنْ كيفَ السّبيلُ إلى ذلك، قال: إنّ في استطاعتي أن أنفخَ فيكَ روحَ الفَصاحةِ وأنفثَ في صدرِكَ سِحْرَها، فإذا أنتَ أجملُ الناسِ وأذكاهم معًا.

قال: لا أستطيعُ أن أتصوّرَ ذلكَ إلّا إذا زعمتَ أنّكَ من الساحرين، قال: ما في الأمر سحرٌ ولا مَخرقة[1]، حدِّثني عن نفسِكَ أوّلًا، هل تعجز عن حفظِ ما يُلقى إليها من الجُمَلِ والكلماتِ وإنْ لم تفهمْ معناه؟ قال: لا، فإنّ ذاكرتي قوية جدًا، ولكنّها كَذَاكِرَةِ البَبْغاءِ تَنقلُ ولا تعقلُ مما تَنقلُ شيئًا، وأظنّ أنّي قد فهمتُ غرضَكَ الآن، وإنّي لأعجبُ أشدَّ العجبِ من اهتمامِكَ بهذا الأمر الاهتمامَ الشديدَ ومن إلحاحِكَ في تَلَمُّسِ الوسائلِ للوصولِ إلَيه هذا الإلحاح كلّه كأنّه شأنٌ من شؤونِكَ الخاصّةِ التي تعنيك. قال: سأُفضي إليكَ بسرّ المسألةِ فاستمِعْ لما أقول:

إنّ روكسان ابنةُ عمّي وصديقتي ورفيقةُ صبايَ وطفولتي وليسَ لها في العالمِ من صديقٍ ولا معينٍ سوايَ، ويهمّني جدًا أنْ أراهَا سيعدةً في حياتِها هانئةً في عيشِها لا يكدّرُ عليها مكدّرٌ من عوادي الدهر، ونكباتِ الأيّام، ولا أكتمُكَ أنّي أخافُ عليها الخوف كلَّه أن تَحلّ بها في هذا الحبِّ الذي اختارَتْهُ لنفْسِهَا نَكبةٌ من النكباتِ العظام، أو فاجعةٌ من الفواجعِ الجسام، تقضي عليها وعلى آمالها. وما أحسَبُكَ تتمنّى لها إلّا ما أتمناه أو تضمرُ لها في نَفسِكَ إلّا العطفَ الذي أضمرُه لها خصوصًا وأنّ الصلةَ التي بينكما ستتحوّلُ طبعًا إلى عِشْرة زوجيّةٍ طويلةٍ لا يقطعُ حبلَها إلّا الموت.

لذلكَ أردتُ أن نتعاقَدَ يدًا واحدةً على إسْعَادِهَا وترفيهِ عَيْشِهَا وحمايةِ ذلكَ الحبّ في قلبها، وحراستِهِ من أن تغشاهُ غاشيةٌ من وساوسِ اليأس أو خيبةِ الأمل، أنتَ بحُسْنِكَ وجمالِكَ، وأنا بفصاحتي وبياني، تَسْمَعُ صوتي، ولكنْ من فَمِكَ، وتحسُّ بروحي ولكنْ في جسمِكَ، وتشربُ عواطفي ولكنْ من كأسِكَ، وتطربُ لنغماتي ولكنْ من قيثَارَتِكَ، أيْ أنّني أتقمَّصُ في جسمِكَ وأتسرّبُ بينَ حنايا ضلوعِكَ وأَكْمُنُ في قرارةِ نفسِكَ فنستحيلُ نحن الاثنينِ إلى شخصٍ واحدٍ وتصبحُ أنتَ كلّ شيءٍ وأصبحُ أنا لا شيءَ.

وما دامت سعادتُهَا في الحياة تتوقّفُ على أن ترى بجانبها إنسانًا يجمعُ في نفسهِ بينَ موهبتَيْ الفصاحَةِ والجمالِ، فَلْيتألّفْ منّي ومنكَ ذلكَ الإنسانُ الذي تريدهُ وتتمناه، ولا تَقُلْ إنّنا نخدَعُها بذلكَ أو نغترُّها فإنّا لا نريد بما نفعلُ إلّا سعادَتَها وهناءَهَا.

(١) المخرقة: الأمر المعجزة.

هذا هو الغرضُ الذي أرمي إليه ولا أرمي لغرضٍ سِوَاهُ، فارتجَفَ كرستيان وقال: إنّكَ تخيفني جدًّا يا سيرانو، ويُخَيَّلُ إليَّ أنّ عقلي يحاول الفرارَ منّي دهشةً وعجبًا، فإنّك تقترحُ عليّ أمرًا ما سمعتُ بمثله في حياتي. قال: إنّكَ مغالٍ يا كرستيان، والمسألة بسيطةٌ جدًّا، ألم تقلْ لي منذُ هنيهةٍ إنّكَ تخافُ إنْ جالستَها أو تحدّثْتَ إليها أن تملّكَ وتجتويك[1] فتموتَ عواطفُ الحبّ في قلبها! فما الذي يَريبُكَ منّي وأنا لا أريدُ إلّا ما تريدُ ولا أرمي إلّا إلى بقاءِ عاطفةِ الحبّ حيّةً في قلبَها ناميةً، فتتمتَّعَ أنتَ بعطفِ الفتاةِ التي تحبّها، وأتمتّعُ أنا بسعادةِ الصديقةِ التي أجلّها وأحترمُها، وأحرصُ على راحتها وهدوئها.

قال: وهل تشعرُ في نفسِكَ أنّك سعيدٌ بذلك؟ فانتفضَ سيرانو انتفاضةً خفيفةً لم يَشْعُرْ بها كرستيان وقالَ بصوتٍ خافت: سعيدٌ؟! وصَمَتَ لحظةً ثمّ قالَ بصوتٍ متهدّجٍ[2] مرتعش: نعم سأكون سعيدًا يا كرستيان، لأنّني شاعرٌ، والشاعر ممثل بفطرته، يلذُّ له دائمًا أن يلبسَ ثوبًا غير ثوبه، ويتراءَى في صورةٍ غيرِ صورته، فيمثّل دورَ المجنونِ وهو عاقلٌ، ودورَ الشّجاعِ وهو جبانٌ، ودور السعيدِ وهو شقيّ، ودورَ العاشقِ الولهان وما في قلبه ذرّة واحدةٌ من الحبّ والغرام.

فاسْمَحْ لي أن أمثّلَ دور العاشقِ الولهان فهو الدور الذي يلذّ لي تمثيلُه أكثرَ من غيره، وكنْ أنتَ المسرَحَ الذي أُمثّله عليه وأَخْطُرُ في أرجائه جِيئةً وذهابًا.

كنِ اللسانَ وأنا الفكرُ، كُنِ الجسمَ وأنا الروحُ، كُن الجمالَ وأنا العقلُ، كُنِ الزهرةَ وأنا العطرُ، كُنِ العينَ وأَنَا النورُ المنبعثُ منها، كُنِ القلبَ وأنا حبّته الكامنةُ فيه، فلا تكتبْ إليها إلّا ما أمْلِيهِ عليكَ، ولا تحدّثْها إلّا بما ألقّنكَ إيّاه، وليكنْ ذلك سرًّا بيني وبينَكَ لا تعرفُه روكسان ولا يعرفه أحدٌ من الناس.

فهدأَ كرستيان وسُرِّي عنه[3] واستقرَّ في نفسِه أنّ الرّجلَ صادقٌ فيما يقول، ولكنّه لو استطاعَ أن يفهَمَ الحقيقةَ كما يفهَمُهَا بقيّة الناسِ لأدركَ أنّ سيرانو عاشقٌ مثلَهُ لتلكَ الفتاةِ التّي يحبّها، وأنّه لمّا أخْفَقَ في حبّه وساءَ حظُّهُ فيه وعجزَ عن أن يُفضيَ إلى حبيبته بذاتِ نفسه وسريرةِ قلبِه وجهًا لوجهٍ، أرادَ أن يتّخذَ منه بوقًا يهتفُ في جوفِه بأنّاتِهِ وزفراته، لتَصِلَ إلى آذانِهَا فتسمَعُهَا من حيثُ لا تراه ولا تشعرُ بمكانه لا يرجو من وراءِ ذلكَ غرضًا ولا غايةً سوى أن يرفّه عن نفسِه بعضَ همومَها وآلامها بالمناجَاةِ والشكوى كما يرفّهُ المريضُ عن نفسِهِ آلامَهُ وأوجاعَهُ بترديدِ الأنّاتِ، وتصعيدِ الزفرات.

فقالَ له كرستيان: ولكنْ ما العملُ في الكتابِ الذي قلتَ لي إنّها تريدُ أن أرسِلَهُ إليها اليوم؟ فمدّ سيرانو يدَهُ إلى صدرِهِ وأخرجَ تلكَ الرسالةَ التي كانَ يريدُ أن يقدّمَها إليها في الصباح، فلم يفعلْ وأعطاه إيّاها وقالَ له: ابعثْ إليها بهذه الرسالة، فهي تامّة لا ينقُصُها غيرُ التوقيعِ. فدهشَ كرستيان

---

(١) تجتويك: من الفعل اجتوى بمعنى كره. (٢) متهدّج: متقطع مرتعش.

(٣) سُرِّي عنه الأمر: زال وانكشف.

وعاودَتْهُ وساوسُهُ وهَوَاجِسُه وقال له: وهل كتبتَها من أجلي؟ وما الذي دعاكَ إلى ذلك؟

قال: لمْ أكتُبْهَا من أجلِكَ ولا من أجلِ أحدٍ من النّاسِ ولكنّنا معشَرَ الشعراءِ لا تخلو جيوبُنَا غالبًا من أمثالِ هذهِ الرسائلِ الغراميّةِ الخياليّةِ، فإنّنا وإنْ كنّا محرومينَ سعادةَ الحبّ وهناءَه ولكنّنا نتخيّلُ أحيانًا صورًا وهميّةً لا وجودَ لها في الخارجِ، نخاطِبُها ونناجيها كما يناجِي المحبُّ محبوبَه لنستطيعَ إمدادَ الفنّ الذي نشتغلُ به بحقائقِ الحياةِ وصُوَرِها، ولقد أَوْدَعْتُ هذه الرسالةَ جميعَ ما يمكنُ لمحبٍّ مفتتنٍ أن يضمِرَه في نفسِهِ من لواعجِ الحبّ وخوالجِ الغرام، ولقد كانتْ أنّاتي وزَفَرَاتي قبلَ اليوم طائرةً هائمةً في أجوازِ الفضاءِ لا تَجدُ لها مستقرًا ولا مَهْبِطًا، أمّا الآنَ فقد وَجَدَتْ على يَدِكَ المستقرَّ الذي تتطلّبه وتسعى إليه، وسَتَقْرَأُ روكسان هذه الرسالةَ بعد ساعةٍ وترى أنّها الصّورةُ الحقيقيّة لعواطِفِكَ وشعورِكَ لا ينقُصُها شيءٌ حتّى روحُ الإخلاصِ وجوهَرُه. قال: ألا نحتاجُ لتغيير شيءٍ فيها؟ قال: لا. قالَ: أخافُ أنْ ترتابَ بها، قال: كُنْ على ثقةٍ من أنّها ستعتقدُ حينَ تقرأُهَا أنّها ما كُتبتْ إلّا لها وأنّها هي التي أوحَتْ بها إلى نفسِ كاتبها.

فتناولَ كرستيان الرسالةَ طائرًا بها فَرِحًا وترامى على عنقِ سيرانو يقبّلُه ويلثِمُهُ ويضمّهُ إلى صدره، ويقول: آه يا صديقي الكريم! ما أعظمَ شكري لكَ واغتباطي بصُحْبَتِكَ! وظلّ على ذلك هنيهةً وكانَ القومُ وقوفًا أمامَ بابِ المطعم ينتظرون إذْن سيرانو لهم بالرجوعِ، وهم يسمعونَ ضوضاءَ الحديثِ بينه وبين صاحِبِه فيتوهّمونَ أنّه الجدالُ العنيفُ والخصامُ الشديدُ، حتّى شعروا بذلكَ السكونِ الذي سادَ بينهما، فريعوا وخُيّلَ إليهم أنّه سكونُ الموتِ. فدفع راجنو البابَ قليلًا وأطلّ من فجوتِهِ فرأى هذا المنظرَ، فذُعِرَ وخَيّلَ إليه الرّعبُ الذي لحقه، أنّه يرى منظرَ الموتِ وأنّ كرستيان صريعٌ بين يدي سيرانو، فَظَلّ يرتجفُ ارتجافًا شديدًا، فهمسَ القومُ في أذنه ماذا ترى؟ قال: دعوني فإنّي لا أجرُؤ على النظرِ وأكادُ أموتُ خوفًا ورُعبًا.

فدفعوا البابَ جميعًا ودخلوا، ففهموا الحقيقةَ التي ما كانوا يتصوّرُونها ولا يقدِّرُونها في أنفسهم، ورأوا أنّ ذلكَ الصراعَ الذي كانوا يتوهّمُونَهُ بينَ خصمينِ متباغضينِ، إنّما هو عناقٌ طويلٌ بينَ صديقيْن مخلصيْن، فدُهِشُوا دهشةً عظمى، وظَلّ بعضُهم يهمسُ في أذن بعضٍ: إنّه يعانقُه ويلتزِمُهُ كأنّهُ أصدقُ أصدقائِهِ، وقال «كاربون دي كاستل» أحمد الله تعالى، فإنّ شيطانَنَا قدِ اهتدى. وصاحَ آخر: عجبًا لك يا سيرانو! لقدْ أصبحتَ مسيحيًّا تقيًّا إذا ضرَبَك أحدٌ على أحَد مِنخريكَ أدرتَ له الآخر.

فلم يغضَبْ سيرانو هذه المرّةَ ولم يكترثْ بلِ ابتسَمَ له وتَطلّقَ، وكانَ بين الداخلينَ «الرجلُ الهائل» صديق «ليز» فأطمَعَهُ هذا الموقفُ في حِلْم سيرانو وقال في نفسه: لقد فَقَدَ الرجلُ حميّتَه وانطفأتْ شعلةُ حماسَتِه وأَظنّ أنّي أستطيعُ أَن أتكلّمَ عن أنفه الآنَ باطمئنانٍ، ثمّ أشارَ إلى ليز فاقتربتْ منه فقالَ لها: سأريكِ الآنَ منظرًا من أبدعِ المناظرِ وأبهجِهَا، وأخذَ يدورَ في أنحاءِ القاعةِ، ويتنشّقُ الهواءَ بصوتٍ عالٍ كأنّما يشعرُ برائحةٍ غريبةٍ حتّى دنا من سيرانو فلَمَسَ كَتِفَه وقال له: ما هذه الرائحة الغريبةُ يا سيّدي؟ فصَمَتَ سيرانو ولم يقلْ شيئًا، فأدنى وَجْهَه من

وجهه وأطالَ النظرَ إلى أنفِهِ وقال له: قل لي ما هذه الرائحةُ الغريبةُ المنتشرةُ في هذا الجو فإنّكَ تستطيعُ أن تفهَمَهَا أكثرَ منّي، فما أَتمَّ كلمتَهُ حتّى لَطَمَهُ سيرانو على وجهِه لطمةً هائلةً رنّتْ في أرجاءِ القاعة وقال: رائحةُ الذُعر أيّها الجبانُ، فصفق القوم تصفيقًا شديدًا وأغربوا في الضّحكِ جميعًا حتّى «ليز».

❀ ❀ ❀

الفصل الثالث:

«حرفة الأدب»

منزلُ روكسان منزلٌ جميلٌ أنيقٌ تمتدّ أمامَ بابِهِ شُرفةٌ عاليةٌ بديعةٌ قائمةٌ على ساريتينِ ضخمتينِ تتسلّقُ فوقَهُما أغصانُ شجرةِ ياسمين مغروسةٍ أمامَ الباب حتّى تصلَ إلى الشرفةِ فتنتشرُ في أنحائها. ويقابِلُ هذا المنزلَ منزلُ آخرُ يشبهه في شَكْلِه ورونَقِه ولا يختلفُ عنه بشيءٍ سوى أنّ حلقةَ بابه ملفّفةٌ بقطعةٍ من نسيجٍ كأنّها إصبعٌ مجروحةٌ[(١)] مضمَّدة، وبينَ المنزلين ميدانٌ واسعٌ يتوسّطه مقعدٌ مستطيل من الرخامِ جلسَتْ عليه وصيفةُ روكسان وراجنو الشوّاءُ يتحدّثان، فمسحَ راجنو دمعة كانتْ تترقرقُ في عينيه وقال لها: ولقد حزنتُ كثيرًا لفرارِهَا مع ذلك الضابطِ الخبيثِ، وبكيتُ ما شاء الله أن أفعلَ لأنّها كانتْ سلوةَ حياتي، ومعينتي على أمري، وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ حتّى تكشّفَ الغطاء عن ذلك الإفلاسِ العظيمِ الذي كان كامنًا في حسابي والذي كنت أستره بجدّي وجدّها وتراكمتْ عليّ الديونُ وعجزتُ عن الوفاءِ، فلمْ أرَ بدًّا من الانتحارِ.

فخلوتُ في حانوتي ليلةَ أمسِ وألقيتُ أَخِيّة[(٢)] في عنقي، وما هو إلّا أن صعِدتُ على الكرسيّ ووضعتُ قدميّ على حافتِهِ لأدفعَه من تحتي حتّى دخلَ سيرانو فهالَهُ الأمرُ وتَعاظَمَهُ وفَهِمَ للنظرةِ الأولى كلّ شيءٍ، فابتدَرَ الحبلَ فقطَعَه بسيفِه، وقال: ماذا أصابَكَ أيّها المسكينُ! فنفضْتُ لَهُ جُمْلَةَ حالي وأبثَثْتُه همّي، فأشفقَ عليّ وجذبني من يدي حتّى جاء بي إلى هنا وقصّ على روكسان قصّتي وقال لها: إنّ راجنو صديقُنا وصاحبُ اليدِ البيضاءِ علينا، وعلى الأدباءِ جميعًا شعرائِهِمْ وكتّابِهِمْ، وهو وإنْ لَمْ يَكُنْ من نوابغِ الشّعراءِ المجيدين فهو أديبٌ متفنّنٌ مُحْسِنٌ إلى رجالِ الشعر والأدبِ ضَنِينٌ بهم وبكرامتهم، فلم أحفل كثيرًا بتلكَ الغمزةِ التي غَمَزَنِيهَا في حديثه. وما زال بها حتّى استثارَ عطفَها وشفَقَتَها، فبكتْ رحمةً بي واستدنتني إليها وَوَاسَتْني ببعضِ الكلماتِ الطيّبةِ ثمّ عهدتْ إليّ بهذا الشأنِ الذي أقومُ به في منزلها كما

---

(١) هو منزل كلومير وهي سيّدة من الأشراف كانت تقام في بيتها الحفلات التي تجمع المتأدبين والمتأدبات وتلقي فيها المحاضرات الأدبية والخطب العلمية شأن كثير من الشريفات في ذلك العصر. ولقد لفت حلقة الباب بذلك النسيج حتى لا يزعج صوتها المجتمعين أثناء سماع المحاضرات.

(٢) الأخيّة: الحبل المثنّى الذي دفن جزء منه في التراب وبقيت منه أجزاء خارجه.

تعلمين، فاستعبرت الوصيفةُ باكيةً وقالت: لقد كان يُخَيّلُ إليّ يا راجنو أنّكَ سعيدُ الطالعِ في أعمالِكَ وأنّكَ تربح كثيرًا فما الذي دهاكَ وجَرّ عليكَ هذا البلاء؟

قال: حِرفة الأدبِ يا سيدتي، فقد كنتُ أُحِبُّ رجالَ الشعرِ وكانتْ ليز تحبُّ رجالَ السيفِ فلم يزل «مارس» يأكلُ ما يشاءُ ثُمّ يُلقي ما يتبقّى منه إلى «أبولون»[1] حتّى نزلَ بي ما ترَيْنَ.

فرثتِ الوصيفةُ لحالِهِ وظلّتْ تلاطِفُهُ وتواسِيه، حتّى هدأَ وسَكَن. ثمّ نهضَتْ من مكانِهَا واتّجهتْ جِهَةَ الشّرفةِ وظلت تنادي: سيّدتي روكسان! أسرعي فقد دَنا ميعادُ المحاضرةِ. فأجابتها سيّدتها من داخلِ البيت: ها أنا ذي آتيةٌ فانتظري قليلًا، فقال لها راجنو: أيّةُ محاضرةٍ تريدين؟ قالت: سيحضر السّاعةَ إلى منزل «كلومير» (وأشارت إلى ذلك المنزلِ المقابلِ لمنزلِ سيّدتها) رجلٌ من العلماءِ الباحثينَ اسمُهُ «ألكاندر» ليلقيَ محاضرةً عن الحبّ، وقد دعيتْ سيّدتي لاستماعِهَا وسأذهبُ معها بالطّبعِ، فضحكَ راجنو وقال: ما سمعت قبلَ اليوم أنّ الحبّ فنٌّ من الفنونِ التي تلقى فيها المحاضرات. قالتْ وهي تبتسمُ: ليسَ في الفنون ما هو أحقُّ بالمحاضرات من الحبّ.

وهنا سَمِعا صوتَ قيثارةٍ آتيةٍ من بعيدٍ فالتَفَتَا وراءَهُما، فإذا سيرانو مقبلٌ ووراءَه غلامانِ صغيرانِ يحملُ كلٌّ منهما في يده قيثارةً يوقّع عليها وهو ينهرُهُما ويتغيّظُ عليهما كأنّهما طالبانِ بين يدَيْ مؤدبهما ويقول لهما: قد أمرتُكُما أيّها البليدانِ أنْ تثلّثا النغماتِ وأنتما تأبيانِ إلّا تثنيَتَها، فقا له راجنو: بخٍ بخٍ[2] يا سيرانو! متى كانَ عهدُكَ بمعرفةِ المثالثِ والمثاني، قال عهدي بها منذُ ذلكَ اليومِ الذي جَثَوْتُ فيه بين يدي جاصندي الموسيقيّ العظيم، وما أنا إلّا تلميذُه وخِرّيج مدرَستِهِ. ثمّ التفتَ إلى أحدِ الغلامينِ وانتزعَ منه قيثارَتَه واستقبلَ شُرْفَةَ روكسان، وأخذَ يغنّي هذه القطعةَ «قد جئتُ أسلّم على ياسمينِكِ، وأقدم تحيّاتي لورودِكِ، وألثُمُ بخضوعٍ وخشوعٍ أوراقَ زنابقِكِ البيضاء» فسمعتْ روكسان صوتَه فخرجتْ إلى الشرفةِ فرأتْهُ فقالت: هٰأنذي قادمةٌ يا سيرانو.

وكانتْ قد فرغَتْ من زينتها ولباسِهَا فنزلتْ فحيّتْهُ وقالتْ له: ما هذا المنظرُ الغريبُ؟! ومن هذان الغلامانِ الصغيرانِ؟ قال: هما ولدانِ موسيقيّان قد ربحتُهُمَا اليومَ في رهانٍ. فضحكتْ وقالت: أيُّ رهانٍ؟ قال قد جادَلْتُ اليومَ «داسوسي» في مسألةٍ نحويّةٍ موضوعُهَا الفرقُ بينَ «لا» و«بلى»، واشتدّ بيننا اللّجاج[3] ساعةً فاستَحمَقَ وأشارَ إلى هذينِ الغلامينِ وكانا واقفينِ بينَ يديه، وقال لي: سأراجعُ المسألةَ الآن في مظانِّها[4] من الكتبِ، وليَكونَنَّ هذانِ الغلامانِ طَوْعَ أمرِكَ ليلةً كاملةً تذهبُ بهما حيثُ تشاءُ ويغنّيانِكَ ما تريدُ إن كانَ الفوزُ لكَ فيها.

ثمّ قامَ إلى خِزانةِ كُتُبِهِ، فراجَعَ المسألةَ فكانَ الحقّ في جانبي، فأخذتُ الغلامينِ وسرتُ بهما

---

(١) مارس إله الحرب وإبولون إله الشعر وغيره من الفنون.

(٢) بخ بخ: كلام يقال في معرض الإعجاب والرّضا والمدح.

(٣) اللّجاج: الإلحاح والعناد في الخصومة. (٤) مظانّ الأمر: المكان الذي يُظنّ أنه موجود فيه.

يغنّياني ويأتمرانِ بأمري في كلّ ما أقترحُه عليهما من الضروبِ والألحانِ حتّى وصلنا إلى هنا. قالت: وهلْ أنتَ راضٍ عنهما؟ قال: إنّهما يُجيدانِ بعضَ الإجادَةِ، وقد طَرِبْتُ لنغماتهما ساعةً ثمّ سئتُهما ولا أدري ماذا أَصنعُ بهما الآنَ، وأحسبُ أنّي لا أستطيعُ احتمالَهُما حتّى مطلعِ الفجرِ. وصمتَ هنيهةً، ثمّ ابتسمَ والتفتَ إليهما وقال لهما: أتعرفانِ منزلَ مونفلوري الممثلِ البطين؟ قالا: نعم، قال: اذهبا إليه وَقِفَا تَحْتَ نافذةِ مخدَعِهِ الذي ينام فيه واضربا لحنًا طويلًا مزعجًا مضطربَ النغماتِ يَذْهَب براحَتِهِ وسكونِهِ ويملأُ صَدْرَه غيظًا وحنقًا، ثمّ عُودَا إليَّ بَعْدَ ذلك.

فانحنى الغلامانِ بينَ يديهِ وانصرَفا، فالتَفَتَ سيرانو إلى روكسان وقال لها: قد جئتُ أسألُ سيّدتي كما أسألُهَا كلّ ليلةٍ ما رأيُها في حبيبها كرستيان؟ ألا تزالُ تَرَاهُ إنسانًا كاملًا خاليًا من العيوبِ والهناتِ[1] حتّى الآن؟ قالت: نعمْ ما في ذلكَ ريبٌ، فلقد جَمَعَ الله بينَ فضيلتي الجمالِ الباهرِ، والذّكاءِ النّادرِ، وقلّما اجتمعا لإنسانٍ سواه، قال: أترينَ أنّه ذكيّ إلى هذا الحَدّ؟ قالتْ: نعم، بل أذكى من كلّ من عرفتُ في حياتي، حتّى أنتَ يا سيرانو، فاغتبطَ سيرانو في نفسَه اغتباطًا عظيمًا ولكنّه تظاهَرَ بالتبرّم[2] والاستياءِ، وهزّ رأسه كالمرتابِ وقالَ: ربّما.

قالت: ولقد بلغَ من الذكاءِ والفطنةِ تلكَ المنزلةَ التي يتكلّمُ فيها المرءُ بأشياءَ غريبةٍ مدهشةٍ يظنّها السامعُ لأوّلِ وهلة أنّها لا شيء، والحقيقةُ أنّها كلُّ شيءٍ، ولقد يضعفُ نورُ ذكائِهِ أحيانًا ويشرُدُ ذهنُه حتّى يُخَيَّلَ إليّ أنّه عييٌّ أو غبيٌّ ولكنّه متى عَادَ إلى نفسِه صاغَ بلباقةٍ ومهارةٍ تلكَ الجواهرَ البديعةَ التي لم أرَ مثلها في حياتي. قال: وهل يُحْسِنُ الكلامَ عن القلب؟ قالت: إنّه لا يقنعُ بالكلام عنه حتّى يُحَلّله تحليلًا دقيقًا، قال: وما رأيُك في كتابَتِهِ؟ قالت: إنّه يكتُبُ أحسنَ ممّا يتكلّمُ، وكأنّ أُسلوبَه الماءُ النّميرُ[3] المترقرقُ على بياضِ الحصباءِ. وما أجملُ كلمتَه التي يقول فيها «خذي من قلبي ما شئتِ فسيبقى لي مِنْهُ ما يكفيني»! ألا ترى أنّه معنًى بديعٌ؟ قال: لا بأسَ به. قالتْ: واسمعْ هذه الجملةَ أيضًا وَقُلْ لي ما رأيك فيها. «إن كانَ لا بُدّ لكِ من أن تحتفظي بقلبي لديكِ فأعيريني قلبَك بدلًا منهُ فإنّني في حاجةٍ إليه لاحتمالِ ما ألاقيه في سبيلِكِ من الآلام والأوجاع» فقال، وهو يكادُ يطيرُ في نفسه فرحًا: إنّه يُناقضُ نفسَه بنفسِه، أحيانًا يغالي وأحيانًا يكونُ غيرَ وفيّ، ولا أدري ماذا يريدُ بقلبه.

فتملمَلَتْ روكسان وقالت: إنّكَ تضايقني كثيرًا يا سيرانو، وما أحسبُك إلّا غيورًا، فانتفضَ سيرانو وخُيِّلَ إليه أنّها قد ألمّتْ بسريرةِ نفسه فظلّ ناظرًا إليها ذاهلًا لا يدري ماذا يقولُ حتّى قالت له: وكذلكَ أنتُمْ معشَر الشّعراءِ لا يطيقُ أحدُكُم أن يسمَعَ كلمةَ ثناءٍ على رفيقِه، فهدأ رُوعُه وعَلِمَ أينَ ذهبَتْ في حديثها ثمّ قالت له: واسمعْ هذه الجملَة أيضًا فهي غاية الغاياتِ في قوّتها ومتانتها «لو كانَ في استطاعتي أن أرسُمَ قبلاتي على صفحاتِ قرطاسي لقرأتِ كتابي

---

(١) الهنات: جمع هنة وهي الخصلة من خصلات الشّرّ.

(٢) التبرّم: التضايق. (٣) الماء النمير: الطيّب العذب.

بشفتيكِ بدلًا من عَيْنَيْكِ» ما رأيكَ في هذه أيضًا؟ هل تستطيع أن تجدَ فيها مأخذًا؟ قال لا أُنْكِرُ أنّها جملةٌ بديعةٌ لولا ركّةٌ في بعضِ أجزائها. فاربَدَّ[1] وجهُهَا وقالتْ له: إنّكَ عنيدٌ يا سيرانو فاسمعْ هذه القطعةَ أيضًا فهي خيرٌ من جميعِ ما مضى. فقاطَعَها وقال لها: وهل بلغَ بكِ الاهتمامُ بأمرِه أن تستظهري كلماتِهِ وتَعِيَهَا في صدرِك؟ قالت: نعم، قال: ما يطمعُ كاتبٌ من الكتّاب في منزلةٍ أعظمَ من هذهِ يا سيّدتي، قالت: إنّه نابغةٌ عظيمٌ ما في ذلكَ ريبٌ، فاحمرّ وجهُه خجلًا كأنّما خُيِّلَ إليه أنّها قد ألمّت بسريرة قلبه، وأنّها إنّما تعنيه بكلامِهَا وقال: إنّكِ تغالينَ يا روكسان.

وإنّهما لكذلكَ إذا أقبلتِ الوصيفةُ مسرعةً وقالت: قد جاءَ الكونتُ دي جيش، فاضطربتْ روكسان وقال لسيرانو: لا أُحبُّ أنْ يراكَ هذا الرجلُ عندي فأنت صَديقُ كرستيان وأخافُ إنْ رآكَ هنا أن يدركَ سرّ غرامي، فيفجعني فيه، فادخلِ المنزلَ ولا تَظهرْ له حتّى ينصرفَ لشأنه، قال: سأفعلُ كلّ ما يرضيكِ يا روكسان. ودخَلَ المنزلَ ودخلتِ الوصيفةُ وبقيّة الخدمِ وراءه.

«دهاء المرأة»

أَقْبلَ الكونت دي جيش، فَرَأَى روكسان واقفةً وحدَها في مكانها، فانحنَى بين يَدَيها وحَيَّاها، وقال لها: قد جئتُكِ اليومَ يا سيِّدتي، مُوَدِّعًا ورُبَّما كان الوداعَ الأخيرَ.

قالت: أمسافِرٌ أنتَ؟ قال: نعم، قد صَدَر الأمْرُ إلى الجيشِ بالسفرْ إلى «أراس» بَعْدَ بضع ساعات لتخليصِها من يَدِ العدوّ، ويظهَرُ لي أنَّ نبأ سفري لم يؤثّرْ عليكِ أقلّ تأثير، قالت: لَا تَظُنَّ ذلكَ يا سيّدي الكونت، قال: أمّا أنا فإنّي حزينٌ لفراقك حزنًا شديدًا ولا أدري ما اللهُ صانعٌ بي بعدَ اليوم هل كَتب لي في لوح مقاديره أن أراكِ مرّةً أخرى، أم هو الفراقُ الدائمُ الذي لا لِقَاءَ من بعده، وأطرقَ برأسِهِ حزينًا مكتئبًا، ثمّ قالَ لها: وهل عملتِ أنّ الملكَ قد عهدَ إليّ أمسِ برئاسةِ أركانِ حرب الجيش؟ قالتْ: ما كنتُ أعلمُ ذلكَ من قبل، وإنّه لَنَجَاحٌ باهرٌ يا سيّدي الكونت فللّه دَرُّكَ، قال: أي أنّني أصبحتُ صاحبَ السُّلطانِ المطلقِ على الجيشِ بأجمعِهِ بعدَ القائدِ العام، في استطاعتي أن أنتقمَ لنفسي في ميدانِ المعركةِ من جميع أعدائي وخصومي خصوصًا ذلكَ الرّجُلِ الوقحِ الجريءِ ابنِ عمِّكِ سيرانو، وأَنْ أُحاسبَهُ حِسَابًا غيرَ يسيرٍ على جرائمِهِ وآثامِهِ. فَذُعِرَتْ روكسان وخفقَ قلبُها خفقًا شديدًا لا خوفًا على سيرانو بلْ على كرستيان لأنّها فهمتْ من كلامِهِ أنّ فرقةَ شبّان الحرسِ ستسافِرُ مع بقيّةِ فِرَقِ الجيش.

فقالت له: أتذهبُ فرقةُ شبّانِ الحرسِ إلى الحربِ؟ قال: نعم كما تسافر جميعُ الفرقِ. فاصفرّ وجهُهَا، وتخاذلَتْ أعضاؤُهَا ومدّتْ يَدَها إلى المقعدِ فاعتمدتْ عليهِ وهي تقولُ بصوتٍ خافتٍ متهافتٍ: آه يا كرستيان! فعجبَ الكونتُ لأمرِهَا وسألها ما بالُهَا؟ قالت: إنّ هذا السفرَ

---

(١) اربدّ الوجه: تحوّل إلى لون أغبر.

يُحْزِنُني جدًّا خصوصًا عندما أتصوَّرُ أنّ الشخصَ الذي يهمّني أمرُه أكثرَ من كُلّ إنسانٍ في العالم، يخوضُ تلك المعامِع المهلكة التي يرفرفُ عليها طائرُ الموتِ، ولا أعلمُ هلْ أراهُ بعدَ اليوم أمْ هذا آخرُ العهدِ به.

فَافترّ[1] ثغره وتهلّل وجهُه بِشْرًا وحُبورًا وخُيِّلَ إليه أنّها إنّما تعنيه بكلامِها وأنّهُ هو الشخصُ الذي يَشغَلُها ويعنِيها والذي تخشى عليه أنْ تُلمَّ به تلكَ الكارثةُ العظمى، فقال لها: ما كنتُ أعلمُ يا روكسان قبلَ اليوم أنّكِ تضمرينَ لي في نفسِكِ هذا الحبَّ كلَّهُ.

فصمتَتْ لحظةً ثمّ التفتَتْ إليه وقالت: وهلْ أنتَ مصمّمٌ على الانتقام من سيرانو؟ قال: نعمْ إلا إذا كنتِ تكرهينَ ذلكَ، قالتْ لا، بل لا أريدُ غيرَ ذلك، قال: هذا ما اعتقِدُهُ، ثمّ قال: ألا يزالُ هذا الرّجلُ يختلفُ إلى منزلِكِ حتّى اليوم؟ قالت: لا، إنّه لا يزورونني إلا نادرًا جدًّا، وليتَهُ لا يفعلُ، ولولا صِلَةُ القربى التي بيني وبينه ما أذنتُهُ بزيارتي. قال: قد حدّثوني عنه أنّه منصرفٌ في هذه الأيّام إلى مرافقَةِ جنديٍّ نبيلٍ من جنودِ الحرسِ الطّارئينَ، ويقولون إنّه لا يكادُ يفارقُهُ ليلَهُ ولا نَهارَهُ، قالت: ومَنْ هو هذا الجنديّ النبيل؟ قال: قد نسيتُ اسمَهُ الآنَ، وهو كما وصفوه لي فتًى طويلُ القامةِ مشرقُ الوَجْهِ أصفرُ الشَّعْرِ تلوحُ على محيّاهُ مخائلُ[2] العزّ والنعمةِ، وتلمعُ في صفحةِ وجهِهِ بارقةٌ خفيفةٌ من الجمالِ ولكنّه عييٌّ بليدٌ، ولا أفهمُ حتّى الآن ما هي الصلةُ التي بينَهما.

فصمتَتْ روكسان صمتًا طويلًا ذهبتْ نفسُها فيه كلّ مذهبٍ، ثمّ التفتتْ إليه بغتةً وقالتْ له وهي تبتسمُ ابتسامةً غريبةً لا يفهمُ معناها إلّا مَنْ فَهِمَ سريرةَ المرأةِ واضطلعَ بغرائزِها وسجاياها: أتظنُّ يا سيّدي الكونت أنّكَ تكونُ قد انتقمتَ لنفسِكَ منه إذا عرّضته لنارِ الحربِ التي يحبّها ويعبُدُها ولا يقترحُ على دهره شيئًا سوى أن يصطليَ بها ويخوضَ غمارَها؟ هذه هي المرّةُ الأولى التي رأيتُكَ فيها تنظرُ في أمرٍ من الأمور نظرَ الغَرارةِ[3] والسذاجة، قال: آه لقد فاتني أنْ أنتبِهَ إلى ذلكَ فما العملُ؟

قالت: عاقِبْهُ بحرمانِهِ من أمنيتِهِ التي يتمنّاها، فذلكَ أقتلُ له من القتلِ وأنكى له من الموتِ، فليُسَافرِ الجيشُ بأجمعِهِ وليتخلّفْ هو وحده بل لتتخلفْ معه فرقتُهُ جميعها، فإنّها كما علمتُ مؤلّفةٌ من أشرارٍ متمردينَ يذهبونَ مذهَبَهُ في أخلاقِهِ وطباعِهِ ويساعدونَهُ في كلّ جرائمِهِ وآثامِهِ، ولتكنْ حجتُّكَ في ذلكَ إنْ شئتَ، أنّ باريسَ في حاجةٍ إلى فرقةٍ من الجيشِ تتخلّفُ فيها للدّفاع عنها وقتَ الحاجةِ، وأنّكَ قد اخترتَ لها هذه الفرقةَ للدّفاع عنها، وهكذا يموتُ الرّجُلُ همًّا وكَمَدًا وتتمزّقُ أحشاؤه غيظًا وحنقًا، ويغربُ نَجْمُ شهرتِهِ غروبًا لا طلوعَ له من بَعْدِهِ، فيصبحَ بطلَ الطّرُقِ والشوارعِ، لا بطلَ الحروبِ والمعامع.

---

(١) افترّ: تبسّم، ضحَك ضحكًا حسنًا.

(٢) مخائل: من الفعل خال بمعنى ظنّ، مفردها مَخِيلة.

(٣) الغرارة: حداثة السنّ.

فابتهج الكونتُ ولمعتْ أساريرُ وجههِ ووضَعَ يدَهُ على كتِفَها وقال لها: لله درُّكِ يا سيّدتي! لقد صَدَقَ من قال: «لا يحسِنُ الانتقامَ من الرجلِ مثلُ المرأةِ».

ثمّ حَنَا عليها وقال: إذنْ أنتِ تحبّينني يا روكسان، فنظرتْ إليهِ نظرةً باسمةً متلألئةً وأطرقَتْ برأسِهَا ولم تَقُلْ شيئًا، ففسَّرَ ابتسامتَها التفسيرَ الذي أرادَه. وابتسامةُ المرأةِ لفظٌ مُشْتَرَكٌ يحتملُ جميعَ المعاني وضروبِها من الحبّ القاتلِ إلى البُغْضِ العميقِ. ثمّ قال لها: ذلكَ ما كنتُ أقدّرُهُ يا روكسان، مُذْ عرفتُكِ حتّى اليومَ فَلَمْ يُخْطِئ ظنّي.

ثمّ أخرجَ من جيبه كتبًا مغلّفةً معنونَةً بعناوينِ فرقِ الجيشِ فأمَرَّ نَظَرَهُ عليها إمرارًا حتّى عَثَرَ بكتابِ فرقةِ شبّانِ الحرسِ ففصَلَهُ عن بقيّةِ الكتبِ ووضعَهُ في صدرِه وهو يقولُ: ما أشدَّ دهاءَك يا روكسان! وما أوسَعَ حيلتَكِ! نعم إنّ مزاجَ الرجلِ مِزَاجٌ حربيٌّ متوقّدٌ، فلا يقتُلُهُ ولا يفتُّ في عَضُدِه ولا يُلصِقُ أنفه بالرَغام[1] غيرُ حِرْمَانِهِ من ميدانِ الحربِ وتَرْكِهِ في شوارعِ باريسَ يتسكّعُ فيها تسكُّعَ العاطلينَ المتبلّدينَ. ثمّ نظرَ إليها باسمًا وقال لها: أهذا شأنُكِ دائمًا يا روكسان، أن تكيدي للنّاسِ أمثالَ هذه المكائد: فابتسمتْ وقالت لا، بل لا أفعل ذلك إلّا عند الضرورة.

فأطرقَ برأسِه وصمتَ صمتًا طويلًا وقد أخذتْ شفتاه تختلجانِ وترتجفانِ كأنّما تحدّثُهُ نفسُه بشيءٍ يحاولُ أن يقولَهُ لها فلا يستطيعُهُ. ثمّ تشجّع وقال: بقيتْ لي كلمةٌ أُحِبُّ أن أقولَها لكِ يا سيّدتي، فهل تسمحينَ لي بها؟ قالتْ: قُلْ ما تشاءُ فأنا مصغيةٌ إليك، قال: إنّني أحببتُكِ يا روكسان من عهدٍ بعيدٍ كما تعلمينَ، وكانَ كلُّ أملي في حياتي أنْ أعيشَ بجانبِكِ عيشَ القانعِ بكِ عنْ جميع مُتَعِ الحياةِ ولذائذِهَا فحالتْ بيني وبينَكِ الحوائلُ[2] التي تعلمينها، وقد كنتُ أظنُّ أنّني سَلَوْتُكِ وغَنيتُ عنكِ بغيرِكِ ونَفَضْتُ يدي أبدَ الدهرِ منكِ، ثمّ ما لبثْتُ أن علمتُ أنّني وَاهِمٌ فيما ظَنَنْتُ وأنّ ذلكَ الداءَ القديمَ لا يزالُ كامنًا بينَ أحناءِ ضلوعي[3] فسمُجَ[4] في نظري وجهُ الحياةِ ومرَّ في فمي مذاقُها، وأصبحتُ حائرًا قَلِقًا، لا يهدأُ لي رُوْعٌ ولا يستقرّ بي مضجعٌ ولا أدري حين أراكِ وأرى إبتساماتِكِ اللامعة المضيئةَ ونظراتِكِ العذبةَ الجميلة، هلْ تُضْمِرينَ لي في قلبِكِ من الحبّ مثلَ ما أضمرُ، أو أنّها المصانعةُ والمجاملة ومجازاةُ الودّ بالودّ والرّجاءُ بالتأميلِ.

وما زالَ هذا الشكُّ يساورني ليلي ونهاري، حتّى رأيتُ الآنَ بعيني تِلكَ الرجفةَ الشديدةَ التي سَرَتْ في أعضائِكِ عندَما أنبأْتُكِ نَبَأَ سَفَري فعلمتُ أنّكِ تحبّينني، وما كَشفَ أسرارَ الحُبِّ ولا هَتَكَ السِّتْرَ عن مخابِئِهِ ومكامِنِهِ مثلُ مواقِفِ الوداع.

وها أنذا الآنَ على وشكِ السّفرِ ولا أعلمُ هلْ هو فراقٌ وشيكٌ أم هو السفرُ الدائمُ الذي لا رجعةَ من بعده، فأسألُكِ أن تزوّديني بقليلٍ من الزادِ أستعينُ به على مشقّة السفرِ ووحشةِ الطريقِ، حتّى إذا دَنَتِ الساعةُ الأخيرةُ تَمثّلْتُ صورتَه في ذهني فهانتْ عليَّ آلامُ الموتِ، فإن

---

(١) الرغام: التراب.
(٢) الحوائل: الموانع.
(٣) أحناء ضلوعها: ما اعوجّ منها.
(٤) سمُج: قبُح.

سمحتِ به فائذني لي أن أتخلّفَ الليلةَ عن السّفرِ مع الجيشِ على أن لا تَطلُعَ شمسُ الغَدِ حتّى أكونَ قد امتطيتُ جوادي ولحقتُ به في المكان الذي وصَلَ إليه.

فارتجفتْ روكسانُ وقالتْ: ماذا يقولُ النّاسُ إذا رأوا رئيسَ أركانِ حربِ الجيش، قد تخلّفَ عن جيشِهِ وبقي في باريس لغرضٍ من أغراضِه الغراميّةِ؟

قال: ذلك مَا لم يَفُتْنِي النّظرُ فيه والحِيطةُ له، يوجدُ بالقرب من هذا المكانِ دَيْرٌ في شارع أورليان، أسّسَهُ رئيسُ الكاپوشان الأب «أتاناس» وله قانونٌ غريبٌ يقضي بأن لا يطأَ أرضَه أحدٌ من الناسِ سوى رهبانه وقساوسته، وأنا وإنْ لم أكنْ راهبًا ولا قسيسًا ولكنّني صهرُ الكردينال ريشيلييه رئيسِ الكهنوت الأعظم، ولا شكّ أنّ الذين يخافونَه ويخشونَ صولَتَهُ لا يستطيعونَ أن يرفضوا نزولي بديرهِمْ بضعَ ساعاتٍ، بل ليسَ في استطاعتهم إنْ أردتُ أن يمتنعوا عن أن يخبّئوني تَحْت قلانسهِمْ أو ثنايا طيالِسِهِمْ أو في فروجِ أكمامهم لأنّها واسعةٌ جدًا لا تضيقُ بمثلي، وها أنذا ذاهبٌ الآنَ إلى ذلكَ الدير المقدّسِ لِأَكْمُنَ فيه بضعَ ساعاتٍ حتّى إذا انتصفَ الليلُ لبستُ قناعي وجئتُكِ متنكّرًا في جنحِ الظلامِ فلا يشعرُ أحدٌ بمقدَمي ولا منصرَفي.

فاستُطيرَ عَقْلُ روكسان وجُنَّ جُنُونها ودَهَمَها من الأمرِ ما لا تعرفُ وَجْهَ الحيلةِ فيه ولا طريقَ المخرجِ منه، ثمّ ما لبثتْ أن رجعتْ إلى نفسها وملكتْ زِمَامَ عواطفها وقالتْ له بهدوء وسكون: إنّ مجدَكَ وعظمَتَك يا مولاي، يأبيانِ عليك ذلكَ الإباءَ كلّه، وَلَئِنِ استطعتَ أن تُكاتِمَ الناسَ أمرَك فإنّك لا تستطيعُ أن تكاتِمَهُ نفسَكَ أو تخادِعَ فيه ضميرَك.

إنّ فرنسا تطالبك بطَرْدِ العدوّ عَنْ أرضها واستنقاذِها من يده القاهرة المسيطرة، فليكُنْ هذا هو كُلَّ ما تفكّرُ فيه؛ ولا يَشْغَلْكَ عنه شاغل من شهواتِ نفسِك ولذائذها، ولا تسمحْ لأحدٍ من الناسِ أن يتحدّثَ عنك، لا بلْ لا تسمحْ لنفسِكَ أن تحاسِبَكَ على ليلةٍ قضيتَها لاهيًا ناعمًا في بيت امرأة تحبّها و«أراسُ» باكيةٌ حزينةٌ، تضطربُ بين يدي قاهرها اضطرابَ الحمامةِ الوديعةِ في مخالبِ الصقرِ الجارح، وتصرخُ صرخاتٍ مؤلماتٍ أنتَ أولى يا مولاي، من يَسمعُها ويضطربُ شعورُه لها.

سرْ يا سيّدي، على رأسِ جيشِك، وكُنْ نجمَهُ الذي يهتدي به في ظلماته، ومَلْجَأه الذي يأوي إليه في شدّته، واعلمْ أنّكَ لَنْ تستطيعَ أن تنزلَ منزلةَ الحبّ والكرامةِ في نفوس الذين يحبّونَك إلّا إذا كانتْ فرنسا أحبَّ إليكَ منهم، بل من نفسِك التي بين جنبيك.

فاستخذَى[1] لكلماتِهَا وتَضعضَع وقال لها: إذن أنتِ تحبّينني يا روكسان؟ قال: كيفَ لا أحبُّ من صميم فؤادي مَنْ خَفَقَ قلبي خفقةَ الحُزنِ والألم جزعًا لفراقِهِ وإشفاقًا على حياته! فصاح: واطرباهُ! وافرحَتاهُ! سأنزلُ على حكمِكِ في كلّ ما تريدين وسأسافرُ الساعةَ طوعًا لأمرِكِ فاذكريني دائمًا ولا تنسيني، قالت: لا أستطيعُ أن أنساكَ قطّ، فتناولَ يدها وقبّلها وانحنى بين يديها وانصرف.

---

(١) استخذى: ذلّ وخضع.

وكانتْ روچينا وصيفةُ روكسان مختبئةً وراءَ ساريةِ الشُّرْفَةِ تسمعُ حديثهما وتفهمُ مغزاه، فما أبعدَ الكونتُ إلّا قليلًا حتّى برزتْ من مَخْبَئِها وهي تُغْرِبُ في الضحكِ وتقول: ما أَشدّ حُزني لحزنِكِ يا سيّدتي! فضحكتْ روكسان وقالت لها: اكتمي كلّ شيءٍ عن سيرانو فإنّه لا يغتفرُ لي أبدَ الدهرِ حرماني إيّاه من الحرب. فوارحمتاه له! ثمّ هتفتْ به فخرج من المنزل وهو يقول: ما أكثر الذي يحبونك يا روكسان! قالت: نعم ولكنّني لا أحبّ إلّا واحدًا منهم، ثمّ قالتْ له: قد دُعيتُ الليلةَ إلى هذا المنزلِ وأشارتْ إلى منزلِ كلومير المقابلِ لسماعِ المحاضرةِ التي يُلقيها «ألكاندر» عن الحب[1]، فائذنْ لي بالذهابِ وابقَ أنتَ هنا، فإذا جاء كرستيان فَقُلْ له ينتظرني حتّى أعودَ، قال: سأفعلُ إنْ شاء الله، ولكنّكِ لم تخبريني كعادتِكِ في أي موضوعٍ من مواضيعِ الحبّ تحبينَ أن يتحدّث كرستيانُ الليلةَ إليك؟ قالت: لقد كان حديثنا بالأمسِ عن «موقفِ الوداعِ» فليكنْ حديثُنا الليلةَ عن «النظرة الأولى» لا بَلْ عنِ «الغيرة» لا بل عن «الأملِ الضائع» لا بل اتركْهُ على سجيّته لا تحدّدْ له موضوعًا خاصًّا حتّى لا يستعدَّ، فإنّني أريدُ أن أختبرَ بديهَتَهُ كما اختبرتُ رويّته من قبل، فقلْ له يحدثني عن «الحبّ» وكفى، ثمّ حيته وانصرفتْ وتبعتها وصيفتها.

وكان كرستيان مقبلًا في تلكَ اللحظةِ فسمَع آخرَ كلماتها فقالَ: ما الرأي يا سيرانو؟ قال: عُدْ بنا إلى المنزلِ لمذاكرةِ الدرسِ الجديدِ وما هي إلّا ساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ حتّى نكونَ قد فَرَغْنَا وَعُدْنا قبلَ عودتها. فصمتَ كرستيان هنيهةً ثمّ رفعَ رأسه وقال: لا، لا أريدُ الليلةَ دروسًا ولا مذاكرةً فإنّي أذوبُ شوقًا لرؤيتها، قال: ولكنّكَ لا تعرفُ كيفَ تحادِثُها، قال: دعني وشأني قد شَبَبْتُ عن الطوقِ[2] وتجاوزتُ تلك السنّ التي يعجزُ فيها المرءُ عن أن ينطقَ إلّا بما

---

(١) كان من شأن الكثير من النساء المتعلمات الشريفات في فرنسا في أوائل القرن السابع عشر أن يعقدن في منازلهن مجالس عامة أدبيّة تجري فيها المذاكرات العلمية والفنية وتلقى فيها المحاضرات. وكانت تلك المجالس أو «الصالونات» كما كانوا يسمونها تضم بين حواشيها رجال الفضل والأدب ومشاهير الشعراء والكتّاب من عظماء فرنسا. وكانت المحادثات التي تدور فيها تغلب عليها صفة التحذلق والتأنّق والتظرّف وهو أمر طبيعي في كل مجتمع يجمع بين الرجال والنساء فنشأت مع الأيام بين هؤلاء النساء لغة خاصة في الأحاديث منشؤها رغبة المتكلمات أو الكاتبات في إيجاد عبارات لبقة ظريفة تلفت النظر إلى المعاني التي يردن التعبير عنها أو بعبارة أخرى تلفت الرجال إلى جمالهن ورقتهن. ثم ما زلن يغرقن في ذلك حتّى أصبحت تلك اللغة موضع سخرية الأدباء والناقدين خصوصًا عندما جاء دور الانحطاط الأخلاقي وانتشار الفوضى في الهيئات الاجتماعية وتقليد نساء الطبقات الدنيا نساء الطبقات العليا في شمائلهن وأساليبهن وزعمهن أن لهن الحق في الإشراف على الأدبيات في فرنسا ونقدها وتمحيصها. تلك الطائفة من النساء هي التي يصورها أو ينتقدها «إدمون روستان» في هذه الرواية كما انتقدها من قبله كثيرون من الكتّاب والروائيين كموليير وبوالو. ومع أن تلك اللغة قد زالت وانقرضت ومرّت عليها القرون فلا يزال باقيًا منها حتى اليوم بعض آثارها مثل «سميك الذكاء» و«ظلمة النفس» و«قسوة الكلمات» و«الدستور المتواضع» وأمثال ذلك من الكلمات الطائرة في جو الخيال والسابحة في بحر اللانهاية.

(٢) شبّ عن الطوق: كبر ونما.

يلقّنه إيّاهُ أبواه وأظآره[1]، قال: إنّك تخاطرُ بنفسِكَ مخاطرةً عُظْمَى، قال: فليكنْ ما أرادَ الله، فقد استحييتُ من نفسي لكثرةِ ما مثّلْتُ من هذا الدور الشائنِ المعيب دَوْرِ الآلة الموسيقية التي يُوقّع عليها ضَارِبُها فتنبعثُ منها نَغماتُها المطربةُ دون أن تشعرَ بنفسِهَا وبما ينبعثُ منها، على أنني قد استفدتُ من دروسِكَ الماضيةِ ما يسمحُ لي بمحادثتها ومذاكَرَتها والإفاضَةِ معها في كلّ شأنٍ من الشؤونِ التي أريدها، وما أنا بِغَبِيٍّ إلى الدرجةِ التي تتصوّرُهَا فسأكلّمها بنفسي وسأشرحُ لها جميعَ عواطفي التي تختلجُ في صدري، وما أحسَبُها تطالبني بأكثرَ من ذلك.

قال: وهلْ أنتَ على ثقةٍ من نفسِك؟ قال: كيفما كانَ الأمرُ فقدْ تجاوَزَتِ الصّلَةُ التي بيني وبينها حَدَّ الذرائعِ والوسائلِ إلى الحبّ الخالصِ المتينِ الذي تُغْتَفَرُ معه الهفواتُ، وتستحيلُ فيه السيّئاتُ إلى حسناتٍ، ولَئِنْ عجزتُ عن أن أُحدِّثَها بلساني فسأحدّثُها بلسانِ القُبلاتِ واللثماتِ.

وهنا سُمِع صوتُ روكسان وهي خارجةٌ من منزلِ «كلومير» في جمعٍ عظيمٍ من النّساءِ، فقال سيرانو لكرستيان: قد فاتَ الأوانُ فائذنْ لي بالذهابِ، فَذُعِر كرستيان واستطيرَ عقلُهُ وقال: بلِ ابقَ معي يا صديقي، قال: لا، فقد أصبحتَ غنيًّا بنفسِك عنّي، وتركه وانصرف.

ولكنّه لم يبعدْ إلّا قليلًا حتى عادَ متسلّلًا من حيثُ لا يشعرُ به أحدٌ واختبأ وراءَ حائطِ الحديقةِ يتسمّع حديثَهُما.

«الشُرْفَة»

قالت روكسان لكرستيان وقد جلسَا معاً على المقعدِ الرّخاميّ في وسَطِ السّاحةِ: لم أُدْرِك من المحاضرةِ الغراميّة التي أُلقيتْ في منزلِ «كلومير» إلّا ختامَهَا، فلمْ أستفدْ منها شيئًا، فحدثني أنتَ عن الحبّ وأطلقْ لنفسِكَ العَنَانَ فيه ما شئتَ، وها هو الليلُ قد أظلّنا بسكونِه وهدوئه وها هي باريسُ قد آوت جميعُها إلى مضجعها، فَتَحَدَّثْ، فإنّي مصغيةٌ إليك، فارتجفَ كرستيان ارتجافَ الطالبِ الضّعيفِ في موقفِ الامتحانِ، ولكنّه لم يرَ له بدًّا من أن يتكلّم، فانثنى إليها وقال لها: أحبّكِ يا روكسان، وصمتَ، فقالتْ له: وأنا أحبّكَ أيضاً يا كرستيان. ثمّ ماذا؟ فلم يُفْتَحْ عليهِ بكلمةٍ أخرى فعادَ إلى نغمته الأولى وقال لها: أحبّكِ يا روكسان حباً جمًّا. وسكت، فقالت له: هذا هو النسيجُ فَوَشّه[2] وطرِّزْه، فازدادَ ارتباكُهُ واضطرابُهُ وقال: آه ما أشدَّ حبّي لكِ يا روكسان، قالتْ: ما شَكَكْتُ في ذلك قَطّ ولكنّي أريدُ أن تقولَ لي كيفَ تحبّني؟ قال: أحبّك حبًّا ما أَحبَّهُ أحدٌ من قبلي أحداً.

قالت: صوِّر لي عواطِفَك وشعورَك، قال: ليتكِ تُضْمِرينَ لي في قلبكِ من الحبّ مثلَ ما أُضمرُ لك، قالت: إنّك تقدّم ليْ مَن اللبنِ مَخيضَه وأنا لا أريدُ إلا زُبدته، قلْ لي كيف تحبّني؟ قال: أحبّكِ حبًّا يعجزُ لساني عن التعبيرِ عنه لأنّه فوقَ طاقتي، قالت: ولكنّني أريدُ أن تعبّر لي عنه وأن تلمسَ بيدِكَ أوتارَ قلبي وتملكَ عليَّ عواطفي وشعوري.

---

(١) جمع ظئر وهي المرضع.

(٢) وشّه: الأمر من الفعل وشّى بمعنى زيّن وزخرف.

قال: آه لو استطعتُ أن ألثمَ جِيدَكِ الفضّيَّ الجميلَ، فجزعتْ وانحرفتْ عنه قليلًا وقالت: كرستيان! إنّكَ قد جننتَ، قال: ما أشوقني إلى لثمةٍ من فيكِ أبرِّدُ بها غليلي، فنهضتْ قائمة وقالت: إنك تضايقني الليلةَ كثيرًا يا سيّدي. وأرادتِ الذهابَ فأمسك بثوبَها وقال عفوًا يا روكسان، فإنّ ذنبي عظيمٌ، وما زال يضرع عليها بنظراته المنكسرةِ حتّى هدأتْ وجلستْ، فقال لها: آه لو تعلمين كم أحبّك! قالت: أهذا كلّ ما عندك: وأرادتِ النهوضَ مرّةً أخرى، فأمسكَ بيدِهَا وقد طارَ صوابه والتاثَ عليه[١] أمرُه وظلّ يقول لها، لا، لا تَغْضَبي يا روكسان، فإنّني لا أحبّكِ، فضحكتْ وقالت له: ذلكَ خيرٌ لي، فانتبهَ إلى هفوتِهِ وقال: لا تصدّقي ما قلتُ لكِ فإنّي أردتُ أن أقولَ لكِ إنني لا أحبّكِ فقط بل أعبدُكِ وأدينُ بك، فتململتْ وقالت: لقد ضاقَ صدري.

قال: أعترف لكِ بأنّي قد أصبحتُ بليدًا لا أفهم شيئًا، قالتْ: ذلك ما يحزنني كثيرًا، فالبلادَةُ عندي والدمامةُ سواءٌ، فاذهبِ الآن واجمعْ شَتاتَ ذهنِكَ ثمّ عُدْ إليّ الليلة الآتية، ونهضتْ قائمةً فتشبّثَ بها وقال: انتظري قليلًا فإنّني سأقولُ لكِ شيئًا جميلًا، انتظري يا روكسان فإنّني أريد أن أقولَ لك... فقاطعته وقالت: تريدُ أن تقولَ لي إنّكَ تحبني وتعبدُني وتموتُ وجدًا بي، فلقد عرفتُ ذلكَ كُلَّه ولا أريدُ أنْ أسمَعَ منه شيئًا، فاذهبْ لشأنِكَ فقد ضقتُ بكَ ذرعًا.

ثمّ تركَتْهُ ودخلت المنزلَ. فجُنَّ جُنونُه وظَلَّ واقفًا مكانه يتحرّقُ ويتغيّظُ ويقول: آه! ذلكَ ما كنتُ أخافُهُ. أينَ أنتَ يا سيرانو؟ فما أتمّ كلمتَهُ حتّى رأى سيرانو مقبلًا عليه، يبتسمُ ابتسامةَ المتهكّمِ ويقول له: أهنئُكَ بالنجاحِ العظيمِ الذي أحْرَزْتَهُ يا كرستيَان، فانتفَضَ وقال: أنتَ هنا؟ ثمّ ترامى بينَ ذراعيهِ وقال: الرحمةَ يا صديقي، فإنّي أكادَ أموتُ غمًّا. قال: وما الحيلةُ بعد الذي كان، لقد انقضى كلّ شيءٍ فلا سبيلَ إلى الرجوع، قال: إنْ لم تَر لي الساعةَ رأيًا قتلتُ نفسي، إنّني لا أستطيعُ أنْ أنصرفَ من هنا وهي واجدةٌ[٢] عَلَيَّ، فارحمْني واتّخذْهَا عندي يدًا[٣] لا أنساهَا لكَ مدى الدهر.

فصمتَ سيرانو وهو يعالجُ في نفسِه ألمًا مُمِضًا لا تَستشفُّ مكانَهُ من أعماقِ قلبهِ غيرُ عينٍ واحدةٍ هي عينُ الله تعالى، ثمّ قالَ له: ها هو الظلامُ حَالِكٌ لا يلمعُ فيهِ نجمٌ، وها هي الطريقُ مقفرةٌ لا يطرقُهَا طارقٌ، فاستمِعْ لما أُلقي عليكَ، فاستطيرَ كرستيان فرحًا وتناولَ يدَه فقبّلها وقالَ: آه يا سيّدي، يُخيّلُ إليّ أنّكَ قد رأيتَ لي رأيًا، قال: نعم، إن ائتمرتَ بما آمركَ به. قال: ما عصيتُ لكَ أمرًا قبلَ اليوم، قال: قِفْ هُنا أمامَ الشرفةِ وسأقفُ أنا من تحتِها على قَيْد خطوةٍ منكَ من حيثُ تراكَ روكسان ولا تراني ثمَّ نادِهَا، فإذا أشرفتْ عليكَ فسألقِّنُكَ همسًا ما يجبُ أن تقوله لها.

وإنّهما لكذلكَ إذ أقبلَ الغلامانِ الموسيقيّانِ اللذانِ كانَ أرسلهُما سيرانو لإزعاجِ مونفلوري

---

(١) التاث عليه الأمر: اختلط والتبس. (٢) واجدة: من الوجد بمعنى الغضب.

(٣) اليد: هنا بمعنى الإحسان.

في مرقدِهِ، فقال لهما: أفعلتما ما أمرتُكما به؟ قالا: نعم، ما زلنا نضربُ اللحنَ المضطربَ المشوّشَ زمنًا طويلًا حتّى طاشَ عقلُهُ وجُنّ جنونُهُ فَأطَلّ من النافذةِ وظلّ يشتمُنَا ويسبُّنا ويستعدي رجالَ الشرطةِ علينا حتّى انصرفنا. قال: أحسنتما فارجِعَا الآنَ وقِفا على رأسِ هذا الشارعِ وليكُنْ كُلٌّ منكما وراءَ ساريةٍ[1] من سواريه وارقبا الطريقَ فإذا رأيتما سوادًا مُقبلًا فاضربا لحنًا قصيرًا، فقالا له: أيَّ نوعٍ من الألحان تريدُ أن نضرب؟ قال: اضربا لحنًا محزنًا إن كان القادمُ رجلًا، ومفرحًا إنْ كان امرأةً.

فعادَ الغلامانِ أدراجَهُما. ووقفا حيثُ أمرهما، ودفعَ سيرانو كرستيان وأقامَه أمامَ الشرفةِ ووقفَ هو من تحتِها على مقربةٍ منهُ وقال له: نادِهَا واخفضْ صوتَكَ ما استطعتَ. فاتّجه كرستيان إلى النافذةِ ونادى: روكسان! روكسان! فما لبثَتْ أن فتحتِ البابَ الموصلَ إلى الشرفةِ وخرجتْ إليها وقالتْ: من يناديني؟ قال: أنا، قالت: ومن «أنا»؟ قال: كرستيان، قالت: ماذا تريد؟ قال: أريد أن أكلّمك، قالت: ذلكَ مستحيلٌ لأنّكَ لا تحسنُ الكلامَ، قال: أضرعُ إليكِ، قالت: إنّكَ لا تحبّني، ولو كانَ في قلبكَ ذرّةٌ واحدة من الحبّ لأحسنتَ الكلام فيه، قال «وسيرانو يلقنه»: يالله! إنها تتّهمني بأنني قد سَلَوْتُها في الساعةِ التي أتجرّعُ فيها كأسَ الموتِ وجدًا بها، وكانتْ قد همّت بالدخولِ فاستوقفتْها هذه الكلمةُ وقالتْ: وكيفَ تحبّني؟ قال: قد اتّخذَ طِفْلُ الحُبِّ من نفسي الجائشَةِ المضطربةِ أُرجوحةً ليّنةً يلهو فيها ويلعبُ وينمو ويترعرَعُ حتّى إذا شبّ وأيفَعَ[2]، وبلغَ أشُدَّهُ عَقَّها وغَدَرَ بها وجازاها شرّ الجزاءِ على صنيعِهَا وقَسَا عليها القسوةَ التي يقسوها الطفلُ على عصفورِهِ الضعيفِ المسكين.

فأصغَتْ إليه وشعرتْ أنّ في حديثه روحًا جديدةً لم تكن فيه من قبل فقالت له: ولِمْ لَمْ تخنقْهُ في مهده قبلَ أن يَشُبَّ ويترعرعَ؟ قال: ما كنتُ أستطيعُ ذلكَ لأنّه وُلد جبّارًا قويًّا متنمّرًا حتّى إنّه استطاعَ وهو لا يزالُ يلعبُ في أرجوحَتِه أن يصارعَ شيطانَ الكبرياءِ فيَّ حتّى صرعَه وألقاهُ جُثّةً هامدةَ بين يديه، فاتكأتْ روكسان على حافّةِ شُرْفتها وقد أطرَبَتْهَا هذه النغمةُ الجديدةُ وقالت: ما أشدَّ سوادَ هذا الظلام، إنّني لا أتبيّنُ موقِفَكَ جيدًا يا كرستيان، ولكنّني أشعرُ أنّ كلامَك ينيرُ لي مكانَكَ فتكلمْ فإنّكَ تطربني كثيرًا، ولكن ما لي أرى نغمةَ حديثِكَ تصدُرُ عنكَ متقطّعةً كأنّما قد أُصِبْتَ بالنِّقرس[3] في مخيّلتكَ، وكان عهدي بكَ قبلَ الآنَ طَلْقَ اللسانِ متدفّقًا كالسيلِ المنهمر.

فذُعر سيرانو وخافَ أن ينكشفَ الأمرُ، فجذبَ كرستيانَ إلى ما تحتِ الشرفةِ ووقفَ هو في مكانِهِ وانثنى إليه وأسرّ في أذنه: قد أصبحَ الموقفُ حرجًا جدًّا فاصمُتْ أنتَ وسأتكلّمُ أنا عنكَ بصوتٍ يشبهُ صوتَك، ثم أنشأ يجيبُ روكسان على سؤالها مقلّدًا صوتَ كرستيان ويقول: ذلكَ

---

(١) السارية: هنا المكان المرتفع وأصله العمود الذي ينصب في وسط السفينة.

(٢) أيفع: أصبح يافعًا أي بالغًا.

(٣) النقرس: مرض مؤلم يصيب المفاصل.

لأنّ كلماتي تتخبّط في هذا الظلام الحالكِ أثناءَ صعودِهَا باحثةً عن أذُنكِ الصغيرة جدًا فلا يستقيمُ مسيرُها، قالت: ولم لا تضطرب كلماتي في هبوطها اضطرابَ كلماتِكَ في عروجها[1]، قال: لأنّها تنحدر إلى قلبي مباشرةً، وقلبي رَحْبٌ واسعٌ فلا تَضلّ طريقَها، على أنّ كلماتي صاعدةٌ وكلماتُكِ منحدرةٌ والنزولُ أسهلُ من الصعود، قالت: ما أبدعَ هذا المعنى: ويخيّلُ إليّ الآن أنّ كلماتِكَ قد انتظمَ مسيرُها فإنّها تصلُ إلى أذني بأسرَع مِنْ ذي قبل. قال: ذلك لأنّها ألفَتْ هذه الحركة وحذقَتها[2].

فصمتت لحظةً ثمّ دارتْ بعينيها في الفضاء وقالت: حقيقةً إنّني أتكلّمُ من علوٍّ شاهقٍ، قال: إذنْ فاحترسي، فإنّ كلمةً واحدةً قاسيةً تلقينها عليّ من موقفِكِ هذا كافيةٌ لقتلي، فاستَضحكتْ وقالت: لا تخفْ يا كرستيان فإنّي آتية إليكَ لأحدّثك وجهًا لوجه، قال: لا تفعلي، بل ابقي في مكانِكِ، قالت: لماذا؟ قال: لأنّ هذا الموقفَ جميلٌ جدًا يعجبني ويطربني، فلنتحدّثْ كما نحنُ كأنّنا روحانِ هائمتان في أجوازِ الفضاءِ تفتّشُ كُلّ منهما عن صاحَبتِهَا فلا تكادُ تعثرُ بها. دعينا نتحدّث كما نحنُ وبيننا هذا الموجُ المتلاطمُ من الدُّجنّةِ[3] الحالكةِ، لا ترينَ مني إلّا سوادَ معطفي المسبلِ عليّ ولا أرى منكِ إلّا بياضَ ثوبكِ الصيفيّ الجميل، فأنتِ تمثّلين الكوكبَ الساطعَ في سمائه، وأنا أمثّلُ الظلامَ المخيِّم على سطح الغبراء.

إنّ لهذا الموقفِ الشعريّ الجميلِ في هذه الساعةِ الساكنةِ من الليلِ أعظمَ الفضلِ في صفاءِ ذهني وانتعاشِ نفسي ويقظةِ قلبي وانطلاقِ لساني من حبسته وجموده، فكوني كما أنتِ، ولأكُنْ كما أنا، لا تشعرين منّي بغيرِ خفقانِ قلبي، ولا أشعرُ منكِ بغير أشعّةِ جمالك، أُناجيك كأنّني أناجي اللهَ في علياءِ سمائه، وتصغينَ إلى نِجائي إصغاءَ الملائكةِ الأبرارِ إلى أنّاتِ البائسينَ وزفراتِهِمْ على ظهرِ الأرض.

وكانَ قد غَلَبَهُ الموقفُ على أمرِه واستلهاه حسنُهُ وجماله واستغرق شعورَه ووجدانَه فنسيَ أنّه يتكلّم بلسانِ غيرِه فأطلقَ لنفسه عنانَها وأصبَح يحدّثها بنغمةٍ غريبةٍ لا هي نغمتُه ولا هي نغمة كرستيان، بل نغمةُ النفس الوالهة المعذّبة المتألّمة، فنالتْ من نفسِهَا منالًا عظيمًا وقالت له: إنَّكَ تحدثني الآن يا كرستيان بلهجةٍ غيرِ لهجتِكَ الأولى، حتّى ليخيّلُ إليَّ أنَّكَ قد تبدّلْتَ من نفسِكَ نفسًا أخرى غيرها، قال: نعم لأنّ كلامي قبلَ الآن لم يكن صادرًا من أعماقِ قلبي لأنّني إنّما كنتُ أحدّثك بلسانِ. . . وكان يريدُ أن يقولَ «كرستيان» فاستدركَ هفوته وقال: بلسانِ الدهشةِ والحيرةِ والاضطرابِ الذي يُلمُّ بكلّ من يجرُؤ على أن يقفَ موقفي هذا بين يديك، أما الآنَ فنفسي هادئةٌ وجأشي[4] ساكن وروحي مطمئنّة، حتّى ليخيّلُ إليَّ أنّني أناجيكِ للمرّة الأولى في حياتي.

---

(١) العروج: الصعود.

(٢) يصور المؤلف في هذه المحاورة تشدق نساء ذلك العصر وتحذلقهن في أحاديثهن وحوارهن وتمسكهن بهذا النوع من الكلام المتكلف المتعمل الذي قضت عليه الأساليب الحديثة فيما بعد.

(٣) الدجنّة: الظلام. (٤) الجأش: النفس، القلب.

قالت: صدقتَ ويخيل إليَّ أنا أيضًا أنّك تتكلّم بصوتٍ غيرِ صوتك الأول، قال: نعمْ، لأنّني استطعتُ في هذا السكونِ السائدِ والظلام الحالكِ الذي يحجبني عن العيونِ أنْ أكونَ أنا نفسي وأن أناجيكِ من طريقي لا من طريق... وأراد أن يقول «غيري» فشعر بهفوته وحاول أن يصلحها، فلم يستطع، فتلعثم وتلجلج[١] فقالت له: طريقَ مَنْ؟ قال: عفوًا يا روكسان إن شَرَدَ لبّي واضطربَ جناني بين يديكِ، فقد سحرني ومَلَكَ عليَّ عقلي هذا الموقفُ الجديدُ الذي لم أقفْهُ مرّة في حياتي، فعجبتْ لأمره وقالت: جديد؟ قال: نعم جديد، لأنّه أوّلُ موقفٍ استطعتُ فيه أن أكونَ صريحًا في كلامي، حرًّا في أفكاري، جريئًا في حديثي، أُطلقُ العنانَ لنفسي فتهيمُ وتنبعثُ حيثُ تشاءُ، لا يحولُ بينها وبين الغاية التي تريدها حَائل، قالتْ: وهل لم يكنْ ذلكَ شأنكَ من قبل؟

قال: لا، لأنّ خوفي من هزئك بي وسخريتكِ كان يزعجُني جدًّا ويملأُ قلبي رعبًا وخوفًا، فدهشتْ وقالت: سخريتي؟! ولماذا؟ قال: تسخرين من تطرّفي واندفاعي وتبسُّطي في الإفضاء[٢] بمكنونات نفسي، فقد كان قلبي دائمًا متسربلًا بسربالِ عقلي، والعقلُ سربالٌ ضاغطٌ لا يطيقُهُ القلبُ، وكنتُ كلّما هَمَمْتُ أنْ أتركَ السبيلَ لعواطفي أن تفيضَ وتنسابَ حيثُ تشاءُ أدركني الحياءُ والخجلُ فتلوّمتُ واحتشمتُ ووقفتُ دون الغايةِ التي أريدها، ولا ألبثُ أنْ أتطلّعَ إلى الكوكبِ النّائي في سمائه وأخطوَ الخطواتِ الأولى إليهِ لِتَنَاوُلِهِ واستنزَالِهِ من فَلَكِه، حتّى أشعرَ بالخجل من نفسي، فأعودَ أدراجي قانعًا من حظي بزهرةٍ صغيرةٍ أجدُها في طريقي من زهراتِ حديقةِ السماء فأقتطفُهَا.

قالتْ: إنّ الزهرةَ جميلةٌ أحيانًا. قال: ولكنّني لا أريدها الليلةَ ولا أقنعُ بها، قالتْ: إنّكَ ماكلّمتني قطّ يا كرستيان بمثل هذه اللهجةِ البسيطةِ التي تكلّمني بها الآنَ، قال: نعمْ، وليتنا نستطيعُ دائمًا أن نحتقرَ في مواقِف الحبِ تَوَافِهَ الأشياءِ وحثالاتها[٣]، وأن نتركَ التأنُّقَ والتّجمّلَ في صِلَاتنا وعلائِقِنَا ونطلقَ العنانَ لأنفسِنَا لتعبّرَ عن مشاعرِها وعواطِفِها بالصورةِ التي تريدُها بدلًا من أن نقيّدَهَا بتلكَ القيودِ الثقيلةِ التي تحبسها في محبسٍ ضيّقٍ لا سبيل لها إلى التفلّت منه.

فلنطَّرحْ بعيدًا عنّا هذه الكأسَ الذهبيّةَ الصغيرةَ التي نتعاطى بها شرابَنَا قطرةً قطرةً فلا نكادُ نشعرُ بلذّه ما نتعاطاه، ولنندفعْ معًا إلى ذلكَ الغديرِ المترعِ[٤] المتدفّق فنجثوَ على ضفّتِهِ ونكْرَعَ من مائِهِ العذبِ حتّى نرتوي.

«البلاغة»

قالت: ولكنّني أحبّ البلاغةَ يا كرستيان، قال: إنّي أُجِلُّ هذا الليلَ الساكنَ الهادئَ وهذا الموقفَ الجليلَ المهيبَ وهذه النفحاتِ العطريَّة المترقرقَة وهذه القبةَ الجوفاءَ المرصّعةَ بمصابيحها اللامعةِ أنْ أُهينها بهذا الشيء الذي يسمّونَهُ البلاغة، أو أن يكونَ حديثي معكِ بتلكَ

---

(١) تلجلج في الكلام: ردّده في صدره.
(٢) الإفضاء: البوح.
(٣) الحُثَالة: الرديء من كلّ شيء.
(٤) المترع: المليء.

اللغةِ التي يتفكّه[1] بها العشّاقُ الكاذبونَ في رسائلهم الغرامية، فلنتحدّثْ بما توحيه إليه ضمائرُنا، لا بما توحيه إلينا دواوينُ الشعراء ورسائلُ الكُتّاب، ولنهدمْ تلكَ الحواجزَ الماديّةَ القائمةَ بين نفسَيْنا، حتّى تتلامَسَا وتستَحِيلا إلى نَفْسٍ واحدة، فإنّني أخشىَ إنْ نحنُ ظَلَلْنَا نشتغلُ زمنًا طويلًا بهذه التجاربِ الكيمائية أن تتبخّر عواطفُنَا وتتلاشى في أجوازِ الفضاءِ، وأنْ يكونَ فيما نظنّه كلَّ شيءٍ القضاءُ على كُلِّ شيءٍ.

قالت: ولكن البلاغة جميلةٌ جدًّا، قال: وأنا أكرهها في الحبّ، وأرى أنّ من أكبرِ الجرائمِ وأفظعِهَا أن نشتغِلَ عن أنفسِنَا ومطارحِ آمالِنَا ومسارحِ عواطِفِنَا بإدارة هذه المعركةِ اللفظيّةِ التي لا طائلَ تحتها، وأن تكونَ تلك المحاولاتُ التي لا فائدةَ منها هي غايةُ مقصَدِنا من الحبّ ومنتهَى أملِنَا منهُ والثمرةُ الأخيرةُ التي نجنيها مِنْ حياتنا.

إنّنا ما اجتمعنا هنا لنرى كيفَ نتحدّثُ، بل لنتحدّثَ ونتناجى، وما وَقَفْنَا هذا الموقفَ الجليلَ المهيبَ بين أحضانِ هذه الطبيعةِ الحلوةِ العذبةِ لنشتغلَ بتهذيبِ اللّغةِ وابتكارِ الأساليبِ واختراعِ المعاني، ولا ليقولَ كُلٌّ مِنّا لصاحِبِهِ ما أبلغَكَ، وما أسمى خيالَكَ، وما أبدَعَ تصوّراتِكَ وأفكارَكَ، ولا لنتدارَسَ البلاغةَ وأصولَهَا وقوانينَهَا، ولا لنتحدّى الشعراءَ والكتّابَ في أساليبهمْ ومناهجهمْ، بلْ ليسكُبَ كلٌّ منّا نَفْسَه في نفسِ صاحبه، فإذا هما نفسٌ واحدةٌ تشعرانِ بشعورٍ واحدٍ، وتحسّان إحساسًا واحدًا، حتّى لو استطعنا أن نَصِلَ إلى هذه الغايةِ ونحنُ سكوتٌ لا نتكلّمُ ولا ننبس بحرفٍ واحدٍ فَعَلْنَا.

هذه هي البلاغةُ وهذهِ هي حقيقَتُها، أمّا الإغراقُ في التخيّلِ والمبالغةُ في الوصفِ وخَلْقُ الصورِ والأساليبِ التي لا وجودَ لها في الخارجِ ولا أساسَ لها في الذهنِ، وابتكارُ المعاني الغريبةِ التي تنبعثُ شرارَتُها من شعلةِ الذكاءِ ولا تتفجّرُ من ينبوعِ القلب، فهي وإنْ كانتْ جميلةً محبوبةً تَستلهي الخاطرَ وتستوقِفُ الناظرَ ولكنّها ليستْ منَ البلاغةِ في شيءٍ.

نريدُ أن نتركَ السبيلَ لنفسينا أن تتحَادَثا وتتناجَيَا كما شاءتا وأنْ لا ننغّصَ عليهما نجواهما وسمرَهُما بهذه الضوضاءِ اللفظيّةِ التي نثيرُها من حولهما.

نريدُ أن نفارقَ هذا العالَم المملوءَ بالأكاذيبِ والأباطيلِ، والصّورِ والتهاويلِ، إلى أُفُقٍ طاهرٍ نقيٍّ، صافٍ مترقرقٍ، نتكاشفُ فيه ونتراءى، ويتحدّثُ كلٌّ منا إلى صاحبه بلغةٍ تُشْبهُ في جمالها وحسنِهَا، وبساطَتِها وطهارتها، ورقّتها وعذوبتها، ذلكَ الأفقَ الجميلَ الذي نَسبَحُ فيه ونطيرُ في أجوائه، فيكونُ مَثَلُنَا مَثَلَ الكوكبين الهائمينِ في أجوازِ الفضاءِ يتحادثانِ بلسانِ الضوءِ ويتناجيانِ بلغة الأثير.

قالت: وماذا تقولُ لي لو أردتَ أن تحدّثني بتلكَ اللغة؟ قال: أُلقي إليكِ بكلِّ ما يخطرُ ببالي من الكلماتِ مبعثرًا غيرَ منتظمٍ ولا مرتّبٍ، كما تتناثرُ أوراقُ الزهرِ عن أغصانها فأقول لك مثلًا:

---

(١) تفكّه بالشيء: تمتّع به.

أُحبّكِ يا روكسان حبَّ العابدِ معبودَه، لا أستطيعُ أن أصبرَ عنكِ لحظةً واحدةً، أصبحتُ على وَشَكِ الجنونِ بكِ وربّما أكونُ قد جُنِنْتُ من حيثُ لا أدري، كأنّ قلبي معبدٌ وكأنّ اسمَكِ ناقوسُه، فإذا وقعَ نظري عليكِ ارتعدتُ وارتجفتُ فَرَنَّ اسمُكِ في قلبي رنينَ الناقوسِ في المعبد. قد احتملتُ فيكِ فوقَ ما يستطيعُ أن يتحمّله بشرٌ، فما شكوتُ ولا تألّمتُ، أحببتُ فيكِ كلَّ شيءٍ وأحببتُ من أجلكِ كلَّ شيء.

أحببت فيك حتى كبرياءك، وأحببتُ من أجلكِ حتى شقائي، يُخيَّلُ إليَّ أنّ الشمسَ على جدارِ قصرِك أجملُ منها على جدرانِ القصورِ الأخرى، وأنّ الروضَ الذي تخطرينَ فيه أبدعُ رياضِ الدّنيا والآخرةِ، لا أستطيعُ أن أنساكِ أو أنسى حالةً من حالاتِكِ أو حركةً من حركاتِكِ مهما طالَ عليها الزمنُ. رأيتُكِ صباحَ الأحدِ الماضي، وأنتِ خارجةٌ من بيتِكِ وقد غيّرْتِ نظامَ شعرِكِ الذي أعرفُه لكِ فأصبحَ لامعًا متألّقًا يدورُ بوجهِكِ دورةَ الهالةِ بالقمرِ فبهرني هذا المنظرُ، وارتسم في شبكةِ عيني فأصبحتُ أراه في كلّ ما يقعُ عليهِ نظري من المنظوراتِ كما يرى الناظرُ إلى ضوءِ الشمسِ هالةً بيضاءَ في كلّ ما يتناوله بصرُه من الأشياءِ. وسمعتُكِ منذُ أيّام تضحكينَ، فما غرّد طائرٌ على فَنَنٍ ولا رنّتْ قطراتُ الغيثِ على صفحاتِ الماءِ، ولا مرّتِ النسائمُ بين خمائلِ الأشجارِ إلّا خُيِّلَ إليَّ أنّني أسمعُ رنينَ تلكَ الضِحكةِ في كلّ ما أسمعُ من هذه الألحان.

وهنا اضطربتْ روكسان واشتدّ خفوقُ قلبها، وقالتْ بصوتٍ خافتٍ متهدج: «نعمْ هذا هو الحبُّ».

قال: نعمْ هو الحبُّ الذي غالبَ قلبي حتى غلبه، واتّخذَهُ أسيرًا عنده، وهو حبٌّ شرسٌ غيورٌ يتوقّد حِدّةً وحرارةً، وإنّه على ذلك متواضعٌ بسيطٌ خالٍ من الأَثَرة[1] وحبّ النفسِ.

إنّني لا أستطيعُ أن أُخلصَ لنفسي يا روكسان كما أُخلصُ لكِ، إنّني في سبيلِ هنائك أَجُودُ بهنائي كلّه وإنْ لم تشعُري بذلكَ، حَسْبي من الدنيا أنْ أسمعَ من بعيدٍ رنينَ ضحكاتِكِ فأعلمُ أنّكِ سعيدةٌ مغتبطةٌ وأنّ ما ضحّيْتُ به لكِ من سعادتي وهنائي كان هو السببَ في هناءِ عيشِك وراحةِ نفسك. كُلُّ نظرةٍ من نظراتِكِ تثيرُ فيّ فضيلةً جديدةً كانتْ كامنةً بين أطواءِ قلبي لا أهتدي إلى مكانها، وَتَبثُّ في نفسي خُلُقَ الشّجاعةِ والإقدام، مِمَّ أخافُ إنْ كنتِ راضيَةً عنّي، وَبِمَ أغتبطُ إن كنتِ ساخطةً عليّ، وهلِ الدّنيا شيءٌ سواكِ في إقبالها وإدبارها؟

قالت: ما أعذبَ كلامَكَ يا كرستيان! إنّ قلبي يخفقُ لها خفقانًا شديدًا.

قال: أرأيتِ الآنَ كيفَ أنّ الكلماتِ الصادرةَ من القلبِ بلا تَكَلُّفٍ ولا تَصَنُّعٍ، لا يستطيع حائلٌ أنْ يحولَ بينها وبين قلبِ سامعها، ألا تلمسينَ بيدِكِ نفسي الحزينةَ وهي صاعدةٌ إليك في هذا الظلامِ الحالكِ، ألا تسمعينَ خَفَقَانَ قلبي وهو يرنّ في جوفِ هذا الليل البهيم، آه ما أحلى هذه الساعةَ وما أجملَها، إنّها الساعةُ الوحيدةُ التي ذُقْتُ فيها حلاوةَ السَّمَر والمناجاةِ،

---

(١) الأَثَرة: الأنانية.

ما كنتُ أصدّقُ أن أقِفَ يومًا من الأيّامِ هذا الموقفَ العظيمَ بين يديكِ، أَتكلّمُ وتسمعين، وأبثُّكِ ما في نفسي وتُنْصِتين، لم يبقَ لي من أَرَبٍ في الحياةِ بعد اليوم فليأتِ الموتُ إليَّ، فقدْ بلغتُ جميعَ أمانيَّ وآمالي، ها هي يدُكِ ترتجفُ الآنَ من تأثير كلماتي كما ترتجفُ الورقَةُ الخضراءُ بين النسماتِ المتناوحة، ولقد نَمَّ[1] عليك غصنُ الياسمينِ الذي تُمسكينَ فقد مشتْ فيه تلكَ الرجفةُ حتّى وصلتْ إلى يدي، ثمّ انحنى على طرفِ الغصنِ الذي في يده فلثمَهُ في صمتٍ وسكون.

فقالتْ روكسان: نعم إنّني أرتجفُ وأبكي، وما بلغَ امرؤٌ منّي في حياته ما بلغتَ مني، ولقد سَحَرني حديثُكَ وَمَلَكَ عليَّ لبّي حتّى أصبحتُ أشعرُ أنّني قد أصبحتُ مُلْكَ يَدِكَ وأنّ لا شأن لي في أمرِ نفسي.

قال: فليأتِ الموتُ إليّ إذًا، فقد بلغتُ من حياتي ما كنتُ أرجو وأتمنّى، وَلْيَهْنَنِي أنّني أنا الذي قدّمتُ إليكِ بيدي تلك الكأسَ التي أسكَرَتْكِ وأخذتْ بلبّكِ فَلَمْ يبقَ لي ممَّا أتمنّاه غيرُ شيءٍ واحدٍ، قالت: ما هو؟

وهنا نَطَق كرستيان وهو في مكانِهِ تحت الشرفةِ بعد هذا الصمت الطويلِ وقال: «قُبْلةٌ».

فَذُعِر سيرانو وقالَ له بصوتٍ خافت: لقد تسرّعْتَ في الطلبِ، قال: لا، إنّها الآنَ ذاهلةٌ مسحورةٌ فلأَنْتَهِزْ هذه الفرصةَ التي لا تواتيني في كلّ حين، فقالت روكسان: ماذا قلتَ؟ فقال كرستيان: «أريدُ قبلةً». فوكزه[2] سيرانو برجله وقال: اسكتْ يا كرستيان! فسمعتْ روكسان كلمَتَه فقالت له: مَعْ مَنْ تتحدّث؟ وهل كرستيان شخصٌ سواك؟ قال: أتحدّثُ مع نفسي، فقد ندمتُ على تطرّفي واندفاعي في هذا المقترحِ الذي اقترحتُهُ وقلتُ لنفسي: اسكت يا كرستيان فحسبُكَ منها أنّها أصغتْ إليكَ وسمعتْ صوتَ قلبِكَ وأذرفتْ من أجلِكَ دمعةً من دموعها الغاليةِ فلا تطمعْ فيما وراء ذلك.

وهنا رَنّ صوتُ قيثارتي الغلامينِ من بُعدٍ فقال سيرانو: ادخلي الآنَ يا روكسان فإنّي أسمعُ صوتَ قادمٍ؛ ثمّ عودي إليّ بعد قليلٍ، فدخلتْ روكسان غرفتها وأقفلتْ بابَ نافذتها وأصغى سيرانو إلى الصوت فسمعَ في آنٍ واحدٍ لحنينِ مختلفينِ، لحنًا مفرحًا وآخرَ محزنًا، فقال: يا للعجبِ! إنّ القادمَ ليسَ برجلٍ ولا امرأةٍ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ قسّيسًا. وما أتمّ كلمتَهُ حتّى أقبلَ قسّيسٌ شيخٌ وبيده مصباحٌ ضئيلٌ، وجعلَ يمرّ بأبوابِ المنازلِ بابًا بابًا ويُدني مصباحه منها ليتبيّنها كأنّه يفتشُ عن منزلٍ يقصده.

فتقدّم نحوه سيرانو، وقال له: إنّكَ تعيد لنا أيّها الشيخُ عَهْدَ ديوچين[3] فهلْ تفتّشُ عن الرجل؟ قال: لا، بلْ عنِ المرأة، إنّي أفتّشُ عن منزل السيّدةِ مادلين روبان الشهيرة بروكسان،

(١) نَمَّ: ظهر وانتشر وكشف. (٢) وكز: دفع، ضرب.

(٣) هو الفيلسوف اليوناني المشهور وكان يحمل في يده مصباحًا ليله ونهاره، فسأله بعض الناس مرّة عم يفتش فقال: أفتش عن الرجل.

فانبرى له كرستيان وهو يقولُ في نفسِه: إنّ الرجلَ يضايقُنَا في مثلِ هذهِ الساعةِ ولمّا ننتَهِ منْ أمرِ القبلةِ. وأمسكَ بيدِهِ وأشارَ له إلى جهةٍ بعيدةٍ وقال له: هناكَ أيّها الشيخُ هناكَ، فَسِرْ أمامَكَ لا تَعطفْ يمنةً ولا يسرة حتّى تجدَ المنزلَ الذي تريده.

فشكر له الشيخُ فضلَهُ وعادَ أدراجه، فقالَ كرستيان لسيرانو: لا أستطيعُ أن أبرحَ هذا المكانَ حتّى أنالَ القبلةَ التي أريدُها، قال: لا تعجل يا صديقي فستوافيكما سريعًا تلك اللحظةُ السحريّةُ العجيبةُ لحظةُ الذهولِ والاستغراقِ التي تثمَلان[1] فيها بخمرةِ الحبّ وتذهلانِ فيها عن نفسيكما، فإذا شَفَتَاكُما ذاهبتانِ وحدَهُما كلٌّ منهما إلى صاحبتها حتّى تتلامسا. وصمتَ لحظةً ثمّ قال في نفسه: ما دامتْ تلكَ اللحظةُ آتيةً لا ريبَ فيها فخيرٌ لي أن أكونَ صاحبَ الفضلِ فيها، ثم قال له: نادِهَا يا كرستيان، فستنالُ منها القبلةَ التي تريدها، فناداها ففَتحتِ النافذةَ، وخرجتْ إلى الشرفةِ، وهي تقول: أباقٍ أنتَ يا كرستيان حتّى الآن؟ فقال سيرانو: لقد جاء الساعةَ هنا كاهنٌ شيخٌ يسألُ عن منزلِكِ فلم تعجبْني زيارتُه في مثلِ هذا الوقتِ فأضلَلْتُهُ عن الطريقِ، وأظنّ أنّ في يدهِ كتابًا، فذعرتْ روكسان واضطربتْ مخافةَ أن يكونَ الكونت دي جيش قد أخلفَ وعدَهُ وتخلّفَ عن السفرِ واختبأ في الدير وأن يكونَ هذا الكاهنُ رسولَهُ.

ولكنّها ما لبثتْ أن سَرَّتْ عن نفسِهَا وأنساها موقفُ الغرام كلَّ شيءٍ عَدَاهُ وقالتْ: أظنُّ أنّنا كنّا نتكلم عن... وتلعثمَ لِسَانها فقال سيرانو عن القبلةِ، وما لكِ لا تجسرين[2] على النطقِ بها كأنّها تحرقُ شفتيكِ، فإذا كان هذا شأنَكِ مع لفظِهَا، فكيفَ يكونُ شأنُكِ مع معناها، تجلّدي يا روكسان، ولا تجزعي فلقد تحوّلْتِ منذ هنيهةٍ من الدُعابةِ إلى الاضطرابِ ومنه إلى الخفقانِ ومنه إلى التنهّدِ ومنه إلى البكاءِ، وليسَ بين الدموعِ والقبلةِ إلا رجفة.

«القبلة»

فارتعدتْ روكسان وقالت: لا أمنَحُكَ إيّاها حتّى تَصِفَها لي، قال: هي الميثاقُ الذي يُعْطَى عن قربٍ، والوعدُ الصادقُ الذي لا ريبةَ فيه، والاعترافُ بالحقيقةِ الواقعة، والنقطةُ المرقومةُ تحتَ باءِ الحب، والسرُّ العميقُ الذي يصلُ إلى القلبِ من طريق الفم، واللحظةُ الأبديّة التي يقصرُ زمنها وتدومُ حلاوتُها، واتّفاقُ الخاطرينِ على معنًى واحدٍ، والطريقُ المختصرُ لاستنشاقِ رائحةِ القلبِ، وتذوُّقِ طعمِ النفسِ على الشفاهِ، لها دويُّ النحلِ في صوتها، ومذاقُ العسلِ في حلاوتها، وعبيرُ الأزهارِ في رائحتها.

فاضطربت روكسان وقالتْ: حسبُكَ يا كرستيان. فقال: إنّ القبلةَ شريفةٌ يا سيّدتي، حتى إنّ ملكةَ فرنسا لم تبخلْ بها على نبيلٍ من نبلاءِ الإنكليز، وكلاهما شريفٌ وعظيمٌ، قالت: اسكتْ ولا تَزِدْ، قال: أنتِ الملكةُ التي أعبدُها وأدينُ لها أكثَر ممّا دانتْ فرنسا لملكتها، وأنا اللوردُ

(١) تثملان: من الثمل وهو السُّكْر.
(٢) تجسرين: تجرؤين.

بوكانجهام في صدقِهِ وإخلاصِهِ وألمِهِ وحزنِهِ. قالت: وفي جماله أيضًا، فانتفضَ سيرانو وشعرَ بوخزةِ الألم في قلبه وقال: نعم وفي جماله، ولقد كنتُ لذلكَ ناسيًا، فقالت له: اصعدْ أيّها السعيدُ المجدود[1] لاقتطافِ تلكَ الزهرةِ التي لا نظيرَ لها.

فأخذ سيرانو بيدِ كرستيان، وقال له بصوتٍ خافتٍ: اصعدْ وتَنَاولِ القبلةَ التي تريدُها، فَجَبُنَ وتلكّأ وقال: ما أشدَّ خجلي وحيائي! قال: اصعدْ أيّها الحيوان وتناولِ القبلةَ التي لا يستحقّها منكَ غيرُ شفتيك الورديتين. ثمّ دفعه بيده فتسلّقَ أغصانَ الياسمينِ حتّى بلغَ مكانَ روكسان على الشرفةِ فألقتْ رأسَهَا الجميلَ على عاتقِهِ فاحتضَنَها إليه ورسَمَ على شفتيها تلكَ القبلةَ التي لها دويّ النحلِ في صوتها، ومذاقُ العسلِ في حلاوتها، وعبيرُ الأزهار في رائحتها، وسيرانو واضعٌ يَدَهُ على قلبه يتلوّى في مكانه تَلَوِّيَ الملسوعِ، ويتأوّهُ آهاتٍ خفيّاتٍ مضمراتٍ، ولكنّه ما لبثَ أن ارْعَوَى وتجمّلَ ولجأ إلى سَلْوَتِهِ التي اعتادَ أن يلجأَ إليها كلّما عَظُمَتْ آلامُه وهمومُه وأخذ يعزّي نفسه ويقول:

يا مأدُبَةَ الحبّ العظيمةَ التي أنا صاحِبُها ومُحْيِيها، هنيئًا للذينَ يذوقونَ طعامَكِ، ويتناولونَ ثمارَكِ، ويرتشفونَ كؤوسَكِ، أمّا أنا فحسبي منكِ هذا الفُتَاتُ الذي يتناثرُ عليّ من مائدتِكِ، فإنّ روكسان لا تقبّلُ شفتي كرستيان، بل تقبّلُ عليهما كلماتي التي ألقيتُها في أذنها وسَحرتُها بها.

وهنا رَنّ صوتُ قيثارتي الغلامين بلحنينِ مختلفينِ، لحنٍ مفرحٍ وآخرَ محزنٍ فسألتْ روكسان ما هذا؟ فقال لها كرستيان: لعلّه سيرانو يتمشّى في الطريقِ مع غلاميه الموسيقيين. فانفَتَلَ سيرانو من تحتِ الشرفةِ إلى موقفِ الغلامين فحدّثهما قليلًا ثمّ أشارَ إليهما بالانصرافِ ومشى يترنّحُ في مشيته كأنّه شاربٌ ثملٌ ويتغنّى ببعضِ الألحانِ كأنّه قادمٌ الساعةَ، فما وقع نظرُهُ على كرستيان حتّى تظاهرَ بالدهشةِ وقال له: أباقٍ أنتَ هنا يا كرستيان حتّى الآن؟ قال له بصوتٍ عالٍ تسمعه روكسان: نعم أحدّثُ روكسانَ وتحدثني؛ وإلى أينَ أنتَ ذاهب؟ قال: لقد مللتُ هذينِ الغلامينِ وسئمتُ ألحانهما وتعبتُ من طولِ المسيرِ، فعزمتُ على الرواحِ إلى المنزل. فأشرفتْ عليه روكسان عندما سَمِعتْ صوتَهُ وقالت له: انتظرني يا سيرانو، فإني قادمة إليك، وأقفلتْ باب الشرفةِ، وفي هذه اللحظةِ أقبلَ الكاهنُ بمصباحِهِ وهو يحدّثُ نفسه ويقول: ما زلتُ على رأيي الأوّلِ فإنّ المنزلَ هنا في هذا الميدان.

وهنا ظهرتْ روكسان على عتبةِ بابها يتبعُهَا كرستيان وراجنو، فلمّا رأتِ الكاهنَ، ذعرتْ واضطربتْ، فتقدّمَ نحوها وحيّاها ومَدَّ يده إليها بكتابٍ فقالت له: ما هذا؟ قال: كتابٌ بعثني به إليكِ السيّد الصالحُ التقيّ الكونت دي جيش صهرُ سيّدنا ومولانا صاحبِ القداسةِ الكردينالِ دي ريشلييه من دير القديس «أتاناس»، ولا بدّ أنْ يكونَ مشتملًا على غرضٍ من الأغراض الشريفةِ المقدّسةِ أو مَكْرُمَةٍ من المكارمِ العليا فاقرئيه، فتناولتْهُ وقرأتْ فيه على مصباحِ راجنو وهي صامتة هذه الكلمات:

---

(١) المجدود: المحظوظ.

سيّدتي

الطبولُ تَدُقُّ، وقد أعَدّ الجيش عُدّته للرحيلِ، والجميعُ يظنونَ أنّي في مقدمته، ولكنّني تخلّفْتُ وعصيتُ أمرَكِ لأنّني لم أستطعِ السفرَ دونَ أن أتزوّدَ منك بذلك الزادِ القليلِ الذي سألتك إياه، فاغْتَفِري لي ذَنْبي فإنّني ما أذنبتُ إلّا في سبيلِكِ، وها أنذا قادمٌ إليكِ بعدَ قليلٍ فمهّدي لي سبيلَ زيارتِكِ. إنّ ثغرَكِ قد ابتسمَ لي اليومَ ابتسامًا جميلًا، ولا أحبُّ أن أفارقَكِ قبلَ أن أراهُ مرّة أخرى يبتسمُ لي تلكَ الابتسامةَ البديعةَ المؤثرة.

وقد بعثتُ إليكِ بكتابي هذا مع قسّيسٍ أبلَهَ لا يفهمُ من شؤونِ الحياةِ شيئًا سوى إقامة الصلواتِ وتعزيةِ المحتضَرين ومباركةِ المتزوّجين، فلا يعنيكِ من أمره شيء.

دي جيش

وهنا برقتْ عيناهَا ببارقٍ غريبٍ والتفَتَتْ إلى الكاهنِ وقالتْ له: اسمعْ يا أبتِ نصَّ الكتابِ فهو بمثابةِ أمرٍ صادرٍ إليكَ، وأخذتْ تقرأ بصوتٍ عالٍ ما لا وجود له إلّا في مخيّلتها وتقول:

سيدتي

يجبُ عليكِ إطاعةُ أمرِ قداسةِ الكردينال، وهو يأمرُكِ أنْ تتزوّجي الليلةَ سرًّا من البارون كرستيان دي نوفْيت، وأنا وإنْ كنتُ أعلمُ أنّكِ غيرُ راضيةٍ عن هذا الزواجِ وأنّكِ لا تحبّينَ هذا الفتى، ولا تجدينَ في نفسِكِ ارتياحًا لمعاشرته فإنّني أرى لكِ أن تخضعي لأمرِ الكاهن الأعظمِ وتُذْعِني لرغبته، فالخيرُ كلُّ الخيرِ فيما يراهُ ويشيرُ به، فاصبري على قضاءِ الله وقَدَرِه، وانتظري حُسْنَ المثوبة[1] منه والجزاء الأوفى.

وقد بعثتُ إليكِ بكاهنٍ من أفضلِ الكُهّانِ وأتقاهم وأحفظِهِم للأسرار ليقومَ بعقدِ هذا الزواجِ السرّيّ بينكما في منزلكِ، فاقرئي عليهِ كتابي هذا وبلّغيهِ أمري وكوني على ثقةٍ من إخلاصي لكِ واحترامي الدائمِ لمقامكِ الكريم.

دي جيش

ثمّ طوتِ الكتابَ وهي تتظاهرُ بالأسفِ والحزنِ وتقول: آه ما أسوأَ حظّي وأعظمَ شقائي، ثمّ همست في أذنِ كرستيان قائلة له: ألا ترى أنّني أُحْسِنُ قراءَة الرسائل؟ قال: اسكتي فإنّني أكادُ أموتُ فرحًا. أمّا الكاهن فقد تهلّلَ وجهُه وانبسطتْ أساريره وظلّ يقولُ: يا لَهُ من سيّدٍ نبيلٍ كريم ما خاب ظنّي فيه وفي حسن مقاصده وشرفِ أغراضه. ثمّ رفع المَصباحَ إلى وجه سيرانو وقال له: لعلّكَ الزوجُ يا سيّدي؟ فامتُقِعَ[2] لونُ سيرانو وأشاحَ بوجهه عنه، فتقدّم نحوه كرستيان وقال له: لا بل أنا يا سيّدي، فأدنى المصباحَ من وجهه فرأى وجهًا جميلًا مشرقًا فظل يهزّ رأسه كالمرتابِ، ثمّ التفتَ إلى روكسان وقال لها: يخيّلُ إليَّ يا سيّدتي، أنّ مصيبتك في هذا الزواجِ ليستْ عظيمة كما تتوهّمين، فارتعدتْ وخفقَ قلبها خفقًا شديدًا مخافةَ أن يكونَ

(١) المثوبة: المكافأة.

(٢) امتُقِعَ: تغيّر وتبدّل.

قد فَهِمَ شيئًا ثمّ ما لبثتْ أن عَرَفَتْ وَجْهَ الحيلة في ذلك ففتحتِ الكتابَ بلهفةٍ وقالت: لقد فاتني يا أبتِ أن أقرأ عليكَ الحاشيةَ التي كتبها الكونت في كتابه وهي تتعلّقُ بديركم المقدّس فاستمِعْها، وقرأت ما يأتي: «ويأمركِ صاحب القداسة أيضًا أن تتبرّعي للدير من مالكِ الخاصِ بعشرة آلاف فرنك فائتمري بأمرِه وادّخريها يدًا عند الله صالحةً. فتلألأ وَجْهُ الكاهنِ واستُطيرَ فرحًا وسرورًا ولم يبقَ لتلكَ الريبةِ التي خالجته أثرٌ في نفسه وقال لها: لا مناصَ لكِ يا بنيّتي من الإذعانِ لأمرِ صاحبِ القداسةِ، والله يتولّاكِ برعايته، فقالت سأذعِنُ لأمرِه وأمركَ يا أبتِ.

ثمّ هتفتْ براجنو فأمرَتْهُ أن يمشيَ أمامهم بمصباحِه، ففعلَ، فدخلوا المنزلَ جميعًا وتراجعتْ روكسان قليلًا قبلَ دخولها فجذبتْ سيرانو من يده وأسرَّتْ في أذنه قائلة: أمّا أنتَ فابقَ هنا حتّى يأتيَ الكونت فامنعْهُ من الدخولِ ودافِعْهُ بكلّ حيلةٍ وترفّقْ في الأمرِ ما استطعتَ حتّى يتمَّ عَقْدُ الزواجِ، فقال: سأفعلُ ما يرضيكِ يا روكسان، فكوني مطمئنّةً فتركَتْهُ ولحقتْ بالقومِ وبقي هو وحدَهُ يفكّر في الطريقة التي يمنع بها الكونْت من الدخولِ إذا جاء.

«سياحة في القمر»

وما هي إلّا هنيهةٌ، حتى رأى شبحَ الكونتِ مقبلًا من بعيدٍ فخلعَ سيفَه والتفّ بمعطفِهِ وأنزلَ قبّعته على عينيهِ وتسلّقَ شجرةَ الياسمينِ وكَمَنَ بين أغصانها وأقبلَ الكونت واضعًا على وجهه نقابًا أسودَ وهو يتلمَّسُ الطريقَ في هذا الظلام الحالِكِ، ويقولُ: ليت شعري أينَ ذهبَ ذلكَ الكاهنُ المنحوسُ وماذا صَنَعَ بالرسالةِ التي بعثتُه بها؟ لا بدّ أنْ يكونَ قد بلّغها روكسان وانصرفَ لشأنه، ولا بدّ أنّها تنتظرني الساعةَ داخلَ المنزل.

واتّجه جهةَ البابِ فما دَنا منهُ حتّى سقَطَ جسمٌ عظيمٌ بين يديهِ سقطةً هائلةً دوَت بها جوانبُ الميدانِ كأنّما هو هابطٌ من علياءِ السماء، فتأمّله فاذا هو رجلٌ متلفّعٌ[1] ملثّم فَذُعرَ وتراجعَ وقالَ: من هذا؟ فتقدّمَ نحوه سيرانو بخطواتٍ بطيئةٍ متثاقلةٍ وقالَ لَهُ بنغمةٍ أشبه بنغمةِ الحالمِ المستغرق: كم الساعةُ الآنَ، أيّها الإنسانُ، فقال له: مَنْ أنتَ؟ قال أنا رَجُلٌ من سكانِ كوكبِ القمرِ سَقَطْتُ منه مِنْ زَمَنٍ لا أعلمُ مقدارَهُ هلْ هو يومٌ أو ساعةٌ أو دقيقةٌ أو عامٌ أو أعوامٌ لأنّ صدمةَ السقوطِ أذهلَتْني عن نفسي فلم أُفِقْ إلّا في هذه اللحظة، ولا أعلم هل سقطتُ في كوكبِ الارضِ أمْ في كوكبٍ آخرَ غيرِه. فَقلْ لي: أينَ أنا؟ وفي أيّ عام؟ وفي أيّ يوم؟ وفي أيّ ساعة؟ فعلم الكونت أنّه مجنونٌ أو ثملٌ فأرادَ ملاينَتَه ومداوَرَته فقال لَه: اسمحْ لي بالمرورِ أوّلًا وسأخبركَ فيما بعد عمّا تريد. قال: يُخَيَّلُ إليَّ أنّكَ تظنّني معتوهًا أو مخبولًا[2] فاعلمْ أنّني لا أحدّثكَ عن خيالٍ بلْ عن حقيقةٍ لا ريبَ فيها. وأنني قد سَقَطْتُ من كوكبِ القمرِ سقوطًا اضطراريًّا لم أملكْ فيه الخيارَ لنفسي فَظَللتُ أتخبّطُ بين الكواكبِ والنجومِ والمذنّباتِ والشهبِ حتّى وقعتُ في هذا المكانِ الذي أجهلُه ولا أعلمُ أينَ موقعُهُ من العالم.

---

(١) تلفّع بالثوب: تغطّى به. (٢) مخبولًا: مجنونًا.

ثمّ رفعَ نظرَهُ إلى وجهِ الكونتِ وصرخَ صرخةً هائلةً فزعَ لها الرجلُ وتراجعَ بضعَ خطواتٍ وظلّ يسأله: ما بالك! ما بالك! فقال: دَلّني سوادُ وجهِكَ وظلمتُهُ على أنّني قد سقطتُ في خطّ الاستواءِ بين قبائلِ الزنوجِ، فوا أَسَفاهُ! وواسوءَ حظّاه! فَلَمَسَ الكونت وجهَهُ بيدِهِ وكانَ قد ذُهِلَ عن نقابه فحسرَه عنه وقال له: لا تخفْ إنّما هو نقابٌ أسودُ كنتُ أسدلتُهُ على وجهي لبعضِ الأسبابِ الخاصّةِ. فهدأ سيرانو قليلًا وقال له: عفوًا يا سيّدي، إذًا أنا في ڤينيسيا أو ڤينّا[1] فقل لي في أي المدينتين أنا؟ فضجر الكونت وقال له: سواء أكنت في هذه أم في تلك فدعْني أمرّ فإنّ إحدى السيّدات تنتظرني، فقال: آه! لقد فهمتُ الآن، لا بدّ أن أكونَ في باريسَ بلدِ الوعودِ والمقابلاتِ، والأسيادِ والسيّداتِ، فالحمد لله على ذلك.

ومدّ يدَهُ إلى ردائه وظلّ يمسحُه كأنّما ينفضُ الغبارَ عنه، ثمّ وقفَ متأدّبًا وأحنى رأسه بين يديه وقال له: اغفرْ لي يا سيّدي، مقابلتي إيّاك بهذه الملابس الرثة المغبَرَّة فقد كان سقوطي مع الزوبعةِ الأخيرةِ فانتشرَ غبارُ الأثيرِ على ملابسي وامتلأتْ عيناي بذرّاتِ الضوءِ وعلقَتْ بنعلي بضعُ ريشاتٍ من ريشِ «النسر الطائر». ثمّ مدّ يَدَه إلى نعلِه كأنّما يتناولُ ريشةً عالقةً بها وظلّ ينفخُها في الهواء، فازدادَ غيظُ الكونتِ وعظمُ ضجرُهُ وقال له: تَنَحَّ عن طريقي يا سيّدي، فإنّي أريدُ الدخولَ، وظلّ يدفعُه أمامَهُ حتّى بلغا البابَ فترامى سيرانو على الأرضِ ومدَّ ساقه في مدخلِ البابِ وكشفَ عنها وقال له: انظرْ يا سيّدي إلى ساقي فقد عضّني فيها «الدُبُّ الأكبر»[2] عضّةً مؤلمةً لا يزالُ أثرُها باقيًا حتّى الآن، ولقد وقع لي ذلكَ في الساعةِ التي كانَ يطاردُني فيها «السماك الرامح»[3] برمحِهِ المثلّثِ الأسنّةِ وما أفلَتُّ من مخالبِ الدُبّ حتّى سقطتُ فوق حُمّةِ العقرب[4] فلدغتْني في ساقي الثانية، وانظُرْ، ها هو أثرها.

ومدّ ساقه الثانية أيضًا فاستحالَ على الكونت المرور، ثمّ قالَ له وأؤكّد لكَ يا سيّدي، أنّني لو عصرتُ أنفي الآنَ لجرى منه سيلٌ دافقٌ يغمرُ هذا الميدانَ جميعَه، أتدري لماذا؟ قال: لا. قال: لأنّي سقطتُ بعدَ ذلك في نهر «المجرة» فظَللْتُ أَسبَحُ فيه حتى أعياني الجهدُ، ولولا أن «الدبّ الأصغر»[5] مدّ يده إليّ فأنقذني لما نجوتُ. واعلمْ أنّه لم يفعلْ ذلكَ تكرمةً منه وتفضّلًا بلْ كان يريدُ أن يَعضَّني أيضًا كما عضّني أخوه من قبله، فعجزَ عن ذلكَ لأنّ أسنانَهُ صغيرةٌ جدًا كأنّها حببُ الكأسِ فاستطعتُ الإفلاتَ منه وانحدرتُ إلى «القيثارةِ» فاخترقْتُها وعلقَتْ يدي بوترٍ من أوتارِهَا فانقطعَ وظلّ معي حتّى الآن، وسأريكَه إذا أردتَ، ومدّ يدَهُ إلى جيبِهِ كأنّما يريدُ أن يخرجَه، ثمّ قال: لا لزومَ لذلك الآن، فقد عزمت على أن أؤلّفَ كتابًا أسميه «سياحة في القمر»[6] أُدوّن فيه

(١) نشير إلى أن عادة النقاب كانت معروفة في هذين البلدين أكثر من غيرهما.

(٢) الدب الأكبر: سبعة نجوم هي الكبرى من بنات نعش.

(٣) السماك الرامح: نجمان نيّران في الشمال. (٤) حمة العقرب: من نجوم السماء.

(٥) الدب الأصغر: سبعة نجوم هي الصغرى من بنات نعش.

(٦) اسم كتاب لسيرانو دي برجراك كما ورد في ترجمة حياته.

هذه الرحلة جميعَها وسأرصّعُ دفّتيه بالشُّهُبِ الصغيرةِ التي اصطدتُها في معطفي من غاباتِ السماء.

فاشتدّ جَزَعُ الكونت ونفدَ صبرُه وقال له: ثمّ ماذا؟ قال: أظنّ أنّك تريدُ أن تعرفَ الآن شيئًا من أخبارِ سكانِ ذلكَ الكوكبِ الذي عشتُ فيه حقبةً من الزمان...

فقاطعَهُ الكونت وقال: لا، لا أريدُ أنْ أعرفَ شيئًا فَدَعني أمرٌ، فإنّ بيني وبينَ أصحابِ هذا المنزلِ ميعادًا لا بدّ لي منَ الوفاءِ به، قال: ولكنّك وقد عرفتَ كيفَ نزلتُ من السماء لا بدّ لكَ أن تعرفَ كيفَ صعدتُ إليها، إنّني صعدتُ إليها بطريقةٍ عجيبةٍ جدًا. أنا الذي اخترعتها وابتكرتها فلم ألجأ إلى النسرِ البليدِ كما فعلَ «رجيو مونتانوس» ولا إلى الحمامةِ البلهاءِ كما فعلَ «اركيتاس» وكان دي جيش مولعًا بعض الولعِ بعلم الفلكِ ولوعَ الكثيرِ من الأشرافِ والنبلاءِ الذين يزاولونَ بعضَ الفنونِ تجمّلًا وتلهّيًا دون أنْ يدركوا من أسرارِهَا شيئًا، فقال في نفسه: إنّ الرجلَ وإنْ كانَ مجنونًا فهو واسعُ الاطّلاع غزيرُ المادة، واستهواهُ حديثُهُ فبدأ ينصتُ له واستمرَّ سيرانو يقول:

ولم أقلّدْ أحدًا من الطّيارينَ الذين سبقوني بل خَطَرَتْ على بالي ستُّ طرقٍ لاختراق أطباقِ السمواتِ لم تخطرْ على بالِ أحدٍ من فحولِ علم الفلك ونوابغه. فدَهشَ الكونت وقال: ستُّ طرق؟ قال: نعم، هل تعدني أنْ تصغيَ إليّ حتّى أسردَهَا عليك جميعَها؟ قال: نعم أعِدُك بذلك فتكلّمْ وأَوْجِزْ، قال: تعالَ إذن معي إلى هذا المقعدِ لنجلسَ عليه قليلًا فقد انتقضَ عَلَيَّ جرحي الذي في ساقي، ثمّ جذبَهُ من ردائِهِ فأجلسَه بجانبِه وظلَّ يقولُ له:

أوّلُها: أن أتجرّدَ من ثيابي وأديرَ حولَ جسمي بضعَ قاروراتٍ بلّوريةٍ ملأى بقطرِ الندى، ثمّ أقفَ تحتَ الشمسِ فتمدّ إليّ خيوطَ أشعّتها فتجذبني إليها كما هو شأنها في امتصاصِ الأبخرةِ والأنداء[1] حينَ تشرقُ عليها.

وثانيها: أن أعمِدَ إلى صندوقٍ كبيرٍ فأفرغَهُ من الهواءِ بواسطةِ حرارةِ المرايا المضلّعة ثمّ أملؤه بالأهويةِ المتصاعدةِ وأجلسُ فيه فيصعدُ إلى العلا.

وثالثُها: أن أصنعَ جرادةً من الصلبِ ذاتَ أذرعٍ كبيرةٍ وأضعَ في جوفها بارودًا ملتهبًا ثمّ أمتطيها فكلما فرقَعَ البارودُ اندفعتْ صاعدةً في جو السماء.

ورابعُها: أن أملأ «بالونًا» بالدّخانِ، والدخانُ كما تعلمُ يطلب العلا دائمًا فأركبه فيصعدُ بي حيثُ أشاء.

وخامسُها: أن أدهنَ نفسي بنخاعِ الثورِ فإذا دنا كوكب «فيبيه» أي القمر من الأرضِ وهو كما تعلم مُولَعٌ بامتصاصِ هذا الدهنِ امتصّني معه.

وسادسُها: أن أركبَ لوحًا من الحديدِ وأمسكَ بيدي قطعةٌ من المغناطيس وأقذفَهَا في الهواء، والمغناطيس كما تعلمُ يجذبُ الحديدَ، فإذا سقطتْ تلقَّفْتُها وقَذَفْتُهَا مرّةً أخرى وهكذا حتّى أصلَ إلى غايتي.

---

(١) الانداء: جمع ندى وهي قطرات الماء.

فأعجب الكونت بذكائِهِ وفطنتِهِ، وقال له: حسبُكَ ذلك وائذنْ لي بالذهاب. وتأهّبَ للقيامِ، فانزعجَ سيرانو، وتشبّثَ بردائِه وقال له: ولكنْ فَاتَكَ يا سيّدي، أنْ تسألني عن الطريقةِ التي اخترتها من بين تلكَ الطرقِ واعتمدتُ عليها في هذهِ الرحلةِ القمرية؟ قال: قل لي وأَسْرِعْ، قال لم أخترْ واحدةً منها، بل اخترتُ طريقةً سابعةً هي أغربُ الجميعِ وأعجبُها، قال: قل ما هي وعَجِّلْ، قال أراهن أنّكَ لا تعرفُها ولو فكّرْتَ فيها ثلاثة أيّام، فضاق صدر الكونت وقال: أعترفُ لكَ أني عاجزٌ عن معرفتها، فقل لي ما هي، فقد ضقتُ بكَ ذرعًا، وثارَ من مكانه غاضبًا، فوثَب سيرانو واعترضَ سبيلَه وقال له: ها هي فاستمعها.

ثمّ مدَّ ذراعيه إلى الأمام وظلَّ يلوِّح بهما في الهواء كما يفعل السابح على سطح الماء ويقول هُو، هُو، هُو، فدهشَ الكونت وقال ما هذا؟ قال الموجُ المتلاطمُ. قال: لا أَفهمُ ما تريد. قال المدُّ والجزرُ، قال: لا أفهم شيئًا فقلْ ماذا تريد؟ قال: بما أنّي أعلم أنّ القمرَ هو السببُ في حركة المدّ والجزرِ فقد نمتُ على ضفّة النهرِ ساعةَ المدّ حتّى غمرني الماء منتظرًا ساعةَ الجزرِ، وما هي إلّا لحظةٌ حتّى دنا القمر من اللجّة فجذبها وجذبني معها ولم أزلْ صاعدًا أخترقُ حُجُبَ السماءِ حجابًا حجابًا حتّى... ومدّ صوته بها طويلًا، فقالَ له الكونت بضجرٍ شديدٍ: حتّى ماذا؟ وكان سيرانو قد سمعَ جلبةَ القومِ وهم مقبلونَ من داخلِ المنزلِ فعلم أن الأمرَ قد انتهى فقال له: حتّى تمّتْ حفلةُ القرانِ، وألقَى عنه رداءَه ورفعَ قبّعتهُ عن رأسِهِ فظهَر وجهُه وفي مقدّمته ذلكَ الأنفُ الضخمُ العظيمُ فانتفضَ الكونت وقال: سيرانو! ثمّ التفتَ وراءَه فرأى العروسينِ مقبلينِ في ملابسِ عرسِهما. وأمامَهُما الشموعُ ووراءهما القسّيسُ والخدمُ ففهمَ كلَّ شيءٍ وصاحَ: ماذا أرى؟ يخيل إليَّ أنّي قد جُننت.

وأخذَ يدور بعينيه ههنا وههنا كالذاهلِ المخبولِ، ثمّ مشى نحو روكسان فانحنى بين يديها وقالَ لها: لله درّك يا سيدتي! إنّكِ من أمهرِ الماكرات. ثمّ التفتَ إلى سيرانو وقال له: أقدّمُ إليك تهنئتي أيّها المخترعُ العظيمُ، على تفوّقِكِ ونبوغِكَ، وسيكونُ مؤلّفكَ الجليلُ أعظمَ مؤلفٍ نافعٍ للمجتمع، ولا تنسَ أن ترصّعَ دفتَيْه بتلكِ الشهبِ الذهبيّةِ التي اصطدتها في معطفك من غابات السماء، قال: سأفعل إن شاء الله يا سيّدي، وسأقدم الكتاب إليكَ تذكارًا لهذه المهزلةِ البديعة، فأعرضَ عنه والتفتَ إلى القسّيس وقالَ له متهكّمًا: لقد أدّيتَ الرسالةَ أيّها الشيخُ أحسنَ تأديةٍ فَلَكَ الشكرُ على ذلك، فلم يفهم القسيس غرضه وقال له: لعلّكَ راضٍ عنّي يا مولاي. قال: نعم كلَّ الرّضاء.

ثم أخذَ يخطو في تلك الساحةِ خطواتٍ واسعةً سريعةً ثمّ وقفَ ورفعَ رأسَه بعظمةٍ وخيلاءٍ وقد لبسَ وجهُه تلكَ السحنةَ العسكريّة القاسيةَ ونظرَ إلى روكسان نظرةً جامدةً مخيفةً وقال لها بصوتٍ قاسٍ شديد: ودّعي زوجَك يا سيّدتي، فذعرتْ واصفرّ لونها وقالت: لماذا؟ قال: لأنّ فرقةَ الحرسِ ستسافرُ الآنَ مع بقيّةِ فِرَقِ الجيش، وأخرجَ من ثنايا قميصِه ذلكَ الكتابَ الذي كان قد فَصَلَهُ عن بقيّةِ الكتبِ منذُ ساعةٍ ونادىْ كرستيان بصوتٍ هائلٍ رنّان، فَلَبّاه ووقفَ بين يديهِ فقال له: خُذْ هذا الكتابَ وسلّمه بنفسِك إلى قائدِ فرقتِكَ، فقالت روكسان: ولكنّكَ كنتَ

وعدتني أن تتخلّفَ هذه الفرقةُ... فقاطَعَها وقال لها: قد غيّرتُ رأيي عندَما علمتُ أنّكِ إنّما كنتِ تكيدين لي لا لابنِ عمّك سيرانو.

فصمتَتْ وقد نالَ من نفسها منالًا شديدًا وملأ قلبَها حزنًا وشجنًا أنّها لَمْ تكد تلمسُ بفَمِها شفةَ الكاسِ حتّى انتزعتْ من يدها، ثمّ ترامتْ بين ذراعي زوجِها وظلّتْ تقبّله وتبكي بكاءً مرًّا فضمّها إلى صدره وظلَّ يبكي لبكائها فصاحَ الكونت: حسبُكُما ذلك فأمامَكُما ليلةُ الزفافِ ولعلّها قريبةٌ جدًا: ثمَّ تركهما وانصرفَ ليصدرَ بعضَ أوامره إلى الجيشِ وهو يرمي سيرانو بنظراتٍ هائلةٍ لو رَمى بها أحدًا غيره لصعقَ لها. على أن سيرانو كانَ في شاغلٍ عنه بما كان يعالجه في أعماق نفسه من الألم الممضّ عند رؤية تلك القبلاتِ الجميلاتِ المتبادلةِ بين هذينِ العاشقين الجميلين.

وظلّ يقول بينه وبين نفْسه: يا له من سعيد! ويا لي من شقيّ!، كلانا يحبُّها، وكلانا يموتُ وَجْدًا بها، ولكنّه استطاعَ لأنّه جميلٌ أن يلثمَهَا ويقبّلها، ولم أستطعْ لأني دميمٌ أنْ أنالَ منها شيئًا في حياتي أكثرَ من أنْ أقبّلَ طرفَ الغصنِ الذي كانتْ واضعةً يدَها على طرفِهِ الآخرِ من حيثُ لا تدري، وها هو ذا الآنَ يضمّها إلى صدره ضمّة الوداع ويتزوّد منها الزادَ الذي يعينه على سفرِه الطويلِ وشقّته البعيدة. أمّا أنا فكُلُّ زادي منها هذه الدمعةُ التي تترقرقُ في عيني ولا أستطيعُ إرسالها مخافةَ أن تراها.

وهنا دقّتْ طبولُ الجيشِ مؤذنةً بالرحيلِ فَدَنا منهما سيرانو وقالَ لكرستيان: حَسْبُكَ ذلكَ الآنَ فهيّا بنا، فلم ينتبهْ كرستيان إليه واستمرّ في شأنه فظلَّ يجذبُهُ من يده ويقول: هيّا بنا، فقد دقّتْ طبولُ الرحيل. فقال: أمهلني قليلًا يا سيرانو فإنّك لا تَعْلَمُ ما يصنعُ الفراقُ بقلوبِ العاشقين. قال: أعلمُ ذلكَ حقَّ العلم فهيّا بنا، فالتفتَتْ إليه روكسان وقالت له: إنّي أكِلُ إليكَ أمرَهُ يا سيرانو، فعِدني ألا يهدّدَ حياتَهُ شيءٌ، قال: سأجتهدُ إن شاءَ الله تعالى. قالت: وَعِدْني أنْ يكونَ حذرًا متيقّظًا، قال: سأحاول ذلك. قالت: وأنْ لا يتألّم من البردِ والصقيعِ في تلك الاجواءِ الثلجيّة الباردةِ. قال: سأفعل ما في وسعي. قالت: وأن يكونَ لي وفيًّا مخلصًا. قال: أظنّهُ لا يستطيعُ أن يكونَ غيرَ ذلك. قالتْ وأن يكتبَ لي دائمًا: قال: أمّا هذهِ فأعدُك بها.

❀ ❀ ❀

الفصل الرّابع:

«الميدان»

بدأ الفجرُ يرسلُ أشعّته الأولى إلى جوانبِ الميدانِ وكانتْ فرقةُ الحرسِ نائمةً في سفحِ تلٍّ مرتفع يحميها ويحمي مواقعها، وكانتْ قد مرّتْ على الجنودِ ثلاثةُ أيّام لم يذوقوا طعامًا ولم يتبلّغوا[1]

(١) تبلّغ بالطعام: سدَّ به رمقه.

بشيءٍ حتّى ساءتْ حالُهمْ وشَحُبَتْ ألوانُهم وخارتْ قواهم. فاستيقظَ أحدُهمْ وهو يتضوّرُ[1] جوعًا ويقول: آهِ ما أشدَّ ألمي! فاستيقظَ بعضُ رفاقِهِ على صوتِ أنينِهِ وظلّوا يتضوّرونَ مثلَه، فشعرَ قائدُهُم بحركتهم، وكانَ واقفًا على قمّةِ التلِّ ليلَهُ كلَّهُ يتولّى حراسةَ الموقعِ بنفسِه، فانحدرَ إليهم وقلّبَ نظرَه في وجوهِهِمْ، ثمْ قال لهم: ناموا يا أولادي، فالنّهارُ لا يزالُ بعيدًا. فقال له أحدُهم: وكيف لنا بالنوم وقد أقلقَ الجوعُ مضاجعَنا وحالَ بيننا وبينَ الغمضِ. فنكس رأسه وصمتَ وقد أضمرَ بينَ جنبيهِ لوعةً لا يعلَمُ إلّا اللهُ مكانها من أعماقِ نفسه.

وإنّهمْ لكذلكَ إذ سمعوا من ناحيةِ العدو بضعَ طلقاتٍ ناريّة فثاروا جميعًا وابتدرُوا سيوفَهُم فجرّدُوها من أغمادِهَا. فصاحَ فيهم «لبريه» هَدّئوا رَوْعَكُم يا اخواني والبثوا في أماكِنِكُم فإنّ سيرانو قد عادَ من رحلته التي اعتادَ أن يرحلها سَحَرَ كلّ ليلةٍ وأظنّ أنّ الاعداءَ قد لمحوا شبحَهُ من بعيدٍ فأطلقوا عليه بعضَ المقذوفاتِ، وأرجو ألا يكونَ قد أصابَهُ منها شيءٌ. فسكَنَ جأشُهُمْ[2] وعادوا إلى مضاجعهِمْ.

وما هي إلّا هنيهةٌ حتّى ظهرَ سيرانو على قمّة التلّ، فهرعَ إليه صديقُه لبريه متلهّفًا وقال له: هل جرحتَ؟ قال: لا، لأنّهم يُخْطِئونني دائمًا. قال: ولكنّي أخافُ عليك إن أخطأوكَ اليومَ أن يصيبُوك غدًا. قال: وماذا أصنعُ وقد وَعَدْتُهَا عنهُ أن يكتبَ إليها كثيرًا ولا بدّ لي من الوفاءِ بعهدي، قال: إنّكَ لم تخبرني حتّى الآنَ عن الطريقةِ التي اتخذتها للتنكّرِ والتواري عن عيونِ الأعداءِ وأرصادِهم. قال: لقد اهتديتُ من زمنٍ إلى مسلكٍ خفيٍّ وراء هذا الجبلِ لا تناله أنظارُهم ولا تمتدّ إليه خواطرهم، فأنا أسلكُه برفقٍ وحذرٍ حتّى أصلَ إلى الموضعِ الذي أجدُ فيه من يتولّى توصيلَ الكتابِ إلى روكسان. قالَ: إذنْ يمكنُكَ أن تأتينا كلّ ليلةٍ بشيء من القوتِ نسدّ به جَوْعَتنا. قال: ليتني أستطيعُ ذلك، بل ليتني أستطيعُ أن أقوّتَ نفسي. إنّنا جئنا هنا لنحاصرَ الأعداءَ في «أراسَ» فأصبحنا محصورين خارِجَهَا، وقد أحاطَ بنا جيشُ العدوّ من كلّ جانبٍ وأخذَ علينا شِعَابَ الأرضِ فلا سبيلَ لنا إلى أيّ شيء حتّى إلى القوت.

وأطرقَ برأسِهِ هنيهة ثمّ قال: ولقد وقفتُ الليلةَ أثْناءَ عودتي على حركة في جيش العدوّ هائلةٍ جدًا؛ ويخيّلُ إليّ أنّ الغدَ يحمل في طياته أعظمَ حادثةٍ مرّت بنا في هذا الميدان؛ فإمّا نجا الجيش الفرنسيّ من مخالبِ الجوعِ أو هلكَ من أوله إلى آخره.

فاصفرّ وجهُ لبريه وقالَ له: قلْ لي ماذا رأيتَ؟ قال: لا أستطيعُ، لأنّي لستُ على يقين، فدعني وشأني وأستودِعُك الله. قال: إلى أين؟: قال: إلى خيمتي لأكتُبَ إلى روكسان رسالةَ الغدِ وربما كانتِ الرسالةَ الأخيرَة. ثمّ مشى إلى خيمته ولبريه يتبعُه بنظراتِهِ الحزينةِ الدامعةِ ويقول: وارحمتاه لك أيّها البائسُ المسكين!

---

(١) تضوّر جوعًا: صاح وتلوّى من شدّة الجوع. (٢) الجأش: الصدر، القلب.

«الوطن»

نشرتِ الشمسُ رايتَهَا البيضاءَ، في آفاقِ السماء، فاستيقظَ الجنودُ من نومِهِمْ يتألّمون من الجوعِ ويترنّحون ضعفًا وإعياءً، فتقدّمَ نحوهم قائدُهُم وحاولَ أن يعزّيهم ويهوّنَ عليهم آلامُهم؛ وهو إلى التعزية والتهوينِ أحوجُ منهم. فلم يأبهوا له وأخذوا يَرمُونه بنظرات السخطِ والغضبِ، فأمرَهُمْ أن يتقلّدوا أسلحتَهُمْ ويأخذوا أُهْبَتَهُمْ، فأعرضُوا عنه ولم يَحْفَلوا به. ومشى بعضُهم إلى بعضٍ يَتَهَامَسُونَ ويَتَغامزونَ ومرّتْ بأفواههم كلمةُ «الثورة»، وهي الكلمةُ الهائلة التي تأتي دائمًا في ترتيبِ قاموسِ الحياةِ بعدَ كلمةِ الجوعِ. فانتفضَ القائدُ واستُطِيرَ رعبًا وفزعًا، وهَرَعَ إلى خيمةِ سيرانو، فهتفَ به، فلبّاه فقال له: أَدْرِكِ الجنودَ يا سيرانو فقد نالَ منهم اليأسُ أو كادَ حتّى نطقوا بكلمة الثورةِ المخيفة.

فخرج إليهم سيرانو وأخذَ يخطو بينهُمْ خطواتٍ هادئةً مطمئنةً ويسارِقُهُمْ من حينٍ إلى حينٍ نظراتِ العتبِ والتأنيبِ، حتّى سكنوا وهدأوا وغضّوا أبصارهم حياءً منه وخجلاً. ثمّ أخذَ يمازِحُهُم ويداعبُهُم ويفتنُّ في مُفَاكَهَتِهِمْ ومطايبتهِمْ حتّى سَرَّى عنهم بعضَ ما بِهِمْ. فقال له أحدهم: أمَا في همومِ الحياةِ وآلامها ما يشغلُكَ عن الفكاهةِ يا سيرانو؟ قال: لا، ولو أن لامرىءٍ أن يختارَ لنفسِه الميتَة التي يريدُهَا، لاخترتُ لنفسي أن أموتَ في ليلةٍ صافيةِ الأديم متلألئةِ النجوم تحتَ قبّةِ السماءِ بأجملِ سلاح، وهو السيف وفي أجمل بقعةٍ وهي الميدان، وأنْ يكونَ آخرُ ما أَنطلقُ به ملحةً لطيفةً يتحرّكُ بها فمي في الساعة التي يلمسُ فيها ذبابُ السيفِ قلبي.

ثم هتفَ: يابرتراندو فلبّاه جنديٌّ شيخٌ قد أوفى على الستّينَ من عمرهِ فقال له: أَخْرِجْ نَايَكَ مِنْ كِيسِكَ، وَغَنِّ لهؤلاءِ الأطفالِ الشرهين تلكَ الأغنيةَ الجاسكونيّةَ التي تذكّرهم ببلادِهِم ومعاهِدِ طفولتهم ومغاني صِبَاهُم. فأخَذَ الرجلُ يغنّيها ويجيدُ في توقيعها، وسيرانو يغنّي معه، فأطرقَ الجنودُ برؤوسهِمْ وقد تمثّلَتْ لهم بلادُهم كأنّها حاضرةٌ بين أيديهِمْ يرونَ جبالَهَا ووديانَهَا وغاباتِها وأحراشَهَا، ويرونَ الرُّعاةَ السُمرَ بقلانسِهِم الحمراءِ، يسوقونَ أمامهم قطعانَ البقرِ والأغنام، والفتياتِ الجميلاتِ في أثوابهن القصيرةِ حاملاتٍ جرارهُنّ على رؤوسهنّ وهُنَّ ذاهباتٌ إلى الغدرانِ أو صادراتٌ عنها، فأخذتْ مدامِعُهُمْ تتحدّرُ على خدودِهِمْ، فيمسحُوْنَها بأطرافِ أرديتهم في صمتٍ وسكون.

فقالَ القائد لسيرانو: إنّك تَهيجُ أشجانَهُمْ، وتستثيرُ آلامُهُمْ بهذه الذكرى، قال: فليبكُوا وليتألمُوا، علّهُمْ يتلهّونَ قليلاً عن آلام الجوعِ التي يكابدونها، وليتَ جميعَ آلامهمْ تنتقلُ من أمعائهم إلى قلوبِهِمْ فيستريحوا، قال: إنّي أخافُ علي حميّتهمْ أنْ تَفْتَرَّ وتتضعضعَ، قال: لا يُخفِكَ ذلك يا سيّدي، فإنّ بكاءَهُم على وطنِهِمْ الصغيرِ، لا ينسيهم واجبَهُمْ لوطنهم الكبير. وإنْ أردتَ أنْ تكونَ على بيّنةٍ من ذلكَ فانظرْ ماذا أصنعُ. ثمّ أشارَ إشارةً خفيّةً إلى حاملِ الطبلِ أن يدق طَبْلَهُ دقّة الهجوم ففعلَ، فانتفضَ الجنودُ من أماكنهِمْ، وثاروا إلى أسلحتهم يتقلّدُونَها، فقال للقائد: انظر يا سيّدي، إلى هؤلاءِ الأطفالِ الباكينَ كيفَ استحالوا في لحظةٍ واحدةٍ إلى

ليوثٍ كواسرَ عندَمَا سمعوا نداءَ وطنِهِمْ، ثمّ التفتَ اليهم فهدّأَ روعَهُمْ، وقال: لا عدِمَتْكُم فرنسا يا أبناءَ جاسكونيا.

وإنّهمْ لكذلكَ إذ هتفَ الحارسُ القائمُ على رأسِ التلّ باسم الكونت دي جيش رئيسِ أركان الحرب، فما سمعَ الجنودُ اسمه حتّى وَجِموا وامتَعضُوا[1] وانتشرَ على وجوههم الألمُ والانقباضُ وأخذَ بعضُهم يقولُ لبعض: ما أثقلَ ظلّه! ما أسمجَ وجهَهُ! إنّه فاسدُ الذوقِ، يلبسُ الشفوفَ الرقيقةَ فوقَ الدرعِ، يلبسُ الحذاءَ اللامعَ في ميدانِ الحربِ، ما أكثرَ تملّقَه! إنّه لم ينجحْ في حياته إلاّ من طريقِ المداهنةِ، حَسْبُهُ أنّه صهرُ ذلكَ الرجلِ الذي يأكلُ في اليوم أربعَ أكلاتٍ في الوقت الذي لا نكادُ نظفرُ فيه بأكلةٍ واحدةٍ في الأربعة الأيّام.

فانتهَرَهُم قائدُهم «كاربون دي كاستل» وقد سَمعَ حديثَهُم وقال لهم: ولكنْ لا تَنْسَوْا أنّه جاسكوني مثلكُم، فقال له أحدهم: نعمْ، ولكنّه جاسكوني عاقلٌ، وما خُلقَ الجاسكوني إلاّ ليكون مجنونًا، فقال لهم سيرانوا: نصيحتي إليكم يا إخواني، أن تتجلّدوا أمامَه وتكتُمُوا في أعماق نفوسِكم همومَكُم وآلامَكُم ولا تسمحوا له بالشّماتةِ بكم. أمّا أنا فسأجلسُ هناكَ قليلاً على هذه الصخرةِ لأقرأَ شيئًا في كتاب «دي كارت» حتّى ينصرفَ ذلكَ الرجلُ لشأنِهِ، فأسرَعوا بمسح آثارِ الدموعِ من خدودِهِمْ واستداروا حلقاتٍ صغيرةً وأخذوا يلعبونَ الورقَ ويتضاحكونَ، كأنّهم لا يشكُون همًّا ولا ألمًا.

فدخلَ الكونت دي جيش متجهّمَ الوَجْهِ مكفهرَّ الجبينِ وكانَ قد سمعَ آخرَ حديثَهُم، وقرأَ على وجوهِهم مايضمرونَ له من البغضاءِ بين جوانحهم، فصاحَ فيهم: لقد سمعتُ بأذني بعضَ ما تقولونَ أيّها الأشقياءُ، فعلمتُ أنّكم لا تتركونَ فرصةً تمرّ بكم دونَ أن تتناولوني بألسنتكُمْ وتنالونَ منّي، فتسمّوني تارةً متملقًا وأخرى منافقًا وتُعِيبُون عَلَيَّ حسنَ هندامي ونظافةِ ملبسي كأنما ترونَ أنّ الجاسكونيّ لا يكونُ صحيحَ النسبِ إلاّ إذا تَصعْلَكَ وتشعّثَ وأصبحَ من البائسينَ المفلوكين.

وكان يتكلّم، والجنودُ مقبلونَ على ألعابهمْ يتشاغلونَ بها كأنّهم لا يسمعونَ ما يقولُ، فقالَ لهمْ وهو يشيرُ إلى قائدِهمْ: ولقد كنتُ أريدُ أن آمرَ قائدكُم بمعاقبتِكُم ولكنّني. . . فقاطعه القائدُ وقالَ له: لو أنّكَ فعلتَ ذلكَ يا سيّدي، لما أذعَنْتُ لأمرِكَ. فاصفرّ وجهُ الكونت وقال: ولماذا؟ قالَ: لأنّني دفعتُ للقيادَةِ العامة ضريبة الرئاسة وهي تجعلني صاحبَ السلطانِ المطلقِ على فرقتي لا ينازعني فيها منازعٌ ولا أخضعُ في أمرها لإرادةٍ غيرِ إرادتي؛ وبعدُ فليسَ مِنَ الرأي أن يحاسبَ القائدُ جنودَه على الحبّ والبغضِ والرّضى والسخطِ أو أن يطلب إليهم شيئًا سوى الطاعةِ والأذعانِ لأوامرِه ونواهيه.

فوجِمَ الكونت ولم يستطعْ أن يقولَ شيئًا ولكنّه التفتَ إلى الجنودِ وقالَ لهم: إنّي احتقرُكُم جميعًا أيّها السفهاءُ الثرثارون، وأحتقرُ مَطَاعِنكم ومغامِزَكم لأنّني أعرفُ مكانةَ نفسي كما أنَّ

---

(١) امتعض: غضب، وتضايق.

الناسَ جميعًا يعرفونها، وأعلمُ أنّني جنديٌّ شريفٌ مقدامٌ لا أبالي بالمخاطرِ التي تعترضني في طريقي، وقد رأيتمْ جميعًا موقفي العظيمَ في «بابوم» الليلةَ الماضيةَ وهجومي بنفسي ثلاثَ مراتٍ على رجالِ الكونت «دى بكوا» حتّى ألجأتُهُمْ إلى الهزيمةِ التي تعرفونها.

وكان سيرانو لا يزالُ مُكبًّا على كتابه يقرأُ فيه. فقالَ لهُ وهو مُطْرِقٌ برأسِه لا يرفعه: وما رأيك في وشاحِكَ الأبيضَ يا سيّدي؟ فدهشَ الكونت واصفرّ وجهُه وقالَ له: ومِنْ أينَ لك عِلمُ ذلك؟ نعمْ، وَقَعَ لي ليلة أمسِ أنّني بينما كنتُ أجولُ في أنحاءِ الميدانِ، لأجمعَ رجالي استعدادًا للهجومِ الثالثِ إذ لمحتُ فَصيلةً صغيرةً من فصائلِ جيشِ العدوّ تتقهقَرُ على مقربةٍ منّي فطمعتُ فيها واَندفعتُ وراءَها اندفاعَ اليائس المستقتلِ لا ألوي على شيء ممّا ورائي، فما هو إلّا أن أدركتُهَا وأعملتُ سيفي في ساقتها حتّى رأيتُني بعد قليلٍ وَسْط خطوطِ جيشِ العدوّ الأكبر وإذا الخطرُ محدقٌ بي من كلِّ جانبٍ فخفتُ الأسْرَ لا مِنْ أجلِ نفسي بلْ من أجلِ الجيشِ الذي أقودُه وأديرُ حركاتِه، وكانَ الظلامُ حالكًا جدًّا فلا ينمُّ عليَّ شيءٌ سوى ردائي الأبيضِ فأسرعتُ بإلقائِه إلى الأرض لأستطيعَ أنْ أتوارى عن عيونِ الأعداءِ فيخفى عليهم مكاني.

ثمّ انسللتُ من بينهِم وغادرتُ صفوفَهم آمنًا مطمئنًّا، وما هو إلا أن بلغتُ مأمني حتّى جمعتُ رجالي وكررتُ عليهم كرّةً هائلةً فكانتِ الواقعةُ الثالثةُ التي أحرزنا فيها ذلكَ النصرَ العظيمَ، فماذا تقولون في هذه الحيلةِ الغريبةِ؟ وكان الجنودُ لا يزالونَ مكبّينَ على ألعابِهمْ لا يرفعونَ إليه أنظارَهُمْ يستمعونَ القصّة، وكأنّهم لا يسمعُونها حتّى انتهى منها، فأمسكوا عنِ اللعبِ وشخصُوا بأبصارهم إلى سيرانو، ليروا ماذا يقول، فقال له: إنّ هنري الرابع يا سيّدي، ما كانَ يرضى لنفسِه مهما كانَ الخطرُ المُحْدِقُ[1] به عظيمًا أنْ يتنازلَ عن ريشتِهِ البيضاءِ لأعدائه.

فتهلّلَ الجنودُ فرَحًا وانبسطتْ أساريرُهُمْ، وعادُوا إلى جَلَبتهم وضوضَائِهم، فقال له الكونت: ذلك لا يعنيني، إنّما الذي يعنيني أنّني قد حقنتُ دمي واستبقيتُ حياتي لوطني، وسلَبْتُ العدوَّ يومًا كانَ يريدُ أن يعدّه من أيّام مجدِه وفخارِه. وقال: أمّا الفكرةُ فبديعةٌ جدًّا لا أرتابُ فيها، ولكنَّ الذي أعلمُهُ أنّ الجنديَّ ما خلقَ إلاّ ليموتَ، فمِنَ العارِ أن يخسرَ هذا الشرفَ بأي ثمنٍ كان، وأقسمُ لكَ يا سيّدي، أنّني لو كنتُ حاضرًا معكَ في تلك الساعةِ ما هانَ عليّ أنْ أرى وشاحَكَ العظيمَ في يدِ أعدائِكَ دونَ أن أقاتلَ عنه حتّى أفتديَهُ ولو بحياتي، قال: قسمٌ ضائعٌ لا قيمةَ له لأنّكَ لم تكنْ معي، قال: بلْ كنتُ معكَ يا سيّدي، وقاتلتُ عن وشاحِكَ حتّى استنقذتُهُ من يدِ أعدائِك وها هوذا، ومدّ يَدَهُ إلى جيبه فاستخرجَ منه الوشاحَ وألقى به بينَ يديه.

فاربدّ وجهُ الكونت، وانتفضَ غيظًا وألقى على سيرانو وعلى الجنودِ نظرةً شزراء[2] ملتهبةً وقال لهم: أتدرونَ ماذا أصنعُ الآنَ بهذا الوشاح؟ قالوا لا، قال سألوّحُ به في الجوّ تلويحًا لا يسرّكُم ولا يهنؤُكُمْ. وصَعَدَ إلى التلّ ولوّح به ثلاثَ مراتٍ في الهواء، والجنودُ يعجبونَ لأمرِهِ

---

(١) المحدق: المحيط.
(٢) نظرة شزراء: بمؤخر العين دليل الغضب.

ولا يدرونَ ماذا يريد، ثمَّ نزلَ وهو يقولُ أمَّا وقد انقضى كلُّ شيء فسأفضي إليكم بسرٍّ من أسرارِ الحربِ ما زلتُ أكتمُهُ في صدري حتّى حان وقته، فاسمعُوه.

قد اتّفقتُ منذُ أيّام معَ جاسوسٍ من جواسيس العدوّ على أن يكونَ عونًا لي على قومِهِ فيما أريدُ، وأن يكونَ مخلَصًا لي مؤتمرًا بأمري. . . فقاطعه سيرانوا وقال له: ولكنّكَ تصطنعُ رجلًا خائنًا يا مولاي. قال: ومن أصطنعُ إنْ لم أصطنعِ الخائنين؟ فهو يدلّني على مَقَاتلِ قومه وَعَوْرَاتِهِم ومكامِنِ أسرارهم من حيثُ لا يدلّهـم علـى شيء إلّا على ما أريدُ أنْ يدلَّهم عليه، أي أنّه يخدعُهمْ ويضلّلهمْ من حيثُ يظنّونَ أنّه ينصحُهُم ويَصدُقُهُمْ، وقد جمعَ قائدنا العامّ مجلسَه الحربيّ صباحَ أمسِ ونظرَ في كارثةِ الجوعِ التي نزلتْ بنا فاستقرّ الرأيُ على أن يسافرَ هو بنفسِه خُلسة على رأسِ فرقتين من فرق الجيش إلى «أورلنس» ليجلبَ منها المؤونة، والذخيرة، فسافرَ من حيثُ لا يشعرُ العدوّ بمكانِهِ وتركَ بقيّةَ الجيشِ هدفًا للهجومِ العام.

فقالَ له كاربون: أخافُ أنْ يعلمَ العدوّ بذلكَ فيكونَ الخطبُ عظيمًا. قال: قد عَلمَ فعلاً وهو يتأهّبُ منذ الأمسِ لمهاجمتنا، فهمَس سيرانو في أذن لبريه: ذلكَ ما حدّثْتُكَ عنه صَباحَ اليوم، واستمرّ الكونت يقول: وقد بعثُوا جاسوسَهُمْ هذا ليتفقّدَ لهم خطوطَ جيشنا ويدلّهم على أضعفِ نقطةٍ فيه ليهاجموهَا، فاتفقتُ معه على أنْ يدلّهمْ على النقطةِ التي أُريدُها وأعطيهِ الإشارةَ منها مضمرًا في نفسي أن أُغريَهُم بالهجومِ على أقوى فرقةٍ في الجيشِ لتستطيعَ مشاغلَتُهُم ومطاولَتُهُمْ زمنًا طويلًا، حتّى يتمكّنَ قائدنا من العودةِ بجيشه إلى مركزه آمنًا سالمًا. ولمّا كانتْ فرقتُكُم هي أقوى فرقِ الجيشِ وأمضاها عزمًا وأصلبَهَا عودًا، فقد رأيتُ أن أجلعَها هدفَ ذلكَ الهجومِ وإن كنتُ أعلمُ أنّها ستموتُ عن آخرها، وقد كنتُ أمرتُ ذلكَ الجاسوسَ أنْ يقفَ وراءَ هذا التلّ لينتظرَ إشارتي فيذهبَ بها، وها أنتمْ أولاء ترونَ أنّني قد أعطيتُه إيّاها بخفقةِ ذلك الوَشاحِ فاستعدوا للموتِ فقد انقضى كلّ شيء.

فقال له سيرانو: أهذا كلّ انتقامِكَ يا سيّدي؟ إنّكَ قد أحسنتَ إلينا من حيثُ أردتَ إساءتنا، فالجاسكونيُّ لا يخافُ الموتَ بل يخافُ الحياةَ مع الذلّ والعار. قال: ما شككتُ في شجاعتك قطّ يا سيرانو، فإنّ مَنْ يقاتلُ مائةَ رجلٍ وحدَه فيغلبُهمْ، لا يبالي بخطرٍ من الأخطارِ مهما عَظُمَ شأنُه: ثمّ التفت إلى الجنود وقال لهم: لا أكتمُكُمْ أنّني كنتُ أستطيعُ أنْ أختارَ لاستقبالِ هذهِ النازلةِ فرقةً أقلَّ شجاعةً من فرقتكم لو أنّني أحببتُكم ورضيتُ عنكم وحمدتُ عِشْرَتَكُم وسيرَتَكُم، أمّا الآن فقد استطعتُ بعملٍ واحدٍ أن أؤدّيَ واجبي وأشفيَ غليلي، فقال له سيرانو: وشيءٌ آخر يا سيّدي، قال: وما هو؟ فمشى نحوه خطوةً وأسرَّ في أذنه: أن تترمّلَ روكسان: فارتعدَ الكونت ونكّسَ رأسه وتسلّل من مكانه دونَ أن يقولَ شيئًا.

فالتفتَ سيرانو إلى الجنودِ وقالَ لهم: لقد آنَ أيّها الأصدقاءُ أنْ نضعَ على شعارِ جاسكونيا ذي الألوانِ الستّةِ لونًا دمويًا أحمرَ كان ينقصُه ليكونَ أجملَ شعارٍ في العالم، فكونوا عند ظنّي وظنّ

فرنسا بكم، واعلموا أنّه ما مِنْ ميتةٍ في العالم أفخرَ ولا أَمجدَ من هذه الميتةِ التي ستموتونها اليوم. فهَتفوا جميعًا بحياةِ جاسكونيا وحياةِ فرنسا وابتدروا أسلحتَهم يشحَذُونها ويصقُلُونها.

«الدمعة»

والتفتَ سيرانو فرأى كرستيان واقفًا وراءَه مُطرقًا جامدًا وقد انتشرتْ على وجهِهِ غبرةٌ سوداءُ من الحزنِ، فتقدَّمَ نحوه وقال له: أخائف أنتَ يا كرستيان؟ قال: لا بلْ حزينٌ لأنّي سأفارقُها، فانتفضَ سيرانو عند سماعِ كلمةِ الفراقِ ووضعَ يده على قلبِه ورفَعَ عينيه إلى السماء ولكنّه لم يستطعْ أن يقولَ شيئًا، وصمتَ هنيهةً ثمّ قال له: هوِّن عليكَ الأمرَ يا صديقي، فرحمةُ الله أوسعُ مِنْ أَنْ تضيقَ بنا، فقال: كنتُ أُريدُ على الأقلّ أنْ أكتبَ لها كتابَ وداعٍ أبثّها فيهِ خواطرَ نفسي ولواعِجَها[١] في ساعتي الأخيرة، قال: لقد حَدّثَتني نفسي ليلةَ الأمسِ ولا أعلمُ كيفَ كانَ ذلكَ بهذا المصيرِ الذي سنصيرُ إليه الآنَ وإنّ هذا اليومَ هو آخرُ أيّامنا على وجهِ الأرضِ فكتبتُ إليها عن لسانِكَ الكتابَ الذي تريدُه، وسأبعثُ به إليها الآن.

قال: أرنيه، قال: ها هوذا. وأخرجَ الكتابَ من جيبِهِ فأعطاه إياه، فأخذ يقرؤه، حتّى وَصَلَ إلى سطرٍ من سطورِه الأخيرة، فتوقّف ذاهلاً مدهوشًا وقال: غريب جدًا! ما هذا الذي أرى؟ قال: ماذا؟ قال: نقطةٌ بيضاءُ على الورقِ كأنها دمعةٌ، فاختطفَ سيرانو الكتابَ من يده وقال أرني، وظلّ يتأمّلُ فيه مصعدًا منحدرًا كأنّه يفتّشُ عن النقطةِ فلا يراها، فقال له كرستيان: إنّها دمعةٌ يا سيرانو ما في ذلكَ ريبٌ ولا شكّ فهلْ كنتَ تبكي؟

فانتفضَ إلاّ أنّه تجلّدَ وتماسَكَ وقال: نعم. قال: وما الذي أبكاك؟ قال: ذلكَ شأنُ الشعراء دائمًا، لا يتناولونَ موضوعًا من الموضوعاتِ المحزنَةِ للكتابةِ فيه عن لسانِ غيرهم، حتّى يتأثّروا به كأنّهم أبطالُه وأصحابُ الشأنِ فيه، وفقد بدأتُ في كتابةِ هذاالكتابِ وأنتَ ماثلٌ في ذهني لا تفارقُه، فما زالَ يمتدُّ بي الخيالُ ويطير بي في أجوائه، حتّى تمثّلَ لي أنّي أنا الحزينُ المتألّم، والمفارقُ المفجوع، وأنّ الذي أصفُه إنّما هي همومُ نفسي وآلامُها، فانحدرتْ من عيني بالرغم منّي هذه الدمعةُ التي تَرَاها، فنظرَ إليه كرستيان نظرةً غريبةً واختطفَ الكتابَ من يده وقال له: دَعْهُ معي الآنَ، ثمّ طواهُ ووضَعَهُ في ثنايا قميصِه وانصرف.

«جواز المرور»

وقامتْ في هذه اللّحظةِ ضجّةٌ في المعسكرِ وسُمعتْ أجراسُ مركبةٍ قادمةٍ من بعيدٍ، وصائحٌ يصيحُ من رجالِ الحرسِ بصوتٍ غليظ أجشّ: من القادمُ؟ فصعَدَ سيرانو وكرستيان إلى التلّ لينظروا ماذا جرى، فرأوا مركبةً مقفلةً جميلةً تحملُ شارةً من شاراتِ الشرفِ ويجلسُ بجانبِ حوذيّها[٢] غلامانِ حَسَنَا الزيّ والهندامِ، فما شَكَّ الجميعُ في أنّها قادمةٌ من باريس وأنّ راكبها

(١) لواعج النفس: حبّها المحرق.

(٢) الحوذيّ: سائق العربة.

رسولٌ من قبلِ الملكِ يحملُ أمرًا من أوامِره، فاصطفّوا صفّين متقابلين، وسكنُوا سكونًا عميقًا لا حِسّ فيه ولا حَرَكة، حتّى وقفتِ المركبةُ على مقربةٍ منهمْ، فأتلعوا[١] إليها أعناقهُمْ وشخصُوا بأبصارِهمْ لينظروا مَنِ القادم. ثمّ فُتحَ بابُها فإذا سيّدة باهرةُ الجمالِ مشرقةُ الطلعةِ قد وثبتْ منها وثبةَ الجؤذرِ[٢] من خميلَتِه، فصاحَ سيرانو وكرستيان معًا بصوتٍ واحدٍ: روكسان!

وكانتْ كما يقولون، فصعدتْ إلى التلّ بخفّةٍ ورشاقةٍ حتّى بلغتْ قمّتَهُ وقالت: صباحُ الخير أيّها الأصدقاء، لعلّكُمْ جميعًا بخير، فرفعَ الجنودُ قبّعاتهمْ، وظلّوا باهتين لمرآها ذاهِلِينَ، وكأنّما أدركَهُمْ الخجلُ منها لرثاثةِ ملابسِهِمْ وتشعُّثِ هيآتِهِمْ، فظلّوا يمسحون لحاهُمْ ويفتلون شوارِبَهم ويُقلّبونَ النظر في أعطافِهِم ليروا هلْ لَصَقَ بها أو خَلَطَها ما تَقْذَى به عيونُ السيّداتِ الجميلات، ومرّت بهمْ روكسان في مواقفهم تحيّيهم واحدًا فواحدًا بابتساماتِها اللامعةِ والمتلألئةِ وكَلماتِها العذبةِ الجميلةِ، حتّى بلغتْ موقفَ كرستيان فألقتْ نفسَها بين ذراعيهِ فقالَ لها وهو ذاهلٌ مدهوش: ما الذي جاءَ بك يا روكسان؟ قالتْ: أنتَ الذي جئتَ بي يا زوجي العزيز.

وكانَ سيرانو واقفًا مُذْ رآها وراءَ إحدى الربوات[٣] موقفَ الذهلِ المشدوهِ يُرعَدُ ويضطربُ ويغالبُ في نفسه ثورةً هائلةً تتوثّب نارُها بين أضالِعِه. ثمّ ما لبث أنْ سمعَ صوتَها تناديه، فانتبهَ من غَشْيَتِهِ وتقدّمَ نحوها وانحنى بين يديها فابتسمتْ له، وصافَحته مصافحةً طويلةً وقالت له: لعلّك بخيرٍ يا ابنَ عمي، قال: نعم، وأشكُر لكِ تفضّلكِ بزيارتنا وإن كنتُ أرجو أن تكونَ زيارةً قصيرة، قالت: لماذا؟ قال: لأنّنا في ميدان حربٍ وأخشى أن يصيبَكِ من شرّها شيءٌ.

قالتْ: بلْ سأبقى معكم أطولَ مما تظنّون، فأعِدُّوا لي مقعدًا أجلسُ عليه، فابتدرَ الجنودُ تلبيةَ أمرِها، ولم يبقَ بينهم حاملُ طبلٍ أو صاحبُ صندوقٍ إلاّ قدّمه إليها، فجلستْ وهي تقول: ما أطولَ المسافةَ بين باريسُ وأراس! لقد كنتُ أظنُّها أقصرَ من ذلكَ، ولقدْ مررتُ في طريقي ببلادٍ شملها الخرابُ والدمارُ، ورأيتُ بعيني منظرَ الجائعينَ والعارينَ والمتألّمين والصارخينَ، وما كنتُ أحسَبُ أنّ الحربَ تنالُ من الإنسانيّةِ هذا المنالَ العظيمَ، والحقَّ أقولُ يا أصدقائي، إنّ العاطفةَ التي جاءتْ بي إلى هنا أجملُ وأرقُّ من العاطفةِ التي جاءت بكم، فَكَمْ بينَ من يأتي ليقبّلَ حبيبه، ومن يأتي ليقتُلَ عدوه، والتفَتَتْ إلى كرستيان وقالت له: أليس كذلكَ يا زوجي العزيز؟ قال: بلى. فقال لها سيرانو: ولكنْ كيفَ استطعت اختراقَ خطوطِ العدوّ وتجشّم[٤] هذه المخاطرِ كلّها.

قالت: لقد كانَ ذلكَ سهلًا جدًا يا ابن عمّي، واسمحوا لي أيّها الأصدقاءُ أن أقولَ لكم: إن أعداءَكم الإسبانيين قوم ظرفاءُ أرقّاء، لم تسمحْ لهم شهامتُهُمْ وشرفُ نفوسِهِم أن يُطْلقوا النارَ على امرأةٍ عَزْلاً، فلقدْ كنتُ كلّما مررتُ بحارسٍ من حرّاسهم فتحتُ نافذةَ مركبتي

---

(١) أتلعوا: رفعوا. (٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشيّة.

(٣) الربوات: المرتفعات. (٤) تجشُّم الأمر: تحمّل مشقّاته.

وأشرفتُ عليه، وابتسمتُ في وجهه ابتسامةً لطيفةً فلا يلبثُ أن يستقبلني بمثلها ويتنحّى لي عن طريقي، فأمضيَ في سبيلي، فكانتِ الابتسامةُ هي «جوازَ المرور» الذي فتحَ لي جميعَ الأبوابِ الموصدةِ أمامي، حتى وصلتُ إلى هنا، قالَ: ألم يسألْكِ أحدٌ عن وُجهَتِكِ التي تقصدِينها؟ قالت: كانَ إذا سألني أحدُهُم قلتُ له: إنّني ذاهبةٌ لرؤيةِ عشيقي، فتقعُ هذهِ الكلمةُ العذبةُ الجميلةُ من نفسه موقعَ الماءِ من مهجةِ الظامىءِ الهيمانِ، فيبشّ[1] في وجهي ويحيّيني بإحناءِ رأسِه ويتركُني وشأني، فقاطعها كرستيان وقال لها: ولكنّني لستُ بعشيقِكِ يا سيّدتي، بل زوجُكِ، قالت: ما ارتبتُ في ذلكَ قطّ يا زوجي العزيز، ولكنّ كلمة العشيق تنال من نفسِ العاشقِ المفارقِ - وكلُّكُمْ ذلكَ الرجل - مَا لا تنالُ منها كلمة الزوجِ، فسامحني واغفرْ لي ذنبي.

وهنا دخلَ الكونت دي جيش رئيسُ أركانِ حربِ الجيشِ فرأى روكسان واقفةً موقفَها هذا بينَ الجنودِ، فدُهِشَ دهشةً عظمى، إذ رَآها، ودنا منها فحيّاها وقال لها: ما الذي جاءَ بكِ إلى هنا يا سيّدتي؟ قالتْ: جئتُ لأرى زوجي لأنّني لم أتمتعْ برؤيته بعدَ زواجي بِهِ إلاّ تلكَ اللحظةَ القصيرةَ التي تعلمها. فاربدَّ[2] وجهُه غيظًا وقال لها: لقد أخطأتِ بعملِكِ هذا خطأً عظيمًا، وليسَ من الرأي أنْ تلبثي هنا بعدَ الآنِ لحظةً واحدةً، فأَعِدّي عُدَّتكِ للرجوعِ من حيثُ أتيتِ، قالتْ: لماذا؟ قال: لأنّ المعركةَ ستدورُ بعدَ ساعةٍ أو ساعتينِ ولا مكانَ للنساءِ في ميادينِ الحروبِ، فقال كرستيان: وسنموتُ في تلكَ المعركة يا سيّدتي، عن آخرنا لأنّ الكونت أرادَ ذلك.

فذعرتْ روكسان واصفرَّ وجهُهَا والتفتَتْ إلى الكونت وقالتْ له: أصحيح ما يقولُ يا سيّدي؟ إنّكَ إذنْ تريدُ أن أُصبحَ أرملةً، قال: لا، وأقسمُ لكِ، قالت: ألا تعلمُ أنّه إذا قُدّرَ لي هذا المصيرُ كانَ ذلكَ آخر عهدي بالدنيا ونعيمِها، واستحالَ على عين الشمسِ أن تراني بعد اليوم إلّا إذا استطاعتْ أن تخترقَ بأشعّتها صفائحَ القبور؟ قال: أقسمُ لكِ يا سيّدتي أنّني. . . فقاطعته وقالت: كيفما كانَ الأمرُ فمحالٌ أن أغادرَ هذا المكان لأنني أريدُ أن أموتَ مع أبناء وطني، فهتفَ سيرانو بصوتٍ عالٍ: لقد نطقتِ بكلمةِ الأبطال يا سيّدتي، فأهنّئُكِ. فابتسمتْ وقالت: ذلكَ لأنّني ابنةُ عمّكَ يا سيرانو، فصاحَ الجنود جميعًا بصوتٍ واحد: سندافع عنكِ يا سيّدتي إلى الموتِ، قالت: شكرًا لكم يا أصدقائي، ذلكَ أملي فيكم وفي الدمِ الجاسكونيّ الذي يجري في عروقكم.

فتقدّمَ نحوها «كربون» قائدُ الفرقةِ وانحنى بينَ يديها وقال لها: أما وقد أصبحتِ شريكَتَنا في حظّنا ومصيرِنا، فَأْذني لي أن ألجأ إليكِ في طَلبَةٍ واحدةٍ، قالت: وما هي؟ قال: أن تفتحي يَدَكِ القابضةَ على هذا المنديلِ الحريريّ الجميلِ. فلم تفهمْ ما يريدُ، ولكنّها فتحتْ يدها فسقطَ المنديلُ على الأرض، فالتقَطه، وقال لها: إنّ فرقتي يا سيّدتي، ليستْ لها رايةٌ، وسيكونُ منديلُكِ هذا رايَتَها التي تقاتلُ في ظلّها، واعلمي أنّ جنودي سيموتونَ جميعًا دفاعًا عن الرايةِ التي قدّمْتها

---

(1) بشّ: تهلّل وأشرق.

(2) اربدّ: اغبرّ.

لهمْ أجملُ فتاةٍ في فرنسا، ثمّ عَقدَ المنديلَ بسنانِ رمحِهِ الطويلِ وركّزَه على قمّةِ التلِّ، فظلّتِ الريحُ تعبثُ به وظلَّ الجنودُ ينظرونَ إليه نظرَ السائرِ إلى نجمةِ القطبِ الخافقة في كَبِدِ السماء.

«الوليمة»

فالتفتتْ روكسان إلى الجنودِ باسمةً وقالت: ألا تقدّمونَ لي شيئًا من طعامِكُم وشرابِكُم أيّها الإخوانُ؟ فإنّي أكادَ أموتُ جوعًا! فنظر القومُ بعضُهم إلى بعضٍ وقد مَشَتْ في وجوههم صفرةُ الموتِ ودَهَمَهُمْ من الأمرِ ما لم يكنْ يخطرُ لهم ببالٍ، فشعرتْ روكسان بحيرَتِهِمْ واضطرابِهِمْ فابتسمتْ وقالت: أو قُوموا بنا جميعًا إلى مطعم «راجنو» لنتناولَ عندَهُ من الطعامِ ما نريدُ، فقال لها أحدهم: إنّك تهزئينَ يا سيّدتي! فأين نحنُ من راجنو ومطعَمِه؟ قالت: إذنْ لا أستطيعُ أن أتصوّرَ كيفَ يكونُ سرورُكُم واغتباطُكُمْ إذا علمتُمْ أنّني قد نقلتُ لكم هذا المطعمَ وصاحِبَه من باريسَ إلى هنا؟

وتركتهم ذاهلينَ مدهوشينَ لكلامِهَا وصعدتْ إلى التلّ وصاحت: راجنو! راجنو! هاتِ لنا غداءنا، فما أتمّتْ كلمَتَها حتّى أقبلَ راجنو والغلامانِ الخادِمان يحملونَ على أيديهم سلالَ الخبزِ وصناديقَ الخمرِ وأفخاذَ اللحمِ الناضجةَ وأنواعَ الفطائرِ والحَلْوى، فهتَفَ الجنود: راجنو! راجنو! وداروا به يحيّونه ويعتنقُونه ويجاذِبُونه أثوابَه فصاحَ فيهم: دعوني أيُّها الكَسالى واذهبوا إلى المركبةِ واحملوا الطعامَ الذي جئناكم به بأنفسِكُمْ، فَحَسْبُنَا ما حملنا لكم، فَهَرَعوا إلى المركبةِ وعادوا بما بقي فيها من لحمٍ وخمرٍ وحَلْوى وفاكهةٍ فرحينَ مغتبطينَ وهم يقولون: كيفَ غفلتْ عيونُ الأعداءِ يا راجنو عن هذا الطعامِ الشّهيّ؟ قال: لأنَّ عيونَ روكسان الجميلةُ كانتْ أشهى إليهم منه.

وما هي إلاّ هنيهةٌ حتّى استداروا حلقاتٍ واسعةً وأنشأوا يأكلونَ ويقصفونَ، وروكسانُ قائمةٌ في خدمتِهِمْ تقدّمُ لهذا كأسًا ولهذا رغيفًا ولهذا سكّينًا ومدامِعُها تتلألأ في عينيها رحمةً بهم وإشفاقًا عليهم، وسيرانو واقفٌ ناحيةً ينظرُ إليها نظرَ السرورِ والغبطةِ، ويردّد بينه وبين نفسه: يا ملاكَ الرحمةِ والإحسان! يا أجملَ نسمةٍ طاهرةٍ على وجهِ الأرض! يا نفسًا نقيّةً صافيةً لم يَخْلُقِ اللهُ لها مثالًا بينَ نفوسِ البشر! حسبي منك أنْ أراكِ وأن ينفذَ شعاعٌ من أَشعّةِ جمالِكِ إلى قلبي المظلم الحالِكِ فيضيءَ ظلمتَهُ ويُشْرِقَ في جوانبه.

وإنّهم لكذلكَ إذ سمعوا صوتَ الكونت دي جيش مقبلًا من بعيدٍ فقالَ بعضهُم لبعضٍ: محالٌ أن ينالَ هذا الرجلُ البغيضُ لقمةً واحدةً من طعامِنا فَلْنَطْوِ عنه كلّ شيءٍ حتّى ينصرفَ لشأنه، وما هي إلاّ كرّة الطرفِ أنِ اختفى كلُّ شيءٍ في ثنايا معاطِفهم وفروجِ أكمامهم ووراءَ صناديقِهم. ثم دخلَ الكونت وهو يقول: ما هذه الرائحةُ الجديدة؟ فصمَتَ الجنودُ ولم يقولوا شيئًا، فظلّ يقلّبُ النظرَ في وجوههم فيرى الحمرة التي سرت فيها من حرارةِ الغذاء ونشوةِ الشرابِ فيعجبُ لها عجبًا شديدًا، ثم قال: ما لي أراكُم منتعشينَ متهلّلينَ وعهدي بكُمْ قبلَ هذه اللحظةِ تتهافتونَ جوعًا وتتساقطون ضعفًا وإعياءً!

فقال له سيرانو: إنّها صحوةُ الموتِ يا سيّدي. فأشاحَ بوجهِهِ عنه والتفتَ إلى روكسان وقال لها: أباقيةٌ أنتِ هنا حتّى الآنَ يا سيّدتي؟ قالت: نعم، وما أنا ببارحةٍ هذا المكانَ، حتّى أعودَ بكم أو أموتَ معكم. فأطرقَ هنيهةً ثمّ رفعَ رأسَه وهتفَ بكاربون، فلبّاه ووقَف بين يديه، فقال له: إنّكَ ستديرُ المعركةَ المقبلةَ بالنّيابة عنّي يا حضرةَ القائد، قال: وأنت يا سيّدي؟ قال: أمّا أنا فباقٍ هنا لأدافعَ عن روكسان بنفسي لأنّي لا أستطيعُ أن أتركَ امرأة في خطرٍ. فأكْبَرَ القومُ جميعًا هذه الشهامةَ الكبرى والعظمةَ النفسيّة، وهمسَ بعضُهم في أذنِ بعض: إنّ الرجلَ لا يزال يجري في عروقه الدم الجاسكوني، فقال لهم سيرانو: إذن يمكننا أن نقدم إليه شيئًا من طعامِنَا وشرابنا.

فاندفعوا جميعًا نحوه ومدّوا إليه أيديهم بما مَعَهُمْ من الطعامِ والشرابِ، فألقى عليهم نظرةً عاليةً مترفّعة وقال لهم: نعمْ إنّني أموت جوعًا وسغبًا[1] ولكنّ الجاسكونيَّ الشريفَ لا يأكلُ فضلاتِ طعامِ غيره، فصاح سيرانو: شهامةٌ أخرى أيّها الأصدقاءُ لا تنسوها له، وهتف: ليحْيَ الكونت دي جيش، فهتفَ الجندُ بهتافِهِ فشكرهُم الكونت بإيماءةِ رأسِهِ ثمّ أنشأ يخطبُ فيهم خطبَة الحربِ ويلقي عليهم الأوامرَ العسكرية حتّى قالَ لهم وهو يشير إلى مدفعٍ جاثم بين يديه: إنّكم ما تعوّدتم إطلاقَ المدافعِ قبلَ اليوم، فاعلموا أنّ المدفع يتراجَعُ بشدّةٍ عند خروجَ القذيفةِ منه فكونوا على بيّنَةٍ من ذلكَ واحذَروه. فَصَاحَ أحدُهم بصوتٍ عالٍ: إنّ مدفعَ الجاسكونيين مثلهم يا سيّدي، لا يتراجع قطّ، فابتسمَ له وشكرَه وقال: لا يَخِيبَنَّ أملي فيكم يا أبناءَ وطني، ثمّ التفتَ إلى روكسان وقال لها: تعالي معي يا سيّدتي، لتشاهدي منظرَ استعراضِ الجيشِ، فأعطته يَدَهَا فصعَدَا معًا إلى قمة التلّ.

وما أبعدَ إلا قليلاً حتّى مشى سيرانو إلى كرستيان وقال له همسًا: كلمةٌ واحدةٌ أريدُ أن أقولها لكَ يا سيّدي، فامشِ معي قليلاً، فمشى معه فقال له: ربّما فاتَحَتْكَ روكسان في شأن الرسائل التي كانتْ تردُ عليها منكَ وستقولُ لكَ إنّها كانتْ تتلقّى منكَ كلّ يوم رسالةً فلا يدهِشْكَ ذلكَ ولا ترتَبكْ لئلّا يفتضحُ الأمر. قال: وهلْ كنتَ تكتبُ إليها كلّ يومٍ؟ قال: نعمْ لأنّني تعهّدتُ لها عنكَ قبلَ سفرنا كما تعلم أن تَكتبَ إليها كثيرًا، فلم أرَ بدًّا من الوفاءِ، وما كانَ يكلّفني ذلكَ أكثرَ من التعبيرِ عن شعورِكَ وخوالجِ نفسِك، وذلكَ ما لا ينقصني العلمُ به. فإذا فَاتَحَتْكَ في هذا الشأنِ فلا يكنْ لكَ فيه قولٌ غيرُ الذي قلتُ لك.

قال: وكيفَ كنتَ تستطيعُ توصيلَ هذهِ الرسائلِ إليها وقد حَصَرَنا العَدُوُّ من كلِّ جانبٍ وذادَنا عنْ كلِّ شيءٍ، حتّى عَنْ طعامِنَا وشرابِنَا؟ قال: الأمرُ بسيطٌ جدًّا، كنتُ أخرجُ في سحرِ كلِّ ليلةٍ متنكرًا تحتَ جنحِ الظلامِ فأكمنُ تارة وأظهرُ أخرى...

فقاطعه كرستيان وقالَ له: وهلْ هذا بسيط جدًّا؟ الحقَّ أقولُ لكَ يا صديقي إنّني أصبحتُ أعجبُ لأمرِكَ كثيرًا، ولئنَ استطعتُ أن أفهمَ كلَّ شيءٍ فإنّني لا أستطيعُ أن أفهَمَ اهتمامَكَ بهذا

(١) السغب: شدّة الجوع.

الأمرِ هذا الاهتمامَ كلّه إلى درجةِ المخاطرةِ بحياتِكَ في سبيله. قال: ما في ا لأمرِ مخاطرةٌ ولا مجازفةٌ، فقد كان يلذّ لي كثيرًا أنْ أقومَ لكَ بهذه الخدمةِ وأن ألاقي ما ألاقي من الأخطارِ في سبيلها. قال: وما الذي كان يعجبُكَ من ذلك؟ قال: التمثيلُ، قال: أيُّ تمثيلٍ؟ قال تمثيلُ عواطفِكَ وشعورِك، فإنّني مُذْ أخذتُ نفسي بتمثيلِ دورِكَ في هذه المأساةِ المحزنَةِ، لم يَزلْ يستهوينِي التمثيلُ ويُهيمنُ على نفسي، حتّى أصبحتُ أتخيّلُ أنّي صاحبُ الدور الذي أمثّله وأنّني أنا المعنيُّ دونَكَ بكتابةِ هذه الرسائلِ والعنايةِ بها والتذرّع بكلّ وسيلةٍ إلى توصيلها إليها، قال: وهل تبلغ لَذّةُ التمثيلِ بامرىءٍ هذهِ المبالغَ كلَّها؟ قال: نعم، وكثيرًا ما ذَرَفَ الممثلونَ دموعًا لم يذرفها العاشقونَ أَنفسُهُمْ.

ثمّ التفتَ فرأى روكسان مقبلةً فقال له: قد فهمتَ الآنَ كلَّ شيءٍ فكنْ حكيمًا حازمًا. ثمّ تسلّلَ إلى خيمتِهِ وتركَهُ واقفًا مكانه.

«حقيقة الجمال»

قالَ كرستيان لروكسان وقد جلسَا معًا على بعضِ المقاعد: هل لكِ أن تحدّثيني يا روكسان ما الذي جاءَ بكِ إلى هنا؟ فإنني لا أزالُ أعجبُ لأمركِ كلَّ العجبِ ولا أكادُ أصدّقُ أنّ الحبّ يجشّمُ صاحبَهُ هذه الأخطارَ التي جشمتِها نفسَك في سبيله، قالت: لقد سحرَتْني ومَلَكَتْ عليّ لُبّي رسائِلُكَ العذبةُ الجميلةُ التي كنتَ تُرْسِلها إليّ صبيحَة كلّ يوم وتودِعُها شعورَ قلبكَ وهواجسَ نفسِكَ وتكتُبُها بتلك اللغةِ الغريبةِ المؤثّرة التي لو لامَسَتْ الصخرَ الأصَمّ لانفجرَ، وتناثرتْ شظاياه في أجوازِ الفضاءِ، وقد حاولتُ كثيرًا أن أثبتَ لها وأقاومَ تأثيرَها على نفسي بكلّ سبيلٍ فَغَلَبَتْني على أمري وقادتْني إليكَ كما تراني، قال: أَمِنْ أجلِ بضعِ رسائلَ بسيطةٍ...

فقاطَعَتْه وقالتْ: لا تَقُلْ بسيطة، بل هي الوحيُ الإلهيّ الذي ينزلُ على نفوسِ الملهمينَ من البشر، بل هي القوّة الغيبيّة التي تهيمنُ على العالم وتحيطُ به من جميع أقطارِه دونَ أن يدركَ أحدٌ مكانَها أو يعرفَ مأتاها، ولقد كانَ يخيّلُ إليّ وأنا أقرؤها أنّني أرى صورَتَكَ فيها كما يَرَى الناظرُ صورةَ البدرِ من وراءِ السحبِ الرقيقةِ، فأهوي إليها بفمي لأقبّلَها فإذا أنا أقبّلُ السطورَ والكلماتِ.

فأطرقَ كرستيان برأسِهِ، وقد ألمّ بنفسِه مِنَ الهمّ والكَمَدِ ما اللهُ عالمٌ به، واستمرّتْ روكسان في حديثها تقول، إنّني ما أحببتُكَ يا كرستيان حبًّا صادقًا متغلغلًا في أعماقِ نفسي، إلّا منذُ تلكَ الليلة التي رأيتُكَ فيها واقفًا تحتَ شرفتي تناجيني نِجاءً عذبًا رقيقًا بتلكَ النغمةِ الرقيقةِ المؤثّرةِ، وتُفْضِي إليَّ بذاتِ نفسِكَ كأنّكَ قد ألْمَسْتَني فؤادَكَ ووضعت يدي على قلبكَ، ثمّ توالتْ عليّ رسائِلُكَ بعد ذلكَ فكنتُ أسمعُ فيها دائمًا تلكَ النغمةَ الموسيقيّةَ الخلّابةَ، وكأنّكَ لا تزال واقفًا أمامَ شرفتي تناجيني، فلا أستطيعُ أنْ أملكَ نفسي دونَ البكاءِ والحنين. وأقسمُ لكَ لو أن «بينيلوب»[1] وَرَدَتْ عليها من زوجِها «عولس»[1] تلكَ الرسائلُ التي وردتْ عليّ منك،

---

(١) بنيلوب: زوجة عوليس في ملحمة هوميروس (الأوذيسّة) انتظرته عشر سنين حين كان يحارب في طروادة.

لما أطاقَتْ صبرًا على فِراقِهِ ولألْقَتْ بنسيجها الذي عُرِفَتْ به في التاريخِ وذهبتْ تفتّشُ عنهُ بينَ سَمَعِ الأرضِ وبصَرِهَا حتّى تلقاه.

فقال ونفسُه تذوبُ حسرةً وكمدًا: ما كنتُ أقدِّر يا روكسان، أنّ تلكَ الرسائلَ الصغيرةَ تبلغُ من نفسِكِ هذه المبالغَ كلّها. قالتْ: لقد كانَ سلطانُها على نفسي عظيمًا جدًا، وكنتُ أعيدُ قراءتها مرّاتٍ كثيرةً حتّى تتشرّبَهَا نفسي وتتمثّلها روحي، وحتّى كانَ يُخيّلُ إليّ أنّ كُلّ كلمةٍ من كلماتها ورقةٌ تَطِيرُ إليّ من أوراقِ روحك؟ فما لبثْتُ أَنْ شعرتُ أنّني قد أصبحتُ ملكًا لكَ وأسيرةً في يديكَ وأنَّ أَمْرَ نفسي قد خَرَج مِنْ يدي فلا حولَ لي فيه ولا حيلة.

فاكتأبَ كرستيان وتقبّضَ وجهُهُ، وقال لها: أهذا كلُّ ما جاءَ بِك إلى هنا؟ قالت: نعمْ، جئتُ لأستغفِرَكَ من ذلكَ الذنبِ الذي أذنبتُهُ إليك، فَقَدْ أحببتُكَ لأوّلِ عهدي بكِ لجمالِكَ ورونَقِكَ وقَسَامَةِ وجهِكَ، كأنّ الجمالَ هو كلّ فضائِلِكَ ومزاياك، فأَهَنْتُكَ بذلكَ إهانةً عظمى، أمّا الآن فإنّي أجثو بين يديكَ - لا بجسمي فإنّكَ لا تلبثُ أن ترفعني بيدِك - بل بروحي التي لا يمكِنُكَ أن تغيّر مكانَها منكَ أبدًا - طالبةً صفحَكَ وعفوَكَ عن تلكَ الجريمةِ التي اقترفتها، وما أحسبُكَ تضنّ عليَّ بذلكَ في هذهِ الساعةِ التي نَقِفُ فيها جميعًا على أبوابِ الأبديّةِ ونودّعُ فيها الحياةَ الوداعَ الأخيرَ.

فانتفضَ كرستيان وشَخَصَ في وجهها ساعةً ثمّ قالَ لها: هذا شأنُكِ في الماضي، ثمّ ماذا كانَ بعدَ ذلك؟ قالت: كنتُ بعدَ ذلكَ أكثرَ تعقّلاً ورويّةً وأبعدَ فِكْرًا ونَظَرًا، فامتزجَ في نظري جمالُ صورتِكَ بجمالِ نفسِك فاستحالتا إلى صورةٍ واحدةٍ فأحبَبْتُهَا. قال: والآن؟ قالت: أمّا الآن فقد انتصرتْ نفسُكَ عليكَ انتصارًا عظيمًا، فأصبحتُ لا أحبُّ منكَ سِوَاها، ولا أشعرُ بسلطانٍ لغيرِهَا على قلبي.

فاصفرّ وجهُهُ اصفرارًا شديدًا وأطرَقَ برأسِه وظَلّ يقولُ بينه وبينَ نفسه: إنّها ما أحبّتني في حياتِهَا لحظةً واحدةً.

واستمرّتْ هي في حديثها تقول: فَلْيَهْنِكَ ذلكَ الحبُّ الثمينُ يا زوجي العزيز، فإنّ أسعدَ الناسِ حالاً في هذه الحياةِ، وأحظاهم بنعمةِ العيشِ فيها أولئك الذينَ مَنَحَهُمُ الله نفسًا جميلةً شعريّةً تتعشّقُها القلوب وتتشرَّبُها النفوسُ وتهفو لها الأحلامُ وتقومُ لَهُمْ في كلّ موقفٍ ومَقام، مَقامَ الجمالِ الجثماني إنْ فاتَهُمْ أو نزلت به كارثةٌ من كوارثِ الدهر، وما الجمالُ الجثمانيّ إلاّ سحابةٌ رقيقةٌ تطيرُ بها برودةُ الهواء أو هضبةٌ ثلجيّةٌ تُذِيبُها حرارةُ الشمسِ، وما أحبَّ المحبّونَ قطّ في الصورِ الجميلةِ جمَالَها ورونَقَها، بلْ جمالَ النفوسِ الكامنةِ في طياتها، ولا أبغضَ المبغضونَ في الصور الدميمةِ قبحها ودمامتها بل قُبْحَ النفوسِ المستكنّةِ فيها، فإذا اختلفَ العنوانُ عن الكتابِ في إحدى الحالتين، كانَ الفوزُ العظيمُ للجمالِ النفسيّ على صاحبه.

وإنّي أعترفُ لكَ يا كرستيان، بأنّي ما أحببتُكَ عندَ النظرةِ الأولى إلّا لجمالِكَ، لأنّي ما

كنتُ أرى في سماءِ حياتِكَ كوكبًا مشرقًا سواه، وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ حتّى أخذَ ذلكَ الكوكبُ يتضاءَل أمامَ عينيّ شيئًا فشيئًا بجانب تلكَ الأشعّةِ الباهرةِ التي كانتْ تتدفّقُ من ينبوعِ نفسِكَ الجيّاشةِ الفيّاضةِ حتّى أصبحتُ لا أراه ولا أشعر به. فازدادَ اضطرابه واصفرارُه وظَلّ ينظرُ إليها نظرًا غريبًا حائرًا.

فقالت له: ما لي أراكَ حزينًا مكتئبًا، كأنّكَ في شكٍّ من هذا الانتصارِ العظيم الذي تمّ لنفسِكَ عليكَ!؟ فنظَر إليها نظرةً ساكنةً جامدةً ثمّ قال: اسمعي يا روكسان، إنّني لا أحفَلُ بهذا الحبّ ولا أغتبطُ به ولا أريدُ إلاّ أن تنظري إليّ دائمًا بتلك العينِ التي نظرتِ بها إليّ لأوّلِ عهدِكِ بي.

قالتْ: إنّي أعجبُ لأمركَ كثيرًا يا كرستيان، فإنّ الحبّ الذي تؤثره وتغتبط به حبٌّ تافِهٌ لا قيمةَ له ولا ثباتَ لظِلّه، أمّا الآنَ فإنّي أحبّكَ لصِفَاتِك الكريمةِ النادرةِ التي قلّما اجتمعتْ لمخلوقٍ سواك، أحبّكَ لذكائِكَ الخارِقِ، وفطنتِكَ النادرةِ، وشَرَفِ عواطِفِكَ، ورقة شعورِكَ، ولُطْفِ حِسّكَ، وسَعَةِ خيالِكَ، وذلكَ البيانِ الرائقِ الصافي الذي يشفُّ عن جوهرِ نفسِكَ شُفوفَ الغديرِ الساكنِ عن لآلِئِه وجواهِرِه، أحبّكَ من أجل ذلك كلِّهِ حبًّا ثابتًا راسخًا لا تعبَثُ به صروفُ الدّهر[1]، ولا تنالُ منه عادياتُ الأيّام، حتّى لو استحالتْ صورتُكَ إلى صورةٍ أخرى غيرِها لما نَقَصَ حبّي إيّاك ذرّةً واحدةً.

فارتعدَ كرستيان، وشعرَ أنّ نفسَه قد بدأتْ تتسرّبُ من بينِ جنبيه، فمدّ يدَهُ إليها ضارعًا وقال: الرحمةَ يا روكسان! قالت: بل لو ذَهَبَ جمالُكَ بحادثةٍ من حوادثِ القضاءِ فأصبحتَ بَشِعَ الصورةِ دَميمَ الخلقة... فقاطعها وصَاحَ: دميمَ الخلقة؟ قالت: نعمْ وأقسمُ لكَ على ذلكَ يا زوجي العزيز، ويا أحبَّ الناسِ إليّ، فَظَلَّ يرتعدُ ويضطربُ اضطرابًا خُيِّلَ إليها أنّه نشوةُ الحبّ وسكرةُ السرور فقالتْ له: أسعيدٌ أنتَ الآنَ يا كرستيان؟

فنظرَ إليها نظرةً غريبةً لا يعلمُ إلّا اللهُ ما يكمنُ وراءها وقال: نعم سعيدٌ جدًا، ومن هو أَولى بالسعادة مني؟ ونهض قائمًا يريدُ الانصرافَ فقالتْ له: إلى أين؟ قال: لمْ يبقَ بيننا وبينَ المعركةِ إلّا لحظاتٌ قليلةٌ، ولا بُدّ أن يكون هذا آخرَ اجتماعٍ لنا، فالوداعُ يا روكسان، ووداعًا لا لقاءَ من بعده، فاضطربتْ وقالت: وَلِمَ يغلُب يأسُكَ على رجائِكَ ورحمةُ الله أوسَعُ من أنْ تضيقَ بكَ؟ قال: إنّ السعادةَ أضنّ بنفسها من أن تَثبتَ زمنًا طويلاً في مكان واحدٍ فالوداع يا روكسان! وأخذَ يبتعدُ عنها شيئًا فشيئًا دونَ أن يضعَ يده في يدها أو يقبّلها قبلةَ الوداع، فمشتْ وراءَه وهي تعجبُ لأمره وتقول: ما بكَ يا كرستيان؟ قِفْ قليلاً لأقولَ لكَ كلمةً واحدةً، ثم اصنعْ ما شئتَ، إنّكَ لم تفهمْ غرضي، وأقسمُ لكَ أنّكَ لو فهمتَهُ لعلمتَ أنّني أحببتُكَ حبًّا ما أحبَّه أحدٌ من قبلي أحدًا.

قال: حسبُكِ يا روكسان، وعودي إلى هؤلاء الجنودِ المساكينَ البائسينَ فإنّهم يفكّرونَ في

---

(١) صروف الدهر: مصائبه.

مثل ما أفكّرُ فيه ويودّعونَ الحياةَ كما أودّعها، فاذهبي اليهم واجلسي بينهُمْ قليلاً وعزّيهِمْ بابتساماتِكِ العذبةِ الجميلةِ عن همومهِمْ وآلامهِمْ، أمّا أنا، فذاهبٌ لقضاءِ بعضِ الشؤونِ وربّما عدتُ إليك بعدَ قليلٍ، ثمّ اختفى عن نَظَرِها.

«المكاشفة»

دَخَلَ كرستيان على سيرانو في خيمتِهِ شاحبَ اللونِ مكفهرّ(١) الجبين، فقالَ له سيرانو: ما بكَ يا صديقي؟ قال: إنّها حدَّثتني الآنَ حديثًا طويلاً علمتُ منهُ أنّها لا تحبّني بلْ ما أحبّتني قطّ في يومٍ من أيّامِ حياتها، قال: ماذا تقول؟ قال: وأقولُ أيضًا إنّها تحبّكَ أنتَ ولا تحبّ في الدنيا أحدًا سواكَ، فانتفضَ سيرانو انتفاضةً شديدةً كادتْ تتطايرُ لها أجزاءُ نفسِه وقال: أنا؟ قال: نعمْ لأنّها اعترفتْ لي بأنّها لا تحبّ منّي إلاّ نفسي؟ وأنتَ نفسي التي تكمنُ بينَ أضالعي، فهي تحبّكَ حبّ العابدِ معبودَهُ، وما جاءَتْ هنا إلاّ من أجلِكَ، وما أشكُّ في أنّك تضمرُ لها في قلبِكَ من الحبّ مثلَ ما تضمرُ لكَ، فصرخَ سيرانو وقالَ لا وأقسمَ...

فقاطَعه كرستيان وقال: لا تفعلْ، فلقدْ نَمّتْ(٢) عليكَ تلك الدمْعَةُ التي رأيتُهَا بعيني في كتابِ الوداع الذي كَتَبْتَه إليها، وما هي بدمعةِ الشعرِ كما تقولُ بلْ دمعةُ الحبّ، وما كنتَ تكتبُ إليها عن لساني كما تزعَمُ بلْ عَنْ لسانِكَ أنتَ، فاعترفْ بأنّكَ تحبّها.

فأطرقَ سيرانو هنيهةً ذهبتْ نفسُه فيها كلّ مذهبٍ ثمّ رفعَ رأسه وقالَ: نعمْ يا كرستيان أعترفُ لكَ بأنّي أحبّها، وأقسمُ لكَ أنّني ما طمعتُ فيها قطّ. قال: نعمْ أعلمُ ذلك فوارحمتاه لكَ ولتلكَ الآلامِ الطوالِ التي قاسيتَها في ماضي حياتك! أمّا الآن ففي استطاعَتِكَ أن تطمَع فيها كما تشاءُ، ولا يوجدُ في العالم شيءٌ يحولُ بينَكَ وبينها. قال: لا أستطيعُ، فإنّ من يحملُ وجهًا مثلَ وجهي لا يطمعُ في حياةِ الحبّ والغرامِ. قال: إنّها أقسمتْ لي أنّني لو كنتُ بَشِعَ الخلقةِ دميمَ الوجهِ لما نَقَصَ حبّها إيّاي ذرّةً واحدةً.

فانتعش سيرانو وقال: أوَ قَالتْ لكَ ذلكَ؟ قال: نعم، ما زالتْ تقولُه لي حتى أملّتني وأضجرتني. قال: لا تحفِلْ بقولِهَا فهي فتاةٌ شعريّةُ الأفكارِ والتصوّراتِ تقولُ بلسانها غيرَ الذي تضمِرُه في أعماقِ نفسها، فابْقَ محبوبَها الجميلَ كما كنتَ ولأبقَ أنا لسانَكَ الناطقَ بين يديها، حتّى يقضيَ الله فينا جميعًا بقضائه. قال: ذلك مستحيلٌ بعد الآن، فإنّي أشعر في أعماقِ نفسي بخجلٍ ما أحسبُ إلّا أنّه سيقضي على حياتي قبل أن تقضيَ عليها القذيفةُ التي تنتظرني في ساحةِ القتالِ، فاذهبْ إليها واعترفْ لها بكلّ شيءٍ وقلْ لها إنّ الرجلَ الذي أحببتِهِ من أجلِ ذَكائه وفِطْنتِهِ وذلاقَةِ لسانِهِ وقوّةِ بيانه كاذبٌ غاشّ ينتحلُ مواهبَ الناسِ وفضائِلَهم لنفسِه وليسَ له فيها من الحظّ شيءٌ.

قال: ذلكَ فوقَ الاحتمالِ يا كرستيان، قال: لا بدّ من ذلك فليسَ من العدلِ أنْ أقتُلَ هناءَكَ

---

(١) مكفهرّ: شديد الظلام، عابس. (٢) نمّ: ظهر وانتشر.

من أجلِ أنّ الطبيعةَ جمّلتني بهذه الحليةِ البسيطةِ من الجمالِ. قال: وليسَ من العدلِ أن أفجعكَ في سعادَتِكَ لأنّ الطبيعةَ منحتني شيئًا من القدرةِ على التعبيرِ عن عواطفي. قالَ: لا بدّ أن تفاتحَها في موضوعِ حبّكَ فأنتَ محبوبُها الحقيقيّ، أما أنا فخلقتُكَ الجميلةُ التي تلبسُها وتتجمّلُ بها، فانزعْهَا عنكَ، وتقدَّمْ إليها بأيّ ثوبٍ تريدُه فهي لا تبالي بجمالِ الأثوابِ وزخرَفِها.

إنّني ضقْتُ ذرعًا بهذه النفسِ الغريبةِ التي أحملُها دائمًا بينَ جوانحي حتّى عييتُ بأمرها عياءً شديدًا ولا راحةَ لي إلّا في الخلاصِ منها. قال: إنّكَ تريدُ شقائي يا صديقي، قال: لا بل سعادَتَك، فاذهبْ إليها وَقُصَّ عليها القصّة من مَبْدَئِها إلى منتهاها، واتركْ لها الخيارَ في أمرِها، فإنِ اختارَتْكَ فقد أنصفَتْكَ، ولقدْ كانَ عقدُ الزواجِ الذي جرى بيننا عقدًا سرّيًّا لا تحفلُ به الكنيسةُ ولا يعبأُ به الناسُ، فما أسهلَ التخلّصَ منه، وإنِ اختارتني لا أكونُ غاشًّا لها ولا خادعًا.

قال: ستختارُكَ أنتَ بلا شكّ، قال: أرجو أن يكونَ كذلك، وها هي ذي مقبلةٌ فاشرحْ لها كلّ شيءٍ، أمّا أنا فذاهبٌ إلى نهايةِ الخطّ لشأنٍ من الشؤونِ لا بدّ لي من قضائه وربما عدتُ إليكَ بعدَ قليلٍ.

فارتابَ سيرانو في أمره وأمسكَ بيده وقال له: إنّني أقرأ على جبينِكَ آيةَ اليأسِ يا كرستيان، فهل تُقْسِمُ لي أنّكَ لا تقتلُ نفسَكَ؟ قال: نعم أُقسم لكَ ألّا أقتلَ نفسي. ثمّ التفتَ فرأى روكسان على مقربةٍ منه فقال لها: سيحدّثُك سيرانو حديثًا خطيرًا فاذهبي إليه، ثمّ وضع يَدَه على مقبضِ سيفه فجرّده من غمدِهِ وهرعَ إلى ساحةِ القتالِ وهو يقول: الوداعُ يا نورَ السماء.

«الفاجعة»

فدنتْ روكسان من سيرانو وقالت: ما بالُه؟ إنّي أعجبُ لأمرِه كثيرًا ولا أدري ما الذي دهاهُ؟ فما هو ذلكَ الحديثُ الخطيرُ الذي تريدُ أن تحدّثَنيهِ؟ قال: لا شيء، إنّه يهتمّ بأصغرِ الأمورِ وأبسَطِها، فلقد كانَ يروي لي تلكَ المحادثةَ التي دارتْ بينكِ وبينَه منذ هنيهةٍ. قالت: نعم، ويخيّلُ إليّ أنّه لم يفهمْ غرضي أو أنّه في شكّ ممّا أفضيتُ به إليه، وأؤكّد لكَ يا صديقي، أنّني ما قلتُ له إلّا الحقيقةَ التي أعتقدُهَا، فإنّني أصبحتُ بعد اطّلاعي على تلكَ الرسائلِ البليغةِ التي كان يرسلُها إليّ كلَّ يومٍ من ميدانِ الحربِ مفتتنةً بعقلِه وذكائِهِ، أكثرَ من افتتاني بحُسْنِه وجمالِه، حتى لو استحالتْ صورَتُه إلى صورةٍ أخرى غيرِها أو ذَهَبَ بجماله حادثٌ من حوادِثِ الدهرِ فأصبح . . . ثمّ سكتَتْ حياءً وخجلاً، فقال: دميمًا؟ قالت: نعم ولو أصبح كذلك، قال: وبشعَ الصورة؟ قالت: نعم، قال: ومشوّهَ الوجه؟ قالت: نعم، قال: وضحكة الناسِ وسخريتهم؟ قالت: إنّ مَنْ كانَ له مثلُ عقلِهِ ولسانِه لا يكونُ ضحكةَ الناسِ وسخريتم.

وهنا سَمِعا أوّلَ طلقةٍ من طلقاتِ المعركةِ فلم يحفلاً بها واستمرّ سيرانو في حديثه يقول: أتحبّينه رغمَ كلّ شيءٍ؟ قالت: نعم، رغم كلّ شيءٍ، فقد غَمَرَ جَمالُ نفسِهِ جمالَ صورَتِه حتّى أصبحتُ لا أراهَا ولا أشعرُ بها، فاغتبطَ سيرانو في نفسِهِ اغتباطًا عظيمًا، وعلم أنّه قد أشرفَ

على السعادةِ التي ظلّ ينتظِرُها أعوامًا طوالاً ولم يبقَ بينه وبينها إلاّ كلمةٌ أخرى ينطقُ بها فإذا هي بين يديه.

في هذه اللحظةِ أقبلَ «لبريه» من ناحيةِ الميدانِ مسرعًا وأسرَّ في أذنِ سيرانو هذه الكلمةَ «قد قتلَ كرستيان» فانتفضَ وقال: وكيف قُتِل؟ قال: بأوّلِ قذيفةٍ من قذائفِ المعركة، فاصفرَّ وجهُهُ وارتعدتْ فرائِصُه[1] وغَشّتْ على عينيه غمامةٌ سوداءُ، فعجبتْ روكسان لأمرِه وقالت له: ما بكَ يا سيرانو؟ قالَ: لا شيء، قالت: أتممْ حديثَكَ، ماذا كنتَ تريدُ أن تقول لي؟ فصمَتَ وأطرقَ هنيهةً وظلَّ يقولُ بينه وبين نفسه: قد انقضى كلّ شيء، فلا أستطيعُ أنْ أقولَ شيئًا، ولقد كان كرستيان صديقي وعشيري فليسَ في استطاعتي أن أبنيَ سعادتي على أنقاضِ شقائه.

فظلت روكسان تنظرُ إليه ذاهلةً حائرةً وتقولُ: ليتَ شعري ماذا جرى! وسيرانو مُطْرِقٌ لا يرفعُ رأسَه، حتّى أقبلَ جماعةٌ من الجنودِ يحملونَ على أيديهِمْ شيئًا مسجًّى يشبه الجثّة فوضعُوه ناحيةً، فارتعدتْ روكسان وكأنّ نفسَها حدَّثتْها بما كانَ، فظلّتْ تنظرُ إلى ذلكَ الشيء باهتةً مدهوشةً وتقول: انظر يا سيرانو، ما هذا الذي أرى! أتدري ماذا يحملُ هؤلاء الرجال؟ فانتبه إليها وقال: دعيهِمْ وشأنهم يا سيّدتي، واستمعي بقيّة حديثي، وحاولَ أن يجمَع شتاتَ ذهنِهِ المبعثرِ فلم يستطعْ، فأخذَ يتكلّم كلامًا مضطربًا متقطعًا ويقول: كنتُ أريدُ أن أقولَ لكِ.. آه ماذا كنتُ أريدُ أن أقول؟ لا أستطيعُ أن أقولَ شيئًا، فقد انقضى كلّ شيءٍ، كنتُ أريدُ أن أقول... آه قد تذكَّرْتُ، أقسم لكِ يا روكسان إنّكِ صادقةٌ فيما قلتِ، نعم: كانَ كرستيان كما قلتِ فتًى... فقاطعَتْهُ وصرخَتْ صرخةً عظمى وقالت «كان؟ يُخَيّلُ لي أنّكَ ترثيه، ودفَعتْهُ بيدِهَا دفعةً شديدةً وهرعَتْ إلى الجثّةِ وكشفتِ الغطاءَ عنها فإذا كرستيان في سكرةِ الموت.

فألقتْ بنفسِهَا عليهِ وقد أصابَها مثلُ الجنونِ وظلّتْ تبكي وتنتحبُ انتحابًا محزنًا وتصرخُ صرخاتٍ مؤلمةً، ثم لمحت في صدرِه الجرحِ الذي ينبعث منه الدم فمزّقتْ قميصَها واقتطعتْ منهُ قطعةً وهرعتْ إلى موضعِ الماءِ لتبلّلَهَا ففتح كرستيان عينيه في تلك اللحظةِ وتأوّه آهةً طويلةً فدنا منه سيرانو وأكبَّ عليه وهَمَسَ في أذنه: أبشِرْ يا كرستيان، فقد بُحْتُ لها بكلّ شيء وخيّرتها بيني وبينَكَ فاختارَتْكَ من دوني وهي لا تُحبّ أحدًا سواك، وعادتْ روكسان وفي يدها القطعةُ المبلّلةُ فظلّتْ تمسحُ بها الجرحَ وتقولُ إنّه لا يزالُ حيًّا، وسيلتئمُ جرحُه بعد قليل، وسيعيشُ بجانبي دهرًا طويلًا، أليسَ كذلك يا سيرانو؟

ثمّ وضعتْ خدّها على خدّه فشعرتْ ببرودةِ الموتِ تسري في جسمِهِ فاصفرّتْ وتخاذلَتْ أعضاؤُها وظلّتْ تناجيه نِجاءً محزنًا مؤثرًا وتضرَعُ إليه أنْ يعيشَ من أجلها لأنّها في حاجةٍ إليه ولا تستطيعُ أنْ تهنأ بالحياةِ من بعده، ثمّ وضعتْ يدَهَا على صدرِه فعثرتْ بذلكَ الكتابَ الذي كانَ قد أخذَهُ من سيرانو، فأمرَّتْ نظَرَها عليه فوجَدَتْهُ معنونًا باسمها ورأتْ عليه نقطةً من الدمِ

---

(١) الفرائص: جمع فريصة وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتجف عند الخوف.

وتلكَ القطرةَ من الدّمعِ فقالتْ: وارحمتاه له! إنّه كان يحدّثُ نفسه بهذا المصيرِ الذي صارَ إليه، واحتضَنَتْه إلى صدرِها وظلّتْ تقبّله وتلثُمه ففتحَ عينيه للمرّةِ الأخيرةِ فرآها فحاولَ أن يتحرّكَ فلم يستطعْ، فشَهَقَ شهقةً كانتْ فيها نفسُهُ.

«المعركة»

وكانت المعركةُ قد اشتدتْ ودوّى الميدانُ بصرخاتِ الجنودِ وصيحاتِهم وقعقعةِ السلاحِ وأزيزِ الرصاصِ وهتافِ القوّادِ بالجندِ أنْ تَقدّموا ولا تتقهقروا أيّها الأبطالُ البواسلُ، وانتزعوا النصرَ من بين مخالبِ أعدائِكم انتزاعًا. فهاجَ الموقفُ نفسَ سيرانو فجذَبَ يدَه من يد روكسان وكانت آخذةً بها ليهجمَ معَ الهاجمينَ فاستوقَفَتْهُ وقالت له: ابقَ معي قليلاً يا سيرانو، فلقد ماتَ كرستيان وليسَ لي في العالمِ من يعينني على نكبتي فيهِ سواك، لقد كنتَ الرجلَ الوحيدِ الذي أعرِفُهُ حقّ المعرفةِ وأُدرِكُ ما اشتملتْ عليه نفسُه من الفضائِلِ والمزايا، فَقُلْ لي ألمْ يكنْ في حياته عظيمًا؟ قال: بلى، قالت: وذا همّة عاليةٍ لا تسمو إليها هِمَم الرجالِ؟ قال: بلى. قالت: وذا نفسٍ عذبةٍ صافيةٍ كأنّها قطرةُ الندى المترقرقةُ في الزهرةِ الناضرة؟ قال: بلى. قالت: وشاعرًا عبقريًا لم تطلعِ الشمسُ على مثله في عهدٍ من عهودها الخالية؟ قال: بلى. قالت: لقد هوى ذلكَ الكوكبُ المنيرُ من سمائه وانحدرتْ تلكَ الشمسُ المشرقةُ إلى مغربَها من حيثُ لا رجعةَ لها فوا أسفا عليه:

ثمّ صرختْ صرخةً تتقطّعُ لها نياطُ[1] القلوبِ وألقتْ بنفسها عليه، وظلّتْ ترثيهِ وتندبُه وتذرفُ فوقَ جثّتِه جميعَ ما أودعَ الله عيونَها من دموعٍ. فوقفَ سيرانو وجرّد سيفَه من غمدِه وقال: إنّها الآن تبكيني في بكائها على كرستيان فيَجبُ أن أموتَ. وكانَ رصاصُ الأعداء يحصُدُ الجاسكونيين حصدًا فيتساقطُون تساقُطَ أوراقِ الشجرِ الجافّةِ أمامَ الزوبعةِ الهائلة وهم لا ينثنونَ ولا يتحَلْحَلُون والكونت دي جيش في مقدمتهم يصيحُ بصوتٍ عالٍ: ها هو ذا جيشُ قائدِنا قد اقتربَ، فاصبروا ساعةً أخرى يتمّ النصر لفرنسا، فصرخَ سيرانو: الوداع يا روكسان. واندفعَ إلى قمّة التلّ فاستقبلَهُ الكونت، واعترضَ طريقه وقال له: قفْ مكانَكَ، لا تلقِ بيدِكَ إلى التهلكةِ فقد آن أوانُ الهزيمةِ أو هلكَ الجنودُ جميعًا.

قال: إنّ الجاسكونيينَ لا يتراجعونَ ولو أَمَرْتَهُم بذلكَ، فَكِلْ أَمْرَهُمْ إليّ وَدَعْني وشأني، فإنّني ناقمٌ موتورٌ أريدُ أنْ أنتقمَ لصديقي الذي ثُكِلْتُه، وهنائي الذي فَقَدْتُه، فاذهبْ أنت إلى روكسان ودافعْ عنها كما وَعَدْتَها حتّى تبلغَ مأمَنَها.

ثمّ صاحَ في الجنود: تشجّعوا أيّها الأصدقاءُ ولا تتقهقروا، فالحياةُ أمامَكُم وليستْ وراءَكُم، تقدّموا أيّها الأبطالُ وموتوا جميعًا، فما في الموتِ شيء سوى أن تنقلوا مكانَ اجتماعِكم من الأرضِ إلى السماء، موتوا فالموتُ أهونُ عليكمُ من أنْ تروا وَطَنَكُم ذليلًا في

---

(١) نياط القلب: الشرايين المتّصلة به.

يدِ أعدائكم، قد ماتَ أصدقاؤُكُمْ ورفقاؤكم فما بقاؤُكُمْ في الحياةِ من بعدهم! رَفرِفْ علينا أيّها العَلَمُ الصغيرُ المطرّزُ باسمِهَا وابعثْ في قلوبنا جميعًا روحَ القوّةِ والشّجاعةِ لنموتَ عن آخرنا تحتَ ظلّكَ الخافقِ.

فظلّ الجنودُ ثابتينَ في أماكِنِهِمْ ومنجلُ القضاءِ يحصدُهُم حصدًا حتّى وَصَلَ جيشُ العدو إلى قمّة التلّ وصاحَ قائدهم: ألقوا بأسلحتكم أيّها القومُ فستموتونَ جميعًا إن لم تسلّموا، ولا يجدي عليكم الموتُ شيئًا، فأجابَه سيرانو ولا يسلّمُ إلّا الأذلّاءُ الجبناءُ وما فينا جبانٌ ولا ذليلٌ، الهجمةَ الأخيرةَ أيّها الأبطالُ فها هي طبولُ القائد الأعظم تدنو منّا وتقتربُ وليسَ بينكُمْ وبينَ النصرِ إلا كرّةٌ واحدةٌ.

وكانَ الأمرُ كما يقول، فما هي إلا ساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ حتى أشرفَ جيش القائِد العام وهاجمَ الأعداءَ من خلفِهِمْ فالتَحَمَ الجيشانِ، وما هي إلا جولةٌ أو جولتانِ حتّى تمّ النصرُ للرايةِ الفرنسيّة على الرايةِ الأسبانيّة ولكنْ بعد أنْ تلاشى الجنودُ الجاسكونيونَ في المعمعة جميعًا.

❀ ❀ ❀

الفصل الخامس:

«بعد خمسة عشر عامًا»

لِدَير الراهباتِ بباريسَ فناءٌ واسعٌ قد غُرستْ في أنحائه بضعُ أشجارٍ ضخمةٍ باسقةٍ قد تناثرتْ من تحتها أوراقُها الساقطةُ الصفراءُ وَوُضِع في وسطِه مقعدٌ حجريّ هلاليّ الشكلِ فخرجتِ الراهباتُ بعد أداءِ صلواتهنّ في محاريبهنّ يتمشّين في ذلكَ الفناءِ ويتحدّثنَ بأحاديثَ مختلفةٍ لا يخلو بعضُها من ذِكْرِ العالِم الدنيويّ وشُؤونِهِ، والحياةِ ووقائِعِها، كأنَّ ذلكَ الحجابَ الحجريّ الذي أسدلَ دونهنّ من الأسوارِ والجدرانِ لم يستطعْ أن يقطَعَ الصلةَ بينهنّ وبينَ الحياةِ التي هجرنَهَا واطَّرَحْنَهَا وأقسمنَ بينَ يدي الله أن ينسَيْنَهَا أبدَ الدهرِ، فلمْ يزلْ بينَ جوانحهنّ بصيصٌ ضعيفٌ من تلك الذكرى يلمعُ من حينٍ إلى حينٍ لأنّهنّ لا يستطعنَ مهما بَلَغْنَ من قوّةِ اليقينِ ورسوخِ الإيمان وثباتِ العزيمةِ أن ينتزعْنَ الطبيعةَ من بينَ جنوبهنّ كما يرفعنَ قبعاتهنّ عن رؤوسِهنّ، وأرديتَهنّ عن أكتافهنّ، ويَرمينَ بها وراءَ تلكَ الأسوار والجدرانِ كما أرادتْ منهنَّ ذلكَ الشرائعُ النظريّةُ التي لا صلةَ بينها وبين حقائِق الحياةِ وطبائعها.

فقالت الأختُ «مارت» للأختِ «كلير» لقد رأيتُك اليومَ واقفةً أمامَ المرآةِ مرّتين، ورأيتُ في يدِكِ مشطًا تحاولينَ أن تمشّطي به شعرَك، وسأرفَعُ أمرَكِ إلى الرئيسةِ، قالت: إنّك لا تستطيعين أن تفعلي إلاّ إذا استطعتِ أن تحدّثيني عن تلكَ الأغنيةِ الغراميّةِ التي كنتِ تتغنينَ بها ليلةَ أمسِ في غرفتِكِ بصوتٍ خافتٍ شجيٍّ كأنّكِ تتذكرينَ بها عَهْدًا قديمًا.

فابتَسمتْ الأختُ «مارت» وقالت: إنّني إنْ أعفيتك من الشكوى إلى الرئيسةِ فلنْ أعفِيَكِ من

الشكوى إلى المسيو برجراك عند حضوره، قالتْ: كأنّكِ تأبَينَ إلاّ أن نصبحَ ضحكةَ الناسِ وسخريَتَهم، فسيرانو رجلٌ شديدٌ قاسٍ يكره الحركاتِ النسائيّة المتطرّفةَ ويَنعى عليها نعيًا شديدًا. قالت: ولكنه يذهبُ في نقده مذهبَ التهكّم البديعِ المستطرفِ، فهو إلى الفكاهةِ أقربُ منه إلى الجِدّ، فقالت الأخت «مارجريت»: الحقَّ أقولُ يا أخواتي إنّني لم أرَ في حياتي أظرفَ من هذا الرجلِ ولا أعذَب منه لِسانًا ولا أحلى مجونًا ولا أطيبَ قلبًا ولا أنقى سريرةً.

فقالت لها «كلير»: أصحيحٌ يا أختاه أنّه يختلفُ إلى هذا الدير منذ اثني عشرَ عامًا؟ قالت: بلْ أكثرُ مثل ذلك مذ هجرتْ ابنةُ عمّه الأختُ روكسان العالمَ الدنيويَّ ونزلتْ بنا كما ينزلُ الطيرُ الحزينُ وَسَطَ الطيورِ البيضاءِ، ومَزجَتْ سوادَ رهبانيّتها بسوادِ حِدَادِها، وسيرانو هو الشخصُ الوحيدُ الذي يستطيعُ أن يعزّيَ نفسها، ويمسحَ دموعَها ويخفّفَ أحزانها الكامنةِ في أعماقِ قلبها.

فقالت «مارت»: ولكنّه ويا للأسف غيرُ متمسّكٍ بواجباته الدينيّة، وهو إلى الإلحاد أقربُ منه إلى الإيمان، فقالت «كلير»: أظنّ أنّنا نستطيعُ أن نَهْدِيَه إذا نحنُ حاولنا منهُ ذلكَ، وهنا أقبلتِ الرئيسةُ وقد سمعتْ هذه الكلمةَ الأخيرةَ فعلمتْ أنّهنَ يتكلّمنَ عن سيرانو.

فقالت: إنّي أمنعكنّ جميعًا عن مفاتَحتِه في هذا الأمر فدَعْنَه وشأنَه والله يتولّى أمرَه، فقالت «مارت»: ولكنّه مكابرٌ عنيدٌ لا يزالُ يولَع بمحادَّتي ومغايظتي كلّما رآني، فقد قال لي يومَ السبتِ الماضي عند حضوره إنّه أكَلَ بالأمسِ لحمًا ودَسَمًا، فلم أطقِ استماعَ ذلكَ منه وكدتُ أختصمُهُ. قالت: لا تصدّقيه يا بنيّتي فإنّه حينما جاءَنا في المرّة الماضية كان قد مرَّ به يومانِ لم يذقْ فيهما طعمَ الخبز. فدهشت الراهباتُ جميعًا ونظرنَ إلى الرئيسةِ باهتاتٍ مذهولاتٍ فقالتْ لهن: لا يدهشكُنّ ذلك يا بنيّاتي، فسيرانو رجلٌ فقيرٌ معدَمٌ لا يملكُ من مَتَاعِ الدنيا شيئًا. فقالت لها: «مرجريت» عجيب جدًا: مَنْ أخبَرَكِ بذلَك؟ قالت: صديقُهُ «لبريه». قالت: ألا يساعدُهُ أحدٌ؟ قالت: لا، لأنّه لا يريد ذلك.

وإنّهنّ لكذلكَ إذ أقبلتْ روكسان من ناحيةِ بابِ الديرِ في لباسِهَا الأسودِ وبجانبها الكونت دي جيش وكان قد وصلَ في مجدِه الدنيويّ إلى الغايةِ القصوى التي لا غايةَ وراءَها فأصبحَ القائدَ العامّ للجيشِ الفرنسيّ، وأصبحَ يُدْعَى «الدوق ماريشال دي جرامونت» وكان قد أشرفَ في ذلكَ الوقت على سنّ الشيخوخةِ، فهدأتْ في نفسه تلكَ العواطفُ القديمةُ الثائرةُ عواطفُ الشرورِ والشهواتِ، فأخَذَ نفسَه بزيارةِ روكسان في ديرها من حين إلى حين للتعزيةِ والوفاءِ والتكفيرِ عن سيّئاته الماضيةِ إليها.

فلمْ يزلْ سائرًا معها حتّى بلغا ذلكَ المقعدَ فجلسَا عليه، ثمّ نظرَ إليها نظرةً حزينةً مكتئبةً وقال لها: أهكذا تعيشين دائمًا يا روكسان في عزلتِكِ هذه لاتفكّرينَ في شأنٍ من شؤونِ الحياةِ ولا تأسفينَ على عهدٍ من عهودِكِ الماضية؟ قالت: نعم دائمًا، لا أذكرُ غيرَه ولا يمرُّ بخاطري شيءٌ سواه، قال: وهل غفرتِ لي ذلكَ الذنبَ الذي أذنبتُه إليكِ أمْ لا تزالُ في قلبِكِ بقيّةٌ من

العَتبِ والموجدة[1] عليّ؟ فاغرورقتْ عيناها بالدموعِ وصمتتْ هنيهةً ثمّ رفعتْ نظرَهَا إلى صليبِ الديرِ العظيمِ الماثلِ أمامَها وقالت: ما دمتُ في هذا المكانِ وما دامَ هذا ماثلًا أمامَ عينيَّ، فأنا أغتفرُ جميعَ الذنوبِ حاضرِهَا وماضِيها.

قال: وارحمتاه لذلكَ الفتى المسكين! ما كنتُ أظنّ أنّ نفسَ إنسانٍ في العالم تشتملُ على مثلِ الصفاتِ التي كانت تشتملُ عليها نفسهُ لولا أنّكِ أقسمتِ لي على ذلك، قالت: إنّكَ لو عرفتَهُ معرفتي إيّاه لامتلأتْ نفسُكَ إعجابًا به وإعظامًا له ولكانَ حُزْنُك عليهِ عظيمًا كحزني، قال: وهلْ لا تزالينَ محتفظةً بكتابهِ الأخيرِ حتّى اليوم؟ قالت: إنّه لا يفارقُ صدري قطّ كأنّهُ الكتابُ المقدّسُ، قال: أتحبّينَه حتىّ بعدَ الموتِ؟ قالت: يخيَّلُ إليَّ أحيانًا أنّه لم يمتْ لأنَّ مكانَه من قلبي لا يزالُ باقيًا كما هو، وكأنّ روحَه ترفرفُ عليّ وتتبعني حيثما سرتُ وأنّى حَلَلْتُ، ولا تزالُ في أذني حتّى الساعةَ تلك النغمةُ الجميلةُ التي كانَ يحدثني بها ليلةَ الشرفةِ كأنْ لم يمرَّ بها إلّا يومٌ واحدٌ.

قال: وهل يأتي سيرانو لزيارتِكِ أحيانًا؟

قالت: نعم، يَفِدُ إليّ دائمًا يومَ السبتِ من كلّ أسبوعٍ في ساعة معيّنةٍ لا يتأخّرُ عنها ولا يتقدّمُ، فاذا حَضَرَ رآني جالسةً أمام مِنْسَجي[2] فيجلسُ على مقربةٍ منّي فوقَ مقعدٍ يُعِدّونَهُ له ويبدأُ حديثَه معي بالهزلِ والمجونِ والسخرية بي وبمنسجي ويسمّيهِ الحركةَ الدائمة التي لا نهايةَ لها، فإذا فَرَغَ من ذلكَ أخذَ يقصُّ عليّ حوادثَ الأسبوعِ يومًا فيومًا كأنه جريدةٌ أسبوعيّةٌ، واعلمْ يا سيّدي أنّ ذلكَ الصديقَ القديمَ والأخَ الوفيَّ هو الشخصُ الوحيدُ الذي يستطيعُ أن يسرّيَ عنّي بعضَ همومي وآلامي، ويحمِلَ عنّي الشيءَ الكثيرَ من أثقالِ هذهِ الحياةِ وأعبائها، ولولاهُ لَمُتُّ في عزلتي هذه همًّا وكمدًا.

وهنا فُتِحَ بابُ الدير ودخلَ «لبريه» فتقدّمَ نحو روكسان فحيّاها فقالتْ له: كيفَ حالُ صديقك يا لبريه؟ قال: في أسوإ حالٍ يا سيّدتي، فإنّ غرابةَ أخلاقِه وشذوذَ طباعِه وتهوّرَه في ميوله وآرائِه وصلابةَ عودِهِ في خصوماته ومناظراتِه قد بلغتْ به المبلغَ الذي كنتُ أتوقّعُهُ له من عهدٍ بعيدٍ، الفقرَ والعُدْمَ، والشقاءَ والبؤسَ، والخصومَ الألدّاء، والأعداءَ الثائرين المتنمّرين[3]، الذينَ يَكِيدُون له لَيْلَهم ونهارهم لا يهدأون ولا يفترُون، وهو في غفلةٍ عن هذا كلّه، لا يعجبُه ولا يطربه ولا يلذّ له غيرُ الانتقادِ المرّ والتهكّم المؤلم بالأشرافِ والنبلاءِ ورجالِ الدينِ والأدباءِ والصحفيّين والشعراءِ والممثلينَ، لا يهادِنُهُمْ ولاَ يواتيهم، ولا يهدأُ عنهم لحظةً واحدة، فينعى على القسّيسِ نظرةً واحدةً يلقيها عَرَضًا على وجهٍ جميلٍ، وعلى الشاعرِ معنًى بسيطًا يسرقُه من شاعرٍ متقدّمٍ، وعلى النبيلِ مشيةَ الخيلاء يمشيها في طريقِه،

(١) الموجدة: اللوم. (٢) المنسج: آلة للحياكة والنسيج.
(٣) تنمّر: كان شديدًا في خصومته كالنمر.

وعلى الصحفي نشرَ إعلانِ خَمْرٍ في جريدته أو خبرٍ مكذوبٍ، كأنّهُ مُوكَلٌ بهدايةِ البشرِ وتقويم اعوجاجِهِمْ وتهذيبِ أخلاقِهِم. وكُلّ ما يَعتذرُ به عن نفسِه إنْ لامَه في ذلك لائمٌ أنّه يقولُ ما يعتقدُ وينطقُ بما يعلم، كأنّما لا يوجدُ في العالمِ كلِّهِ من يعلمُ ما يَعلَمُه سواهُ.

وما أظنُّ الهيئةَ الاجتماعيّةَ التي يشاكِسُهَا[١] ويثاورُهَا[٢] ويزعمُ أنّه قادرٌ على تقويمِ معوجّها وإصلاحِ فاسِدَها تستطيعُ الصبرَ عليه طويلاً، ويُخَيَّلُ إليّ أنّ انتقامَها منهُ سيكونُ هائلاً جدًّا وأنّه سيموتُ عمّا قليلٍ شهيدَ ذلكَ الشيءِ الذي يسمّيه الحريّة الفكريّة والنقدَ الصحيح.

فقالتْ روكسان: ولكنَّ سيفَه القاطعَ يحميهِ من هؤلاءِ جميعًا. قال: ربّما يحميهِ ولكنّني أخشى عليه عدوًّا واحدًا هو أشدُّ عليه من جميعِ أعدائِه، قالت: ومَنْ هو؟ قال: الجوعُ، فإنّه يقاسي من آلامِهِ مَا لا يستطيعُ أن يحتمِلَه بشرٌ. وكثيرًا ما قضى الليالي ذواتِ العددِ شادًّا منطقتَهُ[٣] على بطنِهِ من السغَبِ[٤] لا يشكو ولا يتبرّمُ ولا يسمَحُ لنفسِه أن يمدّ يدَه إلى أحدٍ غيرِ خالقِهِ إلى أن تتيسَّرَ له اللقمةُ التي يعتقدُ أنّها معجونةٌ بعرقِ جبينِه فلا يمتنُّ بها عليهِ أحدٌ حتّى ذَبُلَ جسمُهُ وشَحُبَ لونُه وَعَرُقَتْ[٥] عظامه وأصبحَ أشبهَ بالهيكلِ منهُ بالإنسانِ.

أما اللباس فقد أَصبحَ عاريًا منه إلاّ قليلاً، ولقد باعَ في الأسابيعِ الأخيرة جميعَ ثيابه فلمْ يبقَ له منها إلاّ رداءٌ واحدٌ من الصوفِ الأسود يتعهّدُه بالترقيعِ من حينٍ إلى حينٍ، ولا أدري ماذا يكونُ شأنُه غدًا إذا نزلَ به ضيفُ الشتاءِ القادمِ فلا يجدُ في غرفته المظلمةِ الباردةِ بصيصًا ولا قبسًا.

فقال الدوق: إنّكَ تبالغُ كثيرًا يا لبريه في الحزنِ عليه والرثاءِ له، فسيرانو رجلٌ عظيمٌ لا يكترثُ بآلامِ الحياةِ ومصائِبِها ولا ينظرُ إليها بمثلِ العينِ التي تنظرُ بها إليها، ولقد عاشَ طولَ حياته حرًّا مستقلاًّ في آرائِهِ ومذاهبِهِ غيرَ مبالٍ بما يلاقيهِ في هذه السبيلِ من المكارِهِ والآلام، ولا يزالُ شأنُه في حاضرِهِ مثلَهُ في ماضيه، فاعجَبُوا به كُلّ الإعجابِ، ولا تهينُوه بالتألّم له والبكاءِ عليه.

فدهشَ لبريه وظلّ ينظرُ إلى الدوق نظرًا حائرًا مضطربًا لأنّه ما كانَ يتوقّع منه بعد الذي كانَ بينه وبينَ سيرانو أن يجري لسانُه بكلمةِ ثناءٍ عليهِ أو إعجابٍ به، فقال له الدوق: لا تعجبْ يا لبريه فإنّني وإنْ كنتُ أعلمُ أنّني قد نلتُ من حياتي كلَّ شيءٍ وأنّه قد حُرِمَ كُلّ شيءٍ فأنا أعتقدُ أنّه خيرٌ منّي وأنّ نفسَهُ تشتملُ على أفضلَ ممّا تشتمِلُ عليه نفسي، وليتني أستطيعُ أن أستغفره ذنبي الذي أذنبتُه إليه وأن أضعَ يدي في يدِه فأصافحَهُ مصافحةَ الصَّديقِ للصّديق.

ثمّ نهضَ قائمًا وقال: أستودِعُكِ اللهَ يا روكسان، فنهضتْ روكسان لتودِيعِهِ ومشتْ معه تشيّعه[٦] إلى الباب، فقالت له وهي تسايره وكانَ ذيلُ ردائها يجرّ معه كثيرًا من أوراقِ الشجرِ الجافّة المتساقطةِ فيحدثُ صوتًا أشبَهَ بالحفيف: أتقولُ الحقيقة عن سيرانو يا سيّدي أمِ أنتَ

---

(١) شاكس: عاسر.
(٢) ثاور: أعلن الثورة والعداء.
(٣) منطقته: زنّاره الذي يربطه على خصره.
(٤) السغب: شدّة الجوع.
(٥) عرق العظم: تجرّد من لحمه.
(٦) تشيّعه: ترافقه وقت رحيله.

تتهكّم به؟ قال: لا بَلْ أقولُ الحقيقةَ التي أعتقِدُهَا، وأُقسم لكِ يا روكسان إنّني كثيرًا ما غَبَطْتَه[١] بيني وبين نفسي وتمنّيتُ أنْ أكونَ مثله. فدُهِشَتْ وقالتْ: ولكنّكَ عظيمٌ يا مولاي.

قال: إنّ المرءَ حينما يصلُ إلى ذروةِ العظمةِ في الحياةِ لا بدّ أن تمرّ به ساعاتٌ مهما كانَ طاهرًا وبريئًا يشعرُ فيها ببعضِ آلام خفيّة تلذعُ نفسَه وتؤلمُهَا، وربّما لا تبلغُ في قوّتِها وتأثيرِها مبلغَ تبكيت[٢] الضميرِ ولكنّها على كلّ تزعجُهُ وتقلقُهُ وتستولي على شيءٍ من راحتِهِ وسكونِهِ، وهل استطاعَ العظماءُ أن يكونوا عظماءَ إلاّ لأنّهم ارتقوا سلّمًا بُنيتْ دَرَجَاتُها من جماجِمِ الموتى وأشلائِهِمْ، أو أن يناموا مِلءَ جفونِهِمْ إلاّ لأنّهم أسهرُوا كثيرًا من عيونِ البائسين والمعدَمين في سبيلِ راحتهم وهنائهم، أو أن يمشوا في طريقِهِم رافعي الرؤوسِ شامخي الأنوفِ إلاّ لأنّ وراءهم كثيرًا من المُطْرِقين الصّامتين الذينَ لا تفارقُ أنظارُهُم الأرضَ همًّا وكَمَدًا، وربّما لا يشعرونَ بشيء من تلكَ الجرائمِ التي يقترفونها وهم في نشوةِ عزّهم وضوضاءِ عظمتهم، ولكنّهم متى خَلَوْا إلى أنفسهم وآووْا إلى مضاجِعِهِمْ ساوَرَتْهُمْ تلكَ الآلامُ الخفيّةُ اللاذعةُ التي لا يشعرُ بمثلها الجائعونَ والظامئونَ؛ والمرضى والمعوزون.

لا تصدّقي يا سيّدتي، أنّ في الدنيا سعيدًا واحدًا قد خَلَتْ كأسُه التي يشربُها من قذَى ينغصها عليه، ولا بُدّ للعظيم وهو صاعدٌ إلى قمّةِ عظمتِهِ أن يشعرَ أنّ ذيلَ معطفِهِ المسبلَ وراءه يجرّ معه كثيرًا من أنّاتِ الباكينَ وصرخاتِ المتألّمينَ الذين بنى عَظَمَتَهُ على أنقاضِ شقائِهم فيَسمع لها خشخشةً كخشخشةِ الأوراقِ الجافّة التي يجرّها وراءَه ذيلُ مِعْطَفِكِ الآن.

ثمّ وقفَ في مكانه وأطرقَ برأسِهِ طويلًا، فنظرتْ إليه روكسان ذاهلةً ووضعتْ يَدَها على عاتِقِهِ وقالت له: أتتألمُ يا مولاي؟ قال: نعمْ فما نحنُ سعداءُ إلاّ في أنظارِ النّاس واعتباراتِهِم، ولو كُشِفَ لهم من خبايا نفوسِنَا ما كُشِفَ لنا منها ولمسوا بأيديهم مواقعَ الألمِ من أفئِدتنا لَرَثوا لنا أكثرَ ممّا نرثي لهم، ولرَأَوْا أنّنا أولى بالرحمةِ والإشفاقِ منهم، وليتهم يقفونَ على هذهِ الحقيقةِ فيعلَمُوا أنّ السّلامةَ والنّجاةَ وراحةَ النفسِ وهدوءَها في القناعةِ والإقلالِ فيستريحوا من همومِ الأحقادِ وآلامِها، فإنّهم ما حسدُونا ولا اشتعَلتْ بينَ جوانحهم نيرانُ الحقدِ والموجدة[٣] علينا إلاّ لأنّهم ظنّوا أنّنا سعداءُ، ولو نظروا إلينا بالعينِ التي ننظرُ بها إلى أنفسنا، لَضَرعُوا إلى الله تعالى أن ينجّيَهم ممّا ابتلانا به ويريحَهُم من همومِنَا وشقائنا.

ثمّ مدّ يَدُه إليها فَصَافحها وقال: أستودِعُك الله يا سيّدتي، والتَفَتَ وهو منصرفٌ إلى لبريه وكانَ لا يزالُ واقفًا في مكانِهِ، فهتفَ به فلبّاه، فقالَ له: لي كلمةٌ أريدُ أنْ أقولَهَا لكَ فتعالَ معي، فمشى وراءَه فالتفتَ إليه وقال له: نعم إنّ صديقَك سيرانو بطلٌ شجاعٌ كما تقولُ روكسان، ولكنّني علمتُ من طريقٍ خاصّ لا أستطيعُ أن أبوحَ لكَ به أنّ بعضَ أعدائِه قد عَزَمَ على قتلِهِ

(١) غبطه: تمنّى أن يكون حاله كحاله من غير حسد أو غيرة.

(٢) تبكيت: توبيخ. (٣) الموجدة: الغضب.

غِيلة[١] فاذهبْ إليه وحذّرْهُ، وليُقَلِّلْ من الخروجِ من منزله ما استطاعَ. قال: ذلك مستحيلٌ يا سيّدي لأنّه لا يهابُ شيئًا ولا يخافُ أحدًا، قال: لا تفارِقْه لحظةً واحدةً فحياته في خطرٍ عظيم، قال: سأفعلُ ما أستطيعُ يا مولاي، وسأشكرُ لكَ فضلكَ ما حَيِيتُ، ثمّ تناول يده فقبّلها وانصرف.

فما سارَ إلاّ قليلاً حتّى رأى «راجنو» مقبلًا عليه، يولولُ ويستغيثُ فسألَهُ ما بالُه؟ فقال: خَطْبٌ[٢] عظيمٌ يا لبريه! قال: أيُّ خطبٍ؟ قال: قد أُصيبَ صديقُنا: قال: سيرانو؟ قال: نعم، قال: قلْ كلَّ شيءٍ وأوجِزْ، قال: خرجتُ اليومَ من منزلي ذاهبًا إليه لزيارتِه في منزله فلمّا وصلتُ إلى رأسِ الشارعِ الذي يسكنه، رأيتُه خارجًا من المنزلِ، فهرعتُ إليه لأدركَهُ، حتّى إذا لم يبقَ بيني وبينه إلاّ بضعُ خطواتٍ إذ سقطَ على رأسِه من نافذةِ أحَدِ المنازلِ المهجورةِ جِذْعٌ عظيمٌ يخيّلُ إليّ أنّه لمْ يسقُطْ عفوًا بل تَعمَّدَهُ به متعمِّدٌ، فَصَرَخَ لبريه: يا للنّذالةِ والجُبْنِ! ثمّ ماذا؟ قال: فدنوتُ منه فرأيتُ ويا هولَ ما رأيت! رأيتُ ذلكَ الصديقَ الكريمَ والرجلَ العظيمَ والشاعرَ النابغةَ الجليلَ ملقًى على الأرضِ مضرَّجًا بدمائه وقد فُتِحَ في رأسه جرحٌ كبيرٌ... قال: وهل ماتَ؟ قال لا، ولكنَّ حالته سيئةٌ جدًّا، فحملتُهُ إلى منزله أو إلى ذلكَ الجحرِ الضيّقِ الذي يسمّونه منزلاً... قال: وهل يتألم؟ قال: لا، لأنه فَقَدَ رُشْدَه فلم يعدْ يشعرُ بشيءٍ، قالَ: أَلَمْ يزرْه طبيبٌ؟ قال: أشفقَ عليهِ طبيبٌ من جيرانِه فزاره، قال: وارحمتاهُ لكَ أيّها الصديقُ المسكين! لا تخبرْ روكسان الآنَ بهذا الخبرِ، وماذا قالَ الطبيبُ؟ قال: لم أفهمْ من كلامِه شيئًا، فإنّه أخذَ يردّدُ كلماتٍ كثيرةً، حمَّى، التهابٌ، أغشيةٌ الخ، آه يا سيّدي! لو رأيتَهُ وقد دراتْ برأسِه الأربطَةُ والضّمائدُ، وأصبحتْ صورتُهُ أشبَه شيءٍ بصُوَرِ الموتى في قبورهم. هيّا بنا نذهبُ إليه فهو وَحيدٌ في غرفَتِهِ وأخافُ أن يحاولَ القيامَ من فراشِهِ فيسقطَ ميتًا، ثمّ ذهبا يعدوان ويتلهّفان.

«النغمة»

جلستْ روكسان أمامَ منسَجهَا في فناء الدير تنتظرُ حضورَ سيرانو وكانَ قد جاءَ ميعادُه الذي يحضرُ فيه من يوم السبتِ من كلّ أسبوعٍ وأخذتْ تقول: ما أجملَ هذا اليومَ: إنّ الخريفَ يخفّفُ عنّي كثيرًا من آلامي التي يَهيّجها الربيعُ ويستثيرُها، فحمدًا لكَ يا إلهي على ما مَنَحْتَ، وصبرًا على ما ابتليتَ، ولكَ المنّةُ العظمى في حالَيْ رِضاكَ وسُخْطِكَ، ونعمائكَ وبأسائِكَ، ما أعظمَ شكري لكَ يا سيرانو! إنّكَ رسولُ العنايةِ الإلهيّةِ إليَّ، والعزاءُ الباقي لي في هذهِ الحياةِ بعدَ ما فقدتُ كلَّ عزاءٍ وسلوى، فليت اللهَ يتولّى جزاءَك عنّي فإنّي لا أستطيعُ أن أقومَ بشُكْرِك.

وهنا حضرتْ راهبتان تحملانِ بين أيديهما المقعدَ الذي اعتاد سيرانو أن يجلسَ عليه عندَ حضورِه فوضَعَتاهُ وراءَ مجلسِ روكسان فشكَرَتْهُمَا وانصرفَتَا. ثمّ دقّتِ الساعةُ الرابعةُ فأصغتْ إليها روكسان حتّى انتهت دقّاتها ثمّ قالت: إنّه سيأتي الآن، وأخذتْ تردّد نَظَرَها جهةَ البابِ هنيهةً فلم يحضرْ، فمدّت يَدَها إلى عُلبةِ إبَرِهَا وخيوطِهَا وظلّت تقول بينها وبين نفسها: قد

(١) الغيلة: القتل عن طريق الخديعة. (٢) الخطب: المصيبة الكبرى.

دقّتِ الساعة الرابعةُ منذُ دقائقَ ولم يحضرْ، أينَ خيوطي؟ ها قد وجدتُها. هذا يدهشني جدًّا: إنّها المرّة الأولى التي تأخّرَ فيها عن ميعادِه منذُ خمسةَ عشرَ عامًا، لا بدّ أنْ تكونَ الأخت «مارت» قد أزعَجَتْهُ بنصائِحِهَا وعِظَاتها، أين كشتباني؟ ليتَ شعري ماذا حدثَ له؟ قد أوشكَ الظلامُ أن يخيّمَ وألوانُ الخيوطِ قاتمةٌ فلا أستطيعُ التمييز بينَ متشابهاتها، إنّه ما تأخّرَ عن زيارتي قبلَ اليوم، ولكنْ لا بُدَّ أن يحضُرَ الآن، وهنا سقَطَتْ ورقةٌ جافّةٌ من وَرَقِ الشجرِ على منسجِهَا فاصفرّتْ وقالت: ورقةٌ ميتةٌ قد انقضى أجَلُها فهوتْ إلى مستقرّها، ياالله! لا يمكنُ لشيء من الأشياء. . . إن الأوراقَ الجافّةَ المتساقطةَ تزعجني جدًّا، لا يمكنُ لأي شيءٍ مهما كان أن يحولَ بينه وبين الحضورِ.

وما أتمّتْ كلمتَهَا حتّى وقفتْ راهبةٌ على رأسِ السُلّم وصاحت: السيد برجراك: فانتعشتْ روكسان وقالت: ليدخُلْ، فَدَخَلَ وهو مصفرّ الوجهِ يتوكّأُ على عَصَاهُ ويمشي ببطءٍ شديدٍ وقد أسدَلَ قبّعَتَهُ على جبينِه فسترتِ الضمائدَ المحيطةَ برأسه، وكانتْ روسكان مشتغلةً بترتيبِ خيوطِهَا وإصلاحِ منسجها، فلم تلتفتْ إليه حتّى جلس على مقعدِه وحيّاها، فقالتْ له بنغمةِ العاتبِ دونَ أنْ تلتفِتَ إليه: هذه أوّلُ مرّة تأخّرْتَ فيها عن ميعادِكَ منذُ خمسةَ عَشَرَ عامًا يا سيرانو، فأجابَها بصوتٍ قاتمٍ مظلمٍ يحاولُ أن يجعَلَه ضاحكًا رنّانًا، نعم يا سيّدتي، يا لغرائب الدّهرِ. . ما كنت أظنّ أنّ شيئًا في العالم حتّى الموت. . يستطيعُ أن يحولَ بيني وبينَ الحضورِ إليك في ميعادي. . آه إنّي أكادُ أموتُ. . غَيظًا وحنْقًا. . ما أخّرني عنكِ إلاّ ضَيْفٌ ثقيلٌ «يريد الموت» جاءَ لزيارتي في وقتٍ غير مناسب. . وما كنتُ أتوقّعُ أن يَفِدَ إليّ في مثلِ هذه الساعة.

قالت: وكيفَ تخلّصْتَ منه؟ قال: لم أتخلّصْ منه حتّى الآن، وكلّ ما في الأمر أنّي اعتذرتُ إليه وقلتُ له: إنّ اليوم يومَ السبتِ وهو الميعادُ الذي يجبُ عليَّ فيه أنْ أقومَ بزيارةِ صديقٍ كريمٍ لا يمكنُ أن يحولَ بيني وبينَ زيارتِهِ في هذا الميعادِ حائلٌ، فاذْهَبِ الآنَ وَعُدْ إليَّ بعدَ ساعةٍ واحدة. قالت: إذنْ سيطولُ انتظارُه لكَ إذا عادَ إليكَ لأنّي لا أسمحُ لكَ بالخروجِ من هنا قبلَ المساء، قال: ربّما اضطررتُ للذهابِ قبلَ ذلكَ.

وأغمضَ عينيهِ وأطرقَ برأسِه، وكانتِ الأخت «مارت» مارّةً في تلكَ اللحظةِ فأومأتْ روكسان إليها برأسِهَا، فحضرتْ فقالت لسيرانو وهي لا تزالُ مشتغلةً بترتيبِ خيوطِهَا: إنّكَ لم تَمْزَحْ معَ الأخت «مارت» كعادتِك يا سيرانو، فانتفضَ ورفَعَ رأسَهُ فدهشَتْ «مارت» عندَ رؤيَتِهِ، وفَغَرَتْ[1] فاها وحاولتْ أن تتكلّم، فأشارَ إليها بالصمتِ، فلمْ تفهمْ شيئًا ولكنّها صمتتْ، فقالَ لها بصوتٍ ضَخْمٍ مضحكٍ: اقتربي منّي أيتها الأختُ، ما لَكِ تعرضينَ عني يا ذاتَ العينينِ الجميلتينِ، هاتِ يَدَكِ البيضاءَ لأقبّلها باسمِ البركَةِ والعبادةِ لا باسم الحبّ والغرام، اقتربي منّي لأخبرك خبرًا غريبًا جدًّا، قالت وهي ترثي لهُ ولِحَاله: وما هو؟ قال: قد أكلتُ بالأمسِ لحمًا

(١) فغر: فتح.

ودَسَمًا فما رأيُكِ؟ فهزّتْ رأسَها، وظلّت تقولُ بينها وبينَ نفسها: وارحمتاه له! إنّه يكذبُ عليّ، وَرُبّما مرّ به يومانِ لم يذق فيهما طَعْمَ الخبزِ كما فَعَلَ في المرّة السابقة. ثمّ قالت له: أحبُّ أن تزورني في غرفتي قبلَ خروجِكَ من هنا فسأقدّمُ إليكَ هديّةً من الحلوى جميلةً جدًّا، فقالت له روكسان: احذرْ أن تذهبَ إليها يا سيرانو فإنّها تريدُ أنْ تعِظكَ، فقال سيرانو: أظنُّ أنّ عظاتِكِ الماضيةَ يا «مارت» قد أخذتْ مأخذَهَا من نفسي، فقد أصبَحْتُ أقربَ إلى الإيمان منّي إلى الكفر، ولذلك أسمحُ لكِ أن تُصَلّي الليلةَ في معبدِكِ من أجلي، فدُهِشَتْ «مارت» وقالتْ: ماذا تقولُ؟ أتهزلُ أم تجدّ؟ قال: قد فاتَ وقتُ الهزلِ ولم يبقَ أمامي إلّا الجدُّ، فانصرفتْ لشأنها وهي تعجبُ لأمرِهِ كلَّ العجبِ، وأقبلَ هو على روكسان وقالَ لها وهي لا تزالُ مكبّةً على منسَجِها: ليت شعري هلْ أعيشُ أو هلْ يعيشُ العالمُ حتّى يرى ختامَ هذا النسيجِ؟ قالت: كنتُ في انتظارِ سماعِ هذه الكلمةِ منك يا سيرانو، إنّ نسيجي لا ينتهي حتَّى تنتهي مُلَحُكَ وأحماضُك.

وفي هذه اللحظةِ هبّتْ ريحٌ شديدةٌ فتساقطتْ على الأرضِ أوراقٌ كثيرةٌ من أعالي الأشجارِ، فانقبضتْ روكسان وقالت: إنَّ تَسَاقُطَ هذه الأوراقِ يحزنُني جدًّا، قال: أمّا أنا فعلى عكسِ ذلك لأنّه يعجبني منها كثيرًا أنّها رغمَ حزنها على فراقِ أغصانِها التي تَرَكَتْهَا ورغْمَ فَزَعِها من الفناءِ الذي يستقبلُهَا على وجهِ الأرضِ فهي تتساقَطُ برقّةٍ ورشاقةٍ وتقضي هذه السياحةَ القصيرةَ بينَ الحياةِ والموتِ مائسةً[1] مختالةً كأنّها في حفلةِ رقصٍ أو مجمعِ شرابٍ. فقالتْ: إنّي أسمعُ منكَ نغمةَ حزنٍ يا سيرانو، فهلْ أنتَ حزينٌ؟ قال: لا، وليسَ من عادتي أن ألجأَ إلى الحزنِ في أيّ موقفٍ من المواقِفِ حتّى في الموقفِ الذي يَحْزَنُ فيه النّاسُ جميعًا. قالت: فَلْنَدَعِ الأوراقَ تتساقَطُ كيفما تشاءُ وأسمعني جريدَتَكَ الأسبوعيّة فإنّي في شوقٍ عظيمٍ إليها، قال: اسمعي يا سيّدتي، وكانَ الألَمُ قد نالَ منه منالاً عظيمًا وبدأ الذهولُ يخيّم على عَقْلِهِ فأنشأ يقول:

يوم السبت

أصيبَ الملكُ بمرضِ الحمّى على أثرِ ثماني أكلاتٍ أكَلَها من عنب «سيت» فَحَكَمَ الطبيبُ على مرضِهِ بطعنةِ مبضعٍ في قلبِهِ لاقترافِهِ جريمةَ الاعتداءِ على صاحبِ الجلالة.

يوم الأحد

أشعَلُوا ليلةَ الحفلةِ الكبرى في قصرِ الملك ثلاثًا وستّينَ وسبعمائةَ شمعةٍ بيضاءَ، يقولونَ إنّ جيوشَنا قد انتصرتْ على جيوشِ جان النمسوي، شُنِقَ أربعةٌ من السّحَرَة، حقنوا كَلْبَ السيّدة «داتيس» الصغير.

فاعترضَتْهُ روكسان وقالتْ: ما هذهِ الأخبارُ يا سيرانوا؟ فاستمرّ في كلامه يقول:

يوم الاثنين

لا شيء سوى أنّ «ليجدامير» استبدلتْ بعشيقِهَا، فتَمَلْمَلَتْ روكسان وقالت: ما هذا الذي

---

(١) مائسة: مختالة في مشيتها.

تقول؟ إنّكَ تمزحُ يا صديقي، فلم يلتفتْ إليها وظلّ يقول:

يوم الثلاثاء

انتقلَ البلاطُ كلُّهُ إلى «فونتنبلو».

يوم الاربعاء

قالت السيّدة «دي مونتجلا» للكونت دي فيسك: «لا».

يوم الخميس

توّجَتْ «فانسيني» ملكَةً على فرنسا أو ما هو في معنى ذلكَ.

يوم الجمعة

قالت السيدة «دي مونتجلا» للكونت دي فيسك: «نعم».

وهنا ثقلتْ عيناهُ واحتبسَ صوتُه واهتزّ هزّةً شديدةً ثمّ سَقَطَ رأسُه على صدره، وسادَ من حوله سكونٌ عميقٌ، فاستغربتْ روكسان سكوتَه والتفتَتْ وراءَها فرأته على هذهِ الحالةِ ولم تكن قد نظرتْ إليه قبلَ هذه اللحظةِ فارتاعتْ وهَرَعتْ إليه ووضعتْ يدها على عاتقه ونادته: سيرانو! فانتفضَ ورفعَ رأسه وظلّ يديرُ يديه حولَ قبعته ويضغطها ضغطًا شديدًا ويقول: لا شيء، لا شيء، أؤكّدُ لكِ يا سيّدتي أنّ الأمرَ بسيطٌ جدًّا، قالت: قل لي ما بِكَ يا سيرانو: وما هذه الغبرةُ السوداءُ المنتشرةُ على وجهِكَ قال: لا شيءَ، إنّه الجرحُ القديمُ الذي أصبت به في معركة «أراس» لا يزال يعاودني من حينٍ إلى حين حتّى الآن. فتنهّدَتْ وأرسلتْ بَصَرها إلى السّماء ثمّ قالت: كلٌّ منّا له جُرْحٌ قديمٌ يا سيرانو، غير أن جرحَك في جسمك وجرحي هنا دائمًا لا يندمِلُ أبدًا، وأشارتْ إلى قلبها، ثم قالت: هنا كتابُ الوداعِ الأخيرِ الذي كتبَهُ إليّ قبلَ موته قد تشعّثَ وتقبّضَ واصفرّ وَرَقُهُ ولا تزال آثارُ القطرتين، قطرةِ الدمع وقطرةِ الدم ظاهرةً فيه.

فارتعدَ سيرانو وقال: كتابُهُ الأخير؟ وشخص ببصره إلى السماء كأنما يتذكّر شيئًا بعيدًا ثمّ قال: ألا تذكرينَ يا روكسان أنّكِ كنتِ وعدتني مرّةً بإطلاعي على هذا الكتابِ؟ قالت: نعمْ أذكرُ ذلك، قال: هلْ لكِ أن تَفيَ بوعدِكِ الآن؟ قالت: ها هوذا. ومدّتْ يَدَها إلى صدرِهَا فأخرجتْ الكتابَ من كيسٍ صغيرٍ حريريٍّ معلّقٍ في عنقِهَا وأعطتْه إيّاهُ ثمّ عادتْ إلى مقعدها.

وكانَ الليلُ، قد بدأ يُرخي سدوله على أكنافِ الدير[1]، فأخذتْ روكسان ترتّبُ خيوطَهَا وإبَرَها لتضَعَها في علبتها، وأخذَ سيرانو يقرأُ الكتابَ بصوتٍ عالٍ رنّانٍ كأنّما هو يخطبُ أو يهتفُ أو يناجي ويقول:

الوداعُ يا روكسان، فإنّي سأموتُ عمّا قليلٍ، وربّما كانتْ هذه الليلةُ آخرَ لياليّ في الحياة.

كنتُ أرجو أن أعيشَ بجانبكِ لأتولّى حراسةَ سعادَتِكِ التي عاهدتُ نفسي على أنْ أكفَلَها

(١) أكناف الدير: جوانبه.

لكِ ما حييت، فحالتِ المقاديرُ بيني وبينَ ذلك، فليتَ شعري ماذا يكونُ حالُكِ من بعدي؟

إنّني لا أخافُ الموتَ من أجلي بل مِنْ أجلِكِ، ويخيّلُ إليّ أنّك ستقضينَ بعدَ موتي أيّامًا شديدةً عليكِ وعلى نفسِكِ الرقيقةِ الحسّاسةِ، وهذا كلُّ جزعي من الموتِ، فوارحمتاه لكِ أيّتها الصديقةُ المسكينةُ!

وكانت روكسان تصغي إلى قراءته ذاهلةً مدهوشةً وتقولُ بينها وبينَ نفسِهَا: ما أغربَ صوتَهُ وما أعظَمَ تأثيرَهُ! إنّه يقرأُ وكأنّه يحدّثني ويناجيني، ويُخَيّلُ إليَّ أنّ وراء هذهِ النغمةِ الغريبةِ التي ينطقُ بها سرًّا كامنًا في أعماقِ نفسِهِ.

واستمرّ هو في قراءته يقول:

ستغتمضُ عيناي بعدَ قليلٍ وستنطفىءُ تلكَ النظراتُ التي كانتْ مرآتَكِ الصقيلةَ التي تتراءى فيها صورَتُك البديعةُ الساحرةُ وترتسمُ فيها دقائقُ حُسْنِكِ وأسرارُ جَمَالِكِ فمن لكِ بمرآة ترينَ فيها نفسَك بعد أن تمتلىءَ عيناي بترابِ القبرِ.

إنّ بينَ جنبيَّ كنزًا ثمينًا من حبّكِ لم أستطعْ أن أكشِفَ لك إلاّ عن مقدارٍ قليلٍ من جواهره ولآلِئِهِ، وكنتُ أودُّ أن أفرغَهُ جميعَه بين يديكِ قبلَ موتي ولكنْ ماذا أصنعُ وقد أعجلني الموتُ عنه ولا حيلة لي في قضاء الله وقدره.

الوداعُ يا روكسان! الوداعُ يا حبيبتي، الوداعُ يا أعزَّ النّاسِ عليَّ وآثَرَهُمْ في نفسي، إنّ قلبي لم يفارقْكِ لحظةً واحدة في حياتي وسيبقى ملازمًا لكِ بعد مماتي، فليكن عزائي عنكِ أنّ روحي سترفرفُ عليكِ وتحومُ حولَكِ في كلّ مكانٍ تكونينَ فيه، فكأنّنا لم نفترقْ وكأنَّ حجابَ الموتِ المسبلَ دوننا وَهْمٌ مِنَ الأوهامِ وباطلٌ من الأباطيل.

وكانَ قد ذُهِلَ عن الكتابِ الذي في يده وعن كلّ ما يحِيطُ به من الأشياءِ ولمْ يبقَ في خيالِه سوى أنّه يناجي المرأة التي أحَبَّها ويُفْضِي إليها بأسرارِ نفسه ويودّعها الوداعَ الأخير، فأغمضَ عينيهِ واستغرقَ في شعورِه ووجدانِهِ واستحالَ صوتُه إلى صوتٍ غريبٍ لا يُشْبهُ الأصْواتِ في رنته ونغمته لأنّه صوتُ الرّوحِ وهتافُهَا ونَفَثَاتُهَا المتصاعدةُ إلى آفاقِ السماء. فظلتْ روكسان تضطربُ وترتعدُ وتقول بينها وبين نفسها! إنّها نغمة غريبةٌ جدًا تذكّرني بنغمةٍ مثلها سمعتها في ساعةٍ من ساعاتِ حياتي الماضيةِ فليتَ شعري متى كان ذلك؟

وكانَ الظلامُ قد نَشَرَ ملاَءَتَهُ السوداءَ على أكنافِ الدير فالتفتتْ إليه وحدّقَتْ النظرَ فيه فلمحتْ بياضَ الكتابِ في يدِه فعجبتْ لَهُ كيفَ يستطيعُ القراءةَ في هذا الظلامِ الحالِكِ، فنهضتْ من مكانها ومشَتْ نحوه تختلسُ خطواتِهَا اختلاسًا حتّى بلَغَتْهُ، فوقفتْ بجانِبِه فرأتْ عينيهِ مغمضتينِ ورأتْهُ لا يزالَ مستمرًّا في قراءته، فاشتدّ ذُعْرُهَا وخوفُها، ووضعتْ يَدَهَا على كتفه وقالت له: كيفَ تستطيعُ القراءةَ والظلامُ حالِكٌ وعيناكَ مغمضتانِ، فانتفضَ انتفاضةً شديدةً فسقطَ الكتابُ من يدِهِ وسقطَ رأسُه على صدره.

وَسَادَ بينَهُما سكونٌ عميقٌ ذُهِلَ كلٌّ منهما فيه عن نفسِه، ثمّ أخذتْ روكسان تستفيقُ شيئًا فشيئًا وتقولُ بينها وبين نفسها: آه ماذا أرى! إنّ الأمرَ هائلٌ جدًّا! إنّ النغمةَ التي أسمَعُهَا منهُ الآنَ هي بعينِهَا النغمةُ التي كانتْ ترنّ في أذني ليلةَ الشرفَة منذُ خمسَةَ عَشَر عامًا! لا بدّ أنْ يكونَ هو صاحِبَها، آهِ ما أعظمَ شقائي! لقد فهمتُ الآنَ كلّ شيءٍ وليتني ما فهمتُ شيئًا.

ثمّ وقفتْ أمامَ سيرانو صامتةً مطرقةً حتّى استفاقَ من غشيته، فتقدّمتْ نحوه وأخذتْ بيده وقالتْ له: لا تَخْفِ عنيّ شيئًا يا صديقي فقد علمتُ الحقيقةَ المؤلمةَ التي لا ريبَ فيها، لقد كنتَ أنتَ الذي ناجاني ليلةَ الشرفةِ وحدَّثني عن الحبّ وكَشَفَ لي عن خبايا القلبِ الإنسانيّ.

فقاطَعَها وهو يرتجفُ ويرتَعِدُ وقال: لا لا، لم أكنْ أنا، قالتْ: وكانَ الظلامُ في تلكَ الليلةِ حالكًا جدًّا فلمْ أستطعْ أن أتبيّنَكَ لأعلم أنّكَ أنتَ الذي يحدّثني ويناجيني. فصاحَ: لا، وأقسم لكِ، قالت: وكانت تلكَ الكلماتُ العذبةُ الجميلةُ التي سَحَرتني ومَلَكَتْ عليَّ شعوري ووجداني كلماتِكَ. فصرخ: لا، بل كلماتُه. قالت: وذلكَ الصوتُ الموسيقيّ الذي كان يرنّ في أذني رنينَ القيثارة الإلهيّة في آذانِ سكّانِ السماء، كانَ صوتَك. قال: لا. قالت: وتلك الرسائل البليغةُ المؤثّرة التي جَشَّمَتني مشقَّةَ السفرِ من باريسَ إلى «أراس» كانت رسائلَكَ.

قال: لا. قالت: وذلكَ الكتابُ الذي قرأتَه الآن بتلكَ النغمةِ العذبةِ الجميلةِ كانَ كتابَك. قال: لا تصدّقي ذلك يا سيّدتي، فما أذكُر أنّني أحببتُك في حياتي قطّ، قالت: أحببتني ولا تزالُ تحبّني حتّى الساعة. قال: ذلكَ مستحيلٌ لأنّ مثلي لا يجرُؤ على أن يحبّ مثلك. قالت: ذلك ما حَمَلَكَ على كتمانِ أمرِكَ وتمثيلِ هذا الدورِ المحزنِ الأليم. قال وقد بدأ صوته يضعفُ ويتهدّج[1]: إنّكِ واهمةٌ يا روكسانِ. قالتْ: ما أنا بواهمةٍ ولا مخدوعةٍ، وَلِمَ كَتَمْتَ أمرَكَ عنّي هذهِ السنينَ الطوالَ ما دمتَ تحبّني وما دامَ هذا الكتابُ كتابَكَ وهذه الدمعةُ دمعَتَكَ؟ قال: ولكنَّ الدمَ دمه. قالتْ: قد اعترَفْتَ من حيثُ لا تدري فوارحمتاهُ لكَ أيّها البائسُ المسكين! وأطرقتْ برأسِهَا إطراقًا طويلًا لا يعلمُ إلاّ اللهُ ماذا كانتْ تحدّثها نفسُها فيه.

وإنّهما لكذلكَ إذْ دخلَ لبريه وراجنو وهما يصيحانِ ويولولانِ، حتّى دَنَوَا من سيرانو، فقال له لبريه: ماذا صنعتَ بنفسِكَ أيّها المسكين! ولماذا جئتَ إلى هنا وقد أوصاكَ الطبيبُ بملازمةِ فراشِكَ لا تبرحُهُ لحظةً واحدةً، فصاحتْ روكسان: الطبيب؟! ولماذا؟ قالَ لبريه: ألا تعلمينَ ما حلّ به يا سيّدتي حتّى الآن؟ قالت: لا أعلمُ شيئًا، فأرادَ أن يقصّ عليها القصّةَ فقاطَعَهُ سيرانو وقالَ له: أتدري يا لبريه لِمَ جئتُ إلى هنا رَغْمَ أوامرِ الطبيب؟ قالَ: لا. قال: لأتلوَ على روكسان الجريدةَ الأسبوعيَّة التي اعتدتُ أن أتلوَهَا عليها يومَ السبتِ من كُلّ أسبوعٍ، ولا أستطيعُ أنْ أُخْلِفَ وعدي لها، ثمّ التفتَ إلى روكسان وقالَ لها: إنّني لم أتمّمْ لكِ جريدتي الأسبوعيَّة فاسمحي لي بإتمامِهَا، ثمّ أنشأ يقول:

---

(١) تهدّج الصوت: تقطّع وارتعش.

وفي يوم السبتِ الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٥٥ «قُتل المسيو سيرانو دي برچراك».

وهنا حَسَرَ[١] قبّعتَه عن رأسِه فظَهَرتِ الأربطةُ والضمائدُ المحيطةُ به مضرّجةً بالدم، فذعرتْ روكسان وحَنَتْ عليه وقالت: ما صنعوا بكَ يا صديقي؟ قال: كنتُ أتمنّى طوالَ حياتي أنْ أموتَ في ميدان حربٍ بضربةِ سيفٍ من يدِ بطلٍ، فقضى اللهُ أنْ أموتَ في زقاقٍ ضيّقٍ بجذعِ شجرةٍ من يدِ خادمٍ لأكونَ قد حُرمْتُ كلَّ شيءٍ في حياتي حتّى الميتَة التي أحبّها، وأطرقَ برأسه ثانيةً وظلّ على ذلكَ ساعةً وقد سادَ من حوله سكونٌ عميقٌ لا تُسْمَعُ فيه إلّا مَعمَعَةُ الأحشاءِ المتّقدةِ في قلوب الجائعينَ حوله.

ثمّ استفاقَ قليلاً فرفَعَ رأسه وفَتحَ عينيه فرأى راجنو جاثيًا تحتَ قدميهِ يبكي وينتحبُ فقال له: لا تَبْكِ يا راجنو، وقلْ لي ما مِهْنَتُكَ اليوم؟ فإنّ لكَ في كلّ يوم مهنةً جديدةً، قال: أنا الآن خادمٌ عند «موليير» ولكنّي سأتركُ خدمَتَه منذُ الغدِ. قال: لماذا؟ قال: لأنّه لصٌّ من لصوصِ الأدبِ وهم عندي أقبحُ اللصوصِ وأسفلُهُم. قالَ وهوَ يبتسمُ: هلْ سرقَ مِن شعْركَ شيئًا؟ قال: لا. بلْ من شعركَ أنت، فقد سَطَا على روايتك «أجريبين» فأخذَ منها موقفًا كاملًا وضمّنه روايتَه الجديدة «إسكابين» التي مُثّلَتْ ليلةَ أمسِ. قال: لقد أحسَنَ فيما فعل، وماذا كانَ وَقْعُ ذلكَ الموقفِ في نفوسِ الجماهير؟ قال: ما زالوا يضحكونَ حتّى رحموا أنفسَهُمْ. قال: ذلك كل ما يهمّني، فلقد قُدِّرَ لي طولَ عمري أنْ يكونَ دوري في رواية الحياة دورَ الملقّنِ الذي لا يَعُدّهُ الجمهورُ شيئًا وهو كلُّ شيءٍ.

ثمّ التفتَ إلى روكسان وقال لها: أتذكرينَ تلكَ الليلةَ التي كنتُ أحدّثكِ فيها بلسانِ كرستيان؟ قالت: نعم أذكُرُها ولا أذكر شيئًا سِوَاها. قالَ إنها رمزُ حياتي من أوّلها إلى آخرِهَا. صَعَدَ كرستيان منذُ خمسةَ عَشَرَ عامًا إلى شرفَتِكِ ليتناولَ القُبلةَ التي سَمَحْتِ لهُ بها مكافأةً له على تلكَ الكلماتِ البليغةِ المؤثّرة التي أنا صاحبها ومبتكِرُها، واليومَ يتمتّعُ «موليير» بهتافِ الجماهيرِ وتهليلِهِمْ إعجابًا بتلكَ القطعةِ الهزليّةِ البديعةِ التي خطّها قلمي، وما أنا بآسفٍ على ذلك ولا واجدٍ[٢]، فكرستيان فتىً جميلٌ فيجبُ أنْ ينالَ هو القبلةَ، وموليير شاعرٌ شهيرٌ فيجبُ أن يكونَ هو صاحبَ القطعةِ.

والتفتَ حولَهُ فرأى الراهباتِ داخلاتٍ إلى الكنيسةِ في ملابسهنّ البيضاءِ وهنّ يرتّلنَ صلواتهنَّ على نغماتِ «الأرغن» فأصغى إلى أصواتهنّ ساعةً ثمّ تأوّه طويلاً وقال: آهٍ! ما كنتُ أعبأ بالحياةِ ولا آسَفُ على شيءٍ فيها لولا الموسيقى وروكسان، ولئنْ كان صحيحًا ما يقولون من أنّ في السماء موسيقى كما في الأرض وأنّ الصّديقين اللّذَيْنِ يفترقانِ في هذه الدار يلتقيانِ في الدارِ الأخرى غدًا، فليسَ ورائي ما آسَفُ على فراقِه.

---

(١) حسر: كشف. (٢) الواجد: الغضبان.

فصاحت روكسان: ابقَ في الحياة يا سيرانو فإنّني أحبّكَ، قال: ذلك مستحيلٌ، إلاّ إذا استطاعتْ كلمتُكِ هذه أن تمحوَ قُبْحي ودمامتي، كما رووا في بعض الأساطير أنّ أميرًا دميمَ الخلقةِ سَمِعَ مرّةً من يقول له إنّي أحبّك فتلاشى قُبْحُهُ بتأثير تلكَ الكلمةِ وأصبح جميلاً وضيئًا. ولو أنني عشتُ بعدَ اليوم ألفَ سنةٍ ما نَقَصَ ثِقَلُ أنفي قيراطًا واحدًا.

فبكَتْ واشتدّ نشيجُهَا[١] وقالت: اغفر لي ذنبي يا سيرانو، فقدْ كنتُ السببَ في جميع ما حلّ بك في حياتِك من المصائب، قال: لا بل بالعكسِ، فلقد قضيتُ حياتي كلّها محرومًا لذّةَ عطفِ المرأة وحنانَها حتى إنّ أمّي كما حدّثوني لم تكنْ تستطيعُ أنْ تراني جميلًا كما يرى الأمهاتُ أولادَهنَّ المشوَّهينَ، ولو كانتْ لي أختٌ أو عمّةٌ أو خالَةٌ لكانَ شأنهنّ معي ذلك الشأنَ، ولم أرَ يومًا من الأيام في عيونِ النساءِ جميعًا جميلاتٍ كنّ أو دميماتٍ غيرَ نظراتِ الهزءِ والسخريةِ والنفورِ والاشمئزازِ، وأنتِ المرأةُ الوحيدةُ التي استطاعتْ أن تتخذني صديقًا واستطعْتُ أنْ ألجأ من عَطفِهَا ورحمتها إلى ظلٍّ ظليلٍ، فما أعظمَ شكري لكِ.

فقالت: عِشْ يا سيرانو، فإنّي أحبّكَ، بل ما أحببتَ في حياتي أحدًا سواك، وما لبستُ ثوبَ الحدادِ خمسةَ عَشَرَ عامًا إلّا من أجلِكَ. قالَ: لا تحاولي الغدرَ بكرستيان يا سيّدتي، واحذري أن يخفَّ حزنُكِ عليهِ وبكاؤُكِ على مصرعِهِ فإنّه صديقي، وكلّ ما أطلبه إليكِ أن تضمّي إلى شاراتِ حِدَادِكِ شارةً صغيرةً من أجلي ليكونَ حزنُكِ عليّ جزءًا من حزنِكِ عليه، فصاحت: آه ما أشقاني! لقد أحببتُ في حياتي حبيبًا واحدًا ففقَدْتُهُ مرّتين.

وكانَ كوكبُ الليلِ قد أشرقَ من مطلعه، فانبسطتْ أشعّته في فناء الديرِ فانتعشَ سيرانو حينَ رآه، وقال: ها هوذا صديقي «فيبيه» قد أرسلَ إليّ أشعّته لتحملني إليه فشكرًا له على ذلكَ، سأصعدُ الليلةَ إلى السماء على نعشٍ جميلٍ من تلكَ الأشعّة الفضيّةِ اللامعةِ دونَ أن أحتاجَ إلى تلكَ الآلات الرافعة التي سردتها على الكونت دي جيش، وسيكونُ مقامي هناك في ذلكَ الكوكبِ الجميلِ مع تلكَ النفوسِ العظيمةِ التي أحبّها وأُجِلُّها، سقراط وأفلاطون وغاليلي وجميع الذين ماتوا ضحايا صِدْقِهِمْ وإخلاصهم.

وهنا انتحبَ لبريه وقال: واأسفًا عليكَ أيّها الصديقُ الكريمُ! وما أشدّ ظلمةَ الحياةِ من بَعْدِك! فانتبه إليه سيرانو وقال له: لا تحزنْ عليّ كثيرًا يا لبريه، فإنّي ذاهبٌ لملاقاةِ صديقي كربون دي كاستل وسائرَ أبناء وطني الذين ماتوا ميتةَ الشرفِ والفخارِ في ميدان أراس، وسيكونُ مجتمعُنَا هناكَ جميلاً جدًّا لا يكدّرُهُ علينا ممثّلٌ ثقيلٌ ولا نبيلٌ جاهلٌ ولا شاعرٌ مغرور.

وصَمتَ صمتًا طويلاً كانَ يعاني فيه من الآلام ما لا يحتمِلُهُ بشرٌ، ثمّ ثارَ مِنْ مكانه هائجًا مضطربًا وجرّدَ سيفه من غمدِه وأخذَ يصيح: لا لا، لا أريدُ أن أموتَ على هذا المقعدِ مِيتَةَ العاجِزِ الجبان، فَذُعِرَ أصدقاؤه ونهضوا بنهوضِه وحاولَ راجنو أن يمسِكَهُ فدفَعَهُ عنهُ وأسندَ

---

(١) النشيج: الصوت في الصدر.

ظهره إلى شجرةٍ ضخمةٍ وقال: دعوني، فإنّي أريدُ أن أموتَ واقفًا، وأخذَ ينظرُ أمامه ويحدّقُ النظرَ كأنّما يرى شبحًا مقبلاً عليه ثم قال: تعال أيها الموتُ! تقدَّمْ، ولا تخفْ! فقد أصبحتُ رجلًا ضعيفًا خائرًا لا قبل لي بمواثبتِكَ ومغالبتِكَ، تَقَدّمْ فما أنا بسيرانو دي برچراك، إنما أنا خيالُهُ الماضي وصورَتُهُ الضئيلةُ، فهل بلغَ بِكَ الجُبْنُ أنْ تخافَ الصورَ والخيالاتِ؟ لقد ضَعُفَ في يدي ذلكَ السيفُ الذي كنتُ أقاتِلُكَ به وأصبحَ رأسي ثقيلًا ويداي مغلولتين وكأنّ قدميّ مصبوبتان في قالبٍ من الرصاص، أَقْبِلْ ولا تَخَفْ، ما لي أراكَ تنظرُ إلى أنفي نَظَرَ الساخِرِ الهازىء؟ أشماتةٌ هي أيّها الساقطُ الجبان؟ ماذا تقول؟ تقول إنّكَ أقوى مِنّي؟ نعم ما أنكرتُ عليكَ ذلك، ولكنّي على هذا سأقاتِلُكَ وأثبُتُ، لا لأنّي أطمعُ في أن أنتصرَ عليك، بل لأنّي أريدُ أن أموتَ ميتةَ الأبطالِ من قبلي.

ثمّ أخذَ يديرُ عينيهِ يمنةً ويسرةً ويقول: من هؤلاءِ؟ مرحبًا بكنّ أيّتها الرذائل، لقد عرفتكنَّ يا أعدائي القدماءَ ما أكثرَ عددكنّ وأقبحَ وجوهَكُنّ، نعم، سأموتُ ولكنْ بعد أن شفيتُ منكنّ غليلي ومثّلْتُ بكُنَّ أقبحَ تمثيلٍ، اغرُبْنَ مِن وجهي قبّحَكُنّ الله وقبّحَ صورَكُنّ وأزياءَكُنّ.

وظلّ يطعنُ بسيفه يمينًا وشمالاً وأمامَ ووراءَ ويقول: خُذْ أيّها الكذبُ، خُذْ أيّها الطَمَعُ، مُتْ أيّها الغَدْرُ، تبًّا لكِ أيّتها السفالةُ، سحقًا لكِ أيّتها الخيانة.

وظلّ يدورُ حولَ نفسِه ساعةً حتّى بلغَ منه الجهدُ، فسقطَ بينَ أذرعِ لبريه وراجنو، وظلّ على ذلكَ هنيهةً، ثمّ فتحَ عينيهِ وحدّقَ النظرَ أمامَه طويلًا وقال: تقدّمْ أيّها الموتُ وخذْ ما تريدُ منّي، أتدري ماذا تستطيعُ أن تسلبني؟ إنّكَ تستطيعُ أن تسلبني حياتي وجسمي وهذا السيفَ العزيزَ عليَّ وهذه الريشةَ التي وَضَعَتْهَا يدُ الفَخارِ في قبّعتي، بلْ جميعَ ما تملكُ يدي، ولكنّ شيئًا واحدًا لا تستطيعُ أن تسلبَنِيه، وسيرافقني في سفرتي التي انتويتُهَا إلى السماء حتّى أقفَ به بين يدي الله تعالى رافعَ الرأسِ عِزّةً وفخارًا وهو. . . وهنا عجز عن النطقِ فحاولَ أن ينطقَ الكلمةَ التي أرادَهَا فلم يستطعْ، فانحنتْ عليه روكسان وقبّلَتْهُ في جبينِهِ وأرسلتْ دمعةً حارّةً على وجهِهِ وقالت: وما هو يا سيرانو؟ ففتح عينيهِ للمرةِ الأخيرةِ فرآها فابتسَم وقال: حرّيتي واستقلالي!

ثمّ خفَق قلبُه الخفقةَ التي لم يخفقْ بعدها.

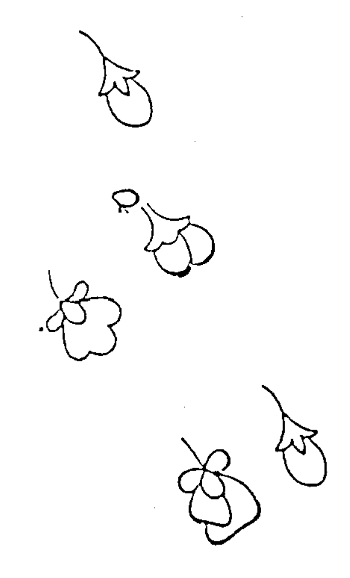
وكذلكَ انقضتْ حياةُ هذا الرجلِ العظيم كما تنقضي حياةُ أمثالِهِ من العظماءِ، لم يتمتّع يومًا واحدًا برؤيةِ مجدِه وعظمتِهِ حتّى إذا قَضَى سَمَحَ له التاريخُ بعد مماته، بما ضنَّ به عليه في حياته.

أمّا روكسان فَلَمْ يعلم الناسُ من أمرِها بعدَ ذلك شيئًا سوى أن مقعَدَها الذي كانتْ تقعدُ عليه أمامَ منسَجِهَا قد أصبحَ خاليًا مقفرًا، فلم يعرفوا أَلَزِمَتْ جوفَ محرابها تدعو الله تعالى لَيلَها ونهارَها أن يُلْحِقَهَا بصديقِهَا أم رقدتْ بجانِبِهِ في مقبرةِ الديرِ الرقدةَ الدائمة.

❀ ❀ ❀

تمّت

العبرات



مقدّمة

«العبرات» مجموعة روايات قصيرة وضع بعضها المنفلوطي وترجم صديق له بعضها الآخر عن الفرنسيّة خلال عامي ١٩٠٤ و١٩٠٥، ثمّ أعاد المنفلوطي صياغتها بأسلوبه الأخّاذ، فجمعها في كتاب واحد ظهر سنة ١٩٠٦. فالروايات الموضوعة هي: اليتيم، والحجاب، والهاوية، والعقاب؛ والروايات المترجمة هي: الشهداء، والذكرى، والجزاء، والضحيّة.

والكتاب كما يدلّ عليه اسمه مجموعة قصص عن بعض البؤساء بأسلوبه الساحر معتمدًا على براعته في تصوير المواقف الحزينة لا سيّما وأنّه كان معجبًا بسرد أخبار البؤساء، وكأنّه يجد لذّة قصوى في استدراج القارىء إلى مشاركته في ذرف الدموع السخيّة. وسنعرض فيما يلي موجزًا لأهمّ القصص التي يتضمّنها الكتاب.

١ - اليتيم

هي قصّة موضوعة تتحدّث عن فتًى مات والداه، فنشأ في بيت عمّه إلى جانبه ابنة عمّه الوحيدة وكأنّه أخوها. وتشاء الظروف أن يقع الشابّ في حبّ ابنة عمّه، التي أحبّته بدورها دون أن يبوح أحدهما للآخر بهذا الحبّ. ثمّ ما لبث أن توفّي العمّ فطلبت زوجته من الفتى أن يغادر المنزل حفاظًا على سمعة ابنة عمّه التي أصبحت في سنّ الزواج. فغادر الفتى المنزل دون أن يودّع ابنة عمّه وأقام في غرفة مجاورة لمنزل المنفلوطي. ثمّ لا تلبث الفتاة أن تصاب بمرض من شدّة حزنها على فراق حبيبها يؤدّي بها إلى الموت. وحين علم الفتى بالأمر وضع حدًّا لحياته، فدفنه المؤلّف تنفيذًا لوصيّته مع حبيبته في قبرٍ واحد بعد أن ضاقت بهما أرجاء القصر في حياتهما.

٢ - الشهداء

هي قصّة مترجمة نقلها الكاتب عن الفرنسية، تروي حكاية امرأة فقدت زوجها بعد أن سافر أخوها إلى أميركا، ولم يبقَ لها إلّا طفلها الوحيد الذي عاش إلى جانبها حياة بؤس وشقاء وفقر حتّى شبّ وتعلّم فنّ الرسم. ثمّ نجح في السفر إلى أميركا مع مجموعة من الرسّامين لعرض بعض لوحاته هناك، فأصاب بعض النجاح، واغتنم فرصة وجوده هناك للبحث عن خاله، وانتهى به الأمر إلى الوقوع بين أيدي الزنوج الذين قبضوا عليه وحكموا عليه بالموت. لكنّ فتاة بيضاء استطاعت إنقاذه من الأسر، وفرّا معًا تحت جنح الظلام. وفي طريق العودة وقع الفتى في حبّ الفتاة لكنّها اعتذرت عن عدم مبادلته هذا الحبّ لأسباب لا يمكن أن تبوح له بها. ثمّ اكتشف فيما بعد أنّها ابنة خاله الذي قتله الزنوج، وأنّها نذرت نفسها لله وهي

ستعمد إلى الانتحار، إذا وقعت في حبّ قد يؤدي بها إلى الزواج، عن طريق تَجرُّع محتوى قارورة من السمّ كانت تحملها معها.

وبالفعل تجرّعت الفتاة السمّ وما كان من الفتى إلّا أن تقدّم منها وقبّلها بعد موتها، فتسرّب السمّ إلى صدره، فماتا معًا وقبرا في حفرة واحدة، ثمّ ماتت الأمّ من شدّة الانتظار.

٣ - الذكرى

إنّها رواية مترجمة تروي قصّة أبي عبدالله آخر ملوك العرب في الأندلس الذي حارب أباه وعمّه بعد الاستعانة عليهما بعدوّه، ثمّ ما لبث الملك الإسباني أن هزمه وأرغمه على مغادرة الأندلس باتّجاه المغرب لينتهي حكم العرب على الأندلس لفترة ثمانية قرون. وقبل أن يستقلّ أبو عبدالله السفينة التي ستنقله إلى المغرب تناهى إلى سمعه صوت شبحٍ يؤنّبه على عمله ويذكّره بقول الشاعر:

إبكِ مثلَ النساءِ مُلْكًا مُضاعًا لم تحافِظْ عليهِ مثلَ الرجالِ

فندم أبو عبدالله على محاربة أبيه وعمّه حيث لا ينفع الندم، وأدرك الخطأ الفادح الذي أقدم عليه. وبعد أربعة وعشرين عامًا يسافر ابن الملك أبي عبدلله إلى إسبانيا متنكّرًا بزيّ طبيب عربي يداوي بالأعشاب، فيلتقي بفتاة إسبانيّة يستطيع من خلالها أن يتعرّف إلى آثار الأندلس المهمّة التي خلّفها آباؤه وأجداده. ثمّ يقع في حبّها ويكشف لها عن هويّته فتبادله الفتاة الحبّ. لكن اختلاف دينهما يقف حائلًا دون زواجهما، لا سيّما وأنّ ابن الحاكم كان وقع في حبّ الفتاة فلم تبادله هذا الحبّ، فرفع أمرهما إلى محكمة التفتيش التي حكمت على الفتى بالموت بتهمة محاولة إغراء فتاة مسيحيّة بترك دينها و هي جريمة فظيعة عندهم.

٤ - الهاوية

هي قصة موضوعة تدور حول فتًى ريفيّ أقام في القاهرة، ونشأت بينه وبين المنفلوطي علاقة صداقة متينة، ثمّ اضطرّ الكاتب إلى مغادرة القاهرة والعودة إلى مسقط رأسه. فودّع صديقه بعد أن اتّفقا على متابعة الاتّصال عن طريق المراسلة. وبعد فترة ليست بالقصيرة انقطعت رسائل الصديق من القاهرة تدريجيًّا، ثم عاد الكاتب من الريف وسارع إلى زيارة صديقه القديم في منزله لكنّه فوجىء منذ دخوله بأنّ صديقه قد ابتُلِيَ بشرب الخمرة والقمار، فبدّد كلّ أمواله وأساء كلّ الإساءة إلى أسرته. فوعد المنفلوطي زوجة صديقه بأنّه سيعمل ما بوسعه لإنقاذ صديقه من البلاء الذي أوقع نفسه فيه.

ثمّ التقى المنفلوطي بصديقه الحميم وراح يعاتبه ويلومه محاولًا إرشاده إلى الطريق القويم لكنّ الإدمان على الخمرة والقمار منعا الصديق من الأخذ بنصيحة الكاتب. واستمرّ الصديق في غيّه وضلاله إلى أن ولدت زوجه طفلة أصيبت إثرها بحمّى شديدة فارقت بعدها الحياة في ليلة باردة، ولم يكن إلى جانبها سوى طفلتها الصغيرة، وقد علقت بثدي أمّها. وحين عاد

الزوج إلى بيته عند الصباح اقترب إلى حيث تنام زوجه، فرآها قد فارقت الحياة، وما زالت الطفلة تبكي إلى جانبها. فتراجع مذهولًا من هول المشهد، فوطئت قدمه صدر الطفلة دون أن يدري، فهوتْ ميتة إلى جانب أمّها، وانتهى الأمر بالرجل في مصحّ للأمراض العقليّة.

٥ - الجزاء

هذه الرواية مترجمة عن الفرنسيّة وتروي قصّة فتاة ريفيّة جميلة وبريئة اسمها سوزان تنشأ مع ابن عمّها جلبرت في بيت واحد، فيكبران معًا، ويقع كلّ واحد منهما في حبّ الآخر، ويتّفقان على الزواج. وتشاء الأقدار أن يلتقي أحد النبلاء وهو يقوم برحلة إلى الريف بالفتاة، وهي تملأ جرّتها من البحيرة المجاورة لمنزلها، فيعجبه جمالها ويكرّر زياراته إلى المكان فتقع الفتاة في حبّه بعد أن تكتشف أنّه المركيز جوستان روستان الذي يمتلك قصرًا فخمًا على التلّة المقابلة للقرية. وفي وقت لاحق يستطيع الفتى أن يقود سوزان إلى قصره حيث تستسلم له بعد أن يعدها بالزواج.

أمّا ابن عمّها فقد علم من أمّه أنّ حبيبته فرّت مع الماركيز، ولن تعود إليه بعد اليوم، فأصيب الفتى بما يشبه الجنون، وحاول فيما بعد أن يقنع نفسه بأنّه نسيها لكنّ الواقع أظهر له أنّ جراحه لم تندمل، فهام الفتى على وجهه يحمل آلامه ولوعته حتى أوشك على الموت. في هذا الوقت فوجئت سوزان ذات يوم بالماركيز يعود إلى البيت بعد غياب استمرّ بضعة أيّام، ويرمي أمامها بكيس من النقود، ويطلب منها مغادرة المنزل مع طفلتها الرضيعة. فانصاعت سوزان إلى أمره، وغادرت القصر بملابسها القرويّة التي دخلت بها إليه تاركةً وراءها كيس النقود، وهامت على وجهها في الحقل المجاور لقصر الماركيز. وإذا بها تُفاجأ بصوت حزين ينبعث من مكان قريب، فاتّجهت ناحية الصوت لترى ابن عمّها النحيل الشاحب اللون يناديها مودّعًا. فاقتربت منه وإذا به يذرف على يدها آخر دمعة من عينيه قبل أن يودّع الحياة. فما كان من سوزان إلّا أن رمت بقسم من ملابسها على جسد طفلتها الصغيرة، وودّعتها ثمّ رمت بنفسها في النهر المجاور على مقربة من القصر حيث يجلس الماركيز على الشرفة مع حبيبته الجديدة. وإذا بالماركيز يطلب من رجاله أن يهبّوا لنجدة الغريقة التي انتُشلت جثّة هامدة. ثمّ لا تلبث الطفلة أن تلحق بأمّها الضحيّة. وحين تعلم عشيقة الماركيز بحقيقة الأمر تعود إلى أهلها، فيهيم الماركيز على وجهه في جوار القصر بعد موت سوزان والطفلة وغياب العشيقة، ويظلّ على تلك الحال حتى يرى الناسُ ذات يوم جثّته طافية على صفحة النهر حيث غرقت سوزان بالأمس القريب.

٢٥/١٠/١٩٩٦

مجيد طراد

*

إهداء

الأشقياءُ في الدنيا كثيرٌ، وليسَ في استطاعةِ بائسٍ مثلي أن يمحوَ شيئًا من بؤسِهِمْ وشقائِهِمْ، فلا أقلّ من أن أسكبَ بين أيديهم هذه العبراتِ، علّهم يجدونَ في بكائي عليهم تعزيةً وسلوى.

مصطفى لطفي المنفلوطي



اليتيم

«موضوعة»

سكنَ الغرفَةَ العليا من المنزلِ المجاور لمنزلي من عهدٍ قريبٍ فتًى في التاسعةَ عشرةَ أو العشرينَ من عمره، وأحسَبُ أنّه طالبٌ من طلبةِ المدارسِ العليا أو الوسطى في مصر، فقد كنتُ أراهُ من نافذةِ غرفَةِ مكتبي، وكانتْ على كثبٍ من بعضِ نوافذِ غرفته، فأرى أمامي فتًى شاحبًا، نحيلًا، منقبضًا، جالسًا إلى مصباحٍ منيرٍ في إحدى زوايا الغرفةِ ينظرُ في كتابٍ، أو يكتبُ في دفترٍ، أو يستظهرُ قطعةً، أو يعيدُ درسًا.

فلم أكنْ أحفل بشيءٍ من أمره، حتّى عدتُ إلى منزلي منذُ أيّامٍ بعدَ منتصفِ ليلةٍ قرّةٍ[1] من ليالي الشتاءِ، فدخلتُ غرفةَ مكتبي لبعضِ الشؤونِ، فأشرَفْتُ عليه فإذا هو جالسٌ جلستَهُ تلكَ أمامَ مصباحِهِ، وقد أكبَّ بوجهِهِ على دفترٍ منشورٍ بين يديهِ على مكتبِهِ، فظنَنْتُ أنّه لِمَا أَلَمَّ به من تَعَبِ الدرسِ وآلامِ السهرِ قد عبثتْ بجفنيه سِنَةٌ[2] من النوم فأعجَلَتْهُ من الذهابِ إلى فراشِهِ، وسقطَتْ به مكانَه؛ فما رمتُ مكاني[3] حتّى رَفَعَ رأسَه فإذا عيناهُ مخضلّتانِ من البكاءِ، وإذا صفحةُ دفترِهِ التي كان مكبًّا عليها قد جرى دمعُهُ فوقَها فمَحَا من كلماتِهَا ما مَحَا، ومشى ببعضِ مِدَادِها[4] إلى بعضٍ، ثمّ لم يلبثْ أنْ عادَ إلى نفسِه فتناولَ قلمَهُ ورجعَ إلى شأنِه الذي كان فيه.

فأحزَنَني أن أرى، في ظلمةِ ذلكَ الليلِ وسكونِهِ، هذا الفَتَى البائسَ المسكينَ منفردًا بنفسِهِ في غرفةٍ عاريةٍ باردةٍ، لا يتّقي فيها عاديةَ البردِ بدثارٍ[5] ولا نارٍ، يشكو همًّا من همومِ الحياةِ، أو رزءًا من أرزائِها قبلَ أن يبلغَ سنّ الهموم والأحزانِ، من حيثُ لا يجدُ بجانبِهِ مُوَاسيًا، ولا مُعِينًا، وقلتُ: لا بدّ أن يكونَ وراءَ هذا المنظرِ الضارعِ[6] الشاحبِ، نفسٌ قريحةٌ معذّبةٌ، تذوب بين أضلاعِهِ ذوبًا، فيتهافَتُ لها جسمُه تهافُتَ الخباءِ المقوّضِ. فلم أزلْ واقفًا مكاني لا أبرحُهُ، حتّى رأيتُه قد طَوَى كتابَهُ، وفارقَ مجلسَهُ، وأوى إلى فراشِه، فانصرفتُ إلى مخدعي، وقد مَضَى الليلُ إلّا أَقَلَّهُ، ولم يبقَ من سوادِه في صفحةِ هذا الوجودِ إلا بقايا أسطرٍ يوشكُ أن يمتدّ إليها لسانُ الصباحِ فيأتي عليها.

ثمّ لم أزلْ أراهُ بعدَ ذلكَ في كثيرٍ من الليالي إمّا باكيًا، أو مُطْرِقًا، أو ضاربًا برأسِهِ على صدرِهِ، أو منطويًا على نفسِهِ في فراشِهِ، يئنّ أنينَ الوالهةِ الثَّكْلى، أو هائمًا في غرفتِهِ يذرعُ أرضها، ويمسحُ جُدْرانَهَا، حتّى إذا نالَ منه الجهدُ، سقطَ على كرسيّه باكيًا منتحبًا. فأتوجّعُ له

---

(١) قرّة: باردة.

(٢) السِنة: النعاس.

(٣) رام مكانه: زال عنه وفارقه.

(٤) المداد: الحبر.

(٥) الدثار: غطاء الجسد.

(٦) الضارع: الضعيف النحيل.

وأبكي لبكائه، وأتمنّى لو استطعتُ أن أدخلَهُ مداخلةَ الصديقِ لصديقِه، وأستبثُّهُ[١] ذاتَ نفسِهِ وأُشرِكُهُ في همّه، لولا أنّني كرهتُ أنْ أفجأَهُ بما لا يحبّ، وأنْ أهجمَ منه على سرٍّ ربّما كانَ يُؤثِرُ الإبقاءَ عليه في صدرِهِ، وأنْ يكاتِمَهُ الناسَ جميعًا. حتّى أشرفتُ عليهِ ليلةَ أمسِ بعد هدأةٍ من الليلِ، فرأيتُ غرفَتَهُ مظلمةً ساكنةً، فظننتُ أنّه خرجَ لبعضِ شأنه.

ثمّ لمْ ألبثْ أن سمعتُ في جوفِ الغرفةِ أنّةً ضعيفةً مستطيلةً، فأزعجني مسمَعُهَا، وخُيِّلَ إليّ، وهي صادرةٌ من أعماقِ نفسِه، كأنّني أسمعُ رنينَهَا في أعماقِ قلبي، وقلتُ إنّ الفتى مريضٌ ولا يوجدُ بجانبِهِ من يقومُ بشأنِهِ، وقد بلغَ الأمر مبلغَ الجِدّ، فلا بدّ لي من المصيرِ إليه، فتقدَّمْتُ إلى خادمي[٢] أنْ يتقدّمني بمصباحٍ، حتّى بلغتُ منزلَهُ وصعدتُ إلى بابِ غرفته، فأدركَني من الوحشةِ عندَ دخولها، ما يُدرِكُ الواقفَ على بابِ قبرٍ يحاولُ أن يهبطَه ليودّعَ ساكنَهُ الوداعَ الأخير.

ثمّ دخلتُ، ففتحَ عينيهِ عندما أحسّ بي وكأنّما كانَ ذاهلًا أو مستغرقًا، فأدهَشَه أن يرى بين يديهِ مصباحًا ضئيلًا، ورجلًا لا يعرفُهُ. فلبثَ شاخصًا إليَّ هنيهةً لا ينطقُ ولا يطرف[٣]، فاقتربتُ من فراشِهِ، وجلستُ بجانبه، وقلت: أنا جارُكَ القاطنُ هذا المنزلَ، وقد سمعتُكَ الساعةَ تعالجُ نفسَك علاجًا شديدًا، وعلمتُ أنّكَ وَحْدَكَ في هذهِ الغرفةِ، فعَنَاني أمرُكَ، فجئتُكَ علّني أستطيعُ أنْ أكونَ لكَ عونًا على شأنِكَ، فهل أنتَ مريض؟

فرفعَ يدَه ببطءٍ، ووضَعَها على جبهَتِهِ، فوضعتُ يدي حيثُ وضعَهَا، فشعرتُ برأسه يلتهبُ التهابًا، فعلمتُ أنّه محمومٌ، ثمّ أمرَرْتُ نظري على جسمِهِ، فإذا خيالٌ سارٍ لا يكادُ يتبيّنُهُ رائِيه، وإذا قميصٌ فضفاضٌ[٤] من الجلدِ يموجُ فيه بدنُهُ موجًا.

فأمرتُ الخادمَ أن يأتيَني بشرابٍ كان عندي من أشربةِ الحمّى، فَجَرّعْتُهُ منه بضعَ قطراتٍ فاستفاقَ قليلًا، ونظرَ إليّ نظرةً عذبةً صافيةً وقال: شكرًا لك.

فقلت: ما شِكاتُكَ أيّها الأخ؟

قال: لا أشكو شيئًا.

فقلت: فهل مرّ بكَ زمنٌ طويلٌ على حالِكَ هذه؟

قال: لا أعلمُ.

قلت: أنتَ في حاجةٍ إلى الطبيبِ، فهل تأذنُ لي أن أدعُوَه إليكَ لينظرَ في أمرك؟

فتنهّدَ طويلًا ونظرَ إليّ نظرةً دامعةً وقال: إنّما يبغي الطبيبَ من يؤثرُ الحياةَ على الموت.

ثمّ أغمَضَ عينيهِ وعادَ إلى ذهولِهِ واستغراقِهِ، فلم أجدْ بدًّا من دعاءِ الطبيبِ رَضِيَ أم أبى. فدعوتُه، فجاءَ متأفّفًا متذمّرًا يشكو - من حيثُ يعلمُ أنّي أسمعُ شكواه - إزعاجَهُ من مرقدِهِ،

---

(١) استبثه السر: طلب إليه أن يبثه إياه. (٢) تقدم إلى فلان بكذا: أمره به.

(٣) طرف فلان بصره: أطبق أحد جفنيه على الآخر. (٤) الفضفاض: الواسع.

وتجشيمَه خوضَ الأزقّةِ المظلمةِ في الليالي الباردة؛ فلم أحفلْ بتعريضِهِ لأنّني أعلمُ طريقَ الاعتذارِ إليه. فجسّ نَبْضَ المريضِ، وهمسَ في أذني قائلًا: إنّ عليلَكَ، يا سيّدي، مشرفٌ على الخطرِ، ولا أحسبُ أنّ حياته تطولُ كثيرًا إلّا إذا كانَ في علم اللهِ ما لا نعلم. وجلسَ ناحيةً يكتبُ ذلكَ الأمرَ الذي يصدرُهُ الأطبّاءُ إلى عمّالهم الصيادلةِ أن يتقاضوا من عبيدِهم المرضى ضريبة الحياةِ.

ثمّ انصرفَ لشأنِهِ بعد ما اعتذرتُ إليه ذلكَ الاعتذارَ الذي يؤثرُه ويرضاه. فأحضرتُ الدواءَ، وقضيتُ بجانب المريضِ ليلةً ليلاءَ ذاهلةَ النجم بعيدةً ما بين الطرفين، أسقيهِ الدواءَ مرّةً، وأبكي عليه أخرى حَتّى انبثَقَ نورُ الفجر. فاستفاقَ ودارَ بعينيهِ حولَ فراشِهِ حتّى رآني، فقال: أنت هنا؟

قلتُ: نعم، وأرجو أن تكونَ أحسنَ حالًا من ذي قبل.

قال: أرجو أن أكونَ كذلك.

قلت: هَلْ تأذنُ لي، يا سيّدي، أن أسألَكَ من أنْتَ؟ وما مقامُكَ وحدَكَ في هذا المكانِ؟ وهل أنتَ غريبٌ في هذا البلدِ، أو أنتَ من أهليه؟ وهل تشكو داءً ظاهرًا، أو همًّا باطنًا؟

قال: أشكوهما معًا.

قلتُ: فهل لكَ أن تحدّثَني بشأنِكَ، وتُفْضِيَ إليّ بهمّكَ كما يُفْضِي الصديقُ إلى صديقِهِ، فقد أصبحتُ معنيًّا بأمرِكَ عنايتَكَ بنفسِك؟

قال: هل تعدُني بكتمانِ أمري إن قَسَمَ الله لي الحياةَ، وبإمضاءِ وصيّتي إن كانتِ الأخرى؟

قلتُ: نعم.

قال: قد وثقتُ بوعدِكَ، فإنّ من يحملُ في صدره قلبًا شريفًا مثلَ قلبِكَ، لا يكونُ كاذبًا، ولا غادرًا.

أنا فلانُ بنُ فلان، ماتَ أبي منذُ عهدٍ بعيدٍ، وتركَني في السادسةِ من عمري فقيرًا مُعْدَمًا، لا أملكُ من متاع الدنيا شيئًا، فكفلني عمّي فلان، فكانَ خيرَ الأعمام وأكرمَهُمْ، وأوسَعَهُمْ برًّا وإحسانًا، وأكثَرَهمْ عطفًا وحنانًا. فقد أنزلني من نفسِهِ منزلةً لم ينْزِلْهَا أحدٌ من قبلي غيرُ ابنتِه الصغيرةِ، وكانتْ في عمري أو أصغرَ منّي قليلًا، وكأنّما سَرَّه أن يرى لها بجانِبِهَا أخًا بعدما تمنّى على اللهِ ذلكَ زمنًا طويلًا، فلم يدركْ أمنيّتَهُ، فَعُنِيَ بي عنايَتَهُ بها، وأدخلَنَا المدرسةَ في يومٍ واحدٍ.

فأَنِسْتُ بها أُنْسَ الأخِ بأختِه، وأحبَبْتُها حبًّا شديدًا، ووجدتُ في عشرتها من السعادةِ والغبطةِ ما ذهبَ بتلكَ الغضاضةِ[1] التي كانتْ لا تزالُ تعاودُ نفسي، بعد فَقْدِ أبويَ من حينٍ إلى حين. فكان لا يرانا الرائي إلّا ذاهبَيْنِ إلى المدرسةِ، أو عائدَيْنِ منها، أو لاعبَينِ في فناءِ المنزلِ، أو مرتاضَينِ في حديقته، أو مجتمعَينِ في غرفةِ المذاكرةِ، أو متحدّثَينِ في غرفةِ النومِ، حتّى جاءَ يومُ حجابِهَا فلزمَتْ خدرَهَا، واستمرَرْتُ في دراستي.

---

(١) الغضاضة: الذلّ والعيب.

ولقد عَقَدَ الودُّ بين قلبي وقلبها عقدًا، لا يحلُّه إلّا ريبُ المنون، فكنتُ لا أرى لذّةَ العيشِ إلّا بجوارِهَا، ولا أرى نورَ السعادةِ إلّا في فجرِ ابتسامَاتِها، ولا أؤثرُ على ساعةٍ أقضِيها بجانِبِهَا جميعَ لذّاتِ العيشِ ومسَرَّاتِ الحياة، وما كنتُ أشاءُ أن أرى خَصْلةً من خِصالِ الخير في فتاةٍ من أدبٍ، أو ذكاءٍ، أو حِلْمٍ، أو رحمةٍ، أو عِفّةٍ، أو شَرَفٍ، أو وَفاءٍ إلّا وجدتُها فيها.

وإنّي أستطيعُ، وأنا في هذهِ الظلمةِ الحالكةِ من الهمومِ والأحزانِ، أن أرى على البعدِ تلكَ الأجنحةَ النورانيّةَ البيضاءَ من السعادةِ التي كانتْ تظلّلُنا معًا أيّامَ طفولَتِنا، فتشرقُ لها نفسانا إشراقَ الرّاحِ[1] في كأسِها. وأنْ أرى تلكَ الحديقةَ الغنّاءَ التي كانتْ مراحَ لذّاتِنا، ومسرحَ آمالِنا وأحلامِنَا، كأنّها حاضرةٌ بين يديَّ أرى لألاءَ مائِها، ولمعانَ حَصْبَائها، وأفانينَ أشجارِها، وألوانَ أزهارِها، وتلكَ القاعدةَ الحجريّةَ التي كنّا نقتعِدُهَا منها طرفي النهار، فنجتمعُ على حديثٍ نتجاذَبُهُ، أو طاقةٍ نؤلّفُ بين أزهارِها، أو كتابٍ نُقلّبُ صفحاته، أو رسم نتبارى في إتقانِهِ.

وتلكَ الخمائلَ[2] الخضراءَ التي كنّا نلجأُ إلى ظلالِهَا كلّما فَرَغْنَا من شوطٍ من أشواطِ المسابقةِ، فنشعرُ بما تشعرُ به أفراخُ الطيورِ اللاجئةِ إلى أحضانِ أمّهاتها. وتلك الحفائرَ الصغيرةَ التي نحتفرُهَا ببعضِ الأعوادِ على شاطىء الجداولِ والغدرانِ فنملؤُها ماءً، ثمّ نجلسُ حولها لنصطادَ أسماكَهَا التي ألقينَاها فيها بأيدينا، فنطربُ إنْ ظفرنا بشيءٍ منها كأنّا قد ظفرنا بِغُنْمٍ[3] عظيم.

وتلك الأقفاصَ الذهبيّة البديعةَ التي كنّا نربّي فيها عصافيرَنا وطيورَنا، ثمّ نقضي الساعاتِ الطوالَ بجانبها نعجبُ بمنظرِهَا ومنظرِ مناقيرِها الخضراء، وهي تحسو الماءَ مرّة، وتلتقطُ الحبَّ أخرى، ونناديِها بأسمائِها التي سمّيناها بها، فإذا سمعنَا صفيرَهَا وتغريدَهَا، ظننّا أنّها تلبّي نداءَنا.

ولا أعلمُ هلْ كانَ ما كنتُ أضمرُه في نفسي لابنةِ عمّي ودًّا وإخاءً، أو حبًّا وغرامًا، ولكنّني أعلمُ أنّه كانَ بلا أملٍ، ولا رجاءٍ. فما قلتُ لها يومًا إنّي أحبّها لأنّي كنتُ أضنّ بها - وهي ابنةُ عمّي ورفيقةُ صباي - أنْ أكونَ أوّلَ فاتحٍ لهذا الجرحِ الأليم في قلبِهَا. ولا قدّرْتُ في نفسي يومًا من الأيّامِ أن أصِلَ أسبابَ حياتي بأسبابِ حياتِها، لأنّي كنتُ أعلمُ أنّ أبويها لا يسخوانِ بمثلها على فتًى بائسٍ فقيرٍ مثلي. ولا حاولتُ في ساعةٍ من الساعاتِ أنْ أتسقّطَ[4] منها ما يطمَعُ في مِثْلِهِ المحبُّونَ المتسقّطونَ، لأنّي كنتُ أُجِلُّها عن أن أنزلَ بها إلى مثلِ ذلكَ. ولا فكّرْتُ يومًا أن أستشفّ من وراءِ نظراتِها خبيئَةَ نفسِهَا، لأعلمَ أيَّ المنزلتين أنزلُها من قلبِهَا، أمنزلةَ الأخِ فأقنعُ منها بذلكَ؟ أم منزلةَ الحبيبِ، فأستعينُ بإرادتها على إرادةِ أبويها؟ بل كانَ حبّي لها حُبَّ الراهبِ المتبتّلِ لصورةِ العذراءِ الماثلةِ بين يديه في صومَعَتِهِ، يعبدُهَا ولا يتطلّعُ إليها.

---

(١) الراح: من أسماء الخمرة.

(٢) الخمائل: الأشجار الكثيفة الملتفّة.

(٣) الغُنم: الربح والكسب.

(٤) تسقط فلان الخبر: أخذه شيئًا بعد شيء.

ولم يزلْ هذا شأني، حتّى نزلَتْ بعمّي نازلةٌ من المرضِ لم تنشبْ[١] أن ذهبتْ به إلى جوارِ ربّه. وكانَ آخرُ ما نطقَ بِهِ في آخرِ ساعاتِ حياته أنْ قالَ لزوجته، وكانَ يُحْسِنُ بها ظنًّا: «لقد أعجلني الموتُ عن النظرِ في شأنِ هذا الغلامِ، فكوني له أمًّا كما كنتُ له أبًا، وأوصيكِ أن لا يفقدَ منّي بعدَ موتي إلّا شخصِي».

فما مرّتْ أيّامُ الحِدَادِ حتّى رأيتُ وجوهًا غيرَ الوجوهِ، ونظراتٍ غيرَ النظراتِ، وحالًا غريبةً لا عَهْدَ لي بمثلِهَا من قبلُ. فتداخَلَني الهمُّ واليأسُ، ووقَعَ في نفسي للمرّةِ الأولى في حياتي أنّني قد أصبحتُ في هذا المنزلِ غريبًا، وهذا العالم طريدًا.

فإنّي لَجَالِسٌ في غرفتي صُبيحَةَ يوم، إذْ دخلتْ عليّ الخادمةُ، وكانت امرأةً من النساءِ الصالحاتِ المخلصات، فتقدّمَتْ نحوي خَجِلَةٍ متعثّرةً، وقالت: قد أمَرَتْني سيّدتي أنْ أقولَ لكَ، يا سيّدي، إنّها قد عَزَمَتْ على تزويجِ ابنتِها في عهدٍ قريبٍ، وإنّها ترى أنّ بقاءَكَ بجانبِهَا بعدَ موتِ أبيها، وبلوغِكُما هذه السنّ التي بلغتُماها، ربّما يُريبُهَا عند خطيبِهَا، وإنّها تريدُ أن تتّخِذَ للزوجينِ مسكنًا هذا الجناحَ الذي تسكنُهُ من القصرِ. فهي تريدُ أن تتحوّلَ إلى منزلٍ آخرَ تختارُهُ لنفسِكَ من بينِ منازِلها على أنْ تقومَ لكَ فيه بجميعِ شأنِكَ، وكأنّكَ لم تفارِقْها.

فكأنّما عَمَدَتْ إلى سهم طائشٍ أصابتْ به كَبدي، إلّا أنّني تماسَكْتُ قليلًا ريثما قلتُ لها: سأفعلُ إنْ شاءَ الله، و لا أَحَبَّ إليَّ من ذلك. فانصرفَتْ لشأنِها. فخلوتُ بنفسي ساعةً أطلقْتُ فيها السبيلَ لعبراتي ما شاءَ اللهُ أنْ أطلقَهَا. حتّى جاءَ الليلُ، فعمدتُ إلى حقيبتي، فأودَعْتُهَا ثيابي وكُتُبي، وقلتُ في نفسي:

«قد كانَ كلُّ ما أسعَدُ به في هذه الحياة أنْ أعيشَ بجانبِ ذلكَ الإنسانِ الذي أحبَبْتُ نفسي من أجلِهِ، وقد حِيلَ بيني وبينَه، فلا آسفُ على شيءٍ بَعْدَه».

ثمّ انسلَلْتُ من المنزلِ انسلالًا من حيثُ لا يشعرُ أحدٌ بما كانَ، ولم أتزوّدْ من ابنةِ عمّي قبلَ الرحيلِ غيرَ نظرةٍ واحدةٍ ألقيتُهَا عليها من خلال كِلّتها[٢]، وهي نائمةٌ في سريرِها، فكانتْ آخرَ عهدي بها.

لَعَمْرُكَ ما فارَقْتُ بغدادَ عَنْ قِلًى ... لو انّا وَجَدْنَا من فِراقٍ لَها بُدَّا
كفى حَزَنًا أنْ رُحْتُ لم أستطِعْ لها ... وَدَاعًا ولَمْ أُحْدِثْ بساكِنِهَا عهدَا

وهكذا فارقتُ المنزلَ الذي سعدتُ فيه حقبةً من الزمانِ فراقَ آدم جنّته، وخرجتُ منه شريدًا، طريدًا، حائرًا، ملتاعًا قد اصْطَلَحَتْ عليَّ الهمومُ والأحزانُ. فراقٌ لا لِقاءَ بعده، وفقرٌ لا سادَّ لِخَلّتِهِ[٣]، وغربةٌ لا أجدُ عليها من أحدٍ من الناسِ مُواسيًا، ولا مَعِينًا.

وكانت معي صُبَابة[٤] من مالٍ بقيتْ في يدي من آثارِ تلكَ النعمةِ الذاهبةِ، فاتخذتُ هذه

---

(١) لم تنشب: لم تلبث.
(٢) الكلة: الستر الرقيق.
(٣) الخَلّة: الفقر والحاجة.
(٤) الصُبابة: البقية من الشيء.

الحجرةَ في هذه الطبقةِ العليا مسكنًا، فلم أستطعِ البقاءَ فيها ساعةً واحدة، فأزمعتُ الرحيلَ إلى حيثُ أجدُ في فضاءِ اللهِ ومنفسحِ آفاقِه علاجَ نفسي من همومِهَا وأحزانِها. فرحَلْتُ رحلةً طويلةً قضيتُ فيها بضعةَ أشهرٍ لا أهبطُ بلدةً حتّى تنازَعُني نفسي إلى أخرى، ولا تطلعُ عليَّ الشمسُ في مكانٍ، حتّى تغربَ عنّي في غيرِه، حتّى شعرتُ في آخرِ الأمرِ بسكونٍ في نفسي يشبِهُ سكونَ الدمعِ المعلّقِ في محجرِ العينِ لا يفيضُ، ولا يغيض.

فَقَنَعْتُ بذلكَ، وكانَ ميعادُ الدراسةِ السنويّةِ قد حانَ، فعدتُ، وقد استقرّ في نفسي أنْ أعيشَ في هذا العالمِ منفردًا كمجتمعٍ، وغائبًا كحاضرٍ، وبعيدًا كقريبٍ، وأن ألهوَ بشأنِ نفسي عن كُلّ شأنٍ سواه، وأنْ أستعينَ على نسيانِ الماضي باجتنابِ موطِنِه ومظاهرِه. فلزمتُ غرفتي ومدرَستي أداولُ بينهما لا أفارِقُهما، ولم يبقَ أثرٌ لذلكَ العهدِ القديمِ في نفسي إلّا نزواتٌ تعاودُ قلبي من حينٍ إلى حينٍ، فأستعينُ عليها بقطراتٍ من الدمعِ أسكبُهَا من جفنيّ في خلوتي من حيثُ لا يعلمُ إلّا الله ما بي، فأجدُ بَرْدَ الراحةِ في صدري.

لبثتُ على ذلكَ برهةً من الزمانِ حتّى عدتُ بالأمسِ إلى تلكَ الفضلةِ التي كانتْ في يدي من المالِ، فإذا هي ناضبةٌ أو موشِكةٌ، وكنتُ مأخوذًا بأنْ أهيّيءَ لنفسي عيشًا مستقلًا، وأن أؤدّي للمدرسةِ قسطًا من أقساطِها، والمدرسةُ في هذا البلدِ حانوتٌ قاسٍ لا تباعُ فيه السلعةُ نَسِيئة[١]، والعلمُ في هذه الأمّة مرتَزَقٌ يَرْتَزِقُ منه المرتزقون، لا منحةٌ يمنحُها المحسنونَ، فأهمَّتْنِي نفسي، وعلمتُ أنّي مشرفٌ على الخطرِ، ولا أعرفُ سبيلًا إلى القوتِ بوجهٍ ولا حيلةٍ، فعمدتُ إلى كتبي فاستبقيتُ منها ما لا غنًى لي عنهُ، وحملْتُ سائرها[٢] إلى سوقِ الورّاقين، فعرضتُهُ هناكَ يومًا كاملًا، فلم أجدْ من يبلغُ به في المساومةِ رُبْعَ ثمنِهِ، فعدْتُ بِهِ حزينًا منكسرًا، وما على وَجْهِ الأرضِ أحدٌ أذلُّ منّي ولا أشقى.

فلمّا بلغتُ بابَ المنزلِ، رأيتُ في فنائِهِ امرأةً تُسَائِلُ أهلَ البيتِ عنّي، فتبيّنْتُها فإذا هي الخادمُ التي كانْت تخدمُني في منزلِ عمّي، فقلتُ: فلانة؟

قالتْ: نعم.

قلتُ: ماذا تريدين؟

قالت: لي إليكَ كلمةٌ فائذنْ لي.

فصعدتُ معها إلى غرفتي، فلمّا خَلَوْنَا قلتُ: هات.

قالت: مرّتْ بي ثلاثةُ أيّامٍ وأنا أفتّشُ عنكَ في كلّ مكانٍ، فلم أجدْ من يدلُّني عليكَ حتّى وجدتُكَ اليومَ بعد اليأسِ منكَ.

ثم انفجرتْ باكيةً بصوتٍ عالٍ؛ فراعني بكاؤُها وخفْتُ أن يكونَ قد حلّ بالبيتِ الذي أحبّه بأسٌ، فقلتُ ما بكاؤُك؟

---

(١) النسيئة: دفع الثمن في وقت لاحق. (٢) سائر الشيء: باقيه.

قالت: أما تعلمُ شيئًا من أخبارِ بيتِ عمّك؟

قلت: لا، فما أخبارُه؟

فمدّتْ يَدَها إلى ردائِها وأخرجَتْ من أضعَافِه[١] كتابًا مغلقًا، فتناوَلْتُهُ منها، فَفَضَضْتُ غلافَه، فإذا هو بخطّ ابنةِ عمّي، فقرأتُ فيه هذه الكلمةَ التي لا أزالُ أحفظُهَا حتّى الساعة: «إنّك فارَقْتَني ولم تودّعْني، فاغتفرتُ لكَ ذلكَ. فأمّا اليومَ وقد أصبحتُ على بابِ القبرِ، فلا أغتفرُ لكَ ألّا تأتيَ إليّ لتودّعَني الوداعَ الأخير».

فألقيتُ الكتابَ من يدي، وابتدرتُ البابَ مسرعًا، فتعلقَتِ الخادمُ بثوبي وقالتْ: أينَ تريدُ يا سيّدي؟

قلت: إنّها مريضةٌ ولا بدّ لي من المصيرِ إليها. فصَمَتَتْ لحظةً ثمّ قالتْ بصوتٍ خافتٍ مرتعش: لا تفعلْ، يا سيّدي، فقد سَبَقَكَ القضاءُ إلَيْها.

هنالِكَ شعرتُ أنّ قلبي قد فارقَ موضعَهُ إلى حيثُ لا أعلمُ لَهُ مكانًا. ثمّ دارتْ بي الأرضُ الفضاءُ دورةً سَقَطْتُ على أثرِها في مكاني، لا أشعرُ بشيءٍ ممّا حولي. فلم أُفِقْ إلّا بعدَ حينٍ؛ ففتحتُ عينيّ، فإذا الليلُ قد أظَلَّني، وإذا الخادمُ لا تزالُ بجانبي تبكي وتنتحبُ.

فدنوتُ منها وقلت: أيّتها المرأةُ أحقٌّ ما تقولين؟

قالت: نعم.

قلت: قصّي عليّ كلَّ شيءٍ.

فأنشأتْ تقول:

إنّ ابنةَ عمّكَ، يا سيّدي، لم تنتفِعْ بنفسِهَا بعدَ رحيلِكَ. فقد سَألَتْني في اليومِ الذي رحلتَ فيه عن سببِ رحيلِكَ، فحدّثْتُهَا حديثَ الرسالةِ التي حملتُهَا إليكَ من زوجةِ عمّك، فلم تزدْ على أن قالت: «وماذا يكونُ مصيرُ هذا البائسِ المسكين! إنّهم لا يعلمونَ من أمرِه ولا من أمري شيئًا». ثمّ لم يجرِ ذكرُكَ بعد ذلكَ على لسانِها بخيرٍ، ولا بشرٍّ كأنّما كانتْ تعالجُ في نفسِهَا ألمًا ممضًّا.

وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ حتّى سَرَى داءُ نفسِهَا إلى جسمِهَا، فاستحالتْ حالُهَا، وغاضَ ماءُ جمالِها، وانطفأتْ تلكَ الابتساماتُ العذبةُ التي كانتْ لا تفارقُ ثَغْرَهَا، ثم سَقَطتْ على فراشِها مريضة لا تبلّ[٢] يومًا حتّى تنتكسَ أيّامًا. فراع أمّها أمرُهَا، ووردَ عليها ما قَطَعَها عن ذكرِ العرسِ والعروسِ، والخطبةِ والخطيبِ. وكانتْ لا تزالُ تهتفُ بذلكَ نهارَهَا وليلَهَا، فلم تَدَعْ طبيبًا ولا عائدًا، إلّا فزعَتْ إليه أمرها، فما أغنى العائدُ ولا الطبيبُ، وأصبحتِ الفتاةُ تدنو من القبرِ رويدًا رويدًا.

فبينا أنا ساهرةٌ بجانبِ فراشِهَا منذُ ليالٍ، إذ شعرتُ بها تتحرّكُ في مضجَعِهَا، فدنوتُ منها،

---

(١) أضعاف الثوب: أثناؤه.

(٢) أبل من مرضه: برؤ منه.

فأشارتْ إليّ أنْ آخذَ بيدها، ففعلتُ، فاستوتْ جالسةً وقالَتْ: في أيّ ساعةٍ نحنُ من الليلِ؟

قلت: في الهزيع[١] الأخيرِ منه.

قالت: أأنتِ وحدَكِ هنا؟

قلت: نعم، فقد هَجَعَ[٢] أهلُ البيتِ جميعًا.

قالت: ألا تعلمينَ أينَ مكانُ ابن عمّي الآن؟

فعجبتُ لكلمةٍ لم أسمَعْهَا منها قبلَ اليوم، وقلت: بلى يا سيّدتي أعلمُ مكانه. وما كنتُ أعلم شيئًا، ولكنّي أشفقتُ على هذا الخيطِ الرقيقِ الباقي في يدهَا من الأملِ أن ينقطِعَ، فينقطعُ بانقطاعِه آخرُ خيطٍ من خيوطِ أجَلِهَا.

فقالت: ألا تستطيعينَ أن تحملي إليه رسالةً منّي من حيثُ لا يعلمُ أحدٌ بشأني؟

قلت: لا أَحَبُّ إليّ من ذلكَ، يا سيّدتي.

فأشارتْ أن آتيَهَا بمحبرتها، فجئتُهَا بها، فكتبتْ إليكَ هذا الكتابَ الذي تراهُ. فلمّا أصبحَ الصباحُ، خَرَجْتُ أسائلُ الناسَ عنكَ في كلّ مكانٍ، وأتصفّحُ وجوهَ الغادينَ والرائحينَ علّني أراكَ، وأرى من يهديني إليكَ، فلم أظفرْ بطائلٍ، حتّى انحدرتِ الشمسُ إلى مغربها. فعدتُ إلى المنزلِ، وقد مَضَى شطرٌ من الليلِ، فما بلغتُهُ حتّى سمعتُ الناعيةَ، فعلمتُ أنّ السهمَ قد بلغَ المقتلَ، وأن تلكَ الوردةَ الناضرةَ التي كانتْ تملأُ الدنيا جمالًا وبهاءً، قد سقطتْ آخرُ ورقةٍ من ورقاتِها. فحزنتُ عليها حُزْنَ الثاكِلِ على وحيدِها. وما رُئِيَ مثلَ يومِهَا يومٌ كانَ أَكْثَرُهُ باكيةً وباكيًا.

وكانَ أكبرُ ما أهمّني من أمرِهَا، أنّ كلَّ ما كانتْ ترجوه في السّاعةِ الأخيرةِ من ساعاتِ حياتها أنْ تراكَ، ففاتَها ذلكَ، وسقطَتْ دونَ أمنيّتِهَا. فلم أزلْ كاتمةً أمرَ الرسالةِ في نفسي، ولم أزلْ أتطلّبُ السبيلَ إليكَ حتّى وجدتُكَ.

فشكَرْتُ لها صنيعَهَا وأذنتُهَا بالانصرافِ فانصرفَتْ. فما انفردْتُ بنفسي حتّى شعرتُ أنّ سحابةً سوداءَ تهبطُ فوق عينيَّ شيئًا فشيئًا حتّى احتجبَ عن ناظري كلُّ شيءٍ، ثمّ لا أعلمُ ماذا تمّ بعدَ ذلكَ حتى رأيتك.

* * *

وما وصلَ من حديثه إلى هذا الحدّ، حتّى زَفَرَ زفْرَةً خِلْتُ أنّ كبده قد ارفضّتْ[٣] وأنّ هذه أفلاذُها.

فدنوتُ منه وقلتُ: ما بكَ يا سيّدي؟

قال: بي أنّي أطلبُ دمعةً واحدة أتفرّجُ بها ممّا أنا فيهِ، فلا أجدها.

---

(١) الهزيع: القسم من الليل. (٢) هجع: نام، رقد.

(٣) ارفضّ الشيء: تفرق وترشش.

ثمّ صمتَ ساعةً طويلةً، فشعرتُ أنّه يهمهِمُ ببعضِ كلماتٍ فأَصْغَيتُ إليه فإذا هو يقول:

«اللّهمّ إنّكَ تعلمُ أنّي غريبٌ في هذه الدنيا لا سَنَد لي فيها ولا عضدَ، وأنّي فقيرٌ لا أملكُ من متاعِ الحياةِ ما أعودُ به على نفسي، وأنّي عاجزٌ مستضعفٌ لا أعرفُ السبيلَ إلى بابٍ من أبوابِ الرزقِ بوجهٍ ولا حيلةٍ، وأنّ الضربةَ التي أصابتْ قلبي قد سَحَقَتْهُ سحقًا، فلم يبقَ فيه حتّى الذماءُ[1]، وإنّي أستحييكَ أنْ أمدّ يدي إلى هذه النفسِ التي أودعتَهَا بيدك بين جنبيّ، فأنتزعُهَا من مكانِها، وألقي بها في وجهِكَ ساخطًا ناقمًا. فتولَّ أنتَ أمرَهَا بيدِكَ، واستردَّ وديعَتَكَ إليكَ، وانقُلْهَا إلى دارِ كرامتك. فَنِعْمَ الدارُ دارُك، ونعم الجوارُ جوارُك».

ثمّ أمسَكَ رأسَهُ بيدِهِ كأنّما يحاولُ أن يحبسَه عن الفرارِ، وقال بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ: أشعرُ برأسي يحترقُ احتراقًا، وقلبي يذوبُ ذوبًا. لا أحسبُني باقيًا على هذا، فهل تعِدُني أن تدفنَني معها في قبرِهَا، وتدفنَ معي كتابَها إنْ قضى اللهُ قضاءَه؟

قلت: نعم، وأسألُ اللهَ لكَ السلامة.

قال: الآنَ أموتُ طيّبَ النفسِ عن كلّ شيء.

ثم انتفضَ انتفاضةً فاضَتْ نفسُه فيها.

* * *

لقد هَوّنَ وجدي على هذا البائسِ المسكينِ أنّي استطعتُ إمضاءَ وصيّتِه كما أرادَ، فسعيتُ في دفنِهِ معَ ابنةِ عمِّهِ، ودفنتُ معه تلكَ الرسالةَ التي دَعَتْهُ فيها أن يوافِيَهَا، فعجزَ عن أن يلبّيَ نداءَها حيًّا، فلبّاهُ ميتًا.

وهكذا اجتمعَ تحتَ سقفٍ واحدٍ ذانكَ الصديقانِ الوفيّانِ اللذانِ ضاقَ بهما في حياتهما فضاءُ القصرِ، فوسعَتْهُما بعدَ موتِهِمَا حُفْرَةُ القبرِ.

* * *

الشهداء

«مترجمة»

لم يبقَ لها بعد موتِ زوجِهَا وأبويها إلّا ولدٌ صغيرٌ يؤنسُهَا، وأخٌ شقيقٌ يحنو عليها، وصُبابةٌ من المالِ تترشّفُ[2] الرزقَ منها تَرَشُّفًا مصانعةً للدهرِ فيها.

أمّا الصُبابةُ فقد نَضُبَتْ، وأمّا الأخُ فقد ضَمّهُ الدهرُ ضمّةً ذهبتْ بمالِهِ وبجميعِ ما تملكُ يدُهُ، فهاجرَ هجرةً بعيدةً لا تعرفُ مصيرَه فيها، فأصبحتْ من بعدِه لا تملكُ مالًا، ولا عضدًا.

لقد لقيتْ هذه المرأةُ المسكينةُ من الشقاءِ في طلبِ العيشِ ما لا يستطيعُ أن يتحمّلَهُ بشرٌ،

---

(١) الذماء: بقية النفس.

(٢) ترشفت الإبل الماء: أخذته قليلًا قليلا.

فخاطتِ الملابسَ حتّى عَشِيَ[١] بصرُها، وغسلتِ الثيابَ حتّى يبستْ أطرافُها، ودخلتِ المصانعَ حتّى كلّتْ، وخدمت في المنازِل حتّى ذلّتْ ولكنّها استطاعتْ أن تحيَا ويحيَا ولدُها بجانِبِهَا.

ما كانَ لمثلِهَا أن يحيَا على مثلِ ذلكَ، ولكنّ الله كانَ أرحمَ بها من أن يسلبَها السعادَة ويسلبَهَا العزاءَ عَنْها معًا، فقد كانتْ إذا دَجَا[٢] ليلُ الحوادثِ حَوْلَها، وأظلمتِ الحياةُ أمامَ عينَيْهَا، رأتْ في الأفقِ البعيدِ ثلاثةَ أشعَّةٍ من سماءِ الرحمةِ الإلهيّةِ حتّى تتلاقى في فؤادِها، فتملأُه عزاءً وصبرًا؛ شعاعَ الأُنْسِ بولدِهَا، وشعاعَ الرجاءِ في أخيها، وشعاعَ السرورِ بما وُفّقَتْ إليه من صِيَانةِ عرضِهَا.

دارتِ الأيّامُ دورَتَها فاكتهلتِ الأمّ، وشبّ الولدُ، وانتقلَ هَمُّ قلبِها إلى قلبِه. وكانَ لا بُدّ له أن يعيشَ، وأنْ يحسنَ إلى تلكَ التي طالما أحسَنَتْ إليهِ، فمشى يتصفّحُ وجوهَ الرزقِ وجهًا وجهًا، وَيردُ مناهِلَهُ منهلًا منهلًا، حتّى وقفَ له حظُّه على مهنةِ الرسمِ فأنس بها، وما زالَ يعطِيها من نفسِهِ وجدّهِ حتّى مَهَرَ فيها. والمهارةُ لا تدلُّ على صاحبِها وحدَهَا، بل هو الذي يدلّ عليها بحيلَتِهِ ورفقِهِ. وما كان الفتى يملكُ أداةَ ذلك، ولا يعرفُ السبيلَ إليه، فاستمرّ خاملًا مغمورًا لا تدرُّ له مهنَتُه إلّا القطرةَ بعد القطرةِ في الفينةِ بعد الفينة[٣]. فلم يستطِعْ أن يُسْعِدَ أمّه، ولكنّه استطاعَ أن يسدّ خَلّتَهَا[٤]، فقنعتْ منه بذلكَ ولزمتْ منزلها، ووجدَتْ بَرْدَ الراحةِ في صدرِها.

إلّا أنّها كانتْ إذا ذكرتْ ذلكَ الغائبَ النّائي عنها، حَنّتْ إليه حنينَ النيبِ[٥] إلى فِصَالها[٦]، وأحزَنَها أنّها لم تَرَهُ منذُ خمسَةَ عشَرَ عامًا، ولم ترَ منهُ كتابًا منذُ عَشْرَةِ أعوامٍ حتّى اليوم. فلا تجدُ لها بدًّا كلّما هاجَهَا الوَجْدُ إليه، إلّا أنْ تلجأَ إلى ذلكَ الملجأ الوحيدِ الذي يفزعُ إليه جميعُ البائسينَ والمحزونينَ في بأسائِهِمْ وضرّائهم، خلوتِها ودموعِهَا، فتبكي ما شاءَ اللهُ أن تفعلَ، ثمّ تخرجُ لاستقبالِ ولدِهَا باسمةً كأنْ لم تكنْ باكيةً قبلَ ذلك.

دخلَ عليها ولدُهَا يومًا في خلوتِهَا، فرآها تبكي، ورأى في يدِهَا صورةً، فتبيَّنَهَا، فإذا هي صورةُ خالِهِ. فألَمّ بسريرةِ نفسِهَا، وأمسَكَ بين أهدابِ عينيه دمعةً مترقرقةً ما تكادُ تتماسكُ.

فمشى إليها حتّى وضعَ يَدَه على عاتِقِهَا، وقال: رفّهي عن نفسِك، يا أمّاه، فستعلمينَ خبرَ غائبكِ عمّا قليل.

فَتَطَلّقَ وجهُهَا وأضاءَ، وقالتْ: وكيفَ السبيلُ إلى ذلكَ؟

قال: قد علمتُ أن مَعْرِضًا سيقامُ للرسم في واشنطن حاضرةِ أميركا بعدَ بضعةِ شهور،

(١) عَشِيَ بصرُه: ضعف. وله معان أخرى.
(٢) دجا: أظلم.
(٣) الفينة: الحين.
(٤) الخلّة: الحاجة.
(٥) النيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنة.
(٦) الفصال: جمع فصيل، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فصل عن أمه.

وأنّهم قدّروا له جوائزَ مختلفةً صغرى وكبرى، وقد وَعَدَني بعضُ أصدقائي أن يساعدني على الشخوصِ[1] إليه، علّني أستطيعُ أنْ أنالَ ما أقيمُ به وجهي، وأنقذُ به نفسي ونفسَكِ من هذا الشقاءِ. وهنالك أفتّشُ عن غائبِكِ حتّى أجدَه، أو أجدَ منقطعَ أثره.

فاستسرّ بِشْرُها الذي كانَ متلألئًا وقالت: لا تفعلْ، يا بنيّ، فما أنا بشقيّةٍ ما رأيتُكَ بجانبي، وما أنتَ بشقيّ ما قنعتَ بما قَسَمَ اللهُ لكَ. ولئن فعلتَ، لا تكونَنَّ امرأةٌ على وجهِ الأرضِ أعظمَ منّي لوعةً ولا أشقى. ولئنْ بكيتُ لفراقِ أخي مرّة، فسأبكي لفراقِكَ ألفَ مرّة. وإنّي كلّما ذكرتُهُ، وجدْتُ في وجهِكَ العزاءَ عنه، فمن لي بالعزاءِ عنكما، إنْ فَقَدْتُ وجهَيْكُما معًا!؟

فما زال يروضُها، ويمسحُها، ويمنّيها في رحلتِهِ الأمانيّ العِذابَ حتّى أسلَسَتْ، وهدأَتْ، وأسلَمَتْ إلى اللهِ أمرَها.

وما هي إلّا أيامٌ قلائلُ، حتّى ضربَ الدهرُ بينَهما بضرباتِه فإذا الأمُّ وحيدةٌ في فرنسا، لا مؤنسَ لها، وإذا الولدُ غريبٌ في أمريكا، لا يعرفُ له سندًا ولا عضدًا.

وصلَ الفتى إلى معرضِ الرسمِ، فعرضَ رسمَهُ هناكَ، وكانَ يمثّلُ فيه موقفَ الوداعِ الذي جرى بينَه وبينَ أمّه على شاطىءِ البَحرِ يومَ رحيلِهِ، وكانَ موقفًا محزنًا، فأحسَنَ تمثيلَهُ. فأعجبَ القومُ بجمالِهِ، وأثّرَ في نفوسهم منظرُه، فقضوا له بالجائزة التي كان يمنّي نفسَه بها. فما حَصَلَتْ في يدِهِ، حتّى خُيِّلَ إليه أنّه أسعدُ أهلِ الأرضِ طرًّا وأنّ هذا اليومَ هو أوّلُ يومٍ هَبَطَ فيه عالمَ الوجودِ، وأنّه ما ذاقَ قبلَ الساعةِ مرارةَ العيشِ، ولا رأى صورةَ الشقاء!

وكذلكَ يعبثُ الدهرُ بالإنسانِ ما يعبثُ، ويذيقُه ما يذيقُه من صنوفِ الشقاءِ، وألوانِ الآلامِ حتّى إذا عَلم أنّه قد أوحَشَه وأرابَه[2]، وملأ قلبَه غيظًا وحنقًا، أطْلَعَ له في تلكَ السماءِ المظلمةِ المُدْلَهِمّة[3] بارقةً واحدةً من بوارقِ الأملِ الكاذبِ، فاستردّه بها إلى حظيرتِهِ راضيًا مغتبطًا كما تُقَادُ السائمةُ[4] البلهاءُ بأعوادِ الكلأ إلى مصرعِهَا، فما أسعَدَ الدهرَ بالإنسانِ، وما أشقى الإنسانَ به.

أرسلَ الفتى إلى أمّه بعضَ المالِ، واستبقى لنفسِهِ بعضًا، وكتبَ إليها أنّه لنْ يبرحَ هذه الأرضَ، حتّى يفيَ لها بما عاهَدَها عليه. ومشى في طريقِه يفتّشُ عن خالِهِ في أنحاءِ البلادِ، ويسائِلُ عنهُ كلَّ مَنْ لقِيَهُ من القاطنينَ والطارئين[5]، حتّى حدّثَهُ بعضُهم أنّ آخرَ عهدِهِمْ به رحلةٌ رَحَلَها عنهُمْ من بضعِ سنواتٍ إلى بعضِ الجزرِ الجنوبيّة في التفتيشِ عن معدنِ نحاسٍ هناك، ثمّ لم يَعُدْ بَعْدَ ذلك.

فمشى في الطريقِ التي علمَ أنّه سلكَهَا حتّى وصلَ إلى جزيرةٍ موحشةٍ مقفرةٍ. وكانتْ لا تزالُ

---

(١) الشخوص: الحضور.
(٢) أرابه: شككه وجعله يرتاب.
(٣) المدلهمّة: الشديدة السواد.
(٤) السائمة: الماشية المتروكة في المرعى.
(٥) الطارئون: المهاجرون.

تغشَى سماءَ تلكَ البلادِ بقيّةٌ من ظلماتِ العصورِ الأولى، فمرّ بقبيلةٍ من قبائلِ الزنجِ نازلةٍ هناكَ وراءَ بعضِ الجبالِ المنقطعَةِ، فما رأوه، حتّى هاجتْ في صدورِهِم أحقادُ تلكَ العداوةِ اللونيّةِ التي لا يزالُ يضمرها هؤلاءِ القومُ لكلّ شيءٍ أبيضَ حتّى للشمسِ المشرقةِ، والكواكبِ الزاهرةِ؛ فداروا به دورةً سقَطَ من بعدِهَا أسيرًا في أيديهم، فاحتمَلوه حتّى وصلوا به إلى ديارِهِم، فاحتَبسُوه هناكَ في نفقٍ تحتَ الأرضِ كانوا يسمّونه «سجنَ الانتقام».

* * *

هنالكَ علمَ أنّ تلكَ البارقةَ التي لاحَتْ لهُ في سماءِ السعادةِ من الأملِ يومَ المعرضِ إنّما هي خدعةٌ من خِدَعِ الدهرِ، وأكذوبةٌ من أكاذيبِهِ، وأنّ ما كانَ يقدّرُه لنفسِه من سعادةٍ وهناءٍ في مستقبلِ أيّامِه، قد ذَهبَ بذهابِ أمسِ الدابرِ(١)، وأصبحَ صحيفةً باليةً في كتابِ الدهرِ الغابرِ.

ولقد كانَ في استطاعتِهِ أن يَتَجَلَّدَ للنازلةِ التي نزلتْ به، ويستمسكَ لها، لو أنّه استقلّ بحَمْلِها، ولكنّ الذي آدَهُ(٢) وأثقلَهُ أنّ هناكَ إنسانًا آخرَ كريمًا، عليه أن يقاسِمَه إيّاها، فقد أصبحَ يحملُ مصيبتَهُ ومصيبةَ أمّه فيهِ على عاتقٍ واحد.

نزلوا به إلى المحبسِ، وقادوه إلى سلسلةٍ غليظةِ الحلقاتِ، فسلكُوه فيها ثمّ أغلقوا البابَ من دونِه وتركُوه وشأنَه. فما انفرد بنفسِه، حتّى فتحَ عينيهِ، فلم يرَ أمامه شيئًا. فلم يعلمْ هَلْ كُفَّ بصرُهُ؟ أمِ اشتدّتِ الظلمةُ أمامَ عينيهِ، فحجبتْ عن ناظرِهِ كلّ شيءٍ حتى نفسَها؟ فلم يزلْ في حيرتِهِ حتّى انقضَى الليلُ. فانحدرَ إليه من ثقبٍ صغيرٍ في حائطِ المحبسِ خيطٌ أبيضُ دقيقٌ من شعاعِ الشمسِ، حتّى استقرّ بين يديهِ، فأنسَ به أُنْسَ الغريبِ بالغريبِ. وشكرَ للشمسِ رَسُولَها الذي أرسَلَتْهُ إليه ليؤنِسَه في وحدتِهِ. واستمرّ بصرُه عالقًا به لا يفارقُه أينما سَارَ وحيثُما انتقلَ، حتّى رآه يتقبّضُ شيئًا فشيئًا، ويتراجَعُ قليلًا قليلًا، ثمّ علا إلى ثقبِهِ الذي انحدرَ منه، ثمّ طار إلى سمائِهِ التي هبطَ منها، فحزنَ لفراقِهِ حُزْنَ العشيرِ لفراقِ عشيرِهِ.

ودارَ بعينيهِ حولَ نفسِهِ، فإذا قِطَعٌ سوداءُ مظلمةٌ تتدجّى وتتكاثَفُ من حولِهِ، وَيُمْلِسُ(٣) بعضها في أحشاءِ بعض، وإذا هو نفسُه قطعةٌ من تلكَ القطعِ هائمةٌ بينها هيمانَ الروحِ الحائرِ في ظلماتِ القبورِ، فما كادَ يعرفُ مكانه منها، فمشى في ذلك المعتركِ المائجِ يفتّش عن نفسِه، ويتلمّسُها بيدِه تلمُّسًا، حتّى سمعَ صلصلةَ السلسلةِ الملتفّةِ على قدميهِ فوجَدَهَا وكانَ قد أجهدَهُ المسيرُ، فتساقَطَ على نفسِهِ باكيًا منتحبًا.

وكذلكَ انقطعَ هذا المسكينُ عن العالمِ كلّه، خيرِهِ وشرّهِ ولم يبقَ بينَه وبينَه من صلةٍ إلّا ذلكَ الشعاعُ الأبيضُ الذي يزورُه كلّ صباحٍ، وذلكَ السجّانُ الأسودُ الذي يطرقُهُ كلَّ مساء.

وما مرّتْ به على حالِهِ تلكَ سنةٌ واحدةٌ، حتّى نَسِيَ نفسَه، ونسِيَ أمّه ونسِيَ العالَمَ الذي

---

(١) الدابر: الماضي. (٢) آده الأمر يؤوده أودًا: بلغ منه مجهوده.

(٣) أملس الظلام: اختلط واشتدّ وتداخل بعضه ببعض.

كان يعيشُ فيه، والعالَمَ الذي انتقلَ إليه، ونسيَ الليلَ والنهارَ والظلمةَ والنورَ، والسعادةَ والشقاءَ، وأصبحَ في منزلةٍ بين منزلتي الحياةِ والموتِ. فلا يفرحُ ولا يتألّمُ، ولا يذكرُ الماضي، ولا يرجُو المستقبلَ، ولا يعلَمُ هلْ هو حجرٌ بين تلكَ الأحجارِ، أو قطعةٌ بين قِطَعِ الظلامِ، أو جسدٌ يتحرّكُ، أو خيالٌ يسري، أو وَهْمٌ من الأوهامِ أو عَدَمٌ من الأعدامِ؟!

* * *

مرّتْ على تلكَ الأمّ المسكينةِ بضعةُ أعوامٍ لا ترى ولدَها، ولا تجدُ من يدلّها عليهِ، فأصبحَ من يراها في طريقِهَا يرى عجوزًا حدباءَ والهةً متسلّبةً[١] مذهوبًا بها[٢] قد توكّأتْ على عَصَا ما تزالُ تضطربُ في يدها، وأسبَلَتْ فوقَ جسمِهَا الناحِلِ المحقوقفِ أهدامًا[٣] خلقانًا يحسَبُها الناظرُ إليها لكثرةِ ما نالتْ يَدُ البلى منها، أهدابًا متلاصقةً، أو مِزَقًا[٤] متطايرةً، تقفُ صدرَ النهارِ بأبوابِ المعابدِ والكنائسِ تسألُ اللهَ أنْ يرحَمَهَا، والناسَ أن يطعِمُوها. حتّى إذا زالتِ الشمسُ عن كبدِ السماءِ، أخذت سمْتَها[٥] إلى شاطئِ البحرِ، وجلستْ فوقَ بعضِ صخورِه تناجي أمواجَهُ ورمالَهُ، وترقبُ أفقَهُ البعيدَ كما يرقبُ المنجّمُ كوكَبَهُ في أفقِ السماءِ.

فإذا سَرَتْ إليها نسمةٌ وَجَدَتْ ريحَ ولدِهَا فيها، وإذا أقبلتْ عليها موجةٌ، ظنّتْ أنّها رسولٌ منه إليها، وإذا تراءَتْ لها سفينةٌ ماخرةٌ على سطحِ الماءِ، حسبَتْهَا السفينةَ التي تحمِلُهُ. فلا يزالُ بصرُهَا عالقًا بها لا يفارقُها، حتّى ترسُوَ على الشاطئِ، فتقفُ في طريقِ ركبانِها، تتصفّحُ الوجوهَ، وتتفرّسُ[٦] الشمائلَ، وتهتفُ باسمِ ولدِهَا صارخةً معولةً وتقول: عبادَ اللهِ، من يدلّني على ولدي، أو ينشدُهُ لي في معالمِ الأرضِ ومجاهِلِهَا، فقد أضلَلْتُهُ منذُ عهدٍ بعيدٍ، فحارَ بي الدهرُ من بعدِه. فلا أنا ساليةٌ عنهُ، ولا واجدةٌ إليه سبيلًا.

فاحتسبُوها يدًا عند اللهِ، وحدّثوني عنهُ. هلْ عَادَ معكم؟ أو تخلّفَ عنكم ليأتيَ على أثرِكُم؟ أو انقطعَ الدهرُ به فلا أملَ فيهِ بعد اليوم؟ فلا يلتفتُ إليها أحدٌ ولا يفهَمُ أحدٌ ما تقولُ. وربّما لَمَحَهَا بعضُ الناسِ، فظنّها امرأةً ملتاثةً[٧]، فرثى لها أو سائلةً، فتصدّق عليها.

ولا يزال هذا شأنَها في موقفِهَا هذا، حتّى ترى الأمّهاتِ والأخواتِ والفتياتِ، قد عُدْنَ بأولادهنّ، وإخوانهنّ، وآبائهنّ إلى منازلهنّ، ولم يبقَ على شاطئِ البحرِ من غادٍ ولا رائحٍ سواها، فتتناولُ عَصَاها، وتعودُ أدراجَهَا إلى بيتِهَا، فتأخذُ مجلسَهَا من حافةِ قبرٍ كانتْ قد احتفَرَتْهُ بيدِهَا في أرضِ قاعتِهَا، وتوهّمَتْهُ مدفنًا لولدها، فتظَلّ تبكي وتقول:

في أيّ بطنٍ من بطونِ الأرضِ مضجعُكَ، يا بنيّ؟ وتحتَ أيّ نجمٍ من نجومِ السماءِ مصرعُك؟

---

(١) المتسلبة: التي أحدت على زوجها أو غيره.

(٢) المذهوب به: المسلوب عقله، ويقال أين يذهب بك؟ أي بعقلك.

(٣) الأهدام: جمع هدم (بالكسر) وهو الثوب البالي.

(٤) المزق: قطع الثوب الممزقة.

(٥) السمت: الطريق.

(٦) تفرّس في الشيء: تفحّصه ودقّق فيه.

(٧) التاث: جن واختلط.

وفي أيّ قاعٍ من قيعانِ البحرِ مثواكَ؟ وفي أيّ جوفٍ من أجوافِ الوحوشِ الضاريةِ مأواك؟

لو يعلمُ الطيرُ الذي مزّقَ جثّتَك، أو الوحشُ الذي وَلَغَ[١] دمَكَ، أو القبرُ الذي ضمّكَ إلى أحشائِه، أو البحرُ الذي طواكَ في جوفِه، أنّ وراءَك أمًّا مسكينةً تبكي عليكَ من بعدِك لرحَمُوك من أجلي؟

عُدْ إليّ، يا بنيّ، فقيرًا، أو مقعدًا، أو كفيفًا. فحسبي منكَ أن أراكَ بجانبي في الساعةِ التي أفارقُ فيها هذهِ الحياةَ، لأقبّلَكَ قبلةَ الوداعِ، وأعهدَ إليك بزيارةِ مضجعي، مطلعَ كلّ شمسٍ ومغربَها، لتخفّ بزورَتِكَ عنّي ضَمّةُ القبرِ، وتستنيرَ بوجهِكَ الوضّاءِ ظلماتُه الحالكة.

ما أسعدَ الأمهاتِ اللواتي يسبقنَ أولادهُنّ إلى القبورِ! وما أشقى الأمّهاتِ اللواتي يسبقهنّ أولادُهُنّ إليها! وأشقى منهنّ تلكَ الأمُّ المسكينةُ التي تدبُّ إلى الموتِ دبيبًا، وهي لا تعلمُ هلْ تركَتْ ولدَهَا وراءَها، أو أنّها ستجدُهُ أمامَهَا؟

وهكذا كانَ شأنُها صباحَهَا ومساءَها، فلم تزلْ تبكي ولدَهَا بكاءَ يعقوبَ ولدَهُ، حتّى ذهبَ بصرُهَا ذهابَ بصرِه. ولكنّها لم تستَطِعْ عن يوسفِهَا صبرًا.

* * *

دخلَ السجّانُ على الفتى عشيّةَ ليلةٍ في محبسِه، فاقتربَ منهُ ومدّ يَدهُ إلى سلسلتِه المثبتةِ في الجدار، فانتزعَهَا من مكانها. فلمْ يقلْ شيئًا، ولم يسائِلْ نفسه هلْ هي ساعةُ نجاتِهِ أو ساعةُ حِمامه[٢]؟ ثمّ قاده إلى خارجِ المحبسِ حتّى وصل به إلى صخرةٍ جاثمةٍ على مقربةٍ من مجتمعِ القبيلةِ، فشدّ سلسلتَه إليها وتركَهُ مكانَه ومضَى. ففتحَ عينيهِ، فرأى مكانًا غير مكانِه، ومنظرًا غير منظرِه، وسماءً وأرضًا غيرَ سمائِه وأرضِه، فبدأ شعورُه يعودُ إليه شيئًا فشيئًا، حتّى استفاقَ، فتذكّرَ ما كانَ فيه، ورأى ما صارَ إليه.

هنا تذكّرَ السعادَة والشقاء، والغربةَ والوطنَ، والسجنَ وظلمتَه، والقيد ووطأتَهُ، ثمّ طارَ بخيالِهِ إلى ما وراءِ البحارِ، فذكَرَ أمّهُ وشقاءَها من بعدِه، وحنينَهَا، ويأسَهَا من لقائِهِ، فذرفَتْ عيناه دمعةً كانتْ هي أوّلَ دمعةٍ أرسلها من جفنيهِ من تاريخِ شقائه. وما زالَ يرسلُ العبْرةَ إثرَ العبرةِ، لا يهدأُ ولا يستفيقُ حتّى مضَى شطرٌ من الليلِ، وهدأَ الناسُ جميعًا في مضاجِعِهِم، فأسلَمَ رأسَه إلى ركبتيهِ وذهبَ بخيالِهِ إلى حيثُ شاءَ أن يذهَب.

فإنّهُ لكذلكَ، وقد رنّقَتْ[٣] في عينيه سِنَةٌ[٤] من النوم، إذ شعرَ بيدٍ تلمسُ كتفيهِ، فرفعَ رأسَه، فإذا شبحٌ أبيضُ قائمٌ فوقَ رأسِه، فَخُيِّلَ إليهِ أنّ ملكًا نورانيًّا نزلَ إليه عن علياءِ السماء، لينقذَه من شقائِهِ، فتبيّنه، فإذا فتاةٌ جميلةٌ بيضاءُ ما التفّتِ الأزرُ[٥] على مثلِها حسنًا وبهاءً، تتمشّى في

---

(١) ولغ: شرب بأطراف لسانه.
(٢) الحِمام: الموت.
(٣) رنّق النوم في العين: حلّ بها.
(٤) السنة: النعاس.
(٥) الأزر: جمع إزار.

بياضِهَا سمرةٌ رقيقةٌ كسمرةِ السحابِ الرهو[١] الذي يخالطُ وَجْهَ الشمسِ في صحوةِ النهارِ.
فسألها: من أنت؟

قالت: أنا فتاةٌ من فتياتِ هذا الحيّ، وقد ألَمَمْتُ بشيءٍ من أمرِكَ، فعلمتُ أنّك شقيٌّ، فرحمتُكَ ممّا أنتَ فيه، فجئتُكَ أُطْلِقُ وثاقَكَ لتذهبَ حيثُ تشاءُ. فلا مَثُوبَة[٢] يقدّمُها المرء بين يدَي ربّهِ يومَ جزائِهِ، أفضلُ من مواساةِ البائسِ، وتفريجِ كربةِ المكروب.

فعجبَ لزنجيّةٍ بيضاءَ ووثنيّةٍ تعبدُ الله، وبربريّةٍ تحملُ بين جنبيها قلبًا يعطفُ على البؤساءِ والمنكوبينَ، وقال في نفسه: ما لهذِهِ الفتاةِ بدٌ من شأنٍ، ووردَ عليه من أمرِهَا ما ذهَبَ بلبّه، وملكَ عليه نفسَه وهواهُ، وأنساهُ كلّ شأنٍ في الحياةِ إلا شأنها.

فلبثَ صامتًا واجمًا لا ينطق وقال لها: اذهبي لشأنِكِ، يا سيّدتي، فإنّني لا أريدُ النجاة. فعملتْ أنّها ثورةٌ من ثوراتِ اليأسِ، فَدَنَتْ منهُ، ووضعَتْ يدَهَا على عاتِقِهِ وقالت: لا تجعلْ لليأسِ إلى قلبكَ أيّها الفتى سبيلًا، وانْجُ بحياتك من يدِ الموتِ، فليسَ بينَك وبينَه، إنْ بقيتَ هنا، إلّا أن ينحدرَ عن وجهِكَ قناعُ هذا الليلِ، فإذا أنتَ فلذةٌ طائرةٌ مع شفراتِ السيوفِ، فلا تفجعْ نفسَكَ في نفسِكَ، ولا تفجعْ هذه المسكينةَ الواقفةَ بين يديكَ. فإنّ شديدًا عليّ جدًّا أنْ أراكَ بعد قليلٍ ذبيحةً في يدِ الذابحِ، أو مضغةً في فمِ الآكل.

قال: إنّك لا تستطيعينَ نجاتي.

قالت: لا أفهمُ ما تقول، فإنّني ما جئتُكَ إلّا وأنا عالمةٌ ماذا أصنعُ.

قال: قد كنتُ قبلَ اليوم موثقًا بوثاقٍ واحدٍ، فأصبحتُ موثقًا بوثاقينِ، فإن استطعْتِ أن تحلّي وثاقَ قدمي، فإنّكِ لا تستطيعينَ أن تحلّي وثاقَ قلبي.

فألمّتْ بسريرةِ نفسِه، فرفعَتْ وجهَهَا إلى السماءِ، ولبثَتْ شاخصةً إليها ساعةً، فرفَعَ رأسَه إليها، ولبثَ شاخصًا إلى وجهِهَا، نَظَرَ المصوّرِ الماهرِ إلى تمثالِهِ البديع، حتّى شعر بدمعةٍ حارّةٍ قد سقطتْ من جفنِهَا على وجهِهِ، فجَرَتْ في مجرى الدموعِ من خدّهِ، فانحدرتْ من جفنِه دمعةٌ مثلُها، فالتقَتْ بدمْعَتِهَا، فامتزَجَتَا معًا. فمدّ يدَهُ إلى ردائِها، فاجتذَبَها إليه و قال: قد طالَ وقوفُكِ، يا سيّدتي، فَاجْلِسي بجانبي نتحدّثْ قليلًا.

فجلسَتْ على مقربةٍ منه فقال لها: إنّ امتزاجَ دمعي بدمعِكِ في هذه الساعةِ، قد دلّني على أنّنا لن نفترقَ بعد اليوم أحياءً أو أمواتًا، فإنْ كنتِ تريدينَ لي النجاةَ فإنّني لا أنجو إلّا بك.

قالت: ليتَني أستطيعُ ذلكَ يا سيّدي.

قال: وما يمنعُكِ منه؟

فنظرتْ إليه نظرةً دامعةً وقالت: أخافُ أنْ أحبَّكَ.

قال: ولِمَ تخافينَ؟

(١) الرهو: الرقيق. (٢) المثوبة: الجزاء.

قالتْ: لا أعلَم.

قال: أنا لا أسألُكِ عمّا تكتمينَ في صدرِكِ من الأسرارِ، ولكنّي أسألُكِ أن تتركيني وشأني في يدِ القدرِ يفعلُ بي ما يشاءُ، فقد كنتُ أخافُ الموتَ قبلَ أن أراكِ، أمّا اليومَ، فحسبي عزاءً عمّا ألاقيهِ من غصَصِهِ وآلامِهِ، نظرةُ رحمةٍ تلقينَهَا عليّ في مصرعي، ودمعةُ حزنٍ تسكبينَهَا من بعدي على تربتي.

فما استقبلَتْهُ إلّا بدموعِهَا تنحدرُ على خدّيها كالعقدِ وهَىٰ سِلْكُهُ[1] فانتثرَ. ثمّ مدّتْ يدَهَا إلى قيدِه، فعالجتْهُ حتّى انصدَعَ، وقالت: إنّي ذاهبةٌ معكَ، وليقضِ اللهُ فيَّ وفيكَ قضاءَهُ.

مشيا يطويان القفارَ، ويعبرانِ الأنهارَ، ويضحَيَانِ[2] مرّة ويخصرَانِ[3] أخرى، ويردانِ آجِنَ[4] المياهِ وصفوَهَا، ويقتاتانِ يابسَ الثمارِ ورَطْبَهَا، فإذا لاحَ لهما ظلّ شجرةٍ أو شاطىءُ غديرٍ، أو سفحُ جبلٍ أويا إليهِ، فاستراحا بجانبهِ قليلًا، ثمّ عادا إلى شأنهما.

وكانتْ لا تزالُ تغشى وجهَ الفتاةِ مذ فارقَتْ موطنَهَا سحابةٌ سوداءُ من الحزنِ ما تكادُ تنقشعُ عنه. وكانا إذا نزلا منزلًا، وأخذا مضجعَهُما من تربهِ وأحجارِهِ، نهضتْ من مرقدِهَا بَعْدَ هدأة من الليلِ، وانتحَتْ ناحيةً من حيثُ تظنّ أنّه لا يشعرُ بمكانها، ومدّت يَدَها إلى صدرِهَا، فتناولَتْ صليبًا صغيرًا، فقبّلَتْهُ، ثمّ أنشأتْ تهمهِمُ بكلام خفيٍّ تناجي به شخصًا غائبًا عنها، فتستغفرهُ من ذنبٍ جَنَتْهُ إليه مرّة، وتطلبُ معونَتَهُ على أمرٍ لا تعرفُ مصيرَه، ولا تعلمُ وَجْهَ الصوابِ فيه أخرى، حتّى ينبثقَ نورُ الفجرِ، فتعودُ إلى مرقَدِهَا.

وكانَ كلّما سألَها عن شأنِهَا التَوتْ عليهِ ودافَعَتْهُ عنها، حتّى تَلَوَّمَ أنْ يعاوِدَهَا، فتركَهَا وشأنها، وقد أصبَح يحملُ في صدرِهِ من الهمّ فوقَ ما تحمِلُ من همِّ نفسِهَا. حتّى أشرفا بعد مسيرِ ثلاثينَ يومًا على سواءِ العمرانِ، فاستبشرا وعَلِمَا أنّهما قد أصبَحَا في الساعةِ الأخيرةِ من ساعاتِ الشقاء.

وكانا قدْ وَصَلا إلى نهرٍ صغيرٍ هناكَ، فجلسا بجانبهِ تحتَ شجرةٍ مورقةٍ يتحدّثانِ، وهي أوّلُ مرّةٍ جلسا فيها للحديثِ، فقال لها: ما حفظَ اللهُ حياتَنَا في هذهِ السفرةِ الطويلةِ، في هذهِ القفرةِ الجرداءِ الموحشةِ، إلّا وقد كَتَبَ لنا في لوحِ مقاديرِهِ سعادةً لا أحسَبُ أنّه قد أعدَّ خيرًا منها لعبادِهِ المتّقينَ في جنّاتِ النعيم.

قالت: ومتى كانتْ هذهِ الحياةُ موطنًا للسعادةِ أو مستقرًّا لها؟ ومتى سَعِدَ أبناؤُها بها، فنسعدَ مثلَهُم كما سعدوا؟ وإنْ كانَ لا بدَّ من سعادةٍ في هذهِ الحياةِ، فسعادَتُها أن يعيشَ المرءُ فيها معتقدًا أنْ لا سعادةَ له فيها ليستطيعَ أن يقضيَ أيّامَه المقدّرَةَ له على ظهرِهَا هادىءَ القلبِ، ساكنَ النفسِ، لا يكدّرُ عليه عيشَهُ أملٌ كاذبٌ، ولا رجاءٌ خائب.

---

(١) وهى سلكه: انقطع خيطه.

(٢) ضحى: برز للشمس.

(٣) خصر: برد.

(٤) الآجن من الماء: الذي تغير طعمه ولونه.

قال: إنّ السعادةَ حاضرةٌ بين أيدينا، وليسَ بينَنَا وبينَها، إنْ أردنَاها، إلّا أنْ نطويَ هذه المرحلةَ الباقيةَ من هذا القفرِ إلى أوّلِ بيتٍ نلقاهُ في طريقِنا من بيوتِ الله، فنجثُوَ أمامَ مذبحِهِ ساعةً نخرجُ من بعدِهَا زوجينِ سعيدين، لا يحولُ بيننا حائلٌ، ولا يكدّرُ صفوَنَا مكدّر.

فأطرقَتْ هنيهةً، ثمّ رفعتْ رأسَهَا، فإذا دمعةٌ صافيةٌ تنحدرُ على خدّها.

فقال: ما بكاؤُكِ يا سيّدتي؟

فقالت: أتذكرُ ليلةَ النجاةِ إذ دعوتَني إلى الفرارِ مَعكَ، فقلتُ لكَ إنّي أخافُ إنْ فَرَرْتُ معَكَ أن أحبّكَ؟

قال: نعم.

قالتْ: واأسفاهُ لقدْ وَقَعَ اليومَ ما كنتُ منه أخافُ. ثمّ صرخَتْ صرخةً عاليةً وقالت: ماذا يا أمّاه؟ وسقطتْ مكبّةً على وجهِهَا.

فدنا منها، وأمسَكَ بيدِهَا، فإذا رعدةٌ شديدةٌ تتمشّى في أعضائِهَا، فعلم أنّها البرداءُ[1]. وعمدَ إلى بعضِ الأشجارِ، فاقتطَعَ منها بضعةَ أعوادٍ، ومشى يفتّشُ عن الناسِ في كوخٍ كانَ يتراءى له على البعدِ حتّى بلغَهُ، فوجَد على بابِهِ كاهنًا شيخًا جليلَ المنظرِ، فدنا منه وحيّاهُ تحيّةً حَيّا بأحسنَ منها. وقالَ له: ما شأنُك يا بنّي؟

قال: إنّ بجانبِ ذلكَ النهرِ فتاةً مسكينةً تركتُهَا ورائي تشكو البردَ فهل أجدُ عندَكَ جذوةَ[2] نارٍ أعودُ بها إليها لتصطَليَ بها؟

فمكّنَه من طلبتِهِ، وقال له: «كَتَبَ اللهُ لعليلتِكَ السلامةَ، يا بنيّ، فاذهبْ فإنّي على أثرِك». فعَدَا الفتى عدوًا شديدًا حتّى بلغَ النهرَ، فأدهشَه أنْ رأى الفتاةَ هادئةً ساكنةً طيّبةَ النفسِ، لا تشكو بردًا ولا ألمًا، فأقبلَ عليها متهلّلًا، وقال لها: لعلَّ ما كان يخالطُ نفسَكِ من الألمِ لذكرِ أهلكِ ووطنِكِ قد ذهبَ بذهابِ الأيّام.

قالت: ما كانَ يخالطُ نفسي من ذلكَ شيءُ فاجلسْ أحدّثْكَ حديثي، فقدْ آن أنْ أفضِيَ بهِ إليك.

فجلسَ بجانبها فأنشأتْ تحدّثه وتقول:

أنا فتاةٌ غريبةٌ مثلُكَ عن هذهِ الديارِ لا أعرفُ من ساكنيها غيرَ نفسي، ولا من أرضِهَا غيرَ قبرٍ قد زالَ اليومَ رسمُه، وبليَ مع الأيّام دفينُه، فقد ولدتني أمّي على فراشِ رجلٍ أبيضَ وفدَ من ديارِكُمْ منذُ عشرينَ عامًا، فالتقى بها عندَ مرورِه بحيّها، فأحبّها وأحبّتْهُ، ثمّ فرّتْ معه إلى ما وراءِ هذه الصحراءِ، فدانَتْ بدينِه، ثمّ تزوّجَها، فولداني وعشْنَا جميعًا حقبةً من الدهرِ عيشَ السعداءِ الآمنينَ.

وكانَ رجالُ قبيلةِ أمّي لا يزالونَ يتطلّبونَ السبيلَ إلينا، حتّى سقطوا علينا سقوطَ القضاءِ في جنحِ ليلةٍ من ليالي الظلامِ، فاقتادُونا جميعًا إلى أرضِهِم. وكنتُ إذ ذاكَ لم أسلخ[3] العاشرةَ من عمري،

---

(١) البرداء: الحمى مع البرد.
(٢) الجذوة: الجمرة الملتهبة.
(٣) سلخ: أمضى.

فقتلُوا أبي أمامِي وأمامَ أمّي قتلةً لا يزالُ منظرُهَا حاضرًا بين يديّ حتّى الساعةَ لا يفارقني.

فحزنَتْ أمّي عليه حزنًا شديدًا ما زالَ يدنُو بها من القبرِ شيئًا، فشيئًا، حتّى جاءَت ساعَتُهَا فحضَرَ موتَهَا رسولٌ من رسلِ المسيحِ كان لا يزالُ يختلفُ إليها من حينٍ إلى حينٍ، فدعتني إليها أمامَه وقالت لي: يا بنيّة، إنّ أمّي قد ولدَتْني للشقاءِ في هذا العالمِ، وأحسَبُ أنّي قد ولدتُكِ له كذلكَ، فحسبُنَا ذلك. ولا تكوني سببًا في شقاءِ أحدٍ من بعدِكِ، وانذري نفسَكِ للعذراءِ نذرًا لا يحلّهُ إلّا الموت. فأذعنتُ لأمرِهَا وأشهدتُ الكاهنَ على نذري، فتلألأ وجهُهَا بشرًا وسرورًا، ثمّ نظرتْ نظرةً في السماءِ وقالت: ها أنذا على أثرِكَ يا رافائيل. ثمّ فاضَتْ روحُهَا.

فاضطربَ الفتى عندَ سماعِ هذا الاسم وقالَ لها: هل تعرفينَ وطنَ أبيكِ وأسرَتَه؟

قالت: نعم. وَسَمّتْهَا له.

فاستطيرَ فرحًا وسرورًا وقال: أحمدُكَ اللّهمَّ فقد وجدتُ ضالّتي.

فعجبَتْ لأمره وقالت: وأيَّ ضالةٍ تريدُ؟

قال: أتذكرين ليلةَ اللقاءِ، إذِ امتزجَتْ دمعتَانا معًا، فقلتُ لكِ إنّها صلةٌ بيني وبينَكِ لا يقطَعُهَا إلّا الموت؟

قالت: نعم.

قال: قد كنت أمُتُّ إليكِ قبلَ اليوم بحرمةِ الحبّ وحدَهَا، فأصبحتُ أمتُّ[1] إليكِ بحرمةِ الحبّ والقربى، فأنتِ اليومَ حبيبتي وابنةُ خالي معًا.

فقالتْ بصوتٍ خافت: أحمدُ الله، فقدْ وجدتُ لي في هذهِ الساعةِ العصيبةِ أخًا. وأخذَ جسمُهَا يضطربُ اضطرابًا شديدًا، ووجهُهَا يربدُّ شيئًا فشيئًا.

فذعِرَ الفتى وارتاعَ، وَحَنَا عليها، وقال: ماذا أرى؟

قالت: لا تُرَعْ فأصغِ إليّ، فإنّ لحديثي بقيّةً لم تسمَعْهَا، إنّني منذُ حفظتُ وصيّةَ أمّي، ووهبتُ العذراءَ نفسي، كانَ لا بدَّ لي أنْ أتّخذَ لي ملجأً أفزعُ إليه في اليومِ الذي أخافُ أن يغلبني فيه هوايَ على ديني، فكنتُ لا أزالُ أحملُ تلكَ القارورةَ معي، حتّى جاءَ اليومُ الذي خفتُهُ، فلجأتُ إليها، فنجوتُ وأستودعُك الله. فنظرَ الفتى حيثُ أشارتْ فرأى قارورةً مطّرحَةً وراءَها، فتناوَلَهَا فإذا هي فارغةٌ إلّا من بقيّةٍ صفراءَ في قرارَتِها ففهمَ كلَّ شيء.

هنالكَ شعرَ كأنّ شِعبةً من شِعابِ قلبه، قد هَوَتْ بين أضلاعِهِ، وكأَنَّ طائرًا قد نفضَ جناحيه، ثمّ طار عن رأسِهِ إلى جوّ السماءِ، فصَعِقَ في مكانه صعقةً لم يَشْعُرْ بعدَهَا بشيءٍ ممّا حوله، فلم يستفقْ إلّا بعد حينٍ. ففتحَ عينيه، فإذا الفتاةُ بجانبهِ جثّةٌ باردةٌ، وإذا الكاهنُ صاحبُ الكوخِ واقفٌ أمَامه، يحملُ على كفّه طعامًا كانَ قد جاءَ به إليهما، ويقلّبُ نظرَهُ حائرًا لا يفهَمُ ممّا يرى شيئًا.

---

(١) مت إليه بكذا: توصل إليه به.

فوثَبَ الفتى إليه حتّى صارَ أمامَهُ وجهًا لوجهٍ، ونظرَ إليه نظرةً شزراءَ[1] كتلكَ النظرةِ التي يُلقِيها الموتورُ[2] على وَجْهِ واترِه، وكأنْ قد خولطَ في عقلِهِ فأخذَ يهذي ويقول:

أتدري أيّها الرجلُ لِمَ ماتتْ هذه الفتاةُ؟ لأنّها وَهَبَتْ نفسَها للعذارءِ، ثمّ عَرَضَ لها الحبّ في طريقِهَا، فوقفَتْ حائرةً بين قلبِهَا ودِينِهَا، فلم تجدْ لها سبيلًا إلى الخلاصِ إلّا سبيلَ الانتحارِ، فانتحرت.

تلكَ جرائمكُمْ يا رجالَ الأديانِ تقترفُونها على وجهِ الأرضِ، أَمَا كَفَاكُمْ أنْ جعلتُم أمرَ الزواجِ في أيديكُم تحلّونَ منه ما تحلّون، وتربطونَ ما تربطونَ، حتّى قضيتُم بتحريمهِ قضاءً مبرمًا لا يقبلُ أخذًا، ولا ردًّا؟

إنّ الذي خلَقَنَا وبثَّ أرواحَنَا في أجسامِنَا، هو الذي خَلَقَ لنا هذهِ القلوبَ وخلقَ لنا فيها الحبّ. فهو يأمرُنا أن نحبّ، وأن نعيشَ في هذا العالمِ سعداءَ هانئين، فما شأنُكُم والدخولَ بين المرءِ وربِّهِ، والمرءِ وقلبِهِ؟

إنّ اللهَ بعيدٌ في علياءِ سمائِهِ عن أنْ تتناولَه أنظارُنا، وتتّصل بهِ حواسنَا، ولا سبيلَ لنا أن نراهُ إلّا في جمالِ مصنوعاتِهِ وبدائِعِ آياتِهِ، فلا بدَّ لنا من أنْ نراها ونحبّها لنستطيعَ أن نراهُ ونحبَّه.

إنْ كنتُمْ تريدونَ أن نعيشَ على وجهِ الأرضِ بلا حبٍّ، فانتزعوا من بينَ جنوبنا هذهِ القلوبَ الخفّاقَةَ، ثمّ اطلبوا منّا بعدَ ذلكَ ما تشاؤون؟ فإنّنا لا نستطيعُ أن نعيشَ بلا حبّ ما دامتْ لنا أفئدةٌ خافقة.

أتظنّونَ أيّها القومُ أنّنا ما خُلِقْنَا في هذهِ الدنيا إلّا لننتقِلَ فيها من ظلمةِ الرحم إلى ظلمةِ الديرِ، ومن ظلمةِ الديرِ إلى ظلمةِ القبرِ؟ بئْسَتِ الحياةُ حياتُنا إذنْ! وبئْسَ الخلقُ خلَقُنا! إنّنا لا نملكُ في هذه الدنيا سعادةً نحيا بها غيرَ سعادةِ الحبّ، ولا نعرفُ لنا ملجأً نلجأُ إليه من همومِ العيشِ وأرزائِهِ سواهَا، ففتّشُوا لنا، عن سعادةٍ غيرِها قبلَ أن تطلبوا منّا أن نَتَنَازَلَ لكُمْ عنها.

هذه الطيورُ التي تغرّدُ في أفنائِها، إنّما تغرّدُ بنغماتِ الحبّ، وهذا النسيمُ الذي يتردّدُ في أجوائِه، إنّما يحملُ في أعطافِه رسائلَ الحبّ، وهذه الكواكبُ في سمائِها، والشموسُ في أفلاكِها، والأزهارُ في رياضِها، والأعشابُ في مَروجِهَا والسوائِمُ[3] في مراتِعِهَا، والسواربُ[4] في أحجَارِها، إنّما تعيشُ جميعًا بنعمةِ الحبّ. فمتى كانَ الحيوانُ الأعجمُ، والجمادُ الصامتُ، أيّها القساةُ المستبدّونَ، أرفعَ شأنًا من الإنسانِ الناطقِ، وأحقَّ منه بنعمةِ الحبّ والحياة!؟

فهنيئًا لها جميعِها أنّها لا تعقلُ عنكم ما تقولونَ، ولا تسمعُ منكُمْ ما تنطقونَ، فقد نَجَتْ بذلكَ من شرٍّ عظيمٍ، وشقاءٍ مقيم.

---

(١) شزراء: غاضبة. (٢) الموتور: الذي تقع عليه مسؤوليّة الأخذ بالثأر.

(٣) السوائم: جمع سائمة وهي الماشية ترعى وحدها.

(٤) السوارب: جمع سارب وهو الذاهب على وجهه في الأرض.

إنّنا لا نعرفُكُم أيّها القومُ، ولا ندينُ بكم، ولا نعترفُ لكم بسلطانٍ على أجسامِنَا أو أرواحِنَا، ولا نريدُ أن نرى وجوهَكُم أو نسمَعَ أصواتَكُم، فتواروا عنّا، واذهبوا وحدَكُم إلى معابدِكُم أو مغاورِكُم، فإنّا لا نستطيعُ أن نتبَعَكُم إليها، ولا أن نعيشَ معكُم فيها.

إنّ وراءَنا نساءً ضعافَ القلوبِ و رجالًا ضعاف العقولِ، ونحنُ نخافُكُم عليهم أن يمتدَّ شرُّكم إليهم، فلا بدّ لنا أن نقفَ في وجوهِكُم، ونعترضَ سبيلَكُم، لنذودَكُم عنهُمْ حتّى لا تصلوا إليهم، فتُفسِدُوا عليهم البقيّةَ الباقيةَ من قلوبِهِمْ وعقولهم.

إنّا لا نعبدُ إلّا الله وحدَه، ولا نشركُ به غيرَه. وفي استطاعَتِنَا أن نعرفَ الطريقَ إليه وَحْدَنَا بدونِ دليلٍ يدلّنا عليهِ. فلا حاجةَ لنا بكُمْ ولا بوسَاطَتِكُم.

كتابُ الكونِ يُغْنِينَا عن كتابكُم، وآياتُ الله تغنينَا عن آياتِكُم، وأناشيدُ الطبيعةِ ونغماتُها تغنينَا عن أناشيدِكُم ونغماتِكُم. هذا الجمالُ المترقرقُ في سماءِ الكونِ وأرضِه، وناطقِهِ وصامِتِهِ ومتحرّكِهِ وساكِنِهِ، إنّما هو مرآةٌ نقيّةٌ صافيةٌ ننظرُ فيها فنرى وجهَ اللهِ الكريم مشرقًا متلألئًا، فنخرُّ بينَ يديه ساجدينَ، ثمّ نصغي إليه، لنستمعَ وَحْيَهُ، فنسمَعُهُ يقول لنا: «أيّها الناسُ إنّما خُلِقَ الجمالُ متعةً لكم فتمتّعُوا به. وإنّما خُلِقْتُمْ حياةً للجمالِ، فَأَحْيُوه».

ذلك أمرُ اللهِ الذي نسمعُه ولا نسمعُ أمرًا سواه!

* * *

وما وصَلَ في حديثه إلى هذا الحدّ، حتّى ثَقُلَ لسانُه، ووهَنَتْ[1] عزيمتُهُ، وارتعدَتْ مفاصِلُه، فسقَطَ في مكانِهِ يزفرُ زفيرًا شديدًا، ويئنّ أنينًا محزنًا.

فاقتربَ منهُ الشيخُ، ووضعَ يدَهُ على رأسِه، وقالَ له: ارفقْ بنفسِك يا بنيّ فما أنتَ بأوّلِ ثاكلٍ على وجهِ الأرضِ، ولا فقيدُكَ بأوّلِ راحلٍ عنها، وإنّ في رحمةِ اللهِ ورضوانِهِ عزاءً للصابرين وجزاءً للمحسنين.

فأهوى الفتى على يدِهِ وأخذَ يقبّلُهَا ويقول: اغفرْ لي ذنبي يا أبتِ، فقد كنتُ من الظالمين.

قال: غَفَرَ الله لكَ يا بنيّ، فما دونَ رحمةِ اللهِ بابٌ موصَدٌ ولا رتاجٌ[2] معترض.

قال له: يا أبتِ إنّ هذهِ الفتاةَ غريبةٌ عن هذهِ الأرضِ، وليسَ لها فيها أحدٌ سواي، وقد ماتَتْ من أجلي وفي سبيلي، فهل تأذنُ لي أنْ أدْنُوَ منها، لأقبّلَهَا قبلةَ الوداعِ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِها على وَجْهِ الأرض؟

قال: افعلْ يا بنيّ.

فزحَفَ على ركبتَيْهِ حتَّى بلغَ مكانَها، فضمّها إليهِ ضمّةً شديدةً، وأهوى بفَمِه على فَمِهَا، فقبَّلَهَا لأوّلِ مرّة في حياتِهِ قبلةً فاضَتْ روحُهُ فيها.

* * *

(١) وهنت: ضعفت. (٢) الرتاج: القفل.

في الساعةِ التي دُفِنَ فيها هذانِ الشهيدانِ تحتَ تلكَ الشجرةِ المورقةِ على شاطىءِ ذلكَ النهرِ الجاري، مرّتْ بكوخِ العجوزِ امرأةٌ من جاراتِهَا كانتْ تعتادُهَا الزيارةَ من حينٍ إلى حين، فنظرَتْ إلى مكانِهَا الذي اعتادَتْ أن تتّخذَهُ من حافةِ ذلكَ القبرِ المفتوحِ فرأتْهُ خاليًا فأشرفَتْ على الحفرةِ فَوَجَدَتْهَا متردّيةً فيها، معفّرةً بترابِهَا لا حِرَاكَ بها، فملأتْ بالترابِ الذي كانَ مجتمعًا حولَ الحفرةِ تلكَ الأشبارَ الخمسةَ التي هي مسافةُ ما بينَ الحياةِ والموتِ، ثمّ أسبَلَتْ فوقَ تربَتِها دمعةً كانتْ هي كلَّ نصيبِهَا من الدنيا.

❁ ❁ ❁

الحجاب

«موضوعة»

ذهبَ فلانٌ إلى أوروبّا وما نُنْكِرُ من أمرِه شيئًا، فلبثَ فيها بضعَ سنينَ، ثمّ عادَ وما بقيَ ممّا كُنّا نعرِفُهُ منهُ شيءٌ.

ذهبَ بوجهٍ كوجهِ العذراءِ ليلةَ عرسِهَا، وعادَ بوجهٍ كوجهِ الصخرةِ الملساءِ تحتَ الليلةِ الماطرةِ؛ وذهبَ بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ يأنسُ بالعفوِ ويستريحُ إلى العُذْرِ، وعاد بقلبٍ ملفّفٍ مدخولٍ لا يفارقُهُ السخطُ على الأرضِ وساكِنِهَا، والنقمةُ على السماءِ وخالقِهَا؛ وذهبَ بنفسٍ غضّةٍ خاشعةٍ ترى كلّ نفس فوقَهَا، وعادَ بنفسٍ ذهّابةٍ نزّاعةٍ لا ترى شيئًا فوقَهَا، ولا تلقي نظرةً واحدةً على ما تحتَهَا؛ وذهبَ برأسٍ مملوءَةٍ حِكَمًا ورأيًا، وعادَ برأسٍ كرأسِ التمثالِ المثقّبِ لا يملؤُهَا إلا الهواءُ المتردّدُ؛ وذهبَ وما على وجهِ الأرضِ أحبُّ إليه من دينِهِ ووطنِهِ، وعادَ وما على وجهِهَا أصغرُ في عينيه منهما.

وكنتُ أرى أنّ هذه الصورةَ الغريبةَ التي يتراءَى فيها هؤلاءِ الضعفاءُ من الفتيانِ العائدينَ من تلكَ الديارِ إلى أوطانِهِمْ، إنّما هي أصباغٌ مفرغةٌ على أجسامِهِم إفراغًا لا تلبثُ أن تطلعَ عليها شمسُ المشرقِ، حتّى تتّصلَ وتتطايرَ ذَرّاتُها في أجواءِ السماءِ، وأنّ مكانَ المدنيّةِ الغربيّةِ من نفوسِهِمْ مكانُ الوجهِ من المرآة؛ إذا انحرفَ عنها، زالَ خيالُهُ منها.

فلم أَشأْ أنْ أفارقَ ذلكَ الصديقَ، ولبستُهُ على علّاتِهِ وفاءً بعهدِهِ السابقِ، ورجاءً لغدِهِ المنتَظَرِ، محتملًا في سبيلِ ذلكَ من حُمْقِهِ، ووسواسِهِ، وفَسَادِ تصوّراته، وغرابةِ أطوارِه، ما لا طاقَةَ لمثلي باحتمالِ مثلِهِ. حتّى جاءَني ذاتَ ليلةٍ بداهيةِ الدواهي ومصيبةِ المصائبِ، فكانتْ آخرَ عهدِي به.

دخلتُ عليهِ فرأيتُهُ واجمًا مكتئبًا فحيّيتُه فأومأ إليّ بالتحيّةِ إيماءً، فسألتُهُ ما بالُهُ فقال: ما زلتُ منذُ الليلةِ من هذه المرأةِ في عناءٍ لا أعرفُ السبيلَ إلى الخلاصِ منه، ولا أدري مصيرَ أمري فيه.

قلت: وأيَّ امرأةٍ تريدُ؟

قال: تلكَ التي يسمّيها الناسُ زوجتي، وأسمّيها الصخرةَ العاتيةَ في طريقِ مطالبي وآمالي.

قلت: إنّكَ كثيرُ الآمالِ، يا سيّدي، فعَنْ أيِّ آمالِكَ تحدّثُ؟

قال: ليس لي في الحياةِ إلّا أملٌ واحدٌ، هو أنْ أغمضَ عينيّ ثمّ أفتحَهُما، فلا أرى برقعًا على وجهِ امرأةٍ في هذا البلد.

قلت: ذلكَ ما لا تملِكُهُ، ولا رأيَ لكَ فيه.

قال: إنّ كثيرًا من الناسِ يرونَ في الحجابِ رأيي، ويتمنّونَ في أمرِه ما أتمنّى، ولا يحولُ بينهُمْ وبينَ نزعِهِ عن وجوهِ نسائِهِم، وإبرازِهنّ إلى الرجالِ، يجالسنَهُمْ كما يجلسُ بعضُهُنّ إلى بعضٍ، إلّا العجزُ، والضعفُ، والهيبةُ التي لا تزالُ تُلِمّ بنفسِ الشرقيّ كلّما حاولَ الإقدامَ على أمرٍ جديدٍ.

فرأيتُ أنْ أكونَ أوّلَ هادم لهذا البناءِ العاديّ[1] القديم الذي وقفَ سدًّا دونَ سعادةِ الأمّةِ، وارتقائِهَا دهرًا طويلًا، وأن يتمّ على يدي ما لم يتمَّ على يدِ أحَدٍ غيري من دُعَاةِ الحريّةِ وأشياعِهَا.

فعرضْتُ الأمرَ على زوجتي، فأكْبَرَتْهُ وأعظَمَتْهُ، وخُيِّلَ إليها أنّني جئتُها بإحدى النكباتِ العظامِ، والرزايا الجسامِ، وزعَمَتْ أنّها إنْ برزتْ إلى الرجالِ، فإنّها لا تستطيعُ أن تبرزَ إلى النساءِ بعد ذلكَ، حياءً منهنَّ وخجلًا. ولا خَجَلَ هناكَ ولا حياءَ، ولكنّه الموتُ، والجمودُ، والذلُّ الذي ضربَهُ اللهُ على هؤلاءِ النساءِ في هذا البلدِ أن يَعِشْنَ في قبورٍ مظلمةٍ من خدورهنّ وَخُمُرِهِنّ، حتّى يأتيهنّ الموتَ، فينتقلْنَ من مقبرةِ الدنيا إلى مقبرةِ الآخرةِ.

فلا بدّ لي أن أبلغَ أمنيّتي، وأنْ أعالجَ هذا الرأسَ القاسي المتحجّرَ علاجًا ينتهي بإحدى الحُسْنَيين، إمّا بكَسْرِهِ أو بشفَائِه.

فوردَ عليّ من حديثِه، ما ملأ نفسي همًّا وحزنًا، ونظرتُ إليه نظرةَ الراحمِ الراثي وقلت: أعالمٌ أنتَ أيّها الصديقُ ما تقول؟

قال: نعمْ، أقولُ الحقيقةَ التي أعتقدُهَا وأدينُ نفسي بها واقعةً من نفسِكَ ونفوسِ الناسِ جميعًا، حيثُ وَقَعَتْ.

قلتُ: هل تأذنُ لي أنْ أقولَ لكَ إنّك عشتَ فترةً طويلةً في ديارِ قومٍ لا حجابَ بين رجالِهِمْ ونسائِهِمْ؟ فهل تذكرُ أنّ نفسَكَ حدّثَتْكَ يومًا من الأيّامِ، وأنتَ فيهم بالطمعِ في شيءٍ ممّا لا تملكُ يمينُكَ عن أعراضِ نسائِهِم، فنلتَ ما تطمعُ فيه من حيثُ لا يشعرُ مالكُه؟

قال: ربّما وقَعَ لي شيءٌ من ذلكَ، فماذا تريد؟

قلتُ: أريدُ أن أقولَ لكَ إنّي أخافُ على عرضِكَ أنْ يُلِمّ به من الناسِ ما ألَمّ بأعراضِ الناسِ منك.

قال: إنّ المرأةَ الشريفةَ تستطيعُ أن تعيشَ بين الرجالِ من شرفِهَا، وعفّتِهَا في حصنٍ حصينٍ لا تمتدُّ إليه المطامع.

---

(١) العادي القديم: نسبة إلى قبيلة عاد.

فتَدَاخَلني ما لم أملكْ معهُ وقلتُ له: تلكَ هي الخدعةُ التي يخدعُكُمْ بها الشيطانُ، أيّها الضعفاءُ، والثلمةُ[1] التي يعثرُ بها في زوايا رؤوسِكُمْ، فينحدرُ منها إلى عقولكُمْ، ومداركِكُمْ، فيفسدُهَا عليكم؛ فالشرفُ كلمةٌ لا وجودَ لها في قواميس اللغةِ ومعاجمِهَا، فإنْ أردنا أن نفتّشَ عنها في قلوبِ الناسِ وأفئدتِهِم، قلّما نجدُها.

والنفسُ الإنسانيّة كالغديرِ الراكدِ لا يزالُ صافيًا رائقًا، حتّى يسقطَ فيه حجرٌ فإذا هو مستنقعٌ كَدِرٌ. والعفّةُ لونٌ من ألوانِ النفسِ، لا جوهرٌ من جواهِرِهَا، وقلّما تثبُتُ الألوانُ على أشعةِ الشمسِ المتساقطةِ.

قال: أتنكرُ وجودَ العفّةِ بين الناسِ؟

قلت: لا أنكرُهَا، لأنّي أعلمُ أنّها موجودةٌ بين البُلْهِ الضعفاءِ والمتكلّفينَ. ولكنّي أنكرُ وجودَهَا عندَ الرجلِ القادرِ المختلَبِ، والمرأةِ الحاذقةِ المترفّقةِ، إذا سقطَ بينهما الحجابُ، وخلا وجهُ كلّ منهما لصاحِبِه.

في أيّ جوٍّ من أجواءِ هذا البلدِ تريدونَ أن تبرزَ نساؤُكُمْ لرجالكم؟ أفي جوّ المتعلّمينَ؟ وفيهم من سُئِلَ مرّة: لِمَ لَمْ يتزوج؟ فأجابَ: نساءُ البلدِ جميعًا نسائي.

أم في جوّ الطلبةِ؟ وفيهم من يتوارَى عن أعينِ خلّانه، وأترابِهِ خَجَلًا، إنْ خَلَتْ محفظتُهُ يومًا من الأيّامِ من صُوَرِ عشيقاتِهِ وخليلاتِهِ، أو أقفرَتْ من رسائلِ الحبّ والغرام.

أم في جوّ الرعاعِ الغوغاءِ؟ وكثير منهُمْ يدخُلُ البيتَ خادمًا ذليلًا، ويخرجُ منه صهرًا كريمًا.

وبعدُ: فما هذا الولعُ بقصّةِ المرأةِ، والتمطُّقِ[2] بحديثِهَا، والقيامِ والقعودِ بأمرِهَا وأمرِ حِجَابها وسُفُورِها[3]، وحريّتها وأسرِها، كأنّما قد قمتُمْ بكلِّ واجبٍ للأمّةِ عليكُم في أنفسِكُم، فلم يَبْقَ إلّا أَنْ تفيضوا من تلكَ النعمِ على غيرِكم.

هذّبُوا رجالَكُمْ قبلَ أنْ تهذّبوا نساءَكم. فإنْ عجزتُمْ عن الرجالِ فأنتُمْ عن النساءِ أعجزُ.

أبوابُ الفخرِ أمامَكُم كثيرةٌ، فاطرقُوا أيَّها شئتُمْ، وَدَعُوا هذا البابَ موصودًا؛ فإنّكُمْ إنْ فتحتمُوه، فتحتُمْ على أنفسِكُمْ ويلًا عظيمًا، وشقاءً طويلًا.

أَرُوني رجلًا واحدًا منكُم يستطيعُ أن يزعَمَ في نفسِهِ أنّه يمتلكُ هواهُ، بين يدي امرأةٍ يرضَاها؛ فأصدّقُ أنّ امرأةً تستطيعُ أن تملكَ هواها، بين يدي رجلٍ ترضَاهُ.

إنّكُم تكلّفونَ المرأة ما تعلمونَ أنّكم تعجزونَ عنه، وتطلبونَ عندَهَا ما لا تعرفُونَه عندَ أنفسِكُم. فأنتُمْ تخاطرونَ بها في معركةِ الحياةِ مخاطرةً لا تعلمُونَ أَتَرْبَحُونَها من بعدها، أم تخسَرُونَها؟ وما أحسبُكُم إلّا خاسرين.

ما شكَتِ المرأةُ إليكم ظلمًا، ولا تقدّمَتْ إليكم في أن تحلّوا قيدَهَا، وتطلِقُوها من أسرِهَا،

---

(١) الثلمة: الفجوة.

(٢) تمطق: صوّت بلسانه عند استطابة الطعام.

(٣) سفور المرأة: الكشف عن وجهها.

فما دخُولُكم بينها وبينَ نفسِها؟ وما تمضُغُكم ليلَكُمْ ونهارَكُم بقصَصِهَا وأحادِيثِهَا؟

إنّها لا تشكُو إلّا فضولَكُم وإسفَافَكُم، ومضايقَتَكُم لها، ووقوفَكُم في وجهِهَا حيثُما سارتْ، وأينما حلّتْ، حتّى ضاقَ بها وَجْهُ الفضاءِ، فلم تجدْ لها سبيلًا إلّا أن تسجُنَ نفسَها بنفسِها في بيتِهَا فوقَ ما سَجَنَها أهلُهَا، فأوصدَتْ من دونها بابَهَا، وأسبلَتْ أستارَهَا، تبرُّمًا بكُم وفرارًا من فضولِكُم، فواعجبًا لكُمْ تسجنُونها بأيديكُم، ثمّ تقفونَ على بابِ سجنِهَا تبكُونَها، وتندُبُون شقاءَها!

إنكم لا تَرْثونَ لها، بل ترثُونَ لأنفسِكُم، ولا تبكُون عليها بلْ على أيام قضيتُمُوها في ديارٍ يسيلُ جوّهَا تبرُّجًا وسفورًا، ويتدفّقُ خلاعةً واستهتارًا، وتودّونَ بجدعِ الأنفِ، لو ظَفِرْتُمْ هنا بذلكَ العيشِ الذي خلّفتُمُوه هناك.

لقد كنّا وكانتِ العفّةُ في سقاءٍ[1] من الحجابِ موكوءٍ[2]؛ فما زلتم به تثقبونَ في جوانبِهِ كلّ يوم ثقبًا، والعفّةُ تَتَسَلَّلُ منه قطرةً قطرةً، حتّى تقبّضَ[3]، وتكرّشَ. ثمّ لَمْ يكفِكُمْ ذلكَ منه، حتّى جئتُمُ اليومَ تريدونَ أن تحلّوا وكاءَهُ، حتّى لا تبقى فيهِ قطرةٌ واحدةٌ.

عاشتِ المرأةُ المصريّةُ حقبةً من دهرِهَا هادئةً مطمئنّةً في بيتِهَا، راضيةً عن نفسِهَا وعن عيشِهَا، ترى السعادَةَ كلَّ السعادةِ في واجبٍ تؤدّيهِ لنفسِهَا، أو وقفةٍ تقِفُها بين يدي ربّها، أو عطفةٍ تعطفُهَا على ولدِهَا، أو جلسةٍ تجلسُها إلى جارتِهَا، تبثُّها ذاتَ نفسِها، وتستبثُّهَا سريرَةَ قلبِهَا. وترى الشرفَ كلَّ الشرفِ في خضوعِهَا لأبيها، وائتمارِهَا بأمرِ زوجِهَا، ونزولِهَا عندَ رِضَاهُما.

وكانتْ تفهَمُ معنى الحبّ، وتجهلُ معنى الغرام، فتحبُّ زوجَهَا لأنّه زوجُها، كما تحبّ ولدَهَا لأنّه ولدُهَا. فإنْ رأى غيرُها من النساءِ أنّ الحبّ أساسُ الزواجِ، رأتْ هي أنّ الزواجَ أساسُ الحبّ؛ فقلتُمْ لها إنّ هؤلاءِ الذين يستبدّونَ بأمرِكِ من أهلِكِ ليسوا بأوفرَ منكِ عقلًا، ولا أفضلَ رأيًا، ولا أقدرَ على النظرِ لكِ من نظرِكِ لنفسِكِ، فلا حقَّ لهم في هذا السلطانِ الذي يزعمُونَهُ لأنفسِهِم عليكِ. فازدَرَتْ[4] أباهَا؛ وتمرّدتْ على زوجِهَا، وأصبحَ البيتُ الذي كانَ بالأمسِ عرسًا من الأعراسِ الضاحِكَةِ مناحةً قائمةً لا تهدأُ نارُها، ولا يخبو أُوارها[5].

وقلتُمْ لها لا بُدّ لكِ أنْ تختاري زوجَكِ بنفسِكِ، حتّى لا يخدعَكِ أهلُكِ عن سعادةِ مستقبلِكِ، فاختارتْ لنفسِهَا أسوأَ ممّا اختارَ لها أهلُهَا، فلم يَزِدْ عُمْرُ سعادَتِها على يومٍ وليلةٍ، ثمّ الشقاءُ الطويلُ، بعد ذلكَ، والعذابُ الأليم.

وقلتُمْ لها: إنّ الحبَّ أساسُ الزواجِ؛ فما زالتْ تقلّبُ عينَيْهَا في وجوهِ الرجالِ مصعّدةً مصوّبةً حتّى شغَلَهَا الحبُّ عن الزواجِ، فَغُنِيَتْ بهِ عَنْهُ.

وقلتم لها: إنّ سعادةَ المرأةِ في حياتِها أنْ يكونَ زوجُها عَشِيقَهَا. وما كانتْ تعرفُ إلّا أنَّ

---

(١) السقاء: وعاء الماء من جلد السخلة.

(٢) أوكى القربة: شدّ رأسها بالوكاء، والوكاء: الرباط.

(٣) تقبض: يبس.

(٤) ازدرى: احتقر.

(٥) الأوار: الاشتعال.

الزوجَ غيرُ العشيقِ. فأصبحتْ تطلبُ في كلِّ يوم زوجًا جديدًا يُحْيِي من لوعةِ الحبّ ما أماتَ الزوجُ القديمُ، فلا قديمًا استَبْقَتْ ولا جديدًا أفادَت[١].

وقلتُمْ لها: لا بدّ أن تتعلّمي لتحسِني تربيةَ ولدِكِ، والقيامَ على شؤونِ بيتِكِ. فتعلّمَتْ كلَّ شيءٍ إلّا تربيةَ ولدِهَا، والقيامَ على شؤون بيتها.

وقلتُمْ لها: نَحنُ لا نتزوّجُ من النساءِ إلّا من نحبُّها ونرضَاها ويلائِمُ ذوقُهَا ذوقَنَا، وشعورُهَا شعورَنَا. فرأتْ أنْ لا بُدّ لها أن تعرفَ مواقِعَ أهوائِكُم، ومباهِجَ أنظارِكُم، لتتجمّلَ لكُمْ بما تحبّون. فراجَعَتْ فهرسَ حياتِكُمْ صفحةً صفحةً، فلم تَرَ فيهِ غيرَ أسماءِ الخليعاتِ المستهترات[٢]، والضاحكاتِ اللّاعباتِ والإعجابِ بهنّ والثناءِ على ذكائهنَّ وفطنتهنَّ.

فتخلّعَتْ واستهترَتْ لتبلُغَ رِضَاكُمْ، وتنزلَ عند محبّتكُم، ثمّ مَشَتْ إليكُم بهذا الثوبِ الرقيقِ الشفّافِ تعرضُ نفسَها عليكم عَرْضًا، كما تعرضُ الأَمَةُ نفسَهَا في سوقِ الرقيقِ، فأعرضتُمْ عنها، وَنَبَوْتُمْ بها، وقلتم لها: إنّا لا نتزوّجُ النساءَ العاهراتِ، كأنّكم لا تبالونَ أنْ يكونَ نساءُ الأمّة جميعًا ساقطاتٍ، إذا سلمَتْ لكُم نساؤكم، فرجعَتْ أدراجَهَا خائبةً منكسرةً، وقد أَبَاهَا الخليعُ، وترفَّعَ عنها المحتشِمُ. فلم تجدْ بينَ يَدَيْها غيرَ بابِ السقوطِ، فَسَقَطَتْ.

وكذلِكَ انتشرتِ الريبةُ في نفوسِ الأمّة جميعًا وتمشّتِ الظنونُ بين رجالِهَا ونسائِهَا، فتعاجَزَ الفريقانِ وأظلَمَ الفضاءُ بينَهُما، وأصبحتِ البيوتُ كالأديرةِ لا يرى فيه الرائي إلّا رجالًا مترهّبينَ، ونساءً عانسات.

ذلكَ بكاؤكم على المرأةِ أيّها الراحمونَ، وهذا رثاؤكم لها وعطفُكُم عليها!

نحنُ نعلَمُ كما تعلمونَ أنّ المرأةَ في حاجةٍ إلى العِلْمِ، فليهذّبْهَا أبوها أو أخوها، فالتهذيب أنفعُ لها من العلم، وإلى اختيارِ الزوجِ العادلِ الرحيمِ، فليُحْسِنِ الآباءُ اختيارَ الأزواجِ لبناتِهِم، وليُجْمِلِ الأزواجُ عشرةَ نسائِهِم، وإلى النورِ والهواءِ تبرزُ إليهما، وتتمتّعُ فيهما بنعمةِ الحياةِ، فليأذنْ لها أولياؤُها بذلكَ، وليرافِقْهَا رفيقٌ منهم في غداوتِهَا وروحَاتِها، كما يرافِقُ الشاةَ راعيها خوفًا عليها من الذئابِ؛ فإنْ عجِزْنَا عن أن نأخُذَ الآباءَ والإخوةَ والأزواجَ بذلكَ، فلننفُضْ أيدينا من الأمّةِ جميعِهَا نسائِهَا ورجالِهَا، فليسَتِ المرأةُ بأقدرَ على إصلاحِ نفسِهَا من الرجلِ على إصلاحها.

أعجَبُ ما أعجَبُ له في شؤونِكُم، أنّكم تعلّمْتُم كلّ شيءٍ إلّا شيئًا واحدًا، هو أدنى إلى مدارِكِكُم أن تعلمُوه قبلَ كلِّ شيءٍ، وهو أنّ لكلّ تربةٍ نباتًا ينبُتُ فيها، ولكلّ نباتٍ زمنًا ينمُو فيه!

رأيتُمُ العلماءَ في أوروبّا، يشتغلونَ بكماليّاتِ العلوم بينَ أممٍ قد فرغَتْ من ضروريّاتها، فاشتغَلْتُم بها مثلَهُمْ في أمّةٍ لا يزالُ سوادُهَا الأعظَمُ في حاجةٍ إلى معرفةِ حروفِ الهجاء.

ورأيتُمُ الفلاسفةَ فيها، ينشرونَ فلسفةَ الكُفرِ بين شعوبٍ ملحدةٍ لها من عقولِهَا وآدابِهَا، ما

---

(١) أفاد: بمعنى استفاد.

(٢) استهتر فلان: اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل.

يُغْنِيْهَا بعضَ الغناءِ عن إيمانِهَا، فاشتغَلْتُمْ بنشرِهَا بينَ أمّةٍ ضعيفةٍ ساذجةٍ لا يغنيها عَنْ إيمانِهَا شيءٌ، إنْ كانَ هناكَ ما يغني عنه.

ورأيتُم الرجلَ الأوروبيّ حرًّا مطلقًا، يفعلُ ما يشاءُ، ويعيشُ كما يريدُ، لأنّه يستطيعُ أنْ يملكَ نفسَه وخطواتِه في الساعةِ التي يعلَمُ فيها أنّه قد وَصَلَ إلى حدودِ الحريّةِ التي رَسَمَهَا لنفسِه، فلا يتخطّاهَا. فأردتُمْ أن تمنحوا هذهِ الحريّةَ نفسَها رجلًا ضعيفَ الإرادَةِ والعزيمةِ، يعيشُ من حياتِهِ الأدبيّةِ في رأسِ منحدرٍ زلقٍ، إنْ زلّتْ به قَدَمُهُ مرّةً، تَدَهْورَ من حيثُ لا يستطيعُ أن يستمسِكَ، حتّى يبلغَ الهوّةَ، ويتردّى في قرارَتِهَا.

ورأيتُمُ الزوجَ الأوروبيّ الذي أطفأتِ البيئَةُ غَيْرَتَهُ، وأزالتْ خشونَةَ نفسِه وحَرْشَتَها[1]، يستطيعُ أن يرى زوجَتَهُ تخاصِرُ من تشاءُ، وتصاحِبُ من تشاءُ، وتخلو بمن تشاءُ؛ فيقفُ أمامَ ذلكَ المشهدِ موقفَ الجامدِ المتبلّدِ. فأردتُمُ الرجلَ الشرقيَّ الغيورَ الملتهّيَ أنْ يقفَ موقفَهُ، ويستمسِكَ استمساكَهُ.

ورأيتُمُ المرأةَ الأوروبيّة الجريئةَ المتفتّيَةَ في كثيرٍ من مواقفِهَا مع الرجالِ، تحتفظُ بنفسِهَا وكرامتِهَا، فأردتُمْ من المرأةِ المصريّةِ الضعيفةِ الساذجةِ أن تبرزَ للرجالِ بروزَها، وتحتفِظَ بنفسِهَا احتفاظَهَا!

وكلُّ نباتٍ يُزْرَعُ في أرضٍ غيرِ أرضِهِ، أو في ساعةٍ غير ساعتِهِ، إمّا أنْ تأباهُ الأرضُ، فتلفظُه، وإما أن ينشُبَ فيها، فيفسدُهَا.

إنّا نضرَعُ إليكُمْ باسْمِ الشرفِ الوطنيّ، والحرمةِ الدينيّةِ أن تتركوا تلكَ البقيّةَ الباقيةَ من نساءِ الأمّةِ مطمئناتٍ في بيوتهنّ، ولا تُزْعِجُوهنّ بأحلامِكُم وآمالِكُم كما أُزْعِجْتُمْ من قبلهنّ. فكلّ جرحٍ من جروحِ الأمّة له دواءٌ إلّا جرحُ الشرفِ. فإنْ أبيتُمْ إلّا أن تفعلوا، فانتظروا بأنفسِكُم قليلًا ريثما تنتزعُ الأيّامُ من صدورِكُم هذهِ الغيرةَ التي ورثتمُوها عن آبائِكُم وأجدادِكُم، لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتِكم الجديدةِ سعداءَ آمنين.

فما زادَ الفتى على أنِ ابتسمَ في وجهي ابتسامةَ الهزءِ والسخرية، وقال: تلكَ حماقاتٌ ما جِئْنا إلّا لمعالجتِهَا، فَلْنصطَبِرْ عليها، حتّى يقضيَ الله بيننا وبينها.

فقلتُ له: لكَ أمرُك في نفسِكَ وفي أهلِكَ، فاصنَعْ بهما ما تشاء، وائذنْ لي أن أقولَ لكَ إنّي لا أستطيعُ أن أختلفَ إلى بيتِكَ بعد اليوم، إبقاءً عليكَ وعلى نفسي، لأنّي أعلم أنّ الساعةَ التي ينفرجُ لي فيها جانبُ سترٍ من أستارِ بيتِكَ عن وجهِ امرأةٍ من أهلِكَ، تقتلني حياءً وخجلًا. ثمّ انصرفتُ. وكان هذا فراقَ ما بيني وبينَه.

وما هيَ إلّا أيامٌ قلائلُ، حتّى سمعتُ الناسَ يتحدّثونَ أنّ فلانًا هَتَكَ السترَ في منزلِهِ بين نسائِهِ ورجالِهِ، وأنّ بيته أصبحَ مغشيًّا لا تزالُ النعالُ خافقةً ببابِهِ. فذرفَتْ عيني دمعةً، لا أعلم

---

(١) حرشتها: خشونتها.

هل هي دمعةُ الغيرةِ على العِرضِ المُذالِ[١]، أو الحزنِ على الصديقِ المفقود؟

مرّتْ على تلكَ الحادِثة ثلاثةُ أعوامٍ لا أزورُهُ فيها، ولا يزورُني، ولا ألقاهُ في طريقِهِ إلّا قليلًا، فأحيّيه تحيّةَ الغريبِ للغريبِ من حيثُ لا يجري لما كان بيننا ذِكْرٌ، ثمّ أنْطَلِقُ في سبيلي.

فإنّي لَعَائدٌ إلى منزلي ليلةَ أمسِ، وقد مضى الشطرُ الأوّلُ من الليلِ، إذ رأيتُهُ خارجًا من منزلِهِ يمشي مشيةَ الذاهلِ الحائرِ، وبجانبِه جنديٌّ من جنودِ الشرطةِ، كأنّما هو يحرسُه، أو يقتادُه، فأهمّني أمرُه، ودنوتُ منه، فسألتُهُ عن شأنِهِ.

فقال: لا عِلْمَ لي بشيءٍ سوى أنّ هذا الجنديّ قد طَرَقَ الساعةَ بابي، يدعوني إلى مخفرِ الشرطةِ. ولا أعلَمُ لمثلِ هذه الدعوةِ في مثلِ هذه الساعةِ سببًا، وما أنا بالرجلِ المذنبِ، ولا المريب. فهلْ أستطيعُ أن أرجُوَكَ، يا صديقي، بعد الذي كانَ بيني وبينَك، أن تصحبَني الليلةَ في وجهي هذا علّني أحتاجُ إلى بعضِ المعونَةِ فيما قد يعرضُ لي من هناكَ من الشؤون؟

قلت: لا أحبُّ إليّ من ذلك. ومشيتُ معه صامتًا لا أحدّثُه، ولا يقولُ لي شيئًا، ثم شعرتُ كأنّه يزوّرُ[٢] في نفسِه كلامًا يريدُ أن يفضِيَ به إليّ، فيمنعُهُ الخَجَلُ والحياءُ.

ففاتَحْته الحديثَ وقلتُ له: ألا تستطيعُ أنْ تتذكَّرَ لهذِهِ الدعوةِ سببًا؟

فنظرَ إليّ نظرةً حائرةً، وقال: إنّ أخوفَ ما أخافُهُ أن يكونَ قد حدثَ لزوجتي الليلةَ حادثٌ، فقد رابني من أمرِهَا أنّها لم تَعُدْ إلى المنزلِ حتّى الساعةِ، وما كان ذلكَ شأنَها من قبل.

قلت: أما كانَ يصحَبُهَا أحد؟

قال: لا.

قلتُ: ألا تعلمُ المكانَ الذي ذهبَتْ إليه؟

قال: لا.

قلتُ: وممَّ تخافُ عليها؟

قال: لا أخافُ شيئًا سوى أنّي أعلَمُ أنّها امرأةٌ غيورٌ حمقاءُ، فلعلَّ بعضَ الناسِ حاولَ العبثَ بها في طريقِهَا فشرسَتْ عليه، فوقَعَتْ بينهما واقعةٌ انتهى أمرُهَا إلى مخفرِ الشرطة.

وكنّا قد وصلنَا إلى المخفرِ، فاقتادَنَا الجنديُّ إلى قاعةِ المأمورِ. فوقَفْنا بين يديهِ، فأشارَ إلى جنديّ أمامَه إشارةً لم نَفْهَمْهَا، ثمّ استدنى الفَتَى إليه، وقال له: يسوؤُني أنْ أقولَ لكَ، يا سيّدي، إنّ رجالَ الشرطةِ قد عثروا الليلةَ في مكانٍ من أمكنةِ الريبةِ برجلٍ وامرأةٍ، في حالٍ غيرِ صالحةٍ، فاقتادُوهما إلى المخفرِ. فزعمتِ المرأةُ أنّ لها بكَ صلَةً، فدعوناكَ لتكشِفَ لنا الحقيقةَ في أمرِهَا. فإنْ كانَتْ صادقةً، أذنّا لها بالانصرافِ مَعَكَ إكرامًا لكَ، وإبقاءً على شرفِكَ، وإلّا فهي امرأةٌ عاهرةٌ، لا نجاةَ لها من عقابِ الفاجراتِ. وها هما وراءَكَ فانظُرْهُما.

---

(١) المذال: المهان.

(٢) زوّرَ الكلامَ في نفسه: هيّأه.

وكان الجنديُّ قد جاءَ بهما من غرفةٍ أخرى، فالتفَتَ وراءَهُ، فإذا المرأةُ زوجتُهُ، وإذا الرجلُ أحدُ أصدقائِهِ. فصرخَ صرخةً رجفتْ لها جوانبُ المخفرِ، وملأتْ نَوَافذَه وأبوابَهُ، عيونًا وآذانًا، ثمّ سقَطَ في مكانِهِ مغشيًّا عليه. فأشرتُ على المأمورِ أن يرسلَ المرأةَ إلى منزلِ أبيها، ففعلَ، وأطلقَ سبيلَ صاحبِهَا. ثمّ حملنَا الفَتَى في مركبةٍ إلى منزلِهِ ودعونا له الطبيبَ، فقرّر أنّه مصابٌ بحمّى دماغيّةٍ شديدةٍ. ولبثَ ساهرًا بجانبِهِ بقيّةِ الليلِ يعالجُهُ، حتّى دنا الصبحُ، فانصرفَ على أن يعودَ متى دعوناه، وعَهِدَ إليّ بأمرِهِ. فلبثْتُ بجانبِهِ أرثي لحالِهِ، وأنتظرُ قضاءَ الله فيه، حتّى رأيْتُهُ يتحرّكُ في مضجعِهِ.

ثمّ فتحَ عينيه، فرآني، فلبثَ شاخصًا إليَّ هنيهةً كأنّما يحاولُ أن يقولَ لي شيئًا، فلا يستطيعُهُ، فدنوتُ منه وقلتُ له: هلْ من حاجةٍ يا سيّدي؟

فأجابَ بصوتٍ ضعيفٍ خافت: حاجتي أن لا يدخلَ عليّ من الناسِ أحد.

قلت: لن يدخُلَ عليكَ إلّا من تريد.

فأطرقَ هنيهةً، ثمّ رفَعَ رأسه، فإذا عيناه مخضلّتانِ بالدموعِ.

فقلت: ما بكاؤُكَ يا سيّدي؟

قال: أتعلَمُ أينَ زوجتي الآن؟

قلتُ: وماذا تريدُ منها؟

قال: لا شيءَ سوى أنْ أقولَ لها إنّي قد عَفَوْتُ عنها.

قلت: إنّها في بيتِ أبيها.

قال: وارحمَتَاهُ لها، ولأبيهَا، ولجميعِ قومِهَا! فقد كانوا قبلَ أن يتّصلوا بي شرفاءَ أمجادًا، فألبستُهُمْ مذُ عرفوني ثوبًا من العارِ لا تبلوه الأيّام.

من لي بمن يُبْلِغُهُمْ عنّي جميعًا أنّني مريضٌ مشرفٌ، وأنّني أخشى لقاءَ اللهِ، إنْ لقيتُهُ، بدمائِهِم، وأنّني أضرَعُ إليهم أن يصفَحُوا عنّي، ويغتفروا زلّتي، قبلَ أن يسبقَ إليّ أجلي؟

لقد كنتُ أقْسَمْتُ لأبيها يومَ اهتديتُهَا[1] أنْ أصونَ عِرْضَهَا صِيانتي لحياتي، وأنْ أمنَعَها ممّا أمنَعُ منهُ نفسي، فحَنَثْتُ[2] في يميني. فهل يغفرُ لي ذنبي فيغفرَ اللهُ بغفرانه؟

نعم إنّها قَتَلَتني! ولكنّني أنا الذي وضعتُ في يدِهَا الخنجرَ الذي أغمَدَتْهُ في صدري، فلا يسأَلْهَا أحدٌ عن ذنبي.

البيتُ بيتي، والزوجةُ زوجتي، والصديقُ صديقي، وأنا الذي فتحتُ بابَ بيتي لصديقي إلى زوجتي، فلم يُذْنِبْ إليّ أحدٌ سواي.

ثمّ أمْسَكَ عن الكلام هنيهةً، فنظرتُ إليه، فإذا سحابةٌ سوداءُ تنتشرُ فوقَ جبينِهِ شيئًا فشيئًا، حتّى لبسَتْ وجهَهُ، فزفَرَ زفرةً خِلْتُ أنّها خرقَتْ حجابَ قلبِهِ، ثمّ أنشأ يقول:

---

(١) اهتدى الرجل امرأته: جمعها إليه وضمها. (٢) حنث بالوعد: لم يفِ به.

آهِ ما أشدّ الظلامَ أمامَ عينيّ! وما أضيَقَ الدنيا في وجهي! في هذه الغرفةِ، على هذا المقعدِ، تحتَ هذا السقفِ، كنتُ أراهما جالسين يتحدّثان، فتمتلىءُ نفسي غبطةً وسرورًا، وأحمدُ الله على أن رزقني بصديقٍ وفيٍّ يؤنِسُ زوجتي في وحدَتِها، وزوجةٍ سمحةٍ كريمةٍ تكرّمُ صديقي في غيبتي. فقولوا للنّاسِ جميعًا: إنّ ذلكَ الرجلَ الذي كان يفخرُ بالأمسِ بذكائِهِ وفطنتِهِ، ويزعُمُ أنّه أكْيَسُ الناسِ، وأحزمُهُمْ قد أصبَح يعترفُ اليومَ أنّه أبلَهُ إلى الغايةِ من البلاهةِ، وغبيٌّ إلى الغايةِ التي لا غايةَ وراءَها.

والهفًا على أمٍ لم تلدُني وأبٍ عاقرٍ لا نصيبَ له في البنين[1]!

لعلَّ الناسَ كانوا يعلمونَ من أمري ما كنتُ أجهلُ، ولعلّهم كانوا إذا مررتُ بهم يتناظرونَ ويتغامزونَ، ويبتسِمُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ، أو يحدّقونَ إليّ ويطيلونَ النظرَ في وجهي، ليروا كيفَ تتمثّلُ البلاهةُ في وجوهِ البُلْهِ، والغَبَاوَةُ في وجوهِ الأغبياءِ!

ولعلّ الذينَ كانوا يتودّدونَ إليّ، ويتمسّحونَ بي من أصدقائي إنّما كانوا يفعلونَ ذلكَ من أجلِهَا لا من أجلي؟ ولعلّهُمْ كانوا يسمّونني فيما بينهم قوّادًا، ويسمّونَ زوجتي مومسًا، وبيتي ماخورًا[2] وأنا عِنْدَ نفسي أشرفُ الناسِ وأنبلُهُم!

فوارحمتاه لي إنْ بقيتُ على ظهرِ الأرضِ بعدَ اليومِ ساعةً واحدةً! ووالهفًا على زاويةٍ منفردةٍ في قبرٍ موحشٍ يطويني، ويطوي عاري معي.

ثمّ أغمضَ عينيهِ، وعادَ إلى ذهولِهِ واستغراقِه.

وهُنا دخلتِ الحجرةَ مرضِعُ ولدِهِ تحملُهُ على يَدِهَا، حتّى وضعَتْهُ بجانبِ فراشِه، ثمّ تركَتْهُ وانصرفَتْ، فما زالَ الطفلُ يدبُّ على أطرافِه حتّى علا صَدْرَ أبيهِ، فأحسّ به، ففتَحَ عينيهِ فرآهُ، فابتسَمَ لمرآهُ وضمّهُ إلى صدرِه ضمّة الرفقِ والحنانِ، وأدنى فَمَهُ من وَجْهِهِ ليقبّله، ثمّ انتفضَ فجأةً، واستشرّ بشرّهِ، ودفعَهُ عنه بيدِهِ دفعةً شديدةً، وأخذَ يصيح: أبعِدُوه عنّي لا أعرفُه، ليسَ لي أولادٌ ولا نساءٌ. سلوا أمّه عن أبيهِ من هو واذهبوا به إليه؟ لا ألبسُ العارَ في حياتي وأتركُهُ أثرًا خالدًا ورائي بعدَ مماتي.

وكانتِ المرضِعُ قد سمعتْ صياحَ الطفلِ، فعادَتْ إليه، وحَمَلَتْهُ وذهبَتْ به؛ فسمِعَ صوتَه وهو يبتعِدُ عنه شيئًا فشيئًا، فأنصَتَ إليه واستعبرَ باكيًا وصاح: أرجِعوه إليّ. فعادتْ به المرضِعُ، فتناوَلَهُ من يدِهَا، وأنشأ يقلّبُ نظرَهُ في وجهِهِ ويقول:

في سبيلِ اللهِ، يا بنيّ، ما خلّفَ لكَ أبوك من اليُتْمِ، وما خلّفَتْ لكَ أمّكَ من العارِ، فاغفِرْ لهما ذنبهما إليكَ. فلقد كانَتْ أمّكَ امرأةً ضعيفةً، فعجزتْ عن احتمالِ صدمةِ القضاءِ، فسقَطَتْ. وكانَ أبوكَ حسن النيّةِ في جريمتِهِ التي اجترمها، فأساءَ من حيثُ أرادَ الإحسان.

سواءً أكنتَ ولدي، يا بنيّ، أم ولدَ الجريمةِ، فإنّي قد سعدتُ بكَ حقبةً من الدهرِ، فلا

---

(١) يريد: ليتني لم أولد.

(٢) الماخور: بيت الريبة.

أنسى يدَكَ عندي حيًّا أو ميتًا! ثمّ احتضَنه إليه، وقبّلَهُ في جبينِهِ لا أعلمُ هل هي قبلةُ الأبِ الرحيمِ أو المحسنِ الكريم؟

وكان قد بلغ منه الجهدُ، فعاوَدَتْهُ الحمّى، وغَلَتْ نارُها في رأسه. وما زالَ يثقلُ شيئًا فشيئًا، حتّى خِفْتُ عليه التَلَفَ، فأَرْسَلْتُ وراءَ الطبيبِ، فجاءَ وألقى عليه نظرةً طويلةً ثمّ استردَّها مملوءةً يأسًا وحزنًا.

ثمّ بدأ ينزِعُ نزعًا شديدًا، ويئنّ أنينًا مؤلمًا، فلم تَبْقَ عينٌ من العيونِ المحيطةِ به إلا ارفضّتْ عن كلّ ما تستطيعُ أن تجودَ به من مدامعها.

فإنّا لَجلوسٌ حولَهُ، وقد بدأ الموتُ يسبلُ أستاره السوداءَ على سريره، وإذا امرأةٌ مؤتزرةٌ بإزارٍ أسودَ قد دَخَلَتِ الحجرةَ، وتقدّمَتْ نحوَهُ ببطءٍ، حتّى ركعتْ بجانبه، ثمّ أكبّتْ على يدِهِ الموضوعَةِ فوق صدرِه، فقبّلَتْهَا وأخذتْ تقول له:

لا تخرُجْ من الدنيا، وأنْتَ مرتابٌ في ولدِكَ. فإنّ أمّه تعترفُ بين يديكَ وأنتَ ذاهبٌ إلى ربّك، أنّها وإنْ كانتْ قد دَنَتْ من الجريمةِ ولكنّها لم ترتَكِبْهَا. فاعْفُ عنّي، يا والدَ ولدي، واسألِ الله عندما تقفُ بين يديهِ أن يلحقَني بكَ، فلا خيرَ لي في الحياةِ من بعدِك.

ثمّ انفجرتْ باكيةً... ففتحَ عينيه، وألقى على وجهِهَا نظرةً باسمةً، كانتْ هي آخرَ عهدِهِ بالحياة وقضى.

* * *

الآنَ عدتُ من المقبرةِ بعد ما دفنتُ صديقي بيدي، وأودَعْتُ حفرةَ القبرِ ذلكَ الشبابَ الناضرَ، والروضَ الزاهرَ، وجلستُ لكتابةِ هذه السطورِ وأنا لا أكادُ أملكُ مدامعي وزفراتي، فلا يهوّنُ وجدي عليه، إلّا أنّ الأمّةَ كانتْ على بابِ خطرٍ عظيمٍ من أخطارِهَا، فتقدَّمَ هو أمامَهَا إلى ذلكَ الخطرِ وحدَهُ، فاقتحَمَهُ، فماتَ شهيدًا، فَنَجَتْ بهلاكِه.



الذكرى

«مترجمة»

وقفَ أبو عبد الله آخرُ ملوكِ غرناطة[١] بعد انكسارِه أمامَ جيوشِ الملكِ فرديناند والملكةِ إيزابيلا[٢]

(١) هي حاضرة ملك بني الأحمر في الأندلس وهي آخر مدينة بقيت في يد العرب بعد جلائهم عن أكثر بلاد الأندلس، فلما جلوا عنها، تم بذلك جلاؤهم عن الأندلس جميعها.

(٢) كانت إسبانيا في أواخر حكم العرب في الأندلس عبارة عن عدة ممالك صغيرة، فانضمّ بعضها إلى بعض حتى أصبحت مملكتين قويتين (الأراغون) و(قشتلية) فتزوج فرديناند ملك الأراغون بايزابيلا ملكة قشتلية سنة ١٤٩٦ واتحدا على طرد العرب من غرناطة، فتمّ لهما ذلك بعد حروب كثيرة.

على شاطىءِ الخليجِ الروميّ تحتَ ذيلِ جبلِ طارِق، قبلَ نزوله إلى السفينةِ المعدّةِ لحملِهِ إلى أفريقيا، وقد وقَفَ حولَهُ نساؤُه، وأولادُه، وعظماءُ قومِه من بني الأحمرِ، فألقى على مُلْكِهِ الذاهبِ نظرةً طويلةً لم يسترجِعْهَا إلّا مبلّلةً بالدمع، ثمّ أدنى رداءَه من وجهه وأنشأ يبكي بكاءً مرًّا، وينشجُ نشيجًا محزنًا، حتّى بكى مَنْ حَوْلَه لِبُكَائِه، وأصبحَ شاطىءُ البحر كأنّه مناحةٌ قائمةٌ تتردّدُ فيها الزفراتُ، وتستبقُ العبراتُ.

فإنّه لَوَاقفٌ موقفَهُ هذا وقد ذُهِلَ عن نفسِهِ وموقفِهِ، إذْ أحسّ هاتفًا يهتفُ باسمِهِ بصوتٍ كأنّما ينحدرُ إليه من علياءِ السماءِ، فرفَعَ رأسَهُ، فإذا شيخٌ ناسكٌ متّكىءٌ على عصاهُ واقفٌ على بابِ مغارةٍ من مغاراتِ الجبلِ المشرفِ عليهِ ينظرُ إليه ويقول:

نعم.. لكَ أنْ تبكيَ، أيّها الملكُ الساقطُ، على ملكِكَ بكاءَ النساءِ، فإنّكَ لم تحتفِظْ به احتفاظَ الرجال.

إنّكَ ضحكْتَ بالأمسِ كثيرًا، فابْكِ اليومَ بمقدارِ ما ضحكتَ بالأمسِ. فالسرورُ نهارُ الحياةِ، والحزنُ ليلها، ولا يلبثُ النهارُ الساطِعُ أن يعقبه الليلُ القاتم.

لو أنّ ما ذهبَ من يدِكَ من ملكِكَ ذهبَ بصدمة من صدماتِ القدر، أو نازلةٍ من نوازلِ القضاءِ، من حيثُ لا حولَ لكَ في ذلكَ ولا حيلة، لَهَانَ أمرُه عليكَ؛ أمّا وقد أضَعْتَهُ بيدِكَ، وأسلَمْتَهُ إلى عدّوكَ باختيارِك، فابكِ عليه بكاءَ النادمِ المتفجّعِ الذي لا يجدُ له عن مصابِهِ عزاءً ولا سلوى.

لا يظلمُ اللهُ عبدًا من عبادِه، ولا يريدُ بأحدٍ من الناسِ في شأنٍ من الشؤون شرًّا ولا ضيرًا، ولكنّ الناسَ يأبونَ إلّا أن يقفُوا على حافةِ الهوّةِ الضعيفةِ، فتزلَّ بهم أقْدامُهُم، ويمشوا تحتَ الصخرةِ البارزةِ المشرفةِ، فتسقطُ على رؤوسهم.

لم تقنعْ بما قسَمَ اللهُ لكَ من الرزقِ، فأبيتَ إلّا الملكَ والسلطانَ، فنازَعْتَ عمّكَ الأمرَ، واستعَنْتَ عليه بعدوّكَ، وعدوّهِ، فتناولَ رأسيكما معًا، وما زال يضربُ أحدَهُما بالآخرِ، حتّى سالَ تحتَ قَدَمَيكما قليبٌ[1] من الدمِ فغرقتُمَا فيه معًا.

لي فوقَ هذهِ الصخرةِ، يا بني الأحمرِ، سبعةُ أعوامٍ أنتظرُ فيها هذا المصيرَ الذي صرتُمْ إليه، وأترقّبُ الساعةَ التي أرى فيها آخرَ ملكٍ يرحلُ عنْ هذه الديارِ رحلةً لا رجعةَ من بعدِهَا، لأنّي أعلمُ أنّ المُلْكَ الذي يتولّى أمرَه الجاهلون الأغبياءُ، لا دوامَ لهُ ولا بقاء.

اتّخذَ بعضُكم بعضًا عدوًّا، وأصبَحَ كلُّ واحدٍ منكم حربًا على صاحبِهِ، فَسُقْتُم المسلمينَ إلى ميادينِ القتالِ، يضربُ بعضُهُم وجوهَ بعضٍ، والعدوُّ رابضٌ من ورائِكُم، يتربّصُ بكم الدوائرَ، ويرى أنّ كلًّا منكم قائدٌ من قوّادِه، ينبعثُ بينَ يديهِ لقتالِ أعدائِه، والمناضلةِ على مُلْكِهِ، حتّى رآكم تتهافَتُون[2] على أنفسكُم ضعفًا ووهنًا، فاقتحَمَكُم، فما هي إلّا جولةٌ أو جولتانِ، حتّى ظفرَ بكُمْ معًا.

ستقفونَ غدًا بين يدي الله، يا ملوكَ الإسلامِ، وسيسألُكُم عن الإسلامِ الذي أضعتُمُوه،

---

(١) القليب: البئر.

(٢) تهافت الشيء: تساقط وتتابع.

وهبطتم به من علياءِ مجدِهِ، حتّى ألصقْتُم أنفَهُ بالرغام[١]، وعن المسلمينَ الذين أسلمتُمُوهم بأيديكُم إلى أعدائِهِم، ليعيشوا بينهم عيشَ البائسينَ المستضعفينَ؛ عن مدنِ الإسلام وأمصارِه التي اشتراها آباؤُكم بدمائِهِم وأرواحِهِم، ثمّ تركُوها في أيديكم لتذُودُوا عنها، وتحمُوا ذمارَها[٢]. فلم تحرّكوا في شأنِها ساكنًا، حتّى غلبكُم أعداؤُكم عليها، فأصبَحْتم تعيشونَ فيها عيشَ الإذلّاءِ، وتطردون منها كما يُطردَ الغرباءُ. فماذا يكونُ جوابكُم إنْ سُئِلتم عن هذا كلّه غدًا؟

ها هي النواقيسُ ترنّ في شرفاتِ المآذنِ بدلَ الأذانِ. وها هي المساجدُ تطأُ نعالُ الصليبيينَ في تربتِهَا مواقِعَ جباهِ المسلمينَ. وها هو المسلمُ يفرُّ بدينِهِ من مكانٍ إلى مكان، ويلوذُ بأكنافِ الهضابِ والشعابِ، لا يستطيعُ أن يؤدّي شعيرةً[٣] من شعائرِ دينه، إلّا في غارٍ كهذا الغارِ الذي أعيشُ فيه!

ليتَ المسلمينَ عاشوا دهرَهُم فوضَى لا نظامَ لهم، ولا مُلْكَ، ولا سلطانَ، كما يعيشُ المشرّدونَ في آفاقِ البلادِ، فقد كانَ ذلكَ خيرًا لهم من أن يتولّى أمرَهُم رجالٌ مثلكُم طامعون مستبدّون، يلقّونَ على أعناقِهِمْ جميعًا غلًّا واحدًا يسوقونَهُم به إلى مواردِ التلَفِ والهلاكِ، من حيثُ لا يستطيعونَ ذودًا عن أنفسِهِم. وما تفعل الفوضى بأمّةٍ ما يفعلُ بها الاستبدادُ.

يسألكُم اللهُ، يا بني الأحمر، عنّي وعن أولادي الذين انتزعتُموهم من يدي انتزاعًا أحوَجَ ما كنتُ إليهم، وسقتُمُوهُمْ إلى ميادينِ القتالِ، ليقاتلوا إخوانَهم المسلمينَ قتالًا لا شرفَ فيه، ولا فخارَ حتّى ماتوا جميعًا موتَ الأذلّاءِ. فلا أنتم تركتمُوهم بجانبي آنَسُ بهم في وحشتي، وألجأُ إلى معونتِهِم في شيخوختي. ولا أنتم ذهبتُمْ بهم إلى ميدانِ قتالٍ شريفٍ، فأتعزّى عنهم من بعدِهم بأنّهم ماتوا فداءً عن دينِهِم ووطَنِهِم.

فها أنذا عائشٌ من بعدِهم وحدي في هذا الغارِ الموحشِ فوقَ هذه الصخرةِ المنقطعةِ أبكي عليهِمْ، وأسأل الله أنْ يلحقَنِي بهم. فمتى يستجيبُ اللهُ دعائي؟

ثمّ اختنقَ صوتُه بالبكاءِ، فأدارَ وجهَهُ، ومشَى بقدمٍ مطمئنّةٍ، يتوكأ على عصاهُ حتّى دخلَ مغارَتَهُ، وغابَ عن العيونِ.

فنالتْ كلماتُهُ من نفسِ الأميرِ ما لم يَنَلْ منها ضياعُ ملكِهِ، وسقوطُ عرشِهِ. فصاح: ما هذا بشرًا إنّما هو صوتُ العدلِ الإلهيّ ينذرُني بشقاءِ المستقبلِ فوقَ شقاءِ الماضي، فليصنعِ اللهُ بي ما يشاءُ فَعَدْلٌ منه كلُّ ما صَنَع.

ثمّ انحدرَ إلى سفينتِهِ، وانحدَرَ أهلُه وراءَه، فسارَتِ السفينةُ بهم تشقُّ عبابَ الماء شقًّا، فسجّلَ التاريخُ في تلكَ الساعة: أنْ قد تمّ جلاءُ العربِ عن الأندلسِ بعد ما عَمَرُوها[٤] ثمانمائةَ عام[٥].

* * *

---

(١) الرغام: التراب.

(٢) الذمار: كلّ ما يتوجّب على المرء حمايته.

(٣) الشعيرة: كل ما جعل علامة لعبادة الله.

(٤) عَمَر: مَلا، وهنا بمعنى سكن.

(٥) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢هـ/ ٧١١م وتم جلاؤهم عنها سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م.

بعد مرورِ أربعةٍ وعشرينَ عامًا على تلكَ الحوادثِ، لم يبقَ في إفريقيةَ حيٌّ من بني الأحمر إلّا فتًى في العشرينَ من عمرِهِ اسمه «سعيد»، لم يَرَ غرناطة، ولا قَصْرَ الحمراءِ، ولا المرجَ، ولا جنّةَ العريف، ولا نهرَ شنيل، ولا عينَ الدمع، ولا جبلَ الثلج[١]، ولكنّهُ ما زالَ يحفظُ في ذاكرتِهِ من عهدِ الطفولةِ تلكَ الأناشيدَ الأندلسيّةَ البديعةَ التي كان يترنّم بها نساءُ قومِهِ حولَ مهدِهِ، ويردّدونَ فيها ذكرَ آبائِهِ وأجدادِهِ وآثارَ أيديهم وعزّةَ سلطانِهم في تلك البقاع. وتلكَ المراثي المحزنةَ المؤثّرة التي بكى فيها شعراءُ الأندلسِ ذلكَ المجدَ الساقطَ والمُلْكَ المُضاعَ. فكان كلّما خلا إلى نفسِه، ردّدَ تلك المراثي بنغمةٍ شجيّةٍ محزنةٍ تستثيرُ عَبْرَته، وتهيجُ أشجانَهُ، فلا يزالُ يبكي وينتحبُ حتّى يشرفَ على التلف.

فكانَ لا يتمنّى على اللهِ من كلّ ما يتمنّى امرؤٌ على ربِّهِ في حياته، إلّا أنْ يرى غرناطةَ ساعةً من زمانٍ يشفي بها غلّةَ نفسِه، ثمّ لِيَصْنَعِ الدهرُ به بعدَ ذلكَ ما يشاء.

وكانَ كلّما همّ بالذهابِ إليها، قَعَدَ بِهِ عن ذلكَ أنّ وراءَه عجوزًا من أهلِهِ مريضةً، وما كانَ يستطيعُ أن يتركَهَا، ولا يجدُ من يعتمدُ عليه في القيامِ بشأنِها حتّى وافاها أجَلُهَا. فركِبَ البحرَ من سبتةَ إلى شاطئِ ملقةَ، ثمّ انحدرَ منها إلى غرناطَةَ متنكرًا في ثوبِ طبيبٍ عربيّ من أطباءِ الأعشاب، يتبقّل[٢] في جبالِ الأندلسِ وسهولها، حتّى بلغَ ضاحيتَهَا ساعةَ الأصيلِ، فوقَفَ على هضبةٍ من هضابِ جبلِ الثلجِ، فرأى الأمواه تنزلقُ عنهُ في هدوءٍ وسكونٍ كأنّها فوقَ سطحِهِ اللامعِ المتلالىءِ قميصٌ من النورِ، أو قبّةٌ من البلّورِ، حتّى تصلَ إلى سفحِهِ، فإذا هي حيّاتٌ بيضاءُ مذعورةٌ تنبعثُ ههنا وههنا، لا همّ لها إلّا النجاةُ من يدِ مطارِدِها، حتّى تعثُرَ بجدولِ ماءٍ في طريقِهَا، فتُدْغَمَ فيه وتنسابَ في أحشائِه.

ثمّ التفتَ إلى المدينةِ، فرأى على البعدِ أبراجَهَا العقيقيّةَ الحمراءَ وقبابَها العاليةَ الشمّاء، ومآذِنَهَا الذاهبةَ في جوّ السماءِ، فوقفَ أمامَ هذا المنظرِ الجليلِ المهيبِ موقفَ الخاشعِ المتخضّعِ، وضمّ إحدى يديه إلى الأخرى، ووضعهما على صدره كأنّما هو قائمٌ أمامَ المحرابِ يؤدّي صلاتَهُ. ولبثَ على ذلكَ برهةً، ثمّ صاحَ بصوتٍ عالٍ ردّدَتْه الغاباتُ والحرجاتُ يقول:

هذا ميراثُ آبائي وأجدادي، لم يبقَ لي منهُ إلّا وقفةٌ بين يديهِ كوقفةِ الثاكِلِ المفجوعِ بين أيدي الأطلالِ البوالي، والآثارِ الدوارسِ.

---

(١) قصر الحمراء في غرناطة: مقرّ ملوك بني الأحمر، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر الآثار التاريخية حتى اليوم، ومرج غرناطة، مشهور بجمال منظره وإطراد مياهه ويشبّهونه بغوطة دمشق، وجنة العريف بستان عظيم جدًا بغرناطة. فيه قصور، ومبان، ومتنزّهات كثيرة. ونهر شنيل: أعظم أنهار غرناطة، وهو يخترق المدينة من أعلاها إلى أدناها، وعين الدمع: جبل بظاهر غرناطة فيه متنزّهات وبساتين، وجبل الثلج بجنوب غرناطة لا يكادُ يفارقه الثلج صيفًا وشتاء، وتجري منه ينابيع كثيرة، وأنهار صغيرة تسقي ما يحيط بها من الغياض والبساتين.

(٢) تبقّل: خرج لطلب البقل.

هذه مضاجِعُهُمْ ينامُ فيها أعداؤُهم؛ وهم لا مضاجِعَ لهم، إلّا رمالُ الصحراءِ وكثبانُ الفلوات[١].

هذه قصورُهُمْ تشرفُ على الأرضِ الفضاءِ، وتُطِلُّ من عيونِ نوافِذِها كأنّما تترقّبُ أن يعودوا إليها، فيعمُروها كما كانوا، فلا يفعلون.

هذه قبابُهم وأبراجُهُمْ رافعةٌ رأسَهَا ليلَهَا ونهارَها إلى السمواتِ العلى، تدعُو الله أن يُعيدَ إليها بُناتَها وحُمَاتَها، فلا يستجابُ لها دعاء.

في هذهِ البساتينِ كانوا ينعمون، وتحتَ هذه الظلالِ كانوا يقيلونَ؛ وعلى ضفافِ الأنهارِ كانوا يغدونَ ويروحونَ. واليومَ لا غادٍ منهم، ولا رائحٌ، ولا سانحٌ[٢] تحتَ هذه السماءِ ولا بارحٌ[٣]. ثمّ نظرَ إلى الأفقِ فرأى الشمسَ تنحدرُ إلى مغربِها، ورأى جيشَ الليلِ يطاردُ فلولَ جيشَ النهارِ، فيبدّدها بينَ يديهِ تبديدًا، فتهافت[٤] على نفسه، وهو يقول:

هكذا تدولُ الدولاتُ، وتسقطُ التيجانُ، وهكذا تحلّ الظلماتُ محلَّ الأنوارِ، وهكذا تنتشر سُحُبُ الموتِ على وجهِ الحياة.

ثم توسّدَ ذراعَه واستغرقَ في نومِهِ بينَ وطاءِ الأرضِ وغطاءِ السماءِ. فلم يستفِقْ حتّى مَضَتْ دولةُ الليلِ، فمشى إلى نهرٍ جارٍ في سفحِ الجبلِ، فصلّى عندَه صلاةَ الفجْرِ، ثمّ انحدرَ إلى المدينةِ، يفتّشُ عن خانٍ يأوي إليه، فلم يجدْ في طريقِهِ من يرشدُهُ إلى طلبتِهِ، حتّى بلغَ نهرَ شنيل، فمشى على ضفّتِهِ يتفقّدُ البذورَ، ويتلمّسُ الأعشابَ، وينتظرُ يقظةَ المدينةِ بعد هَجْعَتِها.

وإنّه لكذلكَ إذِ انفتحَ بين يديهِ بابُ قصرٍ عظيمٍ، وإذا فتاةٌ إسبانيّةٌ خارجةٌ منه قد أسبلتْ على وجهِهَا خمارًا أسودَ شفافًا، وأرسَلَتْ على صدرِهَا صليبًا ذهبيًّا صغيرًا، ومشى وراءَها غلامٌ يحملُ على يدِهِ الكتابَ المقدّسَ.

فلمحَتْهُ في مكانِهِ، فأدهَشَها موقفُهُ، فدنَتْ منه ورفعتْ قناعَهَا عن وجهِهَا، فإذا الشمسُ طالعةٌ حسنًا وبهاءً، وقالت له بلسانٍ عربيّ تخالطُهُ بعضُ العجمة: أغريبٌ أنتَ عن هذا البلدِ أيّها الفتى؟

قال: نعم، لقد نزلْتُ به الساعةَ، فلم أعرفْ طريقَ الخانِ الذي يأوي إليه الغرباءُ، ولم أجدْ في طريقي مَنْ يدلّني عليه.

فسمعَتْ في صوتِهِ رنّةَ الشرفِ، ورأتْ بين أعطافِهِ مَخَايِلَ[٥] النعمةِ، فأهمّها أمرُه، وأشارتْ إليه أن يتبَعَها لتدلّه على ما يريدُ.

فمشى بجانِبَها حتّى بلغا موضعَ الخانِ، فحيّتْهُ بابتسامةٍ عذبةٍ، وقالتْ له: لا تنسَ أن

---

(١) كثبان الفلوات: مرتفعات الصحراء الرمليّة.

(٢) السانح: الطائر أو الحيوان يمرّ من اليسار باتّجاه اليمين.

(٣) البارح: عكس السانح. (٤) تهافت: تساقط.

(٥) مخائل: جمع مخيلة، وهي العلامة والإشارة.

تزورَني، أيّها الغريبُ، كلّما عَرَضَتْ لكَ حاجةٌ. ثمّ سارتْ في طريقِ كنيسَتِها.

* * *

كما أنّ السماءَ في ظلمةِ الليلِ تختلفُ إليها النجومُ فتضيءُ صفحَتَها، وتمرّ بها الشهبُ، فتلمَعُ في أرجائِها، حتّى إذا طلعتِ الشمسُ من مشرِقها، محا ضوؤُها ضوءَ جميعِ تلكَ النيّراتِ؛ كذلك القلبُ الإنسانيّ، لا تزالُ تمرّ به مختلفُ العواصفِ، وأشتاتُ الأهواءِ مجتمعةً ومفترقةً، حتّى إذا بلغَ وأشرَقَتْ عليهِ شَمْسُ الحبّ، غَرُبَتْ بجانبها جميعُ تلكَ العواطفِ والأهواء.

فقد أصبَحَ الأميرُ ينظرُ إلى غرناطَةَ منذُ الساعةِ بعينٍ غيرِ العينِ التي كانَ ينظرُ بها إليها مِنْ قبلُ، ويرى في وجهِهَا صورةَ الأُنسِ بعد الوحشةِ، والنور بعدَ الظلمةِ، والحياةِ بعدَ الموتِ. فسكن ثائرُهُ وبردَتْ جوانحه، وهدَأَتْ نفسُه ثورةَ الغضبِ التي كانت لا تزالُ تعتلجُ بين أضلاعِه، فكانَ إذا مرّ بمسجدٍ من تلكَ المساجدِ التي استحالتْ إلى كنائسَ، استطاعَ أن يقفَ أمامَهُ هنيهةً، علّه يرى الفتاةَ الإسبانيّةَ بين الداخلاتِ إليه، أو الخارجاتِ منه.

وإذا رأى الصليبَ مشرفًا على رأس مئذنةٍ، ذَكَرَ الصليبَ الذهبيّ الجميلَ الذي رآهُ على صدرِهَا يومَ اللقاءِ، فاغتفرَ منظرَ هذا لمنظرِ ذاكَ. وإذا سمعَ أصواتَ النواقيسِ ترنّ في أجوازِ الفضاءِ، ذكرَ أنّه كانَ يسمَعُ ذلكَ الصوتَ الرنّانَ في الساعةِ التي رآها فيها، فأَنِسَ به، وسكَنَتْ نفسُه إليه.

وكذلكَ أصبحَ هذا الأميرُ المسكينُ، ولا همّ له إلّا أن يتمشّى صبيحَة كلّ يوم على ضفافِ نهر «شنيل»، يقلّبُ نظرَهُ في أبوابِ القصورِ المشرفةِ على ذلكَ النهرِ، علّه يعرفُ قصرَ الفتاةِ، فلا يعرفُهُ، وفي وجوهِ الغادياتِ، والرائحاتِ من الفتياتِ، علّه يراهَا بينهنّ، فلا يراها. حتّى إذا نالَ منه اليأسُ، انكفأَ راجعًا إلى مقبرةِ آبائِهِ في ظاهرِ المدينةِ، فجلسَ بين القبورِ، يذرفُ دموعًا غزارًا، لا يعلمُ هلْ هي دموعُ الذكرى القديمةِ، أو دموعُ الذكرى الجديدة!

* * *

نكبَ الدهرُ «فلورندا» منذُ عامينِ نكبةً لا تزالُ لوعتُهَا متّصلةً بقلبِهَا حتّى اليوم. فقد كانَ أبوها رئيسَ جمعيّةِ «العصابة المقدسة» التي قامتْ في وجهِ الحكومةِ أعوامًا طوالًا، تطالبها بالحريّةِ الدينيّةِ والشخصيّةِ لجميعِ الشعوبِ المحكومةِ على اختلافِ مذاهِبِهَا، وأجناسها، حتّى أعيا رجالَ الحكومةِ أمرُها، فدسّوا لرئيسِهَا من قَتَلَهُ غِيلةً[1] تحت ستارِ الظلام. فحزنَتْ ابْنَتُهُ عليهِ وعلى أمّها التي ماتَتْ على أثرِهِ حزنًا شديدًا ما كانَ يفارِقُهَا في جميعِ غدواتِها وروحَاتها. فأصبحتْ وهي لم تسلخِ الثامنةَ من عمرِهَا تعيشُ في قصرِهَا عيشَ الزاهداتِ المتبتّلات. فكانَ لا يراها الرائي إلّا ذاهبَةً إلى الكنيسةِ، أو عائدةً منها لا يصحَبُهَا إلّا غلامُها. أو واقفَةً على أطلالِ الدولةِ الماضيةِ، ورسومِهَا، تقلّبُ فيها نظرَ العظةِ والاعتبار. أو هائمةً على وجهِهَا في

---

(١) الغيلة: الغدر والاغتيال.

مروجِ غرناطةَ وبساتينِهَا، حتّى ينزلَ سِتارُ الليلِ، فتعودُ إلى قصرِهَا. وكذلكَ كانَ شأنُها في جميعِ أيّامها، حتّى سمّاهَا أهلُ غرناطةَ «الراهبة الجميلة».

فإنّها لسائرةٌ يومًا بجانبِ مقبرةِ بني الأحمر، إذْ لمحَتْ على البعدِ فتًى عربيًّا مكبًّا على أحدِ القبورِ كأنّما يقبّلُ صفائِحَهُ، ويبلّ تربتَهُ بدموعِهِ، فرثَتْ لحالِهِ ومشتْ نحوَهُ حتّى دَنَتْهُ، فأحسّ بها فرفَعَ رأسَهُ، فعرفَهَا وعرفَتْه.

فقالت له: إنّك تبكي ملوكَكَ بالأمسِ أيّها الفتى فابكِهِم كثيرًا، فقد جفّ ترابُ قبورِهِم لقلّة مَنْ يبكي عليهم.

قال: أترثينَ لهم، يا سيّدتي؟

قالت: نعم، لأنّهم كانوا عظماءَ، فنكَبَهُم الدهرُ، وليسَ أحقَ بدموعِ الباكينَ من العظماءِ الساقطين.

قال: شكرًا لكِ، يا سيّدتي، فهذهِ أوّل ساعةٍ شعرتُ فيها ببَرْدِ العزاءِ يدبّ في صدري مُذْ وَطِئَتْ قدماي أرضَكم هذه.

قالت: هَلْ زرتَ قصورَهُم وآثارَهُم التي تركوها من بعدِهِم في هذه الديار؟ فأطرقَ قليلًا ثمّ رفَعَ رأسَه فإذا دمعةٌ تترجّحُ في مقلتيهِ وقال: لا يا سيّدتي، لقد حاوَلْتُ الدنُوَّ منها، فطردَني عنها الموكلونَ بأبوابِها كأنّما هم يجهلونَ أنْ ليسَ بين الأحياءِ جميعِهِم في هذا العالمِ كلِّهِ من هو أَوْلَى بها منّي.

قالت: أتمتّ[1] إلى أحدٍ من أصحابها بنسبٍ أو رَحِم؟

قال: لا، يا سيّدتي، ولكنّي عبدُهُم ومولاهم، وصنيعةُ أيديهم، وغَرْسُ نعمتِهِم، فلا أنسى ولأهم ما حَييت.

قالت: إنْ رأيتُكَ غدًا في مثلِ هذه الساعةِ في هذا المكانِ، ذهبتُ بكَ إلى ما تريدُ منها.

قال: لَئِنْ فَعَلْتِ لا يكونَنَّ امرؤٌ على وجهِ الأرضِ أشكرَ لنعمَتِكِ منّي. فَحيّتْهُ وانصرفَتْ، ومضى هو إلى خانِهِ بين صَبَابَةٍ تُقيمُه وتقعِدُه، وأملٍ يُميته ويحييه.

وفَتْ «فلورندا» لصديقِهَا العربيّ بما وَعَدَتْهُ به، فجاءَتْهُ في اليوم الثاني، فأزارَتْه بعضَ الآثارِ، ثمّ جاءَتْهُ في اليومِ الثالثِ، فأزارته بعضًا آخرَ منها. وهكذا، ما زالا يجتمعَانِ كلّ يومٍ ويفترقانِ، ويختلفانِ إلى ما شاءَا من الرسومِ والآثارِ، لا ينكرُ الناسُ من أمرِهِما شيئًا؛ فقدْ كانوا إذا رأوهما معًا قالوا: إنّ الراهبةَ الجميلةَ تحاولُ أن تَهْدِي الفَتَى العربيَّ إلى دينِهَا القويم. حتّى استحالَ العطفُ الذي كانتْ تضمرُهُ له في نفسِهَا مع الأيّام إلى حبّ شديدٍ، وكذلكَ العطفُ دائمًا طريقُ الحبّ، أو هو الحبُّ نفسُه لابسًا ثوبًا غيرَ ثوبه. إلّا أنَّ أحدًا منهما لم يجرؤْ أن يكاشِفَ صاحِبَهُ بما أضمَرَهُ له في نفسِهِ. حتّى جاءَ اليومُ الذي عزمَ فيه على زيارةِ

---

(١) متّ إليه بالشيء: توسّل به إليه.

قصرِ الحمراءِ، وهو آخرُ ما بقيَ بين أيديهما من الآثارِ، فلا لقاءَ بينهما بعدَ اليوم.

* * *

وقفَ الأميرُ أمامَ قصرِ الحمراءِ، فرأى سماءً تطاوِلُ السماءَ، وطودًا يناطحُ الجوزاءَ، وهضبةً تشرفُ على الهضابِ، وسحابةً تمرّ فوقَ السحابِ، وجبلًا تحسر[1] عن قمّتِه العيونُ، وتضلُّ في جوانبه الظنونُ، وحصنًا تتقاصَرُ عنه يَدُ الأيّام، وتتهافَتُ من حولِهِ السنون والأعوام.

ثمّ دخلَ فإذا مُلْكٌ كبيرٌ وجنّة وحريرٌ، وقبابٌ تُفْضِي إليها النجومُ بالأسرارِ، وأبراجٌ تنزلقُ عن سطوحِهَا يدُ الأقدارِ، وصحونٌ مفروشةٌ بألوانِ الحصباءِ، كأنّها الرياضُ الزهراءُ، وجدرانٌ صقليةٌ ملساءُ تصفُ ما بين يديها من الأشياءِ، كما تصفُ المرآةُ وَجْهَ الحسناءِ. وكأنّ كلَّ جدارٍ منها لُجّة[2] متلاطمةُ الأمواجِ، يحبسُهَا عن الجريانِ لوحٌ من زجاجٍ. فمشى يقلّبُ نَظَرَ العِظةِ والاعتبارِ، بينَ تلك المشاهدِ والآثارِ، ويتنغّمُ في نفسهِ بقولِ القائل:

وَقَفْتُ بالحَمْراءِ مُسْتَعْبِرًا ... مُعْتَبِرًا أندُبُ أشتاتا

فَقُلْتُ: يا حَمْراءُ هَلْ رَجْعَةٌ ... قالَتْ: وهَلْ يَرْجِعُ مَنْ ماتا

فَلَمْ أزلْ أبكي على رَسْمِهَا ... هَيْهَاتَ يُغني الدّمْعُ هَيْهاتا

كَأنّما آثارُ مَنْ قَدْ مَضَوْا ... نَوادبُ يَنْدُبْنَ أمْواتا.

حتّى وَصَل إلى الساحةِ الكبرى، فرأى صحنًا مفروشًا ببساطٍ من المرمرِ الأصفرِ، قد دارتْ به في جهاتِهِ الأربعِ أربعةُ صفوفٍ من الأعمدةِ النحافِ الطوالِ، وتراءَت في جوانبِهِ حجراتٌ متقابلاتٌ، تعلوها قبابٌ مشرفاتٌ. فعلِمَ أنّها حجراتُ الأمراء والأميراتِ من أهلِ بيتِهِ، فهاجَتْ في نفسِهِ الذكرى، وشعرَ أنّ صدرَهُ يحاولُ أن ينشقّ عن قلبِهِ حزنًا ووجدًا، وأحسّ بحاجتِهِ إلى البكاءِ فاستحيا أن يبكيَ أمام «فلورندا».

فتركَهَا في مكانها لاهيةً عنهُ بالنظرِ إلى بعض النقوشِ، ومشى إلى بعضِ تلكَ القاعاتِ حتّى داناها، فكانَ أوّلُ ما تناوَلَ نظرُه منها سطرًا مكتوبًا على بابِهَا، فما قرأَهُ، حتّى صاحَ صيحةً شديدةً قائلًا: «واأبتاهُ»! وسقَطَ مغشيًّا عليه. فلم يستفِقْ إلّا بعدَ ساعةٍ طويلةٍ، ففتحَ عينيهِ، فوجَدَ رأسَه في حجرِ «فلورندا»، ووجَدَ في عينَيْها آثارَ البكاء.

فقالت له: لقد كنتُ أعلمُ قبلَ اليوم أنّكَ تكاتمني شيئًا من أسرارِ نفسِك. والآنَ عرفتُ أنّكَ لستَ عبدَ بني الأحمرِ، ولا مولاهم كما تقولُ، ولكنّكَ أحدُ أمرائِهم، وأنّكَ الساعةَ في قصرِ جدّكَ، وأمامَ حجرةِ أبيك، فما أسوأ حظّكُمْ يا بني الأحمر، وما أعظَمَ شقاءَكَ أيّها الأميرُ المسكين.

فلم يجدْ سبيلًا بعد ذلكَ إلى كتمانِ أمرِهِ، فأنشأ يقصّ عليها قصّتَه، وقصّةَ أهلِ بيتِهِ، وما صنعَتْ يدُ الدهرِ بهم مُذْ جَلَوْا عن الأندلسِ حتّى اليوم.

فلمّا فرغَ من قصّتِهِ نظرَ إليها نظرةً منكسرةً وقال لها: فلورندا؟ إنّ جميع ما لقيتُه من

---

(١) حسر النظر: تعب وضعف.

(٢) لجّة الماء: معظمه.

الشقاءِ بالأمسِ يصغُرُ بجانبِ الشقاءِ الذي تدّخره لي الأيّامُ غدًا.

قالت: وأيُّ شقاءٍ ينتظرُكَ أكثرَ ممّا أنتَ فيه؟

فأطرقَ هنيهةً، ثمّ رفَعَ رأسَه وقال: إنّني أستطيعُ أن أحتملَ كلّ شيءٍ في الحياةِ، إلّا أنْ أفارِقَكِ فراقًا لا لقاءَ من بعده.

قالت: أتحبّني أيها الأمير؟

قال: نعم، حُبَّ الزهرةِ الذابلةِ للقطرةِ الهاطلةِ.

قالت: وهل تستطيعُ أنْ تحبّ فتاةً مسيحيّةً، لا تدينُ بدينِك؟

قال: نعم، لأنّ طريقَ الدين في القلبِ غيرُ طريقِ الحبّ. ولقد وجدتُ فيكِ الصفاتِ التي أحبّها، فأحبَبْتُكِ لها. ثمّ لا شأن لي بعد ذلكَ فيما تعتقدين.

قالت: وهل تستطيعُ أن تحبّ بلا أملٍ؟

قال: ولم لا يكونُ الحبُّ نفسُهُ غايةً من الغاياتِ التي نجدُ فيها السعادةَ إنْ ظفرنا بها؟ ومتى كانَ للسعادةِ في هذه الحياة نهايةٌ محدودةٌ، فلا نجدُ الراحةَ إلّا إذا وَصَلْنَا إلى نهايتها؟

وكانَ الليلُ قد أظلّهُما فبرحَا مكانَهما ومَشِيَا يتحدّثانِ، حتّى بلغا الموضعَ الذي اعتادا أن يفترقا فيه، فوضعَتْ «فلورندا» يدَهَا في يده وقالت له: «سأحبّكَ كما أحبَبْتَني، أيّها الأمير، وسيكونُ حبّي لكَ بلا أملٍ كحبّك. ولقد فرّقَ الدينُ بين جسدَينا، فليجمَعِ الحبّ بين قلبينا». وتركَتْهُ وانصرَفَتْ.

ثمّ مَرّتْ بهما بعد ذلكَ أيّامٌ سَعِدَا فيها بنعمةِ العيشِ سعادةً أنسَتْهُما جميعَ ما لقيا في حياتِهما الماضيةِ من شقاءٍ وعناءٍ، فأصبَحَا فوقَ أرضِ غرناطةَ وتحتَ سمائها طائرينِ جميلينِ يطيرانِ حيثُ يصفُو لهما وَجْهُ السماءِ، وتترقرقُ صَفْحَةُ الهواءِ، ويقعانِ حيثُ يطيبُ لهما التغريدُ والتنقيرُ. فليتَ الدهرَ ينامُ عنهما ويتركُهُما وشأنَهما ولا ينفسُ عليهما هذه الساعاتِ القليلةَ من السعادةِ التي ابتاعَاهَا بكثيرٍ من دموعِهِما، وآلامِهِما، والتي لا يملكَانِ من سعادةِ الحياةِ سواها، فإنْ خَسِرَاها خَسِرَا كلّ شيء!

بينما هما جالسانِ ذاتَ يوم على ضفّةِ جدولٍ من جداولِ عينِ الدمعِ، إذْ مرّ بهما «الدون رودريك» ابنُ حاكمِ مدينةِ غرناطَة، فرآهما في مجلسِهما هذا من حيثُ لا يَرَيَانِهِ، وكان قد رأى «فلورندا» قبلَ اليومِ فأحبَّها، فاختلفَ إلى منزلها أيّامًا، يتحبّبُ إليها، ويدعُوها إلى الزواجِ منه، فأبتْ أن تصغيَ إليه، وقالتْ له: إنّني لا أتزوّجُ ابنَ قاتِلِ أبي. فانصرفَ بلوعةٍ لا تزالُ كامنةً في نفسِهِ حتّى اليوم؛ فلمّا رآها جالسةً مجلسَهَا هذا، زَعَمَ في نفسِهِ أنّها ما أوصدَتْ بابَ قلبِهَا في وجهِهِ، إلّا لأنّها كانتْ قد فتَحَتْهُ من قبلُ لذلكَ الفتى العربيّ الجميلِ الذي يجالسُهَا. فذهبَ إلى قصرِهَا في اليوم الثاني، ليفضِيَ إليها بما وَقَعَ في نفسِه، فأبَتْ أن تقابِلَهُ، فخرَجَ غاضبًا يحدّثُ نفسَهُ بأفظعِ أنواعِ الانتقام.

وما هيَ إلّا أيّامٌ قلائلُ، حتّى سِيقَ الأميرُ سعيد بن يوسف بن أبي عبدالله سليلُ بني الأحمرِ ملوكِ هذهِ البلادِ بالأمسِ، ومؤسسي مجدِهَا وعظمتِها، وبناةِ قلاعِها وحصونِهَا، وأصحابِ قصورِهَا وبساتينها، ذليلًا مهانًا إلى محكمةِ التفتيش[1] متّهمًا بمحاولةِ إغراءِ فتاةٍ مسيحيّةٍ بتركِ دينها، وهي عندَهُمْ أفظعُ الجرائمِ وأهوَلُها.

وقفَ الأميرُ أمامَ قضاةِ محكمةِ التفتيشِ، فسألهُ الرئيسُ عن تهمتِهِ، فأنكرَها. فلم يحفلْ بإنكارِه، وقال له: لا يدلُّ على براءَتِكَ إلّا أمرٌ واحدٌ، وهو أن تتركَ دينَكَ، وتأخذَ بدينِ المسيحِ. فطارَ الغضبُ في دماغِهِ، وصرخَ صرخةً دوّتْ بها أرجاءُ القاعةِ وقال:

في أيّ كتابٍ من كُتُبِكُمْ، وفي أيّ عهدٍ من عهودِ أنبيائكُمْ ورسلكُمْ أنّ سَفكَ الدمِ عقابُ الذين لا يؤمنونَ بإيمانِكم، ولا يدينونَ بدينكم؟

من أيّ عالمٍ من عوالمِ الأرضِ أو السماءِ، أتيتُمْ بهذهِ العقولِ التي تصوّرُ لكُمْ أنّ الشعوبَ تساقُ إلى الإيمانِ سوقًا، وأنّ العقائدَ تسقى للناسِ كما يسقى الماءُ والخمر؟

أينَ العهدُ الذي اتّخذتُموه على أنفسِكُم يوم وَطِئَتْ أقدامُكُمْ هذه البلادَ أن تتركُونا أحرارًا في عقائدِنَا ومذاهِبِنَا، وأن لا تؤذونا في عاطفةٍ من عواطِف قلوبِنَا، ولا في شعيرةٍ من شعائرِ ديننا؟

أهذا الذي تصنعونَ اليومَ، والذي صَنَعْتُمْ بالأمسِ، هو كلُّ ما عندكُمْ من الوفاءِ بالعهودِ والرعي للذمم؟

نعم، لكُمْ أن تفعلوا ما تشاؤونَ، فقد خَلَا لكُمْ وَجْهُ البلادِ، وأصبحْتُمْ أصحابَ القوّةِ والسلطانِ فيها، وللسلطانِ عزّة لا تبالي بعهدٍ ولا وفاء.

إنّ العهودَ التي تكونُ بين الأقوياءِ والضعفاءِ، إنّما هي سيفٌ قاطعٌ في يدِ الأولين، وغلٌّ ملتفٌّ على أعناقِ الآخرينَ، فلا أقالَ الله عثرةَ البلهاءِ ولا أقرَّ عيونَ الأغبياء.

أنتُمْ أقوياءُ ونحن ضعفاءُ. فأنتُمْ أصحابُ الحقِّ الأبلجِ[2] والحجّةِ القائمةِ؛ فاصنعوا ما شئتُمْ فهذا حقُّكُمْ الذي خَوَّلتْكم إيّاه قوّتكم.

اسفكوا من دمائنا ما شِئتُمْ، واسلُبُوا من حقوقِنَا ما أَرَدْتُم، واملكُوا علينا مشاعِرَنا وعقولَنَا حتّى لا ندينَ إلّا بما تدينونَ، ولا نذهبَ إلّا حيثُ تذهبونَ، فقد عجزنا عن أن نكونَ أقوياءَ، فلا بدّ أن ينالَنَا ما ينالُ الضعفاءَ.

ثمّ حاولَ الاستمرارَ في حديثِهِ، فقاطعَهُ الرئيسُ وأمرَ أن يساقَ إلى ساحةِ الموتِ التي هلكَ فيها من قبلِهِ عشرةُ آلافٍ من المسلمين قتلًا أو حرقًا. فسيقَ إليها و اجتمَعَ الناسُ حولَ مصرعِهِ رجالًا ونساءً، وما جرّدَ الجلادُ سيفَه فوقَ رأسِه حتّى سمعَ الناسُ صرخةَ امرأةٍ بين الصفوفِ، فالتَفَتُوا،

(١) أسست هذه المحكمة بإسبانيا على أثر جلاء العرب عنها، لتنصير المسلمين واليهود الباقين فيها قهرًا، وارتكبت فيها فظائع كثيرة مشهورة.

(٢) الأبلج: الواضح الظاهر.

فلم يعرفوا مصدَرَها، وما هي إلّا غمضةٌ وانتباهةٌ أنْ سقطَ ذلكَ الرأسُ الذي ليس له مثيل.

* * *

يرى المارّ اليومَ بجانبِ مقبرةِ بني الأحمر في ظاهرِ غرناطةَ قبرًا جميلًا مزخرفًا هو قطعةٌ واحدةٌ من الرخام الأزرقِ الصافي قد نُحِتَتْ في سطحِهَا حفرةٌ جوفاءُ تمتلىءُ بماءِ المطرِ فيهوي إليها الطيرُ في أيّامِ الصيفِ الحارِّ فيشربُ منها، ونقشتْ على ضلعٍ من أضلاعِهَا هذه السطور:

«هذا قبر آخرِ بني الأحمر»

«من صديقته الوفيّة بعهده حتّى الموت»

«فلورندا فيليب»

❋ ❋ ❋

الهاوية

«موضوعة»

ما أكثرَ أيّامَ الحياةِ وما أقلّها!؟

لم أعشْ من تلكَ الأعوامِ الطوالِ التي عشتُهَا في هذا العالم إلّا عامًا واحدًا مرّ بي كما يمرُّ النجمُ الدهريُّ في سماءِ الدنيا ليلةً واحدةً، ثمّ لا يراهُ الناسُ بعد ذلك.

قضيتُ الشطرَ الأوّلَ من حياتي أفتّشُ عن صديقٍ ينظرُ إلى أصدقائِهِ بعينٍ غيرِ العينِ التي ينظرُ بها التاجرُ إلى سلعَتِهِ، والزارعُ إلى ماشيتِهِ، فأعْوَزَني ذلكَ حتّى عرفتُ «فلانًا» منذ ثماني عَشْرَةَ عامًا، فعرفتُ امْرَأً ما شئتُ أن أرى خَلَّة[1] من خِلالِ الخيرِ والمعروفِ في ثيابِ رجلٍ إلّا وجدتُهَا فيه، ولا تخيّلْتُ صورةً من صورِ الكمالِ الإنسانيّ في وجهِ إنسانٍ إلّا أضاءتْ لي في وجهِهِ.

فَجُلَّتْ مكانتُهُ عندي، ونزلَ من نفسي منزلةً لم ينزلْهَا أحدٌ من قبلِهِ، وَصَفَتْ كأسُ الودّ بيني وبينَه، لا يكدّرُهَا علينا مكدّرٌ، حتّى عرضَ إليّ من حوادثِ الدهر ما أزعجني من مستقرّي، فهجرتُ القاهرةَ إلى مسقطِ رأسي غيرَ أسفٍ على شيءٍ فيها إلّا على فراقِ ذلكَ الصديقِ الكريم.

فتراسَلْنَا حقبةً من الزمنِ، ثمّ فَتَرَتْ عنّي كتبُهُ، ثمّ انقطعتْ، فحزنتُ لذلكَ حزنًا شديدًا، وذهبتْ بي الظنونُ في شأنِهِ كلّ مذهبٍ، إلّا أنْ أرتابَ في صدقِهِ ووفائِهِ، وكنتُ كلّما هَمَمْتُ بالمسيرِ إليه لتعَرُّفِ حاله، قعدَ بي عن ذلكَ هَمّ كانَ يقعدني عن كلّ شأنٍ حتّى شأن نفسي. فلم أعدْ إلى القاهرةِ إلّا بعدَ أعوامٍ. فكان أولُ همّي يوم هبطتُ أرضَهَا أنْ أراهُ، فذهَبْتُ إلى منزلِهِ في الساعةِ الأولى من الليلِ، فرأيتُ ما لا تزالُ حسرتُهُ متّصلةً بقلبي حتّى اليوم.

تركتُ هذا المنزلَ فردوسًا صغيرًا من فراديسِ الجنانِ، تتراءَى فيه السعادةُ في ألوانِهَا

(١) الخلّة: الخصلة.

المختلفةِ، وتترقرقُ وجُوهُ ساكنيهِ بِشْرًا وسرورًا، ثم زرتُه اليومَ فخُيِّلَ إليّ أنّني أمامَ مقبرةٍ موحشةٍ ساكنةٍ لا يهتفُ فيها صوتٌ، ولا يتراءَى في جوانبها شبحٌ، ولا يلمعُ في أرجائِها مصباح؛ فَظَننتُ أنّي أخطأتُ المنزلَ الذي أريدُه، أو أنّني بين يدي منزلٍ مهجورٍ، حتّى سمعتُ بكاءَ طفلٍ صغيرٍ، ولمحتُ في بعضِ النوافذِ نورًا ضعيفًا، فمشيتُ إلى البابِ، فطرقتُهُ، فلمْ يُجِبْني أحدٌ، فطرقتُهُ أخرى، فلمحتُ من خصَاصِه[١] نورًا مقبلًا، ثمّ لمْ يلبثْ أنِ انفرجَ لي عن وجهِ غلامٍ صغيرٍ في أسمال[٢] باليةٍ، يحملُ في يده مصباحًا ضئيلًا، فتأمّلتُهُ على ضوءِ المصباحِ، فرأيتُ في وجهه صورةَ أبيهِ، فعرفتُ أنه ذلكَ الطفلُ الجميلُ المدلَّلُ الذي كانَ بالأمسِ زهرةَ هذا المنزلِ وبدرَ سمائِهِ.

فسألتُه عن أبيهِ، فأشار إليّ بالدخولِ، ومشى أمامي بمصباحِه، حتّى وصل بي إلى قاعةٍ شعثاءَ[٣] مغبّرةٍ باليةِ المقاعدِ والأستارِ، ولولا نقوشٌ لاحتْ لي في بعضِ جدرانِها «كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ»، ما عرفتُ أنّها القاعةُ التي قضينَا فيها ليالي السعادةِ والهناءِ اثني عَشَر هلالًا. ثمّ جرى بيني وبينَ الغلامِ حديثٌ قصيرٌ عرفَ فيه مَنْ أنا، وعرفتُ أنّ أبَاهُ لم يَعُدْ إلى المنزلِ حتّى الساعةِ، وأنّه عائدٌ عمّا قليل.

ثمّ تركني ومَضَى وما لبثَ إلّا قليلًا، حتّى عادَ يقول لي: إنّ والدَتَهُ تريدُ أن تحدّثني حديثًا يتعلّق بأبيه. فخفَقَ قلبي خفقةَ الرعبِ و الخوفِ، وأحسَسْتُ بشرٌّ لا أعرفُ مأتاهُ[٤]. ثمّ التفتُّ فإذا امرأةٌ ملتفّةٌ برداءٍ أسودَ واقفةٌ على عتبةِ البابِ.

فحيّتْني، فحيّيتُها ثمّ قالت لي: هل علمتَ ما صنعَ الدهرُ بفلانٍ من بعدِك؟

قلتُ: لا، فهذا أوّلُ يوم هَبَطْتُ فيه هذا البلدَ بعدَ ما فارقتُه سبعةَ أعوامٍ.

قالت: ليتَك لم تفارقْهُ، فقد كنتَ عصمَتَهُ التي يعتصِمُ بها، وحماهُ من غوائلِ الدهر[٥]، وشرورِه. فما هو إلّا أنْ فارقتَهُ، حتّى أحاطَتْ به زُمرَةٌ من زُمَرِ الشيطانِ، وكانَ فتًى كما تعلمُه غريرًا ساذجًا، فما زالتْ تغريهِ بالشرّ، وتزيّنُ له منه ما يزيّنُ الشيطانُ للإنسانِ، حتّى سقط فيه، فسقَطْنَا جميعًا في هذا الشقاءِ الذي تراه. قلت: وأيُّ شرٍّ تريدينَ يا سيّدتي؟ ومن هم الذين أحاطُوا به فأسقَطُوه؟

قالت: سأقصّ عليكَ كلّ شيءٍ فاستمعْ لما أقول:

ما زالَ الرجلُ بخيرٍ، حتّى اتّصلَ بفلانٍ رئيسِ ديوانِه، وعلقَتْ حبالُهُ بحبالِهِ، وأصبحَ من خاصّتِهِ الذينَ لا يفارقونَ مجلسَه حيثُ كانَ، ولا تزالُ نعالُهُمْ خافقةً وراءَه في غدواتِهِ وروحاتِهِ، فاستحالَ من ذلكَ اليوم أمرُه، وتنكّرَتْ صورةُ أخلاقِهِ، وأصبحَ منقطعًا عن أهلِهِ وأولادِهِ، لا يراهُم إلاّ الفينةَ بعد الفيَنة[٦]، وعن منزلِهِ. لا يزورُه إلّا في أخرياتِ الليالي؛ ولقد اغتبَطْتُ في

---

(١) خصاص الباب: ثقبه.

(٢) الأسمال: الثياب البالية.

(٣) شعثاء: مؤنث أشعث وهو المتفرّق.

(٤) المأتي: الوجه الذي يأتي منه الشيء.

(٥) غوائل الدهر: مصائبه.

(٦) الفينة: الساعة والحين.

مبدأ الأمرِ بتلكَ الحظوةِ التي نالها عندَ ذلكَ الرئيسِ، والمنزلةِ التي نالها من نفسِه. ورجوتُ له من ورائِها خيرًا كثيرًا مغتفرةً في سبيل ذلكَ ما كنتُ أشعرُ به من الوحشةِ والألمِ لانقطاعِه عنّي، وإغفالِه أمري وأمر أولادِه، حتّى عادَ في ليلةٍ من الليالي شاكيًا متألمًا يكابدُ غصَصًا شديدةً وآلامًا جسامًا، فدنوتُ منه فشمَمْتُ من فمه رائحةَ الخمرِ، فعلمتُ كلَّ شيء.

علمتُ أنّ ذلكَ الرئيسَ العظيمَ هو قدوةُ مرؤوسيهِ في الخيرِ إن سلكَ طريقَ الخير، والشرّ إنْ سلكَ طريقَ الشرِّ، قادَ زوجي الفتى المسكينَ إلى شرّ الطريقين، وسلكَ به أسوأ السبيلين، وإنّه ما كان يتّخذُه صديقًا كما زعمَ، بل نديمًا على الشرابِ.

فتوسّلتُ إليه بكلّ عزيزٍ عليه، وسكبتُ على يديهِ من الدموعِ كلَّ ما تستطيعُ أن تسكبه عينٌ، رجاءَ أن يعودَ إلى حياتِه الأولى التي كانَ يحياهَا سعيدًا بين أهلِهِ وأولادِه، فما أجدَيْتُ عليهِ شيئًا.

ثمّ علمتُ بعد ذلكَ أنّ اليدَ التي ساقَتْهُ إلى الشرابِ قد ساقَتْهُ إلى اللعبِ، فلم أعجبْ لذلكَ، لأنّي أعلمُ أنّ طريقَ الشرّ واحدةٌ، فمن وقفَ على رأسها لا بدّ له أن ينحدرِ فيها حتّى يصلَ إلى نهايتِهَا. فأصبحَ ذلكَ الفتى النبيلُ الشريفُ، الذي كانَ يعفّ بالأمس عن شربِ الدواءِ إذا اشتمّ فيه رائحةَ النبيذِ، ويستحي أن يجلسَ في مجتمعٍ يجلسُ فيه قومٌ شاربون، سكّيرًا مقامرًا مستهترًا لا يحتشمُ، ولا يتلوّمُ، ولا يتّقي عارًا ولا مأثمًا. وأصبحَ ذلكَ الأبُ الرحيمُ والزوجُ الكريمُ الذي كان يضنّ بأولادِهِ أن يعلقَ بهم الذرّ، وبزوجِه أن يتجهّم[1] لها وجه السماءِ، أبًا قاسيًا وزوجًا سليطًا، يضربُ أولادَه كلّما دنوا منه، ويشتُمُ زوجتَهُ وينتهرُها كلّما رآها.

وأصبحَ ذلك الرجلُ الغيورُ الضنينُ بعرضِهِ وشرفِهِ، لا يبالي أن يعودَ إلى المنزلِ في بعض الليالي في جمعٍ من عشرائِهِ الأشرارِ، فيصعدُ بهم إلى الطبقةِ التي أنامُ فيها أنا وأولادي، فيجلسونَ في بعضِ غرفِهَا، ولا يزالونَ يشربونَ ويقصفون[2]، حتى يذهبَ بعقولهم الشرابُ، فيهتاجُوا ويرقُصوا ويملأوا الجوّ صراخًا، وهتافًا، ثمّ يتعادوا[3] بعضُهم وراءَ بعضٍ في الأبهاءِ[4] والحجراتِ، حتّى يلجوا عليّ بابَ غرفتي، وربما حدّقَ بعضُهم في وجهي أو حاولَ نَزْعَ خماري على مرأى مَن زوجي ومسمعٍ، فلا يقولُ شيئًا، ولا يستنكرُ أمرًا فأفرّ بين أيديهِمْ من مكانٍ إلى مكانٍ، وربّما فررتُ من المنزلِ جميعِهِ، وخرجتُ بلا إزارٍ، ولا خمارٍ، غير إزارِ الظلامِ وخمارِه، حتّى أصلَ إلى بيتِ جارةٍ من جاراتي، فأقضي عندها بقيّةَ الليل.

وهنا تغيّرتْ نغمةُ صوتِهَا، فأمسَكَتْ عن الحديثِ، وأطرقَتْ برأسِها، فعلمتُ أنّها تبكي، فبكيتُ بيني وبين نفسي لبكائِها، ثمّ رَفَعَتْ رأسَها، وعادتْ إلى حديثها تقول:

وما هي إلّا أعوامٌ قلائلُ حتّى أنفقَ جميعَ ما كانَ في يدِه من المالِ، فكانَ لا بدّ لَه أن يستدينَ، ففعل، فأثقَلَهُ الدينُ، فرهَنَ فعجزَ عن الوفاءِ، فباعَ جميعَ ما يملكُ حتّى هذا البيتَ

---

(١) تجهّم له: استقبله بوجه كريه.

(٢) قصف الرجل: أقام في أكل وشراب ولهو.

(٣) من العدو: وهو الجري.

(٤) الأبهاء: جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.

الذي نسكُنُه، ولم يبقَ في يدِه غيرُ راتبِهِ الشهريّ الصغيرِ، بل لم يبقَ في يدِه شيءٌ حتّى راتبُهُ، لأنّه لا يملكه إلّا ساعةً من نهارٍ، ثمّ هو بعد ذلكَ ملكٌ للدائنينَ، أو غنيمة للمقامرين.

هذا ما صَنَعَتْ يدُ الدهرِ به، أمّا ما صنعَتْ بي وبأولادي، فقد مرّ على آخرِ حليةٍ بعتُها من حُلاي عامٌ كاملٌ، وها هي حوانيتُ المرابينَ والمسترهنينَ ملأى بملابسي، وأدواتِ بيتي وأثاثِهِ. ولولا رجلٌ من ذوي قرباي رَقيقُ الحال[١] يعودُ عليّ من حينٍ إلى حينٍ بالنزرِ القليلِ ممّا يستلّهُ من أشداقِ عيالِهِ لهلكتُ وهلكَ أولادي جوعًا.

فلعلّك تستطيعُ، يا سيّدي، أن تكونَ عونًا لي على هذا الرجلِ المسكينِ، فتنقذَه من شقائِهِ وبلائِه بما ترى له في ذلكَ الرأيَ الصالحَ. وأحسبُ أنّكَ تقدرُ منه - للمنزلةِ التي تنزلُها من نفسِهِ - على ما عجزَ عنه الناسُ جميعًا، فإنْ فعلتَ، أحسَنْتَ إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يدَكَ فيه حتّى الموت.

ثمّ حيّتْني ومضتْ لسبيلِها، فسألتُ الغلامَ عن الساعةِ التي أستطيعُ أن أرى أباهُ فيها في المنزل، فقال: إنّك تراهُ في الصباحِ قبلَ ذهابِهِ إلى الديوان.

فانصرفتُ لشأني، وقد أضمرتُ بين جنبيَّ لوعةً ما زالتْ تقيمُني، وتُقعدُني، وتذودُ عن عيني سِنَةَ[٢] الكرى[٣]، حتّى انقضَى الليلُ، وما كادَ ينقضي.

ثمّ عدتُ في صباحِ اليومِ الثاني لأرى ذلكَ الصديقَ القديمَ الذي كنتُ بالأمسِ أسعدَ الناسِ به، ولا أعلمُ ما مصيرُ أمري معه بعدَ ذلكَ، وفي نفسي من القلقِ والاضطرابِ، ما يكونُ في نفسِ الذاهبِ إلى ميدانِ سباقٍ قد خاطرَ فيه بجميعِ ما يمتلِكُ؛ فهو لا يعلَمُ أيكونُ بعد ساعةٍ أسعدَ الناسِ أَمْ أشقاهم؟

الآن عرفتُ أنّ الوجوهَ مرايا[٤] النفوسِ، تضيءُ بضيائِها، وتظلمُ بظلامِها؛ فقد فارقْتُ الرجلَ منذ سبعِ سنواتٍ، فأَنْسَتْنِيَ الأيّامُ صورتَه، ولم يبقَ في ذاكرتي منها إلّا ذلكَ الضياءُ اللامعُ، ضياءُ الفضيلةِ والشرفِ الذي كانَ يتلألأُ فيها تلألؤَ نورِ الشمسِ في صفحتِهَا. فلمّا رأيتُه الآنَ، ولم أرَ أمامَ عيني تلكَ الغلالةَ البيضاءَ التي كنتُ أعرفُها، خُيِّلَ إليّ أنّني أرى صورةً غيرَ الصورةِ الماضيةِ، ورجلًا غيرَ الذي كنتُ أعرفُهُ من قبل.

لم أرَ أمامي ذلكَ الفتى الجميلَ الوضّاحَ الذي كانَ كلُّ منبتِ شعرةٍ في وجهِهِ فمًا ضاحكًا، تموجُ فيه ابتسامةٌ لامعةٌ؛ بلْ رأيتُ مكانَه رجلًا شقيًّا منكوبًا قد لبسَ الهرمَ قبلَ أوانِه، وأوفى على الستّينَ قبلَ أن يسلخَ الثلاثين، فاسترخَى حاجباهُ، وثقلتْ أجفانُه، وجَمُدَتْ نظراتُه، وتهدّلَ[٥] عارضاه، وتجعّدَ جبينُه، واستشرفَ[٦] عاتِقَاه، وهوى رأسُه بينَهما هويةَ بينَ عاتقي الأحدَبِ.

فكانَ أوّلُ ما قلتُ له: لقد تغيّرَ فيكَ كلُّ شيءٍ، يا صديقي، حتّى صورَتُك! وكأنّما ألمّ بما في نفسي، وعرفَ أنّي علمتُ من أمرِهِ كلَّ شيءٍ، فأطرقَ برأسِه إطراقَ من يرى أنّ باطِنَ

---

(١) رقة الحال: كناية عن الفقر.
(٢) السنة: النعاس.
(٣) الكرى: النوم.
(٤) المرايا: جمع مرآة.
(٥) تهدّل: استرخى.
(٦) استشرف الشيء: ارتفع.

الأرضِ خيرٌ له من ظَهْرِهَا، ولم يَقُلْ شيئًا. فدنوتُ منه حتّى وضعتُ يدي على عاتِقِهِ وقلت له:

واللهِ ما أدري ماذا أقولُ لكَ؟ أأَعِظُكَ، وقد كنتَ واعظي بالأمسِ، ونجمَ هداي الذي أستنيرُ به في ظلماتِ حياتي؟ أم أرشدُكَ إلى ما أوجبَ اللهُ عليكَ في نفسِك، وفي أهلك؟ ولا أعرفُ شيئًا أنتَ تجهلُهُ، ولا تَصِلُ يدي إلى عِبْرَةٍ تقصّرُ يدُك عن نَيْلِها. أم أسترحِمُكَ لأطفالِكَ الضعفاءِ، وزوجتِكَ البائسةِ المسكينةِ التي لا عضدَ لها في الحياةِ، ولا معينَ سواك؟ وأنتَ صاحبُ القلبِ الرحيمِ الذي طالما خَفَقَ بالبعداءِ، فأحرى أن يخفقَ رحمةً بالأقرباء!

إنّ هذهِ الحياةَ التي تحياها، يا سيّدي، إنّما يلجأُ إليها الهُمّلُ العاطلونَ الذين لا يصلحونَ لعملٍ من الأعمالِ، ليتواروا فيها عن أعينِ الناسِ حياءً وخجلًا حتّى يأتيهُمُ الموتُ، فينقذَهُمْ من عارِهم وشقائِهم، وما أنتَ بواحدٍ منهم!

إنّكَ تمشي، يا سيّدي، في طريقِ القبر، وما أنتَ بناقمٍ على الدنيا، ولا بمتبرّمٍ[1] بها، فما رغبَتُكَ في الخروجِ منها خروجَ اليائسِ المنتحر؟! عَذَرتُكَ لو أنّ ما ربحتَ في حياتِكَ الثانيةِ، يقومُ لكَ مقامَ ما خسرتَ من حياتِكَ الأولى، ولكنّكَ تعلَمُ أنّكَ كنتَ غنيًّا فأصبحت سقيمًا، وشريفًا فأصبحتَ وضيعًا؛ فإنْ كنتَ ترى بعد ذلكَ أنّكَ سعيدٌ، فقد خَلَتْ رقعةُ الأرضِ من الأشقياء.

إنّ كلَّ ما يعنيكَ من حياتِكَ هذه أن تطلبَ فيها الموتَ، فاطلُبْهُ في جرعةِ سمٍّ تشربُها دفعةً واحدةً؛ فذلكَ خيرٌ لكَ من هذا الموتِ المتقطّعِ الذي يكثرُ فيه عذابُكَ وألمُكَ، وتعظُمُ فيه آثامُكَ وجرائِمُكَ، وما يعاقبكُ اللهُ على الأولى.

حسبُنا، يا صديقي، من الشقاءِ في هذه الحياةِ ما يأتينا به القدرُ. فلا نضمُّ إليهِ شقاءً جديدًا نجلُبُهُ بأنفسِنا لأنفسِنا. فهاتِ يدَكَ، وعاهِدْني على أن تكونَ لي منذُ اليوم كما كنتَ لي بالأمسِ. فقد كنّا سعداءَ قبلَ أن نفترقَ، ثمّ افترقنا فشقينا. وها نحنُ أوّلًا قد التقينا. فلنعِشْ في ظلالِ الفضيلةِ والشرفِ سعداءَ كما كنّا.

ثمّ مَدَدْتُ يدي إليه، فراعَني أنّه لم يحرّكْ يدَهُ، فقلتُ له: ما لكَ لا تمدُّ يدَكَ إليَّ؟

فاستعبرَ باكيًا وقال: لأنّني لا أحبُّ أن أكونَ كاذبًا ولا حانثًا[2].

قلت: وما يمنعُكَ من الوفاء؟

قال: يمنعُني منه أنّني رجلٌ شقيٌّ، لا حظّ لي في سعادةِ السعداء.

قلتُ: قد استطعتَ أن تكون شقيًّا، فلمَ لا تستطيعُ أن تكونَ سعيدًا؟

قال: لأنّ السعادةَ سماءٌ والشقاءَ أرضٌ. والنزولُ إلى الأرضِ أسهلُ من الصعودِ إلى السماء، وقد زلّتْ قدمي عن حافةِ الهوّةِ، فلا قدرةَ لي على الاستمساكِ، حتّى أبلغَ قرارَتَها. وقد شربتُ أوّلَ جرعةٍ من جرعاتِ الحياة المريرةِ، فلا بدّ لي أنْ أشربَها حتّى ثمالتها[3]، ولا

---

(١) تبرم الأمر: سئمه وضجر منه. (٢) الحانث: الذي لا يفي بوعده.

(٣) الثمالة: البقيّة الباقية في قعر الإناء.

شيءَ من الأشياءِ يستطيعُ أن يقفَ في سبيلي إلّا شيءٌ واحدٌ فقط، هو أنْ لا أكونَ قد شربتُ الكأسَ الأولى قبلَ اليومِ، وما دمتُ قد فعلتُ، فلا حيلةَ لي فيما قَضَى الله.

قلت: ليسَ بينَكَ وبينَ النزوعِ، إلّا عزمةٌ صادقةٌ تعزمُها، فإذا أنتَ من الناجين.

قال: إنّ العزيمةَ أثرٌ من آثارِ الإرادةِ، وقد أصبحتُ رجلًا مغلوبًا على أمري، لا إرادة لي ولا اختيارَ. فدَعْني، يا صديقي، والقضاءَ يصنَعُ بي ما يشاء، وابكِ صديقَكَ القديمَ منذُ اليومِ، إنْ كنتَ لا ترى بأسًا في البكاءِ على الساقطينَ المذنبين.

ثمّ انفجر باكيًا بصوتٍ عالٍ، وتركَني مكاني دونَ أن يحيّيني بكلمةٍ، وخرجَ هائمًا على وجهِهِ، لا أعلمُ أينَ ذهبَ، فانصرفْتُ لشأني وبينَ جنبيّ من الهمّ والكَمدِ ما اللهُ به عليم.

* * *

لم يستطعْ رئيسُ الديوانِ أن يحملَ نديمَه بالأمسِ زمنًا طويلًا، فأقصَاهُ عن مجلسِهِ استثقالًا لَهُ، ثمّ عَزَلَهُ عن وظيفتِهِ استنكارًا لعملِهِ، ولم تذرفْ عينُه دمعةً واحدة على منظرِ صريعِهِ الساقطِ بين يديهِ. ولم يستطعْ مالكُ البيتِ الجديدِ أن يمهلَ فيه المالكَ القديمَ أكثرَ من بضعةِ شهورٍ، ثمّ طردَه منه. فلجأَ هو وزوجتُه وولدَاه إلى غرفةٍ حقيرةٍ في بيتٍ قديمٍ في زقاقٍ مهجورٍ. فأصبحتُ لا أراه بعد ذلكَ إلّا ذاهبًا إلى الحانةِ، أو عائدًا منها، فإنْ رأيتُه ذاهبًا زويتُ[١] وجهي عنه، أو عائدًا دنوتُ منهُ، فمسحْتُ عن وجهِهِ ما لصقَ به من الترابِ، أو عن جبينِه ما سالَ منه من الدم ثمّ قُدْتُهُ إلى بيته.

وهكذا، ما زالتِ الأيّامُ والأعوامُ تأخذُ من جسمِ الرجلِ ومن عقلِهِ، حتّى أصبحَ من يراه يرى ظلًّا من الظلالِ المتنقّلَةِ، أو حلمًا من الأحلامِ الساريةِ، يمشي في طريقِهِ مشيةَ الذاهلِ المشدوهِ، لا يكادُ يشعر بشيءٍ ممّا حولَه، ولا يتّقي ما يعترضُ سبيلَهُ حتّى يدانيهِ.

ويقفُ حينًا بعدَ حين، فيدورُ بعينيهِ حولَ نفسِه كأنّما يفتّشُ عن شيءٍ أضاعَه، وليسَ في يدِه شيءٌ يضيعُ، أو يقلّبُ نظرَهُ في أثوابِهِ، وما في أثوابِهِ غيرُ الرقاعِ والخروقِ، وينظرُ إلى كلّ وجهٍ يقابلُهُ نظرةً شزراءَ[٢]، كأنّما يستقبلُ عدوًّا بغيضًا، وليس له عدوٌّ ولا صديقٌ، وربّما تعلّقَ بعضُ الصبيانِ بعاتِقِهِ، فدفَعَهُمْ عنه بيدِه دفعًا لينًا غيرَ آبهٍ، ولا محتفلٍ كما يدفعُ النائمُ المستغرقُ عَنْ عاتِقِهِ يدَ مُوقِظِهِ، حتّى إذا خلا جوفُهُ من الخمرِ، وهدأتْ سَوْرَتُها[٣] في رأسِهِ، انحدرَ إلى الحانِ، فلا يزالُ يشربُ ويتزايدُ حتّى يعودَ إلى ما كانَ عليه.

ولمْ يزلْ هذا شأنَه، حتّى حدثَتْ منذُ بضعةِ شهورٍ الحادثةُ الآتية: عجزتْ تلكَ الزوجةُ المسكينةُ أنْ تجدَ سبيلًا إلى القوتِ، وأبكَاهَا أن تَرَى ولدَها وابنتَهَا باكيينَ بين يديها، تنطقُ دموعُهُما بما يصمتُ عنهُ لسانُهما، فلمْ ترَ لها بدًّا من أن تركبَ تلكَ السبيلَ الي يركَبُها كلُّ

---

(١) زوى: نحّى، أبعد.
(٢) شزراء: غاضبة.
(٣) سورة الخمر: حدّتها.

مضطرٌ عديم. فأرسَلَتْهُمَا خادمينِ في بعضِ البيوتِ يقتاتانِ فيها ويقيتَانها، فكانَتْ لا تراهُما إلّا قليلًا ولا ترَى زَوْجَهَا إلّا في الليلةِ التي تغفلُ فيها عنهُ عيونُ الشرطة، وقلّما تغفلُ عنه.

فأصبحتْ وحيدةً في غرفَتِهَا، لا مؤنسَ لها ولا معينَ إلّا جارةٌ عجوزٌ تختلفُ إليها من حينٍ إلى حين، فإذا فارَقَتْهَا جارَتُها، وخَلَتْ بنفسِهَا ذكرتْ تلكَ الأيّام السعيدةَ التي كانتْ تتقلّبَ فيها في أعطافِ العيشِ الناعم، والنعمةِ السابغةِ[1] بين زوجٍ كريمٍ، وأولادٍ كالكواكبِ الزهر حسنًا وبهاءً، ثمَّ تذكرُ كيفَ أصبحَ السيّد مسودًا، والمخدومُ خادمًا، والعزيزُ الكريمُ ذليلًا مهينًا.

وكيفَ انتثرَ ذلكَ العقدُ اللؤلؤيُّ المنظومُ الذي كان حليةً بديعةً في جيدِ الدهرِ، ثمّ استحال بعدَ انتثارِهِ إلى حصيّاتٍ منبوذاتٍ على سطحِ الغبراءِ تَطَؤُها النعالُ، وتدوسُها الحوافرُ والأقدام. فتبكي بكاءَ الوالِهِ في إثرِ قوم ظاعنينَ، حتّى تتلفَ نفسُها أو تكادُ.

على أنّها ما أضمَرَتْ قطُّ في قلبِهَا حِقْدًا لذلكَ الأنسانِ الذي كانَ سببًا في شقائِها وشقاءِ ولديها، ولا حدَّثَتْهَا نفسُها يومًا من الأيّام بمغاضبتِه أو هجرانِه، لأنّها امرأةٌ شريفةٌ، والمرأةُ الشريفةُ لا تغدرُ بزوجِها المنكوبِ، بل كانَتْ تنظرُ إليه نظرةَ الأمّ الحنونِ إلى طفلِها الصغيرِ، فترحَمُهُ وتعطفُ عليه، وتسهرُ بجانبه إنْ كانَ مريضًا، وتأسو جراحَه إن عادَ جريحًا، وربّما طردَه الخمّارُ في بعض لياليهِ من حَانِهِ حينما لا يجدُ معه ثمنَ الشرابِ، فيعودُ إلى بيتِهِ ثائرًا مهتاجًا يطلبُ الشرابَ طلبًا شديدًا، فلا تجدُ بدًّا من أن تعطِيهِ نفقةَ طعامِهَا، أو تبتاعُ له من الخمرِ ما يسكّنُ به نفسَه رحمةً به وإبقاءً على تلكَ البقيّة الباقيةِ من عقلِه.

وكأنّ الدهرَ لم يكفِهِ ما وضعَ على عاتِقِها من الأثقالِ، حتّى أضافَ إليها ثقلًا جديدًا، فقد شعرَتْ في يومٍ من أيّامِهَا بنسمةٍ تتحرّكُ في أحشائِها، فَعَلِمَتْ أنّها حاملٌ، وأنّها ستأتي إلى دارِ الشقاءِ بشقيٍّ جديدٍ، فهتفتْ صارخةً: رحمتُكَ اللّهمَّ! فقد امتلأتِ الكأسُ حتّى ما تَسَعُ قطرةً واحدة.

وما زالتْ تكابِدُ من آلامِ الحملِ ما يجبُ أن تكابدَه امرأةٌ مريضةٌ منكوبةٌ، حتّى جاءَتْ ساعةَ وَضْعِهَا، فلم يحضرْهَا أحدٌ إلّا جارَتُها العجوزُ، فأعانها الله على أمرِها.

فوضعتْ ثمّ مرضتْ بعد ذلكَ بحمّى النُفَاسِ[2] مرضًا شديدًا لم تجدْ طبيبًا يتصدّقُ عليها بعلاجِها، لأنّ البلدَ الذي لا يستحي أطبّاؤهُ أن يطالبوا أهلَ المريضِ بعدَ موتِهِ بأجرةِ علاجِهِم الذي قَتَلَهُ، لا يمكن أن يوجَد فيها طبيبٌ محسنٌ أو متصّدق، فما زالَ الموتُ يدنو منها رويدًا رويدًا، حتّى أدركَتْهَا رحمةُ الله، فوافَاها أجَلُها في ساعةٍ لا يوجدُ فيها بجانبها غيرُ طفلَتِهَا الصغيرةِ عالقةً بثديِها.

في هذه الساعةِ دخلَ الرجلُ ثائرًا مهتاجًا يطلبُ الشرابَ، ويفتّشُ عن زوجتِهِ لتأتيَ له منهُ بما يريدُ، فدارَ بعينيهِ في أنحاءِ الغرفةِ، حتّى رآها ممدّدةً على حصيرِها، ورأى ابنتَهَا تبكي بجانبِهَا، فظنّها نائمةً فدنَا منها، ودفعَ الطفلةَ بعيدًا عنها، وأخذَ يحرّكها تحريكًا شديدًا، فلم

---

(١) السابغة: الطويلة.

(٢) النّفاس: حمّى شديدة تصيب الدماغ.

يشعرْ بحركةٍ، فرابَه الأمرُ وأحسّ برعدةٍ تتمشّى في أعضائِهِ، حتّى أصابتْ قلبَه.

فبدأ صوابُه يعودُ إليه شيئًا فشيئًا، فأكبَّ عليها يحدّقُ في وجهِهَا تحديقًا شديدًا، ويزحَفُ نحوها رويدًا رويدًا حتّى رأى شبحَ الموتِ يحدّقُ إليه من عينَيْهَا الشاخصتينِ الجامدتينِ، فتراجَعَ خوفًا وذعرًا، فوطِىء في تراجعه صَدْرَ ابنتِه، فأنّتْ أنّة مؤلمةً لم تتحرّكْ بعدَهَا حركةً واحدة، فصرَخَ صرخةً شديدةً وقال: واشقاءَاه واشقاءَاه؟

وخرجَ هائمًا على وجهِهِ يعدو في الطرق، ويضربُ رأسَهُ بالعُمُدِ والجدرانِ، ويدفعُ كلّ ما يجدُ في طريقِهِ من إنسانٍ، أو حيوانٍ، ويصيح: ابنتي! زوجتي، هلمّوا إليّ؟ أدركوني! حتّى أعيا فسقطَ على الأرضِ، وأخذَ يفحصُ الترابَ برجليهِ ويئنّ أنين الذبيحِ والناسُ من حولِهِ آسفونَ عليه، لا لأنّهم يعرفونَهُ، بل لأنّهم قرأوا في وجهِهِ آياتِ شقائه.

فكانت تلكَ اللحظةُ القصيرةُ التي استفاقَ فيها من ذهوله الطويلِ سببًا في ضياعِ ما بقي من عَقْلِه.

وما هي إلّا ساعةٌ أو ساعتانِ حتّى أصبح مقيّدًا مغلولًا في قاعةٍ من قاعاتِ البيمارستان، فوارحمتاه لَهُ، ولزوجتِهِ الشهيدةِ، ولطفلتِهِ الصريعةِ، ولأولادِهِ المشرّدينَ البؤساء!

❁ ❁ ❁

الجزاء

«ترجمة»

جلستْ على ضفّةِ البحيرةِ لتملأَ جرَّتَها، وكانَ الماءُ ساكنًا هادئًا، كأنّما قد امتدَّتْ فوقَ سطحِهِ طبقةٌ لامعةٌ من الجليدِ؛ فعزّ عليها أن تكسرَ بيدِهَا هذه المرآة الناعمةَ الصقيلةَ، ولا شيءَ أحبُّ إلى المرأةِ من المرآة؛ فظلّتْ تقلّبُ نظرَهَا فيها، فلمحَتْ في صفحَتِهَا وجهًا أبيضَ رائقًا ينظرُ إليها نظرًا عذبًا فاترًا، فابتسمَتْ له، فابتسمَ لها، فعَلِمَتْ أنّه الوجهُ الذي افتَتَنَ به خطيبُهَا القرويُّ الجميلُ.

أَنِسَتْ بهذا المنظرِ ساعةً، ثمّ راعَهَا أنْ رأتْ بجانبِ خيالِهَا في الماءِ خيالًا آخَرَ، فتبيَّنَتْهُ فإذا به خيالُ رجلٍ فذعِرَتْ، ولكنّها لم تلتفِتْ وراءَها، ومدّتْ يدَهَا إلى الماءِ فملأتْ جرّتها، ثمّ نهضتْ لتحمِلَهَا، فتقدّمَ إليها ذلكَ الواقفُ بجانِبِهَا، وقال لها: هل تأذنين لي، يا سيّدتي، أنْ أعينَكِ على حَمْلِ جرّتكِ؟ فالتَفَتَتْ، فإذا فتًى حضريٌّ غريبٌ حَسَنُ الصورةِ والبزّةِ لا تعرفُه، و لا تعرفُ أنّ هذه الأرضَ ممّا تنبتُ مثلَهُ، فرابَهَا[1] أمرُه، واتّقَدَ وجهُهَا حياءً وخجلًا، ولم تَقُلْ شيئًا، واستقلّتْ جرَّتها ومَضَتْ في سبيلِهَا.

نشأت سوزان وابنُ عمّها جلبرت في بيتٍ واحدٍ كما تنشأُ الزهرتانِ المتعانِقَتَانِ في مغرسٍ واحدٍ، فرضعَتْ معه وليدةً، ولعبَتْ معه طفلةً، وأحبّتْهُ فتاةً، ومرّت بهما في جميعِ تلكَ الأدوارِ

---

(١) رابها: من الريب أي الشكّ.

سعادةٌ، لم يستمداهَا من القصورِ والبساتينِ و الأرائكِ والأسرّةِ، والجيادِ والمركباتِ، والأكوابِ والدنانِ، والمزاهرِ والعِيدَانِ، والذهبِ اللّامعِ واللؤلؤ الساطعِ، والأثوابِ المطرّزةِ والغلائلِ المرصّعةِ، لأنّهما كانا قرويينِ فقيرينِ، بل استمدّاها من مطلعِ الشمسِ ومغربِهَا، وإقبالِ الليلِ وإدبارِه، وتلألُؤِ السماءِ بنجومِهَا الزاهرةِ والأرضِ بأعشابِهَا الناضرةِ، ومن الوقفاتِ الطوالِ فوقَ الصخورِ البارزةِ على ضفافِ البحيرةِ الهادئةِ، والجلساتِ الحلوةِ الجميلةِ على الأعشابِ الناعِمَةِ تحتَ ظلالِ الأشجارِ الوارفة، ومن سَمَاعِ أناشيدِ الحياةِ وأغاني الرعاةِ وضوضاءِ السائمةِ[1] في غدوّهَا ورواحِها، وبكاءِ النواعيرِ[2] في مسائِهَا وصباحِهَا، ومن الحبّ الطاهرِ الشريفِ الذي يشرقُ على القلوبِ الحزينةِ فيسعدُهَا، والأفئدةِ المظلمةِ فينيرُها، والأجنحةِ الكسيرةِ فيريشُها، والذي هو العزاءُ الوحيدُ عن كلّ فائتٍ في هذهِ الحياةِ، والسلوى عن كلِّ مفقودٍ، ولم يزلْ هذا شأنها حتّى كانَ يومُ البحيرة.

* * *

لا تعرفُ المرأةُ لها وجودًا إلّا في عيونِ الرجالِ وقلوبِهم، فلو خَلَتْ رقعةُ الأرضِ من وجوهِ الناظرين، أو أقفرتْ حَنَايا الضلوعِ منِ خوافقِ القلوبِ، لأصبحَ الوجودُ والعدَمُ في نظرِهَا سواءً، ولو أنّ وراءَها ألفَ عينٍ تنظرُ إليها، ثمّ لمحتْ في كوكبٍ من كواكبِ السماءِ نظرةَ حبّ، أو سمعتْ في زاوية من زوايا الأرضِ أنّةَ وَجْدٍ لأعجَبَها ذلكَ الغرامُ الجديدُ، وملأَ قلبَهَا غبطةً وسرورًا.

فقد عادتِ الفتاةُ إلى بيتِهَا طيّبَةَ النفسِ قريرَةَ العينِ مزهوّةً مختالةً، لا لأنّ حبًّا جديدًا حلَّ في قلبها محلّ الحبّ القديم، ولا لأنّ نفسَها حدَّثتْهَا أن تَصِلَ حياتها بحياةِ أحدٍ غير خطيبِهَا، بلْ لأنّها وَجَدَتْ في طريقِهَا برهانًا جديدًا على جمالِها، فأعجَبَها.

فكانتْ لا تزالُ تختلفُ بعد ذلكَ بجرّتها إلى البحيرةِ غيرَ خائفةٍ ولا مرتابةٍ، فترى ذلكَ السيّدَ الحضريّ في غدوِّها أو رَوَاحِهَا يحيّيها أو يبتسمُ لها، أو يسائِلُها عن طريقٍ، أو يستسقِيها شربةَ ماءٍ، أو يقدّمُ إليها زهرةً جميلةً، أو يلقي في أذنِهَا كلمةً عذبةً، حتّى استطاعَ في يوم من الأيامِ أن يجلسَ بجانبِهَا لحظةً قصيرةً في ظلّ صخرةٍ منفردةٍ، فكانتْ هذهِ اللحظةُ آخرَ عهدِهَا بحياتِهَا القديمةِ، وأوّلَ عهدِهَا بحياتِهَا الجديدة.

هَبَطَ المركيزُ جوستاف روستان هذه الأرضَ منذُ أيّام لتفقُّدِ مزارِعِه فيها، وكانَ لا يزالَ يختلفُ إليها من حينٍ إلى حينٍ، فيقضي في قصرِهِ الجميلِ الذي بنَاهُ فيها على بعدِ ساعتينِ من البحيرةِ بضعةَ أيّامٍ، ثمّ يعودُ إلى بلدتِه «نيس»، حتّى رأى هذه المرّةَ هذهِ الفتاةَ في بعضِ غدواتِهِ إلى ضفافِ البحيرةِ، فاستلهَاهُ حُسْنُهَا، وما زالَ بها يفيضُ على قلبها من حبّه، وعلى أذنِهَا من سحرِه، وعلى جيدِهَا ومعصَمَيها من لآلئِهِ وجواهره، ويصوّرُ لها جمالَ الحياةِ الحضريّة في أجملِ صُوَرِها

---

(١) السائمة: الماشية تُترك وحدها لترعى.

(٢) النواعير: جمع ناعورة وهي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر «الساقية».

وأبهاها، ويمنّيها الأمانيّ الكبارَ في حاضرِهَا ومستقبَلِهَا، حتّى أذعنَتْ، واستقادَتْ، وخضعَتْ للتي تخضَعُ لها كلُّ أنثى، نَامَتْ عنها عينُ راعِيها، وأسلَمَهَا حظّها إلى أنيابِ الذئاب.

* * *

استيقظَ الفتى جلبرت في الساعةِ التي يستيقظُ فيها من صباحِ كلّ يومٍ، فعمدَ إلى بقرتِهِ، فَحَلّ عقالَهَا، ثمّ هتفَ باسمِ سوزان يدعُوها إلى الذهابِ معهُ إلى المرعى، فلم تُجِبْهُ، فصَعَدَ إلى غرفتِهَا في سطحِ المنزلِ ليوقظَها، فلم يَجِدْها، فسألَ عنها أمّه، فلم تَعْلَمْ مِنْ أمرِها أكثرَ ممّا يعلَم، فظنّ أنّها خرجَتْ لقضاءِ بعضِ الشؤونِ، ثمّ تعودُ.

فلبثَ ينتظِرُهَا وقتًا طويلًا فلم تَعُدْ، فرابَهُ الأمرُ، وأعادَ البقرةَ إلى معتلفِهَا، وخرجَ يفتّشُ عنها في كلّ مكانٍ، ويسائِلُ عنها الناسَ جميعًا غاديهم ورائحَهم فلم يجدْ من يدلّه عليها حتّى أظلّه الليلُ، فعادَ حزينًا مكتئبًا لا يرى أنّ أحدًا على وجهِ الأرضِ أعظمُ لوعةً منهُ، ولا أشقى.

فرأى أمّه قابعةً في كسرِ البيتِ مطرقةً برأسِها، تفلّي الترابَ بعودٍ في يدِهَا، فدَنَا منها، فرفعَتْ رأسها إليه، وقالتْ له: أينَ كنتَ يا جلبرت؟

قالَ: فتّشْتُ عن سوزان في كلّ مكانٍ، فلم أجِدْهَا.

فألقَتْ عليهِ نظرةً مملوءةً حزنًا ودموعًا وقالت: خيرٌ لكَ، يا بنيّ، ألّا تنتظِرَها بعدَ اليوم.

فانتفَضَ انتفاضةً شديدةً وقال: لماذا؟

قالت: قد دخلَتْ عليّ الساعةَ جارتُنَا فلانةٌ، فحدَّثَتْنِي أنّها ما زالتْ تَرَاها منذُ ليالِيَ تختلفُ إلى البحيرةِ للاجتماع على ضفافِهَا بفتًى حضريٍّ غريبٍ عن هذه المدَرَةِ[1]، أحسبُهُ المركيز «جوستاف روستان» صاحبَ هذه المزارعِ التي تلينَا والقصرِ الأحمرِ الذي يليَها، وقالتْ لي: إنّها رأتها ليلةَ أمسِ بعد منتصفِ الليلِ راكبةً وراءَه على فرسٍ أشهبَ، يعدو بها في طريقِ القصرِ الأحمرِ، ولا بدّ أنّها فرّتْ معه.

فصرَخَ جلبرت صرخةً جادَتْ لها نفسُهُ أو كادَتْ، وخرّ في مكانِهِ صعقًا[2].

فلم تزلْ أمّه جاثيةً بجانبِهِ الليلَ كلَّه تبكي عليهِ مرّة، وتمسحُ جبينَه بالماءِ أخرى، حتّى استفاقَ في مطلع الفجرِ. فنظَرَ حولَهُ نظرةً حائرةً فرأى أمّه مكبّةً على وجهِهَا تبكي وتنتحبُ.

فذكَرَ كلَّ ذلكَ فأطرقَ هنيهة، ثمّ رفَعَ رأسَهُ ووضَعَ يده على عاتِقِهَا وسألها: ما بكاؤُكِ يا أمّاه؟

قالت: أبكي عليكَ، يا بنيّ، وعليها.

قال: إنْ كنتِ باكيةً فابكِ على غيري، أما أنا فلَسْتُ بحزينٍ، ولا باكٍ، فقد كنتُ أحبَبْتُ هذه الفتاةَ لأنّها تحبّني، وقد استحالَ قلبي الآن إلى صخرةٍ عاتيةٍ لا ينالُ منها شيءٌ، فلا رجعةَ لي إليها بعدَ اليوم. ثمّ مسَحَ عن خدّه آخرَ دمعةٍ كانتْ تنحدر فيه، وقامَ إلى بقرتِهِ فأخذَ بزمَامِهَا، ومضى بها إلى المزرعةِ وَحْدَه.

---

(١) المدَرَة: القرية والبيت. (٢) صعقًا: مغشيًّا عليه.

لقد كذّبتِ المسكينَ نفسُهُ، فإنّه ما سلا سوزانَ، ولا هَدَأتْ عن قلبِهِ لوعَةُ حُبِّها، ولكنّها الغضبةُ التي يغضبُهَا المحبّ المهجورُ تُخَيِّلُ إليه أنّه قد نَفَضَ يَدَه من المحبّ أشدّ ما يكونُ به عالقًا.

فإنّه ما إنْ وصلَ إلى المزرعةِ وأرسَلَ سائمَتَهُ[1] في مرعَاهَا حتّى رأى كوكبَ الشمسِ يتناهَضُ من مطلعِهِ قليلًا قليلًا، ويرسلُ أشعّتَه الياقوتيّةَ الحمراءَ على هذا الكائناتِ، فتنيرُ ظلامَهَا، وتجلو صفحَتَها، وتترقرقُ ما بين خَضْرَائِهَا وغبرائِهَا.

فأعجبَهُ منظرُ هذه الطبيعةِ المتلألئةِ بين يدي هذا الكوكبِ المنيرِ، ودارَ بنظرِهِ في الفضاءِ من مشرقِهِ إلى مغربِهِ، فلمحَ في الأفقِ الغربيّ بارقًا يخطفُ البصَرَ بلألائِهِ، فخُيِّلَ إليه أنَّ المغربَ قد أطلعَ في أفقِهِ شمسًا كتلكَ التي أطلعَهَا المشرقُ حتّى تبيّنَه، فإذا هو لوحٌ كبيرٌ من الزجاجِ أصفرُ مستديرٌ، تعابثُهُ أشعّةُ الشمسِ فيما تعابثُ من الكائناتِ، فيلتَمِعُ التماعًا شديدًا، فاستردّ بصَرَه إليه سريعًا ووضَعَ يده على يسرى أضالِعِهِ كأنّما يحولُ بينَ قلبِهِ وبينَ الفرارِ، لأنّه عَلِمَ أن ذلكَ اللوحَ الزجاجيّ الأصفرَ إنّما يلوحُ في برجٍ من أبراجِ القصرِ الأحمرِ.

هنا عَلِمَ أنّ نفسَه قد كذبتْهُ فيما حدّثَتْهُ، وأنّ تلكَ البارِقَةَ التي كانتْ تضيءُ ما بينَ جنبيه من الحبّ قد استحالتْ إلى جذوةِ نارٍ مشتعلةٍ تقضُمُ فؤادَه قضمًا، وتمشي في نفسِه مَشْيَ الموتِ في الحياةِ. فأطلق لعَبْرَتِهِ سبيلَها، وأنشأَ يئنّ أنينًا محزنًا تردّدهُ الرياحُ في جوّها، والأمواجُ في بحرِها، والأعشابُ في مغارسِهَا، والسائمةُ في مرابضِها، حتّى سمعَ أصواتَ الرعاةِ وضوضاءَ السائمةِ، فكَفْكَفَ عبراتِهِ، وأسلم رأسَه إلى ركبتيهِ، وذهبَ مع همومِهِ وأحزانِهِ إلى حيثُ شاءَ اللهُ أن تذهب.

هكذا لم ينتفعِ المسكينُ بنفسهِ بعدَ اليوم، فقد ذَهَبَ من الحزنِ إلى أَبْعَدِ مذاهبِهِ حتّى نالَ منه ما لم يَنَلْ كرَّ الغداةِ ومرَّ العشيِّ. فأصبحَ من يراهُ في طريقه يرى رجلًا بائسًا منكُوبًا مشرّدَ العقلِ، مشتركَ اللبِّ، مذهوبًا به كلَّ مذهبٍ، يهيمُ على وجهِهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ بين الغاباتِ والحرجاتِ، وفوق ضفافِ الأنهارِ، وتحتَ مشارفِ الجبالِ، يأنَسُ بالوحوشِ أُنْسَ العشير بعشيره، ويفرّ من الناسِ إنْ دَنَوْا منهُ فرارَ الإنسانِ من الوحشِ، ويَرِدُ المناهلَ مع الظباءِ واليعافيرِ[2] ثمّ يَصْدُرَ إذا صَدَرَتْ معها.

وربّما ترامى به السيرُ أحيانًا إلى أفنيةِ القصرِ الأحمرِ من حيثُ لا يشعرُ، فإذا رأى أبراجَه بين يديهِ ذُعِرَ ذعرًا شديدًا وصاحَ صيحةً عظيمةً، و انكفأَ راجعًا إلى قريتِهِ لا يلوي على شيءٍ، وكثيرًا ما قَضَتْ أمّهُ النهارَ كلَّه حاملةً على يدِهَا الطعامَ تفتّشُ عنهُ في كلّ مكانٍ، حتّى تراهُ ملقًى بينَ الأحجار على ضفّةِ نهرٍ، أو في سفحِ جبلٍ فتضَعُ الطعامَ بين يديهِ من حيثُ لا يشعُرُ بمكانها، ثمّ ترفَعُ يديها إلى السماءِ ضارعةً متخشّعةً، تسألُ الله بدموعِهَا، وزفراتِهَا أنْ يردّ إليها وحيدَها، ثمّ تعودُ أدراجَهَا.

* * *

---

(١) السائمة: الماشية تُترك وحدها في المرعى. (٢) اليعافير: جمع اليعفور، وهو الغزال.

مضى اللّيلُ إلّا أقلَّهُ وسوزان جالسةٌ إلى نافذةِ قصرِهَا المشرفةِ على النهرِ، تلتفِتُ إلى سريرِ ابنَتِها مرّةً، وتقلّبُ وجهَهَا في السماءِ أخرى، وكانَ القمرُ في ليلةِ تمّهِ، فظلّتْ تناجيهِ وتقول:

أيّها القَمَرُ الساري في كبدِ السماءِ، ها أنذا أراكَ في ليلةِ تمّكَ وحدي للمرّةِ الرابعةِ والعشرينَ، فهَلْ يعودُ إليّ خطيبي «جوستاف» فينظُرُ إليكَ معي كما كانَ يفعلُ من قبل؟

لقد كنتَ لي أيّها الكوكبُ المنيرُ، نِعْمَ المعين في ليالِيّ الموحشة على همومي وأحزاني، فهل تستطيعُ أنْ تحدّثني عن «جوستاف» أينَ مكانُهُ ومتى يعود؟ وهل نلتقي قريبًا، فَتَتِمَّ بذلكَ يدُكَ عندي؟

حدّثني عنه.. هل يذكُرُني كما أذكُرُه؟ وهل يحفَظُ عهدِي كَمَا أحفظُ عهده؟ وهل يجلسُ إليكَ حينًا، فيسائِلُكَ عنّي كما أسأَلُكَ عنه؟ فإنْ فَعَلَ، فقل له: إنّ ابْنَتَهُ جميلةٌ جدًّا جمالَ الابتسامةِ الحائرةِ في فَمِ الحسناءِ، وبيضاءُ بياضَ القطرةِ الصافيةِ في الزنبقةِ الناصعةِ تحتَ الأشعّةِ الساطعة. وقل له: إنّها لا تهتفُ باسمٍ غيرِ اسمِهِ، ولا تبتسِمُ لرسمٍ غيرِ رسمِهِ، وإنّه إنْ رآها أغنَتْهُ رؤيتُهَا عن المرآةِ المجلوّةِ، لأنّه يرى صورَتَهُ في وجهِهَا كما تتشابَهُ الدميتانِ المصبوبتانِ في قالبٍ واحد.

ولم تَزَلْ تناجِي القمرَ بمثلِ هذا النجاءِ، حتّى رأتْهُ ينحدرُ إلى مغربِهِ فودّعَتْهُ وداعًا جميلًا، وقالت: إلى الغدِ يا صديقي العزيز... ثمّ قامَتْ إلى سريرِ ابنَتِهَا، فحَنَتْ عليها برفقٍ، وقبّلَتْهَا في جبينِهَا قبلةَ المساء، وذهبَتْ إلى مضجعِهَا. وما هو إلّا أن عبثَتْ بجفنِهَا السِنَةُ[1] الأولى من النوم، حتّى أسلَمَتْهَا أحلامُهَا إلى أمانيّها وآمالِها. فرأتْ كأنّ «جوستاف» قد عَادَ من سفره، فاستقبَلَتْهُ هي وابنَتُها على بابِ القصرِ، فنزلَ من مَرْكبتِهِ وضمّهما معًا إلى صدرِه ضمًّا شديدًا، وظلَّ يقبّلُهما ويبكي فرحًا وسرورًا.

فإنّها لمستغرِقَةٌ في حُلمِهَا هذا إذ شعرتْ بيدٍ تحرّكُها، فانتَبَهَتْ فإذا صَدْرُ النهارِ قد علا، وإذا خادِمَتُهَا واقفةٌ على رأسِهَا ضاحكةٌ متطلّقةٌ، تقول لها: بشراكِ يا سيّدتي، فقد حَضَر سيّدي. فاستطيرتْ فرحًا وسرورًا وقالت: أحمَدُكَ اللّهُمَّ، فقد صَدَقَتْ أحلامي. وأسرعَتْ إلى غرفةِ ملابسِهَا، فبدّلَتْ أثوابَها، ثمّ دخلتْ عليه في غرفَتِهِ باسمةً متهلّلةً، تحملُ ابنَتَهَا على يدِها، فرأتْهُ واقفًا في وسطِ الغرفةِ متّكئًا على كرسيٍّ بين يديهِ، فهرعَتْ إليه، ولكنّها ما دَنَتْ منه، حتّى تراجَعَتْ حائرةً مدهوشةً، لأنّها رأتْ أمامَهَا رجلًا لا تعرفُه، ولا عَهْدَ لها به من قَبْلُ، لا بَلْ هو بعينِهِ، ولكنّهَا رأتْ وجهًا صامتًا متحجّرًا، لا تلمعُ فيه بارقةُ ابتسامٍ، ولا تجري فيه نظرةُ بشاشةٍ، فأنكَرَتْهُ.

إلّا أنّها تماسكَتْ قليلًا ومدّتْ إليه يدَهَا، تحيّيهِ، فمدّ إليها يدَهُ بتثاقُلٍ وفتورٍ كأنّما ينقُلُها من مكانِها نقلًا، ولم يُلْقِ على وجهِ الطفلةِ، وكانتْ تبتسمُ إليه وتمدّ نحوَه ذراعيها، نظرةً واحدةً.

وكانتْ أوّل كلمةٍ قالها لها: أباقيةٌ أنتِ في القصرِ حتّى اليوم؟

---

(١) السِنة: النعاس.

فازدادَتْ دهشةً وحيرةً، ولم تَفْهَمْ ماذا يريدُ وقالتْ له: وأينَ كنتَ تريدُ أن تراني، يا سيّدي؟

قال: في هذا القصرِ، كما تركْتُكِ ولكنّي أظنُّ أنّكِ لا تستطيعينَ البقاءَ فيهِ بعدَ اليوم.

قالت: لماذا؟

قال: لأن زوجَتي قادمةٌ إليهِ اليومَ، وربّما كانتْ لا تحبُّ أن تَرَى فيه من يُزْعِجُهَا وجودُه.

هنالِكَ شعرتْ أنّ جميعَ ما كانْ ينبعِثُ في عروقِهَا من الدم قد تراجَعَ كلّه دفعةً واحدةً إلى قلبِهَا، فأصبَحَ وَحْدَهُ الواجِبَ[1] الخفّاقَ، من دونِ أعضَائِهَا وأَوصَالِهَا جميعًا، ولكنّ المصيبةَ إذا عَظُمَتْ، خَلَتْ عَنِ البكاءِ والأنينِ.

فلم تَصِحْ ولم تَضطربْ، بل نظرتْ إليهِ نظرةً طويلةً هادئةً، ثمَّ التفَتَتْ إلى ابنَتِهَا وقالت له: وما تَرَى في ابنَتِكَ هذه؟

قال: ليسَ لي ابنةٌ أيّتُها السيّدةُ، ولا وَلَدَ لي، لأنّي لم أتزوّح إلّا منذُ ثلاثةِ أيّام. فخذي ابنَتَكِ مَعَكِ، وعِيشِي معها حيثُ تشائينَ، وقد تركْتُ لكِ هذا الكيسَ على المنضدةِ، فخُذِيه واستعيني به على عيشِك. وتَرَكَهَا ومَضَى.

لم تُلْقِ على المنضدةِ نظرةً واحدةً، ومشَتْ تتحامَلُ على نفسِها حتّى وصَلَتْ إلى غرفَتِها، وهنالكَ انفجرتْ باكيةً، وقالت: واسَوْءَتَاه! إنّه يعطِيني ثمنَ عِرْضِي.

وسقطَتْ مغشيًّا عليها، فلم تستَفِقْ حتّى أظلّها الليلُ. ففتحَتْ عينَيها، فإذا ابنَتُها تبكي بين ذراعيِ الخادِمَةِ، وإذا الخادِمَةُ تبكي لبُكَائِها، فضمّتْهَا إلى صدرِهَا ساعةً، ثمّ قامتْ إلى غرفةِ ملابسِهَا، وأخذتْ تفتّشُ عن أثوابِها القرويّة التي دَخَلتْ بها إلى القصرِ منذُ ثلاثةِ أعوامٍ، وكانتْ تخفِيها عن أعينِ الناسِ حياءً وخجلًا.

فَخَلَعَتْ أثوابَها ولبسَتْهَا، ولم تُبْقِ في معصميها ولا في جيدها لؤلؤةً و لا ماسةً، إلّا ألقتْ بها تحتَ قدَمَيْهَا، واحتمَلَتْ طفلَتَهَا وخرجَتْ تحتَ ستارِ الليلِ تترنّحُ في مشيتِهَا كأنّما تمشي على رملةٍ ميثاء[2].

وما جاوزتْ عتبةَ البابِ، ووصلَتْ إلى الموضعِ الذي كانَتْ واقفةً فيه في حُلْمِهَا هي وابنَتُها منذُ ساعاتٍ تنتظِرُ خطيبَها حتّى لَمَحَتْ على البعدِ مركبةً فخمةً مقبلةً على القصرِ تحملُ المركيز وامرأةً بجانبه! فأغمضَتْ عينَيْهَا وتسلّلَتْ تحتَ جدارِ القصرِ، ومضَتْ في سبيلها.

* * *

لا يعلمُ إلّا اللهُ ما كانتْ تحملُ هذه الفتاةُ المسكينةُ بين جنَبَيْهَا في تلكَ الساعةِ من همومٍ وأحزانٍ، فقد خرجَتْ مطرودةً من القصرِ الذي كانتْ تظُنُّ منذُ ساعاتٍ أنّها صاحبَتُه، وتولّى طردَهَا من كانَتْ تزعَمُ في نفسِها أنّها أحَبُّ الناسِ إليه، وآثرَهُم عندَه، واستحالتْ في ساعةٍ واحدةٍ من فتاةٍ شريفةٍ ذاتِ خطيبٍ شريفٍ، إلى امرأةٍ عاهرةٍ ذاتِ ولدٍ مريبٍ، وأصبحَ مستحيلًا

---

(١) وجب القلب: خفق.

(٢) الميثاء: الليّنة.

عليها أن تعودَ إلى بيتِهَا القديم بعَارِها، فترى وَجْهَ ذَيْنِكَ الشخصينِ اللذينِ أحسنَا إليها كثيرًا وأحبّاها حبًّا جمًّا، فأساءَتْ إليهما، وغَدَرَتْ بهما، فقد سُدّتْ دونَها السبلُ، وأظلَمَ ما بينها وبينَ العالم بأجمعِهِ، فما من رحمةٍ لها في الأرضِ، ولا في السماء.

ذلكَ ما كانتْ تحدّثُ نفسَها به، وهي سائرةٌ تحتَ سوارِ القصرِ سيرَ الذاهلِ المشدوهِ لا تعرفُ لها مذهبًا ولا مضطربًا، حتّى رأتْ رأسَ ابنَتِها يميلُ به الكرى(١)، فمشتْ إلى ربوةٍ عاليةٍ على ضفَّةِ النهرِ الجاري على مقربةٍ من القصرِ فأَضْجَعَتْهَا فوقَ عشبِهَا، وأسبَلَتْ عليها رداءَها، وجَلَسَتْ بجانِبِهَا تفكّرُ في مصيرِها.

فإنّها لجالِسَةٌ مجلسَهَا هذا، وقد سَكَنَ الليلُ، وسكَنَ كلُّ شيءٍ فيه إلّا ضوءُ القمرِالمنبعثِ في أجوازِ الفضاءِ، ونسماتُ الهواءِ المترقرقةُ على صفحاتِ الماءِ، إذ شعرتْ كأنّها تسمَعُ بالقربِ منها هاتفًا يهتفُ باسمِهَا بصوتٍ ضعيفٍ، فالتفَتَتْ حيثُ سمعتِ الصوتَ، فإذا شبحٌ أسودُ ممتدٌّ بين صخرتينِ على ضفّةِ النهرِ، كأنّه إنسانٌ نائمٌ، فارتاعتْ وفزعت، ثمّ سمعتِ الصوتَ يتكرّرُ بنغمةٍ واحدةٍ.

فأهمَّهَا الأمرُ، ونهضَتْ من مكانِهَا، وأخذتْ تدنو من الشبحِ رويدًا رويدًا حتّى دانَتْهُ، فإذا هو إنسانٌ في زيّ المساكينِ مستلْقٍ على ظهرِهِ، شاخصٌ ببصرِهِ إلى جدارِ القصرِ، فذهبتْ بنظرِهَا حيثُ يذهبُ، فإذا عينُهُ عالقةٌ بنافذَةِ غرفَتِهَا التي كانتْ تجلسُ إليها كلّ ليلةٍ.

فعجبتْ لذلكَ كلَّ العجبِ، وخفقَ قلبُهَا خفقًا متداركًا، ورأتْهُ يضمّ إلى صدرِه هنةً بيضاءَ أشبهُ بالرقعةِ ضمًّا شديدًا، فأكَبَّتْ عليهِ، لتتبيّنه، وترى ما يضمّ إلى صدرِه، فإذا الرقعةُ رسمُهَا، وإذا هو «جلبرت» يجودُ بنفسِه، ويردّدُ بصوتٍ خافتٍ متغلغِلٍ كأنّه أصواتُ المعذّبين في أعماقِ القبور: الوداعُ يا سوزان!! الوداعُ يا سوزان!

ففهمتْ كلّ شيءٍ، فصرخَتْ صرخةً عُظْمَى، دوّى بها الفضاءُ، وقالت: آه.. لقد قَتَلْتُكَ يا ابنَ عمّي.

ثمّ سقَطَتْ على يدِه تقبّلُها وتبلّلُها بدموعِها وتقول: ها أنذا يا «جلبرت» جاثيةٌ تحتَ قدميكَ، فارحَمْني، واغفِرْ لي ذنبي، فقدْ أصبحتُ امرأةً بائسةً شقيّةً ليسَ على وجهِ الأرضِ من هو أحقُّ بالرحمةِ منّي.

وكأنّما أحسّ بنغمةِ صوتِها، فارتَعَدَ قليلًا، ثمّ مالَ بنظرِه نحوها حتّى رآها، فسقَطَتْ من جفنِهِ دمعةٌ حارّةٌ على يدِهَا، كانتْ آخرَ عهدِه بالحياةِ وقضى.

ولما دَنَا منّي السّياقُ(٢) تَعَرّضَتْ ... إليَّ ودوني مِنْ تَعَرُّضِهَا شُغْلُ
أَتَتْ وحِيَاضُ المَوْتِ بيني وبينَهَا ... وجَادَتْ بوصلٍ حينَ لا ينفَعُ الوَصْلُ

* * *

(١) الكرى: النعاس.
(٢) السياق: نزع الروح.

جثتْ سوزان بجانبِ جثّةِ جلبرت ساعةً، قَضَتْ فيها ما يجبُ عليها لابن عمّها، وخطيبها، وعشيرِها الذي أحبّها حبًّا لم يحبّه أحدٌ من قبلِهِ أحدًا، حتّى ماتَ حسرةً عليها، ثمّ استفاقَتْ، فذَكَرَتْ ابنتَهَا، وأنّها تركَتْهَا على تلكَ الربوةِ نائمةً وحدَهَا، فعادتْ إليها مسرعةً، وقد قرّرَتْ في نفسها أمرًا.

* * *

لا أعرفُ أحدًا من الناسِ أوصيهِ بكِ يا بنيّتي، لأنّ أباكِ أنكرَكِ، ولأنّ الرجُلَ الوحيدَ الذي كان يحبّني في هذا العالمِ، ذهبَ لسبيلِهِ، ولكنّي أعلمُ أنّ لهذا الكونِ إلهًا رحيمًا، يعلَمُ دخائِلَ القلوبِ، وسرائِرَ النفوسِ، ويرى لوعةَ الحزنِ في أفئدةِ المحزونينَ، ولاعِجَ[1] الشقاءِ بين جوانحِ الأشقياءِ. فأنا أَكِلُ أمرَكِ إليهِ، وأتركُكِ بين يديهِ، فهو أرحَمُ بكِ من جميعِ الرحماء.
لا أستطيعُ أنْ أعيشَ لكِ يا بنيّتي، فإنّ أحدًا من الناسِ لا يغتفرُ لي الذنبَ الذي أذنبتُه، حتّى الذي أغرَاني به وشارَكَني فيه؛ فأنا ذاهبةٌ إلى ذلكَ العالمِ العلويّ المملوءِ عدلًا ورحمةً، لعلّي أجدُ فيه من يغفُر لي ذنبي إنْ كنتُ بريئةً، ويرحمُني إنْ كنتُ مذنبةً.
لا أحبُّ أنْ تكونَ حياتي، يا بنيّةُ، شؤمًا على حياتِك، ولا أنْ يأخُذَكِ الناسُ بذنبي، كلّما رأوكِ بجانبي. فأنا أتركُكِ وحدَكِ في هذا المكانِ لعلّ راحمًا من الناسِ يمرّ بكِ، فيعطفُ عليكِ، ويضمّكِ إليه من حيثُ لا يَعْلَمُ شيئًا من أمرِكِ، فتعيشينَ في بيتِه سعيدةً هانئةً، لا تعرفينَ أبَاكِ، فيخجلُكِ مرآه، ولا أمَّكِ، فتؤلمُكِ ذكراها.
اللّهمَّ إنْ كنتَ تعلَمُ أنّ هذه الطفلةَ ضعيفةٌ عاجزةٌ تحتاجُ إلى من يرحَمْهَا ويكفَلُ أمرَهَا، وأنّني قد أصبحتُ عاجزةً عن البقاءِ بجانبِهَا أرعَاهَا وأحنو عليها، وأنّها بريئةٌ طاهرةٌ لا يدَ لها في الذي أذنَبَهُ أبواها، فارْحَمْهَا وأَسْبِلْ[2] عليها سِتْر معروفِكَ وإحسانِكَ وَهَيِّئْ لها صدرًا حنونًا، ومهدًا ليّنًا، وعيشًا رغيدًا.
ثمّ بدأتْ تسرّ ثيابها عن جسمِها وتغطّي بها جسمَ ابنتِهَا وقايةً لها من بَرْدِ الليلِ، حتّى لم يَبْقَ على جسدِهَا إلّا قميصٌ واحدٌ، تركَتْه ليكونَ سترًا لعورَتِها عندَ انتشالِ جثّتِها، ثمّ حَنَتْ على الطفلةِ برفقٍ، فلثَمَتْهَا في جبينِهَا لثمةً أودَعَتْهَا كلَّ ما في صدرِهَا من حبّ، ورحمةٍ، ورفقٍ، وحنانٍ، ثمّ هتفت قائلة: الوداعُ يا ماري، سنلتقي عمّا قليلٍ يا جلبرت: المغفرةُ يا كاترين. وألقَتْ بنفسِهَا في الماء.

* * *

قَضَى المركيز الليلةَ الأولى من ليالي شهرِ العسلِ مع عروسِهِ في شرفةِ القصرِ يسمرَانِ ويتناجَيانِ، ويذهبانِ بنظرِهما حيثُ تذهبُ خضرةُ الأرضِ، وتمتدُّ زرقةُ السماءِ، وتطردُ مياه النهرِ، ويتقلّبان بين سعادةٍ حاضرةٍ وأخرى مرجوّةٍ، ويرشفانِ من كلّ كأسٍ من تلكَ الكؤوسِ

---

(١) اللاعج: المحرق. (٢) أسبل: مدّ.

رشفةً تكثّرًا بما عندهما منها حتّى ثَمِلا، واستغرَقَا وأصبَحَا لا يشعرانِ بشيءٍ ممّا حولَهُما، فلم يستفِيقَا حتّى سمعَا دويّ الريحِ في أبراجِ القصرِ، وفي ذوائبِ الأشجارِ؛ فعلما أنّها الزوبعةُ، فنَهَضَا من مكانهما ليذهَبَا إلى مضجعِهما.

فإنّهما لواقفانِ موقفَهُما هذا إذْ لمحتِ المركيزةُ في وجهِ المركيز دهشةً واضطرابًا، ورأتْهُ يلتفِتُ التفاتًا شديدًا كأنّما يتسمّعُ لصوتِ غريبٍ، فسألَتْهُ ما بالُهُ، فلم يُجِبْهَا. وأطلَّ من الشرفةِ على النهرِ، فرأى كما رأتْ على نورِ القمرِ طفلةً واقفةً على الضفّةِ تصيحُ وتعولُ، وتشيرُ بيدها نحو الماء وتقول: أمّاه! فنظرا حيثُ تشيرُ فإذا امرأةٌ عاريةٌ إلّا قليلًا تتخبّطُ في لُجَجِ الماءِ تَخَبُّطَ الغرقَى.

فتركَ المركيزُ مكانَه ونزلَ يعدو إلى النهرِ، وهو يقول: والهفتاه إنْ كانتْ هي. وصاحَ بخَدَمِهِ أن يتبَعُوه ففعلوا، حتّى بلغَ موقفَ الطفلةِ فعرفَ أنّها ابنتُه، وأنّ الغريقَة سوزان، فأَظْلَمَ الفضاءُ في عَيْنَيهِ، وأشارَ إلى أحدِ خدمِهِ أن يعودَ بالطفلةِ إلى القصر، وأمرَ الباقين أن يسبحُوا وراءَ الغريقةِ، ثمّ سقطَ في مكانِهِ واهنًا[1] متهالكًا، وكان قد اجتمعَ على الضفّةِ خَلْقٌ كثيرٌ من الفلاحينَ رجالًا ونساءً، فسبح بعضُهُم وراءَ السابحينَ، ووقفَ الباقونَ حولَ المركيز ينتظرونَ رحمةَ اللهِ وإحسانه.

انتشر السابحونَ في كلّ مكانٍ، ومشتْ وراءَهم عيونُ الناظرينَ، وقلوبهُم، فقامَت بينَهُمْ وبينَ الأمواجِ المتلاطمة معركةٌ هائلةٌ كانوا يظفرونَ فيها مرّةً ويتراجعونَ أخرى، وكانوا إذا لاحَ لهم على البُعدِ قميصُ الغريقةِ أو شعرُهَا عَظُمَ عندَهُم الأملُ، فاندفعوا وراءَها مستبسلينَ مستقتِلِينَ، يغالبونَ جبالَ الأمواجِ المعترضةِ في طريقهم، حتّى إذا دَنَوا من المكانِ الذي لمحوها فيه لا يجدونَ أمامَهُم شيئًا، ثمّ لا يلبثُ الموجُ أن يكرّ عليهم، فيدفَعُهُم إلى الضفّةِ كما كانوا.

وما زالتِ الفتراتُ بين ظهورِ الغريقةِ واختفائِها تتّسِعُ شيئًا فشيئًا، حتّى غابت عن الأعينِ ولم تظهَرْ؛ فهبطَ السابحونَ وراءَها، ولبثوا ساعةً يرسبونَ ويطفونَ، ثمّ ظهروا على وجهِ الماءِ يحملُونها على أيديهم، ولا يعلَمُ الناسُ أحيّةٌ أم ميّتة؟ وما زالوا يسبحونَ بها، وأصواتُ الدعاءِ لها والبكاءِ عليها ترنّ بين الضفتين، فتردّدُ رنينَها آفاقُ السماءِ، حتّى وصلوا بها إلى الضفّةِ، فألقوها على الأرضِ فإذا هي ميتة.

وما هي إلّا ساعةٌ أو بعضَ ساعةٍ حتى كانتِ الضفّة مأتمًا قائمًا يبكي فيه النساءُ على الشهيدةِ والرجالُ على الشهيد.

* * *

لم ينتَفِعِ المركيزُ بنفسه بعدَ هذا اليوم كما لم ينتفِعْ جلبرت بنفسِه من قبل، فقد مرضت ابنتُهُ على أثرِ تلكَ الحادثةِ مرضًا شديدًا. فلم تلبثْ أنْ لحقتْ بأمّها بعدَ ثلاثِ ليالٍ. واستحال الحبّ الذي كانتْ تضمرُه له زوجَتُه إلى بغضٍ واحتقار؛ فهجرَتْهُ وسافرت إلى «نيس»، ولزِمَهُ

(١) واهنًا: من الوهن أي التعب.

خيالُ ذلكَ المنظرِ الذي رآه من شرفةِ القصرِ ليلة الغرقِ لا يفارقُه ليلَه ونهارَه.

فكانَ كلّما مشى في طريقٍ توهّمَ أنّ أمامَه نهرًا هائجًا، تتخبّطُ سوزانُ في لجّتِه، وتصيحُ ماري على ضفّته، فيصرخُ قائلًا: لبيكِ يا سوزان. ويندفعُ إلى الأمامِ كأنّما يريدُ أن يلقيَ بنفسِه في النهر الذي توهّمه لينجّي الغريقةَ التي تخيّلَها، فينأى عنهُ المنظرُ، كلّما دنا منهُ، حتّى ينالَ منه التعبُ، فيسقطُ حسيرًا[1] طريحًا.

وكانَ يهيمُ على وجهِهِ أحيانًا حتّى يصلَ إلى ضاحيةِ قريةِ «ليني»، فيرى أمرأةً عجوزًا مكبّةً على قبرٍ بين يَدَيْهَا تبكي وتنتحبُ، فيعلَمُ أنها كاترين، وأنّ القَبر قبرُ قَتلاه، فيتراجعُ خائفًا مذعورًا، ويصرخُ قائلًا: الرحمةَ الرحمةَ! العفوَ العفو!

وكثيرًا ما كانَ يراهُ نساءُ الفلّاحينَ ساقطًا في بعضِ الأماكنِ التي كنّ يرينَ فيها جلبرت، فيقلن: لقد انتَقَمَ الله للشهيدِ المسكينِ، والشهيدةِ المظلومةِ، وكانَ منظرُ الماءِ يهيجُهُ أكثرَ من كلّ منظرٍ سواه، فإذا رآهُ ثارَ، واضطربَ، وتهافَتَ عليه يريدُ اقتحامه، لولا أن يتدَارَكَه من يراهُ من المارّة.

ولم يزلْ هذا شأنَه حتّى رأى الناسُ جثّتَهُ في صباحِ يومٍ من الأيّامِ طافيةً على وجهِ النهرِ في المكانِ الذي غرقَتْ فيه سوزان؛ فعلموا أنّها نهايةُ الجزاء.

* * *

مرّت على هذهِ الحادثةِ أعوامٌ طوالٌ، ولا يزالُ عجائزُ قريةِ «ليني» والقرى المحيطةِ بها يحفَظْنَهَا حتّى اليومِ ويبكينَ كلّما ذَكَرْنَها، ويروينَهَا لبناتهنَّ وحفيداتهنّ عِبْرةً يعتبرنَ بها، كلّما طافَ بهنّ طائفٌ منَ شرورِ الرجال.



العقاب

«موضوعة»[2]

رأيتُ فيما يرى النائمُ في ليلةٍ من ليالي الصيفِ الماضي كأنّي هَبَطْتُ مدينةً كبرى لا عِلْمَ لي باسمِهَا، ولا بموقِعها من البلادِ، ولا بالعصرِ الذي يعيشُ أهلُهَا فيه، فمشيتُ في طُرُقِهَا بضعَ ساعاتٍ، فرأيتُ أجناسًا من البشرِ لا عدادَ لهم، ينطقونَ بأنواعٍ من اللغاتِ لا حَصْرَ لها، فخُيِّلَ إليّ أنّ الدنيا قد استحالت إلى مدينةٍ، وأن الذي أراهُ بين يديّ إنّما هو العالمُ بأجمعِهِ من أدناهُ إلى أقصاهُ.

فلم أزلْ أتنقّلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، وأداولُ بين الحركةِ والسكونِ، حتّى انتهى بي المسيرُ إلى بُنْيَةٍ عظيمةٍ، لم أرَ بين البُنَى أعظمَ منها شأنًا، ولا أهولَ منظرًا، وقد ازدحَمَ على بابها

---

(١) الحسير: المتلهّف.

(٢) هذه القصة شبيهة بقصّة أمريكية اسمها: صراخ القبور.

خَلْقٌ كثيرٌ من الناسِ، ومشى في أفنِيَتِهَا وأبهائِها[1] طوائفُ من الجندِ، يخطرونَ بسيوفِهِم، وحمائِلِم جيئةً وذهوبًا. فسألتُ بعض الواقفين: ما هذه البُنْيَةُ؟ وما هذا الجمعُ المحتشدُ على بابها؟ فعلمتُ أنّها قصرُ الأميرِ، وأنّ اليومَ يومُ القضاءِ بين الناسِ، والفصلِ في خصوماتِهِم.

وما هي إلّا ساعةٌ حتّى نادى منادٍ في الناس، أنْ قدِ اجتمعَ مجلسُ القضاءِ فاشهَدُوه. فدخَلَ الناسُ، ودخلتُ على أثرِهِم، وجلستُ حيثُ انتهى بي المجلسُ، فرأيتُ الأميرَ جالسًا على كرسيٍّ من الذهبِ، يتلألأُ في وسطِ الفناءِ تلألُؤَ الشمسِ في دارَتِها، وقد جَلَسَ على يمينِهِ رجلٌ يلبسُ مسوحًا[2]، وعلى يسارِهِ آخرُ يلبسُ طيلسانًا[3]، فسألتُ عنهما، فعرفتُ أنّ الذي على يمينِهِ كاهنُ الديرِ، وأنّ الذي على يسارِهِ قاضي المدينةِ، ورأيتُه ينظرُ في ورقةٍ بيضاءَ بين يديهِ، فأكبَّ عليها ساعةً، ثمّ رفَعَ رأسَه وقال: لِيُؤتَ بالمجرمين.

ففتِحَ بابُ السجنِ، وكانَ على يسارِ الفناءِ، فتكشّفَ عن مثلِ خَلْقِ الليثِ منظرًا وزئيرًا، وخرج منه الأعوان، يقتادون شيخًا هرِمًا تكادُ تُسْلِمُهُ قوائمُهُ ضعفًا ووهنًا.

فسألَ الأمير: ما جريمتُه؟

فقالَ الكاهنُ: إنّه لصٌّ دخلَ الديرَ، فسرقَ منه غرارةً[4] من غرائِرِ الدقيقِ المحبوسةِ على الفقراءِ والمساكين.

فضجّ الناسُ ضجيجًا عاليًا وصاحوا: ويلٌ للمجرمِ الأثيم! أيسرقُ مالَ الله في بيتِ الله؟!

ثمّ نودي بالشهود، فشهدَ عليه رهبانُ الدينِ.

فتَسَارَّ[5] الأميرُ مع الكاهنِ هنيهةً ثمّ صاح: يقادُ المجرمُ إلى ساحةِ الموتِ، فتقطعُ يُمناه ثمّ يسراه، ثمّ بقيّةُ أطرافِهِ، ثمّ يُقْطَعُ رأسُه، ويُقَطَّعُ طعامًا للطيرِ الغادي والوحشِ الساغب[6].

فجثا الشيخُ بين يدي الأميرِ، ومدّ إليه يدَه الضعيفةَ المرتعشةَ يحاولُ أن يسترحِمَه، فضربَ الأعوانُ على فمِهِ، واحتملُوه إلى محبسه. ثمّ عادوا وبين أيديهم فتًى في الثامنةَ عشرةَ من عمرِه، أصفرُ نحيلٌ، يضطربُ بين أيديهم خوفًا وفرقًا، حتّى وقفوا به بينَ يدي الأميرِ.

فسأل: ما جريمته؟

فقال: إنّه قاتل، ذهبَ أحدُ قوّادِ الأميرِ إلى قريتِهِ لجمعِ الضرائبِ، فطالبَهُ بأداءِ ما عليهِ من المالِ، فأبى وتوقّحَ في إبائِهِ، فانتهَرَه القائدُ فاحتدَم غيظًا، وجرّدَ سيفه من غمدِه وضرَبَهُ ضربةً ذَهَبَتْ بحياته.

فصاحَ الناسُ: يا لَلفَظَاعةِ والهولِ! إنّ من يقتلُ نائبَ الأميرِ، كأنما قتلَ الأميرَ نفسَه.

---

(١) أبهاء: جمع بهو، وهو الممر الواسع

(٢) المسوح: جمع مسح بالكسر، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان.

(٣) الطيلسان: الثوب يلبسه العلماء والشيوخ.

(٤) الغرارة: كناية عن أكياس توضع فيها الغلّة.

(٥) تسارّ: تحدّث سرًّا.

(٦) الساغب: الجائع.

ثمّ جيءَ بأعوانِ القائدِ المقتولِ، فأدّوا شهادتِهم.

فأطرقَ الأمير لحظةً، ثمّ رفَعَ رأسه وقال: يقادُ المجرمُ إلى ساحةِ الموتِ، فيصلَبُ على أعوادِ شجرةٍ، ثم تُفْصَد[١] عروقُهُ كلُّها، حتّى لا يبقى في جسمِهِ قطرةٌ واحدةٌ من الدم.

فصرخَ الغلامُ صرخةً، حالَ الأعوانُ بينه وبينَ إتمامِهَا واحتملُوه إلى السجنِ.

وما لبثوا أنْ عادُوا بفتاةٍ جميلةٍ كأنّها الكوكبُ المشبوب[٢] حسنًا وبهاءً، لولا سحابةٌ غبراءُ من الحزنِ، تتدجّى فوق جبينِهَا.

فقالَ الأمير: ما جريمتُهَا؟

فقالَ القاضي: إنّها امرأةٌ زانيةٌ، دخلَ عليها رجلٌ من أهلِهَا، فوجدَهَا خاليةً بفتًى غريبٍ كانَ يحبّها، ويطمعُ في الزواجِ منها قبلَ اليوم.

فهاجَ الناسُ، واحتدَمُوا وهتفوا: القتلَ القتلَ! الرجمَ الرجمَ! إنّها الجريمةُ العظمَى والخيانةُ الكبرى.

فقال الأمير: أينَ شاهِدُها؟

فدخَلَ قريبُهَا الذي كشفَ أمرَهَا فشهدَ عليها.

فهمسَ القاضي في أذنِ الأميرِ ساعة، ثمّ قالَ الأمير: تؤخَذُ الفتاةُ إلى ساحةِ الموتِ، فترجَمُ عاريةً، حتّى لا يبقَى على لحمِهَا قطعةُ جلدٍ، ولا على عظمِهَا قطعةُ لحم.

فهلّلَ الناسُ وكبّروا إعجابًا بعدلِ الأميرِ، وحزمِهِ، وإكبارًا لسطوتِهِ، وقوّتِهِ، وهتفوا له ولكاهنِهِ وقاضيهِ بالدعاءِ. ثمّ نهضَ فنهضَ الناسُ بنهوضِهِ، ومضوا لسبيلِهِم فرحينَ مغتبطينَ. وخرجتُ على أثرهِم حزينًا مكتئبًا أفكّرُ في هذه المحاكمةِ الغريبةِ التي لم يُسْمَعْ فيها دفاع المتّهمينِ عن أنفسِهِم، ولم يشهَدْ فيها على المتّهمينَ غيرُ خصومِهِمْ، ولم تقدّرْ فيها العقوباتُ على مقدارِ الجرائم! وأَعْجَبُ للناسِ في ضعفِهِم واستخذائِهِم أمامَ القوّةِ القاهرةِ، وغلوِّهِمْ في تقديسِها وإعظامِها، وإغراقِهِم في الثّقةِ بها، والنزولِ على حكمِهَا عدلًا كان أو ظلمًا، رحمةً أو قسوةً، وأردّد في نفسي هذه الكلمات:

ليتَ شعري: ألا يوجدُ بين هذهِ الجماهيرِ لصّ، أو قاتلٌ، أو زانٍ يعلَمُ عذرَهُم، فيرحمهم، وينظرُ إلى جرائِمِهِمْ بالعينِ التي ينظرُ بها إلى جريمتِهِ، ويتمنّى لهم من الرحمةِ والمغفرةِ، ما يتمنّى لنفسِهِ، إنْ قُدِّرَ له أن يقفَ في موقفٍ مثلِ موقفِهِم، أمامَ قضاةٍ مثل قضاتِهِم؟

ألا يجوزُ أن تكونَ الزانيةُ غيرَ زانيةٍ، والقاتلُ إنّما قَتَلَ دفاعًا عن عرضِهِ أو مالِهِ، واللصُّ إنّما سرقَ ما يسدّ به جَوْعَتَه، أو جوعةَ أهلِ بيته؟

ألـم يرتكبِ الأميرُ جريـمةَ القتلِ مرّةً واحدةً في حياتِهِ، فيرحَـمَ القاتلينَ عندَ النظرِ في جرائمهم؟

---

(١) فصد العِرق: شقّه. (٢) المشبوب: المتوقّد.

ألم يسقُطْ إلى يدِ الكاهنِ يومًا من الأيّامِ دينارٌ من غيرِ حلّه، فتخفُ لوعةُ أسفِهِ على الغرارةِ المسروقةِ من ديرِهِ، ويغتفرُ هذهِ لتلك؟

ألم تزلَّ قَدَمُ القاضي مرّةً واحدةً فيما مرّ به من أيّامِ حياتِهِ، فتهدأ ثورةُ غضبِهِ على الساقطينَ والساقطات؟

من هم هؤلاءِ الجالسونَ على هذهِ المقاعدِ، يتحكّمونَ في أرواحِ العبادِ وأموالِهِمْ كما يشاؤون؟ ويقسمونَ السعودَ والنحوسَ بين البشرِ كما يريدون؟

إنّهم ليسوا بأنبياءَ معصومينَ، ولا بأملاكٍ مطهّرينَ، ولا يحملونَ في أيديهم عَهْدًا من اللهِ تعالى بالنظرِ في أمرِ عبادِهِ، وتوزيعِ حظوظِهم، وأنصبَتِهم بينهم. فبأيّ حقٍّ يجلسونَ هذه الجلسةَ على هذه الصورة؟ ومن أيّ قوّةٍ شرعيّةٍ يَسْتَمِدُّونَ هذه السلطةَ التي يستأثرونَ بها من دونِ الناسِ جميعًا؟

من هو الأميرُ؟ أليسَ هو المستبدَّ الأعظمَ في الأمّةِ، أو سلالةَ المستبدِّ الأعظم فيها الذي استطاعَ بقوّتِهِ، وقهرِه أن يتّخذَ من أعناقِ الناسِ وكواهِلِهِمْ سُلَّمًا يصعدُ عليها إلى العرشِ الذي يجلسُ عليه؟

من هو الكاهنُ؟ أليسَ هو أبرعَ الناسِ وأمهرَهُمْ في استغلالِ النفوسِ الضعيفةِ، والقلوبِ المريضة؟

من هو القاضي؟ أليسَ هو أقدرَ الناسِ على إلباسِ الحقِّ صورةَ الباطلِ والباطلِ صورةَ الحقّ؟

ومتى كانَ المستبدّونَ، واللصوصُ، والظَلَمَةُ أخيارًا صالحينَ، وأبرارًا طاهرين؟

عجيبٌ جدًّا أن يقتَلَ الرجلُ الرجلَ لغضبةٍ يَغْضَبُها لعرضِه أو شرفِهِ فيسمّى مجرمًا. فإذا قتلَ الأميرُ القاتلَ سمّي عادلًا. وأن يسرقَ السارقُ اللقمةَ، يقتاتُ بها، أو يقيتُ بها عيالَه، فيسمّى لصًّا، فإذا أمرَ القاضي بقطعِ أطرافِهِ والتمثيلِ به سمّي حازمًا. وأن تسقطَ المرأةُ سقطةً ربما ساقَتْهَا إليها خدعةٌ من خداعِ الرجالِ، أو نزعةٌ من نزعاتِ الشيطانِ، فيستنكرُ الناسُ أمرَها، ويستبشعونَ منظرَهَا. فإذا رأوها مشدودةً إلى بعضِ الأنصابِ عاريةً، تتساقَطُ عليها حجارةٌ من كلّ صوبٍ أَنِسُوا بمشهدِهَا، وأعجبَهُم موقفُهَا ومصيرها.

كما أنّ النارَ لا تطفىءُ النارَ، وشاربَ السمّ، لا يعالجُ بشربِهِ مرّة أخرى، وكما أنّ مقطوعَ اليدِ اليمنى، لا يعالجُ بقطعِ اليدِ اليسرى؛ كذلكَ لا يعالجُ الشرّ بالشرّ، ولا يمحى الشقاءُ في هذه الدنيا بالشقاء.

ولم أزلْ أحدّث نفسي بمثلِ هذا الحديثِ، حتّى أقبلَ الليلُ فمررت بساحةٍ مظلمةٍ موحشةٍ، تتطايرُ في جوّها أسرابٌ من الطيرِ غاديةً رائحةً، فاخترَقْتُهَا حتّى بلغتُ أبعدَ بقاعِها؛ فرأيتُ منظرًا هائلًا لا يزالُ أثرُه عالقًا بنفسي حتّى الساعة.

رأيتُ الشيخَ جثّةً معفّرةً بالترابِ لا رأسَ لها، ولا أطراف، ثمّ رأيتُ رأسَه وأطرافَه مبعثرةً حواليه كأنّها نوادبُ يندُبْنَهُ حاسراتٍ. ورأيتُ الفتى مشدودًا إلى شجرةٍ فرعاءَ كأنّه بعض

أغصانِها، وقد سالَ جميعُ ما في عروقِهِ من الدم حتى أصبحَ شبحًا ماثلًا، أو خيالًا ساريًا. ورأيتُ الفتاةَ كتلةً حمراءَ من اللحم، لا يستبينُ لها رأس، ولا قَدَمٌ، وقد أحاطَتْ بها أكوامٌ من الحجارةِ المخضّبةِ بدمائِهَا، ثمّ رأيتُ بجانبِ هذه الجثثِ الثلاثِ حفرةً جوفاءَ تفهق[1] بالدم، فعلمتُ أنّها مُجَمَّعُ دماءِ هؤلاءِ المساكينَ، فشعرتُ كأنّ سحابةً سوداءَ تهبطُ على عينيّ قليلًا قليلًا، حتّى غابَ عن نظري كلّ شيءٍ فسقطتُ في مكاني لا أشعرُ بشيءٍ ممّا حولي.

فلم أستفقْ حتّى مضتْ دولةٌ من الليلِ، ففتحتُ عينيّ فإذا شبحٌ أسودُ يدنو منّي رويدًا رويدًا، فارتَعْتُ لمنظرِهِ، وفزعتُ إلى ساقِ الشجرةِ، فاختبأتُ وراءَه؛ فما زالَ يتقدّمُ حتّى صارَ بجانبي، فأشعَلَ مصباحًا صغيرًا كان في يده، فتبيّنْتُه على نورِهِ، فإذا عجوزٌ شمطاءُ[2] في زيّ المساكين وسحنتِهِم، فمشتْ تتصفّحُ وجوهَ القتلى، حتّى بلغتْ مصرعَ الشيخِ، فجثتْ بجانبِهِ ساعةً تبكيهِ وتندبُه، ثمّ مَشَتْ إلى رأسِهِ وأطرافِهِ فجَمَعَتْهَا وضمّتْهَا إلى جثّته، ثمّ احتفرتْ له حفرةً تحتَ ساقِ الشجرةِ، فدَفَنَتْهُ فيها، وقامتْ على قبرِ تودّعه وتقول:

«في سبيلِ اللهِ ما لقيتَ في سبيلي وسبيلِ أحفادِكَ البؤساءِ أيّها الشهيدُ المظلوم، وفي ذمّة اللهِ، وكَنَفِهِ روحٌ طارَ عن جَسَدِكَ، وجسدٍ ضمّه قبرُكَ، فقد كنتَ خيرَ الناسِ زوجًا وأبًا، وأطهَرَهُمْ لسانًا ويدًا، وأشرفَهُمْ قلبًا ونفسًا؛ فاذهَبْ إلى ربّكَ، لتلقى جزاءَكَ عندَه، واطلبْ إليهِ الرحمةَ لجميعِ الناسِ حتّى لقاتليكَ وظَالميكَ، واسألْهُ أن يَلْحِقَنِي بكَ وشيكًا، فلا شيءَ يعزّيني عنكَ بعدَ فراقِكَ إلّا الأملُ في لقائك».

فأبكاني بكاؤُها، وأحزَنَني منظرُها، ووقعَ في نفسي أنّها صادقةٌ فيما تقولُ، وأنّ شيخَها شهيدٌ من شهداءِ القضاءِ، وأحببتُ أن أقفَ على قصّتها وقصّته، فبرزتُ من مخبئي، ومشيتُ إليها، فارتاعَتْ لمرآي عندَ النظرةِ الأولى، ثمّ سكنَتْ كأنّما ذكرَتْ أنْ لا قيمةَ لمصائبِ الحياةِ بعد مُصَابها الذي نزلَ بها، فابتدَرْتُها بقولي: لا تُرَاعَيْ، يا سيّدتي، فإنّني رجلٌ غريبٌ عن هذا البلدِ لا أعرفُ من شأنِه، ولا من شأنِ أهلِهِ شيئًا، وقد رأيتُ الساعةَ موقفَكِ على هذا القبرِ، وتفجُّعَكِ على ساكِنِهِ فرثيتُ لكِ، وبكيتُ لبكائِكِ، وتمنّيْتُ لو أفضيتِ إليّ بذاتِ نفسِك علّني أستطيعُ أن أكونَ لكِ عونًا على همّك. فاسْتَعْبَرَتْ باكيةً وأنشأت تحدّثُني وتقول:

إنّ زوجي لم يكنْ في يوم من أيامِ حياته لصًا ولا سارقًا، بل قَضَى أيّامَ شبابِهِ وكهولتِهِ عاملًا مجدًّا، لا يفترُّ ساعةً واحدةً عن السعي في طلبِ رزقِهِ ورزقِ أهلِ بيتِه، حتّى كبرَ ولدُه، وكان واحدَه، فاشتدّ به ساعدُه، واحتملَ عنه بعدما كانَ يستقلُّ بحملِهِ من الهمّ، وما هو إلّا أنْ نعمنا به وبمعونتِهِ حقبةً من الدهرِ، حتّى نزلتْ به نازلةُ الموتِ، فذهبتْ بحياتِهِ أحوجَ ما كنّا إليه، وخلّفَ وراءَه خمسةَ أولادٍ صغارٍ، لا يتجاوزُ أكبرهُم العاشرةَ من عمرِهِ، وكانتْ قد أدركَتْ أباه الشيخوخةُ، فاجتمعَ عليه همّ الكِبَرِ وهمُّ الثكلِ، فأصبحَ عاجزًا عن العملِ، لا

(١) فهق بالدم: امتلأ.
(٢) شمطاء: اختلط بياض شعرها بسواده.

يستطيعُه إلّا في الفينَةِ بعد الفينة[١].

وأصبحنا جميعًا في حالةٍ من الشقاءِ والبؤسِ، لا يعرفُ مكانَها من نفوسِنَا إلّا من ألمّ به في حياتِهِ طَرَفٌ منها، حتّى طلعتْ علينا شمسُ يوم من الأيّام، وليسَ في يَدِنا ما نقوّمُ به أصلابَ[٢] صغارِنا، ولا ما نعلّلهُم به تعليلًا، فأُسْقِطَ في يدنا، وعلِمْنَا أنّا هالكونَ جميعًا إنْ لم يتداركْنَا الله برحمةٍ من عندِهِ، فلم أرَ بدًّا من أن ألجأَ إلى الخطّةِ التي يلجأُ إليها كلّ مضطرٍّ عديم، فبرزْتُ إلى الناسِ أتعرّضُ لمعروفِهِم، وأستندي ماءَ أكُفِّهِم، فلم أجِدْ بينهم من يحسنُ إليَّ بجرعةٍ أو مضغةٍ، ولا من يدلّني على سبيل ذلكَ. وكان أكبرُ ما حالَ بيني وبينهم، وصَرَفَ وجوهَهُم عنّي أنّي لا ألبسُ مرقعةَ الشحّاذين، ولا أحملُ رَكْوَتَهم[٣].

فعدتُ إلى منزلي وبين جنبيّ من الهمّ ما اللهُ به عليمٌ، فرأيتُ الأطفالَ سُهَّدًا يتضاغُون[٤] جوعًا، ورأيتُ الشيخَ جالسًا بينهُمْ، يبلُّ تربةَ الأرضِ بدموعِهِ، ويقرعُ كفّه بكفّه لا يعلمُ ماذا يصنعُ، ولا كيفَ يحتالُ، ولو أنّ شخصَ الموتِ برزَ إليَّ في تلكَ الساعةِ لكانَ منظرُهُ أهونَ على نفسي من منظرِ هؤلاءِ الصبيةِ، وهم يحدّقونَ في وجهي عندَ دخولي، ويدورُونَ حولي، ليروا هلْ عُدْتُ إليهم بما يسدُّ جَوْعَتَهُم؟ وما عدتُ إليهم، إلا باليأسِ القاتلِ والكَمَدِ الشامل؟

فتقدّمْتُ نحوَ الشيخِ، وقلتُ له: إنّ في ديرِ المدينةِ كما يزعمونَ مالا للصدقاتِ، يتولّى الكاهنُ الأعظمُ إنفاقَهُ على الفقراءِ والمساكينِ، فلو ذهبت إليهِ وكشفتَ له خلّتَكَ[٥] وسألتَهُ أن يمنحَكَ عُلالةً تستعينُ بها على أمرِكَ لَرَجَوْنَا أنْ نُطْفِىءَ لوعةَ هؤلاءِ المساكين.

فاستنارَ وجهُهُ بنورِ الأملِ، وقامَ إلى عصاهُ، فاعتمدَ عليها، ومشى إلى الديرِ حتّى بلغَهُ، فصعدَ إلى حجرةِ الكاهنِ حتّى وقفَ بين يديهِ، فنفَضَ له جملةَ حالِهِ، وسكبَ تحتَ قدميهِ جميعَ ما أبقتِ الأيّامُ في جفنيهِ القريحين من دموعٍ، فاستقبَلَهُ الكاهنُ بأقبحِ ما يستقبلُ به مسؤولٌ سائلًا، وقال له: إنّ الديرَ لا يحسنُ إلّا إلى الذين أسلَفُوه الإحسانَ من قبلُ، وما كنتُ في يومٍ من أيّام رغدِكَ ورخائِكَ من المحسنينَ إليه، فاذهَبْ لشأنِكَ، فأبوابُ العيشِ واسعةٌ بين يديكَ، فإنْ ضاقَتْ بكَ، فأبوابُ الجرائِم أوسعُ منها.

فخرجَ من حضرته كئيبًا محزونًا، لا يرى فضاءَ الدنيا في نظرِهِ إلّا ككفّةِ الحابلِ[٦] أو أفحوصِ[٧] القطاةِ حتّى نزلَ إلى ساحةِ الديرِ، فلمَحَ في إحدى زواياهُ غرارةَ[٨] دقيقٍ، فحدّثَتْهُ نفسهُ بها، وما كانتْ تحدّثُه لولا العوزُ والفاقةُ، ثمّ أدركَه الحياءُ فأغضَى عنها، واستمرّ سائرًا في طريقِهِ حتّى صار بجانِبِهَا، فوقعَ نظرُه عليها مرّةً أخرى، فعاودَه حديثُه الأوّلُ فحاولَ دفعَهُ فلم يستطعْ.

---

(١) الفينة: الساعة والحين.

(٢) أصلاب: جمع صلب وهو الظهر.

(٣) الركوة: كيس يحمله الشحاذون.

(٤) يتضاغون من الجوع: يتضوّرون منه.

(٥) الخَلّة: الحاجة.

(٦) الحابل: الصائد بالحبالة. وكفته: حبالته.

(٧) أفحوص القطاة: مجثمها.

(٨) الغرارة: أكياس توضع فيها المؤونة.

فجلسَ بجانبِهَا يحدّثُ نفسَه ويقول: إنّ الطعامَ طعامُ الفقراءِ والمساكين، وأنا فقيرٌ مسكينٌ، لا أعلمُ أنّ بين أسوارِ هذه المدينة، ولا في جميعِ أرباضها[1] رجلًا أحوجَ، ولا أفقرَ منّي، فإنْ كانَ الطمعُ في هذه الغرارةِ جريمةً، فقد أذنَ لي الكاهِنُ بارتكابِ الجرائمِ في سبيلِ العيشِ.

ثمّ مشى إليها، فاحتَمَلَها على ظهرِه، ومشَى بها جاهدًا مترجّجًا، فما تجاوَزَ عتبةَ الديرِ، حتّى أثقَلَهُ الحملُ، وشعرَ أنّه عاجزٌ عن المسيرِ، فحدّثَتْهُ نفسُه بإلقائِه عن ظهرِه، ثمّ تمثّلَ له منظرُ أحفادِهِ الصغارِ، وهم أُلقَاءُ[2] تحتَ جدرانِ البيتِ يتضوّرونَ جوعًا، فحملَ على نفسِه، ومشى يعتمدُ على عصاهُ مرّة، وعلى الجدارِ، مرّةً أخرى حتّى نالَ منه الجهدُ، فأحسّ كأنّ أنفاسَه قد جمدَتْ في صدرِهِ لا تهبطُ، ولا تعلو، وأنّ ما كان باقيًا في عينيهِ من نورٍ، قد انطفأَ دفعةً واحدةً، فأصبحَ لا يرى شيئًا ممّا حولَه، وإذا نفثةٌ من دمٍ قد دَفَقَتْ من صدرِه فانحدَرَتْ على ردائِه فسقطَ في مكانِهِ مغشيًّا عليه.

ولم يزلْ على حالِهِ تلكَ حتّى مرّ به العَسَسُ[3]، فرأوه ورأوا الغرارةَ بجانبِه، فارتابوا به.

وكانَ رهبانُ الديرِ قد أخذوا يتصَايحون فيما بينهم: الغرارة! الغرارة! وينشُدُونها في أنحاءِ الديرِ، حتّى يئسوا منها، فخرجوا يطلبُونها في كلّ مكانٍ حتّى التقوا بالعَسسِ حولَ مصرعِ الشيخِ، فعرفوا ضالّتَهُمْ، وما هي إلّا ساعةٌ حتّى كانتِ الغرارةُ في الديرِ، وكانَ الشيخُ في السجنِ، ثمّ كانَ بعد ذلكَ ما رأيتَ من أمرِه، فوَاأسفَاهُ عليهِ! لقد ماتَ شهيدًا مظلومًا، ووارحمتاه لي ولأطفالي البؤساءِ المساكينِ من بعده!

ثمّ نهضَتْ من مكانِها، ومسحَتْ عبرتَهَا بطرفِ ردائِهَا، ونظرتْ إلى القبرِ نظرةً طويلة وقال: «الوداعُ يا رفيقَ صباي، وعمادَ شيخوختي! الوداعُ يا خيرَ الأزواجِ وأبرَّ العشراءِ! الوداعُ حتّى يجمعَ اللهُ بيني وبينَك في دارِ جزائه». ثمّ انكفأَتْ راجعةً في الطريقِ التي جاءَتْ منها.

وما هو إلّا أنْ تغلغَلَ شخصُها في أعماقِ الظلام، حتّى رأيتُ شبحًا آخرَ يتراءى من حيثُ اختفَى الشبحُ الأوّلُ؛ وما زالَ يتقدّمُ نحوي متسلّلًا، يختلسُ خطواتِهِ اختلاسًا، فاختبأتُ وراءَ الشجرةِ، لأرى ما هو صانعٌ، وكان القمرُ قد بدأَ يشرفُ على الوجودِ من مطلعِهِ، ويرسلُ الخيوطَ الأولى من أشعّتِهِ على تلكَ الساحةِ الكبرى. فرأيتُ الشبحَ على نورِهِ، فإذا فتاةٌ جميلةٌ باكيةٌ لم أرَ في حياتي دمعةً على خدٍّ أجملَ من دمعتِها على خدّها، فدارتْ بعينَيْهَا لحظةً حتّى وقعَ نظرُها على جثّة المصلوبِ بين أعوادِ الشجرةِ.

فمشَتْ إليه ومدّتْ يدَهَا إلى الحبلِ المشدودِ به، فعالجَتْ عقدَتَهُ حتّى انحلّتْ، ثمّ احتمَلَتْهُ على يدِها، وأَضْجَعَتْهُ على الأرضِ، وَوَقَفَتْ بجانبِهِ ساعةً تنظرُ إليه جامدةً ساكنةً كأنّها غيرُ آبهة

---

(١) أرباض المدينة: ما حولها من مساكن.

(٢) الألقاء: جمع لقي، واللقي الشيء: الملقى المطروح.

(٣) العسس: الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة.

ولا حافلةٍ ثمّ هتفتْ صارخة: واشقيقاه! وسقطَتْ فوقَهُ تضمّهُ، وتقبّلُه، وتلثُمُ شعرَه وجبينَه، وتزفرُ فيما بين ذلكَ زفيرًا متداركًا، كأنّما تنفُثُ أفلاذ كبدِهَا نفثًا، حتّى نالَ منها الجهدُ، فترنّحَتْ قليلًا ثمّ هوتْ بجانبِهِ هويّ الجذعِ الساقطِ لا حراكَ بها.

فأهمّني أمرُها وخفتُ أن يكونَ قد لحِقَ بها مكروهٌ، فمشيتُ إليها، حتّى صرتُ بجانبها، فشعرتُ بأنفاسِهَا الضعيفةِ تتردّد في صدرها؛ فعلمتُ أنّها حيّةٌ، فجلستُ فوقَ رأسِهَا أندُبُها، وأدعو الله لها، حتّى استفاقَتْ بعدَ هنيهةٍ.

فرأتني بجانبها، فنظرتْ إليّ نظرةً حائرةً، ثم تقدّمَتْ نحوي وقالت: على من تبكِي أيّها الرجلُ الغريبُ؟

قلتُ: أبكي عليكِ، يا سيّدتي، وعلى فقيدِكِ البائسِ المسكين.

قالت: نعم إنّه بائسٌ مسكينٌ، فابكِ عليهِ، يا سيّدي، كثيرًا، فقد كانَ زينةَ الشبابِ، وزهرةَ الحياةِ، وريحانةَ النفوسِ، ومتعةَ الأفئدةِ والقلوبِ، ولقد ظلَمُوه إذْ قتلوه، فما كانَ قاتلًا ولا مجرمًا، ولكنّه رجلٌ رأى عِرضَه فريسةً في يدِ من يريدُ تمزيقَه، فقطَعَ تلكَ اليدَ الممتدّةَ إليه، وانتقَمَ لنفسِه وللشرفِ والفضيلةِ منها، ولو أنصفُوه، لاستبقوه رحمةً به وبشَبابِهِ، فما أجرَمَ من ذادَ عن عِرضِهِ، ولا أثِمَ من قَتَل قاتِلَه.

قُلتُ: هل لكِ أن تقصّي عليّ قصّتَه يا سيّدتي؟

قالت: نعم.

نزلَ قريتَنَا صباحَ يوم من الأيّام قائدٌ من قوّادِ الأميرِ الذين يطوفونَ البلادَ لجمعِ الضرائبِ، فمرّ بأبياتِ القريةِ بيتًا بيتًا، حتّى بلغ منزلَنَا، وكنتُ واقفةً على بابِهِ، فنظرَ إليّ نظرَةً مريبةً طارَ لها قلبي رعبًا وفرقًا[1]، ثم سألني عن أخي، فأرشدتُهُ إلى مكانِهِ. فسألَهُ عن المالِ، فأستنسأه[2] إيّاه أيّامًا قلائلَ حتّى يبيعَ غلّته، فأبى إلّا أن ينقدَه الساعةَ، أو يأخذني رهينةً عندَه إلى يومِ الوفاء، وغمزَ بي بعضَ أعوانِه، فداروا حولي، وكنتُ أسمعُ قبلَ اليوم حديثَ أولئكَ الفتياتِ الشقيّاتِ اللواتي يدخُلنَ رهائنَ في قصرِ الأمير فلا يخرجْنَ منه إلّا ساقطاتٍ أو محمولاتٍ، ففزعتُ إلى أخي ولصقْتُ به.

فوقَفَ بيني وبين الرجلِ، وقال له: لا شأنَ لكَ مع الفتاةِ إنّما أنا صاحبُ المالِ، وأنا المأخوذُ به من دونِ الناسِ جميعًا؛ فإنْ كانَ لا بدّ لكَ من رهينةٍ، فأنا رهينةُ مالي حتّى يصلَ إليك.

فقالَ له: لا بُدّ لي من المالِ أو الرهينةِ ولا بدّ أن تكونَ الرهينةُ كما أريد، فإنْ أبيتَ، فحياتُك فداءٌ عنها.

فغضب أخي غضبةً انتفضَ لها جبينُه عرقًا، ولم أرَهُ في ساعةٍ من ساعاتِ غَضَبِهِ قبلَ اليوم، وقال له: «فلتكُنْ حياتي فداءً لشرفي».

---

(١) الفرق: الخوف.

(٢) استنسأ غريمه الدين: طلب منه أن يؤجله له.

ثمّ جرّدَ سيفَه وضربَه به ضربةً طارَتْ برأسِه، ووقفَ في مكانِه لا يبرحُه وسيفُه يقطُرُ دمًا، حتّى غَلّه[1] الأعوانُ واحتملُوه إلى السجنِ. فتلكَ حياتُه يا سيّدي، وذاكَ مماتُه، فلئِنْ بكيتُه فأنا أبكي فتى الفتيانِ همّةً ونجدةً، ونادرةَ الرجالِ عزّةً وإباءً، وأفضلَ الإخوةِ رحمةً وحنانًا.

ثمّ قالت: هل لكَ أن تعينَني يا سيّدي على مواراتِهِ قبلَ أن يحولَ النهارُ بيني وبينَه، فقد أصبحتُ واهيةً متضعضعةً لا أقوى على شيءٍ.

فقمتُ إلى الشجرةِ فاحتفرتُ حولَ ساقِها حفرةً بجانبِ حفرةِ الشيخِ، فواريتُهُ فيها، فتقدّمتِ الفتاةُ نحو القبرِ، وجثَتْ بجانبِهِ ساعةً مطرقةً ساكنةً، لا أعلمُ هلْ هي باكيةٌ أو ذاهلةٌ حتّى فارقَتْ مكانها؟

فرأيت تربةَ القبرِ مخضلّةً بدموعِهَا، ثمّ مدّتْ يدَها إليّ وقالت: شكرًا لك، يا سيّدي، فقد أعَنْتَني على موقفٍ قلّما يجدُ فيه مستعينُ معينًا. ومَضَتْ لسبيلِهَا.

فأتبَعْتُها نظري، حتّى اختفتْ آخر طيّةٍ من طيّاتِ ردائِها. فعدتُ إلى نفسي، فإذا جثّة الفتاةِ المرجومةِ لا تزالُ مكانَها، فهاجني منظرُهَا وقلتُ في نفسي: إنّني لا أدّخرُ لنفسي عملًا أرجو فيه رحمةَ الله وإحسانَه يومَ جزائه، أفضلَ من مواراةِ هذهِ المسكينةِ التراب.

فاحتفرتُ لها حفرةً بجانبِ حفرةِ الشهيدينِ، ثمّ ألقيتُ عليها ردائي واحتمَلْتُهَا على يدي، حتّى أضجَعْتُها في حفرتها. فإنّي لأحثو عليها التِرابَ، إذْ شعرتُ بحركةٍ ورائي، فالتفَتُّ، فإذا فتًى يافعٌ متلفعٌ ببردةٍ سوداءَ لا يستبينُ منها غيرُ بياضِ وجهِهِ، فابتدرني بقوله: من صاحِبُ هذا القبرِ الذي تحثو ترابَه يا سيّدي؟

قلت: فتاةٌ مرجومةٌ رأيتُ جثّتَهَا الساعةَ منبوذةً في هذا العراءِ فرحمتُ مصرَعَهَا، واحتفرتُ لها هذا القبرَ الذي تراه.

فقالَ: إنّ لي يا سيّدي مع هذهِ الفتاةِ شأنًا، فهل تأذنُ لي أن أودّعَها الوداعَ الأخيرَ قبلَ أن يحولَ الترابُ بيني وبينها؟

قلتُ: نعمْ شأنُكَ وما تريدُ.

وتنحّيتُ قليلًا فَدَنا من القبرِ، وجَثَا فوقَ تربتِهِ، وظلّ يناجي الدفينةَ نجاءً خِلْتُ أنّ الكواكبَ تردّدهُ في سمائِها، والرياحَ ترجّعُهُ في أجوائها، حتّى اشتفَتْ نفسُه.

فقامَ إلى الترابِ يهيله[2] عليها حتّى واراها، ثمّ التفَتَ إليّ وقال: لقد شكر الله لكَ، يا سيّدي، هذهِ اليدَ التي أسدَيْتَها إلى هذهِ الفتاةِ المظلومةِ بِسَتْرِ ما كشفَ الناسُ عن عورَتِها، وحِفْظِ ما أضاعوا من حُرْمَتِها، فجزاكَ الله خيرًا بما فعلتَ، وأحسنَ إليكَ، كما أحسنتَ إليها.

وأرادَ الرجوعَ، فاستوقفتُهُ وقلتُ له: وهلْ ماتَتْ هذه الفتاةُ مظلومةً كما تقول؟

فانفرجَتْ شفتاهُ عن ابتسامةٍ مرّةٍ، ونظرَ إليّ نظرةً هادئةً مطمئنّةً وقال: نعم يا سيّدي!

---

(١) غله: وضع في عنقه الغل، أي القيد. (٢) أهال التراب: صبّه.

ولولا ذلك، ما رأيتني الساعةَ واقفًا على حافةِ قبرِها أندُبُها.

أنا الرجلُ الذي اتّهمُوها به، وأستطيعُ أنْ أقولَ لكَ كما أقولُ لربّي يومَ أقفُ بين يديهِ رافعًا إليه ظلامَتَها: إنّها بريئةٌ ممّا رَموهَا به، وإنّها أطهرُ من الزهرةِ المطلولة[١]، وأنقى من القطرةِ الصافية.

لقد أحببتُ هذه الفتاةَ مذ كانتْ طفلةً لاعبةً، و أحبّتْني كذلكَ، ثمّ شَبَبْنَا، وشبَّ الحبُّ معنا، فَتَعاقَدْنَا على الوفاءِ والإخلاصِ، ثمّ خَطَبْتُها إلى أبيها، فأخطبني[٢] راضيًا مسرورًا، حتّى إذا لم يبقَ بيني وبين البناءِ بها إلّا أيّامٌ معدوداتٌ، إذْ نزلَتْ بأبيها نازلةُ الموتِ، فعلمنا أن لا بدّ لنا من الانتظارِ بأنفسِنَا عامًا كاملًا، ففعَلْنَا. حتّى إذا انقضى العامُ أو كادَ، حدَثَ أنْ ذهبتِ الفتاةُ إلى قاضي المدينةِ في أمرٍ يتعلّقُ بميراثِهَا، فرآها القاضي فتبعَتْهَا نفسُه فأرسلَ وراءَ عمّها، وكان وليَّ أمرِها بعدَ أبيها، وهو رجلٌ من الطامعينَ المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحرًا من الدم، إذا تراءى لهم على شاطِئِهِ الآخرِ دينارٌ لامعٌ، فعرضَ عليه رغبَتَهُ في الزواجِ مع ابنةِ أخيهِ، فطَارَ بهذه المنحةِ فرحًا وسرورًا، ولم يتردّدْ في إجابةِ طلبِهِ.

وعادَ إلى الفتاةِ يحملُ إليها هذه البشرى، فاستقبَلَتْهُ بوجهٍ باسرٍ[٣] وقالتْ له: إنّني لا أستطيعُ أن أكونَ خطيبةَ رجلينِ في آنٍ واحد. فلم يبالِ بقولها وقالَ لها: ستتزوّجينَ ممّن أريدُ طائعةً أو كارهةً، فلا خيارَ لكِ في نفسِك إنّما الخيارُ لي في أمرِكِ وحدي.

وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ، حتّى أعدّوا لها عدّةَ زواجِهَا، وسمّوا يومًا لزفافِهَا، فما غَرُبَتْ شمسُ ذلكَ اليومِ، حتّى جمعتْ ما كان لها في بيتِها من ثيابٍ وحليةٍ، وخرجتْ تحتَ ستارِ الليلِ هائمةً على وجهِهَا، لا تَعلَمُ أينَ تذهبُ، ولا أيَّ طريقٍ تسلُك، وكانَ عمُّها قد رَفَعَ إلى القاضي أمرَ فرارِها، فبَثَّ عليها عيونَهُ[٤] وأرصَادَه يطلبُونها في كلّ مكانٍ، حتّى لمحها بعضُهم جالسةً تحتَ بعضِ الجدرانِ، فأقبلَ عليها فذُعِرَتْ لمرآه، وتركَتْ حقيبَتَها مكانَها، وفرّت بين يديهِ، تعدو عدوًا سريعًا، وكنتُ عائدًا تلكَ الساعةِ إلى منزلي، فرأتني فألقتْ نفسَها عليَّ وقالت: إنّهم يتبعونني، وإنّهم إنْ ظفروا بي قتلُوني. فارحمْني يرحَمْكَ الله.

فأهمّني أمرُها، وذهبتُ بها إلى منزلي، وأخفَيْتُها في بعضِ حجراتِه. وما هي إلّا ساعةٌ، حتّى دخَل عمُّها، ووراءَه أعوانُ القاضي يطلبُهَا طلبًا شديدًا، فأنكَرْتُ رؤيتَهَا، فلم يصدّقني، وأخذَ يضربُ أبوابَ الحجراتِ بابًا بابًا، حتّى ظفرَ بها فصاح: ها هي الفتاةُ الزانيةُ. وهذا صاحِبُها.

فأقسَمْتُ لهُ بكلّ محرجةٍ من الأيمانِ أنّها بريئةٌ ممّا يرمِيهَا به، فلم يُصْغِ إليّ، وأمرَ الأعوانَ، فاحتمَلُوها. وحاولتُ أنْ أحولَ بينهم وبينها، فضرَبني أحدُهُم على رأسي ضربةً طارتْ بصوابي، فسقطتُ مغشيًّا عليَّ، فلم أستفِقْ إلّا بعد ساعةٍ، فوجدتُ الحمّى قد أخذتْ مأخذَهَا من جسمِي.

---

(١) المطلولة: التي سقاها الطلّ أي الندى.
(٢) أخطبه: قبل خطبته.
(٣) باسر: مقطّب الوجه.
(٤) العيون: جواسيسه.

فلزمتُ فراشي بضعةَ أيّام لا أفيقُ ساعةً، حتّى يتمثّلُ لي ذلكَ المنظرُ الذي رأيتُه، فأشعرُ بالرعدةِ تتمشّى في أعضائي، فأعودُ إلى ذهولي واستغراقي، حتّى أدركَتْني رحمةُ اللهِ، فأبلَلْتُ[1] منذُ الأمسِ بعضَ الإبلالِ، واستطعتُ أن أخرجَ الليلةَ من منزلي، فعلمتُ ما تمّ من أمرِ تلكَ المسكينةِ، فجئتُ كما تراني أودّعُها الوداعَ الأخيرَ، وأواري جثّتها الترابَ، وما أنا بالسالي عنها، ولا بالذائقِ حلاوةَ العيشِ من بعدِها، حتّى ألحقَ بها.

ثمّ ألقى على قبرِهَا نظرةً جَمَعَتْ في طيّاتها جميعَ معاني النظراتِ البائساتِ من حزنٍ ويأسٍ ولوعةٍ وشقاءٍ، ومضى لسبيله.

فما أبعدَ إلّا قليلًا، حتّى رأيتُ القمرَ ينحدرُ إلى مغربِهِ، ثمّ ما لبثَ أنِ اختفى، فإذا الفضاءُ ظلمةٌ وسكونٌ، وإذا الساحةُ وحشةٌ وانقباضٌ، فصعدتُ على ربوةٍ عاليةٍ مشرفةٍ على القبورِ الثلاثةِ، ثم تلفّعْتُ بردائي، وألقيتُ رأسي على بعضِ الصخورِ، وأنشأتُ أحدّثُ نفسي وأقول:

ليتَ شعري! ألا يوجدُ في هذه الدنيا عادلٌ، ولا راحِمٌ، فإنْ خَلَتْ منهما رقعةُ الأرضِ، فَهَلْ خَلَتْ منهُمَا ساحةُ السماء؟

أجرَمَ الزعيمُ الدينيّ، لأنّه ضَنَّ على ذلكَ الشيخِ المسكينِ بدرهم من مالٍ يسدّ به جَوْعَتَهُ، وجوعَةَ أهلِ بيته، فاضطرّ الرجلُ إلى ارتكابِ جريمةِ السرقةِ، فعوقِبَ السارقُ على سرقتِهِ، ولم يعاقَبِ القاسي على قسوَتِهِ، ولولا قَسْوَةُ القاسي ما كانتْ سَرِقَةُ السارق.

وأجرَمَ الأميرُ، لأنّهُ أرسلَ قائدَه لاختطافِ فتاةٍ حرّةٍ، لا تؤثر أنْ تجودَ بعرضِهَا، فاضطرّ أخوها إلى الذودِ عنها، فارتكَبَ جريمةَ القتلِ، فعوقبَ الفتى على جريمتِهِ، وسَلِمَ من العقوبةِ مَنْ دَفَعهُ إلى الإجرام.

وأجرمَ القاضي، لأنّه أرادَ أن يُكْرِهَ فتاةً لا تحبّه على الزواجِ منه، ففرّتْ من وجهِهِ، فعاقبُوها على فَرارِهَا، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمِه واستبدادِهِ.

وهكذا أصبحَ المجرمُ بريئًا، والبريءُ مجرمًا، بل أصبحَ المجرمُ قاضيَ البريءِ، وصاحبَ الحقّ في معاقبتِهِ.

فهلْ تسقطُ السماءُ على الأرضِ بعدَ اليومِ، أم لا تزالُ تنيرُها بكواكِبِها ونجومِها، وتمطِرُهَا غيثَها ومُزْنَها[2].

ثم التفتُّ إلى مصرعَ المقبورينَ، فوقَعَ نظري على بركةِ الدمِ التي اجتمعَتْ فيها دماءُ هؤلاءِ الشهداء، فرأيتُ خيالَ نجمٍ في السماءِ يتلألأُ فوقَ صفحتِهَا، فرفعتُ نظري إلى النجمِ، فإذا هو المرّيخُ[3] يتلهّب، ويضطرمُ كأنّه جمرةُ الغيظ في أفئدةِ الموتورين[4]، فعلقَ نظري به ساعةً، ثمّ رأيتُ كأنّه يهبطُ من عليائِهِ رويدًا رويدًا، فيعظُمُ جرمُهُ كلّما ازدادَ هبوطُه حتّى إذا لم يبقَ بينه

---

(١) أبلّ المريض: شفي من مرضه. (٢) المزن: السحاب الماطر.

(٣) المريخ: إله الحرب في أساطير قدماء اليونانيين. (٤) الموتورون: أهل المغدور.

وبينَ الأرضِ إلّا ميلٌ أو بعضُ ميلٍ؛ إذا به ينتفضُ انتفاضًا شديدًا، وإذا هو على صورةِ مَلَكٍ من ملائكةِ العذابِ، ينبعثُ الشررُ من عينيهِ ومنخريهِ، ويتطايرُ من أجنحتِهِ وأطرافِهِ، فلم يزلْ هابطًا حتّى نزلَ على رأسِ الشجرةِ التي تظلّلُ قبورَ الشهداءِ، ثمّ صفّقَ بجانحيهِ تصفيقةً اهتزّتْ لها جوانبُ الأرضِ، وأضاءَت بها الأرجاءُ، ثمّ أخذَ ينطقُ بصوتٍ كأنّه جلجلةُ الرعدِ في آفاقِ السماء ويقول: «ها همُ الناسُ قد عادوا إلى ما كانُوا عليه، وها هي الأرضُ قد مُلِئَتْ شرورًا وفسادًا، حتّى لم يبقَ فيها بقعةٌ طاهرةٌ يستطيعُ أن يأويَ إليها مَلَكٌ من أملاكِ السماء.

ها هم الأقوياءُ قد ازدادوا قوّةً، والضعفاءُ قد ازدادوا ضعفًا، وها هي لحومُ الفقراءِ تنحدرُ في بطونِ الأغنياءِ انحدارًا؛ فلا الأوّلونَ بمستمسكينَ، ولا الآخرونَ بقانعين.

ها هم الفقراءُ يموتونَ جوعًا، فلا يجدونَ من يحسِنُ إليهم، والمنكوبون يموتونَ كَمَدًا؛ فلا يجدونَ من يعينُهُم على همومِهِمْ وأحزانِهِم.

ها همُ الأمراءُ، قد خانوا عهدَ الله وخفروا ذِمَامه: فأغمدوا السيوفَ التي وضَعَها الله في أيديهِمْ لإقامةِ العدلِ والحقّ، وتقلّدوا سيوفًا غيرَهَا، لا هي إلى الشريعةِ، ولا إلى الطبيعةِ، ومشوا بها يفتتحونَ لأنفسهِمْ طريقَ شهواتِهِمْ ولذائذهِمْ، حتّى ينالوا منها ما يريدون.

ها همُ القضاةُ، قد طَمِعُوا وظلمُوا، ووضعوا القانونَ ترسًا أمامَ أعينهِمْ يُصِيبونَ مِنْ ورائه، ولا يُصَابُونَ، ويَنَالونَ من يشاؤون تحتَ حمايته، ولا يُنالون.

ها همْ زعماءُ الدينِ، قد أصبحوا زعماءَ الدنيا، فحوّلوا معابدَهُمْ إلى مغاورِ لصوصٍ يجمعونَ فيها ما يسرقونَ من أموالِ العبادِ، ثمّ يضنّونَ بالقليلِ منهُ على الفقراءِ والمساكين.

ها همُ الناسُ جميعًا، قد أصبحوا أعوانًا للأمراءِ على شهواتِهِم، والقضاةِ على ظلمِهِم، وزعماءِ الأديانِ على لصوصيّتِهم، فلتسقُطْ عليهم جميعًا نقمةُ اللهِ ملوكًا ومملوكينَ ورؤوساءَ ومرؤوسين.

لتَسْقُطِ العروشُ، وَلْتُهدَمِ المعابدُ، ولتتقوّضِ المحاكِمُ، وليعُمَّ الخرابُ المدنَ والأمصارَ، والسهولَ والأوعارَ، والنجادَ والأغوارَ، وَلْتغرقِ الأرضُ في بحرٍ من الدماءِ، يهلكُ فيه الرجالُ والنساءُ، والشيوخُ والأطفالُ، والأخيارُ والأشرارُ، والمرجمون والأبرياءُ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

وما انتهى من دعوتِه تلكَ، حتّى رأيتُ بركةَ الدم تفورُ كما فارَ التنّورُ يومَ دعوةِ نوحَ، ثمّ فاضتِ الدماءُ منها ومشَتْ تتدفّقُ في الأرضِ تَدَفُّقَ السيلِ المنحدرِ، وإذا الأرضُ بحرٌ أحمرُ يزخرُ، ويعجُّ، ويكتسحُ أمامَه كلَّ شيءٍ من زَرْعٍ وَضَرْعٍ، وقصورٍ وأكواخٍ، وحيوانٍ وإنسانٍ، وناطقٍ وصامتٍ؛ ثمّ شعرتُ به يعلو شيئًا فشيئًا حتّى ضربَ بأمواجِهِ رأسَ الربوةِ التي أنَا جالسٌ فوقَها، فصرختُ صرخةً عُظْمَى فاستيقظتُ من نومي، وكانَ ذلكَ في صباحِ اليومِ الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤، فإذا صائحٌ يصيحُ تحتَ نافذةِ غرفتي: إعلانُ الحربِ!

الضحية

«مترجمة»

نشأتْ «مرغريت جوتييه» فقيرةً لا تملكُ مالًا تشتري به زوجًا، ولا تجدُ بينَ الرجالِ من يبيعُها نفسَه بلا مالٍ، أو يحسنُ إليها بما يسدّ خَلَّتها[١]، ويَسترُ عورَتَها، وكان لا بدّ لها أن تعيشَ، فلم تجدْ بين يديها سوى عرضِها، فذهَبَتْ به إلى سوقِ الشقاءِ والآلامِ، فساوَمَها فيه بعضُ المساومينَ بأبخسِ الأثمانِ، فباعَتْهُ إيّاه كارهةً مرغمةً، وكانتْ من الخاسرين.

ولقد كانَ جمالُها شؤمًا عليها، فلو أنّها كانتْ شوهاءَ، لوجدتْ في الناسِ من يرحمُهَا، ويحنو عليها، ولكنّ الجمالَ سلعةٌ من السلعِ النافقةِ[٢]، لا يستطيعُ صاحبُه أن ينالَ ما في أيدي الناسِ إنْ كانَ فقيرًا معوزًا، إلّا من طريقِ المساومةِ فيه.

لذلكَ نقمتْ تلكَ الفتاةُ المنكوبةُ على الرجالِ جميعًا، وأقسمتْ أنْ تتّخِذَ من جمالها، الذي هو مطمحُ أنظارِهِمْ، وقِبلَةُ آمالِهِمْ، آلةَ انتقامٍ تنتقمُ بها منهم لعرضِهَا وشرَفِها.

ولقد بَرّتْ[٣] بيمينِهَا برَّ الوفيّ بعهدِه، فعاشرتِ الرجالَ ولم تحبّهم، ونَكَبَتْهُم في أموالِهِم، وفي أنفسِهِم، ولم تأسفْ عليهم، ونظرتْ إلى دموعِ الباكينَ تحتَ قدميها نظراتِ الغبطةِ والسرورِ، وهي تقول:

ويحٌ لكُمْ، يا معشرَ الرجال، ما كنتُ أطلبُ منكُمْ باسم الفضيلةِ والشرفِ إلّا رغيفًا واحدًا لغدائي، وآخرَ لعشائي، فأبيتُمُوهما عليّ، فلمّا طَلَبْتُ منكمُ باسمِ الرذيلةِ جميعَ ما تملكُ أيديكمُ من مالٍ ونشبٍ[٤]، بذلتمُوه لي طائعينَ مختارين، فما أصغرَ نفوسَكُم وأخَسّ أقدارَكُم!

ولقد كانَ في استطاعةِ أصغرِكُمْ شأنًا، وأهونِكُم على نفسِهِ وعلى الناسِ جميعًا، أن يشتريَ منّيَ جسمي، وقلبي، وحياتي بلا ثمنٍ سوى سدّ خَلّتي وصيانةِ عِرضِي، فلم تفعلوا، فها هُمُ أُولاءِ اليومَ عظماؤُكُم وأشرافُكم يجثونَ تحتَ قدميَّ جَثْيَ الكلبِ الذليلِ تحتَ مائدةِ سيّدِهِ، فلا ينالونَ منّي أكثرَ ممّا ينالُ منها.

أحببتُمُ المالَ حبًّا جمًّا، فأبيتُمْ إلّا أنْ تتزوّجوا ذاتَ مالٍ لتضمّوا طارِفَها إلى تليدِكُم[٥]. فابذلوا اليومَ لامرأةٍ مومسٍ، لا تمنحُكُمْ مالًا ولا حبًّا جميعَ ما في أيديكُمْ من فضّةٍ وذهبٍ، حتّى لا يبقى لكُمْ طارفٌ ولا تليدٌ.

* * *

ظهرتْ مرغريتُ في سماءِ باريسَ كوكبًا متلألئًا يبعثُ الأنوارَ ويبهرُ الأنظارَ، ويملأُ أجوازَ

---

(١) الخلّة: الحاجة.
(٢) نفقت السلعة: راجت ورغب الناس فيها.
(٣) برّ بيمينه: وفى بها ولم يكذب.
(٤) النشب: المال الأصيل من نقود وماشية.
(٥) الطارف من المال: حديثه، والتليد، قديمه.

الفضاءِ بهجةً وضياءً، فطارتْ حولَها العقولُ طيرانَ النحلِ حولَ الزهرِ، وسالَ النضارُ[1] بين يديها سيلانَ الجدولِ المتدفّقِ تحت أشعّةِ الأصيلِ، وعنتْ لها الوجوهُ الكريمةُ، وتعفّرتْ[2] تحتَ قَدَمَيهَا الجباهُ الرفيعةُ، وأصبحتْ أعناقُ الرجالِ في يدِهَا كأنّما قد سلكَتْهُم جميعًا في سلكٍ واحدٍ، ثمّ أمسكَتْ بطرفِ السلكِ تحرّكُه فيتحرّكُون، وتُمْسِكُ عنه فَيُمْسِكون.

وكانَ شأنُها معهم شأنَ صاحبِ الكلبِ مع كلبِهِ، لا يشبعُه فيستغنيَ عنه، ولا يُجيعُه فييأسَ منه، فكانتْ تملأُ نفسَ عاشِقِهَا أملًا ورجاءً، حتّى إذا ظنَّ أنْ قد دَنا به حظُّه، وأنْ ليسَ بينه وبينَ أملِهِ إلّا أن يمدّ إليهِ يده، فينالَهُ، ذادَتْهُ عنهُ ذَوْدَ الظامىءِ الهيمانِ عن وِرْدِهِ، أدنى ما يكونُ إلى فَمِهِ، فإذا علمتْ أنّ اليأسَ قد بلغَ من نفسِه، وأنّه قد أزمعَ أن يركبَ رأسَه إلى حيثُ لا مردّ له: بعثَتْ وراءَهُ شعاعًا من أشعّةِ ابتساماتِها العذبةِ الخلّابةِ فاستردّتْهُ إليها صاغرًا مستسلمًا.

وكذلكَ أصبحتْ تلكَ الفتاةُ الجائعةُ العاريةُ التي كانَت تعوزُها بالأمسِ اللقمةُ، وتُعيِيهَا الخرقةُ؛ سيّدةَ باريس، وصاحبةَ عرشِها، ومالكةَ أزمةِ رجالها، وفاجعةَ قلوبِ نسائِها، والنجمَ الخالقَ الذي تبتهلُ إليه العيونُ، والسرَّ العامضَ الذي تَحَارُ فيه الظنون.

ذلكَ ما يعلمُهُ الناسُ من أمرِها؛ أمّا ما تعلَمُه من أمرِ نفسِهَا، فهيَ ترى أنّ جميعَ ما يبذلُه لها الناسُ من فضةٍ وذهبٍ، وأثاثٍ ورياشٍ، وقصورٍ ودُورٍ، وجيادٍ ومركباتٍ، لا يساوي دمعةً واحدةً من تلكَ الدموعِ التي سكَبَتْهَا على نفسِها يومَ باعَتْ عِرْضَهَا، وأنّ جميعَ هذه اللآلىءَ والجواهرَ والأرديةَ والتيجانَ التي يهبونَها، إنّما يهبونَها أنفسَهم، ليتمتّعُوا بمنظرِهَا فوقَ جسمِهَا كما يتمتّعُ صاحبُ الكلبِ بمنظرِ القلادةِ في عنقِ كلبِهِ، وما لَهُ من ذلكَ شيءٌ، فكأنّما باعَتْ عِرْضَها بلا ثمنٍ ولا جزاء.

وكانتْ تخلو بنفسِهَا حينًا، فتذكُرُ أنّ جميعَ هذه القلوبِ الطائرةِ حولها إنّما تطيرُ على جمالِها لا علَيْهَا، وأنّها إنْ حُرِمَتْ هذا الجمالَ ساعةً واحدةً انفضّ[3] الناسُ جميعًا من حولها، وأصبحتْ وحيدةً منقطعةً في هذا العالمِ لا يعطفُ عليها قلبٌ، ولا تبكي عليها عينٌ، فتبكي بكاءَ الأشقياءِ على أنفسِهِم، بل ترى أنّها شقيّةٌ مثلَهُم، لأنّها تعاشرُ من لا تحبُّ، وتحيا بين قومٍ لا يحبّونها إلّا حبًّا كاذبًا.

وربّما مرّتْ في بعضِ غدواتها أو روحَاتِها بغرفةِ حارسِ قصرِهَا، وهو جالسٌ بين زوجِهِ وأولادِهِ، يمنحُهُم حبّه وإخلاصَه، ويمنحونَهُ من ذلكَ مثلَ ما يمنحُهُم؛ فتتمنّى أنْ لو كانَ حظُّها من هذهِ الحياةِ غرفةً كهذهِ الغرفةِ، وزوجًا وأولادًا كهذا الزوجِ وهؤلاءِ الأولادِ، ثمّ لا تقترحُ على دهرِها بعدَ ذلكَ شيئًا.

وما رآها الناسُ في يومٍ من أيّامِهَا استقبلتْ في قصرِهَا رجلًا متزوّجًا أو خاطبًا، فكانوا يحملونَ

---

(١) النضار: الذهب الخالص. (٢) تعفّر: تمرّغ بالتراب.

(٣) انفضّ: تفرّق.

هذا الأمرَ منها على محملِ الأثَرَةِ، ويقولون إنّها امرأةٌ طامعةٌ لا تحبّ إلّا أن يكونَ عاشقُها خالصًا لها، ولو أنّهُمْ عرفوا حقيقةَ أمرِها وألمّوا بسريرةِ نفسِهَا، لعلموا أنّها امرأةٌ حزينةٌ منكوبةٌ، قد فَجَعَهَا الدهرُ في سعادةِ الزوجيّة فعرفتْ قيمَتَهَا، فهي لا تحبُّ أن تفجَعَ فيها امرأةً غيرها.

لقد تحدّثَ بعضُ الذين ألمّوا بشؤونِ حياتِها الخاصّةِ أنّها وهبتْ مرّتينِ أو ثلاثًا بعضَ الفتياتِ الفقيراتِ مهورًا يستعنَّ بها على الزواجِ ممّن يُرِدْنَ، فلم يصدّقِ الناسُ هذا الخبرَ، وقالوا: إنّ السالبَ لا يكونُ واهبًا، وإنّ ينبوعَ الخيرِ لا يمكنُ أن ينفجرَ في قلوبِ النساءِ الفاجرات؟ ولكنّ الحقيقةَ أنّها فَعَلَتْ ذلكَ، وربّما فَعَلَتْ أكثرَ منه.

هذا هو قلبُ «مرغريت»، و هذه هي سريرةُ نفسها: فهي فتاةٌ فاسدةٌ ولكنّها غيرُ راضيةٍ عن فَسَادِهَا؛ وساقطةٌ، ولكنّها لا تحبّ أنْ ترى الفتياتِ ساقطاتٍ مثلَهَا، ولو كانَ في استطاعةِ المرأةِ الساقطةِ أن تسترجعَ بِتَوْبَتِهَا وإنابَتِهَا[1] مكانَتَهَا في قلوبِ الناسِ، وأنْ تمحوَ بصلاحِهَا ما سلفَ من فسادِها، لكانتْ هي أقربَ النساءِ إلى التوبةِ والنزوعِ، ولكنّ المجتمعَ الذي أسقَطَها وسَلَبَهَا ذلكَ الرداءَ من الشرفِ الذي كانتْ ترتديهِ، يأبى عليها أن يُعِيدَ إليها رداءَه إنْ طَلَبَتْهُ؛ فلا بدّ لها من الاستمرارِ في سقوطِهَا راضيةً أو كارهةً، وكذلكَ كانَ شأنُها.

ولم يمضِ على «مرغريت» في حياتِها هذه أكثرُ من بضعةِ أعوامٍ حتّى نزلَ بها مرضٌ حَجَبَها في بيتِهَا عدّة أيّامٍ، ثمّ اشتدّ عليها، فأشارَ عليها الأطباءُ أنْ تذهَبَ إلى حمّاماتِ «البانيير» للاستشفاءِ بمائِها وهوائِها، فسافرتْ إليها وَحْدَها لا تصحَبُها إلّا خادِمَتُها.

وكانَ في ذلكَ المصطاف[2] في هذا العامِ شيخٌ من الأثرياءِ اسمه «الدوق موهان» حَضَرَ إليها مع ابنتِه، وكانتْ مريضةً بداءِ الصدرِ ليستشفيَ لها من دائِها، فلم يُجْدِهَا العلاجُ، وماتتْ بين يديهِ، فدَفَنَها هناكَ ولبثَ بعدَ موتِها عدّةَ أيّامٍ يختلفُ إلى قبرِها ويبكِيها بكاءً شديدًا.

فإنّه لَعَائدٌ من المقبرةِ ذاتَ يومٍ، إذْ لمحَ في طريقِهِ «مرغريت» سائرةً وحدَها، وكانَ ذلكَ اليومَ الثاني من وصولها إلى البانيير؛ فدهشَ لمنظرِهَا دهشةً عظمَى وخُيِّلَ إليه أنّ اللهَ قد بعثَ له ابنَتَه من قبرِها، أو أرسلَ إليه خيالَهَا ليعزّيه عنها لمكانِ الشبهِ بين صورةِ هذه الفتاةِ وصورتِها. فتقدّم نحوها ذاهلًا مشدوهًا، وأمسكَ بطرفِ ردائِها، وظلّ يحدّقُ في وجهِهَا تحديقًا طويلًا. فعجبتْ لشأنِهِ وَسَأَلَتْهُ ما بَالُه؟

فقالَ لها: هل تأذنينَ لي، يا سيّدتي، أن أقبّلَ يدك؟

فمدّتْ إليه يدَها، وهي لا تَعلَمُ ماذا يريدُ، ولا ما الذي أصابَهُ، فَلَثَمَها ثمّ اعتذَر إليها عن جرأته بذهولِهِ ودهشتِهِ، ومشى معها يقصُّ عليها قصّتَه وقصّةَ مصابِهِ في ابنتِه، وما راعَهُ من الشبهِ بين صورتِها، وصورتِها.

فرثَتْ له، وحزنتْ لحزنِهِ، واستهلّتْ دمعةً رآها الشيخُ من خلالِ أهدابِ عينَيهَا المبتلّة

(١) الإنابة: الرجوع والعودة.

(٢) المصطاف: مكان الاصطياف.

بالدموعِ، فسقَطَ على يدِهَا يقبّلها، ويشكرُ لها تلكَ الدمعةَ التي جادتْ بها عليهِ في ساعةِ شقائِهِ.

ولم يزلْ سائرًا معها حتّى وصلا إلى المنزلِ، فودّعَهَا، ومضى بعدما استأذنَها أن يختلف إليها من حينٍ إلى حين، فأذنتهُ بذلكَ وصعدتْ إلى غرفَتِها.

فلمّا خلتْ بنفسِهَا أنشأتْ تفكّرُ في أمرِ تلكَ الفتاةِ المسكينةِ التي اختطَفَها الموتُ من يدِ أَبيها في زهرةِ صِبَاها، من حيثُ لم يستطِعْ طبيبٌ ولا عائدٌ رَدَّ دعايةِ القضاءِ عنها، ثمّ خطرَ لها أنّها مريضةٌ بمثلِ المرضِ الذي ماتَتْ به، وأنّها ربّما ماتَتْ موتَتَهَا، فلا تجدُ بجانبِهَا أبًا كهذا الأبِ يندُبُها، ويبكي عليها. فأثّر في نفسِهَا هذا الخاطرُ تأثيرًا شديدًا، وبكتْ له بكاءً طويلًا، ولزِمَتْ غرفَتَهَا في ذلكَ اليومِ لا تفارِقها.

وظلّ «الدوق» يختلفُ إليها بعدَ ذلك، فيجالسُها طويلًا، ويجدُ من الأنسِ بها، والاغتباطِ بعشرَتِها، ما يسكّنُ به لوعةَ نفسِهِ، كلّما شبَّ الوَجْدُ في صدرِه، حتّى أصبحَ لا يستطيعُ مفارقَتَهَا ساعةً واحدةً. وكأنّما لذّ لها أن يَرىٰ ذلكَ الشيخُ الثاكلُ المنكوبُ في وجهِهَا سلوَتَهُ وعزاءَه، فمنحَتْهُ من عطفِهَا وحبِّها ما لم تمنَحْهُ أحدًا من قبلِهِ، وأَنِسَتْ به أنسًا لم تأْنَسْهُ بإنسانٍ سواه.

وما هيَ إلّا أيّامٌ قلائلُ حتّى أبلّتْ من مرضِهَا بعضَ الإبلال[1] وعادَ إلى وجهِهَا الجميلِ رونَقُه وبهاؤُه، وإلى ثغرِها البديعِ ابتسامُه وافترارُه، فلذَّ لها المقامُ في البانيير أيّامًا طوالًا، حتّى شعرتْ بهبوبِ رياحِ الشتاءِ، فأزمعَتِ العودةَ إلى باريس، فشقّ ذلكَ على الدوق، وعلمَ أنّها إنْ عادتْ إليها لا يظفَرُ منها في ذلكَ المزدحَمِ العظيمِ الحافِلِ بخلّانِها وأصدقَائِها بمثلِ ما كانَ يظفرُ به منها في البانيير، فَخَلا بها ليلةَ السفَرِ ساعةً وحادَثَها حديثًا طويلًا انتهى بالاتّفاقِ معها على أن تهجرَ حياتَها الأولى حياةَ المخالّةِ والمعاشرةِ، وتعيشَ في منزل يُهيّئُهُ لها ويقومُ بنفقَاتِها فيه على أن تأذنَ له بالاختلافِ إليها من حينٍ إلى حين. ثمّ سافرا في اليومِ الثاني إلى باريس.

ومنذُ ذلكَ اليومِ تغيّرتْ صورةُ حياتِها عمّا كانتْ عليهِ من قبلُ، فأصبحَتْ تعيشُ في قَصرِهَا الذي هيّأهُ لها الدوق عيشًا بين العزلةِ والاختلاطِ، فلا تستقبلُ الناسَ فيه إلّا قليلًا، ولا تمتزجُ مع الذينَ تستقبلُهُم الامتزاجَ كلّه، وربّما مرّتْ بها أيّامٌ لا يراها الناسُ خارجَ قصرِها إلّا قليلًا.

فإذا خرجَتْ ركبتْ عَرَبَتَها وحدَها دونَ رفيقٍ أو رفيقةٍ، ومشتْ في طريقها تقرأ في كتابٍ أو صحيفةٍ؛ فربّما مرّ بها كثيرٌ ممّن تعرفُهُم فلا تراهُم؛ فإذا وَقَعَ نظرُها على واحدٍ منهم ابتسمتْ له ابتسامةً قصيرةً موجزةً، قلّما يشعرُ بها أحدٌ سواه، ثمّ استمرّتْ أدراجَهَا حتّى تصلَ مُتَنزَّه «الشانزلزيه»، فتنزلُ من عربَتِهَا، وتمشي في الغابةِ على قدَمَيْها ساعةً ثمّ تعودُ إلى قصرِهَا.

فإذا جاءَ الليلُ ذهبتْ إلى ملعبِ التمثيلِ وحدَهَا، أو معَ الرجلِ القائم بشأنها، فتقضيَ فيه أكثرَ وقتِهَا ناظرةً إلى المسرحِ لا يشغَلُهَا كثرةُ الناظرينَ إليها، أو المتهافتينَ على مقصورَتِها، عن تَتَبُّعِ فصولِ الروايةِ والاهتمامِ بوَقْعِهَا حتّى تنتهي.

---

(١) أبل من مرضه: برىء منه.

فلم تمضِ عليها أيّامٌ كثيرةٌ حتّى علمَ الناسُ جميعًا أنّ «مرغريت» قد استحالتْ حالُها، وتغيّرتْ صورةُ حياتِها، وأنّها قد قنعَتْ بهذِ الحياةِ الجديدة؛ حياةِ الهدوءِ والسكينةِ، والوحشةِ والانفرادِ ورَضِيَتْهَا لنفسها، فلا سبيلَ إلى مغالبتِهَا عليها، فقَصُرَتْ عنها أطماعُهُم، وانقطعَتْ منها آمالُهُم.

وظلّوا يتلمسونَ الأسبابَ لتلكَ الحالةِ الغريبةِ التي طرأتْ عليها، فذهبوا في شأنِها المذاهبَ كلّها إلّا المذهبَ الصحيحَ منها، وهي أنّ تلكَ الحادثةَ المحزنةَ التي حدثَتْ لابنةِ الدوق شبيهتِها في صورَتِها ومرَضِهَا، قد أثّرت في نفسِها تأثيرًا شديدًا، وصوّرتْ لها الحياةَ بصورةٍ غير صورتِهَا الأولى.

فأصبحتْ تعافُ الرجالَ لأنّهم سَبَبُ سقوطِهَا، وتستنكِرُ سقوطَهَا أكثرَ ممّا استنكَرتْهُ من قبلُ لأنّه سَبَبُ مرضِهَا، ولا تأسَفُ على ما فاتَها ممّا في أيدي الناسِ، لأنّها تعيشُ من مالِ الدوق في نعمةٍ لا يطمعُ طامعٌ في أكثرَ منها، وربّما خَطَرَ لها أنّ جياتها مع هذا الشيخِ الهرِمِ الذي لا يطمَعُ منها في أكثرَ من أن يراها تشبِهُ حياةَ العذارى الطاهراتِ اللواتي ينعَمْنَ بنعمةِ الشرفِ في ظلالِ آبائهنّ، فأعجبها هذا الخيالُ ولذّ لها؛ وكثيرًا ما بَكَتْ ذلكَ الشرفَ قبلَ اليومِ وحنّتْ إليه.

انقضتْ أيّامُ الخريفِ وأقبلتْ أيّامُ الشتاءِ، وسالتِ الأجواءُ بردًا وقرًّا؛ فثارَ ما كانَ كامنًا من داءِ «مرغريت»؛ وعادَ إليها نَفْثُهَا وسعالُهَا؛ فظلّتْ تكابدُ من مرضِهَا آلامًا جسامًا؛ لا تفارقُهَا يومًا حتّى تعاودَها أيّامًا؛ فإن ألمّتْ بها لزمتْ سريرَهَا لا تفارقُه؛ وإن روّحَتْ[1] عنها برزَتْ إلى الخلاءِ في بكورِ الأيّامِ وأصائِلِها، تطلبُ الهواءَ الطَلْقَ والجوّ النقيّ؛ وربّما ذهبتْ في بعضِ لياليها إلى ملعب التمثيلِ، لتتفرّج[2] ممّا هي فيه، فتخلو بنفسها في مقصورَتِها ساعةً أو ساعتينِ؛ ثمّ تعودُ إلى منزلِها.

وكانتْ لا تزالُ ترى في المقصورةِ المجاورةِ لمقصورَتِها كلّما ذهبتْ إلى الملعبِ فتًى في زيّ أبناءِ الأشرافِ وشمائلِهِمْ، لا يزالُ يخالِسُها النظرَ من حينٍ إلى حين؛ فينظرُ إليها إنْ غَضّتْ عنه، ويُغْضي عنها إنْ نظرتْ إليه؛ ولا يلتقي نظرُها بنظرِه، حتّى يتلهَّبَ وجهُه حمرةً، ويرفضّ[3] جبينُه عرقًا؛ كأنّما جنى جنايةً لا مَقِيلَ له منها؛ فلمْ تحفَلْ به كثيرًا لأنّها لم ترَ في أمرِهِ شيئًا جديدًا؛ إلّا أنّها كانتْ تعجبُ لسكونِهِ وجمودِه، وطولِ إغضائِهِ وإطراقِه، ولتلكَ العَبْرةِ من الحزنِ المنتشرةِ على وجهِه.

وكانَ أكثرُ ما يدهِشُها منه أو يعجِبُها أنّه الفتى الوحيدُ الذي كان يبكي في ذلكَ المجتمعِ لمنظرِ المشاهدِ المحزنةِ ا لتي تُمَثَّلُ على مسرحِ التمثيلِ، لأنّها تعلمُ أنّ الفتيان الفرحينَ المغتبطينَ بشبابهم وصَحّتِهم لا يحفلونَ بمناظرِ الشقاءِ الحقيقيّةِ، فأحرى أنْ لا يحفَلوا بتمثيلِهَا.

---

(١) روّح عنه: تنفّس عنه ما يضيقه.
(٢) تفرج: طلب ما يفرّج عنه.
(٣) ارفضّ: رشح.

فإنّها لَخاليَةٌ بِنفسِها في مقصورَتِها ذاتَ ليلةٍ، وكانَ الجوّ باردًا مقشعرًّا إذْ فاجأَتْها نوبةُ سعالٍ اشتدّتْ عليها كثيرًا، حتّى كادتْ تسقُطُ عن كرسيّها ضعفًا ووهنًا، فشعرتْ بيدٍ تمسكُ يدَها، فاعتمدَتْ عليها دونَ أن تستطيعَ الالتفاتَ إلى صاحِبِها، حتّى بلغتْ عَرَبَتَها، فركِبَتْهَا، فشعرتْ بالراحةِ قليلًا، فالتفَتَتْ لتشكرَ لصاحبِ تلكَ اليدِ يدَه، فلم ترَ أمامَها أحدًا، ورأتْ على بعدِ خطواتٍ منها إنسانًا منصرفًا، فلم تتمكّنْ من رؤيتِهِ، إلّا أنّها تخيّلَتْ صورَته تخيُّلًا؛ فعجبتْ لأمرِهِ، ومضَتْ في طريقِهَا.

فما وصلَتْ إلى منزلِها، حتّى شعرتْ برعدةِ الحمّى تتمشّى في أعضائِها، فلزمَتْ سريرَها بضعةَ أيّام لا تفارقُهُ، حتّى أبلّتْ قليلًا، فقدّمَتْ إليها خادمَتُهَا بطاقاتِ الزيارةِ التي تركَهَا الفتيانُ الذين زارُوها في أثناءِ مرضِهَا تجمّلًا وتلوّمًا، فلم تقرأ واحدةً منها.

ثمّ حدّثَتْها الخادمُ أنّ فتًى كانَ يأتي للسؤالِ عنها في كلّ يوم مرّةً أو مرّتين، ولا يذكُر اسمَه، ولا يترُكُ بطاقَتَه، وأنّه كانَ ينقبِضُ انقباضًا شديدًا كلّما أَخبَرَتْهُ أنّها لا تزالُ طريحةَ فراشِها تشكو وتتألّم، فاستوصَفَتْهَا إيّاهُ، فوصفَتْهُ لها، فلم تعرفْه، وعجبَتْ لأمرِه كلّ العجبِ، وتمنّتْ لو رأتْه، فشكرَتْ له هذا الإخلاصَ النادرَ الذي لا عَهْدَ لها به في أحدٍ من الناس.

وأمرتْ خادمَتَهَا أنْ تخبرَها خبرَه إنْ جاءَ للسؤالِ عنها مرّة أخرى، فلمْ يلبثْ أنْ جاءَ، وكانتْ مرغريتُ جالسةً في شرفةِ المنزلِ المطلّة على الطريقِ، فرأتْهُ، فعرفَتْ أنّه ذلكَ الفَتى الحزينُ الذي كانتْ تراهُ في المقصورَةِ المجاوِرَةِ لمقصورَتِها في ملعبِ التمثيلِ، وأنّه صاحبُ تلكَ اليدِ التي امتدّتْ لمعونتِهَا ليلةَ النازلةِ التي نزلتْ بها هناك.

فأشارتْ إلى خادِمَتِهَا بالنزولِ إليه واستدعائِهِ إليها، ففعلتْ، فاضطربَ الفتى لهذه الدعوةِ اضطرابًا شديدًا حتّى كادَ يرفُضُهَا، ثمّ شعرَ بمكانِ مرغريتَ من الشرفةِ، فتلوّمَ ومشى وراءَ الخادمةِ حتّى صَعِدَتْ به إلى غرفةِ سيّدتِها، فتركَتْهُ وانصرفَتْ.

فدخَلَ عليها فحيّاها ووجهُهُ يرفضُ عَرَقًا ولسانُه لا يكادُ يبينُ، فمدّتْ إليه يدَهَا، فتناوَلَها، وقبّلَها قبلةً طويلةً عرفَتْ مرغريت سرَّ ما أودَعَها من عواطفِ قلبِهِ، وهيَ العالمةُ بأسرارِ القبلاتِ، ثمّ أذنَتْهُ بالجلوسِ، فجلسَ.

فأنشأتْ تسائِله عن نفسِهِ وعن قومِه، وعن سَببِ اهتمامِهِ بشأنِهَا، وتبتسِمُ له فيما بين ذلكَ ابتساماتٍ تلاطِفُه بها، وتمسَحُ عن فؤادِه ما ألمّ به من الروعِ. فحدّثَها أنّه غريبٌ عن باريس، وأنّه وَفَدَ إليها منذُ عشرينَ يومًا من بلدته «نيس»، ليقضِيَ فيها ثلاثةَ أشهرٍ أَذِنَ له أبوه بها، طلبًا لتغيير الهواءِ وترويحِ النفسِ، ثمّ يعودُ في نهايتها إلى وطنِه. فسألته: هل وَجَدَ المقامَ حميدًا هنا؟ فصمَتَ هنيهةً ثمّ نظرَ إليها نظرةً منكسرةً وقال: لا يا سيّدتي.

قالت: لماذا؟ فحارَتْ بين شفتَيْه كلمةٌ لمْ يستَطِعْ أنْ ينطقَ بها، فعادَ إلى صَمْتِهِ وإطراقِه. فأعادَتْ عليه سؤالها.

فقال لها: هل تأذنينَ لي يا سيّدتي أنْ أقولَ لكِ كلّ ما في نفسي.

فشعرتْ بما في نفسِه قبلَ أن يقولَه، وقالت له: قلْ ما تشاءُ، إلّا أنْ تطارِحَني حبّكَ وغرامَكَ، فإنّني امرأةٌ مريضةٌ، لا أستطيعُ أن أحتملَ الحياةَ وحدَها خالصةً لا مؤونةَ فيها، فأحرى أن لا أحتمِلُها مُثْقَلَةً بالحبّ والغرام.

فاصفرّ وجهُهُ اصفرارًا شديدًا، ومدّ يدَه إلى دمعةٍ تترقرقُ في عَيْنَيهِ، فمَسَحهَا ثمّ قال لها: ذلكَ ما يحزِنُني، يا سيّدتي، ويبكيني، وينغّصُ عليَّ عيشي منذُ هبطتُ باريسَ حتّى اليوم، فإنّني رأيتُكِ فأحبَبْتُكِ للنظرةِ الأولى. ثمّ سألتُ عنكِ، فعرفتُ من أمرِكِ كلّ شيءٍ، وعلمتُ أنّكِ تعيشينَ منذ شهورٍ عيشةً لا مطمعَ فيها لطامعٍ، ولا أملَ لآمل، فانقطعَ أملي منكِ، إلّا أنّ حبّي إيّاكِ لم ينقَطِع.

ثمّ رأيتُكِ بعدَ ذلكَ في ملعبِ التمثيلِ، ورأيتُ هذا القناعَ الأصفرَ الذي نَسَجَتْهُ يدُ المرضِ على وجهِكِ الجميلِ، فاستحال حبّي إيّاكِ رحمةً وشفقةً، وأصبحتُ أبكي لمرضِكِ أكثرَ ممّا أبكي لحبّك، وأصبَحَ كلُّ ما أتمنّى على اللهِ في حياتي أنْ أراكِ بارئةً ناعمةً، موفورًا لكِ حظُّكِ من سعادةِ العيشِ وهنائِه، ثمّ لا أطمعُ بعدَ ذلكَ في شيءٍ ممّا يطمعُ فيه المحبّون المغرمون.

فأنا أقِفُ الساعةَ بين يديكِ لا لأطارِحَكِ الحبَّ والغرامَ، بل لأسألَ أنْ تأذني لي بالوقوفِ على بابكِ كلّما جئتُه أسألُ خادمَتَكِ عنكِ، ثمّ أمضي لسبيلي من حيثُ لا ترينَ وجهي، ولا تشعرينَ بمكاني.

فسَرَتْ في أعضائِهَا رعدةٌ غيرُ الرعدةِ التي تعرفُهَا من الحمّى، وخُيِّلَ إليها أنّها تسمعُ نغمةً في الحبّ غيرَ النغمةِ التي كانتْ تسمَعُها من قبلِ اليوم من أفواهِ الرجال. فنظرتْ إليه نظرةً لا يعَلمُ تأويلَها إلّا الله تعالى. ثمّ قالت له: إنّي آذنُ لكَ بذلكَ، يا سيّدي، وأشكُرُهُ لكَ شكرًا جزيلًا، بل آذنُكَ أن تزورني كلّما شئتَ على أن تَفِدَ إليّ صديقًا مساعدًا، لا محبًّا مغرمًا، فإنّي إلى الأصدقاءِ المخلصين أحوجُ منّي إلى المحبّينَ المغرمين.

ومدّتْ إليه يدَها، فعلم أنّها قد أذنتهُ بالانصراف، فقبّلها، وانصرفَ مسرورًا مغتبطًا، فأتبَعَتْهُ نَظَرَها حتّى غابَ عنها، فسقطَتْ على وسادةٍ بجانبها وقالت: رحمتُكَ اللّهمّ فإنّي أخشى أن أُحِبَّه.

لقد أحبّتْهُ من حيثُ لا تدري؛ فإنّ الخوفَ من الحبّ هو الحبّ نفسُهُ، بل شعرتْ في حبّه بسعادةٍ لم تشعُرْ بمثلِهَا من قبلُ، فأصبحتْ تستقبِلُه كلّ يومٍ في منزلِها، وتأنسُ به، وبحديثِهِ أنسًا كثيرًا، وتفضِي إليه بذاتِ نفسِها إفضاءَ الصديقِ إلى صديقِه، وتقصُّ عليهِ قصّةَ ماضِيها وحاضِرِها لا تكذِبُهُ شيئًا ولا تكتُمُ عنهُ أمرًا.

ثمّ ترامى بها الأمرُ، حتّى أصبحَتْ تشعرُ بالوحشَةِ إن تخلّفَ عن ميعادِ زيارتِهِ بضعَ دقائق.

ثمّ حدَثَ أنِ انقطَعَ عن زيارتها ثلاثَة أيّام لأمرٍ عرضَ له لم يتمكّنْ من إخبارِها به. فحزنتْ لانقطاعِهِ حزنًا عظيمًا، وذهبَتْ بها الوساوسُ والظنونُ كلّ مذهبٍ، ثمّ ذَكَرَتْ أنّ ذلك الحزن

وهذا الوسواسَ ليسَ من شأنِها قبلَ اليوم، فقلقَتْ لذلكَ قلقًا شديدًا، وخفَقَ قلبها خفقةَ الرعبِ والخوفِ، وعلمَتْ أنّها قد وَقَفَتْ على حافّة الهوّةِ، ولم يبقَ إلّا أن تتردّى فيها، فسهرتْ ليلةً طويلةً عالجتْ فيها من نوازعِ النفسِ وخوالجِهَا ما عالجتْ، حتّى أصبحَ الصباحُ، وقد أضمرَتْ في نفسِهَا أمرًا.

جاءَ «أرمان» في صباحِ اليومِ الرابعِ، فوجدَهَا طريحةَ فراشِها، وفي عينَيْهَا حمرةُ البكاءِ والسهر!

فارتاعَ لمنظرِهَا وقال لها: لعلّكِ سهرتِ بالأمسِ كثيرًا يا سيّدتي، أو بكيتِ، فإنّي أرى في عينيكِ أثرًا واحدًا منهما؟

قالت: هما معًا يا أرمان.

قال: وهل حَدَثَ شيءٌ جديد؟

قالت: إجلسْ بجانبي قليلًا أيّها الصديقُ أحدِّثْك حديثًا قصيرًا، وربّما كانَ آخرَ حديثٍ بيني وبينَكَ، ثمّ لا أراكَ بعد ذلكَ ولا تراني.

فذُعِرَ ذعرًا شديدًا، وداخَلَهُ من الرعبِ والهولِ ما ملكَ عليه عَقلَهُ ولسانَه. فلم يستطعْ أن يقولَ شيئًا، وسقطَ بجانبها واهيًا متضعضعًا، وظلَّ ينظرُ إلى وجهِهَا نَظَرَ المتّهمِ إلى وجهِ قاضيهِ ساعة نطقِهِ بالحكم، فأقبلتْ عليهِ تحدّثُه وتقول:

عرفتكَ «يا أرمان» فعرفتُ فيكَ الرجلَ الكريمَ الذي أحبّني لنفسِي أكثرَ ممّا أحبّني لنفسِه، والصديقَ الوفيَّ الذي امتزجَتْ في قلبه عاطفةُ الحبّ بعاطفةِ الرحمةِ والحنانِ، فآوى إليّ مريضةً، حينما جفناني الناسُ لمرضي، وعاشَ معي بلا أملٍ، حينما انقطَعَ الناسُ عنّي لانقطاعِ أملِهِم منّي؛ فأضمرتُ لكَ في قلبي من الحبّ والاحترام ما لم أضمِرْهُ لأحدٍ سواكَ، وسعدتُ بكَ سعادةً لم أشعُرْ بمثلِهَا في يومٍ من أيّام حياتي، ولكنَّ اللهَ الذي كتبَ لي الشقاءَ في لوحِ مقاديرِه من ضجعَةِ المهدِ إلى رقدةِ اللحدِ، لم يشأْ أن يمتّعَني طويلًا بهذه السعادةِ، وأبى إلّا أن يسلبنِيها وشيكًا.

فقد أصبحْتُ أشعرُ منذُ أيّام أن تلكَ العاطفةَ الشريفةَ المقدّسةَ التي كنتُ أستمدُّ منها سعادتي وهنائي، قد أخذَتْ تستحيلُ في أعماقِ قلبي إلى عاطفةٍ أخرى غيرِها لا أريدُهَا لنفسي، ولا أرى إلّا أنّها ستكونُ سبَبَ شقائي وبلائي؛ فخادَعْتُ نفس عنهَا حينًا، أكذّبُها مرّةً، وأصدّقُها أخرى، حتّى كانَ ما كانَ من انقطاعِكَ عنّي تلكَ الأيّامَ الثلاثةَ.

فشعرتُ لغيابكَ بحزنٍ أقلقَني وأمضّني، ومَلَكَ عليَّ جميعَ عواطفي ومشاعري، ولو شئتُ أن أقولَ لقلتُ إنّه أبكاني كثيرًا، وأسهَرَني طويلًا، فعلمتُ والأسفاه أنّني قد أصبحتُ عاشقةً وأنّ هذا الذي يختلجُ في قلبي، ويقيمُني ويقعِدُني، إنما هو الحبّ والغرام، فقضيتُ ليلةَ الأمسِ كلّها أفكّرُ في طريقِ الخلاصِ من هذه النكبةِ العظمى التي نزلَتْ بي، فلم أجدْ أحدًا يخلّصني منها سواك.

فأنا أسألُكَ، يا أرمان، باسمِ الصداقةِ والودّ الذي تعاقدْنَا عليه بالأمسِ، بل باسم الدموعِ التي طالما كنتَ تسكبُهَا رحمةً بي وإشفاقًا عليَّ، أنْ تنقطِعَ عن زيارتي منذُ اليوم، وأَنْ تسافِرَ

إلى أهلِكَ الليلةَ إن استطعتَ، ثمّ لا تَعُدْ إليَّ بعدَ ذلكَ، فأحملُ نفسي على الصبرِ عنكَ حتّى يمنّ الله عليّ براحةِ اليأسِ منك.

ثمّ نظرَتْ إليه لترى ما يقولُ، فإذا هو جامدٌ مصفَرٌّ، كأنّ وجهَهُ وَجْهُ تمثالٍ منحوتٍ، وإذا عيناه شاخصتانِ إليها شُخُوصَ العينِ القائمة[1] التي تنظرُ إلى الشيءِ ولا تراه.

وبعد لأيٍ ما[2] استطاعَ أن يحرّك شفتيهِ ويقولَ لها بصوتٍ خافتٍ كصوتِ الضمير: وما يخيفُكِ من الحبّ ما مرغريت؟

قالت: يخيفُني منهُ العقابُ الأليمُ الذي أتوقّعُ أن يعاقبَني به اللهُ على ما اقترفتُ من الذنوبِ والآثامِ في فاتحةِ حياتي، فقد كتبَ اللهُ لنا معشرَ النساءِ الساقطاتِ في لوحِ مقاديره، أنْ لا نزالَ نعبثُ بقلوبِ الرجالِ وعقولِهم، ونبتلِيهم بصنوفِ العذابِ وأنواعِ الآلام، حتّى يغضبَ اللهُ لَهُمْ ويغارَ عليهم، فيبتلِينا بحبٍّ نَحْمِلُ فيه من العذابِ جميعَ ما حَمّلْنَاه من قبل، ونشقى فيه شقاءً لا ينتهي إلّا بانتهاءِ حياتِنا. فنموتُ بين يدي أنفسِنا مهملاتٍ مغفلاتٍ، لا ينعانا ناعٍ، ولا يبكي علينا باكٍ. فهذا الذي أخافُهُ وأخشاهُ، وأحبُّ أن يسبقَ إليّ أجلي قبلَ أنْ أراه.

أنا لا أتّهمكَ بالخيانةِ والغدرِ، يا أرمان، فأنتَ أجلُّ من ذلكَ عندي، ولكنّي أعلمُ أنّكَ باقٍ في هذا البلدِ إلى أجلٍ، فإذا انقضى الأجَلُ، سافرتَ إلى أهلِكَ سفرًا لا تملكُ بعدَه العودة إليّ. فإنْ أبيتَ إلّا البقاءَ بجانبي، حالَ أهلُكَ بينَك وبين ذلكَ، لأنّهم قومٌ شرفاءُ يضنّونَ بكَ وبشرفِكَ أن تُلَوِّثهُما امرأةٌ مومسٌ بعارِهَا وشَنَارها[3]، فلا تجدُ لكَ بدًّا من الخضوعِ لهم، والنزولِ على حكمِهِم.

وهنالكَ أقفُ موقفَ الحيرةِ واللوعةِ أطلبُ السبيلَ إليكَ، فَلا أجدُكَ، والسلوَّ عنكَ، فلا أستطيعُه، وربّما حاولتُ بعدَ ذلكَ العودةَ إلى كنفِ ذلكَ الشيخِ الكريم الذي أحسنَ إليّ إحسانًا كبيرًا، فطردَني من بين يديهِ عقابًا لي على خيانةِ عهدِهِ وكفرِ نعمته، فلَا أجدُ لي بدًّا من الرجوعِ إلى حياتي الأولى - حياةِ الشرورِ والآثام، والهمومِ والآلامِ - التي أبغضُها بُغْضَ الأرضِ للدم. وهنالك العذابُ الدائمُ والشقاءُ الطويل.

إنّي أعلمُ، يا أرمان، أنّك تحبّني حبًّا جمًّا، وأنّكَ ستكابدُ في ابتعادِكَ عنّي عذابًا كثيرًا. ولكنّي أعلمُ أنّ لكَ قلبًا شريفًا يحتملُ العذابَ في سبيلِ الرحمةِ. فاحتملْ هذا العذابَ من أجلي، فإنّكَ أقدرُ منّي على احتمالِ الآلامِ والأوجاعِ، وسأدعو اللهَ تعالى ليلي ونهاري أن يمنَحَني الصبرَ عنكَ، ويرزقَني راحةَ النفسِ، وسكونَهَا من بعدِكَ، وأن يمنحَكَ من ذلكِ مثلَ ما يمنحُني؛ فلعلّه يرحَمُنا جميعًا.

فلم يَكُنْ له جوابٌ على كلمتِهَا هذه سوى أنْ نهضَ من مكانِهِ متضعضعًا متهالكًا، ومشى إلى بابِ القاعةِ يسوقُ نفسَه سَوقًا حتّى بلَغه، فوقَفَ على عتبتِه، والتفَتَ إلى مرغريت، وألقى عليها تلكَ

(١) العين القائمة: التي ذهب نورها وبقيت حدقتها صحيحة.

(٢) اللأي: الجهد والمشقة.

(٣) الشنار: الأمر المعيب.

النظرةَ التي يلقيها المحتضرُ على أهلِهِ في آخرِ لحظاتِ حياتِه وقال لها: الوداعُ يا مرغريت! ومضى.

فما غابَ شخصُه عن عينَيها، حتّى نهضَتْ من فراشِها هائمةً مختبلةً[١]، واندفعتْ إلى البابِ تريدُ اللحاقَ به، ثمّ تراجعَتْ، ثمّ حاولتْ ذلكَ مرّة أخرى؛ فأدركَها رُشْدُها وأناتُها، فعادَتْ إلى فراشها، تبكي، وتنتحبُ، وتعولُ إعوالًا شديدًا، وتدورُ في أنحاءِ الغرفةِ دورانَ الثاكلةِ المفجوعةِ، وهي تصيح: أرجعوه إليّ، لا أستطيعُ فراقَه، سأموتُ من بعده.

وإنّها لكذلكَ إذْ سمعتْ صرخةً عظمى آتيةً من ناحيةِ الحديقةِ، فخرجَتْ تعدو إلى حيثُ سمعتِ الصوتَ حتّى بلغتْ بابَ المنزل، فرأتْ أرمان ساقطًا تحتَ عتبتِه مغشيًّا عليه، فرفعَتْ طرفَهَا إلى السماءِ وقالت: ليكُنْ ما أرادَ الله، ثمّ ألقَتْ نفسَها عليهِ ولثَمَتْهُ في ثغرِه لثمةً هي أوّلُ لثمةٍ ذاقَتْ فيها لذّةَ العيشِ في حياتها، فشعرَ بها أرمان، فاستفاقَ وضمّها إلى صدرِه ضمّةً لو ماتَ على أثرِهَا ما بكى على شيءٍ من نعيمِ الدنيا وهنائِها.

* * *

انقضَى الشتاءُ فانقضَى بانقضائِه شقاءُ «مرغريت» وعناؤها، فقد أبلّتْ من مرضِهَا، وأصبحَتْ سعيدةً بحبّها، فلم يبقَ بين يديها إلّا أنْ تبلغَ من تلكَ السعادةِ نهايتَهَا، فاقترحَتْ على أرمان أن يتركَا باريس وضوضاءَها، ومزدحَمَ الحياةِ فيها إلى مصيفٍ يختارانِه لنفسِهما في بعضِ الأماكنِ الخاليةِ، فَقَبِلَ مقترحَهَا.

وسافرا معًا يفتّشانِ عن المكانِ الذي يريدانِ، حتّى بلغا قرية «بوجيفال»، وهي ضاحيةٌ من ضواحي باريس على بعدِ ساعتينِ منها، فوجَدَا في بعضِ أرباضِها[٢] منزلًا صغيرًا منفردًا واقعًا على رأسِ هضبةٍ عاليةٍ في سفحِ جبلٍ مخضرّ تجري من تحتِهِ بحيرةٌ صافيةٌ بديعةٌ كأنّما بناهُ بانيهِ لهما. فاكترَياه، ونقلتْ «مرغريت» إليه من منزلها في باريس بعضَ ما يحتاجانِ إليه من أثاثٍ ومتاع، ثمّ عاشا فيه بعدَ ذلكَ عيشًا ناعمًا هنيئًا، لا تضطربُ في سمائِه غيمةٌ، ولا تمرّ بصفحَتِه غبرةٌ، ولا يكدّرُ عليهما مكدّرٌ من خواطرِ الشقاءِ ووساوسِه.

فكانا يقضيانِ نهارَهما صاعدينِ إلى قمّةِ الجبلِ، أو منحدرينِ إلى سفحه، أو راكبينِ زورقًا صغيرًا يسبَح بهما على صفحةِ البحيرةِ جيئةً وذهوبًا، أو جالسينِ تحتَ شجرةٍ فرعاءَ تظلّلهما من لفحاتِ الهجيرِ، وتضمّهما إليها ما تضمّ ثمارَهَا، أو مضطجعينِ على بساطٍ من العشبِ الممتدّ في تلكَ البطحاءِ الفسيحةِ، يتناجيانِ، ويلهوانِ بمنظرِ الجمالِ الماثلِ في الشاطىءِ، والأمواهِ[٣] والأخاديدِ، والوديانِ، والغاباتِ، والحرجاتِ، والكهوفِ والأغوارِ، والغيومِ، والسحبِ، والأضواءِ في تشكّلِهَا وتلوّنها، والظلالِ في نحولِها وانتقالِها.

وفي رؤوسِ الجبالِ اللاصقةِ بجلدةِ السماءِ كأنّها بعضُ سحبِهَا، وفي قطعِ الصخورِ المبعثرةِ

---

(١) مختبلة: فاقدة عقلها.

(٢) أرباض المدينة: البيوت المحيطة بها.

(٣) الأمواه: جمع ماء.

على جوانبِ الغدرانِ كأنّها بعضُ أمواجِها، وفي تلكَ المعركةِ التي تدورُ في كلّ يوم مرّتين بين جيشي الأنوار والظلماتِ، فينتصرُ في صدرِ النهارِ أولهما، ثمّ يُدَالُ[1] في آخرِه لثانيهما، حتّى إذا جاءَ الليلُ عادا إلى منزلِهما، فنعمَا فيه بألوانِ النعيم وضروبِهِ، ورشَفَا من كلِّ ثغرٍ من ثغورِ السعادةِ رشفةً تسري حلاوَتُها في قلبهما، حتّى تصيبَ صميمَه.

مرّ بهما على ذلكَ عامٌ كاملٌ هو كلُّ ما استطاعَا أن يختلسَاه من يدِ الدهرِ في غفلَتِه، ثمّ انتبَه لهما بعد ذلكَ - وويلٌ للسعداءِ من انتباهِهِ بعد إغفائِهِ - فقد نَضُبَ أو أوشَكَ أن ينضُبَ ما كانَ في يدِ أرمان من المالِ، وكانَ في يدِهِ الكثيرُ منه.

فكتَبَ إلى أبيه يطلبُ إليه أن يبعثَ إليهِ بما يستعينُ على البقاءِ في باريسَ مدّةً أخرى، زاعمًا أنّه لا يزالُ مريضًا متألّمًا، لا يستطيعُ السفرَ، وكذلكَ كانَ يفعلُ من حينٍ إلى حين. فلم يأتِهِ الردُّ، فأقلقَهُ ذلكَ قلقًا شديدًا، وظلّ يختلفُ إلى المدينةِ في كلّ يوم يسألُ في فندق «تورين» الذي كانَ ينزلُ به قبلَ اتّصالِهِ بمرغريت عن الكتابِ الذي ينتظرُه فلا يجِدُهُ، فيعودُ حزينًا منقبضًا، حتّى إذا وصلَ إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديهِ تَطَلّقَ، وَتَبَسّمَ كأنّه لا يضمُر في نفسِه همًّا قاتلًا، ولكنّ عينَ مرغريت أقدرُ من أن يعجزَها النفاذُ إلى أعماقِ قلبِهِ، فاكتنَهَتْ سرّه، فكاشَفَتْهُ به وقالت: لا يحزنْكَ شأنُ المالِ يا أرمان، فإن عندي منه ما يكفِينا العيشَ معًا سنينَ طوالًا.

ولمْ تكنْ صادقةً فيما تقولُ لأنّ الدوق قاطَعَها ومنعَ عنها رفدَه مذْ عرفَ قصّتَها مع أرمان، وعلمَ أنّها خانَتْهُ وخانَتْ بعهدِه، بلْ كانتْ مَدِينةً بمالٍ كثيرٍ لبعضِ تجّارِ الجواهرِ والثيابِ، بل أصبحَ دائنُوها يتقاضُونها ديونَهم بعد ما علموا أنّ الدوق قاطَعَها، ونفضَ يدَه منها، ولكنّها خاطرتْ بكلمتِهَا مخاطرةً لم تفكّرْ في عاقبَتِهَا، فأكبرَ أرمان ذلكَ وأعظَمَه، وأَنِفَ منه أنفةً شديدةً، وأبى أن يعيشَ معها بمالٍ غيرِ ماله، وعزَمَ أن يسافرَ إلى «نيس» ليأتيَ منها بالمالِ الذي يريدُه.

فأزعَجَهَا عَزْمُهُ هذا إزعاجًا شديدًا وخافتْ عاقبتَه، فجثَتْ بين يديهِ تستعطفُه، وتسترحِمُه، وتبذلُ في ضراعَتِها، ورجائِها في سبيلِ بقائِه أكثرَ ممّا بذَلتْ قبلَ اليومِ في سبيلِ رحيلِه، حتّى أذعَنَ واستقادَ، ورضيَ بالتي لم يكنْ يرضَى بمثلِها، لولا لهفةُ الحبّ وضراعةُ الدموعِ.

وقد أضمرَ في نفسِه أن يتنازلَ لها عن نصيبهِ في الميراثِ الذي ورثَه من أمّه مكافأةً لها ووفاءً بحقّها، فلم يكنْ لمرغريت بعدَ ذلكَ بدٌّ من أن تمدَّ يدَها إلى جواهرِها وذخائرِها، فأنشأتْ تبيعُ القطعةَ بعدَ القطعةِ، لتسدّ بعضَ دينِها، وتقومَ بنفقةِ بيتِهَا، من حيثُ لا يعلم أرمان. واستمرّا على ذلكَ بضعةَ أشهرٍ حتّى دخلَ عليهما في يوم من الأيّام في ساعاتِ أنسهما وصفائهما خادمُ فندقِ «تورين» الذي كان ينزلُ به أرمان في باريس، وقال له: إنّ والدَه قد وصَلَ الساعةَ إلى الفندق، وإنّه ينتظِرُه هناك.

* * *

(١) يدال: ينتقل أمره من يد إلى أخرى.

قال دوفال لولدِه: لقد كذبتَ عليّ كثيرًا يا أرمان؛ وما كنتَ قبلَ اليوم كذّابًا، ولا خادعًا؛ ورضيتَ لنفسِكَ بحياةٍ كنتَ أضنَّ الناسِ بنفسِكَ على مثلها من قبْلُ؛ ومزّقْتَ بيدِكَ ذلكَ القناعَ الجميلَ من الحياءِ الذي لا يزالُ مسبلًا على وجهِك؛ وأصبحْتَ تتبذّلُ في العيشِ مع امرأةٍ عاهرةٍ كلُّ ما لها من الشأنِ عندَ نفسها، وعندَ الناسِ جميعًا أنّها نفايةٌ من نفاياتِ الرجالِ، وفضلةٌ من فضلاتِ الفسّاقِ[١]، وفتاتُ المائدةِ العامّةِ التي يجلسُ عليها الناسُ جميعًا صباحَهُمْ ومساءَهُم، فحسبُكَ هذا، وَقُم الساعة لتُعِدَّ نفسَك للسفرِ معي إلى «نيس»، فلستُ بتاركِكَ بعدَ اليوم في هذا البلدِ ساعةً واحدة.

فرفعَ «أرمان» رأسَه إلى أبيهِ؛ وقالَ له بصوتٍ هادئٍ مطمئنٍّ: لا أستطيعُ يا أبتاه!.

فنظرَ إليهِ أبوه نظرةً شزراءَ[٢] وقال له: وتلكَ سيّئةٌ أخرى، فقد أصبحتَ لا تَعْبَأُ بي؛ ولا تبالي بمخالفةِ أمري من أجلِ امرأةٍ ساقطةٍ لا شأنَ لها معكَ إلّا أنْ تعبثَ بعقلِكَ؛ وتسلبَكَ مالَكَ وشرفَكَ؛ وتفسدَ عليكَ حاضِرَكَ ومستقبلَكَ.

قال: لا، يا أبتاهُ، إنّها ليستْ بعابثةٍ ولا خادعةٍ، ولكنّها تحبّني حبًّا جمًّا لم يحبّهُ أحدٌ من قبلها أحدًا، وأحسبُ أنّي إنْ فارَقْتُهَا قَتَلْتُهَا، وجنيتُ عليها جنايةً لا يفارِقُني الندمُ عليها حتّى الموت.

قال: ذلكَ ما يخدَعُ به أمثالُها أمثالَكَ، فليسَ للنساءِ العاهراتِ قلوبٌ يحببنَ بها، بل لهنّ ألسنٌ يَخْتُلْنَ[٣] بها الرجالَ، ويُسْبِلْنَهَا حُجُبًا بين بعضِهم بعضٍ! حتّى يظنَّ كلُّ واحدٍ منهم أنّه الأثيرُ عندها، وصاحبُ الحظوةِ لديها، من دون أصحابِهِ جميعًا.

قال: ربّما كانَ ذلكَ شأنَها قبلَ اليوم، أمّا اليومَ فهي لا تحبُّ أحدًا غيري، بل لا تعرفُ أحدًا سواي، فهي تعيشُ عيشةً تشبهُ عيشَةَ النساءِ الشريفاتِ، بل أشرفَ من عيشةِ الكثيراتِ منهنّ، لأنّ الخليلةَ التي تُخْلِصُ لخليلِهَا، أشرفُ من الزوجةِ التي تخونُ زوجَهَا، وأخشى إنْ فارَقْتُهَا أن تثورَ في نفسِها ثورةٌ من ثوراتِ اليأسِ، فتردَّها إلى تلكَ الحياةِ الأولى حياةِ الشرِّ والفسادِ، والشقاءِ والعذابِ، بعد ما استنقَذَتْ نَفْسَها.

قال: وهل ترى أنّ وظيفةَ الرجلِ الشريفِ في هذه الحياةِ إصلاحُ النساءِ الفاسداتِ؟

قال: ذلكَ خيرٌ له من أنْ تكونَ وظيفَتُهُ إفسادَهُنّ، فإنّ الأشرافَ في هذا العصرِ يفخرونَ بإفسادِ النساءِ الصالحاتِ، واستدارجهنّ إلى مواطنِ الفسقِ والفجورِ. وإصلاحُ المرأةِ الفاسدةِ، أدنى إلى الشرفِ من إفسادِ المرأةِ الصالحةِ.

قال: لقد أصبحتَ كثيرَ الرحمةِ، يا أرمان.

قال: لِمَ لا أرحَمُ فتاةً مريضةً مسكينةً ليس لها في الناسِ من يعولُهَا من ذي قرابةٍ أو ذي رَحِمٍ؟ وقد نزل داؤها من صدرِهَا منزلةً لا يبرحُهَا ولا يتحلّل عنها، إلّا أنْ يهدأَ عنها حينًا ويستيقظَ

---

(١) الفسّاق: من الفسق، وهو الفجور. (٢) شزراء: غاضبة.

(٣) يختل: يخادع.

أحيانًا، فهي تكابدُ الألَمَ مرّة، والخوفَ من الألمِ أخرى، ولا عزاءَ لها في حالتَيهَا إلّا هذهِ السعادةُ التي تتوهّمُها في الحبّ، وترى أنّها ناعمةٌ بها، فإنْ فقدَتْها، فَقَدَتْ كلّ شيءٍ في الحياةِ وعَظُمَ حزنُها وبؤسُها، وثقلتْ وطأةُ الداءِ عليها حتّى كادتْ تأتي على البقيّةِ الباقيةِ من حياتِها.

فدعني معها، يا أبتَاهُ، عامًا آخر أو عامينِ أهوّنُ عليها فيهما شقاءَهَا، فربّما كانَ ذلكَ آخرَ ما قدّرَ لها أن تقضيهِ من أيّامِهَا في هذا العالمِ، ثمّ أعودُ بعد ذلكَ إليكَ هادئَ القلبِ ساكنَ الضميرِ، راضيًا عن نفسِي وعن عملي، أبكيها بدموعِ الحزنِ، لا بدموعِ الندمِ، ويهوّنُ وَجْدي عليها كلّما ذكرتُهَا أنّني لم أخُنْهَا، ولم أغدُرْ بعهدِهَا.

فأطرق دوفال هنيهةً كأنّما يعالجُ نفسِهِ همًّا معتلجًا[1]، ثمّ رفعَ رأسَهُ ونظرَ إلى ولده نظرةً تشبهُ نظرةَ العطفِ والرحمةِ وقال له: لا أستطيعُ أنْ أسافِرَ بدونِكَ يا بنيّ، فحسبي ما كابَدْتُ من الألمِ لفراقِكَ قبلَ اليوم، وقد تركتُ أختَكَ ورائي تندُبُكَ، وتبكي عليك صباحَهَا ومساءَهَا، وتحنُّ إلى لقائِكَ حنينَ الظامىءِ إلى الورودِ.

واعْلَمْ أنّ جميعَ ما تعتذرُ به عن نفسِكَ في هذا الشأنِ لا يُغْنِي عنكَ ولا عنّي شيئًا، يومَ يقولُ الناسُ كلمتَهُمْ التي لا بدّ أن يقولوها غدًا. وربّما قالَ كثيرٌ منهم قبلَ اليوم: إنّ أرمان دوفال سلالةَ آل تاليراند يعيشُ مع امرأةٍ مومسٍ في بيتٍ واحدٍ.

فَعُدْ إلى نفسِكَ، يا بنيّ، واستلهِمِ اللهَ الرشدَ يلهمْكَ، ولا تجعلْ لهواكَ سبيلًا على عقلِكَ، ودَعْ هذه الحياةَ الساقطةَ التي يحياها من ليسَتْ له همّةٌ مثلُ همّتِكَ، ولا مجدٌ، ولا بيتٌ مثلُ مجدِكَ وبيتِكَ. وإنّي تاركُكَ الآنَ وحدَكَ، وذاهبٌ عنك لبعضِ شأني لتخلُوَ بنفسِكَ ساعةً تستردُّ فيها ما غَرُبَ عنكَ من صوابِكَ، ثمّ أعودُ إليكَ بعدَ قليلٍ، لأسمعَ منكَ الكلمةَ التي أرجو أن تكونَ شفاءَ نفسي، ورواءَ غلّي.

ثمّ تركَهُ ونزلَ، فمشَى إلى قهوةٍ قريبةٍ من الفندقِ، فكتَبَ فيها لبعضِ الناسِ كتابًا خاصًّا، ثمّ طافَ ببعضِ أصدقائِهِ الذينَ يعرفُهُم في باريس، فزارَهُم زيارةً طويلةً؛ فلمْ يعُد إلى الفندقِ حتّى أظلّ الليل فرأى أرمان لا يزالُ في مكانِهِ.

فسأله: ماذا رأى؟

فلم يُجِبْهُ إلّا بدموعِهِ، تنحدرُ على خدّيه تَحَدُّرَ القطرِ على أوراقِ الزهرِ، وجثَا بين يديهِ يستعطِفُه، ويسترحمُهُ، ويكشفُ له من خبيئَةِ نفسهِ ما كانَ يكتُمُه من قبل، ويقول: واللهِ، يا أبتِ، لو علمتُ أنّي أستطيعُ الحياةَ بدونِهَا، لفارَقْتُهَا برًّا بكَ، وإيثارًا لطاعتِكَ؛ ولكنّي أعلمُ أنّي إنْ فعلتُ فقد وَضَعْتُ أمري في موضع الغرر[2]، وخاطرتُ بعقلي أو بحياتي مخاطرةً لا أعلَمُ ماذا يكونُ حظّي فيها، ولا أحسَبُهُ إلّا أسوأَ الحظينِ، وأنحسَ النجمينِ.

ولو أنّ أحدًا من قَبْلي استطاعَ أن يدفعَ هواهُ عن قلبِهِ، أو يمحُوَ ما قُدّرَ له في صحيفةِ

---

(١) اعتلج: اضطرب، تلاطم.

(٢) الغرر: التعرض للهلكة.

قضائِه من شقاءِ الحبّ وبلائِه، لسلكْتُ سبيلَه التي سلَكَهَا. ولكنّه بلاءٌ بُليتُ به لحيْنِ أُرِيدَ لي، فلا رأيَ لي في ردّه، ولا حيلةَ لي في اتّقائِهِ، وقد نزلتْ هذه الفتاةُ من نفسي منزلةً هي منزلةُ الحياةِ من الجسم، والغيثِ من التربةِ القاحلةِ. فإنْ كنتَ لا بُدَّ آخذي فَخُذْ معَكَ جسمًا هامدًا لا حراكَ به، ونبتةً ذاويةً لا حياةَ فيها.

فوضع أبوه يدَهُ على عاتِقِهِ، وقال له: قُم الآنَ، يا بنيّ، واذهبْ لشأنِكَ، وَعُدْ إليّ صباحَ الغدِ لأُتمّمَ حديثي معكَ، وأرجو أن تكونَ في غَدِكَ خيرًا منكَ في أمسك.

فخرجَ محزونًا مكتئبًا يمشي مشيةَ الذاهلِ المشدوهِ، لا يرى ما أمامَهُ، ولا يشعُرُ بما حولَهُ، حتّى رأى عربةً، فركِبَهَا إلى بوجيفال، حتّى بلغَهَا بعْد هدأةٍ من الليلِ، فلم يرَ مرغريت في شرفةِ البيتِ تنتظرُه كعادَتها.

فدخلَ عليها غرفَتَها، فرآها مكبّةً على منضدةٍ بين يديها كأنّما هي نائمةٌ أو ذاهلةٌ، فشعرتْ به عندَ دخولِهِ، فنهضتْ مذعورةً متلهّفةً، فخُيِّلَ إليهِ عندَ نهوضِهَا أنّه لمحَ في يدِهَا رسالةً تضمّ عليهَا أصابعَهَا، فظنّها بعضَ تلكَ الرسائلِ التي كانَ يرسلُها إليها المركيز «جان فيليب» من حينٍ إلى حينٍ، وهو فتًى من أبناءِ الأشرافِ الأثرياءِ كان يحبُّها في عهدِها الأوّل حبًّا شديدًا، وينفقُ عليها أموالًا طائلةً، فلمّا انقطعَتْ عنه، لم ينقَطِعْ منها أَمَلُهُ.

فظلّ يرسِلُ إليها رسائلَ كثيرةً يعرضُ فيها حبَّهُ ومالَه، ويمنّيها الأماني الحسانَ في عودَتها إليه، واتّصالِ حياتِها بحياتِه، فكانَتْ تمزّقُها عندَ اطّلاعها عليها أو على عنوانِها. فلم يحفَلْ أرمان بذلكَ، ومشى إليها فقبّلَها، فقالتْ له: ماذا جَرى يا أرمان؟

قال: أرادني أبي على السفرِ معهُ، فأبيتُ وبكيتُ بينَ يديهِ كثيرًا، فلمْ أنلْ منهُ منالًا، وقد أَمَرني بالعودةِ إليهِ غدًا، ولا أريدُ أن أفعلَ، لأنّي لا أجدُ حظّي منه في الغدِ خيرًا منهُ اليومَ، وقد أصبحَتْ نفسي تحدّثني بعصيانِهِ، والبقاءِ هنا على الرغم منه، لأنّي أعلمُ أنّي قد تجاوَزْتُ السنّ التي يحتاجُ فيها الأبناءُ إلى إرشادِ الآباءِ، ولأنّي لا أَعرفُ أحدًا بين الناسِ يستطيعُ أن يرسُمَ لي خطّةَ سعادتي كما أرسمُهَا لنفسي.

ثمّ أنشأ يقصُّ عليها قصّته مع أبيهِ حتّى أتمّها. ونظرَ إليها، فإذا هي مطرقةٌ صامتةٌ، وإذا وجهُهَا أصفرُ مربدّ[1] كأنّما قد نفضَ الموتَ عليه غبارَه.

فقال: ما بالُكِ يا مرغريت؟

قالت: أشعرُ بألمٍ شديدٍ في رأسي، وأريدُ الذهابَ إلى مخدعي.

فأخذَ بيدِهَا إليه، وجرّعها بضعَ قطراتٍ من الدواءِ فاستفاقَتْ قليلًا، ثمّ نامَتْ في مخدعِهَا نومًا مشردًا مذعورًا تتخلّله أنّاتٌ طويلةٌ وأحلامٌ مزعجةٌ.

حتّى أصبحَ الصباحُ فقالت له: أرى لكَ، يا أرمان، أن تعودَ إلى أبيكَ كما أمرَكَ، وأن

(١) مربدّ: بلون التراب.

تعاوِدَ استرحَامَهُ، واستعطافَهُ لعلّكَ بالغٌ منه اليومَ ما عجزتَ منه بالأمسِ، إنّي لا أكونُ راضيةً عن نفسي، ولا هانئةً بحياتي، إنْ لم يكن أبوكَ راضيًا عنك.

ولم تزلْ به حتّى أذعَنَ لها وقامَ إلى ثيابِهِ فارتدَاها، ثمّ مشى إليها، وضمّها إلى صدرِهِ ضمّةً شديدةً كأنمّا يضنّ بها أن ينتزعَهَا من ذراعيهِ منتزعٌ، ثمّ قبّلها وقال لها: إلى المساءِ يا مرغريت.

فلم تردّ عليه تحيّته حتّى أبعدَ عنها، فقالتْ بينها وبين نفسها: أرجو أن يكونَ كذلكَ. وتهافَتَتْ على كرسيٍّ بين يديها باكيةً منتحبة.

ولم يزلْ أرمان سائرًا في سبيلِهِ حتّى وصلَ إلى باريس، فذهَبَ إلى فندق «تورين»، فلم يجدْ أباهُ هناكَ، ووجدَ رسالةً تركَها له قبلَ ذهابِهِ يأمرُه فيها أن ينتظِرَهُ حتّى يعودَ.

فلبثَ ينتظرُه وقتًا طويلًا حتّى عادَ بعد منتصفِ النهارِ، وقد رَقّتْ قليلًا تلك الغمامةُ السوداءُ التي كانتْ تلبسُ وجهَهُ بالأمسِ.

فتقدّم نحوه أرمان، فحيّاه، فقال له: لقد فكّرتْ ليلةَ أمسِ في أمرِكَ كثيرًا، يا بنيّ، فرأيتُ أنّي قد قسوتُ عليكَ، وغلوتُ في أمرِكَ غلوًّا كبيرًا، ونظرْتُ إلى مسألتِكَ بعينٍ أقصرَ من التي كانَ يجبُ عليّ أن أنظرَ إليها. فإنّ للشبابِ شأنًا غيرُ شأنِ الكهولةِ والشيخوخةِ، وحالًا خاصّةً به، لا يخرجُ عن حُكْمِهَا شريفٌ ولا وَضِيعٌ، ولا يختلفُ فيها سوقةٌ عن مَلِكٍ، فَلَكَ أن تبقى، يا بنيّ، كما تشاءُ، وأن تعاشرَ الفتاةَ التي تحبّها كما تريدُ، على أن تعِدَني بالعودةِ إليّ في اليوم الذي تنقطعُ فيه الصلةُ بينَك وبينَها انقطاعَ حياةٍ أو موتٍ. فإنّي إن أمنتُ عليكَ شرّها، فلا آمَنُ عليكَ شرّ غيرِها من النساء.

فاستطيرَ أرمان فرحًا وسرورًا، وأهوى على يدِ أبيهِ، يقبّلُها ويبلّلها بدموعِهِ ويقول: أعدُكَ بذلكَ، يا أبتاه، وعدًا لا أخالِفُه، ولا أخيس[1] به، ولكَ حكمُكَ ما تشاءُ إنْ رأيتني بعدَ اليومِ كاذبًا أو حانثًا[2].

ثمّ نهضَ يريدُ الذهابَ فقال له: أينَ تريدُ؟

قالَ: أريدُ الذهابَ إلى مرغريرت لأبشّرَها بهذا النبأ، وأمسحَ عن فؤادِها ما ألَمّ بهِ من الروعِ منذُ الأمس.

فانتفضَ أبوه انفاضةً خفيفةً لم يشعُرْ بها أرمان، ثم أدارَ وجهَه ليغالبَ دمعةً كانتْ تترقرقُ في عينيهِ، ثمّ التفَتَ إليه، وقال: ابقَ معي اليومَ يا بنيّ فربّما سافرتُ غدًا، ولا أعلمُ بعد ذلكَ متى أراكَ.

فبقيَ معه اليومَ كلّه حتّى جاءَ الليلُ، فاستأذَنَه في الذهابِ إلى بوجيفال فأذنَ له، فحيّاه وخرجَ؛ فأتبَعَهُ نظرَهُ حتّى غابَ عن عَيْنَيْهِ؛ فانحدَرَتْ من جفنِهِ تلكَ الدمعةُ التي كانَ يحبسُهَا من قبلُ، وقال: وارحمَتَاهُ لكَ أيّها الولدُ المسكين!

* * *

(١) خاس: كذب.

(٢) الحانث: الذي لا يفي بالوعد.

حمل أرمان بين جنبيه آمالَهُ وآمالَ مرغريت وسعادَتَهما التي يرجوانِها في مستقبلِ حياتِهما، وطارَ بها إليهَا ليقاسِمَها إيّاها حتّى دنا من بوجيفال، فأدهشَهُ أنْ رأى البيتَ مظلمًا ساكنًا، لا يضطربُ فيه شعاعٌ، ولا يتراءَى فيه ظلّ؛ فمشى إلى البابِ، فرآه مرتجًا[1]، فوضَع أذنَهُ على خصَاصِه[2]، فلم يسمعْ حركةً، فأخذَ يقرعُهُ قرعًا شديدًا، ويهتفُ باسم «مرغريت» مرّة واسم «برودنس» أخرى، فلم يجبْهُ أحدٌ، فقال في نفسه: لعلّها ذهبتْ إلى بيتِهَا في باريس لبعضِ شأنِها واستصحَبَتْ خادِمَتَها، ولا بدّ أن تعودَ الآن.

فجلسَ على صخرةٍ أمامَ بابِ المنزلِ ينتظرُها حتّى مَضَتْ هدأةٌ من الليلِ، فلم تَعُدْ. فحدّثَتْهُ نفسُه بالعودةِ إلى باريس للبحثِ عنها في مظانِّ وجودِها، ثمّ منعه من ذلك خوفُه أن يسلُكَ في ذهابه طريقًا غيرَ الطريق التي تسلكُها في عودَتِها، فاستمرّ في مكانِه يقعدُ مرّة، ويقومُ أخرى، ويقفُ حينًا ويتمشّى أحيانًا، ويحدّثُ نفسَه بكلِّ حديثٍ يمرّ بخاطرِ القَلِقِ المُرْتاعِ، إلّا حديثَ خيانَتِهَا وغدْرِهَا، ولم يزلْ في حيرتِه واضطرابِه، حتّى رأى جذوةَ الفجرِ تدبّ في فحمةِ الظلام، فساءَ ظنُّهُ، وانتشرَتْ عليه وساوِسُهُ وأوهامُهُ، وقال في نفسه: ما لمرغريت بدٌّ من شأنٍ، ولا بدّ لي من المصيرِ إليها، والنظرِ في الشأنِ الذي شغَلها! وكانَ القلقُ والسهرُ قد أخذا مأخذَهُما من جسمِهِ ونفسِهِ من حيثُ لا يشعر.

فمشى في طريقِه إلى باريسَ يترنّح تَرَنُّحَ الشاربِ الثمِلِ[3] حتّى وصَلَ إلى منزلِ مرغريت وقد علا صَدْرُ النهار؛ فرأى حارسَ المنزلِ قد استيقظَ من نومِهِ ووقَفَ بفأسِهِ على شجرةٍ من أشجارِ الحديقةِ، يشذّبُ أغصانَها، فسأله عن مرغريت، فقال: إنّها حضَرَتْ هنا بالأمسِ في منصرفِ النهارِ، ووراءَها خادمَتُها تحملُ حقيبةً كبيرةً، فصعدَتْ إلى المنزلِ. فلبثَتْ فيهِ ساعةً ثم نزلَتْ، وقد لبستْ ثوبًا من أثوابِ الولائِم، فأعطَتْني كتابًا، وقالتْ لي: إذا جاءَ هنا المسيو أرمان للسؤال عنّي، فأَعْطِهِ إيّاهُ، ثمّ ركبتْ عَرَبَتَها هي وخادمَتَهَا وانصرفَتْ. قال: ألا تَعْلَمُ أينَ ذهبتْ؟

قالَ: أحسبُ أنّي سمعتُها تقولُ للحوذيّ عندَ ركوبها «إلى منزلِ المركيزِ جان فيليب».

فجمدَ أرمان في مكانِهِ جمودَ الصنمِ، واستحالَ لونُهُ إلى صفرةِ الموتِ، ومرّ بخاطِرِه مرورَ البرقِ ذلكَ الكتابُ الذي رآه في يدِهَا بعدَ عودَتِه إليها من مقابلةِ أبيهِ، فتركَهُ الحارسُ مكانَهُ وذهَبَ إلى غرفتِهِ، وعادَ إليه بالكتابِ، فتناوَلَه منهُ بيدٍ مرتجفةٍ، ونشرَهُ وأمرَّ نظرَهُ عليه إمرارًا، فأحاطَ بما فيهِ للنظرةِ الأولى، فارتعَدَ جسمُه ارتعادًا شديدًا، وتراجَعَ خطوةً أو خطوتينِ إلى بابِ القصرِ، فأسندَ ظهرَه إليهِ، وأعادَ قراءَتَه فإذا هو مشتملٌ على هذه الكلمات:

«هذا آخرُ ما بيني وبينَكَ يا أرمان؛ فلا تحدّثْ نفسَكَ بمعاودةِ الاتّصالِ بي، ولا تسألْني عن السببِ في ذلكَ، فلا سبَب عندي إلّا أنّي هكذا أردتُ لنفسي. والسلام».

---

(١) المرتج: المقفل. (٢) الخصاص: الخرق في الباب.

(٣) الثمل: السكران.

فعلقَ نظرُهُ بالكتابِ ساعةً لا يرفَعُ طرفَهُ عنه، ولا يقرأُ منه حرفًا، كأنّما هو تمثالٌ من تماثيلِ الحديقةِ. وكانَ الحارسُ قد عادَ إلى شجرتِهِ يشذّبُ أغصانَها ويتغنّى في صعودِهِ إليها، وانحدارِه عنها بقطعةٍ من الشعر الغراميّ يعجبُهُ لحنُهَا، وإنْ كانَ لا يفهَمُ معناها. فإنّه لكذلكَ، إذ سمعَ صوتَ جسم ثقيلٍ قد سَقَطَ على الأرضِ، فرمَى بفأسِه وَهُرِعَ إلى ناحيةِ الصوتِ، فرأى أرمان صريعًا معفَّرًا[1] تحتَ عتبةِ الباب، ففزعَ فزعًا شديدًا وظنّها الصرعةَ الكبرى، فأهوى بأذنِه إلى صدرِه، فسمعَ ما بقيَ من دقّاتِ قلبه، فاطمأنّ قلبًا، وعَمَدَ إلى جرّةٍ بين يديهِ، فأخذَ ينضَحُ بمائِهَا وجهَهُ، ويدلكُ براحةِ يده صدرَه، وصدغيهِ حتّى استفاق بعدَ قليلٍ.

ففتحَ عينيهِ، فرأى الحارسَ جالسًا بجانبه، ورأى الكتابَ لا يزالُ في يده، فدارَ بعينيهِ حولَ نفسِه، فمرّتْ بخاطِرِه في الحال ذكرى مصرعِهِ القديم في هذه المكانِ عينِهِ منذُ خمسةَ عشرَ شهرًا يومَ ألقَتْ مرغريتُ بنفسِها عليه، ورسمَتْ على ثغرِه أوّلَ قبلةٍ من قبلاتِ الحبّ، فهاجَتْهُ تلكَ الذكرى وصاحَ: ما أبعدَ اليومَ من الأمس!

وأنشأَ يبكي بكاءَ الطفلِ الذي حِيلَ بينه وبينَ ثدي أمّه، حتّى بكى الحارسُ لبكائه، وأقبلَ عليه يُعزّيهِ عن مُصابِهِ، ويهوّنُه عليهِ، حتّى هدأَ قليلًا؛ فأمرَهُ أن يستدعيَ له عربةً، ففعلَ، فقامَ يتوكّأُ على يدِ الحارسِ حتّى بلغَهَا، فركبَ، وقالَ للسائق: «إلى فندق تورين».

فسارتْ بهِ العربةُ إليه، حتّى إذا لم يبقَ بينَه وبينَه إلّا منعطفٌ واحدٌ، مرّتْ بجانبِهِ عَرَبةٌ فخمةٌ مرورَ البرقِ الخاطفِ، تحملُ رجلًا وامرأةً لم يتبيّنْهُما للنظرةِ الأولى، ثمّ راجعَ صورتَهُما في خيالِهِ، فإذا هما «جان فيليب ومرغريت»، وكانتْ مركَبَتُهُ قد وصلَتْ به إلى الفندقِ، فدخلَ على أبيهِ هائمًا مختبلًا.

فقال: ما دهاكَ يا بنيّ؟!

قال: «خانَتْنِي يا أبتاه».

قال: ذلكَ ما أنذرتُكَ بِهِ من قَبْلُ، يا بنيّ.

ثمّ انقضَى النهارُ، وجاءَ الليلُ، فقضَاهُ أرمان ساهرًا في مخدعِه يراجعُ فهرسَ حياتِهِ مع مرغريت صفحةً صفحةً، ويستعرضُ في نفسِهِ جميعَ أطوارها وشؤونها. فلم تبقَ حركةٌ من حركاتِها، ولا كلمةٌ من كلماتِها، ولا صورةٌ من صُوَرِ أعمالِها، كانْ يراها بالأمسِ حسنةً من حسناتِ الإخلاصِ والوفاءِ، إلّا رآها اليومَ سيّئةً من سيّئاتِ الخديعةِ والمكرِ، حتّى وصلَ في مراجعتِهِ إلى الأمسِ واليوم الذي قبلَهُ.

فذكَرَ عَدَمَ انتظارِهَا أيّاهُ في شرفةِ البيتِ كعادتِهَا يومَ عادَ إليها من مقابلةِ أبيهِ، وشدّةَ احتفاظِهَا بكتابِ المركيز في يدِهَا عندمَا دخلَ عليها غرفَتَهَا، وَضَنّهَا به ضنًّا شديدًا، ولم تكنْ تَفْعَلُ ذلكَ من قبلُ، وإعراضَهَا عن التبسُّطِ معه في الحديثِ بعدَ ما قصّ عليها قصّتَه مع أبيهِ،

---

(١) المعفّر: الممرّغ بالتراب.

وَزَعْمَهَا أنّها مريضةٌ خائرةٌ لا تستطيعُ البقاءَ معه، وإلحاحَهَا عليهِ في صباحِ اليومِ الثاني إلحاحًا شديدًا في العودةِ إلى مقابَلَةِ أبيهِ واستعطافِهِ، وقولَهَا إنّها لا تكونُ راضيةً عن نفسِها، ولا هانئةً بعيشِهَا إنْ لم يكُنْ أبوه راضيًا عَنْهُ.

فاستنتَجَ من هذا كلِّه، أنّها مُذْ شعرتْ بفراغ يدهِ من المالِ، وأنّ أباهُ إمّا أنْ يحولَ بينَه وبينَها، وإمّا أن يقتّرَ عليهِ الرزقَ تقتيرًا، ملّتْهُ واجتَوَتْه[1]، وفكّرتْ في سبيلِ الخلاصِ منه، ولم تزلْ تنتظرُ ما يأتِيها بهِ القَدَرُ، حتّى أتاها بكتابِ المركيز، فكانَ هو طريقُ خلاصِهَا.

ولم يزلْ هائمًا ما شاءَ اللهُ أنْ يهيمَ في تصوّرَاتِهِ وأوهامِهِ، حتّى غَلَبَتْهُ عيناهُ فهجَعَ قليلًا.

ثمّ استيقظَ في الصباحِ، فدخَلَ على أبيهِ في مخدعِهِ وقال له: لي عندَكَ أمنيَّةٌ، يا أبتاه، لا أريدُ غيرَهَا، وأريدُ أن أبتاعَهَا منكَ بخضوعي لكَ، ونزولي على حُكْمِكَ أبدَ الدهرِ فيما سرّني أو ساءَني، فهلْ لكَ أن تُبْلغَنِيهَا؟

قال: وما هي؟

قال: أريدُ أنْ تُعطيَني الساعةَ خمسةَ عشرَ ألفَ فرنكٍ.

قال: وما تريدُ منها؟

قال: أحبُّ أنْ أستأثرَ بهذا السرّ لنفسي من دونِ الناسِ جميعًا حتّى من دونِك.

فنظرَ إليه أبوهُ نظرةَ الملمِّ بما دارَ في نفسِهِ، ولم يعاوِدْه. وأعطاه صُكُوكًا بالمالِ الذي أرادَ، فأخذَها وأرسَلَها إلى مرغريت وأرسَلَ معها كتابًا طويلًا ختمَه بهذه الكلمةِ «أمّا وقد عرفتُ أنّني كنتُ أعيشُ مع امرأةٍ عاهرةٍ ساقطةٍ لا عهدَ لها، ولا ذِمَام، فها هي ذي أجرةُ لياليكِ الماضيةِ مرسلةٌ إليك».

ثمّ خرَجَ ليعدّ نفسَه للسفرِ، فقَضَى اليومَ كلّه خارجَ الفندقِ، ثمّ عادَ إليهِ دُبْرَ النهارِ[2] فوجَدَ فيهِ كتابًا باسمِه، ففضَّ ختامَه فإذا الأوراقُ التي أرسَلَها إلى مرغريت عائدةٌ إليه كما هي وليسَ معها كلمةٌ واحدةٌ، فحاولَ أنْ يعيدَها إليها مرّةً أخرى، فمنعَهُ أبوهُ من ذلكَ وقال له: قد وَعَدْتَني ألّا تخالِفَني في أمرٍ فلا بدَّ لكَ من الإذعان. فأذعنَ، ثمّ سافرا معًا تلكَ الليلةِ إلى نيس.

وكذلك قضى اللهُ أن يفترقَ ذَانِك الصديقانِ الوفيّانِ، والعاشقانِ المخلصانِ، فعادَ الفتى إلى أحضانِ أبيهِ، وعادتِ الفتاةُ إلى حَيَاتِها الأولى التي كانتْ تأباهَا الإباءَ كلَّهُ، وتخافُها الخوفَ الشديدَ، وفي نفسِ كلٍّ منهما من الوجدِ بصاحبِهِ والحسرةِ عليهِ ما لا تليهِ الأيّامُ، ولا تَنتقِصُ منه السنونَ والأعوام.

* * *

الأشقياءُ في الدنيا كثيرٌ، وأعظمُهُمْ شقاءً ذلكَ الحزينُ الصابرُ الذي قَضَتْ عليهِ ضرورةٌ من ضرورياتِ الحياةِ أنْ يهبطَ بآلامِهِ وأحزانِهِ إلى قرارةِ نفسِهِ، فيودِعُهَا هناكَ، ثمّ يغلقُ دونَها بابًا

---

(١) اجتوى: كره.

(٢) دبر النهار: آخره.

من الصمتِ والكتمانِ، ثمّ يصعدُ إلى الناسِ باشَّ الوجهِ[1] باسمَ الثغرِ متطلّقًا متهلّلًا، كأنّه لا يحملُ بين جنبيهِ همًّا ولا كمدًا!

ذلكَ كانَ شأن «مرغريت» بعد عودتِها إلى حياتِها الأولى، فقد أصبحتْ تعيشُ مع الناسِ بصورةٍ غيرِ الصورةِ التي تعيشُ بها مع نفسِهَا. أمّا حياتُها مع الناسِ، فحيَاةٌ ضاحكةٌ لاعبةٌ مرحةٌ وثّابةٌ، تضيءُ المجامعَ والمحافِلَ، وتملأ الأنظارَ والأسماعَ.

فإذا ضمّها مخدعُهَا، وخلا لها وَجْهُ الليلِ مرّتْ أمامَ عينيها صورةُ تلكَ الساعاتِ السعيدةِ التي قَضَتْهَا بجانبِ أرمان، ثمّ ذكرَتْ أنّها قد أفلتَتْ من يدِهَا إفلاتَ الطائرِ من يدِ صائِدِهِ، وصارتْ بعيدةً عنها بُعْدَ الشمسِ عن يدِ متناوِلِهَا، وأنّها قد أصبحتْ تعيشُ بين أقوامٍ لا تعرفهُم، ولا تجدُ في نفسِها لذّةَ الأنسِ بهِمْ، ثمّ لا تجدُ لها بدًّا من مماذقَتِهِم[2]، والتحبّبِ إليهم والتجمّلِ لهم بما يريدونَ ويشتهونَ. فتقبّلُ الأفواهَ التي لا تشتهِيهَا، وتعتنِقُ القاماتِ التي لا تطيقُ رؤيَتَهَا، وتشربُ مع كلّ شاربٍ، والشرابُ يحرقُ أحشاءَهَا، وترقُصُ مع كلّ راقصٍ، والرقصُ يمزّقُ أوصالَهَا، وتضحَكُ ضحكاتِ السرورِ من قلبٍ باكٍ، وتنشدُ أناشيدَ الهناءِ من فؤادٍ محترقٍ.

فكأنّها في يدِ الناسِ كالعودِ في يدِ المغنّي يقطّع أوتارَه ضربًا ليطربَ لنغماتِهِ، أو الزهرةِ في يدِ المقتطف يعصرُ أوراقَهَا عصرًا لينعَمَ بشذَاهَا، فتهيجُها ذكرى ذلكَ الماضي السعيدِ، و هذا الحاضرِ الشقيّ، فتطلقُ السبيلَ لزفراتِهَا وعبراتِهَا يصعدُ منها ما يصعَدُ، وينحدرُ ما ينحدرُ، حتّى تشتفيَ نفسُها، فتقومُ إلى خزانةِ ملابسِهَا لتستخرجَ منها صورةً تضعَها بين سحرِها ونحرِها، ثمّ تأوي إلى مضجعِهَا، فتجدُ بَرْدَ الراحةِ في صدرِهَا لأنّها صورةُ أرمان.

ولم تزل تكابدُ من الشقاءِ في تلكَ الحياةِ الساقطةِ وآلامِهَا ما لا طاقةَ لِمِثْلِها باحتمالِ مثلِه، حتّى استيقظَ في صدرِهَا داؤُها القديمُ بعدَ ما نامَ عنها حينًا من الدهر، فهُزِلَ جسمُها، وشَحُبَ لونُها، وغاضَ ماءُ ابتسامَاتِها، وانطفأ شعاعُ نظراتِها، وشغلَهَا شأنُ نفسها عن شأنِ المركيز.

فلم يلبثْ أن مَلّها وفارقَها، واستبدَلَ بها أخرى غيرَها، ثمّ اختلفَ عليها من بعدِهِ الأخلّاءُ والرفقاءُ، فكانَ شأنُهُمْ معها شأنَه، لا يلبثُ أحدُهُم أن يعرفِهَا حتّى يهجُرَهَا.

فكسدَتْ سلعَتُهَا في سوقِ الجمالِ، وطمِعَ فيها من لم يكنْ يطمَعُ قبلَ اليومِ في لثم مواطىءِ أقدامِهَا، وخَلَتْ منها المجامعُ والمَحَافِلُ، ثمّ خَلَتْ من ذكرِهَا وحديثِهَا.

وأعوزَهَا المالُ إعوازًا شديدًا، فمدّت يَدها إلى ما كانَ باقيًا عندَها من جواهِرِها ولآلِئِها، فباعَتْهُ، فلم يفِ بدَيْنِها، فطلبتِ المعونةَ من كثيرٍ من أصدقائِها الماضينَ، فأرسَلَ إليها قليلٌ منهم القليلَ منها، فلم يُغْنِ عنها شيئًا.

واختلفَتْ إليها جرائدُ الحسابِ يطلُبُ أصحابُها سدادَ ما فيها، فدافَعَتْهُم عنها حينًا ثمّ عجزتْ، فحَجَزوا على جميعِ مقتنياتِها وذخائِرِها، وأثاثِ بيتِها ورياشِه. وَلَؤُمُوا في مقاضَاتِها لؤمًا ضَاعَفَ

---

(١) باشّ الوجه: من البشاشة وهي طلاقة الوجه. (٢) المماذقة: التظاهر بالحبّ والمودّة.

حُزْنَها وَمَرَضَها، وقضى على بقيّةِ ما كانتْ تضمرُه في نفسِهَا من الأملِ في الحياةِ والسعادةِ فيها.

فنسيَتِ العالَمَ خيرَه وشرَّه، والحياةَ سعادَتَها وشقاءَهَا، وأصبحتْ لا تفكّرُ إلّا في أمرٍ واحدٍ تقومُ وتقعدُ به ليلَهَا، ونهارَهَا، وهو أن ترى أرمان ساعةً واحدةً قبلَ موتها، ثمّ تذهبُ إلى ربّها.

ولم تَكُنْ قد كتبتْ إليه قبلَ اليومِ كلمةً واحدةً مذْ فارَقَها ولا كتبَ إليها؛ فنهضَتْ تتحَامَلُ على نفسِهَا حتّى وصلَتْ إلى منضَدَتِهَا، فكتبتْ إليه هذا الكتاب:

«تعالَ إليّ، يا أرمان، راضيًا كنتَ أو غاضبًا، فإنّني مريضةٌ مشرفةٌ وأحبُّ أنْ أراكَ قبلَ موتي، لأفضيَ لكَ بسرّ الذنبِ الذي أذنبتُهُ إليكَ فيما مضى، والذي لا تزالُ واجدًا[١] عليّ بسببِهِ حتّى اليومَ؛ فلعلّكَ تعفو عنّي في ساعتي الأخيرةِ، فيكونُ عفوُكَ ورضاكَ هو كلّ ما أتزوّدُه من هذه الحياةِ لقبري.

واذكرْ يا أرمان أنّ أوّلَ عاطفةٍ جمعتْ بيني وبينَكَ، وألّفتْ بين قلبي وقلبكَ، كانتْ عاطفةَ الرحمةِ والشفقةِ، فها هي الفتاةُ المريضةُ المسكينةُ التي رَحِمْتَهَا بالأمسِ، وعَطَفْتَ عليها قبلَ أن تحبّها، تدعوكَ اليومَ أنْ ترحمها، وتعطفَ عليها، وإنْ تَكُنْ قد سَلَوْتَهَا. أما كتابُكَ الذي كتبتَه إليّ قبلَ سفرِكَ، فقد اغتفرتُ لكَ كلّ ما فيهِ، حتّى قولَكَ إنّني كنتُ كاذبةً في حبّكَ، طامعةً في مالِكَ، لأنّي أعلمُ أنّ المرأةَ التي تكذبُ الناسَ في حبّها طولَ حياتِهَا، لا يمكنُ أن تجدَ من يصدقُهَا إذا صَدَقَتْ فيه، وعَدْلٌ من اللهِ كلُّ ما صَنَع».

ثم لبثَتْ تنتظِرُ حضورَه أيّامًا طوالًا، فلمْ يأتِ، فأحزَنَها ذلكَ حزنًا شديدًا، وساءَ ظَنُّها به، ووقَعَ في نفسِها أنّه قد سَلَاها واطّرَحَهَا، وأصبحَ لا يعبأُ بها، ولا يبالي بحياتِها أو موتِها، وسعادتِها أو شقائِها.

وكانتْ مخطئةً فيما ظَنّتْ، فإنّ أرمان لم يطّلعْ على الكتابِ الذي أرسلَتْهُ إليه مُذْ فارقَهَا في العام الماضي، وسافرَ إلى نيس، ولم يستطِعِ البقاءَ فيها إلّا أيّامًا قلائلَ، ثمّ ملكَه الضجرُ وأحاطَتْ به الوحشةُ، وضاقَتْ في وجهِهِ مذاهبُ السلوى.

فاستأذَنَ من أبيهِ أن يسافرَ إلى بعضِ بلادِ المشرقِ ترويحًا عن نفسِه، وتفريجًا من كربتِهِ، فأذنَ له، فسافرَ إلى الإسكندريّة، فأقامَ بها بضعةَ أشهرٍ كاتبَ أباهُ فيها قليلًا، ثمّ تركَهَا، وأخذَ يتنقّلُ في أنحاءِ البلادِ، لم ينزلْ ببلدةٍ حتّى يطيرَ به الضجرُ إلى غيرها.

فانقطعَتْ رسائِلُهُ عن أبيهِ، فأصبَح لا يعلمُ مكانَ وجودِهِ، فلمّا أرسلتْ مرغريت إليه كتابَها في نيسِ، قرأه أبوه وحفظَه عندَه، ولم يستطِعْ أن يرسِلَه إليه؟ ومرغريت لا تعلَمُ بشيءٍ من ذلكَ.

فحزنَتْ لخيبةِ أملِهَا حزنًا شديدًا، ودبّ اليأسُ في قلبِهَا دبيبَ الموتِ في الحياةِ، ووقَعَ في نفسِهَا أنّها ستخرجُ من الدنيا فارغةَ اليدِ من كلّ شيءٍ، حتّى من هذه الأمنيّةِ التي بقيَتْ في يدِهَا من بينِ جميعِ آمالِها الضائعةِ.

---

(١) الواجد: العاتب اللّائم.

فتنكّرَ شأنُها، واستحالَتْ حالُهَا، ولجأتْ إلى صمتٍ طويلٍ لا تقولُ فيه خيرًا ولا شرًّا، وأصبحتْ تنظرُ إلى نفسِهَا وإلى ما يحيطُ بها من الأشياءِ كأنّها تنظرُ إلى شيءٍ تنكرُه ولا تعرفُه؛ فربّما دخلَ عليها طبيبُها، وهيَ في أشدِّ حالاتِ ألمِهَا، فلا تشكُو له ألمًا. أو سمعَتْ ضوضاءَ الدائنينَ وصخبَهُمْ في فناءِ المنزلِ، فلا تسألُ ماذا يريدون!

وكانتْ إذا شعرتْ بقليلٍ من الراحةِ والسكونِ، ركبَتْ عربتَهَا إلى بوجيفال، فزارَتِ البيتَ الذي قَضَتْ فيهِ أيّامَ سعادَتِها الذاهبةِ، وكانَ لا يزالُ باقيًا على الصورةِ التي تَرَكَتْهُ عليها يومَ فَارَقَتْهُ، ومرّتْ بغرَفِهِ وقاعاتِهِ، وجلستْ في كلّ مكانٍ كانتْ تجلسُ فيه مع أرمان، وأشرفَتْ من كلّ نافذةٍ كانَ يشرفُ منها مَعَهَا، وقبَّلَتْ جميعَ آثارِهِ وبقاياهُ، ولثَمَتِ الكأسَ التي كان يشربُ بهَا، والزهرةَ التي كانَ يحبّها، والقلمَ الذي كانَ يكتبُ به، والكتابَ الذي كانَ يقرأُ فيه.

فإذا نالَ منها التعبُ جلسَتْ على بعضِ المقاعِد لتأخذَ لنفسِهَا راحَتَها، فربّما طارَ بها خيالُهَا إلى ذلكَ العهدِ القديمِ، فتمثَّلَ لها أنّ أرمان جالسٌ تحتَ قدمَيها، يسردُ عليها حادثةً من حوادثِ طفولتِهِ في نيس، أو يبثُّها ما يضمِرُه لها في نفسِهِ من الوجدِ والغرامِ، فتبتسِمُ لحديثِهِ ابتسامَ السعيدِ الهانىءِ، وتستشعرُ في نفسِها لذّةً لا يشعرُ بمثلها، إلّا المتّقونَ في جنّاتِ النعيم.

ثمّ تفتَحُ عينَيْهَا فلا ترى أمامَهَا غيرَ الوحشةِ والسكونِ، والوحدةِ و الانفرادِ، فتبكي ما شاءَ اللهُ أنْ تفعلَ، ثمّ تعودُ إلى بيتِهَا في باريس، فتجلسُ على كرسيّهَا بجانبِ منضدَتِها، وتناجي أرمان في مذكّراتها بجميعِ ما تحدّثُها به نفسُها كأنّه حاضرٌ بين يديها يراهَا ويَسْمَعُهَا!

❁ ❁ ❁

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠.

أرمان:

لم تكتبْ إليّ، ولم تأتِني، كأنّما ظَنَنْتَ أنّي أريدُ أن أستعيدَ معكَ عهدَ الماضي، وأينَ أنا من ذلكَ العهدِ؟ فلو رأيتَني لرأيتَ امرأةً ذاهبةً مُدْبِرَةً لا تصلحُ لشأنٍ من شؤونِ الحياةِ، ولم يبقَ فيها من صورتِها الماضيةِ، إلّا كما بقيَ من الزهرةِ الساقطةِ عن غصنِهَا بعد ما عصفَتِ الريحُ بأوراقِهَا، وكلُّ ما كنتُ أريدُ منكَ: أنْ أراكَ بجانبِ فراشي في ساعتي الأخيرةِ، لأعتذرَ لكَ عن ذنبي الذي أذنبتُهُ إليكَ، ثمّ أنظرُ إليكَ نظرةَ وداعٍ أغمضُ عليها جفنيّ وأذهبُ بها إلى قبري!

ما أنا بخائنةٍ، يا أرمان، ولا خادعةٍ، فإنّ الرسالةَ التي رأيتَها في يدي يوم عُدْتَ إليّ من مقابلةِ أبيكَ ليستْ رسالةَ المركيزِ كما ظننتَ، بل رسالةُ أبيكَ نفسِهِ وصلتْ منه قبلَ وصولكَ إلى بوجيفال بساعةٍ واحدة. وهذا نصّها الذي لا يزالُ عالقًا بذهني حتّى الساعة:

سيّدتي:

أريدُ أنْ أقابلَكِ غدًا في منزلكِ في الساعةِ العاشرةِ صباحًا في شأنٍ خاصّ بي وبكِ، وأريدُ ألّا يكونَ أرمان حاضرًا تلكَ المقابلةَ، ولا عالمًا بها، ولا بأنّي أرسلتُ هذهِ الرسالةَ إليك، ولي من حُسْنِ الرأيِ فيك ما يطمعُني في أن يكونَ ما سألتُكِ إيّاه سرًّا بيني وبينَكِ حتّى نلتقي. والسلام.

دوفال

فلمّا قرأتُها علمتُ ماذا يريدُ من تلكَ المقابلةِ، وشعرتُ بما وراءَها، بل علمتُ بما دارَ بينَكَ وبينَه من الحديثِ، وأنّكَ امتنعتَ عليهِ حتّى يئسَ منكَ، فحاولَ أن يدخلَ عليكَ من بابي، فحدّثتني نفسي أنْ أرفُضَ مقابَلَتَه، وأنْ أكاشِفَكَ بكلّ شيءٍ، ثم استحييتُ من نفسي، وأكبرتُ أنْ يعتمِدَ عليَّ رجلٌ شريفٌ كأبيكَ في كتمانِ سرٍّ بسيطٍ كهذا السرّ، فلا يجدُني عندَ ظنّه، وطمعتُ في أنْ أنالَ منه عندَ المقابلةِ ما يطمعُ أنْ ينالَهُ منّي.

فكتمتُكَ أمرَ الرسالةِ، وكتمتُكَ ما في نفسي منها، و لم أكُنْ كاذبةً في شكَاتي وألمي حينما قلتُ لكَ في تلكَ الليلة: إنّني لا أستطيعُ البقاءَ بجانبِكَ، وسألتُكَ أن تقودَني إلى مخدعي، فقد قضيتُ في فراشي بعدما فارقْتُكَ ليلةً لم أقضِ مثلَهَا في جميعِ ما مرّ بي من ليالي الهموم والأحزانِ، حتّى أصبحَ الصباحُ، فألحَحْتُ عليكَ أن تذهبَ لمقابلةِ أبيكَ، وأنا أعلمُ أنّكَ إنْ ذَهَبْتَ إليهِ لا تراهُ، ولا تنتفِعُ بمقابلتِهِ إنْ رأيتَهُ، ولكنّي خِفْتُ أنْ يزورني، فيراكَ عندي، فأصغرُ في عينيهِ، ولا أشدَّ عليَّ من ذلك.

وما هي إلّا لحظاتٌ قليلةٌ، حتّى وصلَ إلى بوجيفال في الموعدِ الذي ضرَبَه في كتابهِ، فاستأذنَ عليّ، فأذنتُ له، فدخلَ، فرأيتُ في عينيهِ جمرةً من الغضبِ تلتهِبُ التهابًا، فلم أحفلْ بها، ودعوتُهُ للجلوسِ، فلم يَفْعَلْ، ولم يحيّني بيدِه، ولا بلسانِهِ.

وكانَ أوّلَ ما استقبلني به قولُه: «ماذا تريدينَ أن تصنعي بولدي أيّتُها السيّدة؟» وظلّ ناظرًا إليّ نظرًا جامدًا ساكنًا لا يطرفُ، ولا يختلجُ، فعجبتُ لمدخلِهِ الغريبِ، ونظراتِهِ المترفّعةِ، ولهجتِهِ الجافّةِ الخشنةِ، وامتَعَضْتُ في نفسي امتعاضًا شديدًا حتّى كدتُ أقولُ له، ولا أكتمُك ذلكَ: تَذَكَّرْ، يا سيّدي، أنّك في منزلي، وأنّني لم أدْعُكَ إلى زيارتي، بل أنتَ الذي دَعَوْتَ نفسَك بنفسِك.

ثمّ ذَكَرْتُ مكانَهُ منكَ، فأمسكْتُ عن كلِّ شيءٍ حتّى عن الجوابِ على سؤالِهِ، فمشَى يضربُ الأرضَ بعصاهُ وبقدمِهِ حتّى دنا منّي، وألقى عليّ تلكَ النظرةَ التي اعتادَ الأشرافُ المترفّعونَ أن يلقُوها في طريقِهِم على وجوهِ النساءِ العاهرات، وقال: لقد أنفَقَ وَلَدِي عليكَ جميعَ ما كانَ بيده من المالِ، وكانَ في يدِه الكثيرُ منه، ثمّ جميعَ ما أرسَلْتُهُ إليهِ بعد ذلكَ، وقد أرسَلْتُ إليهِ فوقَ طاقتي، فلم يبقَ في استطاعَتِهِ أن يمدّكِ بأكثرَ ممّا أمدّك، ولا في استطاعتي أن أستنزلَ لهُ من السماءِ ذهبًا يمطرهُ عليكِ، فدَعِيهِ وشأنَهُ، فالبلدُ مملوءٌ بالأبناءِ الذين لا يحتاجُ آباؤُهُمْ إليهم، والذين لا يحتاجُون إلى أنفسِهِم. أمّا أنا فإنّي في حاجةٍ إلى ولدي، لأنّي لم أرزقْ ولدًا

سواهُ، ومن كانتْ بيدِه هذهِ الثروةُ من الجمالِ التي تملكِينَهَا لا يضيقُ به مذهبٌ من مذاهبِ العيشِ، ولا يتلّوى عليه مأربٌ من مآربِ الحياة.

فَسَرَتْ كلماتُه في نفسي سَرَبانَ الحمّى في عظام المحموم، وخُيّلَ إليّ أنّ هذا الماثلَ أمامي لا يحدّثني، وإنّما يجرّعني السمّ بيدِهِ تجريعًا، وشعرتُ بذلّةٍ لم أشعرْ بمثلِهَا في يومٍ من أيّامِ حياتي، إلّا أنّني تجلّدْتُ، واستمسَكْتُ، وردَدْتُ نفسي على مكروهِهَا.

وقلتُ لهُ بصوتٍ هادئٍ ساكنٍ لا يمازجُهُ غَضَبٌ، ولا نزق[١]: يا سيّدي، نعمْ، إنّني أحبُّ ولدَكَ، ولكنّي لا أطمعُ فيه، ولو كانَ الذي يعنِيني منه الطمعَ في مالِهِ، لَفَارَقْتُهُ منذُ ثلاثةِ شهورٍ أي منذُ خَلَتْ يَدُهُ من المالِ، وأصبَح لا يجدُ السبيلَ إليه بحالٍ من الأحوالِ، بل لفارَقْتُهُ قبلَ ذلكَ، لأنّ الذين لا يزالونَ يساومونني في نفسي من أشرافِ هذا البلدِ ونبلائِهِ، منذُ اتّصَلْتُ به حتّى اليوم، أفضلُ منه وأكثرُ رغدًا. على أنّ ولدَكَ لم ينفقْ عليّ من هذا المالِ الذي تذكُرُهُ إلّا النزرَ القليلَ، وربمّا أنفقَ باقِيِهِ على نفسِه.

ولو استطعْتُ أنْ أرفضَ ذلكَ القليلَ وآباهُ، لفعلتُ، ولكنّي كنتُ أضنّ به أن يداخِلَ نفسَهُ ما يُريبها أو يؤلمهَا، فقبلتُ منه هداياهُ الصغيرةَ التي كانَ يقدّمها إليّ من حينٍ إلى حينٍ، إرعاءً عليه، وإبقاءً على عزّةِ نفسِهِ وكرامَتِهَا، ولو أنّ ما كانَ بيدِه من المالِ انتقلَ إلى يدي كما تقولُ، لأصبحتُ غنيّةً موفورةً، لا أحملُ همًّا من همومِ العيشِ، ولا أعاني من بأساءِ الحياةِ وضرّائِها ما أعانيهِ اليوم؛ فإنّني - لو تبيَّنْتَ أمري - امرأةٌ فقيرةٌ معوزةٌ لا أملكُ من متاعِ الدنيا إلّا حلاّيَ ومركبتي وأثاثَ بيتي، وليتَهَا كانتْ خالصةً لي.

فقد امتدّتْ يدُ الضرورةِ إليها منذُ عهدٍ قريبٍ، فأصبَح الكثيرُ منها سلعةً في يدِ المرابين، ولا أعلمُ ما يأتي به الغدُ. وإنْ أبيتَ إلّا أن تعرفَ ذلكَ بنفسِك فسأطلعُكَ على ما كَتَمْتُهُ عن الناسِ جميعًا حتّى عن ولدك. ثمّ قُمْتُ إلى خزانةِ أوراقي، فجئتُهُ منها بالصّكوكِ والوثائِقِ المشتملةِ على بيعِ ما بِعْتُ من جواهري، وخيولي وأثاثِ بيتي ورهْنِ ما رَهَنْتُ منها، فظَلَّ يقلّبُها بين يديهِ ساعةً ويتأمّلُ في تاريخِها طويلًا، ثمّ طَوَاها، وأعادَها إليّ مطرقًا صامتًا لا يقولُ شيئًا. ومدّ يَدَهُ إلى كرسيّ بين يديهِ، فاجتذَبَهُ إليه، وجلسَ عليه معتمدًا برأسِهِ على عصاهُ، وقد هدأتْ في نفسِه تلكَ الثورةُ التي كانتْ تضطرمُ وتعتلجُ منذُ دخوله، وطارتْ عن وجهِهِ تلكَ الغبرةُ السوداءُ التي كانتْ تظلّلُهُ من قبلُ، فعدتُ إلى حديثي معه أقول:

على أنّني، يا سيّدي، غيرُ شاكيةٍ ولا ناقمةٍ، فقد مرّ بي من نُوَبِ الأيّامِ وأرزائِهَا[٢] ما مَحَا من نفسي كلَّ شهوةٍ من شهواتِ الحياةِ، وأنساني جميعَ مظاهِرِ الدنيا ومفاخِرِها، فأصبحتُ لا أبالي بما تأتي به الأيّامُ، وسواءٌ لديَّ الفقرُ والغنى، والحَلْيُ والعَطَلُ[٣]،

---

(١) النزق: الحماقة والطيش. (٢) الأرزاء: المصائب.

(٣) العَطَل: عدم التزيّن، فيُقال: حالٍ، وعاطل.

وسُكْنَى القصرِ وسُكْنى الكوخِ، وركوبُ المركبةِ، وركوبُ النعلِ.

وكلُّ ما أرجوه من حياتي وأضرعُ إلى الله، وإليكَ فيه، أنْ أرى أرمان يقاسِمُني همّ الحياةِ وبؤسَها، ويعينُني على شدّتها ولَأْوَائِها[1]، حتّى يقضيَ اللهُ في أمري بما هو قاضٍ، فإن كانَ في الأجلِ فُسْحةٌ قضيتُها في شكرِكَ وحمدِكَ، والإخلاصِ لكَ في سرّي وَعَلَني، وإنْ كانتِ الأخرى، كانَ آخرُ ما أنطقُ به في ساعتي الأخيرة أنْ أدعُوَ لكَ الله تعالى ضارعةً مبتهلةً أنْ يبارِكَ لكَ في نفسِك، وفي أهلِكَ، وأنْ يُسْبِلَ سترَه الضافي[2] عليكَ في حاضرِكَ ومستقبلِكَ.

ثمّ جثوتُ بين يديهِ، وتعلّقْتُ بأهدابِ ثوبِه، وقد عجزتُ في تلكَ الساعةِ عن أن أملكَ من دموعي ما كنتُ مالكةً من قبلُ، فظَلَلْتُ أبكي وأقول:

رحماكَ، يا مولاي، إنّني امرأةٌ بائسةٌ مسكينةٌ، قد قَضَتْ عليَّ بعضُ ضروراتِ العيشِ في فاتحةِ حياتي أنْ أقِفَ على حافةِ تلكَ الهوّةِ التي يقفُ على رأسِهَا النساءُ الجائعاتُ، فسقَطْتُ فيها كارهةً مرغمةً، ثمّ أرادَتْ نفسي على الرضا بتلكَ الحياةِ التي قدّرها اللهُ لي، فلم أستطعْ.

فأصبحْتُ في منزلةٍ بين المنزلتين، لا أنا شريفةٌ أنعَمُ بعيشِ النساءِ الشريفاتِ، ولا ميتةُ القلبِ أسعَدُ سعادةَ الفتياتِ الساقطاتِ، وقد وجدتُ في ولدِكَ الرجلَ الوحيدَ الذي أحبّني لنفسِي، ومنحَني من ودّه وإخلاصِه ما ضنّ به عليَّ الناسُ جميعًا، فأنستُ به أنسًا أنساني سُقُوطي وعارِي، وحبّبَ إليَّ الحياةَ بعد ما أبغضْتُهَا وبرمْتُ[3] بها، وكدتُ أقضي على نفسِي بالخلاصِ منها.

فلا تحرمْني جوارَه، ولا تفرّقْ بيني وبينَه؛ فإنَّكَ إنْ فعلْتَ، أشقيتَني، وبرّحْتَ بي، وملأتَ حياتي همًّا وكمدًا، وأنتَ أجلُّ من أنْ ترضى لنفسِك بأنْ تبني سعادَتَك وهناءَك على شقاءِ امرأةٍ مسكينةٍ مثلي.

ماذا يكونُ مصيري غدًا، إذا أصبحتُ وحيدةً منقطعةً في هذا العالمِ، لا صديقَ لي، ولا معينَ؟ أأعودُ إلى حياتي التي أبغضُهَا وأخشاهَا، فأعودَ إلى جرائمي وآثامي؟ أم أقتلُ نفسي بيدي فرارًا من شقاءِ الدنيا وبلائِها، فأختُمَ حياتي بأقبحِ ما خَتَم امرؤٌ به حَيَاته؟ لا أستطيعُ واحدةً من هاتينِ، فأمدُدْ إليّ يَدَكَ البيضاءَ، وأنقذْني من هذه الهوّةِ العميقةِ التي لا يستطيعُ أحدٌ أن ينقذَني منها سِوَاك.

أنا أعلَمُ أنّكَ في حاجةٍ إلى ولدِكَ، وأنّكَ أولى بهِ من كلّ مخلوقٍ على وجهِ الأرضِ، ولكنّي أعلمُ أنّكَ شفوقٌ رحيمٌ، لا تأبى أن تتصدّقَ على امرأةٍ مريضةٍ بائسةٍ مثلي بساعاتٍ من السعادةِ تعلّلُ بها في مرضِهَا الذي تكابدُه حتّى يوافِيَهَا أجَلُهَا؛ لا أسألُكَ يا سيّدي مالًا، ولا نسبًا، ولا عَرَضًا من أعراضِ الحياةِ؛ بلْ أسألُكَ أنْ تأذنَ لأرمان بالبقاءِ معي، فإنّ بقاءَه بقاءُ

---

(١) اللأواء: الشدّة والضيق.
(٢) الضافي: الطويل.
(٣) برم بالأمر: تضايق منه.

حياتي وسعادتي، فتصَدَّقْ بهما عليَّ إنّكَ من المحسنين.

وهنا شعرتُ كأنّهُ يتحرّكُ في كرسيِّهِ، فخَفَقَ قلبي خفقانًا شديدًا، ثمّ رَفَعَ رأسَهُ ونظَرَ إليَّ نظرةً أهدأَ نارًا وأقصرَ شعاعًا من نظرته الأولى، وقال: ومن أينَ تعيشان؟.

قلت: عندي بقيّة من جواهري وحُلاي سأبيعُها وأعيشُ بثَمنِها معهُ في زاويةٍ من زوايا باريس عَيْشَ الفقراءِ المقلّينَ، لا يرانا أحدٌ، ولا يشعرُ بوجودنا شاعرٌ، وحَسْبُنَا الحبُّ سعادةً نَغْنَى بها عن كلّ سعادةٍ في هذا العالم، وهناءه.

قال: ذلكَ هو الشقاءُ بعينِهِ، فإنّ الحبّ نباتٌ ظلّي تقتُلُه شمسُ الشقاءِ الحارّةُ، وكلُّ سعادةٍ في العالم غيرُ مستمدةٍ من سعادةِ المالِ، أو لاجئةٍ إلى ظلالِهِ، فهي كاذبةٌ لا وجودَ لها إلّا في سوانحِ الخيال.

أنتما اليومَ سعيدانِ، لأنّ في يدِكُما مالًا تعيشانِ به، ولأنّكُما تسكنانِ هذا المنزلَ البديعَ، فوقَ هذه الهضبةِ العاليةِ، بجانبِ هذه البحيرةِ الجميلةِ، فإذا خَلَتْ يَدُكُمَا من المالِ، وحُرِمْتُمَا هذا النعيمَ الذي تنعمانِ به، شقيتما، وشغلَكُمَا الضجرُ والمللُ، وربّما امتدّتْ تلك السآمةُ بينكما إلى أبعدِ غايتها.

إن للحبّ فنونًا من الجنونِ. وأقبحُ فنونِهِ أن يعتقدَ المتحابّانِ أنّ حبَّهُما دائمٌ لا تغيّرهُ حوادثُ الأيّام، ولا تنالُ منه الصروفُ والغِيَرُ[1]، ولو عقلا لَعَلِما أنّ الحبّ لونٌ من ألوانِ النفسِ، وعَرَضٌ من أعراضِها الطائرةِ، تأتي به شهوةٌ وتذهبُ به أخرى، ولا يذهبُ به مثلُ الفاقَةِ إذا اشتدّتْ واستحكَمَتْ حلقَاتُها، فإنّ النفسَ تطلُبُ حياتَها وبقاءَها قبلَ أن تطلُبَ لذائِذَها وشهواتِهَا!

أنا أعلمُ من شأنِ ولدي، يا سيّدتي ما لا تعلمينَ، وأعلمُ أنّه لا يستطيعُ أن يعيشَ هذه العيشةَ النكداءَ[2] التي تظنّين. وهو فتًى فقيرٌ لا يملكُ من الدنيا إلّا قطعةً صغيرةً من الأرضِ ورثَها عن أمّهِ لا تغني عنهُ ولا عنكِ شيئًا، وما أنا بذي ثروةٍ طائلةٍ أستطيعُ أن أحفظَ له بها زمنًا طويلًا هذا العيشَ السعيدَ الرغدَ الذي يعيشُهُ اليومَ في باريس، فلم يبقَ بين يديهِ إلّا أنْ يعيشَ بمالِكِ. وهو ما لا أرضَاهُ له ولا يرضَاه لنفسِهِ.

واسمحي لي يا سيّدتي أنْ أقولَ لكِ: إنّ جميعَ مصائبِ الدنيا وأرزائِها أهونُ عليّ وعليهِ أن يقولَ الناسُ إنّ خليلةَ أرمان دوفال قد باعَتْ جواهِرَهَا وحُلَاها التي أهدَاهَا إليها عشّاقُها الماضونَ، لتنفِقَ ثمنَهَا عليهِ.

سامحيني، يا بنيّتي، واغتفري لي حِدّتي وخُشُونتي، فإنّ شديدًا جدًا على والدٍ شيخٍ مثلي أن يرى ولَدَهُ الذي وضعَ فيه كلَّ آمالِ بيتِهِ يَهْوِي أمام عينيهِ في هذه الهوّةِ السحيقةِ التي لا قرارَ لها دونَ أن يطيرَ قلبُه خوفًا وهلعًا.

إنّه مُذْ عرفَكِ نسيَنِي ونَسِيَ أخته، فلا يذكُرني ولا يذكُرُها، وقد مرِضْتُ منذُ شهورٍ مرضًا

---

(١) الغِيَر: الأحداث المتغيّرة. (٢) النكداء: المؤلمة.

مشرفًا، فكتبتُ إليه أن يأتيَ ليعودني، فلم يفعلْ، ولم يردَّ على كتابي، أي أنّني كنتُ على وشكِ أنْ أموتَ ولا أراهُ، ولو تمّ ذلكَ لذهبتُ إلى قبري بحسرةٍ، لم يحمِلْ مثلَهَا في صدرِهِ راحلٌ عن الدنيا من قبلي.

أنتِ صادقةٌ، يا سيّدتي، في قولِكِ إنّه لم ينفِقْ عليكِ جميعَ ما كان بيده من المالِ، لأنّني علمتُ بالأمسِ أنّه قامرَ منذُ عهدٍ قريبٍ، وخسرَ في مقامَرَتِهِ كثيرًا، كما علمتُ أنّكِ لا تعلمينَ شيئًا عن ذلك؛ فما يؤمّنُني إنْ أنا تركتُهُ في هذا البلدِ ألّا يستمِرّ في هذه الغوايةِ الجديدةِ التي خَطَا الخطواتِ الأولى في طريقِهَا، ولا يخسرُ في بعضِ مواقفِهِ خسارةً عظمى لا أجدُ لي بدًّا من أن آخُذَ بيدِهِ فيها، فأقدم إليه ذُخْرَ شيخوختي، ومَهْرَ ابنتي، فنهلِكَ نحنُ الثلاثةُ في يوم واحد؟

من أينَ لكِ، يا بنيّتي، أنّه إنْ طالَ عهدُه بكِ لا يَمَلُّكِ، ولا تمتدّ عينُه إلى امرأةٍ سواكِ، فتكونُ فجيعَتُك فيه غدًا شرًّا من فجيعتِكِ فيه اليوم؟ ومن أينَ له أنّكِ لا تضيقينَ ذرعًا يومًا من الأيّام بعيشةِ الوحشةِ والوحدةِ فتحنّين إلى حياتِكِ الأولى، حياةِ الأنسِ والاجتماع، والضوضاءِ واللّجَبِ[1]، وهو فتًى غيورٌ مُسْتَطَارٌ! فربّما أنفَتْ نفسُهُ أن يزاحمَهُ فيكِ مزاحمٌ، وربّما امتدّتْ يَدُهُ بشرٍّ إلى ذلكَ الذي يزاحِمُهُ، فتنازَلا، فأصابَتْهُ من يد منازِلِهِ ضربةٌ تقضي على حياتِهِ وتفجعُني فيه؟

كيفَ يكونُ موقفُكِ، يا سيّدتي، غدًا إن نَفَذَ فيه هذا السهمُ من القضاءِ أمامَ هذا الأبِ الثاكلِ المسكينِ إذا جاءَكِ يسألُكِ عن دمِ ولدِه؟ وكيفَ تكونُ آلامُ نفسِكِ ولواعجُهَا أمامَ مشهدِ بكائِهِ وتفجّعِه؟

ثمّ ارتعَشَ ارتعاشًا شديدًا، وظلّ نَظَرُهُ حائرًا مضطربًا كأنّما يُخَيّلُ إليه أنّه يرى أمامَ عينيهِ ذلكَ المنظرَ الذي يتحدّثُ عنه، ثمّ سكنَ قليلًا ونظرَ إليّ نظرةً هادئةً مملوءةً عطفًا وحنانًا وأنشأ يقول:

مرغريت؟ أنتِ أعظمُ في عيني ممّا كنتُ أظنّ، وأكرَمُ نفسًا من أولئكَ النساءِ اللواتي يَزْعُمْنَ أنّكِ واحدةٌ منهنّ، وقد وجدتُ فيك من فضائلِ النفسِ ومزاياهَا ما لم أجدْهُ إلّا قليلًا في أفذاذِ الرجال، وأقلَّ من القليلِ في فضلياتِ النساءِ، ولو قُسِّمَ الشرفُ بين الناسِ على مقدارِ فضائِلِهم وصفاتِهِم لكانَ نصيبُكِ منهُ أوفرَ الأنصبةِ، وأوفَاهَا.

لا أنسى لكِ، يا مرغريت، ما دمتُ حيًّا كتمانَكِ أمرَ الكتابِ الذي أرسلتُه إليكِ، واحتفاظَكِ بسرّه في ساعةٍ تنفرجُ فيها الصدورُ عن مكنونَاتِها، ولا سكوتَكِ وإغضاءَكِ وأنتِ في منزلك، وموضع أمركِ ونَهْيِكِ، أمامَ حِدّتي وخشونتي وجنونِ غضَبي، ولا بَذْلَكِ ما بذلتِ من ذاتِ نفسِكِ وذاتِ يدكِ لولدي - من حيثُ لا يعلمُ - وفاءً له وإبقاءً على عزّةِ نفسِهِ وكرامتِهَا.

لقد كانت ضحيّتُكِ التي قدّمْتِهَا لولدي بالأمسِ عظيمةً جدًّا، واليومَ جئتُكِ أطلبُ إليك أن تقدّمي ضحيةً أعظمَ منها لابنتي ولا معتمدَ لي أعتمدُ عليه في تلبيةِ رجائي عندَكِ إلّا شرفُ نفسِكِ، وفضيلَتُها.

---

(١) اللجب: الضجّة.

لقد تركتُ سوسان ورائي تتقلّبُ على فراشِ المرضِ، وتكابدُ منه فوقَ ما يحتملُ جسمُهَا النائسُ[١] الغضُّ لأنّ خطيبَها الذي تحبّه حبًّا جمًّا، قد هجرَها منذُ شهرينِ، فلا يزورُها ولا تَرَاه، وقد كنتُ أجْهَلُ قبلَ اليوم سببَ مرضِهَا إلّا الظَنَّ والتقديرَ حتّى سهرتُ بجانبِ فراشِها ليلةً كانتِ الحمّى فيها قد نالتْ منها منالًا عظيمًا، ووصلتْ بها إلى درجةِ الخبلِ[٢]، والهذيانِ، فسمعتُهَا تهتفُ باسمِ خطيبِهَا مرّات كثيرةً، وتبكي كلّما جرى ذكرُه على لسانِها كأنّها حاضرةٌ مستفيقةٌ، فعَلِمْتُ موضعَ دائِها، وذهبتُ في اليومِ الثاني إلى والدِ ذلكَ الخطيبِ أسألُه عمّا رابَ[٣] ولدَهُ من أمرِ ابنتي، وقطَعَهُ عن زيارتها، فذكَرَ لي سببًا غريبًا لكِ فيه، يا سيّدتي، بعضُ الشأنِ فإنْ أذنتِ لي حدّثْتُكِ حديثَهُ.

فخفقَ قلبي خفقانًا شديدًا، وأحسَسْتُ بالشرّ يدنو منّي رويدًا رويدًا، إلّا أنّني تماسَكْتُ وقلتُ له: نعم آذنُ لكَ يا سيّدي.

قال: لقد أجابني الرجلُ على سؤالي بقولِه: «إنّ أسرَتي أسرةٌ شريفةٌ، لا تصاهِرُ إلّا أسرةً شريفةً مثلها من جميعِ وجوهِهَا، وقد عرفتُ أسلوبَ المعيشةِ السافلةِ التي يعيشُها وَلَدَكَ في باريس. إنّه يعاشرُ منذُ عهدٍ طويلٍ امرأةً مومسًا، معروفةً هناك، معاشرةَ تهتُّكٍ وتبذُّلٍ، يشهدُها الناسُ جميعًا، ولا أسمحُ لنفسي أن يكونَ مثلُ ولدِكَ في تبذُّلِهِ واستهتارِه، وصغرِ نفسِه وفسولتِهَا[٤] صهرًا لولدي ولا عارًا على ابنتي».

فاستقبلتُ خشونَتَه وجفاءَه بصبرٍ واحتمالٍ، لأنّ الخوفَ على ابنتي شغلَني عن الغضبِ لنفسي، وقلتُ له: أواثقٌ أنتَ ممّا تقول؟ فأدلى لي بما أقنَعَني. فلم أرَ بدًّا من أن أسلّمَ بصوابِ ما فعل، وسألتُه أنْ لا يبتّ في أمرِ الخطبةِ شيئًا حتّى أسافرَ إلى باريسَ وأعودَ منها.

ذلك ما حملني على المجيءِ إلى باريس، وهذه هي قصّتي التي جئتُ أعرضُها عليكِ، وأنتظرُ حُكْمَكِ فيها، وقد كَتَمْتُهَا عن الناسِ جميعًا حتّى عن ولَدِي أرمان؛ فانظري ماذا تأمرين؟

وهنا أطرقَ برأسه طويلًا، ثمّ رفعَهَا، فإذا عَبْرَةٌ تترقرقُ في عينيهِ، وإذا هو يحاولُ الكلامَ، فلا يستطيعُه، فرحمتُه ممّا به، وأعظمتُ مُصَابَهُ حتّى نسيتُ مصابي بجانبه، وسادَ السكونُ بيننا ساعةً لا يقولُ لي شيئًا، و لا أدري ماذا أقولُ له، حتّى هدأ ثائرُهُ قليلًا فمدّ يدَه إلى يدي فأخذَها بينَ ذراعيه، وعادَ إلى حديثِه يقول:

مرغريت؛ إنّ حياةَ ابنتي بينَ يديكِ، فامنحيني إيّاها تتّخذي عندي يدًا لا أنسَاها لكِ حتّى الموت.

إنّني لا أستطيعُ أن أراها تموتُ بين يديّ، ولو تمّ ذلكَ لمتُّ على أثرِها حزنًا وكمدًا، وضمَّنا في يومٍ واحدٍ قبرٌ واحدٌ؛ لقد رأيتُ مصرَعَ أمّها منذَ خمسِ سنينَ، ولا يزالُ أثرُهُ باقيًا

---

(١) النائس: الضعيف، الهزيل.
(٢) الخبل: الجنون.
(٣) راب: من الريب أي الشكّ.
(٤) الفسولة: الانحطاط وضعف المروءة.

في نفسي حتّى اليومِ، ولا أستطيعُ أن أرى هذا المشهدَ مرّةً أخرى في ابنتِهَا وصورَتِها الباقية عندي من بَعْدِها.

إنّني أحبّها حبًّا جمًّا، ولا أستطيعُ أنْ أراها في ساعةٍ من ساعاتِها حزينةً أو مكتئبةً، فكيفَ أن أراها تعالجُ سكراتِ الموت!

إنّكِ لا تعرفينَها يا مرغريت، وأعتقدُ أنّك لو رأيتِهَا لأحببتِهَا كما أحبُّها، ولَرَحَمْتِهَا كما أرحَمُهَا، ولفَدَيْتِهَا بما تستطيعينَ رأفةً بها وإشفاقًا عليها.

إنّها جميلةٌ جدًّا، وبيضاءُ مثلُ الكوكبِ، وطاهرةٌ طهارةَ المَلَكِ، وغريرةٌ غرارةَ الطفلِ، فاسمحي لهذه الحياةِ الغَضَّةِ الزاهرةِ بالبقاءِ والسعادةِ، فإنّها لا تستحقُّ الشقاء.

إنّها اليومَ تعيشُ بالأملِ الذي أودعتُهُ قلبَهَا يومَ سفري، فإنْ عدتُ إليها بالخيبةِ، عُدْتُ إليها باليأسِ القاتلِ، والقضاءِ النازل.

إنّك تحبّينَ أرمان، يا مرغريت، وقد أصبحتُ أعتقدُ أنّكِ مخلصةٌ في حبّه إخلاصًا عظيمًا، فاصنعي ما يصنعُ المحبّون المخلصونَ، وضحّي حبَّكِ من أجلِهِ، ومن أجلِ مستقبلِهِ. فإلّا تفعلي ذلك من أجلِهِ، فافعليهِ من أجلي.

لقد قلتِ لي إنّه الرجلُ الوحيدُ الذي أحبّكِ لنفسِكِ أكثرَ ممّا أحبّكِ لنفسِهِ، فبادليهِ هذا الحبّ، بل كوني خيرًا منه فيه، وليكنْ عزاؤُك عملًا تلاقيهِ بعد فراقِهِ من حزنٍ وألمٍ أنّه قد أصبحَ سعيدًا من بعدِكِ، وأنّكِ قد أنقذتِ من يدِ الموتِ فتاةً مسكينةً، ومن يدِ الشقاءِ شيخًا حزينًا. وهنا اختنقَ صوتُه بالبكاءِ فهبطَ على كرسيّه بين يديّ، وقال بنغمةِ المشرف المحتضر:

ارحميني يا مرغريت، واشفِقِي على ضعفي وشيخُوخَتي، وتصدَّقي عليَّ بمستقبلِ ولدي، وحياةِ ابنتي.

ثمّ لمْ يستطِعْ أنْ يقولَ بعدَ ذلكَ شيئًا، فألقى رأسَه على كرسّيهِ الذي كانَ جالسًا عليه وانفجرَ باكيًا.

* * *

آه لو رأيتَني، يا أرمان، في موقفي هذا، ورأيتَ لوعَتي، وتفجّعي، ودموعي المنهمرةَ على خدّيّ انهمارَ الديمةِ الوطفاءِ[1] رَحمةً بأبيكِ وإشفاقًا عليه!

لقد كانَ يتكَلَّمُ، فتسيلُ مدامعي مع حروفِهِ وكلماتِهِ، وكأنّما هو يُنْشِدُ مرثيةً محزنةً، أنا المبكيَّةُ عليها فيها!

إنّ العظيمَ عظيمٌ في كلّ شيءٍ حتّى في أحزانِهِ وآلامِهِ، فلقد كان يُخَيَّلُ إليَّ وأبوكَ يبكي بين يديّ، وينتحِبُ أنّ كلّ دمعةٍ من دموعِهِ تستنزلُ غضبَ اللهِ على الأرضِ، وكلَّ زفرةٍ من زفراتِهِ، تلتهبُ بها آفاقُ السماء.

---

(١) الديمة الوطفاء: الديمة: الغيمة المحمّلة بالمطر، والوطفاء الهاطلة.

لقد أكبرتُ في نفسي جدًّا أن يجثُوَ مثلُ هذا الشيخِ الشريفِ الطاهرِ بين يدي فتاةٍ ساقطةٍ مثلي، واستحيَيْتُ من ذلكَ حياءً تمنّيتُ معهُ أنْ لو انشقّتِ الأرضُ تحتَ قدميّ، فَسِخْتُ[1] فيها أبدَ الدهر.

وبينما هو مطرقٌ صامتٌ، أخذتُ أفكّرُ فيه، وفي مُصَابِهِ، وفي قصّتِهِ التي قصّها عليّ، وفي الشأنِ الذي لي فيها؛ فعلمتُ أنّي قد أصبحتُ شؤمًا على هذهِ الأسرةِ السعيدةِ جميعِها، أبيها وابنِها وابنتِها، فثَقُلَتْ نفسي عليّ، وسَمُجَ[2] منظرُها في عيني، حتّى خُيِّلَ إليّ أنّها لو كانتْ حاضرةً بين يدي لرميتُ بها من حالقٍ إلى حيثُ لا يجمعُني وإيّاها مكانٌ بعدَ اليوم.

ثمّ قلتُ في نفسي: إنّ حياتي الماضيةَ التي قضيتُها في الشرورِ والآثام، قد قَطَعَتْ عليّ طريقَ الشرفِ، فلا حقَّ لي في أنْ أطمعَ في حياةِ الشرفاءِ، ولا أن أنازِعَهُم سعادَتَهم وهناءَهُم، وإنّ الإثمَ الذي اقترفتُهُ في ماضيّ قد أثمتُهُ وحدي، فلا بُدّ لي أنْ أستَقِلَّ بعبئِهِ دونَ أن أُلقِيَه على عاتقِ أحدٍ غيري.

فإنْ كان مقدّرًا عليّ أن أموتَ موتَ النساءِ الساقطاتِ، فذلكَ لأنّني امرأةٌ ساقطةٌ، أو ألاقي في مستقبلِ حياتي شقاءً وآلامًا، فذلكَ لأنّ المستقبلَ نتيجةُ الماضي، وثمرتُهُ الطبيعيّة.

هنا ذكرتُكَ، يا أرمان، وذكرتُ فراقَكَ وكيفَ أستطيعُه، وذكرتُ أنّني أنا التي سأتولّى قتلَ نفسي بيدي؛ لأنّ الطريقَ التي لا طريقَ غيرَها إلى بلوغِ رضا أبيكَ وموافاةِ رغبتِهِ، أنْ أقاطعَكَ وأغاضِبَكَ، وأظهَرَ أمامكَ بمظهرِ الخائنةِ الغادرة، وربّما اضطررتُ إلى الاتّصالِ بغيرِكَ على مرأًى منكَ ومسمعٍ، حتّى تنصرفَ عنّي انصرافَ يائسٍ مغلوبٍ على أمره من حيثُ لا يكونُ لأبيكَ مدخلٌ في ذلكَ، فأكونُ قد جمعتُ على نفسي بين فراقِكَ وغضَبِكَ في آنٍ واحدٍ، وذكرتُ أنْ لا بدَّ لي متى فارَقْتُكَ أنْ أعودَ إلى حياتي الأولى التي أبغِضُهَا وأمقُتُهَا، لأنّ الدوق موهان لم يستطعْ أن ينسى ذنبي الذي أذنبتُه إليه حتّى اليوم، ولأنّي في حاجةٍ إلى بسطةٍ من العيشِ أستعينُ بها على معالجةِ مَرَضي ووفاءِ دَيني.

فدارتْ هذه الخواطرُ في رأسي ساعةً، وطالتْ دورَتُها حتّى كادَتْ تغلبُني على أمري، ثمّ وقَعَ نظري على وجهِ أبيكَ المخضلِّ بدموعِهِ، فتجلّدْتُ وجمعتُ أمري، ومضيتُ قُدُمًا لا ألوي على شيءٍ ممّا ورائي.

لقد كانَ شديدًا عليّ جدًّا أنْ أفارقَكَ، يا أرمان! ولكنْ كان أشدَّ عليّ منه أن أرى أباكَ يبكي بين يدي، وأنْ أكونَ سببًا في موتِ أختِكَ أو شقائِها.

إنّني أحبُّ يا أرمان، وأعرفُ آلام الحبّ ولوعَتَه في النفوسِ، ولقد كانَ يُخَيَّلُ إليَّ وأبوك يحدّثُني عن أختِكَ وشقائِها أنّني أراهَا من خلالِ دموعي طريحةَ فراشِهَا، وهي تمدّ يدَهَا إليَّ ضارعةً متوسّلَةً، وتقول: أنقذيني، يا سيّدتي، وارحمي ضعفي وشبابي. فأجدُ لكلماتها من الأثرِ في نفسي ما لا يستطيعُ أنْ يشعرَ به إلّا من كانَ له شأنٌ مثلُ شأني.

---

(١) ساخ: سقط. (٢) سمج: صار مكروهًا.

إنّني حُرِمْتُ في مبدأ حياتي سعادةَ الزوجيّة وهناءَها، ولقيتُ بسببِ ذلكَ من الشقاءِ ما لا أزالُ أبكيهِ حتّى اليوم، فلا يهيجُ حزني، ولا يستثيرُ كامِنَ لوعتي مثلُ أنْ أرى بين الناسِ فتاةً محرومةً السعادةِ مثلي.

إنّني أحِبُّ، وهي تحبُّ، ولا بدَّ لواحدةٍ منّا أن تموتَ فداءً عن الأخرى؛ فلأَمُتْ أنا فداءً عنها، لأنّها أختُكَ، ولأنّها لم تقترفْ في حياتِها ذنبًا تستحقُّ بسببِهِ الشقاء.

وكنتُ كلّما ذكرتُ أنّها ستصبحُ سعيدةً هانئةً من بعدي، وتراءى لي شَبَحُها، وهي لابسةٌ ثوبَ عرسِهَا الأبيضَ الجميلَ، وسائرةٌ إلى الكنيسةِ بجانبِ خطيبِها، طارَ قلبي فرحًا وسرورًا، وهانَ عليَّ كلُّ شيءٍ في سبيلِ غبطَتِهَا وهنائِهَا.

نعم إنّ الضربةَ التي سأستقبلُهَا شديدةٌ جدًّا، لا يقوى عليها قلبي، ولكنّي سأحتمِلُها بصبرٍ وسكونٍ؛ لأنّ أباكَ سيصبحُ راضيًا عنّي، ولأنّكَ ستعلمُ في مستقبلِ الأيّامِ سرّ تضحِيَتي، فتحبّني فوقَ ما أحبَبْتَني! ولأنّ أختَكَ ستصبحُ سعيدةً مغتبطةً بعيشِهَا وحبّها؛ وسيكونُ اسمي بين الأسماءِ التي تدعو لها الله في صلواتِها بالرحمةِ والرضوان.

جاءتِ الساعةُ التي أقولُ فيها لأبيكَ كلمتي الأخيرةَ، ولقد كانتْ شديدةً هائلةً أسألُ الله أن يغفَر لي، بما لقيتُ فيها من الآلامِ، ماضي ذنوبي وآتيها، كما أسألُه ألّا يُذِيقَ مرارَتَها قلبَ امرأةٍ على وجهِ الأرضِ من بعدي.

قمتُ من مكاني كأنّني أنتزعُ نفسي من الأرضِ انتزاعًا، ومشيتُ إلى أبيكَ كما يمشي الحائِنُ[(١)] إلى مصرعِهِ، حتّى جَثَوْتُ بين يديه، وأخذتُ بيدِه، فاستفاقَ من غشيتِهِ ونظرَ إليَّ ذاهلًا مشدوهًا.

فقلت له: أتعتقدُ يا سيّدي أنّني أحبُّ ولدَك؟

قال: نعم.

قلت: حبًّا هو منتَهَى ما تستطيعُ امرأةٌ أن تحتمِل؟

قال: نعم.

قلت: وأنّ هذا الحبّ هو كلّ آمالي وسعادتي، وما أملكُ في الحياة؟

قال: نعم، يا بنيّتي.

قلت: قد ضحّيتُه من أجلِ ابنتِكَ، فَعُدْ إليها، وبشّرْهَا بسعادةِ المستقبلِ وهنائِهِ، وقلْ لها: إنّ امرأة لا تعرفُكِ، ولم تَرَكِ في يومٍ من أيّامِ حياتِها، ولكنّها تحبُّكِ، وتشفِقُ عليك؛ تموتُ الآنَ من أجلِكِ، فاسألي الله لها الرحْمةَ والغفران.

فتهلّلَ وجهُهُ بشرًا وسرورًا، ولم يَدَعْ كلمةً من كلماتِ الشكرِ والثناءِ إلّا أفْضَى بها إليّ، فأنساني سرورُهُ واغتباطُهُ ألَمَ الضربةِ التي أصابتْ كبدي، واستحالَ حزني، واكتئابي إلى راحةِ

---

(١) الحائن: الذي حان هلاكه.

وسكونٍ، فحمدتُ الله على أنْ لم يَرَ في وجهي في تلكَ الساعةِ ما ينغّصُ عليه سرورَه واغتباطه.

وهنا شعرتُ بحركةٍ عندَ بابِ الغرفةِ، فالتفَتُّ فإذا «برودنس» تشيرُ إليّ بيدِهَا، فذهَبْتُ إليها، فأعطتني كتابًا جاءَ بهِ البريدُ، فقرأتُ عنوانه فإذا هو بخطّ المركيز «جان فيليب»، فعلمتُ ما يتضمّنُه قبلَ أن أراهُ، ووقع في نفسي أنّ الله قد أوحى إليّ بما أفعلُ، فذهبتُ مسرعةً إلى غرفةِ مكتبي، كأنّني أخافُ أن يعرضَ لي في طريقي ما يزعزِعُ عزيمتي، وهناكَ قرأتُ الكتابَ وكتبتُ لصاحِبِهِ في بطاقةٍ صغيرةٍ هذه الكلمةَ «سأتعشّى عندكَ الليلة».

ثمّ أعطيتُها برودنس لتلقِيها في صندوقِ البريدِ، وعدتُ إلى أبيكَ، فوجدتُهُ حيثُ تركتُهُ، فقلتُ له: إنّ أرمان لا يعلمُ شيئًا من أمرِ زيارتِكَ هذه فاكتُمْهَا عنهُ حينَ تلقاهُ، وسأكتبُ إليه كتابَ مقاطعةٍ لا يشكّ في أنّي صاحبةُ الرأي فيه، وأنْ لا يَدَ لكَ فيما كان، وسيعلمُ اليومَ أو غدًا أنّني قد اتّصلتُ برجلٍ غيرِهِ، فيرى أنّني قد خنتُه وغدرتُ بعهدِه، فلا يجدُ له بدًّا من أن يسافرَ معَكَ قاطعًا رجاءَه منّي.

وربّما تألّم لهذه الصدمةِ بضعةَ أيّامٍ، أو بضعةَ أسابيعَ، فلا تحفلْ بذلكَ، فسَيَبْلَى حبّي في قلبِهِ، كما يبلى كلُّ حبٍّ في كلِّ قلبٍ.

غيرَ أنّ لي عندَكَ طلبةً واحدةً لا أريدُ منك سواها، فهل تسمحُ لي بها؟

قال: نعم أسمحُ لكِ بكلِّ شيءٍ.

قلت: إنّي مريضةٌ مشرفةٌ، وإنّ العلّةَ التي أكابدُهَا كثيرًا ما يتحدّثُ الناسُ عنها أنّها لا تتركُ صاحبَها طالَت، أم قَصُرَتْ حتّى تذهبَ به إلى قبره، فكلّ ما أسألُكَ إيّاه أن تأذَنَ لأرمان في اليوم الذي تعلَمُ فيهِ أنّني قد أصبَحتُ على حافّةِ قبري أنْ يأتِيَني، لأراهُ، وأودّعه الوداعَ الأخيرَ وأعتذرَ له عن ذنبي الذي أذنَبْتُه إليه، حتّى لا أخسرَ حبّه واحترامَه حيّةً وميتةً.

فنظرَ إليَّ نظرةً دامعةً وقال: وارحمتاه لكِ، يا بنيّتي، أنّني أعدُكِ بما أردتِ، وأسألُ الله لكِ الشفاءَ والعزاءَ. ثمّ حاولَ أن يعرضَ عليّ شيئًا من المعونةِ فأبيتُ ذلكَ إباءً شديدًا، وقلت له: إنّني لم أَبِعْ نفسي، يا سيّدي، بيعًا، بل وهبتُهَا هبَةً، فأخَذَ رأسي بين يديه وقبّلني في جبيني قبلةً كانتْ خيرَ جزاءٍ لي على تضحِيتي التي ضحّيتُ بها، وودّعَني، ومضى.

فما أبعدَ إلّا قليلًا حتّى قمتُ إلى خزانتي، فجمعتُ ثِيَابي، وما بقيَ لي من حلايَ ووضعتُهَا في حقيبتي، وسافرتُ مع برودنس إلى باريس، وذهبتُ إلى منزلي هناكَ، فكتبتُ إليكَ فيه ذلكَ الكتابَ الذي تعلمُهُ. واللهُ يعلَمُ كَمْ سكبتُ من الدموعِ، وكم وقفَ قلبي بين كلّ كلمةٍ وما يليها أثناءَ كتابتِهِ حتّى أتممتُهُ، فأعطيتُه حارسَ المنزلِ وأوصيتُه أن يسلّمه إليكَ عندَ مجيئِكَ، ثمّ ذهبتُ للوفاءِ بعهدِ المركيز.

أمّا حياتي مع ذلكَ الرجلِ، فلا أستطيعُ أنْ أقصّ عليكَ منها شيئًا سوى أنْ أقولَ لكَ: إنّه لم يَرَ فيَّ المرأةِ التي كانَ يتخيّلُها، ويمنّي نفسَه بها، ولم أرَ فيه الرجلَ الذي يؤنِسُني ويخلطُ

نفسَه بنفسِي، فافترقنا فأصبَحْتُ لا أعرفُ لي في العالم صديقًا صادقًا، ولا كاذبًا.

هذه قصّتي يا أرمان كما هي، وهذا ذنبي الذي أذنَبْتُهُ إليكَ. فهلْ ترى بعد ذلكَ أنّي خائنةٌ أو خادعة؟

قلبي يحدّثني أنّني سأموتُ قبلَ أن أراكَ، وأملي يُخَيِّلُ إليَّ أنّ ما في نفسِكَ من الموجدةِ[1] عليّ لا يستمرُّ إلى ما بعدَ الموت، وأنّكَ ستعود إلى باريس في الساعةِ التي ينعاني لكَ فيها الناعي؛ لتزورَ قبرَ تلكَ المرأةِ المسكينةِ التي تولّتْ سعادةَ قلبكَ وهناءَه حقبةً من أيّام حياتِكَ، ثمّ خرجَتْ من الدنيا فارغةَ اليدِ من كلّ شيءٍ، حتّى من حبّكَ وعطفِكَ. وربّما بلغَ بكَ الاهتمامُ بشأنها أنْ تحاولَ معرفةَ ما تمّ لها من بعدِكَ إلى أن ذَهَبَ بها الموتُ إلى قبرها.

فها أنذا أكتبُ هذه المذكراتِ، وأتركُها لكَ عند برودنس، لعلّكَ تقرأُها في مستقبلِ الأيّام، فتنظرَ إليها كما تنظرُ إلى كتابِ اعترافٍ مقدّسٍ قد ألبسَهُ الموتُ ثوبَ الطهارةِ والبراءةِ، فتصدّقَ ما فيها وتعفو عنّي، فينيرُ عفوُكَ ظلماتِ قبري، ويؤنسُ وحشةَ نفسي.

* * *

٣ يناير ١٨٥١.

أينَ أنتَ، يا أرمان؟ أنتَ بعيدٌ عنّي جدًّا، بعيدٌ بجسمِكَ وبقلبِكَ، لأنّكَ لم تهمِلْ كتابي الذي كتبتُهُ لكَ، ودعوتُكَ فيه لزيارتي وسماعِ اعترافي الأخيرِ إلّا لأنّ ما كان في نفسِك من التعبِ والموجدةِ عليَّ قد استحالَ إلى نسيانٍ وإغفالٍ، فأصبحتَ لا تذكُرني كما يذكرُ المحبُّ حبيبَه، ولا تعطفُ عليّ كما يعطفُ الصديقُ على صديقِهِ. فليكُنْ ما أرادَ اللهُ، وَلْتَدُمْ لكَ تلكَ السعادةُ التي تنعمُ بها بينَ أهلكَ وقومِكَ، فإنّي غيرُ واجدةٍ عليكَ، ولا ناقمةٍ منكَ شيئًا، ولا حاملةٍ لكَ في نفسي إلّا الحبَّ والإخلاصَ والرضا بكلِّ ما تأتي، وما تَدَع.

لي عدّةُ أيّامٍ لم أرَ فيها أحدًا من الناسِ؛ لأنّ الطبيبَ منعني من الخروجِ، ولأنّ أصدقائي الذين كانوا يعرفُونني فيما مَضَى، قد أصبَحُوا يقنعونَ من زيارتي بإرسالِ بطاقاتِهم إليّ مع خادمتي، ثمّ ينصرفونَ مسرعينَ كأنّما يفرّون من أمرٍ يُخِيفُهُم، ولقد كانوا قبلَ اليوم إذا أرسلوهَا، لبثوا ينتظرونَ الساعاتِ الطوالَ، حتّى آذنَ لهم بالمقابلةِ، فإذا ظفروا بها طارُوا بها فرحًا وسرورًا، وإن حُرِمُوها عادوا آسفينَ محزونين.

ولا أدري لِمَ لا يقطعُونَ بطاقاتِهم كما قَطَعُوا زياراتِهم؟ فقد كانوا يظنّونَ أنّهم سيرونَني بينَهُم في مستقبلِ الأيّام صحيحةَ الجسمِ طيبةَ النفسِ، أَصْلُحُ للمعاشرةِ والمخادنة كما كانوا يعهدونني من قبلُ، فَهُمْ في ظنّهم مخطِئُون.

لقد أحسَنوا فيما عملوا، فإنّني أصبَحْتُ لا آنَسُ بأحدٍ في العالم سوى نفسي، ولا آنسُ بنفسي إلّا لأنّي أستطيعُ متى خلوتُ بها أن أسائِلَها عنكَ، فتذكّرني بكَ، وبتلكَ الأيّامِ السعيدةِ التي

---

(١) الموجدة: الغضب.

قضيتُها معك في بوجيفال. وذكرى تلكَ الأيّامِ هي العزاءُ الباقي لي من جميعِ ما خَسِرَتْ يدي.

ما كنتُ أظنُّ، يا أرمان، أنّ جسمَ الإنسانِ يحتمِلُ كلَّ هذه الآلامِ التي أكابدُهَا. فلقد تمرّ بي ساعاتٌ أعتقدُ فيها أنّ الألم الذي أكابدُه إنّما هو ألمُ النزعِ، وأنّني في الساعةِ الأخيرةِ من ساعاتِ حياتي. فإذا استفَقْتُ، قلتُ في نفسي: هذا ألمُ المرضِ، وقد عجزتُ عنه؛ فَمَنْ لي باحتمالِ ألمِ الموت؟

على أنّ نفسي تحدّثني أحيانًا أنّه إنْ قدّرَ لي أنْ أراكَ بجانبي في يومٍ من الأيّامِ، برئتُ من مرضي، وتراجَعَتْ نفسي وعدتُ إلى راحتي وسكوني، فهل يقدّرُ لي اللهُ ذلك؟

لا أعلمُ؛ فالمستقبلُ بيدِ الله، فليقدّرِ اللهُ ما يشاءُ، وليفعَلْ ما يريد.

* * *

٢٤ يناير ١٨٥١.

لم أفارقْ سريري منذُ أيّامٍ طوالٍ إلّا صباحَ هذا اليوم، فجلستُ قليلًا بجانبِ نافذتي، وأشرفْتُ منها على الحياةِ العامّةِ، فوقَعَ نظري على كثيرٍ ممّن كنتُ أعرفُهُمْ من قبلُ سائرين في طريقِهِم لاهينَ مغتبطينَ، ولم أرَ بينهُم من رَفَعَ نظرَهُ إلى نوافذِ غرفتي مرّةً واحدةً كأنّما يمرّونَ ببيتٍ لا يعرفُونه، ولا عهدَ لهمْ بهِ من قبل.

ما أشدّ وحشَتي! وما أضيَقَ صدري! وما أثقَلَ هذا الجدارَ الذي يدورُ حولي؟

لا أطيقُ النظرَ إلى سريري، لأنّ نفسي تحدّثني أنّه سيكونُ عمّا قليلٍ سُلّمَ قبري، ولا الوقوفَ أمام مرآتي؛ لأنّها تحدّثني عن نفسي أسوأَ الأحاديثِ وأشأَمَهَا، ولا الإشرافَ من نافذتي لأنّها تذكّرني بحياتي الماضيةِ السعيدةِ التي حِيلَ بيني وبينَهَا، فأينَ أذهبُ وكيفَ أعيش؟

لا آكلُ إلّا طعامًا واحدًا، ولا أرى إلّا منظرًا متكرّرًا، ولا أسمعُ إلّا صوتَ طبيبي وخادِمَتي حينما يسألُها عنّي صباحَ كلِّ يومٍ ومساءَه، فتجيبُه بجوابٍ واحدٍ، حتّى مَلَلْتُ، وسَئِمْتُ، وأصبحتُ أشعرُ أنّ نفسي سجينةٌ في صدري، وسجنَ جسمي في غرفتي، وربّما مرّتْ بي ساعاتٌ يقفُ فيها ذهني عن التفكيرِ وخاطري عن الحركةِ، وينقطعُ ما بيني وبين يومي وأمسي وغدِي وكلِّ شيءٍ في الحياةِ حتّى نفسي.

السعالُ يهدمُ أركانَ صدري هَدْمًا، والنومُ لا يُلِمّ بعينيَّ إلّا قليلًا، والطبيبُ يعذّبني بمشارطِه وضمادَاته[1] عذابًا أليمًا، وكلَّ يومٍ أشعرُ أنّ نَفَسِي يزدادُ ضيقًا، وبصَرِي يزداد ظلمةً، وأنّ الحياةَ تبعدُ عن ناظري شيئًا فشيئًا، حتّى أكادَ أحسبُهَا شبحًا من الأشباحِ النائيةِ فمتى ينقَضِي عذابي؟!

* * *

---

(١) المشارط: جمع مشرط بالكسر، وهو ما يشرط به الجلد لاستفراغ الدم. والضمادات: العصابات توضع على العضو المجروح أو المكسور.

٣٠ يناير سنة ١٨٥١.

سمعتُ صباحَ اليومِ لجبًا[1] كثيرًا في فناءِ المنزلِ فسألتُ برودنس: ما الخبرُ؟ فذهَبَتْ وعادَتْ إليّ تبكي وتقول: إنّهم يحجزونَ أثاثَ المنزلِ يا سيّدتي. فقلت: دَعِيهم يفعلوا ما يشاؤون. وما هيَ إلّا لحظاتٌ قليلةٌ حتّى دخلوا غرفتي مندفعينَ متصايحينَ، ولمْ يمرَّ بخاطرِ واحدٍ منهم أنْ يرفَعَ قبّعتَه عن رأسِه احترامًا لصاحبةِ المنزلِ، أو يخفضَ صوتَه إشفاقًا على المريضةِ المعذّبةِ، فمشوا يسجّلونَ كلَّ ما وقعَ نظرُهُمْ عليه، وخفتُ أن يسجّلوا دفترَ مذكّراتي فأشرتُ إلى برودنس أن تخفيهِ عنهُمْ، ففعلتْ، فحمدتُ اللهَ على ذلكَ.

ثمّ وصلوا إلى سريري، فَطَلَبَ أحدُ الدائنينَ حَجْزَه، وقالَ إنّه ثمينٌ، سيكونُ له يومَ البيعِ شأنٌ عظيمٌ، فأفهَمَهُ الحاجزُ أنّ القانونَ يستثني الأَسِرَّةَ وفرشَها، وألقى في أذنِهِ كلمةً أحسبُ أنّي سمعتُهُ يقولُ فيها: إنّكَ تستطيعُ أنْ تفعلَ ذلكَ بعدَ موتها.

ثمّ انصرفُوا بعدما تركوا على بابِ بيتي حارسًا، لا يفارِقُهُ ليلَهُ ونهارَه، فكتبتُ إلى «الدوق موهان» - وهي أوّلُ مرّة - كتبتُ إليه فيها أستغفرُهُ ذنبي الذي أذنبتُهُ إليه، وأشكو له ما نَالَتْهُ يدُ الأيّام منّي، وأستحلِفُه بذكرى ابنتِه الكريمةِ عليه أنْ يأتيَ لزيارتي، ففعلَ. فبكى عندما رآني، ولا أدري هلَ بكاني، أو ذَكَرَ عند رؤيةِ مصرعي مَصْرَعَ ابنتِهِ الأخيرَ، فبكَاها، ثمّ مضى بجانبِ فراشي ساعةً مطرقًا صامتًا لا يحدّثُني إلّا قليلًا، ولا يذكُرُ الماضي بكلمةٍ واحدةٍ، ثمّ ذهبَ وترَكَ في يدِ برودنس ضمّةَ أوراقٍ استبقَتْ بعضَها للنفَقَةِ، واستعانَتْ بباقِيهَا على تأجيلِ بيعِ الأثاثِ بضعةَ أشهرٍ.

لا أستطيعُ أنْ أكتُبَ إليكَ اليومَ أكثرَ ممّا كتبتُ، فإنّ الطبيبَ ما زالَ يلحُّ على جسمي بالفَصْدِ[2] حتّى أوْهَاه[3] واستنزفَ دَمَه، فأصبحتُ لا أتحرّكُ حركةً إلّا شعرتُ بألمٍ عظيمٍ.

* * *

٢ فبراير سنة ١٨٥١.

إنّ هذا اليومَ أسعدُ أيّامي وأهنأُها، فقد وَصَلَ إليّ من أبيكَ كتابٌ هذا نصه:

سيّدتي:

إنّي أتوجّعُ لكِ توجّعًا شديدًا، فقد علمتُ بالأمسِ من بعضِ الوافدينَ إلى «نيس» أنّكِ مريضةٌ مرضًا شديدًا منذُ شهرين، وأنّكِ لا تخرجينَ من منزلِكِ إلّا قليلًا، فأسألُ اللهَ لكِ الشفاءَ والعزاءَ، وأضرعُ إليه أن يجزيَكِ خيرًا بما قاسيتِ من الآلامِ والأوجاعِ في سبيلي وسبيلِ ابنتي، وأبشّرُكِ أن اللهَ قد تَقَبّلَ قربانَكِ الذي قدّمتِهِ إليه.

فإنّ سوزان قد تزوّجَتْ من خطيبِهَا منذُ عشرينَ يومًا، وأصبحَتْ هانئةً بحبّها وعيشِهَا كما

(١) اللجب: الضجة.
(٢) الفصد: شقّ العرق لاستخراج دمه الفاسد.
(٣) أوهاه: أتعبه، أجهده.

أردتِ لها، وأنّها وإنْ لم تكُنْ تعلَمُ من أمرِ تلكَ القصّةِ التي نعلَمُهَا شيئًا، فقد قلت لها: إنّ بعضَ الناسِ - ولم أُسَمِّهِ لها - قد ضحّى بنفسِه وبسعادَتِهِ في سبيلِ سعادتِكِ وهنائِكِ، فلا تتركِي الدعاءَ له في جميعِ صلواتِكِ بجزيلِ الأجرِ وحُسْنِ المثوبةِ[1]. فهيَ لا تزالُ تدعو لكِ صباحَهَا ومساءَها أن يحسنَ اللهُ إليكِ كما أحسَنْتِ إليها.

أمّا الكتابُ الذي أرسلتِهِ إلى أرمان في أوائلِ الشهرِ الماضي، فلم يصلْ إليهِ إلّا اليومَ لأنّه منذُ فارَقَكِ وسافرَ إلى «نيس»، لم يستطِعِ البقاءَ فيها إلّا بضعةَ أيّام، ثمّ رحَلَ عنها إلى الشرقِ حزينًا مهمومًا من أجلِكِ، وكنتُ لا أعرفُ الجهةَ التي يقيمُ فيها، فلمْ أستطِعْ أنْ أرسِلَهُ إليه حتّى عرفتُهَا منذُ أيّامٍ، فأرسلتُهُ وأرسلتُ معه كتابًا أُطلِعُهُ فيه على قصّتِكِ، وأقولُ له إنّني لا أرى مانعًا يمنعني بعدَ زواجِ أختِهِ من أن آذنَ له بالسفرِ إلى باريس والبقاءِ فيها ما شاءَ أن يبقى، وأحسبُ أنّه يصلُ إليكِ في عهدٍ قريب.

أرسلتُ إليكِ مع كتابي هذا عشرةَ آلافِ فرنكٍ أرجو أن تقبَلِيها منّي، وأنْ تنظُرِي إليها بالعينِ التي تنظرُ بها الفتاةُ إلى هديّةِ أبيها الذي يحبّها ويُجِلُّها، فإنْ فَعَلْتِ أَحْسَنْتِ إليّ بذلكَ إحسانًا عظيمًا.

لي الأملُ أن أسمَعَ عمّا قليلٍ خبرَ شفائِكِ، وأرجو أن أرَاكِ في مستقبلِ الأيّامِ ناعمةً بصحّتِكِ وسعادتِكِ.

«دوفال»

فما قرأتُهُ حتّى شعرتُ بهزّةٍ من السرورِ في قلبي لم أشعرْ بمثلها مُذْ فارَقْتُكَ حتّى اليوم. فقد علمتُ أنّ سوسان قد تزوّجَتْ، وذلكَ ما كنتُ أرجوه لها، وأنّكَ لا تزالُ تحبّني، وقد أخافُ نسيانَكَ أكثرَ ممّا أخافُ عَتَبَك، وأنّني سأراكَ عمّا قليلٍ، وتلكَ آمالي في الحياة.

أمّا الهديّةُ التي أرسَلَها إليّ أبوكَ، فقد نظرتُ إليها بالعينِ التي أرادَها، فَقبِلْتُهَا شاكرةً له حامدةً، أحسنَ اللهُ إليه كما أحسَنَ إليّ.

* * *

٣ فبراير سنة ١٨٥١.

استطعتُ أنْ أنامَ ليلةَ أمسِ أكثرَ من كلّ ليلةٍ؛ لأنّ السرورَ الذي تركَهُ كتابُ أبيكَ في نفسي، شَغَلني عن كلّ شيءٍ حتّى عن ألمي، وفي الصباحِ قالَ لي طبيبي: إنّكِ اليومَ خيرٌ منكِ في كلّ يوم، وإنّ الشمسَ مشرقةٌ، والهواءُ فاترٌ عليلٌ. فاخرجي في مركبتِكِ إلى بعضِ المُتَنَزَّهاتِ ساعَةً، ثمّ عودي.

فخرجتُ إلى غاباتِ «الشانزليزيه»، فرأيتُهَا زاهرةً بالحياةِ والجمالِ، ورأيتُ الناسَ فيها ضاحكينَ متهلّلينَ مغتبطينَ بسعادةٍ لا يعرفونَ قيمَتَها كما تعرفُهَا امرأةٌ محرومةٌ منها مثلي. فلم

(١) المثوبة: المكافأة.

أحسدُهم على نعمتِهم التي آتاهُمُ الله، بلْ دعوتُ لهم لبقائِها ودوامِها، إلّا أنّني حزنتُ على نفسِي حزنًا شديدًا حينما رأيتُ أنّ كثيرًا من معارِفي الماضينَ، قد مرّوا على مقربةٍ منّي، ولم يعرفُوني، ورأيتُ أحدَهُمْ ينظرُ إليّ، وقد مرّ بجانبِ مركبتي نظرَ المتخيّلِ المتوهّم، ثمّ لم يلبثْ أنْ لوى وجهَهُ عنّي ومضى لسبيلِهِ، وقد استقرّ في نفسِه أنّه يرى امرأةً غيرَ المرأةِ التي يعرِفُها.

فعلِمْتُ أنّي قد تغيّرْتُ تغيّرًا عظيمًا، وأنّ مرآتي ما كانتْ تكذّبني حينما تحدّثني عن نحولي واصفراري، واستحالةِ صورتي، بل صَدَقَتْني كما صَدَقَني الناس.

ثم رأيتُ الشمسَ قد توارتْ وراءَ حجابِهَا، فعدتُ إلى منزلي، وقد زالَ من نفسي ذلكَ الخاطِرُ الذي أحزنني، وحلَّ محلّهُ خاطرٌ آخرُ خَيْرٌ منه، وهو أنّني سأراكَ عمّا قليل.

وسينقضي بلقائِكَ عَهْدُ بؤسي وشقائي.

* * *

٧ فبراير سنة ١٨٥١.

ما أحسبُ أنّكَ مدركي، يا أرمان، فقد بلَغَتْ بي العلّةُ منتهاها وأصبحتُ لا أجدُ الراحةَ في قيام ولا قعودٍ، ولا نومٍ ولا يقظةٍ، وانتشرتِ الآلامُ والأوجاعُ في جميعِ أعضائي ومفاصلي، وكأنّ حجرًا من الأحجارِ العاتيةِ[1] ممتدٌّ على صدري، يمنعُني التنفّسَ والحركَةَ، وقد عجزتُ اليومَ عن أن أنتقلَ من سريري إلى مكتبي، فأمرتُ برودنس أن تأتِيَني بمحبَرتي ودفتري حيثُ أنا، فجاءَت بهما إليّ، فأنَا الآنَ أكتبُ إليكَ وأنا في فراشِي؛ فمتى أراكَ يا أرمان لأحْيَا برؤيتِكَ أو أودّعَكَ قبلَ أنْ أموت؟

* * *

١٠ فبراير سنة ١٨٥١.

أملي في الحياةِ ضعيفٌ جدًّا، ها هو الموتُ يدنو منّي رويدًا رويدًا، لم تأتِ إليّ حتّى الساعةِ، يا أرمان، وأظنّ أنّي سأموتُ قبلَ أنْ أراكَ. إنّ الموتَ مخيفٌ جدًّا، يملأُ قلبي رُعْبًا وهولًا، لا أعلمُ كيفَ أستطيعُ أن أسكُنَ وحدي تلكَ الحفرةَ الموحشَةَ المظلمةَ التي لا أنيسَ لي فيها، ولا سميرَ، لم أتمتّعْ بالحياةِ طويلًا وكانتْ كلُّ سعادتي فيها آمالًا وأحلامًا، وها أنذا أموتُ قبلَ أنْ أرى شيئًا من آمالي وأحلامي.

ما أحلى الحياةَ، وأمرَّ فراقَهَا! لَمْ أنَلْ منها طائلًا، ولكنّي لا أحبُّ أنْ أترُكَهَا، لقد سعدَ الذين يعمّرُونَ في الحياةِ طويلًا، ثمّ يموتونَ فيتركُون من بعدهم ذرّيّةً صالحةً، أو عملًا طيّبًا يعيشونَ بِهِ بعدَ موتِهِم زمنًا أطولَ ممّا عاشوا. أمّا أنا فإنّي سأموتُ في ربيعِ حياتي، وسيموتُ ذكري في الساعةِ التي أموتُ فيها، وكأنّي لم أعشْ في الحياةِ يومًا واحدًا، وأأسفاهُ على ما فَرَّطْتُ في حياتي الماضيةِ. إنّني أدفعُ اليومَ ثمنَ ذنوبي، وآثامي أضعافًا مضاعفةً، لقد كنتُ

---

(١) العاتية: القوية.

أستطيعُ أن أقنَع بالمضغةِ والجرعةِ، ولا أمدُّ عيني إلى ما تقصُرُ عنه يدي فلم أفعَلْ. فها أنذا لا أسُيغُ[١] المضغةَ، ولا الجرعةَ، ولا أجدُ السبيلَ إلى العيشِ على أيّةِ صورةٍ كانتْ.

أهكذا أخرجُ من الدنيا غريبةً عنها كما دخلتُ فيها، لا يحضُرُ موتي قريبٌ، ولا يبكي عليَّ صديقٌ؟ أهكذا تنتهي حياتي في الساعةِ التي أحبَبْتُهَا فيها وأصبَحْتُ على مرحلةٍ واحدةٍ من أحلامي، وآمالي؟ آه، لو يمهلني الموتُ قليلًا! فربّما كنتَ على مقربةٍ منّي فأنظرَ إليكَ نظرةً واحدةً. . . ثمّ أموتُ. لا أملَ لي في ذلك. فقد رأيتُ طبيبي صَباحَ اليومِ يُلقي في أذنِ خادمتي، وهو خارجٌ من عندي كلمةً، فسألتُهَا عنها فدارَتْ حولها، ولم تَقُلْهَا، وما أحسَبُهَا إلّا تلكَ الكلمةَ الهائلةَ.

لا أكادُ أبصرُ شيئًا ممّا حولي حتّى بياضَ الصحيفةِ التي في يدي. . كنتُ قبلَ اليوم أنفُثُ الدمَ وحدَه، والآنَ أنفُثُ أفلاذَ رئتي مصبوغةً بالدمِ، من لي بكأسٍ من السمِّ أشربُها جرعةً واحدةً، فأستريحَ من هذا العذاب الذي يساوِرُني، ولكنْ أيُّ فائدةٍ لي من ذلكَ وها هو ذا الموتُ يمشي إليَّ بأسرعَ ممّا أمشي إليه؟ رحمتَكَ اللّهُمَّ وإحسانَك، فأنتَ وحدَكَ العالِمُ بمقدارِ ألمي وعذابي، فارحَمْنِي وهَوِّنْ عليَّ أمري، وامنَحْنِي إحدى الراحتين.

لا أرى شيئًا، ولا أعرفُ ماذا أقولُ، ربّما كانتْ هذه الكلماتُ آخرَ ما تخطُّهُ يدي!

* * *

١٤ فبراير سنة ١٨٥١.

لا تحزَنْ عليَّ كثيرًا بعدَ موتي، يا أرمان، فحَسْبي منكَ أنْ تذكُرَني ولا تنساني، وأبشّرُكَ أنّ اللهَ قد استجابَ لدعائي، فألقَى في نفسي منذُ الأمسِ بردَ الراحةِ واليقينِ، ومَحَا من قلبي جميعَ مخاوفِهِ ووساوسِهِ، فعلمتُ أنّه قد رضيَ عنّي، وغفرَ لي ذنبي، وأصبحتُ لا أخشى الموتَ ولا أخافُ بعدَه، ولا أجزَعُ من الألمِ، ولا أبكي أسفًا على الحياةِ، فلا يَحْزُنْكَ أمري حينَ تعلمُهُ، وَعِشْ سعيدًا بين قومِك، وأهلِكَ، وأكرِمْ أباكَ، فهو خيرُ الآباءِ، وأحبِبْ أختَك، فهي أطهَرُ الفتياتِ، وأوصيكَ خيرًا ببرودنس، فهي فتاةٌ طيّبةُ القلبِ، عظيمةُ الإخلاصِ لي ولَكَ، وأخافُ أن يتنكّرَ لها الدهرُ من بعدي.

إنّ اللهَ قد خَلَقَ لكلِّ رُوحٍ من الأوراح رُوحًا أخرى تماثِلُها وتقابِلُها، وتسعَدُ بلقائِها، وتشقى بفراقِها، ولكنّه قَدَّرَ أنْ تَضِلَّ كلُّ روحٍ عن أختِهَا في الحياةِ الأولى فذلكَ شقاءُ الدنيا، وأنْ تهتديَ إليها في الحياةِ الثانية، وتلكَ سعادةُ الآخرة.

فإنّي فاتَتْنِي سعادتي بكَ في الأرضِ. . فسأنتظِرُهَا في علياءِ السماءِ.

وهنا كَتِبتْ بعضَ كلماتٍ مضطربةٍ قد مَحَا الدمعُ أكثرَها، فلم يَبْقَ منها واضحًا بعضَ الوضوحِ إلّا كلمةُ «الوداع».

---

(١) أسيغ: أبتلع.

بقية المذكرات

بقلم الخادمة برودنس

١٣ فبراير ١٨٥١.

لم تستطِعْ مرغريت يا سيّدي أن تكتُبَ لكَ أكثرَ ممّا كتبَتْ. . لأنّ الطبيبَ منعَهَا عن الحركةِ. . ولو أرادَتْهَا لعجِزَتْ عنها.

أتذكرُ، يا سيّدي، ذلكَ الجسمَ الغضّ الناعمَ الذي كان يموجُ بالنورِ موجًا، ويشرقُ وراءَ بشرتِهِ إشراقَ الخمرِ في كأسها؟ لقد أصبحَ اليومَ عظمًا مجلّدًا وهيكلًا قائمًا لا يساوي ثمنَ النظرِ إليه!

وارحمتاه لكَ! لقد ماتَ كلُّ شيءٍ فيها إلّا قلبُهَا وشعورُهَا، وليتَهُما ماتا معًا، فإنّها لا يعذّبها شيءٌ مثلُ خواطرِها وأفكارِها.

لا يدخلُ من بابِ غرفَتِهَا داخلٌ، حتّى ترفَعَ نظرَها إليه تظنُّ أنّكَ قَد جئتَهَا. فإذا دنا منها ورأتْهُ أطبقَتْ جفنَيْهَا على دمعةٍ تنحدرُ من بينهما بالرغمِ منها.

إنّها لا تتكلّم كثيرًا، فإذا تكلّمَتْ كانَ أوّلُ حديثِهَا «ألم يأتِ «أرمان»؟ فإذا أجبتُهَا أنْ لا. سألتْ عن أمرٍ آخرَ تتلهّى بهِ، أو عادتْ إلى صَمْتِها مرّةً أخرى.

لقد رابَها اليومَ أنّ طبيبَهَا لم يأتِها، فلمّا أردتُ أنْ أعتذرَ لها عنه، لم تصدّقْني، وقالت: «الآنَ عرفتُ كلمتَه التي ألقَاهَا إليكِ بالأمسِ». فَسَكَتُّ، ولم أعرفْ ماذا أقول.

* * *

١٤ فبراير سنة ١٨٥١.

أصبَحَ اليومَ صوتُها ضعيفًا جدًّا، لا أكادُ أسمعُه، وأظلَمَ بصرُهَا، فهي تنظرُ إليّ ولا تراني، وقد أشارتْ إليّ في الصباحِ مرارًا أن أفتحَ نوافِذَ الغرفةِ لتستَنْشِقَ الهواءَ وتروّحَ عن نفسِها، و نوافذُ الغرفة مفتوحةٌ يجري منها الهواءُ متدفّقًا، ولكنّه لا يصلُ إلى صدرِها.

آه لو أستطيعُ، يا سيّدي، أنْ أبيعَ حياتي، لأشتريَ لها بضعةَ أنفاسٍ تتردّدُ في صدرِهَا، أو بعض سِنَاتٍ[١] من النوم تأوي إلى جفنِها، فإنّ تنفّسَهَا يؤلمني ويعذّبني عذابًا شديدًا، وقد مرّتْ بها ثلاثُ ليالٍ لم تَنَمْ فيها لحظةً واحدة.

* * *

١٥ فبراير.

بعدَ صمتٍ طويلٍ لم تنطقْ فيه بحرفٍ واحدٍ، فتحَتْ عينَيْهَا ونادَتْني بصوتِها الخافتِ الضعيفِ، فدنوتُ منها، فقالتْ لي: أريدُ الكاهِنَ فأتيني به. فعلمتُ أنّها قد أصبَحَتْ على يقينٍ من أمرِهَا؛ فغالبتُ عبراتي، حتّى خرجتُ من الغرفةِ، فبكيتُ ما شاءَ الله أنْ أفعلَ، ثمّ ذهبتُ

(١) السنات: جمة سِنَة، وهي النعاس.

إلى الكاهنِ، فتردّد عندما ذكرتُ له اسمَ المرأةِ التي يريدُ الذهابَ إليها.

فضرعتُ إليه، وقلت له: إنّ رحمة الله، يا سيّدي، لا يستحقّها أحدٌ مثلُ الآثمينَ المسرفين(١)؛ فأذعنَ بعد لأيٍ(٢) وجاءَ معي، فَخَلا بها ساعةً، ثمَّ خَرَجَ، فسألته: أيرحَمُهَا اللهُ يا سيّدي؟ قال: إنّها عاشَتْ عيشَ الآثمينَ، ولكنَّها ستموتُ موتَ المؤمنين. فحمدتُ اللهَ على ذلك.

ومنذُ تلكَ الساعةِ لم أعُدْ أسمَعُ منها كلمةً واحدةً، ولا أرى عضوًا من أعضائِهَا يتحرّكُ، إلّا ما كانَ في صدرِهَا يترجّحَ بين الصعودِ والهبوط.

* * *

١٥ فبراير - ساعة الغروب.

إنّ مرغريت تتعذّبُ كثيرًا، يا سيّدي، وأحسبُ أنّها تعالجُ سكراتِ الموت.

لم يقاسِ إنسانٌ في حياتِهِ مثلَ ما تقاسيه الآنَ من آلامِهَا وأوجَاعِها.

إنّها تصرخُ من حينٍ إلى حينٍ صرخاتٍ تذوبُ لها حبّاتُ القلوب.

ولقد اشتدّ بها الألمُ الساعةَ فهبّتْ من مكانِهَا صارخةً، وانتصَبَتْ على قدَمَيْهَا في سريرِهَا، حتّى كادَتْ تسقِطُ عنه، فأدركْتُهَا وأضجَعْتُهَا في مكانِها، ففتَحَتْ عينَيْهَا، فسقطَتْ منهما دمعتانِ كبيرتانِ، وكأنّما أحسّتْ بي فاعتنَقَتْنِي، وضمّتْني إليها ضمًّا شديدًا، ثمّ ما لبثَتْ أن تراخَتْ يَدَاها، وعادتْ إلى نزاعِهَا وجهادِهَا.

* * *

١٥ فبراير - نصف الليل.

قُضِي الأمرُ وماتَتْ مرغريت، ولم يَبْقَ منها على سريرِهَا إلّا جثّتُها التي ستذهبُ غدًا إلى قبرِها، تلكَ غايَتُهَا وغايةُ كلِّ حيّ؛ فصبرًا على قضاءِ اللهِ وبلائِه.

لقد هَتَفَتْ باسمِكَ كثيرًا، يا سيّدي، في ساعَتِهَا الأخيرة. وكان آخرُ عهدِهَا بالحياةِ أنْ نظرَتْ إليَّ نظرةً طويلةً مملوءةً حزنًا ودموعًا، ثمّ حرَّكَتْ إصبَعَهَا حركةً خفيفةً، وأشارتْ إلى دفترِ مذكّراتِها الذي كان ملقًى بجانبها وقالت: «أرمان». ففهمتُ أنّها توصِيني أنْ أبلّغَه إليك، ثمّ أسلمَتْ روحَهَا.

عزيزٌ عليَّ، يا سيّدتي، ما لقيتِ من العذابِ قبلَ موتِكِ وعزيزٌ عليَّ أنْ تموتي، ولا تجدي بجانبِكِ من يغمضُ عينيكِ، ويلقي رداءَكِ عليكِ سواي. وفي سبيلِ اللهِ تلكَ النفسُ الطاهرةُ الكريمةُ التي ما حملَتْ في حياتِها شرًّا لمحسنٍ، ولا لمسيءٍ، وذلكَ الصدرُ الرحبُ الذي كانَ يَسَعُ الدنيا بأرضِها وسمائِها.. فلا يضيقُ عنها، وذلكَ القلبُ النقيُّ الأبيضُ الذي ما أضمرَ في حياتِهِ غيرَ الخيرِ أو الإحسانِ، ولا فاضَ إلّا بالرحمةِ والحنان.

* * *

بكت برودنس بجانبِ جثّة سيّدتِها ما بَكَتْ، ثمّ أنارتْ حولها الشموعَ، وبعثَتْ إلى الكاهنِ،

---

(١) المسرف: المجاوز للحدّ. (٢) اللأي: الجهد.

فجاءَ وَجَثا عندَ رأسها، يقرأُ في كتابِهِ، ومشتْ هي إلى المكتبِ، فجلستْ إليه تكتبُ آخر مذكّراتها حتّى فرغَت منها.

ثمّ قامَتْ من مكانِهَا فراعَهَا أن رأتْ شبحًا ماثلًا على بابِ الغرفةِ، فمشَتْ إليهِ فإذا هو أرمان في لباسِ السفرِ، وقد ألقى من مكانِهِ على سريرِ الميتةِ نظرةً غريبةً هائلةً كتلكَ النظرةِ التي تسبقُ صرعاتِ الجنون، ثمّ استردَّها، وألقَاها عليهَا وسألها: من هذا المسجّى على هذا السرير؟ فبكَت برودنس، ولم تَقُلْ شيئًا، فسقطَتْ حقيبَتُهُ من يدِهِ، وجمدَ في مكانِهِ لحظةً لا ينطقُ ولا يَتحرّك.

ثمّ اندفَع إلى سريرِ الميتةِ صارخًا يريدُ أن يلقيَ بنفسِ عليه، فأدرَكَتْهُ برودنس، ووقَفَ الكاهنُ في وجهِهِ، وقال له: احترمِ الموتَ أيّها الفتى. فاختنَقَتْ عبراتُه في صدرِهِ، وارتَعَدَ ارتعادًا شديدًا، وسقَطَ مغشيًّا عليه، فلمَ يستفِقْ إلّا مطلعَ الفجرِ حينما شعرَ أنّهم قد أقبلوا يحمِلُون الجثّة، فقامَ يتحامَلُ على نفسِه حتّى دَنا من السريرِ، وقال: «رحمةً بي أيّها الناسُ؛ فقد فاتني أن أودّعَها، وهي حيّة، فأذنُوا لي أو أودّعَها ميتةً. فرحموه وأفرجُوا له عَنْها حتّى دَانَاها، ورفَعَ الغطاءَ عن وجهِهَا وقبّلها في جبينِهَا، وقال: الوداعُ يا أعزَّ الناسِ عندي، الوداعُ يا خيرَ فتاةٍ في الأرضِ وأشرفَ روحٍ في السماء». ثمّ أعادَ الغطاءَ على وجهِهَا، وتراجَعَ عنها وأذنهُمْ بِحَمْلِها.

ثمّ مَشَى وراءَ نعشِهَا، يبكي، وينتحِبُ، ولم يمشِ وراءَ النعشِ غيرُه وغيرُ الخادمة برودنس، والدوق مُوهان، وهو يتوكّأُ على عصاهُ ويقول في ندبِهِ وبكائِهِ: ها أنذا أرى ابنتي تموتُ أمامي مرّةً أخرى، ولا أزالُ حتّى الساعةِ على قيدِ الحياة، وبعضُ نسوةٍ بائساتٍ من ضَحَايا تلكَ المقادير.

وما انقضَى النهارُ حتّى انقضَى كلُّ شيءٍ، وأصبحتْ مرغريت رهينةَ قبرِها وأرمان طريحَ فراشِه يقرأُ في مذكّراتِها ويبكي بكاءُ الثاكلِ المفجوع.

ثمّ اشتدَّ به المرضُ بعدَ ذلكَ، فلم ترَ برودنس بدًّا من أن تكتبَ إلى أبيهِ تشرَحُ لهُ سوءَ حالِهِ، فحضَرَ وحضرتْ معه ابنتُهُ وزوجُها ولبثوا بجانبِهِ شهرًا يعلّلونه، ويستشفونَ له حتّى أَبَلّ[1] ونجا من خطره.

ثمّ ذهبوا جميعًا إلى قبرِ مرغريت ليودّعوها قبلَ سفرِهم، فبكوا حولَهُ بكاءً شديدًا، وكانت سوسان أشدّهُمْ بكاءً عليها، وإن كانتْ لا تعلَمُ أنّها تبكي المرأةَ التي ضحّتْ بنفسِهَا في سبيلِهَا.

ثمّ تقدّم المسيو دوفال إلى ولدِه وقالَ له: أتغفر لي ذنبي يا بنيّ؟ قال: نعمْ يا أبتاهُ، لأنّها غَفرَتْ لكَ ذنبَكَ إليها. ثمّ انصرفوا.

* * *

مرّتِ الأيّامُ وانقضَتِ الأعوامُ، وماتَ المسيو دوفال، وسعدَ ولدُهُ كما أرادَ له أبوه؛ ولكنْ بَقِيتْ بين جنبيه لوعةٌ معتلجةٌ لا يروّحُها عنه كلّما ساوَرَتْهُ إلّا قراءةُ مذكّرات مرغريت، ومحادثةُ برودنس عنها، وزيارةُ قبرِها من حينٍ إلى حين.

تمّت

---

(١) أبلّ: شُفي من مرضه.

المختارات



المقدّمة

مختارات المنفلوطي مجموعة من المقالات تضمّ نحوًا من عشرين مقالة ينثر فيها الكاتب آراءه في المجتمع المصري بخاصّة والعربي بعامّة، ويضمّنها شكواه من الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة التي يتخبّط فيها. على أنّ آراءه بمعظمها مستمدّة من القواعد الأخلاقيّة التي تجمع بين مفاهيم الدين الإسلامي ومفاهيم العدالة والمساواة التي وضعت أسسها الثورة الفرنسية وبدأت تؤتي ثمارها على الصعيد الاجتماعي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ففي أول مختاراته يطالعنا المنفلوطي بموقفه المتشدّد من الخمرة والقمار ويؤكد أنّهما في أساس كل الجرائم التي تهدّد أمن المجتمع وسلامة أبنائه؛ ثمّ يكشف عن رأيه بضرورة الحفاظ على الحجاب لأنّ نزعه يجرّ المجتمع إلى مشاكل لا يمكن أن تحمد عقباها، وبالتالي لا يجوز في أيّ حال من الأحوال مقارنة المرأة المصريّة بالمرأة الأوروبيّة لأنّ ظروف الحياة تختلف كليًّا بين الشرق والغرب.

وفي إحدى مقالاته يتخيّل المنفلوطي أن فيلسوف المعرّة أبا العلاء يعود إلى الحياة من جديد ثلاثة أيّام فقط بعد أن تجاوز الثمانين من عمره وينزل ضيفاً لدى الكاتب، فيغتنم المنفلوطي الفرصة ليبثّ آراءه التي يشترك فيها مع المعرّي في المأكل والملبس والمشرب وفي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وبمخلوقات الطبيعة وفي هذا المقال كثير من الابتكار والظرف والتجديد.

ويختم المنفلوطي مقالاته بالتأكيد على أن التهافت وراء المال هو علّة العلل وسبب كلّ انحطاط؛ وما دام الرجل في المجتمع المصري يجعل المال حلمه المنشود فإنّ الأخلاق لا يمكن أن ترقى إلى المرتبة التي تستحقّها. ثمّ يؤكد أنّ السعي وراء المال بات همًّا لدى كلّ المجتمعات البشريّة حتى غدا المجتمع بجميع أفراده ميدان حرب يتصارع فيه الناس ويعتركون، فلا يرحم أحد أحدًا وباتت دماء الشرف والفضيلة والاستقامة تسيل تحت أقدام المتصارعين. ثمّ يخلص إلى أنّ بلوغ السعادة بات مستحيلًا لأن السعادة في نظره هي في هدوء النفس ونقاوة الضمير وشرف القلب إلى أن يرى المرء بعينيه ثمرة جهاده كما يغتبط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في النبتة التي تعهّدها بنفسه وسقاها من عرق جبينه.

أمّا أسلوب المنفلوطي في مختاراته فهو أسلوبه الذي عهدناه في غيره من الآثار وهو أسلوب الأديب الموهوب الذي يعبّر عن طبع صاحبه على قليل من الصنعة وكثير من الابتكار. وإذا كان النقّاد قد اختلفوا في الحكم على المنفلوطي فوجّهوا إليه سهام النقد الجارحة، وقسوا عليه قسوة غير مبرّرة فقد عاد معظمهم عن آرائهم في وقت لاحق وأنصفوا الرجل وعادوا إلى الحديث على رشاقة عبارته ورقّة تعبيره ومتانة أسلوبه وحسن اختياره للألفاظ والتراكيب.

مجيد طراد

الهاوية

ما أكثرَ أيّامَ الحياةِ وَمَا أقلَّها!

لم أَعِشْ مِنْ تلكَ الأعْوامِ الطِّوالِ التي عِشْتُها في هذا العَالَم إلّا عامًا واحدًا مرّ بي كما يَمرُّ النَّجمُ الدّهريُّ في سماءِ الدّنيا ليلةً واحدةً ثمّ لا يراهُ النّاسُ بعدَ ذلكَ.

قَضَيْتُ الشّطرَ الأوّلَ من حَيَاتي أُفتّشُ عن صديقٍ ينظُرُ إلى أصدقائِهِ بعينٍ غيرِ العينِ التي ينظُرُ بها التّاجرُ إلى سِلعَتِهِ، والزّارعُ إلى ماشيتِهِ، فأَعْوَزَني ذلكَ حتّى عرفتُ فُلانًا منذُ ثماني عَشْرَةَ سنةً فعرفتُ امرءًا ما شئتُ أَنْ أرى خَلّةً[1] من خِلالِ الخيرِ والمعروفِ في ثيابِ رَجلٍ إلّا وَجَدْتُها فيهِ، ولا تخيّلْتُ صورةً من صُوَرِ الكَمَالِ الإنسانيّ في وجهِ إنسانٍ إلّا أضاءَتْ لي في وَجْهِهِ فَجَلّتْ[2] مكانتُه عندي وَنَزَلَ من نفسي منزلةً لم ينزلْهَا أحدٌ من قبلِهِ، وَصَفَتْ كأسُ الودّ بيني وبينه لا يكدّرُها علينا مكدّرٌ حتّى عَرَضَ إليّ من حوادثِ الدّهرِ ما أزعجني عن مستقرّي، فهجرت القاهرةَ إلى مسقطِ رأسي غيرَ آسفٍ على شيءٍ فيها إلّا على فراقِ ذلكَ الصّديقِ الكريم. فتراسَلْنَا حقبةً من الزّمنِ ثمّ فَتَرَتْ عنّي كتبُه، ثمّ انقطعتْ فحزنْتُ لذلكَ حزنًا شَديدًا وذَهَبَتْ بي الظّنونُ في شأنِهِ كلَّ مذهبٍ إلّا مذهبًا واحدًا وهو الشّكّ في صِدْقِهِ ووفائِه، وكنتُ كلّما هَمَمْتُ بالمسيرِ إليهِ لِتَعَرُّفِ حالِهِ قَعَدَ بي عن ذلكَ همٌّ كانَ يُقْعِدُني عن كُلّ شأنٍ حتّى شأنِ نفسي، فلمْ أَعُدْ إلى القاهرةِ إلّا بعدَ سبعة أعوام فكانَ أوّلُ همي يومَ هَبَطْتُ أرضَها أن أراهُ، فذهبتُ إلى منزلِهِ في السّاعةِ الأولى من الليلِ فرأيتُ ما لا تزالُ حسرَتُه متّصلةً بقلبي حتّى اليوم.

تركتُ هذا المنزلَ فردوساً صغيرًا من فَراديسِ الجِنان تَتَراءى فيه السّعادةُ في ألوانها المختلفةِ، وتترقرقُ وُجوهُ ساكِنيه بِشْرًا وسرورًا، ثمّ زرتُه اليومَ فَخُيِّلَ إليّ أنّني أمامَ مقبرةٍ مظلمةٍ ساكنةٍ لا يهتفُ فيها صوتٌ ولا يتراءى في جَوَانبها شخصٌ ولا يلمعُ في أرجائِها مصباحٌ. فظننتُ أنّي أخطأتُ المنزلَ الذي أريدُه أو أنّني بين يَدَيْ منزلٍ مهجورٍ حتّى سمعتُ بكاءَ طِفلٍ صغيرٍ، ولمحتُ مِنْ بعضِ النوافذِ نورًا ضعيفًا؛ فمشيتُ إلى البابِ فطرقتُهُ فلمْ يُجِبْني أحدٌ، فطرقتُه أخرى فلمحتُ من خُصَاصه[3] نورًا متحرّكًا ثمّ لمْ يلبثْ أن انفرجَ لي عن وجهِ غلامٍ صغيرٍ في أسمالٍ باليةٍ يحملُ في يده مصباحًا ضئيلًا، فتأمّلتُهُ على ضوءِ المصباحِ، فرأيتُ في وجههِ صورةَ أبيهِ، فعرفتُ أنّه ذلكَ الطفلُ الجميلُ المدلَّلُ الذي كانَ بالأمسِ زهرةَ هذا المنزلِ وبَدْرَ سمائه.

---

(١) الخَلّة: الخصلة من الإنسان خيرًا كانت أم شرًّا.

(٢) جلّت: عظمت.

(٣) خصاص الباب: خرقه.

فسألتُهُ عن أبيه فأشارَ إليّ بالدخولِ ومشى أمامي بمصباحِه حتّى وصَلَ بي إلى قاعةٍ مغبرّةٍ شعثاءَ باليةِ المقاعدِ والأستارِ لولا نقوشٌ أعرفُها من قبلُ لاحتْ لي في بعضِ جدرانها كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ، ما عرفتُ أنّها القاعةُ التي قضينا فيها ليالي السعادةِ والهناءِ اثني عَشَر هلالًا، ثمّ جَرى بيني وبينه حديثٌ قصيرٌ عرفَ فيه مَنْ أنا وعرفتُ منه أنّ أباه لم يعد إلى المنزلِ حتّى الساعةِ، وأنّه عائدٌ عمّا قليل.

ثمّ تركني ومضى وما لبثَ إلّا قليلًا حتّى عادَ يقول لي: إن والدته تريدُ أن تحدّثني حديثًا يتعلّقُ بالوالدِ، فخفقَ قلبي خفقةَ الرعبِ والخوفِ، وأحسَسْتُ بشرٍّ لا أعرف مأتاه[١]. ثمّ التفتُّ فإذا امرأةٌ ملتفّةٌ برداءٍ أسودَ واقفةٌ على البابِ، فحيّيتُها، فحيّتني ثمّ قالتْ لي: هل علمتَ ما صَنعَ الدّهرُ بفلانٍ من بعدِك؟ قلت: لا فهذا أولُ يوم هبطتُ فيه هذا البلدَ بعدما فارقتُهُ سبعةَ أعوامٍ. قالتْ: ليتكَ لم تفارقْه فقد كنتَ عصمةً للرّجلِ فيه وحمًى له من كلّ سوءٍ فما هو إلّا أن فارَقتَهُ حتّى أحاطتْ به زمرةٌ من زُمَرِ الشّيطانِ وكان فتًى كما تعلمُهُ غريرًا، فما زالتْ تغريهِ بالشرّ وتزخرفُهُ له حتّى سقطَ فيه فسقطْنَا جميعًا في هذا الشّقاءِ الذي تراه. قلت: وأيُّ شرّ تريدينَ يا سيّدتي ومن هم الذينَ أحاطوا به فأسقطوه؟ قالت: سأقصُّ عليكَ كلّ شيءٍ فاستمعْ لِمَا أقول.

ما زالَ الرّجلُ بخيرٍ حتّى اتّصلَ بفلانٍ رئيسِ ديوانه وعلقتْ حبالُهُ بحبالِهِ وأصبحَ من خاصّتِه الذين لا يفارقونَ مجلسَه حيثُ كان، ولا تزالُ نعالُهُمْ خافقةً وراءَه في غدواتِه وروحاتِه، فقد استحالَ من ذلكَ اليومِ أمرُه وتنكّرَتْ صورةُ أخلاقِهِ، وأصبحَ منقطعًا عن أهلِه وأولادِه لا يراهُمْ إلّا في الفينة[٢]، وعن منزلِه لا يزورُه إلّا في أخرياتِ الليالي، ولقد اغتبطتُ في مبدإِ الامرِ بتلكَ الحُظْوةِ التي نالها مِنْ ذلك الرئيسِ والمنزلةِ التي نزلها من نفسِه أرجو له من ورائِها خيرًا كثيرًا مغتفرةً في سبيلِ ذلكَ ما كنتُ أشعرُ به من الوحشةِ والألم لانقطاعِه عنّي وإغفاله النّظرَ في شأنِ بيته وشؤونِ أولاده حتّى عاد في ليلةٍ من الليالي شاكيًا متألمًا يكابدُ[٣] غُصَصًا شَديدةً وآلامًا جسامًا، فَدَنَوْتُ منه فشممتُ من فمِه رائحةَ الخمرِ فعلمتُ كلّ شيء.

علمتُ أنّ ذلكَ الرئيسَ العظيمَ الذي هو قدوةُ مرؤوسيهِ في الخيرِ إنْ سلكَ طريقَ الخيرِ وفي الشرِّ إنْ سلكَ طريقَ الشرّ قد قادَ زوجي الفتى الضعيفَ المسكينَ إلى شرِّ الطريقتين، وسلك به أسوأَ السبيلين، وأنّه ما كانَ يتّخذه صديقًا كما كنتُ أظنّ بل كانَ يتخذه نديمًا، فتوسّلْتُ إليه بكلّ عزيز عليه وسكبتُ بين يديهِ من الدموعَ كلّ ما تستطيعُ أن تسكُبَه عينٌ رجاءَ أن يعودَ إلى حياتِه الأولى التي كانَ يحياها سعيدًا بين أهلِه وأولادِه فما أجدَيْتُ عليه شيئًا، ثمّ علمتُ بعد ذلكَ أن اليدَ التي ساقته إلى الشّرابِ قد ساقته إلى اللّعبِ، فلم أعجبْ لذلكَ لأنّي أعلمُ أن

---

(١) المأتى: الوجه الذي يأتي منه الشيء.
(٢) الفينة: الساعة والحين.
(٣) يكابد: يعاني.

طريقَ الشرّ واحدةٌ؛ فمنْ وقفَ برأسِهَا لا بُدَّ له من أن ينحدِرَ فيها حتّى يصلَ إلى نهايتها.

فأصبحَ ذلكَ الفتى النّبيلُ الشريفُ الذي كان يعفُّ بالأمسِ عن شربِ الدواءِ إذا اشتمّ فيه رائحةَ الشّراب، ويستحي أن يجلسَ في مجتمعٍ يجلسُ فيه قومٌ شاربونَ سكيرًا مقامرًا مستهترًا في حالتيه لا يتجمّلُ ولا يتسترُ ولا يتّقي عارًا ولا مأثمًا، وأصبح ذلك الأبُ الرحيمُ والزّوجُ الكريمُ الذي كان يضنّ بأولاده أنْ يعلقَ بهم الذّرُّ، وبزوجتِه أن يتجهّم[1] لها وجهُ السّماء، أبًا قاسيًا وزوجًا سَليطًا يضربُ أولاده كلّما دَنَوا منه ويشتُمُ زوجَتَه وينتهرها كلّما رآها، وأصبحَ ذلكَ الرجلُ الغيورُ الضنينُ بعرضِهِ وشرفِهِ لا يبالي أن يعودَ إلى المنزلِ في بعض الليالي في جَمْعٍ من عُشَرَائه الأشرارِ، فيصعد بهم إلى الطبقةِ التي أنامُ فيها أنا وأولادي فيجلسونَ في بعضِ غرفها ولا يزالون يشربون ويقصفون[2] حتّى يذهبَ بعقولهم الشرابُ فيهتاجون ويرقصون ويملأون الجوّ صراخًا وهُتَافًا ثمّ يتعادُون[3] بعضهم وراءَ بعض في الأبهاءِ[4] والحجراتِ حتّى يَلِجُوا على باب غرفتي وربّما حاولَ بعضُهم العبثَ بي أو نَزْعَ ردائي عن وجهي على مرأًى منه ومسمعٍ فلا يقول شيئًا، ولا يستنكرُ أمرًا، فأفرّ من بين أيديهم من مكانٍ إلى مكانٍ، وربما فررتُ من المنزلِ جميعِهِ وخرجْتُ بلا إزارٍ ولا خمارٍ غيرَ إزارِ الظلامِ وخمارِه حتّى أصلَ إلى بيت امرأةٍ من جاراتي فأقضي عندها بقيّةَ الليل.

وهنا تغيرت نغمةُ صوتِها فأمسكَتْ عن الحديثِ هنيهةً وأطرقتْ برأسها فعلمتُ أنّها تبكي، فبكيتُ بيني وبين نفسي لبكائِها ثمّ رَفَعَتْ رأسَها وعادتْ إلى حديثها تقول:

وما هي إلّا أعوامٌ قلائلُ حتّى أنفقَ جميعَ ما كانَ في يدِهِ من المالِ فكانَ لا بد له أن يستدينَ، ففعلَ فأثقله الدينُ، فرهَنَ، فعجزَ عن الوفاءِ، فباعَ جميعَ ما يملكُ حتّى هذا البيتَ الذي نسكنه ولمْ يبقَ في يده غيرُ راتبه الشهريّ الصغيرِ، بل لم يبقَ في يده شيءٌ حتّى راتبه لأنه لا يملكُه إلّا ساعةً من نهارٍ ثمّ هو بعدَ ذلك ملكُ الدائنين، أو غنيمةُ المقامرين.

هذا ما صنعَتْ يدُ الدّهرِ به، أمّا ما صنعَتْ بي وبأولادي فقد مرّ على آخرِ حُليةٍ بعْتُها من حُلاي عامٌ كاملٌ وها هي حوانيتُ المرابينَ والمسترهنينَ ملأى بملابسي وأدواتِ بيتي وأثاثِه؛ ولولا رجلٌ من ذوي قُرباي رقيقُ الحال[5] يعودُ عليّ من حين إلى حينٍ بالنزرِ القليل مما يستلّه من أشداقِ عيالِهِ لهلكْتُ وهلكَ أولادي جوعًا، فلعلّك تستطيعُ يا سيّدي أن تكونَ عونًا لي على هذا الرّجلِ المسكينِ فتنقذَهُ من شقائِه وبلائِه بما ترى له في ذلكَ من الرأيِ الصّالح. وأحسبُ أنّكَ تقدرُ منه للمنزلةِ التي تنزلُها مِن نفسِه على ما عجزَ عنه النّاسُ جميعًا، فإنّكَ إنْ فعلْتَ

(١) تجهم له: استقبله بوجه كريه.
(٢) قصف الرجل: أقام في أكل وشرب ولهو.
(٣) يتعادون: من العدو، وهو الجري.
(٤) الأبهاء: جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت.
(٥) رقة الحال: كناية عن الفقر.

أحسنتَ إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يَدَكَ[١] فيه حتّى الموت.

ثمّ حيّتْني ومَضَتْ لسبيلها فسألتُ الغلامَ عن السّاعة التي أستطيعُ أن أرى أباه فيها في المنزل، فقال: إنّك تراهُ في الصباحِ قبل ذهابه إلى الديوانِ. فانصرفتُ لشأني وقد أضمرتُ بين جنبيّ لوعةً ما زالتْ تقيمُني وتُقْعِدُني وتذودُ عن عيني سِنَةَ الكرى[٢] حتّى انقضى الليلُ وما كاد ينقضي.

ثمّ عدتُ في صباحِ اليومِ الثّاني لأرى ذلكَ الصّديقَ القديمَ الذي كنتُ بالأمسِ أسعدُ النّاسِ به، ولا أعلمُ ما مصيرُ أمري معه غدًا، وفي نفسي من القلقِ والاضطراب ما يكون في نفس الذاهبِ إلى ميدانِ سباقٍ قد راهنَ فيه بجميعِ ما يملكُ فهو لا يعلمُ أيكونُ بعدَ ساعةٍ واحدةٍ أسعدَ النّاسِ أم أشقاهُمْ.

* * *

الآن عرفتُ أنّ الوجوه مرايا[٣] النفوس تضيءُ بضيائِها وتظلِمُ بظلامِهَا، فقد فارقتُ الرّجلَ منذ سبعِ سنينَ فأنستني الأيّامُ صورتَه ولمْ يبقَ في ذاكرتي منها إلّا ذلك الضياءُ اللّامعُ ضياءُ الفضيلةِ والشّرفِ الذي كان يتلألأُ فيها تلألؤَ نورِ الشّمسِ فوقَ صفحتها. فلمّا رأيتُه الآنَ ولم أرَ أمام عيني تلك الغلالةَ البيضاءَ من الضياء خُيّلَ إليّ أنّي أرى صورةً غيرَ الصّورةِ الماضيةِ ورجلًا غيرَ الذي أعرفُه من قَبْلُ.

لم أرَ أمامي ذلكَ الفتى الجميلَ الوضّاحَ الذي كانَ كلُّ منبتِ شعرةٍ في وجهه فمًا ضاحكًا تموجُ فيه ابتسامةٌ لامعةٌ، بل رأيتُ مكانه رجلًا شقيًّا منكوبًا قد لبسَ الهرمَ قبلَ أوانه وأوفى على الستّين قبلَ أن يسلخَ الثلاثينَ، فاسترخى حاجباه وثَقُلَتْ أجفانُه وجمدَتْ نظراتُه وتهدّل عارضاه[٤] وتجعّدَ جبينُه واستشرفَ[٥] عَاتِقاه وهوى رأسه بينهُمَا هَوِيّةَ بينَ عاتِقَي الأحدبِ، فكانتْ أوّلُ كلمةٍ قلتُها له: لقد تغيّرَ فيك كلُّ شيء يا صديقي حتّى صورتُكَ، وكأنّما أَلَمَّ بما في نفسي وعَلِمَ أنّي قد علمتُ من أمرهِ كلَّ شيءٍ فأطرقَ برأسه إطراقَ من يرى أنّ باطنَ الأرضِ خَيْرٌ له من ظاهِرِها ولم يَقُلْ شيئًا، فدنوتُ منه حتّى وضعتُ يدي على عاتِقِهِ وقلتُ له:

والله ما أدري ماذا أقولُ لكَ! أأَعِظُكَ وقد كنتَ واعظي بالأمسِ وَنَجْمَ هُدَايَ الذي أستنيرُ به في ظلماتِ حياتي، أم أدلّكَ على ما أوجبَ اللهُ عليكَ في نفسِك وفي أهلكَ ولا أعرفُ شيئًا أنتَ تجهله ولا تصلُ يدي إلى شاردةٍ تقصّرُ يَدُك عن نَيْلها، أم استرحمُك لأطفالِك الضعفاءِ وزوجتِك البائسةِ المسكينة التي لا عضَدَ لها في الحياةِ ولا معينَ سواكَ، وأنت صاحبُ القلبِ الرّحيم الذي طالما خَفق رحمةً بالبُعَدَاءِ، فأحرى أن يخفقَ رحمةً بالأقرباء.

إنّ هذه الحياةَ التي تحياها يا سيّدي إنّما يلجأُ إليها الهُمّلُ[٦] العاطلونَ الذين لا يصلحونَ

---

(١) اليد: كناية عن المعروف.
(٢) سِنَة الكرى: غفلة النعاس والنوم.
(٣) المرايا: جمع مرآة.
(٤) تهدّل عارضاه: استرخى خدّاه.
(٥) استشرف الشيء: ارتفع.
(٦) الهمّل: الذي يهملون القيام بواجبهم.

لعملٍ من الأعمالِ ليتواروا فيها عن أعينِ النّاس حياءً وخجلًا حتّى يأتيهم الموت فيخلّصهم من عارِهم وشقائِهم وما أنتَ بواحدٍ منهم.

إنّكَ تمشي يا سيّدي في طريقِ القبر وما أنتَ بناقمٍ على الدّنيا ولا متبرّمٍ بها[١] فما رغبَتُكَ في الخروجِ منها خروجَ اليائسِ المنتحر؟

عذرتُكَ لو أنّ ما ربحتَ في حياتِكَ الثّانيةِ يقومُ لديكَ مُقَامَ ما خسرتَ من حياتِك الأولى، ولكنّكَ تعلمُ أنّكَ كنتَ غنيًّا فأصبحتَ فقيرًا، وصحيحًا فأصبحتَ سقيمًا، وشريفًا فأصبحتَ وضيعًا، فإن كنتَ ترى بعد ذلكَ أنّكَ سعيدٌ فقد خَلَتْ رقعةُ الأرض من الأشقياء.

إنّ كلّ ما يعنيكَ من حياتِكَ هذه أن تَطلُبَ فيها الموتَ، فاطلُبْهُ في جرعةِ سُمٍّ تشربُها دفعةً واحدةً فذلكَ خيرٌ لكَ من هذا الموتِ المتقطّعِ الذي يكثرُ فيه عذابُكَ وألمُك، وتعظُمُ فيه آثامُكَ وجرائمُكَ؟ وما يعاقِبُك اللهُ على الأخرى بأكثرَ ممّا يعاقبُك على الأولى.

حَسْبُنَا يا صديقي من الشّقاءِ في هذه الحياةِ ما يأتينا بِهِ القَدرُ فلا نَضُمُّ إليه شقاءً جديدًا نجلبُه بأنفسِنا لأنفسِنا، فهاتِ يَدَكَ وعاهِدْني على أن تكونَ لي منذُ اليوم كما كنتَ لي بالأمسِ، فقد كنّا سعداءَ قبلَ أن نفترقَ ثمّ افترقْنَا فشقَيْنَا، وها نحنُ قد التقينا فلنَعِشْ في ظلالِ الفضيلةِ والشّرفِ سعداءَ كما كنّا.

ثمّ مددتُ يدي إليهِ، فراعني أنّه لمْ يحرّكْ يدَه، فقلتُ له: ما لكَ لا تمدُّ يدكَ إلي؟ فاستعبرَ باكيًا وقالَ: لأنّي لا أحبُّ أن أكونَ كاذبًا ولا حانثًا[٢] قلتُ: وما يمنعُك من الوفاء؟ قال يمنعني منه أنّني رجلٌ شقيٌّ لا حظَّ لي في سعادةِ السعداءِ، قلت: قد استطعتَ بالأمسِ أن تكونَ شقيًّا فَلِمْ لا تستطيعُ اليومَ أنْ تكونَ سعيدًا؟ قال: لأنّ السعادةَ سَماءٌ والشّقاء أرضٌ والهبوطُ إلى الأرضِ أسهلُ من الصّعودِ إلى السّماء، وقد زَلّتْ قدمي عن حافةِ الهوّة فلا حيلةَ لي في الاستمساكِ حتّى أبلغَ قرارَتَها، وشربتُ أوّلَ جرعةٍ من جرعاتِ كأس الحياةِ المريرةِ فلا بُدّ لي أنْ أشربَها حتّى ثمالتها[٣]، ولا شيءَ يقفُ في سبيلي إلّا شيءٌ واحدٌ فقط، وهو أن لا أكونَ قد شربتُ الكأسَ الأولى قبلَ اليوم، قلتُ: ليسَ بينكَ وبينَ النّزوعِ إلّا عزمةٌ[٤] صادقةٌ تعزمُها، فإذا أنتَ من النّاجحينَ، قال: إنّ العزيمةَ أثرٌ من آثارِ الإرادة وقد أصبحتُ رجلًا مغلوبًا على أمري لا إرادةَ لي ولا اختيارَ، فَدَعْنِي يا صديقي والقضاءُ يصنعُ بي ما يشاءُ وابْكِ على صديقِكَ القديمِ منذُ اليوم إن كنتَ لا ترى بأسًا في البكاء على السّاقطين المذنبين.

ثمّ انفجرَ باكيًا بصوتٍ عالٍ وتركني في مكاني دونَ أن يجيبَني بكلمة واحدةٍ وخرجَ هائمًا على وجهِه لا أعلمُ أينَ ذهب. فانصرفتُ لشأني وبين جنبيَّ من الهمِّ والكَمَد[٥] ما اللهُ بِهِ عليمٌ.

* * *

(١) تبرم بالأمر: سئمه وضجر منه.
(٢) الحانث: الذي يخلف بوعده.
(٣) الثمالة: بقيّة الشّراب في أسفل الإناء.
(٤) العزمة: الرغبة المقترنة بالإرادة الصادقة.
(٥) الكمد: الحزن العميق.

لَمْ يَسْتَطِعْ رئيسُ الديوانِ أن يجاملَ نديمَهُ بالأمسِ زمنًا طويلًا فأقصاهُ عن مجلسِه استثقالًا له، ثمّ عزلَهُ من وظيفتِهِ استنكارًا لعملِهِ، ولم تذرفْ عينُهُ دمعةً واحدةً على منظرِ صريعِهِ الساقطِ بين يديه، ولم يستطعْ مالكُ البيتِ الجديدِ أن يمهلَ فيه مالكَه القديمَ أكثرَ من بضعةِ شهورٍ ثمّ طردَهُ منه، فلجأَ هو وزوجتُه وولداه إلى غرفةٍ حقيرةٍ في بيتٍ قديم في زقاقٍ مهجورٍ، فأصبحتُ لا أراهُ بعدَ ذلكَ إلّا ذاهبًا إلى الحانةِ أو عائدًا منها، فإن رأيتُهُ ذاهبًا توارى عن عيني حياءً وخجلًا وإن رأيتُهُ عائدًا دنوتُ منه فمسحتُ عن وجهه ما لصَقَ به من الترابِ أو عن جبينِه ما سالَ منه من الدّمِ ثم قُدْتُهُ إلى بيته.

وهكذا ما زالَتِ الأيّامُ والأعوامُ تأخذُ من جسمِ الرّجلِ ومن عقلِهِ حتّى أصبَح من يراهُ يرى ظلًّا من الظّلالِ المتنقّلةِ، وحلمًا من الأحلام السّاريةِ يمشي في طريقِه مشيةَ الذّاهلِ المشدوهِ لا يكادُ يشعرُ بشيءٍ ممّا حوله ولا يتقي ما يعترضُ سبيله حتّى يدانيَهُ، ويقفَ حينًا بعدَ حينٍ فيدورُ بعينيهِ كأنّما يُفَتّشُ عن شيءٍ أضاعَه وليس في يدِه شيءٌ يضيعُ، أو يقلّبُ نظرَهُ في أثوابِهِ وما في أثوابه غير الخروقِ والرّقاعِ، وينظرُ إلى كلّ وجهٍ يقابلُه نظرةَ شزراءَ[١] كأنّما يتسقبلُ عدوًّا بغيضًا وليس له عدوّ ولا صديقٌ، وربّما تعلّق بعضُ الصّبيانِ بعاتقِهِ فدفعهُم عنهُ بيدِه دفعًا ليّنًا غيرَ آبهٍ ولا محتفلٍ كما يدفعُ النّائمُ المستغرقُ عن عاتقِهِ يَدَ مُوقِظِهِ، حتّى إذا خَلا جوفُهُ من الخمرِ وهدأتْ سَوْرَتُها[٢] في رأسِهِ انحدرَ إلى الحانةِ فلا يزالُ يشربُ ويتزيّدُ حتّى يعودَ إلى ما كانَ عليه.

ولم يزل هذا شأنَه حتّى حَدَثَتْ منذُ بضعةِ شهورِ الحادثةُ الآتيةُ.

* * *

عَجِزَتْ تلكَ الزّوجةُ المسكينةُ أن تجدَ سبيلًا إلى القوتِ، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بينَ يَدَيها تنطقُ دموعُهُما بما يصمتُ عنه لسانُهُما، فلمْ ترَ لها بدًّا من أن تركبَ تلكَ السّبلَ التي يركَبُها كلُّ مضطرٍّ عديم، فأرسلتهما خادمين في بعضِ البيوتِ يقتاتانِ فيها ويقيتانِهَا، فكانتْ لا تراهُما بعد ذلكَ إلّا قليلًا ولا ترى زوجَها إلّا في الليلةِ التي تغفلُ عنهُ فيها عيونُ الشّرطةِ، وقلّما تغفلُ عنه، فأصبحتْ وحيدةً في غرفتِها لا مؤنسَ لها ولا معينَ إلّا جارةٌ عجوزٌ تختلفُ إليها من حين إلى حين، فإذا فارَقَتْهَا جارَتُها وَخَلَتْ بنفسِهَا ذكرتْ تلك الأيّامَ السعيدةَ التي كانت تتقلّب فيها في أعطافِ العيش الناعم والنّعمةِ السّابقةِ بين زوجٍ محبٍّ كريم وأولادٍ كالكواكبِ الزّهر حُسنًا وضياءً، ثمّ تذكرُ كيفَ أصبحَ السّيدُ مَسُودًا والمخدومُ خادمًا والعزيزُ الكريمُ ذليلًا مهانًا وكيفَ انتثَرَ ذلكَ العقدُ اللؤلؤيّ المنظومُ الذي كانَ حليةً بديعةً في جِيدِ الدّهرِ، ثمّ استحالَ بعد انتثارِه إلى حُصيّاتٍ ملقياتٍ على سطحِ الغبراءِ تَطَأُهَا النّعالُ وتدوسُها الحوافرُ والأقدامُ، فتبكي بكاءَ الوالِهِ في إثْرِ قوم طاعنينَ حتّى تتلفَ نفسُها أو تكاد.

على أنها ما أضمرتْ قطّ في قلبها حقدًا لذلكَ الإنسانِ الذي كان سببًا في شقائِهِ وشقاءِ

---

(١) النظرة الشزراء: الممتلئة غضبًا. (٢) سورة الخمرة: حدّتها.

وَلَدَيْها، ولا حدّثَتْهَا نفسُها يومًا من الأيّام بمغاضبتِه أو مفارقتِه لأنّها امرأةٌ شريفةٌ، والمرأةُ الشّريفةُ لا تغدرُ بزوجها المنكوبِ، بل كانتْ تنظرُ إليه نظرَ الأم الحنونِ إلى طفلِها الصغيرِ، فترحَمُه وتعطفُ عليه وتسهرُ بجانبه إن كان مريضًا وتأسو[1] جراحَه إن عادَ جريحًا، وربّما طردَه الخمّارُ في بعض لياليه من حانتِه إنْ لم يجدْ معه ثمنَ الشّرابِ فيعودُ إلى بيته هائجًا ثائرًا يطلبُ الشّرابَ طلبًا شديدًا فلا تجدُ لها بدًا من أن تعطِيَه نفقةَ طعامِها، أو تبتاعُ له من الخمرِ ما تسكّنُ به نفسَه رحمةً وإبقاءً على تلك البقيّةِ الباقيةِ من عَقْلِه.

وكأنَ الدّهرَ لم يكفِهِ ما وضَعَ على عاتِقهَا من الأثقالِ حتّى أضافَ إليها ثقلًا جديدًا، فقدْ شَعَرتْ في يومٍ من أيّامها بنسمةٍ تتحرّكُ في أحشائها فعلمَتْ أنها حاملٌ وأنّها ستأتي إلى دارِ الشقاءِ بشقيٍّ جديدٍ فهتفتْ صارخة: رحماكَ اللّهمّ فقد امتلأتِ الكأسُ حتّى ما تَسَعُ قطرةً واحدةً، وما زالت تكابِدُ[2] من آلام الحملِ ما يجبُ أن تكابده امرأةٌ مريضةٌ منكوبةٌ حتّى جَاءَتْ ساعَةُ وضعِهَا، فلم يحضرها أحدٌ إلا جارتُها العجوزُ، فأعانها الله على أمرِها، فوضَعَت ثمّ مرضتْ بعدَ ذلك بحمّى النفاسِ مرضًا شديدًا فلم تَجِدْ طبيبًا يتصدّقُ عليها بعلاجها لأنّ البلد الذي لا تستحي أطبّاؤه أن يطالبوا أهلَ المريضِ بَعْدَ موتِهِ بأجرةِ علاجِهم القاتلِ لا يمكنُ أن يوجدَ فيها طبيبٌ محسنٌ ولا متصدّقٌ، فما زالَ الموتُ يدنو منها رويدًا رويدًا حتّى أدركَتْهَا رحمةُ اللهِ، فوافاها أَجَلُهَا في ساعةٍ لا يوجدُ فيها بجانبها غيرُ طفلتِها الصغيرةِ عالقةً بثَدْيِهَا.

في هذهِ السّاعةِ دخلَ الرّجلُ ثائرًا مهتاجًا يطلبُ الشّراب ويفتّشُ عن زوجتِه لتأتيَ له منهُ بما يريدُ فدارَ بعينيه في أنحاءِ الغرفةِ حتّى رآها ممدّدةً على حصيرِها ورأى ابنتَهَا تبكي بجانبها، فَظَنّها نائمةً، فدنا منها وَدفعَ الطفلةَ بعيدًا عنها وَأخذَ يحركها تحريكًا شديدًا فلم يشعرْ بحركةٍ، فَرَابَهُ الأمر[3] وأحسّ برعدةٍ تتمشّى في أعضائِه حتّى تملأَ قلبه، وبدأَ صوابه يعودُ إليه شيئًا فشيئًا فأكبّ عليها يحدّقُ في وجهِها تحديقًا شديدًا ويدنو منها رويدًا رويدًا حتّى رأى شَبَحَ الموتِ ينظرُ إليه بعينيه الشاخصتين الجامدتين.

فتراجعَ خوفًا وذعرًا فوطئَ في تراجُعِه صدرَ ابنته فَأَنّتْ أنّةً مؤلمةً لم تتحرّكْ بعدها حركةً واحدةً، فصرخَ صرخةً شديدةً وقالَ: واشقاءاه! وخرجَ هائمًا على وجهِه يعدو في الطّريقِ ويضربُ رأسه بالعمدِ والجدرانِ ويدفعُ كلّ ما يجدُ في طريقه من إنسانٍ أو حيوانٍ ويصيح: ابنتي! زوجتي! هلموا إليّ! أدركوني! حتّى أعيا فسقطَ على الأرضِ وأخذَ يفحصُ التّرابَ برجليه ويئنّ أنينَ الذّبيحِ والنّاسُ من حولِهِ يبكونه لا لأنّهمْ يعرفونه بل لأنّهم يرونَ في وجهه آيةَ شقائِهِ؛ وكذلك كانتْ تلكَ اللحظةُ القصيرةُ التي استفاقَ فيها من ذهولِهِ الطويلِ سببًا في ضياعِ ما بقيَ من عقله.

---

(١) تأسو: تداوي.
(٢) تكابد: تعاني أشدّ المعاناة.
(٣) رابه الأمر: أوقعه في الشكّ والريبة.

وما هي إلّا ساعةٌ أو ساعتانِ حتّى أصبحَ مقيّدًا مغلولًا في قاعةٍ من قاعاتِ البيمارستان[١]، فوارحمتاهُ لهُ ولزوجتِهِ الشّهيدةِ ولطفلتِهِ الصّريعةِ ولأولادِهِ المشرّدينَ البؤساءِ، وواأسفاه عليهِ وعليهِمْ جميعًا حتّى الموت.

❋ ❋ ❋

البـعـث[*]

اليومُ الأوّل

نَبَا بي مَضْجَعي ليلةً، لِهَمٍّ نزلَ بي والهمُّ رسولٌ من رُسلِ الشّرِّ ينزلُ بأهدابِ العيونِ فلا يزالُ يسعى سعيَهُ حتّى يوقظَ الفتنةَ بين أشياعها. فظللتُ أساهرُ الكوكبَ حتّى ملّني ومَلَلْتُه وضاقَ كلٌّ منّا بصاحبه ذرعًا. فلمّا تقضّى اللّيلُ إلّا أقلّه ولمْ يبقَ إلّا أن تنفرجَ لِمّةُ الظلام عن جبينِ الصّباح سمعتُ طارقًا يدقُّ البابَ دقًّا ضعيفًا ما كِدْتُ أتبيّنُهُ لولا هدوءُ اللّيلِ وسكونُه. فقلتُ: من الطّارق؟ قال: غريبٌ حائرٌ ضَلَّ به سبيلُه في هذه الرقعةِ السوداءِ وأَعْوَزَهُ المأوى يطلبُ كريمًا يعتمدُ عليه، ومضجعًا يأوي إليه. وقد أعدّ لِمَنْ يُسْدِي إليه تلكَ النعمةَ ذخيرةً صالحةً من شكرٍ لا يبلى ودعاءٍ لا يخيب. فأعجبتُ بعابرِ سبيلٍ يمرُّ بعفو لسانِه من فصيحِ القولِ وصحيحِهِ ما يَعْيَا على جهدِ المتكلفين وتزويقِ المزَوّرين[٢]. وقلت في نفسي ما لهذا الرّجل بدٌّ من شأنٍ؛ وفتحتُ البابَ فإذا شيخٌ كنتيٌّ[٣] من حَمَلَةِ أعباءِ الدّهرِ قصيرُ القامةِ ناحلُ الجسم زريُّ الهيئةِ قد نيّف على الثمانينَ من عمرِه، فَخُيّلَ لي أن ظهره المحدَودبَ قُوّسَ وأن عصاه التي يعتمدُ عليها وَتَرٌ قَدْ شُدَّ إلى تلك القوسِ وأنّه قد أعدّ من هذه وتلكَ سلاحًا يذودُ به عن نفسه عادِية المنون[٤].

---

(١) البيمارستان: المستشفى.

(*) كان السيد مصطفى المنفلوطي الكاتب الكبير والشاعر القدير شرع في أن يترجم الفيلسوف الشهير أبي العلاء المعري ترجمة يلم فيها بأخلاقه ومذاهبه ويبين مناهج فلسفته ومناحيه في اعتقاداته فكتب ثلاث رسائل في ذلك تحت عنوان «البعث» وكان يريد أن يجعله اثنين وثمانين يومًا بعدد سني أبي العلاء. ولكن حال دون إتمامها كثرة أعماله فعسى أن يتسع له صدر الزمن حتى يتمم كتاب البعث فيكون قد أبر هذه اللغة بإبراز مثل هذا الكتاب الذي يكشف لنا الغامض من آيات فيلسوف كبير كأبي العلاء لا تزال الأفهام تنضى دون الوقوف على حقيقتها وذلك لأن الرجل كان في أغلب أحايينه يقف من موجودات الله ناطقها وصامتها جامدها وناميها موقف الحيرة والاضطراب. وهاك الرسائل الثلاثة قد أثبتناها تعميمًا للفائدة:

(٢) زوّر الشيء: حسّنه وقوّمه.

(٣) الرجل الكنتي: الكبير العمر كأنه نسب إلى قوله كنت في شبابي كيت وكيت.

(٤) وصف أبو العلاء نفسه في شيخوخته في إحدى رسائله بقوله: «وإني لأعجز إذا اضطجعت عن القعود =

فلما شعر بمكاني رفعَ رأسَهُ إليّ ورماني بنظرةٍ خلتُ أنّها نَفَذَتْ إلى موضعِ الأسرارِ من قلبي وأحاطتْ بما بين قمّةِ رأسي وأخمصِ قدميّ، فرأيت وجهًا أسمر اللّونِ قد انتثَرَتْ في أكنافِهِ حفائرُ الجدري[١] وأساريرَ تنطوي تارةً على عِبَرِ القرون وحوادثِ الدّهر وتنفرجُ أخرى عن أنوارِ الصّلاحِ والتّقوى، ولحيةً بيضاءَ إلا أنّها شعثاءُ وعينينِ كبيرتين مستديرتين ينبعثُ منهما نورٌ ساطعٌ خفاقٌ لا يراه الرّائي حتى يُطْرِقَ له إجلالًا وإعظامًا، وسحنةً غريبةً لا عهدَ لي بمثلِهَا في حمراءِ الأممِ وسودائِها. وأحسبُ أنْ لو كان بين يديَّ مثالٌ من صورِ النّاسِ في القرونِ الغابرة لَنَسَبْتُهَا[٢]، فمشيتُ إليه مِشيةَ الهائبِ الوَجِلِ وقلتُ: على الرَّحبِ والسّعةِ يا سيدي، قد حَلَلْتَ بمنزلٍ أنتَ صاحبُه ووليُّ الأمرِ فيه. ثم قدّمتُ إليه يدي فمشى معي يتوكّأ ويتحامَلُ ويهمس بهذه الكلمات:

ما أوسَعَ الموتَ يستريحُ به الجِسْـ ... ـمُ المُعَنَّى وَيَخْفُتُ القَلْبُ

حتّى وصلنا إلى غرفةِ الأضيافِ، فأعادَ النظر إلي وقال: اذهبْ لشأنكَ فأنا في حاجةٍ إلى الانفراد بنفسي. فتركتُهُ وذهبتُ إلى غرفةِ منامي وقد أخذَ منظرُ الرّجل مكانًا من قلبي وشغلني من أمره ما كادَ يُنْسيني همومَ نفسي؛ فلمْ أزلْ أقلّبُ النّظرَ في حالِه وأذهبُ المذاهبَ في استبطانِ سرّه حتّى أخذَ عيني نومٌ ثقيلٌ لم أستيقظْ منه إلّا في صُفْرَةِ الأصيل.

سألتُ الخادمَ عن الضّيفِ فعلمتُ أنّه أخذَ حظّه من المطعمِ والمشربِ والمضطجعِ والمستحمّ وأنّه لا يزالُ في مصلّاهُ، فهبطتُ إليه في خلوته أهْيَبَ ما أكونُ له فرأيته جالسًا في قبلته يقلّبُ وجهه في السماء، ويكرر هذا الدعاء.

«اللهمّ لا رادَّ لقضائِك. ولا سخطَ على بلائِك. أمرتَ فأطعْنَا. وابتليتَ فرضينا فأمطِرْنَا غيثَ إحسانك. وأَذِقْنَا بَرْدَ رحمتك وألهِمْنا جميلَ صبرِك. وثَبّتْ قلوبنا على طاعتِك. فلا عونَ إلّا بك ولا ملجأَ إلا إليك. إنّك أرحمُ الراحمينَ وأعدلُ الحاكمين»[٣].

ثم أطرقَ بعد ذلكَ إطراقًا طويلًا خِلْتُ أنّه وصل فيه إلى مقامِ التّجريدِ وأنّ الذي أراهُ بين

= فربما استعنت بإنسان فإذا هم بإعانتي وبسط يديه لنهضتي ضربت عظامي لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن» وقوله في لزومياته:

يا نفس جسمك سربال له خطر ... وما يبدل في حال بسربال
قد أخلقته الليالي فاتركيه لقى ... فما يزيدك لبس المخلق البالي

(١) اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت ببصره وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك.

(٢) نسبتها: أي ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور.

(٣) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه:

كَمْ بُودرتْ غادةٌ كعوبٌ ... وعمّرَتْ أمُّها العجوزْ
يجوزُ أن تُبْطِئَ المنايا ... والخُلْدُ في الدّهرِ لا يجوزْ

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الآية ثم صاح وبكى بكاءً شديدًا وطرح نفسه على الأرض وهو يقول سبحان من هذا كلامه قال فعلمت صحة دينه ويقينه.

يديَّ جسدٌ هامدٌ قد أسرى بروحِه إلى الملأ الأعلى، فجعلتُ أختلسُ الخُطَى إليه حتّى صاقبته[١]. فرفع رأسه إليَّ ذاهلًا. وقال: أنت هنا؟ قلتُ: نعم، قال: في أي سنةٍ نحنُ من تاريخِ الهجرة. فعجبتُ لسؤالِه وقلتُ: في السنة التاسعةِ والعشرينَ بعدَ الثّلاثمائة والألف. قال: ما اسم هذا العصرِ الذي تعمُرونَهُ. قلت: القاهرة المُعِزّية. قال: أفي الأمّة كثيرٌ مثلُك. قلت: لم أفهمْ ما تريد يا سيّدي. قال: لقد استفتحتُ هذه الأبوابَ التي تليكَ فلم أجدْ من دونِها إلّا ضعيفًا لا يَلْبَثُ أن يراني حتّى يُرْعِدَ منّي فَرَقًا فيوصدُ بابَه في وجهي، أو ضنينًا يرى بؤسي وشَكَاتي فيزوي ما بين حاجبيهِ ثمّ ينصرفُ عنّي. أو أعجميًّا لا يفهمُ ما أقولُ ولا أفهمُ ما يقولُ. قلت: ما في هذه الحلّةِ التي تراها أعجميٌّ. قال: إنّهم خاطبوني بلحنٍ لا أعرفُه وإن شئتَ أَعَدْتُه عليكَ كما سمعته.

ثم أخذَ يسردُ عليّ الكلماتِ العاميّةَ التي سمعَهَا من الناسِ سردًا متواصلًا كما تسردُ الببغاءُ كلماتها فقلتُ: إنك قد أعدتَ يا سيّدي بذكائِك هذا عهد أبي العلاء المعري، فإنّهم يحدّثون عنه أنّه كانَ إذا سمعَ أعجميًا يتكلّمُ حفظَ كلامه بدون أن يفهم معناه[٢]. فما سَمِعَ كلمتي هذه حتّى اضطربَ جسمُه وانكفأ لونه[٣]، ورأرأ بمقلتيه[٤]، وزحف إليّ حتّى اصطكّتْ ركبتَانا، فعجبتُ لأمره وما رأيتُ من استحالَةِ حاله.

ثمّ قال لي من هو هذا المعرّي الذي حدثُوكَ عنه. قلتُ: رجلٌ من علماءِ الأمّة العربيّةِ وشعرائِها، عاشَ في القرنِ الرابعِ والخامسِ من الهجرةِ؛ نقرأ سيرتَه في كتبِ التاريخِ والأدبِ ونعجبُ بفهمِه وعلمِه وذكائِه كلَّ الإعجاب. قال: وما ظَنُّكُمْ به. قلتُ: إنّ الناسَ في أمره مختلفون. ومن يرفضُه أكثرُ ممّنْ يتشيّعُ له. قال: ومن أيِّهِمْ أنت؟ قلت: ممن يتشيّع له، فقد قرأتُ كتبه قراءةَ مستثبتٍ مستبصرٍ، فما شَكَكْتُ في مذهبه ودينه. قال: أكنتَ تؤثرُ أن تكونَ في عصرِه أو أن يكونَ في عصرِك حتّى تراه. قلت: ما أَعْدِلُ بهذه الأمنيةِ غيرَها قال: قد بَلّغَكَ اللهُ طلبَكَ. قلت، لم أفهم يا سيّدي شيئًا ممّا تقول: قال: أكاتِمٌ أنتَ على سرّي. قلت: نعم. قال: أتقسِمُ. قلت: للوفاءِ عندي حرمةٌ مثلُ حرمةِ القَسَم ولو كنتُ متّهِمَ نفسي لأقسمتُ. قال: الآن عرفتك.

أنا أحمدُ بن عبد اللهِ بن سليمانِ التنوخي المعرّي. فما قرعتْ هذه الكلمةُ مسمَعي حتّى أُسقطَ في يدي وعلمتُ أنّي قد هلكتُ وكانَ أوّلُ ما كان منّي أن التفتُّ ناحيةَ البابِ لأرى هل أجدُ السّبيلَ إلى الهرب إنْ عرضَ لي من هذا المجنونِ عارضُ سوء. وكأنّه ألمّ بما في نفسي

(١) صاقبته: أدركته.

(٢) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصًا متعددة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمنًا طويلًا حتى يلقيه كما سمعه.

(٣) انكفأ لونه: تغيّر.

(٤) رأرأ بمقلتيه: حركهما وأدارهما.

فقال: لا ألومك على ما ظننتَ فقد قدّرْتُ قبلَ أن ألقيَ كلمتي هذه أنّها بالغةٌ منكَ ما بَلَغَتْ، فهلْ تؤمنُ بالله! قلت: نعم. قال: وتؤمن بالبعثِ؟ قلت: نعم.

قال: وما يريبُكَ من رجلٍ أماتَه اللهُ ثمّ بعثه بعدَ موته. قلت: ذلكَ يومَ يبعثون. قال: هَبْهَا قصّةَ إبراهيمَ إذ قالَ له ربّه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وبعدُ فوالله يا بنيّ ما كفرتُ مذ آمنتُ ولا كذبتُ مذ عرفتُ أنّ الصدقَ منجاةٌ من النّار، ولا استرَدَّ اللهُ مني نعمةَ العقلِ بعدما منحني إيّاها ولو كذبتُ الناس جميعًا ما كذبتُكَ؛ فقد أسلفتَ إلي من أياديكَ ما لا أحتاجُ بعدَهُ إلى كذبةٍ أتّفقُ بها عليك. وإنّي قاصٌّ عليكَ قصّتي فاجنحْ لها ولكَ بعد ذلكَ حُكْمُك. فَسَرَّى عنّي قليلًا ما كان ألمّ بنفسي من القلقِ فأقبلتُ بوجهي فأنشأ يقول:

لا أزالُ يا بنيَّ حتّى الساعةِ أشعرُ بمرارةِ الحسابِ في فمي، فقد حُوسبتُ حسابًا غير يسيرٍ على الكبيرِ والدّقيقِ والجليلِ والقَوْمةِ والقَعْدةِ والخطوةِ واللمحةِ وكلّ ما وجدته حاضرًا بين يدي في صحائفي، فكادتْ حسناتي تكافئُ في الميزان سيئاتي لولا تلكَ الكلماتُ التي كنتُ أردّدها في حياتي الأولى في تزهيد النّاس في النّسلِ والزواج[1] فقد دخلتُ بها في زمرةِ

(١) لأبي العلاء أقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهيد في النسل جاء بها على صور مختلفة فتارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله:

قَدِمَ الفتى ومضى بغيرِ ثنيّةٍ ... كهلال أوّلِ ليلةٍ من شهرِهِ
لقدِ استراحَ من الحياةِ معجلٌ ... لو عاشَ كابَدَ شِدَّةً في دهرِهِ

وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله:

تواصل حبل النسل ما بين آدم ... وبيني ولم يوصل بلامي باءُ
تشاءب عمرو إذ تشاءب خالدٌ ... بعدوى فما أعدَتْنِيَ الثّوبَاءُ

وقوله:

بِنْتُ عن الدّنيا ولا بِنْتُ لي ... فيها ولا عِرْسٌ ولا أُخْتُ

وقوله:

لقد صِرْتُ في الدّنيا غبينًا مرزّءًا ... فأعفيتُ نسلي من أذاةٍ ومن غُبْنِ
فإن تحكمي بالجورِ فيّ وفي أبي ... فَلَنْ تحكمِيهِ في بناتي وفي إبني

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولده جناية منه عليه كقوله:

لِيَذْمِمْ والدًا ولدٌ ويعتبْ ... عليهِ فبئسَ عمري ما سَعَى له

وقوله:

هذا جناهُ أبي عليّ ... وما جنيتُ على أحدْ

وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ما كان يتصوره من أن الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الإنساني ولا خلاص له إلا من طريق العدم المحض وأن إسناده الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الإمعان في تصوير هذا الشقاء وتبين ضرورة اتصاله بالإنسان وأنه لو لم يولد لما كان شقيًا وقد أوضح غرضه هذا توضيحًا بينًا في قوله: =

المفسدينَ الذين تنكّروا لإرادةِ الله وأغفلوا حكمَتَه في خلقِ النوعِ البشريّ، وطالَ حسابي عليها وحِجَاجي فيها وكانَ لا بُدّ من العقابِ؛ ففزعتُ إلى الرّوح الشريفةِ المحمّدية مستشفعًا بها لا أريدُ ردّ القضاء ولكنْ أريدُ اللّطفَ فيه. فتعلّقَ محمدٌ ﷺ بقوائمِ العرشِ الإلهيّ وقال:

اللهمَّ إنكَ تعلمُ أنَّ عبدَكَ هذا عاشَ في تلك الدارِ كارهًا لها متبرّمًا بها متسخّطًا عليها حابسًا نفسه في كسر بيته فرارًا من أهلِها يترقّبُ فِراقَهَا في جميعِ آنائه وفيناته حتى لو رأى الشّمسَ لتمنّى ألا يرى مغربَهَا ولو رآها غاربةً لتمنّى ألا يرى مشرقَها. وقد قضى قضاؤُك الذي لا مَرَدَّ لهُ ولا محيصَ[1] عنه أن تعاقبَه على ما اجترحَ من السيّئاتِ في دارِ العَملِ، فأسألُكَ بعلمِكَ النّورانيّ الذي تمحو به في لوحِكَ ما تشاءُ وتثبتُ أن تقيَ جسمَه الذي طهّره في الحياةِ الدنيا بالزّهدِ في شهواتها ولذائذها والصبرِ على آلامها وأهوالِهَا من عذابِ النّارِ، وأن تجعلَ عَذابَ قلبِه فداءَ عذابِ جسمِه فعاقِبْهُ بإرجاعِه إلى تلك الدّارِ التي كانت جحيمَه ومستقرَّ عذابه؛ وحَسْبُه من العقابِ أن يلقى فيها آخرًا ما لَقِيَ فيها أولًا؛ إنّكَ بعبادِك لطيفٌ خبير».

فقبلَ اللهُ شفاعَةَ نبيّه وقَضَى أنْ أعودَ إلى الدّارِ الأولى لأقضيَ فيها أيّامًا لا أعلمُ عُدَّتَهَا وقد عَلِمَ اللهُ سبحانه وتعالى أنّي في العهد الأوّل أحمدُهُ على العَمَى كما يحمَدُه غيري على البصر فردّ إلي بصري لتنفُذَ مشيئَتُه في عقابي وتعذيبي فَلَهُ الحمدُ على سرّائِه وضَرّائه[2].

هذه قصّتي قَصَصْتُها عليكَ وهذا أوّلُ يومٍ من الأيّامِ التي سأقضيها في دارِكُم هذه فاكتُمْ عليَّ أمري حتّى ينقضيَ أجلي وكن لي خيرَ معينٍ على همومِ الحياةِ وبأسائِها، فقد اغتبَطْتُ بكَ مذ رأيتُ وعلمتُ أن اللهَ ما قيّضَكَ لي إلّا وهو يريدُ أن يخفّفَ عنّي العذابَ مرّةً أخرى.

فَمَا أَتَمّ قصّتَه حتّى ابتدرتُ يديه لثمًا وتقبيلًا وعَلمْتُ أنّي قد أحرزتُ في بيتي كنزًا لا أَعْدِلُ به كنوزَ الأرضِ ظاهرَهَا وباطنَهَا، وشعرتُ بما أضاءَ بين جوانحي من سُرورٍ ما كانَ يكدّرُه عليَّ إلّا خوفُ انقضائِه.

= ألا تـفـكّـرْتَ قـبـلَ الـنّـسـل فـي زمـنٍ ... بـه حَـلَـلْـتَ فـتـدري أيـن تـلـقـيـهِ
ترجـو لـه مِـنْ نـعـيـم الـدهـرِ مـمـتـنـعًا ... ومـا عـلـمـتَ بـأنّ الـعـيـشَ يـشـقـيـهِ
شكـا الأذى فـسـهـرتَ الـلـيـلَ وابـتـكـرَتْ ... بـه الـفـتـاةُ إلـى شـمـطـاءَ تـرقـيـهِ
وأمُّـهُ تـسـألُ الـعـرّافَ قـاضـيـةً ... عـنـه الـنـذورَ لـعـلَّ الله يـبـقـيـهِ
وأنـتَ أرشـدُ مـنـهـا حـيـنَ تـحـمـلُـهُ ... إلـى الـطـبـيـبِ يـداويـه ويـسـقـيـهِ
ولـو رقـى الـطـفـلَ عـيـسـى أو أعـيـدَ لـه ... بِـقْـرَاطُ مـا كـان مـن مـوتٍ يُـوَقّـيـهِ

(١) المحيص: المهرب والمفرّ.

(٢) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقده جميع الموحدين أن ما لقيه في هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وزخارفها مدخر له أجره في دار الخبراء كما يظهر من مثل قوله:

أأخـشـى عـذابَ اللهِ واللهُ عـادلٌ ... وقـد عِـشْـتُ عَـيْـشَ الـمـسـتـضـامِ الـمـعـذّبِ

وقوله:

أأصـبـحُ فـي الـدّنـيـا كـمـا هـو عَـالِـمٌ ... وأدخـلُ نـارًا مـثـلَ قَـيْـصَـرَ أو كِـسْـرَى

ثم ما زلنا نتحدّثُ حتّى كادتْ تحترقُ فحمةُ اللّيلِ فَوضَعْتُ يدي في يده وعاهَدْتُهُ على كتمانِ سرّه، ثمّ ودّعتُهُ وتركتُهُ في خَلْوَتِهِ على أن نلتقيَ غدًا.

اليوم الثّاني

ما كنتُ أجهلُ قبلَ اليوم رأيَ الشّيخِ في الطّعام وما يحبُّ منهُ وَما يَكرَهُ، ولكنّني ظَنَنْتُ أنّه بُعثَ بطبيعةٍ غير طبيعتِه ورأيِ غيرِ رأيِه، فقدّمْتُ إليه في طعامِ العشاءِ دجاجاتٍ رَبِلات[١] كنتُ أعدَدْتُهنّ للضيفانِ من قبلُ. فلمّا أخذَ بصرُهُ المائدةَ صارَ ينظرُ إليها مرّةً وإليّ أخرى ثمّ قال: ما اسمُ هذا الطعام الذي تقدّمُهُ إليّ. قلتُ: إنّهنّ دجاجاتٌ لم يكنْ للخادمِ الصّغرى عندي شأنٌ غيرُ رعايتهنَّ والقيامِ عليهن والحَدْبِ بهنّ. فكانتْ تؤثرهنَّ بأفضل ما تؤثرُهَا بهِ من طعامٍ وشرابٍ، وتُنْزِلُهُنَّ من نَفسها منزلةَ الواحدِ من أمّه حَتّى امتلأنَ واكتنزن[٢] واستدرنَ للذَّبحِ؛ وكنتُ أبقي عليهنّ كلّما طرقَني طارقٌ إبقاءً على الفتاةِ أنْ ينفجرَ صدرُهَا حزنًا على أترابها الصغيراتِ. أما اليومَ فلم أرَ من ذلكَ بدًّا فذبحتهنّ إكرامًا لكَ، فَسَالَ من دموعِ الفتاةِ عليهنَّ أكثرُ ممّا سالَ من دمائهنّ.

فوجَمَ الشّيخُ ثم أطرقَ إطراقًا طويلًا سمعته يهينِمُ[٣] فيه بهذه الكلمات:

وارحمَتَاه ألا تزالُ هذه المُدَى مُوكَلَةً بهذِه الأعناق. ألا يزالُ الحيوانُ النّاطقُ يُنكِرُ على الحيوانِ الصّامتِ حتّى حِسَّهُ ووجدانَه، ويأبى إلّا أنْ ينظمَهُ في سِلْكِ الجَمَاداتِ الصُّمِّ لأنّه صامتٌ لا ينطقُ وأخرسُ لا يبينُ[٤] ربّما كانَ زقاءُ[٥] الديكِ وقوقأةُ الدجاجةِ وصرصرةُ البازيّ وهديلُ الحمامِ وزقزقةُ العصفورِ وثغاءُ الشّاةِ ومواءُ الهرّةِ وخوارُ الثورِ وحنينُ النيب[٦] بكاءً بغيرِ دموعٍ وشكوًى بغيرِ لسان. وربّما كانَ يكتمُ ذلكَ الذبيحُ في نفسِه من الوجدِ والبُرَحَاءِ[٧] ما لو استطاعَ أن يبينَ عنه لأبكى العيونَ دماءً وفجّر الصّخرَ عيونًا.

ثمّ رفعَ رأسَه إليّ وقال: أما سمعتَ الدّجاجاتِ يقلنَ لكَ شيئًا عندما أردتَ ذبحهنّ: قلت: لا يا مولايَ ومتى قُلنَ للنّاسِ شيئًا فيقلنَ لي؟ فنَظَرَ إليّ نظرةَ شزراءَ[٨] لا أنسى سهمَها الواقعَ في قلبي ما حَيِيتُ ثمّ قال: أما لو أنّ اللهَ منحَ ذابحَ الدجاجةِ من نورِ البصيرةِ ما منحه من نورِ البصرِ لسمِعَها تقول له:

---

(١) الربل: الكثير اللحم.
(٢) اكتنز اللحم: اجتمع وصلب.
(٣) الهينمة: الصوت الخفي.
(٤) من كلام أبي العلاء في إحساس الحيوان بالألم قوله في إحدى رسائله «وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم» وقوله: «ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم لأنها لا يتوصل إليها إلا بإيلام حيوان يفر منه كل أوان».
(٥) زقاء الديك: صياحه.
(٦) النيب: جمع ناب وهي الناقة المسنة.
(٧) البرحاء: الألم.
(٨) نظرة شزراء: غاضبة مستنكرة.

مهلًا رويدًا أيها القاتلُ السّفّاكُ لا تَدْنُ منّي ولا تمدَّ يدَكَ إليّ فلا شأنَ لك معي ولا تِرَةَ[١] لكَ عندي.

أنا صاحبة الحقّ المطلقِ في حياتي وأنا لا أريدُ أنْ أموتَ ولا رغبةَ لي في فراقِ الحياةِ لأنّ ورائِي أفراخًا صغارًا هنّ إلى حياتي أحوجُ منكَ إلى مماتي وليسَ من الرّأيِ أن أَكِلَ أمرَهُنَّ إليكَ من بعدي لأنّكَ شَرِهٌ طمّاعٌ لا يشبَعُ بطنُكَ ولا تهدأُ مُدْيَتُكَ.

أنت لا تملِكُ أن تعطِيَني الحياةَ فلا تملِكُ أن تسلبَنِي إيّاها.

كلّ ما تستطيعُ أن تَمُنَّ به عليّ أنّك كنتَ تُطْعِمُني وتسقيني فهل تَعْلَمُ أنّكَ ما كنتَ تطعمني إلا فُتَاتَ مائدتِك ولا تسقيني إلا غسالةَ يديكَ وأنّك ما كنتَ تصنعُ ذلكَ رحمةً بي ولا إحسانًا إليّ بل لتهيئَ لنفسِكَ ما يسدُّ شهواتِها ويطفئُ لوعَتَها؟ وهلْ تعلمُ أنّك أنتَ الذي سجنتَنِي في أقفاصِكَ وحلتَ بيني وبينَ رزق اللهِ أُطْعَمُهُ أنّى ذهبتُ وأينَ حللتُ من حيثُ لا يساومني فيه مُسَاومٌ ولا يحاسبُني عليه مُحَاسِب.

أمن أجل تلكَ الخشارةِ[٢] القذرةِ والجرعةِ الكَدِرَة تسلبُني حياتي وتفجعُ بي أفراخي ولا ذنبَ لي ولا لهنّ عندَك إلا أنّا كنّا زينةَ بيتِكَ ولعبةَ أطفالِكَ وحماةَ آلِك من بناتِ الأرض[٣] وهوامِهَا ورُسُلَ الفجرِ المنيرِ إليكَ.

لا تظلم السّبعَ بعدَ اليوم ولا تنتقِمْ منه وحشِيَّتَهُ وافتراسَهُ، فكلاكُمَا وحشٌ وكلاكُمَا مفترسٌ لا فرقَ بينَك وبينه إلّا أنّه لا يحسنُ الذّبحَ والطّبخَ كما تُحْسِنُ؛ فهو يبقر البطونَ بأظافرِه وأنتَ تَفرِي الأوداج[٤] بمُدَاكَ لا بل أنّ جريمتَك أكبرُ من جريمتِه وعذرَك أضعفُ من عذرِه لأنّه يفترسُ ليُشْبِعَ بطنَه وأنتَ تفترسُ لترفّهَ نفسَكَ، ولأنّه يعجزُ عن الاحتيالِ لقوتِه وأنتَ على ذلك من القادرين[٥].

استَضْعَفْتَني فبرزتَ إليّ، فهلّا برزتَ لشبلِ الأسدِ أو ديسمِ الدبِّ أو فُرْعَلِ الضّبعِ أو حرشِ الحيّة وهيثم النّسر أو ناهضِ العقاب[٦]؟

ما أخبثَكَ أيّها الإنسانُ عاجزًا وما أَظلَمَكَ قادرًا وما أشقَاكَ بنفسِكَ وأشقى العالمينَ بشقائِك.

---

(١) الترة: الثأر.

(٢) الخشارة: فضالة المائدة.

(٣) المراد ببنات الأرض: الحشرات التي تخرج من بطنها.

(٤) الأوداج: شرايين متّصلة بالقلب.

(٥) فضّل أبو العلاء الحيوان على الإنسان في كثير من كلامه كقوله:

سَبَبْتَ بالكلبِ فأنكَرْتَهُ ... والكَلْبُ خيرٌ منكَ إذ يَنْبَحُ

وقوله:

أقلُّ منهمْ شرًّا ومُرْزِيَةً ... ما رَكِبُوا في السُّرَى وما ذَبَحُوا

وقوله:

خيرٌ من الظالمِ الجبارِ شيمَتُه ... ظُلْمٌ وحيفُ ظليمٍ يَرتعي الذّبَحَا

(٦) هذه الألفاظ هي أسماء أولَاد الحيوانات المذكورة.

ذلك ما كان يسمَعُه الذّابحُ من ذبيحتِه لو أنّ الله وهبَه أذنًا كالآذانِ وبصيرةً كالبصائرِ ولكنّ النّاسَ لا يعلمون.

هَبْهُ يا صاحبَ الدجاجاتِ حدّثني عنكَ ألم يكنْ لكَ في جميعِ ما تنبتُ الأرضُ من بقلِهَا وقثائِهَا وفومِهَا وعدسِهَا وبصلِهَا منادحُ[١] لإكرامي والقيام بحقّي وأنت تعلمُ أنّني رجلٌ سلختُ في دنياكُم هذه من حياتي الأولى نيّفًا وأربعينَ سنةً لم أذقْ فيها لحمَ الحيوانِ ولا ثمارَهُ ولا نِتَاجَهُ، فحميتُ نفسي حتّى عَسَلَ النّحلِ وبيضَ الدّجاجِ وألبانَ ذواتِ الأثداءِ، وأقنعتُهَا بالبلسنِ طعامًا والبلسِ حلوى[٢]، لأني كنتُ أعلَمُ أنّ النّبات طَعامي الذي لا يلائمُني غيرُه ولا يشبهني سِواهُ، وأنّ لحمَ الحيوانِ إنّما خُلِقَ للشفاهِ الغليظةِ والأنيابِ العريضةِ والأظفارِ الحادّةِ والجلود المزَأْبرةِ[٣] والأعضاءِ المتوثّبةِ والهاماتِ الضّخمةِ، وكنتُ أرى أن أكَلَةَ اللّحم إنّما يخادعونَ أنفسَهُم فيها ويجترّونها إلى طبائعهم اجترارًا لأنهم لا يأكلونَ إلّا إذا عالَجوها بالطّبخِ والصّفتِ[٤] والتقديدِ والشيّ والقَلْيِ ومزجوها بالخُضَرِ والتّوابلِ، والأبازير، والأقزاح[٥] مزجًا يكادُ يَخْرُجُ بها عن جوهَرِها إلى جوهرِ النّبات حَتّى إذا نزلَ بهم عارضُ مرضٍ نزعوا عنها وبرئوا إلى اللهِ منها وفزعوا إلى النّباتِ في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم كأنّما يطلبون شفاءَهم في الرّجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له!

وأعجبُ ما كنتُ أعجبُ لهُ من أمرهم أنّهم كانوا يُنكرونَ عليّ رأيي في تَرْكِ ذلكَ الطعامِ ويُمْعِنون في مساءَلتي عنه وحِجَاجي فيه وحَمْلي عليه ويلحّونَ في ذلك إلحاحًا شديدًا حتّى ظننتُ أنّهم قاتلي من دونِه[٦] كأنّما يزعمونَ في ضوضائِهِمْ هذه أنّهم إنّما يأكلونَ لَحْمَ الحيوانِ باسم الشّريعة الدينيّةِ لا باسمِ القرم والجعم[٧] أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا ألّا يقيمَ لهم يومَ القيامةِ وزنًا ولا يقبلَ منهم صرفًا ولا عَدْلًا إلّا إذا قدموا عليه ببطونٍ بُجْرٍ[٨] مكتظّةٍ بلحوم الحيوانِ تتقدّمُ بين أيديهِم في مُنْصَرَفِهِم من الحسابِ لتفتحَ لهم أبوابَ الجنانِ، وكأنّهم فرغوا

---

(١) المنادح: جمع مندوحة، وهي المجال الواسع.

(٢) البلسن: العدس. والبلس: التين ومن كلام أبي العلاء:

يقنعني بلسَنٌ يمارسُ لي فإنْ أتتني حلاوةٌ فَبَلَسُ

(٣) الثوب المزأبر: الذي له زئبر وهو ما يظهر ما درزه.

(٤) الصف: تشريح اللحم عراضًا.

(٥) التوابل، وما يليها: ما يطيّب به المطبوخُ من الأشياء اليابسة.

(٦) كتب ابن أبي عمران إلى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتًا مؤلمًا ويعرض عليه أن يحمل بعض الأمراء أن يرسل إليه ما يكفيه مؤونة ذلك إحراجًا له وإعناتًا وأبو العلاء يومئذ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته قد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل (ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فإنما يصلي قاعدًا والله المستعان).

(٧) القرم والجعم: شهوة اللحم. (٨) بجر: جمع أبجر وهو الممتلئ.

من أداءِ ما افترضَ اللهُ عليهم أنْ يؤدّوهُ، وَتَرْكِ ما أَمَرَهُم أن يتركُوه؛ فلم يبقَ بين أيديهم من أبوابِ العبادةِ إلا بابُ التورّعِ عن أكلِ اللّحم مخافةَ أن ينقلبَ المباحُ بإعراضِهِمْ عنه حرامًا كما تَرَكَ النبي ﷺ صلاةَ التّراويحِ بعد أدائِها مخافَةَ أن تنقلبَ سنّتها باستمراره عليها فريضة[١].

وأحسبُ أنْ لو كنتُ فيهم من أَكَلةِ السحتِ[٢] أو الميتةِ والدّمِ ولحمِ الخنزيرِ أو أموالِ الناسِ بالباطل لأوسعوا لي في صدورهِمْ من العذرِ ما لم يُوسعوا في تَرْكِ مباحٍ ما تركته نقمةً على الشريعةِ أو تبرُّمًا بها أو تمرُّدًا عليها، ولكنّني كنتُ أمرأً جزوعًا يُزعِجُني منظرُ الشّرائحِ الحيوانيّةِ على مائدتي لأنّه يذكّرني بمنظرِ الذّبيحةِ وارتياعِها ووَلهِها بين حَبْلِ الذابحِ وسكّينه، وكنتُ فقيرًا بائسًا لا أملكُ في كلّ عام من الرّزقِ إلا نيفًا وعشرين دينارًا لا يتّسعُ مثلُهَا لِمِثْلِ ما يتّسعُ له عيشُ الناعمينَ المترفين[٣]؛ وما كنتُ أجِدُ السّبيلَ إلى غيرها إلّا من طريقِ الكُدْيةِ والتكفّفِ أي بقبول صِلَاتِ الأمراءِ وصَدَقاتِ المحسنين، وقد علم الله من شأني أنّني رَجُلٌ لو عَلمتُ أنّي إن أَذْلَلْتُ ما صانَ الله من ماءِ وجهي على عتبةِ أمير أو قَدَمِ وزيرٍ أمطرتِ السّماءُ عليّ ذهبًا واستحَالَتِ الحَصْبَاءُ تحتَ قدمي درًّا ما فعلتُ ضنًّا بنفسي على هذا الموقف المستوبِلِ وإيثارًا للرّضاءِ بقضاءِ الله وقدرِهِ في قسمةِ أرزاقه بينَ عباده[٤].

---

(١) من كلام أبي العلاء في الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويغفلون كبارها.

يُعيبُ أناسٌ أن قومًا تجردوا ... لحمامِهِمْ نَضْبَ العيونِ الشوازرِ
لقد سَعِدوا إنْ كان لَمْ يجرِ عندَهُمْ ... من الوزرِ إلا تَرْكُهُمْ للمآزرِ

(٢) السحت: ما يجر العار على صاحبه كالرشوة ونحوها.

(٣) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله (ومما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون دينارًا فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب، بقي ما لا يجب، فاقتصرت على فول وبلسن، وبعض ما لا يعذب في الألسن). ومن كلامه الدال على أنه كان فقيرًا معوزًا قوله:

واتّهامي بالمالِ أوجبَ أنْ ... يُطلَبَ منّي ما يقتضي التّمويلُ
ويقولُ الغواةُ خَوّلَكَ الله ... كذبتُمْ لغيريَ التّخويلُ

(٤) كان أبو العلاء غاية الغايات في قناعته وأنفة نفسه وقد ظهر ذلك في حال معيشته واعتقاله ببيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الأمراء فيه وإلحاح الكبرياء عليه في البروز إليهم والكون معهم فضلًا عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله:

الحمدُ لله قد أصْبَحْتُ في دَعَةٍ ... أرضَى القليلَ ولا أهتمُّ بالقُوتِ

وقوله:

مِنْ مذهبي ألّا أشدَّ بِفضّةٍ ... قدحي ولا أُصغي لِشُرْبٍ مُغوجِ
لكن أفضّي مدّتي بتَقَنُّعٍ ... يغني وآخرَ بالقليلِ الأروحِ
هذا ولستُ أودُّ أنّي قائمٌ ... بالمُلْكِ في ثوبَي أغرَّ مُتَوَّجِ

ولما اضطر أن يخرج إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب منه إطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعًا ظهر في قوله:

تغيّبْتُ في منزلي برهةً ... سَتِرَ العيونِ فقيدَ الحَسَدْ
فلمّا مضى العمرُ إلّا الأقلُّ ... وَحُمَّ لروحي فراقُ الجَسَدْ =

فلمْ أرَ خيرًا من تَرْكِ طعام لو اشتهَيتُه لَمَا قدرتُ عليه ولو قدرتُ عليه لَمَا اشتهيتُه من حيث لا يكونُ للتَّحريمِ والتّحليلِ ولَا للإيمانِ والزّندقةِ في ذلكَ مَدْخَلٌ.

وما زالَ المتورّعُونَ من السّلفِ الصّالحِ يتركُونَ ما هو لهم حلالٌ مطلقٌ من لذائذِ هذه الحياةِ وشهواتِها ويجزعونَ من مُلامَسَتِه والدّنوِّ منه جزعَهُم من اجتراحِ السّيئات، وانتهاكِ الحُرُماتِ. فقد كان النبي ﷺ يُجيعُ نفسَه من غير عَوَزٍ وكانتْ عائشةُ رضيَ الله عنها تقولُ: «إنّ رسولَ الله لم يمتلئْ قطّ شبعًا، وربما بكيتُ رحمةً له ممّا أرى به من الجوعِ فأمسحُ بطنَه بيدي وأقولُ: نفسي لك الفداءُ لو تبلّغْتَ من الدّنيا بقدرِ ما يقويك، فيقول: يا عائشة، إخواني من أولي العزم من الرّسُلِ قد صبروا على ما هو أشدُّ من هذا فَمَضَوا على حالهِم، فقدموا على ربّهِمْ، فأكرمَ مآبهُمْ وأجزلَ ثَوَابَهُم، وكانَ يقولُ: أشرارُ أمتي الذين يأكلون مخّ الحنطة[١] وعلا عمرُ رضيَ الله عنه ولدَه عبد اللهِ بنَ عمر بالدرة[٢] إذ دخلَ عليه فرآه يَجْمعُ في طعامِه بين الثّريد[٣] والشّواء، وكان بعض الصّالحينَ يعدّ الجمعَ بين الخبزِ والملحِ شهوةً فيتجنّبها، وكان بعضهُمْ يعجنُ دقيقه ويجفّفه في الشّمس ثمّ يأكله قائلًا: كسرةٌ وملحٌ حتّى يتهيّأ في الآخرة الشّواء، ومنهُمْ من لَمْ يأتدِمْ قطّ في حياته لا بالجواذبِ[٤] والكبابِ ولا بالخَلّ والزّيت».

فهل كان واحدٌ من هؤلاء بَطِرًا بنعمةِ الله أو محرّمًا ما حلّلَ الله؟ لا فما كلُّ من أبغضَ حلالًا حرّمه ولا كل من أحبّ حرامًا حلّله، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحلّ النبيذِ فلما أريد عليه قال لو قطعت إربًا إربًا ما حرّمتُه، ولو قطعتُ إربًا إربًا ما شربتُه، وعلم النبي ﷺ بحلّ الطلاقِ ثمّ قال: أبغضُ الحلالِ إليّ الطلاقُ، بل لو تبينتُ لعلمتُ أنّ قاعدةَ التّحريم والتّحليلِ في الشّرائعِ الدينيةِ مصادرةُ النفوسِ في ميولِهَا وشهواتِهَا والنفوس لا تنفرقُ إلا ممّا حُلَّ لها ولا تشتهي إلا ما حُرّم عليها.

فويلٌ لي من هؤلاءِ النّاس شَركْتُهُمْ في دنياهُمْ، فقالوا شَرِهٌ طَمّاعٌ، وصَدَفْتُ لهم عنها فقالوا زنديقٌ مُلْحِدٌ، فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون[٥].

وما وَصَلَ من حديثه إلى هذا الحدّ حتّى بلغَ منه الجهدُ أو كادَ، فَتَفَصَّدَ[٦] جبينُه عرقًا

= بَعَثْتُ شفيعًا إلى صَالحٍ ... وذاكَ من القوم رأيٌ فَسَدْ
فيسمَعُ منّيَ سَجْعَ الحمَا ... مِ وأسمعُ منه زَئيرَ الأَسَدْ
فلا يُعْجِبَنّيَ هذا النفا ... قُ فَكَمْ نَفَقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدْ

(١) مخ الحنطة: خالصها.
(٢) الدرة: السوط يضرب به وكان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة لا تكاد تفارق يده.
(٣) الثريد: طعام من خبز مبلول بالمرق.
(٤) الجوذاب: طعام يتخذ من سكر ورز ولحم.
(٥) من كلام أبي العلاء في عدم رضاء الناس عنه حتى في زهده ما في أيديهم:
حُورِبْتُ في كلّ مطلوبٍ هَمَمْتُ به ... حتى زَهَدْتُ فَمَا خُلّيتُ والزُّهدا
(٦) تفصّد: سال وجرى.

واستسرَّ حديثُه حتّى ما كاد يبينُ، فرثيتُ له ممّا به، وأمرتُ برفعِ المائدةِ من بين يديه وقدّمتُ له مقترحَهُ من الطّعام. فَلَبثنا نأكلُ صامتينَ حتّى فرغنا، فأردت أن أرفّهَ عليهِ ما ألمّ به من الهمّ، فقلتُ له: يا مولاي إنّ للحيوانِ اليومَ شأنًا غيرَ ذلكَ الشأنِ الذي تعرفه له من قبلُ، فقد ذهبَ كثيرٌ من النّاس مذهبَ الرّفقِ به والإحسانِ إليه، واجتمعَ في كلّ مدينةٍ من مدنِ العالم قومٌ من الراحمينَ المحسنينَ يأخذونَ أنفسَهُم بمناظرةِ المدارجِ والسّبل والأسواقِ العامّة، فإذا وجَدُوا من تَحَمّلَ على دابّتِه فوقَ ما تَحْمِلُ أو يَسُوطُها سوطًا عنيفًا[١] رفعوا إلى الحاكم أمرَه، أو رأوا حيوانًا هزيلًا أو مهيضًا[٢] حَملُوه إلى مكانٍ خاصٍ بمعالجةِ أمراضِ الحيوانِ، فَعالجوه إن وجدوا إلى الرّجاءِ فيه سبيلًا، وإلّا قتلوه رحمةً به وإشفاقًا عليه.

قال لقدْ أَحْسَنُوا في الأولى وأساؤوا في الأخرى، وَمَنْ لَهُمْ بعلم ما استتر وراءَ حُجُبِ الغيبِ من كوامنِ الأقدارِ في تحديدِ الآجالِ، وها نحن نرى في كلّ يوم مريضًا يبَلّ[٣] بعد إشرافِهِ وبكاءِ الباكياتِ حَوْلَهُ، وصحيحًا يخترمُ في اجتماعُ قوّته واستكمالِ فتوّتِهِ وغليانِ ماءِ الشبابِ في وجهه كما تخترمُ الثمرة الغضة من غصنها الناظر فهلا وكلوه إلى منيّته تأتيه هادئةً مطمئنّةً حيث يسوقها القدرُ إليه[٤].

ما أحسبُ هؤلاءِ الرّاحمينَ الذين تحدّثني عنهم إلّا مُرائينَ مُصَانعينَ، ولا هذه الرحمةَ التي ينتحلُونَها لأنفسهم إلا حبالةٌ من الحبائلِ نَصَبُوها لاصطيادِ العقولِ واختتال النفوسِ، ولا أنّهم أرادوا بما فَعَلوا إلّا أن يقولَ النّاسُ عنهم إنّهم رحموا الحيوانَ، فأحرى أن يرحموا الإنسانَ، فَمَثَلُهُمْ كمثلِ المرائينَ في الدّين الذينَ يتورّعونَ عن الثمرةِ حلالًا تذرعًا إلى البدرةِ[٥] حرامًا.

يا بني آدمَ دعوا النّوقَ في مراحِهَا والشّاءَ في زوربها والوحشَ في كناسِه والضّبّ في جحرِه والذّئبَ في وجارِه والقطّ في أفاحِيصِه ولا تزعجوا العصافير في أعشاشِها ولا الحمامَ عن محاضِنِها ولا اليعاسِبَ عن خلاياها ولا الأسماكَ عن مسارحها[٦] وجنّبوها فخاخَكُم وشباكَكُم وقترَكُم وزباكُم[٧] ومُدَاكم وشِفَاركم فإنّ لها نفوسًا كنفوسِكُمْ ووجدانًا كوجدانِكُمْ ورجاءً في الحياة كرجائِكم، واعلموا أنّ الله تعالى ما أغرى بعضَكم ببعضٍ ولا سلّطَ قويَّكم على ضعيفِكم ولا أجرى هذه الينابيعَ من الدّماء بين أحيائِكم إلا بعدَ أنْ ضريتم[٨] بهذِه اللحوم ضِرَاء السّباع

---

(١) ساط دابته سوطًا: أي ضربها بالسوط. (٢) المهيض: الكسير.

(٣) يبل: يشفى.

(٤) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن إدراك الغيب.

وجدتُ الغيبَ تجهلُهُ البَرَايا فَمَا شِقٌّ هُدِيتَ وما سَطِيحُ

(٥) البدرة: كيس النقود. (٦) هذه الأسماء أسماء حيوانات وأسماء بيوتها.

(٧) القترة: جمع قترة بضم القاف وهو الداموس الذي يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد. والزبى: جمع زبية بضم الزاي وهي أحفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الأسد.

(٨) ضرى الوحش باللحم: اعتاده وألفه.

بفرائسها وقطعتُمْ إلى المتعةِ بها ممّا شئتُمُ من الحلاقيمِ والغلاصم والأوداج والأباهر[(١)]؛ فارحَمُوها ترحموا أنفسَكُم واعصمُوا دماءَها يَعْصِمُ اللهُ دماءَكم، إنّكم إلى الرّحمةِ محتاجون، وإلى اللهِ راغبون[(٢)].

ثمّ سكتَ بعدَ ذلكَ سكوتَ المُجْهَدِ المُتْعَبِ، وكانَ الظّلامُ قد أظلّنا بجناحيه فشعرتُ أنّ سِنَةً من النّوم قد رنقت[(٣)] في عينيه فانسَلَلْتُ من بينِ يديه وتركتُه في مضجعِه على أنْ ألقاهُ غدًا.

اليوم الثالث

أصبحتُ في اليوم الثّالثِ فإذا الشّيخُ قد فارقَ خلوتَهُ إلى حديقةِ المنزلِ فافترشَ تُرابها، وتوسّد أعشابها، وأنشأ يردّدُ النّظرَ بين أزهارِها وأنوارِها، ويبسمُ للعصافيرِ تنتقلُ بين أنجمها[(٤)] وأشجارِها، ويُصْغِي إلى سرارِ الحديثِ بين حصبائِها وَمَائها، فعرفتُ المدخلَ إلى قلبِهِ والوسيلةَ إلى سرورِه وغبطتِه، فاقترحتُ عليه البروزَ إلى ضاحيةِ البلدِ ليرفّه عن نفسه ما ألمّ بها من

---

(١) الغلاصم: جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق. والأباهر: جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

(٢) للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن إيذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب:

لقد سَاءني مَغْدَى الفقيرِ بجهلِهِ ... على العيرِ ضربًا ساءَ ما يَتَقَلَّدُ
يُحمّلُهُ ما لا يطيقُ فإنْ وَنَى ... أحالَ على ذي فترةٍ يتجلّدُ

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله:

لكِ النّصحُ منّي لا أغاديكِ خاتلًا ... بمكرٍ ولكنّي أغاديكِ مُكْرِما
إذا ما حَذَرْتِ الصّقْرَ يومًا فاحذري ... أخا الأنسِ أيّامًا وإن كان مُحْرِما
يصوغُ لك الغاوي قلادةَ هالكٍ ... من الدّمِ تَخبي وجدَكِ المتضرّما

وقوله في النهي عن صيد الوحش:

لا تطردِ الوحشَ فما يلبَثُ ... المُطْرَدُ في الدّنيا ولا الطّارِدُ

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة:

رَوِّحْ ذبيحَكَ لا تعجلْهُ ميتَتَهُ ... فتأخذِ النحضَ منهُ وهو يختلِجُ

وقوله في الاعتراض على صيد الأسماك:

جاروا على حَيَوانِ البرِّ ثم غدوا ... على البحارِ فقالوا الصَّيد ما فيها
لم يقنعِ الحيُّ منها ما تقنّصَهُ ... حتّى أجازَ أناسٌ أكلَ طَافِيها

وقوله يبكي على الطائر المقتول:

وابكِ على طائرٍ رماهُ فتًى ... لاهٍ فأهوى بفهرِهِ الكَتِفَا
أو صادَفَتْهُ حبالةٌ نُصِبَتْ ... فظلّ فيها كأنّما كُتِفَا
بكرٌ يُبَغّي المعاشَ مجتهدًا ... فقصّ عندَ الشّروق أو نَتَفا
كأنّه في الحياةِ ما فَرَعَ ... الغصنَ فغنّى عليه أو هتَفا

(٣) يقال: رنق النوم في عينيه، إذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أي تحليقه ورفرفته بجناحيه.

(٤) الأنجم: هو ما نجم من النبات على غير ساق.

الحزنِ والألم. فَخَرَجنَا يتوكّأ على يدي مرّةً وعلى عصَاهُ أخرى حتّى وصلنا إلى وادٍ أفيحَ بصنوفِ الأشجارِ، وأفانينِ الأزهارِ ويتراءى في ألوانٍ من النّباتِ، مشتبهاتٍ وغير مشتبهاتٍ، من هائجٍ وعميمٍ، وبارضٍ وجميمٍ[١] وكرومٍ وأعنابٍ، وسنابلَ وأعشابٍ، وتفيضُ أرجاؤه بالجداولِ والغدرانِ، والقنى والخلجانِ، مطّرداتٍ ومنعطفاتٍ، ومجتمعاتٍ ومفترقاتٍ، يُفضي أولاها إلى أُخراها، ويتّصل أقصَاها بأدناها، ويعطف كبيرُها على صغيرها، وقويّها على ضعيفها، فكأنّها صلالٌ[٢] رقشاءُ قد فرّت من حرّ الظهيرةِ إلى هذا الرّوضِ الأريض تبتردُ بين روابيهِ وأَكَمَاتِهِ، ومصاعِدِه ومنحدراتِهِ، فهي تنقبضُ وتنسبطُ، وتنسابُ وتتمعج[٣]، وتُقبلُ وتُدْبرُ، وتقومُ وتقعدُ، وتتواثبُ وتتراجعُ، وتتواصلُ ثمّ تتقاطعُ، وكأنّ حفيفَ أوراقِه وخريرَ مائِه وتغريدَ أطيارِه وضجيجَ نواعيره وعجيجَ سائمتِه أنغامٌ مختلفاتٌ يتألّفُ من مجموعها لحنٌ بديعٌ يسمَعُه السّامعُ فُيَخيّلُ إليه أنّه هابطٌ من أبوابِ السماءِ، أو أن سكانَ الألمب[٤] فوق عروشِهم يغنّون، وسكّانَ الأرضِ بين أيديهم يستعمون.

هنالك وقف الشّيخُ أمامَ هذا المشهدِ المؤثّرِ وقفةَ الحائرِ المشدوهِ، وقد مُلِكَتْ عليه مشاعِرُه وَحِيل بينه وبين نفسِه فجَمُدَ في مكانِه كأنّه نصبٌ من الأنصابِ، ووقفتُ وراءه أعجبُ لجمودِه وسكوتِه حتّى فنيتُ كما فنيَ في مشهده الذي بين يديهِ فلم أرجِعْ إلى نفسي حتّى سمعتُه يقول:

لـلـمـلـيـكِ الـمـذكّـراتُ عـبـيـدُ	وكـــذاكَ الــمـــؤنّـــثـــاتُ إمـــاءُ
فـالـهـلالُ الـمـنـيـفُ والـبَـدْرُ والـفَـرْ	قَـدُ والـصّـبْـحُ والـثّـرى والـمَـاءُ
والـثّـريّـا والـشّـمـسُ والـنّـارُ والـنّـثـرَةُ	والأرضُ والـضُّـحَـى والـسّـمَـاءُ
هــذهِ كــلُّــهــا لــربِّــكَ مــا عَــا	بَـكَ فـي قـولِ ذلـكَ الـحُـكَـمـاءُ

ثمّ التفتَ إليّ وقال: كلُّ الناسِ يطلبونَ الحقيقةَ وكلّهم عاجزونَ عنها لأنّهمْ يطلبونَها من صحائِف التاريخ، والمؤرخون يصانعونَ ويدهشون، أو من أفواهِ الفقهاءِ، والفقهاءُ تجّارٌ يرتزقون، لا هداةٌ يرشدون، أو من خطراتِ عقولهم وقد أفسَدَها عليهم القائلونَ والكاتبون[٥]

---

(١) الهائج من النبات: الذي اصفر ويبس، والعميم منه: ما عم الأرض، والبارض: أول ما يبدو من النبات فإذا تحرّك قليلًا فهو: الجميم.

(٢) صلال: جمع صل، وهي الحيّة الخبيثة. (٣) تمعجت الحية: تلوّت في سيرها وتثنّت.

(٤) الألمب: في خرافات اليونان مجمع آلهتهم ويقولون إن لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون.

(٥) كثيرًا ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التي يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلبًا للربح منهم كقوله:

ويــقـــالُ الــكــرامُ قــولًا ومــا فـــي	الــعــصــرِ إلا الـشـخـوصُ والأسـمـاءُ
وأحـــاديـــثُ خَـــبَّـــرَتْـــهَـــا غــواةٌ	وافْـتَـرَتْـهَـا لـلـمَـكْـسَـبِ الـقـدمـاءُ
غـلـبَ الـمَـيْـنُ مـنـذ كـانَ عـلـى الـخَـلْـقِ	ومـاتَـتْ بـغـيـظِـهَـا الـحُـكَـمَـاءُ

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين في التاريخ القديم:

والحقيقةُ موجودةٌ ولكنّهمْ لا يعرفونَها لأنّهم لا يعرفونَ الطّريق إليها، قلتُ: وأينَ تجدُها، قال في هذه الأوديةِ الفيحاءِ، تحتَ تلكَ القبّةِ الزرقاءِ بين ذلكَ الطّلِّ والماءِ.

هنا يرى الإنسانُ ربّه في الغريسةِ يلقي بها غارسُهَا في التّربة، فإذا هي نبتةٌ زاهرةٌ مستويةٌ على سوقها تعجَب الزّراع، ويراه في الحبّةِ الدقيقةِ في السرّةِ المستديرةِ في النّواةِ الصغيرةِ التي لا تلبثُ أن تأخذَ مكانها من مغرسِهَا حتّى تصيرَ نخلةً سحوقًا تملأ الأرضَ خيرًا بجذوعِهَا وسعفها وجَريدها وقُنْوانِهَا وعثاكِيلها وطلعِها وبلحِها وبَسْرها[1]، ويراهُ في الكواكبِ المائلةِ في السّماءِ، والأسماءِ السابحةِ في الماء، والأجواءِ المملوءةِ بالهواءِ، والليلِ إذا يغشى، والنهار إذا تجلّى، فيمتلئُ قلبُه يقينًا صافيًا رائقًا لا تعبثُ به المناظراتُ، ولا تشوّهُ جمالَه المجادلاتُ، ولا يحتاجُ بعدَه إلى مُتكَلّمٍ يعلّمه النّظرَ، ولا فقيهٍ يلقّنه الجدلَ، فلا دليلٌ على اللهِ غيرُه، ولا هادٍ إليه سواه[2].

هنا يرى الإنسانُ السّائمةَ تأكلُ العشبَ والعشبُ يأكل الترابَ والترابُ يأكلُ السّائمةَ فيستحيلُ الجمادُ نباتًا والنباتُ حيوانًا والحيوان جمادًا، فيعلمُ أنّ المواليدَ الثلاثةَ مادّةٌ واحدةٌ تتلوّنُ ذرّاتُها وتتشكّلُ جواهرُهَا، ويعلمُ أنّ هذا الإنسانَ الفاخرَ بنفسِه والمُدِلَّ بعظمتِه أو اقتدارِه ربّما

= وادّعَوا للمعمّرينَ أمورًا ... لستُ أدري ما هُنَّ في المَشْهُورِ
أتراهُمْ فيما تقضّى من الأيّـ ... ـام عدّوا سنيَّهُمْ بالشُّهورِ

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون أن أول من شابَ من الرجال هو سيدنا إبراهيم عليه السلام:

ما أقبحَ المينَ قلتُمْ لَمْ يَشِبْ أحدٌ ... حتّى أتى الشّيبُ إبراهيمَ عن أمَمِ
كَذِبتُم ونجومُ الليلِ شاهدةٌ ... أنّ المشيبَ قديمًا حلَّ في اللِّمَمِ

(١) هذه أسماء ما تحمله النخلة من أغصان وأثمار.

(٢) كان أبو العلاء من أشد الناس بغضًا للمناظرات الدينية لاعتقاده أنها تورث الأحقادَ والأضغان فضلًا عما تلقيه أحيانًا من الشكوك في نفوس الضعفاء، وكان يكره من المتناظرين أن المنافسة وحب الغلب كثيرًا ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهات كما يظهر ذلك من مثل قوله:

لولا التنافسُ في الدّنيا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التّناظُرِ لا المَغْنى ولا العمدُ
قد بالغوا في كلام بَانَ زخرُفُهُ ... يوهي العيونَ ولم تثبتْ له عُمُدُ
وما يزالونَ في شأْمٍ وفي يَمَنٍ ... يستنبطونَ قياسًا ما له أمَدُ
فَذَرْهُمُ ودنايَاهُمْ فقد شُغِلوا ... بها ويكفيكَ منها الواحدُ الصّمَدُ

وقوله:

مللٌ غدتْ فِرَقًا وكلُّ شريعةٍ ... تَهْدِي لمضمرٍ غيرِها أكفارَهَا
عَلِمَ الفتى النّظّارُ أنّ بصائرًا ... عَميَتْ فكم يَخْفَى اليقينُ وَكَمْ يُعَمْ

وقوله:

هذا الفتى أوقحُ من صخرةٍ ... يبهتُ من ناظره حيثُ كانْ
ويدّعي الإخلاصَ في دينهِ ... وهو عن الإلحادِ في القولِ كانْ
يزعمُ أن العِشرَ ما نِضْفُهُ ... خِمْسٌ وأن الجِسْمَ لا في مَكَانْ

كان بالأمس صفيحةً[١] ملقاةً على جانبِ قبر، وربما يكون في الغد جلدةً باليةً في ذؤابةِ[٢] نعلٍ[٣].

هنا يَرى الإنسانُ الأرضَ الصّلفاءَ[٤] يمرّ بها الماءُ وتُلْقى فيها البذورُ فلا تلبثُ الشّمسُ أن تجفّفَ ماءَها والرّيحُ أن تعصفَ بذورَها فيعلمُ أنّ الحقائقَ الدينيّةَ لا يمكنُ أن تستقرَّ في قلوبِ الأشرارِ إلى أن تبلغَ شغافَها، وأنّ النّاسَ ما اختلفوا إلّا لأنّهم جَاحِدون، ولا اقتتلوا إلّا لأنّهمْ مُلحِدون.

هنا يرى الإنسانُ الشّمسَ طالعةً من مشرقِها مصفرّةَ اللّونِ متقاربةَ الخطواتِ مخافةَ أن يطيرَ إليها رشاشةٌ سوداءُ من مآثم هذا العالمِ ومخازيه، ثمّ لا تلبثُ أن تأخذَ مكانها من كَبِدِ السّماءِ حتّى تنحدرَ إلى مغربها هاربةً، فتنغمسُ في ماء البحرِ قبلَ غروبها لتغسلَ عن جرمها الأبيض المشرقِ ما ألمّ به من تلكَ الأدرانِ والأوحالِ، ويرى اللّيلَ مقبلًا يقطّب وجهَهُ ويزوي ما بين حَاجِبيه ويزيدُ شيئًا فشيئًا حتّى يَسْوَدَّ غضبًا على هذا المجتمعِ البشريّ فيما يقترفه تحتَ ستارِهِ من المفاسدِ والشّرورِ، ولا يزال مادًّا يديه بالدّعاءِ إلى الله تعالى أن جَعلَ أوبته إلى مستقرّهِ حتّى يستجيبَ له ويداولَ بينَه وبينَ النّهار.

ويرى الكواكبَ قد كمنتْ وراءَ ستر الظّلامِ ثمّ أطلّت بعيونها على هذا العالم الأرضيّ مرغمةً لتنفّسَ عن رفيقها اللّيلِ بعضَ ما خالطَ قلبَه من الهمّ والكَمَدِ فلا تلبثُ أجفانُها أن تطرفَ انغلاقًا وانفتاحًا مخافةَ أن يصيبَها سهمٌ نافذٌ من سهامِ الشّرارِ التي تتطاير يمنةً ويسرةً وصعودًا وهبوطًا فلا يقوم لها شيء إلّا أتت عليه.

هنا يَرى الإنسانُ الحقيقةَ في هذا العالم عاريةَ الجسمِ ويسمعُ صوتها واضحَ النبراتِ من

---

(١) الصفيحة: الحجر العريض.

(٢) الذؤابة من النعل: ما أصاب الأرض من المرسل منها على القدم.

(٣) ردد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيرًا في كلامه فمن ذلك قوله:

مَضَى الأنامُ فَلَولا عِلْمُ حالِهِمُ ... لقلتُ قولَ زهيرٍ أيّةَ سَلَكُوا
في المُلكِ لم يخرجوا عنهُ ولا انتقلوا ... منهُ فكيفَ اعتقادي أنّهُمْ هَلِكُوا

وقوله:

وما يدريكَ والإنسانُ غُمْرٌ ... وقد يدري خَليلُكَ وَهْوَ دَارِ
لعلَّ مَفَاصِلَ البنّاءِ تُضْحِي ... طلاءً للسّقيفةِ والجِدارِ

وقوله:

فلا يُمْسِ فخارًا من الفخرِ عائدًا ... إلى عنصرِ الفخّارِ للنفعِ يضربُ
لعلَّ إناءً منه يصنعُ مرّةً ... فيأكلُ فيه من أرادَ ويَشربُ

وقوله في داليته المعروفة:

رب لحدٍ قد صارَ لحدًا مرارًا ... ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ ... في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

(٤) الأرض الصلفاء: الصلبة التي لا نبات فيها.

حيثُ لا يحجب بصرَه تَكَلُّفُ المُتَكلّفينَ، ولا خداعُ الخادعين، ولا يصدُّ سمعَهُ قرعُ النواقيسِ ولا صياحُ المؤذنين.

فقلتُ حسبُك يا مولاي فقد نالَ منك أجيجُ هذهِ الرمضاءِ وإنّي أرى في رأسِ هذا الوادي رجلًا أحسبُه فلّاحَ هذه الأرض فامضِ بنا إليه علَّهُ ييسّرُ لنا ظلّةً نفيءُ إليها وجرعةً باردةً نفثأُ بها هذه الصّارّة[١]، فمشينا إليه حتّى بلغناهُ فرأيناهُ مُكِبًّا على تربته يفلحُها ويقلبُ عاليِها سافِلَها وقد شرسَتْ يَدُه وشثِنَتْ قدمَاه وزأبَرَ صدرُه[٢]، وأفرغ قرصُ الشّمسِ في رأسه جعبةَ سهامِهِ، فتصبّبَ عرقًا حتّى سالت منه على قدميه قطراتٌ كقطراتِ البُخار تسيلُ على جوانبِ القدرِ المضطرمِ. فحيّيناه بتحيّةٍ حيّا بأحسنَ منها، وأفضينا إليه بطلبَتِنا فأشَار بيده إلى كوخِه وكانَ منه على كثبٍ، فإذا عريشٌ من عيدانِ القَصَبِ مسجّج[٣] قد ارتفعَ فوقَه سقفٌ من جذعِ الأشجارِ واعتمد على أُسَيطِينةٍ[٤] من اللّبْنِ الأسودِ وامتدّتْ أمامه صفّةٌ مستطيلةٌ واستدارَ به نُؤيٌ يمنَعُ عنه مسيلَ الماءِ، فدخلناه فلم نَرَ فيه إلّا رِثّةً[٥] من المَتَاعِ لا تكادُ تزيد على جوالقَ للخُبزِ اليبيسِ وخلقانٍ من القُمُصِ والأبرادِ وقدرٍ وأثفيةٍ وجرّةٍ مملوءةٍ ماءً، وحشيّةٍ[٦] باليةٍ مفكّكةٍ تضطرب في جوفِهَا حشوةٌ من اللّيفِ اضطرابَ الجنينِ في جوفِ الحاملِ، فشربنا حتّى ارتوينا وأخذنَا من تلكَ الحشيّةِ مضجعَنَا؛ وما زِلنَا على حالِنا تلكَ سكوتًا لا نتكلّمُ حتّى جاءَ الرّجُلُ، وقد مال ميزان النهار، يقزل[٧] في مشيتِهِ ويحملُ فأسَه على عاتقِه ويجرُّ وراءَه ولدينِ صغيرينِ له بين الثامنةِ والعشرةِ، فجلس ولداهُ بين يديهِ وأنشأَ يلقي إلينا معاذيرَه ويتوجّعُ لعجزِه عن إكرامِنا وإسعافِنا بما نحبّ، فعذرناه، ثمّ جرّى بينه وبين الشّيخِ الحديثُ الآتي، وكنتُ أترجمُ بينهما لأنّهما لا يكادانِ يتفاهَمَان.

الشيخ - من يملكُ هذه الأرضَ.

الفلّاح - هي لسيدي ومولايَ أطالَ اللهُ بقاءَه وأتمّ عليه نعمَتَه صاحبِ هذا القصرِ الذي تراهُ، وأشارَ إلى قصرٍ فخمٍ يرفرفُ بأجنحَتِه في هذِه البقعةِ الخضراءِ، رفرفةَ الحمامةِ البيضاءِ، في القبّةِ الزرقاء.

الشيخ - أراكَ تدعو له وتتمنّى له الخيرَ والسّعادةَ، فلعلّكَ سعيدٌ بجوارِه مغتبطٌ بمكانِكَ منه ولعلّه يمدّكَ ببرِّه وإحسانِه ويُغْدِقُ عليك من نعمتِهِ ما يطلقُ لسانَكَ بحمدِه والثناءِ عليه.

الفلاح - حسبي من سيّدي أن أرى وجهَه مرّةً في كلِّ يومٍ أو يومينِ ممتطيًا فرسَه الدّهماءَ

---

(١) يقال: فثأ القدر: إذا سكن غليانه. والصارة: العطش.

(٢) شرست اليد: إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق. وشثنت القدم: إذا خشنت وغلظت. وزأبر الثوب: إذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه.

(٣) يقال سجج الحائط: إذا طلاه بطبقة رقيقة من الطين.

(٤) أسيطينة: تصغير أسطوانة.

(٥) رثة المتاع: بكسر الراء ساقطته.

(٦) الحشيَّة: الفراش المحشو.

(٧) قزل: به قزل وهو أقبح العرج.

في رَكْبٍ من أصحابه وحاشيتِه مارًّا بهذهِ الأَجَماتِ الملتفّةِ يتنزّهُ ويتروّحُ، يطاردُ الثّعالبَ والذّئابَ مَطْرَدَةَ الشُّجاعِ المستقتِلِ ثمّ يعودُ إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصبحِه ومَمْسَاهُ.

الشيخ - إنما أسألُكَ عن أيادِيه[1] عندكَ وصنائِعِه لديكَ لا عن منازِهِه وطرائِده وملذّاتِه وشهواتِه.

الفلّاح - وهل يوجدُ في بابِ النِّعمِ جليلِهَا ودقيقِهَا نعمةٌ أجلُّ قدرًا وأسنى قيمةً من أن أكونَ عبدًا مملوكًا لسيّدٍ كهذا السيّدِ رفيعِ الجاهِ جليلِ القدرِ واسعِ النعمةِ تطاطئُ بين يديه رؤوسُ العظماءِ ويختلفُ إلى حضرتِه كبارُ الأمراءِ؟

الشيخ - أيّها الرّجلُ ما عن هذا أسألُكَ إنّما أسألك هل يسلّمُ عليكَ سيّدُكَ هذا إذا مرَّ ببابكَ أو يخلو بكَ أحيانًا ليتغيّر همّك وما تهتفُ به نفسُك عن رغباتِكَ وحاجاتِك؟

الفلّاح - الحقَّ أقولُ يا سيّدي إنّي ما سمعتُ في حياتي بأعجبَ من سؤالك هذا، ومتى كانَ السيّدُ يخاطِبُ عبدَه إلّا بالأمرِ والنّهي، أو يرفعُ إليه طرفَه إلا بالنّظر الشّزْرِ أو يلامسُ بيده جسمَه إلا للتأديبِ والتّهذيبِ، ولقد تمرُّ بي وبعيالي اللّيالي ذواتُ العددِ ولا نكادُ نجدُ من الخبزِ المخشوشِبِ ما يملأُ بطونَنَا فلا أجدُ في نفسي من الحزنِ والألم ما أجدُ من نسيانِ سيّدي إيّاي بضعةَ أيّامٍ وإغفالِه أمري، ونهيي وزجري وتأديبي، وقد أعدَّ لي، حَفِظَه اللهُ وأمتعني بدوامِ رعايتِهِ وعنايتِهِ، عِصِيًّا غلاظًا يتعهدني بها من حينٍ إلى حين كلّما نسيتُ أمرًا من أوامرِه أو قصّرْتُ في رعايةِ غرضٍ من أغراضِه، فأغتبطُ بذلك الاغتباطَ كُلَّهُ لأنّي أعلم أنّي منه على ذِكْر[2] وأنّي قد نزلتُ من نفسه منزلةَ من لا يهونُ عليه إغفالُه وإطّراحُه وإلقاءُ حبله على غاربه.

الشيخ - وأينَ أمُّ هذينِ الولدين؟

الفلّاح - ماتَتْ رحمَهَا اللهُ في سبيلِ سيّدها فقد كنّا يومًا نَمْتَحُ[3] على حافة بئرٍ فزلّتْ أقدامنا وأنبَتَّ بنا الحَبْلُ فسقطنا، أما هي فاستأثر اللهُ بها وأما أنا فانكسرتْ رِجلي وقدّرَ اللهُ لي الحياةَ، فما أسفتُ على شيءٍ أسفي على أنْ لَمْ أكنْ قد لحقتُ بها، فأكونَ قد هلكتُ في سبيلِ خدمة سيّدي كما هلكتْ ليترحّمَ عليّ كما ترحّم عليها ويأمرَ بدفني في مقبرةِ أجدادِه كما أمرَ بدفنها.

الشيخ - ربّما كنتَ قانعًا من إحسانِ سيّدِكَ إليكَ وعطفِه عليكَ بما تَعُودُ به على نفسِكَ وعيالِكَ من غلّةِ هذه الأرضِ وثمراتِها.

الفلّاح - لا واللهِ يا مولاي ما أعلَمُني نازعتُ سيّدي نعمَتَه وسعادَتَه في قَفيزِ بُرٍّ[4]، أو حفنةِ تَمْرٍ، إلا أن تسقطَ بين يدي تمرةٌ أعلَمُ أنّه لا يأبهُ لها فتكونُ قسمةً بيني وبين ولديَّ، أو أحتطبُ من أطرافِ هذا الوادي بضعةَ أعوادٍ من الحطبِ أشعلُها تحت قِدْري وأستغفرُ اللهَ ممّا سهوتُ عنه أو أخطأتُ فيه.

---

(١) الأيادي: كناية عن المنح والعطايا.

(٢) الذكر: التذّكر.

(٣) متح الماء متحًا: نزعه واستخرجه.

(٤) قفير بر: مكيال من القمح.

وهنا رأيتُ أبا العلاءِ كأنّه يحاولُ أن يكاتَمني دمعةً تترجّحُ في مقلتيه، فأشرتُ إليه بالقيام، فقمنا ومشينا صَامِتين لا ينطقُ ولا أنطقُ حتّى بلغنا المنزلَ وقد ستَرَنا الظّلامُ، فقلتُ: أرجو يا مولاي أن أكونَ قد بلغتُ ما أردتُ لك في مخرجكَ هذا من السّرورِ والغبطةِ، قال: ما نغّصَ عَلَيَّ يومي إلّا منظرُ ذلك الرّجلِ الأبلهِ المسكينِ في صغرِ نفسِه وسقوطِ همّته وذلّةِ جانبه، وما أحسبُ أن الظّلمَ قد ألحَّ على نفسه حتّى قتلَها وسَلَبَها حِسَّها ووجدانَها، فأصبحَ لا يعرف لنفسِه حياةً ذاتيّةً مستقلّةً عن حياةِ ذلكَ الإنسانِ الذي يسمّيه سيّده[1] فهو لا يفرحُ إلّا لفرحِه ولا يغتبطُ إلا باغتباطِه، ويرضيهِ منه كلُّ شيءٍ حتّى سوءُ مجازاتِه إيّاه على إخلاصِه إليه وتعبُّدُهُ له بضربِهِ وتعذيبِهِ وتقتيرِ الرّزقِ عليه وكذلك يفعلُ الظّلمُ في نفوسِ المستضعفين.

ثمّ تركَني وانحدرَ إلى مخدعِه وهو يهتفُ بهذه الكلماتِ:

يَـحْـسُـنُ مـرأى لـبـنـي آدمِ ... وكـلُّـهُـمْ فـي الـذّوقِ لا يَـعْـذُبُ
أفـضَـلُ مـن أفـضـلِـهِـمْ صـخـرةٌ ... لا تـظـلـمُ الـنّـاسَ ولا تـكـذِبُ

❀ ❀ ❀

الرسائل

كتاب في التقاضي

أنا إنْ سألتُكَ حاجتي، أعزّكَ الله، وبسطتُ إليكَ يَدَ رجائي فقد طرقتُ بابَ المكارِمِ، واستَمْطرتُ غيثَ المراحم، ورَجَوْتُ واحدَ الدّهرِ همّةً وحزمًا، ونادرةَ الوجودِ كرمًا وفضلًا، فإن أنجزتَهَا فليستْ أولى الهِمَمِ، ولا واحدَ النعم، فَلَكَمْ سَبَقَتْ إليَّ منكَ أيادٍ تخرسُ دونها ألسنةُ الشّكرِ، وتضيقُ بها جرائدُ الحَصْرِ، ولقد مثّلْتُ، أيّدكَ الله، بين أن أستشفِعَ إليك بِذَوِي الجاه عندكَ، والزّلفى لديكَ، وبينَ أن أَكِلَ ذلكَ إلى كَرَمِكَ وفضلِكَ، وما طُبِعَتْ عليه نفسُكَ الشريفةُ من خِلَالِ الخيرِ، وسجايا البرِّ، فرأيتُ أن الثانيةَ بكَ أحرى، وبفضلِكَ أجدرُ، والسلام.

---

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلًا على أحد إلا بالفضائل النفسية وقد ردد هذا المعنى كثيرًا في كلامه كقوله:

أُسَـرَّ إن كـنـتُ مـحـمـودًا عـلـى خُـلُـقٍ ... ولا أُسَـرّ بـأنّـي الـمَـلْـكُ مَـحْـمُـودُ

وقوله:

وأقـصـانـي عـن الـرؤسـاءِ كـونـي ... وكـونَـهُـمُ لـخـالـقـنـا عـبـيـدا

وقوله:

وإنّ أفـضـلَ مـن تـعـظـيـمِـهـمْ رجلًا ... صفرًا من الحُكْمِ التعظيمُ للحجرِ

كتاب المقاطعة

أتاني كتابُك وقد أبللتُ[١] من مرضِ حبّكَ، وصحوتُ من رقدةٍ طالَ عليَّ الغيابُ فيها حتّى خفتُ أن تتّصل بَرقدةِ الموت، فلم تَرُعْني روائِعُك[٢]، ولا أجدى عندي اعتذارُك، ولا أخذ حديثُكَ من قلبي مأخَذَه من قبلُ، ولم أرَ بين سطورِ ذلك النورِ الذي كان يملأُ عيني روعة[٣]، وقلبي هيبةً، فالحمدُ للهِ الذي أدلّني منكَ، وأعتقَني من رقّكَ، وكَشَفَ لي من مكنونِكَ ما كَشَفَ غشاءَ الهوى عن بصري، فجفّتِ الدموعُ التي طالما أذْلَلْتُها[٤] بين يديكَ، وقرّتِ العينُ التي كنتُ أساهر بها الكوكبَ شوقًا إليك، ولم يبقَ في خاطري من ذكركَ إلّا كما بقيَ في قلوبِ الناسِ من الوفاء، والحبُّ شجرةٌ يغرسُها الأملُ في القلبِ ثمّ يغذُوها بمائِهِ وهوائِهِ، فلا تزالُ تشتجرُ أغصانُها، وترفّ[٥] ظلالُها وترنّ أطيارُها، حتّى يعصفَ بها عاصفٌ من اليأسِ فتموت.

ولقد عالجتُ هذا القلبَ الشّموس[٦] في الرّجوع إلى سَالفِ عهدِك، وسابقِ ودّك، فجمحَ جموحَ المهر الأرَنّ[٧]، وركبَ رأسَه إلى حيثُ لا مطمعَ في أوبَتِه، وله العُتْبى فيما فعل، فقد مَلّكَني قيادَه برهةً من الزّمانِ فأسأتُ عشرتَه، وخفرتُ ذمّته، وأرغمتُ معطسَهُ، وركبتُ به في سبيلكَ أخشنَ مركبٍ، وأنهَلْتُه من جفائِكَ وكبريائِكَ شرّ منهلٍ، فما هو إلّا أنْ أمكَنَتْهُ الغرّةُ فانطلقَ انطلاقَ السّجينِ من سجنه، والطّائرِ من قفصه، فلا أوبةَ حتّى يؤوبَ القارظان[٨]، ويبلى الجديدان[٩].

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشّيءِ لم تَكَدْ إليـهِ بـوجـهٍ آخِـرَ الـدّهـرِ تُـقْـبِـلُ

كتاب تهكم

علمتُ أنّ ساسانيًّا[١٠] طَرقَ بابَك بالأمسِ، وما زالَ يكيدُ لك ويماحِلُكَ، ويتغلغلُ في مواضِعِ الضّعفِ من قلبِكَ، حَتّى خَدَعكَ عن نفسك، واقتطفَ زهرةً من روضةِ مالِكَ؟ وراح يفترّ عن ثغرٍ باسم، ورحتَ تقرعُ سنَّ نادِمٍ؟ فما هذا الخلقُ الغريبُ الذي تخلّقْتَهُ، وما هذا المذهبُ الجديدُ الّذي اعتنقتَهُ، ومتى أقامَكَ آدمُ وصيًّا على أولادِه من بعدِه، تكسو عاريَهُم، وتُشبعُ جائِعَهُمْ؟

---

(١) أبللت: شفيت من المرض.
(٢) أي لم تعجبني محاسنك.
(٣) الروعة: اللمسة من الجمال.
(٤) أذللتها: أهنتها.
(٥) رف النبات: اهتز واضطرب.
(٦) شمس: امتنع وأبى.
(٧) المهر الأرنّ: النشيط.
(٨) القارظان: مثل يضرب لمن ذهب ولم يعد وأصله أن رجلًا خرج ليحتطب واسمه القارظ العنزيّ فلم يعد إلى أهله، فضرب به المثل.
(٩) الجديدان: اللّيل والنهار.
(١٠) النسبة إلى ساسان وهو رجل كان معروفًا بالفقر والصبر والاحتيال على الصدقات.

على أنّ الفقراءَ في الدنيا كثيرٌ قد ضاقتْ بهمْ خزائنُ الأرضِ والسَّماء، فكيفَ تسعُهُم خزائنُكَ، وهلْ بين الدّرهم الذي أعطيتَ، والدّراهم التي أبقيتَ، إلّا حرفٌ واحد[1]، فليت شعري من أَين دُهيتَ، ومنَ أي باب نفذَ هذا الشّيطانُ إلى قلبكَ، وإن أخوفَ ما أخافُ عليكَ أن تكونَ أتيتَ من بابِ تلكَ الخدعةِ الشّيطانيّة التي يسمّونَها الرّحمةَ، فإن كانتْ هي فالخَطْبُ عظيمٌ، والبلاءُ جسيمٌ، فإنّكَ حيثما ذهبتَ، وأنّى حَلَلْتَ، لا تقعُ عينُك إلّا على يدٍ شلّاءَ، ورِجْلٍ بتراءَ، وعينٍ عمياءَ، وصورةٍ شوهاءَ وثوبٍ مخرّقٍ، وشِلْوٍ ممزّقٍ، وطريحٍ على الترابِ سقيمٍ، وجسمٍ أعرى من أديمٍ، فإن لم تفارقِ الرحمةُ قلبَكَ، فارقَ المالُ جيبَكَ، فطفتَ مع الطائفينَ، وتَسوّلْتَ مع المتسوّلينَ، ثمّ لا تجدُ لكَ راحمًا ولا معينًا، فارحَمْ نفسَك قبلَ أن ترحَم سواكَ، ولا تنسَ أنْ تردّدَ في صباحِكَ ومسائِكَ، وفي مستأنَفِ خطواتِك، وفي أعقابِ صلواتِكَ كلمةَ ابن الزّيات «الرحمةُ خورٌ[2] في الطبيعة».

وعلمتُ أنّكَ دعيتَ إلى وليمةِ فلانٍ فتحلّبَ لها فُوك، ورقَصَتْ لها أشداقُك، فطِرْتَ إليها، ثم وقعتَ على خبزِها وشوائِها، وفاكهتِها وحلوائِها، مثلجَ الصّدر، ثابتَ القَدَمِ ساكنَ القلبِ، طيّبَ النفسِ، كأنّكَ لا تعلمُ أنها لذّةُ الساعةِ ومرارةُ العمر، وشبعُ اليوم وجوعُ الأبدِ، وأنّك إنّما طمعتَ بما في الحبالةِ من الحَبِّ، تأكله اليوم ليأكلَكَ غدًا، فمن لكَ بالنجاةِ من مضيفِكَ إذا جاءَكَ يومًا يتقاضَاك دينَه وقد حفّتْ به كوكبةٌ من خلّانِه وصحبِه، فطارَ لمرآه لُبُّكَ، وتمشّى له قلبُك في صدرِك، وخيّرَكَ بين لَحْم شاتِكَ ولَحمِكَ، فالفقرُ إن مَنَحتَ، والعارُ إن مَنَعتَ، وأعجبُ من ذلكَ أنّكَ ما بَرِحتَ الوليمَةَ حتّى أخذَ المغنّي مجلسَه فسمعتَ وطربتَ، وَمَنْ طَرِبَ شَرِبَ، ومن شَرِبَ وَهَبَ، ومن وَهبَ خربَ، ولقد كان ذلك في انزوائِكَ واعتزالِكَ، واكتفائِكَ بقُرصِكَ وزيتِكَ، وخلوتك بصندوقِك، في كِسْرِ بيتِك، من حيث لا تزورُ ولا تزارُ منادحُ عن هذه اللّقمةِ التي أسهَرَتْ ليلَكَ، وأقَضَّتْ مضجعَكَ وأقعدَتْكَ على مثلِ روقِ الظّبي[3] خيفةً وحذارًا، فإيّاك والعودُ إلى مثلِها يَطُلْ غَمُّكَ، وَيَسْوَدَّ عيشُكَ، والسّلام.

كتاب ياس

كتابي إلى سيّدي ومولايَ والنفسُ بين جنّة من الأمل تغنُّ أشجارُها وترنُّ أطيارُها، وتشتجرُ أغصانُها، وتعتنق غُدْرَانُها وهاجرةٍ من اليأسِ تتلظّى نارُها، ويعتلجُ أَوارُها، وتحولُ بين الجفونِ واغتماضِها، والجنوبِ ومضاجعِها، والقلبُ يهبط به الخوفِ فيتمشّى بين الأضالعِ مشيةَ الطّائرِ الحَذِرِ، ثمّ يدركُه الأَمْنُ فيقرُّ في مستقرّه، قرارَ الماءِ في نهايةِ منحدرِه، وحالي كحالِ هذه الدنيا تضطربُ ما بين فرحٍ وهمٍّ، وسرورٍ وحزنٍ وقبضٍ وبسطٍ، ومدٍّ وجزرٍ، أذكر الله

---

(١) يشير إلى أن الفرق بين مفرد الدراهم و جمعه حرف واحد وهو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليس إلا درهمًا على درهم.

(٢) الخور: الضّعف. (٣) روق الظبي: قرنه.

ورحمتَه وإحسانَه، ورأفتَهُ وحنانَهُ فيشرقُ لي من خلال ذكراهُ وجهُ الحياةِ الناضرةِ، وثغرُها البارقُ، وجمالُهَا السّاطِعُ، وبِشْرُهَا الضّاحِكُ.

ثمّ أذكرُ الدّهرَ وصروفَه، والعيشَ وحتوفَه، والأيّامَ وما أعدّتْ في طياتها لبنيها من عثراتٍ في الخطواتِ، ونكباتٍ في الغدواتِ والروحاتِ؛ وما أَخَذَتْهُ من العهدِ على نفسِهَا من الوقوفِ بين النّفوسِ وآمالها، والقلوبِ وأمانيها. فألمسُ صدري بيدي لأعلَمَ أينَ مكانُ قلبي من أضالعي. «ثمّ أنثني على كَبِدي مِنْ خَشْيةٍ أنْ تَصَدَّعا»[١]. فليتَ اللهُ يصنعُ لي فيمطر علي قطرةً واحدةً من غيوثِ رحمته وإحساسه أبلّ بها غلتي، وأطفئ بها لوعتي. أو ليتَ القدرَ ينشبُ أظافره بين سَحْري[٢] ونَحْري نشوبًا لا يستبقي بَعدَه عِرْقًا نابضًا، ولا نَفَسًا متردّدًا، فيستخلصني من موقفٍ أنا فيه كالمريضِ لا هو حيٌّ فيُرْجَى، ولا ميتٌ فيُبْكَى.

يقولون: «ما أضيقَ العيشَ لولا فُسْحَةُ الأملِ»، وأقول ما عذّبَ اللهُ عبادَه بنازلةِ القضاءِ وصاعقةِ العذابِ، وطاغيةِ الطوفانِ، والزلزالِ الأكبرِ، والموتِ الأحمرِ، والخوفِ من الجوعِ والنقصِ من الأموال والأنفس والثمراتِ، بمثل ما عذّبَهمْ بالأملِ الباطلِ. وما ليلة نابغيّة[٣] ضرير نجمُها، حالكٌ ظلامُها، يبيتُ منها صاحبُها على مثلِ رَوقِ الظّبي خيفةً وحذارًا، فوقَ أرضٍ تعزفُ جنّانها[٤]، وتحومُ عقبانُها، وتزأر سباعُها وتعوي ذئابُها، وتحتَ سماءٍ تَتهاوى نجومُها، وتتوالى رجومُها، وتتراكمُ غيومها، بأسوأ في نفسه أثرًا من رجاءٍ كاذبٍ يتردّدُ بين جنبيهِ تَرَدُّدَ الغصَّةِ بين لَحْيَيْهِ[٥]. لا هي نازلةٌ فَيُطْعَمُهَا، ولا صاعدةٌ فيقذفها.

وقد أصبحتُ أحسدُ الوحوشَ الهائمةَ على وجوهِهَا في بطونِ الأوديةِ وَقُنَنِ الجبالِ أن أراها ساربةً في مساربِها، سارحةً في مسارِحِها، تتناولُ رزقها رغدًا من بوارقِ المصادفاتِ، ومفاجآتِ المقادير. لا يعنيها الأسَفُ على فائتٍ من العيش، ولا يقلقُها الطمعُ في آتٍ من الرزق. قد قنعتْ من الماءِ بالكدرِ ومن العيش بالجَشْب[٦]. فتساوى لديها شحمُها ولحمُها، وشيحُها وقيصومُها[٧]، وسعدُها ونحسُها، ونعيمُها وبؤسُها فما تحفلُ بنوازلِ القضاءِ ولا رجومِ السماءِ. ولا تبالي أَسَقَطتْ على الموتِ أم سَقَط الموتُ عليها.

فَمَنْ لي بهذا العيش من عيشٍ مَثَلِي فيه كمثلِ رجلٍ عَثَرَتْ به قدمُه فسقطَ في جوفِ بئرٍ بعيدِ غَوْرُها، ناءٍ مكانُها. فما زالَ يتخبّطُ ويضطربُ ويهبُّ ويثبُ، حتى عثرَ بمرقاةٍ علقتْ رِجْلُهُ بها

---

(١) البيت لمجنون ليلى وتمامه:

وأذكرُ أيّامَ الحمى ثمَّ أنثني على كَبِدي من خَشْيةٍ أنْ تَصَدَّعا

(٢) السّحْر: الرئة.

(٣) نابغيّة: نسبة إلى النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي الذي فرّ مذعورًا من وجه النعمان بن المنذر الذي هدّده بالقتل.

(٤) جمع جان.

(٥) اللحيان: جانبا الفم.

(٦) الجشب: الخشن من الطعام.

(٧) الشيح والقيصوم: من النباتات التي ترعاها الإبل.

ثمّ تلمّس أخرى غيرها فما وَجَدها حتّى بلغَ منه الجهدُ أو كاد. فلم يصبرْ على الثانيةِ صبرَهُ على الأولى فَسَقطَ فخافَ الغَرَقَ فعادَ إلى تلمّسِه. فعادَ إلى سقوطه. فلا هو بالغٌ رأسَ البِئر لينجوَ من الموتِ، ولا بالغٌ قرارةَ الماءِ فينجوَ من الشّقاء.

ارمِ بطرفِكَ حيثُ شئتَ من النّاسِ هل تبصرُ إلّا صريعًا صَرَعَه أملُه، أو قتيلًا قتلَه رجاؤُه أو صديقًا يشكو غدرَ صديقٍ كان يعدّه لنوائبِ الدّهرِ فأصبحَ عونَ النّوائبِ[1] عليه. أو باكيًا يبكي وليدًا كان يرجُوه لمستقبلِ دهره ففجعَتْه الأيّامُ فيه. أو ساعيًا دائبًا وراءَ غايةٍ يطلبها من الدّهرِ فلا يقربُ منها حتّى يبتعدَ عنها، ولا يمسكُ بها حتّى تفلتَ من يديه. أو ساهرًا متململًا لولا أملُه أنْ تنيلَه الأيّامُ ما يشتهيهِ من هواه ما باتَ ليلَهُ شاكيًا باكيًا داعيًا مناجيًا، لا تراه إلا عينُ السّماء، ولا تسمعُه إلّا أذنُ الجوزاء.

هذه حالتي. وذلكَ همي. وهذا ما وسوسَ لي أن أعتزلَ النّاسَ جميعًا وأفارقَ عشيرتي وصُحْبَتي وَيَراعي[2] ومحبرتي، علّني أجدُ في البُعْدِ عن مناراتِ الأماني ومباعثِ الآمالِ راحةَ اليأس. فاليأسُ خيرُ دواءٍ لأمراضِ الرجاء.

فها أنذا قابعٌ في كسر بيتي لا مؤنسٌ إلّا وحشتي، ولا أنيسٌ إلّا وحدتي. أتخيّلُ البيتَ قبرًا، والثّوبَ كفنًا والوحشةَ وحشةَ المقبورين في مقابرهم، لأعالجَ نفسي على إنسانِ الحياةِ، وأمانيها الباطلةِ، ومطامِعَها الكاذبةِ، حتّى يبلغَ الكتابُ أجَلَهُ وهذا آخرُ عهدي بكَ وبغيرك والسلام.

❁ ❁ ❁



نفس الشّاعر

للشّاعرِ ثلاثُ مميزاتٍ لا أستطيعُ أنْ أتصوّرَ أنّ اللهَ وهبَه مَلَكَة الشّعرِ وأفاضَ عليه روحَهُ إذا تجرّدَ من واحدةٍ منها. «عزّةُ النفس» و«طَهَارةُ القلب» و«سماحَةُ اليد». واجتماعُ هذه الصفاتِ فيه هو السّبَبُ في بؤسِه وشقائِه وعَدَمِه وإقتَارِه. لأنّ صاحبَ النّفسِ العزيزةِ لا يحتمل منّة لأحدٍ. وصاحبُ القلبِ الطّاهرِ لا يعرفُ كيف يتلمسُ وجوهَ الحِيَلِ لعيشه. والكريمُ لا يُبْقِي على شيءٍ ممّا في يده.

ولقد صوّرَ الروائيُّ العظيمُ «أدمون روستان» عزّة نفسِ الشّاعر وإباءَه وهي الصّفةُ الأولى من تلكَ الصفاتِ أحسنَ تصويرٍ في قطعةٍ بديعةٍ من رواية «سيرانودي برجراك» أقدّمُها للقارئ لتكونَ مثالًا صالحًا للشّعراء يحتذونه في حياتهم الأدبيّةِ وميزانًا يزنُ به النّاسُ قيمةَ الشّعراءِ ومنزلتَهُم من الشّعر والأدبِ.

* * *

---

(١) النوائب: المصائب.

(٢) اليراع: القلم.

أُعجبَ الكونتُ دي جيشْ أحدُ قوّادِ الجيشِ الفرنسي وصهرُ الكاردينال ريشليه وزيرُ فرنسا الشّهيرُ بالشّاعرِ العظيم «سيرانو دي برجراك» يرتجلُ على مسمعٍ منه قصيدةً من أعلى طبقاتِ الشّعر وأرقاها، فقال في نفسه: إنّ اصطناعَ شاعرٍ مُجيدٍ كهذا الشّاعرِ حِليةٌ جميلةٌ لا ينبغي أن يفوتنا التحلّي بها. ثم أسْتَدْنَاهُ إليه وكانَ جالسًا على كرسيّه العالي جلسةَ العظمةِ والكبرياءِ وقال له: أتحبُّ أن تكون لي يا سيرانو؟ فامتعضَ الشّاعرُ امتعاضًا شديدًا ونظرَ إليه نظرةً جامدةً قاسيةً وقالَ له: لا يا سيّدي ولا لأيّ إنسانٍ. قال: إنّ صهري الكاردينال يُعجبُ بك جدًّا. وكثيرًا ما سمعتُه يُثني عليك وعلى أدبك. وقد علمتُ أنّكَ نظمتَ منذُ عهدٍ قريبٍ روايةً تمثيليّةً جميلة اسمها «أجريبين» لم توفّقْ إلى تمثيلها حتّى اليوم فلو أنّكَ ذهبتَ بها إليه وقدّمْتَها له لعرفَ لكَ فضلَك فيها، وأحسنَ جزاءَك عليها وربّما نوّه بشأنها وشادَ بذكرها، فاهتمّتِ الملاعبُ بتمثيلها وتمّ لكَ ما ترجُوهُ لنفسكَ من المجد والفخار. والرّجلُ كما تعلمُ شاعرٌ جليلٌ راسخُ القدمِ في النّقدِ الأدبيّ، وسينظرُ في روايتك هذه نَظرَ النّاقدِ البصيرِ ولا أحسبُه يضنّ عليك بتهذيبِ ما يحتاج إلى التهذيبِ من أبياتِها فتأتي آيةَ الآياتِ في حسنها وجمالها.

فاكفهرّ وجهُ سيرانو وتغضّنَ[١] جبينُه وقال له ذلكَ مستحيلٌ يا سيّدي وإن دمي ليجمدُ في عروقي عندما أتخيّلُ أنّ إنسانًا في العالمِ يحدّثُ نفسه بتغيير حرفٍ واحدٍ في قصيدةٍ من قصائدي. فعجب الكونت لأمرِه وقال له: ولكنّك تعلمُ من شأنِه أنّه حينَ يعجبُ ببيتٍ من الشعرِ يدفَعُ ثمنَه غاليًا. قال: ربّما كان ذلكَ صحيحًا. ولكنّه لا يستطيع أن يبذلَ فيه من الثّمن مثلَ ما أبذل. لأنّني أسكبُ في شعري دَمَ قلبي حارًّا. ودمُ القلبِ أغلى ثمنًا من الفضّة والذّهب. فقال: يظهر لي أنّك أبيُّ النفسِ يا سيرانو. قال: نعم يا سيّدي ما في ذلك شكٌّ وإني أحمدُ اللهَ على أنّكَ قد شعرتَ بذلك. فاستَشَاطَ الكونت غضبًا[٢] وقام من مجلسه ساخطًا. وهو يعجبُ أشدّ العجبِ لكبرياءِ هذا الرّجلِ الذي يرفضُ قبولَ نعمةٍ تسيلُ على مثلها نفوسُ الشعراءِ والروائيّين جميعًا.

وكان لَبْريْه صديقُ سيرانو جالسًا بجانبه فأخذَ يعنّفه بعدَ انصرافِ الكونت ويلومه على حمقِه ورعونَتِه وينعي عليه خشونَتَه وغلظتَه ويقول له: إنّكَ قد أضعتَ فرصةً كان جديرًا بك أن تفترصها حين لاحتْ لك، فقد كنتَ في أشدّ الحاجةِ إلى من يرفعُ لكَ شأن روايتك وينوّهُ بذكرها ويمسَحُ عن رأسها غبارَ الخمولِ والضّعة، ويأخذُ بيدكَ في طريقِ المجدِ الذي تحبّه وتعشقُه. فماذا أنتَ صانِعٌ بعد ذلك؟ فانتفَضَ سيرانو غيظًا واستوى في مكانِه جالسًا وألقى على صديقِه نظرةً طويلةً هادئةً وأنشأ يقول له بصوتٍ قويّ رنّان:

ماذا تريدُ منّي يا لبريه؟ أتريدُ أن أعتمدَ في حياتي على غيري وأن أضَعَ زِمامَ نفسي في يدِ عظيمٍ من العظماءِ أو نبيلٍ من النبلاء يصطنعُني ويجتبيني ويكفيني مؤونةَ عيشي ويحملُ عنّي

---

(١) تغضّن الجبين: تجعّد وتثنّى. (٢) استشاط غضبًا: اشتدّ واستقتل.

همومَ الحياةِ وأثقالها؟ مَثَلي في النّاسِ كَمَثَلِ شجرة «اللبلابا» في النّباتِ تلتفُّ بأحدِ الجزوعِ تلعقُ قشرتَه وتمتصُّ مادَّته بدلًا من أن تعتمدَ في حياتها على نفسها.

أتريد أن أحملَ نفسي على عاتقي كَمَا يحمِلُ الدّلّالُ سلعتَه وأدورُ بها في أسواقِ المساومَةِ مناديًا عليها: مَنْ منكُمْ أيّها الأغنياءُ والأثرياءُ والوزراءُ والعظماءُ وأصحابُ الدولة والجاهِ يبتاع نفسًا بذمّتها وضميرِها وعواطِفِها ومشاعرِها بلقمةِ عيشٍ وجرعةِ ماءٍ؟

أتريد أن أنصبَ نفسي سخريةً في الأنديةِ الخاصّةِ والمجتمعاتِ العامة، ألعب كما يلعبُ القردُ وأنطقُ كما ينطقُ البغاء، وأتلّونُ كما تتلون الحرباءُ رجاءَ أن أجدَ التفاتةً من عيني أميرٍ أو أرى ابتسامةً على شفتي وزير؟

أتريد أن تستحيلَ قامتي المعتدلةُ إلى قوسٍ من كثرةِ الانحناءِ وأن تتهدلَ أجفاني من كثرةِ الإطراقِ والإغضاءِ وأن تتكوّن فوق ركبتي طبقةٌ سميكةٌ من كثرة الركوعِ والسّجودِ بين يدي العظماء!

أتريد أن يكونَ لي لسانانِ؟ لسانٌ كاذبٌ أمدحُ به ذلك الذي اصطنعني واجتباني ولسانٌ صادقٌ أعدّدُ به عيوبَه وسيئاته. وأن يكون لي وجهانِ؟ وجهٌ راضٍ عنه لأنّه يحسنُ إليّ ويحميني. ووجهٌ ساخطٌ عليه لأنّه يستعبدني ويتسرقّني؟

أتريد أنْ أقضيَ حياتي كلّها واقفًا في مكاني أثبُ فيه وأطفرُ وأتطاولُ بعنقي ليتوهّمَ الناسُ أنّي طويلٌ وما أنا بطويل؟ أو أن أتّخذَ لي بوقًا ضخمًا أنفخُ فيه ليتوهّمَ السّامعون أنّي جهوريُّ الصّوتِ وما أنا إلّا نافخٌ في بوقه؟

أتريدُ أن أسيّرَ سفينة شعري في العَالم كما يفعلُ جماعةُ الشّعراءِ والروائيين بأذرعِ العظماءِ والكبراءِ بدلًا من المجاذيفِ التي أنحتُها بفأسي وبشعورِ الدوقاتِ العجائزِ البيضاءِ بدلًا من الأشرعةِ التي أنسجُها بيدي، وبتنهّداتِ الأميراتِ العاشقاتِ بدلًا من الرّياحِ الجاريةِ التي يسخّرها الله لي؟

أتريدُ أنْ أجعلَ حياتي الأدبيَّةَ تحتَ رحمةِ المقرّظينَ والنّاقدينَ والرّاضينَ والسّاخطينَ؟ فإن شاؤوا رفعوني إلى علياءِ السّماء، وإن شاؤوا هووا بي إلى أعماقِ الجحيم؟

ذلك ما لا يكونُ والموتُ أهونُ عليَّ من ذلك.

أريدُ أن أعيشَ حرًّا مستقلًّا لا أخشى أحدًا ولا أهابُ شيئًا. لا يعنيني تهديدُ الجرائدِ التّجاريةِ السّاقطة. ولا يفرحني أن تنشرَ الصّحفُ الكبيرةُ اسمي بالأحرفِ الضّخمة في أكبرِ أنهارها. ولا أبالي أَتَدَاوَلَ النّاسُ قصائدي وتدارسُوها ورنّتْ نغماتُها في أرجاءِ المسارحِ أم بقيَتْ في جرارِ خزانتي أقرأها بنفسي لنفسي وأتغنّى بها في ساعاتِ وحدتي وخلوتي.

أريد أن أعيشَ حرًّا مطلقًا، أضحكُ كما أشاءُ، وأبكي كما أريد وأحتفظ بنظري سليمًا، وصوتي رنّانًا، وخطوتي منتظمةً، ورأسي مرتفعًا، وقولي صريحًا. أنظم الشّعرَ في السّاعةِ التي

أختارُها وفي الشأن الذي أريده: فإنْ أعجبني ما وردَ عليّ منه فذلك؟ وإلّا تركتُهُ غيرَ آسِفٍ عليه وأخذتُ في نظمِ غيرِه بدلًا من أن أتوسّل إلى الطابعينَ أن ينشروه والأدباءِ أن يقرّظوه[١]، والممثلينَ أن يمثّلوه، والعظماءِ أن ينوّهوا بهِ ويرفعوا من شأنِه.

أحبّ أنْ لا أنظمَ من الشّعر إلا ما يجودُ به خاطري ولا أنظمَ إلّا بالطّريقة التي أريدُها لنفسي لا التي يُريدُها النّاس لي. أي إنّني آنفُ أن أمتّعَ نظري إلّا بمنظر الأزهارِ التي أغرسُها بيدي في حديقتي كما أحبّ وأشتهي، فإنْ قدّرَ الله لي منزلةً في الحياة فلنْ أكونَ مدينًا بها لأحدٍ غيري. ولن يكونَ فخرُها عائدًا إلا عليَّ وحدي. ولا أسمحُ لأحدٍ من النّاسِ كائنًا من كان أن يرفعني. بل لا بدّ لي من أن أرفعَ نفسي بنفسي.

أريدُ أنْ أعيشَ حرًّا طليقًا أناضلُ من أشاءُ وأجادلُ من أشاءُ وأنتقدُ من أشاء. وأن أقولَ كلمتي الخيرِ والشّرِ للأخيار والأشرار في وجوهِهِم لا متملّقًا أولئك ولا متّقيًا هؤلاء.

إنّ العبدَ المقيّدَ بقيودِ الإحسانِ والنّعَم لا يمكنُ أن يكونَ حرًّا طليقًا. فليعْفِني النّاسُ من أنعمِهِمْ وصنائِعِهم. لأنّي لا أحبُّ أن أكونَ عبدًا لهم ولا أسيرًا في أيديهم.

وآخرُ ما أقول لكَ إنّي أفضّل أن أعيشَ ممقوتًا مرذولًا عند النّاس على أن أعيشَ ذليلًا مستعبدًا لهم. ولا أحبُّ أن أرتفعَ ارتفاعَ الزيزفونِ والسّرو إذا كانتِ اليدُ التي ترفعني غيرَ يدي. وحسبي من الرفعةِ والشّرفِ أن أنالَ منهما نصيبي في العالمِ على قَدْرِ ما تسمحُ به قوّتي ومواهبي لا أزيدُ على ذلك شيئًا.

فقال له لبريه: عِشْ بنفسِكَ وحيدًا كما شئتَ ولكنْ لا تكنْ عدوًّا للجميع.

قال: ربّما أكونُ مغاليًا في ذلكَ ولكن ما دَعاني إلى المغالاةِ في المعاداةِ إلّا مغالاتُكُم معشرَ المتكلفين والمتحذلقينَ، في المصادقَةِ والموالاةِ وتصنُّعُكُم في استجلابِ الخلّانِ والأصدقاءِ، وما بغّضَ إليّ التودّدَ والتحاببَ إلّا بغضي لتلك الابتساماتِ الباردةِ الثّقيلة التي تنفرجُ عنها شفاهُكُم كلّما قابلتم صديقًا أو عدوًّا شريفًا أو وضيعًا كريمًا أو لئيمًا حتّى أصبحتُ لا أحبُّ شيئًا في العالم حبّي لبغضِ النّاسِ إيّايَ ولا أكره شيئًا كرهي لحبّهم وتودّدهم إليّ.

هذا هو عيبي الوحيدُ الذي لا أعرفُ لنفسي عيبًا سواه ولكنّه عيبٌ يعجبني جدًّا ويلذّ لي كثيرًا. وإنّك لا تستطيعُ أن تدركَ مقدارَ ما أجدُه من اللذّةِ في نفسي عندما أسيرُ في طريقي، فأراه مملوءًا بنظراتِ البغضِ ملتهبًا بنيرانِ الحقدِ، وأرى نفسي مَحُوطًا بنطاقٍ مُحْكَمٍ من قلوبِ السّاخطينَ والنّاقمين.

أما المثالبُ[٢] التي أسمعُها والعتابُ الذي يُصَوَّبُ إليّ فهما أشبهُ الأشياءِ عندي بذلك البردِ المتساقطِ الذي يتناثر على رِدَائي من الجوّ ثمّ ينزلقُ عنه إلى الأرض فأدوسُه بقدمي.

إنّ الصّداقةَ الباردةَ المتفكّكةَ التي يسعى وراءَها النّاسُ أشبهُ شيءٍ «بالياقات» الإيطالية اللّينة

---

(١) يقرّظوه: يمدحوه. (٢) المثالب: العيوب.

التي تتموّج حولَ الأعناقِ فتتموجُ الأعناقُ بتموجها. فهي وإنْ كانتْ ليّنةً مرنةً إلّا أنّها لا قوامَ لها ولا جمالَ.

أمّا العداوةُ فهي الدّرع الحديديّةُ الصّلبةُ التي تدورُ بالجسم فتحفظُ كيانه وقوّته وتمنَعُه عن أن يضعفَ أو أن يخورَ. وكلّ عدوٍّ جديدٍ هو حلقةٌ جديدةٌ في تلك الدّرع القويّةِ المتينةِ، أو هي «الياقة» الإسبانية من جميع وجوهها، يعدّها الناسُ غلًّا حديديًا وهي في الحقيقة هالة منيرة. آه.

* * *

هذا هو المثلُ الذي ضَرَبه «أدمون روستان» للشعراءِ والأدباءِ ليكونَ عبرةً لهم وميدانًا لأقدارهم ومنازلهم. ولقد قضى سيرانو بقيّةَ أيّامهِ بعد ذلك محافظًا على مبدئِه لا يحتملُ مِنّة لأحدٍ. ولا يمدّ يده بالسّؤال لأحد. ولا يعطي هوادةً في حقٍّ من الحقوقِ أو مبدإٍ من المبادئ. ينتقدُ رجالَ الدّينِ الذين يتجرون بدينهم، والأشرافَ الذين يمالِئون الظّلَمَةَ على ظُلْمِهم وجَوْرِهم. فعاشَ فقيرًا معدمًا مضطهدًا حتّى ماتَ موتَ المساكينِ المعوزين ولكنّه عاشَ بعد ذلكَ في صفحاتِ التّاريخِ عيشَ العظماء النّابهين.

* * *

تأبين فولتير

١٧٧٨ - ١٨٧٨ - ١٩٠٨

فولتير - هوجو - المنفلوطي

في ٣ مايو ١٨٧٨ احتفَلَتْ فرنسا بتذكارِ مرورِ مائةِ سنةٍ على وفاةِ فولتير ودُعِيَ فكتور هوجو فألقى في الحفلةِ في باريس خطبةَ التأبين.

في مثلِ هذا اليومِ - منذُ مائةِ سنةٍ - ماتَ الرّجلُ العظيم. ماتَ الرّجلُ الخالد. ماتَ فولتير بعد أن احدودبَ ظهرُه تحتَ أثقالِ السنينَ الطوالِ، وأثقالِ جلائلِ الأعمالِ، وأثقالِ الأمانةِ العظيمةِ التي عرضَتْ على السّمٰواتِ والأرض فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا فحملَهَا وحدَهُ. وهي تهذيبُ السّريرة الإنسانيّةِ فهذّبها فاستنارتْ فاستقامَ أمرُهَا.

ماتَ فولتير مرذولًا محبوبًا في آنٍ واحدٍ. يبغضُه الماضي لأنّه يجهلُهُ ويحبّهُ المستقبلُ لأنّه عرفه.

أيّها القومُ إنّ في هاتين العاطفتين - البغضِ والحبِّ - سرًّا عظيمًا من أسرارِ المجدِ العظيمِ لذلكَ الرّجلِ العظيمِ.

* * *

كانَ وهو على سريرِ الموتِ محاطًا بعاطفتينِ مختلفتينِ شكلًا متّفقتينِ جوهرًا وحقيقةً لأنّهما

جميعًا في سبيل مجدِه وفَخَارِه. كان ينظرُ أمامَه فيسرّه منظرُ التّبجيلِ والتّعظيمِ من حاضرِه ومستقبلِه. ويلتفت وراءَه فيطربُ به مشهدُ البغضِ والازدراءِ والحقدِ الذي يكنّه الماضي في صدرِه لأولئكَ الرّجالِ البواسلِ الذين قَاتلوه فانتصروا عليه.

كان فولتير رجلًا وأكبرَ من رَجُل. كان وحدَهُ أمّة كاملة. إنّه عاهَد نفسَهُ على إنجازِ عملٍ فأنجزَهُ ولم يُخْلِفْ وعدَه. وكأنَّ الإرادةَ الإلهيّةَ المتجلّيةَ في الشرائعِ تجلّيها في الطبائعِ نثرتْ كِنَانَةَ[١] هذا المجتمع الإنسانيّ وعَجَمَتْ[٢] عيدانه فوجدتْ فولتير أصلَبَها عودًا فانتدبته للقيامِ بالعملِ الذي قامَ به فأتمّه.

* * *

سلخَ هذا الرّجلُ أربعةً وثمانينَ حولًا كانت مِلْءَ الفضاءِ الكائنِ بين مغربِ الشّمسِ ومشرقها بين غروبِ الملكيّةِ وشروقِ الثّورة. ولد في عهد لويس الرابعَ عشَرَ وماتَ بعد انقضاءِ مُلْكِ لويس السّادس عَشَر. أشرقَ على مهده الشعاعُ الأخيرُ من أشعّةِ العرشِ العظيم وعلى نعشِه الشعاعُ الأوّلُ من أشعة الهاوية العظيمة.

كيف تكونُ للهاوية أشعّةٌ: أجل إنّ في الكون هِوًى طيّبةً مباركةً وهي التي تجذبُ الشرَّ إليها وتطويه في جوفِهَا.

* * *

الآن أمضي في بياني فقد شرحْتُ الكلمةَ الغامضةَ. وما كنتُ لأمضيَ قبل أنْ أشرحَهَا لأنّنا ما اجتمعنا هنا إلّا لِنَنْطقَ بالصّوابِ من القولِ والرّائعِ من الحكمة.

إنّا أتينا هنا لفصلِ الخطابِ في المسألة الاجتماعيّة. جئنا لنرفعَ شأنَ المدنيّة ونكرّمَ الفلسفةَ إكرامًا ينفعها ويفيدها. جئنا لنتلوَ على القرنِ الثّامنَ عَشَرَ رأي القرنِ التاسِعَ عَشَرَ فيه: جئنا لنكرّمَ المجاهدينَ والعاملينَ المخلصين. اجتمعنا لنمهّدَ الطّريقَ للوحدة الإنسانيّةِ التي يسعى إليها العلماءُ والعامِلون؛ والصنّاعُ المُجِدّون. وجملةُ القولِ إنّا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجّدَ العاطفةَ الشريفةَ السّامية عاطفةَ السّلام العام.

إنّا نمجّدُ السّلام حبًّا في المدنية وحرصًا على رونقِهَا وروائِها فإنّ السّلامَ فضيلةُ المدنيّةِ والحربَ رذيلتُهَا.

* * *

نحنُ في هذه اللمحةِ الكبيرةِ في هذا الموقفِ المهيبِ نجثُو على الرُّكبِ ونعفّرُ جباهنا بين يدي الشّريعةِ الأدبيّةِ ونقول للعالَم الذي يُنْصِتُ لِسَمَاعِ صوتِ فرنسا (لا قوّة إلّا قوّةُ الضميرِ ولا مجدَ إلا مَجْدُ الذكاء) ذلك فى سبيلِ العدلِ وهذا في سبيلِ الحقّ.

---

(١) الكنانة: جعبة السّهام.
(٢) عجم العود: عضّه ليختبر صلابته.

أيّها القومُ لقد كانَ شأنُ المجتمع الإنسانيّ قبل الثورةِ على هذا المثال: الشّعبُ في المنزلة الدّنيا وفوقَ الشّعبِ الدينُ والقضاءُ. هذا يمثله القضاءُ وذلكَ يمثله الإكليروس.

أتدرونَ كيف كانَ الشّعب وكيف كان الدينُ والقضاءُ في ذلكَ العهد؟ كان الشّعبُ جهلًا والدّينُ رياءً والقضاءُ ظلمًا.

إن كنتم في شكٍّ ممّا أقول فإني أقصّ عليكم حادثتين من حوادثِ ذلك التاريخِ أرى فيهما غناءً ومقنعًا للحائرِ المتردّد.

* * *

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وُجِدَ شابٌّ مشنوقًا في الطبقةِ الأرضيّة من بيتٍ في مدينة طولوز فهاج الشّعبُ ولغط الإكليروس وبحثَ القضاةُ فكانتِ النتيجةُ أن كانَ الشابُّ منتحرًا فسمّي قتيلًا ووالدُه بريئًا فسُمِّي قاتلًا.

هكذا أراد الدّينُ وأرادتْ مصلحته أن يهلك والدُ الفتى لأنّه كان بروتستانتيًّا وكان يمانعُ فتاهُ أن يتمذهَبَ بالكثلكة. إنّها لجنايةٌ فظيعةٌ جدًّا ينكرها الدينُ ويحيلُها العقلُ ولكنْ هانَ عليهم أمرُها ولم يحفَلوا بالشّريعتينِ فحكموا على الشيخِ الكبيرِ قتلَ ولدِه الصّغير.

هكذا قضى القضاءُ وهكذا كانتِ النتيجةُ فاستمعوها.

* * *

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيقَ إلى الميدانِ العام شيخٌ أبيضُ الشّعر هو جان كالاس ثمّ جُرِّدَ من ثيابه وطُرِحَ على دولابِ العذابِ وشُدّتْ به أطرافُه وتركوا رأسَه متدلّيًا.

ثلاثةُ رجالٍ تلوثتْ أيديهم بدمِ القتل. كاهنٌ يحملُ الصّليبَ وجلّادٌ يحملُ القضيبَ، وقاضٍ اسمه داودَ يحملُ في صدرِه عهدَ القومِ إليه بالتنكيلِ والتعذيبِ.

لم يكن الشّيخُ المسكينُ وقد شقّ الخوفُ مرارَته وتمشّى قلبُه في صدرِه لينظرَ إلى الصَّليبِ في يدِ الكاهنِ بلْ إلى القضيبِ في يد الجلّاد.

* * *

رفعَ الجلّادُ القضيبَ وضربَ ذراعَ الشّيخِ ضربةً كاسرةً صاحَ على أثرها صيحةً مؤلمةً ثمّ أغميَ عليه فتقدّمَ القاضي الرحيمُ وأمرَ له بالمنبّهاتِ فانتعشَ وأفاقَ فضربه الجلّاد الأخرى فوق الذراعِ الأخرى فعادَ إلى صرختِه وإغمائِه وعادوا إلى تنبيهِه وإنعاشِه حتّى تمّ لكلِ ذراعٍ من ذراعيه ضربتانِ وكسرانِ فكأنما قتلوه قبل موتِهِ ثماني مراتٍ.

في الإغماءِ الثّامنِ بعد مرورِ ساعتينِ من العذابِ تقدّمَ الكاهنُ ومدّ إليهِ الصّليبَ ليقبّله فحوّلَ وجهَه عنه فأقبلَ الجلّادُ وسدّدَ إلى صدره الطّرَفَ الغليظَ من القضيبِ الحديدِ وضربه ضربةً ألصقتْ صدرَه بظهرِه فكانَتِ القاضيةَ.

على هذهِ الصّورةِ ماتَ جان كالاس.

وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ حتّى عرفَ النّاسُ أن الفتى ماتَ منتحرًا لا مقتولًا فحكموا ببراءةِ الشّيخ بعد قتله.

* * *

لم يجن الشيخُ على الفتى وجنى على الشّيخِ القضاءُ.

أما الحادثة الأخرى فهي عِبرةُ الشّباب كما كانتِ الأولى موعظةَ الشّيخوخةِ.

بعد مضيّ ثلاثِ سنينَ من تاريخِ الحادثةِ الأولى وجدوا في أبفيل صليبًا عتيقًا أكلَ السّوسُ أحشاءَه حتّى عاف البقاءَ فيه - مطرحًا فوقَ الجسرِ بعد أن عاشَ فوقَ السّور ثلاثةَ قرونٍ وكان ذلك في ليلةٍ عاصفة.

مَنْ ألقى به مِنْ أعلى السّور؟ من ذا الذي دنّس هذا الأثرَ المقدّس؟ من ذا الذي أجرمَ هذا الجرمَ العظيم؟ ربما عَصَفَتْ به ريحٌ أو عبثَ به عابرُ طريقٍ أو هوى به ضعفُ الشيخوخةِ وإعياءُ العمر. وعلى كلّ حالٍ لم يُعْرَفِ المجرمُ. ولكن أبى الدّينُ إلا أن يوجِدَ مجرمًا. هنالك أعلنَ مطرانُ أميان براءةً من غفران الله ورحمتِه لكلٍّ مَنْ عَلِمَ أو ظَنَّ أنّه عَلِمَ شيئًا عن هذه الحادثةِ فَكَتَمَه.

* * *

إنّ الحرمانَ جريمةٌ فظيعةٌ قاتلةٌ متى أوحى به التعصّبُ الذميمُ إلى الجهلِ العظيم.

كان هذا الحرمانُ سببًا في أنّ القضاء عرفَ أو ظنَّ أنه عرفَ أنّ ضابطين اسمُ أحدِهِما لابار والآخر ديتالون مرّا على جسر أبفيل في تلك الليلةِ المشؤومة يترنّحان سكرًا وينشدان نشيدًا عسكريًا. مرّا بالجسرِ وأنشدا النّشيدَ فهما المجرمان. وكانت المحكمةُ مقدس أبفيل ولم تكن بأقلّ عدلًا وإنصافًا من مجلسِ الكابيتول في طولوز، فأمرتْ بالقبضِ على الرّجلين فاختفى ديتالون وقبض على لابار وَأُسْلِمَ إلى القضاءِ فاعترفَ بالنّشيد وأنكرَ المرور على الجسر فحكمت عليه محكمة أبفيل بالإعدامِ وأيّد حكمَها برلمان باريسَ فدنَتِ السّاعةُ المخيفةُ الهائلة.

* * *

لقد تفنّنوا في تعذيب الشيفاليه دي لابار وإرهاقِه ليكشفوا عن سرّ فِعْلَتِهِ وعن شركائه في جريمته - أي جريمةِ المرورِ على الجسرِ وإنشادِ النشيد.

لقد عذَّبوه عذابًا أليمًا حتّى إنّ الكاهِنَ الذي جيءَ به ليسمعَ اعترافَه أغمِيَ عليه حينما سَمِعَ قرقعةَ عظامِ ركبتيه.

مضى هذا اليومُ وجاء اليومُ الثاني وهو يوم ٥ يونيو سنة ١٧٦٦ وجيءَ بالشّابِ المظلومِ إلى ساحةِ أبفيل الكبرى حيثُ تشتعلُ نارُ العذابِ وتضطرمُ اضطرامًا فأسمعوه نصَّ الحُكْمِ ثمّ بتروا يدَه ثمّ استلّوا لسانَه بقابضٍ من الحديدِ فاستأصلوه. ولكنّهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسَه وألقوا بها في النّار.

* * *

على هذه الصورةِ ماتَ الشيفاليه دي لابار كما ماتَ من قَبْلِهِ جان لاكاس.

أحزنكَ هذا المنظرُ يا فولتير وآلَمَ نفسَك ومَلَكَ عليك شعورَكَ ووجدانَكَ فصحتَ صيحةَ الرعبِ والجَزَعِ، فكانت تلكَ الصّيحةُ الحجرَ الأوّل في بناءِ مجدِك العظيمِ الخالد.

هنالكَ انبعثتْ نفسُك إلى النّزولِ في ميدان المجتمعِ الإنساني لتكفَّ عاديةَ الظّالمين وتقلّمَ أظفارَ الوحوش الضّارية. وجلستَ في منصّةِ القضاءِ لتحاكمَ الماضي على جرائمه وتنتصفَ منه للمستقبل فانتصفتَ وانتصرتَ وكنتَ من المحسنين.

* * *

أيّها الرّجلُ العظيمُ طِبْتَ حيًّا وميتًا.

حدثَتْ تلكَ الحوادثُ التي ذكرتُها على مشهدٍ من المجتمعِ المهذّبِ الرّاقي ومن حياةٍ حافلةٍ بالسّعادةِ مغتبطةٍ بالهناءِ يغدو إليها الإنسانُ لاهيًا ويروحِ ساهيةٍ لا يرفعُ رأسَه فيعلَمُ ما فوقه ولا يخفضها فيدري ما تَحْتَه.

حدثَ ذلك وأيّام البلادِ أعيادٌ وفرسايل تتلألأ حسنًا وبهاءً، ورونقًا وماء. وظرفاء الشعراءِ مثل سان أولاير وبوفلير وجنتيل برنار لاهونَ بالغزلِ الرّقيقِ والوصفِ الجميل.

حدثَ ذلك وباريسُ تتجاهلُ ما يجري حولَها فاستطاعَ القضاءُ الظّالمُ بمساعدةِ القسوةِ الدينيّةِ أن يمثّلَ بالشيخِ ذلك التّمثيلَ الفظيعَ بذلكَ القضيبِ الحديد. وأن يستلَّ لسانَ الفتى لأنه أنشدَ الأناشيد.

* * *

كانَ المجتمعُ في ذلكَ التاريخِ مؤلّفًا من قوّى عظيمةٍ هائلةٍ: قوةِ البلاط، وقوّةِ الأشرافِ، وقوةِ المال، وقوّةِ الشّعبِ المائجِ المندفعِ وقوّةِ الحكومةِ التي كانت أسدًا على الرّعية نعامةً بين يدي الملكِ تجثو أمامَه خاضعةً صاغرة إلا أن جَثْيَهَا كان على جثّة الشّعب، وقوةِ الأكليروسِ المؤلفِ من الرياءِ الكاذبِ والتعصّب الأعمى.

تقدّم فولتير وحدَه وأثارَ حربًا عوانًا على هذا العالمِ القويّ المخيفِ ولم يَرَهُ أكبرَ من أن ينخذلَ ولم يرَ نفسه أصغرَ من أن ينتصرَ.

أتدري ما كان سلاحُه؟ ما كان له سلاحٌ غيرُ تلكَ الأداةِ التي تجاري العاصفةَ في هبوبها وتسبقُ الصّاعقةَ في انقضاضها. ما كانَ له سلاحٌ غيرُ القلم. فبالقلمِ حاربَ وبالقلمِ انتصر.

* * *

انتصرَ فولتير. فولتير وَقفَ وحدَه تلكَ المواقفَ المشهودةَ، فولتير أدارَ وحدَه رحَى تلكَ الحروب الهائلة. حربِ العلم والجهلِ، العدلِ والظّلمِ، العقلِ والهوى، الصلاحِ والفسادِ، فتمّ على يديه الغُلْبُ للخيرِ على الشّرّ وفاز فوزًا مُبينًا.

كان فولتير قلبًا وعقلًا. كان له رقّةُ الفتاةِ في غلالَتها وشدّةُ البطلِ في شكّته.

فولتير محا الخرافاتِ الدينيّةَ والعاداتِ الفاسدةَ وأرغمَ أنفَ الكبرياءِ وأذَلَّ عزَّ الرؤساء. ورفعَ السوقيّ إلى حيثُ لا يصلُ إليه ظلمُ القاضي الغوثي وَتَنَطُّعُ[١] الكاهن الروماني وَغَارَ ليفرن ومونبالي كما غَارَ لكلاس ولابار.

وَعَلَّمَ ومَدَّنَ وهذّبَ ولقي في سبيلِ ذلكَ من الشدائدِ والمِحَنِ والنّفي والقهر ما يكسرُ سَوْرَةَ النفسِ فلم تنكسر سَوْرَته، ولم تفترْ عزيمتُه. بل كان يلقى الاستبدادَ بالسّخريةِ، والغضبَ بالاستخفافِ والقوّةَ القاهرةَ بالابتسامةِ المؤثرة.

أقفُ هنا قليلًا إجلالًا لابتسامةِ فولتير.

* * *

فولتير هو الابتسامةُ والابتسامةُ هي فولتير. أفضلُ مزايا الرّجلِ الحكيمِ أن يملكَ نفسَه عند الغضبِ وكذلكَ كانَ فولتير. كانَ عقلُه ميزانَ أعمالِه فما غَلبه حتّى الغضبُ للحقّ وكنتَ تراه عابسًا مقطبًا فما هي إلا كرّةُ الطّرْفِ أن ترى فولتير الضاحكَ المبتسمَ في مكانِ فولتير العابسِ المقطّب. يكاد يكون ابتسامُه ضحكًا لولا حزنُ الحكيمِ وهمُّ العاقل. كان ابتسامُه كبارقةِ السّيفِ يرتاعُ لها الأعداءُ ويرتاحُ لها الأولياءُ، كان يبسمُ للقويّ فيخجله بتهكّمِه واستخفافه. وللضعيفِ فيسره بتحنّنه وانعطافِه. فلنمجّدْ ذلكَ الابتسامَ الذي كانتْ أشعّتُه كأشعّةِ الفجرِ تمحو الظّلامَ وتبعثُ الأضواءَ.

نِعْمَ الابتسامُ ابتسامٌ أنارَ الطّريقَ للعدلِ والحقِّ والصّلاحِ وكشفَ عن ظلماتِ التّقليد.

* * *

إنّ ابتسامةَ فولتير أنشأتْ هذه الهيئةَ الاجتماعيّةَ الجديدَةَ وزيّنَتْهَا بالإخاءِ والمودّةِ والحريّةِ والمساواةِ، فنالَ العقلُ منزلَتَه من الإجلالِ والإعظامِ سواءً سكنَ القصرَ الكبيرَ أو الكوخَ الحقيرَ، ولبسَ المعلّمُ تاجَ المُلكِ فتصرّفَ في العقائدِ الباطلةِ والعاداتِ الفاسدةِ والخرافاتِ الدينيّةِ تصرُّفَ الحاكمِ القديرِ ونشرَ السلاحُ أجنحتَه البيضاءَ على المجتمعِ الإنساني فقرّتِ السيوفُ في الأغمادِ وهدأتِ الدماءُ في العروقِ والأرواحُ في الأجسامِ.

كلُّ ذلكَ ابتسامةُ فولتير. ولسوفَ يأتي ذلكَ اليومُ العظيمُ يومُ الرّحمةِ بالضّعفاءِ والعفوِ عن الخاطئينَ فيبسمُ فولتيرُ في السّماءِ ابتسامةً تتلألأ بين لألاءِ النّجوم.

فَلْنمجّد ابتسامةَ فولتير كلّ التمجيدِ وَلْنُكْبِرْهَا كلَّ الإكبار.

أيّها القوم، إنّ بين المصلحِ الأوّل والمصلحِ الثّاني سرًّا خفيًا واتصالًا عجيبًا وإن كانَ بين عصريهما ثمانيةَ عَشَرَ قرنًا.

* * *

---

(١) تنطّع الرجل: بالغ في فصاحته وتكلّف.

إنّ قتالَ الفرنسيّينَ ورفعَ السّتارِ عن الدّسائسِ وإرغامَ أنفِ الظّلمِ والكذبِ وهدمَ الهيكلِ لتجديد بنائه - أي إصلاحَ الفاسد - والانقضاضَ على القضاءِ المستبدّ والكهنوتِ السفّاحِ وطردَ الصرّافين من بيت المقدسِ بالسّياط وإعادةَ الميراثِ للمحرومين منه والرّفقَ بالضّعيفِ والعاجز وتعزيةَ اليائسِ والمحزونِ ومساعدةَ المظلومِ والمقهورِ - كلُّ ذلكَ كان جهادَ المسيحِ بالأمسِ وهو أشبه شيءٍ بجهادِ فولتير اليوم.

إنّ الفلسفةَ ساعدت الإنجيل. إن اللطف أتمّ ما بدأتْ به الرأفةُ. «وتبسّمَ فولتير، ومن تلكَ الدموعِ وذلكَ الابتسامِ تألّفَ جمالُ المدنيّةِ الحديثة».

هل كانَ فولتير يحلمُ دائمًا فلا يستخفّ حُلْمَه الغضبُ؟ كلا. بل كانَ يغضبُ أحيانًا في سبيلِ الحق.

* * *

أنا لا أُنكر أنّ التوسّطَ وحفظَ الموازنة بينَ الأخلاقِ هو القانونُ العقليُّ للإنسانِ حتّى لا تهبطَ به كفّةٌ وتعلو به أخرى وحتّى لا يهلكَ بين عاطفتي الحبّ والبغض. ولا أنكرُ أنّ الفلسفةَ هي الاعتدالُ، وإظهارُ الحقائقِ واضحةً بين مؤلّفاتِ الأعمالِ والأقوالِ، ولكن أرى أنّ حبّ الحقّ يجبُ أن يكون في مرتبةِ الغلوّ حتّى تهبّ عاطفتُه هبوبَ العاصفةِ فتذهبَ بالاقذاءِ[1] والأقذار.

* * *

يعيشُ المرءُ بين سعادتينِ من حاضرِهِ ومستقبلِهِ. أمّا الأولى فيكفَلُها العدلُ. وأمّا الثانية فيحرسُها الرّجاءُ والأمل. لذلك يحبُّ الناسُ القاضي العادلَ والكاهنَ الصّالحَ لأنّ الأوّلَ صورةُ العدلِ والثّاني مثالُ الرّجاء. فإذا انقلبَ العدلُ ظلمًا والأملُ يأسًا عافَهُمَا الإنسانُ ولوى وجهَهُ عنهما وقال للقاضي: «لا أحبُّ قانونَك» وللكاهن «لا أعتقدُ بدعوتِكَ». وهناك يهبُّ الفيلسوفُ الغيورُ غاضبًا فيحاكمُ القضاءَ أمامَ العدلِ والكهنوتَ أمامَ اللهِ. كذلكَ فَعلَ فولتير فكانَ من المحسنين.

* * *

أيّها القومُ صوّرتُ لكم فولتير كما هو والآن أصوّر لكم عَصْرَ فولتير. إنّ الرّجلُ العظيمَ لا يظهر في المجتمعِ وحيدًا إلّا قليلًا. وكلّما كَثُرَ العُظَماء حوله ارتفعَ شأنُه وعلا ذِكْرُه. فهو كالشّجرةِ تكون في نظرِ النّاظرِ أطولَ في الغابةِ الشّجراء منها في التربةِ الجرداءِ لأنّها تكون في منبتِها ومستقرِّهَا؛ وكان فولتير في غابةٍ من العقول الكبيرة. روسو وديدرو أولًا ثم بوفّون وبومارشه ومونتسكيو. أولئك القومُ المفكّرون علّموا النّاسَ النّظرَ في حقائقِ الأشياءِ والتفكّر

(١) الأقذاء: جمع قذى، وهو كل ما يجعل العين تدمع.

الموصلِ إلى اتقانِ الأعمالِ وعلّموهُمْ أنّ صلاحَ القلبِ أثرٌ من آثارِ صلاح العقلِ فأجادوا وأفادوا.

وَضَعَ بوفّون أساسَ العلمِ بطبائعِ الكائناتِ واكتشفَ نوعًا من الكوميديا الاجتماعيّةِ كانَ لم يزلْ مجهولًا بعضَ الجهلِ إلى ذلكَ التاريخِ، واهتدى مونتسكيو إلى أسرارِ الشرائعِ فأحيا بإحيائها الحقَّ الدفين.

* * *

أما روسو وديدرو فلهما الشأنُ الأعلى والمقامُ الأسمى.

كان ديدرو شعلةً متوقّدةً من الذكاءِ، كان كثير التعمّقِ والغوصِ والتّغلغلِ في حقائقِ الأشياءِ، كانَ رقيقَ القلبِ محبًّا للعدل متعطّشًا إليه فبدا له أن يصلَ إلى المبادئِ السّاميةِ الصّحيحةِ من طريقِ الخيالِ فوضَع الأنسكلوبيديا.

أما روسّو فإنّه خَدمَ المرأةَ خدمةً جليلةً، وأجملُ آثاره فيها أنّه وحّدَ الأمَّ والمرضعَ وأنزلهما من مهد الطفلِ منزلًا واحدًا. إنّ روسّو كاتبٌ بليغٌ شاعرٌ في كتابته مؤثّر على الوجداناتِ يعرف كيف يلمَسُها فيهيّجها. طار بأجنحةِ الخيالِ في جوّ السّياسةِ حتّى لمسَ بيده حقائقها. له فضلُ السّبقِ على كل من هتفَ باسمِ الوطن. كان قلبُ روسّو يخفق للأمّة وقلبُ فولتير يخفق للنّوعِ البشري. ويمكننا أن نقول إنَ روسّو كانَ أضيق ميدانًا من فولتير. فميدانُ الأوّل فرنسا وميدانُ الثاني رُقْعةُ الأرض.

ماتَ أولئك القومُ العظامُ وهوت من أفقها كواكِبُهم. كانوا جسدًا وروحًا أما الجسد فقد طواه القبرُ وأما الرّوحُ فهي الثورةُ التي تركوها من بعدهم.

أجل، إنّ الثّورةَ روحُهُم والمظهرُ الساطعُ المتلألئ بحكمتِهم ومبادِئهم؛ هم في الحقيقةِ أبطالُ الثورة المقدّسة التي هي خاتمةُ الماضي وفاتحةُ المستقبل. إنّك تراهُمْ بعينِ بصيرتِك في كلّ مواقفها ووقائعها. إذا اخترقتْ أشعّة العقلِ حجابَ المسبّبات ونفذتْ إلى الأسباب نرى في نورِ الثّورةِ السّاطعِ أنّ ديدرو كانَ واقفًا وراءَ دانتون وروسو وراء روبسبير وفولتير وراء ميرابو ونجدُ أن أبطالَ الثّورة صنيعةُ أبطالِ الفلسفة.

أيّها القوم إنّ تسميةَ العصرِ باسمِ رجلِه العظيم عملٌ جليلٌ وفكرةٌ ساميةٌ بدأت بها ثلاثةُ شعوبِ اليونان وإيطاليا وفرنسا. فقيل: عصرُ باروكليس وعصرُ أغسطس وعصرُ لاون العاشر وعصرُ لويس السّابع عشر وعصرُ فولتير.

إنّها فكرةٌ ساميةٌ تشتمل على سرٍّ عظيمٍ من أسرار المدنيّةِ وتدلّ على أنّ الأمّة تدركُ مقدار ما تمتدّ إليه عظمةُ الرّجلِ العظيم. كان ينقصها قبلَ عهدِ فولتير أنّها كانت خاصّةً بالملوك ورؤساء الحكومات. ولما كانَ فولتير أجلَّ من ملكٍ وأكبرَ من رئيسٍ بَطُلَ هذا الاختصاص وقيلَ عصرُ فولتير.

* * *

أجلْ إن فولتير ملكُ المبادئ ورئيسُ الإصلاح والعزيزُ القادرُ الذي أمكَنَهُ أن يُنْشِئَ عالمًا جديدًا على أطلالِ العالمِ القديم وأن يسلبَ القوّةَ الحاكمةَ سلطَتَها ويمنَحَها للفكرِ وأن يكسرِ الصولجانَ والسّيف ليقيمَ مقامها العدلَ والرّحمة. وأن يمنحَ المجتمعَ حرّيته حتّى لا سلطة على الشّعب إلّا سلطةُ القانونِ ولا زاجرٌ للفردِ إلا زاجرُ الضمير.

* * *

كانَ الفرقُ بين الأنانيّةِ والوطنيّةِ غامضًا مبهمًا فظهرَ ظهورًا واضحًا جليًا وعرفَ الإنسانُ كيف يحفظُ حقّه ليكونَ رجلًا ويقومُ بواجبِ الوطنِ ليكونَ وطنيًّا. هذهِ المعرفةُ هي مَعْنَى قولِنَا عصرُ فولتير وهي معنى تلكَ الحادثةِ الجليةِ حادثةِ الثّورة الفرنساوية.

* * *

ولا أُنكرُ أنّ القرنينِ السّادسَ عَشَرَ والسّابع عَشَرَ مهّدا كثيرًا من العقبات الاجتماعيّة للقرن الثّامن عَشَر. فقد أنذر رابيلاس[١] الملكيّةَ في غراغنتوا وموليير[٢] الكنيسةَ في ترتوف لأن حبّ العدلِ وبغضَ القوّةِ كان ظاهرًا في هاتين النفسين الكريمتين.

إذًا فالعهدُ بسلطانِ القوّةِ بعيدٌ. فمن قال إنّ الحقّ مع القوة فقد تقمّصَ صورةً من صُوَرِ الأجيال الوسطى وخاطبَ أقوامًا بادوا قبلَ ثلاثةِ قرون.

إن القرنَ التاسعَ عَشَرَ يُجِلُّ القرنَ الثّامن عَشَرَ ويحترمه احترامَ المتعلّمِ للمعلّم. إن الأوّلَ دعا فلبى الثاني دعاءَه وأمرَ فائْتَمَرَ بأمره.

* * *

أيها القومُ إنّ الكلمةَ الأخيرةَ التي أنطقُ بها في هذا الموقفِ هي دُعاءُ المجتمعِ البشري إلى التّقدّم بهدوءٍ وسكونٍ وثباتٍ ووقار. قد وجدَ الحقُّ ضالته التي كان يَنْشُدُها وهي الإخاءُ الإنساني والتّعارفُ النفسي فمنَ العبثِ أن تشغلَ القوةُ بعد ذلك مكانًا من هذا المجتمعِ. فإنْ فَعَلَتْ كانَ أليقَ الأسماءِ بها الاستبدادُ.

* * *

إنّ المجتمعَ الإنسانيّ أنكرَ على القوّةِ حقّها المزعومَ وضاقَ صدرُه بجرائمِهَا وآثامِهَا، فقاضَاها بين يدي التّمدّنِ ووضع بين يديه جريرةَ المتّهَمين من الرّؤساءِ والزّعماءِ وأتى بالتاريخ شاهدًا على دعواهُ فقضى التّمدّنُ له عليها وجاءَ الحقُّ وزُهِقَ الباطل إنّ الباطلَ كان زَهوقًا.

شَفَّ ثوبُ الرّياء[٣] عما تحته وظهرتِ الحقيقةُ بيضاءَ ناصعةً لا غبارَ عليها فأصبحَ الأبطالُ والمجرمونَ في نظرِ الإنسانِ سواءً.

* * *

---

(١) Rabelais في كتابه Gargantua.

(٢) Molière في كتابه Tartuffe.

(٣) شفّ ثوب الرياء: رقّ ثوب الخداع.

هدمَ التّمدّنُ تلك القاعدةَ الفاسدةَ وهي أن الجرم العظيمَ أصغرُ من الجرمِ الصغير. فأدركَ الإنسانُ أن قَتْلَ الشّعوبِ أكبرُ إثمًا وأعظمُ جريرةً من قتلِ الأفرادِ، واستكبرَ أنْ يعتبرَ الحربَ مجدًا وهو يعتبرُ السّرقةَ عارًا. وبالجملة عرفَ أنّ الجريمةَ حيثُ حلّت وفي أي مظهرٍ ظهرتْ وأنّ القاتلَ لا يغني عنه من الله شيئًا أن يُسمّى القيصر أو يُدْعى الأمبراطور. ولا يخفى على الله من أمرِهِ شيءٌ سواءٌ لبس تاجَ المُلْكِ أو قلنسوةَ الإعدام.

فَلْنصرّحْ بالحقيقةِ المقرّرةِ الواضحةِ، وَلْنحتقرِ الحربَ أشدَّ الاحتقار. إن الحربَ المباركةَ لا أثر لها في الوجود: إن منظرَ الدّماءِ والأشلاءِ أفظعُ منظرٍ؛ لا يعقلُ أن يكونَ الشرُّ طريقَ الخيرِ وأن يكون الموتُ وظيفةَ الحياةِ.

أيتها الأمّهاتُ الجالساتُ حولي خَفِّفْنَ من أحزانِكُنَّ فقد أوشكتْ يدُ الحرب أن تكفَّ عن اختلاسِ أفلاذِ أكبادِكُنَّ.

محالٌ أن يستمرَّ الحالُ على هذا المنوال. أتشقى المرأةُ فتلدُ ويغرسُ الزّراعُ فيكسو الأرضَ بساطَهَا الأخضَرَ ويجهدُ العاملُ فيملأُ الخزائنَ ذهبًا وفضّةً ويأتي الصّانع بعجائبِ المصنوعاتِ وغرائبِ المدهشاتِ حتّى إذا أخذتِ الأرضُ زخرفَهَا وفاخرتِ السّماء بنجومِهَا وكواكِبِها وذهبنا لرؤيةِ معرضِهَا العام وجدناه ساحةَ القتال؟

إنّما ساحةُ القتالِ الشريفِ في هذا المجتمعِ الذي جَمَعَ بين جدرانِه ما تفرّقَ من أعمالِ الإنسانِ الجليلةِ (وكان إلقاءُ هذا الخطابِ أثناءَ افتتاحِ معرضِ باريسَ العام سنة ١٨٧٨) والانتصارَ الشّريفَ هو أن تعرضَ باريسُ هذا المجمعَ على بني الإنسان.

غير أنّي أقولُ مع الأسفِ إنّا لا نستطيعُ أن نخدعَ أنفسَنا وننكرَ أنّ السّاعةَ التي نحنُ فيها تشتملُ على بضعِ دقائقَ محزنةٍ تكدر صفوها وَتُنْقِصُ من سرورِها. لا تزالُ في مرآة السماءِ الصافيةِ سحابةٌ سوداء. إنّ الشعبَ لم يقض كُلَّ أربِهِ من السّعادةِ لأنّ الحربَ لم تزل باقية. وأعجبُ ما في أمرِها أنّها ترفعُ رأسَها بكلّ جراةٍ وسماحةٍ في مثل هذا العيدِ الجليلِ عيدِ السّلامِ العام.

* * *

إنّ الملوكَ في السنتينِ الماضيتينِ أساءَ بعضُهُمْ ظنًا ببعضٍ فاختلفوا وسيحلُّ اختلافُهم عقدةَ اتّفاقنا فنلجأُ بشؤمهم إلى التقلّبِ والاضطراب.

* * *

فَلْنَذْكُرْ عندَ ملوكِ الحربِ فولتيرَ وجان جاك وديدرو ومونتسكيو ملوكَ السّلامِ وَلْنُوَجّهْ وجهتنا إلى تلكَ الروحِ العالية، إلى تلكَ الحياةِ العظيمة، إلى ذلكَ الدفينِ المقدّس وَلْنَخضَعْ أمامَ قبرِه عسى أن يمدّنا بروحٍ منه ويهدِيَنَا إلى نصرةِ السّلام. فإنّه بَعدَ مرورِ قرنٍ على حياته لم يَزَلْ في الأحياءِ الخالدين.

* * *

وَلْنقفْ في طريق الدّماء المتدفّقةِ لنقولَ للسّفّاكين بصوتٍ عالٍ: كفى كفى، إنّها همجية. إنَّها تشوّه وجهَ المدنيّةِ؛ ويستنصرُ القرنُ التّاسعَ عَشَرَ عليهم بالقرنِ الثامنَ عَشَرَ.

إنّ أسلافَنا من الفلاسفةِ هم رُسُلُ الحقِّ إلى البشرِ فَلْنضرعْ إليهم في تذكارِهِمْ هذا أن يتداركوا المقتَلَةَ قبل وقوعها وينادوا أنّ الحياةَ ملكٌ للإنسانِ وعظيمٌ عليه أن تُسلبَ منه، وأن التّمتّعَ بالحريّةِ حقٌّ من حقوقِ العقولِ والأفكار.

إن النّور لا أثرَ له بين أضواءِ القصورِ، فَلْنطلبْهُ بين ظلماتِ القبورِ.

❁ ❁ ❁

جوستاف لوبون وفتحي زغلول

إنّ لِكتابِ روحِ الاجتماعِ عندي يدًا لا أنساها لمؤلّفهِ الدكتور جوستاف لوبون ومترجمهِ العالم الفاضلِ سعادة «أحمد فتحي زغلول باشا» فقد وَجَدَني ضالًّا فهداني، وحائرًا فرفعَ لي منارًا أحمرَ حتّى عرفتُ السّبيلَ.

كنتُ أنقمُ من هذا المجتمعِ المصريِّ شؤونًا ما كنت أنقمُ مثلَها من غيره من المجتمعاتِ البشرية. وقد كنتُ أكادُ أعتقدُ أنّه مجتمعٌ شاذٌّ غريبٌ في أطوارِه وصفاتِه، حتّى قرأتُ ذلكَ الكتابَ الذي شرحَ طبيعةَ المجتمعاتِ عامّةً شرقيَّها وغربيَّها وقرّرَ لها حُكْمًا واحدًا لا يختلفُ ولا يتخلّف. فعرفتُ أنْ لا فرقَ بين الشّعبِ المصريّ وغيره من الشّعوبِ الأخرى إلّا كما يكون بين الشّيءِ والشبيهِ بِهِ من الاتّفاقِ في الجوهر والكيفيّة، والاختلافِ في العَرْض والكميّة.

كنتُ أعجبُ للجماعةِ المؤلّفةِ من أتباعِ الحزب الوطنيّ أنْ أراهَا مائلةً إلى تصديقِ زعماءِ ذلكَ الحزبِ في دعواهُم القدرةَ على إزعاجِ الاحتلالِ الإنكليزيّ من مكانِه ومقاومةِ قوّته القاهرةِ بمقالاتٍ يسطّرونها، أو خطبٍ ينمّقونَها، وعلى انتزاعِ الدستورِ من يدِ صاحبِ الأمرِ فيه بصراخِ الشّوارع، وهتافِ المجامع، بل إلى تصديقِ كلِّ قائمٍ بينها سواءً أكان هنديًّا أو جركسيًّا أو بربريًّا أو نوريًّا أو فرنسيًّا أو إنكليزيًّا زاعمًا أنّه يخدمُ الوطنيّةَ المصريّةَ بصدقٍ وإخلاصٍ كما صدّقتُ بالأمسِ المستر بلانت الإنكليزي في دعواهُ أنّه قد نزلَ من حبِّ الوطنِ المصريِّ منزلةَ من يهدي النّصائحَ والعظاتِ إلى الخديوي السّابق أكبرِ أصحابِ الشّأنِ في القضيّةِ المصريّة ويعلّمُه كيفَ يكون وطنيًّا. وكما صدّقتُ اليومَ المسيو ديروجا الفرنسي والمسيو دراجيلا الإسباني في دعواهِمَا الغَيْرَةَ عليها والاهتمامَ بشأنها فمالأَتُهما[1] على أميرها أبي الوطنيّةِ ومطلعِ كوكبها السّاري، وظهرتْ في توديعهما إلى منفاهُما بمظهرٍ تتصبّبُ له الجباهُ عرقًا وتَنْدَى له الوجوهُ الكريمةُ حياءً وخجلًا.

---

(١) مالأتهما: تودّدت إليهما وتقرّبت منهما.

فلما قرأتُ في روحِ الاجتماعِ له «ولمّا كانتِ الجماعةُ على الدّوامِ محلّقةً في حدودِ اللّاشعورِ تتأثّرُ بالسّهولةِ من جميعِ المؤثّراتِ وذاتَ إحساسٍ قويٍّ كإحساسِ الأشخاصِ الذين لا يمكنهم الاستعانةُ بالعقلِ ومجرّدةً من مَلَكةِ النّقدِ والتّمييزِ كانَ من شأنها أن تكونَ سريعةَ التّصديقِ سهلةَ الاعتقاد، عرفتُ أن تلكَ طبيعةُ الجماعاتِ وأنْ ليس الذّنبُ على المجتمعِ المصري خاصّةً بل على المجتمعاتِ الإنسانيّة عامّة».

وكنتُ أعجبُ للرّجلِ الذي لا بأسَ بِلبّه، ولا ظنّةَ في فَهْمِهِ وإدراكِهِ من محامٍ بارعٍ، أو طبيبٍ حاذق، أو عالمٍ محقّقٍ أو باحثٍ مدقّق، أن أراه على جلالِه وعظمِه منتصبًا وسطَ أتباعِ الحزبِ الوطنيّ يضجّ ضجيجهم، ويصرخُ صراخَهم، ويقولُ بما يقولون، ويفهمُ كما يفهمون ويتقلّب في أكفّهمْ تَقَلُّبَ الكُرةِ في أكفّ اللاعبين. ويشاركُهُم في تَصَوُّرِ ما لا يُتَصَوَّرُ، وتصديق ما لا يكون، حتّى قرأتُ في روحِ الاجتماعِ قولَه أثناءَ الكلامِ على قابليّة الجماعةِ للتّصديقِ بالخيالاتِ الباطلة:

«ولا ينبغي في ردّ ما تقدّمَ الاحتجاجُ بمن كان بين تلكَ الجماعاتِ من أهلِ العقلِ والذّكاءِ الوافرِ لأنّه لا تأثيرَ لتلكَ الصّفة في موضوعنا إذ العالمُ والجاهلُ سواءٌ في عدمِ القدرةِ على التّمييزِ ما داموا في الجماعة».

وقوله في موضع آخرَ: «وأشدُّ النّاسِ افتراقًا من حيثُ مداركُهُم يتشابَهونَ في الوجدانيّات والشّهواتِ والمشاعِرِ. وأعظمُ الرّجالِ لا يتفاوتون عن العامّة في الأمورِ التي مرجِعُها الشعورُ كالدّين والآدابِ والميلِ والنّفورِ، وهكذا إلّا نادرًا فقد يكون بين الرياضيّ[١] الكبيرِ وبين صانعِ حذائِه بُعْدُ ما بين السّماءِ والأرضِ من حيث العقلُ والذكاءُ. ولكنّ الفرقَ بينهما في الطّباعِ معدوم في الغالبِ أو هو ضعيفٌ للغاية» وقوله في موضعٍ آخر: «يهبطُ بمجرّدِ انضمامِهِ إلى الجماعةِ عدّةَ درجاتٍ من سُلّم المدنيّة، ولعلّه في نفسِه كانَ رجلًا مثقّفَ العقل، مهذّبَ الأخلاق. ولكنّه في الجماعةِ ساذجٌ تابعٌ للغريزة. ففيه اندفاعُ الرّجلِ الفطريّ وشدّتُه. وفيه عنفُه وفيه حماسَتُه وشجاعَتُه. وفيه من سهولةِ التّأثّرِ بالألفاظ والصّوَرِ ممّا لم يكن يتأثرُ به وهو خارجُ الجماعة. ثم فيه الانقيادُ بذلكَ إلى فعلِ ما يخالفُ منافِعَه البديهيّةَ ويناقضُ طِباعَه التي اشتُهِرَتْ عنه. وبالجملةِ فإنّ الإنسانَ في الجماعةِ أشبهُ بحبّةٍ من رمالٍ تثيرها الرّياح ما هبّتْ». هنالك هَدَأَ خَاطِري، وَثَلُجَ صَدْري، وأمكنني أنْ أقولَ إنّ أذكياءَنا ليسوا بأغبياءَ وعلماءَنا ليسوا بجهلاءَ. ولكنّهم انضموا إلى الجماعةِ فنزلوا منها منزلةَ أمثالِهم من أمثالِهَا في كلّ زمانٍ ومكان.

وكنتُ أعجبُ لخضوعِ أتباعِ الحزبِ الوطنيّ لرؤَسائهم الذينَ يؤذونَهُم ويمثّلونَ بهم ويستلبونَ أموالَهُم إن كانوا أغنياء، وقواهم إن كانوا أقوياء، ومستقبلَهم إن كانوا مُتعلمين، وحَاضِرَهم إن

(١) الرياضيّ: العالم بالرياضيّات.

كانوا موظفين، وعقولَهُم إنْ لم يكونوا شيئًا من هذا وذاك. كما كنتُ أعجبُ لانصرافِهم عمّن يأخذهُمْ باللّينِ ويرفقُ بهم، ويحنو عليهم، ويضَعُ يده في أيديهم في مزالقِ الحوادثِ مخافةَ أن تزلّ بهم أقدامهم.

فما زالَ عجبي حتّى قرأتُ في روحِ الاجتماع قولَه في حديثِه عن الجماعةِ: «وهي تحترمُ القوّةَ وتخنعُ لها ولا تتأثر بالحُسنى إلاّ قليلًا، لأنّها في نظرِهَا صورةٌ من صُوَرِ الضّعفِ ليس إلّا. لذلك لم تمل إلى رؤسائِها الذين عرفوا باللّين والرّفقِ بل إلى الطغاةِ المستبدّين الذين سحقوها».

وكنتُ أعجبُ لاهتمامِهم بمطالعةِ المقالاتِ السياسيّةِ التي تنشرُها جرائدُ حزبِهِمْ وتأثّرِهِمْ بها على ما تشتملُ عليه من الأدلّةِ الفاسدةِ، والمعاني السقيمةِ، والأساليبِ الباردةِ والبراهينِ الملفقة التي يأنفُ عقلُ العاقلِ أن يمنحَها حتّى النّظرةَ الأولى. وكنتُ أظنُّ أن ذلكَ راجعٌ إلى فسادٍ ذاتيّ في أذواقهم، أو ضعفٍ غريزيٍّ في مداركِهِمْ حتّى وقفتُ على الحقيقةِ عند الاطّلاعِ على قولِ صاحبِ روحِ الاجتماعِ: «إنّ رابطةَ الأفكارِ التي تقارنها الجماعاتُ ببعضِها من حيثُ المشابهةُ أو التلازمُ ظاهريّة لا حقيقة. فهي تتسلسَلُ عندها كما تتسلسلُ الأدلّةُ في ذهنِ الرّجلِ الاسكيماوي الذي عرفَ بالتجربةِ أن الثّلجَ وهو جسمٌ شفّافٌ يذوبُ في الفم. وكالمتوحّش الذي يتصوّرُ أن أكلَ قلبِ العدوّ الشّجاعِ ينقلُ شجاعَتَه إلى الآكِلِ».

والحاصل أنّ تَعَقُّلَ الجماعاتِ عبارةٌ عن الجمعِ بين أشياءَ متخالفةٍ لا رابطةَ بينها إلّا في الظّاهرِ؛ والانتقالُ الفجائيّ من الجزئيّ إلى الكلّيّ ومن التّخصيص إلى التّعميم بلا تروٍ والأدلّةُ التي يقدّمها إليها أولئك الذينَ عرفوا كيفَ يقودونَهَا كلّها من هذا الطرازِ لأنّها هي الأدلّةُ التي تؤثّرُ فيها بخلافِ سلسلةٍ من الأدلّةِ المنطقيّةِ، فإنّها لا تدركُها بحالٍ، فالخطيبُ الخبيرُ بأحوالِ جماعتِهِ يعرفُ طريقَةَ استحضارِ الصّور التي تجذبُهَا. فإذا نَجَحَ فذلك ما أرادَ. ولو ألقيتْ خطبٌ في عشرينَ مجلدًا بعد ذلكَ ما كان لها من التّأثيرِ ما أحدثَتْهُ تلكَ الكليماتُ التي دخلتْ في الرؤوسِ المُرَادِ إقناعُهَا.

وكنتُ أعجبُ لإغراضِ المتعلّمينَ منهم عن الحقائق التاريخيّة والسياسيّة والاجتماعيّة المتعلّقة بذلك، فالمسألةُ المصريّة وعلاقةُ الدُّولِ الأجنبيّة بها عامّةً والدولِ المحتلّة خاصّةً وتقديرُ الفرقِ بين قوّة الدولةِ الغاصبةِ وقوّةِ الأمّةِ المغصوبة، وتنظيمُ حلقاتِ الوسائلِ الموصلةِ إلى سعادةِ مصرَ واستقلالِها، وطيرانُهم وراءَ الذين يقولونَ لهم «الجلاء على الأبواب» و(الدستور قاب قوسين أو أدنى) و(قطعنا شوطًا بعيدًا) و«لم يبق إلّا القليل» و«الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا» و(الحكومة الألمانية تساعدنا) و(الحكومة الإنكليزية ترتعد فرائِصُها منّا) و(أوروبا جميعها تحسبُ لنهضتنا ألفَ حساب).

وأمثالُ ذلك ممّا هو أشبهُ بخيالاتِ الأطبّاءِ الذين يحوّلون تعزيةَ المرضى والمشرفين

وخرافاتِ المنجمينَ الذين يعبثونَ بعقولِ عجزةِ الشّيوخ وجهلةِ النّساء، حتى قرأتُ في روحِ الاجتماعِ قوله «سارت الفلسفةُ إلى الأمامِ شوطًا بعيدًا ولكنّها مع تقدُّمها لم تهيئ للجماعاتِ خيالًا يلذّها. والجماعاتُ لا غنى لها عن الأوهام. لذلكَ اندفعتْ وراءَ غريزتِها وذهبتْ إلى تجّارِ البلاغةِ الذين يبيعونها تجارةً حاضرةً مَثَلُهَا كمثَلِ الحشرة التي تدرّبُ حين يكون الضياء. . . فما كانتِ الجماعاتُ في ظمإٍ إلى الحقيقةِ طولَ حياتها. وإذا تبدَّتْ أمامَها وكانتْ تغضبُهَا أعرضَتْ وَنَأَتْ وراحتْ تعبدُ الأوهامَ التي ترضي الأمرة[١] عليها لِمَنْ أضلّها. والويلُ منها لِمَنْ هداها» فعلمتُ أنّ تلكَ الجماعةَ ليستْ جاهلةً ولا قاصرةً ولكنّها جماعةٌ. ومن الضروري أن تكونَ كذلكَ.

وكنتُ أعجبُ لتشيُّعهم للدستورِ واحتفالِهِمْ به، وإلحاحِهِم في طلبه إلحاحَ الفاهِم المدرك. وأنا أعلمُ أنّ أكثرَهُم لا يفهمون منه إلّا أنّه القوّة فلو عرفوه حقّ معرفته لوجدوا في أنفسهِمْ أنّ عدمَهُ خيرٌ لهم من وجودِه التي يقتدرُ بها الشّعبُ على أن يأكلَ بعضُه بعضًا بلا رقبةٍ[٢] ولا حذر، لأنّه عدلٌ ورحمة. ولأنّه يمنعُ ظَلَمَةَ الآكلينَ أن يجدوا ما يأكلون. فلم أقفْ على سرّ تشيُّعهِمْ له وهو في الحقيقةِ أبغضُ الأشياءِ إليهم، حتّى قرأتُ في ذلك الكتابِ قوله: «وكَمْ من جماعةٍ تقدّمتْ إلى الموتِ في سبيلِ معتقداتٍ وأفكارٍ وكلماتٍ كانتْ تكادُ لا تفقَهُ شيئًا من معانيها. لأنّ المصلحَةَ الذّاتيّةَ قلّما تكونُ سببًا قويًّا لحركاتِ الجُموع».

وكنتُ أراهُمْ غالينَ في مشاعرهم، متطرّفين في ميولهم. وأرى أنّهم إمّا أن يحبّوا فيعبدوا، وإمّا أن يبغضوا فيقتلوا؛ وأنّ الرّجلَ عندهم إمّا أن يكون إلهًا أو شيطانًا ولا ثالثَ لهما. وإنّ رضاهُمْ عن رؤساءِ حزبِهِمْ لا يقلّ عن رضاهُمْ عن رسلِهِم وأنبيائِهِم الذين هدَّدَهُمْ الصّراطَ المستقيم. فأكادُ أخصّهُمْ بصفات الغَفلةِ والبُلْهِ لولا أنْ كَشَفَ لي روحُ الاجتماعِ سرَّ المسألةِ في قوله: «غلوُّ مشاعرِ الجماعةِ وبساطتُها يجعلانها لا تعرفُ الشَّكَّ ولا التّردّدَ. فهي كالنّساء تذهبُ فورًا إلى الحدّ الأقصى. فالشّبهةُ متى بدت تنقلبُ إلى بديهيّ لا يقبلُ البحثَ. والرّجل منفردًا قد لا يقرُّ على أمرٍ أو ينفرُ منه نفورًا لا يتعدّى مجرد الرغبة عنه؛ وأما الرّجل في الجماعة فإنّه متى نَفَرَ انقلبَ نفوره حِقدًا شديدًا» وقولُه في موضعٍ آخرَ «كثيرًا ما سمعْنَا عن ملهًى كان يكثرُ من تمثيلِ الرواياتِ المحزنةِ فكان الحرسُ يحيط دائمًا بِمُمَثِّلِ دورِ الخائنِ الأثيم عند خروجِه خوفًا عليه من هياجِ المتفرّجين الذينَ ثارتْ نفوسُهم للانتقامِ منه لأنّه ارتكبَ تلكَ الجرائمَ الوهميّة. وهذا فيما أرى من أكبرِ الأدلّة على حالةِ الجماعاتِ العقليّة، وبالأخصّ على سهولةِ التّأثير فيها. فللوهميّ عليها من ذلكَ ما للحقيقيّ تقريبًا. وهي ميّالةٌ ميلًا ظاهرًا إلى عَدَمِ التّمييز بينهما».

وكنتُ أعتقدُ أنْ لا شيء يؤثّر في نفوسِ الجماعاتِ غيرُ إخلاصِ الدّعاة: ثمّ استحالَ عليّ

---

(١) الأمرة: الإمارة والولاية. (٢) الرقبة: الانتظار.

التوفيقُ بين ما أعتقدُ وبينَ ما أعلمُ من أطوارِ زعماءِ الحزب الوطنيّ ودخائلِ نفوسِهم أنّهم لا يطلبونَ ممّا يعملون في هذهِ الحياةِ غيرَ ما يطلبُ كلُّ عاملٍ فيها من لقمةٍ سائغة، وجرعةٍ صافية، ومركبٍ فارهٍ[١]، ومتّكإٍ وثيرٍ[٢]، حتى اهتديتُ إلى حلّ هذه العقدةِ في قولِ صاحبِ روحِ الاجتماع: «وُجِدَ القوّادُ في الأممِ على الدّوام، غيرَ أنّهم ليسوا جميعًا من أهلِ الاعتقادِ الصّادقِ الذي يصيرُ به المرءُ رسولًا في قومه. بل هُمْ في الغالبِ سوسفطائيّون[٣] لا يسعونَ إلّا وراءَ منافعهم الذاتيّة، فيتملّقونَ ذوي المشاعرِ السّافلةِ ليكتسبوا رضاهم. وقد يكونُ النّفوذُ الذي ينالونَهُ بهذه الوسائلِ كبيرًا جدًا إلّا أنّه سريعُ الزّوال».

وكنتُ أعتقدُ أنّ أقدرَ النّاسِ على قيادة الجماعات أذكاهُم قلبًا، وأوسعُهُم عقلًا، وأفصحُهُم لسانًا، وأَجْرَأُهم قلمًا. فلمّا رأيت أن قوّاد الحزبِ الوطنيّ ليسَ فيهم من يمتازُ عن أفرادِ الطبقةِ التي نشأ فيها بميزةٍ خاصّةٍ من طلاقةِ لسانٍ أو بلاغةِ قلمٍ أو علمٍ واسعٍ، أو خلقٍ مؤثّرٍ، وقفتُ أمامَ هذه المعضلةِ المستعصيةِ وقفةَ الحائرِ المضطربِ حتّى قرأتُ في روحِ الاجتماعِ قوله: «ليس القوّاد غالبًا من أهل الرّأيِ والحصافةِ[٤] بل هُمْ من أهلِ العملِ والإقدامِ. وهم قَلِيلو التبصُّر».

على أنّه ليس في استطاعتِهم أن يكُونوا بُصَرَاء، لأنّ التّأمّلَ يؤدي غالبًا إلى الشّكّ ثمّ السّكون. وهُمْ يخرجونَ عادةً من بين ذوي الأعصابِ المريضةِ المتهوّسينَ الذينَ اضطربَتْ قواهُمُ العقليّةُ إلى النّصف وأمسوا على شَفَا جرفِ الجنون. لا ينفعُ الدّليلُ على فسادِ ما اعتقدوا كيفما كانَ معتقدهُمْ باطلًا. ولا تثنيهِمْ حجّةٌ عن طَلَبِ ما قصدوا بالغًا منها الخطل[٥] ما بلغ. ولا يؤثّر فيهم الاحتقارُ ولا الاضطهادُ. بل ذلكَ يزيدهم تهوّسًا وعنادًا. (وقوله في موضع آخر): «وكانَ أكبرُ القوّادِ من الأممِ خصوصًا قوّادِ الثورةِ الفرنساويّةِ من قصّارِ العقولِ جدًّا. وان أكبرهم تأثيرًا أشدُّهُم قِصَرًا في العقل.

فإنّ الإنسانَ ليدهشُ ممّا يراه من التخبّط[٦] عند مطالعةِ رسائلِ أعزمهم قدرًا وهو روبسبير. وَمَنْ لم يقرأْ غيرَها من ترجمةِ حياتِه لا يجدُ ما يعلّلُ به قوّة ذلكَ المسيطرِ الجبّار... صيغٌ كلّيةٌ جاريةٌ على كل لسان، وشقشقة في الفصاحةِ محفوظةٌ من كتبِ التّربيةِ والتعليمِ على الطّريقةِ اللاتينيّة اجتمعتا في نفسٍ خلوُها أكثرُ من انحطاطها. نفسٌ تكادُ لا تعرفُ من وسائلِ الهجومِ أو الدفاعِ إلا ما تعوّدَهُ التّلاميذُ من قولِ الواحدِ منهم لزميله: هل من مبارز: وليس هناك رأيٌ ولا تدبيرٌ ولا شاردة. عنفٌ مملٌّ وشدّةٌ مُسْئمةٌ. فإذا فرغ القارئ من تلكَ المطالعةِ المملّةِ

---

(١) فاره: خفيف نشط حاذق. (٢) وثير: لين تخين.

(٣) السوفسطائيّون: فرقة من الفلاسفة اليونان الذين كانوا يجادلون لمجرّد الجدل، لا لتبيان الحقيقة.

(٤) الحصافة: وفرة المعرفة وسعة الاطّلاع. (٥) خطل في منطقه ورأيه: أخطأ.

(٦) التخبّط: التردّد والحيرة.

شعرَ بالحاجة إلى قولِ أفٍ كما كان يفعلُ الرّجلُ الظريفُ كأميل ديمولان».

وكنتُ أعجبُ لبعضِ أتباع الحزبِ الوطنيّ وبعضِ كتّاب جرائدِه كيف استحالوا إلى جناةٍ مجرمين بعد أن كانوا شُرَفَاءَ أنقياء. وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالإغضاءِ عمّا تقترفُه من سبّ الأبرياءِ وهَتْكِ أعراض الأشرافِ والعبِّ[١] في الدّماءِ البشريّةِ بصورةٍ وحشيّةٍ بعد أن كانوا يترفّعونَ عن لِمَمِ[٢] الذّنوبِ وصغائرِ الدّنايا. كما كنتُ أعجبُ لهذا البائسِ المسكينِ الذي كان أندى النّاسِ وجهًا، وأكثرَهُمْ حياءً وأدبًا، كيفَ حَسُنَ في نَظرِه منظرُ جريمةِ القتلِ التي ارتكبها ثمّ هلكَ في سبيلها فضربَ بجريمته الوطنَ الذي يحسُب أنّه يخدمُه ضربةً هيهاتَ أن يَئلَّ من بعدها[٣] ثمّ عرفتُ أنّ ذلكَ لازمٌ من لوازمِ الجماعاتِ عندما قرأتُ قولَ صاحبِ روحِ الاجتماع:

«إنّ الفردَ يكتسبُ من وجودِه وسطَ الجمعِ قوّةً كبيرةً تشجّعه على الاسترسالِ في أمياله[٤] مما كانَ يحجمُ عنه منفردًا بالضّرورةِ. ثم هو لا يكبَحُ جماحَ نفسِه لأنّ الجماعةَ لا تسألُ عن أفعالِهَا لشيوعِهَا في جميعِ الأفراد. فلا يشعرُ الواحدُ منهم بما قد يجرّه العملُ عليه من التّبعة. وهذا الشعورُ هو الزّاجرُ للنفوس عمّا لا ينبغي». وقولُه في موضع آخر: «تصدرُ الجرائمُ عن الجماعاتِ غالبًا بسببِ تحريضٍ قويٍّ. ويعتقدُ الذينَ ارتكبوها من أفرادِهَا أنّهم قاموا بواجبٍ كان مفروضًا عليهم. وهذا ليسَ شأنَ الجناةِ في الأحوال الاعتياديّة».

وهنا يمكنني أن أستخلصَ ممّا تقدم الحقائقَ الآتية:

(١) ليسَ إجماعُ أَلْفٍ واحدٍ أو عشرةِ آلافٍ أو مائةِ ألفٍ متأثرين بشعورٍ واحدٍ مستمدّين قوّةً واحدةً على رأي من الآراءِ دليلًا على صحّةِ ذلك الرأي لأنّه رأي فردٍ واحدٍ تأثّر به الباقي تقليدًا أو عدوى. ورأيُ الواحدِ مترجّحٌ بين الخطأ والصوابِ.

(٢) ليسَ انضمامُ جماعةٍ من أذكياءِ النّاسِ وعقلائهم في حزبٍ من الأحزابِ أو جمعيّةٍ من الجمعيات دليلًا على فضلِ الحزبِ أو شرفِ مقاصدِه أو صحّةِ مبادئه لأنّهم لا يجتازونَ عتبَتَهُ إلا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم[٥] وعصيّهِمْ خارجَ بابه.

(٣) لا يُشترطُ في قيادةِ الجموعِ أنْ يكون القائدُ ذكيًا أو عاقلًا أو داهيةً أو مفكرًا أو فصيحًا بلْ يكفيهِ من ذلكَ كلّه شيءٌ من العلمِ بأذواقِ أتباعِهِ وسُبلِ الوصولِ إلى قلوبِهم لا يزيدُ عن علمِ التاجرِ بأذواقِ زبائِنِه ورغباتِهِم.

(٤) ليس حبُّ الجماعةِ لبعضِ الناسِ وبغضُهم لآخرينَ دليلًا على رفعةِ مَنْ يحبّون، وضعةِ مَنْ يبغضون. ليسَ جرائمهم التي يقترفُونَها باسمِ الشّعورِ الذي يشتركونَ فيه دليلًا على أنّ من

---

(١) عب الماء: شربه من غير تنفس. (٢) لمم الذنوب: صغائرها.

(٣) المراد بهذه الجريمة جريمة الورداني قاتل بطرس باشا.

(٤) أمياله: ميوله. (٥) أرديتهم: ما يرتدونه من لباس.

يقتلونَ يستحقُّ القتلَ، أو يشتمونَ يستحقُّ الشّتمَ أو يحتقرونَ يستحقُّ الاحتقارَ، بلْ كثيرًا ما تكونُ الحقيقةُ على العكسِ من ذلكَ عندما يكونُ قائدُ تلكَ الجماعةِ من أشرارِ الناسِ وأدنيائهم.

(٥) لا يكونُ مقتدرًا تمامَ الاقتدارِ على قيادةِ الجماعاتِ واستوائِها أو مقاومتِها ومصارعتِها مَنْ يذهبُ في كتاباتِهِ أو خطاباتِهِ مذهبَ القياسِ الصحيحِ والبرهانِ العقليّ. ومَنْ يكونُ كثيرَ الاحتراسِ من الكذبِ والتّلفيقِ والسّفسطةِ والتّضليلِ، أو طاهرَ اللّسانِ والقلمِ من السفاهةِ والشّتم.

(٦) لا سبيلَ للإنسانِ إلى الخلاصِ من خطلِ[١] الجماعاتِ وضلالِهَا مهما كانَ ذكيًّا أو مفكّرًا إلّا إذا حبسَ نفسَهُ عن الانضمامِ إليها أو كانَ له من عزيمةِ الرأيِ وصلابةِ النفسِ ما يمكّنه من تربيةِ نفسِه على التّجرُّدِ حتّى يصير طبيعةً له، فيحضرها شاهدًا كغائبٍ ومجتمعًا كمنفرد.

(٧) لا يجوزُ للتلميذِ في أثناءِ الدّراسةِ أن ينضمَّ إلى حزبٍ من الأحزابِ أو جمعيّةٍ من الجمعيّاتِ بالفعلِ أو القوّةِ إلا بعدَ أن يستمدَّ من العلمِ قوّةً تساعدُه على اكتسابِ مَلَكَةِ التّجَرُّدِ التي لا بدّ لهُ من مُعالجةِ اكتسابها للخلاصِ من جنونِ الجماعاتِ وتهوّسِها إنِ اضطرّ في مستقبلِ أمرِه إلى الانضمامِ إليها.

(٨) جميعُ القِوى التي يتوسّلُ بها قائدُ الحزبِ أو الجماعاتِ إلى التأثيرِ على أتباعِهِ أو تكثيرِ عددهم ضعيفةٌ بجانبِ القوّةِ التي يستمدّها من مقاومةِ الحكومةِ التي يعيشُ فيها له بالتّهديدِ أو السّجنِ أو التّعذيبِ، فإنّه يستفيدُ من ذلكَ عطفَ أتباعِه عليه، وتشبّثهم به، ويؤنسُ بأحاديثِ نكبتِهِ و نوادرِ رزيئتِهِ[٢] قلوبَهم كلّما ألمّ بها المللُ منه ومن وُعودِه الكاذبةِ وأقوالِهِ المردّدة. فإنْ كانَ لتلكَ الحكومةِ أَرَبٌ[٣] في القضاءِ عليه وعلى أتباعِهِ وكانتْ قادرةً على قطعِ الصّلةِ بينَه وبينهم بقفل جريدتِهِ إنْ كانَ صحافيًا أو قَطْعِ خطابتِهِ إن كان خطيبًا فتلفعلْ، وإلا فَلْتتركْهُ وشأنَه حتّى يعيا بأمرِهم، وتنفذَ بقيّةُ القِوى التي يتوسّلُ بها إليهم.

(٩) ليسَتْ تلكَ الطبيعةُ المقرّرةُ للجماعاتِ المؤلّفةُ من البساطةِ والبلهِ وسرعةِ الصّدقِ والاندفاعِ والغلوّ شرًا دائمًا بل قد تكونُ خيرًا مخلصًا إذا رزقَ اللهُ تلكَ الجماعاتِ قوادًا دهاةً مقتدرينَ على الخداعِ الشّريفِ يسوقونها إلى سعادةِ أممهم وَهَنَائها، وحرّيتِها واستقلالِهَا.

(١٠) ليسَ وجودُ التّهوّسِ والتحمّسِ والغضبِ والتّهورِ في حزبٍ من الأحزابِ المصريّة دليلًا على تأخُّرِ الأمّةِ وانحطاطِها انحطاطًا كثيرًا لأنّها صفاتٌ عامّةٌ في كلّ الجموعِ الشرقيّةِ والغربيّة وإنْ كانَ خطرُها علينا أكثرَ من خطرِها على غيرنا.

❋ ❋ ❋

---

(١) الخطل: الفساد في الرأي. (٢) الرزيئة: المصيبة.

(٣) الأرب: الهدف والغاية.

لصّ في أثواب جائع

قرأتُ في بعضِ الرّواياتِ أنّ فتًى قضى حقبةً من دَهرِه مُولَعًا بحبّ فتاةٍ خياليّة لم يرَها مرّةً واحدةً في حياتِه، وإنّما تخيّلَ في ذهنه صورةً ألِفَهَا من شتّى المحاسنِ ومتفرّقاتها في صُورِ البَشر. فلما استقرّتْ في مخيّلتِه تجسّمتْ في عينيهِ فرآها فأحبّها حبًّا مَلَكَ عليه قلبَهُ وحالَ بينه وبين نفسِه، وذهبَ به كلّ مذهبٍ. فأنشأ يفتّش عنها بين سَمْعِ الأرض وَبَصرِها أعوامًا طوالًا حتّى وجدها.

لا أستطيعُ أن أكذّبَ هذه القصّةَ لأنّي أنا ذلكَ الفتى لا فرقَ بيني وبينَه إلّا أنّه يسمّي ضالّته الفتاةَ وأسمّيها الفضيلةَ، وأنّه فتّش عنها فوجَدَها وفتّشْتُ عنها حتّى عَيِيتُ بأمرها فما وجدتُ إليها سبيلًا.

فتّشْتُ عن الفضيلةِ في حوانيتِ التجّارِ فرأيتُ التّاجر لصًّا في أثوابِ بائع. وجدتُه يبيعُني بدينارينِ ما ثمنُهُ دينارٌ واحدٌ، فعلمتُ أنّه سارقُ الدينارِ الثّاني، ولو وُكِلَ إليّ أمرُ القضاءِ ما هانَ عليّ أن أعاقبَ لصوصَ الدّراهمِ وأغفلَ لصوصَ الدّنانيرِ ما دامَ كلٌّ منهما يسلبني مالي ويتغفّلني عنه.

أنا لا أُنكر عَلى التّاجر ربحَه ولكنْ أُنكرُ عليه أن يتناولَ منه فوقَ جزائِه على جهدِ نفسِه في جلبِ السّلعةِ، وبَذْلِ راحتِه في صَوْنِها وإحرازِها. وكلّ ما أعرفُ من الفرق بين حلالِ المالِ وحرامِه أنّ الأوّلَ بدلُ الجدِّ والعملِ، والثّاني بدلُ الغشّ والكذب.

فَتّشْتُ عن الفضيلةِ في مجالسِ القَضاءِ، فرأيتُ أنّ أعدلَ القضاةِ من يحرصُ الحرصَ كلَّهُ على أن لا يهفوَ في تطبيقِ القانونِ الذي بينَ يديهِ هفوةً يحاسِبُه عليها مَنْ مَنَحَهُ هذا الكرسيّ الذي يجلسُ عليه مخافةَ أن يسلبه إيّاه: أمّا إنصافُ المظلومِ والضّربُ على يدِ الظّالم وإراحةُ الحقوقِ على أهلها وإنزالُ العقوباتِ منازِلَها من الذنوبِ فهيَ عندَهُ ذيولٌ وأذنابٌ لا يأبه[1] لها ولا يحتفلُ بشأنها إلّا إذا أشرقَ عليها الكوكبُ بسعدِه فمشَتْ مع القانونِ في طريقٍ واحدٍ مصادفةً وإنفاقًا.

فإذا اختلفَ طريقُهما بين يديهِ حكمَ بغيرِ ما يعتقدُ ونطقَ بغيرِ ما يعلمُ وأدانَ البَريءَ وبرّأَ الجاني. فإذا عتبَ عليهِ في ذلكَ عاتبٌ كانتْ معذرتُهُ إليه حُكمَ القانونِ عليه كأنّما يريدُ أن يجعلَ العقلَ أسيرَ القانونِ وما القانونُ إلّا حسنةٌ من حسناتِ العقلِ ومن صنائِعِه.

هذا شأنُ أعدلِ القضاةِ وأهداهُم إلى الحقّ وأقومِهِمْ سبيلًا. أمّا الآخرونَ فيطبّقون أحكامَهُم على قانونِ الرّبح وينزلونَ من الدّينارِ منزلةَ اللّازم من الملزوم فيدورونَ معهُ وُجودًا وعَدَمًا.

فتّشتُ عن الفَضيلةِ في قصورِ الأغنياءِ فرأيتُ الغنيَّ إمّا شحيحًا أو متلافًا[2]. أمّا الأوّلُ فلو

---

(١) أبه للشيء: تفطن له واحتفل به.

(٢) متلف لماله: ينفق منه دون حساب.

كانَ جارًا لِبَيْتِ فاطمةَ رضي الله عنها وسمعَ في جوفِ اللّيلِ أنينها وأنينَ ولديها من الجوعِ ما مد إصبعيه إلى أذنيهِ ثقةً منه أنّ قلبه المتحجّرَ لا تنفذُه نسماتُ الرّحمةِ ولا تمرّ بين أثنائِه نَسَماتُ الإحسان. وأمّا الثّاني فماله بين ثغرِ الحسناءِ، وثغرِ الصهباءِ فعلى يدِ أيِّ رجلٍ من هذين الرجلين تدخلُ الفضيلةُ قصورَ الأغنياء.

فتّشتُ عنها في مجامعِ السّياسةِ فرأيتُ أنّ المعاهدةَ والاتّفاقَ والقاعدةَ والشّرطَ ألفاظٌ مترادفةٌ معناها الكذب.

ورأيتُ أنّ الملكَ في كرسيّ مملكته، كالحوذيّ[١] في كرسيّ عربته. لا فرقَ بينهما إلّا أنّ هذا ينقضُ «تعريفته»، وذاكَ ينقضُ معاهدته. ورأيتُ أنّ أعدى عدوٍّ للإنسانِ الإنسانُ، وأنّ كلّ أمّةٍ قد أعدّتْ في مخازنِهَا ومستودَعَاتِها وفي بطونِ قِلاعها وعلى ظهورِ سُفُنِها ما شاءَ الله أن تعدّهُ لأختها من عُدَدِ الموت وأفانينِ العذاب، حتّى إذا وقعَ بينهما الخُلْفُ على حدٍّ من الحدودِ أو لقبٍ من الألقابِ لبسَ الإنسانُ فروةَ السّبعِ واتّخذَ من تلك العُدَدِ الوحشيّةِ أظفارًا كأظفارِه وأنيابًا كأنيابِه، فشحذَ الأولى وكشّر عن الأخرى، ثمّ هَجَمَ على ولدِ أبيه وابنِ أمّه هجمةً لا يعودُ إلّا بهِ أو بنفسِه التي بَيْنَ جنبيه.

وإنّك لو سألتَ الجنديّينِ المتقاتلينِ ما خَطْبُكُما وما شأنُكما وَعَلامَ تقتتلانِ، وما هذه الموجدةُ التي تحملانِها بين جنبَيْكما ومتى ابتدأتِ الخصومةُ بينكما، وعهدي بكُما أنّكما ما تعارفتما إلّا في السّاعةِ التي اقتتلتُمَا فيها لعرفتَ أنّهما مخدوعانِ عن نفسَيْهما وأنّهما ما خرجَا من ديارِهما لا ليضَعَا درّة في تاجِ الملكِ أو «نيشانًا» في صدرِ القائد.

فتّشتُ عنها بين رجالِ الدّين ورجالِ الصّحفِ فرأيتُ أنّهما يتّجرانِ بالعقولِ في أسواقِ الجهلِ، ورأيتُ كلًّا منهما قد ثَغَر[٢] له في رأسٍ من رؤوسِ البشرِ ثغرةً ينحدرُ منها إلى العقولِ، فيفسدُها وإلى القلوب، فيقتُلُها ليتوسّلَ بذلكَ إلى الذّخائرِ فيسرقُها، والخزائنِ فيسلبُها. هذا باسم الوطنيّة وذاك باسم الدينِ.

فتّشتُ عنها في كل مكانٍ أعلمُ أنّه تربَتُهَا وموطِنُها فلمْ أعْثُرْ بها، فليتَ شعري هل أجدُها في الحاناتِ والمواخيرِ[٣] أو في مغاراتِ اللّصوصِ أو بين جدرانِ السّجون.

سيقولُ كثيرٌ من الناسِ قد غلا[٤] الكاتب في كلمتِهِ وجاوزَ الحدَّ في تقديرِه، فالفضيلةُ لا تزال تجدُ في صدروِ الناسِ صدرًا رحبًا، وموردًا عذبًا. وإنّي قائلٌ لهمْ قبلَ أن يقولوا كلمتهم إنّي لا أنكرُ وجودَ الفضيلةِ ولكنّني أجهلُ مكانها. فقد عقدَ رياءُ النّاسِ أمامَ عينيّ سحابةً سوداءَ أظلمَ لها بَصَري حتّى ما أجدُ في صفحةِ السّماءِ نَجْمًا لامعًا ولا كوكبًا سَاطِعًا.

كلُّ النّاسِ يدّعي الفضيلةَ وينتحِلُها، وكلّهم يلبسُ لِبَاسَها ويرتدي ردَاءَها ويعدّ لها عدّتَهَا من

---

(١) الحوذي: سائق العربة.
(٢) ثغر: كسر.
(٣) المواخير: بيوت الدعارة.
(٤) غلا: بالغ في حديثه.

منظرٍ يستهوي الأذكياءَ والأغنياءَ، ومظهرٍ يخدعُ أسوأَ النّاسِ بالنّاس ظنًّا. وَمَنْ لي بالوُصولِ إليها في هذا الظّلامِ الحالكِ والليلِ الأليلِ.

إنْ كانَ صحيحًا ما يتحدّثُ به النّاسُ من سعادةِ الحياةِ وطيبِها وغبطتِها ونعيمها، فسعادتي فيها أن أعثرَ في طريقي في يوم من أيّامِ حياتي بصديقٍ يصدقُني الودَّ وأصدقه، فَيُقنِعُه منّي ودّي وإخلاصي دون أن يتجاوزَ ذلك إلى ما وراءَه وأن يكونَ شريفَ النّفسِ فلا يطمعُ في غيرِ مطمع، شريفَ القلبِ فلا يحملُ حقدًا ولا يحفظ وترًا ولا يحدّثُ نفسه في خلوته بغيرِ ما يحدّثُ به خُلَطاءَه في محضره، شريفَ اللّسانِ فلا يكذبُ ولا ينمّ ولا يُلِمُّ بعرضٍ ولا ينطق بهجرٍ[1]، شريفَ الحبّ فلا يحبُّ غيرَ الفضيلةِ ولا يبغضُ غيرَ الرذيلة.

هذه هي السّعادةُ التي أتمنّاها ولا أراها.

إنّي لأرى الرّياضَ الغنّاء تهفو أشجارها، وترنّ أطيارُها وأرى جداول الماءِ تنسابُ بين أنوارِها وأزهارِها انسيابَ الأفاعي الرقطاءِ في الرّمالِ البيضاء. وأرى أناملَ النّسائم تعبثُ بمنثوراتِ الأوراق، عبثَ الهوى بألبابِ العشّاق. وأسمعُ ما بين صفيرِ البلابلِ، وخريرِ الجداولِ نغماتٍ شجيّةً تبلغ من نفسِ الإنسانِ ما لا تبلغُ أوتارُ العيدانِ، فلا يسرّني منظرٌ ولا يطربني مَسْمَعٌ لأنّي لا أرى بين هذه المشاهدِ التي أراها ضالّتي التي أنشُدُها.

لقد سَمُجَ[2] وجهُ الرّذيلةِ في عيني وثَقُلَ حديثها في مسمعي حتّى أصبحتُ أتمنّى أن أعيشَ بلا قلبٍ فلا أشعرُ بخيرِها وشرِّها وسرورِها وحزنِها.

ولولا بنيّاتٌ صغارٌ يفقدنَ بفقدي طِيبَ العيشِ ونعيمَهُ لَفَرَرْتُ من هذا العالمِ النّاطقِ إلى ذلكَ العالمِ الصّامتِ فأجدُ من الأنس به والسّكون إليه ما وجده الذي يقول:

عوى الذّئبُ فاستأنستُ للذّئبِ إذْ عوى ... وَصَوّتَ إنسانٌ فَكِدْتُ أطيرُ[3]

❀ ❀ ❀

الحزين

إنْ كنتَ تعلمُ أنّك قد أخذتَ على الدّهرِ عهدًا أن يكونَ لكَ كما تريدُ في جميعِ شؤونِك وأطوارِك وألّا يعطيكَ ولا يمنعُكَ إلا كما تحبّ وتشتهي فجديرٌ بكَ أن تطلقَ لنفسكَ في سبيل الحزن عنانَهَا كلّما فاتك مأرب، أو تعذّرَ عليك مطلبٌ؛ وإن كنتَ تعلمُ أخلاقَ الأيّامِ في أخذِها وردِّها، وعطائِها ومنعها، وأنّها لا تنامُ على منحةٍ تمنحُهَا حتّى تكرَّ عليها راجعةً فتستردَّها، وأنّ هذه سنّتُهَا وتلكَ خلّتها[4] في جميعِ أبناءِ آدمَ سواءٌ في ذلك ساكنُ القصرِ

---

(١) الهجر: الفحش في الكلام. (٢) سمج: قبح.

(٣) كدت أطير: أي من شدّة الخوف والقلق. (٤) الخلّة: الخصلة والعادة.

وساكنُ الكوخِ ومن يطأُ بنصالِه هامَ الجوزاء، ومن ينامُ على بساطِ الغبراء. فخفِّضْ من حزنِك، وكفكِفْ من دمعِكَ، فما أنت بأوّلِ غرَضٍ أصابَه سَهْمُ الزّمان، وما مصابُكَ بدعةٌ خارقةٌ في جريدةِ المصائبِ والأحزان.

أنتَ حزينٌ لأنّ نجمًا زاهرًا من الأملِ كانَ يتراءى لكَ في سماءِ حياتِك فيملأُ عينيكَ نورًا، وقلبَك سرورًا، وما هي إلا كَرّةُ الطرفِ أنِ افتقَدْتَه فما وجدْتَه. ولو أنّك أجملتَ في أملِكَ، لَمَا غلوتَ في حزنك. ولو أنعمتَ نظركَ فيما تراءى لكَ لرأيتَ برقًا خاطفًا ما تظنُّه نجمًا زاهرًا. وهنالك لا يبهرك طلوعُهُ، فلا يفجعُكَ أُفوله.

أسعدُ النّاسِ في هذهِ الحياةِ مَنْ إذا وافته النّعمةُ تَنَكَّرَ لها ونظرَ إليها نظرَ المستريبِ بها وتَرقّبَ في كلِّ ساعةٍ زوالها وفناءَها، فإنْ بقيتْ في يدِهِ فذاكَ وإلّا فقد أعدّ لفراقها عُدّته مِن قَبْلُ.

لولا السّرورُ في ساعةِ الميلادِ ما كان البكاءُ ساعةَ الموتِ ولولا الوثوقُ بدوامِ الغنى ما كانَ الجزعُ من الفقرِ. ولولا فرحةُ التلاق ما كانتْ تَرْحَةُ الفراق.



المرأة الجاهلة

مسكينٌ ذلكَ الفَتى الذي رأيتُه أمس في إحدى زَوَايا الأنديةِ العامّةِ وقد ظَلّلَتْ جبينَهُ الوضّاحَ سحابةٌ سوداءُ من الحزنِ وانحنى على نفسِه كأنّه شعرَ بأنّ قلبَه يتمشّى في صدرِه وأنّه يحاولُ الفرارَ منه، فهو يعطفُ عليه ليمسكَه بين جوانحه. ولو أنّه أرادَ بنفسِه خيرًا لتركَه يمضِي في سبيلِه حيثُ شاء. فبعدًا لقلبٍ لا يسكنُ عن الخَفَقانِ ولا يُفِيقُ من الهمومِ والأحزان.

سألتُه ما بالُكَ أيّها الصّديقُ؟ قال: لا شيءَ. قلتُ: أنتَ تكتمُني ما في نفسِكَ ولو عرفتني ما كَتَمْتَنِي. قال: ما جهلتُكَ مذْ عرفتُكَ ولكنّني أعطيتُ الله عهدًا ألا أشكو إلّا من أَرجُو عنده البُرْءَ. وما أنا بِرَاجٍ عندكَ ولا عندَ أحدٍ من النّاسِ برأً من دائي. وقلت: هَبْني[1] طبيبًا والطّبيبُ كما تعلمُ وإن كان يشفي نادرًا فإنّه يسكّن غالبًا ويعزّي دائمًا، فأنا إنْ عجزتُ من معالجَتِكَ، فلا أعجزُ عن تعزيتِكَ على أنّ الماءَ إذا اشتدّ غليانُه احتاجَ إلى التّنفّسِ وإلّا طارَ بالقدرِ طيرانَ الهَمّ بالصّدر.

فأنشأ يحدّثني حديثًا تمازجُه العبراتُ، وتقطَعُه الزفرات، ويقول: زوّجني أبي منذ سنينَ زوجةً جاهلةً غبيّةً لا تفهم مِنْ معنى الزواجِ إلا أنّ فيه قضاءَ لُبَانتها[2]، وترفيهَ عيشِها، وإرضاءَ نفسِها، وهو يحسَبُ أنه قد أحسَنَ إليَّ بسَليلةِ[3] المجدِ ورَبيبةِ النّعمةِ ومالكةِ الدُّور وساكنةِ

(١) هبني: احسبني.
(٢) اللبانة: الحاجة.
(٣) سليلة: ابنة.

القصور. أجلْ إنّها ذاتُ مالٍ وفيرٍ وخيرٍ كثير. ولكنّي ما كنت أريد أن أكون تاجرًا أكسب مالًا بلْ زوجًا أجدُ بجانبي نفسًا يؤنسني محضَرُها ويوحِشني مَغِيبُها ومرآة صافيةً نقية أتراءى فيها فَتُريني نفسي كَمَا هي لا تكذبني في خيرٍ ولا شر. إني أريد أن أجدَ في الزّوجةِ التي أتزوّجها صديقًا في المرتبةِ العليا من مراتبِ الصّداقةِ ومن لي به في امرأةٍ تجهلُ حتّى إرضاعَ طفلِها ولبسَ ثوبها.

على أن ثروَتَها ما كانتْ تقومُ بحاجَتِها، فقد كانتْ لها خادمٌ لملابسها وأخرى لشعرِها وأخرى لسَريرها، وطابخةٌ وغاسلةٌ و مُرضعٌ وقهرمانةٌ وخيّاطةٌ خاصة بها وطبيب لا يغبّ[١] زيارَتَها ومؤنساتٌ لا يفارقنَ مجلسَهَا. ولم تكنْ ممّنْ أنْعَمَ الله عليهن بنعمةِ الجمالِ فكانتْ تنفقُ ما يزيدُ على نصفِ دَخْلِها في الحسنِ المجلوبِ والجمالِ المكذوبِ.

وليتَها كانتْ تغفلُ أمري وتتركني وشأني فأستطيعُ أن أتناسَاها وأنقذَ نفسي من العذابِ تخيلًا وتقديرًا، بل كانتْ تقيم من نفسِها ومن هذا الجحفلِ اللّجِب[٢] المحيطِ بها حرّاسًا كحراسِ اللّيلِ وجواسيسَ كجواسيسِ الأستانةِ يراقبنَ مواقعَ نظري ومواطئَ قدمي لتعلمَ أينَ مَذْهَبُ قلبي ووجهةُ نفسي، فتغارُ من الكوكب إذا رأتني أنظرُ إليه وتكادُ تمزّقَ الثوبَ الذي أتعشّقُ لبسَهُ وتحسَبُها آهةَ الوجدِ أو دمعةَ الحبّ إذا رأتني أتأوّه من آلامِ عشرتِهَا أو أبكي لعظم مصيبتي فيها. وما هي بغيرةِ الحبّ ولكنّها الأَثَرة[٣] قبّحها الله وقبّحَ كلَّ ما تأتي به.

وأكثر ما كان يغيظني منها أنّها ما كانتْ تفتحُ عليّ بابَ الحسابِ على اللّفتاتِ والخُطواتِ إلّا في السّاعةِ التي أخلو فيها بنفسي أو بِكتَابي فما أكادُ أنتفع بواحدٍ منهما. فإنْ سَكَتُّ أغضَبَها سكوتي وإن نطقتُ أغضَبَها حديثي. وإن قرأتُ في كتابي ظنّتْ أنّ المؤلفينَ ما ألّفوا الكتبَ إلا نكايةً بالنّساء لكي يتّخذَها الرّجالُ ملجأً يعتصمونَ به من محادثتِهم ومسامرتهم. فكانَ الكتابُ أعدَى أعدائِها عندَها وأبغضَ خصومِها إليها. وجملةُ القولِ إنّها ما كانتْ تستطيعُ أن تتصوّرَ إلّا أنّ الله خلقَها لتكونَ طفلةً لاهيةً لاعبةً في جميعِ أطوارِ حياتها وأنّه ما خلقني إلّا لأكونَ زينةَ مجلسِها ودميةَ[٤] قصرِها وأداةَ لهوِها ولعبِها.

فلا أقرأُ ولا أكتبُ ولا أعطي نفسي حقًّا من حقّها ولا أبكّرُ لمزاولةِ أعمالي ولا أسأَمُ أَحاديثَهَا الطويلةَ المُمِلّةَ التي لا تشتملُ إلّا على نقدِ الأزياءِ، واغتيابِ النساءِ، فإن وافيتُ رغبتَها فذاكَ، وإلّا استحالتْ في لحظةٍ واحدةٍ من إنسانٍ ناطقٍ إلى وحشٍ مفترسٍ، فلا تعرفُ كلمةً مؤلمةً لا تسمِعُنِيها ولا تتركُ وسيلةً من وسائلِ التّنغيصِ إلّا تهجُمُ بها عليّ، فكنتُ بين ألمِ رضاها وعذابِ غضبها في شقاءٍ حبّب إليّ الموتَ وبغّضَ إلي وجهَ الحياةِ. وبعدُ فقدْ رأيتُ أنّ

---

(١) غب فلان القوم: جاءهم حينًا بعد حين.

(٢) الجحفل: الجيش. واللجب: ذو الجلبة والصياح.

(٣) الأثرة: اختيار الشيء والاستئثار به. (٤) الدمية: الصورة المصورة.

العيشَ معها مستحيلٌ فلم أرَ بدًّا من فراقها ففارقتُها وما على وجهِ الأرضِ أبغضُ إليّ من المجدِ ولا أسمجُ في نظري من المَال.

نفضتُ يدي من الزوجةِ الجاهلة ورحتُ أفتشُ عن الزوجةِ المتعلّمة، وقلتُ: لِيَكونَنَّ لي من الشّأنِ في الزّواجِ الثّاني ما لم يكنْ لي في الزّواجِ الأوّل بعدما صارَ إليّ الخيار. وبعد تلكَ التجربةِ وذاكَ الاختبار هَيَّأَ لي الحظُّ جارًا ملاصقًا ما زلتُ أسمعُ مذ حلّ في جواري أنّ في بيته فتاةً ما زال معنيًّا بأمرِها حتّى خرّجها[1] وأدّبها فأصبحتْ نابغةَ مدرستِها وسيّدة أترابها علمًا وفضلًا وتهذيبًا وأدبًا فما قنعتُ بالخَبَر حتّى خالطتُ أباها، ثمّ خالطتها فإذا المرأة الجديدةُ من جميع وجوهِها فوقَعَتْ من نفسي أحسنَ موقعٍ وحلّت مكانًا لم يكنْ حُلَّ من قبلُ.

خطبتُ الفتاةَ إلى أبيها فما لبثَ أنْ أخطَبني[2] فامتلأ قلبي فرحًا وسرورًا وخيل إليّ أنّني أرى في سماءِ الآمالِ نجمًا لامعًا يدنو قليلًا قليلًا وسَجّلْتُ[3] أنّ الدّهرَ أنشأ يكفّرُ بحسناتِه ما أسلفَ من سيّئاتِه. فإنّي لكذلك وقد أعددتُ للبناءِ بها عُدّته ولم يبقَ بيني وبينَه إلّا يومٌ واحدٌ وإذا بحاملِ البريدِ قد جاءني بهذا الكتابِ، فهاكَهُ، فأقرأْهُ فإنّ فيه بقيّةَ قصتي وشرَّ نكبتي. ثمّ ألقى إليّ بغلافٍ معنونٍ باسمِه يشتملُ الكتابُ على رسمِ فتًى حسنِ الصّورةِ والهندامِ يخاصرُ فتاةً جميلةً وقد ألقتْ برأسِهَا على كتفه فقرأتُ في الكتابِ مَا يأتي:

«علمتُ أنّكَ خطبتَ فلانةَ إلى أبيها وأنّكَ عمّا قليلٍ ستكونُ زوجَها، ولعمري لقد كذبكَ نظرُكَ وخدَعَك! من قالَ لكَ إنّكَ ستكونُ سعيدًا بها فإنّها لن تكونَ لكَ بعد أن صارتْ لغيرِك ولا يخلصُ حبّكَ إلى قلبها بعد أن امتلأ بحبّ عاشقها. فاعدلْ عن رأيكَ فيها وانفُضْ يدك منها وأن تعرفَ من هو ذلكَ العاشقُ وتتحقّقَ صِدْقَ خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظرْ إلى الصّورةِ المرسلةِ مع هذا الكتابِ.» التوقيع:

فما نظرتُ الصّورةَ وقرأتُ الكتابَ حتّى عرفتُ كلَّ شيءٍ فأحسستُ برعدةٍ تتمشّى في أعضائي وشعرت بسحابةٍ سوداءَ قد غشت على نظري لهولِ ما سمعتُ وسوءِ ما رأيتُ، إلّا أنّني تماسكتُ قليلًا فأعدتُ إليه كتابَهُ وقلتُ له وهو كل ما استطعتُ أن أقولَ: ماذا يعنيكَ من أمرِ فتاةٍ فاجرةٍ عاهرٍ بعدما انكشفَ لك سرُّها وظهرتْ لك حقيقَتها. ولو كنتُ في مكانِكَ لعدلتُ عن الحزنِ عن فَوْتِهَا إلى الاستغفارِ من حبّها وحمدِ الله على ما ألهَمَ من صوابِ الرأي فيها. أما إنْ سألتني عن رأيي في زواجِكَ بعد ذلكَ فإنّي لا أرى لك بعد اليوم إلّا أن تترهّب وتتعزّب[4] وأن تقولَ ما قاله «هملت» وقد زهدَ في الزواجِ بعدما عرفَ حقيقةَ المرأةِ وأدركَ خبيئة نفسها: «إلى الدير».

❀ ❀ ❀

(١) خرّج الأستاذ تلميذه: هذبه وعلمه.
(٢) يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه: أي أجابه.
(٣) سجل القاضي: قضى وحكم وأثبت حكمه المسجل.
(٤) تعزّب: أي عاش عزبًا لا يتزوج.

الهرّة السجينة

استيقظتُ في فجرِ هذا اليوم على صوتِ هرة تموء[١] بجانبِ الفراشِ وتتمسّح بي وتلحّ في ذلك إلحاحًا غريبًا، فَرَابَني[٢] أمرها وأهمّني همُّها وقلت: لعلّها جائعةٌ، فنهضتُ وأحضرتُ لها طعامًا، فعافتهُ وانصرفَتْ عنه، فقلت: لعلّها عَطِشَةٌ، فأرشدتُها إلى الماءِ فلم تحتفلْ به، وأنشأتْ تنظرُ إليّ نظراتٍ تنطقُ بما تشتملُ عليه نفسُها من الآلامِ والأحزانِ. فأثّر في نفسي منظرُها هذا تأثيرًا شديدًا حتّى تمنيّتُ لو كنتُ سليمانَ أفهمُ لغةَ الحيوانِ، لأعرفَ حاجَتَها، وأفرّجَ كُربَتَها. وكانَ بابُ الغرفةِ مقفلًا فرأيتُ أنّها تطيلُ النّظرَ إليه وتلصقُ بي إذا رأتني أتّجه إليه، فأدركتُ غَرَضَها وعرفتُ أنّها تُريدُ أن أفتحَ لها الباب.

فأسرعتُ بفتحه؛ فما وقعَ نظرُها على الفضاءِ، ورأتْ وجهَ السّماءِ، حتّى استحالتْ حالتُهَا من حزنٍ وَهَمٍّ إلى غبطةٍ وسرورٍ، وانطلقتْ تعدو في سبيلها. فعُدتُ إلى فراشي وأسندتُ رأسي إلى يدي وأنشأتُ أفكّرُ في أمرِ هذه الهرّةِ وأعجَبُ لشأنها وأقول: ليت شعري هل تفهمُ الهرّةُ معنى الحرّيّةِ: تحزنُ لفقدانِها وتفرَح بلقياها. أجلْ إنّها تفهمُ معنى الحريّةِ وما كان حزنُها وبكاؤُها وإمساكُهَا عن الطّعامِ والشّرابِ إلّا من أجلها، وما كان تَضَرُّعُها ورجاؤُها وتَمَسُّحُها وإلحاحُها إلّا سعيًا وراء بلوغِهَا.

وهنا ذكرتُ أنّ كثيرًا من أسرى الاستبدادِ من بني الإنسانِ لا يشعرونَ بما تشعرُ به الهرّةُ المحبوسةُ في الغرفةِ، والوحشُ المعتقلُ في القفصِ والطّيرُ المقصصُ الجناحِ مِنْ ألمِ الأسرِ وشَقائِه. بلْ ربّما كان بينهم من لا يفكّرُ في وجهِ الخلاص أو يلتمسُ السّبيلَ إلى النجاةِ ممّا هو فيه. بل ربّما كانَ بينهم من يتمنّى البقاءَ في هذا السّجنِ يأنسُ به ويتلذّذُ بآلامه وأسقَامِه.

من أصعَبِ المسائلِ التي يحارُ العقلُ البشريّ في حلّها أن يكونَ الحيوانُ الأعجمُ أوسعَ في الحريّة ميدانًا من الحيوانِ الناطقِ، فهل كان نطقُه شؤمًا عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمُلُ أن يتمنّى الخرسَ والبلهَ ليكونَ سعيدًا بحريته كما كان قبل أن يصبح ذكيًا ناطقًا.

يحلّقُ الطّيرُ في الجوّ ويسبحُ السّمكُ في البحرِ ويهيمُ الوحشُ ما شاء في الأوديةِ والجبالِ ويعيشُ الإنسانُ رهينَ المحبسين محبسِ نفسه ومحبسِ حكومتِه من المهدِ إلى اللّحد.

صَنَع الإنسانُ القويُّ للإنسانِ الضّعيفِ سلاسلَ وأغلالًا وسمّاها تارةً ناموسًا وأخرى قانونًا ليظلِمَهُ باسمِ العدلِ ويسلبَ جوهرَ حريّته باسمِ النّاموسِ والنّظام.

صنع له هذه الآلاتِ المخيفةَ وتركه قلقًا حذرًا مروّعَ القلبِ مرتعدَ الفَرَائص[٣] يقيمُ من نفسِه حرّاسًا تراقبُ حركاتِ يديه وخطواتِ رجليه وفلتاتِ لسانه وخطراتِ وَهْمِه وخيالِه لينجوَ من

(١) المواء: صوت الهر. (٢) رابني: أوقعني في الشك.

(٣) الفرائص: جمع فريصة، وهي لحمة بين الكتف والعنق ترتعد وترتجف عند الخوف.

عقابِ المستبدّ ويتخلّصَ من تعذيبِه، فويلٌ له ما أكثرَ جهلَه وويحٌ له ما أشدَّ حمقَه.

وهلْ يُوجَد في الدّنيا عذابٌ أكبرُ من العذابِ الذي يعالِجُه أو سجنٌ أضيقُ من السّجنِ الذي هو فيهِ.

ليستْ جنايةُ المستبدِّ على أسيرِه أنّه سلبَه حريَّتَهُ بلْ جنايتُهُ الكبرى عليه أنّه أَفْسَدَ عليه وجدانَه، فأصبحَ لا يحزنُ لفقدِ تلكَ الحريّةِ ولا يذرفُ دمعةً واحدة عليها.

لو عرفَ الإنسانُ قيمةَ حرّيتِه المسلوبةِ منه وأدركَ حقيقةَ ما يحيطُ بجسمه وعقلِه من السّلاسِلِ والقيودِ لانتحر كما ينتحرُ البلبلُ إذا حبسَه الصّيّادُ في القفصِ وكان ذلكَ خيرًا له من حياةٍ لا يرى فيها شعاعًا من أشعّةِ الحريّةِ ولا تَخْلُصُ إليه نسمةٌ من نَسَمَاتِها.

كانَ في مبدإِ خَلْقِهِ يمشي عريانًا أو يلبسُ لباسًا واسعًا يشبه أن يكون ظِلَّةً تقيه لفحةَ الرّمضاءِ[1] أو هبة النّكباءِ[2]، فوضعوه في القماطِ كما يضعونَ الطّفلَ وكفّنوه كما يكفّنونَ الموتى وقالوا له هكذا نظامُ الأزياءِ.

كَانَ يأكلُ ويشربُ كلّ ما تشتهيهِ نفسُه وما يلتئمُ مع طبيعتِه، فحالوا بينه وبينَ ذلكَ وملأوا قلبه خوفًا من المرضِ أو الموتِ وأبوا ان يأكلَ أو يشربَ إلّا كما يريدُ الطّبيبُ وأن يتكلّمَ أو يكتبَ إلا كما يريد الرئيس الدينيّ أو الحاكمُ السياسيّ وأن يقومَ أو يقعدَ أو يمشي أو يقفَ أو يتحركَ أو يسكنَ إلّا كما تقضي به قوانينُ العادات.

لا سبيلَ إلى السّعادةِ في هذه الحياةِ إلّا إذا عاشَ الإنسانُ فيها حرًّا لا يسيطرُ على جسمِه وعقلِه ونفسِه ووجدانِه وفكرِه إلّا أدبُ النّفسِ.

الحريّةُ شمسٌ يجبُ أن تشرقَ في كلّ نفس، فمن عاشَ محرومًا منها عاشَ في ظلمةٍ حالكةٍ يتّصل أولها بظلمةِ الرّحمِ وآخرها بظلمةِ القبر.

الحريّةُ هي الحياةُ ولولاها لكانتْ حياةُ الإنسانِ أشبهَ شيءٍ بحياةِ التّماثيلِ المتحرّكةِ في أيدي الأطفالِ بحركةٍ صناعيّةٍ.

ليستِ الحريّةُ في تاريخِ الإنسانِ حادثًا جديدًا، أو طارئًا غريبًا وإنّما هي فطرتُه التي فطرَ عليها مذْ كانَ وحشًا يتسلّقُ الصّخورَ، ويتعلّقُ بأغصانِ الأشجارِ.

إنّ الإنسانَ الذي يمد يده يطلبُ الحريّةَ ليس بمتسوّلٍ ولا مستجدٍ[3] وإنما هو يطلبُ حقًّا من حقوقِه التي سَلَبَتْهُ إيّاها المطامعُ البشريّةُ، فإن ظفرَ بها فلا مِنّةَ لمخلوقٍ عليه ولا يدَ لأحدٍ عندَه.

❃ ❃ ❃

---

(١) الرمضاء: شدّة الحرّ.

(٢) النكباء: الريح تهب بين ريحين.

(٣) المستجدي: المستعطي.

الدعوة

ما مِنْ قائم يقومُ في مجتمعٍ من هذهِ المجتمعاتِ البشريّةِ داعيًا إلى تَرْكِ ضلالةٍ من الضّلالاتِ إلّا وقد آذنَ نفسه بحربٍ لا تخمدُ نارُها ولا يخبو أورُاها[١] حتّى تهلكَ الضلالةُ أو يهلكَ دونَهَا.

ليسَ موقفُ الجنديّ في معتركِ الحربِ بأحرجَ من موقفِ المرشدِ في معتركِ الدعوةِ، وليسَ سَلْبُ الأجسام أرواحَهَا بأقربَ منالًا من سلبِ النّفوسِ غرائزَها وميولَها.

لا يضنّ الإنسانُ بشيءٍ ممّا تملكُ يمينُه ضنّةً بما تنطوي عليه جوانِحُه من المعتقداتِ، وإنّه لَيَبذُلُ دَمَهُ صيانةً لعقيدتِهِ ولا يبذلُ عقيدَتَه صيانة لِدَمه. وما سالتِ الدّماءُ ولا تمزقَتِ الأشلاءُ في موقفِ الحروبِ البشريّةِ من عهدِ آدمَ إلى اليومَ إلّا حمايةً للمبادئ وذودًا عن العقائدِ.

لذلكَ كانَ الدّعاةُ في الأمم أعداءَها وخصومَها لأنهم يحاولونَ أن يرزؤوها[٢] في ذخائرِ نفوسها ويفجَعُوها في أعلاقِ[٣] قلوبِها.

«الدّعاةُ الصّادقونَ لا يبالونَ أن يسمّيَهُمُ الناسُ خونةً أو جهلةً أو ملحدينَ أو ضالّينَ أو كافرينَ لأنّ ذلك ما لا بُدَّ أن يكون».

الدّعاة الصّادقونَ يعلمونَ أنّ محمدًا ﷺ عاشَ بين أعدائه ساحرًا كذابًا فلمّا ماتَ كانَ سيّد المرسلينَ، وأنّ الغزالي عاش متّهمًا بالكفرِ والإلحادِ، وماتَ حجّةَ الإسلامِ وأنّ ابنَ رشدٍ عاش ذليلًا مهانًا حتّى كان النّاسُ يبصقونَ عليه إذا رأوه وماتَ فيلسوفَ الشرقِ. فهم يحبّونَ أن يكونوا أمثالَ هؤلاءِ العظماءِ أحياءً وأمواتًا.

سيقولُ كثيرٌ من النّاسِ: وما يُغني الدّاعي دعاؤُه في أمّةٍ لا تحسنُ به ظنًّا، ولا تسمعُ له قولًا. إنّه يضرُّ نفسه من حيثُ لا ينفعُ أمتَه فيكونُ أجهلَ النّاسِ وأحمقَ الناس.

هذا ما يوسوسُ به الشّيطانُ للعاجزينَ الجاهلين وهذا هو الدّاءُ الذي ألَمَّ بنفوسِ كثيرٍ من العلماءِ فأسكتَ ألسنتَهُم عن قولِ الحقّ وحبسَ نفوسَهم عن الانطلاقِ في سبيلِ الهدايةِ والإشارةِ، فأصبحوا لا عملَ لهم إلا أن يكرّروا للنّاسِ ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون. فجمدتِ الأذهانُ وسكنتِ المداركُ وأصبحتِ العقولُ في سجنٍ مظلمٍ لا تطلعُ عليه الشّمسُ ولا ينفذُ إليه الهواء.

الجهل غشاءٌ سميكٌ يغشى العقولَ، والعلمُ نارٌ متأجّجةٌ تلامسُ ذلك الغشاءَ فتحرقُه رويدًا رويدًا فلا يزالُ العقلُ يتألّمُ لحرارتها ما دامَ الغشاءُ بينه وبينها حتّى إذا أتتْ عليهِ انكشفَ له الغطاءُ فرأى النّار نورًا والألمَ لذّة وسرورًا.

---

(١) أوار النار: شدّة وهجها وحرّها. (٢) يرزؤوها: يصيبوها.

(٣) الأعلاق: جمع علق وهو كلّ شيء نفيس.

لا يستطيعُ الباطلُ أن يصرعَ الحقّ في ميدانٍ، لأنّ الحقَّ وجودٌ والباطلَ عدمٌ؛ وإنّما يصرعه جهلُ العلماءِ بقوّته ويأسُهُم من غَلَبَتِهِ وإغفالُهُم النّداءَ به والدّعاءَ إليه.

مُحالٌ أن يهدمَ بناءَ الباطل فردٌ واحدٌ في عصرٍ واحدٍ وإنّما يهدِمُه أفرادٌ متعدّدون في عصورٍ متعدّدةٍ، فيهزّ الأول هزّة تباعد ما بين أحجارِه ثمَّ يَنْقُضُ الثّاني حجرًا والثالثُ آخرَ وهكذا حتّى لا يبقى فيه حجرٌ على حجر.

الجهلاءُ مرضى والعلماءُ أطباءُ ولا يجمل بالطبيبِ أنْ يُحجِمَ عن العملِ الجراحيّ فرارًا من إزعاجِ المريضِ أو خوفًا من صريخِه وعويلِه أو اتّقاءً لسبّهِ وشتمِه فإنّه سيكون غدًا أصدقَ أصدقائِه وأحبَّ النّاس إليه.

وَبَعْدُ فقليلٌ أن يكونَ الدّاعي في الأمة حبيبًا إليها إلّا إذا كان خائنًا في دعوتِه سالكًا الرّياءِ والدّهاءِ في هدايته. وقليلٌ أنْ ينالَ حظَّه من إكرامها وإجلالها إلّا بعدَ أن تتجرَّع مرارةَ دوائِهِ وتشعرَ بحلاوةِ الشّفاء بعد مرارةِ ذلكَ الدواء.

الدّعاةُ في هذه الأمّةِ كثيرونَ ملءَ الفضاء، وكظّة[1] الأرضِ والسّماء. ولكن لا يكادُ يوجدُ بينَهُم داعٍ لأنه لا يوجدُ بينَهم شجاع.

أصحابُ الصحفِ وكتّابُ الرسائلِ والمؤلّفونَ وخطباءُ المجامعِ وخطباءُ المنابرِ كلُّهم يدعونَ إلى الحقّ وكلُّهم يعظونَ وينصحُون ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكر ولكنْ لا يوجدُ بينهُمْ مَنْ يستطيعُ أن يحملَ في سبيلِ الدعوةِ ضرًّا أو يلاقيَ في طريقِهَا شرًّا.

❁ ❁ ❁

الاتحاد

ألمّتْ بي في تلكَ الفترةِ الماضيةِ كربةٌ[2] من تلكَ الكُرَبِ التي لا تزالُ تتعهّدني كما تتعهّدُ المحمومَ نوباتُه حينًا بعدَ حينٍ، كربةٌ ما كفاها أنّها أمسكتْ قلمي عن الكتابةِ وفكري عن الحركةِ حتّى حالتْ بيني وبين مطالعةِ الصّحفِ وإشرافٍ على الأمّةِ من نوافِذِها برهةً من الزّمانِ، ثمّ أدركتني رحمةُ الله فاستفقتُ فإذا صَخبٌ ولجبٌ، وغوغاءٌ وضوضاءٌ، وأصواتٌ مِلءَ الفضاءِ، وكظّةُ الأرضِ والسّماءِ، فما هو إلّا سؤالُ السّائلِ وإجابةُ المجيب حتّى عرفتُ كلّ شيءٍ.

عرفتُ أنّ الأمّةَالشّرقيّةَ في موقفٍ من أحرجِ مواقِفِها، ومسلكٍ من أضَلِّ مسالِكِهَا، وأنّها بين ماضِغَي الأسدِ وفوقَ رَوْقِ الظبي[3]، وأنّ حوادثَ الدّهرِ وعادياتِ الأيامِ قد ملكَتْ عليها

(١) الكظّة: الامتلاء.
(٢) الكربة: الشدّة والضيق.
(٣) روق الظبي: قرنه.

سبيلَهَا والتفّت حولها التفاف الحيّة بالعنقِ وأحاطتْ بها إحاطةَ الجامعةِ باليدِ والقيدِ بالرِّجْلِ. فمثَلُها كمَثلِ رجلٍ أحاطتْ النّار بَيْتَهُ من كلّ جانبٍ وعلقتْ بسقوفِهِ وجدرانِهِ ونوافِذِه وأبوابه، فما هو بناجٍ إنْ أرادَ نجاءً، ولا بباقٍ إنْ أرادَ بقاءً، بل مَثَلُها كمثلِ آخرَ ضَلَّ به سبيلُه واشتبهتْ عليه مسالِكُه في ليلةٍ داجيةٍ مدلهمّةٍ[١] قد غابتْ كواكبُهَا واستسرّتْ نجومُها فوقفَ وقفةَ الحائرِ المضطربِ يسمعُ العواءَ والزّئيرَ، والضّجيجَ والصّفيرَ، فلا يعلمُ أيَزْدادُ ضلالًا، أم يحجمُ فلا يجدُ مجالًا، أم يقف فيصبحُ فريسةَ المفترسِ ولقمةَ المزدرد[٢].

عرفتُ أنّ الأمّةَ الشّرقيّةَ أصبحتْ لا تدري ما تريدُ ولا ما يُرادُ لها ولا تَجدُ من يردّ إليها رُشْدَهَا ولا من يمدّ يدَه إليها ليأخذَ بيدِها في هذا الظّلامِ الحالِك واللّيلِ المدلهمّ[٣].

كثر رؤساؤها، وتعدّدتْ قادتُهَا، وتنوّعتْ مذاهبُهم واختلفَتْ طُرُقُهُمْ، واستحكمتْ حلقاتُ البأسِ بينهم، فلم يتّفقوا في شأنٍ من شؤونِ هذه الأمّةِ على شيءٍ إلّا على وضعِ حبلٍ متينٍ في عنقها قد أخذَ كلٌّ منهم بطرفٍ من عرفِهِ يجذبُه إليه جذبةَ المستقتلِ المستميتِ حتّى بُحَّ صوتُها وضاقَ صدرُها، وتعلّقتْ أنفاسها، وجحظَتْ مقلتاها، وجفّ ريقُها وتحجّر لسانُها، وهُمْ ينظرونَ إليها نظرةَ الدّاعب اللّاعب؛ ولا أحسبُ أنّهم تارِكوها حتّى يفرّقوا بين الرّأس والجسدِ فراقًا لا لقاءَ من بعدِه إلى يومَ يبعثون.

لو بُعِثَ أرسطو واضعُ علمِ المنطقِ من قبرِهِ وأرادَ أن يضعَ لهذه الأمّةِ حدًّا تامًّا جامعًا مانعًا لما استطاعَ إلّا أن يضعَ لها هذا الحدّ (الأمة الشرقيّةُ هي التي تصدّقُ كلّ ما يقال) ولقد عَرِفَ كلُّ أولئكَ اللاعبين بها والعابثينَ بميولِها وأهوائِها منها هذا الخُلُقَ وتلكَ الطبيعةَ وكانوا قساةَ القلوبِ غلاظَ الأكبادِ، فنفذوا من تلك الآذانِ اللّيّنةِ إلى تلك القلوبِ الطيّبةِ فما بلغوها حتّى أخذوا يلعبونَ بها لُعْبَ الصبيّ بكرتِهِ ويتلقّفونها واحدًا بعد واحدٍ، فهي لا ترتفعُ حتّى تتناولها الصّوالجةُ[٤] ولا تستقرُّ حتى تدفعَها الأقدام. كلٌّ يزعمُ أنّه صديقُها وكلٌّ يزعمُ أنّه يدلّها على عدوّها، والله يعلمُ أنّهم أعداؤُها قبلَ الأعداءِ، وخصومُها قبل أكثرِ الخصماء، وأنّ السّماءَ بصواعقها ورجومِها، والأرضَ بزلازِلِها وبراكينِها أعجزُ من أن تبلغَ منها ما بلغوه، أو تجنيَ عليها ما جنوه.

فيا أيّها الرؤساءُ والزعماءُ:

أيَّ خيرٍ تطلبونَ لهذه الأمّةِ بعد أن فرّقتموها شيعًا، وصيّرتموها أحزابًا وقسّمتوها على أنفسها، وقطعتُمْ أوصالَهَا ووشائِجَها[٥]، وألقيتمُ العداوةَ والبغضاءَ بين الرّجلِ وولدِه والرّجلِ وأخيه والجارِ وجارِه والصّديقِ وصديقه، حتّى ركبَ كلُّ فردٍ من أفرادِها رأسَهُ ومضى لسبيلِهِ،

---

(١) مدلهمّة: مظلمة داجية.

(٢) ازدرد اللقمة: بلعها بسرعة.

(٣) المدلهمّ: الشديد السواد.

(٤) الصوالجة: جمع صولجان وهو عصا الملك.

(٥) الوشائج: صلات القربى.

وحتّى تناكرتِ الوجوهُ واستوحشتِ النفوس، وأصبحتْ ساحةُ البلدِ كساحةِ الحرب، لا ترى فيها إلا نابًا يقرع نابًا، وعينًا تنظرُ شزرًا[١]، وصدرًا يغلي حقدًا وقلبًا يخفقُ خوفًا وحَذَرًا.

كلّ غرضٍ تزعَمُونَ أنّكم تسعونَ إليه لإبلاغ هذه الأمّةِ أمنيتَها من السّعادةِ والهناءِ لا قيمة له بعدما أضعتُمْ عليها من أغراضِهَا إلّا إذا كانَ الاتّحادُ قائدَهَا إليه ودليلَهَا عليه.

ليس هذا التّنافرُ بين أفرادِ الأمّةِ والتفرّقِ بين جمعيّاتها حالةً من الحالاتِ الطبيعيّةِ التي لا بد منها ولا مناصَ عنها، أو حادثةً من الحوادثِ السّماويّةِ التي تحتملُها النفوسُ وتسكنُ إليها القلوب وتغضي عليها العيون إجلالًا للسّماءِ ورضاءً بالقضاء. وإنّما هي صنعةُ أيديكُمْ وجنايةُ أقلامِكم. ولو أنّكم تركتُمْ هذه الأمّةَ وشأنَها وخلّيتم بينها وبين فِطْرَتِهَا ما كان يخطُرُ لها ببالٍ أن تتعادى وأن تتباغَضَ ولا كانَ يوجدُ بين أفرادها من تحدّثه نفسُه بمقاطعةِ أخيه في سبيلِ صحيفةٍ من الصُّحفِ أو حزبٍ من الأحزاب.

عجزَ الاختلافُ الدينيّ بين عنصري الأمّة الشرقيّة أن تفرّقَ بين أوصالها وبين جامعتها وعجزَ الاختلافُ الجنسيّ أن يؤثر في جامعتها تأثيرَ أمثالِهِ من الجوامِعِ الأخرى فكيف لا يعجزُ الاختلافُ الدينيّ والجنسيّ لولا أنّكم كبّرتُمْ ما صَغُرَ من هذا الاختلافِ وعظّمْتُمْ منه ما حقرَ وألححتم عليه إلحاحًا شديدًا حتّى حوّلتمُوهُ إلى فتنةٍ شنعاءَ وغارةٍ شعواءَ.

أنا لا أطلبُ منكُمْ رحمةً بهذِهِ الأمّة ولا شفقةَ عليها فإنّ قلوبًا مثلَ قلوبكُم التي تنطوي عليها جوانحُكم أقسى على أن يَنْفُذَ فيها سيفُ الضّاربِ، فضلًا عن قلم الكاتبِ وإنّما أريدُ أن أحدّثَ الأمّة الشرقيّة بكلمةٍ لا أريدُ منها أن تأخذَها منّي عفوًا ولا أن تُسَلِّمَ بها قبل إنْعَامِ نَظَرِها فيها وعرضِهَا على عقنها. فذلكَ ما لا أحبُّه لها بلْ ذلكَ ما أنقمُهُ عليهَا.

أيها الشّرقيّون:

إني لا أكتبُ إليكم كلمتي هذه وليسَ على وجهِ الأرضِ ولا تحتَ أديم السّماءِ أمّةٌ أحبُّ إلي منكم؛ وحسبُكُم من ذلك الحبّ أنّي أسمع بالكارثةِ تحلّ بِكُمْ والنازلةِ تنالُ منكم، فيشغلُني من أمرِكُم ما لا يشغلُني من أمرِ نفسي وتجودُ عيني في سبيلِكُمْ على ما بها من جفاءٍ وغلظةٍ بما لا تجودُ بمثله في أحرجِ مواقِفِهَا وأصعَبِ مواطِنِهَا.

بهذا القلمِ يستمدّ مِدَادَه[٢] من هذا القلبِ المخلصِ لَكُم أدعوكُم إلى الاتّحاد والائتلافِ وأنْ تتبايَعوا بين يدي اللهِ والوطنِ على الحبّ والودِّ والصّفاءِ والإخلاصِ بينكم ولا تجعلوا لهؤلاء المفسدينَ منفذًا ينفذُون منه إلى قلوبِكُم، فإنْ طافَ بكم طائفٌ[٣] من شياطينهم، فأعرضوا عنه وامضُوا في سبيلِكُمْ واحذروا أن تكونوا تبعةً لرئيسٍ أو لعبةً في يدِ زعيمٍ ولْيَكُنْ كلٌّ منكمْ زعيمَ نفسه، ومسترشدَ قلبه، فنفوسُكم أرحمُ بكم، وقلوبُكُم أصدقُ في نصيحتِكم، فإنْ فعلتُمْ ذلكَ

---

(١) النظر الشزر: النظر بحقد وضغينة. (٢) المداد: الحبر.

(٣) الطائف: المارد من الجنّ.

نَجَوْتُمْ من ذلّ الانقيادِ، وسلكتم سبيلَ الرّشادِ وأصبحتم وإذا أنتم أمّة واحدةٌ ترى رأيًا واحدًا وتحسّ بإحساسٍ واحد.

واعلموا أنّ ما بينكُمُ اليومَ من الاختلافِ في الرّأي والاضطرابِ في المذهبِ إنما هو وَهْمٌ من الأوهام الكاذبةِ وخيالٌ من الخيالاتِ الباطلة. ولو رجعْتُمْ إلى أنفسِكُم وأصغيتُمْ إلى أَصواتِ قلوبكم لتبيّنَ لكُمْ أنّه لا يوجدُ فردٌ من أفرادِكم إلا وهو أحرصُ من أخيهِ على حبّ الوطنِ وإرادة الخيرِ له.

سدّدَ الله طريقَكُم، وأنارَ لكم سبيلَكُم، وأفاضَ عليكم من رحمتِهِ وإحسانه ما يفرّج كربتَكُمْ، ويكشفُ غمّتَكُمْ، والسّلام.

❁ ❁ ❁

الحجاب

ذهب فلانٌ إلى أوروبّا وما ننكرُ من أمرِه شيئًا فلبثَ فيها بضعَ سنينَ ثمّ عادَ وما بقيَ ممّا كنا نعرفه منه شيءٌ.

ذهبَ بوجهٍ كوجهِ العذراءِ ليلةَ عرسِهَا وعادَ بوجهٍ كوجه الصّخرةِ الملساءِ تحتَ اللّيلةِ الماطرةِ، وذهبَ بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ يأنس بالعفوِ ويستريحُ إلى العذرِ وعادَ بقلبٍ ملفّف مدخولٍ لا يفارقُه السّخطُ على الأرضِ وساكِنِها، والنقمةُ على السّماء وخالقِهَا، وذهبَ بنفسٍ غضّةٍ خاشعةٍ ترى كلَّ نفسٍ فوقها، وعادَ بنفسٍ ذهّابةٍ نزّاعةٍ لا ترى شيئًا فوقَها، ولا تُلقي نظرةً واحدةً على ما تحتَهَا، وذهبَ وما على وجهِ الأرضِ أحبُّ إليه من دينِهِ ووطنِهِ وعادَ وما على وجهها أصغرُ في عينه منهما.

وكنتُ أرى أنّ هذه الصّورةَ الغريبةَ التي يتراءى فيها هؤلاءِ الضعفاءُ من الفتيانِ العائدين من تلك الدّيارِ إلى أوطانِهم إنّما هي أصباغٌ مفرغةٌ على أجسامهم إفراغًا لا تلبثُ أن تطلعَ عليه شمسُ المشرقِ فتمحُوَها كأنْ لم تكن، وأنّ مكانَ المدنيّةِ الغربيّةِ من نفوسِهم مكانُ الوجهِ من المرآةِ إذا انحرف عنها زالَ خيالُه منها، فلم أشأ أن أفارقَهُ ولبستُه على علّاته وفاءً بعهده السّابقِ ورجاءً لغدِه المنتظر محتملًا في سبيلِ ذلك من حُمقِهِ ووسواسِه وفسادِ تصوّراتِه، وغرابةِ أطوارِه، ما لا طاقة لمثلي باحتمالِ مثلِه حتّى جاءني ذاتَ ليلةٍ بداهيةِ الدواهي ومصيبةِ المصايبِ، فكانتْ آخرَ عهدي به.

دخلتُ عليهِ فرأيتُه واجمًا مكتئبًا فحيّيتُه فأومأ إليّ بالتّحيّة إيماءً، فسألته ما بالُه؟ فقال: ما زلتُ منذ الليلةِ من هذه المرأةِ في عناءٍ لا أعرفُ السّبيلَ إلى الخلاصِ منه، ولا أدري مصيرَ أمري فيه، قلتُ: وأيَّ امرأة تريد؟ قال تلك التي يسمَّيها النّاسُ زوجتي، وأسميها الصّخرةَ العاتيةَ القائمةَ في طريقِ مطالبي وآمالي، قلتُ: إنّكَ كثيرُ الآمالِ يا سيّدي فعن أي آمالِكَ

تُحدّث؟ قال: ليسَ لي في الحياةِ إلا أملٌ واحدٌ، وهو أن أغمضَ عينِي ثمّ أفتحُها فلا أرى برقعًا على وجهِ امرأةٍ في هذِه الأمّة. قلت: ذلك ما لا تملكُه ولا رأيَ لك فيه.

قال: إنّ كثيرًا من الناسِ يرونَ في الحجاب رأيي، ويتمنّون في أمره ما أتمنّى، ولا يحولُ بينهم وبين تمزيقِه عن وجوهِ نسائِهم وإبرازهنّ إلى الرّجالِ يجالسونهنَّ كما يجلسُ بعضُهم إلى بعضٍ إلّا العجزُ والضّعفُ والهيبةُ التي لا تزالُ تلمّ بنفسِ الشّرقيّ كلّما حاول الإقدامَ على أمر جديد.

فرأيتُ أن أكونَ أوّلَ هادمٍ لهذا البناءِ العاديّ(١) القديم الذي وقفَ سدًّا دونَ سعادةِ الأمّةِ وارتقائِها دهرًا طويلًا، وأن يتمَّ على يدي من ذلكَ ما لَم يَتمَّ على يدِ أحدٍ غيري من دعاةِ الحرّيةِ وأشياعها، فعرضتُ الأمرَ على زوجتي، فأكبَرَتْهُ وأَعْظَمَتْهُ وخُيِّلَ إليها أنّني جئتُها بنكبةٍ من نكباتِ الدّهر أو رزيئةٍ(٢) من رزاياهُ، وزعمتْ أنّها إنْ برزتْ للرجالِ فإنّها لا تستطيعُ أن تبرزَ للنّساء من بعدِ ذلك حياءً وخجلًا.

ولا خجلٌ هناكَ ولا حياءٌ ولكنّه الموتُ والجمودُ والذلُّ الذي ضَرَبَه اللهُ على هؤلاء النساءِ في هذا البلدِ أن يَعِشْنَ في قبورٍ من خدورهنّ وخمرهنّ حتّى يأتيهنّ الموتُ فينتقلنَ من مقبرةِ الدّنيا إلى مقبرةِ الأخرى، فلا بد لي أن أبلغَ أمنيتي، وأنْ أعالجَ هذا الرّأسَ القاسي المتحجّر علاجًا ينتهي بإحدى الحُسْنَيين إما بِشفائِه أو بِكَسْرِه.

فوردَ عليّ من حديثِه ما ملأَ نفسي همًّا وحزنًا ونظرتُ إليه نظرةَ الرّاحم الرّائي، وقلت له: أعَالِمٌ أنتَ أيّها الصّديقُ ما تقول؟ قال: نعم أقولُ الحقيقةَ التي أعتقِدُها وأَدينُ نفسي بها واقعةً من نفسِك ونفوسِ النّاسِ جميعًا حيثُ وقعتْ، قلتُ: هل تأذنُ لي أنْ أقولَ لك إنّكَ عشتَ برهةً من الزّمانِ في ديارِ قومٍ لا حجابَ بين رجالهم ونسائِهم، فهل تذكرُ أنّ نفسَك حدّثَتْكَ يومًا من الأيّام وأنتَ فيهم بالطّمعِ في شيء مما لا تملكُ يمينك، فنلتَ ما تطمعُ فيه من حيثُ لا يشعرُ مالكه؟ قال: ربّما وقع لي شيءٌ من ذلك، فماذا تريد؟ قلتُ: أريدُ أن أقولَ لكَ إنّي أخافُ على عرضِك أن يلمّ به من الرّجالِ ما ألمَّ بأعراضِ الرّجال منك. قال: إنّ المرأة الشّريفة تستطيعُ أن تعيشَ بين الرجالِ من شرفها في حصنٍ حصينٍ لا تمتدّ إليه الأعناق.

فتداخلني ما لم أملكْ نفسي معه وقلتُ: تلك هي الخدعةُ التي يخدعكم بها الشّيطانُ أيّها الضّعفاءُ، والثّلمة(٣) التي يعثرُ بها في رؤوسكُم، فينحدِرُ منها إلى قولكم ومداركِكم فيفسدُها عليكم. فالشّرفُ كلمةٌ لا وجود لها إلّا في قواميسِ اللّغة ومعاجمِها فإنْ أردنَا أن نفتّشَ عنها في قلوبِ الناس وأفئدتهم فإنّا لا نجدها.

والنّفسُ الإنسانيّة كالغديرِ الراكدِ لا يزال صافيًا رائقًا حتّى يسقط فيه حجرٌ فإذا هو مستنقعٌ

(١) العادي كالقديم: نسبة إلى قبيلة عاد. (٢) الرزيئة: المصيبة.
(٣) الثلمة: مكان الخلل.

كدرٌ، والعفّةُ لونٌ من ألوانِ النّفسِ لا جوهرٌ من جواهرها، وقلما تثبتُ الألوانُ على أشعّةِ الشّمسِ المتساقطةِ. قال: أتنكرُ وجودَ العفّة بين النّاسِ، قلتُ: لا أنكرها لأنّي أعلم أنَّها موجودة بين البُلهِ والضّعفاءِ والمتعلمين ولكنّي أنكرُ وجودها عند الرّجل القادرِ المختلبِ والمرأةِ الحاذقةِ المترقّقة إذا سقطَ من بينهما الحجابُ وخلا وجهُ كلٍّ منهما لِصَاحبه.

في أي جوٍّ من أجواء هذا البلدِ تريدونَ أن تبرزَ نساؤُكم لرجالِكم أيّها القوم.

أفي جو المتعلّمين وفيهم مَنْ إذا سُئِل لِمَ لَمْ يتزوَّجْ؟ أجابَ: نساءُ الأمّةِ جميعًا نسائي.

أم في جو الطّلبةِ وفيهم من إذا عادَ من أوروبا يحمِلُ في محفظتِه أقلّ من عشرِ صورٍ لصديقاتِه ومائةِ كتابِ غرامٍ منهنّ يتوارى عن أعينِ أصدقائِه حياءً وخجلًا.

أم في جوّ الرّعاعِ والغوغاءِ وكثيرٌ منهم يدخلُ البيتَ خادمًا ذليلًا ويخرجُ منه صهرًا كريمًا.

وبعدُ فَمَا هذا الولَعُ بقصّةِ المرأةِ، والتّمطّق[1] بحديثِها والقيامُ والقعودُ بأمرِها، وأمرِ حجابِها وسُفورِها، وحرّيتها وأسرِها، كأنّما قد قمتُمْ بكلِّ حقٍّ واجبٍ للأمّةِ عليكم في أنفسِكُم فلم يَبْقَ إلّا أن تفيضوا من تلكَ النّعمِ على غيركم.

هذّبوا رجالَكُم قبلَ أن تهذّبوا نساءَكم فإنْ عجزتُمْ عن الرّجال فأنتُمْ عن النساءِ أعْجَزُ.

أبوابُ الفخرِ أمامَكُم كثيرةٌ فاطرقوا أيّها شئتُم ودَعُوا هذا الباب موصدًا فَلَكُمْ إنْ فتحتموه على أنفسكم ويلًا عظيمًا، وشقاءً طويلًا.

أروني رجلًا واحدًا منكُمْ يستطيعُ أنْ يزعمَ في نفسه أنّه يمتلكُ هواهُ بين يدي امرأة يرضَاها فأصدّقُ أنّ امرأة تستطيعُ أن تمتلكَ هواها بين يدي رجلٍ ترضاهُ.

إنّكُمْ تكلّفونَ المرأةَ ما تعلمونَ أنّكُمْ تعجزون عنه. وتطلبونَ عندهَا ما لا تجدونَه عندَ أنفسِكُم، فأنتُمْ تخاطرونَ بها في معركةِ الحياةِ مُخَاطرةً لا تعلمونَ أتربحونَها من بعدِها أم تخسرونَها. وما أحسبكُمْ إن فعلتُمْ رابحين.

ما شَكَتِ المرأةُ إليكم ظلمًا، ولا تقدّمَتْ إليكم طالبةً أن تحلّوا قيدها وتطلقوها من أسْرِها. فما دخولُكُم بينها وبين نفسِها؟ وما تمضّعكم[2] ليلَكُمْ ونهارَكم بقصصِهَا وأحاديثِهَا؟

إنّها لا تشكو إلّا فضولَكُم وإسفافَكُم ولصوقَكُم بها ووقوفَكُم في وجهِهَا حيثما سَارتْ وأينما حلّت، حتّى ضاقَ بها وجهُ الفضاءِ فلم تجدْ لها سبيلًا إلّا أن تسجنَ نفسَها بنفسِها في بيتها فوقَ ما سَجَنها أهلُها، فأوصَدَتْ من دونها بابها، وأسْبَلَتْ أستارَها تبرّمًا بكم وفرارًا من فضولكم. فواعجبًا لكمْ تسجنونَها بأيديكمْ ثمّ تقفونَ على بابِ سجنها تبكُونها وتندبونَ شَقاءَها.

إنكم لا ترثُون لها بل ترثُون لأنفسكم. ولا تبكُون عليها بل على أيامٍ قضيتموها في ديارٍ يسيلُ جوّها تبرّجًا وسفورًا، ويتدفّقُ حرّيةً واستهتارًا وتودّون بجدعِ الأنفِ لو ظفرتُمْ هنا بهذا العيشِ الذي خلّفتمُوه هناك.

---

(١) تمطق: صوّت بلسانه عند استطابة الطعام. (٢) تمضّع الكلام: ردّده دون تفكير.

لقد كنّا وكانتِ العفّةُ في سقَاءٍ[1] من الحجاب موكُوء[2] فما زلتُمْ به تثقبونَ في جوانبِه كلّ يوم ثقبًا، والعفّة تتسلّلُ منه قطرةً قطرةً، حتّى تقبّض[3] وتضاءَل، ثمّ لمْ يكفِكُمْ ذلكَ منه حتّى جئتُمُ اليومَ تريدونَ أنْ تحلّوا وكاءَه حتّى لا تبقى فيه قطرةٌ واحدة.

عاشتِ المرأةُ المصريّة حقبةَ دهرِها هادئةً مطمئنّةً في بيتها راضيةً عن نفسها وعن عيشَتِها، ترى السّعادةَ كلّ السعادةِ في واجبٍ تؤدّيه لنفسِها أو وقفةٍ تقفُها بين يدي ربّها، أو عطفةٍ تعطفها على ولدِها، أو جلسةٍ تجلسُها إلى جارتِها فتبثّها ذاتَ نفسِها، وتثبّتها سريرةَ قلبها، وترى الشّرفَ كلَّ الشّرفِ في خضوعِها لأبيها، وائتمارِها بأمرِ زوجها ونزولِهَا عندَ رضاهُمَا. وكانتْ تفهم معنى الحبّ وتجهلُ معنى الغرامِ فتحبّ زوجَها لأنّه زوجُها كما تحبُّ ولدَها لأنّه ولدُها.

فإنْ رأى النّاسُ أنّ الحُبَّ أساسُ الزّواجِ رأتْ أنّ الزّواجَ أساسُ الحبِّ، فقلتم لها إنّ هؤلاءِ الذين يستبدّون بأمرِك من أهلِك ليسوا بأكبرَ منكِ عقلًا ولا أفضلَ رأيًا، ولا أقدرَ على النّظرِ لكِ من نظركِ لنفسِك، فلا حقَّ لهم في هذا السّلطانِ الذي يزعمونَه لأنفسِهم عليك، فازدرت[4] أباها، وتمرّدتْ على زوجها، وأصبحَ البيتُ الذي كانَ بالأمس عرسًا من الأعراسِ الضّاحكةِ مناحةً قائمةً لا تهدأُ نارُها، ولا يخبو أوارها[5].

رأيتُم الزّوجَ الأوروبيّ الذي أنضجتِ القرونُ رأسَه وأزالتْ خشونَةَ نفسِه وحرشَتَها[6] يستطيعُ أن يرى زوجَتَهُ تخاصرُ من تشاءُ من الرّجال، وترافقُ من تشاءُ وتخلو بمن تشاءُ فيقفُ أمامَ ذلكَ المشهدِ موقفَ الجامدِ المتبلّد، فأردتُمْ من الرّجلِ الشّرقيّ الغيورِ الملتهبِ أن يقفَ موقفَه ويستمسِكَ استمسَاكَه.

ورأيتمُ المرأةَ الأوروبيّة الجريئةَ المتفتّيةَ تستطيعُ في بعضِ مواقفها بين الرّجال أن تحتفظَ بعصمتِها فأردتُمْ من المرأةِ المصريّة الضّعيفةِ السّاذجةِ أن تبرزَ للرّجالِ بروزها، وتحتفظ بنفسِها احتفاظها.

وكلُّ نباتٍ يُزْرَعُ في أرضٍ غير أرضِه أو ساعةٍ غيرِ ساعتِهِ، إمّا أن تأباه الأرضُ فتلفُظَهُ، وإما أن ينشُبَ فيها فيفسِدَها.

إنّا نضرعُ إليكم باسم الشّرفِ الوطنيّ والحرمةِ الدينيّةِ أن تتركوا تلك البقيّةَ الباقيةَ من نساءِ الأمّةِ آمناتٍ مطمئنّاتٍ في بيوتهنّ ولا تزعجوهنَّ بأحلامكُمْ وآمالكُمْ كما أزعجتُمْ مَنْ قبلهنّ. فكلٌّ جرحٍ من جروح الأمّةِ لهُ دواءٌ إلّا جرحُ الشّرفِ فلا دواءَ له، فإنْ أبيتُمْ إلّا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسِكُمْ قليلًا ريثما تنتزعوا من صُدورِكُم هذهِ الغيرةَ التي ورِثتُموها

---

(١) السقاء: وعاء الماء من جلد السخلة.

(٢) أوكى القربة: شد رأسها بالوكاء والوكاء الرباط.

(٣) تقبض: يبس.

(٤) ازدرت أباها: احتقرته.

(٥) الأوار: وهج النار.

(٦) الحرشة: الخشونة.

عن آبائكُمْ وأجدادكُمْ لتستطيعوا أنْ تعيشوا في حياتِكُم الجديدةِ سُعَداءَ آمنين.

* * *

فما زادَ الفتى على أن ابتسمَ في وجهي ابتسامةَ الهزءِ والسّخريةِ وقال: تلكَ حماقاتٌ ما جئنا إلا لمعالجَتِها فنلصطَبِرْ عليها حتّى يقضيَ اللهُ بيننا وبينها. فقلتُ له: لك أمرُكَ في نفسِك وفي أهلِكَ فاصنعْ بهما ما تشاءُ وائذنْ لي أن أقولَ لكَ إنّي لا أستطيعُ أنْ أختلفَ إليك بعد اليومِ إبقاءً عليك وعلى نفسي لأنّي أعلمُ أنّ السّاعةَ التي ينفرجُ لي فيها جانبُ سِتْرٍ من أستارِ بيتكَ عن وجهِ امرأةٍ من أهلِكَ في حضرتِك تقتلني حياءً وخجلًا. ثم انصرفْتُ وكانَ هذا آخرَ ما بيني وبينه.

وما هي إلّا أيّامٌ قلائلُ حتّى سمعتُ الناسَ يتحدّثونَ أنّ فلانًا هتكَ السِّتْرَ في منزلِه بينَ نسائِهِ وأصدقائِهِ، وأنّه قد أصبحَ مغشيًّا لا تزالُ النّعالُ خافقةً ببابِهِ، فذرَفَت عيني دمعةً لا أعلمُ هلْ هي دمعةُ الغيرة، على العرضِ المذالِ[١]، أو الحزنِ على الصّديقِ المفقود.

* * *

مرّتْ على تلكَ الحادثةِ ثلاثَةُ أيّام لا أزورُه فيها ولا يزورُني ولا ألقاهُ في طريقِه إلّا قليلًا فأحيّيه تحيّةَ الغريبِ للغريبِ من حيثُ لا يجري لِمَا كان بيننا ذكرٌ ثمّ أنْطَلِقُ في سبيلي.

فإنّي لَعَائدٌ إلى منزلي ليلةَ أمسِ وقد مَضَى الشّطرُ الأوّلُ من اللّيلِ إذ رأيته خارجًا من منزلِ يمشي مشيةَ المضطربِ الحائرِ وبجانبه جنديٌّ من جنودِ الشّرطةِ كأنّما هو يحرسُه أو يقتادُه، فأهمّني أمرُه ودنوتُ منه فسألتُه عن شأنِه فقال: لا عِلْمَ لي بشيءٍ سوى أنّ هذا الجنديَّ قد طَرَقَ السّاعةَ بابي يدعُوني إلى مخفرِ الشّرطةِ ولا أعلمُ لمثلِ هذه الدّعوةِ في مثلِ هذهِ السّاعةِ سببًا وَمَا أنا بالرّجلِ المذنبِ ولا المريب، فهلْ أستطيعُ أنْ أرجُوَك صديقي القَديمَ بعد الذي كان بيني وبينكَ أنْ تصحَبَني الليلةَ في وجهي هذا علّني أحتاجُ إلى معونَتِكَ فيما قد يعرضُ هناكَ من الشؤون؟ قلتُ: لا أَحَبُّ إليّ من ذلك.

ومشيتُ معه صامتًا لا أحدّثه ولا يقولُ لي شيئًا، ثمّ شعرتُ كأنّهُ يَزوّر[٢] في نفسِه كلامًا يريدُ أن يُفْضِيَ به إليّ فيمنعُه الخجلُ والحياءُ، ففاتَحْتُه الحديثَ وقلت له: أَلَمْ تستطعْ أن تتذكّرْ لهذهِ الدّعوةِ سببًا؟ فنظرَ إليّ نظرةً حائرةً وقال: إنّ أخوفَ ما أخافُه أن يكونَ قد حدثَ لزوجتي اللّيلةَ حادثٌ مؤلمٌ فقد رابني من أمرِها أنّها لم تَعُدْ إلى منزِلَها حتّى السّاعةِ وما كانَ ذلكَ شأنها من قبلُ.

قلتُ: أما كان يصحَبُها أحدٌ؟ قال: لا، قلت: ألا تعلم المكانَ الذي ذهبتْ إليه؟ قال: لا، قلت: وممّ تخافُ عليها؟ قال: لا أخافُ شيئًا سوى أنّي أعلمُ أنّها امرأةٌ غيورةٌ حمقاءُ، فلعلّ بعضَ النّاسِ حاولَ العبثَ بها في طريقِهَا فشرسَتْ عليه، فوقَعَتْ بينهما واقعةٌ انتهى حديثُها إلى رجالِ الشرطةِ.

---

(١) المذال: الذي تعرض للذلّ والتحقير.

(٢) زوّر في الكلام: ردّده في نفسه واستعدّ له.

وكنا قد وَصَلْنا إلى المخفر، فاقتادَنا الجنديُّ إلى قاعة المأمورِ حتّى صرنا بين يديهِ، فأشارَ إلى جنديٍّ أمامَه إشارةً لم نفهَمْهَا ثمّ استدنى الفتى إليه، وقال له: يسوؤني يا سيّدي أنْ أقولَ لكَ إنّ رجالَ الشّرطةِ قد عثروا اللّيلةَ في مكانٍ من أمكنة الرّيبة على رجلٍ وامرأةٍ في حالٍ غير صالحةٍ، فاقتادُوهُما إلى المخفرِ فزعمتِ المرأةُ أنّ لها بكَ صلةً، فدعوناكَ لتكشفَ لنا الحقيقةَ في أمرها، وأمر صاحبِهَا، فإنْ كانتْ صادقةً أذنّا لها بالانصرافِ معك إكرامًا لكَ وإبقاءً على شرفِك، وإلا فهي امرأةٌ فاجرةٌ لا نجاةَ لها من عقابِ الفاجراتِ، وها هما وراءَك فانظرهُما.

وكانَ الجنديُّ قد جاءَ بهما من غرفةِ السّجنِ، فنظرَ فإذا المرأةُ زوجتُهُ، وإذا الرّجلُ أحدُ أصدقائِهِ، فصرخَ صرخةً رجفتْ لها جوانبُ المخفرِ، وملأتْ نوافذَه وأبوابَه عيونًا وآذانًا، ثمّ سقطَ في مكانه مغشيًّا عليه. فأشارَ على المأمورِ أن يرسلَ المرأةَ إلى منزلِ أبيها ففعل، وأمرَ بصاحِبِها إلى السّجن.

ثمّ حملنا الفتى في مركبةٍ إلى منزلِهِ ودعونَا الطبيبَ فقرّر أنّه مصابٌ بحمّى دماغيّةٍ شديدةٍ ولبثَ ساهرًا بجانبه بقيّة الليلِ يعالجُه حتّى دنَا الصّبح، فانصرفَ الطّبيبُ على أن يعودَ متى دعوناهُ، وعهدَ إليّ بأمرِهِ؛ فلبثتُ بجانبِهِ أرثي لحالِهِ وأنتظرُ قضاءَ اللهِ فيه حتّى رأيتُه يتحرّكُ في مضجعِه ثمّ فتحَ عينيهِ فرآني فلبثَ شاخصًا إليَّ هنيهةً كأنّما يحاولُ أن يقولَ لي شيئًا فلا يستطيعُ، فدنوتُ منه وقلتُ هل من حاجةٍ يا سيّدي؟

فأجابَ بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ: حاجتي أن لا يدخلَ عليّ من الناسِ أحدٌ، قلتُ: لن يدخلَ عليكَ إلّا من تريدُ، فأطرقَ هنيهةً، ثمّ رفعَ رأسَه فإذا عيناه مبتلّتانِ بالدّموعِ، فقلت: ما بكاؤُك يا سيّدي؟ قال: أتعلمُ أين زوجتي الآن؟ قلتُ: وماذا تريدُ منها؟ قال: لا شيء سوى أنْ أقولَ لها إنّي عفوت عنها. قلتُ: إنّها في بيتِ أبيها، قال: وارحمتاهُ لها ولأبيها، ولجميعِ قومِها فلقد كانوا قبلَ أن يتّصلوا بي شرفاءَ أمجادًا فألبستُهُم منذ عرفوني ثوبًا من العارِ لا تبلوه الأيّام.

من لي بِمَنْ يبلّغُهم عنّي جميعًا أنّني رجلٌ مريضٌ مشرفٌ وأنّني أخشى لقاءَ الله إن لقيتُه بدمائِهم وأنّني أضرعُ إليهم أنْ يَصْفَحوا عنّي ويغتفروا ذنبي، قبلَ أن يسبقَ إليّ أجلي.

لقد كنتُ أقسمتُ لأبيها يَومَ اهتديتُها[1] أنْ أصونَ عرضَها صيانتي لحياتي، وأن أمنَعَها ممّا أمنعُ منه نفسي، فَحَنَثْتُ[2] في يميني فهل يغفرُ لي ذنبي فيغفرَ لي الله بغفرانه.

إنّها قَتَلَتني ولكنّي أنا الذي وضعتُ في يدِها الخنجرَ الذي أغمدَتْهُ في صدري فلا يسألها أحدٌ عن ذنبها.

البيتُ بيتي والزّوجةُ زوجتي والصّديق صديقي وأنا الذي فتحتُ بابَ بيتي لصديقي إلى زوجتي فلم يذنبْ لي أحدٌ سواي.

---

(١) اهتدى الرجل امرأته: جمعها إليها وضمها. (٢) حنث في يمينه: لم يفِ بقسمه.

ثم أمسكَ عن الكلامِ برهةً فنظرتُ إليه فإذا سحابةٌ سوداءُ تنتشرُ فوق جبينه شيئًا فشيئًا حتّى لبسَتْ وجهَه فزفَرَ زفرةً خِلْتُ أنّها خرقتْ حِجابَ قلبه ثم أنشأ يقول:

آهِ ما أشدّ الظّلامَ أمام عينيّ وما أضيقَ الدّنيا في وجهي: في هذه الغرفةِ على هذا المقعدِ تحتَ هذا السّقفِ كنت أراهما جالِسَينِ يتحدثان فتمتلِئُ نفسي غبطةً وسرورًا، وأحمدُ الله على أنْ رزقني بصديقٍ وفيٍّ يؤنسُ زوجتي في وحدتِهَا، وزوجةً سمحةً كريمةً تكرمُ صديقي في غيبتي، فقولوا للناس جميعًا إنّ ذلكَ الرجل كان يفخرُ بالأمس بذكائِه وفطنته ويزعَمُ أنّه أكيسُ النّاسِ وأحزمُهُمْ قد أصبحَ يعترفُ اليوم أنّه أبلَهُ إلى الغاية من البلاهة، وغبيٌّ إلى الغاية التي لا غايةَ وراءها.

والهفًا على أم لم تلدني وأبٍ عاقرٍ لا نصيبَ له في البنينَ!.

لعلّ النّاسَ كانوا يعلمُون من أمري ما كنتُ أجهلُ، ولعلّهُمْ كانوا إذا مررتُ بهم يتناظرونَ ويتغامزون ويبتسمُ بعضُهم إلى بعضٍ أو يحدّقون إليَّ ويطيلونَ النّظرَ في وجهي ليروا كيفَ تتمثّلُ البلاهةُ في وجوه البُلْهِ والغَبَاوةُ في وجوهِ الأغبياءِ، ولعلّ الذين كانوا يُطِيفُونَ[1] بي ويتودّدون إليّ من أصدقائي إنّما كانوا يفعلون ذلكَ من أجلِها لا من أجلي، ولعلّهم كانوا يسمّونني فيما بينَهُمْ وبين أنفسِهِمْ قوّادًا، ويسمّون زوجتي مُومِسًا وبيتي ماخورًا[2].

فوارحمتاه لي إنْ بقيتُ على ظهرِ الأرضِ بعدَ اليومِ ساعةً واحدةً، ووالهفًا على زاويةٍ من زوايا قبرٍ عميقٍ يطويني ويطوي عاري معي.

ثمّ أغمضَ عينيه وعادَ إلى ذُهولِهِ واستغراقِه.

وهنا دخلت الحجرةَ مرضعُ ولدِه تحملُه على يدِهَا حتّى دنتْ به من فراشِه فتركَتْهُ وانصرفَتْ، فما زالَ الطّفلُ يدبّ على يديه حتّى علا صدرَ أبيه فأحسّ به، ففتحَ عينيه فرآه، فابتسمَ لمرآه وضمّه إليه ضمّةَ الرّفقِ والحنان، وأدنى فمَه من وجهِه كأنّما يريد أن يقبّله، ثمّ انتفضَ فجأةً واستسرّ بِشْرُهُ وَدَفَعه عنه بيدِه دفعًا شديدًا، فانكفأ على وجهه يبكي ويصيحُ وقال: أبعدوه عنّي، لا أعرفه ليس لي أولادٌ ولا نساءٌ، سَلُوا أمّه عن أبيهِ أينَ مكانُه واذهبوا به إليه، لا ألبسُ العارَ في حياتي وأتركُهُ أثرًا خالدًا ورائي بعد مَمَاتي، وكانتِ المرضعُ قد سمعتْ صياحَ الطّفلِ، فعادتْ إليه وحملتْه وذهبتْ به فَسَمِعَ صوتَه وهو يبتعدُ عنه شيئًا فشيئًا، فأنصَتَ إليه واستعبرَ باكيًا وصاحَ: أرجعوه إليّ، فعادتْ به المرضعُ فتناولَه من يدِها وأنشأ يقلّبُ نظرَه في وجهه ويقول:

في سبيلِ اللهِ يا بُنيّ ما خلّفَ لكَ أبوكَ من اليُتم وما خلّفَتْ لكَ أمّكَ من العارِ، فاغفرْ لهما ذنبَهُما إليكَ، فقد كانتْ أمّكَ امرأةً ضعيفةً، فعجزتْ عن احتمالِ صدمةِ القضاءِ فسقطَتْ، وكان أبوكَ حَسَنَ النّيّةِ في جريمتِه التي اجترمَها فأساءَ من حيثُ أرادَ الإحسانِ.

---

(١) يُطيفون بي: يحيطون بي من كلّ جهة.

(٢) الماخور: بيت الريبة.

سواءٌ أكنتَ ولدي يا بنيّ أم ولدَ الجريمةِ فإنّي قد سعدتُ بكَ برهةً من الدّهرِ فلا أنسى يدَكَ عندي حيًّا أو ميتًا.

ثمّ احتضَنه إليه وقبّلهُ في جبينه قبلةً لا أعلمُ هلْ هي قبلةُ الأبِ الرّحيم أو الرّجلِ الكريم.

وكانَ قد بلغَ منه الجهدُ فعاودَتْهُ الحمّى وغلَتْ نارُها في رأسِه، وما زال يثقلُ شيئًا فشيئًا حتّى خِفْتُ عليه التّلَفَ، فأرسلتُ وراءَ الطّبيبِ وألقى عليه نظرةً طويلةً ثمّ استردّها مملوءةً يأسًا وحزنًا.

ثم بدأ ينزعُ نزعًا شديدًا ويئنّ أنينًا مؤلمًا، فلم تبقَ عينٌ من العيونِ المحيطةِ به إلّا أرفضّتْ[1] كلَّ ما تستطيع أن تجودَ به من مدامِعِها.

فإنّا لجلوسٌ حولَه وقد بدأ الموتُ يسبلُ أستارَه السوداءَ حولَ سريرِه وإذا بامرأةٍ متّزرةٍ بإزارٍ أسودَ قد دخلتِ الحجرةَ وتقدّمَتْ نحوَه ببطءٍ حتّى ركعتْ بجانبه ثمّ أكبّتْ على يده الممتدّةِ فوق صدرِه فقبّلها وأخذتْ تقول له:

لا تخرجْ من الدّنيا وأنتَ مرتابٌ في ولدِكَ فإنّ أمّه تعترفُ بين يديكَ وأنتَ ذاهبٌ إلى ربّكَ تسألُه عن قولِها إنّها وإنْ كانتْ دَنَتْ من الجريمةِ فإنّها لم ترتَكِبْها، فاعفُ عنّي يا والدَ ولدي واسألِ الله عندما تقفُ بين يديهِ أنْ يحلقَني بك فلا خيرَ لي في الحياةِ من بعدِك.

ثم انفجرتْ باكيةً ففتحَ عينيه وألقى على وجهِهَا نظرةً باسمةً كانتْ هي آخرَ عهدِه بالحياةِ وقضى.

❀ ❀ ❀

إيفون الصغيرة

إيفون هذه فتاةٌ صغيرةٌ عثرَ بها في طفولَتِها على بابِ إحدى الكنائسِ ناظرُ مدرسةٍ قرويّةٍ، وكانَ شيخًا كبيرًا ماتَ أولادُه وأحفادُه جميعًا وبقيَ هو من بعدهم وحيدًا متوحّشًا، فأنس بها حينَ وجدَها أنسًا عظيمًا و سمّاها «إيفون الصّغيرة» لأنّه لم يكنْ يَعْلَمُ من أَمْرِهَا شيئًا، فأصبحتْ سلوَتَه الوحيدةَ في شيخوخَته وَعُنِيَ بتربيتِهَا وتهذيبِهَا حتّى بلغتِ السّابعةَ من عمرِها، فأصَابَها مرضٌ لم يلبثْ أن قضى عليها فرثاهَا الكاتبُ بهذه القطعةِ البليغةِ:

ماتتْ وكأنّها لم تَمُتْ. ليس على وجههَا أثرٌ واحدٌ من آثارِ الآلام التي قاسَتْهَا في مرضها. يحسَبُها الرّائي نائمةً نومًا هانئًا لذيذًا ويُخيّلُ إليه أنّه يَسمعُ صوتَ أنفاسِهَا المتردّدِ ويرى هبوطَ صدرِهَا وارتفاعَه.

أينَ صفرةُ الموتِ ونحولُه؟ وأينَ آلامُ النّزاعِ ومضاضَتُه؟ وأينَ الغضونُ التي تُخَلِّفُهَا الأوجاعُ فوق الجبينِ، وأينَ الدّوائرُ الزّرقاءُ التي رَسَمَتْهَا يدُ الموتِ حولَ الجفونِ؟

---

(١) ارفضّ الدمع: سال بغزارة.

لقد ماتَ كلّ ذلكَ بموتِهَا فعادَ لها رونَقُها وبهاؤُها، وأصبحتْ كأنّما خلقتِ السّاعةَ ولَمّا تنبعثِ الرّوحُ من جَسَدها.

بهذا الوَجْهِ الجميلِ المشرقِ كانتْ جالسةً منذ أيّام قلائلَ أمامَ المدفأةِ باسمةً مطمئنّةً تلاعبُ هرّتها. وبهذا الفم الأرجوانيّ القَاني[١] كانتْ تغنّي أمامَ قفصِ عصفورِها أنشودةَ السّعادةِ والهناء. وبهاتين اليدين البيضاويّتين الليّنتين كانتْ تقطفُ أزهارَ الرّبيعِ وتقدّمُها إلى أبيها العجوز.

أما اليومَ فقد انقضَى ذلكَ كلُّه لأنّ حياتَها قد انقضت.

آخرُ كلمةٍ نطقتْ بها قبلَ موتِها (سأموت السّاعةَ فآتوني بعصفوري أودّعُهُ) فأتوها بقفصِ عصفورِها وعلّقوهُ بإحدى قوائم سريرِهَا فظلّتْ تنظرُ إليه باسمةً متطلّعةً، وظلّ العصفورُ يلعبُ ويغرّدُ تغريدًا شجيًّا وهو لا يعلمُ أنّه ينشدُ فوقَ رأسِها نشيدَ الموت.

وهنا وقفَ الشّيخُ العجوزُ بجانبِ فراشِها واجمًا حزينًا مشرّدَ اللُّبِّ ذاهلَ العقل ومدّ يده إلى يَدِها الضّعيفةِ الوهنةِ التي كانتْ بالأمسِ عكّازَ شيخوخَتِه وسنَدَ حياتِه، فأخَذَها ووضَعَها على صدرِه وظلّ على ذلك هنيهةٍ كأنّما يريدُ أنْ يمدّ سراجَ حياتِهَا الناضِبَ بتلكَ الثّمالةِ القليلةِ من الزّيتِ الباقيةِ في سراجِ حياتِه ليفتديَها بنفسِه ويفتديَ نفسَه مِنْ أنْ يَراها تموتُ بين يديه.

ثمّ التفتَ فجأةً إلى أصدقائِه الجالسينَ حولَه وقالَ لهم: ها هي الحرارةُ قد بدأتْ تدبّ في جسمِهَا وها هي الحياةُ قد عادت إليها. فنظروا إليهِ آسفينَ محزونينَ ثمّ، نكّسوا أبصارَهُمْ وأسبلوا مدامِعَهُمْ فأخذَ يقلّبُ في وجوهِهِمْ عينًا حائرةً مشرّدةً ويدورُ بنظراتِه ههنا وههنا كأنّما يسألُهُم المعونةَ على أمرِه؛ ومَنْ ذا يعينُ على القدرِ ويعتدي على المنايا ويعترضُ سهمَ القضاءِ بعد خروجِه من قوسِه.

وما هيَ إلا لحظةٌ حتّى شعرَ أنّ يدَها تجذبُ يدَه فانتفضَ وَحَنا عليها فطوّقَتْهُ بذراعيها الضّعيفتين وضمّته ضمّةً كانتْ فيها نفسُها.

إنّا للهِ وإنّا إليه راجعونَ. ماتتْ إيفونُ الصغيرةُ - ماتتِ الطفلةُ الوديعةُ الجميلةُ - ماتت الفتاةُ الرّزينةُ الصابرة. في سبيلِ الله نَجْمُ تلألأَ في سماءِ الحياةِ لحظةً ثمّ هوى، وغصنٌ أزهرَ في روضِ المنى ساعةً ثمّ ذوى[٢]. وقدحٌ من البلّور لم تكدْ تلمسُه الشّفاهُ حتّى انكسَر. وعقدٌ من اللؤلؤ لم ينتظِمْ في سمطه[٣] حتّى انتثَر.

هذه الغرفُ التي طالما أنارَتْها بابتسامَتِها حتّى في السّنة التي تختفي فيها جميعُ الابتسامات، والحديقةُ التي كانتْ تقضِي فيها بضعَ ساعاتٍ من لَيْلِهَا ونهارِها تلاعبُ أطيارَهَا وتقطفُ أزهارَهَا وتتعهّدُ أشجارَها، والمماشي التي كانتْ تخطرُ على حَصبائِهَا فيصيرُ شعاعُ خدّيها

---

(١) القاني: الشديد الاحمرار. (٢) ذوى: ذبل.
(٣) السمط: الخيط.

ياقوتًا ومرجانًا، قَدْ خَلَتْ جميعها منها وهيهاتَ أن يسعدَها الحظُّ برؤيتها بعدَ اليوم.

كانتْ إيفونُ جميلةَ الخُلقِ طيّبةَ النفسِ نقيّةَ الضميرِ تحبُّ الأحياءَ جميعَهُم ناطقَهُم وصامِتَهُم. فلا تبذلُ من ودّها لهرّتها المريضةِ أقلَّ ممّا تبذلُ منها لأبيها الشّيخ العجوز. ولا تتودّد إلى الشيوخِ الكبارِ أصدقاءِ أبيها وجلسائِه أكثرَ ممّا تتودّد إلى وافدٍ غريبٍ يهبطُ قريتَهَا للمرّةِ الأولى في حياته. ومما عَلِمُوه أنّها ما اختلفتْ معَ فتًى أو فتاةٍ من مدرستِهَا لأنّها كانت تستهوي الطّيّبَ منهم بلُطْفها وأدبِهَا والخبيثَ بعفوِهَا وصَفْحِهَا.

ولَمْ تكنْ تعلمُ أنّها لقيطةٌ ولكنْ من كانَ ينظرُ في عينيها ويرى ذبولَهُما وانكسارَهُما ولمعانَهُما الذي يشبه لمعانَ الدّمعِ الرّقراقِ يُخَيَّلُ إليه أنّها قد أُلهِمَتْ ما كَتَمَهُ النّاسُ عنها، وأنّها كانتْ تعلمُ أنّها لا تعيشُ في بيتِ أبيها الميتِ تحتَ وصايةِ جدّها كما كانوا يقولونَ لها بلْ في بيتِ محسنٍ كريمٍ لا يعرفُ من تاريخها ولا مِنْ أمرِ ميلادها شيئًا.

وكانتْ لا تزالُ تتراءى بين شفتَيها ابتسامةٌ حلوةٌ هي الرّقيةُ التي كانتْ تفتحُ بها أقفالَ القلوبِ، ثمّ تنزلُ فيما تشاءُ منها المنزلةَ التي تريدها: ولمْ تكنِ ابتسامَتُها ابتسامةَ التّصنّعِ والتّكلّفِ التي يرثُهَا أكثرُ الفتياتِ عن أمهاتِهنَّ بل ابتسامةَ الحُبِّ والإخلاصِ والعطفِ.

لذلكَ عجّلَ الموتُ إليها لأنّ سكّانَ السّماءِ لا يستطيعونَ أن يعيشوا على ظهرِ الأرضِ زمنًا طويلًا.

دقّتْ أجراسُ الكنيسةِ تنعيها فلم تسمَعْهَا ولو سَمِعَتْهَا لاهتزّتْ لها في سريرِها شوقًا ولهفةً كما كانَ شأنُها في حياتِهَا، ثمّ جاءتْ ساعةُ الدّفنِ فحملوها على أيديهِمْ ومَشَوا بها حتّى وصلوا إلى الكنيسةِ فوضعوا نعشَها في ركنٍ من أركانِهَا، ثمّ اجتمعوا حولَها يودّعونها الوداعَ الأخير. فبكاهَا الشّيوخُ الذينَ كانوا يحبّونها ويأنَسُون بها، والفتيانُ والفتياتُ من تلاميذِ مدرستِها والنساءُ اللّواتي كنّ يحببنَها من أجلِ حبّها أبنائهنّ وبناتِهن. وبكَاها أكثرَ من هؤلاءِ جميعًا ذلكَ الشّيخُ العجوزُ المسكينُ لأنّها كانتْ كلَّ دنياهُ، فخسِرَهَا في ساعةٍ واحدة. وظلّ كثيرٌ من الوقوفِ يردّدون ذِكْرَها فيقولُ أحدُهم: طالما رأيتُها في هذا الرّكنِ نفسِه جالسةً وبيدِهَا الكتابُ المقدّسُ تتلو آياته. ويقولُ الآخر: لقد دخلتُ الكنيسةَ ليلةً فرأيتُها هائمةً وحدَها في الظّلامِ الحالكِ تحتَ هذه الأقبيةِ فعجبتُ لِصَلاحِها وتقواها. وتقولُ امرأة: لقد عَثَرَتْ[١] ابنتي يومًا مِن الأيّامِ في منصرفِهَا من مدرستها ببعضٍ من الأحجارِ عثرةً برّحَتْ[٢] بها فاحتَمَلَتْهَا على ظهرِها حتّى جاءتْ بها إلى المنزلِ.

وتقولُ أخرى: لقد كنتُ أراهَا تمرّ كلّ يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيَها رغيفًا من طعامِهَا ثمّ تستمرّ أدراجَها إلى مدرسَتِها. وهكذا ظَلّ كلٌّ منهم يذكرُ ما يعرفُ عنها من الفَضَائل والمزايا حتّى حانتْ ساعةُ الدّفنِ فعلتِ الأصواتُ بالبكاءِ، ثمّ غيّبوها في قبرها وحَثَوْا[٣] عليها

---

(١) عثرت: سقطت أرضًا وهي تمشي. (٢) برّح به: أصابه بأذى.

(٣) حثوا التراب: نثروه.

التّراب. وكانَ اللّيلُ قد أظلَّ المكانَ بجناحيه وسادَ فيه سكونٌ موحشٌ رهيبٌ، فانصروا مُطْرقين أجمعينَ يقولُ بعضُهُم لبعضٍ: وارحمتاه لها، لقد خَرَجَتْ من الدّنيا غريبةً كما وَفَدَتْ إليها.

❀ ❀ ❀

الناشىء الفقير

لي ولدٌ وحيدٌ في السّابعةِ من عُمْرِه لا أستطيعُ على حبّي إيّاه وافتتاني به أنْ أتركَه من بعدي غنيًّا لأبٍ فقيرٍ، وما أنا بآسفٍ على ذلكَ ولا مبتئسٍ لأنّي أرجو بفضل اللهِ وعونِه ورحمتِه وإحسانِه أن أتركَ له ثروةً من العقلِ والأدبِ هي عندي خيرٌ ألفَ مرّةٍ من ثروةِ الفضّةِ والذّهبِ. أحبّ أن ينشأ معتمدًا على نفسه في تحصيلِ رزقِه أو تكوينِ حياته لا على شيءٍ آخرَ حتّى على التي يتركها له أبوه وَمَنْ نشأ هذا المنشأ وأَلِفَ أنْ لا يأكلَ إلّا من الخبزِ الذي يصنَعُه. بيد أنّه نشأ عزوفًا عيوفًا مترفّعًا لا يَتَطَلَّعُ إلى ما في يد غيرِه ولا يستعذبُ طعمَ الصّدَقَةِ والإحسان.

أحبّ أنْ ينشأ رجلًا ولاسبيلَ إلى الرّجُولة إلّا من ناحيةِ العمل. وقلّما يعملُ العاملُ إلّا بسابقٍ من الضّرورةِ، دَافِعٍ من الحاجةِ. وَفَرقٌ بين الفتَى الذي يعملُ لتنميةِ ثروتِه وتعظيم شأنها شَرهًا وفضولًا وبينَ الفقيرِ الذي يعملُ لتحصيلِ قوتِه وتقويم أَوَدِ[1] حياتِه. أحبُّ أن يعيشَ فردًا من أفرادِ هذا المجتمعِ الهائلِ المعتركِ في ميدانِ الحياةِ يصارعُ العيشَ ويغالِبُه، ويزاحِمُ العاملينَ بمنكبيه، ويفكّر ويتروّى ويجرّبُ ويختبرُ ويقارِنُ الأمورَ بأشباهها ونظائرها، ويستنتجُ نتائجَ الأشياءِ من مقدّماتها، ويعثرُ مرّةً وينهضُ أخرى، ويخطئُ حينًا ويصيبُ أحيانًا. فمَنْ لا يخطئُ لا يصيبُ. ومن لا يعثرُ لا ينهضُ حتّى تستقيمَ له شؤونُ حياته.

ذلكَ خيرٌ له من أن يجلسَ في شرفةٍ من شُرَفِ قصره مطلًا على العاملينَ المجاهدينَ يمتّعُ نظرَه بمرآهم كأنّما يشاهدُ روايةً تمثيليّة في أحدِ ملاعبِ التّمثيل.

أحبُّ أنْ يمرّ بجميعِ الطبقاتِ ويخالطَ جميعَ النّاسِ ويذوقَ مرارةَ العيشِ ويشاهدَ بعينِه بؤسَ البؤساءِ وشَقَاء الأشقياء، ويسمَع بأذنه أناتِ المتألمينَ وزفراتِ المتوجعينَ ليشكُرَ الله على نعمته إنْ كانَ خيرًا منهم، ويشاركَهُم في همومِهِمْ وآلامِهِمْ إن كان حظّه في الحياة مثلَ حظّهم، ولتنمو في نفسه عاطفةُ الرّفق والرّحمة، فيعطفُ على الفقيرِ عطفَ الأخِ ويرحَمُ المسكينَ رحمةَ الحَمِيم للحَمِيم.

أمّا الغنيّ الذي لَم يَذُقْ طعمَ الفقر في حياتِه فقلما يشعرُ بآلام النّاسِ ومصائبهِمْ أو يعطفُ على بأسائِهم وضَرّائهم. فإنْ حاولَ يومًا أنْ يَمدّ يدَهُ بالمعونةِ إلى بائسٍ أو منكوبٍ فَعَلَ متفضّلًا ممتنًّا لا راحمًا ولا متألّمًا.

---

(١) الأود: الاعوجاج.

والألمُ هو الينبوعُ الذي تنفجرُ منه جميعُ عواطفِ الخيرِ والإحسانِ في الأرضِ وهو الصّلةُ الكبرى بين أفرادِ المجتمعِ الإنسانيّ والجامعةِ الوحيدةِ التي تجمعُ بين طبقاتِه وأجناسِه. بل هو معنى الإنسانيّة وروحُها وجوهرُهَا فمن حُرِمَهُ حُرِمَ كلَّ فضيلةٍ من فضائلِ النّفس وكلَّ مكرمةٍ من مكرماتِها وأصبحَ بالصخرةِ الصّلدةِ الصمّاء أشبهَ منه بالإنسانِ النّاطق.

أحبُّ أن يجوعَ ليجدَ لذّةَ الشّبعِ ويظمأ ليستعذبَ طَعْمَ الرّيّ، ويتعبَ ليشعرَ ببردِ الرّاحة، ويسهرَ لينامَ ملءَ جفونه أي إنّني أحبُّ له السّعادةَ الحقيقيّةَ التي لا سعادةَ في الدّنيا سِوَاهَا.

وما السّعادة في الدّنيا إلّا لمحاتٌ كلمحاتِ البرقِ تخفقُ حينًا بعد حينٍ في ظلماتِ الشّقاء، فمنْ لا يَرَى تلكَ الظلماتِ لا يراها؛ وأشقى الأشقياءِ أولئكَ المترفّهونَ النّاعمونَ الذين يوافيهِمُ الدّهر بجميعِ لذائذهِمْ ومشتهياتِهِمْ فلا يزالونَ يُمْعِنُون فيها ويتقلّبونَ في جنبَاتها حتّى يستنفذُوها فيستوليَ على عقولهم مرضُ السآمةِ والضّجر فيتألّمون من الرّاحةِ أكثرَ ممّا يقاسي المحرومُ من عذابِ الحرمانِ.

وقد تدفَعُهم تلكَ الحالةُ إلى الإلمامِ بمشتهياتٍ غريبةٍ لا تتّفقُ مع البشريّة ولا تدخلُ تحتَ حكمِها تفريجًا لكربتهم وتنفيسًا عن أنفسِهِم، وما هؤلاء المساكينُ الذينَ نراهُم سَهَارى طولَ ليالِيهِمْ في ملاعبِ القمارِ ومجالسِ الشّرابِ ومواقف الرّهانِ إلّا جماعةُ الفارّينَ من سجونِ السّآمةِ والمللِ يعالجونَ الدّاء بالدّاءِ ويفرّون من الموتِ إلى الموتِ.

أحبّ أن يكونَ غنيًّا بالمعنى الحقيقيّ لا بالمعنى الاصطلاحي أي أن يكونَ مستغنيًا بنفسِه عن غيرِه لا كثيرَ المالِ والثّراء. وما سمّيَ المالُ غنًى إلّا باعتبار أنّه وسيلةٌ إلى الغنى وطريقٌ إليه. وهو اعتبارٌ خطأٌ، ما في ذلكَ ريبٌ. فإنّ أكثرَ النّاسِ فقرًا إلى المالِ وأشدَّهُم طمعًا في إحرازه وأعظَمَهُم مخاطرةً بكرامتِهِم وفضائلِ نفوسهم في سبيلِه هُمُ الأغنياءُ أصحابُ المالِ والثّراء. وإنْ كانَ في الدّنيا شيءٌ يسمّى قناعةً واعتدالًا فهو في جانبِ الفقراءِ المقلّينَ أكثرُ منه في جانبِ الأغنياءِ المكثرين.

ولا يزالُ المرءُ يعتبرُ المالَ وسيلةً إلى الحياةِ وذريعةً من ذرائِعِها حتّى يكثُرَ في يده، فإذا هو في نظرِه الحياةُ نفسُها يجمَعُه ولا يدري ماذا يريدُ منه ويعبُدُه وهو لا يرجُو ثوابَه ولا يخشَى عِقَابه ويستكثرُ منه وهو على ثقةٍ من نفسِهِ بأنّه لا ينتفِعُ بقليلِهِ فضلًا عن كثيرِهِ. وإذا بلغَ المرءُ في حالتِهِ العقليّة إلى درجةٍ أن تنقلبَ في نظره حقائقُ الكونِ وتتغيرَ نواميسُه فيرى الرؤوسَ أذنابًا والأذنابَ رؤوسًا والوسائلَ غاياتٍ والغاياتِ وسائلَ فَقُلْ على عَقْلِهِ السّلامُ.

لا أكرهُ أنْ ينشأَ ولدي غنيًّا، ولا أحبُّ أن أعرّضَهُ لمخاطرةِ الفقرِ وآفاته ولكنّي أخافُ عليه الغِنَى أكثرَ ممّا أخافُ عليهِ الفقرَ.

أخافُ عليهِ أن يعتدّ بالمالِ اعتدادًا كثيرًا ويقدّرَه فوقَ قدره ويعتبرَه الكمالَ الإنسانيّ كلّه فلا يهتمُّ بإصلاحِ أخلاقِهِ وتهذيبِ نفسه وإنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ حوله مِنْ أصدقائه ومعارفِه مرآةً يرى فيها

عيوبه وهِنَاته[١] لأنّ عشراءَ الأغنياءِ متملّقونَ مداهِنُون[٢] يطوونَ سيّئاتِهمْ ويزخرفونَ حسناتِهِمْ.

أخاف عليه أن تستحيلَ نفسُه إلى نفسٍ ماديّةٍ جامدةٍ لا تفهمُ من شؤونِ الحياةِ غيرَ المادّةِ ولا تُغْنَى بشيءٍ سواها، فيصبحَ رجلًا قاسيًا صلبًا ميّتَ النّفسِ والعواطفِ لا يرحَمُ بائسًا ولا يعطفُ على محزونٍ، ولا يرثي لأمّةٍ ولا يبكي على وطن، ولا يشتركُ في شأنٍ من شؤونِ العالمِ العامّةِ خيرِها أو شرِّها. ولا يعنيه ما دام راضيًا عن نفسِه مغتبطًا بحظّه أسَقطَتِ السّماءُ على الأرضِ أو بَقِيَتْ في مكانها.

أخافُ عليه أنْ يحتقرَ العِلْمَ والفنونَ والآدابَ ويزدري المواهبَ والعقولَ والفضائلَ والمزايا، فيصبحَ عارَ أمّتِه وَشَنارَها[٣] ووصمَتَها الخالدةَ التي لا تزولُ. ومن أُشْرِبَ قلبُه حبَّ المالِ ونزلَ من نفسِه إلى قرارَتِها لا يحترمُ غيرَه ولا يقيمُ لغيرِ أربابِه وزنًا. ويُخَيِّلُ إليه أنّ من عَدَاهُم من فئاتِ النّاسِ لا شأنَ لهم في الحياةِ بل لا حقَّ لهم في الوجود.

أخاف عليه إن تزوّجَ أن لا يأتيَ الزّواجَ إلّا من غنيّةٍ يرى أنّها هي التي تليقُ بمقامِهِ ومنزلتِهِ. ومن اشترطَ الغنى في زوجةٍ لا يستطيعُ أن يشترطَ شيئًا سواه، فيسقط في زواجِه سقطةً يشقى بها طولَ حياتِه من حيث لا ينفعُه مالُه ولا جاهُه. أخافُ عليه إن وَلَدَ أن لا يَجِدَ بين أوقاتِه ساعةَ فراغٍ يتولّى فيها النّظرَ في تهذيبِ وَلَدِه وتربيتِه، فيتركَه صغيرًا في أيدي الخَدَم وكبيرًا في أيدي عشراءِ السوءِ فيصبحَ نكبتَه الكبرى في حياتِه وعارَه الدّائمَ بعد مماته.

أخافُ عليه أن يقضيَ أيّامه ولياليه خائفًا مذعورًا مروّعَ القلبِ مُسْتَطَارَ الفؤادِ تقتلُه الخسارةُ أن خَسِرَ ويضعفُه فوتُ الرّبحِ إن فاته، ويطيرُ بنومِهِ وهدوئِه ويذهبُ براحتِه وسكونِه هبوطُ الأسعارِ ونزولُ الأسهُمِ وتقلّباتُ الأسواقِ وخسرانُ القضايا ومنازعاتُ الخصومِ والآفاتُ السّماويّة والجوائحُ الأرضيّة.

وما حُزْنُ الفقيرِ الذي أنفق آخرَ درهم كانَ بيدِه من حيثُ لا يعرفُ له طريقًا إلى سواهُ على نفسِه وعلى مستقبله بأشدَّ من حزنِ الغنيّ الشّحيح على الدّرهم الذي نقصَ من مليونِه والذي كان يؤمّلُ أن يتمّمُ به مليونه فلم يُتَحْ له. وما ليلةُ البائسِ المسكينِ الذي يَتَصايَح أولادُه من حولِه جوعًا ولا يجدُ ما يسدّ به رَمَقَهُم بأطولَ من ليلةِ الغنيّ الذي يسقطُ إليه الخبرُ بأن سلعةً من سِلَعِهِ قد نفقَتْ أو أن سهمًا من أسهُمِه قد نَزلَ.

ولقد رأيتُ بعيني من جُنَّ وهو واقفٌ ينظرُ إلى قصرٍ من قصورِه يحترقُ وسمعتُ كثيرًا عن حوادثِ المنتحرين والمصعوقين على أثرِ النّكَبات الماليّة والخسائرِ التّجاريّة التي لا تفقرهُم ولا تصلُ بهم إلى جردةِ الإملاق، بل ربّما كانَ كلُّ أثَرٍ عندهم أنّها تنقلُهُم إلى منزلةٍ في غنًى أدنى من منزلتِهم الأولى.

---

(١) الهنات: الأخطاء. (٢) مداهنون: مراوغون.

(٣) الشنار: أقبح العيب.

أخافُ عليه أن يصبحَ واحدًا من أولئكَ الوارثينَ المستهترينَ الذين لا عملَ لَهُم في حياتِهِم سوى هدم حياتِهِم بأيديهِمْ وهَدْمِ ما تركَ لهم آباؤهم وأجدادُهم من مالٍ وجاهٍ، فأندبَ حظي في قبري، وأقرعَ السّنّ على أن لَم أكنْ قد فارقتُ هذه الحياةَ ولا مالَ لي فيها ولا وَلد.

ولا أزالُ أذكرُ حتّى الساعةِ أنّني مررتُ بأحدِ شوارعِ القاهرةِ من بضعِ سنين فرأيتُ في مكانٍ واحدٍ منه منظرينِ مختلفين متناقضينِ. رأيتُ غلامًا من الوارثينَ جالسًا بإحدى الحاناتِ يمرَحُ في نعمائه، وآخرَ من المتشرّدينَ نائمًا تحتَ الرّصيفِ على مقربةٍ منه يضطربُ في بأسائه.

أمّا الأوّلُ فقد كان جالسًا بين مائدتي شرابٍ وقمارٍ تسلبُ الأولى عقله والأخرى مَاله. وقد أحاطَ بهِ جماعةٌ من الخلعاءِ المّارين يلعبونَ بعقلِه لعبَ الغلمانِ بالكُرة في مَيَادِينها، يضحكونَ لِنِكاته، ويؤمنونَ على أقوالِه، ويصدّقونَ أكاذيبه، ويصيحُ صِياحَ الثّعالب.

أمّا الثّاني فقد كانَ عاريًا إلا قليلًا، يفتحُ إحدى عينيه من حينٍ إلى حينٍ كلّما رَنَّتْ في أذنه ضحكاتُ هؤلاءِ السّكارى وضوضاؤُهم ويضمّ ركبتَه إلى صدره كلّما أحسّ بصوتِ مركبةٍ مرَّت بجانبه وقد يبسطُ كفّه أحيانًا وهو مغمضٌ إنْ خُيّل إليه أنّ يدًا تمتدُّ إليه بالإحسانِ ولا يدَ هناكَ ولا إحسانَ.

رأيتُ هذينِ المنظرينِ الغريبينِ المتباينينِ فَثَارتْ في نفسي تلكَ السّاعةَ عاطفتانِ مختلفتان: عاطفةُ البغضِ والاحتقارِ للأول، وعاطفةُ الرّحمةِ أو الشّفقةِ على الثّاني، وقلتُ في نفسي: لو كانَ لي ولدٌ وكانَ لا بد لَهُ من أن يكونَ أحدَ هذين الغلامين، إمّا الوارثَ الجالسَ فوق الرّصيفِ ينثرُ الذّهبَ نثرًا، وإمّا المتشرّدَ النّائمَ من تحتِهِ يسألُ النّاسَ لقمةً فلا يجدُها لفضّلْتُ أن أراه بين فئةِ المتشرّدين على أن أراهُ بين جماعةِ الوارثينَ لأنّي أرجو له في الأولى أن يجِدَ بين الرّاحمينَ راحمًا يحسنُ إليه ويستنقذُه من شقائِه ويأخذُ بيده من طريقِ الحياةِ الطيّبةِ الصّالحةِ؛ أمّا في الثانيةِ فإنّي لا أرجو لهُ شيئًا.

إن الرّحمةَ طيشٌ كطيشِ القسوةِ والشدةِ، وأطيشُ الرّاحمين ذلكَ الذي يستنفذُ أيّامَ حياتِه في جمعِ الثّروةِ لأولادِهِ دائبًا ليلَهُ ونهارَهُ لا يهدأُ ولا يفتُرُ من حيثُ يغفلُ النّظرَ في شأنِ تربيتِهِمْ وتعليمِهِمْ ضنًّا بهم أن يزعجَ نفوسَهُم بشيءٍ من تكاليفِ الحياةِ وأثقالها. فإذا ذهبَ لسبيلِهِ وخلّى بينهم وبينَ ذلكَ المالِ الذي جمعه لهُمْ لا يكونُ لهم من الشّأنِ فيه أكثرَ ممّا يكونُ لجماعةِ الحمّالين من الشّأنِ في الأثقالِ التي يحمِلُونها من مكان إلى آخر.

فهُمْ ينقلونَهُ من خزائِنِه شيئًا فشيئًا إلى خزائنِ الخمّارين والمرابينَ والعَاهرينَ حتّى ينتهوا، فإذا فَرَغُوا منه جَلَسوا في عَرَصَاتِهم[1] المقفرةِ جلسةَ الباكي الحزينِ صِفْرَ الأكفّ فارغي الجيوبِ مُطرِقِي الرؤوسِ لا حولَ لهم ولا حيلَة. قد أضاعُوا حياتَهُمْ وحياةَ آبائِهِمْ وأجدادهِمْ وهدَمُوا في عام واحدٍ أو عامينِ قرنًا كاملًا مجيدًا من أعْلاه إلى أسفله. ولا يعلمُ اللهُ ماذا يكونُ شأنَهُم بعدَ ذلك.

---

(١) العرصات: الساحات.

ولو أنّه كانَ يرحمُهم رحمةً حقيقيّةً ويشفقُ عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمَهُمْ من هذه العاقبةِ الوخيمةِ، وأشفقَ عليهم من هذا الميراثِ المشؤوم.

يقولون إنّ الفقرَ يدفعُ إلى الجرائم والقتلِ وارتكابِ السّرقاتِ، وأنا أقولُ إنّنا إذا استطعنا أن نفهَمَ الجريمةَ بمعناها الحقيقيّ وألّا نَنْخدعَ بصور الألفاظِ وألوانِها عَلِمْنَا أنّ للأغنياءِ جرائمَ كجرائمِ الفقراءِ بل أشدَّ منها خطرًا وأعظمَ هولًا، فإن كانَ بين الفقراءِ اللّصوصُ والقَتَلَةُ والعيّارون وقطاعو الطّريق فبين الأغنياءِ المحتالونَ والمزوّرون والمغتصبونَ والخائنونَ والمُداهنون والمُمَالِئون وأصحابُ المعاملِ والشركاتِ الذين يغذّون أجسامهم بدماءِ عمّالهم، والتّجّارُ الذين يسرقونَ من الأمّة في شهرٍ واحدٍ باسمِ الحريّةِ التّجاريّةِ مَا لا يسرقُه جميعُ لصوصِ البلدِ وعيّاروه في سنةٍ كاملةٍ، والأوصياءُ الذين يرثون الزّكاةَ من دونِ وارثيها ويأكلونَ أموالَ اليتامى والمعتوهينَ باسم صيانَتِها والمحافظةِ عليها، والسّماسرةُ الذين يسرقونَ الأسواقَ بأجمعها، والمُرابُونَ الذين يختلِسُونَ الثّرواتِ بأكمَلِها.

على أنّ جرائمَ اللّصوصيّةِ والسّرقةِ والقتلِ ليستْ جرائمَ الفقرِ بل جرائمَ الغنى، فلولا شحُّ الأغنياءِ بأموالِهِمْ، وَكَلَبُهُمْ عليها وحيازَتُها عن الفقراءَ لَمَا وُجِدَ في الأرضِ قاتلٌ ولا سارقٌ ولا قاطعُ طريق. ولا يسرقُ السّارقُ ولا ينهبُ النّاهبُ ولا يلصّ اللصُّ إلا جزءًا من حقّه الذي كانَ يجبُ أن يكونَ لهُ. لو كان للمالِ زكاةٌ وللرحمةِ سبيلٌ إلى الأفئدةِ والقلوبِ لفتحَ الأغنياءُ المدارسَ ولبَنَوْا الملاجئَ ولأنْشَؤُوا المصانعَ والمعاملَ للعاطلينَ والمتشردينَ ولتعهّدوا المنكوبينَ والساقطين في ميدانِ الحياةِ بالمساعدةِ والمعونةِ، فإن وجدوا بعد ذلكَ لصوصًا أو قَتَلَةً أو مجرمينَ فليتّهموا الفقرَ ولينعوا عليه جرائِمَه وآثامَه.

لا أريدُ أن أقولَ إنّ الغنى علّة فسادِ الأخلاقِ ولا إنّ الفقرَ علّة صلاحها ولكنّ الذي أستطيعُ أن أقولَه عن تجربةٍ واستقراءٍ إنّي رأيتُ كثيرًا من أبناءِ الفقراءِ ناجحينَ ولمَ أرَ إلّا قليلًا من أبناء الأغنياءِ عاملين.

إنّ العلومَ والمعارفَ والمخترعاتِ والمكتشفاتِ المدنيّةَ الحديثةَ بأجمعها حسنةٌ من حَسَناتِ الفقرِ وثمرةٌ من ثَمَراتِه، وما المِدادُ[1] الذي كتبتْ به المصنفاتُ ودوّنتْ به الآثارُ إلّا دموعُ البؤسِ والفَاقةِ. وما الآراءُ السّاميةُ والأفكارُ النّاضجةُ التي رفعتْ شأنَ المدنيّةِ الحديثةِ إلى مستواهَا الحاضر إلّا أبخرةُ الأدمغةِ المحترقةِ بنيرانِ الهُموم والأحزانِ.

وما تفجّرَتْ ينابيعُ الخيَالاتِ الشّعرية والتّصوّراتِ الفَنيّةِ إلّا من صدوعِ القلوبِ الكسيرةِ والأفئدةِ الحزينةِ. وما أَشْرقَتْ شموسُ الذّكاءِ والعقلِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها إلّا من ظلماتِ الأكواخ الحقيرةِ والزّوايا المهجورةِ، وما نبغَ النّابغونَ من فلاسفةٍ وعلماءَ أو حكماءَ وأدباءَ إلّا في مهودِ الفقرِ وحجورِ الإملاقِ[2]. ولولا الفقرُ ما كانَ الغِنى ولولا الشّقاءُ ما وُجِدَتِ السّعادة.

---

(١) المداد: الحبر. (٢) الإملاق: شدّة الفقر.

إنّ المجتمعَ الإنسانيّ اليوم ميدانُ حربٍ يعتركُ فيه النّاس ويقتتلونَ لا يرحَمُ أحدٌ أحدًا ولا يَلْوِي مقبلٌ على مُدْبرٍ يُبطئونَ ويُسْرعون، ويتصادمونَ ويتخبطونَ، ويأخذ بعضهم بتلابيب[١] بعض، كأنّهم هاربونَ من معركةٍ أو مفلتونَ مِنْ مارستان[٢]. ودماءُ الشّرفِ والفضيلةِ تسيلُ تحتَ أقدامِهم، وتموجُ موجَ البحرِ الزاخرِ، يغرقُ فيه مَنْ يغرقُ، وينجو مَنْ ينجو.

أتدرونَ لِما سقطتِ الهيئةُ الاجتماعيّةُ هذا السقوطَ الهائلَ الذي لم تَصِلْ إلى مثلِهِ في دَوْرٍ من أدوار حياتِها الماضيةِ، ولِمَ هذا الجنونُ الاجتماعيّ الثّائرُ في أدمغةِ النّاسِ خاصّتهِمْ وعامّتهِمْ علمائِهِمْ وجهلائِهِمْ ولِمَ هذه الحروبُ القائمةُ والثّوراتُ الدّائمةُ والنّزاعُ المستمرُّ بين البشرِ جماعاتٍ وأفرادًا وقبائلَ وشعوبًا وممالكَ ودولًا.

لا سببَ لذلك سوى شيءٍ واحد. وهو أنّ الناس يعتقدونَ اعتقادًا خطأً أنّ المالَ أساسُ السّعادةِ وميزانُها الذي توزنُ به، فَهُمْ يسعونَ إليه لا من أجلِ القوتِ والكفافِ كما يجبُ أن يكونَ بل من أجلِ الجَمْعِ والادّخارِ. والمالُ في العالم كَمّيّةٌ محدّدةٌ لا تكفي لملءِ جميع الخزائنِ وتهدِئَةِ كافّةِ المطامعِ، فَهُمْ يتخاطفُونَه ويتناهبُونَه ويتصارعُون من حولِهِ كما تتصارَعُ الكِلابُ حولَ الجِيَفِ الملقاةِ، ويسمّونَ عملَهُمْ هذا تنازعَ الحياة أو تنازعَ البقاءِ، وما هو بالتّنازعِ ولا التّناظرِ إنّما هو العراكُ والقتالُ والدّمُ السّائلُ والعدوانُ الدّائمُ والشّقاءُ الخالد.

والعلاجُ الوحيدُ لهذهِ الحالةِ المخيفةِ المزعجةِ هو أن يفهَمَ النّاسُ أنْ لا صِلَةَ بين المالِ وبين السّعادة، وأنّ الإفراطَ في الطّلبِ كالتّقصير فيه، وأنّ سعادةَ العيشِ وهناءَه، وراحةَ النّفسِ وسكونَهَا لا تأتي إلّا من طريقٍ واحدٍ وهو الاعتدالُ.

الآن أستطيعُ غيرَ خاشٍ[٣] لومًا ولا عتبًا أنْ أقضِيَ للناشئِ الفقيرِ على الناشئِ الغنيّ قضاءً لا مجاملةَ فيه ولا محاباةَ[٤] - ومن ذا الذي يجاملُ الفقراءَ ويحابِيهم - وأن أقولَ للنّاشئ: صبرًا يا بنيّ وعزاءً فإنّكَ لم تُخْلَقْ إلّا للعمل، فاعملْ واجتهدْ. ولا تعتمدْ في حياتِكَ إلّا على نفسِكَ، ولا تحصُدْ غيرَ الذي زَرَعَتْهُ يدُكَ فإنْ لمْ تجدْ معلّمًا يعلّمُكَ فَعَلِّمْ نفسَك، والزّمنُ خيرُ مُؤَدّبٍ ومهذّب.

وإنْ ضاقَتْ بكَ المدارسُ فادرسْ في مدرسةِ الكون، ففيها علومُ الحياةِ بأجمَعِها. وإن كنتَ ممّن لا يعدّونَ وظائفَ الحكومةِ ومناصِبَها غُنْمًا كما يعدّها القَعَدَةُ العاجزون، فَهَا هو ذا فضاءُ الأرض أمامَكَ، فامْشِ فيهِ وفتّشْ عن قُوتِكَ كما تفتّشُ عنه الطّيورُ القواطعُ التي ليسَ لها مِثْلُ عقلِكَ وفطنتِكَ وحيلتِكَ وقوّتك. فإنّ الله لَمْ يخلُقكَ في هذا العالم ولَمْ يبرزْكَ في هذا الوجودِ لتموتَ فيه جوعًا أو تهلكَ ظمأً، ولا تصدّقْ ما يقولونَهُ لكَ من أنّ النّاشئَ الغنيَّ أسعدُ منك

---

(١) التلابيب: موضع القلادة من الصّدور.
(٢) مارستان: مستشفى.
(٣) خاشٍ: خائف.
(٤) المحاباة: الانقياد وراء الميل والهوى.

حالًا وأوفرُ حظًّا وإنْ راقَكَ منظرُه وأعجبَكَ ظاهرُه فلكلِّ نفسٍ همومُهُا وآلامُهَا، وهمومُ الفقرِ على شدّتها أقلُّ مِنْ همومِ الحياةِ وأهونُهَا.

وحسبُكَ من السّعادةِ في الدنيا ضميرٌ ونفسٌ هادئةٌ وقلبٌ شريفٌ. وأنْ تعملَ بيدِكَ فترى بعينِكَ ثمراتِ مجهودِكَ ومساعِيكَ تنمو بين يديكَ وتترعرعُ فتغبَطُ بمرآها اغتباطَ الزّارعِ بمنظرِ الخضرةِ والنّماءِ في الارضِ التي فَلَحَها بيدِه وتعهّدَهَا بنفسِه وسقَاهَا من عرقِ جبينِه.

❃ ❃ ❃

قتيلة الجوع

قرأتُ في بعضِ الصّحفِ أنّ رجالَ الشّرطةِ عثروا على جثّةِ امرأةٍ في جَبَلِ المقطّم[١] فظنّوها قتيلةً أو منتحرةً حتّى حضرَ الطّبيبُ ففحصَ أمرَهَا وقرّرَ أنّها ماتَتْ جوعًا.

تلكَ أوّلُ مرّةٍ سمعتُ بمثلِ هذهِ الميتةِ الشّنعاءِ في مصرَ وهذا أوّلُ يومٍ سَجَّلَتْ فيه يدُ الدّهرِ في جريدةِ مصائِبنا ورزايَانا هذا الشّقاءَ الجديدَ.

لَمْ تمتْ هذهِ المرأةُ المسكينةُ في مغارةٍ منقطعةٍ أو بيداءَ مجهلٍ فتفزعُ في أمرِهَا إلى قضاءِ الله وحدِه، بلْ ماتَتْ بينَ سَمعِ النّاسِ وبصرِهِم وفي ملتقى غادِيهم برائِحِهم، ولا بُدّ أنّها مرّتْ قبل موتِها بكثيرٍ من المنازلِ تطرقُها فَلَمْ تَسْمَعْ مجيبًا، ووقَفَتْ في طريقِ كثيرٍ من النّاسِ تسألُهُمْ المعونةَ على أمرِهَا، فلم تجدْ مَنْ يَمُدّ إليها يَدَه بلقمةٍ واحدةٍ تسدُّ بها جَوْعَتَها؛ فَما أقسى قلبَ الإنسانِ وَمَا أبعدَ الرّحمةَ في فؤادِه وما أقدَرَهُ على الوقوفِ موقِفَ الثّباتِ والصّبرِ أمامَ مشاهدِ البؤسِ ومواقفِ الشّقاء.

لِمَ ذهبتْ هذهِ البائسةُ المسكينةُ إلى الجبلِ في ساعَتِها الأخيرةِ؟ لعلّها ظَنّتْ أنّ الصخرةَ أليَنُ قلبًا من الإنسان.

فَذَهَبَتْ إليه تبثّه شكواها، أو أنّ الوُحوشَ أقربُ منه رحمةً، فجاءَتْهُ تستمنِحُه فضلةَ طعام، وأحسبُ لو أن الصّخرَ فَهِمَ شكواها لأشْكَاها[٢]. ولو أن الوحشَ ألمّ بسريرةِ نفسِها لَرَثى لَها وَحَنا عليها، لأنّي لا أعرفُ مخلوقًا على وجهِ الأرضِ يستطيعُ أن يملكَ نفسَه ودموعَه أمامَ مشهدِ الجوعِ وعذابِه غيرَ الإنسانِ.

أَلَمْ يَلْتَقِ بها أحدٌ في طريقِهَا فيرى صفرةُ وجهِهَا وتَرَقْرُقَ مدامِعها وذبولَ جسمِهَا فيعلمَ أنّها جائعةٌ فيرحَمُها.

---

(١) جبل المقطم: اسم موضع.

(٢) اشكاها: أزال شكواها.

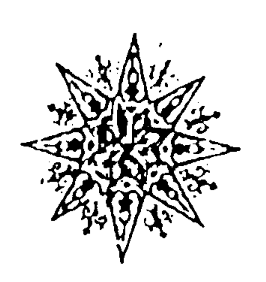
أَلَمْ يكنْ لها جارٌ يسمَعُ أنينَها في جوفِ اللّيل ويرى غُدُوَّها ورواحَها حائرةً ملتاعةً[١] في طلبِ القوتِ فيكفِيَها أمرَه.

أقفرتِ البلادُ من الخبزِ والقُوتِ فلا يوجدُ بين أفرادِ الأمّةِ جميعِها مِن أصحابِ قصورِهَا إلى سكّانِ أكواخِها رجلٌ واحدٌ يملكُ رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجتِه فيتصَدَّقُ به عليها.

اللّهمَّ لا هذا ولا ذاكَ، فالمالُ والحمدُ للهِ كثيرٌ والخيرُ أكثرُ منه ومواضعُ الخلّات[٢] والحاجاتِ باديةٌ مكشوفةٌ يراها الراؤونَ ويسمَعُ صداها السّامعون ولكنّ الأمّةَ التي ألفتْ الّا تبذُلَ معروفَها إلّا في موقفِ المفاخرةِ والمكاثرةِ والتي لا تفهَمُ معنَى الإحسانِ إلّا أنّه الغلُّ الثّقيلُ الذي يوضعَ في رقابِ الفقراءِ لاستعبادِهِم واسترقاقِهم لا يمكنُ أن ينشأ فيها مُحْسِنٌ مخلصٌ يحمِلُ بين جنبيه قلبًا رحيمًا.

لقد كان الإحسانُ في مصرَ كثيرًا في عصرِ الاكتِتاباتِ والحفلاتِ وفي العهدِ الذي تُسَجَّلُ فيه حسناتُ المحسنينَ على صفحاتِ الصّحفِ تسجيلًا يشهَدُهُ أربعةَ عشرَ مليونًا من الشّهود. أمّا اليومَ وقد أصبحَ كلُّ امرئٍ موكولًا نفسَه ومسؤولًا أمَامَ ربّه وضميرِه أن يتفقّدَ جيرتَه وأصدقاءَه وذوي رَحِمِهِ ويتلمّسَ موضعَ خلّاتهم وحاجاتهم ليسدَّها، فها هُمُ الفقراءُ يموتونَ جوعًا بين تلالِ الرمالِ وفوق شقاقِ الجبالِ من حيثُ لا رحمةَ ولا مُعينَ. لقد كانَ في استطاعةِ تلكَ المرأةِ المسكينةِ أن تسرقَ رغيفًا تَتَبَلَّغُ به أو دِرْهَمًا تبتاع به رغيفًا، فلم تفعلْ لأنّها امرأةٌ شريفةٌ تفضّلُ أن تموتَ بحسرَتِها على أن تعيشَ بِعَارِهَا؛ فما أعظَمَ جريمةَ الأمّةِ التي لا يموتُ فيها جوعًا غيرُ شُرَفَائِهَا وَأَعِفَّائِهَا.





(١) ملتاعة: معذّبة.

(٢) الخلّة: الحاجة والعوز.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

* * *